

تَفْسِيرُ الْكِتَابِ الْحَبِيبِ
فِي
تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلَكَاتِ

تأليف

الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

١٣٧٦ - ١٣٠٧

مقدمة

فضيلة الشيخ

بكر بن عبد الله أبو زيد

فضيلة الشيخ

عبد الله بن عبد العزيز العجيل

اغتنى به

سعد بن فواز الصميلي

المجلد الأول

(١ - ٢)

دار ابن الجوزي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير الكرنيل الحبيب

في
تفسير كلام المصنف

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٢٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السعدي، عبد الرحمن بن ناصر

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان/ تحقيق سعد بن فواز

الصميل.. الدمام.

٥٩٢ ص، ١٧×٢٤ سم

ردمك: ١ - ٢٥١ - ٣٩ - ٩٩٦٠ (مجموعة)

١ - ٢٥٢ - ٣٩ - ٩٩٦٠ (ج ١)

١ - القرآن - التفسير الحديث أ - الصميل، سعد بن فواز (محقق)

ب - العنوان

٢٢/١٤١٠

ديوي ٢٢٧,٦

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

ربيع الثاني ١٤٢٢ هجري

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٢٢ هـ لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب
أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي
نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته
إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر



دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية

الدمام - شارع ابن خلدون - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٢٧٥٨٩ - ٨٤٢٧٥٩٣

صرب: ٢٩٨٣ - الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠٠

الإحساء - الهفوف - شارع الجامعة - ت: ٥٨٨٣١٢٣

جدة: ت: ٦٥١٦٥٤٩

الرياض: ت: ٤٢٦٦٣٣٩

مُقَدِّمَةٌ فَضِيلَةُ الشَّيْخِ
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْغَزِيرِ بْنِ عَقِيلٍ الْعَقِيلِ
رَئِيسِ الْهَيْئَةِ الدَّائِمَةِ بِمَجْلِسِ الْقَضَاءِ الْأَعْلَى «سَابِقًا»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وحده.. وبعد: فقد عرض عليّ الشيخ سعد بن فواز الصميل نماذج من تفسير شيخنا العلامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله. وذكر أنه عازم على إعادة طبعه بعد أن استحصل على صورة من النسخة الخطية المصححة ووعد أنه سيحرص على تحقيق الأصل وضبطه وجعله على صفة ما وضعه المؤلف دون تصرف يخلّ به مع مراعاة الترقيم وتخريج الأحاديث واستدراك ما فات في الطبعات السابقة، فشكرت له هذه الهمة المباركة ودعوت له بالتوفيق والإعانة.

الحقيقة أن هذا التفسير قد وضع الله له القبول بين المسلمين، فهو يذاع من إذاعة القرآن الكريم بالمملكة يومياً مرتين، ويقرأ في المساجد على جماعة المصلّين، ويدرس في حلقات المشايخ. وقد طبع عدة طبعات، لكنها مع الأسف لا تخلو من الأغلاط وبعضها من تصرفات المعلقين.

وهذا التفسير من أنفع التفاسير وأقربها إلى الفهم لسهولة عباراته، فهي سهلة المباني، واضحة المعاني، خالية من التعقيدات والإسرائيليات ومشاكل الإعراب، وذكر الخلاف. وأهم شيء سلامته من تأويل آيات الصفات حيث يفسرها على منهج السلف، إضافة إلى ما فيه من الاستنباطات الدقيقة، وذكر ما يستفاد من كل آية يمرّ بها في موضعها دون الإحالة إلى موضع آخر.

مُقَدِّمَةٌ فَضِيلَةُ الشَّيْخِ الْعَلَامَةِ
بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبُوزِيَّةِ

رئيس مجمع الفقه الإسلامي وعضو هيئة كبار العلماء
بالمملكة العربية السعودية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله
وصحبه ومن اهتدى بهديه واستن بسنته.

أما بعد:

فإن ما أكتبه هنا ليس تقديماً ولا تقريراً لكن دلالة على الخير وتنوياً:
فلا أكتف القراء حديثاً إذا قلت: إنه في عام ١٣٨٠ تقريباً سمعت من
بعض الصالحين الوصية بتفسير الشيخ عبد الرحمن بن سعدي المتوفى سنة
١٣٧٦ - رحمه الله تعالى - (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)
في ثمانية أجزاء؛ لأنه يتميز بأمور أهمها: أنه تفسير مأمون جارٍ على طريقة
السلف يجمع خلاصة الأثر الصحيح والفهم السليم بسياق سهل مختصر،
فهو تذكرة للمنتهي، وتبصرة للمبتدي، ثم تتابع هذا السماع من آخرين من
العلماء وطلبة العلم، ثم بعد بضع سنين أهدى إليّ ابنه ذو الوجه الصبوح
الشيخ عبد الله المتوفى سنة ١٤٠٥ - رحمه الله تعالى - بعض رسائل أبيه
الشيخ عبد الرحمن، ومنها: (تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير
القرآن) و(القواعد الحسان لتفسير القرآن) و(فوائد مستنبطة من قصة يوسف
عليه السلام)، فقرأت هذه الرسائل الثلاث فوجدت فيها دفعاً قوياً إلى هذا
التفسير، فكنت أستفيد منه من وقت إلى آخر حتى إذا جاء عام ١٤١٨ كان

لي شرف المراجعة الأخيرة لكتاب: (التفسير الميسر) الذي أعده نخبة من العلماء، وطبع بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بمدينة النبي ﷺ، فوجدت أن هذا التفسير يعتمد كثيراً تفسير ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ وتفسير ابن سعدي - رحمهما الله تعالى - فحصل لي من تفسير ابن سعدي نوع ارتواء، وصار لي به فضل اعتناء.

وظهر لي أنه إضافة إلى تلك الميزات، كان لفائق عنايته بكتب الشيخين ابن تيمية وابن القيم - رحمهما الله تعالى - ينتخب من فوائدهما ما طرّز به هذا التفسير.

من هذه المعارف وغيرها ضَمَّن - رحمه الله تعالى - تفسيره كثيراً من جلائل المعاني ودقائق الاستنباط من آيات الذكر الحكيم والقرآن المجيد، منها على سبيل المثال: ما ذكره عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ من سورة البقرة - ١٣٦ - . وما استنبطه من الأحكام من آية الوضوء - ٦ - من سورة المائدة. والفوائد الجليّة التي يذكرها عقب قصص الأنبياء وغيرهم... وانظر إلى تلك الإشارة اللطيفة في تفسيره لقوله تعالى في سورة الأحزاب - ١٣ -: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَبْأَهْلَ يُرَبِّ الْآيَةِ. فَأَبَانَ - رحمه الله تعالى - بإشارته أن المناداة بالوطنية وترك الأخوة الإيمانية والرابطة الإسلامية من أعمال الجاهلية وليست من الإسلام وهذه فائدة عزيزة لم أرَ من حام حولها، وهذه الآية تكمل ثلاث آيات جاءت في أن «الرابطة الوطنية» ليست «رابطة إسلامية».

وإذا جاوزنا هذه المعارف والأهلية ونظرنا في سيرته العطرة، وجدناه على جانب كبير من التأسّي والاقتداء، والخير والصلاح والهدى والفلاح، ومما لم يقيد في سيرته، ما حدثني به الشيخ محمد عبد الرحيم صديق المكي المتوفى سنة ١٤٠٨ - رحمه الله تعالى - صاحب المكتبة الصديقية ضمن خزائن مكتبة الحرم المكي أنه شاهد من عبادة الشيخ في صلاته، ما يدل على الخشوع والتعلق بالله تعالى، مما علمه عن مشاهدة كيفية الأداء لهذه العبادة

العظيمة وهذا نظير ما يتناقله الأشياخ عن الشيخ محمد حامد الفقي المتوفى سنة ١٣٧٩ - رحمه الله تعالى - من قوله: إنه لم يعرف عن مشاهدة أداء الصلاة على وجهها بخشوع وخضوع لله - عز وجل - مثلما عرفها من الشيخ أحمد شاكر المتوفى سنة ١٣٧٧ - رحمه الله تعالى - فنرجو أن يكون لهذا العلامة المفسر نصيب من قول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -:

[وأما «العلم اللدني» فلا ريب أن الله يفتح على قلوب أوليائه المتقين وعباده الصالحين بسبب طهارة قلوبهم مما يكرهه، واتباعهم ما يحبه، ما لا يفتح به على غيرهم وهذا كما قال علي: إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه، وفي الأثر (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم) وقد دل القرآن على ذلك في غير موضع، كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيئًا • وَإِذَا لَا يَأْتِنُهُمْ مِنَ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا • وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا •﴾ [النساء: ٦٦- ٦٨]، فقد أخبر أنه من فعل ما يؤمر به، يهديه الله صراطاً مستقيماً، وقال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُمُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآلَهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدَّتْهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وقال تعالى: ﴿هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣] ... [الفتاوى ١٣/٢٤٥].

ويحضرني عند التنويه بتفسير هذا الشيخ الجواب البديع من العلامة المفسر الشيخ عبد الرحمن الدوسري المتوفى سنة ١٣٩٩ - رحمه الله تعالى - عندما سئل عن أهم شروط المفسر؟ فقال على البديهة: أن تملأ قلبه الفرحة بالقرآن...

وأحسب أن الشيخ ابن سعدي ممن تحقق فيه هذا الأمر فتفجرت أنهار المعاني بين يديه وذلك من فضل الله عليه فرحمه الله وأجزل مثوبته.

وكما قيل: (إن معاني القرآن لا يذوقها إلا القلوب الطاهرة وهي قلوب المتقين) [انظر: الفتاوى ٢٤٥/١٣].

نفع الله الشيخ ابن سعدي بهذا السبق العلمي من عالم نجد، فإني لا أعلم في النجديين من له تفسير كامل لكتاب الله تعالى بهذا السبك والجودة فقد قضى الشيخ - رحمه الله تعالى - الدين عن من قبله، وسبق من بعده، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وقد كتب الله لهذا التفسير من القبول والانتشار ما بلغ مبلغ الليل والنهار فطبع عدة طبعات منها:

- ١ - طبعة المطبعة السلفية بمصر، نجز أولها في حياة المؤلف وآخرها بعد وفاته على إعواز فيها من التطبعات، وسقط بعض الجمل والكلمات؛ لظروف الطباعة آنذاك.
- ٢ - طبعة المؤسسة السعيدية بالرياض، بتحقيق محمد زهري النجار، وقد أفسدها بإدخالات عليها ليست منه، وقد أفرد في نقد هذه الطبعة تلميذه البار الشيخ محمد بن سليمان بن عبد العزيز البسام رسالة باسم «كشف الستار عن تلفيق وتعليق النجار».
- ٣ - طبعات تتابعت منها ما طبع عن الأولى، ومنها ما طبع عن الثانية.
- ٤ - ثم طبع طبعة مصححة جُرِّدَتْ من إدخالات النجار المذكور.
- ٥ - والآن هذه طبعة تميّزت بالحسنين تصحيحها من التطبيع والسقط ومن إدخالات النجار عليها، مقابلة على نسختين خطيتين، مفصلة المقاطع مفهومة الموضوعات والفوائد، ينبغي أن تكون أصلاً، يدفع الإخوان ما يقع لهم من تصحيحات وملاحظات إلى ناشرها؛ لاستدراكها في طبعة لاحقة - بإذن الله تعالى - والله ولي التوفيق.

وكتب

بكر بن عبد الله أبو زيد

٨ شعبان ١٤٢١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً. أما بعد:

«فإن أحق ما صرفت إلى علمه العناية، وبلغت في معرفته الغاية، ما كان لله في العلم به رضى، وللعالم به إلى سبيل الرشاد هدى، وأن أجمع ذلك لباغيه كتاب الله الذي لا ريب فيه، وتنزيله الذي لا مرية فيه، الفائز بجزيل الذخر وسنى الأجر تاليه، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلاً من حكيم حميد»^(١).

أنزله الله على نبيه محمد ﷺ بلسان عربي مبين قال عز وجل: ﴿وَلَنُزِّلُكَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥].

فبلغ صلوات الله وسلامه عليه للناس البلاغ المبين فلم يتوفاه الله إلا بعد أن بلغ وبين ما أنزل إليه في هذا الكتاب كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل: ٤٤].

وقال: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. ﴿٦٤﴾﴾ [النحل: ٦٤].

قال ابن جرير - رحمه الله - في تفسير هذه الآية^(٢): «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ وما أنزلنا عليك كتابنا، وبعثناك رسولاً إلى خلقنا إلا لتبين لهم ما اختلفوا فيه من دين الله». وقد ثبت ما يدل على أن الصحابة رضي الله عنهم قد تلقوا من رسول الله ﷺ تفسير القرآن، فقد كان الرجل منهم إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعلم معانيهن والعمل بهن^(٣).

(١) تفسير ابن جرير (٦/١).

(٢) تفسير ابن جرير (٢٣٦/١٧).

(٣) رواه ابن جرير في تفسيره (٨٠/١). وقال أحمد شاكر: «إسناده صحيح» وهو موقوف على ابن مسعود، ولكنه مرفوع معنى.

قال أبو عبد الرحمن السلمي وهو من كبار التابعين: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً^(١).

وكان الصحابة رضي الله عنهم إذا أشكل عليهم شيء سألوا النبي ﷺ فإنه لما نزل قول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾. قال أصحاب رسول الله ﷺ: أينا لا يظلم نفسه؟ قال: «ليس كما تقولون لم يلبسوا إيمانهم بظلم؛ (بشرك)»^(٢).

ثم قام بالبيان والتفسير بعده ﷺ أحسن الناس بياناً وأصدقهم إيماناً وأعمقهم علماً (الذين بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب، وبه نطقوا، الذين وهبهم الله من العلم والحكمة ما برزوا به على سائر أتباع الأنبياء)^(٣). أولئك أصحابه ﷺ، اختارهم الله من بين العالمين لصحبة نبيه ﷺ لثلاثة وعشرين عاماً فكان القرآن ينزل عليهم بلغتهم التي نشؤوا عليها فيعونه ويعملون به.

فكان من أشهرهم تفسيراً الخلفاء الراشدون وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم أجمعين.

وكان من أكثرهم رواية في التفسير عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الذي يقول عن نفسه: «والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين أنزلت. ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيما أنزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه»^(٤).

وعبد الله بن عباس رضي الله عنه ترجمان القرآن الذي دعا له النبي ﷺ فقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»^(٥). وقال عنه ابن مسعود: «نعم ترجمان القرآن ابن عباس»^(٦).

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (٨٠/١). وقال أحمد شاكر: «إسناده صحيح متصل». ورواه الحاكم في «المستدرک» (٥٥٧/١) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه البخاري (٣٣٦٠) ومسلم (٢٤٦٢).

(٣) اقتباس من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية من كتاب الحموية (ص ٢١٢).

(٤) رواه البخاري (٥٠٠٢).

(٥) رواه الإمام أحمد (٢٣٩٦) والفسوي في المعرفة والتاريخ (٤٩٤/١) وصححه أحمد شاكر. ورواه البخاري (٧٥ و ١٤٣) بلفظ: «اللهم علمه الكتاب».

(٦) رواه ابن جرير في تفسيره (٩٠/١). والإمام أحمد في الفضائل (١٨٦٠) وقال الحافظ في الإصابة (١٤٦/٤): «سنده حسن».

ثم صار التفسير بعد الصحابة إلى التابعين وخاصة أصحاب عبد الله بن عباس في مكة كمجاهد وسعيد بن جبير وأمثالهم. قال مجاهد: «عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها»^(١). ولهذا قال الثوري: «إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به»^(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ولهذا يعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من أهل العلم. وكذلك الإمام أحمد وغيره ممن صنف في التفسير يكرّر الطرق عن مجاهد أكثر من غيره»^(٣).

وكذلك أيضاً أصحاب عبد الله بن مسعود كعلقمة ومسروق وأمثالهم. قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما أقرأ شيئاً ولا أعلمه إلا علقمة يقرؤه أو يعلمه»^(٤).

وللحافظ ابن حجر رحمه الله فصل جامع^(٥) لا يستغني عنه الناظر في كتب التفاسير لمعرفة أشهر الأسانيد المروية عن التابعين ومن بعدهم؛ بيّن فيه حال من نقل التفسير من التابعين ومن بعدهم.

والمقصود أن نعلم أن الصحابة والتابعين قد فسروا القرآن وبيّنوا ألفاظه ومعانيه، وعلينا الرجوع إلى أقوالهم إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة. وأما الخلاف الواقع بينهم فهو قليل وغالب ما يصح عنهم في الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد ذكر ذلك وبيّنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «مقدمة التفسير».

ثم اهتم العلماء بالتصنيف لجمع تفاسير الصحابة والتابعين مسندة إليهم كابن جرير الطبري وابن المنذر وابن أبي حاتم وعبد بن حميد. قال ابن حجر: «فهذه التفاسير الأربعة قل أن يشذ عنها شيء في التفسير المرفوع والموقوف على الصحابة والمقطوع عن التابعين»^(٦).

ثم تتابع العلماء بعد ذلك بالتأليف في التفسير على تفاوت بينهم في مذاهبهم ومعتقداتهم واهتماماتهم العلمية. فكان ممن صنف في ذلك أبو محمد بن الحسين البغوي المتوفى سنة (٥١٦)، وأبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي المتوفى سنة (٥٩٦)، وأبو

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (٩٠/١). ورواه الحاكم في «المستدرک»، وأشار الذهبي أنه على شرط مسلم. وهو كما قال إذ صرح ابن إسحاق بالسمع.

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره (٩٠/١).

(٣) مقدمة التفسير (ص ٢٦).

(٤) سير أعلام النبلاء (٤/٥٨).

(٥) انظر مقدمة كتاب العجائب في بيان الأسباب لابن حجر (١/٢٠١).

(٦) المرجع السابق (١/٢٠٣).

عبد الله محمد بن عمر الرازي المتوفى سنة (٦٠٦)، وأبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي المتوفى سنة (٦٧١)، وأبو عبد الله محمد بن يوسف بن حيان النحوي الأندلسي المتوفى سنة (٧٤٥)، والحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير المتوفى سنة (٧٧٤)، وعبد الرحمن الثعالبي المتوفى سنة (٨٧٦)، وجلال الدين عبد الرحمن السيوطي المتوفى سنة (٩١١)، ومحمد بن علي الشوكاني المتوفى سنة (١٢٥٠)، ومحمود شهاب الدين الألوسي المتوفى سنة (١٢٧٠)، ومحمد جمال الدين القاسمي المتوفى سنة (١٣٣٢)، ومحمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي المتوفى سنة (١٣٩٣). وغيرهم من علماء المسلمين الذين صنفوا في التفسير.

قال ابن جرير رحمه الله^(١):

«فأحق المفسرين بإصابة الحق في تأويل القرآن... أوضحهم حجة فيما تأول وفسر، مما كان تأويله إلى رسول الله ﷺ دون سائر أمته من أخبار رسول الله ﷺ الثابتة عنه: إما من جهة النقل المستفيض... وإما من جهة العدول للأبواب... أو من جهة الدلالة المنصوبة على صحته؛ وأصحهم برهاناً - فيما ترجم وبين من ذلك - مما كان مدركاً علمه من جهة اللسان: إما بالشواهد من أشعارهم السائرة، وإما من منطقهم ولغاتهم المستفيضة المعروفة، كائناً من كان ذلك المتأول والمفسر، بعد أن لا يكون خارجاً تأويله وتفسيره ما تأول وفسر من ذلك، عن أقوال السلف من الصحابة والأئمة والخلف من التابعين وعلماء الأمة»^(١).

وكان من المؤلفات التي أثنى عليها العلماء في هذا العصر ونال شهرة واسعة ووضع الله له القبول بين الناس تفسير الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله المتوفى سنة (١٣٧٦) وذلك لما تميّز به من أمور:

أولاً: حرص المؤلف رحمه الله على أن يكون تفسيره مقتصرًا على المعنى الإجمالي، حيث إن كثيراً من المفسرين إما أنهم استطردوا، وأطالوا في تفسير كتاب الله، أو اقتصروا على جوانب لغوية أو فقهية، فأراد رحمه الله أن يجعل المعنى هو المقصود واللفظ وسيلة له؛ ليتعرف الناس على معنى كلام الله فيهدتدون بعلومه، ويتخلقون بأخلاقه وآدابه بأقرب الطرق.

ثانياً: اختيارات الشيخ رحمه الله التي تنم عن ذكاء عقله وصفاء قلبه وسيلان

(١) تفسير ابن جرير (٩٣/١) باختصار.

ذهنه لأقوال السلف من الصحابة والتابعين وعلماء الأمة الواردة في التفسير، فكانه رحمه الله جمع الأقوال الواردة في تفسير الآية ثم صاغها بعبارته المعروفة.

ثالثاً: تميّز تفسيره رحمه الله ألفاظه السهلة، وعباراته الواضحة، فلا تكلف فيه ولا تعقيد، ولا إسهاب ولا إطناب، على وجه يحصل به الفهم لأهل العلم ومن هم دونهم.

رابعاً: حسن التأليف وربط الكلام ببعضه برقاب بعض، دون عناء في سبك العبارة وهذه سمة بارزة في تفسيره رحمه الله.

خامساً: اشتمل الكتاب على جملة من الفوائد العلمية والتربوية المستنبطة من كتاب الله أشار إليها المؤلف في ثانيا تفسيره وهي فوائد متنوعة في التوحيد والفقه والسيرة والمواظ والأخلاق وغير ذلك من الفوائد.

سادساً: - وهو أهمها - سلامة الكتاب من التأويلات الفاسدة والأهواء والبدع والإسرائيليات، فالمؤلف رحمه الله أخذ بنصوص الكتاب والسنة ومتبع الآثار الواردة عن السلف الصالح.

وأخيراً: الله أسأل أن أكون قد وفّقت في إخراج الكتاب بما أحسبه على الصورة التي أرادها مؤلفه رحمه الله. فما كان من صواب فبتوفيق من الله، وما كان من خطأ فمني ومن الشيطان وجزى الله خيراً كل من أفادني بملاحظاته واستدراكاته؛ لأقوم بتصويبها في طبعات قادمة إن شاء الله.

كما أسأله تعالى أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه وأن يكتب لي الأجر والثواب، إنه سميع مجيب.

وصلّى الله وسلّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سعد بن فواز الصميل

الخبر: ٣١٩٥٢

ص.ب: ٣١٠١٣

فاكس: ٨٤١٢١٠٠

ترجمة المؤلف (*)

اسمه ونسبه ومولده:

هو الشيخ العلامة الفقيه صاحب التأليف الماتعة النافعة عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله آل سعدي من النواصر من بني عمرو أحد البطون الكبار من قبيلة بني تميم. ولد في محرم عام ١٣٠٧ في بلدة عنيزة من أعمال القصيم وتوفيت والدته وله من العمر أربع سنين، وتوفي والده وله سبع سنين.

نشأته وحياته العلمية:

نشأ نشأة صالحة كريمة، وعرف من حداثة سنه بالصلاح والتقوى فأقبل على العلم بجهد ونشاط. وهمة وعزيمة فحفظ القرآن الكريم وهو صغير لم يبلغ الحلم، واشتغل بالعلم على علماء بلده والبلاد المجاورة، وانقطع للعلم وجعل كل أوقاته مشغولة في تحصيله حفظاً وفهماً ودراسة ومراجعة واستذكراً حتى أدرك في صباه ما لا يدركه غيره في زمن طويل. أخذ العلم عن عدة مشايخ منهم: محمد العبد الكريم الشبل وإبراهيم بن حمد الجاسر، وعبد الله بن عايض. ومحمد أمين الشنقيطي وصالح بن عثمان القاضي. ولما رأى زملاؤه في الدراسة تفوقه عليهم ونبوغته تتلمذوا عليه. وصاروا يأخذون عنه العلم وهو في سن البلوغ، فصار في هذا الشاب المبكر متعلماً ومعلماً. ثم اهتم بمطالعة مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم. فلما أقبل عليها نور الله بصيرته وانتفع بها وزادت علومه وتوسعت دائرة معارفه ووصل إلى درجة الاجتهاد ونبد التقليد، وصار يرجع بالدليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ونفع الناس وسهل عليهم الأمور المعقدة. والقصد أنه صار مرجع بلاده وعمدتهم في جميع أحوالهم وشؤونهم فهو مدرس الطلاب، وواعظ العامة وإمام الجامع وخطيبه، ومفتي البلاد وكاتب الوثائق ومحرر الأوقاف والوصايا وعاهد الأنكحة ومستشارهم في كل ما يهمهم.

(*) اعتمدت في ترجمة الشيخ على كتاب علماء نجد - لابن بسام - مع بعض التصرف، وكذلك من ترجمة الشيخ محمد بن سليمان البسام لكتاب التعليق وكشف النقاب على نظم قواعد الإعراب لابن سعدي.

تخرج على يديه تلاميذ كثيرون جداً منهم الشيخ سليمان بن إبراهيم البسام، والشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع والشيخ محمد بن صالح العثيمين إمام الجامع الكبير بعنيزة وعضو هيئة كبار العلماء والشيخ علي بن محمد بن زامل آل سليم بالنحو والشيخ عبد الله بن عبد العزيز العقيل رئيس الهيئة الدائمة بمجلس القضاء الأعلى سابقاً وعضو بمجلس القضاء الأعلى (متقاعد). والشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح البسام عضو هيئة كبار العلماء. والشيخ محمد بن سليمان بن عبد العزيز البسام وقد درس في الحرم المكي فترة من الزمن، وأما مؤلفاته فهي تزيد على ثلاثين مؤلفاً في أنواع علوم الشريعة من التفسير والحديث والفقه والأصول والتوحيد، كلها مفيدة خالية من الحشو والأقوال الزائفة تدلك دلالة واضحة على مغزاها، بدون تكلف أو تفكير وغالباً ما يوضح المسائل بالأمثلة ليصل المعنى إلى الذهن مباشرة بدون عناء.

أخلاقه:

كان رحمه الله سمحاً طلقاً بشوشاً مع الصغير والكبير والمعارف وغيرهم، لم يلتفت إلى الدنيا من صغره إلى أن توفاه الله، له أخلاق أرق من النسيم وأعذب من السلسيل، لا يعاتب على الهفوة ولا يؤاخذ بالجفوة أعطاه الله حبة في القلوب، وثقة في النفوس فأجمعت البلاد على وده، واتفقت على تقديمه، فصار له زعامة شعبية فأشارته نافذة وكلمته مسموعة وأمره مطاع.

«كان متواضعاً جم التواضع، للصغير والكبير، وللغني والفقير على السواء. كان كثير الاجتماع مع العامة ومع الخاصة في أنديةهم وفي مجتمعاتهم، وإذا اجتمع هؤلاء أو أولئك انقلب المجلس إلى ناد علمي، فمع طلبة العلم يبحث في شئون العلم ومع العامة يرشدهم إلى ما فيه نفعهم في دينهم وفي دنياهم ولهذه الميزة - التي تدل على تفتح الوعي واستنارة البصيرة وسعة الأفق - تجد كل من يحضر مجالسه يستفيد منها علماً جماً وفوائد جزيلة»^(١).

وفاته:

كانت وفاته ليلة الخميس ٢٣ جمادى الآخرة عام ١٣٧٦ عن تسعة وستين عاماً قضاها في عبادة الله ونفع عباد الله علماً وتعليماً وإفتاءً وتأليفاً. وصلى عليه من الغد، صلاة الظهر وانصدع الناس لموته وحزنوا عليه حزناً شديداً وبكته العيون. وخلف ثلاثة أبناء هم عبد الله ومحمد وأحمد، وبنيتن، وقد رثاه كثير من العلماء والأدباء.

(١) سيرة العلامة الشيخ عبد الرحمن السعدي (ص ١١).

نَسَائِلُ الْعُلَمَاءِ عَلَيْهِ ^(١)

١ - سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز:

قال: «... كان رحمه الله كثير الفقه والعناية بمعرفة الراجح من المسائل الخلافية بالدليل، وكان عظيم العناية بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه العلامة ابن القيم وكان يرجح ما قام عليه الدليل، وكان قليل الكلام؛ إلا فيما تترتب عليه فائدة، جالسته غير مرة في مكة والرياض، وكان كلامه قليلاً إلا في مسائل العلم، وكان متواضعاً، حسن الخلق، ومن قرأ كتبه؛ عرف فضله وعلمه وعنايته بالدليل، فرحمه الله رحمة واسعة».

٢ - الشيخ محمد ناصر الدين الألباني:

وسئل فضيلة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني عن رأيه في كتاب تفسير الشيخ عبد الرحمن بن سعدي فقال:

«هو تفسير جيد، وله أقوال جيدة، مع أن مراجعتي له قليلة، لكن في حدود اطلاعي عليه تبين لي أنه متحرر الرأي والنظر بضوابط الشرع، وليس عنده جمود أو تعصب».

وقد التقيته في دمشق قبل أكثر من أربعين سنة، وأنست منه علماً جماً، ورأيت فيه تواضع العلماء وهو - في هذا - كسائر علماء نجد، يُذكروننا بأخلاق العلماء المتقدمين وتواضعهم، وليس كغيرهم ممن جعلهم علمهم مغرورين متكبرين...».

٣ - الشيخ عبد الرزاق عفيفي:

قال: «... فإن من قرأ مصنفاته - ابن سعدي -، وتتبع مؤلفاته، وخالط وسبر حاله أيام حياته، عرف منه الدأب في خدمة العلم اطلاعاً وتعليماً، ووقف منه على

(١) انظر حياة الشيخ ابن سعدي للدكتور عبد الله الطيار.

حسن السيرة، وسماحة الخلق، واستقامة الحال، وإنصاف إخوانه وطلابه من نفسه، وطلب السلامة فيما يجر إلى شر أو يفضي إلى نزاع أو شقاق، فرحمه الله رحمة واسعة...».

٤ - الشيخ محمد بن صالح العثيمين:

قال: «... إن الرجل قل أن يوجد مثله في عصره في عبادته وعلمه وأخلاقه، حيث كان يعامل كلاً من الصغير والكبير بحسب ما يليق بحاله، ويتفقد الفقراء، فيوصل إليهم ما يسد حاجتهم بنفسه، وكان صبوراً على ما يلزم به من أذى الناس، وكان يحب العذر لمن حصلت منه هفوة، حيث يوجهها توجيهاً يحصل به عذر من هفا...».

٥ - الشيخ محمد حامد الفقي:

قال: «... لقد عرفت الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي من أكثر من عشرين سنة، فعرفت فيه العالم السلفي المدقق المحقق الذي يبحث عن الدليل الصادق، وينقب عن البرهان الوثيق، فيمشي وراءه لا يلوي على شيء...».

وقال: «... عرفت فيه العالم السلفي، الذي فهم الإسلام الفهم الصادق، وعرف فيه دعوته القويّة الصادقة إلى الأخذ بكل أسباب الحياة العزيزة القويّة الكريمة النقيّة...».

طبغات الكتاب

سبق أن طبع الجزء الخامس من الكتاب مفرداً، في حياة الشيخ - رحمه الله - ثم بدا له أن يطبع الكتاب كاملاً في المطبعة السلفية بمصر. وفي أثناء الطباعة توفي الشيخ رحمه الله بعد أن اطلع على الجزء الأول وملازم من الجزء الثاني.

أولاً: الطبعة السلفية سنة ١٣٧٧ معتمدين في نشرها على النسخة التي أرسلها الشيخ ابن سعدي رحمه الله، وهذه الطبعة على ندرتها، هي أجود من الطبعة السعيدية التي جاءت بعدها وانتشرت، وعلى الرغم من الجهود المشكورة التي قام بها صاحبها الشيخ محب الدين الخطيب - رحمه الله - في نشر الكتب السلفية إلا أنه تبين أن على هذه الطبعة عدة ملاحظات، أبرزها الاستبدال لبعض العبارات أو الكلمات بما هو عليه في الأصل، كما أن هذه الطبعة لم تسلم من السقط والغلط.

وإليك أمثلة كافية لتدرك الفرق بين هذه الطبعة والأصل.

الجزء/الصفحة	سطر	السورة	رقم الآية	المطبوع	المخطوط
١ - ٣٨	١٧	البقرة	٤٥	بجميع أنواعه وهو الصبر عن معصية الله	بجميع أنواعه وهو الصبر على طاعة الله حتى يؤديها والصبر عن معصية الله
١ - ١١٧		البقرة	١٩٦	بأن كان عند مسافة قصر فأكثر أو بعيداً عند عرفات	بأن كان عنه مسافة قصر فأكثر أو بعيداً عنه عرفاً
١ - ١٤٥	٢	البقرة	٢٣٩	على نعمة التعليم	على نعمة الأمن وعلى نعمة التعليم
١ - ٢٠٤	١٧	آل عمران	١٤٠	عن القتال في سبيله ولو أرادوا	عن القتال في سبيله وكان في هذا تعريضاً بدم المنافقين وأنهم مبغضون لله. ولهذا ثبطهم عن القتال في سبيله ولو أرادوا الخروج
٢ - ٢٢	٨	النساء	٢٣	المحرمات بالنسب والمحرمات بالصهر	المحرمات بالنسب والمحرمات بالصهر

الجزء/الصفحة	سطر	السورة	رقم الآية	المطبوع	المخطوط
٢ - ٩١	١٦	النساء	١٣٥	تركوا الحق وقام هو بالباطل	تركوا الحق وهذا ترك الحق وقام هو بالباطل
٢ - ١١٥	١٩	المائدة	٤	جميع حيوانات البر	جميع حيوانات البحر وجميع حيوانات البر
٢ - ١٣٨	٢٤	المائدة	٤٤	مطالبون أن يعلموا الناس	مطالبون بالقيام بما عليهم أنفسهم، فإنهم مطالبون أن يعلموا الناس
٢ - ٢٠١	١٩	الأنعام	٩١	فأجب عن هذا السؤال (ذرههم في خوضهم)	فأجب عن هذا السؤال (وقل الله) الذي أنزله، فحين إذن يتضح الحق وينجلي مثل الشمس، وتقوم عليهم الحجة (ثم) إذا ألزمتهم بهذا الإلزام ذرههم في خوضهم
٢ - ٢١٦	٣	الأنعام	١٢١	لأن الوحي والإلهام يكون من الشيطان	لأن الوحي والإلهام يكون من الرحمن ويكون من الشيطان
٣ - ٢٣	١١	الأعراف	٦١	ورب جميع الخلق بأنواع التربية	ورب جميع الخلق الذي ربى جميع الخلق بأنواع التربية
٣ - ١٠٧	٢١	التوبة	٣٠	تشابهت أقوالهم في البطلان	تشابهت قلوبهم فتشابهت أقوالهم في البطلان
٣ - ١٣٩	٢١	التوبة	١٠٦	على التوبة والندم والله عليم حكيم	على التوبة والندم (والله عليم) بأحوال العباد ونياتهم (حكيم)
٣ - ١٣٩	٢٢	التوبة	١٠٦	وينزلها منازلها فإن اقتضت حكمته	وينزلها منازلها فإذا اقتضت حكمته أن يغفر لهم ويتوب عليهم غفر لهم وتاب عليهم وإن اقتضت حكمته
٤ - ٥٠	١٥	الرعد	١٨	ضيعوه من حقوق عباده	ضيعوه من حقوق الله وحقوق عباده
٦ - ١٢١	٤	الأحزاب	٥٦	اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم	اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم

الجزء/الصفحة	سطر	السورة	رقم الآية	المطبوع	المخطوط
١٢٨ - ٦	١٦	سبأ	٦	إنها تهدي إلى الصراط المستقيم وير الوالدين	إنها تهدي إلى الصراط المستقيم المتضمن للأمور بكل صفة تزكي النفس وتنمي الأمر، وتفيد العامل وغيره كالصدق والإخلاص وير الوالدين
١٦٣ - ٦	١٠	يس	١	المحل اللائق بهما فأحكامه	المحل اللائق بهما ووضع الجزء بالخير والشر في محلها اللائق بهما فأحكامه
١٦٤ - ٦	١١	يس	٦	وغمرتهم الضلالة فأرسل الله	وغمرتهم الضلالة وأضحكوا عليهم وعلى سفههم عقول العالمين فأرسل الله
٩٥ - ٧	١٧	الشورى	١١	أي جعل لكم من أنفسكم وجعل لكم من الأنعام	أي جعل ذلك لأجلكم ولأجل النعمة عليكم ولهذا قال (يذروكم فيه) أي يبتكم ويكثركم ويكثر مواشيكم بسبب أن جعل لكم من أنفسكم وجعل لكم من الأنعام
١٢٦ - ٧	٧	الزخرف	٥٩	أصناماً وأوثاناً. الثالث:	أصناماً وأوثاناً ولا يعبدون المسيح. الثالث:
١٥٢ - ٧	٢٣	الأحقاف	١٢	وهي التوراة كتاب موسى	وهي التوراة التي أنزلها الله على موسى
٦ - ٨	١	الحجرات	٧	الذنوب الصغار	الذنوب الكبار والعصيان أي الذنوب الصغار
٢٠ - ٨	١٠	ق	٤٢	يسمعون تلك الصيحة	يسمعون أي: كل الخلائق يسمعون تلك الصيحة
٤٧ - ٨	١٢	النجم	٣٩	إلا ما سعى فوصول سعي غيره	إلا ما سعى: من يرى أن القرب لا يجوز إهداؤها للأحياء ولا للأموات قالوا لأن الله قال: (وأن) ليس للإنسان إلا ما سعى) فوصول سعي غيره..

ثانياً الطبعة السعيدية طبعت عام ١٣٩٧ هـ

كتب عليها (حققه وضبطه ونسقه وصححه محمد زهري النجار - من علماء الأزهر الشريف -) لم يعتمد في إخراجها على أصل وإنما اعتمد فيها على الطبعة السلفية، ولم يراع فيها ما ذكر من تحقيق أو تصحيح بل زاد الغلط والتحريف^(١)، فهو كما قيل: يوهي الأديم ولا يرفع، وعن هذه الطبعة انتشرت طبقات الكتاب^(٢)، فزادت الأخطاء في هذه الطبقات على أخطاء الطبعة السلفية، وقد ظهر ذلك جلياً أثناء المقابلة بين الأصل وبين هذه الطبعة.

ولعل من أهم الملحوظات على هذه الطبعة:

الإضافات والزيادات على ما في الكتاب، وإلحاق ما ليس من كلام المؤلف في الكتاب دون التنبيه على ذلك، وهذه وحدها كافية لمعرفة حقيقة هذه الطبعة فمن ذلك:

أ - أضاف تفسيراً للآية ٢٠٧ من سورة البقرة من تفسير ابن كثير وغيره دون أن ينبه على ذلك في الحاشية، ٢٥٢/١ - ٢٥٣ - ٢٥٤.

- (١) وقد نبّه الشيخ محمد بن سليمان آل بسام حفظه الله وعافاه في كتابه «كشف الستار عن تلفيق وتعليق النجار» إلى شيء من ذلك.
 - (٢) وقد وجدت اثنتي عشرة طبعة للكتاب وهي:
 - طبعة عالم الكتب بيروت.
 - طبعة دار البحوث العلمية والإفتاء بالرياض.
 - طبعة الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية - مصورة من النسخة السلفية -.
 - طبعة مكتبة الهدى بالخبر.
 - طبعة دار ابن الجوزي.
 - طبعة مؤسسة الرسالة - مجلدان.
 - طبعة مؤسسة الرسالة - مجلد باعتهاء الشيخ عبد الرحمن اللويحق. الطبعة الأولى.
 - طبعة مؤسسة الريان ودار الذخائر.
 - طبعة مكتبة الأوس بتحقيق طه عبد الرؤوف سعد.
 - طبعة مركز صالح ابن صالح.
 - طبعة إحياء التراث بالكويت ودار الصمعي.
 - طبعة دار المغني بالرياض.
- وبعد النظر في جميع هذه الطبقات تبين أنها إما مصورة من النسخة السعيدية أو معتمد عليها.

- ب - أضاف تفسيراً للآيات ١٠٥ - ١٠٦ - ١٠٧ - من سورة الأنعام قوله تعالى: (وكذلك نصرف الآيات) إلى قوله (وإصلاح أمرهم) ٤٥٠/٢ - ٤٥١ - ٤٥٢.
- ج - أضاف عند تفسير الآية ١٣٨ من سورة الأعراف ٨٥/٣ (قالوا من جهلهم وسفهمهم... إلى قوله كما اتخذها هؤلاء).
- د - أضاف تفسيراً للآية ٦٤ من سورة النحل ٢١٥/٤ (وما أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن... إلى قوله وبالكتاب الذي أنزله).
- هـ - أضاف تفسيراً للآية ١٠ من سورة الحج ٢٧٨/٥ - ٢٧٩ (ذلك) ما ذكر من العذاب الدنيوي والأخروي... إلى قوله بل يجازي كلا منهم بعمله.
- و - أضاف تفسيراً للآية ٥٠ - ٥١ من سورة الحج ٣٠٨/٥ - ٣٠٩.
- ز - أضاف في سورة المؤمنون بعد تفسير الآية ٤١ - الآية التي في سورة الدخان ٢٩ ٣٥٠/٥ مع تفسيره لها (فما بكت عليهم السماء... إلى قوله ولم يمهلوا لتدارك تقصيرهم احتقاراً لهم).
- ح - وأضاف تفسيراً للآية ٣١ من سورة القمر ٢٣٧/٧ (إنا أرسلنا عليهم... إلى قوله... اتخذ حظيرة لبهائم).
- وإليك عرضاً لهذه النماذج:

— ٢٥٢ —

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ
وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٢٠٧)

لها، المزكى لها^(١) وأنه ينبغي اختبار أحوال الشهود، والحق والبطل من الناس، بغير أعمالهم، والنظر لقرائن أحوالهم، وأن لا يفتقر بتدوينهم وتركيبهم أنفسهم.

ثم ذكر أن هذا المفسد في الأرض بمعاصي الله، إذا أمر بتقوى الله تكبر وأنف.

[وأخذته العزة بالإثم] فيجمع بين العمل بالمعاصي والتكبر على الناصحين. [لحسب جهنم] التي هي دار العاصين والتكبرين.

[ولبس المهاد] أى: المستقر والسكن، عذاب دائم، وهم لا ينتطح، وبأس مستمر، لا يخفف عنهم العذاب، ولا يرجون الثواب، جزاء لجنايتهم ومقابلة لأعمالهم. فليأذا بالله، من أحوالهم.

١- معاني المفردات. قال في الصحاح: شريت الشيء. أشريه شراء: إذا بعته وإذا اشتريته أيضاً، وهو من الأضداد.

قال الله تعالى [ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله] أى: يبيعها.

[وقال تعالى: وشروه بشئ بخس دراهم معدودة] أى: باعوه به ومثله في القاموس.

هذه الآية نزلت في صهيب بن سنان الرومي حين أراد الشركون

(١) قوله (الصدق لها المزكى) تكرار (لا) بعد (الصدق) و (المزكى) لاداعي له. فالأنسب أن يقال (الصدق والمزكى لها).

— ٢٥٣ —

على ترك الإسلام ، كما رواه ابن عباس وأنس ، وسعيد بن المسيب وأبو عثمان
النهدى وعكرمة وجماعة غيرهم .

وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة ، منعه الناس أن يهاجر بماله ،
وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر : فعل .

فتخلص منهم وأعطاهم ماله ، فأنزل الله فيه هذه الآية .
فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة ، إلى طرف الحرة ، فقالوا له : ربح البيع
ربح البيع

قال : وأنتم ، فلا أخسر الله تجارتكم ، وما ذاك ؟
فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية .

ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له « ربح البيع صهيب » .
وحدث أبو عثمان النهدى عن صهيب قال : لما أردت الهجرة من مكة
إلى النبي صلى الله عليه وسلم قالت لي قريش :
يا صهيب ، قدمت إلينا ولا مال لك ، وتخرج أنت ومالك ؟ والله
لا يكون ذلك أبداً .

فقلت لهم : أرايتم إن دفعت إليكم مالى تحلون عني ؟ قالوا : نعم .
فدفعت إليهم مالى ، فغفوا عني ، فخرجت حتى قدمت المدينة .
فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال « ربح صهيب ربح صهيب
مرتين .

وقال حماد بن سلمة ، عن علي بن يزيد ، عن شعيب بن المسيب قال : -

أقبل صبيب مهاجراً نحو النبي صلى الله عليه وسلم، فاتبعه فزمن قريش.
 فنزل عن راحته، ونزل ما في كنانته، ثم قال :
 يا مشر قريش، قد علمتم أني من أركام رجلا .
 وأنتم — والله — لا تصلون إلى حتى أرى بكل سبهم في كنانتي،
 ثم أضرب بسيفي، لم يبق في يدي منه شيء. ثم افعلوا ما شئتم .
 وإن شئتم دلتكم على مالي وقبتي بمكة، وخليتم سبيلي، قالوا له : نعم .
 فلما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ربح البيع » قال : ونزل
 ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد^(١).
 وأما الأكثرون، ففعلوا ذلك على أنها نزلت في كل مجاهد في سبيل
 الله كما قال تعالى :

[إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في
 سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن
 أوفى بهذه من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم].
 ولما حمل هشام بن عامر بين الصنين، أنكر عليه بعض الناس .
 فرد عليهم عمر بن الخطاب وأبو هريرة وغيرهما، وتلوا هذه الآية .
 ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد اهـ.
 من تفسير ابن كثير بتصرف يسير .

(١) قال أبو السعود في تفسيره : فـ « يشرى » حينئذ بمعنى « يشتري »
 لجرى الحال على صورة الشرى اهـ .

- ٤٥٠ -

وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ وَآيَتُهُمْ دَرَسَتْ وَلَيْسَ

ب -

قوله تعالى (وكذلك نصرف الآيات) الكاف في موضع نصب صفة
للمصدر المحذوف ، أى : نصرف الآيات نصرفها ، مثل ما نلونا عليك .
والنصريف منناه : التنويع .

والمراد : أن الله تعالى ، ينوع الآيات الدالة على المعاني الرائعة ، الكاشفة
عن الحقائق النافذة ، لانصريفها أدنى منه ، بل نصرفها بألف في الروعة مبلغاً
ارتقى عن إدراك الخلقين .

قوله تعالى (وآيتولوا درست) جوابه محذوف ، تقديره « ونحن
نصرفها » أو نعمل ما نعمل من النصريف المذكور [معنى درست] تعلمت .
وقرأت كتب أهل الكتاب أى : قدمت هذه الآية ومضت .
كما قالوا : أما خير الأولين ، فتأملوا من مضوا من أهل الكتاب من
الأمم إلى بقية .

(وآيتولوا درست) صلة لتعلم قد حذف ، تدويراً على دلالة السابق
عليه .

أى ، وليقولوا : درست نعمل ما نعمل ، من النصريف المذكور .
واللام للمقابلة والصيرورة ، والواو اعتراضية . أى : لتعير عاقبة أسرم
إلى أن يقولوا درست وهو كقوله تعالى .

(فأنظروا آل فرعون ليسكون لهم عدواً وحزناً) وهم لم يأنظروا للعداوة
وإنما أنظروا ، ليصير لهم قوة عين ، ولكن صارت عاقبة أمرهم إلى
العداوة .

- ٤٥١ -

لَقَوْمٍ يَتَّبِعُونَ (١٠٥) أَتَّبِعُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا

وكذلك الآيات ، صرفت للتبيين ، ولم تصرف ليقولوا : درست .
ولكن حصل هذا القول بتعريف الآيات كما حصل التبيين ،
فشيء به .

وقوله تعالى [ولينبئهم] أى : القرآن ، وإن ! يبرهانه ذكر ، لسكرته
معلوماً ، أو الآيات ، لأنها فى معنى القرآن .

[لقوم يملكون] الحق من الباطل .

ومجمل معنى الآية :

ومثل هذا التنوع البديع فى عرض الدلائل السكونية : نرى آياتنا
فى القرآن متنوعة مفعلة ، لتقيم الحجج بها على الجاحدين ، فلا يدعوا الاختلاف
والكذب ، فيتمموك بأنك تعلمت من الناس ، لا من الله ، ولينبئهم ما أنزل
إليك من الملائكة ، من غير تأثير بهوى ، لقوم يدركون الحق ،
ويدعون له .

* أتبع - أيها النبي - ما جاءك به الوحي من الله ، مالك أمرك ،
ومدبر شؤونك ، إنه - وحده - الإله المنتحق للطاعة والخضوع ،
فالتزم طاعته ، ولا تبال بمناذ للشركين ، ولا تعتزل بهم ، وبأقاربهم
الباطلة .

* قوله تعالى [ولو شاء الله] أى : إن شاء الله ، فله القول به بحذوف
[ما أشركوا] بين أنهم لا يشركون على خلاف مشيئة الله ولو علم منهم

— ٤٢ —

وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (١٠٧) ﴿١٠٧﴾

اختيار الإيمان لهدام إليه ولكن علم منهم اختيار الشرك فأشركوا بمشيئته
 ه قوله تعالى (وما جعلناك عليهم حفيظاً) أى وقياً مهيناً من قبلنا مراعي
 لأعمالهم مأخوذاً بإجرامهم وكذلك قوله (وما أنت عليهم بوكيل) من
 جبهتهم ولا بمساطرهم بتدبير أمورهم وترعى مصالحهم .

والمنى الإجمالى للآية :

ولو أراد الله أن يعبدوه وحده ، لفهرهم على ذلك ، بقوته وقدرته ،
 لكنه تركهم لاختيارهم .

وما جعلناك رقيباً ، بمعنى عليهم أعمالهم ، وما أنت بمكلف ، بأن تقوم
 عنهم ، بتدبير شؤونهم ، وإصلاح أسرهم .

قَالُوا يَهُوسَى ابْنُ مَرْيَمَ اجْعَلْ لَنَا آلِهًا كَمَا لَهُم آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَبِطِلٌ مَا كَانُوا يَتَّبِعُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَنْبِيَاءَكُمْ آلِهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى

[قال] لهم موسى : [إنكم قوم تجهلون] وأي جهل أعظم من جهل الإنسان ، ربه وخالقه وأراد أن يسوي به غيره ، من لا يملك نقماً ولا ضرراً ، ولا موتاً ، ولا حياة ، ولا نشوراً !!! .

ولهذا قال لهم موسى [إن هؤلا ، متبر^(١) ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون] ، لأن دعاءهم إلهها باطل ، وهي باطلة بنفسها ، فالعمل باطل ، وغايته باطلة .

[قال أغير الله أنبيكم إلهاً] أى : أطلب لكم إلهاً غير الله الأول ، الكامل في ذاته ، وصفاته ، وأفعاله .

[وهو فضلكم على الدالين] فيقتضى أن تقابلوا فضله ، وتفضيه ، بالشكر .

وذلك بإفراد الله وحده ، بالعبادة ، والكفر بما يدعى من دونه .

[قالوا] من جهلهم ومنهمهم ، لبنيهم موسى ، بعد ما أراهم الله من الآيات ما أراهم .
[ياموسى اجعل لنا إلهاً كالم آلهة] أى : اشرع لنا ، أن نتخذ أصناماً آلهة ، كما اتخذها هؤلا .

(١) قوله (متبر) أى مهلك ، ومدمر ، والراد ، إن هؤلا ، الذين يبدون الأصنام هالك ما هم فيه من الدين الباطل وزائل عملهم ، لا بقاء له .

- ٢١٥ -

تَالَهُ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فزَيْنَ لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ
فَهُوَ وَلِيُّهُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

﴿٦٤﴾ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي
اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

[تَالَهُ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ] رسلا يدعونهم إلى التوحيد .
[فزَيْنَ لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ] فكذبوا الرسل ، وزعموا أن مأمع عليه ،
هو الحق المنجي من كل مكروه ، وأن ما دعت إليه الرسل ، فهو بخلاف ذلك .
فما زين لهم الشيطان أعمالهم . صار [وليهم اليوم في الدنيا] ،
فأطاعوه ، وأبوه ، وتولوه .
« أنتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بنس لأئالمين
بدلاً » .

[ولهم عذاب أليم] في الآخرة ، حيث تولوا ، عن ولاية الرحمن ،
ورفضوا بولاية الشيطان ، فاستحقوا لذلك ، عذاب الموان .

« يقول تعالى : وما أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن ، إلا لتبين للناس
الحق ، فيما كان موضع اختلافهم ، من التوحيد ، والقدر ، وأحكام الأعمال
وأحوال المعاد ، وليكون هداية تامة ، ورحمة عامة ، لقوم يؤمنون بالله ،
وبالكتاب الذي أنزله .

خِزْيٌ وَنَذِيْقُهُ يَرْزَمُ الْقِيَامَةَ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾
 ﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ قَدَّمْتَ يَدَكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ
 لِلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾

فقد فرح بما معه من العلم الغير النافع . واحترق أهل الحق ، وما هم
 من الحق .

[ليضل] الناس أى : ليكون من دعاة الضلال .
 ويدخل تحت هذا جميع أئمة الكفر والضلال .
 ثم ذكر عنهم الديونية والأخروية فقال :
 [له فى الدنيا خزى] أى : ينتضح هذا فى الدنيا قبل الآخرة .
 وهذا من آيات الله العجيبة ، فإنك لا تجد داعيا من دعاة الكفر
 والضلال ، إلا وله من امت بين العالمين ، والائمة ، والبغض ، واندم ، ماء
 حقيق به ، وكل بحسب حاله .
 [ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق] أى نذيقه حرما شديدا ،
 وسعيرها البالغ ، وذلك بما قدمت يداه .

* [ذلك] ما ذكر من المذاب الديوى والأخروى .
 وما فيه من معنى البعد (وهو معنى اللام فى « ذلك » الموضوعة للدلالة
 على البعد) للدلالة على كون الكافر فى الغاية التصوى من المول والنقاعة .
 [بما قدمت يداك] أى : بسبب ما اقترفته من الكفر والمعاصى .
 [وأن الله ليس بظلام للعبيد] أى : والأسر أنه تعالى ليس بمذهب
 عبيده بغير ذنب من قبلهم .

- ٢٧٩ -

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّبِعُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ
أَطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

والله اعلم الإجمالي : أنه يقال للكافر الموصوف بذلك الأوصاف في الآيتين
السابتين :

ذلك الذي تلتزمه من خزي وعذاب إنما كان بسبب انقراضك وتكبرك
لأن الله عادل لا يظلم ، ولا يسوى بين المؤمن والكافر ، والصالح والفاجر ،
بل يجازى كلا منهم بعمله .

• أى : ومن الناس من هو ضعيف الإيمان ، لم يدخل الإيمان قلبه ، ولم
تخالطه بشاشته .

بل دخل فيه ، إما خوفاً ، وإما عادة على وجه لا يثبت عند المحن .

[فإن أصابه خير اطمأن به] أى : إن استمر رزقه رغداً ، ولم يحصل
له من المكروه شيء ، اطمأن بذلك الخير ، لا إيمانه .

فهذا ، ربما أن الله يمافيه ، ولا يقيض له من الفتن ، ما ينصرف به
عن دينه .

[وإن أصابته فتنة] من حصول مكروه ، أو زوال محبوب [انقلب
على وجهه] أى : ارتد عن دينه .

[خسر الدنيا والآخرة] أما في الدنيا ، فإنه لا يحصل له بالردة ما أمله
الذي جعل الردة رأساً له ، وعرضاً عما يظن إدراكه لغاب سميته ، ولم
يحصل له ، إلا ما قسم له .

- ٣٠٨ -

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٤٩)
 ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٥٠) وَالَّذِينَ
 سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾

* يأمر تعالى عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن يخاطب الناس جميعاً ، بأنه رسول الله حقاً ، مبشراً للمؤمنين بثواب الله ، منذراً للكافرين والظالمين ، من عقابه .

وقوله [مبين] أى : بين الإنذار، وهو التخويف ، مع الإعلام بالخوف .
 وذلك لأنه أقام البراعين الساطعة ، على صدق ما أُنذروا به .

ثم ذكر تفصيل النذارة والبشارة فقال :

[فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ] لا فصل منهم من الذنوب .

[وَرِزْقٌ كَرِيمٌ] هى الجنة . والكريم من كل نوع : ما يجمع فضائله ويمجوز كلالته .

وحاصل معنى الآية . فالذين آمنوا بالله ورسوله واستمروا ذلك الإيمان بقلوبهم حتى أصبح إيماناً صادقاً وعملوا الأعمال الصالحة لهم مغفرة من الله للذنوبهم التى وقعوا فيها ، كما أن لهم رزقاً كريماً فى الجنة ، جمع هذا الرزق جميع الفضائل والكلمات .

[وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ] أى : سابقين أو مسابقين فى زعمهم وتقديرهم طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم [أُولَٰئِكَ] الموصوفون بما ذكر من السعى والمعايزة [أَصْحَابُ الْجَحِيمِ] أى : ملازمون للنار الموقدة

- ٣٠٩ -

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا
تَمَنَّى الْإِنْسَانُ فِي أَمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ
يُخَكِّمُ اللَّهُ بآيَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْزَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ

المصاحبون لها في كل أوقاتهم ، فلا يخفف عنهم من عذابها ولا يفتنهم عنهم
لحظة من أليم عقابها . -
وحاصل المعنى . والذين أجهدوا أنفسهم في محاربة القرآن ، سابقين
المؤمنين في زعمهم ، معارضين لهم ، شاقين ، زاعمين - خطأ - أنهم بذلك
يبلغون ما يريدون ، أولئك يخلدون في عذاب الجحيم .

• يخبر تعالى بمحكمة الباقية ، واختياره لعباده ، وأن الله ما أرسل قبل
محمد [من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى] أى : قرأ قراءته ، التى يذكر
بها الناس ، ويأمرهم وينهاهم .
[ألقى الشيطان فى أمنيته] أى : فى قراءته ، من طرفه ، ومكايده ،
ما هو مناقض لتلك القراءة .
مع أن الله تعالى ، قد عصم الرسل ، بما يبلغون عن الله ، وحفظ وحيه ،
أن يشبهه ، أو يختلط بغيره .
ولكن هذا إلقاء من الشيطان ، غير مستقر ، ولا مستمر ، وإنما هو
عارض ، يمرض ، ثم يزول ، وللموارض أحكام ، ولهذا قال :
[فينسخ الله ما يلقي الشيطان] أى : يزله ويذهب ، ويبطله ، ويبين
أنه ليس من آياته .
[ثم يحكم الله آياته] أى : يتقنها ، ويمحورها ، ويحفظها ، فتبقى خالصة
من مخالطة إلقاء الشيطان .

- ٣٥٠ -

فَبِنْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾

الراوى ، وقال فى الآية الأخرى « إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة ، فكاتبوا كمشيم المحنصر » .

[فبندا للقوم الظالمين] أى : أنبهوا مع عذابهم ، البعد واللعنة والدم من المالمين .

[فابكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين] .

هذا التعبير مجاز عن عدم الاكتراث بهلاكهم والاعتداء بوجودهم .

وفيه تهكم بهم ، وبجألم النافية لحال من به غلظ فقهه ، فيقال عنه : « بكت عليه السماء والأرض » .

ومنه ماروى « أن المزمّن إذا مات ، ليبيكي عليه مصلاه ، وبحل عبادته ، ومساعد عمله ، ومهابط رزقه ، وآثاره فى الأرض .

وعن الحسن يبيكى عليه أهل السماء والأرض .

[وما كانوا] لما جاءهم وقت هلاكهم [منظرين] أى : مهمّين إلى وقت آخر ، بل عجل لهم العذاب فى الدنيا .

والمعنى الإجمالى : فاحزنت عليهم السماء والأرض عندما أخذهم العذاب ، لهوران شأنهم ، لأنهم ماتوا ككفاراً ، ولم ينظروا التوبة ، ولم ينسكبوا لتدارك تقصيرهم احتقاراً لهم .

- ٢٣٧ -

فَتَمَاطَى فَعَقَرَهُ (٢٩) فَكَيَّفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ صَيِّحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحُمْظِرِ (٣١) وَلَقَدْ بَشَّرْنَا
الْقُرْآنَ لِلَّذِ كَرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّ كِرِ (٣٢) ﴿٣٢﴾

[فتماطى] أى : انتقاد لما أسروه به من عقربها [فعر] (١)

[فكيف كان عذابي ونذري] كان أشد عذاب ، أرسل الله عليهم
صيحة ورجفة ، أهلكهم عن آخرهم ، ونجى الله صالحا ومن آمن معه

[إنا أرسلنا عليهم] فى اليوم الرابع من عقربها [صيحة واحدة] صاح
بها جبريل عليه السلام .

[فكانوا] أى : فصاروا [كهشيم الحظير] .

والهشيم : الشجر اليابس المتكسر ، أو كالحشيش اليابس الذى
يحمسه صاحب الحظيرة لما يشته فى الشتاء . أى : كهشيم الحظيرة أو الشجر
انتخذ لما .

واللهى الإجمالى « إنا سلطنا عليهم صيحة واحدة ، فصاروا بها كحجر
يابس يحمه من يريد اتخاذ حظيرة لبهائه » [ولقد بشرنا القرآن لذكر
قول من مدكر] .

(١) فعر . أى : قتلها . وقال فى آية أخرى

[فكذبوه فعقروها] لرداهم بفعل الفاعل الواحد ، أو لأنه عقرت
بمرفقهم وموافقتهم على ذلك .

الطبعة الثالثة: طبعة مؤسسة الرسالة سنة ١٤٢٠ باعثناء وتحقيق د. عبد الرحمن بن معلا اللويحي، وهذه الطبعة أحسن الطبقات السابقة، حيث بذل المحقق حفظه الله جهداً كبيراً في إخراج الكتاب فجزاه الله خيراً، ونظراً لأن هذه الطبعة صدرت أثناء إعداد هذا الكتاب للطباعة؛ فقد اكتفيت بمراجعة مواضع عدة من الكتاب ظهر لي من خلالها الملاحظات التالية:

- ١ - أن المحقق اعتمد على النسخة التي بقيت لدى الشيخ، وهذا يخالف كما هو معلوم لقواعد التحقيق؛ حيث لم يجعل النسخة التي أرسلها المؤلف لطباعة الكتاب أصلاً؛ وذلك للزيادات والاستدراكات التي امتازت بها عن النسخة الأخرى.
- ٢ - أن المحقق تابع الطبقات السابقة في مجموعة من الأخطاء التي وقعت من قبل، وهذا أمر مستغرب منه؛ لحصوله على النسختين الخطيتين للكتاب. ومن أمثلة ذلك:

- ما جاء في تفسير الآية ٤٣ في سورة النساء ص ١٧٩ العمود ٣ سطر ٢٤ (بعد حصول مقصود الصلاة) كذا جاءت في جميع النسخ المطبوعة، والصواب كما في النسختين الخطيتين (بعد حصول مقصود الصلاة).

- وما جاء في تفسير الآية ٣١ في سورة الزخرف ص ٧٦٥ العمود ٢ سطر ٤٠ قوله: (ومن جرمه ومنتهى حمقه) كذا في جميع النسخ المطبوعة، والصواب كما في النسختين الخطيتين (ومن حزمه ومنتهى عقله) ثم إن المصححين في المطبعة السلفية شطبوا عبارة الشيخ، وكتبوا فوقها العبارة الأولى، وتبعهم على ذلك المحقق.

- في صفحة ٥٨٦ العمود ٣ سطر ٧ من الأسفل قوله: «وإهمال الحقوق الواجبة» في تفسير قوله تعالى: ﴿لَمْ يُسْرِفُوا﴾ كذا في جميع الطبقات، وصوابها أن تكون ﴿وَلَمْ يَقْرَأُوا﴾ فيدخلوا في باب البخل والشح، وإهمال حقوق الواجبة كما في النسختين الخطيتين.

- ٣ - السقط في بعض العبارات أو الكلمات ومن أمثلة ذلك:

- في صفحة ١٦٦ العمود ٢ السطر ١٨ سقط قول المؤلف (فلهم جزيل الثواب) بعد قوله الوصية، وهذا السقط انفردت به هذه الطبعة عن جميع الطبقات السابقة.

- في الصفحة ١٧٥ العمود ٢ السطر ٨ سقط قول المؤلف «كامل العلم» بعد قوله أي وهذه العبارة موجودة فقط في النسخة التي اعتبرها المحقق أصلاً.

- في صفحة ٢٦٠ العمود ٢ السطر ١٢ سقط قول المؤلف «بهذه العقوبات المذكورة» بعد قوله «بعضهم على بعض»، وهذا السقط انفردت به هذه الطبعة عن الطبغات السابقة.

- في صفحة ٢٣٩ العمود ٣ سطر ٥ سقط قول المؤلف «وعمل صالحاً» بعد قوله: «واليوم الآخر»، وهذا السقط انفردت به هذه الطبعة عن الطبغات السابقة.

- في صفحة ٥٥١ العمود ٢ سطر ٢٧ سقط قول المؤلف «وإنكار البعث والجزاء»، وهذا السقط انفردت به هذه الطبعة عن الطبغات السابقة.

- في صفحة ٥٩٦ العمود ٢ سطر ٢٣ سقط قول المؤلف «تابعنا في هذا كثير من المفسرين ولا مانع من ذلك» وهذا السقط انفردت به هذه الطبعة عن الطبغات السابقة.

٤ - نقل المحقق كلمات وعبارات كان المؤلف قد أعرض عنها أو استبدلها في النسخة التي أرسلها للطباعة ومن أمثلة ذلك:

- الآية ١٦٢ في سورة الأعراف ختم المؤلف الآية كما في نسخة «ب» بقوله ﴿يَمَّا كَانُوا يَنْشُقُونَ﴾ - وصواب الآية ﴿يَمَّا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ - ثم فسر الآية وقال «أي: يخرجون عن طاعة الله إلى معصيته. وفي النسخة «أ» التي أرسلت للطباعة اكتفى المؤلف بتصويب الآية وأعرض عن التفسير السابق، فقام المحقق ووضع تفسير الآية كما في النسخة التي اعتمدها وصوب آخر الآية فجاءت العبارة كالتالي (بما كانوا يظلمون) أي يخرجون عن طاعة الله إلى معصيته. . . .

- صفحة ٤١١ العمود ٢ آخر سطر ذكر المؤلف أن مدة الفراق التي حصلت ليعقوب مع ابنه يوسف «لا تقتصر عن خمسة عشر سنة» كذا في النسخة التي اعتمدها المحقق ثم إن المؤلف ضرب عليها واستبدلها بخطه في هامش النسخة الأخرى «إلى ثلاثين سنة».

- صفحة ٤٠٥ العمود ٢ سطر ٢ قوله «بحر الحب» كذا في النسخة التي اعتمد عليها المحقق ثم إن المؤلف رحمه الله استبدلها في هامش النسخة «أ» بخطه إلى «بحر لحي» وهذا الخطأ والذي قبله انفردت به هذه الطبعة عن جميع الطبغات السابقة.

٥ - أخطاء عامة:

- كتقديم عبارة حقها التأخير كما في صفحة ٦١٥ العمود ٢ سطر ٢٣ قول

المؤلف «والله أعلم» وحقها أن تكون بعد قول المؤلف: «بغير نقل صحيح عن النبي ﷺ» وهذا الخطأ انفردت به هذه الطبعة عن الطبقات السابقة.

- أو إغفال فروق هامة بين النسختين كما في صفحة ٦١٥ العمود ٢ سطر ٣٢ قول المؤلف في النسخة «أ» (وظن من طول المدة...) وفي النسخة «ب» «وعلم من طول المدة...».

- أو إغفال تعليقات هامة بخط المؤلف في هوامش الكتاب كما في الآية ١٥ من سورة فاطر.

- انظر صفحة ١٤٣٣ من طبعتنا هذه. سقط: «قوله على ما فيه: أي من الصفات وعلى ما فيه من الفضائل والإنعام وعلى الجزاء بالعدل».

مخطوطات الكتاب يوجد للكتاب نسختان خطيتان

النسخة الأولى:

وهي التي أرسلها المؤلف رحمه الله للاعتماد عليها في طبع الكتاب، وتقع في ثمانية مجلدات وهي النسخة التي جعلتها أصلاً معتمداً ورمزت لها بالرمز «أ» وسوف يأتي وصفها قريباً. وقد ظهر لي بعد مقابقتها ومقارنتها بالنسخة الثانية أنها منسوخة منها ومصححة عليها، وفيها زيادات واستدراكات بخط المؤلف رحمه الله؛ لذا رأيت أن تكون النسخة الأولى هي الأصل المعتمد في إخراج الكتاب.

النسخة الثانية:

وتقع في تسعة أجزاء وهي التي بقيت عند الشيخ رحمه الله واحتفظ بها ثم آلت بعد ذلك إلى جامعة الإمام عن طريق الشيخ محمد بن صالح العثيمين حفظه الله. وهذه النسخة كتبت بخط المؤلف عدا الجزء السادس فهو بخط محمد بن منصور بن إبراهيم بن زامل. وقد رمزت لهذه النسخة بالرمز (ب).

وهذه النسخة موافقة للنسخة الأولى عدا الجزء الأخير من سورة البقرة عند نهاية تفسير الآية (٢٣٨) وإلى نهاية تفسير الآية (١٢٩) من سورة آل عمران فإن فيه اختلافاً لما عليه في النسخة الأولى، ولعل مرده إلى أن المؤلف قد أعاد النظر في هذا الجزء أثناء نسخه للكتاب. وما عدا ذلك فهي في الغالب فروقات يسيرة أشرت لها في هامش الكتاب.

وصف النسخة المعتمدة

تحتوي هذه النسخة على ثمانية مجلدات وهي كما يلي:

المجلد الأول:

يبدأ من المقدمة وينتهي عند آخر تفسير الآية ١٢٩ من سورة آل عمران وهذا المجلد كتب بخط المؤلف، وجزء منه كتب بخط مغاير. انتهى منه مؤلفه في ٢٩ ربيع أول سنة ١٣٤٣، وجاء في آخره بلغ تصحيحاً. وعلى هذا الجزء هوامش وتصحيحات بخط المؤلف رحمه الله.

المجلد الثاني:

يبدأ من تفسير الآية ١٣٠ من سورة آل عمران، وينتهي إلى آخر تفسير سورة الأنعام، وناسخه علي الحسن البريكان. فرغ من نسخه في يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٤٥، وعلى هذا الجزء هوامش بخط المؤلف، وجاء في آخر هذا الجزء بلغ مقابلة على أصله.

المجلد الثالث:

يبدأ من تفسير سورة الأعراف، وينتهي إلى آخر تفسير سورة هود. الصحائف الأول منه بخط مغاير عن بقية الجزء، ولم يكتب عليها اسم الناسخ. وعلى هذا الجزء أيضاً هوامش بخط المؤلف رحمه الله، فرغ من نسخه في يوم السبت الحادي والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ١٣٤٧.

المجلد الرابع:

يبدأ من تفسير سورة يوسف، وينتهي إلى آخر تفسير سورة الإسراء. وناسخه سليمان المحمد البسام. انتهى من نسخه في ٧ جمادى الأول سنة ١٣٤٤ نقله من نسخة المؤلف. وهذا الجزء عليه هوامش بخط المؤلف رحمه الله، جاء في آخره بلغ مقابلة على أصله.

المجلد الخامس :

يبدأ من تفسير سورة الكهف، وينتهي إلى آخر تفسير سورة النمل، جاء في آخره على يد جامعته، وممليه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين، وذلك في ٢٢ رمضان سنة ١٣٤٣، وتم تحريره من خط مؤلفه في ٢٩ الحجة سنة ١٣٤٦.

وفي أول هذا الجزء مقدمة بخط المؤلف، ذكر فيها أنه يرغب في الاختصار على طبع هذا الجزء من أجزاء هذا التفسير، وقد ألحق المؤلف به أصولاً وكميات من أصول التفسير بخط المؤلف نفسه رحمه الله.

المجلد السادس :

يبدأ من تفسير سورة القصص، وينتهي إلى آخر تفسير سورة الصافات. جاء في آخره «تم تفسير سورة الصافات في ٦ شوال سنة ١٣٤٣ على يد جامعته وكتابه عبد الرحمن بن ناصر السعدي...».

المجلد السابع :

يبدأ من تفسير سورة ص، وينتهي إلى آخر تفسير سورة الفتح. وناسخه سليمان بن حمد العبد الله البسام، فرغ من نسخه في ١٣ ذي الحجة ١٣٤٥ نسخه من خط المفسر، وعلى هذا الجزء هوامش بخط المؤلف رحمه الله.

المجلد الثامن :

يبدأ من تفسير سورة الحجرات إلى آخر التفسير جاء في آخره؛ «تم تفسير كتاب الله بعونه وحسن توفيقه على يد جامعته وكتابه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله المعروف بابن سعدي، وقع النقل في ٧ شعبان ١٣٤٥ ربنا تقبل منا واعف عنا إنك أنت الغفور الرحيم».

جاء في هامشه (بلغ مقابلة)؛ وعلى هوامشه إضافات وتصحيحات بخط المؤلف رحمه الله.

اسم الكتاب

اشتهر الكتاب باسم «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» والمؤلف رحمه الله تفاوتت عباراته في تسمية الكتاب على النحو التالي:

- ١ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان .
 - ٢ - تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن .
 - ٣ - تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن .
 - ٤ - تيسير الرحمن في تفسير القرآن .
 - ٥ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام الرب المنان .
 - ٦ - تيسير الكريم المنان في تفسير آيات القرآن .
 - ٧ - تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الملك المنان .
 - ٨ - إملأ ما من به المنان من تفسير القرآن .
- وقد رأيت أن أبقى اسم الكتاب على ما اشتهر عليه بين الناس ولأن المؤلف ذكره بهذا الاسم في أكثر من موضع .

عملي في الكتاب

١ - اعتنيت بضبط نص الكتاب، وجهدت في إخراجه سالماً من السقط والتحريف والتصحيف الذي وقع في الطبعات السابقة وذلك بالاعتماد على النسخة «أ»، وما كان ساقطاً منها أثناء النسخ فقد استدركته من النسخة «ب» وجعلته بين معقوفتين هكذا [...] .

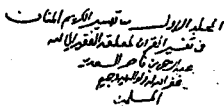
كما نبهت إلى الفروقات بين النسختين في الهامش، عدا الجزء الأخير من سورة البقرة عند نهاية تفسير الآية (٢٣٨) وإلى نهاية تفسير الآية (١٢٩) من سورة آل عمران فقد ألحقته في نهاية الكتاب .

٢ - قمت بتصويب بعض الآيات التي استشهد بها المؤلف أثناء تفسيره دون أن أنبه إلى ذلك، ما عدا الآيات التي فسرهما المؤلف فإني أنبه إلى ذلك في الحاشية .

٣ - فات على المؤلف رحمه الله تفسير بعض الآيات وقد أشرت إلى ذلك في الحاشية .

٤ - عزوت الأحاديث الواردة في التفسير .

٥ - زودنا الكتاب بفهرس للمسائل والفوائد العلمية لتبرز القيمة العلمية للكتاب ولتيسر الانتفاع به وفهرس آخر للأحاديث التي استشهد بها المؤلف مع فوائدها، وقد قام بإعدادها الأخ فتحي بن عبد الله جزاه الله خيراً .

[illegible]

۱۰۰
 ۱۰۱
 ۱۰۲
 ۱۰۳
 ۱۰۴
 ۱۰۵
 ۱۰۶
 ۱۰۷
 ۱۰۸
 ۱۰۹
 ۱۱۰
 ۱۱۱
 ۱۱۲
 ۱۱۳
 ۱۱۴
 ۱۱۵
 ۱۱۶
 ۱۱۷
 ۱۱۸
 ۱۱۹
 ۱۲۰
 ۱۲۱
 ۱۲۲
 ۱۲۳
 ۱۲۴
 ۱۲۵
 ۱۲۶
 ۱۲۷
 ۱۲۸
 ۱۲۹
 ۱۳۰
 ۱۳۱
 ۱۳۲
 ۱۳۳
 ۱۳۴
 ۱۳۵
 ۱۳۶
 ۱۳۷
 ۱۳۸
 ۱۳۹
 ۱۴۰
 ۱۴۱
 ۱۴۲
 ۱۴۳
 ۱۴۴
 ۱۴۵
 ۱۴۶
 ۱۴۷
 ۱۴۸
 ۱۴۹
 ۱۵۰
 ۱۵۱
 ۱۵۲
 ۱۵۳
 ۱۵۴
 ۱۵۵
 ۱۵۶
 ۱۵۷
 ۱۵۸
 ۱۵۹
 ۱۶۰
 ۱۶۱
 ۱۶۲
 ۱۶۳
 ۱۶۴
 ۱۶۵
 ۱۶۶
 ۱۶۷
 ۱۶۸
 ۱۶۹
 ۱۷۰
 ۱۷۱
 ۱۷۲
 ۱۷۳
 ۱۷۴
 ۱۷۵
 ۱۷۶
 ۱۷۷
 ۱۷۸
 ۱۷۹
 ۱۸۰
 ۱۸۱
 ۱۸۲
 ۱۸۳
 ۱۸۴
 ۱۸۵
 ۱۸۶
 ۱۸۷
 ۱۸۸
 ۱۸۹
 ۱۹۰
 ۱۹۱
 ۱۹۲
 ۱۹۳
 ۱۹۴
 ۱۹۵
 ۱۹۶
 ۱۹۷
 ۱۹۸
 ۱۹۹
 ۲۰۰
 ۲۰۱
 ۲۰۲
 ۲۰۳
 ۲۰۴
 ۲۰۵
 ۲۰۶
 ۲۰۷
 ۲۰۸
 ۲۰۹
 ۲۱۰
 ۲۱۱
 ۲۱۲
 ۲۱۳
 ۲۱۴
 ۲۱۵
 ۲۱۶
 ۲۱۷
 ۲۱۸
 ۲۱۹
 ۲۲۰
 ۲۲۱
 ۲۲۲
 ۲۲۳
 ۲۲۴
 ۲۲۵
 ۲۲۶
 ۲۲۷
 ۲۲۸
 ۲۲۹
 ۲۳۰
 ۲۳۱
 ۲۳۲
 ۲۳۳
 ۲۳۴
 ۲۳۵
 ۲۳۶
 ۲۳۷
 ۲۳۸
 ۲۳۹
 ۲۴۰
 ۲۴۱
 ۲۴۲
 ۲۴۳
 ۲۴۴
 ۲۴۵
 ۲۴۶
 ۲۴۷
 ۲۴۸
 ۲۴۹
 ۲۵۰
 ۲۵۱
 ۲۵۲
 ۲۵۳
 ۲۵۴
 ۲۵۵
 ۲۵۶
 ۲۵۷
 ۲۵۸
 ۲۵۹
 ۲۶۰
 ۲۶۱
 ۲۶۲
 ۲۶۳
 ۲۶۴
 ۲۶۵
 ۲۶۶
 ۲۶۷
 ۲۶۸
 ۲۶۹
 ۲۷۰
 ۲۷۱
 ۲۷۲
 ۲۷۳
 ۲۷۴
 ۲۷۵
 ۲۷۶
 ۲۷۷
 ۲۷۸
 ۲۷۹
 ۲۸۰
 ۲۸۱
 ۲۸۲
 ۲۸۳
 ۲۸۴
 ۲۸۵
 ۲۸۶
 ۲۸۷
 ۲۸۸
 ۲۸۹
 ۲۹۰
 ۲۹۱
 ۲۹۲
 ۲۹۳
 ۲۹۴
 ۲۹۵
 ۲۹۶
 ۲۹۷
 ۲۹۸
 ۲۹۹
 ۳۰۰
 ۳۰۱
 ۳۰۲
 ۳۰۳
 ۳۰۴
 ۳۰۵
 ۳۰۶
 ۳۰۷
 ۳۰۸
 ۳۰۹
 ۳۱۰
 ۳۱۱
 ۳۱۲
 ۳۱۳
 ۳۱۴
 ۳۱۵
 ۳۱۶
 ۳۱۷
 ۳۱۸
 ۳۱۹
 ۳۲۰
 ۳۲۱
 ۳۲۲
 ۳۲۳
 ۳۲۴
 ۳۲۵
 ۳۲۶
 ۳۲۷
 ۳۲۸
 ۳۲۹
 ۳۳۰
 ۳۳۱
 ۳۳۲
 ۳۳۳
 ۳۳۴
 ۳۳۵
 ۳۳۶
 ۳۳۷
 ۳۳۸
 ۳۳۹
 ۳۴۰
 ۳۴۱
 ۳۴۲
 ۳۴۳
 ۳۴۴
 ۳۴۵
 ۳۴۶
 ۳۴۷
 ۳۴۸
 ۳۴۹
 ۳۵۰
 ۳۵۱
 ۳۵۲
 ۳۵۳
 ۳۵۴
 ۳۵۵
 ۳۵۶
 ۳۵۷
 ۳۵۸
 ۳۵۹
 ۳۶۰
 ۳۶۱
 ۳۶۲
 ۳۶۳
 ۳۶۴
 ۳۶۵
 ۳۶۶
 ۳۶۷
 ۳۶۸
 ۳۶۹
 ۳۷۰
 ۳۷۱
 ۳۷۲
 ۳۷۳
 ۳۷۴
 ۳۷۵
 ۳۷۶
 ۳۷۷
 ۳۷۸
 ۳۷۹
 ۳۸۰
 ۳۸۱
 ۳۸۲
 ۳۸۳
 ۳۸۴
 ۳۸۵
 ۳۸۶
 ۳۸۷
 ۳۸۸
 ۳۸۹
 ۳۹۰
 ۳۹۱
 ۳۹۲
 ۳۹۳
 ۳۹۴
 ۳۹۵
 ۳۹۶
 ۳۹۷
 ۳۹۸
 ۳۹۹
 ۴۰۰
 ۴۰۱
 ۴۰۲
 ۴۰۳
 ۴۰۴
 ۴۰۵
 ۴۰۶
 ۴۰۷
 ۴۰۸
 ۴۰۹
 ۴۱۰
 ۴۱۱
 ۴۱۲
 ۴۱۳
 ۴۱۴
 ۴۱۵
 ۴۱۶
 ۴۱۷
 ۴۱۸
 ۴۱۹
 ۴۲۰
 ۴۲۱
 ۴۲۲
 ۴۲۳
 ۴۲۴
 ۴۲۵
 ۴۲۶
 ۴۲۷
 ۴۲۸
 ۴۲۹
 ۴۳۰
 ۴۳۱
 ۴۳۲
 ۴۳۳
 ۴۳۴
 ۴۳۵
 ۴۳۶
 ۴۳۷
 ۴۳۸
 ۴۳۹
 ۴۴۰
 ۴۴۱
 ۴۴۲
 ۴۴۳
 ۴۴۴
 ۴۴۵
 ۴۴۶
 ۴۴۷
 ۴۴۸
 ۴۴۹
 ۴۵۰
 ۴۵۱
 ۴۵۲
 ۴۵۳
 ۴۵۴
 ۴۵۵
 ۴۵۶
 ۴۵۷
 ۴۵۸
 ۴۵۹
 ۴۶۰
 ۴۶۱
 ۴۶۲
 ۴۶۳
 ۴۶۴
 ۴۶۵
 ۴۶۶
 ۴۶۷
 ۴۶۸
 ۴۶۹
 ۴۷۰
 ۴۷۱

[illegible]

[illegible]

والله اعلم

تذکرہ

[illegible]

هو مستان بن قاسم

صورة الصفحة الأولى من المجلد الثاني نسخة « أ »

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لاه
الحمد لله الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لاه

صورة الصفحة الأولى من المجلد الثالث نسخة « أ »

صورة الصفحة الأخيرة من المجلد الثاني نسخة « ١ »

[illegible]

سورة الصفحة الأخيرة من المجلد الثالث نسخة « أ »

تغییر سورت بالقصر و هم مکیه
(بسم الله الرحمن الرحیم) --

[illegible][illegible]

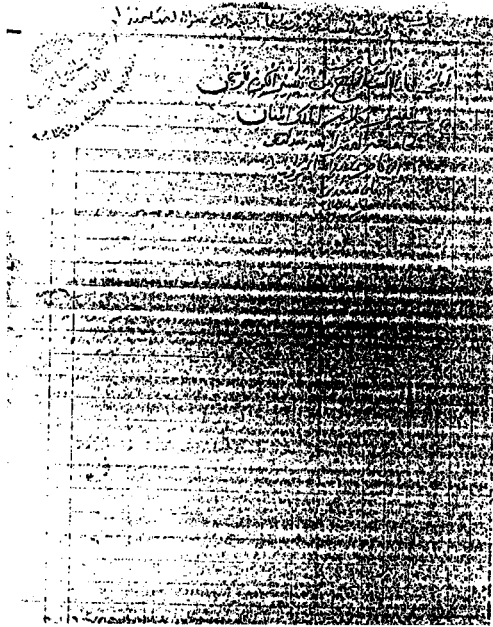
صورة الصفحة الأخيرة من المجلد السادس نسخة « أ »

صورة الصفحة الأولى من المجلد السادس نسخة « أ »

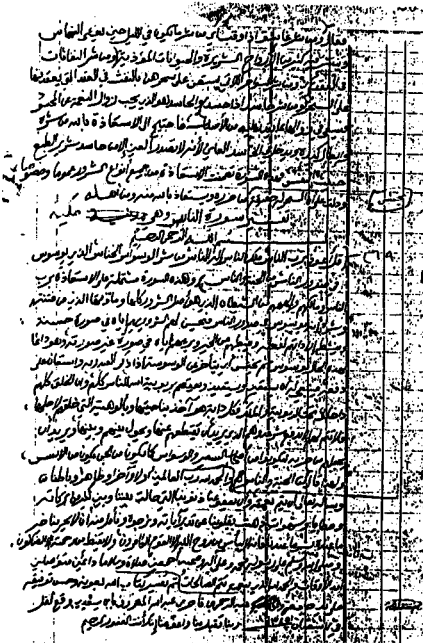
[illegible]

صورة الصفحة الأخيرة من المجلد السابع نسخة « أ »

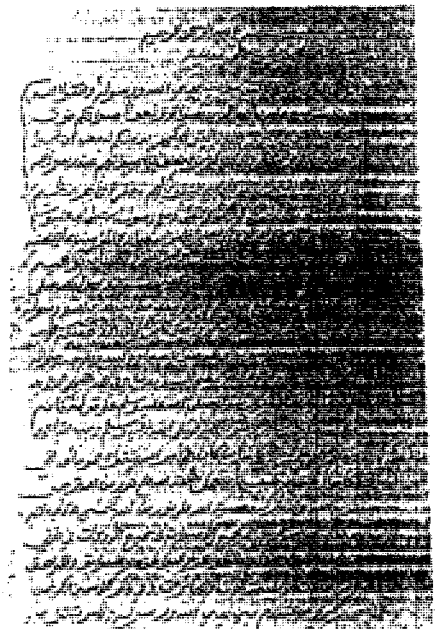
صورة الصفحة الأولى من المجلد السابع نسخة « أ »



صورة الغلاف من المجلد الثامن نسخة «أ»



صورة الصفحة الأخيرة من المجلد الثامن نسخة «أ»



صورة الصفحة الأولى من المجلد الثامن نسخة «أ»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تفسير سورة الاعراف مكية
الحمد لله الرحمن الرحيم

[illegible][illegible]

صورة الصفحة الأخيرة من المجلد الثالث نسخة «ب»

صورة الصفحة الأولى من المجلد الثالث نسخة «ب»

بسم الله الرحمن الرحيم
تفسير سورة يوسف بن يعقوب عليا الصلاة والسلام ومعها مكيده

[illegible][illegible]

صورة الصفحة الأخيرة من المجلد الرابع نسخة «ب»

صورة الصفحة الأولى من المجلد الرابع نسخة «ب»

المجلد الأول من تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن

لمعلقه الفقير إلى الله
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين^(١)

(١) في (ب): «المجلد الأول من «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»(*) من منن الله على عبده وابن عبده وابن أمته: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي».

(*) جاء في الصفحة الأولى من نسخة (ب) فوق العنوان ما نصه: هذه التسمية مأخوذة من قوله: «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر». ومن قوله: «ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً».

تنبيه:

اعلم أن طريقتي في هذا التفسير: أني أذكر عند كل آية ما يحضرني من معانيها، ولا أكتفي بذكر ما تعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضع اللاحقة؛ لأن الله وصف هذا الكتاب أنه «مثنى» تننى فيه الأخبار والقصص والأحكام وجميع المواضيع النافعة لحكم عظيمة، وأمر بتدبره جميعه لما في ذلك من زيادة العلوم والمعارف، وصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح الأمور كلها.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل على عبده الفرقان الفارق بين الحلال والحرام، والسعداء والأشقياء، والحق والباطل، وجعله برحمته هدىً - للناس عموماً، وللمتقين خصوصاً - من ضلال الكفر والمعاصي والجهل، إلى نور الإيمان والتقوى والعلم. وأنزله شفاء للصدور من أمراض الشبهات والشهوات، ويحصل به اليقين والعلم في المطالب العاليات.

وشفاء للأبدان من أمراضها وعللها وآلامها وأسقامها^(١).

وأخبر أنه لا ريب فيه ولا شك بوجه من الوجوه، وذلك لاشتماله على الحق العظيم في أخباره وأوامره ونواهيه.

وأنزله مباركاً فيه الخير الكثير، والعلم الغزير، والأسرار البديعة، والمطالب الرفيعة.

فكل بركة وسعادة تنال في الدنيا والآخرة، فسيبها الاهتداء به واتباعه.

وأخبر أنه مصدق ومهيمن على الكتب السابقة، فما شهد له فهو الحق، وما رده فهو المردود؛ لأنه تضمنها وزاد عليها، وقال تعالى فيه: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾، فهو هادٍ لدار السلام، مبين لطريق الوصول إليها وحات عليها، كاشف عن الطريق الموصلة إلى دار الآلام ومحذر عنها.

وقال تعالى مخبراً عنه: ﴿كَتَابٌ أَحْكَمْتَ آيَاتِهِ ثُمَّ فَضَّلْتَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾؛ فبين آياته أكمل تبين، وأتقنها أي إتقان، وفصلها بتمييز^(٢) الحق من الباطل، والرشد من الضلال، تفصيلاً كاشفاً للبس، لكونه صادراً من حكيم خبير، فلا يخبر إلا بالصدق والحق واليقين، ولا يأمر إلا بالعدل والإحسان والبر، ولا ينهى إلا عن المضار الدينية والدنيوية.

وأقسم تعالى بالقرآن ووصفه بأنه «مجيد»؛ والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها، وذلك لسعة معاني القرآن وعظمتها. ووصفه بأنه «ذو الذكر»؛ أي: يتذكر به العلوم

(١) في (ب): «سقمها».

(٢) في (ب): «بتبيين».

الإلهية والأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة، ويتعظ به من يخشى. وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وأنزله^(١) بهذا اللسان لنعقله ونفهمه، وأمرنا بتدبره، والتفكر فيه، والاستنباط لعلومه، وما ذاك إلا لأن تدبره مفتاح كل خير، محصل للعلوم والأسرار.

فلله الحمد والشكر والثناء، الذي جعل كتابه هدىً وشفاءً ورحمةً، ونوراً وتبصرةً وتذكرةً وعبرةً، وبركةً وهدىً وبشرى للمسلمين.

فإذا عَلِمَ هذا؛ علم افتقار كل مكلف لمعرفة معانيه والاهتداء بها، وكان حقيقاً بالعبد أن يبذل جهده ويستفرغ وسعه في تعلمه وتفهمه بأقرب الطرق الموصلة إلى ذلك.

وقد كثرت تفاسير الأئمة - رحمهم الله - لكتاب الله؛ فمن مطول خارج في أكثر بحوثه عن المقصود، ومن مقتصر يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية بقطع النظر عن المراد.

وكان الذي ينبغي في ذلك أن يجعل المعنى هو المقصود، واللفظ وسيلة إليه، فينظر في سياق الكلام وما سيق لأجله، ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر، ويعرف أنه سيق لهداية الخلق كلهم عالمهم وجاهلهم، حضريهم وبدويهم.

فالنظر لسياق الآيات، مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله، من أعظم ما يعين على معرفته وفهم المراد منه، خصوصاً إذا انضم إلى ذلك معرفة علوم العربية على اختلاف أنواعها.

فمن وُفِّق لذلك لم يبق عليه إلا الإقبال على تدبره وتفهمه، وكثرة التفكير في ألفاظه ومعانيه ولوازمها، وما تتضمنه، وما تدل عليه منطوقاً ومفهوماً.

فإذا بذل وسعه في ذلك فالربُّ أكرم من عبده؛ فلا بد أن يفتح عليه من علومه أموراً لا تدخل تحت كسبه.

ولمَّا منَّ الباري عليَّ وعلى إخواني بالاشتغال بكتابه العزيز بحسب الحال اللائقة بنا، أحببت أن أرسم من تفسير كتاب الله ما تيسر وما منَّ به الله علينا؛ ليكون تذكرة للمحصلين، وآلة للمستبصرين، ومعوذة للسالكين، ولأقيدة خوف الضياع.

(١) في (ب): «فأنزله».

ولم يكن قصدي في ذلك إلا أن يكون المعنى هو المقصود، ولم أشتغل في حل الألفاظ والعقود للمعنى الذي ذكرت.

ولأن المفسرين قد كفوا من بعدهم، فجزاهم الله عن المسلمين خيراً، والله أرجو وعليه أعتد أن ييسر ما قصدت، ويذل ما أردت، فإنه إن لم ييسره الله؛ فلا سبيل إلى حصوله، وإن لم يعن عليه؛ فلا طريق إلى نيل العبد مأموله.

وأسأله - تعالى - أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به النفع العميم، إنه جواد كريم.

اللهم صل على محمد [وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً].



فوائد مهمة

تتعلق بتفسير القرآن من «بدائع الفوائد»

لابن القيم رحمه الله - تعالى (١) -

قال: فصل النكرة في سياق النفي تعم، مستفاد من قوله تعالى: ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾، ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾، وفي الاستفهام من قوله تعالى: ﴿هل تعلم له سمياً﴾، وفي الشرط من قوله: ﴿فإما ترين من البشر أحداً﴾، ﴿وإن أحد من المشركين استجارك﴾.

وفي النهي من قوله تعالى: ﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾.

وفي سياق الإثبات بعموم العلة والمقتضى، كقوله: ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾، وإذا أضيف إليها «كل» نحو ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾، ومن عمومها بعموم المقتضي: ﴿ونفس وما سواها﴾.

فصل ويستفاد عموم المفرد المحلى باللام من قوله: ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾، وقوله: ﴿ويقول الكافر﴾، وعموم المفرد المضاف من قوله: ﴿وصدقت بكلمات ربها وكتبه﴾، ﴿وكتابه﴾ قرأ أهل البصرة وحفص: ﴿وكتبه﴾ على الجمع، وقرأ الآخرون: ﴿وكتابه﴾ على التوحيد، وقوله: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾، والمراد جميع الكتب التي أحصيت فيها أعمالهم.

وعموم الجمع المحلى باللام من قوله: ﴿وإذا الرسل أقتت﴾ وقوله: ﴿وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم﴾، وقوله تعالى: ﴿إن المسلمين والمسلمات...﴾ إلى آخرها، والمضاف من قوله: ﴿كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾.

وعموم أدوات الشرط من قوله تعالى: ﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾، وقوله: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾، وقوله: ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾، وقوله: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت﴾،

(١) في (ب): وضع الشيخ هذه المقدمة بعد سورة الفاتحة. وقال في هامش (ب) ما نصه: «حق هذه المقدمة أن تقدّم على الفاتحة».

وقوله: ﴿وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾، وقوله: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم﴾، وقوله: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾، هذا إذا كان الجواب طلباً مثل هاتين الآيتين، فإن كان خبراً ماضياً لم يلزم العموم؛ كقوله: ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها﴾، ﴿وإذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله﴾، وإن كان مستقبلاً فالتزموا رد العموم^(١) موارد للعموم؛ كقوله تعالى: ﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾، وقوله: ﴿وإذا مروا بهم يتغامزون﴾، وقوله: ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون﴾، وقد لا يعم، كقوله تعالى: ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم﴾.

فصل ويستفاد كون الأمر المطلق للوجوب من دمه لمن خالفه، وتسميته إياه عاصياً، وترتيبه عليه العقاب العاجل أو الآجل.

ويستفاد كون النهي للتحريم من دمه لمن ارتكبه، وتسميته عاصياً، وترتيبه العقاب على فعله.

ويستفاد الوجوب بالأمر تارة، وبالتصريح بالإيجاب والفرض والكتب، ولفظة على، ولفظة حق على العباد وعلى المؤمنين.

ويستفاد التحريم من النهي، والتصريح بالتحريم والحظر، والوعيد على الفعل، وذم الفاعل، وإيجاب الكفارة بالفعل، وقوله: «لا ينبغي»: فإنها في لغة القرآن والرسول للمنع عقلاً وشرعاً، ولفظة «ما كان لهم كذا وكذا» «ولم يكن لهم»، وترتيب الحد على الفعل، ولفظة «لا يحل» و«لا يصلح»، ووصف الفعل بأنه فساد، وأنه من تزيين الشيطان وعمله، وأن الله تعالى لا يحبه ولا يرضاه لعباده، ولا يزكي فاعله، ولا يكلمه، ولا ينظر إليه، ونحو ذلك.

وتستفاد^(٢) الإباحة من الإذن والتخيير، والأمر بعد الحظر، ونفي الجناح والحرج والإثم والمؤاخذه، والإخبار بأنه يعفو عنه، والإقرار على فعله في زمن الوحي، وبالإلزام على من حرم الشيء، والإخبار بأنه خلق لنا كذا وجعله لنا، وامتنانه علينا به وإخباره عن فعل من قبلنا غير ذام لهم عليه، فإن اقترن بإخباره مدح دل على رجحانه استحباباً أو وجوباً.

(١) كذا في النسختين. وفي «بدائع الفوائد» المطبوع: «فأكثر موارد للعموم».

(٢) في (ب): «ويستفاد».

فصل وكل فعل عظمه الله ورسوله أو مدحه أو مدح فاعله لأجله، أو فرح به، أو أحبه، أو أحب فاعله، أو رضي به، أو رضي عن فاعله، أو وصفه بالطيب، أو البركة، أو الحسن، أو نصبه سبباً لمحبه أو ثوابه عاجلاً أو آجلاً^(١)، أو نصبه سبباً لذكره لعبده، أو لشكره له، أو لهدايته إياه، أو لإرضاء فاعله، أو وصف فاعله بالطيب، أو وصف الفعل بأنه معروف، أو نفى الحزن والخوف عن فاعليه^(٢)، أو وعده بالأمن، أو نصبه سبباً لولايته، أو أخبر عن دعاء الرسل بحصوله، أو وصفه بكونه قربة، أو أقسم به أو بفاعله كالقسم بخيل المجاهدين وإثارتها^(٣)، أو ضحك الرب جل جلاله عن فاعله، أو عجبه به؛ فهو دليل على مشروعيته المشتركة بين الوجوب والندب.

فصل وكل فعل طلب الشارع تركه أو ذم فاعله، أو عيب عليه أو مقت فاعله أو لعنه، أو نفى محبه إياه أو محبة فاعله أو نفى الرضا به أو الرضا عن فاعله، أو شبه فاعله بالبهايم أو الشياطين أو جعله مانعاً من الهدى أو وصفه بسوء أو كراهة أو استعاذ الأنبياء منه أو أبغضوه، أو جعل سبباً لنفي الفلاح أو لعذاب عاجل أو آجل أو لدم أو لوم أو ضلالة أو معصية، أو وصفه بالخبت^(٤) أو رجس أو نجس، أو بكونه فسقاً أو إثماً أو سبباً لإثم أو رجس أو لعن أو غضب أو زوال نعمة أو حلول نقمة أو حد من الحدود أو قسوة أو خزي أو ارتهان نفس، أو لعداوة الله ومحاربه أو الاستهزاء به وسخريته، أو جعله سبباً لنسيانه لفاعله، أو وصف نفسه بالصبر عليه أو الحلم عنه أو الصفح، أو دعا إلى التوبة منه، أو وصف فاعله بخبت أو احتقار، أو نسبه إلى الشيطان وتزيينه أو تولي الشيطان لفاعله، أو وصفه بصفة ذم مثل كونه ظلماً أو بغياً أو عدواناً أو إثماً، أو تبرأ الأنبياء منه أو من فاعله، أو شكوا إلى الله من فاعله، أو جاهرُوا فاعله بالعداوة، أو نصب سبباً لخيبة فاعله عاجلاً، أو آجلاً، أو رتب عليه حرمان الجنة، أو وصف فاعله بأنه عدو لله أو الله عدوه، أو أعلم فاعله بحرب من الله ورسوله، أو حمل فاعله إثم غيره، أو قيل فيه لا ينبغي هذا أو لا يصلح، أو أمر بالتقوى عند السؤال عنه، أو أمر بفعل يضاده، أو هجر فاعله، أو تلاعن فاعلوه في الآخرة، أو تبرأ بعضهم من بعض، أو وصف

(١) في (ب): «أو لثواب عاجل أو آجل». (٢) في (ب): «فاعله».

(٣) في (ب): «وإثارتها».

(٤) كذا في (أ). وفي «بدائع الفوائد» المطبوع: «بخبت» وكذا في (ب).

فاعله بالضلالة، أو أنه ليس من الله في شيء، أو أنه ليس من الرسول وأصحابه، أو قرن بمحرم ظاهر التحريم في الحكم والخبر عنه^(١) بخبر واحد، أو جعل اجتنابه سبباً للفلاح، أو جعل سبباً لإيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين، أو قيل لفاعله هل أنت منتبه، أو نهى الأنبياء عن الدعاء لفاعله، أو رتب عليه إبعاد أو طرد أو لفظة قتل من فعله، أو قاتل الله من فعله، أو أخبر أن فاعله لا يكلمه الله يوم القيامة ولا ينظر إليه ولا يزيكه، أو أن الله لا يصلح عمله ولا يهدي كيده، أو أن فاعله لا يفلح ولا يكون يوم القيامة من الشهداء ولا من الشفعاء، أو أن الله يغار من فعله أو نبه على وجه المفسدة فيه، أو أخبر أنه لا يقبل من فاعله صرفاً ولا عدلاً، أو أخبر أن من فعله قيص له الشيطان فهو له قرين، أو جعل الفعل سبباً لإزاعة [الله] قلب فاعله أو صرفه عن آياته وفهم آلائه^(٢)، أو سؤال الله سبحانه عن علة الفعل لم فعل؟ نحو: ﴿لم تصدون عن سبيل الله من آمن﴾، ﴿لم تلبسون الحق بالباطل﴾، ﴿ما منعك أن تسجد﴾، ﴿لم تقولون مالا تفعلون﴾؛ ما لم يقترن به جواب من السؤال^(٣)؛ فإذا قرن به جواب كان بحسب جوابه، فهذا ونحوه يدل على المنع من الفعل، ودلالته على التحريم أطرده من دلالاته على مجرد الكراهة.

وأما لفظة يكرهه الله ورسوله أو مكروهه، فأكثر ما يستعمل في المحرم، وقد يستعمل في كراهة التنزيه.

وأما لفظة: وأما أنا فلا أفعل، فالمحقق منه الكراهة؛ كقوله ﷺ: «أما أنا فلا أكل متكاً»^(٤).

وأما لفظة: ما يكون لك، وما يكون لنا، فأطرده استعمالها في المحرم نحو ﴿ما يكون لك أن تتكبر فيها﴾، ﴿ما يكون لنا أن نعود فيها﴾، ﴿ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾.

فصل وتستفاد الإباحة من لفظ الإحلال، ورفع الجناح والإذن والعفو وإن شئت فافعل وإن شئت فلا تفعل، ومن الامتنان بما في الأعيان من المنافع وما يتعلق بها

(١) كذا في (أ). وفي «بدائع الفوائد» المطبوع: «عنهما» وكذا في (ب).

(٢) كذا في النسختين. وفي «بدائع الفوائد» المطبوع: «كلامه».

(٣) كذا في (أ). وفي «بدائع الفوائد» المطبوع: «المسؤول» وكذا في (ب).

(٤) أخرجه البخاري (٥٣٩٨) عن أبي جحفة رضي الله عنه.

من الأفعال، نحو: ﴿ومن أوصافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين﴾ ونحو: ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾، ومن السكوت عن التحريم، ومن الإقرار على الفعل في زمن الوحي.

فائدة التعجب كما يدل على محبة الله تعالى للفعل، نحو «عجب ربك من شاب ليست له صبرة»^(١) ونحوه قد يدل على بغض الفعل؛ كقوله: ﴿وإن تعجب فعجب قولهم﴾، وقوله: ﴿بل عجبت ويسخرون﴾، وقوله: ﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾، وقد يدل على امتناع الحكم وعدم حسنه؛ كقوله: ﴿كيف يكون للمشركين عهد عند الله﴾، ويدل على حسن المنع منه قدراً وأنه لا يليق به فعله؛ كقوله تعالى: ﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم﴾.

فائدة نفي التساوي في كتاب الله قد يأتي بين الفعلين؛ كقوله - تعالى -: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر﴾ الآية، وقد يأتي بين الفاعلين؛ كقوله: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله﴾، وقد يأتي بين الجزاءين؛ كقوله: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾، وقد جمع الله بين الثلاثة في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور...﴾ الآية.

فائدة في ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور: التذكير والوعظ، والحث والزجر، والاعتبار والتقرير وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس، وتأتي أمثال القرآن مشتملة على: بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر.

فائدة السياق يرشد إلى بيان المجمل وتعيين المحتمل والقطع بعدم^(٢) احتمال غير المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله: ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾، كيف تجد سياقه يدل على أنه الدليل الحقيق.

(١) أخرجه أحمد (١٥١/٤)، وأبو يعلى (١٧٤٩). وقال الهيثمي (٢٧٠/١٠): «رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني، وإسناده حسن».

(٢) في (ب): «بعد».

فائدة إخبار الرب عن المحسوس الواقع له عدة فوائد:

منها: أن يكون توطئة وتقدمة لإبطال ما بعده.

ومنها: أن يكون موعظة وتذكرة.

ومنها: أن يكون شاهداً على ما أخبر به من توحيده وصدق رسوله وإحياء

الموتى.

ومنها: أن يذكر في معرض الامتنان.

ومنها: أن يذكر في معرض اللوم والتوبيخ.

ومنها: أن يذكر في معرض المدح والذم.

ومنها: أن يذكر في معرض الإخبار عن اطلاع الرب عليه. وغير ذلك من

الفوائد^(١).

انتهى كلامه رحمه الله، وهو في غاية النفاضة والاشتمال على كثير من القواعد والضوابط المتعلقة بتفسير القرآن؛ فجزاه الله خيراً.

قلت: وقد اشتمل القرآن على عدة علوم قد ثبتت فيه وأعيدت:

فمنها: ضرب الأمثال، وقد ذكر ابن القيم فيما تقدم فوائدها.

ومنها: ذكر صفات أهل السعادة والشقاوة، وفي ذلك فوائد عديدة:

منها: أن الأوصاف التي يوصف بها أهل الخير تدل على محبة الله ورضاه،

وأنها محمودة.

والصفات التي يوصف بها أهل الشر تدل على بغض الله لها وأنها مذمومة.

ومنها: ما يكرم الله به أوليائه من الثناء الحسن بين عباده فهو ثواب معجل،

ويهيئ به أعداءه من الأوصاف القبيحة فيكون عقاباً معجلاً.

ومنها: أن فيه حثاً للنفوس على الاقتداء بأهل الخير ومنافستهم، وتنشيط العمال

على الأعمال ببيان من عملها من أولياء الله، وفيه التهيب عن أفعال أهل الشر

وتبغيض المعاصي التي أثرت مع عامليها ما أثرت.

ومنها: الاعتبار بصفات أهل الخير والشر، وأن من فعل مثل فعلهم؛ ناله ما نالهم.

(١) انظر «بدائع الفوائد» (٤/٢-١٠) بتصرف من الشيخ رحمه الله.

وقد حث تعالى على الاعتبار في غير موضع من كتابه، وحقيقته: العبور من شيء إلى شيء وقياس الشيء على نظيره.

ومنها: أن العبد إذا نظر^(١) إلى أعمال أهل الخير وعجزه عن القيام بها أوجب له ذلك الإزراء على نفسه واحتقارها، وهذا هو عين صلاحه، كما أن رؤيته نفسه بعين الإعجاب والتكبر هو عين فساده، إلى غير ذلك من الفوائد.

ومنها: ذكر صفات الله وأسمائه وأفعاله وتقديسه عن النقائص، وفي ذلك فوائد عظيمة:

منها: أن هذا العلم - وهو العلم المتعلق بالله تعالى - أشرف العلوم وأجلها على الإطلاق، فلاشتغال بفهمه والبحث التام عنه اشتغال بأعلى المطالب، وحصوله للعبد من أشرف المواهب.

ومنها: أن معرفة الله تعالى تدعو إلى محبته وخشيته وخوفه ورجائه وإخلاص العمل له، وهذا عين سعادة العبد، ولا سبيل إلى معرفة الله إلا بمعرفة أسمائه وصفاته والتفقه في فهم معانيها، وقد اشتمل القرآن من ذلك على ما لم يشتمل عليه غيره من تفاصيل ذلك وتوضيحها والتعرف بها إلى عبادته وتعريفهم لنفسه كي يعرفوه.

ومنها: أن الله خلق الخلق ليعرفوه ويعبدوه وهذا^(٢) هو الغاية المطلوبة منهم. فلاشتغال بذلك اشتغال بما خلق له العبد وتركه وتضييعه إهمال لما خلق له، وَقَبِيحٌ بعد لم تزل نعم الله عليه متواترة وفضله عليه عظيم من كل وجه أن يكون جاهلاً بربه معرضاً عن معرفته.

ومنها: أن أحد أركان الإيمان بل أفضلها وأصلها الإيمان بالله، وليس الإيمان مجرد قوله: «آمنت بالله» من غير معرفة بربه، بل حقيقة الإيمان: أن يعرف الرب الذي يؤمن به ويبذل جهده في معرفة أسمائه وصفاته حتى يبلغ درجة اليقين. وبحسب معرفته بربه، يكون إيمانه، فكلما ازداد معرفة بربه؛ ازداد إيمانه وكلما نقص؛ نقص. وأقرب طريق يوصله إلى ذلك تدبر صفاته وأسمائه من القرآن، والطريق في ذلك إذا مر به اسم من أسماء الله أن يثبت^(٣) له ذلك المعنى وكماله

(٢) في (ب): «فهذا».

(١) في (ب): «رأى».

(٣) في (ب): «أثبت».

وعومومه وينزهه^(١) عما يضاد ذلك .

ومنها: أن العلم به تعالى أصل الأشياء كلها، حتى أن العارف به حقيقة المعرفة يستدل بما عرف من صفاته وأفعاله على ما يفعله وعلى ما يشرعه من الأحكام؛ لأنه لا يفعل إلا ما هو مقتضى أسمائه وصفاته، فأفعاله دائرة بين العدل والفضل^(٢) والحكمة .

وكذلك لا يشرع ما يشرعه من الأحكام إلا على حسب ما اقتضاه حمده وحكمته وفضله وعدله، فأخباره كلها حق وصدق، وأوامره ونواهيه عدل وحكمة، وهذا العلم أعظم وأشهر من أن ينبه عليه لوضوحه .

وكيف يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل
ومنها: ذكر الأنبياء والمرسلين وما أرسلوا به وما جرى لهم مع أمهم، وفي ذلك عدة فوائد :

منها: أن من تمام الإيمان بهم معرفتهم بصفاتهم وسيرهم وأحوالهم، وكلما كان المؤمن بذلك أعرف كان أعظم إيماناً بهم ومحبة لهم وتعظيماً لهم وتعزيراً وتوقيراً .

ومنها: أن من بعض حقوقهم علينا - خصوصاً النبي محمد ﷺ - معرفتهم ومحبتهم محبة صادقة، ولا سبيل لذلك إلا بمعرفة أحوالهم .

ومنها: أن معرفة الأنبياء موجبة لشكر الله تعالى على ما من به على المؤمنين، إذ بعث فيهم رسلاً منهم، يزيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة بعد أن كانوا في ضلال مبين .

ومنها: أن الرسل هم المربون للمؤمنين الذين ما نال المؤمنون^(٣) مثقال ذرة من الخير ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر إلا على أيديهم وبسببهم، فقبيح بالمؤمن أن يجهل حالة مربيه ومزكيه ومعلمه، وإذا كان من المستنكر جهل الإنسان بحال أبويه ومباعدته لذلك فكيف بحالة الرسول الذي هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو أبوهم الحقيقي الذي حقه مقدم على سائر الحقوق بعد حق الله تعالى .

ومنها: أن في معرفة ما جرى لهم وما جرى عليهم تحصل للمؤمنين^(٤) الأسوة

(٢) في (ب): «الفضل والعدل» .

(٤) في (ب): «للمؤمن» .

(١) في (ب): «نزهه» .

(٣) في (ب): «المؤمن» .

والقدوة، وتخف عنهم كثير من المقلقات والمزعجات؛ لأنها مهما بلغت من الثقل والشدة فلا تصل إلى بعض ما جرى على الأنبياء، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، ومن أعظم الاقتداء بهم الاقتداء بتعليماتهم، وكيفية إلقاء العلم على حسب مراتب الخلق، والصبر على التعليم، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن. وبهذا وأمثاله كان العلماء ورثة الأنبياء.

ومن فوائد معرفة الرسول ﷺ معرفة الآيات القرآنية المنزلة عليه، وفهم المعنى والمراد منها موقوف على معرفة أحوال الرسول، وسيرته مع قومه، وأصحابه وغيرهم من الناس، فإن الأزمنة والأمكنة والأشخاص تختلف اختلافاً كثيراً؛ فلو أراد الإنسان أن يصرف همه لمعرفة معاني القرآن من دون معرفة منه لذلك؛ لحصل من الغلط على الله وعلى رسوله وعلى مراد الله من كلامه شيء كثير، وهذا إنما يعرفه من عرف كيف كثر حمل مراد الله ورسوله على العرف الحادث فوق الخلل الكثير^(١).

~~والخبر~~ ذلك من الفوائد المفيدة والنتائج السديدة.

ومن علوم القرآن: الأمر والنهي الموجه لهذه الأمة وغيرها، وهذا هو المقصود منهم، وفي معرفة ذلك عدة فوائد:

منها: أن الله تعالى حث على معرفة حدود ما أنزل على رسوله، وذم من لم يعرف ذلك؛ ومن أعظم ما يجب معرفة حدوده: الأوامر والنواهي التي كلفنا بها، والزمنا بالقيام بها وتعلمها وتعليمها، ولا سبيل إلى امتثالها أو اجتنابها إلا بمعرفتها، ليتأتى فعلها أو تركها، وذلك أن المكلف إذا أمر بأمرٍ وجب عليه أولاً معرفة ما هو الذي أمر به، وما يدخل به وما لا يدخل، فإذا عرف ذلك استعان بالله واجتهد في امتثاله بحسب القدرة والإمكان، وكذلك إذا نهي عن أمر من الأمور وجب عليه معرفة ذلك المنهي وحقيقته، ثم يبذل جهده مستعيناً بربه على تركه امتثالاً لأمر الله واجتناباً لنهييه، وامتثال الأمر واجتناب النهي كل منهما واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فعرفت أن العلم بها قبل العمل، ومتقدم عليه.

(١) في (ب): «وهذا إنما يعرفه من عرف ما في أكثر التفاسير من الأغلاط القبيحة التي ينزه عنها كلام الله». وفي (أ) شطب الشيخ هذه العبارة من قوله: «ما في... إلخ» وأثبت ما هو أعلاه.

ومنها: أن الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يمكن حصولها وتحصيلها إلا بعد معرفة الخير ليدعو له، ومعرفة المعروف ليأمر به ومعرفة المنكر لينهى عنه، والقرآن مشتمل على ذلك أعظم اشتمال، ومتضمن له أكمل تضمن.

ومن علوم القرآن: أحوال اليوم الآخر، وهو ما يكون بعد الموت مما أخبر به الله في كتابه أو أخبر به رسوله من أحوال الموت والقبر والموقف والجنة والنار، وفي العلم بذلك فوائد كثيرة:

منها: أن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان الستة التي لا يصح الإيمان بدونها، وكلما ازدادت معرفته بتفاصيله ازداد إيمان العبد به^(١).

ومنها: أن معرفة ذلك^(٢) حقيقة المعرفة؛ يفتح للإنسان باب الخوف والرجاء اللذين إن خلا القلب منهما؛ خرب كل الخراب، وإن عمر بهما؛ أوجب له الخوف الانكفاف عن المعاصي، والرجاء تيسير الطاعة وتسهيلها، ولا يتم ذلك إلا بمعرفة تفاصيل الأمور التي يخاف منها وتحذر: كأحوال القبر وشدته، وأحوال الموقف الهائلة، وصفات النار المفظعة، وبمعرفة تفاصيل الجنة وما فيها من النعيم المقيم والحبرة والسرور، ونعيم القلب والروح والبدن؛ فيحدث بسبب ذلك الاشتياق الداعي للاجتهاد في السعي للمحسوب المطلوب بكل ما يقدر عليه.

ومنها: أنه يعرف بذلك فضل الله وعدله في المجازاة على الأعمال الصالحة والسيئة الموجب لكمال حمده والثناء عليه بما هو أهله، وعلى قدر علم العبد بتفاصيل الثواب والعقاب يعرف بذلك فضل الله وعدله وحكمته.

ومن علوم القرآن: مجادلة الميطلين، ودفع شبه الظالمين، وإقامة البراهين العقلية الموافقة للأدلة النقلية، وهذا الفن من علوم القرآن من خواص العلماء الربانيين والجهابذة الراسخين والعقلاء المستبصرين.

وقد اشتمل القرآن من الأدلة العقلية والقواطع البرهانية ما لو جمع ما عند جميع المتكلمين من حق لكان بالنسبة إليه كنقرة عصفور بالنسبة لماء البحر. ذلك بأن القرآن هو الحق.

وقد اشتمل على الحق والصدق والعدل والميزان العادل والقسط والصلاح

(٢) في (ب): «ومنها أن العلم بذلك».

(١) في (ب): «ازداد إيمانه».

والفلاح، فإن ذَكَرَ التوحيد والشرك، وأمر بالأول ونهى عن الثاني أقام من البراهين القاطعة على صحة التوحيد وحسنه وتعيينه طريقاً للنجاة، وقبح الشرك وبطلانه وكونه هو الطريق للهلاك؛ ما يجعل ذلك للبصيرة كالشمس في نحر الظهيرة.

وإن أمر بالأوامر الشرعية وحث على الآداب ومكارم الأخلاق رأيته ينبه العقول النيرة على ما اشتملت عليه من المصالح الضرورية، التي^(١) يحتاجونها في معاشهم ومعادهم ما يجزم بأنه^(٢) لا أحسن منها، وأن حكمته تقتضي الأمر بها أشد اقتضاء.

وإن نهى عن المحارم والقبايح والخبائث أخبر بما في ضمنها من الفساد والضرر والشر الحاصل بتناولها، وأن نعمة الله عليهم بتحريمها عليهم وتنزيههم عنها وتكريمهم وتعلية أقدارهم عن التلبس بها فوق كل نعمة، فالمأمورات مشتملة^(٣) على الصلاح، والمحرمات مشتملة^(٣) على المفساد.

وإن شرع في الحجاج للمبطلين وتزييف شبه المشبهين وبطلان مذاهب الضالين، فقل ما شئت من إحقاق حق، ودمغ باطل، وإرشاد ضال، وإقامة الحجة على المعاند، وبيان أن الباطل لا يقوم لأقل شيء من الحق، بل هو على اسمه باطل لا حقيقة له، إن هي إلا أسماء يسمون بها الباطل، إذا جردت تبينت هباء منثوراً، ورأيته يسوق البراهين العقلية بأوضح عبارة وأجزها وأسلمها من الاعتراض والنقض والخفاء؛ فيجمع بين الدليل العقلي والنقلي في كلمة واحدة إيجازاً غير مخل بالمطلوب، وتارة يفصل ذلك ويسرد من البراهين ما يكفي بعضه بالبيان. فله الحمد والشكر.

فهذه مقدمة نافعة - إن شاء الله - ينبغي استقراؤها في كل مواردنا، والتنبيه لكل ما يرد من هذه المطالب على وجه التفصيل، فمن استعملها في كل ما يرد عليه من الآيات؛ انتفع بها نفعاً عظيماً، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.



(٢) في (ب): «به أنه».

(١) في (ب): «والتي».

(٣) في (ب): «مشمولات».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أصول وكمليات^(١)

من أصول التفسير وكملياته - لا يستغني عنها المفسر للقرآن

النكرة في سياق النفي، أو سياق النهي، أو الاستفهام، أو سياق الشرط، تعم، وكذلك المفرد المضاف يعم. وأمثلة ذلك كثيرة: فمتى وجدت نكرة واقعة بعد المذكورات أو وجدت مفرداً مضافاً إلى معرفة، فأثبت جميع ما دخل في ذلك اللفظ، ولا تعتبر سبب النزول وحده، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وينبغي أن تنزل جميع الحوادث والأفعال الواقعة، والتي لا تزال تحدث على العمومات القرآنية؛ فبذلك تعرف أن القرآن تبيان لكل شيء، وأنه لا يحدث حادث ولا يستجد أمر من الأمور إلا وفي القرآن بيانه وتوضيحه.

ومن أصوله: أن الألف واللام الداخلة على الأوصاف، وعلى أسماء الأجناس، تفيد استغراق جميع ما دخلت عليه من المعاني.

ومن كمليات القرآن: أنه يدعو إلى توحيد الله ومعرفته، بذكر أسماء الله وأوصافه وأفعاله الدالة على تفرد بالوحدانية وأوصاف الكمال، وإلى أنه الحق، وعبادته هي الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل. ويبين نقص كل ما عبد من دون الله من جميع الوجوه.

ويدعو إلى صحة ما جاء به الرسول محمد ﷺ وصدقه ببيان أحكامه، وتمامه وصدق إخباراته كلها، وحسن أحكامه، ويبين ما كان عليه الرسول ﷺ من الكمال البشري الذي لا يلحقه فيه أحد من الأولين والآخرين، ويتحداهم بأن يأتوا بمثل ما جاء به إن كانوا صادقين، ويقرر ذلك بشهادته تعالى بقوله وفعله وإقراره إياه، وتصديقه له بالحجة والبرهان وبالنصر والظهور وبشهادة أهل العلم المنصفين، ويقابل بين ما جاء به من الحق في أخباره وأحكامه وبين ما كان عليه أعداؤه

(١) قدمت هذه الأصول والكمليات وجعلتها في أول الكتاب، وكان الشيخ - رحمه الله - قد ألحقها في نهاية الجزء الخامس، عندما وقع اختيار الشيخ - رحمه الله - على أن يطبع هذا الجزء من أجزاء هذا التفسير مفرداً. وهذه الأصول والكمليات موجودة في نسخة (أ) فقط.

والمكذبون به من الكذب في أخبارهم والباطل في أحكامهم، كما يقرر ذلك بالمعجزات المتنوعة.

ويقرر الله المعاد بذكر كمال قدرته، وخلقه للسموات والأرض اللتين هما أكبر من خلق الناس، وبأن الذي بدأ الخلق قادر على إعادته من باب أولى، وبأن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى.

ويذكر أيضاً أيامه في الأمم ووقوع المثالات التي شاهدها الناس في الدنيا وأنها نموذج من جزاء الآخرة.

ويدعو جميع المبطلين، من الكفار والمشركين، والملحدين بذكر محاسن الدين، وأنه يهدي للتي هي أقوم في عقائده وأخلاقه وأعماله، وبيان ما لله من العظمة والربوبية والنعم العظيمة، وأن من تفرد بالكمال المطلق والنعم كلها هو الذي لا تصلح العبادة إلا له، وأن ما عليه المبطلون إذا مُيزَ وحُقِّقَ وَجِدَ شَرًّا وباطلاً، وعواقبه وخيمة.

ومن أصول التفسير: إذا فهمت ما دلت عليه الآيات الكريمة من المعاني مطابقة وتضمناً؛ فاعلم أن لوازم هذه المعاني وما لا تتم إلا به؛ وشروطها وتوابعها تابعة لذلك المعنى، فما لا يتم الخبر إلا به فهو تابع للخبر، وما لا يتم الحكم إلا به؛ فهو تابع للحكم.

وإن الآيات التي يفهم منها التعارض والتناقض ليس فيها تناقض ولا تعارض، بل يجب حمل كل منها على الحالة المناسبة لللائقة بها، وأن حذف المتعلقات من مفعولات وغيرها يدل على تعميم المعنى؛ لأن هذا من أعظم فوائد الحذف، وأنه لا يجوز حذف ما لا يدل عليه السياق اللفظي أو القرينة الحالية.

كما أن الأحكام المقيدة بشروط أو صفات تدل على أن تلك القيود لا بد منها في ثبوت الحكم.

إذا أمر الله بشيء كان ناهياً عن ضده، وإذا نهى عن شيء كان أمراً بضده، وإذا أثنى على نفسه بنفي شيء من النقائص كان إثباتاً للكمال المنافي لذلك النقص، وكذلك إذا أثنى على رسله وأوليائه ونزههم عن شيء من النقائص فهو مدح لهم بما يضاد ذلك النقص، ومثله نفي النقائص عن دار النعيم يدل على إثبات ضد ذلك.

ومن الكمليات: أنه إذا وضح الحق وظهر ظهوراً جلياً لم يبق للمجادلات العلمية والمعارضات العملية محل، بل تبطل المعارضات وتضمحل المجادلات.

ما نفاه القرآن؛ فإمّا أن يكون غير موجود، أو كان موجوداً، ولكنه غير مفيد ولا نافع.

الموهوم لا يدفع المعلوم، والمجهول لا يعارض المحقق؛ وما بعد الحق إلا الضلال.

ذكر الله في القرآن الإيمان والعمل الصالح في مواضع كثيرة، رتب عليهما من الجزاء العاجل والآجل والآثار الحميدة شيئاً كثيراً، فالإيمان: هو التصديق الجازم بما أمر الله ورسوله بالتصديق به المتضمن لأعمال الجوارح، والعمل الصالح: هو القيام بحقوق الله وحقوق عباده.

وكذلك أمر الله بالتقوى ومدح المتقين، ورتب على التقوى حصول الخيرات وزوال المكروهات، والتقوى الكاملة امتثال أمر الله وأمر رسوله واجتناب نهيهما وتصديق خبرهما.

وإذا جمع الله بين التقوى والبر ونحوه كانت التقوى اسماً لتوقي جميع المعاصي، والبر اسماً لفعل الخيرات. وإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر.

وذكر الله الهدى المطلوب في مواضع كثيرة، وأثنى على المهتدين وأخبر أن الهدى بيده، وأمرنا بطلبه منه وبالسعي في كل سبب يحصل الهدى، وذلك شامل لهداية العلم والعمل، فالمهتدي من عرف الحق وعمل به، وضده الغي والضلال، فمن عرف الحق ولم يعمل به؛ فهو الغاوي، ومن جهل الحق؛ فهو الضال.

أمر الله بالإحسان وأثنى على المحسنين، وذكر ثوابهم المتنوع في آيات كثيرة. وحقيقة الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك، وأن تبذل ما تستطيعه من النفع المالي والبدني والقولي إلى المخلوقين.

وأمر بالإصلاح وأثنى على المصلحين، وأخبر أنه لا يضيع ثوابهم وأجرهم، والإصلاح هو: أن تسعى في إصلاح عقائد الناس، وأخلاقهم، وجميع أحوالهم، بحيث تكون على غاية ما يمكن من الإصلاح، وأيضاً يشمل إصلاح الأمور الدينية والأمر الديني، وإصلاح الأفراد والجماعات.

و ضد هذا الفساد. والإفساد قد نهى عنه، وذم المفسدين وذكر عقوباتهم المتعددة، وأخبر أنه لا يصلح أعمالهم الدينية والدينية.

أثنى الله على اليقين وعلى الموقنين، وأنهم هم المنتفعون بالآيات القرآنية والآيات

الأفقية. واليقين أخص من العلم؛ فهو: العلم الراسخ المثمر للعمل والطمأنينة. أمر الله بالصبر وأثنى على الصابرين، وذكر جزاءهم العاجل والآجل في عدة آيات نحو تسعين موضعاً، وهو يشمل أنواعه الثلاثة: الصبر على طاعة الله حتى يؤديها كاملة من جميع الوجوه، والصبر عن محارم الله حتى ينهى نفسه الأمانة بالسوء عنها، والصبر على أقدار الله المؤلمة؛ فيتلقاها بصبر وتسليم غير متسخط في قلبه ولا بدنه ولا لسانه.

وكذلك أثنى الله على الشكر وذكر ثواب الشاكرين، وأخبر أنهم أرفع الخلق في الدنيا والآخرة. وحقيقة الشكر هو: الاعتراف بجميع نعم الله، والثناء على الله بها، والاستعانة بها على طاعة المنعم.

وذكر الله الخوف والخشية في مواضع كثيرة، أمر به وأثنى على أهله، وذكر ثوابهم وأنهم المتفعلون بالآيات التاركون للمحرمات. وحقيقة الخوف والخشية: أن يخاف العبد مقامه بين يدي الله، ومقامه عليه؛ فينهي نفسه بهذا الخوف عن كل ما حرم الله.

والرجاء: أن يرجو العبد رحمة الله العامة ورحمته الخاصة به، فيرجو قبول ما تفضل الله عليه به من الطاعات وغفران ما تاب منه من الزلات، ويعلق رجاءه بربه في كل حالة من أحواله.

وذكر الله الإنابة في مواضع كثيرة وأثنى على المنيبين وأمر بالإنابة إليه، وحقيقة الإنابة: انجذاب القلب إلى الله في كل حالة من أحواله ينيب إلى ربه عند النعماء بشكره، وعند الضراء بالتضرع إليه، وعند مطالب النفوس الكثيرة بكثرة دعائه في جميع مهماته، وينيب إلى ربه باللهم بذكره في كل وقت. والإنابة أيضاً: الرجوع إلى الله بالتوبة من جميع المعاصي، والرجوع إليه في جميع أعماله وأقواله؛ فيعرضها على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فتكون الأعمال والأقوال موزونة بميزان الشرع.

أمر تعالى بالإخلاص، وأثنى على المخلصين وأخبر أنه لا يقبل إلا العمل الخالص. وحقيقة الإخلاص أن يقصد العامل بعمله وجه الله وحده وثوابه. وضده الرياء والعمل للأغراض النفسية.

نهى الله عن التكبر وذم الكبر والمتكبرين، وأخبر عن عقوباتهم العاجلة والآجلة.

والتكبر هو: رد الحق واحتقار الخلق. وضد ذلك التواضع فقد أمر به وأثنى على أهله وذكر ثوابهم، فهو قبول الحق ممن قاله، وأن لا يحتقر الخلق بل يرى فضلهم، ويحب لهم ما يحب لنفسه.

العدل هو: أداء حقوق الله وحقوق العباد، والظلم: عكسه، فهو يشمل ظلم العبد لنفسه بالمعاصي والشرك وظلم العباد في دمائهم وأموالهم وأعراضهم. الصدق هو: استواء الظاهر والباطن على الاستقامة على الصراط المستقيم، والكذب بخلاف ذلك.

حدود الله هي: محارمه، وهي التي يقول فيها: ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾، ويراد بها: ما أباحه الله، وحلله، وقدره، وفرضه، فيقول فيها: ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾.

الأمانة هي: الأمور التي يؤتمن عليها العبد؛ فيشمل ذلك أداء حقوق الله وخصوصاً الخفية، وحقوق خلقه كذلك.

العهود والعقود يدخل فيها التي بينه وبين الله وهو: القيام بعبادة الله مخلصاً له الدين، والتي بينه وبين العباد من المعاملات ونحوها.

الحكمة والقوام: فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي.

والإسراف والتبذير: مجاوزة الحد في الإنفاق. والتقتير والبخل عكسه: التقصير في النفقات الواجبة.

المعروف: اسم جامع لكل ما عرف حسنه ونفعه شرعاً وعقلاً، والمنكر عكسه.

الاستقامة: لزوم طاعة الله وطاعة رسوله على الدوام.

مرض القلب هو اعتلاله، وهو نوعان: مرض شكوك في الحق، ومرض شهوة للأموال المحرمة.

النفاق: إظهار الخير وإبطان الشر؛ فيدخل فيه النفاق الاعتقادي، والنفاق العملي.

القرآن كله محكم، وأحكمت آياته من جهة موافقتها للحكمة، وأن أخباره أعلى درجات الصدق، وأحكامه في غاية الحسن، وكله متشابه من جهة اتفاه في البلاغة، والحسن، وتصديق بعضه لبعض، وكمال اتفاه، ومنه محكم ومتشابه من جهة أن متشابهه: ما كان فيه إجمال أو احتمال لبعض المعاني، ومحكمه واضح

مبين صريح في معناه، إذا رُدَّ إليه المتشابه اتفق الجميع واستقامت معانيه.
معية الله التي ذكرها في كتابه نوعان:

معية العلم والإحاطة وهي: المعية العامة، فإنه مع عباده أينما كانوا.
ومعية خاصة وهي: معيته مع خواص خلقه بالنصر واللفظ والتأييد.

الدعاء والدعوة، يشمل دعاء العبادة، فيدخل فيه كل عبادة أمر الله بها ورسوله،
ودعاء المسألة وهو: سؤال الله جلب المنافع ودفع المضار.

الطيبات: اسم جامع لكل طيب نافع من العقائد والأخلاق والأعمال والمآكل
والمشارب والمكاسب. والخبيث ضد ذلك. وقد يراد بالخبيث: الرديء وبالطيب:
الخيار؛ كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمِمَّا
أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾.

النفقة تشمل النفقة الواجبة كالزكاة والكفارة ونفقة النفس والعائلة والمماليك،
والنفقة المستحبة كالنفقة في جميع طرق الخير.

التوكل على الله والاستعانة به، قَدْ أَمَرَ الله بها، وأثنى على المتوكلين في آيات
كثيرة، وحقيقة ذلك: قوة اعتماد القلب على الله في جلب المصالح ودفع المضار
الدنيوية والدنيوية، مع الثقة به في حصول ذلك.

العقل الذي مدحه الله وأثنى على أهله، وأخبر أنهم هم المنتفعون بالآيات،
هو: الذي يفهم ويعقل الحقائق النافعة ويعمل بها، ويعقل صاحبه عن الأمور
الضارة، ولذلك قيل له: حجر ولب ونهى؛ لأنه يحجر صاحبه، وينهاه عما يضره.

العلم هو: معرفة الهدى بدليله، فهو معرفة المسائل النافعة المطلوبة، ومعرفة
أدلتها وطرقها التي تهدي إليها. والعلم النافع هو: العلم بالحق والعمل به، وضده
الجهل.

لفظ «الأمة» في القرآن على أربعة أوجه: يراد به الطائفة من الناس، وهو
الغالب، ويراد به: المدة، ويراد به: الدين والملة، ويراد به: الإمام في الخير.

لفظ «استوى» في القرآن على ثلاثة أوجه:

إن عُدِّيَ بعلی كان معناه العلو والارتفاع ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾.

وإن عُدِّيَ بآلی؛ فمعناه قصد؛ كقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ
سَمَوَاتٍ﴾.

وإن لم يعد بشيء؛ فمعناه كَمُلَ كقوله تعالى: ﴿ولما بلغ أشده واستوى﴾ .
 التوبة: وردت في آيات كثيرة الأمر بها، ومدح التائبين وثوابهم، وهي: الرجوع عما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه الله ظاهراً وباطناً.
 الصراط المستقيم الذي أمر الله بلزومه وأثنى على المستقيمين عليه هو: الطريق المعتدل الموصول إلى رضوان الله وثوابه، وهو متابعة النبي ﷺ في أقواله وأفعاله وكل أحواله.

الذكر لله الذي أمر به، وأثنى على الذاكرين، وذكر جزاءهم العاجل والآجل هو: عند الإطلاق يشمل جميع ما يقرب إلى الله من عقيدة، أو فكر نافع، أو خلق جميل، أو عمل قلبي، أو بدني، أو ثناء على الله، أو تسبيح ونحوه، أو تعلم أحكام الشرع الأصولية والفروعية، أو ما يعين على ذلك، فكله داخل في ذكر الله.

﴿فصل﴾

وقد تكرر كثير من أسماء الله الحسنی في القرآن بحسب المناسبات، والحاجة داعية إلى التنبيه إلى معانيها الجامعة فنقول:

قد تكرر اسمُ الرَّبِّ في آيات كثيرة، فالرَّبُّ هو المربِّي جميع عبادَه بالتدبير وأصناف النعم، وأخصُّ من هذا تربيته لأصفيائه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم؛ ولهذا كثر دعاؤهم له بهذا الاسم الجليل، لأنهم يطلبون منه هذه التربية الخاصة.

الله هو المألوه المعبود ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، لما اتصف به من صفات الألوهية التي هي صفات الكمال.

الملك، المالك، الذي له الملك فهو الموصوف بصفة الملك، وهي صفات العظمة والكبرياء والقهر والتدبير، الذي له التصرف المطلق في الخلق والأمر والجزاء، وله جميع العالم العلوي والسفلي، كلهم عبيد ومماليك ومضطرون إليه.
 الواحد، الأحد، وهو: الذي توحد بجميع الكمالات، بحيث لا يشاركه فيها مشارك.

ويجب على العبيد توحيدَه عقداً وقولاً وعملاً، بأن يعترفوا بكماله المطلق، وتفردَه بالوحدانية، ويفردوه بأنواع العبادة.

الصمد وهو: الذي تقصده الخلائق كلها في جميع حاجاتها، وضروراتها

وأحوالها؛ لما له من الكمال المطلق في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله.

العليم، الخبير وهو: الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والإسرار والإعلان، وبالواجبات والمستحيلات والممكنات، وبالعالم العلوي والسفلي، وبالماضي والحاضر والمستقبل؛ فلا يخفى عليه شيء من الأشياء.

الحكيم وهو: الذي له الحكمة العليا في خلقه، وأمره الذي أحسن كل شيء خلقه ﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾، فلا يخلق شيئاً عبثاً ولا يشرع شيئاً سدى، الذي له الحكم في الأولى والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك: فيحكم بين عباده في شرعه، وفي قدره، وجزائه، والحكمة: وضع الأشياء مواضعها وتنزيلها منازلها.

الرحمن، الرحيم، البر، الكريم، الجواد، الرؤوف، الوهاب هذه الأسماء تتقارب معانيها، وتدل كلها على اتصاف الرب بالرحمة والبر والجود والكرم، وعلى سعة رحمته ومواهبه التي عم بها جميع الوجود بحسب ما تقتضيه حكمته، وخص المؤمنين منها بالنصيب الأوفر والحظ الأكمل، قال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون...﴾ الآية. والنعم والإحسان كله من آثار رحمته وجوده وكرمه، وخيرات الدنيا والآخرة كلها من آثار رحمته.

السميع لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات.

البصير الذي يبصر كل شيء وإن دقَّ وصغر، فيبصر دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، ويبصر ما تحت الأرضين السبع كما يبصر ما فوق السماوات السبع، وأيضاً سميع بصير بمن يستحق الجزاء بحسب حكمته، والمعنى الأخير يرجع إلى الحكمة.

الحميد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فله من الأسماء أحسنها ومن الصفات أكملها، ومن الأفعال أتمها وأحسنها؛ فإن أفعاله تعالى دائرة بين الفضل والعدل.

المجيد، الكبير، العظيم، الجليل وهو الموصوف بصفات المجد والكبرياء، والعظمة والجلال، الذي هو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأجل وأعلى، وله التعظيم والإجلال في قلوب أوليائه وأصفيائه، قد ملئت قلوبهم من تعظيمه وإجلاله والخضوع له والتذلل لكبريائه.

العفو، الغفور، الغفار الذي لم يزل ولا يزال بالعفو معروفاً، وبالعفوان والصفح عن عباده موصوفاً، كل أحد مضطراً إلى عفو ومغفرته كما هو مضطراً إلى رحمته

وكرمه، وقد وعد بالمغفرة والعفو لمن أتى بأسبابها، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾.

التَّوَابُ الذي لم يزل يتوب على التائبين، ويغفر ذنوب المنيبين، فكل من تاب إلى الله توبة نصوحاً تاب الله عليه، فهو التائب على التائبين: أولاً بتوفيقهم للتوبة والإقبال بقلوبهم إليه، وهو التائب عليهم بعد توبتهم قبولاً لها، وعفواً عن خطاياهم.

القُدُّوس، السلام أي المعظم المنزه عن صفات النقص كلها، وأن يماثله أحد من الخلق، فهو المنتزه عن جميع العيوب، والمنتزه عن أن يقاربه أو يماثله أحد في شيء من الكمال ﴿ليس كمثله شيء﴾، ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾، ﴿هل تعلم له سمياً﴾، ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾ فالقُدُّوس كالسلام ينفيان كل نقص من جميع الوجوه، ويتضمنان الكمال المطلق من جميع الوجوه، لأن النقص إذا انتفى ثبت الكمال كله.

العلي، الأعلى وهو: الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه: علو الذات، وعلو القدر والصفات، وعلو القهر، فهو الذي على العرش استوى، وعلى الملك احتوى، وبجميع صفات العظمة والكبرياء والجلال والجمال وغاية الكمال اتصف، وإليه فيها المنتهى.

العزیز الذي له العزة كلها: عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع؛ فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، ودانت له الخليقة، وخضعت لعظمته.

القوي، المتين هو في معنى العزيز.

الجَبَّار هو بمعنى «العلي الأعلى»، وبمعنى «القَهَّار»، وبمعنى «الرءوف» الجابر للقلوب المنكسرة، وللضعيف العاجز ولمن لا ذبه ولجأ إليه.

المتكبر عن السوء والنقص والعيوب، لعظمته وكبريائه.

الخالق، البارئ، المصور الذي خلق جميع الموجودات، وبرأها وسواها بحكمته وصورها بحمده وحكمته، وهو لم يزل ولا يزال على هذا الوصف العظيم.

المؤمن الذي أثنى على نفسه بصفات الكمال، وبكمال الجلال والجمال، الذي

أرسل رسله، وأنزل كتبه بالآيات والبراهين، وصدق رسله بكل آية وبرهان يدل على صدقهم، وصحة ما جاؤوا به.

المهيمن المطلع على خفايا الأمور، وخبايا الصدور، الذي أحاط بكل شيء علماً.

القدير كامل القدرة، بقدرته أوجد الموجودات، وبقدرته دبرها، وبقدرته سواها وأحكمها، وبقدرته يحيي ويميت، ويبعث العباد للجزاء، ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، الذي إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، وبقدرته يقلب القلوب ويصرفها على ما يشاء ويريد.

اللطيف الذي أحاط علمه بالسرائر والخفايا، وأدرك الخبايا والبواطن والأمور الدقيقة، اللطيف بعباده المؤمنين، الموصل إليهم مصالحهم بلطفه وإحسانه من طرق لا يشعرون بها، فهو بمعنى «الخير» وبمعنى «الرءوف».

الحسيب هو العليم بعباده، كافي المتوكلين، المجازي لعباده بالخير والشر بحسب حكمته، وعلمه بدقيق أعمالهم وجليلها.

الرقيب المطلع على ما أكنته الصدور، القائم على كل نفس بما كسبت، الذي حفظ المخلوقات، وأجراها على أحسن نظام وأكمل تدبير.

الحفيظ الذي حفظ ما خلقه، وأحاط علمه بما أوجده، وحفظ أوليائه من وقوعهم في الذنوب والهلكات، ولطف بهم في الحركات والسكنات، وأحصى على العباد أعمالهم وجزاءها.

المحيط بكل شيء علماً وقدرة ورحمة وقهراً.

القهار لكل شيء، الذي خضعت له المخلوقات، وذلت لعزته وقوته وكمال اقتداره.

المقيت الذي أوصل إلى كل موجود ما به يقتات، وأوصل إليها أرزاقها وصرفها كيف يشاء بحكمته وحمده.

الوكيل المتولي لتدبير خلقه بعلمه وكمال قدرته وشمول حكمته، الذي تولّى أوليائه فيسرهم ليسرى وجنبهم العسرى وكفاهم الأمور؛ فمن اتخذه وكيلًا كفاه. ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾.

ذو الجلال والإكرام أي ذو العظمة والكبرياء، وذو الرحمة والجود والإحسان

العام والخاص، المكرم لأوليائه وأصفياه، الذين يجلوونه ويعظمونه ويحبونه. الودود الذي يحب أنبياءه ورسله وأتباعهم ويحبونه، فهو أحب إليهم من كل شيء، قد امتلأت قلوبهم من محبته، ولهجت ألسنتهم بالشثناء عليه، وانجذبت أفئدتهم إليه ودًا وإخلاصًا وإنابة من جميع الوجوه.

الفتاح الذي يحكم بين عباده بأحكامه الشرعية، وأحكامه القدرية، وأحكام الجزاء، الذي فتح بلفظه بصائر الصادقين، وفتح قلوبهم لمعرفته ومحبته والإنابة إليه، وفتح لعباده أبواب الرحمة والأرزاق المتنوعة، وسبب لهم الأسباب التي ينالون بها خير الدنيا والآخرة ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾.

الرزاق لجميع عباده فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها. ورزقه لعباده نوعان: رزق عام شمل البر والفاجر والأولين والآخرين وهو رزق الأبدان، ورزق خاص وهو رزق القلوب وتغذيتها بالعلم والإيمان، والرزق الحلال الذي يعين على صلاح الدين، وهذا خاص بالمؤمنين على مراتبهم منه بحسب ما تقتضيه حكمته ورحمته.

الحكم، العدل الذي يحكم بين عباده في الدنيا والآخرة بعدله وقسطه؛ فلا يظلم مثقال ذرة، ولا يحمل أحداً وزر أحد، ولا يجازي العبد بأكثر من ذنبه، ويؤدي الحقوق إلى أهلها، فلا يدع صاحب حق إلا أوصل إليه حقه، وهو العدل في تدبيره وتقديره ﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾.

جامع الناس ليوم لا ريب فيه، وجامع أعمالهم وأرزاقهم فلا يترك منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وجامع ما تفرق واستحال من الأموات الأولين والآخرين بكمال قدرته وسعة علمه.

الحي، القيوم كامل الحياة، والقائم بنفسه، القيوم لأهل السماوات والأرض، القائم بتدبيرهم وأرزاقهم وجميع أحوالهم، فالحي الجامع لصفات الذات، والقيوم الجامع لصفات الأفعال.

النور نور السماوات والأرض، الذي نور قلوب العارفين بمعرفته والإيمان به، ونور أفئدتهم بهدايته، وهو الذي أنار السماوات والأرض بالأنوار التي وضعها، وحجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

بديع السماوات والأرض؛ أي خالقهما ومبدعهما في غاية ما يكون من الحسن، والخلق البديع، والنظام العجيب المحكم.

القابض، الباسط يقبض الأرزاق والأرواح، ويبسط الأرزاق والقلوب، وذلك تبع لحكمته ورحمته.

المعطي، المانع لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، فجميع المصالح والمنافع منه تطلب وإليه يرغب فيها، وهو الذي يعطيها لمن يشاء، ويمنعها من يشاء بحكمته ورحمته.

الشهيد؛ أي: المطلع على جميع الأشياء، سمع جميع الأصوات خفيها وجليها، وأبصر جميع الموجودات دقيقها وجليها، صغيرها وكبيرها، وأحاط علمه بكل شيء، الذي شهد لعباده وعلى عباده بما عملوه.

المبدئ، المعيد قال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ ابتداء خلقهم؛ ليلوهم أيهم أحسن عملاً، ثم يعيدهم؛ ليجزي الذين أحسنوا بالحسن، ويجزي المسيئين بإساءتهم، وكذلك هو الذي يبدأ إيجاد المخلوقات شيئاً فشيئاً، ثم يعيدها كل وقت.

الفعال لما يريد وهذا من كمال قوته ونفوذ مشيئته وقدرته أن كل أمر يريد يفعله بلا ممانع ولا معارض، وليس له ظهير ولا عوين على أي أمر يكون، بل إذا أراد شيئاً قال له: كن؛ فيكون، ومع أنه الفعال لما يريد، لإرادته تابعة لحكمته وحمده؛ فهو موصوف بكمال القدرة ونفوذ المشيئة، وموصوف بشمول الحكمة لكل ما فعله ويفعله.

الغني، المغني فهو الغني بذاته الذي له الغنى التام المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات، لكماله وكمال صفاته؛ فلا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلا غنياً؛ لأن غناه من لوازم ذاته، كما لا يكون إلا خالقاً قادراً رازقاً محسناً؛ فلا يحتاج إلى أحد بوجه من الوجوه؛ فهو الغني الذي بيده خزائن السماوات والأرض وخزائن الدنيا والآخرة، المغني جميع خلقه غنى عاماً، والمغني لخواص خلقه بما أفاض على قلوبهم من المعارف الربانية والحقائق الإيمانية.

الحليم الذي يدر على خلقه النعم الظاهرة والباطنة مع معاصيهم وكثرة زلاتهم، فيحلم عن مقابلة العاصين بعصيانهم، ويستعذبهم كي يتوبوا، ويمهلهم كي يثبوا.

الشاكِر، الشكور الذي يشكر القليل من العمل، ويغفر الكثير من الزلل، ويضاعف للمخلصين أعمالهم بغير حساب، ويشكر الشاكِرِينَ، ويذكر من ذكره،

ومن تقرب إليه بشيء من الأعمال الصالحة: تقرب الله منه أكثر.

القريب، المجيب؛ أي: هو تعالى القريب من كل أحد. وقربه تعالى نوعان: قرب عام من كل أحد بعلمه وخبرته ومراقبته ومشاهدته وإحاطته، وقرب خاص من عابديه وسائله ومجبيه، قرب لا يدرك له حقيقة، وإنما تعلم آثاره من لطفه بعبدته وعنايته به وتوفيقه وتسديده.

ومن آثاره: الإجابة للداعين والإنابة للعابدين؛ فهو المجيب إجابة عامة للداعين، مهما كانوا، وأينما كانوا، وعلى أي حال كانوا كما وعدهم بهذا الوعد المطلق؛ وهو المجيب إجابة خاصة للمستجيبين له المنقادين لشرعه، وهو المجيب أيضاً للمضطرين، ومن انقطع رجاؤهم من المخلوقين، وقوي تعلقهم به طمعاً ورجاء وخوفاً.

الكافي عباده جميع ما يحتاجونه ويضطرون إليه، الكافي كفاية خاصة، من آمن به وتوكل عليه، واستمد منه حوائج دينه ودنياه.

الأول والآخر والظاهر والباطن قد فسرهما النبي ﷺ تفسيراً جامعاً واضحاً؛ فقال: «أنت الأول؛ فليس قبلك شيء، وأنت الآخر، فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر؛ فليس فوقك شيء، وأنت الباطن، فليس دونك شيء»^(١).

الواسع الصفات والنعوت ومتعلقاتها بحيث لا يحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، واسع العظمة والسلطان والملك، واسع الفضل والإحسان، عظيم الجود والكرم.

الهادي، الرشيد؛ أي: الذي يهدي ويرشد عباده إلى جميع المنافع وإلى دفع المضار، ويعلمهم ما لا يعلمون، ويهديهم هداية التوفيق والتسديد، ويلهمهم التقوى، ويجعل قلوبهم منية إليه، منقادة لأمره، وللرشيد معنى، بمعنى «الحكيم» فهو الرشيد: في أقواله وأفعاله، وشرائعه كلها خير ورشد وحكمة، ومخلوقاته مشتملة على الرشد.

الحق في ذاته وصفاته، فهو واجب الوجود، كامل الصفات والنعوت، وجوده من لوازم ذاته، ولا وجود لشيء من الأشياء إلا به، فهو الذي لم يزل ولا يزال بالجلال والجمال والكمال موصوفاً، ولم يزل ولا يزال بالإحسان معروفاً. فقوله

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

حق، وفعله حق، ولقاؤه حق، ورسله حق، وكتبه حق، ودينه هو الحق، وعبادته وحده لا شريك له هي الحق، وكل شيء ينسب إليه فهو حق؛ ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل، وأن الله هو العلي الكبير﴾، ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾، ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال؟﴾، ﴿قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم إلى يوم الدين.

قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلى ربه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدي - غفر الله له ولوالديه ومشايخه وأحبابه وجميع المسلمين - آمين.



تفسير سورة الفاتحة

وهي مكية

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ٧﴾.

﴿١﴾ أي: أبتدىء بكل اسم لله تعالى؛ لأن لفظ «اسم» مفرد مضاف، فيعم جميع الأسماء الحسنى. ﴿الله﴾: هو المألوه المعبود المستحق لإفراده بالعبادة، لما اتصف به من صفات الألوهية وهي: صفات الكمال.

﴿الرحمن الرحيم﴾: اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله؛ فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم فله ^(١) نصيب منها.

واعلم: أن من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة، وأئمتها، الإيمان بأسماء الله وصفاته وأحكام الصفات، فيؤمنون مثلاً بأنه رحمن رحيم ذو الرحمة التي اتصف بها المتعلقة بالمرحوم، فالنعم كلها أثر من آثار رحمته، وهكذا في سائر الأسماء.

يقال في العليم: إنه عليم ذو علم يعلم به كل شيء، قدير ذو قدرة يقدر على كل شيء.

﴿٢﴾ ﴿الحمد لله﴾ هو: الثناء على الله بصفات الكمال، وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل، فله الحمد الكامل بجميع الوجوه. ﴿رب العالمين﴾ الرب: هو المربي جميع العالمين، وهم من سوى الله بخلقه لهم، وإعدادهم لهم الآلات،

(١) في (ب): «لهم».

وإنعامه عليهم بالنعم^(١) العظيمة، التي لو فقدوها لم يمكن لهم البقاء، فما بهم من نعمة فمنه تعالى.

وتربيته تعالى لخلقه نوعان: عامة وخاصة: فالعامة هي: خلقه للمخلوقين ورزقهم وهدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا، والخاصة: تربيته لأوليائه، فيربهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكملهم^(٢)، ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه. وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير والعصمة من كل شر، ولعل هذا المعنى هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب، فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة؛ فدل قوله: ﴿رب العالمين﴾ على انفراد بالخلق، والتدبير، والنعم، وكمال غناه، وتمايم فقر العالمين إليه بكل وجه واعتبار.

﴿٤﴾ ﴿مالك يوم الدين﴾ المالك: هو من اتصف بصفة الملك التي من آثارها أنه يأمر وينهى، ويثيب ويعاقب، ويتصرف بمماليكه بجميع أنواع التصرفات

وأضاف الملك ليوم الدين، وهو يوم القيامة، يوم يدان الناس فيه بأعمالهم خيرها وشرها؛ لأن في ذلك اليوم يظهر للخلق تمام الظهور، كمال ملكه وعدله وحكمته وانقطاع أملاك الخلائق، حتى أنه يستوي في ذلك اليوم الملوك والرعايا والعبيد والأحرار، كلهم مذعنون لعظمته خاضعون لعزته منتظرون لمجازاته راجون ثوابه خائفون^(٣) من عقابه، فلذلك خصه بالذكر، وإلا فهو المالك ليوم الدين وغيره^(٤) من الأيام.

﴿٥﴾ وقوله: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾؛ أي: نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة، لأن تقديم المعمول يفيد الحصر وهو إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه؛ فكأنه يقول: نعبدك، ولا نعبد غيرك، ونستعين بك، ولا نستعين بغيرك، وتقديم^(٥) العبادة على الاستعانة من باب تقديم العام على الخاص، واهتماماً بتقديم حقه تعالى على حق عبده.

والعبادة: اسم جامع لِمَا^(٦) يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة

(٢) في (ب): «ويكمله لهم».

(٤) في (ب): «ولغيره».

(٦) في (ب): «لكل ما».

(١) في (ب): «النعم».

(٣) في (ب): «خائفين».

(٥) في (ب): «وقدّم».

والباطنة، والاستعانة هي: الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك.

والقيام بعبادة الله والاستعانة به هو الوسيلة للسعادة الأبدية والنجاة من جميع الشرور، فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما، وإنما تكون العبادة عبادةً إذا كانت مأخوذة عن رسول الله ﷺ مقصوداً بها وجه الله، فبهذين الأمرين تكون عبادة، وذكر الاستعانة بعد العبادة مع دخولها فيها؛ لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى؛ فإنه إن لم يعنه الله لم يحصل له ما يريد من فعل الأوامر واجتناب النواهي.

ثم قال تعالى:

﴿٦﴾ «اهدنا الصراط المستقيم»؛ أي: دلنا وأرشدنا، ووفقنا إلى الصراط^(١) المستقيم، وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله وإلى جنته، وهو معرفة الحق والعمل به، فاهدنا إلى الصراط، واهدنا في الصراط، فالهداية إلى الصراط لزوم دين الإسلام وترك ما سواه من الأديان، والهداية في الصراط تشمل^(٢) الهداية لجميع التفاصيل الدينية علماً وعملاً؛ فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد؛ ولهذا وجب على الإنسان أن يدعو الله به في كل ركعة من صلاته لضرورته إلى ذلك؛ وهذا الصراط المستقيم هو:

﴿٧﴾ «صراط الذين أنعمت عليهم» من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين «غير» صراط «المغضوب عليهم» الذي عرفوا الحق وتركوه كاليهود ونحوهم، وغير صراط «الضالين» الذين تركوا الحق على جهل وضلال كالنصارى ونحوهم.

فهذه السورة على إيجازها قد احتوت على ما لم تحتو عليه سورة من سور القرآن، فتضمنت أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية يؤخذ من قوله: ﴿رب العالمين﴾، وتوحيد الإلهية وهو أفراد الله بالعبادة يؤخذ من لفظ ﴿الله﴾ ومن قوله: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين^(٣)﴾، وتوحيد الأسماء والصفات وهو إثبات صفات الكمال لله تعالى التي أثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه، وقد دل على ذلك لفظ ﴿الحمد﴾ كما تقدم.

(١) في (ب): «الصراط».

(٢) في (ب): «إياك نستعين» وقد أضافها الشيخ في (أ) بقلمه.

(٣) في (ب): «إياك نستعين» وقد أضافها الشيخ في (أ) بقلمه.

وتضمنت إثبات النبوة في قوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ لأن ذلك ممتنع بدون الرسالة.

وإثبات الجزاء على الأعمال في قوله: ﴿مالك يوم الدين﴾ وأن الجزاء يكون بالعدل لأن الدين معناه الجزاء بالعدل.

وتضمنت إثبات القدر وأن العبد فاعل حقيقة خلافاً للقدرية والجبرية.

بل تضمنت الرد على جميع أهل البدع والضلال في قوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾؛ لأنه معرفة الحق والعمل به. وكل مبتدع وضال فهو مخالف لذلك.

وتضمنت إخلاص الدين لله تعالى عبادة واستعانة في قوله: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾. فالحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة البقرة

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

تقدم الكلام على البسملة.

﴿١﴾ وأما الحروف المقطعة في أوائل السورة^(١)؛ فالأسلم فيها السكوت عن التعرض لمعناها من غير مستند شرعي، مع الجزم بأن الله تعالى لم ينزلها عبثاً، بل لحكمة لا نعلمها.

﴿٢﴾ وقوله: ﴿ذلك الكتاب﴾؛ أي: هذا الكتاب العظيم، الذي هو الكتاب على الحقيقة، المشتمل على ما لم تشتمل عليه كتب المتقدمين والمتأخرين من العلم العظيم والحق المبين؛ فلا ريب فيه ولا شك بوجه من الوجوه، ونفي الرّيب

(١) في (ب): «السور».

عنه يستلزم ضده إذ ضد الريب والشك اليقين، فهذا الكتاب مشتمل على علم اليقين المزيل للشك والريب.

وهذه قاعدة مفيدة أن النفي المقصود به المدح لا بد أن يكون متضمناً لضده وهو الكمال؛ لأن النفي عدم، والعدم المحض لا مدح فيه، فلما اشتمل على اليقين وكانت الهداية لا تحصل إلا باليقين؛ قال: ﴿هَدَىٰ لِلْمُتَّقِينَ﴾، والهدى ما تحصل به الهداية من الضلالة والشُّبُه، وما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة.

وقال: ﴿هَدَىٰ﴾ وحذف المعمول، فلم يقل: هدى للمصلحة الفلانية ولا للشيء الفلاني؛ لإرادة العموم وأنه هدى لجميع مصالح الدارين، فهو مرشداً للعباد في المسائل الأصولية والفروعية، ومبين للحق من الباطل والصحيح من الضعيف، ومبين لهم كيف يسلكون الطرق النافعة لهم في دنياهم وأخراهم. وقال في موضع آخر: ﴿هَدَىٰ لِلنَّاسِ﴾ فعمم، وفي هذا الموضع وغيره: ﴿هَدَىٰ لِلْمُتَّقِينَ﴾ لأنه في نفسه هدى لجميع الناس^(١)، فالأشقياء لم يرفعوا به رأساً ولم يقبلوا هدى الله، فقامت عليهم به الحجة، ولم ينتفعوا به لشقاؤهم.

وأما المتقون الذين أتوا بالسبب الأكبر لحصول الهداية وهو التقوى التي حقيقتها: اتخاذ ما يقي سخط الله وعذابه بامتنال أوامره، واجتناب النواهي، فاهتدوا به، وانتفعوا غاية الانتفاع، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ فالمتقون هم المتفنون بالآيات القرآنية والآيات الكونية.

ولأن الهداية نوعان: هداية البيان، وهداية التوفيق، فالمتقون حصلت لهم الهدايتان وغيرهم لم تحصل لهم هداية التوفيق، وهداية البيان بدون توفيق للعمل بها ليست هداية حقيقية تامة.

ثم وصف المتقين بالعقائد والأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة لتضمن التقوى لذلك فقال:

﴿٣﴾ ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ حقيقة الإيمان هو التصديق التام بما أخبرت به الرسل، المتضمن لانقياد الجوارح، وليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحس، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر، إنما الشأن في الإيمان بالغيب الذي لم نره ولم نشاهده، وإنما نؤمن به لخبر الله وخبر رسوله.

(١) في (ب): «لجميع الخلق».

فهذا الإيمان الذي يميز به المسلم من الكافر؛ لأنه تصديق مجرد لله ورسله، فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله سواء شاهده أو لم يشاهده، وسواء فهمه وعقله، أو لم يهتد إليه عقله وفهمه، بخلاف الزنادقة المكذبين^(١) بالأمور الغيبية لأن عقولهم القاصرة المقصورة لم تهتد إليها فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه؛ ففسدت عقولهم، ومرجت أحلامهم؛ وزكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدى الله.

ويدخل في الإيمان بالغيب الإيمان بجميع ما أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلية وأحوال الآخرة وحقائق أوصاف الله وكيفيتها وما أخبرت به الرسل من ذلك، فيؤمنون بصفات الله ووجودها، ويتيقنونها وإن لم يفهموا كيفيتها.

ثم قال: ﴿ويقيمون الصلاة﴾ لم يقل: يفعلون الصلاة؛ أو يأتون بالصلاة لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة، إقامة الصلاة، إقامتها ظاهراً، بإتمام أركانها وواجباتها وشروطها، وإقامتها باطناً^(٢)، بإقامة روحها وهو حضور القلب فيها وتدبر ما يقول^(٣) ويفعله منها، فهذه الصلاة هي التي قال الله فيها: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ وهي التي يترتب عليها الثواب، فلا ثواب للعبد^(٤) من صلاته إلا ما عقل منها، ويدخل في الصلاة فرائضها ونوافلها.

ثم قال: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ يدخل فيه النفقات الواجبة؛ كالزكاة، والنفقة على الزوجات والأقارب والمماليك ونحو ذلك، والنفقات المستحبة بجميع طرق الخير، ولم يذكر المنفق عليه لكثرة أسبابه وتنوع أهله، ولأن النفقة من حيث هي قرينة إلى الله، وأتى «بمن» الدالة على التبعية؛ لينبههم أنه لم يرد منهم إلا جزءاً يسيراً من أموالهم غير ضار لهم، ولا مثقل بل ينتفعون هم بإنفاقه، وينتفع به إخوانهم، وفي قوله: ﴿ورزقناهم﴾ إشارة إلى أن هذه الأموال التي بين أيديكم ليست حاصلة بقوتكم وملكتكم، وإنما هي رزق الله الذي خولكم وأنعم به عليكم، فكما أنعم عليكم وفضلكم على كثير من عباده فاشكروه بإخراج بعض ما أنعم به عليكم، وواسوا إخوانكم المعدمين.

وكثيراً ما يجمع تعالى بين الصلاة والزكاة في القرآن؛ لأن الصلاة متضمنة

(١) كذا في (ب)، وفي (أ): «والمكذبين». (٢) في (ب): «وباطنها بإقامة روحها».

(٣) في (ب): «يقوله». (٤) في (ب): «للإنسان».

للإخلاص للمعبود، والزكاة والنفقة متضمنة للإحسان على عبده؛ فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود وسعيه في نفع الخلق، كما أن عنوان شقاوة العبد عدم هذين الأمرين منه فلا إخلاص ولا إحسان.

﴿٤﴾ ثم قال: ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك﴾ وهو: القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾ فالمتقون يؤمنون بجميع ما جاء به الرسول ولا يفرقون بين بعض ما أنزل إليه، فيؤمنون ببعضه، ولا يؤمنون ببعضه، إما بجحده، أو تأويله على غير مراد الله ورسوله، كما يفعل ذلك من يفعله من المبتدعة الذين يؤولون النصوص الدالة على خلاف قولهم بما حاصله عدم التصديق بمعناها وإن صدقوا بلفظها، فلم يؤمنوا بها إيماناً حقيقياً. وقوله: ﴿وما أنزل من قبلك﴾ يشمل الإيمان بجميع الكتب^(١) السابقة، ويتضمن الإيمان بالكتب الإيمان بالرسول وبما اشتملت عليه خصوصاً التوراة والإنجيل والزبور، وهذه خاصية المؤمنين يؤمنون بالكتب^(٢) السماوية كلها وبجميع الرسل فلا يفرقون بين أحد منهم.

ثم قال: ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ والآخرة: اسم لما يكون بعد الموت، وخصه بالذكر بعد العموم؛ لأن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان؛ ولأنه أعظم باعث على الرغبة والرغبة والعمل، واليقين هو: العلم التام، الذي ليس فيه أدنى شك، الموجب للعمل.

﴿٥﴾ ﴿أولئك﴾؛ أي: الموصوفون بتلك الصفات الحميدة ﴿على هدى من ربهم﴾؛ أي: على هدى عظيم؛ لأن التنكير للتعظيم، وأي هداية أعظم من تلك الصفات المذكورة المتضمنة للعقيدة الصحيحة والأعمال المستقيمة؟! وهل الهداية في الحقيقة إلا هدايتهم وما سواها مما خالفها فهي^(٣) ضلالة؟! وأتى بعلی في هذا الموضع الدالة على الاستعلاء، وفي الضلالة يأتي بفي كما في قوله: ﴿وإنا أو إياكم لعلی هدى أو في ضلال مبين﴾؛ لأن صاحب الهدى مستعل بالهدى مرتفع به، وصاحب الضلال منغمس فيه محتقر.

ثم قال: ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ والفلاح هو الفوز بالمطلوب والنجاة من

(١) في (ب): «الإيمان بالكتب».

(٢) في (ب): «جميع الكتب».

(٣) في (ب): «فهو».

المرهوب، حصر الفلاح فيهم؛ لأنه لا سبيل إلى الفلاح إلا بسلوك سبيلهم، وما عدا تلك السبيل فهي سبل الشقاء والهلاك والخسار التي تفضي بسالكها إلى الهلاك؛ فلهذا لما ذكر صفات المؤمنين حقاً ذكر صفات الكفار المظهرين لكفرهم المعاندين للرسول فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿٦﴾ يخبر تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: اتصفوا بالكفر وانصبغوا به، وصار وصفاً لهم لازماً لا يردعهم عنه رادع، ولا ينجع فيهم وعظ أنهم مستمرون على كفرهم، فسواء عليهم ﴿أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. وحقيقة الكفر هو الجحود لما جاء به الرسول أو جحد بعضه، فهؤلاء الكفار لا تفيدهم الدعوة إلا إقامة الحجة عليهم، وكأن في هذا قطعاً لطمع الرسول ﷺ في إيمانهم وأنت لا تأس عليهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات.

ثم ذكر الموانع المانعة لهم من الإيمان، فقال:

﴿٧﴾ ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾؛ أي: طبع عليها بطابع لا يدخلها الإيمان ولا ينفذ فيها؛ فلا يعون ما ينفعهم ولا يسمعون ما يفيدهم ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾؛ أي: غشاء وغطاء وأكثت تمنعها عن النظر الذي ينفعهم، وهذه طرق العلم والخير قد سدت عليهم، فلا مطمع فيهم ولا خير يرجى عندهم، وإنما منعوا ذلك وسدت عنهم أبواب الإيمان بسبب كفرهم وجحودهم ومعاندتهم بعد ما تبين لهم الحق، كما قال تعالى: ﴿وَنَقَلَبْنَا أَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَ الْأَمْرِ﴾ وهذا عقاب عاجل، ثم ذكر العقاب الآجل فقال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو عذاب النار، وسخط الجبار المستمر الدائم.

ثم قال تعالى في وصف المنافقين الذين ظاهروهم الإسلام وباطنهم الكفر:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَإِلَّا يُؤْتُواهُمُ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿٨ - ٩﴾ واعلم أن النفاق هو إظهار الخير وإبطان الشر، ويدخل في هذا

التعريف النفاق الاعتقادي والنفاق العملي؛ فالنفاق العملي؛ كالذي ذكر النبي ﷺ في قوله: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»؛ وفي رواية «وإذا خاصم فجر»^(١).

وأما النفاق الاعتقادي المخرج عن دائرة الإسلام؛ فهو الذي وصف الله به المنافقين في هذه السورة وغيرها، ولم يكن النفاق موجوداً قبل هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة ولا بعد الهجرة، حتى كانت وقعة بدر^(٢) وأظهر الله المؤمنين وأعزهم؛ فذل^(٣) من في المدينة ممن لم يسلم، فأظهر الإسلام بعضهم^(٤) خوفاً ومخادعة؛ ولتحقق دماؤهم وتسلم أموالهم، فكانوا بين أظهر المسلمين في الظاهر أنهم منهم، وفي الحقيقة ليسوا منهم.

فمن لطف الله بالمؤمنين أن جلا أحوالهم، ووصفهم بأوصاف يتميزون بها لئلا يغتر بهم المؤمنون، ولينقمعوا أيضاً عن كثير من فجورهم، قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾؛ فوصفهم الله بأصل النفاق فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾؛ فإنهم يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم فأكذبهم الله بقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأن الإيمان الحقيقي ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما هذا مخادعة لله ولعباده المؤمنين، والمخادعة: أن يظهر المخادع لمن يخادعه شيئاً، ويبطن خلافه لكي يتمكن من مقصوده ممن يخادع، فهؤلاء المنافقون سلكوا مع الله وعباده هذا المسلك؛ فعاد خداعهم على أنفسهم، وهذا من العجائب^(٥)؛ لأن المخادع إما أن ينتج خداعه ويحصل له مقصوده^(٦) أو يسلم لا له ولا عليه، وهؤلاء عاد خداعهم على أنفسهم^(٧)، فكانهم يعملون ما يعملون من المكر لإهلاك أنفسهم وإضرارها وكيدها؛ لأن الله لا يتضرر بخداعهم شيئاً، وعباده المؤمنين لا يضرهم كيدهم شيئاً، فلا يضر المؤمنين أن أظهر المنافقون الإيمان؛ فسلمت بذلك أموالهم،

(١) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأما الرواية الثانية فقد أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) في (ب): «قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة وبعد أن هاجر؛ فلما كانت وقعة بدر».

(٣) في (ب): «ذل».

(٤) في (ب): «فأظهر بعضهم الإسلام».

(٥) في (ب): «فإن هذا من العجائب».

(٦) في (ب): «ويحصل ما يريد».

(٧) في (ب): «عاد خداعهم عليهم».

وحقنت دماؤهم، وصار كيدهم في نحورهم، وحصل لهم بذلك الخزي والفضيحة في الدنيا، والحزن المستمر بسبب ما يحصل للمؤمنين من القوة والنصرة، ثم في الآخرة لهم العذاب الأليم الموجع المفجع بسبب كذبهم وكفرهم وفجورهم، والحال أنهم من ~~بجهلهم وحمقتهم~~ لا يشعرون بذلك.

﴿١٠﴾ وقوله: ﴿في قلوبهم مرض﴾؛ المراد^(١) بالمرض هنا: مرض الشك، والشبهات، والنفاق، وذلك أن القلب^(٢) يعرض له مرضان يخرجانه عن صحته واعتداله: مرض الشبهات الباطلة، ومرض الشهوات المُرَدِيَّة. فالكفر والنفاق والشكوك والبِدَع كلها من مرض الشبهات، والزنا ومحبة الفواحش والمعاصي وفعلها من مرض الشهوات؛ كما قال تعالى: ﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾؛ وهو^(٣) شهوة الزنا، والمعافى من عوفي من هذين المرضين، فحصل له اليقين والإيمان والصبر عن كل معصية، فرفل في أثواب العافية.

وفي قوله عن المنافقين:

﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً﴾؛ بيان لحكمته تعالى في تقدير المعاصي، على العاصين وأنه بسبب ذنوبهم السابقة؛ يبتليهم بالمعاصي اللاحقة الموجبة لعقوباتها، كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾، وقال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾، وقال تعالى: ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ فعقوبة المعصية المعصية بعدها، كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها؛ قال تعالى: ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿١١﴾ أي: إذا نُهي هؤلاء المنافقون عن الإفساد في الأرض، وهو العمل بالكفر والمعاصي، ومنه إظهار سرائر المؤمنين لعدوهم وموالاتهم للكافرين: ﴿قالوا إنما نحن مصلحون﴾؛ فجمعوا بين العمل بالفساد في الأرض وإظهار أنه ليس بإفساد،

(٢) في (ب): «لأن القلب».

(١) في (ب): «والمراد».

(٣) في (ب): «وهي».

بل هو إصلاح قلباً للحقائق، وجمعاً بين فعل الباطل واعتقاده حقاً، وهؤلاء^(١) أعظم جناية ممن يعمل بالمعاصي مع اعتقاد تحريمها^(٢)، فهذا أقرب للسلامة وأرجى لرجوعه، ولما كان في قولهم: ﴿إنما نحن مصلحون﴾؛ حصر للإصلاح في جانبهم - وفي ضمنه أن المؤمنين ليسوا من أهل الإصلاح - قلب الله عليهم دعواهم بقوله:

﴿١٢﴾ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ فإنه لا أعظم إفساداً^(٣) ممن كفر بآيات الله، وصد عن سبيل الله، وخادع الله وأوليائه، ووالى المحاربين لله ورسوله، وزعم مع هذا^(٤) أن هذا إصلاح، فهل بعد هذا الفساد فساد؟! ولكن لا يعلمون علماً ينفعهم وإن كانوا قد علموا بذلك علماً تقوم به عليهم حجة الله، وإنما كان العمل [بالمعاصي] في الأرض إفساداً؛ لأنه سبب لفساد^(٥) ما على وجه الأرض من الحبوب والثمار والأشجار والنبات لما^(٦) يحصل فيها من الآفات التي سببها المعاصي، ولأن الإصلاح في الأرض أن تُعمر بطاعة الله والإيمان به، لهذا خلق الله الخلق وأسكنهم [في] الأرض وأدرّ عليهم^(٧) الأرزاق؛ ليستعينوا بها على طاعته وعبادته، فإذا عُمل فيها بضده كان سعيّاً فيها بالفساد وإخراباً لها عما خُلقت له.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿١٣﴾ أي: إذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن الناس، أي: كإيمان الصحابة رضي الله عنهم وهو: الإيمان بالقلب واللسان، قالوا بزعمهم الباطل: أنؤمن كما آمن السفهاء؟ يعنون - قبحهم الله - الصحابة رضي الله عنهم؛ لزعمهم^(٨) أن سفههم أوجب لهم الإيمان، وترك الأوطان، ومعاداة الكفار، والعقل عندهم يقتضي ضد ذلك، فنسبوههم إلى السفه، وفي ضمن ذلك^(٩) أنهم هم العقلاء أرباب الحجى والنهى؛ فرد الله ذلك عليهم وأخبر أنهم هم السفهاء على الحقيقة؛ لأن حقيقة

(٢) في (ب): «مع اعتقاد أنها معصية».

(٤) في (ب): «مع ذلك».

(٦) في (ب): «بما».

(٨) في (ب): «بزعمهم».

(١) في (ب): «وهذا».

(٣) في (ب): «فساداً».

(٥) في (ب): «لأنه يتضمن فساد».

(٧) في (ب): «لهم».

(٩) في (ب): «وفي ضمنه».

السفه جهل الإنسان بمصالح نفسه، وسعيه فيما يضرها، وهذه الصفة منطبقة عليهم، [وصادقة عليهم] كما أن العقل والحجى معرفة الإنسان بمصالح نفسه والسعي فيما ينفعه وفي دفع ما يضره، وهذه الصفة منطبقة على الصحابة والمؤمنين؛ فالعبرة بالأوصاف والبرهان، لا بالدعاوي المجردة والأقوال الفارغة.

﴿وَإِذَا لَفُؤَ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿١٤﴾ هذا من قولهم بالسنتهم ما ليس في قلوبهم، وذلك أنهم إذا اجتمعوا بالمؤمنين أظهروا أنهم على طريقتهم، وأنهم معهم، فإذا خلوا إلى شياطينهم - أي كبرائهم ورؤسائهم بالشر^(١) - قالوا: إنا معكم في الحقيقة وإنما نحن مستهزون بالمؤمنين بإظهارنا لهم أننا على طريقتهم، فهذه حالهم الباطنة والظاهرة، ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله.

﴿١٥﴾ قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾؛ وهذا جزاء لهم على استهزائهم بعباده، فمن استهزائه بهم أن زين لهم ما كانوا فيه من الشقاء، والأحوال^(٢) الخبيثة حتى ظنوا أنهم مع المؤمنين لَمَّا لم يسلط الله المؤمنين عليهم، ومن استهزائه بهم يوم القيامة: أنه يعطيهم مع المؤمنين نوراً ظاهراً، فإذا مشى المؤمنون بنورهم طغىء نور المنافقين وبَقُوا في الظلمة بعد النور متحيرين، فما أعظم اليأس بعد الطمع ﴿ينادونهم ألم نكن معكم، قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم...﴾ الآية.

قوله: ﴿ويمدهم﴾؛ أي: يزيدهم ﴿في طغيانهم﴾؛ أي: فجورهم وكفرهم ﴿يعمهُون﴾؛ أي: حاثرون مترددون، وهذا من استهزائه تعالى بهم.

ثم قال تعالى كاشفاً عن حقيقة أحوالهم:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ فَمَا رَبَحَتْ بِمِجْدَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿١٦﴾ أولئك؛ أي: المنافقون الموصوفون بتلك الصفات ﴿الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾؛ أي: رغبوا في الضلالة رغبة المشتري في السلعة^(٣)، التي - من

(١) في (ب): «ورؤسائهم وكبرائهم في الشر». (٢) في (ب): «والحالة».

(٣) في (ب): «بالسلعة».

رغبته فيها - يبذل فيها الأموال^(١) النفيسة، وهذا من أحسن الأمثلة، فإنه جعل الضلالة التي هي غاية الشر كالسلعة، وجعل الهدى الذي هو غاية الصلاح بمنزلة الثمن، فبذلوا الهدى رغبة عنه في الضلالة^(٢) رغبة فيها، فهذه تجارتهم؛ فبئس التجارة، وهذه صفقتهم؛ فبئست الصفقة^(٣).

وإذا كان من يبذل^(٤) ديناراً في مقابلة درهم خاسراً فكيف من بذل جوهرة وأخذ عنها درهماً، فكيف من بذل الهدى في مقابلة الضلالة، واختار الشقاء على السعادة، ورغب في سافل الأمور وترك عاليها^(٥)، فما ربحت تجارته بل خسر فيها أعظم خسارة، أولئك الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين. وقوله: ﴿وما كانوا مهتدين﴾؛ تحقيق لضلالهم وأنهم لم يحصل لهم من الهداية شيء، فهذه أوصافهم القبيحة، ثم ذكر مثلهم [الكاشف لها غاية الكشف]، فقال:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَةٍ لَا يَبْصُرُونَ ۖ صُمُّ بَنِيكُمْ عَنِ قَوْمِهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٨ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَنَارٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيْءِ آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۗ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ۝٩ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٠﴾.

﴿١٧﴾ أي: مثلهم المطابق لما كانوا عليه كمثل الذي استوقد ناراً أي: كان في ظلمة عظيمة، وحاجة إلى النار شديدة فاستوقدها من غيره، ولم تكن عنده معدة بل هي خارجة عنه، فلما أضاءت النار ما حوله، ونظر المحل الذي هو فيه وما فيه من المخاوف، وأمنها وانتفع بتلك النار، وقرت بها عينه، وظن أنه قادر عليها، فبينما هو كذلك، إذ ذهب الله بنوره؛ فزال^(٦) عنه النور وذهب معه السرور، وبقي في الظلمة العظيمة والنار المحرقة؛ فذهب ما فيها من الإشراق وبقي ما فيها من

(٢) في (ب): «بالضلالة».

(١) في (ب): «الأثمان».

(٣) في (ب): «فبئس التجارة وبئس الصفقة صفقتهم».

(٥) في (ب): «عن عاليها».

(٤) في (ب): «بذل».

(٦) في (ب): «فذهب».

الإحراق، فبقي في ظلمات متعددة: ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، والظلمة الحاصلة بعد النور، فكيف يكون حال هذا الموصوف؟ فكذلك هؤلاء المنافقون استوقدوا نار الإيمان من المؤمنين ولم تكن صفة لهم، فاستضاءوا بها مؤقتاً وانتفعوا؛ فحققت^(١) بذلك دماؤهم، وسلمت أموالهم، وحصل لهم نوع من الأمن في الدنيا، فبينما هم كذلك^(٢) إذ هجم عليهم الموت؛ فسلبهم الانتفاع بذلك النور، وحصل لهم كل هم وغم وعذاب، وحصل لهم ظلمة القبر، وظلمة الكفر، وظلمة النفاق، وظلمة المعاصي على اختلاف أنواعها، وبعد ذلك ظلمة النار وبئس القرار؛ فلهذا قال تعالى عنهم:

﴿١٨﴾ ﴿صَمٌّ﴾؛ أي: عن سماع الخير ﴿بكم﴾، أي: عن النطق به ﴿عمي﴾ عن رؤية الحق ﴿فهم لا يرجعون﴾؛ لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفوه؛ فلا يرجعون إليه، بخلاف من ترك الحق عن جهل وضلال؛ فإنه لا يعقل، وهو أقرب رجوعاً منهم.

﴿١٩﴾ ثم قال تعالى: ﴿أو كصيب من السماء﴾؛ أي: كصاحب صيب^(٣) وهو: المطر الذي يصب؛ أي: ينزل بكثرة ﴿فيه ظلمات﴾؛ ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، وفيه ﴿رعد﴾؛ وهو: الصوت الذي يسمع من السحاب وفيه ﴿برق﴾؛ وهو الضوء اللامع المشاهد من السحاب.

﴿٢٠﴾ ﴿كلما أضاء لهم﴾؛ البرق في تلك الظلمات ﴿مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا﴾؛ أي: وقفوا، فهكذا حالة^(٤) المنافقين إذا سمعوا القرآن، وأوامره ونواهيته، ووعدته ووعيده؛ جعلوا أصابعهم في آذانهم، وأعرضوا عن أمره ونهيته، ووعدته ووعيده؛ فيروعه وعيده، وتزعجهم وعوده، فهم يعرضون عنها غاية ما يمكنهم ويكرهونها كراهة صاحب الصيب الذي يسمع الرعد فيجعل أصابعه في أذنيه^(٥) خشية الموت، فهذا ربما حصلت له السلامة^(٦)، وأما المنافقون فأنى لهم

(١) في (ب): «ولم تكن صفة لهم فانتفعوا بها، وحققت».

(٢) في (ب): «على ذلك».

(٣) في (ب): «يعني: أو مثلهم كصيب؛ أي: كصاحب صيب من السماء».

(٤) في (ب): «حال».

(٥) في (ب): «أذنه».

(٦) في (ب): «فهذا تمكن له السلامة».

السلامة وهو تعالى محيط بهم قدرة وعلماً فلا يفوتونه ولا يعجزونه، بل يحفظ عليهم أعمالهم ويجازيهم عليها أتم الجزاء.

ولما كانوا مبتلين بالصمم والبكم والعمى المعنوي ومسدودة عليهم طُرُقُ الإيمان قال تعالى: ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم﴾؛ أي الحسية، ففيه تخويف لهم وتحذير^(١) من العقوبة الدنيوية؛ ليحذروا فيرتدعوا عن بعض شرهم ونفاقهم ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾؛ فلا يعجزه شيء، ومن قدرته أنه إذا شاء شيئاً فعله من غير ممانع ولا معارض.

وفي هذه الآية وما أشبهها ردُّ على القدرية القائلين بأن أفعالهم غير داخلة في قدرة الله تعالى؛ لأن أفعالهم من جملة الأشياء الداخلة في قوله: ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾.

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٢).

﴿٢١﴾ هذا أمر عام لجميع الناس^(٢) بأمر عام وهو العبادة الجامعة لامثال أوامر الله واجتناب نواهيه وتصديق خبره، فأمرهم تعالى بما خلقهم له، قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾؛ ثم استدل على وجوب عبادته وحده بأنه ربكم الذي رباكم بأصناف النعم، فخلقكم بعد العدم، وخلق الذين من قبلكم.

﴿٢٢﴾ وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، فجعل لكم الأرض فراشاً تستقرون عليها، وتتفنون بالآبنية والزراعة والحراثة والسلوك من محل إلى محل، وغير ذلك من وجوه^(٣) الانتفاع بها، وجعل السماء بناءً لمسكنكم وأودع فيها من المنافع ما هو من ضروراتكم وحاجاتكم كالشمس والقمر والنجوم ﴿وأنزل من السماء ماء﴾؛ والسماء هو: كل ما علا فوقك فهو سماء، ولهذا قال المفسرون: المراد بالسماء ههنا السحاب، فأنزل منه تعالى ماء ﴿فأخرج به من الثمرات﴾؛ كالحبوب والثمار من نخيل وفواكه وزروع وغيرها ﴿رِزْقًا لَكُمْ﴾؛ به ترتزقون وتتقوتون^(٤) وتعيشون

(١) في (ب): «ففيه تحذير لهم وتخويف».

(٢) في (ب): «للكل الناس».

(٣) في (ب): «من أنواع».

(٤) في (ب): «وتقوتون».

وتفكّهون^(١)، ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾؛ أي: أشبهاً ونظراء^(٢) من المخلوقين؛ فتعبدونهم كما تعبدون الله، وتحبونهم كما تحبونه^(٣)، وهم مثلكم مخلوقون مرزوقون مُدبّرون، لا يملكون مثقال ذرة في الأرض، ولا في السماء^(٤)، ولا ينفعونكم ولا يضرون ﴿وأنتم تعلمون﴾؛ أن الله ليس له شريك، ولا نظير لا في الخلق والرزق والتدبير، ولا في الألوهية والكمال^(٥)، فكيف تعبدون معه آلهة أخرى مع علمكم بذلك؟ هذا من أعجب العجب وأسفه السفه.

وهذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته وبطلان عبادة ما سواه، وهو ذكر توحيد الربوبية المتضمن انفراده بالخلق والرزق والتدبير، فإذا كان كل أحد مقراً بأنه ليس له شريك بذلك فكذلك؛ فليكن الإقرار بأن الله ليس له شريك في عبادته^(٦)، وهذا أوضح دليل عقلي على وحدانية الباري تعالى وبطلان الشرك.

وقوله: ﴿لعلمكم تتقون﴾؛ يحتمل أن المعنى أنكم إذا عبدتم الله وحده اتقيتم بذلك سخطه وعذابه؛ لأنكم أتيتم بالسبب الدافع لذلك، ويحتمل أن يكون المعنى أنكم إذا عبدتم الله صرتم من المتقين الموصوفين بالتقوى، وكلا المعنيين صحيح، وهما متلازمان، فمن أتى بالعبادة كاملة؛ كان من المتقين، ومن كان من المتقين؛ حصلت له النجاة من عذاب الله، وسخطه.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿٢٣﴾ وهذا دليل عقلي على صدق رسول الله ﷺ وصحة ما جاء به فقال: وإن كنتم - يا معشر المعاندين للرسول الرادين دعوته الزاعمين كذبه - في شك، واشتباه مما نزلنا على عبدنا، هل هو حق أو غيره؟ فهذهنا أمر نُصِفَ فيه الفيصلة بينكم وبينه، وهو: أنه بشر مثلكم ليس من جنس آخر^(٧)، وأنتم تعرفونه منذ نشأ

(١) في (ب): «وتفكّهون».

(٢) في (ب): «أي: نظراء وأشبهاً».

(٣) في (ب): «كما تحبون الله».

(٤) في (ب): «لا في السماء ولا في الأرض».

(٥) في (ب): «ولا في العبادة».

(٦) في (ب): «في العبادة».

(٧) في (النسختين): «ليس بأفصحكم وأعلمكم». ثم شطبها الشيخ في (أ). وأثبت ما هو أعلاه.

بينكم لا يكتب ولا يقرأ، فأتاكم بكتاب زعم أنه من عند الله، وقتلتم أنتم إنه تقوله وافتراه، فإن كان الأمر كما تقولون؛ فأتوا بسورة من مثله، واستعينوا بمن تقدرون عليه من أعوانكم وشهداءكم، فإن هذا أمر يسير عليكم، خصوصاً وأنتم أهل الفصاحة والخطابة والعداوة العظيمة للرسول، فإن جئتم بسورة من مثله؛ فهو كما زعمتم، وإن لم تأتوا بسورة من مثله وعجزتم غاية العجز [ولن تأتوا بسورة من مثله، ولكن هذا التقييم على وجه الإنصاف والتنزل معكم]؛ فهذا آية كبيرة ودليل واضح جلي على صدقه وصدق ما جاء به؛ فيتعين عليكم اتباعه، واتقاء النار التي بلغت في الحرارة العظيمة والشدة، أن كان وقودها الناس والحجارة، ليست كنار الدنيا التي إنما تُتَّقَد بالحطب، وهذه النار الموصوفة مُعَدَّة ومُهَيَّاة للكافرين بالله ورسله؛ فاحذروا الكفر برسوله بعدما تبين لكم أنه رسول الله.

﴿٢٤﴾ وهذه الآية ونحوها يسمونها: آية التحدي، وهو: تعجيز الخلق عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو يعارضوه بوجه، قال تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾؛ وكيف يقدر المخلوق من تراب أن يكون كلامه ككلام رب الأرباب، أم كيف يقدر الفقير الناقص^(١) من جميع الوجوه أن يأتي بكلام ككلام الكامل، الذي له الكمال المطلق، والغنى الواسع من جميع الوجوه^(٢)؟ هذا ليس في الإمكان ولا في قدرة الإنسان، وكل من له أدنى ذوق ومعرفة بأنواع الكلام^(٣)، إذا وزن هذا القرآن [العظيم] بغيره من كلام البلغاء، ظهر له الفرق العظيم.

وفي قوله: ﴿وإن كنتم في ريب﴾؛ إلى آخره، دليل على أن الذي يرجى له الهداية من الضلالة هو الشاك الحائر، الذي لم يعرف الحق من الضلالة، فهذا الذي إذا بين له الحق حري باتباعه^(٤) إن كان صادقاً في طلب الحق، وأما المعاند الذي يعرف الحق ويتركه، فهذا لا يمكن رجوعه؛ لأنه ترك الحق بعد ما تبين له، لم يتركه عن جهل فلا حيلة فيه، وكذلك الشاك الذي ليس بصادق^(٥) في طلب الحق بل هو معرض غير مجتهد بطلبه؛ فهذا في الغالب لا يوفق.

(١) في (ب): «الناقص الفقير».

(٢) في (ب): «ومعرفة بالكلام».

(٣) في (ب): «فإذا بين له الحق فهو حري بالتوفيق».

(٤) في (ب): «وكذلك الشاك غير الصادق».

(٥) في (ب): «من كل الوجوه».

وفي وصف الرسول بالعبودية في هذا المقام العظيم دليل^(١) على أن أعظم أوصافه ﷺ قيامه بالعبودية التي لا يلحقه فيها أحد من الأولين والآخرين، كما وصفه بالعبودية في مقام الإساءة فقال: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾؛ وفي مقام الإنزال فقال: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾. وفي قوله: ﴿أعدت للكافرين﴾؛ ونحوها من الآيات دليل لمذهب أهل السنة والجماعة أن الجنة والنار مخلوقتان، خلافاً للمعتزلة.

وفيها أيضاً: أن الموحدين وإن ارتكبوا بعض الكبائر لا يخلدون في النار لأنه قال: ﴿أعدت للكافرين﴾؛ فلو كان عصاة الموحدين يخلدون^(٢) فيها لم تكن معدة للكافرين وحدهم، خلافاً للخوارج والمعتزلة وفيها: دلالة على أن العذاب مُستحق بأسبابه وهو الكفر وأنواع المعاصي على اختلافها.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٥).

﴿٢٥﴾ لما ذكر جزاء الكافرين ذكر جزاء المؤمنين أهل الأعمال الصالحات كما هي طريقته تعالى في كتابه^(٣) يجمع بين الترويح والترهيب؛ ليكون العبد راغباً راهباً خائفاً راجياً فقال: ﴿وبشِّر﴾؛ أي: أيها الرسول^(٤)، ومن قام مقامك ﴿الذين آمنوا﴾؛ بقلوبهم ﴿وعملوا الصالحات﴾؛ بجوارحهم؛ فصدقوا بإيمانهم بأعمالهم الصالحة، ووُصِفَت أعمال الخير بالصالحات؛ لأن بها تصلح أحوال العبد، وأمر دينه ودنياه، وحياته الدنيوية والأخروية، ويزول بها عنه فساد الأحوال؛ فيكون بذلك من الصالحين الذين يصلحون لمجاورة الرحمن في جنته فبشرهم ﴿أن لهم جنات﴾؛ أي: بساتين جامعة للأشجار^(٥) العجيبة والثمار الأنيفة والظل المديد والأغصان والأفنان، وبذلك صارت جنة^(٦) يجتن بها داخلها وينعم فيها ساكنها ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾؛ أي: أنهار الماء واللبن والعسل والخمر يفجرونها

(١) في (ب): «دلالة».

(٢) في (ب): «على طريقته تعالى في القرآن». (٤) في (ب): «وبشِّر»؛ يا محمد.

(٥) في (ب): «من الأشجار».

(٦) في (ب): «والظل المديد ما صارت به جنة».

كيف شاؤوا، ويصرفونها أين أرادوا، وتُسقى^(١) منها تلك الأشجار؛ فتنبت أصناف الثمار ﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل﴾؛ أي: هذا من جنسه وعلى وصفه، كلها متشابهة في الحسن واللذة ليس فيها ثمرة خاصة، وليس لهم وقت خالٍ من اللذة؛ فهم دائماً متلذذون بأكلها، وقوله: ﴿وأتوا به متشابهاً﴾؛ قيل: متشابهاً في الاسم مختلفاً في الطعم^(٢)، وقيل: متشابه في اللون مختلف في الاسم، وقيل: يشبه بعضه بعضاً في الحسن واللذة والفكاهة، ولعل هذا أحسن^(٣).

ثم لما ذكر مسكنهم، وأقواتهم من الطعام والشراب، وفواكههم ذكر أزواجهم؛ فوصفهن بأكمل وصف وأوجزه وأوضحه؛ فقال: ﴿ولهن فيها أزواج مطهرة﴾؛ فلم يقل مطهرة من العيب الفلاني؛ ليشمل جميع أنواع التطهير، فهن مطهرات الأخلاق، مطهرات الخلق، مطهرات اللسان، مطهرات الأبصار، فأخلاقهن أنهن عُرِبَ متحبات إلى أزواجهن بالخلق الحسن وحسن التبعل والأدب القولي والفعلي، ومطهر خلقهن من الحيض والنفاس والمني والبول والغائط والمخاط والبصاق والرائحة الكريهة، ومطهرات الخلق أيضاً بكمال الجمال؛ فليس فيهن عيب ولا دمامة خلق، بل هن خيرات حسان، مطهرات اللسان والطرف، قاصرات طرفهن على أزواجهن، وقاصرات الستين عن كل كلام قبيح.

ففي هذه الآية الكريمة ذكر المبشر والمُبَشِّر والمُبَشَّر به والسبب الموصل لهذه البشارة؛ فالمبشر هو: الرسول ﷺ ومن قام مقامه من أمته، والمبشَّر هم: المؤمنون العاملون الصالحات، والمبشر به هي: الجنات الموصوفات بتلك الصفات، والسبب الموصل لذلك، هو: الإيمان والعمل الصالح، فلا سبيل إلى الوصول إلى هذه البشارة إلا بهما، وهذا أعظم بشارة حاصلة على يد أفضل الخلق بأفضل الأسباب، وفيه استحباب بشارة المؤمنين وتنشيطهم على الأعمال بذكر جزائها وثمراتها؛ فإنها بذلك تخف وتسهل، وأعظم بشرى حاصلة للإنسان توفيقه للإيمان والعمل الصالح، فذلك أول البشارة وأصلها، ومن بعده البشري عند الموت، ومن بعده الوصول إلى هذا النعيم المقيم. نسأل الله من فضله^(٤).

(١) في (ب): «وتشرب».

(٢) في (ب): «مختلف الطعوم».

(٣) في (ب): «ولعل هذا هو الصحيح».

(٤) في (ب): «فنسأل الله أن يجعلنا منهم».

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَتَقَبَّضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿٢٦﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا﴾؛ أي: أي مثل كان ﴿بعوضة فما فوقها﴾؛ لاشتغال الأمثال على الحكمة وإيضاح الحق، والله لا يستحيي من الحق، وكأن في هذا جواباً لمن أنكر ضرب الأمثال في الأشياء الحقيرة، واعترض على الله في ذلك؛ فليس في ذلك محل اعتراض، بل هو من تعليم الله لعباده ورحمته بهم، فيجب أن تتلقى بالقبول والشكر، ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾؛ فيفهمونها ويتفكرون فيها، فإن علموا ما اشتملت عليه على وجه التفصيل ازداد بذلك علمهم وإيمانهم، وإلا علموا أنها حق، وما اشتملت عليه حق، وإن خفي عليهم وجه الحق فيها، لعلمهم بأن الله لم يضربها عبثاً بل لحكمة بالغة ونعمة سابغة، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾؛ فيعترضون ويتحIRON فيزدادون كفراً إلى كفرهم كما ازداد المؤمنون إيماناً على إيمانهم؛ ولهذا قال: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾؛ فهذه حال المؤمنين والكافرين عند نزول الآيات القرآنية، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيْكُم زَادَتْ هَذِهِ إِيْمَانًا، فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون. وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾؛ فلا أعظم نعمة على العباد من نزول الآيات القرآنية، ومع هذا تكون لقوم محنة وحيرة وضلالة وزيادة شر إلى شرهم، ولقوم منحة ورحمة وزيادة خير إلى خيرهم، فسبحان من فاءت بين عباده، وانفرد بالهداية والإضلال.

ثم ذكر حكمته وعدله في إضلاله من يضل^(١)؛ فقال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾؛ أي: الخارجين عن طاعة الله المعاندين لرسول الله الذين صار الفسق وصفهم؛ فلا يبيغون به بدلاً، فاقتضت حكمته تعالى إضلالهم؛ لعدم صلاحيتهم

(١) في (ب): «في إضلال من يضل».

للهدى، كما اقتضى فضله وحكمته^(١) هداية من اتصف بالإيمان وتحلى بالأعمال الصالحة.

والفسق نوعان: نوع مخرج من الدين وهو الفسق المقتضي للخروج من الإيمان كالمذكور في هذه الآية ونحوها، ونوع غير مخرج من^(٢) الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا...﴾؛ الآية.

ثم وصف الفاسقين فقال:

﴿٢٧﴾ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه؛ وهذا يعم العهد الذي بينهم وبين ربهم^(٣)، والذي بينهم وبين الخلق^(٤)، الذي أكد عليهم بالمواثيق الثقيلة والإلزامات، فلا يبالون بتلك المواثيق، بل ينقضونها، ويتركون أوامره، ويرتكبون نواهيه، وينقضون العهود التي بينهم وبين الخلق ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾؛ وهذا يدخل فيه أشياء كثيرة، فإن الله أمرنا أن نصل ما بيننا وبينه بالإيمان به والقيام بعبوديته، وما بيننا وبين رسوله بالإيمان به ومحبه وتعزيره والقيام بحقوقه، وما بيننا وبين الوالدين والأقارب والأصحاب وسائر الخلق بالقيام بحقوقهم^(٥) التي أمر الله أن نصلها، فأما المؤمنون فوصلوا ما أمر الله به أن يوصل من هذه الحقوق، وقاموا بها أتم القيام؛ وأما الفاسقون فقطعوها ونبذوها وراء ظهورهم معتاضين عنها بالفسق والقطيعة والعمل بالمعاصي وهو الإفساد في الأرض، ﴿فأولئك﴾؛ أي: من هذه صفته ﴿هم الخاسرون﴾؛ في الدنيا والآخرة، فحصر الخسارة فيهم؛ لأن خسارتهم عام في كل أحوالهم ليس لهم نوع من الربح، لأن كل عمل صالح شرطه الإيمان، فمن لا إيمان له؛ لا عمل له، وهذا الخسار هو: خسار الكفر، وأما الخسار الذي قد يكون كفراً وقد يكون معصية وقد يكون تفريطاً في ترك مستحب، المذكور في قوله تعالى: ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾؛ فهذا عام لكل مخلوق إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وحقيقته فوات الخير الذي كان العبد بصدد تحصيله وهو تحت إمكانه.

ثم قال تعالى:

(١) في (ب): «كما اقتضت حكمته وفضله». (٢) في (ب): «عن».

(٣) في (ب): «وبينه». (٤) في (ب): «وبين عباده».

(٥) في (ب): «وسائر الخلق بتلك الحقوق».

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٨).

﴿٢٨﴾ هذا استفهام بمعنى التعجب والتوبيخ والإنكار؛ أي: كيف يحصل منكم الكفر بالله الذي خلقكم من العدم، وأنعم عليكم بأصناف النعم، ثم يميتكم عند استكمال آجالكم، ويجازيكم في القبور، ثم يحييكم بعد البعث والنشور، ثم إليه ترجعون فيجازيكم الجزاء الأوفى، فإذا كنتم في تصرفه وتدبيره وبره وتحت أوامره الدينية، وبعد^(١) ذلك تحت دينه الجزائي أفيليق بكم أن تكفروا به؟ وهل هذا إلا جهل عظيم وسفه كبير^(٢)؟ بل الذي يليق بكم أن تتقوه وتشكروه، وتؤمنوا به^(٣)، وتخافوا عذابه، وترجوا ثوابه.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

﴿٢٩﴾ أي: خلق لكم براً بكم ورحمة جميع ما على الأرض للانتفاع والاستمتاع والاعتبار.

وفي هذه الآية الكريمة^(٤) دليل على أن الأصل في الأشياء الإباحة والطهارة؛ لأنها سبقت في معرض الامتنان، يخرج بذلك الخبائث فإن تحريمها أيضاً يؤخذ^(٥) من فحوى الآية، وبيان المقصود منها، وأنه خلقها لنفعنا، فما فيه ضرر؛ فهو خارج من ذلك، ومن تمام نعمته منعنا من الخبائث تنزيهاً لنا؛ وقوله:

﴿ثُمَّ أَسْتَوِي إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢٩).

«استوى»: ترد في القرآن على ثلاثة معانٍ: فتارة لا تُعدى بالحرف فيكون معناها: الكمال والتمام، كما في قوله عن موسى: ﴿ولما بلغ أشده واستوى﴾؛ وتارة تكون بمعنى علا وارتفع، وذلك إذا عدت «بعلى» كقوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾^(٦)؛ «لستوا على ظهوره»؛ وتارة تكون بمعنى قصد كما إذا عدت «بإلى» كما في هذه الآية، أي: لما خلق تعالى الأرض قصد إلى خلق

(١) في (ب): «ومن بعد».

(٢) في (ب): «أن تؤمنوا به، وتتقوه، وتشكروه».

(٣) في (ب): «العتية».

(٤) في (ب): «فإنها تؤخذ».

(٥) في (ب): «كما في قوله: ﴿ثم استوى على العرش﴾».

السموات فسواهن سبع سماوات فخلقها وأحكمها وأتقنها وهو بكل شيء عليم، فيعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، ويعلم ما تسرون وما تعلنون، يعلم السر وأخفى.

وكثيراً ما يقرن بين خلقه وإثبات علمه كما في هذه الآية وكما في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾؛ لأن خلقه للمخلوقات أدل دليل على علمه وحكمته وقدرته.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَآءِ هٰٓؤُلَآءِ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالُوا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢٣﴾ قَالَ يٰٓكَادُمْ أَنْتَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿٣٠﴾ هذا شروع في ابتداء خلق آدم عليه السلام^(١) أبي البشر وفضله، وأن الله تعالى حين أراد خلقه أخبر الملائكة بذلك، وأن الله مستخلفه في الأرض، فقالت الملائكة عليهم السلام: أتجعل فيها من يفسد فيها بالمعاصي ويسفك الدماء، وهذا تخصيص بعد تعميم؛ لبيان شدة مفسدة القتل، وهذا بحسب ظنهم أن الخليفة المَجْعُول في الأرض سيحدث منه ذلك، فزهوا الباري عن ذلك وعظموه، وأخبروا أنهم قائمون بعبادة الله على وجه خالٍ من المفسدة فقالوا: ﴿ونحن نسبح بحمدك﴾؛ أي: ننزهك التنزيه اللائق بحمدك وجلالك ﴿ونقدس لك﴾؛ أي: نحتمل أن معناها ونقدسك؛ فتكون اللام مفيدة للتخصيص والإخلاص، ويحتمل أن يكون: ونقدس لك أنفسنا؛ أي: نطهرها بالأخلاق الجميلة؛ كمحبة الله، وخشيته، وتعظيمه، ونطهرها من الأخلاق الرذيلة ﴿قال﴾؛ الله^(٢) للملائكة: ﴿إني أعلم﴾؛ من هذا الخليفة ﴿ما لا تعلمون﴾؛ لأن كلامكم بحسب ما ظننتم، وأنا عالم

(١) في (ب): «هذا شروع في ذكر فضل آدم عليه السلام».

(٢) في (ب): «قال تعالى...».

بالظواهر والسرائر، وأعلم أن الخير الحاصل بخلق هذا الخليفة أضعاف أضعاف ما في ضمن ذلك من الشر، فلو لم يكن في ذلك، إلا أن الله تعالى أراد أن يجتبي منهم الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين، ولتظهر آياته للخلق^(١)، ويحصل من العبوديات التي لم تكن تحصل بدون خلق هذا الخليفة كالجهاد وغيره، وليظهر ما كمن في غرائز المكلفين من الخير^(٢) والشر بالامتحان، وليتبين عدوه من وليه وحزبه من حربه، وليظهر ما كمن في نفس إبليس من الشر الذي انطوى عليه واتصف به، فهذه حكم عظيمة يكفي بعضها في ذلك.

ثم لما كان قول الملائكة عليهم السلام فيه إشارة إلى فضلهم على الخليفة الذي يجعله الله في الأرض، أراد الله تعالى أن يبين لهم من فضل آدم ما يعرفون به فضله، وكمال حكمة الله وعلمه.

﴿٣١﴾ فَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا؛ أي: أسماء الأشياء ومن هو مسمى بها، فعلمه الاسم والمُسَمَّى؛ أي: الألفاظ والمعاني حتى المصغر من الأسماء والمكبر؛ كالقصعة والقُصِيعة^(٣) ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾؛ أي: عرض المسمّيات ﴿عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾؛ امتحاناً لهم هل يعرفونها أم لا ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ في قولكم وظنكم أنكم أفضل من هذا الخليفة.

﴿٣٢﴾ ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾؛ أي ننزهك من^(٤) الاعتراض مثلاً عليك، ومخالفة أمرك ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾؛ بوجه من الوجوه، ﴿إِلَّا مَا عَلِمْتُنَا﴾؛ إياه فضلاً منك وجوداً ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾؛ العليم الذي أحاط علماً بكل شيء، فلا يغيب عنه ولا يعزب مثقال ذرة في السماوات والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، الحكيم: من له الحكمة التامة التي لا يخرج عنها مخلوق ولا يشذ عنها مأمور، فما خلق شيئاً إلا لحكمة، ولا أمر بشيء إلا لحكمة، والحكمة وضع الشيء في موضعه اللائق به.

فأقروا واعترفوا بعلم الله وحكمته وقصورهم عن معرفة أدنى شيء، واعترفوا بفضل الله عليهم وتعليمه إياهم ما لا يعلمون.

(١) في (ب): «الخلق».

(٢) في (ب): «في غرائز بني آدم من الخير».

(٣) في (ب): «حتى المكبر من الأسماء كالقصعة، والمصغر كالقُصِيعة».

(٤) في (ب): «عن».

﴿٣٣﴾ فحيثُ قال الله: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾؛ أي: أَسْمَاءَ المسميات التي عرضها الله على الملائكة؛ فعجزوا عنها ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾؛ تبين للملائكة فضل آدم عليهم، وحكمة الباري وعلمه في استخلاف هذا الخليفة ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهو ما غاب عنا فلم نشاهده، فإذا كان عالماً بالغيب، فالشهادة من باب أولى ﴿وَأَعْلَمُ مَا تَبْدُونَ﴾؛ أي: تظهرون ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

﴿٣٤﴾ ثم أمرهم تعالى بالسجود لآدم إكراماً له وتعظيماً وعبودية لله تعالى؛ فامتثلوا أمر الله، وبادروا كلهم بالسجود، ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ امتنع عن السجود، واستكبر عن أمر الله، وعلى آدم قال: ﴿أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾ وهذا الإباء منه، والاستكبار نتيجة الكفر الذي هو منظور عليه، فتبينت حيثُ عداوته لله ولآدم وكفره واستكباره.

وفي هذه الآيات من العِبَر والآيات إثبات الكلام لله تعالى، وأنه لم يزل متكلماً يقول ما شاء، ويتكلم بما شاء وأنه عليم حكيم، وفيه أن العبد إذا خفيت عليه حكمة الله في بعض المخلوقات، والمأمورات؛ فالواجب عليه التسليم وانهاؤه عقله والإقرار لله بالحكمة؛ وفيه اعتناء الله بشأن الملائكة وإحسانه بهم بتعليمهم ما جهلوا، وتنبههم على ما لم يعلموه.

وفي فضيلة العلم من وجوه:

منها: أن الله تعرف لملائكته بعلمه وحكمته.

ومنها: أن الله عرفهم فضل آدم بالعلم، وأنه أفضل صفة تكون في العبد.

ومنها: أن الله أمرهم بالسجود لآدم إكراماً له لَمَّا بَانَ فضل علمه.

ومنها: أن الامتحان للغير إذا عجزوا عما امتحنوا به ثم عرفه صاحب الفضيلة فهو أكمل مما عرفه ابتداءً.

ومنها^(١): الاعتبار بحال أبوي الإنس والجن وبيان فضل آدم وأفضال الله عليه وعداوة إبليس له، إلى غير ذلك من العبر.

﴿وَقُلْنَا يَكَادُمْ أَشْكُنَ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ

(١) في (ب): «وفيها».

فَنَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَرْسَلْنَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ .

﴿٣٥﴾ لما خلق الله آدم وفضلته، أتم نعمته عليه بأن خلق منه زوجة؛ ليسكن إليها ويستأنس بها، وأمرهما بسكنى الجنة والأكل منها رغداً؛ أي: واسعاً هنيئاً ﴿حيث شئتما﴾؛ أي: من أصناف الثمار والفواكه، وقال الله له: ﴿إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾، ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾؛ نوع من أنواع شجر الجنة الله أعلم بها، وإنما نهاهما عنها امتحاناً وابتلاء أو لحكمة غير معلومة لنا، ﴿فتكونا من الظالمين﴾؛ دل على أن النهي للتحريم؛ لأنه رتب الظلم عليه^(١)؛ فلم يزل عدوهما يوسوس لهما ويزين لهما تناول ما نهيها عنه حتى أزلهما أي حملهما على الزلل بتزيينه ﴿وقاسمهما﴾؛ بالله ﴿إني لكما لمن الناصحين﴾.

﴿٣٦﴾ فاغترا به وأطاعاه؛ فأخرجهما مما كانا فيه من النعيم، والرغد، وأهبطوا إلى دار التعب والنصب والمجاهدة ﴿بعضكم لبعض عدو﴾؛ أي: آدم وذريته أعداء لإبليس وذريته.

ومن المعلوم أن العدو يجتد ويجهد في ضرر عدوه وإيصال الشر إليه بكل طريق وحرمانه الخير بكل طريق، ففي ضمن هذا تحذير بني آدم من الشيطان كما قال تعالى: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً﴾ ثم ذكر منتهى الإهباط فقال: ﴿ولكم في الأرض مستقر﴾؛ أي: مسكن وقرار ﴿ومتاع إلى حين﴾؛ انقضاء آجالكم ثم تنتقلون منها للدار التي خلقت لها وخلقتم لكم، ففيها أن مدة هذه الحياة مؤقتة عارضة ليست مسكناً حقيقياً، وإنما هي معبر يُتزوّد منها لتلك الدار، ولا تُعمر للاستقرار.

[﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾] ﴿٣٧﴾^(٢).

﴿٣٧﴾ ﴿فتلقى آدم﴾؛ أي: تلقف وتلقن وألهمه الله ﴿من ربه كلمات﴾؛ وهي

(١) في (ب): «عليه الظلم».

(٢) ما بين المعقوفتين زيادة لا توجد في النسختين.

قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا...﴾؛ الآية؛ فاعترف بذنبه، وسأل الله مغفرته ﴿فَتَابَ﴾؛ الله، ﴿عَلَيْهِ﴾؛ ورحمه ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾؛ لمن تاب إليه وأتاب. وتوبته نوعان: توفيقه أولاً. ثم قبوله للتوبة إذا اجتمعت شروطها ثانياً. ﴿الرَّحِيمِ﴾؛ بعباده، ومن رحمته بهم أن وفقهم للتوبة وعفا عنهم وصفح.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿٣٨﴾ كرر الإهباط؛ ليرتب عليه ما ذكر، وهو قوله: ﴿فإما يأتينكم مني هدى﴾؛ أي: أي وقت وزمان جاءكم مني يا معشر الثقلين هدى؛ أي: رسول وكتاب يهديكم لما يقربكم مني، ويدنيكم من رضائي فمن تبع هداي منكم، بأن آمن برسلي، وكتبي واهتدى بهم، وذلك بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب والامثال للأمر والاجتناب للنهي، ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾؛ وفي الآية الأخرى، ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾.

فرتب على اتباع هداه أربعة أشياء:

نفي الخوف والحزن والفرق بينهما: أن المكروه إن كان قد مضى أحدث الحزن وإن كان منتظراً أحدث الخوف، فنفاهما عن اتباع الهدى وإذا انتفيا حصل ضدهما وهو الأمن التام.

﴿٣٩﴾ وكذلك: نفي الضلال والشقاء عن اتباع هداه، وإذا انتفيا ثبت ضدهما، وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هداه حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى وانتفى عنه كل مكروه من الخوف والحزن والضلال والشقاء؛ فحصل له المرغوب واندفع عنه المرهوب، وهذا عكس من لم يتبع هداه فكفر به وكذب بآياته؛ فأولئك أصحاب النار، أي: الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه، والغريم لغريمه ﴿هم فيها خالدون﴾ لا يخرجون منها ولا يفتر عنهم العذاب ولا هم ينصرون.

وفي هذه الآيات، وما أشبهها انقسام الخلق من الجن والإنس إلى أهل السعادة، وأهل الشقاوة، وفيها صفات الفريقين والأعمال الموجبة لذلك، وأن الجن كالإنس في الثواب والعقاب، كما أنهم مثلهم في الأمر والنهي.

ثم شرع تعالى يُذكر بني إسرائيل نعمه عليهم وإحسانه فقال:

﴿يَبْنَئِ بِإِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِلَيَّ فَارْجِعُونَ﴾
 ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيمَانِي ثَمَنًا قَلِيلًا
 وَإِلَيَّ فَارْجِعُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْسِنُوا الْحَقَّ بِالْبُطْلِ وَكَفَّهُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ
 وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَبُوا مَعَ الزَّكَاةِ ﴿٤٣﴾ .

﴿٤٠﴾ ﴿يا بني إسرائيل﴾؛ المراد بإسرائيل: يعقوب عليه السلام، والخطاب مع فِرْق بني إسرائيل، الذين بالمدينة وما حولها ويدخل فيهم من أتى بعدهم، فأمرهم بأمر عام فقال: ﴿اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾؛ وهو يشمل سائر النعم التي سيذكر في هذه السورة بعضها، والمراد بذكرها بالقلب اعترافاً، وباللسان ثناءً، وبالجوارح باستعمالها فيما يحبه ويرضيه ﴿وأوفوا بعهدي﴾؛ وهو ما عهده إليهم من الإيمان به، وبرسله، وإقامة شرعه ﴿أوف بعهدكم﴾؛ وهو المجازاة على ذلك، والمراد بذلك ما ذكره الله في قوله: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل ويعتدنا منهم اثني عشر نقيةً وقال الله إني معكم لئن أقمتُم الصلاة وآتيتُم الزكاة وآمنتُم برسلي﴾؛ إلى قوله: ﴿فقد ضل سواء السبيل﴾؛ ثم أمرهم بالسبب الحامل لهم على الوفاء بعهده، وهو الرهبة منه تعالى، وخشيته وحده، فإن من خشيه أوجبت له خشيته امتثال أمره، واجتناب نهيه، ثم أمرهم بالأمر الخاص الذي لا يتم إيمانهم ولا يصح إلا به فقال:

﴿٤١﴾ ﴿وآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ﴾؛ وهو: القرآن الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فأمرهم بالإيمان به واتباعه، ويستلزم ذلك، الإيمان بمن أنزل عليه، وذكر الداعي لإيمانهم، فقال: ﴿مصدقاً لما معكم﴾؛ أي: موافقاً له لا مخالفاً ولا مناقضاً، فإذا كان موافقاً لما معكم من الكتب غير مخالف لها فلا مانع لكم من الإيمان به؛ لأنه جاء بما جاءت به المرسلون، فأنتم أولى من آمن به وصدق به؛ لكونكم أهل الكتب والعلم.

وأيضاً فإن في قوله: ﴿مصدقاً لما معكم﴾؛ إشارة إلى أنكم إن لم تؤمنوا به عاد ذلك عليكم بتكذيب ما معكم؛ لأن ما جاء به هو الذي جاء به موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء، فتكذيبكم له تكذيب لما معكم.

وأيضاً فإن في الكتب التي بأيديكم صفة هذا النبي الذي جاء بهذا القرآن، والبشارة به، فإن لم تؤمنوا به؛ كذبتُم ببعض ما أنزل إليكم، ومن كذب ببعض ما

أنزل إليه؛ فقد كذب بجميعه، كما أن من كفر برسول؛ فقد كذب الرسل جميعهم، فلما أمرهم بالإيمان به نهاهم، وحذرهم عن ضده وهو الكفر به فقال: ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾؛ أي: بالرسول والقرآن، وفي قوله: ﴿أول كافر به﴾؛ أبلغ من قوله ولا تكفروا به؛ لأنهم إذا كانوا أول كافر به كان فيه مبادرتهم إلى الكفر [به] عكس ما ينبغي منهم، وصار عليهم إثمهم وإثم من اقتدى بهم من بعدهم.

ثم ذكر المانع لهم من الإيمان وهو اختيار العرض الأدنى على السعادة الأبدية فقال: ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾؛ وهو ما يحصل لهم من المناصب والمآكل التي يتوهمون انقطاعها إن آمنوا بالله ورسوله، فاشتروها بآيات الله واستحبوها وآثروها ﴿وإياي﴾؛ أي: لا غيري، ﴿فاتقون﴾؛ فإنكم إذا اتقيتم الله وحده أوجب لكم تقواه تقديم الإيمان بآياته على الثمن القليل، كما أنكم إذا اخترتم الثمن القليل؛ فهو دليل على ترحل التقوى من قلوبكم، ثم قال:

﴿٤٢﴾ ﴿ولا تلبسوا﴾؛ أي: تخلطوا ﴿الحق بالباطل وتكتموا الحق﴾؛ فنهاهم عن شيئين، عن خلط الحق بالباطل وكتمان الحق؛ لأن المقصود من أهل الكتب والعلم تمييز الحق [من الباطل] وإظهار الحق، ليهتدي بذلك المهتدون، ويرجع الضالون وتقوم الحجة على المعاندين؛ لأن الله فصل آياته وأوضح بيناته؛ ليميز الحق من الباطل، ولتستبين سبيل المهتدين من سبيل المجرمين، فمن عمل بهذا من أهل العلم؛ فهو من خلفاء الرسل وهداة الأمم، ومن لبس الحق بالباطل فلم يميز هذا من هذا مع علمه بذلك، وكتم الحق الذي يعلمه وأمر بإظهاره؛ فهو من دعاة جهنم؛ لأن الناس لا يقتدون في أمر دينهم بغير علمائهم، فاخترأوا لأنفسكم إحدى الحاليتين.

﴿٤٣﴾ ثم قال: ﴿وأقيموا الصلاة﴾؛ أي: ظاهراً وباطناً ﴿وآتوا الزكاة﴾؛ مستحقيها، ﴿واركعوا مع الراكعين﴾؛ أي: صلوا مع المصلين، فإنكم إذا فعلتم ذلك مع الإيمان برسول الله وآيات الله، فقد جمعت بين الأعمال الظاهرة والباطنة، وبين الإخلاص للمعبود والإحسان إلى عبده، وبين العبادات القلبية والبدنية والمالية، وقوله: ﴿واركعوا مع الراكعين﴾؛ أي: صلوا مع المصلين، ففيه، الأمر بالجماعة للصلاة، ووجوبها، وفيه، أن الركوع ركن من أركان الصلاة، لأنه عبر عن الصلاة بالركوع، والتعبير عن العبادة بجزئها يدل على فرضيته فيها.

[﴿٤٤﴾ أَنَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٥﴾] (١).

﴿٤٤﴾ ﴿٤٥﴾ أَنَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ؛ أي: بالإيمان والخير، ﴿وتنسئون أنفسكم﴾؛ أي: تتركونها عن أمرها بذلك والحال، ﴿وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾؛ وسُمِّيَ العقل عقلاً؛ لأنه يعقل به ما ينفعه من الخير، وينعقل به عما يضره، وذلك أن العقل يحث صاحبه أن يكون أول فاعل لما يأمر به، وأول تارك لما ينهى عنه، فمن أمر غيره بالخير ولم يفعله أو نهاه عن الشر فلم يتركه دل على عدم عقله وجهله، خصوصاً إذا كان عالماً بذلك، قد قامت عليه الحجة، وهذه الآية وإن كانت نزلت في سبب بني إسرائيل، فهي عامة لكل أحد لقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾؛ وليس في الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما أمر به أنه يترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ لأنها دلت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين، وإلا فمن المعلوم أن على الإنسان واجبين: أمر غيره ونهيه، وأمر نفسه ونهيه، فترك أحدهما لا يكون رخصة في ترك الآخر، فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين، والنقص الكامل أن يتركهما، وأما قيامه بأحدهما دون الآخر فليس في رتبة الأول وهو دون الأخير، وأيضاً فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله، فاقتداؤهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة.

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٦﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٧﴾ يَبْنَئِ سَرُوءِلْ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٨﴾ وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿٤٥﴾ أمرهم الله أن يستعينوا في أمورهم كلها بالصبر بجميع أنواعه، وهو الصبر على طاعة الله حتى يؤديها، والصبر عن معصية الله حتى يتركها، والصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها، فبالصبر وحبس النفس على ما أمر الله بالصبر عليه معونة عظيمة على كل أمر من الأمور، ومن يتصبر يصبره الله، وكذلك الصلاة التي هي ميزان الإيمان، وتنهى عن الفحشاء والمنكر يستعان بها على كل

(١) ما بين المعقوفتين زيادة على النسختين.

أمر من الأمور، ﴿وإنها﴾؛ أي: الصلاة، ﴿لكبيرة﴾؛ أي: شاقة ﴿إلا على الخاشعين﴾؛ فإنها سهلة عليهم خفيفة؛ لأن الخشوع وخشية الله ورجاء ما عنده يوجب له فعلها منشرحاً صدره لترقبه للشواب وخشيته من العقاب، بخلاف من لم يكن كذلك، فإنه لا داعي له يدعوه إليها، وإذا فعلها صارت من أثقل الأشياء عليه. والخشوع: هو خضوع القلب وطمانيته وسكونه لله تعالى وانكساره بين يديه ذلاً وافتقاراً وإيماناً به وبلقائه، ولهذا قال:

﴿٤٦﴾ ﴿الذين يظنون﴾؛ أي يستيقنون ﴿أنهم ملاقو ربهم﴾؛ فيجازيهم^(١) بأعمالهم، ﴿وأنهم إليه راجعون﴾؛ فهذا الذي خفف عليهم العبادات وأوجب لهم التسلي في المصيبات ونفس عنهم الكربات وزجرهم عن فعل السيئات، فهؤلاء لهم النعيم المقيم في الغرفات العاليات، وأما من لم يؤمن بقاء ربه كانت الصلاة وغيرها من العبادات من أشق شيء عليه.

﴿٤٧﴾ ثم: كرر على بني إسرائيل التذكير بنعمته وعظاً لهم وتحذيراً وحثاً.

﴿٤٨﴾ وخوفهم بيوم القيامة الذي: ﴿لا تجزي﴾؛ فيه أي لا تغني ﴿نفس﴾؛ ولو كانت من الأنفس الكريمة كالأنبياء والصالحين، ﴿عن نفس﴾؛ ولو كانت من العشيرة الأقربين، ﴿شيئاً﴾؛ لا كبيراً ولا صغيراً وإنما ينفع الإنسان عمله الذي قدمه ﴿ولا يقبل منها﴾؛ أي: النفس، ﴿شفاعة﴾؛ لأحد بدون إذن الله ورضاه عن المشفوع له، ولا يرضى من العمل إلا ما أريد به وجهه وكان على السبيل والسنة، ﴿ولا يؤخذ منها عدل﴾؛ أي فداء ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من عذاب الله ولا يقبل منهم ذلك، ﴿ولا هم ينصرون﴾؛ أي: يدفع عنهم المكروه، فنفى الانتفاع من الخلق بوجه من الوجوه، فقوله: ﴿لا تجزي نفس عن نفس شيئاً﴾ هذا في تحصيل المنافع، ﴿ولا هم ينصرون﴾ هذا في دفع المضار، فهذا النفي للأمر المستقبل به^(٢) النافع، ﴿ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل﴾ هذا نفي للنفع الذي يطلب ممن يملكه بعوض، كالعدل أو غيره كالشفاعة؛ فهذا يوجب للعبد أن ينقطع قلبه من التعلق بالمخلوقين لعلمه أنهم لا يملكون له مثقال ذرة من النفع، وأن يعلقه بالله الذي يجلب المنافع ويدفع المضار فيعبده وحده لا شريك له، ويستعينه على عبادته.

(٢) كذا في (أ) وفي (ب): «المستقل به».

(١) في (ب): «فمجازيهم».

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ٥٤﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ٥٥﴾ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْنَاهُ الْغَبْلَ مِنْ بَدْوِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ٥٦﴾ ثُمَّ عَقَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَمَلَكُمْ تَشْكُرُونَ ٥٧﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَمَلَكُمْ نَهْدُونَ ٥٨﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْتُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاتَّقُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ٥٩﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ٦٠﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِ مُوتِكُمْ لَمَلَكُمْ تَشْكُرُونَ ٦١﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمْنَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٦٢﴾

﴿٤٩ - ٥٤﴾ هذا: شروع في تعداد نعمه على بني إسرائيل على وجه التفصيل فقال: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: من فرعون وملئه وجنوده وكانوا قبل ذلك، ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾؛ أي: يولونهم ويستعملونهم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾؛ أي: أشده بأن كانوا، ﴿يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾؛ خشية نموكم، ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾؛ أي: فلا يقتلونهن فأنتم بين قتيل ومُذَلَّل بالأعمال الشاقة مستحيى على وجه المنة عليه والاستعلاء عليه فهذا غاية الإهانة، فَمَنَّ اللَّهُ عليهم بالنجاة التامة، وإغراق عدوهم، وهم ينظرون لَتَقَرَّ أَعْيُنُهُمْ ﴿وفي ذلكم﴾؛ أي: الإنجاء ﴿بَلَاءٌ﴾؛ أي: إحسان ﴿مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾؛ فهذا مما يوجب عليكم الشكر والقيام بأوامره.

ثم ^(١) ذكر منته عليهم بوعده لموسى أربعين ليلة؛ لينزل عليهم التوراة المتضمنة للنعم العظيمة والمصالح العظيمة، ثم إنهم لم يصبروا قبل استكمال الميعاد حتى عبدوا العجل من بعده؛ أي ذهابه ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾؛ عالمون بظلمكم، قد قامت عليكم الحجة، فهو أعظم جرماً، وأكبر إثماً.

ثم إنه أمركم بالتوبة على لسان نبيه موسى بأن يقتل بعضكم بعضاً؛ فعفا الله عنكم بسبب ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ الله.

﴿٥٥﴾ ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾؛ وهذا غاية

الجرأة على الله وعلى رسوله، ﴿فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ﴾؛ إما الموت أو الغشية العظيمة ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾؛ وقوع ذلك كل ينظر إلى صاحبه.

﴿٥٦﴾ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ ثم ذكر نعمته عليهم في التيه والبرية الخالية من الظلال وسعة الأرزاق فقال:

﴿٥٧﴾ ﴿وَوَضَّلْنَا عَلَيْكُمْ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمُنَّ﴾؛ وهو: اسم جامع لكل رزق [حسن] يحصل بلا تعب، ومنه الزنجبيل والكمأة، والخبز، وغير ذلك، ﴿وَالسَّلْوَى﴾؛ طائر صغير يقال له: السمانى طيب اللحم؛ فكان ينزل عليهم من المنّ والسَّلْوَى ما يكفيهم ويقيتهم ﴿كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾؛ أي: رزقاً لا يحصل نظيره لأهل المدن المترفين، فلم يشكروا هذه النعمة^(١)، واستمروا على قساوة القلوب وكثرة الذنوب ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾؛ يعني بتلك الأفعال المخالفة لأوامرنا، لأن الله لا تضره معصية العاصين كما لا تنفعه طاعات الطائعين ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؛ فيعود ضرره عليهم.

﴿وَإِذْ قُلْنَا أَنْزِلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِغْتُمْ رِغْدًا وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَنْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ﴿٥٩﴾.

﴿٥٨﴾ وهذا أيضاً من نعمته عليهم بعد معصيتهم إياه، فأمرهم بدخول قرية تكون لهم عزاً ووطناً ومسكناً، ويحصل لهم فيها الرزق الرغد، وأن يكون دخولهم على وجه خاضعين لله فيه بالفعل، وهو دخول الباب سجداً، أي: خاضعين ذليلاً، وبالقول وهو أن يقولوا: ﴿حطة﴾؛ أي: أن يحط عنهم خطاياهم بسؤالهم إياه مغفرته، ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾؛ بسؤالكم المغفرة ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ بأعمالهم أي: جزاء عاجلاً وآجلاً.

﴿٥٩﴾ ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ منهم، ولم يقل فبدلوا؛ لأنهم لم يكونوا كلهم بدلو ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾؛ فقالوا: بدل حطة، حبة في حنطة، استهانة بأمر الله، واستهزاء وإذا بدلو القول مع خفته فتبديلهم للفعل من باب أولى وأحرى، ولهذا دخلوا يزحفون على أدبارهم، ولما كان هذا الطغيان أكبر سبب

(١) في (ب): «النعم».

لوقوع عقوبة الله بهم قال: ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا﴾؛ منهم ﴿رجزاً﴾؛ أي: عذاباً ﴿من السماء﴾؛ بسبب فسقهم وبغيهم.

﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِمَصَّالِكَ الْحَجَرِ فَأَنْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مَافْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿٦٠﴾ ﴿استسقى﴾؛ أي: طلب لهم ماء يشربون منه ﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر﴾؛ إما حجر مخصوص معلوم عنده، وإما اسم جنس؛ ﴿فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا﴾؛ وقبائل بني إسرائيل اثنتا عشرة قبيلة، ﴿قد علم كل أناس﴾؛ منهم ﴿مشربهم﴾؛ أي: محلهم الذي يشربون عليه من هذه الأعين، فلا يزاحم بعضهم بعضاً بل يشربونه متهئين لا متكدرين، ولهذا قال: ﴿كلوا واشربوا من رزق الله﴾؛ أي: الذي آتاكم من غير سعي ولا تعب ﴿ولا تعثوا في الأرض﴾؛ أي: تخرّبوا على وجه الإفساد.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَلْمُؤُسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَجَدِ قَادَعٌ لَّنَا رَبِّكَ يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَمِيطُوا مِضْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبِ رَبِّهِمْ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿٦١﴾ أي: واذكروا ﴿إذ قلتم﴾ لموسى على وجه التملل لنعم الله، والاحتقار لها ﴿لن نصبر على طعام واحد﴾؛ أي: جنس من الطعام وإن كان كما تقدم أنواعاً لكنها لا تتغير ﴿قادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها﴾؛ أي: نباتها الذي ليس بشجر يقوم على ساقه ﴿وقثائها﴾؛ وهو الخيار ﴿وفومها﴾؛ أي: ثومها والعدس والبصل معروف، قال لهم موسى: ﴿أستبدلون الذي هو أدنى﴾؛ وهو الأطعمة المذكورة ﴿بالذي هو خير﴾؛ وهو المن والسلوى، فهذا غير لائق بكم، فإن هذه الأطعمة التي طلبتم، أي مضر هبطتموه وجدتموها، وأما طعامكم الذي من الله به عليكم فهو خير الأطعمة وأشرفها فكيف تطلبون به بدلاً؟

ولما كان الذي جرى منهم فيه أكبر دليل على قلة صبرهم، واحتقارهم

لأوامر الله ونعمه جازاهم من جنس عملهم فقال: ﴿وَضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ﴾؛ التي تُشاهد على ظاهر أبدانهم ﴿وَالْمَسْكَنَةَ﴾؛ بقلوبهم فلم تكن أنفسهم عزيزة، ولا لهم همم عالية بل أنفسهم أنفس مهينة، وهمهم أردأ الهمم ﴿وَبَاؤُوا بِغَضَبِ اللَّهِ﴾؛ أي: لم تكن غنيمتهم التي رجعوا بها، وفازوا إلا أن رجعوا بسخطه عليهم؛ فبئس الغنيمة غنيمتهم، وبئس الحالة حالتهم ﴿ذَلِكَ﴾؛ الذي استحقوا به غضبه ﴿بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله﴾؛ الدالات على الحق الموضحة لهم، فلما كفروا بها عاقبهم بغضبه عليهم وبما كانوا ﴿يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾؛ وقوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ زيادة شناعة، وإلا فمن المعلوم أن قتل النبيين لا يكون بحق، لكن لثلا يظن جهلهم وعدم علمهم ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾؛ بأن ارتكبوا معاصي الله ﴿وكانوا يعتدون﴾؛ على عباد الله؛ فإن المعاصي يجز بعضها بعضاً، فالغفلة ينشأ عنها الذنب الصغير، ثم ينشأ عنه الذنب الكبير، ثم ينشأ عنها أنواع البدع والكفر وغير ذلك، فنسأل الله العافية من كل بلاء.

واعلم أن الخطاب في هذه الآيات لأمة بني إسرائيل الذين^(١) كانوا موجودين وقت نزول القرآن، وهذه الأفعال المذكورة خوطبوا بها وهي فعل أسلافهم، ونسبت لهم^(٢) لفوائد عديدة.

منها: أنهم كانوا يتمدحون، ويزكون أنفسهم، ويزعمون فضلهم على محمد ومن آمن به؛ فبين الله من أحوال سلفهم التي قد تقررت عندهم ما يبين به لكل واحد منهم أنهم ليسوا من أهل الصبر، ومكارم الأخلاق، ومعالي الأعمال، فإذا كانت هذه حالة^(٣) سلفهم - مع أن المظنة أنهم أولى وأرفع حالة ممن بعدهم - فكيف الظن بالمخاطبين!

ومنها: أن نعمة الله على المتقدمين منهم نعمة واصله إلى المتأخرين، والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء، فخوطبوا بها، لأنها نعم تشملهم وتعمهم.

ومنها: أن الخطاب لهم بأفعال غيرهم مما يدل على أن الأمة المجتمعة على دين تتكافل وتتساعد على مصالحها، حتى كأنَّ متقدمهم ومتأخرهم في وقت واحد، وكأنَّ الحادث من بعضهم حادث من الجميع؛ لأن ما يعمل به بعضهم من الخير يعود

(٢) في (ب): «إليهم».

(١) في (ب): «الذي».

(٣) في (ب): «عامة».

بمصلحة الجميع، وما يعمل من الشر يعود بضرر الجميع.

ومنها: أن أفعالهم أكثرها لم ينكروها، والراضي بالمعصية شريك للعاصي، إلى غير ذلك من الحكم التي لا يعلمها إلا الله.

ثم قال تعالى حاكماً بين الفرق الكتابية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالْمَسِيحِيَّةَ وَالنَّصَارَى وَاللَّهُ يَوْمَ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿٦٢﴾ وهذا الحكم على أهل الكتاب خاصة، لأن الصابئين الصحيح: أنهم من جملة فرق النصارى، فأخبر الله أن المؤمنين من هذه الأمة واليهود والنصارى والصابئين من آمن بالله [منهم] واليوم الآخر وصدقوا رسلهم، فإن لهم الأجر العظيم، والأمن، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأما من كفر منهم بالله ورسله واليوم الآخر، فهو بضد هذه الحال؛ فعليه الخوف والحزن.

والصحيح: أن هذا الحكم بين هذه الطوائف من حيث هم لا بالنسبة إلى الإيمان بمحمد، فإن هذا إخبار عنهم قبل بعثة محمد، وإن هذا مضمون أحوالهم، وهذه طريقة القرآن إذا وقع في بعض النفوس - عند سياق الآيات - بعض الأوهام، فلا بد أن تجد ما يزيل ذلك الوهم؛ لأنه تنزيل من يعلم الأشياء قبل وجودها، ومن رحمته وسعت كل شيء، وذلك - والله أعلم - أنه لما ذكر بني إسرائيل وذمهم وذكر معاصيهم وقبائحهم ربما وقع في بعض النفوس أنهم كلهم يشملهم الذم، فأراد الباري تعالى أن يبين من لا^(١) يلحقه الذم منهم بوصفه، ولما كان أيضاً ذكر بني إسرائيل خاصة يوهم الاختصاص بهم، ذكر تعالى حكماً عاماً يشمل الطوائف كلها؛ ليتضح الحق ويزول التوهم والإشكال، فسبحان من أودع في كتابه ما يبهر عقول العالمين.

ثم عاد تبارك وتعالى يوبخ بني إسرائيل بما فعل سلفهم:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿٦٣﴾ أي: واذكروا، ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾؛ وهو العهد الثقيل المؤكد بالتخويف لهم برفع الطور فوقهم^(١) وقيل لهم، ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾؛ من التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾؛ أي بجهد واجتهاد، وصبر على أوامر الله ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾؛ أي: ما في كتابكم بأن تتلوه وتتعلموه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ عذاب الله وسخطه، أو لتكونوا من أهل التقوى.

﴿٦٤﴾ فبعد هذا التأكيد البليغ ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾؛ وأعرضتم وكان ذلك موجبا لأن يحل بكم أعظم العقوبات ولكن ﴿لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿٦٥﴾ أي: ولقد تقرر عندكم حالة، ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾؛ وهم الذين ذكر الله قصتهم مبسوطه في سورة الأعراف في قوله: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ...﴾ الآيات؛ فأوجب لهم هذا الذنب العظيم أن غضب الله عليهم، وجعلهم ﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾؛ حقيرين ذليلين، وجعل الله هذه العقوبة:

﴿٦٦﴾ ﴿نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾؛ أي: لمن حضرها من الأمم، وبلغه خبرها ممن هو في وقتهم ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾؛ أي: من بعدها^(٢) فتقوم على العباد حجة الله، وليرتدعوا عن معاصيه، ولكنها لا تكون موعظة نافعة إلا للمتقين، وأما من عداهم فلا ينتفعون بالآيات.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَخِذْنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُهْزَلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَائٍ بَيْنَكَ ذَلِكَ فَأَفْعَلُوا مَا تَأْمُرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْزَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ

(١) في (ب): «فوقكم». وقد صوّبها الشيخ في هامش (أ) بخطه بما أثبت.

(٢) في (ب): «من بعدهم».

لَا ذُلٌّ لِّتِيبِ الْأَرْضِ وَلَا سَعْيِ الْمَوْتِ مُسَلِّمَةٌ لَا شَيْءَ فِيهَا قَالُوا الْكَيْدَ جِئْتِ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٦٨﴾ فَقُلْنَا أَصْرَبُوهُ بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَرُيُوكُمْ ءَايَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٩﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْفَقُ فَيَخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٠﴾ .

﴿٦٧﴾ أي: واذكروا ما جرى لكم مع موسى حين قتلتم قتيلاً؛ فاذا رَأَيْتُمْ^(١) فيه، أي: تدافعتم واختلستم في قاتله حتى تفاقم الأمر بينكم، وكاد^(٢) - لولا تبين الله لكم - يحدث بينكم شر كبير، فقال لكم موسى في تبين القتال: اذبحوا بقرة، وكان من الواجب المبادرة إلى امتثال أمره وعدم الاعتراض عليه، ولكنهم أبوا إلا الاعتراض فقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوءًا؟﴾ فقال نبي الله: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾؛ فإن الجاهل هو الذي يتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه وهو الذي يستهزئ بالناس، وأما العاقل فيرى أن من أكبر العيوب المزرية بالدين والعقل استهزاءه بمن هو آدمي مثله. وإن كان قد فضل عليه تفضيله يقتضي منه الشكر لربه والرحمة لعباده: فلما قال لهم موسى ذلك علموا أن ذلك صدق، فقالوا:

﴿٦٨﴾ ﴿ادْعَ لَنَا رَبَّكَ بَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ؟﴾ أي ما سئها ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ؟﴾ أي: كبيرة، ﴿وَلَا بَكْرٌ؟﴾ أي: صغيرة، ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ؟﴾ واتركوا التشديد والتعنت.

﴿٦٩﴾ ﴿قَالُوا ادْعَ لَنَا رَبَّكَ بَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا؟﴾ أي: شديد، ﴿تَسِرُ النَّازِرِينَ؟﴾ من حسننها.

﴿٧٠﴾ ﴿قَالُوا ادْعَ لَنَا رَبَّكَ بَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنْ الْبَقَرُ تَشَابَهَ عَلَيْنَا؟﴾ فلم نهتد إلى ما تريد، ﴿وَأَنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾.

﴿٧١﴾ ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذُلُّ لَهَا؟﴾ أي: مذلة بالعمل ﴿تَشِيرُ الْأَرْضَ؟﴾ بالحرثة ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ؟﴾ أي: ليست بسانية، ﴿مُسَلِّمَةٌ؟﴾ من العيوب أو من العمل ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا؟﴾ أي: لا لون فيها غير لونها الموصوف المتقدم، ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتِ بِالْحَقِّ؟﴾ أي: بالبيان الواضح، وهذا من جهلهم، وإلا فقد جاءهم بالحق

(٢) في (ب): «وكان».

(١) في (ب): «واذا رَأَيْتُمْ».

أول مرة، فلو أنهم اعترضوا أي بقرة لحصل المقصود، ولكنهم شددوا بكثرة الأسئلة؛ فشدد الله عليهم، ولو لم يقولوا إن شاء الله لم يهتدوا أيضاً إليها، ﴿فذبحوها﴾؛ أي: البقرة التي وصفت بتلك الصفات، ﴿وما كادوا يفعلون﴾؛ بسبب التعنت الذي جرى منهم.

﴿٧٢ - ٧٣﴾ فلما ذبحوها قلنا لهم اضربوا القتيل ببعضها، أي: بعضو منها إما بعضو معين أو أي عضو منها فليس في تعيينه فائدة؛ فضربوه ببعضها؛ فأحياء الله، رآخرج ما كانوا يكتمون؛ فأخبر بقاتله، وكان في إحيائه - وهم يشاهدون - ما يدل على إحياء الله الموتى، لعلكم تعقلون؛ فتترجون عن ما يضركم.

﴿٧٤﴾ ﴿ثم قست قلوبكم﴾؛ أي: اشتدت وغلظت فلم تؤثر فيها الموعظة ﴿من بعد ذلك﴾؛ أي: من بعد ما أنعم الله عليكم بالنعم العظيمة وأراكم الآيات، ولم يكن ينبغي أن تقسو قلوبكم لأن ما شاهدتم مما يوجب رقة القلب وانقياده، ثم وصف قسوتها بأنها ﴿كالحجارة﴾ التي هي أشد قسوة من الحديد، لأن الحديد؛ والرصاص إذا أذيب في النار ذاب بخلاف الأحجار، وقوله: ﴿أو أشد قسوة﴾؛ أي: أنها لا تقصر عن قساوة الأحجار، وليست «أو» بمعنى بل.

ثم ذكر فضيلة الأحجار على قلوبهم فقال: ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾، فبهذه الأمور فضّلت قلوبكم. ثم توعدهم تعالى أشد الوعيد فقال: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾، بل هو عالم بها حافظ لصغيرها وكبيرها، وسيجازيكم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

واعلم أن كثيراً من المفسرين رحمهم الله قد أكثروا في حشو تفاسيرهم من قصص بني إسرائيل، ونزلوا عليها الآيات القرآنية، وجعلوها تفسيراً لكتاب الله، محتجين بقوله ﷺ: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»^(١).

والذي أرى أنه وإن جاز نقل أحاديثهم على وجه تكون مفردة غير مقرونة ولا منزلة على كتاب الله، فإنه لا يجوز جعلها تفسيراً لكتاب الله قطعاً إذا لم تصح عن رسول الله ﷺ، وذلك أن مرتبتها كما قال ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم»^(٢)، فإذا كانت مرتبتها أن تكون مشكوكاً فيها، وكان من المعلوم

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٨٥).

بالضرورة من دين الإسلام أن القرآن يجب الإيمان به والقطع بألفاظه ومعانيه، فلا يجوز أن تجعل تلك القصص المنقولة بالروايات المجهولة التي يغلب على الظن كذبها، أو كذب أكثرها معاني لكتاب الله مقطوعاً بها، ولا يستريب بهذا أحد، ولكن بسبب الغفلة عن هذا حصل ما حصل، والله الموفق.

﴿أَنْظُرُوا أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمَنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانًى وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَنْظُنُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿٧٥﴾ هذا قطع لأطماع المؤمنين من إيمان أهل الكتاب؛ أي فلا تطمعوا في إيمانهم، وأخلاقهم^(١) لا تقتضي الطمع فيهم؛ فإنهم كانوا يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وعلموه، فيضعون له معاني ما أرادها الله؛ ليوهموا الناس أنها من عند الله، وما هي من عند الله، فإذا كانت حالهم في كتابهم الذي يرونه شرفهم ودينهم يصدون به الناس عن سبيل الله، فكيف يرجى منهم إيمان لكم؟! فهذا من أبعد الأشياء.

﴿٧٦﴾ ثم ذكر حال منافقي أهل الكتاب، فقال: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾، فآظهروا لهم الإيمان قولاً بالسنتهم ما ليس في قلوبهم، ﴿وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ﴾؛ فلم يكن عندهم أحد من غير أهل دينهم قال بعضهم لبعض: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: أنظفروا لهم الإيمان وتخبرونهم أنكم مثلهم؟ فيكون ذلك حجة لهم عليكم، يقولون إنهم قد أقرروا بأن ما نحن عليه حق وما هم عليه باطل، فيحتجون عليكم بذلك عند ربكم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: أفلا يكون لكم عقل فتتركون ما هو حجة عليكم؟

﴿٧٧﴾ هذا يقوله بعضهم لبعض: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، فهم وإن أسروا ما يعتقدونه فيما بينهم، وزعموا أنهم بإسرارهم لا يتطرق عليهم حجة للمؤمنين؛ فإن هذا غلط منهم وجهل كبير؛ فإن الله يعلم سرهم

(١) في (ب): «وحوالتهم».

وعلمهم؛ فيظهر لعباده ما هم^(١) عليه.

﴿٧٨﴾ ﴿ومنهم﴾؛ أي: من أهل الكتاب ﴿أميون﴾؛ أي: عوام، وليسوا من أهل العلم ﴿لا يعلمون الكتاب إلا أمانى﴾؛ أي: ليس لهم حظ من كتاب الله إلا التلاوة فقط، وليس عندهم خبر بما عند الأولين الذين يعلمون حق المعرفة حالهم، وهؤلاء إنما معهم ظنون وتقاليد لأهل العلم منهم.

فذكر في هذه الآيات علماءهم وعوامهم ومنافقيهم ومن لم ينافق منهم، فالعلماء منهم متمسكون بما هم عليه من الضلال، والعوام مقلدون لهم، لا بصيرة عندهم؛ فلا مطمع لكم في الطائفتين.

الَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا
لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾

توعد تعالى المحرفين للكتاب الذين يقولون لتحريفهم وما يكتبون ﴿هذا من﴾، وهذا فيه إظهار الباطل وكنم الحق، وإنما فعلوا ذلك مع علمهم، به ثمنًا قليلًا، والدنيا كلها من أولها إلى آخرها ثمن قليل، فجعلوا كأيصطادون به ما في أيدي الناس.

ممن من وجهين: من جهة تلبيس دينهم عليهم، ومن جهة أخذ أموالهم بل بأبطل الباطل، [وذلك]^(٢) أعظم ممن يأخذها غصباً وسرقة ونحوهما، مدهم بهذين الأمرين، فقال: ﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم﴾؛ أي من والباطل ﴿وويل لهم مما يكسبون﴾؛ من الأموال، والويل شدة العذاب والحسرة، وفي ضمنها الوعيد الشديد.

قال شيخ الإسلام لما ذكر هذه الآيات من قوله: أفتطمعون إلى يكسبون: «فإن الله ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، وهو متناول لمن حمل الكتاب والسنة على ما أصَّله من البدع الباطلة، وذم الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وهو متناول لمن ترك تدبر القرآن ولم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه، ومتناول لمن كتب كتاباً بيده مخالفاً لكتاب الله لينال به دنيا وقال: إنه من عند الله، مثل أن يقول:

(١) في (ب): «ما أنتم».

(٢) زيادة من هامش (أ) بخط مغاير.

هذا هو الشرع والدين، وهذا معنى الكتاب والسنة، وهذا [معقول]^(١) السلف والأئمة، وهذا هو أصول الدين الذي يجب اعتقاده على الأعيان أو الكفاية، ومتناول لمن كتم ما عنده من الكتاب والسنة، لئلا يَخْتَجَّ به مخالفه في الحق الذي يقوله، وهذه الأمور كثيرة جداً في أهل الأهواء جملة، كالرافضة [والجهمية ونحوهم من أهل الأهواء والكلام، وفي أهل الأهواء] وتفصيلاً مثل كثير من المتسبين إلى الفقهاء...»^(٢) انتهى.

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٥﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿٨٠﴾ ذكر أفعالهم القبيحة، ثم ذكر - مع هذا - أنهم يزكون أنفسهم، ويشهدون لها بالنجاة من عذاب الله والفوز بثوابه، وأنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة؛ أي قليلة تعد بالأصابع، فجمعوا بين الإساءة والأمن، ولما كان هذا مجرد دعوى رد تعالى عليهم؛ فقال: ﴿قل﴾؛ لهم يا أيها الرسول، ﴿أتخذتم عند الله عهداً﴾؛ أي: بالإيمان به وبرسله وبطاعته، فهذا الوعد الموجب لنجاة صاحبه الذي لا يتغير ولا يتبدل ﴿أم تقولون على الله ما لا تعلمون﴾؛ فأخبر تعالى أن صدق دعواهم متوقفة على أحد هذين الأمرين اللذين لا ثالث لهما.

إما أن يكونوا قد اتخذوا عند الله عهداً؛ فتكون دعواهم صحيحة.

وإما أن يكونوا متقولين عليه؛ فتكون كاذبة فيكون أبلغ لخزيهم وعذابهم، وقد عُلِمَ من حالهم أنهم لم يتخذوا عند الله عهداً لتكذيبهم كثيراً من الأنبياء حتى وصلت بهم الحال إلى أن قتلوا طائفة منهم، ولنكولهم عن طاعة الله ونقضهم المواثيق، فتعين بذلك أنهم متقولون مختلقون قائلون عليه ما لا يعلمون، والقول عليه بلا علم من أعظم المحرمات وأشنع القبيحات.

(١) كذا في الأصل وفي كتاب درء تعارض العقل والنقل «قول».

(٢) «درء تعارض العقل والنقل» (١/ ٧٧ - ٧٨) تحقيق محمد رشاد سالم. وما بين المعقوفتين زيادة على نسخة الشيخ.

ثم ذكر تعالى حكماً عاماً لكل أحد، يدخل فيه بنو إسرائيل وغيرهم، وهو الحكم الذي لا حكم غيره، لا أمانيتهم ودعائهم بصفة الهالكين والناجين فقال: ﴿بلى﴾؛ أي: ليس الأمر كما ذكرتم، فإنه قول لا حقيقة له، ولكن:

﴿٨١﴾ ﴿من كسب سيئة﴾؛ وهو نكرة في سياق الشرط؛ فيعم الشرك فما دونه، والمراد به الشرك، هنا بدليل قوله: ﴿وأحاطت به خطيئته﴾؛ أي: أحاطت بعاملها فلم تدع له منفذاً، وهذا لا يكون إلا الشرك، فإن من معه الإيمان لا تحيط به خطيئته، ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾؛ وقد احتج بها الخوارج على كفر صاحب المعصية، وهي حجة عليهم كما ترى، فإنها ظاهرة في الشرك، وهكذا كل مُبْطِل يَحْتَجُّ بآية أو حديث صحيح على قوله الباطل؛ فلا بد أن يكون فيما احتج به حجة عليه.

﴿٨٢﴾ ﴿والذين آمنوا﴾؛ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وعملوا الصالحات﴾؛ ولا تكون الأعمال صالحة إلا بشرطين: أن تكون خالصة لوجه الله، متبعاً بها سنة رسوله.

فحاصل هاتين الآيتين أن أهل النجاة والفوز أهل الإيمان والعمل الصالح، والهالكون أهل النار المشركون بالله الكافرون به.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا
قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٨٢).

﴿٨٣﴾ فهذه الشرائع من أصول الدين التي أمر الله بها في كل شريعة لاشتمالها على المصالح العامة في كل زمان ومكان؛ فلا يدخلها نسخ، كأصل الدين، ولهذا أمرنا الله بها في قوله: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً﴾؛ إلى آخر الآية.

فقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾؛ هذا من قسوتهم أن كل أمر أمروا به استعصوا، فلا يقبلونه إلا بالأيمن الغليظة والعهود الموثقة ﴿لا تعبدون إلا الله﴾؛ هذا أمر بعبادة الله وحده ونهي عن الشرك به، وهذا أصل الدين فلا تقبل الأعمال كلها إن لم يكن هذا أساسها، فهذا حق الله تعالى على عباده، ثم قال: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾؛ أي أحسنوا بالوالدين إحساناً، وهذا يعم كل إحسان قولي وفعلي مما هو إحسان إليهم، وفيه النهي عن الإساءة إلى الوالدين أو عدم الإحسان

والإساءة؛ لأن الواجب الإحسان، والأمر بالشئ نهى عن ضده، وللإحسان ضدان: الإساءة وهي أعظم جرماً، وترك الإحسان بدون إساءة وهذا محرم لكن لا يجب أن يلحق بالأول.

وكذا يقال في صلة الأقارب واليتامى والمساكين، وتفصيل الإحسان لا تنحصر بالعدد بل تكون بالحد كما تقدم. ثم أمر بالإحسان إلى الناس عموماً فقال: ﴿وقولوا للناس حسناً﴾؛ ومن القول الحسن أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وتعليمهم العلم وبذل السلام والبشاشة وغير ذلك من كل كلام طيب، ولما كان الإنسان لا يسع الناس بماله أمر بأمر يقدر به على الإحسان إلى كل مخلوق وهو الإحسان بالقول، فيكون في ضمن ذلك النهي عن الكلام القبيح للناس حتى للكفار، ولهذا قال تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾؛ ومن أدب الإنسان الذي أدب الله به عباده أن يكون الإنسان نزيهاً في أقواله وأفعاله، غير فاحش ولا بذيء ولا شاتم ولا مخاصم، بل يكون حسن الخلق واسع الحلم، مجاملاً لكل أحد، صبوراً على ما يناله من أذى الخلق امتثالاً لأمر الله ورجاءً لثوابه.

ثم أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لما تقدم أن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة متضمنة للإحسان إلى العبيد، ثم بعد هذا الأمر لكم بهذه الأوامر الحسنة التي إذا نظر إليها البصير العاقل، عرف أن من إحسان الله على عباده أن أمرهم بها وتفضل بها، عليهم وأخذ الموائيق عليكم ﴿توليتهم﴾؛ على وجه الإعراض؛ لأن المتولي قد يتولى وله نية رجوع إلى ما تولى عنه، وهؤلاء ليس لهم رغبة ولا رجوع في هذه الأوامر، فنعوذ بالله من الخذلان. وقوله: ﴿إلا قليلاً منكم﴾؛ هذا استثناء؛ لئلا يوهم أنهم تولوا كلهم، فأخبر أن قليلاً منهم عصمهم الله وثبتهم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقَرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِينِهِمْ تَقْتُلُونَهُمْ عَلَيْهِم بِالْإِيمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَقْتُلُوهُمْ وَهُمْ مَحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفْتَوِيْمُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْهِ أَشَدَّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿٨٤ - ٨٥﴾ وهذا الفعل المذكور في هذه الآية فعل للذين كانوا في زمن الوحي بالمدينة، وذلك أن الأوس والخزرج - وهم الأنصار - كانوا قبل مبعث النبي ﷺ مشركين، وكانوا يقتتلون على عادة الجاهلية، فنزلت عليهم الفرق الثلاث من فرق اليهود: بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، فكل فرقة منهم حالفت فرقة من أهل المدينة، فكانوا إذا اقتتلوا أعان اليهودي حليفه على مقاتليه الذين يُعينونهم الفرقة الأخرى من اليهود، فيقتل اليهودي اليهودي، ويخرجه من دياره إذا حصل جلاء ونهب، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها، وكان قد حصل أسارى بين الطائفتين فدى بعضهم بعضاً، والأمور الثلاثة كلها قد فرضت عليهم: ففرض عليهم أن لا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يخرج بعضهم بعضاً، وإذا وجدوا أسيراً منهم وجب عليهم فداؤه، فعملوا بالأخير وتركوا الأولين، فأنكر الله عليهم ذلك فقال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ ببعض الكتاب﴾؛ وهو فداء الأسير ﴿وتكفرون ببعض﴾؛ وهو القتل والإخراج، وفيها دليل على أن الإيمان يقتضي فعل الأوامر واجتناب النواهي، وأن المأمورات من الإيمان. قال تعالى: ﴿فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا﴾؛ وقد وقع ذلك فأخزاهم الله، وسلط رسوله عليهم فقتل من قتل، وسبى من سبى منهم، وأجلى من أجلى، ﴿ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب﴾؛ أي: أعظمه، ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾؛ ثم أخبر تعالى عن السبب الذي أوجب لهم الكفر ببعض الكتاب والإيمان ببعضه، فقال:

﴿٨٦﴾ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة؛ توهّموا أنهم إن لم يعينوا حلفاءهم حصل لهم عار فاختراروا النار على العار، فلهذا قال: ﴿فلا يخفف عنهم العذاب﴾؛ بل هو باقٍ على شدته، ولا يحصل لهم راحة بوقت من الأوقات ﴿ولا هم ينصرون﴾؛ أي: يدفع عنهم مكروهه.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (٨٧).

﴿٨٧﴾ يمتنّ تعالى على بني إسرائيل أن أرسل إليهم كلمه موسى وآتاه التوراة، ثم تابع من بعده بالرسول الذين يحكمون بالتوراة، إلى أن ختم أنبياءهم بعيسى ابن

مريم] عليه^(١) السلام وآتاه من الآيات البينات ما يؤمن على مثله البشر ﴿وأيّدناه بروح القدس﴾؛ أي: قواه الله بروح القدس، قال أكثر المفسرين إنه جبريل عليه السلام، وقيل إنه الإيمان الذي يؤيد الله به عباده، ثم مع هذه النعم التي لا يُقدّر قدرها لما أتوكم ﴿بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم﴾؛ عن الإيمان بهم، ﴿ففرقاً﴾؛ منهم، ﴿كذبتم وفرقاً تقتلون﴾؛ فقدمتم الهوى على الهدى وآثرتم الدنيا على الآخرة، وفيها من التوبيخ والتشديد ما لا يخفى.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿٨٨﴾ أي: اعتذروا عن الإيمان لما دعوتهم إليه يا أيها الرسول^(٢) بأن قلوبهم غلف أي عليها غلاف وأغطية فلا تفقه ما تقول، يعني فيكون لهم - بزعمهم - عذر لعدم العلم، وهذا كذب منهم، فلماذا قال تعالى: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾؛ أي: أنهم مطرودون ملعونون بسبب كفرهم؛ فقليلاً المؤمن منهم، أو قليلاً إيمانهم، وكفرهم هو الكثير.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْهِمُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٨٩﴾ بِسْمَا أَشْرَوْا يَوْمَ أَنفُسُهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

﴿٨٩ - ٩٠﴾ أي: ﴿ولما جاءهم [كتاب]﴾ من عند الله على يد أفضل الخلق وخاتم الأنبياء، المشتغل على تصديق ما معهم من التوراة، وقد علموا به، وتيقنوه على أنهم إذا كان^(٣) وقع بينهم وبين المشركين في الجاهلية حروب استنصروا بهذا النبي وتوعدوهم بخروجه، وأنهم يقاتلون المشركين معه، فلما جاءهم هذا الكتاب والنبي الذي عرفوا؛ كفروا به بغياً وحسداً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فلعنهم الله وغضب عليهم غضباً بعد غضب؛ لكثرة كفرهم وتوالي شكهم وشركهم، ولهم في الآخرة عذاب مهين أي مؤلم موجه، وهو صليّ الجحيم وفوت النعيم المقيم، فبئس الحال حالهم، وبئس ما استعاضوا واستبدلوا من الإيمان بالله وكتبه

(٢) في (ب): «أيها الرسول».

(١) في (ب): «عليهم».

(٣) في (ب): «حتى إنهم كانوا إذا».

ورسله، الکفر به وبکته وبرسله مع علمهم وتیقنهم، فیکون أعظم لعذابهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ قَالُوا نَحْنُ مُؤْمِنُونَ بِمَا نُرَىٰ وَنَرَىٰ مَا نَحْنُ بِمُؤْمِنُونَ﴾
 ﴿٩١﴾ ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾
 ﴿٩٢﴾ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ يَقُوتُوا وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَيْنَا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَسْكَا يَا مَعْرُكُم بِهِ ءِيمَنُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾
 ﴿٩٣﴾

﴿٩١﴾ أي: وإذا أمر اليهود بالإيمان بما أنزل الله على رسوله وهو القرآن استكبروا وعتوا و﴿قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه﴾؛ أي: بما سواه من الكتب، مع أن الواجب أن يؤمنوا بما أنزل الله مطلقاً سواء أنزل عليهم أو على غيرهم، وهذا هو الإيمان النافع، الإيمان بما أنزل الله على جميع رسل [الله]، وأما التفريق بين الرسل والكتب وزعم الإيمان ببعضها دون بعض فهذا ليس بإيمان بل هو الكفر بعينه، ولهذا قال تعالى: ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حَقًّا﴾؛ ولهذا رد عليهم تبارك وتعالى هنا رداً شافياً وألزمهم إلزاماً لا محيد لهم عنه فرد عليهم بكفرهم بالقرآن بأمرين فقال: ﴿وهو الحق﴾؛ فإذا كان هو الحق في جميع ما اشتمل عليه من الإخبارات والأوامر والنواهي وهو من عند ربهم؛ فالكفر به بعد ذلك كفر بالله وكفر بالحق الذي أنزله.

ثم قال: ﴿مصدقاً لما معهم﴾؛ أي: موافقاً له في كل ما دل عليه من الحق ومهيئاً عليه، فَلِمَ تَؤْمِنُونَ بما أنزل عليكم وتكفرون بنظيره، هل هذا إلا تعصب واتباع للهوى لا للهدى؟ وأيضاً فإن كون القرآن مصدقاً لما معهم يقتضي أنه حجة لهم على صدق ما في أيديهم من الكتب، فلا سبيل لهم إلى إثباتها إلا به، فإذا كفروا به وجحدوه صاروا بمنزلة من ادعى دعوى بحجة وبينة ليس له غيرها، ولا تتم دعواه إلا بسلامة بيئته، ثم يأتي هو لبيئته وحجته فيقبح فيها ويكذب بها، أليس هذا من الحماقة والجنون؟ فكان كفرهم بالقرآن كفراً بما في أيديهم ونقضاً له. ثم نقض عليهم تعالى دعواهم الإيمان بما أنزل إليهم بقوله: ﴿قل﴾؛ لهم ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾.

﴿٩٢﴾ ﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات﴾؛ أي: بالأدلة الواضحات المبينة للحق ﴿ثم اتخذتم العجل من بعده﴾؛ أي: بعد مجيئه ﴿وأنتم ظالمون﴾؛ في ذلك ليس لكم عذر.

﴿٩٣﴾ ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا﴾؛ أي: سماع قبول وطاعة واستجابة، ﴿قالوا سمعنا وعصينا﴾؛ أي: صارت هذه حالتهم ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾؛ أي: صُيغ حب العجل وحب عبادته في قلوبهم وشربها^(١) بسبب كفرهم ﴿قل بشما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾؛ أي: أنتم تدعون الإيمان وتتمدحون بالدين الحق وأنتم قتلتم أنبياء الله واتخذتم العجل إلهاً من دون الله لما غاب عنكم موسى نبي الله، ولم تقبلوا أوامره ونواهيه إلا بعد التهديد وَرَفَعَ الطور فوقكم، فالتزمت بالقول ونقضتم بالفعل، فما هذا الإيمان الذي ادعيتهم؟ وما هذا الدين؟ فإن كان هذا إيماناً على زعمكم، فبئس الإيمان الداعي صاحبه إلى الطغيان والكفر برسول الله وكثرة العصيان، وقد عهد أن الإيمان الصحيح يأمر صاحبه بكل خير وينهاه عن كل شر، فوضح بهذا كذبهم وتبين تناقضهم.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ مِنَ الَّذِينَ أُشْرَكُوا يَوْمَ أُولَئِكَ لَوْ يُعَمَّرُ الْفُكَّاءُ سَنَةً وَمَا هُوَ بِمُزْمِرٍ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ .

﴿٩٤﴾ أي: ﴿قل﴾؛ لهم على وجه تصحيح دعواهم، ﴿إن كانت لكم الدار الآخرة﴾؛ يعني الجنة، ﴿خالصة من دون الناس﴾؛ كما زعمتم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة فإن كنتم صادقين بهذه الدعوى، ﴿فتمنوا الموت﴾؛ وهذا نوع مباهلة بينهم وبين رسول الله ﷺ وليس بعد هذا الإلجاء والمضايقة لهم بعد العناد منهم إلا أحد أمرين: إما أن يؤمنوا بالله ورسوله، وإما أن يباهلوا على ما هم عليه بأمر يسير عليهم وهو تمنى الموت الذي يوصلهم إلى الدار التي هي خالصة لهم، فامتنعوا

عن ذلك؛ فعلم كل أحد أنهم في غاية المعاندة والمحاذاة لله ورسوله مع علمهم بذلك، ولهذا قال تعالى:

﴿٩٥﴾ ﴿وَلَن يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدِمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ من الكفر والمعاصي؛ لأنهم يعلمون أنه طريق لهم إلى المجازاة بأعمالهم الخبيثة، فالموت أكره شيء إليهم، وهم أحرص على الحياة من كل أحد من الناس حتى من المشركين الذين لا يؤمنون بأحد من الرسل والكتب. ثم ذكر شدة محبتهم الدنيا فقال:

﴿٩٦﴾ ﴿يُود أَحَدُهُمْ لَوْ يُعْمَرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾؛ وهذا: أبلغ ما يكون من الحرص تمنوا حالة هي من المحالات، والحال أنهم لو عُمروا العمر المذكور لم يغن عنهم شيئاً، ولا دفع عنهم من العذاب شيئاً، ﴿وَاللَّهُ بِصِيرِ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾؛ تهديد لهم على المجازاة بأعمالهم.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ ﴿٩٨﴾.

﴿٩٧ - ٩٨﴾ أي: قل لهؤلاء اليهود الذين زعموا أن الذي منعهم من الإيمان أن وليك جبريل عليه السلام ولو كان غيره من ملائكة الله لآمنوا بك وصدقوا: إن هذا الزعم منكم تناقض وتهافت وتكبر على الله، فإن جبريل عليه السلام هو الذي نزل بالقرآن من عند الله على قلبك، وهو الذي ينزل على الأنبياء قبلك، والله هو الذي أمره وأرسله بذلك، فهو رسول محض، مع أن هذا الكتاب الذي نزل به جبريل مصدقاً لما تقدمه من الكتب غير مخالف لها ولا مناقض، وفيه الهداية التامة من أنواع الضلالات، والبشارة بالخير الدنيوي والأخروي لمن آمن به، فالعداوة لجبريل الموصوف بذلك كفر بالله وآياته وعداوة لله ولرسله وملائكته، فإن عداوتهم لجبريل لا لذاته، بل لما ينزل به من عند الله من الحق على رسل الله، فيتضمن الكفر والعداوة للذي أنزله وأرسله والذي أرسل به والذي أرسل إليه، فهذا وجه ذلك.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿٩٩﴾.

﴿٩٩﴾ يقول لنبیه ﷺ: ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات﴾؛ تحصل بها الهداية لمن استهدى وإقامة الحجة على من عاند، وهي في الوضوح والدلالة على الحق

قد بلغت مبلغاً عظيماً، ووصلت إلى حالة لا يمتنع من قبولها إلا من فسق عن أمر الله وخرج عن طاعة الله، واستكبر غاية التكبر.

﴿وَكَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠٠).

﴿١٠٠﴾ وهذا فيه التعجب^(١) من كثرة معاهداتهم وعدم صبرهم على الوفاء بها فكلما تفيد التكرار، فكلما وجد العهد ترتب عليه النقض، ما السبب في ذلك؟ السبب أن أكثرهم لا يؤمنون، فعديم إيمانهم هو الذي أوجب لهم نقض العهود، ولو صدق إيمانهم لكانوا مثل من قال الله فيهم: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرَ سَلِيمَنَ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السَّيِّئَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِإِذْنِ هَرُوتَ وَمَرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا فَتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرُوا فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠٢) [لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ] (١٠٣).

﴿١٠١﴾ أي: ولما جاءهم هذا الرسول الكريم بالكتاب العظيم بالحق الموافق لما معهم وكانوا يزعمون أنهم متمسكون بكتابهم، فلما كفروا بهذا الرسول وبما جاء به ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ﴾؛ الذي أنزل إليهم أي طرحوه رغبة عنه ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾؛ وهذا أبلغ في الإعراض كأنهم في فعلهم هذا من الجاهلين وهم يعلمون صدقه وحقيقة^(٢) ما جاء به، تبين بهذا أن هذا الفريق من أهل الكتاب لم يبق في أيديهم شيء حيث لم يؤمنوا بهذا الرسول، فصار كفرهم به كفراً بكتابهم من حيث لا يشعرون.

(١) في (ب): «التعجب».

(٢) لم أجد تفسيراً للآية (١٠٣) في النسختين فلعل الشيخ سها عنها.

(٣) في (ب): «حقية».

ولما كان من العوائد القدرية والحكمة الإلهية أن من ترك ما ينفعه وأمكنه الانتفاع به ولم ينتفع؛ ابتلي بالاشتغال بما يضره، فمن ترك عبادة الرحمن؛ ابتلي بعبادة الأوثان، ومن ترك محبة الله وخوفه ورجاءه؛ ابتلي بمحبة غير الله وخوفه ورجائه، ومن لم ينفق ماله في طاعة الله أنفقه في طاعة الشيطان، ومن ترك الذل لربه؛ ابتلي بالذل للعبيد، ومن ترك الحق؛ ابتلي بالباطل.

﴿١٠٢ - ١٠٣﴾ كذلك: هؤلاء اليهود لما نبذوا كتاب الله اتبعوا ما تتلوا الشياطين، وتختلق من السحر على ملك سليمان حيث أخرجت الشياطين للناس السحر، وزعموا أن سليمان عليه السلام كان يستعمله وبه حصل له الملك العظيم، وهم كذبة في ذلك فلم يستعمله سليمان بل نزهه الصادق في قوله: ﴿وما كفر سليمان﴾؛ أي: بتعلم السحر فلم يتعلمه، ﴿ولكن الشياطين كفروا﴾؛ في ذلك يعلمون الناس السحر؛ من إضلالهم وحرصهم على إغواء بني آدم وكذلك اتبع اليهود السحر الذي أنزل على الملكين الكاثنين بأرض بابل من أرض العراق، أنزل عليهما السحر امتحاناً وابتلاءً من الله لعباده فيعلمانهم السحر، ﴿وما يعلمان من أحد حتى﴾؛ ينصحاها و﴿يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾؛ أي: لا تتعلم السحر؛ فإنه كفر، فينهياه عن السحر ويخبرانه عن مرتبته، فتعليم الشياطين للسحر على وجه التدليس والإضلال، ونسبته وترويجه إلى من برأه الله منه وهو سليمان عليه السلام، وتعليم الملكين امتحاناً مع نصيحتهما لئلا يكون لهما حجة، فهؤلاء اليهود يتبعون السحر الذي تعلمه الشياطين والسحر الذي يعلمه الملكان، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين وأقبلوا على علم الشياطين، وكل يصبو إلى ما يناسبه.

ثم ذكر مفسد السحر فقال: ﴿فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾؛ مع أن محبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرهما، لأن الله قال في حقهما: ﴿وجعل بينكم مودة ورحمة﴾؛ وفي هذا دليل على أن السحر له حقيقة، وأنه يضر بإذن الله؛ أي: بإرادة الله، والإذن نوعان: إذن قدري: وهو المتعلق بمشيئة الله كما في هذه الآية، وإذن شرعي كما في قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿فإنه نزل على قلبك بإذن الله﴾؛ وفي هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير فإنها تابعة للقضاء والقدر ليست مستقلة في التأثير، ولم يخالف في هذا الأصل أحد من فرق الأمة غير القدرية في أفعال العباد زعموا: أنها مستقلة غير تابعة للمشيئة، فأخرجوها عن قدرة الله، فخالفوا كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة والتابعين.

ثم ذكر أن علم السحر مضره محضة، ليس فيه منفعة لا دينية ولا دنيوية، كما يوجد بعض المنافع الدنيوية في بعض المعاصي كما قال تعالى في الخمر والميسر: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا﴾؛ فهذا السحر مضره محضة فليس له داع أصلاً، فالمنهيات كلها إما مضره محضة أو شرها أكبر من خيرها، كما أن المأمورات إما مصلحة محضة أو خيرها أكثر من شرها.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾؛ أي: اليهود، ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾؛ أي: رغب في السحر رغبة المشتري في السلعة، ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾؛ أي: نصيب بل هو موجب للعقوبة، فلم يكن فعلهم إياه جهلاً ولكنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة فلبسوا ﴿مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾؛ علماً يثمر العمل ما فعلوه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا وَتَقُولُوا نَنْظُرْنَا وَاسْمَعُوا لِكَثِيرٍ عَذَابُ آلٍ ۖ مَا يُؤْذِي الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الشُّرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصِرُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝١٠٥﴾.

﴿١٠٤﴾ كان المسلمون يقولون حين خطابهم للرسول عند تعلمهم أمر الدين: ﴿راعنا﴾؛ أي: راع أحوالنا فيقصدون بها معنى صحيحاً، وكان اليهود يريدون بها معنى فاسداً، فانتهزوا الفرصة فصاروا يخاطبون الرسول بذلك ويقصدون المعنى الفاسد، فهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة سداً لهذا الباب، ففيه النهي عن الجائر إذا كان وسيلة إلى محرم، وفيه الأدب واستعمال الألفاظ التي لا تحتمل إلا الحسن وعدم الفحش وترك الألفاظ القبيحة أو التي فيها نوع تشويش واحتمال لأمر غير لائق، فأمرهم بلفظة لا تحتمل إلا الحسن فقال: ﴿وقولوا انظرننا﴾؛ فإنها كافية يحصل بها المقصود من غير محذور، ﴿واسمعوا﴾؛ لم يذكر المسموع ليعلم ما أمر باستماعه فيدخل فيه سماع القرآن وسماع السنة التي هي الحكمة لفظاً ومعنى واستجابة ففيه الأدب والطاعة، ثم توعدهم الكافرين بالعذاب المؤلم الموجه.

﴿١٠٥﴾ وأخبر عن عداوة اليهود والمشركين للمؤمنين أنهم ما يودون، ﴿أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾؛ أي: لا قليلاً ولا كثيراً، ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾؛ حسداً منهم وبغضاً لكم أن يختصكم بفضله فإنه، ﴿ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ومن فضله عليكم؛ إنزال الكتاب على رسولكم ليزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون، فله الحمد والمنة.

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ .

﴿١٠٦﴾ النسخ هو النقل، فحقيقة النسخ نقل المكلفين من حكم مشروع إلى حكم آخر أو إلى إسقاطه، وكان اليهود ينكرون النسخ ويزعمون أنه لا يجوز، وهو مذكور عندهم في التوراة، فإنكارهم له كفر وهوى محض، فأخبر الله تعالى عن حكمته في النسخ، وأنه ما ينسخ ﴿من آية أو نسيها﴾؛ أي: ننسها العباد فتزيلها من قلوبهم، ﴿نأت بخير منها﴾؛ وأنفع لكم، ﴿أو مثلها﴾؛ فدل على أن النسخ لا يكون لأقل مصلحة لكم من الأول لأن فضله تعالى يزداد خصوصاً على هذه الأمة التي سهل عليها دينها غاية التسهيل، وأخبر أن من قدح في النسخ [فقد] قدح في ملكه وقدرته فقال: ﴿ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير﴾.

﴿١٠٧﴾ ﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض﴾؛ فإذا كان مالكا لكم متصرفاً فيكم تصرف المالك البر الرحيم في أقداره وأوامره ونواهيته، فكما أنه لا حجر عليه في تقدير ما يقدره على عباده من أنواع التقادير، كذلك لا يعترض عليه فيما يشرعه لعباده من الأحكام، فالعبد مدبر مسخر تحت أوامر ربه الدينية والقدرية فما له والاعتراض، وهو أيضاً ولي عباده ونصيرهم، فيتولاهم في تحصيل منافعهم، وينصرهم في دفع مضارهم، فمن ولايته لهم، أن يشرع لهم من الأحكام ما تقتضيه حكمته ورحمته بهم.

ومن تأمل ما وقع في القرآن والسنة من النسخ، عرف بذلك حكمة الله، ورحمته عباده، وإيصالهم إلى مصالحهم من حيث لا يشعرون بلطفه.

﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ ﴿١٠٨﴾ وَكَثِيرٌ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسْبًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ .

﴿١٠٨﴾ ينهى الله المؤمنين أو اليهود بأن يسألوا رسولهم، ﴿كما سئل موسى

من قبل ﴿١٠٩﴾؛ والمراد بذلك أسئلة التعنت والاعتراض، كما قال تعالى: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة﴾؛ وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾؛ فهذه ونحوها هي المنهي عنها.

وأما سؤال الاسترشاد والتعلم فهذا محمود قد أمر الله به كما قال تعالى: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾؛ ويقرهم^(١) عليه كما في قوله: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾؛ و﴿يسألونك عن اليتامى﴾؛ ونحو ذلك. ولما كانت المسائل المنهي عنها مذمومة قد تصل بصاحبها إلى الكفر قال: ﴿ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل﴾.

﴿١٠٩﴾ ثم أخبر عن حسد كثير من أهل الكتاب وأنهم بلغت بهم الحال أنهم ودوا ﴿لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً﴾؛ وسعوا في ذلك، وعملوا^(٢) المكاييد، وكيدهم راجع عليهم كما قال تعالى: ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾؛ وهذا من حسدهم الصادر من عند أنفسهم، فأمرهم الله بمقابلة من أساء إليهم [غاية الإساءة] بالعفو عنهم والصفح حتى يأتي الله بأمره، ثم بعد ذلك أتى الله بأمره إياهم بالجهاد، فشفى الله أنفس المؤمنين منهم، فقتلوا من قتلوا واسترقوا من استرقوا، وأجلوا من أجلوا، ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾.

﴿١١٠﴾ ثم أمرهم الله بالاشتغال بالوقت الحاضر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وفعل كل القربات، ووعدهم أنهم مهما فعلوا من خير فإنه لا يضيع عند الله بل يجدونه عنده وافراً موفراً قد حفظه ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾.

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١١١﴾ بَلَى مَن أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرٌ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿١١٢﴾.

﴿١١١﴾ أي: قال اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، فحكموا لأنفسهم بالجنة وحدهم، وهذا مجرد

(٢) في (ب): «وأعملوا».

(١) في (ب): «ويقرهم».

أما نى غير مقبولة إلا بحجة وبرهان فأتوا بها إن كنتم صادقين، وهكذا كل من ادعى دعوى لا بد أن يقيم البرهان على صحة دعواه، وإلا فلو قلبت عليه دعواه وادعى مدع عكس ما ادعى بلا برهان لكان لا فرق بينهما، فالبرهان هو الذي يصدق الدعاوى أو يكذبها، ولما لم يكن بأيديهم برهان علم كذبهم بتلك الدعوى.

﴿١١٢﴾ ثم ذكر تعالى البرهان الجلى العام لكل أحد فقال: ﴿بلى﴾؛ أي: ليس بأمانىكم ودعاوىكم ولكن، ﴿من أسلم وجهه لله﴾؛ أي: أخلص لله أعماله متوجهاً إليه بقلبه، ﴿وهو﴾؛ مع إخلاصه ﴿محسن﴾؛ في عبادة ربه بأن عبده بشره فأولئك هم أهل الجنة وخدمهم، فلهم أجرهم عند ربهم؛ وهو الجنة بما اشتملت عليه من النعيم، ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾؛ فحصل لهم المرغوب ونجوا من المرهوب، ويفهم منها أن من ليس كذلك فهو من أهل النار الهالكين، فلا نجاة إلا لأهل الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَنَبِيِّنَا عَلَيَّ شَيْءٌ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَنَبِيِّنَا عَلَيَّ شَيْءٌ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿١١٣﴾ وذلك أنه بلغ بأهل الكتاب الهوى والحسد إلى أن بعضهم ضلل بعضاً، وكفر بعضهم بعضاً كما فعل الأميون من مشركي العرب وغيرهم، فكل فرقة تضلل [الفرقة] الأخرى، ويحكم الله في الآخرة بين المختلفين بحكمه العدل الذي أخبر به عباده، فإنه ^(١) لا فوز ولا نجاة إلا لمن صدق جميع الأنبياء والمرسلين، وامتلأ وأمر ربه، واجتنب نواهيه، ومن عداهم فهو هالك.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿١١٤﴾ أي: لا أحد أظلم وأشد جرمًا ممن منع مساجد الله عن ذكر الله فيها وإقامة الصلاة وغيرها من [أنواع] الطاعات، ﴿وسعى﴾؛ أي: اجتهد وبذل وسعه، ﴿في خرابها﴾؛ الحسى والمعنوي، فالخراب الحسى هدمها وتخريبها وتقديرها، والخراب المعنوي منع الذاكرين لاسم الله فيها، وهذا عام لكل من اتصف بهذه

الصفة فيدخل في ذلك أصحاب الفيل وقريش حين صدوا رسول الله عنها عام الحديبية، والنصارى حين أخرجوا بيت المقدس، وغيرهم من أنواع الظلمة الساعين في خرابها محادة لله ومشاقة، فجازاهم الله بأن منعهم دخولها شرعاً وقدرأ إلا خائفين ذليين، فلما أخافوا عباد الله أخافهم الله، فالمشركون الذين صدوا رسوله لم يلبث رسول الله ﷺ إلا يسيراً حتى أذن الله له في فتح مكة ومنع المشركين من قربان بيته فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾؛ وأصحاب الفيل قد ذكر الله ما جرى عليهم، والنصارى سلط الله عليهم المؤمنين فأجلوهم [عنه]، وهكذا كل من اتصف بوصفهم فلا بد أن يناله قسطه، وهذا من الآيات العظيمة أخبر بها الباري قبل وقوعها فوقعت كما أخبر، واستدل العلماء بالآية الكريمة على أنه لا يجوز تمكين الكفار من دخول المساجد ﴿لهم في الدنيا خزي﴾؛ [أي]: فضيحة؛ كما تقدم ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾؛ وإذا كان لا أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، فلا أعظم إيماناً ممن سعى في عمارة المساجد بالعمارة الحسية والمعنوية؛ كما قال تعالى: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾؛ بل قد أمر الله تعالى برفع بيوته وتعظيمها وتكريمها فقال تعالى: ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه﴾.

وللمساجد أحكام كثيرة يرجع حاصلها إلى مضمون هذه الآيات الكريمة.

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿١١٥﴾ أي: ﴿ولله المشرق والمغرب﴾؛ خصهما بالذكر لأنهما محل الآيات العظيمة [فهما]^(١) مطالع الأنوار ومغاريها، فإذا كان مالكا لها كان مالكا لكل الجهات ﴿فأينما تولوا﴾؛ وجوهكم من الجهات إذا كان توليكم إياها بأمره، إما أن يأمركم باستقبال الكعبة بعد أن كنتم مأمورين باستقبال بيت المقدس، أو تؤمرون بالصلاة في السفر على الراحلة ونحوها، فإن القبلة حيثما توجه العبد، أو تشبه القبلة فيتحرى الصلاة إليها، ثم يتبين له الخطأ أو يكون معذوراً بصلب أو مرض ونحو ذلك، فهذه الأمور إما أن يكون العبد فيها معذوراً أو مأموراً.

وبكل حال فما استقبال جهة من الجهات خارجة عن ملك ربه ﴿فتم وجه الله

(١) كذا في (ب)، وفي (أ): «في».

إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ؛ فِيهِ إِثْبَاتُ الْوَجْهِ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى الْوَجْهِ اللَّائِقِ بِهِ تَعَالَى، وَإِنَّ لِلَّهِ وَجْهًا لَا تَشْبِيهِهُ الْوُجُوهُ، وَهُوَ تَعَالَى وَاسِعُ الْفَضْلِ وَالصِّفَاتِ عَظِيمُهَا عَلِيمٌ بِسِرَائِرِكُمْ وَنِيَّاتِكُمْ، فَمَنْ سَعَتُهُ وَعِلْمُهُ، وَسِعَ لَكُمْ الْأَمْرَ، وَقَبْلَ مِنْكُمْ الْأُمُورَ، فَلَهُ الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَكُمْ قَدِينُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿١١٦﴾ ﴿وقالوا﴾؛ أي: اليهود والنصارى والمشركون وكل من قال ذلك، ﴿اتخذ الله ولدًا﴾؛ فنسبوه إلى ما لا يليق بجلاله وأساءوا كل الإساءة وظلموا أنفسهم وهو تعالى صابر على ذلك منهم، قد حلم عليهم، وعافاهم، ورزقهم مع تنقصهم إياه ﴿سبحانه﴾؛ أي: تنزهه وتقدس عن كل ما وصفه به المشركون والظالمون مما لا يليق بجلاله، فسبحان من له الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا يعتريه نقصٌ بوجه من الوجوه، ومع رده لقولهم أقام الحجة والبرهان على تنزيهه عن ذلك فقال: ﴿بل له ما في السموات والأرض﴾؛ أي: جميعهم ملكه وعبيده يتصرف فيهم تصرف المالك بالمماليك وهم قانتون له مسخرون تحت تدبيره، فإذا كانوا كلهم عبيده مفتقرين إليه، وهو غني عنهم فكيف يكون منهم أحد يكون له ولدًا، والولد لا بد أن يكون من جنس والده لأنه جزء منه، والله تعالى المالك القاهر وأتم المملوكون المقهورون وهو الغني وأنتم الفقراء، فكيف مع هذا يكون له ولد؟ هذا من أبطل الباطل وأسمجه.

والقنوت نوعان: قنوت عام وهو قنوت الخلق كلهم تحت تدبير الخالق، وخاص وهو قنوت العبادة. فالنوع الأول كما في هذه الآية، والنوع الثاني كما في قوله تعالى: ﴿وقوموا لله قانتين﴾. ثم قال:

﴿١١٧﴾ ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: خالقهما على وجه قد أتقنهما وأحسنهما على غير مثال سبق، ﴿وإذا قضىٰ أمرًا فإنما يقول له كن فيكون﴾؛ فلا يستعصي عليه ولا يمتنع منه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُنْصَلُ عَنْ أَحْصَابِ الْغَجِيرِ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿١١٨﴾ أي: قال الجهلة من أهل الكتاب وغيرهم هلا يكلمنا الله كما كلم الرسل، ﴿أو تأتينا آية﴾؛ يعنون آيات الاقتراح التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة وآرائهم الكاسدة التي تجرؤوا بها على الخالق واستكبروا على رسله كقولهم: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾؛ ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك...﴾؛ الآية. ﴿وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها...﴾؛ الآيات، وقوله: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً...﴾؛ الآيات.

فهذا دأبهم مع رسلهم يطلبون آيات التعنت لا آيات الاسترشاد، ولم يكن قصدهم تبين الحق فإن الرسل قد جاؤوا من الآيات بما يؤمن على مثله^(١) البشر، ولهذا قال تعالى: ﴿قد بينا الآيات لقوم يوقنون﴾؛ فكل موقن فقد عرف من آيات الله الباهرة وبراهينه الظاهرة ما حصل له به اليقين، واندفع عنه كل شك وريب.

ثم ذكر تعالى بعض آية موجزة مختصرة جامعة للآيات الدالة على صدقه ﷺ وصحة ما جاء به فقال:

﴿١١٩﴾ ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً﴾؛ فهذا مشتمل على الآيات التي جاء بها، وهي ترجع إلى ثلاثة أمور:

الأول في نفس إرساله، والثاني في سيرته وهديه ودلّه، والثالث في معرفة ما جاء به من القرآن والسنة. فالأول والثاني قد دخلا في قوله: ﴿إنا أرسلناك﴾؛ والثالث [دخل] في قوله: ﴿بالحق﴾.

وبيان الأمر الأول: وهو - نفس إرساله - أنه قد علم حالة أهل الأرض قبل بعثته ﷺ وما كانوا عليه من عبادة الأوثان والنيران والصلبان وتبديلهم للأديان حتى كانوا في ظلمة من الكفر قد عمتهم وشملتهم، إلا بقايا من أهل الكتاب قد انقضوا قبيل البعثة، وقد علم أن الله تعالى لم يخلق خلقه سدى ولم يتركهم هملاً، لأنه حكيم عليم قدير رحيم، فمن حكمته ورحمته بعباده أن أرسل إليهم هذا الرسول العظيم يأمرهم بعبادة الرحمن وحده لا شريك له، فبمجرد رسالته يعرف العاقل صدقه، وهو آية كبيرة على أنه رسول الله.

(١) في (ب): «بمثله».

وأما الثاني فمن عرف النبي ﷺ معرفة تامة، وعرف سيرته وهديه قبل البعثة ونشوءه على أكمل الخصال، ثم من بعد ذلك قد ازدادت مكارمه وأخلاقه العظيمة الباهرة للناظرين، فمن عرفها وسبر أحواله عرف أنها لا تكون إلا أخلاق الأنبياء الكاملين؛ لأنه^(١) تعالى جعل الأوصاف أكبر دليل على معرفة أصحابها وصدقهم وكذبهم.

وأما الثالث: فهو معرفة ما جاء به ﷺ من الشرع العظيم والقرآن الكريم المشتمل على الإخبارات الصادقة والأوامر الحسنة والنهي عن كل قبيح، والمعجزات الباهرة، فجميع الآيات تدخل في هذه الثلاثة.

قوله: ﴿بشيراً﴾؛ أي: لمن أطاعك بالسعادة الدنيوية والأخروية، ﴿نذيراً﴾؛ لمن عصاك بالشقاوة والهلاك الدنيوي والأخروي، ﴿ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾؛ أي: لست مسؤولاً عنهم، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَبْعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتَيْتَهُمْ بِأَهْوَاءِهِمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْبَيِّنَاتِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١٢٠).

﴿١٢٠﴾ يخبر تعالى رسوله أنه لا يرضى منه اليهود ولا النصارى إلا باتباعه دينهم؛ لأنهم دعاة إلى الدين الذي هم عليه يزعمون أنه الهدى، فقل لهم: ﴿إن هدى الله﴾؛ الذي أرسلت به ﴿هو الهدى﴾؛ وأما ما أنتم عليه فهو الهوى بدليل قوله: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير﴾؛ فهذا فيه النهي العظيم عن اتباع أهواء اليهود والنصارى والتشبه بهم بما يختص به دينهم.

والخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ، فإن أمته داخله في ذلك؛ لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب، كما أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ثم قال:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ ۖ فَأُولَٰئِكَ هُمُ

(١) في (ب): «لأن الله».

الْمُتُحَرِّمُونَ ﴿١٢١﴾ يَبْقَىٰ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزَىٰ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

﴿١٢١﴾ يخبر تعالى أن الذين آتاهم الكتاب ومن عليهم به منة مطلقة أنهم يتلونه حق تلاوته؛ أي: يتبعونه حق اتباعه، والتلاوة الاتباع، فيحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ويعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، وهؤلاء هم السعداء من أهل الكتاب الذين عرفوا نعمة الله وشكروها، وآمنوا بكل الرسل ولم يفرقوا بين أحد منهم، فهؤلاء هم المؤمنون حقاً لا من قال منهم نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه، ولهذا توعدهم بقوله: ﴿ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون﴾.

﴿١٢٢ - ١٢٣﴾ وقد تقدم تفسير الآية التي بعدها.

﴿١٢٤﴾ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا آلِیَّتَ مَنَابَةِ لِلنَّاسِ وَأَنَّا وَاعِدُونَ مِنْ مَقَامٍ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهَرًا بَيْنَ لِلظَّالِمِينَ وَالْمُكْفِرِينَ وَالزُّكَّعَ الشُّجُودِ ﴿١٢٦﴾

﴿١٢٤﴾ يخبر تعالى عن عبده وخليله إبراهيم عليه السلام المتفق على إمامته وجلالته الذي كل من طوائف أهل الكتاب تدعيه، بل وكذلك المشركون أن الله ابتلاه وامتحنه بكلمات أي بأوامر ونواهٍ كما هي عادة الله في ابتلائه لعباده ليتبين الكاذب الذي لا يثبت عند الابتلاء والامتحان من الصادق، الذي ترتفع درجته، ويزيد قدره، ويزكو عمله ويخلص ذهبه، وكان من أجلهم في هذا المقام الخليل عليه السلام، فأتى ما ابتلاه الله به وأكمله ووفاه، فشكر الله له ذلك، ولم يزل الله شكوراً فقال: ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾؛ أي: يقتدون بك في الهدى ويمشون خلفك إلى سعادتهم الأبدية، ويحصل لك الشاء الدائم والأجر الجزيل والتعظيم من كل أحد.

وهذه - لعمر الله - أفضل درجة تنافس فيها المتنافسون، وأعلى مقام شمر إليه العاملون، وأكمل حالة حصلها أولو العزم من المرسلين وأتباعهم من كل صديق متبع لهم داع إلى الله وإلى سبيله، فلما اغتبط إبراهيم بهذا المقام، وأدرك هذا، طلب ذلك لذريته لتعلو درجته ودرجة ذريته، وهذا أيضاً من إمامته ونصحه لعباد الله ومحبه أن يكثر فيهم المرشدون، فله عظمة هذه الهمم العالية والمقامات السامية.

فأجابه الرحيم اللطيف وأخبر بالمانع من نيل هذا المقام فقال: ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾؛ أي: لا ينال الإمامة في الدين من ظلم نفسه وضرها وحط قدرها لمنافاة الظلم لهذا المقام، فإنه مقام آله الصبر واليقين، ونتيجته أن يكون صاحبه على جانب عظيم من الإيمان والأعمال الصالحة والأخلاق الجميلة والشمائل السديدة والمحبة التامة والخشية والإنابة، فأين الظلم وهذا المقام؟ ودل مفهوم الآية أن غير الظالم سينال الإمامة، ولكن مع إتيانه بأسبابها.

﴿١٢٥﴾ ثم ذكر تعالى أنموذجاً باقياً دالاً على إمامة إبراهيم وهو: هذا البيت الحرام الذي جعل قصده ركناً من أركان الإسلام حاطاً للذنوب والآثام، وفيه من آثار الخليل وذريته ما عرف به إمامته وتذكرت به حالته فقال: ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس﴾؛ أي: مرجعاً يثوبون إليه بحصول منافعهم الدينية والدنيوية، يترددون إليه ولا يقضون منه وطراً، وجعله ﴿أمناً﴾؛ يأمن به كل أحد حتى الوحش وحتى الجمادات كالأشجار، ولهذا كانوا في الجاهلية - على شركهم - يحترمونه أشد الاحترام ويجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم فلا يهيجه، فلما جاء الإسلام زاده حرمة وتعظيماً وتشريفاً وتكريماً، ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾؛ يحتمل أن يكون المراد بذلك المقام المعروف الذي قد جعل الآن مقابل باب الكعبة، وأن المراد بهذا ركعتا الطواف يستحب أن تكونا^(١) خلف مقام إبراهيم وعليه جمهور المفسرين ويحتمل أن يكون المقام مفرداً مضافاً فيعم جميع مقامات إبراهيم في الحج، وهي المشاعر كلها من الطواف والسعي والوقوف بعرفة ومزدلفة ورمي الجمار والنحر وغير ذلك من أفعال الحج، فيكون معنى قوله: ﴿مصلى﴾؛ أي: معبداً، أي اقتدوا به في شعائر الحج، ولعل هذا المعنى أولى لدخول المعنى الأول فيه واحتمال اللفظ له.

﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل﴾؛ أي: أوحينا إليهما وأمرناهما بتطهير بيت الله من الشرك والكفر والمعاصي ومن الرجس والنجاسات والأقذار ليكون ﴿للطائفين﴾؛ فيه ﴿والعاكفين والركع السجود﴾؛ أي: المصلين، قدم الطواف لاختصاصه بالمسجد الحرام، ثم الاعتكاف لأن من شرطه المسجد مطلقاً، ثم الصلاة مع أنها أفضل لهذا المعنى، وأضاف الباري البيت إليه لفوائد:

(١) في (ب): «يكونا».

منها: أن ذلك يقتضي شدة اهتمام إبراهيم وإسماعيل بتطهيره لكونه بيت الله فيبدلان جهدهما، ويستفرغان وسعهما في ذلك.

ومنها: أن الإضافة تقتضي التشريف والإكرام ففي ضمنها أمر عباده بتعظيمه وتكريمه.

ومنها: أن هذه الإضافة هي السبب الجالب للقلوب إليه.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿١٢٦﴾ أي: وإذ دعا إبراهيم لهذا البيت أن يجعله الله بلداً آمناً ويرزق أهله من أنواع الثمرات، ثم قيد عليه السلام هذا الدعاء للمؤمنين تأديباً مع الله إذ كان دعاؤه الأول فيه الإطلاق، فجاء الجواب فيه مقيداً بغير الظالم، فلما دعا لهم بالرزق وقيد بالمؤمن وكان رزق الله شاملاً للمؤمن والكافر والعاصي والطائع قال تعالى: ﴿ومن كفر﴾؛ أي: أرزقهم كلهم مسلمهم وكافرهم، أما المسلم فيستعين بالرزق على عبادة الله ثم ينتقل منه إلى نعيم الجنة، وأما الكافر فيتمتع فيها قليلاً، ثم اضطره؛ أي: ألجته وأخرجه مكرهاً ﴿إلى عذاب النار وبئس المصير﴾.

﴿وَإِذْ رَفَعَ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿١٢٧﴾ أي: واذكر إبراهيم وإسماعيل في حالة رفعهما القواعد من البيت الأساس واستمرارهما على هذا العمل العظيم، وكيف كانت حالهما من الخوف والرجاء حتى إنهما مع هذا العمل دعوا الله أن يتقبل منهما عملهما حتى يجعل^(١) فيه النفع العميم.

﴿١٢٨﴾ ودعوا لأنفسهما وذريتهما بالإسلام الذي حقيقته خضوع القلب وانقياده لربه المتضمن لانقياد الجوارح ﴿وأرنا مناسكنا﴾؛ أي: علمناها على وجه الإراءة

(١) في (ب): «يحصل».

والمشاهدة ليكون أبلغ، يحتمل أن يكون المراد بالمناسك أعمال الحج كلها كما يدل عليه السياق والمقام ويحتمل أن يكون المراد ما هو أعم من ذلك وهو الدين كله والعبادات كلها كما يدل عليه عموم اللفظ، لأن النسك التعبد، ولكن غلب على متعبدات الحج تغليباً عرفياً، فيكون حاصل دعائهما يرجع إلى التوفيق للعلم النافع والعمل الصالح.

ولما كان العبد مهما كان لا بد أن يعتريه التقصير ويحتاج إلى التوبة قالوا: ﴿وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾.

﴿١٢٩﴾ ﴿ربنا وابعث فيهم﴾؛ أي: في ذريتنا ﴿رسولاً منهم﴾؛ ليكون أرفع لدرجتهم ولينقادوا له وليعرفوه حقيقة المعرفة ﴿يتلو عليهم آياتك﴾؛ لفظاً وحفظاً وتحفيظاً، ويعلمهم الكتاب والحكمة؛ معنى ﴿ويزكيهم﴾؛ بالتربية على الأعمال الصالحة والتبري من الأعمال الرديئة التي لا تزكو النفس^(١) معها، ﴿إنك أنت العزيز﴾؛ أي: القاهر لكل شيء الذي لا يمتنع على قوته شيء ﴿الحكيم﴾؛ الذي يضع الأشياء مواضعها، فبعزتكم وحكمتكم ابعث فيهم هذا الرسول.

فاستجاب الله لهما؛ فبعث الله هذا الرسول الكريم الذي رحم الله به ذريتهما خاصة وسائر الخلق عامة، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «أنا دعوة أبي إبراهيم»^(٢).

ولما عظم الله إبراهيم هذا التعظيم وأخبر عن صفاته الكاملة قال تعالى:

﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَجِدْنَا وَالنَّحْنُ لَكَ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

(١) في (ب): «النفوس».

(٢) أخرجه أحمد (١٢٧/١) و(١٢٨)، والحاكم (١٥٠/٢) وصححه ووافقه الذهبي، والحديث صححه الألباني في «الصحيحة» (١٥٤٥ و ١٥٤٦).

﴿١٣٠﴾ أي: ما يرغب ﴿عن ملة إبراهيم﴾؛ بعد ما عرف من فضله، ﴿إلا من سفه نفسه﴾؛ أي: جهلها وامتنعها ورضي لها بالدون وباعها بصفقة المغبون كما أنه لا أرشد وأكمل ممّن رغب في ملة إبراهيم، ثم أخبر عن حالته في الدنيا والآخرة فقال: ﴿ولقد اصطفيناه في الدنيا﴾؛ أي: اخترناه ووفقناه للأعمال التي صار بها من المصطفين الأخيار، ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾؛ الذين لهم أعلى الدرجات.

﴿١٣١﴾ إذ قال له ربّه أسلم قال: ﴿امتثالاً لربه﴾ ﴿أسلمتُ لربِّ العالمين﴾؛ إخلاصاً وتوحيداً ومحبة وإنابة فكان التوحيد لله نعته، ثم ورثه في ذريته ووصاهم به، وجعلها كلمة باقية في عقبه، وتوارثت فيهم حتى وصلت ليعقوب فوصى بها بنيه.

فأنتم - يا بني يعقوب - قد وصاكم أبوكم بالخصوص فيجب عليكم كمال الانقياد، واتباع خاتم الأنبياء. قال:

﴿١٣٢﴾ ﴿يا بني إن الله اصطفى لكم الدين﴾؛ أي: اختاره، وتخيره لكم رحمة بكم وإحساناً إليكم، فقوموا به، واتصفوا بسرائعه، وانصبغوا بأخلاقه حتى تستمروا على ذلك فلا يأتىكم الموت إلا وأنتم عليه، لأن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه.

﴿١٣٣﴾ ولما كان اليهود يزعمون أنهم على ملة إبراهيم ومن بعده يعقوب قال تعالى منكرأ عليهم: ﴿أم كنتم شهداء﴾؛ أي: حضوراً ﴿إذ حضر يعقوب الموت﴾؛ أي: مقدماته وأسبابه فقال لبنيه على وجه الاختبار ولتقرّ عينه في حياته بامثالهم ما وصاهم به: ﴿ما تعبدون من بعدي﴾؛ فأجابوه بما قرت به عينه فقالوا: ﴿نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً﴾؛ فلا نشرك به شيئاً ولا نعدل به ﴿ونحن له مسلمون﴾؛ فجمعوا بين التوحيد والعمل، ومن المعلوم أنهم لم يحضروا يعقوب، لأنهم لم يوجدوا بعد، فإذا لم يحضروا، فقد أخبر الله عنه أنه وصى بنيه بالحنيفية لا باليهودية، ثم قال تعالى:

﴿١٣٤﴾ ﴿تلك أمة قد خلت﴾؛ أي: مضت ﴿لها ما كسبت ولكم ما كسبتم﴾؛ أي: كلُّ له عمله، وكلُّ سيجازى بما فعله، لا يؤخذ^(١) أحد بذنب أحد، ولا ينفع أحداً إلا إيمانه وتقواه، فاشتغالكم بهم وادعائكم أنكم على ملتهم والرضا بمجرد

(١) في (ب): «يؤخذ».

القول أمر فارغ لا حقيقة له، بل الواجب عليكم أن تنظروا حالتكم التي أنتم عليها هل تصلح للنجاة أم لا ؟

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةٌ خَنيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١٣٥﴾.

﴿١٣٥﴾ أي: دعا كل من اليهود والنصارى المسلمين إلى الدخول في دينهم زاعمين أنهم هم المهتدون وغيرهم ضال، [قل] ^(١) له مجيباً جواباً شافياً ﴿بل﴾؛ تتبع ﴿ملة إبراهيم خنيفاً﴾؛ أي: مقبلاً على الله معرضاً عما سواه قائماً بالتوحيد تاركاً للشرك والتنديد، فهذا الذي في اتباعه الهداية وفي الإعراض عن ملته الكفر والغواية.

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَّا إِلَٰهِنَا ١٣٦﴾.

﴿١٣٦﴾ هذه الآية الكريمة قد اشتملت على جميع ما يجب الإيمان به. واعلم أن الإيمان الذي هو تصديق القلب التام بهذه الأصول، وإقراره المتضمن لأعمال القلوب والجوارح، وهو - بهذا الاعتبار - يدخل فيه الإسلام وتدخل فيه الأعمال الصالحة كلها، فهي من الإيمان وأثر من آثاره، فحيث أطلق الإيمان دخل فيه ما ذكر، وكذلك الإسلام إذا أطلق دخل فيه الإيمان، فإذا قرن بينهما كان الإيمان اسماً لما في القلب من الإقرار والتصديق، والإسلام اسماً للأعمال الظاهرة. وكذلك إذا جمع بين الإيمان والأعمال الصالحة.

فقوله تعالى: ﴿قُولُوا﴾؛ أي: بألستكم متواطئة عليها قلوبكم، وهذا هو القول التام المترتب عليه الثواب والجزاء، فكما أن النطق باللسان بدون اعتقاد القلب نفاق وكفر، فالقول الخالي من العمل عمل القلب عديم التأثير قليل الفائدة، وإن كان العبد يؤجر عليه إذا كان خيراً ومعه أصل الإيمان، لكن فرق بين القول المجرد والمقترن به عمل القلب.

وفي قوله ﴿قُولُوا﴾؛ إشارة إلى الإعلان بالعقيدة والصدع بها والدعوة لها، إذ هي أصل الدين وأساسه، وفي قوله ﴿آمنّا﴾؛ ونحوه مما فيه صدور الفعل منسوباً إلى جميع الأمة إشارة إلى أنه يجب على الأمة الاعتصام بحبل الله جميعاً والحث

(١) كذا في (ب)، وفي (أ): «قال».

على الائتلاف حتى يكون داعيهم واحداً وعملهم متحداً، وفي ضمنه النهي عن الافتراق. وفيه أن المؤمنين كالجسد الواحد.

وفي قوله: ﴿قولوا آمنا بالله...﴾ الخ؛ دلالة على جواز إضافة الإنسان إلى نفسه الإيمان على وجه التقييد، بل على وجوب ذلك، بخلاف قوله أنا مؤمن ونحوه فإنه لا يقال إلا مقروناً بالاستثناء بالمشيئة لما فيه من تركية النفس والشهادة على نفسه بالإيمان، فقوله: ﴿آمنا بالله﴾؛ أي: بأنه واجب الوجود واحد أحد^(١) متصف بكل صفة كمال، منزّه عن كل نقص وعيب، مستحق لإفراده بالعبادة كلها وعدم الإشراك به في شيء منها بوجه من الوجوه.

﴿وما أنزل إلينا﴾؛ يشمل القرآن والسنة لقوله تعالى: ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾؛ فيدخل فيه الإيمان بما تضمنه كتاب الله وسنة رسوله من صفات الباري وصفات رسله واليوم الآخر والغيوب الماضية والمستقبلية، والإيمان بما تضمنه ذلك من الأحكام الشرعية الأمرية وأحكام الجزاء وغير ذلك ﴿وما أنزل إلى إبراهيم...﴾؛ إلى آخر الآية، فيه الإيمان بجميع الكتب المنزلة على جميع الأنبياء، والإيمان بالأنبياء عموماً وخصوصاً ما نص عليه في الآية لشرفهم وإتيانهم بالشرائع الكبار، فالواجب في الإيمان بالأنبياء والكتب أن يؤمن بهم على وجه العموم والشمول، ثم ما عرف منهم بالتفصيل وجب الإيمان به مفصلاً.

وقوله: ﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾؛ أي: بل نؤمن بهم كلهم، هذه خاصية المسلمين التي انفردوا بها عن كل من يدعي أنه على دين، فاليهود والنصارى والصابئون وغيرهم وإن زعموا أنهم يؤمنون بما يؤمنون به من الرسل والكتب فإنهم يكفرون بغيره فيفرون بين الرسل والكتب، بعضها يؤمنون به وبعضها يكفرون به، وينقض تكذيبهم تصديقهم، فإن الرسول الذي زعموا أنهم قد آمنوا به قد صدق سائر الرسل وخصوصاً محمداً ﷺ، فإذا كذبوا محمداً فقد كذبوا رسولهم فيما أخبرهم به فيكون كفراً برسولهم، وفي قوله: ﴿وما أوتي النبيون من ربهم﴾؛ دلالة على أن عطية الدين هي العطية الحقيقية المتصلة بالسعادة الدنيوية والأخروية، لم يأمرنا أن نؤمن بما أوتي الأنبياء من الملك والمال ونحو ذلك، بل أمرنا أن نؤمن بما أعطوا من الكتب والشرائع، وفيه أن الأنبياء مبلغون عن الله ووسائط بين الله

(١) في (ب): «بأنه موجود واحد أحد».

وبين خلقه في تبليغ دينه، ليس لهم من الأمر شيء.

وفي قوله: ﴿من ربهم﴾؛ إشارة إلى أنه من كمال ربوبيته لعباده أن ينزل عليهم الكتب ويرسل إليهم الرسل، فلا تقتضي ربوبيته تركهم سدى ولا هملاً، وإذا كان ما أوتي النبيون إنما هو من ربهم ففيه الفرق بين الأنبياء وبين من يدعي النبوة، وأنه يحصل الفرق بينهم بمجرد معرفة ما يدعون إليه، فالرسل لا يدعون إلا لخير ولا ينهاون إلا عن كل شر، وكل واحد منهم يصدق الآخر ويشهد له بالحق من غير تخالف ولا تناقض لكونه من عند ربهم، ﴿فلو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾؛ وهذا بخلاف من ادعى النبوة فلا بد أن يتناقضوا في أخبارهم وأوامرهم ونواهيهم كما يعلم ذلك من سبر أحوال الجميع وعرف ما يدعون إليه، فلما بين تعالى جميع ما يؤمن به عموماً وخصوصاً وكان القول لا يغني عن العمل قال: ﴿ونحن له مسلمون﴾؛ أي: خاضعون لعظمته متقادون لعبادته بباطننا وظاهرنا مخلصون له العبادة، بدليل تقديم المعمول وهو ﴿له﴾؛ على العامل وهو، ﴿مسلمون﴾.

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على إيجازها واختصارها على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

واشتملت على الإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب، وعلى التخصيص الدال على الفضل بعد التعميم، وعلى التصديق بالقلب واللسان والجوارح والإخلاص لله في ذلك، وعلى الفرق بين الرسل الصادقين ومن ادعى النبوة من الكاذبين، وعلى تعليم الباري عباده كيف يقولون، ورحمته وإحسانه عليهم بالنعم الدينية المتصلة بسعادة الدنيا والآخرة. فسبحان من جعل كتابه تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون.

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ ءَاهَتُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ تَسْتَذِكرُهُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝١٣٧﴾.

﴿١٣٧﴾ أي: فإن آمن أهل الكتاب بمثل ما آمنتم به يا معشر المؤمنين من جميع الرسل، وجميع الكتب، الذين أول من دخل فيهم وأولى خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ، والقرآن، وأسلموا لله وحده ولم يفرقوا بين أحد من الرسل^(١)، ﴿فقد

(١) في (ب): «من رسل الله».

اهتدوا؛ للصراط المستقيم الموصل لجنت النعيم؛ أي فلا سبيل لهم إلى الهداية إلا بهذا الإيمان، لا كما زعموا بقولهم كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا فزعموا أن الهداية خاصة بما كانوا عليه.

والهدى: هو العلم بالحق والعمل به، وضده الضلال عن العلم، والضلال عن العمل بعد العلم وهو الشقاق الذي كانوا عليه لما تولوا وأعرضوا، فالمشاق هو الذي يكون في شقّ والله ورسوله في شقّ، ويلزم من المشاقة المحادة والعداوة البليغة التي من لوازمها بذل ما يقدرون عليه من أذية الرسول، فلهذا وعد الله رسوله أن يكفيه إياهم لأنه ﴿السميع﴾ لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات. ﴿العليم﴾ بما بين أيديهم وما خلفهم بالغيب والشهادة بالظواهر والبواطن، فإذا كان كذلك كفاك الله شرهم، وقد أنجز الله لرسوله وعده، وسلطه عليهم حتى قتل بعضهم، وسبى بعضهم، وأجلى بعضهم، وشردهم كل مشرد، ففيه معجزة من معجزات القرآن وهو الإخبار بالشيء قبل وقوعه فوقع طبق ما أخبر.

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَتَحْنُ لَهُمْ عَذِيبُونَ﴾ (١٣٨).

﴿١٣٨﴾ أي: الزموا صبغة الله وهو دينه، وقوموا به قياماً تاماً بجميع أعماله الظاهرة والباطنة وجميع عقائده في جميع الأوقات حتى يكون لكم صبغة وصفة من صفاتكم، فإذا كان صفة من صفاتكم أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره طوعاً واختياراً ومحبة، وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام للثوب الذي صار له صفة، فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية لحث الدين على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ومعالي الأمور.

فلهذا قال على سبيل التعجب المتقرر للعقول الزكية؛ ﴿ومن أحسن من الله صبغة﴾؛ أي: لا أحسن صبغة من صبغته^(١)، وإذا أردت أن تعرف نموذجاً يبين لك الفرق بين صبغة الله وبين غيرها من الصبغ فقس الشيء بضده، فكيف ترى في عبد آمن بربه إيماناً صحيحاً أثر معه خضوع القلب وانقياد الجوارح، فلم يزل يتحلى بكل وصف حسن وفعل جميل وخلق كامل ونعت جليل، ويتخلى من كل وصف قبيح ورذيلة وعيب فَوْضُهُ الصدق في قوله وفعله والصبر والحلم والعفة والشجاعة

(١) في (ب): «صبغة».

والإحسان القولي والفعلية ومحبة الله وخشيته وخوفه ورجاؤه، فحاله الإخلاص للمعبود والإحسان لعبيده، ففسه بعبد كفر بربه وشرده عنه وأقبل على غيره من المخلوقين فاتصف بالصفات القبيحة من الكفر والشرك والكذب والخيانة والمكر والخداع وعدم العفة والإساءة إلى الخلق في أقواله وأفعاله فلا إخلاص للمعبود ولا إحسان إلى عبيده؛ فإنه يظهر لك الفرق العظيم بينهما، ويتبين لك أنه لا أحسن [صبغة] من صبغة الله، وفي ضمنه أنه لا أقبح صبغة ممن انصبغ بغير دينه.

وفي قوله: ﴿ونحن له عابدون﴾؛ بيان لهذه الصبغة وهي القيام بهذين الأصلين الإخلاص والمتابعة؛ لأن العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، ولا تكون كذلك حتى يشرعها الله على لسان رسوله. والإخلاص أن يقصد العبد وجه الله وحده في تلك الأعمال، فتقديم المعمول يؤذن بالحصص، وقال: ﴿ونحن له عابدون﴾؛ فوصفهم باسم الفاعل الدال على الثبوت والاستقرار؛ ليدل على اتصافهم بذلك [وكونه صار صبغة لهم ملازماً].

﴿قُلْ أَتُمَاجِدُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ (١٣٩).

﴿١٣٩﴾ المحاجة: هي المجادلة بين اثنين فأكثر تتعلق في المسائل الخلافية حتى يكون كل من الخصمين يريد نصرة قوله وإبطال قول خصمه، فكل واحد منهما يجتهد في إقامة الحجة على ذلك، والمطلوب منها أن تكون بالتي هي أحسن بأقرب طريق يرد الضال إلى الحق، وقيم الحجة على المعاند، ويوضح الحق، ويبين الباطل، فإن خرجت عن هذه الأمور كانت مماراة ومخاصمة لا خير فيها، وأحدثت من الشر ما أحدثت، فكان أهل الكتاب يزعمون أنهم أولى بالله من المسلمين، وهذا مجرد دعوى تفتقر إلى برهان ودليل، فإذا كان رب الجميع واحداً ليس رباً لكم دوننا، وكلُّ منا ومنكم له عمله، فاستوينا نحن وأنتم^(١) بذلك، فهذا لا يوجب أن يكون أحد الفريقين أولى بالله من غيره؛ لأن التفريق مع الاشتراك في الشيء من غير فرق مؤثر دعوى باطلة، وتفریق بين متماثلين ومكابرة ظاهرة، وإنما يحصل التفضيل بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده، وهذه الحالة وصف المؤمنين وحدهم فتعين أنهم أولى بالله من غيرهم لأن الإخلاص هو الطريق إلى الخلاص.

(١) في (ب): «وياكم». وكذا كانت في (أ) ثم أبدلها الشيخ بما هو مثبت.

فهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان بالأوصاف الحقيقية التي يسلمها أهل العقول ولا ينازع فيها إلا كل مكابر جهول، ففي هذه الآية إرشاد لطيف لطريق المحاجة، وأن الأمور مبنية على الجمع بين المتماثلين، والفرق بين المختلفين.

﴿أَمْ نَقُولُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾

﴿١٤٠﴾ وهذه دعوى أخرى منهم ومحاجة في رسل الله زعموا أنهم أولى بهؤلاء الرسل المذكورين من المسلمين؛ فردّ الله عليهم بقوله: ﴿أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ﴾؛ فالله يقول: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾؛ وهم يقولون بل كان يهودياً أو نصرانياً، فإما أن يكونوا هم الصادقين العالمين أو يكون الله تعالى هو الصادق العالم بذلك، فأحد الأمرين متعين لا محالة، وصورة الجواب مبهم وهو في غاية الوضوح والبيان، حتى أنه من وضوحه لم يحتج أن يقول بل الله أعلم وهو أصدق، ونحو ذلك لانجلاؤه لكل أحد، كما إذا قيل الليل أنور أم النهار؟ والنار أحر أم الماء؟ والشرك أحسن أم التوحيد؟ ونحو ذلك، وهذا يعرفه كل من له أدنى عقل حتى أنهم بأنفسهم يعرفون ذلك ويعرفون أن إبراهيم وغيره من الأنبياء لم يكونوا هوداً ولا نصارى، فكتموا هذا العلم وهذه الشهادة، فلماذا كان ظلمهم أعظم الظلم، ولهذا قال تعالى: ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾؛ فهي شهادة عندهم مودعة من الله لا من الخلق فيقتضي الاهتمام بإقامتها، فكتموها وأظهروا ضدها، جمعوا بين كتم الحق وعدم النطق به وإظهار الباطل والدعوة إليه، أليس هذا أعظم الظلم؟ بلى والله وسيعاقبهم عليه أشد العقوبة، فلماذا قال: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾؛ بل قد أحصى أعمالهم وعدّها وأدّخر لهم جزاءها، فبئس الجزاء جزاؤهم، وبئس النار مثوى للظالمين.

وهذه طريقة القرآن في ذكر العلم والقدرة عقب الآيات المتضمنة للأعمال التي يجازى عليها، فيفيد ذلك الوعد والوعيد والترغيب والترهيب، ويفيد أيضاً ذكر الأسماء الحسنى بعد الأحكام أن الأمر الديني والجزائي أثر من آثارها وموجب من موجباتها وهي مقتضية له. ثم قال تعالى:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾

﴿١٤١﴾ تقدم تفسيرها وكررها لقطع التعلق بالمخلوقين، وإن المعول عليه ما اتصف به الإنسان لا عمل أسلافه وآبائه، فالنفع الحقيقي بالأعمال لا بالانتساب المجرد للرجال.

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِنَّ صِرَاطَ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

﴿١٤٢﴾ قد اشتملت الآية الأولى على معجزة وتسلية وتطمين قلوب المؤمنين واعتراض، وجوابه من ثلاثة أوجه وصفة المعترض وصفة المسلم لحكم الله دينه، فأخبر تعالى أنه سيعترض السفهاء من الناس وهم الذين لا يعرفون مصالح أنفسهم بل يضيعونها ويبيعونها بأبخس ثمن وهم اليهود والنصارى ومن أشبههم من المعترضين على أحكام الله وشرائعه، وذلك أن المسلمين كانوا مأمورين باستقبال بيت المقدس مدة مقامهم بمكة ثم بعد الهجرة إلى المدينة نحو سنة ونصف لما لله [تعالى] في ذلك من الحكم التي سيشير إلى بعضها، وكانت حكمته تقتضي أمرهم باستقبال الكعبة فأخبرهم أنه لا بد أن يقول السفهاء من الناس: ﴿ما ولأهم عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾؛ وهي استقبال بيت المقدس أي: أي شيء صرفهم عنه؟ وفي ذلك الاعتراض على حكم الله وشرعه وفضله وإحسانه، فسألهم وأخبر بوقوعه وأنه إنما يقع ممن اتصف بالسفه قليل العقل والحلم والديانة، فلا تبالوا بهم إذ قد عُلِمَ مصدر هذا الكلام، فالعاقِل لا يبالى باعتراض السفه ولا يلقي له ذهنه.

ودلت الآية على أنه لا يعترض على أحكام الله إلا سفه جاهل معاند، وأما الرشيد المؤمن العاقل فيتلقى أحكام ربه بالقبول والانقياد والتسليم كما قال تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾؛ ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾؛ الآية ﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا﴾؛ وقد كان في قوله السفهاء ما يغني عن رد قولهم وعدم المبالاة به، ولكنه تعالى مع هذا لم يترك هذه الشبهة حتى أزالها وكشفها مما سيعرض لبعض القلوب من الاعتراض فقال تعالى: ﴿قل﴾؛ لهم مجيباً: ﴿لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾؛ أي: فإذا كان المشرق والمغرب ملكاً لله ليس جهة من

الجهات خارجة من^(١) ملكه ومع هذا يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ومنه هدايتكم إلى هذه القبلة التي هي ملة أبيكم إبراهيم فلا شيء يعترض المعترض بتوليتكم قبلة داخلية تحت ملك الله؟ لم تستقبلوا جهة ليست ملكاً له فهذا يوجب التسليم لأمره بمجرد ذلك، فكيف وهو من فضل الله عليكم وهدايته وإحسانه أن هداكم لذلك، فالمعترض عليكم معترض على فضل الله حسداً لكم وبغياً.

ولما كان قوله: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؛ مطلقاً^(٢) والمطلق يُحْمَلُ على المقيد فإن الهداية والضلال لهما أسباب أوجبتها حكمة الله وعدله وقد أخبر في غير موضع من كتابه بأسباب الهداية التي إذا أتى بها العبد حصل له الهدى كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾؛ ذكر في هذه الآية السبب الموجب لهداية هذه الأمة مطلقاً بجميع أنواع الهداية ومثله الله عليها فقال:

﴿١٤٣﴾ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾؛ أي: عدلاً خياراً وما عدا الوسط فأطراف داخلية تحت الخطر فجعل الله هذه الأمة وسطاً في كل أمور الدين: وسطاً في الأنبياء بين من غلا فيهم كالنصارى، وبين من جفاهم كاليهود بأن آمنوا بهم كلهم على الوجه اللائق بذلك.

ووسطاً في الشريعة لا تشديدات اليهود وآصارهم ولا تهاون النصارى.

وفي باب الطهارة والمطاعم لا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاة إلا في بيعهم وكنائسهم، ولا يطهرهم الماء من النجاسات، وقد حرمت عليهم طيبات عقوبة لهم، ولا كالنصارى الذين لا ينجسون شيئاً، ولا يحرمون شيئاً بل أباحوا ما دب ودرج، بل طهارتهم أكمل طهارة وأتمها.

وأباح الله لهم الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح وحرّم عليهم الخبائث من ذلك، فلهذه الأمة من الدين أكمله ومن الأخلاق أجملها ومن الأعمال أفضلها ووهبهم الله من العلم والحلم والعدل والإحسان ما لم يهبه لأمة سواهم، فلذلك كانوا ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾؛ كاملين معتدلين ليكونوا ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾؛ بسبب عدالتهم وحكمهم بالقسط يحكمون على الناس من سائر أهل الأديان ولا يحكم عليهم غيرهم، فما شهدت له هذه الأمة بالقبول فهو مقبول، وما شهدت له بالردّ فهو مردود.

(٢) زيادة من هامش (أ) بخط مغاير.

(١) في (ب): «عن».

فإن قيل كيف يقبل حكمهم على غيرهم والحال أن كل مختصمين غير مقبول قول بعضهم على بعض؟.

قيل: إنما لم يقبل قول أحد المتخاصمين لوجود التهمة، فأما إذا انتفت التهمة وحصلت العدالة التامة كما في هذه الأمة فإنما المقصود الحكم بالعدل والحق، وشرط ذلك العلم والعدل وهما موجودان في هذه الأمة فقبل قولها، فإن شك شاك في فضلها وطلب مزكياً لها فهو أكمل الخلق نبهم ﷺ، فلماذا قال تعالى: ﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾؟ ومن شهادة هذه الأمة على غيرهم أنه إذا كان يوم القيامة وسأل الله المرسلين عن تبليغهم والأمم المكذبة عن ذلك وأنكروا أن الأنبياء بلغتهم استشهد الأنبياء بهذه الأمة، وزكاها نبيا.

وفي الآية دليل على أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، وأنهم معصومون عن الخطأ لإطلاق قوله: ﴿وسطاً﴾؛ فلو قدر اتفاقهم على الخطأ لم يكونوا وسطاً إلا في بعض الأمور، [ولقوله: ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾]: يقتضي أنهم إذا شهدوا على حكم أن الله أحله أو حرّمه أو أوجبه فإنها معصومة في ذلك]. وفيها اشتراط العدالة في الحكم والشهادة والفتيا ونحو ذلك.

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالْكَافِرِينَ لَزُؤٌفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿١٤٣﴾ يقول تعالى: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها﴾؛ وهي: استقبال بيت المقدس أولاً، ﴿إلا لنعلم﴾؛ أي: علماً يتعلق به الثواب والعقاب، وإلا فهو تعالى عالم بكل الأمور قبل وجودها، ولكن هذا العلم لا يعلق عليه ثواباً ولا عقاباً لتمام عدله وإقامة الحجّة على عباده، بل إذا وجدت أعمالهم ترتب عليها الثواب والعقاب، أي شرعنا تلك القبلة لنعلم ونمتحن ﴿من يتبع الرسول﴾؛ ويؤمن به فيتبعه على كل حال لأنه عبد مأمور مدبر، ولأنه قد أخبرت الكتب المتقدمة أنه يستقبل الكعبة فالمنصف الذي مقصوده الحق مما يزيده ذلك إيماناً وطاعة للرسول، وأما من انقلب على عقبيه وأعرض عن الحق واتبع هواه فإنه يزداد كفرأ إلى كفره وحيرة إلى حيرته ويدلي بالحجة الباطلة المبنية على شبهة لا حقيقة لها ﴿وإن كانت﴾؛ أي: صرفك عنها ﴿الكبيرة﴾؛ أي: شاقة ﴿إلا على الذين هدى الله﴾؛

فعرفوا بذلك نعمة الله عليهم وشكروا وأقروا له بالإحسان حيث وجههم إلى هذا البيت العظيم الذي فضله على سائر بقاع الأرض وجعل قصده ركناً من أركان الإسلام وهادماً للذنوب والآثام، فلهذا خفَّ عليهم ذلك وشقَّ على من سواهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾؛ أي: ما ينبغي له ولا يليق به تعالى بل هي من الممتنعات عليه، فأخبر أنه ممتنع عليه ومستحيل أن يضيع إيمانكم، وفي هذا بشارة عظيمة لمن منَّ الله عليهم بالإسلام والإيمان بأن الله سيحفظ عليهم إيمانهم فلا يضيعه، وحفظه نوعان: حفظ عن الضياع والبطلان بعصمته لهم عن كل مفسد ومزيل له ومنقص من المحن المقلقة والأهواء الصادة، وحفظ بتنميته لهم وتوفيقهم لما يزداد به إيمانهم ويتم به إيقانهم، فكما ابتدأكم بأن هداكم للإيمان فسيحفظه لكم ويتم نعمته بتنميته وتنمية أجره وثوابه وحفظه من كل مكدر، بل إذا وجدت المحن التي المقصود منها تبين المؤمن الصادق من الكاذب فإنها تمحص المؤمنين وتظهر صدقهم، وكأن في هذا احترازاً عما قد يقال أن قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرُّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبَ عَلَى عَقْبِهِ﴾؛ قد يكون سبباً لترك بعض المؤمنين إيمانهم فدفع هذا الوهم بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾؛ بتقديره لهذه المحنة أو غيرها، ودخل في ذلك من مات من المؤمنين قبل تحويل الكعبة فإن الله لا يضيع إيمانهم لكونهم امتثلوا أمر الله وطاعة رسوله في وقتها، وطاعة الله امتثال أمره في كل وقت بحسب ذلك. وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: شديد الرحمة بهم عظيمها، فمن رآفته ورحمته بهم أن يُتِمَّ عليهم نعمته التي ابتدأهم بها، وأن ميز عنهم من دخل في الإيمان بلسانه دون قلبه، وأن امتحنهم امتحاناً زاد به إيمانهم وارتفعت به درجاتهم، وأن وجههم إلى أشرف البيوت وأجلها.

﴿قَدْ رَأَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَوْلِيتَكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿١٤٤﴾ يقول الله لنبيه: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾؛ أي كثرة ترده في جميع جهاته شوقاً وانتظاراً لنزول الوحي باستقبال الكعبة، وقال: ﴿وجهك﴾؛

ولم يقل بصرك لزيادة اهتمامه، ولأن تقليب الوجه مستلزم لتقليب البصر، ﴿فَلْتَوَلَّيْنِكَ﴾؛ أي: نوجهك لولايتنا إياك، ﴿قَبْلَةَ تَرْضَاهَا﴾؛ أي: تحبها، وهي الكعبة، وفي هذا بيان لفضله وشرفه ﷺ، حيث أن الله تعالى يسارع في رضاه. ثم صرح له باستقبالها فقال: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾؛ والوجه: ما أقبل من بدن الإنسان ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾؛ أي: من بر وبحر شرق وغرب جنوب وشمال، ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾؛ أي: جهته، ففيها اشتراط استقبال الكعبة للصلوات كلها فرضها ونفلها، وأنه إن أمكن استقبال عينها وإلا فيكفي شطرها وجهتها، وأن الالتفات بالبدن مبطل للصلاة؛ لأن الأمر بالشئ نهى عن ضده.

ولما ذكر تعالى - فيما تقدم - المعترضين على ذلك من أهل الكتاب وغيرهم وذكر جوابهم، ذكر هنا أن أهل الكتاب والعلم منهم يعلمون أنك في ذلك على حق واضح لما يجدونه في كتبهم فيعترضون عناداً وبغياً، فإذا كانوا يعلمون بخطئهم فلا تبالوا بذلك، فإن الإنسان إنما يغمه اعتراض من اعترض عليه إذا كان الأمر مشتبهاً وكان ممكناً أن يكون معه صواب، فأما إذا تيقن أن الصواب والحق مع المعترض عليه وأن المعترض معاند عارف ببطلان قوله فإنه لا محل للمبالاة، بل يُنتظر بالمعترض العقوبة الدنيوية والأخروية فلماذا قال تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾؛ بل يحفظ عليهم أعمالهم ويجازيهم عليها، وفيها وعيد للمعترضين وتسلية للمؤمنين.

﴿وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الْفَالِطِينَ﴾.

﴿١٤٥﴾ كان النبي ﷺ من كمال حرصه على هداية الخلق يبذل [لهم] غاية ما يقدر عليه من النصيحة ويتلطف بهدايتهم، ويحزن إذا لم ينقادوا لأمر الله، فكان من الكفار من تمرّد عن أمر الله واستكبر على رسل الله وترك الهدى عمداً وعدواناً فمنهم اليهود والنصارى أهل الكتاب الأول الذين كفروا بمحمد عن يقين لا عن جهل؛ فلماذا أخبره الله تعالى أنك لو ﴿أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾؛ أي: بكل برهان ودليل يوضح قولك ويبين ما تدعو إليه، ﴿مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾؛ أي: ما تبعوك؛ لأن اتباع القبلة دليل على اتباعه، ولأن السبب هو شأن القبلة، وإنما كان الأمر كذلك لأنهم معاندون عرفوا الحق وتركوه، فالآيات إنما [تفيدو] ينتفع بها من

يتطلب الحق وهو مشته عليه؛ فتوضح له الآيات البيّنات، وأما من جزم بعدم اتباع الحق فلا حيلة فيه، وأيضاً فإن اختلافهم فيما بينهم حاصل، وبعضهم غير تابع قبله بعض، فليس بغريب منهم مع ذلك أن لا يتبعوا قبلك يا محمد وهم الأعداء حقيقة الحسدة. وقوله: ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾؛ أبلغ من قوله ولا تتبع؛ لأن ذلك يتضمن أنه ﷺ، اتصف بمخالفتهم، فلا يمكن وقوع ذلك منه، ولم يقل ولو أتوا بكل آية؛ لأنهم لا دليل لهم على قولهم، وكذلك إذا تبين الحق بأدلة اليقينية لم يلزم الإتيان بأجوبة الشبهة الواردة عليه؛ لأنه لا حد لها، ولأنه يعلم بطلانها للعلم بأن كل ما نافي الحق الواضح فهو باطل، فيكون حل الشبهة من باب التبرع.

﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾؛ إنما قال: أهواءهم ولم يقل دينهم؛ لأن ما هم عليه مجرد أهوية نفس، حتى هم في قلوبهم يعلمون أنه ليس بدين، ومن ترك الدين اتبع الهوى ولا محالة، قال تعالى: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾، ﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾؛ بأنك على الحق وهم على الباطل، ﴿إنك إذا﴾؛ أي: إن اتبعتهم، فهذا احتراز لثلاث تفصل هذه الجملة عما قبلها ولو في الأفهام ﴿لمن الظالمين﴾؛ أي: داخل فيهم ومندرج في جملتهم، وأي ظلم أعظم من ظلم من علم الحق والباطل؟ فآثر الباطل على الحق، وهذا وإن كان الخطاب له ﷺ، فإن أمته داخله في ذلك؛ وأيضاً فإذا كان هو ﷺ، لو فعل ذلك - وحاشاه - صار ظالماً مع علو مرتبته وكثرة إحسانه^(١) فغيره من باب أولى وأحرى. ثم قال تعالى:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ أَلْكَتَبَ يَرْفَعُونَهُ كَمَا يَرْفَعُونَ آبَاءَهُمْ وَلَئِنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

﴿١٤٦﴾ يخبر تعالى أن أهل الكتاب قد تقرر عندهم وعرفوا أن محمداً رسول الله وأن ما جاء به حق وصدق، وتيقنوا ذلك كما تيقنوا أبناءهم بحيث لا يشبهون [عليهم] بغيرهم، فمعرفةهم بمحمد ﷺ، وصلت إلى حد لا يشكون فيه ولا يمترون. لكن فريقاً منهم وهم أكثرهم الذين كفروا به كتموا هذه الشهادة مع تيقنهم وهم يعلمون، ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وفي ضمن ذلك تسليّة للرسول والمؤمنين وتحذير لهم من شرهم وشبههم، وفريق منهم لم يكتموا الحق وهم يعلمون، فمنهم من آمن به، ومنهم من كفر به جهلاً.

فالعالم عليه إظهار الحق وتبيينه وترزينه بكل ما يقدر عليه من عبارة وبرهان ومثال وغير ذلك، وإبطال الباطل وتمييزه عن الحق وتشيينه وتقييحه للنفوس بكل طريق مؤدّ لذلك، فهؤلاء الكاتمون عكسوا الأمر فانعكست أحوالهم.

﴿١٤٧﴾ ﴿الحق من ربك﴾؛ أي: هذا الحق الذي هو أحق أن يسمى حقاً من كل شيء لما اشتمل عليه من المطالب العالية والأوامر الحسنة وتزكية النفوس وحثها على تحصيل مصالحها ودفع مفسدها لصدوره من ربك الذي من جملة تربيته لك أن أنزل عليك هذا القرآن الذي فيه تربية العقول والنفوس وجميع المصالح، ﴿فلا تكونن من الممترين﴾؛ أي: فلا يحصل لك أدنى شك وريبة فيه، بل تفكر فيه وتأمل حتى تصل بذلك إلى اليقين، لأن التفكير فيه لا محالة دافع للشك موصل لليقين.

﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيًا فَاسْتَغْفِرُوا الْخَيْرَاتِ إِنَّمَا تَكُونُوا يَاتٍ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿١٤٨﴾ أي: كل أهل دين وملة له وجهة يتوجه إليها في عبادته، وليس الشأن في استقبال القبلة فإنه من الشرائع التي تتغير بها الأزمنة والأحوال ويدخلها النسخ والنقل من جهة إلى جهة، ولكن الشأن كل الشأن في امتثال طاعة الله والتقرب إليه وطلب الزلفى عنده، فهذا هو عنوان السعادة ومنشور الولاية، وهو الذي إذا لم تتصف به النفوس حصلت لها خسارة الدنيا والآخرة، كما أنها إذا اتصفت به فهي الرابحة على الحقيقة، وهذا أمر متفق عليه في جميع الشرائع، وهو الذي خلق الله له الخلق وأمرهم به، والأمر بالاستباق إلى الخيرات قدر زائد على الأمر بفعل الخيرات، فإن الاستباق إليها يتضمن فعلها وتكميلها وإيقاعها على أكمل الأحوال والمبادرة إليها، ومن سبق في الدنيا إلى الخيرات فهو السابق في الآخرة إلى الجنات، فالسابقون أعلى الخلق درجة، والخيرات تشمل جميع الفرائض والنوافل من صلاة وصيام وزكاة^(١) وحج وعمرة وجهاد ونفع متعدّد وقاصر، ولما كان أقوى ما يحث النفوس على المسارعة إلى الخير وينشطها ما رتب الله عليها من الثواب قال: ﴿أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير﴾؛ فيجمعكم ليوم القيامة بقدرته، فيجازي كل عامل بعمله؛ ﴿ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾.

(١) في (ب): «وزكوات».

ويستدل بهذه الآية الشريفة على الإتيان بكل فضيلة يتصف بها العمل، كالصلاة في أول وقتها، والمبادرة إلى إبراء الذمة من الصيام والحج والعمرة وإخراج الزكاة، والإتيان بسنن العبادات وآدابها، فله ما أجمعها وأنفعها من آية.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِمُنْفِئٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ إِلَّا بَيِّنَاتٌ لِلنَّاسِ عَلَىٰ كَيْفِ الْحُجَّةِ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِنَّمِ بَغَيْتُمْ عَلَيَّ وَلَمَّا كُنْتُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

﴿١٤٩﴾ أي: ﴿ومن حيث خرجت﴾؛ في أسفارك وغيرها وهذا للعموم، ﴿فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام﴾؛ أي: جهته. ثم خاطب الأمة عموماً فقال:

﴿١٥٠﴾ ﴿وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾؛ وقال: ﴿وإنه للحق من ربك﴾؛ أكده بأن، واللام لثلاث يقع لأحد فيه أدنى شبهة، ولثلاث يظن أنه على سبيل التشبيهي لا الامتثال، ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾؛ بل هو مطلع عليكم في جميع أحوالكم فتأدبوا معه وراقبوه بامثال أوامره واجتناب نواهيه، فإن أعمالكم غير مغفول عنها بل مجازون عليها أتم الجزاء إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وقال هنا: ﴿لثلاث يكون للناس عليكم حجة﴾؛ أي: شرعنا لكم استقبال الكعبة المشرفة لينقطع عنكم احتجاج الناس من أهل الكتاب والمشركين، فإنه لو بقي مستقبلاً لبيت المقدس لتوجهت عليه الحجة، فإن أهل الكتاب يجدون في كتابهم أن قبلته المستقرة هي الكعبة البيت الحرام، والمشركون يرون أن من مفاخرهم هذا البيت العظيم، وأنه من ملة إبراهيم، وأنه إذا لم يستقبله محمد ﷺ، توجهت نحوه حججهم، وقالوا كيف يدعي أنه على ملة إبراهيم وهو من ذريته وقد ترك استقبال قبلته، فباستقبال القبلة^(١) قامت الحجة على أهل الكتاب والمشركين وانقطعت حججهم عليه، إلا من ظلم منهم؛ أي: من احتج منهم بحجة هو ظالم فيها وليس لها مستند إلا اتباع الهوى والظلم؛ فهذا لا سبيل إلى إقناعه والاحتجاج عليه، وكذلك لا معنى لجعل الشبهة التي يوردونها على سبيل الاحتجاج محلاً يؤبه لها ولا يلقي لها بال، فلهذا قال تعالى: ﴿فلا تخشَوْهم﴾؛ لأن حججهم باطلة، والباطل

(١) في (ب): «الكعبة».

كاسمه مخذول، مخذول صاحبه، وهذا بخلاف صاحب الحق فإن للحق صولة وعزاً يوجب خشية من هو معه، وأمر تعالى بخشيته التي هي رأس^(١) كل خير، فمن لم يخش الله؛ لم ينكف عن معصيته، ولم يمتثل أمره.

وكان صرف المسلمين إلى الكعبة مما حصلت فيها فتنة كبيرة أشاعها أهل الكتاب والمنافقون والمشركون وأكثروا فيها من الكلام والشبه، فلهذا بسطها الله تعالى، وبينها أكمل بيان، وأكدها بأنواع من التأكيدات التي تضمنتها هذه الآيات.

منها: الأمر بها ثلاث مرات مع كفاية المرة الواحدة.

ومنها: أن المعهود أن الأمر إما أن يكون للرسول فتدخل فيه الأمة [تبعاً] أو للأمة عموماً، وفي هذه الآية أمر فيها الرسول بالخصوص في قوله: ﴿فول وجهك﴾؛ والأمة عموماً في قوله: ﴿فولوا وجهكم﴾.

ومنها: أنه ردّ فيه جميع الاحتجاجات الباطلة التي أوردها أهل العناد وأبطلها شبهة شبهة كما تقدم توضيحها.

ومنها: أنه قطع الأطماع من اتباع الرسول قبله أهل الكتاب.

ومنها: قوله: ﴿وإنه للحق من ربك﴾؛ فمجرد إخبار الصادق العظيم كافٍ شافٍ، ولكن مع هذا قال: ﴿وإنه للحق من ربك﴾.

ومنها: أنه أخبر وهو العالم بالخفيات أن أهل الكتاب متقرر عندهم صحة هذا الأمر، ولكنهم يكتمون هذه الشهادة مع العلم.

ولما كان توليته لنا إلى استقبال القبلة نعمة عظيمة وكان لطفه بهذه الأمة ورحمته لم يزل يتزايد وكلما شرع لهم شريعة فهي نعمة عظيمة قال: ﴿ولأتم نعمتي عليكم﴾؛ فأصل النعمة الهداية لدينه بإرسال رسوله وإنزال كتابه، ثم بعد ذلك النعم المتممات لهذا الأصل لا تعد كثرة ولا تحصر منذ بعث الله رسوله إلى أن قرب رحيله من الدنيا وقد أعطاه الله من الأحوال والنعم وأعطى أمته ما أتم به نعمته عليه وعليهم وأنزل الله عليه ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾؛ فله الحمد على فضله الذي لا نبليغ له عدداً فضلاً عن القيام بشكره، ﴿ولعلكم تهتدون﴾؛ أي: تعلمون الحق وتعملون به، فإله تبارك وتعالى

(١) في (ب): «أصل».

من رحمته بالعباد قد يَسَّرَ لهم أسباب الهداية غاية التيسير ونبههم على سلوك طرقها وبينها لهم أتم تبين حتى أن من جملة ذلك أنه يقيض للحق المعاندين له فيجادلون فيه فيتضح بذلك الحق وتظهر آياته وأعلامه، ويتضح بطلان الباطل وأنه لا حقيقة له، ولولا قيامه في مقابلة الحق لربما لم يتبين حاله لأكثر الخلق وبضدها تتبين الأشياء، فلولا الليل ما عرف فضل النهار، ولولا القبيح ما عرف فضل الحسن، ولولا الظلمة ما عرف منفعة النور، ولولا الباطل ما اتضح الحق اتضحاً ظاهراً. فله الحمد على ذلك.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَادْكُرُوا آذَانُكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

﴿١٥١﴾ يقول تعالى: إن إنعامنا عليكم باستقبال الكعبة وإتمامها بالشرائع والنعم المتممة ليس ذلك ببدع من إحساننا ولا بأوله بل أنعمنا عليكم بأصول النعم ومتمماتها فأبلغها إرسالنا إليكم هذا الرسول الكريم منكم تعرفون نسبه وصدقه وأمانته وكماله ونصحه ﴿يتلو عليكم آياتنا﴾؛ وهذا يعم الآيات القرآنية وغيرها، فهو يتلو عليكم الآيات المبينة للحق من الباطل والهدى من الضلال التي دلتكم أولاً على توحيد الله وكماله ثم على صدق رسوله ووجوب الإيمان به ثم على جميع ما أخبر به من المعاد والغيوب، حتى حصل لكم الهداية التامة والعلم اليقيني ﴿ويزكّيكُم﴾؛ أي: يطهر أخلاقكم ونفوسكم بتربيتها على الأخلاق الجميلة، وتنزيهاها عن الأخلاق الرذيلة، وذلك كتركيتهم من الشرك إلى التوحيد ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن الخيانة إلى الأمانة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الخلق، إلى حسن الخلق ومن التباغض والتهاجر والتقاطع إلى التحاب والتواصل والتوادد وغير ذلك من أنواع التزكية ﴿ويعلمكم الكتاب﴾؛ أي: القرآن ألفاظه ومعانيه ﴿والحكمة﴾؛ قيل هي السنة، وقيل: الحكمة معرفة أسرار الشريعة والفقه فيها وتنزيل الأمور منازلها، فيكون على هذا تعليم السنة داخلاً في تعليم الكتاب؛ لأن السنة تبين القرآن وتفسره وتعبر عنه ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾؛ لأنهم كانوا قبل بعثته في ضلال مبين لا علم ولا عمل، فكل علم أو عمل نالته هذه الأمة فعلى يده ﷺ، وبسببه كان.

فهذه النعم هي أصول النعم على الإطلاق، وهي أكبر نعم نعم ينعم بها على عباده؛ فوظيفتهم شكر الله عليها والقيام بها، فلهذا قال تعالى:

﴿١٥٢﴾ ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾؛ فأمر تعالى بذكره، ووعد عليه أفضل جزاء وهو ذكره؛ لمن ذكره كما قال تعالى على لسان رسوله: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»^(١)، وذكر الله تعالى أفضله ما تواطأ عليه القلب واللسان وهو [الذكر] الذي يثمر معرفة الله ومحبه وكثرة ثوابه، والذكر هو رأس الشكر فلهذا أمر به خصوصاً ثم من بعده أمر بالشكر عموماً فقال: ﴿واشكروا لي﴾؛ أي: على ما أنعمت عليكم بهذه النعم ودفعت عنكم صنوف النقم، والشكر يكون بالقلب إقراراً بالنعم واعترافاً، وباللسان ذكراً وثناءً، وبالجوارح طاعةً لله وانقياداً لأمره واجتناباً لنهيهِ، فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة وزيادة في النعم المفقودة، قال تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾. وفي الإتيان بالأمر بالشكر بعد النعم الدينية من العلم وتركية الأخلاق والتوفيق للأعمال بيان أنها أكبر النعم، بل هي النعم الحقيقية التي تدوم إذا زال غيرها، وإنه ينبغي لمن وفقوا لعلم أو عمل أن يشكروا الله على ذلك ليزيدهم من فضله وليندفع عنهم الإعجاب فيشتغلوا بالشكر، ولما كان الشكر ضده الكفر نهى عن ضده فقال: ﴿ولا تكفرون﴾؛ المراد بالكفر ههنا ما يقابل الشكر، فهو كفر النعم وجحدها وعدم القيام بها.

ويحتمل أن يكون المعنى عاماً فيكون الكفر أنواعاً كثيرة أعظمه الكفر بالله، ثم أنواع المعاصي على اختلاف أنواعها وأجناسها من الشرك فما دونه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

﴿١٥٣﴾ أمر الله تعالى المؤمنين بالاستعانة على أمورهم الدينية والدينية بالصبر والصلاة؛ فالصبر هو حبس النفس وكفها على ما تكره، فهو ثلاثة أقسام:

صبرها على طاعة الله حتى تؤديها، وعن معصية الله حتى تتركها، وعلى أقدار الله المؤلمة فلا تتسخطها.

فالصبر هو المعونة العظيمة على كل أمر، فلا سبيل لغير الصابر أن يدرك مطلوبه، خصوصاً الطاعات الشاقة المستمرة فإنها مفتقرة أشد الافتقار إلى تحمل الصبر وتجزع المرارة الشاقة، فإذا لازم صاحبها الصبر فاز بالنجاح، وإن رده

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

المكروه والمشقة عن الصبر والملازمة عليها لم يدرك شيئاً وحصل على الحرمان، وكذلك المعصية التي تشتد دواعي النفس ونوازعها إليها وهي في محل قدرة العبد، فهذه لا يمكن تركها إلا بصبر عظيم وكف لدواعي قلبه ونوازعها لله تعالى واستعانة بالله على العصمة منها فإنها من الفتن الكبار، وكذلك البلاء الشاق خصوصاً إن استمر، فهذا تضعف معه القوى النفسانية والجسدية ويوجد مقتضاها وهو التسخط إن لم يقاومها صاحبها بالصبر لله والتوكل عليه واللجأ إليه والافتقار على الدوام، فعلمت أن الصبر محتاج إليه العبد، بل مضطر في كل حالة من أحواله، فلماذا أمر الله تعالى به وأخبر أنه ﴿مع الصابرين﴾؛ أي: مع من كان الصبر لهم خلقاً وصفة وملكة بمعونته وتوفيقه وتسديده فهانت عليهم بذلك المشاق والمكاره وسهل عليهم كل عظيم وزالت عنهم كل صعوبة، وهذه معية خاصة تقتضي محبته ومعونته ونصره وقربه وهذه منقبة عظيمة للصابرين فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله لكفى بها فضلاً وشرفاً، وأما المعية العامة فهي معية العلم والقدرة كما في قوله تعالى: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ وهذه عامة للخلق.

وأمر تعالى بالاستعانة بالصلاة لأن الصلاة هي عماد الدين ونور المؤمنين، وهي الصلة بين العبد وبين ربه، فإذا كانت صلاة العبد صلاة كاملة مجتمعاً فيها ما يلزم فيها وما يسن، وحصل فيها حضور القلب الذي هو لبها فصار العبد إذا دخل فيها استشعر دخوله على ربه ووقوفه بين يديه موقف العبد الخادم المتأدب مستحضراً لكل ما يقوله وما يفعله مستغرقاً بمناجاة ربه ودعائه، لا جرم أن هذه الصلاة من أكبر المعونة على جميع الأمور، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولأن هذا الحضور الذي يكون في الصلاة يوجب للعبد في قلبه وصفاً وداعياً يدعوه إلى امتثال أوامر ربه واجتناب نواهيه، هذه هي الصلاة التي أمر الله أن نستعين بها على كل شيء.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (١٥٤)

﴿١٥٤﴾ لما ذكر تبارك وتعالى الأمر بالاستعانة بالصبر على جميع الأحوال^(١) ذكر نموذجاً مما يستعان بالصبر عليه وهو الجهاد في سبيله وهو أفضل الطاعات البدنية وأشقها على النفوس لمشقتها في نفسه ولكونه مؤدياً للقتل وعدم الحياة التي

(١) في (ب): «الأمور».

إنما يرغب الراغبون في هذه الدنيا لحصول الحياة ولوآزمها، فكل ما يتصرفون به فإنه سعي لها ودفع لما يضادها.

ومن المعلوم أن المحبوب لا يتركه العاقل إلا لمحبوب أعلى منه وأعظم، فأخبر تعالى أن من قتل في سبيله بأن قاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا ودينه الظاهر لا لغير ذلك من الأغراض فإنه لم تفتحه الحياة المحبوبة بل حصل له حياة أعظم وأكمل مما تظنون وتحسبون، فالشهداء ﴿أحياء عند ربهم يرزقون﴾. فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين؛ فهل أعظم من هذه الحياة المتضمنة للقرب من الله تعالى وتمتعهم برزقه البدني في المأكولات والمشروبات اللذيذة والرزق الروحي وهو الفرح وهو الاستبشار^(١) وزوال كل خوف وحزن وهذه حياة برزخية أكمل من الحياة الدنيا، بل قد أخبر النبي ﷺ أن أرواح الشهداء في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش^(٢).

وفي هذه الآية أعظم حث على الجهاد في سبيل الله وملازمة الصبر عليه، فلو شعر العباد بما للمقتولين في سبيل الله من الثواب لم يتخلف عنه أحد، ولكن عدم العلم اليقيني التام هو الذي فتر العزائم وزاد نوم النائم وأفات الأجور العظيمة والغنائم، لم لا يكون كذلك والله تعالى قد ﴿اشتري من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون﴾؛ فوالله لو كان للإنسان ألف نفس تذهب نفساً فنفساً في سبيل الله لم يكن عظيماً في جانب هذا الأجر العظيم. ولهذا لا يتمنى الشهداء بعدما عاينوا من ثواب الله وحسن جزائه إلا أن يرُدُّوا إلى الدنيا؛ حتى يقتلوا في سبيله مرة بعد مرة.

وفي الآية دليل على نعيم البرزخ وعذابه كما تكاثرت بذلك النصوص.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (١٥٦) ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (١٥٧) ﴿

(١) في (ب): «وهو الفرح والاستبشار».

(٢) كما في «صحيح مسلم» (١٨٨٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

﴿١٥٥﴾ أخبر تعالى أنه لا بد أن يتلّى عباده بالمحن ليتبين الصادق من الكاذب والجازع من الصابر، وهذه سنته تعالى في عباده، لأن السراء لو استمرت لأهل الإيمان ولم يحصل معها محنة لحصل الاختلاط الذي هو فساد، وحكمة الله تقتضي تمييز أهل الخير من أهل الشر، هذه فائدة المحن لا إزالة ما مع المؤمنين من الإيمان ولا ردهم عن دينهم، فما كان الله ليضيع إيمان المؤمنين. فأخبر في هذه الآية أنه سيبتلي عباده، ﴿بشيء من الخوف﴾؛ من الأعداء، ﴿والجوع﴾؛ أي: بشيء يسير منهما لأنه لو ابتلاهم بالخوف كله أو الجوع لهلكوا، والمحن تمحص لا تهلك، ﴿ونقص من الأموال﴾؛ وهذا يشمل جميع النقص المعتري للأموال من جوائح سماوية وغرق وضياع وأخذ الظلمة للأموال من الملوك الظلمة وقطاع الطريق وغير ذلك ﴿والأنفس﴾؛ أي: ذهاب الأحباب من الأولاد والأقارب والأصحاب، ومن أنواع الأمراض في بدن العبد أو بدن من يحبه، ﴿والثمرات﴾؛ أي: الحبوب وثمار النخيل والأشجار كلها والخضر ببرد أو برد أو حرق أو آفة سماوية من جراد^(١) ونحوه، فهذه الأمور لا بد أن تقع لأن العليم الخبير أخبر بها فوقعت كما أخبر، فإذا وقعت انقسم الناس قسمين: جازعين وصابرين.

فالجازع حصلت له المصيبتان، فوات المحبوب وهو وجود هذه المصيبة وفوات ما هو أعظم منها وهو الأجر بامتنال أمر الله بالصبر ففاز بالخسارة والحرمان ونقص ما معه من الإيمان، وفاته الصبر والرضا والشكران وحصل له السخط الدال على شدة النقصان.

وأما من وفقه الله للصبر عند وجود هذه المصائب فحبس نفسه عن التسخط قولاً وفعلاً واحتسب أجرها عند الله وعلم أن ما يدركه من الأجر بصبره أعظم من المصيبة التي حصلت له، بل المصيبة تكون نعمة في حقه لأنها صارت طريقاً لحصول ما هو خير له وأنفع منها، فقد امتثل أمر الله وفاز بالثواب، فلماذا قال تعالى: ﴿وبشر الصابرين﴾؛ أي: بشرهم بأنهم يوفون أجرهم بغير حساب، فالصابرون هم الذين فازوا بالبشارة العظيمة والمنحة الجسيمة، ثم وصفهم بقوله:

﴿١٥٦﴾ ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة﴾؛ وهي كل ما يؤلم القلب أو البدن أو كليهما مما تقدم ذكره، ﴿قالوا إنا لله﴾؛ أي: مملوكون لله مدبرون تحت أمره

(١) في (ب): «من جند». وقد صوّبها الشيخ في هامش (أ) كما هو مثبت.

وتصرفه فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء، فإذا ابتلانا بشيء منها فقد تصرف أرحم الراحمين بمماليكه وأموالهم فلا اعتراض عليه، بل من كمال عبودية العبد علمه بأن وقوع البلية من المالك الحكيم الذي هو أرحم بعبده من نفسه، فيوجب له ذلك الرضا عن الله والشكر له على تدبيره لما هو خير لعبده وإن لم يشعر بذلك، ومع أننا مملوكون لله فإننا إليه راجعون يوم المعاد، فمجاز كل عامل بعمله، فإن صبرنا واحتسبنا وجدنا أجرنا موفراً عنده، وإن جزعنا وسخطنا لم يكن حظنا إلا السخط وفوات الأجر، فكون العبد لله وراجعاً إليه من أقوى أسباب الصبر.

﴿١٥٧﴾ ﴿أولئك﴾؛ الموصوفون بالصبر المذكور ﴿عليهم صلوات من ربهم﴾؛ أي: ثناء وتنويه بحالهم، ﴿ورحمة﴾؛ عظيمة، ومن رحمته إياهم أن وفقهم للصبر الذي ينالون به كمال الأجر ﴿وأولئك هم المهتدون﴾؛ الذين عرفوا الحق، وهو في هذا الموضع علمهم بأنهم لله وأنهم إليه راجعون وعملوا به وهو هنا صبرهم لله، ودلت هذه الآية على أن من لم يصبر فله ضد ما لهم فحصل له الذم من الله والعقوبة والضلال والخسار، فما أعظم الفرق بين الفريقين وما أقل تعب الصابرين وأعظم عناء الجازعين.

فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطين النفوس على المصائب قبل وقوعها لتخف وتسهل إذا وقعت، وبيان ما تقابل به إذا وقعت وهو الصبر، وبيان ما يعين على الصبر وما للصابرين من الأجر. ويعلم حال غير الصابرين بضد حالة الصابرين وأن هذا الابتلاء والامتحان سنة الله التي قد خلت ولن تجد لسنة الله تبديلاً وبيان أنواع المصائب.

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٥٨).

﴿١٥٨﴾ يخبر تعالى: ﴿إن الصفا والمروة﴾؛ وهما معروفان ﴿من شعائر الله﴾؛ أي: أعلام دينه الظاهرة التي تعبد الله بها عباده، وإذا كانا من شعائر الله فقد أمر الله بتعظيم شعائره فقال^(١): ﴿ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾؛ فدل مجموع النصين أنهما من شعائر الله، وأن تعظيم شعائره من تقوى القلوب،

(١) في (ب): «وقال».

والتقوى واجبة على كل مكلف، وذلك يدل على أن السعي بهما فرض لازم للحج والعمرة كما عليه الجمهور، ودلت عليه الأحاديث النبوية، وفعله النبي ﷺ، وقال: «خذوا عني مناسككم»^(١).

﴿فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾؛ هذا دفع لوهم من توهم وتخرج من المسلمين عن الطواف بينهما لكونهما في الجاهلية تعبد عندهما الأصنام، فنفي تعالى الجناح لدفع هذا الوهم لا لأنه غير لازم، ودل تقييد نفي الجناح فيمن تطوف بهما في الحج والعمرة أنه لا يتطوع بالسعي مفرداً إلا مع انضمامه لحج أو عمرة، بخلاف الطواف بالبيت فإنه يشرع مع العمرة والحج وهو عبادة مفردة.

فأما السعي والوقوف بعرفة ومزدلفة ورمي الجمار فإنها تتبع النسك، فلو فعلت غير تابعة للنسك كانت بدعة، لأن البدعة نوعان: نوع يتعبد لله بعبادة لم يشرعها أصلاً، ونوع يتعبد له بعبادة قد شرعها على صفة مخصوصة فتفعل على غير تلك الصفة وهذا منه.

وقوله: ﴿ومن تطوع﴾؛ أي: فعل طاعة مخلصاً بها لله تعالى ﴿خيراً﴾؛ من حج وعمرة وطواف وصلاة وصوم وغير ذلك، فهو خير له؛ فدل هذا على أنه كلما ازداد العبد من طاعة الله ازداد خيره وكماله ودرجته عند الله لزيادة إيمانه، ودل تقييد التطوع بالخير أن من تطوع بالبدع التي لم يشرعها الله ولا رسوله أنه لا يحصل له إلا العناء، وليس بخير له، بل قد يكون شراً له إن كان متعمداً عالماً لعدم^(٢) مشروعية العمل.

﴿فإن الله شاكر عليم﴾؛ الشاكر والشكور من أسماء الله تعالى الذي يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه العظيم من الأجر الذي إذا قام عبده بأوامره وامثل طاعته أعانه على ذلك وأثنى عليه ومدحه وجازاه في قلبه نوراً وإيماناً وسعة وفي بدنه قوة ونشاطاً وفي جميع أحواله زيادة بركة ونماء وفي أعماله زيادة توفيق، ثم بعد ذلك يقدم على الثواب الآجل عند ربه كاملاً موفراً لم تنقصه هذه الأمور، ومن شكره لعبده أن من ترك شيئاً لله أعاضه الله خيراً منه، ومن تقرب منه شبراً

(١) رواه مسلم (١٢٩٧) عن جابر بلفظ: «لتأخذوا عني مناسككم».

(٢) في (ب): «بعدم».

تقرب منه ذراعاً، ومن تقرب منه ذراعاً تقرب منه باعاً، ومن آتاه يمشي آتاه هرولة، ومن عامله ربح عليه أضعافاً مضاعفة، ومع أنه شاكر فهو عليم بمن يستحق الثواب الكامل بحسب نيته وإيمانه وتقواه ممن ليس كذلك، عليم بأعمال العباد فلا يضيعها بل يجدونها أوفر ما كانت على حسب نياتهم التي اطلع عليها العليم الحكيم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَيْنِكُمْ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَٰئِكَ أَثُوبٌ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أُولَٰئِكَ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾.

﴿١٥٩﴾ هذه الآية وإن كانت نازلة في أهل الكتاب وما كتموا من شأن الرسول ﷺ، وصفاته فإن حكمها عامٌ لكل من اتصف بكتمان ما أنزل الله ﴿من البينات﴾؛ الدالات على الحق المظاهرات له ﴿والهدى﴾؛ وهو العلم الذي تحصل به الهداية إلى الصراط المستقيم، ويتبين به طريق أهل النعيم من طريق أهل الجحيم، فإن الله أخذ الميثاق على أهل العلم بأن يبينوا للناس ما من الله به عليهم من علم الكتاب ولا يكتموا، فمن نبذ ذلك وجمع بين المفسدتين: كتم ما أنزل الله والغش لعباد الله فأولئك ﴿يلعنهم الله﴾؛ أي: يبعدهم ويطردهم عن قربهِ ورحمته ﴿ويلعنهم اللاعنون﴾؛ وهم جميع الخليقة، فتقع عليهم اللعنة من جميع الخليقة لسعيهم في غش الخلق وفساد أديانهم وإبعادهم من رحمة الله، فجوزوا من جنس عملهم، كما أن معلم الناس الخير يصلي الله عليه وملائكته حتى الحوت في جوف الماء^(١) لسعيه في مصلحة الخلق وإصلاح أديانهم، وقربهم من رحمة الله، فجوزي من جنس عمله.

فالكاتم لما أنزله الله مضاد لأمر الله مشاق لله، يبين الله الآيات للناس ويوضحها، وهذا يسعى في طمسها وإخفائها^(٢)، فهذا عليه هذا الوعيد الشديد.

﴿١٦٠﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾؛ أي: رجعوا عما هم عليه من الذنوب ندماً وإقلاعاً

(١) كما في «سنن الترمذي» (٢٦٨٥)، والطبراني في «الكبير» (٢٧٨/٨) والحديث صححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٧٨).

(٢) في (ب): «وهذا يطمسها ويعميها».

وعزماً على عدم المعاودة ﴿وَأَصْلَحُوا﴾؛ ما فسد من أعمالهم؛ فلا يكفي ترك القبيح حتى يحصل فعل الحسن، ولا يكفي ذلك في الكاتم أيضاً حتى يبين ما كتبه ويبيدي ضد ما أخفى فهذا يتوب الله عليه لأن توبة الله غير محبوب عنها، فمن أتى بسبب التوبة تاب الله عليه لأنه ﴿التواب﴾؛ أي: الرجاء على عباده بالعفو والصفح بعد الذنب إذا تابوا وبالإحسان والنعم بعد المنع إذا رجعوا ﴿الرحيم﴾؛ الذي اتصف بالرحمة العظيمة التي وسعت كل شيء، ومن رحمته أن وفقهم للتوبة والإنابة فتابوا وأنابوا ثم رحمهم بأن قبل ذلك منهم لطفاً وكرماً، هذا حكم التائب من الذنب.

﴿١٦١﴾ وأما من كفر واستمر على كفره حتى مات لم يرجع إلى ربه ولم ينب إليه ولم يتب عن قريب فأولئك ﴿عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾؛ لأنه لما صار كفرهم وصفاً ثابتاً صارت اللعنة عليهم وصفاً ثابتاً لا تزول، لأن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً.

﴿١٦٢﴾ ﴿خالدين فيها﴾؛ أي: في اللعنة أو في العذاب وهما^(١) متلازمان لا يخفف عنهم العذاب؛ بل عذابهم دائم شديد مستمر ﴿ولا هم ينظرون﴾؛ أي: يمهلون لأن وقت الإمهال وهو الدنيا قد مضى، ولم يبق لهم عذر فيعتدرون.

﴿وَاللَّهُ كَرِيمٌ﴾ وَحَدَّثَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾.

﴿١٦٣﴾ يخبر تعالى وهو أصدق القائلين أنه ﴿إله واحد﴾؛ أي: متوحد منفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله فليس له شريك في ذاته ولا سمي له ولا كفو له ولا مثل ولا نظير ولا خالق ولا مدبر غيره، فإذا كان كذلك فهو المستحق لأن يؤله ويعبد بجميع أنواع العبادة ولا يشرك به أحد من خلقه لأنه ﴿الرحمن الرحيم﴾؛ المتصف بالرحمة العظيمة التي لا يماثلها رحمة أحد فقد وسعت كل شيء وعمت كل حي، فبرحمته وجدت المخلوقات وبرحمته حصلت لها أنواع الكمالات، وبرحمته اندفع عنها كل نقمة، وبرحمته عرّف عباده نفسه بصفاته وآلآته وبين لهم كل ما يحتاجون إليه من مصالح دينهم ودنياهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فإذا علم أن ما بالعباد من نعمة فمن الله وأن أحداً من المخلوقين^(٢) لا ينفع أحداً عليم

(٢) في (ب): «المخلوق».

(١) في (ب): «والمعنيان».

أن الله هو المستحق لجميع أنواع العبادة وأن يفرد بالمحبة والخوف والرجاء والتعظيم والتوكل وغير ذلك من أنواع الطاعات وأن من أظلم الظلم وأقبح القبيح أن يعدل عن عبادته إلى عبادة العبيد وأن يشرك المخلوقين من تراب برب الأرباب أو يعبد المخلوق المدبر العاجز من جميع الوجوه مع الخالق المدبر القادر القوي الذي [قد] قهر كل شيء، ودان له كل شيء.

ففي هذه الآية إثبات وحدانية الباري وإلهيته وتقريرها بنفيها عن غيره من المخلوقين وبيان أصل الدليل على ذلك وهو إثبات رحمته التي من آثارها وجود جميع النعم واندفاع جميع النقم، فهذا دليل إجمالي على وحدانيته تعالى.

ثم ذكر الأدلة التفصيلية فقال:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضَرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

﴿١٦٤﴾ أخبر تعالى أن في هذه المخلوقات العظيمة آيات؛ أي: أدلة على وحدانية الباري وإلهيته وعظيم سلطانه ورحمته وسائر صفاته، ولكنها ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: لمن لهم عقول يعملونها فيما خلقت له، فعلى حسب ما من الله على عبده من العقل ينتفع بالآيات ويعرفها بعقله وفكره وتدبره، ففي ﴿خلق السموات﴾؛ في ارتفاعها واتساعها وإحكامها وإتقانها وما جعل الله فيها من الشمس والقمر والنجوم وتنظيمها لمصالح العباد وفي خلق ﴿الأرض﴾؛ مهاداً للخلق يمكنهم القرار عليها والانتفاع بما عليها والاعتبار، ما يدل ذلك على انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير وبيان قدرته العظيمة التي بها خلقها، وحكمته التي بها أتقنها وأحسنها ونظمها، وعلمه ورحمته التي بها أودع ما أودع من منافع الخلق ومصالحهم وضروراتهم وحاجاتهم، وفي ذلك أبلغ الدليل على كماله واستحقاقه أن يفرد بالعبادة لانفراده بالخلق والتدبير والقيام بشؤون عباده.

وفي ﴿اختلاف الليل والنهار﴾؛ وهو تعاقبهما على الدوام إذا ذهب أحدهما خلفه الآخر، وفي اختلافهما في الحر والبرد والتوسط، وفي الطول والقصر والتوسط، وما ينشأ عن ذلك من الفصول التي بها انتظام مصالح بني آدم وحيواناتهم، وجميع ما على وجه الأرض من أشجار ونوابت، كل ذلك بانتظام وتدبير وتسخير تنبهر له

العقول، وتعجز عن إدراكه من الرجال الفحول ما يدل ذلك على قدرة مصرفها وعلمه وحكمته ورحمته الواسعة ولطفه الشامل وتصريفه وتدبيره الذي تفرد به وعظمته وعظمة ملكه وسلطانه مما يوجب أن يؤله ويعبد ويفرد بالمحبة والتعظيم والخوف والرجاء وبذل الجهد في محابه ومراضيه.

وفي ﴿الفلك التي تجري في البحر﴾ وهي السفن والمراكب ونحوها مما ألهم الله عباده صنعتها وخلق لهم من الآلات الداخلية والخارجية ما أقدرهم عليها ثم سخر لها هذا البحر العظيم والرياح التي تحملها بما فيها من الركاب والأموال والبضائع التي هي من منافع الناس وبما تقوم مصالحهم وتنظم معاشهم، فمن الذي ألهمهم صنعتها وأقدرهم عليها وخلق لهم من الآلات ما به يعملونها، أم من الذي سخر لها البحر تجري فيه بإذنه وتسخيره والرياح، أم من الذي خلق للمراكب البرية والبحرية النار والمعادن المعينة على حملها وحمل ما فيها من الأموال، فهل هذه الأمور حصلت اتفاقاً أم استقل بعملها هذا المخلوق الضعيف العاجز الذي خرج من بطن أمه لا علم له ولا قدرة، ثم خلق له ربه القدرة وعلمه ما يشاء تعليمه، أم المسخر لذلك رب واحد حكيم عليم لا يعجزه شيء ولا يمتنع عليه شيء. بل الأشياء قد دانت لربوبيته، واستكانت لعظمته، وخضعت لجبروته.

وغاية العبد الضعيف أن جعله الله جزءاً من أجزاء الأسباب التي بها وجدت هذه الأمور العظام، فهذا يدل على رحمة الله وعنايته بخلقه، وذلك يوجب أن تكون المحبة كلها له والخوف والرجاء وجميع الطاعة والذل والتعظيم ﴿وما أنزل الله من السماء من ماء﴾؛ وهو المطر النازل من السحاب ﴿فأحيا به الأرض بعد موتها﴾؛ فأظهرت من أنواع الأقوات وأصناف النبات ما هو من ضرورات الخلائق التي لا يعيشون بدونها، أليس ذلك دليلاً على قدرة من أنزله وأخرج به ما أخرج ورحمته ولطفه بعباده وقيامه بمصالحهم وشدة افتقارهم وضرورتهم إليه من كل وجه؟ أما يوجب ذلك أن يكون هو معبودهم وإلههم؟ أليس ذلك دليلاً على إحياء الموتى ومجازاتهم بأعمالهم؟

﴿وبث فيها﴾ أي في الأرض ﴿من كل دابة﴾ أي: نشر في أقطار الأرض من الدواب المتنوعة ما هو دليل على قدرته وعظمته ووحدانيته وسلطانه العظيم، وسخرها للناس ينتفعون بها بجميع وجوه الانتفاع: فمنها ما يأكلون من لحمه ويشربون من دره، ومنها ما يركبون، ومنها ما هو ساعٍ في مصالحهم وحراستهم،

ومنها ما يعتبر به، ومنها أنه^(١) بث فيها من كل دابة فإنه سبحانه هو القائم بأرزاقهم المتكفل بأقواتهم، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها.

وفي «تصريف الرياح»؛ باردة وحارة وجنوباً وشمالاً وشرقاً ودبوراً وبين ذلك، وتارة تثير السحاب، وتارة تؤلف بينه، وتارة تلقحه، وتارة تدره، وتارة تمزقه، وتزيل ضرره، وتارة تكون رحمة، وتارة ترسل بالعذاب، فمن الذي صرفها هذا التصريف وأودع فيها من منافع العباد ما لا يستغنون عنه، وسخرها ليعيش فيها جميع الحيوانات وتصلح الأبدان والأشجار والحبوب والنوابت إلا العزيز الحكيم الرحيم اللطيف بعباده المستحق لكل ذل وخضوع ومحبة وإتابة وعبادة، وفي تسخير السحاب بين السماء والأرض على خفته ولطافته يحمل الماء الكثير فيسوقه الله إلى حيث شاء فيحيي به البلاد والعباد ويروي التلول والوهاد وينزله على الخلق وقت حاجتهم إليه، فإذا كان يضرهم كثرت أمسكه عنهم فينزله رحمة ولطفاً ويصرفه عناية وعطفاً، فما أعظم سلطانه وأغزر إحسانه وألطف امتنانه، أليس من القبيح بالعباد أن يتمتعوا برزقه ويعيشوا ببره وهم يستعينون بذلك على مساخطه ومعاصيه، أليس ذلك دليلاً على حلمه وصبره وعفوه وصفحه وعظيم^(٢) لطفه، فله الحمد أولاً وآخراً وباطناً وظاهراً.

والحاصل أنه كلما تدبر العاقل في هذه المخلوقات، وتغلغل فكره في بدائع المبتدعات، وازداد تأمله للصنعة وما أودع فيها من لطائف البر والحكمة علم بذلك أنها خلقت للحق وبالحق، وأنها صحائف آيات وكتب دلالات على ما أخبر به الله عن نفسه ووحدانيته وما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر، وأنها مسخرات ليس لها تدبير ولا استعصاء على مدبرها ومصرفها، فتعرف أن العالم العلوي والسفلي كلهم إليه مفتقرون وإليه صامدون، وأنه الغني بالذات عن جميع المخلوقات فلا إله إلا الله، ولا رب سواه.

ثم قال تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ١٦٥﴾ إِذْ

(١) في (ب): «ومع أنه».

(٢) في (ب): «عظيم».

تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا فَنَتَّبِعَهُم مِّمَّنْ كَرِهْنَا لَأَكْثَرَ مِنْ هَٰذَا بَلَدًا بَلَدًا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴿١٦٧﴾

﴿١٦٥ - ١٦٦ - ١٦٧﴾ ما أحسن اتصال هذه الآية بالتي^(١) قبلها، فإنه تعالى لما بين وحدانيته وأدلتها القاطعة وبراهينها الساطعة الموصلة إلى علم اليقين المزيلة لكل شك ذكر هنا أن ﴿من الناس﴾؛ مع هذا البيان التام ﴿من يتخذ﴾ من المخلوقين ﴿أنداداً﴾ لله؛ أي: نظراء ومثلاء يساويهم في الله بالعبادة والمحبة والتعظيم والطاعة، ومن كان بهذه الحالة - بعد إقامة الحجة وبيان التوحيد - علم أنه معاند لله، مشاق له، أو معرض عن تدبر آياته، والتفكر في مخلوقاته فليس له أدنى عذر في ذلك، بل قد حققت عليه كلمة العذاب، وهؤلاء الذين يتخذون الأنداد مع الله لا يسوونهم بالله في الخلق والرزق والتدبير، وإنما يسوونهم به في العبادة فيعبدونهم ليقربوهم إليه، وفي قوله اتخذوا دليل على أنه ليس لله ندٌّ وإنما المشركون جعلوا بعض المخلوقات أنداداً له تسمية مجردة ولفظاً فارغاً من المعنى؛ كما قال تعالى: ﴿وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض أم بظاهر من القول﴾؛ ﴿إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن﴾.

فالمخلوق ليس ندّاً لله لأن الله هو الخالق وغيره مخلوق والرب الرازق ومن عده مرزوق، والله هو الغني وأنتم الفقراء وهو الكامل من كل الوجوه، والعبيد ناقصون من جميع الوجوه، والله هو النافع الضار، والمخلوق ليس له من النفع والضرر والأمر شيء، فعلم علماً يقيناً بطلان قول من اتخذ من دون الله آلهة وأنداداً سواء كان ملكاً أو نبياً أو صالحاً أو صنماً أو غير ذلك وإن الله هو المستحق للمحبة الكاملة والذل التام، فلهذا مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿والذين آمنوا أشد حبا لله﴾؛ أي: من أهل الأنداد لأندادهم لأنهم أخلصوا محبتهم له وهؤلاء أشركوا بها، ولأنهم أحبوا من يستحق المحبة على الحقيقة الذي محبته هي عين صلاح العبد وسعادته وفوزه. والمشركون أحبوا من لا يستحق من الحب شيئاً ومحبته عين شقاء العبد وفساده وتشتت أمره.

(١) في (ب): «بما».

فلهذا توعدهم الله بقوله: ﴿ولو يرى الذين ظلموا﴾؛ باتخاذ الأنداد والانقياد لغير رب العباد وظلموا الخلق بصددهم عن سبيل الله وسعيهم فيما يضرهم ﴿إذ يرون العذاب﴾؛ أي: يوم القيامة عياناً بأبصارهم ﴿أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب﴾؛ أي: لعلمو علماً جازماً أن القوة والقدرة لله كلها وأن أندادهم ليس فيها من القوة شيء، فتبين^(١) لهم في ذلك اليوم ضعفها وعجزها لا كما اشتبه عليهم في الدنيا، وظنوا أن لها من الأمر شيئاً وأنها تقربهم إليه وتوصلهم إليه فخاب ظنهم، وبطل سعيهم، وحق عليهم شدة العذاب ولم تدفع عنهم أندادهم شيئاً، ولم تغن عنهم مثقال ذرة من النفع، بل يحصل لهم الضرر منها من حيث ظنوا نفعها.

وتبرأ المتبعون من التابعين، وتقطعت بينهم الوصل التي كانت في الدنيا لأنها كانت لغير الله وعلى غير أمر الله، ومتعلقة بالباطل الذي لا حقيقة له فاضمحلت أعمالهم، وتلاشت أحوالهم، وتبين لهم أنهم كانوا كاذبين وأن أعمالهم التي يؤملون نفعها وحصول نتيجتها انقلبت عليهم حسرة وندامة وأنهم خالدون في النار لا يخرجون منها أبداً، فهل بعد هذا الخسران خسران؟ ذلك بأنهم اتبعوا الباطل فعملوا العمل الباطل ورجوا غير مرجو وتعلقوا بغير متعلق فبطلت الأعمال ببطلان متعلقها ولما بطلت وقعت الحسرة بما فاتهم من الأمل فيها فضررتهم غاية الضرر، وهذا بخلاف من تعلق بالله الملك الحق المبين، وأخلص العمل لوجهه، ورجا نفعه فهذا قد وضع الحق في موضعه، فكانت أعماله حقاً لتعلقها بالحق فجاز بنتيجة عمله ووجد جزاءه عند ربه غير منقطع كما قال تعالى: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم﴾، والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم، ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم.

وحينئذ يتمنى التابعون أن يردوا إلى الدنيا فيتبرؤوا من متبوعهم بأن يتركوا الشرك بالله ويقبلوا على إخلاص العمل لله، وهيهات فات الأمر وليس الوقت وقت إمهال وإنظار، ومع هذا فهم كذبة فلو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنما هو قول يقولونه وأماني يتمنونها حقاً وغيظاً على المتبوعين لما تبرؤوا منهم والذنب ذنبهم فرأس

(١) في (ب): «فيتبين».

المتبوعين على الشر إبليس ومع هذا يقول لأتباعه: ﴿لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم، وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن أدعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلْالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنبَغُ مَا أَفْتَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءُنَا أَوَّلَوْ كُنَّا ءَابَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

﴿١٦٨﴾ هذا خطاب للناس كلهم مؤمنهم وكافرهم، فامتن عليهم بأن أمرهم أن يأكلوا من جميع ما في الأرض من حبوب وثمار وفواكه وحيوانات حالة كونها ﴿حلالاً﴾؛ أي: محلاً لكم تناوله ليس بغصب ولا سرقة ولا محصلاً بمعاملة محرمة أو على وجه محررم أو معيناً على محررم ﴿طيباً﴾؛ أي: ليس بخبيث كالهيئة والدم ولحم الخنزير والخبائث كلها. ففي هذه الآية دليل على أن الأصل في الأعيان الإباحة أكلاً وانتفاعاً وأن المحرم نوعان: إما محررم لذاته وهو الخبيث الذي هو ضد الطيب، وإما محررم لما عرض له وهو المحرم لتعلق حق الله أو حق عباده به، وهو ضد الحلال.

وفيه دليل على أن الأكل بقدر ما يقيم البنية واجب ياتم تاركه لظاهر الأمر، ولما أمرهم باتباع ما أمرهم به إذ هو عين صلاحهم نهاهم عن اتباع ﴿خطوات الشيطان﴾؛ أي: طرقه التي يأمر بها، وهي جميع المعاصي من كفر وفسوق وظلم، ويدخل في ذلك تحريم السوائب والحام ونحو ذلك، ويدخل فيه [أيضاً] تناول المأكولات المحرمة.

﴿إنه لكم عدو مبين﴾؛ أي: ظاهر العداوة فلا يريد بأمركم إلا غشكم وأن تكونوا من أصحاب السعير، فلم يكتف ربنا بنهينا عن اتباع خطواته حتى أخبرنا وهو أصدق القائلين بعداوته الداعية للحذر منه، ثم لم يكتف بذلك حتى أخبرنا بتفصيل ما يأمر به، وأنه أقيح الأشياء، وأعظمها مفسدة، فقال:

﴿١٦٩﴾ ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ﴾؛ أي: الشر الذي يسوء صاحبه، فيدخل في ذلك جميع المعاصي فيكون قوله، ﴿والفحشاء﴾؛ من باب عطف الخاص على العام لأن الفحشاء من المعاصي ما تنهى قبحه كالزنا وشرب الخمر والقتل والقذف والبخل ونحو ذلك مما يستفحشه من له عقل ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾؛

فيدخل في ذلك القول على الله بلا علم في شرعه وقدره، فمن وصف الله بغير ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، أو نفى عنه ما أثبتته لنفسه، أو أثبت له ما نفاه عن نفسه؛ فقد قال على الله بلا علم، ومن زعم أن لله ندًا وأوثانًا تقرب مَنْ عَبَدَهَا من الله فقد قال على الله تعالى بلا علم، ومن قال: إن الله أحل كذا، أو حرم كذا، أو أمر بكذا، أو نهى عن كذا بغير بصيرة، فقد قال على الله بلا علم، ومن قال: إنَّ الله خلق هذا الصنف من المخلوقات لليلة الفلانية بلا برهان له بذلك؛ فقد قال على الله بلا علم.

ومن أعظم القول على الله بلا علم أن يتأول المتأول كلامه أو كلام رسوله على معاني اصطلاح عليها طائفة من طوائف الضلال ثم يقول إن الله أرادها، فالقول على الله بلا علم من أكبر المحرمات وأشملها وأكبر طرق الشيطان التي يدعو إليها، فهذه طرق الشيطان التي يدعو إليها هو وجنوده، ويبدلون مكرهم وخداعهم على إغواء الخلق بما يقدرون عليه، وأما الله تعالى فإنه يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى.

فلينظر العبد نفسه مع أي الداعيتين [هو] ومن أي الحزبتين؟ أتتبع داعي الله الذي يريد لك الخير والسعادة الدنيوية والأخروية الذي كل الفلاح بطاعته وكل الفوز في خدمته وجميع الأرباح في معاملة المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، الذي لا يأمر إلا بالخير ولا ينهى إلا عن الشر، أم تتبع داعي الشيطان الذي هو عدو الإنسان الذي يريد لك الشر ويسعى بجهد على إهلاكك في الدنيا والآخرة؟ الذي كل الشر في طاعته وكل الخسران في ولايته، الذي لا يأمر إلا بشرٍّ ولا ينهى إلا عن خير.

ثم أخبر تعالى عن حال المشركين إذا أمروا باتباع ما أنزل الله على رسوله مما تقدم وصفه رغبوا عن ذلك وقالوا:

﴿١٧٠﴾ ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ فاكثفوا بتقليد الآباء، وزهدوا في الإيمان بالأنبياء، ومع هذا فأباؤهم أجهل الناس وأشدهم ضلالاً. وهذه شبهة لرد الحق واهية، فهذا دليل على إعراضهم عن الحق ورغبتهم عنه وعدم إنصافهم، فلو هدوا لرشدهم وحسن قصدهم لكان الحق هو القصد، ومن جعل الحق قصده، ووازن بينه وبين غيره، تبين له الحق قطعاً واتبعه إن كان منصفاً. ثم قال تعالى:

﴿وَمَثَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْقُبُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٧١).

﴿١٧١﴾ لما بين تعالى عدم انقيادهم لما جاءت به الرسل وردهم لذلك بالتقليد علم من ذلك أنهم غير قابلين للحق ولا مستجيبين له، بل كان معلوماً لكل أحد أنهم لن يزولوا عن عنادهم، أخبر تعالى أن مثلهم عند دعاء الداعي لهم إلى الإيمان كمثل البهائم التي ينطق لها راعيها وليس لها علم بما يقول داعيها ومناديها، فهم يسمعون مجرد الصوت الذي تقوم به عليهم الحجة، ولكنهم لا يفقهونه فقهاً ينفعهم، فلهذا كانوا صمّاً لا يسمعون الحق سماع فهم وقبول، عمياً لا ينظرون نظر اعتبار، بكماً فلا ينطقون بما فيه خير لهم، والسبب الموجب لذلك كله أنه ليس لهم عقل صحيح بل هم أسفه السفهاء وأجهل الجاهلاء. فهل يستريب العاقل أن من دُعِيَ إلى الرشاد وزيّد عن الفساد، ونُهي عن اقتحام العذاب، وأُمِر بما فيه صلاحه وفلاحه وفوزه ونعيمه، فعصى الناصح، وتولى عن أمر ربه، واقتحم النار على بصيرة واتبع الباطل ونبذ الحق أن هذا ليس له مسكة من عقل، وأنه لو اتصف بالمكر والخديعة والدهاء فإنه من أسفه السفهاء.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلّٰهِ إِن كُنتُمْ إِِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾.

﴿١٧٢﴾ هذا أمر للمؤمنين خاصة بعد الأمر العام، وذلك أنهم هم المنتفعون على الحقيقة بالأوامر والنواهي بسبب إيمانهم، فأمرهم بأكل الطيبات من الرزق والشكر لله على إنعامه باستعمالها بطاعته والتقوي بها على ما يوصل إليه، فأمرهم بما أمر به المرسلين في قوله: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾؛ فالشكر في هذه الآية هو العمل الصالح، وهنا لم يقل حلالاً لأن المؤمن أباح الله له الطيبات من الرزق خالصة من التبعة، ولأن إيمانه يحجزه عن تناول ما ليس له. وقوله: ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾؛ أي: فاشكروه فدل على أن من لم يشكر الله لم^(١) يعبد وحده، كما أن من شكره فقد عبده وأتى بما أمر به، ويدل أيضاً على أن أكل الطيب سبب للعمل الصالح وقبوله.

والأمر بالشكر عقيب النعم، لأن الشكر يحفظ النعم الموجودة، ويجلب النعم المفقودة، كما أن الكفر ينفر النعم المفقودة، ويزيل النعم الموجودة.

(١) في (ب): «فلم».

﴿١٧٣﴾ ولما ذكر تعالى إباحة الطيبات ذكر تحريم الخبائث فقال: ﴿إنما حرم عليكم الميتة﴾؛ وهي: ما مات بغير تذكية شرعية؛ لأن الميتة خبيثة مضرّة لردائها في نفسها ولأن الأغلب أن تكون عن مرض فيكون زيادة مرض^(١)، واستثنى الشارع من هذا العموم ميتة الجراد وسماك البحر فإنه حلال طيب ﴿والدم﴾؛ أي: المسفوح كما قيد في الآية الأخرى ﴿وما أهل به لغير الله﴾؛ أي ذبح لغير الله كالذي يذبح للأصنام والأوثان من الأحجار والقبور ونحوها، وهذا المذكور غير حاصر للمحرمات، وجيء به لبيان أجناس الخبائث المدلول عليه بمفهوم قوله: ﴿طيبات﴾؛ فعموم المحرمات تستفاد من الآية السابقة من قوله: ﴿حلالاً طيباً﴾؛ كما تقدم وإنما حرم علينا هذه الخبائث ونحوها لطفاً بنا وتنزيهاً عن المضر، ومع هذا ﴿فمن اضطر﴾؛ أي ألجئ إلى المحرم بجوع وعدم أو إكراه ﴿غير باغ﴾؛ أي: غير طالب للمحرم مع قدرته على الحلال أو مع عدم جوعه ﴿ولا عاد﴾؛ أي: متجاوز الحد في تناول ما أبيح له اضطراراً فمن اضطر وهو غير قادر على الحلال، وأكل بقدر الضرورة فلا يزيد عليها ﴿فلا إثم﴾؛ أي: جناح ﴿عليه﴾؛ وإذا ارتفع الإثم^(٢) رجع الأمر إلى ما كان عليه، والإنسان بهذه الحالة مأمور بالأكل بل منهى أن يلقي بيده إلى التهلكة وأن يقتل نفسه، فيجب إذاً عليه الأكل ويأثم إن ترك الأكل حتى مات فيكون قاتلاً لنفسه، وهذه الإباحة والتوسعة من رحمته تعالى بعباده، فلهذا ختمها بهذين الاسمين الكريمين المناسبين غاية المناسبة فقال: ﴿إن الله غفورٌ رحيمٌ﴾.

ولما كان الحل مشروطاً بهذين الشرطين، وكان الإنسان في هذه الحالة ربما لا يستقصي تمام الاستقصاء في تحقيقها، أخبر [تعالى] أنه غفور، فيغفر [له] ما أخطأ فيه في هذه الحال خصوصاً، وقد غلبته الضرورة، وأذهبت حواسه المشقة.

وفي هذه الآية دليل على القاعدة المشهورة «الضرورات تبيح المحظورات»، فكل محظور اضطر له الإنسان فقد أباحه له الملك الرحمن، فله الحمد والشكر أولاً وآخرأ وظاهراً وباطناً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ

(١) في (ب): «ضرر».

(٢) في (ب): «وإذا ارتفع الجناح». وفوق كلمة الجناح كلمة: «الإثم».

فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾
 أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾
 ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

﴿١٧٤ - ١٧٥﴾ هذا وعيد شديد لمن كتم ما أنزل الله على رسله من العلم الذي أخذ الله الميثاق على أهله أن يبينوه للناس ولا يكتُموه، فمن تعوض عنه بالحطام الدنيوي ونبذ أمر الله فأولئك ﴿ما يأكلون في بطونهم إلا النار﴾؛ لأن هذا الثمن الذي اكتسبوه إنما حصل لهم بأقبح المكاسب وأعظم المحرمات، فكان جزاؤهم من جنس عملهم، ﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾؛ بل قد سخط عليهم وأعرض عنهم، فهذا أعظم عليهم من عذاب النار، ﴿ولا يزكيهم﴾؛ أي: لا يطهرهم من الأخلاق الرذيلة، وليس لهم أعمال تصلح للمدح والرضا والجزاء عليها، وإنما لم يزكهم لأنهم فعلوا أسباب عدم التزكية التي أعظم أسبابها العمل بكتاب الله والاهتداء به والدعوة إليه، فهؤلاء نبذوا كتاب الله وأعرضوا عنه واختاروا الضلالة على الهدى والعذاب على المغفرة فهؤلاء لا يصلح لهم إلا النار، فكيف يصبرون عليها؟ وأنى لهم الجلد عليها؟

﴿١٧٦﴾ ﴿ذلك﴾؛ المذكور وهو مجازاته بالعدل ومنعه أسباب الهداية ممن أباه واختار سواها ﴿بأن الله نزل الكتاب بالحق﴾؛ ومن الحق مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وأيضاً ففي قوله: ﴿نزل الكتاب بالحق﴾؛ ما يدل على أن الله أنزله لهداية خلقه وتبيين الحق من الباطل والهدى من الضلال، فمن صرفه عن مقصوده فهو حقيق بأن يجازى بأعظم العقوبة، ﴿وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾؛ أي: وإن الذين اختلفوا في الكتاب فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه والذين حرفوه وصرفوه على أهوائهم ومراداتهم ﴿لفي شِقَاقٍ﴾؛ أي: محادة ﴿بَعِيدٍ﴾؛ من ^(١) الحق، لأنهم قد خالفوا الكتاب الذي جاء بالحق الموجب للاتفاق وعدم التناقض، فمرج أمرهم، وكثر شقاقهم، وترتب على ذلك افتراقهم، بخلاف أهل الكتاب الذين آمنوا به، وحكموه في كل شيء، فإنهم اتفقوا، وارتفقوا بالمحبة والاجتماع عليه.

وقد تضمنت هذه الآيات الوعيد للكافرين لما أنزل الله المؤثرين عليه عرض

(١) في (ب): «عن».

الدنيا بالعذاب والسخط، وأن الله لا يطهرهم بالتوفيق ولا بالمغفرة. وذكر السبب في ذلك بإيثارهم الضلالة على الهدى، فترتب على ذلك اختيار العذاب على المغفرة ثم توجع لهم بشدة صبرهم على النار لعملهم بالأسباب التي يعلمون أنها موصلة لها، وأن الكتاب مشتمل على الحق الموجب للاتفاق عليه وعدم الافتراق، وأن كل من خالفه فهو في غاية البعد عن الحق والمنازعة والمخاصمة. والله أعلم.

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ
وَأَنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا
وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالْفُرْسَاءِ وَحِينَ يُبَايِعُ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (١٧٧).

﴿١٧٧﴾ يقول تعالى: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾؛ أي: ليس هذا هو البر المقصود من العباد فيكون كثرة البحث فيه والجدال من العناء الذي ليس تحته إلا الشقاق والخلاف، وهذا نظير قوله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»^(١)، ونحو ذلك، ﴿ولكن البر من آمن بالله﴾؛ أي: بأنه إله واحد موصوف بكل صفة كمال منزّه عن كل نقص ﴿واليوم الآخر﴾؛ وهو كل ما أخبر الله به في كتابه أو أخبر به الرسول مما يكون بعد الموت ﴿والملائكة﴾؛ الذين وصفهم الله لنا في كتابه ووصفهم رسوله ﷺ، ﴿والكتاب﴾؛ أي: جنس الكتب التي أنزلها الله على رسله وأعظمها القرآن فيؤمن بما تضمنه من الأخبار والأحكام. ﴿والنبيين﴾؛ عموماً، خصوصاً خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ ﴿وآتى المال﴾؛ وهو كل ما يتمول الإنسان من مال قليلاً كان أو كثيراً أي أعطى المال ﴿على حبه﴾؛ أي: حب المال بين به أن المال محبوب للنفوس فلا يكاد يخرج العبد، فمن أخرجه مع حبه له تقريباً إلى الله تعالى كان هذا برهاناً لإيمانه، ومن إيتاء المال على حبه أن يتصدق وهو صحيح شحيح يأمل الغنى ويخشى الفقر، وكذلك إذا كانت الصدقة عن قلة كان أفضل لأنه في هذه الحال يحب إمساكه لما يتوهمه من العُذْم والفقر، وكذلك إخراج النفيس من المال وما يحبه من ماله كما قال تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾؛ فكل هؤلاء ممن آتى المال على حبه.

(١) رواه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ثم ذكر المنفق عليه وهم أولى الناس ببرك وإحسانك من الأقارب؛ الذين تتوجع لمصائبهم وتفرح بسرورهم الذين يتناصرون ويتعاقلون، فمن أحسن البر وأوفقه تعاهد الأقارب بالإحسان المالي والقولي على حسب قربهم وحاجتهم، ومن ﴿اليتامى﴾؛ الذين لا كاسب لهم وليس لهم قوة يستغنون بها، وهذا من رحمته تعالى بالعباد الدالة على أنه تعالى أرحم بهم من الوالد بولده، فالله قد أوصى العباد وفرض عليهم في أموالهم الإحسان إلى من فقد آبائهم ليصيروا كمن لم يفقد والديه، ولأن الجزء من جنس العمل فمن رحم يتيم غيره رُحِمَ يتيمه.

﴿والمساكين﴾؛ وهم الذين أسكتهم الحاجة وأذلهم الفقر فلهم حق على الأغنياء بما يدفع مسكتهم أو يخففها بما يقدرون عليه وبما يتيسر. ﴿وابن السبيل﴾؛ وهو الغريب المنقطع به في غير بلده. فحث الله عباده على إعطائه من المال ما يعينه على سفره لكونه مظنة الحاجة وكثرة المصارف، فعلى من أنعم الله عليه بوطنه وراحته وخوِّله من نعمته أن يرحم أخاه الغريب الذي بهذه الصفة على حسب استطاعته ولو بتزويده أو إعطائه آلة لسفره أو دفع ما ينوبه من المظالم وغيرها. ﴿والسائلين﴾؛ أي: الذين تعرض لهم حاجة من الحوائج توجب السؤال، كمن ابتلي بأرش جنائية أو ضريبة عليه من ولاية الأمور أو يسأل الناس لتعمير المصالح العامة كالمساجد والمدارس والقناطر ونحو ذلك فهذا له الحق وإن كان غنياً. ﴿وفي الرقاب﴾؛ فيدخل فيه العتق والإعانة عليه وبذل مال للمكاتب ليوفي سيده وفداء الأسراء عند الكفار أو عند الظلمة.

﴿وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾؛ قد تقدم مراراً أن الله تعالى يقرن بين الصلاة والزكاة لكونهما أفضل العبادات، وأكمل القربات عبادات قلبية وبدنية ومالية، وبهما يوزن الإيمان ويعرف ما مع صاحبه من الإيقان، ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾؛ والعهد هو الالتزام بالزام الله أو إلزام العبد لنفسه فدخل في ذلك حقوق الله كلها، لكون الله ألزم بها عباده والتزموها، ودخلوا تحت عهدها ووجب عليهم أداؤها، وحقوق العباد التي أوجبها الله عليهم والحقوق التي التزمها العبد كالإيمان والنذور ونحو ذلك.

﴿والصابرين في البأساء﴾؛ أي: الفقر لأن الفقير يحتاج إلى الصبر من وجوه كثيرة لكونه يحصل له من الآلام القلبية والبدنية المستمرة ما لا يحصل لغيره، فإن تنعم الأغنياء بما لا يقدر عليه تألم وإن جاع أو جاعت عياله تألم، وإن أكل طعاماً

غير موافق لهواه تألم، وإن عري أو كاد تألم، وإن نظر إلى ما بين يديه وما يتوهمه من المستقبل الذي^(١) يستعد له تألم، وإن أصابه البرد الذي لا يقدر على دفعه تألم، فكل هذه ونحوها مصائب يؤمر بالصبر عليها والاحتساب ورجاء الثواب من الله عليها ﴿والضراء﴾؛ أي: المرض على اختلاف أنواعه من حمى وقروح ورياح ووجع عضو حتى الضرس والإصبع ونحو ذلك فإنه يحتاج إلى الصبر على ذلك، لأن النفس تضعف والبدن يألم وذلك في غاية المشقة على النفوس، خصوصاً مع تطاول ذلك، فإنه يؤمر بالصبر احتساباً لثواب الله تعالى ﴿وحين البأس﴾؛ أي: وقت القتال للأعداء المأمور بقتالهم، لأن الجلال يشق غاية المشقة على النفس ويجزع الإنسان من القتل أو الجراح أو الأسر، فاحتيج إلى الصبر في ذلك احتساباً ورجاء لثواب الله تعالى الذي منه النصر والمعونة التي وعدّها الصابرين.

﴿أولئك﴾؛ أي: المتصفون بما ذكر من العقائد الحسنة والأعمال التي هي آثار الإيمان وبرهانه ونوره والأخلاق التي هي جمال الإنسان وحقيقة الإنسانية فأولئك ﴿الذين صدقوا﴾؛ في إيمانهم لأن أعمالهم صدقت إيمانهم ﴿وأولئك هم المتقون﴾؛ لأنهم تركوا المحظور وفعلوا المأمور، لأن هذه الأمور مشتملة على كل خصال الخير تضمناً ولزوماً لأن الوفاء بالعهد يدخل فيه الدين كله، ولأن العبادات المنصوص عليها في هذه الآية أكبر العبادات، ومن قام بها كان بما سواها أقوم، فهؤلاء [هم] الأبرار الصادقون المتقون.

وقد علم ما رتب الله على هذه الأمور الثلاثة من الثواب الدنيوي والأخروي مما لا يمكن تفصيله في مثل هذا الموضع.

﴿يَتْلُوا آيَاتِ اللَّهِ ءَامِنُونَ كُنُوبَ عَلَيْهِمْ أَلْفِصَاصٌ فِي الْقَتْلِ الْخُرِّ بِالْحَرْ وَالْعَبْدِ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأُولَئِكَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَذَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَعَدَّى بِغَدٍّ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَأْتُولِي أَلْبَابٍ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

﴿١٧٨﴾ يَمْتَنُّ تعالى على عباده المؤمنين بأنه فرض عليهم ﴿القصاص في

(١) في (ب): «التي».

القتلى؛ أي: المساواة فيه، وأن يقتل القاتل على الصفة التي قتل عليها المقتول، إقامة للعدل والقسط بين العباد، وتوجيه الخطاب لعموم المؤمنين فيه دليل على أنه يجب عليهم كلهم حتى أولياء القاتل حتى القاتل بنفسه إعانة ولي المقتول إذا طلب القصاص، ويمكنه^(١) من القاتل، وأنه لا يجوز لهم أن يحولوا بين هذا الحد، ويمنعوا الولي من الاقتصاص كما عليه عادة الجاهلية ومن أشبههم من إيواء المحلّثين.

ثم بين تفصيل ذلك فقال: ﴿الحر بالحر﴾؛ يدخل بمنطوقها الذكر بالذكر، والأنثى بالأنثى؛ والأنثى بالذكر والذكر بالأنثى، فيكون منطوقها مقدماً على مفهوم قوله الأنثى بالأنثى مع دلالة السنة على أن الذكر يقتل بالأنثى، وخرج من عموم هذا الأبوان وإن علوا فلا يقتلان بالولد لورود السنة بذلك^(٢) مع أن في قوله: ﴿القصاص﴾؛ ما يدل على أنه ليس من العدل أن يقتل الوالد بولده ولأن ما في قلب الوالد من الشفقة والرحمة ما يمنعه من القتل لولده إلا بسبب اختلال في عقله أو أذية شديدة جداً من الولد له، وخرج من العموم أيضاً الكافر بالسنة مع أن الآية في خطاب المؤمنين خاصة، وأيضاً فليس من العدل أن يقتل ولي الله بعدوه، ﴿والعبد بالعبد﴾؛ ذكراً كان أو أنثى تساوت قيمتهما أو اختلفت، ودل بمفهومها على أن الحر لا يقتل بالعبد لكونه غير مساوٍ له، ﴿والأنثى بالأنثى﴾؛ أخذ بمفهومها بعض أهل العلم فلم يجز قتل الرجل بالمرأة، وتقدم وجه ذلك.

وفي هذه الآية دليل على أن الأصل وجوب القود في القتل وأن الدية بدل عنه، فلهذا قال: ﴿فمن عفي له من أخيه شيء﴾؛ أي: عفا ولي المقتول عن القاتل إلى الدية أو عفا بعض الأولياء فإنه يسقط القصاص وتجب الدية وتكون الخيرة في القود واختيار الدية إلى الولي، فإذا عفا عنه، وجب على الولي؛ أي ولي المقتول أن يتبع القاتل، ﴿بالمعروف﴾؛ من غير أن يشق عليه ولا يحمله ما لا يطيق، بل يحسن الاقتضاء والطلب ولا يخرجه. وعلى القاتل ﴿أداء إليه بإحسان﴾؛ من غير مطلق ولا نقص ولا إساءة فعلية أو قولية، فهل جزاء الإحسان إليه بالعفو إلا الإحسان بحسن

(١) في (ب): «وتمكنه».

(٢) كما في «المسند» (٤٩/١)، و«سنن الترمذي» (١٤٠٠)، وابن ماجه (٢٦٦٢).

القضاء، وهذا مأمور به في كل ما ثبت في ذمم الناس للإنسان مأمور من له الحق بالاتباع بالمعروف ومن عليه الحق بالأداء بالإحسان^(١)، وفي قوله: ﴿فمن عفي له من أخيه﴾؛ ترقيق وحث على العفو إلى الدية وأحسن من ذلك العفو مجاناً.

وفي قوله: ﴿أخيه﴾؛ دليل على أن القاتل لا يكفر لأن المراد بالأخوة هنا أخوة الإيمان فلم يخرج بالقتل منها ومن باب أولى أن سائر المعاصي التي هي دون الكفر لا يكفر بها فاعلها وإنما ينقص بذلك إيمانه، وإذا عفا أولياء المقتول أو عفا بعضهم احتقن دم القاتل وصار معصوماً منهم ومن غيرهم، ولهذا قال: ﴿فمن اعتدى بعد ذلك﴾؛ أي: بعد العفو، ﴿فله عذاب أليم﴾؛ أي في الآخرة، وأما قتله وعدمه فيؤخذ مما تقدم لأنه قتل مكافئاً له فيجب قتله بذلك، وأما من فسر العذاب الأليم بالقتل، وأن^(٢) الآية تدل على أنه يتعين قتله ولا يجوز العفو عنه، وبذلك قال بعض العلماء، والصحيح الأول لأن جنايته لا تزيد على جناية غيره.

ثم بين تعالى حكمته العظيمة في مشروعية القصاص فقال:

﴿١٧٩﴾ ﴿ولكم في القصاص حياة﴾؛ أي: تنحقت بذلك الدماء وتنقمع به الأشقياء، لأن من عرف أنه مقتول إذا قتل لا يكاد يصدر منه القتل، وإذا رُئي القاتل مقتولاً اندعر بذلك غيره وانزجر، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل لم يحصل انكفاف الشر الذي يحصل بالقتل، وهكذا سائر الحدود الشرعية فيها من النكاية والانزجار ما يدل على حكمة الحكيم الغفار. ونكر الحياة لإفادة التعظيم والتكثير، ولما كان هذا الحكم لا يعرف حقيقته إلا أهل العقول الكاملة والألباب الثقيلة خصهم بالخطاب دون غيرهم، وهذا يدل على أن الله تعالى يحب من عباده أن يعملوا أفكارهم وعقولهم في تدبر ما في أحكامه من الحكم والمصالح الدالة على كماله وكمال حكمته وحمده وعدله ورحمته الواسعة، وأن من كان بهذه المثابة فقد استحق المدح بأنه من ذوي الألباب الذين وجه إليهم الخطاب وناداهم رب الأرباب، وكفى بذلك فضلاً وشرفاً لقوم يعقلون.

وقوله: ﴿لعلكم تتقون﴾؛ وذلك أن من عرف ربه، وعرف ما في دينه وشرعه من الأسرار العظيمة والحكم البديعة والآيات الرفيعة أوجب له ذلك أن ينقاد لأمر الله، ويعظم معاصيه فيتركها؛ فيستحق بذلك أن يكون من المتقين.

(١) في (ب): «بإحسان».

(٢) في (ب): «فإن».

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (١٨١) ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٨٢) ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا أَوْ إِنْثَامًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٨٣).

﴿١٨٠﴾ أي: فرض الله عليكم يا معشر المؤمنين ﴿إذا حضر أحدكم الموت﴾؛ أي: أسبابه كالمرض المشرف على الهلاك وحضور أسباب المهالك وكان قد ﴿ترك﴾ خيراً^(١)؛ وهو المال الكثير عرفاً فعلية أن يوصي لوالديه وأقرب الناس إليه بالمعروف على قدر حاله من غير سرف ولا اقتصار على الأبعد دون الأقرب، بل يرتبهم على القرب والحاجة ولهذا أتى فيه بأفعل التفضيل، وقوله: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾؛ دل على وجوب ذلك، لأن الحق هو الثابت، وقد جعله الله من موجبات التقوى.

واعلم أن جمهور المفسرين يرون أن هذه الآية منسوخة بآية الموارث، وبعضهم يرى أنها في الوالدين والأقربين غير الوارثين، مع أنه لم يدل على التخصيص بذلك دليل، والأحسن في هذا أن يقال إن هذه الوصية للوالدين والأقربين مجملة ردها الله تعالى إلى العرف الجاري، ثم إن الله تعالى قدر للوالدين الوارثين وغيرهما من الأقارب الوارثين هذا المعروف في آيات الموارث بعد أن كان مجملاً، وبقي الحكم فيمن لم يرثوا من الوالدين الممنوعين من الإرث وغيرهما ممن حُجب بشخص أو وصف، فإن الإنسان مأمور بالوصية لهؤلاء وهم أحق الناس ببره، وهذا القول تتفق عليه الأمة، ويحصل به الجمع بين القولين المتقدمين، لأن كلا من القائلين بهما كلٌّ منهما لَحَظَ مَلَحَظًا واختلف المورد، فبهذا الجمع يحصل الاتفاق والجمع بين الآيات، فإنه^(٢) مهما أمكن الجمع كان أحسن من ادعاء النسخ الذي لم يدل عليه دليل صحيح.

ولما كان الموصي قد يمتنع من الوصية لما يتوهمه أن من بعده قد يبدل ما وصَّى به قال تعالى:

﴿١٨١ - ١٨٢﴾ ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾؛ أي: الإيصاء للمذكورين أو غيرهم ﴿بَعْدَمَا

(١) جاء في (أ): زيادة: «أي مالاً» بعد قوله: «ترك خيراً». وقد شُطِبَتْ.

(٢) في (ب): «لأنه».

سمعته؛ أي^(١): بعد ما عقله وعرف طريقه وتنفيذه ﴿فإنما إثمهم على الذين يبدلون﴾؛ وإلا فالموصي وقع أجره على الله، وإنما الإثم على المبدل المغير ﴿إن الله سميع﴾؛ يسمع سائر الأصوات ومنه سماعه لمقالة الموصي ووصيته فينبغي له أن يراقب من يسمعه ويراه وأن لا يجوز في وصيته، ﴿عليهم﴾؛ بنيتهم وعلیم بعمل الموصى إليه، فإذا اجتهد الموصي، وعلم الله من نيته ذلك أثابه ولو أخطأ، وفيه التحذير للموصى إليه من التبديل، فإن الله علیم به مطلع على [ما] فعله فليحذر من الله، هذا حكم الوصية العادلة وأما الوصية التي فيها حيف وجنف وإثم فينبغي لمن حضر الموصي وقت الوصية بها أن ينصحه بما هو الأحسن والأعدل، وأن ينهيه عن الجور والجنف وهو الميل بها عن خطأ من غير تعمد، والإثم وهو التعمد لذلك، فإن لم يفعل ذلك فينبغي له أن يصلح بين الموصى إليهم ويتوصل إلى العدل بينهم على وجه التراضي والمصالحة ووعظهم بتبرئة ذمة ميتهم، فهذا قد فعل معروفاً عظيماً، وليس عليه إثم كما على مبدل الوصية الجائزة ولهذا قال: ﴿إن الله غفور﴾؛ أي: يغفر جميع الزلات ويصفح عن التبعات لمن تاب إليه، ومنه مغفرته لمن غض من نفسه وترك بعض حقه لأخيه لأن من سامح سامحه الله، غفور لميتهم الجائر في وصيته إذا احتسبوا بمسامحة بعضهم بعضاً لأجل براءة ذمته، ﴿رحيم﴾؛ بعباده حيث شرع لهم كل أمر به يتراحمون ويتعاطفون.

فدلت هذه الآيات على الحث على الوصية وعلى بيان من هي له وعلى وعيد المبدل للوصية العادلة والترغيب في الإصلاح في الوصية الجائزة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَكُمْ تَفَقُّونَ ﴿١٨٢﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكَ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٣﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُكُمْ وَلَكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٤﴾﴾.

(١) في (ب): «يعني».

﴿١٨٣﴾ يخبر تعالى بما منّ الله به على عباده بأنه فرض عليهم الصيام كما فرضه على الأمم السابقة لأنه من الشرائع والأوامر التي هي مصلحة للخلق في كل زمان، وفيه تنشيط لهذه الأمة بأنه ينبغي لكم أن تنافسوا غيركم في تكميل الأعمال والمسارة إلى صالح الخصال، وأنه ليس من الأمور الثقيلة التي اختصّتم بها.

ثم ذكر تعالى حكمته في مشروعية الصيام فقال: ﴿لعلكم تتقون﴾؛ فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه، فممّا اشتمل عليه من التقوى أن الصائم يترك ما حرم الله عليه من الأكل والشرب والجماع ونحوها التي تميل إليها نفسه متقرباً بذلك إلى الله راجياً بتركها ثوابه، فهذا من التقوى، ومنها: أن الصائم يدرّب نفسه على مراقبة الله تعالى فيترك ما تهوى نفسه مع قدرته عليه لعلمه باطلاع الله عليه، ومنها: أن الصيام يضيق مجاري الشيطان فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم فبالصيام يضعف نفوذه وتقل منه المعاصي، ومنها: أن الصائم في الغالب تكثر طاعته والطاعات من خصال التقوى، ومنها: أن الغني إذا ذاق ألم الجوع أوجب له ذلك مواساة الفقراء المعدمين. وهذا من خصال التقوى.

﴿١٨٤﴾ ولما ذكر أنه فرض عليهم الصيام أخبر أنه أيام معدودات أي قليلة في غاية السهولة ثم سهل تسهيلاً آخر فقال: ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾؛ وذلك للمشقة في الغالب رخص الله لهما في الفطر، ولما كان لا بد من حصول مصلحة الصيام لكل مؤمن أمرهما أن يقضياه في أيام أخر إذا زال المرض وانقضى السفر وحصلت الراحة، وفي قوله: ﴿فعدة من أيام﴾؛ فيه دليل على أنه يقضي عدد أيام رمضان كاملاً كان أو ناقصاً وعلى أنه يجوز أن يقضي أياماً قصيرة باردة عن أيام طويلة حارة كالعكس، وقوله: ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾؛ أي: يطيقون الصيام ﴿فدية﴾؛ عن كل يوم يفطرونه ﴿طعام مسكين﴾؛ وهذا في ابتداء فرض الصيام لما كانوا غير معتادين للصيام وكان فرضه حتماً فيه مشقة عليهم دَرَجَهُم الربُّ الحكيم بأسهل طريق، وَخَيَّرَ المطيق للصوم بين أن يصوم وهو أفضل أو يطعم ولهذا قال: ﴿وأن تصوموا خير لكم﴾؛ ثم بعد ذلك جعل الصيام حتماً على المطيق، وغير المطيق يفطر ويقضيه في أيام أخر، وقيل: وعلى الذين يطيقون؛ أي يتكلفونه، ويشق عليهم مشقة غير محتملة كالشيخ الكبير، فدية عن كل يوم مسكين، وهذا هو الصحيح.

﴿١٨٥﴾ ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾؛ أي: الصوم المفروض عليكم

هو شهر رمضان الشهر العظيم الذي قد حصل لكم فيه من الله الفضل العظيم، وهو القرآن الكريم المشتمل على الهداية لمصالحكم الدينية والدنيوية وتبيين الحق بأوضح بيان، والفرقان بين الحق والباطل والهدى والضلال وأهل السعادة وأهل الشقاوة، فحقيق بشهر هذا فضله، وهذا إحسان الله عليكم فيه، أن يكون موسماً للعباد مفروضاً فيه الصيام، فلما قرره وبين فضيلته وحكمة الله تعالى في تخصيصه قال: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾؛ هذا فيه تعيين الصيام على القادر الصحيح الحاضر، ولما كان النسخ للتخيير بين الصيام والفداء خاصة، أعاد الرخصة للمريض والمسافر لئلا يتوهم أن الرخصة أيضاً منسوخة فقال: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾؛ أي: يريد الله تعالى أن ييسر عليكم الطرق الموصلة إلى رضوانه أعظم تيسير ويسهلها أبلغ^(١) تسهيل، ولهذا كان جميع ما أمر الله به عباده في غاية السهولة في أصله، وإذا حصلت بعض العوارض الموجبة لثقله؛ سهله تسهيلاً آخر إما بإسقاطه أو تخفيفه بأنواع التخفيفات، وهذه جملة لا يمكن تفصيلها، لأن تفاصيلها جميع الشرعيات، ويدخل فيها جميع الرخص والتخفيفات.

﴿ولتكمّلوا العدة﴾؛ وهذا والله أعلم لئلا يتوهم متوهم أن صيام رمضان يحصل المقصود منه ببعضه، دفع هذا الوهم بالأمر بتكميل عدته، ويشكر الله تعالى عند إتمامه على توفيقه وتسهيله وتبيينه لعباده وبالتكبير عند انقضائه، ويدخل في ذلك التكبير عند رؤية هلال شوال إلى فراغ خطبة العيد.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (١٨٦).

﴿١٨٦﴾ هذا جواب سؤال. سأل النبي ﷺ بعض أصحابه فقالوا: يا رسول الله، أقرب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟^(٢) فنزل ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾؛ لأنه تعالى الرقيب الشهيد المطلع على السر وأخفى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور فهو قريب أيضاً من داعيه بالإجابة، ولهذا قال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾؛ والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة.

(١) في (ب): «أشد».

(٢) انظر «تفسير الطبري» تحقيق أحمد شاكر (٣/ ٤٨٠)، وعزه ابن كثير (١/ ٣١٣) لابن أبي حاتم وابن مردويه وأبي الشيخ الأصبهاني، وقال الحافظ في «العجاب»: وفي «سنده ضعيف».

والقرب نوعان: قرب بعلمه من كل خلقه، وقرب^(١) من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق.

فمن دعا ربه بقلب حاضر ودعاء مشروع ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء كأكل الحرام ونحوه فإن الله قد وعده بالإجابة، وخصوصاً إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية والإيمان به الموجب للاستجابة، فلماذا قال: ﴿فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾؛ أي: يحصل لهم الرشد الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة، ولأن الإيمان بالله والاستجابة لأمره سبب لحصول العلم كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾. ثم قال تعالى:

﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِنْ فَسَّيْتُمْ مِنْ لَيْسَ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٍ لَهُمْ عَلَّمَ اللَّهُ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَخْتَاوْنَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَاتَّقِنَ بُشْرُوهُمْ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُوا الصِّيَامَ إِلَى الْآيِلِ وَلَا تُبْشِرُوا مَنْ أَنْتُمْ عَلَيْكُمْ فِي الْمَسْجِدِ ذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لِنَاسٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

﴿١٨٧﴾ كان في أول فرض الصيام يحرم على المسلمين الأكل والشرب والجماع في الليل بعد النوم^(٢)، فحصلت المشقة لبعضهم، فخفف الله تعالى عنهم ذلك وأباح في ليالي الصيام كلها الأكل والشرب والجماع، سواء نام أو لم ينم، لكونهم يختانون أنفسهم بترك بعض ما أمروا به، ﴿فتاب﴾؛ الله ﴿عليكم﴾؛ بأن وسع لكم أمراً كان لولا توسعته موجباً للإثم، ﴿وعفا عنكم﴾؛ ما سلف من التخون ﴿فالآن﴾؛ بعد هذه الرخصة والسعة من الله ﴿باشروهم﴾؛ وطئاً وقبلة ولمساً وغير ذلك ﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾؛ أي: انووا في مباشرتكم لزوجاتكم التقرب إلى الله تعالى، والمقصود الأعظم من الوطء، وهو حصول الذرية وإعفاف فرجه وفرج زوجته، وحصول مقاصد النكاح، ومما كتب الله لكم ليلة القدر الموافقة

(١) في (ب): «وقربه».

(٢) في (ب): «يحرم على المسلمين في الليل بعد النوم الأكل والشرب والجماع».

لليالي صيام رمضان، فلا ينبغي لكم أن تشتغلوا بهذه اللذة عنها وتضيعوها، فاللذة مدركة وليلة القدر إذا فاتت لم تدرك.

﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾؛ هذا غاية للأكل والشرب والجماع، وفيه أنه إذا أكل ونحوه شاكاً في طلوع الفجر فلا بأس عليه، وفيه دليل على استحباب السحور للأمر، وأنه يستحب تأخيره، أخذاً من معنى رخصة الله وتسهيله على العباد، وفيه أيضاً دليل على أنه يجوز أن يدركه الفجر وهو جنب من الجماع قبل أن يغتسل، ويصح صيامه لأن لازم إباحة الجماع إلى طلوع الفجر، أن يدركه الفجر وهو جنب، ولازم الحق حق ﴿ثم﴾؛ إذا طلع الفجر ﴿أتموا الصيام﴾؛ أي: الإمساك عن المفطرات ﴿إلى الليل﴾؛ وهو غروب الشمس، ولما كان إباحة الوطء في ليالي الصيام ليست إباحة^(١) عامة لكل أحد، فإن المعتكف لا يحل له ذلك استثناء بقوله: ﴿ولا تبashروهن وأنتم عاكفون في المساجد﴾؛ أي: وأنتم متصفون بذلك.

ودلت الآية على مشروعية الاعتكاف وهو لزوم المسجد لطاعة الله تعالى وانقطاعاً إليه، وأن الاعتكاف لا يصح إلا في مسجد، ويستفاد من تعريف المساجد أنها المساجد المعروفة عندهم، وهي التي تقام فيها الصلوات الخمس، وفيه أن الوطء من مفسدات الاعتكاف.

تلك المذكورات وهو تحريم الأكل والشرب والجماع، ونحوه من المفطرات في الصيام، وتحريم الفطر على غير المعذور، وتحريم الوطء على المعتكف، ونحو ذلك من المحرمات ﴿حدود الله﴾؛ التي حدها لعباده ونهاهم عنها فقال: ﴿فلا تقربوها﴾؛ أبلغ من قوله فلا تفعلوها؛ لأن القربان يشمل النهي عن فعل المحرم بنفسه، والنهي عن وسائله الموصلة إليه.

والعبد مأمور بترك المحرمات والبعد منها غاية ما يمكنه، وترك كل سبب يدعو إليها، وأما الأوامر فيقول الله فيها تلك حدود الله فلا تعتدوها فينهي عن مجاوزتها ﴿كذلك﴾؛ أي: بين الله لعباده الأحكام السابقة أتم تبين وأوضحها لهم أكمل إيضاح ﴿يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾؛ فإنهم إذا بان لهم الحق اتبعوه، وإذا تبين لهم الباطل اجتنبوه، فإن الإنسان قد يفعل المحرم، على وجه الجهل بأنه

(١) في (ب): «إباحته».

محرم ولو علم تحريمه لم يفعله، فإذا بين الله للناس آياته؛ لم يبق لهم عذر ولا حجة، فكان ذلك سبباً للتقوى.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَآ إِلَى الْمُنْكَارِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿١٨٨﴾ أي: ولا تأخذوا أموالكم أي أموال غيركم، أضافه^(١) إليهم لأنه ينبغي للمسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويحترم ماله كما يحترم ماله، ولأن أكله لِمَالٍ غيره يجرىء غيره على أكل ماله عند القدرة، ولما كان أكلها نوعين: نوعاً بحق ونوعاً بباطل، وكان المحرم إنما هو أكلها بالباطل قيده تعالى بذلك، ويدخل بذلك أكلها على وجه الغصب والسرقة والخيانة في ودیعة أو عارية أو نحو ذلك، ويدخل فيه أيضاً أخذها على وجه المعاوضة بمعاوضة محرمة، كعقود الربا والقمار كلها فإنها من أكل المال بالباطل، لأنه ليس في مقابلة عوض مباح، ويدخل في ذلك أخذها بسبب غش في البيع والشراء والإجارة ونحوها، ويدخل في ذلك استعمال الأجراء وأكل أجرتهم، وكذلك أخذهم أجره على عمل لم يقوموا بواجبه، ويدخل في ذلك أخذ الأجرة على العبادات والقربات التي لا تصح حتى يقصد بها وجه الله تعالى، ويدخل في ذلك الأخذ من الزكوات والصدقات والأوقاف والوصايا، لمن ليس له حق منها أو فوق حقه، فكل هذا ونحوه من أكل المال بالباطل، فلا يحل ذلك بوجه من الوجوه حتى ولو حصل فيه النزاع والارتفاع^(٢) إلى حاكم الشرع، وأدلى من يريد أكلها بالباطل بحجة غلبت حجة المحق، وحكم له الحاكم بذلك، فإن حكم الحاكم لا يبيح محرماً ولا يحلل حراماً، إنما يحكم على نحو مما يسمع، وإلا فحقائق الأمور باقية، فليس في حكم الحاكم للمبطل راحة ولا شبهة ولا استراحة، فمن أدلى إلى الحاكم بحجة باطلة، وحكم له بذلك فإنه لا يحل له، ويكون أكلاً لِمَالٍ غيره بالباطل والإثم، وهو عالم بذلك فيكون أبلغ في عقوبته وأشد في نكاله.

وعلى هذا؛ فالوكيل إذا علم أن موكله مبطل في دعواه لم يحل له أن يخاصم عن الخائن كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْآِهَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَٰجِجِ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ

(٢) في (ب): «وحصل الارتفاع».

(١) في (ب): «أضافها».

مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾.

﴿١٨٩﴾ فقله ^(١) تعالى: ﴿يسألونك عن الأهلّة﴾؛ - جمع هلال - ما فائدتها وحكمتها أو عن ذاتها ﴿قل هي مواقيت للناس﴾؛ أي: جعلها الله تعالى بلفظه ورحمته على هذا التدبير، يبدو الهلال ضعيفاً في أول الشهر، ثم يتزايد إلى نصفه، ثم يشرع في النقص إلى كماله، وهكذا ليعرف الناس بذلك مواقيت عباداتهم؛ من الصيام وأوقات الزكاة والكفارات وأوقات الحج، ولما كان الحج يقع في أشهر معلومات، ويستغرق أوقاتاً كثيرة قال: ﴿والحج﴾؛ وكذلك تعرف بذلك أوقات الديون المؤجلات، ومدة الإجازات ومدة العدد والحمل، وغير ذلك مما هو من حاجات الخلق، فجعله تعالى حساباً يعرفه كل أحد من صغير وكبير وعالم وجاهل، فلو كان الحساب بالسنة الشمسية لم يعرفه إلا النادر من الناس.

﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾؛ وهذا كما كان الأنصار وغيرهم من العرب إذا أحرموا لم يدخلوا البيوت من أبوابها؛ تعبداً بذلك وظناً أنه برٌّ، فأخبر تعالى أنه ليس من البرّ ^(٢)؛ لأن الله تعالى لم يشعه لهم، وكل من تعبد بعبادة لم يشعها الله ولا رسوله فهو متعبد ببدعة، وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها؛ لما فيه من السهولة عليهم التي هي قاعدة من قواعد الشرع.

ويستفاد من إشارة الآية أنه ينبغي في كل أمر من الأمور أن يأتيه الإنسان من الطريق السهل القريب الذي قد جعل له موصلاً، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ينبغي أن ينظر في حالة المأمور، ويستعمل معه الرفق والسياسة التي بها يحصل المقصود أو بعضه، والمتعلم والمعلم ينبغي أن يسلك أقرب طريق وأسهله يحصل به مقصوده، وهكذا كل من حاول أمراً من الأمور، وأتاه من أبوابه، وثابر عليه فلا بد أن يحصل له المقصود بعون الملك المعبود.

﴿واتقوا الله﴾؛ هذا هو البرّ الذي أمر الله به، وهو لزوم تقواه على الدوام بامثال أوامره واجتناب نواهيه، فإنه سبب للفلاح الذي هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، فمن لم يتق الله تعالى لم يكن له سبيل إلى الفلاح، ومن اتقاه فاز بالفلاح والنجاح.

(٢) في (ب): «برّ».

(١) في (ب): «يقول».

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْسِدُوا إِتَّكَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْسِدِينَ ﴿١٩٠﴾
وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْبَلُونَهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلَوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ
﴿١٩٢﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾.

﴿١٩٠﴾ هذه الآيات تتضمن الأمر بالقتال في سبيل الله، وهذا كان بعد الهجرة إلى المدينة، لَمَّا قَوِيَ المسلمون للقتال أمرهم الله به بعدما كانوا مأمورين بكف أيديهم، وفي تخصيص القتال ﴿في سبيل الله﴾؛ حث على الإخلاص ونهي عن الاقتتال في الفتن بين المسلمين، ﴿الذين يقاتلونكم﴾؛ أي: الذين هم مستعدون لقتالكم، وهم المكلفون الرجال غير الشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال.

والنهي عن الاعتداء يشمل أنواع الاعتداء كلها من قتل من لا يقاتل من النساء والمجانين والأطفال والرهبان ونحوهم، والتمثيل بالقتلى وقتل الحيوانات وقطع الأشجار ونحوها، لغیر مصلحة تعود للمسلمين، ومن الاعتداء مقاتلة من تقبل منهم الجزية، إذا بذلوا فإن ذلك لا يجوز.

﴿١٩١ - ١٩٢﴾ ﴿واقتلوهم حيث ثقتموهم﴾؛ هذا أمر بقتالهم أينما وجدوا في كل وقت وفي كل زمان قتال مدافعة وقتال مهاجمة، ثم استثنى من هذا العموم قتالهم ﴿عند المسجد الحرام﴾؛ وأنه لا يجوز إلا أن يَبْذُؤُوا بالقتال فإنهم يُقَاتِلُونَ جزاء لهم على اعتدائهم، وهذا مستمر في كل وقت حتى ينتهوا عن كفرهم فيسلموا، فإن الله يتوب عليهم ولو حصل منهم ما حصل من الكفر بالله والشرك في المسجد الحرام وصد الرسول والمؤمنين عنه، وهذا من رحمته وكرمه بعباده. ولما كان القتال عند المسجد الحرام يتوهم أنه مفسدة في هذا البلد الحرام أخبر تعالى أن المفسدة بالفتنة عنده بالشرك والصد عن دينه أشد من مفسدة القتل، فليس عليكم أيها المسلمون حرج في قتالهم.

ويستدل في هذه ^(١) الآية على القاعدة المشهورة وهي أنه يرتكب أخف المفسدتين لدفع أعلاهما.

﴿١٩٣﴾ ثم ذكر تعالى المقصود من القتال في سبيله، وأنه ليس المقصود به

(١) في (ب): «بهذه».

سفك دماء الكفار وأخذ أموالهم، ولكن المقصود به أن ﴿يكون الدين لله﴾ تعالى، فيظهر دين الله تعالى على سائر الأديان، ويدفع كل ما يعارضه من الشرك وغيره وهو المراد بالفتنة، فإذا حصل هذا المقصود فلا قتل ولا قتال. ﴿فإن انتهوا﴾؛ عن قتالكم عند المسجد الحرام، ﴿فلا عدوان إلا على الظالمين﴾؛ أي: فليس عليهم منكم اعتداء إلا من ظلم منهم؛ فإنه يستحق المعاقبة بقدر ظلمه.

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنۢ أَغْدَىٰ عَلَيْكُمۡ فَاغْدُوا عَلَيْهِۖ بِمِثْلِ مَا أَغْدَىٰ عَلَيْكُمۡ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾.

﴿١٩٤﴾ يقول تعالى: ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام﴾ يحتمل أن يكون المراد به ما وقع من صد المشركين للنبي ﷺ، وأصحابه عام الحديبية عن الدخول لمكة وقاضوهم على دخولها من قابل، وكان الصد والقضاء في شهر حرام وهو ذو القعدة فيكون هذا بهذا، فيكون فيه تطيب لقلوب الصحابة بتمام نسكهم وكمالهم، ويحتمل أن يكون المعنى أنكم إن قاتلتموهم في الشهر^(١) الحرام، فقد قاتلوكم فيه وهم المعتدون، فليس عليكم في ذلك حرج، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿والحرمت قصاص﴾؛ من باب عطف العام على الخاص، أي كل شيء يحترم من شهر حرام أو بلد حرام أو إحرام، أو ما هو أعم من ذلك جميع ما أمر الشرع باحترامه، فمن تجرأ عليها فإنه يقتص منه: فمن قاتل في الشهر الحرام قوتل، ومن هتك البلد الحرام أخذ منه الحد ولم يكن له حرمة، ومن قتل مكافئاً له قتل به، ومن جرحه، أو قطع عضواً منه اقتص منه، ومن أخذ مال غيره المحترم؛ أخذ منه بدله، ولكن هل لصاحب الحق أن يأخذ من ماله بقدر حقه أم لا؟ خلاف بين العلماء، الراجح من ذلك أنه إن كان سبب الحق ظاهراً كالضيء إذا لم يقره غيره، والزوجة والقريب إذا امتنع من تجنب عليه، النفقة من الإنفاق عليه، فإنه يجوز أخذه من ماله، وإن كان السبب خفياً كمن جحد دين غيره أو خانه في ودیعة أو سرق منه ونحو ذلك، فإنه لا يجوز له أن يأخذ من ماله مقابلة له جمعاً بين الأدلة، ولهذا قال تعالى توكيداً وتقوية لما تقدم: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾؛ هذا تفسير لصفة المقاصة وأنها هي المماثلة في مقابلة المعتدي.

ولما كانت النفوس - في الغالب - لا تقف على حدّها إذا رخص لها في المعاقبة

(١) في (ب): «بالشهر».

لطلبها التشفي أمر تعالى بلزوم تقواه التي هي الوقوف عند حدوده وعدم تجاوزها وأخبر تعالى أنه ﴿مع المتقين﴾؛ أي: بالعون والنصر والتأييد والتوفيق، ومن كان الله معه حصل له السعادة الأبدية، ومن لم يلزم التقوى تخلى عنه وليه، وخذله فَوَكَّلَهُ إِلَى نَفْسِهِ، فصار هلاكه أقرب إليه من حبل الوريد.

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٩٥).

﴿١٩٥﴾ يأمر تعالى عباده بالنفقة في سبيله، وهو إخراج الأموال في الطرق الموصلة إلى الله، وهي كل طرق الخير من صدقة على مسكين أو قريب أو إنفاق على من تجب مؤنته، وأعظم ذلك وأول ما دخل في ذلك الإنفاق في الجهاد في سبيل الله، فإن النفقة فيه جهاد بالمال وهو فرض كالجهاد بالبدن، وفيها من المصالح العظيمة الإعانة على تقوية المسلمين و[على] توهية الشرك وأهله وعلى إقامة دين الله وإعزازه، فالجهاد في سبيل الله، لا يقوم إلا على ساق النفقة، فالنفقة له كالروح لا يمكن وجوده بدونها، وفي ترك الإنفاق في سبيل الله إبطال للجهاد وتسليط للأعداء، وشدة تكالبه، فيكون قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾؛ كالتعليل لذلك.

والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى أمرين: ترك ما أمر به العبد إذا كان تركه موجباً أو مقارباً لهلاك البدن أو الروح، وفعل ما هو سبب موصل إلى تلف النفس أو الروح فيدخل تحت ذلك أمور كثيرة، فمن ذلك ترك الجهاد في سبيل الله، أو النفقة فيه الموجب لتسلط الأعداء، ومن ذلك تغيير الإنسان بنفسه في مقاتلة أو سفر مخوف أو محل مسببة أو حيات، أو يصعد شجراً أو بنياناً خطراً، أو يدخل تحت شيء فيه خطر ونحو ذلك، فهذا ونحوه ممن ألقى بيده إلى التهلكة، ومن ذلك^(١) الإقامة على معاصي الله واليأس من التوبة، ومنها ترك ما أمر الله به من الفرائض التي تركها هلاك للروح والدين.

ولما كانت النفقة في سبيل الله نوعاً من أنواع الإحسان أمر بالإحسان عموماً فقال: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان لأنه لم يقيد بشيء دون شيء، فيدخل فيه الإحسان بالمال كما تقدم، ويدخل فيه الإحسان بالجاء بالشفاعات ونحو ذلك، ويدخل في ذلك الإحسان بالأمر بالمعروف

(١) في (أ): «ومن الإلقاء باليد إلى التهلكة».

والنهي عن المنكر وتعليم العلم النافع، ويدخل في ذلك قضاء حوائج الناس من تفريج كرباتهم، وإزالة شداتهم وعيادة مرضاهم وتشجيع جنائزهم وإرشاد ضالهم وإعانة من يعمل عملاً، والعمل لمن لا يحسن العمل، ونحو ذلك مما هو من الإحسان الذي أمر الله به، ويدخل في الإحسان أيضاً الإحسان في عبادة الله تعالى، وهو كما ذكر النبي ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١)، فمن اتصف بهذه الصفات كان من الذين قال الله فيهم: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾؛ وكان الله معه يسدده ويرشده ويعينه على كل أموره.

ولما فرغ تعالى من ذكر أحكام الصيام والجihad ذكر أحكام الحج فقال:

﴿وَأَتُوا الْحَجَّ وَالْعَمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَخْلُقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعَمْرِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾.

﴿١٩٦﴾ يستدل بقوله: ﴿وأتوا الحج والعمرة﴾؛ على أمور: أحدها وجوب الحج والعمرة وفرضيتهما. الثاني وجوب إتمامهما بأركانهما وواجباتهما التي قد دل عليها فعل النبي ﷺ، وقوله: «خذوا عني مناسككم»^(٢). الثالث أن فيه حجة لمن قال بوجوب العمرة. الرابع أن الحج والعمرة يجب إتمامهما بالشروع فيهما ولو كانا نفلاً. الخامس الأمر باتقانتهما وإحسانتهما، وهذا قدر زائد على فعل ما يلزم لهما. السادس فيه الأمر بإخلاصهما لله تعالى. السابع أنه لا يخرج المحرم بهما بشيء من الأشياء حتى يكملهما، إلا بما استثناه الله وهو الحصر، فلهذا قال: ﴿فإن أحصرتم﴾؛ أي: منعتهم من الوصول إلى البيت لتكميلهما بمرض أو ضلالة أو عدو، ونحو ذلك من أنواع الحصر الذي هو المنع ﴿فما استيسر من الهدي﴾؛ أي: فاذبحوا ما استيسر من الهدي وهو سبع بدنة أو سبع بقرة أو شاة يذبحها المحصر، ويحلل، ويحل من إحرامه بسبب الحصر كما فعل النبي ﷺ، وأصحابه لما صدهم المشركون عام الحديبية^(٣)، فإن لم يجد الهدي فليصم بدله عشرة أيام كما في المتمتع ثم يحل.

(١) رواه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه ص (١١٦).

(٣) انظر «صحيح البخاري» (١٨٠٧)، و«صحيح مسلم» (١٢٣٠).

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾؛ وهذا من محظورات الإحرام إزالة الشعر بحلق أو غيره لأن المعنى واحد من الرأس أو من البدن، لأن المقصود من ذلك، حصول الشعث والمنع من الترفه بإزالته وهو موجود في بقية الشعر، وقاس كثير من العلماء على إزالة الشعر تقليم الأظفار بجامع الترفه، ويستمر المنع مما ذكر حتى يبلغ الهدي محله وهو يوم النحر، والأفضل أن يكون الحلق بعد النحر كما تدل عليه الآية.

ويستدل بهذه الآية على أن المتمتع إذا ساق الهدي لم يتحلل من عمرته قبل يوم النحر، فإذا طاف وسعى للعمرة أحرم بالحج، ولم يكن له إحلال بسبب سوق الهدي، وإنما منع تبارك وتعالى من ذلك لما فيه من الذل والخضوع لله والانكسار له والتواضع الذي هو عين مصلحة العبد، وليس عليه في ذلك من ضرر؛ فإذا حصل الضرر بأن كان به أذى من مرض ينتفع بحلق رأسه له أو قروح أو قمل ونحو ذلك، فإنه يحل له أن يحلق رأسه، ولكن يكون عليه فدية من صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين^(١)، أو نسك ما يجزي في أضحية فهو مخير، والنسك أفضل فالصدقة فالصيام، ومثل هذا، كل ما كان في معنى ذلك من تقليم الأظفار أو تغطية الرأس أو لبس المخيط أو الطيب؛ فإنه يجوز عند الضرورة مع وجوب الفدية المذكورة، لأن القصد من الجميع إزالة ما به يترفه.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا أُمْتُم﴾؛ أي: بأن قدرتم على البيت من غير مانع عدو وغيره ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعِمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾؛ بأن توصل بها إليه، وانتفع بتمتعته بعد الفراغ منها ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾؛ أي فعلية ما تيسر من الهدي، وهو ما يجزي في أضحية، وهذا دم نسك مقابلة لحصول النسكين له في سفرة واحدة، ولإنعام الله عليه بحصول الانتفاع بالتمتع بعد فراغ العمرة وقبل الشروع في الحج، ومثلها القرآن لحصول النسكين له، ويدل مفهوم الآية على أن المفرد للحج ليس عليه هدي، ودلت الآية على جواز بل فضيلة المتعة وعلى جواز فعلها في أشهر الحج ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾؛ أي الهدي أو ثمنه ﴿فَصِيَامٌ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾؛ أول جوازها من حين الإحرام بالعمرة، وآخرها ثلاثة أيام بعد النحر، أيام رمي الجمار والمبيت بمنى، ولكن الأفضل منها^(٢) أن يصوم السابع والثامن والتاسع ﴿وَسَبْعَةٌ إِذَا

(١) في (ب): «أو صدقة على ستة مساكين».

(٢) في (ب): «فيها».

رجعتم؟ أي: فرغتم من أعمال الحج، فيجوز فعلها في مكة، وفي الطريق، وعند وصوله إلى أهله. ذلك المذكور من وجوب الهدى على المتمتع ﴿لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾؛ بأن كان عنه مسافة قصر فأكثر أو بعيداً عنه عرفاً، فهذا الذي يجب عليه الهدى لحصول النسيك له في سفر واحد، وأما من كان أهله من حاضري المسجد الحرام، فليس عليه هدى لعدم الموجب لذلك.

﴿واتقوا الله﴾؛ أي: في جميع أموركم بامثال أوامره واجتناب نواهيه، ومن ذلك امتثالكم لهذه المأمورات واجتناب هذه المحظورات المذكورة في هذه الآية ﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾؛ أي: لمن عصاه، وهذا هو الموجب للتقوى، فإن من خاف عقاب الله؛ انكف عما يوجب العقاب، كما أن من رجا ثواب الله؛ عمل لما يوصله إلى الثواب، وأما من لم يخف العقاب، ولم يرج الثواب؛ اقتحم المحارم، وتجراً على ترك الواجبات.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ رَضَ فِيهِكَ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوفَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ حَيْرٍ يَصْلَهُ اللَّهُ وَتَكَرَّدُوا فَإِنَّكَ حَيْرَ الزَّادِ النَّفَوَى وَأَتَّقُونَ يَتَأُولَى الْأَلْبَبِ ۝﴾.

﴿١٩٧﴾ يخبر تعالى أن ﴿الحج﴾ واقع في ﴿أشهر معلومات﴾؛ عند المخاطبين مشهورات بحيث لا تحتاج إلى تخصيص، كما احتاج الصيام إلى تعيين شهره، وكما بين تعالى أوقات الصلوات الخمس، وأما الحج فقد كان من ملة إبراهيم التي لم تزل مستمرة في ذريته معروفة بينهم. والمراد بالأشهر المعلومات عند الجمهور^(١): شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة، فهي التي يقع فيها الإحرام بالحج غالباً ﴿فمن فرض فيهن الحج﴾؛ أي: أحرم به، لأن الشروع فيه يصيره فرضاً، ولو كان نفلاً.

واستدل بهذه الآية الشافعي ومن تابعه على أنه لا يجوز الإحرام بالحج قبل أشهره، قلت: لو قيل [أن] فيها دلالة لقول الجمهور بصحة الإحرام بالحج قبل أشهره لكان قريباً، فإن قوله: ﴿فمن فرض فيهن الحج﴾؛ دليل على أن الفرض قد يقع في الأشهر المذكورة، وقد لا يقع فيها وإلا لم يقيد، وقوله: ﴿فلا رفث ولا

(١) في (ب): «جمهور العلماء».

فسوق ولا جدال في الحج؛ أي: يجب أن تعظموا الإحرام بالحج وخصوصاً الواقع في أشهره، وتصونوه عن كل ما يفسده أو ينقصه من الرفث وهو الجماع، ومقدماته الفعلية والقولية، خصوصاً عند النساء بحضرتهم، والفسوق وهو جميع المعاصي، ومنها محظورات الإحرام، والجدال وهو المماراة والمنازعة والمخاصمة، لكونها تثير الشر وتوقع العداوة، والمقصود من الحج الذل والانكسار لله والتقرب إليه بما أمكن من القربات والتتزه عن مقارفة السيئات، فإنه بذلك يكون مبروراً، والمبرور ليس له جزاء إلا الجنة^(١)، وهذه الأشياء وإن كانت ممنوعة في كل مكان وزمان، فإنه^(٢) يتغلظ المنع عنها في الحج.

واعلم أنه لا يتم التقرب إلى الله بترك المعاصي حتى يفعل الأوامر، ولهذا قال تعالى: ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾؛ أتى بمن لتنصيب العموم فكل خير وقربة وعبادة داخل في ذلك، أي: فإن الله به عليم، وهذا يتضمن غاية الحث على أفعال الخير خصوصاً في تلك البقاع الشريفة والحرمت المنيفة، فإنه ينبغي تدارك ما أمكن تداركه فيها من صلاة وصيام وصدقة وطواف وإحسان قولي وفعلي، ثم أمر تعالى بالتزود لهذا السفر المبارك؛ فإن التزود فيه الاستغناء عن المخلوقين، والكف عن أموالهم سؤالاً واستشرافاً، وفي الإكثار منه نفع، وإعانة للمسافرين، وزيادة قربة لرب العالمين، وهذا الزاد الذي المراد منه إقامة البنية بُلْغَةً ومَتَاع، وأما الزاد الحقيقي المستمر نفعه لصاحبه في دنياه وأخراه فهو زاد التقوى؛ الذي هو زاد إلى دار القرار، وهو الموصل لأكمل لذة وأجل نعيم دائماً أبداً، ومن ترك هذا الزاد فهو المنقطع به، الذي هو عرضة لكل شر وممنوع من الوصول إلى دار المتقين، فهذا مدح للتقوى، ثم أمر بها أولي الألباب فقال: ﴿واتقوني يا أولي الألباب﴾؛ أي: يا أهل العقول الرزينة، اتقوا ربكم، الذي تقواه أعظم ما تأمر به العقول، وتركها دليل على الجهل وفساد الرأي.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٥٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ

(١) كما في «صحيح مسلم» (١٣٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) في (ب): «فإنها» .

عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ
ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ
﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ
النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ﴿٢٠٣﴾

﴿١٩٨﴾ لما أمر تعالى بالتقوى أخبر تعالى أن ابتغاء فضل الله بالتكسب في
مواسم الحج وغيره ليس فيه حرج إذا لم يشغل عما يحب إذا كان المقصود هو
الحج، وكان الكسب حلالاً منسوباً إلى فضل الله؛ لا منسوباً إلى حذق العبد
والوقوف مع السبب ونسيان المسبب، فإن هذا هو الحرج بعينه وفي قوله: ﴿فإذا
أفضت من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام﴾؛ دلالة على أمور:

أحدها: الوقوف بعرفة، وأنه كان معروفاً أنه ركن من أركان الحج، فالإفاضة من
عرفات لا تكون إلا بعد الوقوف.

الثاني: الأمر بذكر الله عند المشعر الحرام وهو المزدلفة، وذلك أيضاً معروف
يكون ليلة النحر بائناً بها، وبعد صلاة الفجر يقف في المزدلفة داعياً حتى يسفر
جداً، ويدخل في ذكر الله عنده إيقاع الفرائض والنوافل فيه.

الثالث: أن الوقوف بمزدلفة متأخر عن الوقوف بعرفة كما تدل عليه الفاء
والترتيب.

الرابع والخامس: أن عرفات ومزدلفة كلاهما من مشاعر الحج المقصود فعلها
وإظهارها.

السادس: أن مزدلفة في الحرم كما قيده بالحرام.

السابع: أن عرفة في الحل كما هو مفهوم التقييد بمزدلفة.

﴿واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين﴾؛ أي اذكروا الله تعالى
كما منّ عليكم بالهداية بعد الضلال، وكما علمكم ما لم تكونوا تعلمون. فهذه من
أكبر النعم التي يجب شكرها ومقابلتها بذكر المنعم بالقلب^(١) واللسان.

﴿١٩٩﴾ ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾؛ أي: ثم أفيضوا من مزدلفة من

(١) في (ب): «في القلب».

حيث أفاض الناس من لدن إبراهيم عليه السلام إلى الآن، والمقصود من هذه الإفاضة كان معروفاً عندهم، وهو رمي الجمار، وذبح الهدايا، والطواف والسعي والمبيت بمنى ليالي التشريق، وتكميل باقي المناسك، ولما كانت هذه الإفاضة يقصد بها ما ذكر والمذكورات آخر المناسك، أمر تعالى عند الفراغ منها باستغفاره والإكثار من ذكره، فلاستغفار للخلل الواقع من العبد في أداء عبادته وتقصيره فيها، وذكر الله شكر الله على إنعامه عليه بالتوفيق لهذه العبادة العظيمة والمنة الجسيمة، وهكذا ينبغي للعبد كلما فرغ من عبادة أن يستغفر الله عن التقصير، ويشكره على التوفيق، لا كمن يرى أنه قد أكمل العبادة، ومنَّ بها على ربه، وجعلت له محلاً ومنزلة رفيعة، فهذا حقيق بالمقت ورد العمل، كما أن الأول حقيق بالقبول والتوفيق لأعمال آخر.

﴿٢٠٠ - ٢٠١ - ٢٠٢﴾ ثم أخبر تعالى عن أحوال الخلق، وأن الجميع يسألونه مطالبهم، ويستدفعونه ما يضرهم، ولكن مقاصدهم تختلف، فمنهم ﴿من يقول ربنا آتنا في الدنيا﴾؛ أي: يسأله من مطالب الدنيا ما هو من شهواته، وليس له في الآخرة من نصيب لرغبته عنها، وقصر همته على الدنيا، ومنهم من يدعو الله لمصلحة الدارين، ويفتقر إليه في مهمات دينه ودنياه، وكل من هؤلاء وهؤلاء لهم نصيب من كسبهم وعملهم، وسيجازيهم تعالى على حسب أعمالهم وهماتهم ونياتهم جزاءً دائراً بين العدل والفضل، يحمد عليه أكمل حمد وأتمه.

وفي هذه الآية دليل على أن الله يجيب دعوة كل داع مسلماً أو كافراً أو فاسقاً، ولكن ليست إجابته دعاء من دعاه دليلاً على محبته له وقربه منه إلا في مطالب الآخرة ومهمات الدين، والحسنة المطلوبة في الدنيا، يدخل فيها كل ما يحسن وقعه عند العبد من رزق هنيئ واسع حلال، وزوجة صالحة، وولد تقر به العين، وراحة، وعلم نافع، وعمل صالح، ونحو ذلك من المطالب المحبوبة والمباحة، وحسنة الآخرة هي السلامة من العقوبات في القبر والموقف والنار، وحصول رضا الله، والفوز بالنعيم المقيم، والقرب من الرب الرحيم، فصار هذا الدعاء أجمع دعاء وأكمل وأولاه بالإيثار، ولهذا كان النبي ﷺ، يكثر من الدعاء به^(١) والحث عليه.

(١) رواه البخاري (٦٣٨٩)، ومسلم (٢٦٩٠) عن أنس رضي الله عنه.

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٠٣).

﴿٢٠٣﴾ يأمر تعالى بذكره في الأيام المحدودات وهي أيام التشريق الثلاثة بعد العيد لمزيتها وشرفها، وكون بقية المناسك^(١) تفعل بها، ولكون الناس أضيافاً لله فيها، ولهذا حرم صيامها، فللذكر فيها مزية ليست لغيرها، ولهذا قال النبي ﷺ: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله»^(٢)، ويدخل في ذكر الله فيها؛ ذكره عند رمي الجمار، وعند الذبح، والذكر المقيد عقب الفرائض، بل قال بعض العلماء إنه يستحب فيها التكبير المطلق كالعشر وليس ببعيد ﴿فمن تعجل في يومين﴾؛ أي: خرج من منى، ونفر منها قبل غروب شمس اليوم الثاني ﴿فلا إثم عليه ومن تأخر﴾؛ بأن بات بها ليلة الثالث، ورمى من الغد ﴿فلا إثم عليه﴾؛ وهذا تخفيف من الله تعالى على عباده في إباحة كلا الأمرين، ولكن من المعلوم أنه إذا أبيح كلا الأمرين، فالتأخر أفضل؛ لأنه أكثر عبادة. ولما كان نفي الحرج قد يفهم منه نفي الحرج في ذلك المذكور وفي غيره، والحاصل أن الحرج منفي عن المتقدم والمتأخر فقط، قيده بقوله: ﴿لمن اتقى﴾؛ أي: اتقى الله في جميع أموره وأحوال الحج، فمن اتقى الله في كل شيء، حصل له نفي الحرج في كل شيء، ومن اتقاه في شيء دون شيء كان الجزاء من جنس العمل ﴿واتقوا الله﴾؛ بامتنال أوامره، واجتناب معاصيه ﴿واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾؛ فمجازيكم بأعمالكم، فمن اتقاه وجد جزاء التقوى عنده، ومن لم يتقه عاقبه أشد العقوبة، فالعلم بالجزاء من أعظم الدواعي لتقوى الله، فلهذا حث تعالى على العلم بذلك.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْيَهُودُ﴾ (٢٠٦).

﴿٢٠٤﴾ لما أمر تعالى بالإكثار من ذكره، وخصوصاً في الأوقات الفاضلة الذي هو خيرٌ ومصلحة وبرٌ أخبر تعالى بحال من يتكلم بلسانه، ويخالف فعله قوله،

(١) في (ب): «أحكام المناسك».

(٢) رواه مسلم (١١٤١) عن نبيشة الهذلي رضي الله عنه.

فالكلام إما أن يرفع الإنسان أو يخفضه فقال: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا﴾؛ أي: إذا تكلم راق كلامه السامع، وإذا نطق ظننته يتكلم بكلام نافع، ويؤكد ما يقول بأنه ﴿يشهد الله على ما في قلبه﴾؛ بأن يخبر أن الله يعلم أن ما في قلبه موافق لما نطق به، وهو كاذب في ذلك لأنه يخالف قوله فعله، فلو كان صادقاً لتوافق القول والفعل كحال المؤمن غير المنافق، ولهذا^(١) قال: ﴿وهو ألد الخصام﴾؛ أي: إذا خاصمته، وجدت فيه من اللدد والصعوبة والتعصب وما يترتب على ذلك ما هو من مقابح الصفات، ليس كأخلاق المؤمنين؛ الذين جعلوا السهولة مركبهم والانقياد للحق وظيفتهم والسماحة سجيّتهم.

﴿٢٠٥﴾ ﴿وإذا تولى﴾؛ هذا الذي يعجبك قوله إذا حضر عندك ﴿سعى في الأرض ليفسد فيها﴾؛ أي: يجتهد على أعمال المعاصي التي هي إفساد في الأرض فيهلك بسبب ذلك ﴿الحرث والنسل﴾؛ فالزروع والثمار والمواشي تتلف، وتنقص، وتقل بركتها بسبب العمل في المعاصي، ﴿والله لا يحب الفساد﴾؛ فإذا^(٢) كان لا يحب الفساد فهو ييغض العبد المفسد في الأرض غاية بغض، وإن قال بلسانه قولاً حسناً.

ففي هذه الآية دليل على أن الأقوال التي تصدر من الأشخاص ليست دليلاً على صدق ولا كذب ولا برٍّ ولا فجور، حتى يوجد العمل المصدق لها، المزكي لها، وأنه ينبغي اختبار أحوال الشهود والمحقق والمبطل من الناس ببرّ أعمالهم، والنظر لقرائن أحوالهم، وأن لا يغتر بتمويههم وتزكيتهم أنفسهم، ثم ذكر أن هذا المفسد في الأرض بمعاصي الله إذا أمر بتقوى الله تكبر وأنف.

﴿٢٠٦﴾ ﴿وأخذته العزة بالإثم﴾؛ فيجمع بين العمل بالمعاصي والتكبر^(٣) على الناصحين ﴿فحسبه جهنم﴾؛ التي هي دار العاصين والمتكبرين ﴿وبئس المهاد﴾؛ أي المستقر والمسكن، عذاب دائم، وهم لا ينقطع، ويأس مستمر، لا يخفف عنهم العذاب ولا يرجون الثواب، جزاء لجنايتهم ومقابلة لأعمالهم، فعياداً بالله من أحوالهم.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْهَاتٍ اللَّهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

(٢) في (ب): «وإذا».

(١) في (ب): «فلها».

(٣) في (ب): «والكبر».

﴿٢٠٧﴾ [هؤلاء هم الموفقون الذين باعوا أنفسهم، وأرخصوها، وبذلوها طلباً لمرضاة الله، ورجاء لثوابه، فهم بذلوا الثمن للملي الوفي، الرءوف بالعباد، الذي من رأفته ورحمته أن وفقهم لذلك، وقد وَعَدَ الوفاء بذلك، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ...﴾ إلى آخر الآية. وفي هذه الآية أخبر أنهم اشتروا أنفسهم وبذلوها، وأخبر برأفته الموجبة لتحصيل ما طلبوا، وبذل ما به رغبوا، فلا تسأل بعد هذا عما يحصل لهم من الكريم، وما ينالهم من الفوز والتكريم].

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾.

﴿٢٠٨﴾ هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين أن يدخلوا ﴿في السلم كافة﴾؛ أي: في جميع شرائع الدين، ولا يتركوا منها شيئاً، وأن لا يكونوا ممن اتخذ إلهه هواً؛ إن وافق الأمر المشروع هواه فعله، وإن خالفه تركه، بل الواجب أن يكون الهوى تبعاً للدين، وأن يفعل كل ما يقدر عليه من أفعال الخير، وما يعجز عنه يلتزمه، وينويه فيدركه بنيته، ولما كان الدخول في السلم كافة لا يمكن ولا يتصور إلا بمخالفة طرق الشيطان قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾؛ أي: في العمل بمعاصي الله، ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾؛ والعدو المبين لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء وما به الضرر عليكم، ولما كان العبد لا بد أن يقع منه خلل وزلل قال تعالى:

﴿٢٠٩﴾ ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾؛ أي: على علم ويقين، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وفيه من الوعيد الشديد والتخويف ما يوجب ترك الزلل، فإن العزيز المقام^(١) الحكيم إذا عصاه العاصي، قهره بقوته، وعذبه بمقتضى حكمته، فإن من حكمته تعذيب العصاة والجناة.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَفُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾.

(١) في (ب): «القاهر».

﴿٢١٠﴾ وهذا فيه من الوعيد الشديد والتهديد ما تنخلع له القلوب، يقول تعالى: هل ينتظر الساعون في الفساد في الأرض، المتبعون لخطوات الشيطان، النابذون لأمر الله إلا يوم الجزاء بالأعمال، الذي قد حُشي من الأهوال والشدائد والفظائع ما يقلقل قلوب الظالمين، ويحق به الجزاء السيئ على المفسدين، وذلك أن الله تعالى يطوي السماوات والأرض، وتنتشر^(١) الكواكب، وتكور الشمس والقمر، وتنزل الملائكة الكرام فتحيط بالخلائق، وينزل الباري تبارك وتعالى ﴿في ظل من الغمام﴾ ليفصل بين عباده بالقضاء العدل، فتوضع الموازين، وتنشر الدواوين، وتبيض وجوه أهل السعادة، وتسود وجوه أهل الشقاوة، ويتميز أهل الخير من أهل الشر، وكل يجازى بعمله، فهناك يعرض الظالم على يديه إذا علم حقيقة ما هو عليه.

وهذه الآية وما أشبهها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة المثبتين للصفات الاختيارية؛ كالاستواء، والنزول، والمجيء، ونحو ذلك من الصفات التي أخبر بها تعالى عن نفسه، أو أخبر بها عنه رسوله ﷺ، فيثبتونها على وجه يليق بجلال الله وعظمته من غير تشبيه ولا تحريف، خلافاً للمعطلة على اختلاف أنواعهم، من الجهمية والمعتزلة والأشعرية ونحوهم، ممن ينفي هذه الصفات، ويتأول لأجلها الآيات بتأويلات ما أنزل الله عليها من سلطان، بل حقيقتها القدر في بيان الله وبيان رسوله، والزعم بأن كلامهم هو الذي تحصل به الهداية في هذا الباب، فهؤلاء ليس معهم دليل نقلي؛ بل ولا دليل عقلي.

أما النقلي فقد اعترفوا أن النصوص الواردة في الكتاب والسنة، ظاهرها بل صريحها دال على مذهب أهل السنة والجماعة، وأنها تحتاج لدلائلها على مذهبهم الباطل أن تخرج عن ظاهرها ويزاد فيها وينقص، وهذا كما ترى لا يرتضيه من في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

وأما العقل فليس في العقل ما يدل على نفي هذه الصفات، بل العقل دل على أن الفاعل أكمل من الذي لا يقدر على الفعل، وأن فعله تعالى المتعلق بنفسه والمتعلق بخلقه هو كمال، فإن زعموا أن إثباتها يدل على التشبيه بخلقه، قيل لهم الكلام على الصفات يتبع الكلام على الذات، فكما أن لله ذاتاً لا تشبهها الذات

(١) في (ب): «وتتشر».

فله صفات لا تشبهها الصفات، فصفاته تبع لذاته وصفات خلقه تبع لذواتهم، فليس في إثباتها ما يقتضي التشبيه بوجه، ويقال أيضاً لمن أثبت بعض الصفات، ونفى بعضاً، أو أثبت الأسماء دون الصفات: إما أن تثبت الجميع كما أثبت الله لنفسه، وأثبت رسوله، وإما أن تنفي الجميع، وتكون منكراً لرب العالمين. وأما إثباتك بعض ذلك ونفيك لبعضه فهذا تناقض، ففرّق بين ما أثبتته وبين ما نفيت، ولن تجد إلى الفرق سبيلاً. فإن قلت ما أثبتته لا يقتضي تشبيهاً، قال لك أهل السنة والإثبات لما نفيت لا يقتضي تشبيهاً، فإن قلت لا أعقل من الذي نفيت إلا التشبيه، قال لك النفاة ونحن لا نعقل من الذي أثبتته إلا التشبيه، فما أجبت به النفاة أجابك به أهل السنة لما نفيت.

والحاصل أن من نفى شيئاً، وأثبت شيئاً مما دل الكتاب والسنة على إثباته فهو متناقض؛ لا يثبت له دليل شرعي ولا عقلي، بل قد خالف المعقول والمنقول.

﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا ءَاتَيْنَهُمْ مِّنْ ءَايَمٍ يَّبَيِّنُ لَّهُمْ سُبُلَ سَبِيلِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝﴾

﴿٢١١﴾ يقول تعالى: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا ءَاتَيْنَهُمْ مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾، تدل على الحق وعلى صدق الرسل فتيقنوها، وعرفوها، فلم يقوموا بشكر هذه النعمة التي تقتضي القيام بها، بل كفروا بها، وبدلوا نعمة الله كفرأ؛ فلهذا استحقوا أن ينزل الله عليهم عقابه، ويحرمهم من ثوابه، وسمى الله تعالى كفر النعمة تبديلاً لها؛ لأن من أنعم الله عليه نعمة^(١) دينية أو دنيوية فلم يشكرها، ولم يقم بواجبها اضمحلت عنه، وذهبت وتبدلت بالكفر والمعاصي، فصار الكفر بدل النعمة، وأما من شكر الله تعالى، وقام بحقها فإنها تثبت، وتستمر، ويزيده الله منها.

﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَسَخَّرْنَا مِّنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝﴾

﴿٢١٢﴾ يخبر تعالى أن الذين كفروا بالله وبآياته ورسله، ولم ينقادوا لشرعه أنهم زينت لهم الحياة الدنيا، فزينت في أعينهم وقلوبهم، فرضوا بها، واطمأنوا بها، فصارت أهواؤهم وإراداتهم وأعمالهم كلها لها، فأقبلوا عليها، وأكبوا على

(١) في (ب): «بنعمة».

تحصيلها، وعظموها، وعظموا من شاركهم في صنيعهم، واحتقروا المؤمنين، واستهزؤوا بهم، وقالوا: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا، وهذا من ضعف عقولهم ونظرهم القاصر، فإن الدنيا دار ابتلاء وامتحان، وسيحصل الشقاء فيها لأهل الإيمان والكفران، بل المؤمن في الدنيا وإن ناله مكروه فإنه يصبر ويحتسب، فيخفف الله عنه بإيمانه وصبره ما لا يكون لغيره، وإنما الشأن كل الشأن والتفضيل الحقيقي في الدار الباقية، فلهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ فيكون المتقون في أعلى الدرجات متمتعين بأنواع النعيم والسرور والبهجة والحبور، والكفار تحتهم في أسفل الدرجات، معذبين بأنواع العذاب والإهانة والشقاء السرمدي الذي لا ينتهي له، ففي هذه الآية تسلية للمؤمنين، ونعي على الكافرين، ولما كانت الأرزاق الدنيوية والأخروية لا تحصل إلا بتقدير الله، ولن تنال إلا بمشيئة الله قال تعالى: ﴿وَالله يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ فالرزق الدنيوي يحصل للمؤمن والكافر، وأما رزق القلوب من العلم والإيمان ومحبة الله وخشيته ورجائه ونحو ذلك فلا يعطيها إلا من يحبه.

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٢١٣﴾.

﴿٢١٣﴾؛ [أي: كانوا مجتمعين على الهدى، وذلك عشرة قرون بعد نوح عليه السلام، فلما اختلفوا في الدين، فكفر فريق منهم، وبقي الفريق الآخر على الهدى، وحصل النزاع، بعث الله الرسل؛ ليفصلوا بين الخلائق، ويقيموا الحجة عليهم، وقيل: بل كانوا]؛ أي: كان الناس مجتمعين على الكفر والضلال والشقاء ليس لهم نور ولا إيمان، فرحمهم الله تعالى بإرسال الرسل إليهم ﴿مبشرين﴾؛ من أطاع الله بثمرات الطاعات من الرزق والقوة في البدن والقلب والحياة الطيبة، وأعلى ذلك الفوز برضوان الله والجنة ﴿ومنذرين﴾؛ من عصى الله بثمرات المعصية من حرمان الرزق والضعف والإهانة والحياة الضيقة، وأشد ذلك سخط الله والنار، وأنزل الكتب عليهم بالحق؛ وهو الإخبارات الصادقة والأوامر العادلة.

فكل ما اشتملت عليه الكتب فهو حق يفصل بين المختلفين في الأصول

والفروع، وهذا هو الواجب عند الاختلاف والتنازع أن يرد الاختلاف إلى الله وإلى رسوله، ولولا أن في كتابه سنة رسوله فصل النزاع لما أمر بالرد إليهما، ولما ذكر نعمته العظيمة بإنزال الكتب على أهل الكتاب، وكان هذا يقتضي اتفاقهم عليها واجتماعهم فأخبر تعالى أنهم بغى بعضهم على بعض، وحصل النزاع والخصام وكثرة الاختلاف، فاختلفوا في الكتاب الذي ينبغي أن يكونوا أولى الناس بالاجتماع عليه وذلك من بعد ما علموه وتيقنوه بالآيات البينات والأدلة القاطعات، وضلوا بذلك ضلالاً بعيداً، وهدى الله ﴿الذين آمنوا﴾؛ من هذه الأمة ﴿لما اختلفوا فيه من الحق﴾؛ فكل ما اختلف فيه أهل الكتاب، وأخطؤوا فيه الحق والصواب، هدى الله للحق فيه هذه الأمة ﴿بإذنه﴾؛ تعالى وتيسيره لهم ورحمته.

﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾؛ فعم الخلق تعالى بالدعوة إلى الصراط المستقيم عدلاً منه تعالى وإقامة حجة على الخلق؛ لئلا يقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، وهدى - بفضلله ورحمته وإعانتة ولطفه - من شاء من عباده، فهذا فضله وإحسانه، وذاك عدله وحكمته تبارك وتعالى.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

﴿٢١٤﴾ يخبر تبارك وتعالى أنه لا بد أن يمتحن عباده بالسراء والضراء والمشقة كما فعل بمن قبلهم، فهي سنته الجارية التي لا تتغير ولا تتبدل، أن من قام بدينه وشرعه لا بد أن يبتليه، فإن صبر على أمر الله، ولم يبال بالمكاره الواقفة في سبيله، فهو الصادق الذي قد نال من السعادة كمالها ومن السيادة آلتها، ومن جعل فتنة الناس كعذاب الله، بأن صدته المكاره عما هو بصده، وثنته المحن عن مقصده، فهو الكاذب في دعوى الإيمان، فإنه ليس الإيمان بالتحلي والتمني ومجرد الدعاوي؛ حتى تصدقه الأعمال أو تكذبه، فقد جرى على الأمم الأقدمين ما ذكر الله عنهم ﴿مستهم البأساء والضراء﴾؛ أي: الفقر والأمراض^(١) في أبدانهم ﴿وزلزلوا﴾؛ بأنواع المخاوف من التهديد بالقتل والنفي، وأخذ الأموال، وقتل الأحبة، وأنواع المضار، حتى وصلت بهم الحال، وآل بهم الزلزال إلى أن استبطؤوا نصر الله مع يقينهم به، ولكن لشدة الأمر وضيقه قال ﴿الرسول والذين

(١) في (ب): ﴿مستهم البأساء﴾؛ الفقر. ﴿والضراء﴾؛ أي: الأمراض.

آمنوا معه متى نصر الله؛ فلما كان الفرج عند الشدة، وكلما ضاق الأمر اتسع قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾؛ فهكذا كل من قام بالحق فإنه يمتحن، فكلما اشتدت عليه وصعبت إذا صابر وثابر على ما هو عليه؛ انقلبت المحنة في حقه منحة، والمشقات راحت، وأعقبه ذلك الانتصار على الأعداء وشفاء ما في قلبه من الداء.

وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ﴾؛ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾؛ فعند الامتحان يكرم المرء أو يهان.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الْإِقْرَبِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَلِيتِمَّ السَّبِيلَ وَأَمَّا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٢١٥).

﴿٢١٥﴾ أي: يسألونك عن النفقة وهذا يعم السؤال عن المنفق والمنفق عليه، فأجابهم عنها^(١) فقال: ﴿قل ما أنفقتم من خير﴾؛ أي: مال قليل أو كثير فأولى الناس به وأحقهم بالتقديم أعظمهم حقاً عليك، وهم الوالدان الواجب برهما والمحرم عقوقهما، ومن أعظم برهما، النفقة عليهما، ومن أعظم العقوق ترك الإنفاق عليهما، ولهذا كانت النفقة عليهما واجبة على الولد الموسر، ومن بعد الوالدين الأقربون على اختلاف طبقاتهم، الأقرب، فالأقرب، على حسب القرب والحاجة، فالإنفاق عليهم صدقة وصلة ﴿واليتامى﴾؛ وهم الصغار الذين لا كاسب لهم فهم في مظنة الحاجة، لعدم قيامهم بمصالح أنفسهم وفقد الكاسب، فوصى الله بهم العباد رحمة منه بهم ولطفاً ﴿والمساكين﴾؛ وهم أهل الحاجات وأرباب الضرورات الذين أسكتتهم الحاجة، فينفق عليهم لدفع حاجاتهم وإغنائهم ﴿وابن السبيل﴾؛ أي: الغريب المنقطع به في غير بلده، فيعان على سفره بالنفقة التي توصله إلى مقصده.

ولما خصص الله تعالى هؤلاء الأصناف لشدة الحاجة، عمم تعالى فقال: ﴿وما تفعلوا من خير﴾؛ من صدقة على هؤلاء وغيرهم بل ومن جميع أنواع الطاعات

(١) في (ب): «عنهما».

والقربات لأنها تدخل في اسم الخير ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾؛ فيجازيكم عليه، ويحفظه لكم كلُّ على حسب نيته وإخلاصه، وكثرة نفقته وقلتها، وشدة الحاجة إليها، وعظم وقعها ونفعها.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢١٦).

﴿٢١٦﴾ هذه الآية فيها فرض القتال في سبيل الله بعد ما كان المؤمنون مأمورين بتركه لضعفهم وعدم احتمالهم لذلك، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، وكثر المسلمون، وقوا؛ أمرهم الله تعالى بالقتال، وأخبر أنه مكروه للنفوس، لما فيه من التعب والمشقة وحصول أنواع المخاوف والتعرض للمتالف، ومع هذا فهو خير محض لما فيه من الثواب العظيم والتحرز من العقاب الأليم والنصر على الأعداء والظفر بالغنائم، وغير ذلك مما هو مُرِبٌّ على ما فيه من الكراهة ﴿وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم﴾؛ وذلك مثل القعود عن الجهاد لطلب الراحة فإنه شر؛ لأنه يعقب الخذلان، وتسلب الأعداء على الإسلام وأهله، وحصول الذل والهوان، وفوات الأجر العظيم، وحصول العقاب.

وهذه الآيات عامة مطردة في أن أفعال الخير التي تكرهها النفوس لما فيها من المشقة أنها خير بلا شك، وأن أفعال الشر التي تحبها النفوس لما تتوهمه فيها من الراحة واللذة فهي شر بلا شك، وأما أحوال الدنيا فليس الأمر مطرداً، ولكن الغالب على العبد المؤمن أنه إذا أحب أمراً من الأمور فقيض الله له من الأسباب ما يصرفه عنه أنه خير له، فالأوفق له في ذلك أن يشكر الله، ويعتقد^(١) الخير في الواقع، لأنه يعلم أن الله تعالى أرحم بالعبد من نفسه، وأقدر على مصلحة عبده منه، وأعلم بمصلحته منه كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ فاللائق بكم أن تمشوا مع أقداره سواء سرتكم أو ساءتكم.

ولما كان الأمر بالقتال لو لم يقيد؛ لشمّل الأشهر الحرم وغيرها، استثنى تعالى القتال في الأشهر الحرم فقال:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ

(١) في (ب): «ويجعل».

بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَإِخْرَاجَ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ .

﴿٢١٧﴾ الجمهور على أن تحريم القتال في الأشهر الحرم منسوخ بالأمر بقتال المشركين حيثما وجدوا. وقال بعض المفسرين: إنه لم ينسخ لأن المطلق محمول على المقيد، وهذه الآية مقيدة لعموم الأمر بالقتال مطلقاً، ولأن من جملة مزية الأشهر الحرم بل أكبر مزاياها تحريم القتال فيها، وهذا إنما هو في قتال الابتدء وأما قتال الدفع فإنه يجوز في الأشهر الحرم كما يجوز في البلد الحرام.

ولما كانت هذه الآية نازلة بسبب ما حصل لسرية عبد الله بن جحش^(١) وقتلهم عمرو بن الحضرمي وأخذهم أموالهم - وكان ذلك على ما قيل في شهر رجب - غيرهم المشركون بالقتال بالأشهر الحرم وكانوا في تعييرهم ظالمين إذ فيهم من القبائح ما بعضه أعظم مما عيروا به المسلمين، قال تعالى في بيان ما فيهم: ﴿وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: صد المشركين من يريد الإيمان بالله وبرسوله وفنتهم من آمن به وسعيهم في ردهم عن دينهم وكفرهم الحاصل في الشهر الحرام والبلد الحرام الذي هو بمجرده كاف في الشر، فكيف وقد كان في شهر حرام وبلد حرام ﴿وَإِخْرَاجَ أَهْلِهِ﴾؛ أي: أهل المسجد الحرام وهم النبي ﷺ، وأصحابه لأنهم أحق به من المشركين وهم عُماره على الحقيقة فأخرجوهم ﴿مِنْهُ﴾؛ ولم يمكنوهم من الوصول إليه مع أن هذا البيت سواء العاكف فيه والباد، فهذه الأمور كل واحد منها ﴿أكبر من القتل﴾؛ في الشهر الحرام فكيف وقد اجتمعت فيهم فعلم أنهم فسقة ظلمة في تعييرهم المؤمنين.

ثم أخبر تعالى أنهم لن يزالوا يقاتلون المؤمنين، وليس غرضهم في أموالهم وقتلهم وإنما غرضهم أن يرجعوهم عن دينهم ويكونوا كفاراً بعد إيمانهم حتى يكونوا من أصحاب السعير، فهم باذلون قدرتهم في ذلك ساعون بما أمكنهم

(١) انظر «سيرة ابن هشام» (٢/٢١٣)، و«تفسير الطبري» (٤/٣٠٢) تحقيق أحمد شاكر، و«دلائل

النبوّة» لليبهي (٣/١٧)، وصححه الحافظ في «الفتح» (١/١٥٥).

ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. وهذا الوصف عامٌ لكل الكفار لا يزالون يقاتلون غيرهم حتى يردوهم عن دينهم، وخصوصاً أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين بذلوا الجمعيات، ونشروا الدعاة، وبثوا الأطباء، وبنوا المدارس لجذب الأمم إلى دينهم، وتدخلهم عليهم كل ما يمكنهم من الشبه التي تشككهم في دينهم، ولكن المرجو من الله تعالى الذي منَّ على المؤمنين بالإسلام، واختار لهم دينه القيم، وأكمل لهم دينه أن يتم عليهم نعمته بالقيام به أتم قيام، وأن يخذل كل من أراد أن يطفئ نوره، ويجعل كيدهم في نحورهم، وينصر دينه، ويعلي كلمته وتكون هذه الآية صادقة على هؤلاء الموجودين من الكفار كما صدقت على من قبلهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾؛ ثم أخبر تعالى أن من ارتد عن الإسلام بأن اختار عليه الكفر واستمر على ذلك حتى مات كافراً ﴿فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾؛ لعدم وجود شرطها وهو الإسلام ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ودلت الآية بمفهومها أن من ارتد ثم عاد إلى الإسلام أنه يرجع إليه عمله [الذي قبل رده]، وكذلك من تاب من المعاصي فإنها تعود إليه أعماله المتقدمة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿٢١٨﴾ هذه الأعمال الثلاثة هي عنوان السعادة وقطب رَحَى العبودية، وبها يعرف ما مع الإنسان من الربح والخسران، فأما الإيمان فلا تسأل عن فضيلته وكيف تسأل عن شيء هو الفاصل بين أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأهل الجنة من أهل النار، وهو الذي إذا كان مع العبد قبلت أعمال الخير منه، وإذا عدم منه لم يقبل له صرف ولا عدل ولا فرض ولا نفل، وأما الهجرة فهي مفارقة المحبوب المألوف لرضا الله تعالى فيترك المهاجر وطنه وأمواله وأهله وخلاته تقرباً إلى الله ونصرة لدينه، وأما الجهاد فهو بذل الجهد في مقارعة الأعداء، والسعي التام في نصرة دين الله وقمع دين الشيطان، وهو ذروة الأعمال الصالحة وجزاؤه أفضل الجزاء، وهو السبب الأكبر لتوسيع دائرة الإسلام، وخذلان عباد الأصنام وأمن المسلمين على أنفسهم وأموالهم وأولادهم، فمن قام بهذه الأعمال الثلاثة على لأوائها ومشقتها، كان لغيرها أشد قياماً به وتكميلاً، فحقيق بهؤلاء أن يكونوا هم الراجون

رحمة الله لأنهم أتوا بالسبب الموجب للرحمة، وفي هذا دليل على أن الرجاء لا يكون إلا بعد القيام بأسباب السعادة، وأما الرجاء المقارن للكسل وعدم القيام بالأسباب فهذا عجز وتمنٍّ وغرور، وهو دالٌّ على ضعف همة صاحبه، ونقص عقله، بمنزلة من يرجو وجود الولد بلا نكاح، ووجود الغلة بلا بذر وسقي ونحو ذلك.

وفي قوله: ﴿أولئك يرجون رحمة الله﴾؛ إشارة إلى أن العبد ولو أتى من الأعمال بما أتى به لا ينبغي له أن يعتمد عليها ويعول عليها، بل يرجو رحمة ربه ويرجو قبول أعماله ومغفرة ذنوبه وستر عيوبه، ولهذا قال: ﴿والله غفور﴾؛ أي: لمن تاب توبة نصوحاً، ﴿رحيم﴾؛ وسعت رحمته كل شيء وعمَّ جوده وإحسانه كل حيٍّ، وفي هذا دليل على أن من قام بهذه الأعمال المذكورة حصل له مغفرة الله، إذ الحسنات يذهبن السيئات، وحصلت له رحمة الله، وإذا حصلت له المغفرة اندفعت عنه عقوبات الدنيا والآخرة التي هي آثار الذنوب التي قد غفرت، واضمحلت آثارها، وإذا حصلت له الرحمة حصل على كل خير في الدنيا والآخرة، بل أعمالهم المذكورة من رحمة الله بهم، فلولا توفيقه إياهم لم يريدوها، ولولا إقذارهم عليها، لم يقدروا عليها ولولا إحسانه لم يتمها ويقبلها منهم، فله الفضل أولاً وآخرأ وهو الذي مَنَّ بالسبب والمسبب، ثم قال تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمْمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾.

﴿٢١٩﴾ أي: يسألك يا أيها الرسول، المؤمنون عن أحكام الخمر والميسر، وقد كانا مستعملين في الجاهلية وأول الإسلام، فكأنه وقع فيهما إشكال، فلهذا سألوا عن حكمهما، فأمر الله تعالى نبيه أن يبين لهم منافعهما ومضارهما ليكون ذلك مقدمة لتحريمهما وتحريم تركهما، فأخبر أن إثمهما ومضارهما وما يصدر عنهما من ذهاب العقل والمال والصد عن ذكر الله وعن الصلاة والعداوة والبغضاء أكبر مما يظنونه من نفعهما من كسب المال بالتجارة بالخمر وتحصيله بالقمار والطرب للنفوس عند تعاطيهما، وكان هذا البيان زاجراً للنفوس عنهما لأن العاقل يرجح ما ترجحت مصلحته، ويجتنب ما ترجحت مضرته، ولكن لما كانوا قد ألفوهما، وصعب التحريم بتركهما أول وهلة؛ قدم هذه الآية مقدمة للتحريم الذي ذكره في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس

من عمل الشيطان ﴿إلى قوله: ﴿متهون﴾، وهذا من لطفه ورحمته وحكمته، ولهذا لما نزلت قال عمر رضي الله عنه: انتهينا انتهينا^(١).

فأما الخمر فهو كل مسكر خامر العقل وغطاه من أي نوع كان، وأما الميسر فهو كل المغالبات التي يكون فيها عوض من الطرفين من النرد والشطرنج وكل مغالبة قولية أو فعلية بعوض، سوى مسابقة الخيل والإبل والسهام؛ فإنها مباحة لكونها معينة على الجهاد؛ [فلهذا] رخص فيها الشارع.

﴿وَسَأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

وهذا سؤال عن مقدار ما ينفقونه من أموالهم، فيسر الله لهم الأمر وأمرهم أن ينفقوا الغفو، وهو المتيسر من أموالهم الذي لا تتعلق به حاجتهم وضرورتهم، وهذا يرجع إلى كل أحد بحسبه من غني وفقير ومتوسط، كل له قدرة على إنفاق ما عفا من ماله ولو شق تمره، ولهذا أمر الله رسوله ﷺ، أن يأخذ الغفو من أخلاق الناس وصدقاتهم، ولا يكلفهم ما يشق عليهم؛ ذلك بأن الله تعالى لم يأمرنا بما أمرنا به حاجة منه لنا أو تكليفاً لنا بما يشق، بل أمرنا بما فيه سعادتنا وما يسهل علينا وما به النفع لنا وإخواننا فيستحق على ذلك أتم الحمد.

ولما بين تعالى هذا البيان الشافي وأطلع العباد على أسرار شرعه قال: ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾؛ أي: الدالات على الحق المحصلات للعلم النافع والفرقان، ﴿لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة﴾؛ أي: لكي تستعملوا أفكاركم في أسرار شرعه، وتعرفوا أن أوامره فيها مصالح الدنيا والآخرة، وأيضاً لكي تتفكروا في الدنيا وسرعة انقضائها فترفضوها، وفي الآخرة وبقائها، وأنها دار الجزاء فتعمروها.

﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلِ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَاطَبُوا عَنْهُ فَأَخْبِرُوهُمْ وَأَلَّهِ يَعْلَمُ الْفَسَادَ مِنَ الْمَصْلُوحِ وَلَوْ سَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾.

﴿٢٢٠﴾ لما نزل قوله تعالى: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون

(١) رواه الإمام أحمد (٥٣/١)، وأبو داود (٣٦٧٠)، والترمذي (٣٠٤٩)، والنسائي (٢٨٦/٨)، وصححه ابن المديني والترمذي، كما ذكر ذلك ابن كثير في «تفسيره» (٨٧/٢).

في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً؛ شق ذلك على المسلمين وعزلوا طعامهم عن طعام اليتامى خوفاً على أنفسهم من تناولها ولو في هذه الحالة التي جرت العادة بالمشاركة فيها، وسألوا النبي ﷺ، عن ذلك^(١)، فأخبرهم تعالى أن المقصود إصلاح أموال اليتامى بحفظها وصيانتها والاتجار فيها، وأن خلطتهم إياهم في طعام وغيره جائز على وجه لا يضر باليتامى لأنهم إخوانكم ومن شأن الأخ مخالطة أخيه، والمرجع في ذلك إلى النية والعمل، فمن علم [الله] من نيته أنه مصلح لليتيم وليس له طمع في ماله فلو دخل عليه شيء من غير قصد لم يكن عليه بأس، ومن علم الله من نيته أن قصده بالمخالطة التوصل إلى أكلها [وتناولها] فذلك الذي حُرِّجَ وأنَّم، والوسائل لها أحكام المقاصد.

وفي هذه الآية دليل على جواز أنواع المخالطات في المأكَل والمشارب والعقود وغيرها، وهذه الرخصة لطف من الله تعالى وإحسان وتوسعة على المؤمنين وإلا، فلو ﴿شاء الله لأعتكم﴾؛ أي: شق عليكم بعدم الرخصة بذلك فحُرِّجْتُمْ وشُقَّ عليكم وأنتم ﴿إن الله عزيز﴾؛ أي: له القوة الكاملة والقهر لكل شيء ولكنه مع ذلك ﴿حكيم﴾؛ لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته الكاملة وعنايته التامة فعزته لا تنافي حكمته فلا يقال إنه ما شاء فعل وافق الحكمة أو خالفها، بل يقال إن أفعاله وكذلك أحكامه تابعة لحكمته فلا يخلق شيئاً عبثاً بل لا بد له من حكمة عرفناها أم لم نعرفها، وكذلك لم يشرع لعباده شيئاً مجرداً عن الحكمة، فلا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة لتمام حكمته ورحمته.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾.

﴿٢٢١﴾ أي: ﴿ولا تنكحوا﴾؛ النساء، ﴿المشركات﴾؛ ما دمن على شركهن ﴿حتى يؤمن﴾؛ لأن المؤمنة ولو بلغت من الدمامة ما بلغت خير من المشركة ولو بلغت من الحسن ما بلغت، وهذه عامة في جميع النساء المشركات، وخصصتها آية

(١) كما في المسند للإمام أحمد (١/٣٢٥)، و«سنن أبي داود» (٢٨٧١)، و«سنن النسائي» (٦/

٢٥٦) و«المستدرک» للحاكم (٢/٢٧٨)، ووافقه الذهبي.

المائدة في إباحة نساء أهل الكتاب كما قال تعالى: ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب﴾؛ ﴿ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا﴾؛ وهذا عام لا تخصيص فيه، ثم ذكر تعالى الحكمة في تحريم نكاح المسلم أو المسلمة لمن خالفهما في الدين فقال: ﴿أولئك يدعون إلى النار﴾؛ أي: في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فمخالطتهم على خطر منهم، والخطر ليس من الأخطار الدنيوية إنما هو الشقاء الأبدي.

ويستفاد من تعليل الآية النهي عن مخالطة كل مشرك ومبتدع؛ لأنه إذا لم يجز التزوج مع^(١) أن فيه مصالح كثيرة؛ فالخلطة المجردة من باب أولى وخصوصاً الخلطة التي فيها ارتفاع المشرك ونحوه على المسلم كالخدمة ونحوها.

وفي قوله: ﴿ولا تنكحوا المشركين﴾؛ دليل على اعتبار الولي في النكاح ﴿والله يدعو إلى الجنة والمغفرة﴾؛ أي: يدعو عباده لتحصيل الجنة والمغفرة التي من آثارها دفع العقوبات؛ وذلك بالدعوة إلى أسبابها من الأعمال الصالحة والتوبة النصوح والعلم النافع والعمل الصالح، ﴿ويبين آياته﴾؛ أي: أحكامه وحكمها ﴿للناس لعلهم يتذكرون﴾؛ فيوجب لهم ذلك التذكر لما نسوه وعلم ما جهلوه والامثال لما ضيعوه. ثم قال تعالى:

﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾
 حَرِّ لَكُمْ فَأَتُوا حَرَكَكُمْ أَنِّي شَيْئٌ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾.

﴿٢٢٢﴾ يخبر تعالى عن سؤالهم عن المحيض وهل تكون المرأة بحالها بعد الحيض كما كانت قبل ذلك أم تجنب مطلقاً كما يفعله اليهود؟ فأخبر تعالى أن الحيض أذى وإذا كان أذى فمن الحكمة أن يمنع الله تعالى عباده عن الأذى وحده، ولهذا قال: ﴿فاعتزلوا النساء في المحيض﴾؛ أي: مكان الحيض وهو الوطء في الفرج خاصة فهذا المحرم إجماعاً، وتخصيص الاعتزال في المحيض يدل على أن مباشرة الحائض وملاستها في غير الوطء في الفرج جائز، لكن قوله: ﴿ولا

(١) في (ب): «لمع».

تقربوهن حتى يطهرن﴿١﴾؛ يدل على ترك المباشرة^(١) فيما قرب من الفرج وذلك فيما بين السرة والركبة ينبغي تركه كما كان النبي ﷺ، إذا أراد أن يباشر امرأته وهي حائض أمرها أن تنزر^(٢) فيباشرها^(٣)، وحد هذا الاعتزال وعدم قربان للحيض حتى يطهرن﴿٤﴾؛ أي: ينقطع دمهن، فإذا انقطع الدم زال المنع الموجود وقت جريانه، الذي كان لحله شرطان: انقطاع الدم والاعتزال منه، فلما انقطع الدم زال الشرط الأول وبقي الثاني فلهذا قال: ﴿فإذا تطهرن﴾؛ أي: اغتسلن، ﴿فأتوهن من حيث أمركم الله﴾؛ أي: في القبل لا في الدبر لأنه محل الحرث، وفيه دليل على وجوب الغتسال للحائض وإن انقطاع الدم شرط لصحته، ولما كان هذا المنع لطفاً منه تعالى بعباده وصيانة عن الأذى، قال تعالى: ﴿إن الله يحب التوابين﴾؛ أي: من ذنوبهم على الدوام، ﴿ويحب المتطهرين﴾؛ أي: المتنزهين عن الآثام، وهذا يشمل التطهر الحسي من الأنجاس والأحداث، ففيه مشروعية الطهارة مطلقاً؛ لأن الله تعالى يحب المتصف بها، ولهذا كانت الطهارة مطلقاً شرطاً لصحة الصلاة والطواف وجواز مس المصحف، ويشمل التطهر المعنوي عن الأخلاق الرذيلة والصفات القبيحة والأفعال الخسيسة.

﴿٢٢٣﴾ ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾؛ مقبلة ومدبرة غير أنه لا يكون إلا في القبل لكونه موضع الحرث وهو الموضع الذي يكون منه الولد، وفيه دليل على تحريم الوطء في الدبر؛ لأن الله لم يبح إتيان المرأة إلا في الموضع الذي منه الحرث. وقد تكاثرت الأحاديث عن النبي ﷺ، في تحريم ذلك ولعن فاعله^(٤). ﴿وقدموا لأنفسكم﴾؛ أي: من التقرب إلى الله بفعل الخيرات، ومن ذلك أن يباشر الرجل امرأته ويجامعها على وجه القربة والاحتساب وعلى رجاء تحصيل الذرية الذين ينفع الله بهم. ﴿واتقوا الله﴾؛ أي: في جميع أحوالكم كونوا ملازمين لتقوى الله مستعينين على ذلك^(٥) بعلمكم، ﴿أنكم ملاقوه﴾؛ ومجازيكم على أعمالكم الصالحة وغيرها، [ثم قال]: ﴿وبشر المؤمنين﴾؛ لم يذكر المبشر به

(١) في (ب): «على أن المباشرة». (٢) في (ب): «تأنزر».

(٣) رواه البخاري (٣٠٢)، ومسلم (٢٩٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) كما في «مسند الإمام أحمد» (٤٤٤/٢)، و«سنن أبي داود» (٢١٦٢)، وكتاب «عشرة النساء» (١٢٩) للنسائي. وانظر «تفسير ابن كثير» لهذه الآية.

(٥) في (ب): «بذلك».

ليدل على العموم وأن لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وكل خير واندفاع كل ضير رُتّب على الإيمان فهو داخل في هذه البشارة، وفيها محبة الله للمؤمنين ومحبة ما يسرهم واستحباب تنشيطهم وتشويقهم بما أعد الله لهم من الجزاء الدنيوي والأخروي.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٢٤).

﴿٢٢٤﴾ المقصود من اليمين والقسم تعظيم المُقسّم به وتأکید المُقسّم عليه. وكان الله تعالى قد أمر بحفظ الإيمان وكان مقتضى ذلك حفظها في كل شيء، ولكن الله تعالى استثنى من ذلك إذا كان البر باليمين يتضمن ترك ما هو أحب إليه فنهى عباده أن يجعلوا أيمانهم عرضة أي مانعة وحائلة عن أن يبروا أي يفعلوا خيراً ويتقوا شراً ويصلحوا^(١) بين الناس، فمن حلف على ترك واجب وجب حثه وحرم إقامته على يمينه، ومن حلف على ترك مستحب استحب له الحث، ومن حلف على فعل محرّم وجب الحث، أو على فعل مكروه استحب الحث. وأما المباح فينبغي فيه حفظ اليمين عن الحث.

ويستدل بهذه الآية على القاعدة المشهورة أنه إذا تزااحت المصالح قدم أهمها، فهنا تتميم اليمين مصلحة، وامتنال أوامر الله في هذه الأشياء مصلحة أكبر من ذلك، فقدمت لذلك. ثم ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين فقال: ﴿والله سميع﴾؛ أي: لجميع الأصوات، ﴿عليم﴾؛ بالمقاصد والنيات، ومنه سماعه لأقوال الحالفين وعلمه بمقاصدهم هل هي خير أم شر، وفي ضمن ذلك التحذير من مجازاته، وأن أعمالكم ونياتكم قد استقر علمها عنده. ثم قال تعالى:

﴿لَا يَأْخُذُكُمُ اللَّهُ بِالْفَاحِشِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ وَلَكِنْ يَأْخُذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (٢٢٥).

﴿٢٢٥﴾ أي: لا يأخذكم بما يجري على ألسنتكم من الأيمان اللاغية التي يتكلم بها العبد، من غير قصد منه، ولا كسب قلب، ولكنها جرت على لسانه، كقول الرجل في عرض كلامه: لا والله وبلى والله، وكحلفه على أمر ماض يظن صدق نفسه، وإنما المؤاخذه على ما قصده القلب، وفي هذا دليل على اعتبار

(١) في (ب): «عن أن يبروا، أن يفعلوا خيراً أو يتقوا شراً أو يصلحوا بين الناس».

المقاصد في الأقوال كما هي معتبرة في الأفعال، والله غفور لمن تاب إليه، حلیم بمن عصاه حيث لم يعاجله بالعقوبة، بل حلم عنه، وستر، وصفح مع قدرته عليه وكونه بين يديه.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَابِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾.

﴿٢٢٦﴾ وهذا من الأيمان الخاصة بالزوجة في أمر خاص وهو حلف الرجل على ترك وطء زوجته مطلقاً أو مقيداً بأقل من أربعة أشهر أو أكثر، فمن آلى من زوجته خاصة فإن كان لدون أربعة أشهر فهذا مثل سائر الأيمان إن حنث كفر وإن أتم يمينه فلا شيء عليه، وليس لزوجه عليه سبيل لأنه ملكه أربعة أشهر، وإن كان أبداً أو مدة تزيد على أربعة أشهر ضربت له مدة أربعة أشهر من يمينه إذا طلبت زوجته ذلك لأنه حق لها، فإذا تمت أمر بالفئة وهو الوطاء، فإن وطئ فلا شيء عليه إلا كفارة اليمين، وإن امتنع أجبر على الطلاق، فإن امتنع طلق عليه الحاكم ولكن الفئة والرجوع إلى زوجته أحب إلى الله تعالى، ولهذا قال: ﴿فَإِنْ فاءُوا﴾؛ أي: رجعوا إلى ما حلفوا على تركه وهو الوطاء، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾؛ يغفر لهم ما حصل منهم من الحلف بسبب رجوعهم ﴿رَحِيمٌ﴾؛ حيث جعل لأيمانهم كفارة وتحلة ولم يجعلها لازمة لهم غير قابلة للانفكاك، ورحيم بهم أيضاً حيث فاءوا إلى زوجاتهم وجنوا عليهن ورحموهن.

﴿٢٢٧﴾ ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾؛ أي امتنعوا من الفئة فكان ذلك دليلاً على رغبتهم عنهن وعدم إرادتهم لأزواجهن، وهذا لا يكون إلا عزمًا على الطلاق فإن حصل هذا الحق الواجب منه مباشرة وإلا أجبره الحاكم عليه أو قام به ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛ فيه وعيد وتهديد لمن يحلف هذا الحلف ويقصد بذلك المضارة والمشاقة.

ويستدل بهذه الآية على أن الإيلاء خاص بالزوجة لقوله من نسائهم، وعلى وجوب الوطاء في كل أربعة أشهر مرة؛ لأنه بعد الأربعة يجبر إما على الوطاء أو على الطلاق، ولا يكون ذلك إلا لتركه واجباً.

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرَیْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَنُفُوهُنَّ أَحَقُّ بِرِوَيْهِ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي

عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

﴿٢٢٨﴾ أي: النساء [اللاتي]^(١) طلقهن أزواجهن ﴿يتربصن بأنفسهن﴾؛ أي: ينتظرن ويعتددن مدة ﴿ثلاثة قروء﴾؛ أي: حيض أو أطهار على اختلاف العلماء في المراد بذلك مع أن الصحيح أن القراء الحيض، ولهذه العدة عدة حكم منها العلم ببراءة الرحم إذا تكررت عليها ثلاثة الأقراء علم أنه ليس في رحمها حمل فلا يفضي إلى اختلاط الأنساب، ولهذا أوجب تعالى عليهن الإخبار عن، ﴿ما خلق الله في أرحامهن﴾؛ وحرم عليهن كتمان ذلك من حمل أو حيض، لأن كتمان ذلك يفضي إلى مفسد كثيرة فكتمان الحمل موجب^(٢) أن تلحقه بغير من هو له رغبة فيه أو^(٣) استعجالاً لانقضاء العدة فإذا ألحقته بغير أبيه حصل من قطع الرحم والإرث واحتجاب محارمه وأقاربه عنه، وربما تزوج ذوات محارمه وحصل في مقابلة ذلك إلحاقه بغير أبيه وثبوت توابع ذلك من الإرث منه وله، ومن جعل أقارب الملحق به أقارب له وفي ذلك من الشر والفساد ما لا يعلمه إلا رب العباد، ولو لم يكن في ذلك إلا إقامتها مع من نكاحها باطل في حقه، وفيه الإصرار على الكبيرة العظيمة وهي الزنا لكفى بذلك شراً.

وأما كتمان الحيض فإن^(٤) استعجلت فأخبرت به وهي كاذبة ففيه من انقطاع حق الزوج عنها وإباحتها لغيره وما يتفرع عن ذلك من الشر كما ذكرنا، وإن كذبت وأخبرت بعدم وجود الحيض لتطول العدة فتأخذ منه نفقة غير واجبة عليه بل هي سحت عليها محرمة من جهتين: من كونها لا تستحقه، ومن كونها نسبته إلى حكم الشرع وهي كاذبة، وربما راجعها بعد انقضاء العدة فيكون ذلك سفاحاً لكونها أجنبية منه، فلماذا قال تعالى: ﴿ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر﴾.

فصدور الكتمان منهن دليل على عدم إيمانهن بالله واليوم الآخر وإلا فلو آمنن بالله واليوم الآخر وعرفن أنهن مجزيات عن أعمالهن لم يصدر منهن شيء من ذلك، وفي ذلك دليل على قبول خبر المرأة عما تخبر بها عن نفسها من الأمر الذي لا يطلع عليه غيرها كالحمل والحيض ونحوهما^(٥).

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «التي».

(٢) في (ب): «يوجب».

(٣) في (ب): «واستعجالاً».

(٤) في (ب): «بأن».

(٥) في (ب): «ونحوه».

ثم قال تعالى: ﴿ويعولتهن أحق بردهن في ذلك﴾؛ أي: لأزواجهن ما دامت متربصة في تلك العدة أن يردوهن إلى نكاحهن ﴿إن أرادوا إصلاحاً﴾؛ أي: رغبة وألفة ومودة، ومفهوم الآية أنهم إن لم يريدوا الإصلاح فليسوا بأحق بردهن فلا يحل لهم أن يراجعوهن لقصد المضارة لها وتطويل العدة عليها، وهل يملك ذلك مع هذا القصد؟ فيه قولان:

الجمهور على أنه يملك ذلك مع التحريم، والصحيح أنه إذا لم يرد الإصلاح لا يملك ذلك كما هو ظاهر الآية الكريمة، وهذه حكمة أخرى في هذا التربص، وهي أنه ربما أن زوجها ندم على فراقه لها فجعلت له هذه المدة ليتروى بها ويقطع نظره، وهذا يدل على محبته تعالى للألفة بين الزوجين وكرامته للفراق كما قال النبي ﷺ: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»^(١)، وهذا خاص في الطلاق الرجعي، وأما الطلاق البائن فليس البعل بأحق برجعته، بل إن تراضيا على التراجع فلا بد من عقد جديد مجتمع الشروط.

ثم قال تعالى: ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾؛ أي: وللنساء على بعولتهن من الحقوق واللوازم مثل الذي عليهن لأزواجهن من الحقوق اللازمة والمستحبة، ومرجع الحقوق بين الزوجين إلى المعروف وهو العادة الجارية في ذلك البلد وذلك الزمان من مثلها لمثله، ويختلف ذلك باختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال والأشخاص والعوائد، وفي هذا دليل على أن النفقة والكسوة والمعاشرة والمسكن وكذلك الوطء الكل يرجع إلى المعروف، فهذا موجب العقد المطلق، وأما مع الشرط فعلى شرطهما، إلا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً.

﴿ولللرجال عليهن درجة﴾؛ أي: رفعة ورياسة وزيادة حق عليها كما قال تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾؛ ومنصب النبوة والقضاء والإمامة الصغرى والكبرى وسائر الولايات [مختص] بالرجال، وله ضعف ما لها في كثير من الأمور كالميراث ونحوه ﴿والله

(١) أخرجه أبو داود (٢١٧٨)، وابن ماجه (٢٠١٨)، والحاكم (١٩٦/٢) من حديث محارب بن دثار عن ابن عمر قال الحافظ في «التلخيص» (٢٣٢/٣): «ورواه أبو داود والبيهقي مرسلًا ليس فيه ابن عمر. ورجح أبو حاتم والدارقطني في العلل والبيهقي المرسل». وقد صحح إسناده المرسل الألباني في «الإرواء» (١٠٦/٧).

عزيز حكيم؛ أي: له العزة القاهرة والسلطان العظيم الذي دانت له جميع الأشياء، ولكنه مع عزته حكيم في تصرفه.

ويخرج من عموم هذه الآية الحوامل فعدتهن وضع الحمل، واللاتي لم يدخل بهن فليس لهن عدة، والإماء فعدتهن حيضتان كما هو قول الصحابة رضي الله عنهم، وسياق الآية^(١) يدل على أن المراد بها الحرة.

﴿الطَّلَقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾.

﴿٢٢٩﴾ كان الطلاق في الجاهلية واستمر أول الإسلام يطلق الرجل زوجته بلا نهاية، فكان إذا أراد مضاربتها طلقها فإذا شارفت انقضاء عدتها راجعها ثم طلقها وصنع بها مثل ذلك أبداً، فيحصل عليها من الضرر ما الله به عليم. فأخبر تعالى أن ﴿الطلاق﴾؛ أي: الذي تحصل به الرجعة، ﴿مرتان﴾؛ ليمكن الزوج إن لم يرد المضارة من ارتجاعها ويراجع رأيه في هذه المدة، وأما ما فوقها فليس محلاً لذلك؛ لأن من زاد على الشنتين فإما متجرىء على المحرم أو ليس له رغبة في إمساكها بل قصده المضارة، فلهذا أمر تعالى الزوج أن يمسك زوجته ﴿بمعروف﴾؛ أي: عشرة حسنة ويجري مجرى أمثاله مع زوجاتهم، وهذا هو الأرجح، وإلا يسهل ويفارقها، ﴿بإحسان﴾؛ ومن الإحسان أن لا يأخذ على فراقها لها شيئاً من مالها لأنه ظلم وأخذ للمال في غير مقابلة بشيء، فلهذا قال: ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله﴾؛ وهي المخالعة بالمعروف بأن كرهت الزوجة زوجها لخلقه أو خلقه أو نقص دينه، وخافت أن لا تطيع الله فيه ﴿فإن خفتما ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾؛ لأنه عوض لتحصيل مقصودها من الفرقة، وفي هذا مشروعية الخلع إذا وجدت هذه الحكمة ﴿تلك﴾؛ أي: ما تقدم من الأحكام الشرعية، ﴿حدود الله﴾؛ أي: أحكامه التي شرعها لكم وأمر بالوقوف معها ﴿ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾، وأي ظلم أعظم ممن اقتحم الحلال وتعدى منه إلى الحرام فلم يسعه ما أحل الله؟ والظلم ثلاثة أقسام:

(١) في (ب): «الآيات».

ظلم العبد فيما بينه وبين الله، وظلم العبد الأكبر الذي هو الشرك، وظلم العبد فيما بينه وبين الخلق.

فالشرك لا يغفره الله إلا بالتوبة، وحقوق العباد لا يترك الله منها شيئاً، والظلم الذي بين العبد وربّه فيما دون الشرك تحت المشيئة والحكمة.

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا تَبَيَّنَ أَجَلُهُنَّ فَأَنْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِعَعْدَتِكُمْ وَمَنْ يُفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾.

﴿٢٣٠﴾ يقول تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾؛ أي: الطلقة الثالثة ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾؛ أي: نكاحاً صحيحاً ويطأها، لأن النكاح الشرعي لا يكون إلا صحيحاً ويدخل فيه العقد والوطء وهذا بالاتفاق، ويتعين^(١) أن يكون نكاح الثاني نكاح رغبة، فإن قصد به تحليلها للأول فليس بنكاح ولا يفيد التحليل، ولا يفيد وطء السيد لأنه ليس بزواج، فإذا تزوجها الثاني راغباً، ووطأها، ثم فارقتها وانقضت عدتها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾؛ أي: على الزوج الأول والزوجة ﴿أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾؛ أي: يجددا عقداً جديداً بينهما لإضافته التراجع إليهما، فدل على اعتبار التراضي، ولكن يشترط في التراجع أن يظنا ﴿أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾؛ بأن يقوم كل منهما بحق صاحبه، وذلك إذا ندما على عسرتهم السابقة الموجبة للفراق، وعزما أن يبداها بعشرة حسنة، فهنا لا جناح عليهما في التراجع.

ومفهوم الآية الكريمة أنهما إن لم يظنا أن يقيما حدود الله بأن غلب على ظنهما أن الحال السابقة باقية والعشرة السيئة غير زائلة أن عليهما في ذلك جناحاً، لأن جميع الأمور إن لم يقر فيها أمر الله ويسلك بها طاعته لم يحل الإقدام عليها، وفي هذا دلالة على أنه ينبغي للإنسان إذا أراد أن يدخل في أمر من الأمور، خصوصاً الولايات الصغار والكبار، أن ينظر^(٢) في نفسه، فإن رأى من نفسه قوة على ذلك ووثق بها أقدم وإلا أحجم.

(١) في (ب): «ويشترط».

(٢) في (ب): «نظر».

ولما بيّن تعالى هذه الأحكام العظيمة قال: ﴿وتلك حدود الله﴾؛ أي: شرائعه التي حددها وبينها ووضحها، ﴿يبينها لقوم يعلمون﴾؛ لأنهم هم المنتفعون بها النافعون لغيرهم، وفي هذا من فضيلة أهل العلم ما لا يخفى، لأن الله تعالى جعل تبيينه لحدوده خاصاً بهم وأنهم المقصودون بذلك، وفيه أن الله تعالى يحب من عباده معرفة حدود ما أنزل على رسوله والتفقه بها.

﴿٢٣١﴾ ثم قال تعالى: ﴿وإذا طلقتم النساء﴾؛ أي: طلاقاً رجعيّاً بواحدة أو اثنتين ﴿فبلغن أجلهن﴾؛ أي: قاربن انقضاء عدتهن ﴿فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف﴾؛ أي: إما أن تراجعوهن ونيتكم القيام بحقوقهن، أو تتركوهن بلا رجعة ولا إضرار، ولهذا قال: ﴿ولا تمسكوهن ضراً﴾؛ أي: مضارة بهن ﴿لتعتدوا﴾ في فعلكم هذا الحلال إلى الحرام، فالحلال الإمساك بالمعروف^(١) والحرام المضارة، ﴿ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾، ولو كان الحق يعود للمخلوق فالضرر عائد إلى من أراد الضرر، ﴿ولا تتخذوا آيات الله هزواً﴾، لما بين تعالى حدوده غاية التبيين وكان المقصود العلم بها والعمل والوقوف معها وعدم مجاوزتها، لأنه تعالى لم ينزلها عبثاً بل أنزلها بالحق والصدق والجد، نهى عن اتخاذها هزواً، أي: لعباً بها وهو التجري عليها وعدم الامتثال لواجبها، مثل: استعمال المضارة في الإمساك أو الفراق أو كثرة الطلاق أو جمع الثلاث، والله من رحمته جعل له واحدة بعد واحدة رفقاً به، وسعيّاً في مصلحته.

﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾؛ عموماً باللسان حمداً وثناء وبالقلب اعترافاً وإقراراً وبالأركان بصرفها في طاعة الله ﴿وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة﴾؛ أي: السنة، اللذين بيّن لكم بهما طرق الخير، ورجبكم فيها، وطرق الشر، وحذركم إياها، وعرفكم نفسه ووقائعه في أوليائه وأعدائه، وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون، وقيل المراد بالحكمة أسرار الشريعة، فالكتاب فيه الحكم، والحكمة فيها بيان حكمة الله في أوامره ونواهيه، وكلا المعنيين صحيح، ولهذا قال: ﴿يعظكم به﴾؛ أي: بما أنزل عليكم، وهذا مما يقوي أن المراد بالحكمة أسرار الشريعة لأن الموعظة ببيان الحكم والحكمة والترغيب أو التهيب، فالحكم به يزول الجهل، والحكمة مع الترغيب يوجب الرغبة، والحكمة مع التهيب يوجب الرهبة

(١) في (ب): «بمعروف».

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع أموركم ﴿واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾؛ فلهذا بين لكم هذه الأحكام بغاية الإتيان والإحكام التي هي جارية مع المصالح في كل زمان ومكان، فله الحمد والمنة.

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعَنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَقْضُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحَنَّ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾^(١) ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ لَكُمْ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾.

﴿٢٣٢﴾ هذا خطاب لأولياء المرأة المطلقة دون الثلاث إذا خرجت من العدة وأراد زوجها أن ينكحها ورضيت بذلك فلا يجوز لوليها من أب وغيره أن يعضلها أي يمنعها من التزوج به حقناً عليه وغضباً واشتمزازاً لما فعل من الطلاق الأول، وذكر أن من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فإيمانه يمنعه من العضل، ذلك^(١) ﴿أزكى لكم وأطهر﴾؛ وأطيب مما يظن الولي أن عدم تزويجه هو الرأي واللائق وأنه يقابل بطلانه الأول بعدم تزويجه^(٢) كما هو عادة المترفعين المتكبرين، فإن كان يظن أن المصلحة في عدم تزويجه. فالله ﴿يعلم وأنتم لا تعلمون﴾؛ فامتثلوا أمر من هو عالم بمصالحكم، مريد لها قادر عليها، ميسر لها من الوجه الذي تعرفون وغيره.

وفي هذه الآية دليل على أنه لا بد من الولي في النكاح لأنه نهى الأولياء عن العضل، ولا ينهاهم إلا عن أمر هو تحت تدبيرهم ولهم فيه حق. ثم قال تعالى:

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِيمَ الرِّضَاعَةُ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِضُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمُ بِالْمَعْرُوفِ وَالْقَوْلُ اللَّهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾.

﴿٢٣٣﴾ هذا خبر بمعنى الأمر تنزيلاً له منزلة المتقرر الذي لا يحتاج إلى أمر بأن «يرضعن أولادهن حولين»؛ ولما كان الحول يطلق على الكامل وعلى معظم الحول قال: «كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة»؛ فإذا تم للرضيع حولان فقد تم

(١) في (ب): «فإن ذلك».

(٢) في (ب): «بعدم التزويج له».

رضاعه وصار اللبن بعد ذلك بمنزلة سائر الأغذية، فلهذا كان الرضاع بعد الحولين غير معتبر لا يُحَرِّم. ويؤخذ من هذا النص ومن قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾؛ أن أقل مدة الحمل ستة أشهر وأنه يمكن وجود الولد بها ﴿وعلى المولود له﴾؛ أي: الأب، ﴿رزقهن وكسوتهن بالمعروف﴾؛ وهذا شامل لما إذا كانت في حباله أو مطلقة، فإن على الأب رزقها؛ أي: نفقتها وكسوتها وهي الأجرة للرضاع، ودل هذا على أنها إذا كانت في حباله لا يجب لها أجرة غير النفقة والكسوة وكل بحسب حاله، فلهذا قال: ﴿لا تكلف نفس إلا وسعها﴾؛ فلا يكلف الفقير أن ينفق نفقة الغني ولا من لم يجد شيئاً بالنفقة حتى يجد ﴿لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده﴾؛ أي: لا يحل أن تضار الوالدة بسبب ولدها، إما أن تمنع من إرضاعه أو لا تعطى ما يجب لها من النفقة والكسوة أو الأجرة ﴿ولا مولود له بولده﴾؛ بأن تمتنع من إرضاعه على وجه المضارة [له] أو تطلب زيادة عن الواجب ونحو ذلك من أنواع الضرر، ودل قوله: ﴿مولود له﴾؛ أن الولد لأبيه لأنه موهوب له ولأنه من كسبه، فلذلك جاز له الأخذ من ماله رضي أو لم يرض، بخلاف الأم.

وقوله: ﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾؛ أي: على وارث الطفل إذا عدم الأب، وكان الطفل ليس له مال مثل ما على الأب من النفقة للمرضع والكسوة، فدل على وجوب نفقة الأقارب المعسرين على القريب الوارث الموسر، ﴿فإن أراد﴾؛ أي: الأبوان، ﴿فصلاً﴾؛ أي: فطام الصبي قبل الحولين، ﴿عن تراض منهما﴾؛ بأن يكونا راضيين، ﴿وتشاور﴾؛ فيما بينهما هل هو مصلحة للصبي أم لا؟ فإن كان مصلحة ورضيا ﴿فلا جناح عليهما﴾؛ في فطامه قبل الحولين، فدللت الآية بمفهومها على أنه إن رضي أحدهما دون الآخر أو لم يكن مصلحة للطفل أنه لا يجوز فطامه. وقوله: ﴿وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم﴾؛ أي: تطلبوا لهم المرضع غير أمهاتهم على غير وجه المضارة، ﴿فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتكم بالمعروف﴾؛ أي: للمرضعات، ﴿والله بما تعملون بصير﴾؛ فمجازيكم على ذلك بالخير والشر.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾

﴿٢٣٤﴾ أي: إذا توفي الزوج مكثت زوجته متربصة أربعة أشهر وعشرة أيام

وجوباً، والحكمة في ذلك ليتبين الحمل في مدة الأربعة ويتحرك في ابتدائه في الشهر الخامس، وهذا العام مخصوص بالحوامل، فإن عدتهن بوضع الحمل، وكذلك الأمة عدتها على النصف من عدة الحرة شهران وخمسة أيام. وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجْلَهُنَّ﴾؛ أي: انقضت عدتهن، ﴿فَلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن﴾؛ أي: من مراجعتها للزينة والطيب، ﴿بالمعروف﴾؛ أي: على وجه غير محرم ولا مكروه، وفي هذا وجوب الإحداد مدة العدة على المتوفى عنها زوجها دون غيرها من المطلقات والمفارقات وهو مجمع عليه بين العلماء، ﴿والله بما تعملون خبير﴾؛ أي: عالم بأعمالكم ظاهرها وباطنها جليها وخفيها فمجازيكم عليها، وفي خطابه للأولياء بقوله: ﴿فَلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن﴾؛ دليل على أن الولي ينظر على المرأة ويمنعها مما لا يجوز فعله، ويجبرها على ما يجب وأنه مخاطب بذلك واجب عليه.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرْنَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَقْرَبُوا عَقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجْلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ ذَلِيلٌ﴾.

﴿٢٣٥﴾ هذا حكم المعتدة من وفاة أو المبانة في الحياة، فيحرم على غير مبينها أن يصرح لها في الخطبة وهو المراد بقوله: ﴿ولكن لا تواعدوهن سرًّا﴾؛ وأما التعريض فقد أسقط تعالى فيه الجناح، والفرق بينهما أن التصريح لا يحتمل غير النكاح فلهذا حرم خوفاً من استعجالها وكذبها في انقضاء عدتها رغبة في النكاح، ففيه دلالة على منع وسائل المحرم وقضاء لحق زوجها الأول بعدم مواعدها لغيره مدة عدتها، وأما التعريض وهو الذي يحتمل النكاح وغيره فهو جائز للبائن كأن يقول [لها]: إني أريد التزوج وإني أحب أن تشاوريني عند انقضاء عدتك ونحو ذلك، فهذا جائز لأنه ليس بمنزلة الصريح، وفي النفوس داع قوي إليه، وكذا إضمار الإنسان في نفسه أن يتزوج من هي في عدتها إذا انقضت، ولهذا قال: ﴿أو أكنتم في أنفسكم علم الله أنكم ستذكرونهن﴾؛ هذا التفصيل كله في مقدمات العقد، وأما عقد النكاح فلا يحل، ﴿حتى يبلغ الكتاب أجله﴾؛ أي: تنقضي العدة. ﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم﴾؛ أي: فانواوا الخير ولا تنواوا الشر خوفاً من

عقابه ورجاء لثوابه، ﴿واعلموا أن الله غفور﴾؛ لمن صدرت منه الذنوب فتاب منها، ورجع إلى ربه، ﴿حليم﴾؛ حيث لم يعاجل العاصين على معاصيهم مع قدرته عليهم.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى التُّوسِيعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿٢٣٦﴾ أي: ليس عليكم - يا معشر الأزواج - جناح وإثم بتطليق النساء قبل المسيس وفرض المهر وإن كان في ذلك كسر لها فإنه ينجر بالمتعة فعليكم أن تمتعوهن؛ بأن تعطوهن شيئاً من المال جبراً لخواطرهن ﴿على الموسع قدره وعلى المقتر﴾؛ أي: المعسر، ﴿قدره﴾؛ وهذا يرجع إلى العرف وأنه يختلف باختلاف الأحوال ولهذا قال: ﴿متاعاً بالمعروف﴾؛ فهذا حق واجب ﴿على المحسنين﴾؛ ليس لهم أن يبخسوهن، فكما تسبوا لشوفهن واشتياقهن وتعلق قلوبهن، ثم لم يعطوهن ما رغبن فيه فعليهم في مقابلة ذلك المتعة.

فلله ما أحسن هذا الحكم الإلهي وأدله على حكمة شارعهِ ورحمته! ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون؟! فهذا حكم المطلقات قبل المسيس وقبل فرض المهر، ثم ذكر حكم المفروض لهن فقال:

﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ الزَّكَاءِ وَأَنْ تَقْرَبُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿٢٣٧﴾ أي: إذا طلقتم النساء قبل المسيس وبعد فرض المهر فللمطلقات من المهر المفروض نصفه ولكم نصفه، هذا هو الواجب ما لم يدخله عفو ومسامحة بأن تعفو عن نصفها لزوجها إذا كان يصح عفوها، ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾؛ وهو الزوج على الصحيح لأنه الذي بيده حل عقدته، ولأن الولي لا يصح أن يعفو عن ما وجب للمرأة لكونه غير مالك ولا وكيل، وقيل: إنه الأب وهو الذي يدل عليه لفظ الآية الكريمة^(١).

(١) جاء في هامش (ب): هذا بحسب ما ظهر لي وقت كتابتي لهذا الموضع، ثم بعد ذلك تبين لي أن القول بأن الذي بيده عقدة النكاح هو الولي الأقرب وهو الأب، هو الأصح؛ لمساعدة اللفظ له والمعنى، كما هو ظاهر للمتدبر.

ثم رغب في العفو وأن من عفا كان أقرب لتقواه لكونه إحساناً موجباً لشرح الصدر، ولكون الإنسان لا ينبغي أن يهمل نفسه من الإحسان والمعروف، وينسى الفضل الذي هو أعلى درجات المعاملة، لأن معاملة الناس فيما بينهم على درجتين: إما عدل وإنصاف واجب، وهو أخذ الواجب وإعطاء الواجب، وإما فضل وإحسان، وهو إعطاء ما ليس بواجب والتسامح في الحقوق والغض مما في النفس، فلا ينبغي للإنسان أن ينسى هذه الدرجة ولو في بعض الأوقات، وخصوصاً لمن بينك وبينه معاملة أو مخالطة، فإن الله مجاز المحسنين بالفضل والكرم، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. ثم قال تعالى:

﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ فِرْجَآلًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمْنْتُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ ٢٣٨.

﴿٢٣٨﴾ يأمر تعالى بالمحافظة ﴿على الصلوات﴾؛ عموماً وعلى، ﴿الصلاة الوسطى﴾؛ وهي العصر خصوصاً، والمحافظة عليها أداؤها بوقتها وشروطها وأركانها وخشوعها وجميع ما لها من واجب ومستحب. وبالمحافظة على الصلوات تحصل المحافظة على سائر العبادات وتفيد النهي عن الفحشاء والمنكر، خصوصاً إذا أكملها كما أمر بقوله: ﴿وقوموا لله قانتين﴾؛ أي: ذليلين^(١) مخلصين خاشعين، فإن القنوت دوام الطاعة مع الخشوع.

﴿٢٣٩﴾ وقوله: ﴿فإن خفتكم﴾؛ حذف المتعلق ليعم الخوف من العدو والسبع وفوات ما يتضرر العبد بفوته فصلوا ﴿رجالاً﴾؛ ماشين على أرجلكم، ﴿أو ركباناً﴾؛ على الخيل والإبل وسائر المركوبات، وفي هذه الحال لا يلزمه الاستقبال. فهذه صفة صلاة المعذور بالخوف فإذا حصل الأمن صلى صلاة كاملة ويدخل في قوله: ﴿فإذا أمنتكم فادكروا الله﴾؛ تكميل الصلوات، ويدخل فيه أيضاً الإكثار من ذكر الله شكراً له على نعمة الأمن وعلى نعمة التعليم لما فيه سعادة العبد.

وفي الآية الكريمة فضيلة العلم وأن على من علمه الله ما لم يكن يعلم الإكثار من ذكر الله، وفيه الإشعار أيضاً أن الإكثار من ذكره سبب لتعليم علوم آخر لأن الشكر مقرون بالمزيد. ثم قال تعالى:

(١) من هذا الموضع يبدأ الاختلاف بين النسختين، ويستمر حتى نهاية آية (١٢٩) من سورة آل عمران. وهو نهاية المجلد الأول من المخطوط. وانظر المقدمة.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٤٠).

﴿٢٤٠﴾ اشتهر عند كثير من المفسرين أن هذه الآية الكريمة نسختها الآية التي قبلها وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾؛ وأن الأمر كان على الزوجة أن تتربص حولاً كاملاً ثم نسخ بأربعة أشهر وعشر، ويجيبون عن تقدم الآية الناسخة أن ذلك تقدم في الوضع لا في النزول لأن شرط الناسخ أن يتأخر عن المنسوخ، وهذا القول لا دليل عليه، ومن تأمل الآيتين اتضح له أن القول الآخر في الآية هو الصواب، وأن الآية الأولى في وجوب التربص أربعة أشهر وعشر على وجه التحريم على المرأة، وأما في هذه الآية فإنها وصية لأهل الميت أن يبقوا زوجة ميتهم عندهم حولاً كاملاً جبراً لخطرها وبراء بميتهم، ولهذا قال: ﴿وصية لأزواجهم﴾؛ أي: وصية من الله لأهل الميت أن يستوصوا بزوجته ويمتعوها ولا يخرجوها، فإن رغبت أقامت في وصيتها وإن أحببت الخروج فلا حرج عليها، ولهذا قال: ﴿فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن﴾؛ أي: من التجميل واللباس، لكن الشرط أن يكون بالمعروف الذي لا يخرجها عن حدود الدين والاعتبار. وختم الآية بهذين الاسمين العظيمين الدالين على كمال العزة وكمال الحكمة، لأن هذه أحكام صدرت عن عزته، ودلت على كمال حكمته حيث وضعها في مواضعها اللائقة بها.

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتْنَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٤١) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾.

﴿٢٤١ - ٢٤٢﴾ لما بين في الآية السابقة إمتاع المفارقة بالموت ذكر هنا أن كل مطلقة فلها على زوجها أن يمتعها ويعطيها ما يناسب حاله وحالها وأنه حق إنما يقوم به المتقون، فهو من خصال التقوى الواجبة أو المستحبة، فإن كانت المرأة لم يسم لها صداق وطلقها قبل الدخول فتقدم أنه يجب عليه بحسب يساره وإعساره، وإن كان مسمى لها فمتاعها نصف المسمى، وإن كانت مدخولاً بها صارت المتعة مستحبة في قول جمهور العلماء ومن العلماء من أوجب ذلك استدلالاً بقوله: ﴿حقاً على المتقين﴾؛ والأصل في الحق أنه واجب خصوصاً وقد أضافه إلى المتقين،

وأصل التقوى واجبة، فلما بين تعالى هذه الأحكام الجليلة بين الزوجين؛ أثنى على أحكامه، وعلى بيانه لها وتوضيحه، وموافقتها للعقول السليمة، وأن القصد من بيانه لعباده أن يعقلوا عنه ما بينه فيعقلونها حفظاً وفهماً وعملاً بها، فإن ذلك من تمام عقلها.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾.

﴿٢٤٣﴾ أي: ألم تسمع بهذه القصة العجيبة الجارية على من قبلكم من بني إسرائيل حيث حل الوباء بديارهم فخرجوا بهذه الكثرة فراراً من الموت فلم ينجهم الفرائ ولا أغنى عنهم من وقوع ما كانوا يحذرون، فعاملهم بنقيض مقصودهم وأماتهم الله عن آخرهم، ثم تفضل عليهم فأحياهم إما بدعوة نبي كما قاله كثير من المفسرين وإما بغير ذلك، ولكن ذلك بفضل وإحسانه وهو لا يزال فضله على الناس وذلك موجب لشكرهم لنعم الله بالاعتراف بها وصرفها في مرضاة الله ومع ذلك فأكثر الناس قد قصرُوا بواجب الشكر.

وفي هذه القصة عبرة بأنه على كل شيء قدير وذلك آية محسوسة على البعث؛ فإن هذه القصة معروفة منقولة نقلاً متواتراً عند بني إسرائيل ومن اتصل بهم، ولهذا أتى بها تعالى بأسلوب الأمر الذي قد تقرر عند المخاطبين، ويحتمل أن هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم خوفاً من الأعداء وجبناً عن لقاءهم، ويؤيد هذا أن الله ذكر بعدها الأمر بالقتال وأخبر عن بني إسرائيل أنهم كانوا مخرجين من ديارهم وأبنائهم، وعلى الاحتمالين فإن فيها ترغيباً في الجهاد وترهيباً من التقاعد عنه وأن ذلك لا يغني عن الموت شيئاً ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْضِي وَيَبْصِطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾.

﴿٢٤٤ - ٢٤٥﴾ جمع الله بين الأمر بالقتال في سبيله بالمال والبدن؛ لأن الجهاد لا يقوم إلا بالأمرين، وحث على الإخلاص فيه بأن يقاتل العبد لتكون كلمة الله هي العليا فإن الله ﴿سميعٌ﴾؛ للأقوال وإن خفيت ﴿عليمٌ﴾؛ بما تحتوي عليه القلوب من النيات الصالحة وضدها. وأيضاً فإنه إذا علم المجاهد في سبيله

أن الله سميع عليم، هان عليه ذلك وعلم أنه بعينه ما يتحمل المتحملون من أجله وأنه لا بد أن يمدهم بعونه ولطفه.

وتأمل هذا الحث اللطيف على النفقة وإن المنفق قد أقرض الله الملي الكريم ووعده المضاعفة الكثيرة كما قال تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾؛ ولما كان المانع الأكبر من الإنفاق خوف الإملاق أخبر تعالى أن الغنى والفقر بيد الله، وأنه يقبض الرزق على من يشاء ويبسطه على من يشاء، فلا يتأخر من يريد الإنفاق خوف الفقر، ولا يظن أنه ضائع، بل مرجع العباد كلهم إلى الله فيجد المنفقون والعاملون أجراً عنده مدخراً أحوج ما يكونون إليه، ويكون له من الوقع العظيم ما لا يمكن التعبير عنه.

والمراد بالقرض الحسن هو ما جمع أوصاف الحسن من النية الصالحة وسماحة النفس بالنفقة ووقوعها في محلها وأن لا يتبعها المنفق مناً ولا أذى ولا مبطلاً ومنقصاً.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ سَوَّاهُ بَيْنَ يَدَيْهِمْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّ لَهُمْ أَتَئْتُنَا بِمَلَكٍ مُّنْزَلٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ^(١) قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأُتِينَا قِلَافًا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُومَ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ

(١) في الأصل إلى آخر القصة.

وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئْتَهُ كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِجْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أقدامنا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٤٧﴾ فَهَزَمُوهُمْ يَأْذِنُ اللَّهُ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٤٨﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٤٩﴾

﴿٢٤٦-٢٤٧﴾ يقص الله تعالى هذه القصة على الأمة ليعتبروا وليرغبوا في الجهاد ولا ينكلوا عنه، فإن الصابرين صارت لهم العواقب الحميدة في الدنيا والآخرة والناكسين خسروا الأمور، فأخبر تعالى أن أهل الرأي من بني إسرائيل وأصحاب الكلمة النافذة تراودوا في شأن الجهاد واتفقوا على أن يطلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكاً لينقطع النزاع بتعيينه وتحصل الطاعة التامة ولا يبقى لقائل مقال، وأن نبيهم خشي أن طلبهم هذا مجرد كلام لا فعل معه، فأجابوا نبيهم بالعزم الجازم وأنهم التزموا ذلك التزاماً تاماً، وأن القتال متعين عليهم حيث كان وسيلة لاسترجاع ديارهم ورجوعهم إلى مقرهم ووطنهم، وأنه عين لهم نبيهم طالوت ملكاً يقودهم في هذا الأمر الذي لا بد له من قائد يحسن القيادة، وأنهم استغربوا تعيينه لطالوت وثم من هو أحق منه بيتاً وأكثر مالاً، فأجابهم نبيهم: إن الله اختاره عليكم بما آتاه الله من قوة العلم بالسياسة وقوة الجسم، اللذين هما آلة الشجاعة والنجدة وحسن التدبير، وأن الملك ليس بكثرة المال، ولا يكون صاحبه ممن كان الملك والسيادة في بيوتهم، فالله يؤتي ملكه من يشاء.

ثم لم يكتف ذلك النبي الكريم بتقنيهم بما ذكره من كفاءة طالوت واجتماع الصفات المطلوبة فيه حتى قال لهم:

﴿٢٤٨﴾ ﴿إِنَّ آيَةَ مَلِكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾؛ وكان هذا التابوت قد استولت عليه الأعداء، فلم يكتفوا بالصفات المعنوية في طالوت ولا بتعيين الله له على لسان نبيهم حتى يؤيد ذلك هذه المعجزة ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾؛ فحينئذ سلموا وانقادوا. فلما ترأس فيهم طالوت وجندهم ورتبهم وفصل بهم إلى قتال عدوهم

وكان قد رأى منهم من ضعف العزائم والهمم ما يحتاج إلى تمييز الصابر من الناكل فقال:

﴿٢٤٩ - ٢٥٠﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ مَبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾؛ تمرّون عليه وقت حاجة إلى الماء، ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾؛ أي لا يتبعني؛ لأن ذلك برهان على قلة صبره ووفور جزعه ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾؛ لصدقه وصبره، ﴿إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾؛ أي: فإنه مسامح فيها. فلما وصلوا إلى ذلك النهر وكانوا محتاجين إلى الماء شربوا كلهم منه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾؛ فإنهم صبروا ولم يشربوا ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا﴾؛ أي: الناكلون أو الذين عبروا ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾؛ فإن كان القائلون هم الناكلين فهذا قول يبررون به نكولهم، وإن كان القائلون هم الذين عبروا مع طالوت فإنه حصل معهم نوع استضعاف لأنفسهم، ولكن شجعهم على الثبات والإقدام أهل الإيمان الكامل حيث قالوا: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾؛ بعونه وتأييده ونصره فثبتوا وصبروا لقتال عدوهم جالوت وجنوده.

﴿٢٥١﴾ ﴿وَقَتَلَ دَاوُدَ﴾؛ ﷺ، ﴿جَالُوتَ﴾؛ وحصل بذلك الفتح والنصر على عدوهم ﴿وَأَتَاهُ اللَّهُ﴾؛ أي: داود ﴿الْمَلِكَ وَالْحِكْمَةَ﴾؛ النبوة والعلوم النافعة وأتاه الله الحكمة وفصل الخطاب. ثم بين تعالى فائدة الجهاد فقال: ﴿وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾؛ باستيلاء الكفرة والفجار وأهل الشر والفساد ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾؛ حيث لطف بالمؤمنين ودافع عنهم وعن دينهم بما شرعه وبما قدره. فلما بين هذه القصة قال لرسوله ﷺ:

﴿٢٥٢﴾ ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾؛ ومن جملة الأدلة على رسالته هذه القصة حيث أخبر بها وحياً من الله مطابقاً للواقع.

وفي هذه القصة عبرٌ كثيرةٌ للأمة:

منها: فضيلة الجهاد في سبيله وفوائده وثمراته وأنه السبب الوحيد في حفظ الدين وحفظ الأوطان وحفظ الأبدان والأموال، وأن المجاهدين ولو شقت عليهم الأمور فإن عواقبهم حميدة، كما أن الناكلين ولو استراحوا قليلاً فإنهم سيتعبون طويلاً.

ومنها: الانتداب لرياسة من فيه كفاءة وأن الكفاءة ترجع إلى أمرين: إلى العلم الذي هو علم السياسة والتدبير، وإلى القوة التي ينفذ بها الحق، وأن من اجتمع فيه الأمران فهو أحق من غيره.

ومنها: الاستدلال بهذه القصة على ما قاله العلماء أنه ينبغي للأمير للجيش أن يتفقدوها عند فصولها؛ فيمنع من لا يصلح للقتال من رجال وخيل وركاب، لضعفه أو ضعف صبره أو لتخذيذه أو خوف الضرر بصحبته، فإن هذا القسم ضرر محض على الناس.

ومنها: أنه ينبغي عند حضور البأس تقوية المجاهدين وتشجيعهم وحثهم على القوة الإيمانية والأثكال الكامل على الله والاعتماد عليه، وسؤال الله التثبيت والإعانة على الصبر والنصر على الأعداء.

ومنها: أن العزم على القتال والجهد غير حقيقته، فقد يعزم الإنسان ولكن عند حضوره تنحل عزيمته، ولهذا من دعاء النبي ﷺ: «أَسْأَلُكَ الثَّباتَ فِي الْأَمْرِ وَالْعَزِيمَةِ عَلَى الرَّشْدِ»^(١)، فهؤلاء الذين عزموا على القتال وأتوا بكلام يدل على العزم المصمم لما جاء الوقت نكص أكثرهم، ويشبهه هذا قوله ﷺ: «وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَا»^(٢)؛ لأن الرضا بعد وقوع القضاء المكروه للنفس هو الرضا الحقيقي.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ سُبُلُ اللَّهِ لَمْ يَكُنْ لِرَبِّكَ إِلَهٌ غَيْرُهُ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى وَلَوْ أَنَّهُ لَكُم مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ أَكْفَرْتُمْ بِالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (٢٥٣).

﴿٢٥٣﴾ يخبر الباري أنه فاوت بين الرسل في الفضائل الجليلة والتخصيصات الجميلة، بحسب ما من الله به عليهم وقاموا به من الإيمان الكامل واليقين الراسخ والأخلاق العالية والآداب السامية والدعوة والتعليم والنفع العميم، فمنهم من اتخذ خليلاً، ومنهم من كلمه تكليماً، ومنهم من رفعه فوق الخلائق درجات، وجميعهم لا سبيل لأحد من البشر إلى الوصول إلى فضلهم الشامخ. وخص عيسى بن مريم

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٢٣/٤)، والحاكم (٥٠٨/١)، والترمذي (٣٤٠٧)، والنسائي (٥٤/٣) من حديث شداد ابن أوس رضي الله عنه. وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه أحمد (١٩١/٥)، والحاكم (٥١٦/١ - ٥١٧)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٧) عن أبي الدرداء عن زيد بن ثابت. وذكره الهيثمي في «المجمع» (١١٣/١٠) وقال: «رواه أحمد والطبراني وأحد إسناده الطبراني رجاله وثقوا. وفي بقية الأسانيد أبو بكر بن أبي مريم وهو ضعيف».

أنه آتاه البينات الدالة على أنه رسول الله حقاً وعبده صدقاً وأن ما جاء به من عند الله كله حق، فجعله يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله وكلم الناس في المهد صبياً وأيده بروح القدس أي بروح الإيمان، فجعل روحانيته فائقة روحانية غيره، فحصل له بذلك القوة والتأييد، وإن كان أصل التأييد بهذه الروح عاماً لكل مؤمن بحسب إيمانه كما قال: ﴿وأيدهم بروح منه﴾؛ لكن ما لعيسى أعظم مما لغيره لهذا خصه الله بالذكر، وقيل: إن روح القدس هنا جبريل أيده الله بإعانتة ومؤازرته لكن المعنى هو الأول. ولما أخبر عن كمال الرسل وما أعطاهم من الفضل والخصائص وأن دينهم واحد ودعوتهم إلى الخير واحدة، وكان موجب ذلك ومقتضاه أن تجتمع الأمم على تصديقهم والانقياد لهم لما آتاهم من البينات التي على مثلها يؤمن البشر، لكن أكثرهم انحرفوا عن الصراط المستقيم، ووقع الاختلاف بين الأمم فمنهم من آمن ومنهم من كفر ووقع لأجل ذلك الاقتتال، الذي هو موجب الاختلاف والتعادي، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فما اختلفوا، ولو شاء الله أيضاً بعدما وقع الاختلاف الموجب للاقتتال ما اقتتلوا، ولكن حكمته اقتضت جريان الأمور على هذا النظام بحسب الأسباب.

ففي هذه الآية أكبر شاهد على أنه تعالى يتصرف في جميع الأسباب المقتضية لمسبباتها، وأنه إن شاء أبقاها وإن شاء منعها، وكل ذلك تبع لحكمته وحده فإنه فعال لما يريد، فليس لإرادته ومشيته ممانع ولا معارض ولا معاون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾.

﴿٢٥٤﴾ يحث الله المؤمنين على النفقات في جميع طرق الخير، لأن حذف المعمول يفيد التعميم، ويذكرهم نعمته عليهم بأنه هو الذي رزقهم ونوع عليهم النعم، وأنه لم يأمرهم بإخراج جميع ما في أيديهم بل أتى بمن الدالة على التبعض، فهذا مما يدعوهم إلى الإنفاق، ومما يدعوهم أيضاً إخبارهم أن هذه النفقات مدخرة عند الله في يوم لا تفيد فيه المعاضات بالبيع ونحوه ولا التبرعات ولا الشفاعات فكل أحد يقول ما قدمت لحياتي، فتقطع الأسباب كلها إلا الأسباب المتعلقة بطاعة الله والإيمان به يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون﴾، ﴿وما

تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً. ثم قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾؛ وذلك لأن الله خلقهم لعبادته، ورزقهم، وعافاهم، ليستعينوا بذلك على طاعته، فخرجوا عما خلقهم الله له، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، واستعانوا بنعمه على الكفر والفسوق والعصيان، فلم يبقوا للعدل موضعاً، فلهذا حصر الظلم المطلق فيهم.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (٢٥٥).

﴿٢٥٥﴾ أخبر ﷺ أن هذه الآية أعظم آيات القرآن^(١) لما احتوت عليه من معاني التوحيد والعظمة وسعة الصفات للباري تعالى، فأخبر أنه ﴿الله﴾؛ الذي له جميع معاني الألوهية، وأنه لا يستحق الألوهية والعبودية إلا هو، فألوهية غيره وعبادة غيره باطلة، وأنه ﴿الحي﴾ الذي له جميع معاني الحياة الكاملة من السمع والبصر والقدرة والإرادة وغيرها من الصفات الذاتية، كما أن ﴿القيوم﴾؛ تدخل فيه جميع صفات الأفعال لأنه القيوم الذي قام بنفسه واستغنى عن جميع مخلوقاته وقام بجميع الموجودات فأوجدتها وأبقاها وأمدّها بجميع ما تحتاج إليه في وجودها وبقائها. ومن كمال حياته وقيوميته أنه ﴿لا تأخذه سنة﴾؛ أي: نعاس ﴿ولا نوم﴾؛ لأن السنة والنوم إنما يعرضان للمخلوق الذي يعتريه الضعف والعجز والانحلال، ولا يعرضان لذي العظمة والكبرياء والجلال، وأخبر أنه مالك جميع ما في السموات والأرض، فكلهم عبيد لله ممالك لا يخرج أحد منهم عن هذا الطور ﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً﴾؛ فهو المالك لجميع الممالك وهو الذي له صفات الملك والتصرف والسلطان والكبرياء، ومن تمام ملكه أنه لا ﴿يشفع عنده﴾؛ أحد ﴿إلا بإذنه﴾؛ فكل الوجهاء والشفعاء عبيد له ممالك لا يقْدُمون على شفاعته حتى يأذن لهم ﴿قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض﴾؛ والله لا يأذن لأحد أن يشفع إلا فيمن ارتضى ولا يرتضى إلا توحيده واتباع رسله، فمن لم يتصف بهذا فليس له في الشفاعة نصيب. ثم أخبر عن علمه الواسع المحيط وأنه يعلم ما بين أيدي الخلائق من الأمور المستقبلية التي لا نهاية لها ﴿وما خلفهم﴾؛

(١) أخرجه مسلم (٨١٠) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

من الأمور الماضية التي لا حد لها، وأنه لا تخفى عليه خافية ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾؛ وأن الخلق لا يحيط أحد بشيء من علم الله ومعلوماته ﴿إلا بما شاء﴾ منها وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية، وهو جزء يسير جداً مضمحل في علوم الباري ومعلوماته كما قال أعلم الخلق به وهم الرسل والملائكة: ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا﴾؛ ثم أخبر عن عظمته وجلاله وأن كرسيه وسع السماوات والأرض، وأنه قد حفظهما ومن فيهما من العوالم بالأسباب والنظامات التي جعلها الله في المخلوقات، ومع ذلك فلا يؤوده أي يثقله حفظهما لكمال عظمته واقتداره وسعة حكمته في أحكامه ﴿وهو العلي﴾؛ بذاته على جميع مخلوقاته، وهو العلي بعظمة صفاته، وهو العلي الذي قهر المخلوقات، ودانت له الموجودات، وخضعت له الصعاب، وذلت له الرقاب ﴿العظيم﴾؛ الجامع لجميع صفات العظمة والكبرياء والمجد والبهاء، الذي تحبه القلوب، وتعظمه الأرواح، ويعرف العارفون أن عظمة كل شيء وإن جلت عن الصفة فإنها مضمحلة في جانب عظمة العلي العظيم. فآية احتوت على هذه المعاني التي هي أجل المعاني يحق أن تكون أعظم آيات القرآن، ويحق لمن قرأها متدبراً متفهماً أن يمتلىء قلبه من اليقين والعرفان والإيمان، وأن يكون محفوظاً بذلك من شرور الشيطان.

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ

اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾.

﴿٢٥٦﴾ هذا بيان لكمال هذا الدين الإسلامي، وأنه لكمال براهينه، واتضح آياته وكونه هو دين العقل والعلم ودين الفطرة والحكمة ودين الصلاح والإصلاح ودين الحق والرشد، فلكماله وقبول الفطر له لا يحتاج إلى الإكراه عليه، لأن الإكراه إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب، ويتنافى مع الحقيقة والحق أو لما تخفى براهينه وآياته، وإلا فمن جاءه هذا الدين وردده ولم يقبله فإنه لعناده، فإنه ﴿قد تبين الرشد من الغي﴾ فلم يبق لأحد عذر ولا حجة إذا رده ولم يقبله.

ولا منافاة بين هذا المعنى وبين الآيات الكثيرة الموجبة للجهد، فإن الله أمر بالقتال ليكون الدين كله لله، ولدفع اعتداء المعتدين على الدين، وأجمع المسلمون على أن الجهاد ماضٍ مع البر والفاجر، وأنه من الفروض المستمرة الجهاد القولي والجهاد الفعلي، ومن ظن من المفسرين أن هذه الآية تنافي آيات الجهاد فجزم بأنها منسوخة فقله ضعيف لفظاً ومعنى كما هو واضح بين لمن تدبر الآية الكريمة كما نبهنا عليه.

ثم ذكر الله انقسام الناس إلى قسمين: قسم آمن بالله وحده لا شريك له وكفر بالطاغوت - وهو كل ما ينافي الإيمان بالله من الشرك وغيره - فهذا قد ﴿استمسك بالعروة الوثقى﴾ التي لا انفصام لها، بل هو مستقيم على الدين الصحيح حتى يصل به إلى الله وإلى دار كرامته. ويؤخذ القسم الثاني من مفهوم الآية أن من لم يؤمن بالله بل كفر به وآمن بالطاغوت فإنه هالك هلاكاً أبدياً ومعذب عذاباً سرمدياً. وقوله ﴿والله سميع﴾؛ أي: لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، وسميع لدعاء الداعين وخضوع المتضرعين. ﴿عليم﴾؛ بما أكنته الصدور، وما خفي من خفايا الأمور، فيجازي كل أحد بحسب ما يعلمه من نياته وعمله.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٥٧).

﴿٢٥٧﴾ هذه الآية مترتبة على الآية التي قبلها، فالسابقة هي الأساس وهذه هي الثمرة. فأخبر تعالى أن الذين آمنوا بالله وصدقوا إيمانهم بالقيام بواجبات الإيمان وترك كل ما ينافية أنه وليهم يتولاهم بولايته الخاصة، ويتولى تربيتهم، فيخرجهم من ظلمات الجهل والكفر والمعاصي والغفلة والإعراض، إلى نور العلم واليقين والإيمان والطاعة والإقبال الكامل على ربهم، وينور قلوبهم بما يقذفه فيها من نور الوحي والإيمان، ويسرهم لليسرى، ويجنبهم العسرى، وأما الذين كفروا فإنهم لما تولوا غير وليهم، ولاهم الله ما تولوا لأنفسهم، وخذلهم، ووكلمهم إلى رعاية من تولاهم ممن ليس عنده نفع ولا ضرر، فأضلّوهم، وأشقّوهم، وحرّمهم هداية العلم النافع والعمل الصالح، وحرّمهم السعادة، وصارت النار مثواهم خالدين فيها مخلدين. اللهم تولنا فيمن توليت.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْتَبِي وَيُخَيِّتُ قَالَ أَنَا أُخَيِّ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٥٨).

﴿٢٥٨﴾ يقص الله علينا من أنباء الرسل والسالفين ما به تتبين الحقائق، وتقوم البراهين المتنوعة على التوحيد، فأخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام، حيث حاج هذا الملك الجبار، وهو نمرود البابلي المعطل المنكر لرب العالمين، وانتدب لمقاومة إبراهيم الخليل ومحاخته في هذا الأمر الذي لا يقبل شكاً ولا إشكالاً ولا

ربياً وهو توحيد الله وربوبيته الذي هو أجلى الأمور وأوضحها. ولكن هذا الجبار غره ملكه وأطغاه حتى وصلت به الحال إلى أن نفاه، وحاج إبراهيم الرسول العظيم الذي أعطاه الله من العلم واليقين ما لم يعط أحداً من الرسل سوى محمد ﷺ، فقال إبراهيم مناظراً له: ﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾؛ أي: هو المنفرد بالخلق والتدبير والإحياء والإماتة، فذكر من هذا الجنس أظهرها وهو الإحياء والإماتة، فقال ذلك الجبار مباهاة: ﴿أنا أحيي وأميت﴾؛ وعننى بذلك أنني أقتل من أردت قتله وأستبقي من أردت استبقائه، ومن المعلوم أن هذا تمويه وتزوير عن المقصود، وأن المقصود أن الله تعالى هو الذي تفرد بإيجاد الحياة في المعدومات وردها على الأموات، وأنه هو الذي يميت العباد والحيوانات بأجلها بأسباب ربطها وبغير أسباب.

فلما رآه الخليل مموهاً تمويهاً ربما راج على الهمج الرعاع قال إبراهيم ملزماً له بتصديق قوله إن كان كما يزعم: ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب، فبهت الذي كفر﴾؛ أي: وقف وانقطعت حجته، واضمحلت شبهته.

وليس هذا من الخليل انتقالاً من دليل إلى آخر، وإنما هو إلزام لنمرود بطرد دليله إن كان صادقاً وأتى بهذا الذي لا يقبل الترويح والتزوير والتمويه، فجميع الأدلة السمعية والعقلية والفطرية قد قامت شاهدة بتوحيد الله معترفة بانفراده بالخلق والتدبير وأن من هذا شأنه لا يستحق العبادة إلا هو، وجميع الرسل متفقون على هذا الأصل العظيم، ولم ينكره إلا معاند مكابر مماثل لهذا الجبار العنيد، فهذا من أدلة التوحيد، ثم ذكر أدلة كمال القدرة والبعث والجزاء فقال:

﴿أَو كَأَلَدَىٰ مَرٍّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُعْجِبُ هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةً عَامٍ ثُمَّ بَشَّرَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةً عَامٍ فَأَنْظِرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَأَنْظِرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَأَنْظِرْ إِلَىٰ الْعُظَامِ كَيْفَ نُنشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمْتُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ لِإِبْرَاهِيمَ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخَذَ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصَرَفَهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْمَلَ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعَاهُنَّ يَا إِلَٰهَتِكَ سَعِيًّا وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾.

﴿٢٥٩﴾ هذان دليان عظيمان محسوسان في الدنيا قبل الآخرة على البعث والجزاء، واحد أجراه الله على يد رجل شاك في البعث على الصحيح كما تدل عليه الآية الكريمة، والآخر على يد خليله إبراهيم، كما أجرى دليل التوحيد السابق على يده. فهذا الرجل مرَّ على قرية قد دمرت تدميراً وخوت على عروشها قد مات أهلها وخربت عمارتها، فقال على وجه الشك والاستبعاد: ﴿أنى يحيي هذه الله بعد موتها؟﴾ أي: ذلك بعيد وهي في هذه الحال، يعني وغيرها مثلها بحسب ما قام بقلبه تلك الساعة، فأراد الله رحمته ورحمة الناس حيث أماته الله مئة عام، وكان معه حمار فأماته معه، ومعه طعام وشراب فأبقاهما الله بحالهما كل هذه المدد الطويلة. فلما مضت الأعوام المائة بعثه الله فقال: ﴿كم لبثت قال: لبثت يوماً أو بعض يوم﴾؛ وذلك بحسب ما ظنه، فقال الله: ﴿بل لبثت مائة عام﴾؛ والظاهر أن هذه المجاورة على يد بعض الأنبياء الكرام.

ومن تمام رحمة الله به وبالناس أنه أراه الآية عياناً ليقنع بها، فبعد ما عرف أنه ميت قد أحياه الله قيل له: انظر ﴿إلى طعامك وشرابك لم يتسنه﴾؛ أي: لم يتغير في هذه المدد الطويلة. وذلك من آيات قدرة الله فإن الطعام والشراب خصوصاً ما ذكره المفسرون أنه فاكهة وعصير لا يلبث أن يتغير وهذا قد حفظه الله مئة عام وقيل له: ﴿انظر إلى حمارك﴾؛ فإذا هو قد تمزق وتفرق وصار عظماً نخرة، ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزها﴾؛ أي: نرفع بعضها إلى بعض ونصل بعضها ببعض بعدما تفرقت وتمزقت ﴿ثم نكسوها﴾؛ بعد الالتئام ﴿لحماء﴾؛ ثم نعيد فيه الحياة ﴿فلما تبين له﴾؛ رأي عين لا يقبل الريب بوجه من الوجوه ﴿قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾؛ فاعترف بقدرة الله على كل شيء وصار آية للناس، لأنهم قد عرفوا موته وموت حماره وعرفوا قضيته ثم شاهدوا هذه الآية الكبرى. هذا هو الصواب في هذا الرجل.

وأما قول كثير من المفسرين: أن هذا الرجل مؤمن أو نبي من الأنبياء إما عزيز أو غيره وأن قوله: ﴿أنى يحيي هذه الله بعد موتها﴾؛ يعني كيف تعمر هذه القرية بعد أن كانت خراباً، وأن الله أماته ليريه ما يعيد لهذه القرية من عمارتها بالخلق وأنها عمرت في هذه المدة وتراجع الناس إليها وصارت عامرة بعد أن كانت دامرة، فهذا لا يدل عليه اللفظ بل ينافية، ولا يدل عليه المعنى، فأى آية وبرهان برجوع البلدان الدامرة إلى العمارة، وهذه لم تزل تشهد تعمر قرى ومساكن، وتخرّب

أخرى، وإنما الآية العظيمة في إحيائه بعد موته وإحياء حماره وإبقاء طعامه وشرابه لم يتعفن ولم يتغير، ثم قوله: ﴿فلما تبين له﴾؛ صريح في أنه لم يتبين له إلا بعدما شاهد هذه الحال الدالة على كمال قدرته عياناً.

﴿٢٦٠﴾ وأما البرهان الآخر فإن إبراهيم قال طالباً من الله أن يريه كيف يحيي الموتى فقال الله له: ﴿أو لم تؤمن﴾؛ ليزيل الشبهة عن خليله، ﴿قال﴾؛ إبراهيم: ﴿بلى﴾؛ يا رب قد آمنت أنك على كل شيء قدير وأنتك تحيي الموتى وتجازي العباد، ولكن أريد أن يطمنن قلبي وأصل إلى درجة عين اليقين، فأجاب الله دعوته كرامة له ورحمة بالعباد، ﴿قال فخذ أربعة من الطير﴾؛ ولم يبين أي الطيور هي فالآية حاصلة بأي نوع منها وهو المقصود، ﴿فصرهن إليك﴾؛ أي: ضمنهن واذبحهن ومزقهن ﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيّاً واعلم أن الله عزيز حكيم﴾؛ ففعل ذلك وفرق أجزاءهن على الجبال التي حوله ودعاهن بأسمائهن فأقبلن إليه أي سريعات، لأن السعي السرعة، وليس المراد أنهن جئن على قوائمهن، وإنما جئن طائرات على أكمل ما يكون من الحياة، وخص الطيور بذلك لأن إحياءهن أكمل وأوضح من غيرهن، وأيضاً أزال في هذا كل وهم ربما يعرض للنفوس المبطلّة، فجعلهن متعدّدات أربعة، ومزقهن جميعاً، وجعلهن على رؤوس الجبال، ليكون ذلك ظاهراً علناً يشاهد من قرب ومن بعد، وأنه نحاهن عنه كثيراً لئلا يظن أن يكون عاملاً حيلة من الحيل، وأيضاً أمره أن يدعوهن فجئن مسرعات، فصارت هذه الآية أكبر برهان على كمال عزة الله وحكمته.

وفيه تنبيه على أن البعث فيه يظهر للعباد كمال عزة الله وحكمته وعظمته وسعة سلطانه وتمايم عدله وفضله.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُكُورٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾.

﴿٢٦١﴾ هذا حث عظيم من الله لعباده في إنفاق أموالهم في سبيله، وهو طريقه الموصل إليه، فدخل في هذا إنفاقه في ترقية العلوم النافعة، وفي الاستعداد للجهاد في سبيله، وفي تجهيز المجاهدين وتجهيزهم، وفي جميع المشاريع الخيرية النافعة

للمسلمين، ويولي ذلك الإنفاق على المحتاجين والفقراء والمساكين، وقد يجتمع الأمران فيكون في النفقة دفع الحاجات والإعانة على الخير والطاعات، فهذه النفقات مضاعفة هذه المضاعفة بسبعمئة إلى أضعاف أكثر من ذلك، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يضاعف لمن يشاء﴾؛ وذلك بحسب ما يقوم بقلب المنفق من الإيمان والإخلاص التام وفي ثمرات نفقته ونفعها، فإن بعض طرق الخيرات يترتب على الإنفاق فيها منافع متسلسلة ومصالح متنوعة فكان الجزاء من جنس العمل.

﴿٢٦٢﴾ ثم أيضاً ذكر ثواباً آخر للمنفقين أموالهم في سبيله نفقة صادرة مستوفية لشروطها منتفية موانعها، فلا يتبعون المنفق عليه، مثلاً منهم عليه وتعداداً للنعم وأذية له قولية أو فعلية فهؤلاء ﴿لهم أجرهم عند ربهم﴾؛ بحسب ما يعلمه منهم وبحسب نفقاتهم ونفعها وبفضله الذي لا تناله ولا تصل إليه صدقاتهم، ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾؛ فنفي عنهم المكروه الماضي بنفي الحزن، والمستقبل بنفي الخوف عليهم فقد حصل لهم المحبوب واندفع عنهم المكروه.

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾.

﴿٢٦٣﴾ ذكر الله أربع مراتب للإحسان:

المرتبة العليا: النفقة الصادرة عن نية صالحة ولم يتبعها المنفق مثلاً ولا أذى. ثم يليها قول المعروف وهو الإحسان القولي بجميع وجوهه الذي فيه سرور المسلم، والاعتذار من السائل إذا لم يوافق عنده شيئاً، وغير ذلك من أقوال المعروف.

والثالثة الإحسان بالعفو والمغفرة عمن أساء إليك بقول أو فعل.

وهذان أفضل من الرابعة وخير منها وهي: التي يتبعها المتصدق الأذى للمعطي لأنه كدر إحسانه وفعل خيراً وشرّاً.

فالخير المحض وإن كان مفضولاً خير من الخير الذي يخالطه شرٌّ وإن كان فاضلاً، وفي هذا التحذير العظيم لمن يؤذي من تصدق عليه كما يفعله أهل اللؤم والحمق والجهل، ﴿والله﴾؛ تعالى ﴿غني﴾؛ عن صدقاتهم وعن جميع عباده ﴿حليم﴾؛ مع كمال غناه وسعة عطايه يحلم عن العاصين، ولا يعاجلهم بالعقوبة بل يعافهم، ويرزقهم، ويدبر عليهم خيره، وهم مبارزون له بالمعاصي.

ثم نهى أشد النهي عن المنّ والأذى وضرب لذلك مثلاً:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَفَاقَتِ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَبَوْدُ أَحَدَكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾

﴿٢٦٤ - ٢٦٦﴾ ضرب الله في هذه الآيات ثلاثة أمثلة: للمنفق ابتغاء وجهه ولم يتبع نفقته مئاً ولا أذى، ولمن أتبعها مئاً وأذى، وللمرائي.

فأما الأول فإنه لما كانت نفقته مقبولة مضاعفة لصدورها عن الإيمان والإخلاص التام ﴿ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم﴾؛ أي: ينفقون وهم ثابتون على وجه السماحة والصدق فمثل هذا العمل، ﴿كمثل جنة برية﴾؛ وهو المكان المرتفع لأنه يتبين للرياح والشمس، والماء فيها غزير، فإن لم يصبها ذلك الوابل الغزير، حصل لها طلٌ كافٍ لطيب منبتها وحسن أرضها وحصول جميع الأسباب الموفرة لنموها وازدهارها وإثمارها، ولهذا ﴿آتت أكلها ضعفين﴾؛ أي: متضاعفاً، وهذه الجنة التي على هذا الوصف هي أعلى ما يطلبه الناس، فهذا العمل الفاضل بأعلى المنازل.

وأما من أنفق لله ثم أتبع نفقته مئاً وأذى، أو عمل عملاً فأتى بمبطل لذلك العمل فهذا مثله مثال صاحب هذه الجنة، لكن سلط عليها ﴿إعصار﴾؛ وهو الريح الشديدة ﴿فيه نار فاحترقت﴾؛ وله ذرية ضعفاء وهو ضعيف قد أصابه الكبر، فهذه الحال من أفظع الأحوال، ولهذا صدر هذا المثل بقوله: ﴿أبود أحدكم﴾؛ إلى آخرها بالاستفهام المتقرر عند المخاطبين فظاعته، فإن تلقها دفعة واحدة بعد زهاء أشجارها وإيناع ثمارها مصيبة كبرى، ثم حصول هذه الفاجعة وصاحبها كبير قد ضعف عن العمل وله ذرية ضعفاء لا مساعدة منهم له ومؤنتهم عليه فاجعة أخرى، فصار صاحب هذا المثل الذي عمل لله ثم أبطل عمله بمنافٍ له يشبه حال صاحب الجنة التي جرى عليها ما جرى حين اشتدت ضرورته إليها.

المثل الثالث الذي يراي الناس وليس معه إيمان بالله ولا احتساب لثوابه حيث شبه قلبه بالصفوان وهو الحجر الأملس عليه تراب يظن الرائي أنه إذا أصابه المطر أنبت كما تنبت الأراضي الطيبة، ولكنه كالحجر الذي أصابه الوابل الشديد فأذهب ما عليه من التراب وتركه صلدأ، وهذا مثل مطابق لقلب المرائي الذي ليس فيه إيمان بل هو قاس لا يلين ولا يخشع، فهذا أعماله ونفقاته لا أصل لها تؤسس عليه ولا غاية لها تنتهي إليه، بل ما عمله فهو باطل لعدم شرطه.

والذي قبله بطل بعد وجود الشرط لوجود المانع، والأول مقبول مضاعف لوجود شرطه الذي هو الإيمان والإخلاص والثبات وانتفاء الموانع المفسدة. وهذه الأمثال الثلاثة تنطبق على جميع العاملين، فليزن العبد نفسه وغيره بهذه الموازين العادلة والأمثال المطابقة ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْغِيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِبَٰخِيذِيْهِ إِلَّا أَنْ تُغْنِصُوا فِيْهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفِيْرٌ حَكِيْمٌ ﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطٰنُ يَدْعُوكُمْ اِلَافْقَرٍ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَآءِ وَاللّٰهُ يَعِدْكُمْ مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللّٰهُ وَاسِعٌ عَلِيْمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾.

﴿٢٦٧ - ٢٦٨﴾ يحث الباري عباده على الإنفاق مما كسبوا في التجارات، ومما أخرج لهم من الأرض من الحبوب والثمار، وهذا يشمل زكاة النقدين والعروض كلها المعدة للبيع والشراء والخارج من الأرض من الحبوب والثمار. ويدخل في عمومها الفرض والنفل، وأمر تعالى أن يقصدوا الطيب منها ولا يقصدوا الخبيث وهو الرديء الدون يجعلونه لله، ولو بذله لهم من لهم حق عليه لم يرتضوه، ولم يقبلوه إلا على وجه المغاضاة والإغماض، فالواجب إخراج الوسط من هذه الأشياء والكمال إخراج العالي، والممنوع إخراج الرديء فإن هذا لا يجزي عن الواجب، ولا يحصل فيه الثواب التام في المندوب.

﴿واعلموا أن الله غني حميد﴾؛ فهو غني عن جميع المخلوقين، وهو الغني عن نفقات المنفقين وعن طاعات الطائعين، وإنما أمرهم بها وحثهم عليها لنفعهم ومحض فضله وكرمه عليهم، ومع كمال غناه وسعة عطاياه فهو الحميد فيما يشره لعباده من الأحكام الموصلة لهم إلى دار السلام، وحميد في أفعاله التي لا تخرج عن الفضل والعدل والحكمة، وحميد الأوصاف لأن أوصافه كلها محاسن وكمالات

لا يبلغ العباد كنهها ولا يدركون وصفها. فلما حثهم على الإنفاق النافع نهاهم عن الإمساك الضار، وبين لهم أنهم بين داعيين: داعي الرحمن يدعوهم إلى الخير ويعدهم عليه الخير والفضل والثواب العاجل والآجل وإخلاف ما أنفقوا، وداعي الشيطان الذي يحثهم على الإمساك، ويخوفهم إن أنفقوا أن يفتقروا.

فمن كان مجيباً لداعي الرحمن، وأنفق مما رزقه الله فليُشتر بمغفرة الذنوب وحصول كل مطلوب، ومن كان مجيباً لداعي الشيطان فإنه إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، فليختر العبد أي الأمرين أليق به.

وختم الآية بأنه ﴿واسع عليهم﴾؛ أي واسع الصفات كثير الهبات عليم بمن يستحق المضاعفة من العاملين، وعليم بمن هو أهل فيوفقه لفعل الخيرات، وترك المنكرات.

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

﴿٢٦٩﴾ لما ذكر أحوال المنفقين للأموال، وأن الله أعطاهم، ومنّ عليهم بالأموال التي يدركون بها النفقات في الطرق الخيرية، وينالون بها المقامات السنية، ذكر ما هو أفضل من ذلك وهو أنه يعطي الحكمة من يشاء من عباده، ومن أراد بهم خيراً من خلقه، والحكمة هي العلوم النافعة والمعارف الصائبة والعقول المسددة والألباب الرزينة وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال، وهذا أفضل العطايا وأجل الهبات، ولهذا قال: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾؛ لأنه خرج من ظلمة الجهالات إلى نور الهدى، ومن حمق الانحراف في الأقوال والأفعال إلى إصابة الصواب فيها وحصول السداد، ولأنه كمل نفسه بهذا الخير العظيم واستعد لنفع الخلق أعظم نفع في دينهم ودنياهم، وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة التي هي وضع الأشياء مواضعها وتنزيل الأمور منازلها، والإقدام في محل الإقدام، والإحجام في موضع الإحجام.

ولكن ما يتذكر هذا الأمر العظيم وما يعرف قدر هذا العطاء الجسيم، ﴿إلا أولو الألباب﴾؛ وهم أهل العقول الوافية والأحلام الكاملة، فهم الذين يعرفون النافع فيعملونه والضار فيتركونه، وهذان الأمران وهما بذل النفقات المالية وبذل الحكمة العلمية أفضل ما تقرب به المتقربون إلى الله وأعلى ما وصلوا به إلى أجل

الكرامات، وهما اللذان ذكرهما النبي ﷺ بقوله: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يعلمها الناس»^(١).

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٢٧١) **﴿إِنْ تَبَدُّوا لَأَنْصَدَكُمْ فَإِنَّمَا هِيَ إِذَا تَخَفَوْهَا وَتَوَتَّوْهَا الْفُقَرَاءُ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾** (٢٧٢).

﴿٢٧٠ - ٢٧١﴾ يخبر تعالى أنه مهما أنفق المنفقون أو تصدق المتصدقون أو نذر الناذرون فإن الله يعلم ذلك. ومضمون الإخبار بعلمه يدل على الجزاء وأن الله لا يضيع عنده مثقال ذرة، ويعلم ما صدرت عنه من نيات صالحة أو سيئة، وأن الظالمين الذين يمنعون ما أوجب الله عليهم، أو يقتحمون ما حرم عليهم، ليس لهم من دونه أنصار ينصرونهم ويمنعونهم. وأنه لا بد أن تقع بهم العقوبات، وأخبر أن الصدقة إن أبداها المتصدق فهي خير، وإن أخفاها وسلمها للفقير كان أفضل، لأن الإخفاء على الفقير إحسان آخر، وأيضاً فإنه يدل على قوة الإخلاص. وأحد السبعة الذين يظلمهم الله في ظله من تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، وفي قوله: ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾؛ فائدة لطيفة، وهو أن إخفاءها خير من إظهارها إذا أعطيت الفقير.

فأما إذا صرفت في مشروع خيري لم يكن في الآية ما يدل على فضيلة إخفائها، بل هنا قواعد الشرع تدل على مراعاة المصلحة، فربما كان الإظهار خيراً لحصول الأسوة والافتداء وتنشيط النفوس على أعمال الخير.

وقوله: ﴿ويكفر عنكم من سيئاتكم﴾؛ في هذا أن الصدقات يجتمع فيها الأمران: حصول الخير وهو كثرة الحسنات والثواب والأجر، ودفع الشر والبلاء الدنيوي والأخروي بتكفير السيئات ﴿والله بما تعملون خبير﴾؛ فيجازي كلا بعمله بحسب حكمته.

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْتُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ

(١) أخرجه البخاري (٧٣)، ومسلم (٨١٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

لَا تَظْلُمُونَ ﴿٢٧٢﴾ (١).

﴿٢٧٢﴾ أي: إنما عليك أيها الرسول البلاغ وحث الناس على الخير وزجرهم عن الشر، وأما الهداية فييد الله تعالى.

ويخبر عن المؤمنين حقاً أنهم لا ينفقون إلا لطلب مرضاة ربهم واحتساب ثوابه لأن إيمانهم يدعوهم إلى ذلك، فهذا خير وتزكية للمؤمنين، ويتضمن التذكير لهم بالإخلاص، وكرّر علمه تعالى بنفقاتهم لإعلامهم أنه لا يضيع عنده مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها، ويؤت من لدنه أجراً عظيماً.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ الْعَقْفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٢٧٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾.

﴿٢٧٣﴾ يعني أنه ينبغي أن تتحروا بصدقاتكم الفقراء الذين حبسوا أنفسهم في سبيل الله وعلى طاعته، وليس لهم إرادة في الاكتساب أو ليس لهم قدرة عليه وهم يتعففون إذا رآهم الجاهل ظن أنهم أغنياء ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾؛ فهم لا يسألون بالكلية وإن سألوا اضطراراً لم يلحفوا في السؤال، فهذا الصنف من الفقراء أفضل ما وضعت فيهم النفقات لدفع حاجتهم وإعانة لهم على مقصدهم وطريق الخير وشكراً لهم على ما اتصفوا به من الصبر والنظر إلى الخالق لا إلى الخلق، ومع ذلك فالإنفاق في طرق الإحسان وعلى المحاويع حيثما كانوا فإنه خير وأجر وثواب عند الله ولهذا قال:

﴿٢٧٤﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؛ فإن الله يظلمهم بظلمه يوم لا ظل إلا ظله، وإن الله ينيلهم الخيرات ويدفع عنهم الأحزان والمخاوف والكريهات. وقوله: ﴿فلهم أجرهم عند ربهم﴾؛ أي: كل أحد منهم بحسب حاله، وتخصيص

(١) «تنبيه»: في (أ) ﴿وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾ وعليه فسرهما. وفي (ب): «وما تنفقوا من خير يوف إليكم»؛ يوم القيامة تستوفون أجوركم ﴿وأنتم لا تظلمون﴾؛ أي: تنقصون من أعمالكم شيئاً، ولا مثقال ذرة، كما لا يزداد في سيئاتكم».

ذلك بأنه عند ربهم يدل على شرف هذه الحال ووقوعها في الموقع الأكبر كما في الحديث الصحيح «إن العبد ليتصدق بالتمرة من كسب طيب فيقبلها الجبار بيده فيريها لأحدكم كما يربي أحدكم فلؤه حتى تكون مثل الجبل العظيم»^(١).

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَالَّذِي لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ ثَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ لَا تَحْلُمُوا وَلَا تَحْلُمُوا وَلَا تَحْلُمُوا وَإِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِنْ كَانِ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾.

﴿٢٧٥﴾ لما ذكر الله حالة المنفقين وما لهم من الله من الخيرات وما يكفر عنهم من الذنوب والخطيئات ذكر الظالمين أهل الربا والمعاملات الخبيثة، وأخبر أنهم يجازون بحسب أعمالهم، فكما كانوا في الدنيا في طلب المكاسب الخبيثة كالمجانين عوقبوا في البرزخ والقيامة أنهم لا يقومون من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم ﴿إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾؛ أي: من الجنون والصرع وذلك عقوبة وخزي وفضيحة لهم وجزاء لهم على مراتبهم ومجاهرتهم بقولهم: ﴿إنما البيع مثل الربا﴾؛ فجمعوا - بجراءتهم - بين ما أحل الله وبين ما حرم الله واستباحوا بذلك الربا. ثم عرض تعالى التوبة على المرايين وغيرهم فقال: ﴿فمن جاءه موعظة من ربه﴾؛ بيان مقرون به الوعد والوعيد ﴿فانتهى﴾؛ عما كان يتعاطاه من الربا ﴿فله ما سلف﴾؛ مما تجرأ عليه وتاب منه ﴿وأمره إلى الله﴾؛ فيما

(١) أخرجه البخاري (١٤١٠، ٧٤٣٠)، ومسلم (١٠١٤)، والترمذي (٦٦١)، والنسائي (٥٧/٥، ٥٨)،

وابن ماجه (١٨٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. والمؤلف ذكره بمعناه. والله أعلم.

يستقبل من زمانه فإن استمر على توبته، فالله لا يضيع أجر المحسنين.

﴿ومن عاد﴾؛ بعد بيان الله وتذكيره وتوعده لأكل الربا ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾؛ في هذا أن الربا موجب لدخول النار والخلود فيها، وذلك لشناعته ما لم يمنع من الخلود مانع الإيمان، وهذا من جملة الأحكام التي تتوقف على وجود شروطها وانتفاء موانعها؛ وليس فيها حجة للخوارج كغيرها من آيات الوعيد، فالواجب أن تصدق جميع نصوص الكتاب والسنة فيؤمن العبد بما تواترت به النصوص من خروج من في قلبه أدنى مثقال حبة خردل من الإيمان من النار، ومن استحقاق هذه الموبات لدخول النار إن لم يتب منها.

﴿٢٧٦﴾ ثم أخبر تعالى أنه يمحق مكاسب المرابين ويربي صدقات المنفقين، عكس ما يتبادر لأذهان كثير من الخلق أن الإنفاق ينقص المال وأن الربا يزيده، فإن مادة الرزق وحصول ثمراته من الله تعالى، وما عند الله لا ينال إلا بطاعته وامتنال أمره، فالمتجرى على الربا يعاقبه بنقيض مقصوده، وهذا مشاهد بالتجربة ومن أصدق من الله قيلاً ﴿والله لا يحب كل كفار أثيم﴾؛ وهو الذي كفر نعمة الله، وجحد مئة ربه وأثم بإصراره على معاصيه.

ومفهوم الآية أن الله يحب من كان شكوراً على النعماء تائباً من المآثم والذنوب. ثم أدخل هذه الآية بين آيات الربا وهي قوله:

﴿٢٧٧ - ٢٧٩﴾ ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾؛ الآية لبيان أن أكبر الأسباب لاجتناب ما حرم الله من المكاسب الربوية تكميل الإيمان وحقوقه، خصوصاً إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والزكاة إحسان إلى الخلق ينافي تعاطي الربا الذي هو ظلم لهم وإساءة عليهم، ثم وجه الخطاب للمؤمنين وأمرهم أن يتقوه ويذروا ما بقي من معاملات الربا التي كانوا يتعاطونها قبل ذلك وأنهم إن لم يفعلوا ذلك فإنهم محاربون لله ورسوله، وهذا من أعظم ما يدل على شناعة الربا حيث جعل المصير عليه محارباً لله ورسوله، ثم قال: ﴿وإن تبتم﴾؛ يعني من المعاملات الربوية ﴿فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون﴾؛ الناس بأخذ الربا ﴿ولا تظلمون﴾؛ ببخسكم رؤوس أموالكم، فكل من تاب من الربا فإن كانت معاملات سالفة فله ما سلف وأمره منظور فيه، وإن كانت معاملات موجودة وجب عليه أن يقتصر على رأس ماله، فإن أخذ زيادة فقد تجرأ على الربا. وفي هذه الآية بيان لحكمة الربا وأنه

يتضمن الظلم للمحتاجين بأخذ الزيادة وتضاعف الربا عليهم وهو واجب إنظارهم، ولهذا قال:

﴿٢٨٠ - ٢٨١﴾ ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾؛ أي: وإن كان الذي عليه الدين معسراً لا يقدر على الوفاء وجب على غريمه أن يُنظره إلى ميسرة، وهو يجب عليه إذا حصل له وفاء بأي طريق مباح أن يوفي ما عليه، وإن تصدق عليه غريمه بإسقاط الدين كله أو بعضه فهو خير له، ويهون على العبد التزام الأمور الشرعية واجتناب المعاملات الربوية والإحسان إلى المعسرين؛ علمه بأن له يوماً يرجع فيه إلى الله ويوفيه عمله ولا يظلمه مثقال ذرة. كما ختم هذه الآية بقوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ ثم قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَلَا تَكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَفْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدَقُّ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ سُوءٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَبِعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨١﴾﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنِ مَقْبُوضَةً فَإِنْ آمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾.

﴿٢٨٢﴾ احتوت هذه الآيات على إرشاد الباري عباده في معاملاتهم إلى حفظ حقوقهم بالطرق النافعة والإصلاحات التي لا يقترح العقلاء أعلى ولا أكمل منها فإن فيها فوائد كثيرة:

منها: جواز المعاملات في الديون سواء كانت ديون سلم أو شراء مؤجلاً ثمنه فكله جائز، لأن الله أخبر به عن المؤمنين، وما أخبر به عن المؤمنين فإنه من

مقتضيات الإيمان وقد أقرهم عليه الملك الديان .

ومنها: وجوب تسمية الأجل في جميع المدائنات وحلول الإجراءات .

ومنها: أنه إذا كان الأجل مجهولاً فإنه لا يحل لأنه غرر وخطر فيدخل في الميسر .

ومنها: أمره تعالى بكتابة الديون، وهذا الأمر قد يجب إذا وجب حفظ الحق كالذي للعبد عليه ولاية، كأموال اليتامى والأوقاف والوكلاء والأمناء، وقد يقارب الوجوب كما إذا كان الحق متمحضاً للعبد فقد يقوى الوجوب وقد يقوى الاستحباب، بحسب الأحوال المقتضية لذلك، وعلى كل حال فالكتابة من أعظم ما تحفظ به هذه المعاملات المؤجلة لكثرة النسيان ولوقوع المغالطات، وللاحتراز من الخونة الذين لا يخشون الله تعالى .

ومنها: أمره تعالى للكاتب أن يكتب بين المتعاملين بالعدل فلا يميل مع أحدهما لقراءة ولا غيرها ولا على أحدهما لعداوة ونحوها .

ومنها: أن الكتابة بين المتعاملين من أفضل الأعمال ومن الإحسان إليهما، وفيها حفظ حقوقهما وبراءة ذمهما كما أمره الله بذلك فليحتسب الكاتب بين الناس هذه الأمور ليحظى بثوابها .

ومنها: أن الكاتب لا بد أن يكون عارفاً بالعدل معروفاً بالعدل، لأنه إذا لم يكن عارفاً بالعدل لم يتمكن منه، وإذا لم يكن معتبراً، عدلاً عند الناس، رضى، لم تكن كتابته معتبرة، ولا حاصلأً بها المقصود الذي هو حفظ الحقوق .

ومنها: أن من تمام الكتابة والعدل فيها أن يحسن الكاتب الإنشاء والألفاظ المعتمدة في كل معاملة بحسبها، وللعرف في هذا المقام اعتبار عظيم .

ومنها: أن الكتابة من نعم الله على العباد التي لا تستقيم أمورهم الدينية ولا الدنيوية إلا بها، وأن من علمه الله الكتابة فقد تفضل عليه بفضل عظيم، فمن تمام شكره لنعمة الله تعالى أن يقضي بكتابته حاجات العباد ولا يمتنع من الكتابة ولهذا قال: ﴿ولا ياب كاتب أن يكتب كما علمه الله﴾ .

ومنها: أن الذي يكتبه الكاتب هو اعتراف من عليه الحق إذا كان يحسن التعبير عن الحق الذي عليه، فإن كان لا يحسن ذلك لصغره أو سفهه أو جنونه أو خرسه أو عدم استطاعته، أملى عنه وليه، وقام وليه في ذلك مقامه .

ومنها: أن الاعتراف من أعظم الطرق التي تُثبِت بها الحقوق حيث أمر الله تعالى أن يكتب الكاتب ما أُملى عليه من عليه الحق.

ومنها: ثبوت الولاية على القاصرين من الصغار والمجانين والسفهاء ونحوهم.

ومنها: أن الولي يقوم مقام موليه في جميع اعترافاته المتعلقة بحقوقه.

ومنها: أن من أُمته في معاملة وفوضته فيها فقلوله في ذلك مقبول وهو نائب منك، لأنه إذا كان الولي على القاصرين ينوب منابهم، فالذي وليته باختيارك وفوضت إليه الأمر أولى بالقبول واعتبار قوله وتقديمه على قولك عند الاختلاف.

ومنها: أنه يجب على الذي عليه الحق إذا أُملى على الكاتب أن يتقي الله ولا يخس الحق الذي عليه فلا ينقصه في قدره ولا في وصفه ولا في شرط من شروطه أو قيد من قيوده، بل عليه أن يعترف بكل ما عليه من متعلقات الحق كما يجب ذلك إذا كان الحق على غيره له، فمن لم يفعل ذلك فهو من المطففين الباخسين.

ومنها: وجوب الاعتراف بالحقوق الجلية والحقوق الخفية وأن ذلك من أعظم خصال التقوى، كما أن ترك الاعتراف بها من نواقض التقوى ونواقصها.

ومنها: الإرشاد إلى الإشهاد في البيع فإن كانت في المداينات فحكمها حكم الكتابة كما تقدم، لأن الكتابة هي كتابة الشهادة، وإن كان البيع بيعاً حاضراً فينبغي الإشهاد فيه ولا حرج فيه بترك الكتابة لكثرة وحصول المشقة فيه.

ومنها: الإرشاد إلى إشهاد رجلين عدلين فإن لم يمكن أو تعذر أو تعسر فرجل وامرأتان، وذلك شامل لجميع المعاملات، ببيع الإدارة وبيع الديون وتوابعها من الشروط والوثائق وغيرها. وإذا قيل قد ثبت أنه ﷺ قضى بالشاهد الواحد مع اليمين^(١)، والآية الكريمة ليس فيها إلا شهادة رجلين أو رجل وامرأتين، قيل: الآية الكريمة فيها إرشاد الباري عباده إلى حفظ حقوقهم ولهذا أتى فيها بأكمل الطرق وأقواها، وليس فيها ما ينافي ما ذكره النبي ﷺ من الحكم بالشاهد واليمين، فباب حفظ الحقوق في ابتداء الأمر يرشد فيه العبد إلى الاحتراز والتحفظ التام، وباب الحكم بين المتنازعين ينظر فيه إلى المرجحات والبيّنات بحسب حالها.

ومنها: أن شهادة المرأتين قائمة مقام الرجل الواحد في الحقوق الدنيوية وأما في

(١) أخرجه مسلم (٧١٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وانظر لمزيد من الفائدة «الإرواء» (٢٦٨٣).

الأمر الديني كالرواية والفتوى فإن المرأة فيه تقوم مقام الرجل، والفرق ظاهر بين البابين.

ومنها: الإرشاد إلى الحكمة في كون شهادة المرأتين عن شهادة الرجل وأنه لضعف ذاكرة المرأة غالباً وقوة حافظه الرجل.

ومنها: أن الشاهد لو نسي شهادته فذكره الشاهد الآخر فذكر، أنه لا يضر ذلك النسيان إذا زال بالتذكير لقوله: ﴿أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾؛ ومن باب أولى إذا نسي الشاهد ثم ذكر من دون تذكير، فإن الشهادة مدارها على العلم واليقين.

ومنها: أن الشهادة لا بد أن تكون عن علم ويقين لا عن شك، فمتى صار عند الشاهد ريب في شهادته ولو غلب على ظنه لم يحل له أن يشهد إلا بما يعلم.

ومنها: أن الشاهد ليس له أن يمتنع إذا دعي للشهادة سواء دعي للتحمل أو للأداء وأن القيام بالشهادة من أفضل الأعمال الصالحة كما أمر الله بها وأخبر عن نفعها ومصلحتها.

ومنها: أنه لا يحل الإضرار بالكاتب ولا بالشهيد بأن يدعي في وقت أو حالة تضرهما. وكما أنه نهى لأهل الحقوق والمتعاملين أن يضاروا الشهود والكتاب فإنه أيضاً نهى للكاتب والشهيد أن يضار المتعاملين أو أحدهما. وفي هذا أيضاً أن الشاهد والكاتب إذا حصل عليهما ضرر في الكتابة والشهادة أنه يسقط عنهما الوجوب.

وفيها: التنبيه على أن جميع المحسنين الفاعلين للمعروف لا يحل إضرارهم وتحميلهم ما لا يطيقون، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ وكذلك على من أحسن وفعل معروفاً أن يتم إحسانه بترك الإضرار القولي والفعلية بمن أوقع به المعروف، فإن الإحسان لا يتم إلا بذلك.

ومنها: أنه لا يجوز أخذ الأجرة على الكتابة والشهادة حيث وجبت لأنه حق أوجه الله على الكاتب والشهيد، ولأنه من مضارة المتعاملين.

ومنها: التنبيه على المصالح والفوائد المترتبة على العمل بهذه الإرشادات الجليلة وأن فيها حفظ الحقوق والعدل وقطع النزاع والسلامة من النسيان والذهول ولهذا قال: ﴿ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا﴾؛ وهذه مصالح ضرورية للعباد.

ومنها: أن تعلم الكتابة من الأمور الدينية، لأنها وسيلة إلى حفظ الدين والدنيا وسبب للإحسان.

ومنها: أن من خصه الله بنعمة من النعم يحتاج الناس إليها فمن تمام شكر هذه النعمة أن يعود بها على عباد الله وأن يقضي بها حاجاتهم لتعليل الله النهي عن الامتناع عن الكتابة بتذكير الكاتب بقوله: ﴿كما علمه الله﴾؛ ومع هذا فمن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته.

ومنها: أن الإضرار بالشهود والكتاب فسوق بالإنسان، فإن الفسوق هو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته، وهو يزيد وينقص ويتبعض، ولهذا لم يقل فأنتم فساق أو فاسقون بل قال: ﴿فإنه فسوق بكم﴾؛ فبقدر خروج العبد عن طاعة ربه فإنه يحصل به من الفسوق بحسب ذلك، واستدل بقوله تعالى: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾؛ أن تقوى الله وسيلة إلى حصول العلم، وأوضح من هذا قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾؛ أي: علماً تفرقون به بين الحقائق والحق والباطل.

ومنها: أنه كما أنه من العلم النافع تعليم الأمور الدينية المتعلقة بالعبادات فمنه أيضاً تعليم الأمور الدنيوية المتعلقة بالمعاملات، فإن الله تعالى حفظ على العباد أمور دينهم ودنياهم، وكتابه العظيم فيه تبيان كل شيء.

ومنها: مشروعية الوثيقة بالحقوق وهي الرهون والضمانات التي تكفل للعبد حصول حقه سواء عامل براً أو فاجراً أميناً أو خائناً، فكم في الوثائق من حفظ حقوق وانقطاع منازعات.

ومنها: أن تمام الوثيقة في الرهن أن يكون مقبوضاً، ولا يدل ذلك على أنه لا يصح الرهن إلا بالقبض بل التقييد بكون الرهن مقبوضاً يدل على أنه قد يكون مقبوضاً تحصل به الثقة التامة وقد لا يكون مقبوضاً فيكون ناقصاً.

ومنها: أنه يستدل بقوله:

﴿٢٨٣﴾ ﴿فرهان مقبوضة﴾؛ أنه إذا اختلف الراهن والمرتهن في مقدار الدين الذي به الرهن أن القول قول المرتهن صاحب الحق لأن الله جعل الرهن وثيقة به فلولا أنه يقبل قوله في ذلك لم تحصل به الوثيقة لعدم الكتابة والشهود.

ومنها: أنه يجوز التعامل بغير وثيقة ولا شهود لقوله: ﴿فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي ائتمن أمانته﴾؛ ولكن في هذه الحال يحتاج إلى التقوى والخوف من الله

ولأفصاح الحق مخاطر في حقه ولهذا أمر الله في هذه الحال من عليه الحق أن يتقي الله ويؤدي أمانته.

ومنها: أن من ائتمنه معاملة فقد عمل معه معروفاً عظيماً ورضي بدينه وأمانته فيتأكد على من عليه الحق أداء الأمانة من الجهتين: أداء لحق الله وامتنالاً لأمره، ووفاء بحق صاحبه الذي رضي بأمانته ووثق به.

ومنها: تحريم كتم الشهادة وأن كاتمها قد أثم قلبه الذي هو ملك الأعضاء، وذلك لأن كتمها كالشهادة بالباطل والزور فيها ضياع الحقوق وفساد المعاملات والإثم المتكرر في حقه وحق من عليه الحق. وأما تقييد الرهن بالسفر مع أنه يجوز حضراً وسفراً فللحاجة إليه لعدم الكاتب والشهيد. وختم الآية بأنه عليم بكل ما يعمل به العباد كالترغيب لهم في المعاملات الحسنة والترهيب من المعاملات السيئة.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوُا يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾.

﴿٢٨٤﴾ يخبر تعالى بعموم ملكه لأهل السماء والأرض وإحاطة علمه بما أبداه العباد وما أخفوه في أنفسهم، وأنه سيحاسبهم به ﴿فيغفر لمن يشاء﴾ وهو المنيب إلى ربه الأبواب إليه، ﴿إنه كان للأوابين غفوراً﴾؛ ﴿ويعذب من يشاء﴾ وهو المصير على المعاصي في باطنه وظاهره، وهذه الآية لا تنافي الأحاديث الواردة في العفو عما حدث به العبد نفسه ما لم يعمل أو يتكلم^(١)، فتلك المخاطر التي تحدث بها النفوس التي لا يتصف بها العبد ولا يصمم عليها، وأما هنا فهي العزائم المصممة والأوصاف الثابتة في النفوس، أوصاف الخير وأوصاف الشر، ولهذا قال: ﴿ما في أنفسكم﴾؛ أي: استقر فيها وثبت من العزائم والأوصاف. وأخبر أنه ﴿على كل شيء قدير﴾؛ فمن تمام قدرته محاسبة الخلائق وإيصال ما يستحقونه من الثواب والعقاب.

﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرُوا بَيْنَ يَدَيْ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ لَا

(١) كما في «صحيح البخاري» (٥٢٦٩)، ومسلم (١٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ
أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا
طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ .

﴿٢٨٥ - ٢٨٦﴾ ثبت عنه ﷺ أن من قرأ هاتين الآيتين في ليلة كفتاه^(١)؛ أي:
من جميع الشرور، وذلك لما احتوتا عليه من المعاني الجلية، فإن الله أمر في أول
هذه السورة الناس بالإيمان بجميع أصوله في قوله: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل
إلينا﴾؛ الآية، وأخبر في هذه الآية أن الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين آمنوا بهذه
الأصول العظيمة وبجميع الرسل وجميع الكتب، ولم يصنعوا صنيع من آمن ببعض
وكفر ببعض كحالة المنحرفين من أهل الأديان المنحرفة. وفي قرن المؤمنين
بالرسول ﷺ والإخبار عنهم جميعاً بخبر واحد شرف عظيم للمؤمنين، وفيه أنه ﷺ
مشارك للأمة في توجه الخطاب الشرعي له وقيامه التام به وأنه فاق المؤمنين بل فاق
جميع المرسلين في القيام بالإيمان وحقوقه.

وقوله: ﴿وقالوا سمعنا وأطعنا﴾؛ هذا التزام من المؤمنين عام لجميع ما جاء به
النبي ﷺ من الكتاب والسنة، وأنهم سمعوه سماع قبول وإذعان وانقياد. ومضمون
ذلك تضرعهم إلى الله في طلب الإعانة على القيام به وأن الله يغفر لهم ما قصروا
فيه من الواجبات وما ارتكبوه من المحرمات، وكذلك تضرعوا إلى الله في هذه
الأدعية النافعة، والله تعالى قد أجاب دعاءهم على لسان نبيه ﷺ فقال: «قد
فعلت»^(٢).

فهذه الدعوات مقبولة من مجموع المؤمنين قطعاً ومن أفرادهم إذا لم يمنع من
ذلك مانع في الأفراد، وذلك أن الله رفع عنهم المؤاخذه في الخطأ والنسيان
وأن الله سهل عليهم شرعه غاية التسهيل، ولم يحملهم من المشاق والآصار
والأغلال ما حملة على من قبلهم، ولم يحملهم فوق طاقتهم، وقد غفر لهم
ورحمهم ونصرهم على القوم الكافرين. فنسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته وبما منَّ
به علينا من التزام دينه أن يحقق لنا ذلك وأن ينجز لنا ما وعدنا على لسان نبيه،
وأن يصلح أحوال المؤمنين.

(١) أخرجه البخاري (٥٠٥١)، ومسلم (٨٠٧) من حديث أبي مسعود الأنصاري البصري رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم (١٢٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

ويؤخذ من هذا قاعدة التيسير ونفي الحرج في أمور الدين كلها، وقاعدة العفو عن النسيان والخطأ في العبادات وفي حقوق الله تعالى، وكذلك في حقوق الخلق من جهة رفع المأثم وتوجيه الذم، وأما وجوب ضمان المتلفات خطأ أو نسياناً في النفوس والأموال فإنه مرتب على الإلتلاف بغير حق، وذلك شامل لحالة الخطأ والنسيان والعمد.

تم تفسير سورة البقرة. ولله الحمد والثناء. وصلى الله على محمد وسلم.

تفسير سورة آل عمران

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿١﴾ زَكَرَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٢﴾ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ لِنَّاسٍ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ إِنَّا الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾

﴿١﴾ ﴿الْحَمْدُ﴾؛ من الحروف التي لا يعلم معناها إلا الله.

﴿٢﴾ فأخبر تعالى أنه ﴿الحي﴾؛ كامل الحياة ﴿القيوم﴾؛ القائم بنفسه المقيم لأحوال خلقه، وقد أقام أحوالهم الدينية وأحوالهم الدنيوية والقدرية، فأنزل على رسوله محمد ﷺ الكتاب بالحق الذي لا ريب فيه وهو مشتمل على الحق.

﴿٣ - ٤﴾ ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ من الكتب أي شهد بما شهدت به ووافقها وصدق من جاء بها من المرسلين. وكذلك ﴿أَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلِ هَذَا الْكِتَابِ﴾، ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾؛ وأكمل الرسالة وختمها بمحمد ﷺ وكتابه العظيم الذي هدى الله به الخلق من الضلالات واستنقذهم به من الجهالات، وفرق به بين الحق والباطل والسعادة والشقاوة، والصراط المستقيم وطرق الجحيم، فالذين آمنوا به، واهتدوا حصل لهم به الخير الكثير والثواب العاجل والآجل و﴿الذين كفروا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾؛ التي بينها في كتابه وعلى لسان رسوله ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾؛ ممن عصاه.

﴿٥ - ٦﴾ ومن تمام قيوميته تعالى أن علمه محيط بالخلائق ﴿لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾؛ حتى ما في بطون الحوامل فهو ﴿الذي يصوركم

في الأرحام كيف يشاء ﴿٦﴾؛ من ذكر وأُنثى وكامل الخلق وناقصه متفقلين في أطوار خلقته وبديع حكمته، فمن هذا شأنه مع عباده واعتناؤه العظيم بأحوالهم من حين أنشأهم إلى منتهى أمورهم لا مشارك له في ذلك فيتعين أنه لا يستحق العبادة إلا هو ﴿لا إله إلا هو العزيز﴾؛ الذي قهر الخلائق بقوته، واعتز عن أن يوصف بنقص، أو ينعت بدم. ﴿الحكيم﴾؛ في خلقه وشرعه.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكِمُكَ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلُ الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾.

﴿٧﴾ يخبر تعالى عن عظمته وكمال قيوميته أنه هو الذي تفرد بإنزال هذا الكتاب العظيم، الذي لم يوجد، ولن يوجد له نظير أو مقارب في هدايته وبلاغته وإعجازه وإصلاحه للخلق، وأن هذا الكتاب يحتوي على المحكم الواضح المعاني، البين الذي لا يشبهه بغيره، ومنه آيات متشابهات تحتمل بعض المعاني، ولا يتعين منها واحد من الاحتمالين بمجرد ما حتى تضم إلى المحكم، فالذين في قلوبهم مرض وزيف وانحراف لسوء قصدهم يتبعون المتشابه منه؛ فيستدلون به على مقالاتهم الباطلة، وآرائهم الزائفة، طلباً للفتنة وتحريفاً لكتابه، وتأويلاً له على مشاربهم ومذاهبهم ليضلوا ويضلوا.

وأما أهل العلم الراسخون فيه الذين وصل العلم واليقين إلى أفئدتهم، فأنم لهم العمل والمعارف فيعلمون أن القرآن كله من عند الله وأنه كله حق محكمه ومتشابهه، وأن الحق لا يتناقض ولا يختلف، فلعلمهم أن المحكمات معناها في غاية الصراحة والبيان، يردون إليها المشتبه الذي تحصل فيه الحيرة لناقص العلم وناقص المعرفة، فيردون المتشابه إلى المحكم فيعود كله محكماً ويقولون: ﴿آمنّا به كل من عند ربنا وما يذكر﴾؛ للأمر النافعة والعلوم الصائبة ﴿إلا أولو الألباب﴾؛ أي: أهل العقول الرزينة، ففي هذا دليل على أن هذا من علامة أولي الألباب وأن اتباع المتشابه من أوصاف أهل الآراء السقيمة والعقول الواهية والقصود السيئة.

وقوله: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾؛ إن أريد بالتأويل معرفة عاقبة الأمور وما تنتهي وتؤول إليه تعين الوقوف على ﴿إلا الله﴾ حيث هو تعالى المتفرد بالتأويل

بهذا المعنى، وإن أريد بالتأويل معنى التفسير ومعرفة معنى الكلام كان العطف أولى؛ فيكون هذا مدحاً للراسخين في العلم، أنهم يعلمون كيف ينزلون نصوص الكتاب والسنة محكمها ومتشابهها.

ولما كان المقام مقام انقسام إلى منحرفين ومستقيمين دعوا الله تعالى أن يثبتهم على الإيمان فقالوا:

﴿٨﴾ رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا؛ أَي: لَا تَمْلِهَا عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ تصلح بها أحوالنا؛ ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾؛ أَي: كَثِيرُ الْفَضْلِ وَالْهَبَاتِ. وهذه الآية تصلح مثلاً للطريقة التي يتعين سلوكها في المتشابهات، وذلك أن الله تعالى ذكر عن الراسخين أنهم يسألونه أن لا يزيغ قلوبهم بعد إذ هداهم؛ وقد أخبر في آيات أخر الأسباب التي بها تزيغ قلوب أهل الانحراف وأن ذلك بسبب كسبهم كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾؛ ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾؛ ﴿وَنَقَلْبَ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَٰىءَ﴾ فالعبد إذا تولى عن ربه، ووالى عدوه، ورأى الحق فصدف عنه ورأى الباطل فاختره ولاه الله ما تولى لنفسه، وأزاع قلبه عقوبة له على زيغ، وما ظلمه الله ولكنه ظلم نفسه، فلا يلم إلا نفسه الأمانة بالسوء. والله أعلم.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ ٩.

﴿٩﴾ هذا من تنمة كلام الراسخين في العلم، وهو يتضمن الإقرار بالبعث والجزاء واليقين التام، وأن الله لا بد أن يوقع ما وعد به، وذلك يستلزم موجه ومقتضاه من العمل والاستعداد لذلك اليوم، فإن الإيمان بالبعث والجزاء أصل صلاح القلوب، وأصل الرغبة في الخير والرغبة من الشر اللذين هما أساس الخيرات.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُنْفِكَ عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَزْلُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ ١٠ ﴿كَذَٰبٌ مَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ١١.

﴿١٠ - ١١﴾ لما ذكر يوم القيامة، ذكر أن جميع من كفر بالله، وكذب رسل الله لا بد أن يدخلوا النار ويصلوها، وأن أموالهم وأولادهم لن تغني عنهم شيئاً من عذاب الله، وأنه سيجري عليهم في الدنيا من الأخذات والعقوبات ما

ولا خطر على قلب بشر، ولهم رضوان الله الذي هو أكبر من كل شيء، ولهم الأزواج المطهرة من كل آفة ونقص، جميلات الأخلاق كاملات الخلائق، لأن النفي يستلزم ضده، فتطهيرها من الآفات مستلزم لوصفها بالكمالات.

﴿والله بصير بالعباد﴾؛ فييسر كلاً منهم لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرهم للعمل لهذه الدار الباقية ويأخذون من هذه الحياة الدنيا ما يعينهم على عبادة الله وطاعته، وأما أهل الشقاوة والإعراض فيقيضهم لعمل أهل الشقاوة، ويرضون بالحياة الدنيا، ويطمثون بها، ويتخذونها قراراً.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا فَأَغْوَيْنَا دُونَنَا دُوبُنَا وَقَيْنَا عَذَابَ النَّارِ ۖ﴾ (١٦) ﴿الْقَصِيرِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقِينَ بِالْأَسْحَارِ ۖ﴾.

﴿١٦﴾ أي: هؤلاء الراسخون في العلم أهل العلم والإيمان يتوسلون إلى ربهم بإيمانهم لمغفرة ذنوبهم ووقايتهم عذاب النار، وهذا من الوسائل التي يحبها الله أن يتوسل العبد إلى ربه بما من به عليه من الإيمان والأعمال الصالحة إلى تكميل نعم الله عليه بحصول الثواب الكامل واندفاع العقاب.

﴿١٧﴾ ثم وصفهم بأجمل الصفات: بالصبر الذي هو حبس النفوس على ما يحبه الله طلباً لمرضاته، يصبرون على طاعة الله ويصبرون عن معاصيه ويصبرون على أقداره المؤلمة، وبالصدق بالأقوال والأحوال وهو استواء الظاهر والباطن وصدق العزيمة على سلوك الصراط المستقيم، وبالقنوت الذي هو دوام الطاعة مع مصاحبة الخشوع والخضوع، وبالنفقات في سبل الخيرات وعلى الفقراء وأهل الحاجات، وبالاستغفار خصوصاً وقت الأسحار، فإنهم مدوا الصلاة إلى وقت السحر؛ فجلسوا يستغفرون الله تعالى.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۖ﴾ (١٨).

﴿١٨﴾ هذه أجل الشهادات الصادرة من الملك العظيم، ومن الملائكة، وأهل العلم على أجل مشهود عليه وهو توحيد الله وقيامه بالقسط، وذلك يتضمن الشهادة على جميع الشرع وجميع أحكام الجزاء، فإن الشرع والدين أصله وقاعدته توحيد الله وإفراده بالعبودية والاعتراف بانفراده بصفات العظمة والكبرياء والمجد والعز والقدرة والجلال وبنوعات الجود والبر والرحمة والإحسان والجمال، وبكمال

المطلق الذي لا يحصي أحد من الخلق أن يحيطوا بشيء منه أو يبلغوه أو يصلوا إلى الثناء عليه، والعبادات الشرعية والمعاملات وتوابعها والأمر والنهي كله عدل وقسط لا ظلم فيه ولا جورَ بوجه من الوجوه، بل هو في غاية الحكمة والإحكام، والجزاء على الأعمال الصالحة والسيئة كله قسط وعدل، ﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله﴾؛ فتوحيد الله ودينه وجزاؤه قد ثبت ثبوتاً لا ريب فيه وهو أعظم الحقائق وأوضحها، وقد أقام الله على ذلك من البراهين والأدلة ما لا يمكن إحصاؤه وعده.

وفي هذه الآية فضيلة العلم والعلماء لأن الله خصهم بالذكر من دون البشر، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته وجعل شهادتهم من أكبر الأدلة والبراهين على توحيده ودينه وجزائه، وأنه يجب على المكلفين قبول هذه الشهادة العادلة الصادقة، وفي ضمن ذلك تعديلهم وأن الخلق تبع لهم وأنهم هم الأئمة والمتبوعون، وفي هذا من الفضل والشرف وعلو المكانة ما لا يقادر قدره.

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْأَسْلَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا أَلْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْوَلْمُ بَقِيًّا يَنْتَهُمُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١٩).

﴿١٩﴾ يخبر تعالى ﴿إن الدين عند الله﴾؛ أي الدين الذي لا دين لله سواه ولا مقبول غيره هو ﴿الإسلام﴾؛ وهو الانقياد لله وحده ظاهراً وباطناً بما شرعه على السنة رسله، قال تعالى: ﴿ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾؛ فمن دان بغير دين الإسلام فهو لم يدن لله حقيقة لأنه لم يسلك الطريق الذي شرعه على السنة رسله.

ثم أخبر تعالى أن أهل الكتاب يعلمون ذلك وإنما اختلفوا فانحرفوا عنه عناداً وبغياً. وإلا فقد جاءهم العلم المقتضي لعدم الاختلاف الموجب للزوم الدين الحقيقي، ثم لما جاءهم محمد ﷺ عرفوه حق المعرفة، ولكن الحسد والبغي والكفر بآيات الله هي التي صدتهم عن اتباع الحق ﴿ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾؛ أي: فلينتظروا ذلك فإنه آت وسيجزئهم الله بما كانوا يعملون.

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا أَلْكِتَابَ الْأَوَّلِينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَكَدُوا وَلَئِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بِمِصْرٍ بِالْعِبَادِ﴾ (٢٠).

﴿٢٠﴾ لما بين أن الدين الحقيقي عنده الإسلام، وكان أهل الكتاب قد شافهوا

النبي ﷺ بالمجادلة وقامت عليهم الحجة فعاندوها، أمره الله تعالى عند ذلك أن يقول ويعلن أنه قد أسلم وجهه أي ظاهره وباطنه لله، وأن من اتبعه كذلك قد وافقوه على هذا الإذعان الخالص، وأن يقول للناس كلهم من أهل الكتاب والأميين أي الذين ليس لهم كتاب من العرب وغيرهم إن أسلمتم فأنتم على الطريق المستقيم والهدى والحق وإن توليتم فحسابكم على الله، وأنا ليس عليّ إلا البلاغ، وقد أبلغتكم وأقمت عليكم الحجة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿٢١ - ٢٢﴾ أي: الذين جمعوا بين هذه الشرور: الكفر بآيات الله، وتكذيب رسل الله، والجناية العظيمة على أعظم الخلق حقاً على الخلق وهم الرسل وأئمة الهدى، الذين يأمرون الناس بالقسط الذي اتفقت عليه الأديان والعقول فهؤلاء قد حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة؛ واستحقوا العذاب الأليم، وليس لهم ناصر من عذاب الله ولا منقذ من عقوبته.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنْ آلِ كُتَيْبٍ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمْسَنَا أَنْتَ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَقْتُلُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿٢٣ - ٢٥﴾ أي: ألا تنظر وتعجب من هؤلاء ﴿الذين أُوتوا نصيباً من الكتاب﴾ و ﴿يدعون إلى كتاب الله﴾؛ الذي يصدق ما أنزله على رسله ﴿ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون﴾؛ عن اتباع الحق فكأنه قيل: لأي داع دعاهم إلى هذا الإعراض وهم أحق بالاتباع وأعرفهم بحقيقة ما جاء به محمد ﷺ؟ فذكر لذلك سببين:

أمنهم وشهادتهم الباطلة لأنفسهم بالنجاة وأن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودة حددوها بحسب أهوائهم الفاسدة، كأن تدبير الملك راجع إليهم حيث قالوا: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾؛ ومن المعلوم أن هذه أمانتي باطلة شرعاً وعقلاً.

والسبب الثاني: أنهم لما كذبوا بآيات الله، وافتروا عليه زين لهم الشيطان سوء عملهم، واغتروا بذلك وتراءى لهم أنه الحق عقوبة لهم على إعراضهم عن الحق، فهؤلاء كيف يكون حالهم إذا جمعهم الله يوم القيامة، ووفى العاملين ما عملوا وجرى عدل الله في عبادته؟ فهناك لا تسأل عما يصلون إليه من العقاب وما يفوتهم من الخير والثواب، وذلك بما كسبت أيديهم، وما ربك بظلام للعبيد.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿٢٦ - ٢٧﴾ يأمر تعالى نبيه ﷺ أصلاً وغيره تبعاً أن يقول عن ربه معلناً بتفرده بتصريف الأمور، وتدبير العالم العلوي والسفلي، واستحقاقه باختصاصه بالملك المطلق والتصريف المحكم، وأنه يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، فليس الأمر بأمانى أهل الكتاب ولا غيرهم، بل الأمر أمر الله، والتدبير له، فليس له معارض في تدبيره، ولا معاون في تقديره وأنه كما أنه المتصرف بمداولة الأيام بين الناس فهو المتصرف بنفس الزمان: يولج النهار في الليل ويولج الليل في النهار؛ أي: يدخل هذا على هذا ويحل هذا محل هذا ويزيد في هذا ما ينقص من هذا ليقم بذلك مصالح خلقه، ويخرج الحي من الميت كما يخرج الزروع والأشجار المتنوعة من بذورها والمؤمن من الكافر والميت من الحي، كما يخرج الحبوب والنوى والزروع والأشجار والبيضة من الطائر، فهو الذي يخرج المتضادات بعضها من بعض، وقد انقادت له جميع العناصر.

وقوله: ﴿يَبْدُكَ الْخَيْرُ﴾؛ أي: الخير كله منك ولا يأتي بالحسنات والخيرات إلا الله، وأما الشر فإنه لا يضاف إلى الله تعالى لا وصفاً ولا اسماً ولا فعلاً، ولكنه يدخل في مفعولاته ويندرج في قضائه وقدره، فالخير والشر كله داخل في القضاء والقدر فلا يقع في ملكه إلا ما شاءه، ولكن الشر لا يضاف إلى الله، فلا يقال بيدك الخير والشر، بل يقال بيدك الخير كما قاله الله وقاله رسوله، وأما استدراك بعض المفسرين حيث قال: وكذلك الشر بيد الله فإنه وهم محض، ملحظهم حيث ظنوا أن تخصيص الخير بالذكر ينافي قضاءه وقدره العام، وجوابه ما فصلناه.

وقوله: ﴿وَتَرْزُقُ مِنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ وقد ذكر الله في غير هذه الآية الأسباب التي ينال بها رزقه كقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾؛ ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾؛ فعلى العباد أن لا يطلبوا الرزق إلا من الله، ويسعوا فيه بالأسباب التي يسرها الله وأباحها.

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿٢٨﴾ هذا نهى من الله وتحذير للمؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فإن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، والله وليهم ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾؛ التولي، ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾؛ أي: فهو بريء من الله، والله بريء منه كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُمْ مِنْهُمْ﴾؛ وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا﴾؛ أي: إلا أن تخافوا على أنفسكم في إبداء العداوة للكافرين فلکم في هذه الحال الرخصة في المسالمة والمهادنة لا في التولي الذي هو محبة القلب الذي تتبعه النصره، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾؛ أي: فخافوه واخشوه وقدموا خشيته على خشية الناس فإنه هو الذي يتولى شؤون العباد، وقد أخذ بنواصيهم وإليه يرجعون وسيصيرون إليه، فيجازي من قدم خوفه ورجاءه على غيره بالشواب الجزيل، ويعاقب الكافرين ومن تولاهم بالعذاب الويل.

﴿قُلْ إِنْ تُخَفُّوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوا يَمَلِكُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرّاً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٢٩ - ٣٠﴾ يخبر تعالى بإحاطة علمه بما في الصدور سواء أخفاه العباد أو أبدوه، كما أن علمه محيط بكل شيء في السماء والأرض فلا تخفى عليه خافية، ومع إحاطة علمه فهو العظيم القدير على كل شيء الذي لا يمتنع عن إرادته موجود. ولما ذكر لهم من عظمتهم وسعة أوصافه ما يوجب للعباد أن يراقبوه في كل أحوالهم، ذكر لهم أيضاً داعياً آخر إلى مراقبته وتقواه وهو أنهم كلهم صاثرون إليه وأعمالهم حينئذ من خير وشر محضرة، فحينئذ يغتبط أهل الخير بما قدموه لأنفسهم، ويتحسر أهل الشر إذا وجدوا ما عملوه محضراً، ويودون أن بينهم وبينه أمدأ بعيداً.

فإذا عرف العبد أنه ساع إلى ربه وكادح في هذه الحياة، وأنه لا بد أن يلاقي ربه ويلاقي سعيه أوجب له أخذ الحذر والتوقي من الأعمال التي توجب الفضيحة والعقوبة، والاستعداد بالأعمال الصالحة التي توجب السعادة والمثوبة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾؛ وذلك بما يبدي لكم من أوصاف عظمتة وكمال عدله وشدة نكاله، ومع شدة عقابه فإنه رءوف رحيم، ومن رأفته ورحمته أنه خوف العباد، وزجرهم عن الغي والفساد، كما قال تعالى لما ذكر العقوبات: ﴿ذَلِكَ يَخَوْفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ، يَا عِبَادُ فَاتَّقُونِ﴾؛ فرأفته ورحمته سهلت لهم الطرق التي ينالون بها الخيرات، ورأفته ورحمته حذرتهم من الطرق التي تفضي بهم إلى المكروهات.

فنسأله تعالى أن يتم علينا إحسانه بسلوك الصراط المستقيم والسلامة من الطرق التي تفضي بسالكها إلى الجحيم.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ٣٢﴾.

﴿٣١ - ٣٢﴾ هذه الآية هي الميزان التي يُعرف بها من أحب الله حقيقة ومن ادعى ذلك دعوى مجردة؛ فعلامة محبة الله اتباع محمد ﷺ الذي جعل متابعتة وجميع ما يدعو إليه طريقاً إلى محبته ورضوانه فلا تُنال محبة الله ورضوانه وثوابه إلا بتصديق ما جاء به الرسول من الكتاب والسنة وامتنال أمرهما واجتناب نهيهما، فمن فعل ذلك أحبه الله وجازاه جزاء المحبين، وغفر له ذنوبه وستر عليه عيوبه، فكانه قيل: ومع ذلك فما حقيقة اتباع الرسول وصفتها؟ فأجاب بقوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾؛ بامتنال الأمر واجتناب النهي وتصديق الخبر ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾؛ عن ذلك؛ فهذا هو الكفر والله ﴿لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾ (١) إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِنَّكَ أَنتَ الْكَافِرُ ٣٦﴾ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٣٧﴾

(١) في الأصل إلى آخر القصة.

﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَلْبَسَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُزِقُّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ بَيْنِ رِجَالٍ حِسَابِ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَأِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ الْآلَاءُ تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَمِعَ بِالْعَشَى وَالْإِنْبَكْرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرِئُمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرِئُمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَتُمُ أَيُّهُمْ يَكْمُلُ مَرِيئٌ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرِئُمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنْ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتِ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُزْرِقُهُ الْأَنْعَامَ وَالْأَنْبَرِ وَأُخِي الْمَوْتَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوايَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴿٥٢﴾ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٤﴾ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٥﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيْكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ﴿٥٦﴾

﴿٣٣ - ٥٥﴾ لله تعالى من عباده أصفياء يصطفاهم ويختارهم ويمن عليهم بالفضائل العالية والنعوت السامية والعلوم النافعة والأعمال الصالحة والخصائص المتنوعة، فذكر هذه البيوت الكبار وما احتوت عليه من كُمل الرجال الذين حازوا أوصاف الكمال، وأن الفضل والخير تسلسل في ذرائعهم، وشمل ذكورهم ونساءهم وهذا من أجل مننه وأفضل مواقع جوده وكرمه ﴿والله سميع عليم﴾؛ يعلم من يستحق الفضل والتفضيل فيضع فضله حيث اقتضت حكمته. فلما قرر عظمة هذه البيوت ذكر قصة مريم وابنها عيسى ﷺ وكيف تسلسلا من هذه البيوت الفاضلة، وكيف تنقلت بهما الأحوال من ابتداء أمرهما إلى آخره، وأن امرأة عمران قالت متضرعة إلى ربها متقربة إليه بهذه القرية التي يحبها، التي فيها تعظيم بيته وملازمة طاعته: ﴿إني نذرت لك ما في بطني محرراً﴾؛ أي خادماً لبيت العبادة المشحون بالمتعبدين ﴿فتقبل مني﴾؛ هذا العمل أي اجعله مؤسساً على الإيمان والإخلاص مثمراً للخير والثواب ﴿إنك أنت السميع العليم﴾. فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى؛ كأن في هذا الكلام نوع تضرع منها وانكسار نفس حيث كان نذرهما بناءً على أنه يكون ذكراً يحصل منه من القوة والخدمة والقيام بذلك ما يحصل من أهل القوة، والأنثى بخلاف ذلك، فجبر الله قلبها وتقبل الله نذرهما، وصارت هذه الأنثى أكمل وأتم من كثير من الذكور، بل من أكثرهم، وحصل بها من المقاصد أعظم مما يحصل بالذكر، ولهذا قال: ﴿فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبأها نباتاً حساناً﴾؛ أي: ربيت تربية عجيبة دينية أخلاقية أدبية، كملت بها أحوالها، وصلحت بها أقوالها وأفعالها، ونما فيها كمالها، ويسر الله لها زكريا كافلاً، وهذا من مِنة الله على العبد أن يجعل من يتولى تربيته من الكاملين المصلحين.

ثم إن الله تعالى أكرم مريم وزكريا حيث يسّر لمريم من الرزق الحاصل بلا كد ولا تعب، وإنما هو كرامة أكرمها الله به، إذ ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب﴾؛ وهو محل العبادة وفيه إشارة إلى كثرة صلاتها وملازمتها لمحرابها ﴿وجد عندها رزقاً﴾؛ هنيئاً معداً قال: ﴿أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾؛ فلما رأى زكريا هذه الحال والبر واللطف من الله بها، ذكره أن يسأل الله تعالى حصول الولد على حين اليأس منه فقال: ﴿رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء﴾. فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصداقاً بكلمة من الله؛ اسمه أي: الكلمة التي من الله

عيسى بن مريم فكانت بشارته بهذا النبي الكريم تتضمن البشارة بعيسى بن مريم والتصديق له والشهادة له بالرسالة، فهذه الكلمة من الله كلمة شريفة اختص الله بها عيسى بن مريم، وإلا فهي من جملة كلماته التي أوجد بها المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿إِنْ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

وقوله: ﴿وَسِيداً وَحَصوراً﴾؛ أي: هذا المبشّر به وهو يحيى سيد من فضلاء الرسل وكرامهم، والحصور قيل هو الذي لا يولد له ولا شهوة له في النساء، وقيل هو الذي عصم وحفظ من الذنوب والشهوات الضارة، وهذا أليق المعنيين، ﴿وَنَبِيّاً من الصّالحين﴾؛ الذين بلغوا في الصلاح ذروته العالية، ﴿قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر﴾؛ فهذان مانعان فمن أى طريق يا رب يحصل لى ذلك مع ما ينافى ذلك ﴿قال كذلك الله يفعل ما يشاء﴾؛ فإنه كما اقتضت حكمته جريان الأمور بأسبابها المعروفة، فإنه قد يخرق ذلك لأنه الفعّال لما يريد، الذى قد انقادت الأسباب لقدرته، ونفذت فيها مشيئته وإرادته فلا يتعاصى على قدرته شيء من الأسباب ولو بلغت في القوة ما بلغت ﴿قال رب اجعل لى آية﴾؛ ليحصل السرور والاستبشار وإن كنت يا رب متيقناً ما أخبرتنى به ولكن النفس تفرح، ويطمئن القلب إلى مقدمات الرحمة واللطيف، ﴿قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا﴾؛ وفي هذه المدة ﴿أذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار﴾؛ أول النهار وآخره، فمنع من الكلام في هذه المدة، فكان في هذا مناسبة لحصول الولد من بين الشيخ الكبير والمرأة العاقر، وكونه لا يقدر على مخاطبة الآدميين ولسانه منطلق بذكر الله وتسبيحه آية أخرى، فحينئذ حصل له الفرح والاستبشار، وشكر الله، وأكثر من الذكر والتسبيح بالعشايا والإبكار.

وكان هذا المولود من بركات مريم بنت عمران على زكريا، فإن ما من الله به عليها من ذلك الرزق الهني الذي يحصل بغير حساب ذكره وهيجه على التضرع والسؤال، والله تعالى هو المتفضل بالسبب والمسبب ولكنه يقدر أموراً محبوبة على يد من يحبه ليرفع الله قدره ويُعْظَم أجره، ثم عاد تعالى إلى ذكر مريم وأنها بلغت في العبادة والكمال مبلغاً عظيماً فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾؛ أي: اختارك ووهب لك من الصفات الجليلة والأخلاق الجميلة ﴿وطهرَكِ﴾؛ من الأخلاق الرذيلة ﴿واصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾؛ ولهذا قال ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية

بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام^(١)، فنادتها الملائكة عن أمر الله لها بذلك لتغتبط بنعم الله وتشكر الله، وتقوم بحقوقه، وتشتغل بخدمته، ولهذا قال الملائكة: ﴿يا مريم اقنتي لربك﴾؛ أي: أكثرِي من الطاعة والخضوع والخشوع لربك وأديمي ذلك ﴿واركعي مع الراكعين﴾؛ أي: صلي مع المصلين فقامت بكل ما أمرت به وبرزت وفاقت في كمالها.

ولما كانت هذه القصة وغيرها من أكبر الأدلة على رسالة محمد ﷺ حيث أخبر بها مفصلة محققة لا زيادة فيها ولا نقص، وما ذاك إلا لأنه وحي من الله العزيز الحكيم لا يتعلم من الناس قال تعالى: ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم﴾؛ حيث جاءت بها أمها فاختموا أيهم يكفلها لأنها بنت إمامهم ومقدمهم، وكلهم يريد الخير والأجر من الله حتى وصلت بهم الخصومة إلى أن اقترعوا عليها فألقوا أقلامهم مقترعين، فأصابته القرعة زكريا رحمة من الله به وبها

فأنت - يا أيها الرسول - لم تحضر تلك الحالة لتعرفها فتقصها على الناس، وإنما الله نباك بها، وهذا هو المقصود الأعظم من سياق القصص أنه يحصل بها العبرة، وأعظم العبر والاستدلال بها على التوحيد والرسالة والبعث وغيرها من الأصول الكبار ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾؛ أي: له الواجهة والجاه العظيم في الدنيا والآخرة عند الخلق، ومع ذلك فهو عند الله من المقربين الذين هم أقرب الخلائق إلى الله وأعلاهم درجة، وهذه بشارة لا يشبهها شيء من البشارات، ومن تمام هذه البشارة أنه ﴿يكلم الناس في المهد﴾؛ فيكون تكليمه آية من آيات الله ورحمة منه بأمه وبالخلق، وكذلك يكلمهم ﴿كهلاً﴾؛ أي: في حال كهولته، وهذا تكليم النبوة والدعوة والإرشاد، فكلامه في المهد فيه آيات وبراهين على صدقه ونبوته وبراءة أمه مما يظن بها من الظنون السيئة، وكلامه في كهولته فيه نفعه العظيم للخلق وكونه واسطة بينهم وبين ربهم في وحيه وتبليغ دينه وشرعه، ومع ذلك فهو ﴿من الصالحين﴾؛ الذين أصلح الله قلوبهم بمعرفته وحبه، وألستهم

(١) أخرجه البخاري (٣٧٦٩)، ومسلم (٢٤٣١) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وزيادة خديجة بنت خويلد ليست في البخاري ومسلم وعزاها الحافظ في «الفتح» (٤٤٧/٦) للطبراني وأبي نعيم في «الحلية».

بالثناء عليه وذكره وجوارحهم بطاعته وخدمته ﴿قالت رب أنى يكون لى ولد ولم
يمسنى بشر﴾؛ وهذا هو من الأمور المستغربة ﴿قال كذلك الله يخلق ما يشاء﴾؛
ليعلم العباد أنه على كل شيء قدير وأنه لا ممانع لإرادته ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول
له كن فيكون. ويعلمه الكتاب﴾؛ أي: جنس الكتب السابقة والحكم بين الناس
ويعطيه النبوة ويجعله ﴿رسولاً إلى بني إسرائيل﴾؛ ويؤيده بالآيات البينات والأدلة
القاهرة حيث قال: ﴿أنى قد جئتكم بأية من ربكم﴾؛ تدلّكم أنى رسول الله حقاً،
وذلك ﴿أنى أخلق لكم من الطين كهية الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله
وأبرئ الأكمه﴾؛ وهو ممسوح العينين الذي فقد بصره وعينه ﴿والأبرص وأحيى
الموتى بإذن الله وأنبتكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم، إن في ذلك
المذكور ﴿آية لكم إن كنتم مؤمنين. ومصدقاً لما بين يدي من التوراة﴾؛ فأيده الله
بجنسين من الآيات والبراهين الخوارق المستغربة التي لا يمكن لغير الأنبياء الإتيان
بها، والرسالة والدعوة والدين الذي جاء به وأنه دين التوراة ودين الأنبياء السابقين،
وهذا أكبر الأدلة على صدق الصادقين، فإنه لو كان من الكاذبين لخالف ما جاء
به الرسل ولناقضهم في أصولهم وفروعهم، فعلم بذلك أنه رسول الله وأن ما جاء
به حق لا ريب فيه، وأيضاً فقلوه: ﴿ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾؛ أي:
ولأخفف عنكم بعض الآصار والأغلال ﴿فاتقوا الله وأطيعون. إن الله ربي وربكم
فاعبدوه﴾؛ وهذا ما يدعو إليه جميع الرسل عبادة الله وحده لا شريك له وطاعتهم،
وهذا هو الصراط المستقيم الذي من سلكه أوصله إلى جنات النعيم.

فحينئذ اختلفت أحزاب بني إسرائيل في عيسى فمنهم من آمن به واتبعه ومنهم
من كفر به وكذبه ورمى أمه بالفاحشة كاليهود ﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر﴾؛
والاتفاق على رد دعوته ﴿قال﴾؛ نادباً لبني إسرائيل على مؤازرته: ﴿من أنصاري
إلى الله، قال الحواريون﴾؛ أي: الأنصار: ﴿نحن أنصار الله آمناً بالله واشهد بأنا
مسلمون﴾؛ وهذا من مئة الله عليهم وعلى عيسى حيث ألهم هؤلاء الحواريين
الإيمان به والانقياد لطاعته والنصرة لرسوله ﴿ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول﴾؛
وهذا التزام تام للإيمان بكل ما أنزل الله ولطاعة رسوله ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾؛
لك بالوحدانية ولنبيك بالرسالة ولدينك بالحق والصدق. وأما من أحسّ عيسى منهم
الكفر وهم جمهور بني إسرائيل فإنهم ﴿مكروا﴾؛ بعيسى ﴿ومكر الله﴾؛ بهم
﴿والله خير الماكرين﴾؛ فاتفقوا على قتله وصلبه، وشبهه لهم شبه عيسى فقبضوا
على من شبه لهم به وقال الله لعيسى: ﴿إني متوفيك ورافعك إلّى ومطهرك من

الذين كفروا؛ فرفعه الله إليه، وطهره من الذين كفروا، وصلبوا من قتلوه، ظانين أنه عيسى، وباؤوا بالإثم العظيم.

وسينزل عيسى بن مريم في آخر هذه الأمة حكماً عادلاً يقتل الخنزير ويكسر الصليب ويتبع ما جاء به محمد ﷺ، ويعلم الكاذبون غرورهم وخداعهم وأنهم مغرورون مخدوعون. وقوله: ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾؛ المراد بمن اتبعه الطائفة التي آمنت به ونصرهم الله على من انحرف عن دينه، ثم لما جاءت أمة محمد ﷺ كانوا هم أتباعه حقاً فأيدهم ونصرهم على الكفار كلهم، وأظهرهم بالدين الذي جاءهم به محمد ﷺ ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض﴾؛ الآية. ولكن حكمة الله عادلة فإنها اقتضت أن من تمسك بالدين نصره النصر المبين، وأن من ترك أمره ونهيه ونبذ شرعه وتجراً على معاصيه أن يعاقبه ويسلط عليه الأعداء. والله عزيز حكيم. وقوله: ﴿ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾.

ثم بين ما يفعله بهم فقال:

﴿قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا فَاَعِدْهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿٥٦ - ٥٧﴾ وهذا الجزاء عام لكل من اتصف بهذه الأوصاف من جميع أهل الأديان السابقة. ثم لما بعث سيد المرسلين وخاتم النبيين، ونسخت رسالته الرسائل كلها، ونسخ دينه جميع الأديان صار المتمسك بغير هذا الدين من الهالكين. وقوله تعالى:

﴿ذَلِكَ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿٥٨﴾ أي: هذا القرآن العظيم الذي فيه نبأ الأولين والآخرين والأنبياء والمرسلين هو آيات الله البيّنات، وهو الذي يذكر العباد كل ما يحتاجونه، وهو الحكيم المحكم صادق الأخبار، حسن الأحكام.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَقَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَبَنَاتَكُمْ وَرِسَاءَنَا وَرِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَىٰ

الْكَافِرِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَلَئِنَّ اللَّهَ لَهُوَ أَعَزُّ الْكَافِرِينَ ﴿٦٢﴾ [فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ] ﴿٦٣﴾ ﴿٦٤﴾ .

﴿٥٩ - ٦٢﴾ لما ذكر قصة مريم وعيسى ونبأهما الحق، وأنه عبد أنعم الله عليه، وأن من زعم أن فيه شيئاً من الإلهية فقد كذب على الله، وكذب جميع أنبيائه وكذب عيسى ﷺ فإن الشبهة التي عرضت لمن اتخذه إلهاً شبهة باطلة، فلو كان لها وجه صحيح لكان آدم أحق منه فإنه خلق من دون أم ولا أب، ومع ذلك فاتفق البشر كلهم على أنه عبد من عباد الله، فدعوى إلهية عيسى بكونه خلق من أم بلا أب دعوى من أبطل الدعاوي، وهذا هو الحق الذي لا ريب فيه أن عيسى كما قال عن نفسه: ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾؛ وكان قد قدم على النبي ﷺ وفد نصارى نجران^(١)، وقد تصلبوا على باطلهم بعدما أقام عليهم النبي ﷺ البراهين بأن عيسى عبد الله ورسوله حيث زعموا إلهيته، فوصلت به وبهم الحال إلى أن أمره الله تعالى أن يباهلهم فإنه قد اتضح لهم الحق ولكن العناد والتعصب منعاهم منه، فدعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة بأن يحضر هو وأهله وأبنائه، وهم يحضرون بأهلهم وأبنائهم ثم يدعون الله تعالى أن ينزل عقوبته ولعنته على الكاذبين، فتشاوروا هل يجيبونه إلى ذلك، فاتفق رأيهم أن لا يجيبوه لأنهم عرفوا أنه نبي الله حقاً، وأنهم إن باهلوه هلكوا هم وأولادهم وأهلهم فصالحوه وبذلوا له الجزية، وطلبوا منه المودة والمهادنة فأجابهم ﷺ ولم يحرجهم لأنه حصل المقصود من وضوح الحق، وتبين عنادهم حيث صمموا على الامتناع عن المباهلة، وذلك يبرهن على أنهم كانوا ظالمين.

ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾؛ أي: الذي لا ريب فيه، ﴿وإن الله لهو العزيز﴾ الذي قهر بقدرته وقوته جميع الموجودات وأذعنت له سكان الأرض والسموات، ومع ذلك فهو ﴿الحكيم﴾؛ الذي يضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها.

(١) لم أجد تفسيراً للآية (٦٣) في الأصل، فلعل الشيخ سها عنها.

(٢) قصة وفد نصارى نجران؛ أخرجها البخاري (٤٢٨٠)، ومسلم (٢٤٢٠)، عن حذيفة. والحديث: أخرجه الحاكم (٥٩٤/٢) ولفظه أتم مما في الصحيحين. وانظر «الطبقات» لابن سعد (٣٥٧/١)، «والدر المنثور» (٦٨/٢).

﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿٦٤﴾ هذه الآية الكريمة كان النبي ﷺ يكتب بها إلى ملوك أهل الكتاب. وكان يقرأ أحياناً في الركعة الأولى من سنة الفجر ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾؛ الآية؛ ويقرأ بها في الركعة الآخرة من سنة الصبح لاشتمالها على الدعوة إلى دين واحد، قد اتفقت عليه الأنبياء والمرسلون، واحتوت على توحيد الإلهية المبني على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن يعتقد أن البشر وجميع الخلق كلهم في طور البشرية لا يستحق منهم أحد شيئاً من خصائص الربوبية ولا من نعوت الإلهية، فإن انقاد أهل الكتاب وغيرهم إلى هذا فقد اهتدوا و﴿إِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ...﴾؛ إلى آخرها.

﴿يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَكَأَنتمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿٦٥ - ٦٨﴾ كانت الأديان كلها اليهود والنصارى والمشركون وكذلك المسلمون كلهم يدعون أنهم على ملة إبراهيم، فأخبر الله تعالى أن أولى الناس به محمد ﷺ وأتباعه وأتباع الخليل قبل محمد ﷺ، وأما اليهود والنصارى والمشركون فإبراهيم بريء منهم ومن ولايتهم لأن دينه الحنيفية السمحة التي فيها الإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب، وهذه خصيصة المسلمين، وأما دعوى اليهود والنصارى أنهم على ملة إبراهيم فقد علم أن اليهودية والنصرانية التي هم يدعون أنهم عليها لم تؤسس إلا بعد الخليل، فكيف يحاجون في هذا الأمر الذي يعلم به كذبهم وافتراؤهم، فهب أنهم حاجوا فيما لهم به علم فكيف يحاجون في هذه الحالة، فهذا قبل أن ينظر ما احتوى عليه قولهم من البطلان يعلم فساد دعواهم، وفي هذه الآية دليل على أنه لا يحل للإنسان أن يقول أو يجادل فيما لا علم له به. وقوله: ﴿والله ولي المؤمنين﴾؛ فكلما قوي إيمان العبد تولاها الله بلطفه، ويسره ليسرى وجنبه العسرى.

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾
يَتَّخِذُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَتَّخِذُ الْكِتَابَ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ
بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَأَمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا ءَاخِرَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ
الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ
مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ .

﴿٦٩ - ٧٤﴾ هذا من منة الله على هذه الأمة حيث أخبرهم بمكر أعدائهم من أهل الكتاب وأنهم من حرصهم على إضلال المؤمنين ينوعون المكرات الخبيثة فقالت طائفة منهم: ﴿آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار﴾؛ أي: أوله وارجعوا عن دينهم آخر النهار فإنهم إذا رأوكم راجعين وهم يعتقدون فيكم العلم استرابوا بدينهم وقالوا لولا أنهم رأوا فيه ما لا يعجبهم ولا يوافق الكتب السابقة لم يرجعوا، هذا مكرهم والله تعالى هو الذي يهدي من يشاء وهو الذي بيده الفضل يختص به من يشاء، فخصكم يا هذه الأمة بما لم يخص به غيركم، ولم يدر هؤلاء الماكرون أن دين الله حق إذا وصلت حقيقته إلى القلوب لم يزد صاحبه على طول المدى إلا إيماناً و يقيناً، ولم تزد الشبه إلا تمسكاً بدينه وحمداً لله وثناء عليه حيث منَّ به عليه. وقولهم: ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم﴾؛ يعني أن الذي حملهم على هذه الأعمال المنكرة الحسد والبغي وخشية الاحتجاج عليهم، كما قال تعالى: ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾؛ الآية.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنَ إِنْ تَأْمَنُوا بَقِطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنَ إِنْ تَأْمَنُوا بَدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتَيْنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنَ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ .

﴿٧٥﴾ يخبر تعالى عن أهل الكتاب أن منهم طائفة أمناء بحيث لو أتمته على قناطير من النقود وهي المال الكثير يؤده إليك، ومنهم طائفة خونة يخونك في أقل القليل، ومع هذه الخيانة الشنيعة فإنهم يتأولون بالأعذار الباطلة فيقولون: ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾؛ أي: ليس علينا جناح إذا خانهم واستباحت أموالهم، لأنهم

لا حرمة لهم، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾؛ أن عليهم أشد الحرج، فجمعوا بين الخيانة وبين احتقار العرب وبين الكذب على الله، وهم يعلمون ذلك ليسوا كمن فعل ذلك جهلاً وضلالاً.

﴿٧٦﴾ ثم قال تعالى: ﴿بَلَى﴾؛ أي: ليس الأمر كما قالوا. ﴿مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى﴾؛ أي: قام بحقوق الله وحقوق خلقه فإن هذا هو المتقي والله يحبه، أي: ومن كان بخلاف ذلك فلم يف بعهده وعقوده التي بينه وبين الخلق ولا قام بتقوى الله، فإن الله يمقته، وسيجازهه على ذلك أعظم النكال.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَآيْمَنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٧).

﴿٧٧﴾ أي: إن الذين يشترون الدنيا بالدين فيختارون الحطام القليل من الدنيا ويتوسلون إليها بالإيمان الكاذبة والعهود المنكوثة فهؤلاء ﴿لَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: قد حق عليهم سخط الله ووجب عليهم عقابه، وحرموا ثوابه، ومنعوا من التزكية، وهي التطهير. بل يردون القيامة متلوثون بالجرائم، متدنسون بالذنوب العظام.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونِ أَلْسِنَتَهُمُ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٨).

﴿٧٨﴾ أي: وإن من أهل الكتاب فريقاً محرفون لكتاب الله ﴿يَلُونِ أَلْسِنَتَهُمُ بِالْكِتَابِ﴾ ليعتدوا بالكتاب لتحسبوه من الكتاب؛ وهذا يشمل التحريف اللفظي والتحريف المعنوي، ثم هم مع هذا التحريف الشنيع، يوهمون أنه من الكتاب وهم كاذبة في ذلك ويصرحون بالكذب على الله، وهم يعلمون حالهم وسوء مغبتهم.

﴿مَا كَانَ لِشَرِّ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ عَلِيمًا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٧٩). ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْمَالِكَةِ وَالنَّيِّبِ أَزْوَاجًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٠).

﴿٧٩ - ٨٠﴾ أي: يمتنع ويستحيل كل الاستحالة لبشر من الله عليه بالوحي والكتاب والنبوة وأعطاه الحكم الشرعي، أن يأمر الناس بعبادته ولا بعبادة النبيين

والملائكة واتخاذهم أرباباً، لأن هذا هو الكفر، فكيف وقد بعث بالإسلام المنافي للكفر من كل وجه فكيف يأمر بضده، هذا من الممتنع لأن حاله وما هو عليه وما من الله به عليه من الفضائل والخصائص تقتضي العبودية الكاملة والخضوع التام لله الواحد القهار، وهذا جواب لوفد نجران حين تمادى بهم الغرور ووصلت بهم الحال والكبر أن قالوا أئامرنا يا محمد أن نعبدك حين أمرهم بعبادة الله وطاعته، فبين الباري انتفاء ما قالوا وأن كلامهم وكلام أمثالهم في هذا ظاهر البطلان.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَضْتُمْ وَآخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿٨١ - ٨٢﴾ هذا إخبار منه تعالى أنه أخذ عهد النبيين وميثاقهم كلهم بسبب ما أعطاهم، ومن به عليهم من الكتاب والحكمة المقتضي للقيام التام بحق الله وتوفيته، أنه إن جاءهم رسول مصدق لما معهم بُعِثَ بما بعثوا به من التوحيد والحق والقسط والأصول التي اتفقت عليها الشرائع أنهم يؤمنون به وينصرونه، فأقروا على ذلك، واعترفوا، والتزموا، وأشهدهم، وشهد عليهم، وتوعد من خالف هذا الميثاق.

وهذا أمر عام بين الأنبياء أن جميعهم طريقهم واحد وأن دعوة كل واحد منهم قد اتفقوا وتعاهدوا عليها، وعموم ذلك أنه أخذ على جميعهم الميثاق بالإيمان والنصرة لمحمد ﷺ، فمن ادعى أنه من أتباعهم فهذا دينهم الذي أخذه الله عليهم وأقروا به واعترفوا، فمن تولى عن اتباع محمد ممن يزعم أنه من أتباعهم فإنه فاسق خارج عن طاعة الله مكذب للرسول الذي يزعم أنه من أتباعه مخالف لطريقه، وفي هذا إقامة الحجة والبرهان على كل من لم يؤمن بمحمد ﷺ من أهل الكتب والأديان، وأنه لا يمكنهم الإيمان برسلمهم الذين يزعمون أنهم أتباعهم حتى يؤمنوا بإمامهم وخاتمهم ﷺ.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْعُثُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿٨٣ - ٨٥﴾ قد تقدم في سورة البقرة أن هذه الأصول التي هي أصول الإيمان التي أمر الله بها هذه الأمة قد اتفقت عليها الكتب والرسول، وأنها هي الغرض الموجه لكل أحد وأنها هي الدين والإسلام الحقيقي، وأن من ابتغى غيرها فعمله مردود وليس له دين يعول عليه، فمن زهد عنه ورغب عنه فأين يذهب؟ إلى عبادة الأشجار والأحجار والنيران، أو إلى اتخاذ الأحرار والرهبان والصلبان، أو إلى التعطيل لرب العالمين، أو إلى الأديان الباطلة التي هي من وحي الشياطين؟ وهؤلاء كلهم في الآخرة من الخاسرين.

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرٍ ﴿٩١﴾﴾.

﴿٨٦ - ٨٨﴾ يعني أنه يبعد كل البعد أن يهدي الله قوماً عرفوا الإيمان، ودخلوا فيه وشهدوا أن الرسول حق ثم ارتدوا على أعقابهم ناكسين ناكثين، لأنهم عرفوا الحق فرفضوه، ولأن من هذه الحالة وصفه فإن الله يعاقبه بالانتكاس وانقلاب القلب جزاء له إذ عرف الحق فتركه، والباطل فأثره فولاه الله ما تولى لنفسه، فهؤلاء ﴿عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾؛ خالدين في اللعنة والعذاب ﴿لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾؛ إذا جاءهم أمر الله، لأن الله عمرهم ما يتذكر فيه ما تذكر، وجاءهم النذير.

﴿٨٩ - ٩١﴾ ثم إنه تعالى استثنى من هذا الوعيد التائبين من كفرهم وذنوبهم المصلحين لعيوبهم فإن الله يغفر لهم ما قدموه ويعفو عنهم ما أسلفوه، ولكن من كفر وأصر على كفره، ولم يزد إلا كفرًا حتى مات على كفره، فهؤلاء هم الضالون عن طريق الهدى السالكون لطريق الشقاء، وقد استحقوا بهذا العذاب الأليم، فليس لهم ناصر من عذاب الله ولو بذلوا ملء الأرض ذهبًا ليفتدوا به لم ينفعهم شيئاً. فعيادًا بالله من الكفر وفروعه.

﴿لَنْ نَنَالُوا اللَّهَ حَقَّ تَنْفِعُوا مِنَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿٩٢﴾ يعني ﴿لن تنالوا﴾ وتذكروا ﴿البر﴾، الذي هو اسم جامع للخيرات وهو: الطريق الموصل إلى الجنة ﴿حتى تنفقوا مما تحبون﴾ من أطيب أموالكم وأزكاها، فإن النفقة من الطيب المحبوب للنفوس من أكبر الأدلة على سماحة النفس واتصافها بمكارم الأخلاق ورحمتها ورقتها، ومن أدل الدلائل على محبة الله وتقدير محبته على محبة الأموال التي جبلت النفوس على قوة التعلق بها، فمن أثر محبة الله على محبة نفسه فقد بلغ الذروة العليا من الكمال وكذلك من أنفق الطيبات وأحسن إلى عباد الله أحسن الله إليه ووفقه أعمالاً وأخلاقاً لا تحصل بدون هذه الحالة. وأيضاً فمن قام بهذه النفقة على هذا الوجه كان قيامه ببقية الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة من طريق الأولى والأخرى، ومع أن النفقة من الطيبات هي أكمل الحالات فمهما أنفق العبد من نفقة قليلة أو كثيرة من طيب أو غيره ﴿فإن الله به عليم﴾، وسيجزي كل منفق بحسب عمله، سيجزيه في الدنيا بالخلف العاجل وفي الآخرة بالنعيم الآجل.

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ .

﴿٩٣ - ٩٤﴾ من جملة الأمور التي قدح فيها اليهود بنبوة عيسى ومحمد ﷺ أنهم زعموا أن النسخ باطل، وأنه لا يمكن أن يأتي نبي يخالف النبي الذي قبله. فكذبهم الله بأمر يعرفونه، فإنهم يعترفون بأن جميع الطعام قبل نزول التوراة كان حلالاً لبني إسرائيل إلا أشياء يسيرة، حرّمها إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام على نفسه ومنعها إياه لمرض أصابه، ثم إن التوراة فيها من التحريمات التي نسخت ما كان حلالاً قبل ذلك شيء كثير. قل لهم إن أنكروا ذلك ﴿فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾؛ بزعمكم أنه لا نسخ ولا تحليل ولا تحريم. وهذا من أبلغ الحجج أن يحتج على الإنسان بأمر يقوله ويعترف به ولا ينكره، فإن انقاد للحق فهو الواجب، وإن أبى ولم يتقد بعد هذا البيان تبين كذبه وافتراؤه وظلمه وبطلان ما هو عليه، وهو الواقع من اليهود.

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ .

﴿٩٥﴾ أي: قل صدق الله في كل ما قاله ومن أصدق من الله قيلاً وحديثاً؟

وقد بين في هذه الآيات من الأدلة على صحة رسالة محمد ﷺ وبراهين دعوته وبطلان ما عليه المنحرفون من أهل الكتاب الذين كذبوا رسوله وردوا دعوته، فقد صدق الله في ذلك وأقنع عباده على ذلك ببراهين وحجج تتصدع لها الجبال وتخضع لها الرجال، فتعين عند ذلك على الناس كلهم اتباع ملة إبراهيم من توحيد الله وحده لا شريك له، وتصديق كل رسول أرسله الله، وكل كتاب أنزله والإعراض عن الأديان الباطلة المنحرفة، فإن إبراهيم كان معرضاً عن كل ما يخالف التوحيد متبرئاً من الشرك وأهله.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ حُجٌّ أَلْبَسَ مِنْ أَسْطَافٍ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ .

﴿٩٦ - ٩٧﴾ يخبر تعالى بعظمة بيته الحرام، وأنه أول البيوت التي وضعها الله في الأرض لعبادته وإقامة ذكره، وأن فيه من البركات وأنواع الهدايات وتنوع المصالح والمنافع للعالمين شيء كثير وفضل غزير، وأن فيه آيات بينات تُذكر بمقامات إبراهيم الخليل وتنقلاته في الحج ومن بعده تذكر بمقامات سيد الرسل وإمامهم، وفيه الأمن الذي من دخله كان آمناً قادراً مؤمناً شرعاً ودينياً.

فلما احتوى على هذه الأمور التي هذه مجملاتها وتكثر تفصيلاتها، أوجب الله حجه على المكلفين المستطيعين إليه سبيلاً، وهو الذي يقدر على الوصول إليه بأي مركوب يناسبه وزاد يتزوده، ولهذا أتى بهذا اللفظ الذي يمكنه تطبيقه على جميع المركوبات الحادثة والتي ستحدث، وهذا من آيات القرآن حيث كانت أحكامه صالحة لكل زمان وكل حال ولا يمكن الصلاح التام بدونها. فمن أذعن لذلك وقام به فهو من المهتدين المؤمنين، ومن كفر فلم يلتزم حج بيته فهو خارج عن الدين، ﴿ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ .

﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ .

﴿٩٨ - ٩٩﴾ لَمَّا أقام فيما تقدم الحجج على أهل الكتاب مع أنهم قبل ذلك

يعرفون النبي ﷺ، كما يعرفون أبناءهم، وبَخَّ المعاندين منهم بكفرهم بآيات الله وصدهم الخلق عن سبيل الله لأن عوامهم تبع لعلمائهم، والله تعالى يعلم أحوالهم وسيجازيهم على ذلك أنتم الجزاء وأوفاه.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بِدِّ ءِئْتِنِكُمْ كُفْرِينَ ۚ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٠١﴾ .

﴿١٠٠ - ١٠١﴾ لما أقام الحجج على أهل الكتاب ووبَّخهم بكفرهم وعنادهم، حذر عباده المؤمنين عن الاغترار بهم، وبين لهم أن هذا الفريق منهم حريصون على إضراركم وردكم إلى الكفر بعد الإيمان، ولكن ولله الحمد أنتم يا معشر المؤمنين، بعدما منَّ الله عليكم بالدين ورأيتم آياته ومحاسنه ومناقبه وفضائله، وفيكم رسول الله الذي أرشدكم إلى جميع مصالحكم، واعتصمتم بالله وبجبله الذي هو دينه يستحيل أن يردوكم عن دينكم، لأن الدين الذي بني على هذه الأصول والدعائم الثابتة الأساس، المشرقة الأنوار تنجذب إليه الأفئدة، ويأخذ بمجامع القلوب، ويوصل العباد إلى أجل غاية وأفضل مطلوب.

﴿ومن يعتصم بالله﴾؛ أي: يتوكل عليه ويحتمي بحماه ﴿فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾؛ وهذا فيه الحث على الاعتصام به وأنه السبيل إلى السلامة والهداية.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۝١٠٢﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَآذِكُرُوا رَبَّكُمْ عَلَىٰ عِلَّتِكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً ۚ قَالَتْ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠٣﴾ وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٥﴾ .

﴿١٠٢ - ١٠٥﴾ هذه الآيات فيها حث الله عباده المؤمنين أن يقوموا بشكر نعمه العظيمة بأن يتقوه حق تقواه، وأن يقوموا بطاعته وترك معصيته مخلصين له بذلك، وأن يقيموا دينهم ويستمسكوا بجبله الذي أوصله إليهم، وجعله السبب بينهم وبينه وهو دينه وكتابه، والاجتماع على ذلك وعدم التفرق، وأن يستديموا ذلك إلى الممات.

وذكرهم ما هم عليه قبل هذه النعمة وهو أنهم كانوا أعداء متفرقين فجمعهم بهذا

الدين وألف بين قلوبهم وجعلهم إخواناً، وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم من الشقاء، ونهج بهم طريق السعادة؛ لذلك بين ﴿الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾؛ إلى شكر الله والتمسك بحبله. وأمرهم بتتيم هذه الحالة، والسبب الأقوى الذي يتمكنون به من إقامة دينهم بأن يتصدى منهم طائفة يحصل فيها الكفاية ﴿يدعون إلى الخير﴾؛ وهو الدين: أصوله وفروعه وشرائعه ﴿ويأمرون بالمعروف﴾؛ وهو ما عرف حسنه شرعاً وعقلاً ﴿وينهون عن المنكر﴾؛ وهو ما عرف قبحه شرعاً وعقلاً ﴿وأولئك هم المفلحون﴾؛ المدركون لكل مطلوب الناجون من كل مرهوب، ويدخل في هذه الطائفة أهل العلم والتعليم والمتصدون للخطابة ووعظ الناس عموماً وخصوصاً والمحتسبون، الذين يقومون بإلزام الناس بإقامة الصلوات وإيتاء الزكاة والقيام بشرائع الدين، وينهونهم عن المنكرات.

فكل من دعا الناس إلى خير على وجه العموم أو على وجه الخصوص، أو قام بنصيحة عامة أو خاصة فإنه داخل في هذه الآية الكريمة.

ثم نهاهم عن سلوك مسلك المتفرقين الذين جاءهم الدين والبيئات الموجب لقيامهم به واجتماعهم، فتفرقوا واختلفوا وصاروا شيعاً، ولم يصدر ذلك عن جهل وضلال وإنما صدر عن علم وقصد سيئ وبغي من بعضهم على بعض، ولهذا قال: ﴿وأولئك لهم عذاب عظيم﴾؛ ثم بين متى يكون هذا العذاب العظيم ويمسهم هذا العذاب الأليم فقال:

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿١٠٦ - ١٠٧﴾ يخبر تعالى بتفاوت الخلق يوم القيامة في السعادة والشقاوة، وأنه تبيض وجوه أهل السعادة، الذين آمنوا بالله، وصدقوا رسله وامتثلوا أمره واجتنبوا نهيه، وأن الله تعالى يدخلهم الجنات ويفيض عليهم أنواع الكرامات وهم فيها خالدون، وتسود وجوه أهل الشقاوة الذين كذبوا رسله وعصوا أمره وفرقوا دينهم شيعاً وأنهم يوبخون فيقال: ﴿أكفرتم بعد إيمانكم﴾؛ فكيف اخترتم الكفر على الإيمان ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ يَا حَقُّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿١٠٨﴾ يثني تعالى على ما قصه على نبيه من آياته التي حصل بها الفرقان بين الحق والباطل وبين أولياء الله وأعدائه، وما أعد لهؤلاء من الثواب وللآخرين من العقاب، وأن ذلك مقتضى فضله وعدله وحكمته، وأنه لم يظلم عباده ولم ينقصهم من أعمالهم أو يعذب أحداً بغير ذنبه أو يحمل عليه وزر غيره. ولما ذكر أن له الأمر والشرع ذكر أن له تمام الملك والتصرف والسلطان فقال:

﴿١٠٩﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾؛ فيجازي المحسنين بإحسانهم والمسيئين بعصيانهم، وكثيراً ما يذكر الله أحكامه الثلاثة مجمعة يبين لعباده أنه الحاكم المطلق فله الأحكام القدريّة والأحكام الشرعية والأحكام الجزائية، فهو الحاكم بين عباده في الدنيا والآخرة، ومن سواه من المخلوقات محكوم عليها ليس لها من الأمر شيء.

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتَلُوا يَكُونُوا يَوْمَئِذٍ شُرَكَاءَ الَّذِينَ قُتِلُوا فَمَنْ ضَرُّهُمْ يَضُرُّهُمْ﴾.

﴿١١٠ - ١١١﴾ هذا تفضيل من الله لهذه الأمة بهذه الأسباب، التي تميزوا بها وفاقوا بها سائر الأمم، وأنهم خير الناس للناس نصحاً ومحبة للخير ودعوة وتعليماً وإرشاداً وأمرأ بالمعروف ونهياً عن المنكر وجمعاً بين تكميل الخلق والسعي في منافعهم بحسب الإمكان، وبين تكميل النفس بالإيمان بالله والقيام بحقوق الإيمان، وأن أهل الكتاب لو آمنوا بمثل ما آمنتم به لاهتدوا وكان خيراً لهم ولكن لم يؤمن منهم إلا القليل، وأما الكثير فهم فاسقون خارجون عن طاعة الله وطاعة رسوله محاربون للمؤمنين ساعون في إضرارهم بكل مقدورهم، ومع ذلك فلن يضرروا المؤمنين إلا أذى باللسان، وإلا فلو قاتلوهم لولوا الأدبار ثم لا ينصرون. وقد وقع ما أخبر الله به، فإنهم لما قاتلوا المسلمين ولوا الأدبار ونصر الله المسلمين عليهم.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثَقَفُوا إِلَّا يَحْبِلُ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

حَرَّثَ قَوْمٌ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَنَّهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

﴿١١٦ - ١١٧﴾ بين تعالى أن الكفار الذين كفروا بآيات الله وكذبوا رسله أنه لا ينقذهم من عذاب الله منقذ ولا ينفعهم نافع ولا يشفع لهم عند الله شافع، وأن أموالهم وأولادهم التي كانوا يعدونها للشدائد والمكاره لا تفيدهم شيئاً وأن نفقاتهم التي أنفقوها في الدنيا لنصر باطلهم ستضمحل، وأن مثلها ﴿كمثل﴾؛ حرث أصابته ﴿ريح﴾؛ شديدة ﴿فيها صر﴾؛ أي: برد شديد أو نار محرقة فأهلكك ذلك الحرث وذلك بظلمهم فلم يظلمهم الله، ويعاقبهم بغير ذنب، وإنما ظلموا أنفسهم. وهذه كقوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خِيَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْأَيَّاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَآتَمْتُمْ أَوْلَاءَ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَاوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْفَيْطِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً سَنُؤْتُمْ وَإِنْ تَنْسِبْكُمْ سِنَةً يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿١١٨ - ١١٩﴾ هذا تحذير من الله لعباده عن ولاية الكفار واتخاذهم بطانة أو خبيصة وأصدقاء، يسرون إليهم ويفضون لهم بأسرار المؤمنين، فوضح لعباده المؤمنين الأمور الموجبة للبراءة من اتخاذهم بطانة، بأنهم ﴿لا يألونكم خيالاً﴾ أي حريصون غير مقصرين في إيصال الضرر بكم، وقد بدت البغضاء من كلامهم وفلتات ألسنتهم وما تخفيه صدورهم من البغضاء والعداوة ﴿أكبر﴾ مما ظهر لكم من أقوالهم وأفعالهم، فإن كانت لكم فهم وعقول فقد وضح الله لكم أمرهم، وأيضاً فما الموجب لمحبتهم واتخاذهم أولياء وبطانة، وقد تعلمون منهم الانحراف العظيم في الدين وفي مقابلة إحسانكم؟ فأنتم مستقيمون على أديان الرسل تؤمنون بكل رسول أرسله الله وبكل كتاب أنزله الله وهم يكفرون بأجل الكتب وأشرف الرسل، وأنتم تبدلون لهم من الشفقة والمحبة ما لا يكافئونكم على أقل القليل منه، فكيف تحبونهم وهم لا يحبونكم وهم يداهنونكم وينافقونكم، فإذا لقوكم ﴿قالوا آمنا وإذا خلوا﴾ مع بني جنسهم ﴿عصوا عليكم الأنامل﴾ من شدة

الغيظ والبغض لكم ولدينكم، قال تعالى: ﴿قُلْ مَاتُوا بَغِيظَكُمْ﴾؛ أي: سترون من عز الإسلام وذل الكفر ما يسوءكم، وتموتون بغيظكم فلن تدرکوا شفاء ذلك بما تقصدون ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ فلذلك بين لعباده المؤمنين ما تنطوي عليه صدور أعداء الدين من الكفار والمنافقين.

﴿١٢٠﴾ ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾؛ عز ونصر وعافية وخير ﴿تَسْؤُهُمْ﴾، وإن تصبكم سيئة؛ من إدالة العدو أو حصول بعض المصائب الدنيوية ﴿يَفْرَحُوا بِهَا﴾؛ وهذا وصف العدو الشديدة عداوته. لما بين تعالى شدة عداوتهم، وشرح ما هم عليه من الصفات الخبيثة أمر عباده المؤمنين بالصبر ولزوم التقوى، وأنهم إذا قاموا بذلك فلن يضرهم كيد أعدائهم شيئاً، فإن الله محيط بهم وبأعمالهم وبمكائدهم التي يكيدونكم فيها، وقد وعدكم عند القيام بالتقوى أنهم لا يضرونكم شيئاً فلا تشكوا في حصول ذلك.

﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ﴾^(١) ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَكِكَةِ مُزْلِينَ﴾ ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَكِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلَسَطَ فِي قُلُوبِكُمْ بَأْسٌ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾.

﴿١٢١﴾ وذلك يوم أحد حين خرج ﷺ بالمسلمين، حين وصل المشركون بجمعهم إلى قريب من أحد، فنزلهم ﷺ منازلهم، ورتبهم في مقاعدهم، ونظمهم تنظيمًا عجيباً، يدل على كمال رأيه وبراعته الكاملة في علوم السياسة، كما كان كاملاً في كل المقامات، ﴿والله سميع عليم﴾؛ لا يخفى عليه شيء من أموركم.

﴿١٢٢﴾ ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾؛ وهم بنو سلمة وبنو حارثة لكن تولاهما الباري بلطفه ورعايته وتوفيقه، ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾؛ فإنهم إذا توكلوا عليه كفاهم وأعانهم وعصمهم من وقوع ما يضرهم في دينهم ودنياهم.

وفي هذه الآية ونحوها وجوب التوكل وأنه على حسب إيمان العبد يكون توكله، والتوكل: هو اعتماد العبد على ربه في حصول منافعه ودفع مضاره.

فلما ذكر حالهم في أحد وما جرى عليهم من المصيبة أدخل فيها تذكيرهم بنصره ونعمته عليهم يوم بدر؛ ليكونوا شاكرين لربهم وليخفف هذا هذا، فقال:

﴿١٢٣﴾ وإذ نصركم الله ببدر وأنتم أذلة؛ في عددكم وعددكم، فكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر في قلة ظهر ورثاة سلاح، وأعداؤهم يناهزون الألف في كمال العدة والسلاح ﴿فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾؛ الذي أنعم عليكم بنصره.

﴿١٢٤﴾ ﴿إذ تقول﴾ مبشراً ﴿للمؤمنين﴾؛ مثبتاً لجنانهم: ﴿ألن يكفيكم أن يمددكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين﴾.

﴿١٢٥﴾ ﴿بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا﴾؛ أي: من حملتهم هذه بهذا الوجه.

﴿يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾؛ أي: معلمين علامة الشجعان. واختلف الناس هل كان هذا الإمداد حصل فيه من الملائكة مباشرة للقتال، كما قاله بعضهم أو أن ذلك تثبيت من الله لعباده المؤمنين، وإلقاء الرعب في قلوب المشركين كما قاله كثير من المفسرين ويدل عليه قوله:

﴿١٢٦﴾ ﴿وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾، وفي هذا أن الأسباب لا يعتمد عليها العبد بل يعتمد على الله، وإنما الأسباب وتوفرها فيها طمأنينة للقلوب وثبات على الخير.

﴿١٢٧﴾ ﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين﴾؛ أي: نصر الله لعباده المؤمنين لا يعدو أن يكون قطعاً لطرف من الكفار، أو ينقلبوا بغیظهم لم ينالوا خيراً كما أرجعهم يوم الخندق بعد ما كانوا قد أتوا على حرد قادرين أرجعهم الله بغیظهم خائبين.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

﴿١٢٨﴾ لما أصيب ﷺ يوم أحد وكسرت رباعيته وشج رأسه جعل يقول: «كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم وكسروا رباعيته»^(١)؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية،

(١) أخرجه البخاري معلقاً (باب ليس لك من الأمر شيء...)، «الفتح» (٧/٣٦٥)، ووصله

وَبَيَّنَ أَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ وَأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَيْسَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، لِأَنَّهُ عَبْدٌ مِنْ عِبِيدِ اللَّهِ وَالْجَمِيعِ تَحْتَ عِبُودِيَةِ رَبِّهِمْ مَدْبُرُونَ لَا مَدْبُرُونَ، وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ دَعَوْتَ عَلَيْهِمْ أَيُّهَا الرَّسُولُ أَوْ تَبَاعَدْتَ فَلَاحِقَهُمْ وَهَدَايَتَهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَابَ عَلَيْهِمْ وَوَفَّقَهُمْ لِلدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، وَقَدْ فَعَلَ، فَإِنْ أَكْثَرَ أَوْلَئِكَ هَدَاهُمُ اللَّهُ فَأَسْلَمُوا، وَإِنْ شَاءَ اللَّهُ عَذَّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ مُسْتَحَقُونَ لِعُقُوبَاتِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢٩).

﴿١٢٩﴾ يخبر تعالى أنه هو المتصرف في العالم العلوي والسفلي وأنه يتوب على من يشاء فيغفر له ويخذل من يشاء فيعذبه، ﴿والله غفور رحيم﴾ فمن صفته اللازمة كمال المغفرة والرحمة ووجود مقتضياتها في الخلق والأمر يغفر للتائبين ويرحم من قام بالأسباب الموجبة للرحمة، قال تعالى: ﴿وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾ (١).



(١) تم الجزء المجلد الأول من «تيسير الرحيم الرحمن في تفسير القرآن» بخط مؤلفه عبد الرحمن الناصر بن سعدي ٢٩ ربيع أول ١٣٤٣هـ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم. ويليه المجلد الثاني أوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا...﴾.

* جاء على هامش (أ): «بلغ تصحيحاً».

المجلد الثاني
من
تيسير الكريم المنان
في
تفسير كلام الرحمن

لجامعه الفقير إلى الله
عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعيدي
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين والمسلمات
الأحياء منهم والأموات برحمتك
يا أرحم الراحمين
آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين، وعليه نتوكل، رب يسر وأعن يا كريم

الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ، وسلم تسليماً كثيراً، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾
وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾
وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ
يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالْقَلِيلِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾
وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ
الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُ مَّغْفِرَةٍ مِّن
رَّبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٦﴾﴾

﴿١٣٠﴾ تقدم في مقدمة هذا التفسير: أن العبد ينبغي له مراعاة الأوامر والنواهي في نفسه وفي غيره، وأن الله تعالى إذا أمره بأمر وجب عليه أولاً أن يعرف حده وما هو الذي أمر به ليتمكن بذلك من امتثاله، فإذا عرف ذلك اجتهد واستعان بالله على امتثاله في نفسه وفي غيره بحسب قدرته وإمكانه. وكذلك إذا نُهي عن أمر عرف حده وما يدخل فيه وما لا يدخل، ثم اجتهد واستعان بربه في تركه. وأن هذا ينبغي مراعاته في جميع الأوامر الإلهية والنواهي. وهذه الآيات الكريمات قد اشتملت على أوامر وخصال من خصال الخير، أمر الله بها وحث على فعلها، وأخبر عن جزاء أهلها، وعلى نواي حث على تركها.

ولعل الحكمة - والله أعلم - في إدخال هذه الآيات أثناء قصة أحد أنه قد تقدم أن الله تعالى وعد عباده المؤمنين أنهم إذا صبروا واتقوا نصرهم على أعدائهم وخذل الأعداء عنهم، كما في قوله تعالى: ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم

ثم قال: ﴿وإن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم...﴾ الآيات. فكان النفوس اشتاقت إلى معرفة خصال التقوى التي يحصل بها النصر والفلاح والسعادة، فذكر الله في هذه الآيات أهم خصال التقوى التي إذا قام العبد بها، فقيامه بغيرها من باب أولى وأحرى.

ويدل على ما قلنا أن الله ذكر لفظ التقوى في هذه الآيات ثلاث مرات، مرة مطلقة، وهي قول: ﴿أعدت للمتقين﴾، ومرتين مقيدتين فقال: ﴿واتقوا الله﴾ و﴿واتقوا النار﴾.

فقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ كل ما في القرآن من قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا أفعالوا كذا أو اتركوا كذا يدل على أن الإيمان هو السبب الداعي والموجب لامثال ذلك الأمر واجتناب ذلك النهي، لأن الإيمان هو التصديق الكامل بما يجب التصديق به المستلزم لأعمال الجوارح، فنهاهم عن أكل الربا أضعافاً مضاعفة، وذلك هو ما اعتاده أهل الجاهلية ومن لا يبالي بالأوامر الشرعية، من أنه إذا حل الدين على المعسر ولم يحصل منه شيء، قالوا له إما أن تقضي ما عليك من الدين، وإما أن تزيد في المدة ونزيد ما في ذمتك فيضطر الفقير ويستدفع غريمه ويلتزم ذلك اغتناماً لراحته الحاضرة فيزداد بذلك ما في ذمته أضعافاً مضاعفة من غير نفع وانتفاع. ففي قوله: ﴿أضعافاً مضاعفة﴾؛ تنبيه على شدة شناعته بكثرته وتنبيه لحكمة تحريره، وأن تحرير الربا حكمته أن الله منع منه لما فيه من الظلم، وذلك أن الله أوجب إنظار المعسر وبقاء ما في ذمته من غير زيادة، فلزمه بما فوق ذلك ظلم متضاعف، فيتعين على المؤمن المتقي تركه وعدم قربانه لأن تركه من موجبات التقوى، والفلاح متوقف على التقوى، فلهذا قال: ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾.

﴿١٣١﴾ ﴿واتقوا النار التي أعدت للكافرين﴾، بترك ما يوجب دخولها من الكفر والمعاصي على اختلاف درجاتها، فإن المعاصي كلها وخصوصاً المعاصي الكبار تجر إلى الكفر، بل هي من خصال الكفر الذي أعد الله النار لأهله، فترك المعاصي ينجي من النار ويقي من سخط الجبار، وأفعال الخير والطاعة توجب رضا الرحمن ودخول الجنان وحصول الرحمة، ولهذا قال:

﴿١٣٢﴾ ﴿وأطيعوا الله والرسول﴾، بفعل الأوامر امتثالاً واجتناب النواهي ﴿لعلكم تُرحمون﴾، فطاعة الله وطاعة رسوله من أسباب حصول الرحمة، كما قال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتُونَ الزكاة...﴾ الآيات.

﴿١٣٣﴾ ثم أمرهم تعالى بالمسارعة إلى مغفرته وإدراك جنته التي عرضها السماوات والأرض، فكيف بطولها التي أعدها الله للمتقين؟! فهم أهلها وأعمال التقوى هي الموصلة إليها.

﴿١٣٤﴾ ثم وصف المتقين وأعمالهم فقال: ﴿الذين ينفقون في السراء والضراء﴾؛ أي: في حال عسرهم ويسرهم إن أيسروا أكثروا من النفقة وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئاً ولو قل، ﴿والكاظمين الغيظ﴾: أي: إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم، وهو امتلاء قلوبهم من الحق الموجب للانتقام بالقول والفعل. هؤلاء لا يعملون بمقتضى الطباع البشرية بل يكظمون ما في القلوب من الغيظ، ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم.

﴿والعافين عن الناس﴾، يدخل في العفو عن الناس العفو عن كل من أساء إليك بقول أو فعل، والعفو أبلغ من الكظم، لأن العفو ترك المؤاخذه مع السماح عن المسيء، وهذا إنما يكون ممن تحلى بالأخلاق الجميلة وتخلى من الأخلاق الرذيلة، وممن تاجر مع الله وعفا عن عباد الله رحمة بهم وإحساناً إليهم، وكرامة لحصول الشر عليهم، وليعفو الله عنه ويكون أجره على ربه الكريم لا على العبد الفقير، كما قال تعالى: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾.

ثم ذكر حالة أعم من غيرها وأحسن وأعلى وأجل، وهي الإحسان، فقال تعالى: ﴿والله يحب المحسنين﴾، والإحسان نوعان: الإحسان في عبادة الخالق والإحسان إلى المخلوق.

فالإحسان في عبادة الخالق فسرّها النبي ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١).

وأما الإحسان إلى المخلوق فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم، فيدخل في ذلك أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وتعليم جاهلهم ووعظ غافلهم والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعي في جمع كلمتهم وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم، فيدخل في ذلك بذل الندي وكف الأذى واحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات، فمن قام بهذه الأمور فقد قام بحق الله وحق عبده.

(١) تقدم تخريجه، وهو في «صحيح مسلم» (٨).

ثم ذكر اعتذارهم لربهم من جنایاتهم وذنوبهم فقال:

﴿١٣٥﴾ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾؛ أي: صدر منهم أعمال سيئة كبيرة أو ما دون ذلك، بادروا إلى التوبة والاستغفار، وذكروا ربهم وما توعد به العصاة، ووعد به المتقين فسألوه المغفرة لذنوبهم، والستر لعيوبهم، مع إقلاعهم عنها وندمهم عليها، فلماذا قال: ﴿وَلَمْ يَصِرُوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿١٣٦﴾ ﴿أُولَٰئِكَ﴾؛ الموصوفون بتلك الصفات ﴿جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ تنزيل عنهم كل محذور، ﴿وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيها من النعيم المقيم والبهجة والسرور والبهاء والخير والسرور والقصور والمنازل الأنيقة العاليات والأشجار المثمرة البهية والأنهار الجارية في تلك المساكن الطيبات ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يحولون عنها ولا يبيعون بها بدلاً ولا يغير ما هم فيه من النعيم ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ عملوا لله قليلاً فأجروا كثيراً، فعند الصباح يحمد القوم السرى وعند الجزاء يجد العامل أجره كاملاً موفراً.

وهذه الآيات الكريمات من أدلة أهل السنة والجماعة، على أن الأعمال تدخل في الإيمان خلافاً للمرجئة، ووجه الدلالة إنما يتم بذكر الآية التي في سورة الحديد نظير هذه الآيات وهي قوله: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾، فلم يذكر فيها إلا لفظ الإيمان به وبرسله، وهنا قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾، ثم وصف المتقين بهذه الأعمال المالية والبدنية، فدل على أن هؤلاء المتقين هم الموصوفين^(١) بهذه الصفات هم أولئك المؤمنون. ثم قال تعالى:

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ ﴿١٣٧﴾
هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾

﴿١٣٧﴾ وهذه الآيات الكريمات، وما بعدها في قصة أحد، يعزي تعالى عباده المؤمنين، ويسليهم ويخبرهم أنه مضى قبلهم أجيال وأمم كثيرة امتحنوا، وابتلي المؤمنون منهم بقتال الكافرين، فلم يزالوا في مداولة ومجاوله حتى جعل الله العاقبة للمتقين والنصر لعباده المؤمنين، وآخر الأمر حصلت الدولة على المكذبين وخذلهم الله بنصر رسله وأتباعهم، ﴿فسيروا في الأرض﴾ بأبدانكم وقلوبكم

(١) كذا في النسختين. والصواب: «الموصوفون».

﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمَكْذِبِينَ﴾، فإنكم لا تجدونهم إلا معذبين بأنواع العقوبات الدنيوية، قد خوت ديارهم وتبين لكل أحد خسارهم، وذهب عزهم وملكتهم وزال بذخهم وفخرهم، أفليس في هذا أعظم دليل وأكبر شاهد على صدق ما جاءت به الرسل، وحكمة الله التي يمتحن بها عباده ليلوهم ويتبين صادقهم من كاذبهم؟ ولهذا قال تعالى:

﴿١٣٨﴾ ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: دلالة ظاهرة تبين للناس الحق من الباطل، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، وهو الإشارة إلى ما أوقع الله بالمكذبين، ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾، لأنهم هم المنتفعون بالآيات، فتهديتهم إلى سبيل الرشاد وتعظمتهم وترجرهم عن طريق الغي، وأما باقي الناس فهي بيان لهم تقوم^(١) عليهم الحجة من الله ليهلك من هلك عن بينة، ويحتمل أن الإشارة في قوله: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾، للقرآن العظيم والذكر الحكيم وأنه بيان للناس عموماً، وهدى وموعظة للمتقين خصوصاً، وكلا المعنيين حق.

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمَسُّنَّكُمْ فَرَجٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَجٌ مِّثْلُهُ وَفَإِنَّ الْآيَاتِ تَدَاوُلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَخِجِدَ مِنْكُمْ شُهَدَاءُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلَيَحْصِصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

﴿١٣٩﴾ يقول تعالى مشجعاً لعباده المؤمنين ومقوياً لعزائمهم ومنهضاً لهممهم: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا﴾؛ أي: ولا تهنوا وتضعفوا في أبدانكم، ولا تحزنوا في قلوبكم عندما أصابتكم المصيبة، وابتليتكم بهذه البلوى، فإن الحزن في القلوب والوهن على الأبدان زيادة مصيبة عليكم، وعون لعدوكم عليكم بل شجعوا قلوبكم وصبروها وادفعوا عنها الحزن وتصلبوا على قتال عدوكم، وذكر تعالى أنه لا ينبغي ولا يليق بهم الوهن والحزن وهم الأعلون في الإيمان ورجاء نصر الله وثوابه، فالمؤمن المبتغي^(٢) ما وعده الله من الثواب الدنيوي والأخروي لا ينبغي له^(٣)

(١) فوق السطر زيادة «به» بخط مغاير. (٢) في (ب): «المتقين».

(٣) في (ب): «منه».

ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. ثم سلاهم بما حصل لهم من الهزيمة، وبين الحكم العظيمة المترتبة على ذلك فقال:

﴿١٤٠﴾ ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾، فأنتم وهم قد تساويتم في القرح، ولكنكم ترجون من الله ما لا يرجون كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾.

ومن الحكم في ذلك أن هذه الدار يعطي الله منها المؤمن والكافر والبر والفاجر فيداول الله الأيام بين الناس: يوم لهذه الطائفة ويوم للطائفة الأخرى، لأن هذه الدار الدنيا منقضية فانية، وهذا بخلاف الدار الآخرة فإنها خالصة للذين آمنوا.

﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾، هذا أيضاً من الحكم أنه يتبلي الله عباده بالهزيمة والابتلاء ليتبين المؤمن من المنافق، لأنه لو استمر النصر للمؤمنين في جميع الوقائع لدخل في الإسلام من لا يريد، فإذا حصل في بعض الوقائع بعض أنواع الابتلاء تبين المؤمن حقيقة الذي يرغب في الإسلام في الضراء والسراء واليسر والعسر ممن ليس كذلك، ﴿ويتخذ منكم شهداء﴾.

وهذا أيضاً من بعض الحكم، لأن الشهادة عند الله من أرفع المنازل، ولا سبيل لنيلها إلا بما يحصل من وجود أسبابها، فهذا من رحمته بعباده المؤمنين، أن قيّض لهم من الأسباب ما تكرهه النفوس، لينيلهم ما يحبون من المنازل العالية والنعيم المقيم.

﴿والله لا يحب الظالمين﴾، الذين ظلموا أنفسهم وتقاعدوا عن القتال في سبيله، وكان في هذا تعريضاً بدم المنافقين وأنهم مبغضون لله، ولهذا ثبطهم عن القتال في سبيله، ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل أقدوا مع القاعدين.

﴿١٤١﴾ ﴿وليمحص الله الذين آمنوا﴾، وهذا أيضاً من الحكم أن الله يمحص بذلك المؤمنين من ذنوبهم وعيوبهم، يدل ذلك على أن الشهادة والقتال في سبيل الله تكفر الذنوب وتزيل العيوب^(١)، وليمحص الله أيضاً المؤمنين من غيرهم من المنافقين فيخلصون منهم ويعرفون المؤمن من المنافق.

(١) في (ب): «يكفر الذنوب ويزيل العيوب».

ومن الحكم أيضاً أنه يقدر ذلك ليمحق الكافرين، أي: ليكون سبباً لمحققهم واستئصالهم بالعقوبة، فإنهم إذا انتصروا بغوا وازدادوا طغياناً إلى طغيانهم يستحقون به المعالجة بالعقوبة رحمة بعباده المؤمنين. ثم قال تعالى:

﴿١٤٢﴾ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ﴾، هذا استفهام إنكاري، أي: لا تظنوا ولا يخطر ببالكم أن تدخلوا الجنة من دون مشقة واحتمال المكاره في سبيل الله، وابتغاء مرضاته، فإن الجنة أعلى المطالب وأفضل ما به يتنافس المتنافسون، وكلما عظم المطلوب عظمت وسيلته والعمل الموصول إليه، فلا يوصل إلى الراحة إلا بترك الراحة ولا يدرك النعيم إلا بترك النعيم، ولكن مكاره الدنيا التي تصيب العبد في سبيل الله، عند توطين النفس لها وتمرينها عليها ومعرفة ما تؤول إليه تنقلب عند أرباب البصائر منحناً يسرون بها ولا يبالون بها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ثم وبخهم تعالى على عدم صبرهم بأمر كانوا يتمنونه ويودون حصوله، فقال:

﴿١٤٣﴾ ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمْنُونَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُلْقَوْهُ﴾، وذلك أن كثيراً من الصحابة رضي الله عنهم ممن فاته بدر، يتمنون أن يحضرهم الله شهداء يبذلون فيه جهدهم، قال الله تعالى لهم: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾؛ [أي: رأيتم] ما تمنيتم بأعينكم ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾، فما بالكم وترك الصبر؟ هذه حالة لا تليق ولا تحسن، خصوصاً لمن تمنى ذلك وحصل له ما تمنى، فإن الواجب عليه بذل الجهد واستفراغ الوسع في ذلك. وفي هذه الآية دليل على أنه لا يكره تمنى الشهادة. ووجه الدلالة أن الله تعالى أقرهم على أمنيته، ولم ينكر عليهم، وإنما أنكر عليهم عدم العمل بمقتضاها والله أعلم. ثم قال تعالى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٤) ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا وَمَنْ يَرُدُّ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَمَنْ يَرُدُّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٥) .

﴿١٤٤﴾ يقول تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾؛ أي: ليس ببدع من الرسل، بل هو من جنس الرسل الذين قبله، وظيفتهم تبليغ رسالة ربهم وتنفيذ أوامره ليسوا بمخلدين، وليس بقاؤهم شرطاً في امتثال أوامر الله، بل

الواجب على الأمم عبادة ربهم في كل وقت وبكل حال، ولهذا قال: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ؟ بَلْ تُبْرِكُ مَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنْ إِيْمَانٍ أَوْ جِهَادٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾، إنما يضر نفسه، وإلا فالله تعالى غني عنه، وسيقيم دينه، ويعز عباده المؤمنين.

فلما وبخ تعالى من انقلب على عقبه، مدح من ثبت مع رسوله، وامثل أمر ربه فقال: ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾، والشكر لا يكون إلا بالقيام بعبودية الله تعالى في كل حال. وفي هذه الآية الكريمة إرشاد من الله تعالى لعباده أن يكونوا بحالة لا يززعهم عن إيمانهم أو عن بعض لوازمه فَقَدْ رُئِيَ ولو عظم، وما ذاك إلا بالاستعداد في كل أمر من أمور الدين بعدة أناس من أهل الكفاءة فيه إذا فَقِدَ أحدهم قام به غيره، وأن يكون عموم المؤمنين قصدهم إقامة دين الله والجهاد عنه بحسب الإمكان، لا يكون لهم قصد في رئيس دون رئيس، فبهذه الحال يستتب لهم أمرهم، وتستقيم أمورهم.

وفي هذه الآية أيضاً أعظم دليل على فضيلة الصديق الأكبر أبي بكر وأصحابه الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله ﷺ لأنهم هم سادات الشاكرين.

﴿١٤٥﴾ ثم أخبر تعالى أن النفوس جميعها معلقة بآجالها بإذن الله وقدره وقضائه، فمن حتم عليه بالقدر أن يموت مات ولو بغير سبب، ومن أراد بقاءه فلو وقع ^(١) من الأسباب كل سبب لم يضره ذلك قبل بلوغ أجله، وذلك أن الله قضاه وقدره وكتبه إلى أجل مسمى إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون. ثم أخبر تعالى أنه يعطي الناس من ثواب الدنيا والآخرة ما تعلق به إرادتهم، فقال: ﴿ومن يرد ثواب الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا ومن يرد ثواب الآخرة نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا نُمَدِّدْ هَؤُلَاءَ وَهَؤُلَاءَ مِنْ عِطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عِطَاءَ رَبِّكَ مُحْظُورًا. انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾. ﴿وسنجزي الشاكرين﴾، ولم يذكر جزاءهم ليدل ذلك على كثرة وعظمته، وليعلم أن الجزاء على قدر الشكر قلة وكثرة وحسناً.

﴿وَكَايْنٍ مِّن نَّيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيتُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا

أَسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَقَالَهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ .

﴿١٤٦﴾ هذا تسلية للمؤمنين وحثٌ على الاقتداء بهم والفعل كفعلهم، وأن هذا أمر قد كان متقدماً لم تزل سنة الله جارية بذلك، فقال: ﴿وكأين من نبي﴾؛ أي: وكم من نبي ﴿قاتل معه ربيون كثير﴾؛ أي: جماعات كثيرون من أتباعهم الذين قد ربتهم الأنبياء بالإيمان والأعمال الصالحة فأصابهم قتل وجراح وغير ذلك، ﴿فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا﴾؛ أي: ما ضعفت قلوبهم، ولا وهنت أبدانهم، ولا استكانوا؛ أي: ذلُّوا لعدوهم، بل صبروا وثبتوا وشجعوا أنفسهم، ولهذا قال: ﴿والله يحب الصابرين﴾.

﴿١٤٧﴾ ثم ذكر قولهم واستنصارهم لربهم فقال: ﴿وما كان قولهم﴾؛ أي: في تلك المواطن الصعبة ﴿إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا﴾، والإسراف هو: مجاوزة الحد إلى ما حرم، علموا أن الذنوب والإسراف من أعظم أسباب الخذلان وأن التخلي منها من أسباب النصر، فسألوا ربهم مغفرتها. ثم إنهم لم يتكلموا على ما بذلوا جهدهم به من الصبر، بل اعتمدوا على الله، وسألوه أن يثبت أقدامهم عند ملاقات الأعداء الكافرين، وأن ينصرهم عليهم، فجمعوا بين الصبر وترك ضده، والتوبة والاستغفار والاستنصار بربهم، لا جرم أن الله نصرهم، وجعل لهم العاقبة في الدنيا والآخرة ولهذا قال:

﴿١٤٨﴾ ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا﴾ من النصر والظفر والغنيمة ﴿وحسن ثواب الآخرة﴾ وهو الفوز برضا ربهم والنعيم المقيم الذي قد سلم من جميع المنكدرات، وما ذاك إلا أنهم أحسنوا له الأعمال فجازاهم بأحسن الجزاء، فلماذا قال: ﴿والله يحب المحسنين﴾ في عبادة الخالق ومعاملة الخلق، ومن الإحسان أن يفعل عند جهاد الأعداء كفعل هؤلاء المؤمنين^(١). ثم قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَزِيدُواكُمْ عَلَىٰ عَذَابِكُمْ فَتَسْقَلُوا خَسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا

الرُّعْبَ يَمَّا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمْ النَّارُ وَيَبْسُ مَثْوَى
الْقَلِيلِينَ ﴿١٥١﴾ .

﴿١٤٩﴾ وهذا نهى من الله للمؤمنين، أن يطيعوا الكافرين من المنافقين
والمشركين فإنهم إذا أطاعوهم لم يريدوا لهم إلا الشر، وهم قصدهم ردهم^(١) إلى
الكفر الذي عاقبته الخيبة والخسران.

﴿١٥٠﴾ ثم أخبر أنه مولاهم وناصرهم، ففيه إخبار لهم بذلك وبشارة، بأنه
يتولى أمورهم بلطفه ويعصمهم من أنواع الشرور، وفي ضمن ذلك الحث لهم على
اتخاذة وحده ولياً وناصراً من دون كل أحد.

﴿١٥١﴾ فمن ولايته ونصره لهم أنه وعدهم أنه سيلقي في قلوب أعدائهم من
الكافرين الرعب، وهو الخوف العظيم الذي يمنعهم من كثير من مقاصدهم، وقد
فعل تعالى، وذلك أن المشركين بعد ما انصرفوا من وقعة أحد تشاوروا بينهم،
وقالوا: كيف ننصرف بعد أن قتلنا منهم من قتلنا وهزمتناهم ولما نستأصلهم؟ فهُمُوا
بذلك، فألقى الله الرعب في قلوبهم فانصرفوا خائبين.

ولا شك أن هذا من أعظم النصر، لأنه قد تقدم أن نصر الله لعباده المؤمنين لا
يخرج عن أحد أمرين: إما أن يقطع طرفاً ممن كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين.
وهذا من الثاني. ثم ذكر السبب الموجب لإلقاء الرعب في قلوب الكافرين فقال:
﴿بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾؛ أي: ذلك بسبب ما اتخذوا من دونه من
الأنداد والأصنام التي اتخذوها على حسب أهوائهم وإراداتهم الفاسدة من غير حجة
ولا برهان، وانقطعوا من ولاية الواحد الرحمن، فمن ثم كان المشرك مرعوباً من
المؤمنين لا يعتمد على ركن وثيق، وليس له ملجأ عند كل شدة وضيق، هذا حاله
في الدنيا وأما في الآخرة فأشد وأعظم، ولهذا قال: ﴿ومأواهم النار﴾؛ أي:
مستقرهم الذي يأوون إليه وليس لهم عنها خروج ﴿وبس مَثْوَى الظالمين﴾، بسبب
ظلمهم وعدوانهم؛ صارت النار مأواهم.

﴿وَلَقَدْ مَدَدْنَا لَكُمُ اللَّهَ وَعَدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي
الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرْسَلْنَا بِكُمْ مَّا تَحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ

(١) في (ب): «وهو ردهم».

يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ .

﴿١٥٢﴾ أي: ﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ بالنصر فنصركم عليهم حتى ولوكم
أكتافهم، وطفقتم فيهم قتلاً حتى صرتم سبياً لأنفسكم وعوناً لأعدائكم عليكم، فلما
حصل منكم الفشل وهو الضعف والخور ﴿وتنازعتم في الأمر﴾ الذي فيه ترك
أمر الله بالائتلاف وعدم الاختلاف، فاختلقتم؛ فمن قائل نقيم في مركزنا الذي
جعلنا فيه النبي ﷺ، ومن قائل ما مقامنا فيه وقد انهزم العدو ولم يبق محذور،
فعصيتم الرسول وتركتم أمره، من بعد ما أراكم الله ما تحبون، وهو انخزال
أعدائكم، لأن الواجب على من أنعم الله عليه بما أحب أعظم من غيره، فالواجب
في هذه الحال خصوصاً وفي غيرها عموماً امتثال أمر الله ورسوله، ﴿منكم من يريد
الدنيا﴾؛ وهم الذين أوجب لهم ذلك ما أوجب، ﴿ومنكم من يريد الآخرة﴾؛ وهم
الذين لزموا أمر رسول الله.

وثبتوا حيث أمروا، ﴿ثم صرفكم عنهم﴾؛ أي: بعد ما وجدت هذه الأمور
منكم، صرف الله وجوهكم عنهم، فصار الوجه لعدوكم ابتلاء من الله لكم
وامتحاناً، ليتبين المؤمن من الكافر والطائع من العاصي، وليكفر الله عنكم بهذه
المصيبة ما صدر منكم فلهذا قال: ﴿ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على
المؤمنين﴾؛ أي: ذو فضل عظيم عليهم، حيث منَّ عليهم بالإسلام، وهداهم
لشرائعه، وعفا عنهم سيئاتهم، وأثابهم على مصيبتهم، ومن فضله على المؤمنين أنه
لا يُقدَّرُ عليهم خيراً ولا مصيبة إلا كان خيراً لهم، إن أصابتهم سراء فشكروا،
جازاهم جزاء الشاكرين، وإن أصابتهم ضراء فصبروا، جازاهم جزاء الصابرين.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ مِنَ الرُّسُلِ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجَكُمْ فَأَنْتُمْ كُنتُمْ
عَمَّا يَغْمُرُ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ
﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنًا نَّصَافًا يَشْفِي طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ
أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ لَّيْسَ
لَنَا مِنْ شَيْءٍ قُلْ لَّيْسَ لَنَا مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قَوْلُنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا

فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٣﴾ .

﴿١٥٣﴾ يذكرهم تعالى حالهم في وقت انهزامهم عن القتال، ويعاتبهم على ذلك فقال: ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ﴾؛ أي: تَجِدُونَ في الهرب ﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾؛ أي: لا يلوي أحد منكم على أحد ولا ينظر إليه، بل ليس لكم همٌ إلا الفرار والنجاء عن القتال، والحال أنه ليس عليكم خطر كبير، إذ لستم آخر الناس مما يلي الأعداء ويباشر الهيجاء، بل ﴿الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُم﴾؛ أي: مما يلي القوم يقول: ﴿إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾^(١)، فلم تلتفتوا إليه ولا عرجتم عليه، فالفرار نفسه موجب للوم، ودعوة الرسول الموجبة لتقديمه على النفس أعظم لوماً بتخلفكم عنها ﴿فَأَثَابِكُمْ﴾؛ أي: جازاكم على فعلكم ﴿غَمًّا بَغْمٍ﴾؛ أي: غمًّا يتبعه غمٌ، غمٌ بفوات النصر وفوات الغنيمة، وغمٌ بانهزامكم، وغمٌ أنساكم كل غمٌ وهو سماعكم أن محمداً ﷺ قد قتل.

ولكن الله بلطفه وحسن نظره لعباده جعل اجتماع هذه الأمور لعباده المؤمنين خيراً لهم فقال: ﴿لَكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾؛ من النصر والظفر، ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾؛ من الهزيمة والقتل والجراح إذا تحققت أن الرسول ﷺ لم يقتل، هانت عليكم تلك المصيبات، واغتنبتم بوجوده المسلي عن كل مصيبة ومحنة، فلله ما في ضمن البلايا والمحن من الأسرار والحكم، وكل هذا صادر عن علمه وكمال خبرته بأعمالكم وظواهركم وبواطنكم، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، ويحتمل أن معنى قوله: ﴿لَكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾؛ يعني: أنه قدّر ذلك الغم والمصيبة عليكم، لكي تتوطن نفوسكم وتمرّنوا على الصبر على المصيبات، ويخف^(٢) عليكم تحمل المشقات.

﴿١٥٤﴾ ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ﴾، الذي أصابكم، ﴿أَمْنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ﴾، ولا شك أن هذا رحمة بهم وإحسان وتشببت لقلوبهم وزيادة طمأنينة، لأن الخائف لا يأتيه النعاس، لما في قلبه من الخوف، فإذا زال الخوف عن القلب أمكن أن يأتيه النعاس، وهذه الطائفة التي أنعم الله عليها بالنعاس، هم المؤمنون الذين ليس لهم إلا إقامة دين الله ورضا الله ورسوله ومصلحة إخوانهم

(١) انظر «تفسير الطبري» (٣٠١/٧)، و«الدر المنثور» (١٥٣/٢).

(٢) في (ب): «وتخف».

المسلمين، وأما الطائفة الأخرى الذين ﴿قد أهتمهم أنفسهم﴾، فليس لهم همٌ في غيرها لنفاقهم أو ضعف إيمانهم، فلهذا لم يصبهم من النعاس ما أصاب غيرهم، ﴿يقولون هل لنا من الأمر من شيء﴾، وهذا استفهام إنكاري، أي: ما لنا من الأمر، أي: النصر والظهور شيء، فأساؤوا الظنَّ بربهم وبدينه وبنبيه، وظنوا أن الله لا يتم أمر رسوله، وأن هذه الهزيمة هي الفيصلة والقاضية على دين الله.

قال الله في جوابهم: ﴿قل إن الأمر كله لله﴾، الأمر يشمل الأمر القدري والأمر الشرعي، فجميع الأشياء بقضاء الله وقدره، وعاقبتها^(١) النصر والظفر لأوليائه وأهل طاعته وإن جرى عليهم ما جرى، ﴿يخفون﴾ يعني المنافقين ﴿في أنفسهم ما لا يبدون لك﴾، ثم بيّن الأمر الذي يخفونه فقال: ﴿يقولون لو كان لنا من الأمر شيء؟﴾ أي: لو كان لنا في هذه الواقعة رأي ومشورة ﴿ما قتلنا ههنا﴾، وهذا إنكار منهم، وتكذيب بقدر الله، وتسفيه منهم لرأي رسول الله ورأي أصحابه، وتزكية منهم لأنفسهم، فرد الله عليهم بقوله: ﴿قل لو كنتم في بيوكم﴾ التي هي أبعد شيء عن مظان القتل ﴿لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾، فالأسباب وإن عظمت إنما تنفع إذا لم يعارضها القدر والقضاء، فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئاً، بل لا بد أن يمضي الله ما كتب في اللوح المحفوظ من الموت والحياة ﴿وليبتلي الله ما في صدوركم﴾؛ أي: يختبر ما فيها من نفاق وإيمان وضعف إيمان، ﴿وليمحص ما في قلوبكم﴾ من وساوس الشيطان وما تأثر عنها من الصفات غير الحميدة ﴿والله عليم بذات الصدور﴾؛ أي: بما فيها وما أكتته، فاقضى علمه وحكمته أن قدر من الأسباب ما به تظهر مخبآت الصدور وسرائر الأمور. ثم قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾.

﴿١٥٥﴾ يخبر تعالى عن حال الذين انهزموا يوم أحد، وما الذي أوجب لهم الفرار وأنه من تسويل الشيطان، وأنه تسلط عليهم ببعض ذنوبهم، فهم الذين أدخلوه على أنفسهم ومكنوه بما فعلوا من المعاصي لأنها مركبة ومدخلة، فلو اعتصموا بطاعة ربهم لما كان له عليهم من سلطان، قال تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم

سلطان»، ثم أخبر أنه عفا عنهم بعد ما فعلوا ما يوجب المؤاخذه، وإلا فلو أخذهم لاستأصلهم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ للمذنبين الخطائين بما يوفقهم له من التوبة والاستغفار والمصائب المكفرة ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل من عصاه بل يستأنى به ويدعوه إلى الإنابة إليه والإقبال عليه، ثم إن تاب، وأناب قبل منه، وصيره كأنه لم يجر منه ذنب، ولم يصدر عنه عيب. فله الحمد على إحسانه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَىٰ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

﴿١٥٦﴾ ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يشابهوا الكافرين، الذين لا يؤمنون بربهم ولا بقضائه وقدره من المنافقين وغيرهم، ينهاهم عن مشابهتهم في كل شيء وفي هذا الأمر الخاص وهم أنهم يقولون لإخوانهم في الدين أو في النسب ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: سافروا للتجارة ﴿أَوْ كَانُوا غُرَىٰ﴾؛ أي: غزاة ثم جرى عليهم قتل أو موت يعارضون القدر ويقولون: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ وهذا كذب منهم، فقد قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾، ولكن هذا التكذيب لم يفدهم، إلا أن الله يجعل هذا القول وهذه العقيدة حسرة في قلوبهم، فتزداد مصيبتهم، وأما المؤمنون فإنهم يعلمون أن ذلك بقدر الله فيؤمنون ويسلمون فيهدي الله قلوبهم ويثبتها ويخفف بذلك عنهم المصيبة، قال الله ردًا عليهم: ﴿وَاللَّهُ يَحْيِي وَيُمِيتُ﴾؛ أي: هو المتفرد^(١) بذلك فلا يغني حذر عن قدر، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ فيجازيكم بأعمالكم وتكذبيكم.

﴿١٥٧﴾ ثم أخبر تعالى أن القتل في سبيله أو الموت فيه، ليس فيه نقص ولا محذور، وإنما هو مما ينبغي أن يتنافس فيه المتنافسون، لأنه سبب مفض وموصل إلى مغفرة الله ورحمته، وذلك خير مما يجمع أهل الدنيا من دنياهم.

﴿١٥٨﴾ وأن الخلق أيضاً إذا ماتوا، أو قتلوا بأي حالة كانت، فإنما مرجعهم

إلى الله ومآلهم إليه، فيجازي كلاً بعمله، فأين الفرار إلا إلى الله، وما للخلق عاصم إلا الاعتصام بحبل الله.

﴿فَمَا رَحِمَ مِنَ اللَّهِ لَئِنَّ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾.

﴿١٥٩﴾ أي: برحمة الله لك ولأصحابك، من الله عليك أن أنت لهم جانبك وخففت لهم جناحك، وترقت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك، وأحبوك وامثلوا أمرك، ﴿ولو كنت فظاً﴾؛ أي: سيء الخلق ﴿غليظ القلب﴾؛ أي: قاسيه، ﴿لانفضوا من حولك﴾ لأن هذا ينفرهم ويبغضهم لمن قام به هذا الخلق السيء، فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين تجذب الناس إلى دين الله وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص. فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول، فكيف بغيره؟ أليس من أوجب الواجبات وأهم المهمات الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به ﷺ، من اللين وحسن الخلق والتأليف؟ امثالاً لأمر الله وجذباً لعباد الله لدين الله؟

ثم أمر الله تعالى بأن يعفو عنهم ما صدر منهم من التقصير في حقه ﷺ ويستغفر لهم في التقصير في حق الله فيجمع بين العفو والإحسان، ﴿وشاورهم في الأمر﴾؛ أي: الأمور التي تحتاج إلى استشارة ونظر وفكر، فإن في الاستشارة من الفوائد والمصالح الدينية والدنيوية ما لا يمكن حصره:

منها: أن المشاورة من العبادات المتقرب بها إلى الله.

ومنها: أن فيها تسميحاً لخواطرهم وإزالة لما يصير في القلوب عند الحوادث، فإن من له الأمر على الناس إذا جمع أهل الرأي والفضل، وشاورهم في حادثة من الحوادث، اطمأنت نفوسهم وأحبوه وعلموا أنه ليس يستبد^(١) عليهم، وإنما ينظر إلى المصلحة الكلية العامة للجميع، فبذلوا جهدهم ومقدورهم في طاعته لعلمهم بسعيه في مصالح العموم، بخلاف من ليس كذلك فإنهم لا يكادون يحبونه محبة صادقة ولا يطيعونه، وإن أطاعوه فطاعة غير تامة.

(١) في (ب): «بمستبد».

ومنها: أن في الاستشارة تنور الأفكار بسبب إعمالها فيما وضعت له، فصار في ذلك زيادة للعقول.

ومنها: ما تنتجه الاستشارة من الرأي المصيب، فإن المشاور لا يكاد يخطئ في فعله، وإن أخطأ أو لم يتم له مطلوب فليس بملوم.

فإذا كان الله يقول لرسوله ﷺ - وهو أكمل الناس عقلاً وأغزرهم علماً وأفضلهم رأياً -: ﴿وشاورهم في الأمر﴾، فكيف بغيره؟ ثم قال تعالى: ﴿فإذا عزمته﴾؛ أي: على أمر من الأمور بعد الاستشارة فيه إن كان يحتاج إلى استشارة ﴿فتوكل على الله﴾؛ أي: اعتمد على حول الله وقوته متبرئاً من حولك وقوتك، ﴿إن الله يحب المتوكلين﴾ عليه اللاجئين إليه.

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٦٠).

﴿١٦٠﴾ أي: إن يمددكم الله بنصره ومعونته ﴿فلا غالب لكم﴾، فلو اجتمع عليكم من في أقطارها وما عندهم من العدد والعدد لأن الله لا مغالب له، وقد قهر العباد وأخذ بنواصيرهم، فلا تتحرك دابة إلا بإذنه، ولا تسكن إلا بإذنه، ﴿وإن يخذلكم﴾ ويكللكم إلى أنفسكم ﴿فمن ذا الذي ينصركم من بعده﴾، فلا بد أن تنخذلوا ولو أعانكم جميع الخلق، وفي ضمن ذلك الأمر بالاستنصار بالله والاعتماد عليه والبراءة من الحول والقوة، ولهذا قال: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾، تقدم^(١) المعمول يؤذن بالحصص، أي: على الله توكلوا لا على غيره، لأنه قد علم أنه هو الناصر وحده، فالاعتماد عليه توحيد محصل للمقصود، والاعتماد على غيره شرك غير نافع لصاحبه بل ضار، وفي هذه الآية الأمر بالتوكل على الله وحده، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَفْعَلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١٦١).

﴿١٦١﴾ الغلول: هو الكتمان من الغنيمة والخيانة في كل مال يتولاه الإنسان وهو محرّم إجماعاً، بل هو من الكبائر كما تدل عليه هذه الآية الكريمة وغيرها من

(١) في (ب): «تقديم».

النصوص، فأخبر الله تعالى أنه ما ينبغي ولا يليق بنبي أن يغفل، لأن الغلول - كما علمت - من أعظم الذنوب وشر العيوب.

وقد صان الله تعالى أنبياءه عن كل ما يندسهم ويقدح فيهم، وجعلهم أفضل العالمين أخلاقاً وأطهرهم نفوساً، وأزكاهم وأطيبهم ونزههم عن كل عيب، وجعلهم محل رسالته ومعدن حكمته، ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾، فبمجرد علم العبد بالواحد منهم يجزم بسلامتهم من كل أمر يقدح فيهم، ولا يحتاج إلى دليل على ما قيل فيهم من أعدائهم، لأن معرفته بنبوتهم مستلزم لدفع ذلك، ولذلك أتى بصيغة يمتنع معها وجود الفعل منهم فقال: ﴿وما كان لنبي أن يغفل﴾؛ أي: يمتنع ذلك ويستحيل على من اختارهم الله لنبوته. ثم ذكر الوعيد على من غل فقال: ﴿ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة﴾؛ أي: يأت به حامله على ظهره حيواناً كان أو متاعاً أو غير ذلك يعذب به يوم القيامة ﴿ثم توفي كل نفس ما كسبت﴾؛ الغال وغيره كل يوفى أجره ووزره على مقدار كسبه ﴿وهم لا يظلمون﴾؛ أي: لا يزداد في سيئاتهم ولا يهضمون شيئاً من حسناتهم.

وتأمل حسن هذا الاحتراز في هذه الآية الكريمة لما ذكر عقوبة الغال وأنه يأتي يوم القيامة بما غله، ولما أراد أن يذكر توفيته وجزاءه وكان اقتصاره^(١) على الغال يوهم بالمفهوم أن غيره من أنواع العاملين قد لا يوفون، أتى بلفظ عام جامع له ولغيره.

﴿أَفَمِنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَنَهُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيدُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾.

﴿١٦٢ - ١٦٣﴾ يخبر تعالى أنه لا يستوي من كان قصده رضوان ربه والعمل على ما يرضيه كمن ليس كذلك ممن هو مكب على المعاصي مسخط لربه، هذان لا يستويان في حكم الله وحكمة الله وفي فطر عباد الله ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون﴾؛ لهذا قال هنا: ﴿هم درجات عند الله﴾؛ أي: كل هؤلاء متفاوتون في درجاتهم ومنازلهم بحسب تفاوتهم في أعمالهم.

فالمتبعون لرضوان الله يسعون في نيل الدرجات العاليات والمنازل والغرفات،

(١) في (ب): «الاقتصار».

فيعطيه الله من فضله وجوده على قدر أعمالهم، والمتبعون لمساخط الله يسعون في النزول في الدركات إلى أسفل سافلين كل على حسب عمله، والله بصير بأعمالهم لا يخفى عليه منها شيء، بل قد علمها وأثبتها في اللوح المحفوظ ووكل ملائكته الأمناء الكرام أن يكتبوها ويحفظوها ويضبطوها.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾.

﴿١٦٤﴾ هذه المنة التي امتنَّ الله بها على عباده أكبر النعم بل أصلها، وهي الامتنان عليهم بهذا الرسول الكريم الذي أنقذهم الله به من الضلالة، وعصمهم به من الهلكة فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾؛ يعرفون نسبه وحاله ولسانه من قومهم وقبيلتهم ناصحاً لهم مشفقاً عليهم يتلو عليهم آيات الله؛ يعلمهم ألفاظها ومعانيها ﴿ويزكِّيهم﴾؛ من الشرك والمعاصي والردائل وسائر مساوئ الأخلاق ﴿ويعلمهم الكتاب﴾؛ إما جنس الكتاب الذي هو القرآن فيكون قوله: ﴿يتلو عليهم آياته﴾؛ المراد به الآيات الكونية، أو المراد بالكتاب هنا الكتابة فيكون قد امتنَّ عليهم بتعليم الكتاب والكتابة التي بها تدرك العلوم وتحفظ ﴿والحكمة﴾؛ هي: السنة التي هي شقيقة القرآن، أو وضع الأشياء مواضعها ومعرفة أسرار الشريعة فجمع لهم بين تعليم الأحكام وما به تُنفَّذ الأحكام وما به تدرك فوائدها وثمراتها ففاقوا بهذه الأمور العظيمة جميع المخلوقين، وكانوا من العلماء الربانيين ﴿وإن كانوا من قبل﴾؛ بعثة هذا الرسول ﴿لفي ضلال مبين﴾؛ لا يعرفون الطريق الموصل إلى ربهم، ولا ما يزكي النفوس، ويطهرها، بل ما يزين^(١) لهم جهلهم فعلوه، ولو ناقض ذلك عقول العالمين!

﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِن تِلْكَ فَلَمَّا أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَإِذْنُ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَمَالَوْا فَتَمَلَّوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَذْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لَاخُذْهُمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُوا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنِ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾.

(١) في (ب): «ما زين».

﴿١٦٥﴾ هذا تسلية من الله تعالى لعباده المؤمنين حين أصابهم ما أصابهم يوم أحد وقتل منهم نحو سبعين، فقال الله: إنكم ﴿قد أصبتم﴾؛ من المشركين ﴿مثليها﴾ [يوم بدر]؛ فقتلتم سبعين من كبارهم وأسرتهم سبعين، فَلْيَهْنِ الْأَمْرُ وَلِتَخَفْ الْمَصِيبَةُ عَلَيْكُمْ مع أنكم لا تستوون أنتم وهم، فإن قتلاككم في الجنة وقتلاهم في النار، ﴿قلتم أنى هذا﴾؛ أي: من أين أصابنا ما أصابنا وهزمنا؟ ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾؛ حين تنازعتم وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون، فعودوا على أنفسكم باللوم واحذروا من الأسباب المردية ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾؛ فإياكم وسوء الظن بالله، فإنه قادر على نصركم، ولكن له أتم الحكمة في ابتلائكم ومصيبتكم ذلك، ولو شاء الله لانتصر منهم، ولكن ليلو بعضكم ببعض.

﴿١٦٦ - ١٦٧﴾ ثم أخبر أن ما أصابهم يوم التقى الجمعان: جمع المسلمين وجمع المشركين في أحد من القتل والهزيمة، أنه بإذنه وقضائه وقدره، لا مرد له ولا بد من وقوعه، والأمر القدري إذا نفذ لم يبق إلا التسليم له وأنه قدره لحكم عظيمة وفوائد جسيمة، وأنه ليتبين بذلك المؤمن من المنافق الذين لما أمروا بالقتال ﴿وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله﴾؛ أي: ذباً عن دين الله وحماية له وطلباً لمرضاة الله، ﴿أو ادفعوا﴾ عن محارمكم وبلدكم إن لم يكن لكم نية صالحة، فأبوا ذلك واعتذروا بأن: ﴿قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾؛ أي: لو نعلم أنكم يصير بينكم وبينهم قتال لاتبعناكم، وهم كذبة في هذا، قد علموا وتيقنوا، وعلم كل أحد أن هؤلاء المشركين قد ملئوا من الحنق والغيط على المؤمنين بما أصابوا منهم، وأنهم قد بذلوا أموالهم وجمعوا ما يقدرون عليه من الرجال والعدد، وأقبلوا في جيش عظيم قاصدين المؤمنين في بلدهم متحرقين على قتالهم، فمن كانت هذه حالهم كيف يتصور أنه لا يصير بينهم وبين المؤمنين قتال؟

خصوصاً وقد خرج المسلمون من المدينة وبرزوا لهم، هذا من المستحيل، ولكن المنافقين ظنوا أن هذا العذر يروج على المؤمنين، قال تعالى: ﴿هم للكفر يومئذ﴾؛ أي: في تلك الحال التي تركوا فيها الخروج مع المؤمنين ﴿أقرب منهم للإيمان، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾، وهذه خاصة المنافقين يظهرون بكلامهم وفعالهم ما يبطنون ضده في قلوبهم وسرائرهم، ومنه قولهم: ﴿لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾، فإنهم قد علموا وقوع القتال. ويستدل بهذه الآية على قاعدة ارتكاب أخف المفسدتين، لدفع أعلاهما وفعل أدنى المصلحتين للعجز عن أعلاهما، لأن المنافقين أمروا أن يقاتلوا للدين، فإن لم يفعلوا فللمدافعة عن العيال

والأوطان ﴿والله أعلم بما يكتُمون﴾، فيديه لعباده المؤمنين، ويعاقبهم عليه.

﴿١٦٨﴾ ثم قال تعالى: ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا﴾؛ أي: جمعوا بين التخلف عن الجهاد وبين الاعتراض والتكذيب بقضاء الله وقدره، قال الله ردًا عليهم: ﴿قل فادرأوا﴾؛ أي: ادفعوا ﴿عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾، أنهم لو أطاعوكم ما قتلوا لا تقدرُونَ على ذلك ولا تستطيعونه. وفي هذه الآيات دليل على أن العبد قد يكون فيه خصلة كفر وخصلة إيمان، وقد يكون إلى إحداهما أقرب منه إلى الأخرى.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٨) ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٦٩) ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧٠).

﴿١٦٩﴾ هذه الآيات الكريمات فيها فضل^(١) الشهداء وكرامتهم، وما منَّ الله عليهم به من فضله وإحسانه، وفي ضمنها تسلية الأحياء عن قتلاهم وتعزيتهم وتنشيطهم للقتال في سبيل الله والتعرض للشهادة فقال: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله﴾؛ أي: في جهاد أعداء الدين قاصدين بذلك إعلاء كلمة الله، ﴿أمواتاً﴾؛ أي: لا يخطر ببالك وحسابك أنهم ماتوا، وفقدوا، وذهبت عنهم لذة الحياة الدنيا والتمتع بزهرتها، الذي يحذر من فواته من جبن عن القتال وزهد في الشهادة، ﴿بل﴾ قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المتنافسون، فهم ﴿أحياء عند ربهم﴾ في دار كرامته، ولفظ: عند ربهم، يقتضي علو درجتهم وقربهم من ربهم، ﴿يرزقون﴾ من أنواع النعيم الذي لا يعلم وصفه إلا من أنعم به عليهم.

﴿١٧٠﴾ ومع هذا ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾؛ أي: مغتبطين بذلك وقد قرت به عيونهم وفرحت به نفوسهم، وذلك لحسنه وكثرته وعظمته وكمال اللذة في الوصول إليه وعدم المنغص، فجمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق ونعيم القلب والروح بالفرح بما آتاهم من فضله، فتم له^(٢) النعيم والسرور وجعلوا ﴿يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾؛ أي: يبشر بعضهم بعضاً بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم وأنهم سينالون ما نالوا ﴿ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾؛ أي:

(١) في (ب): «هذه الآيات الكريمة فيها فضيلة».

(٢) في (ب): «فتم لهم».

يستبشرون بزوال المحذور عنهم وعن إخوانهم المستلزم كمال السرور.

﴿١٧١﴾ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أي: يهنئ بعضهم بعضاً بأعظم مهناً به وهو نعمة ربهم وفضله وإحسانه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ بل ينمي ويشكره، ويزيده من فضله ما لا يصل إليه سعيهم.

وفي هذه الآيات إثبات نعيم البرزخ، وأن الشهداء في أعلى مكان عند ربهم، وفيه تلاقي أرواح أهل الخير، وزيارة بعضهم بعضاً، وتبشير بعضهم بعضاً.

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾
 ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾
 ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَى اللَّهِ وَفَضَّلَ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾
 ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخُوفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١).

﴿١٧٢ - ١٧٣﴾ لما رجع النبي ﷺ من أحد إلى المدينة وسمع أن أبا سفيان ومن معه من المشركين قد هموا بالرجوع إلى المدينة ندب أصحابه إلى الخروج، فخرجوا على ما بهم من الجراح استجابة لله ولرسوله وطاعة لله ولرسوله، فوصلوا إلى حمراء الأسد^(١)، وجاءهم من جاءهم وقال لهم: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾؛ وهموا باستئصالكم تخويفاً لهم وترهيباً، فلم يزددهم ذلك إلا إيماناً بالله واتكالا عليه ﴿وقالوا حسبنا الله﴾؛ أي: كافينا كل ما أهمنا ﴿ونعم الوكيل﴾؛ المفوض إليه تدبير عباده والقائم بمصالحهم.

﴿١٧٤﴾ ﴿فَانْقَلَبُوا﴾؛ أي: رجعوا ﴿بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء﴾، وجاء الخبر المشركين: أن الرسول وأصحابه قد خرجوا إليكم وندم من تخلف منهم، فألقى الله الرعب في قلوبهم واستمروا راجعين إلى مكة، ورجع المؤمنون بنعمة من الله وفضل حيث من عليهم بالتوفيق للخروج بهذه الحالة والاتكال على ربهم، ثم إنه قد كتب لهم أجر غزاة تامة، فبسبب إحسانهم بطاعة ربهم وتقواهم عن معصيتهم لهم أجر عظيم، وهذا فضل الله عليهم.

﴿١٧٥﴾ ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخُوفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾؛ أي: إن ترهيب من رهب من المشركين - وقال: إنهم ﴿جمعوا لكم...﴾ - داعٍ من دعاة الشيطان

(١) أخرجه البخاري (٤٠٧٧) و (٤٥٦٣).

يخوف بها أوليائه الذين عُدِمَ إيمانهم أو ضعف، ﴿فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾؛ أي: فلا تخافوا المشركين أولياء الشيطان فإن نواصيهم بيد الله لا يتصرفون إلا بقدره، بل خافوا الله الذين ينصر أوليائه الخائفين له، المستجيبين لدعوته.

وفي هذه الآية وجوب الخوف من الله وحده وأنه من لوازم الإيمان، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله، والخوف المحمود ما حجز العبد عن محارم الله.

﴿وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾.

﴿١٧٦﴾ كان النبي ﷺ حريصاً على الخلق مجتهداً في هدايتهم، وكان يحزن إذا لم يهتدوا، قال الله تعالى: ﴿ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ من شدة رغبتهم فيه وحرصهم عليه ﴿إنهم لن يضرروا الله شيئاً﴾ فالله ناصر دينه ومؤيد رسوله ومنفذ أمره من دونهم، فلا تبالهم ولا تحفل بهم، إنما يضررون ويسعون في ضرر أنفسهم بفوات الإيمان في الدنيا، وحصول العذاب الأليم في الآخرة، من هوانهم على الله وسقوطهم من عينه وإرادته أن لا يجعل لهم نصيباً في الآخرة من ثوابه؛ خذلهم فلم يوفقهم لما وفق إليه^(١) أوليائه، ومن أراد به خيراً عدلاً منه وحكمة، لعلمه بأنهم غير زاكين على الهدى ولا قابلين للرشاد لفساد أخلاقهم وسوء قصدهم.

﴿١٧٧﴾ ثم أخبر أن الذين اختاروا الكفر على الإيمان ورغبوا فيه رغبةً من بذل ما يحب من المال في شراء ما يحب من السلع ﴿لن يضرروا الله شيئاً﴾، بل ضرر فعلهم يعود على أنفسهم، ولهذا قال: ﴿ولهم عذاب أليم﴾، وكيف يضررون الله شيئاً؟! وهم قد زهدوا أشد الزهد في الإيمان ورغبوا كل الرغبة بالكفر بالرحمن فالله غني عنهم، وقد قيض لدينه من عباده الأبرار الأذكيا سواهم وأعد له ممن ارتضاه لنصرته أهل البصائر والعقول، وذوي الألباب من الرجال الفحول، قال الله تعالى: ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً...﴾ الآيات.

(١) في (ب): «له».

﴿وَلَا يَحْصِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّمَا تُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾.

﴿١٧٨﴾ أي: ولا يظن الذين كفروا بربهم، ونابذوا دينه، وحاربوا رسوله أن تركنا إياهم في هذه الحياة الدنيا وعدم استئصالنا لهم وإملائنا لهم خير لأنفسهم ومحبة منا لهم، كلا ليس الأمر كما زعموا، وإنما ذلك لشئ يريد الله بهم وزيادة عذاب وعقوبة إلى عذابهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، فالله تعالى يملئ للظالم حتى يزداد طغيانه، ويترادف كفرانه حتى إذا أخذه أخذه أخذ عزيز مقتدر، فليحذر الظالمون من الإمهال، ولا يظنوا أن يفوتوا الكبير المتعال.

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾.

﴿١٧٩﴾ أي: ما كان في حكمة الله أن يترك المؤمنين على ما أنتم عليه من الاختلاط وعدم التمييز^(١)، حتى يميز الخبيث من الطيب والمؤمن من المنافق والصادق من الكاذب، ولم يكن في حكمته أيضاً أن يطلع عباده على الغيب الذي يعلمه من عباده، فافتضت حكمته الباهرة أن يبتلي عباده، ويفتنهم بما به يتميز الخبيث من الطيب من أنواع الابتلاء والامتحان، فأرسل الله رسله وأمر بطاعتهم والانقياد لهم والإيمان بهم، ووعدهم على الإيمان والتقوى الأجر العظيم، فانقسم الناس بحسب اتباعهم للرسول قسمين: مطيعين وعاصين ومؤمنين ومنافقين ومسلمين وكافرين، ليرتب على ذلك الثواب والعقاب، وليظهر عدله وفضله وحكمته لخلقه.

﴿وَلَا يَحْصِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾.

﴿١٨٠﴾ أي: ولا يظن الذين يبخلون؛ أي: يمنعون ما عندهم مما آتاهم الله من فضله من المال والجاه والعلم وغير ذلك، مما منحهم الله وأحسن إليهم به،

(١) في (ب): «التمييز».

وأمرهم ببذل ما لا يضرهم منه لعباده فبخلوا بذلك، وأمسكوه وضمنوا به على عباد الله، وظنوا أنه خير لهم بل هو شر لهم في دينهم ودنياهم وعاجلهم وآجلهم، ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ أي يجعل ما بخلوا به طوقاً في أعناقهم يعذبون به كما ورد في الحديث الصحيح: «إن البخيل يمثل له ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يأخذ بلهزمتيه يقول: أنا مالك، أنا كنزك»^(١)، وتلا رسول الله ﷺ مصداق ذلك هذه الآية، فهؤلاء حسبوا أن بخلهم نافعهم ومجد عليهم فانقلب عليهم الأمر، وصار من أعظم مضارهم وسبب عقابهم.

﴿ولله ميراث السموات والأرض﴾؛ أي: هو تعالى مالك الملك وترد جميع الأملاك إلى مالكها وينقلب العباد من الدنيا ما معهم درهم ولا دينار ولا غير ذلك من المال. قال تعالى: ﴿إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون﴾، وتأمل كيف ذكر السبب الابتدائي والسبب الغائي، الموجب كل واحد منهما أن لا يبخل العبد بما أعطاه الله.

أخبر أولاً أن الذي عنده وفي يده فضل من الله ونعمة ليس ملكاً للعبد، بل لولا فضل الله عليه وإحسانه لم يصل إليه منه شيء. فمنع ذلك منع لفضل الله وإحسانه، ولأن إحسانه موجب للإحسان إلى عبيده، كما قال تعالى: ﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾، فمن تحقق أن ما بيده فضل من الله لم يمنع الفضل الذي لا يضره بل ينفعه في قلبه وماله وزيادة إيمانه وحفظه من الآفات.

ثم ذكر ثانياً أن هذا الذي بيد العباد، كلُّها ترجع إلى الله ويرثها تعالى وهو خير الوارثين، فلا معنى للبخل بشيء هو زائل عنك، منتقل إلى غيرك.

ثم ذكر ثالثاً السبب الجزائي فقال: ﴿والله بما تعملون خبير﴾، فإذا كان خبيراً بأعمالكم جميعها ويستلزم ذلك الجزاء الحسن على الخيرات والعقوبات على الشر لم يتخلف من في قلبه مثقال ذرة من إيمان عن الإنفاق الذي يجزي به الثواب ولا يرضى بالإمسك الذي به العقاب.

(١) أخرجه البخاري (١٤٠٣) (٤٥٦٥) بلفظ آخر ومسلم (ص ٦٨٤، ٦٨٥)، وانظر «فتح الباري» (٢/٢٦٨).

ولمزيد من الفائدة انظر «تخريج مشكلة الفقر» (٦٠). ولم أره باللفظ الذي ساقه المؤلف فلعله ساقه بمعناه. والله أعلم.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ .

﴿١٨١﴾ يخبر تعالى عن قول هؤلاء المتمردين الذين قالوا أقبح المقالة وأشنعها وأسمجها، فأخبر أنه قد سمع ما قالوه، وأنه سيكتبه ويحفظه مع أفعالهم الشنيعة وهو قتلهم الأنبياء الناصحين، وأنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة وأنه يقال لهم بدل قولهم إن الله فقير ونحن أغنياء: ﴿ذوقوا عذاب الحريق﴾؛ المحرق النافذ من البدن إلى الأفتدة، وأن عذابهم ليس ظلماً من الله لهم فإنه ﴿ليس بظلام للعبيد﴾؛ فإنه منزّه عن ذلك.

﴿١٨٢﴾ وإنما ﴿ذلك بما قدمت﴾ أيديهم من المخازي والقبايح التي أوجبت استحقاقهم العذاب وحرمانهم الثواب. وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت في قوم من اليهود تكلموا بذلك، وذكروا منهم فنحاص بن عازوراء من رؤساء علماء اليهود في المدينة^(١)، وأنه لما سمع قول الله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾، ﴿وأقرضوا الله قرضاً حسناً﴾، قال على وجه التكبر والتجرهم هذه المقالة قبحه الله، فذكرها الله عنهم، وأخبر أنه ليس ببدع من شنائعهم، بل قد سبق لهم من الشنائع ما هو نظير ذلك وهو قتلهم الأنبياء بغير حق، هذا القيد يراد به أنهم تجرؤوا على قتلهم مع علمهم بشناعته لا جهلاً وضلالاً بل تمرداً وعناداً.

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءَهُ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ .

﴿١٨٣﴾ يخبر تعالى عن حال هؤلاء المفترين القائلين ﴿إن الله عهد إلينا﴾؛ أي: تقدم إلينا وأوصى أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار فجمعوا بين الكذب على الله وحصر آية الرسل بما قالوه من هذا الإفك المبين، وأنهم إن لم

(١) انظر «تفسير ابن جرير» (٣/ ٥٣٥)، و«الدر المنثور» (٢/ ١٨٥)، و«العجائب في بيان الأسباب»

يؤمنوا برسول لم يأتهم بقربان تأكله النار فهم في ذلك مطيعون لربهم ملتزمون وعهده، وقد علم أن كل رسول يرسله الله يؤيده من الآيات والبراهين ما على مثله آمن البشر، ولم يقصرها على ما قالوه، ومع هذا فقد قالوا إفاً لم يلتزموه وباطلاً لم يعملوا به، ولهذا أمر الله رسوله أن يقول لهم: ﴿قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات﴾ الدالات على صدقهم ﴿وبالذي قلتم﴾ بأن أتاكم بقربان تأكله النار ﴿فلم تقتلتموهم إن كنتم صادقين﴾؛ أي: في دعواكم^(١) الإيمان برسول يأتيكم^(٢) بقربان تأكله النار، فقد تبين بهذا كذبهم وعنادهم وتناقضهم.

﴿١٨٤﴾ ثم سأل رسوله ﷺ فقال: ﴿فإن كذبوك فقد كُذِّبَ رسلٌ من قبلك﴾؛ أي: هذه عادة الظالمين ودأبهم الكفر بالله وتكذيب رسل الله، وليس تكذيبهم لرسل الله عن قصور بما^(٣) أتوا به أو عدم تبين حجة، بل قد ﴿جاءوا بالبينات﴾؛ أي: الحجج العقلية والبراهين النقلية ﴿والزبر﴾؛ أي: الكتب المزبورة المنزلة من السماء التي لا يمكن أن يأتي بها غير الرسل، ﴿والكتاب المنير﴾ للأحكام الشرعية وبيان ما اشتملت عليه من المحاسن العقلية، ومنير أيضاً للأخبار الصادقة، فإذا كان هذا عادتهم في عدم الإيمان بالرسل الذين هذا وصفهم فلا يحزنك أمرهم ولا يهمنك شأنهم، ثم قال تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَن زُحِرَ عَنِ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾.

﴿١٨٥﴾ هذه الآية الكريمة فيها التزهيد في الدنيا بفنائها وعدم بقائها وأنها متاع الغرور، تفتن بزخرفها وتخضع بغرورها وتغر بمحاسنها، ثم هي منتقلة ومنتقل عنها إلى دار القرار التي توفي فيها النفوس ما عملت في هذه الدار من خير وشر ﴿فمن زحرج﴾؛ أي: أخرج ﴿عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾؛ أي: حصل له الفوز العظيم بالنجاة من العذاب الأليم والوصول إلى جنات النعيم التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ومفهوم الآية: أن من لم يزحرج عن النار، ويدخل الجنة فإنه لم يفز بل قد شقي الشقاء الأبدي، وابتلي بالعذاب السرمدي.

(٢) في (ب): «يأتي».

(١) في (ب): «في دعواهم».

(٣) في (ب): «مما».

وفي هذه الآية إشارة لطيفة إلى نعيم البرزخ وعذابه وأن العاملين يجزون فيه بعض الجزاء مما عملوه ويقدم لهم أنموذج مما أسلفوه، يفهم هذا من قوله: ﴿وإنما توفون أجوركم يوم القيامة﴾؛ أي: توفية الأعمال التامة إنما يكون يوم القيامة، وأما ما دون ذلك فيكون في البرزخ، بل قد يكون قبل ذلك في الدنيا كقوله: ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر﴾.

﴿لَتَبْلُوكَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

﴿١٨٦﴾ يخبر تعالى ويخاطب المؤمنين أنهم سيبتلون في أموالهم من النفقات الواجبة والمستحبة ومن التعريض لإتلافها في سبيل الله وفي أنفسهم من التكليف بأعباء التكاليف الثقيلة على كثير من الناس كالجهاد في سبيل الله والتعرض فيه للتعبد والقتل والأسر والجراح وكالأمراض التي تصيبه في نفسه أو فيمن يحب، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب والمشركين ﴿أذى كثيراً﴾ من الطعن فيكم وفي دينكم وكتابكم ورسولكم. وفي إخباره لعباده المؤمنين بذلك عدة فوائد:

منها: أن حكمته تعالى تقتضي ذلك لتمييز المؤمن الصادق من غيره.

ومنها: أنه تعالى يقدر عليهم هذه الأمور لما يريده بهم من الخير ليعلي درجاتهم ويكفر من سيئاتهم ويزداد بذلك إيمانهم ويتم به إيقانهم فإنه إذا أخبرهم بذلك ووقع كما أخبر، ﴿قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾.

ومنها: أنه أخبرهم بذلك لتتوطن نفوسهم على وقوع ذلك والصبر عليه إذا وقع لأنهم قد استعدوا لوقوعه فيهن عليهم حملة وتخف عليهم مؤنته ويلجؤون إلى الصبر والتقوى، ولهذا قال: ﴿وإن تصبروا وتتقوا﴾؛ أي: إن تصبروا على ما نالكم في أموالكم وأنفسكم من الابتلاء والامتحان وعلى أذية الظالمين وتتقوا الله في ذلك الصبر بأن تنووا به وجه الله والتقرب إليه ولم تتعدوا في صبركم الحد الشرعي من الصبر في موضع لا يحل لكم فيه الاحتمال بل وظيفتكم فيه الانتقام من أعداء الله.

﴿فإن ذلك من عزم الأمور﴾؛ أي: من الأمور التي يعزم عليها وينافس فيها ولا يوفق لها إلا أهل العزائم والهمم العالية، كما قال تعالى: ﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾.

﴿١٨٧﴾ الميثاق: هو العهد الثقيل المؤكد، وهذا الميثاق أخذه الله تعالى على كل من أعطاه الله الكتاب، وعلمه العلم أن يبين للناس ما يحتاجون إليه مما علمه الله ولا يكتهم ذلك ويمخل عليهم به، خصوصاً إذا سأله أو وقع ما يوجب ذلك، فإن كل من عنده علم يجب عليه في تلك الحال أن يبينه ويوضح الحق من الباطل. فأما الموفقون فقاموا بهذا أتم القيام وعلموا الناس مما علمهم الله ابتغاء مرضاة ربهم وشفقة على الخلق وخوفاً من إثم الكتمان. وأما الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى ومن شابههم فنبذوا هذه العهود والمواثيق وراء ظهورهم فلم يعبؤوا بها فكتموا الحق وأظهروا الباطل تجرؤاً على محارم الله وتهاوناً بحقوقه تعالى وحقوق الخلق واشتروا بذلك الكتمان «ثمناً قليلاً» وهو ما يحصل لهم إن حصل من بعض الرياسات والأموال الحقة من سفلتهم المتبعين أهواءهم المقدمين شهواتهم على الحق «فبئس ما يشترون» لأنه أخس العوض والذي رغبوا عنه وهو بيان الحق الذي فيه السعادة الأبدية والمصالح الدينية والدنيوية أعظم المطالب وأجلها، فلم يختاروا الدني الخسيس وتركوا العالي النفيس إلا لسوء حظهم وهوانهم وكونهم لا يصلحون لغير ما خلقوا له. ثم قال تعالى:

﴿١٨٨﴾ ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا﴾؛ أي: من القبائح والباطل القولي والفعلي «ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا»؛ أي: بالخير الذي لم يفعلوه والحق الذي لم يقولوه، فجمعوا بين فعل الشر وقوله والفرح بذلك ومجبة أن يحمدوا على فعل الخير الذي ما فعلوه، «فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب»؛ أي: بمحل نجوة منه وسلامة، بل قد استحقوه وسيصيرون إليه ولهذا قال: «ولهم عذاب أليم».

ويدخل في هذه الآية الكريمة أهل الكتاب الذين فرحوا بما عندهم من العلم ولم ينقادوا للرسول، وزعموا أنهم هم المحقون في حالهم ومقالهم، وكذلك كل من ابتدع بدعة قولية أو فعلية، وفرح بها، ودعا إليها، وزعم أنه محق وغيره مبطل كما هو الواقع من أهل البدع.

ودلت الآية بمفهومها على أن من أحب أن يحمّد ويثنى عليه بما فعله من الخير

وَاتَّبَاعَ الْحَقِّ إِذَا لَمْ يَكُنْ قَصْدُهُ بِذَلِكَ الرِّيَاءَ وَالسَّمْعَةَ أَنَّهُ غَيْرُ مَذْمُومٍ، بَلْ هَذَا مِنَ الْأُمُورِ الْمَطْلُوبَةِ الَّتِي أَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّهُ يَجْزِي بِهَا الْمُحْسِنِينَ لَهُ الْأَعْمَالُ وَالْأَقْوَالُ، وَأَنَّهُ جَازَى بِهَا خَوَاصَّ خَلْقِهِ وَسَأَلُوهَا مِنْهُ كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾، وَقَالَ: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾، وَقَدْ قَالَ عِبَادُ الرَّحْمَنِ: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾، وَهِيَ مِنْ نِعَمِ الْبَارِي عَلَى عَبْدِهِ وَمِنْهُ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى شُكْرِ.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٨٩).

﴿١٨٩﴾ أَي: هُوَ الْمَالِكُ لِلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا مِنْ سَائِرِ أَصْنَافِ الْخَلْقِ الْمُتَصَرِّفِ فِيهِمْ بِكَمَالِ الْقُدْرَةِ وَبِدِيعِ الصَّنْعَةِ، فَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَلَا يَعْجِزُهُ أَحَدٌ.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْغَنِيُّ الْغَنِيُّ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْآبَرَارِ رَبَّنَا وَءَاثِمْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ (١٩١).

﴿١٩٠﴾ يَخْبِرُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، وَفِي ضَمَنِ ذَلِكَ حَثُ الْعِبَادِ عَلَى التَّفَكُّرِ فِيهَا وَالتَّبَصُّرِ بِآيَاتِهَا وَتَدَبُّرِ خَلْقِهَا. وَأَبْهَمَ قَوْلَهُ: ﴿آيَاتٍ﴾، وَلَمْ يَقُلْ عَلَى الْمَطْلَبِ الْفَلَانِي إِشَارَةً لِكَثْرَتِهَا وَعُمُومِهَا، وَذَلِكَ لِأَن فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ الْعَجِيبَةِ مَا يُبْهِرُ النَّاظِرِينَ وَيَقْنَعُ الْمُتَفَكِّرِينَ وَيَجْذِبُ أَفئدة الصَّادِقِينَ وَبَنِيهِ الْعُقُولِ النِّيْرَةِ عَلَى جَمِيعِ الْمَطَالِبِ الْإِلَهِيَّةِ، فَأَمَّا تَفْصِيلُ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ فَلَا يُمْكِنُ مَخْلُوقًا أَنْ يَحْصِرَهُ وَيَحِيطَ بِبَعْضِهِ، وَفِي الْجُمْلَةِ فَمَا فِيهَا مِنَ الْعِظَمَةِ وَالسَّعَةِ وَانْتِظَامِ السَّيْرِ وَالْحَرَكَةِ يَدُلُّ عَلَى عِظَمَةِ خَالِقِهَا وَعِظَمَةِ سُلْطَانِهِ وَشُمُولِ قُدْرَتِهِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْإِحْكَامِ وَالْإِتْقَانِ وَبِدِيعِ الصَّنْعِ وَلَطَائِفِ الْفِعْلِ يَدُلُّ عَلَى حِكْمَةِ اللَّهِ وَوَضْعِهِ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا وَسَعَةِ عِلْمِهِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ لِلْخَلْقِ يَدُلُّ عَلَى سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَعُمُومِ فَضْلِهِ وَشُمُولِ بَرِّهِ وَوَجُوبِ شُكْرِهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى تَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِخَالِقِهَا وَمُبْدِعِهَا وَبِذَلِّ الْجَهْدِ فِي مَرْضَاتِهِ، وَأَنْ لَا يَشْرِكَ بِهِ سِوَاهُ

ممن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وخص الله بالآيات أولي الألباب وهم أهل العقول لأنهم هم المنتفعون بها الناظرون إليها بعقولهم لا بأبصارهم.

﴿١٩١﴾ ثم وصف أولي الألباب بأنهم: ﴿يذكرون الله﴾ في جميع أحوالهم ﴿قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾، وهذا يشمل جميع أنواع الذكر بالقول والقلب، ويدخل في ذلك الصلاة قائماً، فإن لم يستطع فقاعداً، فإن لم يستطع فعلى جنب، وأنهم: ﴿يتفكرون في خلق السموات والأرض﴾؛ أي: ليستدلوا بها على المقصود منها، ودل هذا على أن التفكير عبادة من صفات أولياء الله العارفين، فإذا تفكروا بها عرفوا أن الله لم يخلقها عبثاً فيقولون: ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه﴾ عن كل ما لا يليق بجلالك بالحق وللحق بل خلقتها مشتملة على الحق^(١) ﴿فقنا عذاب النار﴾، بأن تعصمنا من السيئات وتوفقنا للأعمال الصالحات لننال بذلك النجاة من النار. ويتضمن ذلك سؤال الجنة لأنهم إذا وقاهم الله عذاب النار حصلت لهم الجنة، ولكن لما قام الخوف بقلوبهم، دعوا الله بأهم الأمور عندهم:

﴿١٩٢﴾ ﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيت﴾؛ أي: لحصوله على السخط من الله ومن ملائكته وأوليائه ووقوع الفضيحة التي لا نجاة منها ولا منقذ منها، ولهذا قال: ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ ينقذونهم من عذابه، وفيه دلالة على أنهم دخلوها بظلمهم.

﴿١٩٣﴾ ﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان﴾ وهو محمد ﷺ؛ [أي]: يدعو الناس إليه ويرغبهم فيه في أصوله وفروعه ﴿فأمنّا﴾؛ أي: أجبناه مبادرة وسارعنا إليه. وفي هذا إخبار منهم بمنة الله عليهم وتبجح بنعمته وتوسل إليه بذلك أن يغفر ذنوبهم ويكفر سيئاتهم لأن الحسنات يذهبن السيئات. والذي منّ عليهم بالإيمان سيمنّ عليهم بالأمان التام، ﴿وتوفنا مع الأبرار﴾، يتضمن هذا الدعاء التوفيق لفعل الخير وترك الشر الذي به يكون العبد من الأبرار والاستمرار عليه والثبات إلى الممات.

﴿١٩٤﴾ ولما ذكروا توفيق الله إياهم للإيمان وتوسلهم به إلى تمام النعمة، سألوه الثواب على ذلك، وأن ينجز لهم ما وعدهم به على السنة رسله من النصر

(١) في (ب): «بل خلقتها بالحق وللحق مشتملة على الحق».

والظهور في الدنيا، ومن الفوز برضوان الله وجنته في الآخرة، فإنه تعالى لا يخلف الميعاد، فأجاب الله دعاءهم وقبل تضرعهم فلهذا قال:

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنتِي بِبَعْضِكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَأَلْزَمَ الْكُفْرَ الَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾.

﴿١٩٥﴾ أي: أجب الله دعاءهم دعاء العبادة ودعاء الطلب وقال: ﴿إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى﴾ فالجميع سيلقون ثواب أعمالهم كاملاً موفراً، أي: كلكم على حد سواء في الثواب والعقاب، ﴿فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأودوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا﴾ فجمعوا بين الإيمان والهجرة ومفارقة المحبوبات من الأوطان والأموال طلباً لمرضاة ربهم وجاهدوا في سبيل الله ﴿لأكفرنَّ عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله﴾ الذي يعطي عبده الثواب الجزيل على العمل القليل، ﴿والله عنده حسن الثواب﴾، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فمن أراد ذلك فليطلبه من الله بطاعته والتقرب إليه بما يقدر عليه العبد.

﴿لَا يَغْرَتُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسَّ لِلْمُكَافَرِينَ الْكِفَارُ﴾
﴿١٩٦﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآزِفِينَ ﴿١٩٨﴾﴾.

﴿١٩٦﴾ وهذه الآية المقصود منها التسلية عما يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا وتنعمهم فيها، وتقلبهم في البلاد بأنواع التجارات والمكاسب واللذات وأنواع العز والغلبة في بعض الأوقات، فإن هذا كله:

﴿١٩٧﴾ ﴿متاع قليل﴾ ليس له ثبوت ولا بقاء، بل يتمتعون به قليلاً ويعذبون عليه طويلاً، هذه أعلى حالة تكون للكافر، وقد رأيت ما تؤول إليه.

﴿١٩٨﴾ وأما المتقون لربهم المؤمنون به فمع ما يحصل لهم من عز الدنيا ونعيمها ﴿لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾؛ فلو قدر أنهم في دار الدنيا قد حصل لهم كل بؤس وشدة وعناء ومشقة، لكان هذا بالنسبة إلى النعيم المقيم والعيش السليم والسرور والحبور والبهجة نزراً يسيراً ومنحة في صورة محنة،

ولهذا قال تعالى: ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾ وهم الذين برزت قلوبهم فبرزت أقوالهم وأفعالهم فأتابهم البرُّ الرحيم من برّه أجراً عظيماً وعطاءً جسيماً وفوزاً دائماً.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَيْدَتِ اللَّهِ مِمَّا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾.

﴿١٩٩﴾ أي: ﴿وإن من أهل الكتاب﴾ طائفة موفقة للخير يؤمنون بالله ويؤمنون بما ﴿أنزل إليكم وما أنزل إليهم﴾، وهذا الإيمان النافع لا كمن يؤمن ببعض الرسل والكتب ويكفر ببعض، ولهذا لما كان إيمانهم عامّاً حقيقياً صار نافعاً فأحدث لهم خشية الله وخضوعهم لجلاله الموجب للانقياد لأوامره ونواهيه والوقوف عند حدوده وهؤلاء أهل الكتاب والعلم على الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾، ومن تمام خشيتهم لله أنهم ﴿لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً﴾، فلا يقدمون الدنيا على الدين كما فعل أهل الانحراف الذين يكتمون ما أنزل الله ويشترون به ثمناً قليلاً، وأما هؤلاء فعرفوا الأمر على الحقيقة وعلموا أن من أعظم الخسران الرضا بالدون عن الدين، والوقوف مع بعض حظوظ النفس السفلية وترك الحق الذي هو أكبر حظ وفوز في الدنيا والآخرة، فآثروا الحق وبينوه ودعوا إليه، وحذروا عن الباطل، فأتابهم الله على ذلك بأن وعدهم الأجر الجزيل والثواب الجميل، وأخبرهم بقربه وأنه ﴿سريع الحساب﴾ فلا يستبطنون ما وعدهم الله، لأن ما هو آت محقق حصوله فهو قريب.

﴿٢٠٠﴾ ثم حض المؤمنين على ما يوصلهم إلى الفلاح، وهو الفوز بالسعادة^(١) والنجاح، وأن الطريق الموصول إلى ذلك لزوم الصبر: الذي هو حبس النفس على ما تكرهه من ترك المعاصي ومن الصبر على المصائب وعلى الأوامر الثقيلة على النفوس، فأمرهم بالصبر على جميع ذلك. والمصابرة: هي^(٢) الملازمة والاستمرار على ذلك على الدوام، ومقاومة الأعداء في جميع الأحوال. والمرابطة: وهو لزوم المحل الذي يخاف من وصول العدو منه وأن يراقبوا أعداءهم ويمنعوه من الوصول إلى مقاصدهم، لعلهم يفلحون: يفوزون بالمحبوب الديني والدنيوي

(١) في (ب): «وهو الفوز والسعادة». (٢) في (ب): «أي».

والأخروي وينجون من المكروه كذلك. فعلم من هذا أنه لا سبيل إلى الفلاح بدون الصبر والمصابرة والمرابطة المذكورات، فلم يفلح مَنْ أفلح إلا بها ولم يفت أحداً الفلاح إلا بالإخلال بها أو ببعضها.

والله الموفق ولا حول ولا قوة إلا به.

تم تفسير سورة آل عمران. والحمد لله على نعمته ونسأله تمام النعمة.



تفسير سورة النساء

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝﴾.

﴿١﴾ افتتح تعالى هذه السورة بالأمر بتقواه والحث على عبادته والأمر بصلة الأرحام والحث على ذلك، وبين السبب الداعي الموجب لكل من ذلك، وأن الموجب لتقواه: لأنه ربكم ﴿الذي خلقكم﴾ ورزقكم ورباكم بنعمه العظيمة التي من جملتها خلقكم ﴿من نفس واحدة﴾ وجعل ﴿منها زوجها﴾ ليناسبها فيسكن إليها وتتم بذلك النعمة ويحصل به السرور؛ وكذلك من الموجب الداعي لتقواه تساؤلكم به وتعظيمكم، حتى إنكم إذا أردتم قضاء حاجاتكم ومآربكم؛ توسلتم بها بالسؤال [بالله]، فيقول من يريد ذلك غيره: أسألك بالله أن تفعل الأمر الفلاني؛ لعلمه بما قام في قلبه من تعظيم الله الداعي أن لا يرد من سأل به بالله؛ فكما عظمتوه بذلك؛ فلتعظموه بعبادته وتقواه. وكذلك الإخبار بأنه رقيب؛ أي: مطلع على العباد في حال حركاتهم وسكونهم وسرهم وعلنهم وجميع الأحوال^(١) مراقباً لهم فيها، مما يوجب مراقبته وشدة الحياء منه بلزوم تقواه؛ وفي الإخبار بأنه خلقهم من نفس واحدة، وأنه بثهم في أقطار الأرض مع رجوعهم إلى أصل واحد ليعطف بعضهم على بعض، ويرفق بعضهم على بعض.

وقرن الأمر بتقواه بالأمر ببر الأرحام والنهي عن قطيعتها ليؤكد هذا الحق، وأنه

(١) في (ب): «وجميع أحوالهم».

كما يلزم القيام بحق الله كذلك يجب القيام بحقوق الخلق، خصوصاً الأقربين منهم، بل القيام بحقوقهم هو من حق الله الذي أمر الله به. وتأمل كيف افتتح هذه السورة بالأمر بالتقوى، وصلة الأرحام، والأزواج عموماً، ثم بعد ذلك فصل هذه الأمور أتم تفصيل من أول السورة إلى آخرها؛ فكانها مبنية على هذه الأمور المذكورة، مفصلة لما أجمل منها، موضحة لما أبهم.

وفي قوله: ﴿وخلق منها زوجها﴾: تنبيه على مراعاة حق الأزواج والزوجات والقيام به؛ لكون الزوجات مخلوقات من الأزواج؛ فينبغي وبينهن أقرب نسب وأشد اتصال وأوثق^(١) علاقة.

وقوله تعالى:

﴿وَأَنذَرْتُكَ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾.

﴿٢﴾ هذا أول ما أوصى به من حقوق الخلق في هذه السورة، وهم اليتامى الذين فقدوا آباءهم الكافلين^(٢) لهم، وهم صغار ضعاف، لا يقومون بمصالحهم، فأمر الرؤوف الرحيم عباده أن يحسنوا إليهم، وأن لا يقربوا أموالهم إلا بالتي هي أحسن، وأن يؤتوهم أموالهم - إذا بلغوا ورشدوا - كاملة موفرة، وأن لا يتبدلوا الخبيث الذي هو أكل مال اليتيم بغير حق ﴿بالطيب﴾ وهو الحلال الذي ما فيه حرج ولا تبعة ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾؛ أي: مع أموالكم، ففيه تنبيه لقبح أكل مالهم بهذه الحالة، التي هي قد استغنى بها الإنسان بما جعل الله له من الرزق في ماله؛ فمن تجرأ على هذه الحالة؛ فقد أتى ﴿حوباً كبيراً﴾؛ أي: إثماً عظيماً ووزراً جسيماً.

ومن استبدال الخبيث بالطيب أن يأخذ الولي من مال اليتيم النفيس ويجعل بدله من ماله الخسيس.

وفيه الولاية على اليتيم؛ لأن من لازم إيتاء اليتيم ماله ثبوت ولاية المؤتي على ماله. وفيه الأمر بإصلاح مال اليتيم؛ لأن تمام إيتائه ماله حفظه والقيام به بما يصلحه ويُنميه وعدم تعريضه للمخاوف والأخطار.

(١) في (ب): «وأقرب».

(٢) في (ب): «فقدت آباؤهم الكافلون».

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْبَيْنِ فَاَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَتِلْكَ وَرَبِّعٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْلَمُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تَعْلَمُوا ﴿٣﴾ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَاْكُلُوهُ هَبْنًا مَّرِيًّا ﴿٤﴾﴾.

﴿٣﴾ أي: وإن خفتُم ألا تعدلوا في يتامى النساء [اللاتي]^(١) تحت حُجوركم وولايتكم، وخفتُم أن لا تقوموا بحَقِّهن لعدم محبتكم إياهن، فاعدلوا إلى غيرهن وأنكحوا ما طاب لكم من النساء؛ أي: ما وقع عليهن اختياركم من ذوات الدين والمال والجمال والحسب والنسب وغير ذلك من الصفات الداعية لنكاحهن؛ فاختاروا على نظركم، ومن أحسن ما يُختار من ذلك صفة الدين؛ كما قال النبي ﷺ: «تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَلِجَمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَلِدِينِهَا؛ فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَمِينُكَ»^(٢). وفي هذه الآية أنه ينبغي للإنسان أن يختار قبل النكاح، بل قد أباح له الشارعُ النظرَ إلى مَنْ يريد تزوجها؛ ليكون على بصيرة من أمره.

ثم ذكر العدد الذي أباحه من النساء، فقال: «مثنى وثلاث ورباع»، أي: من أحب أن يأخذ ثنتين؛ فليفعل، أو ثلاثاً؛ فليفعل، أو أربعاً؛ فليفعل، ولا يزيد عليها؛ لأن الآية سقت لبيان الامتنان؛ فلا يجوز الزيادة على غير ما سمي الله تعالى إجماعاً، وذلك لأن الرجل قد لا تندفع شهوته بالواحدة، فأبيح له واحدة بعد واحدة، حتى تبلغ^(٣) أربعاً؛ لأن في الأربع غنية لكل أحد إلا ما ندر، ومع هذا؛ فإنما يباح له ذلك إذا أمن على نفسه الجور والظلم ووثق بالقيام بحقوقهن؛ فإن خاف شيئاً من هذا؛ فليقتصر على واحدة أو على ملك يمينه؛ فإنه لا يجب عليه القسَم في ملك اليمين، «ذلك»؛ أي: الاقتصار على واحدة أو ما ملكَتِ اليمينُ «أدنى أَلَّا تعولوا»؛ أي: تظلموا، وفي هذا أن تعرَّض العبد للأمر الذي يُخافُ منه الجور والظلم وعدم القيام بالواجب ولو كان مباحاً؛ أنه لا ينبغي له أن يتعرَّضَ له، بل يلزم السعة والعافية؛ فإن العافية خير ما أعطي العبد.

﴿٤﴾ ولما كان كثير من الناس يظلمون النساء ويهضمونهن حقوقهن، خصوصاً الصداق الذي يكون شيئاً كثيراً ودفعة واحدة يشقُّ دفعه للزوجة؛ أمرهم وحَثَّهم على

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «التي».

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦)، من حديث أبي هريرة.

(٣) في (ب): «يلغ».

إيتاء النساء ﴿صَدَقَاتِهِنَّ﴾، أي: مهورهنَّ ﴿نِخْلَةً﴾؛ أي: عن طيب نفس وحال طمأنينة؛ فلا تمطلوهنَّ أو تبخسوا منه شيئاً؛ وفيه أن المهر يُدْفَع إلى المرأة إذا كانت مكلفة، وأنها تملكه بالعقد؛ لأنه أضافه إليها، والإضافة تقتضي التملك؛ ﴿فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ﴾؛ أي: من الصداق ﴿نَفْساً﴾؛ بأن سَمَخْنَ لكم عن رضا واختيار بإسقاط شيء منه أو تأخيره أو المعاوضة عنه؛ ﴿فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً﴾؛ أي: لا حرج عليكم في ذلك ولا تَبِعَةٌ. وفيه دليل على أن للمرأة التصرف في مالها ولو بالتبرع إذا كانت رشيدة؛ فإن لم تكن كذلك؛ فليس لعطيَّتها حكم، وأنه ليس لوليها من الصداق شيء غير ما طابت به. وفي قوله: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾: دليل على أن نكاح الخبيثة غير مأمور به، بل منهى عنه كالمشركة وكالفاجرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمَنَّ﴾، وقال: ﴿الزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾.

وقوله تعالى:

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

﴿٥﴾ السفهاء: جمع سفيه، وهو من لا يحسن التصرف في المال: إما لعدم عقله كالمجنون والمعتوه ونحوهما، وإما لعدم رشده؛ كالصغير وغير الرشيد، فنهى الله الأولياء أن يؤتوا هؤلاء أموالهم خشية إفسادها وإتلافها؛ لأنَّ الله جعل الأموال قياماً لعباده في مصالح دينهم ودنياهم، وهؤلاء لا يُحْسِنُونَ القيام عليها وحفظها، فأمر الله الولي أن لا يؤتيهم إياها، بل يرزقهم منها ويكسوهم ويبذل منها ما يتعلق بضرورتهم وحاجاتهم الدنيئة والدنيوة، وأن يقولوا لهم قولاً معروفاً؛ بأن يعدوهم إذا طلبوها أنهم سيدفعونها لهم بعد رُشْدِهِمْ ونحو ذلك، ويلطفوا لهم في الأقوال جبراً لخواطهم.

وفي إضافته تعالى الأموال إلى الأولياء إشارة إلى أنه يجب عليهم أن يعملوا في أموال السفهاء ما يفعلونه في أموالهم من الحفاظ والتصرف وعدم التعريض للأخطار.

وفي الآية دليل على أن نفقة المجنون والصغير والسفيه في مالهم إذا كان لهم مال، لقوله: ﴿وارزقوهم فيها واكسوهم﴾.

وفيه دليل على أن قول الولي مقبول فيما يدعيه من النفقة الممكنة والكسوة؛ لأن الله جعله مؤتمناً على مالهم، فلزم قبول قول الأمين.

﴿وَاتَّبِعُوا أَمْرَهُمْ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللهِ حَسِيبًا ٦﴾.

﴿٦﴾ الابتلاء هو: الاختبار والامتحان، وذلك بأن يُدْفَعَ لليتيم المقارب للرشد الممكن رشده شيء من ماله، ويتصرف فيه التصرف اللائق بحاله، فيتبين بذلك رشده من سفهه؛ فإن استمر غير محسن للتصرف؛ لم يدفع إليه ماله، بل هو باق على سفهه، ولو بلغ عمراً كثيراً؛ فإن تبين رشده وصلاحه في ماله وبلغ النكاح؛ فادفعوا إليهم أموالهم؛ كاملة موفرة، ﴿ولا تأكلوها إسرافاً﴾؛ أي: مجاوزة للحد الحلال الذي أباحه الله لكم من أموالكم إلى الحرام الذي حرمه الله عليكم من أموالهم؛ ﴿وبداراً أن يكبروا﴾، أي: ولا تأكلوها في حال صغرهم التي لا يمكنهم فيها أخذها منكم، ولا منعكم من أكلها تبادرون بذلك أن يكبروا فيأخذوها منكم ويمنعوكم منها، وهذا من الأمور الواقعة من كثير من الأولياء الذين ليس عندهم خوف من الله ولا رحمة ومحبة للمولى عليهم، يرون هذه الحال حال فرصة، فيغتنمونها ويتعجلون ما حرم الله عليهم، فنهى الله تعالى عن هذه الحالة بخصوصها.

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ٧﴾.

﴿٧﴾ كان العرب في الجاهلية من جبريتهم وقسوتهم لا يورثون الضعفاء كالنساء والصبيان، ويجعلون الميراث للرجال الأقوياء؛ لأنهم بزعمهم أهل الحرب والقتال والنهب والسلب، فأراد الرب الرحيم الحكيم أن يشرع لعباده شرعاً يستوي فيه رجالهم ونسائهم وأقوياءهم وضعفاؤهم، وقدم بين يدي ذلك أمراً مجملاً لتوطّن على ذلك النفوس فيأتي التفصيل بعد الإجمال قد تشوقت^(١) له النفوس وزالت الوحشة التي منشؤها العادات القبيحة، فقال: ﴿للرجال نصيب﴾؛ أي: قسط

(١) في (ب): «تشوقت».

وحصة، ﴿مما ترك﴾؛ أي: خَلَفَ، ﴿الوالدان﴾؛ أي: الأب والأم، ﴿والأقربون﴾؛ عموماً بعد خصوص، ﴿ولللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾، فكانه قيل: هل ذلك النصيب راجع إلى العُرف والعادة وأن يرضخوا لهم ما يشاؤون أو شيئاً مقدراً؟ فقال تعالى: ﴿نصيباً مفروضاً﴾؛ أي: قد قدره العليم الحكيم. وسيأتي إن شاء الله تقدير ذلك. وأيضاً؛ فهنا توهم آخر: لعل أحداً يتوهم أن النساء والولدان ليس لهم نصيب إلا من المال الكثير، فأزال ذلك بقوله: ﴿مما قلّ منه أو كثر﴾؛ فتبارك الله أحسن الحاكمين.

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

﴿٨﴾ وهذا من أحكام الله الحسنة الجليلة الجارية للقلوب، فقال: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾؛ أي: قسمة الموارث، ﴿أولو القربى﴾؛ أي: الأقارب غير الوارثين بقرينة قوله: ﴿الْقِسْمَةَ﴾؛ لأن الوارثين من المقسوم عليهم، ﴿واليتامى والمساكين﴾؛ أي: المستحقون من الفقراء؛ ﴿فأرزقوهم منه﴾؛ أي: أعطوهم ما تيسر من هذا المال الذي جاءكم بغير كد ولا تعب ولا عناء ولا نَصَبٍ؛ فإن نفوسهم متشفوة إليه وقلوبهم متطلعة؛ فاجبروا خواطرمهم بما لا يضرهم وهو نافعهم. ويؤخذ من المعنى أن كل من له تطلع وتشوف إلى ما حضر بين يدي الإنسان ينبغي له أن يعطيه منه ما تيسر؛ كما كان النبي ﷺ يقول: «إذا جاء أحدكم خادمه بطعامه؛ فليجلسه معه؛ فإن لم يجلسه معه؛ فليناول له لقمته أو لقمتين»^(١)، أو كما قال. وكان الصحابة رضي الله عنهم إذا بدأت باكورة أشجارهم؛ أتوا بها رسول الله ﷺ، فَبَرَكَ عليها، ونظر إلى أصغر وليد عنده، فأعطاه^(٢) ذلك؛ علماً منه بشدة تشوفه لذلك، وهذا كله مع إمكان الإعطاء؛ فإن لم يمكن ذلك لكونه حق سفهاء أو ثم أهم من ذلك؛ فليقولوا لهم ﴿قولاً معروفاً﴾؛ يرثونهم رداً جميلاً بقول حسن غير فاحش ولا قبيح.

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ضَعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا

(١) أخرجه البخاري (٥٤٦٠)، ومسلم (١٦٦٣)، وللحديث طرق كثيرة بالفاظ متقاربة. انظر: «الصحيح» للألباني (١٠٤٢ و ١٠٤٣ و ١٢٨٥ و ١٢٩٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٣٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ .

﴿٩﴾ قيل: إن هذا خطاب لمن يحضر من حضره الموت، وأجنف في وصيته أن يأمره بالعدل في وصيته والمساواة فيها؛ بدليل قوله: ﴿وليقولوا قولاً سديداً﴾؛ أي: سداداً موافقاً للقسط والمعروف، وأنهم يأمرون من يريد الوصية على أولاده بما يحبون معاملة أولادهم بعدهم. وقيل: إن المراد بذلك أولياء السفهاء من المجانين والصغار والضعاف أن يعاملوهم في مصالحهم الدينية والدنيوية بما يحبون أن يعامل به من بعدهم من ذريتهم الضعاف؛ ﴿فليتقوا الله﴾: في ولايتهم لغيرهم؛ أي: يعاملونهم^(١) بما فيه تقوى الله من عدم إهانتهم والقيام عليهم والزامهم لتقوى الله.

﴿١٠﴾ ولما أمرهم بذلك زجرهم عن أكل أموال اليتامى وتوعد على ذلك أشد العذاب، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾؛ أي: بغير حق، وهذا القيد يخرج به ما تقدم من جواز الأكل للفقير بالمعروف، ومن جواز خلط طعامهم بطعام اليتامى؛ فمن أكلها ظلماً؛ فإنما ﴿يأكلون في بطونهم ناراً﴾؛ أي: فإن الذي أكلوه نار تتأجج في أجوافهم، وهم الذين أدخلوه في بطونهم، ﴿وسيصطلون سعيراً﴾؛ أي: ناراً محرقة متوقدة. وهذا أعظم وعيد ورد في الذنوب يدل على شناعة أكل أموال اليتامى وقبحها وأنها موجبة لدخول النار، فدل ذلك أنها من أكبر الكبائر، نسأل الله العافية.

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ وَلَدٌ فَلَئِنْ أَوَّاهَ فَأَوَّاهَ الثَّلَاثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِإِخْوَتِهِ الشُّدُسُ مِمَّا بَعْدَ وَصِيَّاتِ يَوْمِي هَٰذَا أَوْ دَيْنٌ أَوْ آوَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْمَئِذٍ

(١) في (ب): «يعاملوهم».

يَهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ تَوْصِيَّتُ يَهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يَوْصَى يَهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَاكَرٍ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾

هذه الآيات والآية التي هي آخر السورة هن آيات الموارث المتضمنة لها؛ فإنها مع حديث عبدالله بن عباس الثابت في «صحيح البخاري»: «ألحقوا الفرائض بأهلها؛ فما بقي؛ فلأولى رجل ذكر»^(١): «مشملاّت على جُلّ أحكام الفرائض، بل على جميعها؛ كما سترى ذلك؛ إلا ميراث الجدات؛ فإنه غيرُ مذكور في ذلك، لكنه قد ثبت في «السنن»^(٢) عن المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة: أن النبي ﷺ أعطى الجدة السدس. مع إجماع العلماء على ذلك.

﴿١١﴾ فقله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾؛ أي: أولادكم يا معشر الوالدين عندكم ودائع قد وصاكم الله عليهم لتقوموا بمصالحهم الدينية والدنيوية، فتعلمونهم وتؤدّبونهم وتكفونهم عن المفساد وتأمرؤنهم بطاعة الله وملازمة التقوى على الدوام؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾؛ فالأولاد عند والديهم موصى بهم؛ فإمّا أن يقوموا بتلك الوصية؛ فلمهم جزيل الثواب، وإمّا أن يضيّعوها؛ فيستحقوا بذلك الوعيد والعقاب. وهذا مما يدل على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالدين، حيث أوصى الوالدين مع كمال شفقتهم عليهم.

ثم ذكر كيفية إرثهم، فقال: ﴿لِلذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾؛ أي: الأولاد للصلب والأولاد للابن، للذكر مثل حظّ الأنثيين إن لم يكن معهم صاحبُ فرض، أو ما أبقت الفروض يقتسمونه كذلك، وقد أجمع العلماء على ذلك، وأنه مع وجود أولاد الصلب؛ فالميراث لهم، وليس لأولاد الابن شيء؛ حيث كان أولاد الصلب

(١) أخرجه البخاري (٦٧٣٧)، ومسلم (١٦١٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٨٩٤)، والترمذي (٢١٠١)، والنسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (٣٦١/٨)، وابن ماجه (٢٧٢٤) قال الحافظ في «التلخيص» (٨٢/٣): «إسناده صحيح لثقة رجاله إلا أن صورته مرسل؛ فإن قيصه لا يصح له سماع من الصديق». انظر «الإرواء» (١٦٨٠).

ذكوراً وإناثاً. هذا مع اجتماع الذكور والإناث. وهنا حالتان: انفراد الذكور. وسيأتي حكمها، وانفراد الإناث. وقد ذكره بقوله: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾؛ أي: بنات صلب أو بنات ابن ثلاثاً فأكثر؛ ﴿فَلَهُنَّ ثَلَاثُ مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً﴾؛ أي: بنتاً أو بنت ابن؛ ﴿فَلَهَا النِّصْفُ﴾. وهذا إجماع.

بقي أن يُقال: من أين يُستفاد أنَّ للابنتين الثلثين الثلثين بعد الإجماع على ذلك؟ فالجواب: أنه يستفاد من قوله: ﴿إِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾؛ فمفهوم ذلك أنه إن زادت على الواحدة؛ انتقل الفرض عن النصف، ولا ثمَّ بعده إلا الثلثان. وأيضاً؛ فقوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾: إذا خَلَّفَ ابناً وبنتاً؛ فإن الابن له الثلثان، وقد أخبر الله أنه مثل حظ الأنثيين، فدلَّ ذلك على أن للابنتين الثلثين. وأيضاً؛ فإن البنت إذا أخذت الثلث مع أخيها وهو أزيد ضرراً عليها من أختها، فأخذها له مع أختها من باب أولى وأحرى. وأيضاً؛ فإن قوله تعالى في الأختين: ﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثَّلَاثُ مِمَّا تَرَكَ﴾: نصٌّ في الأختين الثلثين؛ فإذا كان الأختان الشنتان مع بعدهما يأخذان الثلثين؛ فالابنتان مع قربهما من باب أولى وأحرى. وقد أعطى النبي ﷺ ابنتي سعد الثلثين؛ كما في «الصحيح»^(١).

بقي أن يُقال: فما الفائدة في قوله: ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾؟ قيل: الفائدة في ذلك والله أعلم: أنه لِيُعْلَمَ أن الفرض الذي هو الثلثان لا يزيد بزيادتهن على الثلثين، بل من الثلثين فصاعداً.

ودلت الآية الكريمة أنه إذا وُجِدَ بنتٌ صلبٍ واحدة وبنتُ ابن أو بناتُ ابن؛ فإن لبنت الصلب النصف، ويبقى من الثلثين اللذين فرضهما الله للبنات أو بنات الابن السدس، فيعطى بنت الابن أو بنات الابن، ولهذا يسمى هذا السدس تكملةً للثلثين. ومثل ذلك بنت الابن مع بنات الابن اللاتي أنزلَ منها. وتدلُّ الآية أنه متى استغرق البناتُ أو بناتُ الابن الثلثين: أنه يسقط من دونهنَّ من بنات الابن؛ لأن الله لم يفرض لهن إلا الثلثين، وقد تم؛ فلو لم يسقطن؛ لزم من ذلك أن يفرض لهنَّ أزيد من الثلثين، وهو خلاف النص. وكل هذه الأحكام مجمع عليها بين العلماء، والله الحمد.

(١) بنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما يوم أحد، وقضى رسول الله ﷺ لهما بالثلثين: أخرجه أبو داود (٢٨٩٢)، والترمذي (٢٠٩٢)، والحاكم (٣٣٣/٤) وصححه ووافقه الذهبي. وانظر «الإرواء» (١٦٧٧).

ودل قوله: ﴿مما ترك﴾: أن الوارثين يرثون كل ما خلف الميت من عقار وأثاث وذهب وفضة وغير ذلك، حتى الدية التي لم تجب إلا بعد موته، وحتى الديون التي في الذمة^(١).

ثم ذكر ميراث الأبوين، فقال: ﴿ولأبويه﴾؛ أي: أبوه وأمه، ﴿لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد﴾؛ أي: ولد صلب أو ولد ابن ذكراً كان أو أنثى واحداً أو متعدداً: فأما الأم؛ فلا تزيد على السدس مع أحد من الأولاد، وأما الأب؛ فمع الذكور منهم لا يستحق أزيد من السدس؛ فإن كان الولد أنثى أو إنثاء، ولم يبق بعد الفرض شيء؛ كأبوين وابنتين؛ لم يبق له تعصيب، وإن بقي بعد فرض البنت أو البنات شيء؛ أخذ الأب السدس فرضاً والباقي تعصيباً؛ لأننا ألحقنا الفروض بأهلها؛ فما بقي؛ فلأولى رجل ذكر، وهو أولى من الأخ والعم وغيرهما. ﴿فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث﴾؛ أي: والباقي للأب؛ لأنه أضاف المال إلى الأب والأم إضافة واحدة، ثم قدر نصيب الأم، فدل ذلك على أن الباقي للأب، وعلم من ذلك أن الأب مع عدم الأولاد لا فرض له، بل يرث تعصيباً المال كله، أو ما أبتت الفروض.

لكن لو وُجد مع الأبوين أحد الزوجين - ويعبر عنهما بالعمريتين -؛ فإن الزوج أو الزوجة يأخذ فرضه، ثم تأخذ الأم ثلث الباقي والأب الباقي، وقد دل على ذلك قوله: ﴿وورثه أبواه فلأمه الثلث﴾؛ أي: ثلث ما ورثه الأبوان، وهو في هاتين الصورتين: إما سدس في زوج وأم وأب، وإما ربع في زوجة وأم وأب، فلم تدل الآية على إرث الأم ثلث المال كاملاً مع عدم الأولاد حتى يقال: إن هاتين الصورتين قد استثنيتا من هذا. ويوضح ذلك أن الذي يأخذه الزوج أو الزوجة بمنزلة ما يأخذه الغرماء، فيكون من رأس المال، والباقي بين الأبوين. ولأننا لو أعطينا الأم ثلث المال؛ لزم زيادتها على الأب في مسألة الزوج أو أخذ الأب في مسألة الزوجة زيادة عنها نصف السدس، وهذا لا نظير له؛ فإن المعهود مساواتها للأب أو أخذه ضعف ما تأخذه الأم.

﴿فإن كان له إخوة فلأمه السدس﴾: أشقاء أو لأب أو لأم ذكوراً كانوا أو إنثاء وارثين أو محجوبين بالأب أو الجد. لكن قد يُقال: ليس ظاهر قوله: ﴿فإن كان له

(١) في (ب): «الذمم».

إخوة: شاملاً لغير الوارثين، بدليل عدم تناولها للمحجوب بالنصف؛ فعلى هذا لا يحجبها عن الثلث من الإخوة إلا الإخوة الوارثون. ويؤيده أن الحكمة في حجبهم لها عن الثلث لأجل أن يتوفر لهم شيء من المال، وهو معدوم. والله أعلم. ولكن بشرط كونهم اثنين فأكثر.

ويشكل على ذلك إتيان لفظ الإخوة بلفظ الجمع. وأجيب عن ذلك بأن المقصود مجرد التعدد لا الجمع، ويصدق ذلك باثنين، وقد يطلق الجمع ويراد به الاثنان؛ كما في قوله تعالى عن داود وسليمان: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾. وقال في الإخوة للأم: ﴿وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث﴾: فأطلق لفظ الجمع، والمراد به اثنان فأكثر بالإجماع. فعلى هذا؛ لو خلف أمًا وأبًا وإخوة؛ كان للأم السدس والباقي للأب، فحجبوها عن الثلث مع حجب الأب إياهم؛ إلا على الاحتمال الآخر؛ فإن للأم الثلث والباقي للأب^(١).

ثم قال تعالى: ﴿من بعد وصية يوصى بها أو دين﴾؛ أي: هذه الفروض والأنصباء والموارث، إنما ترد وتستحق بعد نزع الديون التي على الميت لله أو للآدميين، وبعد الوصايا التي قد أوصى الميت بها بعد موته؛ فالباقي عن ذلك هو التركة الذي يستحقه الورثة. وقدم الوصية مع أنها مؤخرة عن الدين للاهتمام بشأنها لكون إخراجها شاقاً على الورثة، وإلاً؛ فالديون مقدّمة عليها، وتكون من رأس المال، وأما الوصية؛ فإنها تصح من الثلث فأقل للأجنبي الذي هو غير وارث، وأما غير ذلك؛ فلا ينفذ إلا بإجازة الورثة.

قال تعالى: ﴿أبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً﴾؛ فلو رُدَّ تقدير الإرث إلى عقولكم واختياركم؛ لحصل من الضرر ما الله به عليم؛ لِنَقْصِ العقول وعدم معرفتها بما هو اللائق الأحسن في كل زمان ومكان، فلا يدرون أي الأولاد أو الوالدين أنفع لهم وأقرب لحصول مقاصدهم الدنيوية والدنيوية.

﴿فريضة من الله إنَّ الله كان عليماً حكيماً﴾؛ أي: فرضها الله الذي قد أحاط بكل شيء علماً وأحكم ما شرعه وقدر ما قدره على أحسن تقدير، لا تستطيع

(١) جاء في هامش (ب) العبارة التالية: «وعند شيخ الإسلام إذا كان الأخوة غير وارثين فإنهم لا يحجبون الأم».

العقول أن تقترح مثل أحكامه الصالحة الموافقة لكل زمان ومكان وحال.

﴿١٢﴾ ثم قال تعالى: ﴿ولكم﴾ أيها الأزواج ﴿نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين﴾، ويدخل في مسمى الولد المشروط وجوده أو عدمه ولد الصلب، أو ولد الابن، الذكر والأنثى، الواحد، والمتعدد الذي من الزوج أو من غيره، ويخرج عنه ولد البنات إجماعاً.

ثم قال تعالى: ﴿وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت﴾؛ أي: من أم؛ كما هي في بعض القراءات، وأجمع العلماء على أن المراد بالإخوة هنا الإخوة للأم؛ فإذا كان يورث كلالة؛ أي: ليس للميت والد ولا ولد؛ أي: لا أب ولا جد ولا ابن ولا ابن ابن ولا بنت ولا بنت ابن وإن نزلوا، وهذه هي الكلالة كما فسرنا بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقد حصل على ذلك الاتفاق ولله الحمد، ﴿فلكل واحد منهما﴾؛ أي: من الأخ والأخت ﴿السدس﴾، فإن كانوا أكثر من ذلك؛ أي: من واحد؛ ﴿فهم شركاء في الثلث﴾؛ أي: لا يزيدون على الثلث ولو زادوا عن اثنين. ودل قوله: ﴿فهم شركاء في الثلث﴾: أن ذكرهم وأنشأهم سواء؛ لأن لفظ الشريك^(١) يقتضي التسوية. ودل لفظ ﴿الكلالة﴾ على أن الفروع وإن نزلوا، والأصول الذكور وإن علوا، يسقطون أولاد الأم؛ لأن الله لم يورثهم إلا في الكلالة؛ فلو لم يكن يورث كلالة؛ لم يرثوا منه شيئاً اتفاقاً. ودل قوله: ﴿فهم شركاء في الثلث﴾: أن الإخوة الأشقاء يسقطون في المسألة المسماة بالحمارية، وهي زوج وأم وإخوة لأم وإخوة أشقاء: للزوج النصف، وللأم السدس، وللإخوة للأم الثلث، ويسقط الأشقاء لأن الله أضاف الثلث للإخوة من الأم؛ فلو شاركهم الأشقاء؛ لكان جمعاً لما فرق الله حكمه. وأيضاً؛ فإن الإخوة للأم أصحاب فروض والأشقاء عصباء، وقد قال النبي ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها؛ فما بقي؛ فلاولى رجل ذكر»^(٢).

وأهل الفروض هم الذين قدر الله أنصباءهم؛ ففي هذه المسألة لا يبقى بعدهم شيء، فيسقط الأشقاء، وهذا هو الصواب في ذلك.

(١) في (ب): «الشريك».

(٢) تقدم تخريجه (ص ٢٨٠).

وأما ميراث الإخوة والأخوات الأشقاء أو لأب؛ فمذكور في قوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ...﴾ الآية؛ فالأخت الواحدة شقيقة أو لأب لها النصف، والشتان لهما الثلثان، والشقيقة الواحدة مع الأخت للأب أو الأخوات تأخذ النصف والباقي من الثلثين للأخت أو أخوات الأب وهو السدس تكملة الثلثين، وإذا استغرقت الشقيقات الثلثين؛ تسقط الأخوات للأب؛ كما تقدم في البنات وبنات الابن، وإن كان الإخوة رجالاً ونساء؛ فللذكر مثل حظ الأنثيين.

فإن قيل: فهل يستفاد حكم ميراث القاتل والرقيق والمخالف في الدين والمُبْعُضُ والخنثى والجد مع الإخوة لغير أم والعول والرد وذوي الأرحام وبقية العَصْبة والأخوات لغير أم مع البنات أو بنات الابن من القرآن أم لا؟ قيل: نعم فيه تنبيهات وإشارات دقيقة يَغْسُرُ فُهْمُهَا عَلَى غَيْرِ التَّمَأْمَلِ تَدُلُّ عَلَى جَمِيعِ الْمَذْكُورَاتِ:

فأما القاتل والمخالف في الدين؛ فَيُعْرِفُ أَنَّهُمَا غَيْرُ وَارِثِينَ مِنْ بَيَانِ الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ فِي تَوْزِيعِ الْمَالِ عَلَى الْوَرِثَةِ بِحَسَبِ قَرَبِهِمْ وَنَفْعِهِمُ الدِّينِيَّ وَالْدُنْيَوِيَّ، وَقَدْ أَشَارَ تَعَالَى إِلَى هَذِهِ الْحِكْمَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ الْقَاتِلَ قَدْ سَعَى لِمُورُوثِهِ بِأَعْظَمِ الضَّرَرِ، فَلَا يَنْتَهِزُ مَا فِيهِ مِنْ مُوجِبِ الْإِرْثِ أَنْ يَقَاطِمَ ضَرَرَ الْقَتْلِ الَّذِي هُوَ ضِدُّ النِّفْعِ الَّذِي رُتِبَ عَلَيْهِ الْإِرْثُ، فَعِلِمٌ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْقَتْلَ أَكْبَرَ مَانِعٍ يَمْنَعُ الْمِيرَاثَ وَيَقْطَعُ الرَّحْمَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِيهِ: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾، مَعَ أَنَّهُ قَدْ اسْتَقَرَّتِ الْقَاعِدَةُ الشَّرْعِيَّةُ: أَنَّ مَنْ اسْتَعْجَلَ شَيْئًا قَبْلَ أَوَانِهِ؛ عَوِّقَ بِحَرْمَانِهِ.

وبهذا ونحوه يُعْرِفُ أَنَّ الْمَخَالَفَ لِدِينِ الْمُورُوثِ لَا إِرْثَ لَهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ تَعَارَضَ الْمَوْجِبُ الَّذِي هُوَ اتِّصَالُ النَّسَبِ الْمَوْجِبُ لِلْإِرْثِ وَالْمَانِعُ الَّذِي هُوَ الْمَخَالَفَةُ فِي الدِّينِ الْمَوْجِبَةُ لِلْمَبَايَنَةِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، فَقَوِيَ الْمَانِعُ، وَمَنْعَ مُوجِبِ الْإِرْثِ الَّذِي هُوَ النَّسَبُ، فَلَمْ يَعْمَلِ الْمَوْجِبُ لِقِيَامِ الْمَانِعِ. يَوْضَحُ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ حَقُوقَ الْمُسْلِمِينَ أَوْلَى مِنْ حَقُوقِ الْأَقَارِبِ الْكَافَرِ الدُّنْيَوِيَّةِ؛ فَإِذَا مَاتَ الْمُسْلِمُ؛ انْتَقَلَ مَالُهُ إِلَى مَنْ هُوَ أَوْلَى وَأَحَقُّ بِهِ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾: إِذَا اتَّفَقَتْ أَدْيَانُهُمْ، وَأَمَّا مَعَ تَبَايُنِهِمْ؛ فَالْأَخُوَّةُ الدِّينِيَّةُ مُقَدِّمَةٌ عَلَى الْأَخُوَّةِ النَّسَبِيَّةِ الْمَجْرُودَةِ.

قال ابن القيم في «جلاء الأفهام»^(١): «وتأمل هذا المعنى في آية الموارث

(١) (ص ٣٤٧ - تحقيق مشهور بن حسن - ط دار ابن الجوزي).

وتعليقه سبحانه التوارث فيها بلفظ الزوجة دون المرأة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نَصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾: إيذاناً بأن هذا التوارث إنما وقع بالزوجية المقتضية للتشاكل والتناسب، والمؤمن والكافر لا تشاكل بينهما ولا تناسب، فلا يقع بينهما التوارث، وأسرار مفردات القرآن ومركباته فوق عقول العالمين. انتهى.

وأما الرقيق؛ فإنه لا يرث ولا يورث: أما كونه لا يورث؛ فواضح؛ لأنه ليس له مال يورث عنه، بل كل ما معه فهو لسيده. وأما كونه لا يرث؛ فلأنه لا يملك؛ فإنه لو ملك لكان لسيده، وهو أجنبي من الميت، فيكون مثل قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ ﴿وَلَكُمْ نَصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ﴾.... ونحوها لمن يتأتى منه التملك، وأما^(١) الرقيق؛ فلا يتأتى منه ذلك، فعلم أنه لا ميراث له.

وأما من بعضه حرٌ وبعضه رقيق؛ فإنه تتبع بعض أحكامه؛ فما فيه من الحرية يستحق بها ما رتبته الله في الموارث؛ لكون ما فيه من الحرية قابلاً للتملك وما فيه من الرق؛ فليس بقابل لذلك؛ فإذا يكون المبعوض يرث ويورث ويحجب بقدر ما فيه من الحرية، وإذا كان العبد يكون محموداً ومذموماً مثاباً ومعاقباً بقدر ما فيه من موجبات ذلك؛ فهذا كذلك.

وأما الخنثى؛ فلا يخلو إما أن يكون واضحاً ذكوريته أو أنوثيته أو مشكلاً؛ فإن كان واضحاً؛ فالأمر فيه واضح: إن كان ذكراً؛ فله حكم الذكور، ويشمله النص الوارد فيهم، وإن كانت أنثى؛ فلها حكم الإناث، ويشملها النص الوارد فيهن. وإن كان مشكلاً؛ فإن كان الذكر والأنثى لا يختلف إرثهما - كالإخوة للأم -؛ فالأمر فيه واضح، وإن كان يختلف إرثه بتقدير ذكوريته وبتقدير أنوثيته، ولم يبق لنا طريق إلى العلم بذلك؛ لم نعطه أكثر التقديرين لاحتمال ظلم من معه من الورثة، ولم نعطه الأقل لاحتمال ظلمنا له، فوجب التوسط بين الأمرين وسلوك أعدل الطريقين، قال تعالى: ﴿اغْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾؛ فليس^(٢) لنا طريق إلى العدل في مثل هذا أكثر من هذا الطريق المذكور، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها؛ فاتقوا الله ما استطعتم.

وأما ميراث الجد مع الإخوة الأشقاء أو لأب، وهل يرثون معه أم لا؟ فقد دلَّ

(٢) في (ب): «وليس».

(١) في (ب): «فأما».

كتاب الله على قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه^(١)، وأن الجد يحجب الإخوة أشقاء أو لأب أو لأم كما يحجبهم الأب، ويبان ذلك أن الجد أب في غير موضع من القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿إِذْ خَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبْنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ...﴾ الآية، وقال يوسف عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾، فسمى الله الجدَّ وجدَّ الأب أباً، فدل ذلك على أن الجد بمنزلة الأب، يرث ما يرثه الأب، ويحجب من يحجبه، وإذا كان العلماء قد أجمعوا على أن الجدَّ حكمه حكم الأب عند عدمه في ميراثه مع الأولاد وغيرهم من بين الإخوة والأعمام وبنينهم وسائر أحكام الموارث؛ فينبغي أيضاً أن يكون حكمه حكمه في حجب الإخوة لغير أم، وإذا كان ابن الأب بمنزلة ابن الصلب؛ فلم لا يكون الجد بمنزلة الأب؟ وإذا كان جد الأب مع ابن الأخ قد اتفق العلماء على أنه يحجبه؛ فلم لا يحجب جد الميت أخاه؟ فليس مع من يورث الإخوة مع الجد نص ولا إشارة ولا تنبيه ولا قياس صحيح.

وأما مسائل العول؛ فإنه يُستفاد حكمها من القرآن، وذلك أن الله تعالى قد فرض وقدر لأهل الموارث أنصبا، وهم بين حالتين: إما أن يحجب بعضهم بعضاً، أو لا؛ فإن حجب بعضهم بعضاً؛ فالمحجوب ساقط لا يزاحم ولا يستحق شيئاً، وإن لم يحجب بعضهم بعضاً؛ فلا يخلو: إما أن لا تستغرق الفروض التركية، أو تستغرقها من غير زيادة ولا نقص، أو تزيد الفروض على التركية؛ ففي الحالتين الأوليين كل يأخذ فرضه كاملاً، وفي الحالة الأخيرة، وهي ما إذا زادت الفروض على التركية؛ فلا يخلو من حالين:

إما أن ننقص بعض الورثة عن فرضه الذي فرضه الله له ونكمل للباقيين منهم فروضهم، وهذا ترجيح بغير مرجح، وليس نقصان أحدهم بأولى من الآخر، فتعين الحال الثانية، وهو أننا نعطي كل واحد منهم نصيبه بقدر الإمكان، ونحاصص بينهم؛ كديون الغرماء الزائدة على مال الغريم، ولا طريق موصل إلى ذلك إلا بالعول، فعلم من هذا أن العول في الفرائض قد بينه الله في كتابه.

وبعكس هذه الطريقة بعينها يُعلم الرد؛ فإن أهل الفروض إذا لم تستغرق

فروضهم التركة، وبقي شيء ليس له مستحق من عاصب قريب ولا بعيد؛ فإن ردّه على أحدهم ترجيح بغير مرجح، وإعطاءه غيرهم ممن ليس بقريب للميت جَنَفَ وميل ومعارضة لقوله: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾، فتعيّن أن يُرَدَّ على أهل الفروض بقدر فروضهم، ولما كان الزوجان ليسا من القرابة؛ لم يستحق الزيادة على فرضهم المقدّر [عند القائلين بعدم الرد عليهم، وأما على القول الصحيح أن حكم الزوجين حكم باقي الورثة في الرد؛ فالدليل المذكور شامل للجميع كما شملهم دليل العول]^(١).

وبهذا يُعْلَمُ أيضاً ميراث ذوي الأرحام؛ فإن الميت إذا لم يخلف صاحب فرض ولا عاصباً، وبقي الأمر دائراً بين كون ماله يكون لبית المال لمنافع الأجانب وبين كون ماله يرجع إلى أقربائه المُذْلِلين بالورثة المجمع عليهم؛ تعين الثاني، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾، فصرفه لغيرهم ترك لمن هو أولى من غيره، فتعيّن توريث ذوي الأرحام، وإذا تعيّن توريثهم؛ فقد علم أنه ليس لهم نصيب مقدر بأعيانهم في كتاب الله، وأن بينهم وبين الميت وسائط صاروا بسببها من الأقارب، فينزّلون منزلة من أدلّوا به من تلك الوسائط. والله أعلم.

وأما ميراث بقية العَصَبَةِ؛ كالبنوة والأخوة وبنينهم والأعمام وبنينهم... إلخ؛ فإن النبي ﷺ قال: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي؛ فلأولى رجل ذكر»^(٢)، وقال تعالى: ﴿ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون﴾؛ فإذا ألحقنا الفروض بأهلها ولم يبق شيء؛ لم يستحق العاصب شيئاً، وإن بقي شيء؛ أخذه أولى العَصَبَةِ بحسب جهاتهم ودرجاتهم؛ فإن جهات العصوبة خَمَسٌ: البنوة، ثم الأبوة، ثم الأخوة وبنوهم، ثم العمومة وبنوهم، ثم الولاء، ويقدم^(٣) منهم الأقرب جهة؛ فإن كانوا في جهة واحدة؛ فالأقرب منزلة؛ فإن كانوا بمنزلة^(٤) واحدة؛ فالأقوى، وهو

(١) زيادة من هامش (أ) وفي هامش (ب): «هذا عند من لا يورث الزوجين بالرّد وهم جمهور القائلين بالرّد، فعلى هذا تكون علة الرّد كونه صاحب فرض قريباً، وعلى القول الآخر أن الزوجين كغيرهما من ذوي الفروض يُرَدُّ عليهما؛ فكما ينقصان بالعول فإنهما يزدان بالرّد كغيرهما، فאלعلة على هذا كونه وارثاً صاحب فرض، فهذا هو الظاهر من دلالة الكتاب والسنة والقياس الصحيح. والله أعلم».

(٢) تقدم تخريجه (ص ٢٨٠).

(٣) في (ب): «فيقدم».

(٤) في (ب): «في منزلة».

الشقيق؛ فإن تساوا من كل وجه؛ اشركوا؛ والله أعلم.

وأما كون الأخوات لغير أم مع البنات أو بنات الابن عصبات يأخذن ما فضل عن فروضهن؛ فإنه ليس في القرآن ما يدل على أن الأخوات يَسْقُطْنَ بالبنات؛ فإذا كان الأمر كذلك، وبقي شيء بعد أخذ البنات فرضهن؛ فإنه يُعطى للأخوات ولا يُغْدَلُ عنهن إلى عَصَبَةِ أبعد منهن كابن الأخ والعم ومن هو أبعد منهم. والله أعلم.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٣﴾ أي: تلك التفاصيل التي ذكرها في الموارد حدود الله التي يجب الوقوف معها، وعدم مجاوزتها ولا القصور عنها، وفي ذلك دليل على أن الوصية للوارث منسوخة بتقديره تعالى أنصاء الوارثين. ثم قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾؛ فالوصية للوارث بزيادة على حقه يدخل في هذا التعدي مع قوله ﷺ: «لا وصية لوارث»^(١). ثم ذكر طاعة الله ورسوله ومعصيتهما عموماً؛ ليدخل في العموم لزوم حدوده في الفرائض أو ترك ذلك، فقال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: بامتنال أمرهما الذي أعظمه طاعتهما في التوحيد ثم الأوامر على اختلاف درجاتها، واجتناب نهيهما الذي أعظمه الشرك بالله ثم المعاصي على اختلاف طبقاتها. ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾: فمن أدى الأوامر واجتنب النواهي؛ فلا بد له من دخول الجنة والنجاة من النار. ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: الذي حصل به النجاة من سخطه وعذابه والفوز بثوابه ورضوانه بالنعيم المقيم الذي لا يصفه الواصفون.

﴿١٤﴾ ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ إلخ، ويدخل في اسم المعصية الكفر فما دونه من المعاصي؛ فلا يكون فيها شبهة للخوارج القائلين بكفر أهل المعاصي؛ فإن الله تعالى رتب دخول الجنة على طاعته وطاعة رسوله، ورتب دخول النار على معصيته ومعصية رسوله؛ فمن أطاعه طاعة تامة؛ دخل الجنة بلا عذاب، ومن

(١) جاء عن جماعة كثيرة من الصحابة: أخرجه أحمد (٢٦٧/٥)، وأبو داود (٣٥٦٥)، والترمذي (٢١٢٠)، وابن ماجه (٢٧١٢)، والنسائي (١٢٨/٢)، وغيرهم، وصححه الألباني في «الإرواء» (١٦٥٥).

عصى الله ورسوله معصية تامة يدخل فيها الشرك فما دونه؛ دخل النار وخُلد فيها، ومن اجتمع فيه معصية وطاعة؛ كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسب ما فيه من الطاعة والمعصية.

وقد دلت النصوص المتواترة على أن الموحدين الذين معهم طاعة التوحيد غير مخلدين في النار؛ فما معهم من التوحيد مانع لهم من الخلود فيها.

﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَاحِشَةُ مِنْ إِسَائِكَمْ فَاسْتَشْهَدُوا عَلَيْهَا أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَنكِحُوا فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَقَّهِنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَتَاذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿١٥﴾ أي: النساء ﴿اللاتي يأتين الفاحشة﴾؛ أي: الزنا، فوصفها ^(١) بالفاحشة لشناعتها وقبحها. ﴿فاستشهدوا عليهن أربعة منكم﴾؛ أي: من رجالكم المؤمنين العدول. ﴿فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت﴾؛ أي: احبسوهن عن الخروج الموجب للريبة، وأيضاً؛ فإن الحبس من جملة العقوبات. ﴿حتى يتوفاهن الموت﴾؛ أي: هذا منتهى الحبس. ﴿أو يجعل الله لهن سبيلاً﴾؛ أي: طريقاً غير الحبس في البيوت.

فهذه الآية ليست منسوخة؛ فإنما ^(٢) هي مُعَيَّاة إلى ذلك الوقت، فكان الأمر في أول الإسلام كذلك، حتى جعل الله لهن سبيلاً، وهو رجم المحصن وجلد غير المحصن.

﴿١٦﴾ ﴿و﴾ كذلك ﴿الذان يأتيانها﴾؛ أي: الفاحشة ﴿منكم﴾: من الرجال والنساء. ﴿فتاذوهما﴾: بالقول والتوبيخ والتعيير والضرب الرادع عن هذه الفاحشة. فعلى هذا يكون الرجال إذا فعلوا الفاحشة يؤذون والنساء يُخَبِّسْنَ ويؤذين؛ فالحبس غاية للموت ^(٣)، والأذية نهايتها إلى التوبة والإصلاح. ولهذا قال: ﴿فإن تابا﴾؛ أي: رجعا عن الذنب الذي فعلاه وندما عليه وعزما أن لا يعودا، ﴿وأصلحا﴾: العمل الدال على صدق التوبة. ﴿فأعرضوا عنهما﴾؛ أي: عن أذاهما. ﴿إن الله كان تواباً رحيماً﴾؛ أي: كثير التوبة على المذنبين الخطائين، عظيم الرحمة والإحسان الذي من إحسانه، وفقهم للتوبة، وقبلها منهم، وسامحهم عن ما صدر منهم.

(١) في (ب): «ووصفها».

(٢) في (ب): «وإنما».

(٣) في (ب): «إلى الموت».

ويؤخذ من هاتين الآيتين أن بَيِّنَةُ الزنا [لا بُدَّ] أن تكون أربعة رجال مؤمنين، ومن باب أولى وأحرى اشتراط عدالتهم؛ لأن الله تعالى شَدَّدَ في أمر هذه الفاحشة سترًا لعباده، حتى إنه لا يقبل فيها النساء منفردات ولا مع الرجل ولا مع دون أربعة، ولا بد من التصريح بالشهادة كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة وتومىء إليه هذه الآية: لِمَا قَالَ: ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ﴾؛ لم يكتفِ بذلك، حتى قال: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾؛ أي: لا بُدَّ من شهادة صريحة عن أمر يشاهد عياناً من غير تعريض ولا كناية.

ويؤخذ منهما أن الأذية بالقول والفعل والحبس قد شرعه الله تعزيراً لجنس المعصية التي يحصل به الزجر.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٧ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتْتُ لَكَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٨﴾.

﴿١٧ - ١٨﴾ توبة الله على عباده نوعان: توفيق منه للتوبة، وقبول لها بعد وجودها من العبد. فأخبر هنا أن التوبة المستحقة على الله حقاً أحقُّه على نفسه كرمًا منه وجوداً لمن عمل السوء؛ أي: المعاصي ﴿بجهالة﴾؛ أي: جهالة منه لعاقبتها^(١) وإيجابها لسخط الله وعقابه، وجهل منه لنظر الله ومراقبته له، وجهل منه بما تؤول إليه من نقص الإيمان أو إعدامه؛ فكل عاص لله فهو جاهل بهذا الاعتبار وإن كان عالماً بالتحريم، بل العلم بالتحريم شرط لكونها معصية معاقب عليها. ﴿ثم يتوبون من قريب﴾: يُحتمل أن يكون المعنى: ثم يتوبون قبل معاناة الموت؛ فإن الله يقبل توبة العبد إذا تاب قبل معاناة الموت والعذاب قطعاً، وأما بعد حضور الموت؛ فلا يُقبل من العاصين توبة ولا من الكفار رجوع؛ كما قال تعالى عن فرعون: ﴿فَلَمَّا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ...﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكُفِّرْنَا بَمَا كُنَّا بِهِ مَشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سِنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ

(١) في (ب): «بعاقبتها».

خلت في عبادِهِ، وقال هنا: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات﴾؛ أي: المعاصي فيما دون الكفر. ﴿حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار فأولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾، وذلك أن التوبة في هذه الحال توبة اضطرارٍ لا تنفع صاحبها، إنما تنفع توبة الاختيار.

ويُحتمل^(١) أن يكون معنى قوله: ﴿من قريب﴾؛ أي: قريب من فعلهم للذنوب الموجب للتوبة، فيكون المعنى: أن من بادر إلى الإقلاع من حين صدور الذنب وأناب إلى الله وندم عليه؛ فإن الله يتوب عليه؛ بخلاف من استمر على ذنبه^(٢) وأصر على عيوبه حتى صارت فيه صفات راسخة؛ فإنه يغسر عليه إيجاد التوبة الثامة، والغالب أنه لا يوفق للتوبة ولا ييسر لأسبابها؛ كالذي يعمل السوء على علم قائم^(٣) ويقين متهاون^(٤) بنظر الله إليه؛ فإنه يسد^(٥) على نفسه باب الرحمة. نعم؛ قد يوفق الله عبده المصّر على الذنوب عن عمد ويقين للتوبة النافعة التي يمحو^(٦) بها ما سلف من سيئاته وما تقدم من جنائياته، ولكن الرحمة والتوفيق للأول أقرب، ولهذا ختم الآية الأولى بقوله: ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾؛ فمن علمه أنه يعلم صادق التوبة وكاذبها، فيجازي كلاً منهما بحسب ما يستحق^(٧) بحكمته، ومن حكمته أن يوفق من اقتضت حكمته ورحمته توفيقه للتوبة، ويخذل من اقتضت حكمته وعدله عدم توفيقه. والله أعلم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَقْضُوا لَهُنَّ إِنْ تَزَنُّوا إِلَيْهِنَّ مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحْشَةٍ مُبِينَةٍ وَعَاشِرُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۖ ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِيَّاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهَيْئَتِنَا وَإِنَّمَا مِثْلُنَا ۖ ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ۖ ﴿٢١﴾﴾.

﴿١٩﴾ كانوا في الجاهلية إذا مات أحدهم عن زوجته؛ رأى قريبه كأخيه وابن

(١) جاء في هامش (ب): «ويؤيد هذا الاحتمال أن الله قال: ﴿إنما التوبة على الله﴾ الحاضرة،

ولم يقل: إنما يتوب الله. وبين اللفظين فرق ظاهر».

(٢) في (ب): «ذنبه».

(٣) في (ب): «تام».

(٤) في (ب): «وتهاون».

(٥) في (ب): «سد».

(٦) في (ب): «ما يستحق».

(٧) في (ب): «التوبة تامة يمحو».

عمه ونحوهما - أنه أحقُّ بزوجته من كل أحد، وحماها عن غيره، أحبت أو كرهت؛ فإن أحبها؛ تزوجها على صداق يحبه دونها، وإن لم يرضها؛ غَضَلَهَا فلا يزوجه إلا مَنْ يختاره هو، وربما امتنع من تزويجها حتى تبذل له شيئاً من ميراث قريبه أو من صداقها. وكان الرجل أيضاً يعضُلُ زوجته التي يكون يكرهها ليذهب ببعض ما آتاها. فنهى الله المؤمنين عن جميع هذه الأحوال إلا حالتين: إذا رضيت واختارت نكاح قريب زوجها الأول كما هو مفهوم قوله: ﴿كَرَهَا﴾. وإذا آتَيْنَ بفاحشة مبينة كالزنا والكلام الفاحش وأذيتها لزوجها؛ فإنه في هذه الحال يجوز له أن يعضُلَهَا عقوبةً لها على فعلها، لتفتدي منه إذا كان عضلاً بالعدل.

ثم قال: ﴿وعاشروهنَّ بالمعروف﴾: وهذا يشمل المعاشرة القولية والفعلية، فعلى الزوج أن يعاشر زوجته بالمعروف من الصحبة الجميلة وكف الأذى وبذل الإحسان وحسن المعاملة، ويدخل في ذلك النفقة والكسوة ونحوهما، فيجب على الزوج لزوجه المعروف من مثله لمثلها في ذلك الزمان والمكان، وهذا يتفاوت بتفاوت الأحوال. ﴿فإن كرهتموهنَّ فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾؛ أي: ينبغي لكم أيها الأزواج أن تُمسِكُوا زوجاتكم مع الكراهة لهنَّ؛ فإن في ذلك خيراً كثيراً: من ذلك امتثال أمر الله وقبول وصيئته التي فيها سعادة الدنيا والآخرة. ومنها: أن إجباره نفسه مع عدم محبته لها فيه مجاهدة النفس والتخلُّق بالأخلاق الجميلة، وربما أن الكراهة تزول وتخلَّفها المحبة كما هو الواقع في ذلك، وربما رُزِقَ منها ولداً صالحاً، نفع والديه في الدنيا والآخرة.

﴿٢٠﴾ وهذا كله مع الإمكان في الإمساك وعدم المحذور، فإن كان لا بدَّ من الفراق وليس للإمساك محل؛ فليس الإمساك بلازم، بل متى ﴿أردتم استبدال زوج مكان زوج﴾؛ أي: تطليق زوجة وتزويج أخرى؛ أي: فلا جناح عليكم في ذلك ولا حرج، ولكن إذا ﴿آتيتم إحداهنَّ﴾؛ أي: المفارقة أو التي تزوجها ﴿قنطراً﴾؛ أي: مالا كثيراً. ﴿فلا تأخذوا منه شيئاً﴾، بل وفروا لهن ولا تَمْطُلُوا بهنَّ.

وفي هذه الآية دلالة على عدم تحريم كثرة المهر، مع أن الأفضل واللائق الاقتداء بالنبي ﷺ في تخفيف المهر، ووجه الدلالة أن الله أخبر عن أمر يقع منهم ولم ينكره عليهم، فدل على عدم تحريمه.

لكن قد ينهى عن كثرة الصداق إذا تضمن مفسدة دينية وعدم مصلحة تقاوم. ثم

قال: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بِهَتَانَا وَإِثْمًا مَبِينًا﴾؛ فَإِنَّ هَذَا لَا يَحِلُّ، وَلَوْ تَحِيلْتُمْ عَلَيْهِ بِأَنْوَاعِ الْحِيلِ؛ فَإِنَّ إِثْمَهُ وَاضِحٌ.

﴿٢١﴾ وَقَدْ بَيَّنَّ تَعَالَى حِكْمَةَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنِ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾، وَبَيَّنَّ ذَلِكَ أَنَّ الزَّوْجَةَ قَبْلَ عَقْدِ النِّكَاحِ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الزَّوْجِ، وَلَمْ تَرْضَ بِحِلِّهَا لَهُ إِلَّا بِذَلِكَ الْمَهْرِ الَّذِي يَدْفَعُهُ لَهَا؛ فَإِذَا دَخَلَ بِهَا وَأَفْضَى إِلَيْهَا وَبَاشَرَهَا الْمُبَاشَرَةَ الَّتِي كَانَتْ حَرَامًا قَبْلَ ذَلِكَ وَالَّتِي لَمْ تَرْضَ بِبِذْلِهَا إِلَّا بِذَلِكَ الْعَوْضِ؛ فَإِنَّهُ قَدْ اسْتَوْفَى الْمَعْوُضَ، فَثَبَّتَ عَلَيْهِ الْعَوْضَ؛ فَكَيْفَ يَسْتَوْفِي الْمَعْوُضَ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَرْجِعُ عَلَى الْعَوْضِ؟ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ الظُّلْمِ وَالْجَوْرِ، وَكَذَلِكَ أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْأَزْوَاجِ مِيثَاقًا غَلِيظًا بِالْعَقْدِ وَالْقِيَامِ بِحَقُوقِهَا. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّكُمْ كَانَتْ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ﴿٢٢﴾.

﴿٢٢﴾ أَي: لَا تَتَزَوَّجُوا مِنَ النِّسَاءِ مَا تَزَوَّجَهُنَّ آبَاؤُكُمْ؛ أَي: الْأَبُ وَإِنْ عَلَا. ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾؛ أَي: أَمْرًا قَبِيحًا يَفْخُسُ وَيَعْظُمُ قَبْحُهُ. ﴿وَمَقْتًا﴾: مِنَ اللَّهِ لَكُمْ، وَمِنْ الْخَلْقِ، بَلْ يَمُقَّتُ بِسَبَبِ ذَلِكَ الْابْنُ أَبَاهُ وَالْأَبُ ابْنَهُ مَعَ الْأَمْرِ بِبِرِّهِ. ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾؛ أَي: بِشِ الطَّرِيقِ طَرِيقًا لِمَنْ سَلَكَه؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ عَوَائِدِ الْجَاهِلِيَّةِ الَّتِي جَاءَ الْإِسْلَامُ بِالتَّزْوِجِ عَنْهَا وَالْبِرَاءَةِ مِنْهَا.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿٢٣﴾ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا رَاضِيَّتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿٢٤﴾.

هَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَاتُ مُشْتَمِلَاتٌ عَلَى الْمَحْرَمَاتِ بِالنِّسْبِ وَالْمَحْرَمَاتِ بِالرِّضَاعِ وَالْمَحْرَمَاتِ بِالصَّهْرِ وَالْمَحْرَمَاتِ بِالْجَمْعِ وَعَلَى الْمُحَلَّلَاتِ مِنَ النِّسَاءِ.

﴿٢٣﴾ فأما المحرمات في النسب؛ فهن السبع اللاتي ذكرهن الله: الأم: يدخل فيها كل من لها عليك ولادة وإن بعثت. ويدخل في البنت كل من لك عليها ولادة. والأخوات الشقيقات أو لأب أو لأم. والعمة: كل أخت لأبيك أو لجذك وإن علا. والخالة: كل أخت لأمك أو جدتك وإن علت وارثة أم لا. وبنات الأخ وبنات الأخت؛ أي: وإن نزلت^(١). فهؤلاء هن المحرمات من النسب بإجماع العلماء؛ كما هو نص الآية الكريمة، وما عداهن؛ فيدخل في قوله: ﴿وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وراءَ ذَلِكَ﴾، وذلك كبنت العمّة والعَمّ وبنت الخال والخالة.

وأما المحرمات بالرضاع؛ فقد ذكر الله منهن الأم والأخت، وفي ذلك^(٢) تحريم الأم، مع أن اللبن ليس لها، إنما هو لصاحب اللبن، دلّ بتنبيهه على أن صاحب اللبن يكون أباً للمرتضع؛ فإذا ثبتت الأبوة والأمومة؛ ثبت ما هو فرع عنهما؛ كأخوتهما وأصولهما وفروعهما^(٣)، وقال النبي ﷺ: «يحرّم من الرضاع ما يحرم من النسب»^(٤)، فينتشر التحريم من جهة المرضعة ومن له اللبن كما ينتشر في الأقارب وفي الطفل المرتضع إلى ذريته فقط، لكن بشرط أن يكون الرضاع خمس رضعات في الحولين؛ كما بيّنت^(٥) السنة^(٦).

وأما المحرمات بالصهر؛ فهن أربع: حلائل الآباء وإن علوا، وحلائل الأبناء وإن نزلوا وارثين أو محجوبين، وأمّهات الزوجة وإن علون؛ فهؤلاء الثلاث يخرمن بمجرد العقد، والرابعة الربيبة، وهي بنت زوجته وإن نزلت؛ فهذه لا تحرم حتى يدخل بزواجه؛ كما قال هنا: ﴿وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن...﴾ الآية. وقد قال الجمهور: إن قوله: ﴿اللاتي في حجوركم﴾: قيد خرج بمخرج الغالب لا مفهوم له؛ فإن الربيبة تحرم ولو لم تكن في حجره، ولكن للتقييد بذلك فائدتان: إحداهما: [فيه] التنبيه على الحكمة في تحريم الربيبة، وأنها

(١) في (ب): «وإن نزلن».

(٢) في (ب): «وفي ذكر».

(٣) في (ب): «وأصولهم وفروعهم».

(٤) أخرجه البخاري (٢٦٤٥)، ومسلم (١٤٤٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) في (ب): «بيته».

(٦) أما اشتراط الخمس رضعات؛ فلحديث عائشة رضي الله عنها كما في «صحيح مسلم» (١٤٥٢).

وأما اشتراط الحولين؛ فكما جاء من حديث أم سلمة أخرجه الترمذي (١١٥٢).

كانت بمنزلة البنت؛ فمن المستقبح إباحتها. والثانية: فيه دلالة على جواز الخلوة بالربيبة، وأنها بمنزلة من هي في حجره من بناته ونحوهن. والله أعلم.

وأما المحرمات بالجمع؛ فقد ذكر الله الجمع بين الأختين وحرّمه، وحرّم النبي ﷺ الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها^(١)؛ فكل امرأتين بينهما رحم محرّم، لو قدّر إحداهما ذكراً والأخرى أنثى حرّمت عليه؛ فإنه يحرم الجمع بينهما، وذلك لما في ذلك من أسباب التقاطع بين الأرحام.

﴿٢٤﴾ ومن المحرّمات في النكاح ﴿المحصنات من النساء﴾؛ أي: ذوات الأزواج؛ فإنه يحرّم نكاحهنّ ما دمن في ذمة الزوج حتى تطلق وتنقض عِدَّتْها؛ ﴿إلا ما ملكت أيما نكح﴾؛ أي: بالسي؛ فإذا سبّبت الكافرة ذات الزوج؛ حلّت للمسلمين بعد أن تُستَبْرَأَ، وأما إذا بيعت الأمة المزوّجة أو وهبت؛ فإنه لا يفسخ نكاحها؛ لأن المالك الثاني نزل منزلة الأول، ولقصة بريرة حين خيّرها النبي ﷺ^(٢).

وقوله: ﴿كتاب الله عليكم﴾؛ أي: الزموا واهتدوا به؛ فإن فيه الشفاء والنور، وفيه تفصيل الحلال من الحرام.

ودخل في قوله: ﴿وأحلّ لكم ما وراء ذلكم﴾: كل ما لم يُذكر في هذه الآية؛ فإنه حلال طيب؛ فالحرام محصور، والحلال ليس له حد ولا حصر؛ لطفاً من الله ورحمة وتيسيراً للعباد. وقوله: ﴿أن تبغوا بأموالكم﴾؛ أي: تطلبوا من وقّع عليه نظرُكم واختيارُكم من اللاتي أباحنّ الله لكم حالة كونكم ﴿محصنين﴾؛ أي: مستعفين عن الزنا ومعفين نساءكم. ﴿غير مسافحين﴾: والسفح سفح الماء في الحلال والحرام؛ فإن الفاعل لذلك لا يحصن زوجته؛ لكونه وضع شهوته في الحرام، فتضعف داعيته للحلال، فلا يبقى محصناً لزوجه. وفيها دلالة على أنه لا يزوّج غير العفيف؛ لقوله تعالى: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك﴾.

﴿فما استمتعتم به منهن﴾؛ أي: من تزوّجتموهن. ﴿فآتوهنّ أجورهنّ﴾؛ أي: الأجور في مقابلة الاستمتاع، ولهذا إذا دخل الزوج بزوجه؛ تقرّر عليه صداقها ﴿فريضة﴾؛ أي: إتيانكم إياهنّ أجورهنّ فرض فرضه الله عليكم، ليس بمنزلة

(١) كما في «صحيح البخاري» (٥١١٠)، ومسلم (١٤٠٨) من حديث أبي هريرة.

(٢) كما في «صحيح مسلم» (١٥٠٤).

التبرُّع الذي إن شاء أمضاه وإن شاء ردّه، أو معنى قوله: ﴿فريضة﴾؛ أي: مقدّرة، قد قدّرتموها، فوجبت عليكم؛ فلا تنقصوا منها شيئاً. ﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيتُم به من بعد الفريضة﴾؛ أي: بزيادة من الزوج أو إسقاط من الزوجة عن رضا وطيب نفس. هُذا قولٌ كثير من المفسرين. وقال كثيرٌ منهم: إنها نزلت في متعة النساء التي كانت حلالاً في أول الإسلام، ثم حرّمها النبي ﷺ، وأنه يؤمر بتوقيتها وأجرها، ثم إذا انقضى الأمد الذي بينهما، فتراضيا بعد الفريضة؛ فلا حرج عليهما. واللّه أعلم. ﴿إنّ الله كان عليماً حكيماً﴾؛ أي: كامل العلم واسع، كامل الحكمة؛ فمن علمه وحكمته شرع لكم هذه الشرائع، وحدّ لكم هذه الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام. ثم قال تعالى:

﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيَحْكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفَّحَاتٍ وَلَا مُتَّخَذَاتٍ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِمَنَاجِشٍ فَمَنْ لَمْ يَنْصِفْ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿٢٥﴾ أي: ومن لم يستطع الطول - الذي هو المهر - لنكاح المحصنات؛ أي: الحرائر المؤمنات، وخاف على نفسه العنت؛ أي: الزنا والمشقة الكثيرة؛ فيجوز له نكاح الإماء المملوكات المؤمنات، وهذا بحسب ما يظهر، وإلاً؛ فالله أعلم بالمؤمن الصادق من غيره؛ فأمور الدنيا مبنية على ظواهر الأمور، وأحكام الآخرة مبنية على ما في البواطن. ﴿فانكِحوهنَّ﴾؛ أي: المملوكات ﴿بإذن أهلهنَّ﴾؛ أي: سيدهن واحداً أو متعدداً. ﴿وآتوهنَّ أجورهنَّ بالمعروف﴾؛ أي: ولو كنَّ إماء؛ فإنه كما يجب المهر للحرّة؛ فكذلك يجب للأمة، ولكن لا يجوز نكاح الإماء إلا إذا كنَّ ﴿محصنات﴾؛ أي: عفيفات عن الزنا، ﴿غير مسافحات﴾؛ أي: زانيات علانية، ﴿ولا متَّخذاتٍ أخدانٍ﴾؛ أي: أخلاء في السرّ.

فالحاصل أنه لا يجوز للحرّ المسلم نكاح أمةٍ إلاّ بأربعة شروط ذكرها الله: الإيمان بهنّ، والعفة ظاهراً وباطناً، وعدم استطاعة طول الحرّة، وخوف العنت؛ فإذا تمت هذه الشروط؛ جاز له نكاحهنّ، ومع هذا؛ فالصبر عن نكاحهنّ أفضل؛ لما فيه من تعريض الأولاد للرقّ، ولما فيه من الدناءة والعيب، وهذا إذا أمكن

الصبر؛ فإن لم يمكن الصبر عن الحرام^(١) إلاً بنكاحهن؛ وجب ذلك، ولهذا قال: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿فَإِذَا أُخْصِنَ﴾؛ أي: تزوجن أو أسلمن؛ أي: الإمام. فعليهن نصف ما على المحصنات؛ أي: الحرائر ﴿من العذاب﴾. وذلك الذي يمكن تنصيفه وهو الجلد، فيكون عليهن خمسون جلدة، وأما الرجم؛ فليس على الإمام رجم؛ لأنه لا يتنصف؛ فعلى القول الأول: إذا لم يتزوجن؛ فليس عليهن حد، إنما عليهن تعزيز يردعهن عن فعل الفاحشة. وعلى القول الثاني: إن الإمام غير المسلمات إذا فعلن فاحشة أيضاً عززن.

وختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين: الغفور، والرحيم؛ لكون هذه الأحكام رحمة بالعباد وكرماً وإحساناً إليهم، فلم يضيق عليهم، بل وسع غاية السعة. ولعل في ذكر المغفرة بعد ذكر الحد إشارة إلى أن الحدود كفارات يغفر الله بها ذنوب عباده كما ورد بذلك الحديث^(٢).

وحكم العبد الذكر في الحد المذكور حكم الأمة لعدم الفارق بينهما.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ يُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُقِيلُوا مِثْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (٢٨) ﴿

﴿٢٦﴾ يخبر تعالى بمثته العظيمة ومنحته الجسيمة وحسن تربيته لعباده المؤمنين وسهولة دينه، فقال: ﴿يريد الله ليبين لكم﴾؛ أي: جميع ما تحتاجون إلى بيانه من الحق والباطل والحلال والحرام. ﴿ويهديكم سنن الذين من قبلكم﴾؛ أي: الذين أنعم الله عليهم من النبيين وأتباعهم في سيرهم الحميدة وأفعالهم السديدة وشماثلهم الكاملة وتوفيقهم التام؛ فلذلك نفذ ما أراده، ووضح لكم، وبين بياناً كما بين لمن قبلكم، وهداكم هداية عظيمة في العلم والعمل.

﴿ويتوب عليكم﴾؛ أي: يلطف [بكم]^(٣) في أحوالكم وما شرعه لكم، حتى

(١) في (ب): «المحرّم».

(٢) كما في «صحيح البخاري» (٦٧٨٤) ومسلم (١٧٠٩) من حديث عبادة بن الصامت.

(٣) كذا في (ب). وفي (أ): «لكم».

تَمَكَّنُوا^(١) من الوقوف على ما حَذَّه الله والاكتفاء بما أخلَّه، فتقلَّ ذنوبكم بسبب ما يَسُرُّ الله عليكم؛ فهذا من توبته على عباده، ومن توبته عليهم أنهم إذا أذنبوا فتح لهم أبواب الرحمة، وأوزع قلوبهم الإنابة إليه والتذلل بين يديه، ثم يتوب عليهم بقبول ما وفَّقهم له؛ فله الحمد والشكر على ذلك. وقوله: ﴿والله عليم حكيم﴾؛ أي: [كامل العلم]، كامل الحكمة؛ فمن علمه أن علَّمكم ما لم تكونوا تعلمون، ومنها هذه الأشياء والحدود. ومن حكمته أنه يتوب على من اقتضت حكمته ورحمته التوبة عليه، ويخذل من اقتضت حكمته وعدله أن^(٢) لا يصلح للتوبة.

﴿٢٧﴾ وقوله: ﴿والله يريد أن يتوب عليكم﴾؛ أي: توبة تلمَّ شَعَثُكُمْ وتجمع متفرِّقكم وتقرب بعيدكم. ﴿ويريد الذين يتبعون الشهوات﴾؛ أي: يميلون معها حيث مالت، ويقدمونها على ما فيه رضا محبوبهم ويعبدون أهواءهم من أصناف الكفرة والعاصين المقدمين لأهوائهم على طاعة ربهم؛ فهؤلاء يريدون ﴿أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾؛ أي: أن تنحرفوا عن الصراط المستقيم إلى صراط المغضوب عليهم والضالين، يريدون أن يصرفوكم عن طاعة الرحمن إلى طاعة الشيطان، وعن التزام حدود من السعادة كلها في امثال أوامره إلى من الشقاوة كلها في اتباعه؛ فإذا عرفتم أن الله تعالى يأمركم بما فيه صلاحكم وفلاحكم وسعادتكم، وأن هؤلاء المتبعين شهواتهم يأمرونكم بما فيه غاية الخسار والشقاء؛ فاختاروا لأنفسكم أولى الداعين وتخيروا أحسن الطريقتين.

﴿٢٨﴾ ﴿يريد الله أن يخفف عنكم﴾؛ أي: بسهولة ما أمركم به وما نهاكم عنه، ثم مع حصول المشقة في بعض الشرائع أباح لكم ما تقتضيه حاجتكم كالميتة والدم ونحوهما للمضطر وكتزويج الأمة للحر بتلك الشروط السابقة وذلك لرحمته التامة وإحسانه الشامل وعلمه وحكمته بضعف الإنسان من جميع الوجوه، ضعف البنية وضعف الإرادة وضعف العزيمة وضعف الإيمان وضعف الصبر فناسب ذلك أن يخفف الله عنه ما يضعف عنه، وما لا يطيقه إيمانه وصبره وقوته.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدُوْنَا

(١) في (ب): «تمكنوا».

(٢) في (ب): «أنه».

وَطَلَمًا فَسَوْفَ نَضِلَّهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٢٩﴾ .

﴿٢٩﴾ ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل، وهذا يشمل أكلها بالغصب والسرقا وأخذها بالقمار والمكاسب الرديئة، بل لعله يدخل في ذلك أكل مال نفسك على وجه البطر والإسراف؛ لأن هذا من الباطل، وليس من الحق. ثم إنه لما حرم أكلها بالباطل؛ أباح لهم أكلها بالتجارات والمكاسب الخالية من الموانع المشتملة على الشروط من التراضي وغيره.

﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾؛ أي: لا يقتل بعضكم بعضاً، ولا يقتل الإنسان نفسه، ويدخل في ذلك الإلقاء بالنفس إلى التهلكة وفعل الأخطار المفضية إلى التلف والهلاك ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾: ومن رحمته أن صان نفوسكم وأموالكم ونهاكم عن إضاعتها وإتلافها ورتب على ذلك ما رتبته من الحدود. وتأمل هذا الإيجاز والجمع في قوله ﴿لا تأكلوا أموالكم﴾ ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾؛ كيف شمل أموال غيرك^(١) ومال نفسك وقتل نفسك وقتل غيرك بعبارة أخصر من قوله: لا يأكل بعضكم مال بعض ولا يقتل بعضكم بعضاً؛ مع قصور هذه العبارة على مال الغير ونفس الغير، مع أن إضافة الأموال والأنفس إلى عموم المؤمنين فيه دلالة على أن المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ومصالحتهم كالجسد الواحد؛ حيث كان الإيمان يجمعهم على مصالحهم الدينية والدنيوية.

ولما نهى عن أكل الأموال بالباطل التي فيها غاية الضرر عليهم، على الأكل ومن أخذ ماله؛ أباح لهم ما فيه مصلحتهم من أنواع المكاسب والتجارات وأنواع الحرف والإجارات، فقال: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾؛ أي: فإنها مباحة لكم. وشرط التراضي مع كونها تجارة لدلالة أنه يشترط أن يكون العقد غير عقد رباً، لأن الربا ليس من التجارة، بل مخالف لمقصودها، وأنه لا بد أن يرضى كل من المتعاقدين ويأتي به اختياراً، ومن تمام الرضا أن يكون المعقود عليه معلوماً؛ لأنه إذا لم يكن كذلك؛ لا يتصور الرضا، مقدوراً على تسليمه؛ لأن غير المقدور عليه شبهة ببيع القمار؛ فبيع الغرر بجميع أنواعه خالٍ من الرضا فلا ينفذ عقده. وفيها أنه تنعقد العقود بما دل عليها من قول أو فعل؛ لأن الله شرط الرضا، فبأي طريق حصل الرضا؛ انعقد به العقد.

(١) في (ب): «أموال غيرك وأنفسهم».

ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾: ومن رحمته أن عصم دماءكم وأموالكم، وصانها، ونهاكم عن انتهاكها.

﴿٣٠﴾ ثم قال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾؛ أي: أكل الأموال بالباطل وقتل النفوس. ﴿عَدُوًّا وَظَلَمًا﴾؛ أي: لا جهلاً ونسياناً ﴿فَسَوْفَ نَصْلِيه نَارًا﴾؛ أي: عظمة كما يفيد التثكير. ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمٍ﴾.

﴿٣١﴾ ولهذا من فضل الله وإحسانه على عباده المؤمنين، وعذهم أنهم إذا اجتنبوا كبائر المنهيات؛ غفر لهم جميع الذنوب والسيئات، وأدخلهم مدخلاً كريماً كثير الخير، وهو الجنة، المشتملة على ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ويدخل في اجتناب الكبائر فعل الفرائض التي يكون تاركها مرتكباً كبيرة؛ كالصلوات الخمس والجمعة ورمضان؛ كما قال النبي ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان؛ مكفرات لما بينهن، ما اجتنبت الكبائر»^(١).

وأحسن ما حدث به الكبائر: أن الكبيرة ما فيه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة أو نفى إيمان أو ترتيب لعنة أو غضب عليه.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

﴿٣٢﴾ ينهى تعالى المؤمنين عن أن يتمنى بعضهم ما فضل الله به غيره من الأمور الممكنة وغير الممكنة؛ فلا تتمنى النساء خصائص^(٢) الرجال التي بها فضلهم على النساء، ولا صاحب الفقر والنقص حالة الغني والكامل تمنياً مجرداً؛ لأن هذا هو الحسد بعينه؛ تمنى نعمة الله على غيرك أن تكون لك ويُسلَبَ إياها، ولأنه يقتضي السخط على قدر الله، والإخلاد إلى الكسل، والأمانى الباطلة التي لا يقترن بها عمل ولا كسب، وإنما المحمود أمران: أن يسعى العبد على حسب قدرته بما

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في (ب): «حالة».

ينفعه من مصالحه الدينيّة والدينيّة، ويسأل الله تعالى من فضله؛ فلا يتكل على نفسه ولا على غير ربّه، ولهذا قال تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا﴾؛ أي: من أعمالهم المنتجة للمطلوب. ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾؛ فكل منهن لا يناله غير ما كسبه وتعب فيه. ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾؛ أي: من جميع مصالحكم في الدين والدنيا؛ فهذا كمال العبد وعنوان سعادته، لا من يترك العمل أو يتكل على نفسه غير مفتقر لربّه أو يجمع بين الأمرين؛ فإنّ هذا مخذول خاسر. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾: فيعطي من يعلمه أهلاً لذلك، ويمنع من يعلمه غير مستحق.

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيًّا مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلَ الَّذِينَ عَقَدْتُمْ بَيْنَهُمْ فَتَاهُمْ فَتَاهُمْ نَصِيبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ (٣٣).

﴿٣٣﴾ أي: ﴿ولكلّ﴾: من الناس ﴿جعلنا موالياً﴾؛ أي: يتولّونه ويتولّاهم بالتعزّز والثّصرة والمعاونة على الأمور، ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾: وهذا يشمل سائر الأقارب من الأصول والفروع والحواشي، هؤلاء الموالى من القرابة. ثم ذكر نوعاً آخر من الموالى، فقال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتُمْ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: حالقتموهم بما عَقَدْتُمْ معهم من عقد المحالفة على الثّصرة والمساعدة والاشتراك بالأموال وغير ذلك، وكل هذا من نعم الله على عباده؛ حيث كان الموالى يتعاونون بما لا يقدر عليه بعضهم مفرداً. قال تعالى: ﴿فَتَاهُمْ نَصِيبُهُمْ﴾؛ أي: آتوا الموالى نصيبهم الذي يجب القيام به من الثّصرة والمعاونة والمساعدة على غير معصية الله والميراث للأقارب الأذنين من الموالى. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾؛ أي: مطلعاً على كل شيء يعلمه لجميع الأمور وبصره لحركات عبادِهِ وسمعه لجميع أصواتهم.

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالْفَضْلُ الَّذِي حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّذِي تَخَافُونَ شُرُوهُمْ فَتَوْفَهُمْ وَافْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُمْ فَإِنْ أَعْطَاكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَكِينًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ (٣٤).

﴿٣٤﴾ يخبر تعالى أنّ ﴿الرجال قوامون على النساء﴾؛ أي: قوامون عليهنّ بإلزامهنّ بحقوق الله تعالى من المحافظة على فرائضه وكفهنّ عن المفاسد، والرجال عليهم أن يلزموهنّ بذلك، وقوامون عليهنّ أيضاً بالإنفاق عليهنّ والكسوة

والمسكن. ثم ذكر السبب الموجب لقيام الرجال على النساء، فقال: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾؛ أي: بسبب فضل الرجال على النساء وإفضالهم عليهن؛ فتفضيل الرجال على النساء من وجوه متعددة: من كون الولايات مختصة بالرجال، والنبوة، والرسالة، واختصاصهم بكثير من العبادات كالجهاد والأعياد والجمع، وبما خصهم الله به من العقل والرزانة والصبر والجَلَد الذي ليس للنساء مثله، وكذلك خصهم بالنفقات على الزوجات، بل وكثير من النفقات يختص بها الرجال ويتميزون عن النساء، ولعل هذا سرُّ قوله: ﴿بِمَا أَنْفَقُوا﴾، وحذف المفعول؛ ليدل على عموم النفقة، فعلم من هذا كله أنَّ الرجل كالوالي والسيّد لامرأته، وهي عنده عانية أسيرة خادمة، فوظيفته أن يقوم بما استرعه الله به، ووظيفتها القيام بطاعة ربها وطاعة زوجها؛ فلهذا قال: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ﴾؛ أي: مطيعات لله تعالى، ﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ﴾؛ أي: مطيعات لأزواجهن حتى في الغيب، تحفظ بعلمها بنفسها وماله، وذلك بحفظ الله لهن وتوفيقه لهن لا من أنفسهن؛ فإن النفس أمارة بالسوء، ولكن من توكل على الله؛ كفاه ما أهّمه من أمر دينه ودنياه.

ثم قال: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾؛ أي: ارتفاعهن عن طاعة أزواجهن؛ بأن تعصيه بالقول أو الفعل؛ فإنه يؤدبها بالأسهل فالأسهل. ﴿فَعُظُوهُنَّ﴾؛ أي: ببيان حكم الله في طاعة الزوج ومعصيته، والترغيب في الطاعة، والترهيب من المعصية؛ فإن انتهت؛ فذلك المطلوب، وإلا؛ فيهجرها الزوج في المضجع؛ بأن لا يضاجعها ولا يجامعها بمقدار ما يحصل به المقصود، وإلا؛ ضربها ضرباً غير مبرح؛ فإن حصل المقصود بواحد من هذه الأمور وأطعنكم؛ ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾؛ أي: فقد حصل لكم ما تحبون؛ فتركوا معاتبتها على الأمور الماضية والتنقيب عن العيوب التي يضر ذكرها، ويحدث بسببه الشر.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾؛ أي: له العلو المطلق بجميع الوجوه والاعتبارات؛ علو الذات وعلو القدر، وعلو القهر. الكبير: الذي لا أكبر منه ولا أجل ولا أعظم، كبير الذات والصفات.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿٣٥﴾ أي: وإن خفتم الشقاق بين الزوجين والمباعدة والمجانبة حتى يكون كل

منهما في شق؛ ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾؛ أي: رجلين مكلفين مسلمين عدلين عاقلين، يعرفان ما بين الزوجين، ويعرفان الجمع والتفريق، وهذا مستفاد من لفظ الحكم؛ لأنه لا يصلح حَكَمًا إِلَّا من اتَّصَف بتلك الصفات، فينظران ما يَنْقُمُ كُلُّ منهما على صاحبه، ثم يُلْزِمَانِ كِلَا منهما ما يجب؛ فإن لم يستطع أحدهما ذلك؛ فَنُتْعَا الزوج الآخر بالرُّضَا بما تيسَّر من الرزق والخلق، ومهما أمكنهما الجمع والإصلاح؛ فلا يعدِّلا عنه؛ فإن وصلت الحال إلى أنه لا يمكن اجتماعهما وإصلاحهما إلا على وجه المعادة والمقاطعة ومعصية الله، ورأيا أن التفريق بينهما أصلح؛ فَرَّقَا بينهما، ولا يُشْتَرَطُ رضا الزوج كما يدلُّ عليه أن الله سماهما الحكمين، والحكم يَحْكُمُ، وإن^(١) لم يَرْضَ المحكوم عليه، ولهذا قال: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: بسبب الرأي الميمون والكلام الذي يجذبُ القلوب ويؤلف بين القرينين. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾؛ أي: عالماً بجميع الظواهر والبواطن، مطلعاً على خفايا الأمور وأسرارها؛ فمن علمه وخبره^(٢) أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة والشرائع الجميلة.

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَاللَّذِينَ إِحْسَنَّا إِلَى الَّذِينَ يُبْذَوْنَ إِلَى الْفُرْقَيْنِ وَآلَتَيْنِ الْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِأَمْوَالِهِمْ وَالنَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْثُرُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ۝٣٧﴾ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقًا نَائِسًا وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ۝٣٨﴾.

﴿٣٦ - ٣٧﴾ يأمر تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له، وهو الدخول تحت رقب عبوديته والانقياد لأوامره ونواهيه محبةً وذلاً وإخلاصاً له في جميع العبادات الظاهرة والباطنة، وينهى عن الشرك به شيئاً، لا شركاً أصغر، ولا أكبر، لا ملكاً، ولا نبياً، ولا ولياً، ولا غيرهم من المخلوقين الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، بل الواجب المتعين إخلاصُ العبادة لمن له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وله التدبير الكامل الذي لا يشركه ولا يعينه عليه أحد.

(٢) في (ب): «وخبره».

(١) في (ب): «ولو».

ثم بعد ما أمر بعبادته والقيام بحقه أمر بالقيام بحقوق العباد الأقرب فالأقرب، فقال: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾؛ أي: أحسنوا إليهم بالقول الكريم والخطاب اللطيف والفعل الجميل، بطاعة أمرهما واجتناب نهيهما، والإنفاق عليهما، وإكرام من له تعلق بهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا بهما. وللإحسان ضدان الإساءة وعدم الإحسان، وكلاهما منهى عنه. ﴿وبذي القربى﴾ أيضاً إحساناً، ويشمل ذلك جميع الأقارب، قُربوا أو بُعدوا، بأن يُحسن إليهم بالقول والفعل، وأن لا يقطع برحمه بقوله أو فعله. ﴿واليتامى﴾؛ أي: الذين فقد آبائهم وهم صغار، فلهم حق على المسلمين، سواء كانوا أقارب أو غيرهم، بكفالتهم وبرهم وجبر خواطرهم وتأديبهم وتربيتهم أحسن تربية في مصالح دينهم ودنياهم. ﴿والمساكين﴾: وهم الذين أسكنتهم الحاجة والفقر، فلم يحصلوا على كفايتهم ولا كفاية من يملكون، فأمر الله تعالى بالإحسان إليهم بسد خللتهم وبدفع فاقتهم والحض على ذلك والقيام بما يمكن منه. ﴿والجار ذي القربى﴾؛ أي: الجار القريب الذي له حقان؛ حق الجوار وحق القرابة؛ فله على جاره حق وإحسان راجع إلى العرف. وكذلك ﴿الجار الجنب﴾؛ أي: الذي ليس له قرابة، وكلما كان الجار أقرب باباً؛ كان أكد حقاً، فينبغي للجار أن يتعاهد جاره بالهدية والصدقة والدعوة واللطفة بالأقوال والأفعال وعدم أذيته بقول أو فعل. ﴿والصاحب بالجنب﴾: قيل: الرفيق في السفر، وقيل: الزوجة، وقيل: صاحب مطلقاً، ولعله أولى؛ فإنه يشمل صاحب في الحضر والسفر ويشمل الزوجة؛ فعلى صاحب لصاحبه حق زائد على مجرد إسلامه، من مساعدته على أمور دينه ودنياه، والنصح له، والوفاء معه في اليسر والعسر والمنشط والمكره، وأن يحب له ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، وكلما زادت الصحبة؛ تأكد الحق وزاد. ﴿وابن السبيل﴾: وهو الغريب الذي احتاج في بلد الغربة أو لم يحتج؛ فله حق على المسلمين لشدة حاجته وكونه في غير وطنه بتبليغه إلى مقصوده أو بعض مقصوده وإكرامه وتأنيسه. ﴿وما ملكت أيمانكم﴾؛ أي: من الآدميين والبهائم، بالقيام بكفائتهم وعدم تحميلهم ما يشق عليهم، وإعانتهم على ما تحمّلوه^(١) وتأديبهم لما فيه مصلحتهم؛ فمن قام بهذه الأمور؛ فهو الخاضع لربه، المتواضع لعباد الله، المنقاد لأمر الله وشرعه، الذي يستحق الثواب الجزيل والثناء الجميل، ومن لم يقم بذلك؛ فإنه عبد معرض

(١) في (ب): «يتحملون».

عن ربه، غير منقاد لأوامره، ولا متواضع للخلق، بل هو متكبر على عباد الله، معجب بنفسه، فخور بقوله. ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا﴾؛ أي: معجباً بنفسه متكبراً على الخلق، ﴿فخوراً﴾؛ يشني على نفسه ويمدحها على وجه الفخر والبطر على عباد الله؛ فهؤلاء ما بهم من الاختيال والفخر يمنعونهم من القيام بالحقوق، ولهذا ذمهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾؛ أي: يمنعون ما عليهم من الحقوق الواجبة، ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾: بأقوالهم وأفعالهم، ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾؛ أي: من العلم الذي يهتدي به الضالون ويسترشد به الجاهلون، فيكتمونه عنهم، ويظهرون لهم من الباطل ما يحول بينهم وبين الحق، فجمعوا بين البخل بالمال والبخل بالعلم وبين السعي في خسارة أنفسهم وخسارة غيرهم، وهذه هي صفات الكافرين؛ فلماذا قال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾؛ أي: كما تكبروا على عباد الله، ومنعوا حقوقه، وتسببوا في منع غيرهم من البخل وعدم الاهتداء؛ أهانهم بالعذاب الأليم والخزي الدائم؛ فعياداً بك اللهم من كل سوء.

﴿٣٨﴾ ثم أخبر عن النفقة الصادرة عن رياء وسُمعة وعدم إيمان به، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾؛ أي: ليروهم ويمدحوهم ويعظموهم. ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؛ أي: ليس إنفاقهم صادراً عن إخلاص وإيمان بالله ورجاء ثوابه؛ أي: فهذا من خطوات الشيطان وأعماله، التي يدعو حزبه إليها ليكونوا من أصحاب السعير، وصدرت منهم بسبب مقارنته لهم وأزهم إليها؛ فلماذا قال: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾؛ أي: بشس المقارن والصاحب الذي يريد إهلاك من قارنه ويسعى فيه أشد السعي؛ فكما أن من بخل بما آتاه الله وكتم ما من به الله عليه عاصي آثم مخالف لربه؛ فكذلك من أنفق وتعبد لغير الله؛ فإنه آثم عاصي لربه مستوجب للعقوبة؛ لأن الله إنما أمر بطاعته وامثال أمره على وجه الإخلاص؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾؛ فهذا العمل المقبول الذي يستحق صاحبه المدح والثواب؛ فلماذا حث تعالى عليه بقوله:

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾. ﴿٣٩﴾

﴿٣٩﴾ أي: أي شيء عليهم وأي حرج ومشقة تلحقهم لو حصل منهم الإيمان بالله الذي هو الإخلاص وأنفقوا من أموالهم التي رزقهم الله وأنعم بها عليهم، فجمعوا بين الإخلاص والإنفاق، ولما كان الإخلاص سراً بين العبد وبين ربه لا

يُطَّلَع عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ؛ أَخْبَرَ تَعَالَى بِعِلْمِهِ بِجَمِيعِ الْأَحْوَالِ، فَقَالَ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٤٠)
فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢)﴾.

﴿٤٠﴾ يخبر تعالى عن كمال عدله وفضله وتنزهه عما يضاف ذلك من الظلم القليل والكثير، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾؛ أي: يَنْقُصُهَا مِنْ حَسَنَاتِ عَبْدِهِ أَوْ يَزِيدُهَا فِي سَيِّئَاتِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾. ﴿وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا﴾؛ أي: إلى عشرة أمثالها، إلى أكثر من ذلك، بحسب حالها ونفعها وحال صاحبها إخلاصاً ومحبةً وكمالاً. ﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ أي: زيادة على ثواب العمل بنفسه من التوفيق لأعمالٍ أُخَرَ وإعطاء البرِّ الكثير والخير الغزير.

﴿٤١﴾ ثم قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾؛ أي: كيف تكون تلك الأحوال؟ وكيف يكون ذلك الحكم العظيم الذي جَمَعَ أَنَّ مَنْ حَكَمَ بِهِ كَامِلُ الْعِلْمِ كَامِلُ الْعَدْلِ كَامِلُ الْحِكْمَةِ بِشَهَادَةِ أَزْكَى الْخَلْقِ وَهُمْ الرُّسُلُ عَلَى أُمَمِهِمْ مَعَ إِقْرَارِ الْمَحْكُومِ عَلَيْهِ؟ فَهَذَا وَاللَّهُ الْحَكَمُ الَّذِي هُوَ أَعْمُ الْأَحْكَامِ وَأَعْدَلُهَا وَأَعْظَمُهَا، وَهَنَّاكَ يَبْقَى الْمَحْكُومُ عَلَيْهِمْ مَقْرَرِينَ لَهُ. بِكَمَالِ الْفَضْلِ وَالْعَدْلِ وَالْحَمْدِ وَالثَنَاءِ، وَهَنَّاكَ يَسْعُدُ أَقْوَامٌ بِالْفُوزِ وَالْفَلَاحِ وَالْعِزِّ وَالنَّجَاحِ وَيَشْقَى أَقْوَامٌ بِالْخِزْيِ وَالْفُضِيحَةِ وَالْعَذَابِ الْمُهِينِ.

﴿٤٢﴾ ولهذا قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ﴾؛ أي: جمعوا بين الكفر بالله وبرسوله ومعصية الرسول، ﴿لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾؛ أي: تبتلعهم ويكونون تراباً وعدماً؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾. ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾؛ أي: بل يَقْرَءُونَ لَهُ بِمَا عَمِلُوا وَتَشْهَدُ عَلَيْهِمُ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، يَوْمَئِذٍ يُوقِيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمْ، جَزَاءً لَهُمُ الْحَقُّ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ. فَأَمَّا مَا وَرَدَ مِنْ أَنَّ الْكَافِرَ يَكْتُمُونَ كَفْرَهُمْ وَجُحُودَهُمْ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَكُونُ فِي بَعْضِ مَوَاضِعِ الْقِيَامَةِ حِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ جُحُودَهُمْ يَنْفَعُهُمْ (١) مِنْ

(١) في (ب): «مغتر عنهم».

عذابِ الله؛ فإذا عرفوا الحقائق وشهدت عليهم جوارحهم، حينئذ ينجلي الأمر، ولا يبقى للكتمان موضع ولا نفع ولا فائدة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْمَاءِ أَوْ لَمْ تَمْسُ الْإِنْسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿٤٣﴾ ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يقربوا الصلاة وهم سُكَارَى حتى يعلموا ما يقولون، وهذا شاملٌ لِقُرْبَانِ مواضع الصلاة؛ كالمسجد؛ فإنه لا يمكنُ السكرانُ من دخوله، وشاملٌ لنفس الصلاة؛ فإنه لا يجوز للسكران صلاة ولا عبادة لاختلاط عقله وعدم علمه بما يقول، ولهذا حدّد تعالى ذلك وغيّاه إلى وجود العلم بما يقول السكران.

وهذه الآية الكريمة منسوخةٌ بتحريم الخمر مطلقاً؛ فإنَّ الخمر في أول الأمر كان غير محرّم، ثم إنَّ الله تعالى عَرَضَ لعبادهِ بتحريمه بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا﴾، ثم إنَّه تعالى نهاهم عن الخمر عند حضور الصلاة كما في هذه الآية، ثم إنه تعالى حرّمه على الإطلاق في جميع الأوقات في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ الآية. ومع هذا؛ فإنه يشتدُّ تحريمه وقت حضور الصلاة؛ لتضمُّنه هذه المفسدة العظيمة بعدم حصول مقصود الصلاة الذي هو روحها ولبُّها، وهو الخشوع وحضور القلب؛ فإنَّ الخمر يُسَكِّرُ القلبَ، ويصدُّ عن ذِكْرِ الله وعن الصلاة.

ويؤخِّدُ من المعنى منعُ الدُّخُولِ في الصلاة في حال التُّعَاسِ المفرط الذي لا يشغُرُ صاحبه بما يقولُ ويفعل، بل لعلَّ فيه إشارة إلى أنه ينبغي لمن أراد الصلاة أن يقطع عنه كلَّ شاغلٍ يَشْغَلُ فكره؛ كمدافعة الأخبثين والثَّوْقِ لطعام ونحوه؛ كما ورد في ذلك الحديث الصحيح^(١).

ثم قال: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾؛ أي: لا تقربوا الصلاة حالة كون أحدكم

(١) أخرجه مسلم (٥٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

جُنْبًا إِلَّا فِي هَذِهِ الْحَالِ، وَهُوَ عَابِرُ السَّبِيلِ؛ أَي: تَمْرُونَ فِي الْمَسْجِدِ وَلَا تَمْكُثُونَ فِيهِ. ﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾؛ أَي: فَإِذَا اغْتَسَلْتُمْ؛ فَهُوَ غَايَةُ الْمَنْعِ مِنْ قِرْبَانِ الصَّلَاةِ لِلْجُنْبِ، فَيَحِلُّ لِلْجُنْبِ الْمَرُورُ فِي الْمَسْجِدِ فَقَطْ.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾: فَأَبَاحَ التَّيَمُّمَ لِلْمَرِيضِ مطلقاً مع وجود الماء وعدمه، وَالْعَلَّةُ الْمَرَضُ الَّذِي يَشْتَقُّ مَعَ اسْتِعْمَالِ الْمَاءِ، وَكَذَلِكَ السَّفَرُ؛ فَإِنَّهُ مَظَنَّةٌ فَقَدَ الْمَاءَ؛ فَإِذَا فَقَدَهُ الْمَسَافِرُ، أَوْ وَجَدَ مَا يَتَعَلَّقُ بِحَاجَتِهِ مِنْ شَرْبٍ وَنَحْوِهِ؛ جَازَ لَهُ التَّيَمُّمُ، وَكَذَلِكَ إِذَا أَحْدَثَ الْإِنْسَانُ بَبُولَ أَوْ غَائِطَ أَوْ مَلَامَسَةَ النِّسَاءِ؛ فَإِنَّهُ يُبَاحُ لَهُ التَّيَمُّمُ إِذَا لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ حَاضِراً وَسَفَرَاً؛ كَمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ عَمُومُ الْآيَةِ. وَالْحَاصِلُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَبَاحَ التَّيَمُّمَ فِي حَالَتَيْنِ: حَالِ عَدَمِ الْمَاءِ، وَهَذَا مطلقاً فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ. وَحَالِ الْمَشَقَّةِ بِاسْتِعْمَالِهِ بِمَرَضٍ وَنَحْوِهِ.

وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾: هَلِ الْمَرَادُ بِذَلِكَ الْجَمَاعُ؟ فَتَكُونُ الْآيَةُ نَصّاً فِي جَوَازِ التَّيَمُّمِ لِلْجُنْبِ كَمَا تَكَاثَرَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ^(١)، أَوْ الْمَرَادُ بِذَلِكَ مَجْرَدُ اللَّامَسِ بِالْيَدِ، وَيَقْيِدُ ذَلِكَ بِمَا إِذَا كَانَ مَظَنَّةُ خُرُوجِ الْمَذْيِ، وَهُوَ الْمَسُّ الَّذِي يَكُونُ لَشَهْوَةٍ، فَتَكُونُ الْآيَةُ دَالَّةً عَلَى نَقْضِ الْوَضوءِ بِذَلِكَ. وَاسْتَدَلَّ الْفُقَهَاءُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾: بِوُجُوبِ طَلَبِ الْمَاءِ عِنْدَ دُخُولِ الْوَقْتِ؛ قَالُوا: لِأَنَّهُ لَا يُقَالُ: لَمْ يَجِدْ لِمَنْ لَمْ يَطْلُبْ، بَلْ لَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا بَعْدَ الطَّلَبِ. وَاسْتَدَلَّ بِذَلِكَ أَيْضاً عَلَى أَنَّ الْمَاءَ الْمَتَغَيَّرَ بِشَيْءٍ مِنَ الطَّاهِرَاتِ يَجُوزُ - بَلْ يَتَعَيَّنُ - التَّطَهُّرُ بِهِ لِدُخُولِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾، وَهَذَا مَاءٌ. وَنُوزِعَ فِي ذَلِكَ بِأَنَّهُ مَاءٌ غَيْرُ مُطْلَقٍ، وَفِي ذَلِكَ نَظَرٌ.

وَفِي هَذِهِ [الْآيَةِ] الْكَرِيمَةِ: مَشْرُوعِيَّةُ هَذَا الْحُكْمِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَمَتَّنَ بِهِ اللَّهُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَهُوَ مَشْرُوعِيَّةُ التَّيَمُّمِ، وَقَدْ أَجْمَعَ عَلَى ذَلِكَ الْعُلَمَاءُ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

وَأَنَّ التَّيَمُّمَ يَكُونُ بِالصَّعِيدِ الطَّيِّبِ، وَهُوَ كُلُّ مَا تَصَاعَدُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، سِوَاهُ كَانَ لَهُ غَبَارٌ أَمْ لَا، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَخْتَصَّ ذَلِكَ بِذِي الْغَبَارِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ مِنْهُ، وَمَا لَا غَبَارَ لَهُ لَا يُمَسَّحُ بِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ مِنْهُ: هَذَا مُحَلُّ الْمَسْحِ فِي التَّيَمُّمِ: الْوَجْهَ جَمِيعَهُ وَالْيَدَيْنِ إِلَى

(١) كَمَا فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» (٣٣٨)، وَمُسْلِمٍ (٣٦٨).

الكوعين؛ كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة^(١)، ويستحب أن يكون ذلك بضرية واحدة؛ كما دل على ذلك حديث عمار^(٢)، وفيه أن تيمم الجنب كتيّم غيره بالوجه واليدين.

فائدة: اعلم أن قواعد الطب تدور على ثلاث قواعد: حفظ الصحة عن المؤذيات، والاستفراغ منها، والحمية عنها. وقد نبّه تعالى عليها في كتابه العزيز: أما حفظ الصحة والحمية عن المؤذي؛ فقد أمر بالأكل والشرب وعدم الإسراف في ذلك، وأباح للمسافر والمريض الفطر حفظاً لصحتهما باستعمال ما يضرّح البدن على وجه العدل، وحماية للمريض عما يضرّه. وأما استفراغ المؤذي؛ فقد أباح تعالى للمحرم المتأذي برأسه أن يحلّقه لإزالة الأبخرة المحتقنة فيه؛ ففيه تنبيه على استفراغ ما هو أولى منها من البول والغائط والقيء والمني والدم وغير ذلك. نبه على ذلك ابن القيم رحمه الله تعالى^(٣).

وفي الآية وجوب تعميم مسح الوجه واليدين، وأنه يجوز التيمم، ولو لم يضق الوقت، وأنه لا يخاطب بطلب الماء إلا بعد وجود سبب الوجوب. والله أعلم.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوَاً غَفُوراً﴾؛ أي: كثير العفو والمغفرة لعباده المؤمنين بتيسير ما أمرهم به وتسهيله غاية التسهيل بحيث لا يشق على العبد امتثاله فيخرج بذلك، ومن عفوّه ومغفرته أن رَحِمَ هذه الأمة بشرع طهارة الثراب بدل الماء عند تعذّر استعماله، ومن عفوّه ومغفرته أن فتح للمذنبين باب التوبة والإنابة ودعاهم إليه ووعدهم بمغفرة ذنوبهم، ومن عفوّه ومغفرته أن المؤمن لو أتاه بقرب الأرض خطايا ثم لقيّه لا يشرك به شيئاً؛ لأنّه بقرابها مغفرة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يَشَرُّونَ الصَّالَّةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضَلُّوا السَّبِيلَ ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً ۝٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيْئاً بِالنَّسَائِهِمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَأَنْظِرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً ۝٤٦﴾

(١) كما في «صحيح البخاري» (٣٤١)، و«مسلم» (٣٦٨).
 (٢) حديث عمار تقدم، وهو في «الصحيحين» انظر التخرّج السابق.
 (٣) انظر «زاد المعاد» (١٠٣/٤).

﴿٤٤﴾ هَذَا ذِمٌّ لِمَنْ ﴿أَوْتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ﴾، وَفِي ضَمْنِهِ تَحْذِيرُ عِبَادِهِ عَنِ الْاِغْتِرَارِ بِهِمْ وَالْوُقُوعِ فِي أَشْرَاكِهِمْ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾؛ أَي: يَحْبُونَهَا مَحَبَّةً عَظِيمَةً وَيُؤْثِرُونَهَا إِثَارَ مَنْ يَبْذُلُ الْمَالَ الْكَثِيرَ فِي طَلَبِ مَا يَحِبُّهُ، فَيُؤْثِرُونَ الضَّلَالَاتِ عَلَى الْهَدْيِ وَالْكَفْرِ عَلَى الْإِيمَانِ وَالشَّقَاءِ عَلَى السَّعَادَةِ، وَمَعَ هَذَا ﴿يُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾؛ فَهَمْ حَرِيصُونَ عَلَى إِضْلَالِكُمْ غَايَةَ الْحَرَصِ، بِإِذْلُونِ جَهْدِهِمْ فِي ذَلِكَ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ اللَّهُ وَلِيَّ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَنَاصِرِهِمْ؛ بَيَّنَّ لَهُمْ مَا اشْتَمَلُوا عَلَيْهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْإِضْلَالِ.

﴿٤٥﴾ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾؛ أَي: يَتَوَلَّى أَحْوَالَ عِبَادِهِ، وَيَلْطَفُ بِهِمْ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ، وَيَسِّرُ لَهُمْ مَا بِهِ سَعَادَتُهُمْ وَفَلَاحُهُمْ، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾: يَنْصُرُهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَيَبَيِّنُ لَهُمْ مَا يَحْذَرُونَ مِنْهُمْ، وَيَعِينُهُمْ عَلَيْهِمْ؛ فَوَلَايَتُهُ تَعَالَى فِيهَا حَصُولُ الْخَيْرِ، وَنَصْرُهُ فِيهِ زَوَالُ الشَّرِّ.

﴿٤٦﴾ ثُمَّ بَيَّنَّ كَيْفِيَّةَ ضَلَالِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَإِثَارَهُمُ الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ، فَقَالَ: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا﴾؛ أَي: الْيَهُودَ، وَهُمْ عُلَمَاءُ الضَّلَالِ مِنْهُمْ، ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾: إِمَّا بِتَغْيِيرِ اللَّفْظِ أَوْ الْمَعْنَى أَوْ هُمَا جَمِيعاً؛ فَمَنْ تَحْرِيفُهُمْ تَنْزِيلَ الصِّفَاتِ الَّتِي ذُكِّرَتْ فِي كِتَابِهِمْ الَّتِي لَا تَنْطَبِقُ وَلَا تَصْدُقُ إِلَّا عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ مَرَادٍ بِهَا وَلَا مَقْصُودٍ بِهَا، بَلْ أُريدَ بِهَا غَيْرُهُ، وَكُتِمَانُهُمْ ذَلِكَ؛ فَهَذَا حَالُهُمْ فِي الْعِلْمِ شَرِّ حَالٍ، قَلَبُوا فِيهِ الْحَقَائِقَ، وَنَزَّلُوا الْحَقَّ عَلَى الْبَاطِلِ، وَجَحَدُوا لِذَلِكَ الْحَقِّ. وَأَمَّا حَالُهُمْ فِي الْعَمَلِ وَالْإِنْقِيَادِ؛ فَإِنَّهُمْ ﴿يَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾؛ أَي: سَمِعْنَا قَوْلَكَ وَعَصَيْنَا أَمْرَكَ، وَهَذَا غَايَةُ الْكَفْرِ وَالْعِنَادِ وَالشُّرُودِ عَنِ الْإِنْقِيَادِ، وَكَذَلِكَ يَخَاطَبُونَ الرَّسُولَ ﷺ بِأَقْبَحِ خُطَابٍ وَأَبْعَدِهِ عَنِ الْأَدَبِ، فَيَقُولُونَ: ﴿اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾؛ قَصْدُهُمْ: اسْمَعْ مِنَّا غَيْرَ مُسْمَعٍ مَا تَحِبُّ بَلْ مُسْمَعٍ مَا تَكْرَهُ.

﴿وَرَاعِنَا﴾: [وَأَقْصَدُهُمْ بِذَلِكَ الرَّعُونَةَ بِالْعَيْبِ الْقَبِيحِ، وَيُظَنُّونَ أَنَّ اللَّفْظَ لَمَّا كَانَ مُحْتَمَلاً لِغَيْرِ مَا أَرَادُوا مِنَ الْأُمُورِ؛ أَنَّهُ يَرُوجُ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ، فَتَوَصَّلُوا بِذَلِكَ اللَّفْظِ الَّذِي يَلُوبُونَ بِهِ أَلَسْتُمْهُمْ إِلَى الطَّعْنِ فِي الدِّينِ وَالْعَيْبِ لِلرَّسُولِ، وَيَصْرَحُونَ بِذَلِكَ فِيمَا بَيْنَهُمْ؛ فَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَيْتَا بِأَلَسْتُمْهُمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ﴾. ثُمَّ أَرْشَدَهُمْ إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ﴾: وَذَلِكَ لَمَّا تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْكَلَامُ مِنْ حَسَنِ الْخُطَابِ وَالْأَدَبِ اللَّائِقِ فِي مَخَاطَبَةِ الرَّسُولِ وَالدُّخُولِ تَحْتَ طَاعَةِ اللَّهِ وَالْإِنْقِيَادِ لِأَمْرِهِ وَحُسْنِ التَّلَطُّفِ فِي

طلبهم العلم بسماع سؤالهم والاعتناء بأمرهم؛ فهذا هو الذي ينبغي لهم سلوكه، ولكن لما كانت طبائعهم غير زكية؛ أعرضوا عن ذلك وطردتهم الله بكفرهم وعنادهم، ولهذا قال: ﴿ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَلْكَتَبَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَهْلَ بَيْتِ لُقَيْطٍ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ۖ﴾ (٤٧).

﴿٤٧﴾ يأمر تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى أن يؤمنوا بالرسول محمد ﷺ وما أنزل الله عليه من القرآن العظيم المهيمن على غيره من الكتب السابقة الذي صدقها؛ فإنها أخبرت به، فلما وقع المُخْبِرُ به؛ كان تصديقاً لذلك الخبر. وأيضاً؛ فإنهم إن لم يؤمنوا بهذا القرآن؛ فإنهم لم يؤمنوا بما في أيديهم من الكتب؛ لأنَّ كتب الله يصدق بعضها بعضاً، ويوافق بعضها بعضاً؛ فدعوى الإيمان ببعضها دون بعضٍ دعوى باطلة، لا يمكن صدقها.

وفي قوله: ﴿آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾: حثُّ لهم، وأنهم ينبغي أن يكونوا قبل غيرهم مبادرين إليه بسبب ما أنعم الله عليهم به من العلم والكتاب الذي يوجب أن يكون ما عليهم أعظم من غيرهم، ولهذا توعدهم على عدم الإيمان، فقال: ﴿من قبل أن نطمس وجوهاً فنردّها على أدبارها﴾: وهذا جزاء من جنس ما عملوا؛ كما تركوا الحق وآثروا الباطل وقلبوا الحقائق فجعلوا الباطل حقاً والحق باطلاً، جُوزوا من جنس ذلك بطمس وجوههم كما طمسوا الحق، وردّها على أدبارها بأن تُجعل في أفئدتهم، وهذا أشنع ما يكون. ﴿أو نلعنهم كما لعنّا أصحاب السبب﴾: بأن يطردهم من رحمته ويعاقبهم بجعلهم قردة؛ كما فعل بإخوانهم الذين اعتدوا في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين. ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾. كقوله: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ۖ﴾ (٤٨).

﴿٤٨﴾ يخبر تعالى أنه لا يغفر لمن أشرك به أحداً من المخلوقين ويغفر ما دون ذلك^(١) من الذنوب صغائرها وكبائرها، وذلك عند مشيئته مغفرة ذلك إذا اقتضت

(١) في (ب): «الشرك».

حكمتُه مغفرته؛ فالذنوب التي دون الشرك قد جعل الله لمغفرتها أسباباً كثيرة؛ كالحسنات الماحية والمصائب المكفرة في الدنيا والبرزخ ويوم القيامة، وكدعاء المؤمنين بعضهم لبعض، وبشفاعة الشافعين، ومن [فوق] ^(١) ذلك كله رحمته التي أحق بها أهل الإيمان والتوحيد، وهذا بخلاف الشرك؛ فإنَّ المشرك قد سدَّ على نفسه أبواب المغفرة، وأغلق دونه أبواب الرحمة؛ فلا تنفعه الطاعات من دون التوحيد، ولا تفيده المصائب شيئاً، ﴿وما لهم يوم القيامة من شافعين ولا صديق حميم﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾؛ أي: افترى جرماً كبيراً، وأيّ ظلم أعظم ممَّن سَوَّى المخلوق من تراب، الناقص من جميع الوجوه، الفقير بذاته من كل وجه، الذي لا يملك لنفسه فضلاً عمَّن عبده نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً؛ بالخالق لكل شيء، الكامل من جميع الوجوه، الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، الذي بيده النفع والضُّر والعطاء والمنع، الذي ما من نعمة بالمخلوقين إلا فمنه تعالى؛ فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟! ولهذا حتم على صاحبه بالخلود بالعذاب وحرمان الثواب: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾.

وهذه الآية الكريمة في حق غير التائب، وأما التائب؛ فإنه يُغْفَرُ له الشرك فما دونه؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَّحْمَةِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾؛ أي: لمن تاب إليه وأتاب.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنفُسَهُمْ بِاللّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا ۖ﴾ (٤٩) أَنْظَرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾.

﴿٤٩﴾ هذا تعجب من الله لعباده وتوبيخ للذين يزكون أنفسهم من اليهود والنصارى ومن نحا نحوهم من كل من زكى نفسه بأمر ليس فيه، وذلك أن اليهود والنصارى يقولون: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾، ويقولون: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾. وهذا مجرد دعوى لا برهان عليها، وإنما البرهان ما أخبر به في القرآن في قوله: ﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾، فهؤلاء هم الذين زكاهم الله، ولهذا قال هنا: ﴿بل الله يزكي من يشاء﴾؛ أي: بالإيمان والعمل الصالح، بالتخلي عن الأخلاق

الرذيلة والتحلي بالصفات الجميلة، وأما هؤلاء؛ فهم وإن زكوا أنفسهم بزعمهم أنهم على شيء وأن الثواب لهم وحدهم؛ فإنهم كذبة في ذلك، ليس لهم من خصال الزاكين نصيب بسبب ظلمهم وكفرهم لا يظلم من الله لهم، ولهذا قال: ﴿ولا يظلمون فتيلًا﴾، وهذا لتحقيق العموم؛ أي: لا يظلمون شيئاً، ولا مقدار الفتيل الذي في شق الثوة أو الذي يُقتل من وسخ اليد وغيرها.

﴿٥٠﴾ قال تعالى: ﴿انظر كيف يفترون على الله الكذب﴾؛ أي: بتزكيتهم أنفسهم؛ لأن هذا من أعظم الافتراء على الله؛ لأن مضمون تزكيتهم لأنفسهم الإخبار بأن الله جعل ما هم عليه حقاً وما عليه المؤمنون المسلمون باطلاً، وهذا أعظم الكذب وقلب الحقائق بجعل الحق باطلاً والباطل حقاً، ولهذا قال: ﴿وكفى به إثماً مبيناً﴾؛ أي: ظاهراً بيناً موجباً للعقوبة البليغة والعذاب الأليم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّلُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ۖ﴾ ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن نَّجِدَ لَهُ نَصِيرًا ۖ﴾ ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ۖ﴾ ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۖ﴾ ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكُفِيَ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۖ﴾ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَرِيفًا حَكِيمًا ۖ﴾ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ۖ﴾ ﴿٥٧﴾

﴿٥١﴾ وهذا من قبائح اليهود وحسدٍهم للنبي ﷺ والمؤمنين؛ أن أخلاقهم الرذيلة وطبعهم الخبيث حملهم على ترك الإيمان بالله ورسوله والتعويض عنه بالإيمان بالجبت والطاغوت، وهو الإيمان بكل عبادة لغير الله أو حكم بغير شرع الله، فدخل في ذلك السحر والكهانة وعبادة غير الله وطاعة الشيطان، كل هذا من الجبت والطاغوت، وكذلك حملهم الكفر والحسد على أن فضلوا طريقة الكافرين بالله عبدة الأصنام على طريق المؤمنين، فقال: ﴿ويقولون للذين كفروا﴾؛ أي: لأجلهم تملقاً لهم ومداينة وبغضاً للإيمان: ﴿هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾؛ أي: طريقاً؛ فما أستمجهم وأشد عنادهم وأقل عقولهم! كيف سلخوا هذا

المسلك الوخيم والوادي الدميم؟! هل ظنوا أنَّ هذا يروج على أحدٍ من العقلاء أو يدخل عقل أحدٍ من الجهلاء؟! فهل يُفْضَلُ دينٌ قام على عبادة الأصنام والأوثان، واستقام على تحريم الطيبات وإباحة الخبائث وإحلال كثيرٍ من المحرّمات، وإقامة الظلم بين الخلق وتسوية الخالق بالمخلوقين، والكفر بالله ورسله وكتبه على دينٍ قام على عبادة الرحمن، والإخلاص لله في السرّ والإعلان والكفر بما يُعْبَدُ من دونه من الأوثان والأنداد والكاذبين، وعلى صلة الأرحام والإحسان إلى جميع الخلق حتى البهائم، وإقامة العدل والقسط بين الناس وتحريم كلّ خبيث وظلم ومصدق في جميع الأقوال والأعمال؟! فهل هذا إلّا من الهذيان؟! وصاحب هذا القول إما من أجهل الناس وأضعفهم عقلاً، وإما من أعظمهم عناداً وتمرداً ومراغمة للحق، وهذا هو الواقع.

﴿٥٢﴾ ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿أولئك الذين لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: طَرَدَهُم عن رحمته وأحلّ عليهم نقمته. ﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فْلَن تَجَدَّ لَهُ نَصِيرًا﴾؛ أي: يتولاه ويقوم بمصالحه ويحفظه عن المكاريه، وهذا غاية الخذلان.

﴿٥٣﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمَلِكِ﴾؛ أي: فيفْضَلون من شاؤوا على من شاؤوا بمجرد أهوائهم، فيكونون شركاء لله في تدبير المملكة؛ فلو كانوا كذلك؛ لشحوا وبخلوا أشدّ البخل. ولهذا قال: ﴿فَإِذَا﴾؛ أي: لو كان لهم نصيب من الملك ﴿لَا يَأْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾؛ أي: شيئاً ولا قليلاً. وهذا وصفٌ لهم بشدّة البخل على تقدير وجود ملكهم المشارك لملك الله، وأُخْرِجَ هذا مخرج الاستفهام المتقرّر إنكاره عند كلّ أحدٍ.

﴿٥٤﴾ ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾؛ أي: هل الحامل لهم على قولهم كونهم شركاء لله فيفْضَلون من شاؤوا؟ أم الحامل لهم على ذلك الحسد للرسول وللمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله؟ وذلك ليس ببدع ولا غريب على فضل الله؛ ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مَلَكًا عَظِيمًا﴾، وذلك ما أنعم الله به على إبراهيم وذريّته من النبوة والكتاب والملك الذي أعطاه من أعطاه من أنبيائه؛ كداود وسليمان؛ فإنعامه لم يزل مُسْتَمِرّاً على عباده المؤمنين؛ فكيف ينكروا إنعامه بالنبوة والنصر والملك لمحمد ﷺ أفضل الخلق وأجلهم وأعظمهم معرفةً بالله وأخشاهم له؟!

﴿٥٥﴾ ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾؛ أي: بمحمد ﷺ فنال بذلك السعادة الدنيويّة

والفلاح الآخروي، ﴿ومنهم من صدَّ عنه﴾؛ عناداً وبغياً وحسدًا، فحصل لهم من شقاء الدنيا ومصائبها ما هو بعض آثار معاصيهم، ﴿وكفى بجهنم سعيراً﴾: تُسَعَّرُ على مَنْ كَفَرَ بالله، وَجَحَدَ نبوة أنبيائه من اليهود والنصارى وغيرهم من أصناف الكفرة.

﴿٥٦﴾ ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾؛ أي: عظيمة الوقود شديدة الحرارة، ﴿كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾؛ أي: احترقت، ﴿بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾؛ أي: ليلبغ العذاب منهم كل مبلغ، وكما تكرر منهم الكفر والعناد؛ وصار وصفاً لهم وسجيّة؛ كرّر عليهم العذاب جزاء وفاقاً، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾؛ أي: له العزة العظيمة والحكمة في خلقه وأمره وثوابه وعقابه.

﴿٥٧﴾ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ أي: بالله وما أوجب الإيمان به، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: من الواجبات والمستحبات، ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾؛ أي: من الأخلاق الرذيلة والخلق الذميمة ومما يكون من نساء الدنيا من كل دَنَسٍ وعيب، ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾
 ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْظُمُكُمْ بِهِ﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾.

﴿٥٨﴾ الأمانات كل ما أوثمن عليه الإنسان وأمر بالقيام به، فأمر الله عباده بأدائها؛ أي: كاملة موقرة لا منقوصة ولا مبخوسة ولا ممطولا بها، ويدخل في ذلك أمانات الولايات والأموال والأسرار والمأمورات التي لا يطلع عليها إلا الله. وقد ذكر الفقهاء على أن من أوثمن أمانة؛ وجب عليه حفظها في جزز مثلها؛ قالوا: لأنه لا يمكن أداؤها إلا بحفظها، فوجب ذلك. وفي قوله: ﴿إلى أهلها﴾: دلالة على أنها لا تدفع وتؤدي لغير المؤتمن، ووكيله بمزنته؛ فلو دفعها لغير ربها؛ لم يكن مؤدياً لها.

﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾: وهذا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأموال والأعراض؛ القليل من ذلك والكثير، على القريب والبعيد والبر

والفاجر والوليّ والعدوّ. والمراد بالعدل الذي أمر الله بالحكم به هو ما شرّعه الله على لسان رسوله من الحدود والأحكام، وهذا يستلزم معرفة العدل ليحكم به، ولما كانت هذه أوامر حسنة عادلة؛ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعِظُكُمْ بِهِ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾: وهذا مدح من الله لأوامره ونواهيه؛ لاشتمالها على مصالح الدارين ودفع مضارهما؛ لأنّ شارعها السميع البصير الذي لا تخفى عليه خافية ويعلم من مصالح العباد ما لا يعلمون.

﴿٥٩﴾ ثم أمر بطاعته وطاعة رسوله، وذلك بامثال أمرهما الواجب والمستحب واجتناب نهيهما، وأمر بطاعة أولي الأمر، وهم الولاة على الناس من الأمراء والحكّام والمفتين؛ فإنّه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلّا بطاعتهم والانقياد لهم. طاعة لله ورغبة فيما عنده، ولكن بشرط أن لا يأمرُوا بمعصية الله؛ فإنّ أمرُوا بذلك؛ فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. ولعل هذا هو السرّ في حذف الفعل عند الأمر بطاعتهم وذكره مع طاعة الرسول؛ فإنّ الرسول لا يأمر إلّا بطاعة الله، ومن يطعه؛ فقد أطاع الله، وأما أولو الأمر؛ فشرط الأمر بطاعتهم أن لا يكون معصية.

ثم أمر برّد كلّ ما تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه إلى الله وإلى الرسول^(١)؛ أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله؛ فإنّ فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافية: إمّا بصريحهما أو عمومهما أو إيماء أو تنبيه أو مفهوم أو عموم معنى يقاس عليه ما أشبهه؛ لأنّ كتاب الله وسنة رسوله عليهما بناء الدين، ولا يستقيم الإيمان إلّا بهما؛ فالرّد إليهما شرط في الإيمان؛ فلهذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: فدلّ ذلك على أنّ من لم يرّد إليهما مسائل النزاع؛ فليس بمؤمن حقيقة، بل مؤمن بالطاغوت؛ كما ذكر في الآية بعدها. ﴿ذلك﴾؛ أي: الرّد إلى الله ورسوله، ﴿خيرٌ وأحسنُ تأويلاً﴾؛ فإنّ حكم الله ورسوله أحسن الأحكام وأعدلها وأصلحها للناس في أمر دينهم ودنياهم وعاقبتهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَكَلًا بَعِيدًا﴾^(٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَقَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ

(١) في (ب): «رسوله».

صُدُّوْا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابْتَهُمْ مُصِيبَةٌ يَمَّا قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ .

﴿٦٠ - ٦١﴾ يُعَجِّبُ تَعَالَى عِبَادَهُ مِنْ حَالَةِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَبِمَا قَبْلَهُ، وَمَعَ هَذَا «يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ»، وَهُوَ كُلُّ مَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ شَرَعِ اللَّهِ؛ فَهُوَ طَاغُوتٌ، وَالْحَالُ أَنَّهُمْ «قَدْ أَمَرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ»؛ فَكَيْفَ يَجْتَمِعُ هَذَا وَالْإِيمَانُ؟ فَإِنَّ الْإِيمَانَ يَقْتَضِي الْإِنْقِيَادَ لَشَرَعِ اللَّهِ وَتَحْكِيمِهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ؛ فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ وَاخْتَارَ حُكْمَ الطَّاغُوتِ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ؛ فَهُوَ كَاذِبٌ فِي ذَلِكَ، وَهَذَا مِنْ إِضْلَالِ الشَّيْطَانِ إِيَّاهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: «وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا» عَنْ الْحَقِّ.

﴿٦٢﴾ «فَكَيْفَ» يَكُونُ حَالُ هَؤُلَاءِ الضَّالِّينَ «إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيَهُمْ» مِنَ الْمَعَاصِي، وَمِنْهَا تَحْكِيمُ الطَّاغُوتِ، «ثُمَّ جَاءُوكَ» مُتَعَذِّرِينَ لِمَا صَدَرَ مِنْهُمْ، وَيَقُولُونَ: «إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا»؛ أَي: مَا قَصَدْنَا فِي ذَلِكَ إِلَّا الْإِحْسَانَ إِلَى الْمُتَخَاصِمِينَ وَالتَّوْفِيقَ بَيْنَهُمْ، وَهُمْ كَذِبَةٌ فِي ذَلِكَ؛ فَإِنَّ الْإِحْسَانَ كُلَّ الْإِحْسَانِ تَحْكِيمُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ.

﴿٦٣﴾ وَلِهَذَا قَالَ: «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ»؛ أَي: مِنَ النِّفَاقِ وَالْقَصْدِ السَّيِّئِ؛ «فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ»؛ أَي: لَا تُبَالِ بِهِمْ وَلَا تَقَابِلْهُمْ عَلَى مَا فَعَلُوهُ وَاقْتَرَفُوهُ، «وَعِظْهُمْ»؛ أَي: بَيِّنْ لَهُمْ حُكْمَ اللَّهِ تَعَالَى مَعَ التَّرْغِيبِ فِي الْإِنْقِيَادِ لِلَّهِ وَالتَّرْهيبِ مِنْ تَرْكِهِ، «وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا»؛ أَي: انصَحْهُمْ سِرًّا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ؛ فَإِنَّهُ أَنْجَحَ لِحَصُولِ الْمَقْصُودِ، وَبَالِغٌ فِي زَجْرِهِمْ وَقَنَعِهِمْ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ. وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنْ مَقْتَرَفَ الْمَعَاصِي وَإِنْ أَعْرِضَ عَنْهُ؛ فَإِنَّهُ يُنْصَحُ سِرًّا وَيُبَالِغُ فِي وَعْظِهِ بِمَا يَظُنُّ حَصُولَ الْمَقْصُودِ بِهِ.

«وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ﴿٦٥﴾» .

﴿٦٤﴾ يخبر تعالى خبراً في ضمنه الأمر والحث على طاعة الرسول والانقياد له، وأن الغاية من إرسال الرسل أن يكونوا مطاعين ينقاد لهم المرسل إليهم في جميع ما أمروا به ونهوا عنه، وأن يكونوا معظمين تعظيم المطاع للمطيع^(١)، وفي هذا إثبات عصمة الرسل فيما يبلغونه عن الله وفيما يأمرون به وينهون عنه؛ لأن الله أمر بطاعتهم مطلقاً؛ فلولاً أنهم معصومون لا يشرعون ما هو خطأ؛ لما أمر بذلك مطلقاً. وقوله: ﴿ياذن الله﴾؛ أي: الطاعة من المطيع صادرة بقضاء الله وقدره؛ فيه إثبات القضاء والقدر، والحث على الاستعانة بالله، وبيان أنه لا يمكن الإنسان أن لم يُعنه الله أن يطيع الرسول.

ثم أخبر عن كرمه العظيم وجوده ودعوته لمن اقترب السيئات أن يعترفوا ويتوبوا ويستغفروا الله، فقال: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك﴾؛ أي: معترفين بذنوبهم باخعين بها. ﴿فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾؛ أي: لتاب عليهم بمغفرته ظلّمهم ورجّمهم بقبول التوبة والتوفيق لها والثواب عليها. وهذا المجيء إلى الرسول ﷺ مختص بحياته؛ لأن السياق يدل على ذلك؛ لكون الاستغفار من الرسول لا يكون إلا في حياته، وأما بعد موته؛ فإنه لا يطلب منه شيء، بل ذلك شرك.

﴿٦٥﴾ ثم أقسم تعالى بنفسه الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله فيما شجر بينهم؛ أي: في كل شيء يحصل فيه اختلاف؛ بخلاف مسائل الإجماع؛ فإنه لا تكون إلا مستندة للكتاب والسنة، ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى ينتفي الحرج من قلوبهم والضيّق. وكونهم يحكمونه على وجه الإغماض، ثم لا يكفي هذا^(٢) التحكيم حتى يسلموا لحكمه تسليماً بانسراح صدر وطمأنينة نفس وانقياد بالظاهر والباطن؛ فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان؛ فمن استكمل هذه المراتب وكلّمها؛ فقد استكمل مراتب الدين كلّها، فمن ترك هذا التحكيم المذكور غير ملتزم له؛ فهو كافر، ومن تركه مع التزامه؛ فله حكم أمثاله من العصاة.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَلِيئًا ۖ وَإِذَا لَاتَيْنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۖ وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۖ﴾

(٢) في (ب): «ذلك».

(١) كذا في النسخين.

﴿٦٦﴾ يخبر تعالى أنه لو كَتَبَ على عباده الأوامر الشاقّة على النفوس من قتل النفوس والخروج من الديار؛ لم يفعله إلا القليل منهم والنادر؛ فَلْيَحْمَدُوا رَبَّهُمْ وَلْيَشْكُرُوهُ على تيسير ما أمَرهم به من الأوامر التي تَسْهُلُ على كُلِّ أَحَدٍ ولا يشقُّ فعلها، وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي أن يَلْحَظَ العبدُ ضدَّ ما هو فيه من المكروهات؛ لتخفَّ عليه العبادات، ويزدادَ حمداً وشكراً لربه.

ثم أخبر أنهم لو ﴿فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾؛ أي: ما وُظِفَ عليهم في كلِّ وقتٍ بحسبه، فبذلوا همهم، ووقروا نفوسهم للقيام به وتكميله، ولم تطمح نفوسهم لما لم يَصِلُوا إليه، ولم يكونوا بصدده، وهذا هو الذي ينبغي للعبد أن ينظر إلى الحالة التي يلزمه القيام بها، فيكملها، ثم يتدرّج شيئاً فشيئاً، حتى يصل إلى ما قُدِّرَ له من العلم والعمل في أمر الدين والدنيا، وهذا بخلاف من طمحت نفسه إلى أمر لم يصل إليه ولم يؤمّر به بعد؛ فإنه لا يكاد يصل إلى ذلك بسبب تفريق المهمة وحصول الكسل وعدم النشاط؛ ثم رتب ما يحصل لهم على فعل ما يوعظون به، وهو أربعة أمور:

أحدها: الخيريّة في قوله: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾؛ أي: لكانوا من الأخيار المتّصّفين بأوصافهم من أفعال الخير التي أمروا بها؛ أي: وانتفى عنهم بذلك صفة الأشرار؛ لأنّ ثبوت الشيء يستلزم نفي ضده.

الثاني: حصول التثبيت والثبات وزيادته؛ فإنّ الله يثبت الذين آمنوا بسبب ما قاموا به من الإيمان الذي هو القيام بما وُعِظُوا به، فيثبتهم في الحياة الدُّنيا عند ورود الفتن في الأوامر والنواهي والمصائب، فيحصل لهم ثباتٌ يوفّقون لفعل الأوامر وترك الزواجر التي تقتضي النفس فعلها وعند حلول المصائب التي يكرهها العبد، فيوفّق للتثبيت بالتوفيق للصبر أو للرّضا أو للشكر، فينزل عليه معونة من الله للقيام بذلك، ويحصل لهم الثبات على الدين عند الموت وفي القبر. وأيضاً؛ فإن العبد القائم بما أمر به لا يزال يتمرّن على الأوامر الشرعية حتى يألفها ويشتاق إليها وإلى أمثالها فيكون ذلك معونة له على الثبات على الطاعات.

﴿٦٧﴾ الثالث: قوله: ﴿وَإِذَا لَا تَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ أي: في العاجل والآجل، الذي يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المقيم ممّا لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

﴿٦٨﴾ الرابع: الهداية إلى صراطٍ مستقيم، وهذا عمومٌ بعد خصوص؛ لشرف

الهداية إلى الصراط المستقيم، من كونها متضمنة للعلم بالحق ومحبة وإثاره والعمل به وتوقف السعادة والفلاح على ذلك؛ فمن هُدي إلى صراط مستقيم؛ فقد وفق لكل خير، واندفع عنه كل شر وضير.

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

﴿٦٩﴾ أي: كل من أطاع الله ورسوله على حسب حاله وقدر الواجب عليه من ذكر وأنثى وصغير وكبير؛ ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾؛ أي: النعمة العظيمة التي تقتضي الكمال والفلاح والسعادة، ﴿من النبيين﴾: الذين فضلهم الله بوحيه واختصهم بتفضيلهم بإرسالهم إلى الخلق ودعوتهم إلى الله تعالى. ﴿والصديقين﴾: وهم الذين كمل تصديقهم بما جاءت به الرسل، فعلموا الحق وصدقوه بيقينهم وبالقيام به قولاً وعملاً وحالاً ودعوة إلى الله. ﴿والشهداء﴾: الذين قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، فقتلوا. ﴿والصالحين﴾: الذين صلح ظاهرهم وباطنهم، فصلحت أعمالهم؛ فكل من أطاع الله تعالى كان مع هؤلاء وفي صحبتهم. ﴿وحسن أولئك رفيقاً﴾: بالاجتماع بهم في جنات النعيم والأنس بقريرهم في جوار رب العالمين.

﴿٧٠﴾ ﴿ذلك الفضل﴾: الذي نالوه ﴿من الله﴾: فهو الذي وفقهم لذلك وأعانهم عليه، وأعطاهم من الثواب ما لا تبلغه أعمالهم. ﴿وكفى بالله عليمًا﴾: يعلم أحوال عباده ومن يستحق منهم الثواب الجزيل بما قام به من الأعمال الصالحة التي تواطأ عليها القلب والجوارح.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ بَعَادٍ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ لَسَ لَاطِفَةٌ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَوْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَاهِدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ قَضَلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ فَلْيَقْتَلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقْتَلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾.

﴿٧١﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بأخذ حذرهم من أعدائهم الكافرين، وهذا يشمل الأخذ بجميع الأسباب التي بها يستعان على قتالهم ويستدفع مكرهم وقوتهم؛

من استعمال الحصون والخنادق، وتعلّم الرمي والركوب، وتعلّم الصناعات التي تُعين على ذلك، وما به يُعرف مداخلهم ومخارجهم ومكرهم، والنفير في سبيل الله، ولهذا قال: ﴿فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ﴾؛ أي: متفرقين؛ بأن تنفر سرية أو جيش وقيم غيرهم، ﴿أو انفروا جميعاً﴾، وكلّ هذا تبع للمصلحة والثّكّاية والراحة للمسلمين في دينهم. وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾.

﴿٧٢﴾ ثم أخبر عن ضعفاء الإيمان المتكاسلين عن الجهاد فقال: ﴿وَأِنْ مِنْكُمْ﴾؛ أي: أيها المؤمنون، ﴿لِمَنْ لَيَبْطِئَنَّ﴾؛ أي: يتثاقل عن الجهاد في سبيل الله ضعفاً وخوراً وجُبناً. هذا الصحيح، وقيل: معناه لَيَبْطِئَنَّ غَيْرُهُ؛ أي: يزهد عن القتال، وهؤلاء هم المنافقون، ولكنّ الأول أولى لوجهين: أحدهما: قوله: ﴿منكم﴾، والخطاب للمؤمنين.

والثاني: قوله في آخر الآية: ﴿كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾؛ فإنّ الكفار من المشركين والمنافقين قد قَطَعَ الله بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ المَوَدَّةَ.

وأيضاً؛ فإنّ هذا هو الواقع؛ فإنّ المؤمنين على قسمين: صادقون في إيمانهم أَوْجَبَ لَهُمْ ذَلِكَ كَمَالَ التَّصَدِيقِ وَالْجِهَادِ. وضعفاء دخلوا في الإسلام فصار معهم إيمانٌ ضعيفٌ لا يقوى على الجهاد؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا...﴾ إلى آخر الآيات.

ثم ذكّر غايات هؤلاء المتثاقلين ونهاية مقاصدهم، وأنّ معظم قصدهم الدنيا وحطامها، فقال: ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾؛ أي: هزيمة وقتل وظفر الأعداء عليكم في بعض الأحوال لِمَا لِلَّهِ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحُكْمِ، ﴿قَالَ﴾ ذلك المتخلف: ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً﴾: رأى من ضعف عقله وإيمانه أنّ التقاعّد عن الجهاد الذي فيه تلك المصيبة نعمة، ولم يدرك أنّ النعمة الحقيقية هي التوفيق لهذه الطاعة الكبيرة التي بها يقوى الإيمان ويسلم بها العبد من العقوبة والخسران، ويحصل له فيها عظيم الثواب ورضا الكريم الوهاب، وأما القعود؛ فإنه وإن استراح قليلاً؛ فإنه يغفبه تعبٌ طويلٌ وآلامٌ عظيمةٌ، ويفوته ما يحصل للمجاهدين.

﴿٧٣﴾ ثم قال: ﴿وَلَنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ﴾؛ أي: نصرٌ وغنيمةٌ، ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ كأن لم تكن بينكم وبينه مودةٌ يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً؛ أي: يتمنى أنه حاضرٌ لينال من المغنم، ليس له رغبة ولا قصدٌ في غير ذلك، كأنه ليس منكم

يا معشر المؤمنين، ولا بينكم وبينه المودة الإيمانية الذي^(١) من مقتضاها أن المؤمنين مشتركون في جميع مصالحهم ودفع مضارهم، يفرحون بحصولها ولو على يد غيره من إخوانه^(٢) المؤمنين ويألمون بفقدائها ويسعون جميعاً في كل أمر يضلحون به دينهم ودنياهم، فهذا الذي يتمنى الدنيا فقط ليست معه الروح الإيمانية المذكورة.

﴿٧٤﴾ ومن لطف الله بعباده أن لا يقطع عنهم رحمته، ولا يغلّق عنهم أبوابها، بل من حصل على^(٣) غير ما يليق؛ أمره ودعاه إلى جبر نقصه وتكميل نفسه، فلهذا أمر هؤلاء بالإخلاص والخروج في سبيله، فقال: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾؛ هذا أحد الأقوال في هذه الآية وهو أصحها، وقيل إن معناه فليقاتل في سبيل الله المؤمنون الكاملو الإيمان الصادقون في إيمانهم ﴿الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾؛ أي: يبيعون الدنيا رغبة عنها بالآخرة رغبة فيها؛ فإن هؤلاء [هم] الذين يوجه إليهم الخطاب؛ لأنهم الذين قد أعدوا أنفسهم ووطنوها على جهاد الأعداء؛ لما معهم من الإيمان التام المقتضي لذلك، وأما أولئك المتثاقلون؛ فلا يُعبأ بهم خرجوا أو قعدوا، فيكون هذا نظير قوله تعالى: ﴿قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا...﴾ إلى آخر الآيات، وقوله: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾.

وقيل: إن معنى الآية: فليقاتل المقاتل والمجاهد للكفار الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، فيكون على هذا الوجه. ﴿الذين﴾ في محل نصب على المفعولية، ﴿وَمَنْ يِقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: بأن يكون جهاداً قد أمر الله به ورسوله، ويكون العبد مخلصاً لله فيه قاصداً وجه الله، ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾: زيادة في إيمانه ودينه وغنيمة وثناء حسناً وثواب المجاهدين في سبيل الله الذين أعد الله لهم في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا

(١) كذا في النسختين، وفي (أ) عدلت إلى «التي» بخط مغاير.

(٢) كذا في النسختين، وفي (أ) عدلت إلى «غيرهم من إخوانهم» بخط مغاير.

(٣) في (ب): «منه».

أَخْرَجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ .

﴿٧٥﴾ هَذَا حَتْ مِنْ اللَّهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَهْيِيجٌ لَهُمْ عَلَى الْقِتَالِ فِي سَبِيلِهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ قَدْ تَعَيَّنَ عَلَيْهِمْ وَتَوَجَّهَ اللُّومُ الْعَظِيمُ عَلَيْهِمْ بِتَرْكِهِ، فَقَالَ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ وَالْحَالُ أَنَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا، وَمَعَ هَذَا فَقَدْ نَالَهُمْ أَعْظَمُ الظُّلْمِ مِنْ أَعْدَائِهِمْ؛ فَهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ أَنْ يَخْرِجَهُمْ مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا لِأَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ وَالشَّرِكِ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِالْأَذَى وَالصَّدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْعِهِمْ مِنَ الدَّعْوَةِ لِدِينِهِمْ وَالْهَجْرَةَ، وَيَدْعُونَ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ وَلِيًّا وَنَصِيرًا يَسْتَنْقِذُهُمْ مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا، فَصَارَ جِهَادُكُمْ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ مِنْ بَابِ الْقِتَالِ وَالذَّبِّ عَنْ عِيْلَاتِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ وَمَحَارِمِكُمْ؛ لِأَنَّ بَابَ الْجِهَادِ الَّذِي هُوَ الطَّمْعُ فِي الْكَفَارِ؛ فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ فَضْلٌ عَظِيمٌ وَيُلَاقُ الْمُتَخَلِّفُ عَنْهُ أَعْظَمَ اللُّومَ^(١)؛ فَالْجِهَادُ الَّذِي فِيهِ اسْتِنْقَاذُ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْكُمْ أَعْظَمُ أَجْرًا وَأَكْبَرُ فَائِدَةً بَحِثْ يَكُونُ مِنْ بَابِ دَفْعِ الْأَعْدَاءِ.

ثم قال:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ ﴿٧٦﴾ .

﴿٧٦﴾ هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ الَّذِي هُوَ الشَّيْطَانُ. فِي ضَمَنِ ذَلِكَ عِدَّةُ فَوَائِدَ:

منها: أَنَّهُ بِحَسَبِ إِيْمَانِ الْعَبْدِ يَكُونُ جِهَادُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَإِخْلَاصُهُ وَمَتَابَعَتُهُ، فَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ آثَارِ الْإِيْمَانِ وَمَقْتَضِيَاتِهِ وَلَوْازِمِهِ؛ كَمَا أَنَّ الْقِتَالَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ مِنْ شُعَبِ الْكُفْرِ وَمَقْتَضِيَاتِهِ.

ومنها: أَنَّ الَّذِي يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَنْبَغِي لَهُ وَيَخْسُنُ مِنْهُ مِنَ الصَّبْرِ وَالْجَلَدِ مَا لَا يَقُومُ بِهِ غَيْرُهُ؛ فَإِذَا كَانَ أَوْلِيَاءُ الشَّيْطَانِ يَصْبِرُونَ وَيُقَاتِلُونَ وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ؛ فَأَهْلُ الْحَقِّ أَوْلَى بِذَلِكَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي هَذَا الْمَعْنَى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ...﴾ الْآيَةُ.

ومنها: أَنَّ الَّذِي يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مُعْتَمِدًا عَلَى رَكْنٍ وَثِيقٍ، وَهُوَ الْحَقُّ

والتوكل على الله؛ فصاحب القوة والركن الوثيق يُطلب منه من الصبر والثبات والنشاط ما لا يُطلب ممن يقاتل عن الباطل الذي لا حقيقة له ولا عاقبة حميدة؛ فلهذا قال تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾؛ والكيد سلوك الطرق الخفية في ضرر العدو؛ فالشيطان وإن بلغ مكره مهما بلغ؛ فإنه في غاية الضعف الذي لا يقوم لأدنى شيء من الحق ولا لكيد الله لعباده المؤمنين.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَى الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ الْآخِرُ وَلَا تُظْلَمُونَ فَبَيِّنَا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾.

﴿٧٧﴾ كان المسلمون إذ كانوا بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة؛ أي: مواساة الفقراء، لا الزكاة المعروفة ذات النُصب والشروط؛ فإنها لم تُفرض إلا بالمدينة، ولم يؤمروا بجهاد الأعداء لعدة فوائد:

منها: أن من حكمة الباري تعالى أن يشرع لعباده الشرائع على وجه لا يشق عليهم، ويبدأ بالأهم فالأهم والأسهل فالأسهل.

ومنها: أنه لو فرض عليهم القتال مع قلة عددهم وعددهم وكثرة أعدائهم؛ لأدى ذلك إلى اضمحلال الإسلام، فروعِي جانب المصلحة العظمى على ما دونها. ولغير ذلك من الحكم.

وكان بعض المؤمنين يودون أن لو فرض عليهم القتال في تلك الحال غير اللائق فيها ذلك، وإنما اللائق فيها القيام بما أمروا به في ذلك الوقت من التوحيد والصلاة والزكاة ونحو ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا﴾، فلما هاجروا إلى المدينة وقوي الإسلام؛ كُتِبَ عليهم القتال في وقته المناسب لذلك، فقال فريق من الذين يستعجلون القتال قبل ذلك خوفاً من الناس وضعفاً وخوراً: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾؟ وفي هذا تضجرهم واعتراضهم على الله، وكان الذي ينبغي لهم ضد هذه الحال؛ التسليم لأمر الله والصبر على أوامره، فعكسوا الأمر المطلوب منهم، فقالوا: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾؛ أي: هلاً أخزت فرض القتال مدة متأخرة عن الوقت الحاضر، وهذه الحال كثيراً ما تعرض لمن هو غير رزين واستعجل في الأمور قبل وقتها؛ فالغالب

عليه أنه لا يصبرُ عليها وقت حُلُولِها ولا ينوءُ بِحَمْلِها، بل يكونُ قليلَ الصبرِ.

ثم إنَّ اللهَ وَعَظَهم عن هذه الحال التي فيها التخلُّفُ عن القتال، فقال: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾؛ أي: التمتعُ بِلَذَّاتِ الدُّنْيَا وراحتها قليلٌ، فَتَحْمُلُ الأثقالَ في طاعةِ الله في المدةِ القصيرةِ مما يسهلُ على النفوسِ وَيَخَفُ عليها؛ لأنها إذا عَلِمَتْ أَنَّ المَشَقَّةَ التي تنالها لا يطولُ لبثُها؛ هان عليها ذلك؛ فكيف إذا وازنت بين الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَنَّ الآخرةَ خيرٌ منها في ذاتها وَلَذَّاتِها وزمانها؛ فذاتُها كما ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ في الحديث الثابت عنه: «إِنَّ مَوْضِعَ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»^(١)، وَلَذَّاتُها صافيةٌ عن المكدرات، بل كُلُّ ما خَطَرَ بالبال أو دار في الفكر من تصوُّرٍ لَذَّةٍ؛ فَلَذَّةُ الْجَنَّةِ فوقَ ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، وقال الله على لسان نبيِّه^(٢): «أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ».

وأما لَذَّاتِ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّها مشوبةٌ بأنواعِ التغيص الذي لو قُوبِلَ بين لَذَّاتِها وما يقترنُ بها من أنواعِ الآلامِ وَالْهُمومِ وَالْغُمومِ؛ لم يكن لذلك نسبةٌ بوجهٍ من الوجوه. وأما زمانُها؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا منقضيةٌ وعمر الإنسان بالنسبة إلى الدُّنْيَا شيءٌ يسيرٌ، وأما الآخرةُ؛ فَإِنَّها دائمةُ النعيمِ، وأهلُها خالدون فيها؛ فإذا فَكَّرَ العاقل في هاتين الدارين، وتصورَ حقيقتَهما حقَّ التصوُّرِ؛ عَرَفَ ما هو أَحَقُّ بالإِثَارِ والسَّغْيِ له والاجتهادِ لطلبِهِ، ولهذا قال: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾؛ أي: اتَّقَى الشُّرْكَ وسائرَ المحرمات. ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾؛ أي: فسعيكم للدار الآخرة ستجدونه كاملاً موفراً غير منقوص منه شيئاً.

﴿٧٨﴾ ثم أخبر أنه لا يُغني حذرٌ عن قدرٍ، وَأَنَّ القاعد لا يدفع عنه قعوده شيئاً، فقال: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ﴾؛ أي: في أيِّ زمانٍ وأيِّ مكانٍ. ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بَرَجٍ مُّشِيدَةٍ﴾؛ أي: قصورٍ منيعَةٍ ومنازلٍ رفيعةٍ. وكلُّ هذا حثٌّ على الجهاد في سبيلِ الله؛ تارةً بالترغيب في فضلهِ وثوابِهِ، وتارةً بالترهيبِ من عقوبةِ تركِهِ، وتارةً بالإخبارِ أَنَّهُ لا ينفعُ القاعدين قعودُهم، وتارةً بتسهيلِ الطريق في ذلك وقصرها.

ثم قال:

(١) أخرجه البخاري (٣٢٥٠) عن سهل بن سعد.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة.

﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ سَيَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَرِحْتَهُ فَرِحَ اللَّهُ وَبِمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَرِحْتَهُ فَرِحَ اللَّهُ وَرَأْسُكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾^(١).

يخبر تعالى عن الذين لا يعلمون، المعرضين عما جاءت به الرسل، المعارضين لهم أنهم إذا جاءتهم حسنة؛ أي: خُصِبَ وكَثُرَتْ أموال وتوفّر أولاد وصحة؛ قالوا: ﴿هذه من عند الله﴾، وأنهم إن أصابتهم سيئة؛ أي: جذب وفقر ومرض وموت أولاد وأحباب؛ قالوا: ﴿هذه من عندك﴾؛ أي: بسبب ما جئتنا به يا محمد! تطيروا برسول الله ﷺ كما تطيّر أمثالهم برسول الله؛ كما أخبر الله عن قوم فرعون أنهم قالوا لموسى: ﴿إذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾، وقال قوم صالح: ﴿قالوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾، وقال قوم يسر لرسولهم: ﴿إنا تطيّرنا بكم لئن لم تنتهوا لنَرْجُمَنَّكُمْ...﴾ الآية، فلما تشابهت قلوبهم بالكفر؛ تشابهت أقوالهم وأفعالهم^(٢)، وهكذا كل من نَسَبَ حصول الشر أو زوال الخير لما جاءت به الرسل أو لبعضه؛ فهو داخل في هذا الذم الوخيم. قال الله في جوابهم: ﴿قل كل﴾؛ أي: من الحسنة والسيئة والخير والشر، ﴿من عند الله﴾؛ أي: بقضائه وقدره وخلقِهِ. ﴿فمال هؤلاء القوم﴾؛ أي: الصادر منهم تلك المقالة الباطلة، ﴿لا يكادون يفقهون حديثاً﴾؛ أي: لا يفهمون حديثاً بالكُليّة ولا يقرّبون من فهمه أو لا يفهمون منه إلّا فهماً ضعيفاً. وعلى كل فهو ذمّ لهم وتوبيخ على عدم فهمهم وفقههم عن الله وعن رسوله، وذلك بسبب كفرهم وإعراضهم.

وفي ضمن ذلك مدح مَنْ يَفْهَمُ عن الله وعن رسوله، والحث على ذلك وعلى الأسباب المعينة على ذلك من الإقبال على كلامهما، وتدبره وسلوك الطرق الموصلة إليه؛ فلو فقهوا عن الله؛ لعلموا أنّ الخير والشرّ والحسنات والسيئات كلّها بقضاء الله وقدره، لا يخرج منها شيء عن ذلك، وأنّ الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يكونون سبباً لشر يحدث. هم ولا ما جاؤوا به؛ لأنهم يُعْثُوا بمصالح الدنيا والآخرة والدين.

(١) في النسختين ذكر الشيخ الآية رقم (٨٠) في هذا الموضع ولم يفسرها. ثم ذكرها في الآيات التالية وفسرها.

(٢) في (ب): «وأعمالهم».

﴿٧٩﴾ ثم قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكُ مِنْ حَسَنَةٍ﴾؛ أي: في الدين والدنيا ﴿فَمِنْ اللَّهِ﴾: هو الذي مَنَّ بها وَسَرَّهَا بتيسير أسبابها، ﴿وَمَا أَصَابَكُ مِنْ سَيِّئَةٍ﴾: في الدِّين والدُّنْيَا ﴿فَمِنْ نَفْسِكَ﴾؛ أي: بذنوبك وكسبك وما يعفو الله عنه أكثر؛ فالله تعالى قد فَتَحَ لعباده أبوابَ إِحْسَانِهِ وَأَمَرَهُم بالدُّخُولِ لِبَرِّهِ وَفَضْلِهِ، وأخبرهم أَنَّ المعاصي مانعةٌ من فضله؛ فإذا فَعَلَهَا العبد؛ فلا يلومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ؛ فَإِنَّهُ المانعُ لِنَفْسِهِ عن وصول فضل الله وبرِّه.

ثم أخبر عن عموم رسالة رسوله محمد ﷺ، فقال: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾: على أنك رسولُ الله حَقًّا بما أَيْدِكَ بنصرِهِ والمعجزاتِ الباهرة والبراهين الساطعة؛ فهي أكبر شهادة على الإطلاق؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾؛ فإذا علم أَنَّ الله تعالى كامل العلم تامُّ القدرة عظيم الحكمة وقد أَيْدَ اللَّهُ رسوله بما أَيْدَهُ وَنَصَرَهُ نصرًا عظيمًا؛ تيقَّن بذلك أَنَّهُ رسولُ الله، وإِلَّا؛ فلو تقول عليه بعض الأقاويل؛ لأخذ منه باليمين ثم لَقَطَعَ منه الوتين.

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ (٨٠) ﴿وَيَقُولُوا طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُنْهَوْنَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (٨١).

﴿٨٠﴾ أي: كلُّ من أطاع رسول الله في أوامره ونواهيه؛ ﴿فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ تعالى؛ لكونه لا يأمر ولا ينهى إلا بأمر الله وشرعه ووحيه وتنزيله، وفي هذا عصمة الرسول ﷺ؛ لأنَّ الله أمر بطاعته مطلقاً؛ فلولا أَنَّهُ معصومٌ في كلِّ ما يُلْغ عن الله؛ لم يأمر بطاعته مطلقاً ويمدِّح على ذلك، وهذا من الحقوق المشتركة؛ فإنَّ الحقوق ثلاثة: حقٌّ لله تعالى لا يكون لأحد من الخلق، وهو عبادة الله والرغبة إليه وتوابع ذلك؛ وقسمٌ مختصٌّ بالرسول، وهو التعزير والتوقيف والنصرة. وقسمٌ مشترك، وهو الإيمان بالله ورسوله ومحبتُهما وطاعتُهما؛ كما جَمَعَ الله بين هذه الحقوق في قوله: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بِكُورَةٍ وَأَصِيلَةٍ﴾؛ فَمَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ؛ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وله من الثواب والخير ما رُتِبَ على طاعة الله. ﴿وَمَنْ تَوَلَّى﴾: عن طاعة الله ورسوله؛ فإنه لا يضرُّ إِلَّا نَفْسَهُ، ولا يضرُّ الله شيئاً. ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾؛ أي: تحفظ أعمالهم وأحوالهم، بل

أرسلناك مبلياً ومبيناً وناصحاً، وقد أديتَ وظيفتكَ وَوَجَبَ أَجْرُكَ عَلَى اللَّهِ، سواءَ اهتَدُوا أم لم يهتَدُوا؛ كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ...﴾ الآية.

﴿٨١﴾ ولا بدَّ أن تكون طاعةُ الله ورسوله ظاهراً وباطناً في الحضرة والمغيب، فأما من يُظهِرُ في الحضرة الطاعة والالتزام؛ فإذا خلا بنفسه أو أبناء جنسه؛ تَرَكَ الطاعة وأقبل على ضيِّدها؛ فإنَّ الطاعة التي أظهرها غيرُ نافعة ولا مفيدة، وقد أشبه مَنْ قال الله فيهم: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾؛ أي: يظهرون الطاعة إذا كانوا عندك؛ ﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾؛ أي: خرجوا وخَلَوْا في حالة لا يُطْلَع فيها عليهم، ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾؛ أي: بَيَّتُوا ودَبَّرُوا غير طاعتِكَ ولا ثَمَّ إلا المعصية. وفي قوله: ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾: دليلٌ على أنَّ الأمر الذي استقرُّوا عليه غيرُ الطاعة؛ لأنَّ التبييت تدبيرُ الأمر ليلاً على وجهٍ يستقرُّ عليه الرأي. ثم توَعَّدَهم على ما فَعَلُوا، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾؛ أي: يحفظه عليهم وسيجزيهم عليه أتمَّ الجزاء؛ ففيه وعيدٌ لهم. ثم أمر رسوله بمقابلتهم بالإعراض وعدم التعنيف؛ فإنهم لا يضرُّونه شيئاً إذا تَوَكَّلَ على الله واستعان به في نصر دينه وإقامة شرعه، ولهذا قال: ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٨٢).

﴿٨٢﴾ يأمر تعالى بتدبر كتابه، وهو التأمل في معانيه وتحديق الفكر فيه وفي مبادئه وعواقبه ولوازم ذلك؛ فإنَّ في تدبر كتاب الله مفتاحاً^(١) للعلوم والمعارف، وبه يُسْتَنْجَجُ كلُّ خير وتستخرجُ منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب وترسخُ شجرته؛ فإنه يعرفُ بالربِّ المعبود وما له من صفات الكمال وما يُنَزَّه عنه من سماتِ النقص، ويعرفُ الطريقَ الموصلةَ إليه وصفةَ أهلها وما لهم عند القُدوم عليه، ويعرفُ العدوَّ الذي هو العدوُّ على الحقيقة والطريقَ الموصلةَ إلى العذاب وصفةَ أهلها وما لهم عند وجود أسباب العقاب. وكلُّما ازداد العبد تأملاً فيه؛ ازداد علماً وعملاً وبصيرةً، لذلك أمر الله بذلك وحثَّ عليه وأخبر أنه هو المقصود بإنزال القرآن؛ كما قال تعالى: ﴿كَتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾؛ وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.

(١) في (ب): «فإن تدبر كتاب الله مفتاح».

ومن فوائد التدبر لكتاب الله أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين والعلم بأنه كلام الله؛ لأنه يراه يصدق بعضه بعضاً، ويوافق بعضه بعضاً، فترى الحكيم والقصة والإخبارات تُعاد في القرآن في عدة مواضع، كلها متوافقة متصادقة، لا ينقض بعضها بعضاً؛ فبذلك يُعلم كمال القرآن، وأنه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور؛ فلذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾؛ أي: فلما كان من عند الله، لم يكن فيه اختلاف أصلاً.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٣).

﴿٨٣﴾ هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق، وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامة ما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم أهل الرأي والعلم والنصح والعقل والرياسة الذين يعرفون الأمور ويعرفون المصالح وضدها؛ فإن رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطاً للمؤمنين وسروراً لهم وتحزناً من أعدائهم؛ فعلوا ذلك، وإن رأوا [أنه ليس] ^(١) فيه مصلحة، أو فيه مصلحة ولكن مضرته تزيد على مصلحته؛ لم يذيعوه. ولهذا قال: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾؛ أي: يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة وعلومهم الرشيدة.

وفي هذا دليل لقاعدة أدبية، وهي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور؛ ينبغي أن يؤلى من هو أهل لذلك، ويُجعل إلى أهله، ولا يُتقدم بين أيديهم؛ فإنه أقرب إلى الصواب وأحرى للسلامة من الخطأ.

وفيه النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام والنظر فيه؛ هل هو مصلحة فيقدم عليه الإنسان أم لا فيُحجم عنه؟

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾؛ أي: في توفيقكم وتأديبكم وتعليمكم ما لم تكونوا تعلمون، ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ لأن الإنسان بطبعه

(١) كذا في هامش (ب). وفي (أ): «وإن رأوا ما فيه مصلحة».

ظالم جاهل فلا تأمره نفسه إلا بالشر؛ فإذا لجأ إلى ربه، واعتصم به، واجتهد في ذلك؛ لطف به ربه، ووفقه لكل خير، وعصمه من الشيطان الرجيم.

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ (٨٤).

﴿٨٤﴾ هذه الحالة أفضل أحوال العبد؛ أن يجتهد في نفسه على امتثال أمر الله من الجهاد وغيره، ويحرض غيره عليه، وقد يعدم في العبد الأمران أو أحدهما؛ فلهذا قال [الله] لرسوله: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ﴾؛ أي: ليس عليك قدرة على غير نفسك، فلن تُكَلَّفُ بفعل غيرك. ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على القتال، وهذا يشمل كل أمر يحصل به نشاط المؤمنين وقوة قلوبهم؛ من تقويتهم، والإخبار بضعف الأعداء وفشلهم، وبما أعد الله للمقاتلين من الثواب، وما على المتخلفين من العقاب؛ فهذا وأمثاله كله يدخل في التحريض على القتال. ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: بقتالكم في سبيل الله وتحريض بعضكم بعضاً. ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾؛ أي: قوة وعزة، ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾: بالمذنب في نفسه وتنكيلاً لغيره؛ فلو شاء تعالى؛ لانتصر من الكفار بقوته، ولم يجعل لهم باقية، ولكن من حكمته يبلو بعض عباده ببعض؛ ليقوم سوق الجهاد، ويحصل الإيمان النافع إيمان الاختيار لا إيمان الاضطرار، والقهر الذي لا يفيد شيئاً.

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيبًا﴾ (٨٥).

﴿٨٥﴾ المراد بالشفاعة هنا المعاونة على أمر من الأمور؛ فمن شفع غيره وقام معه على أمر من أمور الخير ومنه الشفاعة للمظلومين لمن ظلمهم؛ كان له نصيب من شفاعته بحسب سعيه وعمله ونفعه، ولا ينقص من أجر الأصيل أو^(١) المباشري، ومن عاون غيره على أمر من الشر؛ كان عليه كِفْلٌ من الإثم بحسب ما قام به وعاون عليه. ففي هذا الحث العظيم على التعاون على البر والتقوى، والزجر العظيم عن التعاون على الإثم والعدوان. وقرر ذلك بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيبًا﴾؛ أي: شاهداً حفيظاً حسيباً على هذه الأعمال، فيجازي كل ما يستحقه.

(١) في (ب): «و».

﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ .

﴿٨٦﴾ التحية: هي اللفظ الصادر من أحد المتلاقيين على وجه الإكرام والدعاء وما يقترون بذلك اللفظ من البشاشة ونحوها، وأعلى أنواع التحية ما ورد به الشرع من للسلام ابتداء وردًا، فأمر تعالى المؤمنين أنهم إذا حُيوا بأي تحية كانت أن يردوها بأحسن منها لفظاً وبشاشة أو مثلها في ذلك، ومفهوم ذلك النهي عن عدم الرد بالكلية أو ردّها بدونها. ويؤخذ من الآية الكريمة الحث على ابتداء السلام والتحية من وجهين:

أحدهما: أن الله أمر بردّها بأحسن منها أو مثلها، وذلك يستلزم أن التحية مطلوبة شرعاً.

والثاني: ما يُستفاد من أفعّل التفضيل، وهو أحسن، الدال على مشاركة التحية وردّها بالحسن؛ كما هو الأصل في ذلك.

ويستثنى من عموم الآية الكريمة من حيًا بحال غير مأمور بها؛ كعلى مشغل بقراءة أو استماع خطبة أو مصلّ ونحو ذلك؛ فإنه لا يطلب إجابة تحيته، وكذلك يُستثنى من ذلك من أمر الشارع بهجره وعدم تحيته، وهو العاصي غير التائب، الذي يرتدع بالهجر؛ فإنه يُهَجَر ولا يُحَيّا ولا تُردُّ تحيته، وذلك لمعارضة المصلحة الكبرى، ويدخل في رد التحية كل تحية اعتادها الناس، وهي غير محظورة شرعاً؛ فإنه مأمور بردّها أو أحسن منها. ثم أوعد تعالى وتوعّد على فعل الحسنات والسيئات بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾: فيحفظ على العباد أعمالهم حسنًا وسيئها، صغيرها وكبيرها، ثم يجازيهم بما اقتضاه فضله وعدله وحكمه المحمود.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعََنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ .

﴿٨٧﴾ يخبر تعالى عن انفرادِهِ بالوحدانية، وأنه لا معبود ولا مألوه إلا هو لكمالِهِ في ذاته وأوصافه، ولكونه المنفرد بالخلق والتدبير والنعم الظاهرة والباطنة، وذلك يستلزم الأمر بعبادته والتقرب إليه بجميع أنواع العبودية؛ لكونه المستحقّ لذلك وحده، والمجازي للعباد بما قاموا به من عبوديته أو تركوه منها، ولذلك أقسم على وقوع محلّ الجزاء، وهو يوم القيامة، فقال: ﴿لِيَجْمَعََنَّكُمْ﴾؛ أي: أولكم وآخركم، في مقام واحد، في يوم القيامة لا ريب فيه؛ أي: لا شك ولا شبهة بوجه من الوجوه بالدليل العقلي والدليل السمعي.

فالدليل العقلي ما نشاهدُهُ من إحياء الأرض بعد موتها، ومن وجود النشأة الأولى

التي وقوع الثانية أولى منها بالإمكان، ومن الحكمة التي يجزم بأن الله لم يخلق خلقه عبثاً يَخْيُونَ ثم يموتون.

وأما الدليل السمعي؛ فهو إخبار أصدق الصادقين بذلك، بل إقسامه عليه، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾، كذلك أمر رسوله ﷺ أَنْ يُقْسِمَ عليه في غير موضع من القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

وفي قوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾: إخبار بأن حديثه وأخباره وأقواله في أعلى مراتب الصدق، بل أعلاها، فكل ما قيل في العقائد والعلوم والأعمال مما يناقض ما أخبر الله به؛ فهو باطل لمناقضته للخبر الصادق اليقين؛ فلا يمكن أن يكون حقاً.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَركَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَهْدِيَ لَهُ سَبِيلًا ۝٨٨﴾ وَدَوَّا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْلُبُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقُولُوا أَوْ يَقُولُوا أَوْ يَفْعَلُوا قَوْمُهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقْنَلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يَقْتُلُوكُمْ وَالْقَوَّاءَ إِلَيْكُمْ أَلَسَلَّمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ۝٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَىٰ الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْلُبُوهُمْ حَيْثُ تَفْقَهُوهُمْ وَأُولَئِكَكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ۝٩١﴾.

﴿٨٨ - ٨٩﴾ المراد بالمنافقين المذكورين في هذه الآيات، المنافقون المظهرون إسلامهم ولم يهاجروا مع كفرهم، وكان قد وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم فيهم اشتباه^(١)؛ فبعضهم تحرّج عن قتالهم وقطع موالاتهم بسبب ما أظهروه من

(١) جاء في هامش (ب) العبارة التالية، ولم أجد علامة تدلّ على موضعها الصحيح: «وقد ثبت في «الصحيحين» من حديث زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ، خرج إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين: فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا، فأنزل الله ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ﴾، فقال رسول الله ﷺ: «إنها طيبة، وإنها تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الحديد».

الإيمان، وبعضهم عَلِمَ أحوالهم بقرائن أفعالهم فَحَكَمَ بكفرهم، فأخبرهم الله تعالى أنه لا ينبغي لكم أن تشبهوا فيهم ولا تشكوا، بل أمرهم واضح غير مُشْكِل، إنهم منافقون، قد تكرر كفرهم وودوا مع ذلك كفركم وأن تكونوا مثلهم؛ فإذا تحققت ذلك منهم؛ ﴿فلا تتخذوا منهم أولياء﴾: وهذا يستلزم عدم محبتهم؛ لأن الولاية فرع المحبة، ويستلزم أيضاً بغضهم وعداوتهم؛ لأن النهي عن الشيء أمر بضده، وهذا الأمر موقت بهجرتهم؛ فإذا هاجروا؛ جرى عليهم ما جرى على المسلمين؛ كما كان النبي ﷺ يُجري أحكام الإسلام؛ لكل من كان معه وهاجر إليه، وسواء كان مؤمناً حقيقة أو ظاهر الإيمان، وإنهم إن لم يهاجروا وتولوا عنها؛ ﴿فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم﴾؛ أي: في أي وقت وأي محل كان، وهذا من جملة الأدلة الدالة على نسخ القتال في الأشهر الحرم؛ كما هو قول جمهور العلماء، والمنازعون يقولون: هذه نصوص مطلقة محمولة على تقييد التحريم في الأشهر الحرم.

﴿٩٠﴾ ثم إن الله استثنى من قتال هؤلاء المنافقين ثلاث فرق:

فرفقتين أمر بتركهم وَحْتَمَ على ذلك:

إحداهما^(١): من يصل إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق بترك القتال، فينضم إليهم، فيكون له حكمهم في حقن الدم والمال.

والفرقة الثانية: قومٌ ﴿حصرت صدورهم أن يقتاتلوكم أو يقتاتلوا قومهم﴾؛ أي: بقوا لا تسمح أنفسهم بقتالكم ولا بقتال قومهم، وأحبوا ترك قتال الفريقين؛ فهؤلاء أيضاً أمر بتركهم، وذكر الحكمة في ذلك^(٢) بقوله: ﴿ولو شاء الله لسلبهم عليكم فلقاتلوكم﴾؛ فإن الأمور الممكنة ثلاثة أقسام: إما أن يكونوا معكم ويقاتلوا أعداءكم، وهذا متعذر من هؤلاء، فدار الأمر بين قتالكم مع قومهم، وبين ترك قتال الفريقين، وهو أهون الأمرين عليكم، والله قادر على تسليطهم عليكم؛ فاقبلوا العافية واحمدوا ربكم الذي كف أيديهم عنكم مع التمكن من ذلك؛ فهؤلاء إن اعتزلوكم ﴿فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾.

﴿٩١﴾ الفرقة الثالثة: قومٌ يريدون مصلحة أنفسهم، بقطع النظر عن احترامكم، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ستجدون آخرين﴾؛ أي: من هؤلاء المنافقين.

(١) في (ب): «أحدهما».

(٢) في (ب): «بذلك».

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا دِينَكُمْ﴾؛ أي: خوفاً منكم، ﴿وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلُّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾؛ أي: لا يزالون مقيمين على كفرهم ونفاقهم، وكلُّمَا عَرَضَ لَهُمْ عَارِضٌ مِنْ عَوَارِضِ الْفِتَنِ؛ أَعْمَاهُمْ وَنَكَّسَهُمْ عَلَى رُؤُوسِهِمْ وَازْدَادَ كُفْرُهُمْ وَنِفَاقُهُمْ، وَهَؤُلَاءِ فِي الصُّورَةِ كَالْفِرْقَةِ الثَّانِيَةِ، وَفِي الْحَقِيقَةِ مُخَالَفَةٌ لَهَا؛ فَإِنَّ الْفِرْقَةَ الثَّانِيَةَ تَرَكُوا قِتَالَ الْمُؤْمِنِينَ احْتِرَاماً لَهُمْ لَا خَوْفاً عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَأَمَّا هَذِهِ الْفِرْقَةُ؛ فَتَرَكُوهُ خَوْفاً لَا احْتِرَاماً، بَلْ لَوْ وَجَدُوا فُرْصَةً فِي قِتَالِ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَإِنَّهُمْ سَيُقَدِّمُونَ^(١) لَانْتِهَازِهَا؛ فَهَؤُلَاءِ إِنْ لَمْ يَتَبَيَّنْ مِنْهُمْ، وَيَتَّضَحْ اتِّضَاحاً عَظِيماً اعْتِرَالُ الْمُؤْمِنِينَ وَتَرْكُ قِتَالِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ يَقَاتِلُونَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْتَرِلْوَكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَمَ﴾؛ أي: المسالمة والموادعة، ﴿وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَعَذَابُهُمْ أَشَدُّ مِنْ أَقْطَارِ الْوَسْطِيِّينَ﴾؛ أي: حجةً بيّنة واضحة؛ لكونهم معتدين ظالمين لكم تاركين للمسالمة؛ فلا يلوموا إلا أنفسهم.

﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ (٩٢).

﴿٩٢﴾ هذه الصيغة من صيغ الامتناع، أي: يمتنع ويستحيل أن يصدر من مؤمن قتل مؤمن؛ أي: متعمداً.

وفي هذا الإخبار بشدة تحريمه وأنه منافٍ للإيمان أشد منافاة، وإنما يضدر ذلك إما من كافر أو من فاسق قد نقص إيمانه نقصاً عظيماً ويخشى عليه ما هو أكبر من ذلك؛ فإن الإيمان الصحيح يمنع المؤمن من قتل أخيه الذي قد عقد الله بينه وبينه الأخوة الإيمانية التي من مقتضاها محبته وموالاته وإزالة ما يعرض لأخيه من الأذى، وأي أذى أشد من القتل؟! ولهذا يصدق قوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»^(٢)، فغلب أن القتل من الكفر العملي، وأكبر الكبائر بعد الشرك بالله.

(١) في (ب): «مستعدون».

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٦٨)، ومسلم (٦٦) عن ابن عمر.

ولما كان قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾: لفظاً عاماً لجميع الأحوال، وأنه لا يصدرُ منه قتلُ أخيه بوجهٍ من الوجوه؛ استثنى تعالى قتلَ الخطأ، فقال: ﴿إِلَّا خَطَأً﴾؛ فإنَّ المخطيء الذي لا يقصد القتلَ غير آثم ولا متجرىء على محارم الله، ولكنه لما كان قد فعل فعلاً شنيعاً وصورته كافيّة في قبحه وإن لم يقصده؛ أمر تعالى بالكفارة والدّية، فقال: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً﴾: سواء كان القاتلُ ذكراً أو أنثى حُرّاً أو عبداً صغيراً أو كبيراً عاقلاً أو مجنوناً مسلماً أو كافراً؛ كما يفيدُه لفظُ ﴿مَنْ﴾ الدالة على العموم، وهذا من أسرار الإتيان بـ «مَنْ» في هذا الموضع؛ فإنَّ سياق الكلام يقتضي أنه يقول: فإن قتله، ولكن هذا لفظ لا يشمل ما تشمله «مَنْ»، وسواء كان المقتول ذكراً أو أنثى صغيراً أو كبيراً؛ كما يفيدُه التنكير في سياق الشرط؛ فإنَّ على القاتل ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾: كفارة لذلك، تكون في ماله، ويشمل ذلك الصغير والكبير والذكر والأنثى والصحيح والمعيب في قول بعض العلماء، ولكن الحكمة تقتضي أن لا يُجزىء عتق المعيب في الكفارة؛ لأن المقصود بالعتق نفعُ العتيق ومُلكه منافع نفسه؛ فإذا كان يضع بعته، وبقاؤه في الرق أنفع له؛ فإنه لا يجزىء عتقه، مع أن في قوله: ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾؛ ما يدلُّ على ذلك؛ فإن التحرير تَخْلِيصٌ مَنِ استحققت منافعُه لغيره أن تكون له؛ فإذا لم يكن فيه منافع؛ لم يُتَصَوَّر وجود التحرير، فتأمل ذلك؛ فإنه واضح.

وأما الدّية؛ فإنها تجب على عاقلة القاتل في الخطأ وشبه العمد. ﴿مُسَلَّمَةً إِلَى أَهْلِهِ﴾: جبراً لقلوبهم. والمراد بـ ﴿أَهْلِهِ﴾ هنا هم ورثته؛ فإن الورثة يرثون ما ترك الميت، فالدّية داخلّة فيما ترك، وللدّية تفاصيل كثيرة مذكورة في كتب الفقه. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾؛ أي: يتصدّق ورثة القاتل بالعفو عن الدّية؛ فإنها تسقط، وفي ذلك حثٌّ لهم على العفو؛ لأنَّ الله سَمّاها صدقةً، والصدقة مطلوبة في كلِّ وقت. ﴿فَإِنْ كَانَ﴾ المقتول ﴿مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ﴾؛ أي: من كفارِ حَزْبَيْنِ، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾؛ أي: وليس عليكم لأهله دية؛ لعدم احترامهم في دمائهم وأموالهم. ﴿وَإِنْ كَانَ﴾ المقتول ﴿مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فِدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾، وذلك لاحترام أهله بما لهم من العهد والميثاق. ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾: الرقبة ولا ثمنها؛ بأن كان معسراً بذلك، ليس عنده ما يُفْضَلُ عن مؤنته وحوائجه الأصلية شيء يفي بالرقبة. ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾؛ أي: لا يفطر بينهما من غير عذر؛ فإن أفطر لعذر؛ فإن العذر لا يقطع التتابع؛ كالمرض والحيض ونحوهما، وإن كان لغير عذر؛ انقطع التتابع، ووجب عليه استئناف

الصوم، ﴿تُوبَةَ مِنَ اللَّهِ﴾؛ أي: هذه الكفارات التي أوجبها الله على القاتل توبة من الله على عباده ورحمة بهم وتكفيراً لما عساه أن يحصل منهم من تقصير وعدم احتراز كما هو الواقع كثيراً للقاتل خطأ.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾؛ أي: كامل العلم كامل الحكمة، لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، في أي وقت كان وأي محل كان، ولا يخرج عن حكمته من المخلوقات والشرائع شيء، بل كل ما خلقه وشرعه فهو متضمن لغاية الحكمة.

ومن علمه وحكمته أن أوجب على القاتل كفارة مناسبة لما صدر منه؛ فإنه تسبب لإعدام نفس محترمة، وأخرجها من الوجود إلى العدم، فناسب أن يعتق رقبة ويخرجها من رِقِّ العبودية للخلق إلى الحرية التامة؛ فإن لم يجد هذه الرقبة؛ صام شهرين متتابعين، فأخرج نفسه من رِقِّ الشهوات واللذات الحسية القاطعة للعبد عن سعادته الأبدية إلى التعبد لله تعالى بتركها تقريباً إلى الله، ومدّها تعالى بهذه المدة الكثيرة الشاقة في عددها ووجوب التتابع فيها، ولم يشرع الإطعام في هذه المواضع لعدم المناسبة؛ بخلاف الظهار؛ كما سيأتي إن شاء الله تعالى. ومن حكمته أن أوجب في القتل الدية، ولو كان خطأ؛ لتكون رادعة وكافة عن كثير من القتل باستعمال الأسباب العاصمة عن ذلك. ومن حكمته أن أوجب على العاقلة في قتل الخطأ بإجماع العلماء؛ لكون القاتل لم يُذنب، فيشق عليه أن يحمل هذه الدية الباهظة، فناسب أن يقوم بذلك من بينه وبينهم المعاونة والمناصرة والمساعدة على تحصيل المصالح وكفّ المفساد، ولعل ذلك من أسباب منعهم لمن يعقلون عنه من القتل حذار تحميلهم، ويخف عليهم^(١) بسبب توزيعه عليهم بقدر أحوالهم وطاقتهم، وخُفِّت أيضاً بتأجيلها عليهم ثلاث سنين. ومن حكمته وعلمه أن جبر أهل القتل عن مصيبتهم بالدية التي أوجبها على أولياء القاتل.

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ (٩٣).

﴿٩٣﴾ تقدّم أن الله أخبر أنه لا يصدر قتل المؤمن من المؤمن، وأن القتل من

الكفر العملي، وذكر هنا وعيد القاتل عمداً وعيداً ترجف له القلوب وتنصدع له الأفئدة وتنزعج منه أولو العقول، فلم يرد في أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد، بل ولا مثله، ألا وهو الإخبار بأن جزاءه جهنم؛ أي: فهذا الذنب العظيم قد انتهض وحده أن يجازي صاحبه بجهنم بما فيها من العذاب العظيم والخزي المهين وسخط الجبار وفوات الفوز والفلاح وحصول الخيبة والخسار؛ فعياداً بالله من كل سبب يبعد عن رحمته.

وهذا الوعيد له حكم أمثاله من نصوص الوعيد على بعض الكبائر والمعاصي بالخلود في النار أو حرمان الجنة. وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في تأويلها، مع اتفاقهم على بطلان قول الخوارج والمعتزلة الذين يخلّدونهم في النار ولو كانوا موحدين، والصواب في تأويلها ما قاله الإمام المحقق شمس الدين ابن القيم رحمه الله في «المدارج»؛^(١) فإنه قال بعد ما ذكر تأويلات الأئمة في ذلك وانتقدها، فقال:

وقالت فرقة: إن هذه النصوص وأمثالها مما ذكر فيه المقتضي للعقوبة، ولا يلزم من وجود مقتضى الحكم وجوده؛ فإن الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه، وغاية هذه النصوص الإعلام بأن كذا سبب للعقوبة ومقتض لها، وقد قام الدليل على ذكر الموانع؛ فبعضها بالإجماع وبعضها بالنص؛ فالتوبة مانع بالإجماع، والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة التي لا مدفع لها، والحسنات العظيمة الماحية مانعة، والمصائب الكبار المكفرة مانعة، وإقامة الحدود في الدنيا مانع بالنص، ولا سبيل إلى تعطيل هذه النصوص، فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين، ومن هنا قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات اعتباراً لمقتضى العقاب وموانعه وإعمالاً لأرجحها. قالوا: وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدهما، وعلى هذا بناء الأحكام الشرعية والأحكام القدريّة، وهو مقتضى الحكمة السارية في الوجود، وبه ارتباط الأسباب ومسبباتها خلقاً وأمرأ، وقد جعل الله سبحانه لكل ضدّاً يدافعه ويقاومه ويكون الحكم للأغلب منهما؛ فالقوة مقتضية للصحة، والعافية وفساد الأخلاط وبغيها مانع من عمل الطبيعة، وفعل القوة والحكم للغالب منهما، وكذلك قوى الأدوية والأمراض، والعبد يكون فيه مقتض للصحة ومقتض للعطب، وأحدهما يمنع كمال تأثير الآخر ويقاومه؛ فإذا ترجّح عليه وقهره؛ كان التأثير له،

ومن هنا يُعلم انقسام الخلق إلى من يدخل الجنة ولا يدخل النار وعكسه، ومن يدخل النار ثم يخرج منها ويكون مكثه فيها بحسب ما فيه من مقتضى المكث في سرعة الخروج وبطئه، ومن له بصيرة منورة يرى بها كل ما أخبر الله به في كتابه من أمر المعاد وتفصيله، حتى كأنه يشاهده رأي العين، ويعلم أن هذا مقتضى إلهيته سبحانه وربوبيته وعزته وحكمته، وأنه يستحيل عليه خلاف ذلك، ونسبة ذلك إليه نسبة ما لا يليق به إليه، فيكون نسبة ذلك إلى بصيرته كنسبة الشمس والنجوم إلى بصره، وهذا يقين الإيمان، وهو الذي يحرق السيئات كما تحرق النار الحطب، وصاحب هذا المقام من الإيمان يستحيل إصراره على السيئات وإن وقعت منه وكثرت؛ فإن ما معه من نور الإيمان يأمره بتجديد التوبة كل وقت بالرجوع إلى الله في عدد أنفاسه، وهذا من أحب الخلق إلى الله. انتهى كلامه قدس الله روحه وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً.

﴿يَتْلَاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَّتْهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَنَيَّيْنُوا وَلَا نَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ بَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾.

﴿٩٤﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين إذا خرجوا جهاداً في سبيله وابتغاء مرضاته أن يتبينوا ويتثبتوا في جميع أمورهم المشتبهة؛ فإن الأمور قسمان: واضحة وغير واضحة؛ فالواضحة البينة لا تحتاج إلى تثبت وتبين؛ لأن ذلك تحصيل حاصل. وأما الأمور المشككة غير الواضحة؛ فإن الإنسان يحتاج إلى التثبت فيها والتبين؛ ليَعْرِفَ هل يُقَدِّمُ عليها أم لا؛ فإن التثبت في هذه الأمور يحصل فيه من الفوائد الكثيرة والكف لشُرورٍ عظيمة؛ ما به يُعْرِفُ دينُ العبد وعقله ورزاقه؛ بخلاف المستعجل للأمور في بداوتها قبل أن يتبين له حكمها؛ فإن ذلك يؤدي إلى ما لا ينبغي؛ كما جرى لهؤلاء الذين عاتبهم الله في الآية لما لم يتثبتوا وقتلوا من سلم عليهم وكان معه غنيمة له أو مال غيره؛ ظناً أنه يستكفي بذلك قتلهم، وكان هذا خطأ في نفس الأمر؛ فلهذا عاتبهم بقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾؛ أي: فلا يحملنكم العَرَضُ الفاني القليل على ارتكاب ما لا ينبغي، فيفوتكم ما عند الله من الثواب الجزيل الباقي؛ فما عند الله خير وأبقى. وفي هذا إشارة إلى أن العبد ينبغي له إذا رأى دواعي نفسه مائلة إلى حالة له فيها هوى وهي مضرة له؛ أن يذكرها ما أعد الله

لِمَنْ نَهَى نَفْسَهُ عَنْ هَوَاهَا، وَقَدَّمَ مَرْضَاةَ اللَّهِ عَلَى رِضَا نَفْسِهِ؛ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَرْغِيبًا لِلنَّفْسِ فِي امْتِثَالِ أَمْرِ اللَّهِ، وَإِنْ شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهَا.

ثم قال تعالى مذكراً لهم بحالهم الأولى قبل هدايتهم إلى الإسلام: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: فكما هداكم بعد ضلالكم؛ فكذلك يهدي غيركم، وكما أَنَّ الهداية حصلت لكم شيئاً فشيئاً؛ فكذلك غيركم؛ فنظرُ الكامل لحالِهِ الأولى الناقصة ومعامَلته لمن كان على مثلها بمقتضى ما يعرف من حاله الأولى ودعائه له بالحكمة والموعظة الحسنة من أكبر الأسباب لنفعِهِ وانتفاعِهِ، ولهذا أعاد الأمر بالتبيين، فقال: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾! فإذا كان من خرج للجهاد في سبيل الله ومجاهدة أعداء الله واستعدَّ بأنواع الاستعداد للإيقاع بهم مأموراً بالتبيين لمن ألقى إليه السلام، وكانت القرينة قوية في أنه إنما سَلَّمَ تعوداً من القتل وخوفاً على نفسه؛ فإن ذلك يدلُّ على الأمر بالتبيين والتثبت في كل الأحوال التي يقع فيها نوعُ اشتباه، فيثبت فيها العبدُ، حتى يتضح له الأمرُ، ويبين الرشدُ والصوابُ.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾: فيجازي كلاً ما عَمِلَهُ ونواه بحسب ما عَمِلَهُ من أحوال عبادِهِ ونياتِهِم.

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾.

﴿٩٥ - ٩٦﴾ أي: لا يستوي من جاهد من المؤمنين بنفسِهِ ومالِهِ ومن لم يخرج للجهاد ولم يقاتل أعداء الله؛ ففيه الحث على الخروج للجهاد والترغيب في ذلك والترهيب من التكاثر والقعود عنه من غير عذر، وأما أهل الضرر كالمريض والأعمى والأعرج والذي لا يجد ما يتجهز به؛ فإنهم ليسوا بمنزلة القاعدين من غير عذر؛ فمن كان من أولي الضرر راضياً بعوده، لا ينوي الخروج في سبيل الله لولا وجود المانع ولا يحدث نفسه بذلك؛ فإنه بمنزلة القاعد لغير عذر، ومن كان عازماً على الخروج في سبيل الله لولا وجود المانع يتمنى ذلك ويحدث به نفسه؛ فإنه بمنزلة من خرج للجهاد؛ لأنَّ النيةَ الجازمة إذا اقترن بها مقدورها من القول أو الفعل، يُنَزَّلُ صاحبها منزلة الفاعل.

ثم صرَّح تعالى بتفضيل المجاهدين على القاعدين بالدرجة؛ أي: الرفع، وهذا

تفضيل على وجه الإجمال، ثم صرّح بذلك على وجه التفصيل، ووعدهم بالمغفرة الصادرة من ربهم والرحمة التي تشتمل على حصول كل خير واندفاع كل شر، والدرجات التي فصلها النبي ﷺ بالحديث الثابت عنه في «الصحيحين»^(١): «إن في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعدّها الله للمجاهدين في سبيله». وهذا الثواب الذي رتبّه الله على الجهاد نظير الذي في سورة الصفّ في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ. تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ...﴾ إلى آخر السورة.

وتأمل حسنَ هذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها؛ فإنه نفى التسوية أولاً بين المجاهد وغيره، ثم صرّح بتفضيل المجاهد على القاعد بدرجة، ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة والرحمة والدرجات. وهذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها عند التفضيل والمدح أو النزول من حالة إلى ما دونها عند القدح والذم أحسن لفظاً وأوقع في النفس، وكذلك إذا فضّل تعالى شيئاً على شيء، وكلّ منهما له فضل؛ احترز بذكر الفضل الجامع للأمرين؛ لئلا يتوهّم أحد ذمّ المفضّل عليه؛ كما قال هنا: ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾، وكما قال تعالى في الآيات المذكورة في الصفّ في قوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وكما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾؛ أي: من لم يكن كذلك، ثم قال: ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾، وكما قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّا أَتَيْنَا حُكْمًا وَعَلَمًا﴾. فينبغي لمن بحث في التفضيل بين الأشخاص والطوائف والأعمال أن يتفطن لهذه النكتة، وكذلك لو تكلم في ذمّ الأشخاص والمقالات؛ ذكر ما تجتمع فيه عند تفضيل بعضها على بعض؛ لئلا يتوهّم أن المفضّل قد حصل له الكمال؛ كما إذا قيل: النصراني خير من المجوس؛ فليقل مع ذلك: وكلّ منهما كافر. والقتل أشنع من الزنا، وكلّ منهما معصية كبيرة، حرّمها الله ورسوله، وزجر عنها.

ولمّا وعد المجاهدين بالمغفرة والرحمة الصادرتين عن اسميه الكريمين الغفور الرحيم؛ ختم هذه الآية بهما، فقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

(١) «صحيح البخاري» (٢٧٩٠)، ولم أعثر على الحديث عند مسلم. والله أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾.

﴿٩٧﴾ هذا الوعيد الشديد لمن ترك الهجرة مع قدرته عليها حتى مات؛ فإنَّ الملائكة الذين يقبضون روحه يوبخونه بهذا التوبيخ العظيم، ويقولون لهم: ﴿فيم كنتم؟﴾ أي: على أيِّ حال كنتم؟ وبأيِّ شيء تميّزتم عن المشركين؟ بل كنزتم سواذهم، وربما ظاهرتموهم على المؤمنين، وفاتكم الخير الكثير والجهاد مع رسوله والكون مع المسلمين ومعاونتهم على أعدائهم. ﴿قالوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: ضعفاء مهضومين مظلومين ليس لنا قدرة على الهجرة، وهم غير صادقين في ذلك؛ لأنَّ الله وَبَّخَهُمْ وتوعَّدَهُمْ، ولا يكلف الله نفساً إلاَّ وسعها، واستثنى المستضعفين حقيقةً، ولهذا قالت لهم الملائكة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا؟﴾ وهذا استفهام تقرير؛ أي: قد تقرَّر عند كلِّ أحدٍ أنَّ أرض الله واسعة؛ فحيثما كان العبد في محلٍّ لا يتمكن فيه من إظهار دينه؛ فإنَّ له متسعاً وفسحةً من الأرض يتمكن فيها من عبادة الله؛ كما قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾. قال الله عن هؤلاء الذين لا عذر لهم: ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. وهذا كما تقدَّم فيه ذِكرُ بيان السبب الموجب؛ فقد يترتب عليه مقتضاه مع اجتماع شروطه وانتفاء موانعه، وقد يمنع من ذلك مانع.

وفي الآية دليل على أن الهجرة من أكبر الواجبات، وتركها من المحرمات، بل من أكبر الكبائر. وفي الآية دليل على أنَّ كلَّ من تُوَفِّي فقد استكمل واستوفى ما قُدِّرَ له من الرزق والأجل والعمل، وذلك مأخوذاً من لفظ التوفي؛ فإنه يدلُّ على ذلك؛ لأنَّه لو بقي عليه شيء من ذلك؛ لم يكن متوفياً. وفيه الإيمان بالملائكة ومدحهم؛ لأنَّ الله ساق ذلك الخطاب لهم على وجه التقرير والاستحسان منهم وموافقته لمحلِّه.

﴿٩٨ - ٩٩﴾ ثم استثنى المستضعفين على الحقيقة الذين لا قدرة لهم على الهجرة بوجه من الوجوه ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾؛ فهؤلاء قال الله فيهم: ﴿فَأُولَئِكَ

عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً ﴿١٠٠﴾، و﴿عسى﴾ ونحوها واجب وقوعها من الله تعالى بمقتضى كرمه وإحسانه. وفي الترجية بالشواب لمن عمل بعض الأعمال فائدة، وهو أنه قد لا يوفيه حق توفيته، ولا يعمل على الوجه اللائق الذي ينبغي، بل يكون مقصراً، فلا يستحق ذلك الشواب، والله أعلم.

وفي الآية الكريمة دليل على أن من عجز عن المأمور من واجب وغيره؛ فإنه معذور؛ كما قال تعالى في العاجزين عن الجهاد: ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج﴾، وقال في عموم الأوامر: ﴿فأتقوا الله ما استطعتم﴾، وقال النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر؛ فأتوا منه ما استطعتم»^(١). ولكن لا يُعذَرُ الإنسان إلا إذا بذل جهده، وانسدت عليه أبواب الحيل؛ لقوله: ﴿لا يستطيعون حيلة﴾.

وفي الآية تنبيه على أن الدليل في الحج والعمرة - ونحوهما مما يحتاج إلى سفر - من شروط الاستطاعة.

﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١٠٠).

﴿١٠٠﴾ هذا في بيان الحث على الهجرة والترغيب وبيان ما فيها من المصالح، فوعد الصادق في وعده أن من هاجر في سبيله ابتغاء مرضاته أنه يجد مُرْعَمًا في الأرض وسعة؛ فالمرعَمُ مشتملٌ على مصالح الدين، والسعة على مصالح الدنيا، وذلك أن كثيراً من الناس يتوهم أن في الهجرة شتاتاً بعد الألفة وفقرًا بعد الغنى وذلك بعد العزِّ وشدة بعد الرخاء، والأمر ليس كذلك؛ فإن المؤمن ما دام بين أظهر المشركين؛ فدينه في غاية النقص؛ لا في العبادات القاصرة عليه كالصلاة ونحوها، ولا في العبادات المتعدية كالجهاد بالقول والفعل وتوابع ذلك؛ لعدم تمكنه من ذلك، وهو بصدد أن يفتن عن دينه، خصوصاً إن كان مستضعفاً؛ فإذا هاجر في سبيل الله؛ تمكن من إقامة دين الله وجهاد أعداء الله ومرامتهم؛ فإن المరాغمة اسم جامع لكل ما يحصل به إغاطة لأعداء الله من قول وفعل وكذلك يحصل له سعة في رزقه، وقد وقع كما أخبر الله تعالى.

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِالصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ لَمَّا هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَتَرَكُوا دِيَارَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ لِلَّهِ؛ كَمَلْ بِذَلِكَ إِيْمَانَهُمْ، وَحَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْإِيْمَانِ التَّامُّ وَالْجِهَادُ الْعَظِيمُ وَالنَّصْرُ لِلدِّينِ اللَّهُ مَا كَانُوا بِهِ أُمَّةَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ، وَكَذَلِكَ حَصَلَ لَهُمْ مِمَّا يَتَرْتَبِ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْفَتْوحَاتِ وَالْغَنَائِمِ مَا كَانُوا بِهِ أَغْنَى النَّاسَ، وَهَكَذَا كُلُّ مَنْ فَعَلَ فَعَلَهُمْ؛ حَصَلَ لَهُ مَا حَصَلَ^(١) لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

ثم قال: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مَهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ أي: قاصداً ربه ورضاه ومحبة لرسوله ونصراً لدين الله لا لغير ذلك من المقاصد. ﴿ثُمَّ يَدْرِكُهُ الْمَوْتُ﴾: بقتل أو غيره، ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾؛ أي: فقد حصل له أجر المهاجر الذي أدرك مقصوده بضمنان الله تعالى، وذلك لأنه نوى وجزم وحصل منه ابتداءً وشروعاً في العمل؛ فمن رحمة الله به وبأمثاله أن أعطاهم أجرهم كاملاً، ولو لم يكملوا العمل، وَغَفَرَ لَهُمْ مَا حَصَلَ مِنْهُمْ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي الْهَجْرَةِ وَغَيْرِهَا، وَلِهَذَا خَتَمَ هَذِهِ الْآيَةَ بِهَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ، فَقَالَ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾: يغفر للمؤمنين ما اقترفوه من الخطيئات، خصوصاً التائبين المنيبين إلى ربهم، رحيماً بجميع الخلق رحمة أوجدتهم وعافتهم ورزقتهم من المال والبنين والقوة وغير ذلك، رحيماً بالمؤمنين؛ حيث وفقهم للإيمان، وعلمهم من العلم ما يحصل به الإيقان، ويسر لهم أسباب السعادة والفلاح، وما به يدركون غاية الأرباح، وسيرون من رحمته وكرمه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فنسأل الله أن لا يحرمنا خيره بشر ما عندنا.

﴿وَإِذَا مَرَّيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلْيَسَّ عَلَيْكُمْ جُنَاحُ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنَّكُمْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ١١٤﴾ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَقَفَلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذَى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ١١٥﴾.

(١) في (ب): «يحصل».

﴿١٠١﴾ هَاتَانِ الْآيَتَانِ: أَوَّلُ فِي رَخْصَةِ الْقَصْرِ وَصَلَاةِ الْخَوْفِ، يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أَي: فِي السَّفَرِ، وَظَاهِرُ الْآيَةِ أَنَّهُ يَقْتَضِي التَّرْخُصَ فِي أَيِّ سَفَرٍ كَانَ، وَلَوْ كَانَ سَفَرٌ مَعْصِيَةً؛ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَخَالَفَ فِي ذَلِكَ الْجُمْهُورُ، وَهُمْ الْأُتَمَّةُ الثَّلَاثَةُ وَغَيْرُهُمْ، فَلَمْ يَجُوزُوا التَّرْخِصَ^(١) فِي سَفَرِ الْمَعْصِيَةِ؛ تَخْصِيصاً لِلآيَةِ بِالْمَعْنَى وَالْمُنَاسَبَةِ؛ فَإِنَّ الرِّخْصَةَ سَهُولَةً مِنَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ إِذَا سَافَرُوا أَنْ يَقْصُرُوا وَيَفْطَرُوا، وَالْعَاصِي بِسَفَرِهِ لَا يَنَاسِبُ حَالَهُ التَّخْفِيفَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾؛ أَي: لَا حَرَجٌ وَلَا إِثْمٌ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ. وَلَا يَنَافِي ذَلِكَ كَوْنُ الْقَصْرِ هُوَ الْأَفْضَلُ؛ لِأَنَّهُ نَفْيُ الْحَرَجِ إِزَالَةً لِبَعْضِ الْوَهْمِ الْوَاقِعِ فِي كَثِيرٍ مِنَ النَفُوسِ، بَلْ وَلَا يَنَافِي الْوَجُوبُ؛ كَمَا تَقَدَّمَ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ...﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، وَإِزَالَةً الْوَهْمِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ظَاهِرَةٌ؛ لِأَنَّ الصَّلَاةَ قَدْ تَقَرَّرَ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ وَجُوبُهَا عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ الثَّامَّةِ، وَلَا يَزِيلُ هَذَا عَنْ نَفُوسِ أَكْثَرِهِمْ إِلَّا بِذِكْرِ مَا يَنَافِيهِ. وَيَدُلُّ عَلَى أَفْضَلِيَةِ الْقَصْرِ عَلَى الْإِتِمَامِ أَمْرَانِ: أَحَدُهُمَا: مِلَازِمَةُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى الْقَصْرِ فِي جَمِيعِ أَسْفَارِهِ. وَالثَّانِي: أَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ التَّوَسُّعِ وَالتَّرْخِصِ وَالرَّحْمَةِ بِالْعِبَادِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رَخْصُهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: أَنْ تَقْصُرُوا الصَّلَاةَ: فِيهِ فَائِدَتَانِ: أَحَدَاهُمَا: أَنَّهُ لَوْ قَالَ: أَنْ تَقْصُرُوا الصَّلَاةَ؛ لَكَانَ الْقَصْرُ غَيْرَ مَنْضَبُطٍ بِحَدٍّ مِنَ الْحُدُودِ، فَرَبِّمَا ظَنُّ أَنَّهُ لَوْ قَصَرَ مَعْظَمُ الصَّلَاةِ وَجَعَلَهَا رُكْعَةً وَاحِدَةً؛ لِأَجْزَأ؛ فَاتِيَانِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿مِنَ الصَّلَاةِ﴾؛ لِيَدُلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْقَصْرَ مُحَدِّدٌ مَضْبُوطٌ مُرْجِعٌ فِيهِ إِلَى مَا تَقَرَّرَ مِنْ فِعْلِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ. الثَّانِيَةُ: أَنَّ ﴿مِنَ﴾ تَفِيدُ التَّبْعِيضَ؛ لِيَعْلَمَ بِذَلِكَ أَنَّ الْقَصْرَ لِبَعْضِ الصَّلَوَاتِ الْمَفْرُوضَاتِ لَا جَمِيعِهَا؛ فَإِنَّ الْفَجْرَ وَالْمَغْرِبَ لَا يُقْصَرَانِ، وَإِنَّمَا الَّذِي يُقْصَرُ الصَّلَاةُ الرَّبَاعِيَّةُ مِنْ أَرْبَعٍ إِلَى رَكْعَتَيْنِ.

فَإِذَا تَقَرَّرَ أَنَّ الْقَصْرَ فِي السَّفَرِ رَخْصَةٌ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ الْمَفْسِّرِينَ قَدْ اخْتَلَفُوا فِي هَذَا الْقَيْدِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يُفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، الَّذِي يَدُلُّ ظَاهِرُهُ أَنَّ الْقَصْرَ لَا يَجُوزُ إِلَّا بِوُجُودِ الْأَمْرَيْنِ كِلَيْهِمَا السَّفَرُ مَعَ الْخَوْفِ، وَيَرْجِعُ حَاصِلُ اخْتِلَافِهِمْ إِلَى أَنَّهُ هَلِ الْمَرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَنْ تَقْصُرُوا﴾: قَصْرُ الْعَدَدِ فَقَطْ أَوْ قَصْرُ الْعَدَدِ وَالصِّفَةِ؟

(١) فِي (ب): «التَّرْخِص».

فالإشكال إنما يكون على الوجه الأول. وقد أشكل هذا على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حتى سأل عنه النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! ما لنا نقصر الصلاة وقد أمنا؟ أي: والله يقول: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. فقال رسول الله ﷺ: «صدقة تصدق الله بها عليكم؛ فاقبلوا صدقته»^(١). أو كما قال. فعلى هذا يكون هذا القيد أتى به نظراً لغالب الحال التي كان النبي ﷺ وأصحابه عليها؛ فإن غالب أسفاره^(٢) أسفار جهاد.

وفيه فائدة أخرى: وهي بيان الحكمة والمصلحة في مشروعية رخصة القصر؛ فبين في هذه الآية أنه ما يتصور من المشقة المناسبة للرخصة، وهي اجتماع السفر والخوف، ولا يستلزم ذلك أن لا يقصر مع السفر وحده الذي هو مظنة المشقة. وأما على الوجه الثاني، وهو أن المراد بالقصر [هنا] قصر العدد والصفة؛ فإن القيد على بابيه؛ فإذا وجد السفر والخوف؛ جاز قصر العدد وقصر الصفة، وإذا وجد السفر وحده؛ جاز قصر العدد فقط، أو الخوف وحده؛ جاز قصر الصفة.

﴿١٠٢﴾ ولذلك أتى بصفة صلاة الخوف بعدها بقوله: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾؛ أي: صَلَّيْتَ بِهِمْ صَلَاةً تُقِيمُهَا وَتُتِمُّ مَا يَجِبُ فِيهَا وَيُلْزِمُ فَعْلَهُمْ مَا يَنْبَغِي لَكَ وَلَهُمْ فَعْلُهُ، ثم فسر ذلك بقوله: ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾؛ أي: وطائفة قائمة بإزاء العدو؛ كما يدل على ذلك ما يأتي. ﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾؛ أي: الذين معك؛ أي: أكملوا صلاتهم، وعبر عن الصلاة بالسجود؛ ليدل على فضل السجود وأنه ركن من أركانها، بل هو أعظم أركانها، ﴿فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يَصَلُّوا﴾: وهم الطائفة الذين قاموا إزاء العدو، ﴿فَلْيَصَلُّوا مَعَكَ﴾: ودل ذلك على أن الإمام يبقى بعد انصراف الطائفة الأولى منتظراً للطائفة الثانية؛ فإذا حضروا صَلَّى بِهِمْ مَا بَقِيَ مِنْ صَلَاتِهِ، ثم جلس ينتظرهم حتى يُكْمِلُوا صَلَاتَهُمْ، ثم يَسْلِمُ بِهِمْ. وهذا أحد الوجوه في صلاة الخوف؛ فإنها صَحَّتْ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٣) من وجوه كثيرة كلها جائزة.

وهذه الآية تدل على أن صلاة الجماعة فرض عين من وجهين:

أحدهما: أن الله تعالى أمر بها في هذه الحالة الشديدة وقت اشتداد الخوف من

(١) أخرجه مسلم (٦٨٦) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) في (ب): «أسفاره». (٣) زيادة على النسختين.

الأعداء وحذر مهاجمتهم؛ فإذا أوجبها في هذه الحالة الشديدة، فيجانبها في حالة الطمأنينة والأمن من باب أولى وأحرى.

والثاني: أن المصلين صلاة الخوف يتروكون فيها كثيراً من الشروط واللوازم، ويُعفى فيها عن كثير من الأفعال المبطلّة في غيرها، وما ذاك إلا لتأكد وجوب الجماعة؛ لأنّه لا تعارض بين واجبٍ ومستحبٍّ؛ فلولا وجوب الجماعة؛ لم تترك هذه الأمور اللازمة لأجلها.

وتدلّ الآية الكريمة على أن الأولى والأفضل أن يصلّوا بإمام واحد ولو تضمّن ذلك الإخلال بشيء لا يخلّ به لو صلّوها بعدة أئمة، وذلك لأجل اجتماع كلمة المسلمين واتّفاقهم وعدم تفرّق كلمتهم، وليكون ذلك أوقع هيبة في قلوب أعدائهم.

وأمر تعالى بأخذ السلاح والحذر في صلاة الخوف، وهذا وإن كان فيه حركة واشتغال عن بعض أحوال الصلاة؛ فإنّ فيه مصلحةً راجحةً، وهو الجمع بين الصلاة والجهاد والحذر من الأعداء الحريصين غاية الحرص على الإيقاع بالمسلمين والميل عليهم وعلى أمتعتهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾.

ثم إنّ الله عذّر من له عذر من مرض أو مطر أن يضع سلاحه، ولكن مع أخذ الحذر، فقال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً﴾، ومن العذاب المهين ما أمر الله به حزبه المؤمنين وأنصار دينه الموحّدين من قتلهم وقتالهم حيثما ثقفوهم، ويأخذوهم، ويحضّروهم، ويقعدوا لهم كلّ مرصّد، ويحذروهم في جميع الأحوال، ولا يغفلوا عنهم خشية أن ينال الكفار بعض مطلوبهم فيهم؛ فلهذا أعظم حمداً وثناءً على ما منّ به على المؤمنين وأيدهم بمعونته وتعاليمه التي لو سلّكوها على وجه الكمال؛ لم تهزم لهم راية، ولم يظهز عليهم عدوّ في وقت من الأوقات.

وقوله^(١): ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ﴾: يدلّ على أن هذه الطائفة تُكْمَل جميع صلاتها قبل ذهابهم إلى موضع الحارسين، وأنّ الرسول ﷺ يثبت منتظراً

(١) في (ب): «وفي قوله».

للطائفة الأخرى قبل السلام؛ لأنه أولاً ذكر أن الطائفة تقوم معه، فأخبر عن مصاحبتهم له، ثم أضاف الفعل بعد إليهم دون الرسول، فدل ذلك على ما ذكرناه. وفي قوله ﴿فلتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك﴾: دليل على أن الطائفة الأولى قد صلوا، وأن جميع صلاة الطائفة الثانية تكون مع الإمام حقيقة في ركعتهم الأولى وحكماً في ركعتهم الأخيرة، فيستلزم ذلك انتظار الإمام إياهم حتى يكملوا صلاتهم، ثم يسلم بهم. وهذا ظاهر للمتأمل.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾.

﴿١٠٣﴾ أي: فإذا فرغتم من صلاتكم صلاة الخوف وغيرها؛ فاذكروا الله في جميع أحوالكم وهيئاتكم، ولكن خُصَّت صلاة الخوف بذلك لفوائده:

منها: أن القلب صلاحه وفلاحه وسعادته بالإجابة إلى الله تعالى في المحبة وامتلاء القلب من ذكره والثناء عليه، وأعظم ما يحصل به هذا المقصود الصلاة التي حقيقتها أنها صلة بين العبد وبين ربه.

ومنها: أن فيها من حقائق الإيمان ومعارف الإيقان ما أوجب أن يفرضها الله على عباده كل يوم وليلة، ومن المعلوم أن صلاة الخوف لا تحصل فيها هذه المقاصد الحميدة بسبب اشتغال القلب والبدن، والخوف، فأمر بجبرها بالذكر بعدها.

ومنها: أن الخوف يوجب [من] قلق القلب وخوفه، ما هو مظنة لضعفه، وإذا ضَعُف القلب ضَعُف البدن عن مقاومة العدو. والذكر لله والإكثار منه من أعظم مقويات القلب.

ومنها: أن الذكر لله تعالى مع الصبر والثبات سبب للفلاح والظفر بالأعداء؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، فأمر بالإكثار منه في هذه الحال، إلى غير ذلك من الحكم.

وقوله: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾؛ أي: إذا أمنتُم من الخوف واطمأنت قلوبكم وأبدانكم؛ فأتوا صلاتكم على الوجه الأكمل ظاهراً وباطناً بأركانها وشروطها وخشوعها وسائر مكملاتها. ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾؛ أي: مفروضاً في وقته. فدل ذلك على فرضيتها وأن لها وقتاً لا تصح إلا

به، وهو هذه الأوقات التي قد تفرّرت عند المسلمين صغيرهم وكبيرهم عالمهم وجاهلهم وأخذوا ذلك عن نبيهم محمد ﷺ بقوله: «صلُّوا كما رأيتموني أصلي»^(١).

ودلّ قوله: ﴿على المؤمنين﴾: على أنّ الصلاة ميزان الإيمان، وعلى حسب إيمان العبد تكون صلاته وتتم وتكمل. ويدلّ ذلك على أن الكفار - وإن كانوا ملتزمين لأحكام المسلمين كأهل الذمة - أنهم لا يخاطبون بفروع الدين كالصلاة، ولا يؤمّرون بها، بل ولا تصحّ منهم ما داموا على كفرهم، وإن كانوا يعاقبون عليها وعلى سائر الأحكام في الآخرة.

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١١٤).

﴿١٠٤﴾ أي: لا تضعفوا ولا تكسلوا في ابتغاء عدوكم من الكفار؛ أي: في جهادهم والمرابطة على ذلك؛ فإنّ وهن القلب مستدع لوهن البدن، وذلك يضعف عن مقاومة الأعداء، بل كونوا أقوياء نشيطين في قتالهم. ثم ذكر ما يقوّي قلوب المؤمنين، فذكر شيئين:

الأول: أنّ ما يصيبكم من الألم والتعب والجراح ونحو ذلك؛ فإنه يصيب أعداءكم، فليس من المروءة الإنسانية والشهامة الإسلامية أن تكونوا أضعف منهم وأنتم وهم قد تساوتتم فيما يوجب ذلك؛ لأنّ العادة الجارية أنه لا يضعف إلا من توالى عليه الآلام، وانتصر عليه الأعداء على الدوام، لا من يُدال مرةً ويُدال عليه أخرى.

الأمر الثاني: أنكم ترجون من الله ما لا يرجون، فترجون الفوز بثوابه والنجاة من عقابه، بل خواص المؤمنين لهم مقاصدٌ غالية وآمال رفيعة من نصر دين الله وإقامة شرعه واتساع دائرة الإسلام وهداية الضالّين وقمع أعداء الدين؛ فهذه الأمور توجب للمؤمن المصدق زيادة القوة وتضاعف النشاط والشجاعة التامة؛ لأنّ من يقاتل ويصبر على نيل عزه الدنيويّ إن ناله ليس كمن يقاتل لنيل السعادة الدنيويّة والأخرويّة والفوز برضوان الله وجنته؛ فسبحان من فاوت بين العباد وفرق بينهم بعلمه وحكمته، ولهذا

(١) أخرجه البخاري (٦٠٠٨) من حديث مالك بن الحويرث.

قال: ﴿وكان الله عليمًا حكيمًا﴾: كامل العلم كامل الحكمة.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ لِنَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا (١٠٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الدِّينِ يُخْتَارُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَافًا أَشِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَاتِنْتَ هَتُولَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩) وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ عَفُورًا رَحِيمًا (١١٠) وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (١١٢) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) ﴿

﴿١٠٥﴾ يخبر تعالى أنه أنزل على عبده ورسوله الكتاب بالحق؛ أي: محفوظاً في إنزاله من الشياطين أن يتطرق إليه منهم باطل، بل نزل بالحق ومشملاً أيضاً على الحق؛ فأخباره صدق وأوامره ونواهيه عدل، ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾، وأخبر أنه أنزله ليحكم بين الناس، وفي الآية الأخرى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾، فيحتمل أن هذه الآية في الحكم بين الناس في مسائل النزاع والاختلاف، وتلك في تبين جميع الدين وأصوله وفروعه. ويحتمل أن الآيتين كليهما معناهما واحد، فيكون الحكم بين الناس هنا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأعراض والأموال وسائر الحقوق وفي العقائد وفي جميع مسائل الأحكام. وقوله: ﴿بما أراك الله﴾، أي: لا بهواك بل بما علمك الله وألهمك كقوله تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى﴾. وفي هذا دليل على عصمته ﷺ فيما يبلغ عن الله من جميع الأحكام وغيرها، وأنه يشترط في الحكم^(١) العلم والعدل؛ لقوله: ﴿بما أراك الله﴾، ولم يقل: بما رأيت. ورتب أيضاً الحكم بين الناس على معرفة الكتاب.

(١) في (ب): «الحاكم».

ولما أمر الله بالحكم بين الناس المتضمن للعدل والقسط؛ نهاه عن الجور والظلم الذي هو ضد العدل، فقال: ﴿ولا تكن للخائنين خصيماً﴾؛ أي: لا تخاصم عن من عرفت خيانتته من مدّع ما ليس له أو منكر حقاً عليه سواء علم ذلك أو ظنّه. ففي هذا دليل على تحريم الخصومة في باطل، والنيابة عن المبتل في الخصومات الدنيئة والحقوق الدنيوية، ويدل مفهوم الآية على جواز الدخول في نيابة الخصومة لمن لم يُعرف منه ظلم.

﴿١٠٦﴾ ﴿واستغفر الله﴾: مما صدر منك إن صدر. ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾؛ أي: يغفر الذنب العظيم لمن استغفره، وتاب إليه وأتاب، يوفقه للعمل الصالح بعد ذلك الموجب لثوابه وزوال عقابه.

﴿١٠٧﴾ ﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم﴾: الاختيان والخيانة بمعنى الجنائية والظلم والإثم، وهذا يشمل النهي عن المجادلة عن من أذنب وتوجّه عليه عقوبة من حد أو تعزير؛ فإنه لا يجادل عنه بدفع ما صدر منه من الخيانة أو بدفع ما ترتب على ذلك من العقوبة الشرعية. ﴿إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً﴾؛ أي: كثير الخيانة والإثم، وإذا انتفى الحب؛ ثبت ضده، وهو البغض، وهذا كالتعليل للنهي المتقدم.

﴿١٠٨﴾ ثم ذكر عن هؤلاء الخائنين أنهم ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول﴾: وهذا من ضعف الإيمان ونقصان اليقين أن تكون مخافة الخلق عندهم أعظم من مخافة الله فيحرصون بالطرق المباحة والمحترمة على عدم الفضيحة عند الناس، وهم مع ذلك قد بارزوا الله بالعظائم، ولم يبالوا بنظره وأطلاعه عليهم، وهو معهم بالعلم في جميع أحوالهم، خصوصاً في حال تبييتهم ما لا يرضيه من القول من تبرئة الجاني ورمي البريء بالجنائية والسعي في ذلك للرسول ﷺ ليفعل ما يبتوه؛ فقد جمّعوا بين عدة جنائيات، ولم يراقبوا رب الأرض والسموات المطلع على سرائرهم وضمائرهم، ولهذا توعدّهم تعالى بقوله: ﴿وكان الله بما يعملون محيطاً﴾؛ أي: قد أحاط بذلك علماً، ومع هذا لم يعاجلهم بالعقوبة، بل استأنى بهم، وعرض عليهم التوبة، وحذرهم من الإصرار على ذنبيهم الموجب للعقوبة البليغة.

﴿١٠٩﴾ ﴿ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً﴾؛ أي: هبكم جادلتم عنهم في هذه الحياة

الدنيا ودَفَعَ عنهم جدالكم بعض ما يحذرون^(١) من العار والفضيحة عند الخلق؛ فماذا يُعني عنهم وينفعهم؟! ومن يجادل الله عنهم يوم القيامة حين تتوجه عليهم الحجة وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون؟! يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين؛ فمن يجادل عنهم من يعلم السر وأخفى ومن أقام عليهم من الشهود ما لا يمكن معه الإنكار؟

وفي هذه الآية الإرشاد^(٢) إلى المقابلة بين ما يتوهم من مصالح الدنيا المترتبة على ترك أوامر الله أو فعل مناهيه وبين ما يفوت من ثواب الآخرة أو يخلص من عقوباتها، فيقول من أمرته نفسه بترك أمر الله: ها أنت تركت أمره كسلاً وتفريطاً؛ فما النفع الذي انتفعت به؟ وماذا فاتك من ثواب الآخرة؟ وماذا ترتب على هذا الترك من الشقاء والحرمان والخيبة والخسران؟ وكذلك إذا دعت نفسه إلى ما تشتهي من الشهوات المحرمة؛ قال لها: هبك فعلت ما اشتيت؛ فإن لذته تنقضي ويعقبها من الهموم والغموم والخسرات وفوات الثواب وحصول العقاب ما بعضه يكفي العاقل في الإحجام عنها، وهذا من أعظم ما ينفع العبد تدبره، وهو خاصة العقل الحقيقي؛ بخلاف من^(٣) يدعي العقل وليس كذلك؛ فإنه بجهله وظلمه يؤثر اللذة الحاضرة والراحة الراهنة، ولو ترتب عليها ما ترتب. والله المستعان.

﴿١١٠﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفوراً رحيماً﴾؛ أي: من تجرأ على المعاصي واقتحم على الإثم، ثم استغفر الله استغفاراً تاماً يستلزم الإقرار بالذنب والندم عليه والإقلاع والعزم على أن لا يعود؛ فهذا قد وعدّه من لا يخلف الميعاد بالمغفرة والرحمة، فيغفر له ما صدر منه من الذنب، ويزيل عنه ما ترتب عليه من النقص والعيب، ويعيد إليه ما تقدّم من الأعمال الصالحة، ويوفقه فيما يستقبله من عمره، ولا يجعل ذنبه حائلاً عن توفيقه؛ لأنه قد غفره، وإذا غفره؛ غفر ما يترتب عليه.

واعلم أن عمل السوء عند الإطلاق يشمل سائر المعاصي الصغيرة والكبيرة، وسُمي سوءاً لكونه يسوء عامله بعاقبته، ولكونه في نفسه سيئاً غير حسن، وكذلك ظلم النفس عند الإطلاق يشمل ظلمها بالشرك فما دونه، ولكن عند اقتران أحدهما

(٢) في (ب): «إرشاد».

(١) في (ب): «تحذرون».

(٣) في (ب): «الذي».

بِالْآخِرِ قَدْ يُفَسَّرُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِمَا يَنَاسِبُهُ، فَيُفَسَّرُ عَمَلُ السُّوءِ هُنَا بِالظُّلْمِ الَّذِي يَسُوءُ النَّاسَ، وَهُوَ ظَلَمُهُمْ فِي دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ، وَيُفَسَّرُ ظَلَمَ النَّفْسَ بِالظُّلْمِ وَالْمَعَاصِي الَّتِي بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ عَبْدِهِ، وَاسْمِي ظَلَمَ النَّفْسَ ظُلْمًا؛ لِأَنَّ نَفْسَ الْعَبْدِ لَيْسَتْ مُلْكًا لَهُ يَتَصَرَّفُ فِيهَا بِمَا يَشَاءُ، وَإِنَّمَا هِيَ مِلْكٌ لِلَّهِ تَعَالَى، قَدْ جَعَلَهَا أَمَانَةً عِنْدَ الْعَبْدِ، وَأَمْرُهُ أَنْ يُقِيمَهَا عَلَى طَرِيقِ الْعَدْلِ بِإِلْزَامِهَا لِلصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ عِلْمًا وَعَمَلًا، فَيَسْعَى فِي تَعْلِيمِهَا مَا أَمَرَ بِهِ، وَيَسْعَى فِي الْعَمَلِ بِمَا يَجِبُ، فَسَعِيهِ فِي غَيْرِ هَذَا الطَّرِيقِ ظَلَمٌ لِنَفْسِهِ وَخِيَانَةٌ وَعَدُولٌ بِهَا عَنِ الْعَدْلِ الَّذِي ضَدَّهُ الْجَوْرُ وَالظُّلْمُ.

﴿١١١﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾: وَهَذَا يَشْمَلُ كُلَّ مَا يُوْثَمُ مِنْ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ؛ فَمَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً؛ فَإِنْ عَقُوبَتُهَا الدُّنْيَوِيَّةُ وَالْآخِرِيَّةُ عَلَى نَفْسِهِ لَا تَتَعَدَّاهَا إِلَى غَيْرِهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾، لَكِنْ إِذَا ظَهَرَتِ السَّيِّئَاتُ فَلَمْ تُنْكَرْ؛ عَمَّتْ عَقُوبَتُهَا وَشَمَلَتْ إِثْمُهَا؛ فَلَا تَخْرُجُ أَيْضًا عَنْ حُكْمِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ؛ لِأَنَّ مَنْ تَرَكَ الْإِنْكَارَ الْوَاجِبَ؛ فَقَدْ كَسَبَ سَيِّئَةً، وَفِي هَذَا بَيَانُ عَدْلِ اللَّهِ وَحُكْمِيَّتِهِ أَنَّهُ لَا يَعَاقِبُ أَحَدًا بِذَنْبِ أَحَدٍ، وَلَا يَعَاقِبُ أَحَدًا أَكْثَرَ مِنْ الْعُقُوبَةِ النَّاشِئَةِ عَنْ ذَنْبِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾؛ أَيُّ: لَهُ الْعِلْمُ الْكَامِلُ وَالْحِكْمَةُ التَّامَّةُ، وَمَنْ عِلْمُهُ وَحُكْمِيَّتُهُ أَنَّهُ يَعْلَمُ الذَّنْبَ وَمَا صَدَرَ مِنْهُ وَالسَّبَبَ الدَّاعِيَ لِفَعْلِهِ وَالْعُقُوبَةَ الْمُرْتَبَةَ عَلَى فَعْلِهِ، وَيَعْلَمُ حَالَةَ الْمَذْنِبِ أَنَّهُ إِنْ صَدَرَ مِنْهُ الذَّنْبُ بِغَلْبَةِ دَوَاعِي نَفْسِهِ الْأُمَّارَةِ بِالسُّوءِ مَعَ إِنْابَتِهِ إِلَى رَبِّهِ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَوْقَاتِهِ: أَنَّهُ سَيَغْفِرُ لَهُ وَيُوفِّقُهُ لِلتَّوْبَةِ، وَإِنْ صَدَرَ مِنْهُ بِتَجَرُّثِهِ عَلَى الْمَحَارِمِ اسْتِخْفَافًا بِنَظَرِ رَبِّهِ وَتَهَاوُنًا بِعِقَابِهِ؛ فَإِنَّ هَذَا بَعِيدٌ مِنَ الْمَغْفِرَةِ بَعِيدٌ مِنَ التَّوْفِيقِ لِلتَّوْبَةِ.

﴿١١٢﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً﴾؛ أَيُّ: ذَنْبًا كَبِيرًا، ﴿أَوْ إِثْمًا﴾: مَا دُونَ ذَلِكَ، ﴿ثُمَّ يَزِمْ بِهِ﴾؛ أَيُّ: يَتَّهِمُ بِذَنْبِهِ ﴿بَرِيئًا﴾ مِنْ ذَلِكَ الذَّنْبِ وَإِنْ كَانَ مَذْنِبًا. ﴿فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾؛ أَيُّ: فَقَدْ حَمَلَ فَوْقَ ظَهْرِهِ بُهْتَانًا لِلْبَرِيِّ وَإِثْمًا ظَاهِرًا مُبِينًا. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ وَمَوْبِقَاتِهَا؛ فَإِنَّهُ قَدْ جُمِعَ عِدَّةُ مَفَاسِدٍ: كَسَبُ الْخَطِيئَةِ وَالْإِثْمِ، ثُمَّ رَمَى مَنْ لَمْ يَفْعَلْهَا بِفَعْلِهَا، ثُمَّ الْكَذْبُ الشَّنِيعُ بِتَبْرِئَةِ نَفْسِهِ وَاتِّهَامِ الْبَرِيِّ، ثُمَّ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْعُقُوبَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ تَنْدَفِعُ عَنْهُ وَجِبَتْ عَلَيْهِ وَتُقَامُ عَلَى مَنْ لَا يَسْتَحَقُّهَا، ثُمَّ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا مِنْ كَلَامِ النَّاسِ فِي الْبَرِيِّ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَفَاسِدِ الَّتِي نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ مِنْهَا وَمَنْ كُلُّ شَرٍّ.

﴿١١٣﴾ ثم ذكر مثته على رسوله بحفظه وعصمته ممن أراد أن يضلّه، فقال: ﴿ولولا فضلُ الله عليك ورحمتهُ لهُمّت طائفةٌ منهم أن يضلوك﴾: وذلك أن هذه الآيات الكريمة قد ذكر المفسرون^(١) أن سبب نزولها أن أهل بيت سرقوا في المدينة، فلما اطلع على سرقتهم؛ خافوا الفضيحة، وأخذوا سرقتهم، فرموا بيت من هو بريء من ذلك، واستعان السارق بقوميه أن يأتوا رسول الله ﷺ ويطلبوا منه أن يبرئ أصحابهم على رؤوس الناس، وقالوا: إنه لم يسرق وإنما الذي سرق من وجدت السرقة ببيته وهو البريء، فهم رسول الله ﷺ أن يبرئ أصحابهم، فأنزل الله هذه الآيات تذكيراً وتبييناً لتلك الواقعة وتحذيراً للرسول ﷺ من المخاصمة عن الخائنين؛ فإن المخاصمة عن المبطل من الضلال؛ فإن الضلال نوعان: ضلال في العلم وهو الجهل بالحق، وضلال في العمل وهو العمل بغير ما يجب؛ فحفظ الله رسوله عن هذا النوع من الضلال كما حفظه عن الضلال في الأعمال، وأخبر أن كيدهم ومكرهم يعود على أنفسهم كحالة كل ماكر، فقال: ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾؛ لكون ذلك المكر وذلك التحيل لم يحصل لهم فيه مقصودهم ولم يحصل لهم^(٢) إلا الخيبة والحرمان والإثم والخسران، وهذا نعمة كبيرة على رسوله ﷺ، يتضمن النعمة بالعمل، وهو التوفيق لفعل ما يجب والعصمة له عن كل محرم، ثم ذكر نعمته عليه بالعلم، فقال: ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾؛ أي: أنزل عليك هذا القرآن العظيم والذكر الحكيم الذي فيه تبيان كل شيء وعلم الأولين والآخرين.

والحكمة إما السنة التي قد قال فيها بعض السلف: إن السنة تنزل عليه كما ينزل القرآن، وإما معرفة أسرار الشريعة الزائدة على معرفة أحكامها وتنزيل الأشياء منازلها وترتيب كل شيء بحسبه. ﴿وعلمك ما لم تكن تعلم﴾: وهذا يشمل جميع ما علمه الله تعالى؛ فإنه ﷺ كما وصفه الله قبل النبوة بقوله: ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾، ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾، ثم لم يزل يوحى الله إليه ويعلمه ويكمله حتى ارتقى مقاماً من العلم يتعذر وصوله على الأولين والآخرين، فكان أعلم الخلق على الإطلاق وأجمعهم لصفات الكمال وأكملهم فيها، ولهذا قال: ﴿وكان فضلُ الله عليك عظيماً﴾؛ ففضله على الرسول محمد ﷺ أعظم من فضله

(١) انظر «تفسير الطبري» (١٧٦/٩) تحقيق أحمد شاكر، و«الدر المنثور» (٣٨٢/٢)، و«تفسير ابن كثير» (٤٩١/١).

(٢) في (ب): «له».

على كلِّ الخلق^(١)، وأجناس الفضل الذي قد فضّله الله به لا يمكن استقصاؤه ولا يتيسر إحصاؤه.

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ يَبْتَغِي النَّاسُ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١١٤).

﴿١١٤﴾ أي: لا خير في كثير مما يتناجى به الناس ويتخاطبون، وإذا لم يكن فيه خير؛ فإما لا فائدة فيه؛ كفضول الكلام المباح، وإما شرٌّ ومضرة محضة؛ كالكلام المحرّم بجميع أنواعه. ثم استثنى تعالى فقال: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾: من مال أو علم أو أي نفع كان، بل لعلّه يدخل فيه العبادات القاصرة؛ كالتسبيح والتحميد ونحوه؛ كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَفِي بَضْعٍ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ...»^(٢) الحديث. ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾: وهو الإحسان والطاعة وكلُّ ما عُرف في الشرع والعقل حسنه، وإذا أُطلق الأمرُ بالمعروف من غير أن يُقرنَ بالنهي عن المنكر؛ دخل فيه النهي عن المنكر؛ وذلك لأنَّ ترك المنهيات من المعروف، وأيضاً لا يتمُّ فعل الخير إلا بترك الشرِّ، وأما عند الاقتران؛ فيفسر المعروف بفعل المأمور والمنكر بترك المنهي.

﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾: والإصلاح لا يكون إلا بين متنازعين متخاصمين، والنزاع والخصام والتغاضب يوجب من الشرِّ والفرقة ما لا يمكن حصره؛ فلذلك حثَّ الشارع على الإصلاح بين الناس في الدماء والأموال والأعراض، بل وفي الأديان؛ كما قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ...﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾، والساعي في الإصلاح بين الناس أفضل من القانت بالصلاة والصيام والصدقة، والمصلح لا بدّ أن يُصلِّح الله سعيه وعمله؛ كما أنَّ الساعي في الإفساد لا يُصلِّح الله عمله ولا يتم له مقصوده؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾؛ فهذه الأشياء حيثما فعلت؛ فهي خير؛ كما دلَّ على ذلك الاستثناء،

(١) في (ب): «مخلوق».

(٢) أخرجه مسلم (١٠٠٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

ولكن كمال الأجر وتماحه بحسب النية والإخلاص. ولهذا قال: ﴿ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾؛ فهذا ينبغي للعبد أن يقصد وجه الله تعالى ويخلص العمل لله في كل وقت وفي كل جزء من أجزاء الخير؛ ليحصل له بذلك الأجر العظيم، وليتعود الإخلاص، فيكون من المخلصين. وليتم له الأجر، سواء تم مقصوده أم لا؛ لأن النية حصلت، واقترب بها ما يمكن من العمل.

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ۖ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝١١٦﴾.

﴿١١٥﴾ أي: ومن يخالف الرسول ﷺ ويعانده فيما جاء به، ﴿من بعد ما تبين له الهدى﴾: بالدلائل القرآنية والبراهين النبوية، ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾: وسبيلهم هو طريقهم في عقائدهم وأعمالهم، ﴿نوله ما تولى﴾؛ أي: نتركه وما اختاره لنفسه ونخذله؛ فلا نوقفه للخير؛ لكونه رأى الحق وعلمه وتركه؛ فجزاؤه من الله عدلاً أن يبقيه في ضلاله حائراً ويزداد ضلالاً إلى ضلاله؛ كما قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾، وقال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾.

ويدل مفهومها على أن من لم يشاقق الرسول ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾؛ بأن كان قصده وجه الله وأتباع رسوله ولزوم جماعة المسلمين، ثم صدر منه من الذنوب أو الهم بها ما هو من مقتضيات النفوس وغلبات الطباع؛ فإن الله لا يوليئه نفسه وشيطانه، بل يتداركه بلطفه ويمن عليه بحفظه ويعصمه من سوء؛ كما قال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾؛ أي: بسبب إخلاصه صرّفنا عنه السوء، وكذلك كل مخلص؛ كما يدل عليه عموم التعليل، وقوله: ﴿وتُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: نعذبه فيها عذاباً عظيماً. ﴿وساءت مصيراً﴾؛ أي: مرجعاً له ومالاً.

﴿١١٦﴾ وهذا الوعيد المترتب^(١) على الشقاق ومخالفة المؤمنين مراتب لا يحصيها إلا الله بحسب حالة الذنب صغراً وكبراً؛ فممنه ما يخلد في النار ويوجب

(١) في (ب): «المرتب».

جميع الخذلان، ومنه ما هو دون ذلك؛ فلعل الآية الثانية كالتفصيل لهذا المطلق، وهو أن الشرك لا يغفره الله تعالى؛ لتضمنه القدح في رب العالمين و [في] وحدانيته، وتسوية المخلوق الذي لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً بمن هو مالك النفع والضرر، الذي ما من نعمة إلا منه، ولا يدفع النقم إلا هو، الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه والغنى التام بجميع وجوه الاعتبار؛ فمن أعظم الظلم وأبعد الضلال عدم إخلاص العبادة لمن هذا شأنه وعظمته، وصرف شيء منها للمخلوق الذي ليس له من صفات الكمال شيء ولا له من صفات الغنى شيء، بل ليس له إلا العدم: عدم الوجود وعدم الكمال وعدم الغنى، والفقر من جميع الوجوه. وأما ما دون الشرك من الذنوب والمعاصي؛ فهو تحت المشيئة: إن شاء الله غفره برحمته وحكمته، وإن شاء عذب عليه وعاقب بعذله وحكمته.

وقد استدلل بهذه الآية الكريمة على أن إجماع هذه الأمة حجة، وأنها معصومة من الخطأ، ووجه ذلك أن الله توعد من خالف سبيل المؤمنين بالخذلان والنار، وسبيل المؤمنين مفرد مضاف يشمل سائر ما المؤمنون عليه من العقائد والأعمال؛ فإذا اتفقوا على إيجاب شيء أو استحبابه أو تحريمه أو كراهته أو إباحته؛ فهذا سبيلهم فمن خالفهم في شيء من ذلك بعد انعقاد إجماعهم عليه؛ فقد اتبع غير سبيلهم.

ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، ووجه الدلالة منها أن الله تعالى أخبر أن المؤمنين من هذه الأمة لا يأمرُونَ إلا بالمعروف؛ فإذا اتفقوا على إيجاب شيء أو استحبابه؛ فهو مما أمرُوا به، فيتعيَّن بنص الآية أن يكون معروفاً، ولا شيء بعد المعروف غير المنكر، وكذلك إذا اتفقوا على النهي عن شيء؛ فهو مما نهوا عنه، فلا يكون إلا منكراً.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، فأخبر تعالى أن هذه الأمة جعلها الله وسطاً؛ أي: عدلاً خياراً؛ ليكونوا شهداء على الناس؛ أي: في كل شيء؛ فإذا شهدوا على حكم بأن الله أمر به أو نهى عنه أو أباحه؛ فإن شهادتهم معصومة؛ لكونهم عالمين بما شهدوا به عادلين في شهادتهم؛ فلو كان الأمر بخلاف ذلك؛ لم يكونوا عادلين في شهادتهم ولا عالمين بها.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾؛ يفهم

منها أن ما لم يَتَنَازَعُوا فيه بل اتَّفَقُوا عليه أنهم غير مأمورين برده إلى الكتاب والسنة، وذلك لا يكون إلا موافقاً للكتاب والسنة، لا يكون مخالفاً. فهذه الأدلة ونحوها تفيد القطع أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة. ولهذا بين الله قبح ضلال المشركين بقوله:

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَّا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَاضَلْتَهُمْ وَلَآمَنَنْتَهُمْ وَلَأَمُرُّهُمْ وَلَا أَمُرُهُمْ فَلْيَعْبِرُوا بِخُلُقِ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾.

﴿١١٧ - ١١٨﴾ أي: ما يدعو هؤلاء المشركون من دون الله إلا إناثاً؛ أي: أوثاناً وأصناماً مسميات بأسماء الإناث؛ كالعزى ومناة ونحوهما. ومن المعلوم أن الاسم دال على المسمى؛ فإذا كانت أسماؤها أسماء مؤنثة ناقصة؛ دل ذلك على نقص المسميات بتلك الأسماء وفقدتها لصفات الكمال؛ كما أخبر الله تعالى في غير موضع من كتابه أنها لا تخلق ولا ترزق ولا تدفع عن عابديها بل ولا عن نفسها نفعا ولا ضرا ولا تنصُر أنفسها ممن يريدونها بسوء، وليس لها أسمع ولا أبصار ولا أفئدة؛ فكيف يُعبد من هذا وصفه ويترك الإخلاص لمن له الأسماء الحسنی، والصفات العليا، والحمد والكمال والمجد والجلال والعز والجمال والرحمة والبر والإحسان والافتراء بالخلق والتدبير والحكمة العظيمة في الأمر والتقدير؛ هل هذا إلا من أقبح القبيح الدال على نقص صاحبه وبلوغه من الخسة والدناءة أدنى ما يتصوره متصور أو يصفه واصف؟! ومع هذا^(١) فعبادتهم إنما صورتها فقط لهذه الأوثان الناقصة، وبالحقيقة ما عبدوا غير الشيطان الذي هو عدوهم، الذي يريد إهلاكهم، ويسعى في ذلك بكل ما يقدر عليه، الذي هو في غاية البعد من الله، لعنه الله وأبعده عن رحمته؛ فكما أبعده الله من رحمته، يسعى في إبعاد العباد عن رحمة الله، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير.

ولهذا أخبر الله عن سعيه في إغواء العباد، وتزيين الشر لهم، والفساد، وأنه قال

(١) في (ب): «ذلك».

لربّه مقسماً: ﴿لَا تَخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً﴾؛ أي: مقدّراً، علم اللعين أنه لا يقدر على إغواء جميع عباد الله، وأن عباد الله المخلصين ليس له عليهم سلطان، وإنما سلطانه على من تولّاه وآثر طاعته على طاعة مولاه. وأقسم في موضع آخر لِيُغَوِّيَهُمْ أَجْمَعِينَ؛ إلّا عبادك منهم المُخْلِصِينَ؛ فهذا الذي ظنه الخبيث، وجزم به، أخبر الله تعالى بوقوعه بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿١١٩﴾ وهذا النصيب المفروض الذي أقسم لله أنهم يتخذهم^(١)؛ ذَكَرَ ما يريد بهم، وما يقصده لهم بقوله: ﴿وَلَا ضِلَّيْنَهُمْ﴾؛ أي: عن الصراط المستقيم ضلالاً في العلم وضلالاً في العمل، ﴿وَلَا مُتَّبِعِينَ﴾؛ أي: مع الإضلال لَأَمْتِيئَهُمْ أَنْ يَنَالُوا ما ناله المهتدون، وهذا هو الغرور بعينه، فلم يقتصر على مجرد إضلالهم، حتى زين لهم ما هم فيه من الضلال، وهذا زيادة شر إلى شرهم، حيث عملوا أعمال أهل النار الموجبة للعقوبة، وحسبوا أنها موجبة للجنة. واعتبر ذلك باليهود والنصارى ونحوهم؛ فإنهم كما حكى الله عنهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾، وكذلك زيناً لكل أمة عملهم، ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صَنِعاً...﴾ الآية، وقال تعالى عن المنافقين: إِنَّهُمْ يَقُولُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا مُرْتَنَهُمْ فَلْيُبَيِّنَنَّ أَذَانَ الْأَنْعَامِ﴾؛ أي: بتقطيع آذانها، وذلك كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فنبّه ببعض ذلك على جمعيه، وهذا نوع من الإضلال يقتضي تحريم ما أحلّ الله، أو تحليل ما حرّم الله، ويلتحق بذلك من الاعتقادات الفاسدة والأحكام الجائرة ما هو من أكبر الإضلال. ﴿وَلَا مُرْتَنَهُمْ فَلْيُغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾: وهذا يتناول [تغيير] الخلقة الظاهرة بالوشم والوشر والنمص والتفلج للحسن، ونحو ذلك مما أغواهم به الشيطان، فغيروا خلقة الرحمن، وذلك يتضمّن التسخّط من خلقته، والقدح في حكمته واعتقاد أنّ ما يصنعونه بأيديهم أحسن من خلقة الرحمن، وعدم الرضا بتقديره وتدبيره، ويتناول أيضاً تغيير الخلقة الباطنة؛ فإن الله

(١) كذا في «النسختين» وفي هامش (أ) عدلت إلى: «الذي أقسم ليتخذه منهم» بخط مغاير.

تعالى خَلَقَ عباده حنفاء، مفطورين على قَبول الحقِّ وإِثْارِهِ، فجاءتهم الشياطين، فاجتالتهم عن هَذَا الخَلْقِ الجميل، وزَيَّنَتْ لَهُمُ الشَّرَّ والشُّرْكَ والكُفْرَ والفسوق والعصيان؛ فَإِنَّ كُلَّ مولود يولد على الفطرة، ولكن أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ونحو ذلك مما يغيرون به، ما فَطَرَ اللَّهُ عليه العباد من توحيدِهِ وَحَبِّهِ ومعرفته، فافتَرستهم الشياطينُ في هَذَا الموضعِ افتراس السبعِ والذئبِ للغنمِ المنفردة، لولا لطفُ اللَّهِ وكرَمُهُ بعباده المخلصين؛ لَجَرى عليهم ما جرى على هؤلاء المفتونين، وهَذَا الذي جرى عليهم من تَوَلَّيْهِمُ عن رَبِّهِمْ وفاطرهم^(١) وتَوَلَّيْهِمُ لعدوِّهِم المريد لهم الشرَّ من كل وجه، فخرسوا الدُّنْيَا والآخرة، ورجعوا بالخبيثة والصفقة الخاسرة، ولَهَذَا قال: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خَسِرَانًا مُبِينًا﴾، وَأَيُّ خَسَارٍ أَبِينِ وَأَعْظَمُ مِمَّنْ خَسِرَ دينه ودُنْيَاهُ وأُوبِقَتْهُ معاصيه وخطاياهُ فحصل له الشقاءُ الأبدِيُّ وفاته النعيم السرمديُّ؟! كما أَنَّ مَنْ تَوَلَّى مولاه، وآثر رضاه، رَبَّحَ كُلَّ الرُّبْحِ، وأفلح كُلَّ الفلاح، وفاز بسعادة الدارين، وأصبح قَرِيرَ العين. فلا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، اللهم! تَوَلَّنَا فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وعافنا فِيمَنْ عَافَيْتَ.

﴿١٢٠﴾ ثم قال: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ﴾؛ أَي: يعد الشيطانُ مَنْ يسعى في إضلالهم والوعد يشمل حتى الوعيد؛ كما قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾؛ فَإِنَّهُ يَعِدُهُمْ إِذَا أَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ افْتَقَرُوا، وَيَخَوْفُهُمْ إِذَا جَاهَدُوا بِالْقَتْلِ وغيره؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ...﴾ الآية، وَيَخَوْفُهُمْ عِنْدَ إِثْارِ مَرْضَاةِ اللَّهِ بِكُلِّ مَا يُمْكِنُ وَمَا لَا يُمْكِنُ مما يدخله في عقولهم حتى يكسلوا عن فعل الخير، وكذلك يَمْنِيهِمُ الأُمَانِي الباطلة التي هي عند التحقيق كالسراب الذي لا حقيقة له، وَلَهَذَا قال: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

﴿١٢١﴾ ﴿أُولَئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾؛ أَي: مَنْ انقاد للشيطانِ وأعرض عن رَبِّهِ وصار من أتباع إبليس وحزبه مستقرهم النار، ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾؛ أَي: مَخْلَصًا وَلَا مَلْجَأً، بل هم خالدون فيها أَبَدَ الآبَادِ.

ولما بَيَّنَّ مَالُ الْأَشْقِيَاءِ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ؛ ذَكَرَ مَالُ السُّعْدَاءِ أَوْلِيَاءِهِ فَقَالَ:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾.

(١) في (ب): «وفاطرهم».

﴿١٢٢﴾ أي: ﴿آمنوا﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره على الوجه الذي أمروا به علماً وتصديقاً وإقراراً. ﴿وعملوا الصالحات﴾: الناشئة عن الإيمان، ولهذا يشمل سائر المأمورات من واجب ومستحب؛ الذي على القلب، والذي على اللسان، والذي على بقية الجوارح؛ كل له من الثواب المرتب على ذلك بحسب حاله ومقامه وتكميله للإيمان والعمل الصالح، ويقوُّته ما رُتب على ذلك بحسب ما أُخِلَّ به من الإيمان والعمل، وذلك بحسب ما علم من حكمة الله ورحمته، وكذلك وعده الصادق الذي يُعرَف من تتبُّع كتاب الله وسنة رسوله، ولهذا ذكر الثواب المرتب على ذلك بقوله: ﴿سنُدْخِلُهُمْ جنات تجري من تحتها الأنهار﴾: فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؛ من أنواع المآكل والمشارب اللذيذة، والمناظر العجيبة، والأزواج الحسنة، والقصور والغرف المزخرفة، والأشجار المتدلية، والفواكه المستغربة، والأصوات الشجيّة، والنعم السابغة، وتزاور الإخوان وتذكُّرهم ما كان منهم في رياض الجنان، وأعلى من ذلك [كُلُّه] وأجل؛ رضوان الله عليهم وتمتُّع الأرواح بقربه والعيون برؤيته والأسماع بخطابه الذي يُنسيهم كلَّ نعيم وسرور، ولولا الثبات من الله لهم؛ لطاروا وماتوا من الفرح والحبور؛ فله ما أحلى ذلك النعيم! وما^(١) أعلى ما أنالهم الربُّ الكريم! وما حصل لهم من كل خير وبهجة لا يصفه الواصفون! وتمام ذلك وكماله الخلود الدائم في تلك المنازل العاليات.

ولهذا قال: ﴿خالدين فيها أبداً وَغَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾: فصدق الله العظيم الذي بلغ قوله وحديثه في الصدق أعلى ما يكون، ولهذا لما كان كلامه صدقاً، وخبره صدقاً^(٢)؛ كان ما يدلُّ عليه مطابقةً وتضمناً وملازمةً؛ كل ذلك مراد من كلامه، وكذلك كلام رسوله ﷺ؛ لكونه لا يخبر إلا بأمره ولا ينطق إلا عن وحيه.

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿١٢٣﴾ أي: ﴿ليس﴾ الأمر والنجاة والتركية ﴿بأمانيتكم ولا أمانتي أهل

(٢) في (ب): «حقاً».

(١) في (ب): «وماذا».

الكتاب ﴿١﴾، والأمانِي أحاديث النفس المجردة عن العمل المقترِن بها دعوى مجرّدة، لو عُوِضت بمثلها؛ لكانت من جنسها، وهذا عامٌ في كلِّ أمر؛ فكيف بأمر الإيمان والسعادة الأبدية؛ فإنَّ أمانِي أهل الكتاب قد أخبر الله بها أنهم ﴿قالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانِيهم﴾، وغيرهم ممَّن ليس ينتسب لكتاب ولا رسول من باب أولى وأحرى، وكذلك أدخل الله في ذلك من ينتسب إلى الإسلام لكمال العدل والإنصاف؛ فإنَّ مجرد الانتساب إلى أيِّ دين كان لا يفيد شيئاً إن لم يأت الإنسان ببرهانٍ على صحة دعواه؛ فالأعمال تُصدَّق الدعوى أو تكذبها. ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سَوْأً يُجْزَ بِهِ﴾: وهذا شامل لجميع العاملين؛ لأنَّ السوء شاملٌ لأيِّ ذنب كان^(١) من صفائر الذنوب وكبائرها، وشاملٌ أيضاً لكل جزاء؛ قليل أو كثير، دنيويٍّ أو أخرويٍّ، والناس في هذا المقام درجات لا يعلمها إلا الله؛ فمستقلٌّ ومستكثرٌ؛ فمن كان عمله كلُّه سوءاً، وذلك لا يكون إلا كافراً؛ فإذا مات من دون توبة؛ جوزي بالخلود في العذاب الأليم، ومن كان عمله صالحاً وهو مستقيمٌ في غالب أحواله، وإنَّما يصدر منه أحياناً^(٢) بعض الذنوب الصغار فما يصيبه من الهمِّ والغمِّ والأذى وبعض الآلام في بدنه، أو قلبه، أو حبيبه، أو ماله ونحو ذلك؛ فإنها مكفّرات للذنوب؛ وهي مما يجزى به على عمله، قيسها الله لطفاً بعباده.

وبين هذين الحالين مراتبٌ كثيرة، وهذا الجزاء على عمل السوء العام مخصوصٌ في غير التائبين؛ فإنَّ التائب من الذنب كمن لا ذنب له؛ كما دلَّت على ذلك النصوص.

وقوله: ﴿وَلَا يَجْزِلُهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾: لإزالة بعض ما لعله يتوهم أن من استحقَّ المجازاة على عمله قد يكون له وليٌّ أو ناصر أو شافع يدفع عنه ما استحقَّه، فأخبر تعالى بانتفاء ذلك، فليس له وليٌّ يحصل له المطلوب ولا نصير يدفع عنه المرهوب؛ إلا ربُّه ومليكه.

﴿١٢٤﴾ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾: دخل في ذلك سائر الأعمال القلبية والبدنية، ودخل أيضاً كلُّ عامل؛ من إنس أو جنٍّ، صغير أو كبير، ذكر أو أنثى. ولهذا قال: ﴿مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: وهذا شرط لجميع الأعمال، لا تكون صالحة ولا تُقبل ولا يترتب عليها الثواب ولا يندفع بها العقاب إلا بالإيمان؛

(٢) في (ب): «بعض الأحيان».

(١) في (ب): «لأي سوء كان».

فالأعمال بدون الإيمان كأغصان شجرة قُطِعَ أصلُها، وكنباء بني على موج الماء؛ فالإيمان هو الأصل والأساس والقاعدة التي يُبْنَى عليه كل شيء، وهذا القيد ينبغي التفطن له في كل عمل مطلق^(١)؛ فإنه مقيّد به. ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾؛ أي: الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾: المشتملة على ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾؛ أي: لا قليلاً ولا كثيراً مما عملوه من الخير، بل يجدونه كاملاً موفراً مضاعفاً أضعافاً كثيرة.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (١٢٥).

﴿١٢٥﴾ أي: لا أحد أحسن من دين من جمع بين الإخلاص للمعبود، وهو إسلام الوجه لله الدالّ على استسلام القلب، وتوجّبه وإنابته وإخلاصه وتوجّه الوجه وسائر الأعضاء لله. ﴿وهو﴾: مع هذا الإخلاص والاستسلام ﴿محسن﴾؛ أي: متّبع لشريعة الله التي أرسل بها رسله وأنزل كتبه وجعلها طريقاً لخواص خلقه وأتباعهم، ﴿واتّبع مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾؛ أي: دينه وشرعه ﴿حنيفاً﴾؛ أي: مائلاً عن الشرك إلى التوحيد وعن التوجّه للخلق إلى الإقبال على الخالق، ﴿واتّخذ الله إبراهيم خليلاً﴾: والخُلّة أعلى أنواع المحبة، وهذه المرتبة حصلت للخليلين محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وأما المحبّة من الله؛ فهي لعموم المؤمنين، وإنّما اتّخذ الله إبراهيم خليلاً؛ لأنّه وفّى بما أمر به، وقام بما ابتلي به، فجعله الله إماماً للناس، واتّخذته خليلاً، ونوّه بذكره في العالمين.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ (١٢٦).

﴿١٢٦﴾ وهذه الآية الكريمة فيها بيان إحاطة الله تعالى بجميع الأشياء، فأخبر أنّه له ﴿ما في السمّوات وما في الأرض﴾؛ أي: الجميع ملكه وعبيده؛ فهم المملوكون وهو المالك المتفرد بتدبيرهم، وقد أحاط علمه بجميع المعلومات، وبصره بجميع المبصرات وسمعه بجميع المسموعات ونفذت مشيئته وقدرته بجميع الموجودات ووَسَّعَتْ رحمته أهل الأرض والسمّوات، وقهر بعزّة وقهره كل مخلوق، ودانت له جميع الأشياء.

(١) في (ب): «أطلق».

﴿وَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتْلَىٰ
النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ
تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾ .

﴿١٢٧﴾ الاستفتاء طلبُ السائل من المسؤول بيان الحكم الشرعي في ذلك
المسؤول عنه، فأخبر عن المؤمنين أنهم يستفتون الرسول ﷺ في حكم النساء
المتعلق بهم، فتولَّى الله هذه الفتوى بنفسه، فقال: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾؛
فاعملوا على ما أفتاكم به في جميع شؤون النساء من القيام بحقوقهن وترك ظلمهن
عموماً وخصوصاً، وهذا أمرٌ عام يشمل جميع ما شرع الله أمراً ونهياً في حق النساء
الزوجات وغيرهن الصغار والكبار، ثم خصَّ بعد التعميم الوصية بالضعاف من
اليتامى والولدان اهتماماً بهم وزجراً عن التفريط في حقوقهم، فقال: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ
عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾؛ أي: ويُفْتِيكُمْ أيضاً بما يتلى عليكم في
الكتاب في شأن اليتامى من النساء، ﴿الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾: وهذا إخبار
عن الحالة الموجودة الواقعة في ذلك الوقت؛ فإنَّ اليتيمة إذا كانت تحت ولاية
الرجل؛ بخسها حقها، وظلمها إمّا بأكل مالها الذي لها، أو بعضه، أو منعه من
التزوُّج؛ لينتفع بمالها خوفاً من استخراجه من يده إن زوّجها، أو يأخذ من صهرها
الذي تتزوَّج به بشرطٍ أو غيره، هذا إذا كان راغباً عنها، أو يرغب فيها وهي ذات
جمال ومال ولا يُقْسَطُ في مهرها، بل يعطيها دون ما تستحق؛ فكلُّ هذا ظلمٌ يدخل
تحت هذا النص، ولهذا قال: ﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾؛ أي: ترغبون عن
نكاحهن أو في نكاحهن كما ذكرنا تمثيلاً.

﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾؛ أي: ويُفْتِيكُمْ في المستضعفين من الولدان الصغار
أن تُعْطَوْهُم حَقَّهُم من الميراث وغيره، وأن لا تستولوا على أموالهم على وجه
الظلم والاستبداد، ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: بالعدل التام، وهذا يشمل
القيام عليهم بالزمامهم أمر الله وما أوجبه على عباده، فيكون الأولياء مكلفين بذلك
يلزمونهم بما أوجبه الله، ويشمل القيام عليهم في مصالحهم الدنيوية بتنمية أموالهم
وطلب الأخط لهم فيها وأن لا يقربوها إلا بالتتي هي أحسن، وكذلك لا يُحابون
فيهم صديقاً ولا غيره في تزوُّج وغيره على وجه الهضم لحقوقهم، وهذا من رحمته
تعالى بعباده؛ حيث حثَّ غاية الحث على القيام بمصالح مَنْ لا يقوم بمصلحة نفسه
لضعفه وفقد أبيه.

ثم حثَّ على الإحسان عموماً، فقال: ﴿وما تفعلوا من خير﴾: لليتامى وغيرهم، سواء كان الخير متعدياً أو لازماً، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً﴾؛ أي: قد أحاط علمه بعمل العاملين للخير، قلَّةً وكثرةً، حسناً وضده، فيجازي كلًّا بحسب عمله.

﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

﴿١٢٨﴾ أي: إذا خافت المرأة نشورَ زوجها؛ أي: ترفعه عنها وعدم رغبته فيها وإعراضه عنها؛ فالأحسن في هذه الحالة أن يُصلحا بينهما صلحاً؛ بأن تسمح المرأة عن بعض حقوقها اللازمة لزوجها على وجهٍ تبقى مع زوجها إما أن ترضى بأقلَّ من الواجب لها من النفقة أو الكسوة أو المسكن أو القسم؛ بأن تُسقط حقها منه أو تَهَبَ يومها وليلتها لزوجها أو لضررتها؛ فإذا اتَّفقا على هذه الحالة؛ فلا جناح ولا بأس عليهما فيها، لا عليها ولا على الزوج، فيجوز حينئذٍ لزوجها البقاء معها على هذه الحال، وهي خير من الفرقة، ولهذا قال: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.

ويؤخذ من عموم هذا اللفظ والمعنى أنَّ الصُّلْحَ بين من بينهما حقٌّ أو منازعة في جميع الأشياء أنه خيرٌ من استقصاء كلٍّ منهما على كلِّ حقٍّ لما فيها من الإصلاح وبقاء الألفة والاتِّصاف بصفة السماح، وهو جائزٌ في جميع الأشياء؛ إلا إذا أحلَّ حراماً أو حرَّم حلالاً؛ فإنه لا يكون صلحاً، وإنَّما يكون جوراً، واعلم أنَّ كلَّ حكم من الأحكام لا يتمُّ ولا يكملُ إلا بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه؛ فمن ذلك هذا الحكم الكبير الذي هو الصلح، فذكر تعالى المقتضي لذلك، ونَبَّه على أنه خيرٌ، والخير كلُّ عاقل يطلبه ويرغب فيه؛ فإنَّ كان مع ذلك قد أمر الله به وحثَّ عليه؛ ازداد المؤمن طلباً له ورغبةً فيه، وذكر المانع بقوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾؛ أي: جُبِلَتِ النفوس على الشُّحِّ، وهو عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له؛ فالنفوس مجبولة على ذلك طبعاً؛ أي: فينبغي لكم أن تحرصوا على قلع هذا الخُلُقِ الدنيء من نفوسكم، وتستبدلوا به ضده، وهو السماحة، وهو بذل الحق الذي عليك، والاعتناء ببعض الحق الذي لك؛ فمتى وُفِّق الإنسان لهذا الخلق الحسن؛ سهل حينئذٍ عليه الصلحُ بينه وبين خصمه ومعامله، وتسهَّلت الطريق للوصول إلى المطلوب؛ بخلاف من لم يجتهد في إزالة

الشُّخ من نفسه؛ فإنه يعسر عليه الصلح والموافقة؛ لأنه لا يرضيه إلا جميع ما له، ولا يرضى أن يؤذي ما عليه؛ فإن كان خصمه مثله، اشتد الأمر.

ثم قال: ﴿وإن تحسنوا وتتقوا﴾؛ أي: تحسنوا في عبادة الخالق؛ بأن يعبد العبد ربه كأنه يراه؛ فإن لم يكن يراه؛ فإنه يراه، وتحسنوا إلى المخلوقين بجميع طرق الإحسان من نفع بمال أو علم أو جاه أو غير ذلك، وتتقوا الله بفعل جميع الأمور وترك جميع المحظورات^(١)، أو تحسنوا بفعل الأمور وتتقوا بترك المحظور؛ ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾: قد أحاط به علماً وخبراً بظاهريه وباطنيه فيحفظه لكم ويجازيكم عليه أتم الجزاء.

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ الْإِنْسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝﴾.

﴿١٢٩﴾ يخبر تعالى أن الأزواج لا يستطيعون وليس في قدرتهم العدل التام بين النساء، وذلك لأن العدل يستلزم وجود المحبة على السواء، والداعي على السواء، والميل في القلب إليهن على السواء، ثم العمل بمقتضى ذلك، وهذا متعذر غير ممكن؛ فلذلك عفا الله عما لا يستطيع^(٢) ونهى عما هو ممكن بقوله: ﴿فلا تميلوا كل الميل فتدروها كالمعلقة﴾؛ أي: لا تميلوا ميلاً كثيراً بحيث لا تؤذون حقوقهن الواجبة، بل افعلوا ما هو باستطاعتكم من العدل؛ فالنفقة والكسوة والقسم ونحوها عليكم أن تعدلوا بينهن فيها؛ بخلاف الحب والوطة ونحو ذلك؛ فإن الزوجة إذا ترك زوجها ما يجب لها؛ صارت كالمعلقة التي لا زوج لها فتستريح وتستعد للزوج، ولا ذات زوج يقوم بحقوقها. ﴿وإن تصلحوا﴾ ما بينكم وبين زوجاتكم بإجبار أنفسكم على فعل ما لا تهواه النفس احتساباً وقياماً بحق الزوجة، وتصلحوا أيضاً فيما بينكم وبين الناس، وتصلحوا أيضاً بين الناس فيما تنازعوا فيه، وهذا يستلزم الحث على كل طريق يوصل إلى الصلح مطلقاً كما تقدم. ﴿وتتقوا﴾: الله بفعل الأمور وترك المحظور والصبر على المقدور، ﴿فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾: يغفر ما صدر منكم من الذنوب والتقصير في الحق الواجب، ويرحمكم كما عطفتم على أزواجكم ورحمتوهن.

﴿وإن ينفرقا يُقِنَّ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ۝﴾.

(١) في (ب): «المحظور».

(٢) كذا في (ب)، وفي (أ): «لا يستطيع».

﴿١٣٠﴾ هذه الحالة الثالثة بين الزوجين إذا تعدّر الاتفاق؛ فإنه لا بأس بالفراق، فقال: ﴿وإن يتفرقا﴾؛ أي: بطلاق أو فسخ أو خلع أو غير ذلك، ﴿يُغْنِ اللَّهَ كلاً﴾: من الزوجين ﴿من سَعَتِهِ﴾؛ أي: من فضله وإحسانه الواسع الشامل، فيغني الزوج بزوجة خير له منها، ويغنيها من فضله، وإن انقطع نصيبها من زوجها؛ فإن رزقها على المتكفل بأرزاق جميع الخلق، القائم بمصالحهم، ولعلّ الله يرزقها زوجاً خيراً منه. ﴿وكان الله واسعاً﴾؛ أي: كثير الفضل واسع الرحمة، وصلت رحمته وإحسانه إلى حيث وصل إليه علمه، ولكنه مع ذلك ﴿حكيماً﴾؛ أي: يعطي بحكمته ويمنع لحكمته؛ فإذا اقتضت حكمته منع بعض عبادِهِ من إحسانه بسبب من العبد لا يستحقّ معه الإحسان؛ حرّمه عدلاً وحكمة.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾﴾.

﴿١٣١ - ١٣٢﴾ يخبر تعالى عن عموم ملكه العظيم الواسع المستلزم تدبيره بجميع أنواع التدبير وتصرفه بأنواع التصريف قدراً وشرعاً؛ فتصرفه الشرعي أن وصّى الأولين والآخرين أهل الكتب السابقة والأحقّة بالتقوى المتضمنة للأمر والنهي وتشريع الأحكام والمجازاة لمن قام بهذه الوصيّة بالشواب والمعاقبة لمن أهملها وضيعها بالليم العذاب، ولهذا قال: ﴿وإن تكفروا﴾: بأن تركوا تقوى الله وتشركوا بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً؛ فإنكم لا تضرّون بذلك إلا أنفسكم، ولا تضرّون الله شيئاً، ولا تنقصون ملكه، وله عبيدٌ خير منكم وأعظم وأكثر، مطيعون له خاضعون لأمره، ولهذا ربّب على ذلك قوله: ﴿وإن تكفروا فإنّ لله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً﴾: له الجود الكامل والإحسان الشامل الصادر من خزائن رحمته التي لا ينقُصها الإنفاق ولا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، لو اجتمع أهل السماوات وأهل الأرض أولهم وآخرهم، فسأل كل واحد منهم ما بلغت أمانيه، ما نقّص من ملكه شيئاً، ذلك بأنّه جوادٌ واجدٌ ماجدٌ، عطاؤه كلامٌ، وعذابه كلامٌ، إنما أمره لشيء إذا أراد أن يقول له كُن فيكون، ومن تمام غناه أنّه كامل الأوصاف؛ إذ لو كان فيه نقصٌ بوجه من الوجوه؛ لكان فيه نوع افتقارٍ إلى ذلك الكمال، بل له كلُّ صفة كمال، ومن تلك الصفة كمالها.

ومن تمام غناه أنّه لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً ولا شريكاً في ملكه ولا ظهيراً ولا

معاوناً له على شيء من تدابير ملكه، ومن كمال غناه افتقار العالم العلوي والسفلي في جميع أحوالهم وشؤونهم إليه وسؤالهم إياه جميع حوائجهم الدقيقة والجليلة، فقام تعالى بتلك المطالب والأسئلة، وأغناهم وأقناهم ومنّ عليهم بلطفه وهداهم.

وأما الحميد؛ فهو من أسماء الله تعالى الجليلة، الدال على أنه هو المستحق لكل حمدٍ ومحبةٍ وثناءٍ وإكرام، وذلك لما اتّصف به من صفات الحمد التي هي صفة الجمال والجلال، ولما أنعم به على خلقه من النعم الجزال؛ فهو المحمود على كل حال.

وما أحسن اقتران هذين الاسمين الكريمين: الغني الحميد؛ فإنه غني محمود؛ فله كمالٌ من غناه وكمالٌ من حمده وكمالٌ من اقتران أحدهما بالآخر، ثم كرّر إحاطة ملكه لما في السماوات و[ما في] الأرض، وأنه على كل شيء وكيل؛ أي: عالم قائم بتدبير الأشياء على وجه الحكمة؛ فإنّ ذلك من تمام الوكالة؛ فإنّ الوكالة تستلزم العلم بما هو وكيلٌ عليه، والقوّة والقدرة على تنفيذه وتدبيره، وكون ذلك التدبير على وجه الحكمة والمصلحة؛ فما نقص من ذلك؛ فهو لنقص الوكيل، والله تعالى منزّه عن كل نقص.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ .

﴿١٣٣﴾ أي: هو الغني الحميد الذي له القدرة الكاملة والمشئنة النافذة فيكم. ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾: غيركم هم أطوع لله منكم وخير منكم. وفي هذا تهديد للناس على إقامتهم على كفرهم وإعراضهم عن ربهم؛ فإنّ الله لا يعبا بهم شيئاً إن لم يطيعوه، ولكنّه يُنْهَلُ ويملي ولا يُنْهَلُ.

﴿١٣٤﴾ ثم أخبر أنّ من كانت همّته وإرادته دنيّة غير متجاوزة ثواب الدنيا، وليس له إرادة في الآخرة؛ فإنه قد قَصَرَ سعيه ونظره، ومع ذلك؛ فلا يحصل له من ثواب الدنيا سوى ما كتب الله له منها؛ فإنه تعالى هو المالك لكل شيء، الذي عنده ثواب الدنيا والآخرة، فَلْيُطَلِّبَا منه وَيُسْتَعَانَ به عليهما؛ فإنّه لا يُنَالُ ما عنده إلا بطاعته، ولا تُدْرِك الأمور الدنيّة والدنيويّة إلا بالاستعانة به والافتقار إليه على الدوام، وله الحكمة تعالى في توفيق من يوفقه وخذلان من يخذله وفي عطائه ومنعه، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّٰهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝﴾.

﴿١٣٥﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا ﴿قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ﴾، والقَوَّام صيغة مبالغة؛ أي: كونوا في كل أحوالكم قائمين بالقسط الذي هو العدل في حقوق الله وحقوق عباده؛ فالقسط في حقوق الله أن لا يُستعان بنعمه على معصيته، بل تُصرف في طاعته، والقسط في حقوق الآدميين أن تُؤدَّى جميع الحقوق التي^(١) عليك كما تَطْلُبُ حقوقك، فتؤدِّي النفقات الواجبة والديون وتعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به من الأخلاق والمكافأة وغير ذلك.

ومن أعظم أنواع القسط القسط في المقالات والقائلين؛ فلا يحكم لأحد القولين أو أحد المتنازعين لانتسابه أو ميله لأحدهما، بل يجعل وجهته العدل بينهما، ومن القسط أداء الشهادة التي عندك على أي وجه كان، حتى على الأحاب، بل على النفس، ولهذا قال: ﴿شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّٰهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾؛ أي: فلا تُراعوا الغني لغناه ولا الفقير بزعمكم رحمة له، بل اشهدوا بالحق على من كان. والقيام بالقسط من أعظم الأمور وأدل على دين القائم به وورعه ومقامه في الإسلام، فيتعين على من نصح نفسه وأراد نجاتها أن يهتم له غاية الاهتمام، وأن يجعله نصب عينيه ومحل إرادته، وأن يزيل عن نفسه كل مانع وعائق يعوقه عن إرادة القسط أو العمل به، وأعظم عائق لذلك اتباع الهوى، ولهذا نبه تعالى على إزالة هذا المانع بقوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾؛ أي: فلا تتبعوا شهوات أنفسكم المعارضة للحق؛ فإنكم إن اتبعتموها؛ عدلتم عن الصواب ولم توفقوا للعدل؛ فإن الهوى إما أن يُغمي بصيرة صاحبه حتى يرى الحق باطلاً والباطل حقاً، وإما أن يعرف الحق ويتركه لأجل هواه؛ فمن سلم من هوى نفسه؛ وفق للحق وهُدِيَ إلى الصراط المستقيم.

ولما بين أن الواجب القيام بالقسط؛ نهى عن ما يضاؤ ذلك، وهو لِي اللسان عن الحق في الشهادات وغيرها، وتحريف النطق عن الصواب المقصود من كل وجه أو

(١) كذا في (أ) بخط مغاير. وفي (ب): «الذي».

من بعض الوجوه، ويدخل في ذلك تحريف الشهادة وعدم تكميلها أو تأويل الشاهد على أمر آخر؛ فإن هذا من اللَّيِّ؛ لأنه الانحراف عن الحق. ﴿أو تعرضوا﴾؛ أي: تركوا القسْطَ المَنوطَ بكم كترك الشاهد لشهادته وترك الحاكم لحكمه الذي يَجِبُ عليه القيام به.

﴿فإنَّ اللهَ كانَ بما تعملونَ خبيراً﴾؛ أي: محيط بما فعلتم، يعلم أعمالكم خفيها وجليها، وفي هذا تهديدٌ شديدٌ للذي يلوي أو يعرض، ومن باب أولى وأحرى الذي يحكم بالباطل أو يشهد بالزور؛ لأنه أعظم جرماً؛ لأن الأولين تركا الحق، وهذا ترك الحق، وقام بالباطل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ؕ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ؕ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ؕ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝﴾.

﴿١٣٦﴾ اعلم أن الأمر إما أن يوجّه إلى من لم يدخل في الشيء ولم يتّصف بشيء منه؛ فهذا يكون أمراً له في الدُخول فيه، وذلك كأمر من ليس بمؤمن بالإيمان؛ كقوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذين أوتوا الكتابَ آمِنُوا بما نَزَّلنا مُصَدِّقاً لما معكم...﴾ الآية، وإما أن يوجّه إلى من دخل في الشيء؛ فهذا يكون أمره ليصحّح ما وُجِدَ منه ويحصل ما لم يوجد، ومنه ما ذكره الله في هذه الآية من أمر المؤمنين بالإيمان؛ فإنَّ ذلك يقتضي أمرهم بما يصحّح إيمانهم من الإخلاص والصدق وتجنب المفسدات والتوبة من جميع المنقصات، ويقتضي أيضاً الأمر بما لم يوجد من المؤمن من علوم الإيمان وأعماله؛ فإنه كلّما وصل إليه نصٌّ وفهم معناه واعتقده؛ فإنَّ ذلك من الإيمان المأمور به، وكذلك سائر الأعمال الظاهرة والباطنة، كلّها من الإيمان؛ كما دلّت على ذلك النصوص الكثيرة وأجمع عليه سلف الأمة، ثم الاستمرار على ذلك والثبات عليه إلى الممات؛ كما قال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَموتُوا إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، وأمر هنا بالإيمان به وبرسله وبالقرآن وبالكتب المتقدمة؛ فهذا كلّهُ من الإيمان الواجب الذي لا يكون العبد مؤمناً إلّا به، إجمالاً فيما لم يصل إليه تفصيله، وتفصيلاً فيما عُلِمَ من ذلك بالتفصيل؛ فمن آمن هذا الإيمان المأمور به؛ فقد اهتدى وأنجح.

ومن كفر ﴿بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً﴾؛ وأيُّ ضلال أبعد من ضلال من تَرَكَ طريق الهدى المستقيم وسَلَكَ الطريق الموصلة له إلى العذاب الأليم؟! واعلم أنَّ الكفر بشيء من هذه الأمور المذكورة كالْكُفَرِ

بجميعها؛ لتلازمها وامتناع وجود الإيمان ببعضها دون بعض.

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَّئِيَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَكُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ۝١٣٧﴾.

﴿١٣٧﴾ أي: من تكرر منه الكفر بعد الإيمان؛ فاهتدى ثم ضلّ، وأبصر ثم عمي، وآمن ثم كفر، واستمرّ على كفره وازداد منه؛ فإنه بعيد من التوفيق والهداية لأقوم الطريق، وبعيد من المغفرة لكونه أتى بأعظم مانع يمنعه من حصولها؛ فإن كفره يكون عقوبة وطبعاً لا يزول؛ كما قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾، ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾.

ودلت الآية أنهم إن لم يزدادوا كفراً بل رجعوا إلى الإيمان، وتركوا ما هم عليه من الكفران؛ فإن الله يغفر لهم، ولو تكررت منهم الردّة، وإذا كان هذا الحكم في الكفر؛ فغيره من المعاصي التي [دونه]^(١) من باب أولى؛ أن العبد لو تكررت منه ثم عاد إلى التوبة؛ عاد الله له بالمغفرة.

﴿بَشِّرِ الْمُتَّقِينَ إِنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُفُوتَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۝١٣٩﴾.

﴿١٣٨﴾ البشارة تستعمل في الخير، وتستعمل في الشر بقيد؛ كما في هذه الآية. يقول تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾؛ أي: الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر بأقبح بشارّة وأسوئها، وهو العذاب الأليم، وذلك بسبب محبتهم الكفار وموالاتهم ونصرتهم وتركهم لموالاة المؤمنين؛ فأى شيء حملهم على ذلك؟! أيبتنغون عندهم العزّة؟! وهذا هو الواقع من أحوال المنافقين، ساء ظنهم بالله، وضعف يقيئهم بنصر الله لعباده المؤمنين، ولحظوا بعض الأسباب التي عند الكافرين، وقصر نظرهم عما وراء ذلك، فاتخذوا الكافرين أولياء يتعزّزون بهم ويستنصرون، والحال أن العزّة لله جميعاً؛ فإن نواصي العباد بيده ومشيئته نافذة فيهم، وقد تكفل بنصر دينه وعباده المؤمنين، ولو تخلّل ذلك بعض الامتحان لعباده المؤمنين وإدالة العدو عليهم إدالة غير مستمرة؛ فإن العاقبة والاستقرار للمؤمنين.

(١) كذا في (ب)، وفي (أ): «دونها».

وفي هذه الآية التهيب العظيم من موالاة الكافرين وترك موالاة المؤمنين، وأن ذلك من صفات المنافقين، وأن الإيمان يقتضي محبة المؤمنين وموالاتهم وبغض الكافرين وعداوتهم.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١٤٠﴾ الَّذِينَ يَرْتَضُونَ يَكُمُ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١﴾.

﴿١٤٠﴾ أي: وقد بين الله لكم فيما أنزل عليكم حكمه الشرعي عند حضور مجالس الكفر والمعاصي، ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾؛ أي: يستهان بها، وذلك أن الواجب على كل مكلف في آيات الله الإيمان بها وتعظيمها وإجلالها وتفخيمها، وهذا المقصود بإنزالها، وهو الذي خلق الله الخلق لأجله؛ ففصد الإيمان الكفر بها، وضد تعظيمها الاستهزاء بها واحتقارها، ويدخل في ذلك مجادلة الكفار والمنافقين لإبطال آيات الله ونصر كفرهم، وكذلك المبتدعون على اختلاف أنواعهم؛ فإن احتجاجهم على باطلهم يتضمن الاستهانة بآيات الله؛ لأنها لا تدل إلا على الحق ولا تستلزم إلا صدقاً، بل وكذلك يدخل فيه حضور مجالس المعاصي والفسوق التي يستهان فيها بأوامر الله ونواهيه، وتقتحم حدوده التي حدها لعباده. ومنتهى هذا النهي عن القعود معهم ﴿حتى يخوضوا في حديث غيره﴾؛ أي: غير الكفر بآيات الله والاستهزاء بها. ﴿إِنَّكُمْ إِذَا﴾؛ أي: إن قعدتم معهم في الحال المذكور ﴿مثلهم﴾: لأنكم رضيتم بكفرهم واستهزائهم، والراضي بالمعصية كالفاعل لها، والحاصل أن من حضر مجلساً يعصى الله به؛ فإنه يتعين عليه الإنكار عليهم مع القدرة أو القيام مع عدمها.

﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾؛ كما اجتمعوا على الكفر والموالاة، ولا ينفع المنافقين^(١) مجرد كونهم في الظاهر مع المؤمنين؛ كما قال

(١) في (ب): «الكافرين». وأثبت الشيخ على هامش (أ) كلمة: «المنافقين» بعد أن شطب كلمة «الكافرين».

تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ...﴾ إلى آخر الآيات.

﴿١٤١﴾ ثم ذكر تحقيق موالة المنافقين للكافرين ومعاداتهم للمؤمنين، فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُم﴾؛ أي: ينتظرون الحالة التي تصيرون عليها، وتنتهون إليها من خير أو شر، قد أعدوا لكل حالة جواباً بحسب نفاقهم؛ ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾؛ فيظهرون أنهم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً؛ لِيَسْلَمُوا مِنَ الْقَذْحِ وَالطُّغْيَانِ عَلَيْهِمْ وَلِيُشْرِكُوهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفِيءِ وَلِيَتَنَصَّرُوا بِهِمْ. ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾: ولم يقل: فتح؛ لأنه لا يحصل لهم فتح يكون مبدأ لنصرتهم المستمرة، بل غاية ما يكون أن يكون لهم نصيب غير مستقر حكمة من الله؛ فإذا كان ذلك؛ ﴿قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْكُمْ﴾؛ أي: نستولي عليكم ﴿وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: يتصنعون عندهم بكف أيديهم عنهم مع القدرة، ومنعهم من المؤمنين بجميع وجوه المنع من تنفيذهم وتزهيدهم في القتال ومظاهرة الأعداء عليهم وغير ذلك مما هو معروف منهم. ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: فيجازي المؤمنين ظاهراً وباطناً بالجنة، ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات.

﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾؛ أي: تسلطاً واستيلاء عليهم، بل لا تزال طائفة من المؤمنين على الحق منصوره، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، ولا يزال الله يحدث من أسباب النصر للمؤمنين ودفع تسلط الكافرين ما هو مشهود بالعيان، حتى أن بعض المسلمين الذين تحكمهم الطوائف الكافرة قد بقوا محترمين، لا يتعرضون لأديانهم ولا يكونون مستصغرين عندهم، بل لهم العز والتأمن من الله، فله^(١) الحمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٤٢﴾ ﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَهْدِيَ لَهُ سَبِيلًا﴾ ﴿١٤٣﴾.

﴿١٤٢﴾ يخبر تعالى عن المنافقين بما كانوا عليه من قبيح الصفات وشنائع

السمات، وأن طريقتهم مخادعة الله تعالى؛ أي: بما أظهره من الإيمان، وأبطنوه من الكفران؛ ظنوا أنه يروج على الله ولا يعلمه ولا يُبديه لعباده، والحال أن الله خادعهم؛ فمجرد وجود هذه الحال منهم ومشيههم عليها خداع لأنفسهم، وأي خداع أعظم ممن يسعى سعياً يعود عليه بالهوان والذل والحرمان، ويدل بمجرده على نقص عقل صاحبه؛ حيث جمع بين المعصية ورأها حسنة وظنّها من العقل والمكر؟! فله ما يصنع الجهل والخدلان بصاحبه! ومن خداعه لهم يوم القيامة ما ذكره الله في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ينادونهم ألم نكن معكم...﴾ إلى آخر الآيات. ومن صفاتهم أنهم ﴿إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ﴾ إن قاموا، التي هي أكبر الطاعات العملية ﴿قَامُوا كَسَالَى﴾: متثاقلين لها متبرّمين من فعلها، والكسل لا يكون إلا من فقد الرغبة من قلوبهم؛ فلولا أن قلوبهم فارغة من الرغبة إلى الله وإلى ما عنده عادمة للإيمان؛ لم يصدر منهم الكسل. ﴿يَراؤُونَ النَّاسَ﴾؛ أي: هذا الذي انطوت عليه سرائرهم، وهذا مصدر أعمالهم، مراعاة الناس، يقصدون رؤية الناس وتعظيمهم، واحترامهم، ولا يخلصون لله؛ فلهذا ﴿لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ لامتلاء قلوبهم من الرياء؛ فإن ذكر الله تعالى وملازمته لا يكون إلا من مؤمن ممتليء قلبه بمحبة الله وعظمته.

﴿١٤٣﴾ ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾؛ أي: مترددين بين فريق المؤمنين وفريق الكافرين، فلا من المؤمنين ظاهراً وباطناً ولا من الكافرين ظاهراً وباطناً، أعطوا باطنهم للكافرين وظاهرهم للمؤمنين، وهذا أعظم ضلال يُقدَّر، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾؛ أي: لن تجد طريقاً لهديته ولا وسيلة لترك غوايته؛ لأنه انغلق عنه باب الرحمة، وصار بذله كل نعمة؛ فهذه الأوصاف المذمومة تدلّ بتنبئها على أن المؤمنين متصفون بضدّها من الصدق ظاهراً وباطناً والإخلاص، وأنهم لا يُجهل ما عندهم، ونشاطهم في صلاتهم وعباداتهم وكثرة ذكرهم لله تعالى، وأنهم قد هداهم الله ووفّقهم للصراط المستقيم، فليعرض العاقل نفسه على هذين الأمرين، وليختز أيهما أولى به، والله^(١) المستعان.

(١) في (ب): «وبالله».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ءَأُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ۖ﴾ (١٤٤).

﴿١٤٤﴾ لما ذكر أن من صفات المنافقين اتّخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين؛ نهى عبادة المؤمنين أن يتّصفوا بهذه الحالة القبيحة، وأن يُشابهوا المنافقين؛ فإنّ ذلك موجب لأن ﴿تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾؛ أي: حجة واضحة على عقوبتكم؛ فإنه قد أنذرنا وحذّرنا منها، وأخبرنا بما فيها من المفساد؛ فسلوكمها بعد هذا موجب للعقاب. و[في] هذه الآية دليل على كمال عدل الله، وأنّ الله لا يعذب أحداً قبل قيام الحجة عليه. وفيها التحذير من المعاصي؛ فإنّ فاعلها يجعل لله عليه سلطاناً مبيناً.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۖ﴾ (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ﴾ (١٤٦) مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ۖ﴾ (١٤٧).

﴿١٤٥﴾ يخبر تعالى عن مآل المنافقين أنّهم في أسفل الدركات من العذاب وأشرّ الحالات من العقاب؛ فهم تحت سائر الكفار؛ لأنّهم شاركوهم بالكفر بالله ومعاداة رسله، وزادوا عليهم المكر والخديعة والتمكّن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين على وجه لا يُشعر به ولا يحس، ورثبوا على ذلك جريان أحكام الإسلام عليهم واستحقاق ما لا يستحقّونه؛ فبذلك ونحوه استحقّوا أشدّ العذاب، وليس لهم منقذ من عذابه ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه.

﴿١٤٦﴾ وهذا عام لكل منافق؛ إلّا من منّ الله عليهم بالتوبة من السيئات. ﴿وأصلحو﴾: له الظواهر والبواطن. واعتصموا به والتجّزّوا إليه في جلب منافعهم ودفع المضار عنهم، ﴿وأخلصوا دينهم﴾: الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان لله: فقصّدوا وجه الله بأعمالهم الظاهرة والباطنة، وسلموا من الرياء والنفاق؛ فمن اتّصف بهذه الصفات ﴿فأولئك مع المؤمنين﴾؛ أي: في الدنيا والبرزخ ويوم القيامة، ﴿وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً﴾: لا يعلم كنهه إلا الله، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وتأمّل كيف خصّ الاعتصام والإخلاص بالذكر مع دخولهما في قوله: ﴿وأصلحو﴾؛ لأنّ الاعتصام والإخلاص

من جملة الإصلاح؛ لشدة الحاجة إليهما، خصوصاً في هذا المقام الحرج، الذي تمكّن من القلوبِ النفاق، فلا يزيله إلا شدة الاعتصام بالله ودوام اللجأ والافتقار إليه في دفعه، وكون الإخلاص منافٍ كل المنافاة للنفاق، فذكرهما لفضليهما وتوقّف الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما ولشدة الحاجة في هذا المقام إليهما.

وتأمل كيف لما ذكر أنّ هؤلاء مع المؤمنين؛ لم يقل: وسوف يؤتيهم أجراً عظيماً، مع أن السياق فيهم، بل قال: ﴿وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً﴾؛ لأنّ هذه القاعدة الشريفة لم يزل الله يبدئ فيها ويعيد إذا كان السياق في بعض الجزئيات، وأراد أن يترتب^(١) عليه ثواباً أو عقاباً، وكان ذلك مشتركاً بينه وبين الجنس الداخل فيه؛ رتب الثواب في مقابلة الحكم العام الذي تندرج تحته تلك القضية وغيرها، ولئلاّ يتوّهم اختصاص الحكم بالأمر الجزئي؛ فهذا من أسرار القرآن البديعة؛ فالتائب من المنافقين مع المؤمنين وله ثوابهم.

﴿١٤٧﴾ ثم أخبر تعالى عن كمال غناه وسعة حلمه ورحمته وإحسانه، فقال: ﴿ما يفعلُ الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾: والحال أنّ الله شاكراً عليم، يعطي المتحمّلين لأجله الأثقال، الدّائبين في الأعمال، جزيل الثواب وواسع الإحسان، ومن ترك شيئاً لله؛ أعطاه الله خيراً منه، ومع هذا يعلم ظاهركم وباطنكم وأعمالكم وما تصدر عنه من إخلاص وصدق وضد ذلك، وهو يريد منكم التوبة والإنابة والرجوع إليه؛ فإذا أنبئتم إليه؛ فأئ شيء يفعل بعذابكم؛ فإنه لا يتشقى بعذابكم ولا ينتفع بعقابكم، بل العاصي لا يضر إلا نفسه؛ كما أنّ عمل المطيع لنفسه، والشكر هو خضوع القلب، واعترافه بنعمة الله، وثناء اللسان على المشكور، وعمل الجوارح بطاعته، وأن لا يستعين بنعمه على معاصيه.

﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً ﴾ (١٤٨) **إِنْ بُدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا** ﴿١٤٩﴾.

﴿١٤٨﴾ يخبر تعالى أنه لا يحبّ الجهر بالسوء من القول؛ أي: يبغيض ذلك ويمقته. ويعاقب عليه، ويشمل ذلك جميع الأقوال السيئة التي تسوء وتحزن؛ كالشتيم والقذف والسبّ ونحو ذلك؛ فإن ذلك كله من المنهي عنه الذي يبغيضه الله، ويدلّ

(١) في (ب): «يرتب».

مفهومها أنه يحبُّ الحسن من القول؛ كالذكر والكلام الطيب اللين. وقوله: ﴿إِلَّا مِنْ ظُلْمٍ﴾؛ أي: فإنه يجوز له أن يَدْعُوَ على من ظَلَمَهُ ويشتكى^(١) منه ويجهر بالسوء لمن جَهَرَ له به من غير أن يكذب عليه ولا يزيد على مظلَمَتِهِ ولا يتعدى بشتمه غير ظالمه، ومع ذلك؛ فعفوه وعدم مقابلته أولى؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً﴾.

ولما كانت الآية قد اشتملت على الكلام السيئ والحسن والمباح؛ أخبر تعالى أنه سميع، فيسمع أقوالكم؛ فاحذروا أن تتكلموا بما يغضب ربكم فيعاقبكم [على ذلك]، وفيه أيضاً ترغيب على القول الحسن. عليمٌ بنياتكم ومصدر أقوالكم.

﴿١٤٩﴾ ثم قال تعالى: ﴿إِنْ تُبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفَوْهُ﴾: وهذا يشمل كلَّ خير قولِي وفعلِي ظاهر وباطن من واجب ومستحب، ﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾؛ أي: عَمَّنْ ساءكم في أبدانكم وأموالكم وأعراضكم فتسمَحوا عنه؛ فإنَّ الجزء من جنس العمل؛ فمن عفا لله؛ عفا الله عنه. ومن أحسن؛ أحسن الله إليه؛ فلهذا قال: ﴿فَإِنْ اللَّهُ كَانَ عَفْوَاً قَدِيرًا﴾؛ أي: يعفو عن زَلَّاتِ عبادِه وذنوبهم العظيمة، فيسدِّل عليهم سِتْرَه، ثم يعاملهم بعفوهِ التام الصادر عن قدرته.

وفي هذه الآية إرشادٌ إلى التفقه في معاني أسماء الله وصفاته، وأنَّ الخلق والأمر صادرٌ عنها، وهي مقتضية له ولهذا يعلل الأحكام بالأسماء الحسنی كما في هذه الآية، لما ذكر عمل الخير والعفو عن المسيء، رتب على ذلك بأن أحوالنا على معرفة أسمائه، وأنَّ ذلك يُغْنِينَا عن ذِكرِ ثوابها الخاص.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۖ ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ۖ ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۖ ﴿١٥٢﴾﴾.

﴿١٥٠﴾ هنا قِسْمان قد وَضَحَا لكلِّ أحد: مؤمن بالله وبرسله كلهم وكتبه، وكافرٌ بذلك كله. وبقي قسم ثالث: وهو الذي يزعم أنه يؤمن ببعض الرسل دون بعض، وأنَّ هذا سبيلٌ ينجيه من عذاب الله، إن هذا إلا مجرد أمانِي؛ فإنَّ هؤلاء

(١) في (ب): «يتشكى».

يريدون التفريق بين الله وبين رسله؛ فَإِنَّ من تَوَلَّى الله حقيقة؛ تَوَلَّى جميع رسله؛ لأن ذلك من تمام تَوَلَّيه، ومن عادى أحداً من رسله؛ فقد عادى الله وعادى جميع رسله؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ...﴾ الآيات، وكذلك من كفر برسول؛ فقد كفر بجميع الرسل، بل بالرسول الذي يزعم أنه به مؤمن.

﴿١٥١ - ١٥٢﴾ ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾، وذلك لثَلَا يَتَوَهَّمُونَ أَنَّ مَرْتَبَتَهُمْ متوسطةٌ بين الإيمان والكفر. ووجه كونهم كافرين حتى بما زَعَمُوا الإيمان به؛ أَنَّ كُلَّ دليلٍ دَلَّهم على الإيمان بمن آمنوا به موجودٌ هو أو مثله أو ما فوقه للنبي الذي كفروا به، وكلُّ شبهةٍ يزْعُمُونَ أنهم يقدحون بها في النبي الذي كفروا به موجودٌ مثلها أو أعظم منها فيمن آمنوا به، فلم يبق بعد ذلك إلا التشهي والهوى ومجرّد الدعوى التي يمكن كُلُّ أحدٍ أَنْ يقابلها بمثلها. ولما ذكر أن هؤلاء هم الكافرون حَقًّا؛ ذكر عقاباً شاملاً لهم ولكل كافر، فقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾؛ كما تكبروا عن الإيمان بالله؛ أَهَانَهُم بالعذاب الأليم المُخْزِي. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: وهذا يتضمّن الإيمان بكل ما أخبر الله به عن نفسه وبكل ما جاءت به الرسل من الأخبار والأحكام. ولم يفرّقوا بين أحدٍ من رسله، بل آمنوا بهم كُلّهم؛ فهذا الإيمان الحقيقي واليقين المبنى على البرهان.

﴿أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورَهُمْ﴾؛ أي: جزاء إيمانهم وما ترتّب عليه من عمل صالح وقول حسن وخلق جميل؛ كُلٌّ على حَسَبِ حاله، ولعلّ هذا هو السرّ في إضافة الأجور إليهم. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾: يَغْفِرُ السيئات، ويتقبّل الحسنات.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ أَخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ أَلْبَيْنَتْ فَعَقَوْا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥١﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٢﴾ فِيمَا نَقُصُّهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٣﴾ وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴿١٥٤﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٥﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ

وَكَانَ اللَّهُ غَزِيرًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَيُظَاهَرُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحُلَتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنْهُ وَأَمْلَهُمْ آمَوَالُ النَّاسِ بِالْبَطْلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴿١٦٢﴾ .

﴿١٥٣ - ١٥٨﴾ هذا السؤال الصادر من أهل الكتاب للرسول محمد ﷺ على وجه العناد والافتراح وجعلهم هذا السؤال يتوقف عليه تصديقهم أو تكذيبهم، وهو أنهم سألوه أن ينزل عليهم القرآن جملة واحدة كما نزلت التوراة والإنجيل، وهذا غاية الظلم منهم [والجهل]؛ فإن الرسول بشر عبد مذبذب ليس في يده من الأمر شيء، بل الأمر كله لله، وهو الذي يرسل وينزل ما يشاء على عباده؛ كما قال تعالى عن الرسول لما ذكر الآيات التي فيها افتراح المشركين على محمد: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾؛ وكذلك جعلهم الفارق بين الحق والباطل مجرد إنزال الكتاب جملة أو مفرقاً مجرد دعوى لا دليل عليها، ولا مناسبة بل ولا شبهة؛ فمن أين يوجد في نبوة أحد من الأنبياء أن الرسول الذي يأتيكم بكتاب نزل مفرقاً؟ فلا تؤمنوا به ولا تصدقوه؟! بل نزول هذا القرآن مفرقاً بحسب الأحوال مما يدل على عظمته واعتناء الله بمن أنزل عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبتبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً. ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾.

فلما ذكر اعتراضهم الفاسد؛ أخبر أنه ليس بغريب من أمرهم، بل سبق لهم من المقدمات القبيحة ما هو أعظم مما سلكوا مع الرسول الذي يزعمون أنهم آمنوا به؛ من سؤالهم له رؤية الله عياناً، وأخذهم العجل إليها يعبدونه من بعدما رأوا من الآيات بأبصارهم ما لم يره غيرهم، ومن امتناعهم من قبول أحكام كتابهم، وهو التوراة حتى رفع الطور من فوق رؤوسهم، وهُدِّدُوا أنهم إن لم يؤمنوا أسقط عليهم فقبلوا ذلك على وجه الإغماض والإيمان الشبيه بالإيمان الضروري، ومن امتناعهم من دخول أبواب القرية التي أمروا بدخولها سجداً مستغفرين فخالفوا القول والفعل، ومن اعتداء من اعتدى منهم في السبب فعاقبهم الله تلك العقوبة الشنيعة، وبأخذ الميثاق الغليظ عليهم فنبذوه وراء ظهورهم وكفروا بآيات الله وقتلوا رسله بغير حق، ومن قولهم: إنهم قتلوا المسيح عيسى وصلبوه، والحال أنهم ما قتلوه وما صلبوه بل شبه لهم غيره. فقتلوا غيره وصلبوه، وأدعائهم أن قلوبهم غلفت لا تفقه

ما تقول لهم ولا تفهمه، وبصدهم الناس عن سبيل الله فصدهم عن الحق، ودعوههم إلى ما هم عليه من الضلال والغي، وبأخذهم السحت والربا مع نهي الله لهم عنه والتشديد فيه؛ فالذين فعلوا هذه الأفاعيل لا يُستنكر عليهم أن يسألوا الرسول محمداً أن ينزل عليهم كتاباً من السماء.

وهذه الطريقة من أحسن الطرق لمحااجة الخصم المبطل، وهو أنه إذا صدر منه من الاعتراض الباطل ما جعله شبهة له ولغيره في رد الحق أن يبين من حاله الخبيثة وأفعاله الشنيعة ما هو من أقبح ما صدر منه؛ ليعلم كل أحد أن هذا الاعتراض من ذلك الوادي الخسيس، وأن له مقدمات يجعل هذا معها. وكذلك كل اعتراض يعترضون به على نبوة محمد ﷺ يمكن أن يقابل بمثله أو ما هو أقوى منه في نبوة من يدعون إيمانهم به؛ ليكفي بذلك شرهم وينقمع باطلهم، وكل حجة سلكوها في تقريرهم لنبوة من آمنوا به؛ فإنها ونظيرها وما هو أقوى منها دالة ومقررة لنبوة محمد ﷺ.

ولما كان المراد من تعديد ما عدّد الله من قبائحهم هذه المقابلة؛ لم يبسطها في هذا الموضع، بل أشار إليها وأحال على مواضعها، وقد بسطها في غير هذا الموضع في المحلّ اللائق ببسطها.

﴿١٥٩﴾ وقوله: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾: يحتمل أن الضمير هنا في قوله قبل موته يعود إلى أهل الكتاب، فيكون على هذا كل كتابي يحضره الموت ويعاين الأمر حقيقة؛ فإنه يؤمن بعيسى عليه السلام، ولكنه إيمان لا ينفع؛ إيمان اضطرار، فيكون مضمون هذا التهديد لهم والوعيد أن لا يستمروا على هذه الحال التي سيندمون عليها قبل مماتهم؛ فكيف يكون حالهم يوم حشرهم وقيامهم؟! ويحتمل أن الضمير في قوله: ﴿قبل موته﴾: راجع إلى عيسى عليه السلام، فيكون المعنى: وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بالمسيح عليه السلام قبل موت المسيح، وذلك يكون عند اقتراب الساعة وظهور علاماتها الكبار؛ فإنها تكاثرت الأحاديث الصحيحة^(١) في نزوله عليه السلام في آخر هذه الأمة؛ يقتل الدجال، ويضع الجزية، ويؤمن به أهل الكتاب مع المؤمنين ﴿ويوم القيامة﴾: يكون

(١) كما في «صحيح البخاري» (٢٢٢٢)، ومسلم (١٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقد ذكر ابن كثير الأحاديث الواردة في نزول عيسى بن مريم إلى الأرض من السماء عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به...﴾ الآية.

عيسى عليهم شهيداً يشهد عليهم بأعمالهم وهل هي موافقةً لشرع الله أم لا؟ وحينئذٍ لا يشهد إلا ببطلان كل ما هم عليه مما هو مخالف لشريعة القرآن، ولما دعاهم إليه محمد ﷺ عَلِمْنَا بِذَلِكَ لَعَلَّنا بكمال عدالة المسيح عليه السلام وصدقِهِ، وأنه لا يشهد إلا بالحق، إلا أن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق وما عداه فهو ضلال وباطل.

﴿١٦٠ - ١٦١﴾ ثم أخبر تعالى أنه حرّم على أهل الكتاب كثيراً من الطيبات التي كانت حلالاً عليهم، وهذا تحريم عقوبة، بسبب ظلمهم واعتدائهم وصدّهم الناس عن سبيل الله ومنعهم إيّاهم من الهدى وبأخذهم الربا وقد نُهوا عنه، فمنعوا المحتاجين ممّن يبايعونه عن العدل، فعاقبهم الله من جنس فعلهم، فمنعهم من كثير من الطيبات التي كانوا بصدد حلّها لكونها طيبة. وأما التحريم الذي على هذه الأمة؛ فإنه تحريم تنزيه لهم عن الخبائث التي تضرهم في دينهم ودنياهم.

﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿١٦١﴾.

﴿١٦٢﴾ لما ذكّر معائب أهل الكتاب؛ ذكّر الممدوحين منهم، فقال: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾؛ أي: الذين ثبّت العلم في قلوبهم ورَسَخَ الإيقان في أفئدتهم، فأثّر لهم الإيمان التام العام، ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾: وأثّر لهم الأعمال الصالحة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة اللذين هما أفضل الأعمال، وقد اشتملنا على الإخلاص للمعبود والإحسان إلى العبيد، وآمنوا باليوم الآخر، فخافوا الوعيد ورَجّوا الوعد، ﴿أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ لأنهم جمعوا بين العلم والإيمان والعمل الصالح والإيمان بالكتب والرسول السابقة واللاحقة.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ بِرُوحِنا وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُورًا﴾ ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾.

﴿١٦٣﴾ يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله من الشرع العظيم والأخبار الصادقة ما أوحى إلى هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفي هذا عدة فوائد: منها: أن محمداً ﷺ ليس ببدع من الرسل، بل أرسل الله قبله من المرسلين العدد الكثير والجَمُّ الغفير؛ فاستغراب رسالته لا وجه له إلا الجهل أو العناد. ومنها: أنه أوحى إليه كما أوحى إليهم من الأصول والعدل الذي اتَّفَقوا عليه، وأن بعضهم يصدِّق بعضاً، ويوافق بعضهم بعضاً.

ومنها: أنه من جنس هؤلاء الرسل؛ فليعتز به المعترف بإخوانه المرسلين؛ فدعوته دعوتهم، وأخلاقهم متفقة، ومصدِّرهم واحد، وغايتهم واحدة، فلم يقرنه بالمجهولين ولا بالكذابين ولا بالملوك الظالمين.

ومنها: أن في ذكر هؤلاء الرسل وتعدادهم من التنويه بهم والثناء الصادق عليهم وشرح أحوالهم مما يزداد به المؤمنُ إيماناً بهم ومحبة لهم واقتداءً بهديهم واستئناساً بسنتهم ومعرفةً بحقوقهم، ويكون ذلك مصداقاً لقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَى نوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ ﴿سَلَامٌ عَلَى إِيْسَى بْنِ مَرْيَمَ﴾. إنا كذلك نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ؛ فكل محسن له من الثناء الحسن بين الأنام بحسب إحسانه، والرسل خصوصاً هؤلاء المسنون في المرتبة العليا من الإحسان.

ولما ذكر اشتراكهم بوحية؛ ذَكَرَ تخصيص بعضهم، فذَكَرَ أَنَّهُ أَتَى دَاوُدَ الزَّبُورَ، وهو الكتاب المعروف المزبور، الذي خَصَّ اللَّهُ بِهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِفَضْلِهِ وَشَرَفِهِ، وَأَنَّهُ كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيمًا؛ أَي: مُشَافَهَةً مِنْهُ إِلَيْهِ لَا بِوَاسِطَةٍ، حَتَّى اشْتَهَرَ بِهَذَا عِنْدَ الْعَالَمِينَ، فَيَقَالُ: مُوسَى كَلَّمَ الرَّحْمَنَ.

﴿١٦٤﴾ وذكر أن الرُّسُلَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَّه اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَقْصُضْهُ عَلَيْهِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى كَثَرَتِهِمْ.

﴿١٦٥﴾ وَأَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُمْ مُبَشِّرِينَ لِمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَاتَّبَعَهُمْ بِالسَّعَادَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ، وَمُنْذِرِينَ مَنْ عَصَى اللَّهَ وَخَالَفَهُمْ بِشَقَاوَةِ الدَّارِينَ؛ ﴿لِتَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾، فَيَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ، قُلْ: قَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ، فَلَمْ يَبْقَ لِلخَلْقِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ؛ لِإِرْسَالِهِ الرُّسُلَ تَتَرَى؛ يَبَيِّنُونَ لَهُمْ أَمْرَ دِينِهِمْ وَمَرَاضِي رِبِّهِمْ وَمَسَاطِطَ وَطَرَقَ الْجَنَّةِ وَطَرَقَ النَّارِ؛ فَمَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ، وَهَذَا مِنْ كَمَالِ عِزَّتِهِ تَعَالَى وَحُكْمَتِهِ؛ أَنْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْكِتَابَ، وَذَلِكَ أَيْضًا مِنْ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ؛ حَيْثُ كَانَ النَّاسُ مُضْطَرِّينَ

إلى الأنبياء أعظم ضرورة تقدر، فأزال هذا الاضطراب؛ فله الحمد والشكر، ونسأله كما ابتدأ علينا نعمته بإرسالهم أن يتمها بالتوفيق لسلوك طريقهم؛ إنه جواد كريم.

﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (١٦٦).

﴿١٦٦﴾ لما ذكر أن الله أوحى إلى رسوله محمد ﷺ كما أوحى إلى إخوانه من المرسلين؛ أخبر هنا بشهادته تعالى على رسالته وصحة ما جاء به. وأنه ﴿أنزله بعلمه﴾: يُحتمل أن يكون المراد: أنزله مشتملاً على علمه؛ أي: فيه من العلوم الإلهية والأحكام الشرعية والأخبار الغيبية ما هو من علم الله تعالى الذي علم به عباده، ويُحتمل أن يكون المراد: أنزله صادراً عن علمه، ويكون في ذلك إشارة وتنبيه على وجه شهادته، وأن المعنى إذا كان تعالى أنزل هذا القرآن المشتمل على الأوامر والنواهي، وهو يعلم ذلك، ويعلم حالة الذي أنزله عليه، وأنه دعا الناس إليه؛ فمن أجابه وصدق؛ كان وليه، ومن كذبه وعاداه؛ كان عدوه، واستباح ماله ودمه، والله تعالى يمكنه ويوالي نصره ويجيب دعواته ويخذل أعداءه وينصر أوليائه؛ فهل توجد^(١) شهادة أعظم من هذه الشهادة وأكبر؟! ولا يمكن القدح في هذه الشهادة إلا بعد القدح بعلم الله وقدرته وحكمته. وإخباره تعالى بشهادة الملائكة على ما أنزل على رسوله؛ لكمال إيمانهم ولجلالة هذا المشهود عليه؛ فإن الأمور العظيمة لا يستشهد عليها إلا الخواص؛ كما قال تعالى في الشهادة علي التوحيد: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، ﴿وكفى بالله شهيداً﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (١٦٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ (١٦٨) ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (١٦٩).

﴿١٦٧﴾ لما أخبر عن رسالة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وأخبر برسالة خاتمهم محمد، وشهد بها وشهدت ملائكته؛ لزم من ذلك ثبوت الأمر المقرر والمشهود به، فوجب تصديقهم والإيمان بهم وأتباعهم، ثم توعد من كفر بهم،

فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: جمعوا بين الكفر بأنفسهم وصدّهم الناس عن سبيل الله، وهؤلاء [هم] أئمة الكفر ودعاة الضلال، ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾، وأي ضلال أعظم من ضلال من ضلّ بنفسه وأضلّ غيره؛ فباء بالاثمين ورجع بالخسارتين وفاته الهديتان؟!

﴿١٦٨ - ١٦٩﴾ ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾: وهذا الظلم هو زيادة على كفرهم، وإلّا؛ فالكفر عند إطلاق الظلم يدخل فيه، والمراد بالظلم هنا: أعمال الكفر والاستغراق فيه؛ فهؤلاء بعيدون من المغفرة والهداية للصراط المستقيم، ولهذا قال: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾، وإنّما تعذّرت المغفرة لهم والهداية لأنّهم استمروا في طغيانهم وازدادوا في كفرهم^(١) فطُيْعَ على قلوبهم وانسَدَّتْ عليهم طرق الهداية بما كسبوا وما ربك بظلام للعبيد. ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾؛ أي: لا يُبَالِي الله بهم ولا يعبا؛ لأنّهم لا يَصْلَحُونَ للخير، ولا يليق بهم إلّا الحالة التي اختاروها لأنفسهم.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَتَأْمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾.

﴿١٧٠﴾ يأمر تعالى جميع الناس أن يؤمنوا بعبده ورسوله محمّد ﷺ، وذكر السبب الموجب للإيمان به والفائدة من الإيمان به. والمضرة من عدم الإيمان به.

فالسبب الموجب هو إخباره بأنّه جاءهم بالحق؛ أي: فمجيئته نفسه حقّ وما جاء به من الشرع حقّ؛ فإنّ العاقل يعرف أن بقاء الخلق في جهلهم يعمهون وفي كفرهم يتردّدون والرسالة قد انقطعت عنهم غير لائق بحكمة الله ورحمته؛ فمن حكمته ورحمته العظيمة نفس إرسال الرسول إليهم ليعرفهم الهدى من الضلال والغي من الرشد؛ فمجرد النظر في رسالته دليل قاطع على صحّة نبوّته، وكذلك النظر إلى ما جاء به من الشرع العظيم والصراط المستقيم؛ فإنّ فيه من الإخبار بالغيوب الماضية والمستقبلية والخبر عن الله وعن اليوم الآخر ما لا يعرفه إلّا بالوحي والرسالة وما فيه من الأمر بكلّ خير وصلاح ورشد وعدل وإحسان وصدق وبرّ وصلة وحسن خلق، ومن النهي عن الشرّ والفساد والبغي والظلم وسوء الخلق والكذب والعقوق، مما يقطع به أنّه من عند

(١) في (ب): «كفرانهم».

الله، وكلما ازداد به العبد بصيرة؛ ازداد إيمانه وبقينه؛ فهذا السبب الداعي للإيمان.

وأما الفائدة في الإيمان؛ فأخبر أنه خير ﴿لكم﴾، والخير ضد الشر؛ فالإيمان خير للمؤمنين في أبدانهم وقلوبهم وأرواحهم ودنياهم وأخراهم، وذلك لما يترتب عليه من المصالح والفوائد؛ فكل ثواب عاجل وآجل فمن ثمرات الإيمان؛ فالنصر والهدى والعلم والعمل الصالح والسرور والأفراح والجنة وما اشتملت عليه من النعيم كل ذلك سبب عن الإيمان؛ كما أن الشقاء الدنيوي والأخروي من عدم الإيمان أو نقصه.

وأما مضرة عدم الإيمان به ﷺ؛ فيعرف بضد ما يترتب على الإيمان به وأن العبد لا يضر إلا نفسه، والله تعالى غني عنه لا تضره معصية العاصين، ولهذا قال: ﴿فإن لله ما في السموات والأرض﴾؛ أي: الجميع خلقه وملكه وتحت تدبيره وتصريفه. ﴿وكان الله عليماً﴾: بكل شيء ﴿حكيماً﴾: في خلقه وأمره؛ فهو العليم بمن يستحق الهداية والغواية، الحكيم في وضع الهداية والغواية موضعهما.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَحْدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ لَوْمَةٌ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾.

﴿١٧١﴾ ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو في الدين، وهو مجاوزة الحد والقدر المشروع إلى ما ليس بمشروع، وذلك كقول النصارى في غلوهم بعيسى عليه السلام ورفعِهِ عن مقام النبوة والرسالة إلى مقام الربوبية الذي لا يليق بغير الله؛ فكما أن التَّقْصِيرَ والتفريط من المنهيات؛ فالغلو كذلك، ولهذا قال: ﴿ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾، وهذا الكلام يتضمن ثلاثة أشياء: أمرين منهي عنهما، وهما قول الكذب على الله والقول بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه ورسله. والثالث: مأمور [به]، وهو قول الحق في هذه الأمور.

ولما كانت هذه قاعدة عامة كلية، وكان السياق في شأن عيسى عليه السلام نص على قول الحق فيه المخالف لطريقة اليهودية والنصرانية، فقال: ﴿إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله﴾؛ أي: غاية المسيح عليه السلام ومنتهاى ما يصل إليه من مراتب الكمال أعلى حالة تكون للمخلوقين، وهي درجة الرسالة، التي هي أعلى الدرجات وأجل المثوبات، وأنه ﴿كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾؛ أي: كلمة تكلم

الله بها، فكان بها عيسى، ولم يكن تلك الكلمة، وإنما كان بها، ولهذا من باب إضافة التشريف والتكريم، وكذلك قوله: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾؛ أي: من الأرواح التي خلقها وكمّلها بالصفات الفاضلة والأخلاق الكاملة، أرسل الله رُوحه جبريل عليه السلام، فنفّخ في فرج مريم عليها السلام، فحملت بإذن الله بعيسى عليه السلام، فلما بيّن حقيقة عيسى عليه السلام؛ أمر أهل الكتاب بالإيمان به وبرسله، ونهاهم أن يجعلوا الله ثالث ثلاثة؛ أحدهم عيسى والثاني مريم؛ فهذه مقالة النصارى قبّحهم الله، فأمرهم أن ينتهوا، وأخبر أن ذلك خيرٌ لهم؛ لأنه الذي يتعيّن أنه سبيل النجاة وما سواه فهو طرق^(١) الهلاك. ثم نزه نفسه عن الشريك والولد، فقال: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾؛ أي: هو المنفرد بالالوهية الذي لا تنبغي العبادة إلّا له. ﴿سُبْحَانَهُ﴾؛ أي: تنزهه وتقدّس، ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾: لأنّ ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾؛ فالكل مملوكون له مفتقرون إليه؛ فمحال أن يكون له شريك منهم أو ولد.

ولما أخبر أنه المالك للعالم العلوي والسفلي أخبر أنه قائم بمصالحهم الدنيوية والأخروية، وحافظها [ومجازيهم]^(٢) عليها تعالى:

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ۝١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝١٧٣﴾.

﴿١٧٢﴾ لما ذكر تعالى غلوّ النصارى في عيسى عليه السلام، ودكّر أنّه عبده ورسوله؛ دكّر هنا أنّه لا يستنكف عن عبادته ربّه^(٣)؛ أي: لا يمتنع عنها رغبة عنها، لا هو ﴿ولا الملائكة المقربون﴾، فنزّههم عن الاستنكاف، وتنزيههم عن الاستكبار من باب أولى، ونفي الشيء فيه إثبات ضده؛ أي: فعيسى والملائكة المقربون قد رغبوا في عبادة ربّهم وأحبّوها وسعّوا فيها بما يليق بأحوالهم، فأوجب لهم ذلك الشرف العظيم والفوز العظيم، فلم يستنكفوا أن يكونوا عبيداً لربوبيّته ولا لإلهيّته،

(٢) كذا في (ب)، وفي (أ): «ومجازيها».

(١) في (ب): «طريق».

(٣) في (ب): «عبادة ربّه».

بَلْ يَرَوْنَ افْتِقَارَهُمْ لَذَلِكَ فَوْقَ كُلِّ افْتِقَارٍ. وَلَا يُظُنُّ أَنْ رَفَعَ عِيسَى أَوْ غَيْرُهُ مِنَ الْخَلْقِ فَوْقَ مَرْتَبَتِهِ الَّتِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ فِيهَا وَتَرْفَعُهُ عَنِ الْعِبَادَةِ كَمَالاً، بَلْ هُوَ النِّقْصُ بِعَيْنِهِ، وَهُوَ مَحَلُّ الذَّمِّ وَالْعِقَابِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً﴾؛ أَي: فَيَحْشُرُ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ إِلَيْهِ الْمُسْتَنْكِفِينَ وَالْمُسْتَكْبِرِينَ وَعِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، فَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ الْعَدْلِ وَجَزَائِهِ الْفَضْلِ.

﴿١٧٣﴾ ثُمَّ فَصَّلَ حُكْمَهُ فِيهِمْ، فَقَالَ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أَي: جَمَعُوا بَيْنَ الْإِيمَانِ الْمَأْمُورِ بِهِ وَعَمَلِ الصَّالِحَاتِ مِنْ وَاجِبَاتٍ وَمُسْتَحَبَّاتٍ مِنْ حَقُوقِ اللَّهِ وَحَقُوقِ عِبَادِهِ، ﴿فِيَوْفِّيهِمْ أَجُورَهُمْ﴾؛ أَي: الْأَجُورَ الَّتِي رَتَّبَهَا عَلَى الْأَعْمَالِ كُلِّ بِحَسَبِ إِيْمَانِهِ وَعَمَلِهِ، ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾: مِنَ الثَّوَابِ الَّذِي لَمْ تَنْلُهُ أَعْمَالُهُمْ وَلَمْ تَصِلْ إِلَيْهِ أَفْعَالُهُمْ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَدَخَلَ فِي ذَلِكَ كُلِّ مَا فِي الْجَنَّةِ مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَنَاحِكِ وَالْمَنَاطِرِ وَالسُّرُورِ وَنَعِيمِ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ وَنَعِيمِ الْبَدَنِ، بَلْ يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ كُلِّ خَيْرٍ دِينِيٍّ وَدُنْيَوِيٍّ رَتَّبَ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾؛ أَي: عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾، وَهُوَ سَخَطُ اللَّهِ وَغَضَبُهُ وَالنَّارُ الْمَوْقَدَةُ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْتَدَةِ، ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴾؛ أَي: لَا يَجِدُونَ أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ يَتَوَلَّاهُمْ فَيَحْصُلُ لَهُمُ الْمَطْلُوبُ، وَلَا مِنْ يَنْصُرُهُمْ فَيَدْفَعُ عَنْهُمْ الْمَرْهُوبَ، بَلْ قَدْ تَخَلَّى عَنْهُمْ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ وَتَرَكَّهُمْ فِي عَذَابِهِمْ خَالِدِينَ، وَمَا حُكِمَ بِهِ تَعَالَى؛ فَلَا رَادَّ لِحُكْمِهِ وَلَا مُغَيِّرَ لِقَضَائِهِ.

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾ (١٧٤) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ، فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةِ رَبِّهِمْ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٧٥).

﴿١٧٤﴾ يَمْتَنُّ تَعَالَى عَلَى سَائِرِ النَّاسِ بِمَا أَوْصَلَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ وَالْأَنْوَارِ السَّاطِعَةِ، وَيَقِيمُ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ، وَيُبْضِحُ لَهُمُ الْمَحْجَّةَ، فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بَرَهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾؛ أَي: حُجْجٌ قَاطِعَةٌ عَلَى الْحَقِّ تَبَيَّنَتْ وَتَوَضَّحَتْ وَتَبَيَّنَ ضَدُّهُ، وَهَذَا يَشْمَلُ الْأَدْلَةَ الْعَقْلِيَّةَ وَالنَّقْلِيَّةَ، الْآيَاتِ الْأَفْقِيَّةَ وَالنَّفْسِيَّةَ، ﴿سَتُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾: مَا يَدُلُّ عَلَى شَرَفِ هَذَا الْبَرَهَانِ وَعَظَمَتِهِ؛ حَيْثُ كَانَ مِنْ رَبِّكُمْ الَّذِي رَبَّكُمْ التَّرْبِيَةُ الدِّينِيَّةُ وَالْدُنْيَوِيَّةُ؛ فَمَنْ تَرَبَّيْتُمْ لَكُمْ الَّتِي يُحْمَدُ عَلَيْهَا، وَيُشْكُرُ أَنْ أَوْصَلَ إِلَيْكُمْ الْبَيِّنَاتِ لِيَهْدِيَكُمْ بِهَا إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَالْوَصُولِ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ. وَأَنْزَلَ ﴿إِلَيْكُمْ نُوراً

مبيناً، وهو هذا القرآن العظيم، الذي قد اشتمل على علوم الأولين والآخرين والأخبار الصادقة النافعة والأمر بكل عدل وإحسان وخير والنهي عن كل ظلم وشر؛ فالناس في ظلمة إن لم يستضيئوا بأنواره، وفي شقاء عظيم إن لم يقتبسوا من خيرِهِ.

﴿١٧٥﴾ ولكن انقسم الناس بحسب الإيمان بالقرآن والانتفاع به قسمين: ﴿فأما الذين آمنوا بالله﴾؛ أي: اعترفوا بوجوده وأتصافه بكل وصف كامل وتنزيهه من كل نقص وعيب، ﴿واعتصموا به﴾؛ أي: لجؤوا إلى الله واعتمدوا عليه وتبرؤوا من حولهم وقوتهم واستعانوا برّبهم، ﴿فسيذخلهم في رحمة منه وفضل﴾؛ أي: فسيتممّدهم بالرحمة الخاصة فيوفّقهم للخيرات ويجزّل لهم المثوبات ويدفع عنهم البليات والمكروهات. ﴿ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً﴾؛ أي: يوفّقهم للعلم والعمل؛ معرفة الحق والعمل به؛ أي: ومن لم يؤمن بالله، ويعتصم به، ويتمسك بكتابه؛ منعهم من رحمته، وحرّمهم من فضله، وخلى بينهم وبين أنفسهم، فلم يَهْتَدُوا، بل ضلّوا ضلالاً مبيناً؛ عقوبة لهم على تركهم الإيمان، فحصلت لهم الخيبة والحرمان. نسأله تعالى العفو والعافية والمعافة.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ ^(١) **إِنْ أَمْرُكَ هَلْكَ لَيْسَ لَكَ وَلَدٌ وَلَكُ أَخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أَثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثَيَيْنِ** ^(٢) **يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴿١٧٦﴾.

﴿١٧٦﴾ أخبر تعالى أنّ الناس استفتوا رسوله ﷺ ^(١)؛ أي: في الكلالة؛ بدليل قوله: ﴿قل الله يفتيكم في الكلالة﴾، وهي الميت يموت وليس له ولد صلب ولا ولد ابن ولا أب ولا جد، ولهذا قال: ﴿إن امرؤ هلك ليس له ولد﴾، أي: لا ذكر ولا أنثى، لا ولد صلب ولا ولد ابن، وكذلك ليس له والد؛ بدليل أنّه ورث فيه الإخوة والأخوات، بالإجماع لا يرثون مع الوالد؛ فإذا هلك وليس له ولد ولا والد. ﴿وله أخْتُ﴾؛ أي: شقيقة أو لأب لا لأم؛ فإنه قد تقدّم حكمها. ﴿فلها

(١) كما في «صحيح البخاري» (٦٧٤٣)، ومسلم (١٦١٦) عن جابر قال: دخل عليّ النبي ﷺ وأنا مريض فدعا بوضوء فتوضأ ثم نضح عليّ من وضوئه فأفقت، فقلت: يا رسول الله، إنما لي أخوات فنزلت آية الفرائض.

نصف ما ترك؛ أي: نصف متروكات أخيها من نقودٍ وعقارٍ وأثاثٍ وغير ذلك، وذلك من بعد الدين والوصية؛ كما تقدم. ﴿وهو﴾؛ أي: أخوها الشقيق أو الذي للأب، ﴿يرثها إن لم يكن لها ولد﴾، ولم يُقدَّر له إراثاً لأنه عاصبٌ فيأخذ مالها كله إن لم يكن صاحبُ فرض ولا عاصبٌ يشاركه أو ما أبقت الفروض. ﴿فإن كانتا﴾؛ أي: الأختان، ﴿اثنتين﴾؛ أي: فما فوق ﴿فلهما الثلثان مما ترك﴾، وإن كانوا إخوة رجالاً ونساءً؛ أي: اجتمع الذكور من الإخوة لغير أمٍّ مع الإناث، ﴿فللذكر مثل حظ الأنثيين﴾: فيسقط فرض الإناث ويُعصَّبُهُنَّ إخوانهن. ﴿يبين الله لكم أن تفضلوا﴾؛ أي: يبين لكم أحكامه التي تحتاجونها ويوضحها ويشرحها لكم فضلاً منه وإحساناً لكي تهتدوا ببيانه [وتعملوا] (١) بأحكامه، ولئلا تضلوا عن الصراط المستقيم بسبب جهلكم وعدم علمكم. ﴿والله بكل شيءٍ عليمٌ﴾؛ أي: عالم بالغيب والشهادة والأمور الماضية والمستقبلية، ويعلم حاجتكم إلى بيانه وتعليمه، فيعلمكم من علمه الذي ينفعكم على الدوام في جميع الأزمنة والأمكنة.

آخر تفسير سورة النساء. فله الحمد والشكر.



تفسير سورة المائدة

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْفُسِ إِلَّا مَا يَتَلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾.

﴿١﴾ هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالوفاء بالعقود؛ أي: بإكمالها وإتمامها وعدم نقضها ونقصها، وهذا شامل للعقود التي بين العبد وبين ربه من التزام عبوديته؛ والقيام بها أتم قيام، وعدم الانتقاص من حقوقها شيئاً، والتي بينه وبين الرسول بطاعته واتباعه، والتي بينه وبين الوالدين والأقارب بيزههم وصلتهم وعدم قطيعتهم، والتي بينه وبين أصحابه من القيام بحقوق الصحبة في الغنى والفقر واليسر والعسر، والتي بينه وبين الخلق من عقود المعاملات كالبيع

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «تعملوا».

والإجارة ونحوهما، وعقود التبرعات كالهبة ونحوها، بل والقيام بحقوق المسلمين التي عقدها الله بينهم في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، [بالتناصر]^(١) على الحق والتعاون عليه والتآلف بين المسلمين وعدم التقاطع؛ فهذا الأمر شامل لأصول الدين وفروعه؛ فكلها داخلة في العقود التي أمر الله بالقيام بها [ويستدل بهذه الآية أن الأصل في العقود والشروط الإباحة، وأنها تنعقد بما دل عليها من قول أو فعل لإطلاقها]^(٢).

ثم قال ممتناً على عباده: ﴿أَحَلَّتْ لَكُمْ﴾؛ أي: لأجلكم، رحمة بكم، ﴿بِهَيْمَةِ الْأَنْعَامِ﴾: من الإبل والبقر والغنم، بل ربما دخل في ذلك الوحشي منها والظباء وحمر الوحش ونحوها من الصيد. واستدل بعض الصحابة بهذه الآية على إباحة الجنين الذي يموت في بطن أمه بعدما تذبح. ﴿إِلَّا مَا يُنْتَلَى عَلَيْكُمْ﴾: تحريمه منها في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ...﴾ إلى آخر الآية؛ فإن هذه المذكورات وإن كانت من بهيمة الأنعام؛ فإنها محرمة.

ولما كانت إباحة بهيمة الأنعام عامة في جميع الأحوال والأوقات؛ استثنى منها الصيد في حال الإحرام، فقال: ﴿غَيْرِ مُحْلِي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾؛ أي: أحلت لكم بهيمة الأنعام في كل حال؛ إلا حيث كنتم متصفين بأنكم غير محلّي الصيد وأنتم حرم؛ أي: متجربون على قتله في حال الإحرام؛ فإن ذلك لا يحل لكم إذا كان صيداً؛ كالظباء ونحوه، والصيد هو الحيوان المأكول المتوحش. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾؛ أي: فمهما أَرَادَهُ تعالى؛ حَكَمَ بِهِ حكماً موافقاً لحكمته؛ كما أمركم بالوفاء بالعقود؛ لحصول مصالحكم ودفع المضار عنكم، وأحل لكم بهيمة الأنعام رحمة بكم، وحرم عليكم ما استثنى منها من ذوات العوارض من الميته ونحوها صوناً لكم واحتراماً، ومن صيد الإحرام احتراماً للإحرام وإعظاماً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا أَسْهُرَ الْحَرَامِ وَلَا أَمْوَالَ الْفُلَيْدِ وَلَا أَمْوَالَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاؤُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَوْا عَلَى الْإِزْرِ وَالْفَقْوَى وَلَا تَعَاوَوْا عَلَى الْإِثْرِ وَالْمُدُونِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٢﴾.

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «بل التناصر». والصواب ما أثبت.

(٢) زيادة من هامش (ب). ولم يظهر ما يوضح موضع هذه الزيادة. ولعل هذا الموضع هو الأنسب. والله أعلم.

﴿٢﴾ يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾؛ أي: محرّماته التي أمركم بتعظيمها وعدم فعلها؛ فالنهي^(١) يشمّل النهي عن فعلها والنهي عن اعتقاد حلّها؛ فهو يشمل النهي عن فعل القبيح وعن اعتقاده، ويدخل في ذلك النهي عن محرّمات الإحرام ومحرّمات الحرم، ويدخل في ذلك ما نصّ عليه بقوله: ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾؛ أي: لا تنتهكوه بالقتال فيه وغيره من أنواع الظلم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمَ فَلَا تَظْلَمُوا فِيهِنِ أَنْفُسَكُمْ﴾.

والجمهور من العلماء على أنّ القتال في الأشهر الحرم منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، وغير ذلك من العمومات التي فيها الأمر بقتال الكفار مطلقاً والوعيد في التخلف عن قتالهم مطلقاً، وبأنّ النبي ﷺ قاتل أهل الطائف في ذي القعدة، وهو من الأشهر الحرم.

وقال آخرون: إن النهي عن القتال في الأشهر الحرم غير منسوخ لهذه الآية وغيرها مما فيه النهي عن ذلك بخصوصه، وحملوا النصوص المطلقة الواردة على ذلك وقالوا: المطلق يُحمّل على المقيّد. وفصل بعضهم فقال: لا يجوز ابتداء القتال في الأشهر الحرم، وأمّا استدامته وتكميله إذا كان أوله في غيرها؛ فإنه يجوز، وحملوا قتال النبي ﷺ لأهل الطائف على ذلك؛ لأنّ أول قتالهم في حنين في شوال.

وكل هذا في القتال الذي ليس المقصود منه الدفع، فأما قتال الدفع إذا ابتدأ الكفار المسلمين بالقتال؛ فإنه يجوز للمسلمين القتال دفعاً عن أنفسهم في الشهر الحرام وغيره بإجماع العلماء.

وقوله: ﴿وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾؛ أي: ولا تحلّوا الهدي الذي يُهدى إلى بيت الله في حجّ أو عمرة أو غيرها من نَعَم وغيرها؛ فلا تصدّوه عن الوصول إلى محلّه، ولا تأخذوه بسرقة أو غيرها، ولا تقصّروا به أو تحمّلوه مالا يطيق خوفاً من تلفه قبل وصوله إلى محلّه، بل عظموه وعظّموا من جاء به. ﴿وَلَا الْقَلَائِدَ﴾: هذا نوع خاص من أنواع الهدي، وهو الهدي الذي يُقتل له قلائد أو عُرى، فيجعل في أعناقها؛ إظهاراً لشعائر الله، وحملًا للناس على الاقتداء، وتعليماً لهم للسنة،

(١) في (ب): «والنهي».

وَلْيُعْرِفَ أَنَّهُ هَدْيٌ فَيُخْتَرَمَ، ولهذا كان تقليد الهدى من السنن والشعائر المسنونة.

﴿وَلَا آمِينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾؛ أي: قاصدين له، ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾؛ أي: مَنْ قَصَدَ هَذَا الْبَيْتَ الْحَرَامَ، وَقَصَدَهُ فَضْلُ اللَّهِ بِالتَّجَارَةِ وَالْمَكَاسِبِ الْمُبَاحَةِ، أَوْ قَصَدَهُ رِضْوَانُ اللَّهِ بِحُجَّتِهِ وَعَمَرَتِهِ وَالطَّوَافِ بِهِ وَالصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ؛ فَلَا تَتَعَرَّضُوا لَهُ بِسُوءٍ وَلَا تُهَيِّنُوهُ، بَلْ أَكْرِمُوهُ وَعَظِّمُوا الْوَافِدِينَ الزَّائِرِينَ لِبَيْتِ رَبِّكُمْ. ودخل في هذا الأمر الأمر بتأمين الطرق الموصلة إلى بيت الله، وجعل القاصدين له مطمئنين مستريحين غير خائفين على أنفسهم من القتل فما دونه ولا على أموالهم من المكس والنهب ونحو ذلك. وهذه الآية الكريمة مخصوصة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾؛ فَالْمُشْرِكُ لَا يُمْكِنُ مِنَ الدُّخُولِ إِلَى الْحَرَمِ. والتخصيص في هذه الآية بالنهي عن التعرض لمن قَصَدَ الْبَيْتَ ابْتِغَاءَ فَضْلِ اللَّهِ أَوْ رِضْوَانِهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ قَصَدَهُ لِيُلْجِدَ فِيهِ بِالْمَعَاصِي؛ فَإِنَّ مِنْ تَمَامِ احْتِرَامِ الْحَرَمِ صَدٌّ مَنْ هَذِهِ حَالُهُ عَنِ الْإِفْسَادِ بِبَيْتِ اللَّهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾.

ولما نهاهم عن الصيد في حال الإحرام؛ قال: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾؛ أي: إذا حللتكم من الإحرام بالحج والعمرة، [وخرجتم من الحرم]؛ حل لكم الاصطياد، وزال ذلك التحريم، والأمر بعد التحريم يَرُدُّ الْأَشْيَاءَ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلِ.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾؛ أي: لا يحملنكم بغض قوم وعداوتهم واعتداؤهم عليكم حيث صدوكم عن المسجد على الاعتداء عليهم طلباً للاشتفاء منهم؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ عَلَيْهِ أَنْ يَلْتَزِمَ أَمْرَ اللَّهِ وَيَسْلُكَ طَرِيقَ الْعَدْلِ، وَلَوْ جُنِيَ عَلَيْهِ أَوْ ظَلِمَ وَاعْتَدِيَ عَلَيْهِ؛ فَلَا يَجِلُّ لَهُ أَنْ يَكْذِبَ عَلَى مَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ أَوْ يَخُون مَنْ خَانَهُ.

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾؛ أي: لِيُعِزَّنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا عَلَى الْبِرِّ، وَهُوَ اسْمُ جَامِعٍ لِكُلِّ مَا يَحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ مِنْ حَقُوقِ اللَّهِ وَحَقُوقِ الْآدَمِيِّينَ، وَالتَّقْوَى فِي هَذَا الْمَوْضِعِ اسْمُ جَامِعٍ لِتَرْكِ كُلِّ مَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَكُلِّ خَصْلَةٍ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ الْمَأْمُورِ بِفَعْلِهَا، أَوْ خَصْلَةٍ مِنْ خِصَالِ الشَّرِّ الْمَأْمُورِ بِتَرْكِهَا؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ مَأْمُورٌ بِفَعْلِهَا بِنَفْسِهِ وَبِمَعَاوَنَةِ غَيْرِهِ مِنْ إِخْوَانِهِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهَا بِكُلِّ قَوْلٍ يَبْعَثُ عَلَيْهَا وَيَنْشِطُ لَهَا وَبِكُلِّ فِعْلٍ كَذَلِكَ. ﴿وَلَا

تعاونوا على الإثم: وهو التجري على المعاصي التي يَأْتُم صاحبُها ويُخْرِجُ،
﴿والعدوان﴾: وهو التعدي على الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم؛ فكلُّ
معصية وظلم يجب على العبد كُفَّ نفسه عنه، ثم إعانة غيره على تركه.

﴿واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾: على من عصاه وتجراً على محارمِهِ؛
فاحذروا المحارم؛ لئلا يحلَّ بكم عقابُه العاجل والآجل.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْيَتَةُ الدَّمِ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ
وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ
ذَلِكَ فِسْقٌ﴾.

﴿٣﴾ هذا الذي حوَّلنا الله عليه في قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾. واعلم أن الله
تبارك وتعالى لا يحرم ما يحرم إلا صيانة لعباده وحماية لهم من الضرر الموجود في
المحرّمات، وقد بين للعباد ذلك وقد لا يبين، فأخبر أنه حرّم ﴿الميتة﴾، والمراد
بالميتة ما فقدت حياته بغير ذكاة شرعية؛ فإنها تحرم لضررها، وهو احتقان الدم في
جوفها ولحمها المضّر بآكلها، وكثيراً ما تموت بعلّة تكون سبباً لهلاكها فتضّر
بالأكل، ويستثنى من ذلك ميتة الجراد والسمك؛ فإنه حلال، ﴿والدم﴾؛ أي:
المسفوح؛ كما قيّد في الآية الأخرى، ﴿ولحم الخنزير﴾: وذلك شامل لجميع
أجزائه، وإنما نصّ الله عليه من بين سائر الخبائث من السباع؛ لأنّ طائفة من أهل
الكتاب من النصارى يزعمون أن الله أحله لهم؛ أي: فلا تغتروا بهم، بل هو محرّم
من جملة الخبائث، ﴿وما أهّل لغير الله به﴾؛ أي: ذكر عليه اسم غير الله [تعالى]
من الأصنام والأولياء والكواكب وغير ذلك من المخلوقين؛ فكما أن ذكر الله تعالى
يطيّب الذبيحة؛ فذكر اسم غيره عليها يفيدها خبثاً معنوياً؛ لأنه شرك بالله تعالى،
﴿والمنخنقة﴾؛ أي: الميتة بخنق بيد أو حبل أو إدخالها رأسها بشيء ضيق فتعجز
عن إخراجِهِ حتى تموت، ﴿والموقوذة﴾؛ أي: الميتة بسبب الضرب بعصا أو حصي
أو خشبة أو هذم شيء عليها بقصد أو بغير قصد، ﴿والمتردية﴾؛ أي: الساقطة من
علو؛ كجبل أو جدار أو سطح ونحوه فتموت بذلك، ﴿والنطيحة﴾: وهي التي
تنطّحها غيرها فتموت، ﴿وما أكل السبع﴾: من ذئب أو أسد أو نمر أو من الطيور
التي تفترس الصيود؛ فإنها إذا ماتت بسبب أكل السبع؛ فإنها لا تحلّ. وقوله: ﴿إِلَّا
مَا ذَكَّيْتُمْ﴾: راجع لهذه المسائل من منخنقة وموقوذة ومتردية ونطيحة وأكلة سبع

إذا ذُكِّيت وفيها حياةٌ مستقرّةٌ لتتحقق الذّكاة فيها. ولهذا قال الفقهاء: لو أبان السَّبُعُ أو غيرهُ حشوتها أو قطع حلقومها؛ كان وجود حياتها كعدمها^(١)؛ لعدم فائدة الذّكاة فيها. وبعضهم لم يعتبر فيها إلا وجود الحياة؛ فإذا ذكّاها وفيها حياةٌ؛ حلّت، ولو كانت مبانة الحشوة، وهو ظاهر الآية الكريمة.

﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾؛ أي: وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام، ومعنى الاستقسام طلبُ ما يُقسم لكم ويُقدَّر بها، وهي قِداح ثلاثة كانت تستعمل في الجاهلية، مكتوب على أحدها افعل، وعلى الثاني لا تفعل، والثالث غُفْل لا كتابة فيه؛ فإذا همَّ أحدهم بسفر أو عرس أو نحوهما؛ أجال تلك القداح المتساوية في الجرم، ثم أخرج واحداً منها؛ فإن خرج المكتوب عليه افعل؛ مضى في أمره، وإن ظهر المكتوب عليه لا تفعل؛ لم يفعل ولم يمض في شأنه، وإن ظهر الآخر الذي لا شيء عليه؛ أعادها حتى يخرج أحد القدحين فيعمل به، فحرّمه^(٢) الله عليهم الذي في هذه الصورة وما يشبهه، وعوَّضهم عنه بالاستخارة لرُبُّهم في جميع أمورهم.

﴿ذَلِكُمْ فَسْقٌ﴾: الإشارة لكل ما تقدّم من المحرّمات التي حرّمها الله صيانة لعباده وأنها فسقٌ؛ أي: خروج عن طاعته إلى طاعة الشيطان.
ثم امتن على عباده بقوله:

﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾.

واليوم المشار إليه يوم عرفة؛ إذ أتمّ الله دينه ونصّر عبده ورسوله وانخذل أهل الشُّرك انخذالاً بليغاً بعدما كانوا حريصين على ردّ المؤمنين عن دينهم طامعين في ذلك، فلما رأوا عزّ الإسلام وانتصاره وظهوره؛ يتسوا كلّ اليأس من المؤمنين أن يرجعوا إلى دينهم، وصاروا يخافون منهم ويخشون، ولهذا في هذه السنة التي حجّ فيها النبي ﷺ سنة عشر حجة الوداع لم يحج فيها مشرك ولم يطف بالبيت

(١) في (ب): «كعدمه».

(٢) كذا في النسختين. وعدلت في (أ) إلى «فحرّم» بخط مغاير.

عريان^(١). ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَا﴾؛ أي: فلا تخشوا المشركين واخشوا الله الذي نصركم عليهم وخذلهم وردّ كيدهم في نحورهم. ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾؛ بتمام النصر وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة الأصول والفروع.

ولهذا كان الكتاب والسنة كافيين كل الكفاية في أحكام الدين وأصوله وفروعه؛ فكل متكلف يزعم أنه لا بد للناس في معرفة عقائدهم وأحكامهم إلى علوم غير علم الكتاب والسنة من علم الكلام وغيره؛ فهو جاهل مبطل في دعواه، قد زعم أن الدين لا يكمل إلا بما قاله ودعا إليه، وهذا من أعظم الظلم والتجهيل لله ولرسوله، ﴿وَأَتِمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾: الظاهرة والباطنة، ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾؛ أي: اخترته واصطفيته لكم ديناً كما ارتضيتكم له؛ فقوموا به شكراً لربكم واحمدوا الذي منّ عليكم بأفضل الأديان وأشرفها وأكملها، ﴿فمن اضطر﴾؛ أي: البجأة الضرورة إلى أكل شيء من المحرمات السابقة في قوله: ﴿حُرِّمْتُ عَلَيْكَ الْمَيْتَةَ﴾ ﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾؛ أي: مجاعة، ﴿غير متجانف﴾؛ أي: مائل إلى إثم: بأن لا يأكل حتى يضطر، ولا يزيد في الأكل على كفايته. ﴿فإن الله غفور رحيم﴾؛ حيث أباح له الأكل في هذه الحال، ورحمه بما يُقيم به بُنيته من غير نقص يلحقه في دينه.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ تَعْلَوْنَهَا وَمَا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فِكْلُوا بِمَا آمَنَ عَلَيْهِمْ وَادْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَقْنُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

﴿٤﴾ يقول تعالى لنبينا محمد ﷺ: ﴿يسألونك ماذا أحلّ لهم﴾: من الأطعمة، ﴿قل أحلّ لكم الطيبات﴾: وهي كل ما فيه نفع أو لذة من غير ضرر بالبدن ولا بالعقل، فدخل في ذلك جميع الحبوب والثمار التي في القرى والبراري، ودخل في ذلك جميع حيوانات البحر وجميع حيوانات البر؛ إلا ما استثناه الشارع كالسباع والخبائث منها. ولهذا دلت الآية بمفهومها على تحريم الخبائث؛ كما صرح به في قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾، ﴿وما علّمتم من الجوارح﴾؛ أي: وأحلّ لكم ما علّمتم من الجوارح... إلى آخر الآية.

دلت هذه الآية على أمور:

(١) كما في «صحيح البخاري» (٤٦٥٥) عندما بعث أبا بكر ثم علياً سنة تسع.

أحدها: لطف الله بعباده ورحمته لهم حيث وسّع عليهم طرق الحلال، وأباح لهم ما لم يُدْكُوهُ مما صادته الجوارح، والمراد بالجوارح الكلاب والفهود والصقور ونحو ذلك مما يصيد بنابه أو بمخلبه.

الثاني: أنه يشترط أن تكون معلّمة بما يُعَدُّ في العرف تعليمًا؛ بأن يسترسل إذا أرسل، وينزجر إذا زجر، وإذا أمسك لم يأكل، ولهذا قال: ﴿تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: أمسكن من الصيد لأجلكم، وما أكل منه الجارح؛ فإنه لا يعلم أنه أمسكه على صاحبه، ولعلّه أن يكون أمسكه على نفسه.

الثالث: اشتراط أن يجرحه الكلب أو الطير ونحوهما؛ لقوله: ﴿مِنَ الْجَوَارِحِ﴾؛ مع ما تقدم من تحريم المنخقة؛ فلو خنقه الكلب أو غيره أو قتله بثقله؛ لم يُبَيِّحْ، هذا بناء على أن الجوارح اللاتي يجرحن الصيد بأنبيائها أو مخالبيها، والمشهور أن الجوارح بمعنى الكواشب؛ أي: المحصّلات للصيد والمدركات له، فلا يكون فيها على هذا دلالة. والله أعلم.

الرابع: جواز اقتناء كلب الصيد؛ كما ورد في الحديث الصحيح^(١)، مع أن اقتناء الكلب محرّم؛ لأن من لازم إباحة صيده وتعليمه جواز اقتنائه.

الخامس: طهارة ما أصابه فم الكلب من الصيد؛ لأن الله أباحه ولم يذكر له غسلاً، فدلّ على طهارته.

السادس: فيه فضيلة العلم، وأن الجارح المعلوم بسبب العلم يُباح صيده والجاهل بالتعليم لا يُباح صيده.

السابع: أن الاشتغال بتعليم الكلب أو الطير أو نحوهما ليس مذموماً وليس من العبث والباطل، بل هو أمر مقصود؛ لأنّه وسيلة لحلّ صيده والانتفاع به.

الثامن: فيه حجة لمن أباح بيع كلب الصيد؛ قال: لأنه قد لا يحصل له إلا بذلك.

التاسع: فيه اشتراط التسمية عند إرسال الجارح، وأنّه إن لم يسم الله متعمداً؛ لم يُبَيِّحْ ما قتل الجارح.

العاشر: أنه يجوز أكل ما صاده الجارح، سواء قتله الجارح أم لا، وأنه إن أدركه صاحبه وفيه حياة مستقرة؛ فإنه لا يباح إلا بها.

(١) كما في «صحيح البخاري» (٥٤٨٠)، ومسلم (١٥٧٥) من حديث أبي هريرة.

ثُمَّ حَتَّ تَعَالَى عَلَى تَقْوَاهُ وَحَذَّرَ مِنْ إِيْتَانِ الْحِسَابِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ قَدْ دَنَا وَاقْتَرَبَ، فَقَالَ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُؤْمِنَاتُ وَالْمُؤْمِنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِينَ غَيْرَ مُسْفَحِينَ وَلَا مُتَخَذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥﴾﴾.

﴿٥﴾ كَرَّرَ تَعَالَى إِحْلَالَ الطَّيِّبَاتِ لِبَيَانِ الْاِمْتِنَانِ، وَدَعْوَةَ لِلْعِبَادِ إِلَى شُكْرِهِ وَالْإِكْتِثَارِ مِنْ ذِكْرِهِ؛ حَيْثُ أَبَاحَ لَهُمْ مَا تَدْعُوهُمْ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ، وَيَحْصُلُ لَهُمُ الْإِنْتِفَاعُ بِهِ مِنَ الطَّيِّبَاتِ.

﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾؛ أَي: ذَبَائِحُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى حَلَالٌ لَكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ دُونَ بَاقِي الْكُفَّارِ فَإِنَّ ذَبَائِحَهُمْ لَا تَحِلُّ لِلْمُسْلِمِينَ، وَذَلِكَ لِأَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ يَنْتَسِبُونَ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالْكِتَابِ، وَقَدْ اتَّفَقَ الرِّسَالُ كُلُّهُمْ عَلَى تَحْرِيمِ الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ شَرَكٌ؛ فَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَتَدَيَّنُونَ بِتَحْرِيمِ الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ؛ فَلِذَلِكَ أُبِيحَتْ ذَبَائِحُهُمْ دُونَ غَيْرِهِمْ. وَالِدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِطَعَامِهِمْ ذَبَائِحَهُمْ: أَنَّ الطَّعَامَ الَّذِي لَيْسَ مِنَ الذَّبَائِحِ؛ كَالْحَبُوبِ وَالشَّمَارِ، لَيْسَ لِأَهْلِ الْكِتَابِ فِيهِ خُصُوصِيَّةٌ، بَلْ يُبَاحُ ذَلِكَ، وَلَوْ كَانَ مِنْ طَعَامٍ غَيْرِهِمْ. وَأَيْضاً؛ فَإِنَّهُ أَضَافَ الطَّعَامَ إِلَيْهِمْ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ كَانَ طَعَاماً بِسَبَبِ ذَبْحِهِمْ، وَلَا يَقَالُ: إِنَّ ذَلِكَ لِلتَّمْلِكِ، وَإِنَّ الْمُرَادَ الطَّعَامَ الَّذِي يَمْلِكُونَ؛ لِأَنَّ هَذَا لَا يُبَاحُ عَلَى وَجْهِ الْغَضَبِ وَلَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ. ﴿وَطَعَامُكُمْ﴾: أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، ﴿حِلٌّ لَهُمْ﴾؛ أَي: يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَطْعَمُوهُمْ إِيَّاهُ.

﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ﴾ ﴿الْمُحْصَنَاتُ﴾؛ أَي: الْحَرَائِرُ الْعَفِيفَاتُ ﴿مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾؛ وَالْحَرَائِرُ الْعَفِيفَاتُ ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾؛ أَي: مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَهَذَا مُخَصَّصٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمَنَّ﴾، وَمَفْهُومُ الْآيَةِ أَنَّ الْأَرْقَاءَ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ لَا يُبَاحُ نِكَاحُهُنَّ لِلْأَحْرَارِ وَهُوَ كَذَلِكَ، وَأَمَّا الْكِتَابِيَّاتُ فَعَلَى كُلِّ حَالٍ لَا يُبَحْنَ وَلَا يُجُوزُ نِكَاحُهُنَّ لِلْأَحْرَارِ مُطْلَقاً؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ فِتْيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ﴾. وَأَمَّا الْمُسْلِمَاتُ إِذَا كُنَّ رَقِيقَاتٍ؛ فَإِنَّهُ لَا يُجُوزُ لِلْأَحْرَارِ نِكَاحَهُنَّ إِلَّا بِشَرْطَيْنِ: عَدَمُ الطُّوْلِ، وَخُوفُ الْعَنَتِ. وَأَمَّا الْفَاجِرَاتُ غَيْرُ الْعَفِيفَاتِ عَنْ الزَّانَا؛ فَلَا يُبَاحُ نِكَاحُهُنَّ، سِوَا كُنَّ مُسْلِمَاتٍ أَوْ كِتَابِيَّاتٍ حَتَّى يَتُبَّنَّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً...﴾ الْآيَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾

أَجُورَهُنَّ؟؛ أي: أبحنا لكم نكاحهنَّ إذا أُعطيتموهن مهورهنَّ؛ فمن عَزَمَ على أن لا يؤتيها مهرها؛ فإنها لا تحلَّ له، وأمر ببيتائها إذا^(١) كانت رشيدة تصلح للإيتاء، وإلاَّ أعطاه الزوج لوليها، وإضافة الأجور إليهنَّ دليلٌ على أنَّ المرأة تملك جميع مهرها، وليس لأحدٍ منه شيء؛ إلاَّ ما سمحت به لزوجها أو وليها أو غيرها. ﴿محصنين غير مسافحين﴾؛ أي: حالة كونكم أيها الأزواج محصنين لنسائكم بسبب حفظكم لفروجكم عن غيرهنَّ، ﴿غير مسافحين﴾؛ أي: زانين مع كلِّ أحدٍ، ﴿ولا متَّخذي أخدان﴾: وهو الزنا مع العشيقات؛ لأنَّ الزنا في الجاهلية منهم من يزني مع من كان؛ فهذا المسافح، ومنهم من يزني مع خدنه ومحبه؛ فأخبر الله تعالى أن ذلك كله ينافي العقَّة، وأن شرطَ التزوُّج أن يكون الرجل عفيفاً عن الزنا.

وقوله تعالى: ﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله﴾؛ أي: ومن كفر بالله تعالى وما يجب الإيمان به من كتبه ورسله أو شيء من الشرائع؛ فقد حبطَ عمله؛ بشرط أن يموت على كفره؛ كما قال تعالى: ﴿ومن يرتدّد منكم عن دينه قيمتٌ وهو كافرٌ فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾. ﴿وهو في الآخرة من الخاسرين﴾؛ أي: الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهلهم يوم القيامة، وحصلوا على الشقاوة الأبديّة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿٦﴾ هذه آية عظيمة قد اشتملت على أحكام كثيرة نذكر منها ما يسره الله وسهله:

أحدها: أن هذه المذكورات فيها امتثالها والعمل بها من لوازم الإيمان الذي لا يتم إلا به؛ لأنه صدرها بقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا...﴾ إلى آخرها؛ أي: يا أيها الذين آمنوا، اعملوا بمقتضى إيمانكم بما شرعناه لكم.

(١) في (ب): «أي إذا».

الثاني: الأمر بالقيام بالصلاة؛ لقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾.

الثالث: الأمر بالنية للصلاة؛ لقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾؛ أي: بقصدها ونيتها.

الرابع: اشتراط الطهارة لصحة الصلاة؛ لأنَّ الله أمر بها عند القيام إليها، والأصل في الأمر الوجوب.

الخامس: أن الطهارة لا تجب بدخول الوقت، وإنما تجب عند إرادة الصلاة.

السادس: أن كلَّ ما يُطلق عليه اسم الصلاة من الفرض والنفل وفرض الكفاية وصلاة الجنازة تُشترط له الطهارة، حتى السجود المجزء عند كثير من العلماء؛ كسجود التلاوة والشكر.

السابع: الأمر بغسل الوجه، وهو ما تحضَّل به المواجهة من منابت شعر الرأس المعتاد إلى ما انحدر من اللحيين والذقن طولاً ومن الأذن إلى الأذن عرضاً، ويدخل فيه المضمضة والاستنشاق بالسنة^(١)، ويدخل فيه الشعور التي فيه، لكن إن كانت خفيفة؛ فلا بد من إيصال الماء إلى البشرة، وإن كانت كثيفة؛ اكتفى بظاهاها.

الثامن: الأمر بغسل اليدين، وأنَّ حدَّهما إلى المرفقين، و﴿إِلَى﴾ كما قال جمهور المفسرين بمعنى مع؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾، ولأن الواجب لا يتمُّ إلا بغسل جميع المرفق.

التاسع: الأمر بمسح الرأس.

العاشر: أنه يجب مسح جميعه؛ لأن الباء ليست للتبويض، وإنما هي للملاصقة، وأنه يعمُّ المسح بجميع الرأس.

الحادي عشر: أنه يكفي المسح كيفما كان بيديه أو إحداهما أو خرقة أو خشبة أو نحوهما؛ لأن الله أطلق المسح، ولم يقيد بصفة، فدلَّ ذلك على إطلاقه.

الثاني عشر: أن الواجب المسح؛ فلو غسل رأسه ولم يُمرَّ يده عليه؛ لم يكف؛ لأنه لم يأت بما أمر الله به.

(١) كما جاء من حديث عثمان رضي الله عنه عند البخاري (١٥٩) ومسلم (٢٢٦)، وكذا من

حديث عبدالله بن زيد عند البخاري (١٨٥، ١٨٦) ومسلم (٢٣٥).

الثالث عشر: الأمر بغسل الرجلين إلى الكعبين، ويقال فيهما ما يقال في اليدين.
الرابع عشر: فيها الرُّدُّ على الرافضة على قراءة الجمهور بالنصب، وأنه لا يجوز مسحهما ما دامتا مكشوفتين.

الخامس عشر: فيه الإشارة إلى مسح الخفين على قراءة الجر في ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾، وتكون كلُّ من القراءتين محمولةً على معنى؛ فعلى قراءة النصب فيها غسلهما إن كانتا مكشوفتين، وعلى قراءة الجرَّ فيها مسحهما إذا كانتا مستورتين بالخفِّ.

السادس عشر: الأمر بالترتيب في الوضوء؛ لأنَّ الله تعالى ذكرها مرتبةً؛ ولأنَّه أدخل ممسوحاً - وهو الرأس - بين مغسولين، ولا يُعلم لذلك فائدة غير الترتيب.

السابع عشر: أنَّ الترتيب مخصوص بالأعضاء الأربعة المسمَّيات في هذه الآية، وأما الترتيب بين المضمضة والاستنشاق والوجه أو بين اليمنى واليسرى من اليدين والرجلين؛ فإنَّ ذلك غير واجب، بل يستحبُّ تقديم المضمضة والاستنشاق على غسل الوجه، وتقديم اليمنى على اليسرى من اليدين والرجلين، وتقديم مسح الرأس على مسح الأذنين.

الثامن عشر: الأمر بتجديد الوضوء عند كلِّ صلاة؛ لتوجد^(١) صورة المأمور.

التاسع عشر: الأمر بالغسل من الجنابة.

العشرون: أنَّه يجب تعميمُ الغسل للبدن؛ لأنَّ الله أضاف التطهُّر للبدن ولم يخصَّه بشيء دون شيء.

الحادي والعشرون: الأمر بغسل ظاهر الشعر وباطنيه في الجنابة.

الثاني والعشرون: أنَّه يندرج الحدث الأصغر في الحدث الأكبر، ويكفي مَنْ هما عليه أن ينوي ثم يعمَّم بدنه؛ لأنَّ الله لم يذكر إلا التطهُّر، ولم يذكر أنه يعيد الوضوء.

الثالث والعشرون: أنَّ الجنب يصدق على من أنزل المنى يقظةً أو مناماً أو جامع ولو لم يُتْرَلْ.

الرابع والعشرون: أن من ذكر أنه احتلم ولم يجد بللاً؛ فإنه لا غسل عليه؛ لأنه لم تتحقَّق منه الجنابة.

(١) في (ب): «ليوجد».

- الخامس والعشرون: ذكر مِثَّة الله تعالى على العباد بمشروعته التيمم.
- السادس والعشرون: أن من أسباب جواز التيمم وجود المرض الذي يضره غسله بالماء فيجوز له التيمم.
- السابع^(١) والعشرون: أن من جملة أسباب جوازه؛ السفر والإتيان من البول والغائط إذا عدم الماء؛ فالمرض يجوز التيمم مع وجود الماء لحصول الضرر به، وباقيا يجوز العدم للماء، ولو كان في الحضر.
- الثامن والعشرون: أن الخارج من السيلين من بول وغائط ينقض الوضوء.
- التاسع والعشرون: استدلل بها من قال: لا ينقض الوضوء إلا هذان الأمران؛ فلا ينتقض بلمس الفرج ولا بغيره.
- الثلاثون: استحباب التكنية عما يُستقذر التلُفُظ به^(٢)؛ لقوله تعالى: ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾.
- الحادي والثلاثون: أن لمس المرأة بلذة وشهوة ناقض للوضوء.
- الثاني والثلاثون: اشتراط عدم الماء لصحة التيمم.
- الثالث والثلاثون: أنه مع وجود الماء ولو في الصلاة يبطل التيمم؛ لأن الله إنما أباحه مع عدم الماء.
- الرابع والثلاثون: أنه إذا دخل الوقت وليس معه ماء؛ فإنه يلزمه طلبه في رَحْلِهِ وفيما قَرُب منه؛ لأنه لا يُقال: لم يجد لمن لم يطلب.
- الخامس والثلاثون: أن من وجد ماء لا يكفي بعض طهارته؛ فإنه يلزمه استعماله ثم يتيمم بعد ذلك.
- السادس والثلاثون: أن الماء المتغير بالطهارات مقدّم على التيمم؛ أي: يكون طهوراً؛ لأن الماء المتغير ماء، فيدخل في قوله: ﴿فلم تجدوا ماء﴾.
- السابع والثلاثون: أنه لا بدّ من نية التيمم؛ لقوله: ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾؛ أي: اقصدوا.
- الثامن والثلاثون: أنه يكفي التيمم بكلّ ما تصاعد على وجه الأرض من تراب وغيره، فيكون على هذا قوله: ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾: إما من باب

(١) في النسختين: «السادس والعشرون» وهو مكرر، وصوابه «السابع والعشرون».

(٢) في (ب): «فيه».

التغليب وأنَّ الغالب أن يكونَ له غبارٌ يمسح منه ويعلق بالوجه واليدين، وإما أن يكون إرشاداً للأفضل، وأنَّه إذا أمكن التراب الذي فيه غبار فهو أولى.

التاسع والثلاثون: أنَّه لا يصح التيمُّم بالتراب النجس؛ لأنه لا يكون طيباً بل خبيثاً.

الأربعون: أنه يُمسح في التيمُّم الوجه واليدان فقط دون بقية الأعضاء.

الحادي والأربعون: أنَّ قوله: ﴿بوجوهكم﴾: شاملٌ لجميع الوجه، وأنه يعمُّه بالمسح.

إلاً أنه معفوٌّ عن إدخال التراب في الفم والأنف وفيما تحت الشعور ولو خفيفة.

الثاني والأربعون: أن اليدين تُمسحان^(٢) إلى الكوعين فقط، لأن اليدين عند الإطلاق كذلك؛ فلو كان يُشترط إيصال المسح إلى الذراعين؛ لقيَّده الله بذلك؛ كما قيَّده في الوضوء.

الثالث والأربعون: أنَّ الآية عامةٌ في جواز التيمُّم لجميع الأحداث كلها؛ الحدث الأكبر والأصغر، بل ونجاسة^(٣) البدن؛ لأن الله جعلها بدلاً عن طهارة الماء، وأطلق في الآية، فلم يقيّد. وقد يقال: إن نجاسة البدن لا تدخل في حكم التيمُّم؛ لأنَّ السِّباق في الأحداث، وهو قول جمهور العلماء.

الرابع والأربعون: أنَّ محلَّ التيمُّم في الحدث الأصغر والأكبر واحدٌ، وهو الوجه واليدان.

الخامس والأربعون: أنه لو نوى من عليه حدثان التيمُّم عنهما؛ فإنه يجزىء؛ أخذاً من عموم الآية وإطلاقها.

السادس والأربعون: أنه يكفي المسح بأي شيء كان بيده أو غيرها؛ لأنَّ الله قال: ﴿فامسحوا﴾، ولم يذكر الممسوح به، فدلَّ على جوازه بكل شيء.

السابع والأربعون: اشتراط الترتيب في طهارة التيمُّم كما يشترط ذلك في الوضوء، ولأنَّ الله بدأ بمسح الوجه قبل مسح اليدين.

الثامن والأربعون: أنَّ الله تعالى فيما شرعه لنا من الأحكام لم يجعل علينا في

(٢) في (ب): «يُمسحان».

(١) في (ب): «يُعممه».

(٣) في (ب): «ولنجاسة».

ذَٰلِكَ مِنْ حَرَجٍ وَلَا مَشْقَةٍ وَلَا عُسْرٌ، وَإِنَّمَا هُوَ رَحْمَةٌ مِنْهُ بِعِبَادِهِ لِيُطَهِّرَهُمْ وَلِيَتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ، وَهَٰذَا هُوَ.

التاسع والأربعون: أَنَّ طهارة الظاهر بالماء والتراب تكميلٌ لطهارة الباطن بالتوحيد والتوبة النصوح.

الخمسون: أَنَّ طهارة التيمُّم وإن لم يكن فيها نظافة وطهارة تُذَرِّكُ بالحسِّ والمشاهدة؛ فَإِنَّ فِيهَا طَهَارَةً مَعْنَوِيَّةً نَاشِئَةً عَنْ امْتِثَالِ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى.

الحادي والخمسون: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَتَدَبَّرَ الْحِكَمَ وَالْأَسْرَارَ فِي شَرَائِعِ اللَّهِ فِي الطَهَارَةِ وَغَيْرِهَا؛ لِيَزِدَّادَ مَعْرِفَةً وَعِلْمًا وَيَزِدَّادَ شُكْرًا لِلَّهِ وَمَحَبَّةً لَهُ عَلَى مَا شَرَعَ مِنَ الْأَحْكَامِ الَّتِي تَوْصِلُ الْعَبْدَ إِلَى الْمَنَازِلِ الْعَالِيَةِ الرَّفِيعَةِ.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٧).

﴿٧﴾ يأمر تعالى عباده بذكر نعمه الدينية والدنيوية بقلوبهم وألسنتهم؛ فإن في استدامة ذكرها داعياً لشكر الله تعالى ومحبةً وامتلاء القلب من إحسانه، وفيه زوال للتعجب من النفس بالنعم الدينية وزيادة لفضل الله وإحسانه ﴿وميثاقه﴾؛ أي: واذكروا ميثاقه ﴿الذي واثقكم به﴾؛ أي: عهده الذي أخذه عليكم، وليس المراد بذلك أنهم لَفَظُوا وَنَطَقُوا بِالْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِذَلِكَ أَنَّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ قَدْ التَزَمُوا طَاعَتَهُمَا، وَلِهَٰذَا قَالَ: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾؛ أي: سمعنا ما دعوتنا به من آياتك القرآنية والكونية سَمِعَ فَهَمَّ وَإِذْعَانٍ وَانْقِيَادٍ، وَأَطَعْنَا مَا أَمَرْتَنَا بِهِ بِالْإِمْتِثَالِ وَمَا نَهَيْتَنَا عَنْهُ بِالْاجْتِنَابِ، وَهَٰذَا شَامِلٌ لْجَمِيعِ شَرَائِعِ الدِّينِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَذْكُرُونَ فِي ذَٰلِكَ عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ عَلَيْهِمْ وَتَكُونُ مِنْهُمْ عَلَى بَالٍ، وَيَحْرَصُونَ عَلَى أَدَاءِ مَا أَمَرُوا بِهِ كَامِلًا غَيْرَ نَاقِصٍ، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكُمْ، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ أي: مَا^(١) تَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنَ الْأَفْكَارِ وَالْأَسْرَارِ وَالْخَوَاطِرِ؛ فَاحْذَرُوا أَنْ يَطَّلَعَ مِنْ قُلُوبِكُمْ عَلَى أَمْرٍ لَا يَرْضَاهُ أَوْ يَصْدُرُ مِنْكُمْ مَا يَكْرَهُهُ، وَاعْمُرُوا قُلُوبَكُمْ بِمَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَالنَّصِاحِ لِعِبَادِهِ؛ فَإِنَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ كَذَٰلِكَ غُفِرَ لَكُمْ السَّيِّئَاتِ، وَضَاعَفَ لَكُمْ الْحَسَنَاتِ لَعَلَّه بِصَلَاحِ قُلُوبِكُمْ.

(١) فِي (ب): «بِمَا».

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُؤُوتًا قَوْمِينَ لِلّٰهِ شُهَدَاءُ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلٰٓى اَلَّا تَعْدِلُوْا اَعْدِلُوْا هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى وَاتَّقُوا اللّٰهَ اِنَّ اللّٰهَ خَبِيْرٌۢ بِمَا تَعْمَلُوْنَ ﴿٨﴾﴾ .

﴿٨﴾ أي: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾: بما أمروا بالإيمان به، قوموا بلازم إيمانكم، بأن تكونوا ﴿قَوَّامِينَ لِلّٰهِ شُهَدَاءُ بِالْقِسْطِ﴾: بأن تنشط للقيام بالقسط حركاتكم الظاهرة والباطنة، وأن يكون ذلك القيام لله وحده لا لغرض من الأغراض الدنيوية، وأن تكونوا قاصدين للقسط الذي هو العدل، لا الإفراط ولا التفريط في أقوالكم ولا أفعالكم، وقوموا بذلك على القريب والبعيد والصادق والعدو. ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾؛ أي: يحملنكم بغض قوم ﴿عَلٰى اَنْ لَا تَعْدِلُوْا﴾؛ كما يفعله مَنْ لا عدل عنده ولا قِسط، بل كما تشهدون لوليككم؛ فاشهدوا عليه، وكما تشهدون على عدوكم؛ فاشهدوا له، ولو كان كافراً أو مبتدعاً؛ فإنه يجب العدل فيه وقبول ما يأتي به من الحق؛ [لأنه حق]، لا لأنه قاله، ولا يُرَدُّ الحق لأجل قوله؛ فإن هذا ظلم للحق. ﴿اعْدِلُوا هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى﴾؛ أي: كلما حرصتم على العدل واجتهدتم في العمل به؛ كان ذلك أقرب لتقوى قلوبكم؛ فإن تمَّ العدل؛ كملت التقوى، ﴿اِنَّ اللّٰهَ خَبِيْرٌۢ بِمَا تَعْمَلُوْنَ﴾؛ فمجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها صغيرها وكبيرها جزاء عاجلاً وآجلاً.

﴿وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَّاَجْرٌ عَظِيْمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوْا بِآيٰتِنَاۤ اُولٰٓئِكَ اَصْحٰبُ الْجَحِيْمِ ﴿١٠﴾﴾ .

﴿٩﴾ أي: ﴿وَعَدَ اللّٰهُ﴾؛ - الذي لا يُخْلِفُ الميعاد، وهو أصدق القائلين - المؤمنين به وبكتبه ورسوله واليوم الآخر، ﴿وَعَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ﴾: من واجبات ومستحبات بالمغفرة لذنوبهم بالعفو عنها وعن عواقبها وبالأجر العظيم الذي لا يعلم عِظْمُهُ إِلَّا اللّٰهُ تَعَالٰى؛ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِۤ اَعْيُنٍۭ جَزَاءًۢ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُوْنَ﴾ .

﴿١٠﴾ ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾: الدالة على الحق المبين، فكذبوا بها بعدما أبانت الحقائق. ﴿أولئك أصحاب الجحيم﴾: الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ اِذْ هُمْ قَوْمٌ اَنْ يَّسْتَظْهَرُوْا اِلَيْكُمْ

أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

﴿١١﴾ يذكر تعالى عباده المؤمنين بنعمه العظيمة، ويحثهم على تذكرها بالقلب واللسان، وأنهم كما أنهم يعدّون قتلهم لأعدائهم وأخذ أموالهم وبلادهم وسبيهم نعمة؛ فليعدّوا أيضاً إنعامه عليهم بكفّ أيديهم عنهم وردّ كيدهم في نحورهم نعمة؛ فإنّهم الأعداء قد همّوا بأمر، وظنّوا أنهم قادرون عليه؛ فإذا لم يدركوا بالمؤمنين مقصودهم فهو نصرٌ من الله لعباده المؤمنين؛ ينبغي لهم أن يشكروا الله على ذلك ويعبدوه ويذكروه، وهذا يشمل كلّ من همّ بالمؤمنين بشرٍّ من كافر ومنافق وباغ، كفّ الله شرّه عن المسلمين؛ فإنه داخل في هذه الآية. ثم أمرهم بما يستعينون به على الانتصار على عدوّهم وعلى جميع أمورهم، فقال: ﴿وعلى الله فليتكفّل المؤمنون﴾؛ أي: يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم الدنيّة والدنيويّة، ويتبرّؤا من حولهم وقوّتهم، ويشقوا بالله تعالى في حصول ما يحبّون، وعلى حسب إيمان العبد يكون توكله، وهو من واجبات القلب المتّق عليها.

﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٣﴾ فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾

﴿١٢﴾ يخبر تعالى أنه أخذ على بني إسرائيل الميثاق الثقيل المؤكّد، وذكر صفة الميثاق وأجرهم إن قاموا به وإثمهم إن لم يقوموا به، ثم ذكّر أنّهم ما قاموا به، وذكر ما عاقبهم به، فقال: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل﴾؛ أي: عهدهم المؤكّد الغليظ، ﴿وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾؛ أي: رئيساً وعريفاً على من تحته؛ ليكون ناظراً عليهم حاثاً لهم على القيام بما أمروا به مطالباً يدعوهم، ﴿وقال الله﴾: للنقباء الذين تحمّلوا من الأعباء ما تحمّلوا: ﴿إني معكم﴾؛ أي: بالعون والنصر؛ فإن المعونة بقدر المؤنة. ثم ذكر ما واثقهم عليه فقال: ﴿لئن أقمتم الصلاة﴾:

ظاهراً وباطناً بالإتيان بما يلزم وينبغي فيها والمداومة على ذلك، ﴿وَأَتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾: لمستحقيها، ﴿وَأَمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾: جميعهم، الذين أفضلهم وأكملهم محمد ﷺ. ﴿وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾؛ أي: عظمتموهم، وأدّيتهم ما يجب لهم من الاحترام والطاعة، ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾: وهو الصدقة والإحسان الصادر عن الصدق والإخلاص وطيب المكسب؛ فإذا قمتم بذلك ﴿لَا كُفْرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَادْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: فجمع لهم بين حصول المحبوب بالجنة وما فيها من النعيم واندفاع المكروه بتكفير السيئات ودفع ما يترتب عليها من العقوبات. ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾: العهد والميثاق المؤكد بالإيمان والالتزامات المقرون بالترغيب بذكر ثوابه، ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾؛ أي: عن عمدٍ وعلم، فيستحق ما يستحقه الضالون من حرمان الثواب وحصول العقاب.

﴿١٣﴾ فكأنه قيل: ليت شعري! ماذا فعلوا؟ وهل وفوا بما عاهدوا الله عليه أم نكثوا؟ فبين أنهم نقضوا ذلك، فقال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾؛ أي: بسببه عاقبناهم بعدة عقوبات:

الأولى: آتانا ﴿لَعْنَاهُمْ﴾؛ أي: طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا، حيث أغلقوا على أنفسهم أبواب الرحمة، ولم يقوموا بالعهد الذي أخذ عليهم، الذي هو سببها الأعظم.

الثانية: قوله: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾؛ أي: غليظة لا تُجدي فيها المواعظ ولا تنفعها الآيات والنذر؛ فلا يرغبهم تشويق ولا يزعجهم تخويف، وهذا من أعظم العقوبات على العبد؛ أن يكون قلبه بهذه الصفة التي لا يفيد الهدى والخير إلا شراً.

الثالثة: أنهم يحرفون الكلم من بعد مواضعه؛ أي: ابتلوا بالتغيير والتبديل، فيجعلون للكلم الذي أراد الله، معنى غير ما أراده الله ولا رسوله.

الرابعة: أنهم ﴿نَسُوا حَظًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ﴾^(١)؛ فإنهم ذكروا بالتوراة وبما أنزل الله على موسى فنسوا حظاً منه، وهذا شاملٌ لنسيان علمه، وأنهم نسوه وضاع عنهم ولم يوجد كثير مما أنساهم الله إياه عقوبةً منه لهم، وشاملٌ لنسيان العمل الذي هو الترك، فلم يوفقوا للقيام بما أمروا به. ويستدلُّ بهذا على أهل الكتاب بإنكارهم

بعض الذي قد ذُكِرَ في كتابهم أو وقع في زمانهم أنه مما نسوه.

الخامسة: الخيانة المستمرة التي ﴿لا تزال تَطَّلِع على خائنة منهم﴾؛ أي: خيانة لله ولعباده المؤمنين. ومن أعظم الخيانة منهم كتمهم عن من يَعِظُهم وَيُحَسِّنُ فيهم الظَّنَّ الحقَّ، وإبقاؤهم على كفرهم؛ فهذه خيانة عظيمة.

وهذه الخصال الذميمة حاصلة لكل من اتصف بصفاتهم، فكل من لم يَقُمْ بما أمر الله به وأخذ به عليه الالتزام؛ كان له نصيبٌ من اللعنة، وقسوة القلب، والابتلاء بتحريف الكلم، وأنه لا يوفق للصواب، ونسيان حظ مما ذُكِرَ به، وأنه لا بد أن يُبتلى بالخيانة، نسأل الله العافية.

وسمى الله تعالى ما ذُكِرُوا به خطاً؛ لأنه هو أعظم الحظوظ، وما عداه؛ فإنما هي حظوظ دنيوية؛ كما قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم﴾، وقال في الخطِّ النافع: ﴿وما يُلْقَاهَا إِلَّا الذين صَبَرُوا وما يُلْقَاهَا إِلَّا ذو حظ عظيم﴾.

وقوله: ﴿إِلَّا قليلاً منهم﴾؛ أي: فإنهم وفوا بما عاهدوا الله عليه، فوقهم وهداهم للصراط المستقيم، ﴿فاعفُ عنهم واصفح﴾؛ أي: لا تؤاخذهم بما يصدر منهم من الأذى الذي يقتضي أن يُعفى عنهم، واصفح فإنَّ ذلك من الإحسان. ﴿والله يحبُّ المحسنين﴾: والإحسان هو أن تُعبدَ الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك، وفي حقِّ المخلوقين بذل النفع الديني والدنيوي لهم.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (١٤).

﴿١٤﴾ أي: وكما أخذنا على اليهود العهد والميثاق؛ فكَذَلِكَ أَخَذْنَا على الذين قالوا: إِنَّا نصارى لعيسى ابن مريم، وَزَكَّوْا أَنْفُسَهُم بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وما جاؤوا به فنقضوا العهد، ونسوا حَظًّا مما ذُكِّرُوا به نسياناً علمياً ونسياناً عملياً، ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾؛ أي: سَلَطْنَا بعضهم على بعض، وصار بينهم من الشرور والإحسان ما يقتضي بغض بعضهم بعضاً ومعاداة بعضهم بعضاً إلى يوم القيامة، وهذا أمرٌ مشاهد؛ فإن النَّصَارَى لم يزالوا ولا يزالون في بغض وعداوة وشقاق، ﴿وسوف يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾: فيعاقبهم عليه.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُم سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ .

﴿١٥﴾ لما ذكر تعالى ما أخذه الله على أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وأنهم نَقَضُوا ذَلِكَ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ؛ أمرهم جميعاً أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، واحتج عليهم بآية قاطعة دالة على صحة نبوته، وهي أنه يبين لهم كثيراً مما يخفون عن الناس، حتى عن العوام من أهل ملتهم؛ فإذا كانوا هم المشار إليهم في العلم ولا علم عند أحد في ذلك الوقت إلا ما عندهم؛ فالحرص على العلم لا سبيل له إلى إدراكه إلا منهم؛ فإتيان الرسول ﷺ بهذا القرآن العظيم الذي بين به ما كانوا يتكاثرونه بينهم، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب من أدل الدلائل على القطع برسالته، وذلك مثل صفة محمد في كتبهم، ووجود البشائر به في كتبهم، وبيان آية الرجم... ونحو ذلك، ﴿ويعفو عن كثير﴾؛ أي: يترك بيان ما لا تقتضيه الحكمة.

﴿قد جاءكم من الله نور﴾: وهو القرآن يُستضاء به في ظلمات الجهالة وعمية الضلالة، ﴿وكتاب مبين﴾: لكل ما يحتاج الخلق إليه من أمور دينهم ودنياهم؛ من العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن العلم بأحكامه الشرعية وأحكامه الجزائية.

﴿١٦﴾ ثم ذَكَرَ مَنْ الذي يَهْتَدِي بهذا القرآن، وما هو السبب الذي من العبد لحصول ذلك، فقال: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾؛ أي: يهدي مَنْ اجتهد وحرص على بلوغ مرضاة الله وصار قصده حسناً سُبُلَ السَّلَامِ التي يَسْلُمُ صاحبها من العذاب وتوصله إلى دار السلام، وهو العلم بالحق والعمل به إجمالاً وتفصيلاً. ويخرجهم من ظلمات الكفر والبدعة والمعصية والجهل والغفلة، إلى نور الإيمان والسنة والطاعة والعلم والذكر، وكل هذه من الهداية بإذن الله الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ﴿ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ .

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ الْمُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ وَقَالَتْ

الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاؤُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٧﴾ .

﴿١٧﴾ لما ذكر تعالى أخذ الميثاق على أهل الكتابين وأنهم لم يقوموا به بل نقضوه؛ ذَكَرَ أقوالهم الشنيعة، فَذَكَرَ قول النَّصَارَى، القول الذي ما قاله أحدٌ غيرهم، بأنَّ الله هو المسيح بن مريم، ووجه شبهتهم أنَّه ولد من غير أب، فاعتقدوا فيه هذا الاعتقاد الباطل، مع أن حواء نظيره، خُلِقَتْ بلا أم، وآدم أولي منه خلق بلا أب ولا أم؛ فهلاً ادَّعوا فيهما الإلهية كما ادَّعوا في المسيح! فدل على أن قولهم أتباع هوى من غير برهان ولا شبهة، فردَّ الله عليهم بأدلة عقلية واضحة، فقال: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾؛ فإذا كان المذكورون لا امتناع عندهم يمتنعهم لو أراد الله أن يهلكهم ولا قدرة لهم على ذلك؛ دلَّ على بطلان إلهية من لا يمتنع من الإهلاك ولا في قوته شيء من الفكاك. ومن الأدلة أنَّ ﴿لِلَّهِ﴾ وحده ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، يتصرف فيهم بحكمه الكوني والشرعي والجزائي، وهم مملوكون مدبرون؛ فهل يليق أن يكون المملوك العبد الفقير إلهاً معبوداً غنياً من كل وجه؟! هذا من أعظم المحال، ولا وجه لاستغرابهم لخلق المسيح عيسى بن مريم من غير أب؛ فَإِنَّ اللَّهَ ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾: إن شاء من أب وأم كسائر بني آدم وإن شاء من أب بلا أم كحواء، وإن شاء من أم بلا أب كعيسى، وإن شاء من غير أب ولا أم كآدم؛ فنوع خليقته تعالى بمشيئته النافذة التي لا يستعصي عليها شيء، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿١٨﴾ ومن مقالات اليهود والنصارى أنَّ كلاً منهما ادَّعى دعوى باطلة يزكون بها أنفسهم؛ بأن قال كل منهما: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾، والابن في لغتهم هو الحبيب، ولم يريدوا البتة الحقيقة؛ فَإِنَّ هذا ليس من مذهبهم؛ إِلَّا مذهب النصارى في المسيح. قال الله ردّاً عليهم حيث ادَّعوا بلا برهان: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ﴾: فلو كنتم أحبابه؛ ما عذبكم؛ لكون الله لا يحب إلا من قام بمراضيه. ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾: تجري عليكم أحكام العدل والفضل، ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾: إذا أتوا بأسباب المغفرة أو أسباب العذاب، ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾؛ أي: فأني شيء خضكم بهذه الفضيلة وأنتم من جملة المماليك ومن جملة من يرجع إلى الله في الدار الآخرة فيجازيكم بأعمالكم.

﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

﴿١٩﴾ يدعو تبارك وتعالى أهل الكتاب بسبب ما منَّ عليهم من كتابه أن يؤمنوا برسوله محمد ﷺ ويشكروا الله تعالى الذي أرسله إليهم ﴿على﴾ [حين] ﴿فترة﴾ من الرُّسل ﴿وشدة حاجة إليه وهذا مما يدعو إلى الإيمان به وأنه يبيِّن لهم جميع المطالب الإلهية والأحكام الشرعية، وقد قطع الله بذلك حجَّتهم؛ لئلا يقولوا: ﴿ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقد جاءكم بشير ونذير﴾: يبشِّر بالثواب العاجل والآجل وبالأعمال الموجبة لذلك وصفة العاملين بها، وينذر بالعقاب العاجل والآجل بالأعمال الموجبة لذلك وصفة العاملين بها. ﴿والله على كل شيء قدير﴾: انتقادت الأشياء طوعاً وإذعاناً لقدرته؛ فلا يستعصي عليه شيء منها، ومن قدرته أن أرسل الرُّسل وأنزل الكتب، وأنه يثيب من أطاعهم، ويعاقب من عصاهم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْت أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يُقَوْمُ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ ^(١) الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتُدُّوا عَلَىٰ آذَانِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنذُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنَّكُمْ عَلَى اللَّهِ عَالِمِينَ ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابُ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ عَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّا لَنَنذُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا مُعِدَّدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢٠﴾ لما امتنَّ الله على موسى وقومه بنجاتهم من فرعون وقومه وأسرهم واستعبادهم؛ ذهبوا قاصدين لأوطانهم ومساكنهم، وهي بيت المقدس وما حوالیه، وقاربوا وصول بيت المقدس، وكان الله قد فرض عليهم جهاد عدوهم ليُخرجوه من ديارهم، فوعظهم موسى عليه السلام وذكرهم ليقدموا على الجهاد، فقال:

(١) في (ب): إلى آخر القصة.

﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: بقلوبكم وألسنتكم؛ فَإِنَّ ذِكْرَهَا دَاعٍ إِلَىٰ مُحِبَّتِهِ تَعَالَىٰ وَمُنْشِطٌ عَلَىٰ الْعِبَادَةِ، ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾: يدعونكم إلى الهدى ويحذرونكم من الردى، ويحثونكم على سعادتكم الأبدية، ويعلمونكم ما لم تكونوا تعلمون، ﴿وجعلكم ملوكاً﴾: تملكون أمركم بحيث إنه زال عنكم استعباد عدوكم لكم فكنتم تملكون أمركم، وتتمكنون من إقامة دينكم، ﴿وآتاكم﴾: من النعم الدينية والدنيوية ﴿ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾: فإنهم في ذلك الزمان خيرة الخلق وأكرمهم على الله، وقد أنعم عليهم بنعم ما كانت لغيرهم، فذكّرهم بالنعم الدينية والدنيوية الداعي ذلك لإيمانهم وثباته، وثباتهم على الجهاد وإقدامهم عليه.

﴿٢١﴾ ولهذا قال: ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة﴾؛ أي: المطهرة ﴿التي كتب الله لكم﴾: فأخبرهم خبراً تطمئن به أنفسهم إن كانوا مؤمنين مصدقين بخبر الله، وأنه قد كتب^(١) الله لهم دخولها وانتصارهم على عدوهم، ﴿ولا ترتدوا﴾؛ أي: ترجعوا ﴿على أديباركم فتتقلبوا خاسرين﴾: قد خسرتم دنياكم بما فاتكم من النصر على الأعداء وفتح بلادكم، وآخرتكم بما فاتكم من الثواب وما استحققتكم^(٢) بمعصيتكم من العقاب.

﴿٢٢﴾ فقالوا قولاً يدل على ضعف قلوبهم وخور نفوسهم وعدم اهتمامهم بأمر الله ورسوله: ﴿يا موسى إن فيها قوماً جبّارين﴾: شديدي القوة والشجاعة؛ أي: فهذا من الموانع لنا من دخولها، ﴿وإنّا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنّا داخلون﴾: وهذا من الجبن وقلة اليقين، وإلّا؛ فلو كان معهم رُشدهم؛ لعلموا أنهم كلّهم من بني آدم، وأنّ القويّ من أعانه الله بقوة من عنده؛ فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، ولعلموا أنهم سينصرون عليهم إذ وعدهم الله بذلك وعداً خاصاً.

﴿٢٣﴾ ﴿قال رجلان من الذين يخافون﴾ الله تعالى؛ مشجعين لقومهم، منهضين لهم على قتال عدوهم واحتلال بلادهم ﴿أنعم الله عليهما﴾: بالتوفيق وكلمة الحق في هذا الموطن المحتاج إلى مثل كلامهم، وأنعم عليهم بالصبر واليقين، ﴿ادخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون﴾؛ أي: ليس بينكم وبين نصركم عليهم إلّا أن تجزموا عليهم وتدخلوا عليهم الباب؛ فإذا دخلتموه عليهم؛ فإنهم

(١) في (ب): «كتبه».

(٢) في (ب): «وما استحققتكم».

سينهزمون. ثم أمراهم بعدة هي أقوى العدد، فقالوا: ﴿وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: فَإِنَّ فِي التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ، وَخُصُوصاً فِي هَذَا الْمَوْطِنِ، تَيْسيراً لِلْأَمْرِ وَنَصْراً عَلَى الْأَعْدَاءِ. ودل هذا على وجوب التوكل، وعلى أنه بحسب إيمان العبد يكون توكله.

﴿٢٤﴾ فلم ينجع فيهم هذا الكلام، ولا نفع فيهم الملام، فقالوا قول الأذلين: ﴿يَا مُوسَى إِنَّا لَنَنذِرُكَ بِهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾: فما أشنع هذا الكلام منهم، ومواجهتهم لنبیهم فيه في هذا المقام الحرج الضيق، الذي قد دعت الحاجة والضرورة إلى نصرته نييهم وإعزاز أنفسهم! وبهذا وأمثاله يظهر التفاوت بين سائر الأمم وأمة محمد ﷺ؛ حيث قال الصحابة لرسول الله ﷺ حين شاورهم في القتال يوم بدر، مع أنه لم يحتّم عليهم: يا رسول الله! لو خضت بنا هذا البحر؛ لخضناه معك، ولو بلغت بنا بزك العَمَاد^(١)؛ ما تخلف عنك أحد، ولا نقول كما قال قوم موسى لموسى: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إِنَّا معكما مقاتلون من بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن يسارك.

﴿٢٥﴾ فلما رأى موسى عليه السلام عُتُوه عليه؛ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾؛ أي: فلا يدان لنا بقتالهم ولست بجبارٍ على هؤلاء، ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾؛ أي: احكم بيننا وبينهم بأن تنزل فيهم من العقوبة ما اقتضته حكمتك. ودل ذلك على أن قولهم وفعلهم من الكبائر العظيمة الموجبة للفسق.

﴿٢٦﴾ ﴿قَالَ﴾ الله مجيباً لدعوة موسى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: إن من عقوبتهم أن نحرم عليهم دخول هذه القرية التي [كتبها]^(٢) الله [لهم]^(٢) مدة أربعين سنة، وتلك المدة أيضاً يتيهون في الأرض، لا يهتدون إلى طريق ولا ييقنون مطمئنين. وهذه عقوبة دنيوية؛ لعل الله تعالى كفر بها عنهم ودفع عنهم عقوبة أعظم منها. وفي هذا دليل على أن العقوبة على الذنب قد تكون بزوال نعمة موجودة أو دفع نعمة قد انعقد سبب وجودها، أو تأخرها إلى وقت آخر، ولعل الحكمة في هذه المدة أن يموت أكثر هؤلاء الذين قالوا هذه

(١) أخرجه البخاري (٣٩٥٢) عن ابن مسعود يقول: «شهدت من المقداد...» الحديث، وعند مسلم (١٧٧٩) إن الذي قال ذلك سعد بن عباد. انظر «الفتح» (٢٨٧/٧).

(٢) كذا في (ب). وفي (أ): «التي كتبها الله لهم». والصواب ما أثبت.

المقالة الصادرة عن قلوب لا صَبَرَ فيها ولا ثبات، بل قد ألفت الاستعباد لعدوِّها ولم تكن لها همٌّ ترقِّيها إلى ما فيه ارتقاؤها وعلوُّها، ولتظهر ناشئةً جديدةً تتربَّى عقولهم على طلبِ قهرِ الأعداء وعدم الاستعباد والذلِّ المانع من السعادة. ولما علم الله تعالى أن عبده موسى في غاية الرحمة على الخلق خصوصاً قومه، وأنه ربُّما رَقَّ لهم واحتملته الشفقة على الحزن عليهم في هذه العقوبة أو الدُّعاء لهم بزوالها، مع أن الله قد حَتَمَها؛ قال: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾؛ أي: لا تأسف عليهم ولا تحزن؛ فإنهم قد فسقوا، وفسقهم اقتضى وقوع ما نزل بهم لا ظلماً مِنَّا.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ (١) إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِإِذَى إِلَيْكَ لِأَفْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٨﴾ إِنَّي أُرِيدُ أَنْ نَبْنِي بُيُوتًا لِإِيَّتِي وَلِإِيَّتِكَ فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورَى سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلْنِي أَعْجَرَثُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورَى سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٨١﴾

﴿٢٧﴾ أي: قُصَّ على الناس وأخبرهم بالقضية التي جرت على ابني آدم بالحقِّ تلاوةً يَغْتَبِرُ بها المعتبرون صدقاً لا كذباً وجداً لا لعباً. والظاهر أن ابني آدم هما ابناه لصلبه؛ كما يدلُّ عليه ظاهر الآية والسياق، وهو قول جمهور المفسرين؛ أي: اتل عليهم نبأهما في حال تقريبهما للقربان الذي أذاهما إلى الحال المذكورة، ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾؛ أي: أخرج كلُّ منهما شيئاً من ماله لقصد التقرب إلى الله، ﴿فَتُقْبَلُ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾: بأن علم ذلك بخبر من السماء أو بالعادة السابقة في الأمم أنَّ علامة تقبُّل الله للقربان أن تنزل نارٌ من السماء فتحرقه. ﴿قَالَ﴾ الابن الذي لم يتقبَّل منه للآخر حسداً وبغياً: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ فقال له الآخر مترقفاً له في ذلك: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾؛ فأَيُّ ذنب لي وجناية توجب لك أن تقتلني إلا أنني اتقيت الله تعالى الذي تقواه واجبة عليّ وعليك وعلى كلِّ أحد. وأصحُّ الأقوال في تفسير ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ هنا؛ أي: المتقين لله في ذلك العمل؛ بأن

يَكُونُ عَمَلُهُمْ خَالِصاً لَوَجْهِ اللَّهِ، مُتَّبِعِينَ فِيهِ لِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

﴿٢٨﴾ ثم قال له مخبراً أنه لا يريد أن يتعرضَ لقتله لا ابتداءً ولا مدافعةً، فقال: ﴿لَنْ بَسَطْتُ إِلَيْكَ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾، وليس ذلك جُبْنًا مِنِّي ولا عَجْزًا، وإنما ذلك لأنني ﴿أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾، والخائف لله لا [يقدم]^(١) على الذنوب، خصوصاً الذنوب الكبار. وفي هذا تخويف لمن يريد القتل، وأنه ينبغي لك أن تتقي الله وتخافه.

﴿٢٩﴾ ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ﴾؛ أي: ترجع ﴿بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾؛ أي: إنه إذا دار الأمر بين أن أكون قاتلاً أو تقتلني؛ فإني أؤثر أن تقتلني فتبوء بالوزرين، ﴿فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾: دلُّ هذا على أن القتل من كبائر الذنوب، وأنه موجبٌ لدخول النار.

﴿٣٠﴾ فلم يرتدع ذلك الجاني، ولم ينزجر، ولم يزل يعزم نفسه ويجزمها، حتَّى طَوَّعَتْ لَهُ قَتْلَ أَخِيهِ الَّذِي يَقْتَضِي الشَّرْعَ وَالطَّبْعَ احْتِرَامَهُ، ﴿فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾: دنياهم وآخرتهم، وأصبح قد سنَّ هذه السنة لكل قاتل، ومن سنَّ سنة سيئة؛ فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، ولهذا ورد في الحديث الصحيح: أنه «ما من نفس تُقْتَل؛ إلا كان على ابن آدم الأول شطرٌ من دمها؛ لأنه أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ»^(٢).

﴿٣١﴾ فلما قَتَلَ أَخَاهُ؛ لم يدر كيف يصنع به؛ لأنه أول ميت مات من بني آدم، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: يثيرها ليدفن غراباً آخر ميتاً. ﴿لِيُرِيَهُ﴾: بذلك ﴿كيف يُوَارِي سِوَاةَ أَخِيهِ﴾؛ أي: بدنه؛ لأنَّ بدن الميت يكون عورةً، ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾: وهكذا عاقبة المعاصي الندامة والخسارة.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ ﴿٣٢﴾.

﴿٣٢﴾ يقول تعالى: ﴿من أجل ذلك﴾: الذي ذكرناه في قصة ابني آدم وقتل

(١) كذا في (ب)، وفي (أ): «يقوم».

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

أحدهما أخاه وسَنَّهُ القتل لمن بعده وأن القتل عاقبته وخيمة وخسار في الدنيا والآخرة؛ ﴿كُتِبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾: أهل الكتب السماوية ﴿أَنَّهُ مِنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: بغير حق ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾؛ لأنه ليس معه داع يذعوه إلى التَّبْيِينِ وأنه لا يقدم على القتل إلا بحق، فلمَّا تجرَّأ على قتل النفس التي لم تستحقَّ القتل؛ علم أنه لا فرقَ عنده بين هذا المقتول وبين غيره، وإنَّما ذلك بحسب ما تدعوه إليه نفسه الأثارة بالسوء، فتجرَّؤه على قتله كأنه قتل الناس جميعاً، وكذلك من أحيأ نفساً؛ أي: استبقى أحداً فلم يقتله مع دعاء نفسه له إلى قتله، فمنعه خوف الله تعالى من قتله؛ فهذا كأنه أحيأ الناس جميعاً؛ لأنَّ ما معه من الخوف يمنعه من قتل من لا يستحقُّ القتل. ودلَّت الآية على أن القتل يجوز بأحد أمرين: إما أن يقتل نفساً بغير حق متعمداً في ذلك؛ فإنَّه يحلُّ قتله إن كان مكلفاً مكافئاً ليس بوالد للمقتول، وإما أن يكون مفسداً في الأرض بإفساده لأديان الناس أو أبدانهم أو أموالهم؛ كالْكُفَّارِ المرتدين والمحاربين والدُّعَاةِ إلى البدع الذين لا ينكفُ شُرْهُم إلا بالقتل، وكذلك قطاع الطريق ونحوهم ممَّن يصول على الناس لقتلهم أو أخذ أموالهم. ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾: التي لا يبقى معها حجة لأحد، ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾؛ أي: من الناس ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾: البيان القاطع للحجة الموجب للاستقامة في الأرض ﴿لِمُسْرِفُونَ﴾: في العمل بالمعاصي ومخالفة الرسل الذين جاؤوا بالبينات والحجج.

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٣٤﴾.

﴿٣٣﴾ المحاربون لله ورسوله هم الذين بارزوه بالعداوة وأفسدوا في الأرض بالكفر والقتل وأخذ الأموال وإخافة السبل، والمشهور أنَّ هذه الآية الكريمة في أحكام قطاع الطريق الذين يعرضون للناس في القرى والبوادي فيغصبونهم أموالهم ويقتلونهم ويخيفونهم، فيمتنع الناس من سلوك الطريق التي هم بها، فتتقطع بذلك. فأخبر الله أنَّ جزاءهم ونكالهم عند إقامة الحد عليهم أن يفعل بهم واحد من هذه الأمور.

واختلف المفسرون هل ذلك على التَّخْيِير، وأنَّ كلَّ قاطع طريقٍ يفعلُ به الإمام أو نائبه ما رآه المصلحة من هذه الأمور المذكورة، وهذا ظاهر اللَّفْظ، أو أنَّ عقوبتهم تكون بحسب جرائمهم؛ فكلُّ جريمة لها قسطٌ يقابلها؛ كما تدلُّ عليه الآية بحكمتها وموافقتها لحكمة الله تعالى، وأنهم: إن قتلوا وأخذوا مالا؛ تحتم قتلهم وصلبهم، حتى يشتهروا ويختزوا ويرتدع غيرهم، وإن قتلوا ولم يأخذوا مالا؛ تحتم قتلهم فقط، وإن أخذوا مالا ولم يقتلوا؛ تحتم أن تُقَطَّع أيديهم وأرجلهم من خلاف؛ اليد اليمنى، والرجل اليسرى، وإن أخافوا الناس، ولم يقتلوا، ولا أخذوا مالا؛ نُفوا من الأرض، فلا يُتركون يأوون في بلد حتى تظهر توبتهم. وهذا قول ابن عباس رضي الله عنه وكثير من الأئمة على اختلاف في بعض التفاصيل. ﴿ذلك﴾ النكال ﴿لهم خزي في الدنيا﴾؛ أي: فضيحة وعار، ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾: فدلَّ هذا أن قطع الطريق من أعظم الذنوب، موجب لفضيحة الدنيا وعذاب الآخرة، وأنَّ فاعله محاربٌ لله ولرسوله. وإذا كان هذا شأن عظم هذه الجريمة؛ عَلِمَ أنَّ تطهير الأرض من المفسدين وتأمين السبل والطرق عن القتل وأخذ الأموال وإخافة الناس من أعظم الحسنات وأجل الطاعات، وأنه إصلاح في الأرض؛ كما أن ضده إفساد في الأرض.

﴿٣٤﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: من هؤلاء المحاربين. ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: فيسقط عنه ما كان لله من تحتم القتل والصلب والقطع والنفي ومن حقَّ الآدمي أيضاً إن كان المحارب كافراً ثم أسلم؛ فإنَّ كان المحارب مسلماً فإنَّ حقَّ الآدمي لا يسقط عنه من القتل وأخذ المال، ودلَّ مفهوم الآية على أن توبة المحارب بعد القدرة عليه أنها لا تُسْقِط عنه شيئاً، والحكمة في ذلك ظاهرة، وإذا كانت التوبة قبل القدرة عليه تمنع من إقامة الحد في الحراية؛ فغيرها من الحدود إذا تاب من فعلها قبل القدرة عليه من باب أولى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٣٥).

﴿٣٥﴾ هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان من تقوى الله والحذر من سخطه وغضبه، وذلك بأن يجتهد العبد ويبذل غاية ما يمكنه من المقدور في اجتناب ما يسخطه الله من معاصي القلب واللسان والجوارح الظاهرة والباطنة، ويستعين بالله على تركها لينجو بذلك من سخط الله وعذابه. ﴿وابتغوا

إليه الوسيلة»؛ أي: القُرْب منه والخطوة لديه والحبُّ له، وذلك بأداء فرائضه القلبية كالحبِّ له وفيه، والخوف والرجاء والإنابة والتوكل، والبدنية كالزكاة والحج، والمركبة من ذلك كالصلاة ونحوها من أنواع القراءة والذكر، ومن أنواع الإحسان إلى الخلق بالمال والعلم والجاه والبدن والنصح لعباد الله؛ فكلُّ هذه الأعمال تُقَرِّب إلى الله، ولا يزال العبدُ يتقَرَّب بها إلى الله حتَّى يحبه؛ فإذا أحبه؛ كان سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ويستجيبُ الله له الدعاء^(١).

ثم خصَّ تبارك وتعالى من العبادات المقرَّبة إليه الجهاد في سبيله، وهو بذل الجهد في قتال الكافرين بالمال والنفس والرأي واللسان والسعي في نصر دين الله بكلِّ ما يقدرُ عليه العبد؛ لأنَّ هذا النوع من أجلِّ الطاعات وأفضلِّ القُرْبَات، ولأنَّ من قام به؛ فهو على القيام بغيره أخرى وأولى، ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾: إذا اتَّقَيْتُمُ اللَّهَ بترك المعاصي، وابتغيتمُ الوسيلة إلى الله بفعل الطاعات، وجاهدتمُ في سبيله ابتغاء مرضاته. والفلاحُ هو الفوز والظفرُ بكلِّ مطلوب مرغوب والنجاة من كلِّ مرهوب؛ فحقيقته السعادة الأبدية والنعيم المقيم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٣٦) يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (٣٧).

﴿٣٦ - ٣٧﴾ يخبر تعالى عن شناعة حال الكافرين [بالله] يوم القيامة ومآلهم الفظيع، وأنهم لو افتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً، ومثله معه ما تُقْبَلُ منهم ولا أفاد؛ لأنَّ محلَّ الافداء قد فات ولم يبق إلاَّ العذاب الأليم الموجه الدائم الذي لا يخرجون منه أبداً، بل هم ماكثون فيه سرمداً.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا تَكْلَافًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٣٨) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤٠).

(١) كما في «صحيح البخاري» (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿٣٨﴾ السارق: هو مَنْ أخذ مال غيره المحترم خفية بغير رضاه، وهو من كبائر الذنوب الموجبة لترتب العقوبة الشنيعة، وهو قطع اليد اليمنى؛ كما هو في قراءة بعض الصحابة، وحُدَّ اليد عند الإطلاق من الكوع؛ فإذا سَرَقَ؛ قُطِعَتْ يَدُهُ من الكوع وحُسِمَتْ في زيت لتتسَدَّ العروق فيقف الدم. ولكنَّ السَّنة قَيَّدَتْ عموم هذه الآية من عدة أوجه: منها الحرز؛ فإنه لا بدُّ أن تكون السرقة من حرز، وحرز كل مال ما يُحفظ به عادة؛ فلو سَرَقَ من غير حرز؛ فلا قطع عليه. ومنها: أنه لا بدُّ أن يكون المسروق نصاباً، وهو ربع دينار أو ثلاثة دراهم أو ما يساوي أحدهما؛ فلو سرق دون ذلك؛ فلا قطع عليه، ولعل هذا يؤخذ من لفظ السرقة ومعناها؛ فإنَّ لفظ السرقة أخذ الشيء على وجه لا يمكن الاحتراز منه، وذلك أن يكون المال محرزاً؛ فلو كان غير مُحرَزٍ؛ لم يكن ذلك سرقة شرعية.

ومن الحكمة أيضاً أن لا تُقطع اليد في الشيء التَّزَرُّ التافه، فلما كان لا بدُّ من التقدير؛ كان التقدير الشرعيُّ مخصَّصاً للكتاب. والحكمة في قطع اليد في السرقة: أنَّ ذلك حفظٌ للأموال واحتياطٌ لها وليقطع العضو الذي صدرت منه الجناية. فإنَّ عاد السارق؛ قُطعت رجله اليسرى، فإن عاد؛ فقيلاً: تُقطع يده اليسرى ثم رجله اليمنى. وقيل: يُحبس حتى يموت.

وقوله: ﴿جزاء بما كسباً﴾؛ أي: ذلك القطع جزاء للسارق بما سرقه من أموال الناس ﴿نكالاً من الله﴾؛ أي: تنكيلاً وترهيباً للسارق ولغيره؛ ليرتدع السُّرَّاق إذا علموا أنهم سيُقطَّعون إذا سرقوا. ﴿والله عزيزٌ حكيم﴾؛ أي: عزٌّ وحَكَم فقطع السارق.

﴿٣٩﴾ ﴿فمن تاب من بعد ظُلمِهِ وأصلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: فيغفر لمن تاب، فتركَ الذنوب، وأصلَحَ الأعمال والعيوب.

﴿٤٠﴾ ﴿وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مَلِكٌ^(١) السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ يَتَصَرَّفُ فِيهِمَا بِمَا شَاءَ مِنَ التَّصَارِيفِ الْقُدْرِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ وَالْعَقُوبَةِ؛ بِحَسَبِ مَا اقْتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ وَرَحْمَتُهُ الْوَاسِعَةُ وَمَغْفِرَتُهُ.

﴿يَتَأَيَّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَكَّعُوا لِلْكَذِبِ سَكَّعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ

(١) في (ب): «وذلك أن لله ملك».

يَأْتُوكَ يُخْرِفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِهِمْ فَلُوبُهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَتَعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرَّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً فَلَا تَخْشَوُا النَّكَسَ وَآخِشَوْا وَلَا تَشْتَرُوا بِعَاقِبَتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ ❀

﴿٤١﴾ كان الرسول ﷺ من شدة حرصه على الخلق يشدد حزنه لمن يظهر الإيمان ثم يرجع إلى الكفر، فأرشده الله تعالى إلى أنه لا يأسى ولا يحزن على أمثال هؤلاء؛ فإن هؤلاء لا في العير ولا في النفير؛ إن حضروا؛ لم ينفعوا، وإن غابوا؛ لم يُفقدوا، ولهذا قال مبيناً للسبب الموجب لعدم الحزن عليهم، فقال: ﴿من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾؛ فإن الذين ^(١) يؤسى ويحزن عليهم من كان معدوداً من المؤمنين، وهم المؤمنون ظاهراً وباطناً، وحاشا لله أن يرجع هؤلاء عن دينهم ويرتدوا؛ فإن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب؛ لم يعدل به صاحبه غيره ولم يبع به بدلاً. ﴿ومن الذين هادوا﴾؛ أي: اليهود، ﴿سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك﴾؛ أي: مستجيبون ومقلدون لرؤسائهم المبني أمرهم على الكذب والضلال والغيّ. وهؤلاء الرؤساء المتبوعون ﴿لم يأتوك﴾، بل أعرضوا عنك وفرحوا بما عندهم من الباطل. وهو تحريف الكلم عن مواضعه؛ أي: جلب معانٍ للألفاظ ما أَرادها الله، ولا قصدها؛ لإضلال الخلق ولدفع الحق؛ فهؤلاء المنقادون للدعاة إلى الضلال المتبعين للمحال الذين يأتون بكل كذب لا عقول لهم ولا همم؛ فلا تبال أيضاً إذا لم يتبعوك؛ لأنهم في غاية النقص، والناقص لا يؤنه له ولا يبالى به. ﴿يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم

(١) في (ب): «الذي».

تؤتوه فاحذروا﴿؛ أي: هذا قولهم عند محاكمتهم إليك، لا قصد لهم إلا اتباع الهوى، يقول بعضهم لبعض: إِنْ حَكَمَ لَكُمْ مُحَمَّدٌ بِهَذَا الْحُكْمِ الَّذِي يُوَافِقُ هَوَاكُمْ؛ فاقبلوا حكمه، وإن لم يحكم لكم به؛ فاحذروا أن تتابعوه على ذلك، وهذا فتنة واتباع ما تهوى الأنفس. ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾؛ أي: فلذلك صدر منهم ما صدر.

فدل ذلك على أَنَّ مَنْ كَانَ مَقْصُودُهُ بِالْتَّحَاكُمِ إِلَى الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ اتِّبَاعَ هَوَاهُ، وَأَنَّهُ إِنْ حُكِمَ لَهُ رِضًى، وَإِنْ لَمْ يُحْكَمْ لَهُ سَخَطٌ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَدَمِ طَهَارَةِ قَلْبِهِ؛ كَمَا أَنَّ مَنْ حَاكَمَ وَتَحَاكَمَ إِلَى الشَّرْعِ، وَرِضًى بِهِ وَافَقَ هَوَاهُ أَوْ خَالَفَهُ؛ فَإِنَّهُ مِنْ طَهَارَةِ الْقَلْبِ، وَدَلٌّ عَلَى أَنَّ طَهَارَةَ الْقَلْبِ سَبَبٌ لِكُلِّ خَيْرٍ، وَهُوَ أَكْبَرُ دَاعٍ إِلَى كُلِّ قَوْلٍ رَشِيدٍ وَعَمَلٍ سَدِيدٍ. ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾؛ أي: فضيحة وعار، ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾: هو النار وَسَخَطُ الْجَبَّارِ.

﴿٤٢﴾ ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾: وَالسَّمْعُ هَا هُنَا سَمْعٌ اسْتِجَابَةٌ؛ أَيْ: مِنْ قَلَّةِ دِينِهِمْ وَعَقْلِهِمْ أَنْ اسْتِجَابُوا لِمَنْ دَعَاهُمْ إِلَى الْقَوْلِ الْكَذِبِ، ﴿أَكَاالُونَ لِلسُّحْتِ﴾؛ أَيْ: الْمَالِ الْحَرَامِ بِمَا يَأْخُذُونَهُ عَلَى سَفَلَتِهِمْ وَعَوَامِهِمْ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ وَالرُّوَاتِبِ الَّتِي بَغِيرَ الْحَقِّ، فَجَمَعُوا بَيْنَ اتِّبَاعِ الْكَذِبِ وَأَكْلِ الْحَرَامِ. ﴿فَإِنْ جَاؤُوكَ فَاخُكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضَ عَنْهُمْ﴾؛ فَأَنْتَ مُخَيَّرٌ فِي ذَلِكَ، وَلَيْسَتْ هَذِهِ مَنْسُوخَةٌ؛ فَإِنَّهُ عِنْدَ تَحَاكُمِ هَذَا الصَّنَفِ إِلَيْهِ يَخَيَّرُ بَيْنَ أَنْ يَحْكَمَ بَيْنَهُمْ أَوْ يَعْرِضَ عَنِ الْحُكْمِ بَيْنَهُمْ؛ بِسَبَبِ أَنَّهُ لَا قَصْدَ لَهُمْ فِي الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُوَافِقاً لَأَهْوَائِهِمْ.

وَعَلَى هَذَا؛ فَكُلُّ مُسْتَفْتٍ وَتَحَاكُمٍ إِلَى عَالَمٍ يَعْلَمُ مِنْ حَالِهِ أَنَّهُ إِنْ حَكَمَ عَلَيْهِ لَمْ يَرْضَ؛ لَمْ يَجِبِ الْحُكْمُ وَلَا الْإِفْتَاءُ لَهُمْ؛ فَإِنْ حُكِمَ بَيْنَهُمْ؛ وَجِبَ أَنْ يَحْكَمَ بِالْقِسْطِ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾: حَتَّى وَلَوْ كَانُوا ظَلَمَةً وَأَعْدَاءً؛ فَلَا يَمْنَعُكَ ذَلِكَ مِنَ الْعَدْلِ فِي الْحُكْمِ بَيْنَهُمْ: وَفِي هَذَا بَيَانُ فَضِيلَةِ الْعَدْلِ وَالْقِسْطِ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَجِبُهُ.

﴿٤٣﴾ ثُمَّ قَالَ مُتَعَجِّباً مِنْهُمْ^(١): ﴿وَكَيْفَ يَحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمٌ

اللَّهُ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ فَإِنَّهُمْ لَوْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ عَامِلِينَ بِمَا يَقْتَضِيهِ الْإِيمَانُ وَيُوجِبُهُ؛ لَمْ يَصْدَفُوا عَنْ حُكْمِ اللَّهِ الَّذِي فِي التَّوْرَةِ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ إِلَّا لَعَلَّهُمْ أَنْ يَجِدُوا عِنْدَكَ مَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ، وَحِينَ حَكَمْتَ بَيْنَهُمْ بِحُكْمِ اللَّهِ الْمَوْافِقِ لِمَا عِنْدَهُمْ أَيْضاً؛ لَمْ يَرْضَوْا بِذَلِكَ، بَلْ أَعْرَضُوا عَنْهُ، فَلَمْ يَرْضَوْهُ أَيْضاً. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُولَئِكَ﴾: الَّذِينَ هَذَا صَنِيعُهُمْ، بِمُؤْمِنِينَ؛ أَي: لَيْسَ هَذَا دَأْبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَيْسُوا حَرِيئِينَ بِالْإِيمَانِ؛ لِأَنَّهُمْ جَعَلُوا آلِهَتَهُمْ أَهْوَاءَهُمْ، وَجَعَلُوا أَحْكَامَ الْإِيمَانِ تَابِعَةً لِأَهْوَائِهِمْ.

﴿٤٤﴾ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ﴾: عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿فِيهَا هَدًى﴾: يَهْدِي إِلَى الْإِيمَانِ وَالْحَقِّ وَيَنْصِبُ مِنَ الضَّلَالَةِ، ﴿وَنُورٌ﴾ يُسْتَضَاءُ بِهِ فِي ظُلْمِ الْجَهْلِ وَالْحَيْرَةِ وَالشُّكُوكِ وَالشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾، ﴿يَحْكُمُ بِهَا﴾ - بَيْنَ الَّذِينَ هَادُوا؛ أَي: الْيَهُودَ، فِي الْقَضَايَا وَالْفِتَاوَى - ﴿النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ لِلَّهِ وَانْقَادُوا لِأَوَامِرِهِ، الَّذِينَ إِسْلَامُهُمْ أَعْظَمُ مِنْ إِسْلَامِ غَيْرِهِمْ، وَهُمْ صَفْوَةُ اللَّهِ مِنَ الْعِبَادِ؛ فَإِذَا كَانَ هَؤُلَاءِ النَّبِيُّونَ الْكَرَامُ وَالسَّادَةُ لِلْأَنَامِ، قَدْ اقْتَدَوْا بِهَا، وَاتَّبَعُوا، وَمَشَوْا خَلْفَهَا؛ فَمَا الَّذِي مَنَعَ هَؤُلَاءِ الْأَرَاذِلَ مِنَ الْيَهُودِ مِنَ الْإِقْتِدَاءِ بِهَا؟! وَمَا الَّذِي أَوْجَبَ لَهُمْ أَنْ يَنْبَذُوا أَشْرَفَ مَا فِيهَا مِنَ الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِي لَا يَقْبَلُ عَمَلٌ ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ إِلَّا بِتِلْكَ الْعَقِيدَةِ؟! هَلْ لَهُمْ إِمَامٌ فِي ذَلِكَ؟! نَعَمْ؛ لَهُمْ أُمَّةٌ دَأْبُهُمُ التَّحْرِيفُ وَإِقَامَةُ رِيَّاسَتِهِمْ وَمَنَاصِبُهُمْ بَيْنَ النَّاسِ وَالتَّأْكُلُ بِكُتْمَانِ الْحَقِّ وَإِظْهَارِ الْبَاطِلِ، أُولَئِكَ أُمَّةُ الضَّلَالِ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾؛ أَي: وَكَذَلِكَ يَحْكُمُ بِالتَّوْرَةِ لِلَّذِينَ هَادُوا أُمَّةَ الدِّينِ مِنَ الرَّبَّانِيِّينَ؛ أَي: الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ الْمَعْلَمِينَ، الَّذِينَ يَرْبُونَ النَّاسَ بِأَحْسَنِ تَرْبِيَةٍ، وَيَسْلُكُونَ مَعَهُمْ مَسْلَكَ الْأَنْبِيَاءِ الْمَشْفِقِينَ، وَالْأَحْبَارِ؛ أَي: الْعُلَمَاءِ الْكِبَارِ الَّذِينَ يُقْتَدَى بِأَقْوَالِهِمْ وَتُرْمَقَ آثَارُهُمْ وَلَهُمْ لِسَانُ الصِّدْقِ بَيْنَ أُمَّمِهِمْ.

وَذَلِكَ الْحُكْمُ الصَّادِرُ مِنْهُمْ الْمَوْافِقُ لِلْحَقِّ ﴿فَمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾؛ أَي: بِسَبَبِ أَنَّ اللَّهَ اسْتَحْفَظَهُمْ عَلَى كِتَابِهِ، وَجَعَلَهُمْ أَمْنَاءَ عَلَيْهِ، وَهُوَ أَمَانَةٌ عِنْدَهُمْ، أَوْجَبَ عَلَيْهِمْ حِفْظَهُ مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ وَالتَّكْتِمَانِ وَتَعْلِيمَهُ لِمَنْ لَا يَعْلَمُهُ، وَهُمْ شُهَدَاءُ عَلَيْهِ بِحَيْثُ إِنَّهُمُ الْمَرْجُوعُ إِلَيْهِمْ فِيهِ وَفِيمَا اشْتَبَهَ عَلَى النَّاسِ مِنْهُ؛ فَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ حَمَّلَ أَهْلَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَحْمِلْهُ الْجُهَالُ، فَيَجِبُ عَلَيْهِمُ الْقِيَامُ بِأَعْيَانِ مَا حُمِّلُوا، وَأَنْ لَا يَقْتَدُوا بِالْجُهَالِ بِالْإِخْلَادِ إِلَى الْبَطَالَةِ وَالْكَسَلِ، وَأَنْ لَا

يقتصروا على مجرد العبادات القاصرة من أنواع الذكر والصلاة والزكاة والحج والصوم ونحو ذلك من الأمور التي إذا قام بها غير أهل العلم؛ سلموا ونجوا، وأما أهل العلم؛ فكما أنهم مطالبون بالقيام بما عليهم أنفسهم فإنهم مطالبون أن يعلموا الناس، وينبّهوهم على ما يحتاجون إليه من أمور دينهم، خصوصاً الأمور الأصولية، والتي يكثر وقوعها، وأن لا يخشوا الناس، بل يخشون ربّهم، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَخَشَوْنَ اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾؛ فتكتموا الحق، وتظهروا الباطل لأجل متاع الدنيا القليل.

وهذه الآفات إذا سلم منها العالم؛ فهو من توفيقه وسعاده؛ بأن يكون همه الاجتهاد في العلم والتعليم، ويعلم أن الله قد استحفظه بما^(١) أودعه من العلم واستشده عليه، وأن يكون خائفاً من ربّه، ولا يمنعه خوف الناس وخشيّتهم من القيام بما هو لازم له، وأن لا يؤثّر الدنيا على الدين؛ كما أن علامة شقاوة العالم أن يكون مخلصاً للبطالة، غير قائم بما أمر به، ولا مبالٍ بما استحفظ عليه، قد أهمله وأضاعه، قد باع الدين بالدنيا، قد ارتشى في أحكامه، وأخذ المال على فتاويه، ولم يعلم عباد الله إلا بأجرة وجعالة؛ فهذا قد منّ الله عليه بمئة عظيمة كفرها، ودفع حظاً جسيماً محروماً منه غيره، فنسألك اللهم علماً نافعاً وعملاً مقبلاً، وأن ترزقنا العفو والعافية من كل بلاء يا كريم.

﴿وَمَنْ لَمْ يَخْشَ اللَّهَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾: من الحقّ المبين، وحكم بالباطل الذي يعلمه لغرض من أغراضه الفاسدة؛ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾: فالحكم بغير ما أنزل الله، من أعمال أهل الكفر، وقد يكون كفراً ينقل عن الملة، وذلك إذا اعتقد جلّه وجوازه، وقد يكون كبيرة من كبائر الذنوب، ومن أعمال الكفر؛ قد استحقّ من فعّله العذاب الشديد.

﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَاللِّسْنَ بِاللِّسَنِ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارٌ لَّهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿٤٥﴾ هذه الأحكام من جملة الأحكام التي في التوراة، يحكم بها النبيون الذين

أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُونَ وَالْأَحْبَارُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ أَوْجِبَ عَلَيْهِمْ أَنْ النَّفْسَ إِذَا قَتَلَتْ تُقْتَلُ بِالنَّفْسِ بِشَرِّطِ الْعَمْدِ وَالْمَكَافَاةِ، وَالْعَيْنُ تُقْلَعُ بِالْعَيْنِ، وَالْأُذُنُ تُؤْخَذُ بِالْأُذُنِ، وَالسِّنُّ يُنَزَعُ بِالسِّنِّ، وَمِثْلُ هَذِهِ مَا أَشْبَهَهَا مِنَ الْأَطْرَافِ الَّتِي يُمْكِنُ الْاِقْتِصَاصُ مِنْهَا بِدُونِ حَيْفٍ. ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾: وَالْاِقْتِصَاصُ أَنْ يُفْعَلَ بِهِ كَمَا فَعَلَ؛ فَمَنْ جَرَحَ غَيْرَهُ عَمْدًا؛ اقْتَصَّ مِنَ الْجَارِحِ جَرْحًا مِثْلَ جَرْحِهِ لِلْمَجْرُوحِ حَدًّا وَمَوْضِعًا وَطَوْلًا وَعَرْضًا وَعُمْقًا. وَلْيَعْلَمْ أَنَّ شَرَعَ مِنْ قَبْلُنَا شَرْعٌ لَنَا مَا لَمْ يَرِدْ شَرْعُنَا بِخِلَافِهِ، ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ﴾؛ أَيِ: بِالْقِصَاصِ فِي النَّفْسِ وَمَا دُونَهَا مِنَ الْأَطْرَافِ وَالْجُرُوحِ؛ بِأَنْ عَفَا عَمَّنْ جَنَى وَثَبِتَ لَهُ الْحَقُّ قَبْلَهُ، ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾؛ أَيِ: كَفَّارَةٌ لِلْجَانِي؛ لِأَنَّ الْآدَمِيَّ عَفَا عَنْ حَقِّهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَحَقُّ وَأَوْلَى بِالْعَفْوِ عَنْ حَقِّهِ، وَكَفَّارَةٌ أَيْضًا عَنِ الْعَافِي؛ فَإِنَّهُ كَمَا عَفَا عَمَّنْ جَنَى عَلَيْهِ أَوْ عَلَى مَنْ يَتَعَلَّقُ بِهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْفو عَنْ زَلَّاتِهِ وَجَنَائِيَاتِهِ.

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ^(١): كَفَرُوا دُونَ كَفَرٍ، وَظَلَمُوا دُونَ ظَلَمٍ، وَفَسَقُوا دُونَ فَسَقٍ؛ فَهُوَ ظَلَمَ أَكْبَرَ عِنْدَ اسْتِحْلَالِهِ، وَعَظِيمَةً كَبِيرَةً عِنْدَ فَعْلِهِ غَيْرَ مُسْتَحَلٍّ لَهُ.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿٤٦﴾ أَيِ: وَاتَّبَعْنَا هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْمُرْسَلِينَ الَّذِينَ يَحْكُمُونَ بِالتَّوْرَةِ بِعِبْدِنَا وَرَسُولِنَا عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ، رُوحَ اللَّهِ وَكَلِمَتَهُ الَّتِي أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، بَعَثَهُ اللَّهُ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ؛ فَهُوَ شَاهِدٌ لِمُوسَى وَلَمَّا جَاءَ بِهِ مِنَ التَّوْرَةِ بِالْحَقِّ وَالصِّدْقِ، وَمُؤَيِّدٌ لِدَعْوَتِهِ، وَحَاكِمٌ بِشَرِيعَتِهِ، وَمُوَافِقٌ لَهُ فِي أَكْثَرِ الْأُمُورِ الشَّرْعِيَّةِ، وَقَدْ يَكُونُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَخْفَ فِي بَعْضِ الْأَحْكَامِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُ: أَنَّهُ قَالَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿وَلَا جُلْ لَكُمْ بِعُضِّ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾، ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾: الْكِتَابَ الْعَظِيمَ الْمُتِمَّمُ لِّلتَّوْرَةِ، ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾: يَهْدِي إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ،

(١) انظر تفسير الطبري (٣٤٥/١٠)، وللشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٥٥٢) تخريج لهذا الأثر.

وبين الحق من الباطل، ﴿ومصدقاً لما بين يديه من التوراة﴾: بتبثيتها والشهادة لها والموافقة. ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾: فإنهم الذين ينتفعون بالهدى ويتعظون بالمواعظ ويرتدعون عما لا يليق.

﴿٤٧﴾ ﴿ولنخكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾؛ أي: يلزمهم التقيد بكتابهم، ولا يجوز لهم العدول عنه، ﴿ومن لم يخكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾.

﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فأحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن لبكركم في ما آتاكم فاستيقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تهاونون ﴿٤٨﴾﴾ وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أننا يريد الله أن يضلهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون ﴿٤٩﴾﴾ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٤٨﴾ يقول تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب﴾: الذي هو القرآن العظيم، أفضل الكتب وأجلها، ﴿بالحق﴾؛ أي: إنزالاً بالحق ومشملاً على الحق في أخباره وأوامره ونواهي، ﴿مصدقاً لما بين يديه من الكتاب﴾: لأنه شهد لها، ووافقها، وطابقت أخباره أخبارها، وشرائع الكبار شرائعها، وأخبرت به، فصار [وجوده] (١) مصداقاً لخبرها، ﴿ومهيمناً عليه﴾؛ أي: مشتملاً على ما اشتملت عليه الكتب السابقة، وزيادة في المطالب الإلهية والأخلاق النفسية؛ فهو الكتاب الذي تتبّع كل حق، جاءت به الكتب فأمر به، وحث عليه، وأكثر من الطرق الموصلة إليه، وهو الكتاب الذي فيه نبأ السابقين واللاحقين، وهو الكتاب الذي فيه الحكم والحكمة والأحكام، الذي عُرِضت عليه الكتب السابقة؛ فما شهد [له] (٢) بالصدق؛ فهو المقبول، وما شهد له بالرد؛ فهو مردود قد دخله التحريف والتبديل، وإلاً؛ فلو كان من عند الله لم يخالفه.

﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾: من الحكم الشرعي الذي أنزله الله عليك، ﴿ولا

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «وجودها».

(٢) كذا في (ب). وفي (أ): «لها».

تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ؛ أَي: لا تجعل أَتِّبَاعَ أَهْوَائِهِمُ الْفَاسِدةَ الْمُعَارِضَةَ لِلْحَقِّ بَدَلًا عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ، فَتَسْتَبْدِلُ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ.

لِكُلِّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ أَمْرٌ جَعَلْنَاهُ: ﴿شُرْعَةً وَمِنْهَا جَبَأٌ﴾؛ أَي: سَبِيلًا وَسُنَّةً، وَهَذِهِ الشَّرَائِعُ الَّتِي تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأُمَمِ، هِيَ الَّتِي تَتَغَيَّرُ بِحَسَبِ تَغْيِيرِ الْأَزْمَنَةِ وَالْأَحْوَالِ، وَكُلُّهَا تَرْجِعُ إِلَى الْعَدْلِ فِي وَقْتِ شُرْعَتِهَا، وَأَمَّا الْأَصُولُ الْكِبَارُ الَّتِي هِيَ مَصْلَحَةُ وَحِكْمَةُ فِي كُلِّ زَمَانٍ؛ فَإِنَّهَا لَا تَخْتَلِفُ، فَتُشَرِّعُ فِي جَمِيعِ الشَّرَائِعِ، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: تَبْعًا لِشَرِيعَةٍ وَاحِدَةٍ، لَا يَخْتَلِفُ مَتَأَخَّرُهَا وَلَا مَتَقَدِّمُهَا. ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾: فَيَخْتَبِرُكُمْ وَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، وَيَبْتَلِي كُلَّ أُمَّةٍ بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ، وَيُؤْتِي كُلَّ أَحَدٍ مَا يَلِيقُ بِهِ، وَلِيَحْصَلَ التَّنَافُسُ بَيْنَ الْأُمَمِ؛ فَكُلُّ أُمَّةٍ تَحْرُسُ عَلَى سَبْقِ غَيْرِهَا. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾؛ أَي: بَادِرُوا إِلَيْهَا وَأَكْمِلُوهَا؛ فَإِنَّ الْخَيْرَاتِ الشَّامِلَةَ لِكُلِّ فَرْضٍ وَمُسْتَحَبٍّ مِنْ حَقُوقِ اللَّهِ وَحَقُوقِ عِبَادِهِ لَا يَصِيرُ فَاعِلُهَا سَابِقًا لَغَيْرِهِ مُسْتَوِلِيًّا عَلَى الْأَمْرِ إِلَّا بِأَمْرَيْنِ: الْمُبَادَرَةُ إِلَيْهَا، وَاتِّهَازُ الْفُرْصَةِ حِينَ يَجِيءُ وَقْتُهَا وَيَعْرِضُ عَارِضُهَا، وَالْاجْتِهَادُ فِي أَدَائِهَا كَامِلَةً عَلَى الْوَجْهِ الْمَأْمُورِ بِهِ.

وَيَسْتَدِلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى الْمُبَادَرَةِ لِأَدَاءِ الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا فِي أَوَّلِ وَقْتُهَا، وَعَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ لَا يَقْتَصِرَ الْعَبْدُ عَلَى مَجْرَدِ مَا يَجْزِي فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْعِبَادَاتِ مِنَ الْأُمُورِ الْوَاجِبَةِ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَأْتِيَ بِالْمُسْتَحَبَّاتِ الَّتِي يَقْدِرُ عَلَيْهَا لَتَتِمَّ وَتَكْمُلَ وَيَحْصَلَ بِهَا السَّبْقُ. ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾: الْأُمَمُ السَّابِقَةُ وَاللَّاحِقَةُ، كُلُّهُمْ سَيَجْمَعُهُمُ اللَّهُ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ، ﴿فَيَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾: مِنَ الشَّرَائِعِ وَالْأَعْمَالِ، فَيُثَبِّتُ أَهْلَ الْحَقِّ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ، وَيُعَاقِبُ أَهْلَ الْبَاطِلِ وَالْعَمَلَ السَّيِّئَ.

﴿٤٩﴾ ﴿وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾: هَذِهِ الْآيَةُ هِيَ الَّتِي قِيلَ: إِنَّهَا نَاسِخَةٌ لِقَوْلِهِ: ﴿فَاحْكَمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِنَاسِخَةٍ، وَأَنَّ تِلْكَ الْآيَةَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ ﷺ مُخَيَّرٌ بَيْنَ الْحُكْمِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدَمِهِ، وَذَلِكَ لِعَدَمِ قَصْدِهِمُ بِالْتَّحَاكُمِ لِلْحَقِّ. وَهَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ إِذَا حَكَمَ؛ فَإِنَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ، وَهُوَ الْقِسْطُ الَّذِي تَقْدَمُ أَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾. وَدَلُّ هَذَا عَلَى بَيَانِ الْقِسْطِ، وَأَنَّ مَا ذَاتَهُ هُوَ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ مِنَ الْأَحْكَامِ؛ فَإِنَّهَا الْمَشْتَمِلَةُ عَلَى غَايَةِ الْعَدْلِ وَالْقِسْطِ، وَمَا خَالَفَ ذَلِكَ فَهُوَ جَوْرٌ وَظُلْمٌ، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾: كَرَّرَ النَّهْيَ عَنْ أَتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ لِشِدَّةِ التَّحْذِيرِ مِنْهَا،

ولأن ذلك في مقام الحكم والفتوى، وهو أوسع، ولهذا في مقام الحكم وحده، وكلاهما يلزم فيه أن لا يتبع أهواءهم المخالفة للحق. ولهذا قال: ﴿واخذزهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾؛ أي: إياك والاغترار بهم وأن يفتنوك فيصدوك عن بعض ما أنزل الله إليك، فصار اتباع أهوائهم سبباً موصلاً إلى ترك الحق الواجب، والغرض اتباعه، ﴿فإن تولوا﴾: عن أتباعك وأتباع الحق، ﴿فاعلم﴾: أن ذلك عقوبة عليهم، وأن الله يريد أن يصيبهم ببعض ذنوبهم، فإن للذنوب عقوبات عاجلة وآجلة، ومن أعظم العقوبات أن يبتلى العبد ويُزَيَّن له ترك اتباع الرسول، وذلك لفسقه، ﴿وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾؛ أي: طبيعتهم الفسق والخروج عن طاعة الله وأتباع رسوله.

﴿٥٠﴾ ﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾؛ أي: أفيطلبون بتوليهم وإعراضهم عنك حكم الجاهلية؟ وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله؛ فلا ثم إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية؛ فمن أعرض عن الأول؛ ابتلي بالثاني المبني على الجهل والظلم والغي، ولهذا أضافه الله للجاهلية، وأما حكم الله تعالى؛ فمبني على العلم والعدل والقسط والنور والهدى. ﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾: فالموقن هو الذي يعرف الفرق بين الحكمين ويميز بإيقانه ما في حكم الله من الحسن والبهاء، وأنه يتعين عقلاً وشرعاً اتباعه، واليقين هو العلم التام الموجب للعمل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَةَ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّهُمْ أَجْمَعِينَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥١) ﴿فَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْلَؤْكَ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ (٥٣).

﴿٥١﴾ يرشد تعالى عباده المؤمنين حين بين لهم أحوال اليهود والنصارى وصفاتهم غير الحسنة أن لا يتخذوهم أولياء؛ فإن بعضهم ﴿أولياء بعض﴾: يتناصرون فيما بينهم، ويكونون يداً على من سواهم؛ فأنتم لا تتخذوهم أولياء؛ فإنهم الأعداء على الحقيقة، ولا يبالون بضرركم، بل لا يدخرون من مجهودهم شيئاً على إضلالكم؛ فلا يتولّاهم إلا من هو مثلهم. ولهذا قال: ﴿ومن يتولّهم منكم

فإنه منهم؛ لأنَّ التَّوَلَّى التَّامَّ يوجب الانتقال إلى دينهم، والتَّوَلَّى القليل يدعو إلى الكثير، ثم يتدرَّج شيئاً فشيئاً، حتى يكون العبد منهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: الذين وَضَعَهُم الظُّلْمَ، وإليه يُرجعون، وعليه يَعُولون؛ فلو جتَّههم بكلِّ آية؛ ما تبعوك، ولا انقادوا لك.

﴿٥٢﴾ ولما نهى الله المؤمنين عن توليهم؛ أخبر أنَّ مَن يَدْعِي الإيمان طائفة تواليهم فقال: ﴿فترى الذين في قلوبهم مرضٌ﴾؛ أي: شكٌ ونفاقٌ وضعفُ إيمانٍ يقولون: إِنَّ تَوَلَّيْنَا إِيَّاهُمْ لِلْحَاجَةِ؛ فإنَّا ﴿نَخْشَى أَنْ تَصْبِيَنَا دَائِرَةً﴾؛ أي: تكون الدائرة لليهود والنصارى؛ فإذا كانت الدائرة لهم؛ فإذا لنا معهم يدٌ يكافئونا عنها، وهذا سوء ظنٌّ منهم بالإسلام. قال تعالى راداً لظنهم السيئ: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾: الذي يُعِزُّ اللَّهَ به الإسلام على اليهود والنصارى، ويقهرهم المسلمون، ﴿أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾: يأسُ به المنافقون من ظَفَرِ الكافرين من اليهود وغيرهم، ﴿فَيَصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرَأُوا﴾؛ أي: أضمرُوا ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾: على ما كان منهم، وضُرَّهم بلا نفع حَصَلَ لَهُمْ، فحصل الفتح الذي نصر الله به الإسلام والمسلمين، وأدُلَّ به الكفر والكافرين، فندموا وحصل لهم من الغمِّ ما الله به عليم.

﴿٥٣﴾ ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ متعجبين من حال هؤلاء الذين في قلوبهم مرضٌ: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾؛ أي: حلفوا، وأكدوا حلفهم، وغلَّظوه بأنواع التأكيدات، إنَّهم لَمَعَكُمْ في الإيمان وما يلزمه من الثَّغَرِ والمحبَّة والموالة؛ ظهر ما أضمره، وتبيَّن ما أسرَّه، وصار كيدهم الذي كادوه، وظنُّهم الذي ظنَّوه بالإسلام وأهله باطلاً، فبطل كيدهم، وبَطُلَتْ ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾: في الدنيا، ﴿فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾: حيث فاتهم مقصودهم، وحضرهم الشقاء والعذاب.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ، فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِبٍ ذَلِكَ فَضَّلَ اللَّهُ يَوْمَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٥٤).

﴿٥٤﴾ يخبر تعالى أنَّه الغني عن العالمين، وأنه من يرتدَّ عن دينه؛ فلن يضُرَّ الله شيئاً، وإنما يضُرُّ نفسه، وأنَّ لله عبداً مخلصين ورجالاً صادقين قد تكفل الرحمن الرحيم بهدايتهم ووعد بالإتيان بهم، وأنهم أكمل الخلق أوصافاً وأقواهم نفوساً وأحسنهم أخلاقاً:

أجل صفاتهم أن الله ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾؛ فَإِنَّ محبة الله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه وأفضل فضيلة تفضل الله بها عليه، وإذا أحب الله عبداً؛ يسر له الأسباب، وهون عليه كل عسير، ووفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبة والوداد. ومن لوازم محبة العبد لربه أنه لا بد أن يتصف بمتابعة الرسول ﷺ ظاهراً وباطناً في أقواله وأعماله وجميع أحواله؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾، كما أن من لوازم^(١) محبة الله للعبد أن يكثر العبد من التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل؛ كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن الله: «وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحببته؛ كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها. ورجله التي يمشي بها، ولئن سألتني؛ لأعطيته، ولئن استعاذني؛ لأعيذته»^(٢).

ومن لوازم محبة الله معرفته تعالى والإكثار من ذكره؛ فإن المحبة بدون معرفة بالله ناقصة جداً، بل غير موجودة، وإن وجدت دعواها، ومن أحب الله؛ أكثر من ذكره، وإذا أحب الله عبداً؛ قبل منه اليسير من العمل، وغفر له الكثير من الزلل.

ومن صفاتهم أنهم: ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾؛ فهم للمؤمنين أذلة من محبتهم لهم ونصحهم لهم ولينهم ورفقهم ورافتهم ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم وقرب الشيء الذي يطلب منهم، وعلى الكافرين بالله المعاندين لآياته المكذبين لرسله أعزة، قد اجتمعت همهم وعزائمهم على معاداتهم، وبذلوا جهدهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم: قال تعالى: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾. وقال تعالى: ﴿أَشَدَّاءَ عَلَى الْكَافِرِ رَحْمَاءَ بَيْنَهُمْ﴾؛ فالغلظة الشديدة^(٣) على أعداء الله مما يقرب العبد إلى الله ويوافق العبد ربه في سخطه عليهم، ولا تمنع الغلظة عليهم والشدة دعوتهم إلى الدين الإسلامي بالتي هي أحسن، فتجتمع الغلظة عليهم واللين في دعوتهم، وكلا الأمرين من مصلحتهم، ونفعه عائد إليهم.

﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: بأموالهم وأنفسهم بأقوالهم، وأفعالهم. ﴿وَلَا

(٢) تقدم تخريجه.

(١) في (ب): «لازم».

(٣) في (ب): «الغلظة والشدة».

يخافونَ لومة لائم: ﴿٥٥﴾ بل يقدمون رضا ربهم والخوف من لومه على لوم المخلوقين، وهذا يدل على قوة همهم وعزائمهم؛ فإن ضعيف القلب، ضعيف الهمة، تنتقض عزمته عند لوم اللائمين، وتفترق قوته عند عدل العاذلين، وفي قلوبهم تعبدٌ لغير الله، بحسب ما فيها من مراعاة الخلق، وتقديم رضاهم ولومهم على أمر الله؛ فلا يسلم القلب من التعبد لغير الله، حتى لا يخاف في الله لومة لائم.

ولما مدحهم تعالى بما منَّ به عليهم من الصفات الجميلة^(١) والمناقب العالية المستلزمة لما لم يذكر من أفعال الخير؛ أخبر أنَّ هذا من فضله عليهم وإحسانه؛ لئلا يُعجبوا بأنفسهم، وليشكروا الذي منَّ عليهم بذلك؛ ليزيدهم من فضله، وليعلم غيرهم أنَّ فضل الله تعالى ليس عليه حجاب، فقال: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾؛ أي: واسع الفضل والإحسان، جزيل المنن، قد عمَّت رحمته كلَّ شيء، ويوسع على أوليائه من فضله ما لا يكون لغيرهم، ولكنه عليهم بمن يستحق الفضل فيعطيه؛ فالله أعلم حيث يجعل رسالته أصلاً وفرعاً.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۖ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ۖ﴾ (٥٦).

﴿٥٥﴾ لما نهى عن ولاية الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم، وذكر مآل توليهم أنه الخسران المبين؛ أخبر تعالى من يجب ويتعين توليهم، وذكر فائدة ذلك ومصلحته، فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾؛ فولاية الله تُذكِّر بالإيمان والتقوى؛ فكل من كان مؤمناً تقيّاً؛ كان لله وليّاً، ومن كان لله وليّاً^(٢)؛ فهو وليّ لرسوله، ومن تولّى الله ورسوله؛ كان تمام ذلك تولي من تولاه، وهم المؤمنون الذين قاموا بالإيمان ظاهراً وباطناً، وأخلصوا للمعبود بإقامتهم الصلاة بشروطها وفروضها ومكملاتها، وأحسنوا للخلق، وبذلوا الزكاة من أموالهم لمستحقّيها منهم. وقوله: ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾؛ أي: خاضعون لله ذليلون. فأداة الحضر في قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾: تدلُّ على أنه يجب قصر الولاية على المذكورين والتبرّي من ولاية غيرهم.

﴿٥٦﴾ ثم ذكر فائدة هذه الولاية، فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾؛ أي: فإنه من الحزب المضافين إلى الله إضافة

(٢) في (ب): «ومن كان وليّاً لله».

(١) في (ب): «الجليلة».

عبودية وولاية، وحزبه هم الغالبون، الذين لهم العاقبة في الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾، وهذه بشارة عظيمة لمن قام بأمر الله وصار من حزبه وجنديه أن له الغلبة، وإن أدبيل عليه في بعض الأحيان لحكمة يريد بها الله تعالى؛ فأخر أمره الغلبة والانتصار، ومن أصدق من الله قيلاً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿٥٧ - ٥٨﴾ ينهى عباده المؤمنين عن اتّخاذ أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن سائر الكفار أولياء، يحبّونهم ويتولّونهم، ويبدون لهم^(١) أسرار المؤمنين، ويعاونونهم على بعض أمورهم التي تضر الإسلام والمسلمين، وأن ما معهم من الإيمان يوجبّ عليهم ترك موالاتهم، ويحثّهم على معاداتهم، وكذلك التزامهم لتقوى الله التي هي امتثال أوامره واجتناب زواجره ممّا تدعوهم إلى معاداتهم، وكذلك ما كان عليه المشركون والكفار المخالفون للمسلمين من قذحهم في دين المسلمين، واتّخاذهم إيّاه هُزُوءًا ولعبًا واحتقاره واستصغاره، خصوصاً الصلاة التي هي أظهر شعائر المسلمين وأجلّ عباداتهم، إنهم إذا نادوا إليها؛ اتّخذوها هُزُوءًا ولعبًا، وذلك لعدم عقلهم ولجهلهم العظيم، وإلّا؛ فلو كان لهم عقول، لخضعوا لها، ولعلموا أنها أكبر من جميع الفضائل التي تتّصف بها النفوس؛ فإذا علمتم أيّها المؤمنون حال الكفار وشدة معاداتهم لكم ولدينكم؛ فمَن لم يعادهم بعد هذا؛ دل على أن الإسلام عنده رخيص، وأنه لا يبالي بمن قدح فيه أو قدح بالكفر والضلال، وأنه ليس عنده من المروءة والإنسانية شيء؛ فكيف تدّعي لنفسك ديناً قيماً وأنه الدين الحقّ وما سواه باطل وترضى بموالاته من اتّخذ هُزُوءًا ولعبًا وسخر به وبأهله من أهل الجهل والحمق؟! وهذا فيه من التهيج على عداوتهم ما هو معلوم لكل من له أدنى مفهوم.

﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقِيْمُونَ مِثًا اِلَّا اَنْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا اُنْزِلَ اِلَيْنَا وَمَا اُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَاَنْ اَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ اُنْتِمْ بِشَيْءٍ مِّنْ ذٰلِكَ مُتَوَبِّعُونَ عِنْدَ اللّٰهِ مِّنْ لّعْنَةِ اللّٰهِ وَعَصِيبٍ عَلَيْهِ وَجَعَلْ

مِنْهُمْ الْقِرَدَّةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَرَبِّى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِيمَانِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْبَلِهِمُ السَّحَتَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِيمَانُ وَأَكْبَلِهِمُ السَّحَتَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾

﴿٥٩﴾ أي: ﴿قل﴾ يا أيها الرسول: ﴿يا أهل الكتاب﴾؛ ملزماً لهم: إن دين الإسلام هو الدين الحق، وإن قذحهم فيه قديحٌ بأمرٍ ينبغي الممدح عليه، ﴿هل تنقِمونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾؛ أي: هل لنا من العيب إلا إيماننا بالله وبكتبه السابقة واللاحقة وبأنبيائه المتقدمين والمتأخرين؟! وبأننا نجزم أنَّ من لم يؤمن كهذا الإيمان؛ فإنه كافر فاسق؛ فهل تنقِمونَ مِنَّا بهذا الذي هو أوجب الواجبات على جميع المكلفين؟! ومع هذا؛ فأكثركم ﴿فاسقون﴾؛ أي: خارجون عن طاعة الله متجرئون على معاصيه؛ فأولئى لكم أيها الفاسقون السكوت؛ فلو كان عيبكم وأنتم سالمون من الفسق وهيهات ذلك؛ لكان الشرُّ أخف من قذحكم فينا مع فسقكم.

﴿٦٠﴾ ولما كان قذحهم في المؤمنين يقتضي أنهم يعتقدون أنهم على شرٍّ؛ قال تعالى: ﴿قل﴾ لهم مخبراً عن شناعة ما كانوا عليه: ﴿هل أنبئكم بشرٍّ من ذلك﴾: الذي نقمتم فيه علينا مع التنزيل معكم، ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾؛ أي: أبعد عن رحمته، ﴿وغَضِبَ عَلَيْهِ﴾: وعاقبه في الدنيا والآخرة، ﴿وجعل منهم القردة والخنازير و﴾ [مَنْ] ﴿عَبَدَ الطَّاغُوتِ﴾: وهو الشيطان، وكلُّ ما عُبدَ من دون الله فهو طاغوت. ﴿أولئك﴾ المذكورون بهذه الخصال القبيحة ﴿شرٌّ مكاناً﴾: من المؤمنين الذين رحمة الله قريبٌ منهم، ورضي الله عنهم، وأثابهم في الدنيا والآخرة؛ لأنهم أخلصوا له الدين، وهذا النوع من باب استعمال أفعال التفضيل في غير بابها، وكذلك قوله: ﴿وأضلَّ عن سواءِ السبيل﴾؛ أي: وأبعد عن قصد السبيل.

﴿٦١﴾ ﴿وإذا جاؤوكم قالوا آمَنَّا﴾: نفاقاً ومكراً، ﴿و﴾ هم ﴿قد دخلوا﴾ مشتملين على الكفر ﴿وهم قد خرجوا به﴾؛ فمدخلهم ومخرجهم بالكفر، وهم يزعمون أنهم مؤمنون؛ فهل أشرُّ من هؤلاء وأقبحُ حالاً منهم؟! ﴿والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾: فيجازيهم بأعمالهم خيراً وشرّاً.

﴿٦٢﴾ ثم استمرَّ تعالى يعدد معاييبهم انتصاراً لِقَدْحِهِمْ في عباده المؤمنين،

فقال: ﴿وترى كثيراً منهم﴾؛ أي: من اليهود، ﴿يسارعون في الإثم والعدوان﴾؛ أي: يحرصون ويبادرون المعاصي المتعلقة في حق الخالق والعدوان على المخلوقين. ﴿وأكلهم السُّخْت﴾: الذي هو الحرام، فلم يكتفِ بمجرد الإخبار أنهم يفعلون ذلك، حتى أخبر أنهم يسارعون، وهذا يدل على خبثهم وشرهم وأن أنفسهم مجبولة على حب المعاصي والظلم، هذا وهم يدعون لأنفسهم المقامات العالية، ﴿لبئس ما كانوا يعملون﴾: وهذا في غاية الذم لهم والقبح فيهم.

﴿٦٣﴾ ﴿لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السُّخْت﴾؛ أي: هلاً ينهاهم العلماء المتصدون لنفع الناس الذين من الله عليهم بالعلم والحكمة عن المعاصي، التي تصدر منهم، ليزول ما عندهم من الجهل، وتقوم حجة الله عليهم، فإن العلماء عليهم أمر الناس ونهيهم، وأن يبينوا لهم الطريق الشرعي، ويرغبوهم في الخير، ويرهبوهم من الشر. ﴿لبئس ما كانوا يصنعون﴾.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيزِيدَنَّ كَيْدَ مَنْتَهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَاتُ بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَسَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَجَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿٦٤﴾ يخبر تعالى عن مقالة اليهود الشنيعة وعقيدتهم الفظيعة، فقال: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾؛ أي: عن الخير والإحسان والبر! ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾: وهذا دعاء عليهم بجنس مقالتهم؛ فإن كلامهم متضمن لوصف الله الكريم بالبخل وعدم الإحسان، فجازاهم بأن كان هذا الوصف منطبقاً عليهم؛ فكانوا أبخل الناس وأقلهم إحساناً وأسوأهم ظناً بالله وأبعدهم^(١) عن رحمته التي وسعت كل شيء وملأت أقطار العالم العلوي والسفلي، ولهذا قال: ﴿بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾: لا حَجَر عليه ولا مانع يمنعه مما أراد؛ فإنه تعالى قد بسط فضله وإحسانه الديني والدنيوي، وأمر العباد أن يتعرضوا لنفحات جوده، وأن لا يسدوا

(١) في (ب): «وأبعدهم الله».

على أنفسهم أبواب إحسانه بمعاصيهم، فيدُّهُ^(١) سَخَاءَ الليل والنهار، وخيرُهُ في جميع الأوقات مدراراً؛ يفرِّج كرباً، ويزيل غمّاً، ويغني فقيراً، ويفكُّ أسيراً، ويجبرُ كسيراً، ويجيب سائلاً، ويعطي فقيراً عائلاً، ويُجيب المضطَّرين، ويستجيب للسائلين، وينعم على مَنْ لم يسأله، ويعافي من طلب العافية، ولا يحرم من خيره عاصياً، بل خيره يرتع فيه البرُّ والفاجر ويجود على أوليائه بالتوفيق لصالح الأعمال ثم يحمدهم عليها ويضيفها إليهم وهي من جوده ويُثيبهم عليها من الثواب العاجل والآجل ما لا يدركهُ الوصفُ ولا يخطر على بال العبد، ويلطِّف بهم في جميع أمورهم، ويوصل إليهم من الإحسان، ويدفع عنهم من النقم ما لا يشعرون بكثير منه؛ فسبحان مَنْ كُلُّ النعم التي بالعباد فمنه وإليه يجأرون في دفع المكاره، وتبارك من لا يُخصي أحد ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وتعالى من لا يخلو العباد من كرمه طرفة عين، بل ولا^(٢) وجود لهم ولا بقاء إلا بجوده، وقَبَّح الله من استغنى بجَهْلِهِ عن ربِّه ونسبه إلى ما لا يليق بجلاله، بل لو عامل الله اليهود القائلين تلك المقالة ونحوهم ممَّن حاله كحالهم ببعض قولهم؛ لهلكوا وشقوا في دنياهم، ولكنهم يقولون تلك الأقوال، وهو تعالى يحلم عنهم، ويصفح، ويمهلهم، لا يهملهم.

وقوله: ﴿وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً﴾: وهذا أعظم العقوبات^(٣) على العبد: أن يكون الذكر الذي أنزله الله على رسوله، الذي فيه حياة القلب والروح وسعادة الدنيا والآخرة وفلاح الدارين، الذي هو أكبر منة امتنَّ الله بها على عباده، توجب عليهم المبادرة إلى قبولها والاستسلام لله بها وشكراً لله عليها، أن تكون لمثل هذا زيادة غيٍّ إلى غيٍّ وطغيانٍ إلى طغيانه وكفرٍ إلى كفره، وذلك بسبب إعراضه عنها ورده لها ومعاندته إياها ومعارضته لها بالشبه الباطلة.

﴿وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾: فلا يتآلفون ولا يتناصرون ولا يتفقون على حالةٍ فيها مصلحتهم، بل لم يزالوا متباغضين في قلوبهم متعادين بأفعالهم إلى يوم القيامة، ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب﴾: ليكيدوا بها الإسلام وأهله وأبداً وأعادوا وأجلبوا بخيلهم ورجلهم، ﴿أطفأها الله﴾: بخذلانهم وتفرُّق

(١) في (ب): «يداه».

(٢) في (ب): «بل لا».

(٣) كذا في (ب). وفي (أ): «وهذا أعظم من العقوبات». وعدلت في هامش (أ) إلى: «وهذا من أعظم العقوبات» بخط مغاير.

جنودهم وانتصار المسلمين عليهم، ﴿ويسعون في الأرض فساداً﴾؛ أي: يجتهدون ويجدون ولكن بالفساد في الأرض؛ بعمل المعاصي والدعوة إلى دينهم الباطل والتعويق عن الدخول في الإسلام، ﴿والله لا يحب المفسدين﴾: بل يبغضهم أشد البغض، وسيجازيهم على ذلك.

﴿٦٥﴾ ثم قال تعالى: ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم﴾: وهذا من كرمه وجوده؛ حيث ذكر قبائح أهل الكتاب ومعائبهم وأقوالهم الباطلة؛ دعاهم إلى التوبة، وأنهم لو آمنوا بالله وملائكته وجميع كتبه وجميع رسله واتقوا المعاصي؛ لكفر عنهم سيئاتهم، ولو كانت ما كانت، ولأدخلهم جنات النعيم التي فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين.

﴿٦٦﴾ ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم﴾؛ أي: قاموا بأوامرهما [ونواهيهما] كما نذبهم الله وحثهم، ومن إقامتهما الإيمان بما دعيا إليه من الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن؛ فلو قاموا بهذه النعمة العظيمة التي أنزلها ربهم إليهم؛ أي: لأجلهم وللاعتناء بهم؛ ﴿لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾؛ أي: لأدّر الله عليهم الرزق ولأمطر عليهم السماء وأنبث لهم الأرض؛ كما قال تعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾. ﴿منهم﴾؛ أي: من أهل الكتاب ﴿أمة مقتصة﴾؛ أي: عاملة بالتوراة والإنجيل عملاً غير قوي ولا نشيط. ﴿وكثير منهم ساء ما يعملون﴾؛ أي: والمسيء منهم الكثير، وأما السابقون منهم؛ فقليل ما هم.

﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلْفُ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿٦٧﴾ هذا أمر من الله لرسوله محمد ﷺ بأعظم الأوامر وأجلها، وهو التبليغ لما أنزل الله إليه، ويدخل في هذا كل أمر تلقته الأمة عنه ﷺ من العقائد والأعمال والأقوال والأحكام الشرعية والمطالب الإلهية، فبلغ ﷺ أكمل تبليغ، ودعا وأنذر وبشّر ويسّر، وعلم الجهال الأميين حتى صاروا من العلماء الربانيين، وبلغ بقوله وفعله وكتبه ورسله، فلم يبق خير إلا دل أمته عليه، ولا شر إلا حذرهما عنه، وشهد له بالتبليغ أفاضل الأمة من الصحابة فمن بعدهم من أئمة الدين ورجال المسلمين. ﴿وإن لم تفعل﴾؛ أي: لم تبلغ ما أنزل إليك من ربك، ﴿فما بلغت رسالته﴾؛ أي: فما امتثلت أمره، ﴿والله يعصمك من الناس﴾: هذه حماية وعصمة

من الله لرسوله من الناس، وأنه ينبغي أن يكون حرصك على التعليم والتبليغ، ولا يشيك عنه خوف من المخلوقين؛ فإن نواصيهم بيد الله، وقد تكفل بعصمتك، فأنت إنما عليك البلاغ المبين؛ فمن اهتدى فلنفسه، وأما الكافرون الذين لا قصد لهم إلا اتباع أهوائهم؛ فإن الله لا يهديهم، ولا يوفقهم للخير بسبب كفرهم.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا ٱلتَّوْرَةَ وَٱلْإِنْجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَٰكِزِيدَ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿٦٨﴾ أي: قل لأهل الكتاب منادياً على ضلالهم ومعلناً بباطلهم: ﴿لستم على شيء﴾: من الأمور الدينية؛ فإنكم لا بالقرآن ومحمد آمنتم، ولا بنبئكم وكتابكم صدقتم، ولا بحق تمسكتم، ولا على أصل اعتمدتم. ﴿حتى تقيموا التوراة والإنجيل﴾؛ أي: تجعلوهما قائمتين بالإيمان بهما واتباعهما والتمسك بكل ما يذعوان إليه، ﴿و﴾ تقيموا ﴿ما أنزل إليكم من ربكم﴾، الذي رباكم، وأنعم عليكم، وجعل أجل إنعامه إنزال الكتب إليكم؛ فالواجب عليكم أن تقوموا بشكر الله، وتلتزموا أحكام الله، وتقوموا بما حملتم من أمانة الله وعهده، ﴿وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً فلا تأس على القوم الكافرين﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِغُونَ وَٱلنَّصَارَىٰ مَن ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿٦٩﴾ يخبر تعالى عن أهل الكتاب^(١) من أهل القرآن والتوراة والإنجيل أن سعادتهم ونجاتهم في طريق واحد وأصل واحد، وهو الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح؛ فمن آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً؛ فله النجاة ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه^(٢) من الأمور المخوفة ولا هم يحزنون على ما خلفوا منها. وهذا الحكم المذكور يشمل سائر الأزمنة.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَآرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كَلَّمَآ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنَّا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُواْ ٱلَّا تَكُونُ فِتْنَةً فَعَمُواْ وَصَمُواْ

(١) في (ب): «الكتب».

(٢) في (ب): «يستقبلون».

ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

﴿٧٠﴾ يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ أَي: عهدهم الثقيل بالإيمان بالله والقيام بواجباته التي تقدّم الكلام عليها في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً...﴾ إلى آخر الآيات، ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ رُسُلًا﴾: يتوالّون عليهم بالدعوة ويتعاهدونهم بالإرشاد، ولكن ذلك لم ينجع فيهم ولم يفد. ﴿كَلِمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾ من الحق كذبوه وعاندوه، وعاملوه أقبح المعاملة، ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾.

﴿٧١﴾ ﴿وَحَسِبُوا أَنْ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؛ أَي: ظنوا أنّ معصيتهم وتكذيبهم لا يجرّ عليهم عذاباً ولا عقوبة، واستمروا على باطلهم، وعموا ﴿وَصَمُّوا﴾: عن الحق. ﴿ثُمَّ﴾: نعشهم^(١)، و﴿تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ حين تابوا إليه وأنابوا. ﴿ثُمَّ﴾ لم يستمروا على ذلك حتى انقلب أكثرهم إلى الحال القبيحة؛ ف﴿عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾: بهذا الوصف، والقليل استمروا على توبتهم وإيمانهم. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾: فيجازي كلّ عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي لِي مَسْكَنٌ﴾
﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾
﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾
﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾
﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ مِنَ الطَّعَامِ أَنْظَرْ كَيْفَ بُرِّئَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظَرِ أَنْ يُؤْفَكُوا﴾

﴿٧٢﴾ يخبر تعالى عن كفر النصارى بقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾: بشبهة أنه خرج من أمّ بلا أب وخالف المعهود من الخلقة الإلهية، والحال أنه عليه الصلاة والسلام قد كذبهم في هذه الدعوى وقال لهم: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ

(١) في «القاموس»: «نَعَشَهُ اللَّهُ، كَمَنَعَهُ: رفعه. وفي «الصحاح»: منه قول عمر: انتعش، نَعَشَكَ اللَّهُ؛ أَي: ارتفع، رَفَعَكَ اللَّهُ، أَوْ جَبَرَكَ وَأَبْقَاكَ».

رَبِّي وَرَبِّكُمْ: فأثبت لنفسه العبودية التامة ولربّه الربوبية الشاملة لكل مخلوق. ﴿إِنَّهُ مَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ: أحداً من المخلوقين لا عيسى ولا غيره،﴾ فقد حَرَّمَ الله عليه الجنة ومأواه النار: وذلك لأنه سَوَّى الخَلْقَ بالخالق، وَصَرَفَ ما خلقه الله له، وهو العبادة الخالصة لغير من هي له، فاستحقَّ أن يخلد في النار. ﴿وما للظَّالِمِينَ من أنصار:﴾ ينقذونهم من عذاب الله، أو يدفعون عنهم بعض ما نزل بهم.

﴿٧٣﴾ ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ:﴾ وهذا من أقوال النصارى المنصورة عندهم، زعموا أَنَّ الله ثالث ثلاثة؛ الله، وعيسى، ومريم! تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، وهذا أكبر دليل على قلة عقول النصارى؛ كيف قَبِلُوا هذه المقالة الشنعاء والعقيدة القبيحة؟! كيف اشتبه عليهم الخالق بالمخلوق^(١)؟! كيف خفي عليهم ربُّ العالمين؟! قال تعالى راداً عليهم وعلى أشباههم: ﴿وما من إله إلاَّ إلهٌ واحدٌ:﴾ متصف بكل صفة كمال، منزّه عن كل نقص، منفرد بالخلق والتدبير، ما بالخلق من نعمة إلاَّ منه؛ فكيف يُجْعَلُ معه إله غيره، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً. ثم توعدهم بقوله: ﴿وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾.

﴿٧٤﴾ ثم دعاهم إلى التوبة عما صدر منهم، وبَيَّنَّ أنه يقبل التوبة عن عباده، فقال: ﴿الَّذِينَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ: أي: يرجعون إلى ما يحبُّه ويرضاه من الإقرار لله بالتوحيد، وبأن عيسى عبد الله ورسوله، وعما كانوا يقولونه ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ عن ما صدر منهم، ﴿والله غفورٌ رحيمٌ:﴾ أي: يغفر ذنوب التائبين، ولو بلغت عنان السماء، ويرحمهم بقبول توبتهم وتبديل سيئاتهم حسنات، وصدَّر دعوتهم إلى التوبة بالعرض الذي هو في غاية اللطف واللين في قوله: ﴿أفلا يتوبون إلى الله﴾.

﴿٧٥﴾ ثم ذَكَرَ حقيقة المسيح وأمه الذي هو الحق، فقال: ﴿ما المسيحُ ابن مريم إلاَّ رسولٌ قد خَلَتْ من قَبْلِهِ الرُّسُلُ:﴾ أي: هذا غايته ومنتهى أمره؛ أَنَّهُ من عباد الله المرسلين، الذين ليس لهم من الأمر ولا من التشريع إلا ما أرسلهم به الله، وهو من جنس الرسل قبله، لا مزية له عليهم تخرِجُه عن البشرية إلى مرتبة الربوبية. ﴿وأُمُّهُ مريمٌ صِدِّيقَةٌ:﴾ أي: هذا أيضاً غايَتُها أن كانت من الصديقين الذين هم أعلى الخلق رتبةً بعد الأنبياء، والصديقية هي العلم النافع المثمر لليقين

(١) في (ب): «بالمخلوقين».

والعمل الصالح، وهذا دليل على أن مريم لم تكن نبيّة، بل أعلى أحوالها الصّديقيّة، وكفى بذلك فضلاً وشرفاً، وكذلك سائر النساء، لم يكن منهنّ نبيّة؛ لأن الله تعالى جعل النبوة في أكمل الصنفين؛ في الرجال؛ كما قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم﴾؛ فإذا كان عيسى عليه السلام من جنس الأنبياء والرسل من قبله، وأمه صديقة؛ فلا شيء اتّخذهما النّصارى إلهين مع الله.

وقوله: ﴿كانا يأكلان الطعام﴾: دليل ظاهر على أنهما عبدان فقيران محتاجان كما يحتاج بنو آدم إلى الطعام والشراب؛ فلو كانا إلهين؛ لاستغنيا عن الطعام والشراب، ولم يحتاجا إلى شيء؛ فإن الإله هو الغني الحميد. ولما بيّن تعالى البرهان؛ قال: ﴿انظر كيف نبين لهم الآيات﴾ الموضحة للحقّ الكاشفة لليقين، ومع هذا لا تفيّد فيهم شيئاً، بل لا يزالون على إفكهم وكذبهم وافتراءهم، وذلك ظلم وعناد منهم.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿٧٦﴾ أي: ﴿قل﴾ لهم أيها الرسول، ﴿أتعبدون من دون الله﴾: من المخلوقين الفقراء المحتاجين، من ﴿لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً﴾: وتدعون من انفرد بالضرّ والنفع والعطاء والمنع، ﴿والله هو السميع﴾: لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنّن الحاجات، ﴿العليم﴾: بالظواهر والبواطن والغيب والشهادة والأمور الماضية والمستقبله؛ فالكامل تعالى الذي هذه أوصافه هو الذي يستحقّ أن يُفرد بجميع أنواع العبادة، ويُخلَص له الدين.

﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ وَمَا أُتِرَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿٧٧﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير

الحق؛ أي: لا تتجاوزوا، وتتعدوا، الحق إلى الباطل، وذلك كقولهم في المسيح ما تقدم حكايته عنهم، وكغلوهم في بعض المشايخ اتباعاً لأهواء ﴿قوم قد ضلُّوا من قبل﴾؛ أي: تقدم ضلالهم، ﴿وأضلُّوا كثيراً﴾: من الناس بدعوتهم إياهم إلى الدين الذي هم عليه، ﴿وضلُّوا عن سواء السبيل﴾؛ أي: قصد الطريق، فجمعوا بين الضلال والإضلال، وهؤلاء هم أئمة الضلال الذين حَذَّرَ الله عنهم وعن اتِّباع أهوائهم المُرَدِّية وآرائهم المضلَّة.

﴿٧٨﴾ ثم قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ أي: طردوا وأبعدوا عن رحمة الله، ﴿على لسان داود وعيسى ابن مريم﴾؛ أي: بشهادتهما وإقرارهما بأن الحجة قد قامت عليهم وعاندوها. ﴿ذلك﴾: الكفر واللعن ﴿بما عصوا وكانوا يعتدون﴾؛ أي: بعصيانهم لله وظلمهم لعباد الله صار سبباً لكفرهم وبعدهم عن رحمة الله؛ فإنَّ للذنوب والظلم عقوبات.

﴿٧٩﴾ ومن معاصيهم التي أَحَلَّتْ بهم المثالات وأوقعت بهم العقوبات أنَّهم ﴿كانوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعْلُوهُ﴾؛ أي: كانوا يفعلون المنكر ولا ينهى بعضهم بعضاً، فيشترك بذلك المباشر وغيره، الذي سكت عن النهي عن المنكر مع قدرته على ذلك، وذلك يدلُّ على تهاونهم بأمر الله، وأنَّ معصيته خفيفة عليهم؛ فلو كان لديهم تعظيمٌ لرَّبِّهم؛ لغاروا لمحارمه، ولغضبوا لغضبه.

وإنَّما كان السكوت عن المنكر مع القدرة موجِباً للعقوبة لما فيه من المفساد العظيمة:

منها: أنَّ مجرد السكوت فعلٌ معصية، وإنَّ لم يباشرها الساكِتُ؛ فإنَّه كما يجب اجتناب المعصية؛ فإنَّه يجب الإنكار على مَنْ فَعَلَ المعصية.

ومنها: ما تقدَّم أنه يدلُّ على التهاون بالمعاصي وقلة الاكتراث بها.

ومنها: أنَّ ذلك يجريء العصاة والفسقة على الإكثار من المعاصي إذا لم يردعوا عنها، فيزداد الشرُّ وتعظم المصيبة الدينيَّة والديويَّة، ويكون لهم الشوكة والظهور، ثم بعد ذلك يضعفُ أهل الخير عن مقاومة أهل الشرِّ، حتى لا يقدرّون على ما كانوا يقدرّون عليه أولاً.

ومنها: أن في ترك الإنكار للمنكر يندرسُ العلم ويكثرُ الجهل؛ فإنَّ المعصية مع تكرُّرها وصدورها من كثير من الأشخاص وعدم إنكار أهل الدين والعلم لها يُظنُّ أنها ليست بمعصية، وربما ظنَّ الجاهل أنها عبادة مستحسنة، وأيُّ مفسدة أعظم من

اعتقاد ما حَرَّمَ الله حلالاً وانقلاب الحقائق على النفوس ورؤية الباطل حقاً؟!

ومنها: أَنَّ السُّكُوتَ على معصية العاصين ربّما تزيّنت المعصية في صدور الناس، واقتدى بعضهم ببعض؛ فالإنسان مولعٌ بالاعتداء بأضرابه وبني جنسه... ومنها ومنها...

فلما كان السكوت عن الإنكار بهذه المثابة؛ نصّ الله تعالى أن بني إسرائيل الكفار منهم لَعَنَهُم بمعاصيهم واعتدائهم، وخصّ من ذلك هذا المنكر العظيم: ﴿لبس ما كانوا يفعلون﴾.

﴿٨٠﴾ ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: بالمحبّة والموالاة والنصرة، ﴿لبس ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾: [هذه] البضاعة الكاسدة والصفقة الخاسرة، وهي سَخَطُ الله الذي يسخط لِسَخَطِهِ كُلُّ شَيْءٍ والخلود الدائم في العذاب العظيم؛ فقد ظلمتهم أنفسهم حيث قدمت لهم هذا النزل غير الكريم، وقد ظلموا أنفسهم إذ فوّتوها النعيم المقيم.

﴿٨١﴾ ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾؛ فَإِنَّ الإِيمان بالله وبالنبي وما أنزل إليه يوجب على العبد موالة ربّه وموالاة أوليائه ومعاداة من كفر به وعاداه وأوضع في معاصيه؛ فشرط ولاية الله والإيمان به أن لا يَتَّخِذَ أعداء الله أولياء، وهؤلاء لم يوجد منهم الشرط، فدلّ على انتفاء المشروط. ﴿ولكن كثيراً منهم فاسقون﴾؛ أي: خارجون عن طاعة الله والإيمان به وبالنبي، ومن فسقهم موالة أعداء الله.

ثم قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرُكَ ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَقْطَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَنبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦).

﴿٨٢﴾ يقول تعالى في بيان أقرب الطائفتين إلى المسلمين وإلى ولايتهم

ومحبّتهم وأبعدهم من ذلك: ﴿لتجدنَّ أشدَّ الناسَ عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾: فهؤلاء الطائفتان على الإطلاق أعظم الناس معاداةً للإسلام والمسلمين وأكثرهم سعيًا في إيصال الضرر إليهم، وذلك لشدة بغضهم لهم بغياً وحسداً وعناداً وكفراً. ﴿ولتجدنَّ أقربهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾: وذكر تعالى لذلك عدة أسباب:

منها: أن فيهم ﴿قسيّسين ورهباناً﴾؛ أي: علماء متزهدين وعباداً في الصوامع متعبدين، والعلم مع الزهد وكذلك العبادة مما يطفئ القلب، ويرقّقه، ويُرّزله عنه^(١) ما فيه من الجفاء والغلظة؛ فلذلك لا يوجد فيهم غلظة اليهود وشدة المشركين.

ومنها: ﴿أنهم لا يستكبرون﴾؛ أي: ليس فيهم تكبرٌ ولا عتوّ عن الانقياد للحق، وذلك موجبٌ لقربهم من المسلمين ومن محبّتهم؛ فإنّ المتواضع أقرب إلى الخير من المستكبر.

﴿٨٣﴾ ومنها: أنهم ﴿إذا سمعوا ما أنزل﴾ على محمد ﷺ؛ أثر ذلك في قلوبهم وخشعوا له وفاضت أعينهم بحسب ما سمعوا من الحق الذي تيقّنوه؛ فلذلك آمنوا وأقرّوا به، فقالوا: ﴿ربّنا آمناً فاكْتَبْنَا مع الشّاهدين﴾: وهم أمة محمد ﷺ؛ يشهدون لله بالتوحيد، ولرسله بالرسالة وصحّة ما جاؤوا به، ويشهدون على الأمم السابقة بالتصديق والتكذيب، وهم عدوّ، شهادتهم مقبولة؛ كما قال تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على النّاس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾.

﴿٨٤﴾ فكانّهم ليّموا على إيمانهم ومسارعتهم فيه، فقالوا: ﴿وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحقّ ونطمع أن يُدْخِلنا ربُّنا مع القوم الصّالحين﴾؛ أي: وما الذي يمنعنا من الإيمان بالله؟ والحال أنّه قد جاءنا الحقّ من ربّنا الذي لا يقبل الشكّ والريب، ونحن إذا آمنا وأتبعنا الحقّ طمّعنا أن يُدْخِلنا الله الجنّة مع القوم الصّالحين؛ فأيّ مانع يمنعنا؟! أليس ذلك موجباً للمسارعة والانقياد للإيمان وعدم التخلف عنه؟!

﴿٨٥﴾ قال الله تعالى: ﴿فأتابهم الله بما قالوا﴾؛ أي: بما تفوّهوا به من الإيمان ونطقوا به من التصديق بالحقّ ﴿جنّات تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها، وذلك جزاء المحسنين﴾. وهذه الآيات نزلت في النصارى الذين آمنوا بمحمد ﷺ

(١) في (ب): «تلطف القلب وترققه وتزِيل عنه».

كالتجاشي وغيره ممن آمن منهم، وكذلك لا يزال يوجد فيهم من يختار دين الإسلام، ويتبين له بطلان ما كانوا عليه وهم أقرب من اليهود والمشركون إلى دين الإسلام.

﴿٨٦﴾ ولما ذكر ثواب المحسنين؛ ذكر عقاب المسيئين، قال: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾؛ لأنهم^(١) كفروا بالله وكذبوا بآياته المبينة للحق.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَقْتَدُوا بِاتِّ اللَّهِ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾.

﴿٨٧﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾: من المطاعم والمشارب؛ فإنها نعم أنعم الله بها عليكم؛ فاحمدوه إذ أحلها لكم واشكروها، ولا تردوا نعمته بكفرها، أو عدم قبولها، أو اعتقاد تحريمها، فتجمعون بذلك بين القول على الله الكذب وكفر النعمة، واعتقاد الحلال الطيب حراماً خبيثاً؛ فإن هذا من الاعتداء، والله قد نهى عن الاعتداء، فقال: ﴿ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾، بل يبيغضهم ويمقتهم، ويعاقبهم على ذلك.

﴿٨٨﴾ ثم أمر بضد ما عليه المشركون الذين يحرمون ما أحل الله فقال: ﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً﴾؛ أي: كلوا من رزقه الذي ساقه إليكم بما يسره من الأسباب إذا كان حلالاً لا سرقة ولا غصباً ولا غير ذلك من أنواع الأموال التي تؤخذ بغير حق، وكان أيضاً طيباً، وهو الذي لا خبث فيه، فخرج بذلك الخبيث من السباع والخبائث. ﴿واتقوا الله﴾: في امتثال أوامره واجتناب نواهيه، ﴿الذي أنتم به مؤمنون﴾؛ فإن إيمانكم بالله يوجب عليكم تقواه ومراعاة حقه؛ فإنه لا يتم إلا بذلك.

ودلت الآية الكريمة على أنه إذا حرّم حلالاً عليه من طعام وشراب وسرية وأمة ونحو ذلك؛ فإنه لا يكون حراماً بتحريمه، لكن لو فعله؛ فعليه كفارة يمين؛ كما قال تعالى: ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك...﴾ الآية؛ إلا أن تحريم الزوجة فيه كفارة ظاهر، ويدخل في هذه الآية أنه لا ينبغي للإنسان أن يتجنب الطيبات ويحرمها نفسه، بل يتناولها مستعيناً بها على طاعة ربه.

(١) في (ب): «لأنه».

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ^(١) وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿٨٩﴾ أي: في أيمانكم التي صدرت على وجه اللغو، وهي الأيمان التي حلف بها المقسم من غير نية ولا قصد، أو عقدها يظن صدق نفسه، فبان بخلاف ذلك، ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾؛ أي: بما عزمتم عليه وعقدت عليه قلوبكم؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾، ﴿فكفارتُهُ﴾؛ أي: كفارة اليمين الذي عقدتموها بقصدكم: ﴿إطعام عشرة مساكين﴾، وذلك الإطعام ﴿من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم﴾؛ أي: كسوة عشرة مساكين، والكسوة هي التي تجزي في الصلاة، ﴿أو تحرير رقبة﴾؛ [أي: عتق رقبة] مؤمنة؛ كما قيّدت في غير هذا الموضع؛ فمتى فعل واحداً من هذه الثلاثة؛ فقد انحلت يمينه. ﴿فمن لم يجد﴾ واحداً من هذه الثلاثة، ﴿فصيام ثلاثة أيام ذلك﴾: المذكور ﴿كفارة أيمانكم إذا حلفتم﴾: تكفرها وتمحوها وتمنع من الإثم، ﴿واحفظوا أيمانكم﴾: عن الحلف بالله كاذباً وعن كثرة الأيمان، واحفظوها إذا حلفتم عن الجثث فيها؛ إلا إذا كان الجثث خيراً؛ فتمام الحفظ أن يفعل الخير، ولا يكون يمينه عرضةً لذلك الخير.

﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾: المبيّنة للحلال من الحرام، الموضحة للأحكام. ﴿لعلكم تشكرون﴾: الله؛ حيث علمكم ما لم تكونوا تعلمون؛ فعلى العبد شكر الله تعالى على ما منَّ به عليه من معرفة الأحكام الشرعية وتبيينها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَدْلُمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿٩٠ - ٩١﴾ يذمُّ تعالى هذه الأشياء القبيحة، ويخبر أنها من عمل الشيطان،

(١) في (ب): «لم يتم الشيخ الآية».

وأنها رجس؛ ﴿فاجتنبوه﴾؛ أي: اتركوه، ﴿لعلكم تفلحون﴾؛ فإنّ الفلاح لا يتمّ إلّا بترك ما حرّم الله، خصوصاً هذه الفواحش المذكورة، وهي الخمر، وهو كل ما خامر العقل؛ أي: غطاه بسكره، والميسر، وهو جميع المغالبات التي فيها عوض من الجانبين؛ كالمراهنة ونحوها، والأنصاب، وهي الأصنام والأنداد ونحوها مما يُنصب ويُعبد من دون الله، والأزلام التي [يستقسمون]^(١) بها. فهذه الأربعة نهى الله عنها، وزجر، وأخبر عن مفسادها الداعية إلى تركها واجتنابها:

فمنها: أنها رجس؛ أي: نجس خبث^(٢) معني، وإن لم تكن نجسة جساً، والأمور الخبيثة مما ينبغي اجتنبها وعدم التدنّس بأوضاعها.

ومنها: أنها من عمل الشيطان الذي هو أعدى الأعداء للإنسان، ومن المعلوم أنّ العدو يُحذر منه وتُحذر مصايدِه وأعماله، خصوصاً الأعمال التي يعملها ليقع فيها عدوه؛ فإنها فيها هلاكه؛ فالحزم كلّ الحزم البعد عن عمل العدو المبين، والحذر منها، والخوف من الوقوع فيها.

ومنها: أنه لا يمكن الفلاح للعبد إلّا باجتنابها؛ فإنّ الفلاح هو الفوز بالمطلوب المحبوب والنجاة من المرهوب، وهذه الأمور مانعة من الفلاح ومعوقة له.

ومنها: أنّ هذه موجبة للعداوة والبغضاء بين الناس، والشيطان حريص على بثّها، خصوصاً الخمر والميسر؛ ليقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء فإنّ في الخمر من انقلاب العقل وذهاب حجاء ما يدعو إلى البغضاء بينه وبين إخوانه المؤمنين، خصوصاً إذا اقترن بذلك من [السباب]^(٣) ما هو من لوازم شارب الخمر؛ فإنه ربما أوصل إلى القتل، وما في الميسر من غلبة أحدهما للآخر وأخذ ماله الكثير في غير مقابلة ما هو من أكبر الأسباب للعداوة والبغضاء.

ومنها: أنّ هذه الأشياء تصدّ القلب ويتبعه البدن عن ذكر الله وعن الصلاة اللذين خلّق لهما العبد وبهما سعادته؛ فالخمر والميسر يصدّانه عن ذلك أعظم صدّ، ويشغل قلبه ويذهل لبّه في الاشتغال بهما، حتى يمضي عليه مدة طويلة وهو لا يدري أين هو؛ فأى معصية أعظم وأقبح من معصية تدنّس صاحبها، وتجعله من

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «يقتسمون». والصواب ما أثبت.

(٢) في (ب): «خبث نجس».

(٣) كذا في (ب). وفي (أ): «الأسباب» والصواب ما أثبت.

أهل الخبث، وتوقعه في أعمال الشيطان وشباكه فينقاد له كما تنقاد البهيمة الذليلة لراعيها، وتحول بين العبد وبين فلاحه، وتوقع العداوة والبغضاء بين المؤمنين، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة؛ فهل فوق هذه المفاسد شيء أكبر منها؟!

ولهذا عرض تعالى على العقول السليمة النهي عنها عرضاً بقوله: ﴿فهل أنتم منتهون﴾؛ لأن العاقل إذا نظر إلى بعض تلك المفاسد؛ انزجر عنها، وكفت نفسه، ولم يحتج إلى وعظ كثير ولا زجر بليغ.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَعِذُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ (٩٢).

﴿٩٢﴾ طاعة الله وطاعة رسوله واحدة؛ فمن أطاع الله؛ فقد أطاع الرسول، ومن أطاع الرسول؛ فقد أطاع الله، وذلك شامل للقيام بما أمر الله به ورسوله من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، الواجبة والمستحبة، المتعلقة بحقوق الله وحقوق خلقه، والانتهاء عما نهى الله ورسوله عنه كذلك، وهذا الأمر أعم الأوامر؛ فإنه كما ترى يدخل فيه كل أمر ونهي ظاهر وباطن. وقوله: ﴿وَأَعِذُوا﴾؛ أي: من معصية الله ومعصية رسوله؛ فإن في ذلك الشر والخسران المبين. ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾: عما أمرتم به ونهيتم عنه، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾: وقد أدى ذلك؛ فإن اهتديتم؛ فلا أنفسكم، وإن أسأتم؛ فعليها، والله هو الذي يحاسبكم، والرسول قد أدى ما عليه، وما حُمل به.

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٩٣).

﴿٩٣﴾ لما نزل تحريم الخمر والنهي الأكيد والتشديد فيه؛ تمتئ أناس من المؤمنين أن يعلموا حال إخوانهم الذين ماتوا على الإسلام قبل تحريم الخمر وهم يشربونها، فأنزل الله هذه الآية، وأخبر تعالى أنه ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ﴾؛ أي: حرج وإثم ﴿فِيمَا طَعِمُوا﴾: من الخمر والميسر قبل تحريمهما. ولما كان نفي الجُنَاح يشمل المذكورات وغيرها؛ قيّد ذلك بقوله: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: بشرط أنهم تاركون للمعاصي مؤمنون بالله إيماناً صحيحاً موجباً لهم عمل الصالحات، ثم استمرؤا على ذلك، وإلاً؛ فقد يتصف العبد بذلك في وقت دون آخر، فلا يكفي حتى يكون كذلك، حتى يأتيه أجله ويدوم على إحسانه؛ فإن الله يحب المحسنين في عبادة الخالق المحسنين في

وهذا كله تعظيم لهذا النُسك العظيم؛ أنه يحرم على المحرم قتل وصيد ما كان حلالاً له قبل الإحرام. وقوله: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا﴾؛ أي: قتل صيداً عمدًا، ﴿ف﴾ عليه ﴿جزاء مثل ما قُتِلَ من النِّعم﴾؛ أي: الإبل أو البقر أو الغنم، فينظر ما يشبهه شيئاً من ذلك، فيجب عليه مثله، يذبحه ويتصدق به، والاعتبار بالمماثلة، ﴿يحكم به ذوا عدل منكم﴾؛ أي: عدلان يعرفان الحكم ووجه الشبه؛ كما فعل الصحابة رضي الله عنهم؛ حيث قضوا بالحمامة شاة، وفي النعامة بدنة، وفي بقر الوحش على اختلاف أنواعه بقرة، وهكذا كل ما يشبه شيئاً من النعم؛ ففيه مثله، فإن لم يشبه شيئاً؛ ففيه قيمته كما هو القاعدة في المتلفات، وذلك الهدى لا بد أن يكون ﴿هدياً بالغ الكعبة﴾؛ أي: يُذبح في الحرم، ﴿أو كفارة طعام مساكين﴾؛ أي: كفارة ذلك الجزائي طعام مساكين؛ أي: يجعل مقابلة المثل من النعم طعام يُطعم المساكين. قال كثير من العلماء: يُقَوَّمُ الجزاء، فيُشْتَرى بقيمته طعام، فيُطعم كل مسكين مُدٌّ بُرٌّ أو نصف صاع من غيره، ﴿أو عدل ذلك﴾ الطعام ﴿صياماً﴾؛ أي: يصوم عن إطعام كل مسكين يوماً، ﴿ليذوق﴾ بإيجاب الجزاء المذكور عليه وبال أمره، ومن عاد بعد ذلك فينتقم الله منه. والله عزيز ذو انتقام.

وإنما نصّ الله على المتعمّد لقتل الصيد، مع أن الجزاء يلزم المتعمّد والمخطيء كما هو القاعدة الشرعية: أن المتلف للنفوس والأموال المحترمة؛ فإنه يضمها على أي حال كان إذا كان إتلافه بغير حق؛ لأن الله رتب عليه الجزاء والعقوبة والانتقام، وهذا للمتعمّد، وأما المخطيء؛ فليس عليه عقوبة، إنما عليه الجزاء. (هذا قول جمهور العلماء، والصحيح ما صرّحت به الآية: أنه لا جزاء على غير المتعمّد؛ كما لا إثم عليه)^(١).

﴿٩٦﴾ ولما كان الصيد يَشْمَلُ الصيد البري والبحري؛ استثنى تعالى الصيد البحري، فقال: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾؛ أي: أحل لكم في حال إحرامكم ﴿صَيْدُ الْبَحْرِ﴾: وهو الحي من حيواناته، ﴿وطعامه﴾: وهو الميت منها،

(١) ما بين القوسين من هامش (أ). وفي هامش (ب): «هذا جواب الجمهور من هذا القيد، الذي ذكره الله. وطائفة من أهل العلم يرون تخصيص الجزاء بالمتعمّد، وهو ظاهر الآية. والفرق بين هذا وبين التضمين في الخطأ في النفوس والأموال من هذا الموضع. الحق فيه لله، فكما لا إثم لا جزاء بإتلاف نفوس الآدميين وأموالهم».

فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى جِلِّ مَيْتَةِ الْبَحْرِ، ﴿مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾؛ أَي: الْفَائِدَةُ فِي إِبَاحَتِهِ لَكُمْ أَنَّهُ لِأَجْلِ انْتِفَاعِكُمْ وَانْتِفَاعِ رَفَقَتِكُمُ الَّذِينَ يَسِيرُونَ مَعَكُمْ، ﴿وَحُرْمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾: وَيُؤْخَذُ مِنْ لَفْظِ الصَّيْدِ أَنَّهُ لَا بَدْءَ أَنْ يَكُونَ وَحْشِيًّا؛ لِأَنَّ الْإِنْسِيَّ لَيْسَ بِصَيْدٍ، وَمَأْكُولًا؛ فَإِنَّ غَيْرَ الْمَأْكُولِ لَا يُصَادُ وَلَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْمُ الصَّيْدِ. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ﴾؛ أَي: اتَّقَوْهُ بِفِعْلٍ مَا أَمَرَهُ وَتَرَكْ مَا نَهَى عَنْهُ، وَاسْتَعِينُوا عَلَى تَقْوَاهُ بِعَلْمِكُمْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ، فَيَجَازِيكُمْ؛ هَلْ قُتِمْتُمْ بِتَقْوَاهُ فَيُثَبِّتُكُمْ الثَّوَابَ الْجَزِيلَ، أَمْ لَمْ تَقُومُوا [بِهَا] فَيُعَاقِبُكُمْ؟

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ أَنْ اللَّهَ يَعْلَمَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِ﴾ (٩٧) ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩٨) ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (٩٩).

﴿٩٧﴾ يخبر تعالى أنه جعل ﴿الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ﴾: يَقُومُ بِالْقِيَامِ بِتَعْظِيمِهِ دِينَهُمْ وَدُنْيَاهُمْ؛ فَبِذَلِكَ يَتِمُّ إِسْلَامُهُمْ، وَبِهِ تَحْطُّ أَوْزَارُهُمْ، وَتَحْصُلُ لَهُمْ بِقَصْدِهِ الْعَطَايَا الْجَزِيلَةُ وَالْإِحْسَانُ الْكَثِيرُ، وَبِسَبَبِهِ تُنْفَقُ الْأَمْوَالُ وَتُقْتَحَمُ (١) مِنْ أَجْلِهِ الْأَهْوَالُ، وَيَجْتَمِعُ فِيهِ مِنْ كُلِّ فِجٍّ عَمِيقٍ جَمِيعُ أَجْنَاسِ الْمُسْلِمِينَ، فَيَتَعَارَفُونَ، وَيَسْتَعِينُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَيَتَشَاوِرُونَ عَلَى الْمَصَالِحِ الْعَامَةِ، وَتَتَعَقَّدُ بَيْنَهُمُ الرُّوَاطِ فِي مَصَالِحِهِمُ الدِّينِيَّةِ وَالْدُنْيَوِيَّةِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾: وَمَنْ أَجَلُ كَوْنِ الْبَيْتِ قِيَمًا لِلنَّاسِ قَالَ مَنْ قَالَ مِنَ الْعُلَمَاءِ: إِنْ حَجَّ بَيْتَ اللَّهِ فَرَضُ كِفَايَةٍ فِي كُلِّ سَنَةٍ؛ فَلَوْ تَرَكَ النَّاسُ حَجَّهْ؛ لِأَثَمِ كُلِّ قَادِرٍ، بَلْ لَوْ تَرَكَ النَّاسُ حَجَّهْ؛ لَزَالَ مَا بِهِ قِيَامُهُمْ وَقَامَتِ الْقِيَامَةُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾؛ أَي: وَكَذَلِكَ جَعَلَ الْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ الَّتِي هِيَ أَشْرَفُ أَنْوَاعِ الْهَدْيِ قِيَمًا لِلنَّاسِ يَنْتَفِعُونَ بِهَمَا، وَيُثَابُونَ عَلَيْهِمَا. ﴿ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ أَنْ اللَّهَ يَعْلَمَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: فَمَنْ عَلِمَهُ أَنْ جَعَلَ لَكُمْ هَذَا الْبَيْتَ الْحَرَامَ لِمَا يَعْلَمُهُ مِنْ مَصَالِحِ الدِّينِيَّةِ وَالْدُنْيَوِيَّةِ.

﴿٩٨﴾ ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ أَي: لِيَكُنْ هَذَا

الْعِلْمَانِ موجودين في قلوبِكُمْ على وجه الجزم واليقين؛ تعلمون أنه شديد العقاب العاجل والآجل على من عصاه، وأنه غفورٌ رحيمٌ لمن تاب إليه وأطاعه، فيُثْمِرُ لكم هذا العلمُ الخوفَ من عقابه والرجاءَ لمغفرته وثوابه، وتعملون على ما يقتضيه الخوف والرجاء.

﴿٩٩﴾ ثم قال تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾: وقد بَلَغَ كما أمر وقام بوظيفته وما سوى ذلك؛ فليس له من الأمر شيء. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾: فيُجَازِيكم بما يعلمه تعالى منكم.

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْتِ ذُلُّ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ (١٠٠).

﴿١٠٠﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ للناس محذراً عن الشرِّ ومرغباً في الخير: ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾: من كلِّ شيء؛ فلا يستوي الإيمان والكفر، ولا الطاعة والمعصية، ولا أهل الجنة وأهل النار، ولا الأعمال الخبيثة والأعمال الطيبة، ولا المال الحرام بالمال الحلال، ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾: فإنه لا ينفع صاحبه شيئاً، بل يضره في دينه ودنياه، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾: فأمر أولي الأبواب؛ أي: أهل العقول الوافية والآراء الكاملة؛ فإنَّ الله تعالى يوجه إليهم الخطاب، وهم الذين يُؤْتِيهِمُ لهم ويُزجى أن يكونَ فيهم خيرٌ، ثم أخبر أنَّ الفلاح متوقَّف على التَّقوى التي هي موافقة الله في أمره ونهيه؛ فمن اتَّقاه؛ أفلح كل الفلاح، ومن تَرَكَ تقواه؛ حصل له الخُسران، وفاتته الأرباح.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدَّ لَكُمْ سَأَلُوكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ بُدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢).

﴿١٠١﴾ ينهى عباده المؤمنين عن سؤال الأشياء التي إذا بُيِّنَتْ لهم ساءت لهم وأحزنتهم، وذلك كسؤال بعض المسلمين لرسول الله ﷺ عن آبائهم وعن حالهم في الجنة أو النار^(١)، فهذا ربَّما أنه لو بَيَّنَّ للسائل؛ لم يكن له فيه خير، وكسؤالهم

(١) كما في «صحيح مسلم» (٢٠٣) عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: في النار فلما قضى دعاه فقال: «إن أبي وأباك في النار».

للأمور غير الواقعة، وكالسؤال الذي يترتب عليه تشديدات في الشرع ربّما أخرجت الأمة، وكالسؤال عما لا يعني؛ فهذه الأسئلة وما أشبهها هي المنهي عنها، وأما السؤال الذي لا يترتب عليه شيء من ذلك؛ فهو^(١) مأمور به؛ كما قال تعالى: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾. ﴿وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدل لكم﴾؛ أي: وإذا وافق سؤالكم محلّه، فسألتكم عنها حين يُنزل عليكم القرآن، فتسألون عن آية أشكلت أو حكم خفي وجهه عليكم في وقت يمكن فيه نزول الوحي من السماء، ﴿تبدل لكم﴾؛ أي: تُبين لكم وتُظهر، وإلّا؛ فاسكتوا عما سكت الله عنه. ﴿عفا الله عنها﴾؛ أي: سكت معافياً لعباده منها؛ فكل ما سكت الله عنه؛ فهو مما أباحه وعفا عنه. ﴿والله غفور حلیم﴾؛ أي: لم يزل بالمغفرة موصوفاً وبالإحلم والإحسان معروفاً، فتعرضوا لمغفرته وإحسانه، واطلبوه من رحمته ورضوانه.

﴿١٠٢﴾ وهذه المسائل التي نُهيتم عنها، ﴿قد سألها قوم من قبلكم﴾؛ أي: جنسها وشبهها سؤال تعنت لا استرشاد، فلما بُيّنّت لهم وجاءتهم، ﴿أصبحوا بها كافرين﴾؛ كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ما نهيتكم عنه؛ فاجتنبوه، وما أمرتكم به؛ فاتوا منه ما استطعتم؛ فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم»^(٢).

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْقَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٠٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُوْا كَانِ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤).

﴿١٠٣﴾ هذا ذمٌ للمشركين الذين شرعوا في الدين ما لم يأذن به الله وحرّموا ما أحله الله، فجعلوا بأرائهم الفاسدة شيئاً من مواشيهم محرّماً على حسب اصطلاحاتهم التي عارضت ما أنزل الله، فقال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ﴾: وهي ناقة يشقون أذنّها ثم يحرمون ركوبها ويرونها محترمة، ﴿وَلَا سَائِبَةٍ﴾: وهي ناقة أو بقرة أو شاة إذا بلغت شيئاً اصطَلَحوا عليه؛ سيّوها فلا تُركب ولا يُحمل عليها ولا

(١) في (ب): «فهذا».

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٨) ومسلم (١٣٣٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

تُؤْكَل، وبعضهم ينذرُ شيئاً من ماله يجعله سائبةً، ﴿ولا حام﴾؛ أي: جمل يُحمى ظهره عن الرُّكوب والحمل إذا وصل إلى حالة معروفة بينهم؛ فكلُّ هذه مما جعلها المشركون محرّمةً بغير دليل ولا بُرْهان، وإنّما ذلك افتراءٌ على الله وصادرةٌ من جهلهم وعدم عقلهم. ولهذا قال: ﴿ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾: فلا نَقَلَ فيها ولا عَقَلَ.

﴿١٠٤﴾ ومع هذا؛ فقد أعجبوا بآرائهم التي بُنيت على الجهالة والظلم؛ فإذا دُعوا ﴿إلى ما أنزل الله وإلى الرسول﴾^(١): أعرضوا فلم يقبلوا، و﴿قالوا حسبنما ما وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾: من الدِّين، ولو كان غير سديد ولا ديناً ينجي من عذاب الله، ولو كان في آبائهم كفايةً ومعرفةً ودرايةً؛ لهان الأمر، ولكن آبائهم لا يعقلون شيئاً؛ أي: ليس عندهم من المعقول شيءٌ ولا من العلم والهدى شيءٌ؛ فتبّاً لمن قلّد مَنْ لا علم عنده صحيح ولا عقل رجيح، وترك اتِّباع ما أنزل الله واتِّباع رسله الذي يملأ القلوب علماً وإيماناً وهدى وإيقاناً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١٠٥).

﴿١٠٥﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾؛ أي: اجتهدوا في إصلاحها وكمالها وإلزامها سلوك الصُّراط المستقيم؛ فإنَّكم إذا صَلَّحْتُمْ؛ لا يضرُّكم من ضَلَّ عن الصُّراط المستقيم ولم يهتدِ إلى الدين القويم، وإنما يضرُّ نفسه. ولا يدل هذا [على] أنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يضرُّ العبدَ تركهما وإهمالهما؛ فإنه لا يتمُّ هداه إلا بالإتيان بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، نعم؛ إذا كان عاجزاً عن إنكار المنكر بيده ولسانه وأنكره بقلبه؛ فإنه لا يضرُّه ضلال غيره. وقوله: ﴿إلى الله مَرْجِعُكُمْ جميعاً﴾؛ أي: مآلُكم يوم القيامة واجتماعكم بين يدي الله تعالى، ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بما كنتم تعملون﴾: من خيرٍ وشرٍّ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحْتُمْ مَصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الْوَصْلَةِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْهَدُ بِهِ شَيْئًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ

إِنَّا إِذَا لِمَنِ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُرِيَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَايَيْنِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْنَا أَحَقُّ مِنْ شَهِدَيْهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لِمَنِ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ آدَعَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهْدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ .

﴿١٠٦﴾ يخبر تعالى خبراً متضمناً للأمر بإشهاد اثنين على الوصيَّة إذا حضر الإنسان مقدمات الموت وعلائمه، فينبغي له أن يكتب وصيَّته، ويُشهد عليها اثنين ذَوِي عدل مَمَّنْ يعتبر^(١) شهادتهما، ﴿أو آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾؛ أي: من غير أهل دينكم من اليهود أو النصارى أو غيرهم، وذلك عند الحاجة والضرورة وعدم غيرهما من المسلمين ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: سافرتُم فيها، ﴿فَأَصَابَتْكُمُ مَصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾؛ أي: فأشهدوهما، ولم يأمر بإشهادهما إلاَّ لأنَّ قولهما في تلك الحال مقبول، ويؤكد عليهما بأن يُخْبَسَا ﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾: التي يعظُمونها، ﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾: أَنَّهُمَا صَدَقَا وَمَا غَيْرَا وَلَا بَدَلَا هَذَا، ﴿إِنْ ارْتَبْتُمْ﴾: في شهادتهما؛ فَإِنْ صَدَقْتُمُوهُمَا^(٢)؛ فلا حاجة إلى القسم بذلك. ويقولان: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ﴾؛ أي: بأيماننا ﴿ثَمَنًا﴾: بأن نكذب فيها لأجل عَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا، ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾: فلا نراعيه لأجل قُرْبِهِ مَثًا، ﴿لَوْ لَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾: بل نُؤْذِيهَا عَلَى مَا سَمَعْنَاهَا، ﴿إِنَّا إِذَا﴾؛ أي: إِنْ كَتَمْنَاهَا ﴿لِمَنِ الْآثِمِينَ﴾.

﴿١٠٧﴾ ﴿فَإِنْ عُرِيَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا﴾؛ أي: الشاهدين ﴿اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾: بأن وُجِدَ مِنَ الْقَرَائِنِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ كَذِبِهِمَا وَأَنَّهُمَا خَانَا، ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَايَيْنِ﴾؛ أي: فليقم رجلان من أولياء الميت، وليكونا من أقرب الأولياء إليه، ﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْنَا أَحَقُّ مِنْ شَهِادَتِهِمَا﴾؛ أي: أَنَّهُمَا كَذَبَا وَغَيْرَا وَخَانَا. ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لِمَنِ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: إِنْ ظَلَمْنَا، واعتدينا، وشهدنا بغير الحق.

﴿١٠٨﴾ قال الله تعالى في بيان حكمة تلك الشهادة وتأكيدها وردّها على أولياء الميت حين تظهر من الشاهدين الخيانة: ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ﴾؛ أي: أَقْرَبُ ﴿إِنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا﴾: حين تَوَكَّدَ عليهما تلك التأكيدات ﴿وَيَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾؛ أي: أَنْ لَا تُقْبَلَ أَيْمَانُهُمْ ثُمَّ تُرَدَّ عَلَىٰ أَوْلِيَاءِ الْمَيِّتِ ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

(١) في (ب): «تعتبر».

(٢) في (ب): «صدقتموهما».

القَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴿١﴾: أي: الذين وَصَفُهُمُ الْفَسْقُ؛ فلا يريدون الهدى والقصد إلى الصراط المستقيم.

وحاصل هذا أن المَيِّتَ إذا حضره الموت في سفر ونحوه مما هو مَظَنَّةُ قلة الشهود المعترين: أنه ينبغي أن يوصيَ شاهدين مسلمين عدلين؛ فإن لم يجد إلا شاهدين كافرين؛ جاز أن يوصي إليهما، ولكن لأجل كفرهما؛ فإن الأولياء إذا ارتابوا بهما؛ فإنهم يحلفونهما^(١) بعد الصلاة أنهما ما خانا ولا كذبا ولا غيراً ولا بدلاً، فيبرآن بذلك من حق يتوجه إليهما؛ فإن لم يصدقوهما ووجدوا قرينة تدل على كذب الشاهدين؛ فإن شاء أولياء المَيِّت؛ فليقم منهم اثنان، فيقسمان بالله لشهادتهما أحق من شهادة الشاهدين الأولين، وأنهما خانا وكذبا، فيستحقون منهما ما يدعون.

وهذه الآيات الكريمة نزلت في قصة تميم الداري وعدي بن بدء المشهورة^(٢)، حين أوصى لهما العدوي. والله أعلم.

ويُستدلُّ بالآيات الكريمات على عدة أحكام:

منها: أن الوصية مشروعة، وأنه ينبغي لمن حَضَرَ الموت أن يوصي.
ومنها: أنها معتبرة ولو كان الإنسان وَصَلَ إلى مقدّمات الموت وعلامته^(٣) ما دام عقله ثابتاً.

ومنها: أن شهادة الوصية لا بدّ فيها من اثنين عدلين.

ومنها: أن شهادة الكافرين في هذه الوصية ونحوها مقبولة لوجود الضرورة. وهذا مذهب الإمام أحمد. وزعم كثير من أهل العلم أن هذا الحكم منسوخ، وهذه دعوى لا دليل عليها.

(١) في (ب): «يحلفونهم».

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٨٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بدء، فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم، فلما قدما بتركته فقدوا جاماً من فضة مخصوصاً من ذهب، فأحلفهما رسول الله ﷺ ثم وجد الجام بمكة فقالوا: ابتعناه من تميم وعدي فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا: لشهادتنا أحق من شهادتهما وإن الجام لصاحبهم. قال وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حضر أحدكم الموت﴾».

(٣) في (ب): «وعلاماته».

ومنها: أنه ربّما استُفيد من تلميح الحكم ومعناه، أنّ شهادة الكفار عند عدم غيرهم حتى في غير هذه المسألة مقبولة؛ كما ذهب إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية.

ومنها: جواز سفر المسلم مع الكافر إذا لم يكن محذور.

ومنها: جواز السفر للتجارة.

ومنها: أن الشاهدين إذا ارتبب منهما، ولم تبدُ قرينة تدلّ على خيانتهم، وأراد الأولياء أن يؤكّدوا عليهم اليمين، ويحبسوهما من بعد الصلاة، فيقسمان بصفة ما ذكر الله تعالى.

ومنها: أنه إذا لم تحصل^(١) تهمة ولا ريب؛ لم يكن حاجة إلى حبسهما وتأكيدهن اليمين عليهما.

ومنها: تعظيم أمر الشهادة؛ حيث أضافها تعالى إلى نفسه، وأنه يجب الاعتناء بها والقيام بها بالقسط.

ومنها: أنه يجوز امتحان الشاهدين عند الرّيبة منهما وتفريقهما لينظرعن شهادتهما.

ومنها: أنه إذا وجدت القرائن الدّالة على كذب الوصيين في هذه المسألة؛ قام اثنان من أولياء الميت، فأقسما بالله أن أيماننا أصدق من أيمانهما ولقد خانا وكذبا، ثم يدفع إليهما ما ادّعياه، وتكون القرينة مع أيمانهما قائمة مقام البيّنة.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾
 ﴿١١٩﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعْقَبَى ابْنِ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْهَيْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ خَلَقْنَا مِنَ الطِّينِ كَهْنَةً أَطْيَرَ بِإِذْنِي فَتَنَفَّخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَثَرَىٰ الْأَكْخَمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٢٠﴾ ﴿

(١) في (ب): «يحصل».

﴿١٠٩﴾ يخبر تعالى عن يوم القيامة وما فيه من الأهوال العظام، وأن الله يجمع به جميع الرُّسل، فيسألهم: ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾؛ أي: ماذا أجابتكم به أممكم، فقالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾: وإنما العلم لك يا ربنا؛ فأنت أعلم منا. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾؛ أي: تعلم الأمور الغائبة والحاضرة.

﴿١١٠﴾ ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى الْوَلَدَتِكَ﴾؛ أي: اذكرها بقلبك ولسانك، وقم بواجبها شكراً لربك، حيث أنعم عليك نِعماً ما أنعم بها على غيرك، ﴿إِذْ أَيْدُوكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾؛ أي: إذ قوّيتك بالروح والوحي الذي طَهَّرَكَ وَزَكَّاكَ وصار لك قوة على القيام بأمر الله والدعوة إلى سبيله. وقيل: إن المراد بروح القدس جبريل عليه السلام، وأن الله أعانه به وبملازمته له وتثبيتته في المواطن المُشَقَّة، ﴿تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلَا﴾: المراد بالتكليم هنا غير التكليم المعهود الذي هو مجرد الكلام، وإنما المراد بذلك التكليم الذي ينتفع به المتكلم والمخاطب، وهو الدعوة إلى الله، ولعيسى عليه السلام من ذلك ما لإخوانه من أولي العزم من المرسلين من التكليم في حال الكهولة بالرسالة والدعوة إلى الخير والنهي عن الشر، وامتاز عنهم بأنه كلّم الناس في المهدي، فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا...﴾ الآية.

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾؛ فالكتاب: يشمل الكتب السابقة، وخصوصاً التوراة؛ فإنه من أعلم أنبياء بني إسرائيل بعد موسى بها، ويشمل الإنجيل الذي أنزله الله عليه. والحكمة: هي معرفة أسرار الشرع وفوائده وحكمه وحسن الدعوة والتعليم ومراعاة ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي. ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾؛ أي: طيراً مصوراً لا روح فيه، ﴿فَتَنْفُخُ﴾ فيه فيكون ﴿طِيراً﴾ بإذن الله ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ﴾: الذي لا بصر له ولا عين، ﴿وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾: فهذه آيات بينات ومعجزات باهرات يعجز عنها الأطباء وغيرهم أيد الله بها عيسى وقوى بها دعوته. ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ - لما جاءهم الحق مؤيداً بالبينات الموجبة للإيمان به -: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾: وهُمُوا بعيسى أن يقتلوه وسعوا في ذلك فكف الله أيديهم عنه، وحفظه منهم، وعصمه.

فهذه منن امتن الله بها على عبده ورسوله عيسى ابن مريم ودعاه إلى شكرها

والقيام بها، فقام بها عليه الصلاة (والسلام)^(١)، أتمَّ القيام، وصَبَرَ كما صَبَرَ إخوانه من أولي العزم.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَابْتَغُوا الْوَسِيلَةَ إِلَيَّْ وَلَا تَتَّبِعُوا سَبِيلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ وَلَا يَحْسَبُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَلَا نَجْوَاهُمْ إِذْ يَنْصَرِفُونَ وَأَنَّ اللَّهَ يَكُونُ غَنِيًّا عَنْ عِبَادِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (١١١) **عَلَّمَ** عَلَّمَهُمْ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٢) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٣) إِنَّ تَعْلِيْقَهُمْ فِائَتَهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْيِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٤) قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٥) اللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١١٦) ﴿

﴿١١١ - ١٢٠﴾ أي: واذكُرْ نعمتي عليك إذ يسرْتُ لك أتباعاً وأعاوناً، فأوحيتُ إلى الحواريين؛ أي: ألهمتهم وأوزعتُ قلوبهم الإيمان بي وبرسولي، أو أوحيت إليهم على لسانك؛ أي: أمرتهم بالوحي الذي جاءك من عند الله، فأجابوا لذلك وانقادوا وقالوا: ﴿آمَنَّا واشْهَد بَأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، فجمعوا بين الإسلام الظاهر والانقياد بالأعمال الصالحة والإيمان الباطن المخرج لصاحبه من النفاق ومن ضَعَفَ الإيمان. والحواريون هم الأنصار؛ كما قال تعالى. كما قال عيسى ابن مريم للحواريين: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾.

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنْ

(٢) في (ب): إلى آخر الآيات.

(١) زيادة لا توجد في النسختين.

السماء؟ أي: مائدة فيها طعام، ولهذا ليس منهم عن شك في قدرة الله واستطاعته على ذلك وإنما ذلك من باب العرض والأدب منهم، ولما كان سؤال آيات الاقتراح منافياً للانقياد للحق وكان هذا الكلام الصادر من الحواريين ربّما أَوْهَمَ ذلك؛ وعَظَّمهم عيسى عليه السلام فقال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ فإن المؤمن يحمله ما معه من الإيمان على ملازمة التقوى، وأن ينقاد لأمر الله، ولا يطلب من آيات الاقتراح التي لا يدري ما يكون بعدها شيئاً.

فأخبر الحواريون أنهم ليس مقصودهم هذا المعنى، وإنما لهم مقاصد صالحة ولأجل الحاجة إلى ذلك، فقالوا: ﴿نريد أن نأكل منها﴾: وهذا دليل على أنهم محتاجون لها، ﴿وتطمئن قلوبنا﴾: بالإيمان حين^(١) نرى الآيات العيانّة، حتى يكون^(٢) الإيمان عين اليقين؛ [كما كان قبل ذلك علم اليقين]؛ كما سأل الخليل عليه الصلاة والسلام ربّه أن يُريّه كيف يحيي الموتى، ﴿قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾: فالعبد محتاج إلى زيادة العلم واليقين والإيمان كل وقت، ولهذا قال: ﴿ونعلم أن قد صدقنا﴾؛ أي: نعلم صدق ما جئت به أنه حق وصدق، ﴿ونكون عليها من الشاهدين﴾: فتكون مصلحة لمن بعدنا، نشهدّها لك^(٣)، فتقوم الحجة، ويحصل زيادة البرهان بذلك.

فلما سمع عيسى عليه الصلاة والسلام ذلك وعلم مقصودهم؛ أجابهم إلى طلبهم في ذلك^(٤)، فقال: ﴿اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك﴾؛ أي: يكون وقت نزولها عيداً وموسماً يُتذكّر به هذه الآية العظيمة، فتُحفظ ولا تُنسى على مرور الأوقات وتكرّر السنين؛ كما جعل الله تعالى أعياد المسلمين ومناسكهم مذكراً لآياته، ومنبهاً على سنن المرسلين وطرقهم القويمة وفضله وإحسانه عليهم، ﴿وارزقنا وأنت خير الرازقين﴾؛ أي: اجعلها لنا رزقاً. فسأل عيسى عليه السلام نزولها وأن تكون لهاتين المصلحتين: مصلحة الدين بأن تكون آية باقية، ومصلحة الدنيا، وهي أن تكون رزقاً.

﴿قال الله إني منزلها عليكم، فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه

(١) في (ب): «حتى».

(٢) في (ب): «فيكون».

(٣) في (ب): «نشهد بها لك».

(٤) في (ب): «واستشارهم في ذلك».

أحداً من العالمين﴿: لَأَنَّهُ شَاهِدَ الْآيَةِ الْبَاهِرَةِ وَكَفَّرَ عِنَاداً وَظُلماً، فاستحقَّ العذاب الأليم والعقاب الشديد.

واعلم أَنَّ اللَّهَ تعالى وَعَدَ أَنَّهُ سَيَنْزِلُهَا، وتوَعَّدَهُمْ إِنْ كَفَرُوا بِهَذَا الوَعْدِ، ولم يذكر أَنَّهُ أَنْزَلَهَا: فَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ لَمْ يُنْزَلْهَا بسبب أَنَّهُمْ لَمْ يَخْتَارُوا ذَلِكَ، ويدلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ فِي الْإِنْجِيلِ الَّذِي بِأَيْدِي النَّصَارَى وَلَا لَهُ وجود. وَيُحْتَمَلُ أَنَّهَا نَزَلَتْ كَمَا وَعَدَ اللَّهُ، وَأَنَّهُ^(١) لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ، ويكون عدم ذِكْرِهَا فِي الْإِنْجِيلِ الَّتِي بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْحِظِّ الَّذِي ذُكِّرُوا بِهِ فَنَسَوْهُ، أَوْ أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ فِي الْإِنْجِيلِ أصلاً، وإِنَّمَا ذَلِكَ كَانَ متوارثاً بَيْنَهُمْ، ينقله الخلف عن السلف، فاكْتَفَى اللَّهُ بِذَلِكَ عَنْ ذِكْرِهِ فِي الْإِنْجِيلِ، ويدلُّ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ: ﴿وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾. وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ الْحَالِ.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: وَهَذَا تَوْبِيخٌ لِلنَّصَارَى الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ! فيقول اللَّهُ هَذَا الْكَلَامَ لِعِيسَى، فَيَتَبَرَّأُ مِنْهُ عِيسَى، ويقول: ﴿سُبْحَانَكَ﴾: عَنْ هَذَا الْكَلَامِ الْقَبِيحِ وَعَمَّا لَا يَلِيقُ بِكَ، ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾؛ أَي: مَا يَنْبَغِي لِي وَلَا يَلِيقُ أَنْ أَقُولَ شَيْئاً لَيْسَ مِنْ أَوْصَافِي وَلَا مِنْ حَقُوقِي؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ لَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَلَا الْأَنْبِيَاءُ الْمُرْسَلُونَ وَلَا غَيْرُهُمْ لَهُ حَقٌّ وَلَا اسْتِحْقَاقٌ لِمَقَامِ الْإِلَهِيَّةِ، وَإِنَّمَا الْجَمِيعُ عِبَادٌ مُدَبَّرُونَ وَخُلِقُوا مُسَخَّرُونَ وَفُقَرَاءُ عَاجِزُونَ. ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾: فَأَنْتَ أَعْلَمُ بِمَا صَدَرَ مِنِّي وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، وَهَذَا مِنْ كِمَالِ أَدَبِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي خُطَابِهِ لِرَبِّهِ، فَلَمْ يَقُلْ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَمْ أَقُلْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا أَخْبَرَ بِكَلَامٍ يَنْفِي عَنْ نَفْسِهِ أَنْ يَقُولَ كُلَّ مَقَالَةٍ تُنَافِي مَنْصِبَهُ الشَّرِيفَ، وَأَنَّ هَذَا مِنَ الْأُمُورِ الْمَحَالَةِ، وَنَزَّهَ رَبَّهُ عَنْ ذَلِكَ أَلَمْ تَنْزِيهِهِ، وَرَدَّ الْعِلْمَ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ.

ثُمَّ صَرَّحَ بِذِكْرِ مَا أَمَرَ بِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾: فَأَنَا عَبْدٌ مُتَّبِعٌ لِأَمْرِكَ لَا مُتَجَرِّئٌ عَلَى عَظَمَتِكَ، ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾؛ أَي: مَا أَمَرْتَهُمْ إِلَّا بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ الْمُتَضَمِّنُ لِلنَّهْيِ عَنْ اتِّخَاذِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَبَيَانِ أَنِّي عَبْدٌ مُرَبُّوبٌ؛ فَكَمَا أَنَّهُ رَبُّكُمْ فَهُوَ رَبِّي، ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾: أَشْهَدُ عَلَى مَنْ قَامَ بِهَذَا الْأَمْرِ مِمَّنْ لَمْ يَقُمْ بِهِ.

﴿فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم﴾؛ أي: المطلع على سرائرهم وضمائرهم،
﴿وأنت على كل شيء شهيد﴾: علماً وسمعاً وبصراً؛ فعلُك قد أحاط بالمعلومات
وسمِعُك بالمسموعات وبصِرُك بالمبصرات؛ فأنت الذي تجازي عبادك بما تعلمه
فيهم من خيرٍ وشرٍ.

﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾: وأنت أرحمُ بهم من أنفسهم وأعلمُ بأحوالهم؛ فلو لا
أنهم عبادٌ متمرّدون؛ لم تعذبهم، ﴿وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾؛ أي:
فمغفرتك صادرة عن تمام عزّة وقدرّة، لا كمن يغفر ويعفو عن عجزٍ وعدم قدرة،
﴿الحكيم﴾: حيث كان من مقتضى حكمتك أن تغفر لمن أتى بأسباب المغفرة.

﴿قال الله﴾ مبيناً لحال عبادِهِ يوم القيامة ومَن الفائزُ منهم ومَن الهالكُ ومن
الشقيّ ومن السعيد: ﴿هذا يومُ ينفعُ الصادقين صدقُهم﴾: والصادقون هم الذين
استقامت أعمالُهم وأقوالُهم ونياتُهم على الصراط المستقيم والهدى القويم؛ فيوم
القيامة يجدون ثمرَةَ ذلك الصدق إذا أحلَّهم الله في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدرٍ.
ولهذا قال: ﴿لهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم
ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم﴾، والكاذبون بضدِّهم سيجدون ضررَ كذبهم وافتراءهم
وثمرَةَ أعمالهم الفاسدة.

﴿لله ملك السموات والأرض﴾: لأنَّه الخالق لهما والمدبّر لذلك بحكمِهِ القدريّ
وحكمه الشرعيّ وحكمه الجزائيّ. ولهذا قال: ﴿وهو على كل شيء قدير﴾: فلا
يُعجزُهُ شيءٌ بل جميعُ الأشياء منقادَةٌ لمشيئَتِهِ ومسخرةٌ بأمرِهِ.

تم تفسير سورة المائدة بفضل من الله وإحسان.

والحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة الأنعام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ
يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾.

﴿١﴾ هذا إخبارٌ عن حمدهِ والثناءِ عليه بصفات الكمال ونعوت العظمة والجلال

عموماً وعلى هذه المذكورات خصوصاً؛ فحمد نفسه على خلقه السماوات والأرض الدالة على كمال قدرته وسعة علمه ورحمته وعموم حكمته وانفراده بالخلق والتدبير، وعلى جَعْلِهِ الظلمات والنور، وذلك شاملٌ للحسي من ذلك؛ كالليل والنهار والشمس والقمر، والمعنوي؛ كظلمات الجهل والشك والشرك والمعصية والغفلة ونور العلم والإيمان واليقين والطاعة، وهذا كله يدلُّ دلالة قاطعة أنه تعالى هو المستحقُّ للعبادة وإخلاص الدين له، ومع هذا الدليل ووضوح البرهان: ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾؛ [أي: يعدلون] به سواه؛ يسؤونهم به في العبادة والتعظيم، مع أنهم لم يساوا الله في شيء من الكمال، وهم فقراء عاجزون ناقصون من كل وجه.

﴿٢﴾ ﴿هو الذي خَلَقَكُمْ من طين﴾: وذلك بِخَلْقِ مادَّتكم وأبيكم آدم عليه السلام. ﴿ثم قضى أجلاً﴾؛ أي: ضربَ لمدَّة إقامتكم في هذه الدار أجلاً تَمَتُّعُونَ به، وتُمتَحَنُونَ، وتُتَبَلَّوْنَ بما يرسل إليهم به رسله؛ لِيَلُوكُمْ أيكم أحسنَّ عملاً، ويعمرَّكم، ما يتذكَّر فيه من تذكَّر. ﴿وأجل مسمى عنده﴾: وهي الدار الآخرة التي ينتقل العباد إليها من هذه الدار، فيجازيهم بأعمالهم من خير وشر، ﴿ثم﴾: مع هذا البيان التام وقطع الحجة ﴿أنتم تَمُتُّرُونَ﴾؛ أي: تشكون في وعد الله ووعدِهِ ووقوع الجزاء يوم القيامة.

وذكر الله الظلمات بالجمع لكثرة موادها وتنوع طرقها، ووحد النور لكون الصراط الموصلة إلى الله واحدة لا تعدد فيها، وهي الصراط المتضمنة للعلم بالحق والعمل به؛ كما قال تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتَّبِعوه ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عن سبيله﴾.

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾.

﴿٣﴾ أي: وهو المألوه المعبود، ﴿في السموات وفي الأرض﴾: فأهل السماء والأرض متعبدون لربهم خاضعون لعظمته مستكينون لعزّه وجلاله؛ الملائكة المقربون والأنبياء والمرسلون والصديقون والشهداء والصالحون. وهو تعالى ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾: فاحذروا معاصيه وارغبوا في الأعمال التي تقربكم منه، وتُذَنِّبُكُمْ من رحمته، واحذروا من كل عمل يبعدكم منه ومن رحمته.

﴿وَمَا تَأْنِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا

جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَتْبَؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمْكِنْ لَكَرٍّ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴿٤﴾

﴿٤﴾ هذا إخبارٌ منه تعالى عن إعراض المشركين وشدة تكذيبهم وعداوتهم، وأنهم لا تنفع فيهم الآيات حتى تحل بهم المثلات، فقال: ﴿وما تأتيتهم من آية من آيات ربهم﴾: الدالة على الحق دلالة قاطعة، الداعية لهم إلى اتباعه وقبوله، ﴿إلا كانوا عنها معرضين﴾: لا يلقون لها بالاً ولا يضرغون لها سمعاً، قد انصرفت قلوبهم إلى غيرها، وولّوها أدبارهم.

﴿٥﴾ ﴿٥﴾ فقد كذبوا بالحق لما جاءهم﴾: والحق حقه أن يتبع ويشكر الله على تيسيره لهم وإتيانهم به، فقابلوه بضد ما يجب مقابلته به، فاستحقوا العقاب الشديد. ﴿فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾؛ أي: فسوف يرون ما استهزؤوا به أنه الحق والصدق، ويبيّن الله للمكذّبين كذبهم وافتراءهم، وكانوا يستهزئون بالبعث والجنة والنار؛ فإذا كان يوم القيامة؛ قيل للمكذّبين: هذه النار التي كنتم بها تكذبون، وقال تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون. ليبيّن لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين﴾.

﴿٦﴾ ثم أمرهم أن يعتبروا بالأمم السابقة، فقال: ﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن﴾؛ أي: كم تتابع إهلاكنا للأمم المكذّبين وأمهلتناهم قبل ذلك الإهلاك بأن ﴿مكّناهم في الأرض ما لم نمكّن﴾: لهؤلاء من الأموال والبنين والرفاهية، ﴿وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم﴾: ثبّت^(١) لهم بذلك ما شاء الله من زروع وثمار يتمتّعون بها ويتناولون منها ما يشتهون، فلم يشكروا الله على نعيه، بل أقبلوا على الشهوات، وألهتهم [أنواع] اللذات، فجاءتهم رسلهم بالبينات، فلم يصدقوها، بل ردّوها وكذبوها، فأهلكهم الله بذنوبهم، وأنشأ من بعدهم قرناً آخرين؛ فهذه سنة الله ودأبه في الأمم السابقين واللاحقين؛ فاعتبروا بمن قصّ الله عليكم نبأهم.

(١) في (ب): «فينبت».

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِيْنَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾
 ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيْسُونَ ﴿٩﴾ .

﴿٧﴾ هذا إخبار من الله لرسوله عن شدة عناد الكافرين، وأنه ليس تكذيبهم لقصور فيما جنتهم به ولا لجهل منهم بذلك، وإنما ذلك ظلم وبغي لا حيلة لكم فيه، فقال: ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم﴾: وتيقنوه، ﴿لقال الذين كفروا﴾: ظلماً وعلواً: ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾؛ فأى بينة أعظم من هذه البينة، وهذا قولهم الشنيع فيها، حيث كابروا المحسوس الذي لا يمكن من له أدنى مسكة من عقله دفعه؟!

﴿٨﴾ ﴿وقالوا﴾ أيضاً تعنتاً مبنيّاً على الجهل وعدم العلم بالمعقول: ﴿لولا أنزل عليه ملك﴾؛ أي: هلاً أنزل مع محمدٍ ملك يعاونه ويساعده على ما هو عليه؛ بزعمهم أنه بشر وأن رسالة الله لا تكون إلا على أيدي الملائكة. قال الله في بيان رحمته ولطفه بعباده حيث أرسل إليهم بشراً منهم يكون الإيمان بما جاء به عن علم وبصيرة وغيب: ﴿ولو أنزلنا ملكاً﴾: برسالتنا؛ لكان الإيمان لا يصدر عن معرفة بالحق، ولكان إيماناً بالشهادة الذي لا ينفع شيئاً وحده، هذا إن آمنوا، والغالب أنهم لا يؤمنون بهذه الحالة، فإذا لم يؤمنوا؛ ﴿لقضي الأمر﴾: بتعجيل الهلاك عليهم وعدم إنظارهم؛ لأن هذه سنة الله فيمن طلب الآيات المقترحة فلم يؤمن بها؛ فأرسال الرسول البشري إليهم بالآيات البينات التي يعلم الله أنها أصلح للعباد وأرفق بهم مع إمهال الله للكافرين والمكذّبين خيرٌ لهم وأنفع، فطلبهم لإنزال الملك شرٌ لهم لو كانوا يعلمون.

﴿٩﴾ ومع ذلك؛ فالملك لو أنزل عليهم وأُرسِل؛ لم يطيقوا التلقّي عنه ولا احتملوا ذلك ولا أطاقتهم قواهم الفانية، فلو ﴿جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً﴾: لأن الحكمة لا تقتضي سوى ذلك، ﴿وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾؛ أي: وكان الأمر مختلطاً عليهم وملبوساً، وذلك بسبب ما لبسوه على أنفسهم؛ فإنهم بنوا أمرهم على هذه القاعدة التي فيها اللبس وعدم بيان الحق، فلما جاءهم الحق بطرقه الصحيحة وقواعده التي هي قواعده؛ لم يكن ذلك هداية لهم إذا اهتدى بذلك غيرهم، والذنب ذنبهم؛ حيث أغلقوا على أنفسهم باب الهدى، وفتحوا أبواب الضلال.

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بُرْسُلِي مِّن قَبْلِكَ فَحَقَّ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿١٠﴾ يقول تعالى مسلياً لرسوله ومصبراً ومتهدداً أعداءه ومتوعداً: ﴿ولقد استهزئء برسلي من قبلك﴾: لما جاؤوا أمهمم بالبينات؛ كذبوهم واستهزؤوا بهم وبما جاؤوا به، فأهلكهم الله بذلك الكفر والتكذيب، ووفى لهم من العذاب أكمل نصيب، ﴿فحق بالذين سَخِرُوا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾: فاحذروا أيها المكذبون أن تستمروا على تكذيبكم، فيصيبكم ما أصابهم.

﴿١١﴾ فإن شككتهم في ذلك أو ارتبتم؛ ﴿فسيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾؛ فلن تجدوا إلا قوماً مهلكين، وأمماً في المثالات تالفين، قد أوحشت منهم المنازل، وعديم من تلك الربوع كل متمتع بالسرور نازل، أبادهم الملك الجبار، وكان نبؤهم عبرة لأولي الأبصار. وهذا السير المأمور به سير القلوب والأبدان الذي يتولد منه الاعتبار، وأما مجرد النظر من غير اعتبار؛ فإن ذلك لا يفيد شيئاً.

﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْفِتْنَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿١٢﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين [بالله] مقرراً لهم وملزماً بالتوحيد: ﴿لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: من الخالق لذلك المالك له المتصرف فيه؟ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لله﴾، وهم مقررون بذلك لا ينكرونه، أفلا حين اعترفوا بانفراد الله بالملك والتدبير أن يعترفوا له بالإخلاص والتوحيد؟ وقوله: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾؛ أي: العالم العلوي والسفلي تحت ملكه وتدبيره، وهو تعالى قد بسط عليهم رحمته وإحسانه، وتغمدهم برحمته وامتنانه، وكتب على نفسه كتاباً: أَنَّ رحمته تغلب غضبه، وَأَن العطاء أحب إليه من المنع، وَأَن الله قد فتح لجميع العباد أبواب الرحمة إن لم يغلقوا عليهم أبوابها بذنوبهم، ودعاهم إليها إن لم تمنعهم من طلبها معاصيهم وعيوبهم. وقوله: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: وهذا قسَم منه، وهو أصدق المخبرين، وقد أقام على ذلك من الحجج والبراهين ما يجعله حق اليقين، ولكن أبى الظالمون إلا جحوداً، وأنكروا قدرة الله على بعث الخلائق، فأوضعوها في معاصيه، وتجرؤوا على الكفر به، فخسروا دنياهم

وأخراهم، ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿١٣﴾ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أُتُخَذَ وَلِيًّا فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسَلْتُ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُنْشَرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَنْ يُصِرَّ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْأَمِينُ ﴿١٦﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْغَايُ قَوْفَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْغَنِيُّ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلَكْتُبُ يَوْمَئِذٍ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾

اعلم أن هذه السورة الكريمة قد اشتملت على تقرير التوحيد بكل دليل عقلي ونقل، بل كادت أن تكون كلها في شأن التوحيد ومجادلة المشركين بالله المكذبين لرسوله؛ فهذه الآيات ذكر الله فيها ما يتبين به الهدى، وينقمع به الشرك:

﴿١٣﴾ فذكر أن ﴿له﴾ تعالى ﴿ما سَكَنَ في الليل والنهار﴾، وذلك هو المخلوقات كلها من آدميها وجنّها وملائكتها وحيواناتها وجماداتها؛ فالكل خلق مدبرون وعبيد مسخرون لرّبهم العظيم القاهر المالك؛ فهل يصح في عقل ونقل أن يُعْبَدَ من هؤلاء الممالك الذي لا نفع عنده ولا ضرر ويترك الإخلاص للخالق المدبر المالك الضار النافع؟! أم العقول السليمة والفطر المستقيمة تدعو إلى إخلاص العبادة والحب والخوف والرجاء لله رب العالمين؟ ﴿السميع﴾: لجميع الأصوات على اختلاف اللغات بتفتن الحاجات. ﴿العليم﴾: بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، المطلع على الظواهر والبواطن.

﴿١٤﴾ ﴿قل﴾ لهؤلاء المشركين بالله: ﴿أَغَيَّرَ اللَّهُ أُتُخَذَ وَلِيًّا﴾: من هؤلاء المخلوقات العاجزة يتولّاني وينصّرني؛ فلا أُتخذ من دونه تعالى وليًّا؛ لأنه ﴿فاطر السموات والأرض﴾؛ أي: خالقهما ومدبرهما، ﴿وهو يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾؛ أي: وهو الرازق لجميع الخلق من غير حاجة منه تعالى إليهم؛ فكيف يليق أن أُتخذ وليًّا غير الخالق الرازق الغني الحميد. ﴿قل﴾ إنني أمزْتُ أن أكون أول من أسلم: ﴿لله بالتوحيد وأنقاد له بالطاعة؛ لأنني أولى من غيري بامثال أوامر ربّي، ﴿ولا تكوننَّ

من المشركين؛ أي: ونُهِيت أيضاً عن أن أكون من المشركين؛ لا في اعتقادهم، ولا في مجالستهم، ولا في الاجتماع بهم؛ فهذا أفرضُ الفروض عليّ وأوجب الواجبات.

﴿١٥﴾ ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: فَإِنَّ المعصية في الشرك توجبُ الخلود في النار وسَخَطَ الجبار.

﴿١٦﴾ وذلك اليوم هو اليوم الذي يُخاف عذابه ويُحذر عقابه؛ لأنه من صُرف عنه العذاب يومئذٍ فهو المرحوم، ومن نجا فيه فهو الفائز حقاً؛ كما أنَّ من لم ينج منه؛ فهو الهالك الشقي.

﴿١٧﴾ ومن أدلة توحيده أنه تعالى المنفرد بكشف الضُّرِّاء و جلب الخير والسَّراء، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾: من فقرٍ أو مرضٍ أو عسرٍ أو غمٍّ أو همٍّ أو نحوه، ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: فإذا كان وحده النافع الضار؛ فهو الذي يستحقُّ أن يُفرد بالعبودية والإلهية.

﴿١٨﴾ ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾: فلا يتصرَّف منهم متصرِّف ولا يتحرَّك متحرِّك ولا يسكن ساكنٌ إلا بمشيئته، وليس للملوك وغيرهم الخروجُ عن ملكه وسلطانه، بل هم مدبِّرون مقهورون؛ فإذا كان هو القاهر وغيره مقهوراً؛ كان هو المستحقُّ للعبادة. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾: فيما أمرَ به ونهى، وأثاب وعاقب، وفيما خلَقَ وقدر، ﴿الْخَبِيرُ﴾: المطلع على السرائر والضمائر وخفايا الأمور، وهذا كله من أدلة التوحيد.

﴿١٩﴾ ﴿قُلْ﴾ لهم لَمَّا بَيَّنَّا لهم الهدى وأوضحنا لهم المسالك: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾: على هذا الأصل العظيم، ﴿قُلْ اللَّهُ﴾ أكبرُ شهادة؛ فهو ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾؛ فلا أعظمَ منه شهادة ولا أكبر، وهو يشهدُ لي بإقراره وفعله، فيُقرِّني على ما قلتُ لكم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾؛ فاللهُ حكيمٌ قديرٌ، فلا يليقُ بحكمته وقدرته أن يقرَّ كاذباً عليه، زاعماً أنَّ الله أرسله ولم يرسله، وأن الله أمره بدعوة الخلق ولم يأمره، وأن الله أباح له دماء من خالفه وأموالهم ونساءهم وهو مع ذلك يصدِّقه بإقراره وبفعله، فيؤيِّده على ما قال بالمعجزات الباهرة والآيات الظاهرة، وينصره ويخذل من خالفه وعاداه؛ فأَيُّ شهادةٍ أكبرُ من هذه الشهادة. وقوله: ﴿وَأَوْحَى إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾؛ أي: وأوحى الله إليَّ هذا القرآن الكريم لمنفعتكم

ومصلحتكم؛ لأنذرکم به من العقاب الأليم، والنذارة إنما تكون بذكر ما ينذرهم به من الترغيب والترهيب وبيان الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة التي من قام بها فقد قبل النذارة؛ فهذا القرآن فيه النذارة لكم أيها المخاطبون وكل من بلغه القرآن إلى يوم القيامة؛ فإن فيه بيان كل ما يحتاج إليه من المطالب الإلهية.

لما بين تعالى شهادته التي هي أكبر الشهادات على توحيده؛ قال: قل لهؤلاء المعارضين لخبر الله والمكذبين لرسله: ﴿أنتكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد﴾؛ أي: إن شهدوا؛ فلا تشهد معهم، فوازن بين شهادة أصدق القائلين ورب العالمين، وشهادة أركى الخلق المؤيدة بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة على توحيد الله وحده لا شريك له، وشهادة أهل الشرك الذين مرجحت عقولهم وأديانهم وفسدت آراؤهم وأخلاقهم وأضحكوا على أنفسهم العقلاء، بل خالفتم شهادتهم^(١) فطرحهم وتناقضت أقوالهم على إثبات أن مع الله آلهة أخرى مع أنه لا يقوم على ما خالفوه^(٢) أدنى شبهة فضلاً عن الحجج، واختر لنفسك أي الشهادتين إن كنت تعقل، ونحن نختار لأنفسنا ما اختاره الله لنبيه الذي أمرنا الله بالاقتداء به فقال: ﴿قل إنما هو إله واحد﴾؛ أي: منفرد لا يستحق العبودية والإلهية سواه كما أنه المنفرد بالخلق والتدبير. ﴿وإنني بريء مما تشركون﴾ به من الأوثان والأنداد وكل ما أشرك به مع الله. فهذا حقيقة التوحيد: إثبات الإلهية لله، ونفيها عما عداه.

﴿٢٠﴾ لما بين شهادته وشهادة رسوله على التوحيد وشهادة المشركين الذين لا علم لديهم على ضده؛ ذكر أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿يعرفونه﴾؛ أي: يعرفون صحة التوحيد، ﴿كما يعرفون أبناءهم﴾؛ أي: لا شك عندهم فيه بوجه؛ كما أنهم لا يشتبهون بأولادهم، خصوصاً البنين الملازمين في الغالب لأبائهم، ويحتمل أن الضمير عائد إلى الرسول محمد ﷺ، وأن أهل الكتاب لا يشتبهون بصحة رسالته ولا يمترون بها لما عندهم من البشارات به ونعوتيه التي تنطبق عليه ولا تضلح لغيره، والمعنيان متلازمان. قوله: ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾؛ أي: قوتوها ما خلقت له من الإيمان والتوحيد وحرموها الفضل من الملك المجيد، ﴿فهم لا يؤمنون﴾: فإذا لم يوجد الإيمان منهم؛ فلا تسأل عن الخسار والشر الذي يحصل لهم.

(٢) في (ب): «قالوه».

(١) في (ب): «بل خالفوا بشهادة».

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢١﴾ أي: لا أعظم ظلماً وعناداً ممن كان فيه أحد الوصفين؛ فكيف لو اجتماعاً: افتراء الكذب على الله، أو التكذيب بآياته التي جاءت بها المرسلون؟! فإن هذا أظلم الناس، والظالم لا يفلح أبداً، ويدخل في هذا كل من كذب على الله بادعاء الشريك له والعوين، أو زعم أنه ينبغي أن يُعبدَ غيره، أو اتَّخذَ له صاحبةً أو ولداً، وكل من ردَّ الحقَّ الذي جاءت به الرسل أو من قام مقامهم.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا آيِنَ شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَكُمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿٢٢﴾ يخبر تعالى عن مآل أهل الشرك يوم القيامة، وأنهم يُسألون ويؤبَّخون فيقال لهم: أين شركائي الذين كنتم تزعمون؟ أي: إن الله ليس له شريك، وإنما ذلك على وجه الزعم منهم والافتراء.

﴿٢٣﴾ ثم لم تكن فتنتهم؟ أي: لم يكن جوابهم حين يُفْتَنون ويُخْتَبَرُونَ بذلك السؤال إلا إنكارهم لشركهم وحلفهم أنهم ما كانوا مشركين.

﴿٢٤﴾ ﴿انظر﴾: متعجباً منهم ومن أحوالهم، ﴿كيف كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾؛ أي: كذبوا كذباً عاد بالخسار على أنفسهم وضُرَّهم - والله - غاية الضرر، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾: من الشركاء الذين زعموهم مع الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةً آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿٢٥﴾ أي: ومن هؤلاء المشركين قومٌ يحملهم بعض الأوقات بعض الدواعي إلى الاستماع [لما تقول]، ولكنه استماع خالٍ من قصد الحق واتباعه، ولهذا لا ينتفعون بذلك الاستماع لعدم إرادتهم للخير. ﴿وجعلنا على قلوبهم أَكِنَّةً﴾؛ أي: أغشية وأغشية لئلا يفقهوا كلام الله، فصان كلامه عن أمثال هؤلاء. ﴿وفي آذانهم﴾: جعلنا ﴿وقراً﴾؛ أي: صمماً، فلا يستمعون ما ينفعهم، ﴿وإن يروا كَلِمَةً آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾: وهذا غاية الظلم والعناد: أن الآيات البيِّنات الدالة على الحق لا

ينقادون لها ولا يصدقون بها، بل يجادلون الحق بالباطل لِيُدْحِضُوهُ، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوكَ يَجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: مأخوذ من صحف الأولين المسطورة التي ليست عن الله ولا عن رسله، ولهذا من كفرهم، وإلا؛ فكيف يكون هذا الكتاب الحاوي لأبناء السابقين واللاحقين والحقائق التي جاءت بها الأنبياء والمرسلون والحق والقسط والعدل التام من كل وجه أساطير الأولين؟!

﴿وَهُمْ يَتَهَوَّنَ عَنْهُ وَيَتَنَوَّنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلَكُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٦).

﴿٢٦﴾ ﴿وهم﴾؛ أي: المشركون بالله المكذبون لرسوله يجمعون بين الضلال والإضلال؛ يتهون الناس عن اتباع الحق، ويحذرونهم منه، ويبعدون بأنفسهم عنه، ولن يضرؤا الله ولا عباده المؤمنين بفعلهم هذا شيئاً. ﴿إِنْ يُهْلَكُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾: بذلك.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧) بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (٢٩).

﴿٢٧﴾ يقول تعالى مخبراً عن حال المشركين يوم القيامة وإحضارهم النار: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾: ليوبخوا ويُقرَّعوا؛ لرأيت أمراً هائلاً وحالاً مفضعة، ولرأيتهم كيف أقرؤا على أنفسهم بالكفر والفسوق، وتمنؤا أن لو يُردُّوا إلى الدنيا، ﴿فقالوا يا ليتنا نُردُّ ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾.

﴿٢٨﴾ ﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل﴾: فإنهم كانوا يخفون في أنفسهم أنهم كانوا كاذبين، ويبدو في قلوبهم في كثير من الأوقات، ولكن الأغراض الفاسدة صدَّتْهم عن ذلك وصدفت قلوبهم عن الخير، وهم كذبة في هذه الأمنية، وإنما قصدهم أن يدفعوا بها عن أنفسهم العذاب. فلو ﴿رُدُّوا لعادوا لما نُهُوا عنه وإنهم لكاذبون﴾.

﴿٢٩﴾ ﴿وقالوا﴾ منكرين للبعث: ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا﴾؛ أي: ما حقيقة الحال والأمر وما المقصود من إيجادنا إلا الحياة الدنيا وحدها، ﴿وما نحن بمبعوثين﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٣٠﴾ أي: ﴿ولو ترى﴾ الكافرين ﴿إذ وقفوا على ربهم﴾؛ لرأيت أمراً عظيماً وهولاً جسيماً، ﴿قال﴾ لهم موبخاً ومقرعاً: ﴿اليس هذا﴾ الذي تَرَوْنَ من العذاب ﴿بالحق قالوا بلى وربنا﴾: فأقروا واعترفوا حيث لا ينفعهم ذلك، ﴿قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿٣١﴾ أي: قد خاب وخسر وخرم الخير كله من كذب بلقاء الله، فأوجب له هذا التكبذب الاجترأ على المحرمات واقتراف الموبقات، ﴿حتى إذا جاءتهم الساعة﴾: وهم على أقبح حال وأسوئه، فأظهروا غاية الندم، ﴿وقالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها﴾: ولكن هذا تحسر ذهب وقته، ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم أَلَا ساء ما يزرُونَ﴾: فإن وزرهم وزر يُثْقَلُهم ولا يقدرون على التخلص منه، ولهذا خلدوا في النار، واستحقوا التأبيد في غضب الجبار.

﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿٣٢﴾ هذه حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة: أما حقيقة الدنيا؛ فإنها لعب ولهو، لعب في الأبدان، ولهو في القلوب؛ فالقلوب لها والهة، والنفوس لها عاشقة، والهموم فيها متعلقة، والاشتغال بها كلعب الصبيان. وأما الآخرة؛ فإنها ﴿خير للذين يتقون﴾؛ في ذاتها وصفاتها، وبقائها ودوامها، وفيها ما تشتهي النفس وتلذ الأعين؛ من نعيم القلوب والأرواح، وكثرة السرور والأفراح، ولكنها ليست لكل أحد، وإنما هي للمتقين، الذين يفعلون أوامر الله، ويتركون نواهيه وزواجره، ﴿أفلا تعقلون﴾؛ أي: أفلا يكون لكم عقول بها تدركون أي الدارين أحق بالإشارة؟!

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كَذَبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرُوا وَلَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ

أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَاتِهِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ .

﴿٣٣﴾ أي: قد نعلم أن الذي يقول المكذبون فيك يَحْزُنُكَ ويسوؤك، ولم نأمرك بما أمرك به من الصبر إلا لِتَحْصَلَ لك المنازلُ العالية، والأحوالُ الغالية؛ فلا تظنَّ أنَّ قولهم صادرٌ عن اشتباهٍ في أمرِك وشكِّ فيك؛ ﴿فإنَّهم لا يكذبونك﴾: لأنهم يعرفون صِدْقَكَ وَمَذْحَلَكَ وَمَخْرَجَكَ وجميع أحوالك، حتى إنَّهم كانوا يسمُّونه قبل بعثته^(١) الأمين، ﴿ولكنَّ الظالمينَ بآياتِ الله يَجْحَدُونَ﴾؛ أي: فإنَّ تكذيبهم لآياتِ الله التي جعلها الله على يدك.

﴿٣٤﴾ ﴿ولقد كُذِّبَتْ رسلٌ من قبلك فصبروا على ما كُذِّبُوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا﴾: فاصبر كما صبروا؛ تظفر كما ظفروا، ﴿ولقد جاءك من نبيِّ المرسلين﴾؛ ما به يَثْبُتُ فؤادك، ويطمئنُّ به قلبك.

﴿٣٥﴾ ﴿وإن كان كَبُرَ عليك إعراضهم﴾؛ أي: شقَّ عليك من حرصك عليهم ومحبتك لإيمانهم؛ فابذل وسعك في ذلك؛ فليس في مقدورك أن تهدي من لم يُرِدِ الله هدايته. ﴿فإن استطعت أن تبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾؛ أي: فافعل ذلك؛ فإنه لا يفيدهم شيئاً، وهذا قطعٌ لطمعه في هدايته أشباه هؤلاء المعاندين، ﴿ولو شاءَ الله لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾: ولكنَّ حكمته تعالى اقتضت أنَّهم يَبْقُونَ على الضلال، ﴿فلا تكوننَّ من الجاهلين﴾: الذين لا يعرفون حقائق الأمور ولا ينزلونها على منازلها.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ .

﴿٣٦﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ لدعوتك ويلبي رسالتك وينقاد لأمرِك ونهيك، ﴿الذين يسمعون﴾: بقلوبهم ما ينفعهم، وهم أولو الألباب والأسماع، والمراد بالسماع هنا سماعُ القلب والاستجابة، وإلا فمجرد سماع الأذن يشترك فيه البرُّ والفاجر، فكل المكلفين قد قامت عليهم حجة الله تعالى باستماع آياته، فلم يبق لهم عذرٌ في عدم القبول. ﴿والموتى يبعثهم الله ثم إليه يُرْجَعُونَ﴾:

(١) في (ب): «البعثة».

يُحْتَمَلُ أَنَّ الْمَعْنَى مُقَابِلَ لِلْمَعْنَى الْمَذْكُورِ؛ أَي: إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ لَكَ أَحْيَاءُ الْقُلُوبِ، وَأَمَّا أَمْوَاتُ الْقُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَشْعُرُونَ بِسَعَادَتِهِمْ وَلَا يُحْسِنُونَ بِمَا يَنْجِيهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَكَ وَلَا يَنْقَادُونَ، وَمَوْعِدُهُمُ الْقِيَامَةُ، يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ. وَيَحْتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْآيَةِ عَلَى ظَاهِرِهَا، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقَرِّرُ الْمَعَادَ، وَأَنَّهُ سَيَبْعَثُ الْأَمْوَاتَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَنْبِئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، وَيَكُونُ هَذَا مُتَضَمِّنًا لِلتَّرْغِيبِ فِي الْاسْتِجَابَةِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالتَّرْهِيْبِ مِنْ عَدَمِ ذَلِكَ.

﴿٣٧﴾ ﴿وَقَالُوا﴾؛ أَي: الْمَكْذِبُونَ بِالرَّسُولِ تَعْتُنَا وَعِنَادًا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾؛ يَعْنُونَ بِذَلِكَ آيَاتِ الْاِقْتِرَاحِ الَّتِي يَقْتَرِحُونَهَا بِعُقُولِهِمُ الْفَاسِدَةِ وَأَرَائِهِمُ الْكَاسِدَةِ؛ كَقَوْلِهِمْ: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبوعًا. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا. أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا مِثْلَ الْكَافِرِينَ﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً﴾: فَلَيْسَ فِي قُدْرَتِهِ قُصُورٌ عَنْ ذَلِكَ، كَيْفَ وَجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ مُنْقَادَةٌ لِعَزَّتِهِ مَذْعَنَةٌ لِسُلْطَانِهِ. وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ، فَهُمْ لَجْهَلِهِمْ وَعَدَمِ عِلْمِهِمْ يَطْلُبُونَ مَا هُوَ شَرٌّ لَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ، الَّتِي لَوْ جَاءَتْهُمْ فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا؛ لَعَوَّجُوا بِالْعِقَابِ؛ كَمَا هِيَ سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي لَا تَبْدِيلَ لَهَا، وَمَعَ هَذَا؛ فَإِنْ كَانَ قَصْدُهُمُ الْآيَاتِ الَّتِي تَبَيِّنُ لَهُمُ الْحَقَّ وَتُوضِّحُ السَّبِيلَ؛ فَقَدْ أَتَى مُحَمَّدٌ ﷺ بِكُلِّ آيَةٍ قَاطِعَةٍ، وَحُجَّةٍ سَاطِعَةٍ، دَالَّةٍ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ، بِحَيْثُ يَتِمَكَّنُ الْعَبْدُ فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ مِنْ مَسَائِلِ الدِّينِ أَنْ يَجِدَ فِيمَا جَاءَ بِهِ عِدَّةَ أَدْلَةٍ عَقْلِيَّةٍ وَنَقْلِيَّةٍ؛ بِحَيْثُ لَا تَبْقَى فِي الْقُلُوبِ أَدْنَى شَكٍّ وَارْتِيَابٍ، فَتَبَارَكَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ وَآيَدَهُ بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيْنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيْنَةٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَيْنَا رُجُوعُهُمْ يُحْشَرُونَ﴾. ﴿٣٨﴾

﴿٣٨﴾ أَي: جَمِيعُ الْحَيَوَانَاتِ الْأَرْضِيَّةِ وَالْهَوَائِيَّةِ مِنَ الْبَهَائِمِ وَالْوَحُوشِ وَالطَّيُورِ كُلُّهَا أُمٌّ أَمْثَلُكُمْ، خَلَقْنَاهَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ، وَرَزَقْنَاهَا كَمَا رَزَقْنَاكُمْ، وَنَفَذْتُ فِيهَا مَشِيتُنَا وَقَدَرْتُنَا كَمَا كَانَتْ نَافِذَةً فِيكُمْ. ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ أَي: مَا أَهْمَلْنَا وَلَا أَغْفَلْنَا فِي اللَّوْحِ الْمُحْفُوظِ شَيْئًا مِنَ الْأَشْيَاءِ، بَلْ جَمِيعُ الْأَشْيَاءِ - صَغِيرُهَا وَكَبِيرُهَا - مُثَبَّتَةٌ فِي اللَّوْحِ الْمُحْفُوظِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، فَتَقَعُ جَمِيعُ الْحَوَادِثِ طَبَقًا مَا

جرى به القلم. وفي هذه الآية دليل على أن الكتاب الأول قد حوى جميع الكائنات، وهذا أحد مراتب القضاء والقدر؛ فإنها أربع مراتب: علم الله الشامل لجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الموجودات، ومشيتته وقدرته النافذة العامة لكل شيء، وخلقه لجميع المخلوقات حتى أفعال العباد. ويحتمل أن المراد بالكتاب هذا القرآن، وأن المعنى كالمعنى في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾. وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾؛ أي: جميع الأمم تحشر وتجمع إلى الله في موقف القيامة، في ذلك الموقف العظيم الهائل، فيجازيهم بعدله وإحسانه، ويُمضي عليهم حكمه الذي يَحْمِده عليه الأولون والآخرون؛ أهل السماء وأهل الأرض.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سُوءُ بِئْسَ لَكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿٣٩﴾ هذا بيان لحال المكذبين بآيات الله المكذبين لرسله: أنهم قد سدوا على أنفسهم باب الهدى، وفتحوا باب الردى، وأنهم ﴿ضَمُّ﴾ عن سماع الحق، ﴿بُكْمٌ﴾ عن التطق به؛ فلا ينطقون إلا بالباطل^(١)، ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾؛ أي: منغمسون في ظلمات الجهل والكفر والظلم والعناد والمعاصي، وهذا من إضلال الله إياهم؛ فمن ﴿يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؛ لأنه المنفرد بالهداية والإضلال بحسب ما اقتضاه فضله وحكمته.

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِلَٰهُهُمُ الْغَيْبُ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿٤٠﴾ يقول تعالى لرسوله: ﴿قُلْ﴾ للمشركين بالله العادلين به غيره: ﴿أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ أي: إذا حَصَلَتْ هذه المشقات وهذه الكروب التي يُضْطَرُّ إلى دفعها؛ هل تدعون آلهتكم وأصنامكم أم تدعون ربكم المَلِكَ الحقَّ المبين؟

﴿٤١﴾ ﴿بَلْ إِلَٰهُهُمُ الْغَيْبُ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾: فإذا كانت هذه حالكم مع أندادكم عند الشدائد؛ تَنْسَوْنَهُمْ لَعَلَّكُمْ أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ

(١) في (ب): «باطل».

لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا، وَتَخْلِصُونَ لِلَّهِ الدِّعَاءَ؛ لَعَلِمِكُمْ أَنَّهُ هُوَ الضَّارُّ النَّافِعُ^(١) الْمَجِيبُ لِدَعْوَةِ الْمَضْطَرِّ؛ فَمَا بِالْكُمْ فِي الرِّخَاءِ تُشْرِكُونَ بِهِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ شُرَكَاءَ؟! هَلْ دَلَّكُمْ عَلَى ذَلِكَ عَقْلٌ أَوْ نَقْلٌ؟ أَمْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا؟ أَمْ^(٢) تَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ؟

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالْفُسْأَةِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ (٤٢) ﴿فَلَوْلَا إِذَا جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٤٣) ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (٤٤) ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٥).

﴿٤٢﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾: من الأمم السالفين، والقروين المتقدمين، فكذبوا رُسُلَنَا، وجحدوا بآياتنا، ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾؛ أي: بالفقر والمرض والآفات والمصائب رحمةً مِنَّا بهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ إلينا، ويلجؤون عند الشدة إلينا.

﴿٤٣﴾ ﴿فَلَوْلَا إِذَا جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: استحجرت فلا تلين للحق، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: فظنوا أنَّ ما هم عليه دينُ الحق، فتمتعوا في باطلهم برهةً من الزمان، ولعب بقولهم الشيطان.

﴿٤٤﴾ ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾: من الدنيا ولذاتها وغفلاتها، ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾؛ أي: آيسون من كل خير، ولهذا أشدُّ ما يكون من العذاب: أَن يُؤْخَذُوا عَلَى غِرَّةٍ وَغَفْلَةٍ وَطُمَآنِينَةٍ؛ ليكون أشدَّ لعقوبتهم، وأعظم لمصيبتهم.

﴿٤٥﴾ ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ أي: اضطلموا العذاب، وتقطعت بهم الأسباب ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: على ما قضاه وقدره من هلاك المكذبين؛ فَإِنَّ بِذَلِكَ تَبَيَّنَ آيَاتُهُ وَإِكْرَامُهُ لِأَوْلِيَائِهِ، وَإِهَانَتُهُ لِأَعْدَائِهِ، وَصَدَقَ مَا جَاءَتْ بِهِ الْمُرْسَلُونَ.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَنَّمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ

(١) في (ب): «النافع الضار».

(٢) في (ب): «بل».

كَيْفَ نَصَرْتُ الْأَيْمَانَ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْكُمُ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾ .

﴿٤٦﴾ يخبر تعالى أنه كما هو المتفرد بخلق الأشياء وتدبيرها؛ فإنه المنفرد بالوحدانية والإلهية، فقال: قل: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾: فبقيتُم بلا سَمْع ولا بصر ولا عقل. ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾: فإذا لم يكن غير الله يأتي بذلك؛ فلم عبدتُم معه من لا قدرة له على شيء إلا إذا شاءه الله؟ وهذا من أدلة التوحيد وبطلان الشرك، ولهذا قال: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نَصَرْتُ الْأَيْمَانَ﴾؛ أي: ننوّعها، ونأتي بها في^(١) كُلِّ فَنٍّ، ولتنوير الحق، وتبيين سبيل المجرمين. ﴿ثُمَّ هُمْ﴾: مع هذا البيان التام، ﴿يَصْدِفُونَ﴾: عن آيات الله، ويعرضون عنها.

﴿٤٧﴾ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾؛ أي: أخبروني ﴿إِنْ أَنْكُمُ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾؛ أي: مفاجأة أو قد تقدّم أمامه مقدمات تعلمون بها وقوعه، ﴿هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾: الذين صاروا سبباً لوقوع العذاب بهم بظلمهم وعنادهم؛ فاحذروا أن تقيموا على الظلم؛ فإنه الهلاك الأبدي، والشقاء السرمدي.

﴿وَمَا يُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ۖ فَمَنْ أَمَنَّ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾
﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَمْسُهُمُ الْعَذَابُ ۖ يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ .

﴿٤٨﴾ يذكر تعالى زبدة ما أرسل به المرسلين أنه البشارة والنذارة، وذلك مستلزم لبيان: المبشر والمبشر به والأعمال التي إذا عملها العبد حصلت له البشارة، والمنذر والمنذر به والأعمال التي من عملها حقت عليه النذارة، ولكن الناس انقسموا بحسب إجابتهم لدعوتهم وعدمها إلى قسمين: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ﴾؛ أي: آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأصلح إيمانه وأعماله ونيته، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: فيما يُستقبل، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: على ما مضى.

﴿٤٩﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَمْسُهُمُ الْعَذَابُ﴾؛ أي: ينالهم ويدوقونه، ﴿يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٥٠).

﴿٥٠﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ المقترحين عليه الآيات، أو القائلين له إنَّما تدعوننا لنَنُخِذَكُ الْهَأُ مع الله: ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾؛ أي: مفاتيح رزقهِ ورحمته، ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾: وإنَّما ذلك كُلُّهُ عند الله؛ فهو الذي ما يفتح للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده، وهو وحده عالمُ الغيب والشهادة فلا يُظْهِرُ على غيبهِ أحداً إلا من ارتضى من رسول. ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾: فأكون نافذُ التصرف قوياً، فلست أدعي فوق منزلتي التي أنزلني الله بها، ﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾؛ أي: هذا غايتي ومنتهى أمري وأعلاه، إنَّ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلق كُلَّهُمْ إلى ذلك؛ فإذا عُرِفَتْ منزلتي؛ فلاي شيء يبحثُ الباحث معي أو يطلب مني أمراً لست أدعيه؟! وهل يُلْزَمُ الإنسان بغير ما هو بصددِه؟! ولأي شيء إذا دعوتكم بما يوحي^(١) إليَّ أن تلزموني أني أدعي لنفسي غير مرتبتي؟! وهل هذا إلا ظلم منكم وعناد وتمرد؟! قل لهم في بيان الفرق بين مَنْ قَبِلَ دعوتي وانقاد لما أوحى إليَّ وبين من لم يكن كذلك: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾: فتنزِلون الأشياء منازلها وتختارون ما هو أولى بالاختيار والإيثار.

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ (٥١) وَلَا تَقْرُؤْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْرِ وَالْعَيْتِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَقْطِرْهُمْ فَيَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٢) وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٥٣) وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنْتُمْ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا يَمْهَلُكُمْ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥٤) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٥٥).

﴿٥١﴾ هذا القرآن نذارة للخلق كُلِّهِمْ، ولكن إنَّما ينتفع به ﴿الذين يخافون أن

(١) في (ب): «أوحى».

يُخْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ؛ فَهُمْ مَتَّقُونَ لِلانتقال من هذه الدار إلى دار القرار؛ فلذلك يستصحبون ما ينفعهم وَيَدْعُونَ ما يضرُّهم. ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ﴾؛ أي: من دون الله ﴿وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعَ﴾؛ أي: لا من يتولى أمرهم فيحصل لهم المطلوب، ويدفع عنهم المحذور، ولا من يشفع لهم؛ لأن الخلق كلُّهم ليس لهم من الأمر شيء. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾: الله بامثال أوامره واجتناب نواهيه؛ فإن الإنذار موجب لذلك وسبب من أسبابه.

﴿٥٢﴾ ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾؛ أي: لا تطرد عنك وعن مجالستك أهل العبادة والإخلاص رغبة في مجالسة غيرهم، من الملازمين لدعاء ربهم دعاء العبادة بالذكر والصلاة ونحوها ودعاء المسألة في أول النهار وآخره، وهم قاصدون بذلك وجه الله، ليس لهم من الأغراض سوى ذلك الغرض الجليل؛ فهؤلاء ليسوا مستحقين للطرد والإعراض عنهم، بل هم مستحقون لموالاتهم ومحبتهم وإدنائهم وتقريبهم؛ لأنهم الصفوة من الخلق - وإن كانوا فقراء - الأعزاء في الحقيقة، وإن كانوا عند الناس أذلاء. ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ أي: كلُّ له حسابُه وله عملهُ الحسنُ وعملهُ القبيحُ، ﴿فَتَطَرَّدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾: وقد امثالَ ﷺ هذا الأمر أشدَّ امثال، فكان إذا جلس الفقراء من المؤمنين؛ صبرَ نفسه معهم، وأحسن معاملتهم، وألان لهم جانبه، وحسن خلقه، وقربهم منه، بل كانوا هم أكثر أهل مجلسه رضي الله عنهم.

وكان سبب نزول هذه الآيات أن أناساً من قريش أو من أجلاف العرب قالوا للنبي ﷺ: إن أردت أن نؤمن لك ونتبِعَكَ؛ فاطرِدْ فلاناً وفلاناً - أناساً من فقراء الصحابة -؛ فإننا نستحي أن ترانا العرب جالسين مع هؤلاء الفقراء^(١). فحملَه حبه لإسلامهم واتباعهم له فحدثته نفسه بذلك، فعاتبه الله بهذه الآيات ونحوها.

﴿٥٣﴾ ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾؛ أي: هذا من ابتلاء الله لعباده حيث جعل بعضهم غنياً وبعضهم فقيراً وبعضهم شريفاً وبعضهم وضيعاً؛ فإذا مَنَّ الله بالإيمان على الفقير أو الوضيع، كان ذلك محل محنة للغني والشريف؛ فإن كان قصده الحق واتباعه؛ آمن وأسلم ولم يمنعه من ذلك

مشاركة الذي يراه دونه بالغنى أو الشرف، وإن لم يكن صادقاً في طلب الحق؛ كانت هذه عقبة تردّه عن اتّباع الحق، وقالوا محتقرين لمن يَرَوْنَهُمْ دونهم: ﴿أَهْوَاءٌ مِّنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾: فمنعهم هذا من اتّباع الحق لعدم زكائهم. قال الله مجيباً لكلامهم المتضمن الاعتراض على الله في هداية هؤلاء وعدم هدايتهم هم: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ الذين يعرفون النعمة ويُقَرُّون بها ويقومون بما تقتضيه من العمل الصالح، فيضع فضله ومثته عليهم دون من ليس بشاكر؛ فإنَّ الله تعالى حكيم لا يضع فضله عند من ليس له بأهل، وهؤلاء المعترضون بهذا الوصف بخلاف مَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم بِالْإِيمَانِ مِنَ الْفُقَرَاءِ وَغَيْرِهِمْ؛ فإنهم هم الشاكرون.

﴿٥٤﴾ ولما نهى الله رسوله عن طرد المؤمنين القانتين؛ أمره بمقابلتهم بالإكرام والإعظام والتبجيل والاحترام، فقال: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ؛ أَي: وإذا جاءك المؤمنون؛ فحيّهم، ورحّب بهم، ولقّهم منك تحية وسلاماً، وبشّرهم بما ينشط عزائهم وهمهم من رحمة الله وسعة جوده وإحسانه، وخُثّهم على كل سبب وطريق يوصلُ لذلك، ورهّبهم من الإقامة على الذنوب، وأمرهم بالتوبة من المعاصي لينالوا مغفرة ربّهم وجوده، ولهذا قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾؛ أي: فلا بدّ مع ترك الذنوب والإقلاع والندم عليها من إصلاح العمل وأداء ما أوجب الله وإصلاح ما فسّد من الأعمال الظاهرة والباطنة؛ فإذا وُجِدَ ذلك كله؛ ﴿فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: صبّ عليهم من مغفرتِهِ ورحمته بحسب ما قاموا به مما أمرهم به.

﴿٥٥﴾ وكذلك نفصلُ الآيات؛ أي: نوضّحها ونبيّنها ونميّز بين طريق الهدى من الضلال والغي والرشاد؛ ليهتدي بذلك المهتدون ويتبيّن الحق الذي ينبغي سلوكه. ﴿وَلَتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمَجْرَمِينَ﴾: الموصلة إلى سخطِ الله وعذابه؛ فإنَّ سبيل المجرمين إذا استبانَتْ واتّضحت؛ أمكنَ اجتنابُها والبعدُ منها؛ بخلاف ما لو كانت مشبهةً ملتبسةً؛ فإنه لا يحصلُ هذا المقصود الجليل.

﴿قُلْ إِنِّي نُبِئْتُ أَنَّ عَبَثَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِيَهُمْ آهْوَاءُكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِيلِينَ﴾ (٥٧) قُلْ لَوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٥٨).

﴿٥٦﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين الذين يَدْعُونَ مع الله آلهةً أخرى: ﴿إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: من الأنداد والأوثان التي لا تملك نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً؛ فإن هذا باطلٌ، وليس لكم فيه حجةٌ ولا شبهةٌ إلا اتباع الهوى الذي اتُّباعه أعظم الضلال. ولهذا قال: ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾؛ أي: إن اتُّبعت أهواءكم، ﴿وما أنا من المهتدين﴾: بوجهٍ من الوجوه.

﴿٥٧﴾ وأما ما أنا عليه من توحيد الله وإخلاص العمل له؛ فإنه هو الحق الذي تقوم عليه البراهين والأدلة القاطعة، وأنا ﴿على بينة من ربي﴾؛ أي: على يقين مبين بصحته وبطلان ما عداه. وهذه شهادة من الرسول جازمة لا تقبل التردد، وهو أعدل الشهود [من الخلق] على الإطلاق، فصَدَّقَ بها المؤمنون، وتبين لهم من صحتها وصدقها بحسب ما مَنَّ الله به عليهم، ولكنكم أيها المشركون ﴿كذبتُم به﴾، وهو لا يستحقُّ هذا منكم، ولا يَلِيقُ به إلا التصديق، وإذا استمررتُم^(١) على تكذيبكم؛ فاعلموا أنَّ العذاب واقعٌ بكم لا محالة، وهو عند الله، هو الذي ينزله عليكم إذا شاء وكيف شاء، وإن استعجلتم به؛ فليس بيدي من الأمر شيء، ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾؛ فكما أنه هو الذي حكم بالحكم الشرعي فأمر ونهى؛ فإنه سيحكم بالحكم الجزائي فيثيب ويعاقب بحسب ما تقتضيه حكمته؛ فالاعتراض على حكمه مطلقاً مدفوع، وقد أوضح السبيل وقصَّ على عباده الحق قصاً قَطَعَ به معاذيرهم وانقطعت له حُجَّتُهُمْ؛ ليهلك مَنْ هَلَكَ عن بَيِّنَةٍ ويحيا من حيٍّ عن بَيِّنَةٍ. ﴿وهو خيرُ الفاصلين﴾: بين عباده في الدنيا والآخرة، فيفصل بينهم فصلاً يحمده عليه حتى من قضى عليه ووجه الحق نحوه.

﴿٥٨﴾ ﴿قُلْ﴾ للمستعجلين بالعذاب جهلاً وعناداً وظلماً: ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِّي الأمرُ بيني وبينكم﴾: فأوقعته بكم، ولا خير لكم في ذلك، ولكن الأمر عند الحليم الصبور الذي يعصيه العاصون ويتجرأ عليه المتجربون وهو يعافهم ويرزقهم ويسدي عليهم نعمه الظاهرة والباطنة. ﴿والله أعلم بالظالمين﴾: لا يخفى عليه من أحوالهم شيءٌ فيمهلهم ولا يمهِّلهم.

﴿عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ

(١) في (ب): «استمررتُم».

وَرَقَةً إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾ .

﴿٥٩﴾ هذه الآية العظيمة من أعظم الآيات تفصيلاً لعلمه المحيط، وأنه شامل للغيوب كلها، التي يُطْلَعُ منها ما شاء من خلقه، وكثير منها طوى علمه عن الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين فضلاً عن غيرهم من العالمين، وأنه يعلم ما في البراري والقفار من الحيوانات والأشجار والرمال والحصى والتراب، وما في البحار من حيواناتها ومعادنها وصيدها وغير ذلك مما تحتويه أرجاؤها ويشتمل عليه ماؤها. ﴿وما تسْقُطُ من ورقَةٍ﴾: من أشجار البر والبحر والبلدان والقفر والدنيا والآخرة إلا يعلمها، ﴿ولا حبة في ظلمات الأرض﴾: من حبوب الثمار والزروع وحبوب البذور التي يبذرها الخلق وبذور النوات البرية التي ينشأ منها أصناف النباتات، ﴿ولا رطب ولا يابس﴾: هذا عموم بعد خصوص ﴿إلا في كتاب مبين﴾: وهو اللوح المحفوظ؛ قد حواها واشتمل عليها، وبعض هذا المذكور يهر عقول العقلاء، ويذهل أفئدة النبلاء، فدل هذا على عظمة الرب العظيم وسعته في أوصافه كلها، وأن الخلق من أولهم إلى آخرهم لو اجتمعوا على أن يحيطوا ببعض صفاته؛ لم يكن لهم قدرة ولا وسع في ذلك، فتبارك الرب العظيم الواسع العليم الحميد المجيد الشهيد المحيط، وجل من إله لا يُخْصِي أَحَدٌ ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه عباده. فهذه الآية دلت على علمه المحيط بجميع الأشياء وكتابه المحيط بجميع الحوادث.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْفَاحِشُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ .

هذا كله تقرير لألوهيته واحتجاج على المشركين به وبيان أنه تعالى المستحق للحب والتعظيم والإجلال والإكرام.

﴿٦٠﴾ فأخبر أنه وحده المتفرّد بتدبير عباده في يقظتهم ونامهم، وأنه يتوفاهم بالليل وفاة النوم، فتهدأ حركاتهم وتستريح أبدانهم، ويبعثهم في اليقظة من نومهم؛ ليتصرفوا في مصالحهم الدينية والدنيوية، وهو تعالى يعلم ما جرحوا وما كسبوا من تلك الأعمال، ثم لا يزال تعالى هكذا يتصرف فيهم حتى يستوفوا آجالهم، فيقضي

بهذا التدبير أجلّ مسمى، وهو أجل الحياة، وأجل آخر فيما بعد ذلك، وهو البعث بعد الموت، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾: لا إلى غيره، ﴿ثُمَّ يَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: من خير وشر.

﴿٦١﴾ ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾: يُنْفِذُ فِيهِمْ إِرَادَتَهُ الشَّامِلَةَ وَمَشِئَتَهُ الْعَامَةَ، فَلَيْسُوا يَمْلِكُونَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْئًا، وَلَا يَتَحَرَّكُونَ وَلَا يَسْكُنُونَ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ؛ فَقَدْ وَكَّلَ بِالْعِبَادِ حِفْظَةَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَحْفَظُونَ الْعِبْدَ وَيَحْفَظُونَ عَلَيْهِ مَا عَمِلَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ. كَرَامًا كَاتِبِينَ. يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾، ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ. مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾: فلهذا حفظه لهم في حال الحياة. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾؛ أي: الملائكة الموكلون بقبض الأرواح، ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ في ذلك؛ فلا يزيدون ساعة مما قَدَّرَ اللَّهُ، وَقَضَاهُ، وَلَا يُنْقِصُونَ، وَلَا يَنْفُذُونَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِحَسَبِ الْمَرَاسِيمِ الْإِلَهِيَّةِ وَالتَّقَادِيرِ الرَّبَّانِيَّةِ.

﴿٦٢﴾ ﴿ثُمَّ﴾: بعد الموت والحياة البرزخيّة وما فيها من الخير والشر، ﴿رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ﴾؛ أي: الذي تولّاهم بحكمه القدري فنفذ فيهم ما شاء من أنواع التدبير، ثم تولّاهم بأمره ونهيهِ وأرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب، ثم رُدُّوْا إِلَيْهِ لِيَتَوَلَّى الْحُكْمَ فِيهِمْ بِالْجَزَاءِ. وَيُشَبِّهَهُمْ عَلَى مَا عَمَلُوا مِنَ الْخَيْرَاتِ وَيُعَاقِبَهُمْ عَلَى الشُّرُورِ وَالسَّيِّئَاتِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾: وحده لا شريك له، ﴿وَهُوَ أَسْرِعُ الْحَاسِبِينَ﴾: لكمال علمه وحفظه لأعمالهم بما أثبتته في اللوح المحفوظ ثم أثبتته ملائكته في الكتاب الذي بأيديهم.

فإذا كان تعالى هو المنفرد بالخلق والتدبير، وهو القاهر فوق عباده، وقد اعتنى بهم كل الاعتناء في جميع أحوالهم، وهو الذي له الحكم القدري والحكم الشرعي والحكم الجزائي؛ فأين للمشرّكين العدول عن مَنْ هَذَا وصفه ونعته إلى عبادة من ليس له من الأمر شيء ولا عنده مثقال ذرة من النفع ولا له قدرة وإرادة، أما والله؛ لو علموا حلم الله عليهم، وعفوه ورحمته بهم، وهم يبارزون بالشرك والكفران، ويتجرؤون على عظمتهم بالإفك والبهتان، وهو يعافيههم ويرزقهم؛ لانبجذبت دواعيهم إلى معرفته، وذهلت عقولهم في حبه، ولم يقتوا أنفسهم أشدّ المقت حيث انقادوا لداعي الشيطان، الموجب للخزي والخسران، ولكنهم قوم لا يعقلون.

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَجَنَّا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنْ

الشَّكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يَنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ .

﴿٦٣﴾ أي: ﴿قل﴾: للمشركين بالله الداعين معه آلهة أخرى ملزماً لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية على ما أنكروه من توحيد الإلهية، ﴿مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظِلْمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾؛ أي: شداثدهما ومشقاتهما وحين يتعذّر أو يتعسّر عليكم وجه الحيلة، فندعون ربكم تضرعاً بقلب خاضع ولسان لا يزال يلهجّ بحاجته في الدّعاء وتقولون وأنتم في تلك الحال: ﴿لَيْسَ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ﴾: الشدة التي وقعنا فيها، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾: لله؛ أي: المعترفين بنعمته، الواضعين لها في طاعة ربهم، الذين حفظوها عن أن يبدلوها في معصيته.

﴿٦٤﴾ ﴿قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب﴾؛ أي: من هذه الشدة الخاصة، ومن جميع الكرب العامة، ﴿ثم أنتم تشركون﴾: لا تفون لله بما قلتم، وتنسّون نعمه عليكم؛ فأی برهان أوضح من هذا على بطلان الشرك وصحة التوحيد.

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلِيَسْكُمُ شَيْعًا وَيَذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصْرُفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ﴾ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَنْسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ نَبَلٍ مُّسْتَفْرٍّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ .

﴿٦٥﴾ أي: هو تعالى قادرٌ على إرسال العذاب إليكم من كل جهة، ﴿من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم﴾؛ أي: يخلطكم ﴿شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض﴾؛ أي: في الفتنة وقتل بعضكم بعضاً؛ فهو قادر على ذلك كله؛ فاحذروا من الإقامة على معاصيه فيصيبكم من العذاب ما يتلفكم ويمحقكم، ومع هذا؛ فقد أخبر أنه قادر على ذلك، ولكن من رحمته أن رفع عن هذه الأمة العذاب من فوقهم بالرجم والحصب ونحوه ومن تحت أرجلهم بالخسف، ولكن عاقب من عاقب منهم بأن أذاق بعضهم بأس بعض وسلط بعضهم على بعض بهذه العقوبات المذكورة عقوبة عاجلة يراها المعتبرون ويشعر بها العاملون^(١). ﴿انظر كيف نصرّف الآيات﴾؛ أي: ننوعها ونأتي بها على أوجه كثيرة، وكلها دالة على الحق، ﴿لعلهم يفقهون﴾؛ أي: يفهمون ما خلّقوا من أجله ويفقهون الحقائق الشرعية والمطالب الإلهية.

(١) في (ب): «العالمون».

﴿٦٦﴾ ﴿وَكَذَّبَ بِهِ﴾؛ أي: بالقرآن ﴿قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾: الذي لا مِزْيَةَ فيه ولا شك يعتريه. ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾: أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها، وإنما أنا منذرٌ ومبلغٌ.

﴿٦٧﴾ ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ﴾؛ أي: وقتٌ يستقرُّ فيه وزمانٌ لا يتقدّم عنه ولا يتأخر، ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: ما توعدون به من العذاب.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي مَآئِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٦٨) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَٰكِنْ ذِكْرُنَا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾.

﴿٦٨﴾ المراد بالخوض في آيات الله التكلّم بما يخالف الحقّ من تحسين المقالات الباطلة والدعوة إليها ومدح أهلها والإعراض عن الحقّ والقدح فيه وفي أهله؛ فأمر الله رسوله أصلاً وأُمته تبعاً إذا رأوا من يخوض بآيات الله بشيء مما ذُكر بالإعراض عنهم وعدم حضور مجالس الخائضين بالباطل والاستمرار على ذلك حتى يكون البحث والخوض في كلام غيره؛ فإذا كان في كلام غيره؛ زال النهي المذكور؛ فإن كان مصلحة؛ كان مأموراً به، وإن كان غير ذلك؛ كان غير مفيد ولا مأمور به، وفي ذمّ الخوض بالباطل حثٌّ على البحث والنظر والمناظرة بالحق.

ثم قال: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾؛ أي: بأن جلست معهم على وجه النسيان والغفلة، ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾: يشمل الخائضين بالباطل وكلّ متكلّم بمحرّم أو فاعل لمحرّم؛ فإنه يحرم الجلوس والحضور عند حضور المنكر الذي لا يقدرُ على إزالته، هذا النهي والتحريم لمن جلس معهم، ولم يستعمل تقوى الله بأن كان يشارِكهم في القول والعمل المحرم أو يسكت عنهم وعن الإنكار؛ فإن استعمل تقوى الله تعالى بأن كان يأمرهم بالخير وينهاهم عن الشرّ والكلام الذي يصدُرُ منهم؛ فيترتب على ذلك زوال الشرّ أو تخفيفه؛ فهذا ليس عليه حرجٌ ولا إثم، ولهذا قال:

﴿٦٩﴾ ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَٰكِنْ ذِكْرُنَا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: ولكن ليذكّرهم ويَعْظّمهم لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ الله تعالى. وفي هذا دليل على أنه ينبغي أن يستعمل المذكر من الكلام ما يكون أقرب إلى حصول مقصود التقوى، وفيه دليل على أنه إذا كان التذكير والوعظ مما يزيد الموعوظ شراً إلى

شَرُّهُ؛ كَانَ تَرْكُهُ هُوَ الْوَاجِبُ^(١)؛ لِأَنَّهُ إِذَا نَاقَضَ الْمَقْصُودَ؛ كَانَ تَرْكُهُ مَقْصُودًا.

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُوَ وَعَرَّتَهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرَ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿٧٥﴾ المقصود من العباد أن يُخلصوا لله الدين بأن يعبدوه وحده لا شريك له ويبدلوا مقدورهم في مرضاته ومحابه، وذلك متضمن لإقبال القلب على الله وتوجهه إليه وكون سعي العبد نافعا، وجدا لا هزلا، وإخلاصا لوجه الله لا رياء وسمعة، هذا هو الدين الحقيقي الذي يُقال له: دين، فأما من زعم أنه على الحق، وأنه صاحب دين وتقوى، وقد اتخذ دينه لعبا ولهوا؛ بأن لها قلبه عن محبة الله ومعرفته، وأقبل على كل ما يضره، ولها في باطله، ولعب فيه ببدنه؛ لأن العمل والسعي إذا كان لغير الله؛ فهو لعب؛ فهذا أمر الله تعالى أن يترك ويحذر ولا يغتر به، وتتنظر حاله، ويحذر من أفعاله^(٢)، ولا يغتر بتعويقه عما يقرب إلى الله.

﴿وذكر به﴾؛ أي: ذكر بالقرآن ما ينفع العباد أمرا وتفصيلا وتحسينا له بذكر ما فيه من أوصاف الحسن، وما يضر العباد نهيا عنه وتفصيلا لأنواعه وبيان ما فيه من الأوصاف القبيحة الشنيعة الداعية لتركه، وكل هذا لئلا تبسل نفس بما كسبت؛ أي: قبل اقتحام العبد للذنوب وتجزيه على علام الغيوب واستمراره على ذلك المرهوب؛ فذكرها وعظها لترتدع وتزجر وتكف عن فعلها.

وقوله: ﴿ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع﴾؛ أي: قبل أن تحيط بها ذنوبها ثم لا ينفعها أحد من الخلق لا قريب ولا صديق ولا يتولاها من دون الله أحد ولا يشفع لها شافع. ﴿وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها﴾؛ أي: لا يقبل ولا يفيد. ﴿أولئك﴾: الموصوفون بما ذكر ذهباً ﴿لا يؤخذ منها﴾؛ أي: لا يقبل ولا يفيد. ﴿أولئك﴾: الموصوفون بما ذكر ذهباً ﴿الذين أبسلوا﴾؛ أي: أهلكوا وأيسوا من الخير، وذلك ﴿بما كسبوا لهم شراب من حميم﴾؛ أي: ماء حار قد انتهى حره يشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم ﴿وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾.

(١) في (ب): «إلى أن تركه هو الواجب». (٢) في (ب): «أفعاله».

﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى انْتَهِتْنَا قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرُنَا لِلَّهِمْ لِيُسَلِّمَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿٧١﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿٧٣﴾ يا أيها الرسول للمشركين بالله، الداعين معه غيره، الذين يدعونكم إلى دينهم؛ مبيناً وشارحاً لوصف آلهتهم التي يكتفي العاقل بذكر وصفها عن النهي عنها؛ فإن كل عاقل إذا تصوّر مذهب المشركين؛ جزم ببطالانه قبل أن تُقام البراهين على ذلك، فقال: ﴿أدعوا من دون الله ما لا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا؟﴾ وهذا وصف يدخل فيه كل من عُبد من دون الله؛ فإنه لا يَنْفَع ولا يَضُر، وليس له من الأمر شيء، إن الأمر إلا لله. ﴿ونُرَدُّ على أعقابنا بعد إذ هَدَانَا اللَّهُ﴾؛ أي: وننقلب بعد هداية الله لنا إلى الضلال، ومن الرشد إلى الغي، ومن الصراط الموصل إلى جنات النعيم إلى الطرق التي تُفضي بسالكها إلى العذاب الأليم!! فهذه حال لا يرتضيها ذو رشد، وصاحبها ﴿كالذي استهوته الشياطين في الأرض﴾؛ أي: أضلّته وتبّهته عن طريقه ومنهجه الموصل إلى مقصده، فبقي ﴿حيراناً له أصحابٌ يدعونه إلى الهدى﴾، والشياطين يدعونه إلى الردى، فبقي بين الداعين حائراً، وهذه حال الناس كلّهم؛ إلا من عصمه الله تعالى؛ فإنهم يجدون فيهم جواذب ودواعي^(١) متعارضة؛ داعي الرسالة والعقل الصحيح والفطرة المستقيمة يدعونه إلى الهدى والصعود إلى أعلى عليين، ودواعي^(٢) الشيطان ومن سلك مسلكه والنفس الأمارة بالسوء يدعونه إلى الضلال والنزول إلى أسفل سافلين؛ فمن الناس من يكون مع دواعي الهدى في أموره كلّها أو أغلبها، ومنهم من بالعكس من ذلك، ومنهم من يتساوى لديه الداعيان ويتعارض عندّه الجاذبان، وفي هذا الموضع تعرف أهل السعادة من أهل الشقاوة.

وقوله: ﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى﴾؛ أي: ليس الهدى إلا الطريق التي شرعها الله على لسان رسوله، وما عداه فهو ضلال وهدى وهلاك. ﴿وَأَمْرُنَا لِلَّهِمْ لِيُسَلِّمَ

(٢) في (ب): «داعي».

(١) في (ب): «دواع».

لربِّ العالمين ﴿٧٢﴾: بأن نقادَ لتوحيدِهِ ونستسلم لأوامرِهِ ونواهيه وندخل تحت [رقِّ] عبودِيَّتِهِ؛ فإنَّ هذا أفضل نعمة أنعم الله بها على العباد، وأكمل تربية أوصلها إليهم. ﴿٧٢﴾ ﴿٧٢﴾ وأن أقيموا الصلاة ﴿٧٣﴾: أي: وأمِرنا أن نقيم الصلاة بأركانها وشروطها وسننها ومكملاتها، ﴿٧٣﴾ واثقوه ﴿٧٤﴾: بفعل ما أمر به واجتناب ما عنه نهى. ﴿٧٤﴾ وهو الذي إليه تُحشرون ﴿٧٥﴾: أي: تجمعون ليوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها. ﴿٧٣﴾ ﴿٧٣﴾ وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق ﴿٧٦﴾: ليأمر العباد وينهاهم ويشبِّههم ويعاقبهم، ﴿٧٦﴾ ويوم يقول كُن فيكون قوله الحق ﴿٧٧﴾: الذي لا مِزْيَةَ فيه ولا مشنوية ولا يقول شيئاً عبثاً. ﴿٧٧﴾ وله الملك يوم يُنفخ في الصور ﴿٧٨﴾: أي: يوم القيامة خصَّه بالذكر مع أنه مالك كل شيء؛ لأنه تنقطع فيه الأملاك، فلا يبقى ملك إلا الله الواحد القهار. ﴿٧٨﴾ عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير ﴿٧٩﴾: الذي له الحكمة التامة، والنعمة السابغة، والإحسان العظيم، والعلم المحيط بالسرائر والبواطن والخفايا، لا إله إلا هو، ولا ربَّ سواه.

﴿٧٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ مَا زَرَّ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٠﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفَلِينَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْفَوْرٌ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٨٤﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٥﴾ وَحَاجَّجُهُ قَوْمَهُ قَالَ أَتُحْجِّجُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٦﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٨﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴿٨٩﴾

(١) الآيات ما بين المعقوفتين زيادة على النسختين، وفي (ب): إلى آخر القصة.

﴿٧٤﴾ يقول تعالى: واذكُرْ قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام مثنياً عليه ومعظماً في حال دعوته إلى التوحيد ونهيه عن الشرك. ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَّرَ اتَّخَذَ أَصْنَاماً آلِهَةً﴾؛ أي: لا تنفع ولا تضر، وليس لها من الأمر شيء، ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾: حيث عبدتم من لا يستحق من العبادة شيئاً، وتركتم عبادة خالقكم ورازقكم ومدبركم.

﴿٧٥﴾ ﴿وَكَذَلِكَ﴾: حين وفّقناه للتوحيد والدعوة إليه، ﴿ثَرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: ليرى ببصيرته ما اشتملت عليه من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة، ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾: فإنه بحسب قيام الأدلة يحصل له الإيقان والعلم التام بجميع المطالب.

﴿٧٦﴾ ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾؛ أي: أظلم، ﴿رَأَى كَوْكَبًا﴾: لعله من الكواكب المضيئة؛ لأنّ تخصيصه بالذكر يدلّ على زيادته عن غيره، ولهذا - والله أعلم - قال من قال: إنه الزهرة، ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾؛ أي: على وجه التنزل مع الخصم؛ أي: هذا ربي؛ فهل ننظر: هل يستحقّ الربوبية؟ وهل يقوم لنا دليل على ذلك؟ فإنه لا ينبغي لعاقل أن يتخذ إلهه هواه بغير حجة ولا برهان، ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾؛ أي: غاب ذلك الكوكب، ﴿قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾؛ أي: الذي يغيب ويختفي عن عبده؛ فإنّ المعبود لا بدّ أن يكون قائماً بمصالح من عبده ومدبراً له في جميع شؤونه، فأما الذي يمضي وقت كثير وهو غائب؛ فمن أين يستحقّ العبادة، وهل اتّخاذه إلهاً إلّا من أسفه السّفه وأبطل الباطل؟!

﴿٧٧﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا﴾؛ أي: طالعاً، ورأى زيادته على نور الكواكب ومخالفتها لها، ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾: تنزلاً، ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾: فافتقر غاية الافتقار إلى هداية ربه، وعلم أنه إن لم يهده الله؛ فلا هادي له، وإن لم يُعنه على طاعته؛ فلا معين له.

﴿٧٨﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾: من الكوكب ومن القمر، ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾: تقرّر حينئذٍ الهدى، واضمحل الردى ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾: حيث قام البرهان الصادق الواضح على بطلانه.

﴿٧٩﴾ ﴿إِنِّي وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾؛ أي: لله وحده، مقبلاً عليه، معرضاً عن من سواه، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: فتبرأ من الشرك، وأذعن بالتوحيد، وأقام على ذلك البرهان.

وهذا الذي ذكرنا في تفسير هذه الآيات هو الصواب، وهو أن المقام مقام مناظرة من إبراهيم لقومه وبيان بطلان إلهية هذه الأجرام العلوية وغيرها، وأما من قال: إنه مقام نظر في حال طفولته؛ فليس عليه دليل.

﴿٨٠﴾ ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾: أي فائدة لمحااجة من^(١) لم يتبين له الهدى؟ فأما من هده الله ووصل إلى أعلى درجات اليقين؛ فإنه هو بنفسه يدعو الناس إلى ما هو عليه. ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تَشْرَكُونَ بِهِ﴾: فإنها لن تضرني ولن تمنع عني من النفع شيئاً، ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾: فتعلمون أنه وحده المعبود المستحق للعبودية.

﴿٨١﴾ ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾: وحالها حال العجز وعدم النفع، ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً﴾؛ أي: إلا بمجرد اتباع الهوى؟! ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؟!

﴿٨٢﴾ قال الله تعالى فاصلاً بين الفريقين: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا﴾؛ أي: يخلطوا ﴿إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾: الأمن من المخاوف والعذاب والشقاء، والهداية إلى الصراط المستقيم؛ فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقاً لا بشرك ولا بمعاصي؛ حصل لهم الأمن التام والهداية التامة، وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده، ولكنهم يعملون السيئات؛ حصل لهم أصل الهداية وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها. ومفهوم الآية الكريمة: أن الذين لم يحصل لهم الأمان؛ لم يحصل لهم هداية ولا أمن، بل حظهم الضلال والشقاء.

﴿٨٣﴾ ولما حكم لإبراهيم عليه السلام بما بين به من البراهين القاطعة قال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾؛ أي: علا بها عليهم وفلجهم بها. ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾: كما رفعنا درجات إبراهيم عليه السلام في الدنيا والآخرة؛ فإن العلم يرفع الله به صاحبه فوق العباد درجات، خصوصاً العالم العامل المعلم؛ فإنه يجعله الله إماماً للناس بحسب حاله، ترمق أفعاله، وتقتفى آثاره، ويستضاء بنوره، ويمشي بعلمه في ظلمة ديجوره؛ قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾. ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾: فلا يضع العلم

(١) في (ب): «أي فائدة المحااجة لمن».

والحكمة إلا في المحل اللائق بها، وهو أعلم بذلك المحل، وبما ينبغي له.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا بِكَفِيرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ فَقَدْ لَآ أَمْسَلَكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

لما ذكر الله تعالى عبده وخليله إبراهيم عليه السلام، وذكر ما من الله عليه به من العلم والدعوة والصبر؛ ذكر ما أكرمه الله به من الذرية الصالحة والنسل الطيب وأن الله جعل صفوة الخلق من نسله، وأعظم بهذه المنقبة والكرامة الجسيمة التي لا يذكرك لها نظير!! فقال:

﴿٨٤﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾: ابنه الذي هو إسرائيل أبو الشعب الذي فضله الله على العالمين، ﴿كُلًّا﴾ منهما هديناه الصراط المستقيم في علمه وعمله، و﴿نُوحًا﴾ هديناه ﴿من قبل﴾، وهديته من أعلى أنواع الهدايا الخاصة التي لم تحصل إلا لأفراد من العالم، وهم أولو العزم من الرسل، الذي هو أحدهم، ﴿ومن ذُرِّيَّتِهِ﴾ -: يُحْتَمَلُ أَنَّ الضمير عائد إلى نوح؛ لأنه أقرب مذكور، ولأن الله ذكر مع مَنْ ذَكَرَ لُوطًا، وهو من ذُرِّيَّةِ نوح لا من ذُرِّيَّةِ إبراهيم؛ لأنه ابن أخيه، ويحتمل أن الضمير يعود إلى إبراهيم؛ لأن السياق في مدحه والثناء عليه، ولو لم يكن من ذُرِّيَّتِهِ؛ فإنه ممن آمن على يده، فكان منقبة الخليل وفضيلته بذلك أبلغ من كونه مجرد ابن له. - ﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ ابن داود ﴿وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ﴾ ابن يعقوب ﴿وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾ ابني عمران. ﴿وَكَذَلِكَ﴾: كما أصلحنا ذُرِّيَّةَ إبراهيم الخليل لأنه أحسن في عبادة ربه وأحسن في نفع الخلق، كذلك ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾: بأن نجعل لهم من الثناء الصدق والذرية الصالحة بحسب إحسانهم.

﴿٨٥﴾ ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى﴾: ابنه، ﴿وعيسى﴾ ابن مريم، ﴿وإلياس كل﴾: من

هؤلاء ﴿من الصالحين﴾: في أخلاقهم وأعمالهم وعلومهم، بل هم سادة الصالحين وقادتهم وأئمتهم.

﴿٨٦﴾ ﴿وإسماعيل﴾ ابن إبراهيم، أبو الشعب الذي هو أفضل الشعوب، وهو الشعب العربي، ووالد سيد ولد آدم محمد ﷺ، ﴿ويونس﴾ ابن متى، ﴿ولوطاً﴾ ابن هارون أخي إبراهيم، ﴿وكللاً﴾: من هؤلاء الأنبياء والمرسلين ﴿فضلنا على العالمين﴾: لأن درجات الفضائل أربع، وهي التي ذكرها الله بقوله: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾: فهؤلاء من الدرجة العليا، بل هم أفضل الرسل على الإطلاق، فالرسل الذين قصهم الله في كتابه أفضل ممن لم يقصص علينا نبأهم بلا شك.

﴿٨٧﴾ ﴿ومن آبائهم﴾؛ أي: آباء هؤلاء المذكورين، ﴿وذريّاتهم وإخوانهم﴾؛ أي: وهدينا من آباء هؤلاء وذريّاتهم وإخوانهم، ﴿واجتبيناهم﴾؛ أي: اخترناهم، ﴿وهديناهم إلى صراط مستقيم﴾.

﴿٨٨ - ٨٩﴾ ﴿ذلك﴾: الهدى المذكور ﴿هدى الله﴾: الذي لا هدى إلا هداة. ﴿يهدي به من يشاء من عباده﴾: فاطلبوا منه الهدى؛ فإنه إن لم يهْدِكُمْ؛ فلا هادي لكم غيره، ومن شاء هدايته هؤلاء المذكورين^(١). ﴿ولو أشركوا﴾: على الفرض والتقدير، ﴿لَحَبِطَ عنهم ما كانوا يعملون﴾: فإن الشرك محبط للعمل موجب للخلود في النار؛ فإذا كان هؤلاء الصفوة الأخيار لو أشركوا - وحاشاهم - لحبطت أعمالهم؛ فغيرهم أولى.

﴿٩٠﴾ ﴿أولئك﴾: المذكورون ﴿الذين هدى الله فبهداهم اقتدى﴾؛ أي: امش أيها الرسول، الكريم خلف هؤلاء الأنبياء الأخيار وأتبع ملتهم. وقد امتثل ﷺ فاهتدى بهدي الرسل قبله، وجمع كل كمال فيهم، فاجتمعت لديه فضائل وخصائص فاق بها جميع العالمين، وكان سيد المرسلين وإمام المتقين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. وبهذا الملحظ استدلّ بهذه من استدلّ من الصحابة أن رسول الله ﷺ أفضل الرسل كلهم، ﴿قل﴾ للذين أعرضوا عن دعوتك: ﴿لا أسألكم عليه أجراً﴾؛ أي: لا أطلب منكم مغرمًا ومالاً جزاء عن إبلاغي إياكم

(١) كذا في النسختين. وعدلت في (أ): «المذكورون» بخط مغاير.

ودعوتي لكم، فيكون من أسباب امتناعكم، إن أجري إلا على الله. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾: يتذكرون به ما ينفعهم في فعلونه وما يضرهم في ذرونها، ويتذكرون به معرفة ربهم بأسمائه وأوصافه، ويتذكرون به الأخلاق الحميدة والطرق الموصلة إليها، والأخلاق الرذيلة والطرق المفضية إليها؛ فإذا كان ذكرى للعالمين؛ كان أعظم نعمة أنعم الله بها عليهم، فعليهم قبولها، والشكر عليها.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُّونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿٩١﴾ هذا تشنيع على من نفى الرسالة من اليهود والمشركين وزعم أن الله ما أنزل على بشر من شيء؛ فمن قال هذا؛ فما قدر الله حق قدره ولا عظمه حق عظمته؛ إذ هذا قدح في حكمته، وزعم أنه يترك عباده هملاً لا يأمرهم ولا ينهاهم، ونفي لأعظم منة امتن الله بها على عباده، وهي الرسالة التي لا طريق للعباد إلى نيل السعادة والكرامة والفلاح إلا بها؛ فأى قدح في الله أعظم من هذا؟! ﴿قُلْ﴾ لهم ملزماً بفساد قولهم وقُرْزهم بما به يُقَرُّون: ﴿مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾: وهو التوراة العظيمة ﴿نُورًا﴾: في ظلمات الجهل، ﴿وهُدًى﴾: من الضلالة، وهادياً إلى الصراط المستقيم علماً وعملاً، وهو الكتاب الذي شاع وذاع وملا ذكره القلوب والأسماع، حتى إنهم جعلوا يتناسخونه في القراطيس ويتصرفون فيه بما شاؤوا؛ فما وافق أهواءهم منه؛ أبدؤوه وأظهروه، وما خالف ذلك؛ أخفوه وكنموه، وذلك كثير. ﴿وَعُلِّمْتُمْ﴾: من العلوم التي بسبب ذلك الكتاب الجليل ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾.

فإذا سألتهم عن من أنزل هذا الكتاب الموصوف بتلك الصفات؛ فأجب عن هذا السؤال ﴿قُلِ اللَّهُ﴾: الذي أنزله، فحينئذ يتضح الحق، وينجلي مثل الشمس؛ وتقوم عليهم الحجة. ﴿ثُمَّ﴾ إذا ألزمتهم بهذا الإلزام ﴿ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾؛ أي: اتركهم يخوضوا في الباطل ويلعبوا بما لا فائدة فيه حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَن حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿٩٢﴾ أي: ﴿وهذا﴾: القرآن الذي ﴿أنزلناه﴾ إليك ﴿مبارك﴾؛ أي: وصفه البركة، وذلك لكثرة خيراته وسعة مبرراته ﴿مصدق الذي بين يديه﴾؛ أي: موافق للكتب السابقة وشاهد لها بالصدق، ﴿ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾؛ أي: وأنزلناه أيضاً لتنذر أم القرى - وهي مكة المكرمة - ومن حولها من ديار العرب، بل ومن سائر البلدان، فتحذر الناس عقوبة الله وأخذه الأمم، وتحذرهم مما يوجب ذلك. ﴿والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به﴾: لأنَّ الخوف إذا كان في القلب؛ عمرت أركانه وانقاد لمراضي الله، ﴿وهم على صلاتهم يحافظون﴾؛ أي: يداومون عليها ويحفظون أركانها وحدودها وشروطها وآدابها ومكملاتها. جعلنا الله منهم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلَ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٩٢) ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُمُ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ زَعُمُونَ﴾ (٩٣).

﴿٩٣﴾ يقول تعالى: لا أحد أعظم ظلماً ولا أكبر جرمًا ممن كَذَبَ على الله بأن نسب إلى الله قولاً أو حكماً وهو تعالى بريء منه، وإنما كان هذا أظلم الخلق؛ لأن فيه من الكذب وتغيير الأديان أصولها وفروعها ونسبة ذلك إلى الله ما هو من أكبر المفاسد، ويدخل في ذلك ادعاء النبوة، وأنَّ الله يوحى إليه، وهو كاذب في ذلك؛ فإنه مع كذبه على الله وجراته على عظمته وسلطانه يوجب على الخلق أن يتبعوه ويجاهدهم على ذلك ويستحلّ دماء من خالفه وأموالهم. ويدخل في هذه الآية كل من ادّعى النبوة كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي والمختار وغيرهم ممن اتصف بهذا الوصف. ﴿ومن قال سأُنْزِلَ مثل ما أنزل الله﴾؛ أي: ومن أظلم ممن زعم أنه يقدر على ما يقدر الله عليه ويجاري الله في أحكامه ويشرع من الشرائع كما يشعه الله. ويدخل في هذا كل من يزعم أنه يقدر على معارضة القرآن، وأنه في إمكانه أن يأتي بمثله! وأي ظلم أعظم من دعوى الفقير العاجز بالذات الناقص من كل وجه، مشاركة القوي الغني الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه في ذاته وأسمائه وصفاته؟!!

ولما ذمَّ الظالمين؛ ذَكَرَ ما أَعَدَّ لهم من العقوبة في حال الاحتضار ويوم القيامة، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾؛ أي: شدائده وأهواله الفظيعة وكُربِه الشنيعة؛ لرأيت أمراً هائلاً وحالة لا يقدر الواصف أن يصفها. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ﴾: إلى أولئك الظالمين المحتضرين بالضرب والعذاب؛ يقولون لهم عند منازعة أرواحهم وقلقها وتعصُّبها عن الخروج من الأبدان: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾؛ أي: العذاب الشديد الذي يُهينكم ويذلُّكم، والجزاء من جنس العمل؛ فَإِنَّ هَذَا الْعَذَابَ ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾: من كذبكم عليه وردكم للحق الذي جاءت به الرسل، ﴿وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أي: تَرَفُّعُونَ عن الانقياد لها والاستسلام لأحكامها.

وفي هذا دليل على عذاب البرزخ ونعيمه؛ فَإِنَّ هَذَا الْخَطَابَ وَالْعَذَابَ الْمَوْجَهَ إِلَيْهِمْ إِنَّمَا هُوَ عِنْدَ الْاِحْتِضَارِ وَقُبُلِ الْمَوْتِ وَبَعْدَهُ. وفيه دليل على أن الرُّوحَ جِسْمَ يَدْخُلُ، وَيَخْرُجُ، وَيَخاطَبُ، وَيَسَاكِنُ الْجَسَدَ، ويفارقه.

﴿٩٤﴾ فَهَذِهِ حَالُهُمْ فِي الْبَرْزَخِ، وَأَمَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَإِنَّهُمْ إِذَا وَرَدُوهَا؛ وَرَدُوهَا مَفْلِسِينَ فِرَادَى بِلَا أَهْلٍ وَلَا مَالٍ وَلَا أَوْلَادٍ وَلَا جُنُودٍ وَلَا أَنْصَارٍ؛ كَمَا خَلَقَهُمُ اللَّهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ، عَارِينَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؛ فَإِنَّ الْأَشْيَاءَ إِنَّمَا تُتَمَوَّلُ وَتَحْصُلُ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَسْبَابِهَا الَّتِي هِيَ أَسْبَابُهَا، وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ تَنْقَطِعُ جَمِيعُ الْأُمُورِ الَّتِي كَانَتْ مَعَ الْعَبْدِ فِي الدُّنْيَا سِوَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالْعَمَلِ السَّيِّئِ الَّذِي هُوَ مَادَّةُ الدَّارِ الْآخِرَةِ الَّذِي تَنْشَأُ عَنْهُ وَيَكُونُ حَسَنُهَا وَقَبِيحُهَا وَسُرُورُهَا وَغَمُومُهَا وَعَذَابُهَا وَنَعِيمُهَا بِحَسَبِ الْأَعْمَالِ؛ فَهِيَ الَّتِي تَنْفَعُ أَوْ تَضُرُّ وَتَسُوءُ أَوْ تَسُرُّ، وَمَا سِوَاهَا مِنَ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ وَالْمَالِ وَالْأَنْصَارِ فَعَوَارِي خَارِجِيَّةٌ وَأَوْصَافُ زَائِلَةٌ وَأَحْوَالُ حَائِلَةٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ﴾؛ أي: أَعْطَيْنَاكُمْ وَأَنْعَمْنَا بِهِ عَلَيْكُمْ ﴿وَرَاءَ ظَهْرِكُمْ﴾: لَا يُغْنُونَ عَنْكُمْ شَيْئاً، ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾: فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ يَشْرِكُونَ بِاللَّهِ وَيَعْبُدُونَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةَ وَالْأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ وَغَيْرَهُمْ، وَهُمْ كُلُّهُمْ لِلَّهِ، وَلَكِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لِهَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ نَصِيباً مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَشَرِكَةً فِي عِبَادَتِهِمْ، وَهَذَا زَعَمَ مِنْهُمْ وَظَلَمَ؛ فَإِنَّ الْجَمِيعَ عِبِيدُ لِلَّهِ، وَاللَّهُ مَالِكُهُمُ وَالْمُسْتَحَقُّ لِعِبَادَتِهِمْ؛ فَشَرَكُهُمْ فِي الْعِبَادَةِ وَصَرَفَهَا لِبَعْضِ الْعَبِيدِ تَنْزِيلٌ لَهُمْ مِنْزَلَةُ الْخَالِقِ الْمَالِكِ، فَيُؤَيِّخُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُقَالُ لَهُمْ هَذِهِ الْمَقَالَةُ ﴿مَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾؛ أي: تَقَطَّعَتِ الْوَصْلُ

والأسباب بينكم وبين شركائكم من الشفاعة وغيرها، فلم تنفع ولم تُجِد شيئاً. ﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾: من الرِّيح والأمن والسعادة والنجاة التي زَيَّنَّها لكم الشيطان وحسَّنها في قلوبكم، فنطقت بها أَلَسْتُمْ كُمْ، واغتررتم بهذا الزعم الباطل الذي لا حقيقة له حين تبين لكم نقيض ما كنتم تزعمون، وظهر أنكم الخاسرون لأنفسكم وأهلكم وأموالكم.

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنْتُمْ تَوَفَّكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ .

﴿٩٥﴾ يخبر تعالى عن كماله وعظمته سلطانه وقوة اقتداره وسعة رحمته وعموم كرمه وشدة عنايته بخلقه، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ﴾ شاملٌ لسائر الحبوب التي يباشر الناس زرعها، والتي لا يباشرونها منها؛ كالحبوب التي يبثها الله في البراري والقفار، فيفلق الحبوب عن الزروع والنوابت على اختلاف أنواعها وأشكالها ومنافعها، ويفلق النوى عن الأشجار من النخيل والفواكه وغير ذلك، فينتفع الخلق من الآدميين والأنعام والدواب، ويرتعون فيما فلق الله من الحب والنوى، ويقتاتون وينتفعون بجميع أنواع المنافع التي جعلها الله في ذلك، ويريههم الله من برّه وإحسانه ما يبهر العقول ويذهل الفحول، ويريههم من بدائع صنعته وكمال حكمته ما به يعرفونه ويوحّدونه ويعلمون أنه هو الحق وأن عبادة ما سواه باطلة. ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾: كما يخرج من المني حيواناً ومن البيضة فرخاً ومن الحب والنوى زرعاً وشجراً، ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ﴾: وهو الذي لا نمو فيه أو لا روح ﴿مِنْ الْحَيِّ﴾: كما يخرج من الأشجار والزروع والنوى والحب، ويخرج من الطائر بيضاً ونحو ذلك. ﴿ذَلِكَمُ﴾ الذي فعل ما فعل وانفرد بخلق هذه الأشياء وتدبيرها ﴿اللَّهُ﴾ ~~الذي~~ أي: الذي له الألوهية والعبادة على خلقه أجمعين، وهو الذي ربّى جميع العالمين بنعمه وغذاهم بكرمه، ﴿فَأَنْتُمْ تَوَفَّكُونَ﴾؛ أي: فأنتي تصرفون وتصُدُّون عن عبادة من لهذا شأنه إلى عبادة من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً؟

﴿٩٦﴾ ولما ذكر تعالى مادة خلق الأقوات؛ ذكر مِثَّتَه بتهيئة المساكن وخلق كل ما يحتاج إليه العباد من الضياء والظلمة وما يترتب على ذلك من أنواع المنافع والمصالح، فقال: ﴿فالقُ الإصباح﴾؛ أي: كما أنه فالق الحب والنوى، كذلك هو فالق ظلمة الليل الداجي الشامل لما على وجه الأرض بضياء الصُّبح الذي يفلقه شيئاً فشيئاً، حتى تذهب ظلمة الليل كلها ويخلفها الضياء والنور العام الذي يتصرف به الخلق في مصالحهم ومعاشهم ومنافع دينهم ودنياهم.

ولما كان الخلق محتاجين إلى السكون والاستقرار والراحة التي لا تتم إلا بوجود النهار والنور؛ ﴿جعل﴾: الله الليل سكناً يسكن فيه آدميون إلى دورهم ومنامهم والأنعام إلى مأواها والطيور إلى أوكارها فتأخذ نصيبها من الراحة، ثم يزيل الله ذلك بالضياء، وهكذا أبدأ إلى يوم القيامة. ﴿وجعل تعالى الشمس والقمر حُسباناً﴾: بهما تُعرف الأزمنة والأوقات؛ فتنضبط بذلك أوقات العبادات وأجال المعاملات، ويُعرف بها مدة ما مضى من الأوقات التي لولا وجود الشمس والقمر وتناوبهما واختلافهما لما عرِف ذلك عامة الناس واشتركوا في علمه، بل كان لا يعرفه إلا أفراد من الناس بعد الاجتهاد، وبذلك يفوت من المصالح الضرورية ما يفوت. ﴿ذلك﴾: التقدير المذكور، ﴿تقدير العزيز العليم﴾: الذي من عزته انقادت له هذه المخلوقات العظيمة فَجَرَتْ مَذَلَّةً مَسْخَرَةً بأمره، بحيث لا تتعدى ما حده الله لها ولا تتقدم عنه ولا تتأخر، العليم الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن والأوائل والأواخر. ومن الأدلة العقلية على إحاطة علمه تسخير هذه المخلوقات العظيمة على تقدير ونظام بدیع تحير العقول في حسنه وكماله وموافقته للمصالح والحكم.

﴿٩٧﴾ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر؛ حين تشتبه عليكم المسالك، ويتحير في سيره السالك، فجعل الله النجوم هداية للخلق إلى السبيل^(١) التي يحتاجون إلى سلوكها لمصالحهم وتجاراتهم وأسفارهم، منها نجوم لا تزال تُرى ولا تسير عن محلها، ومنها ما هو مستمر السير يعرف سيره أهل المعرفة بذلك، ويعرفون به الجهات والأوقات. ودلت هذه الآية ونحوها على مشروعية تعلم سير الكواكب ومحالها الذي يسمى علم التسيير؛ فإنه لا تتم الهداية ولا تُمكن إلا بذلك.

(١) في (ب): «السبل».

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾؛ أي: بيّناها ووضّحناها وميّزنا كل جنس ونوع منها عن الآخر بحيث صارت آيات الله بادية ظاهرة، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لأهل العلم والمعرفة؛ فإنّهم الذين يوجّه إليهم الخطاب، ويطلب منهم الجواب؛ بخلاف أهل الجهل والجفاء المعرضين عن آيات الله وعن العلم الذي جاءت به الرسل؛ فإنّ البيان لا يفيدهم شيئاً، والتفصيل لا يزيل عنهم ملتبساً، والإيضاح لا يكشف لهم مشكلاً.

﴿٩٨﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾: وهو آدم عليه السلام، أنشأ الله منه هذا العنصر الآدمي الذي قد ملأ الأرض، ولم يزل في زيادة ونمو، الذي قد تفاوت في أخلاقه وخلقه وأوصافه تفاوتاً لا يمكن ضبطه، ولا يُذكر وصفه، وجعل الله لهم مستقرّاً؛ أي: منتهى ينتهون إليه وغاية يُساقون إليها، وهي دار القرار التي لا مستقرّ وراءها ولا نهاية فوقها؛ فهذه الدار هي التي خلق الخلق لسكنائها، وأوجدوا في الدنيا ليسعوا في أسبابها التي تنشأ عليها وتعمر بها، وأودعهم الله في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم، ثم في دار الدنيا، ثم في البرزخ؛ كلّ ذلك على وجه الوديعة التي لا تستقرّ ولا تثبت، بل ينتقل منها، حتى يوصل إلى الدار التي هي المستقر، وأما هذه الدار؛ فإنّها مستودع وممرّ. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾: عن الله آياته، ويفهمون عنه حججه وبيّناته.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُنْتَشِبِهِ أَنْظَرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٩٩).

﴿٩٩﴾ وهذا من أعظم مننه العظيمة التي يضطرّ إليها الخلق من الآدميين، وغيرهم، وهو أنه أنزل من السماء ماء متتابعاً وقت حاجة الناس إليه، فأنبت الله به كل شيء مما يأكل الناس والأنعام، فرتع الخلق بفضل الله وانبسطوا برزقه وفرحوا بإحسانه وزال عنهم الجذب واليأس والقحط، ففرحت القلوب وأسفرت الوجوه وحصل للعباد من رحمة الرحمن الرحيم ما به يتمتّعون وبه يرتعون، مما^(١) يوجب لهم أن يبذلوا جهدهم في شكر من أسدى النعم وعبادته والإنابة إليه والمحبة له.

(١) في (ب): «ما».

ولما ذكر عموم ما ينبت بالماء من أنواع الأشجار والنبات؛ ذَكَرَ الزرع والنخل لكثرة نفعهما وكونهما قوتاً لأكثر الناس، فقال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نَخْرُجُ مِنْهُ﴾؛ أي: من ذلك النبات الخضر ﴿حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾: بعضه فوق بعض من بُرٍّ وشعير وذرة وأرز وغير ذلك من أصناف الزروع، وفي وصفه بأنه متراكب إشارة إلى أنَّ حبوبه متعددة، وجميعها تستمدُّ من مادةٍ واحدةٍ، وهي لا تختلط، بل هي متفرقة الحبوب مجتمعة الأصول، وإشارة أيضاً إلى كثرتها وشمول ريعها وغلتها؛ ليبقى أصل البذر، ويبقى بقية كثيرة للأكل والادخار. ﴿وَمِنَ النَّخْلِ﴾: أخرج الله ﴿مِنْ طَلْعِهَا﴾: وهو الكُفْرَى والوعاء قبل ظهور القنوة منه، فيخرج من ذلك الوعاء ﴿قُنُونًا دَانِيَةً﴾؛ أي: قريبة سهلة التناول متدلية على من أرادها؛ بحيث لا يعسرُ التناول من النخل، وإن طالت؛ فإنه يوجد فيها كَرَبٌ ومراقي يسهلُ صعودها. ﴿وَوُجِدَ فِيهَا رَأْسٌ مُنْتَمِطٌ﴾: أخرج تعالى بالماء ﴿جَنَاتٍ مِنْ أَغْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرِّمَّانَ﴾: فهذه من الأشجار الكثيرة النفع العظيمة الوقع؛ فلذلك خصَّصها الله بالذكر بعد أن عمَّ جميع الأشجار والنوابت. وقوله: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾: يحتملُ أن يرجع إلى الرِّمَّانِ والزيتون؛ أي: مشتبهاً في شجره وورقه غير متشابه في ثمره، ويحتملُ أن يرجع ذلك إلى سائر الأشجار والفواكه، وأن بعضها مشتبه؛ يشبه بعضه بعضاً، ويتقارب في بعض أوصافه، وبعضها لا مشابهة بينه وبين غيره، والكل ينتفع به العباد ويتفكّهون، ويقتاتون ويعتبرون، ولهذا أمر تعالى بالاعتبار به، فقال: ﴿انظُرُوا﴾: نظر فكر واعتبار ﴿إِلَى ثَمَرِهِ﴾؛ أي: الأشجار كلها، خصوصاً النخل، ﴿إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾؛ أي: انظروا إليه وقت إطلاعه ووقت نضجه وإيناعه؛ فإن في ذلك عبراً وآيات يُستدلُّ بها على رحمة الله وسعة إحسانه وجوده وكمال اقتداره وعنايته بعباده، ولكن ليس كل أحدٍ يَعتَبِرُ ويتفكّر، وليس كلُّ من تفكّر؛ أدرك المعنى المقصود، ولهذا قيّد تعالى الانتفاع بالآيات بالمؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: فإن المؤمنين يحملهم ما معهم من الإيمان على العمل بمقتضياته ولوازمه التي منها التفكير في آيات الله والاستنتاج منها ما يراد منها وما تدلُّ عليه عقلاً وفطرةً وشرعاً.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُمَ بَيْنِينَ وَبَنَيْنَا عَلَيْهِمُ سُبُحَنَهُ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٣٠﴾ بَدِيعُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ اِنَّ يَكُوْنُ لَهُمْ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ صَٰلِحَةٌ وَّخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ ﴿١٣١﴾ ذٰلِكُمْ اِلٰهُ رَبِّكُمْ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاَعْبُدُوْهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٣٢﴾ لَا تُدْرِكُهُ الْاَبْصٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْاَبْصٰرَ وَهُوَ اللّٰطِيْفُ

الْخَيْرِ ﴿١٠٢﴾ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿١٠٣﴾ .

﴿١٠٠﴾ يخبر تعالى أنه مع إحسانه لعباده وتعرفه إليهم بآياته البينات وحججه الواضحات؛ أن المشركين به من قريش وغيرهم جعلوا له شركاء يدعونهم ويعبدونهم من الجن والملائكة، الذين هم خَلَقَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، ليس فيهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء، فجعلوها شركاء لمن له الخلق والأمر، وهو المنعم بسائر أصناف النعم، الدافع لجميع النقم، وكذلك خَرَقَ المشركون؛ أي: ائفكوا وافتروا من تلقاء أنفسهم لله بنين وبناتٍ بغير علم منهم، ومن أظلم ممن قال على الله بلا علم، وافتري عليه أشنع النقص الذي يجب تنزيه الله عنه، ولهذا نزه نفسه عما افتراه عليه المشركون، فقال: ﴿سبحانه وتعالى عما يصفون﴾؛ فإنه تعالى الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل نقص وآفة وعيب.

﴿١٠١﴾ ﴿بديع السموات والأرض﴾؛ أي: خالقهما ومنتقن صنعتهما على غير مثال سبق بأحسن خلق ونظام وبهاء لا تقترح عقول أولي الأبواب مثله، وليس له في خلقهما مشارك. ﴿أنتى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة﴾؛ أي: كيف يكون لله الولد وهو الإله السيد الصمد الذي لا صاحبة له؛ أي: لا زوجة، وهو الغني عن مخلوقاته، وكلها فقيرة إليه مضطرة في جميع أحوالها إليه، والولد لا بد أن يكون من جنس والده، والله خالق كل شيء، وليس شيء من المخلوقات مشابهاً لله بوجه من الوجوه. ولما ذكر عموم خلقه للأشياء؛ ذكر إحاطة علمه بها، فقال: ﴿وهو بكل شيء عليم﴾، وفي ذكر العلم بعد الخلق إشارة إلى الدليل العقلي إلى ثبوت علمه، وهو هذه المخلوقات وما اشتملت عليه من النظام التام والخلق الباهر؛ فإن في ذلك دلالة على سعة علم الخالق وكمال حكمته؛ كما قال تعالى: ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾، وكما قال تعالى: ﴿وهو الخلاق العليم﴾.

﴿١٠٢﴾ ذلكم الذي خلق ما خلق وقدّر ما قدر؛ ﴿الله ربكم﴾؛ أي: المألوه المعبود الذي يستحق نهاية الذل ونهاية الحب، الرب الذي ربى جميع الخلق بالنعيم، وصرف عنهم صنوف النقم، خالق كل شيء لا إله إلا هو ﴿فاعبدوه﴾؛ أي: إذا استقر وثبت أنه الله الذي لا إله إلا هو؛ فاصرفوا له جميع أنواع العبادة، وأخلصوها لله، واقصدوا بها وجهه؛ فإن هذا هو المقصود من الخلق الذي خلّقوا لأجله، ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾. ﴿وهو على كل شيء وكيل﴾،

أي: جميع الأشياء تحت وكالة الله وتديره خلقاً وتديراً وتصريفاً. ومن المعلوم أن الأمر المتصرف فيه يكون استقامته وتمامه وكمال انتظامه بحسب حال الوكيل عليه، ووكالته تعالى على الأشياء ليست من جنس وكالة الخلق؛ فإن وكالتهم وكالة نيابة، والوكيل فيها تابع لموكله، وأما الباري تبارك وتعالى؛ فوكالته من نفسه لنفسه، متضمنة لكمال العلم وحسن التدبير والإحسان فيه والعدل، فلا يمكن أحداً أن يستدرك على الله، ولا يرى في خلقه خللاً ولا فطوراً، ولا في تدبيره نقصاً وعيباً، ومن وكالته أنه تعالى توكل ببيان دينه وحفظه عن المزيلات والمغيّرات، وأنه تولّى حفظ المؤمنين وعصمتهم عما يزيل إيمانهم ودينهم.

﴿١٠٣﴾ ﴿لا تدركه الأبصار﴾: لعظمته وجلاله وكماله، أي: لا تحيط به الأبصار وإن كانت تراه وتفرح بالنظر إلى وجهه الكريم، فنفي الإدراك لا ينفي الرؤية، بل يشتهى بالمفهوم؛ فإنه إذا نفى الإدراك الذي هو أخص أوصاف الرؤية؛ دلّ على أن الرؤية ثابتة؛ فإنه لو أراد نفي الرؤية؛ لقال: لا تراه الأبصار... ونحو ذلك، فعلم أنه ليس في الآية حجة لمذهب المعطلة الذين ينفون رؤية ربهم في الآخرة، بل فيها ما يدل على نقيض قولهم. ﴿وهو يدرك الأبصار﴾؛ أي: هو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، وسمعته بجميع الأصوات الظاهرة والخفية، وبصره بجميع المبصرات صغارها وكبارها، ولهذا قال: ﴿وهو اللطيف الخبير﴾؛ أي: الذي لطّف علمه وخبرته ودقّ حتى أدرك السرائر والخفايا والخبايا والبواطن، ومن لطفه أنه يسوق عبده إلى مصالح دينه، ويوصلها إليه بالطرق التي لا يشعر بها العبد ولا يسعى فيها، ويوصله إلى السعادة الأبدية والفلاح السرمدى من حيث لا يحتسب، حتى إنه يقدّر عليه الأمور التي يكرها العبد ويتألم منها ويدعو الله أن يزيلها؛ لعلمه أن دينه أصلح؛ وأن كماله متوقّف عليها؛ فسبحان اللطيف لما يشاء الرحيم بالمؤمنين.

﴿١٠٤﴾ ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ﴾: لما بيّن تعالى من الآيات البينات والأدلة الواضحات الدالة على الحق في جميع المطالب والمقاصد؛ نبّه العباد عليها، وأخبر أن هدايتهم وضدها لأنفسهم، فقال: ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم﴾؛ أي: آيات تبين الحق وتجعله للقلب بمنزلة الشمس للأبصار؛ لما اشتملت عليه من فصاحة اللفظ وبيانه ووضوحه ومطابقته للمعاني الجليلة والحقائق الجميلة؛ لأنها صادرة من الرب الذي

رَبُّى خَلَقَهُ بِصَنُوفٍ نَعَمِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، الَّتِي مِنْ أَفْضَلِهَا وَاجْلِهَا تَبْيِينُ الْآيَاتِ وَتَوْضِيحُ الْمَشْكَلَاتِ. ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾: بِتِلْكَ الْآيَاتِ مَوَاقِعَ الْعِبَرَةِ وَعَمَلَ بِمَقْتَضَاهَا ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾: فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، وَمَنْ عَمِيَ بِأَنْ بُصِّرَ فَلَمْ يَتَبَصَّرْ، وَزُجِرَ فَلَمْ يَنْزَجِرْ، وَبَيَّنَّ لَهُ الْحَقُّ فَمَا انْقَادَ لَهُ وَلَا تَوَاضَعَ؛ فَإِنَّمَا عَمَاهُ مَضْرُتُهُ عَلَيْهِ. ﴿وَمَا أَنَا﴾: أَيُّهَا الرَّسُولُ، ﴿عَلَيْكُمْ بِحَفِيزٍ﴾: أَحْفِظْ أَعْمَالَكُمْ وَأَر_اقِبْهَا عَلَى الدَّوَامِ، إِنَّمَا عَلَيَّ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ، وَقَدْ أَذَيْتَهُ وَبَلَغْتَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيَّ؛ فَهَذِهِ وَظِيفَتِي، وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَلَسْتُ مَوْظِفًا فِيهِ.

﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِمَنْ يَشَاءُ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ أَلَيْسَ مَا أُرْسِى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيزًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾^(١).
﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَلَيْهِمْ ثُمَّ إِنْ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿١٠٨﴾ يَنْهَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ أَمْرٍ كَانَ جَائِزًا بَلْ مَشْرُوعًا فِي الْأَصْلِ، وَهُوَ سَبُّ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ الَّتِي اتَّخَذَتْ أَوْثَانًا وَآلِهَةً مَعَ اللَّهِ، الَّتِي يُتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ بِهَا هَاتِئَهَا وَسَبُّهَا، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ هَذَا السَّبُّ طَرِيقًا إِلَى سَبِّ الْمُشْرِكِينَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي يَجِبُ تَنْزِيهِهِ جَنَابُهُ الْعَظِيمُ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ وَأَفَةٍ وَسَبٍّ وَقَدَحٍ؛ نَهَى اللَّهُ عَنْ سَبِّ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ؛ لِأَنَّهُمْ يَحْمُونَ لِدِينِهِمْ وَيَتَعَصَّبُونَ لَهُ؛ لِأَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ زَيْنَ اللَّهِ لَهُمْ عَمَلُهُمْ فَرَأَوْهُ حَسَنًا وَذَبُّوا عَنْهُ وَدَافَعُوا بِكُلِّ طَرِيقٍ، حَتَّى إِنْهُمْ يَسُبُّونَ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي رَسَخَتْ عَظَمَتُهُ فِي قُلُوبِ الْأَبْرَارِ وَالْفَجَّارِ إِذَا سَبَّ الْمُسْلِمُونَ آلِهَتَهُمْ، وَلَكِنْ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ مَرْجِعُهُمْ وَمَأْلَهُمْ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَعْزُضُونَ عَلَيْهِ وَتَعْرِضُ أَعْمَالُهُمْ، فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ دَلِيلٌ لِلْقَاعِدَةِ الشَّرْعِيَّةِ، وَهُوَ أَنَّ الْوَسَائِلَ تُعْتَبَرُ بِالْأُمُورِ الَّتِي تَوْصِلُ إِلَيْهَا، وَأَنَّ وَسَائِلَ الْمَحْرَمِ - وَلَوْ كَانَتْ جَائِزَةً - تَكُونُ مُحْرَمَةً إِذَا كَانَتْ تَقْضِي إِلَى الشَّرِّ.

(١) فِي النُّسخَتَيْنِ لَا يَوْجَدُ تَفْسِيرٌ لِهَذِهِ الْآيَاتِ (١٠٥، ١٠٦، ١٠٧)، فَلَعَلَّ الشَّيْخَ سَهَا عَنْ تَفْسِيرِهَا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ وَلَوْ أَنَّا زَلَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَحْشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَئِنْ أَكْثَرْتُمْ بَيْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾.

﴿١٠٩﴾ أي: وأقسم المشركون المكذبون للرسول محمد ﷺ ﴿بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾؛ أي: قسماً اجتهدوا فيه وأكدوه، ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾: تدل على صدق محمد ﷺ، ﴿لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾: وهذا الكلام الذي صدر منهم لم يكن قصدهم فيه الرشاد، وإنما قصدهم دفع الاعتراض عليهم ورد ما جاء به الرسول قطعاً؛ فإن الله أيد رسوله ﷺ بالآيات البينات والأدلة الواضحات التي عند الالتفات لها لا تَبْقَى (١) أدنى شبهة ولا إشكال في صحة ما جاء به؛ فطلبهم بعد ذلك للآيات من باب التعتُّ الذي لا يلزم إجابته، بل قد يكون المنع من إجابتهم أصلح لهم؛ فإن الله جرت سنته في عباده أن المقترحين للآيات على رسلهم إذا جاءتهم فلم يؤمنوا بها أنه يعاجلهم بالعقوبة، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ أي: هو الذي يرسلها إذا شاء، ويمنعها إذا شاء، ليس لي من الأمر شيء، فطلبكم مني الآيات ظلم وظلم وطلب لما لا أملك، وإنما توجهون إلى توضيح ما جئتمكم به وتصديقه، وقد حصل، ومع ذلك؛ فليس معلوماً أنهم إذا جاءتهم الآيات يؤمنون ويصدقون، بل الغالب ممن هذه حاله [أنه] لا يؤمن، ولهذا قال: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿١١٠﴾ ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾؛ أي: ونعاقبهم إذا لم يؤمنوا أول مرة يأتيهم فيه الداعي وتقوم عليهم الحجة بتقليب القلوب والحيلولة بينهم وبين الإيمان وعدم التوفيق لسلوك الصراط المستقيم، وهذا من عدل الله وحكمته بعباده؛ فإنهم الذين جَنُّوا على أنفسهم، وفتح لهم الباب فلم يدخلوا، ويُنَّ لهم الطريق فلم يسلكوا؛ فبعد ذلك إذا حُرِمُوا التوفيق؛ كان مناسباً لأحوالهم.

﴿١١١﴾ وكذلك تعليقهم الإيمان بإرادتهم ومشيتهم وحدهم وعدم الاعتماد على الله من أكبر الغلط؛ فإنهم لو جاءتهم الآيات العظيمة من تنزيل الملائكة إليهم

يشهدون للرسول بالرسالة وتكليم الموتى وبعثهم بعد موتهم، وحشرنا عليهم كل شيء^(١) حتى يكلمهم قبلاً ومشاهدة ومباشرة بصدق ما جاء به الرسول؛ ما حصل لهم الإيمان إذا لم يشأ الله إيمانهم، ولكن أكثرهم يجهلون؛ فلذلك رتبوا إيمانهم على مجرد إتيان الآيات، وإنما العقل والعلم أن يكون العبد مقصوده اتباع الحق، ويطلبه بالطرق التي بينها الله، ويعمل بذلك، ويستعين ربه في اتباعه، ولا يتكل على نفسه وحوله وقوته، ولا يطلب من الآيات الاقتراحية ما لا فائدة فيه.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿١١٢﴾ يقول تعالى مسلماً لرسوله [محمد] ﷺ: وكما جعلنا لك أعداء يردون دعوتك ويحاربونك ويحسدونك؛ فهذه سنتنا أن نجعل لكل نبي نرسله إلى الخلق أعداء من شياطين الإنس والجن يقومون بضد ما جاءت به الرسل، ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾؛ أي: يزين بعضهم لبعض الأمر الذي يدعون إليه من الباطل ويزخرفون له العبارات حتى يجعلوه في أحسن صورة ليغترّ به السفهاء وينقاد له الأغبياء الذين لا يفهمون الحقائق ولا يفقهون المعاني، بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة والعبارات المموّهة، فيعتقدون الحق باطلاً والباطل حقاً.

﴿١١٣﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ﴾؛ أي: ولتتميل إلى ذلك الكلام المزخرف ﴿أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾: لأن عدم إيمانهم باليوم الآخر وعدم عقولهم النافعة يحملهم على ذلك، ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾: بعد أن يصغوا إليه، فيصغون إليه أولاً، فإذا مالوا إليه ورأوا تلك العبارات المستحسنة؛ رضوه وزين في قلوبهم وصار عقيدة راسخة وصفة لازمة، ثم ينتج من ذلك أن يقترفوا من الأعمال والأقوال ما هم مقترفون؛ أي: يأتون من الكذب بالقول والفعل ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة؛ فهذه حال المفترين شياطين الإنس والجن المستجيبين لدعوتهم، وأما أهل الإيمان بالآخرة وأولو العقول الوافية والألباب الرزينة؛ فإنهم لا يغترون بتلك العبارات، ولا تخبهم تلك التمويهات، بل همّتهم مصروفة إلى معرفة الحقائق،

(١) في (ب): «وحشر كل شيء إليهم».

فينظرون إلى المعاني التي يدعو إليها الدعاة؛ فإن كانت حقاً؛ قبلوها وانقادوا لها، ولو كُسيَتْ عبارات رديّة وألفاظاً غير وافية، وإن كانت باطلاً؛ ردّوها على من قالها، كائناً مَنْ كان، ولو ألبست من العبارات المستحسنة ما هو أرقُّ من الحرير.

ومن حكمة الله تعالى في جعله للأنبياء أعداء وللباطل أنصاراً قائمين بالدعوة إليه: أن يحصلَ لعباده الابتلاء والامتحان؛ ليمتيز الصادق من الكاذب، والعاقل من الجاهل، والبصير من الأعمى. ومن حكمته: أن في ذلك بياناً للحق وتوضيحاً له؛ فإنَّ الحقَّ يستنير ويتّضح إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه؛ فإنه حينئذ يتبيّن من أدلة الحق وشواهد الدالة على صدقه وحقيقته ومن فساد الباطل وبطلانه ما هو من أكبر المطالب التي يتنافس فيها^(١) المتنافسون.

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ كَرِهُوا أَنْ يُقَالُوا لَهُمْ قَوْلُ مَوْظِعٍ مِنْ كِتَابِهِمْ يَذْكُرُونَ مِنْهُ مُنْزَلًا مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿١١٤﴾ أي: قل يا أيُّها الرسول: ﴿أفغير الله أبتغي حكماً﴾: أحاكم إليه وأتقيّد بأوامره ونواهيه؛ فإن غير الله محكوم عليه لا حاكم، وكلُّ تدبير وحكم للمخلوق؛ فإنه مشتمل على النقص والعيب والجور، وإنما الذي يجب أن يتّخذ حاكماً؛ فهو الله وحده لا شريك له، الذي له الخلق والأمر ﴿الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً﴾؛ أي: موضحاً فيه الحلال والحرام والأحكام الشرعية وأصول الدين وفروعه، الذي لا بيان فوق بيانه، ولا برهان أجلى من برهانه، ولا أحسن منه حكماً، ولا أقوم قيلاً؛ لأنَّ أحكامه مشتملة على الحكمة والرحمة، وأهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى يعترفون بذلك و﴿يعلمون أنه منزّل من ربك بالحق﴾؛ ولهذا تواطأت الإخبارات، ﴿فلا﴾ تشكّن في ذلك ولا ﴿تكوننّ من الممترين﴾.

﴿١١٥﴾ ثم وصف تفصيلها فقال: ﴿وتمّت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾؛ أي: صدقاً في الإخبار وعدلاً في الأمر والنهي؛ فلا أصدق من أخبار الله التي أودعها هذا الكتاب العزيز، ولا أعدل من أوامره ونواهيه، ﴿لا مبدّل لكلماته﴾؛ حيث حفظها وأحكمها بأعلى أنواع الصدق وبغاية الحق؛ فلا يمكن تغييرها ولا اقتراح

أحسن منها. ﴿وهو السميع﴾: لسائر الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، ﴿العليم﴾: الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن والماضي والمستقبل.

﴿وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿١١٦﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ محذراً عن طاعة أكثر الناس: ﴿وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾: فَإِنَّ أَكْثَرَهُمْ قَدْ انْحَرَفُوا فِي أَدْيَانِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ وَعِلْمِهِمْ؛ فَأَدْيَانُهُمْ فَاسِدَةٌ، وَأَعْمَالُهُمْ تَبِعَ لَأَهْوَائِهِمْ، وَعِلْمُهُمْ لَيْسَ فِيهَا تَحْقِيقٌ وَلَا إِيصَالٌ لِسَوَاءِ الطَّرِيقِ، بَلْ غَايَتُهُمْ أَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ الظَّنَّ الَّذِي لَا يَغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً، وَيَتَخَرَّصُونَ فِي الْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ.

﴿١١٧﴾ وَمَنْ كَانَ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ؛ فَحَرِيٌّ أَنْ يَحْذَرُ اللَّهَ مِنْهُ عِبَادَهُ وَيَصِفُ لَهُمْ أَحْوَالَهُ؛ لِأَنَّ هَذَا وَإِنْ كَانَ خُطَاباً لِلنَّبِيِّ ﷺ؛ فَإِنَّ أُمَّتَهُ أَسْوَأَ لَهُ فِي سَائِرِ الْأَحْكَامِ الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ خَصَائِصِهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَصْدَقُ قِيلاً وَأَصْدَقُ حَدِيثاً، وَ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾، وَأَعْلَمُ بِمَنْ يَهْتَدِي وَيَهْدِي، فَيَجِبُ عَلَيْكُمْ أَتْيَا الْمُؤْمِنُونَ أَنْ تَتَّبِعُوا نَصَائِحَهُ وَأَوَامِرَهُ وَنَوَاهِيَهُ؛ لِأَنَّهُ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِكُمْ، وَأَرْحَمُ بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ.

ودلت هذه الآية على أنه لا يستدل على الحق بكثرة أهله، ولا يدل قلة السالكين لأمر من الأمور أن يكون غير حق، بل الواقع بخلاف ذلك؛ فَإِنَّ أَهْلَ الْحَقِّ هُمُ الْأَقْلُونَ عِدْداً الْأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّهِ قَدْراً وَأَجْراً، بَلِ الْوَاجِبُ أَنْ يَسْتَدِلَّ عَلَى الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ بِالطَّرِيقِ الْمَوْصِلَةِ إِلَيْهِ.

﴿تَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَنْتُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِنَا مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَنْتُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿١١٨ - ١١٩﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بمقتضى الإيمان، وأنهم إن كانوا مؤمنين؛ فليأكلوا مما ذُكِرَ اسم الله عليه من بهيمة الأنعام وغيرها من الحيوانات المحللة، ويعتقدوا حلها، ولا يفعلوا كما يفعله أهل الجاهلية^(١) من تحريم كثير من

(١) في (ب): «تفعله الجاهلية».

الحلال ابتداءً من عند أنفسهم وإضلالاً من شياطينهم؛ فذكر الله أن علامة المؤمن مخالفة أهل الجاهلية في هذه العادة الذميمة المتضمنة لتغيير شرع الله، وأنه أي شيء يمنعه من أكل ما ذكر اسم الله عليه؛ وقد فصل الله لعباده ما حرّم عليهم وبينه ووضّحه، فلم يبق فيه إشكال ولا شبهة توجب أن يمتنع من أكل بعض الحلال خوفاً من الوقوع في الحرام.

ودلت الآية الكريمة على أن الأصل في الأشياء والأطعمة الإباحة، وأنه إذا لم يرد الشرع بتحريم شيء منها؛ فإنه باق على الإباحة؛ فما سكّت الله عنه؛ فهو حلال؛ لأن الحرام قد فصله الله؛ فما لم يفصله الله؛ فليس بحرام. ومع ذلك؛ فالحرام الذي قد فصله الله وأوضحه قد أباحه عند الضرورة والمخمصة؛ كما قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ...﴾ إلى أن قال: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ثم حذر عن كثير من الناس، فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ﴾؛ أي: بمجرد ما تهوى أنفسهم **﴿بغير علم﴾**: ولا حجة؛ فليحذر العبد من أمثال هؤلاء، وعلامتهم كما وصفهم الله لعباده أن دعوتهم غير مبنية على برهان ولا لهم حجة شرعية، وإنما يوجد لهم شبهة بحسب أهوائهم الفاسدة، وآرائهم القاصرة؛ فهؤلاء معتدون على شرع الله وعلى عباد الله، والله لا يحب المعتدين؛ بخلاف الهادين المهتدين؛ فإنهم يدعون إلى الحق والهدى، ويؤيدون دعوتهم بالحجج العقلية والنقلية، ولا يتبعون في دعوتهم إلا رضا ربهم والقرب منه.

﴿وَدَرَوْا ظَهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنُهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرُونَ﴾.

﴿١٢٠﴾ المراد بالإثم: جميع المعاصي التي تؤثم العبد؛ أي: توقعه في الإثم والحرّج من الأشياء المتعلقة بحقوق الله وحقوق عباده، فهي الله عبادة عن اقتراف الإثم الظاهر والباطن؛ أي: السر والعلانية المتعلقة بالبدن والجوارح والمتعلقة بالقلب، ولا يتم للعبد ترك المعاصي الظاهرة والباطنة إلا بعد معرفتها والبحث عنها، فيكون البحث عنها ومعرفة معاصي القلب والبدن والعلم بذلك واجباً متعيناً على المكلف، وكثير من الناس تخفى عليه كثير من المعاصي، خصوصاً معاصي القلب؛ كالكبر والعجب والرياء... ونحو ذلك حتى إنه يكون به كثير منها وهو لا يحس به ولا يشعر، وهذا من الإعراض عن العلم وعدم البصيرة.

ثم أخبر تعالى أن الذين يكسبون الإثم الظاهر والباطن سيُجزَوْنَ على حسب

كسبهم وعلى قدر ذنوبهم قلَّت أو كثرت، وهذا الجزاء يكون في الآخرة، وقد يكون في الدنيا؛ يعاقب العبد فيخفف عنه بذلك من سيئاته.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسَدُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّكُمْ لَفَاسِقُونَ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

﴿١٢١﴾ ويدخل تحت هذا المنهي عنه ما ذُكِرَ عليه اسم غير الله؛ كالذي يُذبح للأصنام وآلهة المشركين^(١)؛ فإنَّ هذا مما أهل لغير الله به المحرَّم بالنصِّ عليه خصوصاً.

ويدخل في ذلك متروك التسمية مما ذبح لله كالضحايا والهدايا، أو للحم والأكل، إذا كان الذابح متعمداً ترك التسمية عند كثير من العلماء، ويخرج من هذا العموم الناسي بالنصوص الآخر الدالة على رفع الحرج عنه.

ويدخل في هذه الآية ما مات بغير ذكاة من الميتات؛ فإنها مما لم يذكر اسم الله عليه، ونص الله عليها بخصوصها في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ﴾، ولعلها سبب نزول الآية؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ بغير علم؛ فإن المشركين حين سمعوا تحريم الله ورسوله للميتة وتحليله للمذكاة، وكانوا يستحلون أكل الميتة قالوا معاندة لله ورسوله ومجادلة بغير حجة ولا برهان: أتناكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قَتَلَ اللَّهُ يعنون بذلك الميتة؟! وهذا رأي فاسد لا يستند على حجة ولا دليل، بل يستند إلى آرائهم الفاسدة التي لو كان الحق تبعاً لها لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن؛ فتباً لمن قدَّم هذه العقول على شرع الله وأحكامه الموافقة للمصالح العامة والمنافع الخاصة. ولا يُستغرب هذا منهم؛ فإن هذه الآراء وأشباهها صادرة عن وحي أوليائهم من الشياطين الذين يريدون أن يُضِلُّوا الخلق عن دينهم ويدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير. ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾: في شركهم وتحليلهم الحرام وتحريمهم الحلال، ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾؛ لأنكم اتخذتموهم أولياء من دون الله، ووافقتموهم على ما به فارقوا المسلمين؛ فلذلك كان طريقكم طريقهم.

ودلت هذه الآية الكريمة على أن ما يقع في القلوب من الإلهامات والكشوف التي

(١) في (ب): «يذبح للأصنام وآلهتهم».

يكثُر وقوعها عند الصوفية ونحوهم لا تدلُّ بمجردها على أنها حقٌّ ولا تصدِّق حتى تعرض على كتاب الله وسنة رسوله؛ فإن شهدا لها بالقبول؛ قبلت، وإن ناقضتهما؛ ردَّت، وإن لم يعلم شيء من ذلك؛ توقف فيها ولم تصدِّق ولم تكذِّب؛ لأن الوحي والإلهام يكون من الرحمن ويكون من الشيطان؛ فلا بد من التمييز بينهما والفرقان، وبعدم التفريق بين الأمرين حصل من الغلط والضلال ما لا يحصىه إلا الله.

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿١٢٢﴾ يقول تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ﴾: من قبل هداية الله له ﴿مَيِّتًا﴾: في ظلمات الكفر والجهل والمعاصي، ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾: بنور العلم والإيمان والطاعة، فصار يمشي بين الناس في النور، متبصرًا في أموره، مهتديًا لسبيله، عارفًا للخير، مؤثرًا له، مجتهدًا في تنفيذه في نفسه وغيره، عارفًا بالشر، مبغضًا له، مجتهدًا في تركه وإزالته عن نفسه وعن غيره، أفيستوي هذا بمن هو في الظلمات؟ ظلمات الجهل والغي والكفر والمعاصي، ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾، قد التبست عليه الطرق، وأظلمت عليه المسالك، فحضره الهمُّ والغمُّ والحزن والشقاء، فنبه تعالى العقول بما تدركه وتعرفه أنه لا يستوي هذا ولا هذا كما لا يستوي الليل والنهار والضياء والظلمة والأحياء والأموات، فكأنه قيل: فكيف يؤثر من له أدنى مُسْكَةٍ من عقل أن يكون بهذه الحالة وأن يبقى في الظلمات متحيرًا؟! فأجاب بأنه ﴿زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، فلم يزل الشيطان يحسنُ لهم أعمالهم ويزيئها في قلوبهم حتى استحسِنوها ورأوها حقًا وصار ذلك عقيدة في قلوبهم وصفة راسخة ملازمة لهم؛ فلذلك رضوا بما هم عليه من الشرِّ والقبايح.

﴿١٢٣﴾ وهؤلاء الذين في الظلمات يعمهون وفي باطلهم يترددون غير متساوين؛ فمنهم القادة والرؤساء والمتبوعون، ومنهم التابعون المرؤوسون، والأولون منهم الذين فازوا بأشقى الأحوال، ولهذا قال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِيهَا﴾؛ أي: الرؤساء الذين قد كبر جرمهم واشتدَّ طغيانهم؛ ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾:

بالخديعة والدعوة إلى سبيل الشيطان ومحاربة الرسل وأتباعهم بالقول والفعل، وإنما مكروهم وكيدهم يعود على أنفسهم؛ لأنهم يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

وكذلك يجعل الله كبار أئمة الهدى وأفاضلهم يناضلون هؤلاء المجرمين ويردّون عليهم أقوالهم، ويجاهدونهم في سبيل الله، ويسلكون بذلك السبيل الموصلة إلى ذلك، ويعينهم الله، ويسدّد رأيهم، ويثبت أقدامهم، ويداول الأيام بينهم وبين أعدائهم حتى يدول الأمر في عاقبته بنصرهم وظهورهم. والعاقبة للمتقين.

﴿١٢٤﴾ وإنما ثبت أكابر المجرمين على باطلهم، وقاموا برّد الحق الذي جاءت به الرسل، حسداً منهم وبغياً، فقالوا: ﴿لن نؤمن حتى نُؤتى مثل ما أوتي رسلُ الله﴾: من النبوة والرسالة، وفي هذا اعتراض منهم على الله، وعجب بأنفسهم، وتكبر على الحق الذي أنزله على أيدي رسله، وتحجّر على فضل الله وإحسانه، فردّ الله عليهم اعتراضهم الفاسد، وأخبر أنهم لا يصلحون للخير، ولا فيهم ما يوجب أن يكونوا من عباد الله الصالحين، فضلاً أن يكونوا من النبيين والمرسلين، فقال: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾؛ فمن علّمه يضلّح لها ويقوم بأعبائها وهو متّصف بكل خلق جميل ومتبرئ من كل خلق دنيء، أعطاه الله ما^(١) تقتضيه حكمته أصلاً وتبعاً، ومن لم يكن كذلك؛ لم يضع أفضل مواهبه عند من لا يستأهله ولا يزكو عنده.

وفي هذه الآية دليل على كمال حكمة الله تعالى: لأنّه وإن كان تعالى رحيماً واسع الجود كثير الإحسان؛ فإنه حكيم لا يضع جوده إلا عند أهله. ثم توعد المجرمين، فقال: ﴿سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله﴾؛ أي: إهانته وذل؛ كما تكبروا على الحق؛ أذلهم الله، ﴿وعذاب شديد بما كانوا يمكرون﴾؛ أي: بسبب مكروهم لا ظلماً منه تعالى.

- ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَفْرَحْ صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يَرِدْ أَنْ يَضِلَّهُ يُجْعَلْ صَدْرُهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿١٢٥﴾ يقول تعالى مبيناً لعباده علامة سعادة العبد وهدايته وعلامة شقاوته وضلاله: إنّ من انشرح صدره للإسلام؛ أي: اتسع وانفسح فاستنار بنور الإيمان وحيي بضوء اليقين فاطمأنت بذلك نفسه وأحبّ الخير وطوّعت له نفسه فعله متلذذاً

(١) في (ب): «أعطاه منها».

به غير مستثقل؛ فإن هذا علامة على أن الله قد هداه ومنّ عليه بالتوفيق وسلوك أقوم الطريق، وأن علامة من يُريد الله ﴿أَنْ يُضِلَّهُ﴾: أنه ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾؛ أي: في غاية الضيق عن الإيمان والعلم واليقين، قد انغمس قلبه في الشبهات والشهوات، فلا يصل إليه خير، لا ينشرح قلبه لفعل الخير. كأنه من ضيقه وشدته يكاد ﴿يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾؛ أي: كأنه يكلف الصعود إلى السماء الذي لا حيلة فيه، وهذا سببه عدم إيمانهم؛ هو الذي أوجب أن يجعل الله الرجس عليهم؛ لأنهم سدّوا على أنفسهم باب الرحمة والإحسان، وهذا ميزان لا يعول وطريق لا يتغير؛ فإن من أعطى واتقى وصدق بالحسنى؛ ييسره الله لليسرى، ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى؛ فسييسره للعسرى.

﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَّهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُمْ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿١٢٦﴾ أي: معتدلاً موصلاً إلى الله وإلى دار كرامته، قد بُيِّنَتْ أحكامه، وفُصِّلَتْ شرائعه، وميز الخير من الشر. ولكن هذا التفصيل والبيان ليس لكل أحد، إنما هو ﴿لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾؛ فإنهم الذين علموا فانتفعوا بعلمهم، وأعد الله لهم الجزاء الجزيل والأجر الجميل.

﴿١٢٧﴾ فلهذا قال: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، وسميت الجنة دار السلام لسلامتها من كل عيب وآفة وكدر وهم وغم وغير ذلك من المنغصات، ويلزم من ذلك أن يكون نعيمها في غاية الكمال ونهاية التمام؛ بحيث لا يقدر على وصفه الواصفون، ولا يتمنى فوقه المتمنون؛ من نعيم الروح والقلب والبدن، ولهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذذ الأعين وهم فيها خالدون. ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾: الذي تولى تدبيرهم وتربيتهم، ولطف بهم في جميع أمورهم، وأعانهم على طاعته، وبسرّ لهم كل سبب موصل إلى محبته، وإنما تولّاهم بسبب أعمالهم الصالحة ومقدماتهم التي قصدوا بها رضا مولاهم؛ بخلاف من أعرض عن مولا، واتبع هواه؛ فإنه سلط عليه الشيطان، فتولّاه، فأفسد عليه دينه ودنياه.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشَرَ الْجَنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ وكذلك تولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون ﴿١٢٩﴾

يَمَعَشَرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ مَا يَنبَغِي وَرُسُدُكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ لَحْيَهُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٢٥﴾ ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَىٰ يُظَلِّمُ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٢٦﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّنَّا عَمَلُكُمْ وَمَا رُبُّكَ يَفْضِلُ عَمَّا يَسْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةٍ قَوِيَةٍ ۖ آخِرِينَ ﴿١٢٨﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٢٩﴾ قُلْ يَقَوِّرْ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴿١٣١﴾

﴿١٢٨﴾ يقول تعالى: ﴿ويوم يحشرهم جميعاً﴾؛ أي: جميع الثقلين من الإنس والجن، مَنْ ضَلَّ مِنْهُمْ وَمَنْ أَضَلَّ غَيْرَهُ، فيقول موبخاً للجن الذين أضلُّوا الإنس وزينوا لهم الشرَّ وأزروهم إلى المعاصي: ﴿يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس﴾؛ أي: من إضلالهم وصدهم عن سبيل الله؛ فكيف أقدمتم على محارمي، وتجزأتهم على معاندة رسلي، وقمتم محاربين لله، ساعين في صدِّ عباد الله عن سبيله إلى سبيل الجحيم؟! فالיום حَقَّتْ عليكم لعنتي، ووجبت لكم نقمتي، وسنزيدكم من العذاب بحسب كفرِكُمْ وإضلالكم لغيرِكُمْ، وليس لكم عذرٌ به تعتذرون، ولا ملجأ إليه تلجؤون، ولا شافع يشفع، ولا دعاء يُسمع! فلا تسأل حينئذٍ عما يحل بهم من النِّكال والخِزي والوبال، ولهذا لم يذكر الله لهم اعتذاراً، وأما أولياؤهم من الإنس؛ فأبدوا عذراً غير مقبول، فقالوا: ﴿ربَّنَا استمتع بعضنا ببعض﴾؛ أي: تمتع كلُّ من الجنّي والإنسي بصاحبه وانتفع به؛ فالجنّي يستمتع بطاعة الإنسي له وعبادته وتعظيمه واستعاذته به، والإنسي يستمتع بنيل أغراضه وبلوغه بحسب خدمة الجنّي له بعض شهواته؛ فإنَّ الإنسيَّ يعبدُ الجنّيَّ فيخدمه الجنّي ويحصلُ له بعض الحوائج الدنيويَّة؛ أي: حصل منا من الذنوب ما حصل، ولا يمكن ردُّ ذلك. ﴿وبلغنا أجَلنا الذي أَجَلْتْ لَنَا﴾؛ أي: وقد وصلنا المحل الذي تُجازي فيه بالأعمال؛ فافعل بنا الآن ما تشاء، واحكم فينا بما تريد، قد انقطعت حُجَّتُنا، ولم يبق لنا عذرٌ، والأمر أمرُك والحكم حكمُك، وكأنَّ في هذا الكلام منهم نوع تضرُّع وترقُّق، ولكن في غير أوانه، ولهذا حكم فيهم بحكمه العادل، الذي لا جُور فيه، فقال: ﴿النارُ مثواكم خالدين فيها﴾، ولما كان هذا الحكم من مقتضى حكمته وعلمه؛ ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾؛ فكما أن علمه وسع الأشياء

كلَّهَا وَعَمَّهَا؛ فَحِكْمَتُهُ الْغَائِيَّةُ شَمِلَتْ الْأَشْيَاءَ، وَعَمَّتْهَا، وَوَسَعَتْهَا.

﴿١٢٩﴾ ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بِعَضِّ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾؛ أَي: وَكَمَا وَلَّيْنَا الْجِنَّ الْمُرْدَةَ وَسُلْطَنَاهُمْ عَلَى إِضْلَالِ أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ وَعَقَّدْنَا بَيْنَهُمْ عَقْدَ الْمَوَالَاةِ وَالْمُوَافَقَةِ بِسَبَبِ كَسْبِهِمْ وَسَعْيِهِمْ بِذَلِكَ؛ كَذَلِكَ مِنْ سِتْنَانَا أَنْ نُؤَلِّي كُلَّ ظَالِمٍ ظَالِمًا مِثْلَهُ يُؤْزِرُهُ إِلَى الشَّرِّ وَيُحِثُّهُ عَلَيْهِ وَيَزْهَدُهُ فِي الْخَيْرِ وَيَنْفِرُهُ عَنْهُ، وَذَلِكَ مِنْ عَقُوبَاتِ اللَّهِ الْعَظِيمَةِ الشَّنِيعِ أَثَرِهَا الْبَلِيعِ خَطَرِهَا، وَالذَّنْبِ ذَنْبُ الظَّالِمِ؛ فَهُوَ الَّذِي أَدْخَلَ الضَّرَرَ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى نَفْسِهِ جَنَى، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ.

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْعِبَادَ إِذَا كَثُرَ ظَلْمُهُمْ وَفَسَادُهُمْ وَمَنْعُهُمُ الْحَقُوقَ الْوَاجِبَةَ؛ وَلِيَّ عَلَيْهِمْ ظُلْمَةٌ يَسُومُونَهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، وَيَأْخُذُونَ مِنْهُمْ بِالظُّلْمِ وَالْجَوْرِ أَضْعَافَ مَا مَنَعُوا مِنْ حَقُوقِ اللَّهِ وَحَقُوقِ عِبَادِهِ عَلَى وَجْهِ غَيْرِ مَاجُورِينَ فِيهِ وَلَا مُحْتَسِبِينَ؛ كَمَا أَنَّ الْعِبَادَ إِذَا صَلَحُوا وَاسْتَقَامُوا؛ أَصْلَحَ اللَّهُ رِعَاتَهُمْ، وَجَعَلَهُمْ أَثْمَةً عَدْلٍ وَإِنصَافٍ، لَا وَلَاةَ ظَلَمٍ وَاعْتِسَافٍ.

﴿١٣٠﴾ ثُمَّ وَبَّخَ اللَّهُ جَمِيعَ مَنْ أَعْرَضَ عَنِ الْحَقِّ وَرَدَّهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ، وَبَيَّنَّ خَطَأَهُمْ، فَاعْتَرَفُوا بِذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسَلٌ مِنْكُمْ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾: الْوَاضِحَاتِ الْبَيِّنَاتِ الَّتِي فِيهَا تَفَاصِيلُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، ﴿وَيَنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾: وَيَعْلَمُونَكُمْ أَنَّ النِّجَاةَ فِيهِ وَالْفُورَ إِنَّمَا هُوَ بِامْتِثَالِ أَمْرِ اللَّهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، وَأَنَّ الشَّقَاءَ وَالْخُسْرَانَ فِي تَضْيِيعِ ذَلِكَ، فَأَقْرُوا بِذَلِكَ وَاعْتَرَفُوا، فَقَالُوا: بَلَى، ﴿شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾: بِزِينَتِهَا وَزُخْرِفِهَا وَنَعِيمِهَا، فَاطْمَأَنَّا بِهَا وَرَضُوا وَالْهَتَمُ عَنِ الْآخِرَةِ، ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾: فَقَامَتْ عَلَيْهِمْ حُجَّةُ اللَّهِ، وَعَلِمَ حَيْثُذُ كُلِّ أَحَدٍ حَتَّى هُمْ بِأَنْفُسِهِمْ عَدْلَ اللَّهِ فِيهِمْ، [فَقَالَ لَهُمْ حَاكِمًا عَلَيْهِمْ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ: ادْخُلُوا فِي جَمَلَةٍ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ؛ صَنَعُوا كَصْنَعِكُمْ، وَاسْتَمْتَعُوا بِخُلُقِهِمْ كَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ، وَخَاضُوا بِالْبَاطِلِ كَمَا خَضْتُمْ؛ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ؛ أَي: الْأَوَّلُونَ مِنْ هَؤُلَاءِ وَالْآخِرُونَ، وَأَيُّ خُسْرَانٍ أَعْظَمَ مِنْ خُسْرَانِ جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَحَرَمَانِ جَوَارِ أَكْرَمِ الْأَكْرَمِينَ؟]!

(١) فِي النُّسَخَتَيْنِ لَا يَوْجَدُ تَفْسِيرٌ لِلآيَةِ (١٣١)، وَمَا بَيْنَ الْمَعْقُوفَتَيْنِ تَفْسِيرٌ لِلآيَةِ (١٨) مِنْ سُورَةِ الْأَحْقَافِ، فَلَعَلَّ الشَّيْخَ اسْتَشْهَدَ بِهَا لِمُنَاسِبَتِهَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿١٣٢﴾ وَلَكِنَّهُمْ إِنْ اِشْتَرَكُوا فِي الْخُسْرَانِ؛ فَإِنَّهُمْ يَتَفَاوَتُونَ فِي مِقْدَارِهِ تَفَاوُتًا عَظِيمًا، ﴿وَلِكُلٍّ﴾: مِنْهُمْ ﴿دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾: بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ، لَا يُجْعَلُ قَلِيلُ الشَّرِّ مِنْهُمْ ككَثِيرِهِ، وَلَا التَّابِعُ كَالْمَتَّبِعِ، وَلَا الْمَرْؤُوسُ كَالرَّئِيسِ؛ كَمَا أَنَّ أَهْلَ الثَّوَابِ وَالْجَنَّةِ وَإِنْ اِشْتَرَكُوا فِي الرِّيحِ وَالْفَلَاحِ وَدُخُولِ الْجَنَّةِ؛ فَإِنَّ بَيْنَهُمْ مِنَ الْفَرْقِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، مَعَ أَنَّهُمْ كُلُّهُمْ [قَدْ] رَضُوا بِمَا آتَاهُمْ مَوْلَاهُمْ وَقَنَعُوا بِمَا حَبَاهُمْ، فَنَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أَهْلِ الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُقَرَّبِينَ مِنْ عِبَادِهِ وَالْمُصْطَفَيْنِ مِنْ خَلْقِهِ وَأَهْلِ الصَّفْوَةِ مِنْ أَهْلِ وَدَادِهِ. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾: فَيَجَازِي كُلًّا بِحَسَبِ عَمَلِهِ، وَبِمَا يَعْلَمُهُ مِنْ مَقْصَدِهِ.

﴿١٣٣﴾ وَإِنَّمَا أَمَرَ اللَّهُ الْعِبَادَ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَنَهَاهُمْ عَنِ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ رَحْمَةً بِهِمْ وَقَصْدًا لِمَصَالِحِهِمْ، وَالْأَلَا؛ فَهُوَ الْغَنِي بِذَاتِهِ عَنْ جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ؛ فَلَا تَنْفَعُهُ طَاعَةُ الطَّائِعِينَ؛ كَمَا لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ الْعَاصِينَ. ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾: بِالْإِهْلَاكِ، ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾: فَإِذَا عَرَفْتُمْ بِأَنَّكُمْ لَا بَدْءَ أَنْ تَنْتَقِلُوا مِنْ هَذِهِ الدَّارِ كَمَا انْتَقَلَ غَيْرُكُمْ، وَتَرْحَلُونَ مِنْهَا وَتَخْلُونَهَا لِمَنْ بَعْدَكُمْ كَمَا رَحَلَ عَنْهَا مَنْ قَبْلَكُمْ وَخَلَّوْهَا لَكُمْ؛ فَلَمَّ اتَّخَذْتُمُوهَا قَرَارًا، وَتَوَطَّنْتُمْ بِهَا، وَنَسِيتُمْ أَنَّهَا دَارُ مَمَرٍّ، لَا دَارُ مَقَرٍّ وَأَنْ أَمَامَكُمْ دَارٌ هِيَ الدَّارُ الَّتِي جَمَعْتُ كُلَّ نَعِيمٍ وَسَلَمْتُ مِنْ كُلِّ آفَةٍ وَنَقَصْتُ؟ وَهِيَ الدَّارُ الَّتِي يَسْعَى إِلَيْهَا الْأَوَّلُونَ وَالْآخَرُونَ، وَيَرْتَحِلُ^(١) نَحْوَهَا السَّابِقُونَ وَاللَّاحِقُونَ، الَّتِي إِذَا وَصَلُوهَا؛ فَتَمَّ الْخُلُودُ الدَّائِمُ وَالْإِقَامَةُ الْإِلَازِمَةُ وَالْغَايَةُ الَّتِي لَا غَايَةَ وَرَاءَهَا وَالْمَطْلُوبُ الَّذِي يَنْتَهِي إِلَيْهِ كُلُّ مَطْلُوبٍ وَالْمَرْغُوبُ الَّذِي يَضْمَحَلُّ دُونَهُ كُلُّ مَرْغُوبٍ، هُنَاكَ وَاللَّهُ مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَيَتَنَافَسُ فِيهِ الْمُتَنَافِسُونَ مِنْ لَذَّةِ الْأَرْوَاحِ وَكَثْرَةِ الْأَفْرَاحِ وَنَعِيمِ الْأَبْدَانِ وَالْقُلُوبِ وَالْقَرَبِ مِنْ عِلَامِ الْغُيُوبِ؛ فَلِلَّهِ هِمَّةٌ تَعَلَّقَتْ بِتِلْكَ الْكِرَامَاتِ، وَإِرَادَةٌ سَمَتْ إِلَى أَعْلَى الدَّرَجَاتِ، وَمَا أَبْخَسَ حَظٌّ مِنْ رَضِيَ بِالْذُّونِ، وَأَدْنَى هِمَّةٍ مِنْ اخْتَارَ صَفْقَةَ الْمَغْبُورِ!

﴿١٣٤﴾ وَلَا يَسْتَبْعِدُ الْمَعْرُضُ الْغَافِلَ سُرْعَةَ الْوُصُولِ إِلَى هَذِهِ الدَّارِ؛ فَإِنَّ ﴿مَا تَوَعَدُونَ لَا تِ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾: لِلَّهِ، فَارْزُقُوا مِنْ عِقَابِهِ؛ فَإِنَّ نَوَاصِيَكُمْ تَحْتَ قَبْضَتِهِ، وَأَنْتُمْ تَحْتَ تَدْبِيرِهِ وَتَصْرِفِهِ.

(١) فِي (ب): «وَيَرْحَلُ».

﴿١٣٥﴾ ﴿قُلْ﴾: يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ لِقَوْمِك إِذَا دَعَوْتَهُمْ إِلَى اللَّهِ وَبَيَّنْتَ لَهُمْ مَالَهُمْ وَمَا عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّهِ فَاثْبُتُوا مِنَ الْإِنْقِيَادِ لِأَمْرِهِ وَاتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَاسْتَمِرُّوا عَلَى شُرَكَاهُمْ: ﴿يَا قَوْمِ ااعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾؛ أَي: عَلَى حَالَتِكُمْ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا وَرَضِيتُمُوهَا لِأَنْفُسِكُمْ، ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾: عَلَى أَمْرِ اللَّهِ وَاتَّبِعْ لِمَرْضَى اللَّهِ: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾: أَنَا أَوْ أَنْتُمْ، وَهَذَا مِنَ الْإِنْصَافِ بِمَوْضِعٍ عَظِيمٍ؛ حَيْثُ بَيَّنَّ الْأَعْمَالُ وَعَامِلِيهَا، وَجَعَلَ الْجَزَاءَ مَقْرُونًا بِنَظَرِ الْبَصِيرِ، ضَارِبًا فِيهِ صَفْحًا عَنِ التَّصْرِيحِ الَّذِي يَغْنِي عَنْهُ التَّلْوِيحُ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ الْعَاقِبَةَ الْحَسَنَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِلْمُتَّقِينَ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ، وَأَنَّ كُلَّ مُعْرِضٍ عَنْ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عَاقِبَتُهُ عَاقِبَةُ سُوءٍ وَشَرٍّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ﴾: فَكُلُّ ظَالِمٍ وَإِنْ تَمَتَّعَ فِي الدُّنْيَا بِمَا تَمَتَّعَ بِهِ؛ فَنَهَايَتُهُ فِيهِ الْإِضْمَحْلَالُ وَالتَّلَفُ؛ إِنَّ اللَّهَ لَيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْعَلُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْفُسُكُمْ وَحَرَّثْ جَحْشًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءَ بِرِزْقِهِمْ وَأَنْعَمَ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمَ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

﴿١٣٦﴾ يخبر تعالى عما عليه المشركون المكذبون للنبي ﷺ من سفاهة العقل وخفة الأحلام والجهل البليغ، وعدد تبارك وتعالى شيئاً من خرافاتهم؛ لينبّه بذلك على ضلالهم والحذر منهم، وأن معارضة أمثال هؤلاء السفهاء للحق الذي جاء به الرسول لا تقدر فيه أصلاً؛ فإنهم لا أهلية لهم في مقابلة الحق، فذكر من ذلك أنهم: ﴿جَعَلُوا لِلَّهِ نَصِيباً مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ﴾: وَلِشُرَكَائِهِمْ مِنْ ذَلِكَ

نصيباً، والحال أن الله تعالى هو الذي ذراه للعباد وأوجده رزقاً، فجمعوا بين محذورين محظورين، بل ثلاثة محاذير:

مُتَّهَم على الله في جعلهم له نصيباً مع اعتقادهم أن ذلك منهم تبرع.
وإشراك الشركاء الذين لم يرزقوهم ولم يوجدوا لهم شيئاً في ذلك.

وحكمهم الجائر في أن ما كان لله لم يبالوا به ولم يهتموا، ولو كان واصلاً إلى الشركاء وما كان لشركائهم؛ اعتنوا به واحتفظوا به ولم يصل إلى الله منه شيء، وذلك أنهم إذا حصل لهم من زروعهم وثمارهم وأنعامهم التي أوجدها الله لهم شيء؛ جعلوه قسمين: قسماً قالوا: هذا لله بقولهم وزعمهم، وإلا؛ فالله لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه ولا يقبل عمل من أشرك به، وقسماً جعلوه حصة شركائهم من الأوثان والأنداد؛ فإن وصل شيء مما جعلوه لله واختلط بما جعلوه لغيره؛ لم يبالوا بذلك، وقالوا: الله غني عنه فلا يرثونه، وإن وصل شيء مما جعلوه لآلهتهم إلى ما جعلوه لله؛ ردوه إلى محلّه، وقالوا: إنها فقراء، لا بد من رد نصيبها؛ فهل أسوأ من هذا الحكم وأظلم حيث جعلوا ما للمخلوق يجتهد فيه وينصح ويحفظ أكثر مما يفعل بحق الله.

ويحتمل أن تأويل الآية الكريمة ما ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ: أنه قال عن الله تعالى: أنه قال: «أنا أغني الشركاء عن الشرك، من أشرك معي شيئاً تركته وشركه»^(١)، وأن معنى الآية أن ما جعلوه وتقربوا به لأوثانهم فهو تقرب خالص لغير الله، ليس لله منه شيء، وما جعلوه لله على زعمهم؛ فإنه لا يصل إليه؛ لكونه شركاً، بل يكون حظ الشركاء والأنداد؛ لأن الله غني عنه، لا يقبل العمل الذي أشرك به معه أحد من الخلق.

﴿١٣٧﴾ ومن سَفَهَ المشركين وضلالهم أنه ﴿زَيَّنَ لَكثير من المشركين﴾ شركاؤهم - أي: رؤسائهم وشياطينهم - قتل أولادهم، وهو الواد الذين يدفنون أولادهم خشية الافتقار والإناث خشية العار، وكل هذا من خدع الشياطين الذين يريدون أن يُردوهم بالهلاك ويلبسوا عليهم دينهم فيفعلون الأفعال التي في غاية القبح، ولا يزال شركاؤهم يزيّنونها لهم حتى تكون عندهم من الأمور الحسنة والخصال المستحسنة، ولو شاء الله أن يمتنعهم ويحول بينهم وبين هذه الأفعال ويمنع أولادهم عن قتل

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الأبوين لهم؛ ما فعلوه، ولكن اقتضت حكمته التخليّة بينهم وبين أفعالهم؛ استدراجاً منه لهم وإمهالاً لهم وعدم مبالاة بما هم عليه، ولهذا قال: ﴿فَذَرُهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: دعهم مع كذبهم وافتراءهم، ولا تحزن عليهم؛ فإنهم لن يضرّوا الله شيئاً.

﴿١٣٨﴾ ومن أنواع سفاهتهم أن الأنعام التي أحلّها الله لهم عموماً وجعلها رزقاً ورحمة يتمتّعون بها ويتنفّعون قد اخترعوا فيها بدعاً وأقوالاً من تلقاء أنفسهم؛ فعندهم اصطلاح في بعض الأنعام والحرث أنهم يقولون فيها: ﴿هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَزَنٌ حِجْرٌ﴾؛ أي: محرم. لا يطعمه ﴿إِلَّا مِنْ نَشَاءٍ﴾؛ أي: لا يجوز أن يطعمه أحدٌ إلّا مَنْ أَرَدْنَا أَنْ يُطْعِمَهُ أَوْ وَصَفَنَاهُ بِوَصْفٍ مِنْ عِنْدِنَا، وكلُّ هذا بزعمهم لا مستند لهم ولا حجة إلّا أهويتهم وآراؤهم الفاسدة.

وأنعام ليست محرّمة من كل وجه، بل يحرمون ظهورها؛ أي: بالركوب والحمل عليها، ويحمون ظهرها، ويسمونها الحام.

وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها، بل يذكرون اسم أصنامهم وما كانوا يعبدون من دون الله عليها، وينسبون تلك الأفعال إلى الله، وهم كذبةٌ فجّارٌ في ذلك. ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: على الله من إحلال الشرك وتحريم الحلال من الأكل والمنافع.

﴿١٣٩﴾ ومن آرائهم السخيفة أنهم يجعلون بعض الأنعام ويعيّنونها محرّماً ما في بطنها على الإناث دون الذكور، فيقولون: ﴿مَا فِي بَطْنِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِدُكُورِنَا﴾؛ أي: حلال لهم لا يشاركهم فيها النساء. ﴿وَمَحْرَمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾؛ أي: نسائنا، هذا إذا وُلِدَ حيّاً، وإن يكن ما في بطنها يولد ميتاً؛ فهم فيه شركاء؛ أي: فهو حلال للذكور والإناث. ﴿سَيَجْزِيهِمْ﴾: الله ﴿وَصَفَّهُمْ﴾: حيث وصفوا ما أحلّه الله بأنه حرام، ووصفوا الحرام بالحلال، فناقضوا شرع الله وخالفوه ونسبوا ذلك إلى الله. ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾؛ حيث أمهل لهم ومكّنهم مما هم فيه من الضلال، ﴿عَلِيمٌ﴾: بهم لا تخفى عليه خافية، وهو تعالى يعلم بهم، وبما قالوه عليه، وافتَرَوْهُ وهو يعافيه، ويرزقهم جل جلاله.

﴿١٤٠﴾ ثم بيّن خسranهم وسفاهة عقولهم، فقال: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ أي: خسروا دينهم وأولادهم وعقولهم، وصار وصفهم بعد العقول الرزينة السّفَهَ المردي والضلال، ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: ما جعله رحمة لهم وساقه رزقاً لهم، فردّوا كرامة ربّهم، ولم يكتفوا بذلك، بل

وصفوها بأنها حرام وهي من أحلّ الحلال، وكل هذا ﴿افتراء على الله﴾؛ أي: كذب يَكْذِب به كلُّ معانِد كفارٍ، ﴿قد ضَلُّوا وما كانوا مهتدين﴾؛ أي: قد ضلُّوا ضلالاً بعيداً ولم يكونوا مهتدين في شيء من أمورهم.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَاتُ مِثْلَ مِثْلَيْهَا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

﴿١٤١﴾ لما ذكر تعالى تصرف المشركين في كثير مما أحله الله لهم من الحروث والأنعام؛ ذكر تبارك وتعالى نعمته عليهم بذلك ووظيفتهم اللازمة عليهم في الحروث والأنعام، فقال: ﴿وهو الذي أنشأ جنات﴾؛ أي: بساتين فيها أنواع الأشجار المتنوعة والنباتات المختلفة، ﴿معروشاتٍ وغير معروشاتٍ﴾؛ أي: بعض تلك الجنات مجعول لها عريش^(١) تنتشر عليه الأشجار ويعاونها في النهوض عن الأرض، وبعضها خالٍ من العروش تنبت على ساقٍ أو تنفرش في الأرض. وفي هذا تنبيه على كثرة منافعها وخيراتها، وأنه تعالى علّم العباد كيف يعرشونها وينمونها. ﴿و﴾: أنشأ تعالى ﴿النخل والزرع مختلفاً أَكْلُهُ﴾؛ أي: كله في محل واحد، ويشرب من ماء واحد، ويفضل الله بعضه على بعض في الأكل، وخص تعالى النخل والزرع على اختلاف أنواعه لكثرة منافعها ولكونها هي القوت لأكثر الخلق. ﴿و﴾: أنشأ تعالى ﴿الزيتون والرُّمات متشابهاً﴾: في شجره، ﴿وغير متشابه﴾: في ثمره وطعمه، كأنه قيل: لأي شيء أنشأ الله هذه الجنات؟ وما عطف عليها؟ فأخبر أنه أنشأها لمنافع العباد، فقال: ﴿كلوا من ثمره﴾؛ أي: النخل والزرع، ﴿إذا أثمر وآتوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾؛ أي: أعطوا حقَّ الزرع، وهو الزكاة ذات الأنصباء المقدَّرة في الشرع؛ أمرهم أن يعطوها يوم حصادها، وذلك لأنَّ حصادَ الزرع بمنزلة حَوْلانِ الحول؛ لأنه الوقت الذي تشوّف إليه نفوس الفقراء، ويسهل حينئذٍ إخراجُه على أهل الزرع، ويكون الأمر فيها ظاهراً لمن أخرجها حتى يتميَّز المخرج ممَّن لا يخرج.

وقوله: ﴿ولا تسرفوا﴾؛ يعمُّ النهي عن الإسراف في الأكل، وهو مجاوزة الحدِّ والعادة. وأن يأكل صاحبُ الزرع أكلاً يضرُّ بالزكاة، والإسراف في إخراج حقِّ

(١) في (ب): «له عرش».

الزرع بحيث يخرج فوق الواجب عليه أو يضر نفسه أو عائلته أو غرماءه؛ فكلُّ هذا من الإسراف الذي نهى الله عنه الذي لا يحبُّه الله بل يبغضه، ويمقتُّ عليه.

وفي هذه الآية دليلٌ على وجوب الزكاة في الثمار، وأنه لا حَوْلَ لها، بل حولها حصاؤها في الزروع وجذاذ النخيل، وأنه لا تتكرَّر فيها الزكاة لو مكثت عند العبد أحوالاً كثيرة إذا كانت لغير التجارة؛ لأنَّ الله لم يأمر بالإخراج منه إلَّا وقتَ حصاده، وأنَّه لو أصابها آفة قبل ذلك بغير تفريط من صاحب الزرع والثمر؛ أنه لا يضمنها، وأنه يجوز الأكل من النخل والزرع قبل إخراج الزكاة منه، وأنه لا يُحسَبُ ذلك من الزكاة، بل يزكي المال الذي يبقى بعده، وقد كان النبي ﷺ يبعثُ خارصاً يخرصُ للناس ثمارهم ويأمره أن يدع لأهلها الثلث أو الربع^(١) بحسب ما يعترها من الأكل وغيره من أهلها وغيرهم.

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشٌ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٣﴾ تَمْنِيَّةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الصَّانِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ اثْنَيْنِ قُلْ لِلَّذِكْرَيْنِ حَرَمٌ أَمِ الْإِنثَيْنِ أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَزْحَامُ الْإِنثَيْنِ تَبْغِي بَعْلَهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ لِلَّذِكْرَيْنِ حَرَمٌ أَمِ الْإِنثَيْنِ أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَزْحَامُ الْإِنثَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَلَكُمُ اللَّهُ يَهْدِيًا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

﴿١٤٢﴾ أي: ﴿و﴾ خلق وأنشأ ﴿من الأنعام حَمُولَةٌ وَفَرَشٌ﴾؛ أي: بعضها يحملون عليه وتركبونه، وبعضها لا تصلح للحمل والركوب عليها لصغرهما كالفُصْلان ونحوها، وهي الفرش؛ فهي من جهة الحمل والركوب تنقسم إلى هذين القسمين. وأما من جهة الأكل وأنواع الانتفاع؛ فإنها كلها تؤكل ويتنفع بها، ولهذا قال: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾؛ أي: طرده وأعماله التي من جملتها أن تُحَرِّمُوا بعض ما رزقكم الله. ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

(١) كما في حديث سهل بن أبي حثمة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خرصتم فخذوا ودعوا، الثلث فإن لم تدعوا الثلث فدعوا الربع» أخرجه الإمام أحمد (٤٤٨/٣)، وأبو داود (١٦٠٥)، والترمذي (٦٤٣)، وقال: «والعمل على حديث سهل بن أبي حثمة عند أكثر أهل العلم في الخرص».

فلا يأمركم إلا بما فيه مضررتكم وشقاؤكم الأبدي.

﴿١٤٣﴾ وهذه الأنعام التي امتنَّ الله بها على عباده، وجعلها كلها حلالاً طيباً، فصلَّها بأنّها: «ثمانية أزواج من الضأن اثنين»: ذكر وأنثى، «ومن المعز اثنين»: كذلك؛ فهذه أربعة، كلها داخلة فيما أحلَّ الله، لا فرق بين شيء منها؛ فقلَّ لهؤلاء المتكلفين الذين يحرمون منها شيئاً دون شيء أو يحرمون بعضها على الإناث دون الذكور ملزماً لهم بعدم وجود الفرق بين ما أباحوا منها وحرموا: «الذَّكَرَيْنِ»: من الضأن والمعز ﴿حَرَّمَ﴾: الله فلستم تقولون بذلك وتطردونه، «أمَّ الأنثيين»: حرم الله من الضأن والمعز؛ فليس هذا قولكم؛ لا تحريم الذكور الخُلص، ولا الإناث الخُلص من الصنفين، بقي إذا كان الرحم مشتملاً على ذكر وأنثى أو على مجهول، فقال: ﴿أمَّ﴾: تحرمون ﴿ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾؛ أي: أنثى الضأن وأنثى المعز من غير فرق بين ذكر وأنثى؛ فلستم تقولون أيضاً بهذا القول؛ فإذا كنتم لا تقولون بأحد هذه الأقوال الثلاثة التي حصرت الأقسام الممكنة في ذلك؛ فإلى أي شيء تذهبون؟ ﴿نبئوني بعلم إن كنتم صادقين﴾: في قولكم ودعواكم.

ومن المعلوم أنهم لا يمكنهم أن يقولوا قولاً سائغاً في العقل إلا واحداً من هذه الثلاثة، وهم لا يقولون بشيء منها، إنما يقولون: إن بعض الأنعام التي يصطَلِّحون عليها اصطلاحات من عند أنفسهم حرام على الإناث دون الذكور، أو محرمة في وقت من الأوقات، أو نحو ذلك من الأقوال التي يعلم علماً لا شك فيه أن مصدرها من الجهل المركب والعقول المختلة المنحرفة والآراء الفاسدة، وأنَّ الله ما أنزل بما قالوه من سلطان، ولا لهم عليه حجة ولا برهان.

﴿١٤٤﴾ ثم ذكر في الإبل والبقر مثل ذلك، فلما بيَّن بطلان قولهم وفساده؛ قال لهم قولاً لا حيلة لهم في الخروج من تَبَعْتِهِ إلا في اتباع شرع الله، «أم كنتم شهداء إذ وصَّاكم الله؟» أي: لم يبق عليكم إلا دعوى لا سبيل لكم إلى صدقها وصحتها، وهي أن تقولوا: إن الله وصَّانا بذلك وأوحى إلينا كما أوحى إلى رسله، بل أوحى إلينا وحياً مخالفاً لما دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب، وهذا افتراء لا يجهله أحد، ولهذا قال: «فمن أظلم ممَّن افترى على الله كذباً ليضلَّ الناس بغير علم؟» أي: مع كذبه وافتراءه على الله قصده بذلك [إضلال] ^(١) عباد الله عن سبيل

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «ضلَّال».

اللَّهُ بغير بَيِّنَةٍ منه ولا برهانٍ ولا عقل ولا نقل. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾: الذين لا إرادة لهم في غير الظلم والجور والافتراء على الله.

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَلَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْأَنْعَامِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾.

﴿١٤٥﴾ لما ذكر تعالى ذمَّ المشركين على ما حَرَّمُوا من الحلال ونسبوه إلى الله وأبطل قولهم؛ أمر تعالى رسوله أن يبين للناس ما حَرَّمه الله عليهم؛ ليعلموا أن ما عدا ذلك حلال؛ مَنْ نسب تحريمه إلى الله فهو كاذب مبطل؛ لأنَّ التحريم لا يكون إلا من عند الله على لسان رسوله، وقد قال لرسوله: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ﴾؛ أي: مُحَرَّمًا أَكَلَهُ؛ بقطع النظر عن تحريم الانتفاع بغير الأكل وعدمه، ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾: والميتة ما مات بغير ذكاة شرعية؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَحِلُّ؛ كما قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكَ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ﴾، ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾: وهو الدَّم الذي يخرج من الذبيحة عند ذكاتها؛ فإنه الدَّم الذي يضرُّ احتباسه في البدن؛ فإذا خرج من البدن؛ زال الضرر بأكل اللحم.

ومفهوم هذا اللفظ أنَّ الدَّم الذي يبقى في اللحم والعروق بعد الذبح أنه حلالٌ طاهرٌ، ﴿أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾؛ أي: فإن هذه الأشياء الثلاثة رجسٌ؛ أي: خبث نجس مضرٌّ حرمه الله لطفًا بكم ونزاهة لكم عن مقاربة الخبائث ﴿أَوْ﴾: إلا أن يكون ﴿فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾؛ أي: إلا أن تكون الذبيحة مذبوحة لغير الله من الأوثان والآلهة التي يعبدونها المشركون؛ فإن هذا من الفسق الذي هو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته. ومع هذا؛ فهذه الأشياء المحرَّمات؛ مَنْ اضْطُرَّ إليها؛ أي: حملته الحاجة والضرورة إلى أكل شيء منها بأن لم يكن عنده شيء وخاف على نفسه التلف، ﴿غَيْرِ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾؛ أي: ﴿غَيْرِ بَاغٍ﴾؛ أي: مريد لأكلها من غير اضطرار، ولا متعدٍّ؛ أي: متجاوز للحدِّ؛ بأن يأكل زيادة عن حاجته، ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرِ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: فالله قد سامح من كان بهذه الحال.

واختلف العلماء رحمهم الله في هذا الحصر المذكور في هذه الآية مع أن ثم محرّمات لم تُذكر فيها كالسباع وكل ذي مخلب من الطير ونحو ذلك: فقال بعضهم: إن هذه الآية نازلة قبل تحريم ما زاد على ما ذُكر فيها؛ فلا ينافي هذا الحصر المذكور فيها التحريم المتأخّر بعد ذلك؛ لأنه لم يجده فيما أوحى إليه في ذلك الوقت.

وقال بعضهم: إن هذه الآية مشتملة على سائر المحرّمات، بعضها صريحاً وبعضها يُؤخذ من المعنى وعموم العلة؛ فإنّ قوله تعالى في تعليل الميتة والدم ولحم الخنزير أو الأخير منها فقط: ﴿فإنه رجس﴾: وصف شامل لكل محرّم؛ فإنّ المحرّمات كلّها رجس وخبث، وهي من الخبائث المستقدرة التي حرّمها الله على عباده صيانة لهم وتكرمة عن مباشرة الخبيث الرجس، ويؤخذ تفاصيل الرجس المحرّم من السُنّة؛ فإنها تفسّر القرآن وتبيّن المقصود منه.

فإذا كان الله تعالى لم يحرم من المطاعم إلا ما ذُكر، والتحريم لا يكون مصدره إلا شرع الله؛ دلّ ذلك على أن المشركين الذين حرّموا ما رزقهم الله مفترون على الله، متقولون عليه ما لم يقل.

وفي هذه الآية احتمال قويّ لولا أن الله ذكر فيها الخنزير، وهو أن السياق في نقض أقوال المشركين المتقدّمة في تحريمهم لما أحله الله وخوضهم بذلك بحسب ما سوّلت لهم أنفسهم، وذلك في بهيمة الأنعام خاصة، وليس منها محرّم إلا ما ذكر في الآية؛ الميتة منها وما أهلك لغير الله به، وما سوى ذلك؛ فحلال. ولعل مناسبة ذكر الخنزير هنا على هذا الاحتمال أن بعض الجهّال قد يَدْخُلُهُ في بهيمة الأنعام، وأنه نوع من أنواع الغنم؛ كما قد يتوهّمه جهلة النصارى وأشباههم، فيمنونها كما يمنون المواشي، ويستحلّونها، ولا يفرّقون بينها وبين الأنعام.

﴿١٤٦﴾ فهذا المحرّم على هذه الأمة كلّها^(١) من باب التنزيه لهم والصيانة، وأما ما حرّم على أهل الكتاب؛ فبعضه طيب، ولكنه حرّم عليهم عقوبة لهم، ولهذا قال: ﴿وعلى الذين هادوا حَرَمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾: وذلك كالإبل وما أشبهها. وحرّمنا عليهم من البقر والغنم بعض أجزاءها، وهو شحومها وليس المحرّم جميع الشحوم منها، بل شحم الإلية والثرب، ولهذا استثنى الشحم الحلال من ذلك،

(١) في (ب): «كله».

فقال: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظَهْرُهُمَا أَوْ الْحوَايَا﴾؛ أي: الشحم المخالط للأعضاء، ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمِ ذَلِكَ﴾ -: التحريم على اليهود - ﴿جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾؛ أي: ظلمهم وتعذيبهم في حقوق الله وحقوق عباده، فحرّم الله عليهم هذه الأشياء عقوبة لهم ونكالاً. ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾: في كل ما نقول ونفعل ونحكم به، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ؟

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١٤٧).

﴿١٤٧﴾ أي: فَإِنْ كَذَّبَكَ هَؤُلَاءِ الْمَشْرُكُونَ؛ فاستمرّ على دعوتهم بالترغيب والترهيب، وأخبرهم بأن الله ﴿ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾؛ أي: عامة شاملة لجميع المخلوقات كلّها؛ فسارعوا إلى رحمته بأسبابها التي رأسها وأُسُها ومادتها تصديق محمد ﷺ فيما جاء به. ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: الذين كثُر إجرامهم وذنوبهم؛ فاحذروا الجرائم الموصلة لبأس الله التي أعظمها ورأسها تكذيب محمد ﷺ.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فَخْرُصُونَ﴾ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٤٩).

﴿١٤٨﴾ هذا إخبار من الله أن المشركين سيحتجون على شركهم وتحريمهم ما أحل الله بالقضاء والقدر، ويجعلون مشيئة الله الشاملة لكل شيء من الخير والشر حجة لهم في دفع اللوم عنهم، وقد قالوا ما أخبر الله أنهم سيقولونه؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ...﴾ الآية فأخبر تعالى أن هذه الحجة لم تزل الأمم المكذبة تدفع بها عنهم دعوة الرسل ويحتجون بها، فلم تُجد فيهم شيئاً ولم تنفعهم، فلم يزل هذا دأبهم حتى أهلكهم الله وأذاقهم بأسه؛ فلو كانت حجة صحيحة؛ لدفعت عنهم العقاب، ولما أحل الله بهم العذاب؛ لأنه لا يحل بأسه إلا بمن استحقه فعلم أنها حجة فاسدة وشبهة كاسدة من عدة أوجه:

منها: ما ذكر الله من أنها لو كانت صحيحة لم تحلّ بهم العقوبة.

ومنها: أن الحجة لا بد أن تكون حجة مستندة إلى العلم والبرهان، فأما إذا

كانت مستندة إلى مجرّد الظنّ والخرص الذي لا يغني من الحقّ شيئاً؛ فإنها باطلة، ولهذا قال: ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا﴾؛ فلو كان لهم علمٌ - وهم خصومُ الدّاء - لأخرجوه، فلما لم يخرجوه؛ عَلِمَ أنه لا علم عندهم. ﴿إن تتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾: ومن بنى حُججه على الخرص والظنّ؛ فهو مبطل خاسر؛ فكيف إذا بناها على البغي والعناد والشرّ والفساد.

﴿١٤٩﴾ ومنها: أن الحجة لله، البالغة، التي لم تبق لأحدٍ عذراً، التي اتَّفقت عليها الأنبياء والمرسلون والكتب الإلهية والآثار النبوية والعقول الصحيحة والفطر المستقيمة والأخلاق القويمة، فعلم بذلك أن كلّ ما خالف هذه الآية^(١) القاطعة باطل؛ لأن نقيض الحقّ لا يكون إلّا باطلاً.

ومنها: أن الله تعالى أعطى كلّ مخلوق قدرة وإرادة يتمكّن بها من فعل ما كُفِّ به؛ فلا أوجب الله على أحدٍ ما لا يقدر على فعله، ولا حرّم على أحدٍ ما لا يتمكّن على تركه؛ فالاحتجاج بعد هذا بالقضاء والقدر ظلّم محضّ وعنادٌ صرفٌ.

ومنها: أن الله تعالى لم يجبر العباد على أفعالهم، بل جعل أفعالهم تبعاً لاختيارهم؛ فإن شاءوا فعلوا وإن شاءوا كفّوا، وهذا أمر مشاهد لا ينكره إلا من كابر وأنكر المحسوسات؛ فإنّ كلّ أحد يفرق بين الحركة الاختيارية والحركة القسرية، وإن كان الجميع داخلاً في مشيئة الله ومندرجاً تحت إرادته.

ومنها: أن المحتجّين على المعاصي بالقضاء والقدر يتناقضون في ذلك؛ فإنهم لا يمكنهم أن يطردوا ذلك؛ بل لو أساء إليهم مسيء بضرب أو أخذ مال أو نحو ذلك، واحتج بالقضاء والقدر لما قبلوا منه هذا الاحتجاج ولغضبوا من ذلك أشدّ الغضب. فيا عجباً كيف يحتجون به على معاصي الله ومساخطه ولا يرضون من أحد أن يحتج به في مقابلة مساخطهم.

ومنها: أن احتجاجهم بالقضاء والقدر ليس مقصوداً، ويعلمون أنّه ليس بحجة، وإنما المقصود منه دفع الحقّ ويرون أن الحقّ بمنزلة الصائل؛ فهم يدفعونه بكلّ ما يخطر ببالهم من الكلام، [ولو كانوا يعتقدونه خطأ]^(٢).

(١) في (ب): «الأدلة».

(٢) في (أ): «المصيب عندهم والمخطئ». ثم قام الشيخ بشطب هذه العبارة من نسخة (ب) فقط. وكتب بدلها العبارة المثبتة أعلاه.

﴿قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (١٥٠).

﴿١٥٠﴾ أي: قل لمن حَرَّمَ ما أحل الله ونسب ذلك إلى الله: أحضروا شهداءكم الذين يشهدون أن الله حَرَّمَ هذا! فإذا قيل لهم هذا الكلام؛ فهم بين أمرين: إما أن لا يحضروا أحداً يشهد بهذا، فتكون دعواهم إذا باطلت خلية من الشهود والبرهان. وإما أن يحضروا أحداً يشهد لهم بذلك، ولا يمكن أن يشهد بهذا إلا كل أفاك أثيم غير مقبول الشهادة، وليس هذا من الأمور التي يصح أن يشهد بها العدو، ولهذا قال تعالى ناهياً نبيه وأتباعه عن هذه الشهادة: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾؛ أي: يسوون به غيره من الأنداد والأوثان؛ فإذا كانوا كافرين باليوم الآخر غير موحدين لله؛ كانت أهويتهم مناسبة لعقيدتهم، وكانت دائرة بين الشرك والتكذيب بالحق، فحريٌّ بهوى هذا شأنه أن ينهى الله خيار خلقه عن اتباعه، وعن الشهادة مع أربابه، وعلم حينئذ أن تحريمهم لما أحل الله صادرٌ عن تلك الأهواء المضلة.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْهِ أَنْ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهِنَّ وَرَدُنَّكُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَقِيلُونَ﴾ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَيْلِ وَالْيَتِيمَ وَالْيَتِيمَ لَا تَكْثِفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١٥٢) وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٥٣).

﴿١٥١﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قل﴾: لهؤلاء الذين حرّموا ما أحل الله: ﴿تعالوا أتْلُ ما حرّم ربّي عليكم﴾: تحريماً عاماً شاملاً لكل أحد، محتوياً على سائر المحرّمات من المأكّل والمشارب والأقوال والأفعال، ﴿أن لا تشركوا به شيئاً﴾؛ أي: لا قليلاً ولا كثيراً. وحقيقة الشرك بالله أن يُعبَد المخلوق كما يُعبَد الله أو يعظّم كما يعظّم الله أو يصرف له نوعٌ من خصائص الربوبية والإلهية، وإذا

تَرَكَ الْعَبْدُ الشَّرْكَ كُلَّهُ؛ صَارَ مُوَحِّدًا مُخْلِصًا لِلَّهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ؛ فَهَذَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ: أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. ثُمَّ بَدَأَ بِأَكْدِ الْحَقُوقِ بَعْدَ حَقِّهِ، فَقَالَ: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾: مِنَ الْأَقْوَالِ الْكَرِيمَةِ الْحَسَنَةِ وَالْأَفْعَالِ الْجَمِيلَةِ الْمُسْتَحْسَنَةِ؛ فَكُلُّ قَوْلٍ وَفِعْلٍ يَحْصُلُ بِهِ مَنَفْعَةٌ لِلْوَالِدَيْنِ أَوْ سُرُورٌ لِهَمَا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْإِحْسَانِ، وَإِذَا وُجِدَ الْإِحْسَانُ؛ انْتَفَى الْعَقُوقُ، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾: مِنْ ذُكُورٍ وَإِنَاثٍ ﴿مِنْ إِمْلَاقٍ﴾؛ أَي: بِسَبَبِ الْفَقْرِ وَضَيْقِكُمْ مِنْ رِزْقِهِمْ؛ كَمَا كَانَ ذَلِكَ مُوجُودًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْقَاسِيَةِ الظَّالِمَةِ، وَإِذَا كَانُوا مُنْهِيَيْنَ عَنْ قَتْلِهِمْ فِي هَذِهِ الْحَالِ وَهُمْ أَوْلَادُهُمْ؛ فَنَهَيْهِمْ عَنْ قَتْلِهِمْ لَغَيْرِ مُوجِبٍ أَوْ قَتْلِ أَوْلَادٍ غَيْرِهِمْ مِنْ بَابِ أَوَّلَى وَأُخْرَى. ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾؛ أَي: قَدْ تَكَفَّلْنَا بِرِزْقِ الْجَمِيعِ، فَلَسْتُمْ الَّذِينَ تَرْزُقُونَ أَوْلَادَكُمْ، بَلْ وَلَا أَنْفُسَكُمْ، فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ مِنْهُمْ ضَيْقٌ. ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾: وَهِيَ الذُّنُوبُ الْعِظَامُ الْمُسْتَفْحِشَةُ ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾؛ أَي: لَا تَقْرَبُوا الظَّاهِرَ مِنْهَا وَالْخَفِيَ أَوْ الْمُتَعَلِّقَ مِنْهَا بِالظَّاهِرِ وَالْمُتَعَلِّقَ بِالْقَلْبِ وَالْبَاطِنِ، وَالنَّهْيُ عَنْ قِرْبَانِ الْفَوَاحِشِ أُبْلَغُ مِنَ النَّهْيِ عَنْ مَجْرَدِ فَعْلِهَا؛ فَإِنَّهُ يَتَنَاوَلُ النَّهْيُ عَنْ مَقْدَمَاتِهَا وَوَسَائِلِهَا الْمُوصِلَةَ إِلَيْهَا. ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾: وَهِيَ النَّفْسُ الْمُسْلِمَةُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ بَرٍّ وَفَاجِرٍ: وَالْكَافِرَةُ الَّتِي قَدْ غُصِبَتْ بِالْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ، ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: كَالزَّانِي الْمُحْصَنِ وَالنَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالتَّارِكَ لِدِينِهِ الْمَفَارِقَ لِلْجَمَاعَةِ. ﴿ذَلِكُمْ﴾: الْمَذْكُورُ، ﴿وَصَّاكُم﴾ [اللَّهُ] ﴿بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: عَنْ اللَّهِ وَصِيَّتِهِ ثُمَّ تَحْفَظُونَهَا ثُمَّ تَرَاعُونَهَا وَتَقُومُونَ بِهَا. وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّهُ بِحَسَبِ عَقْلِ الْعَبْدِ يَكُونُ قِيَامُهُ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ.

﴿١٥٢﴾ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾: بِأَكْلٍ أَوْ مُعَاوَضَةٍ عَلَى وَجْهِ الْمَحَابَاةِ لِأَنْفُسِكُمْ أَوْ أَخْذٍ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ، ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ أَي: إِلَّا بِالْحَالِ الَّتِي تَصْلُحُ بِهَا أَمْوَالُهُمْ وَيَنْتَفِعُونَ بِهَا، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ قِرْبَانُهَا وَالتَّصَرُّفُ بِهَا عَلَى وَجْهِ يَضُرُّ الْيَتَامَى أَوْ عَلَى وَجْهِ لَا مَضَرَّةَ فِيهِ وَلَا مَصْلَحَةَ. ﴿حَتَّى يَبْلُغَ﴾: الْيَتِيمُ ﴿أَشَدَّهُ﴾؛ أَي: حَتَّى يَبْلُغَ وَيُرْشَدَ وَيَعْرِفَ التَّصَرُّفَ؛ فَإِذَا بَلَغَ أَشَدَّهُ؛ أُعْطِيَ حَيْثُذُ مَالِهِ، وَتَصَرَّفَ فِيهِ عَلَى نَظَرِهِ. وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْيَتِيمَ قَبْلَ بُلُوغِ الْأَشَدِّ مُحْجُوزٌ عَلَيْهِ، وَأَنْ وَلِيَّهُ يَتَصَرَّفُ فِي مَالِهِ بِالْأَحْظِ، وَأَنَّ هَذَا الْحَجْرَ يَنْتَهِي بِبُلُوغِ الْأَشَدِّ. ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾؛ أَي: بِالْعَدْلِ وَالْوَفَاءِ التَّامِّ؛ إِذَا اجْتَهَدْتُمْ فِي ذَلِكَ؛ فَلَا ﴿تَكْلُفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ أَي: بِقَدْرِ مَا تَسْعُهُ وَلَا تَضْيِيقَ عَنْهُ؛ فَمَنْ حَرَصَ عَلَى الْإِيفَاءِ فِي الْكَيْلِ وَالْوِزْنِ، ثُمَّ حَصَلَ مِنْهُ تَقْصِيرٌ؛ لَمْ يَفْطُرْ فِيهِ وَلَمْ

يَعْلَمُهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ^(١). وبهذه الآية [ونحوها] استدل الأصوليون بأن الله لا يكلف أحداً ما لا يطيق، وعلى أن من اتقى الله فيما أمر وفعل ما يمكنه من ذلك؛ فلا حرج عليه فيما سوى ذلك.

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ: قَوْلًا تَحْكُمُونَ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ، وَتَفْصِلُونَ بَيْنَهُمُ الْخُطَابَ، وَتَتَكَلَّمُونَ بِهِ عَلَى الْمَقَالَاتِ وَالْأَحْوَالِ، ﴿فَاعْدِلُوا﴾: فِي قَوْلِكُمْ بِمِرَاعَاةِ الصَّدَقِ فِيمَنْ تَحِبُّونَ وَمَنْ تَكْرَهُونَ وَالْإِنْصَافِ وَعَدَمِ كِتْمَانِ مَا يَلِزُكُمْ بَيَانُهُ؛ فَإِنَّ الْمِيلَ عَلَى مَنْ تَكْرَهُ بِالْكَلَامِ فِيهِ أَوْ فِي مَقَالَتِهِ مِنَ الظُّلْمِ الْمَحْرَمِ، بَلْ إِذَا تَكَلَّمْتُمُ الْعَالَمَ عَلَى مَقَالَاتِ أَهْلِ الْبِدْعِ؛ فَالْوَاجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُعْطِيَ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ وَأَنْ يَبَيِّنَ مَا فِيهَا مِنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَيُعْتَبَرَ قَرَبُهَا مِنَ الْحَقِّ وَبَعْدُهَا مِنْهُ، وَذَكَرَ الْفُقَهَاءُ أَنَّ الْقَاضِيَ يَجِبُ عَلَيْهِ الْعَدْلُ بَيْنَ الْخَصْمَيْنِ فِي لِحْظِهِ وَلَفْظِهِ. ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾: وَهَذَا يَشْمَلُ الْعَهْدَ الَّذِي عَاهَدَهُ عَلَيْهِ الْعِبَادُ؛ مِنَ الْقِيَامِ بِحَقُوقِهِ وَالْوَفَاءِ بِهَا، وَمَنِ الْعَهْدَ الَّذِي يَقَعُ التَّعَاهُدُ بِهِ بَيْنَ الْخَلْقِ؛ فَالْجَمِيعُ يَجِبُ الْوَفَاءُ بِهِ، وَيَحْرُمُ نَقْضُهُ وَالْإِخْلَالُ بِهِ. ﴿ذَلِكُمْ﴾: الْأَحْكَامُ الْمَذْكُورَةُ، ﴿وَصَّاكُمُ﴾ [اللَّهُ] ﴿بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾: مَا بَيَّنَّهُ لَكُمْ مِنَ الْأَحْكَامِ، وَتَقُومُونَ بِوَصِيَّةِ اللَّهِ لَكُمْ حَقَّ الْقِيَامِ، وَتَعْرِفُونَ مَا فِيهَا مِنَ الْحِكْمِ وَالْأَحْكَامِ.

﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا بَيَّنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَوَامِرِ الْكِبَارِ وَالشَّرَائِعِ الْمَهْمَةِ؛ أَشَارَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا هُوَ أَعْمُ مِنْهَا، فَقَالَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾؛ أَي: هَذِهِ الْأَحْكَامُ وَمَا أَشْبَهَهَا مِمَّا بَيَّنَّهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَوَضَّحَهُ لِعِبَادِهِ صِرَاطُ اللَّهِ الْمَوْصِلُ إِلَيْهِ وَإِلَى دَارِ كِرَامَتِهِ الْمَعْتَدِلِ السَّهْلِ الْمُخْتَصِرِ. ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾: لَتَنَالُوا الْفَوْزَ وَالْفَلَاحَ، وَتَدْرِكُوا الْأَمَالَ وَالْأَفْرَاحَ، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾؛ أَي: الطَّرِيقَ الْمَخَالِفَةَ لِهَذَا الطَّرِيقِ، ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾؛ أَي: تَضَلُّكُمْ عَنْهُ وَتَفَرَّقَكُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا؛ فَإِذَا ضَلَلْتُمْ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ؛ فَلَيْسَ ثَمَّ إِلَّا طَرِيقُ تَوْصِيلٍ إِلَى الْجَحِيمِ. ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: فَإِنَّكُمْ إِذَا قَمَسْتُمْ بِمَا بَيَّنَّهُ اللَّهُ لَكُمْ عِلْمًا وَعَمَلًا؛ صَرَّيْتُمْ مِنَ الْمُتَّقِينَ وَعِبَادِ اللَّهِ الْمَفْلَحِينَ. وَوَحَّدَ الصِّرَاطَ وَأَضَافَهُ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ سَبِيلٌ وَاحِدٌ مَوْصِلٌ إِلَيْهِ، وَاللَّهُ هُوَ الْمَعِينُ لِلْسَّالِكِينَ عَلَى سُلُوكِهِ.

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَى وَرَحْمَةً

(١) في (ب): «فإن الله عفوٌ غفور».

لَعَلَّهُمْ يَلْقَاءَ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَذَا كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكًا فَاتَّبِعُوهُ وَأَتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْهِمْ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ يَسَنٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجَرَى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ .

﴿١٥٤﴾ ﴿ثم﴾ في هذا الموضع ليس المراد الترتيب الزمني؛ فإن زمن موسى عليه السلام متقدّم على تلاوة الرسول محمد ﷺ هذا الكتاب، وإنما المراد الترتيب الإخباري. فأخبر أنه أتى ﴿موسى الكتاب﴾: وهو التوراة ﴿تماماً﴾: لنعمته وكمالاً لإحسانه، ﴿على الذي أحسن﴾: من أمة موسى؛ فإن الله أنعم على المحسنين منهم بنعم لا تُحصى من جملتها وتمامها إنزال التوراة عليهم، فتمت عليهم نعمة الله وَوَجَبَ عليهم القيام بشكرها، ﴿وتفصيلاً لكل شيء﴾: يحتاجون إلى تفصيله من الحلال والحرام والأمر والنهي والعقائد ونحوها، ﴿وهدى ورحمة﴾؛ أي: يهديهم إلى الخير ويعرفهم بالشر في الأصول والفروع، ﴿ورحمة﴾: يحصل به لهم السعادة والرحمة والخير الكثير، ﴿لعلهم﴾: بسبب إنزالنا الكتاب والبيّنات عليهم ﴿بلقاء ربهم يؤمنون﴾؛ فإنه اشتمل من الأدلة القاطعة على البعث والجزاء بالأعمال، [ما] ^(١) يوجب لهم الإيمان بلقاء ربهم والاستعداد له.

﴿١٥٥﴾ ﴿وهذا﴾: القرآن العظيم والذكر الحكيم، ﴿كتاب أنزلناه مبارك﴾؛ أي: فيه الخير الكثير والعلم الغزير، وهو الذي تستمد منه سائر العلوم وتستخرج منه البركات؛ فما من خير إلا وقد دعا إليه ورغب فيه وذكر الحكيم والمصالح التي تحث عليه، وما من شر إلا وقد نهى عنه وحذر منه وذكر الأسباب المنفّرة عن فعله وعواقبها الوخيمة. ﴿فاتَّبِعُوهُ﴾: فيما يأمر به وينهى، وابنوا أصول دينكم وفروعه عليه. ﴿واتَّقُوا﴾: الله تعالى أن تخالفوا له أمراً ﴿لعلكم﴾: إن اتبعتموه ﴿تُرْحَمُونَ﴾: فأكبر سبب لنيل رحمة الله اتباع هذا الكتاب علماً وعملاً.

﴿١٥٦﴾ ﴿أن تقولوا إنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾؛ أي: أنزلنا إليكم هذا الكتاب المبارك قطعاً لحجّتكم وخشية أن

(١) كذا في (ب)، وفي (أ): «وما».

تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا؛ أي اليهود والنصارى. ﴿وإن كنا عن دراستهم لغافلين﴾؛ أي: تقولون: لم تنزل علينا كتاباً، والكتب التي أنزلتها على الطائفتين ليس لنا بها علم ولا معرفة، فأنزلنا إليكم كتاباً لم ينزل من السماء كتاب أجمع ولا أوضح ولا أبين منه.

﴿١٥٧﴾ ﴿أو تقولوا لو أننا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم﴾؛ أي: إما أن تعتذروا بعدم وصول أصل الهداية إليكم، وإما أن تعتذروا بعدم كمالها وتمامها، فحصل لكم بكتابكم أصل الهداية وكمالها، ولهذا قال: ﴿فقد جاءكم بينة من ربكم﴾: وهذا اسم جنس يدخل فيه كل ما يبين الحق، ﴿وهدى﴾: من الضلالة، ﴿ورحمة﴾؛ أي: سعادة لكم في دينكم ودنياكم؛ فهذا يوجب لكم الانقياد لأحكامه والإيمان بأخباره وأن من لم يرفع به رأساً وكذب به؛ فإنه أظلم الظالمين. ولهذا قال: ﴿فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها﴾؛ أي: أعرض ونأى بجانبه، ﴿سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب﴾؛ [أي: العذاب] الذي يسوء صاحبه ويشق عليه، ﴿بما كانوا يصدفون﴾: لأنفسهم ولغيرهم جزاء لهم على عملهم السيئ، وما ربك بظلام للعبيد.

وفي هذه الآيات دليل على أن علم القرآن أجل العلوم وأبركها وأوسعها، وأنه به تحصل الهداية إلى الصراط المستقيم هداية تامة لا يحتاج معها إلى تخرص المتكلمين ولا إلى أفكار المتفلسفين ولا لغير ذلك من علوم الأولين والآخرين.

وأن المعروف أنه لم ينزل جنس الكتاب إلا على الطائفتين؛ من اليهود والنصارى؛ فهم أهل الكتاب عند الإطلاق، لا يدخل فيهم سائر الطوائف؛ لا المجوس ولا غيرهم.

وفيه ما كان عليه الجاهلية قبل نزول القرآن من الجهل العظيم وعدم العلم بما عند أهل الكتاب الذين عندهم، مادة العلم، وغفلتهم عن دراسة كتبهم.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِنْشَاءُ لَوْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ أَنْظَرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ (١٥٨).

﴿١٥٨﴾ يقول تعالى: هل ينظر هؤلاء الذين استمر ظلمهم وعنادهم، ﴿إلا أن تأتيهم﴾؛ مقدمات العذاب ومقدمات الآخرة؛ بأن تأتيهم ﴿الملائكة﴾ لقبض

أرواحهم؛ فإنهم إذا وصلوا إلى تلك الحال؛ لم ينفعهم الإيمان ولا صالح الأعمال، ﴿أو يأتي ربك﴾: لفصل القضاء بين العباد ومجازاة المحسنين والمسيئين ﴿أو يأتي بعض آيات ربك﴾: الدالة على قرب الساعة. ﴿يوم يأتي بعض آيات ربك﴾: الخارقة للعادة، التي يعلم بها أن الساعة قد دنت وأن القيامة قد اقتربت. ﴿لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً﴾؛ أي: إذا وجد بعض آيات الله؛ لم ينفع الكافر إيمانه إن آمن ولا المؤمن المقصر أن يزداد خيره بعد ذلك، بل ينفعه ما كان معه من الإيمان قبل ذلك، وما كان له من الخير الموجود قبل أن يأتي بعض الآيات. والحكمة في هذا ظاهرة؛ فإنه إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيماناً بالغيب وكان اختياراً من العبد. فأما إذا وجدت الآيات؛ صار الأمر شهادة، ولم يبق للإيمان فائدة؛ لأنه يشبه الإيمان الضروري؛ كإيمان الغريق والحريق ونحوهما ممن إذا رأى الموت ألقع عما هو فيه؛ كما قال تعالى: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمناً بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين﴾. فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده.

وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة^(١) عن النبي ﷺ أن المراد ببعض آيات الله طلوع الشمس من مغربها، وأن الناس إذا رأوها؛ آمنوا، فلم ينفعهم إيمانهم، ويغلث حينئذ باب التوبة. ولما كان هذا وعيداً للمكذبين بالرسول ﷺ منتظراً وهم ينتظرون بالنبي ﷺ وأتباعه قوارع الدهر ومصائب الأمور؛ قال: ﴿قل انتظروا إننا منتظرون﴾: فستعلمون أينأ أحق بالأمن.

وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة في إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالى؛ كالاستواء والنزول والإتيان لله تبارك وتعالى من غير تشبيه له بصفات المخلوقين، وفي الكتاب والسنة من هذا شيء كثير.

وفيه أن من جملة أشرط الساعة طلوع الشمس من مغربها.

وأن الله تعالى حكيم قد جرت عادته وسنته أن الإيمان إنما ينفع إذا كان اختيارياً لا اضطرارياً كما تقدم، وأن الإنسان يكتسب الخير بإيمانه؛ فالطاعة والبر والتقوى إنما تنفع وتنمو إذا كان مع العبد إيماناً، فإذا خلا القلب من الإيمان؛ لم ينفعه شيء من ذلك.

(١) كما في «صحيح البخاري» (٤٦٣٦)، ومسلم (١٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ .

﴿١٥٩﴾ يتوعد تعالى الذين فرقوا دينهم؛ أي: شتتوه وتفرقوا فيه، وكل أخذ لنفسه نصيباً من الأسماء التي لا تفيد الإنسان في دينه شيئاً؛ كاليهودية والنصرانية والمجوسية، أو لا يكمل بها إيمانه؛ بأن يأخذ من الشريعة شيئاً ويجعله دينه ويدع مثله أو ما هو أولى منه؛ كما هو حال أهل الفرقة من أهل البدع والضلال والفرقين للأمة. ودلت الآية الكريمة أن الدين يأمر بالاجتماع والاتلاف وينهى عن التفرق والاختلاف في أهل الدين وفي سائر مسائله الأصولية والفروعية، وأمره أن يتبرأ ممن فرقوا دينهم، فقال: ﴿لست منهم في شيء﴾؛ أي: لست منهم وليسوا منك؛ لأنهم خالفوك وعاندوك. ﴿إنما أمرهم إلى الله﴾: يردون إليه فيجازيهم بأعمالهم، ﴿ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون﴾.

﴿١٦٠﴾ ثم ذكر صفة الجزاء فقال: ﴿من جاء بالحسنة﴾: القولية والفعليّة، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله أو حق خلقه، ﴿فله عشر أمثالها﴾: هذا أقل ما يكون من التضعيف، ﴿ومن جاء بالسبيّة فلا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾: وهذا من تمام عدله تعالى وإحسانه، وأنه لا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال: ﴿وهم لا يظلمون﴾.

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنِّي رِزْقًا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلْقَ الْأَرْضَ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ .

﴿١٦١﴾ يأمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول ويعلن بما هو عليه من الهداية إلى الصراط المستقيم، الدين المعتدل، المتضمن للعقائد النافعة والأعمال الصالحة والأمر بكل حسن والنهي عن كل قبيح، الذي عليه الأنبياء والمرسلون، خصوصاً إمام الحنفاء ووالد من بُعث من بعد موته من الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة

والسلام، وهو الدين الحنيف، المائل عن كل دين غير مستقيم من أديان أهل الانحراف كاليهود والنصارى والمشركين. وهذا عمومٌ.

﴿١٦٢﴾ ثم خَصَّصَ من ذلك أشرف العبادات، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾؛ أي: ذبحي، وذلك لشرف هاتين العبادتين وفضلهما ودلالتهما على محبة الله تعالى وإخلاص الدين له والتقرب إليه بالقلب واللسان والجوارح وبالذبح الذي هو بذل ما تحبُّه النفس من المال لما هو أحبُّ إليها وهو الله تعالى، ومن أخلص في صلاته ونُسُكه؛ استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله. وقوله: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾؛ أي: ما آتته في حياتي وما يجريه الله عليَّ وما يقدر عليَّ في مماتي؛ الجميع ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿١٦٣﴾ ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾: في العبادة؛ كما أنه ليس له شريك في الملك والتدبير، وليس هذا الإخلاص لله ابتداءً مني وبدعاً أتيتُه من تلقاء نفسي، بل ﴿بِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾: أمراً حتماً لا أخرج من التبعة إلا بامثاله، ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾: من هذه الأمة.

﴿١٦٤﴾ ﴿قُلْ أَغِيرَ اللَّهِ﴾: من المخلوقين ﴿أَبْغِي رَبًّا﴾؛ أي: يحسن ذلك، ويليق بي أن أتخذ غيره مربياً ومدبراً، والله ربُّ كلِّ شيءٍ؛ فالخلق كلهم داخلون تحت ربوبيته، متقادون لأمره، فتعين عليَّ وعلى غيري أن يتخذ الله رباً ويرضى به وأن لا يتعلّق بأحد من المربوبين الفقراء العاجزين. ثم رَغِبَ ورهَّبَ بذلك^(١) الجزاء، فقال: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾: - من خير وشر^(٢) - ﴿إِلَّا عَلَيْهَا﴾؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾: بل كلُّ عليه وزرٌ نفسه، وإن كان أحد قد تسبَّب في ضلال غيره ووزره؛ فإن عليه وزر التسبب من غير أن ينقص من وزر المباشِر شيء، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾: يوم القيامة، ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾^(٣): من خير وشر، ويجازيكم على ذلك أوفى الجزاء.

﴿١٦٥﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾؛ أي: يخلفُ بعضُكم بعضاً، واستخلفكم الله في الأرض، وسخر لكم جميع ما فيها، وابتلاككم لينظر كيف

(١) في (ب): «بذكر».

(٢) في (ب): «من خير أو شر».

(٣) في (ب): «فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».

تعملون، ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾: في القوة والعافية والرزق والخلق والخلق؛ ﴿لِيَلْوَكُمَ فِي مَا آتَاكُمْ﴾: فَتَفَاوَتْ أَعْمَالُكُمْ. ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾: لِمَنْ عَصَاهُ وَكَذَّبَ بِآيَاتِهِ، ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَعَمِلَ صَالِحًا، وَتَابَ مِنَ الْمَوْبِقَاتِ^(١).

آخر تفسير سورة الأنعام.

فلله الحمد والثناء. وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.



(١) في هامش النسخة (أ): «بلغ مقابلة على أصله».

جاء في نهاية المجلد الثاني:

وكان الفراغ من كتابته في يوم الجمعة موافق خمس وعشرين من جمادى الآخرة سنة ١٣٤٥؛ خمس وأربعين وألف وثلاثمائة.

بقلم الفقير إلى ربه المنان، علي الحسن العلي الحسن البريكاني، وقد نسخته على نسخة المؤلف، غفر الله له، وأثابه على ذلك الثواب الجزيل، وجزاه الله عنا وعن جميع المسلمين أفضل الجزاء في دار الجزاء، وأدخله الله برحمته فسيح الجنان، ووقانا وإياه عذاب النيران، بفضلته وكرمه؛ إنه قريب مجيب. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. آمين ثم آمين يا رب العالمين.

المجلد الثالث
من
تيسير الرحمن
في
تفسير القرآن

لجامعه الفقير إلى الله
عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين
وصلّى الله على نبينا محمد
وآله وصحبه أجمعين
وسلم تسليماً كثيراً
إلى يوم الدين

تفسير سورة الأعراف

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَصَّ ١﴾ كَتَبُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ
 ﴿٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَبَاءَهَا بَأْسًا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقْضَنَّ عَلَيْهِمْ بِعَاقِبَتِهِمْ وَمَا كُنَّا غَافِينَ ﴿٧﴾ ۞

﴿١ - ٢﴾ يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مبيناً له عظمة القرآن: ﴿كَتَابَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾؛ أي: كتابٌ جليلٌ حوى كل ما يحتاج إليه العباد وجميع المطالب الإلهية والمقاصد الشرعية محكماً مفصلاً. فلا يكن في صدرك منه ﴿حَرَجٌ﴾؛ أي: ضيقٌ وشكٌ واشتباةٌ، بل لتعلم أنه تنزيلٌ من حكيم حميد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه^(١)، فلينشرح له صدرك، ولتطمئن به نفسك، ولتصدغ بأوامره ونواهيهِ، ولا تخش لائماً ومعارضاً؛ ﴿لَتُنذِرَ بِهِ﴾: الخلق وتَعْظُمُهم وتذَكَّرُهم فتقوم الحجة على المعاندين، ﴿و﴾ ليكون^(٢) ﴿ذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَذَكَّرَ فَإِنْ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾: يتذكرون به الصراط المستقيم، وأعماله الظاهرة والباطنة، وما يحول بين العبد وبين سلوكه.

﴿٣﴾ ثم خاطب الله العباد، ولفتهم^(٣) إلى الكتاب، فقال: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: الكتاب الذي أريد إنزاله لأجلكم، وهو ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾، الذي يريد أن يُتِمَّ تربيته لكم، فأنزل عليكم هذا الكتاب الذي إن اتبعتموه كملت

(١) في (ب): «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، وأنه أصدق الكلام».

(٢) في (ب): «وليكون».

(٣) في (ب): «والفتهم».

تَرِيبُتْكُمْ وَتَمَّتْ عَلَيْكُمُ النِّعْمَةُ وَهَدَيْتُمْ لِأَحْسَنِ الْأَعْمَالِ وَالْأَخْلَاقِ وَمَعَالِيهَا، ﴿٤﴾ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ؛ أَي: تَتَوَلَّوْنَهُمْ، وَتَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ، وَتَتْرَكُونَ لِأَجْلِهَا الْحَقَّ، ﴿٥﴾ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ: فَلَوْ تَذَكَّرْتُمْ وَعَرَفْتُمْ الْمَصْلَحَةَ؛ لَمَا آثَرْتُمْ الضَّارَّ عَلَى النَّافِعِ وَالْعَدُوَّ عَلَى الْوَلِيِّ.

﴿٤﴾ ثُمَّ حَذَرَهُمْ عَقُوبَاتِهِ لِلْأَمَمِ الَّذِينَ كَذَبُوا مَا جَاءَتْهُمْ بِهِ رُسُلُهُمْ فَلَا يَشَابَهُوهُمْ، فَقَالَ: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾؛ أَي: عَذَابُنَا الشَّدِيدُ، ﴿بَيِّنَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾؛ أَي: فِي حِينِ غَفْلَتِهِمْ وَعَلَى غِرَّتِهِمْ غَافِلُونَ، لَمْ يَخْطُرِ الْهَلَاكُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، فَحِينَ جَاءَهُمُ الْعَذَابُ؛ لَمْ يَدْفَعُوهُ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، وَلَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي كَانُوا يَرْجُونَهُمْ، وَلَا أَنْكَرُوا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ مِنَ الظُّلْمِ وَالْمَعَاصِي.

﴿٥﴾ ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ. فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأُسْنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ. لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ. قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ. فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾.

﴿٦﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾؛ أَي: لَنَسْأَلُنَ الْأَمَمَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمُ الْمَلَأُ الْإِلَهُمُ الْمُرْسَلِينَ عَمَّا أَجَابُوا [بِهِ] رُسُلَهُمْ، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ...﴾ الْآيَاتِ، ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾: عَنْ تَبْلِيغِهِمْ لِرِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَعَمَّا أَجَابَتْهُمْ بِهِ أَمَمُهُمْ.

﴿٧﴾ ﴿فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أَي: عَلَى الْخَلْقِ كُلِّهِمْ مَا عَمِلُوا، ﴿بِعِلْمٍ﴾: مِنْهُ تَعَالَى لِأَعْمَالِهِمْ، ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾: فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنُسُوهُ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنْ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾.

ثم ذكر الجزاء على الأعمال، فقال:

﴿وَالْوِزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ⑧ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ⑨.

﴿٨﴾ أَي: وَالْوِزْنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ بِالْعَدْلِ وَالْقِسْطِ الَّذِي لَا جَوْرَ فِيهِ وَلَا ظُلْمَ بَوَاجِهِ. ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾: بِأَنْ رَجَحَتْ كِفَّةُ حَسَنَاتِهِ عَلَى سَيِّئَاتِهِ، ﴿فَأُولَئِكَ هُمْ

المفلحون﴾؛ أي: الناجون من المكروه، المدركون للمحبوب، الذين حصل لهم الربح العظيم والسعادة الدائمة.

﴿٩﴾ ومن خَفَّتْ موازينه﴾: بأن رجحت سيئاته وصار الحكم لها، ﴿فأولئك الذين خسروا أنفسهم﴾: إذ فاتهم النعيم المقيم وحصل لهم العذاب الأليم، ﴿بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾: فلم يتقادوا لها كما يجب عليهم ذلك.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ (١٠).

﴿١٠﴾ يقول تعالى ممثلاً على عباده بذكر المسكن والمعيشة: ﴿ولقد مكَّنَّاكم في الأرض﴾؛ أي: هيأناها لكم بحيث تتمكّنون من البناء عليها وحرثها ووجوه الانتفاع بها، ﴿وجعلنا لكم فيها معاش﴾: مما يخرج من الأشجار والنبات ومعادن الأرض وأنواع الصنائع والتجارات؛ فإنه هو الذي هيأها وسخر أسبابها، ﴿قليلاً ما تشكرون﴾: الله الذي أنعم عليكم بأصناف النعم، وصرف عنكم النقم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥).

﴿١١﴾ يقول تعالى مخاطباً لبني آدم: ﴿ولقد خلقناكم﴾: بخلق أصلكم ومادّنتكم التي منها خرجتم؛ أبيكم آدم عليه السلام، ﴿ثم صوّرناكم﴾: في أحسن صورة وأحسن تقويم، وعلمه [الله] تعالى ما به تكمل صورته الباطنة؛ أسماء كل شيء، ثم أمر الملائكة الكرام أن يسجدوا لآدم إكراماً واحتراماً وإظهاراً لفضله، فامثلوا أمر ربهم، ﴿فسجدوا﴾ كلهم أجمعون ﴿إلا إبليس﴾: أبي أن يسجد له تكبراً عليه وإعجاباً بنفسه.

﴿١٢﴾ فوبّخه الله على ذلك، وقال ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ أي شرفته وفضلته بهذه الفضيلة التي لم تكن لغيره، فعصيت أمري وتهاونت بي. ﴿قال﴾ إبليس معارضاً لربه: ﴿أنا خير منه﴾، ثم برهن على هذه الدعوى الباطلة بقوله له: ﴿خلقتني من نارٍ وخلقته من طين﴾: وموجب هذا أن المخلوق من نار أفضل من المخلوق من طين لعلو النار على الطين وصعودها.

وهذا القياس من أفسد الأقيسة؛ فإنه باطل من عدة أوجه:

منها: أنه في مقابلة أمر الله له بالسجود، والقياس إذا عارض النص فإنه قياس باطل؛ لأن المقصود بالقياس أن يكون الحكم الذي لم يأت فيه نص يقارب الأمور المنصوص عليها ويكون تابعاً لها، فأما قياس يعارضها ويلزم من اعتباره إلغاء النصوص؛ فهذا القياس من أشنع الأقيسة.

ومنها: أن قوله: ﴿أنا خير منه﴾؛ بمجرد كافي لنقص إبليس الخبيث؛ فإنه برهن على نقصه بإعجابه بنفسه وتكبره والقول على الله بلا علم، وأي نقص أعظم من هذا؟!

ومنها: أنه كذب في تفضيل مادة النار على مادة الطين والتراب؛ فإن مادة الطين فيها الخشوع والسكون والرزانة، ومنها تظهر بركات الأرض من الأشجار وأنواع النبات على اختلاف أجناسه وأنواعه، وأما النار؛ ففيها الخفة والطيش والإحراق.

﴿١٣﴾ ولهذا؛ لما جرى من إبليس ما جرى؛ انحط من مرتبته العالية إلى أسفل السافلين، فقال الله له: اهبط ﴿منها﴾ أي: من الجنة، ﴿فما يكون لك أن تتكبر فيها﴾: لأنها دار الطيبين الطاهرين، فلا تليق بأخبث خلق الله وأشرهم، ﴿فاخرج إنك من الصاغرين﴾؛ أي: المهانين الأذلين؛ جزاء على كبره وعجبه بالإهانة والذل.

﴿١٤ - ١٥﴾ فلما أعلن عدو الله بعداوة الله وعداوة آدم وذريته؛ سأل الله النظرة والإمهال إلى يوم البعث؛ ليتمكن من إغواء ما يقدر عليه من بني آدم، ولما كانت حكمة الله مقتضية لابتلاء العباد واختبارهم ليتبين الصادق من الكاذب ومن يطيعه ومن يطع^(١) عدوه؛ أجابه لما سأل، فقال: ﴿إنك من المنظرين﴾.

﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ۝﴾.

﴿١٦﴾ أي: قال إبليس لما أبليس وأيس من رحمة الله: ﴿فبما أغويتني لأقعدن لهم﴾؛ أي: للخلق ﴿صراطك المستقيم﴾؛ أي: لألزمهم الصراط، ولأسعى غاية جهدي على صد الناس عنه وعدم سلوكهم إياه.

﴿١٧﴾ ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾؛

(١) في (ب): «ومن يطيعه ممن يطع عدوه».

أي: من جميع الجهات والجوانب، ومن كل طريق يتمكن فيه من إدراك بعض مقصوده فيهم، ولما علم الخبيث أنهم ضعفاء قد تغلب الغفلة على كثير منهم، وكان جازماً ببذل مجهوده على إغوائهم؛ ظنَّ - وصدق ظنَّه - فقال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾: فإنَّ القيام بالشكر من سلوك الصراط المستقيم، وهو يريد صدَّهم عنه وعدم قيامهم به؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، وإنما نَبَّهنا الله على ما قال، وعزم على فعله، لناخذ منه حِذْرنا، ونستعدُّ لعدونا، ونحتَرِّز منه بعلمنا بالطُّرُق التي يأتي منها ومداخله التي ينفذ منها؛ فله تعالى علينا بذلك أكمل نعمة.

﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٨).

﴿١٨﴾ أي: قال الله لإبليس لما قال ما قال: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا﴾: خروج صغار واحتقار، لا خروج إكرام، بل ﴿مَذْمُومًا﴾؛ أي: مذمومًا، ﴿مَدْحُورًا﴾: مبعداً عن الله وعن رحمته وعن كل خير. ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾: منك وممن تَبِعَكَ منهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾: وهذا قَسَمٌ من الله تعالى أن النار دار العصاة، لا بد أن يملأها من إبليس وأتباعه من الجن والإنس. ثم حذَّر آدم شرَّه وفتنته فقال:

﴿وَبَكَادُمْ أَتُكِّنَ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكَلَّا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩). ﴿فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِيهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ (٢٠). ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِرٍ﴾ (٢١). ﴿فَدَلَّهُمَا يَفْرِدُهُ فَلَمَّا ذَاكَ الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٢٢). ﴿فَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢٣).

﴿١٩﴾ أي: أمر الله تعالى آدم وزوجته حواء التي أنعم الله بها عليه ليسكن إليهما أن يأكلا من الجنة حيث شاءا ويتمتعاً فيها بما أرادا؛ إلا أنه عيَّن لهما شجرة ونهاهما عن أكلها، والله أعلم ما هي، وليس في تعيينها فائدة لنا، وحرَّم عليهما أكلها؛ بدليل قوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿٢٠﴾ فلم يزالا ممثليْن لأمر الله حتى تغلغل إليهما عدوُّهما إبليس بمكره،

فوسوس لهما وسوسة خدعهما بها وموه عليهما وقال: ﴿ما نهكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين﴾؛ أي: من جنس الملائكة، ﴿أو تكونا من الخالدين﴾: كما قال في الآية الأخرى: ﴿هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾.

﴿٢١﴾ ومع قوله هذا أقسم لهما بالله: ﴿إني لكما لمن الناصحين﴾؛ أي: من جملة الناصحين؛ حيث قلت لكما ما قلت.

﴿٢٢﴾ فاعترا بذلك، وغلبت الشهوة في تلك الحال على العقل، ﴿فدلاهما﴾؛ أي: أنزلهما عن رتبتها العالية التي هي البعد عن الذنوب والمعاصي إلى التلوث بأوضارها، فأقدا على أكلها، ﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سواتهما﴾؛ أي: ظهرت عورة كل منهما بعدما كانت مستورة، فصار للعري الباطن من التقوى في هذه الحال أثر في اللباس الظاهر حتى انخلع، فظهرت عوراتهما، ولما ظهرت عوراتهما؛ خجلا وجعلا يخصفان على عوراتهما من أوراق شجر الجنة ليستترا بذلك، ﴿وناداهما ربهما﴾: وهما بتلك الحال - موبخاً ومعاتباً -: ﴿ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين﴾: فلم اقترفتما المنهي وأطعتما عدوكم؟!

﴿٢٣﴾ فحينئذ من الله عليهما بالتوبة وقبولها، فاعترفا بالذنب، وسألا من الله مغفرته، فقالا: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾؛ أي: قد فعلنا الذنب الذي نبهتنا عنه وأضررنا بأنفسنا^(١) باقتراف الذنب، وقد فعلنا سبب الخسار إن لم تغفر لنا بمحو أثر الذنب وعقوبته وترحمنا بقبول التوبة والمعافة من أمثال هذه الخطايا، فغفر الله لهما ذلك، وعصى آدم ربه فغوى. ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدي. هذا وإبليس مستمر على طغيانه، غير مقلع من عصيانه؛ فمن أشبه آدم بالاعتراف وسؤال المغفرة والندم والإقلاع إذا صدرت منه الذنوب؛ اجتباه ربه وهده، ومن أشبه إبليس إذا صدر منه الذنب لا يزال يزداد من المعاصي؛ فإنه لا يزداد من الله إلا بعداً.

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾^(٢) ﴿٢٤﴾ قَالَ

(١) في (ب): «نهيته عنه وضررنا أنفسنا».

(٢) زيادة لا توجد في النسختين.

فِيهَا نَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَبْنَىٰ ۤأَدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُّرَىٰ سَوَاءَ تَكُمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

﴿٢٤ - ٢٥﴾ أي: لما أهبط الله آدم وزوجته وذريتهما إلى الأرض؛ أخبرهما بحال إقامتهم فيها، وأنه جعل لهم فيها حياة، يتلوها الموت مشحونة بالامتحان والابتلاء، وأنهم لا يزالون فيها، يرسل إليهم رسله، ويُنزل عليهم كتبه، حتى يأتيهم الموت فيدفنون فيها، ثم إذا استكملوا بعثهم الله، وأخرجهم منها إلى الدار التي هي الدار حقيقة، التي هي دار المقامة.

﴿٢٦﴾ ثم امتن عليهم بما يسر لهم من اللباس الضروري واللباس الذي المقصود منه الجمال، وهكذا سائر الأشياء كالطعام والشراب والمراكب والمناكب، ونحوها قد يسر الله للعباد ضروريها ومكمل ذلك، وبين لهم أن هذا ليس مقصوداً^(١) بالذات، وإنما أنزله الله ليكون معونة لهم على عبادته وطاعته، ولهذا قال: ﴿ولباسُ التقوى ذاك خيرٌ﴾: من اللباس الحسي؛ فإن لباس التقوى يستمر مع العبد ولا يبلى ولا يبيد، وهو جمال القلب والروح، وأما اللباس الظاهري؛ فغايبه أن يستر العورة الظاهرة في وقت من الأوقات، أو يكون جمالاً للإنسان، وليس وراء ذلك منه نفع. وأيضاً؛ فبتقدير عدم هذا اللباس تنكشف عورته الظاهرة التي لا يضره كشفها مع الضرورة، وأما بتقدير عدم لباس التقوى؛ فإنها تنكشف عورته الباطنة، وينال الخزي والفضيحة. وقوله: ﴿ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون﴾؛ أي: ذلك المذكور لكم من اللباس مما تذكرون به ما ينفعكم، ويضركم، وتستعينون^(٢) باللباس الظاهر على الباطن.

﴿يَبْنَىٰ ۤأَدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاءَهُمَا إِنَّمَا رِزْقُكُم هُوَ وَقِيلَ لَهُم مِّنْ حَيْثُ لَا تَرْوُونَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿٢٧﴾ يقول تعالى محذراً لبني آدم أن يفعل بهم الشيطان كما فعل بأبيهم: ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان﴾: بأن يزین لكم العصيان ويدعوكم إليه ويرغبكم فيه فتتقادون له، ﴿كما أخرج أبويكم من الجنة﴾: وأنزلهما من المحل العالي إلى أنزل منه؛ فأنتم يريد أن يفعل بكم كذلك ولا يألو جهده عنكم حتى يفتنكم إن استطاع؛

(١) في (ب): «وأن هذا ليس مقصوداً». (٢) في (ب): «وتشبهون».

فعليكم أن تجعلوا الحذر منه في^(١) بالكم، وأن تلبسوا لامة الحرب بينكم وبينه، وأن لا تغفلوا عن المواضع التي يدخل منها إليكم. فإنه يراقبكم على الدوام، و﴿إراكم هو وقبيله﴾: من شياطين الجن ﴿من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾: فعدم الإيمان هو الموجب لعقد الولاية بين الإنسان والشیطان. ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٢٨﴾ يقول تعالى مبيناً لقبح حال المشركين الذين يفعلون الذنوب وينسبون أن الله أمرهم بها: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾: وهي كل ما يستفحش ويستقبح، ومن ذلك طوافهم بالبيت عراة، ﴿قالوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾: وصدقوا في هذا، ﴿والله أمرنا بها﴾: وكذبوا في هذا، ولهذا رد الله عليهم هذه النسبة، فقال: ﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾؛ أي: لا يليق بكماله وحكمته أن يأمر عباده بتعاطي الفواحش، لا هذا الذي يفعله المشركون ولا غيره، ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾: وأي افتراء أعظم من هذا؟

﴿٢٩﴾ ثم ذكر ما يأمر به، فقال: ﴿قل أمر ربِّي بالقِسط﴾؛ أي: بالعدل في العبادات والمعاملات، لا بالظلم والجور، ﴿وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد﴾؛ أي: توجَّهوا لله، واجتهدوا في تكميل العبادات، خصوصاً الصلاة، أقيموها ظاهراً وباطناً، ونقَّوها من كل مُنْقَصٍ ومفسد. ﴿وادعوه مخلصين له الدين﴾؛ أي: قاصدين بذلك وجهه وحده لا شريك له، والدعاء يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة؛ أي: لا تريذون ولا تقصدون^(٢) من الأغراض في دعائكم سوى عبودية الله ورضاه، ﴿كما بدأكم﴾: أول مرة ﴿تعودون﴾: للبعث؛ فالقادر على بدء خلقكم قادر على إعادته، بل الإعادة أهون من البداءة.

(٢) في (ب): «لا تراؤوا ولا تقصدوا».

(١) في (ب): «من».

﴿٣٠﴾ ﴿فَرِيقًا﴾: منكم، ﴿هَدَى﴾: الله؛ أي: وفَقَّهم للهداية ويسَّر لهم أسبابها وصرف عنهم موانعها، ﴿وفريقاً حقَّ عليهم الضَّلالة﴾؛ أي: وجبت عليهم الضَّلالة بما تسبَّبوا لأنفسهم وعملوا بأسباب الغواية. فَإِنَّهُمْ ﴿اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؛ ومن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ؛ فقد خسر خسراناً مُبِيناً؛ فحين انسلخوا من ولاية الرَّحْمَنِ واستحبوا ولاية الشَّيْطَانِ؛ حصل لهم النَصِيبُ الوافر من الخذلان، ووَكَّلُوا إلى أنفسهم فخسروا أَشَدَّ الْخُسْرَانِ. ﴿وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾: لأنهم انقلبت عليهم الحقائق، فظنُّوا الباطل حقًّا والحقَّ باطلاً.

وفي هذه الآيات دليلٌ على أن الأوامر والنواهي تابعة للحكمة والمصلحة؛ حيث ذكر تعالى أنه لا يُتَصَوَّرُ أن يأمر بما تستفحشه وتنكره العقول، وأنه لا يأمر إلا بالعدل والإخلاص.

وفيه دليلٌ على أن الهداية بفضل الله ومَنِّه، وأن الضلالة بخذلانه للعبد إذ تولى^(١) - بجهله وظلمه - الشَّيْطَانَ، وتسبَّب لنفسه بالضلال، وأن من حسب أنه مهتدٍ وهو ضالٌّ فإنه لا عذر له؛ لأنه متمكِّن من الهدى، وإنما أتاه حسبانُه من ظلمه بترك الطريق الموصِّل إلى الهدى.

﴿يَبْنَىٰ ۡءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣١).

﴿٣١﴾ يقول تعالى بعدما أنزل على بني آدم لباساً يوارى سواهم وريشاً: ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾؛ أي: استروا عوراتكم عند الصلاة كُلِّها فرضها ونفلها؛ فإن سترها زينة للبدن؛ كما أن كشفها يدع البدن قبيحاً مشوهاً، ويحتمل أن المراد بالزينة هنا ما فوق ذلك من اللباس النظيف الحسن. ففي هذا الأمر بستر العورة في الصلاة وباستعمال التَّجَمُّل فيها ونظافة السترة من الأدناس والأنجاس. ثم قال: ﴿وكلوا واشربوا﴾؛ أي: مما رزقكم الله من الطيبات، ﴿ولا تسرفوا﴾: في ذلك، والإسراف إما أن يكون بالزيادة على القدر الكافي والشره في المأكولات التي تضر^(٢) بالجسم، وإما أن يكون بزيادة الترفُّه والتنوُّق في المأكَل والمشارب واللباس، وإما بتجاوز الحلال إلى الحرام. ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾:

(١) في (ب): «إذا تولى».

(٢) في (ب): «الذي يضر».

فإن السرف يبغضه الله، ويضرُ بدن الإنسان ومعيشته، حتى إنه ربما أدّت به الحال إلى أن يعجز عما يجب عليه من النفقات. ففي هذه الآية الكريمة الأمر بتناول الأكل والشرب والنهي عن تركهما وعن الإسراف فيهما.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْأَلْبَتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٣).

﴿٣٢﴾ يقول تعالى منكرًا على من تعنت وحرّم ما أحلّ الله من الطيبات: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾: من أنواع اللباس على اختلاف أصنافه والطيبات من الرزق من مأكّل ومشرب بجميع أنواعه؛ أي: من هذا الذي يقدم على تحريم ما أنعم الله بها على العباد؟ ومن ذا الذي يضيّق عليهم ما وسعه الله؟ وهذا التوسيع من الله لعباده بالطيبات جعله لهم ليستعينوا به على عبادته فلم يُبْخِعه إلا لعباده المؤمنين، ولهذا قال: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ أي: لا تبعة عليهم فيها. ومفهوم الآية أن من لم يؤمن بالله بل استعان بها على معاصيه؛ فإنها غير خالصة له ولا مباحة، بل يعاقب عليها وعلى التنعم بها، ويسأل عن النعيم يوم القيامة. ﴿كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ﴾؛ أي: نوضحها ونبينها، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: لأنهم الذين ينتفعون بما فضّله الله من الآيات، ويعلمون أنها من عند الله، فيعقلونها ويفهمونها.

﴿٣٣﴾ ثم ذكر المحرمات التي حرّمها الله في كلّ شريعة من الشرائع، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾؛ أي: الذنوب الكبار التي تُستفحش، وتستقبح لشنعائها وقبحها، وذلك كالزّنا واللواط ونحوهما. وقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾؛ أي: الفواحش التي تتعلّق بحركات البدن والتي تتعلّق بحركات القلوب؛ كالكبر والعُجب والرياء والنفاق ونحو ذلك، ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾؛ أي: الذنوب التي تؤثّم وتوجب العقوبة في حقوق الله، والبغي على الناس في دماءهم وأموالهم وأعراضهم. فدخل في هذا الذنوب المتعلقة بحق الله والمتعلقة بحق العباد، ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾؛ أي: حجة، بل أنزل الحجة والبرهان على التوحيد. والشرك هو أن يُشْرَكَ مع الله في عبادته أحد من الخلق، وربما دخل في هذا الشرك الأصغر؛ كالرياء والحلف بغير الله ونحو ذلك، ﴿وَأَنْ

تقولوا على الله ما لا تعلمون﴿: في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه؛ فكل هذه قد حرمها الله ونهى العباد عن تعاطيها؛ لما فيها من المفساد الخاصة والعامة، ولما فيها من الظلم والتجري على الله والاستطالة على عباد الله وتغيير دين الله وشرعه.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَنْذِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿٣٤﴾ أي: وقد أخرج الله بني آدم إلى الأرض، وأسكنهم فيها، وجعل لهم أجلاً مسمى، لا تتقدم أمة من الأمم على وقتها المسمى ولا تتأخر، لا الأمم المجتمعة ولا أفرادها.

﴿يَبْقَىٰ آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكَ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكَ مَا يَلَيْقُ فَمِنَ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿٣٥﴾ لما أخرج الله بني آدم من الجنة؛ ابتلاهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب عليهم يقصون عليهم آيات الله ويبينون لهم أحكامه. ثم ذكر فضل من استجاب لهم وخسار من لم يستجب لهم، فقال: ﴿فمِنَ اتَّقَى﴾: ما حرم الله من الشرك والكبائر والصغائر، ﴿وأصلح﴾: أعماله الظاهرة والباطنة، ﴿فلا خوف عليهم﴾: من الشر الذي قد يخافه غيرهم، ﴿ولا هم يحزنون﴾: على ما مضى. وإذا انتفى الخوف والحزن؛ حصل الأمن التام والسعادة والفلاح الأبدي.

﴿٣٦﴾ ﴿والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها﴾؛ أي: لا آمنت بها قلوبهم ولا انقادت لها جوارحهم، ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾: كما استهانوا بآياته، ولازموا التكذيب بها؛ أهينوا بالعذاب الدائم الملازم.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْعَذَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا آمَنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَٰى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاٰنُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِيَهُمْ لِأُولَٰئِهِمْ رَسًا هَٰؤُلَاءِ ضَلُّوْنَا فَاتَتْهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُخْرِيَهُمْ لِأُخْرِيَهُمْ فَمَا كَانَ لَكَ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فذوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ (١).

(١) الآيات ما بين المعقوفتين زيادة لا توجد في «النسختين».

﴿٣٧﴾ أي: لا أحد أظلم ﴿مَنْ افترى على الله كذباً﴾: بنسبة الشريك له والنقص له والتقوّل^(١) عليه ما لم يقل، ﴿أو كَذَّبَ بآيَاتِهِ﴾: الواضحة المبينة للحقّ المبين الهادية إلى الصراط المستقيم؛ فهؤلاء وإن تمتعوا بالدنيا ونالهم نصيبهم مما كان مكتوباً لهم في اللوح المحفوظ؛ فليس ذلك بمغن عنهم شيئاً، يتمتّعون قليلاً ثم يعذبون طويلاً. ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفّونهم﴾؛ أي: الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم واستيفاء آجالهم، ﴿قالوا﴾: لهم في تلك الحالة توبيحاً وعتاباً: ﴿أين ما كنتم تدعون من دون الله﴾: من الأصنام والأوثان؛ فقد جاء وقت الحاجة إن كان فيها منفعة لكم أو دفع مضرة، ﴿قالوا صلّوا عنا﴾؛ أي: اضمحلوا وبطلوا، وليسوا مغنين عنّا من عذاب الله من شيء، ﴿وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾: مستحقين للعذاب المهين الدائم.

﴿٣٨ - ٣٩﴾ فقالت لهم الملائكة: ﴿ادخلوا في أمم﴾؛ أي: في جملة أمم ﴿قد خلّت من قبلكم من الجنّ والإنس﴾؛ أي: مضوا على ما مضيتم عليه من الكفر والاستكبار، فاستحقّ الجميعُ الخزيّ والبوار. ﴿كلّما دخلت أمة﴾: من الأمم العاتية النار، ﴿لعنّا أختها﴾؛ كما قال تعالى: ﴿ويوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً﴾، ﴿حتى إذا أداركوا فيها جميعاً﴾؛ أي: اجتمع في النار جميع أهلها من الأولين والآخرين والقادة والرؤساء والمقلّدين الأتباع، ﴿قالت أخراهم﴾؛ أي: متأخروهم المتبعون للرؤساء، ﴿أولاهم﴾؛ أي: لرؤسائهم شاكين إلى الله إضلالهم إياهم: ﴿ربّنا هؤلاء أضلّونا فآتتهم عذاباً ضعفاً من النار﴾؛ أي: عذبهم عذاباً مضاعفاً لأنّهم أضلّونا وزينوا لنا الأعمال الخبيثة.

فقالت ﴿أولاهم لأخراهم﴾؛ أي: الرؤساء قالوا لأتباعهم: ﴿فما كان لكم علينا من فضل﴾؛ أي: قد اشركنا جميعاً في الغي والضلال، وفي فعل أسباب العذاب؛ فأئى فضل لكم علينا؟ ﴿قال﴾ الله: ﴿لكلّ﴾ منكم ﴿ضعف﴾: ونصيب من العذاب، ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾: ولكنّه من المعلوم أن عذاب الرؤساء وأئمة الضلال أبلغ وأشنع من عذاب الأتباع؛ كما أنّ نعيم أئمة الهدى ورؤسائهم أعظم من ثواب الأتباع؛ قال تعالى: ﴿الذين كفّروا وصدّوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يُفْسِدون﴾. فهذه الآيات ونحوها دلّت على أن سائر أنواع المكذّبين بآيات الله مخلّدون في العذاب مشتركون فيه وفي أصله، وإن

(١) في (ب): «أو التقوّل».

كانوا متفاوتين في مقداره بحسب أعمالهم وعنادهم وظلمهم وافترائهم وأن مودتهم التي كانت بينهم في الدنيا تنقلب يوم القيامة عداوة وملاعة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتِّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿٤٠﴾ يخبر تعالى عن عقاب من كذب بآياته فلم يؤمن بها مع أنها آيات بينات واستكبر عنها فلم يتخذ لأحكامها بل كذب، وتولى أنهم آيسون من كل خير؛ فلا تفتح أبواب السماء لأرواحهم إذا ماتوا، وصعدت تريد العروج إلى الله، فتستأذن، فلا يؤذن لها؛ كما لم تصعد في الدنيا إلى الإيمان بالله ومعرفته ومحبته، كذلك لا تصعد بعد الموت؛ فإن الجزاء من جنس العمل.

ومفهوم الآية أن أرواح المؤمنين المنقادين لأمر الله المصدقين بآياته تفتح لها أبواب السماء حتى تعرج إلى الله، وتصل إلى حيث أراد الله من العالم العلوي، وتبتهج بالقرب من ربها والحظوة برضوانه. وقوله عن أهل النار: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ﴾: وهو البعير المعروف ﴿فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾؛ أي: حتى يدخل البعير الذي هو من أكبر الحيوانات جسماً في خرق الإبرة الذي هو من أضيق الأشياء. وهذا من باب تعليق الشيء بالمحال؛ أي: فكما أنه محال دخول الجملة في سَمِّ الْخِيَاطِ؛ فكذلك المكذبون بآيات الله محال دخولهم الجنة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾؛ وقال هنا: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: الذين كثُرَ إجرامهم، واشتد طغيانهم.

﴿٤١﴾ ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾؛ أي: فراش من تحتهم، ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾؛ أي: ظلل من العذاب تغشاهم، ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾: لأنفسهم جزاءً وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ فَخَيَّيْنَاهُمْ أَلَّا يُنْهَرُوا وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَيْنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿٤٢﴾ لما ذكر تعالى عقاب العاصين الظالمين؛ ذَكَرَ ثواب المطيعين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾: بقلوبهم، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: بجوارحهم؛ فجمعوا بين الإيمان والعمل، بين الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة، بين فعل الواجبات وترك المحرمات، ولما كان قوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ لفظاً عاماً يشمل جميع الصالحات الواجبة والمستحبة، وقد يكون بعضها غير مقدور للعبد؛ قال تعالى: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ أي: بمقدار ما تسعه طاقتها ولا يعسر على قدرتها؛ فعليها في هذه الحال أن تتقي الله بحسب استطاعتها، وإذا عجزت عن بعض الواجبات التي يقدر عليها غيرها؛ سقطت عنها؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾، ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾؛ فلا واجب مع العجز، ولا محرم مع الضرورة. ﴿أُولَئِكَ﴾؛ أي: المتصفون بالإيمان والعمل الصالح، ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾؛ أي: لا يحولون عنها ولا يبيعون بها بدلاً؛ لأنهم يَرَوْنَ فيها من أنواع اللذات وأصناف المشتهايات ما تقفُ عنده الغايات، ولا يطلب أعلى منه.

﴿٤٣﴾ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾: وهذا من كرمه وإحسانه على أهل الجنة؛ أَنَّ الغَلَ الذي كان موجوداً في قلوبهم والتنافس الذي بينهم أن الله يقلعه ويزيله حتى يكونوا إخواناً متحابين وأخلاء متصافين؛ قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾، ويخلقُ الله لهم من الكرامة ما به يحصل لكل واحد منهم الغبطة والسرور، ويرى أنه لا فوق ما هو فيه من النعيم نعيم؛ فبهذا يأمنون من التحاسد والتباغض؛ لأنه قد فقدت أسبابه. [و]قوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾؛ أي: يفجرونها تفجيراً حيث شاؤوا وأين أرادوا، إن شاؤوا في خلال القصور أو في تلك الغرف العاليات أو في رياض الجنات من تحت تلك الحدائق الزاهرات، أنهار تجري في غير أخذود، وخيرات ليس لها حدٌ محدود. ﴿وَوَلَّهُمْ مَا رَأَوْا مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَأَكْرَمَهُمْ بِهِ﴾: ﴿قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾: بأن من علينا وأوحى إلى قلوبنا فأمنت به وانقادت للأعمال الموصلة إلى هذه الدار، وحفظ الله علينا إيماننا وأعمالنا حتى أوصلنا بها إلى هذه الدار، فنعم الربُّ الكريم الذي ابتدأنا بالنعيم، وأسدى من النعم الظاهرة والباطنة ما لا يحصيه المحصون ولا يعدُّه العادون. ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾؛ أي: ليس في نفوسنا قابلية للهدى، لولا أنه تعالى من بهدايته وأتباع رسله، ﴿لَقَدْ

جاءت رسلُ ربِّنا بالحقِّ؛ أي: حين كانوا يتمتَّعون بالنعيم الذي أخبرت به الرسل وصار حقُّ يقينٍ لهم بعد أن كان علم يقينٍ لهم قالوا: لقد تحقَّقنا ورأينا ما وعدتنا به الرسلُ وأنَّ جميع ما جاؤوا به حقُّ اليقين لا مِرْيةَ فيه ولا إشكال. ﴿ونودوا﴾: تهنَّئة لهم وإكراماً وتحية واحتراماً ﴿أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا﴾؛ أي: كنتم الوارثين لها، وصارت إقطاعاً لكم إذ كان إقطاع الكفار النار، أورثتموها ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: قال بعضُ السلف: أهل الجنة نَجَوْا من النار بعفو الله، وأدخلوا الجنة برحمة الله، واقتسموا المنازل، وورثوها بالأعمال الصالحة، وهي من رحمته، بل من أعلى أنواع رحمته.

﴿وَنَادَى أَصْحَبَ الْجَنَّةِ أَصْحَبَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَإِنَّ مُؤَذِّنًا بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤٤ - ٤٥﴾ يقول تعالى بعد ما ذكر استقرار كلٍّ من الفريقين في الدارين ووجدوا^(١) ما أخبرت به الرسل ونطقَتْ به الكتب من الثواب والعقاب: إن أهل الجنة نادوا أصحاب النار بأن قالوا: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾: حين وعدنا على الإيمان والعمل الصالح الجنة، فأدخلناها وأرانا ما وصفه لنا، ﴿فهل وجدتم ما وعدكم ربكم﴾: على الكفر والمعاصي ﴿حَقًّا قالوا نعم﴾: قد وجدناه حقًّا، فتبين للخلق كلُّهم بياناً لا شكَّ فيه صدق وعد الله، ومن أصدق من الله قليلاً، وذهبت عنهم الشكوك والشبه، وصار الأمر حقُّ اليقين، وفرح المؤمنون بوعد الله واغتبطوا، وأيس الكفار من الخير، وأقروا على أنفسهم بأنهم مستحقون للعذاب. ﴿فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: بين أهل النار وأهل الجنة بأن قال: ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾؛ أي: بعده وإقصاؤه عن كل خير ﴿على الظالمين﴾: إذ فتح الله لهم أبواب رحمته، فصَدَفُوا أنفسهم عنها ظلماً وصدَّوا عن سبيل الله بأنفسهم وصدَّوا غيرهم فضلُّوا وأضلُّوا. والله تعالى يريد أن تكون مستقيمةً ويعتدل سير السالكين إليه، وهؤلاء يريدونها ﴿عِوَجًا﴾: منحرفةً صادةً عن سواء السبيل. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾: وهذا الذي أوجب لهم الانحراف عن الصراط والإقبال على شهوات النفوس المحرَّمة عدم إيمانهم بالبعث، وعدم خوفهم من العقاب ورجائهم للثواب.

(١) في (ب): «ووجدوا».

ومفهوم هذا [النداء] أن رحمة الله على المؤمنين، وبرّه شاملٌ لهم، وإحسانه متواترٌ عليهم.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَنْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿٤٦﴾ أي: وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار حجابٌ يُقال له: الأعراف، لا من الجنة ولا من النار، يشرف على الدارين، وينظر من عليه حال الفريقين، وعلى هذا الحجاب رجالٌ يعرفونُ كلًّا من أهل الجنة والنار بسيماهم؛ أي: علاماتهم التي بها يُعرفون ويُميّزون؛ فإذا نظروا إلى أهل الجنة؛ نادَوْهم: ﴿أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: يحيئونهم ويسلمون عليهم، وهم إلى الآن لم يدخلوا الجنة، ولكنهم يطمعون في دخولها، ولم يجعل الله الطمع في قلوبهم إلا لما يُريد بهم من كرامته.

﴿٤٧﴾ ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾: ورأوا منظراً شنيعاً وهولاً فظيماً، ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾: فأهل الجنة إذا رآهم أهل الأعراف يطمعون أن يكونوا معهم في الجنة ويحيئونهم ويسلمون عليهم، وعند انصراف أبصارهم بغير اختيارهم لأهل النار يستجبرون [بالله] من حالهم هذا على وجه العموم.

﴿٤٨﴾ ثم ذكر الخصوص بعد العموم، فقال: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾: وهم من أهل النار، وقد كانوا في الدنيا لهم أبهة وشرفٌ وأموالٌ وأولادٌ، فقال لهم أصحاب الأعراف حين رأوهم منفردين في العذاب بلا ناصر ولا مغيث: ﴿مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾: في الدنيا الذي تستدفعون به المكاره، وتوسلون به إلى مطالبكم في الدنيا؛ فاليوم اضمحل ولا أغنى عنكم شيئاً، وكذلك أي شيء نفعمكم استكباركم على الحق وعلى ما جاء به وعلى من اتبعه؟!.

﴿٤٩﴾ ثم أشاروا لهم إلى أناس من أهل الجنة كانوا في الدنيا فقراء ضعفاء يستهزئ بهم أهل النار، فقالوا لأهل النار: ﴿أَهْؤُلَاءِ﴾: الذين أدخلهم الله الجنة، ﴿الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾: احتقاراً لهم وازدراءً وإعجاباً بأنفسكم، قد

حنثتم في أيمانكم، وبدا لكم من الله ما لم يكن لكم في حساب. ﴿ادخلوا الجنة﴾: بما كنتم تعملون؛ أي: قيل لهؤلاء الضعفاء إكراماً واحتراماً: ادخلوا الجنة بأعمالكم الصالحة، ﴿لا خوف عليكم﴾: فيما يُستقبل من المكاره، ﴿ولا أنتم تحزنون﴾: على ما مضى، بل آمنون مطمئنون فرحون بكل خير. وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ. وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ...﴾ إلى أن قال: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ. عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾.

واختلف أهل العلم والمفسرون من هم أصحاب الأعراف وما أعمالهم، والصحيح من ذلك أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم؛ فلا رجحت سيئاتهم فدخلوا النار، ولا رجحت حسناتهم فدخلوا الجنة، فصاروا في الأعراف ما شاء الله، ثم إن الله تعالى يدخلهم برحمته الجنة؛ فإن رحمته تسبق وتغلب غضبه، ورحمته وسعت كل شيء.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ افْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِبَاطِلِينَ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ هُدًى وَرَحْمَةٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٣﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿٥٠ - ٥٢﴾ أي: ينادي أصحاب النار أصحاب الجنة حين يبلغ منهم العذاب كل مبلغ وحين يمسه الجوع المفرط والظمأ الموجد؛ يستغيثون بهم فيقولون: ﴿افضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾: من الطعام، فأجابهم أهل الجنة بقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا﴾؛ أي: ماء الجنة وطعامها ﴿على الكافرين﴾: وذلك جزاء لهم على كفرهم بآيات الله واتخاذهم دينهم الذي أمروا أن يستقيموا عليه ووعدوا بالجزاء الجزيل عليه ﴿لهواً ولعباً﴾؛ أي: لهت قلوبهم وأعرضت عنه ولعبوا واتخذوه سخرى، أو أنهم جعلوا بدل دينهم اللهو واللعب، واستعاضوا بذلك عن الدين القيم، ﴿وغرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾: بزيتها وزخرفها وكثرة دعائها، فاطمأنوا إليها ورضوا بها وفرحوا وأعرضوا عن الآخرة ونسوها. ﴿فالיום ننسأهم﴾؛ أي:

نتركهم في العذاب، ﴿كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾: فكانهم لم يُخلقوا إلا للدنيا، وليس أمامهم عرض ولا جزاء، ﴿وما كانوا بآياتنا يجحدون﴾: والحال أن جحودهم هذا لا عن قصور في آيات الله وبيئاته، بل قد ﴿جئناهم بكتاب فضّلناه﴾؛ أي: بينا فيه جميع المطالب التي يحتاج إليها الخلق ﴿على علم﴾؛ من الله بأحوال العباد في كل زمان ومكان، وما يصلح لهم وما لا يصلح ليس تفصيله تفصيل غير عالم بالأمور، فتجهله بعض الأحوال فيحكم حكماً غير مناسب، بل تفصيل من أحاط علمه بكل شيء ووسعت رحمته كل شيء. ﴿هدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾؛ أي: تحصل للمؤمنين بهذا الكتاب الهداية من الضلال وبيان الحق والباطل والغي والرشد، ويحصل أيضاً لهم به الرحمة، وهي الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، فينتفي عنهم بذلك الضلال والشقاء.

﴿٥٣﴾ وهؤلاء الذين حق عليهم العذاب لم يؤمنوا بهذا الكتاب العظيم ولا انقادوا لأوامره ونواهيه، فلم يبق فيهم حيلة إلا استحقاقهم أن يحلّ بهم ما أخبر به القرآن، ولهذا قال: ﴿هل ينظرون إلا تأويله﴾؛ أي: وقوع ما أخبر به؛ كما قال يوسف عليه السلام حين وقعت رؤياه: ﴿هذا تأويل رؤيائي من قبل﴾. ﴿يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل﴾: متذمّن متأسفين على ما مضى متشفعين في مغفرة ذنوبهم مقرّين بما أخبرت به الرسل: ﴿قد جاءت رُسُلُ ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد﴾: إلى الدنيا؛ ﴿فنعمل غير الذي كنّا نعمل﴾: وقد فات الوقت عن الرجوع إلى الدنيا؛ فما تنفعهم شفاعة الشافعين. وسؤالهم الرجوع إلى الدنيا ليعملوا غير عملهم كذب منهم، مقصودهم به دفع ما حلّ بهم؛ قال تعالى: ﴿ولو ردُّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾. ﴿قد خسروا أنفسهم﴾: حين فوّتوها الأرباب وسلكوا بها سبيل الهلاك، وليس ذلك كخسران الأموال والأثاث أو الأولاد، إنما هذا خسران لا جبران لمصائبه. ﴿وضلّ عنهم ما كانوا يفترون﴾: في الدنيا مما تمنيهم أنفسهم به، ويعدّهم به الشيطان، قدموا على ما لم يكن لهم في حساب، وتبين لهم باطلهم وضلالهم، وصدق ما جاءتهم به الرسل.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى الْإِلَهَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَبِيبًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿٥٤﴾ يقول تعالى مبيناً أنه الربّ المعبود وحده لا شريك له: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ

الذي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ: وما فيهما على عظمهما وسعتهما وإحكامهما وإتقانها وبديع خلقهما ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة. فلما قضاها وأودع فيهما من أمره ما أودع؛ ﴿أَسْتَوَى﴾: تبارك وتعالى ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾: العظيم الذي يسع السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما؛ استوى استواء يليق بجلاله وعظمته وسلطانه، فاستوى على العرش، واحتوى على الملك، ودبر الممالك، وأجرى عليهم أحكامه الكونية وأحكامه الدينية، ولهذا قال: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ﴾: المظلم ﴿النَّهَارَ﴾؛ المضيء، فيظلم ما على وجه الأرض، ويسكن الآدميون، وتأوي المخلوقات إلى مساكنها، ويستريحون من التعب والذهاب والإياب الذي حصل لهم في النهار. ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾: كلما جاء الليل؛ ذهب النهار، وكلما جاء النهار؛ ذهب الليل... وهكذا أبداً على الدوام حتى يطوي الله هذا العالم، وينتقل العباد إلى دار غير هذه الدار.

﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجُومُ مَسْجُرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾؛ أي: بتسخيره وتديبره الدال على ما له من أوصاف الكمال، فخلقها وعظمها دال على كمال قدرته، وما فيها من الإحكام والانتظام والإتقان دال على كمال حكمته، وما فيها من المنافع والمصالح الضرورية وما دونها دال على سعة رحمته، وذلك دال على سعة علمه، وأنه الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له. ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾؛ أي: له الخلق الذي صدرت عنه جميع المخلوقات علويتها وسفليتها أعيانها وأوصافها وأفعالها والأمر المتضمن للشرائع والنبوات؛ فالخلق يتضمن أحكامه الكونية القدريّة، والأمر يتضمن أحكامه الدينية الشرعيّة، وشم أحكام الجزاء، وذلك يكون في دار البقاء. ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾؛ أي: عظم وتعالى وكثر خيره وإحسانه، فتبارك في نفسه لعظمة أوصافه وكمالها، وبارك في غيره بإحلال الخير الجزيل والبر الكثير؛ فكل بركة في الكون فمن آثار رحمته، ولهذا قال: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

ولما ذكر من عظمته وجلاله ما يدلّ ذوي الألباب على أنه وحده المعبود المقصود في الحوائج كلها؛ أمر بما يترتب على ذلك، فقال:

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِلِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿٥٥﴾ الدعاء يدخل فيه دعاء المسألة ودعاء العبادة، فأمر بدعائه ﴿تَضَرُّعًا﴾؛ أي: إلحاحاً في المسألة ودؤبياً في العبادة، ﴿وَخُفْيَةً﴾؛ أي: لا جهراً وعلانية

يُخَافُ مِنْهُ الرِّبَاءُ، بَلْ خَفِيَّةٌ وَإِخْلَاصاً لِلَّهِ تَعَالَى. ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمَعْتَدِينَ﴾؛ أَي: المتجاوزين للحدِّ في كلِّ الأمور، ومن الاعتداء كون العبد يسأل الله مسائل لا تصلح له، أو يتنطع في السؤال، أو يبالغ في رفع صوته بالدعاء؛ فكلُّ هذا داخل في الاعتداء المنهي عنه.

﴿٥٦﴾ ﴿وَلَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ﴾: بعمل المعاصي ﴿بعد إصلاحها﴾: بالطاعات؛ فَإِنَّ الْمَعَاصِي تَفْسُدُ الْأَخْلَاقَ وَالْأَعْمَالَ وَالْأَرْزَاقَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾: كَمَا أَنَّ الطاعات تصلح بها الأخلاق والأعمال والأرزاق وأحوال الدنيا والآخرة. ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾؛ أَي: خوفاً من عقابه، وطمعاً في ثوابه، طمعاً في قبولها وخوفاً من ردّها، لا دعاء عبد مدلٍّ على ربه، قد أعجبت نفسه، ونزل نفسه فوق منزلته، أو دعاء من هو غافل لا.

وحاصل ما ذكر الله من آداب الدعاء: الإخلاص فيه لله وحده؛ لأنَّ ذلك يتضمَّن الخفية، وإخفاءه وإسراره، وأن يكون القلب خائفاً طامعاً لا غافلاً ولا آمناً ولا غير مبالي بالإجابة، وهذا من إحسان الدعاء؛ فَإِنَّ الْإِحْسَانَ فِي كُلِّ عِبَادَةٍ بَذُلُ الْجُهِدِ فِيهَا وَأَدَاؤُهَا كَامِلَةٌ لَا نَقْصَ فِيهَا بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ. ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾: في عبادة الله، المحسنين إلى عباد الله، فكلُّما كان العبد أكثر إحساناً؛ كان أقرب إلى رحمة ربه، وكان ربه قريباً منه برحمته. وفي هذا من الحثِّ على الإحسان ما لا يخفى.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِلَّذِي آمَنَ بِآيَاتِنَا بِهِ الْآمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٥٧) ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصْرِفُ إِلَيْنَا أَلْوَانَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (٥٨).

﴿٥٧﴾ بين^(١) تعالى أثراً من آثار قدرته ونفحة من نفحات رحمته، فقال: ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾؛ أَي: الرياح المبشرات بالغيث، التي تثيره بإذن الله من الأرض، فيستبشر الخلق برحمة الله، وترتاح لها قلوبهم قبل

نزوله. ﴿حتى إذا أقلَّت﴾: الرياح ﴿سحاباً ثقالاً﴾: قد أثاره بعضها، وألفه ريح أخرى وألقحه ريح أخرى، ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾: قد كادت تهلك حيواناته وكاد أهله أن يياسوا من رحمة الله. ﴿فأنزلنا به﴾؛ أي: بذلك البلد الميت ﴿الماء﴾: الغزير من ذلك السحاب، وسخر الله له ريحاً تدره وريحاً تفرقه بإذن الله. فأنبتنا به من كل الثمرات: فأصبحوا مستبشرين برحمة الله، راتعين بخير الله. وقوله: ﴿كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾؛ أي: كما أحيينا الأرض بعد موتها بالنبات كذلك نخرج الموتى من قبورهم بعدما كانوا رفاتاً متمزقين. ولهذا استدلال واضح؛ فإنه لا فرق بين الأمرين؛ فمنكر البعث استبعاداً له مع أنه يرى ما هو نظيره من باب العناد وإنكار المحسوسات. وفي هذا الحث على التذكر والتفكير في آلاء الله والنظر إليها بعين الاعتبار والاستدلال لا بعين الغفلة والإهمال.

﴿٥٨﴾ ثم ذكر تفاوت الأراضي التي ينزل عليها المطر، فقال: ﴿والبلد الطيب﴾؛ أي: طيب التربة والمادة، إذا نزل عليه المطر؛ ﴿يخرج نباته﴾: الذي هو مستعد له ﴿بإذن ربِّه﴾؛ أي: بإرادة الله ومشيئته، فليست الأسباب مستقلة بوجود الأشياء حتى يأذن الله بذلك. ﴿والذي خُبث﴾: من الأراضي ﴿لا يخرج إلا نكداً﴾؛ أي: إلا نباتاً خاساً لا نفع فيه ولا بركة. ﴿كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون﴾؛ أي: ننوعها، ونبينها، ونضرب فيها الأمثال، ونسوقها لقوم يشكرون الله بالاعتراف بنعمه والإقرار بها وصرفها في مرضاة الله؛ فهم الذين ينتفعون بما فصل الله في كتابه من الأحكام والمطالب الإلهية؛ لأنهم يرونها من أكبر النعم الواصلة إليهم من ربهم، فيتلقونها مفتقرين إليها فرحين بها، فيتدبرونها ويتأملونها، فيبين لهم من معانيها بحسب استعدادهم.

وهذا مثال للقلوب حين ينزل عليها الوحي الذي هو مادة الحياة كما أن الغيث مادة الحياة؛ فإن القلوب الطيبة حين يجيئها الوحي تقبله وتعلمه وتنبت بحسب طيب أصلها وحسن عنصرها، وأما القلوب الخبيثة التي لا خير فيها؛ فإذا جاءها الوحي؛ لم يجد محلاً قابلاً، بل يجدها غافلة معرضة أو معارضة، فيكون كالمطر الذي يمر على السباخ والرمال والصخور فلا يؤثر فيها شيئاً، وهذا كقوله تعالى: ﴿أنزل من السماء ماءً فسالت أوديةً بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً...﴾ الآيات.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُۥٓ إِلَيَّ أَنَا خَافُ

عَلَيْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ^(١) ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخْبَتْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ .

لما ذكر تعالى من أدلة توحيده جملةً صالحة؛ أيّد ذلك بذكر ما جرى للأنبياء الداعين إلى توحيده مع أممهم المنكرين لذلك، وكيف أيّد الله أهل التوحيد وأهلك من عاندهم ولم ينقذ لهم، وكيف اتّفقت دعوة المرسلين على دين واحد ومعتقد واحد.

﴿٥٩﴾ فقال عن نوح أول المرسلين: ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾: يدعوهم إلى عبادة الله وحده حين كانوا يعبدون الأوثان، ﴿فقال﴾: لهم: ﴿يا قوم اعبدوا الله﴾؛ أي: وحدوه، ﴿ما لكم من إله غيره﴾: لأنه الخالق الرازق المدبّر لجميع الأمور، وما سواه مخلوق مدبّر ليس له من الأمر شيء. ثم خوفهم إن لم يطيعوه عذاب الله، فقال: ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾: وهذا من نصحه عليه الصلاة والسلام وشفقته عليهم؛ حيث خاف عليهم العذاب الأبديّ والشقاء السرمديّ؛ كإخوانه من المرسلين، الذين يشفقون على الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم.

﴿٦٠﴾ فلما قال لهم هذه المقالة؛ ردّوا عليه أقبح ردّ، فقال ﴿الملا من قومه﴾؛ أي: الرؤساء الأغنياء المتبعون، الذين قد جرت العادة باستكبارهم على الحق وعدم انقيادهم للرسول: ﴿إنا لنراك في ضلال مبين﴾: فلم يكنهم قبّحهم الله أنهم لم ينقادوا له، بل استكبروا عن الانقياد له، وقدحوا فيه أعظم قدح، ونسبوه إلى الضلال، ولم يكتفوا بمجرد الضلال، حتّى جعلوه ضلالاً مبيناً واضحاً لكل أحد!! وهذا من أعظم أنواع المكابرة، التي لا تروج على أضعف الناس عقلاً، وإنّما هذا الوصف منطبق على قوم نوح، الذين جاؤوا إلى أصنام قد صوّروها ونحتوها بأيديهم من الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنهم شيئاً، فنزلوها منزلة

فاطر السماوات، وصرفوا لها ما أمكنهم من أنواع القُرْبَات، فلولا أن لهم أذهاناً تقوم بها حُجَّةُ الله عليهم؛ لَحَكِمَ عليهم بأن المجانين أهدى منهم، بل هم أهدى منهم وأعقل.

﴿٦١ - ٦٢﴾ فرد نوح عليهم رِذّاً لطيفاً وترقّق لهم لعلمهم ينقادون له، فقال: ﴿يا قوم ليس بي ضلالة﴾؛ أي: لست ضالاً في مسألة من المسائل من جميع الوجوه، وإنما أنا هادٍ مهتدٍ، بل هدايته عليه الصلاة والسلام من جنس هداية إخوانه أولي العزم من المرسلين، أعلى أنواع الهدايات وأكملها وأتمها، وهي هداية الرسالة التامة الكاملة، ولهذا قال: ﴿ولكنني رسولٌ من ربِّ العالمين﴾؛ أي: ربي وربكم ورب جميع الخلق، الذي ربّي جميع الخلق^(١) بأنواع التربية، الذي من أعظم تربيته أن أرسل إلى عباده رسلاً تأمرهم بالأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والعقائد الحسنة، وتنهاهم عن أضدادها، ولهذا قال: ﴿أبلغكم رسالاتِ ربّي وأنصح لكم﴾؛ أي: وظيفتي تبليغكم ببيان توحيده وأوامره ونواهيه على وجه النصيحة لكم والشفقة عليكم، ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾: فالذي يتعيّن أن تطيعوني وتنقادوا لأمري إن كنتم تعلمون.

﴿٦٣﴾ ﴿أوعِجِبْتُمْ أن جاءكم ذِكرٌ من ربكم على رجل منكم﴾؛ أي: كيف تعجبون من حالة لا ينبغي العجب منها، وهو أن^(٢) جاءكم التذكير والموعظة والنصيحة على يد رجل منكم، تعرفون حقيقة صدقه وحاله؛ فهذه الحال من عناية الله بكم وبرّه وإحسانه الذي يُتَلَقَّى بالقبول والشكر. وقوله: ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ أي: لينذركم العذاب الأليم، وتفعلوا الأسباب المنجية من استعمال تقوى الله ظاهراً وباطناً، وبذلك تحصلُ عليهم، وتنزل رحمة الله الواسعة.

﴿٦٤﴾ فلم يفد فيهم ولا نَجَحَ، ﴿فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلّك﴾؛ أي: السفينة التي أمر الله نوحاً عليه السلام بصنعها، وأوحى إليه أن يحمل من كل صنف من الحيوانات زوجين اثنين وأهله ومن آمن معه، فحملهم فيها، ونجّاهم الله بها. ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين﴾: عن الهدى، أبصروا الحق، وأراهم الله على يد نوح من الآيات البينات ما به يؤمن أولو الأبواب، فسخروا منه، واستهزؤوا به، وكفروا.

(٢) في (ب): «أنه».

(١) في (ب): «جميع العالمين».

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُودًا﴾^(١) قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٥﴾
 قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٦﴾
 قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ أُتِلِّغُكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي وَأَنَا
 لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا
 إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَأَذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ
 تُفْلِحُونَ ﴿١٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأِنَّا بِمَا نَعْبُدُهُ
 إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَبٌ أَنْتَجِدُلُونَنِي
 فِي أَسْمَاءٍ سَبَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ
 الْمُنْظَرِينَ ﴿٢١﴾ فَأَجَبْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا
 كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٢﴾

﴿٦٥﴾ أي: ﴿و﴾: أرسلنا ﴿إلى عاد﴾: - الأولى، الذين كانوا في أرض اليمن -
 ﴿أخاهم﴾: في النسب ﴿هوداً﴾: عليه السلام، يدعوهم إلى التوحيد، وينهاهم عن
 الشرك، والطغيان في الأرض، فقال لهم: ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره
 أفلا تتقون﴾: سَخَطَهُ وعذابه إن أقمتهم على ما أنتم عليه.

﴿٦٦﴾ فلم يستجيبوا ولا انقادوا، فقال ﴿المَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾: رادِّين
 لدعوته قادحين في رأيه: ﴿إنا لنراك في سَفَاهَةٍ وَإنا لنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾؛ أي: ما
 نراك إلا سَفِيهًا غير رشيد، ويغلب على ظننا أنك من جملة الكاذبين. وقد انقلبت
 عليهم الحقيقة واستحكم عماهم حيث رموا نبيهم عليه السلام بما هم متَّصفون به،
 وهو أبعد الناس عنه؛ فإنهم السفهاء حقًا الكاذبون، وأيُّ سفهٍ أعظم ممَّن قابل أحقَّ
 الحقِّ بالردِّ والإنكار، وتكبر عن الانقياد للمرشدين والنصحاء، ولنقاد قلبه وقالبه
 لكلِّ شيطان مريد، ووضع العبادة في غير موضعها، فعَبَدَ من لا يغني عنه شيئاً من
 الأشجار والأحجار؟! وأيُّ كذب أبْلَغ من كذب من نسب هذه الأمور إلى الله
 تعالى!؟

﴿٦٧﴾ ﴿قال يا قوم ليس بي سفاهة﴾: بوجهٍ من الوجوه، بل هو الرسول

المرشد الرشيد، ﴿وَلَكُنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿٦٨﴾ ﴿أَبْلُغْكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾: فالواجب عليكم أن تتلقوا ذلك بالقبول والانقياد وطاعة رب العباد.

﴿٦٩﴾ ﴿أَوْعِظِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾؛ أي: كيف تعجبون من أمر لا يُتَعَجَّبُ منه، وهو أن الله أرسل إليكم رجلاً منكم، تعرفون أمره، يذكركم بما فيه مصالحكم، ويحثكم على ما فيه النفع لكم، فتعجبتم من ذلك تعجب المنكرين. ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾؛ أي: واحمدوا ربكم، واشكروه إذ مَنَّ لكم في الأرض، وجعلكم تخلفون الأمم الهالكة الذين كذبوا الرسل، فأهلكهم الله، وأبقاكم لينظر كيف تعملون، واحذروا أن تقيموا على التكذيب كما أقاموا، فيصيبكم ما أصابهم، ﴿و﴾ اذكروا نعمة الله عليكم التي خصكم بها، وهي أن ﴿زَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾: في القوة وكبر الأجسام وشدة البطش، ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ﴾؛ أي: نعمه الواسعة وأياديهِ المتكررة، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: إذا ذكّرتُموها بشكرها وأداء حقّها، ﴿تَفْلَحُونَ﴾؛ أي: تفوزون بالمطلوب، وتتجون من المهروب.

﴿٧٠﴾ فوعظهم وذكّرههم وأمرهم بالتوحيد وذكر لهم وصف نفسه وأنه ناصح أمين، وحذّرههم أن يأخذهم الله كما أخذ من قبلهم، وذكّرههم نعم الله عليهم وإدراك الأرزاق إليهم، فلم ينقادوا ولا استجابوا، فقالوا متعجبين من دعوته ومخبرين له أنهم من المحال أن يطيعوه: ﴿أَجِئْنَا لِنُعْبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾: قبّحهم الله، جعلوا الأمر الذي هو أوجب الواجبات وأكمل الأمور من الأمور التي لا يعارضون بها ما وجدوا عليه آباءهم، فقدّموا ما عليه الآباء الضالون من الشرك وعبادة الأصنام على ما دعت إليه الرسل من توحيد الله وحده لا شريك له وكذبوا نبينهم وقالوا: ﴿إِنَّا بِمَا تَعْبُدُونَ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾: ولهذا الاستفتاح منهم على أنفسهم.

﴿٧١﴾ فقال لهم هوذّ عليه السلام: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رَجْسٌ وَغَضَبٌ﴾؛ أي: لا بدّ من وقوعه؛ فإنه قد انعقدت أسبابه وحن وقت الهلاك. ﴿أَتَجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾؛ أي: كيف تجادلون على أمور لا حقائق لها وعلى أصنام سمّيتُموها آلهة وهي لا شيء من الإلهية فيها ولا مثقال ذرة و﴿ما أنزل الله بها من سلطان﴾؛ فإنها لو كانت صحيحة؛ لأنزل الله بها سلطاناً، فعدم إنزاله له دليل على بطلانها؛ فإنه ما من مطلوب ومقصود - وخصوصاً الأمور

الكبار - إلا وقد بين الله فيها من الحجج ما يدل عليها ومن السلطان ما لا تخفى معه، ﴿فانتظروا﴾: ما يقع بكم من العقاب الذي وعدتكم به. ﴿إني معكم من المنتظرين﴾: وفرق بين الانتظارين؛ انتظار من يخشى وقوع العقاب ومن يرجو من الله النصر والثواب.

﴿٧٢﴾ ولهذا فتح الله بين الفريقين فقال: ﴿فأنجيناه﴾؛ أي: هوداً، ﴿والذين﴾ آمنوا معه ﴿برحمة منا﴾: فإنه الذي هداهم للإيمان، وجعل إيمانهم سبباً ينالون به رحمته، فأنجاهم برحمته، ﴿وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا﴾؛ أي: استأصلناهم بالعذاب الشديد الذي لم يبق منهم أحداً، وسلط الله عليهم ﴿الريح العقيم﴾. ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، ﴿فأهلكوا فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم﴾ فانظر كيف كان عاقبة المنذرين، الذين أقيمت عليهم الحجج فلم ينقادوا لها، وأمروا بالإيمان فلم يؤمنوا، فكان عاقبتهم الهلاك والخزي والفضيحة، ﴿وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة﴾. ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بغداً لعاد قوم هود. وقال هنا: ﴿وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين﴾: بوجه من الوجوه، بل وصفهم التكذيب والعناد، ونعتهم الكبر والفساد.

﴿وإِلَّا تَحْمَدُوا مَا لَهُمْ مَصْلِحاً﴾^(١) قَالَ يَنْقُورُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسْوَءَ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَخَذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنْتَ صَاحِبُ مَرْسَلٍ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّافَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحْ أَمْنُنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورُ لَقَدْ أَتَيْتُكُمْ رَسُولًا مِنْ رَبِّي وَصَحَّتْ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَحِبُّونَ النَّصِيحَ ﴿٧٩﴾

(١) في (ب): إلى آخر قصتهم.

﴿٧٣﴾ أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى ثمود﴾: القبيلة المعروفة الذين كانوا يسكنون الحِجْر وما حوله من أرض الحجاز وجزيرة العرب، أرسل الله إليهم ﴿أخاهم صالحاً﴾: نبياً يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد وينهاهم عن الشرك والتنديد، فقال: ﴿يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾: دعوته عليه الصلاة والسلام من جنس دعوة إخوانه من المرسلين: الأمر بعبادة الله وبيان أنه ليس للعباد إله غير الله. ﴿قد جاءكم بينة من ربكم﴾؛ أي: خارق من خوارق العادات التي لا تكون إلا آية سماوية لا يقدر الناس عليها، ثم فسرها بقوله: ﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾؛ أي: هذه ناقة شريفة فاضلة لإضافتها إلى الله تعالى إضافة تشريف، لكم فيها آية عظيمة، وقد ذكر وجه الآية في قوله: ﴿لها شِرْبٌ ولكم شِرْبٌ يوم معلوم﴾، وكان عندهم بئر كبيرة، وهي المعروفة ببئر الناقة، يتناوبونها هم والناقة، للناقة يوم تشربها ويشربون اللبن من ضرعها، ولهم يوم يردونها وتصدر الناقة عنهم. وقال لهم نبيهم صالح عليه السلام: ﴿فذرّوها تأكل في أرض الله﴾: فلا عليكم من مؤنتها شيء، ﴿ولا تمسّوها بسوء﴾؛ أي: بعقر أو غيره، ﴿فياخذكم عذاب أليم﴾.

﴿٧٤﴾ ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء﴾: في الأرض تتمتعون بها وتدركون مطالبكم، ﴿من بعد عاد﴾: الذين أهلكهم الله وجعلكم خلفاء من بعدهم، ﴿وبوأكم في الأرض﴾؛ أي: مكن لكم فيها وسهل لكم الأسباب الموصلة إلى ما تريدون وتبتغون، ﴿تتخذون من سهولها قصوراً﴾؛ أي: الأراضي السهلة التي ليست بجبال بيوتاً، ومن الجبال بيوتاً ينحتونها^(١) كما هو مشاهد إلى الآن أعمالهم التي في الجبال من المساكن والحِجْر ونحوها، وهي باقية ما بقيت الجبال. ﴿فاذكروا آلاء الله﴾؛ أي: نعمه وما خولكم من الفضل والرزق والقوة، ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾؛ أي: لا تحزّبوا في الأرض بالفساد والمعاصي؛ فإن المعاصي تدع الديار العامرة بلاقيع، وقد أخلت ديارهم منهم، وأبقت مساكنهم موحشة بعدهم.

﴿٧٥﴾ ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾؛ أي: الرؤساء والأشراف الذين تكبروا عن الحق، ﴿للذين استضعفوا﴾: ولما كان المستضعفون ليسوا كلهم

(١) في (ب): «التي ليست بجبال تتخذون فيها القصور العالية والأبنية الحصينة، وتنحتون الجبال بيوتاً». سقط من (أ)، واستدركه الشيخ بما أثبت.

مؤمنين؛ قالوا: ﴿لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسِلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾؛ أي: أهو صادق أم كاذب؟ فقال المستضعفون: إِنَّا بِالَّذِي ﴿أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ من توحيد الله والخبر عنه وأمره ونهيه.

﴿٧٦﴾ ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾: حَمَلَهُمُ الْكِبَرُ أَنْ لَا يَنْقَادُوا لِلْحَقِّ الَّذِي انْقَادَ لَهُ الضعفاء.

﴿٧٧﴾ ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾: التي توعدّهم إن مسوها بسوء أن يصيبهم عذاب أليم. ﴿وَعَتَا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: قسوا عنه واستكبروا عن أمره الذي من عتا عنه أذاقه العذاب الشديد، لا جرم أحلّ الله بهم من التكال ما لم يُجَلَّ بغيرهم. ﴿وَقَالُوا﴾: مع هذه الأفعال متجرئين على الله معجزين له غير مباليين بما فعلوا بل مفتخرين بها: ﴿يَا صَالِحُ اتِّنَّا بِمَا تَعِدُنَا﴾: - إن كنت من الصادقين - من العذاب، فقال: ﴿تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾.

﴿٧٨﴾ ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ^(١) جَاثِمِينَ﴾: على ركبهم قد أبادهم الله وقطع دابرهم.

﴿٧٩﴾ ﴿نَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾: صالح عليه السلام حين أحلّ الله بهم العذاب، ﴿وَقَالَ﴾: مخاطباً لهم توبيخاً وعتاباً بعدما أهلكهم الله: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِنْ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾؛ أي: جميع ما أرسلني الله به إليكم قد أبلغتكم به وحرصت على هدايتكم واجتهدت في سلوككم الصراط المستقيم والدين القويم، ﴿وَلَكِنْ لَا تَحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾: بل رددتم قول النُصحاء، وأطعتم كل شيطان رجيم.

واعلم أن كثيراً من المفسرين يذكرون في هذه القصة أنَّ الناقة خرجت من صخرة صماء ملساء اقترحوها على صالح، وأنها تمخضت تمخض الحامل، فخرجت الناقة وهم ينظرون، وأن لها فصيلاً حين عقروها رعى ثلاث رغيات وانفلق له الجبل ودخل فيه، وأن صالحاً عليه السلام قال لهم: آية نزول العذاب بكم أن تصبحوا في اليوم الأول من الأيام الثلاثة ووجوهكم مصفرة، واليوم الثاني محمرة، والثالث مسودة، فكان كما قال.

وهذا^(٢) من الإسرائيليات التي لا ينبغي نقلها في تفسير كتاب الله، وليس في

(١) في (ب): «ديارهم».

(٢) في (ب): «وكل هذا». وقد طمس الشيخ (كل) في (أ).

القرآن ما يدل على شيء منها بوجه من الوجوه، بل لو كانت صحيحة لذكرها الله تعالى؛ لأن فيها من العجائب والعبر والآيات ما لا يهمله تعالى ويدع ذكره حتى يأتي من طريق من لا يوثق بنقله، بل القرآن يكذب بعض هذه المذكورات؛ فإن صالحاً قال لهم: ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام﴾؛ أي: تنعموا وتلذذوا بهذا الوقت القصير جداً؛ فإنه ليس لكم من المتاع واللذة سوى هذا، وأي لذة وتمتع لمن وعدهم نبيهم وقوع العذاب وذكر لهم وقوع مقدماته فوقعت يوماً فيوماً على وجه يعظمهم ويشملهم؛ لأن احمرار وجوههم واصفرارها واسودادها من العذاب! هل هذا إلا مناقض للقرآن ومضاد له؟! فالقرآن فيه الكفاية والهداية عن ما سواه. نعم؛ لو صح شيء عن رسول الله ﷺ مما لا يناقض كتاب الله؛ فعلى الرأس والعين، وهو مما أمر القرآن باتباعه: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾. وقد تقدم أنه لا يجوز تفسير كتاب الله بالأخبار الإسرائيلية، ولو على تجويز الرواية عنهم بالأمر التي لا يُجزم بكذبها؛ فإن معاني كتاب الله يقينية، وتلك أمور لا تصدق ولا تكذب؛ فلا يمكن اتفاقهما.

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾^(٨٠)
 إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ
 جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطِغُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ
 إِلَّا أَمْرَاتُهُمْ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرْ كَيْفَ كَانَ عَذَابُ
 الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

﴿٨٠﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر عبدنا ﴿لوطاً﴾: عليه الصلاة والسلام؛ إذ أرسلناه إلى قومه؛ يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهم عن الفاحشة التي ما سبقهم بها أحد من العالمين؛ فقال: ﴿أتأتون الفاحشة﴾؛ أي: الخصلة التي بلغت في العظم والشناعة إلى أن استغرقت أنواع الفحش، ﴿ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾: فكونها فاحشة من أشنع الأشياء، وكونهم ابتدعوها، وابتكروها، وسئوها لمن بعدهم من أشنع ما يكون أيضاً.

﴿٨١﴾ ثم بينها بقوله: ﴿إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾؛ أي: كيف

(١) في (ب): إلى آخر القصة.

تَذَرُونَ النساءَ التي خلَقهنَّ اللهَ لكم، وفيهنَّ المستمتعُ الموافق للشهوة والفطرة، وتقبلون على أدبار الرجال، التي هي غاية ما يكون في الشناعة والخبث، محلٌّ تخرج منه الأنتان والأخبث التي يُستحى من ذكرها فضلاً عن ملامستها وقربها. ﴿بل أنتم قومٌ مسرفون﴾؛ أي: متجاوزون لما حذَّه الله، متجرئون على محارمه.

﴿٨٢﴾ ﴿وما^(١) كان جواب قومِهِ إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناسٌ يتطهرون﴾؛ أي: يتنزهون عن فعل الفاحشة، ﴿وما نَقَمُوا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾.

﴿٨٣﴾ ﴿فأنجيناه وأهلَهُ إلا امرأته كانت من الغابرين﴾؛ أي: الباقيين المعدَّيين؛ أمره الله أن يسري بأهله ليلاً؛ فإنَّ العذاب مصبَّح قومِهِ، فسرى بهم إلا امرأته أصابها ما أصابهم.

﴿٨٤﴾ ﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾؛ أي: حجارة حارَّة شديدة من سِجِّيل، وجعل الله عليها سافِلها، ﴿فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾: الهلاك والخزي الدائم.

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا^(٢)﴾ قَالَ يَنْقَوْمَ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبَكُمْ وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّا يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِن عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَ مَا يَكُونُ لَنَا أَن نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِن اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَاحْذَرْتُمْ

(١) في (ب): «فما».

(٢) في (ب): «إلى آخر القصة».

الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمٌ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَفْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَنَوَّلُوا عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَتَلَقْتُمْ رَسُولًا رَّبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأْتُمْ عَلَى قَوْمٍ كَفِيرِينَ ﴿٩٣﴾ .

﴿٨٥﴾ أي: ﴿و﴾ أرسلنا إلى القبيلة المعروفة بمدين ﴿أخاهم﴾: في النسب، ﴿شُعَيْبًا﴾: يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويأمرهم بإيفاء المكيال والميزان، وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم، وأن لا يعثوا في الأرض مفسدين بالإكثار من عمل المعاصي، ولهذا قال: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين: فإن ترك المعاصي امتثالاً لأمر الله وتقرباً إليه خيرٌ وأنفع للعبد من ارتكابها الموجب لسخط الجبار وعذاب النار.

﴿٨٦﴾ ﴿ولا تقعدوا﴾: للناس ﴿بكل صراط﴾؛ أي: طريق من الطرق التي يكثر سلوكها؛ تحذرون الناس منها، و﴿توعدون﴾: من سلكها، و﴿تصدون﴾ عن سبيل الله: من أراد الاهتداء به، و﴿تبعونها عوجاً﴾؛ أي: تبغون سبيل الله تكون معوجة، وتميلونها اتباعاً لأهوائكم، وقد كان الواجب عليكم وعلى غيركم الاحترام والتعظيم للسبيل التي نصبها الله لعباده، ليسلكوها إلى مرضاته ودار كرامته ورحمهم بها أعظم رحمة، و﴿تصدون﴾ لنصرتها والدعوة إليها والذب عنها، لا أن تكونوا أنتم قطاع طريقها الضالين الناس عنها؛ فإن هذا كفرٌ لنعمة الله ومحادةٌ لله وجعل أقوم الطرق وأعدلها مائلة، وتشنعون على من سلكها، و﴿واذكروا﴾: نعمة الله عليكم ﴿إذ كنتم قليلاً فكثركم﴾؛ أي: نأماك بما أنعم عليكم من الزوجات والنسل والصحة، وأنه ما ابتلاكُم بوباء أو أمراض من الأمراض المقللة لكم، ولا سلط عليكم عدواً يجتاحكم، ولا فرّقكم في الأرض، بل أنعم عليكم باجتماعكم وإدراج الأرزاق وكثرة النسل. و﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾: فإنكم لا تجدون في جموعهم إلا الشتات، ولا في ربوعهم إلا الوحشة والانبثات، ولم يورثوا ذكراً حسناً، بل أتبعوا في هذه الدنيا لعنةً ويوم القيامة [أشد] خزيًا وفضيحة.

﴿٨٧﴾ ﴿وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا﴾: وهم الجمهور منهم، ﴿فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾: فينصر المحق، ويوقع العقوبة على المبطل.

﴿٨٨﴾ ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومي﴾: وهم الأشراف والكبراء منهم،

الذين اتَّبَعُوا أهواءهم ولهوا بلذاتهم، فلما أتاهم الحقُّ ورأوه غير موافق لأهوائهم الرديئة؛ ردُّوه، واستكبروا عنه، فقالوا لنبيِّهم شعيب ومن معه من المؤمنين المستضعفين: ﴿لنُخْرِجَنَّكَ يا شعيبُ والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودَنَّ في مِلَّتِنَا﴾: استعملوا قوَّتَهم السُّبُعِيَّةَ في مقابلة الحقِّ، ولم يراعوا ديناً ولا ذمَّةً ولا حقاً، وإنما راعوا واتبعوا أهواءهم وعقولهم السفیهة، التي دلَّتْهم على هذا القول الفاسد، فقالوا إمَّا أن ترجع أنت ومن معك إلى ديننا أو لنُخْرِجَنَّكُمْ من قريتنا؛ فشعيبٌ عليه الصلاة والسلام كان يدعوهم طامعاً في إيمانهم، والآن لم يَسْلَمْ [من شرهم] حتى توعدَّوه إن لم يتابعهم بالجلاء عن وطنه الذي هو ومن معه أحقُّ به منهم. فقال لهم شعيبٌ عليه الصلاة والسلام متعجباً من قولهم: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾؛ أي: أتتابعكم على دينكم وملَّتكم الباطلة ولو كُنَّا كارهين لها لعلمنا ببطالانها؛ فإنما يدعى إليها من له نوعٌ رغبة فيها، أما من يعلن بالنهي عنها والتشنيع على من اتَّبَعَهَا؛ فكيف يُدعى إليها.

﴿٨٩﴾ ﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾؛ أي: اشهدوا علينا أننا إن عُدْنَا [فيها] بعد ما نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وأنقذنا من شرِّها أننا كاذبون مفترون على الله الكذب؛ فإننا نعلمُ أنه لا أعظمُ افتراء ممَّن جعل لله شريكاً وهو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يَتَّخِذْ صاحبة ولا ولداً^(١) ولا شريكاً في الملك. ﴿وما يكونُ لنا أن نعوذَ فيها﴾؛ أي: يمتنع على مثلنا أن نعوذَ فيها؛ فإنَّ هذا من المحال، فأَيَسُّهُمْ عليه الصلاة والسلام من كونه يوافقهم من وجوه متعدِّدة.

من جهة أنهم كارهون لها مبغضون لما هم عليه من الشرك.

ومن جهة أنه جعل ما هم عليه كذباً وأشهدهم أنه إن اتَّبَعَهُمْ ومن معه فإنَّهم كاذبون.

ومنها اعترافهم بمئة الله عليهم إذ أنقذهم الله منها، ومنها أنَّ عودَهم فيها بعدما هداهم الله من المحالات بالنظر إلى حالتهم الراهنة وما في قلوبهم من تعظيم الله تعالى والاعتراف له بالعبوديَّة وأنه الإله وحده الذي لا تنبغي العبادة إلَّا له وحده لا شريك له، وأنَّ آلهة المشركين أبطل الباطل وأمحل المحال، وحيث إنَّ الله منَّ

(١) في (ب): «ولداً ولا صاحبة».

عليهم بعقول يعرفون بها الحقَّ والباطل والهدى والضلال، وأما من حيث النظر إلى مشيئة الله وإرادته النافذة في خلقه التي لا خروجَ لأحدٍ عنها ولو تواترت الأسباب وتوافقت القوى؛ فإنهم لا يحكمون على أنفسهم أنهم سيفعلون شيئاً أو يتركونه، ولهذا استثنى: ﴿وما يكونُ لنا أن نعوذَ فيها إلا أن يشاءَ اللهُ ربُّنا﴾؛ أي: فلا يمكننا ولا غيرنا الخروج عن مشيئته التابعة لعلمه وحكمته، وقد ﴿وسِعَ ربُّنا كلَّ شيءٍ علماً﴾: فيعلم ما يصلح للعباد، وما يدبرُّهم عليه.

﴿على الله توكلُّنا﴾؛ أي: اعتمدنا أنه سيثبتنا على الصراط المستقيم، وأن يعصمنا من جميع طرق الجحيم؛ فإن من توكل على الله كفاه ويسر له أمر دينه ودنياه. ﴿ربُّنا افتح بيننا وبين قومنا بالحقِّ﴾؛ أي: انصر المظلوم وصاحب الحق على الظالم المعاند للحق، ﴿وأنت خيرُ الفاتحين﴾: وفتحُه تعالى لعباده نوعان: فتح العلم بتبيين الحق من الباطل والهدى من الضلال ومن هو المستقيم على الصراط ممَّن هو منحرف عنه. والنوع الثاني: فتحُه بالجزاء وإيقاع العقوبة على الظالمين، والنجاة والإكرام للصالحين. فسألوا الله أن يفتحَ بينهم وبين قومهم بالحق والعدل، وأن يريهم من آيائه وعبره ما يكون فاصلاً بين الفريقين.

﴿٩٠﴾ ﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾: محذرين عن أتباع شعيب: ﴿لئن اتَّبعتُم شعيباً إنكم إذا لخاسرون﴾: هذا ما سؤلت لهم أنفسهم؛ أن الخسارة والشقاء في اتباع الرشد والهدى، ولم يدروا أن الخسارة كلَّ الخسارة في لزوم ما هم عليه من الضلال والإضلال، وقد علموا ذلك حين وقع بهم التكال.

﴿٩١﴾ ﴿فأخذتهم الرجفة﴾؛ أي: الزلزلة الشديدة، ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾؛ أي: صرعى ميّتين هامدين.

﴿٩٢﴾ قال تعالى ناعياً حالهم: ﴿الذين كذبوا شعباً كان لم يغنوا فيها﴾؛ أي: كأنهم ما أقاموا في ديارهم، وكأنهم ما تمتعوا في عَرَصاتهم، ولا تقيُّوا في ظلالها، ولا غنوا في مسارح أنهارها، ولا أكلوا من ثمار أشجارها، فأخذهم العذاب^(١) فنقلهم من مورد اللهو واللعب واللذات إلى مستقرَّ الحزن والشقاء والعقاب والدركات، ولهذا قال: ﴿الذين كذبوا شعباً كانوا هم الخاسرين﴾؛ أي: الخسار محصورٌ فيهم؛ لأنهم خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران

(١) في (ب): «حين فاجأهم العذاب».

المبين، لا مَنْ قالوا لهم: ﴿لَنْ أَتَّبِعْتُمْ شَعِيْباً إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾.

﴿٩٣﴾ فحين هلكوا تولَّى عنهم نبيُّهم عليه الصلاة والسلام، ﴿وقال﴾ معاتباً وموبِّخاً ومخاطباً لهم بعد موتهم: ﴿يا قوم لقد أبلغتكم رسالاتِ رَبِّي﴾؛ أي: أوصلتها إليكم وبَيَّنتها حتَّى بلغت منكم أقصى ما يمكن أن تصل إليه وخالطت أفئدتكم، ﴿ونصحتُ لكم﴾: فلم تقبلوا نُصحي ولا انقذتم لإرشادي، بل فسقتم وطغيتم؛ ﴿فكيف آسى على قوم كافرين﴾؛ أي: فكيف أحزن على قوم لا خير فيهم، أتاهم الخيرُ فردُّوه ولم يقبلوه، ولا يَلِيقُ بهم إلا الشرُّ؛ فهؤلاء غير حقيقيين أن يُخزَنَ عليهم، بل يُفْرَحَ بإهلاكهم ومُخَقِّعهم؛ فعياداً بك اللهم من الخزي والفضيحة! وأيُّ شقاء وعقوبة أبلغ من أن يصلوا إلى حالة يتبرأ منهم أنصح الخلق لهم؟!

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٩٥).

﴿٩٤﴾ يقول تعالى: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبيٍّ﴾: يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن ما هم فيه من الشرِّ، فلم ينقادوا له؛ إِلَّا ابتلاهم الله ﴿بالبأساء والضراء﴾؛ أي: بالفقر والمرض وأنواع البلايا، ﴿لعلهم﴾: إذا أصابتهم؛ خضعت نفوسهم؛ فتضرعوا إلى الله، واستكانوا للحق.

﴿٩٥﴾ ﴿ثم﴾: إذا لم يُفِذْ فيهم واستمرَّ استكبارُهم وازداد طغيانُهم، ﴿بدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾: فأدَّر عليهم الأرزاق، وعافى أبدانهم، ورفع عنهم البلايا^(١)، ﴿حتى عَفَوْا﴾؛ أي: كثروا وكثرت أرزاقهم وانبسطوا في نعمة الله وفضله ونسوا ما مرَّ عليهم من البلايا^(١)، ﴿وقالوا قد مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾؛ أي: هذه عادة جارية لم تزل موجودة في الأولين واللاحقين؛ تارة يكونون في سراء، وتارة في ضراء، وتارة في فرح، ومرة في ترح؛ على حسب تقلُّبات الزمان وتداول الأيام، وحسبوا أنها ليست للموعظة والتذكير ولا للاستدراج والنكير، حتى إذا اغتبطوا وفرحوا بما أوتوا، وكانت الدنيا أسراً ما كانت إليهم. أخذناهم بالعذاب ﴿بغته وهم

(١) في (ب): «البلاء».

لا يشعرون؛ أي: لا^(١) يخطرُ لهم الهلاك على بالٍ، وظنُّوا أنهم قادرون على ما آتاهم الله، وأنهم غير زائلين ولا منتقلين عنه.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ آمَنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿٩٦﴾ لما ذكر تعالى أنَّ المكذِّبين للرسُل يُبتلون بالضراء موعظةً وإنذاراً، وبالسراء استدراجاً ومكراً؛ ذكر أنَّ أهل القرى لو آمنوا بقلوبهم إيماناً صادقاً صدقته الأعمال، واستعملوا تقوى الله تعالى ظاهراً وباطناً بترك جميع ما حرَّم الله [تعالى]؛ لفتح عليهم بركاتِ السماء والأرض، فأرسل السماء عليهم مدراراً، وأنبت لهم من الأرض ما به يعيشون وتعيشُ بهائمهم في أخصب عيش وأغزر رزق من غير عناء ولا تعب ولا كد ولا نصب، ولكنهم لم يؤمنوا ويتَّقوا، ﴿فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾: بالعقوبات والبلايا ونزع البركات وكثرة الآفات، وهي بعض جزاء أعمالهم، وإلا؛ فلو أخذهم بجميع ما كسبوا؛ ما ترك على ظهرها من دابةٍ، ﴿ظَهَرَ الفسادُ في البرِّ والبحر بما كسبت أيدي الناس ليُذيقَهُم بعضَ الذي عملوا لعلَّهُم يرجعون﴾.

﴿٩٧﴾ ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾؛ أي: المكذبة بقرينة السياق، ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾؛ أي: عذابنا الشديد، ﴿بَيِّنَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾؛ أي: في غفلتهم وغرتهم وراحتهم.

﴿٩٨﴾ ﴿أَوَ آمَنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾: أي شيء يؤمُّنهم من ذلك وهم قد فعلوا أسبابه وارتكبوا من الجرائم العظيمة ما يوجب بعضه الهلاك.

﴿٩٩﴾ ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾: حيث يستدرجهم من حيث لا يعلمون، ويُملي لهم إنَّ كيدَهُ متين. ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾: فإنَّ من آمن من عذاب الله؛ فإنه لم يصدِّق بالجزاء على الأعمال ولا آمن بالرسُل حقيقة الإيمان.

ولهذه الآية الكريمة فيها من التخويف البليغ على أنَّ العبد لا ينبغي له أن يكون

(١) في (ب): «لم».

أَمَّا عَلَىٰ مَا مَعَهُ مِنَ الْإِيمَانِ، بَلْ لَا يَزَالُ خَائِفًا وَجَلًّا أَنْ يُبْتَلَىٰ بَبَلِيَّةٍ تَسْلُبُ مَا مَعَهُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَأَنْ لَا يَزَالُ دَاعِيًا بِقَوْلِهِ: يَا مَقْلَبَ الْقُلُوبِ! ثُبَّتْ قَلْبِي عَلَىٰ دِينِكَ، وَأَنْ يَعْمَلَ وَيَسْعَىٰ فِي كُلِّ سَبَبٍ يَخْلُصُهُ مِنَ الشَّرِّ عِنْدَ وَقُوعِ الْفِتَنِ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ وَلَوْ بَلَغَتْ بِهِ الْحَالُ مَا بَلَغَتْ؛ فَلَيْسَ عَلَىٰ يَقِينٍ مِنَ السَّلَامَةِ.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (١٠٠) تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾.

﴿١٠٠﴾ يقول تعالى منبهاً للأمم الغابرين^(١) بعد هلاك الأمم الغابرين^(٢): ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ؟﴾ أي: أولم يتبين ويتضح للأمم الذين ورثوا الأرض بعد إهلاك من قبلهم بذنوبهم ثم عملوا كأعمال أولئك المهلكين، أولم يهتدوا أَنَّ اللَّهَ لو شاء لأصابهم بذنوبهم؛ فَإِنَّ هَذِهِ سُنَّتُهُ فِي الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ. وقوله: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ؟﴾ أي: إِذَا نَبَّهَهُمُ اللَّهُ فَلَمْ يَنْتَبِهُوا، وَذَكَّرَهُمْ فَلَمْ يَتَذَكَّرُوا، وَهَدَاهُمْ بِالْآيَاتِ وَالْعِبَرِ فَلَمْ يَهْتَدُوا؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ يَعَاقِبُهُمْ وَيَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَيَعْلُوها الرِّأْيُ وَالذَّنْسُ حَتَّىٰ يُخْتَمَ عَلَيْهَا فَلَا يَدْخُلُهَا حَقٌّ وَلَا يَصِلُ إِلَيْهَا خَيْرٌ وَلَا يَسْمَعُونَ مَا يَنْفَعُهُمْ، وَإِنَّمَا يَسْمَعُونَ مَا بِهِ تَقُومُ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ.

﴿١٠١﴾ ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ﴾: الَّذِينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ، ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾: مَا يَحْضُرُ بِهِ عِبْرَةٌ لِلْمُعْتَبِرِينَ، وَازْدِجَارٌ لِلظَّالِمِينَ، وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ، ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ؟﴾ أي: [ولقد] جَاءَتْ هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ رُسُلُهُمْ تَدْعُوهُمْ إِلَىٰ مَا فِيهِ سَعَادَتُهُمْ، وَأَيَّدَهُمُ اللَّهُ بِالْمُعْجَزَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَيِّنَاتِ الْمُبِينَاتِ لِلْحَقِّ بَيَانًا كَامِلًا، وَلَكِنْهُمْ لَمْ يُفِذْهُمْ هَذَا وَلَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ شَيْئًا؛ ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ؟﴾ أي: بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ وَرَدِّهِمُ الْحَقَّ أَوَّلَ مَرَّةٍ مَا كَانَ يَهْدِيهِمْ^(٣) لِلْإِيمَانِ جَزَاءً لَهُمْ عَلَىٰ رَدِّهِمُ الْحَقَّ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَقْلُبُ أَفْقِدْتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا

(١) فِي هَامِشِ نَسْخَةِ (أ) بِخَطِ الْمُؤَلِّفِ: الْغَابِرِينَ: الْبَاقِينَ.

(٢) فِي هَامِشِ نَسْخَةِ (أ) بِخَطِ الْمُؤَلِّفِ: الْغَابِرِينَ: الْمَاضِينَ.

(٣) فِي (ب): «مَا كَانَ اللَّهُ لِيَهْدِيَهُمْ».

به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴿١٠١﴾، ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين﴾: عقوبة منه، وما ظلمهم الله، ولكنهم ظلموا أنفسهم.

﴿١٠٢﴾ ﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد﴾؛ أي: وما وجدنا لأكثر الأمم الذين أرسل الله إليهم الرسل من عهد؛ أي: من ثبات والتزام لوصية الله التي أوصى بها جميع العالمين، ولا انقادوا لأوامره التي ساقها إليهم على السنة رسله. ﴿وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾؛ أي: خارجين عن طاعة الله، متبعين لأهوائهم بغير هدى من الله؛ فالله تعالى امتحن العباد بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وأمرهم باتباع عهده وهداه، فلم يمثل لأمره إلا القليل من الناس، الذين سبقت لهم من الله سابقة السعادة، وأما أكثر الخلق؛ فأعرضوا عن الهدى، واستكبروا عما جاءت به الرسل، فأحل الله بهم من عقوباته المتنوعة ما أحل.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦ ۚ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَلَا تَكُنْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنُّظُرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكَ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَا تَوَكُّ بِكُلِّ شَعْرِ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ نَحْنُ الْمُلْكِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَهَوَوْهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ * وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ ثُلَّةٌ مِمَّا يَفْكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فغلبوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَافِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَنِي إِسْرَءِيلَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٠﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢١﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا مَنَعُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ لَكُمْ رَحِمَةً ﴿١٢٢﴾ لِكُنَّ أَنْ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَنْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نَنْفَعُ مِنَّا

إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْهُ رَبَّنَا أَنْفِزْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُؤُا مَوْسَى يَقُولُ يَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ الْمَلَأَتُ قَالَ سَنُعَذِّبُكَ بِآيَاتِهِمْ وَنَسْتَجِيبُ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْعَوْا بِأَلْفِ اللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٦٨﴾ قَالُوا أَوْزَيْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَرَبُّنَا مَا يَحْتَنُّ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَذُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٧٠﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ سَيَنُودُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ إِلَّا إِنَّمَا ظَلَمْنَاهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِيَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَخَافُكَ يَا مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَ أَيْنِ مَفْضَلَتِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٧٣﴾ وَلَمَّا رَفَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزَ قَالُوا يَمْوَسَىٰ آدَعْ لَنَا رَبَّكَ يَمَا عَهْدُ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٧٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بِلِقَاؤِهِ إِذَا هُمْ يَنْكُشُونَ ﴿١٧٥﴾ فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ فَاغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٧٦﴾ وَأَوْزَيْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا أَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فَكَلَّمْتُ رَبَّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ يَمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٧٧﴾ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَمْكُونُ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمْوَسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ ﴿١٧٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم بِفَاعِلُونَ ﴿١٧٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٨١﴾ ﴿١٨٢﴾ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي وَلَكِنْ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ وَلَكِنْ أَنظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيكَ فَلَمَّا بَجَلْ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُنْتَ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالَ يَمْوَسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ

يُرْسَلَنِي وَيَكْلِمِي فَمَنْ مَّا مَاتَتْكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ
كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ
دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٧﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ
آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَيِّلَ الرَّشْدِ لَا يَنْخُذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَيِّلَ الْغَيِّ يَنْخُذُوهُ
سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ
الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أُعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ
بَعْدِهِ مِنْ خُلَيقِهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُمْ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ
وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا
رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ
يٰقَوْمِ خَلِّتُونِي مِنْ بَعْدِئِ اعْمَلُوا أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقُوا الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ
ابْنَ أُمِّ إِيَّ الْقَوْمِ اسْتَضَعُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْعِمُونِي الْأَعْدَاءُ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ﴿١٥٢﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥٣﴾
إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُفْضِرِينَ ﴿١٥٤﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴿١٥٥﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي تَحْتِهَا هَدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ
لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٦﴾ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ
شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَتَلْكُمَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنِّي إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ
تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٧﴾ وَكَتَبْنَا لَنَا فِي
هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا مُنْذَرُونَ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابٌ أُصِيبَ بِهِ مِنْ أَشْيَاءِ وَرَحْمَتِي
وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاحَتْنَاهَا لِلَّذِينَ يَنْقُوتُونَ الرَّكُوعَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٨﴾
الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَحْدِثُ لَهُمْ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ
يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ
وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَإِذَا دُخِلَ عَلَيْهِمْ دَارُ عِزٍّ وَنُصْرَةٍ
وَاتَّبَعُوا النَّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٩﴾ قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ

إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ الَّذِي الْأَمْرُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَأَتَّبِعُوا لِمَا كُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِنْ
قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا
إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَلَهُ قَوْمُهُ أَنْبِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ
عِيقًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَزَلَّنا عَلَيْهِمُ الْمَرْجَ وَالسَّلَوى
كُلُوا مِنْ طَلِبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ
قِيلَ لَهُمْ اسْكُوا فِيهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ
سُجَّدًا تَقْبِضَ لَكُمْ حَبِيبَتِكُمْ سَارِيذُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ
الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْرًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾
وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ
جِثَاءُ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ بَلَّوْنَهُمْ بِمَا كَانُوا
يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا
مَعذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفِقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَجْبَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْأَسْوَءِ
وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَينَ يَمِينٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ
كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رِبَكُ لِيَبْعَنَ عَلَيْهِمُ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ يُسْئِلُهُمْ سُوءَ
الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا
مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ
مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ
يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللَّذَّارُ
الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا
نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلِ فَوْقَهُمْ كَانَهُمْ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهم وَافِعُ بِهِمْ خُذُوا مَا
ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ❖

﴿١٠٣﴾ أي: ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل موسى الكليم الإمام العظيم
والرسول الكريم إلى قوم عتاة جبابرة - وهم فرعون وملؤه من أشrafهم وكبرائهم -

فأراهم من آيات الله العظيمة ما لم يشاهد له نظير. ﴿فظلّموا بها﴾: بأن لم ينقادوا لحقّها الذي من لم ينقذ له فهو ظالم، بل استكبروا عنها، ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾: كيف أهلكهم الله وأتبعهم الذمّ واللّعة في الدنيا، ويوم القيامة بشس الرّفد المرفود.

﴿١٠٤﴾ وهذا مجمل فصله بقوله: ﴿وقال موسى﴾: حين جاء إلى فرعون يدعو إلى الإيمان: ﴿يا فرعون إني رسول من ربّ العالمين﴾؛ أي: إني رسول من مرسل عظيم، وهو ربّ العالمين، الشامل للعالم العلوي والسفلي، مربّي جميع خلقه بأنواع التدابير الإلهية، التي من جملتها أنه لا يتركهم سدى، بل يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، وهو الذي لا يقدر أحد أن يتجرأ عليه ويدّعي أنه أرسله ولم يرسله.

﴿١٠٥﴾ فإذا كان هذا شأنه، وأنا قد اختارني واصطفاني لرسالته؛ فحقيق عليّ أن لا أكذب عليه ولا أقول عليه إلا الحق؛ فإني لو قلت غير ذلك؛ لعاجلني بالعقوبة، وأخذني أخذ عزيز مقتدر؛ فهذا موجب لأن ينقادوا له ويتبعوه، خصوصاً وقد جاءهم بيّنة من الله واضحة على صحة ما جاء به من الحق، فوجب عليهم أن يعملوا بمقصود رسالته، ولها مقصودان عظيمان: إيمانهم به واتباعهم له، وإرسال بني إسرائيل الشعب الذي فضّله الله على العالمين أولاد الأنبياء وسلسلة يعقوب عليه السلام الذي موسى عليه الصلاة والسلام واحد منهم.

﴿١٠٦﴾ فقال له فرعون: ﴿إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين﴾.

﴿١٠٧﴾ ﴿فألقي﴾ موسى ﴿عصاه﴾: في الأرض، ﴿فإذا هي ثعبان مبين﴾؛ أي: حية ظاهرة تسعى وهم يشاهدونها.

﴿١٠٨﴾ ﴿ونزع يده﴾: من جيبه، ﴿فإذا هي بيضاء للناظرين﴾: من غير سوء؛ فهاتان آيتان كبيرتان دالتان على صحة ما جاء به موسى وصدق، وأنّه رسول ربّ العالمين.

﴿١٠٩﴾ ولكن الذين لا يؤمنون لو جاءتهم كل آية لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم؛ فلهمذا ﴿قال الملأ من قوم فرعون﴾ حين بهرهم ما رأوا من الآيات ولم يؤمنوا وطلبوا لها التأويلات الفاسدة: ﴿إنّ هذا لساحر عليم﴾؛ أي: ماهر في سحره.

﴿١١٠﴾ ثم خَوْفُوا ضِعْفَاءَ الْأَحْلَامِ وسفهاء العقول بأنه ﴿يُرِيدُ﴾ موسى بفعله هذا ﴿أَنْ يَخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾؛ أي: يريد أن يجليكم^(١) من أوطانكم، ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ؟﴾ أي: إنهم تشاوروا فيما بينهم ما يفعلون بموسى، وما يندفع به ضررهم بزعمهم عنهم؛ فإنَّ ما جاء به إن لم يقابل بما يبطله ويدحضه، وإلا؛ دخل في عقول أكثر الناس.

﴿١١١ - ١١٢﴾ فحينئذ انعقد رأيهم إلى أن قالوا لفرعون: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾؛ أي: احبسهما وأمهلهما، وابعث في المدائن أناساً يحشرون أهل المملكة ويأتون بكل سَحَّارٍ عليم؛ أي: يجيئون بالسحرة المهرة؛ ليقابلوا ما جاء به موسى، فقالوا: يا موسى ﴿اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَاناً سُوًى﴾. قال موعِدكم يومُ الزينةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسَ ضَحَى. فتولَّى فرعونُ فجمعَ كيده ثم أتى.

﴿١١٣﴾ وقال هنا: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾: طالبين منه الجزاء إن غلبوا، فقالوا: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾.

﴿١١٤﴾ فقال فرعون: ﴿نَعَمْ﴾: لكم أجر، ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾: فوعدهم الأجر والتقريب وعلو المنزلة عنده؛ ليجتهدوا ويبدلوا، وسعهم وطاقتهم في مغالبة موسى.

﴿١١٥﴾ فلما حضروا مع موسى بحضرة الخلق العظيم، ﴿قَالُوا﴾: على وجه التآلي وعدم المبالاة بما جاء به موسى، ﴿يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ﴾: ما معك، ﴿وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾.

﴿١١٦﴾ فقال موسى: ﴿الْقُوا﴾: لأجل أن يرى الناس ما معهم وما مع موسى، ﴿فَلَمَّا الْقَوْا﴾: حبأهم وعصيتهم إذا هي من سحرهم كأنها حيات تسعى، فسحروا ﴿أَعْيَنَ النَّاسَ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاوُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾: لم يوجذ له نظير من السحر.

﴿١١٧﴾ ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾: فألقاها، ﴿فَإِذَا هِيَ﴾: حيَّة تسعى فتلقفت جميع ما يأفكون؛ أي: يكذبون به ويموهون.

﴿١١٨﴾ ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾؛ أي: تبين، وظهر، واستعلن في ذلك المجمع، ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

(١) في (ب): «ليجليكم».

﴿١١٩﴾ ﴿فَغْلِبُوا هُنَالِكَ﴾؛ أي: في ذلك المقام، ﴿وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾؛ أي: حقيرين قد اضمحل باطلهم وتلاشى سحرهم ولم يحصل لهم المقصود الذي ظنوا حصوله.

﴿١٢٠ - ١٢٢﴾ وأعظم من تبين له الحق العظيم أهل الصنف والسحر [الذين] يعرفون من أنواع السحر وجزئياته ما لا يعرفه غيرهم، فعرفوا أن هذه آية عظيمة من آيات الله، لا يدان لأحد بها، فألقي ﴿السحرة ساجدين﴾. قالوا آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون؛ أي: وصدقنا بما بعث به موسى من الآيات البينات.

﴿١٢٣﴾ فقال لهم ﴿فرعون﴾ متهدداً لهم على الإيمان: ﴿آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾: كان الخبيث حاكماً مستبداً على الأبدان والأقوال، قد تقرّر عنده وعندهم أن قوله هو المطاع وأمره نافذ فيهم ولا خروج لأحد عن قوله وحكمه، وبهذه الحالة تنحط الأمم وتضعف عقولها ونفوذها وتعجز عن المدافعة عن حقوقها، ولهذا قال الله عنه: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾، وقال هنا: ﴿آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾؛ أي: فهذا سوء أدب منكم وتجرؤ عليّ، ثم موّه على قومه وقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾؛ أي: إن موسى كبيركم الذي علمكم السحر، فتواطأتم أنتم وهو على أن تغلبوا له فيظهر فتتبعونه ثم يتبعكم الناس أو جمهورهم، فتخرجوا منها أهلها، وهذا كذب يعلم هو ومن سبر الأحوال أن موسى عليه الصلاة والسلام لم يجتمع بأحد منهم، وأنهم جُمِعُوا على نظر فرعون ورسله، وأن ما جاء به موسى آية إلهية، وأن السحرة قد بذلوا مجهودهم في مغالبة موسى حتى عجزوا وتبين لهم الحق فاتبعوه. ثم توعدّهم فرعون بقوله: فلسوف ﴿تَعْلَمُونَ﴾: ما أجل بكم من العقوبة.

﴿١٢٤﴾ ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾: زعم الخبيث أنهم مفسدون في الأرض، وسيصنع بهم ما يصنع بالمفسدين من تقطيع الأيدي والأرجل من خلف؛ أي: اليد اليمنى والرجل اليسرى، ﴿ثُمَّ لَأَصْلَبَنَّكُمْ﴾: في جذوع النخل؛ لتختزوا بزعمه ﴿أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: لا أفعل هذا الفعل بأحد دون أحد، بل كلكم سيذوق هذا العذاب.

﴿١٢٥﴾ فقال السحرة الذين آمنوا لفرعون حين تهددهم: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾؛ أي: فلا نبالي بعقوبتك؛ فإله خير وأبقى؛ فاقض ما أنت قاض.

﴿١٢٦﴾ ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا﴾؛ أي: وما تعيب منا على إنكارك علينا وتوعدك لنا؛

فليس لنا ذنب ﴿إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا﴾^(١)؛ فَإِنْ كَانَ هَذَا ذَنْبًا يُعَابُ عَلَيْهِ وَيَسْتَحَقُّ صَاحِبَهُ الْعُقُوبَةَ؛ فَهُوَ ذَنْبُنَا. ثُمَّ دَعَا اللَّهَ أَنْ يَثْبُتَهُمْ وَيَصْبِرَهُمْ، فَقَالُوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ﴾؛ أَي: أَفْضِ ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا﴾؛ أَي: عَظِيمًا كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ التَّنْكِيرُ؛ لِأَنَّ هَذِهِ مُحَنَّةٌ عَظِيمَةٌ تُوْدِي إِلَى ذَهَابِ النَّفْسِ، فَيَحْتَاجُ فِيهَا مِنَ الصَّبْرِ إِلَى شَيْءٍ كَثِيرٍ؛ لِيُثَبِّتَ الْفُؤَادَ وَيُطْمَئِنِّ الْمُؤْمِنُ عَلَى إِيمَانِهِ وَيَزُولَ عَنْهُ الْانْزِعَاجُ الْكَثِيرُ. ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾؛ أَي: مُتَقَادِينَ لِأَمْرِكَ مُتَّبِعِينَ لِرَسُولِكَ. وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ أَوْقَعَ بِهِمْ مَا تَوَعَّدَهُمْ عَلَيْهِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ثَبَّتَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ.

﴿١٢٧﴾ هَذَا وَفَرَعُونَ وَمَلْؤُهُ وَعَامَتُهُمُ الْمُتَّبِعُونَ لِلْمَلَأِ قَدْ اسْتَكْبَرُوا عَنْ آيَاتِ اللَّهِ وَجَحَدُوا بِهَا ظُلْمًا وَعُلُوًّا وَقَالُوا لِفَرَعُونَ مَهِيْجِينَ لَهُ عَلَى الْإِيقَاعِ بِمُوسَى وَزَاعِمِينَ أَنْ مَا جَاءَ بَاطِلٌ وَفَسَادٌ: ﴿أَنْذِرْ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾: بِالْدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ الَّتِي هِيَ الصَّلَاحُ فِي الْأَرْضِ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ هُوَ الْفُسَادُ، وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ لَا يِيَالُونَ بِمَا يَقُولُونَ، ﴿وَيَذَرُكَ وَالْهَتَّكَ﴾؛ أَي: يَدَعُكَ أَنْتَ وَالْهَتَّكَ، وَيَنْهَى عَنْكَ، وَيَصُدُّ النَّاسَ عَنْ اتِّبَاعِكَ، فَقَالَ فَرَعُونَ مُجِيبًا لَهُمْ بِأَنَّهُ سَيَدْعُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَ مُوسَى بِحَالَةٍ لَا يَنْمُونُ فِيهَا وَيَأْمَنُ فَرَعُونَ وَقَوْمُهُ بِزَعْمِهِ مِنْ ضَرَرِهِمْ: ﴿سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾؛ أَي: نَسْتَبْقِيَهُنَّ فَلَا نَقْتُلُهُنَّ؛ فَإِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ؛ أَمَّا مِنْ كَثَرَتِهِمْ، وَكُنَّا مُسْتَخْدِمِينَ لِبَاقِيهِمْ وَمُسَخَّرِينَ لَهُمْ عَلَى مَا نَشَاءُ مِنَ الْأَعْمَالِ، ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾: لَا خُرُوجَ لَهُمْ عَنْ حُكْمِنَا وَلَا قُدْرَةَ. وَهَذَا نِهَایَةُ الْجَبَرُوتِ مِنْ فَرَعُونَ وَالْعَتُوِّ وَالْقَسْوَةِ.

﴿١٢٨﴾ فَقَالَ ﴿مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾: مُوصِيًّا لَهُمْ - فِي هَذِهِ الْحَالَةِ الَّتِي لَا يَقْدِرُونَ مَعَهَا عَلَى شَيْءٍ وَلَا مَقَاوِمَةَ - بِالْمَقَاوِمَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَالِاسْتِعَانَةِ الرَّبَّانِيَّةِ: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾؛ أَي: اعْتَمِدُوا عَلَيْهِ فِي جَلْبِ مَا يَنْفَعُكُمْ وَدَفْعِ مَا يَضُرُّكُمْ، وَثِقُوا بِاللَّهِ أَنَّهُ سَيُثَبِّتُ أَمْرَكُمْ، ﴿وَاصْبِرُوا﴾؛ أَي: الزَّمُوا الصَّبْرَ عَلَى مَا يَحُلُّ بِكُمْ مُنْتَظِرِينَ لِلْفَرَجِ. ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ﴾: لَيْسَتْ لِفَرَعُونَ وَلَا لِقَوْمِهِ حَتَّى يَتَحَكَّمُوا فِيهَا، ﴿يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾؛ أَي: يَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ عَلَى حَسَبِ مَشِئَتِهِ وَحُكْمَتِهِ، وَلَكِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ؛ فَإِنَّهُمْ وَإِنْ امْتَحِنُوا مَدَّةَ ابْتِلَاءٍ مِنَ اللَّهِ وَحُكْمَةٍ؛ فَإِنَّ النِّصْرَ لَهُمْ، ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾: الْحَمِيدَةُ لَهُمْ عَلَى قَوْمِهِمْ. وَهَذِهِ وَظِيفَةُ الْعَبْدِ؛ أَنَّهُ عِنْدَ الْقُدْرَةِ أَنْ يَفْعَلَ

(١) فِي (ب): «أَمَّا بَرِينَا».

من الأسباب الدافعة عنه أذى الغير ما يقدر عليه وعند العجز أن يصبر ويستعين الله ويتنظر الفرج.

﴿١٢٩﴾ ﴿قَالُوا﴾: لموسى متضجرين من طول ما مكثوا في عذاب فرعون وأذيتة: ﴿أَوْذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا﴾: فإنهم يسوموننا سوء العذاب يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا، ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾: كذلك، فقال لهم موسى مرجياً لهم بالفرج^(١) والخلاص من شرهم: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: يمكنكم فيها ويجعل لكم التدبير فيها، ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾: هل تشكرون أم تكفرون؟ وهذا وعد أنجزه الله لما جاء الوقت الذي أرادته الله.

﴿١٣٠﴾ قال الله تعالى في بيان ما عامل به آل فرعون في هذه المدة الأخيرة - إنها على عادته وسنته في الأمم أن يأخذهم ﴿بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ الآيات -: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾؛ أي: بالذهور والجذب، ﴿وَنَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾؛ أي: يتعظون أن ما حل بهم وأصابهم معاتبة من الله لهم لعلهم يرجعون عن كفرهم، فلم ينجح فيهم ولا أفاد، بل استمروا على الظلم والفساد.

﴿١٣١﴾ ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ﴾؛ أي: الخصب وإدراك الرزق، ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾؛ أي: نحن مستحقون لها، فلم يشكروا الله عليها، ﴿وَإِنْ تَصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾؛ أي: قحط وجذب، ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ﴾؛ أي: يقولوا: إنما جاءنا بسبب مجيء موسى واتباع بني إسرائيل له. قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ أي: بقضائه وقدرته، ليس كما قالوا، بل إن ذنوبهم وكفرهم هو السبب في ذلك، بل أكثرهم لا يعلمون؛ أي: فلذلك قالوا ما قالوا.

﴿١٣٢﴾ ﴿وَقَالُوا﴾: مبيّنين لموسى أنهم لا يزالون ولا يزولون عن باطلهم: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: قد تقرّر عندنا أنك ساحر؛ فمهما جئت بآية؛ جزمنا أنها سحر؛ فلا نؤمن لك ولا نصدق. وهذا غاية ما يكون من العناد أن يبلغ بالكافرين إلى أن تستوي عندهم الحالات سواء نزلت عليهم الآيات أم لم تنزل.

﴿١٣٣﴾ ﴿فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾؛ أي: الماء الكثير الذي أغرق أشجارهم

(١) في (ب): «مرجياً الفرج».

وزرّوعهم وأضرّهم^(١) ضرراً كثيراً، ﴿والجراد﴾: فأكل ثمارهم وزرّوعهم ونباتهم، ﴿والقمل﴾: قيل: إنه الدُّبَّاء؛ أي: صغار الجراد، والظاهر أنه القمل المعروف، ﴿والضفادع﴾: فمَلَأَتْ أوعيتهم وأقلقتهم وأذتْهم أذية شديدة، ﴿والدم﴾: إما أن يكون الرعاف، أو كما قال كثير من المفسرين: إن ماءهم الذي يشربون انقلب دماً، فكانوا لا يشربون إلّا دماً ولا يطبخون [إلّا بدم]. ﴿آيات مفصّلات﴾: أي: أدلة وبيّنات على أنّهم كانوا كاذبين ظالمين، وعلى أن ما جاء به موسى حقٌّ وصدق. ﴿فاستكبروا﴾: لما رأوا الآيات، ﴿وكانوا﴾: في سابق أمرهم ﴿قوماً مجرمين﴾: فلذلك عاقبهم الله تعالى بأن أبقاهم على الغي والضلال.

﴿١٣٤﴾ ﴿ولما وقع عليهم الرّجز﴾: أي: العذاب؛ يحتمل أن المراد به الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم؛ فإنها رجزٌ وعذابٌ، وإنهم كلّما أصابهم واحد منها؛ ﴿قالوا يا موسى ادعُ لنا ربك بما عهدَ عندك﴾: أي: تشفّعوا بموسى بما عهدَ الله عنده من الوحي والشرع. ﴿لئن كشفت عنا الرّجزَ لنؤمننَّ لك ولنرسلنَّ معك بني إسرائيل﴾: وهم في ذلك كذبة لا قصدَ لهم إلا زوال ما حلَّ بهم من العذاب، وظنّوا إذا رفع لا يصيبهم غيره.

﴿١٣٥﴾ ﴿فلما كشفنا عنهم الرّجزَ إلى أجل هم بالغوه﴾: أي: إلى مدة قدر الله بقاءهم إليها، وليس كشفاً مؤبداً، وإنما هو موقت، ﴿إذا هم ينكثون﴾: العهد الذي عاهدوا عليه موسى ووعدوه بالإيمان به وإرسال بني إسرائيل؛ فلا آمنوا به ولا أرسلوا معه بني إسرائيل، بل استمرّوا على كفرهم يعمهون وعلى تعذيب بني إسرائيل دائبين.

﴿١٣٦﴾ ﴿فانتقمنا منهم﴾: أي: حين جاء الوقت الموقّت لهلاكهم؛ أمر الله موسى أن يسري ببني إسرائيل ليلاً، وأخبره أن فرعون سيتبعهم هو وجنوده. ﴿فأرسل فرعون في المدائن حاشرين﴾ يجمعون الناس ليتبعوا بني إسرائيل، وقالوا لهم: ﴿إنّ هؤلاء لشيّزومة قليلون. وإنّهم لنا لغائظون. وإنّا لجميعٌ حاذرون. فأخزّجناهم من جناتٍ وعيون. وكنوزٍ ومقام كريم. كذلك وأورثناها بني إسرائيل. فاتبعوهم مشرقين. فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنّنا لَمُذْرَكُونَ. قال

كلاً إن معي ربي سيهدين . فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم . وأزلفنا ثم الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين . وقال هنا : ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ ؛ أي : بسبب تكذيبهم بآيات الله ، وإعراضهم عما دلت عليه من الحق .

﴿١٣٧﴾ ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ : في الأرض ؛ أي : بني إسرائيل الذين كانوا خدمة لآل فرعون يسومونهم سوء العذاب ، أورثهم الله ﴿مِشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ : والمراد بالأرض ها هنا أرض مصر التي كانوا فيها مستضعفين أذلين ؛ أي : ملكهم الله جميعها ومكنهم فيها ، ﴿التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا﴾ : حين قال لهم موسى : ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ، ﴿وَوَدَّعَيْنَا مَا كَانَ صَنِيعَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ : من الأبنية الهائلة والمساكن المزخرفة ، ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ : فتلك بيوتهم [خاوية] بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون .

﴿١٣٨﴾ ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ : بعدما أنجاهم الله من عدوهم فرعون وقومه وأهلكهم الله ، وبنو إسرائيل ينظرون ، ﴿فَاتَوَّأ﴾ ؛ أي : مروا ﴿عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ ؛ أي : يقيمون عندها ويتبركون بها ويعبدونها ، فقالوا من جهلهم وسفهمهم لنبيهم موسى بعدما أراهم الله من الآيات ما أراهم : ﴿يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ ؛ أي : اشرع لنا أن نتخذ أصناماً آلهة كما اتخذها هؤلاء ، فقال لهم موسى : ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ : وأي جهل أعظم من جهل ربّه وخالفه ، وأراد أن يسوي به غيره ممن لا يملك نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً؟! .

﴿١٣٩﴾ ﴿وَلِهَذَا قَالَ لَهُمُ مُوسَى : إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبَرِّءٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ : لأن دعاءهم إياها باطل وهي باطلة بنفسها ؛ فالعمل باطل وغايته باطلة .

﴿١٤٠﴾ ﴿قَالَ أَغْيِرَ اللَّهُ أْبْغِيَكُمْ إِلَهًا﴾ ؛ أي : أطلب لكم إلهاً غير الله المألوه الكامل في ذاته وصفاته وأفعاله . ﴿وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ : فيقتضي أن تقابلوا فضله وتفضيله بالشكر ، وذلك بإفراد الله وحده ^(١) بالعبادة والكفر بما يدعى من دونه .

(١) في (ب) : «وذلك بإفراده وحده» .

﴿١٤١﴾ ثم ذكّرهم ما امتنّ الله به عليهم فقال: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: من فرعون وآله، ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾؛ أي: يوجّهون إليكم من العذاب أسوأه، وهو أنهم كانوا يذبحون ﴿أبناءكم وَيَسْتَحْيُونَ نساءكم وَفِي ذَلِكُمْ﴾؛ أي: النجاة من عذابهم، ﴿بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾؛ أي: نعمةٌ جليلةٌ ومنحةٌ جزيلةٌ، أو وفي ذلك العذاب الصادر منهم لكم بلاءٌ من ربكم عليكم عظيمٌ.

﴿١٤٢﴾ فلما ذكّرهم موسى ووعظهم؛ انتهوا عن ذلك، ولما أتمّ الله نعمته عليهم بالنجاة من عدوهم وتمكينهم في الأرض؛ أرادَ تبارك وتعالى أن يُتِمَّ نعمته عليهم بإنزال الكتاب الذي فيه الأحكام الشرعية والعقائد المرضية، فواعد موسى ثلاثين ليلةً، وأتمّها بعشر، فصارت أربعين ليلةً؛ ليستعدّ موسى ويتهيأ لوعده الله ويكون لنزولها موقع كبير لديهم وتشوق إلى إنزالها، ولما ذهب موسى إلى ميقات ربه، قال لهارون موصياً له على بني إسرائيل من حرصه عليهم وشفقته: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾؛ أي: كن خليفتي فيهم، واعمل فيهم بما كنت أعمل، ﴿وَأَصْلِحْ﴾؛ أي: اتبع طريق الصلاح، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾: وهم الذين يعملون بالمعاصي.

﴿١٤٣﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾: الذي وقّنته له لإنزال الكتاب، ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾: بما كلّمه من وحيه وأمره ونهيهِ؛ تشوّق إلى رؤية الله، ونَزَعَتْ نَفْسُهُ لَذَلِكَ حُبّاً لِرَبِّهِ وَمَوَدَّةً لِرُؤْيَاهُ، ﴿فَقَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾، فقال الله: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾؛ أي: لن تقدّر الآن على رؤيتي؛ فإنّ الله تبارك وتعالى أنشأ الخلق في هذه الدار على نشأة لا يقدرّون بها ولا يشبّتون لرؤية الله، وليس في هذا دليلٌ على أنّهم لا يرونه في الجنة؛ فإنه قد دلّت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية على أن أهل الجنة يرون ربّهم تبارك وتعالى ويتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم. وأنه يُنشِئُهُمْ نشأةً كاملةً يقدرّون معها على رؤية الله تعالى، ولهذا ربّ الله الرؤية في هذه الآية على ثبوت الجبل، فقال مقنعاً لموسى في عدم إجابته للرؤية: ﴿وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾: إذا تجلّى الله له، ﴿فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾: الأصمّ الغليظ، ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾؛ أي: انهال مثل الرمل انزعاجاً من رؤية الله وعدم ثبوت لها، ﴿وَخَرَّ مُوسَى﴾: حين رأى ما رأى، صَعِقاً فَتَبَيَّنَ له حينئذٍ أنه إذا لم يثبت الجبلُ لرؤية الله؛ فموسى أولى أن لا يثبت لذلك، واستغفر ربّه لما صدر منه من السؤال الذي لم يوافق موضعاً، و﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾؛ أي: تنزيهاً لك وتعظيماً عما لا يليق بجلالك، ﴿تَبَّتْ إِلَيْكَ﴾: من جميع الذنوب وسوء الأدب معك، ﴿وَأَنَا

أول المؤمنين؛ أي: جدد عليه الصلاة والسلام إيمانه بما كمل الله له مما كان يجهله قبل ذلك.

﴿١٤٤﴾ فلما منعه الله من رؤيته بعدما كان متشوقاً إليها؛ أعطاه خيراً كثيراً، فقال: ﴿يا موسى إني اصطفيتك على الناس﴾؛ أي: اخترتك واجتبتك وفضلتك وخصصتك بفضائل عظيمة ومناقب جليلة، ﴿برسالاتي﴾: التي لا أجعلها ولا أخص بها إلا أفضل الخلق، ﴿وبكلامي﴾: إياك من غير واسطة، وهذه فضيلة اختص بها موسى الكليم، وعرف بها من بين إخوانه من المرسلين، ﴿فخذ ما آتيتك﴾: من النعم، وخذ ما آتيتك من الأمر والنهي بانسراح صدر، وتلقه بالقبول والانقياد، ﴿وكن من الشاكرين﴾: لله على ما خصك وفضلك.

﴿١٤٥﴾ ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء﴾: يحتاج إليه العباد ﴿موعظة﴾: ترغب النفوس في أفعال الخير وترهبهم من أفعال الشر، ﴿وتفصيلاً لكل شيء﴾: من الأحكام الشرعية والعقائد والأخلاق والآداب، ﴿فخذها بقوة﴾؛ أي: بجد واجتهاد على إقامتها، ﴿وأمر قومك يأخذوا بأحسنها﴾: وهي الأوامر الواجبة والمستحبة؛ فإنها أحسنها. وفي هذا دليل على أن أوامر الله في كل شريعة كاملة عادلة حسنة. ﴿سأريكم دار الفاسقين﴾: بعدما أهلكهم الله وأبقى ديارهم عبرة بعدهم يعتبر بها المؤمنون الموفقون المتواضعون.

﴿١٤٦﴾ وأما غيرهم؛ فقال عنهم: ﴿سأصرف عن آياتي﴾؛ أي: عن الاعتبار في الآيات الأفقية والنفسية والفهم لآيات الكتاب، ﴿الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾؛ أي: يتكبرون على عباد الله وعلى الحق وعلى من جاء به؛ فمن كان بهذه الصفة؛ حرمه الله خيراً كثيراً، وخذله، ولم يققه من آيات الله ما يتفجع به، بل ربما انقلبت عليه الحقائق واستحسن القبيح، ﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾: لإعراضهم واعتراضهم ومحاذتهم لله ورسوله، ﴿وإن يروا سبيل الرشد﴾؛ أي: الهدى والاستقامة، وهو الصراط الموصل إلى الله وإلى دار كرامته، ﴿لا يتخذوه [سبيلاً]﴾؛ أي: لا يسلكوه ولا يرغبوا فيه، ﴿وإن يروا سبيل الغي﴾؛ أي: الغواية الموصل لصاحبه إلى دار الشقاء، ﴿يتخذوه سبيلاً﴾. والسبب في انحرافهم هذا الانحراف، ﴿ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾: فردهم لآيات الله وغفلتهم عما يراد بها واحتقارهم لها هو الذي أوجب لهم من سلوك طريق الغي وترك طريق الرشد ما أوجب.

﴿١٤٧﴾ والذين كذبوا بآياتنا: العظيمة الدالة على صحة ما أرسلنا به رسلنا، ولقاء الآخرة حَبِطَتْ أعمالهم: لأنها على غير أساس، وقد فقد شرطها، وهو الإيمان بآيات الله والتصديق بجزائه. ﴿هل يُجَزَوْنَ﴾: في بطلان أعمالهم وحصول ضد مقصودهم ﴿إلا ما كانوا يعملون﴾: فإن أعمال مَنْ لا يؤمن باليوم الآخر لا يرجو فيها ثواباً، وليس لها غاية تنتهي إليه؛ فلذلك اضمحلت وبطلت.

﴿١٤٨﴾ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلًا جسدًا: صاغه السامري وألقى عليه قبضة من أثر الرسول فصار ﴿له خوار﴾ وصوت، فعبده واتخذوه إلهًا، وقال: هذا إلهكم وإله موسى، فنسي موسى، وذهب يطلبه، وهذا من سفههم وقلة بصيرتهم؛ كيف اشتبه عليهم رب الأرض والسموات بعجل من أنقص المخلوقات؟! ولهذا قال مبيناً أنه ليس فيه من الصفات الذاتية ولا الفعلية ما يوجب أن يكون إلهًا: ﴿ألم يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلَمُهُمْ﴾؛ أي: وعدم الكلام نقص عظيم؛ فهم أكمل حالة من هذا الحيوان أو الجماد الذي لا يتكلم، ﴿ولا يهديهم سبيلاً﴾؛ أي: لا يدلهم طريقاً دينياً ولا يحصل لهم مصلحة دنيوية؛ لأن من المتقرر في العقول والفطر أن اتخاذ إله لا يتكلم ولا ينفع ولا يضر من أبطل الباطل وأسمج السفه، ولهذا قال: ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾: حيث وضعوا العبادة في غير موضعها، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً. وفيها دليل على أن أنكر كلام الله؛ فقد أنكر خصائص إلهية الله تعالى؛ لأن الله ذكر أن عدم الكلام دليل على عدم صلاحية الذي لا يتكلم للإلهية.

﴿١٤٩﴾ ولما: رجع موسى إلى قومه، فوجدهم على هذه الحال، وأخبرهم بضلالهم؛ ندموا، و ﴿سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: من الهَم والندم على فعلهم، ﴿ورأوا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾: فتنصلوا إلى الله وتضرعوا، ﴿وقالوا لئن لم يَرْحَمْنَا رَبُّنَا: فَيَدُلَّنَا عَلَيْهِ، وَيَرْزُقَنَا عِبَادَتَهُ، وَيُوَفِّقَنَا لِمَصَالِحِ الْأَعْمَالِ، وَيَغْفِرَ لَنَا: مَا صَدَرَ مِنَّا مِنْ عِبَادَةِ الْعَجَل؛ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾: الذين خسروا الدنيا والآخرة.

﴿١٥٠﴾ ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً؛ أي: ممتلئاً غضباً وغيظاً عليهم لتمام غيرته عليه [الصلاة و] السلام وكمال نصحه وشفقته، ﴿قال بشمًا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾؛ أي: بشس الحالة التي خلفتموني بها من بعد ذهابي عنكم؛ فإنها حالة تفضي إلى الهلاك الأبدي والشقاء السرمدي. ﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾: حيث وعدكم بإنزال الكتاب فبادرتم برأيكم الفاسد إلى هذه الخصلة القبيحة،

﴿وَأَلْقَى الْأُلُوحَ﴾؛ أي: رماها من الغضب، ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾: هارونَ ولحيته، ﴿يَجْرُهُ إِلَيْهِ﴾: وقال له: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا. أَنْ لَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾: لك بقولي: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾؟! فقال: ﴿يَا ابْنَ أُمِّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ و ﴿قَالَ﴾ هنا^(١): ﴿ابْنَ أُمِّ﴾: هذا تَرْقِيقٌ لِأَخِيهِ بِذِكْرِ الْأُمِّ وَحْدَهَا، وَإِلَّا فَهُوَ شَقِيقُهُ لِأُمِّهِ وَأَبِيهِ. ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي﴾؛ أي: احتقروني حين قلتُ لهم: يا قوم! إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ، وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ؛ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي، ﴿وَوَكَادُوا يُقْتُلُونَنِي﴾؛ أي: فلا تَظُنُّ بِي تَقْصِيرًا، ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾: بِنَهْكِ لِي وَمَسْكِ إِيَّايَ بِسُوءٍ فَإِنَّ الْأَعْدَاءَ حَرِيصُونَ عَلَى أَنْ يَجِدُوا عَلَيَّ عَثْرَةً أَوْ يَظْلَعُوا لِي عَلَى زَلَّةٍ، ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾: فتعاملني معاملتهم.

﴿١٥١﴾ فندم موسى عليه السلام على ما استعجل من صنعِهِ بِأَخِيهِ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ بَرَاءَتَهُ مِمَّا ظَنَّهُ فِيهِ مِنَ التَّقْصِيرِ، و ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾: هارونَ، ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾؛ أي: في وسطها، واجعل رحمتك تحيطُ بنا من كل جانب؛ فإنها حصنٌ حصينٌ من جميع الشرور وثمَّ كُلُّ خَيْرٍ وَسُرُورٍ. ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾؛ أي: أرحم بنا من كُلِّ رَاحِمٍ، أرحم بنا من آبائنا وأُمَّهاتنا وأولادنا وأنفسنا.

﴿١٥٢﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مَبِينًا حَالِ أَهْلِ الْعَجَلِ الَّذِينَ عَبْدُوهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعَجَلَ﴾؛ أي: إِلَهًا، ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: كما أَغْضَبُوا رَبَّهُمْ وَاسْتَهَانُوا بِأَمْرِهِ. ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾: فكلُّ مُفْتَرٍ عَلَى اللَّهِ كَاذِبٌ عَلَى شَرْعِهِ مَقْذُوفٌ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَقُلْ؛ فَإِنَّ لَهُ نَصيبًا مِنَ الْغَضَبِ مِنَ اللَّهِ وَالذُّلَّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

﴿١٥٣﴾ وَقَدْ نَالَهُمْ غَضَبُ اللَّهِ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَنْ يَقْتُلُوا أَنْفُسَهُمْ، وَأَنَّهُ لَا يَرْضَى اللَّهُ عَنْهُمْ إِلَّا بِذَلِكَ، فَقَتَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَانْجَلَتْ الْمَعْرَكَةُ عَلَى قَتْلَى كَثِيرَةٍ، ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ، وَلِهَذَا ذَكَرَ حَكَمًا عَامًّا يَدْخُلُونَ فِيهِ هُمْ وَغَيْرُهُمْ، فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾: من شرك وكبائر وصغائر، ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا﴾: بِأَنْ نَدَمُوا عَلَى مَا مَضَى وَأَقْلَعُوا عَنْهَا وَعَزَمُوا عَلَى أَنْ لَا يَعُودُوا، ﴿وَأَمَّنُوا﴾: بِاللَّهِ وَبِمَا أَوْجَبَ اللَّهُ الْإِيمَانَ بِهِ، وَلَا يَتِمُّ الْإِيمَانُ إِلَّا بِأَعْمَالِ الْقُلُوبِ وَأَعْمَالِ الْجَوَارِحِ الْمُرْتَبَةِ

(١) في (ب): «قال هنا: قال».

على الإيمان. ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾؛ أي: بعد هذه الحالة - حالة التوبة من السيئات والرجوع إلى الطاعات - ﴿لَغَفُورٌ﴾: يغفر السيئات ويمحوها، ولو كانت قُرَاب الأرض. ﴿رَحِيمٌ﴾: بقبول التوبة والتوفيق لأفعال الخير وقبولها.

﴿١٥٤﴾ ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾؛ أي: سكن غضبه وتراجعت نفسه، وعَرَفَ ما هو فيه؛ اشتغل بأهم الأشياء عنده، فَأَخَذَ ﴿الْأَلْوَاخَ﴾: التي ألقاها، وهي ألواح عظيمة المقدار جليلة ﴿فِي نُسْخَتِهَا﴾؛ أي: مشتملة ومتضمنة ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾؛ أي: فيها الهدى من الضلالة، وبيان الحق من الباطل، وأعمال الخير وأعمال الشر، والهدى لأحسن الأعمال والأخلاق والآداب، ورحمة وسعادة لمن عمل بها وعلم أحكامها ومعانيها، ولكن؛ ليس كل أحد يقبل هدى الله ورحمته، وإنما يقبل ذلك، وينقاد له، ويتلقاه بالقبول، ﴿الَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾؛ أي: يخافون منه ويخشونه، وأما مَنْ لم يخفِ الله ولا المقام بين يديه؛ فإنه لا يزداد بها إلا عتواً ونفوراً، وتقوم عليه حجة الله فيها.

﴿١٥٥﴾ ﴿وَلَمَّا تَابَ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَتَرَجَعُوا إِلَى رُسُلِهِمْ،﴾ ﴿اخْتَارَ مُوسَى﴾ منهم ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا﴾: من خيارهم ليعتذروا لقومهم عند ربهم، ووعدهم الله ميقاناً يحضرون فيه، فلما حضروا؛ قالوا: يا موسى! أرنا الله جهرة! فتجرؤوا على الله جراءة كبيرة، وأسأؤوا الأدب معه، فأخذتهم الرجفة، فصعقوا وهلكوا، فلم يزل موسى عليه الصلاة والسلام يتضرع إلى الله ويتبذل ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَحْضُرُوا، وَيَكُونُونَ فِي حَالَةٍ يَعْتَذِرُونَ فِيهَا لِقَوْمِهِمْ فَصَارُوا هُمُ الظَّالِمِينَ.﴾ ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِثًّا﴾؛ أي: ضعفاء العقول سفهاء الأحلام، فتضرع إلى الله، واعتذر بأن المتجرئين على الله ليس لهم عقول كاملة تردعهم عما قالوا وفعلوا، وبأنهم حصل لهم فتنة يخطر بها الإنسان ويخاف من ذهاب دينه، فقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾؛ أي: أنت خير من غفر، وأولى من رحم، وأكرم من أعطى وتفضل، فكأن موسى عليه الصلاة والسلام قال: المقصود يا رب بالمقصد الأول لنا كلنا، هو التزام طاعتك والإيمان بك، وأن من حَضَرَ عقله ورشده وتم على ما وهبته من التوفيق؛ فإنه لم يزل مستقيماً، وأما من ضَعَفَ عقله وسَفِهَ رأيه وصرفته الفتنة؛ فهو الذي فعل ما فعل لذينك السببيين، ومع هذا؛ فأنت أرحم الراحمين وخير الغافرين؛ فاغفر لنا وارحمنا! فأجاب الله سؤاله، وأحياهم من بعد موتهم، وغفر لهم ذنوبهم.

﴿١٥٦﴾ وقال موسى في تمام دعائه: ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة﴾: من علم نافع ورزق واسع وعمل صالح، ﴿وفي الآخرة﴾: حسنة، وهي ما أعد الله لأولياته الصالحين من الثواب. ﴿إِنَّا هُذْنَا إِلَيْكَ﴾؛ أي: رجعنا مقرّين بتقصيرنا منيبين في جميع أمورنا، ﴿قال﴾ الله تعالى: ﴿عذابي أصيبُ به من أشاء﴾: ممّن كان شقيّاً متعرضاً لأسبابه، ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾: من العالم العلويّ والسفليّ؛ البر والفاجر، المؤمن والكافر؛ فلا مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمة الله وغمره فضله وإحسانه، ولكن الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة ليست لكل أحد، ولهذا قال عنها: ﴿فسأكتبها للذين يتّقون﴾: المعاصي صغارها وكبارها، ﴿ويؤتون الزّكاة﴾: الواجبة مستحقّيها، ﴿والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾.

﴿١٥٧﴾ ومن تمام الإيمان بآيات الله معرفة معناها والعمل بمقتضاها، ومن ذلك اتباع النبي ﷺ ظاهراً وباطناً في أصول الدين وفروعه: ﴿الذين يتّبعون الرسول النبي الأمي﴾: احتراز عن سائر الأنبياء؛ فإن المقصود بهذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب والسياق في أحوال بني إسرائيل، وأن الإيمان بالنبي محمد ﷺ شرط في دخولهم في الإيمان، وأن المؤمنين به المتّبعين هم أهل الرحمة المطلقة التي كتبها الله لهم، ووصفه بالأمي لأنّه من العرب الأميّة التي لا تقرأ ولا تكتب وليس عندها قبل القرآن كتاب. ﴿الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾: باسمه وصفته التي من أعظمها وأجلّها ما يدعو إليه وينهى عنه، وأنه ﴿يأمرهم بالمعروف﴾: وهو كل ما عُرِفَ حسنُهُ وصلاحه ونفعه. ﴿وينهاهم عن المنكر﴾: وهو كل ما عرف قبحه في العقول والفطر، فيأمرهم بالصلاة والزكاة والصوم والحج وصلة الأرحام وبر الوالدين والإحسان إلى الجار والمملوك وبذل النفع لسائر الخلق والصدق والعفاف والبر والنصيحة وما أشبه ذلك، وينهى عن الشرك بالله وقتل النفوس بغير حق والزنا وشرب ما يسكر العقل والظلم لسائر الخلق والكذب والفجور ونحو ذلك؛ فأعظم دليل يدلّ على أنه رسول الله ما دعا إليه وأمر به ونهى عنه وأحلّه وحزّمه؛ فإنه يُحلُّ الطيبات: من المطاعم والمشارب والمناكح. ﴿ويحرّم عليهم الخبائث﴾: من المطاعم والمشارب والمناكح والأقوال والأفعال. ﴿ويضغّ عنهم إضرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾؛ أي: ومن وُضِفَ أَنْ دينه سهلٌ سَمَحَ ميسر لا إصر فيه ولا أغلال ولا مشقات ولا تكاليف ثقال.

﴿فالذين آمنوا به وعزّروه﴾؛ أي: عظّموه وبجّلوه، ﴿ونصّروه واتّبعوا النور الذي

أَنْزَلَ مَعَهُ: وهو القرآن الذي يُسْتَضَاءُ به في ظلمات الشُّكِّ والجهالات، ويقتدى به إذا تعارضت المقالات. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: الظافرون بخير الدنيا والآخرة، والناجون من شرِّهما؛ لأنَّهم أتوا بأكبر أسباب الفلاح، وأما مَنْ لم يؤمن بهذا النبيِّ الأُمِّيِّ، ويعزَّره، وينصره، ولم يتَّبِعْ النور الذي أنزل معه؛ فأولئك هم الخاسرون.

﴿١٥٨﴾ ولما دعا أهل التوراة من بني إسرائيل إلى اتباعه، وكان ربما توهَّم متوهَّم أن الحكم مقصورٌ عليهم، أتى بما يدلُّ على العموم، فقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾؛ أي: عربيِّكم وعجميِّكم، أهل الكتاب منكم وغيرهم، ﴿الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: يتصرَّف فيهما بأحكامه الكونيَّة والتدابير السلطانيَّة وبأحكامه الشرعيَّة الدينيَّة، التي من جملتها أن أرسل إليكم رسولاً عظيماً يدعوكم إلى الله وإلى دار كرامته، ويحذركم من كلِّ ما يباعدكم منه ومن دار كرامته. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبود بحقٍ إلا الله وحده لا شريك له، ولا تُغَرَّفُ عبادته إلا من طريق رسله. ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾؛ أي: من جملة تدابير الإحياء والإماتة، التي لا يشاركه فيها أحدٌ، التي جعل الله الموت جسراً ومعبراً، يُعبَرُ منه إلى دار البقاء التي من آمن بها صدَّق الرسول محمداً ﷺ قطعاً. ﴿فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾: إيماناً في القلب متضمناً لأعمال القلوب والجوارح، ﴿الَّذِي يُوْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾؛ أي: آمنوا بهذا الرسول المستقيم في عقائده وأعماله، ﴿وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: في مصالِحكم الدينيَّة والدنيويَّة؛ فإنكم إذا لم تتَّبَعُوهُ؛ ضللتُم ضلالاً بعيداً.

﴿١٥٩﴾ ﴿وَمَنْ قَوْمُ مُوسَىٰ أُمَّةً﴾؛ أي: جماعة، ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾؛ أي: يهدون [به] الناس في تعليمهم إياهم وفتواهم لهم، ويعدِلون به بينهم في الحكم بينهم قضاياهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

وفي هذا فضيلةٌ لأمة موسى عليه الصلاة والسلام، وأنَّ الله تعالى جعل منهم هُداةً يهدون بأمره. وكأنَّ الإتيان بهذه الآية الكريمة فيه نوعٌ احتراز مما تقدَّم؛ فإنه تعالى ذكر فيما تقدَّم جملةً من معائب بني إسرائيل المنافية للكمال المناقضة للهداية، فربما توهَّم متوهَّم أن هذا يعمُّ جميعهم، فذكر تعالى أن منهم طائفة مستقيمة هادية مهتدية.

﴿١٦٠﴾ ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ﴾؛ أي: قسَّمْنَاهُمْ ﴿إِثْنِي عَشَرَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾؛ أي: اثنتي

عشرة قبيلة متعارفة متوالفة، كل بني رجل من أولاد يعقوب قبيلة، ﴿وأوحينا إلى موسى إذ استسقاء قومه﴾؛ أي: طلبوا منه أن يدعو الله تعالى أن يسقيهم ماء يشربون منه وتشرب منه مواشيهم، وذلك لأنهم - والله أعلم - في محل قليل الماء، فأوحى الله لموسى إجابة لطلبهم: ﴿أن اضرب بعصاك الحجر﴾: يُحتمل أنه حجر معين، ويُحتمل أنه اسم جنس يشمل أي حجر كان، فضربه، ﴿فانبجست﴾؛ أي: انفجرت من ذلك الحجر ﴿اثننا عشرة عينا﴾: جارية سارحة، ﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾؛ أي: قد قسم على كل قبيلة من تلك القبائل الاثني عشرة، وجعل لكل منهم عينا، فعلموها، واطمأنوا واستراحوا من التعب والمزاحمة، ولهذا من تمام نعمة الله عليهم، ﴿وظللنا عليهم الغمام﴾: فكان يسثرهم من حر الشمس، ﴿وأنزلنا عليهم المن﴾: وهو الحلوى، ﴿والسلوى﴾: وهو لحم طير من أحسن أنواع الطيور وألذها، فجمع الله لهم بين الظلال والشراب والطعام الطيب من الحلوى واللحوم على وجه الراحة والطمأنينة، وقيل لهم: ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا﴾: حين لم يشكروا الله ولم يقوموا بما أوجب الله عليهم. ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾: حيث فوتوها كل خير وعرضوها للشر والنقمة، ولهذا كان مدة لبثهم في التيه.

﴿١٦١﴾ ﴿وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية﴾؛ أي: ادخلوها لتكون وطناً لكم ومسكناً، وهي إيلياء، ﴿وكلوا منها حيث شئتم﴾؛ أي: قرية كانت كثيرة الأشجار غزيرة الثمار رغيدة العيش؛ فلذلك أمرهم الله أن يأكلوا منها حيث شاؤوا، ﴿وقولوا﴾: حين تدخلون الباب: ﴿حطة﴾؛ أي: احطط عتاً خطايانا واعف عنا، ﴿وادخلوا الباب سجداً﴾؛ أي خاضعين لربكم مستكينين لعزته شاكرين لنعمته؛ فأمرهم بالخضوع وسؤال المغفرة، ووعدهم على ذلك مغفرة ذنوبهم والثواب العاجل والآجل، فقال: ﴿نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين﴾: من خير الدنيا والآخرة.

﴿١٦٢﴾ فلم يمثلوا هذا الأمر الإلهي، بل بدل الذين ظلموا منهم؛ أي: عصوا الله واستهانوا بأمره ﴿قولاً غير الذي قيل لهم﴾: فقالوا بدل طلب المغفرة وقولهم حطة: حبة في شعيرة، وإذا بدلوا القول مع يسره وسهولته؛ فتبدلهم للفعل من باب أولى، ولهذا دخلوا يزحفون على أستاههم، ﴿فأرسلنا عليهم﴾: حين خالفوا أمر الله وعصوه ﴿رجزاً من السماء﴾؛ أي: عذاباً شديداً إما الطاعون وإما غيره من العقوبات السماوية، وما ظلمهم الله بعقابه، وإنما

كان ذلك ﴿بما كانوا يظلمون﴾^(١).

﴿١٦٣﴾ ﴿وَاسْأَلْهُمْ﴾؛ أي: اسأل بني إسرائيل ﴿عن القرية التي كانت حاضرة البحر﴾؛ أي: على ساحله في حال تعذيبهم وعقاب الله إياهم، ﴿إِذْ يَغْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾: وكان الله تعالى قد أمرهم أن يعظموه ويحترموه ولا يصيدوا فيه صيداً، فابتلاهم الله وامتنحهم، فكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شُرْعاً؛ أي: كثيرة طافية على وجه البحر. ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾؛ أي: إذا ذهب يوم السبت ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾؛ أي: تذهب في البحر فلا يرون منها شيئاً. ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾: ففسقهم هو الذي أوجب أن يبتليهم^(٢) الله وأن تكون لهم هذه المحنة، وإلاً؛ فلو لم يفسقوا؛ لعافاهم الله، ولما عرّضهم للبلاء والشر.

﴿١٦٤﴾ فتحيلوا على الصيد، فكانوا يحفرون لها حفراً، وينصبون لها الشباك؛ فإذا جاءت يوم السبت ووقعت في تلك الحفر والشباك؛ لم يأخذوها في ذلك اليوم؛ فإذا جاء يوم الأحد؛ أخذوها، وكثر فيهم ذلك، وانقسموا ثلاث فرق: معظمهم اعتدوا وتجروا وأعلنوا بذلك. وفرقة أعلنت بنهيهم والإنكار عليهم. وفرقة اكتفت بإنكار أولئك عليهم ونهيهم لهم وقالوا: ﴿لَمْ تَعْظُونْ قَوْمًا اللَّهُ مَهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾: كأنهم يقولون: لا فائدة في وعظ من اقتحم محارم الله ولم يَضِغْ للنصيح بل استمرّ على اعتدائه وطغيانه؛ فإنه لا بد أن يعاقبهم الله إما بهلاك أو عذاب شديد. فقال الواعظون: نعظهم وننهاهم ﴿مَعْدَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: لنُغْذِرَ فيهم، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: يتركون ما هم فيه من المعصية؛ فلا نياس من هدايتهم؛ فربما نجع فيهم الوعظ وأثر فيهم اللوم، وهذا المقصود الأعظم من إنكار المنكر؛ ليكون معذرة وإقامة حجة على المأمور المنهي، ولعل الله أن يهديه فيعمل بمقتضى ذلك الأمر والنهي.

﴿١٦٥﴾ ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾؛ أي: تركوا ما ذُكِّرُوا به واستمروا على غيهم واعتدائهم، ﴿أَتَجْنِيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾: وهكذا سنة الله في عباده أن العقوبة إذا نزلت نجا منها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ

(١) في (ب): ﴿بما كانوا يفسقون﴾: أي يخرجون عن طاعة الله إلى معصيته من غير ضرورة ألجأتهم ولا داع دعاهم سوى الخبث والشر الذي كان كامناً في نفوسهم. وقد أعرض الشيخ عن ذكر هذه العبارة في (أ). [حيث فسّر الآية: ﴿يفسقون﴾ وصواب الآية ﴿يظلمون﴾. والله أعلم].

(٢) في (ب): «أن يبلّوهم».

ظلموا: وهم الذين اعتدوا في السبت ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾؛ أي: شديد ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

وأما الفرقة الأخرى التي قالت للناهين: لم تعظون قوماً الله مهلكهم؛ فاختلف المفسرون في نجاتهم وهلاكهم، والظاهر أنهم كانوا من الناجين؛ لأن الله خصَّ الهلاك بالظالمين، وهو لم يذكر أنهم ظالمون، فدلَّ على أن العقوبة خاصة بالمعتدين في السبت، ولأنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الآخرين؛ فافتقروا بإنكار أولئك، ولأنهم أنكروا عليهم بقولهم: ﴿لَمْ تَعْظُونْ قَوْمًا اللَّهُ مَهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾: فأبدوا من غضبهم عليهم ما يقتضي أنهم كارهون أشدَّ الكراهة لفعلهم، وأنَّ الله سيعاقبهم أشدَّ العقوبة.

﴿١٦٦﴾ ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهَوْا عَنْهُ﴾؛ أي: قسوا فلم يلبثوا ولا اتعظوا، ﴿قُلْنَا لَهُمْ﴾ قولاً قدرئاً: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾: فانقلبوا بإذن الله قردةً وأبعدهم الله من رحمته.

﴿١٦٧﴾ ثم ذكر ضرب الذلة والصغار على من بقي منهم، فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾؛ أي: أعلم إعلاماً صريحاً، ﴿لِيُبْعِثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾؛ أي: يهينهم ويذلهم، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾: لمن عصاه، حتى إنه يعجل له العقوبة في الدنيا. ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: لمن تاب إليه وأتاب؛ يغفر له الذنوب، ويستُر عليه العيوب، ويرحمه بأن يتقبل منه الطاعات ويثيبه عليها بأنواع المثوبات، وقد فعل الله بهم ما وعدهم به؛ فلا يزالون في ذل وإهانة، تحت حكم غيرهم، لا تقوم لهم راية ولا ينصر لهم عَلمٌ.

﴿١٦٨﴾ ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾؛ أي: فرقناهم ومزقناهم في الأرض بعدما كانوا مجتمعين، ﴿مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ﴾: القائمون بحقوق الله وحقوق عباده، ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾؛ أي: دون الصلاح: إما مقتصدون، وإما الظالمون^(١) لأنفسهم. ﴿وَبَلَّوْنَاهُمْ﴾: على عادتنا وسنتنا ﴿بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾؛ أي: باليسر والعسر، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: عما هم عليه مقيمون من الردى، ويراجعون ما خلَقوا له من الهدى، فلم يزالوا بين صالح وطالح ومقتصد.

﴿١٦٩﴾ حتى خلف ﴿مَنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾: زاد شرهم ﴿وَرِثُوا﴾: بعدهم

(١) في (ب): «ظالمون».

﴿الكتاب﴾: وصار المرجع فيه إليهم، وصاروا يتصرفون فيه بأهوائهم، وتبدل لهم الأموال ليفتوا ويحكموا بغير الحق، وفشت فيهم الرشوة. ﴿يأخذون عرض هذا الأذى ويقولون﴾: مقررین بأنه ذنب وأنهم ظلمة: ﴿سيفقر لنا﴾: وهذا قول خالٍ من الحقيقة؛ فإنه ليس استغفاراً وطلباً للمغفرة على الحقيقة؛ فلو كان ذلك؛ لندموا على ما فعلوا، وعزموا على أن لا يعودوا، ولكنهم إذا أتاهم عرض آخر ورشوة أخرى؛ يأخذوه، فاشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير! قال الله تعالى في الإنكار عليهم وبيان جرائتهم: ﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق﴾: فما بالهم يقولون عليه غير الحق أتباعاً لأهوائهم وميلاً مع مطامعهم؟! ﴿والحال أنهم قد درسوا ما فيه﴾: فليس عليهم فيه إشكال، بل قد أتوا أمرهم متعمدين، وكانوا في أمرهم مستبصرين، وهذا أعظم للذنب وأشد للوم وأشنع للعقوبة، وهذا من نقص عقولهم وسفاهة رأيهم بإيثار الحياة الدنيا على الآخرة، ولهذا قال: ﴿والدار الآخرة خير للذين يتقون﴾: ما حرم الله عليهم من المآكل التي تُصاب وتوكل رشوة على الحكم بغير ما أنزل الله وغير ذلك من أنواع المحرمات. ﴿أفلا تعقلون﴾؛ أي: أفلا يكون لكم عقل توازن بين ما ينبغي إيثاره وما ينبغي الإيثار عليه، وما هو أولى بالسعي إليه والتقديم له على غيره؟! فخاصية العقل النظر للعواقب، وأما من نظر إلى عاجل طفيف منقطع بفوت نعيماً عظيماً باقياً؛ فأتى له العقل والرأي؟!

﴿١٧٠﴾ وإنما العقلاء حقيقة من وصفهم الله بقوله: ﴿والذين يمسكون بالكتاب﴾؛ أي: يتمسكون به علماً وعملاً، فيعلمون ما فيه من الأحكام والأخبار التي علمها أشرف العلوم، ويعملون بما فيها من الأوامر التي هي قرة العيون وسرور القلوب وأفراح الأرواح وصلاح الدنيا والآخرة. ومن أعظم ما يجب التمسك به من الأمور إقامة الصلاة ظاهراً وباطناً، ولهذا خصها^(١) بالذكر لفضلها وشرفها وكونها ميزان الإيمان وإقامتها داعية لإقامة غيرها من العبادات. ولما كان عملهم كله إصلاحاً؛ قال تعالى: ﴿إننا لا نضيع أجر المصلحين﴾: في أقوالهم وأعمالهم ونياتهم، مصلحين لأنفسهم ولغيرهم.

وهذه الآية وما أشبهها دلت على أن الله بعث رسله عليهم الصلاة والسلام

(١) في (ب): «ولهذا خص الله».

بالصلاح لا بالفساد، وبالمنافع لا بالمضار، وأنهم يُعْثُوا بصلاح الدارين؛ فكلُّ مَنْ كان أصلح؛ كان أقرب إلى أتباعهم.

﴿١٧١﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَنْقُضُ الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾: حين امتنعوا من قبول ما في التوراة، فالزمهم الله العمل، وَتَنَقَّ فوق رؤوسهم الجبل، فصار فوقهم: ﴿كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾، وقيل لهم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾؛ أي: بجدٍّ واجتهاد. ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾: دراسة ومباحثة واتصافاً بالعمل به، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: إذا فعلتم ذلك.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ قُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾.

﴿١٧٢ - ١٧٣﴾ يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ أي: أخرج من أصلابهم ذريتهم، وجعلهم يتناسلون ويتوالدون قرناً بعد قرن. ﴿و﴾: حين أخرجهم من بطون أمهاتهم وأصلاب آبائهم، ﴿أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؛ أي: قرَّرههم بإثبات ربوبيته بما أودعه في فطرهم من الإقرار بأنه ربُّهم وخالقهم ومليكنهم. قالوا: بلى؛ قد أقرنا بذلك؛ فَإِنَّ اللَّهَ تعالى فطر عباده على الدين الحنيف القيم، فكلُّ أحدٍ فهو مفطورٌ على ذلك، ولكن الفطرة قد تُغَيَّرُ وتُبدَلُ بما يطرأ على العقول والعقائد الفاسدة^(١)، ولهذا ﴿قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾؛ أي: إنما امتحناكم حتى أقررتكم بما تقرَّر عندكم من أَنَّ اللَّهَ تعالى ربُّكم؛ خشية أن تنكروا يوم القيامة فلا تقرُّوا بشيء من ذلك، وتزعمون أن حجة الله ما قامت عليكم، ولا عندكم بها علم، بل أنتم غافلون عنها لاهون؛ فالיום قد انقطعت حجَّتكم، وثبتت الحجة البالغة لله عليكم. أو تحتجون أيضاً بحجة أخرى، فتقولون: ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾: فحذونا حذوهم، وتبعناهم في باطلهم. ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾؟ فقد أودع الله في فطركم ما يدلُّكم على أن ما مع آبائكم باطلٌ، وأن الحقَّ ما

(١) في (ب): «بما يطرأ عليها من العقائد الفاسدة».

جاءت به الرسل، ولهذا يقاوم ما وجدتم عليه آباءكم ويعلو عليه. نعم؛ قد يعرض للبعد من أقوال آبائه الضالين ومذاهبهم الفاسدة ما يظنه هو الحق، وما ذاك إلا لإعراضه عن حجج الله وبيئاته وآياته الأفقية والنفسية؛ فأعراضه عن ذلك وإقباله على ما قاله المبطلون، ربّما صيّر به حالة يُفَضَّل بها الباطل على الحق.

هذا هو الصواب في تفسير هذه الآيات، وقد قيل: إن هذا يوم أخذ الله الميثاق على ذرية آدم حين استخرجهم من ظهره وأشهدهم على أنفسهم فشهدوا بذلك فاحتجّ عليهم بما أمرهم به في ذلك الوقت على ظلمهم في كفرهم وعنادهم في الدنيا والآخرة! ولكن ليس في الآية ما يدل على هذا، ولا له مناسبة، ولا تقتضيه حكمة الله تعالى، والواقع شاهدٌ بذلك؛ فإنّ هذا العهد والميثاق الذي ذكروا أنه حين أخرج الله ذرية آدم من ظهره^(١) حين كانوا في عالم كالذر لا يذكره أحد ولا يخطر ببال آدمي؛ فكيف يحتج الله عليهم بأمر ليس عندهم به خبر ولا له عين ولا أثر؟!

﴿١٧٤﴾ ولهذا؛ لما كان هذا أمراً واضحاً جلياً؛ قال تعالى: ﴿وكذلك نفصل الآيات﴾؛ أي: نبينها ونوضحها، ﴿ولعلمهم يرجعون﴾: إلى ما أودع الله في فطرهم وإلى ما عاهدوا الله عليه فيردعوا عن القبائح.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْمَخْلُوعِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَرَكَهٗ يَلْهَثُ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾.

﴿١٧٥﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا﴾؛ أي: علمناه [علم] كتاب الله فصار العالم الكبير والحبر النحرير فانسلك منها فاتبعه الشيطان؛ أي: انسلك من الاتصاف الحقيقي بالعلم بآيات الله؛ فإنّ العلم بذلك

(١) وقد ذكر المفسرون أحاديث وآثار على أخذ الميثاق من ذرية آدم وهم في صلب أبيهم. انظر «تفسير الطبري» (٢٢٢/١٣) تحقيق أحمد شاكر. وابن كثير (٥٠٠/٣)، و«أحكام أهل الذمة» لابن القيم (٥٢٥/٢)، و«معارج القبول» للحكمي (٤٠/١). وانظر «الصحيحة» للألباني (١٦٢٣).

يصيرُ صاحبه متصفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ويرقى إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات؛ فترك هذا كتاب الله وراء ظهره، ونبذ الأخلاق التي يأمر بها الكتاب، وخلعها كما يُخلعُ اللباس، فلما انسلخ منها؛ أتبعه الشيطان؛ أي: تسلط عليه حين خرج من الحصن الحصين وصار إلى أسفل سافلين، فازه إلى المعاصي أژا، ﴿فكان من الغاوين﴾: بعد أن كان من الراشدين المرشدين.

﴿١٧٦﴾ وهذا لأن الله تعالى خذله ووكله إلى نفسه؛ فلهذا قال تعالى: ﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾: بأن نوفقه للعمل بها، فيرتفع في الدنيا والآخرة، فيتحصن من أعدائه، ﴿ولكنه﴾: فعل ما يقتضي الخذلان؛ فأخذ إلى الأرض؛ أي: إلى الشهوات السفلية والمقاصد الدنيوية، ﴿واتبع هواه﴾: وترك طاعة مولاه. ﴿فمثله﴾: في شدة حرصه على الدنيا وانقطاع قلبه إليها ﴿كمثل الكلب إن تخمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾؛ أي: لا يزال لاهثاً في كل حال، وهذا لا يزال حريصاً حرصاً قاطعاً قلبه لا يسد فاقته شيء من الدنيا. ﴿ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾: بعد أن ساقها الله إليهم، فلم ينقادوا لها، بل كذبوا بها وردوها لهوانهم على الله واتباعهم لأهوائهم بغير هدى من الله. ﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾: في ضرب الأمثال وفي العبر والآيات؛ فإذا تفكروا؛ علموا، وإذا علموا؛ عملوا.

﴿١٧٧﴾ ﴿ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون﴾؛ أي: ساء وقبح مثل من كذب بآيات الله، وظلم نفسه بأنواع المعاصي؛ فإن مثلهم مثل السوء.

وهذا الذي آتاه الله آياته يُحتمل أن المراد به شخص معين قد كان منه ما ذكره الله فقص الله قصته تنبيهاً للعباد، ويُحتمل أن المراد بذلك أنه اسم جنس، وأنه شامل لكل من آتاه الله آياته فانسلك منها.

وفي هذه الآيات الترغيب في العمل بالعلم، وأن ذلك رفعة من الله لصاحبه وعصمة من الشيطان، والترهيب من عدم العمل به، وأنه نزول إلى أسفل سافلين وتسليط للشيطان عليه. وفيه أن اتباع الهوى وإخلاص العبد إلى الشهوات يكون سبباً للخذلان.

﴿١٧٨﴾ ثم قال تعالى مبيناً أنه المنفرد بالهداية والإضلال: ﴿من يهدي الله﴾: بأن يوفقه للخيرات ويعصمه من المكروهات ويعلمه ما لم يكن يعلم، ﴿فهو المهتدي﴾: حقاً؛ لأنه أثر هدايته تعالى، ﴿ومن يضلل﴾: فيخذله ولا يوفقه للخير،

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: لأنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

﴿١٧٩﴾ يقول تعالى مبيناً كثرة الغاوين الضالّين المتّبعين إبليس اللعين: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أي: أنشأنا، وبثنا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾: صارت البهائم أحسن حالة منهم. ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾؛ أي: لا يصلُ إليها فقه ولا علم إلا مجرد قيام الحجة، ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾: ما ينفعهم، بل فقدوا منفعتها وفائدتها، ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾: سماعاً يصل معناه إلى قلوبهم. ﴿أُولَٰئِكَ﴾: الذين بهذه الأوصاف القبيحة ﴿كَالْأَنْعَامِ﴾؛ أي: البهائم التي فقدت العقول، وهؤلاء آثروا ما يفنى على ما يبقى فسلبوا خاصية العقل. ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾: من البهائم؛ فإنّ الأنعام مستعملة فيما خُلِقَتْ له، ولها أذهان تدرك بها مضرّتها من منفعتها؛ فلذلك كانت أحسن حالاً منهم. و ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾: الذين غفلوا عن أنفع الأشياء؛ غفلوا عن الإيمان بالله وطاعته وذكره، خُلِقَتْ لهم الأفئدة والأسماع والأبصار لتكون عوناً لهم على القيام بأوامر الله وحقوقه، فاستعانوا بها على ضدّ هذا المقصود؛ فهؤلاء حقيقون بأن يكونوا ممّن ذرأ الله لجَهَنَّمَ وخلقهم لها؛ فخلقهم للنار وبأعمال أهلها يعملون، وأما ممّن استعمل هذه الجوارح في عبادة الله وانصبغ قلبه بالإيمان بالله ومحبّته ولم يغفل عن الله؛ فهؤلاء أهل الجنة وبأعمال أهل الجنة يعملون.

﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾.

﴿١٨٠﴾ هذا بيان لعظيم جلاله وسعة أوصافه بأن له الأسماء الحسنى؛ أي: له كل اسم حسن، وضابطه أنه كل اسم دال على صفة كمال عظيمة، وبذلك كانت حسنى؛ فإنها لو دلّت على غير صفة، بل كانت علماً محضاً؛ لم تكن حسنى، وكذلك لو دلّت على صفة ليست بصفة كمال، بل إما صفة نقص أو صفة متقسمة إلى المدح والقدح؛ لم تكن حسنى؛ فكل اسم من أسمائه دال على جميع الصفة التي اشتق منها، مستغرق لجميع معناها، وذلك نحو: ﴿العليم﴾ الدال على أن له علماً محيطاً عامّاً لجميع الأشياء فلا يخرج عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في

السماء، و﴿الرحيم﴾^(١) الدال على أن له رحمة عظيمة واسعة لكل شيء، و﴿القدير﴾ الدال على أن له قدرة عامة لا يُعْجِزُها شيء... ونحو ذلك. ومن تمام كونها حسنى أنه لا يُدعى إلا بها، ولذلك قال: ﴿فادعوه بها﴾: وهذا شاملٌ لدعاء العبادة ودعاء المسألة، فيُدعى في كل مطلوب بما يناسب ذلك المطلوب، فيقول الداعي مثلاً: اللهم! اغفر لي، وارحمني؛ إنك أنت الغفور الرحيم. وتب عليّ يا تواب! وارزقني يا رزاق! والطف بي يا لطيف! ونحو ذلك.

وقوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: عقوبة وعذاباً على إلحادهم في أسمائه. وحقيقة الإلحاد: الميلُ بها عما جُعِلَتْ له، إمّا بأن يسمّى بها من لا يستحقّها؛ كتسمية المشركين بها لآلهتهم، وإما بنفي معانيها وتحريفها وأن يجعل لها معنى ما أراده الله ولا رسوله، وإما أن يشبّه بها غيرها؛ فالواجب أن يُحذر الإلحاد فيها ويُحذر الملحدون فيها. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةُ»^(٢).

وقوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾.

﴿١٨١﴾ أي: ومن جملة من خلقنا أمة فاضلة كاملة في نفسها مكّملة لغيرها يهدون أنفسهم وغيرهم بالحقّ فيعلمون الحقّ ويعملون به ويعلمونه ويدعون إليه وإلى العمل به. ﴿وبه يعدلون﴾: بين الناس في أحكامهم إذا حكموا في الأموال والدماء والحقوق والمقالات وغير ذلك. وهؤلاء أئمة الهدى ومصابيح الدجى، وهم الذين أنعم الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحقّ والتواصي بالصبر، وهم الصديقون الذين مرتبتهم تلي مرتبة الرسالة، وهم في أنفسهم مراتب متفاوتة؛ كل بحسب حاله وعلو منزلته؛ فسبحان من يختصّ برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٨٢﴾ وَأَمَّا لَهُمْ إِلَهٌ كَمَا كُنْتَ عَلَيْهِمْ فِي مَوَاقِفٍ ﴿١٨٣﴾ أُولَئِكَ يَنْفَكُّوْنَ مَا يَصَاحِبُهُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أُولَئِكَ يَنْظُرُونَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فِإِى حَدِيثٍ بَعْدَهُ

(١) في (ب): «وَالرَّحِيم».

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣٦) ومسلم (٢٦٧٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلاَ هَادِيَ لَمْ يَدْرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَمَعُونَ ﴿١٨٦﴾ .

﴿١٨٢﴾ أي: والذين كذبوا بآيات الله الدالة على صحة ما جاء به محمد ﷺ من الهدى فردوها ولم يقبلوها، «سنستدرجهم من حيث لا يعلمون»: بأن يدر لهم الأرزاق.

﴿١٨٣﴾ «وأملئ لهم»: أي: أمهلهم حتى يظنوا أنهم لا يؤخذون ولا يعاقبون، فيزدادون كفراً وطغياناً وشراً إلى شرهم، وبذلك تزيد عقوبتهم ويتضاعف عذابهم، فيضرون أنفسهم من حيث لا يعلمون^(١). ولهذا قال: «إن كيدي متين»: أي: قوي بليغ.

﴿١٨٤﴾ «أو لم يتفكروا ما بصاحبهم»: [محمد] ﷺ «من جنّة»: أي: أولم يعملوا أفكارهم وينظروا هل في صاحبهم الذي يعرفونه ولا يخفى عليهم من حاله شيء؟ هل هو مجنون؟! فلينظروا في أخلاقه وهديه ودله وصفاته، وينظروا فيما دعا إليه؛ فلا يجدون فيه من الصفات إلا أكملها، ولا من الأخلاق إلا أتمها، ولا من العقل والرأي إلا ما فاق به العالمين، ولا يدعو إلا لكل خير، ولا ينهى إلا عن كل شر! أفبهذا يا أولي الألباب جنّة^(٢)؟! أم هو الإمام العظيم والناصح المبين والماجد الكريم والرؤوف الرحيم؟! ولهذا قال: «إن هو إلا نذير مبين»: أي: يدعو الخلق إلى ما ينجيهم من العذاب، ويحصل لهم الثواب.

﴿١٨٥﴾ «أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض»: فإنهم إذا نظروا إليها؛ وجدوها أدلة دالة على توحيد ربها وعلى ما له من صفات الكمال. «و»: كذلك لينظروا إلى جميع «ما خلق الله من شيء»: فإن جميع أجزاء العالم يدل أعظم دلالة على علم الله وقدرته وحكمته وسعة رحمته وإحسانه ونفوذ مشيئته وغير ذلك من صفاته العظيمة الدالة على تفرد الخلق والتدبير الموجبة لأن يكون هو المعبود المحمود المسبح الموحد المحبوب. وقوله: «وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم»: أي: لينظروا في خصوص حالهم، وينظروا لأنفسهم قبل أن يقترب أجلهم ويفجأهم الموت وهم في غفلة معرضون؛ فلا يتمكنون حينئذ من استدراك الفارط. «فبأي حديث بعده يؤمنون»: أي: إذا لم يؤمنوا بهذا الكتاب الجليل؛ فبأي حديث يؤمنون به؟! أبكتب الكذب والضلال؟! أم بحديث كل مفتر دجال؟!

(١) في (ب): «لا يشعرون».

(٢) في (ب): «من جنّة».

﴿١٨٦﴾ ولكن الضال لا حيلة فيه ولا سبيل إلى هدايته، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ يَضِلِلِ اللَّهُ فَلَ هَادِيٍّ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾؛ أي: متحيرون^(١)، يترددون لا يخرجون منه، ولا يهتدون إلى حق.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

﴿١٨٧﴾ يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿يسألونك﴾؛ أي: المكذبون لك المتعنتون ﴿عن الساعة أيان مرساها﴾؛ أي: متى وقتها التي تجيء به؟ ومتى تجل بالخلق؟ ﴿قل إنما علمها عند ربي﴾؛ أي: إنه تعالى المختص بعلمها، ﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾؛ أي: لا يظهرها لوقتها الذي قدر أن تقوم فيه إلا هو. ﴿ثقلت في السموات والأرض﴾؛ أي: خفي علمها على أهل السماوات والأرض واشتد أمرها أيضاً عليهم فهم من الساعة مشفقون. ﴿لا تأتاكم إلا بغتة﴾؛ أي: فجأة من حيث لا يشعرون لم يستعدوا لها ولم يتهيؤوا لها^(٢). ﴿يسألونك كأنك حفي عنها﴾؛ أي: هم حريصون على سؤالك عن الساعة كأنك مستحيف عن السؤال عنها، ولم يعلموا أنك لكمال علمك بربك وما ينفع السؤال عنه غير مبال بالسؤال [عنها، ولا حريص على ذلك، فلم لا يقتدون بك؟ ويكفون عن الاستحفاء عن هذا السؤال] الخالي من المصلحة المتعذر علمه؛ فإنه لا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب، وهي من الأمور التي أخفاها عن الخلق لكمال حكمته وسعة علمه. ﴿قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾: فلذلك حرصوا على ما لا ينبغي الحرص عليه، وخصوصاً مثل حال هؤلاء الذين يتركون السؤال عن الأهم ويدعون ما يجب عليهم من العلم، ثم يذهبون إلى ما لا سبيل لأحد أن يدركه ولا هم مطالبون بعلمه.

﴿١٨٨﴾ ﴿قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا﴾: فإني فقير مدبر، لا يأتيني خير إلا من الله، ولا يذفع عني الشر إلا هو، وليس لي من العلم إلا ما علمني الله تعالى. ﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء﴾؛ أي:

(٢) في (ب): «ولم يتهيؤوا لقيامها».

(١) في (ب): «متحيرين».

لفعلت الأسباب التي أعلم أنها تنتج لي المصالح والمنافع، ولحذرت من كل ما يفضي إلى سوء ومكروه؛ لعلمي بالأشياء قبل كونها، وعلمي بما تفضي إليه، ولكني لعدم علمي قد ينالني ما ينالني من سوء وقد يفوتني ما يفوتني من مصالح الدنيا ومنافعها؛ فهذا أدل دليل على أنني لا أعلم لي بالغيب. ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾: أُنذر العقوبات الدينية والدنيوية والأخروية، وأبين الأعمال المفضية إلى ذلك وأحذر منها. وبشير بالثواب العاجل والآجل، ببيان الأعمال الموصلة إليه والترغيب فيها، ولكن ليس كل أحد يقبل هذه البشارة والنذارة، وإنما يتنفع بذلك ويقبله المؤمنون.

وهذه الآيات الكريمات مبيّنة جهل من يقصد النبي ﷺ ويدعوه لحصول نفع أو دفع ضرر؛ فإنه ليس بيده شيء من الأمر، ولا ينفع من لم ينفعه الله، ولا يدفع الضرر عن من لم يدفعه الله عنه، ولا له من العلم إلا ما علمه الله [تعالى]، وإنما ينفع من قبل ما أرسل به من البشارة والنذارة وعمل بذلك؛ فهذا نفعه عليه السلام^(١) الذي فاق نفع الآباء والأمهات والأخلاء والإخوان، بما حثّ العباد على كل خير، وحذّرهم عن كل شر، وبينه لهم غاية البيان والإيضاح.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَبْلًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٨٩) ﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَبْلًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٩٠) ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ (١٩١) ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ (١٩٢) ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صُنُوتٌ﴾ (١٩٣) ﴿

﴿١٨٩﴾ أي: ﴿هو الذي خلقكم﴾: أيها الرجال والنساء المنتشرون في الأرض على كثرتكم وتفرقكم، ﴿من نفس واحدة﴾: وهو آدم أبو البشر ﷺ، ﴿وجعل منها زوجها﴾: أي: خلق من آدم زوجته حواء. لأجل أن يسكن إليها، لأنها إذا كانت منه؛ حصل بينهما من المناسبة والموافقة ما يقتضي سكون أحدهما إلى الآخر، فانقاد كل منهما إلى صاحبه بزمام الشهوة. ﴿فلما تغشاهما﴾: أي: تجلّلتها مجامعاً لها؛ قدر الباري أن يوجد من تلك الشهوة - وذلك الجماع - النسل، فحملت ﴿حملًا خفيًّا﴾، وذلك في ابتداء الحمل لا تحس به الأنثى ولا يثقلها. ﴿فلما﴾

(١) في (ب): «فهذا نفعه ﷺ».

استمرت [به] و﴿أنقلت﴾ به حين كبر في بطنها؛ فحينئذ صار في قلوبهما الشفقة على الولد وعلى خروجه حيّاً صحيحاً سالماً لا آفة فيه، فدعوا ﴿الله ربّهما لئن آتيتنّا﴾: ولداً: ﴿صالحاً﴾؛ أي: صالح الخلقة تامها لا نقص فيه، ﴿لنكوننّ من الشاكرين﴾.

﴿١٩٠﴾ ﴿فلما آتاها صالِحاً﴾: على وفق ما طلبّا وتمّت عليهما النعمة فيه، ﴿جعلاً له شركاء فيما آتاها﴾؛ أي: جعلاً لله شركاء في ذلك الولد الذي انفرد الله بإيجاده والنعمة به وأقرّ به أعين والديه، فعبداه لغير الله: إمّا أن يسمياه بعبد غير الله؛ كعبد الحارث وعبد العزّى وعبد الكعبة ونحو ذلك، أو يشركا في الله في العبادة بعدما منّ الله عليهما بما منّ من النعم التي لا يحصيها أحد من العباد، وهذا انتقال من النوع إلى الجنس؛ فإنّ أول الكلام في آدم وحواء، ثم انتقل [إلى] الكلام في الجنس، ولا شك أنّ هذا موجود في الذرية كثيراً؛ فلذلك قرّره الله على بطلان الشرك، وأنهم في ذلك ظالمون أشدّ الظلم، سواء كان الشرك في الأقوال أم في الأفعال؛ فإنّ الخالق لهم من نفس واحدة، الذي خلق منها زوجها، وجعل لهم من أنفسهم أزواجاً، ثم جعل بينهم من المودة والرحمة ما يسكن بعضهم إلى بعض ويألفه ويلتذّ به، ثم هداهم إلى ما به تحصل الشهوة واللذة والأولاد والنسل، ثم أوجد الذرية في بطون الأمهات وقتاً موقّتاً تتشوّف إليه نفوسهم ويدعون الله أن يخرجّه سوياً صحيحاً، فاتمّ الله عليهم النعمة، وأنالهم مطلوبهم، أفلا يستحقّ أن يعبدوه ولا يشركوا به في عبادته أحداً ويخلصوا له الدين؟!

﴿١٩١ - ١٩٢﴾ ولكنّ الأمر جاء على العكس، فأشركوا بالله ﴿مالاً يخلق شيئاً وهم يخلقون﴾. ولا يستطيعون لهم؛ أي: لعابديها ﴿نصراً ولا أنفسهم ينصرون﴾: فإذا كانت لا تخلق شيئاً ولا مثقال ذرّة، بل هي مخلوقة، ولا تستطيع أن تدفع المكروه عن من يعبدّها ولا عن أنفسها؛ فكيف تتخذ مع الله آلهة؟! إنّ هذا إلا أظلم الظلم وأسفه السفه.

﴿١٩٣﴾ وإن تدعوا أيّها المشركون، هذه الأصنام التي عبدتم من دون الله ﴿إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أَدْعَوْتُموهم أم أنتم صامتون﴾: فصار الإنسان أحسن حالة منها؛ لأنّها لا تسمع ولا تبصر ولا تهدي ولا تهدي، وكل هذا إذا تصوّره اللبيب العاقل تصوّراً مجرداً؛ جزم ببطلان إلهيتها وسفاهة منّ عبدها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَثَالِكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

صَدِيقَيْنِ ﴿١٩٤﴾ أَلَمْ أَزَلْ يَمَسُّوْنَ بِهَا أَمْ لَمْ يَأْتِدْ يَبْطِشُوْنَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَّبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَّسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوْنَ فَلَا تُنْظَرُونَ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ .

﴿١٩٤﴾ وهذا من نوع التحدي للمشركين العابدين للأوثان؛ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾؛ أي: لا فرق بينكم وبينهم؛ فكلُّكم عبيدٌ لله مملوكون؛ فإن كنتم كما تزعمون صادقين في أنها تستحق من العبادة شيئاً؛ ﴿فادعوهمْ فليستجيبوا لكم﴾: فإن استجابوا لكم وحصلوا مطلوبكم، وإلا؛ تبين أنكم كاذبون في هذه الدعوى مفترون على الله أعظم الفرية.

﴿١٩٥﴾ وهذا لا يحتاج إلى تبين فيه^(١)؛ فإنكم إذا نظرتم إليها؛ وجدتم صورتها دالة على أنه ليس لديها من النفع شيء، فليس لها أرجل تمشي بها، ولا أيد تبطش بها، ولا أعين تبصر بها، ولا أذان تسمع بها؛ فهي عادمة لجميع الآلات والقوى الموجودة في الإنسان؛ فإذا كانت لا تجيبكم إذا دعوتموها؛ فهي عبادٌ أَمْثَالُكُمْ، بل أنتم أكمل منها وأقوى على كثير من الأشياء؛ فلأي شيء عبدتموها؟! ﴿قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تُنْظَرُونَ﴾؛ أي: اجتمعوا أنتم وشركاؤكم على إيقاع السوء والمكروه بي من غير إمهال ولا إنظار فإنكم غير بالغين لشيء من المكروه بي.

﴿١٩٦﴾ لَأَنَّ وَلِيَّيَ اللَّهِ الَّذِي يَتَوَلَّانِي فيجلب لي المنافع ويدفع عني المضار. ﴿الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ﴾: الذي فيه الهدى والشفاء والنور، وهو من تولى وتربيته لعباده الخاصة الدينية. ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾: الذين صلحت نياتهم وأعمالهم وأقوالهم؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يَخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾؛ فالمؤمنون الصالحون لما تولَّوا ربهم بالإيمان والتقوى ولم يتولَّوا غيره ممن لا ينفع ولا يضر؛ تولَّاهم الله ولطف بهم وأعانهم على ما فيه الخير والمصلحة لهم في دينهم ودنياهم ودفع عنهم بليمانهم كلَّ مكروه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَصْرِفُونَ﴾ ﴿١٩٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ

إِلَىٰ الْهَدْيِ لَا يَسْمَعُوا وَتَرْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ .

﴿١٩٧ - ١٩٨﴾ وهذا أيضاً في بيان عدم استحقاق هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله شيئاً من العبادة؛ لأنها ليس لها استطاعة ولا اقتدار في نصر أنفسهم ولا في نصر عابديها، وليس لها قوة العقل والاستجابة؛ فلو دعوتها إلى الهدى؛ لم تهتد، وهي صور لا حياة فيها، فتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون حقيقة؛ لأنهم صوروها على صور الحيوانات من الآدميين أو غيرهم، وجعلوا لها أبصاراً وأعضاء؛ فإذا رأيتها؛ قلت: هذه حيّة؛ فإذا تأملتها؛ عرفت أنها جمادات لا حراك بها ولا حياة؛ فبأي رأي اتخذها المشركون آلهة مع الله؟! ولأي مصلحة أو نفع عكفوا عندها وتقربوا لها بأنواع العبادات؟! فإذا عُرِفَ هذا؛ عُرِفَ أن المشركين وآلهتهم التي عبدوها ولو اجتمعوا وأرادوا أن يكيدوا من تولاه فاطر السماوات والأرض متولي أحوال عباده الصالحين؛ لم يقدرُوا على كيدِه بمِثقال ذرّة من الشر؛ لكمال عجزهم وعجزها وكمال قوّة الله واقتداره وقوّة من احتّمى بجلاله وتوكل عليه، وقيل: إنّ معنى قوله: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾: إنّ الضمير يعود إلى المشركين المكذّبين لرسول الله ﷺ، فتحسبهم ينظرون إليك يا رسول الله نظر اعتبار يبيّن به الصادق من الكاذب، ولكنهم لا يبصرون حقيقةً وما يتوسّمه المتوسّمون فيك من الجمال والكمال والصدق.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿١٩٩﴾ .

﴿١٩٩﴾ هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس وما ينبغي في معاملتهم: فالذي ينبغي أن يعامل به الناس: أن يأخذ العفو؛ أي: ما سمحت به أنفسهم وما سهّل عليهم من الأعمال والأخلاق؛ فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم، بل يشكر من كلّ أحد ما قابله به من قول وفعل جميل أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم ولا يتكبر على الصغير لصغره ولا ناقص العقل لنقصه ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال وتشرح له صدورهم. ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾؛ أي: بكل قول حسن وفعل جميل وخلق كامل للقريب والبعيد؛ فاجعل ما يأتي إلى الناس منك إما تعليم علم أو حث على خير من صلة رحم أو برّ والدين أو إصلاح بين الناس أو نصيحة نافعة أو رأي مصيب أو معاونة على برّ وتقوى أو زجر عن قبيح أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينيّة أو دنيويّة. ولما كان لا بدّ من أذية الجاهل؛ أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل

بالإعراض عنه وعدم مقابلته بجهله؛ فمن آذاك بقوله أو فعله؛ لا تؤذه، ومن حرّمك لا تحرّمه، ومن قطعك فصّله، ومن ظلمك فاعدل فيه.

وأما ما ينبغي أن يعامل به العبد شياطين الجن؛ فقال تعالى:

﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّكَ الْذِيكَ اتَّقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾.

﴿٢٠٠﴾ أي: أي وقت وفي أي حال، «ينزغنك من الشيطان نزغ»؛ أي: تحس منه بوسوسة وتثبيط عن الخير أو حث على الشر وإيعاز إليه، «فاستعذ بالله»؛ أي: التجئ واعتصم بالله واحتم بحماه. فإنه سميع لما تقول، «عليم»؛ بنيتك وضعفك وقوة التجائك له فسيحملك من فتنه وقيقك من وسوسته؛ كما قال تعالى: ﴿قل أعوذُ ربِّ الناس...﴾ إلى آخر السورة.

﴿٢٠١﴾ ولما كان العبد لا بد أن يغفل وينال منه الشيطان الذي لا يزال مرابطاً ينتظر غرته وغفلته؛ ذكر تعالى علامة المتقين من الغاوين، وأن المتقي إذا أحس بذنب ومسه طائف من الشيطان فأذنب بفعل محرّم أو ترك واجب؛ تذكّر من أي باب أتى ومن أي مدخل دخل الشيطان عليه، وتذكّر ما أوجب الله عليه وما عليه من لوازم الإيمان، فأبصر، واستغفر الله تعالى، واستدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح والحسنات الكثيرة، فرد شيطانه خاسئاً حسيراً؛ قد أفسد عليه كل ما أدركه منه.

﴿٢٠٢﴾ وأما إخوان الشياطين وأولياؤهم؛ فإنهم إذا وقعوا في الذنوب لا يزالون يمدّونهم في الغي ذنباً بعد ذنب، ولا يقصرون عن ذلك؛ فالشياطين لا تقصر عنهم بالإغواء؛ لأنها طمعت فيهم حين رأتهم سلسي القياد لها وهم لا يقصرون عن فعل الشر.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُحْيِي إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِّنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

﴿٢٠٣﴾ أي: لا يزال هؤلاء المكذبون لك في تعثت وعناد، ولو جاءتهم الآيات الدالة على الهدى والرشاد؛ فإذا جثتهم بشيء من الآيات الدالة على

صدقك؛ لم ينقادوا. ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٍ﴾: من آيات الاقتراح التي يعينونها، ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾؛ أي: هلاً اخترت الآية فصارت الآية الفلانية أو المعجزة الفلانية، كأنك أنت المنزل للآيات المدبر لجميع المخلوقات، ولم يعلموا أنه ليس لك من الأمر شيء، أو [أَنْ المعنى]: لولا اخترعتها من نفسك، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾: فأنا عبدٌ مُتَّبِعٌ مدبر، والله تعالى هو الذي ينزل الآيات ويرسلها على حسب ما اقتضاه حمده، وَطَلَبَتُهُ حكيمته البالغة؛ فإن أردتم آية لا تضحل على تعاقب الأوقات وحجة لا تبطل في جميع الآئات؛ فهذا: القرآن العظيم والذكر الحكيم.

﴿بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾: يستبصر به في جميع المطالب الإلهية والمقاصد الإنسانية، وهو الدليل والمدلول؛ فمن تفكر فيه وتدبره؛ علم أنه تنزيلٌ من حكيم حميد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبه قامت الحجة على كل من بلغه، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون، وإلاً؛ فمن آمن؛ فهو ﴿هُدًى﴾ له من الضلال ﴿وَرَحْمَةً﴾ له من الشقاء؛ فالمؤمن مهتدٍ بالقرآن، متبع له، سعيد في دنياه وأخراه، وأما من لم يؤمن به؛ فإنه ضالٌ شقي في الدنيا والآخرة.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

﴿٢٠٤﴾ هذا الأمر عامٌ في كل من سمع كتاب الله يتلى؛ فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه، وأما الاستماع له؛ فهو أن يُلقِي سَمْعَهُ ويحضر قلبه ويتدبر ما يستمع؛ فإن من لازم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله؛ فإنه ينال خيراً كثيراً وعلماً غزيراً وإيماناً مستمراً متجدداً وهدى متزايداً وبصيرة في دينه، ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك على أن من تلى عليه الكتاب فلم يستمع له وينصت أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خيرٌ كثير.

ومن أوكد ما يؤمر [به] مستمع القرآن أن يستمع له وينصت في الصلاة الجهرية إذا قرأ إمامه؛ فإنه مأمورٌ بالإنصات حتى إن أكثر العلماء يقولون: إن اشتغاله بالإنصات أولى من قراءته الفاتحة وغيرها.

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْفُدُوِّ وَالْأَصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٥﴾.

﴿٢٠٥﴾ الذكر لله تعالى يكون بالقلب ويكون باللسان ويكون بهما وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله، فأمر الله عبده ورسوله محمداً أصلاً وغيره تبعاً بذكر ربه في نفسه؛ أي: مخلصاً خالياً، ﴿تضرعاً﴾؛ أي: متضرعاً بلسانك مكرراً لأنواع الذكر، ﴿وخيفة﴾: في قلبك؛ بأن تكون خائفاً من الله، وجل القلب منه خوفاً أن يكون عملك غير مقبول، وعلامة الخوف أن يسعى ويجتهد في تكميل العمل وإصلاحه والنصح به. ﴿ودون الجهر من القول﴾؛ أي: كن متوسطاً، لا تجهز بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً. ﴿بالغدو﴾: أول النهار، ﴿والأصال﴾: آخره، وهذان الوقتان [لذكر الله] فيهما مزية وفضيلة على غيرهما. ﴿ولا تكن من الغافلين﴾: الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم؛ فإنهم حرموا خير الدنيا والآخرة، وأعرضوا عن كل السعادة والفوز في ذكره وعبوديته، وأقبلوا على من كل الشقاوة والخيبة في الاشتغال به.

وهذه من الآداب التي ينبغي للعبد أن يراعيها حق رعايتها، وهي الإكثار من ذكر الله أثناء الليل والنهار، خصوصاً طرفي النهار، مخلصاً خاشعاً متضرعاً متذلاً ساكناً متواطئاً عليه قلبه ولسانه بأدب ووقار وإقبال على الدعاء والذكر وإحضار له بقلبه وعدم غفلة؛ فإن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه.

﴿٢٠٦﴾ ثم ذكر تعالى أن له عبادة مستديمين لعبادته، ملازمين لخدمته، وهم الملائكة. فلتعلموا أن الله لا يريد أن يتكثر بعبادتكم من قلة، ولا ليتعزز بها من ذلة، وإنما يريد نفع أنفسكم، وأن تريحوا عليه أضعاف ما عملتم، فقال: ﴿إن الذين عند ربك﴾: من الملائكة المقربين وحملة العرش والكروبيين، ﴿لا يستكبرون عن عبادته﴾: بل يُذعنون لها وينقادون لأوامر ربهم، ﴿ويسبحونه﴾: الليل والنهار لا يفترون. ﴿وله﴾ وحده لا شريك له ﴿يسجدون﴾: فليقتد العباد بهؤلاء الملائكة الكرام، وليداوموا على عبادة الملك العلّام.

تم تفسير سورة الأعراف.

ولله الحمد والشكر والثناء. وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم



تفسير سورة الأنفال

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ .

﴿١﴾ الأنفال: هي الغنائم التي يُنْقَلُهَا اللَّهُ لهذه الأمة من أموال الكفار. وكانت هذه الآيات في هذه السورة قد نزلت في قصّة بدر، أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون من المشركين، فحصل بين بعض المسلمين فيها نزاع، فسألوا رسول الله ﷺ عنها، فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾: كيف تُقَسَّم؟ وعلى مَنْ تُقَسَّم؟ ﴿قُل﴾: لهم الأنفال لله ورسوله يضعانها حيث شاء؛ فلا اعتراض لكم على حكم الله ورسوله، بل عليكم إذا حكم الله ورسوله أن ترضوا بحكمهما وتسلموا الأمر لهما، وذلك داخل في قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: بامتنال أوامره واجتناب نواهيه، ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾؛ أي: أصلحوا ما بينكم من التشاحن والتقاطع والتدابير بالتوادد والتحاب والتواصل؛ فبذلك تجتمع كلمتكم ويزول ما يحصل بسبب التقاطع من التخاصم والتشاجر والتنازع.

ويدخل في إصلاح ذات البين تحسين الخلق لهم والعفو عن المسيئين منهم؛ فإنه بذلك يزول كثير مما يكون في القلوب من البغضاء والتدابير، والأمر الجامع لذلك كله قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: فإن الإيمان يدعو إلى طاعة الله ورسوله؛ كما أن من لم يطع الله ورسوله فليس بمؤمن، ومن نقصت طاعته لله ورسوله؛ فذلك لنقص إيمانه.

﴿٢﴾ ولما كان الإيمان قسمين: إيماناً كاملاً يترتب عليه المدح والثناء والفوز التام، وإيماناً دون ذلك؛ ذَكَرَ الإيمانَ الكامل، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾: الألف واللام للاستغراق لشرائع الإيمان، ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: خافت ورهبت. فأوجب لهم خشية الله تعالى الانكفاف عن المحارم؛ فإن خوف الله تعالى أكبر علاماته أن يَخْجَزَ صاحبه عن الذنوب. ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ﴾

زادتهم إيماناً»: ووجه ذلك أنهم يلقون له السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره؛ فعند ذلك يزيد إيمانهم؛ لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلونه ويتذكرون ما كانوا نسوه أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير واشتياقاً إلى كرامة ربهم أو وجلًا من العقوبات وازدجاراً عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان. ﴿وعلى ربهم﴾: وحده لا شريك له ﴿يتوكلون﴾؛ أي: يعتمدون في قلوبهم على ربهم في جلب مصالحهم ودفع مضارهم الدينية والدنيوية، ويثقون بأن الله تعالى سيفعل ذلك، والتوكل هو الحامل للأعمال كلها؛ فلا توجد ولا تكمل إلا به.

﴿٣﴾ ﴿الذين يقيمون الصلاة﴾: من فرائض ونوافل، بأعمالها الظاهرة والباطنة؛ كحضور القلب فيها، الذي هو روح الصلاة ولبها، ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾: النفقات الواجبة؛ كالزكوات والكفارات والنفقة على الزوجات والأقارب وما ملكت أيمانهم، والمستحبة؛ كالصدقة في جميع طرق الخير.

﴿٤﴾ ﴿أولئك﴾: الذين اتصفوا بتلك الصفات، ﴿هم المؤمنون حقاً﴾: لأنهم جمعوا بين الإسلام والإيمان، بين الأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، بين العلم والعمل، بين أداء حقوق الله وحقوق عباده.

وقدّم تعالى أعمال القلوب لأنها أصل لأعمال الجوارح وأفضل منها. وفيها دليل على أن الإيمان يزيد وينقص؛ فيزيد بفعل الطاعة وينقص بضدها. وأنه ينبغي للعبد أن يتعاهد إيمانه ويُنميه. وأن أولى ما يحصل به ذلك تدبر كتاب الله تعالى والتأمل لمعانيه. ثم ذكر ثواب المؤمنين حقاً، فقال: ﴿لهم درجات عند ربهم﴾؛ أي: عالية بحسب علو أعمالهم. ﴿ومغفرة﴾: لذنوبهم، ﴿ورزق كريم﴾: وهو ما أعد الله لهم في دار كرامته مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ودل هذا على أن من لم يصل إلى درجتهم في الإيمان وإن دخل الجنة؛ فلن ينال ما نالوا من كرامة الله التامة.

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَائِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾.

قَدَّمَ تَعَالَى أَمَامَ هَذِهِ الْغَزْوَةِ الْكُبْرَى الْمُبَارَكَةِ الصِّفَاتِ الَّتِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقُومُوا بِهَا؛ لِأَنَّ مَنْ قَامَ بِهَا؛ اسْتَقَامَتْ أَحْوَالُهُ وَصَلَحَتْ أَعْمَالُهُ، الَّتِي مِنْ أَكْبَرِهَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ.

﴿٥ - ٦﴾ فَكَمَا أَنَّ إِيْمَانَهُمْ هُوَ الْإِيْمَانُ الْحَقِيقِيُّ وَجَزَاءُهُمْ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي وَعَدَهُمُ اللَّهُ بِهِ؛ كَذَلِكَ أَخْرَجَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ مِنْ بَيْتِهِ إِلَى لِقَاءِ الْمُشْرِكِينَ فِي بَدْرِ بِالْحَقِّ الَّذِي يَحِبُّهُ اللَّهُ تَعَالَى وَقَدْ قَدَّرَهُ وَقَضَاهُ، وَإِنْ كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِهِمْ فِي ذَلِكَ الْخُرُوجِ أَنَّهُ يَكُونُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ قِتَالٌ؛ فَحِينَ تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ ذَلِكَ وَاقِعٌ؛ جَعَلَ فَرِيقٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَجَادِلُونَ النَّبِيَّ ﷺ فِي ذَلِكَ وَيَكْرَهُونَ لِقَاءَ عَدُوِّهِمْ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ! وَالْحَالُ أَنَّ هَذَا لَا يَنْبَغِي مِنْهُمْ، خُصُوصاً بَعْدَمَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ خُرُوجَهُمْ بِالْحَقِّ وَمِمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَضِيهِ؛ فَبِهَذِهِ الْحَالِ لَيْسَ لِلْجِدَالِ فِيهَا مَحَلٌّ؛ لِأَنَّ الْجِدَالَ مُحَلٌّ وَفَائِدَتُهُ عِنْدَ اشْتِبَاهِ الْحَقِّ وَالتَّبَاسِ الْأَمْرِ، فَأَمَّا إِذَا وَضَّحَ وَبَانَ؛ فَلَيْسَ إِلَّا الْانْقِيَادُ وَالْإِذْعَانُ. هَذَا؛ وَكَثِيرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَجِرْ مِنْهُمْ مِنْ هَذِهِ الْمَجَادَلَةِ شَيْءٌ وَلَا كَرِهُوا لِقَاءَ عَدُوِّهِمْ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ عَاتَبَهُمُ اللَّهُ أَنْقَادُوا لِلْجِهَادِ أَشَدَّ الْانْقِيَادِ، وَثَبَّتَهُمُ اللَّهُ، وَقَبِضَ لَهُمْ مِنَ الْأَسْبَابِ مَا تَطْمَنُّنُ بِهِ قُلُوبُهُمْ كَمَا سَيَأْتِي ذِكْرُ بَعْضِهَا.

﴿٧﴾ وَكَانَ أَوَّلُ خُرُوجِهِمْ يَتَعَرَّضُونَ لَعِيرِ خَرَجَتْ مَعَ أَبِي سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ لَقْرِيشَ إِلَى الشَّامِ قَافِلَةً كَبِيرَةً، فَلَمَّا سَمِعُوا بِرَجُوعِهَا مِنَ الشَّامِ؛ نَدَبَ النَّبِيُّ ﷺ النَّاسَ، فَخَرَجَ مَعَهُ ثَلَاثُمِائَةٍ وَبِضْعَةُ عَشَرَ رَجُلًا مَعَهُمْ سَبْعُونَ بَعِيرًا يَعْتَقِبُونَ عَلَيْهَا وَيَحْمِلُونَ عَلَيْهَا مَتَاعَهُمْ، فَسَمِعَ بِخَبَرِهِمْ قَرِيشٌ، فَخَرَجُوا لَمْنَعِ عِيرِهِمْ فِي عَدَدٍ كَثِيرٍ وَعُدَدٍ وَافِرَةٍ مِنَ السَّلَاحِ وَالْخَيْلِ وَالرِّجَالِ، يَبْلُغُ عَدَدَهُمْ قَرِيبًا مِنَ الْأَلْفِ، فَوَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَظْفَرُوا بِالْعِيرِ، أَوْ بِالنَّفِيرِ، فَأَحْبَبُوا الْعِيرَ لِقَلَّةِ ذَاتِ يَدِ الْمُسْلِمِينَ وَلَأَنَّهُمَا غَيْرُ ذَاتِ الشُّوْكَةِ. وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَحَبَّ لَهُمْ وَأَرَادَ أَمْرًا أَعْلَى مِمَّا أَحْبَبُوا، أَرَادَ أَنْ يَظْفَرُوا بِالنَّفِيرِ الَّذِي خَرَجَ فِيهِ كِبَرَاءُ الْمُشْرِكِينَ وَصِنَادِيدُهُمْ. فَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ فَيَنْصُرَ أَهْلَهُ، ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾؛ أَيِ: يَسْتَأْصِلُ أَهْلَ الْبَاطِلِ وَيُرِي عِبَادَتَهُ مِنْ نَصَرِهِ لِلْحَقِّ أَمْرًا لَمْ يَكُنْ يَخْطُرُ بِبَالِهِمْ.

﴿٨﴾ ﴿لِيُحِقَّ الْحَقُّ﴾: بِمَا يُظْهَرُ مِنَ الشُّوَاهِدِ وَالْبَرَاهِينِ عَلَى صِحَّتِهِ وَصَدَقِهِ، ﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾: بِمَا يَقِيمُ مِنَ الْأَدْلَةِ وَالشُّوَاهِدِ عَلَى بَطْلَانِهِ، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾: فَلَا يَبَالِي اللَّهُ بِهِمْ.

﴿إِذْ تَسْتَفِيشُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلَتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَكُمْ فَذُوقُوا وَآتَى الْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿٩﴾ أي: اذكروا نعمة الله عليكم لما قارب التقاؤكم بعدوكم؛ استغثتم بربكم وطلبتم منه أن يعينكم وينصركم، ﴿فاستجاب لكم﴾: وأغاثكم بعدة أمور؛ منها: أن الله أمدكم ﴿بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾؛ أي: يَزْدِفُ بعضهم بعضاً.

﴿١٠﴾ ﴿وما جعله الله﴾؛ أي: إنزال الملائكة ﴿إلا بشري﴾؛ أي: لتستبشر بذلك نفوسكم، ﴿ولتطمئنن به قلوبكم﴾: وإلاً؛ فالنصر بيد الله، ليس بكثرة عدد ولا عدد. ﴿إن الله عزيز﴾: لا يغالبه مغالب، بل هو القهار الذي يخذل من بلغوا من الكثرة وقوة العدد والآلات ما بلغوا، ﴿حكيماً﴾: حيث قدر الأمور بأسبابها ووضع الأشياء مواضعها.

﴿١١﴾ ومن نصره واستجابته لدعائكم أن أنزل عليكم نعاساً ﴿يُغَشِّيكُمْ﴾؛ أي: فيذهب ما في قلوبكم من الخوف والوجل، ويكون ﴿أمنة﴾: لكم وعلامة على النصر والطمأنينة. ومن ذلك أنه أنزل عليكم من السماء مطراً ليطهركم به من الحَدَثِ والخَبَثِ، ويطهركم به من وساوس الشيطان ورجزه، ﴿وليُربط على قلوبكم﴾؛ أي: يثبتها؛ فإن ثبات القلب أصل ثبات البدن، ﴿ويُثَبِّت به الأقدام﴾: فإن الأرض كانت سهلة دهسة، فلما نزل عليها المطر؛ تلبدت، وثبتت به^(١) الأقدام.

﴿١٢﴾ ومن ذلك أن الله أوحى إلى الملائكة: ﴿أنني معكم﴾: بالعون والنصر والتأييد، ﴿فثبتوا الذين آمنوا﴾؛ أي: ألقوا في قلوبهم وألهموهم الجرأة على

(١) في (ب): «وثبتت بها».

عدوهم ورغبوهم في الجهاد وفضله. ﴿سَأَلَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾: الذي هو أعظم جندي لكم عليهم؛ فَإِنَّ اللَّهَ إِذَا ثَبَّتَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْقَى الرُّعْبَ فِي قُلُوبِ الْكَافِرِينَ؛ لم يقدر الكافرون على الثبات لهم، وَمَنْحَهُمُ اللَّهُ أَكْتَافَهُمْ، ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾؛ أي: على الرقاب، ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾؛ أي: مفصل. وهذا خطاب: إما للملائكة الذين أوحى [اللَّهُ] إليهم أَنْ يَثْبُتُوا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَكُونَ فِي ذَلِكَ دَلِيلٌ أَنَّهُمْ بَاشَرُوا الْقِتَالَ يَوْمَ بَدْرٍ، أو للمؤمنين يشجعهم الله ويعلمهم كيف يقتلون المشركين وأنهم لا يرحمونهم.

﴿١٣﴾ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ؛ أي: حاربوهما وبارزوهما بالعداوة، وَمَنْ يَشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ: ومن عقابه تسليط أوليائه على أعدائه وتقتيلهم.

﴿١٤﴾ ﴿ذَلِكَ﴾: العذاب المذكور، ﴿فَذُوقُوهُ﴾: أيها المشاققون لله ورسوله عذاباً معجلاً. ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾.

وفي هذه القصة من آيات الله العظيمة ما يدل على أن ما جاء به محمد ﷺ رسول الله حقاً:

منها: أَنَّ اللَّهَ وَعَدَهُمْ وَعْدًا فَأَنجَزَهُمُوهُ.

ومنها: ما قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتِ الثَّقَانِ فِتْنَةً تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافَرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ...﴾ الآية.

ومنها: إجابة دعوة الله للمؤمنين لما استغاثوه بما ذكره من الأسباب.

وفيها الاعتناء العظيم بحال عباده المؤمنين وتقيض الأسباب التي بها ثبت إيمانهم، وثبت أقدامهم، وزال عنهم المكروه والوساوس الشيطانية.

ومنها: أن من لطف الله بعبده أن يُسهِّلَ عليه طاعته ويسرَّها بأسبابٍ داخلية وخارجية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ۚ﴾ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَيِّدْ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَكَأَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَلَبَسَ الْمَكِيدُ ۚ ﴿١٦﴾

﴿١٥﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالشجاعة الإيمانية والقوة في أمره والسعي في

جَلَبَ الأسبابَ المَقْوِيَّةَ للقلوب والأبدان، ونهاهم عن الفرار إذا التقى الزحفان، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا﴾؛ أي: في صفِّ القتال وتزاحف الرجال واقتراب بعضهم من بعض، ﴿فَلَا تَوَلَّوْهُمْ الْأَدْبَارَ﴾: بل اثبتوا لقتالهم واصبروا على جِلاذهم؛ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ نُصْرَةً لِدِينِ اللَّهِ وَقُوَّةً لِقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْهَابًا لِلْكَافِرِينَ.

﴿١٦﴾ ﴿وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مَتَحِيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ﴾؛ أي: رجع ﴿بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ﴾؛ أي: مقره ﴿جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

وهذا يدلُّ على أن الفرار من الزحف من غير عذرٍ من أكبر الكبائر؛ كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة^(١)، وكما نصَّ هنا على وعيده بهذا الوعيد الشديد. ومفهوم الآية أن المتحرِّف للقتال - وهو الذي ينحرف من جهة إلى أخرى ليكون أمكن له في القتال وأنكى لعدوه - فإنه لا بأس بذلك؛ لأنه لم يولِّ دُبرَهُ فائزًا، وإنما ولَّى دُبرَهُ ليستعلي على عدوه أو يأتيه من محلٍّ يصيب فيه غِرتَه أو ليخدعَه بذلك أو غير ذلك من مقاصد المحاربين. وأن المتحيز إلى فِتْنَةٍ تمنعه وتعيته على قتال الكفار؛ فَإِنَّ ذَلِكَ جَائِزٌ؛ فَإِنْ كَانَتِ الْفِتْنَةُ فِي الْعُسْكَرِ؛ فَلَا مَرَّ فِي هَذَا وَاضِحٌ، وَإِنْ كَانَتِ الْفِتْنَةُ فِي غَيْرِ مَحَلٍّ الْمَعْرَكَةِ؛ كَانَهْزَامُ الْمُسْلِمِينَ بَيْنَ يَدَيِ الْكَافِرِينَ وَالتَّجَانُّهُمُ إِلَى بَلَدٍ مِنْ بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ إِلَى عُسْكَرٍ آخَرَ مِنْ عُسْكَرِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَقَدْ وَرَدَ مِنْ آثَارِ الصَّحَابَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا جَائِزٌ، وَلَعَلَّ هَذَا يَقِيدُ بِمَا إِذَا ظَنَّ الْمُسْلِمُونَ أَنَّ الْإِنْهَازَ أَحْمَدُ عَاقِبَةً وَأَبْقَى عَلَيْهِمْ، أَمَا إِذَا ظَنُّوا غَلَبَتَهُمُ لِلْكَافِرِ فِي ثَبَاتِهِمْ لِقِتَالِهِمْ؛ فَيَبْعُدُ فِي هَذِهِ الْحَالِ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْأَحْوَالِ الْمُرْخُصِّ فِيهَا؛ لِأَنَّهُ عَلَى هَذَا لَا يَتَصَوَّرُ الْفِرَارُ الْمُنْهَيُّ عَنْهُ. وَهَذِهِ الْآيَةُ مُطْلَقَةٌ، وَسَيَأْتِي فِي آخِرِ السُّورَةِ تَقْيِيدُهَا بِالْعَدَدِ.

﴿فَلَمَّ تَقَاتَلُوا وَلَئِنْ أَلَّاهُ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَئِنْ أَلَّاهُ رَمَى وَلِإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٧) ﴿ذَلِكَ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٨) ﴿إِنْ تَسْتَفِئِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدُّ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٩).

(١) كما في «صحيح البخاري» (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات...» وذكر منها التولي يوم الزحف.

﴿١٧﴾ يقول تعالى لما انهزم المشركون يوم بدر وقتلهم المسلمون: ﴿فلم تقتلوه﴾: بحولكم وقوتكم، ﴿ولكن الله قتلهم﴾: حيث أعانكم على ذلك بما تقدّم ذكره، ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾: وذلك أن النبي ﷺ وقت القتال دخل العريش، وجعل يدعو الله، ويناشده في نصرته^(١)، ثم خرج منه، فأخذ حَفَنَةً من تراب، فرماها في وجوه المشركين، فأوصلها الله إلى وجوههم، فما بقي منهم واحد إلا وقد أصاب وجهه وفمه وعينه منها^(٢)؛ فحينئذ انكسر حدهم وفتر زنادهم وبان فيهم الفشل والضعف فانهزموا. يقول تعالى لنبيه: لست بقوتك حين رميت التراب أوصلته إلى أعينهم، وإنما أوصلناه إليهم بقوتنا واقتدارنا. ﴿وليلبي المؤمنين منه بلاء حسناً﴾؛ أي: إن الله تعالى قادر على انتصار المؤمنين من الكافرين من دون مباشرة قتال، ولكن الله أراد أن يمتحن المؤمنين ويوصلهم بالجهد إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات ويعطيهم أجراً حسناً وثواباً جزيلاً. ﴿إن الله سميع عليم﴾: يسمع تعالى ما أسر به العبد وما أعلن، ويعلم ما في قلبه من النيات الصالحة وضدها، فيقدر على العباد أقداراً موافقةً لعلمه وحكمته ومصلحة عباده، ويجزي كلاً بحسب نيته وعمله.

﴿١٨﴾ ﴿ذلكم﴾: النصر من الله لكم، ﴿وأن الله موهن كيد الكافرين﴾؛ أي: مضعف كل مكر وكيد يكيدون به الإسلام وأهله، وجاعل مكرهم محيقاً بهم.

﴿١٩﴾ ﴿إن تستفتحوا﴾: أيها المشركون؛ أي: تطلبون^(٣) من الله أن يوقع بأسه وعذابه على المعتدين الظالمين، ﴿فقد جاءكم الفتح﴾: حين أوقع الله بكم من عقابه ما كان نكالاً لكم وعبرة للمتقين. ﴿وإن تنتهوا﴾: عن الاستفتاح ﴿فهو خير لكم﴾: لأنه ربما أمهلكم ولم تُعجل لكم النعمة. ﴿وإن تعودوا﴾: إلى الاستفتاح وقاتل حزب الله المؤمنين ﴿نُعذ﴾: في نصرهم عليكم، ﴿ولن تُغني عنكم فتكم﴾؛ أي: أعوانكم وأنصاركم الذين تحاربون وتقاتلون معتمدين عليهم شيئاً. ﴿وأن الله مع المؤمنين﴾: ومن كان الله معه؛ فهو المنصور، وإن كان ضعيفاً قليلاً عدده.

وهذه المعية التي أخبر الله أنه يؤيد بها المؤمنين تكون بحسب ما قاموا به من

(١) كما في «صحيح البخاري» (٣٩٥٣)، ومسلم (١٧٦٣) عن ابن عباس.

(٢) كما في «معجم الطبراني» (٢٨٥/١١) عن ابن عباس قال الهيثمي (٨٤/٦): «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح». وانظر «فقه السيرة» للغزالي (٢٣٩) فقد صححه الألباني.

(٣) في (ب): «تطلبوا».

أعمال الإيمان؛ فإذا أدبل العدو على المؤمنين في بعض الأوقات؛ فليس ذلك إلا تفريطاً من المؤمنين وعدم قيام بواجب الإيمان ومقتضاه، وإلاً؛ فلو قاموا بما أمر الله به من كل وجه؛ لما انهزم لهم راية انهزاماً مستقراً ولا أدبل عليهم عدوهم أبداً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢٠﴾ لما أخبر تعالى أنه مع المؤمنين؛ أمرهم أن يقوموا بمقتضى الإيمان الذي يدركون معيته، فقال: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله﴾: بامتثال أمرهما واجتناب نهيهما. ﴿ولا تولّوا عنه﴾؛ أي: عن هذا الأمر الذي هو طاعة الله وطاعة رسوله، ﴿وأنتم تسمعون﴾: ما يتلى عليكم من كتاب الله وأوامره ووصاياه ونصائحه؛ فتوليكم في هذه الحال من أقبح الأحوال.

﴿٢١﴾ ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾؛ أي: لا تكتفوا بمجرد الدعوى الخالية التي لا حقيقة لها؛ فإنها حالة لا يرضاها الله ولا رسوله، فليس الإيمان بالتمني والتحلي، ولكنه ما وقّر في القلوب، وصدّقه الأعمال.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿٢٢﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾: مَنْ لَمْ تُفِذْ فِيهِمُ الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ، وَهُمْ ﴿الصُّمُّ﴾: عَنْ اسْتِمَاعِ الْحَقِّ، ﴿الْبُكْمُ﴾: عَنِ النُّطْقِ بِهِ، ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾: مَا يَنْفَعُهُمْ وَيُؤْثِرُونَهُ عَلَى مَا يَضُرُّهُمْ؛ فَهَؤُلَاءِ شَرٌّ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ شَرِّ الدَّوَابِّ^(١)؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَعْطَاهُمْ أَسْمَاعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً لِيَسْتَعْمِلُوهَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ، فَاسْتَعْمِلُوهَا فِي مَعَاصِيهِ، وَعَدَمُوا بِذَلِكَ الْخَيْرَ الْكَثِيرَ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا بِصَدَدٍ أَنْ يَكُونُوا مِنْ خِيَارِ الْبَرِيَّةِ، فَأَبَوْا هَذَا الطَّرِيقَ، وَاخْتَارُوا لَأَنْفُسِهِمْ أَنْ يَكُونُوا مِنْ شَرِّ الْبَرِيَّةِ. وَالسَّمْعُ الَّذِي نَفَاهُ اللَّهُ عَنْهُمْ سَمْعُ الْمَعْنَى الْمُؤَثِّرُ فِي الْقَلْبِ، وَأَمَّا سَمْعُ الْحُجَّةِ؛ فَقَدْ قَامَتْ حُجَّةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِمَا سَمِعُوهُ مِنْ آيَاتِهِ.

﴿٢٣﴾ وإنما لم يُسمِعهم السَّمْعَ النَّافِعَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ فِيهِمْ خَيْرًا يَضْلُحُونَ بِهِ

(١) في (ب): «من جميع الدواب».

لسماع آياته. ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم﴾: على الفرض والتقدير، ﴿لتولوا﴾: عن الطاعة ﴿وهم معرضون﴾: لا التفات لهم إلى الحق بوجه من الوجوه. وهذا دليل على أن الله تعالى لا يمنع الإيمان والخير إلا لمن لا خير فيه الذي لا يزكو لديه ولا يثمر عنده، وله الحمد تعالى والحكمة في هذا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فَتَنَةَ لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿٢٤﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان منهم، وهو الاستجابة لله وللرسول؛ أي: الانقياد لما أمرا به والمبادرة إلى ذلك والدعوة إليه، والاجتناب لما نهيا عنه والانكفاف عنه والنهي عنه. وقوله: ﴿إذا دعاكم لما يحييكم﴾: وصف ملازم لكل ما دعا الله ورسوله إليه وبيان لفائدته وحكمته؛ فإن حياة القلب والروح بعبودية الله تعالى ولزوم طاعته وطاعة رسوله على الدوام. ثم حذر عن عدم الاستجابة لله وللرسول، فقال: ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾: فإياكم أن تردوا أمر الله أول ما يأتيكم، فيحال بينكم وبينه إذا أردتموه بعد ذلك، وتختلف قلوبكم؛ فإن الله يحول بين المرء وقلبه؛ يقلب القلوب حيث شاء، ويصرفها أنى شاء، فليكثر العبد من قول: يا مقلب القلوب! ثبت قلبي على دينك. يا مصرف القلوب! اصرف قلبي إلى طاعتك^(١). ﴿وأنه إليه تحشرون﴾؛ أي: تجمعون ليوم لا ريب فيه، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بعصيانه.

﴿٢٥﴾ ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾: بل تصيب فاعل الظلم وغيره، وذلك إذا ظهر الظلم فلم يغير؛ فإن عقوبته تعم الفاعل وغيره. وتقوى هذه الفتنة بالنهي عن المنكر وقمع أهل الشر والفساد وأن لا يُمَكَّنوا من المعاصي والظلم مهما أمكن. ﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾: لمن تعرض لمساخطه وجانب رضاه.

(١) كما في «المسند» (١١٢/٣)، والترمذي (٢١٤٠)، وابن ماجه (٣٨٣٤)، وصححه الألباني في «السنة» لابن أبي عاصم (٢٢٥) ولفظ: «يا مصرف القلوب اصرف قلبي على طاعتك» عند مسلم (٦٢٥٤) باختلاف يسير.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَتَأْوِنَكُمْ وَإَيْدِيكُمْ يَنْصِرُهُ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ .

﴿٢٦﴾ يقول تعالى ممتثلاً على عبادته في نصرهم بعد الذلة وتكثيرهم بعد القلة وإغنائهم بعد العيلة: ﴿واذكروا إذ أنتم قليلٌ مستضعفون في الأرض﴾؛ أي: مقهورون تحت حكم غيركم، ﴿تخافون أن يتخطفكم الناس﴾؛ أي: يأخذونكم، ﴿فأواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات﴾: فجعل لكم بلداً تأوون إليه، وانتصر من أعدائكم على أيديكم، وغنمتم من أموالهم ما كنتم به أغنياء، ﴿لعلكم تشكرون﴾: الله على ميثقه العظيمة وإحسانه التام بأن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ .

﴿٢٧﴾ يأمر تعالى عبادَه المؤمنين أن يؤدوا ما ائتمنهم الله عليه من أوامره ونواهيه؛ فإن الأمانة قد عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً؛ فمن أدى الأمانة؛ استحق من الله الثواب الجزيل، ومن لم يؤدها، بل خانها؛ استحق العقاب الويل، وصار خائناً لله وللرسول ولأمانته، منقصاً لنفسه بكونه اتصفت نفسه بأخص الصفات وأقبح الشيات، وهو الخيانة، مفوتاً لها أكمل الصفات وأتمها، وهي الأمانة.

﴿٢٨﴾ ولما كان العبد ممتحناً بأمواله وأولاده، فربما حمله محبته^(١) ذلك على تقديم هوى نفسه على أداء أمانته؛ أخبر الله تعالى أن الأموال والأولاد فتنة يبتلي الله بهما عباده، وأنها عارئة ستؤدي لمن أعطاها وترد لمن استودعها. ﴿وأن الله عنده أجرٌ عظيم﴾: فإن كان لكم عقلٌ ورأي؛ فآثروا فضله العظيم على لذة صغيرة فانية مضمحلة؛ فالعقل يوازن بين الأشياء، ويؤثر أولاها بالإيثار وأحقها بالتقديم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَقْتُلُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ .

﴿٢٩﴾ امثالُ العبد لتقوى ربه عنوان السعادة وعلامة الفلاح، وقد رتب الله على

(١) في (ب): «محبته».

التقوى من خير الدنيا والآخرة شيئاً كثيراً، فذكر هنا أنَّ مَنْ اتَّقَى اللَّهَ؛ حصل له أربعة أشياء، كُلُّ واحدٍ منها خيرٌ من الدنيا وما فيها: الأول: الفرقان، وهو العلم والهدى الذي يفرِّق به صاحبه بين الهدى والضلال والحق والباطل والحلال والحرام وأهل السعادة من أهل الشقاوة. الثاني والثالث: تكفير السيئات ومغفرة الذنوب، وكل واحد منهما داخلٌ في الآخر عند الإطلاق، وعند الاجتماع يفسَّر تكفير السيئات بالذنوب الصغائر، ومغفرة الذنوب بتكفير الكبائر. الرابع: الأجر العظيم والثواب الجزيل لمن اتَّقاها وأثر رضاه على هوى نفسه. ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ﴾ (٣٠).

﴿٣٠﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر أيها الرسول ما مَنَّ اللَّهُ بك^(١) عليك، ﴿إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: حين تشاور المشركون في دار الندوة فيما يصنعون بالنبي ﷺ: إما أن يُثْبِتُوهُ عندهم بالحبس ويؤثِّقوه، وإما أن يقتلوه فيستريحوا بزعمهم من شرِّه! وإما أن يخرجوه ويُخلِّجوه من ديارهم؛ فكلُّ أبدى من هذه الآراء رأياً رآه، فاتفق رأيهم على رأي رآه شريـرهم أبو جهل لعنه الله، وهو أن يأخذوا من كلِّ قبيلةٍ من قبائل قريش فتى، ويعطوه سيفاً صارماً، ويقتله الجميع قتلة رجل واحد؛ ليتفرَّق دمه في القبائل، فيرضى بنو هاشم ثمَّ بديته، فلا يقدرّون على مقاومة جميع قريش^(٢)، فترصّدوا للنبي ﷺ في الليل ليوقعوا به إذا قام من فراشه، فجاءه الوحي من السماء، وخرَّج عليهم، فذَرَّ على رؤوسهم التراب وخرج، وأعمى الله أبصارهم عنه، حتى إذا استبطؤوه؛ جاءهم آتٍ وقال: خيِّبكم الله! قد خرج محمدٌ وذَرَّ على رؤوسكم التراب! فنفض كلُّ منهم التراب [عن]^(٣) رأسه^(٤)، ومنع الله رسوله منهم، وأذن له في الهجرة إلى المدينة، فهاجر إليها، وأيَّده الله بأصحابه المهاجرين والأنصار، ولم يزل أمره يعلو حتى دخل مكة عنوةً وقَهَرَ أهلها فأذعنوا له وصاروا تحت حكمه بعد أن خرج مستخفياً منهم خائفاً على نفسه؛ فسبحان اللطيف بعبده الذي لا يغالبه مغالبٌ. وقوله:

(١) كذا في النسختين. والصواب: «به».

(٢) في (ب): «سائر قريش».

(٣) كذا في (ب) وفي (أ): «على رأسه».

(٤) مرسل عن محمد بن كعب القرظي، انظر «السيرة النبوية» للدكتور أكرم ضياء العمري (١/

٢٠٧)، و (الطبقات) لابن سعد (١/٢٢٨).

يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٤﴾: فهذا مانع يمنع من وقوع العذاب بهم بعدما انعقدت أسبابه.

﴿٣٤﴾ ثم قال: ﴿وما لهم أن لا يعذبهم الله؟﴾ أي: أي شيء يمنعهم من عذاب الله وقد فعلوا ما يوجب ذلك؟ وهو صد الناس عن المسجد الحرام، خصوصاً صدّهم النبي ﷺ وأصحابه الذين هم أولى به منهم، ولهذا قال: ﴿وما كانوا؟﴾ أي: المشركون، ﴿أولياءه﴾: يُحتمل أن الضمير يعود إلى الله؛ أي: أولياء الله، ويحتمل أن يعود إلى المسجد الحرام؛ أي: وما كانوا أولى به من غيرهم. ﴿إن أولياؤه إلا المتقون﴾: وهم الذين آمنوا بالله ورسوله وأفردوا الله بالتوحيد والعبادة وأخلصوا له الدين. ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾: فلذلك ادّعوا لأنفسهم أمراً غيرهم أولى به.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿٣٥﴾ يعني: أن الله تعالى إنما جعل العبادة؛ فالمؤمنون هم الذين قاموا بهذا! عنه؛ فما كان صلاتهم فيه، التي هي أد أي: صفيراً وتصفيقاً؛ فعل الجهلة الأغبياء معرفة بحقوقه ولا احترام لأفضل البقاء فكيف ببقية العبادات؟! فبأي شيء كانوا في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن الله به من الصفات الحميدة والأفعال ومكّنهم منه، وقال [لهم] بعدما مكّن لهم نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عام كنتم تكفرون﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصْحَبَ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُجْعَلُ الْحَيْثُ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْدُّوا الْخَسِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿٣٦﴾ يقول تعالى مبيناً لعداوة المشركين وكيدهم ومكرهم ومبارزتهم لله ولرسوله وسعيهم في إطفاء نوره وإخماد كلمته، وأنّ وبالاً مكرهم سيعود عليهم، ولا يَحِيقُ المكر السيئ إلا بأهله، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ؛ أَي: لِيَبْطُلُوا الْحَقَّ، وَيَنْصُرُوا الْبَاطِلَ، وَيَبْطُلَ تَوْحِيدُ الرَّحْمَنِ، وَيَقُومَ دِينُ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ.

﴿فَسَيَنْفِقُونَهَا﴾؛ أَي: فَسَيَصْدِرُونَ هَذِهِ النِّفْقَةَ، وَتَخْفُفَ عَلَيْهِمْ، لَتَمْسُكَهُمْ بِالْبَاطِلِ، وَشِدَّةَ بَغْضِهِمْ لِلْحَقِّ، وَلَكِنهَا سَتَكُونُ ﴿عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾؛ أَي: نَدَامَةً وَخِزْيًا وَذُلًّا، ﴿ثُمَّ يَغْلِبُونَ﴾: فَتَذْهَبُ أَمْوَالُهُمْ وَمَا أُمْلُوا، وَيَعْدُبُونَ فِي الْآخِرَةِ أَشَدَّ الْعَذَابِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾؛ أَي: يَجْمَعُونَ إِلَيْهَا لِيَذُوقُوا عَذَابَهَا، وَذَلِكَ لِأَنَّهَا دَارُ الْخَبْثِ وَالْخَبَاءِ.

﴿٣٧﴾ والله تعالى يريد أن يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، وَيَجْعَلَ كُلَّ وَاحِدَةٍ عَلَىٰ حِدَةٍ وَفِي دَارِ تَخْصُّصِهِ، فَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَشْخَاصِ، ﴿فَيَزَكِّمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أَوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: الَّذِينَ خَسَرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٣٨) ﴿وَقَلِيلُهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُفُّونَ الَّذِينَ كَلَّهُ اللَّهُ فَإِنَّهُمْ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٣٩) ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نَعَمْ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَصِفُ﴾ (٤٠).

﴿٣٨﴾ هَذَا مِنْ لَطْفِهِ تَعَالَىٰ بِعِبَادِهِ؛ لَا يَمْنَعُهُ كُفْرُ الْعِبَادِ وَلَا اسْتِمْرَارُهُمْ فِي الْعِنَادِ مِنْ أَنْ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ طَرِيقِ الرِّشَادِ وَالْهُدَىٰ وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا يُهْلِكُهُمْ مِنْ أَسْبَابِ الْغِيِّ وَالرَّدَىٰ، فَقَالَ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾: عَنْ كُفْرِهِمْ، وَذَلِكَ بِالْإِسْلَامِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ﴿يُغْفَرُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾: مِنْهُمْ مِنَ الْجَرَائِمِ. ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾: إِلَىٰ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾: بِإِهْلَاكِ الْأُمَمِ الْمَكْدُوبَةِ؛ فَلْيَنْتَظِرُوا مَا حُلَّ بِالْمَعَانِدِينَ؛ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. فَهَذَا خُطَابُهُ لِلْمَكْدُبِينَ.

﴿٣٩﴾ وَأَمَّا خُطَابُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ عِنْدَمَا أَمَرَهُمْ بِمُعَامَلَةِ الْكَافِرِينَ؛ فَقَالَ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾؛ أَي: شَرَكٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَيَذَعْنُوا لِأَحْكَامِ الْإِسْلَامِ.

﴿وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾: فهذا المقصود من القتال والجهاد لأعداء الدين: أن يُدْفَعَ شرُّهم عن الدين، وأن يُذَبَّ عن دين الله الذي خَلَقَ الخلق له، حتى يكون هو العالي على سائر الأديان. ﴿فَإِنْ انْتَهَوْا﴾: عن ما هم عليه من الظلم، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: لا تخفى عليه منهم خافية.

﴿٤٠﴾ ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: عن الطاعة، وأوضعوا في الإضاعة، ﴿فَاعِلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى﴾: الذي يتولَّى عباده المؤمنين، ويوصل إليهم مصالحهم وييسر^(١) لهم منافعهم الدنيئة والدنيوية. ﴿وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾: الذي ينصُرهم فيدفع عنهم كيدَ الفجار وتكالب الأشرار، ومن كان الله مولاه وناصره؛ فلا خوف عليه، ومن كان الله عليه؛ فلا عزَّ له ولا قائمة له.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسُهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْأَحْمَعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيعَدِ وَلَكِنَّ لِقَاضِيَ اللَّهِ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿٤١﴾ يقول تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ أي: أخذتم من مال الكفار قهراً بحق قليلاً كان أو كثيراً، ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾؛ أي: وباقية لكم أيها الغانمون؛ لأنه أضاف الغنيمة إليهم، وأخرج منها خمسها، فدلَّ على أن الباقي لهم، يُقسم على ما قسمه رسول الله ﷺ: للرجال سهم، وللنساء سهمان، وللفرس سهمان، وللحمير سهمان، وأما هذا الخمس؛ فيقسم خمسة أسهم: سهم لله ولرسوله يُصْرَفُ في مصالح المسلمين العامة من غير تعيين لمصلحة؛ لأنَّ الله جعله له ولرسوله، والله ورسوله غنيان عنه، فعُلِمَ أنه لعباد الله؛ فإذا لم يعين الله له مصرفاً؛ دلَّ على أن مصْرَفَه للمصالح العامة. والخمس الثاني: لذي القربى، وهم قرابة النبي ﷺ من بني هاشم وبني المطلب، وأضافه الله إلى القرابة دليلاً على أنَّ العلة فيه مجرد القرابة، فيستوي فيه غنيهم وفقيرهم ذكرهم وأنثاهم. والخمس الثالث: لليتامى،

(١) في (ب): «وَيُسِّرُ».

وهم الذين فقدت آباؤهم وهم صغار، جعل الله لهم خُمُسَ الخمس رحمةً بهم، حيث كانوا عاجزين عن القيام بمصالحهم، وقد فُقدَ من يقوم بمصالحهم. والخمس الرابع: للمساكين؛ أي: المحتاجين الفقراء من صغار وكبار ذكور وإناث. والخمس الخامس: لابن السبيل، و[هو] ^(١) الغريب المنقطع به في غير بلده، وبعض المفسرين يقول: إن خمس الغنيمة لا يخرجُ عن هذه الأصناف، ولا يلزم أن يكونوا فيه على السواء، بل ذلك تبعٌ للمصلحة، وهذا هو الأولى.

وجعل الله أداء الخُمُس على وجهه شرطاً للإيمان، فقال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾: وهو يوم بدر، الذي فَرَّقَ الله به بين الحقِّ والباطل، وأظهر الحقَّ وأبطل الباطل. ﴿يَوْمَ اتَّقَى الْجَمْعَانِ﴾: جمع المسلمين وجمع الكافرين؛ أي: إن كان إيمانكم بالله وبالحق الذي أنزله الله على رسوله يوم الفرقان الذي حصل فيه من الآيات والبراهين ما دلَّ على أن ما جاء به هو الحق. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: لا يغالبه أحدٌ إلا غلبه.

﴿٤٢﴾ ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: بعُدْوَةِ الوادي القريبة من المدينة. وهم بعدوته؛ أي: جانبه البعيدة من المدينة؛ فقد جمعكم وإد واحد. ﴿وَالرَّكْبَ﴾: الذي خرجتم لطلبه، وأراد الله غيره ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾: مما يلي ساحل البحر. ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾: أنتم وإياهم على هذا الوصف وبهذه الحال، ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾؛ أي: لا بدَّ من تقدُّم أو تأخُّر أو اختيار منزل أو غير ذلك مما يعرض لكم أو لهم يصدُّكم عن ميعادهم ^(٢). وَلَكِنْ: الله جمعكم على هذه الحال، ﴿لِيُقْضَىٰ إِلَهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾؛ أي: مقدراً في الأزل لا بدَّ من وقوعه. ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْتِنَا﴾؛ أي: ليكون حجةً وبينةً للمعاند، فيختار الكفر على بصيرة وجزم ببطلانه، فلا يبقى له عذرٌ عند الله. ﴿وَيُحْيَا مَنْ حَيَّيْنَا عَنِ بَيْتِنَا﴾؛ أي: يزداد المؤمن بصيرةً ويقيناً بما أرى الله الطائفتين من أدلة الحقِّ وبراهينه ما هو تذكرة لأولي الألباب. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: سميعٌ لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنُّن الحاجات، عليمٌ بالظواهر والضمائر والسرائر والغيب والشهادة.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا لَّفَاشَلْتَهُ وَلَنَسَوْتَ فِي

(١) كذا في (ب)، وفي (أ): «هم». والصواب ما أثبت.

(٢) في (ب): «عن ميعادكم».

الْأَمْرَ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ .

﴿٤٣﴾ وكان الله قد أرى رسوله المشركين في الرؤيا العدو قليلاً، فبشر بذلك أصحابه، فاطمأنت قلوبهم وثبتت أفئدتهم. ﴿ولو أراكم الله كثيراً﴾: فأخبرت بذلك أصحابك، ﴿لَفُشِلْتُمْ وَلَتَنَارَغْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾: فمنكم من يرى الإقدام على قتالهم ومنكم من لا يرى ذلك، والتنازع مما يوجب الفشل^(١)، ﴿ولكن الله سَلَّمَ﴾؛ أي: لطف^(٢) بكم. ﴿إنه عليهم يذات الصدور﴾؛ أي: بما فيها من ثبات وجزع وصدق وكذب، فعلم الله من قلوبكم ما صار سبباً للطفه وإحسانه بكم وصدق رؤيا رسوله، فأرى الله المؤمنين عدوهم قليلاً في أعينهم، ويقللهم يا معشر المؤمنين في أعينهم؛ فكل من الطائفتين ترى الأخرى قليلة؛ لِتُقَدِّمَ كُلُّ مَنَّهُمَا عَلَى الْأُخْرَى. ﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾: من نصر المؤمنين، وخذلان الكافرين، وقتل قادتهم ورؤساء الضلال منهم، ولم يبقَ منهم أحدٌ له اسم يذكر، فيتيسر بعد ذلك انقيادهم إذا دُعوا إلى الإسلام، فصار أيضاً لطفاً بالباقيين، الذين من الله عليهم بالإسلام. ﴿والى الله ترجع الأمور﴾؛ أي: جميع أمور الخلائق ترجع إلى الله، فيميز الخبيث من الطيب، ويحكم في الخلائق بحكمه العادل الذي لا جور فيه ولا ظلم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَسْرِعُوا فَنَفْسَلُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصِيرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ .

(١) في (ب): «ومنكم من لا يرى ذلك، فوقع من الاختلاف والتنازع».

(٢) في (ب): «لطف».

﴿٤٥﴾ يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾؛ أي: طائفة من الكفار تقاتلكم، ﴿فَانْبُتُّوا﴾: لقاتلها، واستعملوا الصبر وحبس النفس على هذه الطاعة الكبيرة، التي عاقبتها العز والنصر، واستعينوا على ذلك بالإكثار من ذكر الله. ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾؛ أي: تدركون ما تطلبون من الانتصار على أعدائكم؛ فالصبر والثبات والإكثار من ذكر الله من أكبر الأسباب للنصر.

﴿٤٦﴾ ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: في استعمال ما أمرا به والمشي خلف ذلك في جميع الأحوال، ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾: تنازعا يوجب تشتت القلوب وتفرقها، ﴿فَتَفْشَلُوا﴾؛ أي: تجنبوا، ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾؛ أي: تنحل عزائمكم وتفرق قوتكم ويضع ما وعدتم به من النصر على طاعة الله ورسوله، ﴿وَاصْبِرُوا﴾: نفوسكم على طاعة الله. ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾: بالعون والنصر والتأييد.

﴿٤٧﴾ واخضعوا لربكم واخضعوا له، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: هذا مقصدهم الذي خرجوا إليه، وهذا الذي أبرزهم من ديارهم؛ لقصد الأشر والبطر في الأرض، وليراهم الناس ويفخروا لديهم، والمقصود الأعظم أنهم خرجوا ليصدوا عن سبيل الله من أراد سلوكه. ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾: فلذلك أخبركم بمقاصدهم، وحذركم أن تشبهوا بهم؛ فإنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة، فليكن قصدكم في خروجكم وجه الله تعالى، وإعلاء دين الله، والصد عن الطرق الموصلة إلى سخط الله وعقابه، وجذب الناس إلى سبيل الله القويم الموصل لجنات النعيم.

﴿٤٨﴾ ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾: حسنها في قلوبهم [وخدعهم]، ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾: فإنكم في عدو وعدو وهيئة لا يقاومكم فيها محمداً ومن معه. ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾: من أن يأتيكم أحد ممن تخشون غائلته؛ لأن إبليس قد تبدى لقريش في صورة سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي، وكانوا يخافون من بني مدلج لعداوة كانت بينهم، فقال لهم الشيطان: أنا جار لكم! فاطمأنت نفوسهم وأتوا على خزد قادرين. فلما ﴿تراءتِ الفئتان﴾: المسلمون والكافرون، فرأى الشيطان جبريل عليه السلام يزع الملائكة؛ خاف خوفاً شديداً، ﴿ونكص على عقبيه﴾؛ أي: ولى مدبراً، ﴿وقال﴾: لمن خدعهم وغرهم: ﴿إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون﴾؛ أي: أرى الملائكة الذين لا يدان لأحد بقتالهم؛ ﴿إني أخاف الله﴾؛ أي: أخاف أن يعاجلني بالعقوبة في الدنيا، ﴿والله شديد العقاب﴾.

ومن المحتمل أن يكون الشيطان [قد] سَوَّلَ لهم، ووسوس في صدورهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس وأنه جار لهم، فلما أوردتهم مواردهم؛ نكص عنهم، وتبرأ منهم؛ كما قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿٤٩﴾ ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾؛ أي: شك وشبهة من ضعفاء الإيمان للمؤمنين حين أقدموا مع قَلَّتْهم على قتال المشركين مع كثرتهم: ﴿غَرْ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾؛ أي: أوردتهم الدين الذي هم عليه هذه الموارد التي لا يدان لهم بها ولا استطاعة لهم بها، يقولونه احتقاراً لهم واستخفافاً لعقولهم، وهم والله الأخفاء عقولاً الضعفاء أحلاماً؛ فإن الإيمان يوجب لصاحبه الإقدام على الأمور الهائلة التي لا يقدم عليها الجيوش العظام؛ فإن المؤمن المتوكل على الله الذي يعلم أنه ما من حول ولا قوة ولا استطاعة لأحد إلا بالله تعالى، وأن الخلق لو اجتمعوا كلهم على نفع شخص بمشقال ذرة؛ لم ينفعوه، ولو اجتمعوا على أن يضرّوه؛ لم يضرّوه؛ إلا بشيء قد كتبه الله عليه، وعلم أنه على الحق، وأن الله تعالى حكيمٌ رحيمٌ في كل ما قدره وقضاه؛ فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من قوة وكثرة، وكان واثقاً بربه مطمئن القلب لا فرعاً ولا جباناً، ولهذا قال: ﴿ومن يتوكل على الله فإن الله عزيزٌ﴾: لا يغالب قوته قوة. ﴿حكيمٌ﴾: فيما قضاه وأجراه.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ (٥١) كَذَابٌ مَّالٍ فَزَعَوْتَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يَذُلُّوهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢)﴾.

﴿٥٠﴾ يقول تعالى: ﴿ولو ترى﴾: الذين كفروا بآيات الله حين توفاهم الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم وقد اشتد بهم القلق وعظم كربهم والملائكة ﴿يضربون وجوههم وأدبارهم﴾: يقولون لهم: أخرجوا أنفسكم! ونفوسهم متمنعة متعصية^(١) على الخروج؛ لعلمها ما أمامها من العذاب الأليم. ولهذا قال: ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾؛ أي: العذاب الشديد المحرق.

(١) في (ب): «مستعصية».

﴿٥١﴾ ذُلك العذاب حصل لكم غير ظلم ولا جور من ربكم، وإنما هو بما قدّمت أيديكم من المعاصي التي أثرت لكم ما أثرت.

﴿٥٢﴾ وهذه سنة الله في الأولين والآخرين؛ فإنّ دأب هؤلاء المكذّبين؛ أي: سنتهم وما أجرى الله عليهم من الهلاك بذنوبهم، ﴿كذاب آل فرعون والذين من قبلهم﴾: من الأمم المكذبة، ﴿كفروا بآيات الله فأخذهم الله﴾: بالعقاب ﴿بذنوبهم إن الله قويّ شديد العقاب﴾: لا يعجزه أحد يريد أخذه. ﴿ما من دابة إلا هو آخذٌ بناصيتها﴾.

﴿ذَٰلِكَ يَأْتِ اللَّهَ لَمَ يَكْ مُعِيرًا نِّعْمَةً أُنْعَمَها عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَذَابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالِ فِرْعَوْنَ ۖ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿٥٣﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾: العذاب الذي أوقعه الله بالأمم المكذّبة^(١) وأزال عنهم ما هم فيه من النعم والنعيم بسبب ذنوبهم وتغييرهم ما بأنفسهم، فإنّ ﴿الله لم يكن مغيراً نعمة أنعمها على قوم﴾: من نعم الدّين والدنيا، بل يبقّيها ويزيدهم منها إن ازدادوا له شكراً، ﴿حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾: من الطاعة إلى المعصية، فيكفروا نعمة الله، ويبدّلوا بها كفرًا، فيسلّبهم أيّاها ويغيّرها عليهم كما غيروا ما بأنفسهم، ولله الحكمة في ذلك والعدل والإحسان إلى عباده^(٢)؛ حيث لم يعاقبهم إلّا بظلمهم، وحيث جذب قلوب أوليائه إليه بما يذيق العباد من النّكال إذا خالفوا أمره. ﴿وأنّ الله سميعٌ عليمٌ﴾: يسمع جميع ما نطق به الناطقون، سواء من أسرّ القول ومن جهر به. ويعلم ما تنطوي عليه الضمائر وتخفيه السرائر، فيجري على عباده من الأقدار ما اقتضاه علمه، وجرت به مشيئته.

﴿٥٤﴾ ﴿كذاب آل فرعون﴾؛ أي: فرعون وقومه، ﴿والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم﴾: حين جاءتهم، ﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾: كل بحسب جرمه، ﴿وأغرقنا آل فرعون وكل﴾: من المهلكين المعذبين ﴿كانوا ظالمين﴾: لأنفسهم ساعين في هلاكها، لم يظلمهم الله ولا أخذهم بغير جرم اقترفوه؛ فليحذر المخاطبون أن يشابهوهم في الظلم، فيحلّ الله بهم من عقابه ما أحلّ بأولئك الفاسقين.

(١) في (ب): «المكذّبين».

(٢) في (ب): «على عباده».

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِنَّمَا تَشَفَّعُ لَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَن خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ [يَذْكُرُونَ] ^(١)﴾ ﴿٥٧﴾.

﴿٥٥ - ٥٦﴾ هؤلاء الذين جمعوا هذه الخصال الثلاث - الكفر وعدم الإيمان والخيانة - بحيث لا يثبتون على عهد عاهدوه ولا قول قالوه هم ﴿شَرُّ الدَّوَابِّ عند الله﴾: فهم شرُّ من الحمير والكلاب وغيرها؛ لأنَّ الخير معدوم منهم، والشرُّ متوقِّع فيهم.

﴿٥٧﴾ فإذا هاب هؤلاء ومحققهم هو المتعین؛ لئلا يسري داؤهم لغيرهم، ولهذا قال: ﴿فَأِنَّمَا تَشَفَّعُهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾؛ أي: تجددتهم في حال المحاربة؛ بحيث لا يكون لهم عهدٌ وميثاقٌ. ﴿فَشَرِّدْ بِهِمْ مَن خَلَفَهُمْ﴾؛ أي: نكل بهم غيرهم، وأوقع بهم من العقوبة ما يصيرون ^(٢) عبرة لمن بعدهم، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾؛ أي: من خلفهم [يتقون] ^(٣) صنيعهم؛ لئلا يصيبهم ما أصابهم. وهذه من فوائد العقوبات والحدود المرتبة على المعاصي أنها سبب لازدجار من لم يعمل المعاصي بل وزجراً لمن عملها أن لا يعاودها. ودل تقييد هذه العقوبة في الحرب أن الكافر ولو كان كثير الخيانة سريع الغدر؛ أنه إذا أُعطي عهداً؛ لا يجوز خيانتته وعقوبته.

﴿وَإِنَّمَا تَخَافُكَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْصِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿٥٨﴾ أي: وإذا كان بينك وبين قوم عهدٌ وميثاقٌ على ترك القتال، فحفت منهم خيانة؛ بأن ظهر من قرائن أحوالهم ما يدلُّ على خيانتهم من غير تصريح منهم بالخيانة. ﴿فَانْصِرْ إِلَيْهِمْ﴾: عهدهم؛ أي: ارمه عليهم، وأخبرهم أنه لا عهد بينك وبينهم ﴿على سواءٍ﴾؛ أي: حتى يستوي علمك وعلمهم بذلك، ولا يحلُّ لك أن تغدرهم أو تسعى في شيء مما منعه موجب العهد حتى تخبرهم بذلك. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾: بل يُبْغِضُهُمْ أشدَّ البغض؛ فلا بدَّ من أمرٍ بين يبرئكم من الخيانة. ودلَّت الآية على أنه إذا وجدت الخيانة [المحققة] ^(٤) منهم؛ لم يحتج أن

(١) في النسختين: «يتقون».

(٢) كذا في النسختين وفي (أ) زيادة «به» بخط مغاير فوق السطر.

(٣) كذا في النسختين. (٤) كذا في (ب). وفي (أ): «المحققة».

ينبذ إليهم عهدهم؛ لأنه لم يخفَ منهم، بل عَلِمَ ذلك، ولعدم الفائدة، ولقوله: ﴿على سواءٍ﴾، وهنا قد كان معلوماً عند الجميع غدركم. ودلّ مفهومها أيضاً أنه إذا لم يخفَ منهم خيانة؛ بأن لم يوجد منهم ما يدلّ على ذلك؛ أنه لا يجوز نبذ العهد إليهم، بل يجب الوفاء [به] إلى أن تتمّ مدته.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبْقُوا إِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٥٩﴾.

﴿٥٩﴾ أي: لا يحسب الكافرون بريهم المكذبون بآياته أنهم سبقوا الله وفاتوه؛ فإنهم لا يعجزونه، والله لهم بالمرصاد، وله تعالى الحكمة البالغة في إمهالهم وعدم معاجلتهم بالعقوبة، التي من جملة ابتلاء عباده المؤمنين وامتحانهم وتزويدهم من طاعته ومراضيه ما يصلون به إلى المنازل العالية واتصافهم بأخلاق وصفات لم يكونوا بغيره بالغيها؛ فلهذا قال لعباده المؤمنين:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ٦٠﴾.

﴿٦٠﴾ أي: ﴿وأعدوا﴾: لأعدائكم الكفار الساعين في هلاككم وإبطال دينكم، ﴿ما استطعتم من قوّة﴾؛ أي: كل ما تقدرّون عليه من القوّة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة ونحو ذلك مما يعين على قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات والبنادق والطائرات الجوية والمراكب البرية والبحرية [والحصون] والقلاع والخنادق وآلات الدفاع والرأي والسياسة التي بها يتقدّم المسلمون ويندفع عنهم به شرّ أعدائهم وتعلم الرمي والشجاعة والتدبير، ولهذا قال النبي ﷺ: «ألا إنّ القوّة الرمي»^(١). ومن ذلك الاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال، ولهذا قال تعالى: ﴿ومن رباط الخيل تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾: وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء. والحكم يدور مع علته؛ فإذا كان موجوداً شيئاً^(٢) أكثر إرهاباً منها - كالسيارات البرية والهوائية المعدة للقتال التي تكون النكاية فيها أشد؛ كانت مأموراً

(١) أخرجه مسلم (١٩١٧) عن عقبة بن عامر.

(٢) في (ب): «شيئاً؟» وعدلت في (أ): «شيء» بخط مغاير.

بالاستعداد بها والسعي لتحصيلها، حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلم الصناعة؛ وجب ذلك؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وقوله: ﴿تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾: ممن تعلمون أنهم أعداؤكم، ﴿وآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ﴾: ممن سيقاتلونكم بعد هذا الوقت الذي يخاطبهم الله به، ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾: فلذلك أمرهم بالاستعداد لهم. ومن أعظم ما يُعين على قتالهم بذل النفقات المالية في جهاد الكفار، ولهذا قال تعالى مرغباً في ذلك: ﴿وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: قليلاً كان أو كثيراً، ﴿يُوفَّ إِلَيْكُمْ﴾: أجره يوم القيامة مضاعفاً أضعافاً كثيرة، حتى إن النفقة في سبيل الله تضاعف إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾؛ أي: لا تُنقصون من أجرها وثوابها شيئاً.

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦١) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصِيرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) .

﴿٦١﴾ يقول تعالى ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾ أي: الكفار المحاربون؛ أي: مالوا إلى السلم؛ أي: الصلح وترك القتال، ﴿فاجنح لها وتوكل على الله﴾؛ أي: أجبههم إلى ما طلبوا متوكلاً على ربك؛ فإن في ذلك فوائد كثيرة: منها: أن طلب العافية مطلوب كل وقت؛ فإذا كانوا هم المبتدئين في ذلك؛ كان أولى لإجابتهم.

ومنها: أن في ذلك إجماعاً لقواكم واستعداداً منكم لقتالهم في وقت آخر إن احتيج إلى ذلك^(١). ومنها: أنكم إذا أصلحتهم وأمن بعضكم بعضاً وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر؛ فإن الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه؛ فكل من له عقل وبصيرة إذا كان معه إنصاف؛ فلا بد أن يؤثره على غيره من الأديان؛ لحسنه في أوامره ونواهيه، وحسنه في معاملته للخلق والعدل فيهم. وأنه لا جور فيه ولا ظلم بوجه؛ فحينئذ يكثر الراغبون فيه والمتبعون له، فصار هذا السلم عوناً للمسلمين على الكافرين.

﴿٦٢ - ٦٣﴾ ولا يُخاف من السلم إلا خضلة واحدة، وهي أن يكون الكفار

(١) في (ب): «احتيج لذلك».

قصدهم بذلك خذع المسلمين وانتهاز الفرصة فيهم، فأخبرهم الله أنه حسبهم وكافيهم خداعهم، وأن ذلك يعود عليهم ضرره، فقال: ﴿وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله﴾؛ أي: كافيك ما يؤذك، وهو القائم بمصالحك ومهماتك؛ فقد سبق لك من كفايته لك ونصره ما يطمئن به قلبك، فلَهُوَ ﴿الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين﴾؛ أي: أعانك بمعونة سماوية، وهو النصر منه الذي لا يقاومه شيء، ومعونة بالمؤمنين بأن قيضهم لنصرك، ﴿وألَّفَ بين قلوبهم﴾: فاجتمعوا، واثقفوا، وازدادت قوتهم بسبب اجتماعهم، ولم يكن هذا بسعي أحد، ولا بقوة غير قوة الله، فلو ﴿أنفقت ما في الأرض جميعاً﴾: من ذهب وفضة وغيرهما لتأليفهم بعد تلك النفرة والفرقة الشديدة، ﴿ما ألَّفْتَ بين قلوبهم﴾: لأنه لا يقدر على قلب القلوب إلا الله تعالى. ﴿ولكن الله ألَّفَ بينهم إنه عزيز حكيم﴾: ومن عزته أن ألَّفَ بين قلوبهم وجمعها بعد الفرقة؛ كما قال تعالى: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألَّفَ بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾.

﴿٦٤﴾ ثم قال تعالى: ﴿يا أيها النبي حسبك الله﴾؛ أي: كافيك، ﴿ومن أتبعك من المؤمنين﴾؛ أي: وكافي أتباعك من المؤمنين. وهذا وعد من الله لعباده المؤمنين المتبعين لرسوله بالكفاية والنصرة على الأعداء؛ فإذا أتوا بالسبب الذي هو الإيمان والاتباع؛ فلا بد أن يكفّهم ما أهمهم من أمور الدين والدنيا، وإنما تتخلف الكفاية بتخلف شرطها.

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبِيرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ أَلَنْ خَفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿٦٦﴾.

﴿٦٥﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال﴾؛ أي: حثهم ونهضهم إليه بكل ما يقوي عزائمهم وينشط همهم؛ من الترغيب في الجهاد ومقارعة الأعداء، والترهيب من ضد ذلك، وذكر فضائل الشجاعة والصبر، وما يترتب على ذلك من خير الدنيا والآخرة، وذكر مضار الجبن، وأنه من الأخلاق الرذيلة المنقصة للدين والمروءة، وأن الشجاعة بالمؤمنين أولى من غيرهم، ﴿إن

تكونوا تَأْمُونُ فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ. ﴿٦٦﴾ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا: يَكُونُ الْوَاحِدُ بِنِسْبَةِ عَشْرَةٍ مِنَ الْكَفَّارِ، وَذَلِكَ بِأَنَّ الْكَفَّارَ ﴿قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾؛ أَي: لَا عِلْمَ عَنْدهُمْ بِمَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ؛ فَهَمْ يَقَاتِلُونَ لِأَجْلِ الْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ وَالْفَسَادِ فِيهَا، وَأَنْتُمْ تَفْقَهُونَ الْمَقْصُودَ مِنَ الْقِتَالِ أَنَّهُ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ، وَإِظْهَارِ دِينِهِ، وَالذَّبِّ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ وَحُصُولِ الْفَوْزِ الْأَكْبَرِ عِنْدَ اللَّهِ، وَهَذِهِ كُلُّهَا دَوَاعٍ لِلشَّجَاعَةِ وَالصَّبْرِ وَالْإِقْدَامِ عَلَى الْقِتَالِ.

﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنْ هَذَا الْحَكْمُ خَفَفَهُ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ، فَقَالَ: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾: فَلِذَلِكَ اقْتَضَتْ رَحْمَتُهُ وَحِكْمَتُهُ التَّخْفِيفَ. ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾: بِعَوْنِهِ وَتَأْيِيدِهِ.

وهذه الآيات صورتها صورة الإخبار عن المؤمنين بأنهم إذا بلغوا هذا المقدار المعين يغلبون ذلك المقدار المعين، في مقابلته من الكفار، وأن الله يمتنُّ عليهم بما جعل فيهم من الشجاعة الإيمانية، ولكنَّ معناها وحقيقتها الأمر، وأنَّ الله أمر المؤمنين في أول الأمر أن الواحد لا يجوز له أن يفرَّ من العشرة والعشرة من المائة والألف من الألف، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ خَفَّفَ ذَلِكَ، فَصَارَ لَا يَجُوزُ فِرَارُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ مِثْلِهِمْ مِنَ الْكَفَّارِ؛ فَإِنْ زَادُوا عَلَى مِثْلِهِمْ؛ جَازَ لَهُمُ الْفِرَارُ. وَلَكِنْ يَرِدُ عَلَى هَذَا أَمْرَانِ:

أحدهما: أَنَّهَا بِصُورَةِ الْخَبَرِ، وَالْأَصْلُ فِي الْخَبَرِ أَنْ يَكُونَ عَلَى بَابِهِ، وَأَنَّ الْمَقْصُودَ بِذَلِكَ الْاِمْتِنَانُ وَالْإِخْبَارُ بِالْوَقْعِ.

والثاني: تَقْيِيدُ ذَلِكَ الْعِدَدِ أَنْ يَكُونُوا صَابِرِينَ؛ بَأَنْ يَكُونُوا مُتَدَرِّبِينَ عَلَى الصَّبْرِ، وَمَفْهُومُ هَذَا أَنَّهُمْ إِذَا لَمْ يَكُونُوا صَابِرِينَ؛ فَإِنَّهُ يَجُوزُ لَهُمُ الْفِرَارُ، وَلَوْ أَقَلَّ مِنْ مِثْلِهِمْ، إِذَا غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِمُ الضَّرَرُ؛ كَمَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ.

ويجيب عن الأول بأنَّ قوله: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ...﴾ إلى آخرها: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ^(١) لَازِمٌ وَأَمْرٌ مُحْتَمٌّ، ثُمَّ إِنْ اللَّهَ خَفَّفَهُ إِلَى ذَلِكَ الْعِدَدِ؛ فَهَذَا ظَاهِرٌ فِي أَنَّهُ أَمْرٌ، وَإِنْ كَانَ فِي صِيغَةِ الْخَبَرِ، وَقَدْ يُقَالُ: إِنْ فِي إِتْيَانِهِ بِلَفْظِ الْخَبَرِ

(١) في (ب): «أمر».

نكتة بديعة لا توجد فيه إذا كان بلفظ الأمر، وهي تقوية قلوب المؤمنين، والبشارة بأنهم سيغلبون الكافرين.

ويجاء عن الثاني: أن المقصود بتقييد ذلك بالصابرين أنه حث على الصبر، وأنه ينبغي منكم أن تفعلوا الأسباب الموجبة لذلك؛ فإذا فعلوها؛ صارت الأسباب الإيمانية والأسباب المادية مبشرة بحصول ما أخبر الله به من النصر لهذا العدد القليل.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَفْخَرُ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كُتِبَ مِنَ اللَّهِ سَبَقٌ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِنَّمَا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿٦٧﴾ هذه معاتبة من الله لرسوله وللمؤمنين يوم بدر إذ أسروا المشركين وأبقوهم لأجل الفداء، وكان رأي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في هذه الحال قتلهم واستئصالهم، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَفْخَرُ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: ما ينبغي ولا يليق به إذا قاتل الكفار الذين يريدون أن يطفئوا نور الله، ويسعون لإخماد دينه وأن لا يبقى على وجه الأرض من يعبد الله أن يتسرع إلى أسرهم وإبقائهم لأجل الفداء الذي يحصل منهم، وهو عرض قليل بالنسبة إلى المصلحة المقتضية لإبادتهم وإبطال شرهم؛ فما دام لهم شرٌ وصوله؛ فالأوفق أن لا يؤسروا؛ فإذا أئخنوا، وبطل شرهم، واضمحل أمرهم؛ فحينئذ لا بأس بأخذ الأسرى منهم وإبقائهم. يقول تعالى: ﴿تُرِيدُونَ﴾: بأخذكم الفداء وإبقائهم ﴿عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: لا لمصلحة تعود إلى دينكم. ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾: بإعزاز دينه ونصر أوليائه وجعل كلمتهم عالية فوق غيرهم، فيأمركم بما يوصل إلى ذلك. ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: كامل العزة، لو شاء أن ينتصر من الكفار من دون قتال؛ لفعل، ولكنه حكيم يتلي بعضكم ببعض.

﴿٦٨﴾ ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾: به القضاء والقدر؛ أنه قد أحل لكم الغنائم، وأن الله رفع عنكم أيها الأمة العذاب، ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. وفي الحديث: «لو نزل عذاب يوم بدر؛ ما نجا منه إلا عمر»^(١).

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/٣٦٦) لابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه. وله شاهد بنحوه عند مسلم (١٧٦٣).

﴿٦٩﴾ ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾: وهذا من لطفه تعالى بهذه الأمة أن أحلّ لها الغنائم ولم تحلّ^(١) لأمة قبلها، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: في جميع أموركم، ولازموها شكراً لنعم الله عليكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾: يغفر لمن تاب إليه جميع الذنوب، ويغفر لمن لم يشرك به شيئاً جميع المعاصي، ﴿رَحِيمٌ﴾: بكم حيث أباح لكم الغنائم وجعلها حلالاً طيباً.

يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبٌ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾.

﴿٧٠﴾ وهذه نزلت في أسارى يوم بدر^(٢)، وكان من جملةهم العباس عم رسول الله ﷺ، فلما طلب منه الفداء؛ ادّعى أنه مسلم قبل ذلك، فلم يسقطوا عنه الفداء، فانزل الله تعالى جبراً لخاطره ومن كان على مثل حاله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾؛ أي: من المال، بأن ييسر لكم من فضله خيراً كثيراً^(٣) مما أخذ منكم، ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾: ذنوبكم ويدخلكم الجنة. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: وقد أنجز الله وعده للعباس وغيره، فحصل له بعد ذلك من المال شيء كثير، حتى إنه مرّة لما قدم على النبي ﷺ مال كثير؛ أتاه العباس، فأمره أن يأخذ منه بثوبه ما يطيق حمله، فأخذ منه ما كاد أن يعجز عن حمله^(٤).

﴿٧١﴾ ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾: في السعي لحربك ومناذتك، ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾: فليحذروا خيانتك؛ فإنه تعالى قادرٌ عليهم، وهم تحت قبضته. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: عليم بكل شيء، حكيم يضع الأشياء مواضعها، ومن علمه وحكمته أن شرّع لكم هذه الأحكام الجليلة الجميلة، وقد تكفل بكفائتكم شأن الأسرى وشرهم إن أرادوا خيانة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَا

(٢) أخرجه مسلم (١٧٦٣) عن ابن عباس.

(١) في (ب): «ولم يحلها».

(٣) في (ب): «خيراً وأكثر».

(٤) أخرجه البخاري (٤٢١) تعليقاً بصيغة الجزم.

(٥) في (ب): «وإن».

وَنَصَرُوا أَوْلِيَّكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَّاهُ بَعْضٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَكِيلٍ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ .

﴿٧٢﴾ هذا عقد موالاة ومحبة عقدها الله بين المهاجرين الذين آمنوا وهاجروا في سبيل الله وتركوا أوطانهم لله لأجل الجهاد في سبيل الله وبين الأنصار الذين أوزا رسول الله ﷺ وأصحابه وأعانوه في ديارهم وأموالهم وأنفسهم؛ فهؤلاء بعضهم أولياء بعض؛ لكمال إيمانهم وتمام اتصال بعضهم ببعض. ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾ فإنهم قطعوا ولايتكم بانفصالهم عنكم في وقت شدة الحاجة إلى الرجال، فلما لم يهاجروا؛ لم يكن لهم من ولاية المؤمنين شيء، لكنهم ﴿إن استنصروكم في الدين﴾؛ أي: لأجل قتال من قاتلهم؛ [لأجل دينهم] ﴿فعليكم النصر﴾: والقتال معهم، وأما من قاتلوهم لغير ذلك من المقاصد؛ فليس عليكم نصرهم. وقوله تعالى: ﴿إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾؛ أي: عهد بترك القتال؛ فإنهم إذا أراد المؤمنون المتميزون الذين لم يهاجروا قتالهم؛ فلا تعينوهم عليهم؛ لأجل ما بينكم وبينهم من الميثاق. ﴿والله بما تعملون بصير﴾: يعلم ما أنتم عليه من الأحوال، فيشرع لكم من الأحكام ما يليق بكم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿٧٣﴾ .

﴿٧٣﴾ لما عقد الولاية بين المؤمنين؛ أخبر أن الكفار حيث جمعهم الكفر فبعضهم أولياء بعض^(١)؛ فلا يواليهما إلا كافر مثلهم، وقوله: ﴿إلا تفعلوه﴾؛ أي: موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين؛ بأن واليتموهم كلهم أو عاديتموهم كلهم أو واليتم الكافرين وعاديتم المؤمنين، ﴿تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾: فإنه يحصل بذلك من الشر ما لا ينحصر من اختلاط الحق بالباطل والمؤمن بالكافر وعدم كثير من العبادات الكبار كالجهاد والهجرة وغير ذلك من مقاصد الشرع والدين التي تفوت إذا لم يتخذ المؤمنون وحدهم أولياء بعضهم لبعض.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَّكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾

(١) في (ب): «لبعض».

حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ .

الآيات السابقات في ذكر عقد الموالاة بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار. وهذه الآيات في بيان مدحهم وثوابهم:

﴿٧٤﴾ فقال: ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آوؤا ونصروا أولئك هم المؤمنون^(١)﴾: من المهاجرين والأنصار؛ هم: المؤمنون ﴿حقاً﴾؛ لأنهم صدقوا إيمانهم بما قاموا به من الهجرة والنصرة والموالاة بعضهم لبعض وجهادهم لأعدائهم من الكفار والمنافقين. ﴿لهم مغفرة﴾: من الله تُمحي بها سيئاتهم وتضمحل بها زلاتهم. ﴿و﴾ لهم ﴿رزق كريم﴾؛ أي: خير كثير من الرب الكريم في جنات النعيم، وربما حصل لهم من الثواب المعجل ما تُقَرَّر به أعينهم، وتطمئن به قلوبهم.

﴿٧٥﴾ وكذلك مَنْ جاء بعد هؤلاء المهاجرين والأنصار مِمَّنْ اتَّبَعَهُمْ بإحسان فأمن وهاجر وجاهد في سبيل الله. ﴿فأولئك منكم﴾: لهم ما لكم وعليهم ما عليكم؛ فهذه الموالاة الإيمانية، وقد كانت في أول الإسلام لها وقع كبير وشأن عظيم، حتى إنَّ النبي ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار أخوة خاصة غير الأخوة الإيمانية العامة، وحتى كانوا يتوارثون بها، فأنزل الله: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ فلا يرثه إلا أقاربه من العصبات وأصحاب الفروض فإن لم يكونوا؛ فأقرب قراباته من ذوي الأرحام كما دلَّ عليه عموم الآية الكريمة، وقوله: ﴿في كتاب الله﴾؛ أي: في حكمه وشرعه. ﴿إنَّ الله بكلِّ شيءٍ عَلِيمٌ﴾: ومنه ما يعلمه من أحوالكم التي يجري من شرائعه الدينية عليكم ما يناسبها.

تم تفسير سورة الأنفال. ولله الحمد والمنة.



(١) في (ب): «أي المؤمنون».

تفسير سورة براءة ويقال سورة التوبة

وهي مدنية

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١﴾ فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ ۝٢﴾.

﴿١ - ٢﴾ أي: هذه «براءة من الله» ومن «رسوله»: إلى جميع المشركين المعاهدين؛ أن لهم أربعة أشهر يسيحون في الأرض على اختيارهم آمنين من المؤمنين، وبعد الأربعة الأشهر؛ فلا عهد لهم ولا ميثاق. وهذا لمن كان له عهد مطلق غير مقدر أو مقدر بأربعة أشهر فأقل، أما من كان له عهد مقدر بزيادة على أربعة أشهر؛ فإنه يتعين أن يتم له عهده إذا لم يخف منه خيانة، ولم يبدأ بنقض العهد.

ثم أنذر المعاهدين في مدة عهدهم أنهم وإن كانوا آمنين؛ فإنهم لن يعجزوا الله ولن يفوتوه، وأنه من استمر منهم على شركه؛ فإنه لا بد أن يخزيه، فكان هذا مما يجلبهم إلى الدخول في الإسلام إلا من عاند، وأصر، ولم يبال بوعيد الله.

﴿وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ۝٣﴾ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٤﴾.

﴿٣﴾ هذا ما وعد الله به المؤمنين من نصر دينه وإعلاء كلمته وخذلان أعدائهم من المشركين الذين أخرجوا الرسول ومن معه من مكة من بيت الله الحرام وأجلّوهم مما لهم التسلط عليه من أرض الحجاز؛ نصر الله رسوله والمؤمنين حتى افتتح مكة وأذل المشركين وصار للمؤمنين الحكم والغلبة على تلك الديار، فأمر النبي ﷺ مؤذنه أن يؤذن يوم الحج الأكبر، وهو يوم النحر، وقت اجتماع الناس مسلمهم وكافرهم من جميع جزيرة العرب: أن يؤذن بأن الله بريء ورسوله من المشركين؛ فليس لهم عنده عهد وميثاق؛ فأينما وجدوا قتلوا، وقيل لهم: لا تقربوا المسجد الحرام بعد عامكم هذا! وكان ذلك سنة تسع من الهجرة، وحج بالناس أبو

بكر الصديق رضي الله عنه، وأذن ببراءة يوم النحر ابنُ عمِّ رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ثم رَغِبَ تعالى المشركين بالتوبة ورَهَّبَهُم من الاستمرار على الشرك، فقال: ﴿فَإِنْ تُبْتِغُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فاعلموا أنكم غير معجزي الله﴾؛ أي: فائتبه، بل أنتم في قبضته، قادر أن يسلب عليكم عبادته المؤمنين. ﴿وبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾؛ أي: مؤلم مفضع في الدنيا بالقتل والأسر والجلاء وفي الآخرة بالنار وبشس القرار.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا لِمَتِهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿٤﴾ أي: هذه البراءة التامة المطلقة من جميع المشركين، ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: واستمروا على عهدهم، ولم يجبر منهم ما يوجب النقض؛ فلا نقضوكم شيئاً، ولا عاونوا عليكم أحداً؛ فهؤلاء أتموا إليهم^(١) عهدهم إلى مدتهم قلت أو كثرت؛ لأن الإسلام لا يأمر بالخيانة، وإنما يأمر بالوفاء. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾: الذين أدؤا ما أمروا به، واتقوا الشرك والخيانة وغير ذلك من المعاصي.

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿٥﴾ يقول تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾؛ أي: التي حُرِّمَ فيها قتال المشركين المعاهدين، وهي أشهر التسيير الأربعة، وتمام المدة لمن له مدة أكثر منها؛ فقد برئت منهم الذمة. ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾: في أي مكان وزمان، ﴿وخذوهم﴾: أسرى، ﴿واحضروهم﴾؛ أي: ضيقوا عليهم؛ فلا تدعوهم يتوسعون في بلاد الله وأرضه التي جعلها الله معبداً لعباده؛ فهؤلاء ليسوا أهلاً لسكنائها، ولا يستحقون منها شبراً؛ لأن الأرض أرض الله، وهم أعداؤه المنايذون له ولرسله، المحاربون^(٢) الذين يريدون أن تخلو الأرض من دينه، ويأبى الله إلا أن يُتِمَّ نوره ولو كره الكافرون. ﴿واقعدوا لهم كل مرصد﴾؛ أي: كل تنية وموضع

(١) في (ب): «أتموا لهم».

(٢) في (ب): «المحاربة».

يمرون عليه، ورابطوا في جهادهم، وابدلوا غاية مجهودكم في ذلك، ولا تزالوا على هذا الأمر حتى يتوبوا من شركهم. ولهذا قال: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾: من شركهم، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾؛ أي: أدوها بحقوقها، ﴿وَأَتَوْا الزَّكَاةَ﴾: لمستحقيها، ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾؛ أي: اتركوهم، وليكونوا مثلكم لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: يغفر الشرك فما دونه للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة ثم قبولها منهم.

وفي هذه الآية دليل على أن من امتنع من أداء الصلاة أو الزكاة؛ فإنه يقاتل حتى يؤديها؛ كما استدلل بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَتَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿٦﴾ لما كان ما تقدم من قوله: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْضَرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾: أمراً عاماً في جميع الأحوال وفي كل الأشخاص منهم؛ ذكر تعالى أن المصلحة إذا اقتضت تقريب بعضهم؛ جاز، بل وجب ذلك، فقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾؛ أي: طلب منك أن تجيره وتمنعه من الضرر لأجل أن يسمع كلام الله وينظر حالة الإسلام، ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾: ثم إن أسلم؛ فذاك، وإلا؛ فأبْلِغْهُ مَأْمَتَهُ؛ أي: المحل الذي يأمن فيه.

والسبب في ذلك أن الكفار قوم لا يعلمون؛ فربما كان استمرارهم على كفرهم لجهل منهم إذا زال اختاروا عليه الإسلام؛ فلذلك أمر الله رسوله. وأمته أسوته في الأحكام أن يجيروا من طلب أن يسمع كلام الله.

وفي هذا حجة صريحة لمذهب أهل السنة والجماعة، القائلين بأن القرآن كلام الله غير مخلوق؛ لأنه تعالى هو المتكلم به، وأضافه إلى نفسه إضافة الصفة إلى موصوفها، وبطلان مذهب المعتزلة ومن أخذ بقولهم أن القرآن مخلوق، وكم من الأدلة الدالة على بطلان هذا القول، ليس هذا محل ذكرها!

﴿كَفَيْكَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿٧﴾ هذا بيان للحكمة الموجبة لأن يتبرأ الله ورسوله من المشركين، فقال:

﴿كيف يكون للمشركين عهدٌ عند الله وعند رسوله﴾: هل قاموا بواجب الإيمان؟ أم تركوا رسول الله والمؤمنين من أذيتهم؟ أما حاربوا الحق ونصروا الباطل؟! أما سَعَوْا في الأرض فساداً؟! فيحقُّ لهم أن يتبرأ الله منهم، وأن لا يكون لهم عهدٌ عنده ولا عند رسوله. ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾: من المشركين ﴿عند المسجد الحرام﴾: فإنَّ لهم في العهد - وخصوصاً في هذا المكان الفاضل - حرمة أوجب أن يراعوا فيها، ﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين﴾. ولهذا قال:

﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَتَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿٨﴾ أي: ﴿كيف﴾: يكون للمشركين عند الله عهدٌ وميثاقٌ. ﴿و﴾: الحال أنهم ﴿إن يظهروا عليكم﴾: بالقدرة والسلطة لا يرحموكم. و ﴿لا يرقبوا فيكم إلا﴾ ولا ذمة؛ أي: لا ذمة ولا قرابة، ولا يخافون الله فيكم، بل يسومونكم سوء العذاب؛ فهذه حالكم معهم لو ظهروا، ولا يغرَّتكم منهم ما يعاملونكم به وقت الخوف منكم؛ فإنهم ﴿يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم﴾: الميل والمحبة لكم، بل هم الأعداء حقاً، المبغضون لكم صدقاً. ﴿وأكثرهم فاسقون﴾: لا ديانة لهم ولا مروءة.

﴿٩﴾ ﴿اشترؤا بآيات الله ثمنًا قليلًا﴾؛ أي: اختاروا الحظَّ العاجل الخسيس في الدنيا على الإيمان بالله ورسوله والانقياد لآيات الله، ﴿فصدؤا﴾: بأنفسهم وصدؤا غيرهم ﴿عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾.

﴿١٠﴾ ﴿لا يرقبون في مؤمنٍ إلا ولا ذمة﴾؛ أي: لأجل عداوتهم للإيمان وأهله؛ فالوصف الذي جعلهم^(١) يعادونكم لأجله ويبغضونكم هو الإيمان.

﴿١١﴾ ﴿فدَّبُّوا عن دينكم وانصروه واتخذوا من عاداه عدوًّا ومن نصره لكم وليًّا واجعلوا الحكم يدور مع وجوداً وعدمًا، لا تجعلوا الولاية والعداوة طَبِيعَةً^(٢)﴾

(١) في (ب): «جعلوهم».

(٢) في (ب): «طبيعية».

قوماً نَكثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهُمْ أَوْ يَخْرُجُوا الرُّسُلَ: الذي يجب احترامه وتوقيره وتعظيمه، وهُمُ^(١) أَنْ يَجْلُوهُ وَيَخْرُجُوهُ مِنْ وَطَنِهِ، وَسَعَوْا فِي ذَلِكَ مَا أَمَكْنَهُمْ، ﴿وَهُمْ بِدُؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: حيث نقضوا العهود، وأعانوا عليكم وذلك حيث أعانت^(٢) قريش وهم معاهدون بني بكر حلفاءهم على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ، وقاتلوا معهم كما هو مذكور مبسوط في السيرة. ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾: في ترك قتالهم؟ ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: فالله^(٣) أَمَرَكُم بِقِتَالِهِمْ، وَأَكَّدَ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ غَايَةَ التَّأَكُّدِ؛ فَإِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ؛ فَامْتثلُوا لِأَمْرِ اللَّهِ، وَلَا تَخْشَوْهُمْ فَتَرْكُوا أَمْرَ اللَّهِ.

﴿١٤﴾ ثُمَّ أَمَرَ بِقِتَالِهِمْ، وَذَكَرَ مَا يَتَرْتَبِ عَلَى قِتَالِهِمْ مِنَ الْفَوَائِدِ وَكُلِّ هَذَا حَثٌّ وَإِنْهَاضٌ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى قِتَالِهِمْ فَقَالَ: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾: بِالْقِتْلِ، ﴿وَيُخْزِيهِمْ﴾: إِذَا نَصَرَكُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ الْأَعْدَاءُ الَّذِينَ يَطْلُبُ خَزِيهِمْ وَيَحْرُصُ عَلَيْهِ، ﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾: هَذَا وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ وَبَشَارَةٌ قَدْ أَنْجَزَهَا، ﴿وَيُشْفِ صُدُورُ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿١٥﴾ ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾: فَإِنَّ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْحَقِّ وَالْغَيْظِ عَلَيْهِمْ مَا يَكُونُ قِتَالُهُمْ وَقَتْلُهُمْ شِفَاءً لِمَا فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْغَمِّ وَالْهَمِّ؛ إِذْ يَرَوْنَ هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءَ مُحَارِبِينَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، سَاعِينَ فِي إِطْفَاءِ نُورِ اللَّهِ، وَزَوَالاً لِلْغَيْظِ الَّذِي فِي قُلُوبِهِمْ^(٤). وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ^(٥)، وَاعْتِنَائِهِ بِأَحْوَالِهِمْ، حَتَّى إِنَّهُ جَعَلَ مِنْ جَمَلَةِ الْمَقَاصِدِ الشَّرْعِيَّةِ شِفَاءَ مَا فِي صُدُورِهِمْ وَذَهَابَ غَيْظِهِمْ. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾: مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُحَارِبِينَ؛ بَأَنْ يُوَفِّقَهُمُ لِلدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ وَيَزِيلَهُ فِي قُلُوبِهِمْ وَيَكْرِهَ إِلَيْهِمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: يَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا، وَيَعْلَمُ مَنْ يَصْلُحُ لِلْإِيمَانِ فِيهِدِيهِ، وَمَنْ لَا يَصْلُحُ فَيَبْقِيهِ فِي غِيهِ وَطَغْيَانِهِ.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿١٦﴾ يَقُولُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَمَا أَمَرَهُمُ بِالْجِهَادِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ

(٢) في (ب): «عأونت».

(٤) في (ب): «في قلوبهم».

(١) في (ب): «وهم هموا».

(٣) في (ب): «فإنه».

(٥) في (ب): «لعباده المؤمنين».

تَتَرَكُوا: من دون ابتلاء وامتحان وأمر بما يبين به الصادق والكاذب، ﴿وَلَمَّا يَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾؛ أي: علماً يظهر مما في القوة إلى الخارج؛ لِيَتَرَبَّ عَلَيْهِ الثَّوَابُ والعقاب، فيعلم الذين يجاهدون في سبيله لإعلاء كلمته، ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ﴾؛ أي: ولياً من الكافرين، بل يَتَّخِذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ أَوْلِيَاءَ. فشرع الله الجهادَ لِيَحْضَلَ بِهِ هَذَا الْمَقْصُودُ الْأَعْظَمُ، وَهُوَ أَنْ يَتَمَيَّزَ الصَّادِقُونَ الَّذِينَ لَا يَتَّخِذُونَ إِلَّا لِلَّهِ مِنَ الْكَاذِبِينَ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ الْإِيمَانَ وَهُمْ يَتَّخِذُونَ الْوَلَائِجَ وَالْأَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولَهُ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ. ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: يعلم ما يصير منكم ويصدر، فيتليكم بما يظهر به حقيقة ما أنتم عليه، ويجازيكم على أعمالكم خيرها وشرها.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٧﴾ يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ﴾؛ أي: ما ينبغي، ولا يليق ﴿لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾: بالعبادة والصلاة وغيرها من أنواع الطاعات، والحال أنهم شاهدون ومقررون على أنفسهم بالكفر بشهادة حالهم وفطرتهم وعلم كثير منهم أنهم على الكفر والباطل؛ فإذا كانوا ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ وعدم الإيمان الذي هو شرط لقبول الأعمال؛ فكيف يزعمون أنهم عمار مساجد الله؛ والأصل منهم مفقود والأعمال منهم باطلة؟! ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾؛ أي: بطلت وضلت. ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.

﴿١٨﴾ ثم ذكر من هم عمار مساجد الله، فقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾: الواجبة والمستحبة بالقيام بالظاهر منها والباطن، ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾: لأهلها، ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾؛ أي: قَصَرَ خَشْيَتَهُ عَلَى رَبِّهِ، فَكَفَّ عَنْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، وَلَمْ يَقْصُرْ بِحَقِّ اللَّهِ الْوَاجِبَةَ؛ فوصفهم بالإيمان النافع، وبالقيام بالأعمال الصالحة التي أمها الصلاة والزكاة، وبخشية الله التي هي أصل كل خير؛ فهؤلاء عمار المساجد على الحقيقة وأهلها الذين هم أهلها. ﴿فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾: و ﴿عَسَى﴾ من الله واجبة، وأما مَنْ لَمْ

يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا عنده خشية لله؛ فهذا ليس من عمار مساجد الله ولا من أهلها الذين هم أهلها، وإن زعم ذلك وادّعاه.

﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَتِهِ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ .

﴿١٩﴾ لما اختلف بعض المسلمين أو بعض المسلمين وبعض المشركين في تفضيل عمارة المسجد الحرام بالبناء والصلاة والعبادة فيه وسقاية الحاج على الإيمان بالله والجهاد في سبيله؛ أخبر الله تعالى بالتفاوت بينهما، فقال: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾؛ أي: سقيهم الماء من زمزم؛ كما هو المعروف إذا أطلق هذا الاسم أنه المراد، ﴿وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾: فالجهاد والإيمان بالله أفضل من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام بدرجات كثيرة؛ لأن الإيمان أصل الدين وبه تُقبل الأعمال وتزكو الخصال، وأما الجهاد في سبيل الله؛ فهو ذروة سنام الدين، [الذي] به يُحفظ الدين الإسلامي ويتسع، ويُنصر الحق ويُخذل الباطل، وأما عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج؛ فهي، وإن كانت أعمالاً صالحة؛ فهي متوقفة على الإيمان، وليس فيها من المصالح ما في الإيمان والجهاد؛ فلذلك قال: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: الذين وَضَفَهُمُ الظلم، الذين لا يَصْلُحُونَ لقبول شيء من الخير، بل لا يليق بهم إلا الشر.

﴿٢٠﴾ ثم صرح بالفضل فقال: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ﴾: بالنفقة في الجهاد وتجهيز الغزاة، ﴿وَأَنْفُسِهِمْ﴾: بالخروج بالنفس، ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾؛ أي: لا يفوز بالمطلوب، ولا ينجو من المرهوب إلا مَنْ اتَّصَفَ بصفاتهم، وتخلَّق بأخلاقهم.

﴿٢١﴾ ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ﴾: رحمة^(١) منه وكرماً وبراً بهم واعتناء ومحبة لهم، ﴿وَرَحْمَةً مِنْهُ﴾: أزال بها عنهم الشرور، وأوصل إليهم بها كل خير، ﴿وَرِضْوَانٍ﴾:

(١) في (ب): «جوداً».

منه تعالى عليهم، الذي هو أكبر نعيم الجنة وأجله، فيُجَلُّ عليهم رضوانه؛ فلا يسخط عليهم أبداً، ﴿وَجَنَاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾: من كل ما اشتتهه الأنفس وتلذُّ الأعين مما لا يَعْلَمُ وصفه ومقداره إلا الله تعالى، الذي منه أن الله أعدَّ للمجاهدين في سبيله مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، ولو اجتمع الخلق في درجة واحدة منها؛ لَوَسِعَتْهُمْ.

﴿٢٢﴾ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾: لا ينتقلون عنها ولا يبعثون عنها جِوَلًا. ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: لا تُستغرب كثرتُه على فضل الله، ولا يُتَعَجَّب من عظمه وحسنه على من يقول للشيء كن فيكون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْكُمْ هُمْ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبُيُوتٌ تَبْنُونَ كَسَادَهَا وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَكُمُ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿٢٣﴾ يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: اعملوا بمقتضى الإيمان؛ بأن توالوا من قام به وتعادوا من لم يَقُمْ به. و ﴿لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ﴾: الذين هم أقرب الناس إليكم، وغيرهم من باب أولى وأحرى؛ فلا تَتَّخِذُوهُمْ ﴿أَوْلِيَاءَ﴾: استحبُّوا؛ أي: اختاروا على وجه الرضا والمحبة، ﴿الكفر على الإيمان وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَوَلَّيْكُمْ هُمْ الظَّالِمُونَ﴾: لأنهم تجرَّؤا على معاصي الله، واتَّخَذُوا أعداء الله أولياء، وأصلُ الولاية المحبة والنصرة، وذلك أن اتَّخَذَهُمْ أولياء موجب لتقديم طاعتهم على طاعة الله ومحبتهم على محبة الله ورسوله.

﴿٢٤﴾ ولهذا ذكر السبب الموجب لذلك، وهو أن محبة الله ورسوله يتعيَّن تقديمهما^(١) على محبة كل شيء، وجعل جميع الأشياء تابعة لهما، فقال: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ﴾: ومثلهم الأمهات، ﴿وإِخْوَانُكُمْ﴾^(٢): في النسب والعشرة، ﴿وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾؛ أي: قريباتكم عموماً، ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾؛ أي:

(١) كذا في (ب)، وفي (أ): «تقديمها». والصواب ما أثبت.

(٢) كذا في النسختين، دون ذكر «وَأَبْنَاكُمْ».

اكتسبتموها وتعبتم في تحصيلها، خصَّها بالذكر لأنها أرغب عند أهلها، وصاحبها أشدَّ حرصاً عليها ممَّن تأتيه الأموال من غير تعبٍ ولا كد. ﴿وتجارة تخشون كسادها﴾؛ أي: رخصها ونقصها، وهذا شاملٌ لجميع أنواع التجارات والمكاسب من عروض التجارات من الأثمان والأواني والأسلحة والأمتعة والحبوب والحرث والأنعام وغير ذلك. ﴿ومساكن ترضونها﴾: من حُسْنها وزخرفتها وموافقتها لأهوائكم؛ فإن كانت هذه الأشياء ﴿أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله﴾: فأنتم فسقة ظلمة، ﴿فتربصوا﴾؛ أي: انتظروا ما يَجُلُّ بكم من العقاب، ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾: الذي لا مَرَدَّ له. ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾؛ أي: الخارجين عن طاعة الله، المقدمين على محبة الله شيئاً من المذكورات.

وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله، وعلى تقديمهما على محبة كل شيء، وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد على مَنْ كان شيء من [هذه] المذكورات أحبَّ إليه من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله، وعلامة ذلك أنه إذا عرض عليه أمران: أحدهما يحبه الله ورسوله وليس لنفسه فيه هوى. والآخر تحبه نفسه وتشتهيه ولكنه يفوت عليه محبوباً لله ورسوله أو ينقصه؛ فإنه إن قدم ما تهواه نفسه على ما يحبه الله؛ دلَّ على أنه ظالم تارك لما يجب عليه.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَذْرُوكُمْ فَلَمْ تَغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكُوتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾.

يمتنُّ تعالى على عباده المؤمنين بنصره إياهم في مواطن كثيرة من مواطن اللقاء ومواقع الحروب والهيجات، حتى في يوم حُنين الذي اشتدَّت عليهم فيه الأزمة ورأوا من التخاذل والفرار ما صاقت عليهم به الأرض على رُخبها وسعتها، وذلك أن النبي ﷺ لما فتح مكة؛ سمع أن هوازن اجتمعوا لحربه، فسار إليهم ﷺ في أصحابه الذين فتحوا مكة وبمن أسلم من الطلقاء أهل مكة، فكانوا اثني عشر ألفاً، والمشركون الذين أربعة آلاف، فأعجب بعض المسلمين بكثرتهم، وقال بعضهم: لن نغلب اليوم من قلة، فلما التقوا هم وهوازن؛ حملوا على المسلمين حملة واحدة، فانهزموا لا يلوي أحد على أحد، ولم يبق مع رسول الله ﷺ إلا نحو مائة رجل

ثبوتوا معه، وجعلوا يقاتلون المشركين، وجعل النبي ﷺ يُرَكِّضُ بغلته نحو المشركين ويقول: «أنا النبي لا كَذِبَ أنا ابن عبد المطلب»^(١). ولما رأى من المسلمين ما رأى؛ أمر العباس بن عبد المطلب أن ينادي في الأنصار وبقية المسلمين، وكان رفيع الصوت، فناداهم: يا أصحاب السُّمرة! يا أهل سورة البقرة! فلما سمعوا صوته؛ عطفوا عطفة رجل واحد، فاجتلدوا مع المشركين، فهزم الله المشركين هزيمة شنيعة، واستولوا على معسكرهم ونسائهم وأموالهم.

﴿٢٥﴾ وذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ وهو اسم للمكان الذي كانت فيه الوقعة بين مكة والطائف، ﴿إِذْ أَعْجَبَكُمْ كَثُرْتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾؛ أي: لم تفدكم شيئاً قليلاً ولا كثيراً، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ﴾ - بما أصابكم من الهم والغم حين انهزمت - ﴿بِمَا رَحَبْتَ﴾؛ أي: على رُخبها وسعتها، ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾؛ أي: منهزمين.

﴿٢٦﴾ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين: ﴿وَالسَّكِينَةُ﴾ ما يجعله الله في القلوب وقت القلاقل والزلازل والمُفْطِطَاتِ مما يثبُّتها ويسكنها ويجعلها مطمئنة، وهي من نعم الله العظيمة على العباد، ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾: وهم الملائكة، أنزلهم الله معونةً للمسلمين يوم حنين يثبتونهم ويبشرونهم بالنصر، ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: بالهزيمة والقتل واستيلاء المسلمين على نسائهم وأولادهم وأموالهم. ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾: يعذبهم الله في الدنيا، ثم يردهم في الآخرة إلى عذاب غليظ.

﴿٢٧﴾ ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء: ﴿فَتَابَ اللَّهُ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ كَانَتْ الْوَقْعَةُ عَلَيْهِمْ، وَأَتُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مُسْلِمِينَ تَائِبِينَ، فَرَدَّ عَلَيْهِمْ نِسَاءَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: ذو مغفرة واسعة ورحمة عامة، يعفو عن الذنوب العظيمة للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة والطاعة والصفح عن جرائمهم وقبول توباتهم، فلا يياسن أحدٌ من رحمته ومغفرته، ولو فعل من الذنوب والإجرام ما فعل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَائِمِهِمْ

هَكَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ .

﴿٢٨﴾ يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ﴾: بالله، الذين عبدوا معه غيره ﴿نَجَسٌ﴾؛ أي: خبثاء في عقائدهم وأعمالهم، وأيُّ نجاسة أبلغ ممَّن كان يعبد مع الله آلهة لا تنفع ولا تضر ولا تغني عنه شيئاً، وأعمالهم ما بين محاربة لله وصدُّ عن سبيل الله ونصر للباطل وردُّ للحق وعمل بالفساد في الأرض لا في الصلاح؟! فعليكم أن تطهروا أشرف البيوت وأطهرها عنهم؛ ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾: وهو سنة تسع من الهجرة، حين حجَّ بالناس أبو بكر الصديق، وبعث النبي ﷺ ابن عمه علياً أن يؤذِّن يوم الحجِّ الأكبر ببراءة، فنادى أن لا يحجَّ بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت غريان^(١). وليس المراد هنا نجاسة البدن؛ فإن الكافر كغيره طاهر البدن؛ بدليل أن الله تعالى أباح وطء الكتابية ومباشرتها، ولم يأمر بغسل ما أصاب منها^(٢)، والمسلمون ما زالوا يباشرون أبدان الكفار، ولم يُنْقَلْ عنهم أنهم تقدَّروا منها تقدُّرهم من النجاسات، وإنما المراد كما تقدَّم نجاستهم المعنوية بالشرك؛ فكما أن التوحيد والإيمان طهارة؛ فالشرك نجاسة.

وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾: أيُّها المسلمون، ﴿عَيْلَةً﴾؛ أي: فقراً وحاجة من منع المشركين من قربان المسجد الحرام؛ بأن تنقطع الأسباب التي بينكم وبينهم من الأمور الدنيوية، ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: فليس الرزق مقصوراً على باب واحد ومحل واحد، بل لا ينخلق باب؛ إلا وفُتِحَ غيره أبواب كثيرة؛ فإن فضل الله واسع، وجوده عظيم، خصوصاً لمن ترك شيئاً لوجه^(٣) الكريم؛ فإن الله أكرم الأكرمين، وقد أنجز الله وعده؛ فإن الله أغنى المسلمين من فضله، وبَسَطَ لهم من الأرزاق ما كانوا من أكبر الأغنياء والملوك. وقوله: ﴿إِنْ شَاءَ﴾: تعليق للإغناء بالمشيئة؛ لأن الغنى في الدنيا ليس من لوازم الإيمان، ولا يدلُّ على محبة الله؛ فلهذا علَّقه الله بالمشيئة؛ فإن الله يعطي الدنيا من يحبُّ ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين إلا من يحبُّ. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: علمه واسع، يعلم من

(١) سبق تخريجه.

(٢) في (ب): «ولم يأمر يغتسل مما أصاب منها».

(٣) في (ب): «لوجه».

يَلِيْقُ بِهِ الْغَنَى وَمَنْ لَا يَلِيْقُ، وَيَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا، وَيَنْزِلُهَا مَنَازِلَهَا.

وتدُلُّ الآيةُ الكريمة - وهي قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ - أَنَّ الْمُشْرِكِينَ بَعْدَمَا كَانُوا هُمُ الْمُلُوكَ وَالرُّؤَسَاءَ بِالْبَيْتِ، ثُمَّ صَارَ بَعْدَ الْفَتْحِ الْحُكْمُ لِرَسُولِ اللَّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَ إِقَامَتِهِمْ فِي الْبَيْتِ وَمَكَّةَ الْمَكْرَمَةِ، ثُمَّ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَلَمَّا مَاتَ النَّبِيُّ ﷺ؛ أُمِرَ أَنْ يُجْلَوْا مِنَ الْحِجَازِ؛ فَلَا يَبْقَى فِيهَا دِينَانِ، وَكُلُّ هَذَا لِأَجْلِ بُعْدِ كُلِّ كَافِرٍ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَيَدْخُلُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾.

﴿قَتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٢٩).

﴿٢٩﴾ هَذِهِ الْآيَةُ أَمَرَ بِقِتَالِ الْكُفَّارِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مِنَ ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: إِيْمَانًا صَحِيحًا يَصْدُقُونَهُ بِأَعْمَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ، ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾: فَلَا يَتَّبِعُونَ شَرْعَهُ فِي تَحْرِيمِ الْمَحْرَمَاتِ، ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾؛ أَي: لَا يَدِينُونَ بِالْدِينِ الصَّحِيحِ، وَإِنْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ عَلَى دِينٍ؛ فَإِنَّهُ دِينٌ غَيْرُ الْحَقِّ؛ لِأَنَّهُ مَا بَيْنَ دِينٍ مَبْدُلٌ وَهُوَ الَّذِي لَمْ يَشْرَعْهُ اللَّهُ أَصْلًا، وَإِنَّمَا دِينٌ مَنْسُوخٌ قَدْ شَرَعَهُ اللَّهُ ثُمَّ غَيَّرَهُ بِشَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَبْقَى التَّمَسُّكُ بِهِ بَعْدَ النِّسْخِ غَيْرُ جَائِزٍ. فَأَمَرَهُ بِقِتَالِ هَؤُلَاءِ وَحَثَّ عَلَى ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَدْعُونَ إِلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ، وَيَحْصِلُ الضَّرَرُ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ لِلنَّاسِ، بِسَبَبِ أَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ. وَغَيًّا ذَلِكَ الْقِتَالُ: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾؛ أَي: الْمَالُ الَّذِي يَكُونُ جِزَاءً لَتَرْكِ الْمُسْلِمِينَ قِتَالَهُمْ وَإِقَامَتِهِمْ آمِنِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ بَيْنَ أَظْهَرِ الْمُسْلِمِينَ، يُوْخِذُ مِنْهُمْ كُلَّ عَامٍ كُلُّ عَلَى حَسَبِ حَالِهِ مِنْ غَنِيٍّ وَفَقِيرٍ وَمَتَوَسِّطٍ؛ كَمَا فَعَلَ ذَلِكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَغَيْرُهُ مِنْ أُمَرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ. وَقَوْلُهُ: ﴿عَنْ يَدٍ﴾؛ أَي: حَتَّى يَبْذُلُوهَا^(١) فِي حَالِ ذُلِّهِمْ، وَعَدِمِ اقْتِدَارِهِمْ، وَيُعْطَوْهَا^(٢) بِأَيْدِيهِمْ، فَلَا يَرْسِلُونَ بِهَا خَادِمًا، وَلَا غَيْرَهُ، بَلْ لَا تُقْبَلُ إِلَّا مِنْ أَيْدِيهِمْ. ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾: فَإِذَا كَانُوا بِهَذِهِ الْحَالِ، وَسَأَلُوا الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُقَرِّوَهُمْ بِالْجِزْيَةِ وَهُمْ تَحْتَ أَحْكَامِ الْمُسْلِمِينَ وَقَهْرِهِمْ، وَحَالِ الْأَمْنِ مِنْ شَرِّهِمْ وَفَتْنَتِهِمْ، وَاسْتَسْلَمُوا لِلشُّرُوطِ الَّتِي أَجْرَاهَا عَلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ، مِمَّا يَنْفِي عِزَّهُمْ وَتَكَبُّرَهُمْ وَتَوَجَّبَ ذُلُّهُمْ وَصَغَارُهُمْ؛ وَجَبَ عَلَى الْإِمَامِ أَوْ نَائِبِهِ أَنْ يَعْقِدَهَا لَهُمْ،

(١) فِي (ب): «يَبْذُلُونَهَا».

(٢) فِي (ب): «يُعْطُونَهَا».

وَالْأَمْرُ أَنَّ لَمْ يَفُوا وَلَمْ يَعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ؛ لَمْ يَجْزُ إِقْرَارُهُمْ بِالْجِزْيَةِ، بَلْ يِقَاتِلُونَ حَتَّى يُسَلِّمُوا.

واستدل بهذه الآية الجمهور الذين يقولون: لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب؛ لأنَّ الله لم يذكر أخذ الجزية إلا منهم، وأما غيرهم؛ فلم يذكر إلا قتالهم حتى يسلموا. وألحق بأهل الكتاب في أخذ الجزية وإقرارهم في ديار المسلمين المجوس؛ فإنَّ النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هَجَرَ، ثم أخذها أمير المؤمنين عمر من الفرس المجوس^(١).

وقيل: إن الجزية تؤخذ من سائر الكفار من أهل الكتاب وغيرهم؛ لأنَّ هذه الآية نزلت بعد الفراغ من قتال العرب المشركين والشروع في قتال أهل الكتاب ونحوهم، فيكون هذا القيد إخباراً بالواقع لا مفهوماً له، ويدلُّ على هذا أن المجوس أخذت منهم الجزية وليسوا أهل كتاب، ولأنَّه قد تواتر عن المسلمين من الصحابة ومن بعدهم أنهم يدعون من يقاتلونهم إلى إحدى ثلاث: إمَّا الإسلام، أو أداء الجزية، أو السيف؛ من غير فرق بين كتابي وغيره.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّى بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضِلُّونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَسَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَنْ يَؤْفَكُونَ ﴿٣١﴾ أَخْبَارُهُمْ وَرَبُّهُمْ أَزْكَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٢﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٣﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿٣٠﴾ لما أمر تعالى بقتال أهل الكتاب ذكر من أقوالهم الخبيثة ما يهيج المؤمنين الذين يغارون لربهم ولدينه على قتالهم والاجتهاد وبذل الوسع فيه، فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّى بْنُ اللَّهِ﴾: وهذه المقالة وإن لم تكن مقالة لعائتهم؛ فقد قالها فرقة منهم، فبدل ذلك على أنَّ في اليهود من الخبث والشر ما أوصلهم إلى أن قالوا هذه المقالة التي تجرؤوا فيها على الله وتنقصوا عظمتة وجلاله. وقد قيل: إن سبب ادعائهم في عزير أنه ابن الله: أنه لما تسلط^(٢) الملوك على بني إسرائيل ومزقوهم

(١) أخرجه البخاري (٣١٥٧).

(٢) في (ب): «لما سلط».

كُلٌّ مَمَزَّقٌ وَقَتَلُوا حَمَلَةَ التَّوْرَةِ؛ وَجَدُوا غُزِيْرًا بَعْدَ ذَلِكَ حَافِظًا لَهَا أَوْ أَكْثَرَهَا^(١)، فَأَمَلَاها عَلَيْهِمْ مِنْ حَفْظِهَا، وَاسْتَنْسَخُوهَا. فَادَّعَوْا فِيهِ هَذِهِ الدَّعْوَى الشَّنِيعَةَ. وَقَالَتِ النَّصَارَى: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴿ابْنُ اللَّهِ﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ﴾: الْقَوْلُ الَّذِي قَالُوهُ، ﴿قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾: لَمْ يَقِيمُوا عَلَيْهِ حُجَّةً وَلَا بَرَهَانًا، وَمَنْ كَانَ لَا يُبَالِي بِمَا يَقُولُ لَا يُسْتَعْرَبُ عَلَيْهِ أَيُّ قَوْلٍ يَقُولُهُ؛ فَإِنَّهُ لَا دِينَ وَلَا عَقْلَ يَحْجُزُهُ عَمَّا يَرِيدُ مِنَ الْكَلَامِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يُضَاهِئُونَ﴾؛ أَيُّ: يَشَابَهُونَ فِي قَوْلِهِمْ هَذَا ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾؛ أَيُّ: قَوْلَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ فَتَشَابَهَتْ أَقْوَالُهُمْ فِي الْبَطْلَانِ. ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾؛ أَيُّ: كَيْفَ يُصَرِّفُونَ عَنِ الْحَقِّ الصَّرْفَ الْوَاضِحَ الْمُبِينِ إِلَى الْقَوْلِ الْبَاطِلِ الْمُبِينِ؟!

﴿٣١﴾ وَهَذَا وَإِنْ كَانَ يُسْتَعْرَبُ عَلَى أَمَةٍ كَبِيرَةٍ كَثِيرَةٍ أَنْ تَتَّفَقَ عَلَى قَوْلٍ يَدُلُّ عَلَى بَطْلَانِهِ أَدْنَى تَفَكُّرٍ وَتَسْلِيْطٍ لِلْعَقْلِ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ لَذَلِكَ سَبَبًا، وَهُوَ أَنَّهُمْ ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ﴾: وَهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ، ﴿وَرَهْبَانَهُمْ﴾؛ أَيُّ: الْعِبَادَ الْمُتَجَرِّدِينَ لِلْعِبَادَةِ، ﴿أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: يُحِلُّونَ لَهُمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّونَهُ، وَيَحْرُمُونَ لَهُمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَيَحْرُمُونَهُ، وَيَشْرَعُونَ لَهُمْ مِنَ الشَّرَائِعِ وَالْأَقْوَالِ الْمُنَافِيَةِ لِدِينِ الرِّسْلِ، فَيَتَّبِعُونَهُمْ عَلَيْهَا، وَكَانُوا أَيْضًا يَغْلُونَ فِي مَشَايِخِهِمْ وَعِبَادِهِمْ، وَيَعْظُمُونَهُمْ، وَيَتَّخِذُونَ قُبُورَهُمْ أَوْثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَتَقْصِدُ بِالذَّبَائِحِ وَالِدُّعَاءِ وَالِاسْتِغَاثَةِ. ﴿وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾: اتَّخَذُوهُ إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَالحَالُ أَنَّهُمْ خَالَفُوا فِي ذَلِكَ أَمْرَ اللَّهِ لَهُمْ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ، فَمَا ﴿أَمَرُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: فَيُخَلِّصُونَ لَهُ الْعِبَادَةَ وَالطَّاعَةَ وَيَخْصُونَهُ بِالْمَحَبَّةِ وَالِدُّعَاءِ، فَنَبَذُوا أَمْرَ اللَّهِ، وَأَشْرَكُوا بِهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا. ﴿سُبْحَانَهُ﴾: وَتَعَالَى ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أَيُّ: تَنَزَّاهُ وَتَقَدَّسَ وَتَعَالَتْ عَظَمَتُهُ عَنْ شُرَكَاهُمْ وَافْتِرَائِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ يَنْتَقِصُونَهُ فِي ذَلِكَ وَيَصِفُونَهُ بِمَا لَا يَلِيْقُ بِجَلَالِهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى الْعَالِي فِي أَوْصَافِهِ وَأَفْعَالِهِ عَنْ كُلِّ مَا تُسَبِّحُ إِلَيْهِ مِمَّا يُنَافِي كَمَالَهُ الْمُقَدَّسَ.

﴿٣٢﴾ فَلَمَّا تَبَيَّنَ أَنَّهُ لَا حُجَّةَ لَهُمْ عَلَى مَا قَالُوهُ وَلَا بَرَهَانًا لَمَّا أَصْلَوْهُ، وَإِنَّمَا هُوَ مُجَرَّدُ قَوْلٍ قَالُوهُ وَافْتَرَاهُ افْتَرَاهُ؛ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ ﴿يَرِيدُونَ﴾ بِهَذَا ﴿أَنْ يُطْفِئُوا نَوْرَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾: وَنَوْرُ اللَّهِ دِينُهُ الَّذِي أَرْسَلَ بِهِ الرِّسْلَ وَأَنْزَلَ بِهِ الْكِتَابَ، وَسَمَاءُ اللَّهِ نَوْرًا لِأَنَّهُ يُسْتَنَارُ بِهِ فِي ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ وَالْأَدْيَانِ الْبَاطِلَةِ؛ فَإِنَّهُ عَلِمَ بِالْحَقِّ وَعَمِلَ بِالْحَقِّ،

(١) فِي (ب): «أَوْ لَأَكْثَرَهَا».

وما عداه فإنه بضده؛ فهؤلاء اليهود والنصارى ومن ضاهاهم^(١) من المشركين، يريدون أن يطفئوا نور الله بمجرد أقوالهم التي ليس عليها دليل أصلاً. ﴿ويأبى الله إلا أن يتيّم نوره﴾: لأنه النور الباهر، الذي لا يمكن لجميع الخلق لو اجتمعوا على إطفائه أن يطفئوه، والذي أنزله جميع نواصي العباد بيده، وقد تكفل بحفظه من كل من يريده بسوء، ولهذا قال: ﴿ويأبى الله إلا أن يتيّم نوره ولو كره الكافرون﴾: وسعوا ما أمكنهم في رده وإبطاله؛ فإن سعيهم لا يضر الحق شيئاً.

﴿٣٣﴾ ثم بيّن تعالى هذا النور الذي قد تكفل بإتمامه وحفظه، فقال: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى﴾: الذي هو العلم النافع، ﴿ودين الحق﴾ الذي هو العمل الصالح، فكان ما بعث الله به محمداً ﷺ مشتملاً على بيان الحق من الباطل في أسماء الله وأوصافه وأفعاله، وفي أحكامه وأخباره، والأمر بكل مصلحة نافعة للقلوب والأرواح والأبدان؛ من إخلاص الدين لله وحده، ومحبة الله وعبادته، والأمر بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم والأعمال الصالحة والآداب النافعة، والنهي عن كل ما يضاؤ ذلك ويناقضه من الأخلاق والأعمال السيئة المضرة للقلوب والأبدان والدنيا والآخرة، فأرسله الله بالهدى ودين الحق؛ ﴿ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾؛ أي: ليعليه على سائر الأديان؛ بالحجة والبرهان، والسيف والسنان، وإن كره المشركون ذلك، ويغوا له الغوائل، ومكروا مكرهم؛ فإن المكر السيئ^(٢) لا يضر إلا صاحبه؛ فوعد الله لا بد أن ينجزه وما ضمنه لا بد أن يقوم به.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَنشَرَهُمْ بَعْدَازِ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَرَّثْتُمْ لَأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٤﴾ هذا تحذير من الله تعالى لعباده المؤمنين عن كثير من الأخبار والرهبان؛ أي: العلماء والعباد الذين يأكلون أموال الناس بالباطل؛ أي: بغير حق ويصدون عن سبيل الله؛ فإنهم إذا كانت لهم رواتب من أموال الناس، أو بذل الناس لهم من

(٢) في (ب): «مكر السيئ».

(١) في (ب): «ضاهوه».

أموالهم؛ فإنه لأجل علمهم وعبادتهم ولأجل هُداهم وهدايتهم، وهؤلاء يأخذونها ويصدّون الناس عن سبيل الله، فيكون أخذهم لها على هذا الوجه سُحتاً وظلماً؛ فإنَّ الناس ما بذلوا لهم من أموالهم إلا ليدُلُّوهم على الطريق المستقيم، ومن أخذهم لأموال الناس بغير حقٍّ أن يُعطوهم ليفتوهم، أو يحكموا لهم بغير ما أنزل الله؛ فهؤلاء الأخبار والرهبان ليُخذَر منهم هاتان الحالتان: أخذهم لأموال الناس بغير حقٍّ، وصدّهم الناس عن سبيل الله.

﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾؛ أي: يمسكونهما، ﴿ولا يُنفقونها في سبيل الله﴾؛ أي: طرق الخير الموصلة إلى الله، وهذا هو الكنز المحرّم: أن يمسكها عن النفقة الواجبة، كأن يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات أو الأقارب أو النفقة في سبيل الله إذا وجبت؛ ﴿فبشّرهم بعذاب أليم﴾.

﴿٣٥﴾ ثم فسّره بقوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا﴾؛ أي: على أموالهم ﴿في نار جهنّم﴾: فيحْمَى كل دينار أو درهم على حدته، ﴿فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾: في يوم القيامة، كلما بردت؛ أعيدت، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ويقال لهم توبيخاً ولوماً: ﴿هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾: فما ظلمكم، ولكنكم ظلمتم أنفسكم، وعذبتموها بهذا الكنز.

وذكر الله في هاتين الآيتين انحراف الإنسان في ماله، وذلك بأحد أمرين: إما أن ينفقه في الباطل الذي لا يُجدي عليه نفعاً، بل لا يناله منه إلا الضرر المحض، وذلك كإخراج الأموال في المعاصي والشهوات التي لا تُعين على طاعة الله، وإخراجها للصد عن سبيل الله. وإما أن يمسك ماله عن إخراجِه في الواجبات، والنهي عن الشيء أمرٌ بضده.

وقوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْقَيْتُمْ فَلَا تَقْلِبُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ وَقَلِبُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُنْلِكُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿٣٦﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ أي: في قضاء الله وقدره ﴿اثنا عشر شهراً﴾: وهي هذه الشهور المعروفة ﴿في كتاب الله﴾؛ أي: في حكمه القدري، ﴿يوم خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: وأجرى ليلها ونهارها، وقَدَّر أوقاتها، فقسمها على هذه الشهور الاثني عشر شهراً. ﴿منها أربعة حُرُمٌ﴾: وهي رجب الفرد

وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وسميت حُرماً لزيادة حرمتها وتحريم القتال فيها. ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾: يُحْتَمَلُ أَنْ الضمير يعود إلى الاثني عشر شهراً، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَيَّنَّ أَنَّهُ جَعَلَهَا مَقَادِيرَ لِلْعِبَادِ، وَأَنَّ تُغَمَّرَ بِطَاعَتِهِ، وَيُشْكَّرَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَنَّتِهِ بِهَا، وَتَقْيِيزُهَا لِمَصَالِحِ الْعِبَادِ، فَلْتُخَذَرُوا مِنْ ظَلَمِ أَنْفُسِكُمْ فِيهَا. وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الضمير يعود إلى الأربعة الحرم، وَأَنَّ هَذَا نَهْيٌ لَهُمْ عَنِ الظُّلْمِ فِيهَا خُصُوصاً، مَعَ النَّهْيِ عَنِ الظُّلْمِ كُلِّ وَقْتٍ؛ لَزِيَادَةِ تَحْرِيمِهَا وَكَوْنِ الظُّلْمِ فِيهَا أَشَدَّ مِنْهُ فِي غَيْرِهَا، وَمِنْ ذَلِكَ النَّهْيِ عَنِ الْقِتَالِ فِيهَا عَلَى قَوْلٍ مِنْ قَالَ: إِنْ الْقِتَالُ فِي الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ (١) لَمْ يُنْسَخْ تَحْرِيمُهُ؛ عَمَلًا بِالنُّصُوصِ الْعَامَةِ فِي تَحْرِيمِ الْقِتَالِ فِيهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنْ تَحْرِيمُ الْقِتَالِ فِيهَا مَنْسُوخٌ أَخَذًا بِعُمُومِ نَحْوِ قَوْلِهِ: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾؛ أَي: قَاتِلُوا جَمِيعَ أَنْوَاعِ الْمُشْرِكِينَ وَالْكَافِرِينَ بَرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَا تَخْصُوا أَحَدًا مِنْهُمْ بِالْقِتَالِ دُونَ أَحَدٍ، بَلْ اجْعَلُوهُمْ كُلَّهُمْ لَكُمْ أَعْدَاءً كَمَا كَانُوا هُمْ مَعَكُمْ كَذَلِكَ قَدْ اتَّخَذُوا أَهْلَ الْإِيمَانِ أَعْدَاءً لَهُمْ لَا يَأْلُونَهُمْ مِنَ الشَّرِّ شَيْئاً، وَيُحْتَمَلُ أَنَّ ﴿كَافَّةً﴾ حَالٌ مِنَ الْوَاوِ، فَيَكُونُ مَعْنَى هَذَا: وَقَاتِلُوا جَمِيعَكُمْ الْمُشْرِكِينَ، فَيَكُونُ فِيهَا وَجُوبُ النَّفِيرِ عَلَى جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ، وَقَدْ نُسَخَتْ عَلَى هَذَا الْإِحْتِمَالِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً...﴾ الْآيَةُ. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾: بِعَوْنِهِ وَنَصْرِهِ وَتَأْيِيدِهِ، فَلْتَحَرِّصُوا عَلَى اسْتِعْمَالِ تَقْوَى اللَّهِ فِي سِرِّكُمْ وَعَلْنِكُمْ وَالْقِيَامِ بِطَاعَتِهِ، خُصُوصاً عِنْدَ قِتَالِ الْكُفَّارِ؛ فَإِنَّهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ رَبُّمَا تَرَكَ الْمُؤْمِنُ الْعَمَلَ بِالتَّقْوَى فِي مَعَامَلَةِ الْكُفَّارِ الْأَعْدَاءِ الْمُحَارِبِينَ.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُخَرِّمُونَهُ عَامًا يُؤَاوِطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ رَبَّنَا لَهُمْ سَوْءُ عَمَلٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٣٧﴾ النَّسِيءُ هُوَ مَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَسْتَعْمِلُونَهُ فِي الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ بَدْعِهِمُ الْبَاطِلَةِ أَنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا احتياجهم للقتال في بعض أوقات الأشهر الحرم؛ رَأَوْا بِأَرَائِهِمُ الْفَاسِدَةِ أَنَّ يَحَافِظُوا عَلَى عِدَّةِ الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ الْقِتَالُ فِيهَا، وَأَنَّ يُوَخِّرُوا بَعْضَ الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ أَوْ يَقْدِمُوهُ وَيَجْعَلُوا مَكَانَهُ مِنْ أَشْهُرِ الْحَلِّ مَا أَرَادُوا؛ فَإِذَا جَعَلُوهُ مَكَانَهُ؛ أَحَلُّوا الْقِتَالُ فِيهِ، وَجَعَلُوا الشَّهْرَ الْحَلَالَ حَرَامًا؛ فَهَذَا

(١) فِي (ب): «الْحَرَام».

كما أخبر الله عنهم أنه زيادةً في كفرهم وضلالهم؛ لما فيه من المحاذير:

منها: أنهم ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، وجعلوه بمنزلة شرع الله ودينه، والله ورسوله بريثان منه.

ومنها: أنهم قلبوا الدين، فجعلوا الحلال حراماً والحرام حلالاً.

ومنها: أنهم مؤهوا على الله بزعمهم وعلى عباده، ولَبَسُوا عليهم دينهم، واستعملوا الخداع والحيلة في دين الله.

ومنها: أن العوائد المخالفة للشرع مع الاستمرار عليها يزول قبورها عن النفوس، وربما ظُنَّ أنها عوائد حسنة، فحصل من الغلط والضلال ما حصل.

ولهذا قال: ﴿يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوْاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾؛ أي: ليوافقوها في العدد، ﴿فِيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ. زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ﴾؛ أي: زينت لهم الشياطين الأعمال السيئة، فأوها حسنة بسبب العقيدة المزيّنة في قلوبهم. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾؛ أي: الذين انصبغ الكفر والتكذيب في قلوبهم، فلو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا.

ثم قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿٣٨﴾ اعلم أن كثيراً من هذه السورة الكريمة نزلت في غزوة تبوك، إذ ندب النبي ﷺ المسلمين إلى غزو الروم، وكان الوقت حاراً والزاد قليلاً والمعيشة عسيرة^(١)، فحصل من بعض المسلمين من التثاقل ما أوجب أن يعاتبهم الله تعالى عليه ويستنهضهم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: ألا تعملون بمقتضى الإيمان ودواعي^(٢) اليقين من المبادرة لأمر الله والمصارعة إلى رضاه وجهاد أعدائه والنصرة لدينكم؛ فما ﴿لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾؛ أي:

(١) انظر «تفسير الطبري» (١٤/٢٨٤). (٢) في (ب): «وداعي».

تكاسلتم وملتم إلى الأرض والدُّعة والسكون فيها. ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾؛ أي: ما حالكم إلا حال مَنْ رضي بالدنيا وسعى لها ولم يبال بالآخرة؛ فكأنه ما آمن بها. ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: التي مالت بكم وقدَّمتموها على الآخرة ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾: أفليس قد جعل الله لكم عقولاً تزنون بها الأمور؟ وأيها أحقُّ بالإيثار؟ أفليست الدنيا من أولها إلى آخرها لا نسبة لها في الآخرة؟! فما مقدار عمر الإنسان القصير جداً من الدنيا حتى يجعله الغاية التي لا غاية وراءها فيجعل سعيه وكده وهمه وإرادته لا يتعدى الحياة الدنيا^(١) القصيرة المملوءة بالأكدار المشحونة بالأخطار؟! فبأي رأي رأيتم إيثارها على الدار الآخرة، الجامعة لكل نعيم، التي فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذُّ الأعين وأنتم فيها خالدون؟! فوالله ما أثر الدنيا على الآخرة من وَقَرَ الإيمان في قلبه، ولا مَنْ جزل رأيه، ولا مَنْ عُذَّ من أولي الألباب.

﴿٣٩﴾ ثم توعدهم على عدم النفير، فقال: ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يَعْذِبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾: في الدنيا والآخرة؛ فإن عدم النفير في حال الاستنفار من كبائر الذنوب الموجبة لأشدَّ العقاب؛ لما فيها من المضارَّ الشديدة؛ فَإِنَّ المتخلف قد عصى الله تعالى، وارتكب لنهيهِ، ولم يساعد على نصر دين الله، ولا ذبَّ عن كتاب الله وشرعه، ولا أعان إخوانه المسلمين على عدوهم الذي يريد أن يستأصلهم ويمحق دينهم، وربما اقتدى به غيره من ضعفاء الإيمان، بل ربما فتَّ في أعضاد من قاموا بجهاد أعداء الله؛ فحقيق بمن هذا حاله أن يتوعَّده الله بالوعيد الشديد، فقال: ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يَعْذِبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾: ثم لا يكونوا أمثالكم، ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً﴾؛ فإنه تعالى متكفل بنصر دينه وإعلاء كلمته؛ فسواء امتثلتم لأمر الله أو ألقيتموه وراءكم ظهرياً. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: لا يعجزه شيء أرادَه ولا يغالبه أحدٌ.

﴿إِلَّا تَضُرُّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا فَاَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

(١) في (ب): «حياته الدنيا».

﴿٤٠﴾ أي: إلا تنصروا رسوله محمداً ﷺ؛ فالله غني عنكم، لا تضرُّونه شيئاً؛ فقد نصره في أقل ما يكون وأذلّه ﴿إذ أخرجهم الذين كفروا﴾: من مكة، لما همُّوا بقتله وسعوا في ذلك وحرصوا أشدَّ الحرص فألجؤوه إلى أن يخرج. ﴿ثاني اثنين﴾؛ أي: هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه. ﴿إذ هما في الغار﴾؛ أي: لما هربا من مكة؛ لجأ إلى غار ثور^(١) في أسفل مكة، فمكثا فيه ليبرد عنهما الطلب؛ فهما في تلك الحالة الحرجة الشديدة المشقة حين انتشر الأعداء من كل جانب يطلبونهما ليقتلوهما، فأنزل الله عليهما من نصره ما لا يخطر على البال. ﴿إذ يقول﴾: النبي ﷺ ﴿لصاحبه﴾: أبي بكر لما حزن واشتدَّ قلقه: ﴿لا تحزن إنَّ الله معنا﴾: بعونه ونصره وتأيدته، ﴿فأنزل الله سكينته عليه﴾؛ أي: الثبات والطمأنينة والسكون المثبِّتة للنفوس، ولهذا لما قلق صاحبه؛ سكَّنه وقال: لا تحزن إنَّ الله معنا. ﴿وأيدته بجنود لم تروها﴾: وهي الملائكة الكرام، الذين جعلهم الله حرساً له.

﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى﴾؛ أي: الساقطة المخذولة؛ فإنَّ الذين كفروا [قد] كانوا على حَزْبٍ قارين في ظنهم على قتل الرسول ﷺ وأخذهم حنقين عليه، فعملوا غاية مجهودهم في ذلك، فخذلهم الله ولم يُتِّم لهم مقصودهم، بل ولا أدركوا شيئاً منه، ونصر الله رسوله بدفعه عنه، وهذا هو النصر المذكور في هذا الموضع؛ فإنَّ النصر على قسمين: نصر المسلمين إذا طمعوا في عدوهم بأن يُتِّمَّ الله لهم ما طلبوا وقصدوا ويستولوا على عدوهم ويظهروا عليهم. والثاني: نصر المستضعف الذي طمع فيه عدوُّه القادر، فنصرُ الله إياه أن يردَّ عنه عدوُّه، ويدافع عنه، ولعلَّ هذا النصر أنفع النصرين، ونصرُ الله رسوله إذ أخرجهم الذين كفروا ثاني اثنين من هذا النوع. وقوله: ﴿وكلمة الله هي العليا﴾؛ أي: كلماته القدريَّة وكلماته الدينيَّة هي العالية على كلمة غيره، التي من جملتها قوله: ﴿وكان حقاً علينا نصرُ المؤمنين﴾، ﴿إنَّا لننصرُ رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقومُ الأشهاد﴾، ﴿وإنَّ جندنا لهم الغالبون﴾؛ فدين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان بالحجج الواضحة والآيات الباهرة والسلطان الناصر. ﴿والله عزيز﴾: لا يغالبه مغالبٌ ولا يفوته هاربٌ، ﴿حكيم﴾: يضعُ الأشياء مواضعها، ويؤخِّرُ نصرَ حزبه إلى وقتٍ آخر اقتضته الحكمة الإلهية.

(١) في (ب): «غار حراء». والصواب ما في (أ).

وفي هذه الآية الكريمة فضيلة أبي بكر الصديق بخصيصة لم تكن لغيره من هذه الأمة، وهي الفوز بهذه المنقبة الجليلة والصحبة الجميلة، وقد أجمع المسلمون على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة، ولهذا عدّوا من أنكر صحبة أبي بكر للنبي ﷺ كافراً؛ لأنه منكر للقرآن الذي صرح بها. وفيها فضيلة السكينة، وأنها من تمام نعمة الله على العبد في أوقات الشدائد والمخاوف التي تطيش لها الأفئدة، وأنها تكون على حسب معرفة العبد بربه وثقته بوعده الصادق وبحسب إيمانه وشجاعته. وفيها أن الحزن قد يعرض لخواص عباد الله الصديقين، مع أن الأولى إذا نزل بالعبد أن يسعى في ذهابه عنه؛ فإنه مضعف للقلب موهن للعزيمة.

﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤١) لو كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾.

﴿٤١﴾ يقول تعالى لعباده المؤمنين مهيجاً لهم على النفير في سبيله، فقال: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾: في العسر واليسر، والمنشط والمكره، والحر والبرد، وفي جميع الأحوال، ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾؛ أي: ابذلوا جهدكم في ذلك، واستفرغوا وسعكم في المال والنفس. وفي هذا دليل على أنه كما يجب الجهاد في النفس يجب [الجهاد] في المال حيث اقتضت الحاجة ودعت لذلك. ثم قال: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: الجهاد في النفس والمال خير لكم من التقاعد عن ذلك؛ لأن فيه رضا الله تعالى والفوز بالدرجات العاليات عنده والنصر لدين الله والدخول في جملة جنده وحزبه.

﴿٤٢﴾ ﴿لو كان﴾: خروجهم لطلب عرض قريب أو منفعة دنيوية سهلة التناول. أو كان السفر ﴿سَفَرًا قَاصِدًا﴾؛ أي: قريباً سهلاً ﴿لَاتَّبَعُوكَ﴾: لعدم المشقة الكثيرة، ﴿ولكن بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ﴾؛ أي: طالت عليهم المسافة، وصعب عليهم السفر؛ فلذلك ثاقلوا عنك، وليس هذا من أمارات العبودية، بل العبد حقيقة المتعبد لربه في كل حال، القائم بالعبادة السهلة والشاقة؛ فهذا العبد لله على كل حال. ﴿وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم﴾؛ أي: سيحلفون أن تخلفهم عن الخروج أن لهم عذراً، وأنهم لا يستطيعون ذلك، ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾: بالقعود والكذب والإخبار بغير الواقع. ﴿والله يعلم إنهم لكاذبون﴾.

وهذا العتاب إنما هو للمنافقين، الذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، وأبدوا من الأعدار الكاذبة ما أبدوا، فعفا النبي ﷺ عنهم بمجرد اعتذارهم، من غير أن يمتحنهم فيتبين له الصادق من الكاذب، ولهذا عاتبه الله على هذه المسارعة إلى عذرهم، فقال:

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ٤٣﴾
 لَا يَسْتَفْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ
 بِالْمُتَّقِينَ ٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَفْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي
 رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ٤٥﴾.

﴿٤٣﴾ يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿عفا الله عنك﴾؛ أي: سامحك وغفر لك ما أجريت. ﴿لم أذنّت لهم﴾: في التخلف، ﴿حتى يتبين﴾^(١) لك الذين صدّقوا وتعلم الكاذبين: بأن تمتحنهم ليتبين لك الصادق من الكاذب، فتعذر من يستحق العذر ممن لا يستحق ذلك.

﴿٤٤﴾ ثم أخبر أن المؤمنين بالله واليوم الآخر لا يستأذنون في ترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم؛ لأن ما معهم من الرغبة في الخير والإيمان يحملهم على الجهاد من غير أن يحثهم عليه حاثٌ فضلاً عن كونهم يستأذنون في تركه من غير عذر. ﴿والله عليهم بالمتقين﴾: فيجازيهم على ما قاموا به من تقواه، ومن علمه بالمتقين أنه أخبر أنّ من علاماتهم أنهم لا يستأذنون في ترك الجهاد.

﴿٤٥﴾ ﴿إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم﴾؛ أي: ليس لهم إيمان تام ولا يقين صادق؛ فلذلك قلت رغبتهم في الخير، وجبنوا عن القتال، واحتاجوا أن يستأذنوا في ترك القتال. ﴿فهم في ريبهم يترددون﴾؛ أي: لا يزالون في الشك والحيرة.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ
 اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا تُدْرِكُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ فَعَسَىٰ أَفْئِنْتُمْ
 الْيَوْمَ أَنْ يَرْجِيَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ٤٧﴾ لَقَدْ اسْتَعَاذَ الْفَرِيقَةُ مِنْ قَبْلِ وَقَالُوا

لَكَ الْأُمُورَ حَقٌّ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذِبُونَ ﴿٤٦﴾.

﴿٤٦﴾ يقول تعالى مبيناً أن المتخلفين من المنافقين قد ظهر منهم من القرائن ما يبين أنهم ما قصدوا الخروج^(١) بالكُلية، وأن أعذارهم التي اعتذروها باطلة؛ فإن العذر هو المانع الذي يمنع إذا بذل العبدُ وسعَه وسعى في أسباب الخروج ثم منعه مانع شرعي؛ فهذا الذي يُعذر، ﴿و﴾ أما هؤلاء المنافقون، فلو ﴿أرادوا الخروج لأعدوا له عُدَّة﴾؛ أي: لاستعدُّوا وعملوا ما يمكنهم من الأسباب، ولكن لما لم يُعدُّوا له عُدَّة؛ علم أنهم ما أرادوا الخروج، ﴿ولكن كَرِهَ اللَّهُ انبعاثهم﴾: معكم في الخروج للغزو، ﴿فنبَّطهم﴾: قدراً وقضاء وإن كان قد أمرهم وحَثَّهم على الخروج وجعلهم مقتدرين عليه، ولكن بحكمته ما أراد إعانتهم، بل خَذَلهم وثَبَّطهم، ﴿وقيل اقعدوا مع القاعدین﴾: من النساء والمعدورين.

﴿٤٧﴾ ثم ذكر الحكمة في ذلك، فقال: ﴿لو خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً﴾؛ أي: نقصاً، ﴿وَلَا وُضِعُوا خِلَالَكُمْ﴾؛ أي: وَلَسَعُوا في الفتنة والشر بينكم وفرَّقوا جماعتكم المجتمعين. ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾؛ أي: هم حريصون على فتنتكم وإلقاء العداوة بينكم، ﴿وفيكم﴾: أناسٌ ضعفاء العقول، ﴿سَمَاعُونَ لَهُمْ﴾؛ أي: مستجبيون لدعوتهم، يغتزون بهم؛ فإذا كانوا حريصين على خذلانكم وإلقاء الشر بينكم وتثبيطكم عن أعدائكم وفيكم مَنْ يَقْبَلُ منهم ويستنصِحهم؛ فما ظنُّك بالشرِّ الحاصل من خروجهم مع المؤمنين والنقص الكثير منهم؟! فلله أتمُّ الحكمة حيث ثَبَّطهم، ومنعهم من الخروج مع عباده المؤمنين رحمةً بهم، ولطفاً من أن يُدَاخِلَهُمْ ما لا ينفعهم بل يضرهم. ﴿والله عليمٌ بالظالمين﴾: فيعلم عباده كيف يحذرونهم، ويبين لهم من المفساد الناشئة من مخالطتهم.

﴿٤٨﴾ ثم ذكر أنه قد سبق لهم سوابق في الشرِّ، فقال: ﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: حين هاجرتم إلى المدينة، بذلوا الجهد، ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾؛ أي: أداروا الأفكار، وأعملوا الحيل في إبطال دعوتكم وخذلان دينكم، ولم يُقْصِرُوا في ذلك. ﴿حتى جاء الحقُّ وظهر أمرُ الله وهم كارهون﴾: فبَطَلَ كيدهم، واضمحَلَّ باطلهم؛ فحقيقٌ بمثل هؤلاء أن يحذّر الله عباده المؤمنين منهم، وأن لا يبالي المؤمنون بتخلفهم عنهم.

(١) في (ب): «للجهاد».

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكْفُلُ أَثَدَّنَ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٤٩).

﴿٤٩﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين من يستأذن في التخلّف ويعتذر بعذر آخر عجيب، فيقول: «أثدّن لي»: في التخلّف، «ولا تفتنني»: في الخروج؛ فإني إذا خرجت فرأيت نساء بني الأصفر لا أصبر عنهن؛ كما قال ذلك الجد بن قيس، ومقصوده قبّحه الله الرياء والنفاق؛ بأن مقصودي مقصود حسن؛ فإنّ في خروجي فتنة، وتعرضاً للشرّ، وفي عدم خروجي عافية وكفا عن الشرّ. قال الله تعالى مبيناً كذب هذا القول: «ألا في الفتنة سَقَطُوا»: فإنه على تقدير صدق هذا القائل في قصده؛ في التخلّف مفسدة كبرى وفتنة عظيمة محققة، وهي معصية الله ومعصية رسوله والتجرّي على الإثم الكبير والوزر العظيم، وأما الخروج؛ فمفسدة قليلة بالنسبة للتخلّف، وهي متوهمة، مع أنّ هذا القائل قصده التخلّف لا غير، ولهذا توعدّهم الله بقوله: «وإنّ جهنّم لمحيطة بالكافرين»: ليس لهم عنها مفرّ ولا مناص ولا فكاك ولا خلاص.

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَسْأَلُونَكَ وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ (٥٠) ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٥١).

﴿٥٠﴾ يقول تعالى مبيناً أن المنافقين هم الأعداء حقاً المبغضون للدين صرفاً: «إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ»: كنصر وإدالة على العدو «سُؤْهُمْ»: أي: تحزنهم وتغمهم، «وإنّ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ»: كإدالة العدو عليك «يقولوا»: متبجحين بسلامتهم من الحضور معك: «قد أخذنا أمراً من قبل»: أي: قد حذرنا وعملنا بما يُنجينا من الوقوع في مثل هذه المصيبة، «ويتولّوا وهم فرحون»: بمصيبتك وبعدم مشاركتهم إياك فيها.

﴿٥١﴾ قال تعالى رادّاً عليهم في ذلك: «قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا»: أي: قدره وأجراه في اللوح المحفوظ. «هو مولانا»: أي: متولي أمورنا الدينية والدنيوية؛ فعلينا الرضا بأقداره، وليس في أيدينا من الأمر شيء. «وعلى الله»: وحده «فليتوكّل المؤمنون»: أي: يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم ودفع المضارّ عنهم ويشقوا به في تحصيل مطلوبهم؛ فلا خاب من توكلّ عليه، وأما من توكلّ على غيره؛ فإنه مخذول غير مدرك لما أمل.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ .

﴿٥٢﴾ أي: قل للمنافقين الذين يتربصون بكم الدوائر: أي شيء تربصون بنا؟ فإنكم لا تربصون بنا إلا أمراً فيه غاية نفعنا، وهو إحدى الحسنيين: إما الظفر بالأعداء والنصر عليهم ونيل الثواب الأخروي والديني، وإما الشهادة التي هي من أعلى درجات الخلق وأرفع المنازل عند الله. وأما تربصنا بكم يا معشر المنافقين؛ فنحن ﴿تتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده﴾ لا سبب لنا فيه ﴿أو بأيدينا﴾؛ بأن يسلطنا عليكم فنقتلكم، ﴿فتربصوا﴾: بنا الخير، ﴿إنا معكم متربصون﴾: بكم الشر.

﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ .

﴿٥٣﴾ يقول تعالى مبيناً بطلان نفقات المنافقين وذاكر السبب في ذلك، ﴿قل﴾ لهم: ﴿أنفقوا طوعاً﴾: من أنفسكم، ﴿أو كرهاً﴾: على ذلك بغير اختياركم. ﴿لن يُتقبل منكم﴾: شيء من أعمالكم، لأنكم ﴿كنتم قوماً فاسقين﴾: خارجين عن طاعة الله.

﴿٥٤﴾ ثم بين صفة فسقهم وأعمالهم [فقال]: ﴿وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله﴾: والأعمال كلها شرط قبولها الإيمان؛ فهؤلاء لا إيمان لهم ولا عمل صالح، حتى إن الصلاة التي هي أفضل أعمال البدن إذا قاموا إليها قاموا كسالى؛ قال: ﴿ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى﴾؛ أي: متماطلون لا يكادون يفعلونها من ثقلها عليهم. ﴿ولا ينفقون إلا وهم كارهون﴾: من غير انشراح صدر وثبات نفس؛ ففي هذا غاية الذم لمن فعل مثل فعلهم، وأنه ينبغي للعبد أن لا يأتي الصلاة إلا وهو نشيط البدن والقلب إليها، ولا ينفق إلا وهو منشراح الصدر ثابت القلب يرجو ذخرها وثوابها من الله وحده، ولا يتشبهه بالمنافقين.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ

أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلَجًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مَدْخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ .

﴿٥٥﴾ يقول تعالى: فلا تعجبك أموال هؤلاء المنافقين ولا أولادهم؛ فإنه لا غبطة فيها، وأول بركاتنا عليهم أن قدّموها على مرضي ربهم وعصوا الله لأجلها. ﴿إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا﴾: والمراد بالعذاب هنا ما ينالهم من المشقة في تحصيلها والسعي الشديد في ذلك وهم القلب فيها وتعب البدن؛ فلو قابلت لذاتهم فيها بمشقاتهم؛ لم يكن لها نسبة إليها؛ فهي لما ألتهتهم عن الله وذكره؛ صارت وبالا عليهم حتى في الدنيا، ومن وباله العظيم الخطر أن قلوبهم تتعلّق بها وإراداتهم لا تتعدها، فتكون منتهى مطلوبهم وغاية مرغوبهم، ولا يبقى في قلوبهم للآخرة نصيب، فيوجب ذلك أن ينتقلوا من الدنيا، ﴿وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾؛ فأى عقوبة أعظم من هذه العقوبة الموجبة للشقاء الدائم والحسرة الملازمة؟!

﴿٥٦﴾ ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم: قصدهم في حلفهم هذا أنهم ﴿قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾؛ أي: يخافون الدوائر، وليس في قلوبهم شجاعة تحملهم على أن يبينوا أحوالهم، فيخافون إن أظهروا حالهم منكم ويخافون أن تتبرؤوا منهم فيخطفهم الأعداء من كل جانب، وأما حال قومي القلب ثابت الجنان؛ فإنه يحمله ذلك على بيان حاله حسنة كانت أو سيئة، ولكن المنافقين خُلِعَ عليهم خُلعة الجبن، وحُلُوا بحليّة الكذب.

﴿٥٧﴾ ثم ذكر شدة جبنهم، فقال: ﴿لو يجدون ملجأ﴾: يلجؤون إليه عندما تنزل بهم الشدائد، ﴿أو مغارات﴾: يدخلونها فيستقرون فيها، ﴿أو مدخلا﴾: أي: محلاً يدخلونه فيتحصنون فيه، ﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾؛ أي: يسرعون ويهرعون؛ فليس لهم ملكة يقتدرون بها على الثبات.

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ .

﴿٥٨﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين من يعيبك في قسمة الصدقات وينتقد عليك فيها، وليس انتقادهم فيها وعيهم لقصد صحيح ولا لرأي رجيح، وإنما مقصودهم

أَنْ يُعْطُوا مِنْهَا. ﴿فَإِنْ أَعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾: وهذه حالة لا تنبغي للعبد أن يكون راضاه وغضبه تابعاً لهوى نفسه الدنيوي وغرضه الفاسد، بل الذي ينبغي أن يكون [هواه تبعاً] لمرضاة ربه؛ كما قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»^(١).

﴿٥٩﴾ وقال هنا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾؛ أي: أعطاهم من قليل وكثير، ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾؛ أي: كافينا الله فنرضى بما قَسَمَ لنا، وليؤملوا فضله وإحسانه إليهم بأن يقولوا: ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾؛ أي: متضرعون في جلب منافعنا ودفع مضارنا؛ [لسلموا من النفاق، ولهدوا إلى الإيمان والأحوال العالية].

ثم بيّن تعالى كيفية قسمة الصدقات الواجبة فقال:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٢).

﴿٦٠﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾؛ أي: الزكوات الواجبة، بدليل أن الصَّدقة المستحبة لكل أحد لا يخص بها أحد دون أحد؛ [أي]: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾: لهؤلاء المذكورين دون مَنْ عداهم؛ لأنه حصرها فيهم، وهم ثمانية أصناف:

الأول والثاني: الفقراء والمساكين، وهم في هذا الموضع صنفان متفاوتان؛ فالفقير أشد حاجة من المسكين؛ لأن الله بدأ بهم، ولا يُبدأ إلا بالأهم فالأهم؛ ففسر الفقير بأنه الذي لا يجد شيئاً أو يجد بعض كفايته دون نصفها، والمسكين الذي يجد نصفها فأكثر، ولا يجد تمام كفايته؛ لأنه لو وجدها؛ لكان غنياً، فيعطون من الزكاة ما يزول به فقرهم ومسكتهم.

والثالث: العاملون على الزكاة، وهم كل من له عملٌ وشغل فيها من حافظ لها و^(٢)جاب لها من أهلها أو راع أو حامل لها أو كاتب أو نحو ذلك، فيعطون لأجل عمالتهم، وهي أجرة لأعمالهم فيها.

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٢/١ و ١٣)، وضعفه الألباني. وانظر «جامع العلوم والحكم» لابن رجب، الحديث الحادي والأربعون.

(٢) في (ب): «أو».

والرابع: المؤلفة قلوبهم، والمؤلف قلبه هو السيد المطاع في قومه ممن يرجى إسلامه أو يخشى شره أو يرجى بعطيته قوة إيمانه أو إسلام نظيره أو جبايتها ممن لا يعطيها، فيعطى ما يحصل به التأليف والمصلحة.

الخامس: الرقاب، وهم المكاتبون الذين قد اشتروا أنفسهم من ساداتهم؛ فهم يسعون في تحصيل ما يفك رقابهم، فيعانون على ذلك من الزكاة. وفك الرقبة المسلمة التي في حبس الكفار داخل في هذا، بل أولى. ويدخل في هذا أنه يجوز أن يعتق [منها] الرقاب استقلالاً؛ لدخوله في قوله: ﴿وفي الرقاب﴾.

السادس: الغارمون، وهم قسمان: أحدهما: الغارمون لإصلاح ذات البين، وهو أن يكون بين طائفتين من الناس شر وفتنة، فيتوسط الرجل للإصلاح بينهم بمال يبذله لأحدهم أو لهم كلهم، فجعل له نصيب من الزكاة؛ ليكون أنشط له وأقوى لعزمه، فيعطى ولو كان غنياً. والثاني: من غرم لنفسه ثم أعسر؛ فإنه يعطى ما يوفى به دينه.

والسابع: الغازي في سبيل الله، وهم الغزاة المتطوعة الذين لا ديوان لهم، فيعطون من الزكاة ما يعينهم على غزوهم من ثمن سلاح أو دابة أو نفقة له ولعيله؛ ليتوكل على الجهاد ويطمئن قلبه، وقال كثير من الفقهاء: إن تفرغ القادر على الكسب لطلب العلم؛ أعطي من الزكاة؛ لأن العلم داخل في الجهاد في سبيل الله. وقالوا أيضاً: يجوز أن يعطى منها الفقير لحج فرضه. وفيه نظر.

والثامن: ابن السبيل، وهو الغريب المنقطع به في غير بلده، فيعطى من الزكاة ما يوصله إلى بلده. فهؤلاء الأصناف الثمانية الذين تدفع إليهم الزكاة وحدهم. ﴿فريضة من الله﴾: فرضها وقدرها تابعة لعلمه وحكمه، ﴿والله عليم حكيم﴾.

واعلم أن هذه الأصناف الثمانية ترجع إلى أمرين: أحدهما: من يعطى لحاجته ونفعه؛ كالفقير والمسكين ونحوهما. والثاني: من يعطى للحاجة إليه وانتفاع الإسلام به.

فأوجب الله هذه الحصّة في أموال الأغنياء لسدّ الحاجات الخاصّة والعامة للإسلام والمسلمين، فلو أعطى الأغنياء زكاة أموالهم على الوجه الشرعي؛ لم يبق فقير من المسلمين، ولحصل من الأموال ما يسدّ الثغور، ويجاهد به الكفار، وتحصل به جميع المصالح الدينية.

﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ
لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ
لَكُمْ لِيُضِلَّوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ
يُكَادِرُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ قَاتِلَ لِمَنْ نَارُ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿٦١﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين، ﴿الذين يؤذون النبي﴾: بالأقوال الرديئة
والغيب له ولدينه، ﴿ويقولون هو أذن﴾؛ أي: لا يبالون بما يقولون من الأذية للنبي،
ويقولون: إذا بلغه عنا بعض ذلك؛ جئنا نعتذر إليه، فيقبل منا؛ لأنه أذن؛ أي: يقبل
كل ما يقال له، لا يميز بين صادق وكاذب، وقصدهم - قبحهم الله - فيما بينهم أنهم
غير مكترئين بذلك ولا مهتمين به؛ لأنه إذا لم يبلغه؛ فهذا مطلوبهم، وإن بلغه؛
اكتفوا بمجرد الاعتذار الباطل، فأسأوا كل الإساءة من أوجه كثيرة:

أعظمها: أذية نبيهم الذي جاء لهدايتهم وإخراجهم من الشقاء والهلاك إلى الهدى
والسعادة.

ومنها: عدم اهتمامهم أيضاً بذلك، وهو قدر زائد على مجرد الأذية.

ومنها: قدحهم في عقل النبي ﷺ وعدم إدراكه وتفريقه بين الصادق والكاذب،
وهو أكمل الخلق عقلاً وأتمهم إدراكاً وأتقنهم رأياً وبصيرة، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ
أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ﴾؛ أي: يقبل من قال له خيراً وصدقاً، وأما إعراضه وعدم تعنيفه
لكثير من المنافقين المعتذرين بالأعذار الكذب؛ فليسعة خلقه وعدم اهتمامه
بشأنهم^(١) وامتثاله لأمر الله في قوله: ﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم
ليعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس﴾، وأما حقيقة ما في قلبه ورأيه؛ فقال
عنه: ﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾: الصادقين المصدقين، ويعلم الصادق من
الكاذب، وإن كان كثيراً يعرض عن الذين يعرف كذبهم وعدم صدقهم، ﴿ورحمة
للذين آمنوا منكم﴾: فإنهم به يهتدون وبأخلاقه يقتدون، وأما غير المؤمنين؛ فإنهم
لم يقبلوا هذه الرحمة، بل ردوها فحسروا دنياهم وآخرتهم. ﴿والذين يؤذون
رسول الله﴾: بالقول والفعل ﴿لهم عذاب أليم﴾: في الدنيا والآخرة، ومن العذاب
الآليم أنه يتحتم قتل مؤذيه وشاتميه.

(١) في (ب): «بشأنه».

﴿٦٢﴾ ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ﴾: فيتبرؤوا مما صدر منهم من الأذى وغيرها، فغايبتهم أن ترضوا عليهم. ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾: لأن المؤمن لا يقدم شيئاً على رضا ربه [ورضا رسوله]، فدل هذا على انتفاء إيمانهم؛ حيث قدموا رضا غير الله ورسوله.

﴿٦٣﴾ وهذا محاذة لله ومشاققة له، وقد توعد من حادّه بقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنِ يَحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: بأن^(١) يكون في حدّ وشقّ مبعّد عن الله ورسوله؛ بأن تهاون بأوامر الله وتجراً على محارمه، ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا﴾ و ﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾: الذي لا خزي أشنع ولا أفظع منه، حيث فاتهم النعيم المقيم، وحصلوا على عذاب الجحيم؛ عياداً بالله من حالهم^(٢).

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مِمَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَقُفَ عَنْ طَآئِفَةٍ مِنْكُمْ نَعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿٦٤﴾ كانت هذه السورة الكريمة تسمى الفاضحة؛ لأنها بيّنت أسرار المنافقين وهتكت أستارهم؛ فما زال الله يقول: ومنهم، ومنهم... ويذكر أوصافهم؛ إلا أنه لم يعين أشخاصهم لفائدتين:

إحدهما: أن الله سيّير يحبّ الستر على عباده.

والثانية: أن الذمّ على من اتّصف بذلك الوصف من المنافقين الذين توجه إليهم الخطاب وغيرهم إلى يوم القيامة، فكان ذكر الوصف أعم وأنسب، حتى خافوا غاية الخوف؛ قال الله تعالى: ﴿لَنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا. مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا تُقِفُوا أَخَذُوا وَقَتَّلُوا تَقْتِيلًا﴾.

وقال هنا: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: تخبرهم وتفضحهم وتبين أسرارهم، حتى تكون علانية لعباده، ويكونوا عبرة للمعتبرين. ﴿قُلِ اسْتَهِزُّوا﴾؛ أي: استمروا على ما أنتم عليه من الاستهزاء.

(٢) في (ب): «أحوالهم».

(١) في (ب): «أن».

والسخرية. ﴿إِنَّ اللَّهَ مَخْرُجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾: وقد وفى تعالى بوعده، فأنزل هذه السورة التي يبتتهم، وفضحتهم، وهتكت أستارهم.

﴿٦٥ - ٦٦﴾ ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ﴾: عما قالوه من الطعن في المسلمين وفي دينهم، يقول طائفة منهم في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء - يعنون: النبي ﷺ وأصحابه - أرغب بطوناً وأكذب ألسناً وأجبن عند اللقاء... ونحو ذلك^(١)، لما بلغهم أن النبي ﷺ قد علم بكلامهم؛ جاؤوا يعتذرون إليه ويقولون: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾؛ أي: نتكلم بكلام لا قصد لنا به ولا قصدنا الطعن والعيب، قال الله تعالى مبيناً عدم عذرهم وكذبهم في ذلك: ﴿قُلْ لَهُمْ﴾: ﴿أَبَاللَّهُ وَآيَاتِهِ وَرَسُولُهُ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ. لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾؛ فَإِنَّ الاستهزاء بالله ورسوله كفرٌ مخرجٌ عن الدين؛ لأنَّ أصل الدين مبنيٌّ على تعظيم الله وتعظيم دينه ورسله، والاستهزاء بشيء من ذلك منافيٌ لهذا الأصل ومناقضٌ له أشدَّ المناقضة، ولهذا؛ لما جاؤوا إلى الرسول يعتذرون بهذه المقالة، والرسول لا يزيدهم على قوله: ﴿أَبَاللَّهُ وَآيَاتِهِ وَرَسُولُهُ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ. لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾. وقوله: ﴿إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾: لتوبتهم واستغفارهم وندمهم، ﴿نَعَذِّبُ طَائِفَةً﴾: منكم بسبب أنهم ﴿كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾: مقيمين على كفرهم ونفاقهم.

وفي هذه الآيات دليلٌ على أن من أسرَّ سريرة، خصوصاً السريرة التي يُمكر فيها بدينه ويستهزئ به وبآياته ورسوله؛ فإنَّ^(٢) الله تعالى يظهرها ويفضح صاحبها ويعاقبه أشدَّ العقوبة. وأنَّ من استهزأ بشيء من كتاب الله أو سنة رسوله الثابتة عنه أو سخرَ بذلك أو تنقَّصه أو استهزأ بالرسول أو تنقَّصه؛ فإنه كافرٌ بالله العظيم. وأنَّ التوبة مقبولةٌ من^(٣) كلِّ ذنبٍ وإن كان عظيماً.

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٧٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿٦٧﴾ يقول تعالى: ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾: لأنهم اشتركوا

(١) أخرجه ابن جرير (٣٣٤/١٤)، وله شاهد بسند حسن عند ابن أبي حاتم؛ كما في «الصحیح المسند لأسباب النزول» ص (٧٨).

(٢) في (ب): «في».

(٣) في (ب): «إن».

في النفاق، فاشتركوا في تولي بعضهم بعضاً، وفي هذا قطع للمؤمنين من ولايتهم. ثم ذكر وصف المنافقين العام الذي لا يخرج منه صغيرٌ منهم ولا كبيرٌ، فقال: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾: وهو الكفر والفسوق والعصيان، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾: وهو الإيمان والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة والآداب الحسنة، ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾: عن الصدقة وطرق الإحسان؛ فوضفهم البخل. ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾: فلا يذكرونه إلا قليلاً، ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾: من رحمته؛ فلا يوفقهم لخير ولا يدخلهم الجنة، بل يتركهم في الدرك الأسفل من النار خالدين فيها مخلدين. ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾: حصر الفسق فيهم؛ لأن فسقهم أعظم من فسق غيرهم؛ بدليل أن عذابهم أشد من عذاب غيرهم، وأن المؤمنين قد ابتلوا بهم إذ كانوا بين أظهرهم، والاحتراز منهم شديد.

﴿٦٨﴾ ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارِ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ لِفِتْنِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾: جمع المنافقين والكفار في نار جهنم واللعة والخلود في ذلك لاجتماعهم في الدنيا على الكفر والمعادة لله ورسوله والكفر بآياته.

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثَرُوا نُفُورًا وَأُولَئِكَ فَاسْتَغْنَوْا بِخُلُوفِهِمْ فَاسْتَنْتَعَمَ بِظُلُفِكُمْ كَمَا اسْتَنْتَعَمَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخُلُوفِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿٦٩ - ٧٠﴾ يقول تعالى محذراً للمنافقين أن يُصيبهم ما أصاب مَنْ قبلهم من الأمم المكذبة؛ ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾؛ أي: قري قوم لوط؛ فكلهم ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي: بالحق الواضح الجلي المبين لحقائق الأشياء، فكذبوا بها، فجرى عليهم ما قص الله علينا؛ فأنتم أعمالكم شبيهة بأعمالهم. ﴿استمتعتم بخلافكم﴾؛ أي: بنصيبكم من الدنيا، فتناولتموه على وجه اللذة والشهوة، معرضين عن المراد منه، واستعنتم به على معاصي الله، ولم تتعد همتكم وإرادتكم ما خولتم من النعم كما فعل الذين من قبلكم. ﴿وخضتم كالذي خاضوا﴾؛ أي: وخضتم بالباطل والزور وجادلتم

بالباطل لِيَتَذَكَّرُوا بِهِ الْحَقُّ؛ فهذه أعمالهم وعلومهم: استمتع بالخلاق، وخوض بالباطل؛ فاستحقوا من العقوبة والإهلاك ما استحق من قبلهم يَمُنُّ فعلوا كفعالهم، وأما المؤمنون فهم وإن استمتعوا بنصيبهم وما خولوا من الدنيا؛ فإنه على وجه الاستعانة به على طاعة الله، وأما علومهم؛ فهي علوم الرسل، وهي: الوصول إلى اليقين في جميع المطالب العالية، والمجادلة بالحق لإدحاض الباطل. قوله: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾: إذا وقع بهم من عقوبته ما أوقع، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾: حيث تجرؤوا على معاصيه، وعصوا رسلهم، واتبعوا أمر كل جبار عنيد.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿٧١﴾ لما ذكر أنَّ المنافقين بعضهم من بعض^(١)؛ ذكر أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، ووصفهم بضد ما وصف به المنافقين، فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾؛ أي: ذكورهم وإناثهم، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾: في المحبة والموالات والانتماء والنصرة. ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾: وهو اسم جامع لكل ما عُرِف حسنه من العقائد الحسنة والأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة، وأول من يدخل في أمرهم أنفسهم. ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: وهو كل ما خالف المعروف، وناقضه من العقائد الباطلة والأعمال الخبيثة والأخلاق الرذيلة، ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ أي: لا يزالون ملازمين لطاعة الله ورسوله على الدوام. ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: يدخلهم في رحمته ويشملهم بإحسانه. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: قوي قاهر، ومع قوته؛ فهو حكيم يضع كل شيء موضعه اللائق به الذي يُحمد على ما خلقه وأمر به.

﴿٧٢﴾ ثم ذكر ما أعد الله لهم من الثواب، فقال: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: جامعة لكل نعيم وفرح، خالية من كل

(١) في (ب): «بعضهم أولياء بعض».

أَذَى وَتَرَح، تجري من تحت قصورها ودورها وأشجارها الأنهار الغزيرة المروية للبياتين الأنيقة التي لا يعلم ما فيها من الخيرات والبركات إلا الله تعالى. ﴿خالدين فيها﴾: لا يبعثون عنها حَوْلًا. ﴿ومساكن طيبة في جنات عدن﴾: قد زخرت وحسنت وأعدت لعباد الله المتقين، قد طاب مرآها وطاب منزلها ومقيلها، وجمعت من آلات المساكن العالية ما لا يتمنى فوقه المتمثنون، حتى إن الله تعالى قد أعد لهم غرفاً في غاية الصفاء والحسن، يرى ظاهرها من باطنها، وباطنُها من ظاهرها؛ فهذه المساكن الأنيقة التي حقيق بأن تسكن إليها النفوس وتنزع إليها القلوب وتشتاق لها الأرواح؛ لأنها ﴿في جنات عدن﴾؛ أي: إقامة، لا يطعنون عنها ولا يتحولون منها. ﴿ورضوان من الله﴾: يحلُّه على أهل الجنة ﴿أكبر﴾: مما هم فيه من النعيم؛ فإن نعيمهم لم يطب إلا بروية ربهم ورضوانه عليهم، ولأنه الغاية التي أمها العابدون، والنهاية التي سعى نحوها المحبون؛ فرضا رب الأرض والسموات أكبر من نعيم الجنات. ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾: حيث حصلوا على كل مطلوب، وانتفى عنهم كل محذور، وحسنت وطابت منهم جميع الأمور، فنسأل الله أن يجعلنا معهم بجوده.

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدَ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرَ﴾
 ﴿٧٣﴾ يَخْلُفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَوْمًا لَمْ يَتَّكِلُوا وَمَا نَعَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾.

﴿٧٣﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين﴾؛ أي: بالغ في جهادهم، والغلظة عليهم حيث اقتضت الحال الغلظة عليهم، وهذا الجهاد يدخل فيه الجهاد باليد والجهاد بالحجة واللسان؛ فمن بارز منهم بالمحاربة؛ فيجاهد باليد واللسان والسيف والسنان^(١)، ومن كان مدعياً للإسلام بدمّة أو عهد؛ فإنه يجاهد بالحجة والبرهان، ويبين له محاسن الإسلام ومساوئ الشرك والكفران^(٢)؛ فهذا ما لهم في الدنيا، ﴿و﴾ أما في الآخرة؛ فمأواهم ﴿جهنم﴾؛ أي: مقرهم الذي لا يخرجون منها، ﴿وبئس المصير﴾.

(٢) في (ب): «والكفر».

(١) في (ب): «والسيف والبيان».

﴿٧٤﴾ ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾؛ أي: إذا قالوا قولاً كقول من قال منهم: ﴿لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾، والكلام الذي يتكلم به الواحد بعد الواحد في الاستهزاء بالدين وبالرسول؛ فإذا بلغهم أن النبي ﷺ قد بلغه شيء من ذلك؛ جاؤوا إليه يحلفون بالله ما قالوا، قال تعالى مكذباً لهم: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾: فإسلامهم السابق، وإن كان ظاهره أنه أخرجهم من دائرة الكفر؛ فكلأهم الأخير ينقض إسلامهم ويدخلهم بالكفر. ﴿وَهُمْ أُولُوا نِيَالُوا﴾: وذلك حين هموا بالفتك برسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقض الله عليه نبأهم، فأمر من يصدهم عن قصدهم. ﴿وَالْحَالُ أَنَّهُمْ﴾ ما نقموا وعابوا من رسول الله ﷺ ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: بعد أن كانوا فقراء معوزين، وهذا من أعجب الأشياء: أن يستهينوا بمن كان سبباً لإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومغنياً لهم بعد الفقر! وهل حقُّه عليهم إلا أن يعظموه ويؤمنوا به ويُجِلُّوه؟! [فاجتمع الداعي الديني وداعي المروءة الإنسانية]. ثم عرض عليهم التوبة، فقال: ﴿فَإِنْ يَتُوبَا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ﴾؛ لأن التوبة أصلٌ لسعادة الدنيا والآخرة، ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا﴾: عن التوبة والإنابة ﴿يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾: في الدنيا بما ينالهم من الهم والغم والحزن على نصرة الله لدينه وإعزاز نبيه وعدم حصولهم على مطلوبهم، وفي الآخرة في عذاب السعير. ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ﴾: يتولَّى أمورهم ويحصل لهم المطلوب، ﴿وَلَا نَصِيرٌ﴾: يدفع عنهم المكروه، وإذا انقطعوا من ولاية الله تعالى؛ فثم أصناف الشر والخسران والشقاء والحرمان.

﴿وَمَنْهُمْ مَنَ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥) ﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٧٦) ﴿فَاعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَقُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (٧٧) ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغَيْبُ﴾ (٧٨).

﴿٧٥﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه، ﴿لئن آتانا من فضله﴾: من الدنيا فبسطها لنا ووسّعها، ﴿لنصدّقنّ ولنكوننّ من الصالحين﴾: فنصل الرحم ونقري الضيف، ونعين على نوائب الحق، ونفعل الأفعال الحسنة الصالحة.

﴿٧٦﴾ ﴿فلما آتاهم من فضله﴾: لم يفوا بما قالوا، بل ﴿بخلوا﴾ و ﴿تولّوا﴾:

عن الطاعة والانقياد، ﴿وهم معرضون﴾؛ أي: غير ملتفتين إلى الخير.

﴿٧٧﴾ فلما لم يفوا بما عاهدوا الله عليه؛ عاقبهم و ﴿عاقبهم نفاقاً في قلوبهم﴾: مستمر ﴿إلى يوم يَلْقَوْنَهُ بما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾: فليحذر المؤمن من هذا الوصف الشنيع أن يعاهد ربه إن حصل مقصوده الفلاني؛ ليفعلن كذا وكذا، ثم لا يفي بذلك؛ فإنه ربما عاقبه الله بالنفاق كما عاقب هؤلاء، وقد قال النبي ﷺ في الحديث الثابت في «الصحيحين»^(١): «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف»؛ فهذا المنافق الذي وعد الله وعاهده لئن أعطاه الله من فضله؛ ليصدقن وليكونن من الصالحين: حدث فكذب، وعاهد [فغدر]^(٢)، ووعد فأخلف.

﴿٧٨﴾ ولهذا توعد من صدر منهم هذا الصنيع بقوله: ﴿ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب﴾: وسيجازيهم على ما عملوا من الأعمال التي يعلمها الله تعالى.

وهذه الآيات نزلت في رجل من المنافقين يقال له ثعلبة، جاء إلى النبي ﷺ، وسأله أن يدعو الله له أن يعطيه الله من فضله، وأنه إن أعطاه ليتصدقن ويصل الرحم ويعين على نوائب الحق، فدعا النبي ﷺ له، فكان له غنم، فلم تزل تتنامى حتى خرج بها عن المدينة، فكان لا يحضر إلا بعض الصلوات الخمس، ثم أبعد فكان لا يحضر إلا صلاة الجمعة، ثم كثرت فأبعدها فكان لا يحضر جمعة ولا جماعة، ففقدته النبي ﷺ، فأخبر بحاله، فبعث من يأخذ الصدقات من أهلها، فمروا على ثعلبة، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية. فلما لم يعطهم؛ جاؤوا فأخبروا بذلك النبي ﷺ، فقال: «يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة!» ثلاثاً^(٣). فلما نزلت هذه الآية فيه وفي أمثاله؛ ذهب بها بعض أهله، فبلغه إيّاها، فجاء بزكاته، فلم يقبلها النبي ﷺ، ثم جاء بها إلى أبي بكر بعد وفاة النبي ﷺ، فلم يقبلها، ثم جاء بها بعد أبي بكر إلى عمر، فلم يقبلها، فيقال: إنه هلك في زمن عثمان.

(١) البخاري (٢٦٨٢)، ومسلم (٥٩) إلا أن لفظ: «إذا عاهد غدر» في الرواية الأخرى: «أربع من كن فيه كان منافقاً...».

(٢) في (أ): «وغدر».

(٣) قصة ثعلبة بن حاطب: أخرجها ابن جرير (٢٧٠/١٤)، وقال الألباني: «وهذا حديث منكر على شهرته»، وانظر: «الضعيفة» (١٦٠٧).

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٩) اَسْتَغْفِرَ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِإِلَهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾ .

﴿٧٩﴾ وهذا أيضاً من مخازي المنافقين، فكانوا قَبَّحهم الله لا يدعون شيئاً من أمور الإسلام والمسلمين يرون لهم مقالاً؛ إلا قالوا وطعنوا بغياً وعدواناً، فلما حَثَّ الله ورسوله على الصدقة؛ بادر المسلمون إلى ذلك، وبذلوا من أموالهم كل على حسب حاله، منهم المكثرون ومنهم المقلون، فيلمزون المكثرون منهم بأن قصده بنفقته الرياء والسمعة، وقالوا للمقلِّ الفقير: إِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ صَدَقَةِ هَذَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾؛ أي: يعيبون ويطعنون ﴿الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾: فيقولون: مراؤون قصدهم الفخر والرياء ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾: فيخرجون ما استطاعوا ويقولون: اللَّهُ غَنِيٌّ عَنِ صَدَقَاتِهِمْ، ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾، فقابلهم الله على صنيعهم بأن سَخَرَ مِنْهُمْ، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ فَإِنَّهُمْ جَمَعُوا فِي كَلَامِهِمْ هَذَا بَيْنَ عِدَّةٍ مِنْ مَحَازِيرِ:

منها: تَتَّبِعُهُمْ لِأَحْوَالِ الْمُؤْمِنِينَ وَحِرْصِهِمْ عَلَى أَنْ يَجِدُوا مَقَالاً يَقُولُونَهُ فِيهِمْ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ومنها: طَعَنَهُمُ بِالْمُؤْمِنِينَ لِأَجْلِ إِيْمَانِهِمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ تَعَالَى وَبَغْضًا لِلدِّينِ.

ومنها: أَنَّ اللَّمَزَ مُحَرَّمٌ، بَلْ هُوَ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا، وَأَمَّا اللَّمَزُ فِي أَمْرِ الطَّاعَةِ؛ فَأَقْبَحُ وَأَقْبَحُ.

ومنها: أَنَّ مِنْ أَطَاعِ اللَّهَ وَتَطَوَّعَ بِخَصْلَةٍ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ؛ فَإِنَّ الَّذِي يَنْبَغِي إِعَانَتَهُ وَتَنْشِيطَهُ عَلَى عَمَلِهِ، وَهَؤُلَاءِ قَصَدُوا تَثْيِيطَهُمْ بِمَا قَالُوا فِيهِمْ، وَعَابَوْهُمْ عَلَيْهِ.

ومنها: أَنَّ حَكْمَهُمْ عَلَى مَنْ أَنْفَقَ مَالاً كَثِيراً بِأَنَّهُ مَرَأً غُلَطَّ فَاحِشٌ وَحَكْمُ عَلَى الْغَيْبِ وَرَجْمٌ بِالظَّنِّ، وَأَيُّ شَرٍّ أَكْبَرَ مِنْ هَذَا؟!

ومنها: أَنَّ قَوْلَهُمْ لِصَاحِبِ الصَّدَقَةِ الْقَلِيلَةِ: اللَّهُ غَنِيٌّ عَنِ صَدَقَةِ هَذَا! كَلَامٌ مَقْصُودُهُ بَاطِلٌ؛ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ صَدَقَةِ الْمُتَصَدِّقِ بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ، بَلْ وَغَنِيٌّ عَنْ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى أَمَرَ الْعِبَادَ بِمَا هُمْ مُفْتَخِرُونَ إِلَيْهِ؛ فَاللَّهُ وَإِنْ كَانَ غَنِيًّا عَنْهُمْ فَهُمْ فَقَرَاءٌ إِلَيْهِ؛ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾، وَفِي هَذَا الْقَوْلِ

من الشيطان عن الخير ما هو ظاهرٌ بين، ولهذا كان جزاؤهم أن يسخر^(١) الله منهم، ﴿ولهم عذابٌ أليمٌ﴾.

﴿٨٠﴾ ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرةً﴾: على وجه المبالغة، وإلا؛ فلا مفهوم لها، ﴿فلن يغفر الله لهم﴾؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم﴾. ثم ذكر السبب المانع لمغفرة الله لهم، فقال: ﴿ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله﴾: والكافر لا ينفعه الاستغفار ولا العمل ما دام كافراً. ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾؛ أي: الذين صار الفسق لهم وصفاً؛ بحيث لا يختارون عليه سواء، ولا يبغون به بدلاً، يأتيهم الحق الواضح فيردونه فيعاقبهم الله تعالى بأن لا يوفقهم له بعد ذلك.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (٨١) ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٢) ﴿إِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْرَكَ لِّلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْفُجُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعَدُوا مَعَ الْخَائِفِينَ﴾ (٨٣).

﴿٨١﴾ يقول تعالى مبيناً تبجح المنافقين بتخلفهم وعدم مبالاتهم بذلك الدال على عدم الإيمان واختيار الكفر على الإيمان: ﴿فرح المخلفون بمقعدِهِم خلاف رسول الله﴾: وهذا قدر زائد على مجرد التخلف؛ فإن هذا تخلف محرم، وزيادة رضا بفعل المعصية وتبجح به. ﴿وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾: وهذا بخلاف المؤمنين، الذين إذا تخلفوا ولو لعذر؛ حزنوا على تخلفهم، وتأسفوا غاية الأسف، ويحبون أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله؛ لما في قلوبهم من الإيمان، ويرجون من فضل الله وإحسانه وبره وامتنانه. ﴿وقالوا﴾؛ أي: المنافقون: ﴿لا تنفروا في الحر﴾؛ أي: قالوا: إن النفير مشقة علينا بسبب الحر فقدموا راحة قصيرة منقضية على الراحة الأبدية التامة، وحذروا من الحر الذي بقي منه الظلال ويذهبه البكر والأصال على الحر الشديد الذي لا يُقَادَرُ قدره، وهو النار الحامية، ولهذا قال: ﴿قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون﴾.

(١) في (ب): «سخر».

﴿٨٢﴾ لَمَّا أَثَرُوا مَا يَفْنَى عَلَى مَا يَبْقَى، وَلَمَّا فَرُّوا مِنَ الْمَشَقَّةِ الْخَفِيفَةِ الْمُنْقِضَةِ إِلَى الْمَشَقَّةِ الشَّدِيدَةِ الدَّائِمَةِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾؛ أَي: فليتمتعوا في هذه الدار المنقضية، ويفرحوا بلذاتها، ويلهوا بلبعها، فسيكون كثيراً في عذاب أليم. ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾: مِنَ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ وَعَدَمِ الْإِنْقِيَادِ لِأَوَامِرِ رَبِّهِمْ.

﴿٨٣﴾ ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾: وَهُمْ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا مِنْ غَيْرِ عَذْرِ وَلَمْ يَحْزَنُوا عَلَى تَخَلُّفِهِمْ. ﴿فَاسْتَأْذِنُوا لِلْخُرُوجِ﴾: لِغَيْرِ هَذِهِ الْغَزْوَةِ إِذَا رَأَوْا السَّهُولَةَ، ﴿فَقُلْ﴾ لَهُمْ عَقُوبَةٌ: ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تَقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾: فَسَيُغْنِي اللَّهُ عَنْكُمْ، ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقَعْدِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾: وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ فَإِنَّ الْمَتَاقِلَ الْمُتَخَلِّفَ عَنِ الْمَأْمُورِ بِهِ عِنْدَ انْتِهَازِ الْفُرْصَةِ لَنْ ^(١) يَوْفُقَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ وَيُحَالِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَفِيهِ أَيْضاً تَعْزِيزٌ لَهُمْ؛ فَإِنَّهُ إِذَا تَقَرَّرَ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ هَؤُلَاءِ مِنَ الْمَمْنُوعِينَ مِنَ الْخُرُوجِ إِلَى الْجِهَادِ لِمَعْصِيَتِهِمْ؛ كَانَ ذَلِكَ تَوْبِيخاً لَهُمْ وَعَاراً عَلَيْهِمْ وَنَكَالاً أَنْ يَفْعَلَ أَحَدٌ كَفْعَلِهِمْ.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾.

﴿٨٤﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ﴾: مِنَ الْمُنَافِقِينَ، ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾: بَعْدَ الدَّفْنِ لِتَدْعُو لَهُ؛ فَإِنَّ صَلَاتِهِ وَوُقُوفَهُ عَلَى قُبُورِهِمْ شَفَاعَةٌ مِنْهُمْ لَهُمْ، وَهُمْ لَا تَنْفَعُ فِيهِمُ الشَّفَاعَةُ، ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾: وَمَنْ كَانَ كَافِراً وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ؛ فَمَا تَنْفَعُهُ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ، وَفِي ذَلِكَ عِبْرَةٌ لِغَيْرِهِمْ وَزَجْرٌ وَنَكَالٌ لَهُمْ، وَهَكَذَا كُلُّ مَنْ عُلِمَ مِنْهُ الْكُفْرُ وَالنِّفَاقُ؛ فَإِنَّهُ لَا يَصَلَّى عَلَيْهِ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْوُقُوفِ عِنْدَ قُبُورِهِمْ لِلدُّعَاءِ لَهُمْ كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي الْمُؤْمِنِينَ؛ فَإِنَّ تَقْيِيدَ النَّهْيِ بِالْمُنَافِقِينَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ كَانَ مَتَقَرَّراً فِي الْمُؤْمِنِينَ ^(٢).

(١) فِي (ب): «لَا».

(٢) كَمَا فِي «سَنَنِ أَبِي دَاوُدَ» (٣٢٢١)، وَ«الْمُسْتَدْرَكُ» لِلْحَاكِمِ (٣٧٠/١). وَانْظُرْ «أَحْكَامَ الْجَنَائِزِ» لِلشَّيْخِ الْأَلْبَانِيِّ (١٥٦).

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٨٥).

﴿٨٥﴾ أي: لا تغترّ بما أعطاهم الله في الدنيا من الأموال والأولاد؛ فليس ذلك لكرامتهم عليه، وإنّما ذلك إهانة منه لهم. ﴿يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا﴾: فيتعبون في تحصيلها، ويخافون من زوالها، ولا يتهنئون بها، بل لا يزالون يعانون الشدائد والمشاق فيها، وتلهيهم عن الله والدار الآخرة، حتى ينتقلوا من الدنيا، ﴿وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾: قد سلّبهم حبّها عن كلّ شيء، فماتوا وقلوبهم بها متعلّقة وأفندتهم عليها متحرّقة.

﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٨٧).

﴿٨٦﴾ يقول تعالى في بيان استمرار المنافقين على التثاقل عن الطاعات وأنها لا تؤثر فيهم السور والآيات: ﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ﴾: يؤمرون فيها بالإيمان بالله والجهاد في سبيل الله، ﴿اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾؛ يعني: أولي الغنى والأموال الذين لا عُذْرَ لهم، وقد أمدهم الله بأموال وبنين، أفلا يشكرون الله ويحمدونه ويقومون بما أوجبه عليهم وسهل عليهم أمره؟! ولكن أبوا إلا التكاثر والاستئذان في القعود، ﴿وقالوا ذرنا نكن مع القاعدتين﴾.

﴿٨٧﴾ قال تعالى: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾؛ أي: كيف رضوا لأنفسهم أن يكونوا مع النساء المتخلفات عن الجهاد؟! هل معهم فقه أو عقل دلهم على ذلك أم ﴿طُبِعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾؟! فلا تعي الخير ولا يكون فيها إرادة لفعل ما فيه الخير والفلاح؛ فهم لا يفقهون مصالحهم؛ فلو فقهوا حقيقة الفقه؛ لم يرضوا لأنفسهم بهذه الحال التي تحطهم عن منازل الرجال.

﴿لَنْ يَكُنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُخَرَّجُونَ﴾ (٨٨) أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٨٩).

﴿٨٨﴾ يقول تعالى: إذا تخلف هؤلاء المنافقون عن الجهاد؛ فالله سيُغني

عنهم، ولله عبادٌ وخواصٌّ من خلقه اختصهم بفضله يقومون بهذا الأمر، وهم ﴿الرسول﴾: محمد ﷺ، ﴿والذين آمنوا معه﴾ يجاهدون ﴿بأموالهم وأنفسهم﴾: غير متثاقلين ولا كسليين، بل هم فرحون مستبشرون، فأولئك ﴿لهم الخيرات﴾: الكثيرة في الدنيا والآخرة. فأولئك ﴿هم المفلحون﴾: الذين ظفروا بأعلى المطالب وأكمل الرغائب.

﴿٨٩﴾ ﴿أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم﴾: فتباً لمن لم يرغب بما رغبوا فيه وخسر دينه ودنياه وأخراه، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً﴾، وقوله: ﴿فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾.

﴿وَجَاءَ الْمَعْذُرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٩٠﴾ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَيْنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَحْدُوا مَا يُنْفِقُونَ ٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٩٣﴾.

﴿٩٠﴾ يقول تعالى: ﴿وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم﴾؛ أي: جاء الذين تهاونوا وقصروا منهم في الخروج لأجل أن يؤذن لهم في ترك الجهاد؛ غير مباليين في الاعتذار لجفائهم وعدم حيائهم وإتيانهم بسبب ما معهم من الإيمان الضعيف، وأما الذين كذبوا الله ورسوله منهم؛ ففعدوا وتركوا الاعتذار بالكلية. ويحتمل أن معنى قوله: ﴿المعذرون﴾؛ أي: الذين لهم عذر أتوا إلى الرسول ﷺ ليغذروهم، ومن عادته أن يغذر من له عذر، ﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾: في دعواهم الإيمان المقتضي للخروج وعدم عملهم بذلك. ثم توعدهم بقوله: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: في الدنيا والآخرة.

﴿٩١﴾ لما ذكر المعتذرين، وكانوا على قسمين: قسم معذور في الشرع، وقسم

غير معذور؛ ذَكَرَ ذلك بقوله: ﴿ليس على الضُّعفاء﴾: في أبدانهم وأبصارهم، الذين لا قُوَّةَ لهم على الخروج والقتال، ﴿ولا على المرضى﴾: وهذا شاملٌ لجميع أنواع المرض، التي^(١) لا يقدر صاحبُه على الخروج والجهاد من عَرَجٍ وعمىٍ وحُمىٍ وذات الجنب والفالج وغير ذلك. ﴿ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون﴾؛ أي: لا يجدون زاداً ولا راحلةً يتبلَّغون بها في سفرهم؛ فهؤلاء ليس عليهم حَرَجٌ، بشرط أن ينصحوا لله ورسوله؛ بأن يكونوا صادقي الإيمان، وأن يكون من نيتهم وعزمهم أنهم لو قدروا لجاهدوا، وأن يفعلوا ما يقدِّرون عليه من الحث والترغيب والتشجيع على الجهاد.

﴿ما على المحسنين من سبيل﴾؛ أي: من سبيل يكون عليهم فيه تَبَعَةٌ؛ فإنهم بإحسانهم فيما عليهم من حقوق الله وحقوق العباد أسقطوا توجُّه اللوم عليهم، وإذا أحسن العبدُ فيما يقدِّرُ عليه؛ سقط عنه ما لا يقدرُ عليه.

ويُستدلُّ بهذه الآية على قاعدة، وهي أنَّ مَنْ أحسن على غيره في نفسه أو في ماله ونحو ذلك، ثم ترتَّب على إحسانه نقصٌ أو تلفٌ: أنَّه غير ضامن؛ لأنه محسنٌ، ولا سبيل على المحسنين؛ كما أنه يدلُّ على أن غير المحسن، وهو المسيء؛ كالمفطر؛ أن عليه الضمان. ﴿والله غفورٌ رحيمٌ﴾: من مغفرته ورحمته عفا عن العاجزين، وأثابهم بنيتهم الجازمة ثواب القادرين الفاعلين.

﴿٩٢﴾ ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم﴾: فلم يصادفوا عندك شيئاً. ﴿قلت﴾: لهم معذراً: ﴿لا أجِدُ ما أحملكم عليه تَوَلَّوْا وأعينهم تفيض من الدمع حَزْناً أن لا يجدوا ما ينفقون﴾: فإنهم عاجزون باذلون لأنفسهم، وقد صدر منهم من الحزن والمشقة ما ذكره الله عنهم؛ فهؤلاء لا حَرَجٌ عليهم، وإذا سقط الحرج عنهم؛ عاد الأمر إلى أصله، وهو أنَّ مَنْ نوى الخير واقرن بنيتَه الجازمة سَعْيٍ فيما يقدِّرُ عليه ثم لم يقدِرْ؛ فإنَّه ينزَّلُ منزلة الفاعل التام.

﴿٩٣﴾ ﴿إنما السبيل﴾: يتوجَّه واللوم يتناول ﴿الذين يستأذنونك وهم أغنياء﴾: قادرون على الخروج لا عذرَ لهم؛ فهؤلاء ﴿رضوا﴾ لأنفسهم، ومن دينهم ﴿أن يكونوا مع الخوالف﴾؛ كالنساء والأطفال ونحوهم. ﴿وإنما رضوا بهذه الحال لأنَّ الله طَبَعَ﴾ على قلوبهم؛ أي: حَتَمَ عليها؛ فلا يدخلها خيرٌ، ولا يحسُّون

بمصالحتهم الدينيّة والدنيويّة، ﴿فهم لا يعلمون﴾: عقوبة لهم على ما اقترفوا.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآرِنُهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿٩٤﴾ لما ذكر تخلف المنافقين الأغنياء، وأنه لا عذر لهم؛ أخبر أنهم سيعتذرون ﴿إليكم إذا رجعتم إليهم﴾: من غزاتكم، ﴿قل﴾ لهم: ﴿لا تعتذروا لن نؤمن لكم﴾؛ أي: لن نصدقكم في اعتذاركم الكاذب، ﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾: وهو الصادق في قوله، فلم يبق للاعتذار فائدة؛ لأنهم يعتذرون بخلاف ما أخبر الله عنهم، ومحال أن يكونوا صادقين فيما يخالف خبر الله الذي هو أعلى مراتب الصدق. ﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾: في الدنيا؛ لأن العمل هو ميزان الصدق من الكذب، وأما مجرد الأقوال؛ فلا دلالة فيها على شيء من ذلك، ﴿ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة﴾: الذي لا يخفى عليه خافية، ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾: من خير وشر، ويجازيكم بعدله أو بفضله؛ من غير أن يظلمكم مثقال ذرة.

﴿٩٥﴾ واعلم أن المسيء المذنب له ثلاث حالات: إما يُقبل قوله وعذره ظاهراً وباطناً ويُعفى عنه بحيث يبقى كأنه لم يذنب. [فهذه الحالة هي المذكورة هنا في حق المنافقين أن عذرهم غير مقبول، وأنه قد تقرر أحوالهم الخبيثة وأعمالهم السيئة] ^(١). وإما أن يُعاقبوا بالعقوبة والتعزير الفعلي على ذنبهم. وإما أن يُعرض عنهم، ولا يقابلوا بما فعلوا بالعقوبة الفعلية. وهذه الحال الثالثة هي التي أمر الله بها في حق المنافقين، ولهذا قال: ﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم﴾؛ أي: لا توبخوهم ولا تجلدوهم أو تقتلوهم. ﴿إنهم رجس﴾؛ أي: إنهم قدر خبيثاء، ليسوا بأهل لأن يُبالي بهم، وليس التوبيخ والعقوبة

(١) كذا في النسختين ولعل من المناسب أن تكون ما بين المعقوفتين بعد قوله: «ولا يقابلوا بما فعلوا بالعقوبة الفعلية». والله أعلم.

مفيداً فيهم. ﴿٩٥﴾ تكفيهم عقوبة ﴿جهنم جزاء بما كانوا يكسبون﴾.

﴿٩٦﴾ وقوله: ﴿يحلفون لكم لترضوا عنهم﴾؛ أي: ولهم أيضاً هذا المقصد الآخر منكم غير مجرّد الإعراض، بل يحثون أن ترضوا عنهم كأنهم ما فعلوا شيئاً. ﴿فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾؛ أي: فلا ينبغي لكم أيها المؤمنون أن ترضوا عن من لم يرض الله عنه، بل عليكم أن توافقوا ربكم في رضاه وغضبه. وتأمل كيف قال: ﴿فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾، ولم يقل: فإن الله لا يرضى عنهم؛ ليدل ذلك على أن باب التوبة مفتوح، وأنهم مهما تابوا هم أو غيرهم؛ فإن الله يتوب عليهم ويرضى عنهم، وأما ما داموا فاسقين؛ فإن الله لا يرضى عليهم؛ لوجود المانع من رضاه، وهو خروجهم عن ما رضى الله لهم من الإيمان والطاعة إلى ما يُغضبه من الشرك والنفاق والمعاصي.

وحاصل ما ذكره الله أن المنافقين المتخلفين عن الجهاد من غير عذر إذا اعتذروا للمؤمنين وزعموا أن لهم أعداء في تخلفهم؛ فإن المنافقين يريدون بذلك أن تُعرضوا عنهم وتَرْضُوا وتقبلوا عذرهم: فأما قبول العذر منهم والرضا عنهم؛ فلا حباً ولا كرامة لهم. وأما الإعراض عنهم؛ فيعرض المؤمنون عنهم إعراضهم عن الأمور الرديئة الرجس.

وفي هذه الآيات إثبات الكلام لله تعالى في قوله. ﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾، وإثبات الأفعال الاختيارية لله الواقعة بمشيئته وقدرته في هذا وفي قوله: ﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾؛ أخبر أنه سيراه بعد وقوعه. وفيها إثبات الرضا لله عن المحسنين والغضب والسخط على الفاسقين.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُرِّ الدَّوَابِّ عَلَيْهِمْ ذَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ٩٩﴾.

﴿٩٧﴾ يقول تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ﴾: وهم سكان البادية والبراري، ﴿أشد كُفْرًا ونِفَاقًا﴾: من الحاضرة الذين فيهم كفر ونفاق، وذلك لأسباب كثيرة؛ منها: أنهم بعيدون عن معرفة الشرائع الدينية والأعمال والأحكام؛ فهم أخرى ﴿وأجدَرُ أن لا

يعلموا حدودَ ما أنزلَ الله على رسوله ﴿: من أصول الإيمان وأحكام الأوامر والنواهي؛ بخلاف الحاضرة؛ فإنهم أقرب لأن يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، فيحدثُ لهم بسبب هذا العلم تصوّرات حسنة وإرادات للخير الذي يعلمون ما لا يكون في البادية. وفيهم من لطافة الطبع والانقياد للداعي ما ليس في البادية. ويجالسون أهل الإيمان، ويخالطونهم أكثر من أهل البادية؛ فلذلك كانوا أحرى للخير من أهل البادية، وإن كان في البادية والحاضرة كفاً ومناقون؛ ففي البادية أشدُّ وأغلظ مما في الحاضرة.

﴿٩٨﴾ ومن ذلك أنَّ الأعراب أحرص على الأموال وأشخ فيها؛ فمنهم ﴿من يتخذ ما ينفق﴾: من الزكاة والنفقة في سبيل الله وغير ذلك، ﴿مغرماً﴾؛ أي: يراها خسارة ونقصاً، لا يحتسب فيها، ولا يريد بها وجه الله، ولا يكاد يؤذيها إلا كرهاً، ﴿ويتربص بكم الدوائر﴾؛ أي: من عداوتهم للمؤمنين وبُغضهم لهم أنهم يودون وينتظرون فيهم دوائر الدَّهر وفجائع الزمان، وهذا سينعكس عليهم. فعليهم ﴿دائرة السوء﴾، أما المؤمنون؛ فلهم الدائرة الحسنة على أعدائهم، ولهم العقبى الحسنة. ﴿والله سميعٌ عليمٌ﴾: يعلم نيات العباد وما صدرت منه الأعمال من إخلاص وغيره.

﴿٩٩﴾ وليس الأعراب كلُّهم مذمومين، بل منهم ﴿من يؤمن بالله واليوم الآخر﴾: فيسلم بذلك من الكفر والنفاق، ويعمل بمقتضى الإيمان، ﴿ويتخذ ما ينفق قربات عند الله﴾؛ أي: يحتسب نفقته ويقصد بها وجه الله تعالى والقرب منه، ﴿و يجعلها وسيلة لصلوات الرسول﴾؛ أي: دعائه لهم وتبريكه عليهم. قال تعالى مبيناً لنفع صلوات الرسول: ﴿إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾: تقرُّبهم إلى الله، وتُمنِّي أموالهم، وتُجِلُّ فيها البركة. ﴿سيدخلهم الله في رحمته﴾: في جملة عباد الصالحين. إِنَّهُ ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: فيغفر السيئات العظيمة لمن تاب إليه، ويَعْمُ عبادَه برحمته التي وسعت كلَّ شيء، ويخصُّ عبادَه المؤمنين برحمة يوفِّقهم فيها إلى الخيرات، ويحميهم فيها من المخالفات، ويجزِلُ لهم فيها أنواع المثوبات.

وفي هذه الآية دليلٌ على أنَّ الأعراب كأهل الحاضرة؛ منهم الممدوح ومنهم المذموم، فلم يذمهم الله على مجرد تعرُّبهم وباديتهم، إنما ذمهم على ترك أوامر الله، وأنهم في مظنة ذلك.

ومنها: أنَّ الكفر والنفاق يزيد وينقص ويغلظ، ويخف بحسب الأحوال.

ومنها: فضيلة العلم، وأنْ فاقِدَه أقرب إلى الشرِّ ممَّن يعرفه؛ لأنَّ الله ذمَّ الأعراب، وأخبر أنهم أشدُّ كفرًا ونفاقًا، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنَّهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله.

ومنها: أن العلم النافع الذي هو أنفع العلوم معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله من أصول الدين وفروعه؛ كمعرفة حدود الإيمان والإسلام والإحسان والتقوى والفلاح والطاعة والبرِّ والصَّلة والإحسان والكفر والنفاق والفسوق والعصيان والزنا والخمر والربا ونحو ذلك؛ فإن في معرفتها يُتَمَكَّن من فعلها إن كانت مأموراً بها أو ^(١) تركها إن كانت محظورة، ومن الأمر بها أو النهي عنها.

ومنها: أنه ينبغي للمؤمن أن يؤدي ما عليه من الحقوق، منشرح الصدر، مطمئن النفس، ويحرص أن تكون مغنماً ولا تكون مغرمًا.

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهِجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿١٠٠﴾ السابقون هم الذين سبقوا هذه الأمة وبَدَرُوا إلى الإيمان والهجرة والجهاد وإقامة دين الله، ﴿من المهاجرين﴾: الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون. ﴿و﴾ من ﴿الأنصار﴾: الذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. ﴿والذين اتبعوهم بإحسان﴾: بالاعتقادات والأقوال والأعمال؛ فهؤلاء هم الذين سَلِمُوا من الذَّمِّ وحصل لهم نهاية المدح وأفضلُ الكرامات من الله. ﴿رضي الله عنهم﴾: ورضاه تعالى أكبرُ من نعيم الجنة، ﴿ورَضُوا عنه وأَعَدَّ لهم جناتٍ تجري تحتها الأنهار﴾: الجارية التي تُساق إلى سقي الجنان والحدائق الزاهية الزاهرة والرياض الناضرة. ﴿خالدين فيها أبداً﴾: لا يبغون عنها جِوْلاً ولا يطلبون منها بدلاً؛ لأنَّهم مهما تمثَّوه أدركوه، ومهما أرادوه وجدوه. ﴿ذلك الفوز العظيم﴾: الذي حصل لهم فيه كلُّ محبوبٍ للنفس ولذَّةٌ للأرواح ونعيمٌ للقلوب وشهوةٌ للأبدان، واندفع عنهم كلُّ محذور.

(١) في (ب): «مأمورة أو».

﴿وَمَنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّوْنَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ .

﴿١٠١﴾ يقول تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ: أَيْ: تَمَرَّنُوا عَلَيْهِ [وَاسْتَمَرُّوا] وَازْدَادُوا فِيهِ طَغْيَانًا، ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾: بِأَعْيَانِهِمْ فَتَعَابِقُهُمْ أَوْ تَعَامِلُهُمْ بِمَقْتَضَىٰ نِفَاقِهِمْ؛ لِمَا لِلَّهِ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَاهِرَةِ. ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ﴾: يُحْتَمَلُ أَنَّ التَّشْنِيعَ عَلَىٰ بَابِهَا، وَأَنَّ عَذَابَهُمْ عَذَابٌ فِي الدُّنْيَا وَعَذَابٌ فِي الْآخِرَةِ؛ فَفِي الدُّنْيَا مَا يَنَالُهُمْ مِنَ الْهَمِّ وَالْغَمِّ^(١) وَالْكَرَاهَةِ لِمَا يَصِيبُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْفَتْحِ وَالنَّصْرِ، وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ وَبُئْسَ الْقَرَارُ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ سَنَغْلُظُ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ، وَنَضَاعِفُهُ عَلَيْهِمْ، وَنَكْرَرُهُ.

﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ خَذَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ .

﴿١٠٢﴾ يقول تعالى: ﴿وَأَخْرُونَ﴾: مَمَّنْ بِالْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا، بَلْ وَمِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ، ﴿اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾؛ أَيْ: أَقْرَأُوا بِهَا وَنَدَمُوا عَلَيْهَا وَسَعَوْا فِي التَّوْبَةِ مِنْهَا وَالتَّطَهُّرِ مِنْ أَدْرَانِهَا، ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾: وَلَا يَكُونُ الْعَمَلُ صَالِحًا إِلَّا إِذَا كَانَ مَعَ الْعَبْدِ أَصْلُ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ الْمَخْرُجُ عَنِ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ الَّذِي هُوَ شَرْطٌ لِّكُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ؛ فَهَؤُلَاءِ خَلَطُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ بِالْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ مِنَ التَّجَرِّيِّ عَلَىٰ بَعْضِ الْمَحْرُمَاتِ وَالتَّقْصِيرِ فِي بَعْضِ الْوَاجِبَاتِ مَعَ الْاعْتِرَافِ بِذَلِكَ وَالرَّجَاءِ بِأَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ؛ فَهَؤُلَاءِ ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾: وَتَوْبَتُهُ عَلَىٰ عَبْدِهِ نَوْعَانِ: الْأَوَّلُ: التَّوْفِيقُ لِلتَّوْبَةِ. وَالثَّانِي: قَبُولُهَا بَعْدَ وَقْعِهَا مِنْهُمْ. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أَيْ: وَصِفَةُ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ اللَّتَانِ لَا يَخْلُو مَخْلُوقٌ مِنْهُمَا، بَلْ لَا بَقَاءَ لِلْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ إِلَّا بِهِمَا؛ فَلَوْ يَوَازِخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهَرِهَا مِنْ دَابَّةٍ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾، وَمِنْ مَغْفِرَتِهِ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ عَلَىٰ

(١) فِي (ب): «وَالْحَزَنُ».

أنفسهم الذين قطعوا أعمارهم بالأعمال السيئة إذا تابوا إليه وأنابوا، ولو قُبيل موتهم بأقل القليل؛ فإنه يعفو عنهم ويتجاوز عن سيئاتهم. فهذه الآية دالة^(١) على أن المخلّط المعترف النادم الذي لم يتب توبة نصوحاً؛ أنه تحت الخوف والرجاء، وهو إلى السلامة أقرب، وأما المخلّط الذي لم يعترف، ولم يندم على ما مضى منه، بل لا يزال مصرّاً على الذنوب؛ فإنه يخاف عليه أشد الخوف.

﴿١٠٣﴾ قال تعالى لرسوله وَمَنْ قام مقامه أمراً له بما يطهر المؤمنين ويتم إيمانهم: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾: وهي الزكاة المفروضة، ﴿تَطَهَّرْهُمْ وَتَرْكِبْهُمْ بِهَا﴾؛ أي: تطهرهم من الذنوب والأخلاق الرذيلة، ﴿وَتَرْكِبْهُمْ﴾؛ أي: تنمّيهم، وتزيد في أخلاقهم الحسنة وأعمالهم الصالحة، وتزيد في ثوابهم الدنيوي والأخروي، وتنمي أموالهم، ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: ادع لهم؛ أي: للمؤمنين عموماً وخصوصاً عندما يدفعون إليك زكاة أموالهم. ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾؛ أي: طمأنينة لقلوبهم واستبشار لهم. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾: لدعائك سمع إجابة وقبول. ﴿عَلِيمٌ﴾: بأحوال العباد ونيّاتهم، فيجازي كلّ عامل بعمله وعلى قدر نيّته. فكان النبي ﷺ يمثّل لأمر الله، ويأمرهم بالصدقة، ويبعث عمّاله لجبايتها؛ فإذا أتاه أحد بصدقته؛ دعا له وبرّك^(٢).

ففي هذه الآية دلالة على وجوب الزكاة في جميع الأموال، وهذا إذا كانت للتجارة ظاهرة؛ فإنّها أموال تنمى ويكتسب بها؛ فمن العدل أن يواسي منها الفقراء بأداء ما أوجب الله فيها من الزكاة. وما عدا أموال التجارة؛ فإن كان المال ينمى كالحبوب والثمار والماشية المتخذة للنماء والدرّ والنسل؛ فإنّها تجب فيها الزكاة، وإلا؛ لم تجب فيها؛ لأنّها إذا كانت للفقنة؛ لم تكن بمنزلة الأموال التي يتخذها الإنسان في العادة مالا يتموّل ويطلب منه المقاصد المالية، وإنما صرف عن المالية بالفقنة ونحوها.

وفيها: أن العبد لا يمكنه أن يتطهر، ويتزكّى حتى يخرج زكاة ماله، وأنّه لا يكفرها شيء سوى أدائها؛ لأنّ الزكاة والتطهير متوقّف على إخراجها.

وفيها: استحباب الدعاء من الإمام أو نائبه لمن أدّى زكاته بالبركة، وأن ذلك ينبغي أن يكون جهراً؛ بحيث يسمعه المتصدّق فيسكن إليه.

(٢) سبق تخريجه.

(١) في (ب): «دلت».

ويؤخذ من المعنى أنه ينبغي إدخال السرور على المؤمن بالكلام اللين والدعاء له ونحو ذلك مما يكون فيه طمأنينة وسكون لقلبه. [وأنه ينبغي تنشيط من أنفق نفقة، وعمل عملاً صالحاً بالدعاء له والثناء ونحو ذلك].

﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٠٤).

﴿١٠٤﴾ أي: أما علموا سعة رحمة الله وعموم كرمه، وأنه ﴿يقبل﴾ التوبة عن عبادِهِ: التائبين من أي ذنب كان، بل يفرح تعالى بتوبة عبده إذا تاب أعظم فرح يقدر، ﴿ويأخذ الصدقات﴾: منهم؛ أي: يقبلها ويأخذها بيمينه، فيُرَبِّها لأحدهم كما يُرَبِّي الرجل فُلُوهُ، حتى تكون التمرة الواحدة كالجبل العظيم؛ فكيف بما هو أكبر وأكثر من ذلك. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾؛ أي: كثير التوبة على التائبين؛ فمن تاب إليه؛ تاب عليه، ولو تكررت منه المعصية مراراً، ولا يَمَلُّ الله من التوبة على عباده حتى يَمَلُّوا هم، ويأبوا إلا الثَّغَارَ والشُّرُودَ عن بابه وموالاتهم عدوهم. ﴿الرَّحِيمُ﴾: الذي وسعت رحمته كل شيء، وكتبها للذين يَتَّقُونَ، ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بآياته، ويتبعون رسوله.

﴿وَقُلْ أَتَمَلُّوا فَسِيرَى اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَلِيِّ وَالشَّهَادَةِ فَيَتَفَكَّرُوا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٠٥).

﴿١٠٥﴾ يقول تعالى: ﴿وقل﴾ لهؤلاء المنافقين: ﴿اعملوا﴾: ما ترون من الأعمال، واستمروا على باطلكم؛ فلا تحسبوا أن ذلك سيخفى، ﴿فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾؛ أي: لا بد أن يتبين عملكم ويتضح، ﴿وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾: من خيرٍ وشرٍّ ففي هذا التهديد والوعيد الشديد على من استمر على باطله وطغيانه وغيه وعصيانه. ويحتمل أن المعنى: إنكم مهما عملتم من خير أو شر؛ فإن الله مطلع عليكم، وسيطلع رسوله وعباده المؤمنين على أعمالكم ولو كانت باطنة.

﴿وَالْآخِرُونَ مَرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٠٦).

﴿١٠٦﴾ أي: ﴿وآخرين﴾: من المخلفين مؤخرون ﴿لأمر الله إمَّا يعذبهم وإمَّا يعذبهم وإمَّا يتوب عليهم﴾: ففي هذا التخويف الشديد للمتخلفين والحث لهم على التوبة

والندم. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾: بأحوال العباد ونياتهم، ﴿حَكِيمٌ﴾: يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها؛ فإذا اقتضت حكمته أن يغفر لهم ويتوب عليهم؛ غفر لهم وتاب عليهم. وإن اقتضت حكمته أن يخذلهم ولا يوفقهم للتوبة؛ فعل ذلك.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِلْنَ إِذَا أَرَدْنَا إِلَّا أَلْحُسُقًا وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدُ أُسُسٍ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ حَرْبًا لَمْ يَأْخُذُوا بِالْحَمْلِ وَالْأَسْرِ بَيْنَ يَدَيْهِمْ وَأَنْفُسُهُمْ يَشْفَوْنَ لَهُمْ ذَلِكَ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَ الصَّافِينَ ﴿١١٨﴾ أَفَمَنْ أَتَىٰ مَسْجِدَ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ثُمَّ اتَّخَذُوا لَهُمْ سَعِدًا مِمَّا بَنَوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا يَرَوْنَ إِلَّا آلَ أَنْتُمْ وَلَكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَلِيُخْرِجَ اللَّهُ الْظَالِمِينَ ﴿١١٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿١٠٧﴾ كان أناس من المنافقين من أهل قُباء اتَّخذوا مسجداً إلى جنب مسجد قُباء يريدون به المضاربة والمشاقَّة بين المؤمنين، ويُعدُّونه لمن يرجونه من المحاربين لله ورسوله؛ يكون لهم حصناً عند الاحتياج إليه، فبين تعالى خزيهم، وأظهر سرهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾؛ أي: مضاربة للمؤمنين ولمسجدهم الذي يجتمعون فيه، ﴿وكفراً﴾؛ أي: مقصدهم فيه الكفر إذا قصد غيرهم الإيمان، ﴿وتفريقاً بين المؤمنين﴾؛ أي: ليتشعبوا ويتفرقوا ويختلفوا، ﴿وإِرْصَادًا﴾؛ أي: إعداداً ﴿لمن حارب الله ورسوله من قبل﴾؛ أي: إعانة للمحاربين لله ورسوله، الذين تقدَّم حراهم واشتدَّت عداوتهم، وذلك كأبي عامر الراهب، الذي كان من أهل المدينة، فلما قدم النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة؛ كفر به، وكان متعبداً في الجاهلية، فذهب إلى المشركين يستعين بهم على حرب رسول الله ﷺ، فلما لم يدرك مطلوبه عندهم؛ ذهب إلى قيصر بزعمه أنه ينصره، فهلك اللعين في الطريق، وكان على وعدٍ وممالة هو والمنافقون، فكان مما أعدُّوا له مسجد الضُّرار، فنزل الوحي بذلك، فبعث إليه النبي ﷺ من يهدمه ويحرقه^(١)، فهُدم، وحُرق، وصار بعد ذلك مزيله.

(١) انظر «تفسير الطبري» (١٤/١٠٧)، و«الدر المنثور» (٣/٤٩٤).

قال تعالى بعد ما بيّن من مقاصدهم الفاسدة في ذلك المسجد: ﴿وَلِيَخْلُقْنَ إِنْ أَرَدْنَا﴾ في بنائنا إيّاه ﴿إِلَّا الْحَسَنَى﴾؛ أي: الإحسان إلى الضعيف والعاجز والضرير. ﴿وَاللّٰهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾: فشهادة الله عليهم أصدق من حلفهم.

﴿١٠٨﴾ ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾؛ أي: لا تصلّ في ذلك المسجد الذي بُني ضراراً أبداً؛ فالله يُغنيك عنه، ولست بمضطرّ إليه. ﴿لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾: ظهر فيه الإسلام في قُباء، وهو مسجد قُباء أُسِّس على إخلاص الدين لله وإقامة ذكره وشعائره دينه، وكان قديماً في هذا عريقاً فيه؛ فهذا المسجد الفاضل ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾: وتتعبّد وتذكر الله تعالى؛ فهو فاضل وأهله فضلاء، ولهذا مدحهم الله بقوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾: من الذُّنُوب، ويتطهّروا من الأوساخ والنجاسات والأحداث، ومن المعلوم أنَّ مَنْ أَحَبَّ شيئاً؛ لا بدّ أن يسعى له ويجتهد فيما يحبُّ؛ فلا بدّ أنهم كانوا حريصين على التطهّر من الذُّنُوب والأوساخ والأحداث، ولهذا كانوا ممّن سبق إسلامه، وكانوا مقيمين للصلاة، محافظين على الجهاد مع رسول الله ﷺ وإقامة شرائع الدين، وممّن كانوا يتحرّزون من مخالفة الله ورسوله.

وسألهم النبي ﷺ بعدما نزلت هذه الآية^(١) في مدحهم عن طهارتهم؟ فأخبروه أنهم يَتَّبِعُونَ الحجارة الماء، فحمدهم على صنيعهم.

﴿وَاللّٰهُ يَحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾: الطهارة المعنوية كالتنزّه عن الشرك والأخلاق الرذيلة، والطهارة الحسيّة كإزالة الأنجاس ورفع الأحداث.

﴿١٠٩﴾ ثم فاضل بين المساجد بحسب مقاصد أهلها وموافقتها لرضاه، فقال: ﴿أَفَمَنْ أُسِّسَ بِنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ﴾؛ أي: على نيّة صالحة وإخلاص، ﴿وَرِضْوَانٍ﴾: بأن كان موافقاً لأمره، فجمع في عمله بين الإخلاص والمتابعة. ﴿خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بِنْيَانُهُ عَلَى شِقَا﴾؛ أي: على طرف؛ ﴿جُرْفٍ هَارٍ﴾؛ أي: بال، قد تداعى للانهدام، ﴿فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللّٰهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾: لما فيه مصالح دينهم ودنياهم.

﴿١١٠﴾ ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: شكاً وريباً ماكنّاً في

(١) أخرجه أحمد (٤٢٢/٣)، وابن ماجه (٣٥٥)، والحاكم (١٥٥/١ و ٣٣٤/٢)، وصححه ووافقه الذهبي.

قلوبهم، ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾: بأن يندموا غاية الندم، ويتوبوا إلى ربهم، ويخافوه غاية الخوف؛ فبذلك يعفو الله عنهم، وإلّا؛ فبنيائهم لا يزيدهم إلا ريباً إلى ربهم، ونفاقاً إلى نفاقهم. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾: بجميع الأشياء؛ ظاهرها وباطنها، خفيها وجليها، وبما أسرّه العباد وأعلنوه، ﴿حَكِيمٌ﴾: لا يفعل ولا يخلُق ولا يأمر ولا ينهى إلّا ما اقتضته الحكمة وأمر به؛ فلله الحمد.

وفي هذه الآيات عدة فوائد:

منها: أن اتّخاذ المسجد الذي يقصد به الضّرار لمسجد آخر بقربه أنه محرّم، وأنه يجب هدم مسجد الضرار الذي اطلع على مقصود أصحابه.

ومنها: أن العمل، وإن كان فاضلاً، تغيّره النية، فينقلب منهياً عنه؛ كما قلّبت نية أصحاب مسجد الضرار عملهم إلى ما ترى.

ومنها: أن كل حالة يحصل بها التفريق بين المؤمنين؛ فإنها من المعاصي التي يتعيّن تركها وإزالتها؛ كما أن كل حالة يحصل بها جمع المؤمنين واتّلافهم يتعيّن اتّباعها والأمر بها والحثّ عليها؛ لأنّ الله علّل اتّخاذهم لمسجد الضرار بهذا المقصد الموجب للنهي عنه كما يوجب ذلك الكفر والمحاربة لله ورسوله.

ومنها: النهي عن الصلاة في أماكن المعصية والبعد عنها وعن قربها.

ومنها: أن المعصية تؤثر في البقاع كما أثرت معصية المنافقين في مسجد الضرار ونُهي عن القيام فيه، وكذلك الطاعة تؤثر في الأماكن كما أثرت في مسجد قباء، حتى قال الله فيه: ﴿لَمَسْجِدَ أُسُسٍ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾: ولهذا كان لمسجد قباء من الفضل ما ليس لغيره، حتى كان ﷺ يزور قباء كلّ سبّتي يصلي فيه^(١)، وحثّ على الصلاة فيه^(٢).

ومنها: أنه يُستفاد من هذه التعليل المذكورة في الآية أربع قواعد مهمّة، وهي: كل عمل فيه مضارّة لمسلم، أو فيه معصية لله؛ فإن المعاصي من فروع الكفر، أو فيه تفريق بين المؤمنين، أو فيه معاونّة لمن عادى الله ورسوله؛ فإنه محرّم ممنوع منه، وعكسه بعكسه.

(١) أخرجه البخاري (١١٩٣)، ومسلم (١٣٩٩) عن ابن عمر.

(٢) كما عند الإمام أحمد (٤٨٧/٣)، وابن ماجه (١٤١٢)، والترمذي (٣٢٤).

[ومنها: أن الأعمال الحسنة الناشئة عن معصية الله، لا تزال مبعدة لفاعليها عن الله، بمنزلة الإصرار على المعصية حتى يزيلها ويتوب منها توبة تامة؛ بحيث يتقطع قلبه من الندم والحسرات].

ومنها: أنه إذا كان مسجدُ قُباء مسجداً أُسِّس على التقوى؛ فمسجد النبي ﷺ الذي أُسِّسه بيده المباركة، وعمل فيه، واختاره الله له من باب أولى وأحرى.

ومنها: أن العمل المبنئ على الإخلاص والمتابعة هو العمل المؤسس على التقوى الموصل لعامله إلى جنات النعيم، والعمل المبنئ على سوء القصد وعلى البدع والضلال هو العمل المؤسس على شفا جُرفٍ هارٍ، فانهار به في نار جهنم. والله لا يهدي القوم الظالمين.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١١١).

﴿١١١﴾ يخبر تعالى خبراً صدقاً ويعدّ وعداً حقاً بمبايعة عظيمة ومعاوضة جسيمة، وهو أنه ﴿اشترى﴾: بنفسه الكريمة ﴿من المؤمنين أنفسهم وأموالهم﴾: فهي الثمن والسلعة المبيعة، ﴿بأن لهم الجنة﴾: التي فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذُّ الأعين من أنواع اللذات والأفراح والمسرات والحدود الحسان والمنازل الأنيفة، وصفة العقد والمبايعة بأن يبذلوا لله نفوسهم وأموالهم في جهاد أعدائه؛ لإعلاء كلمته وإظهار دينه. فيقاتلون ﴿في سبيل الله فيقتلون ويقتلون﴾: فهذا العقد والمبايعة قد صدرت من الله مؤكدة بأنواع التأكيدات. ﴿وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن﴾: التي هي أشرف الكتب التي طرقت العالم وأعلاها وأكملها، وجاء بها أكمل الرسل أولو العزم، وكلُّها اتفقت على هذا الوعد الصادق. ﴿ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا﴾: أيها المؤمنون، القائمون بما وعدكم الله ﴿ببيعكم الذي بايعتم به﴾؛ أي: لتفرحوا بذلك وليبشر بعضكم بعضاً ويحث بعضكم بعضاً. ﴿وذلك هو الفوز العظيم﴾: الذي لا فوز أكبر منه ولا أجل؛ لأنه يتضمن السعادة الأبدية والنعيم المقيم، والرضا من الله الذي هو أكبر من نعيم الجنات.

وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفة؛ فانظر إلى المشتري؛ مَنْ هو؟ وهو الله جلّ جلاله، وإلى العوض، وهو أكبر الأعواض وأجلّها؛ جنات النعيم، وإلى الثمن

المبدول فيها، وهو النفس والمال، الذي هو أحب الأشياء للإنسان، وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبائع، وهو أشرف الرسل، وبأي كتاب رُقِم؟ وهي كتب الله الكبار المنزلة على أفضل الخلق.

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّاجِدُونَ الرَّاكِعُونَ السَّائِدُونَ الْآمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿١١٢﴾ كأنه قيل: من هم المؤمنون الذين لهم البشارة من الله بدخول الجنات وتبيل الكرامات؟ فقال: هم: ﴿التائبون﴾؛ أي: الملازمون للتوبة في جميع الأوقات عن جميع السيئات. ﴿العابدون﴾؛ أي: المتصفون بالعبودية لله والاستمرار على طاعته من أداء الواجبات والمستحبات في كل وقت؛ فبذلك يكون العبد من العابدين. ﴿الحامدون﴾: لله في السراء والضراء واليسر والعسر، المعترفون بما لله عليهم من النعم الظاهرة والباطنة، المثنون على الله بذكرها وبذكره في آناء الليل وآناء النهار. ﴿السائحون﴾: فسرت السياحة بالصيام، أو السياحة في طلب العلم، وفسرت بسياحة القلب في معرفة الله ومحبه والإجابة إليه على الدوام، والصحيح أن المراد بالسياحة السفر في القربات؛ كالحج والعمرة والجهاد وطلب العلم وصلة الأقارب ونحو ذلك. ﴿الراكعون الساجدون﴾؛ أي: المكثرون من الصلاة، المشتملة على الركوع والسجود. ﴿الآمرون بالمعروف﴾: ويدخل فيه جميع الواجبات والمستحبات. ﴿والناهون عن المنكر﴾: وهي جميع ما نهى الله ورسوله عنه. ﴿والحافظون لحدود الله﴾: بتعلمهم حدود ما أنزل الله على رسوله، وما يدخل في الأوامر والنواهي والأحكام، وما لا يدخل، الملازمون لها فعلاً وتركاً. ﴿وبشّر المؤمنين﴾: لم يذكر ما يبشّرهم به؛ ليعم جميع ما رتب على الإيمان من ثواب الدنيا والدين والآخرة؛ فالبشارة متناولة لكل مؤمن، وأما مقدارها وصفتها؛ فإنها بحسب حال المؤمنين وإيمانهم قوة وضعفاً وعملاً بمقتضاه.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤).

﴿١١٣﴾ يعني: ما يليق ولا يحسن للنبي وللمؤمنين به، ﴿أن يستغفروا للمشركين﴾؛ أي: لمن كفر به وعبد معه غيره، ﴿ولو كانوا أولي قربى من بعد ما

تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٤﴾ : فَإِنَّ الاستغفار لهم في هذه الحال غلطٌ غير مفيد؛ فلا يليقُ بالنبيِّ والمؤمنين؛ لأنَّهم إذا ماتوا على الشرك أو عُلِمَ أَنَّهُمْ يَمُوتُونَ عليه؛ فقد حَقَّتْ عليهم كلمة العذاب، ووجب عليهم الخلودُ في النار، ولم تنفع فيهم شفاعَةُ الشافعين ولا استغْفَارُ المستغفرين. وأيضاً؛ فَإِنَّ النبيَّ والذين آمنوا معه عليهم أن يوافقوا ربَّهم في رضاه ورضبه، ويوالوا مَنْ والاه الله، ويُعادوا من عاداه الله، والاستغفار منهم لمن تَبَيَّنَ أَنَّهُ من أصحاب النار منافيٌ لذلك مناقضٌ له.

﴿١١٤﴾ ولئن وُجِدَ الاستغفار من خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام لأبيه؛ فإنه ﴿عن موعدةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾: في قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾: وذلك قبل أن يعلم عاقبةَ أبيه، ﴿فلما تَبَيَّنَ﴾: لإبراهيم أن أباه ﴿عدوٌّ لِلَّهِ﴾: سيموت على الكفر، ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير؛ ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾: موافقةً لربِّه وتادباً معه. ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾؛ أي: رَجَّاعٌ إِلَى اللَّهِ في جميع الأمور، كثير الذكر والدُّعاء والاستغفار والإنابة إلى ربِّه. ﴿حَلِيمٌ﴾؛ أي: ذو رحمة بالخلق، وصفح عما يصدُرُ منهم إليه من الزلَّات، لا يستفزُّه جهلُ الجاهلين، ولا يقابل الجاني عليه بجُزْمِهِ، فأبوه قال له: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، وهو يقول له: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾؛ فعليكم أن تقتدوا وتَتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ في كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا قول إبراهيم لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾؛ كما نَبَّهَكُمْ اللَّهُ عليها وعلى غيرها. ولهذا قال:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿١١٥﴾ يعني: أن الله تعالى إذا مَنْ عَلَى قوم بالهداية وأمرهم بسلوك الصراط المستقيم؛ فإنه تعالى يَتِمُّ عليهم إحسانه، وَيُبَيِّنُ لَهُمْ جميع ما يحتاجون إليه وتدعو إليه ضرورتهم؛ فلا يتركهم ضالِّين جاهلين بأمور دينهم. ففي هذا دليلٌ على كمال رحمته، وأن شريعته وافيةٌ بجميع ما يحتاجه العبادُ في أصول الدين وفروعه. وَيُحْتَمَلُ أَنَّ المراد بذلك: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾: فإذا بَيَّنَّ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ، فلم ينقادوا له؛ عاقبهم بالإضلال جزاءً لهم على رُدِّهِمُ الْحَقَّ الْمُبِينَ، والأول أولى. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: فلكمال علمه وعمومه علمكم ما لم تكونوا تعلمون، وَيُبَيِّنُ لَكُمْ ما به تتنعفون.

﴿١١٦﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾؛ أي: هو المالك لذلك، المدبّر لعباده بالإحياء والإماتة وأنواع التدابير الإلهية؛ فإذا كان لا يُخْلُ بتدبيره القدريّ؛ فكيف يُخْلُ بتدبيره الدينيّ المتعلّق بالهيّته ويترك عباده سدى مهمّلين أو يدعهم ضالّين جاهلين وهو أعظم تولّيّه لعباده؟! فلهذا قال: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ أي: وليّ يتولّاكم بجلب المنافع لكم أو نصير يدفع عنكم المضارّ.

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١١٨).

﴿١١٧﴾ يخبر تعالى أنه من لطفه وإحسانه ﴿تاب على النبي﴾: محمد ﷺ، ﴿والمهاجرين والأنصار﴾: فغفر لهم الزلّات ووفّر لهم الحسنات ورقّاهم إلى أعلى الدرجات، وذلك بسبب قيامهم بالأعمال الصعبة الشاقّات، ولهذا قال: ﴿الذين اتّبعوه في ساعة العُسرة﴾؛ أي: خرجوا معه لقتال الأعداء في غزوة تبوك^(١)، وكانت في حرٍّ شديد وضيق من الزاد والركوب وكثرة عدوٍّ مما يدعو إلى التخلف، فاستعانوا الله تعالى، وقاموا بذلك ﴿من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم﴾؛ أي: تنقلب قلوبهم ويميلوا إلى الدّعة والسكون، ولكنّ الله ثبّتهم وأيدهم وقوّاهم.

وزيغ القلب هو انحرافه عن الصراط المستقيم؛ فإن كان الانحراف في أصل الدين؛ كان كفراً، وإن كان في شرائعه؛ كان بحسب تلك الشريعة التي زاعَ عنها: إما قصر عن فعلها، أو فعّلها على غير الوجه الشرعيّ. وقوله: ﴿ثمّ تاب عليهم﴾؛ أي: قبل توبتهم. ﴿إنّه بهم رءوفٌ رحيمٌ﴾: ومن رأفته ورحمته أنّ منّ عليهم بالتوبة وقبلها منهم، وثبّتهم عليها.

﴿١١٨﴾ ﴿و﴾ كذلك لقد تاب [الله] ﴿على الثلاثة الذين خَلَفُوا﴾: عن الخروج مع المسلمين في تلك الغزوة، وهم كعب بن مالك وصاحبا، وقصّتهم مشهورة

(١) في (ب): «وقعة تبوك».

معروفة في الصحاح والسنن^(١). ﴿حتى إذا﴾: حزنوا حزناً عظيماً، و﴿ضأقت﴾ عليهم الأرض بما رحبت؛ أي: على سعتها ورحبها، ﴿وضأقت عليهم أنفسهم﴾: التي هي أحب إليهم من كل شيء، فضاقت عليهم الفضاء الواسع والمحجوب الذي لم تجر العادة بالضييق منه، وذلك لا يكون إلا من أمر مزعج بلغ من الشدة والمشقة ما لا يمكن التعبير عنه، وذلك لأنهم قدموا رضا الله ورضا رسوله على كل شيء. ﴿وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه﴾؛ أي: تيقنوا وعرفوا بحالهم أنه لا ينجي من الشدائد ويُلجأ إليه إلا الله وحده لا شريك له، فانقطع تعلقهم بالمخلوقين، وتعلقوا بالله ربهم، وفرّوا منه إليه، فمكثوا بهذه الشدة نحو خمسين ليلة. ﴿ثم تاب عليهم﴾؛ أي: أذن في توبتهم ووفّقهم لها، ﴿ليتوبوا﴾؛ أي: لتقع منهم فيتوب الله عليهم. ﴿إن الله هو التواب﴾؛ أي: كثير التوبة والعفو والغفران عن الزلات والنقصان^(٢)، ﴿الرحيم﴾: وصفه الرحمة العظيمة التي لا تزال تنزل على العباد في كل وقت وحين، في جميع اللحظات ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية.

وفي هذه الآيات دليل على أن توبة الله على العبد أجل الغايات وأعلى النهايات؛ فإن الله جعلها نهاية خواص عباده، وامتّن عليهم بها حين عملوا الأعمال التي يحبها ويرضاها.

ومنها: لطف الله بهم، وتثبيتهم في إيمانهم عند الشدائد والنوازل المزعجة.

ومنها: أن العبادة الشاقة على النفس لها فضل ومزية ليست لغيرها، وكلما عظمت المشقة؛ عظم الأجر.

ومنها: أن توبة الله على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد، وأن من لا يبالي بالذنوب ولا يخرج إذا فعله؛ فإن توبته مدخولة، وإن زعم أنها مقبولة.

ومنها: أن علامة الخير وزوال الشدة إذا تعلق القلب بالله تعالى تعلقاً تاماً وانقطع عن المخلوقين.

ومنها: أن من لطف الله بالثلاثة أن سمّهم بوسم ليس بعارٍ عليهم، فقال:

(١) أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢١٢٠).

(٢) في (ب): «والعصيان».

﴿خُلِّفُوا﴾؛ إشارة إلى أن المؤمنين خَلَّفُوهم أو خُلِّفُوا عن مَنْ بُتَّ في قَبول عذرهم أو في رَدِّه، وأنهم لم يكن تخَلَّفهم رغبة عن الخير، ولهذا لم يقل: تَخَلَّفُوا. ومنها: أن الله تعالى مَنَّ عليهم بالصدق، ولهذا أمر بالاعتداء بهم، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (١١٩).

﴿١١٩﴾ أي: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا﴾: بالله وبما أمر الله بالإيمان به! قوموا بما يقتضيه الإيمان، وهو القيام بتقوى الله تعالى؛ باجتناب ما نهى الله عنه والبعد عنه، ﴿وكونوا مع الصادقين﴾: في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، الذين أقوالهم صدق، وأعمالهم وأحوالهم لا تكون إلا صدقاً، خَلِيَّةً من الكسل والفتور، سالمة من المقاصد السيئة، مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة؛ فإنَّ الصدق يهدي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنة؛ قال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ...﴾ الآية.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٢٠) وَلَا يُفْقِرُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢١).

﴿١٢٠﴾ يقول تعالى حاثاً لأهل المدينة المنورة من المهاجرين والأنصار ومَنْ حَوْلَهَا من الأعراب الذين أسلموا فَحَسَّنْ إسلامهم: ﴿ما كان لأهل المدينة ومَنْ حَوْلَهُم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله﴾؛ أي: ما ينبغي لهم ذلك ولا يليق بأحوالهم. ﴿ولا يرغبوا بأنفسهم﴾: في بقائها وراحتها، وسكونه ﴿عن نفسه﴾: الكريمة الزكية، بل النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم؛ فعلى كل مسلم أن يفدي النبي ﷺ بنفسه ويقدمه عليها؛ فعلمة تعظيم الرسول ومحبة والإيمان التام به أن لا يتخلفوا عنه. ثم ذكر الثواب الحامل على الخروج، فقال: ﴿ذلك بأنهم﴾؛ أي: المجاهدين في سبيل الله، ﴿لا يصيبهم ظمأ ولا نصب﴾؛ أي: تعب ومشقة، ﴿ولا مخمصة في سبيل الله﴾؛ أي: مجاعة، ﴿ولا يَطْؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾: من

الْخَوْضِ لِدْيَارِهِمْ وَالْإِسْتِيلَاءِ عَلَى أَوْطَانِهِمْ ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا﴾: كَالظَّفَرِ بِجَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْ الْغَنِيْمَةِ لِمَالٍ، ﴿لَا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾: لِأَنَّ هَذِهِ أَثَارَ نَاشِئَةٍ عَنْ أَعْمَالِهِمْ. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾: الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي مُبَادَرَتِهِمْ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ وَقِيَامِهِمْ بِمَا عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّهِ وَحَقِّ خَلْقِهِ؛ فَهَذِهِ الْأَعْمَالُ أَثَارٌ مِنْ أَثَارِ عَمَلِهِمْ.

﴿١٢١﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَا يَنْفَقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾: فِي ذَهَابِهِمْ إِلَى عَدُوِّهِمْ، ﴿لَا كُتِبَ لَهُمْ لِيُجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: وَمِنْ ذَلِكَ هَذِهِ الْأَعْمَالُ إِذَا أَخْلَصُوا فِيهَا لِلَّهِ، وَنَصَحُوا فِيهَا.

فَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ أَشَدُّ تَرْغِيبٍ وَتَشْوِيقٍ لِلنَّفُوسِ إِلَى الْخُرُوجِ إِلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالِاحْتِسَابِ لِمَا يَصِيبُهُمْ فِيهِ مِنَ الْمَشَقَّاتِ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَهُمْ رِفْعَةٌ فِي دَرَجَاتٍ، وَأَنَّ الْأَثَارَ الْمُرْتَبَةَ عَلَى عَمَلِ الْعَبْدِ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ كَبِيرٌ.

﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

﴿١٢٢﴾ يَقُولُ تَعَالَى مُنْهَأً لِعِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا يَنْبَغِي لَهُمْ: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾؛ أَي: جَمِيعاً لِقِتَالِ عَدُوِّهِمْ؛ فَإِنَّهُ يَحْصُلُ عَلَيْهِمُ الْمَشَقَّةُ بِذَلِكَ، وَيَفُوتُ^(١) بِهِ كَثِيرٌ مِنَ الْمَصَالِحِ الْآخَرَى، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ﴾؛ أَي: مِنَ الْبُلْدَانِ وَالْقَبَائِلِ وَالْأَفْخَاذِ ﴿طَائِفَةٌ﴾: تَحْصُلُ بِهَا الْكِفَايَةُ وَالْمَقْصُودُ؛ لَكَانَ أَوَّلَى.

ثُمَّ نَبَّهَ عَلَى أَنَّ فِي إِقَامَةِ الْمُقِيمِينَ مِنْهُمْ وَعَدَمِ خُرُوجِهِمْ مَصَالِحَ لَوْ خَرَجُوا لِفَاتِنَتِهِمْ، فَقَالَ: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا﴾؛ أَي: الْقَاعِدُونَ ﴿فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾؛ أَي: لِيَتَعَلَّمُوا الْعِلْمَ الشَّرْعِيَّ، وَيَعْلَمُوا مَعَانِيَهُ، وَيَفْقَهُوا أَسْرَارَهُ، وَلِيَعْلَمُوا غَيْرَهُمْ، وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ.

فَفِي هَذَا فَضِيلَةُ الْعِلْمِ، وَخُصُوصاً الْفَقْهُ فِي الدِّينِ، وَأَنَّهُ أَهَمُّ الْأُمُورِ، وَأَنَّ مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً؛ فَعَلِيهِ نَشْرُهُ وَبَثُّهُ فِي الْعِبَادِ وَنُصِيحَتُهُمْ فِيهِ؛ فَإِنَّ انْتِشَارَ الْعِلْمِ عَنِ الْعَالَمِ

(١) فِي (ب): «وَفُوتَ».

من بركته وأجره الذي ينمي^(١)، وأما اقتصار العالم على نفسه وعدم دعوتِهِ إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة وترك تعليم الجهّال ما لا يعلمون؛ فأَيُّ منفعة حصلت للمسلمين منه؟! وأي نتيجة نتجت من علمه؟! وغايته أن يموت فيموت علمُهُ وثمرته، وهذا غاية الحرمان لمن آتاه الله علماً، وَمَنَحَهُ فهماً.

وفي هذه الآية أيضاً دليل وإرشاد وتنبيه لطيف لفائدة مهمّة، وهي أن المسلمين ينبغي لهم أن يُعِدُّوا لكلِّ مصلحةٍ من مصالحهم العامّة من يقوم بها، ويوفّر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها؛ لتقوم مصالحهم، وتتمّ منافعهم، ولتكون وجهة جميعهم ونهاية ما يقصدون قصداً واحداً، وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم، ولو تفرّقت الطرق وتعدّدت المشارب؛ فالأعمال متباينة، والقصد واحد، وهذه من الحكمة العامّة النافعة في جميع الأمور.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٣).

﴿١٢٣﴾ وهذا أيضاً إرشاد آخر: بعدما أرشدهم إلى التدبير فيمن يباشر القتال؛ أرشدهم إلى أنهم يبدؤون بالأقرب فالأقرب من الكفار والغلظة عليهم والشدة في القتال والشجاعة والثبات. ﴿واعلموا أن الله مع المتّقين﴾؛ أي: وليكن لديكم علم أن المعونة من الله تنزل بحسب التقوى؛ فلازموا على تقوى الله؛ يُعِزِّكُمْ وينصِّرْكُمْ على عدوِّكم. وهذا العموم في قوله: ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾: مخصوص بما إذا كانت المصلحة في قتال غير الذين يلوننا، وأنواع المصالح كثيرة جداً.

﴿وَإِذَا مَا أَنزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (١٢٥) أَوَّلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَافٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ (١٢٦).

﴿١٢٤﴾ يقول تعالى مبيناً حال المنافقين وحال المؤمنين عند نزول القرآن وتفاوت ما بين الفريقين، فقال: ﴿وإذا ما أنزلت سورة﴾: فيها الأمر والنهي والخبر

(١) في (ب): «الذي ينمي له».

عن نفسه الكريمة وعن الأمور الغائبة والحث على الجهاد. ﴿فمنهم من يقول أئكم زادته هذه إيماناً﴾؛ أي: حصل الاستفهام لمن حصل له الإيمان بها من الطائفتين. قال تعالى مبيناً الحال الواقعة: ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً﴾: بالعلم بها وفهمها واعتقادها والعمل بها والرغبة في فعل الخير والانكفاف عن فعل الشر. ﴿وهم يستبشرون﴾؛ أي: يبشّر بعضهم بعضاً بما منّ الله عليهم من آياته والتوفيق لفهمها والعمل بها، وهذا دالٌّ على انشراح صدورهم لآيات الله، وطمأنينة قلوبهم، وسرعة انقيادهم لما تحثهم عليه.

﴿١٢٥﴾ ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض﴾؛ أي: شك ونفاق، ﴿فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾؛ أي: مرضاً إلى مرضهم، وشكاً إلى شكهم؛ من حيث إنهم كفروا بها وعاندوها وأعرضوا عنها، فازداد لذلك مرضهم، وترامى بهم إلى الهلاك والطبع على قلوبهم حتى ﴿ماتوا وهم كافرون﴾، وهذا عقوبة لهم لأنهم كفروا بآيات الله، وعصوا رسوله، فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه.

﴿١٢٦﴾ قال تعالى موبخاً على إقامتهم على ما هم عليه من الكفر والنفاق: ﴿أولاً يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾: بما يصيبهم من البلايا والأمراض، وبما يُبتَلَوْنَ من الأوامر الإلهية التي يُراد بها اختبارهم، ﴿ثم لا يتوبون﴾: عما هم عليه من الشر، ﴿ولا هم يذكرون﴾: ما ينفعهم في فعلونه وما يضرهم في تركونه؛ فالله تعالى يبتليهم كما هي سُنَّتُهُ في سائر الأمم بالسراء والضراء وبالأوامر والنواهي ليرجعوا إليه، ثم لا يتوبون، ولا هم يذكرون.

وفي هذه الآيات دليل على أنَّ الإيمان يزيد وينقص، وأنه ينبغي للمؤمن أن يتفقد إيمانه، ويتعاهده، فيجدده، ويثمه، ليكون دائماً في صعود وقوله:

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٢٧).

﴿١٢٧﴾ يعني: أن المنافقين الذين يحذرون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم. إذا نزلت سورة ليؤمنوا بها ويعملوا بمضمونها، ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾: جازمين على ترك العمل بها، ينتظرون الفرصة في الاختفاء عن أعين المؤمنين، ويقولون: ﴿هل يراكم من أحدٍ ثم انصرفوا﴾: متسللين وانقلبوا

معرضين، فجازاهم الله بعقوبة من جنس عملهم؛ فكما انصرفوا عن العمل؛ ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾؛ أي: صَدَّهَا عَنْ الْحَقِّ وَخَذَلَهَا، ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾: فقهاً ينفعهم؛ فإنَّهم لو فقهوا؛ لكانوا إذا نزلت سورة آمنوا بها وانقادوا لأمرها. والمقصود من هذا بيان شدة نفورهم عن الجهاد وغيره من شرائع الإيمان؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً مُحْكَمَةً وَذُكِّرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ حَسِبَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

﴿١٢٨﴾ يمتنُّ تعالى على عباده المؤمنين بما بغث فيهم النبي الأمي، الذي من أنفسهم، يعرفون حاله، ويتمكّنون من الأخذ عنه، ولا يأنفون عن الانقياد له، وهو ﷺ في غاية النصح لهم والسعي في مصالحهم. ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾؛ أي: يَشْتُقُّ عَلَيْهِ الْأَمْرُ الَّذِي يَشْتُقُّ عَلَيْكُمْ وَيُغْنِيكُمْ. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾: فيحبُّ لكم الخير، ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشر، ويسعى جهده في تنفيركم عنه. ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم، ولهذا كان حقه مقدماً على سائر حقوق الخلق، وواجب على الأمة الإيمان به وتعظيمه وتوقيره وتعزيزه^(١).

﴿١٢٩﴾ ﴿فَإِنْ﴾ آمنوا؛ فذلك حظهم وتوفيقيهم، وإن ﴿تَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان والعمل؛ فامضِ على سبيلك، ولا تنزل في دعوتك، وقل: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾؛ أي: الله كافٍ في جميع ما أمني. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبود بحق سواه. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾؛ أي: اعتمدت ووثقت به في جلب ما ينفع ودفع ما يضر. ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾: الذي هو أعظم المخلوقات، وإذا كان ربُّ العرش العظيم الذي وسع المخلوقات؛ كان رباً لما دونه من باب أولى وأحرى.

تم تفسير سورة التوبة بعون الله ومَنِّه. فله الحمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

(١) في (ب): «وتعزيزه وتوقيره».

تفسير سورة يونس

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ①﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ②﴾ .

﴿١﴾ يقول تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾: وهو هذا القرآن، المشتمل على الحكمة والأحكام، الدالة آياته على الحقائق الإيمانية والأوامر والنواهي الشرعية، الذي على جميع الأمة تلقّيه بالرضا والقبول والانقياد.

﴿٢﴾ ومع هذا؛ فأعرض أكثرهم فهم لا يعلمون، فتعجبوا ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾: عذاب الله، وخوفهم نِقَمَ الله، وذكرهم بآيات الله، ﴿وبشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: إيماناً صادقاً ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: لهم جزاء موفر وثواب مذخور عند ربهم بما قدّموه وأسلموه من الأعمال الصالحة الصادقة، فتعجب الكافرون من هذا الرجل العظيم تعجباً حملهم على الكفر به! ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ عنه: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾؛ أي: بين السحر، لا يخفى بزعمهم على أحد، وهذا مِنْ سَفَهِهِمْ وعنادهم؛ فإنهم تعجبوا من أمر ليس مما يُتَعَجَّبُ منه ويُستغرب، وإنما يُتَعَجَّبُ من جهالتهم وعدم معرفتهم بمصالحهم؛ كيف لم يؤمنوا بهذا الرسول الكريم الذي بَعَثَهُ اللهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ؛ يعرفونه حق المعرفة، فردّوا دعوته، وحرصوا على إبطال دينه؟! والله متم نوره ولو كره الكافرون.

﴿إِنْ رَيْتَكَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَافِعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ أَقْلًا تَذَكَّرُونَ ③﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّكُمْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ④﴾ .

﴿٣﴾ يقول تعالى مبيناً لربوبيّته وإلهيّته وعظمته: ﴿إِنْ رَيْتَكَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: مع أنه قادر على خلقها في لحظة واحدة، ولكن لما له في ذلك من الحكمة الإلهية، ولأنه رفيق في أفعاله، ومن جملة حكمته فيها أنّه خلقها بالحقّ وللحقّ؛ ليُعَرَفَ بأسمائه وصفاته، ويُفَرَّدَ بالعبادة. ﴿ثم﴾: بعد خلق السماوات والأرض ﴿استوى على العرش﴾: استواء يليق بعظمته ﴿يدبّر﴾

الأمر: ﴿ في العالم العلوي والسفلي؛ من الإماتة والإحياء، وإنزال الأرزاق، ومداولة الأيام بين الناس، وكشف الضّر عن المضرورين، وإجابة سؤال السائلين؛ فأنواع التدابير نازلةً منه وصاعدةً إليه، وجميع الخلق مذعنون لعزّه خاضعون لعظمته وسلطانه. ﴿ ما من شفيع إلا من بعد إذنِهِ ﴾: فلا يُقدّم أحدٌ منهم على الشفاعة، ولو كان أفضل الخلق، حتى يأذن الله، ولا يأذن إلا لمن ارتضى، ولا يرتضي إلا أهل الإخلاص والتوحيد له. ﴿ ذلكم ﴾: الذي هذا شأنه ﴿ الله ربكم ﴾؛ أي: هو الله الذي له وصفُ الإلهية الجامعة لصفات الكمال، ووصف الربوبية الجامع لصفات الأفعال. ﴿ فاعبدوه ﴾؛ أي: أفردوه بجميع ما تقدرون عليه من أنواع العبودية. ﴿ أفلا تذكرون ﴾: الأدلة الدالة على أنه وحده المعبود المحمود ذو الجلال والإكرام.

﴿ ٤ ﴾ فلما ذكر حكمه القدري، وهو التدبير العام، وحكمه الديني، وهو شرعه الذي مضمونه ومقصوده عبادته وحده لا شريك له؛ ذكر الحكم الجزائي، وهو مجازاته على الأعمال بعد الموت، فقال: ﴿ إليه مرجعكم جميعاً ﴾؛ أي: سيجمعكم بعد موتكم لميقات يوم معلوم. ﴿ إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾: فالقادر على ابتداء الخلق قادرٌ على إعادته، والذي يرى ابتداءه بالخلق ثم يتركز إعادته للخلق؛ فهو فاعلُ العقل، منكرٌ لأحد المثليين؛ مع إثبات ما هو أولى منه؛ فهذا دليلٌ عقلي واضحٌ على المعاد. ثم ذكر الدليل النقلي، فقال^(١): ﴿ وعد الله حقاً ﴾؛ أي: وعده صادقٌ لا بُدَّ من إتمامه، ﴿ ليجزي الذين آمنوا ﴾: بقلوبهم بما أمرهم الله بالإيمان به، ﴿ وعملوا الصالحات ﴾: بجوارجهم من واجبات ومستحبات ﴿ بالقسط ﴾؛ أي: بإيمانهم وأعمالهم جزاءً قد بينه لعباده وأخبر أنه لا تعلم نفسٌ ما أخفي لهم من قُرّة أعين. ﴿ والذين كفروا ﴾: بآيات الله، وكذبوا رسل الله ﴿ لهم شرابٌ من حميم ﴾؛ أي: ماء حارٌّ يشوي الوجوه ويقطع الأمعاء، ﴿ وعذاب اليم ﴾: من سائر أصناف العذاب، ﴿ بما كانوا يكفرون ﴾؛ أي: بسبب كفرهم وظلمهم، وما ظلمهم الله ولكن أنفُسهم يظلمون.

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرُ مَنَازِلَ لِيَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٥ ﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ٦

﴿ ٥ - ٦ ﴾ لما قرّر ربوبيته وإلهيته؛ ذكر الأدلة العقلية الأفقية الدالة على ذلك

(١) كذا في النسختين؛ جعل تفسير قوله: «وعد الله حقاً» بعد تفسير قوله: «إنه يبدأ الخلق ثم يعيده».

وعلى كماله في أسمائه وصفاته؛ من الشمس والقمر والسموات والأرض: وجميع ما خلق فيهما من سائر أصناف المخلوقات، وأخبر أنها آيات ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ و ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾؛ فَإِنَّ العلم يهدي إلى معرفة الدلالة فيها وكيفية استنباط الدلائل^(١) على أقرب وجه، والتقوى تُخَدِّثُ في القلب الرغبة في الخير والرهبة من الشر، الناشئتين عن الأدلة والبراهين وعن العلم واليقين.

وحاصل ذلك أَنَّ مجرد خلق هذه المخلوقات بهذه الصفة دالٌّ على كمال قدرة الله تعالى وعلمه وحياته وقِيُومِيته، وما فيها من الإحكام والإتقان والإبداع والخُسن دالٌّ على كمال حكمة الله وحسن خَلْقِهِ وسعة علمِهِ، وما فيها من أنواع المنافع والمصالح - كَجَعْلِ الشمس ضياءً والقمر نوراً يحصل بهما من النفع الضروري وغيره مما^(٢) يحصل - يدلُّ ذلك على رحمة الله تعالى واعتناؤه بعباده وسعة برِّه وإحسانه، وما فيها من التخصيصات دالٌّ على مشيئة الله وإرادته النافذة، وذلك دالٌّ على أنه وحده المعبودُ المحبوبُ المحمودُ ذو الجلال والإكرام والأوصاف العظام، الذي لا تنبغي الرغبة والرهبة إلا إليه، ولا يُضَرَفُ خالِصُ الدُّعاء إلا له لا لغيره من المخلوقات المربوبات المفتقرات إلى الله في جميع شؤونها.

وفي هذه الآيات الحثُّ والترغيب على التفكير في مخلوقات الله والنظر فيها بعين الاعتبار؛ فَإِنَّ بذلك تنفسح^(٣) البصيرة ويزداد الإيمان والعقل وتقوى القريحة، وفي إهمال ذلك تهاونٌ بما أمر الله به، وإغلاقٌ لزيادة الإيمان، وجمودٌ للذهن والقريحة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ (٧) أُولَئِكَ مَا لَهُمْ مَأْوَهُمْ أَنَارَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾.

﴿٧﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾؛ أي: لا يطمعون بلقاء الله، الذي هو أكبر ما طمع فيه الطامعون، وأعلى ما أمَّله المؤمنون، بل أعرضوا عن ذلك، وربما كذبوا به، ﴿ورضوا بالحياة الدنيا﴾: بدلاً عن الآخرة، ﴿واطمأننوا بها﴾؛ أي: ركنوا إليها، وجعلوها غاية أمرهم^(٤) ونهاية قصدهم؛ فسعوا لها، وأكبوا على لذاتها وشهواتها؛ بأيّ طريق حصلت حصلوها، ومن أيّ وجه لاحت ابتدروها، قد صرفوا إراداتهم ونياتهم وأفكارهم وأعمالهم إليها، فكانت لهم خُلِقُوا

(١) في (ب): «الدليل».

(٢) في (ب): «ما».

(٣) في (ب): «تتفتح».

(٤) في (ب): «مراهم».

للبقاء فيها، وكأنّها ليست بدارٍ^(١) مَمَرٌّ يتزوّد فيها المسافرون إلى الدار الباقية التي إليها يرحل الأولون والآخرون وإلى نعيمها ولذاتها شَمَرُ الموقّقون. ﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾: فلا ينتفعون بالآيات القرآنيّة ولا بالآيات الأفقيّة والنفسيّة، والإعراض عن الدليل مستلزمٌ للإعراض والغفلة عن المدلول المقصود.

﴿٨﴾ ﴿أولئك﴾: الذين هُذا وصفهم، ﴿مأواهُم النار﴾؛ أي: مقرهم ومسكنهم التي لا يرحلون عنها؛ ﴿بما كانوا يكسبون﴾: من الكفر والشرك وأنواع المعاصي. فلما ذكر عقابهم؛ ذكر ثواب المطيعين، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿٩﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: جمعوا بين الإيمان والقيام بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة، المشتملة على أعمال القلوب وأعمال الجوارح، على وجه الإخلاص والمتابعة. ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾؛ أي: بسبب ما معهم من الإيمان يُثيبيهم الله أعظم الثواب، وهو الهداية، فيُعَلِّمهم ما ينفعهم، ويَمُنُّ عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم، وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم، ولهذا قال: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾: الجارية على الدوام. ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾: أضافها الله إلى النعيم لاشتغالها على النعيم التام؛ نعيم القلب بالفرح والسرور والبهجة والحبور ورؤية الرحمن وسماع كلامه والاعتباط برضاه وقربه ولقاء الأحبة والإخوان والتمتع بالاجتماع بهم وسماع الأصوات المطربات والنعيمات المشجيات والمناظر المفرحات، ونعيم البدن بأنواع المأكّل والمشارب والمناكح ونحو ذلك مما لا تعلمه النفوس ولا خطر ببال أحدٍ، أو قدر أن يصفه الواصفون.

﴿١٠﴾ ﴿دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾؛ أي: عبادتهم فيها لله أولها تسبيح لله وتنزيه له عن النقائص، وآخرها تحميد لله؛ فالتكاليف سقطت عنهم في دار

الجزاء، وإنما بقي لهم أكمل اللذات، الذي هو ألدّ عليهم من المآكل اللذيذة، ألا وهو ذِكْرُ الله الذي تطمئنُّ به القلوب وتفرّح به الأرواح، وهو لهم بمنزلة النفس من دون كلفة ومشقة. ﴿و﴾ أما تحييتهم فيما بينهم عند التلاقي والتّزاور؛ فهو السلام؛ أي: كلامٌ سالمٌ من اللغو والإثم، موصوفٌ بأنه ﴿سلامٌ﴾. وقد قيل في تفسير قوله: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم﴾... إلى آخر الآية: إن أهل الجنة إذا احتاجوا إلى الطعام والشراب ونحوهما؛ قالوا: سبحانك اللهم! فأخضر لهم في الحال، فإذا فرغوا قالوا: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾.

﴿وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١١).

﴿١١﴾ وهذا من لطفه وإحسانه بعباده: أنّه لو عَجَّلَ لهم الشرّ إذا أتوا بأسبابه وبأذَرَهُم بالعقوبة على ذلك كما يعجّل لهم الخير إذا أتوا بأسبابه؛ ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾؛ أي: لمحقّتهم العقوبة، ولكنّه تعالى يمهّلهم ولا يهملهم ويعفو عن كثير من حقوقه؛ فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم؛ ما ترك على ظهرها من دابة، ويدخل في هذا أن العبد إذا غضب على أولاده أو أهله أو ماله ربّما دعا عليهم دعوة لو قُبِلَتْ منه؛ لهلكوا ولأضرّه ذلك غاية الضرر، ولكنّه تعالى حليمٌ حكيمٌ. وقوله: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾؛ أي: لا يؤمنون بالآخرة؛ فلذلك لا يستعدّون لها ولا يعملون ما يُنجيهم من عذاب الله، ﴿في طغيانهم﴾؛ أي: باطلهم الذي جاوزوا به الحقّ والحدّ ﴿يعمّهون﴾: يتردّدون حائرين، لا يهتدون السبيل، ولا يوفّقون لأقوم دليل، وذلك عقوبة لهم^(١) على ظلمهم وكفرهم بآيات الله.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَانًا لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢).

﴿١٢﴾ وهذا إخبارٌ عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنّه إذا مسّه ضرٌّ من مرض أو مصيبة؛ اجتهد في الدعاء، وسأل الله في جميع أحواله؛ قائماً وقاعداً ومضطجعاً، وألحّ في الدعاء؛ ليكشف الله عنه ضرّه، ﴿فلما كشفنا عنه ضرّه مرّ كأن لم يدعنا إلى ضرّ مسّه﴾؛ أي: استمر في غفلته معرضاً عن ربّه كأنه ما جاءه

(١) في (ب): «منه».

ضُرَّ فكشفه الله عنه؛ فأَيُّ ظلم أعظم من هذا الظلم؛ يطلب من الله قضاء غرضه؛ فإذا أناله إياه؛ لم ينظر إلى حقِّ ربِّه؛ وكأنه ليس عليه لله حقٌّ؟! وهذا تزيين من الشيطان زين له ما كان مستهجنًا مستقبحًا في العقول والفطر، ﴿كذلك زين للمسرفين﴾؛ أي: المتجاوزين للحدِّ ﴿ما كانوا يعملون﴾.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٣﴾ يخبر تعالى أنه أهلك الأمم الماضية بظلمهم وكفرهم بعدما جاءتهم البينات على أيدي الرسل^(١) تبين الحق، فلم ينقادوا لها، ولم يؤمنوا، فأحل بهم عقابه الذي لا يُردُّ عن كلِّ مجرم متجرئ على محارم الله، وهذه سنته في جميع الأمم.

﴿١٤﴾ ﴿ثم جعلناكم﴾ أي: المخاطبون ﴿خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون﴾؛ فإن أنتم اعتبرتم، واتعظتم بمن قبلكم، وأتبعتم آيات الله، وصدقتهم رسله؛ نجوئهم في الدنيا والآخرة، وإن فعلتم كفعل الظالمين قبلكم؛ أحل بكم ما أحل بهم، ومن أُنذِر فقد أَعذر.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَنْتِ بِشِرْءٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ أَفَلَا يَكُونُ لَكَ أَنْ أُولِئِكَ مِنْ تِلْقَائِي فَفَسِّحْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّكُمْ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿١٥﴾ يذكر تعالى تعنت المكذبين لرسوله محمد ﷺ، وأنهم إذا تُتلى عليهم آيات الله القرآنية المبينة للحق؛ أعرضوا عنها، وطلبوا وجوه التعنت، فقالوا جراءة منهم وظلماً: ﴿انت بقرآن غير هذا أو بدله﴾: فقبحهم الله؛ ما أجراهم على الله وأشدَّهم ظلماً ورداً لآياته! فإذا كان الرسول العظيم يأمره الله أن يقول لهم: ﴿قل

ما يكون لي؟؛ أي: ما ينبغي ولا يليق ﴿إِنْ أَبَدَلَهُ مِنْ تَلَقَاءِ نَفْسِي﴾؛ فإنني رسول محض، ليس لي من الأمر شيء. ﴿لَنْ أَتَّبِعَ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾؛ أي: ليس لي غير ذلك؛ فإنني عبدٌ مأمور، ﴿لَإِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: فهذا قولٌ خير الخلق وأدبه مع أوامر ربّه ووحيه؛ فكيف بهؤلاء السفهاء الضالّين الذين جمعوا بين الجهل والضلال والظلم والعناد والتعنّت والتعجيز لربّ العالمين؛ أفلا يخافون عذابَ يومٍ عظيم؟! فإن زعموا أنّ قصدهم أن يتيّئ لهم الحقّ بالآيات التي طلبوا؛ فهم كذّبة في ذلك؛ فإنّ الله قد بيّن من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، وهو الذي يصرفها كيف يشاء؛ تابِعاً لحكمته الربانيّة ورحمته بعباده.

﴿١٦﴾ ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا طَوِيلًا﴾ من قبله؟؛ أي: قبل تلاوته وقبل درايتكم به وأنا ما خَطَر على بالي ولا وقع في ظني. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: أنّي حيث لم أتقوله في مدة عمري، ولا صَدَرَ مني ما يدل على ذلك؛ فكيف أتقوله بعد ذلك، وقد لبثت فيكم عمراً طويلاً، تعرفون حقيقة حالي، بأنني أميّ لا أقرأ، ولا أكتب، ولا أدرس، ولا أتعلّم من أحد، فأتيتكم بكتاب عظيم أعجز الفصحاء وأعياء العلماء؛ فهل يمكن مع هذا أن يكون من تلقاء نفسي؟! أم هذا دليل قاطع أنه تنزيل من حكيم حميد؟! فلو أعملتم أفكاركم وعقولكم، وتدبّرتُم حالي وحال هذا الكتاب؛ لجزمتُم جزماً لا يقبل الرّيب بصدقيه، وأنّه الحقّ الذي ليس بعده إلا الضلال، ولكن إذا^(١) أبيتم إلا التكذيب والعناد؛ فإنتم لا شك أنكم ظالمون.

﴿١٧﴾ و ﴿مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾؛ فلو كنت متقولاً؛ لكنت أظلم الناس، وفاتني الفلاح، ولم تخف عليكم حالي، ولكني جئتكم بآيات الله، فكذبتم بها، فتعيّن فيكم الظلم، ولا بدّ أن أمركم سيضمحل ولن تنالوا الفلاح ما دمتم كذلك. ودلّ قوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا...﴾ الآية: أنّ الذي حمّلهم على هذا التّعنت الذي صدر منهم هو عدم إيمانهم بقاء الله وعدم رجائه وأنّ من آمن بقاء الله؛ فلا بدّ أن ينقاد لهذا الكتاب ويؤمن به، لأنّه حسن القصد.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ

أَتُنَبِّئُكَ أَنَّ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَقَعْلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ .

﴿١٨﴾ يقول تعالى: ﴿ويعبدون﴾؛ أي: المشركون المكذبون لرسول الله ﷺ من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم؛ أي: لا تملك لهم مثقال ذرة من النفع ولا تدفع عنهم شيئاً ﴿ويقولون﴾: قولاً خالياً من البرهان: ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾؛ أي: يعبدونهم ليقربوهم إلى الله ويشفعوا لهم عنده، وهذا قول من تلقاء أنفسهم، وكلامٌ ابتكروه هم، ولهذا قال مبطلاً لهذا القول: ﴿قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض﴾؛ أي: الله تعالى هو العالم الذي أحاط علماً بجميع ما في السماوات والأرض، وقد أخبركم بأنه ليس له شريك ولا إله معه؛ فأنتم يا معشر المشركين تزعمون أنه يوجد له فيها شركاء، أف்தخبرونه بأمر خفي عليه وعلمتموه؟! أنتم أعلم أم الله؟! فهل يوجد قولٌ أبطل من هذا القول المتضمن أن هؤلاء الضلال الجهال السفهاء أعلم من رب العالمين؟! فليكتف العاقل بمجرد تصور هذا القول؛ فإنه يجزم بفساده وبطلانه. ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾؛ أي: تقدس وتنزه أن يكون له شريك أو نظير، بل هو الله الأحد الفرد الصمد الذي لا إله في السماوات والأرض إلا هو، وكلُّ معبود في العالم العلوي والسفلي سواه فإنه باطلٌ عقلاً وشرعاً وفطرة، ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العليُّ الكبير﴾.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُيَ بَيْنَهُمْ فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَقَوْلُوكَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾ .

﴿١٩﴾ أي: ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة﴾: متفقين على الدين الصحيح، ولكنهم اختلفوا، ﴿فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾. ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾: بإمهال العاصين وعدم معاجلتهم بذنوبهم، ﴿لقضي بينهم﴾: بأن ننجي المؤمنين ونهلك الكافرين المكذبين، وصار هذا فارقاً بينهم ﴿فيما فيه يختلفون﴾، ولكنه أراد امتحانهم وابتلاء بعضهم ببعض؛ ليتبين الصادق من الكاذب.

﴿٢٠﴾ ﴿ويقولون﴾؛ أي: المكذبون المتعتنون: ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾؛ يعنون: آيات الاقتراح التي يعينونها؛ كقولهم: ﴿لولا أنزل إليه ملك فيكون معه

نذيراً... ﴿الآيات، وكقولهم: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً...﴾ الآيات. ﴿فقل﴾: لهم إذا طلبوا منك آية: ﴿إنما الغيب لله﴾؛ أي: هو المحيط علماً بأحوال العباد، فيدبرهم بما يقتضيه علمه فيهم وحكمته البديعة، وليس لأحدٍ تدبيرٍ في حكم ولا دليل ولا غاية ولا تعليل. ﴿فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾؛ أي: كل ينتظر بصاحبه ما هو أهلٌ له فانظروا لمن تكون العاقبة.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي ءَايَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢١﴾ يقول تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتْهُمْ﴾: كالصحة بعد المرض والغنى بعد الفقر والأمن بعد الخوف؛ نسوا ما أصابهم من الضراء، ولم يشكروا الله على الرخاء والرحمة، بل استمروا في طغيانهم ومكرهم، ولهذا قال: ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾؛ أي: يسعون بالباطل ليبطلوا به الحق. ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾: فإن المكر السيئ لا يحقق إلا بأهله؛ فمقصودهم منعكس عليهم، ولم يسلموا من التبعة، بل تكتب الملائكة عليهم ما يعملون، ويحصيه الله عليهم، ثم يجازيهم الله عليه أوفر الجزاء.

﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغْيِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿٢٢ - ٢٣﴾ لما ذكر تعالى القاعدة العامة في أحوال الناس عند إصابة الرحمة لهم بعد الضراء واليسر بعد العسر؛ ذَكَرَ حالة تؤيد ذلك، وهي حالهم في البحر عند اشتداده والخوف من عواقبه، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾: بما يسر لكم من الأسباب المسيرة لكم فيها وهداكم إليها. ﴿حتى إذا كنتم في الفلك﴾؛ أي: السفن البحرية، ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾: موافقة لما يهوونه من غير انزعاج ولا مشقة، ﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾: واطمأنوا إليها؛ فبينما هم كذلك؛ إذ جاءتهم ﴿ريحٌ عاصفٌ﴾: شديدة الهبوب، ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾؛ أي: عرفوا أنه الهلاك، فانقطع حينئذٍ تعلقهم بالمخلوقين،

وعرفوا أنه لا يُنجيهم من هذه الشدة إلا الله وحده، فدعوه ﴿مخلصين له الدين﴾: ووعدوا من أنفسهم على وجه الإلزام، فقالوا: ﴿لئن أنجيتنا من هذه لنكوننَّ من الشاكرين﴾. فلما أنجاهم إذا هم يبعون في الأرض بغير الحق؛ أي: نسوا تلك الشدة وذلك الدعاء وما ألزموه أنفسهم، فأشركوا بالله من اعترفوا أنه لا يُنجيهم من الشدائد ولا يدفع عنهم المضايق؛ فهلا أخلصوا لله العبادة في الرخاء كما أخلصوه في الشدة؟! ولكن هذا البغي يعود وبأله عليهم، ولهذا قال: ﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا﴾؛ أي: غاية ما تؤملون ببيغكم وشروءكم عن الإخلاص لله أن تنالوا شيئاً من حُطام الدنيا وجاهها النزر اليسير الذي سينقضي سريعاً ويمضي جميعاً ثم تنتقلون عنه بالرغم. ﴿ثم إلينا مرجعكم﴾: في يوم القيامة، ﴿فننبئكم بما كنتم تعملون﴾: وفي هذا غاية التحذير لهم عن الاستمرار على عملهم.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا آمْنَهَا آمْنًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿٢٤﴾ وهذا المثل من أحسن الأمثلة، وهو مطابق لحالة الدنيا؛ فإن لذاتها وشهواتها وجاهها ونحو ذلك يزهو لصاحبه إن زها وقتاً قصيراً؛ فإذا استكمل وتم؛ اضمحل وزال عن صاحبه أو زال صاحبه عنه، فأصبح صفر اليدين منها، ممتلىء القلب من همها وحزنها وحسرتها؛ فذلك ﴿كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض﴾؛ أي: نبت فيها من كل صنف وزوج بهيج، ﴿مما يأكل الناس﴾: كالحبوب والثمار، ﴿و﴾ مما تأكل ﴿الأنعام﴾: كأنواع العشب والكلأ المختلف الأصناف. ﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت﴾؛ أي: تزخرفت في منظرها واكتست في زينتها فصارت بهجة للناظرين ونزهة للمتفرجين وآية للمتبصرين، فصرت ترى لها منظراً عجيباً ما بين أخضر وأصفر وأبيض وغيره. ﴿وظن أهلها أنهم قادرون عليها﴾؛ أي: حصل معهم طمع بأن ذلك سيستمر ويدوم لوقوف إرادتهم^(١) عنده وانتهاء مطالبهم فيه؛ فبينما هم في تلك الحالة؛ أتاهم أمر الله ﴿ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس﴾؛ أي: كأنها ما كانت، فهذه حالة

(١) في (ب): «إراداتهم».

الدُّنْيَا سَوَاءٌ بِسَوَاءٍ. ﴿كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ﴾؛ أي: نبيّنها ونوضّحها بتقريب المعاني إلى الأذهان وضرب الأمثال، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ أي: يُعْمِلُونَ أَفْكَارَهُمْ فِيمَا يَنْفَعُهُمْ، وأما الغافل المعرض؛ فهذا لا تنفعه الآيات، ولا يزيلُ عنه الشكُّ البيانُ.

ولما ذكر الله حال الدُّنْيَا وحاصل نعيمها؛ شَوَّقَ إلى الدارِ الباقية، فقال:

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢٥﴾ عَمَّ تعالى عبادَه بالدعوة إلى دار السلام والحثُّ على ذلك والترغيب، وخصَّ بالهداية من شاء استخلاصه واصطفاه؛ فهذا فضلُه وإحسانُه، والله يختصُّ برحمته من يشاء، وذلك عدلُه وحكمته، وليس لأحدٍ عليه حُجَّةٌ بعد البيان والرسول، وسمى الله الجنة دار السلام لسلامتها من جميع الآفات والنقائص، وذلك لكمال نعيمها وتمامه وبقاءه وحسنه من كلِّ وجه.

﴿٢٦﴾ ولما دعا إلى دار السلام؛ كأن النفوس تشوّقت إلى الأعمال الموجبة لها الموصلة إليها، فأخبر عنها بقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾؛ أي: للذين أحسنوا في عبادة الخالق، بأنَّ عبودَه على وجه المراقبة والنصيحة في عبوديته، وقاموا بما قدرُوا عليه منها، وأحسنوا إلى عباد الله، بما يقدرُون عليه من الإحسان القولِّي والفعليّ: من بذل الإحسان المالي والإحسان البدنيّ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم الجاهلين ونصيحة المعرضين وغير ذلك من وجوه البرِّ والإحسان؛ فهؤلاء الذين أحسنوا لهم الحسنى، وهي الجنة الكاملة في حسناتها، وزيادتها، وهي النظر إلى وجه الله الكريم، وسماع كلامه، والفوز برضاه، والبهجة بقربه؛ فهذا حصل لهم أعلى ما يتمناه الممتنون، ويسأله السائلون.

ثم ذكر اندفاع المحذور عنهم، فقال: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾؛ أي: لا ينالهم مكروهٌ بوجه من الوجوه؛ لأنَّ المكروه إذا وقع بالإنسان؛ تبيّن ذلك في وجهه وتغيّر وتكدّر. وأما هؤلاء؛ فكما قال الله^(١) عنهم: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾، أولئك أصحاب الجنة الملازمون لها هم فيها خالدون، لا يحولون، ولا يزولون، ولا يتغيرون.

(١) في (ب): «فَهُمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ».

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿٢٧﴾ لما ذكر أصحاب الجنة؛ ذكر أصحاب النار، فذكر أن بضاعتهم التي اكتسبوها في الدنيا هي الأعمال السيئة المُسَخَّطَةُ لِلَّهِ من أنواع الكفر والتكذيب وأصناف المعاصي، فجزاؤهم سيئةٌ مثلها؛ أي: جزاء يسوؤهم بحسب ما عملوا من السيئات على اختلاف أحوالهم، ﴿وترهقهم﴾؛ أي: تغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾: في قلوبهم وخوفٌ من عذاب الله لا يدفعه عنهم دافعٌ ولا يعصمهم منه عاصمٌ، وتسري تلك الذلَّةُ الباطنة إلى ظاهرهم، فتكون سواداً في وجوههم^(١). ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: فكم بين الفريقين من الفَرْقِ! ويا بُغْدَ ما بينهما من التفاوت! ﴿وجوهٌ يومئذٍ نَّاصِرَةٌ. إِلَىٰ رَبِّهَا نَازِرَةٌ. وَوُجُوهٌُ يَوْمَئِذٍ بِاسِرَةٍ. تَطْنُ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾، ﴿وجوهٌ يومئذٍ مسفرةٌ. ضاحكةٌ مستبشرةٌ. ووجوهٌ يومئذٍ عليها غبرةٌ. ترهقها قِترَةٌ. أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجِرَةُ﴾.

﴿وَيَوْمَ نَخْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَلَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تُعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكُفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٢٨﴾ يقول تعالى: ﴿ويوم نخشَرُهُم جميعاً﴾؛ أي: نجتمع جميع الخلائق لميعاد يوم معلوم، ونحضِرُ المشركين وما كانوا يعبدون من دون الله، ﴿ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاءكم﴾؛ أي: الزموا مكانكم ليقع التَّحَاكُمُ والفَضْلُ بينكم وبينهم، ﴿فَزَلَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: فَرَقْنَا بينهم بالبعد البدني والقلبي، فحصلت^(٢) بينهم العداوةُ الشديدة بعد أن بَدَّلُوا لهم في الدُّنْيَا خالص المحبةَ وصفو الوداد، فانقلبت تلك المحبةُ والولاية بغضاً وعداوة. وتبرأ شركاءهم منهم وقالوا: ﴿ما كنتم إِيَّانَا تعبدون﴾: فإننا ننزه الله أن يكون له شريكٌ أو نديدٌ.

﴿٢٩﴾ ﴿فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾: ما

(٢) في (ب): «وحصلت».

(١) في (ب): «الوجوه».

أمرناكم بها ولا دعوناكم لذلك، وإنما عبدتم من دعاكم إلى ذلك، وهو الشيطان؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾، وقال: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾: فالملائكة الكرام والأنبياء والأولياء ونحوهم يتبرؤون ممن عبدتهم يوم القيامة، ويتصلون من دعائهم إياهم إلى عبادتهم، وهم الصادقون البارون في ذلك.

﴿٣٠﴾ فحينئذ يتحسر المشركون حسرة لا يمكن وصفها، ويعلمون مقدار ما قدّموا من الأعمال وما أسلفوا من رديء الخصال، ويتبين لهم يومئذ أنهم كانوا كاذبين، وأنهم مفترون على الله، قد ضلّت عبادتهم واضمحلت معبوداتهم وتقطّعت بهم الأسباب والوسائل، ولهذا قال: ﴿هَنَالِكُ﴾؛ أي: في ذلك اليوم، ﴿تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾: أي: تتفقد أعمالها وكسبها وتتبعه بالجزاء وتجازى بحسبه إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: من قولهم بصحة ما هم عليه من الشرك، وأن ما يعبدون من دون الله تنفعهم، وتدفع عنهم العذاب.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٣١) ﴿فَلَا يَكْفُرُ اللَّهُ رِزْقُكَ أَلْحَقٌ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ (٣٢) ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٣).

﴿٣١﴾ أي: قل لهؤلاء الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً محتجاً عليهم بما أقرّوا به من توحيد الربوبية على ما أنكروه من توحيد الإلهية: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾: بإنزال الأرزاق من السماء وإخراج أنواعها من الأرض وتيسير أسبابها فيها. ﴿أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾؛ أي: من هو الذي خلقهما وهو مالكما؟ وخصّهما بالذكر من باب التنبيه على المفضول بالفاضل، ولكمال شرفهما ونفعهما. ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾؛ كإخراج أنواع الأشجار والنبات من الحبوب والنوى، وإخراج المؤمن من الكافر، والطائر من البيضة... ونحو ذلك، ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾: عكس هذه المذكورات. ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾: في العالم العلوي والسفلي، وهذا شاملٌ لجميع أنواع التدابير الإلهية؛ فإنك إذا سألتهم عن ذلك؛ ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾: لأنهم يعترفون بجميع ذلك، وأن الله لا

شريك له في شيء من المذكورات، ﴿فَقُلْ﴾ لهم إلزاماً بالحجة: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: الله فتخلصون له العبادة وحده لا شريك له، وتخلعون ما تعبدون من دونه من الأنداد والأوثان.

﴿٣٢﴾ ﴿فَذَلِّكُمْ﴾: الذي وصف نفسه بما وصفها به ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾؛ أي: المألوه المعبود المحمود المرئي جميع الخلق بالنعم، وهو ﴿الْحَقُّ﴾ فماذا بعد الحق إلا الضلال: فإنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير لجميع الأشياء، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو، ذو الأسماء الحسنی والصفات الكاملة العظيمة والجلال والإكرام. ﴿فَأَنَّى تُضَرِّفُونَ﴾: عن عبادة من لهذا وصفه إلى عبادة الذي ليس له من وجوده إلا العدم ولا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا؛ فليس له من الملك مثقال ذرة، ولا شركة له بوجه من الوجوه، ولا يشفع عند الله إلا بإذنه.

﴿٣٣﴾ فتباً لمن أشرك به، وويحاً لمن كفر به؛ لقد عَدِمُوا عقولهم بعد أن عَدِمُوا أديانهم، بل فقدوا دنياهم وأخرهم، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: بعد أن^(١) أراهم الله من الآيات البينات والبراهين النيرات ما فيه عبرة لأولي الألباب وموعظة للمتقين وهدى للعالمين.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾
 ﴿٣٢﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَن يَضِلَّ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَقْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾.

﴿٣٤﴾ يقول تعالى مبيناً عجز آلهة المشركين وعدم اتصافها بما يوجب اتخاذها آلهة مع الله: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾؛ أي: يبتديه، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾: ولهذا استفهام بمعنى النفي والتقرير؛ أي: ما منهم أحد يبدأ الخلق ثم يعيده، وهي أضعف من ذلك وأعجز، ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾: من غير مشارك ولا معاون له على ذلك. ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: تصرفون وتُحرفون عن عبادة المنفرد

(١) في (ب): «بَعْدَ مَا».

بالبتداء والإعادة إلى عبادة مَنْ لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ.

﴿٣٥﴾ ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾: بيانه وإرشاده أو بإلهامه وتوفيقه، ﴿قُلِ اللَّهُ﴾: وحده ﴿يَهْدِي﴾: إلى الحقِّ بالأدلة والبراهين وبالإلهام والتوفيق والإعانة إلى سلوك أقوم طريق. ﴿أَمْنَ لَا يَهْدِي﴾؛ أي: لَا يَهْتَدِي ﴿إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ﴾: لعدم علمه ولضلاله، وهي شركاؤهم التي لَا تهدي وَلَا تهتدي إِلَّا أَنْ تُهْدَى. ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؛ أي: أيُّ شيء جعلكم تحكمون هَذَا الْحَكْمَ الْبَاطِلَ بِصَحَّةِ عِبَادَةِ أَحَدٍ مَعَ اللَّهِ بعد ظهور الحجة والبرهان أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ؟! فَإِذَا تَبَيَّنَ أَنَّهُ لَيْسَ فِي آلِهَتِهِمُ الَّتِي يَعْبُدُونَ مَعَ اللَّهِ أَوْصَافَ مَعْنَوِيَّةٍ وَلَا أَوْصَافَ فِعْلِيَّةٍ تَقْتَضِي أَنْ تُعْبَدَ مَعَ اللَّهِ، بَلْ هِيَ مُتَّصِفَةٌ بِالنَّقَائِصِ الْمَوْجُوبَةِ لِبُطْلَانِ إِلَهِيَّتِهَا؛ فَلَأَيُّ شَيْءٍ جُعِلَتْ مَعَ اللَّهِ آلِهَةٌ؟!

﴿٣٦﴾ فالجواب: إِنَّ هَذَا مِنْ تَزْيِينِ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ أَقْبَحَ الْبَهْتَانِ وَأَضْلَّ الضَّلَالِ، حَتَّى اعْتَقَدَ ذَلِكَ، وَأَلْفَهُ، وَظَنَّهُ حَقًّا وَهُوَ لَا شَيْءَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾؛ أي: مَا يَتَّبِعُونَ فِي الْحَقِيقَةِ شُرَكَاءَ لِلَّهِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِلَّهِ شَرِيكَ أَصْلًا عَقْلًا وَلَا نَفْلًا، وَإِنَّمَا يَتَّبِعُونَ الظَّنَّ، وَ ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾: فَسَمَّوْهَا آلِهَةً وَعَبَدُوهَا مَعَ اللَّهِ؛ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾: وَسَيَجَازِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ بِالْعُقُوبَةِ الْبَلِيغَةِ.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّابٌ كَذَّابٌ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاظْطَرُّوا كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُهُ الظَّالِمِينَ (٣٩) وَمَنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠) وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ وَمِمَّا تَعْمَلُونَ (٤١).

﴿٣٧﴾ يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: غير ممكن ولا متصور أَنْ يُفْتَرَى هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى اللَّهِ [تعالى]؛ لِأَنَّهُ الْكِتَابُ الْعَظِيمُ، الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ، وَهُوَ الْكِتَابُ الَّذِي لَوْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ

بعضهم لبعض ظهيراً، وهو الكتاب^(١) الذي تكلم به رب العالمين؛ فكيف يقدر أحد من الخلق أن يتكلم بمثله أو بما يقاربه والكلام تابع لعظمة المتكلم ووصفه؟! فإن كان أحد يماثل الله في عظمته وأوصاف كماله؛ أمكن أن يأتي بمثل هذا القرآن، ولو تنزلنا على الفرض والتقدير، فتقوله أحد على رب العالمين؛ لعاجله بالعقوبة وبإداره بالنكال.

ولكن الله أنزل هذا الكتاب رحمة للعالمين وحجة على العباد أجمعين، أنزله ﴿تصديق الذي بين يديه﴾: من كتب الله السماوية؛ بأن وافقها وصدقها بما شهدت به وبشّرت بنزوله، فوقع كما أخبرت، ﴿وتفصيل الكتاب﴾: للحلال والحرام والأحكام الدينية والقدرية والإخبارات الصادقة. ﴿لا ريب فيه من رب العالمين﴾؛ أي: لا شك ولا مزية فيه بوجه من الوجوه، بل هو الحق اليقين، تنزيل من رب العالمين، الذي ربى جميع الخلق بنعمه، ومن أعظم أنواع تربيته أن أنزل عليهم هذا الكتاب الذي فيه مصالحهم الدينية والدنيوية، المشتمل على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال.

﴿٣٨﴾ ﴿أم يقولون﴾؛ أي: المكذبون به عناداً وبغياً: ﴿افتراه﴾: محمد على الله واختلقه، ﴿قل﴾: لهم ملزماً لهم بشيء، إن قدروا عليه؛ أمكن ما ادّعوه، وإلا كان قولهم باطلاً: ﴿فأتوا بسورة مثله وادّعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾: يعاونكم على الإتيان بسورة مثله، وهذا محال، ولو كان ممكناً؛ لادّعوا قدرتهم على ذلك، ولأتوا بمثله، ولكن لما بان عجزهم؛ تبين أن ما قالوه باطل، لا حظ له من الحجة.

﴿٣٩﴾ والذي حملهم على التكذيب بالقرآن المشتمل على الحق الذي لا حق فوقه أنهم لم يحيطوا به علماً؛ فلو أحاطوا به علماً وفهموه حق فهمه؛ لأدعوا بالتصديق به، وكذلك إلى الآن لم يأتهم تأويله الذي وعدهم أن ينزل بهم العذاب، ويحل بهم النكال، وهذا التكذيب الصادر منهم من جنس تكذيب من قبلهم، ولهذا قال: ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾: وهو الهلاك الذي لم يبق منهم أحداً؛ فليحذر هؤلاء أن يستمروا على تكذيبهم، فيحل بهم ما أحل^(٢) بالأمم المكذبين والقرون المهلكين.

(٢) في (ب): «حل».

(١) في (ب): «وهو كتاب الله».

وفي هذا دليل على الثبوت في الأمور، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يبادر بقبول شيء أو رده قبل أن يحيط به علماً.

﴿٤٠﴾ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾؛ أي: بالقرآن وما جاء به، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾: وهم الذين لا يؤمنون به على وجه الظلم والعناد والفساد، فسيجازيهم على فسادهم بأشد العذاب.

﴿٤١﴾ ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾: فاستمر على دعوتك، وليس عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء، لكل عمله. ﴿فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤٢) ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ﴾ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٤٤).

﴿٤٢﴾ يخبر تعالى عن بعض المكذبين للرسول ولما جاء به: ﴿و﴾ إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ: إلى النبي ﷺ وقت قراءته للوحي، لا على وجه الاسترشاد، بل على وجه التفرُّج والتكذيب وتطلُّب^(١) العثرات، ولهذا استماع غير نافع ولا مجدٍ على أهله خيراً، لا جرم انسدهم عليهم باب التوفيق وحرموا من فائدة الاستماع، ولهذا قال: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾: وهذا الاستفهام^(٢) بمعنى النفي المتقرر؛ أي: لا تُسمع الصُّم الذين لا يستمعون القول ولو جهرت به، وخصوصاً إذا كان عقلهم معدوماً؛ فإذا كان من المحال إسماع الأصم الذي لا يعقل للكلام؛ فهؤلاء المكذبون كذلك ممتنع إسماعك إيَّاهم إسماعاً ينتفعون به، وأما سماع^(٣) الحجة؛ فقد سمعوا ما تقوم عليهم به حجة الله البالغة؛ فهذا طريق عظيم من طرق العلم قد انسدهم عليهم، وهو طريق المسموعات المتعلقة بالخبر.

﴿٤٣﴾ ثم ذكر انسداد الطريق الثاني، وهو طريق النظر فقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾: فلا يفيدُه نظره إليك، ولا سَبَرَ أحوالك شيئاً فكما أنك لا تهدي العمي

(١) في (ب): «وتطلُّب».

(٢) في (ب): «وهذا استفهام».

(٣) في (ب): «إسماع».

توحيد الله ودينه . فإذا جاءهم ﴿رسولهم﴾ بالآيات؛ صدّقه بعضهم وكذّبه آخرون، فيقضي الله بينهم بالقسط بنجاة المؤمنين وإهلاك المكذبين . ﴿وهم لا يظلمون﴾: بأن يعذبوا قبل إرسال الرسول وبيان الحجّة، أو يعذبوا بغير جرمهم .

﴿٤٨ - ٤٩﴾ فليحذر المكذّبون لك من مشابهة الأمم المهلكين فيحلّ بهم ما حلّ بأولئك ولا يستبطنوا العقوبة ويقولوا: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾: فإنّ هذا ظلم منهم؛ حيث طلبوه من النبي ﷺ؛ فإنه ليس له من الأمر شيء، وإنما عليه البلاغ والبيان للناس، وأما حسابهم وإنزال العذاب عليهم؛ فمن الله تعالى، يُنزّل^(١) عليهم إذا جاء أجل الذي أجّله فيه والوقت الذي قدره فيه الموافق لحكمته الإلهية؛ فإذا جاء ذلك الوقت؛ لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . فليحذر المكذّبون من الاستعجال؛ فإنهم مستعجلون بعذاب الله الذي إذا نزل لا يُردُّ بأسه عن القوم المجرمين . ولهذا قال:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ بَيْنَا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعِجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَتَرَوْهُ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ءَلَكُنْ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾ .

﴿٥٠﴾ يقول تعالى: ﴿قل أرايتم إن أتاكم عذابه بيّناً﴾: وقت نومكم بالليل، ﴿أو نهاراً﴾: في وقت غفلتكم، ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾؛ أي: أيّ بشارة استعجلوا بها، وأيّ عقاب ابتدروه؟

﴿٥١﴾ ﴿أئنم إذا ما وقع آمنتم به﴾: فإنه لا ينفع الإيمان حين حلول عذاب الله، ويقال لهم توبيخاً وعتاباً في تلك الحال التي زعموا أنهم يؤمنون: ﴿الآن﴾: تؤمنون في حال الشدّة والمشقة، ﴿وقد كنتم به تستعجلون﴾: فإنّ سنة الله في عباده أنه يعذبهم إذا استعتبوه قبل وقوع العذاب؛ فإذا وقع العذاب؛ لا ينفع نفساً إيمانها؛ كما قال تعالى عن فرعون لما أدركه الغرق: ﴿قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، وأنه يُقال له: ﴿الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾، وقال تعالى: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده﴾، وقال هنا: ﴿أئنم إذا ما وقع آمنتم به الآن﴾: تدعون الإيمان^(٢)،

(١) في (ب): «يُنزّله» .

(٢) في (ب): «تدعون للإيمان» .

﴿وقد كنتم به تستعجلون﴾: فهذا ما عملت أيديكم، وهذا ما استعجلتم به.

﴿٥٢﴾ ثم قيل للذين ظلموا: حين يوفون أعمالهم يوم القيامة: ﴿ذوقوا عذاب الخلد﴾؛ أي: العذاب الذي تخلدون فيه، ولا يفتّر عنكم ساعة. ﴿هل تجزؤون إلا بما كنتم تكسبون﴾: من الكفر والتكذيب والمعاصي.

﴿وَيَسْتَنْبِثُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُمْ لَحَقُّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ قَفْسٍ ظِلْمَةٌ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿٥٣﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ويستنبثونك أحق هو﴾؛ أي: يستخبرك المكذبون على وجه التعتُّ والتعناد لا على وجه التبيين والاسترشاد^(١). ﴿أحق هو﴾؛ أي: أصحح حشر العباد وبعثهم بعد موتهم ليوم المعاد وجزاء العباد بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر؟ ﴿قل﴾: لهم مقسماً على صحته مستدلاً عليه بالدليل الواضح والبرهان: ﴿إي وربّي إنّه لحق﴾: لا مزيّة فيه ولا شبهة تعتريه، ﴿وما أنتم بمعجزين﴾: لله أن يبعثكم؛ فكما ابتداء خلقكم ولم تكونوا شيئاً؛ كذلك يعيدكم مرّة أخرى ليجازيكم بأعمالكم.

﴿٥٤﴾ ﴿و﴾ إذا كانت القيامة، فلو ﴿أنّ لكلّ نفس ظلمت﴾: بالكفر والمعاصي جميع ﴿ما في الأرض﴾: من ذهب وفضّة وغيرهما؛ لتفتدي به من عذاب الله، ﴿لافتدت به﴾: ولما نفّعها ذلك، وإنما النفع والضّر والثواب والعقاب على الأعمال الصالحة والسيئة، ﴿وأسرؤا﴾؛ أي: الذين ظلموا، ﴿الندامة لما رأوا العذاب﴾: ندما على ما قدّموا ولات حين مناص، ﴿وقضي بينهم بالقسط﴾؛ أي: العدل التام الذي لا ظلم ولا جور فيه بوجه من الوجوه.

﴿٥٥﴾ ﴿ألا إن لله ما في السموات والأرض﴾: يحكم فيهم بحكمه الديني والقدري، وسيحكم فيهم بحكمه الجزائي، ولهذا قال: ﴿ألا إن وعد الله حقّ ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾: فلذلك لا يستعدّون للقاء الله، بل ربّما لم يؤمنوا به، وقد تواترت عليه الأدلة القطعيّة والبراهين النقليّة والعقليّة.

(١) في (ب): «والرشاد».

﴿٥٦﴾ ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾؛ أي: هو المتصرف بالإحياء والإماتة وسائر أنواع التدابير^(١) لا شريك له في ذلك. ﴿وإليه تُرجعون﴾: يوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾
 ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

﴿٥٧﴾ يقول تعالى مرغباً للخلق في الإقبال على هذا الكتاب الكريم بذكر أوصافه الحسنة الضرورية للعباد فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: تعظكم وتذكركم عن الأعمال الموجبة لسخط الله، المقتضية لعقابه، وتحذركم عنها ببيان آثارها ومفاسدها، ﴿وشفاء لما في الصدور﴾: وهو هذا القرآن، شفاء لما في الصدور من أمراض الشهوات الصّادة عن الانقياد للشرع، وأمراض الشبهات القاذحة في العلم اليقيني؛ فإنّ ما فيه من المواعظ والترغيب والترهيب والوعد والوعيد مما يوجب للعبد الرغبة والرغبة، وإذا وُجدت فيه الرغبة في الخير والرّهبة عن الشرّ ونمتا على تكرّر ما يرد إليها من معاني القرآن؛ أوجب ذلك تقديم مراد الله على مراد النفس، وصار ما يرضي الله أحبّ إلى العبد من شهوة نفسه، وكذلك ما فيه من البراهين والأدلة التي صرّفها الله غاية التصريف وبينها أحسن بيان مما يزيل الشبهة القاذحة في الحقّ ويصل به القلب إلى أعلى درجات اليقين، وإذا صحّ القلب من مرضه، ورَقَلَ بأثواب العافية؛ تبعته الجوارح كلّها؛ فإنها تصلح بصلاحه وتفسد بفساده.

﴿وهدى ورحمة للمؤمنين﴾: فالهدى هو العلم بالحقّ والعمل به، والرحمة هي ما يحصل من الخير والإحسان والثواب العاجل والآجل لمن اهتدى به؛ فالهدى أجل الوسائل، والرحمة أكمل المقاصد والرغائب، ولكن لا يهتدي به ولا يكون رحمة إلا في حقّ المؤمنين، وإذا حصل الهدى وحلت الرحمة الناشئة عنه؛ حصلت السعادة والفلاح والربح والنجاح والفرح والسرور.

﴿٥٨﴾ ولذلك أمر تعالى بالفرح بذلك، فقال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ﴾: الذي هو القرآن، الذي هو أعظم نعمة ومِنَّة وفضل تفضّل الله به على عباده، ورحمته: الدين

والإيمان وعبادة الله ومحَبَّته ومعرفته. ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾: من متاع الدنيا ولذاتها؛ فنعمة الدين المتَّصلة بسعادة الدارين لا نسبة بينها وبين جميع ما في الدنيا مما هو مضمحلٌّ زائل عن قريب. وإنَّما أمر الله تعالى بالفرح بفضلِهِ ورحمته؛ لأنَّ ذلك مما يوجب انبساط النفس ونشاطها وشكرها لله تعالى وقوَّتْها وشِدَّة الرغبة في العلم والإيمان الداعي للازدياد منهما، وهذا فرحٌ محمودٌ؛ بخلاف الفرح بشهوات الدنيا ولذاتها أو الفرح بالباطل؛ فإنَّ هذا مذمومٌ؛ كما قال تعالى عن قوم قارون له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾، وكما قال تعالى في الذين فرحوا بما عندهم من الباطل المناقض لما جاءت به الرسل: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ بَيْنَهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَاللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَنَّهُ عَلَى اللَّهِ تَقَرُّونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿٥٩﴾ يقول تعالى منكرًا على المشركين الذين ابتدعوا تحريم ما أحلَّ الله وتحليل ما حرَّمه^(١): ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾؛ يعني: أنواع الحيوانات المحلَّلة التي جعلها الله رزقًا لهم ورحمة في حقِّهم، قل لهم موبخًا على هذا القول الفاسد: ﴿أَلَلَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾: ومن المعلوم أنَّ الله لم يأذن لهم؛ فعَلِمَ أنهم مفترون.

﴿٦٠﴾ ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: أن يفعل الله بهم من النكال ويُجِلَّ بهم من العقاب؛ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مَّسْوَدَّةٌ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾: كثير وذو إحسان جزيل. ولكنَّ أكثر الناس لا يشكرون، إما أن لا يقوموا بشكرها، وإما أن يستعينوا بها على معاصيه، وإما أن يحرموا منها، ويردُّوا ما منَّ الله به على عباده، وقليلٌ منهم الشاكر الذي يعترف بالنعمة، ويشني بها على الله، ويستعين بها على طاعته.

ويستدل بهذه الآية على أنَّ الأصل في جميع الأطعمة الحلُّ؛ إلَّا ما ورَدَ الشرع

(١) في (ب): «ما حرَّم».

بتحريمه؛ لأن الله أنكر على من حرّم الرزق الذي أنزله لعباده.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾﴾.

﴿٦١﴾ يخبر تعالى عن عموم مشاهدته وإطلاعه على جميع أحوال العباد في حركاتهم وسكناتهم، وفي ضمن هذا الدعوة لمراقبته على الدوام، فقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾؛ أي: حال من أحوالك الدينية والدنيوية، ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾؛ أي: وما تتلو من القرآن الذي أوحاه الله إليك، ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾: صغير أو كبير، ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾؛ أي: وقت شروءكم فيه واستمراركم على العمل به، فراقبوا الله في أعمالكم، وأدوها على وجه النصيحة والاجتهاد فيها، وإياكم وما يكره الله تعالى؛ فإنه مطلع عليكم عالمٌ بظواهركم وبواطنكم. ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ﴾؛ أي: ما يُغَابُ عن علمه وسمعه وبصره ومشاهدته ﴿مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾؛ أي: قد أحاط به علمه وجرى به قلمه. وهاتان المرتبتان من مراتب القضاء والقدر كثيراً ما يُقرنُ الله بينهما، وهما العلم المحيط بجميع الأشياء وكتابته المحيطة بجميع الحوادث؛ كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

﴿إِنَّا أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لِلَّهِ لِمَا كَلِمَتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ أَفْزَرُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿٦٢﴾ يخبر تعالى عن أوليائه وأحبائه ويذكر أعمالهم وأوصافهم وثوابهم، فقال: ﴿إِنَّا أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: فيما يستقبلونه مما أمامهم من المخاوف والأهوال، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: على ما أسلفوا؛ لأنهم لم يسلفوا إلا صالح الأعمال، وإذا كانوا لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون؛ ثبت لهم الأمن والسعادة والخير الكثير الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

﴿٦٣﴾ ثم ذكر وصفهم، فقال: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: بالله وملائكته وكتبه ورسله

واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وصدّقوا إيمانهم باستعمال التقوى بامثال الأوامر واجتناب النواهي؛ فكلُّ من كان مؤمناً تقياً؛ كان لله تعالى ولياً.

﴿٦٤﴾ و ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾: أما البشارة في الدنيا؛ فهي الثناء الحسن والموّدة في قلوب المؤمنين والرؤيا الصالحة وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق وصرفه عن مساوئ الأخلاق، وأما في الآخرة؛ فأولها البشارة عند قبض أرواحهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾: وفي القبر ما يُبَشِّرُ به من رضا الله تعالى والنعيم المقيم، وفي الآخرة تمام البشرى بدخول جنات النعيم والنجاة من العذاب الأليم. ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾: بل ما وعد الله؛ فهو حق لا يمكن تغييره ولا تبديله؛ لأنه الصادق في قيله، الذي لا يقدر أحدٌ أن يخالفه فيما قدره وقضاه. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: لأنه اشتمل على النجاة من كلِّ محذور، والظفر بكلِّ مطلوب محبوب، وحصر الفوز فيه؛ لأنه لا فوز لغير أهل الإيمان والتقوى.

والحاصل أنَّ البشرى شاملة لكل خير وثواب ربّه الله في الدنيا والآخرة على الإيمان والتقوى، ولهذا أطلق ذلك فلم يقيده.

﴿وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦٥).

﴿٦٥﴾ أي: ولا يحزنك قول المكذّبين فيك من الأقوال التي يتوصّلون بها إلى القدح فيك وفي دينك؛ فإن أقوالهم لا تُعْزُهُم ولا تُضْرِكُ شيئاً. ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾؛ يؤتيها من يشاء ويمنعها ممن يشاء، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدَ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: فليطلبها بطاعته؛ بدليل قوله بعده: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾: ومن المعلوم أنك على طاعة الله، وأنَّ العِزَّةَ لك ولاتباعك من الله. ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾. وقوله: ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾؛ أي سمعه قد أحاط بجميع الأصوات؛ فلا يخفى عليه شيء منها؛ وعلمه قد أحاط بجميع الظواهر والبواطن؛ فلا يَغْزُبُ عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وهو تعالى يسمعُ قولك وقول أعدائك فيك، ويعلم ذلك تفصيلاً؛ فاكتفِ بعلم الله وكفايته؛ فمن يتق الله فهو حسبه.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَسْمَعُ الَّذِي يَدْعُوكَ مِنْ

دُوبِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
الْأَيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ .

﴿٦٦﴾ يخبر تعالى أن له ما في السماوات والأرض خلقاً وملكاً [وعبيداً]،
يتصرف فيهم بما يشاء ^(١) من أحكامه؛ فالجميع ممالك لله مسخرون مدبرون لا
يستحقون شيئاً من العبادة وليسوا شركاء لله بوجه من الوجوه، ولهذا قال: ﴿وما
يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾: الذي لا يغني من
الحق شيئاً، ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾: في ذلك خرص ^(٢) وإفك وبهتان؛ فإن كانوا
صادقين في أنها شركاء لله؛ فليظهِروا من أوصافها ما تستحق به مثقال ذرة من
العبادة؛ فلن يستطيعوا؛ فهل منهم أحد يخلق شيئاً أو يرزق أو يملك شيئاً من
المخلوقات أو يدبر الليل والنهار الذي جعله الله قياماً للناس؟!

﴿٦٧﴾ وهو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه: في النوم والراحة بسبب
الظلمة التي تغطي وجه الأرض؛ فلو استمر الضياء؛ لما قروا ولما سكنوا. ﴿و﴾
جعل الله ﴿النهار مبصراً﴾؛ أي: مضيئاً يبصر به الخلق فيتصرفون في معاشهم
ومصالح دينهم ودنياهم. ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾: عن الله سمع فهم
وقبول واسترشاد، لا سمع تعنت وعناد؛ فإن في ذلك لآيات لقوم يسمعون
يستدلون بها على أنه وحده المعبود، وأنه الإله الحق، وأن إلهية ما سواه باطلة،
وأنه الرؤوف الرحيم العليم الحكيم.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِداً سُبْحَنَهُ هُوَ الْعَزِيزُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ
عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ قُلِ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ
عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِتْنَا مَرْجِعَهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ
الشَّدِيدَ يَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ﴿٧٠﴾ .

﴿٦٨﴾ يقول تعالى مخبراً عن بهت المشركين لرَبِّ العالمين: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ
ولداً﴾: فتنزه نفسه عن ذلك بقوله: ﴿سبحانه﴾؛ أي: تنزه عما يقول الظالمون في
نسبة النقائص إليه علواً كبيراً. ثم برهن عن ذلك بعدة براهين:

(١) في (ب): «بما شاء».

(٢) في (ب): «في ذلك خرص كذب».

أحدها قوله: ﴿هو الغني﴾؛ أي: الغنى منحصر فيه، وأنواع الغنى مستغرقة فيه؛ فهو الغني الذي له الغنى التام بكل وجه واعتبار من جميع الوجوه؛ فإذا كان غنياً من كل وجه؛ فلا شيء يتخذ الولد؟! الحاجة منه إلى الولد؟ فهذا منافٍ لغناه؛ فلا يتخذ أحداً ولداً إلا لنقص في غناه!

البرهان الثاني قوله: ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾: وهذه كلمة جامعة عامة، لا يخرج عنها موجودٌ من أهل السماوات والأرض، الجميع مخلوقون عبيدٌ ممالك، ومن المعلوم أن هذا الوصف العام ينافي أن يكون له [منهم] ولد؛ فإن الولد من جنس والده، لا يكون مخلوقاً ولا مملوكاً؛ فملكيته لما في السماوات والأرض عموماً تنافي الولادة.

البرهان الثالث قوله: ﴿إن عندكم من سلطانٍ بهذا﴾؛ أي: هل عندكم من حجة وبرهان يدل على أن لله ولداً؟! فلو كان لهم دليل؛ لأبدوه، فلما تحدّاهم وعجزهم عن إقامة الدليل؛ علم بطلان ما قالوه، وأن ذلك قولٌ بلا علم، ولهذا قال: ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾: فإن هذا من أعظم المحرمات.

﴿٦٩ - ٧٠﴾ ﴿قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾؛ أي: لا ينالون مطلوبهم ولا يحصل لهم مقصودهم، وإنما يتمتعون في كفرهم وكذبهم في الدنيا قليلاً، ثم ينتقلون إلى الله ويرجعون إليه، فيذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون، وما ظلمهم الله، ولكن أنفسهم يظلمون.

﴿٧١﴾ ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَفْقَهُوا إِن كَانَتْ كِبَرٌ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِّيرِي بِمَا نَزَّلَ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَاحِ وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَفَاءَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَأَنْظَرْنَاهُ كَيْفَ كَانَ عَذَابُ النَّذِيرِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿٧١﴾ يقول تعالى لنبيه: واطل على قومك ﴿نبا نوح﴾: في دعوته لقومه حين دعاهم إلى الله مدة طويلة فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلم يزددهم دعاؤه إياهم إلا طغياناً، فتملأوا منه وسئموا، وهو عليه الصلاة والسلام غير متكاسل ولا متوانٍ في دعوتهم، فقال لهم: ﴿يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري

بآيات الله؛ أي: إن كان مقامي عندكم وتذكيري إياكم ما ينفعهم^(١) بآيات الله الأدلة الواضحة البينة، قد شق عليكم، وعظم لديكم، وأردتم أن تنالوني بسوء أو تردوا الحق. ﴿فعلى الله توكلت﴾؛ أي: اعتمدت على الله في دفع كل شر يُراد بي وبما أَدْعُو إليه؛ فهذا جندي وعدتي. وأنتم؛ فاتوا بما قدرتم عليه من أنواع العُدَد والعدَد، ﴿فاجمعوا أمركم﴾: كلكم بحيث لا يتخلف منكم أحد ولا تذخروا^(٢) من مجهودكم شيئاً، ﴿و﴾ أحضروا ﴿شركاءكم﴾: الذين كنتم تعبدونهم وتوالونهم من دون الله رب العالمين، ﴿ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة﴾؛ أي: مشتبهاً خفياً، بل ليكن ذلك ظاهراً علانية. ﴿ثم اقضوا إلي﴾؛ أي: اقضوا عليّ بالعقوبة والسوء الذي في إمكانكم، ﴿ولا تنظروني ساعة من نهار﴾.

فهذا برهان قاطع وآية عظيمة على صحة رسالته وصدق ما جاء به؛ حيث كان وحده لا عشيرة تحميه ولا جنود تؤويه، وقد بادى قومه بتسفيه آرائهم وفساد دينهم وغيب آلهتهم، وقد حملوا من بغضه وعداوته ما هو أعظم من الجبال الرواسي، وهم أهل القدرة والسطوة، وهو يقول لهم: اجتمعوا أنتم وشركاؤكم ومن استطعتم، وأبدوا كل ما تقدرُونَ عليه من الكيد، فأوقعوا بي إن قدرتم على ذلك، فلم يقدرُوا على شيء من ذلك، فعلم أنه الصادق حقاً، وهم الكاذبون فيما يدعون.

﴿٧٢﴾ ولهذا قال: ﴿فإن توليتم﴾: عن ما دعوتكم إليه؛ فلا موجب لتوليكم؛ لأنه تبين أنكم لا تولون عن باطل إلى حق، وإنما تولون عن حق قامت الأدلة على صحته إلى باطل قامت الأدلة على فساده، ومع هذا؛ ﴿فما سألتكم من أجر﴾: على دعوتي وعلى إجابتكم، فتقولوا: هذا جاءنا ليأخذ أموالنا فتمتنعون لأجل ذلك. ﴿إن أجري إلا على الله﴾؛ أي: لا أريد الثواب والجزاء إلا منه، ﴿و﴾ أيضاً؛ فإنني ما أمرتكم بأمر وأخالفكم إلى ضده. بل ﴿أمِرتُ أن أكون من المسلمين﴾: فأنأ أول داخل وأول فاعل لما أمرتكم به.

﴿٧٣﴾ ﴿فكذبوه﴾: بعدما دعاهم ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً فلم يزدهم دعاؤه إلا

(١) كذا في النسختين. ولعل الصواب: «ما ينفعكم».

(٢) في (ب): «ولا تذخرون».

فَرَارًا. ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ﴾: الذي أمرناه أن يصنعه بأعيننا، وقلنا له: إذا فار الثور؛ فاحمل فيها من كل زوجين اثنين، وأهلك؛ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ، وَمَنْ آمَنَ، ففعل ذلك، فأمر الله السماء بماء منهمر، وفجّر الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمرٍ قد قُدِرَ، وحملناه على ذات ألواح ودُسُر، تجري بأعيننا. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾: في الأرض بعد إهلاك المكذبين، ثم بارك الله في ذريته وجعل ذريته هم الباقين، ونشرهم في أقطار الأرض، ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾: بعد ذلك البيان وإقامة البرهان. ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾: وهو الهلاك المخزي واللعنة المتتابعة عليهم في كل قرن يأتي بعدهم، لا تسمع فيهم إلا لوماً، ولا ترى إلا قدحاً وذمّاً؛ فليحذر هؤلاء المكذّبون أن يحلّ بهم ما حلّ بأولئك الأقوام المكذّبين من الهلاك والخزي والنكال.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٧٤).

﴿٧٤﴾ أي: ثم بعثنا من بعد نوح عليه السلام، ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾: المكذّبين يدعونهم إلى الهدى ويحذرونهم من أسباب الردى، ﴿فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي: كل نبي أيدّ دعوته بالآيات الدالة على صحة ما جاء به. ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾؛ يعني: أن الله تعالى عاقبهم حيث جاءهم الرسول فبادروا بتكذيبه، طبع الله على قلوبهم، وحال بينهم وبين الإيمان بعد أن كانوا متمكّنين منه؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَقَلُبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. ولهذا قال هنا: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾؛ أي: نختم عليها فلا يدخلها خير، وما ظلمهم الله، ولكنهم ظلموا أنفسهم برّدهم الحقّ لما جاءهم وتكذيبهم الأول.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَىٰ وَهَارُونَ^(١) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ (٧٥) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (٧٦) ﴿قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ (٧٧) ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَكَ عَمَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا

(١) في (ب): إلى آخر القصة.

وَتَكُونُ لَكُمْ الْكَرْبِيَّةَ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُخَيِّئُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يُقَوْمُ إِن كُنتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَان سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴿٩٠﴾ وَجَوَّزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ ءَالْكَفَرِ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩٢﴾ فَالْيَوْمَ نَجْعِكَ بِدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُورًا صَدَقَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ أَمْرُهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٤﴾ ﴿٩٥﴾

﴿٧٥﴾ أي: ثم بعثنا من بعد هؤلاء الرسل الذين أرسلهم الله إلى القوم المكذبين المهلكين ﴿موسى﴾: ابن عمران كليم الرحمن أحد أولي العزم من المرسلين وأحد الكبار المقتدى بهم المنزل عليهم الشرائع المعظمة الواسعة. ﴿و﴾ جعلنا معه أخاه ﴿هارون﴾ وزيراً. بعثناهما ﴿إلى فرعون وملائته﴾؛ أي: كبار دولته ورؤسائهم؛ لأنَّ عامتهم تبع للرؤساء، ﴿بآياتنا﴾: الدالة على صدق ما جاء به من توحيد الله والنهي عن عبادة ما سوى الله تعالى. ﴿فاستكبروا﴾: عنها ظلماً وعلواً بعدما استيقنوها، ﴿وكانوا قوماً مجرمين﴾؛ أي: وصفهم الإجرام والتكذيب.

﴿٧٦﴾ ﴿فلما جاءهم الحق من عندنا﴾: الذي هو أكبر أنواع الحق وأعظمها، وهو من عند الله، الذي خضعت لعظمته الرقاب، وهو رب العالمين المربي جميع

خلقه بالنعيم، فلما جاءهم الحق من عند الله على يد موسى؛ ردّوه فلم يقبلوه، و ﴿قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾: لم يكفهم قبحهم الله إعراضهم ولا ردّهم إياه، حتى جعلوه أبطل الباطل، وهو السحر الذي حقيقته التمويه، بل جعلوه سحراً مبيناً ظاهراً، وهو الحق المبين.

﴿٧٧﴾ وَلِهَذَا ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ ﴿مُوسَى﴾ مُوبِخاً لَهُمْ عَنْ رَدِّهِمُ الْحَقَّ الَّذِي لَا يَرُدُّهُ إِلَّا أَظْلَمُ النَّاسِ: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ﴾؛ أي: أ تقولون: إنّه سحرٌ مبينٌ. ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾؛ أي: فانظروا وصفه وما اشتمل عليه؛ فبمجرّد ذلك يجزم بأنّه الحق، ﴿وَلَا يَفْلَحُ السَّاحِرُونَ﴾: لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ فانظروا لمن تكون له العاقبة، ولمن له الفلاح وعلى يديه النجاح، وقد علموا بعد ذلك وظهر لكل أحد أن موسى عليه السلام هو الذي أفلح، وفاز بظفر الدنيا والآخرة.

﴿٧٨﴾ ﴿قَالُوا﴾ لِمُوسَى رَائِيْنَ لِقَوْلِهِ بِمَا لَا يَرُدُّهُ: ﴿أَجِئْنَا لِتَلْفِئْتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾؛ أي: أ جئنا لتصدّنا عما وجدنا عليه آبائنا من الشرك وعبادة غير الله وتأمرنا بأن نعبد الله وحده لا شريك له؛ فجعلوا قول آبائهم الضالين حجة يردّون بها الحق الذي جاءهم به موسى عليه السلام. وقوله^(١): ﴿وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: وجئتمونا لتكونوا أنتم الرؤساء ولتخرجونا من أراضينا؟ ولهذا تمويه منهم وترويج على جهالهم وتهييج لعوائهم على معاداة موسى وعدم الإيمان به، ولهذا لا يحتج به من عرف الحقائق وميّز بين الأمور؛ فإنّ الحجج لا تدفع إلا بالحجج والبراهين، وأما من جاء بالحق؛ قرّد قوله بأمثال هذه الأمور؛ فإنها تدلّ على عجز موردها عن الإتيان بما يردّ القول الذي جاء^(٢) به خصمه؛ لأنّه لو كان له حجة؛ لأوردها، ولم يلجأ إلى قوله: قصدك كذا أو مرادك كذا، سواء كان صادقاً في قوله وإخباره عن قصد خصمه أم كاذباً، مع أنّ موسى عليه الصلاة والسلام كل من عرف حاله وما يدعو إليه؛ عرف أنه ليس له قصد في العلو في الأرض، وإنما قصده كقصد إخوانه المرسلين، هداية الخلق وإرشادهم لما فيه نفعهم. ولكن حقيقة الأمر كما نطقوا به بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: تكبراً وعناداً، لا لبطلان ما جاء به موسى وهارون، ولا لاشتباه فيه، ولا لغير ذلك من المعاني سوى الظلم والعدوان وإرادة العلو الذي رموا به موسى وهارون.

(١) في (ب): «وقولهم».

(٢) في (ب): «جاءه».

﴿٧٩﴾ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾؛ معارضاً للحق الذي جاء به موسى ومغالباً^(١) لملئيه وقومه: ﴿اثنوني بكل ساحر عليم﴾؛ أي: ماهر بالسحر متقن له. فأرسل في مدائن مصر من أتاه بأنواع السحرة على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم.

﴿٨٠﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾: للمغالبة لموسى^(٢)، ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾؛ أي: أي شيء أردتم، لا أعين لكم شيئاً، وذلك لأنه جازم بغلبته غير مبال بهم وبما جاؤوا به.

﴿٨١﴾ ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾: حبالهم وعصيهم إذا هي كأنها حيات تسعى، فقال ﴿مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ﴾؛ أي: هذا السحر الحقيقي العظيم، ولكن مع عظمتهم ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾؛ فإنهم يريدون بذلك نصر الباطل على الحق، وأي فساد أعظم من هذا؟! وهكذا كل مفسد عمل عملاً واحتال كيداً أو أتى بمكر؛ فإن عمله سيُبطَل ويضمحل، وإن حصل لعمله روجان في وقت ما؛ فإن ماله الأضمحل والمحق، وأما المصلحون الذين قصدهم بأعمالهم وجه الله تعالى، وهي أعمال ووسائل نافعة مأمور بها؛ فإن الله يصلح أعمالهم ويرقيها ويُنمّيها على الدوام.

﴿٨٢﴾ فألقى موسى عصاه، فتلقفت جميع ما صنعوا، فبطل سحرهم، واضمحل باطلهم. ﴿و﴾ أحق ﴿اللَّهُ الْحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾: فألقى السحرة حين تبين لهم الحق، فتوعدّهم فرعون بالصلب وتقطيع الأيدي والأرجل، فلم يبالوا بذلك، وثبتوا على إيمانهم.

﴿٨٣﴾ وأما فرعون وملؤه وأتباعهم؛ فلم يؤمن منهم أحد، بل استمروا في طغيانهم يعمهون، ولهذا قال: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾؛ أي: شباب من بني إسرائيل صبروا على الخوف لما ثبت في قلوبهم الإيمان، ﴿على خوفٍ من فرعون وملئهم أَنْ يَفْتَنَهُمْ﴾: عن دينهم. ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: له القهر والغلبة فيها؛ فحقيق بهم أن يخافوا من بطشته، ﴿و﴾ خصوصاً ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾؛ أي: المتجاوزين للحد في البغي والعدوان. والحكمة - والله أعلم - بكونه ما آمن لموسى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ من قومه: أَنَّ الذُرِّيَّةَ والشباب أقبل للحق وأسرع له انقياداً؛ بخلاف الشيوخ ونحوهم ممن تربى على الكفر؛ فإنهم بسبب ما مكث في

(١) في (ب): «ومغالطاً».

(٢) في (ب): «مع موسى».

قلوبهم من العقائد الفاسدة أبعد من الحق من غيرهم.

﴿٨٤﴾ ﴿وقال موسى﴾: موصياً لقومه بالصبر، ومذكراً لهم ما يستعينون به على ذلك، فقال: ﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله﴾: فقوموا بوظيفة الإيمان، وعلى الله ﴿توكلوا إن كنتم مسلمين﴾؛ أي: اعتمدوا عليه والجؤوا إليه واستنصروه.

﴿٨٥﴾ ﴿فقالوا﴾: ممثلين لذلك: ﴿على الله توكلنا ربنا لا نجعلنا فتنه للقوم الظالمين﴾؛ أي: لا تسلطهم علينا فيفتنونا أو يغلبونا، فيفتنونا بذلك، ويقولون: لو كانوا على حق لما غلبوا.

﴿٨٦﴾ ﴿ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾: لنسلم من شرهم ولنقيم على ديننا^(١) على وجهه نتمكن به من إقامة شرائعه وإظهاره من غير معارض ولا منازع.

﴿٨٧﴾ ﴿وأوحينا إلى موسى وأخيه﴾: حين اشتد الأمر على قومه من فرعون وقومه وحرصوا على فتنتهم عن دينهم، ﴿أن تبوأ لقومكما بمصر بيوتاً﴾؛ أي: مروهم أن يجعلوا لهم بيوتاً يتمكّنون به من الاستخفاء فيها، ﴿واجعلوا بيوتكم قبله﴾؛ أي: اجعلوها محلاً تصلون فيها حيث عجزتم عن إقامة الصلاة في الكنائس والبيع العامة. ﴿وأقيموا الصلاة﴾: فإنها معونة على جميع الأمور، ﴿وبشّر المؤمنين﴾: بالنصر والتأييد وإظهار دينهم؛ فإن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً. وحين اشتد الكرب وضاق الأمر؛ فرّجه الله ووسعه.

﴿٨٨﴾ فلما رأى موسى القسوة والإعراض من فرعون وملئهم؛ دعا عليهم وأمن هارون على دعائه، فقال: ﴿ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة﴾: يتزينون بها من أنواع الحلي والثياب والبيوت المزخرفة والمراكب الفاخرة والخدام، ﴿وأموالاً﴾: عظيمة ﴿في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك﴾؛ أي: إن أموالهم لم يستعينوا بها إلا على الإضلال في سبيلك فيضلّون ويضلّون. ﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾؛ أي: أتلفها عليهم إما بالهلاك وإما بجعلها حجارة غير منفع بها، ﴿واشدّد على قلوبهم﴾؛ أي: قسّها، ﴿فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾: قال ذلك غضباً عليهم حيث تجرّؤوا على محارم الله وأفسدوا عباد الله وصدّوا عن سبيله، ولكمال معرفته بربه بأن الله سيعاقبهم على ما فعلوا بإغلاق باب الإيمان عليهم.

﴿٨٩﴾ ﴿قال﴾ الله تعالى: ﴿قد أجيبت دعوتكما﴾: هذا دليل على أن موسى

(١) في (ب): «ولنقيم ديننا».

يدعو وهارون يؤمن على دعائه، وإن الذي يؤمن يكون شريكاً للداعي في ذلك الدعاء. ﴿فاستقيماً﴾: على دينكما، واستمراً على دعوتكما، ﴿ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾؛ أي: لا تتبعان سبيل الجهال الضلال، المنحرفين عن الصراط المستقيم، المتبعين لطرق الجحيم.

﴿٩٠﴾ فأمر الله موسى أن يسري ببني إسرائيل ليلاً، وأخبره أنهم سَيَتَّبِعُونَهُ^(١)، وأرسل فرعون في المدائن حاشرين يقولون: إِنَّ هَؤُلَاءِ - أي: موسى وقومه - لشُرذمة قليلون. وإنهم لنا لغائطون. وإنا لجميع حاذرون. فجمع جنوده قاصيهم ودانيهم، فأتبعهم بجنوده بغياً وعدواً؛ أي: خروجهم باغين على موسى وقومه ومعتدين في الأرض، وإذا اشتد البغي واستحكم الذنب؛ فانتظر العقوبة. ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾: وذلك أَنَّ الله أوحى إلى موسى لما وصل البحر أن يضربه بعصاه، فضربه، فانفلق اثني عشر طريقاً، وسلكه بنو إسرائيل، وساق فرعون وجنودهم خلفهم^(٢) داخلين، فلما استكمل موسى وقومه خارجين من البحر وفرعون وجنوده داخلين فيه؛ أمر الله البحر، فالتطم على فرعون وجنوده، فأغرقهم وبنو إسرائيل ينظرون، حتى إذا أدرك فرعون الغرق وجزم بهلاكه؛ ﴿قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل﴾: وهو الله الإله الحق الذي لا إله إلا هو، ﴿وأنا من المسلمين﴾؛ أي: المنقادين لدين الله، ولما جاء به موسى.

﴿٩١﴾ قال الله تعالى مبيناً أَنَّ هذا الإيمان في هذه الحالة غير نافع له: ﴿الآن﴾: تؤمن وتقر برسول الله، ﴿وقد عصيت قبل﴾؛ أي: بارزت بالمعاصي والكفر والتكذيب، ﴿وكنت من المفسدين﴾: فلا ينفعك الإيمان كما جرث عادة الله أن الكفار إذا وصلوا إلى هذه الحالة الاضطرارية أنه لا ينفعهم إيمانهم؛ لأنَّ إيمانهم صار إيماناً مشاهداً؛ كإيمان من ورد القيامة، والذي ينفع إنما هو الإيمان بالغيب.

﴿٩٢﴾ ﴿فاليوم ننجيكَ بيدنك لتكون لمن خلفك آية﴾: قال المفسرون: إنَّ بني إسرائيل لما في قلوبهم من الرعب العظيم من فرعون، كأنهم لم يصدقوا بإغراقه، وشكوا في ذلك، فأمر الله البحر أن يلقيه على نجوة مرتفعةً ببدنه؛ ليكون لهم عبرة وآية. ﴿وإنَّ كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾: فلذلك تمرُّ عليهم وتكرر فلا

(١) في (ب): «يَتَّبِعُونَ».

(٢) كذا في النسختين. وفي (أ) غيرت إلى: «وجنوده خلفه» بخط مغاير.

ينتفعون بها؛ لعدم إقبالهم عليها، وأما من له عقل وقلب حاضر؛ فإنه يرى من آيات الله ما هو أكبر دليل على صحة ما أخبرت به الرسل.

﴿٩٣﴾ ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ﴾؛ أي: أنزلهم الله وأسكنهم في مساكن آل فرعون، وأورثهم أرضهم وديارهم، ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾: من المطاعم والمشارب وغيرهما، ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾: في الحق ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾: الموجب لاجتماعهم وائتلافهم، ولكن بغى بعضهم على بعض، وصار لكثير منهم أهوية وأغراض تخالف الحق، فحصل بينهم من الاختلاف شيء كثير. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: بحكمه العدل الناشئ عن علمه التام وقدرته الشاملة.

وهذا هو الداء الذي يعرض لأهل الدين الصحيح، وهو أنَّ الشيطان إذا أعجزوه أن يطيعوه في ترك الدين بالكليَّة، سعى في التحريش بينهم وإلقاء العداوة والبغضاء، فحصل من الاختلاف ما هو موجبٌ ذلك، ثم حصل من تضليل بعضهم لبعض وعداوة بعضهم لبعض ما هو قرّة عين اللعين، وإلا؛ فإذا كان ربُّهم واحداً ورسولهم واحداً ودينهم واحداً ومصالحهم العامة متفقة؛ فلا شيء يختلفون اختلافاً يفرق شملهم ويشتت أمرهم ويحلُّ رابطتهم ونظامهم فيفوت من مصالحهم الدنيئة والدنيوية ما يفوت ويموت من دينهم بسبب ذلك ما يموت؟! فتسألك اللهم لطفاً بعبادك المؤمنين، يجمع شملهم، ويرأب صدعهم، ويرد قاصيهم على دانيهم يا ذا الجلال والإكرام!

﴿إِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿٩٤﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾: هل هو صحيح أم غير صحيح، ﴿فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك﴾؛ أي: اسأل أهل الكتب المنصفين والعلماء الراشحين؛ فإنهم سيقروا لك بصدق ما أخبرت به وموافقته لما معهم.

فإن قيل: إن كثيراً من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، بل ربما كان أكثرهم ومعظمهم، كذبوا رسول الله، وعاندوه، وردوا عليه دعوته، والله تعالى أمر رسوله

أن يستشهد بهم، وجعل شهادتهم حجة لما جاء به وبرهاناً على صدقه؛ فكيف يكون ذلك؟! فالجواب عن هذا من عدة أوجه:

منها: أن الشهادة إذا أضيفت إلى طائفة أو أهل مذهب أو بلد ونحوهم؛ فإنها إنما تتناول العدول الصادقين منهم، وأما من عداهم؛ فلو كانوا أكثر من غيرهم؛ فلا عبرة فيهم؛ لأن الشهادة مبنية على العدالة والصدق، قد حصل ذلك بإيمان كثير من أحبارهم الربانيين؛ كعبد الله بن سلام^(١) وأصحابه وكثير ممن أسلم في وقت النبي ﷺ وخلفائه ومن بعدهم.

ومنها: أن شهادة أهل الكتاب للرسول مبنية على كتابهم التوراة الذي ينتسبون إليه؛ فإذا كان موجوداً في التوراة ما يوافق القرآن ويصدقّه ويشهد له بالصحة؛ فلو اتفقوا من أولهم وآخرهم على إنكار ذلك؛ لم يقدح بما جاء به الرسول.

ومنها: أن الله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بأهل الكتاب على صحة ما جاءه وأظهر ذلك وأعلنه على رؤوس الأشهاد، ومن المعلوم أن كثيراً منهم من أحرص الناس على إبطال دعوة الرسول محمد ﷺ؛ فلو كان عندهم ما يرد ما ذكره الله؛ لأبدؤوا وأظهروه ويؤنوه، فلما لم يكن شيء من ذلك؛ كان عدم رد المعادي وإقرار المستجيب من أدل الأدلة على صحة هذا القرآن وصدقه.

ومنها: أنه ليس أكثر أهل الكتاب رد دعوة الرسول، بل أكثرهم استجاب لها وانقاد طوعاً واختياراً؛ فإن الرسول بُعِثَ وأكثر أهل الأرض المتدينين أهل الكتاب^(٢)، فلم يمكث ديثه مدة غير كثيرة حتى انقاد للإسلام أكثر أهل الشام ومصر والعراق وما جاورها من البلدان التي هي مقر دين أهل الكتاب ولم يبق إلا أهل الرياسات الذين آثروا رياستهم على الحق ومن تبعهم من العوام الجهلة ومن تدبّر بدينهم اسماً لا معنى؛ كالإفرنج الذين حقيقة أمرهم أنهم دهرية منحلون عن جميع أديان الرسل، وإنما انتسبوا للدين المسيحي ترويحاً لملكهم وتمويهاً لباطلهم؛ كما يعرف ذلك من عرف أحوالهم البينة الظاهرة.

وقوله: ﴿لقد جاءك الحق﴾؛ أي: الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه، ﴿من

(١) في (ب): «كعبد الله بن سلام وكعب الأحبار وغيرهما». ثم عدل عنها الشيخ في (أ) إلى ما هو مثبت.

(٢) في (ب): «أهل كتاب».

رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ^(٩٥)﴾: كقوله تعالى: ﴿كَتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾.

﴿٩٥﴾ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾: وحاصل هذا أَنَّ اللَّهَ نَهَى عَنْ شَيْئَيْنِ: الشُّكُّ فِي هَذَا الْقُرْآنِ، وَالْامْتِرَاءُ مِنْهُ. وَأَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ التَّكْذِيبُ بِهِ، وَهُوَ آيَاتِ اللَّهِ الْبَيِّنَاتِ، الَّتِي لَا تَقْبَلُ التَّكْذِيبَ بِوَجْهِه، وَرَتَّبَ عَلَى هَذَا الْخَسَارِ، وَهُوَ عَدَمُ الرِّبْحِ أَصْلًا، وَذَلِكَ بِفَوَاتِ الثَّوَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَحَصُولِ الْعِقَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الشَّيْءِ أَمْرٌ بِضْدهُ، فَيَكُونُ أَمْرًا بِالتَّصْدِيقِ التَّامِّ بِالْقُرْآنِ وَطَمَآنِينَةِ الْقَلْبِ إِلَيْهِ وَالْإِقْبَالِ عَلَيْهِ عِلْمًا وَعَمَلًا؛ فَبِذَلِكَ يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ الرَّابِحِينَ، الَّذِينَ أَدْرَكُوا أَجَلَ الْمَطَالِبِ وَأَفْضَلَ الرِّغَائِبِ وَأَتَمَّ الْمُنَاقِبِ، وَانْتَفَى عَنْهُمْ الْخَسَارُ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۖ﴾.

﴿٩٦ - ٩٧﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾؛ أي: إنهم من الضالين الغاوين أهل النار، لا بدَّ أَنْ يَصِيرُوا إِلَى مَا قَدَّرَهُ اللَّهُ وَقَضَاهُ؛ فَلَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ؛ فَلَا تَزِيدُهُمُ الْآيَاتُ إِلَّا طُغْيَانًا وَغِيًّا إِلَى غِيْهِمْ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بَرْدَهُمْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ أَوَّلُ مَرَّةٍ، فَعَاقَبَهُمُ اللَّهُ بِأَنْ طَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَأَسْمَاعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ الَّذِي وَعَدُوا بِهِ؛ فَحِينَئِذٍ يَعْلَمُونَ حَقَّ الْيَقِينِ أَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ هُوَ الضَّلَالُ وَأَنَّ مَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ هُوَ الْحَقُّ، وَلَكِنْ فِي وَقْتٍ لَا يُجِدِي عَلَيْهِمْ إِيْمَانُهُمْ شَيْئًا؛ فَيَوْمِئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعِذَتَهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ. وَأَمَّا الْآيَاتُ؛ فَإِنَّهَا تَنْفَعُ مَنْ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّوْنَ لِمَا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۖ﴾.

﴿٩٨﴾ يقول تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾: من القرى المكذبتين، ﴿ءَامَنَتْ﴾: حين رَأَتْ الْعَذَابَ، ﴿فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾؛ أي: لم يكن منهم أَحَدٌ انْتَفَعَ بِإِيْمَانِهِ حِينَ رَأَى الْعَذَابَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ فِرْعَوْنَ مَا تَقَدَّمَ قَرِيبًا لَمَّا قَالَ: ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، فَقِيلَ لَهُ: ﴿الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ

قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩٨﴾ ، وكما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِأُسْنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بِأُسْنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ، كَلَّا ﴾ ، والحكمة في هذا ظاهرة ؛ فَإِنَّ الْإِيمَانَ الْاضْطِرَارِّيَّ لَيْسَ بِإِيمَانٍ حَقِيقَةٍ ، وَلَوْ صَرَفَ عَنْهُ الْعَذَابُ وَالْأَمْرُ الَّذِي اضْطَرَّه إِلَى الْإِيمَانِ ؛ لَرَجَعَ إِلَى الْكُفْرَانِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا بَعْدَمَا رَأَوْا الْعَذَابَ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ : فَهَمْ مُسْتَشْنُونَ مِنَ الْعُمُومِ السَّابِقِ ، وَلَا بَدَّ لِذَلِكَ مِنْ حِكْمَةٍ لِعَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ لَمْ تَصِلْ إِلَيْنَا وَلَمْ تَدْرِ كَيْفَ أَفْهَمْنَا ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . . . ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ فَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ . فَأَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ . وَلَعَلَّ الْحِكْمَةَ فِي ذَلِكَ أَنَّ غَيْرَهُمْ مِنَ الْمَهْلَكِينَ لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نَهَوْا عَنْهُ ، وَأَمَّا قَوْمُ يُونُسَ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ ^(١) أَنَّ إِيْمَانَهُمْ سَيَسْتَمِرُّ ، بَلْ قَدْ اسْتَمَرَ فَعَلًا ، وَثَبَتُوا عَلَيْهِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٩٩) وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ .

﴿ ٩٩ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ : بَأَن يُلْهِمَهُمُ الْإِيمَانَ وَيُوزِعَ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ؛ فَقَدَرْتُهُ صَالِحَةً لِذَلِكَ ، وَلَكِنَّهُ اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنَّ كَانَ بَعْضُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَبَعْضُهُمْ كَافِرِينَ . ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ أَي : لَا تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ ، وَلَيْسَ فِي إِمْكَانِكَ ، وَلَا قُدْرَةَ غَيْرِ اللَّهِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ .

﴿ ١٠٠ ﴾ ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ : بِإِرَادَتِهِ وَمَشِئَتِهِ وَإِذْنِهِ الْقَدَرِيِّ الشَّرْعِيِّ ؛ فَمَنْ كَانَ مِنَ الْخَلْقِ قَابِلًا لِذَلِكَ يَزْكُو عِنْدَهُ الْإِيمَانُ ؛ وَفَقَّهَ وَهْدَاهُ ، ﴿ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ ﴾ ؛ أَي : الشَّرَّ وَالضَّلَالَ ﴿ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ : عَنْ اللَّهِ أَوْ أَمْرِهِ وَنَوَاهِيهِ ، وَلَا يُلْقُونَ بِالْأَلْأَنْصَاحَةِ وَمَوَاعِظِهِ .

(١) فِي (ب) : «عَلِمَ» .

﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾
فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آيَاتِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ
﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿١٠١﴾ يدعو تعالى عباده إلى النظر لما في السماوات والأرض، والمراد بذلك نظر الفكر والاعتبار والتأمل لما فيها وما تحتوي عليه والاستبصار؛ فإن في ذلك آيات لقوم يؤمنون وعبراً لقوم يوقنون، تدلُّ على أن الله وحده المعبود المحمود ذو الجلال والإكرام والأسماء والصفات العظام، ﴿وما تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ فإنهم لا يتفكرون بالآيات؛ لإعراضهم وعنادهم.

﴿١٠٢ - ١٠٣﴾ ﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: فهل ينتظر هؤلاء الذين لا يؤمنون بآيات الله بعد وضوحها إلا مثل أيام الذين خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ؛ أي: من الهلاك والعقاب؛ فإنهم صنعوا كصنيعهم، وسنة الله جارية في الأولين والآخرين. ﴿قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾: فستعلمون لمن تكون له العاقبة الحسنه والنجاه في الدنيا والآخرة. وليست إلا للرسول وأتباعهم، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: من مكاره الدنيا والآخرة وشدائدهما. ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾: أوجبناه على أنفسنا، ﴿نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾: فإن الله يدافع عن الذين آمنوا؛ فإنه بحسب ما مع العبد من الإيمان؛ تحصل له النجاه من المكاره.

﴿قُلْ يَكَايْهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّعُكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِفَ وَجْهَكَ لِلَّذِينَ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿١٠٤﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ سيد المرسلين وإمام المتقين وخير الموقنين: ﴿قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني﴾؛ أي: في ريب واشتباه؛ فإنني لست في شك منه، بل لدي العلم اليقيني أنه الحق وأن ما تدعون من دون الله باطل، ولي على ذلك الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة، ولهذا قال: ﴿فلا أعبُد الذين تعبدون من دون الله﴾: من الأنداد والأصنام وغيرهما؛ لأنها لا تخلق ولا ترزق ولا تدبر شيئاً من الأمور، وإنما هي مخلوقة مسخرة ليس فيها ما يقتضي

عبادتها. ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدْ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾؛ أي: هو الله الذي خلقكم، وهو الذي يميّتكم ثم يبعثكم ليجازيكم بأعمالكم؛ فهو الذي يستحقُّ أن يُعبد، ويصلّى له، [ويخضع]، ويسجد، ﴿وَأَمِزْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿١٠٥﴾ ﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾؛ أي: أخلص أعمالك الظاهرة والباطنة لله، وأقم جميع شرائع الدين، ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: مقبلاً على الله معرضاً عما سواه. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: لا في حالهم ولا تكن معهم.

﴿١٠٦﴾ ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾: وهذا وصف لكل مخلوق أنه لا ينفع ولا يضر، وإنما النافع الضارُّ هو الله تعالى. ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾؛ أي^(١): دعوت من دون الله ما لا ينفَعُكَ ولا يضرُّكَ، ﴿فَإِنَّكَ إِذَا﴾ لمن ﴿الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: الضارين أنفسهم بإهلاكها، وهذا الظلم هو الشرك؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾: فإذا كان خيرُ الخلق لو دعا مع الله غيره؛ لكان من الظالمين المشركين؛ فكيف بغيره؟!

﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِذْ يُرَدُّكَ بَخِيرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١٠٧).

﴿١٠٧﴾ هذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده المستحقُّ للعبادة؛ فإنه النافع الضارُّ المعطي المانع الذي إذا مسَّ بضرٍّ كفقر ومرض ونحوها: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾: لأن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوا بشيء لم ينفعوا إلا بما كتبه الله ولو اجتمعوا على أن يضرُّوا أحداً؛ لم يقدروا على شيء من ضرره إذا لم يردّه [الله]. ولهذا قال: ﴿وَإِنْ يُرَدُّكَ بَخِيرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾؛ أي: لا يقدر أحدٌ من الخلق أن يردَّ فضله وإحسانه؛ كما قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾. ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾؛ أي: يختص برحمته من شاء من خلقه والله ذو الفضل العظيم، ﴿وهو الغفور﴾: لجميع الزلات، الذي يوفق عبده لأسباب مغفرته، ثم إذا فعلها العبد؛ غفر الله ذنوبه كبارها وصغارها، ﴿الرحيم﴾: الذي وسعت رحمته كل شيء ووصل جوده إلى جميع الموجودات؛ بحيث لا تستغني عن إحسانه طرفة عين.

(١) في (ب): «بأن».

فإذا عرف العبد بالدليل القاطع أن الله هو المنفرد بالنعم وكشف النقم وإعطاء الحسنات وكشف السيئات والكربات، وأنّ أحداً من الخلق ليس بيده من هذا شيء إلا ما أجراه الله على يده؛ جزم بأنّ الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ولهذا لما بين الدليل الواضح؛ قال بعده:

﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُصِّمَ اللَّهُ لَهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿١٠٨﴾ أي: ﴿قل﴾: يا أيها الرسول لما تبين البرهان: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم﴾؛ أي: الخبر الصادق المؤيد بالبراهين الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه، وهو واصل إليكم من ربكم، الذي من أعظم تربيته لكم أن أنزل إليكم هذا القرآن، الذي فيه تبيان لكل شيء، وفيه من أنواع الأحكام والمطالب الإلهية والأخلاق المَرْضِيَّة ما فيه أعظم تربية لكم وإحسان منه إليكم؛ فقد تبين الرشد من الغي، ولم يبق لأحد شبهة. ﴿فمن اهتدى﴾: بهدى الله؛ بأن علم الحق وتفهمه وآثره على غيره فلنفسه. والله تعالى غني عن عباده، وإنما ثمره أعمالهم راجعة إليهم. ﴿ومن ضل﴾: عن الهدى؛ بأن أعرض عن العلم بالحق أو عن العمل به، ﴿فإنما يضل عليها﴾: ولا يضر الله شيئاً فلا يضر إلا نفسه. ﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾: فأحفظ أعمالكم وأحاسبكم عليها، وإنما أنا لكم نذير مبين، والله عليكم وكيل؛ فانظروا لأنفسكم ما دتم في مدة الإمهال.

﴿١٠٩﴾ ﴿واتبع﴾: أيها الرسول ما أوحى إليك علماً وعملاً وحالاً ودعوة إليه، ﴿واصبر﴾: على ذلك؛ فإنّ هذا أعلى أنواع الصبر، وإن عاقبته حميدة؛ فلا تكسل ولا تضجر، بل دُم على ذلك واثبت، ﴿حتى يحكم الله﴾: بينك وبين من كذبك. ﴿وهو خير الحاكمين﴾: فإن حكمه مشتمل على العدل التام والقسط الذي يُحمد عليه. وقد امثل ﷺ أمر ربّه، وثبت على الصراط المستقيم، حتى أظهر الله دينه على سائر الأديان، ونصره على أعدائه بالسيف والسنان، بعدما نصره الله عليهم بالحجة والبرهان، فله الحمد والثناء الحسن كما ينبغي لجلاله وعظمته وكماله وسعة إحسانه.

تم تفسير سورة يونس. والحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة هود عليه السلام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرْ
مِنْتُمْ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَإِنْ أَسْتَعْفِفُوا رَبُّكُمْ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ
كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿١﴾ يقول تعالى: هذا ﴿كتاب﴾: عظيم ونزل كريم، ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾؛ أي: اتقنت وأحسن، صادقة أخبارها، عادلة أوامرها ونواهيها، فصيحة ألفاظه بهية معانيه، ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾؛ أي: ميزت وبينت بياناً في أعلى أنواع البيان، ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ﴾: يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، لا يأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه حكمته، ﴿خَبِيرٍ﴾: مطلع على الظواهر والبواطن؛ فإذا كان إحكامه وتفصيله من عند الله الحكيم الخبير؛ فلا تسأل بعد هذا عن عظمته وجلالته واشتماله على كمال الحكمة وسعة الرحمة.

﴿٢﴾ وإنما أنزل الله كتابه لأن لا تعبدوا إلا الله؛ أي: لأجل إخلاص الدين كله لله، وأن لا يُشْرِكْ به أحدٌ من خلقه. ﴿إِنِّي لَكُمْ﴾: أيها الناس، ﴿مِنْتُمْ﴾؛ أي: من الله ربكم ﴿نَذِيرٌ﴾: لمن تجرأ على المعاصي بعقاب الدنيا والآخرة، ﴿وَبَشِيرٌ﴾: للمطيعين لله بثواب الدنيا والآخرة.

﴿٣﴾ ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾: عن ما صدر منكم من الذنوب، ﴿ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ﴾: فيما تستقبلون من أعماركم بالرجوع إليه بالإنباء والرجوع عما يكرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه. ثم ذكر ما يترتب على الاستغفار والتوبة، فقال: ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾؛ أي: يعطيكم من رزقه ما تتمتعون به، وتنتفعون ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾؛ أي: إلى وقت وفاتكم. ﴿وَيُؤْتِ﴾: منكم ﴿كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾؛ أي: يعطي أهل الإحسان والبر من فضله وبره ما هو جزاء لإحسانهم من حصول ما يحبون ودفع ما يكرهون. ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: عن ما دعوتكم إليه، بل أعرضتم عنه، وربما كذبتُم به، ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾: وهو يوم القيامة، الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين.

﴿٤﴾ فيجازيهم بأعمالهم إن خيراً؛ فخير، وإن شراً؛ فشر. وفي قوله: ﴿وهو على كل شيء قدير﴾: كالدليل على إحياء الله الموتى؛ فإنه على كل شيء قدير^(١)، ومن جملة الأشياء إحياء الموتى، وقد أخبر بذلك، وهو أصدق القائلين؛ فيجب وقوع ذلك عقلاً ونقلاً.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونْ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتُ الصُّدُورِ﴾ ﴿٥﴾

﴿٥﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين وشدة ضلالهم أنهم ﴿يَنْتُونْ صُدُورَهُمْ﴾ أي: يميلونها ليستخفوا من الله، فتقع صدورهم حاجةً لعلم الله بأحوالهم وبصره لهيئاتهم. قال تعالى مبيناً خطأهم في هذا الظن: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: يتغطون بها، يعلمهم في تلك الحال التي هي من أخفى الأشياء، بل ﴿يعلم ما يُسِرُّونَ﴾: من الأقوال والأفعال، ﴿وما يُعْلِنُونَ﴾: منها، بل ما هو أبلغ من ذلك، وهو: ﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتُ الصُّدُورِ﴾؛ أي: بما فيها من الإرادات والوساوس والأفكار التي لم ينطقوا بها سرّاً ولا جهرّاً؛ فكيف تخفى عليه حالكم إذا ثنيت صدوركم لتستخفوا منه؟!

ويحتمل أن المعنى في هذا: أن الله يذكر إعراض المكذبين للرسول، الغافلين عن دعوته، أنهم من شدة إعراضهم يَنْتُونْ صُدُورَهُمْ؛ أي: يَخْدُوْهُمْ حِينَ يَرُونَ الرسول؛ لئلا يراهم وَيُسْمِعَهُمْ دَعْوَتَهُ وَيَعْظُمَهُمْ بِمَا يَنْفَعُهُمْ؛ فهل فوق هذا الإعراض شيء؟! ثم توعدهم بعلمه تعالى بجميع أحوالهم وأنهم لا يخفون عليه، وسيجازيهم بصنيعهم.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٦﴾

﴿٦﴾ أي: جميع ما دبّ على وجه الأرض من آدمي^(٢) وحيوان بريّ أو بحريّ؛ فالله تعالى قد تكفل بأرزاقهم وأقواتهم، فرزقهم^(٣) على الله. ﴿ويعلم مستقرّها ومستودعها﴾؛ أي: يعلم مستقرّ هذه الدواب، وهو المكان الذي تقيم فيه وتستقرّ

(١) في (ب): «فإنه قدير على كل شيء». (٢) في (ب): «أو».

(٣) في (ب): «فرزقها».

فيه وتأوي إليه، ومستودعها المكان الذي تنتقل إليه في ذهابها ومجيئها وعوارض أحوالها. ﴿كُلُّ﴾: من تفاصيل أحوالها ﴿في كتاب مبين﴾؛ أي: في اللوح المحفوظ، المحتوي على جميع الحوادث الواقعة، والتي تقع في السماوات والأرض، الجميع قد أحاط بها علم الله، وجرى بها قلمه، ونفذت فيها مشيئته ووسعها رزقه؛ فلتطمئن القلوب إلى كفاية من تكفل بأرزاقها، وأحاط علماً بذواتها وصفاتها.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَعْبُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُ آلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿٧﴾ يخبر تعالى أنه ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة. ﴿و﴾ حين خلق السماوات والأرض، ﴿كان عرشه على الماء﴾: فوق السماء السابعة؛ فبعد أن خلق السماوات والأرض؛ استوى على عرشه، يدبر الأمور ويصرفها كيف شاء من الأحكام القدريّة والأحكام الشرعيّة. ولهذا قال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ أي: ليمتحنكم إذ خلق لكم ما في السماوات والأرض بأمره ونهيه، فينظر أيكم أحسن عملاً. قال الفضيل بن عياض رحمه الله: أخلصه وأصوبه. قيل: يا أبا علي! ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إنَّ العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً؛ لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً؛ لم يُقبل، حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص: أن يكون لوجه الله، والصواب: أن يكون متبعاً فيه الشرع والسنة. وهذا كما قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾: فالله تعالى خلق الخلق لعبادته ومعرفته بأسمائه وصفاته، وأمرهم بذلك؛ فمن انقاد وأدى ما أمر به؛ فهو من المفلحين، ومن أعرض عن ذلك؛ فأولئك هم الخاسرون، ولا بد أن يجمعهم في دار يجازيهم على ما أمرهم به ونهاهم. ولهذا ذكر الله تكذيب المشركين بالجزاء، فقال: ﴿ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولنَّ الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾؛ أي: ولئن قلت لهؤلاء

وأخبرتهم بالبعث بعد الموت؛ لم يصدّقوك، بل كذبوك أشدّ الكذب^(١)، وقدحوا فيما جئت به، وقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾: ألا وهو الحقّ المبين.

﴿٨﴾ ﴿وَلَتُنْزِلُنَا أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾؛ أي: إلى وقت مقدّر فتباطؤوه، لقالوا من جهلهم وظلمهم: ﴿مَا يَحْسِبُهُ﴾؟! ومضمونُ هذا تكذيبهم به؛ فإنهم يستدلّون بعدم وقوعه بهم عاجلاً على كذب الرسول المخبر بوقوع العذاب؛ فما أبعد هذا الاستدلال. ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾: فيتمكّنون من النظر في أمرهم، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾؛ أي: نزل ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾: من العذاب حيث تهاونوا به، حتى جَزَمُوا بكذب مَنْ جاء به.

﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ ۖ وَلَيْنَ أَذَقْتُهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْأَةٍ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۖ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۖ﴾.

﴿٩ - ١٠﴾ يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان أنه جاهل ظالم: بأنّ الله إذا أذاقه منه رحمة كالصحة والرزق والأولاد ونحو ذلك، ثم نزعها منه؛ فإنّه يستسلم لليأس وينقاد للحنوط؛ فلا يرجو ثواب الله ولا يخطر بباله أنّ الله سيردّها أو مثلها أو خيراً منها عليه، وأنّه إذا أذاقه رحمة من بعد ضراء مسته، أنه يفرح ويبتطّر ويظنّ أنه سيدوم له ذلك الخير ويقول: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾؛ أي: يفرح بما أوتي مما يوافق هوى نفسه، فخور بنعم الله على عباد الله، وذلك يحمله على الأشر والبطر والإعجاب بالنفس والتكبر على الخلق واحتقارهم وازدراؤهم، وأي عيب أشدّ من هذا؟!

﴿١١﴾ وهذه طبيعة الإنسان من حيث هو؛ إلا مَنْ وفّقه الله وأخرجه من هذا الخلق الذمّيم إلى ضده، وهم الذين صبروا أنفسهم عند الضراء فلم يياسوا، وعند السراء فلم يبطلوا، وعملوا الصالحات من واجبات ومستحبات. ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾؛ لذنوبهم يزول بها عنهم كل محذور، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾؛ وهو الفوز بجنان النعيم التي فيها ما تشتهي النفس، وتلدّ الأعين.

﴿فَلَمَّا كَثُرَ نَارُكَ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَاقَتْ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ

(١) في (ب): «أشدّ الكذب».

جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ .

﴿١٢﴾ يقول تعالى مسلماً لنبيه محمد ﷺ عن تكذيب المكذبين: ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز﴾؛ أي: لا ينبغي هذا لمثلك؛ أن قولهم يؤثر فيك ويصدك عما أنت عليه، فتترك بعض ما يوحى إليك، ويضيق صدرك لتعتتهم بقولهم: ﴿لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك﴾: فإن هذا القول ناشئ من تعنت وظلم وعناد وضلال وجهل بمواقع الحجج والأدلة؛ فامض على أمرك، ولا تصدك هذه الأقوال الركيكة التي لا تصدرك إلا من سفيه، ولا يضيق لذلك صدرك؛ فهل أوردوا عليك حجة لا تستطيع حلها؟ أم قدحوا ببعض ما جئت به قدحاً يؤثر فيه وينقص قدره فيضيق صدرك لذلك؟ أم عليك حسابهم ومطالب بهدايتهم جبراً؟ ﴿إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل﴾: فهو الوكيل عليهم، يحفظ أعمالهم، ويجازيهم بها أتم الجزاء.

﴿١٣﴾ ﴿أم يقولون افتراه﴾؛ أي: افترى محمد هذا القرآن، فأجابهم بقوله: ﴿قل﴾: لهم: ﴿فأتوا بعشر سورٍ مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾؛ أي: إنه قد افتراه؛ فإنه لا فرق بينكم وبينه في الفصاحة والبلاغة، وأنتم الأعداء حقاً الحريصون بغاية ما يمكنكم على إبطال دعوته فإن كنتم صادقين فأتوا بعشر سورٍ مثله مفتريات!

﴿١٤﴾ ﴿فإن لم يستجيبوا لكم﴾: على شيء من ذلكم، ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله﴾: من عند الله^(١)؛ لقيام الدليل والمقتضي وانتفاء المعارض. ﴿وأن لا إله إلا هو﴾؛ أي: واعلموا أنه لا إله إلا هو؛ أي: هو [وحده] المستحق للالوهية والعبادة. ﴿فهل أنتم مسلمون﴾؛ أي: منقادون لألوهيته، مستسلمون لعبوديته.

وفي هذه الآيات إرشاد إلى أنه لا ينبغي للداعي إلى الله أن يصدّه اعتراض المعترضين ولا قدح القادحين، خصوصاً إذا كان القدح لا مستند له ولا يقدر فيما دعا إليه، وأنه لا يضيق صدره، بل يطمئن بذلك، ماضياً على أمره، مقبلاً على

(١) في (ب): «فاعلموا أنما أنزل بعلم الله» وقد شطب الشيخ من (ب) قوله: «من عند الله».

شأنه، وأنه لا يجب إجابة اقتراحات المقترحين للأدلة التي يختارونها، بل يكفي إقامة الدليل السالم عن المعارض على جميع المسائل والمطالب.

وفيها: أن هذا القرآن معجزٌ بنفسه، لا يقدر أحدٌ من البشر أن يأتي بمثله، ولا بعشر سورٍ مثله، بل ولا بسورةٍ من مثله؛ لأنَّ الأعداء البلغاء الفصحاء تحدّاهم الله بذلك، فلم يعارضوه؛ لعلمهم أنَّهم لا قدرة فيهم على ذلك.

وفيها: أن مما يُطلَبُ فيه العِلْمُ ولا يكفي غلبةُ الظنِّ، علِمَ القرآنُ وعلِمَ التوحيد؛ لقوله تعالى: ﴿فاعلموا أنَّما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو﴾.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿١٥﴾ يقول تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾؛ أي: كلُّ إرادته مقصورةً على الحياة الدنيا وعلى زينتها من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، قد صرف رغبته وسعيه وعمله في هذه الأشياء، ولم يجعل لدار القرار من إرادته شيئاً؛ فهذا لا يكون إلا كافراً؛ لأنَّه لو كان مؤمناً؛ لكان ما معه من الإيمان يمنعه أن تكون جميع إرادته للدار الدنيا، بل نفس إيمانه وما تيسر له من الأعمال أثرٌ من آثار إرادته الدار الآخرة، ولكن، هذا الشقي الذي كأنه خُلِقَ للدنيا وحدها، ﴿نوفَّ إليهم أعمالهم فيها﴾؛ أي: نعطيهم ما قُسمَ لهم في أم الكتاب من ثواب الدنيا. ﴿وهم فيها لا يُبْخَسُونَ﴾؛ أي: لا يُنْقَصُونَ شيئاً مما قُدِّرَ لهم، ولكن هذا منتهى نعيمهم.

﴿١٦﴾ ﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار﴾: خالدين فيها أبداً، لا يفتر عنهم العذاب، وقد حرموا جزيل الثواب. ﴿وحبِطَ ما صنعوا فيها﴾؛ أي: في الدنيا؛ أي: بطل، واضمحَلَّ ما عملوه مما يكيدون به الحق وأهله، وما عملوه من أعمال الخير التي لا أساس لها، ولا وجود لشرطها وهو الإيمان.

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتَرٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَتْ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿١٧﴾ يذكر تعالى حال رسوله محمد ﷺ ومن قام مقامه من ورثته القائمين

بدينه. وحججه الموقنين بذلك، وأنهم لا يوصف بهم غيرهم، ولا يكون أحد مثله، فقال: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾: بالوحي الذي أنزل^(١) الله فيه المسائل المهمة ودلائلها الظاهرة، فتبيّن تلك البينة، ﴿وَيَتْلُوهُ﴾؛ أي: يتلو هذه البينة والبرهان برهاناً آخر، ﴿شَاهِدٌ مِنْهُ﴾: وهو شاهدُ الفطرة المستقيمة والعقل الصحيح، حين شهد حقيقة ما أوحاه الله وشرّعه وعَلِمَ بعقله حُسْنَهُ فازداد بذلك إيماناً إلى إيمانه ﴿وَو﴾ ثَمَّ شاهدٌ ثالث؛ وهو ﴿كِتَابُ مُوسَى﴾: التوراة التي جعلها الله ﴿إِمَاماً﴾ للناس ﴿وَرَحْمَةً﴾ لهم، يشهد لهذا القرآن بالصدق ويوافقه فيما جاء به من الحق؛ أي: أفمن كان بهذا الوصف، قد تواردت عليه شواهد الإيمان وقامت لديه أدلة اليقين؛ كمن هو في الظلمات والجهالات ليس بخارج منها؟ لا يستوون عند الله ولا عند عباد الله. ﴿أُولَٰئِكَ﴾؛ أي: الذين وفّقوا لقيام الأدلة عندهم، يؤمنون بالقرآن حقيقة، فيثمر لهم إيمانهم كل خير في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾؛ أي: القرآن، ﴿مِنَ الْأَحْزَابِ﴾؛ أي: سائر طوائف أهل الأرض المتحزبة على ردّ الحق، ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾: لا بدّ من وروده إليها، ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ [مِنْهُ]﴾؛ أي: في أدنى شك. ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: إما جهلاً منهم وضلالاً، وإما ظلاماً وعناداً وبغياً، وإلا؛ فمن كان قصده حسناً وفهمه مستقيماً؛ فلا بدّ أن يؤمن به؛ لأنه يرى ما يدعو به إلى الإيمان من كل وجه.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا لَهُمْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿١٨﴾ يخبر تعالى أنه لا أحد ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾: ويدخل في هذا كل من كذب على الله بنسبة الشريك له، أو وصفه بما لا يليق بجلاله، أو

(١) في (ب): «أنزله».

الإخبار عنه بما لم يقل، أو ادعاء النبوة، أو غير ذلك من الكذب على الله؛ فهؤلاء أعظم الناس ظلماً. ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾: ليجازيهم بظلمهم؛ فعندما يحكم عليهم بالعقاب الشديد؛ ﴿يَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾؛ أي: الذين شهدوا عليهم بافترائهم وكذبهم: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لعنة الله على الظالمين﴾؛ أي: لعنة لا تنقطع؛ لأنّ ظلمهم صار وصفاً لهم ملازماً، لا يقبل التخفيف.

﴿١٩﴾ ثم وصف ظلمهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَصْدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾: فصّدوا بأنفسهم عن سبيل الله، وهي سبيل الرسل التي دعوا الناس إليها، وصدّوا غيرهم عنها، فصاروا أئمة يدعون إلى النار ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾؛ أي: سبيل الله ﴿عِوَجًا﴾؛ أي: يجتهدون في ميلها وتشيينها وتهجينها؛ لتصير عند الناس غير مستقيمة، فيحسّنون الباطل؛ ويقبحون الحق؛ قبحهم الله. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

﴿٢٠﴾ ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: ليسوا فائتين الله؛ لأنهم تحت قبضته وفي سلطانه، ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾: فيدفعون عنهم المكروه أو يحصلون لهم ما ينفعهم، بل تقطعت بهم الأسباب. ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾؛ أي: يغلظ ويزداد؛ لأنهم ضلوا بأنفسهم وأضلّوا غيرهم. ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾؛ أي: من بغضهم للحق ونفورهم عنه، ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا آيات الله سماعاً يتفهمون به؛ ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾. كأنهم حُمُرٌ مُسْتَنَفِرَةٌ. فرث من قسورة، ﴿وَمَا كَانُوا يَبْصُرُونَ﴾؛ أي: ينظرون نظر عبرة وتفكر فيما ينفعهم، وإنما هم كالصم البكم الذين لا يعقلون.

﴿٢١﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾: حيث فوتوها أعظم الثواب واستحقوا أشدّ العذاب، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: اضمحل دينهم الذي يدعون إليه ويحسنونه، ولم تغن عنهم آلهتهم التي يعبدون من دون الله لما جاء أمر ربك.

﴿٢٢﴾ ﴿لَا جُرْمَ﴾؛ أي: حقاً وصدقاً، ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: حصر الخسار فيهم، بل جعل لهم منه أشدّه؛ لشدة حسرتهم وحرمانهم وما يعانون من المشقة من العذاب، فنستجير بالله من حالهم.

ولما ذكر حال الأشقياء؛ ذكر أوصاف السعداء وما لهم عند الله من الثواب، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْبَرِ وَالْبَصِيرُ وَالسَّمِيعُ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ .

﴿٢٣﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: بقلوبهم؛ أي: صدقوا واعترفوا لما أمر الله بالإيمان به من أصول الدين وقواعده، ﴿وعملوا الصالحات﴾: المشتملة على أعمال القلوب والجوارح وأقوال اللسان، ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: خضعوا له واستكانوا لعظمته وذلوا لسلطانه، وأنابوا إليه بمحبته وخوفه ورجائه والتضرع إليه. ﴿أُولَٰئِكَ﴾: الذين جمعوا تلك الصفات، ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: لأنهم لم يتركوا من الخير مطلباً إلا أدركوه، ولا خيراً إلا سَبَقُوا إليه.

﴿٢٤﴾ ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾؛ أي: فريق الأشقياء وفريق السعداء، ﴿كَالْأَعْمَى وَالْأَصْبَرِ﴾: هؤلاء الأشقياء. ﴿وَالْبَصِيرُ وَالسَّمِيعُ﴾: مَثَلُ السعداء. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾؟ لا يستوون مثلاً، بل بينهما من الفَرْق ما لا يأتي عليه الوصف. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: الأعمال التي تنفعكم فتفعلونها، والأعمال التي تضرُّكم فتركونها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتَىٰ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾^(١) ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ إِلَهِمُ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرِيكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرِيكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بُادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَلَدٍ مِّن رَّبِّي وَمَآئِنِي رَحْمَةً مِّن عِندِي فَعِيتَ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْتُكُمْ هَا وَآتَيْتُ هَا كَرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَنَقَوْمٍ لَا أَتْلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُّكَلَّفُوا رِيبَهُمْ وَلَكِنِّي أَرَىٰكُمْ قَوْمًا يَّجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقَوْمٍ مِّن بَصُرَتِي مِّنَ اللَّهِ إِنَّ مَرَاتِبَهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَئِن الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَنْشُوعُ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْتَرَتْ جِدْلَانَا فَإِنَّا بِمَا نَعْمَدُ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِن أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ

(١) في (ب): إلى آخر القصة.

تَرْجِعُونَ ﴿٢٥﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُجْعِرُمُونَ ﴿٢٥﴾ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ وَصْنَعُ الْفُلِكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٢٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِلٌ ﴿٢٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٠﴾ * وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرِّبُهَا وَمُرْسَاهَا إِن رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ وَهِيَ تَجْرَىٰ بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَئُ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ سَتَأْتِي إِلَىٰ جِبَلٍ يَفْصِلُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَمَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ يَتَّزِشْ أَبْلَىٰ مَاءِكَ وَيَسْكَمْهُ أَفْلَىٰ وَغِيصَ الْمَاءِ وَفُصِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٣٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَخْلَمُ الْخَالِكِينَ ﴿٣٥﴾ قَالَ يَبْنَئُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَلَوَّنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٧﴾ قِيلَ يَبْنَئُ أَهْطِ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُفْسِقِينَ ﴿٣٩﴾ *.

﴿٢٥﴾ أي: ﴿ولقد أرسلنا نوحا﴾: أول المرسلين ﴿إلى قومه﴾: يدعوهم إلى الله وينهاهم عن الشرك، فقال: ﴿إني لكم نذير مبين﴾؛ أي: بينت لكم ما أنذرتكم به بيانا زال به الإشكال.

﴿٢٦﴾ ﴿أن لا تعبدوا إلا الله﴾؛ أي: اخلصوا العبادة لله وحده، واتركوا كل ما يعبد من دون الله. ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾: إن لم تقوموا بتوحيد الله وتطيعوني.

﴿٢٧﴾ ﴿فقال الملاء الذين كفروا من قومه﴾؛ أي: الأشراف والرؤساء راديين لدعوة نوح عليه السلام كما جرت العادة لأمثالهم أنهم أول من رد دعوة المرسلين

﴿ما نراك إلا بشراً مثلاً﴾: وهذا مانع بزعمهم عن اتباعه، مع أنه في نفس الأمر هو الصواب الذي لا ينبغي غيره؛ لأنَّ البشر يتمكَّن البشرُ أن يتلقَّوا عنه ويراجعوه في كلِّ أمر؛ بخلاف الملائكة. ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا﴾؛ أي: ما نرى اتبعك منَّا إلا الأراذل والسفلة - بزعمهم - وهم في الحقيقة الأشراف وأهل العقول، الذين انقادوا للحقِّ، ولم يكونوا كالأراذل الذين يُقال لهم: الملاء، الذين اتبعوا كلَّ شيطان مريد، واتخذوا آلهة من الحجر والشجر يتقربون إليها ويسجدون لها؛ فهل ترى أرذل من هؤلاء وأخس؟! وقولهم: ﴿بادي الرأي﴾؛ أي: إنما اتبعوك من غير تفكر وروية، بل بمجرد ما دعوتهم اتبعوك؛ يعنون بذلك أنهم ليسوا على بصيرة من أمرهم، ولم يعلموا أنَّ الحقَّ المبين تدعو إليه بدهاءة العقول، وبمجرد ما يصل إلى أولي الأبواب يعرفونه ويتحقَّقونه، لا كالأمور الخفية التي تحتاج إلى تأمل وفكر طويل. ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾؛ أي: لستم أفضل منا فننقاد لكم، ﴿بل نظنُّكم كاذبين﴾: وكذبوا في قولهم هذا؛ فإنَّهم رأوا من الآيات التي جعلها الله مؤيِّدة لنوح ما يوجبُ لهم الجزم التام على صدقه.

﴿٢٨﴾ ولهذا ﴿قال﴾ لهم نوحٌ مجاباً: ﴿يا قوم أرايتم إن كنتُ على بينةٍ من ربِّي﴾؛ أي: على يقين وجزم؛ يعني: وهو الرسول الكامل القدوة، الذي ينقاد له أولو الأبواب، وتضمجِّل في جنب عقله عقول الفحول من الرجال، وهو الصادق حقًّا؛ فإذا قال: إني على بينةٍ من ربِّي؛ فحسبك بهذا القول شهادة له وتصديقاً. ﴿وأتاني رحمةٌ من عنده﴾؛ أي: أوحى إليَّ وأرسلني ومنَّ عليَّ بالهداية، ﴿ففعميت عليكم﴾؛ أي: خفيت عليكم وبها تفاقمتم، ﴿أنلزمكموها﴾؛ أي: أنكرهم على ما تحقَّقناه، وشككتهم أنتم فيه. وأنتم كارهون حتَّى حرصتم على ردِّ ما جئتُ به، ليس ذلك ضارِّنا، وليس بقادح مِن يقيننا فيه، ولا قولكم وافتراؤكم علينا صاذاً لنا عمَّا كنَّا عليه، وإنَّما غايته أن يكون صاذاً لكم أنتم وموجباً لعدم انقيادكم للحقِّ الذي تزعمون أنَّه باطل؛ فإذا وصلت الحال إلى هذه الغاية؛ فلا نقدر على إكراهكم على ما أمر الله ولا إلزامكم ما نفرثم عنه، ولهذا قال: ﴿أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾!؟

﴿٢٩﴾ ﴿ويا قوم لا أسألكم عليه﴾؛ أي: على دعوتي إياكم ﴿مالاً﴾: فتستثقلون المغرم، ﴿إنَّ أجري إلا على الله﴾: وكأنَّهم طلبوا منه طرد المؤمنين الضعفاء، فقال لهم: ﴿وما أنا بطاردٍ الذين آمنوا﴾؛ أي: ما ينبغي لي ولا يليق بي

ذلك، بل أتلّقاهم بالرحب والإكرام والإعزاز والإعظام، ﴿إِنَّهُمْ مَلَاقُو رَبِّهِمْ﴾: فمشيهم على إيمانهم وتقواهم بجنت النعيم. ﴿وَلَكِنِّي أُرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾: حيث تأمروني بطرد أولياء الله وإبعادهم عني، وحيث رددتكم الحق لأنهم أتباعه، وحيث استدللتم على بطلان الحق بقولكم: إني بشر مثلكم، وإنه ليس لنا عليكم من فضل.

﴿٣٠﴾ ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمُوهُ؟ أَيُّ مَنْ يَمْنَعُنِي مِنْ عَذَابِهِ؟ فَإِنْ طَرَدْتُمُوهُمْ مُوجِبٌ لِلْعَذَابِ وَالتَّكَالِ الَّذِي لَا يَمْنَعُهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَانِعٌ. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: ما هو الأنفع لكم والأصلح وتدبرون الأمور؟!﴾

﴿٣١﴾ ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾؛ أي: غاييتي أني رسول الله إليكم؛ أبشركم وأنذركم، وما عدا ذلك؛ فليس بيدي من الأمر شيء، فليست خزائن الله عندي أدبرها أنا وأعطي من أشاء وأخرم من أشاء. ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾: فأخبركم بسرئركم وبواطنكم، ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾: والمعنى أني لا أدعي رتبة فوق رتبتي، ولا منزلة سوى المنزلة التي أنزلي الله بها، ولا أحكم على الناس بظني، فلا ﴿أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾؛ أي: الضعفاء^(١) المؤمنين الذين يحتقرهم الملأ الذين كفروا؛ ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾: فإن كانوا صادقين في إيمانهم؛ فلهم الخير الكثير، وإن كانوا غير ذلك؛ فحسابهم على الله. ﴿إِنِّي إِذْكَ﴾؛ أي: إن قلت لكم شيئاً ممّا تقدّم، ﴿لَمَنِ الظَّالِمِينَ﴾: وهذا تأيس منه عليه الصلاة والسلام لقومه أن ينبذ فقراء المؤمنين أو يمتتهم، وتقنع لقومه بالطرق المقنعة للمنصف.

﴿٣٢﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ لَا يَنْكِفُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ دَعْوَتِهِمْ وَلَمْ يَدْرِكُوا مِنْهُ مَطْلُوبَهُمْ؛ ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ [من العذاب] ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾: فما أجعلهم وأصلّهم! حيث قالوا هذه المقالة لنبيهم الناصح؛ فهلاً قالوا إن كانوا صادقين: يا نوح! قد نصحتنا وأشفقت علينا ودعوتنا إلى أمر لم يتيّن لنا فريد منك أن تبيّنه لنا لننقاد لك، وإلا فانت مشكور في نصحك؛ لكان هذا الجواب المنصف للذي قد دُعِيَ إلى أمر خفي عليه، ولكنهم في قولهم كاذبون، وعلى نبيهم متجرّثون، ولم يردّوا ما قاله بأدنى شبهة فضلاً عن أن يردّوه بحجة،

(١) في (ب): «الضعفاء».

ولهذا عدلوا من جهلهم وظلمهم إلى الاستعجال بالعذاب وتعجيز الله.

﴿٣٣﴾ ولهذا أجابهم نوح عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ﴾؛ أي: إن اقتضت مشيئته وحكمته أن يُنْزِلَهُ بكم؛ فعل ذلك، ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾: لله، وأنا ليس بيدي من الأمر شيء.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾؛ أي: إن إرادة الله غالبية؛ فإنه إذا أراد أن يغويكم لردكم الحق؛ فلو حرصت غاية مجهودي ونصحت لكم أتم النصح - وهو قد فعل عليه السلام -؛ فليس ذلك بنافع لكم شيئاً. ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾: يفعل بكم ما يشاء ويحكم فيكم بما يُريد، ﴿وَالِيهِ تُرْجَعُونَ﴾: فيجازيكم بأعمالكم.

﴿٣٥﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾: هذا الضمير محتمل أن يعود إلى نوح كما كان السياق في قصته مع قومه، وأن المعنى: إن قومه يقولون: افترى على الله كذباً، وكذب بالوحي الذي يزعم أنه من الله، وأن الله أمره أن يقول: ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلِيَ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرَمُونَ﴾؛ أي: كل عليه وزره، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾. ويحتمل أن يكون عائداً إلى النبي محمد ﷺ، وتكون هذه الآية معترضة في أثناء قصة نوح وقومه؛ لأنها من الأمور التي لا يعلمها إلا الأنبياء، فلما شرع الله في قصتها على رسوله، وكانت من جملة الآيات الدالة على صدقه ورسالته؛ ذكر تكذيب قومه له، مع البيان التام، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾؛ أي: هذا القرآن اختلقه محمد من تلقاء نفسه؛ أي: فهذا من أعجب الأقوال وأبطلها؛ فإنهم يعلمون أنه لم يقرأ ولم يكتب ولم يرحل عنهم لدراسة على أهل الكتب، فجاء بهذا الكتاب الذي تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله؛ فإذا زعموا مع هذا أنه افتراه؛ عليم أنهم معاندون، ولم يبق فائدة في حجاجهم، بل اللائق في هذه الحال الإعراض عنهم، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلِيَ إِجْرَامِي﴾؛ أي: ذنبي وكذبي. ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرَمُونَ﴾؛ أي: فلم تستلجئون في تكذبي؟

﴿٣٦﴾ وقوله: ﴿وَأُوْحِي إِلَى نُوْحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾؛ أي: قد قسوا ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾؛ أي: فلا تحزن ولا تبال بهم وبأفعالهم؛ فإن الله قد مَقَّتْهُمْ وأحق عليهم عذابه الذي لا يرد.

﴿٣٧﴾ ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا﴾؛ أي: بحفظنا ومرأى منا وعلى مرضاتنا، ﴿وَلَا تَخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ أي: لا تراجعني في إهلاكهم، ﴿إِنَّهُمْ

مُفَرَّقُونَ؛ أَي: قد حَقَّ عليهم القول، وَتَقَدَّرَ فِيهِمُ الْقَدَرُ.

﴿٣٨﴾ فَاِمْتَثِلْ أَمْرَ رَبِّهِ، وَجَعَلْ يَصْنَعُ الْفَلَكَ، ﴿وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ﴾: وَرَأَوْا مَا يَصْنَعُ، ﴿سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا: الْآنَ، ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾.

﴿٣٩﴾ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾: نَحْنُ أَمْ أَنْتُمْ؟ وَقَدْ عَلِمُوا ذَلِكَ حِينَ حُلِّ بِهِمُ الْعِقَابِ.

﴿٤٠﴾ ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾؛ أَي: قَدَرْنَا بِوَقْتِ نَزُولِ الْعَذَابِ بِهِمْ، ﴿وَفَارَ التَّنْثُورُ﴾؛ أَي: أُنْزِلَ اللَّهُ السَّمَاءَ بِالْمَاءِ الْمُنْهَمِرِ، وَفُجِّرَ الْأَرْضُ كُلُّهَا عَيُونًا، حَتَّى التَّنَائِيرِ الَّتِي هِيَ مَحَلُّ النَّارِ فِي الْعَادَةِ وَأَبْعَدُ مَا يَكُونُ عَنِ الْمَاءِ تَفَجَّرَتْ، فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قَدِرَ، ﴿قُلْنَا﴾ لَنُوحٍ: ﴿أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾؛ أَي: مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ الْمَخْلُوقَاتِ ذَكَرٌ وَأُنْثَى؛ لَتَبْقَى مَادَّةُ سَائِرِ الْأَجْنَاسِ، وَأَمَّا بَقِيَّةُ الْأَصْنَافِ الزَّائِدَةِ عَنِ الزَّوْجَيْنِ؛ فَلَأَنَّ السَّفِينَةَ لَا تُطِيقُ حَمْلَهَا، ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾: مِمَّنْ كَانَ كَافِرًا؛ كَابَنَهُ الَّذِي غَرِقَ. ﴿وَمَنْ آمَنَ وَ﴾ - الْحَالُ أَنَّهُ - ﴿مَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

﴿٤١﴾ ﴿وَقَالَ﴾ نُوحٌ لِمَنْ أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَحْمِلَهُمْ: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا﴾؛ أَي: تَجْرِي عَلَى اسْمِ اللَّهِ وَتَرْسِي^(١) [عَلَى اسْمِ اللَّهِ وَتَجْرِي] بِتَسْخِيرِهِ وَأَمْرِهِ. ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: حَيْثُ غَفَرَ لَنَا، وَرَحِمَنَا، وَنَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.

﴿٤٢﴾ ثُمَّ وَصَفَ جَرِيَانَهَا كَأَنَّا نَشَاهِدُهَا، فَقَالَ: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾؛ أَي: بِنُوحٍ وَمَنْ رَكِبَ مَعَهُ ﴿فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾: وَاللَّهُ حَافِظُهَا، وَحَافِظُ أَهْلِهَا، ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾: لَمَّا رَكِبَ لِيَرْكَبَ مَعَهُ، ﴿وَكَانَ ابْنُهُ﴾ فَنِي مَغْرُلٍ: عَنْهُمْ حِينَ رَكَبُوا؛ أَي: مُبْتَعَدًا، وَأَرَادَ مِنْهُ أَنْ يَقْرُبَ لِيَرْكَبَ، فَقَالَ لَهُ: ﴿يَا بَنِيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾: فَيُصِيبُكَ مَا يَصِيبُهُمْ.

﴿٤٣﴾ فَقَالَ ابْنُهُ مَكْذِبًا لِأَبِيهِ أَنَّهُ لَا يَنْجُو إِلَّا مَنْ رَكِبَ [مَعَهُ] السَّفِينَةَ: ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾؛ أَي: سَارَتْنِي جَبَلًا أَمْتَنُ بِهِ مِنَ الْمَاءِ. فَقَالَ نُوحٌ: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾: فَلَا يَعْصِمُ أَحَدًا جَبَلٌ وَلَا غَيْرُهُ، وَلَوْ

تَسَبَّبَ بِغَايَةِ مَا يَمَكِّنُهُ مِنَ الْأَسْبَابِ؛ لَمَّا نَجَا إِنْ لَمْ يُنَجِّهِ اللَّهُ، ﴿وَحَالُ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ﴾ الْإِبْنُ ﴿مِنَ الْمَغْرَقِينَ﴾.

﴿٤٤﴾ فَلَمَّا أَغْرَقَهُمُ اللَّهُ وَنَجَّى نُوحًا وَمَنْ مَعَهُ؛ وَ﴿قِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ﴾: الَّذِي خَرَجَ مِنْكَ، وَالَّذِي نَزَلَ إِلَيْكَ، ابْلَعِي الْمَاءَ الَّذِي عَلَى وَجْهِكَ، ﴿وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي﴾: فَاِمْتَثَلْنَا لِأَمْرِ اللَّهِ، فَابْتَلَعَتِ الْأَرْضُ مَاءَهَا، وَأَقْلَعَتِ السَّمَاءُ فَنَضَبَ الْمَاءَ مِنَ الْأَرْضِ، ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾: بِهَلَاكِ الْمَكْذِبِينَ وَنَجَاةِ الْمُؤْمِنِينَ، ﴿وَاسْتَوَتْ﴾ السَّفِينَةُ ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾؛ أَي: أُرْسَتْ عَلَى ذَلِكَ الْجَبَلِ الْمَعْرُوفِ فِي أَرْضِ الْمَوْصِلِ، ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾؛ أَي: أَتَّبِعُوا بِهَلَاكِهِمْ لَعْنَةً وَبُعْدًا وَسُخْقًا لَا يَزَالُ مَعَهُمْ.

﴿٤٥﴾ ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾؛ [أَي]: وَقَدْ قُلْتَ لِي: فَاحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ، وَلَنْ تُخْلِفَ مَا وَعَدْتَنِي بِهِ. لَعَلَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - حَمَلْتَهُ الشَّفَقَةَ وَأَنَّ اللَّهَ وَعَدَهُ بِنَجَاةِ أَهْلِهِ - ظَنَّ أَنَّ الْوَعْدَ لِعُمُومِهِمْ؛ مَنْ آمَنَ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ؛ فَلِذَلِكَ دَعَا رَبَّهُ بِذَلِكَ الدُّعَاءِ، وَمَعَ هَذَا؛ فَفَوَّضَ الْأَمْرَ لِحِكْمَةِ اللَّهِ الْبَالِغَةِ.

﴿٤٦﴾ فَقَالَ اللَّهُ لَهُ: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾: الَّذِينَ وَعَدْتُكَ بِإِنْجَائِهِمْ، ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾؛ أَي: هَذَا الدُّعَاءُ الَّذِي دَعَيْتَ^(١) بِهِ لِنَجَاةِ كَافِرٍ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ، ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾؛ أَي: مَا لَا تَعْلَمُ عَاقِبَتَهُ وَمَآلَهُ، وَهَلْ يَكُونُ خَيْرًا أَوْ غَيْرَ خَيْرٍ. ﴿إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾؛ أَي: إِنِّي أَعْظُكَ وَعِظًا تَكُونَ بِهِ مِنَ الْكَامِلِينَ، وَتَتَجَوَّعُ بِهِ مِنْ صِفَاتِ الْجَاهِلِينَ.

﴿٤٧﴾ فَحِينَئِذٍ نَدِمَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَدَامَةً شَدِيدَةً عَلَى مَا صَدَرَ مِنْهُ، وَ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾: فَبِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ يَنْجُو الْعَبْدُ مِنْ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ. وَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ عِلْمٌ بِأَنْ سَأَلَهُ لِرَبِّهِ فِي نَجَاةِ ابْنِهِ مُحَرَّمٌ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾، بَلْ تَعَارَضَ عِنْدَهُ الْأَمْرَانِ، وَظَنَّ دَخُولَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَهْلَكَ﴾، وَبَعْدَ هَذَا^(٢) تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ دَاخِلٌ فِي الْمَنْهِيِّ عَنِ الدُّعَاءِ لَهُمْ وَالْمَرَاجَعَةِ فِيهِمْ.

(١) كَذَا فِي النُّسَخَتَيْنِ. وَغَدَّلْتُ فِي (أ) إِلَى: «دَعَوْتُ» بِخَطِّ مَغَايِرِ.

(٢) فِي (ب): «ذَلِكَ».

﴿٤٨﴾ ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾: من الآدميين وغيرهم من الأزواج التي حملها معه، فبارك الله في الجميع، حتى ملؤوا أقطار الأرض ونواحيها ﴿وَأُمَمٌ سَنُتَعِمُهُمْ﴾: في الدنيا، ﴿ثُمَّ يَمْسُهُمْ مَنَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: هذا الإنجاء ليس بمانع لنا من أنْ مَنْ كَفَرَ بعد ذلك؛ أحلَلْنَا به العقاب، وإنْ مُتَعُوا قليلاً؛ فسيؤخذون بعد ذلك.

﴿٤٩﴾ قال الله لنبيه محمد ﷺ بعدما قُصَّ عليه هذه القصة المبسطة التي لا يعلمها إِلَّا مَنْ مَنَّ عَلَيْهِ برسالته: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾: فيقولوا: إِنَّهُ كَانَ يَعْلَمُهَا؛ فاحمِدِ الله واشْكُرْهُ واصْبِرْ على ما أَنْتَ عليه من الدِّينِ القويم والصُّرَاطِ المستقيم والدَّعْوَةِ إِلَى الله. ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾: الذين يَتَّقُونَ الشُّرْكَ وسائر المعاصي، فستكون لك العاقبة على قومك كما كانت لنوح على قومه.

﴿وَالِإِىَّ عَادَ أَخَاهُمْ هُودًا﴾^(١) قَالَ يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَنْقُورُ لَا أَشْتَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَنْقُورُ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَرِيذَكُمْ قُوَّةً إِلَى قُرْبِكُمْ وَلَا تَتْلُوا تَجْرِيمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوِّ قَالَ إِنْ أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَيَكْذِبُنِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا نَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنْ تَوَلَّيْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِأَصْبِنِهَا إِنْ رَفِى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِنْ قَوْلُوا فَقَدْ أَتَيْنَاكُمْ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ إِلَيْكُمْ وَسَخَّلْنَا رَفِي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنْ رَفِى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيطٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَسْرُنَا نَحْنُ هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَحْنُ نَحْنُ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَعَلُوا بَنَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوُا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ يَوْمِ الْفَيْصَةِ آلَا إِنْ عَادَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾.

﴿٥٠﴾ أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إِلَى عَادٍ﴾: وهم القبيلة المعروفة في الأحقاف من أرض اليمن، ﴿أَخَاهُمْ﴾: في النسب، ﴿هُودًا﴾: ليتمكنوا من الأخذ عنه والعلم

(١) في (ب): إلى آخر القصة.

بصدقه، فقال لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾؛ أي: أمرهم بعبادة الله وحده، ونهاهم عما هم عليه من عبادة غير الله، وأخبرهم أنهم قد افتروا على الله الكذب في عبادتهم لغيره وتجويزهم لذلك، ووضح لهم وجوب عبادة الله وفساد عبادة ما سواه.

﴿٥١﴾ ثم ذكر عدم المانع لهم من الانقياد، فقال: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾؛ أي: غرامة من أموالكم على ما دعوتكم إليه فتقولوا: هذا يريد أن يأخذ أموالنا، وإنما أدعوكم وأعلمكم مجاناً. ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: ما أدعوكم إليه وأنه موجب لقبوله، منتف المانع عن رده.

﴿٥٢﴾ ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾: عما مضى منكم، ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾: فيما تستقبلونه بالتوبة النصوح والإنابة إلى الله تعالى؛ فإنكم إذا فعلتم ذلك؛ ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾: بكثرة الأمطار التي تَخْضُبُ بها الأرض ويكثر خيرها، ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾: فإنهم كانوا من أقوى الناس، ولهذا قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، فوعدهم أنهم إن آمنوا زادهم قُوَّةً إلى قُوَّتِهِمْ، ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾: عنه؛ أي: عن ربكم ﴿مُجْرِمِينَ﴾؛ أي: مستكبرين عن عبادته، متجرئين على محارمه.

﴿٥٣﴾ فقالوا راذلين لقوله: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾: إن كان قصدهم بالبينة البينة التي يقترحونها؛ فهذه غير لازمة للحق، بل اللازم أن يأتي النبي بآية تدل على صحة ما جاء به، وإن كان قصدهم أنه لم يأتهم ببينة تشهد لما قاله بالصحة؛ فقد كذبوا في ذلك؛ فإنه ما جاء نبي لقومه إلا وبعث الله على يديه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، ولو لم يكن له آية إلا دعوته إياهم لإخلاص الدين لله وحده لا شريك له، والأمر بكل عمل صالح وخلق جميل، والنهي عن كل خلق ذميم من الشرك بالله والفواحش والظلم وأنواع المنكرات، مع ما هو مشتمل عليه هود عليه السلام من الصفات التي لا تكون إلا لخيار الخلق وأصدقهم، لكفى بها آيات وأدلة على صدقه، بل أهل العقول وأولو الألباب يرون أن هذه الآية أكبر من مجرد الخوارق التي يراها بعض الناس هي المعجزات فقط.

ومن آياته وبيئاته الدالة على صدقه أنه شخص واحد، ليس له أنصار ولا أعوان، وهو يصرخ في قومه ويناديهم ويعجزهم ويقول لهم: إني توكلت على الله ربي وربكم، ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ﴾. من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون: وهم الأعداء الذين لهم السطوة والغلبة، ويريدون إطفاء ما

معه من النور بأيّ طريق كان، وهو غير مكترث منهم ولا مبال بهم، وهم عاجزون لا يقدرّون أن ينالوه بشيء من السوء، إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون. وقولهم: ﴿وما نحنُ بباركي آلهتنا عن قولك﴾؛ أي: لا نترك عبادة آلهتنا لمجرد قولك الذي ما أقمت عليه بينة بزعمهم. ﴿وما نحنُ لك بمؤمنين﴾: وهذا تأسيس منهم لنبيهم هود عليه السلام في إيمانهم، وأنهم لا يزالون في كفرهم يعمهون.

﴿٥٤﴾ ﴿إِن نَقُولُ﴾: فيك ﴿إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾؛ أي: أصابتك بخيال وجنون، فصرت تهذي بما لا يُعقل؛ فسبحان من طبع على قلوب الظالمين! كيف جعلوا أصدق الخلق الذي جاء بأحقّ الحقّ بهذه المرتبة التي يستحي العاقل من حكايتها عنهم، لولا أنّ الله حكاها عنهم؟!

﴿٥٥﴾ ولهذا بيّن هود عليه الصلاة والسلام أنه واثق غاية الوثوق أنّه لا يصيبه منهم ولا من آلهتهم أذى، فقال: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَشْرِكُونَ. مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً﴾؛ أي: اطلبوا لي الضرر كلّكم بكلّ طريق تتمكّنون بها مني، ﴿ثُمَّ لَا تَنْظُرُونَ﴾؛ أي: لا تمهلوني.

﴿٥٦﴾ ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ﴾؛ أي: اعتمدت في أمري كلّهُ على الله، ﴿رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾؛ أي: هو خالق الجميع ومدبّرنا وإياكم، وهو الذي ربّانا. ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾: فلا تتحرّك ولا تسكن إلا بإذنه؛ فلو اجتمعتم جميعاً على الإيقاع بي، والله لم يسلطكم عليّ؛ لم تقدروا على ذلك؛ فإن سلطكم فلحكمة^(١) أرادها. ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: على عدل وقسط وحكمة وحميد في قضائه وقدره و[في] شرعه وأمره وفي جزائه وثوابه وعقابه، لا تخرج أفعاله عن الصراط المستقيم التي يُحمد، ويُثنى عليه بها.

﴿٥٧﴾ ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: عما دعوتكم إليه، ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾: فلم يبق عليّ تبعّة من شأنكم، ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾: يقومون بعبادته ولا يشركون به شيئاً، ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً﴾: فإن ضرركم إنما يعود إليكم^(٢)؛ فالله لا تضرّه معصية العاصين ولا تنفعه طاعة الطائعين^(٣)، من عمل صالحاً؛ فلنفسه، ومن أساء؛ فعليها. ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾.

(١) في (ب): «الحكمة».

(٢) في (ب): «عليكم».

(٣) في (ب): «المطيعين».

﴿٥٨﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾؛ أي: عذابنا بإرسال الريح العقيم التي ما تَذَرُ من شيء أتت عليه إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ؛ ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾؛ أي: عظيم شديد أحله الله بعادٍ فأصبحوا لا يرى إِلَّا مساكنهم.

﴿٥٩﴾ ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾: الذين أوقع الله بهم ما أوقع بظلم منهم لأنهم ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾: ولهذا قالوا لهود: ما جئتنا ببينة! فتبين بهذا أنهم متيقنون لدعوته، وإنما عاندوا وجحدوا، ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾؛ لأن من عصى رسولا؛ فقد عصى جميع المرسلين؛ لأن دعوتهم واحدة، ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ﴾؛ أي: متسلط على عباد الله بالجبروت، ﴿عَنِيدٍ﴾؛ أي: معاند لآيات الله، فعصوا كل ناصح ومشفق عليهم، واتبعوا كل غاش لهم يريد إهلاكهم، لا جَرَمَ أهلكتهم الله.

﴿٦٠﴾ ﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾: فكل وقت وجيل إلا ولأنبائهم القبيحة وأخبارهم الشنيعة ذكُرَ يذكرون به وذمٌ يلحقهم. ﴿ويوم القيامة﴾: لهم أيضا لعنة، ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾؛ أي: جحدوا مَنْ خَلَقَهُمْ وَرَزَقَهُمْ وَرَبَّاهُمْ. ﴿أَلَا بَعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾؛ أي: أبعدهم الله عن كل خير، وقربهم من كل شر.

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾^(١) قَالَ يَتَقَوَّمُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿١١﴾ قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿١٢﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿١٣﴾ وَيَتَقَوَّمُ هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿١٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْفَوَّيُّ الْمَرِيرُ ﴿١٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جِثِيمٍ ﴿١٧﴾ كَانَ لَمْ يَنْفَرُوا فِيهَا إِلَّا أَنْ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدًا لَثَمُودَ ﴿١٨﴾

(١) في (ب): إلى آخر قصتهم.

﴿٦١﴾ أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى ثمود﴾: وهم عادُ الثانية، المعروفون، الذين يسكنون الجِجر ووادي القُرى، ﴿أخاهم﴾: في النسب، ﴿صالحاً﴾: عبد الله ورسوله ﷺ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾؛ أي: وحُدوه وأخلصوا له الدين، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾: لا من أهل السماء ولا من أهل الأرض، ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾؛ أي: خلقكم فيها، فقال: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾؛ أي: استخلفكم فيها وأنعم عليكم بالنعيم الظاهرة والباطنة، ومكنكم في الأرض؛ تبنون وتغرسون وتزرعون وتحراثون ما شئتم وتتفنون بمنافعها وتستغلون مصالحها؛ فكما أنه لا شريك له في جميع ذلك؛ فلا تشركوا به في عبادته. ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾: مما صَدَرَ منكم من الكفر والشرك والمعاصي وأقلعوا عنها، ﴿ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ﴾؛ أي: ارجعوا إليه بالتوبة النصوح والإنابة. ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾؛ أي: قريبٌ ممن دعاه دعاء مسألة أو دعاء عبادة يجيبه بإعطائه سؤاله^(١) وقبول عبادته وإثابته عليها أجل الثواب.

واعلم أنَّ قُرْبَهُ تعالى نوعان: عامٌ وخاصٌّ: فالقربُ العامُّ: قُرْبُهُ بعلمه من جميع الخلق، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾.

والقربُ الخاصُّ: قُرْبُهُ من عابديه وسائليه ومحبيه، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿فَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾، وفي هذه الآية، وفي قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِي﴾، وهذا النوع قربٌ يقتضي إطفافه تعالى وإجابته لدعواتهم وتحقيقه لمراداتهم، ولهذا يقرن باسمه القريب اسمه المجيب.

﴿٦٢﴾ فلما أمرهم نبيهم صالح عليه السلام ورغبهم في الإخلاص لله وحده؛ ردُّوا عليه دعوته، وقابلوه أشنع المقابلة. ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾؛ أي: قد كنَّا نرجوك ونؤمل فيك العقل والنفع، وهذا شهادة منهم لنبيهم صالح: أنه ما زال معروفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأنه من خيار قومه، ولكنه لما جاءهم بهذا الأمر الذي لا يوافق أهواءهم الفاسدة؛ قالوا هذه المقالة التي مضمونها أنك قد كنتَ كاملاً، والآن أخلفت ظننا فيك، وصرت بحالة لا يُرجى منك خيرٌ، وذنبه ما قالوه عنه، [وهو قولهم]: ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾: ويزعمهم أنَّ هذا من أعظم القدح في صالح؛ كيف قدَحَ في عقولهم وعقول آبائهم

(١) في (ب): «سؤله».

الضالِّينَ؟! وكيف ينهاهم عن عبادة مَنْ لا ينفع ولا يضرُّ ولا يغني شيئاً من الأحجار والأشجار ونحوها، وأمرهم بإخلاص الدِّينِ لِلَّهِ رَبِّهِم الذي لم تزلْ نِعْمُهُ عليهم تَتْرَى وإحسانُهُ عليهم دائماً يَنْزِلُ، الذي ما بهم من نعمةٍ إلا منه، ولا يدفع عنهم السيئات إلا هو؟! ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾؛ أي: ما زلنا شاكِّين فيما دعوتنا إليه شكًّا مؤثراً في قلوبنا الرب.

﴿٦٣﴾ وبزعمهم أنَّهم لو علموا صحَّة ما دعاهم إليه؛ لاتبَعوه، وهم كَذَبَةٌ في ذلك، ولهذا بَيَّنْ كَذِبَهُمْ في قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾؛ أي: برهان ويقين مُنِّي، ﴿وَأَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةٌ﴾؛ أي: مَنْ عَلَيَّ برسالته ووحيه؛ أي: أَفَأَتَابِعْكُمْ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ. ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾؛ أي: غير خَسَار وَتَبَاب وَضُرر.

﴿٦٤﴾ ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾: لَهَا شِرْبٌ مِنَ الْبَثْرِ يَوْمًا، ثُمَّ يَشْرِبُونَ كُلُّهُمْ مِنْ ضَرْعِهَا، وَلَهُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ، ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾؛ أي: لَيْسَ عَلَيْكُمْ مِنْ مَوْنَتِهَا وَعَلْفِهَا شَيْءٌ، ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾؛ أي: بَعْقِرْ؛ ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾.

﴿٦٥﴾ ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ﴾: لَهُمْ صَالِحٌ: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾: بَلْ لَا بَدَّ مِنْ وَقُوعِهِ.

﴿٦٦﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾: بِوُقُوعِ الْعَذَابِ، ﴿نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾؛ أي: نَجَّيْنَاهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالْخِزْيِ وَالْفَضِيحَةِ. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾: وَمِنْ قُوَّتِهِ وَعِزَّتِهِ أَنْ أَهْلَكَ الْأَمَمَ الطَّاغِيَةَ وَنَجَّى الرِّسْلَ وَاتَّبَاعَهُمْ.

﴿٦٧﴾ وَأَخَذَتْ ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾: فَقَطَعَتْ قُلُوبَهُمْ؛ ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾؛ أي: خَامِدِينَ لَا حَرَكَ لِهِمْ.

﴿٦٨﴾ ﴿كَأَنَّ لَمْ يَغْتَوَّا فِيهَا﴾؛ أي: كَأَنَّهُمْ لَمَّا جَاءَهُمِ الْعَذَابُ مَا تَمَتَّعُوا فِي دِيَارِهِمْ وَلَا أَنْسَوْا فِيهَا^(١) وَلَا تَنَعَّمُوا بِهَا يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ، قَدْ فَارَقَهُمُ النِّعِيمُ، وَتَنَاوَلَهُمُ الْعَذَابُ السَّارِمُ، الَّذِي لَا يَنْقُطِعُ، الَّذِي كَأَنَّهُ لَمْ يَزَلْ. ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾؛ أي: جَحَدُوهُ بَعْدَ أَنْ جَاءَتْهُمْ الْآيَةُ الْمُبْصِرَةُ. ﴿أَلَا بَعْدَ لَثَمُودَ﴾: فَمَا

(١) في (ب): «بها».

أشقا هم وأذلهم! نستجير بالله من عذاب الدنيا وخزيها.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ ^(١) قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَهُ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۚ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَتَيْنَاكَ بِقُورٍ لُوطٍ ۖ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرَانَهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُ فَاسْتَرْزَنَهَا بِاسْحَقْ وَمِنْ وَرَاءِهِ اسْحَقُ يَقُوبُ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَتْلُوَنَّ أَلَدًا وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۖ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَنْتَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكَ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُمْ حَمِيدٌ تَجِيدٌ ۖ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَنِّدُنَا فِي قُورٍ لُوطٍ ۖ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ۖ ﴿٧٥﴾ يَتْلُوهُمْ أَغْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَهُ أَمْرٌ رَبِّكَ وَلِأَنَّهُمْ مَاتِهِمْ عَذَابٌ غَيْرَ مَرْدُودٍ ۖ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ مُضَاعَفٌ بِهَمِّ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۖ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوِرُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَعِيفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ۖ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۖ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَايَ إِلَىٰ ذِكْرِ سَدِيدٍ ۖ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْهَتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۖ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ جَعَلْنَاهَا سَكَنًا وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا جِجَارَةٌ مِنْ سَيِّئِ مَنضُورٍ ۖ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِعِيدٍ ۖ ﴿٨٣﴾ ۝

﴿٦٩﴾ أي: ﴿ولقد جاءت رُسُلُنَا﴾: من الملائكة الكرام رسولنا ﴿إبراهيم﴾ الخليل ﴿بالبشرى﴾؛ أي: بالبشارة بالولد حين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط وأمرهم أن يمرؤا على إبراهيم فيبشروه بإسحاق، فلما دخلوا عليه، ﴿قالوا سلاماً﴾ قال سلام؛ أي: سلموا عليه ورد عليهم السلام. ففي هذا مشروعية السلام، وأنه لم يزل من ملة إبراهيم عليه السلام، وأن السلام قبل الكلام، وأنه ينبغي أن يكون الرد أبلغ من الابتداء؛ لأن سلامهم بالجملة الفعلية الدالة على التجدد، ورده بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والاستمرار، وبينهما فرق كبير؛ كما هو معلوم

في علم العربية. ﴿فَمَا لَبِثَ﴾: إبراهيم لما دخلوا عليه، ﴿أَنْ جَاءَ بِعَجَلٍ حَنِيزٍ﴾؛ أي: بادر لبيته فاستحضر لأضيافه عَجَلًا مشويًا على الرضفِ سمينًا، فقرَّبَه إليهم فقال: أَلَا تَأْكُلُونَ.

﴿٧٠﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى تلك الضيافة، ﴿نَكَرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾: وظنَّ أنهم أتوه بشرُّ ومَكْرٍ، وذلك قبل أن يعرف أمرهم، فقالوا: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾؛ أي: إِنَّا رسلُ الله، أَرْسَلْنَا الله إلى إهلاك قوم لوط.

﴿٧١﴾ وامرأة إبراهيم ﴿قَائِمَةً﴾: تخدمُ أضيافه، ﴿فَضَحِكْتَ﴾: حين سمعت بحالهم وما أرسلوا به تعجبًا، ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾.

﴿٧٢﴾ فتعجبت من ذلك و ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾: فهذان مانعان من وجود الولد. ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾.

﴿٧٣﴾ ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾: فإنَّ أمره لا عجب فيه؛ لنفوذ مشيئته التامة في كل شيء؛ فلا يُستغرب على قدرته شيء، وخصوصاً فيما يدبره ويمضيه لأهل هذا البيت المبارك. ﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ﴾ عليكم أهل البيت؛ أي: لا تزال رحمته وإحسانه وبركاته، وهي الزيادة من خيره وإحسانه وحلول الخير الإلهي على العبد. ﴿عليكم أهل البيت إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾؛ أي: حميد الصفات؛ لأنَّ صفاته صفات كمال، حميد الأفعال؛ لأنَّ أفعاله إحسانٌ وجودٌ وبرٌّ وحكمةٌ وعدلٌ وقسطٌ. ﴿مَجِيدٌ﴾: والمجد هو عظمة الصفات وسَعَتُهَا؛ فله صفات الكمال، وله من كلِّ صفةٍ كمالٌ أكملها وأنمَّها وأعَمَّها.

﴿٧٤﴾ ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّفْعُ﴾: الذي أصابه من خيفة أضيافه، ﴿وَجَاءَهُ الْبَشْرَى﴾: بالولد؛ التفتَ حينئذٍ إلى مجادلة الرسل في إهلاك قوم لوط، وقال لهم: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا. قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾.

﴿٧٥﴾ ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾؛ أي: ذو خُلُقٍ [حسن] وسعة صدر وعدم غضب عند جهل الجاهلين، ﴿أَوَّاهٌ﴾؛ أي: متضرع إلى الله في جميع الأوقات، ﴿مُنِيبٌ﴾؛ أي: رجَّاع إلى الله بمعرفته ومحَبَّته والإقبال عليه والإعراض عمن سواه؛ فلذلك كان يجادلُ عن مَنْ حَتَمَ الله بهلاكهم.

﴿٧٦﴾ فقل له: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾: الجدل. ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾: بهلاكهم، ﴿وَأِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مُرْدُوذٍ﴾: فلا فائدة في جدالك.

﴿٧٧﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾؛ أي: الملائكة الذين صدروا من إبراهيم، لما أتوا ﴿لوطاً سيء بهم﴾؛ أي: شق عليه مجيئهم، ﴿وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يومٌ عَصِيبٌ﴾؛ أي: شديدٌ حرج؛ لأنه علم أن [قومه] لا يتركونهم؛ لأنهم في صور شباب جردٍ مردٍ في غاية الكمال والجمال.

﴿٧٨﴾ ولهذا وَقَعَ ما خطر بباله، فجاءه ﴿قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾؛ أي: يسرعون ويبادرون يريدون أضيافه بالفاحشة التي كانوا يعملونها، ولهذا قال: ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾؛ أي: الفاحشة التي ما سبقهم عليها أحدٌ من العالمين. ﴿قال يا قوم هؤلاءِ بناتي هنَّ أظْهَرُ لكم﴾: من أضيافي - وهذا كما عَرَضَ سليمانُ ﷺ على المرأتين أن يَشُقَّ الولد المختصم فيه لاستخراج الحق - ولعلمه أن بناته ممتنعٌ منالهنَّ ولا حقٌ لهنَّ فيهنَّ، والمقصود الأعظم دفعُ هذه الفاحشة الكبرى. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ فِي ضَيْفِي﴾؛ أي: إما أن تُراعوا تقوى الله، وإما أن تراعوني في ضيْفِي ولا تخزوني عندهم. ﴿أليس منكم رجلٌ رشيدٌ﴾: فينهاكم ويزجرُكم. وهذا دليلٌ على مروجهم وانحلالهم من الخير والمروءة.

﴿٧٩﴾ ف﴿قَالُوا﴾ له: ﴿لقد علمت ما لنا في بناتِكَ من حقٍّ وإنك لتعلم ما نريد﴾؛ أي: لا نريد إلا الرجال، ولا لنا رغبةً في النساء.

﴿٨٠﴾ فاشتدَّ قلقُ لوطٍ عليه الصلاة والسلام و﴿قال لو أن لي بكم قوَّةً أو آوي إلى ركنٍ شديدٍ﴾؛ كقبيلة مانعة؛ لمنعتكم. وهذا بحسب الأسباب المحسوسة، وإلا؛ فإنه يَأوي إلى أقوى الأركان، وهو الله الذي لا يقوم لقوته أحدٌ.

﴿٨١﴾ ولهذا لَمَّا بَلَغَ الأمرُ منتهاه واشتدَّ الكربُ؛ ﴿قَالُوا﴾ له: ﴿إنَّا رسلُ ربِّكَ﴾؛ أي: أخبروه بحالهم ليطمئنَّ قلبه، ﴿لنَّ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾: بسوء. ثم قال جبريل بجناحه، فطمس أعينهم، فانطلقوا يتوعدون لوطاً بمجيء الصبح، وأمر الملائكة لوطاً أن يَسْرِيَ بأهله ﴿بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾؛ أي: بجانب منه قبل الفجر بكثير؛ ليتمكّنوا من البعدِ عن قريتهم، ﴿ولا يلتفت منكم أحدٌ﴾؛ أي: بادروا بالخروج، وليكن همُّكم النجاء، ولا تلتفتوا إلى ما وراءكم، ﴿إِلَّا امرأتَكَ إِنَّهُ مَصِيبُهَا﴾: من العذاب ﴿ما أصابهم﴾؛ لأنها تشارك قومها في الإثم، فتدلهم على أضياف لوط إذا نزل به أضياف. ﴿إِنَّ موعِدَهُم الصُّبْحُ﴾: فكان لوطاً استعجل ذلك، فقيل له: ﴿أليس الصُّبْحُ بقريبٍ﴾.

﴿٨٢﴾ ﴿فلما جاء أمرُنا﴾: بنزولِ العذاب وإحلاله فيهم ﴿جَعَلْنَا﴾: ديارهم

﴿عَالِيهَا سَافِلَهَا﴾؛ أي: قلبناها عليهم، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾؛ أي: من حجارة النار الشديدة الحرارة، ﴿منضودٍ﴾؛ أي: متتابعة تتبع من شد عن القرية.
 ﴿٨٣﴾ ﴿مَسْؤَمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾؛ أي: معلمة عليها علامة العذاب والغضب، ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾: الذين يشابهون لفعل قوم لوط، ﴿بِيعِيدٍ﴾: فليحذر العباد أن يفعلوا كفعالهم؛ لئلا يصيبهم ما أصابهم.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا﴾^(١) قَالَ يَنْقُورُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُونَ وَيَنْقُورُوا أَوْفُوا بِالْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَشْعِيبُ أَسْلَوْنَاكَ تَأْمُرُنَا أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَنْقُورُوا أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَتْرُوقٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَنْقُورُوا لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَنْقُورُوا أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي يَمَّا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَنْقُورُوا أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْمَلُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْثَةَ فَاصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَنَّتِمْ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّرَ بَقْنَا فِيهَا آلَا بُعْدَا لِمَدَيْنَ كَمَا بَعْدَتْ نَعْمُودُ ﴿٩٥﴾ .

﴿٨٤﴾ أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى مدین﴾: القبيلة المعروفة، الذين يسكنون مَدْيَنَ، في أدنى فلسطين، ﴿أخاهم﴾: في النسب، ﴿شُعَيْبًا﴾: لأنهم يعرفونه ويتمكنون^(٢)

(١) في (ب): إلى آخر القصة.

(٢) في (ب): «وليتمكنوا».

من الأخذ عنه، فقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾؛ أي: أخلصوا له العبادة؛ فإنهم كانوا يشركون [به]، وكانوا مع شركهم يَبْنَحُونَ المكيال والميزان، ولهذا نهاهم عن ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾: بل أوفوا الكيل والميزان بالقسط. ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾؛ أي: بنعمة كثيرة وصحة وكثرة أموال وبنين؛ فاشكروا الله على ما أعطاكم، ولا تكفروا بنعمة^(١) الله فيزيلها عنكم. ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مَحِيطٍ﴾؛ أي: عذاباً يحيط بكم ولا يُبْقِي منكم باقية.

﴿٨٥﴾ ﴿يَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: بالعدل الذي تَرْضُونَ أن تعطوه، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾؛ أي: لا تنقصوا من أشياء الناس، فتسرقوها بأخذها بنقص المكيال والميزان، ﴿وَلَا تَغْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ﴾: فإن الاستمرار على المعاصي يفسد الأديان والعقائد والدين والدنيا ويهلك الحرث والنسل.

﴿٨٦﴾ ﴿بِقِيَّةِ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ﴾؛ أي: يكفيكم ما أبقي الله لكم من الخير وما هو لكم؛ فلا تطمعوا في أمر لكم عنه غنية وهو ضار لكم جداً، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: فاعملوا بمقتضى الإيمان. ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾؛ أي: لست بحافظ لأعمالكم ووكيل عليها، وإنما الذي يحفظها الله تعالى، وأما أنا فأبلغكم ما أرسلت به.

﴿٨٧﴾ ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾؛ أي: قالوا ذلك على وجه التهكم بنبيهم والاستبعاد لإجابتهم له، ومعنى كلامهم: أنه لا موجب لنهيك لنا إلا أنك تصلي لله وتتعبّد له؛ أفإن كنت كذلك؛ أفوجب لنا أن نترك ما يعبد آباؤنا لقول ليس عليه دليل إلا أنه موافق لك؟! فكيف ننبعك ونترك آباءنا الأقدمين أولي العقول والألباب؟! وكذلك لا يوجب قولك لنا أن نفعل في أموالنا ما قلنا من وفاء الكيل والميزان وأداء الحقوق الواجبة فيها، بل لا نزال نفعل فيها ما شئنا؛ لأنها أموالنا، فليس لك فيها تصرف، ولهذا قالوا في تهكمهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾؛ أي: أئنك أنت الذي الحلم والوقار لك خلق والرشد لك سجية؛ فلا يصدر عنك إلا رشد، ولا تأمر إلا برشد، ولا تنهى إلا عن غي؟! أي: ليس الأمر كذلك، وقصدهم أنه موصوف بعكس هذين الوصفين: بالسفه والغواية؛ أي: أن المعنى: كيف تكون أنت الحليم الرشيد، وآباؤنا هم السفهاء

(١) في (ب): «نعمة».

الغاوين؟! وهذا القول الذي أخرجوه بصيغة التهكم وأن الأمر بعكسه ليس كما ظنوه، بل الأمر كما قالوه: إن صلاته تأمره أن ينهاهم عما كان يعبد آباؤهم الضالون وأن يفعلوا في أموالهم ما يشاؤون؛ فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأي فحشاء ومنكر أكبر من عبادة غير الله، ومن منع حقوق عباد الله، أو سرقها بالمكايل والموازين، وهو عليه الصلاة والسلام الحليم الرشيد؟!

﴿٨٨﴾ ﴿قال﴾ لهم شعيب: ﴿يا قوم أرايتم إن كنتم على بينة من ربّي﴾؛ أي: يقين وطمأنينة في صحة ما جئت به، ﴿ورزقني منه رزقاً حسناً﴾؛ أي: أعطاني الله من أصناف المال ما أعطاني، ﴿و﴾ أنا لا ﴿أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾: فلست أريد أن أنهاكم عن البخس في المكيال والميزان وأفعله أنا حتى تتطرق إليّ التهمة في ذلك، بل ما أنهاكم عن أمر إلا وأنا أول مبتدئ لتركه. ﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت﴾؛ أي: ليس لي من المقاصد إلا أن تصلح أحوالكم وتستقيم منافعكم، وليس لي من المقاصد الخاصة لي وحدي شيء بحسب استطاعتي. ولما كان هذا فيه نوع تزكية للنفس؛ دفع هذا بقوله: ﴿وما توفيقي إلا بالله﴾؛ أي: وما يحصل لي من التوفيق لفعل الخير و^(١)الانفكاك عن الشر إلا بالله تعالى، لا بحولي ولا بقوّتي. ﴿عليه توكلت﴾؛ أي: اعتمدت في أموري ووثقت في كفايته. ﴿وإليه أنيب﴾: في أداء ما أمرني به من أنواع العبادات، وفي هذا التقرب إليه بسائر أفعال الخيرات، وبهذين الأمرين تستقيم أحوال العبد، وهما الاستعانة بربه والإنابة إليه؛ كما قال تعالى: ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾. وقال: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾.

﴿٨٩﴾ ﴿ويا قوم لا يجرمَنَّكم شِقَاقِي﴾؛ أي: لا تحملنكم مخالفتي ومشاقتي، ﴿أن يصيبنكم﴾: من العقوبات، ﴿مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد﴾: لا في الدار ولا في الزمان.

﴿٩٠﴾ ﴿واستغفروا ربكم﴾: عما اقترفت من الذنوب، ﴿ثم توبوا إليه﴾: فيما يستقبل من أعماركم بالتوبة النصوح والإنابة إليه بطاعته وترك مخالفته. ﴿إن ربّي رحيمٌ ودودٌ﴾: لمن تاب وأناب؛ يرحمه فيغفر له ويتقبل توبته ويحبّه.

ومعنى الدود من أسمائه تعالى: أنه يحب عباده المؤمنين ويحبونه؛ فهو فعول بمعنى فاعل ومعنى ^(٢)مفعول.

(٢) في (ب): «ويعني».

(١) في (ب): «أو».

﴿٩١﴾ ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ﴾؛ أي: تَضَجَّرُوا مِنْ نَصَائِحِهِ وَمَوَاعِظِهِ لَهُمْ، فَقَالُوا: مَا نَفَقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ، وَذَلِكَ لِبُخْصِهِمْ لَمَّا يَقُولُ وَنَفَرْتَهُمْ عَنْهُ. ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً﴾؛ أي: فِي نَفْسِكَ، لَسْتَ مِنَ الْكِبَارِ وَالرُّؤَسَاءِ، بَلْ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ. ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾؛ أي: جَمَاعَتُكَ وَقَبِيلَتُكَ، ﴿لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِيزٌ﴾؛ أي: لَيْسَ لَكَ قَدْرٌ فِي صَدُورِنَا وَلَا احْتِرَامٌ فِي أَنْفُسِنَا، وَإِنَّمَا احْتَرَمْنَا قَبِيلَتَكَ بِتَرَكْنَا إِيَّاكَ.

﴿٩٢﴾ ﴿قَالَ﴾^(١) لَهُمْ مَتَرَقِّقاً لَهُمْ: ﴿يَا قَوْمِ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾؛ أي: كَيْفَ تَرَاعُونَنِي لِأَجْلِ رَهْطِي وَلَا تَرَاعُونَنِي لِلَّهِ، فَصَارَ رَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ. ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيّاً﴾؛ أي: نَبَذْتُمْ أَمْرَ اللَّهِ وَرَاءَ ظَهْوَرِكُمْ، وَلَمْ تُبَالُوا بِهِ، وَلَا خِفْتُمْ مِنْهُ. ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾: لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، فَسُيْجَازِيكُمْ عَلَى مَا عَمِلْتُمْ أَتَمَّ الْجَزَاءِ.

﴿٩٣﴾ ﴿و﴾ لَمَّا أَعْيَوْهُ وَعَجَزَ عَنْهُمْ؛ قَالَ: ﴿يَا قَوْمِ اْعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾؛ أي: عَلَى حَالَتِكُمْ وَدِينِكُمْ. ﴿إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ﴾^(٢) تَعْلَمُونَ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ: وَيَحُلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ، أَنَا أَمْ أَنْتُمْ، وَقَدْ عَلِمُوا ذَلِكَ حِينَ وَقَعَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ، ﴿وَارْتَقِبُوا﴾: مَا يَحُلُّ بِي. ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ مَا يَحِلُّ بِكُمْ.

﴿٩٤﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾: بِإِهْلَاكِ قَوْمِ شُعَيْبٍ، ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾: لَا تَسْمَعُ لَهُمْ صَوْتاً، وَلَا تَرَى مِنْهُمْ حَرَكَةً.

﴿٩٥﴾ ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾؛ أي: كَأَنَّهُمْ مَا أَقَامُوا فِي دِيَارِهِمْ وَلَا تَنَعَّمُوا فِيهَا حِينَ أَتَاهُمُ الْعَذَابُ. ﴿أَلَا بَعْدَ لِمَدِينٍ﴾: إِذْ أَهْلَكَهَا اللَّهُ وَأَخْزَاهَا، ﴿كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودٌ﴾؛ أي: قَدْ اشْتَرَكَ هَاتَانِ الْقَبِيلَتَانِ فِي السَّحْقِ وَالْبُعْدِ وَالْهَلَاكِ.

وَشُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يُسَمَّى خَطِيبَ الْأَنْبِيَاءِ؛ لِحَسَنِ مَرَاجَعَتِهِ لِقَوْمِهِ. وَفِي قِصَّتِهِ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْعِبَرِ شَيْءٌ كَثِيرٌ:

مِنْهَا: أَنَّ الْكُفَّارَ كَمَا يَعَاقِبُونَ وَيَخَاطَبُونَ بِأَصْلِ الْإِسْلَامِ؛ فَكَذَلِكَ بِشَرَائِعِهِ وَفُرُوعِهِ؛ لِأَنَّ شُعَيْباً دَعَا قَوْمَهُ إِلَى التَّوْحِيدِ وَإِلَى إِيفَاءِ الْمَكْيَالِ وَالْمِيزَانِ، وَجَعَلَ الْوَعِيدَ مُرْتَبِئاً عَلَى مَجْمُوعِ ذَلِكَ.

(١) فِي (ب): «فَقَالَ».

(٢) فِي (ب): «فَسَوْفَ».

ومنها: أن نقصَ المكايل والموازين من كباثر الذنوب وتخشى العقوبة العاجلة على من تعاطى ذلك، وأنَّ ذلك من سرقة أموال الناس، وإذا كان سرقته في المكايل والموازين موجبةً للوعيد؛ فسرقتهم على وجه القهر والغلبة من باب أولى وأحرى.

ومنها: أنَّ الجزء من جنس العمل؛ فمن بَخَسَ أموال الناس يريد زيادة ماله؛ عوقِبَ بنقيض ذلك، وكان سبباً لزوال الخير الذي عنده من الرزق؛ لقوله: ﴿إني أراكم بخير﴾؛ أي: فلا تتسببوا إلى زواله بفعلكم.

ومنها: أن على العبد أن يَتَّقَ بما آتاه الله وَيَتَّقَ بالحلال عن الحرام وبالمكاسب المباحة عن المكاسب المحرمة، وأنَّ ذلك خيرٌ له؛ لقوله: ﴿بقيَّةُ الله خيرٌ لكم﴾؛ ففي ذلك من البركة وزيادة الرزق ما ليس في التكالب على الأسباب المحرمة من المَحَقِّ وضدَّ البركة.

ومنها: أن ذلك من لوازم الإيمان وآثاره؛ فإنه رتب العمل به على وجود الإيمان، فدلَّ على أنَّه إذا لم يوجد العمل؛ فالإيمان ناقصٌ أو معدومٌ.

ومنها: أنَّ الصلاة لم تزل مشروعةً للأنبياء المتقدمين، وأنها من أفضل الأعمال، حتى إنه متقررٌ عند الكفار فضلها وتقديمها على سائر الأعمال، وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي ميزانٌ للإيمان وشرائعه؛ فبإقامتها تكْمُلُ أحوال العبد، وبعدم إقامتها تختلُّ أحواله الدينية.

ومنها: أنَّ المال الذي يرزقه الله الإنسان، وإن كان الله قد خَوَّله إياه؛ فليس له أن يصنع فيه ما يشاء؛ فإنه أمانةٌ عنده، عليه أن يقيم حقَّ الله فيه بأداء ما فيه من الحقوق والامتناع من المكاسب التي حرَّمها الله ورسوله، لا كما يزعمه الكفار ومن أشبههم؛ أنَّ أموالهم لهم أن يصنعوا فيها ما يشاؤون ويختارون، سواءً وافقَ حكمَ الله أو خالفه.

ومنها: أن من تَكْمَلَتْ دعوة الداعي وتمامها: أن يكونَ أول مبادرٍ لما يأمر غيره به وأول منتهٍ عما ينهى غيره عنه؛ كما قال شعيبٌ عليه السلام: ﴿وما أريدُ أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾، ولقوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون [كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ]﴾.

ومنها: أن وظيفة الرسل وسنتهم وملَّتْهم إرادةُ الإصلاح بحسب القدرة والإمكان، فيأتون بتحصيل المصالح وتكميلها أو بتحصيل ما يُفَدَّرُ عليه منها،

وبدفع المفساد وتقليلها، ويراعون المصالح العامة على المصالح الخاصة.
وحقيقة المصلحة هي التي تَصْلُحُ بها أحوال العباد، وتستقيم بها أمورهم الدينية والدنيوية.

ومنها: أَنْ مَنْ قام بما يَقْدِرُ عليه من الإصلاح؛ لم يكن مَلُوماً ولا مَذْموماً في عدم فعله ما لا يَقْدِرُ عليه؛ فعلى العبد أَنْ يُقيم من الإصلاح في نفسه وفي غيره ما يَقْدِرُ عليه.

ومنها: أَنَّ العبد ينبغي له أَنْ لا يَتَّكِلَ على نفسه طرفة عين، بل لا يزال مستعيناً بربه، متوكلاً عليه، سائلاً له التوفيق، وإذا حصل له شيء من التوفيق؛ فلينسبه لِمُؤَلِّهِ ومُسَدِّهِ ولا يُعْجَبْ بنفسه؛ لقوله: ﴿وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾.

ومنها: الترهيب بأخذات الأمم، وما جرى عليهم، وأنه ينبغي أَنْ تُذَكَّرَ الْقَصَصُ التي فيها إيقاع العقوبات بالمجرمين في سياق الوعظ والزجر؛ كما أنه ينبغي ذِكْرُ ما أكرم الله به أهل التقوى عند الترغيب والحث على التقوى.

ومنها: أَنَّ التائب من الذنب كما يُسَمَحُ له عن ذنبه ويُعْفَى عنه؛ فَإِنَّ اللَّهَ تعالى يحبه ويؤدّه، ولا عبرة بقول من يقول: إِنَّ التائب إذا تاب؛ فحسبه أَنْ يُعْفَرَ له ويعود عليه العفو، وأما عَوْدُ الْوُدِّ والحب؛ فإنه لا يعود؛ فَإِنَّ اللَّهَ قال: ﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إِنَّ ربي رحيم ودود﴾.

ومنها: أَنَّ اللَّهَ يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة قد يعلمون بعضها وقد لا يعلمون شيئاً منها، وربما دَفَعَ عنهم بسبب قبيلتهم وأهل وطنهم الكفار؛ كما دفع الله عن شعيب رجم قومه بسبب رهطه.

وَأَنَّ هذه الروابط التي يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين لا بأس بالسعي فيها، بل ربما تعيّن ذلك؛ لأنّ الإصلاح مطلوبٌ على حسب القدرة والإمكان؛ فعلى هذا لو ساعد المسلمون الذين تحت ولاية الكفار، وعملوا على جعل الولاية جمهوريةً يتمكّن فيها الأفراد والشعوب من حقوقهم الدينية والدنيوية؛ لكان أولى من استسلامهم لدولة تقضي على حقوقهم الدينية والدنيوية، وتحرص على إبادةها وجعلهم عَمَلَةً وخداماً لهم. نعم؛ إن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين وهم الحكام؛ فهو المتعيّن، ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة؛ فالمرتبة التي فيها دفع ووقاية للدين والدنيا مقدمة. والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ^(١)﴾ ٩٦ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَأَتْبَعُوا آمَرَ فِرْعَوْنَ وَمَا آمَرَ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ ٩٧ ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ ٩٨ ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَهُ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَبْسُ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ ٩٩ ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَىٰ نَقْصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ ١٠٠ ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِبٍ﴾ ١٠١ ﴿

﴿٩٦﴾ يقول تعالى: ﴿ولقد أرسلنا موسى﴾: ابن عمران ﴿بآياتنا﴾: الدالة على صدق ما جاء به؛ كالعصا واليد ونحوهما من الآيات التي أجراها الله على يدي موسى عليه السلام، ﴿وسلطان مبين﴾؛ أي: حجة ظاهرة بيّنة ظهرت ظهور الشمس.

﴿٩٧﴾ ﴿إلى فرعون وملئه﴾؛ أي: أشراف قومه؛ لأنهم المتبوعون، وغيرهم تبع لهم، فلم ينقادوا لما مع موسى من الآيات التي أراهم إياها كما تقدم بسطها في سورة الأعراف، ولكنهم ﴿اتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد﴾: بل هو ضال غاير لا يأمر إلا بما هو ضرر محض.

﴿٩٨﴾ لا جرم لما اتبعه قومه؛ أراهم وأهلكهم؛ ﴿يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود﴾.

﴿٩٩﴾ ﴿واتبعوا في هذه﴾؛ أي: في الدنيا ﴿لعنة ويوم القيامة﴾؛ أي: يلعنهم الله وملأته والناس أجمعون في الدنيا والآخرة. ﴿بئس الرّفْدُ المرفود﴾؛ أي: بئس ما اجتمع لهم، وتراذف عليهم من عذاب الله ولعنة الدنيا والآخرة.

﴿١٠٠﴾ ولما ذكر قصص هؤلاء الأمم مع رسلهم؛ قال الله تعالى لرسوله: ﴿ذلك من أنباء الفُرَىٰ نقصه عليك﴾: لتنذر به ويكون آية على رسالتك وموعظة وذكرى للمؤمنين. ﴿منها قائم﴾: لم ي تلف بل بقي من آثار ديارهم ما يدل عليهم. ﴿و﴾ منها ﴿حصيد﴾: قد تهدمت مساكنهم، واضمحلت منازلهم فلم يبق لها أثر.

﴿١٠١﴾ ﴿وما ظلمناهم﴾: بأخذهم بأنواع العقوبات، ﴿ولكن ظلموا أنفسهم﴾: بالشرك والكفر والعناد. ﴿فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء﴾

لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ: وهكذا كل من التجأ إلى غير الله؛ لم ينفعه ذلك عند نزول الشدائد. ﴿وما زادوهم غير تنبيء﴾؛ أي: خسار ودمار بالصد مما خطر ببالهم.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٠٢).

﴿١٠٢﴾ أي: يقصمهم بالعذاب، ويبيدهم، ولا ينفعهم ما كانوا يذعون من دون الله من شيء.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ (١٠٣) ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ (١٠٤) ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُقِيَٰ وَسَعِيدٌ﴾ (١٠٥) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَنِيَ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ (١٠٦) ﴿خَلِيلَيْنَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (١٠٧) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَنِيَ الْخَلِيلَيْنَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُوفٌ﴾ (١٠٨) (١).

﴿١٠٣﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾: المذكور من أخذه للظالمين بأنواع العقوبات، ﴿لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾؛ أي: لعبرة ودليلاً على أن أهل الظلم والإجرام لهم العقوبة الدنيوية والعقوبة الآخروية. ثم انتقل من هذا إلى وصف الآخرة، فقال: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾؛ أي: جُمِعوا لأجل ذلك اليوم للمجازاة وليظهر لهم من عظمة الله وسلطانه وعدله العظيم ما به يعرفونه حق المعرفة. ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾؛ أي: يشهده الله وملائكته وجميع المخلوقين.

﴿١٠٤﴾ ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ﴾؛ أي: إتيان يوم القيامة، ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾: إذا انقضى أجل الدنيا، وما قدر الله فيها من الخلق؛ فحينئذ ينقلهم إلى الدار الآخرة، ويُجري عليهم أحكامه الجزائية، كما أجرى عليهم في الدنيا أحكامه الشرعية.

﴿١٠٥﴾ ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾: ذلك اليوم ويجتمع الخلق، ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾: حتى الأنبياء والملائكة الكرام لا يشفعون إلا بإذنه. ﴿فَمِنْهُمْ﴾؛ أي: الخلق ﴿سُقِيَٰ وَسَعِيدٌ﴾: فالأشقياء هم الذين كفروا بالله، وكذبوا رسله وعصوا أمره، والسعداء هم المؤمنون المتقون.

﴿١٠٦﴾ ﴿وَأَمَّا جَزَاؤُهُمْ﴾: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾؛ أي: حصلت لهم الشقاوة

(١) الآيات في (ب) لم تذكر.

والخزي والفضيحة ﴿ففي النار﴾: منغمسون في عذابها مشتد عليهم عقابها. ﴿لهم فيها﴾: من شدة ما هم فيه ﴿زفير وشهيق﴾: وهو أشنع الأصوات وأقبحها.

﴿١٠٧﴾ ﴿خالدين فيها﴾؛ أي: في النار التي هذا عذابها، ﴿ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك﴾؛ أي: خالدين فيها أبداً إلا المدة التي شاء الله أن لا يكونوا فيها، وذلك قبل دخولها؛ كما قاله جمهور المفسرين؛ فلا استثناء على هذا راجع إلى ما قبل دخولها؛ فهم خالدون فيها جميع الأزمان سوى الزمن الذي قبل الدخول فيها. ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾: فكل ما أراد فعله واقتضته حكمته؛ فعَلَهُ تبارك وتعالى، لا يردُّه أحدٌ عن مُرادِهِ.

﴿١٠٨﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا﴾؛ أي: حصلت لهم السعادة والفلاح والفوز، ﴿ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك﴾: ثُمَّ أَكَّدَ ذلك بقوله: ﴿عطاءً غير مجذوذ﴾؛ أي: ما أعطاهم الله من النعيم المقيم واللذة العالية؛ فإنه دائم مستمر غير منقطع بوقت من الأوقات. نسأل الله الكريم من فضله.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِن قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيْبُهُمْ غَيْرُ مَنْقُوصٍ﴾ ﴿١٠٩﴾.

﴿١٠٩﴾ يقول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾: المشركون؛ أي: لا تشك في حالهم، وأن ما هم عليه باطل؛ فليس لهم دليل شرعي ولا عقلي، وإنما دليلهم وشبهتهم أنهم يعبدون كما يعبد آباؤهم من قبل، ومن المعلوم أن هذا ليس بشبهة فضلاً عن أن يكون دليلاً؛ لأن أقوال ما عدا الأنبياء يحتج لها لا يحتج بها، خصوصاً أمثال هؤلاء الضالين، الذين كثر خطوهم وفساد أقوالهم في أصول الدين؛ فإن أقوالهم وإن اتفقوا عليها؛ فإنها خطأ وضلال ﴿وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيْبُهُمْ غَيْرُ مَنْقُوصٍ﴾؛ أي: لا بد أن ينالهم نصيبهم من الدنيا مما كتب لهم، وإن كثر ذلك النصيب أو راق في عينك؛ فإنه لا يدل على صلاح حالهم؛ فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين الصحيح إلا من يحب. والحاصل أنه لا يغتر باتفاق الضالين على قول الضالين من آبائهم الأقدمين، ولا على ما خولهم الله، وآتاهم من الدنيا.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ

لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٌ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ كُلًّا لَّمَّا لَيُؤْفِقَنَّهٖم رَّبُّكَ أَعْمَلَهُمُ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَوَيْتُمْ كَمَا أُمِرْتُمْ وَمَنْ تَابَ مَعَكُمْ وَلَا تَطْفَعُوا إِنَّا بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ .

﴿١١٠﴾ يخبر تعالى أنه أتى موسى الكتاب الذي هو التوراة، الموجب للاتفاق على أوامره ونواهيه والاجتماع، ولكن مع هذا؛ فإن المنتسبين إليه اختلفوا فيه اختلافاً أضرَّ بعقائدهم وجامعتهم الدينية. ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾: بتأخيرهم وعدم معاجلتهم بالعذاب، ﴿لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾: بإحلال العقوبة بالظالم، ولكنه تعالى اقتضت حكمته أن أخر القضاء بينهم إلى يوم القيامة، وبقوا في شك مرِيب. وإذا كانت هذه حالهم مع كتابهم؛ فمع القرآن الذي أوحاه الله إليك غير مستغرب من طائفة اليهود أن لا يؤمنوا به، وأن يكونوا في شك منه مرِيب.

﴿١١١﴾ ﴿وَإِنْ كُلًّا لَّمَّا لَيُؤْفِقَنَّهٖم رَّبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ أي: لا بد أن يقضي الله بينهم^(١) يوم القيامة بحكمه العدل، فيجازي كلًّا بما يستحقه. ﴿إنه بما يعملون﴾: من خير وشر، ﴿خبير﴾: فلا يخفى عليه شيء من أعمالهم؛ دقيقتها وجليلها.

﴿١١٢﴾ ثم لما أخبر بعدم استقامتهم التي أوجب اختلافهم وافتراقهم؛ أمر نبيه محمداً ﷺ ومن معه من المؤمنين أن يستقيموا كما أمروا، فيسلکوا ما شرعه الله من الشرائع، ويعتقدوا ما أخبر الله به من العقائد الصحيحة، ولا يزيغوا عن ذلك يمنةً ولا يسرةً، ويدوموا على ذلك، ولا يطفَعُوا بأن يتجاوزوا ما حده الله لهم من الاستقامة، وقوله: ﴿إنه بما تعملون بصير﴾؛ أي: لا يخفى عليه من أعمالكم شيء، وسيجازيكم عليها. ففيه ترغيب لسلوك الاستقامة وترهيب من ضدها.

﴿١١٣﴾ ولهذا حذرهم عن الميل إلى من تعدى الاستقامة، فقال: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا﴾؛ [أي: لا تميلوا] ﴿إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: فإنكم إذا ملت إليهم وافقتموهم على ظلمهم أو رضيتهم ما هم عليه من الظلم؛ ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾: إن فعلتم ذلك. ﴿وما لكم من دون الله من أولياء﴾: يمنعونكم من عذاب الله، ولا يحصلون لكم شيئاً من ثواب الله. ﴿ثم لا تنصرون﴾؛ أي: لا يدفع عنكم العذاب إذا مسكم.

ففي هذه الآية التحذير من الركوب إلى كل ظالم، والمراد بالركون: الميل والانضمام

(١) في (ب): «لا بد أن الله يقضي بينهم».

إليه بظلمه وموافقته على ذلك والرضا بما هو عليه من الظلم، وإذا كان هذا الوعيد في الركون إلى الظلمة؛ فكيف حال الظلمة بأنفسهم؟! نسأل الله العافية من الظلم.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَلِيلٍ إِنْ أَحْسَنْتَ يُذْهِبَنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ (١١٤) وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ .

﴿١١٤﴾ يأمر تعالى بإقامة الصلاة كاملة ﴿طَرَفِي النَّهَارِ﴾؛ أي: أوله وآخره، ويدخل في هذا صلاة الفجر وصلاتا الظهر والعصر، ﴿وَزُلْفَا مِنْ أَلِيلٍ﴾: ويدخل في ذلك صلاة المغرب والعشاء، ويتناول ذلك قيام الليل؛ فإنها مما تُزْلَفُ العبد وتقربه إلى الله تعالى. ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبَنَّ السَّيِّئَاتِ﴾؛ أي: فهذه الصلوات الخمس وما ألحق بها من التطوعات من أكبر الحسنات، وهي مع أنها حسنات تقرب إلى الله وتوجب الثواب؛ فإنها تُذْهِبُ السَّيِّئَاتِ وتمحوها، والمراد بذلك الصغائر؛ كما قيّدتها الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ؛ مثل قوله: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان؛ مكفرات لما بينهن ما اجْتَنَبَ الكبائر»^(١)، بل كما قيّدتها الآية التي في سورة النساء، وهي قوله عز وجل: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنَدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾. ﴿ذَلِكَ﴾: لعل الإشارة لكل ما تقدّم؛ من لزوم الاستقامة على الصراط المستقيم، وعدم مجاوزته وتعدّيه، وعدم الركون إلى الذين ظلموا، والأمر بإقامة الصلاة، وبيان أن الحسنات يُذْهِبَنَّ السَّيِّئَاتِ؛ الجميع ﴿ذَكَرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾: يفهمون بها ما أمرهم الله به ونهاهم، ويمثلون لتلك الأوامر الحسنة المثمرة للخيرات الدافعة للشُرور والسيئات.

﴿١١٥﴾ ولكن تلك الأمور تحتاج إلى مجاهدة النفس والصبر عليها، ولهذا قال: ﴿وَأَصْبِرْ﴾؛ أي: احبس نفسك على طاعة الله وعن معصيته وإلزامها لذلك واستمر ولا تضجر. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾: بل يتقبل الله عنهم أحسن الذي عملوا ويَجْزِيهِمْ أَجْرَهُمْ بأحسن ما كانوا يعملون.

وفي هذا ترغيب عظيم للزوم الصبر بتشويق النفس الضعيفة إلى ثواب الله كلاً وَنَتْ وَفَتَّرَتْ.

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿١١٦﴾ لما ذكر تعالى إهلاك الأمم المكذبة للرسل، وأن أكثرهم منحرفون عن أهل الكتب الإلهية، وذلك كله يقضي على الأديان بالذهاب والاضمحلال؛ ذكر أنه لولا أنه جعل في القرون الماضية بقايا من أهل الخير، يدعون إلى الهدى وينهون عن الفساد والردي، فحصل من نفعهم، وأبقيت به الأديان، ولكئهم قليلون جداً^(١)، وغاية الأمر أنهم نجوا باتباعهم المرسلين، وقيامهم بما قاموا به من دينهم، ويكون حجة الله أجراها على أيديهم؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة ﴿و﴾ لكن ﴿اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾؛ أي: اتَّبَعُوا ما هم فيه من النعيم والترف، ولم يبغوا به بدلاً. ﴿وكانوا مجرمين﴾؛ أي: ظالمين باتباعهم ما أترفوا فيه، فلذلك حق عليهم العقاب واستأصلهم العذاب.

وفي هذا حث لهذه الأمة أن يكون فيهم بقايا؛ مصلحون لما أفسد الناس، قائمون بدين الله، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويبصرونهم من العمى، وهذه الحالة أعلى حالة يرغب فيها الراغبون، وصاحبها يكون إماماً في الدين؛ إذا جعل عمله خالصاً لرب العالمين.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿١١٧﴾ أي: وما كان الله ليهلك القرى بظلم منه لهم والحال أنهم مصلحون؛ أي: مقيمون على الصلاح مستمرون عليه؛ فما كان الله ليهلكهم إلا إذا ظلموا، وقامت عليهم حجة الله.

ويُحتمل أن المعنى: وما كان ربك ليُهْلِكَ القرى بظلمهم السابق إذا رجعوا وأصلحوا عملهم؛ فإن الله يعفو عنهم، ويمحو ما تقدّم من ظلمهم.

(١) جاء في هامش (ب): «والمعروف في تفسيرها غير هذا المعنى الذي ذكر هنا؛ وهو أن هذا بمعنى النفي أي: أنه لم يكن في القرون السالفة أولو بقية... إلخ. إلا قليلاً ممن أنجينا منهم؛ أي: لكن بقي قليل بهذه الصفة، وهو قريب من المعنى الذي ذكرنا، لكن ما ذكرنا في الأصل...» وما بعد كلمة الأصل غير واضح. ولعل الأقرب: «لكن ما ذكرنا في الأصل أنسب». والله أعلم.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾

﴿١١٨﴾ يخبر تعالى أنه لو شاء لجعل الناس أمة واحدة على الدين الإسلامي؛ فإن مشيئته غير قاصرة، ولا يمتنع عليه شيء، ولكنه اقتضت حكمته أن لا يزالون مختلفين، مخالفين للصرط المستقيم، متبعين السبل الموصلة إلى النار، كل يرى الحق فيما قاله والضلال في قول غيره.

﴿١١٩﴾ ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾: فهداهم إلى العلم بالحق والعمل به والاتفاق عليه؛ فهؤلاء سبقت لهم سابقة السعادة وتداركتهم العناية الربانية والتوفيق الإلهي، وأما من عداهم؛ فهم مخذولون موكولون إلى أنفسهم. وقوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي: اقتضت حكمته أنه خلقهم ليكون منهم السعداء والأشقياء والمتفقون والمختلفون والفريق الذي هدى الله والفريق الذي حقت عليهم الضلالة؛ ليتبين للعباد عدله وحكمته، وليظهر ما كمن في الطباع البشرية من الخير والشر، وليقوم سوق الجهاد والعبادات التي لا تتم ولا تستقيم إلا بالامتحان والابتلاء، ﴿و﴾ لأنه ﴿تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾: فلا بد أن ييسر للنار أهلاً يعملون بأعمالها الموصلة إليها.

﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

﴿١٢٠﴾ لما ذكر في هذه السورة من أخبار الأنبياء ما ذكر؛ ذكر الحكمة في ذكر ذلك، فقال: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾؛ أي: قلبك؛ ليطمئن، ويثبت، ويصبر كما صبر أولو العزم من الرسل؛ فإن النفوس تأس بالافتداء وتنشط على الأعمال، وتريد المنافسة لغيرها، ويتأيد الحق بذكر شواهد وكثرة من قام به. ﴿وجاءك في هذه﴾: السورة ﴿الحق﴾: اليقين فلا شك فيه بوجه من الوجوه؛ فالعلم بذلك من العلم بالحق الذي هو أكبر فضائل النفوس. ﴿وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾؛ أي: يتعظون به فيرتدعون عن الأمور المكروهة ويتذكرون الأمور المحبوبة لله فيفعلونها.

﴿١٢١﴾ وأما من ليس من أهل الإيمان؛ فلا تنفعهم المواعظ وأنواع التذكير، ولهذا قال: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: بعدما قامت عليهم الآيات: ﴿اغْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾؛ أي: حالتكم التي أنتم عليها، ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾: على ما كنا عليه.

﴿١٢٢﴾ ﴿وَانظُرُوا﴾: ما يحلُّ بنا، ﴿إِنَّا مُنْتَظَرُونَ﴾: ما يحلُّ بكم.

﴿١٢٣﴾ وقد فصل الله بين الفريقين، وأرى عباده نُصْرَه لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَقَمَعَه لِأَعْدَاءِ اللَّهِ الْمَكْذِبِينَ. ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: ما غاب فيهما من الخفايا والأمور الغيبية، ﴿وَالِيهِ يَرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾: من الأعمال والعمال، فيميز الخبيث من الطيب، ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: قم بعبادته، وهي جميع ما أمر الله به مما تقدر عليه. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾: في ذلك.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: من الخير والشر، بل قد أحاط علمه بذلك، وجرى به قلمه، وسيجري عليه حكمه وجزاؤه.

تم تفسير سورة هود.

والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على محمد وسلم. وكان الفراغ من نسخه في يوم السبت في ٢١ من شهر ربيع الآخر سنة ١٣٤٧.



المجلد الرابع^(١)
من
تيسير الكريم الرحمن
في
تفسير كلام الرب المنان

لجامعه الفقير إلى ربه
عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله السعدي
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين
آمين

(١) وكذا في الورقة الثانية من النسخة (ب). وفي الورقة الأولى: إملأ ما منَّ به المنان
من تفسير القرآن لجامعه الفقير إلى ربه المعيد المبدي عبد الرحمن بن ناصر السعدي
عفا الله عنه.

تفسير سورة يوسف بن يعقوب عليهما الصلاة والسلام

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾

﴿١﴾ يخبر تعالى أن آيات القرآن هي ﴿آيات الكتاب المبين﴾؛ أي: البين الواضحة ألفاظه ومعانيه.

﴿٢﴾ ومن بيانه وإيضاحه أنه أنزله باللسان العربي، أشرف الألسنة وأبينها، المبين لكل ما يحتاجه الناس من الحقائق النافعة، وكل هذا الإيضاح والتبيين ﴿لعلكم تعقلون﴾؛ أي: لتعقلوا حدوده وأصوله وفروعه وأوامره ونواهيه؛ فإذا عقلتُم ذلك بإيقانكم، وأتصفت قلوبكم بمعرفتها؛ أثمر ذلك عمل الجوارح والانقياد إليه، و ﴿لعلكم تعقلون﴾؛ أي: تزداد عقولكم بتكرّر المعاني الشريفة العالية على أذهانكم، فتتقّلون من حال إلى أحوال أعلى منها وأكمل.

﴿٣﴾ ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾؛ وذلك لصدقها وسلاسة عبارتها ورؤنق معانيها، ﴿بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾؛ أي: بما اشتمل عليه هذا القرآن الذي أوحيناه إليك وفضلناك به على سائر الأنبياء، وذاك محض منة من الله وإحسان. ﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾؛ أي: ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان قبل أن يوحى الله إليك، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا.

ولما مدح ما اشتمل عليه هذا القرآن من القصص وأنها أحسن القصص على الإطلاق؛ فلا يوجد من القصص في شيء من الكتب مثل هذا القرآن؛ ذكر قصة يوسف وأبيه وإخوته، القصة العجيبة الحسنة فقال:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَبْنَؤُ لَا يَنْبَغِي لَكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

واعلم أن الله ذكر أنه يقصُّ على رسوله أحسن القصص في هذا الكتاب، ثم ذكر هذه القصة، وبسطها وذكر ما جرى فيها، فعلم بذلك أنها قصة تامة كاملة حسنة؛ فمن أراد أن يكملها أو يحسنها بما يذكر في الإسرائيليات التي لا يُعرف لها سند ولا ناقل، وأغلبها كذب؛ فهو مستدرِك على الله، ومكملُ لشيء يزعم أنه ناقص، وحسبك بأمر ينتهي إلى هذا الحد قبحاً؛ فإن تضاعف هذه السورة قد ملئت في كثير من التفاسير من الأكاذيب والأمور الشنيعة المناقضة لما قصه الله تعالى بشيء كثير؛ فعلى العبد أن يفهم عن الله ما قصه، ويدع ما سوى ذلك مما ليس عن النبي ﷺ ينقل.

﴿٤﴾ فقله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام، ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾: فكانت هذه الرؤيا مقدّمة لما وصل إليه يوسف عليه السلام من الارتفاع في الدنيا والآخرة، وهكذا إذا أراد الله أمراً من الأمور العظام؛ قدّم بين يديه مقدّمة توطئة له وتسهيلاً لأمره، واستعداداً لما يرد على العبد من المشاق، ولطفاً بعبده وإحساناً إليه فأولها يعقوب بأن الشمس أمّه والقمر أبوه والكواكب إخوته، وأنه ستنقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له ويسجدون له إكراماً وإعظاماً، وأن ذلك لا يكون إلا بأسباب تتقدّمه من اجتناء الله له واصطفائه له وإتمام نعمته عليه بالعلم والعمل والتمكين في الأرض، وأن هذه النعمة ستشمل آل يعقوب الذين سجدوا له، وصاروا تبعاً له فيها.

﴿٦﴾ ولهذا قال: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾؛ أي: يصطفيك ويختارك بما من به عليك من الأوصاف الجليلة والمناقب الجميلة، ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾؛ أي: من تعبير الرؤيا وبيان ما تؤول إليه الأحاديث الصادقة كالكتب السماوية ونحوها، ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾: في الدنيا والآخرة؛ بأن يؤتيك في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾: حيث

أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا بِنِعْمٍ عَظِيمَةٍ وَاسِعَةٍ دِينِيَّةٍ وَدُنْيَوِيَّةٍ. ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ أَي: عِلْمُهُ مُحِيطٌ بِالأَشْيَاءِ وَبِمَا احْتَوَتْ عَلَيْهِ ضَمَائِرُ الْعِبَادِ مِنَ الْبِرِّ وَغَيْرِهِ، فَيُعْطِي كُلَّ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ وَحَمْدُهُ؛ فَإِنَّهُ حَكِيمٌ يَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا، وَيُنْزِلُهَا مَنَازِلَهَا.

﴿٥﴾ وَلَمَّا تَمَّ^(١) تَعْيِيرُهَا لِيُوسُفَ؛ قَالَ لَهُ أَبُوهُ: ﴿يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾؛ أَي: حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ؛ بَأَن تَكُونَ أَنْتَ الرَّئِيسُ الشَّرِيفُ عَلَيْهِمْ. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾: لَا يَفْتَرُ عَنْهُ لَيْلًا وَلَا نَهَارًا وَلَا سِرًّا وَلَا جَهَارًا؛ فَالْبَعْدُ عَنِ الْأَسْبَابِ الَّتِي يَتَسَلَّطُ بِهَا عَلَى الْعَبْدِ أُولَى. فَامْتَثِلْ يُوسُفُ أَمْرَ أَبِيهِ، وَلَمْ يَخْبِرْ إِخْوَتَهُ بِذَلِكَ، بَلْ كَتَمَهَا عَنْهُمْ.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْسَّائِلِينَ﴾ ٧ ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ٨ ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ ٩ ﴿.

﴿٧﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ﴾؛ أَي: عِبَرٌ وَأَدَلَّةٌ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمَطَالِبِ الْحَسَنَةِ، ﴿لِلْسَّائِلِينَ﴾؛ أَي: لِكُلِّ مَنْ سَأَلَ عَنْهَا بِلِسَانِ الْحَالِ أَوْ بِلِسَانِ الْمَقَالِ؛ فَإِنَّ السَّائِلِينَ هُمُ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ بِالْآيَاتِ وَالْعِبَرِ، وَأَمَّا الْمَعْرِضُونَ؛ فَلَا يَنْتَفِعُونَ بِالْآيَاتِ وَلَا بِالْقَصَصِ^(٢) وَالْبَيِّنَاتِ.

﴿٨﴾ ﴿إِذْ قَالُوا﴾: فِيمَا بَيْنَهُمْ: ﴿لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ﴾: بَنِيَامِينَ؛ أَي: شَقِيقَهُ، وَإِلَّا فَكُلُّهُمُ إِخْوَةٌ، ﴿أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾؛ أَي: جَمَاعَةٌ، فَكَيْفَ يَفْضُلُهُمَا [عَلَيْنَا] بِالْمَحَبَّةِ وَالشَّفَقَةِ. ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾؛ أَي: لَفِي خَطَأٍ بَيِّنٍ حَيْثُ فَضَّلْنَاهُمَا عَلَيْنَا مِنْ غَيْرِ مُوجِبِ نَرَاهُ، وَلَا أَمْرٍ نَشَاهِدُهُ.

﴿٩﴾ ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾؛ أَي: غَيِّبُوهُ عَنْ أَبِيهِ فِي أَرْضٍ بَعِيدَةٍ لَا يَتِمَكَّنُ مِنْ رُؤْيَيْهِ فِيهَا؛ فَإِنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ أَحَدَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ؛ ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ﴾؛ أَي: يَتَفَرَّغُ لَكُمْ، وَيُقْبَلُ عَلَيْكُمْ بِالشَّفَقَةِ وَالْمَحَبَّةِ؛ فَإِنَّهُ قَدْ اشْتَغَلَ قَلْبُهُ بِيُوسُفَ شَغْلًا لَا يَتَفَرَّغُ لَكُمْ. ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ﴾؛ أَي: مِنْ بَعْدِ هَذَا الصَّنِيعِ قَوْمًا صَالِحِينَ؛ أَي: تَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَتَسْتَغْفِرُونَهُ مِنْ بَعْدِ ذَنْبِكُمْ، فَقَدِّمُوا الْعِزْمَ عَلَى التَّوْبَةِ قَبْلَ صُدُورِ الذَّنْبِ مِنْهُمْ؛ تَسْهِيلًا لِفَعْلِهِ، وَإِزَالَةً لَشَنَاعَتِهِ، وَتَشْطِيطًا مِنْ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ.

(٢) فِي (ب): «فِي الْقَصَصِ».

(١) فِي (ب): «بَانَ».

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (١٠).

﴿١٠﴾ أي: ﴿قال قائل﴾: من إخوة يوسف الذين أرادوا قتله أو تبعيده: ﴿لا تقتلوا يوسف﴾: فإن قتله أعظم إثماً وأشنع، والمقصود يحصل بتبعيده عن أبيه من غير قتل، ولكن توصلوا إلى تبعيده بأن تلقوه ﴿في غيابة الجب﴾: وتتوعدوه على أنه لا يخبر بشأنكم، بل على أنه عبدٌ مملوك أبق [منكم] لأجل أن يلتقطه ﴿بعض السَّيَّارَةِ﴾: الذين يريدون مكاناً بعيداً فيحتفظون فيه، وهذا القائل أحسنهم رأياً في يوسف وأبرهم وأتقاهم في هذه القضية؛ فإن بعض الشر أهون من بعض، والضرر الخفيف يدفع به الضرر الثقيل. فلما اتفقوا على هذا الرأي:

﴿قَالُوا يَتَّابَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ (١١) أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَزْنَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَّيْرُونَ ﴿١٤﴾.

﴿١١﴾ أي: قال إخوة يوسف متوصلين إلى مقصدهم لأبيهم: ﴿يا أبانا ما لك لا تأمناً على يوسف وإنا له لناصحون﴾؛ أي: لأي شيء يَدْخُلُكَ الخوف منا على يوسف من غير سبب ولا موجب، والحال أننا ﴿له لناصحون﴾؛ أي: مشفقون عليه نودُّ له ما نودُّ لأنفسنا.

ولهذا يدلُّ على أن يعقوب عليه السلام لا يترك يوسف يذهب مع إخوته للبرية ونحوها.

﴿١٢﴾ فلما نفوا عن أنفسهم التهمة المانعة لعدم إرساله معهم؛ ذكروا له من مصلحة يوسف وأمنه الذي يحبه أبوه له ما يقتضي أن يسمح بإرساله معهم، فقالوا: ﴿أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَزْنَعُ وَيَلْعَبُ﴾؛ أي: يَتَنَزَّه في البرية ويستأنس، ﴿وإنا له لحافظون﴾؛ أي: سنراعيه، ونحفظه من أذى يريده.

﴿١٣﴾ فأجابهم بقوله: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾؛ أي: مجرد ذهابكم به يحزنني ويشقُّ عليّ؛ لأنني لا أقدر على فراقه، ولو مدة يسيرة؛ فهذا مانع من إرساله.

﴿١٤﴾ مانع ثانٍ، وهو أنني ﴿أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون﴾؛ أي: في حال غفلتكم عنه؛ لأنه صغير لا يمتنع من الذئب.

﴿١٤﴾ ﴿قَالُوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة﴾؛ أي: جماعة حريصون على حفظه؛ ﴿إِنَّا إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾؛ أي: لا خير فينا ولا نفع يُرجى منا إن أكله الذئب وغلبنا عليه.

فلما مهّدوا لأبيهم الأسباب الداعية لإرساله وعدم الموانع؛ سَمَحَ حينئذ بإرساله معهم لأجل أنسه.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿وَجَاءَ آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقُ وَنَرْكَبُكَ يَوْسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكُلْهُ الذَّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ ﴿١٨﴾.

﴿١٥﴾ أي: لما ذهب إخوة يوسف بيوسف بعدما أذن له أبوه، وعزموا أن يجعلوه في غيابة الجبّ كما قال قائلهم السابق ذكره، وكانوا قادرين على ما أجمعوا عليه، فنفذوا فيه قدرتهم، وألقوه في الجبّ، ثم إن الله لطف به بأن أوحى إليه وهو بتلك الحال الحرجة: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: سيكون منك معاتبه لهم وإخبار عن أمرهم هذا وهم لا يشعرون بذلك الأمر. ففيه بشارة له بأنه سينجو مما وقع فيه، وأن الله سيجمعه بأهله وإخوته على وجه العز والتمكين له في الأرض.

﴿١٦﴾ ﴿وَجَاؤُوا آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾: ليكون إتيانهم متأخراً عن عاداتهم، ويكاؤهم دليلاً لهم وقرينة على صدقهم.

﴿١٧﴾ فقالوا متعذرين بعذر كاذب: ﴿يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقُ﴾: إما على الأقدام أو بالرمي والنضال، ﴿وَنَرْكَبُكَ يَوْسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا﴾: توفيراً له وراحة، ﴿فَاكُلْهُ الذَّئْبُ﴾: في حال غيبتنا عنه واستباقنا^(١). ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾؛ أي: تعذرنا بهذا العذر، والظاهر أنك لا تصدقنا؛ لما في قلبك من الحزن على يوسف والرقّة الشديدة عليه، ولكن عدم تصديقك إيانا لا يمنّنا أن نعتذر بالعذر الحقيقي. وكلّ هذا تأكيد لعذرهم.

﴿١٨﴾ ﴿و﴾ مما أكّدوا به قولهم أنهم: ﴿جَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾:

(١) في (ب): «في استباقنا».

زعموا أَنَّهُ دُمُ يوسُف حينَ أَكله الذئبُ، فلم يصدِّقْهم أبوهم بذلك، و ﴿قَالَ بَل سَوَّلْتُ لَكُمْ أَنفُسَكُمْ أَمْرًا﴾؛ أي: زينت لكم أنفسكم أمراً قبيحاً في التفريق بيني وبينه؛ لأنه رأى من القرائن والأحوال ومن رؤيا يوسف التي قصها عليه ما دلّه على ما قال. ﴿فَصَبِرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾؛ أي: أمّا أنا؛ فوظيفتي سأحرص على القيام بها، وهي أني أصبر على هذه المحنة صبراً جميلاً سالماً من السخط والتشكي إلى الخلق، وأستعين الله على ذلك لا على حولي وقوتي، فوعد من نفسه هذا الأمر، وشكا إلى خالقه في قوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾: لأنّ الشكوى إلى الخالق لا تنافي الصبر الجميل؛ لأنّ النبي إذا وعد وفى.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿١٩﴾ أي: مكث يوسف في الجبّ ما مكث، حتى ﴿جاءت سيّارة﴾؛ أي: قافلة تريد مصر، ﴿فأرسلوا واردهم﴾؛ أي: فرطهم ومقدمهم الذي يعسّ لهم المياه ويسبرها ويستعد لهم بتهيئة الحياض ونحو ذلك، ﴿فأدلى﴾: ذلك الوارد ﴿دلّوه﴾: فتعلّق فيه يوسف عليه السلام وخرج، فقال: ﴿يا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ﴾؛ أي: استبشر وقال: هَٰذَا غُلَامٌ نَفِيسٌ، ﴿وأسرّوه بضاعة﴾.

﴿٢٠﴾ وكان إخوته قريباً منه، فاشتراه السيّارة منهم ﴿بثمن بخص﴾؛ أي: قليل جداً، فسره بقوله: ﴿دراهم معدودة وكانوا فيه من الزّاهدين﴾: لأنّه لم يكن لهم قصدٌ إلا تغيبه وإبعاده عن أبيه، ولم يكن لهم قصدٌ في أخذ ثمنه. والمعنى في هَٰذَا أنّ السيّارة لما وجدوه؛ عزموا أن يُسيروا أمره، ويجعلوه من جملة بضائعهم التي معهم، حتى جاءهم إخوته، فزعموا أَنَّهُ عبدٌ أبق منهم، فاشتروه منهم بذلك الثمن، واستوثقوا منهم فيه لثلا يهرب. والله أعلم.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِن أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢١﴾ أي: لما ذهب به السيّارة إلى مصر وباعوه بها، فاشتراه عزيز مصر، فلما اشتراه؛ أعجب به ووصّى عليه امرأته وقال: ﴿أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه

ولداً؛ أي: إما أن ينفعنا كنفع العبيد بأنواع الخدم، وإما أن نستمتع فيه استمتاعنا بأولادنا، ولعل ذلك أنه لم يكن لهما ولد. ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: كما يسّرنا أن يشتريه عزيز مصر ويكرمه هذا الإكرام؛ جَعَلْنَا هَذَا مَقْدَمَةً لِمَكِينِهِ فِي الْأَرْضِ مِنْ هَذَا الطَّرِيقِ. ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾: إذا بقي لا شغل له ولا هم له سوى العلم؛ صار ذلك من أسباب تعلمه علماً كثيراً من علم الأحكام وعلم التعبير وغير ذلك. ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾؛ أي: أمره تعالى نافذ لا يبطله مبطل ولا يغلبه مغالب. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: فلذلك يجري منهم، ويصدُر ما يصدُر في مغالبة أحكام الله القدريّة، وهم أعجز وأضعف من ذلك.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٢).

﴿٢٢﴾ أي: ﴿لما بلغ﴾ يوسف ﴿أشدّه﴾؛ أي: كمال قوته المعنويّة والحسيّة وصلح لأن يتحمّل الأحمال الثقيلة من النبوة والرسالة؛ ﴿آتيناها حكماً وعلماً﴾؛ أي: جعلناه نبياً رسولاً وعالماً رانياً. ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾: في عبادة الخالق ببذل الجهد والتّصح فيها، وإلى عباد الله ببذل النفع والإحسان إليهم؛ نؤتيهم من جملة الجزاء على إحسانهم علماً نافعاً. ودلّ هذا على أن يوسف وفّى مقام الإحسان، فأعطاه الله الحكم بين الناس والعلم الكثير والنبوة.

﴿رَزَوَدَتْهُ آلِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يَفْلُحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٣) ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (٢٤) ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصُومُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٥) ﴿قَالَ هِيَ رَزَوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَيْصُومُ قَدْ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٢٦) ﴿وَإِنْ كَانَ قَيْصُومُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٧) ﴿فَلَمَّا رَأَى قَيْصُومُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ (٢٨) ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَلِكِ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ (٢٩).

هذه المحنة العظيمة أعظم على يوسف من محنة إخوته وصبره عليها، أعظم أجراً لأنه صبر اختيار مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوع الفعل، فقدّم محبة الله عليها، وأما محنته بإخوته؛ فصبره صبر اضطرار؛ بمنزلة الأمراض والمكاره التي

تُصيب العبد بغير اختياره، وليس له ملجأ إلا الصبر عليها طائعاً أو كارهياً.

﴿٢٣ - ٢٤﴾ وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام بقي مكرماً في بيت العزيز، وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما أوجب ذلك أن «راودته التي هو في بيتها عن نفسه»؛ أي: هو غلامها وتحت تدبيرها والمسكن واحد يتيسر إيقاع الأمر المكروه من غير شعور^(١) أحد ولا إحساس بشئ. «و» زادت المصيبة بأن «غَلَقَتِ الأبواب»: وصار المحل خالياً، وهما آمان من دخول أحد عليهما بسبب تغلق الأبواب. وقد دَعَتْهُ إلى نفسها، فقالت: «هَيِّتْ لَكَ»: أي: افعل الأمر المكروه وأقبل إلي! ومع هذا؛ فهو غريب لا يحتشم مثله ما يحتشمه إذا كان في وطنه وبين معارفه، وهو أسيرٌ تحت يدها، وهي سيدته، وفيها من الجمال ما يدعو إلى ما هنالك، وهو شابٌ عَزَبٌ، وقد توعدته إن لم يفعل ما تأمره به بالسجن أو العذاب الأليم، فصبر عن معصية الله مع وجود الداعي القوي فيه؛ لأنه قد همَّ فيها همًّا تَرَكَهُ لله، وقَدَّمَ مراد الله على مراد النفس الأمارة بالسوء، ورأى من برهان ربِّه - وهو ما معه من العلم والإيمان الموجب لِتَرْكِ كُلِّ ما حَرَّمَ الله - ما أوجب له البعد والانكفاف عن هذه المعصية الكبيرة، و «قال معاذُ الله»؛ أي: أعوذ بالله أن أفعل هذا الفعل القبيح؛ لأنه مما يُسَخِّطُ الله ويُبْعِدُ عنه، ولأنه خيانة في حق سيدي الذي أكرم مثواي؛ فلا يليقُ بي أن أقابله في أهله بأقبح مقابلة، وهذا من أعظم الظلم، والظالم لا يفلح.

والحاصل أنه جعل الموانع له من هذا الفعل: تقوى الله، ومراعاة حق سيده الذي أكرمه، وصيانة نفسه عن الظلم الذي لا يفلح من تعاطاه، وكذلك ما من الله عليه من برهان الإيمان الذي في قلبه يقتضي منه امتثال الأوامر واجتناب الزواجر، والجامع لذلك كله أن الله صرف عنه سوء والفحشاء؛ لأنه من عباده المخلصين له في عباداتهم، الذين أخلصهم الله واختارهم واختصهم لنفسه، وأسدى عليهم من النعم، وصرف عنهم من المكاره ما كانوا به من خيار خلقه.

﴿٢٥﴾ ولما امتنع من إجابة طلبها بعد المراودة الشديدة؛ ذهب ليهرب منها ويبادر إلى الخروج من الباب ليتخلص ويهرب من الفتنة، فبادرته إليه وتعلقت بثوبه، فشقت قميصه، فلما وصلا إلى الباب في تلك الحال؛ أُلْفِيَ سيدها - أي:

(١) في (ب): «إشعار».

زوجها - لدى الباب، فرأى أمراً شقاً عليه، فبادرت إلى الكذب، وأن المراودة قد كانت من يوسف، وقالت: ﴿ما جزاء مَنْ أراد بأهلك سوءاً﴾: ولم تقل: من فعل بأهلك سوءاً؛ تبرئة لها وتبرئة له أيضاً من الفعل، وإنما النزاع عند الإرادة والمراودة، ﴿إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابَ أَلِيمٍ﴾؛ أي: أو يعذب عذاباً أليماً.

﴿٢٦﴾ فبرأ نفسه مما رمته به، و ﴿قال هي راودتني عن نفسي﴾: فحينئذٍ احتملت الحال صدق كل واحد منهما، ولم يعلم أيهما، ولكن الله تعالى جعل للحق والصدق علامات وأمارات تدل عليه، قد يعلمها العباد وقد لا يعلمونها؛ فمن الله [تعالى] في هذه القضية بمعرفة الصادق منهما تبرئة لنبئه وصفيه يوسف عليه السلام، فانبعث شاهد من أهل بيتها يشهد بقرينة مَنْ وجدت معه فهو الصادق، فقال: ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقْتُ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾؛ لأن ذلك يدل على أنه هو المقبل عليها المراود لها المعالج، وأنها أرادت أن تدفعه عنها، فشئت قميصه من هذا الجانب.

﴿٢٧﴾ وإن كان قميصه قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فكذبت وهو من الصادقين: لأن ذلك يدل على هروبه منها؛ وأنها هي التي طلبته، فشئت قميصه من هذا الجانب.

﴿٢٨﴾ فلما رأى قميصه قُدَّ مِنْ دُبُرٍ: عَرَفَ بذلك صدق يوسف وبرأته وأنها هي الكاذبة، فقال لها سيدها: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾: وهل أعظم من هذا الكيد الذي برأت به نفسها ممّا أرادت وفعلت ورمت به نبي الله يوسف عليه السلام؟!

﴿٢٩﴾ ثم إن سيدها لما تحقق الأمر؛ قال ليوسف: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾؛ أي: اترك الكلام فيه وتناسه ولا تذكره لأحد طلباً للستر على أهله. ﴿وَاسْتَغْفِرِي﴾: أيتها المرأة، ﴿لذَنبِكِ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾: فأمر يوسف بالإعراض، وهي بالاستغفار والتوبة.

﴿٣٠﴾ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣١﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكًا وَمَاتَتْ كُلٌّ وَحِدَةً مِّنْهُنَّ سَيِّئًا وَقَالَتْ خْرِجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣٢﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاَسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا نَأْمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا

نَصَرَفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْعَذِيبِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُمْ هُمُ السَّامِعُونَ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْأَيَّاتِ لِيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ .

﴿٣٠﴾ يعني: أن الخبر اشتهر وشاع في البلد، وتحدثت به النسوة، فجعلن يُلْمُنَهَا وَيَقْلُنَ: ﴿امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حُبًّا﴾؛ أي: هذا أمرٌ مستقبَح! هي امرأةٌ كبيرةُ القدر وزوجها كبيرُ القدر ومع هذا لم تزل تراود فتاها الذي تحت يدها وفي خدمتها عن نفسه، ومع هذا؛ فإنَّ حُبَّهُ قد بلغ من قلبها مبلغاً عظيماً. ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾؛ أي: وصل حُبُّه إلى شغاف قلبها، وهو باطنه وسويداؤه، وهذا أعظم ما يكون من الحب. ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾: حيث وجدت منها هذه الحالة التي لا ينبغي منها، وهي حالة تحطُّ قدرها وتضعه عند الناس.

﴿٣١﴾ وكان هذا القول منهم مكرراً ليس المقصودُ به مجرد اللوم لها والقبح فيها، وإنما أُرِدَ أن يتوصلن بهذا الكلام إلى رؤية يوسف الذي قُتِنَتْ به امرأة العزيز لِتَحَقِّقَ امرأةُ العزيز وتريهِنَّ إِيَّاهُ ليعذِرْنَهَا، ولهذا سَمَّاهُ مكرراً، فقال: ﴿فلما سمعتُ بمكرِهِنَّ أرسلتُ إليهنَّ﴾: تدعوهُنَّ إلى منزلها للضيافة، ﴿وأعتدتُ لهنَّ متكأً﴾؛ أي: محلاً مهيباً بأنواع الفرش والوسائد وما يُقصد بذلك من المآكل اللذيذة، وكان في جملة ما أتت به وأحضرتة في تلك الضيافة طعامٌ يحتاجُ إلى سكين: إمَّا أُنْرَجُ أو غيره. ﴿وَأَتَتْ^(١) كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا﴾: ليقطعن فيها ذلك الطعام، ﴿وقالتُ﴾ ليوسف: ﴿أخرج عليهنَّ^(٢)﴾: في حالة جماله وبهائه، ﴿فلما رأيتهُ أَكْبَرْتُهُ﴾؛ أي: أعظمته في صدورهنَّ ورأين منظراً فائقاً لم يشاهدن مثله؛ ﴿وقطعن﴾: من الدَّهَشِ ﴿أَيْدِيَهُنَّ﴾: بتلك السكاكين اللاتي معهن، ﴿وقلن حاش لله﴾؛ أي: تنزيهاً لله، ﴿ما هذا بشراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾: وذلك أن يوسف أعطي من الجمال الفائق والنور والبهاء ما كان به آيةً للنظرين وعبرةً للمتأملين.

﴿٣٢﴾ فلما تقرَّرَ عندهنَّ جمالُ يوسف الظاهر، وأعجبهُنَّ غايةً، وظهرَ منهنَّ من العذر لامرأة العزيز شيءٌ كثيرٌ؛ أرادت أن تُرِيَهُنَّ جماله الباطن بالعفة التامة، فقالت معلنة لذلك ومبيِّنة لحُبِّه الشديد غير مبالية ولأن اللوم انقطع عنها من النسوة: ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾؛ أي: امتنع، وهي مقيمة على مراودته، لم

(١) في (ب): «فَأَتَتْ».

(٢) في (ب): «إِلَيْهِنَّ».

تزدها مرور الأوقات إلّا محبةً وشوقاً وقلقاً لوصاله وتوقاً، ولهذا قالت له بحضرتها: ﴿ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصّٰغرين﴾: لتلجئه بهذا الوعيد إلى حصول مقصودها منه.

﴿٣٣﴾ فعند ذلك اعتصم يوسف بربه، واستعان به على كيدهن و ﴿قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه﴾: وهذا يدل على أن النسوة جعلن يُشزن على يوسف في مطاوعة سيدته، وجعلن يَكذنه في ذلك، فاستحبّ السجن والعذاب الدنيوي على لذة حاضرة توجب العذاب الشديد. ﴿ولّا تصرف عني كيدهنّ أصب إليهنّ﴾؛ أي: أمل إليهنّ؛ فإنني ضعيف عاجز إن لم تدفع عني السوء؛ صبوت إليهنّ، ﴿وأكن من الجاهلين﴾^(١): فإنّ هذا جهل؛ لأنّه أثر لذة قليلة منغصة على لذات متتابعات وشهوات متنوعات في جنات النعيم، ومنّ أثر هذا على هذا؛ فمن أجهل منه؟! فإنّ العلم والعقل يدعو إلى تقديم أعظم المصلحتين وأعظم اللذتين، ويؤثر ما كان محمود العاقبة.

﴿٣٤﴾ ﴿فاستجاب له ربه﴾: حين دعاه، ﴿فصرف عنه كيدهنّ﴾: فلم تزل تراوده وتستعين عليه بما تقدّر عليه من الوسائل حتى أيسّها وصرف الله عنه كيدها. ﴿إنّه هو السميع﴾: لدعاء الداعي، ﴿العليم﴾: بنيته الصالحة وبنيته الضعيفة المقتضية لإمداده بمعونته ولطفه، فهذا ما نجّى الله به يوسف من هذه الفتنة الملمة والمحنة الشديدة.

﴿٣٥﴾ وأما أسياده؛ فإنّه لما اشتهر الخبر وبان وصار الناس فيها بين عاذر ولائم وقادح، ﴿بدا لهم﴾؛ أي: ظهر لهم ﴿من بعد ما رأوا الآيات﴾: الدالة على براءته، ﴿يسجننّه حتى حين﴾؛ أي: لينقطع بذلك الخبر ويتناساه الناس؛ فإنّ الشيء إذا شاع؛ لم يزل يذكر، ويشاع مع وجود أسبابه؛ فإذا عدمت أسبابه؛ نسي، فرأوا أنّ هذا مصلحة لهم، فأدخلوه في السجن.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٌ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأْتُكَ بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ

(١) في (ب): ﴿وأكن﴾ إن صبوت إليهن من الجاهلين».

مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعَتْ مِلَّةَ آبَائِهِ إِِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْنَعِي السِّجْنَ مَازِيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَتِمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ [يَصْنَعِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ. قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ] ﴿٤١﴾ ﴿^(١)﴾.

﴿٣٦﴾ أي: ﴿و﴾ لما دخل يوسف السجن؛ كان في جملة من ﴿دخل معه السجن فين﴾؛ أي: شابان، فرأى كل واحد منهما رؤيا، فقصّها على يوسف ليعبرها، ﴿قال أحدهما إني أراني أعصرُ خمرًا، وقال الآخرُ إني أراني أحمل فوق رأسي خبزًا﴾: وذلك الخبز ﴿تأكل الطيرُ منه نبثنا بتأويله﴾؛ أي: بتفسيره وما يؤول إليه أمرهما. وقولهما: ﴿إنا نراك من المحسنين﴾؛ أي: من أهل الإحسان إلى الخلق؛ فأحسن إلينا في تعبيرك لرؤيانا كما أحسنت إلى غيرنا، فتوسّلا ليوسف بإحسانه.

﴿٣٧﴾ وَ﴿قَالَ﴾ لهما مجيباً لطلبهما^(٢): ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾؛ أي: فلتطمئن قلوبكما فإنني سأبادر إلى تعبير رؤياكما، فلا يأتیکما غداؤكما أو عشاؤكما أول ما يجيء إليكما؛ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا، ولعل يوسف عليه الصلاة والسلام قصد أن يدعوهم إلى الإيمان في هذه الحال التي بدت حاجتهما إليه؛ ليكون أنجع لدعوته وأقبل لهما. ثم قال: ﴿ذَلِكُمَا﴾: التعبير الذي سأعبره لكما، ﴿مما علمني ربي﴾؛ أي: هذا من علم الله علمنيه وأحسن إليّ به. وذلك ﴿إني تركتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾: والترك كما يكون للداخل في شيء ثم ينتقل عنه يكون لمن لم يدخل فيه أصلاً؛ فلا يُقال: إن يوسف كان من قبل على غير مِلَّةِ إبراهيم.

﴿٣٨﴾ وَ﴿اتَّبَعَتْ مِلَّةَ آبَائِي إِِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾: ثم فسّر تلك الملة

(١) ما بين المعقوفتين زيادة لا توجد في النسختين.

(٢) في (ب): «الطلبتهما».

بقوله: ﴿مَا كَانَ لَنَا﴾؛ [أي: ما ينبغي ولا يليق بنا] ﴿أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾: بل نُفَرِّدُ اللَّهَ بالتوحيد ونُخْلِصُ له الدين والعبادة. ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾؛ أي: هَذَا مِنْ أَفْضَلِ [مِنْهُ] ^(١) وإحسانه وفضله علينا وعلى مَنْ هداه الله كما هدانا؛ فَإِنَّهُ لَا أَفْضَلَ مِنْ مِثَّةِ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ بِالإِسْلَامِ والدين القويم؛ فَمَنْ قَبْلَهُ وَانْقَادَ لَهُ؛ فَهُوَ حَظُّهُ، وَقَدْ حَصَلَ لَهُ أَكْبَرُ النِّعَمِ وَأَجْلُ الْفَضَائِلِ. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾: فَلِذَلِكَ تَأْتِيهِمُ الْمِثَّةُ وَالْإِحْسَانُ فَلَا يَقْبَلُونَهَا وَلَا يَقُومُونَ لِلَّهِ بِحَقِّهِ. وَفِي هَذَا مِنَ التَّرْغِيبِ لِلطَّرِيقِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا مَا لَا يَخْفَى؛ فَإِنَّ الْفَتِيَيْنِ لَمَّا تَقَرَّرَ عَنْدهُ أَنَّهُمَا رَأَيَاهُ بَعَيْنَ التَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ وَأَنَّهُ مُحَسَّنٌ مَعْلَمٌ؛ ذَكَرَ لِهَما أَنَّ هَذِهِ الْحَالَةَ الَّتِي أَنَا عَلَيْهَا كُلُّهُمَا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَإِحْسَانِهِ، حَيْثُ مِنْ عَلَيَّ بِتَرْكِ الشَّرْكِ وَبِاتِّبَاعِ مِلَّةِ آبَائِي ^(٢)؛ فَبِهَذَا وَصَلْتُ إِلَى مَا رَأَيْتُمَا، فَيَنْبَغِي لَكُمَا أَنْ تَسْلُكَا مَا سَلَكَتُ.

﴿٣٩﴾ ثُمَّ صَرَحَ لَهُمَا بِالدَّعْوَةِ فَقَالَ: ﴿يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمَ اللَّهُ الْوَاحِدَ الْقَهَّارُ﴾؛ أي: أَرَبَابٌ عَاجِزَةٌ ضَعِيفَةٌ لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ وَلَا تَعْطِي وَلَا تَمْنَعُ وَهِيَ مُتَفَرِّقَةٌ مَا بَيْنَ أَشْجَارٍ وَأَحْجَارٍ وَمَلَائِكَةٍ وَأَمْوَاتٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَعْبُودَاتِ الَّتِي يَتَّخِذُهَا الْمُشْرِكُونَ، أَتِلْكَ خَيْرٌ أَمَ اللَّهُ الَّذِي لَهُ صِفَاتُ الْكَمَالِ الْوَاحِدِ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ؟ فَلَا شَرِيكَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، الْقَهَّارُ الَّذِي انْقَادَتِ الْأَشْيَاءُ لِقَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ؛ فَمَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا.

﴿٤٠﴾ وَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّ مَنْ هَذَا شَأْنُهُ وَوَصَفُهُ خَيْرٌ مِنَ الْآلِهَةِ الْمُتَفَرِّقَةِ الَّتِي هِيَ مَجْرُودُ أَسْمَاءٍ لَا كَمَالَ لَهَا وَلَا فِعَالَ لَدَيْهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾؛ أي: كَسَوْتُمُوهَا أَسْمَاءً [و] سَمَّيْتُمُوهَا آلِهَةً، وَهِيَ لَا شَيْءَ، وَلَا فِيهَا مِنْ صِفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ شَيْءٍ. ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾: بَلْ أَنْزَلَ اللَّهُ السُّلْطَانَ بِالنِّهْيِ عَنْ عِبَادَتِهَا وَبِإِبْرَازِ بَطْلَانِهَا، وَإِذَا لَمْ يُنْزَلِ اللَّهُ بِهَا سُلْطَانًا؛ لَمْ يَكُنْ طَرِيقٌ وَلَا وَسِيلَةٌ وَلَا دَلِيلٌ لَهَا. لِأَنَّ الْحُكْمَ ﴿لِلَّهِ﴾: وَحْدَهُ؛ فَهُوَ الَّذِي يَأْمُرُ وَيَنْهَى وَيُشَرِّعُ الشَّرَائِعَ وَيُسَنُّ الْأَحْكَامَ، وَهُوَ الَّذِي أَمَرَكَ ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينَ الْقَيِّمُ﴾؛ أي: الْمُسْتَقِيمَ الْمَوْصِلَ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ، وَمَا سِوَاهُ مِنَ الْأَدْيَانِ؛ فَإِنَّهَا غَيْرُ مُسْتَقِيمَةٍ، بَلْ مَعْوِجَةٌ تَوْصِلُ إِلَى كُلِّ شَرٍّ. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾:

(٢) فِي (ب): «آبَائِهِ».

(١) كَذَا فِي (ب). وَفِي (أ): «مِثَّتِهِ».

حقائق الأشياء، وإلّا؛ فإنّ الفرق بين عبادة الله وحده لا شريك له وبين الشرك به أظهر الأشياء وأبينها، ولكن لعدم العلم من أكثر الناس بذلك حصّل منهم ما حصل من الشرك. فيوسف عليه السلام دعا صاحبي السجن لعبادة الله وحده وإخلاص الدين له، فيُحتمل أنهما استجابا وانقادا فتّمت عليهما النعمة، ويُحتمل أنهما لم يزاالا على شركهما، فقامت عليهما بذلك الحجة.

﴿٤١﴾ ثم إنه عليه السلام شرّع يعبر رؤياهما بعدما وعدهما ذلك، فقال: ﴿يا صاحبي السجن أما أحدكما﴾: وهو الذي رأى أنه يعصرُ خمرًا؛ فإنه يخرج من السجن، ويسقي ﴿رَبَّهُ خمرًا﴾؛ أي: يسقي سيده الذي كان يخدمه خمرًا، وذلك مستلزم لخروجه من السجن. ﴿وأما الآخر﴾: وهو الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، ﴿فيُضَلَّبُ فتأكلُ الطير من رأسه﴾: فإنه عبر عن الخبز^(١) الذي تأكله الطير بلحم رأسه وشحمه وما فيه من المَخ، وأنه لا يقبر ويستتر عن الطيور، بل يُضَلَّب ويُجعل في محلّ تتمكّن الطيور من أكله، ثم أخبرهما بأنّ هذا التأويل الذي تأوله لهما أنّه لا بدّ من وقوعه، فقال: ﴿قُضِيَ الأمرُ الذي فيه تستفتيان﴾؛ أي: تسألان عن تعبيره وتفسيره.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَنَّهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (٤٢).

﴿٤٢﴾ أي: ﴿وقال﴾ يوسف عليه السلام ﴿لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا﴾: وهو الذي رأى أنه يعصرُ خمرًا: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾؛ أي: اذكر له شأني وقصّتي لعله يرقّ لي فيخرجني مما أنا فيه، ﴿فأنساه الشيطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾؛ أي: فأنسى الشيطان ذلك الناجي ذكر الله تعالى وذكر ما يُقَرَّبُ إليه ومن جملة ذلك نسيانه ذِكْرَ يوسف الذي يستحقُّ أن يُجازى بآتم الإحسان، وذلك ليتِمَّ الله أمره وقضائه. ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾: والبضع من الثلاث إلى التسع، ولهذا قيل: إنه لبث سبع سنين.

ولما أراد الله أن يَتِمَّ أمره ويأذن بإخراج يوسف من السجن؛ قدّر لذلك سبباً لإخراج يوسف وارتفاع شأنه وإعلاء قدره وهو رؤيا الملك.

(١) في (ب): «عبر الخبز».

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُ لِلرُّؤْيَا نَعْبُورُونَ﴾ (٤٣) قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامُ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُّوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِرُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَقْعِرُونَ ﴿٤٩﴾ .

لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَخْرِجَ يُوسُفَ مِنَ السِّجْنِ؛ أَرَى اللَّهُ الْمَلِكَ هَذِهِ الرُّؤْيَا الْعَجَبِيَّةَ الَّتِي تَأْوِيلُهَا يَتَنَاوَلُ جَمِيعُ الْأُمَّةِ؛ لِيَكُونَ تَأْوِيلُهَا عَلَى يَدِ يُوسُفَ، فَيُظْهِرَ مِنْ فَضْلِهِ وَيُبَيِّنَ مِنْ عِلْمِهِ مَا يَكُونُ لَهُ رَفْعَةٌ فِي الدَّارَيْنِ. وَمِنْ التَّقَادِيرِ الْمُنَاسِبَةِ أَنَّ الْمَلِكَ الَّذِي تَرَجَّعَ إِلَيْهِ أُمُورُ الرِّعْيَةِ هُوَ الَّذِي رَأَاهَا؛ لِارْتِبَاطِ مَصَالِحِهَا بِهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ رَأَى رُؤْيَا هَالِكَةٍ، فَجَمَعَ عُلَمَاءَ قَوْمِهِ وَذَوِي الرَّأْيِ مِنْهُمْ وَقَالَ:

﴿٤٣﴾ «إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ»؛ أَي: سَبْعٌ مِنَ الْبَقَرَاتِ «عِجَافٌ»: وَهَذَا مِنَ الْعَجَبِ أَنَّ السَّبْعَ الْعِجَافَ الْهَزِيلَاتِ اللَّاتِي سَقَطَتْ قُوَّتُهُنَّ يَأْكُلْنَ السَّبْعَ السِّمَانَ الَّتِي كُنَّ نَهَائَةً فِي الْقُوَّةِ. ﴿٤٤﴾ «وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ يَابِسَاتٍ»؛ أَي: «سَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ» يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ سُنبُلَاتٍ يَابِسَاتٍ؛ «يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ»: لِأَنَّ تَعْبِيرَ الْجَمِيعِ وَاحِدًا وَتَأْوِيلَهُنَّ شَيْءٌ وَاحِدًا، «إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ».

﴿٤٤﴾ فَتَحِيرُوا وَلَمْ يَعْرِفُوا لَهَا وَجْهًا؛ «وَقَالُوا أَضْغَاتُ أَحْلَامٍ»؛ أَي: أَحْلَامٌ لَا حَاصِلَ لَهَا وَلَا لَهَا تَأْوِيلٌ. وَهَذَا جَزْمٌ مِنْهُمْ بِمَا لَا يَعْلَمُونَ وَتَعَذُّرٌ مِنْهُمْ بِمَا لَيْسَ بِعَذْرٍ. ثُمَّ قَالُوا: «وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ»؛ أَي: لَا نَعْبُرُ إِلَّا الرُّؤْيَا وَأَمَّا الْأَحْلَامُ الَّتِي هِيَ مِنَ الشَّيْطَانِ أَوْ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ فَإِنَّا لَا نَعْبُرُهَا. فَجَمَعُوا بَيْنَ الْجَهْلِ وَالْجَزْمِ بِأَنَّهَا أَضْغَاتُ أَحْلَامٍ وَالْإِعْجَابَ بِالنَّفْسِ بِحَيْثُ إِنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا: لَا نَعْلَمُ تَأْوِيلَهَا! وَهَذَا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَا تَنْبَغِي لِأَهْلِ الدِّينِ وَالْحِجَا. وَهَذَا أَيْضًا مِنْ لُطْفِ اللَّهِ بِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَإِنَّهُ لَوْ عَبَّرَهَا ابْتِدَاءً قَبْلَ أَنْ يَعْرِضَهَا عَلَى الْمَلَأِ مِنْ قَوْمِهِ وَعُلَمَائِهِمْ فَيَعْجِزُوا عَنْهَا؛ لَمْ يَكُنْ لَهَا ذَلِكَ الْمَوْقِعُ، وَلَكِنْ لَمَّا عَرَضَهَا عَلَيْهِمْ، فَعَجِزُوا عَنِ الْجَوَابِ، وَكَانَ الْمَلِكُ مُهْتَمًّا لَهَا غَايَةً، فَعَبَّرَهَا يُوسُفُ؛ وَقَعَتْ عَنْدهُمْ مَوْقِعًا عَظِيمًا.

وهذا نظيرُ إظهارِ الله فضلَ آدمَ على الملائكةَ بالعلم بعد أن سألهم فلم يعلموا، ثم سأل آدمَ فعلمهم أسماءَ كلِّ شيءٍ، فحصل بذلك زيادةُ فضله. وكما يُظهرُ فضلَ أفضل خلقه محمدٍ ﷺ في القيامة أن يُلهمَ الله الخلقَ أن يتشفَّعوا بآدمَ ثم بنوحَ ثم إبراهيمَ ثم موسى ثم عيسى عليهم السلام، فيعتذرون عنها، ثم يأتون محمداً ﷺ، فيقول: «أنا لها، أنا لها»^(١)، فيشفع في جميع الخلق، وينال ذلك المقامَ المحمودَ الذي يغبطه به الأولون والآخرون؛ فسبحان من خَفِيتَ أَلطافه ودَقَّت في إيصاله البر والإحسان إلى خواصِّ أصفِيائه وأوليائه.

﴿٤٥﴾ وقال الذي نجا منهما؛ أي: من الفتيين، وهو الذي رأى أَنَّهُ يعصِرُ خمرًا، وهو الذي أوصاه يوسف أن يذكره عند ربِّه، ﴿وَاذْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾؛ أي: وتذكُر يوسفَ وما جرى له في تعبيره لرؤياهما وما وَّصَّاه به وعلم أَنَّهُ كَفِيلٌ بتعبير هذه الرؤيا بعد مدَّة من السنين، فقال: ﴿أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾: إلى يوسف لأسأله عنها.

﴿٤٦﴾ فأرسلوه، فجاء إليه، ولم يعتقه يوسفُ على نسيانه، بل استمع ما يسأله عنه، وأجابه عن ذلك، فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾؛ أي: كثير الصدق في أقواله وأفعاله، ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عَجَافٍ وَسَبْعِ سَنِبَلَاتٍ خُضِرٍ وَأَخْرَ يَابَسَاتٍ لِّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: فإنَّهم متشَوِّفون لتعبيرها، وقد أهتمَّهم.

﴿٤٧﴾ فعبَّر يوسفُ السَّبعَ البقراتِ السَّمانَ والسَّبعَ السَّنبَلاتِ الخضرَ بأنَّهنَّ سَبْعُ سنينٍ مخصباتٍ، والسَّبعَ البقراتِ العجافَ والسَّبعَ السَّنبَلاتِ اليابساتِ بأنَّهنَّ سنينٌ مجدباتٌ، ولعلَّ وجهَ ذلك - والله أعلم - أنَّ الخصبَ والجذبَ لما كانَ الحَرثُ مبنياً عليه، وأنَّه إذا حصلَ الخصبُ؛ قويتِ الزُّروعُ والحروثُ وحسُنَ منظرُها وكثُرَت غلالُها، والجذبُ بالعكس من ذلك، وكانت البقر هي التي تُحرثُ عليها الأرضُ وتُسقى عليها الحروثُ في الغالب، والسَّنبَلاتُ هي أعظمُ الأقواتِ وأفضلُها؛ عبرها بذلك لوجودِ المناسبةِ، فجمعَ لهم في تأويلها بينَ التعبيرِ والإشارة لما يفعلونه ويستعدُّون به من التدبيرِ في سني الخصبِ إلى سني الجذبِ، فقال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سنينَ دَابًّا﴾؛ أي: متتابعاتٍ، ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ﴾: من تلك الزُّروعِ، ﴿فَذَرُوهُ﴾؛ أي:

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٣).

اتركوه ﴿فِي سُنْبُلِهِ﴾: لَأَنَّهُ أَبْقَى لَهُ وَأَبْعَدَ مِنْ^(١) الالْتِفَاتِ إِلَيْهِ، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾؛ أَي: دَبَّرُوا [أَيْضًا] أَكْلَكُمْ فِي هَذِهِ السَّنِينَ الْخَصْبَةِ، وَلَيْكُنْ قَلِيلًا؛ لِيَكْثُرَ مَا تَذْخَرُونَ، وَيَعْظُمَ نَفْعُهُ وَوَقْعُهُ.

﴿٤٨﴾ ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾؛ أَي: بَعْدَ تِلْكَ السَّنِينَ السَّبْعِ الْمَخْصَبَاتِ، ﴿سَبْعَ شِدَادٍ﴾؛ أَي: مَجْدِبَاتٍ، ﴿بِأَكْلُنْ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾؛ أَي: بِأَكْلِنِ جَمِيعَ مَا أَذْخَرْتُمُوهُ وَلَوْ كَانَ كَثِيرًا، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُخْصِنُونَ﴾؛ أَي: تَمْنَعُونَهُ مِنَ التَّقْدِيمِ لَهُنَّ.

﴿٤٩﴾ ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾؛ أَي: السَّبْعِ الشَّدَادِ ﴿عَامٌ فِيهِ يَغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾؛ أَي: فِيهِ تَكْثُرُ الْأَمْطَارُ وَالسِّيُولُ، وَتَكْثُرُ الْغُلَاثُ، وَتَزِيدُ عَلَى أَقْوَاتِهِمْ حَتَّى إِنَّهُمْ يَعْصِرُونَ الْعَنْبَ وَنَحْوَهُ زِيَادَةً عَلَى أَكْلِهِمْ، وَلَعَلَّ اسْتِدْلَالَه عَلَى وَجُودِ هَذَا الْعَامِ الْخَصْبِ مَعَ أَنَّهُ غَيْرُ مُصَرَّحٍ بِهِ فِي رُؤْيَا الْمَلِكِ؛ لَأَنَّهُ فَهَمَ مِنَ [التَّقْدِيرِ]^(٢) بِالسَّبْعِ الشَّدَادِ أَنَّ الْعَامَ الَّذِي يَلِيهَا يَزُولُ بِهِ شِدَّتُهَا، وَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّهُ لَا يَزُولُ الْجَذْبُ الْمُسْتَمِرُّ سَبْعَ سَنِينَ مُتَوَالِيَاتٍ إِلَّا بِعَامٍ مُخْصِبٍ جَدًّا، وَإِلَّا؛ لَمَّا كَانَ لِلتَّقْدِيرِ فَائِدَةٌ.

فلما رجع الرسول إلى الملك والناس، وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا؛ عجبوا من ذلك، وفرحوا بها أشدَّ الفرح.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَنْتَنِي بِهَذَا فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنْ إِذْ رَوَدْتَنِّي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ قُلْتُ حَسَّ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَنِّ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَنْتَنِي بِهَذَا اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ شَاءَ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ وَلَا جَزَاءُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْفُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

(٢) كذا في (ب) وفي (أ): «التعبير».

(١) في (ب): «عن».

﴿٥٠﴾ يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ لمن عنده: ﴿اِثْنُونِي بِهِ﴾؛ أي: بيوسف عليه السلام بأن يخرجوه من السجن ويحضره إليه. فلما جاء يوسف الرسول، وأمره بالحضور عند الملك؛ امتنع عن المبادرة إلى الخروج حتى تتبين براءته التامة، ولهذا من صبره وعقله ورأيه التام، فقال للرسول: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾؛ يعني به: الملك، ﴿فاسأله ما بال النسوة اللاتي قَطَّعنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾؛ أي: أسأله ما شأنهن وقصتهن؛ فإن أمرهن ظاهر متضح. ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

﴿٥١﴾ فأحضرهن الملك وقال: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾؛ أي: شأنكن، ﴿إِذْ رَاودْتُنَّ يَوْسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾: فهل رأيته منه ما يريب؟! فبرأته و ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾؛ أي: لا قليل ولا كثير؛ فحينئذ زال السبب الذي تبنى عليه التهمة، ولم يبق إلا ما عند امرأة العزيز، فقالت: ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ خَصَصَ الْحَقُّ﴾؛ أي: تمحص^(١) وتبين بعدما كنا ندخل معه من السوء والتهمة ما أوجب السجن ليوسف^(٢)، ﴿أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾: في أقواله وبراءته.

﴿٥٢﴾ ﴿ذَلِكَ﴾: الإقرار الذي أقرت أني راودت يوسف^(٣)، ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾: يُحْتَمَلُ أَنْ مرادها بذلك زوجها؛ أي: ليعلم أني حين أقرت أني راودت يوسف أني لم أخنّه بالغيب؛ أي: لم يَجِرْ مِنِّي إِلَّا مجرد المراودة، ولم أفسد عليه فراشه. ويُحْتَمَلُ أَنْ المراد بذلك: ليعلم يوسف حين أقرت أني أنا الذي راودته، وأنه صادق أني لم أخنّه في حال غيبته عني. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾: فإن كل خائن لا بد أن تعود خيافته ومكره على نفسه، ولا بد أن يتبين أمره.

﴿٥٣﴾ ثم لما كان في هذا الكلام نوع تزكية لنفسها وأنه لم يجر منها ذنب في شأن يوسف استدركت فقالت: ﴿وَمَا أَبرَأُ نَفْسِي﴾؛ أي: من المراودة والهم والحرص الشديد والكيد في ذلك. ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾؛ أي: لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء؛ أي: الفاحشة وسائر الذنوب؛ فإنها مركب الشيطان، ومنها يدخل على الإنسان. ﴿إِلَّا مَا رَجِمَ رَبِّي﴾: فنجاه من نفسه الأثارة حتى صارت نفسه مطمئنة إلى ربها منقادة لداعي الهدى متعاضية عن داعي الردى؛ فذلك ليس من

(١) في (ب): «تمحص».

(٢) في (ب): «السجن ليوسف».

(٣) في (ب): «ذلك الإقرار الذي أقرت ليعلم أني لم أخنّه بالغيب».

النفس، بل من فضل الله ورحمته بعبده. ﴿إِنَّ رَبِّيَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: هو غفور لمن تجرأ على الذنوب والمعاصي إذا تاب وأناب، رحيمٌ بقبول توبته وتوفيقه للأعمال الصالحة.

وهذا هو الصواب أن هذا من قول امرأة العزيز لا من قول يوسف؛ فإن السياق في كلامها، ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر.

﴿٥٤﴾ فلما تحقق الملك والناس براءة يوسف التامة؛ أرسل إليه الملك، وقال: ﴿اثنوني به أستخلصه لنفسي﴾؛ أي: أجعله خصيصة لي ومقرباً لدي. فأتوه به مكرماً محترماً، ﴿فلما كلمه﴾؛ أعجبه كلامه، وزاد موقعه عنده، فقال له: ﴿إِنَّكَ اليومَ لدينا﴾؛ أي: عندنا ﴿مكين أمين﴾؛ أي: متمكن أمين على الأسرار.

﴿٥٥﴾ فقال يوسف طلباً للمصلحة العامة: ﴿اجعلني على خزائن الأرض﴾؛ أي: على خزائن جبايات الأرض وغلالها وكيلاً حافظاً مدبراً. ﴿إني حفيظٌ عليم﴾؛ أي: حفيظ للذي أتولاه؛ فلا يضيع منه شيء في غير محله، وضابطٌ للدخل والخارج، عليمٌ بكيفية التدبير والإعطاء والمنع والتصرف في جميع أنواع التصرفات. وليس ذلك حرصاً من يوسف على الولاية، وإنما هو رغبة منه في النفع العام، وقد عرف من نفسه من الكفاية والأمانة والحفظ ما لم يكونوا يعرفونه؛ فلذلك طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض، فجعله الملك على خزائن الأرض وولاه إياها.

﴿٥٦ - ٥٧﴾ قال تعالى: ﴿وكذلك﴾؛ أي: بهذه الأسباب والمقدمات المذكورة، ﴿مكنا يوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء﴾: في عيش رغد ونعمة واسعة وجاه عريض، ﴿نصيبٌ برحمتنا من نساء﴾؛ أي: هذا من رحمة الله بيوسف التي أصابه بها وقدرها له، وليست مقصورة على نعمة الدنيا. فإن الله لا يضيع أجر المحسنين، ويوسف عليه السلام من سادات المحسنين؛ فله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ولهذا قال: ﴿ولأجر الآخرة خيراً﴾ - من أجر الدنيا - ﴿للمذين آمنوا وكانوا يتقون﴾؛ أي: لمن جمع بين التقوى والإيمان؛ فبالثقوى تترك الأمور المحرمة من كبائر الذنوب وصغائرها، وبالإيمان التام يحصل تصديق القلب بما أمر الله بالتصديق به وتتبعه أعمال القلوب وأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِم

قَالَ أَتَتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَإِنَّا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَتَرُوْهُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفَتِيلِهِ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَيْهِمْ أُهُلُهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسَلَ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُمْ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْسَكْتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبُغِي هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَن أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَجِدْ وَأَدْخُلُوا مِن آفُوقٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ .

أي: لما تولى يوسف عليه السلام خزائن الأرض؛ دبرها أحسن تدبير، فزرع في أرض مصر جميعها في السنين المخصصة زروعا هائلة، واتخذ لها المحلات الكبار، وجبا من الأطعمة شيئا كثيرا، وحفظه وضبطه ضبطا تاما، فلما دخلت السنون المجدبة، وسرى الجذب حتى وصل إلى فلسطين التي يقيم فيها يعقوب وبنوه، فأرسل يعقوب بنيه لأجل الميرة إلى مصر.

﴿٥٨﴾ فجاء ﴿إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون﴾؛ أي: لم يعرفوه.

﴿٥٩﴾ ﴿ولما جهّزهم بجهازهم﴾؛ أي: كال لهم كما كان يكيل لغيرهم، وكان من تدبيره الحسن أنه لا يكيل لكل واحد أكثر من جمل بعير، وكان قد سألهم عن حالهم، فأخبروه أن لهم أخا عند أبيه، وهو بنيامين، فقال لهم: ﴿اتنوني بأخ لكم من أبيكم﴾: ثم رغبهم في الإتيان به، فقال: ﴿ألا ترون أنني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين﴾: في الضيافة والإكرام.

﴿٦٠﴾ ثُمَّ رَهَبْهُمْ بَعْدَ الْإِثْيَانِ بِهِ، فَقَالَ: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾: وَذَلِكَ لَعَلَّمَهُ بِاضْطِرَارِهِمْ إِلَى الْإِثْيَانِ إِلَيْهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ يَحْمِلُهُمْ عَلَى الْإِثْيَانِ بِهِ.

﴿٦١﴾ فَقَالُوا: ﴿سَنَرَاوُدُّ عَنْهُ أَبَاهُ﴾: دَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ مَوْلَعًا بِهِ لَا يَصْبِرُ عَنْهُ، وَكَانَ يَتَسَلَّى بِهِ بَعْدَ يَوْسُفَ؛ فَلِذَلِكَ احتاج إلى مَرَاوِدَةٍ فِي بَعْثِهِ مَعَهُمْ، ﴿وَأِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾: لَمَّا أَمَرْنَا بِهِ.

﴿٦٢﴾ ﴿وَقَالَ﴾ يَوْسُفُ ﴿لِفَتْيَانِهِ﴾ الَّذِينَ فِي خِدْمَتِهِ: ﴿اجْعَلُوا بَضَاعَتَهُمْ﴾؛ أَيِ: الثَّمَنِ الَّذِي اشْتَرَوْا بِهِ مِنْهُ الْمِيرَةَ، ﴿فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾؛ أَيِ: بَضَاعَتَهُمْ إِذَا رَأَوْهَا بَعْدَ ذَلِكَ فِي رِحَالِهِمْ؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: لِأَجْلِ التَّحَرُّجِ مِنْ أَخْذِهَا عَلَى مَا قِيلَ. وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَرْغِبَهُمْ فِي إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ بِالْكَيْلِ لَهُمْ كَيْلًا وَافِيًا ثُمَّ إِعَادَةِ بَضَاعَتِهِمْ إِلَيْهِمْ عَلَى وَجْهِ لَا يَحْسُونُ بِهَا وَلَا يَشْعُرُونَ لَمَّا يَأْتِي؛ فَإِنَّ الْإِحْسَانَ يُوْجِبُ لِلْإِنْسَانِ تَمَامَ الْوَفَاءِ لِلْمَحْسَنِ.

﴿٦٣﴾ ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾؛ أَيِ: إِنْ لَمْ تَرْسُلْ مَعَنَا أَخَانًا، ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلُ﴾؛ أَيِ: لِيَكُونَ ذَلِكَ سَبَبًا لِكَيْلِنَا. ثُمَّ التَّزَمُوا لَهُ بِحِفْظِهِ فَقَالُوا: ﴿وَأِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ﴾: مِنْ أَنْ يَعْزُضَ لَهُ مَا يَكْرَهُ.

﴿٦٤﴾ ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿هَلْ آمَنْتُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أُمِنْتُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾؛ أَيِ: قَدْ تَقَدَّمَ مِنْكُمْ التَّزَامُ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا فِي حِفْظِ يَوْسُفَ، وَمَعَ هَذَا؛ فَلَمْ تَفْعَلُوا بِمَا عَقَدْتُمْ مِنَ التَّأَكِيدِ؛ فَلَا أَتَقَى بِالتَّزَامِكُمْ وَحِفْظِكُمْ، وَإِنَّمَا أَتَقَى بِاللَّهِ تَعَالَى. ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾؛ أَيِ: يَعْلَمُ حَالِي وَأَرْجُو أَنْ يَرْحَمَنِي، فَيَحْفَظُهُ وَيَرْدُّهُ عَلَيَّ، وَكَأَنَّهُ فِي هَذَا الْكَلَامِ قَدْ لَانَ لِإِرْسَالِهِ مَعَهُمْ.

﴿٦٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ ﴿لَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾: هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ قَدْ كَانَ مَعْلُومًا عَنْهُمْ أَنَّ يَوْسُفَ قَدْ رَدَّهَا عَلَيْهِمْ بِالْقَصْدِ، وَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَمْلِكَهُمْ إِيَّاهَا، فَقَالُوا لِأَبِيهِمْ تَرْغِيْبًا فِي إِرْسَالِ أَخِيهِمْ مَعَهُمْ: ﴿يَا أَبَانَا مَا تَبْغِي﴾؛ أَيِ: أَيُّ شَيْءٍ نَطْلُبُ بَعْدَ هَذَا الْإِكْرَامِ الْجَمِيلِ حَيْثُ وَفَّى لَنَا الْكَيْلُ، وَرَدَّ عَلَيْنَا بِضَاعَتَنَا عَلَى [هَذَا] الْوَجْهِ الْحَسَنِ الْمُتَضَمِّنِ لِلْإِخْلَاصِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ؟! ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾؛ أَيِ: إِذَا ذَهَبْنَا بِأَخِينَا؛ صَارَ سَبَبًا لَكَيْلِهِ لَنَا، فَمِزْنَا أَهْلَنَا، وَأَتَيْنَا لَهُمْ بِمَا هُمْ مُضْطَرُّونَ إِلَيْهِ مِنَ الْقَوْتِ، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾: بِإِرْسَالِهِ مَعَنَا؛ فَإِنَّهُ يَكِيلُ لِكُلِّ وَاحِدٍ حِمْلَ بَعِيرٍ. ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾؛ أَيِ:

سهل لا ينالك ضرر؛ لأن المدة لا تطول، والمصلحة قد تبينت.

﴿٦٦﴾ فقال لهم يعقوب: ﴿لن أرسله معكم حتى تؤتوني مَوْثِقاً من الله﴾؛ أي: عهداً ثقيلاً وتحلفون بالله ﴿لنأثنتي به إلا أن يحاط بكم﴾؛ أي: إلا أن يأتاكم أمر لا قبيل لكم به ولا تقدرون دفعه، ﴿فلما آتوه مَوْثِقَهُمْ﴾: على ما قال وأراد؛ قال: الله على ما نقول وكيل؛ أي: تكفينا شهادته علينا وحفظه وكفالته^(١).

﴿٦٧﴾ ثم لما أرسله معهم؛ وصّاهم إذا هم قدموا مصر أن لا يَدْخُلُوا ﴿باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾: وذلك أنه خاف عليهم العين؛ لكثرتهم وبهاء منظرهم؛ لكونهم أبناء^(٢) رجل واحد، ولهذا سبب، ﴿و﴾ إلا ف﴿ما أغني عنكم من الله﴾: شيئاً؛ فالمقدر لا بد أن يكون. ﴿إن الحكم إلا لله﴾؛ أي: القضاء قضاؤه والأمر أمره؛ فما قضا، وحكم به لا بد أن يقع. ﴿عليه توكلت﴾؛ أي: اعتمدت على الله لا على ما وصّيتكم به من السبب. ﴿وعليه فليتوكل المتوكلون﴾: فإن بالتوكل يحصل كل مطلوب، ويندفع كل مرهوب.

﴿٦٨﴾ ﴿ولما ذهبوا و﴾ دَخَلُوا من حيث أمرهم أبوهما ما كان: ذلك الفعل يُغْنِي عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها: وهو موجب الشفقة والمحبة للأولاد، فحصل له في ذلك نوع طمأنينة وقضاء لما في خاطره، وليس هذا قصوراً في علمه؛ فإنه من الرسل الكرام والعلماء الربانيين، ولهذا قال عنه: ﴿وإنه لدو علم﴾؛ أي: لصاحب علم عظيم، ﴿لما علمناه﴾؛ أي: لتعليمنا إيّاه، لا بحوله وقوته أدركه، بل بفضل الله وتعليمه. ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾: عواقب الأمور ودقائق الأشياء، وكذلك أهل العلم منهم يخفى عليهم من العلم وأحكامه ولوازمه شيء كثير.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِزَّةُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ ٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ٧١﴾ قَالُوا تَفْقَدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا لِنُغِثَ فِي الْأَرْضِ

(١) في (ب): «كفأته».

(٢) في (ب): «ابن». وفي (أ): جاءت كلمة «أبناء» بخط مغاير.

وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ قَبَدَا بِأَوْعِيَّتِهِمَا قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٦﴾ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَفَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَبْنَؤُهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا ظَلَمُومٌ ﴿٧٩﴾ ﴿٧٩﴾

﴿٦٩﴾ أي: لما دخل إخوة يوسف على يوسف؛ ﴿أوى إليه أخاه﴾؛ أي: شقيقه، وهو بنيامين، الذي أمرهم بالإتيان به وضمه إليه، واختصه من بين إخوته، وأخبره بحقيقة الحال، و ﴿قال إني أنا أخوك؛ فلا تبتسئس﴾؛ أي: لا تحزن. ﴿بما كانوا يعملون﴾: فإنَّ العاقبة خيرٌ لنا، ثم خبره بما يريد أن يصنع ويتحيل لبقائه عنده إلى أن ينتهي الأمر.

﴿٧٠﴾ ﴿فلما جهَّزهم بجهازهم﴾؛ أي: كال لكل واحدٍ من إخوته، ومن جملتهم أخوه هذا، ﴿جعل السَّقَايَةَ﴾: وهو الإناء الذي يُشرب به ويكال فيه ﴿في رحل أخيه ثم﴾: أوعوا متاعهم، فلما انطلقوا ذاهبين؛ ﴿أذن مؤذنٌ أيتها العيرُ إنكم لسارقون﴾: ولعل هذا المؤذن لم يعلم بحقيقة الحال.

﴿٧١﴾ ﴿قالوا﴾؛ أي: إخوة يوسف، ﴿وأقبلوا عليهم﴾: لإبعاد التهمة؛ فإنَّ السارق ليس له همٌّ إلا البعد والانطلاق عمن سرق منه؛ لتسلم له سرقة، وهؤلاء جاؤوا مقبلين إليهم، ليس لهم همٌّ إلا إزالة التهمة التي رُموا بها عنهم، فقالوا في هذه الحال: ﴿ماذا تفقدون؟﴾ ولم يقولوا: ما الذي سرقنا؟ لجزمهم بأنهم براء من السرقة.

﴿٧٢﴾ ﴿قالوا نفقدُ ضواعَ الملك ولمن جاء به جنلٌ بغير﴾؛ أي: أجرة له على وجدانه، ﴿وأنا به زعيمٌ﴾؛ أي: كفيل. وهذا يقوله المؤذن المتفقد.

﴿٧٣﴾ ﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنُفْسِدَ في الأرض﴾: بجميع أنواع المعاصي، ﴿وما كنَّا سارقين﴾: فإنَّ السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض.

وإنما أقسموا على علمهم أنهم ليسوا مفسدين ولا سارقين؛ لأنهم عرفوا أنهم سَبَرُوا من أحوالهم ما يدلُّهم على عَفَّتْهم وورعهم وأنَّ هذا الأمر لا يقع منهم بعلم من اتَّهموهم، وهذا أبلغ في نفي التَّهمة من أن لو قالوا: تالله لم نُفْسِدْ في الأرض ولم نَسْرِقْ.

﴿٧٤﴾ ﴿قالوا فما جزاؤه﴾؛ أي: جزاء هذا الفعل، ﴿إن كنتم كاذبين﴾: بأن كان معكم.

﴿٧٥﴾ ﴿قالوا جزاؤه من وُجِدَ في رحله فهو﴾؛ أي: الموجود في رحله، ﴿جزاؤه﴾: بأن يملكه صاحب السرقة، وكان هذا في دينهم؛ أنَّ السارق إذا ثبتت عليه السرقة؛ كان ملكاً لصاحب المال المسروق، ولهذا قالوا: ﴿كذلك نَجْزي الظالمين﴾.

﴿٧٦﴾ فبدأ المفتش بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، وذلك لتزول الرِّيبة التي يظنُّ أنها فعلت بالقصد. فلما لم يَجِدْ في أوعيتهم شيئاً، ﴿استخرجها من وعاء أخيه﴾: ولم يَقُلْ: وجدها أو سرقها أخوه مراعاةً للحقيقة الواقعة؛ فحينئذٍ تمَّ ليوسف ما أراد من بقاء أخيه عنده على وجه لا يشعر به إخوته. قال تعالى: ﴿كذلك كُذِّبَ ليوسف﴾؛ أي: يسَّرنا له هذا الكيد الذي توصل به إلى أمرٍ غير مذموم. ﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾: لأنَّه ليس من دينه أن يَتَمَلَّك السارق، وإنَّما له عندهم جزاء آخر؛ فلو رُدَّت الحكومة إلى دين الملك؛ لم يتمكَّن يوسف من إبقاء أخيه عنده، ولكَّنه جعل الحكم منهم؛ ليتَّمَّ له ما أراد. قال تعالى: ﴿نرفع درجات من نشاء﴾: بالعلم النافع ومعرفة الطرق الموصلة إلى مقصدها؛ كما رَفَعْنَا درجات يوسف. ﴿وفوق كلِّ ذي علمٍ عليمٌ﴾؛ فكل عالم فوقه من هو أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى عالم الغيب والشهادة.

﴿٧٧﴾ فلما رأى إخوة يوسف ما رأوا؛ ﴿قالوا إن يسرق﴾: هذا الأخ؛ فليس هذا غريباً منه، ﴿فقد سَرَقَ أَخٌ له من قبل﴾؛ يعنون: يوسف عليه السلام، ومقصودهم تبرئة أنفسهم، وأنَّ هذا وأخاه قد يصدُرُ منهم ما يصدُرُ من السرقة، وهما ليسا شقيقين لنا، وفي هذا من الغَضِّ عليهما ما فيه، ولهذا ﴿أسرَّها يوسف في نفسه ولم يُبْدِها لهم﴾؛ أي: لم يقابلهم على ما قالوه بما يكرهون، بل كَظَمَ الغيظَ وأسَرَّ الأمر في نفسه، و ﴿قال﴾ في نفسه: ﴿أنتم شرُّ مكانا﴾: حيث ذممتونا بما أنتم على أسرَّ منه. ﴿والله أعلم بما تصفون﴾: مِنَّا من وصفنا بسرقة يعلم الله أنا برآء منها.

﴿٧٨﴾ ثم سلكوا معه مسلك التملق لعله يسمح لهم بأخيهم، فـ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا﴾؛ أي: وإنه لا يصبر عنه، وسيشق عليه فراقه. ﴿فَخَذَ أَحَدُنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾: فأحسن إلينا وإلى أبينا بذلك.

﴿٧٩﴾ فقال يوسف: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾؛ أي: لهذا ظلم منا لو أخذنا البريء بذنوب من وجدنا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ، ولم يقل: من سرق. كلُّ هذا تحرُّر من الكذب. ﴿إِنَّا إِذَا﴾؛ أي: إن أخذنا غير من وجد في رحله، ﴿لِظَالِمُونَ﴾: حيث وَضَعْنَا العقوبة في غير موضعها.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لىَ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿٨٠﴾ أي: فلما استيسأس إخوة يوسف من يوسف أن يسمح لهم بأخيهم، ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾؛ أي: اجتمعوا وحدهم ليس معهم غيرهم، وجعلوا يَتَنَاجَوْنَ فيما بينهم، فـ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾: في حفظه وأتاكم تأتون به إلا أن يُحَاطَ بكم، ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾: فاجتمع عليكم الأمران: تفريطكم في يوسف السابق، وعدم إتيانكم بأخيه باللاحق؛ فليس لي وجه أواجه به أبي. ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾؛ أي: سأقيم في هذه الأرض ولا أزال بها، ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لى أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لى﴾؛ أي: يقدر لي المجيء وحدي أو مع أخي، ﴿وهو خير الحاكمين﴾.

﴿٨١﴾ ثم وصَّاهم ما يقولون لأبيهم، فقال: ﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾؛ أي: وأخذ بسرقة، ولم يحصل لنا أن نأتيك به مع ما بذلنا من الجهد في ذلك، والحال أننا ما شَهِدْنَا بشيء لم نَعْلَمْهُ، وإنما شَهِدْنَا بما علمنا؛ لأننا رأينا الصَّوَاعَ اسْتُخْرِجَ من رحله. ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾؛ أي: لو كنا نعلم الغيب؛ لما حَرَضْنَا وبذلنا المجهود في ذهابه معنا، ولما أعطيناك عهدونا ومواثيقنا، فلم نظن أن الأمر سيبلغ ما بلغ.

﴿٨٢﴾ ﴿وَاسْأَلْ﴾: إن شككت في قولنا ﴿القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها﴾ فاطلّعوا على ما أخبرناك به، ﴿وإنّا لصادقون﴾: لم نكذب، ولم نغيّر، ولم نبذل، بل هذا الواقع.

﴿٨٣﴾ فلما رجعوا إلى أبيهم وأخبروه بهذا الخبر؛ اشتدّ حزنه وتضاعف كمدّه وأنهمهم أيضاً في هذه القضية كما أنهمهم في الأولى و ﴿قال بل سؤلّت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل﴾؛ أي: ألجأ في ذلك إلى الصبر الجميل الذي لا يصحبه تسخط ولا جزع ولا شكوى للخلق. ثم لجأ إلى حصول الفرج لما رأى أنّ الأمر اشتدّ والكربة انتهت، فقال: ﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً﴾؛ أي: يوسف وبنيامين وأخوهم الكبير الذي أقام في مصر. ﴿إنّه هو العليم﴾: الذي يعلم حالي واحتياجي إلى تفريجه ومثته واضطراري إلى إحسانه، ﴿الحكيم﴾: الذي جعل لكل شيء قدراً، ولكل أمر منتهى بحسب ما اقتضته حكمته الربانيّة.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفَى عَلَى يَوْسُفَ وَأَيُّضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ﴿٨٤﴾
 قَالُوا تَاللّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ
 إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾.

﴿٨٤﴾ أي: وتولّى يعقوب عليه الصلاة والسلام عن أولاده بعدما أخبروه هذا الخبر، واشتدّ به الأسف والأسى، وابتضت عيناه من الحزن الذي في قلبه والكمد الذي أوجب له كثرة البكاء حيث^(١) ابتضت عيناه من ذلك؛ ﴿فهو كظيم﴾؛ أي: ممتلئ القلب من الحزن الشديد، ﴿وقال يا أسفى على يوسف﴾؛ أي: ظهر منه ما كمن من الهم^(٢) القديم والشوق المقيم، وذكرته هذه المصيبة الخفيفة بالنسبة للأولى، المصيبة الأولى.

﴿٨٥﴾ فقال له أولاده متعجبين من حاله: ﴿تالله تفتأ تذكر يوسف﴾؛ أي: لا تزال تذكر يوسف في جميع أحوالك، ﴿حتى تكون حرَضاً﴾؛ أي: فانياً لا حراك فيك ولا قدرة لك على الكلام، ﴿أو تكون من الهالكين﴾؛ أي: لا تترك ذكره مع قدرتك على ذكره أبداً.

﴿٨٦﴾ فقال يعقوب: ﴿إنما أشكو بثي﴾؛ أي: ما أبث من الكلام،

(٢) في (ب): «ظهر منه وبرز الهم».

(١) في (ب): «حتى».

﴿وَحُزْنِي﴾: الذي في قلبي. ﴿إِلَى اللَّهِ﴾: وحده لا إليكم ولا إلى غيركم من الخلق؛ فقولوا ما شئتم، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: من أنه سيردّهم عليّ ويقرّ عيني بالاجتماع بهم.

﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّكُمْ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا بَيَّتَئِنَّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضَّرُّ وَجُنَّا بِيضَاعُهُ مُزْجَاةٌ فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلُ وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَهَؤُلَكَ لَأَنْتَ يُّوسُفُ قَالَ أَنَا يُّوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّكُمْ مِنْ يَتَّى وَيَصِيرَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاتَاكَ اللَّهُ عِلْمًا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومٌ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿٨٧﴾ أي: قال يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿يَا بَنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ﴾؛ أي: احرصوا واجتهدوا على التفتيش عنهما، ﴿وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾: فإنّ الرجاء يوجب للعبد السعي والاجتهاد فيما رجاه، والإياس يوجب له التثاقل والتباطؤ، وأولى ما رجا العباد فضل الله وإحسانه ورحمته وروحه. ﴿إِنَّهُ لَا يَبَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾: فإنّهم لكفرهم يستبعدون رحمته، ورحمته بعيدة منهم؛ فلا تتشبهوا بالكافرين. ودلّ هذا على أنّه بحسب إيمان العبد يكون رجاؤه لرحمة الله وزوجه.

﴿٨٨﴾ فذهبوا. فلما دخلوا على يوسف، ﴿قَالُوا﴾: متضرّعين إليه: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضَّرُّ وَجُنَّا بِيضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلُ وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا﴾؛ أي: قد اضطررنا نحن وأهلنا ﴿وَجُنَّا بِيضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾؛ أي: مدفوعة مرغوب عنها لقلتها وعدم وقوعها الموقع؛ ﴿فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلُ﴾؛ أي: مع عدم وفاء العوض، وتصدّق علينا بالزيادة عن الواجب. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾: بثواب الدنيا والآخرة.

﴿٨٩﴾ فلما انتهى الأمر وبلغ أشده؛ رقى لهم يوسف رقّة شديدة، وعرفهم بنفسه، وعاتبهم فقال: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُّوسُفَ وَأَخِيهِ﴾: أما يوسف؛ فظاهراً فعلهم فيه، وأما أخوه؛ فلعلّه - والله أعلم - قولهم: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾، أو أن السبب الذي فرّق بينه وبين أبيه هم السبب فيه والأصل الموجب

له. ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾: وهذا نوع اعتذارٍ لهم بجهلهم لهم إذ فعلوا فعل الجاهلين، مع أنه لا ينبغي ولا يليق منهم.

﴿٩٠﴾ فعرفوا أن الذي خاطبهم هو يوسف، فقالوا: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾: بالإيمان والتقوى والتمكين في الدنيا، وذلك بسبب الصبر والتقوى، ﴿فَإِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَيُضَيَّرُ﴾؛ أي: يتقي فعل ما حرّم الله ويصبر على الآلام والمصائب وعلى الأوامر بامثالها. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾: فَإِنَّ هَذَا مِنَ الْإِحْسَانِ، وَاللَّهُ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا.

﴿٩١﴾ ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾؛ أي: فضلك علينا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأسأنا إليك غاية الإساءة، وحرصنا على إيصال الأذى إليك والتباعد لك عن أهلك، فآترك الله تعالى ومكنك مما تريد [وإن كنا لخاطئين، وهذا غاية الاعتراف منهم بالجرم الحاصل منهم على يوسف].

﴿٩٢﴾ فقال لهم يوسف عليه السلام كرمًا وجودًا: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾؛ أي: لا اثرب عليكم ولا ألومكم، ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾؛ فسمح لهم سماحًا تامًا من غير تعيير لهم على ذكر الذنب السابق، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة، وهذا نهاية الإحسان الذي لا يتأتى إلا من خواص الخلق وخيار المصطفين.

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقَوْهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾
﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَتَّبِعُنَا أَنْتَ وَنُوحُوا لَنَا دُورَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَفِيرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾.

﴿٩٣﴾ أي: قال يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقَوْهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾: لأن كل داء يداوى بضده؛ فهذا القميص لما كان فيه أثر ريح يوسف الذي أودع قلب أبيه من الحزن والشوق ما الله به عليم؛ أراد أن يشمه فترجع إليه روحه وتراجع إليه نفسه ويرجع إليه بصره، والله في ذلك حكيم وأسرار لا يطلع عليها العباد، وقد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر. ﴿وأتوني بأهلكم أجمعين﴾؛ أي: أولادكم وعشيرتكم وتوابعكم كلهم؛ ليحصل تمام اللقاء ويزول عنكم نكد المعيشة وضنك الرزق.

﴿٩٤﴾ ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾: عن أرض مصر مقبلةً إلى أرض فلسطين؛ شَمَّ يعقوبُ ريحَ القميص، فقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾؛ أي: تسخرون مِنِّي، وتزعمون أنَّ هذا الكلام صدر مِنِّي من غير شعور؛ لأنَّه رأى منهم من التعجب من حاله ما أوجب له هذا القول.

﴿٩٥﴾ فوقع ما ظنَّه بهم، فقالوا: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾؛ أي: لا تزال تائهاً في بحرٍ لُجِّي^(١)، لا تدري ما تقول.

﴿٩٦﴾ ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ﴾: بقرب الاجتماع بيوسف وإخوته وأبيهم، ﴿الْقَاءِ﴾؛ أي: القميص ﴿عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بِصِيرًا﴾؛ أي: رجع على حاله الأولى بصيراً بعد أن ابيضَّت عيناه من الحزن، فقال لمن حَضَرَهُ من أولاده وأهله الذين كانوا يَفَنِّدُونُ رأيَه، ويتعجبون منه متصراً عليهم مُتَّبِجاً بنعمة الله عليه: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: حيث كنتُ مترجياً للقاء يوسف مترقباً لزوال الهمِّ والغمِّ والحزن.

﴿٩٧﴾ ﴿فَاقْرَأُوا بِذَنبِهِمْ، وَنَجْعُوا بِذَلِكَ﴾ و﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾: حيث فعلنا معك ما فعلنا.

﴿٩٨﴾ ﴿وَقَالَ﴾ مجيباً لطلبتهُم ومسرعاً لإجابتهُم: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: ورجائي به أن يغفرَ لكم ويرحمكم ويتغمَّدكم برحمته. وقد قيل: إنه آخر الاستغفار لهم إلى وقت السحر الفاضل؛ ليكونَ أنتم للاستغفار وأقرب للإجابة.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَىٰ أَبِيهِ وَقَالَ أَدْخُلُوا مَعِيَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِي هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنَّ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿٩٩﴾ أي: ﴿فَلَمَّا﴾ تجهَّز يعقوب وأولاده وأهلهم أجمعون وارتحلوا من بلادهم قاصدين الوصول إلى يوسف في مصر وسكنائها، فلما وصلوا إليه و﴿دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه﴾؛ أي: ضمَّهما إليه واختصَّهما بقربه وأبدى لهما من

(١) في (ب): «في بحر الحب». وقد استبدلها الشيخُ بما أثبت في هامش (أ).

البرِّ والإحسان^(١) والتبجيل والإعظام شيئاً عظيماً. ﴿وقال﴾ لجميع أهله: ﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾: من جميع المكاره والمخاوف. فدخلوا في هذه الحال السارة، وزال عنهم النَّصَبُ ونكد المعيشة وحصل السرور والبهجة.

﴿١٠٠﴾ ﴿ورفع أبويه على العرش﴾؛ أي: على سرير الملك ومجلس العزيز، ﴿وخروا له سجداً﴾؛ أي: أبوه وأمه وإخوته سجوداً على وجه التعظيم والتبجيل والإكرام. ﴿وقال﴾ لمَّا رأى هذه الحال ورأى سجودهم له: ﴿يا أبت هذا تأويل رؤيائي من قبل﴾: حين رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين؛ فهذا وقوعها الذي آلت إليه ووصلت. ﴿قد جعلها ربِّي حقاً﴾: فلم يجعلها أضغاث أحلام. ﴿وقد أحسن بي﴾: إحساناً جسيماً، ﴿إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو﴾: وهذا من لطفه وحسن خطابه عليه السلام؛ حيث ذكَّر حاله في السجن، ولم يذكُر حاله في الحبِّ؛ لتمام عفوهِ عن إخوته، وأنَّه لا يذكر ذلك الذنب، وأنَّ إتيانكم من البادية من إحسان الله إليَّ، فلم يقل جاء بكم من الجوع والنصب، ولا قال: أحسن بكم، بل قال: أحسن بي، جعل الإحسان عائداً إليه؛ فتبارك من يختص برحمته من يشاء من عباده ويهب لهم من لدنه رحمةً إنه هو الوهاب، ﴿من بعد أن نزع الشيطان بيني وإخوتي﴾: فلم يقل: نزع الشيطان إختي، بل كأنَّ الذنب والجهل صدر من الطرفين؛ فالحمد لله الذي أخزى الشيطان ودحره وجمَعنا بعد تلك الفرقة الشاقة. ﴿إنَّ ربِّي لطيفٌ لما يشاء﴾: يوصل برِّه وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها. ﴿إنَّه هو العليم﴾: الذي يعلم ظواهر الأمور وبواطنها وسرائر العباد وضمائرهم. ﴿الحكيم﴾: في وضعه الأشياء مواضعها وسوقه الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها.

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ قَوْنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

﴿١٠١﴾ لما أتمَّ الله ليوسف ما أتمَّ من التمكين في الأرض والملك وأقرَّ عينه بأبويه وإخوته وبعد العلم العظيم الذي أعطاه الله إيَّاه، فقال مقراً بنعمة الله شاكراً لها داعياً بالثبات على الإسلام: ﴿ربِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾: وذلك أنَّه كان على

(١) في (ب): «الإكرام».

خزائن الأرض وتديرها ووزيراً كبيراً للملك، ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾؛ أي: من تأويل أحاديث الكتب المنزلة وتأويل الرؤيا وغير ذلك من العلم. ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ... تَوْفَّنِي مُسْلِماً﴾؛ أي: أدم عليّ الإسلام وثبّثني عليه حتى توفّاني عليه، ولم يكن هذا دعاءً باستعجال الموت. ﴿وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ﴾: من الأنبياء الأبرار والأصفياء الأخيار.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (١٠٢).

﴿١٠٢﴾ لما قصّ الله هذه القصة على محمد ﷺ؛ قال الله له: ﴿ذَلِكَ﴾: [الإنباء] الذي أخبرناك به ﴿من أنباء الغيب﴾: الذي لولا إيحائنا إليك؛ لما وصل إليك هذا الخبر الجليل، فإنك لم تكن حاضراً ﴿لديهم﴾ إذ أجمعوا أمرهم؛ أي: إخوة يوسف. ﴿وهم يَمْكُرُونَ﴾: به حين تعاقدوا على التفريق بينه وبين أبيه في حالة لا يطلع عليها إلا الله تعالى ولا يمكن أحداً أن يصل إلى علمها إلا بتعليم الله له إياها؛ كما قال تعالى لما قصّ قصة موسى وما جرى له؛ ذكّر الحال التي لا سبيل للخلق إلى علمها إلّا بوحيه، فقال: ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين...﴾ الآيات؛ فهذا أدل دليل على أن من جاء بها رسول الله حقاً.

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِإِلَهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾.

﴿١٠٣﴾ يقول تعالى لنبية محمد ﷺ: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت﴾: على إيمانهم ﴿بمؤمنين﴾: فإن مداركهم ومقاصدهم قد أصبحت فاسدة؛ فلا ينفعهم حرص الناصحين عليهم، ولو عدت الموانع؛ بأن كانوا يعلمونهم ويدعونهم إلى ما فيه الخير لهم ودفع الشر عنهم من غير أجر ولا عوض، ولو أقاموا لهم من الشواهد والآيات الدالات على صدقهم ما أقاموا.

﴿١٠٤﴾ ولهذا قال: ﴿وما تسألهم عليه من أجرٍ إن هو إلا ذكْرٌ للعالمين﴾: يتذكرون به ما ينفعهم ليفعلوه، وما يضرهم ليتروكه.

﴿١٠٥﴾ ﴿وَكَايْنٍ﴾؛ أي: وكم ﴿من آية في السموات والأرض يمرّون عليها﴾: دالة لهم على توحيد الله، ﴿وهم عنها معرضون﴾.

﴿١٠٦﴾ ومع هذا، إن وُجد منهم بعض الإيمان، فلا ﴿يؤمّن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾: فهم وإن أقرّوا بربوبية الله تعالى وأنه الخالق الرازق المدبّر لجميع الأمور؛ فإنّهم يشركون في ألوهية الله وتوحيده.

﴿١٠٧﴾ فهؤلاء الذين وصلوا إلى هذه الحال لم يبقَ عليهم إلا أن يحلّ بهم العذاب ويفجأهم العقاب وهم آمنون، ولهذا قال: ﴿أفأمنوا﴾؛ أي: الفاعلون لتلك الأفعال، المعرضون عن آيات الله، ﴿أن تأتيهم غاشية من عذاب الله﴾؛ أي: عذاب يغشاهم ويعمّهم ويستأصلهم، ﴿أو تأتيهم الساعة بغتة﴾؛ أي: فجأة، ﴿وهم لا يشعرون﴾؛ أي: فإنّهم قد استوجبوا لذلك؛ فليتوبوا إلى الله، ويتزكّوا ما يكون سبباً في عقابهم.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٠٩﴾.

﴿١٠٨﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ للناس: ﴿هذه سبيلي﴾؛ أي: طريقي التي أدعو إليها، وهي السبيل الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته، المتضمنة للعلم بالحق والعمل به وإيثاره، وإخلاص الدين لله وحده لا شريك له. ﴿أدعو إلى الله﴾؛ أي: أحث الخلق والعباد إلى الوصول إلى ربهم وأرغبهم في ذلك وأرهبهم مما يُبعدهم عنه، ومع هذا؛ فأنا ﴿على بصيرة﴾: من ديني؛ أي: على علم ويقين من غير شك ولا امتراء ولا مزية. وكذلك ﴿مَنِ اتَّبَعَنِي﴾: يدعو إلى الله كما أدعو على بصيرة من أمره. ﴿وسبحان الله﴾: عما تُسب إليه مما لا يليق بجلاله أو ينافي كماله. ﴿وما أنا من المشركين﴾: في جميع أموري، بل أعبد الله مخلصاً له الدين.

﴿١٠٩﴾ ثم قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً﴾؛ أي: لم نرسل ملائكة ولا غيرهم من أصناف الخلق؛ فلاي شيء يستغرب قومك رسالتك، ويزعمون أنه ليس لك عليهم فضل، فلك فيمن قبلك من المرسلين أسوة حسنة.

﴿نوحى إليهم من أهل القرى﴾؛ أي: لا من البادية، بل من أهل القرى، الذين هم أكمل عقولاً وأصح آراء، وليتبيين أمرهم ويتضح شأنهم. ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾: إذا لم يصدقوا لقولك، ﴿فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾: كيف أهلكهم الله بتكذيبهم؛ فاحذروا أن تقيموا على ما قاموا عليه، فيصيبكم ما أصابهم. ﴿ولدار الآخرة﴾؛ أي: الجنة وما فيها من النعيم المقيم، ﴿خيرٌ للذين اتَّقُوا﴾: الله في امثال أوامره واجتناب نواهيه؛ فإن نعيم الدنيا منغص منكد منقطع، ونعيم الآخرة تامٌ كامل لا يفنى أبداً، بل هو على الدوام في تزايد وتواصل. عطاء غير مجذوذ. ﴿أفلا تعقلون﴾؛ أي: أفلا يكون لكم عقول تؤثر الذي هو خير على الأدنى؟

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْشَسَ الرَّسُلُ وَطَنًا أَنَّهُمْ قَدْ كَذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

﴿١١٠﴾ يخبر تعالى أنه يرسل الرسل الكرام، فيكذبهم القوم المجرمون اللثام، وأن الله تعالى يمهلهم ليرجعوا إلى الحق، ولا يزال الله يمهلهم حتى إنه تصل الحال إلى غاية الشدة منهم على الرسل، حتى إن الرسل على كمال يقينهم وشدة تصديقهم بوعد الله ووعيده ربما أنه يخطر بقلوبهم نوع من الإياس ونوع من ضعف العلم والتصديق؛ فإذا بلغ الأمر هذه الحال؛ ﴿جاءهم نصرنا فنجى من نشاء﴾: وهم الرسل وأتباعهم، ﴿ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾؛ أي: ولا يرد عذابنا عن من اجترم وتجراً على الله؛ فما لهم من قوة ولا ناصر.

﴿١١١﴾ ﴿لقد كان في قصصهم﴾؛ أي: قصص الأنبياء والرسل مع قومهم ﴿عبرةً لأولي الأبواب﴾؛ أي: يعتبرون بها أهل الخير وأهل الشر، وأن من فعل مثل فعلهم؛ ناله ما نالهم من كرامة أو إهانة، ويعتبرون بها أيضاً ما لله من صفات الكمال والحكمة العظيمة، وأنه الله الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له. وقوله: ﴿ما كان حديثاً يفترى﴾؛ أي: ما كان هذا القرآن الذي قص الله به عليكم من أنباء الغيب ما قص من الأحاديث المفتراة المختلقة. ﴿ولكن﴾: كان تصديق الذي بين يديه؛ من الكتب السابقة؛ يوافقها ويشهد لها بالصحة،

﴿وتفصيل كل شيء﴾: يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه ومن الأدلة والبراهين. ﴿وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾: فإنهم بسبب ما يحصل لهم به من العلم بالحق وإيثاره يحصل لهم الهدى، وبما يحصل لهم من الثواب العاجل والآجل تحصل لهم الرحمة.

فصل

في ذكر شيء من العبر والفوائد التي اشتملت عليها هذه القصة العظيمة التي قال الله في أولها: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾، وقال: ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾، وقال في آخرها: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾، غير ما تقدم في مطاوبها من الفوائد.

فمن ذلك: أن هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها وأبينها؛ لما فيها من أنواع التنقلات: من حال إلى حال، ومن محنة إلى محنة، ومن محنة إلى منحة ومئة، ومن ذل إلى عز، ومن رق إلى ملك، ومن فرقة وشتات إلى اجتماع وائتلاف، ومن حزن إلى سرور، ومن رخاء إلى جذب، ومن جذب إلى رخاء، ومن ضيق إلى سعة، ومن إنكار إلى إقرار؛ فتبارك من قصها فأحسنها، ووضّحها، وبينها.

ومنها: أن فيها أصلاً لتعبير الرؤيا؛ فإن^(١) علم التعبير من العلوم المهمة التي يعطيها الله من يشاء من عباده، وإن أغلب ما تُبنى عليه المناسبة والمثابرة في الاسم والصفة:

فإن رؤيا يوسف التي رأى أن الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً له ساجدين وجه المناسبة فيها أن هذه الأنوار هي زينة السماء وجمالها وبها منافعها؛ فكذلك الأنبياء والعلماء زينة للأرض وجمالاً، وبهم يُهتدى في الظلمات كما يُهتدى بهذه الأنوار، ولأن الأصل أبوه وأمه، وإخوته هم الفرع؛ فمن المناسب أن يكون الأصل أعظم نوراً وجزماً لما هو فرع عنه؛ فلذلك كانت الشمس أمه والقمر أبوه والكواكب إخوته. ومن المناسبة أن الشمس لفظ مؤنث؛ فلذلك كانت أمه، والقمر والكواكب مذكّرات؛ فكانت لأبيه وإخوته. ومن المناسبة أن الساجد معظم مُحترّم للمسجود له، والمسجود له معظم مُحترّم؛ فلذلك دل ذلك على أن يوسف يكون معظماً

(١) في (ب): «وإن».

محترماً عند أبويه وإخوته، ومن لازم ذلك أن يكون مجتنبى مفضلاً في العلم والفضائل الموجبة لذلك، ولذلك قال له أبوه: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾.

ومن المناسبة في رؤيا الفتيتين: أنه أول رؤيا الذي رأى أنه يعصرُ خمرأ؛ أن الذي يعصر خمرأ في العادة يكون خادماً لغيره، والعصرُ يُقَصَّدُ لغيره؛ فلذلك أوله بما يؤول إليه؛ أنه يسقي ربّه، وذلك متضمّن لخروجه من السجن. وأول الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه بأن جلدة رأسه ولحمه وما في ذلك من المنخ أنه هو الذي يحمل^(١) وأنه سيبرز للطيور بمحلّ تتمكّن من الأكل من رأسه، فرأى من حاله أنه سيقتل ويصلب بعد موته فيبرز للطيور فتأكل من رأسه، وذلك لا يكون إلا بالصلب بعد القتل.

وأول رؤيا الملك للبقرات والسنبلات بالسنين المخصبة والسنين المجذبة، ووجه المناسبة أن الملك به ترتبط أحوال الرعية ومصالحها، وبصلاحه تصلح وبفساده تفسد، وكذلك السنون بها صلاح أحوال الرعية واستقامة أمر المعاش أو عدمه، وأما البقر؛ فإنها تُحَرِّثُ الأرض عليها ويُسْتَقَى عليها الماء وإذا أخضبت السنة؛ سمت، وإذا أجدبت؛ صارت عجافاً، وكذلك السنبال في الخصب تكثر وتخضر، وفي الجذب تقل وتيسر، وهي أفضل غلال الأرض.

ومنها: ما فيها من الأدلة على صحة نبوة محمد ﷺ؛ حيث قصّ على قومه هذه القصة الطويلة، وهو لم يقرأ كتب الأولين، ولا دارس أحداً يراه قومه بين أظهرهم صباحاً ومساءً، وهو أمي لا يخط ولا يقرأ، وهي موافقة لما في الكتب السابقة، وما كان لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون.

ومنها: أنه ينبغي البعد عن أسباب الشرّ وكتمان ما تُخشى مضرّته؛ لقول^(٢) يعقوب ليوسف: ﴿يَا بَنِي لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾.

ومنها: أنه يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره؛ لقوله: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾.

ومنها: أن نعمة الله على العبد نعمة على من يتعلّق به من أهل بيته وأقاربه وأصحابه، وأنه ربما شملتهم وحصل لهم ما حصل له بسببه؛ كما قال يعقوب في

(٢) في (ب): «لقوله».

(١) في (ب): «يحمّله».

تفسيره لرؤيا يوسف: ﴿وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتيم نعمته عليك وعلى آل يعقوب﴾، ولما تمت النعمة على يوسف؛ حصل لآل يعقوب من العز والتمكين في الأرض والسرور والغبطة ما حصل بسبب يوسف.

ومنها: أنَّ العدل مطلوب في كل الأمور، لا في معاملة السلطان رعيته، ولا فيما دونه، حتى في معاملة الوالد لأولاده في المحبة والإيثار وغيره، وأنَّ في الإخلال بذلك يختل عليه الأمر وتفسد الأحوال، ولهذا لما قدم يعقوب يوسف في المحبة وآثره على إخوته؛ جرى منهم ما جرى على أنفسهم وعلى أبيهم وأخيه.

ومنها: الحذر من شؤم الذنوب، وأنَّ الذنب الواحد يستتبع ذنوباً متعددة، ولا يتم لفاعله إلا بعدة جرائم؛ فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه؛ احتالوا لذلك بأنواع من الحيل، وكذبوا عدة مرات، وزوروا على أبيهم في القميص والدَّم الذي فيه، وفي إتيانهم عشاء يكون، ولا تستبعد أنَّه قد كثر البحث فيها في تلك المدة، بل لعلَّ ذلك اتَّصل إلى أن اجتمعوا بيوسف، وكلما صار البحث؛ حصل من الإخبار بالكذب والافتراء ما حصل، ولهذا شؤم الذنب وآثاره التابعة والسابقة واللاحقة.

ومنها: أنَّ العبرة في حال العبد بكمال النهاية لا بنقص البداية؛ فإنَّ أولاد يعقوب عليهم السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر مما هو أكبر أسباب النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح والسماح التأم من يوسف ومن أبيهم والدُّعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإذا سمَّح العبد عن حقِّه؛ فالله خير الراحمين، ولهذا في أصحَّ الأقوال أنهم كانوا أنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾، وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر وذريَّتهم، ومما يدلُّ على ذلك أن في رؤيا يوسف أنه رآهم كواكب نيرة، والكواكب فيها النور والهداية، الذي من صفات الأنبياء؛ فإنَّ لم يكونوا أنبياء؛ فإنَّهم علماء هداة.

ومنها: ما منَّ الله به على يوسف عليه الصلاة والسلام من العلم والجلم ومكارم الأخلاق والدُّعوة إلى الله وإلى دينه وعفوه عن إخوته الخاطئين عفواً بادرهم به وتمَّ ذلك بأن لا يُثرب عليهم ولا يعيِّرهم به، ثم برَّه العظيم بأبويه وإحسانه لإخوته بل لعموم الخلق.

ومنها: أن بعض الشر أهون من بعض، وارتكاب أخفَّ الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما؛ فإنَّ إخوة يوسف لما اتَّفَقوا على قتل يوسف أو إلقائه أرضاً،

وقال قائل منهم: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ﴾؛ كان قوله أحسنَ منهم وأخفَّ، وبسببه خَفَّ عن إخوته الإثم الكبير.

ومنها: أنَّ الشيء إذا تداولته الأيدي وصار من جملة الأموال ولم يُعَلِّمْ أنه كان على غير وجه الشرع؛ أنه لا إثم على مَنْ باشره ببيع أو شراء أو خدمة أو انتفاع أو استعمال؛ فإنَّ يوسف عليه السلام باعه إخوته بيعاً حراماً لا يجوز، ثم ذهبَتْ به السيَّارة إلى مصر، فباعوه بها، وبقي عند سيِّده غلاماً رقيقاً، وسماه الله سيِّداً^(١)، وكان عندهم بمنزلة الغلام الرقيق المكرم.

ومنها: الحذر من الخلوة بالنساء التي يُخشى منهنَّ الفتنة، والحذر أيضاً من المحبَّة التي يُخشى ضررها؛ فإنَّ امرأة العزيز جرى منها ما جرى بسبب توحدها بيوسفَ وحبِّها الشديد له، الذي ما تركها حتَّى راودته تلك المراودة، ثم كذبت عليه، فسُجِّنَ بسببها مدة طويلة.

ومنها: أنَّ الهمَّ الذي همَّ به يوسف بالمرأة ثم تركه لله مما يرقِّيه^(٢) إلى الله زُلْفَى؛ لأنَّ الهمَّ داع من دواعي النفس الأمَّارة بالسوء، وهو طبيعة لأغلب الخلق، فلما قابل بينه وبين محبَّة الله وخشيته؛ غلبت محبَّة الله وخشيته داعي النفس والهوى، فكان ممن ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾، ومن السبعة الذين يُظَلِّمُهُمُ الله في ظلِّ عرشه يومَ لا ظلَّ إلَّا ظله: أحدهم: رجلٌ دعتَه امرأة ذات منصبٍ وجمال فقال: إني أخاف الله^(٣). وإنَّما الهمُّ الذي يلام عليه العبد الهمُّ الذي يساكنه، ويصير عزماً ربَّما اقترن به الفعل.

ومنها: أنَّ مَنْ دَخَلَ الإيمان قلبه، وكان مخلصاً لله في جميع أموره؛ فإنَّ الله يدفع عنه ببرهان إيمانه وصدق إخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه؛ لقوله: ﴿وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ وَكَذَلِكَ لَنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾: على قراءة من قرأها بكسر اللام، ومن قرأها بالفتح؛ فإنَّه من إخلاص الله إياه، وهو متضمَّن لإخلاصه هو نفسه، فلما أخلص عمله لله؛ أخلصه الله، وخلَّصه من السوء والفحشاء.

ومنها: أنه ينبغي للعبد إذا رأى محلاً فيه فتنة وأسباب معصية أن يفرَّ منه ويهرب

(٢) في (ب): «يقرِّبه».

(١) في (ب): «شراء».

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

غاية ما يمكنه؛ ليتمكن من التخلص من المعصية؛ لأن يوسف عليه السلام لما راودته التي هو في بيتها؛ فرَّ هارباً يطلبُ الباب ليتخلص من شرِّها.

ومنها: أن القرائن يُعمل بها عند الاشتباه، فلو تخاصم رجلٌ وامرأته في شيء من أواني الدار؛ فما يصلح للرجل؛ فإنه للرجل، وما يصلح للمرأة؛ فهو لها، هذا إذ لم يكن بينة، وكذا لو تنازع نجارٌ وحدادٌ في آلة حرفةٍ من غير بينة، والعمل بالقافة في الأشباه والأثر من هذا الباب؛ فإن شاهد يوسف شهد بالقرينة وحكم بها في قد القميص واستدلَّ بقدِّه من دُبره على صدق يوسف وكذبها. ومما يدلُّ على هذه القاعدة أنه استدلَّ بوجود الصُّواع في رِخل أخيه على الحكم عليه بالسرقة من غير بينة شهادة ولا إقرار؛ فعلى هذا إذا وجد المسروق في يد السارق، خصوصاً إذا كان معروفاً بالسرقة؛ فإنه يحكم عليه بالسرقة، وهذا أبلغ من الشهادة. وكذلك وجود الرجل يتقيأ الخمر أو وجود المرأة التي لا زوج لها ولا سيّد حاملاً؛ فإنه يُقام بذلك الحدُّ ما لم يقم مانعٌ منه، ولهذا سُمِّيَ الله هذا الحكم شاهداً، فقال: ﴿وشهد شاهدٌ من أهلها﴾.

ومنها: ما عليه يوسف من الجمال الظاهر والباطن؛ فإنَّ جماله الظاهر أوجب للمرأة التي هو في بيتها ما أوجب، وللنساء اللاتي جمعن حين لُمنَّها على ذلك أن قطعن أيديهنَّ وقلن: ﴿ما هذا بشراً إن هذا إلا مَلَكٌ كريمٌ﴾. وأما جماله الباطن؛ فهو العقَّة العظيمة عن المعصية مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوعها وشهادة امرأة العزيز والنسوة بعد ذلك ببراءته، ولهذا قالت امرأة العزيز: ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾، وقالت بعد ذلك: ﴿الآن حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾، وقالت النسوة: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾.

ومنها: أن يوسف عليه السلام اختار السجنَ على المعصية؛ فهكذا ينبغي للعبد إذا ابتلي بين أمرين: إما فعل معصية، وإما عقوبة دنيوية؛ أن يختار العقوبة الدنيوية على موافقة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة، ولهذا من علامات الإيمان أن يكره العبدُ أن يعودَ في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقى في النار.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله ويختمي بحماه عند وجود أسباب المعصية ويتبرأ من حوله وقوته؛ لقول يوسف عليه السلام: ﴿وَالَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

ومنها: أن العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير وينهيانه عن الشر، وأن الجهل يدعو صاحبه إلى موافقة هوى النفس وإن كان معصية ضاراً لصاحبه.

ومنها: أنه كما على العبد عبودية لله في الرخاء؛ فعليه عبودية في الشدة؛ فيوسف عليه السلام لم يزل يدعو إلى الله، فلما دَخَلَ السجن؛ استمرَّ على ذلك ودعا الفتيين إلى التوحيد ونهاهما عن الشرك. ومن فطنته عليه السلام أنه لما رأى فيهما قابلية لدعوته حيث ظنَّ فيه الظنَّ الحسن، وقال له: ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ وأتياه لأنَّ يَغْبِرَ لهما رؤياهما، فرأهما متشوقَّين لتعبيرها عنده، رأى ذلك فرصة فانتهازها، فدعاهما إلى الله تعالى قبل أن يَغْبِرَ رؤياهما؛ ليكون أنجح لمقصوده وأقرب لحصول مطلوبه، ويُنَّ لهما أولاً أن الذي أوصله إلى الحال التي رآياه فيها من الكمال والعلم إيمانه وتوحيده وتركه مِلَّةً مَنْ لا يؤمن بالله واليوم الآخر، ولهذا دعاء لهما بالحال، ثم دعاهما بالمقال، وبين فساد الشرك وبرهن عليه، وحقيقة التوحيد وبرهن عليه.

ومنها: أنه يبدأ بالأهمَّ فالأهمَّ، وأنه إذا سُئِلَ المفتي، وكان السائل حاجته من (١) غير سؤاله أشد؛ أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله؛ فإنَّ هذا علامة على نصح المعلم وفطنته وحسن إرشاده وتعليمه؛ فإنَّ يوسف لما سأله الفتيان عن الرؤيا؛ قدَّم لهما قبل تعبيرها دعوتهما إلى الله وحده لا شريك له.

ومنها: أن مَنْ وقع في مكروه وشدة؛ لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه أو الإخبار بحاله، وأنَّ هذا لا يكون شكوى للمخلوق؛ فإنَّ هذا من الأمور العادية التي جرى العرفُ باستعانة الناس بعضهم ببعض، ولهذا قال يوسف للذي ظنَّ أنه ناج من الفتيين: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾.

ومنها: أنه ينبغي ويتأكد على المعلم استعمال الإخلاص التام في تعليمه، وأن لا يجعل تعليمه وسيلةً لمعاوضة أحد في مال أو جاه أو نفع، وأن لا يمتنع من التعليم أو لا ينصح فيه إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم؛ فإنَّ يوسف عليه السلام قد قال، ووصَّى أحد الفتيين أن يذكره عند ربِّه، فلم يذكره ونسي، فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف؛ أرسلوا ذلك الفتى، وجاءه سائلاً مستفتياً عن تلك الرؤيا، فلم يعنَّه يوسف، ولا ويخه لتركه ذكره، بل أجابه عن سؤاله جواباً تاماً من كل وجه.

ومنها: أنه ينبغي للمسؤول أن يدلَّ السائل على أمر ينفعه مما يتعلَّق بسؤاله ويرشده إلى الطريق التي ينتفع بها في دينه ودنياه؛ فإنَّ هذا من كمال نصحه وفطنته وحسن إرشاده؛ فإنَّ يوسف عليه السلام لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك، بل دلَّهم - مع ذلك - على ما يصنعون في تلك السنين المخصبات من كثرة الزرع وكثرة جبايته.

ومنها: أنه لا يُلام الإنسان على السعي في دفع التُّهمة عن نفسه وطلب البراءة لها، بل يُحمَد على ذلك؛ كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن حتى تتبيَّن لهم براءته بحال النسوة اللاتي قطعن أيديهنَّ.

ومنها: فضيلة العلم؛ علم الأحكام والشرع، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم التدبير والتربية، وأنه أفضل من الصورة الظاهرة، ولو بلغت في الحسن جمال يوسف؛ فإنَّ يوسف بسبب جماله حصلت له تلك المحنة والسجن، وبسبب علمه حصل له العزُّ والرِّفعة والتمكين في الأرض؛ فإنَّ كلَّ خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته.

ومنها: أنَّ علم التعبير من العلوم الشرعيَّة، وأنَّه يثاب الإنسان على تعلُّمه وتعليمه، وأنَّ تعبير الرؤيا داخل في الفتوى؛ لقوله للفتيين: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، وقال الملك: ﴿أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾، وقال الفتى ليوسف: ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ...﴾ الآيات؛ فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم.

ومنها: أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عمَّا في نفسه من صفات الكمال من علم أو عمل إذا كان في ذلك مصلحة، ولم يقصد به العبد الرياء، وسَلِمَ من الكذب؛ لقول يوسف: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

وكذلك لا تُدَمُّ الولاية إذا كان المتولِّي فيها يقوم بما يقدرُ عليه من حقوق الله وحقوق عباده، وأنَّه لا بأس بطلبها إذا كان أعظم كفاءة من غيره، وإنَّما الذي يُدَمُّ إذا لم يكن فيه كفاية، أو كان موجوداً غيره مثله أو أعلى منه، أو لم يُرَدَّ بها إقامة أمر الله؛ فهذه الأمور يُنهى عن طلبها والتعرُّض لها.

ومنها: أن الله واسع الجود والكرم، يجودُ على عبده بخير الدنيا والآخرة، وأنَّ خير الآخرة له سببان: الإيمان، والتقوى، وأنه خيرٌ من ثواب الدنيا وملكها، وأنَّ العبد ينبغي له أن يدعو نفسه، ويشوقها لثواب الله، ولا يدعها تحزن إذا رأت أهل الدنيا ولذاتها وهي غير قادرة عليها، بل يسليها بثواب الله الأخرويِّ وفضله العظيم؛

لقوله تعالى: ﴿وَلَا جُرْ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

ومنها: أَنَّ جباية الأرزاق إذا أريدَ بها التوسعة على الناس من غير ضررٍ يلحقهم؛ لا بأس بها؛ لأنَّ يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة في السنين المخصبات^(١) للاستعداد للسنين المجعبة، وأنَّ هذا غير مناقضٍ للتوكل على الله، بل يتوكل العبد على الله، ويعمل بالأسباب التي تنفعه في دينه ودنياه.

ومنها: حسن تدبير يوسف لما تولَّى خزائن الأرض حتى كَثُرَتْ عندهم الغلات جدًّا، حتى صار أهل الأقطار يقصدون مصر لطلب الميرة منها؛ لعلمهم بوفورها فيها، وحتى أنه كان لا يَكِيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصَّة، أو أقلَّ لا يزيد كلَّ قادم على كيل بعيرٍ وحمله.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين، وإكرام الضيف؛ لقول يوسف لإخوته: ﴿أَلَا تَرَوُنَّ أَنِّي أُوفِي الْكِيلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾.

ومنها: أنَّ سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع ولا محرَّم؛ فإنَّ يعقوب قال لأولاده بعدما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عالجوه أشدَّ المعالجة ثم قال لهم بعد ما أتوه وزعموا أن الذئب أكله: ﴿بَلِ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، وقال لهم في الأخ الآخر: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾، ثم لما احتبسه يوسف عنده، وجاء إخوته لأبيهم؛ قال لهم: ﴿بَلِ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾؛ فهم في الأخيرة وإن لم يكونوا مفرطين؛ فقد جرى منهم ما أوجب لأبيهم أن قال ما قال من غير إثم عليه ولا حرج.

ومنها: أن استعمال الأسباب الدافعة للعين وغيرها^(٢) من المكاره أو الرافعة له بعد نزولها غير ممنوع، بل جائز، وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء وقدر؛ فإنَّ الأسباب أيضاً من القضاء والقدر؛ لأمر يعقوب؛ حيث قال لبنيه: ﴿يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾.

ومنها: جواز استعمال المكاييد التي يُتَوَصَّلُ بها إلى الحقوق، وأنَّ العلم بالطُّرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يُحمد عليه العبد، وإنَّما الممنوع التحيل على إسقاط واجبٍ أو فعلٍ محرم.

ومنها: أنه ينبغي لمن أراد أن يوهِّم غيره بأمرٍ لا يحبُّ أن يطلع عليه أن يستعمل

(٢) في (ب): «أو غيرها».

(١) في (ب): «المخصبة».

المعاريض القوليَّة والفعليَّة المانعة له من الكذب؛ كما فعل يوسف حيث ألقى الصُّوع في رحل أخيه، ثم استخرجها منه موهماً أنَّه سارق، وليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته، وقال بعد ذلك: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾، ولم يقل: مَنْ سَرَقَ مَتَاعَنَا. وكذلك لم يقل: إنا وجدنا متاعنا عنده؛ بل أتى بكلام عامٍ يَصْلُحُ له ولغيره، وليس في ذلك محذور، وإنَّما فيه إيهامٌ أنَّه سارق؛ ليحصل المقصود الحاضر، وأنه يبقى [عند] أخيه، وقد زال عن الأخ هذا الإيهام بعدما تبَيَّنَ الحال.

ومنها: أنَّه لا يجوز للإنسان أن يشهدَ إلَّا بما عَلِمَهُ وتحقَّقه [إما]^(١) بمشاهدة أو خبر من يثق به، وتطمئنُّ إليه النفس؛ لقولهم: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا﴾.

ومنها: هذه المحنة العظيمة التي امتحنَ الله بها نبيَّه وصفيَّه يعقوب عليه السلام؛ حيث قضى بالتفريق بينه وبين ابنه يوسف الذي لا يقدر على فراقه ساعةً واحدةً ويحزنه ذلك أشدَّ الحزن، فحصل التفريق بينه وبينه مدةً طويلة لا تقصر عن ثلاثين^(٢) سنة، ويعقوب لم يفارق الحزنَ قلبه في هذه المدة، ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، ثم ازداد به الأمر شدةً حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثاني شقيق يوسف، هذا وهو صابرٌ لأمر الله محتسبٌ الأجر من الله قد وعدَ من نفسه الصبر الجميل، ولا شكَّ أنه وفي بما وعد به، ولا ينافي ذلك قوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾؛ فإنَّ الشكوى إلى الله لا تُنافي الصبر، وإنَّما الذي ينفيه الشكوى إلى المخلوقين.

ومنها: أنَّ الفرج مع الكرب، وأنَّ مع العسر يسراً؛ فإنَّه لما طال الحزن على يعقوب واشتدَّ به إلى أنهى ما يكون، ثم حصل الاضطراب لآل يعقوب ومسَّهم الضرُّ؛ أذن الله حينئذٍ بالفرج، فحصل التلاقي في أشدَّ الأوقات إليه حاجةً واضطراباً، فتمَّ بذلك الأجر وحصل السرورُ وعُلمَ من ذلك أنَّ الله يتلي أوليائه بالشدَّة والرِّخاء والعسر واليسر؛ ليمتحنَ صبرهم وشكرهم، ويزداد بذلك إيمانهم ويقيئهم وعِزَّانهم.

ومنها: جواز إخبار الإنسان بما يجد وما هو فيه من مرضٍ أو فقرٍ ونحوهما على

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «إلَّا» والصواب ما أثبت.

(٢) في (ب): «خمسة عشر». وصوبها الشيخ في هامش (أ) كما هو مثبت.

غير وجه التسخُّط؛ لأنَّ إخوة يوسف قالوا: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾، ولم يُنْكِرْ عليهم يوسف.

ومنها: فضيلة التقوى والصبر، وأنَّ كلَّ خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر، وأنَّ عاقبة أهلها أحسن العواقب؛ لقوله: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَقِي وَيُضَيِّرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ومنها: أنه ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة بعد شدة وفقر وسوء حال أن يعترف بنعمة الله عليه، وأن لا يزال ذاكراً حاله الأولى؛ ليحدث لذلك شكراً كلما ذكرها؛ لقول يوسف عليه السلام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾.

ومنها: لطف الله العظيم بيوسف؛ حيث نقله في تلك الأحوال، وأوصل إليه الشدائد والمحن؛ ليوصله بها إلى أعلى الغايات ورفيع الدرجات.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يتملِّق إلى الله دائماً في تثبيت إيمانه، ويُعْمِلَ الأسباب الموجبة لذلك، ويسأل الله حسنَ الخاتمة وتمام النعمة؛ لقول يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّي قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

فهذا ما يسر الله من الفوائد والعبر في هذه القصة المباركة، ولا بدَّ أن يظهر للمتدبر المتفكر غير ذلك؛ فنسأله تعالى علماً نافعاً وعملاً متقبلاً إنه جواد كريم.

تم تفسير سورة يوسف وأبيه وإخوته عليهم الصلاة والسلام.
والحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة الرعد

وهي مدنية - وقيل مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَرَّةَ تِلْكَ مَآيَنُتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾.

﴿١﴾ يخبر تعالى أنَّ هذا القرآن هو آيات الكتاب الدالة على كلِّ ما يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه، وأن الذي أنزل إلى الرسول من ربه هو الحقُّ المُبين؛ لأنَّ أخباره صدق وأوامره ونواهيه عدلٌ مؤيدة بالأدلة والبراهين القاطعة؛

فمن أقبل عليه وعلى علمه؛ كان من أهل العلم بالحق الذي يوجب لهم علمهم العمل بما أحب الله. ﴿ولكن أكثر الناس [لا يؤمنون]﴾: بهذا القرآن: إما جهلاً وإعراضاً عنه وعدم اهتمام به، وإما عناداً وظلماً؛ فلذلك أكثر الناس غير منتفعين به؛ لعدم السبب الموجب للانتفاع.

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوْاسٍ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَىٰ اللَّيْلُ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَةٌ وَجَعَلْنَا مِنْ أَغْصَانٍ زَرْعٌ وَنَحِيلُ صِنُونًا وَغَيْرَ صِنُونٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿٢﴾ يخبر تعالى عن انفراده بالخلق والتدبير والعظمة والسلطان الدال على أنه وحده المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له، فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ﴾: على عظمها واتساعها بقدرته العظيمة، ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾؛ أي: ليس لها عمَد من تحتها؛ فإنه لو كان لها عمَد؛ لرأيتُموها، ﴿ثُمَّ﴾: بعدما خلق السماوات والأرض، ﴿أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾: العظيم، الذي هو أعلى المخلوقات، استواء يليق بجلاله ويناسب كماله. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾: لمصالح العباد ومصالح مواشيهم وثمارهم. ﴿كُلٌّ﴾: من الشمس والقمر، ﴿يَجْرِي﴾: بتدبير العزيز العليم ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: بسير منتظم لا يفتران ولا يَنِينان حتى يجيء الأجل المسمى، وهو طيُّ الله هذا العالم ونقلهم إلى الدار الآخرة التي هي دار القرار؛ فعند ذلك يطوي الله السماوات ويبدلها ويغيّر الأرض ويبدلها، فتكوّر الشمس والقمر و﴿يُجْمَعُ﴾^(١) بينهما فيلقيان في النار؛ ليرى من عبدهما أنّهما غير أهل للعبادة، فيتحسّر بذلك أشدّ الحسرة، وليعلم الذين كفروا أنّهم كانوا كاذبين. وقوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾: لهذا جمع بين الخلق والأمر؛ أي: قد استوى الله العظيم على سرير الملك؛ يدبّر الأمور في العالم العلوي والسفلي، فيخلق ويرزق، ويغني ويفقر، ويرفع أقواماً ويضع آخرين، ويعزّ ويذلّ، ويخفّض ويرفع، ويقيّل العثرات،

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «تجمع».

ويفرّجُ الكربات، وينفذُ الأقدار في أوقاتها التي سبق بها علمه وجرى بها قلمه، ويرسل ملائكته الكرام لتدبير ما جعلهم على تدبيره، وينزل الكتب الإلهية على رسله، ويبين ما يحتاج إليه العباد من الشرائع والأوامر والنواهي، ويفصلها غاية التفصيل ببيانها وإيضاحها وتمييزها. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: بسبب ما أخرج لكم من الآيات الأفقية والآيات القرآنية، ﴿بلقاء ربكم توقنون﴾: فإن كثرة الأدلة وبيانها ووضوحها من أسباب حصول اليقين في جميع الأمور الإلهية، خصوصاً في العقائد الكبار؛ كالبعث والنشور والإخراج من القبور.

وأيضاً؛ فقد علم أن الله تعالى حكيم؛ لا يخلق الخلق سدى، ولا يتركهم عبثاً؛ فكما أنه أرسل رسله وأنزل كتبه لأمر العباد ونهيههم؛ فلا بد أن ينقلهم إلى دار يحلّ فيهم جزاؤه؛ فيجازي المحسنين بأحسن الجزاء، ويجازي المسيئين بإساءتهم.

﴿٣﴾ ﴿وهو الذي مدّ الأرض﴾؛ أي: خلقها للعباد ووسّعها وبارك فيها ومهّدها للعباد وأودع فيها من مصالحهم ما أودع، ﴿وجعل فيها رواسي﴾؛ أي: جبلاً عظاماً؛ لثلاً تميد بالخلق؛ فإنه لولا الجبال؛ لمادت بأهلها؛ لأنها على تيار ماء لا ثبوت لها ولا استقرار إلا بالجبال الرّواسي التي جعلها الله أوتاداً لها. ﴿و﴾ جعل فيها ﴿أنهاراً﴾ تسقي الأديمين وبهائمهم وحروثهم؛ فأخرج بها من الأشجار والزرع والثمار خيراً كثيراً، ولهذا قال: ﴿ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين﴾؛ أي: صنفين مما يحتاج إليه العباد. ﴿يُغشي الليل النهار﴾: فتظلم الآفاق، فيسكن كل حيوان إلى مأواه، ويستريحون من التعب والنصب في النهار، ثم إذا قَضَوْا مآربهم من النوم؛ غشي النهار الليل؛ فإذا هم مصبحون [منتشرون]^(١) في مصالحهم وأعمالهم في النهار، ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾. ﴿إن في ذلك لآيات﴾: على المطالب الإلهية ﴿للقوم يتفكرون﴾: فيها وينظرون فيها نظر اعتبار دالة على أن الذي خلقها ودبرها وصرّفها هو الله الذي لا إله إلا هو، ولا معبود سواه، وأنه عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم، وأنه القادر على كل شيء، الحكيم في كل شيء، المحمود على ما خلقه وأمر به، تبارك وتعالى.

﴿٤﴾ ﴿و﴾ من الآيات على كمال قدرته وبديع صنعته أن جعل ﴿في الأرض

(١) في (أ): «منتشرين». وما أثبت من (ب).

قِطَعٌ متجاورات وجناتٌ ﴿١﴾: فيها أنواع الأشجار: من الأعناب والنخل والزَّرْع، وغير ذلك، والنخيل التي بعضها ﴿صنوان﴾؛ أي: عدة أشجار في أصل واحد. ﴿وغيرُ صنوان﴾: بأن كان كل شجرة على حدها، والجميع ﴿يُسْقَى بماء واحد﴾: وأرضه واحدة. ﴿وَنُفُضِلَ بعضها على بعض في الأكل﴾: لونا وطعماً ونفعاً ولذّة؛ فهذه أرض طيبة تنبت الكلاً والعشب الكثير والأشجار والزرع، وهذه أرض تِلَاصُفُها لا تنبت كلاً ولا تمسك ماءً، وهذه تمسك الماء ولا تنبت الكلاً، وهذه تنبت [الزرع] ﴿١﴾ والأشجار ولا تنبت الكلاً، وهذه الثمرة حلوة وهذه مرّة وهذه بين ذلك؛ فهل هذا التنوع في ذاتها وطبيعتها أم ذلك تقدير العزيز الرحيم؟ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: لقوم لهم عقول تهديهم إلى ما ينفعهم وتقودهم إلى ما يرشدون ويعقلون عن الله وصاياه وأوامره ونواهيه، وأما أهل الإعراض وأهل البلادة؛ فهم في ظلماتهم يعمّهون وفي غيهم يتردّدون، لا يهتدون إلى ربهم سبيلاً ولا يعون له قِيلاً.

﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُكُمْ أَوْ ذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِيْ أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿٥﴾ يحتمل أن معنى قوله: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ﴾: من عظمة الله تعالى وكثرة أدلة التوحيد؛ فإنَّ العجب مع هذا إنكار المكذّبين وتكذيبهم بالبعث وقولهم: ﴿إِذَا كُنَّا تُرَابًا إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؛ أي: هذا بعيد في غاية الامتناع بزعمهم أنهم بعدما كانوا تراباً أن الله يُعيدهم؛ فإنَّهم من جهلهم قاسوا قدرة الخالق بقدرة المخلوق، فلما رأوا هذا ممتنعاً في قدرة المخلوق، ظنُّوا أنه ممتنع على قدرة الخالق، ونسوا أنَّ الله خلقهم أول مرّة ولم يكونوا شيئاً. ويُحتمل أنَّ معناه: وإنَّ تعجَّب من قولهم وتكذيبهم للبعث؛ فإنَّ ذلك من العجائب؛ فإنَّ الذي تُوَضِّح له الآيات ويرى منها ﴿٢﴾ الأدلة القاطعة على البعث ما لا يقبل الشكَّ والريب ثم ينكِر ذلك؛ فإنَّ قوله من العجائب، ولكن ذلك لا يُستغرب على ﴿الذين كفروا بربهم﴾: وجحدوا وحدانيّته، وهي أظهرُ الأشياء وأجلاها. ﴿وأولئك الأغلال﴾: المانعة لهم من الهدى ﴿في أعناقهم﴾: حيث دُعُوا إلى الإيمان فلم يؤمنوا، وعُرِضَ عليهم الهدى فلم يهتدوا،

(١) في (أ): «الزرع». وما أثبت من (ب).

(٢) في (ب): «من».

فَقَلَّبْتَ قُلُوبَهُمْ وَأَفْثَدْتَهُمْ عِقْبَةَ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ. ﴿وَأَوَّلُكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: لا يخرجون منها أبداً.

﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالسِّنَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلُتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾.

﴿٦﴾ يخبر تعالى عن جهل المكذبين لرسوله، المشركين به، الذين وُعدوا فلم يتعظوا، وأقيمت عليهم الأدلة فلم ينقادوا لها، بل جاهرُوا بالإنكار، واستدلُّوا بحُجْمِ الله الواحد القهار عنهم وعدم معاجلتهم بذنوبهم أنهم على حق، وجعلوا يستعجلون الرسول بالعذاب، ويقول قائلهم: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾! ﴿وَوَالْحَالُ أَنَّهُ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلُتُ﴾؛ أي: وقائع الله وأيامه في الأمم المكذبين، أفلا يتفكرون في حالهم ويتركون جهلهم؟! ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾؛ أي: لا يزال خيره إليهم وإحسانه وبره وعفوه نازلاً إلى العباد، وهم لا يزال شُرَكَهُمْ^(١) وعصيانهم إليه صاعداً؛ يعصونه فيدعوهم إلى بابه، ويجرمون فلا يحرمهم خيره وإحسانه؛ فَإِنْ تابوا إليه؛ فهو حبيبهم؛ لَأَنَّهُ يَحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيَحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ، وَإِنْ لَمْ يَتُوبُوا؛ فهو طيبهم؛ يبتليهم بالمصائب ليظهرهم من المعائب: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: على من لم يزل مصراً على الذنوب، قد أبى التوبة والاستغفار والالتجاء إلى العزيز الغفار؛ فليحذر العباد عقوباته بأهل الجرائم؛ فَإِنْ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنْ تَأْتِيهِمْ آيَةٌ فَهُمْ يَقُولُونَ﴾.

﴿٧﴾ أي: ويقترح الكفار عليك من الآيات التي يُعَيِّنُونَهَا ويقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾، ويجعلون هذا القول منهم عُذْراً لهم في عدم الإجابة إلى الرسول، والحال أَنَّهُ مُنْذَرٌ، ليس له من الأمر شيء، والله هو الذي ينزل الآيات، وقد أَيْدَهُ بِالْأَدَلَّةِ الْبَيِّنَاتِ التي لا تخفى على أولي الألباب، وبها يهتدي من قصده الحق، وأما الكافر الذي مِنْ ظَلَمِهِ وَجَهْلِهِ يقترح على الله الآيات؛ فهذا اقتراح منه

(١) في (ب): «وهم لا يزال شرهم».

باطل وكذب وافتراء^(١)؛ فإنه لو جاءته أي آية كانت؛ لم يؤمن ولم ينقد؛ لأنه لم يمتنع من الإيمان لعدم ما يدلُّه على صحته، وإنما ذلك لهوى نفسه وأتباع شهوته. ﴿ولكل قوم هادٍ﴾؛ أي: داع يدعوهم إلى الهدى من الرسل وأتباعهم، ومعهم من الأدلة والبراهين ما يدلُّ على صحّة ما معهم من الهدى.

﴿اللَّهُ يَمْلِكُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَمْ تُعْقِبَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١١﴾﴾.

﴿٨ - ٩﴾ يخبر تعالى بعموم علمه وسعة اطلاعه وإحاطته بكل شيء، فقال: ﴿اللَّهُ يَمْلِكُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾: من بني آدم وغيرهم، ﴿وما تغيض الأرحام﴾؛ أي: تنقص مما فيها، إما أن يهلك الحمل أو يتضاءل أو يضمحل، ﴿وما تزداد﴾: الأرحام وتكبر الأجنة التي فيها. ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾: لا يتقدم عليه ولا يتأخر ولا يزيد ولا ينقص إلا بما تقتضيه حكمته وعلمه؛ فإنه ﴿عالم الغيب والشهادة الكبير﴾: في ذاته وأسمائه وصفاته، ﴿المتعال﴾: على جميع خلقه بذاته وقدرته وقهره.

﴿١٠﴾ ﴿سواء منكم﴾: في علمه وسمعه وبصره، ﴿من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل﴾؛ أي: مستقر بمكان خفي فيه، ﴿وسارب بالنهار﴾؛ أي: داخل سربه في النهار، والسرب هو ما يستخفي^(٢) فيه الإنسان: إما جوف بيته، أو غار، أو مغارة، أو نحو ذلك.

﴿١١﴾ ﴿له﴾؛ أي: للإنسان ﴿معقبات﴾: من الملائكة يتعاقبون في الليل والنهار، ﴿من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾؛ أي: يحفظون بدنه وروحه من كل من يريد به سوء، ويحفظون عليه أعماله، وهم ملازمون له دائماً؛ فكما أن علم الله محيط به؛ فالله قد أرسل هؤلاء الحفظة على العباد بحيث لا تخفى أحوالهم ولا أعمالهم ولا ينسى منها شيء. ﴿إن الله لا يغير ما بقوم﴾: من

(١) في (ب): «وافتراء».

(٢) في (ب): «ما يخفي».

النعمة والإحسان وزَعِدِ العيش، ﴿حَتَّى يَغْيُرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾: بأن ينتقلوا من الإيمان إلى الكفر، ومن الطاعة إلى المعصية، أو من شكر نعم الله إلى البطر بها، فيسلُبُهم الله عند ذلك إياها، وكذلك إذا غير العباد ما بأنفسهم من المعصية، فانتقلوا إلى طاعة الله؛ غَيَّرَ الله عليهم ما كانوا فيه من الشقاء إلى الخير والسرور والغبطة والرحمة. ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾؛ أي: عذاباً وشدة وأمرأ يكرهونه؛ فَإِنْ إِرَادَتِهِ لَا بَدَّ أَنْ تَنْفِذَ فِيهِمْ، فإنه ﴿لَا مَرَدَّ لَهُ﴾، ولا أحد يمنعهم منه، ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾: يتولَّى أمورهم، فيجلب لهم المحبوب، ويدفع عنهم المكروه. فَلْيَحْذَرُوا مِنَ الْإِقَامَةِ عَلَى مَا يَكْرَهُ اللَّهُ؛ خشية أن يحلَّ بهم من العقاب ما لا يُرَدُّ عن القوم المجرمين.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۝ وَيَسْخِجُ الرُّعْدَ بِحَمْدِهِ ۝ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ۝﴾ (١٢).

﴿١٢﴾ يقول تعالى: ﴿هو الذي يريكم البرق خَوْفًا وَطَمَعًا﴾؛ أي: يُخَافُ منه الصواعق والهدم وأنواع الضرر على بعض الثمار ونحوها، ويُطْمَعُ في خيره ونفعه، ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾: بالمطر الغزير الذي به نفعُ العباد والبلاد.

﴿١٣﴾ ﴿وَيَسْخِجُ الرُّعْدَ بِحَمْدِهِ﴾: وهو الصوت الذي يُسْمَعُ من السحاب المزعج للعباد؛ فهو خاضعُ لربه، مسبِّح بحمده، ﴿و﴾ تسبِّح ﴿المَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾؛ أي: خُشْعاً لربهم خائفين من سطوته، ﴿ويرسل الصواعق﴾: وهي هذه النار التي تخرج من السحاب. ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾: من عباده بحسب ما شاء وأراد. ﴿وهو شديد المحال﴾؛ أي: شديد الحَوْل والقُوَّة؛ فلا يريد شيئاً إلَّا فَعَلَهُ، ولا يتعاصى عليه شيء، ولا يفوته هاربٌ. فإذا كان هو وحده الذي يسوق للعباد الأمطار والسحب التي فيها مادة أرزاقهم، وهو الذي يدبِّر الأمور وتخضع له المخلوقات العظام التي يُخَافُ منها وتزعجُ العباد، وهو شديد القوة؛ فهو الذي يستحقُّ أن يُعْبَدَ وحده لا شريك له، ولهذا قال:

﴿لَمْ دَعُوهُ الْحَقُّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفْتِهِ إِلَى آثَمَاءٍ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِلَافِقَةٍ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۝﴾ (١٤).

﴿١٤﴾ أي: لله وحده ﴿دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾: وهي عبادته وحده لا شريك له،

وإخلاص دعاء العبادة ودعاء المسألة له تعالى؛ أي: هو الذي ينبغي أن يُصرف له الدعاء والخوف والرجاء والحبُّ والرغبة والرغبة والإنابة؛ لأنَّ ألوهيته هي الحقُّ، وألوهية غيره باطلة. ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾: من الأوثان والأنداد التي جعلوها شركاء لله، ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ﴾؛ أي: لمن يَدْعُوها ويعْبُدُها بشيء قليل ولا كثير، لا من أمور الدنيا ولا من أمور الآخرة. ﴿إِلَّا كِبَاسُطٌ كُفْيَهُ إِلَى الْمَاءِ﴾: الذي لا تناله كفاه لبعده؛ ﴿لِيَبْلُغَ﴾: ببسط كُفْيهِ إلى الماء ﴿فَاهٍ﴾؛ فإنه عطشان، ومن شدة عطشه يتناول بيده ويبسطها إلى الماء الممتنع وصولها إليه؛ فلا يصلُ إليه؛ كذلك الكفار الذين يدعون معه آلهة لا يستجيبون لهم بشيء ولا ينفعونهم في أشدِّ الأوقات إليهم حاجة؛ لأنَّهم فقراء؛ كما أنَّ من دعوهم فقراء ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾، ﴿وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾: لبطلان ما يدعون من دون الله، فبطلت عبادتهم ودعاؤهم؛ لأنَّ الوسيلة تَبْطُلُ ببطلان غايتها، ولما كان الله تعالى هو الملك الحق المبين؛ كانت عبادته حقًا متَّصلة النفع بصاحبها في الدنيا والآخرة.

وتشبيه دعاء الكافرين لغير الله بالذي يبسط كُفْيَهُ إلى الماء ليلبغ فاه من أحسن الأمثلة؛ فإنَّ ذلك تشبيهٌ بأمرٍ مُحال؛ فكما أن هذا محالٌ؛ فالمشبه به محالٌ، والتعليق على المحال من أبلغ ما يكون في نفي الشيء؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا لَا تُفْتُحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا لَّهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۖ﴾ ﴿١٥﴾.

﴿١٥﴾ أي: جميع ما احتوت عليه السماوات والأرض كلها خاضعة لربها، تسجد له ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾: فالطَّوْعُ لمن يأتي بالسجود والخضوع اختياراً كالْمُؤْمِنِينَ، والكَرْهُ لمن يستكبر عن عبادة ربه، وحاله وفطرته تكذبه في ذلك. ﴿وِظُلُمًا لَّهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾؛ أي: ويسجد له ظلال المخلوقات أَوَّلَ النهار وآخره، وسجود كل شيء بحسب حاله؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾؛ فإذا كانت المخلوقات كلها تسجد لربها طوعاً وكرهاً؛ كان هو الإله حقاً، المعبود المحمود حقاً، وإلهية غيره باطلة، ولهذا ذكر بطلانها وبرهن عليه بقوله:

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَرُ ﴿١٦﴾ .

﴿١٦﴾ أي: قل لهؤلاء المشركين به أوثاناً وأنداداً؛ يحبونها كما يحبون الله، ويبدلون لها أنواع التقربات والعبادات: أفتأثت عقولكم حتى اتخذتم من دونه أولياء تتولونهم بالعبادة وليسوا بأهل لذلك؛ فإنهم ﴿لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا﴾، وتتركون ولاية من هو كامل الأسماء والصفات، المالك للأحياء والأموات، الذي بيده الخلق والتدبير والنفع والضر؛ فما تستوي عبادة الله وحده وعبادة المشركين به، كما لا يستوي الأعمى والبصير، وكما لا ﴿تستوي الظلمات والنور﴾: فإن كان عندهم شك واشتباة وجعلوا له شركاء، زعموا أنهم خلقوا كخلقه، وفعلوا كفعله؛ فأزل عنهم هذا الاشتباه واللبس بالبرهان الدال على توحيده الإله بالوحدانية، فقل لهم: الله خالق كل شيء؛ فإنه من المحال أن يخلق شيء من الأشياء نفسه، ومن المحال أيضاً أن يوجد من دون خالقي، فتعين أن لها إلهاً خالقاً لا شريك له في خلقه؛ لأنه الواحد القهار؛ فإنه لا توجد الوحدة والقهر إلا لله وحده؛ فالمخلوقات كل مخلوق فوقه مخلوق يقهره، ثم فوق ذلك القاهر قاهر أعلى منه، حتى ينتهي القهر للواحد القهار؛ فالقهر والتوحيد متلازمان متعينان لله وحده، فتبين بالدليل العقلي القاهر أن ما يدعى من دون الله ليس له شيء من خلق المخلوقات، وبذلك كانت عبادته باطلة.

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ النُّعْمِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَكُونُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ .

﴿١٧﴾ شبه تعالى الهدى الذي أنزل^(١) على رسوله لحياة القلوب والأرواح بالماء الذي أنزله لحياة الأشباح. وشبه ما في الهدى من النفع العام الكثير الذي يضطر إليه العباد بما في المطر من النفع العام الضروري. وشبه القلوب الحاملة للهدى وتفاوتها بالأودية التي تسيل فيها السيول؛ فوادي كبير يسع ماء كثيراً كقلب كبير يسع علماً كثيراً، ووادي صغير يأخذ ماءً قليلاً كقلب صغير يسع علماً

قليلاً... وهكذا. وشبه ما يكون في القلوب من الشهوات والشبهات عند وصول الحق إليها بالزبد الذي يعلو الماء ويعلو ما يوقد عليه النار من الحلية التي يُراد تخليصها وسبكها، وأنها لا تزال فوق الماء طافيةً مكدرةً له حتى تذهب وتضمحل، ويبقى ما ينفع الناس من الماء الصافي والحلية الخالصة، كذلك الشبهات والشهوات لا يزال القلب يكرها ويجاهدها بالبراهين الصادقة والإرادات الجازمة حتى تذهب وتضمحل ويبقى القلب خالصاً صافياً ليس فيه إلا ما ينفع الناس من العلم بالحق وإيثاره والرغبة فيه؛ فالباطل يذهب ويُمحَقُّ الحق؛ ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، وقال هنا: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾: ليتضح الحق من الباطل والهدى من الضلال.

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْخَيْرُ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِمْ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ إِلَهَادٌ﴾ (١٨).

﴿١٨﴾ لما بين تعالى الحق من الباطل؛ ذَكَرَ أَنَّ النَّاسَ عَلَى قَسَمَيْنِ: مستجيب لربه فذكر ثوابه، وغير مستجيب فذكر عقابه، فقال: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾؛ أي: انقادت قلوبهم للعلم والإيمان، وجوارحهم للأمر والنهي، وصاروا موافقين لرَبِّهم فيما يريد منهم؛ فلهم ﴿الحسنى﴾؛ أي: الحالة الحسنة والثواب الحسن؛ فلهم من الصفات أجلُّها، ومن المناقب أفضلُّها، ومن الثواب العاجل والآجل ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ﴿والذين لم يستجيبوا له﴾: بعدما ضَرَبَ لَهُمُ الْأَمْثَالَ وَبَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقَّ لَهُمُ الْحَالَةُ غَيْرُ الْحَسَنَةِ. ﴿فَإِنْ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾: من ذهب وفضة وغيرهما، ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾: من عذاب يوم القيامة؛ ما تُقْبَلُ منهم. وأتى لهم ذلك؟! ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾: وهو الحساب الذي يأتي على كل ما أسلفوه من عمل سيئ وما ضيعوه من حقوق الله وحقوق عباده، قد كُتِبَ ذَلِكَ وَسُطِرَ عَلَيْهِمْ: ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَتَنَا مَا لِي هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾. ﴿وَبَعْدَ هَذَا الْحِسَابِ السَّيِّئِ﴾، ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾: الجامعة لكل عذاب من الجوع الشديد والعطش الوجيع والنار الحامية والزقوم والمهزير والضريع، وجميع ما ذكره الله من أصناف العذاب. ﴿وبئس المهاد﴾؛ أي: المَقَرُّ والمسكن مسكنهم.

﴿أَفَمَنْ يَقُولُ إِنَّمَا أَنْزَلَ إِلَهُكَ مِنَ الْبُحْرِ كَلِمًا يُدْكَرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابُ﴾ (١٩) الَّذِينَ يُؤْتُونَ

يَعْهَدُ اللَّهُ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ .

﴿١٩ - ٢٠﴾ يقول تعالى: مفرقاً بين أهل العلم والعمل وبين ضدّهم: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾: ففهم ذلك وعمل به. ﴿كَمْ مَنْ هُوَ أَعْمَى﴾: لا يعلم الحق ولا يعمل به؛ فبينهما من الفرق كما بين السماء والأرض؛ فحقيق بالعبد أن يتذكّر ويتفكّر، أي الفريقين أحسن حالاً وخير مآلاً، فيؤثر طريقها، ويسلك خلف فريقها، ولكن ما كل أحد يتذكّر ما ينفعه ويضره. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾؛ أي: أولو العقول الرزينة والآراء الكاملة، الذين هم لب العالم وصفوة بني آدم. فإن سألت عن وصفهم؛ فلا تجد أحسن من وصف الله لهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بَعْدَ اللَّهِ﴾: الذي عهده إليهم والذي عاهدهم عليه من القيام بحقوقه كاملة موفرة؛ فالوفاء بها توفيتها حقها من التتميم لها والنصح فيها، ومن تمام الوفاء بها أنهم ﴿لَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾؛ أي: العهد الذي عاهدوا الله عليه^(١)، فدخل في ذلك جميع الموائيق والعهود والأيمان والتذورات التي يعقدها العباد، فلا يكون العبد من أولي الألباب الذين لهم الثواب العظيم إلا بأدائها كاملة وعدم نقضها وبخسها.

﴿٢١﴾ ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾: ولهذا عام في كل ما أمر الله بوصله من الإيمان به وبرسوله ومحبته ومحبته رسوله والانقياد لعبادته وحده لا شريك له ولطاعة رسوله، ويصلون آباءهم وأمهاتهم ببرهم بالقول والفعل وعدم عقوبهم، ويصلون الأقارب والأرحام بالإحسان إليهم قولاً وفعلًا، ويصلون ما بينهم وبين الأزواج والأصحاب والمماليك بأداء حقهم كاملاً موقراً من الحقوق الدينيّة والدنيويّة. والسبب الذي يجعل العبد واصلاً ما أمر الله به أن يوصل خشية الله وخوف يوم الحساب، ولهذا قال: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾؛ أي: يخافونه، فيمنعهم خوفهم منه ومن القدوم عليه يوم الحساب أن يتجرؤوا على معاصي الله أو يقصروا

(١) في (ب): «عاهدوا عليه الله».

في شيء ممّا أمر الله به؛ خوفاً من العقاب ورجاءً للثواب.

﴿٢٢﴾ ﴿والذين صبروا﴾: على المأمورات بالامتنال، وعن المنهيات بالانكفاف عنها والبعد منها، وعلى أقدار الله المؤلمة بعدم تسخّطها، ولكن بشرط أن يكون ذلك الصبر ﴿ابتغاء وجه ربهم﴾: لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة؛ فإنّ هذا الصبر النافع، الذي يخبس به العبد نفسه طلباً لمرضاة ربه ورجاءً للقرب منه والحظوة بشوابه، وهو الصبر الذي من خصائص أهل الإيمان، وأما الصبر المشترك الذي غايته التجلّد ومنتهاه الفخر؛ فهذا يصدر من البرّ والفاجر والمؤمن والكافر؛ فليس هو الممدوح على الحقيقة. ﴿وأقاموا الصّلاة﴾: بأركانها وشروطها ومكملاتها ظاهراً وباطناً. ﴿وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية﴾: دخل في ذلك النفقات الواجبة كالزكوات والكفارات والنفقات^(١) المستحبة، وأنهم ينفقون حيث دعت الحاجة إلى النفقة سراً وعلانية. ﴿ويدروون بالحسنّة السيئة﴾؛ أي: من أساء إليهم بقول أو فعل؛ لم يقابلوه بفعله، بل قابلوه بالإحسان إليه، فيعطون من حرّمهم، ويعفون عمّن ظلّمهم، ويصلون من قطعهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم، وإذا كانوا يقابلون المسيء بالإحسان؛ فما ظنك بغير المسيء. ﴿أولئك﴾: الذين وُصِفَتْ صفاتهم الجليلة ومناقبهم الجميلة؛ ﴿لهم عُقبى الدار﴾.

﴿٢٣ - ٢٤﴾ فسرها بقوله: ﴿جنات عدن﴾؛ أي: إقامة لا يزولون عنها ولا ييغون عنها جِوْلاً؛ لأنّهم لا يرون فوقها غاية؛ لما اشتملت عليه من النعيم والسرور، الذي تنتهي إليه المطالب والغايات، ومن تمام نعيمهم وقرة أعينهم أنّهم ﴿يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذريّاتهم﴾: من الذكور والإناث وأزواجهم؛ أي: الزوج أو الزوجة، وكذلك النظراء والأشباه والأصحاب والأحباب؛ فإنّهم من أزواجهم وذريّاتهم. ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كلّ باب﴾: يهنونهم بالسلامة وكرامة الله لهم، ويقولون: ﴿سلام عليكم﴾؛ أي: حلّت عليكم السلامة والتحيّة من الله وحصلت لكم، وذلك متضمّن لزوال كلّ مكروه ومستلزم لحصول كلّ محبوب ﴿بما صبرتم﴾؛ أي: صبركم هو الذي أوصلكم إلى هذه المنازل العالية والجنات الغالية. ﴿فنعم عُقبى الدار﴾: فحقيق بمن نصح نفسه، وكان لها عنده قيمة أن يجاهدّها لعلّها تأخذ من أوصاف أولي الألباب بنصيب،

(١) في النسختين: «والنفقات» مكرّرة مرتين.

ولعلها تحظى بهذه الدار التي هي مُنِية النفوس وسرور الأرواح الجامعة لجميع اللذات والأفراح؛ فلمثلها فليعمل العاملون، وفيها فليتنافس المتنافسون.

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۝٢٥﴾.

﴿٢٥﴾ لما ذكر حال أهل الجنة؛ ذكر أن أهل النار بعكس ما وصفهم به، فقال عنهم: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾؛ أي: من بعدما أكد عليهم على أيدي رسله وغلظ عليهم، فلم يقابلوه بالانقياد والتسليم، بل قابلوه بالإعراض والنقض. ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾: فلم يصلوا ما بينهم وبين ربهم بالإيمان والعمل الصالح، ولا وصلوا الأرحام، ولا أدوا الحقوق، بل أفسدوا في الأرض بالكفر والمعاصي والصد عن سبيل الله وابتغائها عوجاً. ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾؛ أي: البعد والذم من الله وملائكته وعباده المؤمنين. ﴿ولهم سوء الدار﴾: وهي الجحيم بما فيها من العذاب الأليم.

﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ۝٢٦﴾.

﴿٢٦﴾ أي: هو وحده يوسع الرزق ويبسطه على من يشاء ويقدره ويضيقه على من يشاء. ﴿وفرحوا﴾؛ أي: الكفار ﴿بالحياة الدنيا﴾: فرحاً أوجب لهم أن يطمثوا بها ويغفلوا عن الآخرة، وذلك لنقصان عقولهم. ﴿وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾؛ أي: شيء حقير يتمتع به قليلاً ويفارق أهله وأصحابه ويُعقَبهم وِيلاً طويلاً.

﴿وَقُولِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّي ۚ قُلْ إِنَّمَا اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ۝٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسَنَ مَثَابٌ ۝٢٩﴾.

﴿٢٧﴾ يخبر تعالى أذ الذين كفروا بآيات الله يتعنتون على رسول الله ويقترحون ويقولون: ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾: وبزعمهم أنها لو جاءت لآمنوا، فأجابهم الله بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾؛ أي: طلب رضوانه، فليست الهداية والضلال بأيديهم حتى يجعلوا ذلك متوقفاً على الآيات، ومع ذلك؛ فهم كاذبون ف﴿لو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحسبنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون﴾.

ولا يلزمُ أن يأتي الرسولُ بالآية التي يعيّنونها ويقترحونها، بل إذا جاءهم بآية تبيّنُ ما جاء به من الحقِّ؛ كفى ذلك وحصل المقصودُ وكان أنفعَ لهم من طلبهم الآيات التي يعيّنونها؛ فإنّها لو جاءتهم طُبّقَ ما اقترحوا، فلم يؤمنوا بها؛ لعاجلهم العذاب.

﴿٢٨﴾ ثم ذكر تعالى علامة المؤمنين، فقال: ﴿الذين آمنوا وتطمئنُّ قلوبهم بذكر الله﴾؛ أي: يزول قلقها واضطرابها، وتحضرها أفراحها ولذاتها. ﴿ألا بذكر الله تطمئنُّ القلوب﴾؛ أي: حقيق بها وحرّي أن لا تطمئنُّ لشيء سوى ذكره؛ فإنّه لا شيء ألدُّ للقلوب ولا أشهى ولا أحلى من محبة خالقها والأنس به ومعرفته، وعلى قدر معرفتها بالله ومحبتها له يكون ذكّرها له، هذا على القول بأنّ ذكر الله ذكّر العبد لربه من تسبيح وتهليل وتكبير وغير ذلك، وقيل: إن المراد بذكر الله كتابه الذي أنزله ذكرى للمؤمنين؛ فعلى هذا معنى طمأنينة القلب بذكر الله أنها حين تعرّف معاني القرآن وأحكامه تطمئنُّ لها؛ فإنّها تدل على الحق المبين المؤيد بالأدلة والبراهين، وبذلك تطمئنُّ القلوب؛ فإنّها لا تطمئنُّ إلا باليقين والعلم، وذلك في كتاب الله مضمونٌ على أتم الوجوه وأكملها، وأما ما سواه من الكتب التي لا ترجع إليه؛ فلا تطمئنُّ بها، بل لا تزال قلقاً من تعارض الأدلة وتضاد الأحكام، ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾، وهذا إنما يعرفه من خبّر كتاب الله، وتدبّره، وتدبّر غيره من أنواع العلوم؛ فإنّه يجد بينها وبينه فرقاً عظيماً.

﴿٢٩﴾ ثم قال تعالى: ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾؛ أي: آمنوا بقلوبهم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وصدّقوا هذا الإيمان بالأعمال الصالحة؛ أعمال القلوب كمحبة الله وخشيته ورجائه، وأعمال الجوارح كالصلاة ونحوها. ﴿طوبى لهم وحسن مآب﴾؛ أي: لهم حالة طيبة ومرجع حسن، وذلك بما ينالون من رضوان الله وكرامته في الدنيا والآخرة، وإنّ لهم كمال الراحة وتمام الطمأنينة، ومن جملة ذلك شجرة طوبى التي في الجنة، التي يسير الراكب في ظلّها مائة عام ما يقطعها؛ كما وردت بها الأحاديث الصحيحة^(١).

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَلْتَلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ

(١) رواية: أن طوبى شجرة في الجنة مسيرة مائة عام عند الإمام أحمد (٧١/٣)، وأبي يعلى (١٣٧٤)، وابن حبان (٧٤١٣)، وقد جاء الحديث عند البخاري (٤٨٨١)، ومسلم (٢٨٢٦) وغيرهما دون ذكر اسم الشجرة (طوبى)، وانظر «الصحيحة» (١٩٨٥). والله أعلم.

يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ .

﴿٣٠﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿كذلك أرسلناك﴾: إلى قومك تدعوهم إلى الهدى، ﴿قد خلّت من قبلها أمم﴾: أرسلنا فيهم رسلنا، فلست ببدع من الرسل حتى يستنكروا رسالتك، ولست تقول من تلقاء نفسك، بل تتلو عليهم آيات الله، التي أوحاها الله إليك، التي تطهر القلوب وتركي النفوس، والحال أن قومك يكفرون بالرحمن، فلم يقابلوا رحمته وإحسانه - التي أعظمها أن أرسلناك إليهم رسولاً وأنزلنا عليك كتاباً - بالقبول والشكر، بل قابلوها بالإنكار والرد؛ أفلا يعتبرون بمن خلا من قبلهم من القرون المكذبة كيف أخذهم الله بذنوبهم؟ ﴿قل هو ربّي لا إله إلا هو﴾: وهذا متضمن [للتوحيدين]: توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية؛ فهو ربي الذي ربّاني بنعمه منذ أوجدني، وهو إلهي الذي ﴿عليه توكلت﴾ في جميع أموري وإليه أنيب^(١)؛ أي: أرجع في جميع عباداتي وفي حاجاتي.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ بَل لَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِئِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ .

﴿٣١﴾ يقول تعالى مبيناً فضل القرآن الكريم على سائر الكتب المنزلة: ﴿ولو أن قرآنًا﴾: من الكتب الإلهية، ﴿سُيِّرَتْ به الجبال﴾: عن أماكنها، و﴿قُطِعَتْ به الأرض﴾: جناناً وأنهاراً، و﴿كُلِمٌ به الموتى﴾: لكان هذا القرآن. ﴿بل لله الأمر جميعاً﴾: فيأتي بالآيات التي تقتضيها حكمته؛ فما بال المكذبين يقترحون من الآيات ما يقترحون؟! فهل لهم ولغيرهم من الأمر شيء؟! ﴿أفلم يئأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدي الناس جميعاً﴾: فليعلموا أنه قادرٌ على هدايتهم جميعاً، ولكنه لا يشاء ذلك، بل يهدي من يشاء ويضل من يشاء. ﴿ولا يزال الذين كفروا﴾: على كفرهم لا يعتبرون ولا يتعظون، والله تعالى يوالي عليهم القوارع التي تصيبهم في ديارهم أو تحل قريباً منها وهم مصرّون على كفرهم. ﴿حتى يأتي وعد الله﴾: الذي وعدهم به لنزول العذاب المتصل الذي لا يمكن رفعه. ﴿إن الله

(١) كذا في النسختين وتمام الآية: ﴿وإليه متاب﴾.

لا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ: وهذا تهديدٌ لهم وتخويفٌ من نزول ما وعدهم الله به على كفرهم وعنادهم وظلمهم.

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بُرْسُلِي مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۖ﴾ (٣٢)

﴿٣٢﴾ يقول تعالى لرسوله مثبِّتاً له ومسلماً: ﴿ولقد استهزىء برسول من قبلك﴾: فلست أول رسول كُذِّب وأُوذِيَ. ﴿فأملتُ للذين كفروا﴾: برسلمهم؛ أي: أمهلتهم مدة حتى ظنوا أنهم غيرُ معذبين، ﴿ثم أخذتهم﴾: بأنواع العذاب. ﴿فكيف كان عقاب﴾: كان عقاباً شديداً وعذاباً أليماً؛ فلا يغترُّ هؤلاء الذين كذبوك واستهزؤوا بك بامهالنا؛ فلهم أسوةٌ فيمن قبلهم من الأمم، فليحذروا أن يفعلَ بهم كما فعلَ بأولئك.

﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظَاهِرُ مِن الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يَضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ۖ﴾ (٣٣) ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ۖ﴾ (٣٤)

﴿٣٣﴾ يقول تعالى: ﴿أفمن هو قائمٌ على كل نفسٍ بما كسبت﴾: بالجزاء العاجل والآجل، بالعدل والقسط، وهو الله تبارك وتعالى؛ كمن ليس كذلك. ولهذا قال: ﴿وجعلوا لله شركاء﴾: وهو الله الأحد الفرد الصمد الذي لا شريك له ولا ندٌّ ولا نظير. ﴿قل﴾: لهم إن كانوا صادقين: ﴿سموهم﴾: لتعلم حالهم. ﴿أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض﴾: فإنه إذا كان عالم الغيب والشهادة، وهو لا يعلم له شريكاً؛ علمٌ بذلك بطلان دعوى الشريك له، وأنكم بمنزلة الذي يعلم الله أن له شريكاً وهو لا يعلمه، وهذا أبطل ما يكون! ولهذا قال: ﴿أم بظاهر من القول﴾؛ أي: غاية ما يمكن من دعوى الشريك له تعالى أنه بظاهر أقوالكم، وأما في الحقيقة؛ فلا إله إلا الله، وليس أحدٌ من الخلق يستحق شيئاً من العبادة. ولكن ﴿زَيْنَ للذين كفروا مكرهم﴾: الذي مكروه، وهو كفرهم وشركهم وتكذيبهم لآيات الله. ﴿وصدُّوا عن السبيل﴾؛ أي: عن الطريق المستقيمة الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته. ﴿ومن يضلِّل الله فما له من هادٍ﴾: لأنه ليس لأحدٍ من الأمر شيء.

﴿٣٤﴾ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾: من عذاب الدنيا؛

لشدته ودوامه. ﴿وما لهم من الله من وافي﴾: يقيهم من عذاب [الله]؛ فعذابه إذا وجهه إليهم لا مانع منه.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ (٣٥).

﴿٣٥﴾ يقول تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾: الذين تركوا ما نهاهم الله عنه، ولم يقصروا فيما أمرهم به؛ أي: صفتها وحقيقتها، ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾: أنهار العسل وأنهار الخمر وأنهار اللبن وأنهار الماء التي تجري في غير أخذود، فتسقي تلك البساتين والأشجار، فتحمل جميع أنواع الثمار. ﴿أكلها دائم وظلها﴾: دائم أيضاً. ﴿تلك عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾؛ أي: عاقبتهم ومآلهم التي إليها يصيرون. ﴿وعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾: فكم بين الفريقين من الفرق المبين؟

﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتُبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾ (٣٦).

﴿٣٦﴾ يقول تعالى: ﴿والذين آتيناهم الكتاب﴾؛ أي: منّا عليهم به وبمعرفته، ﴿يفرحون بما أنزل إليك﴾: فيؤمنون به ويصدقونه ويفرحون بموافقة الكتب بعضها لبعض وتصديق بعضها بعضاً، وهذه حال من آمن من أهل الكتابين. ﴿ومن الأحزاب من ينكّر بعضه﴾؛ أي: ومن طوائف الكفار المتحربين على الحق من ينكر بعض هذا القرآن ولا يصدقه؛ فمن اهتدى لنفسه، ومن ضل؛ فإنما يضل عليها، إنما أنت يا محمد منذر تدعو إلى الله. ﴿قل إنما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾؛ أي: بإخلاص الدين لله وحده. ﴿إليه أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبُ﴾؛ أي: مرجعي الذي أرجع به إليه، فيجازيني بما قمتُ به من الدعوة إلى دينه والقيام بما أمرت به.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْإِلَهِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ (٣٧).

﴿٣٧﴾ أي: ولقد أنزلنا هذا القرآن والكتاب ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾؛ أي: محكماً متقناً بأوضح الألسنة وأفصح اللغات؛ لئلا يقع فيه شك واشتباة، وليوجب أن يتبع وحده ولا يُداهن فيه ولا يتبع ما يضاذه ويناقضه من أهواء الذين لا يعلمون، ولهذا توعد رسوله - مع أنه معصوم - ليمتن عليه بعصمته، ولتكون أمته أسوته في الأحكام،

فقال: ﴿وَلْتَن أَتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾: البين، الذي ينهاك عن اتباع أهوائهم. ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾: يتولأك فيحصل لك الأمر المحبوب. ﴿وَلَا وَاقٍ﴾: يقيق من الأمر المكروه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿٣٨﴾ أي: لست أول رسول أرسل إلى الناس حتى يستغربوا رسالتك. فقد أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً: فلا يعيبك أعداؤك بأن يكون لك أزواج وذرية كما كان لإخوانك المرسلين؛ فلائي شيء يقدحون فيك بذلك وهم يعلمون أن الرسل قبلك كذلك إلا لأجل أغراضهم الفاسدة وأهوائهم، وإن طلبوا منك آية اقترحوها؛ فليس لك من الأمر شيء. فما ﴿كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: واللّه لا يأذن فيها إلا في وقتها الذي قدره وقضاه. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾: لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه، فليس استعجالهم بالآيات أو بالعذاب موجبا لأن يقدم الله ما كتب أنه يؤخر، مع أنه تعالى فعّال لما يريد.

﴿٣٩﴾ ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾: من الأقدار، ﴿وَيُثَبِّتُ﴾: ما يشاء منها، وهذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه وكتبه قلمه؛ فإن هذا لا يقع فيه تبدل ولا تغيير؛ لأن ذلك محال على الله أن يقع في علمه نقص أو خلل، ولهذا قال: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾؛ أي: اللوح المحفوظ الذي ترجع إليه سائر الأشياء؛ فهو أصلها، وهي فروع [له] وشعب؛ فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب؛ كأعمال اليوم والليلة التي تكتبها الملائكة ويجعل الله لثبوتها أسبابا ولمحوها أسبابا، لا تتعدى تلك الأسباب ما رُسم في اللوح المحفوظ؛ كما جعل الله البر والصلة والإحسان من أسباب طول العمر وسعة الرزق، وكما جعل المعاصي سببا لمحق بركة الرزق والعمر، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب سببا للسلامة، وجعل التعرض لذلك سببا للعطب؛ فهو الذي يدبر الأمور بحسب قدرته وإرادته، وما يدبره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه في اللوح المحفوظ.

﴿وَإِنْ مَا نُزِّلَتْكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَوَفَّيْنَاكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾.

﴿٤٠﴾ يقول تعالى لنبئه محمد ﷺ: لا تعجل عليهم بإصابة ما يوعدون [به] من

العذاب؛ فهم إن استمروا على طغيانهم وكفرهم؛ فلا بد أن يصيبهم ما وعدوا به؛ إما أن نريئك إيّاه في الدنيا فتقرّ بذلك عينك، أو نتوفيئك قبل إصابتهم؛ فليس ذلك شغلاً لك. ﴿فإنما عليك البلاغ﴾: والتبيين للخلق، ﴿وعلينا الحساب﴾: فنحاسب الخلق على ما قاموا به مما عليهم وضيّعوه، ونشيبهم أو نعاقبهم.

﴿٤١﴾ ثم قال متوعداً للمكذبين: ﴿أو لم يروا أننا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾: قيل: بإهلاك المكذبين واستئصال الظالمين، وقيل: بفتح بلدان المشركين ونقصهم في أموالهم وأبدانهم، وقيل غير ذلك من الأقوال. والظاهر - والله أعلم - أن المراد بذلك أن أراضي هؤلاء المكذبين جعل الله يفتحها ويجتاحها ويحلّ القوارع بأطرافها تنبيهاً لهم قبل أن يجتاحهم النقص ويوقع الله بهم من القوارع ما لا يردّه أحد، ولهذا قال: ﴿والله يحكم لا معقب لحكمه﴾: ويدخل في هذا حكمه الشرعي والقدري والجزائي؛ فهذه الأحكام التي يحكم الله فيها توجد في غاية الحكمة والإتقان، لا خلل فيها ولا نقص، بل هي مبنية على القسط والعدل والحمد؛ فلا يتعقبها أحد، ولا سبيل إلى القدح فيها؛ بخلاف حكم غيره؛ فإنه قد يوافق الصواب وقد لا يوافقه. ﴿وهو سريع الحساب﴾: أي: فلا يستعجلوا بالعذاب؛ فإن كل ما هو آتٍ فهو قريب.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ ۖ﴾ (٤٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ۖ﴾ (٤٣).

﴿٤٢﴾ يقول تعالى: ﴿وقد مكر الذين من قبلهم﴾: برسلمهم وبالحق الذي جاءت به الرسل، فلم يُغن عنهم مكرهم، ولم يصنعوا شيئاً؛ فإنهم يحاربون الله وبيارزونه. ﴿فله المكر جميعاً﴾؛ أي: لا يقدر أحد أن يمكر مكرأ إلا بإذنه وتحت قضائه وقدره؛ فإذا كانوا يمكرون بدينه؛ فإن مكرهم سيعود عليهم بالخيبة والندم؛ فإن الله ﴿يعلم ما تكسب كل نفس﴾؛ أي: همومها وإراداتها وأعمالها الظاهرة والباطنة، والمكر لا بد أن يكون من كسبها؛ فلا يخفى على الله مكرهم، فيمتنع أن يمكروا مكرأ يضُر الحق وأهله ويفيدهم شيئاً. ﴿وسيعلم الكفار لمن عُقبى الدار﴾؛ أي: ألهم أو لِرُسُلِهِ؟ ومن المعلوم أن العاقبة للمتقين للكفر، وأعماله.

﴿٤٣﴾ ﴿ويقول الذين كفروا لست مرسل﴾؛ أي: يكذبونك ويكذبون ما أرسلت

به. ﴿قُلْ﴾ لهم إن طلبوا على ذلك شهيداً: ﴿كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾: وشهادته بقوله وبفعله وإقراره: أما قوله؛ فيما أوحاه الله إلى أصدق خلقه مما يُثبِتُ به رسالته. وأما فعله؛ فلأنَّ الله تعالى أيد رسوله ونصره نصراً خارجاً عن قدرته وقدره أصحابه وأتباعه، وهذا شهادة منه له بالفعل والتأييد، وأما إقراره؛ فإنه أخبر الرسول عنه أنه رسول^(١)، وأنه أمر الناس باتباعه؛ فمن اتبعه؛ فله رضوانُ الله وكرامته، ومن لم يتبعه؛ فله النار والسخط، وحلُّ له ماله ودمه، والله يقره على ذلك؛ فلو تقول عليه بعض الأقاويل؛ لعاجله بالعقوبة.

﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾: وهذا شاملٌ لكل علماء أهل الكتابين؛ فإنهم يشهدون للرسول، من آمن واتبع الحق، صرح بتلك الشهادة التي عليه، ومن كتم ذلك؛ فأخبار الله عنه أنَّ عنده شهادةٌ أبلغ من خبره، ولو لم يكن عنده شهادة؛ لردَّ استشهاد بالبرهان؛ فسكوته يدلُّ على أن عنده شهادةٌ مكتومة، وإنما أمر الله باستشهاد أهل الكتاب لأنهم أهل هذا الشأن، وكلُّ أمر إنما يُستشهد فيه أهله ومن هم أعلم به من غيرهم؛ بخلاف مَنْ هو أجنبي عنه؛ كالأميين من مشركي العرب وغيرهم؛ فلا فائدة في استشهادهم؛ لعدم خبرتهم ومعرفتهم. والله أعلم.

تم تفسير سورة الرعد.

والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كَتَبْتُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾.

(١) في (ب): «رسوله».

﴿١ - ٢﴾ يخبر تعالى أنه أنزل كتابه على رسوله محمد ﷺ؛ لنفع الخلق؛ ليخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر والأخلاق السيئة وأنواع المعاصي إلى نور العلم والإيمان والأخلاق الحسنة. وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: لا يحصل منهم المراد المحبوب لله إلا بإرادة من الله ومعونه؛ فيه حثٌ للعباد على الاستعانة بربهم. ثم فسر النور الذي يهديهم إليه هذا الكتاب، فقال: ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾؛ أي: الموصل إليه وإلى دار كرامته، المشتمل على العلم بالحق والعمل به. وفي ذكر العزيز الحميد بعد ذكر الصراط الموصل إليه إشارة إلى أَنَّ مَنْ سَلَكَهُ؛ فهو عزيزٌ بعزِّ الله، قويٌّ ولو لم يكن له أنصار إلا الله، محمودٌ في أموره، حسن العاقبة، وليدل ذلك على أَنَّ صِرَاطَ اللَّهِ من أكبر الأدلة على ما لله من صفات الكمال ونعوت الجلال، وَأَنَّ الذي نصبه لعباده عزيزُ السلطان حميدٌ في أقواله وأفعاله وأحكامه، وأنه مألوفٌ معبودٌ بالعبادات التي هي منازل الصراط المستقيم، وأنه كما أن له ملك السماوات والأرض خلقاً ورزقاً وتديراً؛ فله الحكم على عباده بأحكامه الدينية؛ لأنهم ملكه، ولا يليق به أن يتركهم سدى. فلما بيّن الدليل والبرهان؛ توعد مَنْ لم يَتَّقْ ذَلِكَ، فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾: لا يقدّر قدره، ولا يوصف أمره.

﴿٣﴾ ثم وصفهم بأنهم الذين استحبوا ﴿الحياة الدنيا على الآخرة﴾: فرضوا بها واطمأنوا وغفلوا عن الدار الآخرة. ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾: التي نصبها لعباده وبينها في كتبه وعلى ألسنة رسله؛ فهؤلاء قد نابذوا مولاهم بالمعاداة والمحاربة. ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾؛ أي: سبيل الله ﴿عُوجًا﴾؛ أي: يحرصون على تهجينها وتقبيحها للتنفير عنها، ولكن يأبى الله إلا أن يُتِمَّ نوره ولو كره الكافرون. ﴿أُولَئِكَ﴾: الذين ذُكر وصفهم ﴿فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾: لأنهم ضلُّوا وأضلُّوا وشاقوا الله ورسوله وحاربهما؛ فأبى ضلال أبعد من هذا؟! وأما أهل الإيمان؛ فبعكس هؤلاء؛ يؤمنون بالله وآياته، ويستحبُّون الآخرة على الدنيا، ويدعون إلى سبيل الله، ويحسنونها مهما أمكنهم، ويبينون استقامتها.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿٤﴾ وهذا من لطفه بعباده أنه ما أرسل رسولا إلا بلسان قومه؛ ليبين لهم ما يحتاجون إليه، ويتمكنون من تعلُّم ما أتى به، بخلاف ما لو أتى على غير لسانهم؛

فإنهم يحتاجون إلى تعلُّم^(١) تلك اللغة التي يتكلَّم بها، ثم يفهمون عنه. فإذا بيَّن [لهم] الرسول ما أمروا به ونهوا عنه وقامت عليهم حجة الله؛ ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ﴾: مَنْ لَمْ يَنْقُذْ لِلْهُدَى، ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾: مَنْ اخْتَصَّ بِرَحْمَتِهِ. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: الَّذِي مِنْ عَزَّتِهِ أَنَّهُ انْفَرَدَ بِالْهُدَايَةِ وَالْإِضْلَالِ وَتَقْلِيلِ الْقُلُوبِ إِلَى مَا شَاءَ، وَمِنْ حِكْمَتِهِ أَنَّهُ لَا يَضَعُ هُدَايَتَهُ وَلَا إِضْلَالَهُ إِلَّا بِالْمَحَلِّ اللَّائِقِ بِهِ.

ويستدل بهذه الآية الكريمة على أن علوم العربية الموصلة إلى تبين كلامه وكلام رسوله أمورٌ مطلوبةٌ محبوبةٌ لله؛ لَأَنَّهُ لَا يَتِمُّ مَعْرِفَةُ مَا أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ إِلَّا بِهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ النَّاسُ فِي حَالِهِ^(٢) لَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهَا، وَذَلِكَ إِذَا تَمَرَّنُوا عَلَى الْعَرَبِيَّةِ، وَنَشَأَ عَلَيْهَا صَغِيرُهُمْ، وَصَارَ طَبِيعَةً لَهُمْ؛ فَحِينَئِذٍ قَدْ اكْتَفَوْا الْمُؤَنَةَ، وَصَلَحُوا عَلَى أَنْ^(٣) يَتَلَقَّوْا عَنِ اللَّهِ وَعَنْ رَسُولِهِ ابْتِدَاءً، كَمَا تَلَقَّى عَنْهُمْ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ⑤ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ⑥ وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجْسُكُمْ وَلَنْ تُكَفِّرْتُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ⑦ وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ حَمِيدٌ ⑧.

﴿٥﴾ يخبر تعالى أنه أرسل موسى بآياته العظيمة الدالة على صدق ما جاء به وصحته، وأمره بما أمر الله به رسوله محمداً ﷺ، بل وبما أمر به جميع الرسل قومهم: ﴿أَنْ أَخْرِجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾؛ أي: ظلمات الجهل والكفر وفروعه إلى نور العلم والإيمان وتوابعه. ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾؛ أي: بنعمه عليهم وإحسانه إليهم، وبآيأته في الأمم المكذِّبين ووقائعه بالكافرين؛ ليشكروا نعمه وليحذروا عقابه. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾؛ أي: في أيام الله على العباد، ﴿لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾؛ أي: صبار في الضراء والعسر والضيق، شكور على السراء والنعمة؛ فَإِنَّهُ يَسْتَدِلُّ بِآيَاتِهِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَمِيمِ إِحْسَانِهِ وَتَمَامِ عَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ.

(٢) في (ب): «بحالة».

(١) في (ب): «إلى أن يتعلموا».

(٣) في (ب): «وصلحوا لأن».

﴿٦﴾ ولهذا امثل موسى عليه السلام أمر ربّه، فذكّرهم نعم الله، فقال: ﴿اذكروا نعمة الله عليكم﴾؛ أي: بقلوبكم وألستكم، ﴿إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم﴾؛ أي: يؤلونكم، ﴿سوء العذاب﴾؛ أي: أشده. وفسّر ذلك بقوله: ﴿ويذبّحون أبناءكم ويستخيون نساءكم﴾؛ أي: يبقونهنّ فلا يقتلونهنّ. ﴿وفي ذلكم﴾: الانجاء ﴿بلاء من ربكم عظيم﴾؛ أي: نعمة عظيمة، أو وفي ذلكم العذاب الذي ابتليتم به من فرعون وملئه ابتلاء من الله عظيم لكم لينظر هل تصبرون أم لا.

﴿٧﴾ وقال لهم حاثًا على شكر نعم الله: ﴿وإذ تأذن ربكم﴾؛ أي: أعلم ووعد، ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾: من نعمي، ﴿ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾: ومن ذلك أن يزيل عنهم النعمة التي أنعم بها عليهم. والشكر: هو اعتراف القلب بنعم الله، والثناء على الله بها، وصرفها في مرضاة الله تعالى. وكفر النعمة ضد ذلك.

﴿٨﴾ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً: فلن تضروا الله شيئاً، فإن الله غنيّ حميدٌ، فالطاعات لا تزيد في ملكه، والمعاصي لا تنقصه، وهو كامل الغنى، حميدٌ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ليس له من الصفات إلا كل صفة حميدٌ وكمال، ولا من الأسماء إلا كل اسم حسن، ولا من الأفعال إلا كل فعل جميل.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَنْ مَا كَانَتِ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿٩﴾ يقول تعالى مخوفاً عباده ما أحله بالأمم المكذبة حين جاءتهم الرسل فكذبوهم، فعاقبهم بالعقاب العاجل الذي رآه الناس وسمعوه، فقال: ﴿ألم يأتكم نبي الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود﴾: وقد ذكر الله قصصهم في كتابه وبسطها. ﴿والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله﴾: من كثرتهم وكون أخبارهم اندرست؛ فهؤلاء كلهم ﴿جاءتهم رسلهم بالبينات﴾؛ أي: بالأدلة الدالة على صدق ما جاؤوا به، فلم يرسل الله رسولا إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر؛ فحين أتتهم رسلهم بالبينات؛ لم ينقادوا لها، بل استكبروا عنها، ﴿فردُّوا أيديهم في أفواههم﴾؛ أي: لم يؤمنوا بما جاؤوا به، ولم يتفوهوا بشيء مما يدل على الإيمان؛ كقوله: ﴿جعلوا أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت﴾. ﴿وقالوا﴾ صريحا لرسولهم: ﴿إنا كفَرنا بما أرسلَنا به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب﴾؛ أي: موقع في الريبة.

﴿١٠﴾ وقد كذبوا في ذلك وظلموا، ولهذا ﴿قالت﴾ لهم ﴿رسلهم أفي الله شك﴾؛ أي: فإنه أظهر الأشياء وأجلاها؛ فمن شك في الله ﴿فاطر السموات والأرض﴾: الذي وجود الأشياء مستند إلى وجوده؛ لم يكن عنده ثقة بشيء من المعلومات، حتى الأمور المحسوسة. ولهذا خاطبتهم الرسل خطاب من لا يشك فيه، ولا يصلح الريب فيه. ﴿يدعوكم﴾: إلى منافعكم ومصالحكم، ﴿ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾؛ أي: ليشيكم على الاستجابة لدعوته بالثواب العاجل والآجل، فلم يدعكم لينتفع بعبادتكم، بل النفع عائد إليكم. فردُّوا على رسولهم ردَّ السفهاء الجاهلين، ﴿وقالوا﴾ لهم: ﴿إن أنتم إلا بشر مثلنا﴾؛ أي: فكيف تفضلوننا بالنبوة والرسالة؟ ﴿تريدون أن تصدُّونا عما كان يعبد آباؤنا﴾: فكيف نترك رأي الآباء وسيرتهم لرأيكم؟! وكيف نطيعكم وأنتم بشر مثلنا؟! ﴿فأتونا بسلطان مبين﴾؛ أي: بحجة وبينة ظاهرة، ومرادهم بينة يقترحونها هم، وإلا؛ فقد تقدَّم أن رسلهم جاءتهم بالبينات.

﴿١١﴾ ﴿قالت لهم رسلهم﴾ مجيبين لاقتراحهم^(١) واعتراضهم: ﴿إن نحن إلا بشر مثلكم﴾؛ أي: صحيح وحقيقة أننا بشر مثلكم. ﴿ولكن﴾ ليس في ذلك ما يدفع ما جئنا به من الحق؛ فإن ﴿الله يمتُّ على من يشاء من عباده﴾؛ فإذا منَّ الله علينا بوحيه ورسالته؛ فذلك فضله وإحسانه، وليس لأحد أن يخجّر على الله فضله

(١) في (ب): «عن اقتراحهم».

ويمنعه من تفضله؛ فانظروا ما جئناكم به؛ فَإِنْ كَانَ حَقًّا؛ فاقبلوه، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ؛ فَرُدُّوهُ، وَلَا تَجْعَلُوا حَالَنَا حُجَّةً لَكُمْ عَلَى رَدِّ مَا جئناكم به، وقولكم: ﴿فَإِنَّا لَنَأْتِيَنَّكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ بِأَيْدِينَا وَلَيْسَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ. ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَنَّكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: فهو الذي إِنْ شَاءَ جَاءَكُمْ بِهِ وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَأْتِكُمْ بِهِ، وهو لَا يَفْعَلُ إِلَّا مَا هُوَ مُقْتَضِي حُكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ. ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾: لَا عَلَى غَيْرِهِ، ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾: فَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِي جَلْبِ مَصَالِحِهِمْ وَدَفْعِ مَضَارِّهِمْ؛ لَعَلَّهُمْ بِتَمَامِ كِفَايَتِهِ وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَمِيمِ إِحْسَانِهِ، وَيَثْقُونَ بِهِ فِي تَسْيِيرِ ذَلِكَ، وَيَحْسَبُ مَا مَعَهُمُ مِنَ الْإِيمَانِ يَكُونُ تَوَكُّلَهُمْ. فَعُلِمَ بِهَذَا وَجُوبُ التَّوَكُّلِ وَأَنَّهُ مِنَ لَوَازِمِ الْإِيمَانِ وَمِنَ الْعِبَادَاتِ الْكِبَارِ الَّتِي يَحِبُّهَا اللَّهُ وَيَرْضَاهَا لِتَوْفُّفِ سَائِرِ الْعِبَادَاتِ عَلَيْهِ.

﴿١٢﴾ ﴿وَمَا لَنَا أَنْ لَا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾؛ أَي: أَيُّ شَيْءٍ يَمْنَعُنَا مِنَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَالْحَالِ أَنَّنَا عَلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى، وَمَنْ كَانَ عَلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى؛ فَإِنَّ هَذَا يَجِبُ لَهُ تَمَامُ التَّوَكُّلِ، وَكَذَلِكَ مَا يُغْلَمُ مِنْ أَنَّ اللَّهَ مُتَكَفِّلٌ بِمَعُونَةِ الْمُهْتَدِي وَكِفَايَتِهِ، يَدْعُو إِلَى ذَلِكَ؛ بِخِلَافِ مَنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ ضَامِنًا عَلَى اللَّهِ؛ فَإِنَّ حَالَهُ مُنَاقِضَةٌ لِحَالِ الْمُتَوَكِّلِ؟! وَفِي هَذَا كَالِإِشَارَةِ مِنَ الرِّسْلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ لِقَوْمِهِمْ بِآيَةٍ عَظِيمَةٍ، وَهُوَ أَنَّ قَوْمَهُمْ فِي الْغَالِبِ أَنَّ لَهُمُ الْقَهْرَ وَالْغَلْبَةَ عَلَيْهِمْ، فَتَحَدَّثَهُمْ رَسُلُهُمْ بِأَنَّهُمْ مُتَوَكِّلُونَ عَلَى اللَّهِ فِي دَفْعِ كَيْدِهِمْ وَمَكْرِهِمْ، وَجَازِمُونَ بِكِفَايَتِهِ إِيَّاهُمْ، وَقَدْ كَفَاهُمُ اللَّهُ شَرْهَهُمْ مَعَ حَرْصِهِمْ عَلَى إِتْلَافِهِمْ وَإِطْفَاءِ مَا مَعَهُمْ مِنَ الْحَقِّ، فَيَكُونُ هَذَا كَقَوْلِ نُوحٍ لِقَوْمِهِ: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ...﴾ الْآيَاتِ، وَقَوْلِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾. ﴿وَلَنَضْرِبَنَّ عَلَى مَا أَذْنَبْتُمُونَا﴾: وَلَنَسْتَمِرَّ عَلَى دَعْوَتِكُمْ وَوَعْظِكُمْ وَتَذْكِيرِكُمْ، وَلَا نَبَالِي بِمَا يَأْتِينَا مِنْكُمْ مِنَ الْأَذَى؛ فَإِنَّا سَنُوطِّنُ أَنْفُسَنَا عَلَى مَا يَنَالُنَا مِنْكُمْ مِنَ الْأَذَى؛ احْتِسَابًا لِلْأَجْرِ وَنَصْحًا لَكُمْ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَكُمْ مَعَ كَثْرَةِ التَّذْكِيرِ. ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾: وَحْدَهُ لَا عَلَى غَيْرِهِ، ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾: فَإِنَّ التَّوَكُّلَ عَلَيْهِ مِفْتَاحٌ لِكُلِّ خَيْرٍ.

واعلم أن الرسل عليهم الصلاة والسلام توكَّلهم في أعلى المطالب وأشرف

المراتب، وهي التوكل على الله في إقامة دينه ونصره وهداية عبيده وإزالة الضلال عنهم. وهذا أكمل ما يكون من التوكل.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَنْجَرِعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿١٣﴾ لما ذكر دعوة الرسل لقومهم ودوامهم على ذلك وعدم مللهم؛ ذكر منتهى ما وصلت بهم الحال مع قومهم، فقال: ﴿وقال الذين كفروا لرسولهم﴾: متوعدين لهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾: وهذا أبلغ ما يكون من الرد، وليس بعد هذا فيهم مطمع؛ لأنه ما كفاهم أن أعرضوا عن الهدى، بل توعدوهم بالإخراج من ديارهم، ونسبوا إلى أنفسهم، وزعموا أن الرسل لا حق لهم فيها، وهذا من أعظم الظلم؛ فإن الله أخرج عباده إلى الأرض، وأمرهم بعبادته، وسخر لهم الأرض وما عليها يستعينون بها على عبادته؛ فمن استعان بذلك على عبادة الله؛ حل له ذلك وخرج من التبعة، ومن استعان بذلك على الكفر وأنواع المعاصي؛ لم يكن ذلك خالصاً له ولم يحل له، فعلم أن أعداء الرسل في الحقيقة ليس لهم شيء من الأرض التي توعدوا الرسل بإخراجهم منها. وإن رجعنا إلى مجرد العادة؛ فإن الرسل من جملة أهل بلادهم وأفراد منهم؛ فلا شيء يمنعهم حقاً لهم صريحاً واضحاً؟! هل هذا إلا من عدم الدين والمروءة بالكلية؟! ولهذا لما انتهى مكرهم بالرسول إلى هذه الحال؛ ما بقي حينئذ إلا أن يمضي الله أمره وينصر أوليائه. ﴿فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين﴾: بأنواع العقوبات.

﴿١٤﴾ ﴿وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ﴾؛ أي: العاقبة الحسنة التي جعلها الله للرسول ومن تبعهم جزاء، ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾: عليه في الدنيا، وراقب الله مراقبة من يعلم أنه يراه، ﴿وخاف وعيد﴾؛ أي: ما توعدت به من عصاني؛ فأوجب له ذلك الانكفاف عما يكرهه الله والمبادرة إلى ما يحبه الله.

﴿١٥﴾ ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾؛ أي: الكفار؛ أي: هم الذين طلبوا واستعجلوا فتح الله وفرقائه بين أوليائه وأعدائه، فجاءهم ما استفتحوا به، وإلّا؛ فالله حلیم، لا يعاجل

من عصاه بالعقوبة. ﴿وخاب كل جبارٍ عنيدٍ﴾؛ أي: خسر في الدنيا والآخرة من تجبر على الله وعلى الحق وعلى عباد الله، [واستكبر]^(١) في الأرض، وعاند الرسل، وشاقهم.

﴿١٦﴾ ﴿من ورائه جهنم﴾؛ أي: جهنم لهذا الجبار العنيد بالمرصاد؛ فلا بد له من ورودها، فيذاق حينئذ العذاب الشديد. ﴿ويُسقى من ماءٍ صديدٍ﴾: في لونه وطعمه ورائحته الخبيثة، وهو في غاية الحرارة.

﴿١٧﴾ ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾: من العطش الشديد، ﴿ولا يكادُ يسيغه﴾: فإنه إذا قرب إلى وجهه؛ شواه، وإذا وصل إلى بطنه؛ قطع ما أتى عليه من الأمعاء، ﴿ويأتيه الموتُ من كل مكانٍ وما هو بميتٍ﴾؛ أي: يأتيه العذاب الشديد من كل نوع من أنواع العذاب، وكل نوع منه من شدته يبلغ إلى الموت، ولكن الله قضى أن لا يموتوا؛ كما قال تعالى: ﴿لا يُقضى عليهم فيموتوا ولا يُخففُ عنهم من عذابها كذلك نَجْزي كلَّ كفورٍ﴾. وهم يصطرخون فيها، ﴿ومن ورائه﴾؛ أي: الجبار العنيد ﴿عذابٌ غليظٌ﴾؛ أي: قويٌّ شديدٌ لا يعلم بوصفه وشدته إلا الله تعالى.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَاحُ الْبَعِيدُ﴾.

﴿١٨﴾ يخبر تعالى عن أعمال الكفار التي عملوها: إما أن المراد بها الأعمال التي عملوها لله بأنها في ذهابها وبطلانها واضمحلالها كاضمحلال الرماد الذي هو أدق الأشياء وأخفها إذا اشتدت به الريح في يوم عاصف شديد الهبوب؛ فإنه لا يَبْقَى منه شيئاً ولا يُقدَّرُ منه على شيء يذهب ويضمحل؛ فكذلك أعمال الكفار، ﴿لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾، ولا على مثقال ذرة منه؛ لأنه مبني على الكفر والتكذيب. ﴿ذلك هو الضلال البعيد﴾: حيث بطل سعيهم واضمحل عملهم. وإما أن المراد بذلك أعمال الكفار التي عملوها ليكيدوا بها الحق؛ فإنهم يسعون ويكدحون في ذلك، ومكرهم عائدٌ عليهم، ولن يضرُوا الله ورسله وجنده وما معهم من الحق شيئاً.

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «استكبروا».

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَئُودُ يَذْهَبِكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَّرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿١٩﴾ يَنْبَهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِأَنَّهُ ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾؛ أَي: لِعِبَادِهِ الْخَلْقَ وَيَعْرِفُوهُ وَيَأْمُرُهُمْ وَيَنْهَاهُمْ، وَلِيَسْتَدْلُوا بِهِمَا وَمَا فِيهِمَا عَلَى مَا لَهُ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ - عَلَى عَظَمَتِهَا وَسَعَتِهَا - قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَعْيِدَهُمْ خَلْقًا جَدِيدًا؛ لِيَجَازِيَهُمْ بِإِحْسَانِهِمْ وَإِسَاءَتِهِمْ، وَأَنَّ قُدْرَتَهُ وَمَشِيتَتَهُ لَا تَقْصُرُ عَنْ ذَلِكَ.

ولهذا قال: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: يُحْتَمَلُ أَنَّ الْمَعْنَى: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِقَوْمٍ غَيْرِكُمْ يَكُونُونَ أَطْوَعَ لِلَّهِ مِنْكُمْ. وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ: إِنْ يَشَأْ يُفْنِيكُمْ ثُمَّ يَعِيدُهُمْ بِالْبَعْثِ خَلْقًا جَدِيدًا. وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا الْإِحْتِمَالِ مَا ذَكَرَهُ بَعْدَهُ مِنْ أَحْوَالِ الْقِيَامَةِ.

﴿٢٠﴾ ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾؛ أَي: بِمَمْتَنَعٍ، بَلْ هُوَ سَهْلٌ عَلَيْهِ جَدًّا، ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كُنْفُسًا وَاحِدَةً وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

﴿٢١﴾ ﴿وَبَرِّزُوا﴾؛ أَي: الْخَلَائِقُ ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾: حِينَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَيُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ، فَيَقِفُونَ فِي أَرْضٍ مُسْتَوِيَةٍ، قَاعٍ صَفْصَفٍ، لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا، وَيَبْرُزُونَ لَهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ؛ فَإِذَا بَرِّزُوا؛ صَارُوا يَتَحَاجُّونَ، وَكُلٌّ يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ وَيَدَافِعُ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ أَتَى لَهُمْ ذَلِكَ؟! فَيَقُولُ ﴿الضُّعَفَاءُ﴾؛ أَي: التَّابِعُونَ وَالْمُقَلِّدُونَ، ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾: وَهُمْ الْمُتَبَوِّعُونَ الَّذِينَ هُمْ قَادَةُ فِي الضَّلَالِ: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾؛ أَي: فِي الدُّنْيَا أَمَرْتُمُونَا بِالضَّلَالِ وَزَيَّيْتُمُوهُ لَنَا فَأَغْوَيْتُمُونَا. ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ﴾ الْيَوْمَ ﴿مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ أَي: وَلَوْ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فَلَوْ ﴿قَالُوا﴾؛ أَي: الْمُتَبَوِّعُونَ وَالرُّؤَسَاءُ: أَغْوَيْنَاكُمْ كَمَا غَوَيْنَا، فَ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾؛ فَلَا يُغْنِي أَحَدٌ أَحَدًا. ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا﴾: مِنْ الْعَذَابِ، ﴿أَمْ صَبَّرْنَا﴾: عَلَيْهِ. ﴿مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾؛ أَي: [مِنْ] مَلْجَأٍ نَلْجَأُ إِلَيْهِ، وَلَا مَهْرَبَ لَنَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحَيِّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿٢٢﴾ أي: ﴿وقال الشيطان﴾: الذي هو سبب لكل شر يقع ووقع في العالم خاطباً لأهل النار ومتبرئاً منهم، ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾: ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾: على السنة رسله فلم تطيعوه؛ فلو أطمعتموه؛ لأدرتكم الفوز العظيم. ﴿ووعدتكم﴾: الخير، ﴿فأخلفتكم﴾؛ أي: لم يحصل ولن يحصل لكم ما مئيتكم به من الأماني الباطلة. ﴿وما كان لي عليكم من سلطان﴾؛ أي: من حجة على تأييد قولي، ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾؛ أي: هذه نهاية ما عندي أنني دعوتكم إلى مُرادِي وزينتكم لكم فاستجبتُم لي اتباعاً لأهوائكم وشهواتكم؛ فإذا كانت الحال بهذه الصورة؛ ﴿فلا تلوُموني ولوموا أنفسكم﴾: فأنتم السبب وعليكم المدار في موجب العقاب. ﴿وما أنا بمُصْرِخِكُمْ﴾؛ أي: بمغيثكم من الشدة التي أنتم بها، ﴿وما أنتم بمُصْرِخِيَّ﴾: كلُّ له قسطن من العذاب. ﴿إني كفرتُ بما أشركتمون من قبل﴾؛ أي: تبرات من جعلكم لي شريكاً مع الله، فلست شريكاً لله، ولا تجب طاعتي. ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾: لأنفسهم بطاعة الشيطان ﴿لهم عذابٌ أليمٌ﴾: خالدين فيه أبداً. وهذا من لطف الله بعباده أن حذرهم من طاعة الشيطان، وأخبر بمدخله التي يدخل منها على الإنسان ومقاصده فيه، وأنه يقصد أن يدخله النيران.

وهنا بين لنا أنه إذا دخل النار وجنَّده^(١)؛ أنه يتبرأ منهم هذه البراءة، ويكفر بشركهم، ولا يندك مثل خبير. واعلم أن الله ذكر في هذه الآية أنه ليس له سلطان، وقال في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾؛ فالسلطان الذي نفاه عنه هو سلطان الحجَّة والدليل، فليس له حجة أصلاً على ما يدعو إليه، وإنما نهاية ذلك أن يُقيم لهم من الشبه والتزيينات ما به يتجرؤون على المعاصي، وأما السلطان الذي أثبتته؛ فهو التسلُّط بالإغراء على

(١) في (ب): «وحزبه».

المعاصي لأوليائه يؤزهم إلى المعاصي أژا، وهم الذين سلطوه على أنفسهم بمولاته والالتحاق بحزبه، ولهذا ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون.

﴿٢٣﴾ ولما ذكر عقاب الظالمين؛ ذكر ثواب الطائعين، فقال: ﴿وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: قاموا بالدين قولاً وعملاً واعتقاداً، ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: فيها من اللذات والشهوات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: لا يحولهم وقوتهم، بل بحول الله وقوته. ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾؛ أي: يحيي بعضهم بعضاً بالسلام والتحية والكلام الطيب.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿٢٤﴾ تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ ﴿٢٦﴾.

﴿٢٤﴾ يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾: وهي شهادة أن لا إله إلا الله وفروعها ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾: وهي النخلة ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾: في الأرض. ﴿وَفَرْعُهَا﴾: منتشر ﴿فِي السَّمَاءِ﴾: وهي كثيرة النفع دائماً.

﴿٢٥﴾ ﴿تُوْتِي أَكْلَهَا﴾؛ أي: ثمرتها، ﴿كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾: فكذلك شجرة الإيمان أصلها ثابت في قلب المؤمن علماً واعتقاداً، وفروعها من الكلم الطيب والعمل الصالح والأخلاق المرضية والآداب الحسنة في السماء دائماً، يصعد إلى الله منه من الأعمال والأقوال التي تخرجها شجرة الإيمان، ما ينتفع به المؤمن وينتفع غيره، ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: ما أمرهم به ونهاهم عنه؛ فإن في ضرب الأمثال تقريباً للمعاني المعقولة من الأمثال المحسوسة، وتبيين المعنى الذي أراده الله غاية البيان ويتضح غاية الوضوح، ولهذا من رحمته وحسن تعليمه؛ فلله أتم الحمد وأكمله وأعظمه. فهذه صفة كلمة التوحيد، وثباتها في قلب المؤمن.

﴿٢٦﴾ ثم ذكر ضدها، وهي كلمة الكفر وفروعها، فقال: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾: المأكول والمطعم، وهي شجرة الحنظل ونحوها. ﴿اجْتُثَّتْ﴾: هذه الشجرة ﴿مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾؛ أي: [من] ثبوت؛ فلا عروق تمسكها، ولا ثمرة صالحة تتيجها، بل إن وجد فيها ثمرة؛ فهي ثمرة خبيثة، كذلك

كلمة الكفر والمعاصي، ليس لها ثبوت نافع في القلب، ولا تثمر إلا كل قول خبيث وعمل خبيث يستضر به صاحبه، ولا ينتفع، ولا^(١) يصعد إلى الله منه عمل صالح، ولا ينفع نفسه، ولا ينتفع به غيره.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٢٧).

﴿٢٧﴾ يخبر تعالى أنه يثبت عباده المؤمنين؛ أي: الذين قاموا بما عليهم من الإيمان القلبي التام، الذي يستلزم أعمال الجوارح ويثمرها، فيثبتهم الله: في الحياة الدنيا عند ورود الشبهات بالهداية إلى اليقين، وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة على تقديم ما يحبه الله على هوى النفس ومرادها، وفي الآخرة عند الموت بالثبات على الدين الإسلامي والخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال الملكين للجواب الصحيح إذا قيل للميت: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟^(٢) هداهم للجواب الصحيح بأن يقول المؤمن: الله ربِّي، والإسلام ديني، ومحمد نبيي. ﴿ويضلُّ الله الظالمين﴾: عن الصواب في الدنيا والآخرة، وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم.

وفي هذه الآية دلالة على فتنه القبر وعذابه ونعيمه؛ كما تواترت بذلك النصوص عن النبي ﷺ في الفتنة وصفتها ونعيم القبر وعذابه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۖ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنسَوْنَ الْفَرَارَ﴾ (٢٨) ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ (٢٩).

﴿٢٨﴾ يقول تعالى مبيناً حال المكذبين لرسوله من كفار قريش وما آل إليه أمرهم: ﴿ألم تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كَفْرًا﴾: ونعمة الله هي إرسال

(١) في (ب): «فلا».

(٢) كما في حديث البراء بن عازب في قصة خروجه مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار: أخرجه الإمام أحمد (٢٨٧/٤ و ٢٨٨ و ٢٩٥ و ٢٩٦)، وأبو داود (٤٧٥٣)، والحاكم (١/٣٧) وقال: «صحيح على شرط الشيخين» وأقره الذهبي، ووافقهما الألباني في «أحكام الجنائز» ص (١٥٩).

محمد ﷺ إليهم يدعوهم إلى إدراك الخيرات في الدنيا والآخرة وإلى النجاة من شرور الدنيا والآخرة، فبدّلوا هذه النعمة برذّها والكفر بها والصدّ عنها بأنفسهم وصدّهم غيرهم حتى ﴿أَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾: وهي النار؛ حيث تسبّبوا لإضلالهم، فصاروا وبالاً على قومهم من حيث يُظنّ نفعهم، ومن ذلك أنهم زيّنوا لهم الخروج يوم بدر ليحاربوا الله ورسوله، فجرى عليهم ما جرى، وقُتل كثير من كبرائهم وصناديدهم في تلك الواقعة.

﴿٢٩﴾ ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾؛ أي: يحيط بهم حرّها من جميع جوانبهم. ﴿وبئس القراز﴾.

﴿٣٠﴾ ﴿وجعلوا لله أنداداً﴾؛ أي: نظراء وشركاء، ﴿ليُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾؛ أي: ليضلّوا العباد عن سبيل الله بسبب ما جعلوا لله من الأنداد ودعّوهم إلى عبادتها. ﴿قل﴾ لهم متوعداً: ﴿تمتّعوا﴾ بكفركم وضلالكم قليلاً؛ فليس ذلك بنافعكم، ﴿فإنّ مصيركم إلى النار﴾؛ أي: مآلكم ومآواكم فيها وبئس المصير.

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾. ﴿٣١﴾

﴿٣١﴾ أي: قل لعبادي المؤمنين آمراً لهم بما فيه غاية صلاحهم وأن ينتهزوا الفرصة قبل أن لا يمكنهم ذلك، ﴿يُقيموا الصلاة﴾: ظاهراً وباطناً، ﴿وينفقوا مما رزقناهم﴾؛ أي: من النعم التي أنعمنا بها عليهم قليلاً أو كثيراً، ﴿سرّاً وعلانيةً﴾: وهذا يشمل النفقة الواجبة كالزكاة ونفقة من تجب عليه نفقته، والمستحبة كالصدقات ونحوها. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾؛ أي: لا ينفع فيه شيء، ولا سبيل إلى استدراك ما فات؛ لا بمعاوضة بيع وشراء، ولا بهبة خليل وصديق؛ فكل امرئٍ له شأنٌ يغنيه؛ فليقدّم العبد لنفسه، ولينظر ما قدّمه لغد، وليتفقد أعماله، ويحاسب نفسه قبل الحساب الأكبر.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿وَأَتَيْنَكُم مِّنْ كُلِّ مَاءٍ سَائِطُوتًا وَلَئِنْ سَأَلْتُمْ لَظَلُمْتُمْ كَفَّارًا﴾. ﴿٣٤﴾

﴿٣٢﴾ يخبر تعالى أنه وحده ﴿الذي خلق السموات والأرض﴾: على اتساعهما وعظمهما، ﴿وأنزل من السماء ماء﴾: وهو المطر الذي ينزله الله من السحاب، فأخرج بذلك الماء ﴿من الثمرات﴾: المختلفة الأنواع، ﴿رزقاً لكم﴾: ورزقاً لأنعامكم. ﴿وسخر لكم الفلك﴾؛ أي: السفن والمراكب، ﴿لتجري في البحر بأمره﴾: فهو الذي يسر لكم صنعتها وأقدركم عليها وحفظها على تيار الماء لتحملكم وتحمل تجارتكم وأمتعتكم إلى بلد تقصدونه. ﴿وسخر لكم الأنهار﴾: لتسقي حروثكم وأشجاركم، وتشربوا منها.

﴿٣٣﴾ ﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين﴾: لا يفتران ولا ينيان، يسعيان لمصالحكم من حساب أزمنتكم ومصالح أبدانكم وحيواناتكم وزروعكم وثماركم. ﴿وسخر لكم الليل﴾: لتسكنوا فيه، ﴿والنهار﴾ مبصراً لتبتغوا من فضله.

﴿٣٤﴾ ﴿وأتاكم من كل ما سألتموه﴾؛ أي: أعطاكم من كل ما تعلقت به أمانيتكم وحاجتكم مما تسألونه إياه بلسان الحال أو بلسان المقال من أنعام وآلات وصناعات وغير ذلك. ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾: فضلاً عن قيامكم بشكرها. ﴿إن الإنسان لظلول كفار﴾؛ أي: هذه طبيعة الإنسان من حيث هو ظالم متجرب على المعاصي مقصر في حقوق ربه، كفار لنعم الله لا يشكرها ولا يعترف بها؛ إلا من هداه الله فشكر نعمته، وعرف حق ربه وقام به.

ففي هذه الآيات من أصناف نعم الله على العباد شيء عظيم مجمل ومفضل يدعو الله به العباد إلى القيام بشكره وذكره، ويحثهم على ذلك، ويرغبهم في سؤاله ودعائه آناء الليل والنهار؛ كما أن نعمته تتكرر عليهم في جميع الأوقات.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۖ رَبِّ انْهِنَّا أَضَلَّلْنَا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ يَتَّبِعُنِي فَإِنَّهُمْ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۖ رَبَّنَا إِنِّي أَتُوبُكَ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۖ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا تُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ وَمَا يُخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۖ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَىٰ لِي عَلَى الْكَبِيرِ ۖ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ دَلِيلٌ ۖ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا

وَقَبَّلَ دُعَاءَ ﴿٣٥﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٣٦﴾^(١).

﴿٣٥﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام في هذه الحالة الجميلة. ﴿إذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد﴾؛ أي: الحرم ﴿آمناً﴾: فاستجاب الله دعاءه شرعاً وقدرًا، فحرمه الله في الشرع، ويسر من أسباب حرمة قدرًا ما هو معلوم، حتى إنه لم يرده ظالم بسوء إلا قصمه الله؛ كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم. ولما دعا له بالأمن؛ دعا له ولبنيه بالأمن، فقال: ﴿واجنبني وبني أن نعبد الأصنام﴾؛ أي: اجعلني وإياهم جانباً بعيداً عن عبادتها والإلمام بها.

﴿٣٦﴾ ثم ذكر الموجب لخوفه عليه وعلى بنيه بكثرة من افتتن وابتلي بعبادتها. فقال: ﴿رب إنهن أضللن كثيراً من الناس﴾؛ أي: ضلوا بسببها، ﴿فمن تبعني﴾: على ما جئت به من التوحيد والإخلاص لله رب العالمين ﴿فإنه مني﴾: لتمام الموافقة، ومن أحب قوماً وتبعهم؛ التحق بهم. ﴿ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾: وهذا من شفقة الخليل عليه الصلاة والسلام؛ حيث دعا للعاصين بالمغفرة والرحمة من الله، والله تبارك وتعالى أرحم منه بعباده، لا يعذب إلا من تمرد عليه.

﴿٣٧﴾ ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتني بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم﴾: وذلك أنه أتى بهاجر أم إسماعيل وبابنها إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو في الرضاع من الشام حتى وضعهما في مكة، وهي إذ ذاك ليس فيها سكن ولا داع ولا مجيب، فلما وضعهما؛ دعا ربه بهذا الدعاء، فقال متضرعاً متوكلاً على ربه: رب ﴿إني أسكنت من ذريتني﴾؛ أي: لا كل ذريتني؛ لأن إسحاق في الشام وباقي بنيه كذلك، وإنما أسكن في مكة إسماعيل وذريته. وقوله: ﴿بوادٍ غير ذي زرع﴾؛ أي: لأن أرض مكة لا تصلح للزراعة. ﴿ربنا ليقيموا الصلاة﴾؛ أي: اجعلهم موحدين مقيمين الصلاة؛ لأن إقامة الصلاة من أخص وأفضل العبادات الدينية؛ فمن أقامها كان مقيماً لدينه. ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾؛ أي: تحبهم وتحب الموضوع الذي هم ساكنون فيه. فأجاب الله دعاءه، فأخرج من ذرية إسماعيل محمداً ﷺ، حتى دعا ذريته إلى الدين الإسلامي وإلى ملة أبيهم إبراهيم، فاستجابوا له وصاروا مقيمي الصلاة. وافترض الله حج هذا البيت الذي أسكن به ذريته

(١) الآيات ما بين المعقوفتين زيادة على النسختين.

إبراهيم، وجعل فيه سرًا عجيباً جاذباً للقلوب؛ فهي تحبُّه ولا تقضي منه وطراً على الدوام، بل كلما أكثر العبد التردد إليه؛ ازداد شوقه وعظم ولعه وتوقُّه، وهذا سرُّ إضافته تعالى إلى نفسه المقدسة. ﴿وارزُقْهُمْ من الثمرات لعلَّهم يشكرون﴾: فأجاب الله دعاءه، فصار يُجيب إليه ثمرات كل شيء؛ فإنك ترى مكة المشرفة كلَّ وقت، والثمار فيها متوفرة، والأرزاق تتوالى إليها من كل جانب.

﴿٣٨﴾ ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُغْلِي﴾؛ أي: أنت أعلم بنا منا، فنسألك من تدبيرك وتربيتك لنا أن تيسر لنا من الأمور التي نعلمها والتي لا نعلمها ما هو مقتضى علمك ورحمتك. ﴿وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء﴾: ومن ذلك هذا الدعاء الذي لم يقصِّد به الخليل إلا الخير وكثرة الشكر لله رب العالمين.

﴿٣٩﴾ ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق﴾: فهبتهم من أكبر النعم، وكونهم على الكبر في حال الإياس من الأولاد نعمة أخرى، وكونهم أنبياء صالحين أجل وأفضل. ﴿إن ربي لسميع الدعاء﴾؛ أي: لقريب الإجابة ممن دعاه، وقد دعوته فلم يخيب رجائي.

﴿٤٠ - ٤١﴾ ثم دعا لنفسه ولذريته، فقال: ﴿رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾: فاستجاب الله له في ذلك كله؛ إلا أن دعاءه لأبيه إنما كان عن موعدة وعدها إيَّاه، فلما تبين له أنه عدو لله؛ تبرأ منه.

ثم قال تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبِ أَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ۚ مُهْطِعِينَ مُقْنِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ۝﴾ (٤٢).

﴿٤٢﴾ هذا وعيدٌ شديد للظالمين وتسلية للمظلومين؛ يقول تعالى: ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون﴾: حيث أمهلهم وأدر عليهم الأرزاق وتركهم يتقلبون في البلاد آمنين مطمئنين؛ فليس في هذا ما يدل على حسن حالهم؛ فإن الله يُملي للظالم ويُمهله ليزداد إثماً، حتى إذا أخذه؛ لم يُفلته، وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد. والظلم ها هنا يشمل الظلم فيما بين العبد وربِّه وظلمه لعباد الله. ﴿إنما يؤخِّرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾؛

أي: لا تطرف من شدة ما ترى من الأهوال وما أزعجها من القلاقل.

﴿٤٣﴾ ﴿مُهْطِعِينَ﴾؛ أي: مسرعين إلى إجابة الداعي حين يدعوهم إلى الحضور بين يدي الله للحساب، لا امتناع لهم ولا محيص ولا ملجأ، ﴿مُقْنَعِي رُؤُوسِهِمْ﴾؛ أي: رافعيها، قد غُلَّتْ أيديهم إلى الأذقان، فارتفعت لذلك رؤوسهم، ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْثَدْتُهُمْ هَوَاءً﴾؛ أي: أفثدتهم فارغة من قلوبهم، قد صعدت إلى الحناجر، لكنّها مملوءة من كل همّ وغمّ وحزن وقلق.

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجْتِبِ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْلَمْ نَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَكَانَتْ لَكُمْ فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَرْزُلُوا مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٤﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾؛ أي: صف لهم صفة تلك الحال، وحذّره من الأعمال الموجبة للعذاب، الذي حين يأتي في شدائده وقلقله، فيقول الذين ظلموا بالكفر والتكذيب وأنواع المعاصي، نادمين على ما فعلوا، سائلين للرجعة في غير وقتها: ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾؛ أي: رُدُّنا إلى الدنيا؛ فإنّا قد أبصرنا؛ ﴿نَجْتِبِ دَعْوَتَكَ﴾: والله يدعو إلى دار السلام، ﴿وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾: وهذا كله لأجل التخلص من العذاب الأليم، وإلا؛ فهم كذّبة في هذا الوعد؛ فلو رُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه، ولهذا يوبّخون ويقال لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾: عن الدنيا وانتقال إلى الآخرة؛ فها قد تبين لكم حتكم في إقسامكم وكذبكم فيما تدعون.

﴿٤٥﴾ ﴿و﴾ ليس عليكم قاصر في الدنيا من أجل الآيات البينات، بل ﴿سَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾: من أنواع العقوبات، وكيف أحلّ الله بهم العقوبات حين كذبوا بالآيات البينات، ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾: الواضحة التي لا تدع أدنى شك في القلب إلا أزالته، فلم تنفع فيكم تلك الآيات، بل أعرضتم ودمتم على باطلكم، حتى صار ما صار، ووصلتم إلى هذا اليوم الذي لا ينفع فيه اعتذار من يعتذر بباطل.

﴿٤٦﴾ ﴿وَقَدْ مَكَرُوا﴾؛ أي: المكذبون للرسول ﴿مَكَرَهُمْ﴾: الذي وصلت

إراداتهم وقدرهم عليه، ﴿وعند الله مكرهم﴾؛ أي: هو محيطٌ به علماً وقدرَةً، فإنه عاد مكرهم عليهم، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله. ﴿وإن كان مكرهم لَنَزُولَ منه الجبال﴾؛ أي: ولقد كان مكرُ الكفار المكذِّبين للرسَل بالحق وبمن جاء به من عظمه لَنَزُولِ الجبالِ الراسيات بسببه عن أماكنها؛ أي: مكروا مكرًا كِبَارًا لا يُقَادَرُ قَدْرُهُ، ولكن الله ردَّ كيدهم في نحورهم. ويدخل في هذا كلُّ مَنْ مكر من المخالفين للرسَل لينصر باطلاً أو يبطل حقًا، والقصد أن مكرهم لم يغن عنهم شيئاً ولم يضرُّوا الله شيئاً، وإنما ضروا أنفسهم.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قِطْرٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ الْوَاحِدُ وَلِيَذَّكَّرَ أَزْوَاجُ الْأَنْبِيَاءِ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿٤٧﴾ يقول تعالى: ﴿فلا تحسبنَّ الله مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾: بنجاتهم ونجاة أتباعهم وسعادتهم، وإهلاك أعدائهم وخذلانهم في الدنيا وعقابهم في الآخرة؛ فهذا لا بدَّ من وقوعه؛ لأنَّه وعد به الصادق قولاً على السنة أصدق خلقه، وهم الرسل، وهذا أعلى ما يكون من الأخبار، خصوصاً وهو مطابقٌ للحكمة الإلهية والسنن الربانية وللعقول الصحيحة، والله تعالى لا يعجزه شيء؛ فإنه ﴿عزیز ذو انتقام﴾؛ أي: إذا أراد أن ينتقم من أحد؛ فإنه لا يفوته ولا يعجزه، وذلك في يوم القيامة.

﴿٤٨﴾ ﴿يوم تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾: تُبَدَّلُ غَيْرَ السَّمَاوَاتِ، وهذا التبديل تبديل صفات لا تبديل ذات؛ فإنَّ الأرض يوم القيامة تُسَوَّى وتُمدَّد كمدِّ الأديم، ويلقى ما على ظهرها من جبل ومَعْلَمٍ، فتصير قاعاً صافصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، وتكون السماء كالمهل من شدة أهوال ذلك اليوم، ثم يطويها الله تعالى بيمينه. ﴿وبرزوا﴾؛ أي: الخلائق من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم في محلٍّ لا يخفى منهم على الله شيء، ﴿لله الواحد القهار﴾؛ أي: المنفرد بعظمته وأسمائه وصفاته وأفعاله العظيمة وقهره لكلِّ العوالم؛ فكلُّها تحت تصرُّفه وتدبيره؛ فلا يتحرَّك منها متحرِّك، ولا يسكن ساكنٌ إلا بإذنه.

﴿٤٩﴾ ﴿وترى المجرمين﴾؛ أي: الذين وصفهم الإجماع وكثرة الذنوب في

ذَٰلِكَ الْيَوْمَ، ﴿مَقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾؛ أَي: يُسَلْسَلُ كُلُّ أَهْلِ عَمَلٍ مِنَ الْمَجْرِمِينَ بِسَلْسَلٍ مِنْ نَارٍ، فَيُقَادُونَ إِلَى الْعَذَابِ فِي أَذَلِّ صُورَةٍ وَأَشْنَعِهَا وَأَبْشَعِهَا.

﴿٥٠﴾ ﴿سَرَابِيلُهُمْ﴾؛ أَي: ثِيَابُهُمْ ﴿مِنْ قَطْرَانٍ﴾: وَذَٰلِكَ لَشِدَّةِ اشْتِعَالِ النَّارِ فِيهِمْ وَحَرَارَتِهَا وَنَتْنِ رِيحِهَا، ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمْ﴾: الَّتِي هِيَ أَشْرَفُ مَا فِي أَبْدَانِهِمْ ﴿النَّارُ﴾؛ أَي: تَحِيطُ بِهَا، وَتَصْلَاهَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَغَيْرِ الْوُجُوهِ مِنْ بَابِ أُولَىٰ وَأُخْرَىٰ.

﴿٥١﴾ وَلَيْسَ هَٰذَا ظَلَمًا مِنَ اللَّهِ [لَهُمْ]، وَإِنَّمَا هُوَ جَزَاءٌ لِمَا قَدَّمُوا وَكَسَبُوا، وَلِهَٰذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيَجْزِيَنَّ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾: مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ بِالْعَدْلِ وَالْقِسْطِ الَّذِي لَا جَوْرَ فِيهِ بَوَاحٍ مِنَ الْوُجُوهِ. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾، وَيُحْتَمَلُ أَنْ مَعْنَاهُ سَرِيعُ الْمَحَاسَبَةِ؛ فَيَحَاسِبُ الْخَلْقَ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ كَمَا يَرْزُقُهُمْ وَيُدَبِّرُهُمْ بِأَنْوَاعِ التَّدَابِيرِ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ، لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ، وَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِعَسِيرٍ عَلَيْهِ.

﴿٥٢﴾ فَلَمَّا بَيَّنَّ الْبَيَانَ الْمُبِينِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ؛ قَالَ فِي مَدْحِهِ: ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾؛ أَي: يَتَبَلَّغُونَ بِهِ وَيَتَزَوَّدُونَ إِلَى الْوُصُولِ إِلَى أَعْلَى الْمَقَامَاتِ وَأَفْضَلِ الْكِرَامَاتِ؛ لِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَصُولِ وَالْفُرُوعِ وَجَمِيعِ الْعُلُومِ الَّتِي يَحْتَاجُهَا الْعِبَادُ، ﴿وَلِيُنذِرُوا بِهِ﴾: لِمَا فِيهِ مِنَ التَّرْهيبِ مِنْ أَعْمَالِ الشَّرِّ وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِهَا مِنَ الْعِقَابِ، ﴿وَلِيُعَلِّمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾: حَيْثُ صَرَفَ فِيهِ مِنَ الْأَدَلَّةِ وَالْبَرَاهِينِ عَلَى الْوَهْيِيَّةِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ مَا صَارَ ذَٰلِكَ حَقَّ الْيَقِينِ، ﴿وَلِيَذْكُرُوا أُولَ الْأَلْبَابِ﴾؛ أَي: الْعُقُولَ الْكَامِلَةَ مَا يَنْفَعُهُمْ فَيَفْعَلُونَهُ وَمَا يَضُرُّهُمْ فَيَتْرَكُونَهُ، وَبِذَٰلِكَ صَارُوا أُولَى الْأَلْبَابِ وَالْبَصَائِرِ؛ إِذْ بِالْقُرْآنِ أَزْدَادَتْ مَعَارِفَهُمْ وَأَرَأَوْهُمْ، وَتَنَوَّرَتْ أَفْكَارُهُمْ لَمَّا أَخَذُوهُ غَضًّا طَرِيًّا؛ فَإِنَّهُ لَا يَدْعُو إِلَّا إِلَى أَعْلَى الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ وَأَفْضَلِهَا، وَلَا يَسْتَدِلُّ عَلَى ذَٰلِكَ إِلَّا بِأَقْوَى الْأَدَلَّةِ وَأَبْيَنِهَا، وَهَٰذِهِ الْقَاعِدَةُ إِذَا تَدَرَّبَ بِهَا الْعَبْدُ الذَّكِيُّ؛ لَمْ يَزَلْ فِي صَعُودِ رُفْقِي عَلَى الدَّوَامِ فِي كُلِّ خَصْلَةٍ حَمِيدَةٍ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

تم تفسير سورة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام.



تفسير سورة الحجر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ① رَبِّمَا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ② ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْتَبِعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ③ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ④ مَا نَسِيقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ⑤﴾ .

﴿١﴾ يقول تعالى معظماً لكتابه مادحاً له: ﴿تلك آيات الكتاب﴾؛ أي: الآيات الدالة على أحسن المعاني وأفضل المطالب، ﴿وقرآن مبين﴾: للحقائق بأحسن لفظ وأوضحه وأدله على المقصود.

﴿٢﴾ وهذا مما يوجب على الخلق الانقياد إليه والتسليم لحكمه وتلقيه بالقبول والفرح والسرور، فأما من قابل هذه النعمة العظيمة بردها والكفر بها؛ فإنه من المكذبين الضالين، الذين سيأتي عليهم وقت يتمنون أنهم مسلمون؛ أي: منقادون لأحكامه، وذلك حين ينكشف الغطاء وتظهر أوائل الآخرة ومقدمات الموت؛ فإنهم في أحوال الآخرة كلها يتمنون أنهم مسلمون، وقد فات وقت الإمكان، ولكنهم في هذه الدنيا مغترون.

﴿٣﴾ ف﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا﴾: بلذاتهم، ﴿ويلهمهم الأمل﴾؛ أي: يؤملون البقاء في الدنيا فيلهيهم عن الآخرة، ﴿فسوف يعلمون﴾: أن ما هم عليه باطل، وأن أعمالهم ذهبت خسراناً عليهم، ولا يغترون بإمهال الله تعالى؛ فإن هذه سنته في الأمم.

﴿٤﴾ ﴿وما أهلكنا من قرية﴾: كانت مستحقة للعذاب، ﴿إلا ولها كتاب معلوم﴾: مقدر لإهلاكها.

﴿٥﴾ ﴿ما نسيق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾: وإلا؛ فالذنوب لا بد من وقوع أثرها وإن تأخر.

﴿وقالوا يتأتى الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ⑥ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ⑦ مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ⑧ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ⑨﴾ .

﴿٦﴾ أي: وقال المكذبون لمحمد ﷺ استهزاء وسخرية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾: على زعمك، ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾: إذ تظنُّ أنا سنتبعك ونترك ما وجدنا عليه آباءنا لمجرد قولك.

﴿٧ - ٨﴾ ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾: يشهدون لك بصحة ما جئت به، ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾: فلما لم تأت بالملائكة؛ فلست بصادق. وهذا من أعظم الظلم والجهل: أما الظلم؛ فظاهر؛ فإنَّ هذا تجرؤ على الله وتعنت بتعيين الآيات التي لم يختزها، وحصل المقصود والبرهان بدونها من الآيات الكثيرة الدالة على صحة ما جاء به. وأما الجهل؛ فلأنهم جهلوا مصلحتهم من مضرَّتهم؛ فليس في إنزال الملائكة خيرٌ لهم، بل لا ينزل الله الملائكة إلا بالحق الذي لا إمهال على من لم يتَّبعه وينقذ له. ﴿وَمَا كَانُوا إِذَا﴾؛ أي: حين تنزل الملائكة إن لم يؤمنوا ولن يؤمنوا، ﴿مُنْظَرِينَ﴾؛ أي: بمُنْهَلِينَ، فصار طلبهم لإنزال الملائكة تعجلاً لأنفسهم بالهلاك والدمار؛ فإن الإيمان ليس في أيديهم، وإنما هو بيد الله، ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَخَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾.

﴿٩﴾ ويكفيهم من الآيات إن كانوا صادقين هذا القرآن العظيم، ولهذا قال هنا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾؛ أي: القرآن الذي فيه ذكرى لكل شيء من المسائل والدلائل الواضحة، وفيه يتذكر من أراد التذكر. ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾؛ أي: في حال إنزاله وبعد إنزاله؛ ففي حال إنزاله حافظون له من استراق كل شيطان رجيـم، وبعد إنزاله أودعه الله في قلب رسوله واستودعَه في قلوب أمته وحفظَ الله ألفاظه من التغيير فيها والزيادة والنقص ومعانيه من التبديل؛ فلا يحرف محرفٌ معنى من معانيه إلا وقبض الله له من بين الحق المبين، وهذا من أعظم آيات الله ونعمه على عباده المؤمنين، ومن حفظه أن الله يحفظ أهله من أعدائهم، ولا يسلط عليهم عدواً يجاتحهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١١﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٢﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُكُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٠﴾ يقول تعالى لنبيه إذ كذبه المشركون: لم يزل هذا دأب الأمم الخالية والقرون الماضية، فقد أرسلنا ﴿قبلك في شيع الأولين﴾؛ أي: فرقهم وجماعتهم رسلاً.

﴿١١﴾ ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ﴾: يدعوهم إلى الحق والهدى، ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

﴿١٢ - ١٣﴾ ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ﴾؛ أي: ندخل التكذيب ﴿فِي قُلُوبِ الْمَجْرِمِينَ﴾؛ أي: الذين وصفهم الظلم والبُهت، عاقبناهم لما تشابهت قلوبهم بالكفر والتكذيب تشابهت معاملتهم لأتبيائهم ورسلمهم بالاستهزاء والسخرية وعدم الإيمان، ولهذا قال: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: عادة الله فيهم بإهلاك مَنْ لم يؤمن بآيات الله.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ ﴿١٥﴾.

﴿١٤ - ١٥﴾ أي: ولو جاءتهم كل آية عظيمة؛ لم يؤمنوا وكابروها، ﴿فَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾: فصاروا يعرجون فيه ويشاهدونه عياناً بأنفسهم؛ لقالوا من ظلمهم وعنادهم منكبين لهذه الآية: ﴿إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾؛ أي: أصابها سكر وغشاوة حتى رأينا ما لم نَر. ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾؛ أي: ليس هذا بحقيقة، بل هذا سحر. وقوم وصلت بهم الحال إلى هذا الإنكار؛ فإنهم لا مطمع فيهم ولا رجاء.

ثم ذكر الآيات الدالات على ما جاءت به الرسل من الحق فقال:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿إِلَّا مِنْ أَسْفَرٍ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ تُبِيخٌ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ ﴿١٩﴾ ﴿وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِيهَا مَعْيِشًا وَمَنْ لَشَيْءٍ لَهُمْ يَرْزُقِينَ﴾ ﴿٢٠﴾.

﴿١٦﴾ يقول تعالى مبيناً كمال اقتداره ورحمته بخلقه: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾؛ أي: نجومًا كالأبراج والأعلام العظام يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾: فإنه لولا النجوم؛ لما كان للسماء هذا المنظر البهي والهيئة العجيبة، وهذا مما يدعو الناظرين إلى التأمل فيها والنظر في معانيها والاستدلال بها على بارئها.

﴿١٧﴾ ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾: إذا استرق السمع؛ اتبعته الشهب الثواقب، فبقيت السماء ظاهرها مجملٌ بالنجوم النيرات، وباطنها محروسٌ ممنوعٌ من الآفات.

﴿١٨﴾ ﴿إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَّ السَّمْعَ﴾؛ أي: [إِلَّا] في بعض الأوقات قد يسترق بعض الشياطين السمع بخفية واختلاس. ﴿فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مَبِينٌ﴾؛ أي: بين منير يقتله أو يخيله؛ فربما أدركه الشهاب قبل أن يوصلها الشيطان إلى وليه فينقطع خبر السماء عن الأرض، وربما ألقاها إلى وليه قبل أن يدركه الشهاب، فيضمها، ويكذب معها مائة كذبة، ويستدل بتلك الكلمة التي سمعت من السماء.

﴿١٩﴾ ﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا﴾؛ أي: وسعناها سعة يتمكن الآدميون والحيوانات كلها من الامتداد بأرجائها والتناول من أرزاقها والسكون في نواحيها. ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِي﴾؛ أي: جبلاً عظيماً تحفظ الأرض بإذن الله أن تמיד وتثبتها أن تزول. ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾؛ أي: نافع متقوم يضطر إليه العباد والبلاد ما بين نخيل وأعناب وأصناف الأشجار وأنواع النبات والمعادن.

﴿٢٠﴾ ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾: من الحرث ومن الماشية ومن أنواع المكاسب والحرث، ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾؛ أي: أنعمنا عليكم بعبيد وإماء وأنعام لنفعكم ومصالحكم، وليس عليكم رزقها، بل خولكم الله إياها، وتكفل بأرزاقها.

﴿وَأِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (٢١).

﴿٢١﴾ أي: جميع الأرزاق وأصناف الأقدار لا يملكها أحد إلا الله؛ فخزائنها بيده، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء بحسب حكمته ورحمته الواسعة. ﴿وَمَا نُنْزِلُهُ﴾؛ أي: المقدر من كل شيء من مطر وغيره، ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾: فلا يزيد على ما قدره الله، ولا ينقص منه.

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحٍ قَانِئًا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاسْقَيْنَكُمْوهُ وَمَا أَنتُمْ بِخَارِئِينَ﴾ (٢٢).

﴿٢٢﴾ أي: وسخرنا الرياح رباح الرحمة تُلْقِجُ السحاب كما يُلْقِجُ الذكر الأنثى، فينشأ عن ذلك الماء بإذن الله، فيسقيه الله العباد ومواسيهم وأرضهم، ويبقي في الأرض مدخراً لحاجاتهم وضروراتهم ما هو مقتضى قدرته ورحمته. ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَارِئِينَ﴾؛ أي: لا قدرة لكم على خزنه وادخاره، ولكن الله يخزنه لكم ويسلكه ينابيع في الأرض رحمة بكم وإحساناً إليكم.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ شَيْءٌ وَنُيُتٌ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخْرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥).

﴿٢٣ - ٢٥﴾ أي: هو وحده لا شريك له الذي يحيي الخلق من العدم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ويميتهم لأجالهم التي قدرها، ﴿ونحن الوارثون﴾؛ كقوله: ﴿إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون﴾: وليس ذلك بعزيز ولا ممتنع على الله؛ فإنه تعالى يعلم المستقدمين من الخلق والمستأخرين منهم، ويعلم ما تنقُصُ الأرض منهم وما تفرِّقُ من أجزائهم، وهو الذي قدرته لا يعجزها معجز، فيعيد عباده خلقاً جديداً، ويحشرهم إليه. ﴿إنه حكيم﴾: يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، ويجازي كلَّ عامل بعمله: إن خيراً؛ فخير، وإن شراً؛ فشر.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ (٢٦) ﴿وَالْبَلَاءَ خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ (٢٧) ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ (٢٨) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (٢٩) ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (٣٠) ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ (٣١) ﴿قَالَ يَبْئِيسَ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ (٣٢) ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتُهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ (٣٣) ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (٣٤) ﴿وإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِنْ يَوْمَ الَّذِينَ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٣٥) ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (٣٦) ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ (٣٧) ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٣٨) ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٣٩) ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٤٠) ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (٤١) ﴿وإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٢) ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ (٤٣).

يذكر تعالى نعمته وإحسانه على أبينا آدم عليه السلام، وما جرى من عدوه إبليس، وفي ضمن ذلك التحذير لنا من شره وفتنته، فقال تعالى:

﴿٢٦﴾ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾؛ أي: آدم عليه السلام ﴿مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾؛ أي: من طين قد ييس بعدما حُمِرَ حتى صار له صَلْصَلَةٌ وصوت كصوت الفخار. والحمأ المسنون: الطين المتغير لونه وريحه من طول مكثه.

﴿٢٧﴾ ﴿وَالْجَانَّ﴾: وهو أبو الجن؛ أي: إبليس، ﴿خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾: خلق آدم، ﴿مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾؛ أي: من النار الشديدة الحرارة.

﴿٢٨ - ٢٩﴾ فلما أراد الله خلق آدم؛ قال للملائكة: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾. فإذا سَوَّيْتُهُ؛ جسداً تاماً، ﴿ونفختُ فيه من روحي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾.

﴿٣٠ - ٣١﴾ فامثلوا أمر ربهم، ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾: تأكيد بعد تأكيد؛ ليدل على أنه لم يتخلف منهم أحد، وذلك تعظيماً لأمر الله وإكراماً لآدم حيث عَلِمَ ما لم يعلموا. ﴿إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين﴾: وهذه أول عداوته لآدم وذريته.

﴿٣٢ - ٣٣﴾ ﴿قال﴾: الله: ﴿يا إبليس ما لك ألا تكون مع الساجدين. قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون﴾: فاستكبر على أمر الله، وأبدى العداوة لآدم وذريته، وأعجب بعنصره، وقال: أنا خير من آدم.

﴿٣٤ - ٣٥﴾ ﴿قال﴾ الله معاقباً له على كفره واستكباره: ﴿فاخرج منها فإنك رجيم﴾؛ أي: مطرود ومبعد من كل خير، ﴿وإن عليك اللعنة﴾؛ أي: الذم والعيب والبعد عن رحمة الله ﴿إلى يوم الدين﴾. فيها وما أشبهها دليل على أنه سيستمر على كفره وبعده من الخير.

﴿٣٦ - ٣٨﴾ ﴿قال رب فأنظرني﴾؛ أي: أمهلني ﴿إلى يوم يبعثون. قال فإنك من المنظرين. إلى يوم الوقت المعلوم﴾: وليس إجابة الله لدعائه كرامة في حقه، وإنما ذلك امتحاناً وابتلاءً من الله له وللعباد؛ ليتبين الصادق الذي يطيع مولاه دون عدوه ممن ليس كذلك، ولذلك حذرنا منه غاية التحذير، وشرح لنا ما يريده مثلاً.

﴿٣٩﴾ ﴿قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض﴾؛ أي: أزين لهم الدنيا، وأدعوهم إلى إثارتها على الأخرى، حتى يكونوا متقادين لكل معصية، ﴿ولأغوينهم أجمعين﴾؛ أي: أصدهم كلهم عن الصراط المستقيم، ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾؛ أي: الذين أخلصتهم، واجتبتهم لإخلاصهم وإيمانهم وتوكلهم.

﴿٤٠﴾ قال الله: ﴿هذا صراط علي مستقيم﴾؛ أي: معتدل موصل إلي وإلى دار كرامتي.

﴿٤١﴾ ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾: تميلهم به إلى ما تشاء من أنواع الضلالات بسبب عبوديتهم لربهم وانقيادهم لأوامره، أعانهم الله وعصمهم من الشيطان.

﴿٤٢﴾ ﴿إلا من أتبعك﴾: فرضي بولايتك وطاعتك بدلاً من طاعة الرحمن، ﴿من الغاوين﴾: والغاوي ضد الراشد؛ فهو الذي عرف الحق وتركه، والضال الذي تركه من غير علم منه به.

﴿٤٣﴾ ﴿وإن جهنم لموعدهم أجمعين﴾؛ أي: إبليس وجنوده.

﴿٤٤﴾ ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾: كل باب أسفل من الآخر. ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ﴾؛ أي: من أتباع إبليس ﴿جَزَاءٌ مَقْسُومٌ﴾: بحسب أعمالهم؛ قال تعالى: ﴿فَكُتِبُوا فِيهَا مِنْهُمْ﴾ والغاوون وجنود إبليس أجمعون.

ولما ذكر تعالى ما أعد لأعدائه أتباع إبليس من النكال والعذاب الشديد؛ ذكر ما أعد لأوليائه من الفضل العظيم والنعيم المقيم، فقال:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ نَبَتْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٤٥﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾: الذين اتقوا طاعة الشيطان وما يدعوهم إليه من جميع الذنوب والعصيان، ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾: قد احتوت على جميع الأشجار، وأينعت فيها جميع الثمار اللذيذة في جميع الأوقات.

﴿٤٦﴾ ويقال لهم حال دخولها: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ﴾: من الموت والنوم والنَّصَب واللُّغُوب وانقطاع شيء من النعيم الذي هم فيه أو نقصانه ومن المرض والحزن والهَمِّ وسائر المكدرات.

﴿٤٧﴾ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾: فتبقى قلوبهم سالمة من كل غلٍّ^(١) وحسد متصافية متحابّة، ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾: دل ذلك على تزاورهم واجتماعهم وحسن أدبهم فيما بينهم في كون كل منهم مقابلاً للآخر لا مستدبراً له، متكئين على تلك السُرر المزينة بالفرش واللؤلؤ وأنواع الجواهر.

﴿٤٨﴾ ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾: لا ظاهر ولا باطن، وذلك لأن الله ينشئهم نشأة وحياء كاملة لا تقبل شيئاً من الآفات. ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾: على سائر الأوقات.

﴿٤٩﴾ [ولما ذكر ما يوجب الرغبة والرغبة من مفعولات الله من الجنة والنار؛ ذكر ما يوجب ذلك من أوصافه تعالى] فقال: ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي﴾؛ أي: أخبرهم خبراً جازماً مؤيداً بالأدلة، ﴿أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته ومغفرته؛ سعوا بالأسباب^(٢) الموصلة لهم إلى رحمته، وأقلعوا عن الذنوب وتابوا منها؛ لينالوا مغفرته.

في (ب): «في الأسباب».

(١) في (ب): «دغل».

﴿٥٠﴾ ومع هذا؛ فلا ينبغي أن يتمادى بهم الرجاء إلى حال الأمن والإدلال؛ فنبتهم ﴿أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾؛ أي: لا عذاب في الحقيقة إلا عذاب الله الذي لا يقادَرُ قَدْرُهُ ولا يُبْلَغُ كُنْهُهُ، نعوذ به من عذابه؛ فإنهم إذا عرفوا أن^(١) لا يعذب عذابه أحدٌ ولا يوثق وثاقه أحدٌ؛ حذروا وأبعدوا عن كل سبب يوجب لهم العقاب.

فالعبد ينبغي أن يكون قلبه دائماً بين الخوف والرجاء والرغبة والرهبة؛ فإذا نظر إلى رحمة ربه ومغفرته وجوده وإحسانه؛ أحدث له ذلك الرجاء والرغبة، وإذا نظر إلى ذنوبه وتقصيره في حقوق ربه؛ أحدث له الخوف والرهبة والإقلاع عنها.

﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشْرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَاطِلِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾

﴿٥١﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾؛ أي: عن تلك القصة العجيبة؛ فإن في قصصك عليهم أنباء الرسل وما جرى لهم ما يوجب لهم العبرة والافتداء بهم، خصوصاً إبراهيم الخليل، الذي أمرنا الله أن نتبع ملته، وضيفه هم الملائكة الكرام، أكرمه الله بأن جعلهم أضيافه.

﴿٥٢﴾ ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾؛ أي: سلموا عليه فرد عليهم، ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾؛ أي: خائفون؛ لأنه لما دخلوا عليه، وحسبهم ضيوفاً؛ ذهب مسرعاً إلى بيته، فأحضر لهم ضيافتهم عجلًا حينئذ، فقدمه إليهم، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه؛ خاف منهم أن يكونوا لصوصاً أو نحوهم فقالوا له:

﴿٥٣﴾ ﴿لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾: وهو إسحاق عليه الصلاة والسلام. تضمنت هذه البشارة بأنه ذكرٌ لا أنثى. ﴿عليم﴾؛ أي: كثير العلم. وفي الآية الأخرى: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿٥٤﴾ ﴿قَالَ﴾ لهم متعجباً من هذه البشارة: ﴿أَبَشْرْتُمُونِي﴾: بالولد ﴿على أن مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾: وصار نوع إياس منه. ﴿فبِمَ تَبَشِّرُونَ﴾؛ أي: على أي وجه تبشرون وقد عدت الأسباب؟!

(١) في (ب): «أنه».

﴿٥٥﴾ ﴿قَالُوا بِشْرُكَائِكَ بِالْحَقِّ﴾: الذي لا شك فيه؛ لأن الله على كل شيء قدير، وأنتم بالخصوص يا أهل هذا البيت، رحمة الله وبركاته عليكم؛ فلا يُستغْرَبُ فضل الله وإحسانه إليكم. ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾: الذين يستبعدون وجود الخير، بل لا تزال راجياً لفضل الله وإحسانه وبره وامتنانه.

﴿٥٦﴾ ﴿فَأَجَابَهُمْ إِبْرَاهِيمُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾: الذين لا علم لهم برَبِّهم وكمال اقتداره، وأما مَنْ أنعم الله عليه بالهداية والعلم العظيم؛ فلا سبيل إلى القنوط إليه؛ لأنه يعرف من كثرة الأسباب والوسائل والطرق لرحمة الله شيئاً كثيراً.

ثم لما بشروه بهذه البشارة؛ عَرَفَ أَنَّهُمْ مَرْسَلُونَ لِأَمْرِ مِهِم.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (٥٧) ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ (٥٨) ﴿إِلَّا عَالِ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجِّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٥٩) ﴿إِلَّا أَمْرَانَهُ قَدَرْنَا إِنَّا لَمِنَ الْغَافِرِينَ﴾ (٦٠) ﴿فَلَمَّا جَاءَ عَالِ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٦١) ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ (٦٢) ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٦٣) ﴿وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَمُصَدِّقُونَ﴾ (٦٤) ﴿فَأَسِرْ بِأَهْلِكَ يَقْطَعُ مِنَ النَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَذْبَنَهُمْ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ (٦٥) ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُفَصَّحِينَ﴾ (٦٦) ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٦٧) ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ (٦٨) ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَكْفُرُوا﴾ (٦٩) ﴿قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكْ عَنِ الْمَعْلَمِينَ﴾ (٧٠) ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (٧١) ﴿لَعَنَّاكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ كَافِرِينَ﴾ (٧٢) ﴿فَأَخَذْتُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ﴾ (٧٣) ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ جِبَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ (٧٤) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ (٧٥) ﴿وَإِنَّهَا لِسَبِيلٍ مُّقْبِرٍ﴾ (٧٦) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٧).

﴿٥٧﴾ أي: ﴿قال﴾ الخليل عليه السلام للملائكة: ﴿فما خطبكم أيها المرسلون؟ أي: ما شأنكم؟ ولأي شيء أرسلتم؟!﴾

﴿٥٨﴾ ﴿قالوا﴾ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ؛ أي: كثر فسادهم وعظم شرهم لنعذبهم ونعاقبهم.

﴿٥٩ - ٦٠﴾ ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾؛ أي: إِلَّا لوطاً وأهله، ﴿إِلَّا أَمْرَانَهُ قَدَرْنَا أَنَّا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾؛ أي: الباقيين بالعذاب، وأما لوط؛ فَسُخِّرَ جَنَّتُهُ وَأَهْلُهُ وَنَجَّيَهُمْ مِنْهَا. فجعل إبراهيم يجادل الرسل في إهلاكهم ويراجعهم، فقليل له: ﴿يا إبراهيم أعرض

- عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنيهم آتيهم عذاب غير مردود. فذهبوا منه.
- ﴿٦١ - ٦٢﴾ ﴿فلما جاء آل لوط المرسلون قال﴾ لهم لوط: ﴿إنكم قوم منكرون﴾؛ أي: لا أعرفكم، ولا أدري من أنتم.
- ﴿٦٣﴾ ﴿فقالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون﴾؛ أي: جئناك بعذابهم الذي كانوا يشكون فيه ويكذبونك حين تعدهم به.
- ﴿٦٤﴾ ﴿وأتيناك بالحق﴾: الذي ليس بالهزل. ﴿وإننا لصادقون﴾: فيما قلنا لك.
- ﴿٦٥﴾ ﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل﴾؛ أي: في أثنائه حين تنام العيون ولا يدري أحد عن مسراك. ﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾؛ أي: بل بادروا وأسرعوا، وامنضوا حيث تؤمرون: كأن معهم دليلاً يدلهم على أين يتوجهون.
- ﴿٦٦﴾ ﴿وقضينا إليه ذلك﴾؛ أي: أخبرناه خبراً لا مثنوية فيه، ﴿أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾؛ أي: سيصبحهم العذاب الذي يجتاحهم، ويستأصلهم.
- ﴿٦٧ - ٦٩﴾ ﴿وجاء أهل المدينة﴾؛ أي: المدينة التي فيها لوط، ﴿يستبشرون﴾؛ أي: يبشّر بعضهم بعضاً بأضياف لوط وصباحة وجوهم واقتدارهم عليهم، وذلك لقصديهم فعل الفاحشة فيهم، فجاؤوا حتى وصلوا إلى بيت لوط، فجعلوا يعالجون لوطاً على أضيافه، ولوط يستعبد منهم ويقول: ﴿إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون. واتقوا الله ولا تخزون﴾؛ أي: راقبوا الله أول ذلك، وإن كان ليس فيكم خوف من الله؛ فلا تفضحوني في أضيافي، وتشهكوا منهم الأمر الشنيع.
- ﴿٧٠﴾ ﴿فقالوا﴾ له جواباً عن قوله: ﴿ولا تخزون﴾ فقط: ﴿أولم ننهك عن العالمين﴾: أن تضيقهم، فنحن قد أندرناك، ومن أندر؛ فقد أعذر.
- ﴿٧١ - ٧٢﴾ ﴿فقال﴾ لهم لوط من شدة الأمر الذي أصابه: ﴿هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين﴾: فلم يبالوا بقوله، ولهذا قال الله لرسوله محمد ﷺ: ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾: وهذه السكره هي سكرة محبة الفاحشة التي لا يبالون معها بعذل ولا لوم.
- ﴿٧٣﴾ ﴿فلما بينت له الرسل حالهم﴾؛ زال عن لوط ما كان يجده من الضيق والكرب، فامتثل أمر ربه، وسرى بأهله ليلاً، فنجوا. وأما أهل القرية؛ ﴿فأخذتهم الصيحة مشرقين﴾؛ أي: وقت شروق الشمس؛ حين كانت العقوبة عليهم أشد.
- ﴿٧٤﴾ ﴿فجعلنا عاليها سافلها﴾؛ أي: قلبنا عليهم مدينتهم، ﴿وأمطرنا عليهم

حجارة من سجيل: تتبع فيها من شد من البلد منهم.

﴿٧٥﴾ ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾؛ أي: المتأملين المتفكرين الذين لهم فكر وروية وفراصة يفهمون بها ما أريد بذلك من أن من تجزأ على معاصي الله، خصوصاً هذه الفاحشة العظيمة، وأن الله سيعاقبهم بأشنع العقوبات؛ كما تجرؤوا على أشنع السيئات.

﴿٧٦﴾ ﴿وَأَنهَآ﴾؛ أي: مدينة قوم لوط ﴿لَبْسِيلٍ مُّقِيمٍ﴾: للسالكين، يعرفه كل من تردّد في تلك الديار.

﴿٧٧﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: وفي هذه القصة من العبر: عنايته تعالى بخليله إبراهيم؛ فإن لوطاً عليه السلام من أتباعه وممن آمن به، فكأنه تلميذ له؛ فحين أراد الله إهلاك قوم لوط حين استحققوا ذلك؛ أمر رسله أن يمرؤا على إبراهيم عليه السلام كي يشرّوه بالولد ويخبروه بما بعثوا له، حتى إنّه جادلهم عليه السلام في إهلاكهم، حتى أقنعوه، فطابت نفسه، وكذلك لوط عليه السلام، لما كانوا أهل وطنه؛ فربما أخذته الرقة عليهم والرافة بهم؛ قدر الله من الأسباب ما به يشتد غيظه وحنقه عليهم، حتى استبطأ إهلاكهم لما قيل له: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

ومنها: أن الله تعالى إذا أراد أن يهلك قرية ازداد شرهم وطغيانهم؛ فإذا انتهى؛ أوقع بهم من العقوبات ما يستحقونه.

﴿وَلَمَّا كَانَ آتُ الْآيَةِ لَطَالَيْنِ ﴿٧٨﴾ فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُنَّ وَلَاتَهُمَا لِيَمَارَ مَبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿٧٨﴾ وهؤلاء قوم شعيب، نعتهم الله وأضافهم إلى الآية، وهو البستان كثير الأشجار؛ ليذكر نعمته عليهم، وأنهم ما قاموا بها، بل جاءهم نبيهم شعيب، فدعاهم إلى التوحيد، وترك ظلم الناس في المكايل والموازين، وعالجهم على ذلك أشد المعالجة، فاستمروا على ظلمهم في حق الخالق وفي حق الخلق، ولهذا وصفهم هنا بالظلم.

﴿٧٩﴾ ﴿فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُنَّ﴾: فأخذهم عذاب يوم الظلة؛ إنه كان عذاب يوم عظيم. ﴿وَأَنهَآ﴾؛ أي: ديار قوم لوط وأصحاب الآية، ﴿لِيَمَامَ مَبِينٍ﴾؛ أي: لطريق واضح يمر بهم المسافرون كل وقت، فيبين من آثارهم ما هو مشاهد بالأبصار، فيعتبر بذلك أولو الألباب.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يُنَجِّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُضْجِعِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿٨٠﴾ يخبر تعالى عن أهل الحجر، وهم قوم صالح، الذين يسكنون الحجر المعروف في أرض الحجاز: أنهم كذبوا المرسلين؛ أي: كذبوا صالحاً، ومن كذب رسولاً؛ فقد كذب سائر الرسل لاتفاق دعوتهم، وليس تكذيب بعضهم لشخصه، بل لما جاء به من الحق، الذي اشترك جميع الرسل بالإتيان به.

﴿٨١﴾ ﴿وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا﴾: الدالة على صحة ما جاءهم به صالح من الحق التي من جملتها تلك الناقة التي هي من آيات الله العظيمة. ﴿فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾: من جملتها تلك الناقة التي هي من آيات الله العظيمة. ﴿فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾: كِبَرًا وَتَجَبُّرًا عَلَى اللَّهِ.

﴿٨٢﴾ ﴿وَكَانُوا﴾: من كثرة إناعام الله عليهم، ﴿يُنَجِّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾: من المخاوف، مطمئنين في ديارهم؛ فلو شكروا النعمة وصدقوا نبيهم صالحاً عليه السلام؛ لأدر الله عليهم الأرزاق، ولأكرمهم بأنواع من الثواب العاجل والآجل، ولكنهم لما كذبوا وعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا: ﴿يَا صَالِحُ آتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

﴿٨٣﴾ ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُضْجِعِينَ﴾: فقطعت قلوبهم في أجوافهم وأصبحوا في دارهم جائمين هلكى، مع ما يتبع ذلك من الخزي واللعنة المستمرة.

﴿٨٤﴾ ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾: لأن أمر الله إذا جاء لا يرده كثرة جنود ولا قوة أنصار ولا غزارة أموال.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْصَبْ﴾

﴿الْجَمِيلُ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾

﴿٨٥﴾ أي: ما خلقناهما عبثاً باطلاً كما يظن ذلك أعداء الله، بل ما خلقناهما إلا بالحق؛ الذي منه أن يكونا بما فيهما دالتين على كمال خالقهما واقتداره وسعة رحمته وحكمته وعلمه المحيط، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له. ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾: لا ريب فيها؛ لَخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ. ﴿فَاصْصَبْ﴾ الصَّفْحُ الْجَمِيلُ: وهو الصَّفْحُ الذي لا أذية فيه، بل يقابل

إساءة المسيء بالإحسان وذنبه بالغفران؛ لتنال من ربك جزيل الأجر والثواب؛ فإن كل ما هو آتٍ فهو قريب.

وقد ظهر لي معنى أحسن مما ذكرت هنا، وهو أن الأمور به هو الصفح الجميل؛ أي: الحسن الذي قد سلّم من الحقد والأذية القولية والفعلية، دون الصفح الذي ليس بجميل، وهو الصفح في غير محلّه؛ فلا يصفح حيث اقتضى المقام العقوبة؛ كعقوبة المعتدين الظالمين الذين لا ينفع فيهم إلا العقوبة، وهذا هو المعنى.

﴿٨٦﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ﴾: لكل مخلوق، ﴿الْعَلِيمُ﴾: بكل شيء؛ فلا يعجزه أحد من جميع ما أحاط به علمه، وجرى عليه خلقه، وذلك سائر الموجودات.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (٨٧) لَا تَمْدَنَّ عَيْنَكَ إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ [فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾] ﴿١﴾.

﴿٨٧﴾ يقول تعالى ممتثلاً على رسوله: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني﴾: وهنّ على الصحيح السور السبع الطوال: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال مع التوبة. أو أنها فاتحة الكتاب؛ لأنها سبع آيات. فيكون عطف ﴿القرآن العظيم﴾ على ذلك من باب عطف العام على الخاص؛ لكثرة ما في المثاني من التوحيد وعلوم الغيب والأحكام الجليلة وتشيتها فيها. وعلى القول بأن الفاتحة هي السبع المثاني معناها أنها سبع آيات تشي في كل ركعة.

﴿٨٨﴾ وإذا كان الله قد أعطاه القرآن العظيم مع السبع المثاني؛ كان قد أعطاه أفضل ما يتنافس فيه المتنافسون وأعظم ما فرح به المؤمنون، ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، ولذلك قال بعده: ﴿لَا تَمْدَنَّ

عينيك إلى ما متَّعنا به أزواجاً منهم؛ أي: لا تعجب إعجاباً يحملك على إشغال فكرك بشهوات الدنيا التي تمتَّع بها المترفون واغترَّ بها الجاهلون، واستغنَّ بما آتاك الله من المثاني والقرآن العظيم. ﴿ولا تحزنْ عليهم﴾: فإنَّهم لا خير فيهم يُرجى، ولا نفع يُرتَقَّب؛ فلك في المؤمنين عنهم أحسنُ البديل وأفضل العوض. ﴿واخفِضْ جناحك للمؤمنين﴾؛ أي: ألنْ لهم جانبك وحسنْ لهم خُلُقَكَ محبةً وإكراماً وتودُّداً.

﴿٨٩﴾ ﴿وقلْ إني أنا النذير المبين﴾؛ أي: قم بما عليك من النذارة وأداء الرسالة والتبليغ للقريب والبعيد والعدو والصديق؛ فإنَّك إذا فعلت ذلك؛ فليس عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء.

﴿٩٠﴾ وقوله: ﴿كما أنزلنا على المقتسمين﴾؛ أي: كما أنزلنا العقوبة على المقتسمين على بطلان ما جئت به، الساعين لصدِّ الناس عن سبيل الله.

﴿٩١﴾ ﴿الذين جعلوا القرآنَ عضين﴾؛ أي: أصنافاً وأعضاء وأجزاء يصرفونه بحسب ما يهوونه؛ فمنهم من يقول: سحر، ومنهم من يقول: كهانة، ومنهم من يقول: مفترى... إلى غير ذلك من أقوال الكفرة المكذِّبين به، الذين جعلوا قدحهم فيه؛ ليصدُّوا الناس عن الهدى.

﴿٩٢ - ٩٣﴾ ﴿فوربك لنسألنَّهم أجمعين﴾؛ أي: جميع من قدح فيه وعابه وحرَّفه وبدله، ﴿عمَّا كانوا يعملون﴾: وفي هذا أعظم تهريب وزجر لهم عن الإقامة على ما كانوا يعملون^(١).

﴿٩٤﴾ ثم أمر الله رسوله أن لا يبالي بهم ولا بغيرهم، وأن يصدِّع بما أمر الله ويعلنْ بذلك لكلِّ أحدٍ ولا يعوقنه عن أمره عائق ولا تصدِّه أقوال المتهوِّكين. ﴿وأعرض عن المشركين﴾: أي؛ لا تبال بهم، واترك مشائمتهم ومسائبهم مقبلاً على شأنك.

﴿٩٥﴾ ﴿إنَّا كفيناك المستهزئين﴾: بك وبما جئت به. ولهذا وعدَّ من الله لرسوله أن لا يضره المستهزئون، وأن يكفيه الله إيَّاهم بما شاء من أنواع العقوبة، وقد فعل تعالى: فإنَّه ما تظاهر أحدٌ بالاستهزاء برسول الله ﷺ وبما جاء به؛ إلا أهلكه الله وقتلَه شرَّ قِتْلَةٍ.

(١) في (ب): «على ما كانوا عليه».

﴿٩٦﴾ ثم ذكر وصفهم، وأنهم كما يؤذونك يا رسول الله؛ فإنهم أيضاً يؤذون الله، ﴿الذين يجعلون^(١) مع الله إلهاً آخر﴾: وهو ربهم وخالقهم ومدبرهم. ﴿فسوف يعلمون﴾: غبّ أفعالهم إذا وردوا القيامة.

﴿٩٧﴾ ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾: لك من التكذيب والاستهزاء؛ فنحن قادرون على استئصالهم بالعذاب والتعجيل لهم بما يستحقونه، ولكن الله يمهّلهم، ولا يمهّلهم.

﴿٩٨﴾ فأنت يا محمد، ﴿سبح^(٢) بحمد ربك وكن من الساجدين﴾؛ أي: أكثر من ذكر الله وتسبيحه وتحميده والصلاة؛ فإن ذلك يوسع الصدر ويشرّحه ويُعينك على أمورك.

﴿٩٩﴾ ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾؛ أي: الموت؛ أي: استمر في جميع الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع العبادات. فامتثل ﷺ أمر ربّه، فلم يزل دائماً في العبادة حتى أتاه اليقين من ربّه، ﷺ تسليماً كثيراً.

تم تفسير سورة الحجر. والحمد لله رب العالمين آمين.



تفسير سورة النحل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَنَّهُ أَمْرٌ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرَكُونَ ﴿١﴾ يُزِيلُ الْمَلٰٓئِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾.

﴿١﴾ يقول تعالى مقرباً لما وعد به محققاً لوقوعه: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾: فإنه آت، وما هو آت فإنه قريب. ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾: من نسبة الشريك والولد والصاحبة والكفو وغير ذلك مما نسبته إليه المشركون مما لا يليق بجلاله أو ينافي كماله.

(١) في (ب): «يؤذون الله ويجعلون». (٢) في (ب): «فسبح».

﴿٢﴾ ولما نَزَّهَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ أَعْدَاؤُهُ؛ ذَكَرَ الْوَحْيَ الَّذِي يَنْزِلُهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ مِمَّا يَجِبُ اتِّبَاعُهُ فِي ذِكْرِ مَا يُنْسَبُ لِلَّهِ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ، فَقَالَ: ﴿يَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾؛ أَي: بِالْوَحْيِ الَّذِي بِهِ حَيَاةُ الْأَرْوَاحِ، ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾: مَنْ يَعْلَمُهُ صَالِحاً لِحُكْمِ رِسَالَتِهِ. وَزَيْدَةُ دَعْوَةِ الرِّسْلِ^(١) كُلُّهُمْ وَمَدَارُهَا عَلَى قَوْلِهِ: ﴿أَنْ أُنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾^(٢)؛ أَي: عَلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَوَحُّدِهِ فِي صِفَاتِ الْعِظَمَةِ، الَّتِي هِيَ صِفَاتُ الْأُلُوهِيَّةِ، وَعِبَادَتُهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ فَهِيَ الَّتِي أُنْزِلَ بِهَا كِتَابُهُ، وَأُرْسِلَ رِسْلُهُ، وَجُعِلَ الشَّرَائِعُ كُلُّهَا تَدْعُو إِلَيْهَا، وَتَحْتُ، وَتُجَاهَدُ مَنْ حَارِبَهَا، وَقَامَ بِضِدِّهَا.

ثم ذكر الأدلة والبراهين على ذلك، فقال:

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٣) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ^(٤) وَالْأَنْعَادُ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْتَفِعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ^(٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَعُونَ وَبِئْسَ تَرْجُوعٌ^(٦) وَتَحْمِلُ أَنْفَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَوْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ^(٧) وَاللَّيْلَ وَالنَّجْمَ وَالْأَرْضَ وَالْحَمِيرَ لِرَبِّكُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ^(٨) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ^(٩) .

هذه السورة تسمى سورة النعم؛ فإن الله ذكر في أولها أصول النعم وقواعدها، وفي آخرها متمماتها ومكملاتها.

﴿٣﴾ فأخبر أنه ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾؛ لِيَسْتَدِلَّ بِهِمَا الْعِبَادُ عَلَى عِظَمَةِ خَالِقِهِمَا وَمَا لَهُ مِنْ نَعْوَتِ الْكَمَالِ، وَيَعْلَمُوا أَنَّهُ خَلَقَهُمَا مَسْكناً لِعِبَادِهِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَهُ بِمَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ، وَلِهَذَا نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ شَرِكِ الْمُشْرِكِينَ بِهِ، فَقَالَ: ﴿تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أَي: تَنَزَّهَ وَتَعَاظَمَ عَنْ شُرَكَاهُمْ؛ فَإِنَّهُ الْإِلَهُ حَقًّا، الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ وَالْحُبُّ وَالذُّلُّ إِلَّا لَهُ تَعَالَى.

﴿٤﴾ ولما ذكر خلق السماوات [والأرض]^(٣)؛ ذَكَرَ خَلْقَ مَا فِيهِمَا، وَبَدَأَ بِأَشْرَفِ ذَلِكَ، وَهُوَ الْإِنْسَانُ، فَقَالَ: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾: لَمْ يَزَلْ يَدْبُرُهَا وَيَرْقِيهَا وَيَنْمِيهَا حَتَّى صَارَتْ بَشَرًا تَامًا كَامِلًا الْأَعْضَاءُ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ، قَدْ غَمَرَهُ بِنِعْمِهِ

(٢) فِي (ب): «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ».

(١) فِي (ب): «المرسلين».

(٣) زِيَادَةُ لَا تَوْجِدُ فِي النَّسَخَتَيْنِ.

الغزيرة، حتى إذا استتمَّ فَخَرَ بنفسه وأعجب بها. ﴿فإذا هو خصيم مبين﴾: يُحتمل أن المراد: فإذا هو خصيم لربه؛ يكفر به، ويجادل رسله، ويكذب بآياته، ونسي خلقه الأول، وما أنعم الله عليه به من النعم، فاستعان بها على معاصيه.

ويُحتمل أن المعنى أن الله أنشأ الآدمي من نقطة، ثم لم يزل ينقله من طورٍ إلى طورٍ، حتى صار عاقلاً، متكلماً، ذا ذهن ورأي، يخاصم ويجادل؛ فليشكر العبد ربه الذي أوصله إلى هذه الحال، التي ليس في إمكانه القدرة على شيء منها.

﴿٥﴾ ﴿والأنعام خلقها لكم﴾؛ أي: لأجلكم ولأجل منافعكم ومصالحكم، من جملة منافعها العظيمة، أن ﴿لكم فيها دفء﴾: مما تتخذون من أصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها من الثياب والفرش والبيوت. ﴿و﴾ لكم فيها ﴿منافع﴾: غير ذلك، ﴿ومنها تأكلون﴾.

﴿٦﴾ ﴿ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون﴾؛ أي: في وقت رواحها وراحتها وسكونها ووقت حركتها وسرحها، وذلك أن جمالها لا يعود إليها منه شيء؛ فإنكم أنتم الذين تتجملون بها كما تتجملون بثيابكم وأولادكم وأموالكم وتُعجبون بذلك^(١).

﴿٧﴾ ﴿وتحمل أثقالكم﴾: من الأحمال الثقيلة، بل وتحملكم أنتم، ﴿إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس﴾: ولكن الله ذللها لكم؛ فمنها ما تركبونه، ومنها ما تحملون عليه ما تشاؤون من الأثقال إلى البلدان البعيدة والأقطار الشاسعة. ﴿إن ربكم لرهوف رحيم﴾: إذ سخر لكم ما تضطرون إليه وتحتاجونه؛ فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه وسعة جوده وبره.

﴿٨﴾ ﴿والخيل والبغال والحمير﴾: سخرناها لكم؛ ﴿لتركبوها وزينة﴾؛ أي: تارة تستعملونها للضرورة في الركوب، وتارة لأجل الجمال والزينة، ولم يذكر الأكل؛ لأن البغال والحمير محرّم أكلها، والخيل لا تستعمل في الغالب للأكل، بل يُنهي عن ذبحها لأجل الأكل خوفاً من انقطاعها، وإلا؛ فقد ثبت في «الصحيحين» أن النبي ﷺ أذن في لحوم الخيل^(٢). ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾: مما يكون بعد

(١) جاء في هامش (ب): «المشهور في التفسير أن قوله: ﴿حين تريحون﴾ أي إذا راحت الأنعام على أهلها وعادت من مسارحها»، والله أعلم.

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٢٠)، ومسلم (١٩٤١) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

نزول القرآن من الأشياء التي يركبها الخلق في البرّ والبحر والجوّ ويستعملونها في منافعهم ومصلحتهم؛ فإنه لم يذكرها بأعيانها؛ لأنّ الله تعالى لم يذكر في كتابه إلا ما يعرفه العباد أو يعرفون نظيره، وأمّا ما ليس له نظير؛ فإنه لو ذكّر؛ لم يعرفوه ولم يفهموا المراد منه، فيذكّر أصلاً جامعاً يدخل فيه ما يعلمون وما لا يعلمون؛ كما ذكر نعيم الجنة، وسمّى منه ما نعلم ونشاهد نظيره؛ كالنخل والأعناب، والرمان وأجمل ما لا نعرف له نظيراً في قوله: ﴿فيهما من كلّ فاكهة زوجان﴾؛ فكذلك هنا ذكر ما نعرفه من المراكب؛ كالخيل والبغال والحمير والإبل والسفن، وأجمل الباقي في قوله: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾.

﴿٩﴾ ولما ذكر تعالى الطريق الحسيّ، وأنّ الله قد جعل للعباد ما يقطعونه به من الإبل وغيرها؛ ذكر الطريق المعنويّ الموصل إليه، فقال: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾؛ أي: الصراط المستقيم، الذي هو أقرب الطرق وأخصرها، موصل إلى الله وإلى كرامته، وأمّا الطريق الجائر في عقائده وأعماله، وهو كلّ ما خالف الصراط المستقيم؛ فهو قاطع عن الله، موصل إلى دار الشقاء، فسلك المهتدون الصراط المستقيم بإذن ربهم، وضلّ الغاؤون عنه، وسلكوا الطرق الجائرة. ﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾: ولكنه هدى بعضاً كرماً وفضلاً، ولم يهد آخرين حكماً منه وعدلاً.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُثْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿١٠ - ١١﴾ بذلك على كمال قدرة الله الذي أنزل هذا الماء من السحاب الرقيق اللطيف ورحمته، حيث جعل فيه ماء غزيراً منه يشربون، وتشرب مواشيهم، ويسقون منه حروثهم، فتخرج لهم الثمرات الكثيرة والنعيم الغزيرة.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّكَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿١٢﴾ أي: سخر لكم هذه الأشياء لمنافعكم وأنواع مصلحتكم؛ بحيث لا تستغنون عنها أبداً؛ فبالليل تسكنون وتنامون وتستريحون، وبالنهار تنتشرون في معاشيكم ومنافع دينكم ودنياكم، وبالشمس والقمر من الضياء والنور والإشراق

وإصلاح الأشجار والثمار والنبات وتجفيف الرطوبات وإزالة البرودة الضارة للأرض وللأبدان وغير ذلك من الضروريات والحاجيات التابعة لوجود الشمس والقمر، وفيهما وفي الثُجُوم من الزينة للسماء والهداية في ظلمات البر والبحر ومعرفة الأوقات وحساب الأزمنة ما تتنوع دلالاتها وتتصرف آياتها، ولهذا جمعها في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: لمن لهم عقول يستعملونها في التدبر والتفكير فيما هي مهيئة له مستعدة، تعقل ما تراه وتسمعه، لا كنظر الغافلين الذين حظهم من النظر حظ البهائم التي لا عقل لها.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ (١٣).

﴿١٣﴾ أي: فيما ذرأ الله ونشر للعباد من كل ما على وجه الأرض من حيوان وأشجار ونبات وغير ذلك مما تختلف ألوانه وتختلف منافعه آية على كمال قدرة الله وعميم إحسانه وسعة بره وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له. ﴿لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾؛ أي: يستحضرون في ذاكرتهم ما ينفعهم من العلم النافع ويتأملون ما دعاهم الله إلى التأمل فيه حتى يتذكروا بذلك ما هو دليل عليه.

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٤).

﴿١٤﴾ أي: [و]هو وحده لا شريك له ﴿الذي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾: وهياه لمنافعكم المتنوعة؛ ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾: وهو السمك والحوث الذي يصطادونه منه، ﴿وتستخرجوا منه حليّة تلبسونها﴾: فتزيدكم جمالاً وحسناً إلى حسنكم. ﴿وترى الْفُلْكَ﴾؛ أي: السفن والمراكب ﴿مَوَاجِرَ فِيهِ﴾؛ أي: تَمَخَّرُ الْبَحْرُ الْعِجَاجَ الْهَائِلَ بِمَقْدَمِهَا حَتَّى تَسْلُكَ فِيهِ مِنْ قَطْرِ إِلَى آخِرِ تَحْمِلِ الْمَسَافِرِينَ وَأَرْزَاقَهُمْ وَأَمْتَعَتَهُمْ وَتِجَارَاتِهِمْ الَّتِي يَطْلُبُونَ بِهَا الْأَرْزَاقَ وَفَضْلَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ. ﴿وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: الذي يسر لكم هذه الأشياء وهياه وتثنون على الله الذي من بها؛ فله تعالى الحمد والشكر والثناء؛ حيث أعطى العباد من مصالحهم ومنافعهم فوق ما يطلبون وأعلى مما يتمنون وآتاهم من كل ما سألوه لا نحصي ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه.

﴿وَالَّذِي فِي الْأَرْضِ رَوًى أَنْ نَعِيدَ بِكُمْ وَانْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥) ﴿وَعَلَّمَتْ

وَيَا لَتَجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (١٦).

﴿١٥ - ١٦﴾ أي: ﴿وَأَلْقَى﴾: الله تعالى لأجل عباده ﴿فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي﴾: وهي الجبال العظام؛ لئلا تميذ بهم وتضطرب بالخلق، فيتمكّنون من حرث الأرض والبناء والسير عليها، ومن رحمته تعالى أن جعل فيها أنهاراً يسوقها من أرض بعيدة إلى أرض مضطرة إليها؛ لسقيهم وسقي مواشيهم وحروثهم؛ أنهاراً على وجه الأرض وأنهاراً في بطنها يستخرجونها بحفرها حتى يصلوا إليها فيستخرجونها بما سخر الله لهم من الدوالي والآلات ونحوها، ومن رحمته أن جعل في الأرض سُبُلًا؛ أي: طرقاً توصل إلى الديار المتناثرة. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: السبيل إليها، حتى إنك تجد أرضاً مشتبكة بالجبال مسلسلة فيها، وقد جعل الله فيما بينها منافذ ومسالك للسالكين.

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٧) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوكُمْ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكِبُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنْ اللَّهُ يَعْلَمَ مَا تُسْرُوكُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنْكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكِبِينَ (٢٣) .

﴿١٧﴾ لما ذكر تعالى ما خلقه من المخلوقات العظيمة وما أنعم به من النعم العميمة؛ ذكر أنه لا يشبهه أحد، ولا كفاء له ولا ند له، فقال: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ﴾: جميع المخلوقات، وهو الفعّال لما يريد، ﴿كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾: شيئاً لا قليلاً ولا كثيراً. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: فتعرفون أن المنفرد بالخلق أحقّ بالعبادة كلّها؛ فكما أنه واحد في خلقه وتدبيره؛ فإنه واحد في إلهيته وتوحيده وعبادته، وكما أنه ليس له مشارك إذ أنشأكم وأنشأ غيركم؛ فلا تجعلوا له أنداداً في عبادته، بل اخلصوا له الدين.

﴿١٨﴾ ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾: عدداً مجرداً عن الشكر، ﴿لَا تُحْصُوهَا﴾: فضلاً عن كونكم تشكرونها؛ فإنّ نعمه الظاهرة والباطنة على العباد بعدد الأنفاس واللحظات، من جميع أصناف النعم، مما يعرف العباد ومما لا يعرفون، وما يدفع عنهم من النقم؛ فأكثر من أن تحصى. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: يرضى منكم باليسير من الشكر مع إنعامه الكثير.

﴿١٩ - ٢٠﴾ وكما أن رحمته واسعة وجوده عميم ومغفرته شاملة للعباد؛ فعلمه

محيط بهم، يعلم ما يسرون وما يعلنون بخلاف مَنْ عُبِدَ من دونه فإنهم ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً﴾: قليلاً ولا كثيراً. ﴿وَهُمْ يُخْلُقُونَ﴾؛ فكيف يَخْلُقُونَ شيئاً مع افتقارهم في إيجادهم إلى الله تعالى؟!

﴿٢١ - ٢٢﴾ ومع هذا؛ ليس فيهم من أوصاف الكمال شيء لا علم ولا غيره. ﴿أَمْ أَوَاتٍ غَيْرَ أَحْيَاءٍ﴾: فلا تسمع ولا تبصر ولا تغفل شيئاً، أفتتخذ هذه آلهة من دون رب العالمين؟! فتباً لعقول المشركين ما أضلّها وأفسدّها؛ حيث ضلّت في أظهر الأشياء فساداً، وسوّوا بين الناقص من جميع الوجوه؛ فلا أوصاف كمال، ولا شيء من الأفعال! وبين الكامل من جميع الوجوه الذي له كلُّ صفة كمال وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها؛ فله العلم المحيط بكلّ الأشياء والقدرة العامّة والرحمة الواسعة التي ملأت جميع العوالم والحمد والمجد والكبرياء والعظمة التي لا يقدر أحد من الخلق أن يحيط ببعض أوصافه، ولهذا قال: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾: وهو الله الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد؛ فأهل الإيمان والعقول أجلّته قلوبهم، وعظّمته، وأحبّته حبّاً عظيماً، وصرفوا له كلّ ما استطاعوا من القربات البدنيّة والماليّة وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأثنوا عليه بأسمائه الحسنى وصفاته وأفعاله المقدسة.

﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ﴾: لهذا الأمر العظيم، الذي لا ينكره إلا أعظم الخلق جهلاً وعناداً، وهو توحيد الله. ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾: عن عبادته.

﴿٢٣﴾ ﴿لَا جَزْمَ﴾؛ أي: حقاً لا بدّ ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُغْلِنُونَ﴾: من الأعمال القبيحة. ﴿إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾: بل يبغضهم أشدّ البغض، وسيجازيهم من جنس عملهم. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَنْتَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَشْفُقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّارَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَأَدْخَلُوا أَنْوَابَ جَهَنَّمَ خَلْدِيكَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ .

﴿٢٤﴾ يقول تعالى مخبراً عن شدة تكذيب المشركين بآيات الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رُبُّكُمْ﴾؛ أي: إذا سئلوا عن القرآن والوحي الذي هو أكبر نعمة أنعم الله بها على العباد؛ فماذا قولكم به؟ وهل تشكرون هذه النعمة وتعترفون بها أم تكفرون وتعاندون؟ فيكون جوابهم أقبح جواب وأسمج، فيقولون عنه: إنه ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: كذب اختلقه محمد على الله، وما هو إلا قَصَصُ الْأَوَّلِينَ التي يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل، منها الصدق ومنها الكذب.

﴿٢٥﴾ فقالوا هذه المقالة، ودعوا أتباعهم إليها، وَحَمَلُوا وَزْرَهُمْ وَوَزَرَ مِنْ انْقَادَ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وقوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ أي: من أوزار المقلدين الذين لا علم عندهم إلا ما دَعَوْهُمْ إليه، فيحملون إثم ما دَعَوْهُمْ إليه وأما الذين يعلمون؛ فكل مستقل بِجُرْمِهِ؛ لأنه عرف ما عرفوا. ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾؛ أي: بش ما حملوا من الوزر المثقل لظهورهم من وَزْرِهِمْ وَوَزَرَ مِنْ أَضْلَوْهُ.

﴿٢٦ - ٢٧﴾ ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: برسلهم، واحتالوا بأنواع الحيل على رد ما جاؤوهم به، وبنوا من مكرهم قصوراً هائلة، ﴿فَأَتَى اللَّهَ بِنِيَّانِهِمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾؛ أي: جاءها الأمر من أساسها وقاعدتها، ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾: فصار ما بَنَوْهُ عَذَاباً عَذَّبُوا بِهِ. ﴿وَأَنَّهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾: وذلك أَنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّ هَذَا الْبِنْيَانَ سَيَنْفَعُهُمْ وَيَقِيهِمُ الْعَذَابَ، فصار عذابهم فيما بَنَوْهُ وَأَصْلَوْهُ. وهذا من أحسن الأمثال في إبطال الله مَكْرَ أعدائه؛ فَإِنَّهُمْ فَكَّرُوا وَقَدَّرُوا فِيمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ لَمَّا كَذَّبُوهُ وَجَعَلُوا لَهُمْ أَصُولاً وَقَوَاعِدَ مِنَ الْبَاطِلِ يَرْجِعُونَ إِلَيْهَا وَيَرُدُّونَ بِهَا مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، واحتالوا أيضاً على إيقاع المكروه والضرر بالرسول وَمَنْ تَبِعَهُمْ، فصار مَكْرُهُمْ وَبَالاً عَلَيْهِمْ، فصار تدبيرهم فيه تدميرهم، ذلك لأن مكرهم سيئ، ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله. هذا في الدنيا، ولعذاب الآخرة أخزى، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾؛ أي: يفضحهم على رؤوس الخلائق ويبين لهم كَذِبَهُمْ واقترأهم على الله. ﴿وَيَقُولُ آيُنْ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾؛ أي: تحاربون وتعادون الله وجزيه لأجلهم تزعمون أَنَّهُمْ شُرَكَاءُ لِلَّهِ؛ فإذا سألهم هذا السؤال؛ لم يكن لهم جواب إلا الإقرار بضلالهم

والاعتراف بعنادهم، فيقولون: ﴿ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾: ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾؛ أي: العلماء الربانيون: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ﴾؛ أي: يوم القيامة، [﴿وَالسُّوءَ﴾؛ أي]: العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. وفي هذا فضيلة أهل العلم، وأنهم الناطقون بالحق في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وأن لقولهم اعتباراً عند الله وعند خلقه.

﴿٢٨﴾ ثم ذكر ما يفعل بهم عند الوفاة وفي القيامة، فقال: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: تتوفاهم في هذه الحال التي كثر فيها ظلمهم وغيثهم، وقد علم ما يلقي الظلمة في ذلك المقام من أنواع العذاب والخزي والإهانة. ﴿فَالْقُوا السَّلَامَ﴾؛ أي: استسلموا وأنكروا ما كانوا يعبدونهم من دون الله، وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنَّ سُوءٍ﴾: فيقال لهم: ﴿بَلَى﴾: كنتم تعملون السوء. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: فلا يفيدكم الجحود شيئاً. ولهذا في بعض مواقف القيامة؛ ينكرون ما كانوا عليه في الدنيا؛ ظناً أنه ينفعهم؛ فإذا شهدت عليهم جوارحهم، وتبين ما كانوا عليه؛ أقرؤا واعترفوا، ولهذا لا يدخلون النار حتى يعترفوا بذنوبهم.

﴿٢٩﴾ فإذا دخلوا^(١) أبواب جهنم، كل أهل عمل يدخلون من الباب اللائق بحالهم؛ فبئس ﴿مَثْوًى الْمَتَكِبِينَ﴾: نار جهنم؛ فإنها مثنوى الحسرة والندم، ومنزل الشقاء والألم، ومحل الهموم والغموم، وموضع السخط من الحي القيوم، لا يفتر عنهم من عذابها، ولا يزفع عنهم يوماً من أليم عقابها، قد أعرض عنهم الرب الرحيم، وأذاقهم العذاب العظيم.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ (٣٠) جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) ﴿

﴿٣٠﴾ لما ذكر الله قيل المكذبين بما أنزل الله؛ ذكر ما قاله المتقون، وأنهم اعترفوا وأقرؤا بأن ما أنزل الله نعمة عظيمة وخير عظيم امتن الله به على العباد،

فقبلوا تلك النعمة، وتلقّوها بالقبول والانقياد، وشكروا الله عليها، فعلموها وعملوها بها. ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾: في عبادة الله تعالى وأحسنوا إلى عباد الله؛ فلهم ﴿في هذه الدنيا حسنة﴾: رزق واسع وعيشة هنيئة وطمأنينة قلب وأمن وسرور. ﴿وللدار الآخرة خير﴾: من هذه الدار وما فيها من أنواع اللذات والمشتبهات؛ فإن هذه نعيمها قليل محشو بالآفات منقطع؛ بخلاف نعيم الآخرة، ولهذا قال: ﴿ولنعم دار المتقين﴾.

﴿٣١ - ٣٢﴾ ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾؛ أي: مهما تمتته أنفسهم وتعلّقت به إراداتهم؛ حصل لهم على أكمل الوجوه وأتمّها؛ فلا يمكن أن يطلبوا نوعاً من أنواع النعيم الذي فيه لذّة القلوب وسرور الأرواح؛ إلّا وهو حاضر لديهم، ولهذا يُعطي الله أهل الجنة كلّ ما تمنّوه عليه، حتى إنّه يذكرهم أشياء من النعيم لم تخطر على قلوبهم؛ فتبارك الذي لا نهاية لكرمه ولا حدّ لجوده، الذي ليس كمثله شيء في صفات ذاته وصفات أفعاله وآثار تلك النعوت وعظمة الملك والملكوت. ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾: لِسَخَطِ اللَّهِ وعذابه؛ بأداء ما أوجبه عليهم من الفروض والواجبات المتعلقة بالقلب والبدن واللسان من حقّه وحقّ عباده، وترك ما نهاهم الله عنه. ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ﴾: مستمرّين على تقواهم، ﴿طيبين﴾؛ أي: طاهرين مطهّرين من كل نقص ودنس يتطرّق إليهم ويُخلّ في إيمانهم، فطابت قلوبهم بمعرفة الله ومحبّته، وألستهم بذكره والثناء عليه، وجوارحهم بطاعته والإقبال عليه. ﴿يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: التحية الكاملة حاصلة لكم، والسلامة من كلّ آفة، وقد سلمتم من كلّ ما تكرهون. ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: من الإيمان بالله والانقياد لأمره؛ فإنّ العمل هو السبب والمادة والأصل في دخول الجنة والنجاة من النار، وذلك العمل حصل لهم برحمة الله ومثته، لا بحولهم وقوّتهم.

— ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿٣٣﴾ يقول تعالى: هل ينظرون هؤلاء الذين جاءتهم الآيات فلم يؤمنوا ودكروا فلم يتذكروا، ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾: لقبض أرواحهم، ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾:

بالعذاب الذي سيحلُّ بهم؛ فإنَّهم قد استحقُّوا لوقوعه فيهم. ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: كَذَبُوا وكَفَرُوا، ثُمَّ لَمْ يُؤْمِنُوا، حَتَّى نَزَلَ بِهِمُ الْعَذَابُ. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾؛ إِذْ عَذَّبَهُمْ، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؛ فَإِنَّهَا مَخْلُوقَةٌ لِعِبَادَةِ اللَّهِ؛ لِيَكُونَ مَأْلُهَا إِلَى كِرَامَةِ اللَّهِ، فَظَلَمُوهَا وَتَرَكُوا مَا خَلَقَتْ لَهُ وَعَرَّضُوهَا لِلْإِهَانَةِ الدَّائِمَةِ وَالشَّقَاءِ الْمَلَازِمِ.

﴿٣٤﴾ ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾؛ أَي: عِقُوبَات أَعْمَالِهِمْ وَأَثَارَهَا، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾؛ أَي: نَزَلَ ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾: فَإِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَخْبَرْتَهُمْ رَسُولُهُم بِالْعَذَابِ؛ اسْتَهْزَؤُوا بِهِ، وَسَخَرُوا مِمَّنْ أَخْبَرَ بِهِ، فَحَلَّ بِهِمْ ذَلِكَ الْأَمْرُ الَّذِي سَخَرُوا مِنْهُ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٥﴾ أَي: احْتَجَّ الْمُشْرِكُونَ عَلَى شُرْكَهِمْ بِمَشِئَةِ اللَّهِ، وَأَنَّ اللَّهَ لَوْ شَاءَ مَا أَشْرَكُوا وَلَا حَرَّمُوا شَيْئًا مِنَ الْأَنْعَامِ الَّتِي أَحَلَّهَا؛ كَالْبَحِيرَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالْحَامِ وَنَحْوَهَا مِنْ دُونِهِ، وَهَذِهِ حُجَّةٌ بَاطِلَةٌ؛ فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ حَقًّا؛ مَا عَاقَبَ اللَّهُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَيْثُ أَشْرَكُوا بِهِ، فَعَاقِبَهُمْ أَشَدَّ الْعِقَابِ؛ فَلَوْ كَانَ يَحِبُّ ذَلِكَ مِنْهُمْ؛ لَمَا عَذَّبَهُمْ. وَلَيْسَ قَصْدُهُمْ بِذَلِكَ إِلَّا رَدَّ الْحَقُّ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَإِلَّا؛ فَعِنْدَهُمْ عِلْمٌ أَنَّهُ لَا حُجَّةَ لَهُمْ عَلَى اللَّهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَهُمْ وَنَهَاَهُمْ، وَمَكَّنَهُمْ مِنْ^(١) الْقِيَامِ بِمَا كُلَّفَهُمْ، وَجَعَلَ لَهُمْ قُوَّةً وَمَشِئَةً تَصُدُّ عَنْهَا أَعْمَالَهُمْ؛ فَاحْتَجَّاجُهُمْ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ مِنْ أَبْطُلِ الْبَاطِلِ، هَذَا وَكُلُّ أَحَدٍ يَعْلَمُ بِالْحَسِّ قُدْرَةَ الْإِنْسَانِ عَلَى كُلِّ فِعْلٍ يَرِيدُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنَازِعَهُ مَنَازِعٌ؛ فَجَمَعُوا بَيْنَ تَكْذِيبِ اللَّهِ وَتَكْذِيبِ رُسُلِهِ وَتَكْذِيبِ الْأُمُورِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْحَسِّيَّةِ. ﴿فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾؛ أَي: الْبَيِّنُ الظَّاهِرُ الَّذِي يَصِلُ إِلَى الْقُلُوبِ وَلَا يَبْقَى لِأَحَدٍ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ؛ فَإِذَا بَلَّغْتَهُمُ الرُّسُلَ أَمَرَ رَبُّهُمْ وَنَهَيْهِمْ - وَاحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالْقَدَرِ -؛ فَلَيْسَ لِلرُّسْلِ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، وَإِنَّمَا حِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى

﴿٣٦﴾ اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ تَحْرِضَ عَلَى هُدْيِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٧﴾

﴿٣٦﴾ يخبر تعالى أن حجته قامت على جميع الأمم، وأنه ما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعث الله فيها رسولا، وكلهم متفقون على دعوة واحدة ودين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له. ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾: فانقسمت الأمم بحسب استجابتها لدعوة الرسل وعدمها قسمين: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾: فاتبعوا المرسلين علما وعملا، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾: فاتبع سبيل الغي. ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾: بأبدانكم وقلوبكم، ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾: فإنكم سترون من ذلك العجائب؛ فلا تجد^(١) مكذبا إلا كان عاقبته الهلاك.

﴿٣٧﴾ ﴿إِنْ تَحْرِضْ عَلَى هِدَايِهِمْ﴾: وتبذل جهدك في ذلك، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾: ولو فعل كل سبب؛ لم يهده إلا الله. ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾: ينصرونهم من عذاب الله، ويقونهم بأسه.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ لَيَبَيِّنَنَّ لَهُمْ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

﴿٣٨﴾ يخبر تعالى عن المشركين المكذبين لرسوله أنهم ﴿أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾؛ أي: حلفوا أيمانا مؤكدة مغلفة على تكذيب الله وأن الله لا يبعث الأموات ولا يقدر على إحيائهم بعد أن كانوا ترابا. قال تعالى مكذبا لهم: ﴿بَلَى﴾ سيبعثهم ويجمعهم ليوم لا ريب فيه. ﴿وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾: لا يخلفه ولا يغيره. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: ومن جهلهم العظيم إنكارهم البعث والجزاء.

﴿٣٩ - ٤٠﴾ ثم ذكر الحكمة في الجزاء والبعث، فقال: ﴿لَيَبَيِّنَنَّ لَهُمْ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾: من المسائل الكبار والصغار، فيبين حقائقها ويوضحها، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾: [حين]^(٢) يروون أعمالهم خسرات عليهم، وما نفعتهم آلهتهم التي يدعون مع الله من شيء لما جاء أمر ربك، وحين يروون ما

(١) في (ب): «فلا تجدون».

(٢) كذا في (ب). وفي (أ): «حتى».

يَعْبُدُونَ حَطَبًا لِّجَهَنَّمَ، وَتَكَوَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، وَتَشْتَاثِرُ النُّجُومُ، وَيَتَضَحَّ لِمَنْ يَعْبُدُهَا أَنَّهُا عِبِيدٌ مَسْخَرَاتٌ، وَأَنَّهُنَّ مَفْتَقَرَاتٌ إِلَى اللَّهِ فِي جَمِيعِ الْحَالَاتِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِصَعْبٍ وَلَا شَدِيدٍ؛ فَإِنَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ مِنْ غَيْرِ مَنَازَعَةٍ وَلَا امْتِنَاعٍ، بَلْ يَكُونُ عَلَى طَبَقٍ مَا أَرَادَهُ وَشَاءَهُ.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوءَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا نُجْزِيَ الْآخِرَةَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾.

﴿٤١﴾ يخبر تعالى بفضل المؤمنين الممتحنين، ﴿الذين هاجروا في الله﴾؛ أي: في سبيله وابتغاء مرضاته، ﴿من بعد ما ظلموا﴾: بالأذية والمحنة من قومهم، الذين يفتنونهم ليردوهم إلى الكفر والشرك، فتركوا الأوطان والخُلَّانَ، وانتقلوا عنها لأجل طاعة الرحمن، فذكر لهم ثوابين: ثواباً عاجلاً في الدنيا من الرزق الواسع والعيش الهنيء الذي رآوه عياناً بعدما هاجروا وانتصروا على أعدائهم وافتتحوا البلدان وَغَنِمُوا مِنْهَا الْغَنَائِمَ الْعَظِيمَةَ فتمولوا وآتاهم الله في الدنيا حَسَنَةً. ﴿وَلَا نُجْزِيَ الْآخِرَةَ﴾: الذي وَعَدَهُمْ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ خَيْرٌ وَ﴿أَكْبَرُ﴾ من أجر الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ. يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ. خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. وقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لو كان لهم عِلْمٌ وَيَقِينٌ بما عند الله من الأجر والثواب لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَهَاجَرَ فِي سَبِيلِهِ؛ لَمْ يَتَخَلَّفَ عَنْ ذَلِكَ أَحَدٌ.

﴿٤٢﴾ ثُمَّ ذَكَرَ وَصْفَ أَوْلِيَائِهِ، فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾: عَلَى أَوَامِرِ اللَّهِ، وَعَنْ نَوَاهِيهِ، وَعَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ الْمُؤَلِّمَةِ، وَعَلَى الْأَذْيَةِ فِيهِ وَالْمَحْنِ. ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ أي: يَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِي تَنْفِيزِ مَحَابِّهِ لَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَبِذَلِكَ تَنْجَحُ أُمُورُهُمْ وَتُسْتَقِيمُ أَحْوَالُهُمْ؛ فَإِنَّ الصَّبْرَ وَالتَّوَكُّلَ مَلَكَ الْأُمُورِ كُلِّهَا؛ فَمَا فَاتَ أَحَدًا شَيْءٌ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا لِعَدَمِ صَبْرِهِ وَبِذَلِ جَهْدِهِ فِيمَا أُرِيدَ مِنْهُ أَوْ لِعَدَمِ تَوَكُّلِهِ وَاعْتِمَادِهِ عَلَى اللَّهِ.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَشَاوَرُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤٣) وَالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾.

﴿٤٣﴾ يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾؛ أي:

لست ببدع من الرسل، فلم نرسل قبلك ملائكة، بل رجالاً كاملين لا نساء. ﴿نوحى إليهم﴾: من الشرائع والأحكام ما هو من فضله وإحسانه على العبيد، من غير أن يأتوا بشيء من قبل أنفسهم. ﴿فاسألوا أهل الذكر﴾؛ أي: الكتب السابقة ﴿إن كنتم لا تعلمون﴾: نبأ الأولين، وشككتهم، هل بعث الله رجالاً؟ فاسألوا أهل العلم بذلك، الذين نزلت عليهم الزبر والبيّنات، فعلموها وفهموها؛ فإنهم كلهم قد تقرّر عندهم أنّ الله ما بعث إلّا رجالاً يوحى إليهم من أهل القرى.

وعموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم، وأنّ أعلى أنواعه العلم بكتاب الله المنزل؛ فإنّ الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم؛ حيث أمر بسؤالهم، وأنّ بذلك يخرج الجاهل من التّبعة، فدلّ على أنّ الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم والاتصاف بصفات الكمال.

﴿٤٤﴾ وأفضل أهل الذكر أهل هذا القرآن العظيم؛ فإنهم أهل الذكر على الحقيقة، وأولى من غيرهم بهذا الاسم، ولهذا قال تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر﴾؛ أي: القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم الظاهرة والباطنة، ﴿لتبين للناس ما نزل إليهم﴾: وهذا شامل لتبيين ألفاظه وتبيين معانيه. ﴿ولعلمهم يتفكرون﴾: فيه، فيستخرجون من كنوزه وعلومه بحسب استعدادهم وإقبالهم عليه.

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخِفَّ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾.

﴿٤٥ - ٤٧﴾ هذا تخويف من الله تعالى لأهل الكفر والتكذيب وأنواع المعاصي من أن يأخذهم بالعذاب على غرة وهم لا يشعرون: إمّا أن يأخذهم العذاب من فوقهم، أو من أسفل منهم بالخسف وغيره، وإما في حال تقلّبهم وشغلهم وعدم خطور العذاب ببالهم، وإما في حال تخوّفهم من العذاب؛ فليسوا بمعجزين الله^(١) في حالة من هذه الأحوال، بل هم تحت قبضته، ونواصيهم بيده، ولكنه رءوف

(١) في (ب): «الله».

رحيم، لا يعاجل العاصين بالعقوبة، بل يمهلهم ويعافيههم ويرزقهم، وهم يؤذونه ويؤذون أوليائه، ومع هذا يَفْتَحُ لهم^(١) أبواب التوبة، ويدعوهم إلى الإقلاع عن السيئات التي تضرهم، ويَعِدُّهم بذلك أفضل الكرامات ومغفرة ما صدر منهم من الذنوب؛ فليستح المجرم من ربه أن تكون نعم الله عليه نازلة في جميع [اللحظات] ومعاصيه صاعدة إلى ربه في كل الأوقات، وليعلم أن الله يمهل ولا يهمل، وأنه إذا أخذ العاصي؛ أخذه أخذ عزيز مقتدر؛ فليتب إليه، وليرجع في جميع أموره إليه؛ فإنه رءوف رحيم؛ فالبدار البدار إلى رحمته الواسعة، وبره العميم، وسلوك الطرق الموصلة إلى فضل الرب الرحيم، ألا وهي تقواه، والعمل بما يحبه ويرضاه.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفِيوْا ظِلَالَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾

﴿٤٨﴾ يقول تعالى: ﴿أولم يروا﴾؛ أي: الشاكون في توحيد ربهم وعظمته وكماله، ﴿إلى ما خلق الله من شيء﴾؛ أي: إلى جميع مخلوقاته، وكيف تنفياً أظلتها ﴿عن اليمين والشمال سجداً لله﴾؛ أي: كلها ساجدة لربها خاضعة لعظمته وجلاله، ﴿وهم داخرون﴾؛ أي: ذليلون تحت التسخير والتدبير والقهر، ما منهم أحد إلا وناصيته بيد الله وتدبيره عنده.

﴿٤٩﴾ ﴿ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة﴾: من الحيوانات الناطقة والصامتة، ﴿والملائكة﴾: الكرام، خضعهم بعد العموم لفضلهم وشرفهم وكثرة عبادتهم، ولهذا قال: ﴿وهم لا يستكبرون﴾؛ أي: عن عبادته؛ على كثرتهم وعظمة أخلاقهم وقوتهم؛ كما قال تعالى: ﴿لن يستكبر المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون﴾.

﴿٥٠﴾ ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾: لما مدحهم بكثرة الطاعة والخضوع لله؛ مدحهم بالخوف من الله الذي هو فوقهم بالذات والقهر وكمال الأوصاف؛ فهم أدلاء تحت قهره. ﴿ويفعلون ما يؤمرون﴾؛ أي: مهما أمرهم الله تعالى؛ امتثلوا

(١) في (ب): «عليهم».

الشدة، وخلصناهم من المشقة. ﴿فتمتعوا﴾: في دنياكم قليلاً ﴿فسوف تعلمون﴾: عاقبة كفركم.

﴿وَجَعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَسْتُلْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَقْتَرُونَ ٥٦﴾ وَجَعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ٥٧ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ٥٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ٥٩ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٦٠﴾.

﴿٥٦﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم وافتراءهم على الله الكذب، وأنهم يجعلون لأصنامهم التي لا تعلم ولا تنفع ولا تضر نصيباً مما رزقهم الله وأنعم به عليهم، فاستعانوا برزقه على الشرك به، وتقربوا به إلى أصنام منحوتة؛ كما قال تعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعيمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله...﴾ الآية. ﴿تالله لئن سألتكم عما كنتم تفترون﴾: ويقال: ﴿الله أمركم بهذا أم على الله تفترون؟ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة؟! فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

﴿٥٧ - ٥٩﴾ ﴿ويجعلون لله البنات﴾: حيث قالوا عن الملائكة العباد المقربين: إنهم بنات الله، ﴿ولهم ما يشتهون﴾؛ أي: لأنفسهم الذكور، حتى إنهم يكرهون البنات كراهة شديدة؛ فكان أحدهم ﴿إذا بُشِّرَ بالأنثى ظلَّ وجهه مسوداً﴾: من الغم الذي أصابه، ﴿وهو كظيم﴾؛ أي: كاظم على الحزن والأسف إذ بُشِّرَ بأنثى، وحتى إنه يفتضح عند أبناء جنسه، ويتوارى منهم من سوء ما بُشِّرَ به، ثم يعمل فكره ورأيه الفاسد فيما يصنع بتلك البنت التي بُشِّرَ بها: ﴿أيمسكه على هون﴾؛ أي: يتركها من غير قتل على إهانة وذل، ﴿أم يدسه في التراب﴾؛ أي: يدفنها وهي حية، وهو الواؤ الذي ذم الله به المشركين. ﴿ألا ساء ما يحكمون﴾: إذ وصفوا الله بما لا يليق بجلاله من نسبة الولد إليه، ثم لم يكفهم هذا حتى نسبوا له أردأ القسمين، وهو الإناث اللاتي يأنفون بأنفسهم عنها ويكرهونها؛ فكيف ينسبونها لله تعالى؟! فبئس الحكم حكمهم.

﴿٦٠﴾ ولما كان هذا من أمثال السوء التي نسبها إليه أعداؤه المشركون؛ قال تعالى: ﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء﴾؛ أي: المثل الناقص والعيب التام. ﴿ولله المثل الأعلى﴾: وهو كل صفة كمال، وكل كمال في الوجود فالله أحق به

من غير أن يستلزم ذلك نقصاً بوجه، وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه، وهو التعظيم والإجلال والمحبة والإنابة والمعرفة. ﴿وهو العزيز﴾: الذي قَهَرَ جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات بأسرها. ﴿الحكيم﴾: الذي يَضَعُ الأشياء مواضعها فلا يأمر ولا يفعل إلا ما يُحمد عليه، ويثنى على كماله فيه.

﴿وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤْخِرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ (٦١).

﴿٦١﴾ لما ذكر تعالى ما افتراه الظالمون عليه؛ ذَكَرَ كمال حلمه وصبره، فقال: ﴿ولو يأخذ الله الناس بظلمهم﴾: من غير زيادة ولا نقص، ﴿ما ترك﴾ على ظهرها ﴿من دابة﴾؛ أي: لأهلك المباشرين للمعصية وغيرهم من أنواع الدواب والحيوانات؛ فَإِنَّ شَوْمَ المعاصي يَهْلِكُ به الحرث والنسل. ﴿ولكن يؤخرهم﴾: عن تعجيل العقوبة عليهم، ﴿إلى أجل مسمى﴾: وهو يوم القيامة. ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾: فليخذروا ما داموا في وقت الإمهال قبل أن يجيء الوقت الذي لا إمهال فيه.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ لَحْمًا لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ (٦٢) نَالَهُ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ وَرَثَتُهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣).

﴿٦٢﴾ يخبر تعالى أَنَّ المشركين ﴿يجعلون لله ما يكرهون﴾: من البنات ومن الأوصاف القبيحة، وهو الشرك؛ بصرف شيء من العبادات إلى بعض المخلوقات التي هي عبيد لله؛ فكما أنهم يكرهون ولا يرضون أن يكونوا عبيدهم - وهم مخلوقون من جنسهم - شركاء لهم فيما رزقهم الله؛ فكيف يجعلون له شركاء من عبيده؟ ﴿و﴾: هم مع هذه الإساءة العظيمة، ﴿تصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسن﴾؛ أي: أن لهم الحالة الحسنة في الدنيا والآخرة؛ رد عليهم بقوله: ﴿لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون﴾: مقدمون إليها، ماكثون فيها، غير خارجين منها أبداً.

﴿٦٣﴾ بين تعالى لرسوله ﷺ أنه ليس هو أول رسول كُذِّب، فقال تعالى: ﴿ناله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك﴾: رسلاً يدعوهم إلى التوحيد، ﴿فزيّن لهم الشيطان أعمالهم﴾: فكذبوا الرسل، وزعموا أن ما هم عليه هو الحق المنجي من

كُلْ مَكْرُوه، وَأَنْ مَا دَعَتْ إِلَيْهِ الرِّسْلُ؛ فَهُوَ بِخِلَافِ ذَلِكَ، فَلَمَّا زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ؛ صَارَ ﴿وَلِيَّهُمْ﴾: فِي الدُّنْيَا، فَأَطَاعُوهُ وَاتَّبَعُوهُ وَتَوَلَّوْهُ، ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: فِي الْآخِرَةِ؛ حَيْثُ تَوَلَّوْا عَنْ وَلَايَةِ الرَّحْمَنِ وَرَضُوا بِوَلَايَةِ الشَّيْطَانِ، فَاسْتَحَقُّوا لَذَلِكَ عَذَابَ الْهُوَانِ.

﴿وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [٦٥] ﴿١﴾.

﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [٦٥].

﴿٦٥﴾ عَنْ اللَّهِ مَوَاعِظُهُ وَتَذَكِيرُهُ، فَيَسْتَدْلُونَ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ وَحْدَهُ الْمَعْبُودُ، الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ؛ لِأَنَّهُ الْمَنْعَمُ بِإِنْزَالِ الْمَطَرِ وَإِنْبَاتِ جَمِيعِ أَصْنَافِ النَّبَاتِ، وَعَلَى أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ الَّذِي أَحْيَا الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَمْوَاتِ، وَأَنَّ الَّذِي نَشَرَ هَذَا الْإِحْسَانَ لِدَوِّ رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَجُودٍ عَظِيمٍ.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنذِرُوا بِطُغْيَانِهِمْ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [٦٦] ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [٦٧].

﴿٦٦﴾ أَي: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ﴾: الَّتِي سَخَّرَهَا اللَّهُ لِمَنْفَعَتِكُمْ، ﴿لَعِبْرَةً﴾: تَسْتَدْلُونَ بِهَا عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ وَسِعَةِ إِحْسَانِهِ؛ حَيْثُ أَسْقَاكُمْ مِنْ بَطُونِهَا الْمَشْتَمَلَةَ عَلَى الْفَرْثِ وَالْدَّمِ، فَأَخْرَجَ مِنْ بَيْنِ ذَلِكَ لَبَنًا خَالِصًا مِنَ الْكَدَرِ سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ لِلذَّاتِ وَلِأَنَّهُ يُسْقِي وَيَغْذِي؛ فَهَلْ هَذِهِ إِلَّا قُدْرَةُ إِلَهِيَّةٍ لَا أُمُورَ طَبِيعِيَّةٍ؟! فَأَيُّ شَيْءٍ فِي الطَّبِيعَةِ يَقْلِبُ الْعَلْفَ الَّذِي تَأْكُلُهُ الْبَهِيمَةُ وَالشَّرَابَ الَّذِي تَشْرِبُهُ مِنَ الْمَاءِ الْعَذْبَ وَالْمَلْحَ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ؟!

﴿٦٧﴾ وَجَعَلَ تَعَالَى لِعِبَادِهِ مِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ مَنَافِعَ لِلْعِبَادِ وَمَصَالِحَ مِنْ أَنْوَاعِ الرِّزْقِ الْحَسَنِ الَّذِي يَأْكُلُهُ الْعِبَادُ طَرِيًّا وَنَضِيجًا وَحَاضِرًا وَمَذْخَرًا وَطَعَامًا وَشَرَابًا يُتَّخَذُ مِنْ عَصِيرِهَا وَنَبِيدِهَا وَمِنْ السَّكَّرِ الَّذِي كَانَ حَلَالًا قَبْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ

(١) فِي النُّسَخَتَيْنِ لَا يَوْجَدُ تَفْسِيرُ لِلآيَةِ (٦٤)؛ وَلَعَلَّ الْمُؤَلِّفَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - سَهَا عَنْهَا.

إِنَّ اللَّهَ نَسَخَ جُلَّ الْمَسْكِرَاتِ وَأَعَاضَ عَنْهَا بِالطَّيِّبَاتِ مِنَ الْأَنْبِذَةِ وَأَنْوَاعِ الْأَشْرَبَةِ اللَّذِيذَةِ الْمُبَاحَةِ، وَلِهَذَا قَالَ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْمَرَادَ بِالسَّكَرِ هُنَا الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ اللَّذِيذُ، وَهُوَ أَوْلَى مِنَ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: عَنْ اللَّهِ كَمَالِ اقْتِدَارِهِ؛ حَيْثُ أَخْرَجَهَا مِنْ أَشْجَارٍ شَبِيهَةٍ بِالْحَطْبِ، فَصَارَتْ ثَمَرَةً لَذِيذَةً وَفَاكِهَةً طَيِّبَةً، وَعَلَى شَمُولِ رَحْمَتِهِ؛ حَيْثُ عَمَّ^(١) بِهَا عِبَادَهُ، وَيَسَّرَهَا لَهُمْ، وَأَنَّ الْإِلَهَ الْمَعْبُودَ وَحْدَهُ؛ حَيْثُ إِنَّهُ الْمَنْفَرْدُ بِذَلِكَ.

— ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ اللَّبَالِ يَوْمًا مِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿٦٨ - ٦٩﴾ فِي خَلْقِ هَذِهِ النَّحْلَةِ الصَّغِيرَةِ، الَّتِي هَدَاها اللَّهُ هَذِهِ الْهَدَايَةَ الْعَجِيبَةَ، وَيَسَّرَ لَهَا الْمَرَاعِي، ثُمَّ الرَّجُوعَ إِلَى بَيْوتِهَا الَّتِي أَصْلَحَتْهَا بِتَعْلِيمِ اللَّهِ لَهَا وَهَدَايَتِهِ لَهَا، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا هَذَا الْعَسَلُ اللَّذِيذُ مُخْتَلِفُ الْأَلْوَانِ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ أَرْضِهَا وَمَرَاعِيهَا؛ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ مِنْ أَمْرَاضٍ عَدِيدَةٍ؛ فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى كَمَالِ عَنَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَمَامِ لُطْفِهِ بِعِبَادِهِ، وَأَنَّ الَّذِي لَا يَنْبَغِي أَنْ يُحِبَّ غَيْرَهُ، وَيُدْعَى سِوَاهُ.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنْ رِزْقِهِ إِنَّ أَرْذَلَ الْأَعْمُرِ لِكُلِّ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿٧٠﴾ يَخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ الَّذِي خَلَقَ الْعِبَادَ وَنَقَلَهم فِي الْخَلِيقَةِ طَوْرًا بَعْدَ طَوْرٍ، ثُمَّ بَعْدَ أَنْ يَسْتَكْمِلُوا أَجَالَهم يَتَوَفَّاهُمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعَمِّرُهُ حَتَّى يُرَدَّ ﴿إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾؛ أَي: أَخْسَهُ، الَّذِي يَبْلُغُ بِهِ الْإِنْسَانُ إِلَى ضَعْفِ الْقُوَى الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، حَتَّى الْعَقْلُ الَّذِي هُوَ جَوْهَرُ الْإِنْسَانِ يَزِيدُ ضَعْفُهُ، حَتَّى إِنَّهُ يَنْسَى مَا كَانَ يَعْلَمُهُ، وَيَصِيرُ عَقْلُهُ كَعَقْلِ الطِّفْلِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَكِنِّي لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾؛ أَي: قَدْ أَحَاطَ بِعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا يُثْقَلُ بِهِ الْآدَمِيُّ مِنْ أَطْوَارِ الْخَلْقَةِ خَلْقًا بَعْدَ خَلْقٍ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشِبْهَةَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِي فُضِّلُوا بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٧١).

﴿٧١﴾ وهذا من أدلة توحيده وقبح الشرك به؛ يقول تعالى: كما أنكم مشتركون بأنكم مخلوقون مرزوقون؛ إلا أنه تعالى ﴿فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾: فجعل منكم أحراراً لهم مالٌ وثروة، ومنكم أرقاء لهم لا يملكون شيئاً من الدنيا؛ فكما أن سادتهم الذين فضّلهم الله عليهم بالرزق ليسوا ﴿بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾: ويرون هذا من الأمور الممّنتعة؛ فكذلك مَنْ أشركتم بها مع الله؛ فإنها عبيدٌ ليس لها من الملك مثقال ذرّة؛ فكيف تجعلونها شركاء لله تعالى؟! هل هذا إلّا مِنْ أعظم الظلم والجحود لنعم الله، ولهذا قال: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾؛ فلو أقروا بالنعمة ونسبوا إلى مَنْ أولاهما؛ لما أشركوا به أحداً.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (٧٢).

﴿٧٢﴾ يخبر تعالى عن منته العظيمة على عباده؛ حيث جعل لهم أزواجاً ليسكنوا إليها، وجعل لهم من أزواجهم أولاداً تَقَرُّ بهم أعيُنهم ويخدمونهم ويقضون حوائجهم وينتفعون بهم من وجوه كثيرة، ورزقهم من الطيبات من المأكَل والمشارب والنعم الظاهرة التي لا يقدّر العباد أن يَحصوها. ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾؛ أي: أيؤمنون بالباطل الذي لم يكن شيئاً مذكوراً، ثم أوجده الله، وليس له من وجوده سوى العدم؟ فلا تَخْلُقْ ولا تَزُوقْ ولا تدبّر من الأمور^(١) شيئاً، وهذا عامٌ لكل ما عُبدَ من دون الله؛ فإنها باطلة؛ فكيف يتخذها المشركون من دون الله. ﴿وبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾: يجحدونها، ويستعينون بها على معاصي الله والكفر به، هل هذا إلّا من أظلم الظلم وأفجر الفجور وأسفه السّفه؟!

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ

﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ .

﴿٧٣ - ٧٤﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم، أنهم يعبدون من دونه آلهة اتخذوها شركاء لله، والحال أنهم لا يملكون لهم رزقاً من السماوات والأرض؛ فلا يُنزلون مطراً ولا رزقاً، ولا يُنبِتون من نبات الأرض شيئاً، ولا يملكون مثقال ذرة في السماوات والأرض، ولا يستطيعون لو أرادوا؛ فإن غير المالك للشيء ربما كان له قوة واقتدار على ما ينفع من يتصل به، وهؤلاء لا يملكون ولا يقدرّون؛ فهذه صفة آلهتهم؛ كيف جعلوها مع الله وشبهوها بملك الأرض والسماوات الذي له الملك كله والحمد كله والقوة كلها، ولهذا قال: ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾: المتضمنة للتسوية بينه وبين خلقه. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾: فعلينا أن لا نقول عليه بلا علم، وأن نسمع ما ضربه العليم من الأمثال؛ فلهذا ضربَ تعالى مثليّن له ولمن يُعبَد من دونه:

﴿٧٥﴾ أحدهما: عبدٌ مملوك؛ أي: رقيق لا يملك نفسه ولا يملك من المال والدنيا شيئاً، والثاني: حرٌّ غنيٌّ قد رزقه الله منه رزقاً حسناً من جميع أصناف المال، وهو كريمٌ محبٌ للإحسان؛ فهو ينفقُ منه سرّاً وجهراً؛ هل يستوي هذا وذاك؟! لا يستويان؛ مع أنهما مخلوقان، غير محال استواءهما؛ فإذا كانا لا يستويان؛ فكيف يستوي المخلوق العبد الذي ليس له ملك ولا قدرة ولا استطاعة، بل هو فقير من جميع الوجوه، بالرب الخالق المالك لجميع الممالك، القادر على كل شيء؟! ولهذا حمد نفسه واختص بالحمد بأنواعه، فقال: ﴿الحمد لله﴾: فكأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك؛ فلم سوى المشركون آلهتهم بالله؟! قال: ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾: فلو علموا حقيقة العلم؛ لم يتجرؤوا على الشرك العظيم.

﴿٧٦﴾ والمثل الثاني: مثل ﴿رجلين أحدهما أبكم﴾: لا يسمع ولا ينطق، ولا يقدر على شيء: لا قليل ولا كثير، ﴿وهو كلٌّ على مولاه﴾: أي: يخدمه مولاه ولا يستطيع هو أن يخدم نفسه؛ فهو ناقصٌ من كل وجه، فهل يستوي هذا ومن

كان ﴿يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: فأقواله عدلٌ وأفعاله مستقيمة؛ فكما أنهما لا يستويان؛ فلا يستوي مَنْ عَبْدٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ وهو لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ مَصَالِحِهِ؛ فلولا قيامُ اللَّهِ بها؛ لم يستطع شيئاً منها، لا يكون كفواً ولا نذاً لمن لا يقولُ إِلَّا الْحَقَّ، ولا يفعلُ إِلَّا ما يُحْمَدُ عليه.

﴿وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَفْخِ نَفْثٍ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٧٧).

﴿٧٧﴾ أي: هو تعالى المنفرد بغيبِ السماوات والأرض؛ فلا يعلم الخفايا والبواطن والأسرار إِلَّا هو، ومن ذلك علمُ الساعة؛ فلا يدري أحدٌ متى تأتي إِلَّا اللَّهُ؛ فإذا جاءت وتجلّت؛ لم تكن ﴿إِلَّا كَلَمَحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾: من ذلك، فيقومُ الناس من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم، وتفوتُ الفرصُ لمن يريد الإمهال. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: فلا يُسْتَغْرَبُ على قدرته الشاملة إحياءه للموتى.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨).

﴿٧٨﴾ أي: هو المنفرد بهذه النعم؛ حيث ﴿أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾: ولا تقديرٌ على شيء. ثم إنه ﴿جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾: خصّ هذه الأعضاء الثلاثة لشرفها وفضلها ولأنها مفتاح لكل علم؛ فلا وَصَلَ للعبد علمٌ إِلَّا مِنْ أَحَدِ هَذِهِ الْأَبْوَابِ الثلاثة، وإلّا؛ فسائر الأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة هو الذي أعطاهم إيّاها وجعل يُنمّيها فيهم شيئاً فشيئاً إلى أن يصل كلُّ أحدٍ إلى الحالة اللاتقة به، وذلك لأجل أن يشكروا الله باستعمال ما أعطاهم من هذه الجوارح في طاعة الله؛ فمن استعملها في غير ذلك؛ كانت حجةً عليه، وقابل النعمة بأقبح المعاملة.

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٧٩).

﴿٧٩﴾ أي: لأنهم المتفجعون بآيات الله، المتفكرون فيما جُعِلَتْ آيةٌ عليه، وأما غيرهم؛ فإنَّ نظرهم نظرُ لهوٍ وغفلة. ووجه الآية فيها أَنَّ اللَّهَ تعالى خَلَقَهَا بخلقٍ

تَصْلُحُ لِلطَّيْرَانِ، ثُمَّ سَخَّرَ لَهَا هَذَا الْهَوَاءَ اللَّطِيفَ، ثُمَّ أَوْدَعَ فِيهَا مِنْ قُوَّةِ الْحَرَكَةِ مَا قَدَرْتَ بِهِ عَلَى ذَلِكَ، وَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى حِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ الْوَاسِعِ وَعَنَائِيَّتِهِ الرَّبَّانِيَّةِ بِجَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ وَكَمَالِ اقْتِدَارِهِ؛ تَبَارَكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا أَثْنًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿٨٠﴾ يذكرُ تعالى عباده نعمه، ويستدعي منهم شكرها والاعتراف بها، فقال: ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكنًا﴾: في الدُّور والقصور ونحوها، تُكِنُّكُمْ مِنَ الْحَرِّ والبرد، وتُسَرِّحُكُمْ أَنْتُمْ وَأَوْلَادُكُمْ وَأَمْتَعَتُكُمْ، وَتُتَّخَذُونَ فِيهَا الْبُيُوتَ وَالْغُرُفَ، وَالْبُيُوتُ الَّتِي هِيَ لِأَنْوَاعِ مَنَافِعِكُمْ وَمَصَالِحِكُمْ، وَفِيهَا حِفْظٌ لَأَمْوَالِكُمْ وَحَرَمٌ مِنْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْفَوَائِدِ الْمَشَاهِدَةِ. ﴿وجعل لكم من جلود الأنعام﴾: إما من الجلدِ نَفْسِهِ، أَوْ مِمَّا نَبَتَ عَلَيْهِ مِنْ صَوْفٍ وَشَعْرٍ وَوَبَرٍ، ﴿بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا﴾؛ أَي: خَفِيفَةُ الْحِمْلِ^(١) تَكُونُ لَكُمْ فِي السَّفَرِ، وَالْمَنَازِلِ الَّتِي لَا قَصْدَ لَكُمْ فِي اسْتِيطَانِهَا، فَتَقِيكُمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالْمَطَرِ، وَتَقِي مَتَاعَكُمْ مِنَ الْمَطَرِ. ﴿و﴾ جعل لكم ﴿من أصوافها﴾؛ أَي: الْأَنْعَامِ، ﴿وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنًا﴾: وَهَذَا شَامِلٌ لِكُلِّ مَا يُتَّخَذُ مِنْهَا مِنَ الْآنِيَةِ وَالْأَوْعِيَةِ وَالْفُرُشِ وَالْأَلْبَسَةِ وَالْأَجِلَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. ﴿ومتاعاً إلى حين﴾؛ أَي: تَتَمَتَّعُونَ بِذَلِكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَتَتَنَفَّعُونَ بِهَا؛ فَهَذَا مِمَّا سَخَّرَ اللَّهُ الْعِبَادَ لِمَصْنَعَتِهِ وَعَمَلِهِ.

﴿٨١﴾ ﴿والله جعل لكم مما خلق مما خلق﴾؛ أَي: مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ الَّتِي لَا صِنْعَةَ لَكُمْ فِيهَا، ﴿ظِلَالًا﴾: وَذَلِكَ كَاطِلَةُ الْأَشْجَارِ وَالْجِبَالِ وَالْأَكَامِ وَنَحْوِهَا. ﴿وجعل لكم من الجبال أكناناً﴾؛ أَي: مَغَارَاتُ تُكِنُّكُمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالْأَمْطَارِ وَالْأَعْدَاءِ. ﴿وجعل لكم سرابيل﴾؛ أَي: الْأَبْسَةَ وَثِيَابًا، ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾: وَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ الْبَرْدَ؛ لِأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ أَوَّلُهَا فِي أَصُولِ النِّعَمِ وَآخِرُهَا فِي مَكْمَلَاتِهَا وَمَتَمِّمَاتِهَا، وَوَقَايَةِ الْبَرْدِ مِنْ أَصُولِ النُّعَمِ؛ فَإِنَّهُ مِنَ الضَّرُورَةِ وَقَدْ ذَكَرَهُ فِي أَوَّلِهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿لَكُمْ فِيهَا

دِفْءٌ وَمَنَافِعٌ. و ﴿تَقِيكُمْ بِأَسْكُمْ﴾؛ أي: وثياباً تقيكم وقت البأس والحرب من السلاح، وذلك كالدرع والزُرْدُ^(١) ونحوها. ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾: حيث أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ مِنْ نِعْمِهِ مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْحَصْرِ. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: إذا ذَكَّرْتُمْ نِعْمَةَ اللَّهِ وَرَأَيْتُمُوهَا غَامِرَةً لَكُمْ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ؛ ﴿تُسَلِّمُونَ﴾: لعظمته وتقادون لأمره وتصرفونها في طاعة مَوْلِيهَا وَمُسَدِّدِهَا؛ فَكَثْرَةُ النِّعَمِ مِنَ الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ مِنَ الْعِبَادِ مَزِيدَ الشُّكْرِ وَالشَّاءَ بِهَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى.

﴿٨٢﴾ وَلَكِنْ أَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا تَمُرُّدًا وَعِنَادًا، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: عَنْ اللَّهِ وَعَنْ طَاعَتِهِ بَعْدَمَا ذُكِّرُوا بِنِعْمِهِ وَأَيَّاتِهِ، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾: لَيْسَ عَلَيْكَ مِنْ هِدَايَتِهِمْ وَتَوْفِيقِهِمْ شَيْءٌ، بَلْ أَنْتَ مُطَالِبٌ بِالْوَعْظِ وَالتَّذْكِيرِ وَالْإِنذَارِ وَالتَّحْذِيرِ.

﴿٨٣﴾ فَإِذَا أَذْنَبْتَ مَا عَلَيْكَ؛ فَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ؛ فَإِنَّهُمْ يَرَوْنَ الْإِحْسَانَ وَيَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ، وَلَكِنَّهُمْ يُنْكِرُونَهَا وَيَجْحَدُونَهَا. ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾: لَا خَيْرَ فِيهِمْ، وَمَا يَنْفَعُهُمْ تَوَالِي الْآيَاتِ؛ لِفَسَادِ مَشَاعِرِهِمْ وَسُوءِ قُصُودِهِمْ، وَسَيَرَوْنَ جَزَاءَ اللَّهِ لِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ كُفُورٍ لِلنِّعَمِ مَتَمَرِّدٍ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رُسُلِهِ.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثَرَّ لَا يُوْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾^(٨٤) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ^(٨٥) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ^(٨٦) وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْقَرُونَ^(٨٧).

﴿٨٤ - ٨٥﴾ يخبر تعالى عن حال هؤلاء الذين كفروا في يوم القيامة، وأنه لا يقبل لهم عذر ولا يزفع عنهم العقاب، وأن شركاءهم تتبرأ منهم، ويقرؤون على أنفسهم بالكفر والافتراء على الله، فقال: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾: يشهد عليها بأعمالهم وماذا أجابوا به الداعي إلى الهدى، وذلك الشهيد الذي يبعثه الله أزكى الشهداء وأعدلهم، وهم الرسل الذين إذا شهدوا؛ تَمَّ عَلَيْهِمُ الْحُكْمُ. ﴿ثُمَّ لَا يُوْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: فِي الْإِعْتِذَارِ؛ لِأَنَّهُمْ اعْتَذَرُوا بَعْدَمَا عَلِمُوا يَقِينًا بِطُلَانِ مَا هُمْ عَلَيْهِ اعْتِذَارٌ كَاذِبٌ لَا يَفِيدُهُمْ شَيْئًا، وَإِنْ طَلَبُوا أَيْضًا الرَّجُوعَ إِلَى الدُّنْيَا

(٢) فِي (ب): «فَلَا».

(١) فِي (ب): «الزُّرْد».

ليستدركوا؛ لم يُجابوا ولم يُعَبَّوا، بل يبادرهم العذاب الشديد الذي لا يخفف عنهم من غير إنظار ولا إمهال من حين يرونها؛ لأنهم لا حسنات لهم، وإنما تعدُّ أعمالهم وتُحصى ويوقفون عليها، ويُقرَّرون بها، ويُفتَضَّحون.

﴿٨٦﴾ ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾: يوم القيامة، وعلموا بطلانها، ولم يمكنهم الإنكار، ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ﴾: ليس عندها نفع ولا شفع، فنوَّهوا بأنفسهم بطلانها، وكفروا بها، وبدت البغضاء والعداوة بينهم وبينها، ﴿فَالْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾؛ أي: ردَّت عليهم شركاؤهم عليهم قولهم، فقالت لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾: حيث جعلتمونا شركاء لله وعبدتمونا معه، فلم نأمركم بذلك، ولا زَعَمْنَا أَنَّ فِينَا اسْتِحْقَاقًا لِلْأُلُوهِيَّةِ؛ فاللوم عليكم.

﴿٨٧﴾ فحينئذ استسلموا لله، وخضعوا لحكمه، وعلموا أنهم مستحقون للعذاب، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: فدخلوا النار وقد امتلأت قلوبهم من مَقَتِ أنفسهم ومن حَمَدِ ربهم، وأنه لم يعاقبهم إلا بما كسبوا.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾.

﴿٨٨﴾ حيث كفروا بأنفسهم، وكذبوا بآيات الله، وحاربوا رُسُلَه، وصدَّوا الناس عن سبيل الله، وصاروا دعاة إلى الضلال، فاستحقُّوا مضاعفة العذاب كما تضاعف جرمهم، وكما أفسدوا في أرض الله.

﴿يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿٨٩﴾ لما ذَكَرَ فيما تقدَّم أنه يبعث في كل أمة شهيداً؛ ذكر ذلك أيضاً هنا، وخصَّ منهم هذا الرسول الكريم، فقال: ﴿وجئنا بك شهيداً على هؤلاء﴾؛ أي: على أمتك تشهد عليهم بالخير والشر، وهذا من كمال عدل الله تعالى؛ أن كلَّ رسول يشهد على أمته؛ لأنه أعظمُّ اطلاعاً من غيره على أعمال أمته، وأعدل وأشفق من أن يشهد عليهم إلا بما يستحقُّون، وهذا كقوله تعالى: ﴿وكذلك جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، وقال تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً. يومئذ يوذ الذين كفروا وعَصَوْا الرَّسُولَ لو تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾. وقوله: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾: في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين، وكل ما

يحتاج إليه العباد؛ فهو مبين فيه أتم تبين، بألفاظ واضحة ومعانٍ جليّة، حتى إنّه تعالى يُنّيّ فيه الأمور الكبار التي يحتاج القلب لمرورها عليه كلّ وقتٍ وإعادتها في كلّ ساعةٍ ويعيدها ويبيدها بألفاظٍ مختلفةٍ وأدلةٍ متنوعةٍ لتستقرّ في القلوب فتثمر من الخير والبرّ بحسب ثبوتها في القلب، وحتى إنه تعالى يجمع في اللفظ القليل الواضح معاني كثيرةٍ يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس. واعتبر هذا بالآية التي بعد هذه الآية، وما فيها من أنواع الأوامر والنواهي التي لا تُحصّر.

فلما كان هذا القرآن تبياناً لكلّ شيء؛ صار حجّة الله على العباد كلّهم، فانقطعت به حجّة الظالمين، وانتفع به المسلمون، فصار هدىً لهم يهتدون به إلى أمر دينهم ودنياهم ورحمةً ينالون به كلّ خير في الدنيا والآخرة؛ فالهدى ما نالوا به من علم نافع وعمل صالح، والرحمة ما ترتّب على ذلك من ثواب الدنيا والآخرة؛ كصلاح القلب وبرّه وطمأنينته، وتمام العقل الذي لا يتمّ إلا بتربيته على معانيه التي هي أجلّ المعاني وأعلاها، والأعمال الكريمة والأخلاق الفاضلة والرزق الواسع والنصر على الأعداء بالقول والفعل ونيل رضا الله تعالى وكرامته العظيمة التي لا يعلم ما فيها من النعيم المقيم إلاّ الربّ الرحيم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٩٠).

﴿٩٠﴾ فالعدل الذي أمر الله به يشمل العدل في حقّه وفي حقّ عباده؛ فالعدل في ذلك أداء الحقوق كاملةً موفورة؛ بأن يؤدّي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق الماليّة والبدنيّة والمركبة منهما في حقّه وحقّ عباده، ويعامل الخلق بالعدل التام، فيؤدّي كلّ والٍ ما عليه تحت ولايته، سواء في ذلك ولاية الإمامة الكبرى وولاية القضاء ونواب الخليفة ونواب القاضي. والعدل: هو ما قرّضه الله عليهم في كتابه وعلى لسان رسوله وأمرهم بسلوكه، ومن العدل في المعاملات أن تعاملهم في عقود البيع والشراء وسائر المعاولات بإيفاء جميع ما عليك؛ فلا تبخسّ لهم حقاً، ولا تغشهم ولا تخدعهم وتظلمهم؛ فالعدل واجب، والإحسان فضيلةٌ مستحبّة، وذلك كنفع الناس بالمال والبدن والعلم وغير ذلك من أنواع النفع، حتى يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره، وخصّ الله إيتاء ذي القربى وإن كان داخلاً في العموم؛ لتأكّد حقهم وتعيّن صلتهم وبرهم والحرص على ذلك، ويدخل في ذلك جميع الأقارب؛ قريتهم وبعيدهم، لكن كلّ من كان أقرب كان أحقّ بالبرّ.

وقوله: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾: وهو كلُّ ذنبٍ عظيم استفحشته الشرائع والفِطْر؛ كالشرك بالله والقتل بغير حقِّ والزنا والسرقة والعُجب والكِبَر واحتقار الخلق وغير ذلك من الفواحش، ويدخل في المنكر كلُّ ذنبٍ ومعصية متعلِّق بحقِّ الله تعالى، وبالبغي كلُّ عدوان على الخلق في الدِّماء والأموال والأعراض. فصارت هذه الآية جامعةً لجميع المأمورات والمنهيات، لم يبقَ شيءٌ إلَّا دخل فيها. فهذه قاعدةٌ ترجع إليها سائر الجزئيات؛ فكلُّ مسألةٍ مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى؛ فهي مما أمر الله به، وكلُّ مسألةٍ مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغي؛ فهي مما نهى الله عنه، وبها يُعلَّم حُسْنُ ما أمر الله به وقُبْحُ ما نهى عنه، وبها يُعتبر ما عند الناس من الأقوال، وتردُّ إليها سائر الأحوال؛ فتبارك مَنْ جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور والفرقان بين جميع الأشياء، ولهذا قال: ﴿يَعْظُمُكُمْ﴾؛ به، أي: بما بيَّنه لكم في كتابه بأمركم بما فيه غاية صلاحكم ونهيكم عما فيه مضرَّتكم. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾: ما يعظُّكم به فتفهمونه وتعقلونه؛ فإنَّكم إذا تذكَّرتُموه وعقلتموه؛ عملتم بمقتضاه، فسعدتُم سعادةً لا شقاوة معها.

فلما أمر بما هو واجبٌ في أصل الشرع؛ أمر بوفاء ما أوجبه العبدُ على نفسه، فقال:

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْلَمُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبَتْ تَلْخُذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِمْ وَلِيَبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿٩١﴾ وهذا يشمل جميع ما عاهد العبدُ عليه ربُّه من العبادات والنذور والأيمان التي عقدها إذا كان الوفاء بها برًّا، ويشمل أيضاً ما تعاقد عليه هو وغيره؛ كالعهود بين المتعاقدين، وكالوعد الذي يعده العبدُ لغيره ويؤكِّده على نفسه؛ فعليه في جميع ذلك الوفاء وتتميمها مع القدرة، ولهذا نهى الله عن نقضها، فقال: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾: بعقدها على اسم الله تعالى. ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ﴾: أيها المتعاقدون، ﴿كَفِيلًا﴾: فلا يحِلُّ لكم أن لا تحكِّموا ما جعلتم الله عليكم كفيلًا، فيكون ذلك ترك تعظيم الله واستهانةً به، وقد رضي الآخر منك باليمين والتوكيد الذي جعلت الله فيه كفيلًا؛ فكما ائتمنتك وأحسن ظنَّه فيك؛ فلتُفِّ له بما

قلت وأكذته. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾: فيجازي كلَّ عامل بعمله على حسب نيَّته ومقصدِهِ.

﴿٩٢﴾ ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾: في نقضِكُم للعهودِ بأسوأ الأمثال وأقبحها وأدْلُها على سفه متعاطيها، وذلك ﴿كالتِي﴾ تَغْزُلُ غزلاً قوياً؛ فإذا استحکم وتمَّ ما أريد منه؛ نَقَضَتْه فجعلته ﴿أَنكَاثًا﴾: فتعبت على الغزل، ثم على النقض، ولم تستفدْ سوى الخيبة والعناء وسفاهة العقل ونقص الرأي؛ فكذلك مَنْ نَقَضَ ما عاهد عليه؛ فهو ظالمٌ جاهلٌ سفيهٌ ناقص الدين والمروءة. وقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾؛ أي: لا تنبغي هذه الحالة منكم؛ تعقدون الأيمان المؤكدة، وتنتظرون فيها الفرص: فإذا كان العاقد لها ضعيفاً غير قادرٍ على الآخر؛ أتمها لا لتعظيم العقد واليمين، بل لعجزِهِ. وإن كان قوياً يرى مصلحته الدنيوية في نقضها؛ نَقَضَهَا غيرَ مبالٍ بعهدِ الله ويمينه، كلُّ ذلك دَوْرَاناً مع أهوية النفوس وتقديمها لها على مراد الله منكم وعلى المروءة الإنسانية والأخلاق المرضية؛ لأجل أن تكون أمة أكثر عدداً وقوة من الأخرى. وهذا ابتلاء من الله وامتحان يبتليكم [الله] به؛ حيث قِيَضَ من أسباب المِحْنِ الذي يُمْتَحَنُ به الصادق الوفي من الفاجر الشقي. ﴿وَلِيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾: فيجازي كلًّا بعمله^(١)، ويخزي الغادر.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلِتَسْأَلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿٩٣﴾ أي: ﴿لو شاء الله﴾ لجَمَعَ الناس على الهدى، وجعلهم ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: ولكِنَّ تعالى المنفرد بالهداية والإضلال، وهدايته وإضلاله من أفعاله التابعة لعلمِهِ وحكمته، يعطي الهداية من يستحقها فضلاً، ويمنعها مَنْ لا يستحقها عدلاً. ﴿وَلِتَسْأَلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: من خيرٍ وشرٍّ، فيجازيكم عليها أتمَّ الجزاء وأعدله.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَزَلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا أَلْسِنَتَكُمْ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿٩٤﴾ أي: ﴿ولا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ﴾: وعهودكم ومواثيقكم تبعاً لأهوائكم، متى

شِئْتُمْ وَفَيْتُمْ بِهَا، وَمَتَى شِئْتُمْ نَقَضْتُمُوهَا؛ فَإِنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ؛ تَزُولُ أَقْدَامُكُمْ بَعْدَ ثَبُوتِهَا عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ. ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ﴾؛ أَي: الْعَذَابَ الَّذِي يَسُوُّوْكُمْ وَيَخْزَنُكُمْ. ﴿بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾: حَيْثُ ضَلَلْتُمْ وَأَضَلَلْتُمْ غَيْرَكُمْ. ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: مُضَاعَفٌ.

— ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿٩٥﴾ يَحْذَرُ تَعَالَى عِبَادَهُ مِنْ نَقْضِ الْعُهُودِ وَالْإِيمَانِ لِأَجْلِ مَتَاعِ الدُّنْيَا وَحَطَامِهَا، فَقَالَ: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: تَنَالُونَهُ بِالنَّقْضِ وَعَدَمِ الْوَفَاءِ. ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾: مِنَ الثَّوَابِ الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ لِمَنْ آثَرَ رِضَاءَهُ وَأَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ، ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: مِنَ حَطَامِ الدُّنْيَا الزَّائِلَةِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿٩٦﴾ فَأَثَرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى؛ فَإِنَّ الَّذِي ﴿عِنْدَكُمْ﴾: وَلَوْ كَثُرَ جَدًّا لَا بَدَّ أَنْ يَنْفَدَ وَيَفْنَى، ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾: بِبَقَائِهِ، لَا يَفْنَى وَلَا يَزُولُ؛ فَلَيْسَ بِعَاقِلٍ مَنْ آثَرَ الْفَانِي الْخَسِيسَ عَلَى الْبَاقِي الْنَفِيسِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ تَوَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾. ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾. وَفِي هَذَا الْحَثِّ وَالتَّرغِيبِ عَلَى الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا، خُصُوصاً الزُّهْدَ الْمَتَعِينِ، وَهُوَ الزُّهْدُ فِيمَا يَكُونُ ضَرراً عَلَى الْعَبْدِ وَيُوجِبُ لَهُ الْإِشْغَالَ عَمَّا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَتَقْدِيمَهُ عَلَى حَقِّ اللَّهِ؛ فَإِنَّ هَذَا الزُّهْدَ وَاجِبٌ. وَمِنَ الدَّوَاعِي لِلزُّهْدِ أَنْ يَقَابِلَ الْعَبْدَ لَذَاتِ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا بِخَيْرَاتِ الْآخِرَةِ؛ فَإِنَّهُ يَجِدُ مِنَ الْفُرْقِ وَالتَّفَاوُتِ مَا يَدْعُوهُ إِلَى إِثَارِ أَعْلَى الْأَمْرَيْنِ، وَلَيْسَ الزُّهْدُ الْمَمْدُوحُ هُوَ الْإِنْقِطَاعُ لِلْعِبَادَاتِ الْقَاصِرَةِ؛ كَالصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالذِّكْرِ وَنَحْوِهَا، بَلْ لَا يَكُونُ الْعَبْدُ زَاهِداً زَاهِداً صَحِيحاً حَتَّى يَقُومَ بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَمْرِ الشَّرْعِيِّ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَمِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى دِينِهِ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ؛ فَالزُّهْدُ الْحَقِيقِيُّ هُوَ الزُّهْدُ فِيمَا لَا يَنْفَعُ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَالرَّغْبَةُ وَالسَّعْيُ فِي كُلِّ مَا يَنْفَعُ. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾: عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَعَنِ مَعْصِيَتِهِ، وَقَطَمُوا أَنْفُسَهُمْ عَنِ الشَّهَوَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ الْمُضِرَّةِ بِدِينِهِمْ؛ ﴿أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضَعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرُ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا.

﴿٩٧﴾ ولهذا ذكر جزاء العاملين في الدنيا والآخرة فقال: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: فَإِنَّ الْإِيمَانَ شَرْطٌ فِي صِحَّةِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَقَبُولِهَا، بَلْ لَا تَسْمَىٰ أَعْمَالًا صَالِحَةً إِلَّا بِالْإِيمَانِ، وَالْإِيمَانُ مُقْتَضٍ لَهَا؛ فَإِنَّهُ التَّصَدِيقُ الْجَازِمُ الْمَثْبُوتُ لأَعْمَالِ الْجَوَارِحِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ؛ فَمَنْ جَمَعَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ ﴿فَلَنُخَيِّتَهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾: وَذَلِكَ بِطَمَآنِينَةٍ قَلْبِهِ وَسُكُونِ نَفْسِهِ وَعَدَمِ التَّفَاتِيهِ لِمَا يُشْوِشُ عَلَيْهِ قَلْبُهُ وَيَرْزُقُهُ اللَّهُ رِزْقًا حَلَالًا طَيِّبًا مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾: فِي الْآخِرَةِ ﴿أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: مِنْ أَصْنَافِ اللَّذَاتِ؛ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَيُؤْتِيهِ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً.

﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٩٨) إِنَّكُمْ لَمْ تُسَلِّطُوا عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلِّطْنَاهُمْ عَلَى الَّذِينَ يُتَوَلَّوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾.

﴿٩٨ - ١٠٠﴾ أي: فإذا أردت القراءة لكتاب الله الذي هو أشرف الكتب وأجلها، وفيه صلاح القلوب والعلوم الكثيرة؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ أَحْرَصُ مَا يَكُونُ عَلَى الْعَبْدِ عِنْدَ شُرُوعِهِ فِي الْأُمُورِ الْفَاضِلَةِ، فَيَسْعَى فِي صَرْفِهِ عَنْ مَقَاصِدِهَا وَمَعَانِيهَا؛ فَالطَّرِيقُ إِلَى السَّلَامَةِ مِنْ شَرِّهِ الْإِلْتِجَاءُ إِلَى اللَّهِ وَالِاسْتِعَاذَةُ بِهِ مِنْ شَرِّهِ، فَيَقُولُ الْقَارِءُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ؛ مُتَدَبِّرًا لِمَعْنَاهَا، مُعْتَمِدًا بِقَلْبِهِ عَلَى اللَّهِ فِي صَرْفِهِ عَنْهُ، مُجْتَهِدًا فِي دَفْعِ وَسْوَاسِهِ^(١) وَأَفْكَارِهِ الرَّدِيئَةِ، مُجْتَهِدًا عَلَى السَّبَبِ الْأَقْوَى فِي دَفْعِهِ، وَهُوَ التَّحَلِّيُ بِجِلْيَةِ الْإِيمَانِ وَالتَّوَكُّلِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ ﴿لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ﴾؛ أي: تَسَلَّطَ ﴿عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ﴾: وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾: فَيُدْفَعُ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْهِ شَرُّ الشَّيْطَانِ وَلَا يَبْقَى لَهُ عَلَيْهِمْ سَبِيلٌ. ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ﴾؛ أي: تَسَلَّطَ ﴿عَلَى الَّذِينَ يُتَوَلَّوْنَ﴾؛ أي: يجعلونه لهم وليًا، وَذَلِكَ بِتَخْلِيهِمْ عَنْ وِلَايَةِ اللَّهِ، وَدُخُولِهِمْ فِي طَاعَةِ الشَّيْطَانِ، وَانْضِمَامِهِمْ لِحِزْبِهِ؛ فَهُمْ الَّذِينَ جَعَلُوا لَهُ وِلَايَةً عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَارَّهَمُوا إِلَى الْمَعَاصِي أَزًّا، وَقَادَهُمْ إِلَى النَّارِ قَوْدًا.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفَرِّقٌ بَلْ

(١) في (ب): «وساوسة».

أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ .

﴿١٠١﴾ يذكر تعالى أَنَّ المكذِّبين بهذا القرآن يَتَّبِعُونَ ما يَرَوْنَهُ حِجَّةً لهم، وهو أَنَّ الله تعالى هو الحاكم الحكيم، الذي يَشْرَعُ الأحكام ويبدِّل حكمًا مكان آخر؛ لحكمته ورحمته؛ فإذا رآوه كذلك؛ قدحوا في الرسول وبما جاء به، و﴿قالوا إنما أنت مُفْتَرٍ﴾، قال الله تعالى: ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾: فهم جهالٌ، لا علم لهم برَّبِّهم ولَا بشرِعه، ومن المعلوم أن قدح الجاهل بلا علم لا عبرة به؛ فإنَّ القدح في الشيء فرْع عن العلم به وما يشتمل عليه مما يوجب المدح والقدح.

﴿١٠٢﴾ ولهذا ذكر تعالى حكمته في ذلك، فقال: ﴿قل نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾: وهو جبريلُ الرسول المقدَّس المنزَّه عن كُلِّ عيب وخيانة وأفةٍ، ﴿بالحقِّ﴾؛ أي: نزوله بالحقِّ، وهو مشتملٌ على الحقِّ في أخباره وأوامره ونواهيه؛ فلا سبيل لأحد أن يَقْدَحَ فيه قدحاً صحيحاً؛ لأنَّه إذا عَلِمَ أَنَّهُ الحقُّ؛ عَلِمَ أَنَّ ما عَارَضَهُ وناقَضَهُ باطلٌ. ﴿ليُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: عند نزول آيَاتِهِ وتوازُّدها عليهم وقتاً بعد وقتٍ؛ فلا يزال الحقُّ يصلُ إلى قلوبهم شيئاً فشيئاً، حتى يكون إيمانهم أثبتَّ من الجبال الرواسي. وأيضاً؛ فإنَّهم يعلمون أَنَّهُ الحقُّ، وإذا شرع حكمًا من الأحكام، ثم نَسَخَهُ؛ علموا أَنَّهُ أبدله بما هو مثله أو خيرٌ منه لهم، وأنَّ نَسَخَهُ هو المناسب للحكمة الربانيَّة والمناسبة العقلية. ﴿وهدى وبشرى للمسلمين﴾؛ أي: يهديهم إلى حقائق الأشياء، ويبين لهم الحقَّ من الباطل والهدى من الضلال، ويبشِّرهم أَنَّ لهم أجراً حسناً ماكثين فيه أبداً. وأيضاً؛ فإنه كلُّما نزل شيئاً فشيئاً؛ كان أعظم هداية وبشارة لهم من لو أتاهاهم جملة واحدة وتفرَّق الفكر فيه، بل يُنَزِّلُ الله حكماً وتارة أكثر؛ فإذا فهموه وعقلوه وعرفوا المراد منه وتروّوا منه؛ أنزل نظيره... وهكذا. ولذلك بلغ الصحابة رضي الله عنهم به مبلغاً عظيماً، وتغيَّرت أخلاقهم وطبائعهم، وانتقلوا إلى أخلاق وعوائد وأعمال فاقوا بها الأوَّلين والآخرين، وكان أعلى وأولى لمن بعدهم أن يتربَّوا بعلومه، ويتخلَّقوا بأخلاقه، ويستضيئوا بنوره في ظلمات الغي والجهالات، ويجعلوه إمامهم في جميع الحالات. فبذلك تستقيم أمورهم الدينية والدينيَّة.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِي

وَهَذَا لِسَانٌ عَكِثٌ مُبِيتٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾

﴿١٠٣﴾ يخبر تعالى عن قبيل المشركين المكذبين لرسوله: ﴿أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يَعْلَمُهُ﴾: هذا الكتاب الذي جاء به، ﴿بَشَرٌ﴾: وذلك البشر الذي يشيرون إليه أعجمي اللسان. ﴿وهذا﴾: القرآن ﴿لسانٌ عربيٌّ مبينٌ﴾: هل هذا القول ممكنٌ أو له حظٌّ من الاحتمال؟! ولكن الكاذب يكذب ولا يفكر فيما يؤول إليه كذبه، فيكون في قوله من التناقض والفساد ما يوجب رده بمجرد تصوّره.

﴿١٠٤﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: الدالة دلالة صريحة على الحق المبين فيردونها ولا يقبلونها، ﴿لا يهديهمُ الله﴾: حيث جاءهم الهدى فردوه فعوقبوا بجزمائه وخذلان الله لهم. ﴿ولهم﴾: في الآخرة ﴿عذابٌ أليمٌ﴾.

﴿١٠٥﴾ ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ﴾؛ أي: إنما يصدرُ افتراء الكذب من ﴿الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾: كالمعاندين لرسوله من بعد ما جاءتهم البينات. ﴿وأولئك هم الكاذبون﴾؛ أي: الكذب منحصرٌ فيهم، وعليهم أولى بأن يطلق من غيرهم. وأما محمد ﷺ المؤمن بآيات الله الخاضع لربه؛ فمُحالٌ أن يكذب على الله، ويتقوّل عليه ما لم يقل، فأعداؤه رمّوه بالكذب الذي هو وصفهم، فأظهر الله خزيهم وبيّن فضائحهم؛ فله تعالى الحمد.

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَتَعِهِمْ وَأَبْصَرَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾

﴿١٠٦ - ١٠٨﴾ يخبر تعالى عن شناعة حال مَنْ كَفَرَ به من بعد إيمانه فعمي بعدما أبصر، ورجع إلى الضلال بعدما اهتدى، وشرح صدره بالكفر راضياً به مطمئناً: أن لهم الغضب الشديد من الرب الرحيم، الذي إذا غضب؛ لم يقم لغضبه شيء وغضب عليهم كل شيء. ﴿ولهم عذابٌ عظيمٌ﴾؛ أي: في غاية الشدة، مع أنه دائم أبداً. وذلك أنهم ﴿استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة﴾: حيث ارتدوا على

أدبارهم؛ طمعاً في شيء من حطام الدنيا، ورغبةً فيه، وزهداً في خير الآخرة.

فلما اختاروا الكفر على الإيمان؛ منعهم الله الهداية، فلم يهديهم؛ لأن الكفر وصفهم، فطبع على قلوبهم؛ فلا يدخلها خيرٌ، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم؛ فلا ينفذ منها ما ينفعهم ويصل إلى قلوبهم، فشملتهم الغفلة وأحاط بهم الخذلان وحرموا رحمة الله التي وسعت كل شيء، وذلك أنها أتتهم فردوها وعرضت عليهم فلم يقبلوها.

﴿١٠٩﴾ ﴿لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون﴾: الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهلهم يوم القيامة، وفاتهم النعيم المقيم، وحصلوا على العذاب الأليم، وهذا بخلاف من أكره على الكفر وأجبر عليه، وقلبه مطمئن بالإيمان راغب فيه؛ فإنه لا حرج عليه ولا إثم، ويجوز له التُّنْقُط بكلمة الكفر عند الإكراه عليها.

ودل ذلك على أن كلام المكروه على الطلاق أو العتاق أو البيع أو الشراء أو سائر العقود أنه لا عبرة به ولا يترتب عليه حكم شرعي؛ لأنه إذا لم يعاقب على كلمة الكفر إذا أكره عليها؛ فغيرها من باب أولى وأحرى.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

﴿١١٠﴾ أي: ثم ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: الذي ربى عباده المخلصين بلطفه وإحسانه ﴿لغفور رحيم﴾ لمن هاجر في سبيله، وخلّى دياره وأمواله طالباً لمرضاة الله، وفَتِنَ على دينه ليرجع إلى الكفر، فثبت على الإيمان، وتخلّص ما معه من اليقين، ثم جاهد أعداء الله ليُدْخِلَهُمْ في دين الله بلسانه ويده، وصَبَرَ على هذه العبادات الشاقة على أكثر الناس؛ فهذه أكبر الأسباب التي تُنال بها أعظم العطايا وأفضل المواهب، وهي مغفرة الله للذنوب صغارها وكبارها، المتضمن ذلك زوال كل أمرٍ مكروه، ورحمته العظيمة التي بها صلحت أحوالهم واستقامت أمور دينهم ودنياهم؛ فلهم الرحمة من الله في يوم القيامة.

﴿١١١﴾ حين ﴿تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾: كل يقول: نفسي نفسي، لا يهمه سوى نفسه؛ ففي ذلك اليوم يفتقر العبد إلى حصول مثقال ذرة من الخير. ﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾: من خيرٍ وشرٍّ. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: فلا يزاؤ في

سَيِّئَاتِهِمْ، وَلَا يُنْقِصُ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ. ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿١١٢ - ١١٣﴾ وهذه القرية هي مكة المشرفة التي كانت آمنة مطمئنة لا يهاج فيها أحد، وتحترمها الجاهليّة الجَهلاء، حتى إن أحدهم يجد قاتل أبيه وأخيه فلا يهيجُه مع شدّة الحميّة فيهم والنصرة العربيّة، فحصل لها من الأمن التام ما لم يحصل لسواها، وكذلك الرزق الواسع، كانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر، ولكن يسرّ الله لها الرزق يأتيها من كل مكان، فجاءهم رسول منهم يعرفون أمانته وصدقه؛ يدعُوهم إلى أكمل الأمور، وينهاهم عن الأمور السيئة، فكذبوه وكفروا بنعمة الله عليهم، فأذاقهم الله ضدّ ما كانوا فيه، والبسهم ﴿لباس الجوع﴾ الذي هو ضدّ الرغد، ﴿والخوف﴾ الذي هو ضدّ الأمن، وذلك بسبب صنيعهم وكفرهم وعدم شكرهم، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ عَابِدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بِلَاحٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا نَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِيُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا فَضَّصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

﴿١١٤﴾ يأمر عباده بأكل ما رزقهم الله من الحيوانات والحبوب والثمار وغيرها. ﴿حلالاً طيباً﴾؛ أي: حالة كونها متّصفة بهذين الوصفين؛ بحيث لا تكون مما حرّم الله أو أثراً من غضب ونحوه؛ فمتّعوا بما خلق الله لكم من غير إسراف ولا تعدّ. ﴿واشكروا نعمة الله﴾: بالاعتراف بها بالقلب، والثناء على الله بها، وصرّفها في طاعة الله. ﴿إن كنتم عبّدون﴾؛ أي: إن كنتم مخلصين له العبادة؛ فلا تشكروا إلّا إيّاه، ولا تنسوا المنعم.

﴿١١٥﴾ ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾: الأشياء المضرة تنزيهاً لكم، وذلك: كالميتة، ويدخل في ذلك كل ما كان موته على غير ذكاة مشروعة، ويُسْتثنى منه ميتة الجراد والسمك. ﴿وَالدَّمَ﴾: المسفوح، وأما ما يبقى في العروق واللحم؛ فلا يضر. ﴿وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ﴾: لقذارته وخبثه، وذلك شامل للحمة وشحمه وجميع أجزائه. ﴿وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾: كالذي يذبح للأصنام والقبور ونحوها؛ لأنه مقصود به الشرك. ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾: إلى شيء من المحرمات؛ بأن حملته الضرورة وخاف إن لم يأكل أن يهلك؛ فلا جناح عليه إذا لم يكن باغياً أو عادياً؛ أي: إذا لم يُرِدْ أكل المحرم، وهو غير مضطر ولا متعد الحلال إلى الحرام أو متجاوز لما زاد على قدر الضرورة؛ فهذا الذي حرّمه الله من المباحات.

﴿١١٦﴾ ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾؛ أي: لا تحرّموا وتحلّلوا من تلقاء أنفسكم كذباً وافتراءً على الله وتقولاً عليه؛ ﴿لَتَفْتُرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ﴾: لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا بد أن يُظهِرَ الله خزيهم.

﴿١١٧﴾ ﴿وَإِنْ تَمَتَّعُوا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ﴾ ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾: ومصيرهم إلى النار، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿١١٨﴾ ﴿فَاللَّهُ تَعَالَى مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا إِلَّا الْخَبِيثَاتِ تَفْضُلًا مِنْهُ وَصِيَانَةً عَنْ كُلِّ مُسْتَقْدِرٍ، وَأَمَّا الَّذِينَ هَادُوا؛ فَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ عَقُوبَةً لَهُمْ؛ كَمَا قَصَّه فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شَحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١٩).

﴿١١٩﴾ وهذا حصّ منه لعباده على التوبة ودعوة لهم إلى الإنابة، فأخبر أنّ من عمل سوءاً ﴿بِجَهَالَةٍ﴾: بعاقبة ما تخجنى عليه، ولو كان متعمداً للذنب؛ فإنه لا بد أن ينقص ما في قلبه من العلم وقت مقارفة الذنب؛ فإذا تاب وأصلح بأن ترك الذنب وندم^(١) عليه

وأصلح أعماله؛ فإنَّ الله يغفر له ويرحمه ويتقبَّل توبته ويعيده إلى حالته الأولى أو أعلى منها.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٥﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٦﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٧﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٨﴾﴾.

﴿١٢٠﴾ يخبر تعالى عمَّا فَضَّلَ به خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام وخَصَّهُ به من الفضائل العالية والمناقب الكاملة، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾؛ أي: إماماً جامعاً لخصال الخير هادياً مهتدياً، ﴿قَانِتاً لِلَّهِ﴾؛ أي: مديماً لطاعة ربه مخلصاً له الدين، ﴿حَنِيفاً﴾: مقبلاً على الله بالمحبة والإنابة والعبودية، معرضاً عمن سواه. ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: في قوله وعمله وجميع أحواله؛ لأنه إمام الموحدين الحنفاء.

﴿١٢١﴾ ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾؛ أي: آتاه الله في الدنيا حسنة، وأنعم عليه بنعم ظاهرة وباطنية، فقام بشكرها، فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة أن ﴿اجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ واختصه بخلته وجعله من صفوة خلقه وخيار عباده المقربين. ﴿وهده إلى صراط مستقيم﴾: في علمه وعمله، فعلم بالحق وآثره على غيره.

﴿١٢٢﴾ ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: رزقاً واسعاً، وزوجة حسناء، وذرية صالحين، وأخلاقاً مرضية. ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾: الذين لهم المنازل العالية والقرب العظيم من الله تعالى.

﴿١٢٣﴾ ومن أعظم فضائله أن الله أوحى لسيد الخلق وأكملهم أن يتبع ملة إبراهيم ويقتدي به هو وأُمَّته.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿١٢٤﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ﴾؛ أي: فرضاً ﴿على الذين اختلفوا فيه﴾: حين ضلُّوا عن يوم الجمعة، وهم اليهود، فصار اختلافهم سبباً لأن يجب عليهم في السبت احترامه وتعظيمه، وإلّا؛ فالفضيلة الحقيقية ليوم الجمعة، الذي هدى الله هذه الأمة إليه. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ﴾

يختلفون: فيبين لهم المحق من المبطل والمستحق للثواب ممن استحق العذاب^(١).

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْهُمْ بِالْقِيَاسِ هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١٢٥).

﴿١٢٥﴾ أي: ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم إلى سبيل ربك المستقيم المشتمل على العلم النافع والعمل الصالح، ﴿بالحكمة﴾؛ أي: كل أحد على حسب حاله وفهمه وقبوله وانقياده، ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل، والبداة بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين؛ فإن انقاد بالحكمة، وإلا؛ فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب: إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها والنواهي من المضار وتعدادها، وإما بذكر إكرام من قام بدين الله وإهانة من لم يقم به، وإما بذكر ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل؛ فإن كان المدعو يرى أن ما [هو] عليه حق، أو كان داعية إلى الباطل؛ فيجادل بالتي هي أحسن، وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلاً ونقلاً، ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقد؛ فإنه أقرب إلى حصول المقصود وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشامة تذهب بمقصودها ولا تحصل الفائدة منها، بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها. وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾؛ علم السبب الذي أذاه إلى الضلال، وعلم أعماله المترتبة على ضلالته، وسيجازه عليها. ﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾: علم أنهم يصلحون للهداية فهداهم، ثم من عليهم فاجتباهم.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (١٢٦) وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَلَالٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (١٢٨).

﴿١٢٦﴾ يقول تعالى مبيحاً للعدل ونادياً للفضل والإحسان: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾: من أساء إليكم بالقول والفعل، ﴿فعاقبوا بمثل ما عُوقِبْتُمْ به﴾: من غير زيادة منكم على

ما أجراه معكم. ﴿وَلَيْتَن صَبِرْتُمْ﴾: عن المعاقبة وعفوئتم عن جرمهم، ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾: من الاستيفاء، وما عند الله خير لكم وأحسن عاقبة؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

﴿١٢٧ - ١٢٨﴾ ثم أمر رسوله بالصبر على دعوة الخلق إلى الله والاستعانة بالله على ذلك وعدم الاتكال على النفس، فقال: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾: هو الذي يُعينك عليه وَيُثَبِّتُكَ. ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾: إذا دعوتهم فلم تَرَ منهم قبولاً لدعوتك؛ فإنَّ الحزن لا يُجدي عليك شيئاً. ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾؛ أي: شدةٍ وخرج ﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾: فإنَّ مكروهم عائدٌ إليهم، وأنت من المتقين المحسنين، والله مع المتقين المحسنين بعونه وتوفيقه وتسديده، وهم الذين اتَّقُوا الكفر والمعاصي، وأحسنوا في عبادة الله؛ بأن عبدوا الله كأنهم يرونه؛ فإنَّ لم يكونوا يَرُونَهُ فَإِنَّهُ يَرَاهُمْ، والإحسان إلى الخلق ببذل النفع لهم من كل وجه. نسأل الله أن يجعلنا من المتقين المحسنين.

تم تفسير سورة النحل. ولله الحمد والمنة.



تفسير سورة بني إسرائيل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْآيَاتِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١).

﴿١﴾ ينزه تعالى نفسه المقدسة ويعظمها لأنَّ له الأفعال العظيمة والمنن الجسيمة التي من جملتها أنه ﴿أسرى بعبدِهِ﴾: ورسوله محمد ﷺ، ﴿من المسجد الحرام﴾: الذي هو أجلُّ المساجد على الإطلاق، ﴿إلى المسجد الأقصى﴾: الذي هو من المساجد الفاضلة، وهو محلُّ الأنبياء، فأسرى به في ليلة واحدة إلى مسافة بعيدة جداً، ورجع في ليلته، وأراه الله من آياته ما ازداد به هدىً وبصيرةً وثباتاً وفرقاناً، وهذا من اعتنائه تعالى به ولطفه؛ حيث يسره ليسرى في جميع أموره، وخوله نعماً فاق بها الأولين والآخرين. وظاهر الآية أنَّ الإسراء كان في أول الليل، وأنَّه من

نفس المسجد الحرام، لكن ثبت في الصحيح أنه أُسْرِيَ به من بيت أم هانئ^(١)؛ فعلى هذا تكون الفضيلة في المسجد الحرام لسائر الحرم؛ فكله تضاعف^(٢) فيه العبادة كتضاعفها في نفس المسجد، وأنَّ الإسراء بروحه وجسده معاً، وإلاً لم يكن في ذلك آية كبرى ومنقبة عظيمة.

وقد تكاثرت الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في الإسراء^(٣) وذكر تفاصيل ما رأى، وأنه أُسْرِيَ به إلى بيت المقدس، ثم عُرج به من هناك إلى السماوات حتى وصل إلى ما فوق السماوات العلى، ورأى الجنة والنار، والأنبياء على مراتبهم، وفُرض عليه الصلوات خمسين، ثم ما زال يراجع ربه بإشارة موسى الكليم حتى صارت خمساً في الفعل^(٤) وخمسين في الأجر^(٥) والثواب، وحاز من المفاخر تلك الليلة هو وأُمَّته ما لا يعلم مقداره إلا الله عز وجل. ودَّكره هنا وفي مقام الإنزال للقرآن ومقام التحدي بصفة العبودية؛ لأنه نال هذه المقامات الكبار بتكميله لعبودية ربه.

وقوله: ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾؛ أي: بكثرة الأشجار والأنهار والخصب الدائم، ومن بركته تفضيله على غيره من المساجد سوى المسجد الحرام ومسجد المدينة، وأنه يُطلَّب شدُّ الرحل إليه للعبادة والصلاة فيه، وأنَّ الله اختصه محلاً لكثير من أنبيائه وأصفياه.

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ۝١ ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلَنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٢ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لِنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِنَعْلَمَنَّ عُلُوكَ كَيْدِهِمْ ۝٣ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَقْوَالٍ وَبَنِيانٍ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٥ إِنَّ أَحْسَنْتَ أَحْسَنَتْ لِّأَنفُسِكُمْ وَلَإِن

(١) انظر «سيرة ابن هشام» (١٥/٢) ط دار إحياء التراث العربي. وانظر «الفتح» (٢٠٤/٧) فقد جمع الحافظ ابن حجر بين الروايات.

(٢) في (ب): «تضاعف».

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٣٢٠٧ و ٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٢) وقد ساق الحافظ ابن كثير أحاديث الإسراء في أول تفسير سورة الإسراء.

(٤) في (ب): «بالفعل».

(٥) في (ب): «بالأجر».

أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّكُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴿٨﴾

﴿٢﴾ كثيراً ما يفرُّ الباري بين نبوة محمد ﷺ ونبوة موسى ﷺ وبين كتابيهما وشريعتيهما؛ لأنَّ كتابيهما أفضل الكتب، وشريعتيهما أكمل الشرائع، ونبؤتيهما أعلى النبوات، وأتباعهما أكثر المؤمنين، ولهذا قال هنا: ﴿وَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾: الذي هو التوراة، ﴿وَجَعَلْنَاهُ هَدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: يهتدون به في ظلمات الجهل إلى العلم بالحق. ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنِّي دُونِي وَكِيلًا﴾؛ أي: قلنا لهم ذلك، وأنزلنا إليهم الكتاب لذلك؛ ليعبدوا الله وحده، ويُنْبِئُوا إِلَيْهِ، ويتَّخِذُوهُ وَحْدَهُ وَكِيلًا ومُدْبِرًا لهم في أمر دينهم ودُنْيَاهُمْ، ولا يتعلَّقوا بغيره من المخلوقين الذين لا يملكون شيئاً ولا يفعولنهم بشيء.

﴿٣﴾ ﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾؛ أي: يا ذُرِّيَّةَ مَنْ مَنَّا عَلَيْهِمْ وَحَمَلْنَاهُمْ مَعَ نُوحٍ. ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾: ففيه التنويه بالثناء على نوح عليه السلام بقيامه بشكر الله واتصافه بذلك، والحثُّ لذُرِّيَّتِهِ أَنْ يَقْتَدُوا بِهِ فِي شُكْرِهِ وَيَتَابِعُوهُ عَلَيْهِ، وَأَنْ يَتَذَكَّرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ إِذْ^(١) أَبْقَاهُمْ، واستخلفهم في الأرض، وأغرق غيرهم.

﴿٤﴾ ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ أي: تقدَّمنا وعهِدنا إليهم وأخبرناهم في كتابهم أنهم لا بدَّ أن يقعَ: منهم إفسادٌ في الأرض مرتين بعمل المعاصي والبَطَرِ لنعم الله والعلوِّ في الأرض والتكبر فيها، وأنه إذا وقع واحدةٌ منهما؛ سلَّطَ الله عليهم الأعداء وانتقم منهم، وهذا تحذيرٌ لهم وإنذارٌ لعلَّهم يرجعون فيتذكَّرون.

﴿٥﴾ ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾؛ أي: أولى المرتين اللتين يفسدون فيهما؛ أي: إذا وقع منهم ذلك الفساد، ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾: بعثاً قدرئاً وسلطاناً عليكم تسليطاً كونئاً جزائئاً، ﴿عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾؛ أي: ذوي شجاعة وعدٍ وعدَّةٍ، فنصرهم الله عليكم، فقتلوكم وسبَّوْا أولادكم ونهبوا أموالكم، وجاسوا ﴿خِلَالَ الدِّيَارِ﴾: فهتكوا الدور، ودخلوا المسجد الحرام، وأفسدوه. ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾: لا بدَّ من وقوعه لوجود سببه منهم. واختلف المفسرون في تعيين هؤلاء المسلَّطين؛ إلاَّ أنَّهم

(١) في (ب): «إِذَا».

اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهُمْ قَوْمٌ كَفَّارٌ: إمَّا من أهل العراق، أو الجزيرة، أو غيرها؛ سَلَطَهُمُ اللَّهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا كَثُرَتْ فِيهِمُ الْمَعَاصِي وَتَرَكُوا كَثِيرًا مِنْ شَرِيعَتِهِمْ وَطَغَوْا فِي الْأَرْضِ.

﴿٦﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ؛ أي: عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ سَلَطُوا عَلَيْكُمْ فَأَجَلَيْتُمُوهُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ، «وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ»؛ أي: أَكْثَرْنَا أَرْزَاقَكُمْ وَكَثَّرْنَاكُمْ وَقَوَّيْنَاكُمْ عَلَيْهِمْ، «وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا»: مِنْهُمْ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ إِحْسَانِكُمْ وَخُضُوعِكُمْ لِلَّهِ.

﴿٧﴾ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ: لِأَنَّ النِّفْعَ عَائِدٌ إِلَيْكُمْ حَتَّى فِي الدُّنْيَا كَمَا شَاهَدْتُمْ مِنْ انْتِصَارِكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ. «وَإِنْ أَسَاءْتُمْ فَلَهَا»؛ أي: فَلَأَنْفُسِكُمْ يَعُودُ الضَّرَرُ؛ كَمَا أَرَاكُمْ اللَّهَ مِنْ تَسْلِيْطِ الْأَعْدَاءِ. «فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ»؛ أي: الْمَرَّةُ الْآخِرَى^(١) الَّتِي تَفْسِدُونَ فِيهَا فِي الْأَرْضِ؛ سَلَطْنَا أَيْضًا عَلَيْكُمْ الْأَعْدَاءَ، «لِيسُوءِهَا وَجُوهِكُمْ»: بِانْتِصَارِهِمْ عَلَيْكُمْ وَسَبْيِكُمْ، «وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ»: وَالْمَرَادُ بِالْمَسْجِدِ مَسْجِدُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، «وَلِيَتَّبِعُوا»؛ أي: يَخْرُبُوا وَيَدْمُرُوا «مَا عَلَوْا»: عَلَيْهِ «تَتَبِيرًا»: فَيَخْرُبُوا بَيْوتَكُمْ وَمَسَاجِدَكُمْ وَحُرُوثَكُمْ.

﴿٨﴾ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ: فَيُدِيلُ لَكُمْ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ، فَرَحِمَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمُ الدُّوْلَةَ وَتَوَعَّدَهُمْ عَلَى الْمَعَاصِي، فَقَالَ: «وَإِنْ عُذْتُمْ»: إِلَى الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ، «عُذْنَا»: إِلَى عَقُوبَتِكُمْ، فَعَادُوا لِذَلِكَ، فَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ، فَانْتَقَمَ اللَّهُ بِهِ مِنْهُمْ؛ فَهَذَا جَزَاءُ الدُّنْيَا، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ التَّكَالِ أَعْظَمُ وَأَشْنَعُ، وَلِهَذَا قَالَ: «وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا»: يَصِلُونَهَا وَيَلَازِمُونَهَا لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا أَبَدًا. وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ التَّحْذِيرُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الْعَمَلِ بِالْمَعَاصِي؛ لِثَلَاثٍ يَصِيبُهُمْ مَا أَصَابَ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ فَسَنَةُ اللَّهِ وَاحِدَةٌ لَا تَبْدُلُ وَلَا تَغْيِرُ، وَمَنْ نَظَرَ إِلَى تَسْلِيْطِ الْكُفْرِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَالظُّلْمَةِ؛ عَرَفَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ ذُنُوبِهِمْ عَقُوبَةٌ لَهُمْ، وَأَنَّهُمْ إِذَا أَقَامُوا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ؛ مَكَّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ، وَنَصَرَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ.

﴿٩﴾ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّيْلِ هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١١﴾.

﴿٩ - ١٠﴾ يخبر تعالى عن شرف القرآن وجلالته وأنه ﴿يَهْدِي لِلتي هِيَ أَقْوَمُ﴾؛ أي: أعدل وأعلى من العقائد والأعمال والأخلاق؛ فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن؛ كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع الأمور. ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾: من الواجبات والسُّنن، ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾: أعدّه الله لهم في دار كرامته لا يعلم وصفه إلا هو. ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَغْتَنَّا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ فالقرآن مشتمل على البشارة والنذارة وذكر الأسباب التي تُنال بها البشارة، وهو الإيمان والعمل الصالح، والتي تستحقُّ بها النذارة، وهو ضدُّ ذلك.

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ (١١).

﴿١١﴾ وهذا من جهل الإنسان وعجلته؛ حيث يدعو على نفسه وأولاده بالشر عند الغضب، ويبادر بذلك الدعاء كما يبادر بالدُّعاء في الخير، ولكنَّ الله من لطفه ^(١) يستجيب له في الخير ولا يستجيب له بالشر، ولو يُعَجَّلُ الله للناس الشرَّ استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم.

﴿وَجَعَلْنَا أَلِيلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوَّنَا آيَةَ أَلِيلٍ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصَرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ (١٢).

﴿١٢﴾ يقول تعالى: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾؛ أي: دالتين على كمال قدرة الله وسعة رحمته وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له. ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾؛ أي: جعلناه مظلماً للسكون فيه والراحة. ﴿وجعلنا آية النهار مبصرة﴾؛ أي: مضيئة، ﴿لتبتغوا فضلاً من ربكم﴾: في معاشكم وصنائعكم وتجاراتكم وأسفاركم، ﴿ولتعلموا﴾: بتوالي الليل والنهار واختلاف القمر ﴿عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾: فتبنون عليها ما تشاؤون من مصالحكم. ﴿وكلُّ شيءٍ فَضْلَنَاهُ تَفْصِيلًا﴾؛ أي: بيئنا الآيات، وصرفناه لتمييز الأشياء، ويتبين الحق من الباطل؛ كما قال تعالى: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيءٍ﴾.

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَ فِي عُرْقِهِ وَنُخْرُجْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (١٣) ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (١٤).

﴿١٣ - ١٤﴾ وهذا إخبار عن كمال عدله: أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يُلْزَمُهُ طَائِرُهُ فِي عَنَقِهِ؛ أي: ما عمل من خير وشر يجعله الله ملازماً له لا يتعداه إلى غيره؛ فلا يحاسب بعمل غيره ولا يحاسب غيره بعمله. ﴿ونُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾: فيه عمله من الخير والشر حاضر أصغر وكبيره، ويقال له: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾: وهذا من أعظم العدل والإنصاف أن يقال للعبد: حاسب نفسك؛ ليعرف ما عليه من الحق الموجب للعقاب.

﴿مَنْ آتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ ﴿١٥﴾.

﴿١٥﴾ أي: هداية كل أحد وضلاله لنفسه. لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يدفع عنه مثقال ذرة من الشر، والله تعالى عادل العادلين، لا يعذب أحداً حتى تقوم عليه الحجة بالرسالة ثم يعاند الحجة، وأما من انقاد للحجة أو لم تبلغه حجة الله تعالى؛ فإن الله تعالى لا يعذب به. استدل بهذه الآية على أن أهل الفترات وأطفال المشركين لا يعذبهم الله حتى يبعث إليهم رسولاً؛ لأنه منزّه عن الظلم.

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ ﴿١٧﴾.

﴿١٦﴾ يخبر تعالى أنه إذا أراد أن يهلك قرية من القرى الظالمة ويستأصلها بالعذاب؛ أمر مترفيها أمراً قدرئاً، ففسقوا فيها، واشتد طغيانهم؛ ﴿فحقَّ عليها القول﴾؛ أي: كلمة العذاب التي لا مرد لها؛ ﴿فدمرناها تدميراً﴾.

﴿١٧﴾ وهؤلاء أمم كثيرة أبادهم الله بالعذاب من بعد قوم نوح؛ كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ممن عاقبهم الله لما كثرت بغيتهم واشتد كفرهم؛ أنزل الله بهم عقابه العظيم. ﴿وكفى ربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً﴾: فلا يخافوا منه ظملاً، وأنه يعاقبهم على ما عملوه.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لِمَ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لِمِ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كَلَّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ ﴿٢١﴾.

﴿١٨﴾ يخبر تعالى أن ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ﴾: الدنيا ﴿العاجلة﴾ المنقضية الزائلة، فعمل لها وسعى، ونسي المبتدأ أو المنتهى: أن الله يعجل له من حطامها ومتاعها ما يشاؤه ويريده، مما كَتَبَ الله له في اللوح المحفوظ، ولكنه متاعٌ غير نافع ولا دائم له، ثم يجعل له في الآخرة ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا﴾؛ أي: يباشر عذابها، ﴿مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾؛ أي: في حالة الخِزْي والفضيحة والذم من الله ومن خلقه والبعد عن رحمة الله، فيجمع له بين العذاب والفضيحة.

﴿١٩﴾ ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾: فرضيها وآثرها على الدنيا، ﴿وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾: الذي دعت إليه الكتب السماوية والآثار النبوية، فعمل بذلك على قدر إمكانه، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾؛ أي: مقبولاً منمى مذكراً، لهم أجرهم وثوابهم عند ربهم.

﴿٢٠﴾ ومع هذا؛ فلا يفوتهم نصيبهم من الدنيا؛ فكلاً يُؤمِّدُه الله منها؛ لأنه عطاؤه وإحسانه. ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾؛ أي: ممنوعاً من أحد، بل جميعُ الخلق راتعون بفضلِهِ وإحسانِهِ.

﴿٢١﴾ ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾: في الدنيا بسعة الأرزاق وقتلتها، واليسر والعسر، والعلم والجهل، والعقل والسفه، وغير ذلك من الأمور التي فضل الله العباد بعضهم على بعض بها. ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾: فلا نسبة لنعيم الدنيا ولذاتها إلى الآخرة بوجه من الوجوه؛ فكم بين من هو في الغرف العاليات واللذات المتنوعات والسرور والخيرات والأفراح ممن هو يتقلب في الجحيم، ويعذب بالعذاب الأليم، وقد حلَّ عليه سخطُ الربِّ الرحيم، وكلُّ من الدارين بين أهلها من التفاوت ما لا يمكن أحداً عدّه.

﴿لَا يَجْعَلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾.

﴿٢٢﴾ أي: لا تعتقد أن أحداً من المخلوقين يستحق شيئاً من العبادة، ولا تشرك بالله أحداً منهم؛ فإن ذلك داع للذم والخذلان؛ فالله وملائكته ورسله قد نَهَوْا عن الشرك، وذمُّوا من عمله أشدَّ الذمِّ، وربُّوا عليه من الأسماء المذمومة والأوصاف المقبوحة ما كان به متعاطيه أشنع الخلق وصفاً وأقبحهم نعتاً، وله من الخذلان في أمر دينه ودنياه بحسب ما تركه من التعلُّق بربه؛ فمن تعلَّق بغيره؛ فهو مخذولٌ قد وُكِّلَ إلى مَنْ تعلَّق به، ولا أحد من الخلق ينفع أحداً إلا بإذن الله؛ وكما أن مَنْ جعل مع الله إلهاً آخر له الذمُّ والخذلان؛ فمن وحَّده وأخلص

دينه لله، وتعلّق به دون غيره؛ فإنه محمودٌ مُعانٌ في جميع أحواله.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا ٢٤﴾.

﴿٢٣﴾ لما نهى تعالى عن الشرك به؛ أمر بالتوحيد، فقال: ﴿وقضى ربك﴾: قضاء دينيًّا، وأمر أمرًا شرعيًّا ﴿أن لا تعبدوا﴾: أحدًا من أهل الأرض والسموات الأحياء والأموات، ﴿إلا إياه﴾: لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي له كلُّ صفة كمال، وله من تلك الصفة أعظمها، على وجه لا يشبهه أحدٌ من خلقه، وهو المنعمُ بالنعم الظاهرة والباطنة، الدافع لجميع النقم، الخالق، الرازق، المدبّر لجميع الأمور؛ فهو المتفرد بذلك كله، وغيره ليس له من ذلك شيء. ثم ذكر بعد حقه القيام بحقِّ الوالدين، فقال: ﴿وبالوالدين إحسانًا﴾؛ أي: أحسنوا إليهما بجميع وجوه الإحسان القولي والفعلي؛ لأنهما سببُ وجود العبد، ولهما من المحبة للولد والإحسان إليه، والقرب ما يقتضي تأكيد الحقِّ ووجوب البرِّ. ﴿إمّا يبلُغَنَّ عندَكَ الكِبَرَ أَحدهما أو كلاهما﴾؛ أي: إذا وصلا إلى هذا السنِّ الذي تضعفُ فيه قواهما ويحتاجان من اللطف والإحسان ما هو معروف، ﴿فلا تقلْ لهما أفٌّ﴾: وهذا أدنى مراتب الأذى، نبّه به على ما سواه، والمعنى: لا تؤذيهما أدنى أذى، ﴿ولا تنهَرْهُمَا﴾؛ أي: تزجرهما وتتكلم لهما كلاماً خشناً. ﴿وقلْ لهما قولاً كريماً﴾: بلفظٍ يحبّانه، وتأدّب وتلطّف بكلامٍ ليّن حسن يلدُّ على قلوبهما، وتطمئنُّ به نفوسهما، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والعوائد والأزمان.

﴿٢٤﴾ ﴿واخفضْ لهما جناحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾؛ أي: تواضع لهما ذلًّا لهما ورحمةً واحتساباً للأجر، لا لأجل الخوف منهما أو الرجاء لما لهما ونحو ذلك من المقاصد التي لا يؤجر عليها العبد. ﴿وقل ربّ ارحمهما﴾؛ أي: ادعُ لهما بالرحمة أحياءً وأمواتاً؛ جزاءً على تربيتهما إياك صغيراً. وفهّم من هذا أنّه كلّما ازدادت التربية؛ ازداد الحقُّ. وكذلك من تولّى تربية الإنسان في دينه ودنياه تربيةً سالحةً غير الأبوين؛ فإنّ له على من ربّاه حقّ التربية.

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِ غَفُورًا ٢٥﴾.

﴿٢٥﴾ أي: ربُّكم تعالى مطلع على ما أكنّته سرائركم من خير وشرٍّ، وهو لا

ينظر إلى أعمالكم وأبدانكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وما فيها من الخير والشر. ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾: بأن تكون إرادتكم ومقاصدكم دائمة على مرضاة الله، ورغبتكم فيما يقربكم إليه، وليس في قلوبكم إرادات مستقرة لغير الله. ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ﴾؛ أي: الرجاعين إليه في جميع الأوقات؛ ﴿غَفُورًا﴾: فمن أطلع الله على قلبه، وعلم أنه ليس فيه إلا الإجابة إليه ومحبة ما يقرب إليه؛ فإنه وإن جرى منه في بعض الأوقات ما هو مقتضى الطباع البشرية؛ فإن الله يعفو عنه، ويغفر له الأمور العارضة غير المستقرة.

﴿وَمَاتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقًّا وَالْمُسْكِينُ وَابْنُ السَّبِيلِ وَلَا يُبْدِرُ تَبْدِيرًا﴾ ٢٦ ﴿إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ ٢٧ ﴿وَأَمَّا تَعْرِضُ عَنْهُمْ أَيَّامًا رَحِيمًا مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ ٢٨ ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ ٢٩ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ ٣٠.

﴿٢٦ - ٢٧﴾ يقول تعالى: ﴿وَأَتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾: من البر والإكرام الواجب والمسنون، وذلك الحق يتفاوت بتفاوت الأحوال والأقارب والحاجة وعدمها والأزمنة، ﴿وَالْمُسْكِينِ﴾: آتة حقه من الزكاة ومن غيرها؛ لتزول مسكنته، ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾: وهو الغريب المنقطع به عن بلده، فيعطى الجميع من المال، على وجه لا يضر المعطي، ولا يكون زائداً على المقدار اللائق؛ فإن ذلك تبذير، قد نهى الله عنه وأخبر: ﴿إِنَّ الْمُبْذِرِينَ إِخْوَانُ الشَّيَاطِينِ﴾: لأن الشيطان لا يدعو إلا إلى كل خصلة ذميمة، فيدعو الإنسان إلى البخل والإمساك؛ فإذا عصاه؛ دعا إلى الإسراف والتبذير، والله تعالى إنما يأمر بأعدل الأمور وأقسطها، ويمدح عليه؛ كما في قوله عن عباد الرحمن الأبرار: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾.

﴿٢٩﴾^(١) وقال هنا: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾: كناية عن شدة الإمساك والبخل، ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾: فتتفق فيما لا ينبغي أو زيادة على ما ينبغي، ﴿فَتَقْعُدَ﴾: إن فعلت ذلك ﴿مَلُومًا﴾؛ أي: تلام على ما فعلت، ﴿مَّحْسُورًا﴾؛ أي: حاسر اليد فارغها؛ فلا بقي ما في يدك من المال، ولا خلفه مدح وثناء.

(١) ذكر المؤلف تفسير الآية (٢٩) بعد الآية (٢٧) لتناسبهما.

﴿٢٨﴾ وهذا الأمر بإيتاء ذي القربى مع القدرة والغنى، فأما مع العُدم أو تعسر النفقة الحاضرة؛ فأمر تعالى أن يُردُّوا ردًّا جميلاً، فقال: ﴿وإِذَا تَعَرَّضْتُمْ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ تَرْجُوهَا﴾؛ أي: تعرض عن إعطائهم إلى وقت آخر ترجو فيه من الله تيسير الأمر. ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِيسُورًا﴾؛ أي: لطيفاً برفقٍ ووعد بالجميل عند سُنُوح الفرصة واعتذارٍ بعدم الإمكان في الوقت الحاضر؛ لينقلبوا عنك مطمئنةً خواطرهم؛ كما قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾: وهذا أيضاً من لطف الله تعالى بالعباد، أمرهم بانتظار الرحمة والرزق منه؛ لأنَّ انتظار ذلك عبادة، وكذلك وعدهم بالصدقة والمعروف عند التيسر عبادةً حاضرةً؛ لأنَّ الهمَّ بفعل الحسنة حسنةٌ، ولهذا ينبغي للإنسان أن يفعل ما يَقْدِرُ عليه من الخير، وينوي فعل ما لم يَقْدِرْ عليه لِثَبَاتٍ عَلَى ذَلِكَ، ولعلَّ الله ييسر له بسبب رجائه.

﴿٣٠﴾ ثم أخبر تعالى: أَنَّ اللَّهَ ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾: من عباده ويقدره ويضيقه على من يشاء حكمةً منه. ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾: فيجزئهم على ما يعلمه صالحاً لهم، ويدبرهم بلطفه وكرمه.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَنْتَحِنَ نَزْفُهُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَتْلِهِمْ كَانَتْ خَطَاً كَبِيراً﴾.

﴿٣١﴾ وهذا من رحمته بعباده؛ حيث كان أرحم بهم من والديهم، فنهى الوالدين أن يقتلوا أولادهم خوفاً من الفقر والإملاق، وتكفل برزق الجميع، وأخبر أن: ﴿قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيراً﴾؛ أي: من أعظم كبائر الذنوب؛ لزوال الرحمة من القلب، والعقوق العظيم، والتجري على قتل الأطفال الذين لم يجزِ منهم ذنبٌ ولا معصية.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾.

﴿٣٢﴾ والنهي عن قربانه أبلغ من النهي عن مجرد فعله؛ لأنَّ ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه؛ فإنَّ من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، خصوصاً هذا الأمر الذي في كثير من النفوس أقوى داعٍ إليه، ووصف الله الزنا وقبحه بأنه ﴿كَانَ فَاحِشَةً﴾؛ أي: إثماً يُستفحش في الشرع والعقل والفطر؛ لتضمُّنه التجري على الحرمة في حقِّ الله وحقِّ المرأة وحقِّ أهلها أو زوجها وإفساد الفراش واختلاط الأنساب وغير ذلك من المفاسد. وقوله: ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾؛ أي: بش السبيل سبيلٌ من تجرَّأ على هذا الذنب العظيم.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ (٣٣).

﴿٣٣﴾ وهذا شامل لكل نفس حَرَّمَ الله قتلها من صغير وكبير وذكر وأنثى وحر وعبد ومسلم وكافر له عهد، ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: كالنفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة، والباغي في حال بغية إذا لم يندفع إلا بالقتل. ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا﴾؛ أي: بغير حق، ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ﴾: وهو أقرب عَصَباته وورثته إليه ﴿سُلْطَانًا﴾؛ أي: حجة ظاهرة على القصاص من القاتل، وجعلنا له أيضاً تسلطاً قدرئاً على ذلك، وذلك حين تجتمع الشروط الموجبة للقصاص؛ كالعمد العدوان والمكافأة. ﴿فَلَا يَسْرِفُ﴾: الولي ﴿فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾: والإسراف مجاوزة الحد: إما أن يمثل بالقاتل، أو يقتله بغير ما قُتِلَ به، أو يقتل غير القاتل. وفي هذه الآية دليلٌ إلى أَنَّ الحقَّ في القتل للولي؛ فلا يُقْتَصَّ إِلَّا بإذنه، وإن عفا؛ سقط القصاص، وأنَّ وليَّ المقتول يُعينه الله على القاتل ومن أعانه، حتى يتمكن من قتله.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (٣٤).

﴿٣٤﴾ وهذا من لطفه ورحمته باليتيم الذي فَقَدَ والده وهو صغيرٌ غير عارف بمصلحة نفسه ولا قائمٌ بها أن أمر أوليائه بحفظه وحفظ ماله وإصلاحه وأن لا يَقْرَبُوهُ ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: من التَّجَارَةِ فيه وعدم تعريضه للأخطار والحرص على تنميته، وذلك ممتدٌ إلى أن يبلغَ اليَتِيمُ ﴿أَشُدَّهُ﴾؛ أي: بلوغه وعقله ورشده؛ فإذا بَلَغَ أَشُدَّهُ؛ زالت عنه الولاية، وصار وليَّ نفسه، ودفع إليه ماله؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ آتَيْتُمْ مِنْهُمْ زُجْجًا فَأَدْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾، ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾: الذي عاهدتم الله عليه، والذي عاهدتم الخلق عليه. ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾؛ أي: مسؤولين عن الوفاء به وعدمه؛ فإن وفيتم؛ فلکم الثواب الجزيل، وإن لم تفعلوا^(١)؛ فعليكم الإثم العظيم.

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كُنْتُمْ بِالْقُسْطِ الَّتِي كُنْتُمْ فِيهَا وَحَسَنَ تَأْوِيلًا﴾ (٣٥).

(١) في (ب): «وإن لم تفوا».

﴿٣٥﴾ وهذا أمرٌ بالعدل وإيفاء المكايل والموازين بالقسط من غير بخس ولا نقص. ويؤخذ من عموم المعنى، النهي عن كلِّ غشٍّ في ثمنٍ أو مثمنٍ أو معقودٍ عليه، والأمر بالنصح والصدق في المعاملة. ﴿ذلك خيرٌ﴾: من عدمه، ﴿وأحسنُ تأويلاً﴾؛ أي: أحسن عاقبة، به يسلم العبد من التبعات، وبه تنزل البركة.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ۖ﴾ (٣٦).

﴿٣٦﴾ أي: ولا تتبّع ما ليس لك به علم، بل تثبّت في كلِّ ما تقوله وتفعله؛ فلا تظنّ ذلك يذهب لا لك ولا عليك. ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾: فحقيق بالعبد الذي يعرف أنه مسؤول عما قاله وفعله وعما استعمل به جوارحه التي خلقها الله لعبادته أن يُعِدَّ للسؤال جواباً، وذلك لا يكون إلا باستعمالها بعبودية الله، وإخلاص الدين له، وكفّها عما يكرهه الله تعالى.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ۚ﴾ (٣٧) ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُمْ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ (٣٨) ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ۚ﴾ (٣٩) ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾؛ أي: كبراً وتيهاً وبطراً متكبّراً على الحقِّ ومتعاضماً على الخلق. ﴿إِنَّكَ﴾: في فعلك ذلك ﴿لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾: في تكبرك بل تكون حقيراً عند الله، ومحتقراً عند الخلق، مبغوضاً، ممقوتاً، قد اكتسبت شرَّ الأخلاق، واكتسبت بأرذلها، من غير إدراك لبعض ما تروم.

﴿٣٧﴾ يقول تعالى: ﴿ولا تمش في الأرض مَرَحًا﴾؛ أي: كبراً وتيهاً وبطراً متكبّراً على الحقِّ ومتعاضماً على الخلق. ﴿إِنَّكَ﴾: في فعلك ذلك ﴿لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾: في تكبرك بل تكون حقيراً عند الله، ومحتقراً عند الخلق، مبغوضاً، ممقوتاً، قد اكتسبت شرَّ الأخلاق، واكتسبت بأرذلها، من غير إدراك لبعض ما تروم.

﴿٣٨﴾ ﴿كل ذلك﴾: المذكور الذي نهى الله عنه فيما تقدّم من قوله: ﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾، والنهي عن عقوق الوالدين، وما عُطِفَ على ذلك، ﴿كان سيئُهُم عند ربك مكروهاً﴾؛ أي: كل ذلك يسوء العاملين ويضرهم والله تعالى يكرهه ويأباه.

﴿٣٩﴾ ﴿ذلك﴾ الذي بيّناه ووضّحناه من هذه الأحكام الجليلة، ﴿مما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾: فإنّ الحكمة الأمر بمحاسن الأعمال ومكارم الأخلاق والنهي عن أراذل الأخلاق وأسوأ الأعمال. وهذه الأعمال المذكورة في هذه الآيات من الحكمة العالية التي أوحاها رب العالمين لسيد المرسلين في أشرف الكتب ليأمر بها أفضل الأمم؛ فهي من الحكمة التي من أوتيتها؛ فقد أوتي خيراً كثيراً. ثم ختمها

بالنهي عن عبادة غير الله كما افتتحها بذلك، فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ﴾؛ أي: خالداً مخلداً؛ فإنه من يُشْرِك بالله فقد حَرَّمَ الله عليه الجنة ومأواه النار. ﴿مَلُومًا مَذْحُورًا﴾؛ أي: قد لحقتك اللائمة واللعنة والذم من الله وملائكته والناس أجمعين.

﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَقَوْلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ٤٠﴾.

﴿٤٠﴾ وهذا إنكارٌ شديدٌ على من زعم أن الله اتخذ من خلقه بنات، فقال: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ﴾؛ أي: اختار لكم الصفوة والقسم الكامل، ﴿وَاتَّخَذَ﴾: لنفسه ﴿مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا﴾: حيث زعموا أن الملائكة بنات الله. ﴿إِنَّكُمْ لَقَوْلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾: فيه أعظم الجراءة على الله، حيث نسبتم له الولد المتضمن لحاجته، واستغناء بعض المخلوقات عنه، وحكموا له بأردأ القسمين، وهن الإناث، وهو الذي خلقكم واصطفاكم بالذكر، فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ٤١﴾ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ٤٢﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ٤٣﴾ نَسِخَ لَهُ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضَ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسِخَّرُ بِهِ وَلَكِنْ لَا يَفْقَهُونَ نَسِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا ٤٤﴾.

﴿٤١﴾ يخبر تعالى أنه صرّف لعباده في هذا القرآن؛ أي: نوع الأحكام ووضّحها وأكثر من الأدلة والبراهين على ما دعا إليه، ووعظ وذكّر لأجل أن يتذكروا ما ينفعهم فيسلّكوه وما يضرّهم فيدعوه، ولكن أبى أكثر الناس ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ عن آيات الله؛ لبغضهم للحق ومحبتهم ما كانوا عليه من الباطل، حتى تعصّبوا لباطلهم، ولم يعيروا آيات الله لهم سمعاً، ولا ألّفوا لها بالاً.

﴿٤٢﴾ ومن أعظم ما صرّف فيه الآيات والأدلة التوحيد الذي هو أصل الأصول، فأمر به ونهى عن ضده وأقام عليه من الحجج العقلية والنقلية شيئاً كثيراً؛ بحيث إن من أصغى إلى بعضها لا تدع في قلبه شكاً ولا ريباً، ومن الأدلة على ذلك هذا الدليل العقلي الذي ذكره هنا، فقال: ﴿قُلْ﴾: للمشرّكين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر: ﴿لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾؛ أي: على موجب زعمهم واقترائهم؛ ﴿إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾؛ أي: لآخذوا سبيلاً إلى الله بعبادته والإنابة إليه والتقرب وابتغاء الوسيلة؛ فكيف يجعل العبد الفقير الذي يرى

شِدَّةَ افتقاره لعبوديَّة ربِّه إلهاً مع الله؟! هل هذا إلّا من أظلم الظلم وأسفه السّفه؛ فعلى هذا المعنى تكون هذه الآية كقوله تعالى: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب﴾: وكقوله تعالى: ﴿ويوم يَخْشَرُهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنْتُمْ أضللْتُم عبادي هؤلاء أم هم ضلُّوا السبيل قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء﴾.

ويُحتمل أن المعنى في قوله: ﴿قُلْ لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا يَبْتَغُوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾؛ أي: لطلبوا السبيل وسَعَوْا في مغالبة الله تعالى، فإما أن يعلموا عليه فيكون مَنْ علا وقَهَرَ هو الربُّ الإله، فأما وقد علموا أنهم يَقْرُون أن آلهتهم التي يدعون^(١) من دون الله مقهورة مغلوبة ليس لها من الأمر شيء؛ فلم اتَّخذوها وهي بهذه الحال؟! فيكون هذا كقوله تعالى: ﴿ما اتَّخَذَ اللَّهُ من ولدٍ وما كان معه من إله إذا لَذَهَبَ كُلُّ إله بما خَلَقَ ولعلا بعضهم على بعض﴾.

﴿٤٣﴾ ﴿سبحانه وتعالى﴾؛ أي: تقدَّس وتنزَّه وعلت أوصافه، ﴿عما يقولون﴾: من الشرك به واتَّخاذ الأنداد معه، ﴿علواً كبيراً﴾: فعلا قدره وعظُم وجلَّت كبرياؤه التي لا تُقادر أن يكون معه آلهة؛ فقد ضلَّ مَنْ قال ذلك ضلالاً مبيهاً وظلم ظلاماً كبيراً، لقد تضاءلت لعظمته المخلوقات العظيمة، وصغُرَتْ لدى كبريائه السماوات السبع ومن فيهن والأرضون السبع ومن فيهن، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه، وافتقر إليه العالم العلوي والسفلي فقرأ ذاتياً لا ينفك عن أحدٍ منهم في وقتٍ من الأوقات، هذا الفقر بجميع وجوهه؛ فقرٌ من جهة الخلق والرزق والتدبير، وفقرٌ من جهة الاضطرار إلى أن يكون معبوده ومحبوته الذي إليه يتقرَّبون، وإليه في كل حال يفرعون.

﴿٤٤﴾ ولهذا قال: ﴿تسبَّحُ له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيءٍ﴾: من حيوانٍ ناطق وغير ناطق، ومن أشجار ونبات وجامد، وحيٍّ وميت، ﴿إلا يسبَّح بحمده﴾: بلسان الحال ولسان المقال، ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾؛ أي: تسبيح باقي المخلوقات التي على غير لغتكم، بل يحيط بها علام الغيوب. ﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾: حيث لم يعاجل بالعقوبة مَنْ قال فيه قولاً تكاد السماوات والأرض تنفطر منه وتخرُّ له الجبال، ولكنّه أمهلهم، وأنعم عليهم، وعافاهم،

(١) في (ب): «يعبدون».

ورزقهم، ودعاهم إلى بابِهِ ليتوبوا من هَذَا الذنب العظيم؛ ليعطيهم الثواب الجزيل، ويغفر لهم ذنبهم؛ فلولا حلمُهُ ومغفرته؛ لسقطت السماوات على الأرض، ولما ترك على ظهرها من دَابَّةٍ.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴿٤٦﴾ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٧﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٤٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَبُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٩﴾﴾.

﴿٤٥﴾ يخبر تعالى عن عقوبته للمكذبين بالحق الذين ردّوه وأعرضوا عنه أنّه يحول بينهم وبين الإيمان، فقال: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾: الذي فيه الوعظ والتذكير والهدى والإيمان والخير والعلم الكثير؛ ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾: يسترهم عن فهمه حقيقة وعن التحقق بحقائقه والانقياد إلى ما يدعو إليه من الخير.

﴿٤٦﴾ ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾؛ أي: أغطية وأغشية لا يفقهون معها القرآن، بل يسمعون سماعاً تقوم به عليهم الحجة، ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾؛ أي: صمماً عن سماعه، ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾: داعياً لتوحيده، ناهياً عن الشرك به؛ ﴿وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾: من شدة بغضهم له ومحبتهم لما هم عليه من الباطل؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

﴿٤٧﴾ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾؛ أي: إنّما متّعناهم من الانتفاع عند سماع القرآن لأننا نعلم أن مقاصدهم سيئة؛ يريدون أن يعثروا على أقل شيء ليفقدوا به، وليس استماعهم لأجل الاسترشاد وقبول الحق، وإنّما هم معتمدون على عدم اتباعه، ومن كان بهذه الحالة؛ لم يفذه الاستماع شيئاً، ولهذا قال: ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾؛ أي: متناجين، ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ﴾: في مناجاتهم: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾: فإذا كانت هذه مناجاتهم الظالمة فيما بينهم، وقد بنّوها على أنه مسحور؛ فهم جازمون أنّهم غير معتبرين لما قال، وأنّه يهذي لا يدري ما يقول.

﴿٤٨﴾ قال تعالى: ﴿أَنْظِرْ﴾: متعجباً ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾: التي هي

أضلُّ الأمثال وأبعدها عن الصواب، ﴿فَضَّلُوا﴾: في ذلك، أو فصارت سبباً لضلالهم؛ لأنهم بَنَوْا عليها أمرهم، والمبني على فاسدٍ أفسد منه. فلا يهتدون ﴿سبيلاً﴾؛ أي: لا يهتدون أيَّ اهتداءٍ، فَتَصِيْبُهُم الضلال المحض والظلم الصرف.

﴿وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفْنَا إِيَّانَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا﴾ ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِمْ وَتَقُولُونَ إِنْ لَيْتَنَّا إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٥٢﴾.

﴿٤٩﴾ يخبر تعالى عن قول المنكرين للبعث وتكذيبهم به واستبعادهم بقولهم: ﴿إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفْنَا﴾؛ أي: أجساداً بالية. ﴿إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾؛ أي: لا يكون ذلك، وهو محالٌ بزعمهم، فجهلوا أشدَّ الجهل؛ حيثُ كَذَّبُوا رسل الله، وَجَحَدُوا آيات الله، وقاسوا قدرةَ خالق السماوات والأرض بِقُدْرِهِم الضعيفة العاجزة، فلما رأوا أَنَّ هَذَا ممتنعٌ عليهم لا يقدرُونَ عليه؛ جعلوا قدرة الله كذلك؛ فسبحان مَنْ جَعَلَ خَلْقًا من خلقه يزعمون أَنَّهُم أولو العقول والألباب مثلاً في جهل أظهر الأشياء وأجلاها وأوضحها براهين وأعلاها؛ ليُري عبادَه أَنَّهُ ما تُمَّ إِلَّا بتوفيقه وإعانتِه أو الهلاك والضلال، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.

﴿٥٠ - ٥١﴾ ولهذا أمر رسوله ﷺ أَنْ يَقُولَ لَهُؤُلَاءِ الْمُنْكَرِينَ للبعث استبعاداً: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا. أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ﴾؛ أي: يعظم ﴿فِي صُدُورِكُمْ﴾: لتسلموا بذلك - على زعمكم - من أن تنالكم قدرة الله أو تنفذ فيكم مشيئته؛ فإنكم غير معجزين الله في أيِّ حالة تكونون وعلى أيِّ وصفٍ تتحولون، وليس لكم في أنفسكم تدبيرٌ في حالة الحياة وبعد الممات؛ فدعوا التدبير والتصريف لِمَنْ هو على كُلِّ شيء قدير وبكُلِّ شيء محيط. ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾: حين تُقيم عليهم الحجة في البعث: ﴿مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: فكما فَطَرَكُمْ ولم تكونوا شيئاً مذكوراً؛ فإنه سيعيدكم خلقاً جديداً؛ ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ﴾، ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾؛ أي: يهزؤونها إنكاراً وتعجباً مما قلت. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾؛ أي: متى وقت البعث الذي تزعمه على قولك؟ لا إقراراً منهم لأصل البعث، بل ذلك سفةٌ منهم وتعجيزٌ. ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾: فليس في تعيين وقته فائدة،

وإنما الفائدة والمدار على تقريره والإقرار به وإثباته، وإلا؛ فكل ما هو آت؛ فإنه قريب.

— ﴿٥٢﴾ ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾: للبعث والتشور وينفخ في الصور، ﴿فتستجيبون بحمده﴾؛ أي: تنقادون لأمره ولا تستعصون عليه. وقوله: ﴿بحمده﴾؛ أي: هو المحمود تعالى على فعله، ويجزي به العباد إذا جمعهم ليوم التناد، ﴿وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً﴾: من سرعة وقوعه، وأن الذي مر عليكم من النعيم كأنه ما كان؛ فهذا الذي يقول عنه المنكرون: متى هو؟ يندمون غاية الندم عند وروده، ويقال لهم: هذا الذي كنتم به تكذبون.

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ ﴿٥٣﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ ﴿٥٥﴾.

﴿٥٣﴾ وهذا من لطفه بعباده؛ حيث أمرهم بأحسن الأخلاق والأعمال والأقوال الموجبة للسعادة في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن﴾: وهذا أمر بكل كلام يقرب إلى الله؛ من قراءة وذكر وعلم وأمر بمعروف ونهي عن منكر وكلام حسن لطيف مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين؛ فإنه يؤمر بإيثار أحسنهما إن لم يمكن الجمع بينهما، والقول الحسن داع لكل خلق جميل وعمل صالح؛ فإن من ملك لسانه؛ ملك جميع أمره. وقوله: ﴿إن الشيطان ينزع بينهم﴾؛ أي: يسعى بين العباد بما يفسد عليهم دينهم ودنياهم؛ فدواء هذا أن لا يطيعوه في الأقوال غير الحسنة التي يدعوهم إليها، وأن يلينوا فيما بينهم؛ لينقمع الشيطان الذي ينزع بينهم؛ فإنه عدوهم الحقيقي الذي ينبغي لهم أن يحاربوه؛ فإنه يدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير، وأما إخوانهم؛ فإنهم وإن نزغ الشيطان فيما بينهم وسعى في العداوة؛ فإن الحزم كل الحزم السعي في ضد عدوهم، وأن يقيموا أنفسهم الأمارة بالسوء، التي يدخل الشيطان من قبلها؛ فبذلك يطيعون ربهم، ويستقيم أمرهم، ويهتدون لرشددهم.

﴿٥٤﴾ ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾: من أنفسكم؛ فلذلك لا يريد لكم إلا ما هو الخير، ولا يأمركم إلا بما فيه مصلحة لكم، وقد تريدون شيئاً خيراً في عكسه. ﴿إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾: فيوفق من شاء لأسباب الرحمة، ويخذل

من شاء فَيُضِلُّ عنها فيستحقُّ العذاب. ﴿وما أرسلناك عليهم وكيلاً﴾: تُدبِّرُ أمرهم وتقوم بمجازاتهم، وإنَّما الله هو الوكيل، وأنت مبلغٌ هادٍ إلى صراطٍ مستقيم.

﴿٥٥﴾ ﴿وربك أعلمُ بمن في السمواتِ والأرض﴾: من جميع أصناف الخلائق، فيعطي كلَّ منهم ما يستحقُّه وتقتضيه حكمته، ويفضِّلُ بعضهم على بعض في جميع الخصال الحسنيَّة والمعنويَّة؛ كما فضِّلَ بعض النبيِّين المشتركين بوحيه على بعض، بالفضائل والخصائص الرَّاجعة إلى ما مَنَّ به عليهم، من الأوصاف الممدوحة، والأخلاق المرضيَّة والأعمال الصالحة وكثرة الأتباع ونزول الكتب على بعضهم، المشتملة على الأحكام الشرعيَّة والعقائد المرضيَّة؛ كما أنزل على داود زبوراً، وهو الكتاب المعروف؛ فإذا كان تعالى قد فضِّلَ بعضهم على بعض وآتَى بعضهم كتباً؛ فلم يَنْكِرُ المكذَّبون لمحمدٍ ﷺ ما أنزله الله عليه وما فضَّله به من النبوة والكتاب؟

﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشَفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا نَحْيِيلاً﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ ﴿٥٧﴾.

﴿٥٦﴾ يقول تعالى: ﴿قل﴾ للمشركين بالله الذين اتَّخذوا من دونه أنداداً يعبدونهم كما يعبدون الله، ويدعونهم كما يدعونه ملزماً لهم بتصحيح ما زعموه، واعتقدوه إن كانوا صادقين: ﴿ادعوا الذين زعَّمْتُمْ﴾: آلهة من دون الله، فانظروا هل يَنْفَعُونَكُمْ أو يدْفَعُونَ عنكم الضَّرَّ؟ فإنهم لا ﴿يَمْلِكُونَ كَشَفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ﴾: من مرضٍ أو فقرٍ أو شدَّةٍ ونحو ذلك؛ فلا يدفعونه بالكُلِّيَّة. ولا يملكون أيضاً تَحْوِيلَهُ من شخصٍ إلى آخر، ومن شدَّةٍ إلى ما دونها؛ فإذا كانوا بهذه الصفة؛ فلاي شيء تدعونهم من دون الله؛ فإنَّهم لا كمالَ لهم ولا فعال نافعة؛ فاتَّخَذُوهم نقصَ في الدين والعقل وسَفَهَ في الرأي.

ومن العجب أنَّ السَّفه عند الاعتِياد والممارسة وتلقَّيه عن الآباء الضالِّين بالقبول يراه صاحبه هو الرأي السديد والعقل المفيد، ويرى إخلاصَ الدِّين لله الواحد الأحد الكامل المنعم بجميع النعم الظاهرة والباطنة هو السَّفه والأمر المتعجَّب منه؛ كما قال المشركون: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهاً واحداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

﴿٥٧﴾ ثم أخبر أيضاً أنَّ الذين يعبدونهم من دون الله في شغلٍ شاغلٍ عنهم باهتمامهم بالافتقار إلى الله وابتغاء الوسيلة إليه؛ فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾:

من الأنبياء والصالحين والملائكة، ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾؛ أي: يتنافسون في القرب من ربهم، ويبذلون ما يقدرون عليه من الأعمال الصالحة المقربة إلى الله تعالى وإلى رحمته، ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾: فيجتنبون كل ما يوصل إلى العذاب. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾؛ أي: هو الذي ينبغي شدة الحذر منه والتوقي من أسبابه. وهذه الأمور الثلاثة الخوف والرجاء والمحبة التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده هي الأصل والمادة في كل خير؛ فمن تمت له؛ تمت له أموره، وإذا خلا القلب منها؛ ترحلت عنه الخيرات، وأحاطت به الشرور.

وعلاوة المحبة ما ذكره الله أن يجتهد العبد في كل عمل يقربه إلى الله، وينافس في قربه بإخلاص الأعمال كلها لله، والنصح فيها وإيقاعها في أكمل الوجوه المقدور عليها؛ فمن زعم أنه يحب الله بغير ذلك؛ فهو كاذب.

﴿وَلَمِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ آلِ يَكُومَ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (٥٨).

﴿٥٨﴾ أي: ما من قرية من القرى المكذبة للرسول إلا لا بد أن يصيبهم هلاك قبل يوم القيامة أو عذاب شديد، كتاب كتبه الله وقضاء أبرمه لا بد من وقوعه؛ فليبادر المكذبون بالإنبابة إلى الله وتصديق رسله قبل أن تتم عليهم كلمة العذاب ويحق عليهم القول.

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآلَيْنَا ثُمَّودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفًا﴾ (٥٩) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا آلِ زَيْنَا آلَ نَارِكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحَوِّهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ (٦٠).

﴿٥٩﴾ يذكر تعالى رحمته بعدم إنزاله الآيات التي يقترح بها المكذبون، وأنه ما منعه أن يرسلها إلا خوفاً من تكذيبهم لها؛ فإذا كذبوا بها؛ عاجلهم العقاب وحل بهم من غير تأخير كما فعل بالأولين الذين كذبوا بها، ومن أعظم الآيات الآية التي أرسلها الله إلى ثمود، وهي الناقة العظيمة الباهرة التي كانت تصدر عنها جميع القبيلة بأجمعها، ومع ذلك كذبوا بها، فأصابهم ما قص الله علينا في كتابه. وهؤلاء كذلك؛ لو جاءتهم الآيات الكبار؛ لم يؤمنوا؛ فإنه ما منعهم من الإيمان خفاء ما

جاء به الرسول واشتباها هل هو حقٌ أو باطل؟ فإنه قد جاء من البراهين الكثيرة ما دلَّ على صحَّة ما جاء به الموجب لهداية مَنْ طلب الهداية؛ فغيرُها مثلُها، فلا بدَّ أن يسلكوا بها ما سلكوا بغيرها، فتركُ إنزالها والحالة هذه خيرٌ لهم وأنفع. وقوله: ﴿وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾؛ أي: لم يكن القصدُ بها أن تكون داعيةً وموجبةً للإيمان الذي لا يحصلُ إلاَّ بها، بل المقصود منها التخويف والترهيب؛ ليرتدعوا عن ما هم عليه.

﴿٦٠﴾ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾: علماً وقدرة؛ فليس لهم ملجأ يلجؤون إليه ولا ملاذ يلوذون به عنه، وهذا كافٍ لمن له عقلٌ في الانكفاف عما يكرهه الله الذي أحاط بالناس، ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ﴾: أكثر المفسرين على أنها ليلة الإسراء، ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ﴾: التي ذكرت ﴿فِي الْقُرْآنِ﴾: وهي شجرة الزقوم التي تثبتُ في أصل الجحيم.

والمعنى: إذا كان هذان الأمران قد صارا فتنةً للناس، حتى استلجَّ الكفار بكفرهم وازداد شرُّهم، وبعض مَنْ كان إيمانه ضعيفاً رجع عنه، بسبب أنَّ ما أخبرهم به من الأمور التي كانت ليلة الإسراء، ومن الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان خارقاً للعادة، والإخبار بوجود شجرة تثبتُ في أصل الجحيم أيضاً من الخوارق؛ فهذا الذي أوجب لهم التكذيب؛ فكيف لو شاهدوا الآيات العظيمة والخوارق الجسيمة؟! أليس ذلك أولى أن يزداد بسببه شرُّهم؛ فلذلك رحمهم الله وصرفها عنهم. ومن هنا تعلمُ أنَّ عدم التصريح في الكتاب والسنة بذكر الأمور العظيمة التي حَدَّثَتْ في الأزمنة المتأخرة أولى وأحسن؛ لأنَّ الأمور التي لم يشاهدِ الناس لها نظيراً ربَّما لا تقبلها عقولُهم، [لو أخبروا بها قبل وَقُوعِهَا] فيكون ذلك ريباً في قلوب بعض المؤمنين ومانعاً يمنع من لم يدخل الإسلام ومنفراً عنه، بل ذكر الله ألفاظاً عامة تتناول جميع ما يكون. والله أعلم. ﴿وَنَخَوِّفُهُمْ﴾: بالآيات، ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾: التخويف ﴿إِلَّا طَغْيَانًا كَبِيرًا﴾: وهذا أبلغ ما يكون في التحلي بالشرِّ ومحَبَّتِه وبغض الخير وعدم الانقياد له.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۖ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ۖ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ۖ وَاسْتَغْفِرْ مَنْ أَسْطَغَتْ مِنْهُمْ ۖ﴾

بَصَوْتِكَ وَأَجَلَبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجَلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٢﴾ .

﴿٦١﴾ يَنْبَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ عَلَى شِدَّةِ عداوة الشيطان وحرصه على إضلالهم، وأنه لما خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ؛ استكبر عن السجود له و ﴿قَالَ﴾ متكبراً: ﴿الَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾؛ أي: من طين، وبزعمه أنه خيرٌ منه؛ لأنه خُلِقَ من نارٍ، وقد تقدّم فساد هذا القياس الباطل من عدة أوجه.

﴿٦٢﴾ فلما تبين لإبليس تفضيل الله لآدم؛ ﴿قَالَ﴾ مخاطباً لله: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتُ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾؛ أي: لأستأصلنهم بالإضلال ولأغوينهم، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾: عرف الخبيث أنه لا بد أن يكون منهم من يعاديه ويعصيه.

﴿٦٣﴾ فقال الله له: ﴿اذهب فمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾: واختارك على ربِّه ووليِّه الحق. ﴿فَإِنْ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾؛ أي: مدخراً لكم موقراً جزاء أعمالكم.

﴿٦٤﴾ ثم أمره الله أن يفعل كل ما يقدر عليه من إضلالهم، فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرْ مِنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾: ويدخل في هذا كلُّ داعٍ إلى المعصية، ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجَلِكَ﴾: ويدخل فيه كلُّ راكبٍ وماشٍ في معصية الله؛ فهو من خيل الشيطان ورجله. والمقصود أن الله ابتلى العباد بهذا العدو المبين الداعي لهم إلى معصية الله بأقواله وأفعاله. ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾: وذلك شامل لكل معصية تعلقت بأموالهم وأولادهم من منع الزكاة والكفارات والحقوق الواجبة، وعدم تأديب الأولاد وتربيتهم على الخير وترك الشر، وأخذ الأموال بغير حقها أو وضعها بغير حقها أو استعمال المكاسب الرديئة، بل ذَكَرَ كثيرٌ من المفسرين أنه يدخل في مشاركة الشيطان في الأموال والأولاد تركُ التسمية عند الطعام والشراب والجماع، وأنه إذا لم يُسَمَّ الله في ذلك؛ شارك فيه الشيطان؛ كما ورد فيه الحديث^(١). ﴿وَعِدْهُمْ﴾: الأوعاد المزخرفة التي لا حقيقة لها، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾؛ أي: باطلاً مضمحلاً؛ كأن يزيّن لهم المعاصي والعقائد الفاسدة، ويعدّهم عليها الأجر؛ لأنهم يظنون أنهم على الحق، وقال

(١) كما في «صحيح البخاري» (١٤١)، ومسلم (٢٠١٨).

تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾ .
 ﴿٦٥﴾ ولما أخبر عما يريد الشيطان أن يفعل بالعباد؛ ذَكَرَ ما يُغْتَصَمُ به من فتنته، وهو عبودية الله والقيام بالإيمان والتوكل، فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾؛ أي: تسلط وإغواء، بل الله يدفع عنهم بقيامهم بعبوديته كل شر، ويحفظهم من الشيطان الرجيم، ويقوم بكفائتهم. ﴿وكفى بربك وكيلًا﴾: لمن توكل عليه، وأدى ما أمر به.

﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزَيِّجُ لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ رَجِيمًا﴾
 ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَيْنَا فَلَمَّا بَلَغَكُمُ الْبَرَّ ائْتَيْنَاهُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْهِمُ الْكَوْكَبَ ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَن يَخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِبًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ ذَنْبًا نَبِيْعًا﴾ .

﴿٦٦﴾ يذكر تعالى نعمته على العباد بما سخر لهم من الفلك والسفن والمراكب، وألهمهم كيفية صنعتها وسخر لها البحر المنتظم يحملها على ظهره؛ لينتفع العباد بها في الركوب والحمل للأمتعة والتجارة، وهذا من رحمته بعباده؛ فإنه لم يزل بهم رحيمًا رءوفًا، يؤتيهم من كل ما تعلقت به إرادتهم ومنافعهم.

﴿٦٧﴾ ومن رحمته الدالة على أنه وحده المعبود دون ما سواه أنهم إذا مسهم الضر في البحر، فخافوا من الهلاك لتراكم الأمواج؛ ضل عنهم ما كانوا يدعون من دون الله في حال الرخاء من الأحياء والأموات، فكأنهم لم يكونوا يدعونهم في وقت من الأوقات؛ لعلمهم أنهم ضعفاء عاجزون عن كشف الضر، وصرخوا بدعوة فاطر الأرض والسماوات، الذي تستغيث به في شدائدها جميع المخلوقات، وأخلصوا له الدعاء والتضرع في هذه الحال، فلما كشف الله عنهم الضر ونجاهم إلى البر؛ نسوا ما كانوا يدعون إليه من قبل، وأشركوا به من لا ينفع ولا يضر ولا يعطي ولا يمنع، وأعرضوا عن الإخلاص لربهم ومليكهم.

وهذا من جهل الإنسان وكفره؛ فإن الإنسان كفور للنعم؛ إلا من هدى الله فمن عليه بالعقل السليم واهتدى إلى الصراط المستقيم؛ فإنه يعلم أن الذي يكشف الشدائد، وينجي من الأهوال هو الذي يستحق أن يُفَرَّدَ، وتُخْلَصَ له سائر الأعمال في الشدة والرخاء واليسر والعسر، وأما من خذل ووكل إلى عقله الضعيف؛ فإنه لم

يلحظ وقت الشدة إلا مصلحته الحاضرة وإنجاءه في كل تلك الحال، فلما حصلت له النجاة وزالت عنه المشقة؛ ظنَّ بجهله أنه قد أعجز الله، ولم يخطر بقلبه شيء من العواقب الدنيوية فضلاً عن أمور الآخرة.

﴿٦٨ - ٦٩﴾ ولهذا ذكرهم الله بقوله: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾؛ أي: فهو على كل شيء قدير، إن شاء أنزل عليكم عذاباً من أسفل منكم بالخسف، أو من فوقكم بالحاصب، وهو العذاب الذي يحصبهم فيصبحوا هالكين؛ فلا تظنوا أن الهلاك لا يكون إلا في البحر، وإن ظننتم ذلك؛ فأنتم آمنون من ﴿أن يعيدكم﴾: في البحر؛ ﴿تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح﴾؛ أي: ريحاً شديدة جداً تقصف ما أتت عليه، ﴿فيغيركم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا﴾؛ أي: تبعة ومطالبة؛ فإن الله لم يظلمكم مثقال ذرة.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَلَدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ ﴿٧٠﴾.

﴿٧٠﴾ وهذا من كرمه عليهم وإحسانه الذي لا يقادَر قدره؛ حيث كرم بني آدم بجميع وجوه الإكرام، فكرمهم بالعلم والعقل وإرسال الرسل وإنزال الكتب، وجعل منهم الأولياء والأصفياء، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة، ﴿وحملناهم في البرِّ﴾: على الركاب من الإبل والبغال والحمير والمراكب البرية. وفي ﴿البحر﴾: في السفن والمراكب، ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾: من المأكَل والمشارب والملابس والمناجح؛ فما من طيب تتعلق به حوائجهم إلا وقد أكرمهم الله به ويسره لهم غاية التيسير، ﴿وفضّلناهم على كثير ممّن خلقنا تفضيلاً﴾: بما خصّهم به من المناقب وفضّلهم به من الفضائل التي ليست لغيرهم من أنواع المخلوقات، أفلا يقومون بشكر من أولى النعم ودفع النقم ولا تحجبهم النعم عن المنعم فيشتغلوا بها عن عبادة ربهم، بل ربّما استعانوا بها على معاصيه؟!

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِمْنِهِمْ فَمَنْ أَوَّحَىٰ كِتَابُهُ يَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ﴿٧٢﴾.

﴿٧١﴾ يخبر تعالى عن حال الخلق يوم القيامة، وأنه يدعو كل أناس معهم إمامهم وهاديهم إلى الرشد، وهم الرسل ونوابهم، فتعرض كل أمة، ويحضرها رسولهم الذي دعاهم، وتعرض أعمالهم على الكتاب الذي يدعو إليه الرسول هل

هي موافقة له أم لا؟ فينقسمون بهذا قسمين: ﴿فمن أوتي كتابه بيمينه﴾: لكونه أتبع إمامه الهادي إلى صراطٍ مستقيم، واهتدى بكتابه؛ فكثرت حسناته، وقلّت سيئاته؛ ﴿فأولئك يقرؤون كتابهم﴾: قراءة سرور وبهجة على ما يرون فيها مما يفرحهم ويسرهم، ﴿ولا يظلمون فتيلًا﴾: ممّا عملوه من الحسنات.

﴿٧٢﴾ ﴿ومن كان في هذه﴾: الدنيا ﴿أعمى﴾: عن الحق؛ فلم يقبله ولم يتخذ له، بل أتبع الضلال، ﴿فهو في الآخرة أعمى﴾: عن سلوك طريق الجنة كما لم يسلكه في الدنيا، ﴿وأضلّ سبيلًا﴾: فإنّ الجزء من جنس العمل، وكما تدين ثدان. وفي هذه الآية دليل على أنّ كلّ أمة تُدعى إلى دينها وكتابها وهل عملت به أم لا؟ وأنهم لا يؤاخذون بشرع نبيّ لم يؤمروا باتباعه، وأنّ الله لا يعذب أحداً إلاّ بعد قيام الحجّة عليه ومخالفته لها، وأنّ أهل الخير يعطون كتبهم بأيمانهم، ويحصل لهم من الفرح والسرور شيء عظيم، وأنّ أهل الشرّ بعكس ذلك، وأنهم لا يقدرّون على قراءة كتبهم من شدّة غمّهم وحزنهم وثبورهم.

﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفترى علينا غيرهم وإذا لا تأخذوك خيلاً﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً﴾ ﴿٧٤﴾ إذا لاذقناك ضعف الحيوة وضعف ألمنا ثم لا نجد لك علينا نصيراً ﴿٧٥﴾ وإن كادوا يستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلفك إلا قليلاً ﴿٧٦﴾ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا نجد لسنننا تحويلاً ﴿٧٧﴾.

﴿٧٣﴾ يذكر تعالى منته على رسوله محمد ﷺ وحفظه له من أعدائه الحريصين على فتنته بكل طريق، فقال: ﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفترى علينا﴾؛ أي: قد كادوا لك أمراً لم يُذكره، وتحيلوا لك على أن تفترى على الله غير الذي أنزلنا إليك، فتجيء بما يوافق أهواءهم، وتدع ما أنزل الله إليك. ﴿وإذا﴾: لو فعلت ما يهودون؛ ﴿لا تأخذوك خيلاً﴾؛ أي: حبيباً صفيّاً أعزّ عليهم من أحبّابهم لما جبلّك الله عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب المحبّبة للقريب والبعيد والصديق والعدو، ولكن لتعلم أنّهم لم يعادوك وينابذك العداوة إلاّ للحقّ الذي جئت به لا لذاتك؛ كما قال تعالى: ﴿قد نعلم أنّه ليخزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾.

﴿٧٤﴾ ﴿و﴾ مع هذا ﴿لولا أن ثبتناك﴾: على الحقّ وامتثنا عليك بعدم الإجابة

لداعيهم، ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾: من كثرة المعالجة ومحبتك لهدايتهم.

﴿٧٥﴾ ﴿إِذَا﴾: لو ركنت إليهم بما يهون، ﴿لَأَذْنُكَ ضَعْفَ الْحَيَاةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ﴾؛ أي: لأصبنك بعذاب مضاعف في الدنيا والآخرة، وذلك لكمال نعمة الله عليك وكمال معرفتك. ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾: ينقذك مما يحل بك من العذاب، ولكن الله تعالى عصمك من أسباب الشر ومن الشر، فثبتك وهداك الصراط المستقيم، ولم تركز إليهم بوجه من الوجوه؛ فله عليك أتم نعمة وأبلغ منحة.

﴿٧٦ - ٧٧﴾ ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾؛ أي: من بغضهم لمقامك بين أظهرهم، قد كادوا أن يخرجوك من الأرض ويُجلوك عنها، ولو فعلوا ذلك؛ لم يلبثوا بعدك فيها إلا قليلاً، حتى تحل بهم العقوبة؛ كما هي سنة الله التي لا تحول ولا تبدل في جميع الأمم، كل أمة كذبت رسولها وأخرجته؛ عاجلها الله بالعقوبة، ولما مكر به الذين كفروا وأخرجوه؛ لم يلبثوا إلا قليلاً حتى أوقع الله بهم بيدراً، وقتل صناديدهم، وقض بيضتهم؛ فله الحمد.

وفي هذه الآيات دليل على شدة افتقار العبد إلى تثبيت الله إياه، وأنه [ينبغي له أن] لا يزال متملقاً لربه أن يشته على الإيمان ساعياً في كل سبب موصل إلى ذلك؛ لأن النبي ﷺ - وهو أكمل الخلق - قال الله له: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾؛ فكيف بغيره؟!

وفيها: تذكير الله لرسوله منته عليه وعصمته من الشر، فدل ذلك على أن الله يحب من عباده أن يتفطنوا لإنعامه عليهم عند وجود أسباب الشر بالعصمة منه والثبات على الإيمان.

وفيها: أنه بحسب علو مرتبة العبد وتواتر النعم عليه من الله يعظم إثمُه ويتضاعف جرمُه إذا فعل ما يلام عليه؛ لأن الله ذكر رسوله لو فعل - وحاشاه من ذلك - بقوله: ﴿إِذَا لَأَذْنُكَ ضَعْفَ الْحَيَاةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾.

وفيها: أن الله إذا أراد إهلاك أمة؛ تضاعف جرمها وعظم وكبر، فيحق عليها القول من الله، فيوقع بها العقاب؛ كما هي سنته في الأمم إذا أخرجوا رسولهم.

﴿أَفَرَأَيْتَ الصَّلَاةَ إِذْ لَوْكَ الشَّمْسُ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾

﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِّنْ لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ .

﴿٧٨﴾ يأمر تعالى نبيه محمداً ﷺ بإقامة الصلاة تامة ظاهراً وباطناً في أوقاتها، ﴿للدُّلوك الشمس﴾؛ أي: ميلانها إلى الأفق الغربي بعد الزوال، فیدخلُ في ذلك صلاة الظهر وصلاة العصر ﴿إلى عَسَقِ اللَّيْلِ﴾؛ أي: ظلمته، فدخل في ذلك صلاة المغرب وصلاة العشاء، ﴿وقرآن الفجر﴾؛ أي: صلاة الفجر، وسميت قرآناً لمشروعية إطالة القرآن فيها أطول من غيرها، ولفضل القراءة؛ حيث يشهدها الله وملائكة الليل وملائكة النهار.

ففي هذه الآية ذكرُ الأوقات الخمسة للصلوات المكتوبات، وأن الصلوات الموقعة فيه فرائض؛ لتخصيصها بالأمr.

وفيهما أن الوقت شرط لصحة الصلاة، وأنه سبب لجوبها؛ لأن الله أمر بإقامتها لهذه الأوقات، وأن الظهر والعصر يُجمعان، والمغرب والعشاء كذلك؛ للعدr؛ لأن الله جمع وقتها جميعاً.

وفيه فضيلة صلاة الفجر، وفضيلة إطالة القراءة فيها، وأن القراءة فيها ركن؛ لأن العبادة إذا سُميت ببعض أجزائها؛ دل على فرضية ذلك.

﴿٧٩﴾ وقوله: ﴿ومن الليل فتهجد به﴾؛ أي: صل به في سائر أوقاته، ﴿نافلة لك﴾؛ أي: لتكون صلاة الليل زيادة لك في علو القدر ورفع الدرجات؛ بخلاف غيرك؛ فإنها تكون كفارة لسيئاته. ويحتمل أن يكون المعنى أن الصلوات الخمس فرض عليك وعلى المؤمنين؛ بخلاف صلاة الليل؛ فإنها فرض عليك بالخصوص؛ لكرامتك على الله أن جعلَ وظيفتك أكثر من غيرك، وليكثر ثوابك، وتنال بذلك المقام المحمود، وهو المقام الذي يحمد فيه الأولون والآخرون، مقام الشفاعة العظمى، حين يستشفع الخلائق بآدم ثم بنوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى، وكلهم يعتذر ويتأخر عنها، حتى يستشفعوا بسيد ولد آدم ليرحمهم الله من هم الموقف وكربه، فيشفع عند ربه، فيشفعه ويُقيمه مقاماً يغبطه به الأولون والآخرون، وتكون له المنة على جميع الخلق.

﴿٨٠﴾ وقوله: ﴿وقل رب ادخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق﴾؛ أي:

اجعل مداخلتي ومخارجي كلها في طاعتك وعلى مرضاتك، وذلك لتضمنها الإخلاص وموافقتي^(١) الأمر. ﴿واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾؛ أي: حجة ظاهرة وبرهاناً قاطعاً على جميع ما أتيه وما أذره، وهذا أعلى حالة يُنزلها الله العبد، أن تكون أحواله كلها خيراً ومقربة له إلى ربه، وأن يكون له على كل حالة من أحواله دليل ظاهر، وذلك متضمن للعلم النافع والعمل الصالح للعلم بالمسائل والدلائل.

— ﴿٨١﴾ وقوله: ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل﴾: والحق هو ما أوحاه الله إلى رسوله محمد ﷺ، فأمره الله أن يقول ويعلم: قد جاء الحق الذي لا يقوم له شيء، وزهق الباطل؛ أي: اضمحل وتلاشى. ﴿إن الباطل كان زهوقاً﴾؛ أي: هذا وصف الباطل، ولكنه قد يكون له صولة وروجان إذا لم يقابله الحق، فعند مجيء الحق؛ يضمحل الباطل فلا يبقى له حراك، ولهذا لا يروج الباطل إلا في الأزمان والأمكنة الخالية من العلم بآيات الله وبيناته. وقوله:

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

﴿٨٢﴾ فالقرآن مشتمل على الشفاء والرحمة، وليس ذلك لكل أحد، وإنما ذلك للمؤمنين به المصدقين بآياته العالمين به، وأما الظالمون بعدم التصديق به أو عدم العمل به؛ فلا تزيدهم آياته إلا خساراً؛ إذ به تقوم عليهم الحجة؛ فالشفاء الذي تضمنه القرآن عام لشفاء القلوب من الشبه والجهالة والآراء الفاسدة والانحراف السيئ والقصود السيئة؛ فإنه مشتمل على العلم اليقيني الذي تزول به كل شبهة وجهالة، والوعظ والتذكير الذي يزول به كل شهوة تخالف أمر الله، وشفاء الأبدان من آلامها وأسقامها، وأما الرحمة؛ فإن ما فيه من الأسباب والوسائل التي يحث عليها متى فعلها العبد، فاز بالرحمة والسعادة الأبدية والثواب العاجل والآجل.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾.

﴿٨٣﴾ هذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إلا من هداه الله؛ فإن الإنسان عند إنعام الله عليه يفرح بالنعم، ويبطر بها، ويعرض، وينأى بجانبه عن ربه؛ فلا يشكره، ولا يذكره. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾: كالمرض ونحوه، ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾: من

(١) في (ب): «وموافقة».

الخير، قد قطع عن ربّه رجاءه، وظنّ أنّ ما هو فيه دائمٌ أبداً، وأمّا مَنْ هداه الله؛ فإنّه عند النعم يخضعُ لربّه، ويشكر نعمته، وعند الضراء يتضرّع، ويرجو من الله عافيته وإزالة ما يقع فيه، وبذلك يخفّ عليه البلاء.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرِيقُكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾.

﴿٨٤﴾ أي: ﴿قل كلٌّ: من الناس، ﴿يعمل على شاكلته﴾؛ أي: على ما يليق به من الأحوال: إن كانوا من الصفوة الأبرار؛ لم يشاكلهم إلا عملهم لربّ العالمين، ومن كانوا من غيرهم من المخدولين؛ لم يناسبهم إلا العمل للمخلوقين، ولم يوافقهم إلا ما وافق أغراضهم. وربك ﴿أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾: فيعلم مَنْ يضلّ للهداية فيهديه، ومن لا يضلّ لها فيخذله ولا يهديه.

﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾.

﴿٨٥﴾ وهذا متضمّن لردع من يسأل المسائل التي لا يُقصدُ بها إلا التعنّت والتعجيز، ويدع السؤال عن المهمّ، فيسألون عن الرّوح التي هي من الأمور الخفية التي لا يتقن وصفها وكيفيتها كلّ أحد، وهم قاصرون في العلم الذي يحتاج إليه العباد، ولهذا أمر الله رسوله أن يجيب سؤالهم بقوله: ﴿قل الرّوح من أمر ربّي﴾؛ أي: من جملة مخلوقاته التي أمرها أن تكون فكانت، فليس في السؤال عنها كبير فائدة مع عدم علمكم بغيرها.

وفي هذه الآية دليل على أنّ المسؤول إذا سُئل عن أمر، الأوّل بالسائل غيره أن يعرض عن جوابه، ويدلّه على ما يحتاج إليه، ويرشده إلى ما ينفعه.

﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾.

﴿٨٦ - ٨٧﴾ يخبر تعالى أنّ القرآن والوحي الذي أوحاه إلى رسوله رحمة منه عليه وعلى عباده، وهو أكبر النعم على الإطلاق على رسوله؛ فإنّ فضل الله عليه كبير لا يقاдр قدره؛ فالذي تفضل به عليك قادر على أن يذهب به ثم لا تجد راداً يرده ولا وكيلاً يتوجه عند الله فيه؛ فلتنعبط به وتقرّ به عينك، ولا يحزنك تكذيب المكذبين واستهزاء الضالين؛ فإنهم عرضت عليهم أجل النعم فردوها لهوانهم على الله وخذلانه لهم.

﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝﴾

﴿٨٨﴾ وهذا دليل قاطع وبرهان ساطع على صحة ما جاء به الرسول وصدقه؛ حيث تحدى الله الإنسان والجن أن يأتوا بمثله، وأخبر أنهم لا يأتون بمثله، ولو تعاونوا كلهم على ذلك؛ لم يقدرُوا عليه، ووقع كما أخبر الله؛ فإن دواعي أعدائه المكذبين به متوفرة على رد ما جاء به بأي وجه كان، وهم أهل اللسان والفصاحة؛ فلو كان عندهم أدنى تأهل وتمكن من ذلك؛ لفعلوه، فعلم بذلك أنهم أذعنوا غاية الإذعان طوعاً وكرهاً، وعجزوا عن معارضته، وكيف يقدر المخلوق من تراب، الناقص من جميع الوجوه، الذي ليس له علم ولا قدرة ولا إرادة ولا مشيئة ولا كلام ولا كمال إلا من ربه؛ أن يعارض كلام رب الأرض والسموات، المطلع على سائر الخفيات، الذي له الكمال المطلق والحمد المطلق والمجد العظيم، الذي لو أن البحر يمدّه من بعده سبعة أبحر مداداً والأشجار كلها أقلاماً؛ لتفد المداد وفنيت الأقلام ولم تنفذ كلمات الله؛ فكما أنه ليس أحد من المخلوقين ماثلاً لله في أوصافه؛ فكلامه من أوصافه التي لا يماثله فيها أحد؛ فليس كمثله شيء في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله تبارك وتعالى؛ فتباً لمن اشتبه عليه كلام الخالق بكلام المخلوق، وزعم أن محمداً ﷺ افتراه على الله، واختلقه من نفسه.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝﴾ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تُنْزِلَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوتًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعَسَىٰ فَتُنْجِرَ الْآلَافَ نَجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْفٍ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُؤْيَاكَ حَتَّىٰ تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤه قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشِي يَمْشُونَ مَطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۝﴾

﴿٨٩ - ٩٣﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾؛ أي: نوّعنا فيه المواعظ والأمثال، وثبتنا فيه المعاني التي يضطر إليها العباد لأجل أن

يَتَذَكَّرُوا وَيَتَّقُوا، فَلَمْ يَتَذَكَّرْ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنْهُمْ، الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ سَابِقَةُ السَّعَادَةِ، وَأَعَانَهُمُ اللَّهُ بِتَوْفِيقِهِ، وَأَمَّا أَكْثَرُ النَّاسِ؛ فَأَبَوْا إِلَّا كُفُوراً لِهَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ مِنْ جَمِيعِ النِّعَمِ، وَجَعَلُوا يَتَعَتَّلُونَ عَلَيْهِ آيَاتِ غَيْرِ آيَاتِهِ يَخْتَرِعُونَهَا مِنْ تَلَقُّاءِ أَنْفُسِهِمُ الظَّالِمَةِ الْجَاهِلَةِ، فَيَقُولُونَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي أَتَى بِهِذَا الْقُرْآنَ الْمَشْتَمَلِ عَلَى كُلِّ بَرْهَانٍ وَآيَةٍ: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾؛ أَيْ: أَنْهَاراً جَارِيَةً، ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾: فَتَسْتَغْنِي بِهَا عَنِ الْمَشْيِ فِي الْأَسْوَاقِ وَالذُّهَابِ وَالْمَجْيِءِ، ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا رَعَعْتَ عَلَيْنَا كِسْفاً﴾؛ أَيْ: قِطْعاً مِنَ الْعَذَابِ، ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً﴾؛ أَيْ: جَمِيعاً أَوْ مُقَابِلَةً وَمُعَايَنَةً يَشْهَدُونَ لَكَ بِمَا جِئْتَ بِهِ، ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زَخْرَفٍ﴾؛ أَيْ: مَزْخَرَفٍ بِالذَّهَبِ وَغَيْرِهِ، ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ﴾: رُقْيَاً حَسِيّاً. ﴿و﴾ مَعَ هَذَا فَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقْيَتِكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرُؤُهُ. وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ تَعَتَّلَاتٍ وَتَعْجِيزَاتٍ وَكَلَامٍ أَسْفَهَ النَّاسِ وَأَظْلَمَهُمُ، الْمَتَضَمِّنَةُ لِرُدِّ الْحَقِّ وَسُوءِ أَدَبٍ مَعَ اللَّهِ، وَأَنَّ الرُّسُولَ ﷺ هُوَ الَّذِي يَأْتِي بِالْآيَاتِ؛ أَمْرُهُ اللَّهُ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ، فَقَالَ: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾: عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً، وَسُبْحَانَهُ أَنْ تَكُونَ أَحْكَامُهُ وَآيَاتُهُ تَابِعَةً لَأَهْوَائِهِمُ الْفَاسِدَةِ وَأَرَائِهِمُ الضَّالَّةِ. ﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشِراً رَسُولاً﴾: لَيْسَ بِيَدِهِ شَيْءٌ مِنَ الْأَمْرِ.

﴿٩٤﴾ وَهَذَا السَّبَبُ الَّذِي مَنَعَ أَكْثَرَ النَّاسِ مِنَ الْإِيمَانِ؛ حَيْثُ كَانَتْ الرُّسُلُ الَّتِي تُرْسَلُ إِلَيْهِمْ مِنْ جَنْسِهِمْ بَشِراً، وَهَذَا مِنْ رَحْمَتِهِ بِهِمْ أَنْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ بَشِراً مِنْهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَطِيقُونَ التَّلَقِّيَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ.

﴿٩٥﴾ فَلَوْ ﴿كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾: يَثْبُتُونَ عَلَى رُؤْيَا الْمَلَائِكَةِ وَالتَّلَقِّيِ عَنْهُمْ؛ ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾: لَيُمْكِنَهُمُ التَّلَقِّيُ عَنْهُ.

﴿٩٦﴾ ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾: فَمِنْ شَهَادَتِهِ لِرَسُولِهِ مَا أَيْدَهُ بِهِ مِنَ الْمَعْجِزَاتِ، وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْآيَاتِ، وَنَصَرَهُ عَلَى مَنْ عَادَاهُ وَنَاوَاهُ؛ فَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْهِ بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ؛ لَأَخَذَ مِنْهُ بِالْيَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعَ مِنْهُ الْوَتِينَ؛ فَإِنَّهُ خَبِيرٌ بَصِيرٌ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أَحْوَالِ الْعِبَادِ خَافِيَةٌ.

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمياً وَبُكاً وَصُمّاً مَا أَوْنَهُمْ جَهَنَّمَ كَلَمًا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعيراً﴾ (٩٧) ذَلِكَ

جَزَاءَهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَاتًا أَوَآءَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ﴿٩٨﴾
 أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَإِنِّي الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴿١٠٠﴾ .

﴿٩٧﴾ يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإضلال؛ فمن يهده فيسيره لليسرى ويجنبه العسرى؛ فهو المهتدي على الحقيقة، ومن يضلله فيخذله ويكبله إلى نفسه؛ فلا هادي له من دون الله، وليس له ولي ينصره من عذاب الله حين يحشرهم الله على وجوههم، خزيًا عميًا وبُكمًا، لا يبصرون، ولا ينطقون. ﴿مأواهم﴾؛ أي: مقرهم ودارهم ﴿جهنم﴾: التي جمعت كل هم وغم وعذاب. ﴿كلما خبث﴾؛ أي: تهيات للانطفاء، ﴿زذناهم سعيًا﴾؛ أي: سَعَرناها بهم، لا يُفتر عنهم العذاب، ولا يُقضى عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها.

﴿٩٨﴾ ولم يظلمهم الله تعالى، بل جازاهم بما كفروا بآياته وأنكروا البعث الذي أخبر به الرُّسل، ونطقت به الكتب، وعجزوا ربهم؛ فأنكروا تمام قدرته، ﴿وقالوا إذا كنا عظامًا ورُفاتًا أَوَآءَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾؛ أي: لا يكون هذا؛ لأنه في غاية البعد عند عقولهم الفاسدة.

﴿٩٩﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: وهي أكبر من خلق الناس، ﴿قادرٌ على أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾: بلى إنه على ذلك قدير. ﴿و﴾ لكنه قد جعل لذلك ﴿أجلًا لا ريبَ فيه﴾: ولا شك وإلا فلو شاء لجاءهم به بغتة ومع إقامته الحجج والأدلة على البعث؛ ﴿فأبى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾: ظلمًا منهم وافتراء.

﴿١٠٠﴾ ﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربِّي﴾: التي لا تُنفد ولا تبيد، ﴿إذا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾؛ أي: خشية أن يُنفد ما تنفقون منه، مع أنه من المحال أن تُنفد خزائن الله، ولكنَّ الإنسان مطبوعٌ على الشح والبخل.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى إِسْحَاقَ يَسْتَلِ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَسْجُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَنْفِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا

﴿١٠٢﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِيَنِّي إِسْرَءِيلَ أَكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٣﴾ .

﴿١٠١﴾ أي: لست أيها الرسول المؤيد بالآيات أول رسول كذبه الناس؛ فلقد أرسلنا قبلك موسى بن عمران الكليم إلى فرعون وقومه وآتيناه ﴿تسع آيات بينات﴾: كل واحدة منها تكفي لمن قصده أتباع الحق كالحيّة والعصا والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والرجز وقلق البحر؛ فإن شككت في شيء من ذلك؛ ﴿فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون﴾: مع هذه الآيات: ﴿إني لأظنك يا موسى مسحور﴾.

﴿١٠٢﴾ ف﴿قال﴾ له موسى: ﴿لقد علمت﴾: يا فرعون، ﴿ما أنزل هؤلاء﴾: الآيات. ﴿إلا رب السموات والأرض بصائر﴾: منه لعباده؛ فليس قولك هذا بالحقيقة، وإنما قلت ذلك ترويجاً على قومك واستخفافاً لهم. ﴿وإني لأظنك يا فرعون مثبور﴾؛ أي: ممقوتاً، ملقى في العذاب، لك الويل والدم واللعة.

﴿١٠٣ - ١٠٤﴾ ﴿فأراد﴾: فرعون ﴿أن يستفزهم من الأرض﴾؛ أي: يُجلبهم ويخرجهم منها، ﴿فأغرقناه ومن معه جميعاً﴾: وأورثنا بني إسرائيل أرضهم وديارهم، ولهذا قال: ﴿وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً﴾؛ أي: جميعاً؛ ليُنجز ﴿كل عامل بعمله﴾.

﴿وَالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾. ﴿١٠٥﴾

﴿١٠٥﴾ أي: وبالحق أنزلنا هذا القرآن الكريم لأمر العباد ونهيهم وثوابهم وعقابهم، ﴿وبالحق نزل﴾؛ أي: بالصدق والعدل والحفظ من كل شيطان رجيم. ﴿وما أرسَلناكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾: من أطاع الله بالثواب العاجل والآجل، ﴿ونذير﴾: لمن عصى الله بالعقاب العاجل والآجل، ويلزم من ذلك بيان ما يبشر به وينذر.

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مَكِّهِ وَزَكَّيْنَاهُ لَنَزِيلًا﴾ ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَلِيمٌ مِّن قَبْلِهِ إِذَا يُشَاءُ عَلَيْهِمْ يَجِزُونَ لِالَّذِينَ سَجَدَا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَجِزُونَ لِالَّذِينَ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ .

﴿١٠٦﴾ أي: وأنزلنا هذا القرآن مفزحاً مفزحاً بين الهدى والضلال والحق

والباطل؛ ﴿لَتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْتٍ﴾؛ أي: على مهل؛ ليتدبروه، ويتفكروا في معانيه ويستخرجوا علومه، ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾؛ أي: شيئاً فشيئاً مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة. ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾.

﴿١٠٧﴾ فإذا تبين أنه الحق الذي لا شك فيه ولا ريب بوجه من الوجوه، ﴿قُلْ﴾ لمن كذب به وأعرض عنه: ﴿آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾: فليس لله حاجة فيكم ولستم بضاريه شيئاً، وإنما ضرر ذلك عليكم؛ فإن لله عبادة غيركم، وهم الذين آتاهم الله العلم النافع؛ ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾؛ أي: يتأثرون به غاية التأثير ويخضعون له.

﴿١٠٨﴾ ويقولون سبحان ربنا: عما لا يليق بجلاله مما نسبته إليه المشركون. ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا﴾: بالبعث والجزاء بالأعمال، ﴿لَمَفْعُولًا﴾: لا خلف فيه ولا شك.

﴿١٠٩﴾ ويخرون للأذقان؛ أي: على وجوههم، ﴿يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُم﴾: القرآن ﴿خُشوعاً﴾: وهؤلاء كالذين من الله عليهم من مؤمني أهل الكتاب؛ كعبد الله بن سلام، وغيره ممن أسلم^(١) في وقت النبي ﷺ وبعد ذلك.

﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكِبْرُهُ تَكْبِيرًا﴾ ﴿١١١﴾.

﴿١١٠﴾ يقول تعالى لعباده: ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾؛ أي: أيهما شئتم. ﴿أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: ليس له اسم غير حسن؛ أي: حتى ينهى عن دعائه به؛ [بل] أي اسم دعوتهم به؛ حصل به المقصود، والذي ينبغي أن يدعى في كل مطلوب بما يناسب ذلك الاسم. ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ﴾؛ أي: قراءتكم، ﴿وَلَا تَخَافُوا بِهَا﴾؛ فإن في كل من الأمرين محذوراً، أما الجهر؛ فإن المشركين المكذبين به إذا سمعوه، سبوه، وسبوا من جاء به. وأما المخافة؛ فإنه لا يحصل المقصود لمن أراد استماعه مع الإخفاء. ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ﴾؛ أي: بين الجهر والإخفات ﴿سَبِيلًا﴾؛ أي: تتوسط فيما بينهما.

(١) في (ب): «ممن آمن».

﴿١١١﴾ ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الذي له الكمالُ والثناءُ والحمدُ والمجدُ من جميع الوجوه، المنزَّه عن كلِّ آفةٍ ونقص. ﴿الذي لم يَتَّخِذْ وَلِداً ولم يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ﴾: بل الملكُ كُلُّهُ لِلَّهِ الواحدُ القهارُ؛ فالعالمُ العلويُّ والسفليُّ كُلُّهُم مملوكون لِلَّهِ، ليس لأحدٍ من الملكِ شيء. ﴿ولم يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ﴾؛ أي: لا يتولى أحداً من خلقه ليتعزز به ويعاونه، فإنه الغني الحميد، الذي لا يحتاج إلى أحدٍ من المخلوقات في الأرض ولا في السماوات، ولكِنَّهُ يَتَّخِذُ أَوْلِيَاءَهُ إِحْسَاناً مِنْهُ إِلَيْهِمْ وَرَحْمَةً بِهِمْ، ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾. ﴿وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا﴾؛ أي: عَظَّمَهُ وَأَجَلَّهُ بِالْإِخْبَارِ بِأَوْصَافِهِ الْعَظِيمَةِ، وبِالْثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ الْحَسَنَى، وبِتَمَجِيدِهِ بِأَفْعَالِهِ الْمُقَدَّسَةِ، وَبِتَعْظِيمِهِ وَإِجْلَالِهِ بِعِبَادَتِهِ وَحَدِّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِخْلَاصِ الدِّينِ كُلِّهِ لَهُ.

تم تفسير سورة الإسراء وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمُنَّةُ وَالْثَنَاءُ الْحَسَنُ عَلَى يَدِ جَامِعِهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدِي.

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين. آمين. وصلى الله على محمد وسلم تسليماً كثيراً.

وذلك في ٧ جمادى الأولى سنة ١٣٤٤هـ.

ونقلته من خط المؤلف بقلم الفقير إلى ربه سليمان الحمد البسام غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين. آمين. وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. آمين ثم آمين.

المجلد الخامس
من
تيسير الكريم الرحمن
في
تفسير كلام المنان^(١)

للشيخ الإمام العالم العلامة شيخنا
عبد الرحمن الناصر بن سعدي
غفر الله له آمين

(١) في (ب) المجلد الخامس من تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحيم الرحمن،
لجامعه الفقير إلى ربه المعيد المبدى عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي
سده الله فيما يخفي ويبدى إنه بكل خير كفيل وعلى كل شيء وكيل.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وأصلي وأسلم على محمد وآله وصحبه.

أما بعد؛ فلما كان علم التفسير للقرآن أشرف العلوم على الإطلاق وأهمها وأحقها بتحقيق معانيه وفهم مبانيه؛ لكونه تنزيلاً من حكيم حميد، أنزله هدىً ورحمةً للعباد وتبياناً لكل شيء وتفصيلاً لكل ما يحتاجونه في دينهم ودنياهم وأخراهم، وكان من خاصة علم القرآن أن فهم بعضه وطائفة منه يعين على فهم جميعه؛ لأن القرآن من أوله إلى آخره يدور على تقرير الأصول النافعة والحقائق والشرائع الكبار والأحكام الحسنة والعقائد الصحيحة، ويوجه العباد إلى كل خير، ويحذرهم من كل شر، ويعيد تقرير هذه الأمور ويهديها، بأساليب متنوعة وتصاريح مناسبة في غاية اليسر والسهولة والإحكام والحسن الذي لا مزيد عليه.

وقد تكرر عليّ السؤال من كثير من الأصحاب في نشر تفسيرنا هذا جميعه، وألحوا لما يرونه من الفائدة الكبيرة، فاعتذرت بأن ذلك يصعب جداً؛ لأنه مبسوط، وأيضاً في هذه الأوقات قلت رغبات الناس في الكتب المطولة؛ لذلك أحبيت إجابتهم لنشر بعض ما طلبوا، وهو الاختصار على جزء واحد من أجزاء هذا التفسير^(١)، ووقع الاختيار على الجزء الأوسط من سورة الكهف إلى آخر النمل؛ فما لا يحصل جميعه لا يترك جميعه.

وأرجو الله وأسأله أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه، نافعاً لنا وإخواننا، وأن يمدنا بعونه وعنايته وتوفيقه؛ إنه جواد كريم رءوف رحيم.

وأتبعته بكلّيات وأصول من كليات التفسير؛ لاستدراك ما لعله يفوت القارئ في غير هذا الجزء؛ فإن الأصول والكليات تبنى عليها الفروع والجزئيات، ويحصل بها من النفع والفائدة على اختصارها ما لا يحصل في الكلام الطويل، وهو حسناً ونعم الوكيل.

المؤلف

(١) كانت هذه رغبة الشيخ وقد طبع الجزء الخامس مفرداً في حياة الشيخ، ثم طبع الكتاب كاملاً بعد وفاة الشيخ رحمه الله. انظر المقدمة.

تفسير سورة الكهف

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ^(١)

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ ﴿١﴾ فَيَمَّا يَنْزِيلُ الْكِتَابَ نَجْمٌ مِّنَ اللَّذَنَ وَبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ ﴿٢﴾ مَّن كُنِيَ فِيهِ آدَاءٌ ۖ ﴿٣﴾ وَيَنْذِرُ الَّذِينَ قَالُوا أَتُخَذُ اللَّهُ وَلَدًا ۚ ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۚ ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۖ ﴿٦﴾﴾

﴿١﴾ ﴿الحمد﴾: هو الشاء عليه بصفاته التي هي كلها صفات كمال، وبنعمه الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، وأجل نعمه على الإطلاق إنزاله الكتاب العظيم على عبده ورسوله محمد ﷺ، فحمد نفسه، وفي ضمنه إرشاد العباد ليحمدوه على إرسال الرسول إليهم، وإنزال الكتاب عليهم. ثم وَصَفَ هَذَا الْكِتَابَ بوصفين مشتملين على أنه الكامل من جميع الوجوه، وهما: نفي العوج عنه، وإثبات أنه مقيم^(٢) مستقيم: فنفي العوج يقتضي أنه ليس في أخباره كذب، ولا في أوامره ونواهيه ظلم ولا عيب. وإثبات الاستقامة يقتضي أنه لا يخبر ولا يأمر إلا بأجل الإخبارات، وهي الأخبار التي تملأ القلوب معرفة وإيماناً وعقلاً؛ كالإخبار بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومنها الغيوب المتقدمة والمتأخرة، وأن أوامره ونواهيه تزكي النفوس وتطهرها وتنمّيها وتكملها؛ لاشتمالها على كمال العدل والقسط والإخلاص والعبودية لله رب العالمين وحده لا شريك له. وحقيق بكتاب موصوف بما ذكر أن يحمّد الله نفسه على إنزاله، وأن يتمدّح إلى عباده به.

﴿٢﴾ وقوله: ﴿لِيَنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾؛ أي: لينذر بهذا القرآن الكريم عقابه الذي عنده؛ أي: قدره وقضاه على من خالف أمره، وهذا يشمل عقاب الدنيا وعقاب الآخرة. وهذا أيضاً من نعمه أن خوف عباده وأنذرهم ما يضرهم ويهلكهم؛

(١) البسملة في الأصل وضعت قبل قوله: «تفسير سورة الكهف».

(٢) في (ب): «يقيم».

كما قال تعالى لما ذَكَرَ في هَذَا القرآن وصف النار؛ قال: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾؛ فمن رحمته بعباده أَنْ قَيَّضَ الْعُقُوبَاتِ الْغَلِيظَةَ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ وَبَيَّنَّ لَهُمُ الْأَسْبَابَ الْمَوْصِلَةَ إِلَيْهَا. ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾؛ أَي: وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ لِيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَبِرَسُولِهِ وَكِتَابِهِ الَّذِينَ كَمَلَ إِيمَانُهُمْ، فَأَوْجِبَ لَهُمْ عَمَلُ الصَّالِحَاتِ، وَهِيَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ مِنْ وَاجِبٍ وَمُسْتَحَبٍّ، الَّتِي جَمَعَتْ الْإِخْلَاصَ وَالْمَتَابَعَةَ: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾: وَهُوَ الثَّوَابُ الَّذِي رَتَّبَهُ اللَّهُ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَأَعْظَمُهُ وَأَجْلَهُ الْفَوْزُ بِرِضَا اللَّهِ وَدُخُولُ الْجَنَّةِ الَّتِي فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. وَفِي وَصْفِهِ بِالْحُسْنِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ لَا مَكْدَرَ فِيهِ وَلَا مَنْغُصَ بَوَاجِهِ مِنَ الْوُجُوهِ؛ إِذْ لَوْ وُجِدَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ؛ لَمْ يَكُنْ حَسَنَةً تَامًا.

﴿٣﴾ وَمَعَ ذَلِكَ؛ فَهَذَا الْأَجْرُ الْحَسَنُ ﴿مَا كَثِيرٌ فِيهِ أَبَدًا﴾: لَا يَزُولُ عَنْهُمْ وَلَا يَزُولُونَ عَنْهُ، بَلْ نَعِيمُهُمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ مَتَزَايِدٌ. وَفِي ذِكْرِ التَّبَشِيرِ مَا يَقْتَضِي ذِكْرَ الْأَعْمَالِ الْمَوْجِبَةِ لِلْمُبَشِّرِ بِهِ، وَهُوَ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ قَدْ اشْتَمَلَ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ مُوَصَّلٍ لِمَا تَسْتَبَشِّرُ بِهِ النَفُوسُ، وَتَفْرَحُ بِهِ الْأَرْوَاحُ.

﴿٤ - ٥﴾ ﴿وَيَنْذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾: مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ قَالُوا هَذِهِ الْمَقَالَةُ الشَّنِيعَةُ؛ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوهَا عَنْ عِلْمٍ وَلَا يَقِينٍ؛ لَا عِلْمَ مِنْهُمْ وَلَا عِلْمَ مِنْ آبَائِهِمُ الَّذِينَ قَلَّدُوهُمْ وَاتَّبَعُوهُمْ، بَلْ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾؛ أَي: عَظُمَتْ شَنَاعَتُهَا وَاشْتَدَّتْ عَقُوبَتُهَا، وَأَيُّ شَنَاعَةٍ أَعْظَمَ مِنْ وَصْفِهِ بِالِاتِّخَاذِ لِلْوَلَدِ^(١) الَّذِي يَقْتَضِي نَقْصَهُ وَمُشَارَكَةَ غَيْرِهِ لَهُ فِي خِصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ وَالْكَذِبِ عَلَيْهِ؟! ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا؟﴾! وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾؛ أَي: كَذِبًا مُحَضًّا مَا فِيهِ مِنَ الصَّدَقِ شَيْءٍ. وَتَأَمَّلْ كَيْفَ أَبْطَلَ هَذَا الْقَوْلَ بِالتَّدرِجِ وَالِانْتِقَالِ مِنْ شَيْءٍ إِلَى أَبْطَلٍ مِنْهُ: فَأَخْبَرَ أَوَّلًا أَنَّهُ ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾: وَالْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلا عِلْمٍ لَا شَكَّ فِي مَنْعِهِ وَبِطْلَانِهِ. ثُمَّ أَخْبَرَ ثَانِيًا أَنَّهُ قَوْلٌ قَبِيحٌ شَنِيعٌ، فَقَالَ: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾. ثُمَّ ذَكَرَ ثَالِثًا مَرْتَبَتَهُ مِنَ الْقُبْحِ، وَهُوَ الْكَذِبُ الْمَنَافِي لِلصَّدَقِ.

(١) فِي (ب): «الْوَلَد».

﴿٦﴾ ولما كان النبي ﷺ حريصاً على هداية الخلق، ساعياً في ذلك أعظم السعي، فكان ﷺ يفرح ويسرُّ بهداية المهتدين، ويحزن ويأسفُ على المكذِّبين الضالِّين؛ شفقةً منه ﷺ عليهم، ورحمةً بهم؛ أرشده الله أن لا يشغَلَ نفسه بالأسف على هؤلاء الذين لا يؤمنون بهذا القرآن؛ كما قال في [الآية] الأخرى: ﴿لعلَّكَ باخِعٌ نفسَكَ أن لا يكونوا مؤمنين﴾، وقال: ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾، وهنا قال: ﴿فلعلَّكَ باخِعٌ نفسَكَ﴾؛ أي: مهلكها غمًا وأسفاً عليهم، وذلك أن أجرك قد وجَبَ على الله، وهؤلاء لو عَلِمَ الله فيهم خيراً لهداهم، ولكنَّه علم أنهم لا يصلحون إلا للنار؛ فلذلك خذَلهم فلم يهتدوا؛ فإشغالك نفسك غمًا وأسفاً عليهم ليس فيه فائدة لك.

وفي هذه الآية ونحوها عبرة؛ فإنَّ المأمور بدعاء الخلق إلى الله عليه التبليغ والسعي بكلِّ سبب يوصل إلى الهداية، وسدَّ طرق الضلال والغواية، بغاية ما يمكنه، مع التوكُّل على الله في ذلك؛ فإنَّ اهتدوا؛ فيها ونعمت، وإلا؛ فلا يحزن ولا يأسف؛ فإنَّ ذلك مضعِفٌ للنفس، هادِمٌ للقوى، ليس فيه فائدة، بل يمضي على فعله الذي كُلف به وتوجَّه إليه، وما عدا ذلك؛ فهو خارجٌ عن قدرته. وإذا كان النبي ﷺ يقولُ الله له: ﴿إنَّكَ لا تهدي مَنْ أحببت﴾، وموسى عليه السلام يقول: ﴿ربِّ إني لا أملكُ إلا نفسي وأخي...﴾ الآية؛ فمن عداهم من باب أولى وأحرى؛ قال تعالى: ﴿فذكرْ إنما أنتَ مذكَّرٌ لستَ عليهم بمصيطِرٍ﴾.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَنَّا لِنَبْلُوهُم أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۖ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝﴾

﴿٧﴾ يخبر تعالى أنه جعل جميع ما على وجه الأرض من مأكَل للذيذة ومشارب وملابس طيبة^(١) وأشجارٍ وأنهارٍ وزروعٍ وثمارٍ ومناظرٍ بهيجةٍ ورياضٍ أنيقةٍ وأصواتٍ شجيَّةٍ وصورٍ مليحةٍ وذهبٍ وفضةٍ وخيلٍ وإبلٍ ونحوها؛ الجميع جعله الله زينةً لهذه الدار فتنةً واختباراً؛ ﴿لِنَبْلُوَهُم أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ أي: أخلصه وأصوبه.

﴿٨﴾ ومع ذلك سيجعلُ الله جميع هذه المذكورات فانيةً مضمحلَّةً وزائلةً منقضيةً، وستعود الأرض ﴿صعيداً جُرُزاً﴾: قد ذهبَت لذاتها وانقطعت أنهارُها واندرست آثارُها وزال نعيمُها.

(١) في (ب): «ومساكن طيبة».

هذه حقيقة الدنيا، قد جلاها الله لنا كأنها رأي عين، وحذّرنا من الاغترار بها، ورغبنا في دار يدوم نعيمها ويسعد مقيمها، كل ذلك رحمة بنا، فاغترّ بزُخُرفِ الدنيا وزينتها مَنْ نَظَرَ إلى ظاهر الدنيا دون باطنها، فصحبوا الدنيا صحبة البهائم، وتمتعوا بها تمتع السوائم، لا ينظرون في حق ربهم، ولا يهتمون لمعرفة، بل همهم تناول الشهوات من أي وجه حصلت وعلى أي حالة اتفقت؛ فهؤلاء إذا حضر أحدهم الموت، قلق لخراب ذاته وفوات لذاته، لا لما قدّمت يده من التفریط والسيئات.

وأما من نَظَرَ إلى باطن الدنيا وعلم المقصود منها ومنه؛ فإنه تناول منها ما يستعين به على ما خُلِقَ له، وانتهاز الفرصة في عمره الشريف، فجعل الدنيا منزل عبور لا محلّ حبور، وشقّة سفر لا منزل إقامة، فبذل جهده في معرفة ربه وتنفيذ أوامره وإحسان العمل؛ فهذا بأحسن المنازل عند الله، وهو حقيقّ منه بكلّ كرامة ونعيم وسرور وتكريم، فنظر إلى باطن الدنيا حين نظر المغترّ إلى ظاهرها، وعمل لآخرته حين عمل البطال لدنياه، فشتان ما بين الفريقين! وما أبعد الفرق بين الطائفتين!

﴿أَمَرَ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا ٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ١١﴾ ثُمَّ بَشَّرْنَاهُمْ بِإِعْمَارِ أَيِّ الْوَجْدَيْنِ أَحْسَنَ لِمَا لَمْ يَسْئَلُوا أَمَدًا ١٢﴾.

﴿٩﴾ وهذا الاستفهام بمعنى النفي والنهي؛ أي: لا تظنّ أنّ قصّة أصحاب الكهف وما جرى لهم غريبة على آيات الله وبديعة في حكمته، وأنّه لا نظير لها ولا مجانس لها، بل لله تعالى من الآيات العجيبة الغريبة ما هو كثير من جنس آياته في أصحاب الكهف وأعظم منها، فلم يزل الله يُري عباده من الآيات في الآفاق وفي أنفسهم ما يتبيّن به الحقّ من الباطل والهدى من الضلال. وليس المراد بهذا النفي عن أن تكون قصّة أصحاب الكهف من العجائب، بل هي من آيات الله العجيبة، وإنّما المراد أن جنسها كثير جدًّا؛ فالوقوف معها وحدها في مقام العجب والاستغراب نقص في العلم والعقل، بل وظيفة المؤمن التفكير بجميع آيات الله التي دعا الله العباد إلى التفكير فيها؛ فإنّها مفتاح الإيمان وطريق العلم والإيقان. وإضافتهم^(١) إلى الكهف الذي هو الغار في الجبل، ﴿والرقيم﴾؛ أي: الكتاب الذي

(١) في (ب): «وأضافهم».

قد رُقِمَتْ فِيهِ أَسْمَاؤُهُمْ وَقَصَّتُهُمْ لِمَا لَزِمَتْهُمْ لَهُ دَهْرًا طَوِيلًا.

﴿١٠﴾ ثم ذكر قصّتهم مجملّة فصلّها بعد ذلك فقال: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ﴾؛ أي: الشباب ﴿إِلَى الْكَهْفِ﴾: يريدون بذلك التحصّن والتحرّز من فتنة قومهم لهم، ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾؛ أي: تُثَبِّتْنَا بِهَا وَتَحْفَظُنَا مِنَ الشَّرِّ وَتَوْفِّقُنَا لِلْخَيْرِ، ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾؛ أي: يَسِّرْ لَنَا كُلَّ سَبَبٍ مُوصِلٍ إِلَى الرُّشْدِ، وَأَصْلَحْ لَنَا أَمْرَ دِينِنَا وَدُنْيَانَا؛ فَجَمَعُوا بَيْنَ السَّعْيِ وَالْفِرَارِ مِنَ الْفِتْنَةِ إِلَى مَحَلٍّ يُمْكِنُ الْإِسْتِخْفَاءُ فِيهِ، وَبَيْنَ تَضَرُّعِهِمْ وَسُؤَالِهِمْ لِلَّهِ تَيْسِيرَ أُمُورِهِمْ وَعَدَمَ اتِّكَالِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَعَلَى الْخَلْقِ.

﴿١١﴾ فلذلك استجاب الله دعاءهم، وقبّض لهم ما لم يكن في حسابهم؛ قال: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ﴾؛ أي: أَمْنَاهُمْ ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾: وهي ثلاثمائة سنة وتسع سنين، وفي النوم المذكور حفظ لقلوبهم من الاضطراب والخوف وحفظ لهم من قومهم، [وليكون آية بينة].

﴿١٢﴾ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾؛ أي: من نومهم، ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾؛ أي: لِنَعْلَمَ أَيُّهُمْ أَحْصَى لِمَقْدَارِ مَدَّتِهِمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ...﴾ الآية، وفي العلم بمقدار لَبِثِهِمْ ضَبْطٌ لِلْحِسَابِ، وَمَعْرِفَةٌ لِكَمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَحُكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ؛ فَلَوْ اسْتَمَرُّوا عَلَى نَوْمِهِمْ؛ لَمْ يَحْضُلِ الْإِطْلَاعُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مِنْ قِصَّتِهِمْ.

﴿تَحْنُ نَفْصُ عَلَيْكَ نَبَاهُهم بِالْحَقِّ إِنَّمِمْ فِتْيَةً آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَهُمْ هُدًى ۝١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ۝١٤﴾.

﴿١٣﴾ هذا شروع في تفصيل قصّتهم، وأنّ الله يقصّها على نبيه بالحقّ والصدق الذي ما فيه شك ولا شبهة بوجه من الوجوه. ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾: وهذا من جموع القلّة، يدلّ ذلك على أنّهم دون العشرة، آمنوا بالله وحده لا شريك له من دون قومهم، فشكر الله لهم إيمانهم، فزادهم هدى؛ أي: بسبب أصل اهتدائهم إلى الإيمان زادهم الله من الهدى الذي هو العلم النافع والعمل الصالح؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَزِدْ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾.

﴿١٤﴾ ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: صَبَرْنَاهُمْ وَثَبَّتْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ مَطْمَئِنَّةً

في تلك الحالة المزعجة، وهذا من لطفه تعالى بهم وبره أن وفقهم للإيمان والهدى والصبر والثبات والطمأنينة. ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: الذي خَلَقْنَا وَرَزَقْنَا وَدَبَّرْنَا وَرَبَّنَا هو خالق السماوات والأرض، المنفرد بخلق هذه المخلوقات العظيمة، لا تلك الأوثان والأصنام، التي لا تَخْلُق ولا تَرْزُق ولا تَمْلِكُ نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، فاستدلوا بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية. ولهذا قالوا: ﴿لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾؛ أي: من سائر المخلوقات، ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذًا﴾ - أي: إن دَعَوْنَا معه آلهة بعدما علمنا أنه الربُّ الإله الذي لا تجوز ولا تنبغي العبادة إلا له - ﴿شُطْطًا﴾؛ أي: ميلاً عظيماً عن الحق، وطريقاً بعيدة عن الصواب، فجمعوا بين الإقرار بتوحيد الربوبية وتوحيد الإلهية والتزام ذلك وبيان أنه الحق وما سواه باطل، وهذا دليل على كمال معرفتهم بربهم وزيادة الهدى من الله لهم.

﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

﴿١٥﴾ لما ذكروا ما منَّ الله به عليهم من الإيمان والهدى والتقوى؛ التفتوا إلى ما كان عليه قومهم من اتخاذ الآلهة من دون الله، فمقتوهم، وبيَّنوا أنهم ليسوا على يقين من أمرهم، بل هم في غاية الجهل والضلال، فقالوا: ﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾؛ أي: بحجة وبرهان على ما هم عليه من الباطل، ولا يستطيعون سبيلاً إلى ذلك، وإثبات ذلك افتراء منهم على الله وكذب عليه، وهذا أعظم الظلم، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

﴿وَإِذْ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ كُفْرُكُمْ يَكْبُتُ إِلَّا اللَّهُ فَأَوْفُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَاقًا﴾.

﴿١٦﴾ أي: قال بعضهم لبعض: إذ حصل لكم اعتزال قومكم في أجسامكم وأديانكم؛ فلم يبقَ إلا النجاء من شرهم والتسبب بالأسباب المفضية لذلك؛ لأنه لا سبيل لهم إلى قتالهم ولا بقائهم بين أظهرهم وهم على غير دينهم. ﴿فَأَوْفُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾؛ أي: انضموا إليه واختفوا فيه، ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَاقًا﴾: وفيما تقدّم أخبر أنهم دَعَوْهُ بقولهم: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾؛ فجمعوا بين التبزي من حولهم وقوتهم والالتجاء

إلى الله في صلاح أمرهم ودعائه بذلك، وبين الثقة بالله أنه سيفعل ذلك، لا جرم أن الله نشر لهم من رحمته وهياً لهم من أمرهم مِرْقَاقاً؛ فحفظ أديانهم وأبدانهم، وجعلهم من آياته على خلقه، ونشر لهم من الثناء الحسن ما هو من رحمته بهم، ويسر لهم كل سبب، حتى المحل الذي ناموا فيه كان على غاية ما يمكن من الصيانة؛ ولهذا قال:

﴿وَرَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَزَوُّرَ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْصِيَاءَ ۖ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنَقْلُكُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَنَسَاطَ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ۖ﴾.

﴿١٧﴾ أي: حفظهم الله من الشمس، فيسر لهم غاراً إذا طلعت الشمس؛ تميل عنه يمينا، وعند غروبها تميل عنه شمالاً؛ فلا ينالهم حرها فتفسد أبدانهم بها. ﴿وهم في فجوة منه﴾؛ أي: من الكهف؛ أي: مكان متسع، وذلك ليطرقهم الهواء والنسيم، ويزول عنهم الوخم والتأذي بالمكان الضيق، خصوصاً مع طول المكث، و﴿ذلك من آيات الله﴾: الدالة على قدرته ورحمته وإجابة دعائهم وهدايتهم حتى في هذه الأمور، ولهذا قال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾؛ أي: لا سبيل إلى نيل الهداية إلا من الله؛ فهو الهادي المرشد لمصالح الدارين. ﴿وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾؛ أي: لا تجد من يتولاه ويدبره على ما فيه صلاحه، ولا يرشده إلى الخير والفلاح؛ لأن الله قد حكّم عليه بالضلال، ولا رادّ لحكمه.

﴿١٨﴾ ﴿وتحسبهم أيقاظاً وهم رقودٌ﴾؛ أي: تحسبهم أيها الناظر إليهم كأنهم أيقاظ، والحال أنهم نيام. قال المفسرون: وذلك لأن أعينهم مفتحة لئلا تفسد؛ فالناظر إليهم يحسبهم أيقاظاً وهم رقودٌ. ﴿ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال﴾: وهذا أيضاً من حفظه لأبدانهم؛ لأن الأرض من طبيعتها أكل الأجسام المتصلة بها؛ فكان من قدر الله أن قلبهم على جنوبهم يمينا وشمالاً بقدر ما لا تُفسد الأرض أجسامهم، والله تعالى قادر على حفظهم من الأرض من غير تقليب، ولكنه تعالى حكيم، أراد أن تجري سنته في الكون ويربط الأسباب بمسبباتها. ﴿وكلبهم باسط

ذراعية بالوصيد؛ أي: الكلب الذي كان مع أصحاب الكهف أصابَهُ ما أصابَهُم من النوم وقت حراسته، فكان باسطاً ذراعيه بالوصيد؛ أي: الباب أو فئته. هذا حفظُهم من الأرض، وأما حفظُهم من الآدميين؛ فأخبر أنه حماهم بالرُعب الذي نَشَرَهُ الله عليه؛ فلو اطلع عليهم أحد؛ لامتلاً قلبه رعباً وولّى منهم فراراً، وهذا الذي أوجب أن يبقوا كل هذه المدة الطويلة وهم لم يعثر عليهم أحد مع قربهم من المدينة جداً، والدليل على قربهم أنهم لما استيقظوا؛ أرسلوا أحدهم يشتري لهم طعاماً من المدينة، وبقوا في انتظاره، فدل ذلك على شدة قربهم منها.

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيَّ أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿١٩﴾ يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾: من نومهم الطويل، ﴿لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: ليتباحثوا للوقوف على الحقيقة من مدة لبثهم. ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾: وهذا مبني على ظن القائل، وكأنهم وقع عندهم اشتباه في طول مدتهم؛ فلهمذا ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾: فردوا العلم إلى المحيط علمه بكل شيء جملة وتفصيلاً، ولعل الله تعالى بعد ذلك أطلعهم على مدة لبثهم؛ لأنه بعثهم ليتساءلوا بينهم، وأخبر أنهم تساءلوا وتكلموا بمبلغ ما عندهم وصار آخر أمرهم الاشتباه؛ فلا بد أن يكون قد أخبرهم يقيناً؛ علمنا ذلك من حكمته في بعثهم، وأنه لا يفعل ذلك عبثاً، ومن رحمته بمن طلب علم الحقيقة في الأمور المطلوب علمها وسعى لذلك ما أمكنه؛ فإن الله يوضح له ذلك، وبما ذكر فيما بعده من قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيُغْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾؛ فلولا أنه حصل العلم بحالهم؛ لم يكونوا دليلاً على ما ذكر. ثم إنهم لما تساءلوا بينهم، وجرى منهم ما أخبر الله به؛ أرسلوا أحدهم بـورقهم؛ أي: بالدرهم التي كانت معهم؛ ليشتري لهم طعاماً يأكلونه من المدينة التي خرجوا منها، وأمره أن يتخير من الطعام أزكاه؛ أي: أطيبه وألذّه، وأن يتلطّف في ذهابه وشرائه وإيابه، وأن يختفي في ذلك، ويخفي حال إخوانه، ولا يُشْعِرَنَّ بهم أحداً.

﴿٢٠﴾ وذكروا المحذور من اطلاع غيرهم عليهم وظهورهم عليهم أنهم بين

أمرين: إما الرِّجْم بالحجارة فيقتلونهم أشنع قِتْلَةٍ لِحَقِّقْهُمْ عَلَيْهِمْ وعلى دينهم، وإما أن يفتنوه عن دينهم ويردُّوهم في ملَّتْهم، وفي هذه الحال لا تفلحون أبداً، بل يخسرون في دينهم ودنياهم وأخراهم.

وقد دلَّتْ هاتان الآيتان على عدة فوائد:

منها: الحثُّ على العلم وعلى المباحثة فيه؛ لكون الله بعثهم لأجل ذلك.

ومنها: الأدب فيمن اشتبه عليه العلم أن يرده إلى عالمه، وأن يَقِفَ عند حدِّه.

ومنها: صحة الوكالة في البيع والشراء وصحة الشركة في ذلك.

ومنها: جواز أكل الطيبات والمطاعم اللذيذة إذا لم تخرُجْ إلى حدِّ الإسراف المنهِي عنه؛ لقوله: ﴿فَلْيَنْظُرْ أَئِذَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾: وخصوصاً إذا كان الإنسان لا يلائمه إلا ذلك، ولعلَّ هذا عمدة كثير من المفسرين القائلين بأن هؤلاء أولاد ملوك؛ لكونهم أمروه بأزكى الأطعمة التي جرت عادة الأغنياء الكبار بتناولها.

ومنها: الحثُّ على التحرُّز والاستخفاء والبعد عن مواقع الفتن في الدين واستعمال الكتمان في ذلك على الإنسان وعلى إخوانه في الدين.

ومنها: شدة رغبة هؤلاء الفتية في الدين وفرارهم من كل فتنة في دينهم وتركهم أوطانهم^(١) في الله.

ومنها: ذكر ما اشتمل عليه الشرُّ من المضارِّ والمفاسد الداعية لبغضه وتركه، وأن هذه الطريقة هي طريقة المؤمنين المتقدمين والمتأخرين؛ لقولهم: ﴿وَلَنْ تَفْلِحُوا إِذَا أَبَدَا﴾.

﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعْدُ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا أَوْنَبَا عَلَيْهِمْ بُنَيْنًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً ﴿١٦﴾﴾.

﴿٢١﴾ يخبر تعالى أنه أطلع الناس على حال أهل الكهف، وذلك - والله أعلم - بعدما استيقظوا وبعثوا أحدهم يشتري لهم طعاماً وأمروه بالاستخفاء والإخفاء،

(١) في (ب): «الأوطانهم».

فأراد الله أمراً فيه صلاح للناس وزيادة أجر لهم، وهو أن الناس رأوا منهم آية من آيات الله المشاهدة بالعيان على أن وعد الله حق لا شك فيه ولا مزية ولا بُعد بعدما كانوا يتنازعون بينهم أمرهم؛ فمن مثبت للوعد والجزاء ومن نافٍ لذلك، فجعل قصتهم زيادة بصيرة ويقين للمؤمنين وحجة على الجاحدين، وصار لهم أجر هذه القضية، وشهر الله أمرهم، ورفع قدرهم، حتى عظمهم الذين اطلعوا عليهم؛ قالوا: ﴿ابنوا عليهم بُنياناً﴾: الله أعلم بحالهم ومآلهم! وقال مَنْ غَلَبَ على أمرهم - وهم الذين لهم الأمر -:

﴿لَتَنْتَخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾؛ أي: نعبد الله تعالى فيه ونتذكر به أحوالهم وما جرى لهم. وهذه الحالة محظورة نهى عنها النبي ﷺ^(١) وذم فاعليها، ولا يدل ذكرها هنا على عدم ذمها؛ فإن السياق في شأن أهل الكهف والثناء عليهم، وأن هؤلاء وصلت بهم الحال إلى أن قالوا ابنوا عليهم مسجداً بعد خوف أهل الكهف الشديد من قومهم وحذرهم من الاطلاع عليهم، فوصلت الحال إلى ما ترى.

وفي هذه القصة دليل على أن من فرّ بدينه من الفتن؛ سلّمه الله منها، وأن من حرص على العافية؛ عافاه الله، ومن أوى إلى الله؛ آواه الله وجعله هدايةً لغيره، ومن تحمل الذل في سبيله وابتغاء مرضاته؛ كان آخر أمره وعاقبه العز العظيم من حيث لا يحتسب، وما عند الله خير للأبرار.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْتُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامَتُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾.

﴿٢٢﴾ يخبر تعالى عن اختلاف أهل الكتاب في عدة أصحاب الكهف اختلافاً صادراً عن رجمهم بالغيب وتقولهم بما لا يعلمون، وأنهم فيهم على ثلاثة أقوال: منهم من يقول: «ثلاثة رابعهم كلبهم»، ومنهم من يقول: «خمس سادسهم كلبهم»، وهذان القولان ذكر الله بعدهما أن هذا رجم منهم بالغيب، فدل على بطلانهما، ومنهم من يقول: «سبعة وثامتهم كلبهم»، وهذا - والله أعلم - هو

(١) كما في «صحيح البخاري» (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١) عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهما، وعن جندب بن عبد الله كما في مسلم (٥٣٢). وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» (٦٦٩/٢): «فقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ، بالنهي عن ذلك والتغليظ فيه».

الصواب؛ لأن الله أبطل الأزلين ولم يبطله، فدل على صحته، وهذا من الاختلاف الذي لا فائدة تحته، ولا يحصل بمعرفة عددهم مصلحة للناس دينية ولا دنيوية، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾: وهم الذين أصابوا الصواب وعلموا إصابتهم. ﴿فلا تمار﴾: تجادل وتُحاج ﴿فيهم إلا مراة ظاهرا﴾؛ أي: مبنياً على العلم واليقين، ويكون أيضاً فيه فائدة، وأما المماراة المبنية على الجهل والرجم بالغيب أو التي لا فائدة فيها: إما أن يكون الخصم معانداً، أو تكون المسألة لا أهمية فيها ولا تحصل فائدة دينية بمعرفتها؛ كعدد أصحاب الكهف ونحو ذلك؛ فإن في كثرة المناقشات فيها والبحوث المتسلسلة تضييعاً للزمان وتأثيراً في مودة القلوب بغير فائدة. ﴿ولا تستفت فيهم﴾؛ أي: في شأن أهل الكهف ﴿منهم﴾؛ أي: من أهل الكتاب، ﴿أحدًا﴾: وذلك لأن مبنى كلامهم فيهم على الرجم بالغيب والظن الذي لا يغني من الحق شيئاً؛ ففيها دليل على المنع من استفتاء من لا يصلح للفتوى: إما لقصوره في الأمر المستفتى فيه، أو لكونه لا يبالي بما تكلم به، وليس عنده ورع يحجزه، وإذا نُهي عن استفتاء هذا الجنس؛ فنهيه هو عن الفتوى من باب أولى وأحرى.

وفي الآية أيضاً دليل على أن الشخص قد يكون منهياً عن استفتائه في شيء دون آخر، فيُستفتى فيما هو أهل له بخلاف غيره؛ لأن الله لم ينه عن استفتائهم مطلقاً، إنما نهى عن استفتائهم في قصة أصحاب الكهف وما أشبهها.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۚ﴾ (٢٣) ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ۚ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۚ﴾ (٢٤).

﴿٢٣﴾ هذا النهي كغيره، وإن كان لسبب خاص وموجه للرسول ﷺ؛ فإن الخطاب عامٌ للمكلفين؛ فنهى الله أن يقول العبد في الأمور المستقبلية: ﴿إني فاعلٌ ذاك﴾: من دون أن يقرنه بمشيئة الله، وذلك لما فيه من المحذور، وهو الكلام على الغيوب^(١) المستقبلية التي لا يذري هل يفعله أم لا؟ وهل تكون أم لا؟ وفيه ردُّ الفعل إلى مشيئة العبد استقلالاً، وذلك محذورٌ محظورٌ؛ لأن المشيئة كلها لله، ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾، ولما في ذكر مشيئة الله من تيسير الأمر وتسهيله وحصول البركة فيه والاستعانة من العبد لربه.

(١) في (ب): «الغيب».

﴿٢٤﴾ ولما كان العبد بشراً لا بد أن يسهو عن ذكر المشيئة^(١)؛ أمره الله أن يستثني بعد ذلك إذا ذكر؛ ليحصل المطلوب ويندفع المحذور. ويؤخذ من عموم قوله: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾: الأمر بذكر الله عند النسيان؛ فإنه يزيله ويذكر العبد ما سها عنه. وكذلك يؤمر الساهي الناسي لذكر الله أن يذكر ربه ولا يكون من الغافلين. ولما كان العبد مفتقراً إلى الله في توفيقه للإصابة وعدم الخطأ في أقواله وأفعاله؛ أمره الله أن يقول: ﴿عسى أن يهدينني ربّي لأقرب من هذا رشداً﴾: فأمره أن يدعو الله ويرجوه ويثق به أن يهديه لأقرب الطرق الموصلة إلى الرشd، وحرى بعبد تكون هذه حاله، ثم يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في طلب الهدى والرشd، أن يوفق لذلك، وأن تأتيه المعونة من ربه، وأن يسدده في جميع أموره.

— ﴿وَلِئَلَّيْكُمْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا﴾ (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِئَلَّيْكُمْ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦) .

﴿٢٥ - ٢٦﴾ لما نهاه الله عن استفتاء أهل الكتاب في شأن أهل الكهف لعدم علمهم بذلك، وكان الله عالم الغيب والشهادة العالم بكل شيء؛ أخبره الله بمدة لبثهم، وأن علم ذلك عنده وحده؛ فإنه من غيب السماوات والأرض، وغيبها مختص به؛ فما أخبر به عنها على السنة رُسليه؛ فهو الحق اليقين الذي لا يشك فيه، وما لا يُطْلِعُ رسله عليه؛ فإن أحداً من الخلق لا يعلمه. وقوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾: تعجب من كمال سمعه وبصره وإحاطتهما بالمسموعات والمبصرات بعدما أخبر بإحاطة علمه بالمعلومات، ثم أخبر عن انفراده بالولاية العامة والخاصة؛ فهو الولي الذي يتولى تدبير جميع الكون، والولي لعباده المؤمنين؛ يخرجهم من الظلمات إلى النور، ويسرهم لليسرى، ويجنبهم العسرى، ولهذا قال: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾؛ أي: هو الذي تولى أصحاب الكهف بلطفه وكرمه، ولم يكملهم إلى أحد من الخلق. ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾: وهذا يشمل الحكم الكوني القدري والحكم الشرعي الديني؛ فإنه الحاكم في خلقه قضاءً وقدرًا وخلقاً وتديراً، والحاكم فيهم بأمره ونهيهِ وثوابهِ وعقابهِ.

ولما أخبر أنه تعالى له غيب السماوات والأرض؛ فليس لمخلوق إليها طريق إلا

(١) في (ب): «أن يسهو فيترك ذكر المشيئة».

عن الطريق^(١) التي يُخبر بها عباده، وكان هذا القرآن قد اشتمل على كثير من الغيوب؛ أمر تعالى بالإقبال عليه، فقال:

﴿وَأَنذِرْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (٢٧).

﴿٢٧﴾ التلاوة: هي الاتِّباع؛ أي: اتَّبِعْ مَا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْكَ بِمَعْرِفَةِ مَعَانِيهِ وَفَهْمِهَا وَتَصَدِيقِ أَخْبَارِهِ وَامْتِثَالِ أَمْرِهِ وَنَوَاهِيهِ؛ فَإِنَّهُ الْكِتَابُ الْجَلِيلُ، الَّذِي لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ؛ أَيْ: لَا تُغَيِّرْ وَلَا تُبَدِّلْ لَصَدَقِهَا وَعَدْلُهَا وَبَلُوغِهَا مِنَ الْحَسَنِ فَوْقَ كُلِّ غَايَةٍ، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾؛ فَلِكَمَالِهَا^(٢) اسْتِحَالُ عَلَيْهَا التَّغْيِيرُ وَالتَّبْدِيلُ، فَلَوْ كَانَتْ نَاقِصَةً؛ لَعَرَضَ لَهَا ذَلِكَ أَوْ شَيْءٌ مِنْهُ. وَفِي هَذَا تَعْظِيمٌ لِلْقُرْآنِ فِي ضَمْنِهِ التَّرغِيبُ عَلَى الْإِقْبَالِ عَلَيْهِ. ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾؛ أَيْ: لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِ رَبِّكَ مُلْجَأً تَلْجَأُ إِلَيْهِ وَلَا مَعَاذًا تَعُوذُ بِهِ؛ فَإِذَا تَعَيَّنَ أَنَّهُ وَحْدَهُ الْمُلْجَأُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ؛ تَعَيَّنَ أَنَّ يَكُونُ هُوَ الْمَأْلُوهَ الْمَرْغُوبَ إِلَيْهِ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، الْمَفْتَقَرُ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، الْمَسْئُولُ فِي جَمِيعِ الْمَطَالِبِ.

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (٢٨).

﴿٢٨﴾ يأمر تعالى نبيه محمداً ﷺ، وغيره أسوته في الأوامر والنواهي أن يصبر نفسه مع المؤمنين العباد المنيبين. ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾؛ أَيْ: أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ؛ يُرِيدُونَ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ، فَوْصَفَهُم بِالْعِبَادَةِ وَالْإِخْلَاصِ فِيهَا؛ فَفِيهَا الْأَمْرُ بِصَحْبَةِ الْأَخْيَارِ وَمُجَاهَدَةِ النَّفْسِ عَلَى صَحْبَتِهِمْ وَمُخَالَطَتِهِمْ، وَإِنْ كَانُوا فَقَرَاءَ؛ فَإِنَّ فِي صَحْبَتِهِمْ مِنَ الْفَوَائِدِ مَا لَا يُحْصَى. ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾؛ أَيْ: لَا تَجَاوِزْهُمْ بِبَصْرِكَ وَتَرْفَعْ عَنْهُمْ نَظْرَكَ؛ ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ فَإِنَّ هَذَا ضَارٌّ غَيْرُ نَافِعٍ، قَاطِعٌ عَنِ الْمَصَالِحِ الدِّينِيَّةِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَوْجِبُ تَعَلُّقَ الْقَلْبِ بِالدُّنْيَا، فَتَصِيرُ الْأَفْكَارُ وَالْهَوَاجِسُ فِيهَا، وَتَزُولُ مِنَ الْقَلْبِ الرِّغْبَةُ فِي الْآخِرَةِ؛ فَإِنَّ زِينَةَ الدُّنْيَا تَرُوقُ لِلنَّازِلِ وَتَسْحَرُ الْقَلْبَ^(٣)، فَيُغْفَلُ الْقَلْبُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَيُقْبَلُ عَلَى اللَّذَاتِ وَالشَّهَوَاتِ، فَيُضَيِّعُ وَقْتَهُ، وَيَنْفَرُطُ أَمْرَهُ، فَيُخْشِرُ الْخُسَارَةَ الْأَبَدِيَّةَ وَالنَّدَامَةَ السَّرْمَدِيَّةَ،

(٢) في (ب): «فلتتامها».

(١) في (ب): «إلى من الطريق».

(٣) في (ب): «وتسحر العقل».

ولهذا قال: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾: غَفَلَ عن الله فعاقبه بأن أغفله عن ذكره، ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾؛ أي: صار تبعاً لهواه؛ حيث ما اشتتهت نفسه فعله، وسعى في إدراكه، ولو كان فيه هلاكه وخسرانه؛ فهو قد اتخذ إلهه هواه؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ...﴾ الآية. ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ﴾؛ أي: مصالح دينه ودنياه ﴿فُرُطًا﴾؛ أي: ضائعة معطلة؛ فهذا قد نهى الله عن طاعته؛ لأن طاعته تدعو إلى الاقتداء به، ولأنه لا يدعو إلا لما هو متّصف به.

ودلت الآية على أنّ الذي ينبغي أن يُطاع، ويكون إماماً للناس من امتلا قلبه بمحبة الله، وفاض ذلك على لسانه، فلهج بذكر الله، واتبع مرضي ربه، فقدّمها على هواه، فحفظ بذلك ما حفظ من وقته، وصلحت أحواله، واستقامت أفعاله، ودعا الناس إلى ما من الله به عليه؛ فحقيق بذلك أن يتّبع، ويجعل إماماً.

والصبر المذكور في هذه الآية هو الصبر على طاعة الله، الذي هو أعلى أنواع الصبر، ويتمامه يتم باقي الأقسام.

وفي الآية استحباب الذكر والدعاء والعبادة طرفي النهار؛ لأن الله مدحهم بفعله، وكل فعل مدح الله فاعله؛ دل ذلك على أن الله يحبه؛ وإذا كان يحبه فإنه يأمر به ويرغب فيه.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٦٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٧٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الْوَرَاثِ وَحَسَنَتِ مُرْتَفَقًا ﴿٧١﴾﴾.

﴿٢٩﴾ أي: ﴿قل﴾ للناس يا محمد: هو ^(١) ﴿الحق من ربكم﴾؛ أي: قد تبين الهدى من الضلال، والرشد من الغي، وصفات أهل السعادة وصفات أهل الشقاوة، وذلك بما بينه الله على لسان رسوله؛ فإذا بان واتضح ولم يبق فيه شبهة؛ ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾؛ أي: لم يبق إلا سلوك أحد الطريقين بحسب توفيق العبد وعدم توفيقه، وقد أعطاه الله مشيئة بها يقدّر على الإيمان والكفر والخير

(١) في (ب): «هذا».

والشر؛ فمن آمن؛ فقد وُفِّق للصواب، ومن كَفَرَ؛ فقد قامت عليه الحجة، وليس بمكره على الإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾، [وليس في قوله: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ الإذن في كلا الأمرين وإنما ذلك تهديد ووعيد لمن اختار الكفر بعد البيان التام كما ليس فيها تركه قتال الكافرين]. ثم ذكر تعالى مآل الفريقين، فقال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ﴾: بالكفر والفسوق والعصيان، ﴿نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾؛ أي: سورها المحيط بها؛ فليس لهم منفذ ولا طريق ولا مخلص منها، تصلاهم النار الحامية. ﴿وإن يَسْتَغِيثُوا﴾؛ أي: يطلبوا الشراب ليطفئ ما نزل بهم من العطش الشديد؛ ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾؛ أي: كالرصاص المذاب أو كعكر الزيت من شدة حرارته. ﴿يَشْوِي الوجوه﴾؛ أي: فكيف بالأمعاء والبطون؟! كما قال تعالى: ﴿يُضْهِرُّ بِهِ مَا فِي بَطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ. وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾. ﴿بئس الشراب﴾: الذي يراد ليطفئ العطش ويدفع بعض العذاب فيكون زيادة في عذابهم وشدة عقابهم، ﴿وساءت﴾: النار ﴿مرتفقاً﴾: وهذا ذم لحالة النار؛ أنها ساءت المحل الذي يرتفق به؛ فإنها ليس فيها ارتفاع؛ وإنما فيها العذاب العظيم الشاق الذي لا يُفْتَر عنهم ساعة، وهم فيه مُبْلِسُونَ، قد أيسوا من كل خير، ونسيهم الرحيم في العذاب كما نسوه.

﴿٣٠﴾ ثم ذكر الفريق الثاني، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: جمعوا بين الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وعمل الصالحات من الواجبات والمستحبات. ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عملاً﴾: وإحسان العمل أن يريد العبد العمل لوجه الله متبعاً في ذلك شرع الله؛ فهذا العمل لا يضيعه الله ولا شيئاً منه، بل يحفظه للعاملين، ويوفيه من الأجر بحسب عملهم وفضله وإحسانه.

﴿٣١﴾ وذكر أجرهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُخَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خَضَراً مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَكَثِرِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾؛ [أولئك] أي: أولئك الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح، لهم الجنات العالياً التي قد كثرت أشجارها فأجنت من فيها، وكثرت أنهارها، فصارت تجري من تحت تلك الأشجار الأنيقة والمنازل الرفيعة، وحليتهم فيها الذهب، ولباسهم فيها الحرير الأخضر من السندس، وهو الغليظ من الديباج، والإستبرق وهو ما رَق منه، متكتين فيها على الأرائك، وهي السرر المزينة المجملّة

بالثياب الفاخرة؛ فإنَّها لا تسمَّى أريكة حتى تكون كذلك، وفي اتِّكائهم على الأرائك ما يدلُّ على كمال الراحة وزوال النَّصب والتعب وكون الخدم يسعون عليهم بما يشتهون، وتَمَام ذلك الخلود الدائم والإقامة الأبدية؛ فهذه الدار الجلييلة، ﴿نعم الثواب﴾: للعاملين، ﴿وحَسُنَتْ مرتَفَقاً﴾: يرتَفِقون بها، ويتمتَّعون بما فيها مما تشتهيه الأنفسُ، وتلذُّ الأعينُ من الحبرة والسرور والفرح الدائم واللذات المتواترة والنعم المتوافرة، وأيُّ مرتَفَقٍ أحسنُ من دارٍ، أدنى أهلها يسير في مُلكِهِ ونعيمه وقصورِهِ وبساتينه ألفي سنة؟ ولا يرى فوقَ ما هو فيه من النعيم، قد أُعْطِيَ جميعَ أمانيه ومطالبِهِ، وزيد من المطالب ما قَصَّرَتْ عنه الأمانِي، ومع ذلك؛ فنعيمُهم على الدوام، متزايدٌ في أوصافه وحسنه، فنسألُ اللهَ الكريم أن لا يحرمنا خيرَ ما عنده من الإحسان بشرِّ ما عندنا من التقصير والعصيان. ودلت الآية الكريمة وما أشبهها على أن الجنةَ عامَّةٌ للذكور والإناث؛ كما ورد في الأخبار الصحيحة؛ لأنَّه أطلقها في قوله: ﴿يُحَلَّوْنَ﴾، وكذلك الحرير ونحوه.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا زَوْجَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمْ بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۚ كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ تَاتٍ أَكْلُهَا وَلَمْ نَقْظِلْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ۚ وَكَانَ لِمُؤَمَّرٍ ۙ﴾

﴿٣٢﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: اضربْ للناس مَثَلْ هذين الرجلين: الشاكر لنعمة الله، والكافر لها، وما صدر من كُلِّ منهما من الأقوال والأفعال، وما حصل بسبب ذلك من العقاب العاجل والآجل والثواب؛ ليعتبروا بحالهما، ويتعظوا بما حصل عليهما، وليس معرفة أعيان الرجلين وفي أيِّ زمان أو مكانٍ هما فيه فائدة أو نتيجة؛ فالنتيجة تحصلُ من قصتهما فقط، والتعرض لما سوى ذلك من التكلُّف. فأحدُ هذين الرجلين الكافر لنعمة الله الجلييلة جعل الله له جنتين؛ أي: بستائينِ حَسَنَيْنِ ﴿من أعناب وحفَفْنَاهُما بنخل﴾؛ أي: في هاتين الجنتين من كل الثمرات، وخصوصاً أشرف الأشجار العنب والنخل؛ فالعنب وسطها، والنخل قد حفَّ بذلك ودار به، فحصل فيه من حسن المنظر وبهائه وبروز الشجر والنخل للشمس والرياح التي تكملُ بها الثمار وتنضج وتتجوهر، ومع ذلك جعل بين تلك الأشجار زَرْعاً.

﴿٣٣﴾ فلم يبق عليهما إلا أن يقال: كيف ثمارُ هاتين الجنتين؟ وهل لهما ماء يكفيهما؟ فأخبر تعالى أن كلاً من ﴿الجنتين آتت أكلها﴾؛ أي: ثمرها وزرعها ضعفين؛ أي: متضاعفاً، وأنها ﴿لم تظلم منه شيئاً﴾؛ أي: لم تنقص من أكلها أدنى شيء، ومع ذلك فالأنهار في جوانبها سارحة كثيرة غزيرة.

﴿٣٤﴾ ﴿وَكَانَ لَهُ﴾؛ أي: لذلك الرجل ﴿ثَمَرٌ﴾؛ أي: عظيم؛ كما يفيدُه التنكير؛ أي: قد استكملت جنتاه ثمارهما، وارجحت أشجارهما ولم تعرض لهما آفة أو نقص، فهذا غاية منتهى زينة الدنيا في الحرث، ولهذا اغتر هذا الرجل وتبجح وافتخر، ونسي آخرته.

﴿فَقَالَ لِمُصْحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ ﴿٣٦﴾.

﴿٣٤﴾ أي: فقال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن وهما يتحاوران؛ أي: يتراجعان بينهما في بعض الماجريات المعتادة مفتخرًا عليه: ﴿أنا أكثر منك مالًا وأعز نفراً﴾: فخر بكثرة ماله وعزة أنصاره من عبيد وخدم وأقارب، وهذا جهل منه، وإلا؛ فأني افتخار بأمر خارجي ليس فيه فضيلة نفسية ولا صفة معنوية، وإنما هو بمنزلة فخر الصبي بالأماني التي لا حقائق تحتها؟!

﴿٣٥ - ٣٦﴾ ثم لم يكفِه هذا الافتخار على صاحبه، حتى حَكَمَ بجهله وظلمه، وظنَّ لما دخل جنته، ﴿فقال ما أظنُّ أن تبِيدَ﴾؛ أي: تنقطع وتضمحل ﴿هذه أبدًا﴾: فاطمأن إلى هذه الدنيا، ورضي بها، وأنكر البعث، فقال: ﴿وما أظنُّ الساعة قائمة ولئن رُددتُ إلىٰ ربِّي﴾: على ضرب المثل؛ ﴿لأجدنَّ خيراً منها مُنْقَلَبًا﴾؛ أي: ليعطيني خيراً من هاتين الجنتين! وهذا لا يخلو من أمرين: إمَّا أن يكون عالماً بحقيقة الحال، فيكون كلامه هذا على وجه التهكم والاستهزاء، فيكون زيادة كفرٍ إلىٰ كفره. وإمَّا أن يكون هذا ظنه في الحقيقة، فيكون من أجهل الناس وأبخسهم حظاً من العقل؛ فأني تلازم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة حتى يظنَّ بجهله أنَّ من أعطى في الدنيا أعطى في الآخرة؟! بل الغالب أنَّ الله تعالى يزوي الدنيا عن أوليائِه وأصفيائِه، ويوسّعها على أعدائه، الذين ليس لهم في الآخرة نصيب. والظاهر أنَّه يعلم حقيقة الحال، ولكنَّه قال هذا الكلام على وجه التهكم والاستهزاء؛ بدليل قوله: ﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه﴾: فإثبات أنَّ وصفه الظلم في حال دخوله الذي جرى منه من القول ما جرى، يدلُّ على تمرده وعناده.

﴿قَالَ لَمْ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتُ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّفْثَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَبًّا لَّكَ﴾

﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴿٣٩﴾

﴿٣٧﴾ أي: قال له صاحبه المؤمن ناصحاً له ومذكراً له حاله الأولى التي أوجده الله فيها في الدنيا ﴿من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً﴾؛ فهو الذي أنعم عليك بنعمة الإيجاد والإمداد، وأوصل عليك النعم، ونقلك من طورٍ إلى طورٍ، حتى سواك رجلاً كامل الأعضاء والجوارح المحسوسة والمعقولة، وبذلك يسر لك الأسباب وهيئاً لك ما هيئاً من نعم الدنيا، فلم تحصل لك الدنيا بحولك وقوتك، بل بفضل الله تعالى عليك؛ فكيف يليق بك أن تكفر بالله الذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً، وتجهل نعمته، وتزعم أنه لا يبعثك، وإن بعثك أنه يعطيك خيراً من جنتك؟! هذا ممّا لا ينبغي ولا يليق.

﴿٣٨﴾ ولهذا لما رأى صاحبه المؤمن حاله واستمراره على كفره وطغيانه؛ قال مخبراً عن نفسه على وجه الشكر لربه والإعلان بدينه عند ورود المجادلات والشبه: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾: فأقرّ بربوبية ربه وانفراده فيها والتزام^(١) طاعته وعبادته، وأنه لا يشرك به أحداً من المخلوقين.

ثم أخبر أن نعمة الله عليه بالإيمان والإسلام، ولو مع قلة ماله وولده؛ أنها هي النعمة الحقيقية، وأن ما عداها معرضٌ للزوال والعقوبة عليه والتكال، فقال:

﴿إِنْ تَرَدِدْنَا أَقْلَ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ ﴿٣٩﴾ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَنُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاءً هَازِلًا فَلَنْ نَسْتَطِيعَ لِمَ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَلَاحِظْ بِمَرَوٍ فَأَصْبَحَ يَقْلُبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَفْقَ فِيهَا وَهِيَ حَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَمْ فِتْنَةً يَصُورُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

﴿٣٩﴾ أي: قال للكافر صاحبه المؤمن: أنت وإن فخرت عليّ بكثرة مالك وولدك، ورأيتني ﴿أقلّ منك مالاً وولداً﴾؛ فإنّ ما عند الله خيرٌ وأبقى، وما يرجي من خيره وإحسانه أفضل من جميع الدنيا التي يتنافس فيها المتنافسون.

(١) في (ب): «التزم».

﴿٤٠﴾ ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: على جَنَّتِكَ التي طغيت بها وعرَّتكَ، ﴿حُسبانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾؛ أي: عذاباً بمطر عظيم أو غيره. ﴿فَتَصْبِحُ﴾: بسبب ذلك ﴿صَعِيداً زَلَقاً﴾؛ أي: قد اقتلعت أشجارها، وتلفت ثمارها وغرق زرْعُها، وزال نفعُها.

﴿٤١﴾ ﴿أَوْ يَصْبِحَ مَأْوَاهَا﴾ الذي مادَتْها منه ﴿غوراً﴾؛ أي: غائراً في الأرض. ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلْباً﴾؛ أي: غائراً لا يُستطاع الوصول إليه بالمعاول ولا بغيرها، وإنَّما دعا على جنته المؤمن غضباً لربِّه؛ لكونها غرَّتْه وأطغته واطمأنَّ إليها؛ لعلَّه ينيبُ، ويراجع رُشدَه، ويبصر في أمره.

﴿٤٢﴾ ﴿فَاسْتَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَهُ﴾، ﴿وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ﴾؛ أي: أصابه عذابٌ أحاط به واستهلكه فلم يبقَ منه شيءٌ، والإحاطة بالثمر يستلزم تَلَفَ جميع أشجاره وثماره وزرعه، فندم كلُّ الندامة، واشتدَّ لذلك أسفه. ﴿فَأَصْبَحَ يَقْلُبُ كَفِّهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾؛ أي: على كثرة نفقاته الدنيويَّة عليها، حيث اضمحلت وتلاشت، فلم يبق لها عوضٌ، وندم أيضاً على شريكه وشره، ولهذا قال: ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾.

﴿٤٣﴾ ﴿قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً﴾؛ أي: لما نزل العذاب بجنته؛ ذهب عنه ما كان يفتخرُ به من قوله لصاحبه: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفْراً﴾، فلم يدفعوا عنه من العذاب شيئاً أشدَّ ما كان إليهم حاجةً، وما كان بنفسه منتصراً، وكيف ينتصر أو يكون له انتصارٌ على قضاء الله وقدره الذي إذا أمضاه وقدره لو اجتمع أهل السماء والأرض على إزالة شيءٍ منه لم يقدرُوا؟! ولا يُستبعد من رحمة الله ولطفه أنَّ صاحب هذه الجنة التي أحيط بها تحسَّنت حاله، ورزقه الله الإنابة إليه وراجع رُشدَه، وذهب تمرُّدُه وطغيانه؛ بدليل أنَّه أظهر التَّدَمُّ على شركه برِّه، وأنَّ الله أذهب عنه ما يُطغيه وعاقبه في الدنيا، وإذا أراد الله بعبْدٍ خيراً عجَّلَ له العقوبة في الدنيا، وفضلُ الله لا تحيطُ به الأوهام والعقول، ولا ينكرُه إلَّا ظالمٌ جهولٌ.

﴿٤٤﴾ ﴿هَنَالِكِ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً﴾؛ أي: في تلك الحال التي أجرى الله فيها العقوبة على من طغى وأثر الحياة الدنيا، والكرامة لمن آمن وعمل صالحاً وشكر الله ودعا غيره لذلك؛ تبيَّن وتوضَّح أنَّ الولاية الحقُّ لله

وحده^(١)؛ فمن كان مؤمناً به تقيّاً؛ كان له وليّاً، فأكرمه بأنواع الكرامات، ودَفَعَ عنه الشرور والمثلّات - ومن لم يؤمن بربه ويتولّاه؛ خَسِرَ دينه ودُنياه - فتوابه الدنيوي والأخروي خيرُ ثواب يُرجى ويؤمّل.

ففي هذه القصة العظيمة اعتبارٌ بحال الذي أنعم الله عليه نعماً دنيويّة، فألهته عن آخرته، وأطغته، وعصى الله فيها، أنّ مآلها الانقطاع والاضمحلال، وأنّه وإن تمتّع بها قليلاً؛ فإنّه يحرمها طويلاً، وأنّ العبد ينبغي له إذا أعجبه شيء من ماله أو ولده أن يضيف النعمة إلى موليتها ومُسديها، وأن يقول: ما شاء الله، لا قوّة إلّا بالله؛ ليكون شاكرًا [لله] متسبباً لبقاء نعمته عليه؛ لقوله: ﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوّة إلّا بالله﴾.

وفيهما: الإرشاد إلى التسلي عن لذات الدُّنيا وشهواتها بما عند الله من الخير؛ لقوله: ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَدًا فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾.

وفيهما: أنّ المال والولد لا ينفعان إنّ لم يُعينا على طاعة الله؛ كما قال تعالى: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تُقرّبكم عندنا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾.

وفيه: الدُّعاء بتلّف مال من كان ماله سبب طغيانه وكفره وخسرانه، خصوصاً إنّ فضّل نفسه بسببه على المؤمنين، وفَحَرَ عليهم.

وفيهما: أنّ ولاية الله وعدمها إنّما تتضح نتيجتها إذا انجلى الغبار وحقّ الجزاء، ووجد العاملون أجرهم؛ ف﴿هَٰذَاكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾؛ أي: عاقبة ومآلاً.

— ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنزِلَتْ مِنْ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّلَاحُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٥﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ أصلاً ولمن قام بوراثته بعده تبعاً: اضرب للناس مَثَلًا الحياة الدنيا؛ ليتصوّروها حقّ التصوّر ويعرفوا ظاهرها وباطنها، فيقيسوا بينها وبين الدار الباقية، ويؤثروا أيهما أولى بالإيثار. وإنّ مَثَل هذه الحياة الدنيا كمثّل المطر؛ ينزل على الأرض، فيختلط نباتها، تُنبِت من كلّ زوج بهيج، فيبنا زهرتها

(١) في (ب): «أن الولاية لله الحق».

وَزُخِرْفَهَا تَسْرُ النَّاطِرِينَ، وَتَفْرُحُ الْمَتَفَرِّجِينَ، وَتَأْخُذُ بَعْيُونَ الْغَافِلِينَ؛ إِذْ أَصْبَحَتْ ﴿هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾: فَذَهَبَ ذَلِكَ النَّبَاتُ النَّاضِرُ وَالزَّهْرُ الزَّاهِرُ وَالْمَنْظَرُ الْبَهِيُّ، فَأَصْبَحَتْ الْأَرْضُ غَبْرَاءَ تَرَابًا قَدْ انْحَرَفَ عَنْهَا النَّظَرُ، وَصَرَفَ عَنْهَا الْبَصَرُ، وَأَوْحَشَتْ الْقَلْبَ؛ كَذَلِكَ هَذِهِ الدُّنْيَا؛ بَيْنَمَا صَاحِبُهَا قَدْ أَعْجَبَ بِشِبَابِهِ، وَفَاقَ فِيهَا عَلَى أَقْرَانِهِ وَأَتْرَابِهِ، وَحَصَلَ دَرَهَمُهَا وَدِينَارُهَا، وَاقْتَطَفَ مِنْ لَذَّتِهِ أَزْهَارَهَا، وَخَاضَ فِي الشَّهَوَاتِ فِي جَمِيعِ أَوْقَاتِهِ، وَظَنَّ أَنَّهُ لَا يَزَالُ فِيهَا سَائِرَ أَيَّامِهِ؛ إِذْ أَصَابَهُ الْمَوْتُ أَوْ التَّلَفُ لِمَالِهِ، فَذَهَبَ عَنْهُ سُرُورُهُ، وَزَالَتْ لَذَّتُهُ وَحُبُورُهُ، وَاسْتَوْحَشَ قَلْبُهُ مِنَ الْآلَامِ، وَفَارَقَ شِبَابَهُ وَقُوَّتَهُ وَمَالَهُ، وَانْفَرَدَ بِصَالِحٍ أَوْ سَيِّئٍ أَعْمَالِهِ، هُنَالِكَ يَعْصُرُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ حِينَ يَعْلَمُ حَقِيقَةَ مَا هُوَ عَلَيْهِ وَيَتَمَنَّى الْعَوْدَ إِلَى الدُّنْيَا، لَا لِيَسْتَكْمَلَ الشَّهَوَاتِ، بَلْ لِيَسْتَدْرِكَ مَا فَرَطَ مِنْهُ مِنَ الْغَفَلَاتِ؛ بِالتَّوْبَةِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ، فَالْعَاقِلُ الْحَازِمُ الْمَوْفَّقُ يَعْصُرُ عَلَى نَفْسِهِ هَذِهِ الْحَالَةَ، وَيَقُولُ لِنَفْسِهِ: قَدْ رَيَّيْتُ أَنَّكَ قَدْ مِتَّ، وَلَا بَدَّ أَنْ تَمُوتَ؛ فَأَيُّ الْحَالَتَيْنِ تَخْتَارِينَ: الْإِغْتِرَارُ بِزُخْرَفِ هَذِهِ الدَّارِ، وَالتَّمَتُّعُ بِهَا كَتَمَتُّعِ الْأَنْعَامِ السَّارِحَةِ، أَمْ الْعَمَلُ لِدَارٍ أَكُلُّهَا دَائِمٌ وَظَلُّهَا، وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ؛ فَبِهَذَا يُعَرَّفُ تَوْفِيقُ الْعَبْدِ مِنْ خِذْلَانِهِ، وَرَبِيعُهُ مِنْ خَسْرَانِهِ.

﴿٤٦﴾ وَلِهَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ الْمَالَ وَالْبَنِينَ ﴿زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ أَيُّ: لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ شَيْءٌ، وَأَنَّ الَّذِي يَبْقَى لِلْإِنْسَانِ وَيَنْفَعُهُ وَيُسِرُّهُ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ، وَهَذَا يَشْمَلُ جَمِيعَ الطَّاعَاتِ الْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّةِ مِنْ حَقُوقِ اللَّهِ وَحَقُوقِ عِبَادِهِ مِنْ صَلَاةٍ وَزَكَاةٍ وَصَدَقَةٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ وَتَسْبِيحٍ وَتَحْمِيدٍ وَتَهْلِيلٍ [وَتَكْبِيرٍ] وَقِرَاءَةٍ وَطَلَبِ عِلْمٍ نَافِعٍ وَأَمْرِ بِمَعْرُوفٍ وَنَهْيٍ عَنْ مَنكَرٍ وَصَلَةِ رَحِمٍ وَبِرٍّ وَالِدِينَ وَقِيَامٍ بِحَقِّ الزَّوْجَاتِ وَالْمَمَالِكِ وَالْبَهَائِمِ وَجَمِيعِ وَجْهِ الْإِحْسَانِ إِلَى الْخَلْقِ، كُلُّ هَذَا مِنَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ؛ فَهَذِهِ خَيْرٌ عِنْدَ اللَّهِ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا؛ فَثَوَابُهَا يَبْقَى وَيَتَضَاعَفُ عَلَى الْآبَادِ، وَيُؤْمَلُ أَجْرُهَا وَبِرُّهَا وَنَفْعُهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ؛ فَهَذِهِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَتَنَافَسَ بِهَا الْمُتَنَافِسُونَ، وَيَسْتَبَقُوا إِلَيْهَا الْعَامِلُونَ، وَيَجِدُّوا فِي تَحْصِيلِهَا الْمُجْتَهِدُونَ.

وَتَأْمَلُ كَيْفَ لَمَّا ضَرَبَ اللَّهُ مِثْلَ الدُّنْيَا وَحَالِهَا وَاضْمَحْلَالَهَا؛ ذَكَرَ أَنَّ الَّذِي فِيهَا نَوْعَانِ: نَوْعٌ مِنْ زِينَتِهَا يُتَمَتَّعُ بِهِ قَلِيلًا ثُمَّ يَزُولُ بِلَا فَائِدَةٍ تَعُودُ لِصَاحِبِهِ، بَلْ رَبَّمَا لِحَقَّتْهُ مَضَرَّتُهُ، وَهُوَ الْمَالَ وَالْبَنُونَ. وَنَوْعٌ يَبْقَى لِصَاحِبِهِ عَلَى الدَّوَامِ، وَهِيَ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ.

﴿وَيَوْمَ نُسِِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (٤٧) وَعَرِّضُوا عَلَى رَبِّكَ

صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوتِلْنَا مَالٌ هَذَا الْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رِيكًا أَحَدًا ﴿٤٩﴾ .

﴿٤٧ - ٤٨﴾ يخبر تعالى عن حال يوم القيامة وما فيه من الأحوال المقلقة والشدائد المزعجة، فقال: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾؛ أي: يزيلها عن أماكنها؛ يجعلها كثيباً، ثم يجعلها كالعهن المنفوش، ثم تضمحل وتلاشى وتكون هباءً منبثاً، وتبرز الأرض فتصير قاعاً صافصفاً لا عوج فيه ولا أمتاً، ويحشر الله جميع الخلق على تلك الأرض؛ فلا يغادر منهم أحداً، بل يجمع الأولين والآخرين من بطون الفلوات وقعور البحار، ويجمعهم بعدما تفرقوا، ويعيدهم بعدما تمزقوا خلقاً جديداً، فيُعَرِّضُونَ عليه صفًّا ليستعرضهم وينظر في أعمالهم ويحكم فيهم بحكمه العدل الذي لا جور فيه ولا ظلم، ويقول لهم: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ أي: بلا مال ولا أهل ولا عشيرة، ما معهم إلا الأعمال التي عملوها والمكاسب في الخير والشر التي كسبوها؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾، وقال هنا مخاطباً للمنكرين للبعث وقد شاهدوه عياناً: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَن لَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾؛ أي: أنكرتم الجزاء على الأعمال ووعد الله ووعيده؛ فها قد رأيتموه وذاقتموه.

﴿٤٩﴾ فحينئذٍ تُخَضَّرُ كتب الأعمال التي كتبها الملائكة الأبرار^(١)، فتطير لها القلوب، وتغظم من وقعها الكروب، وتكاد لها الصم الصلاب تذوب، ويشفق^(٢) منها المجرمون؛ فإذا رأوها مسطرة عليهم أعمالهم محصى عليهم أقوالهم وأفعالهم؛ قالوا: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾؛ أي: لا يترك خطيئة صغيرة ولا كبيرة إلا وهي مكتوبة فيه محفوظة لم ينس منها عمل سراً ولا علانية ولا ليل ولا نهار. ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾: لا يقدرون على إنكاره، ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾: فحينئذٍ يجازون بها ويُقَرَّرُونَ بها ويُخَزَّوْنَ ويحَقُّ عليهم العذاب، ﴿ذلك بما قدَّمْت أيديهم وأنَّ الله ليس بظلام للعبيد﴾: بل هم غير خارجين عن عدله وفضله.

(١) في (ب): «كتبها الملائكة الكرام». (٢) في (ب): «وتشفق».

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠﴾

﴿٥٠﴾ يخبر تعالى عن عداوة إبليس لآدم وذريته، وأن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم إكراماً وتعظيماً وامثالاً لأمر الله، فامتثلوا ذلك؛ ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾، وقال: ﴿أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَهُ طِينًا﴾. وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾، فتبين بهذا عداوته لله ولأبيكم؛ فكيف تتخذونه ﴿وَذُرِّيَّتَهُ﴾؛ أي: الشياطين ﴿أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾؛ أي: بئس ما اختاروا لأنفسهم من ولاية الشيطان الذي لا يأمرهم إلا بالفحشاء والمنكر عن ولاية الرحمن الذي كل السعادة والفلاح والسرور في ولايته.

وفي هذه الآية الحث على اتخاذ الشيطان عدواً والإغراء بذلك وذكر السبب الموجب لذلك، وأنه لا يفعل ذلك إلا ظالم، وأي ظلم أعظم من ظلم من اتخذ عدوه الحقيقي ولياً وترك الولي الحميد؟! قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝٥١ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ۝٥٢﴾

﴿٥١﴾ يقول تعالى: ما أشهدت الشياطين وهؤلاء المضلين خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم؛ أي: ما أحضرتهم ذلك ولا شاورتهم عليه؛ فكيف يكونون خالقين لشيء من ذلك، بل المتفرد بالخلق والتدبير والحكمة والتقدير هو الله، خالق الأشياء كلها، المتصرف فيها بحكمته؛ فكيف يجعل له شركاء من الشياطين يوالون ويطيعون كما يطاع الله وهم لم يخلقوا ولم يشهدوا خلقاً ولم يعاونوا الله تعالى، ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾؛ أي: معاونين مظاهرين لله على شأن من الشؤون؛ أي: ما ينبغي ولا يليق بالله أن يجعل لهم قسطاً من التدبير؛ لأنهم ساعون في إضلال الخلق والعداوة لربهم؛ فاللائق أن يقصيههم ولا يدينهم.

﴿٥٢﴾ ولما ذكر حال من أشرك به في الدنيا، وأبطل هذا الشرك غاية الإبطال، وحكم بجهل صاحبه وسفاهه؛ أخبر عن حالهم مع شركائهم يوم القيامة، وأن الله

يقول لهم: نادوا شركائِيَ بزعمكم؛ أي: على موجب زعمكم الفاسد، وإلّا؛ فبالحقيقة ليس لله شريك في الأرض ولا في السماء؛ أي: نادوهم لينفعوكم ويخلصوكم من الشدائد. ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾: لأنّ الحكم والملك يومئذ لله، لا أحد يملك مثقال ذرة من النفع لنفسه ولا لغيره. ﴿وجعلنا بينهم﴾؛ أي: بين المشركين وشركائهم ﴿موبقاً﴾؛ أي: مهلكاً يفرّق بينهم وبينهم، ويبعد بعضهم من بعض، ويتبيّن حينئذ عداوة الشركاء لشركائهم، وكفرهم بهم، وتبرّيهم منهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾.

﴿٥٣﴾ أي: لما كان يوم القيامة، وحصل من الحساب ما حصل، وتميّز كل فريق من الخلق بأعمالهم، وحقّت كلمة العذاب على المجرمين، فرأوا جهنّم قبل دخولها، فانزعجوا، واشتدّ قلقهم لظنّهم أنّهم واقعوها، وهذا الظنّ قال المفسرون: إنّهُ بمعنى اليقين، فأيقنوا أنّهم داخلوها، ﴿ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾؛ أي: معدلاً يعدلون إليه، ولا شافع لهم من دون إذنه. وفي هذا من التخويف والترهيب ما ترعد له الأفئدة والقلوب.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾.

﴿٥٤﴾ يخبر تعالى عن عظمة القرآن وجلالته وعمومه، وأنّه صرّف فيه ﴿من كلِّ مَثَلٍ﴾؛ أي: من كلِّ طريق موصل إلى العلوم النافعة والسعادة الأبدية وكل طريق يعصم من الشرّ والهلاك؛ ففيه أمثال الحلال والحرام، وجزاء الأعمال، والترغيب والترهيب، والأخبار الصادقة النافعة للقلوب؛ اعتقاداً وطمأنينة ونوراً، وهذا مما يوجب التسليم لهذا القرآن وتلقّيه بالانقياد والطاعة وعدم المنازعة له في أمر من الأمور، ومع ذلك؛ كان كثير من الناس يجادلون في الحقّ بعدما تبين، ويجادلون بالباطل ليُدْحِضُوا به الحقّ، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾؛ أي: مجادلةً ومنازعةً فيه، مع أنّ ذلك غير لائق بهم، ولا عدل منهم، والذي أوجب له ذلك، وعدم الإيمان بالله، إنّما هو الظلم والعناد، لا لقصور في بيانه وحجّته وبرهانه، وإلّا؛ فلو جاءهم العذاب وجاءهم ما جاء قبلهم؛ لم تكن هذه حالهم، ولهذا قال:

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَهُمْ يَسْتَفْهِرُونَ رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾.

﴿٥٥﴾ أي: ما منع الناس من الإيمان - والحال أن الهدى الذي يحصل به الفرق بين الهدى والضلال والحق والباطل قد وصل إليهم وقامت عليهم حجة الله، فلم يمنعهم عدم البيان، بل منعهم الظلم والعدوان عن الإيمان، فلم يبق إلا أن تأتيهم سنة الله وعادته في الأولين، من أنهم إذا لم يؤمنوا؛ عوجلوا بالعذاب، أو يروى العذاب قد أقبل عليهم، ورأوه مقابلة ومعاينة؛ أي: فليخافوا من ذلك، وليتوبوا من كفرهم؛ قبل أن يكون العذاب الذي لا مرد له.

﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَجَعَلْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ٥٦﴾.

﴿٥٦﴾ أي: لم نرسل الرسل عبثاً، ولا ليتخذهم الناس أرباباً، ولا ليدعوا إلى أنفسهم، بل أرسلناهم يدعون الناس إلى كل خير، وينهون عن كل شر، ويبشرونهم على امتثال ذلك بالثواب العاجل والآجل، وينذرونهم على معصية ذلك بالعقاب العاجل والآجل، فقامت بذلك حجة الله على العباد، ومع ذلك يأبى الظالمون الكافرون إلا المجادلة بالباطل ليُدْحِضُوا به الحق، فسعوا في نصر الباطل مهما أمكنهم، وفي دحض الحق وإبطاله، واستهزؤوا برسول الله وآياته، وفرحوا بما عندهم من العلم، ﴿ويأبى الله إلا أن يتيّم نوره ولو كره الكافرون﴾، ويظهر الحق على الباطل، ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾، ومن حكمة الله ورحمته أن تقيضه المبطلين المجادلين الحق بالباطل من أعظم الأسباب إلى وضوح الحق وتبين شواهد وأدلته وتبين الباطل وفساده؛ فبضدها تتبين الأشياء.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤْخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَحْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيِلًا ٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ٥٩﴾.

﴿٥٧﴾ يخبر تعالى أنه لا أعظم ظلماً ولا أكبر جرماً من عبد ذُكر بآيات الله وتبين له الحق من الباطل والهدى من الضلال، وخوف وزهّب ورغب، فأعرض عنها، فلم يتذكر بما ذُكر به، ولم يرجع عما كان عليه، ﴿ونسي ما قدمت يده﴾ من الذنوب، ولم يراقب علام الغيوب؛ فهذا أعظم ظلماً من المعرض الذي لم تأت به

آيَاتُ اللَّهِ وَلَمْ يُذَكِّرْ بِهَا، - وَإِنْ كَانَ ظَالِمًا -؛ فَإِنَّهُ أَشَدُّ^(١) ظُلْمًا مِنْ هَذَا؛ لَكُنْ الْعَاصِي عَلَى بَصِيرَةٍ وَعِلْمٍ أَعْظَمَ مِمَّنْ لَيْسَ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَاقِبَهُ بِسَبَبِ إِعْرَاضِهِ عَنْ آيَاتِهِ وَنَسْيَانِهِ لَذُنُوبِهِ وَرِضَاهُ لِنَفْسِهِ حَالَةَ الشَّرِّ مَعَ عِلْمِهِ بِهَا، أَنْ سَدَّ عَلَيْهِ أَبْوَابَ الْهِدَايَةِ بِأَنْ جَعَلَ عَلَى قَلْبِهِ أَكْثَنَةً؛ أَي: أَغْطِيَةً مُحْكَمَةً تَمْنَعُهُ أَنْ يَفْقَهُ الْآيَاتِ وَإِنْ سَمِعَهَا؛ فَلَيْسَ فِي إِمْكَانِهِ الْفَقْهُ الَّذِي يَصِلُ إِلَى الْقَلْبِ. ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾؛ أَي: صَمًّا يَمْنَعُهُمْ مِنْ وَصُولِ الْآيَاتِ وَمِنْ سَمَاعِهَا عَلَى وَجْهِ الْإِنْتِفَاعِ، وَإِنْ كَانُوا بِهَذِهِ الْحَالَةِ؛ فَلَيْسَ لِهَدَايَتِهِمْ سَبِيلٌ. ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾: لِأَنَّ الَّذِي يُرْجَى أَنْ يَجِيبَ الدَّاعِيَ لِلهُدَى مِنْ لَيْسَ عَالِمًا، وَأَمَّا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَبْصَرُوا ثُمَّ عَمَوْا، وَرَأَوْا طَرِيقَ الْحَقِّ فَتَرَكُوهُ، وَطَرِيقَ الضَّلَالِ فَسَلَكُوهُ، وَعَاقِبَهُمُ اللَّهُ بِإِقْفَالِ الْقُلُوبِ وَالطَّبْعِ عَلَيْهَا؛ فَلَيْسَ فِي هَدَايَتِهِمْ حِيلَةٌ وَلَا طَرِيقٌ. وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ التَّخْوِيفِ لِمَنْ تَرَكَ الْحَقَّ بَعْدَ عِلْمِهِ أَنْ يُحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَلَا يَتِمَكَّنُ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا هُوَ أَعْظَمُ مَرْهَبٍ وَزَاجِرٍ عَنْ ذَلِكَ.

﴿٥٨﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ سَعَةِ مَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَأَنَّهُ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَتُوبُ فَيَتَغَمَّدُهُ بِرَحْمَتِهِ وَيَشْمَلُهُ بِإِحْسَانِهِ، وَأَنَّهُ لَوْ أَخَذَ^(٢) الْعِبَادَ عَلَى مَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ مِنَ الذُّنُوبِ؛ لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى حَلِيمٌ لَا يَعْجَلُ بِالْعُقُوبَةِ، بَلْ يُنْهَلُ وَلَا يُهْمَلُ، وَالذُّنُوبُ لَا بَدَّ مِنْ وَقُوعِ آثَارِهَا، وَإِنْ تَأَخَّرَتْ^(٣) عَنْهَا مَدَّةٌ طَوِيلَةٌ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا﴾؛ أَي: لَهُمْ مَوْعِدٌ يَجَازُونَ فِيهِ بِأَعْمَالِهِمْ، لَا بَدَّ لَهُمْ مِنْهُ، وَلَا مَدْرُوحَةٌ لَهُمْ عَنْهُ، وَلَا مَلْجَأٌ وَلَا مَحِيدٌ عَنْهُ.

﴿٥٩﴾ وَهَذِهِ سُنَّتُهُ فِي الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، أَنْ لَا يَعَاجِلَهُمُ بِالْعِقَابِ، بَلْ يَسْتَدْعِيهِمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ؛ فَإِنْ تَابُوا وَأَنَابُوا؛ غَفَرَ لَهُمْ وَرَحِمَهُمْ وَأَزَالَ عَنْهُمْ الْعِقَابَ، وَإِلَّا؛ فَإِنْ اسْتَمَرُّوا عَلَى ظُلْمِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، وَجَاءَ الْوَقْتُ الَّذِي جَعَلَهُ مَوْعِدًا لَهُمْ؛ أَنَزَلَ بِهِمْ بِأَسْهٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلُكُنَا هُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾؛ أَي: بِظُلْمِهِمْ، لَا بِظُلْمِ مَثَلٍ. ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾؛ أَي: وَقْتًُا مَقْدَرًا لَا يَتَقَدَّمُونَ عَنْهُ وَلَا يَتَأَخَّرُونَ.

(١) فِي (ب): «أَخْفَ». وَقَدْ أَعَادَ الشَّيْخُ كِتَابَتَهَا بِخَطِّهِ فِي هَامِشٍ (أ): «أَشَدَّ».

(٢) فِي (ب): «وَأَخَذَ». (٣) فِي (ب): «تَأَخَّرَ».

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا آتِبُحَ حَتَّىٰ أَتْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۝٦٠﴾
فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا شَبَا حُوتُهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ۝٦١ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ
ءَاِنُنَا عَذَابًا نَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ۝٦٢ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْنَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ
الْحُوتَ وَمَا أَنْسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ۝٦٣ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا
نَبِغُ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ عَاقِبَتَاهُمَا فَصَبَا ۝٦٤ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ
مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥ قَالَ لَمْ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِنِّي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ۝٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَنْ
تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٦٧ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ۝٦٨ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ
صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۝٦٩ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا
۝٧٠ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا^(١) قَالَ أَخْرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا
۝٧١ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ
أَمْرِي عُسْرًا ۝٧٣ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا
ثُكْرًا ۝٧٤ ﴿﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٧٥ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا
فَلَا تَصْحَبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عَذْرًا ۝٧٦ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبْرَأَ
أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۝٧٧
قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ۝٧٨ ءَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ
لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝٧٩ وَءَمَّا
الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۝٨٠ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا
خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۝٨١ وَءَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ
كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ
رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ۝٨٢﴾

﴿٦٠﴾ يخبر تعالى عن نبيه موسى عليه السلام وشدة رغبته في الخير وطلب العلم أنه قال لفتاه؛ أي: خادمه الذي يلازمه في حضره وسفره، وهو يوشع بن

(١) في (النسختين) إلى قوله: «ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً».

نون، الذي نبأه الله بعد ذلك: ﴿لَا أُنَبِّئُكَ حَتَّىٰ أَتْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾؛ أي: لا أزال مسافراً وإن طالت عليَّ الشُّقَّةُ ولحققتني المشقَّةُ حتى أصل إلى مجمع البحرين، وهو المكان الذي أوحى إليه أنك ستجد فيه عبداً من عباد الله العالمين، عنده من العلم ما ليس عندك، ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾؛ أي: مسافة طويلة. المعنى أنَّ الشوق والرغبة حَمَلَ موسى أن قال لفتاه هذه المقالة.

﴿٦١﴾ وهذا عزمٌ منه جازم، فلذلك أمضاه، ﴿فلما بلغا﴾؛ أي: هو وفتاه مَجْمَعٌ بينهما نسيا حوتَهما: وكان معهما حوتٌ يتزوَّدان منه ويأكلان، وقد وعدَّ أنه متى فقد الحوت؛ فثمَّ ذلك العبد الذي قصده. ﴿فَاتَّخَذَ﴾: ذلك الحوت سبيلَه؛ أي: طريقه ﴿في البحر سرباً﴾. وهذا من الآيات، قال المفسرون: إنَّ ذلك الحوت الذي كانا يتزوَّدان منه لما وصلا إلى ذلك المكان أصابه بللُّ البحر، فانسرب بإذن الله في البحر، وصار مع حيواناته حياً.

﴿٦٢﴾ فلما جاوز موسى وفتاه مجمعَ البحرين؛ قال موسى لفتاه: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾؛ أي: لقد تعبنا من هذا السفر المجاوز فقط، وإلَّا؛ فالسفر الطويل الذي وصلا به إلى مجمع البحرين لم يجدنا من التعب فيه، وهذا من الآيات والعلامات الدالة لموسى على وجود مطلبه، وأيضاً؛ فإنَّ الشوق المتعلِّق بالوصول إلى ذلك المكان سهَّلَ لهما الطريق، فلما تجاوزا غايتهما؛ وجدا مسَّ التعب.

﴿٦٣﴾ فلما قال موسى لفتاه هذه المقالة؛ قال له فتاه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ﴾ [أي: ألم تعلم حين آوانا الليل إلى تلك الصخرة المعروفة بينهما فإنني نسيت الحوت]، ﴿وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾: لأنَّه السببُ في ذلك، ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾؛ أي: لما انسرب في البحر ودخل فيه؛ كان ذلك من العجائب. قال المفسرون: كان ذلك المسلك للحوت سرباً ولموسى وفتاه عجباً.

﴿٦٤﴾ فلما قال له الفتى هذا القول، وكان عند موسى وعدٌ من الله أنه إذا فقدَ الحوت؛ وَجَدَ الْخَضِرَ، فقال موسى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ﴾؛ أي: نطلب. ﴿فَازْتَدَا﴾؛ أي: رجعا ﴿على آثارهما قصصاً﴾؛ أي: رجعا يَقْصُصَانِ أثرهما [إلى المكان] الذي نسيا فيه الحوت.

﴿٦٥﴾ فلما وصلا إليه؛ ﴿وجدنا عبداً من عبادنا﴾: وهو الخضر، وكان عبداً

صالحاً لا نبياً على الصحيح. ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾؛ أي: أعطاه الله رحمة خاصة، بها زاد علمه وحسن عمله، ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾؛ أي: من عندنا ﴿عِلْماً﴾: وكان قد أعطي من العلم ما لم يعط موسى، وإن كان موسى عليه السلام أعلم منه بأكثر الأشياء وخصوصاً في العلوم الإيمانية والأصولية؛ لأنه من أولي العزم من المرسلين، الذين فضّلهم الله على سائر الخلق بالعلم والعمل وغير ذلك.

﴿٦٦﴾ فلما اجتمع به موسى؛ قال له على وجه الأدب والمشاورة والإخبار عن مطلبه: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُسُوداً﴾؛ أي: هل أتبعك على أن تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ ما به أسترشد وأهتدي وأعرف به الحق في تلك القضايا، وكان الخضر قد أعطاه الله من الإلهام والكرامة ما به يحصل له الاطلاع على بواطن كثير من الأشياء التي خفيت حتى على موسى عليه السلام.

﴿٦٧﴾ فقال الخضر لموسى: لا أمتنع من ذلك، ولكئلك ﴿لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾؛ أي: لا تقدر على أتباعي وملازمتي؛ لأنك ترى ما لا تقدر على الصبر عليه من الأمور، التي ظاهرها المنكر وباطنها غير ذلك.

﴿٦٨﴾ ولهذا قال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾؛ أي: كيف تصبر على أمر ما أحطت بباطنه وظاهره وعلمت المقصود منه ومآله.

﴿٦٩﴾ فقال موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾: ولهذا عزم منه قبل أن يوجد الشيء الممتحن به، والعزم شيء ووجود الصبر شيء آخر؛ فلذلك ما صبر موسى عليه السلام حين وقع الأمر.

﴿٧٠﴾ فحينئذ قال له الخضر: ﴿فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾؛ أي: لا تبتدئني بسؤال منك وإنكار حتى أكون أنا الذي أخبرك بحال في الوقت الذي ينبغي إخبارك به، فنهاه عن سؤاله، ووعد أنه يوقفه على حقيقة الأمر.

﴿٧١﴾ ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾؛ أي: اقتلع الخضر منها لوحاً، وكان له مقصود في ذلك سبب، فلم يصبر موسى عليه السلام؛ لأن ظاهره أنه منكراً؛ لأنه عيب للسفينة وسبب لغرق أهلها، ولهذا قال موسى: ﴿أَخْرَقْتُهَا لِتُغْرَقَ أَهْلُهَا لَقَدْ جِئْتُ شَيْئًا إِمْرًا﴾؛ أي: عظيماً شنيعاً، ولهذا من عدم صبره عليه السلام.

﴿٧٢﴾ فقال له الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾؛ أي: فوق كما أخبرتك.

﴿٧٣﴾ وكان لهذا من موسى نسياناً، فقال: ﴿لا تَوَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُزْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾؛ أي: لا تُعَسِّرْ عَلَيَّ الأمر، واسمح لي؛ فَإِنَّ ذَلِكَ وَقَعَ عَلَى وَجْهِ النسيان، فلا تَوَاخِذْنِي فِي أول مرة، فجمع بين الإقرار به والعذر منه، وَأَنَّهُ مَا يَنْبَغِي لَكَ أَيُّهَا الْخَضِرُ الشَّدَّةُ عَلَى صَاحِبِكَ، فسمح عنه الخضر.

﴿٧٤﴾ ﴿فَانْطَلِقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا﴾؛ أي: صغيراً، ﴿فَقَتَلَهُ﴾^(١): الخضر، فاشتدَّ بِمُوسَى الْغَضَبُ، وَأَخَذَتْهُ الْحَمِيَّةُ الدِّينِيَّةُ حِينَ قَتَلَ غُلَامًا صَغِيرًا لَمْ يُذْنِبْ. ﴿قَالَ أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾: وَأَيُّ نُكْرٍ مِثْلَ قَتْلِ الصَّغِيرِ الَّذِي لَيْسَ عَلَيْهِ ذَنْبٌ وَلَمْ يَقْتُلْ أَحَدًا؟! وَكَانَ الْأَوَّلُ مِنْ مُوسَى نَسْيَانًا، وَهَذِهِ غَيْرِ نَسْيَانٍ، وَلَكِنْ عَدَمُ صَبْرٍ.

﴿٧٥﴾ فقال له الخضرُ معاتباً ومذكراً: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾؟

﴿٧٦﴾ فَ﴿قَالَ﴾ لَهُ مُوسَى: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ﴾ بعد هذه المرة؛ ﴿فَلَا تَصَاحِبْنِي﴾؛ أي: فَأَنْتَ مَعْذُورٌ بِذَلِكَ وَبِتَرْكِ صَحْبَتِي، ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾؛ أي: أَعْذَرْتَ مِنِّي، وَلَمْ تَقْصُرْ.

﴿٧٧﴾ ﴿فَانْطَلِقَا حَتَّى إِذَا أَتَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلِهَا﴾؛ أي: اسْتَظَافَاهُمْ فَلَمْ يُضَيِّفُوهُمْ، ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾؛ أي: [قد] عَابَ وَاسْتَهْدَمَ، ﴿فَأَقَامَهُ﴾: الْخَضِرُ؛ أَيِ بَنَاهُ وَأَعَادَهُ جَدِيدًا، فَ﴿قَالَ﴾ لَهُ مُوسَى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾؛ أي: أَهْلُ هَذِهِ الْقَرْيَةِ لَمْ يَضَيِّفُونَا مَعَ وَجُوبِ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَأَنْتَ تَبْنِيهِ مِنْ دُونِ أَجْرَةٍ، وَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَيْهَا؟!

﴿٧٨﴾ فَحِينَئِذٍ لَمْ يَفِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَا قَالَ، وَاسْتَعْذَرَ الْخَضِرُ مِنْهُ، فَ﴿قَالَ﴾ لَهُ: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾: فَإِنَّكَ شَرِطْتَ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِكَ، فَلَمْ يَبْقَ الْآنَ عَذْرٌ وَلَا مَوْضِعٌ لِلصُّحْبَةِ. ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾؛ أي: سَأُخْبِرُكَ بِمَا أَنْكَرْتَ عَلَيَّ وَأُنَبِّئُكَ بِأَنَّ لِي فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَآرِبِ وَمَا يؤولُ إِلَيْهِ الْأَمْرُ.

﴿٧٩﴾ ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾: الَّتِي خَرَقْتُهَا، ﴿فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾: يَقْتَضِي ذَلِكَ الرِّقَّةَ عَلَيْهِمْ وَالرَّأْفَةَ بِهِمْ، ﴿فَارَدْتُ أَنْ أُعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾؛ أي: كَانَ مُرَوِّهَمُ عَلَى ذَلِكَ الْمَلِكِ الظَّالِمِ؛ فَكُلُّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ

(١) فِي (ب): «قَتَلَهُ».

تمرُّ عليه ما فيها عيبٌ غَصَبها وأَخَذها ظِلماً، فأردتُ أنْ أُخْرِقها ليكونَ فيها عيبٌ فتسلم من ذلك الظالم.

﴿٨٠﴾ ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ﴾: الذي قتلته؛ ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾: وكان ذلك الغلام قد قُدرَ عليه أنه لو بَلَغَ لأرْهقَ أبويه طُغْيَانًا وكُفْرًا؛ أي: لحملهما على الطغيان والكفر: إمَّا لأجل محبتهما إيَّاه، أو للحاجة إليه؛ أو يحملهما^(١) على ذلك؛ أي: فقُتلتَ؛ لا طَّلَاعِي على ذلك؛ سلامةً لدين أبويه المؤمنين، وأيُّ فائدة أعظمُ من هذه الفائدة الجليلة؟!

﴿٨١﴾ وهو وإن كان فيه إساءةٌ إليهما وقطعٌ لذريَّتهما؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيُعْطِيهِمَا مِنَ الذَّرِّيَّةِ ما هو خيرٌ منه، ولهذا قال: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاءً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾؛ أي: ولدًا صالحًا زَكِيًّا واصلًا لِرَحِمِهِ؛ فَإِنَّ الْغُلَامَ الَّذِي قُتِلَ لو بَلَغَ لَعَقَّهُمَا أَشَدَّ الْعُقُوقِ بحملهما على الكفر والطغيان.

﴿٨٢﴾ ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ﴾: الذي أَمَتَهُ؛ ﴿فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾؛ أي: حالهما تقتضي الرأفة بهما ورحمتهما؛ لكونهما صغيرين، عدما أباهما، وحفظهما الله أيضاً بصلاح والدهما. ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾؛ أي: فلَهذا هدمتُ الجدار واستخرجتُ ما تحته من كنزهما ورددته وأعدته مجاناً؛ ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾؛ أي: هذا الذي فعلته رحمةٌ من الله آتاها الله عبده الخضر. ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾؛ أي: ما أتيت شيئاً من قِبَلِ نَفْسِي ومَجْرَدِ إِرَادَتِي، وَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ. ﴿ذَلِكَ﴾: الذي فَسَّرْتَهُ لَكَ ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾.

وفي هذه القصة العجيبة الجليلة من الفوائد والأحكام والقواعد شيءٌ كثيرٌ ننبه على بعضه بعون الله:

فمنها: فضيلة العلم والرحلة في طلبه، وأنه أهمُّ الأمور؛ فَإِنَّ مُوسَى عليه السلام رحل مسافةً طويلةً، ولقي النَّصَبَ في طلبه، وترك القعود عند بني إسرائيل لتعليمهم وإرشادهم، واختار السفر لزيادة العلم على ذلك.

ومنها: البداءة بالأهمِّ فالأهمِّ؛ فَإِنَّ زِيَادَةَ الْعِلْمِ وَعِلْمَ الْإِنْسَانِ أَهَمُّ مِنْ تَرْكِ ذَلِكَ والاشتغال بالتعليم من دون تزوُّد من العلم، والجمعُ بين الأمرين أكمل.

ومنها: جواز أخذ الخادم في الحضر والسفر؛ لكفاية المؤمن^(١) وطلب الراحة؛ كما فعل موسى.

ومنها: أن المسافر لطلب علم أو جهاد أو نحوه، إذا اقتضت المصلحة الإخبار بمطلبه وأين يريده؛ فإنه أكمل من كتبه؛ فإن في إظهاره فوائد من الاستعداد له عدته وإتيان الأمر على بصيرة وإظهار الشوق لهذه العبادة الجليلة؛ كما قال موسى: ﴿لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حَقْباً﴾، وكما أخبر النبي ﷺ أصحابه حين غزا تبوك بوجهه مع أن عادته التورية، وذلك تبع للمصلحة.

ومنها: إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان على وجه التسويل والتزيين، وإن كان الكل بقضاء الله وقدره؛ لقول فتى موسى: ﴿وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره﴾.

ومنها: جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى طبيعة النفس من نصب أو جوع أو عطش إذا لم يكن على وجه التسخط وكان صدقاً؛ لقول موسى: ﴿لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾.

ومنها: استحباب كون خادم الإنسان ذكياً فطناً كيساً؛ ليتم له أمره الذي يريده.

ومنها: استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله وأكلهما جميعاً؛ لأن ظاهر قوله: ﴿آتنا غداءنا﴾: إضافة إلى الجميع: أنه أكل هو وهو جميعاً.

ومنها: أن المعونة تنزل على العبد على حسب قيامه بالمأمور به، وأن الموافق لأمر الله يُعان ما لا يُعان غيره؛ لقوله: ﴿لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾، والإشارة إلى السفر المجاوز لمجمع البحرين، وأما الأول؛ فلم يشتك منه التعب مع طولِهِ؛ لأنه هو السفر على الحقيقة، وأما الأخير؛ فالظاهر أنه بعض يوم؛ لأنهم فقدوا الحوت حين أوا إلى الصخرة؛ فالظاهر أنهم باتوا عندها، ثم ساروا من الغد، حتى إذا جاء وقت الغداء؛ قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا؛ فحينئذ تذكر أنه نسيه في الموضع الذي إليه انتهى قصده.

ومنها: أن ذلك العبد الذي لقيه ليس نبياً، بل عبداً صالحاً؛ لأنه وصفه بالعبودية، وذكر مئة الله عليه بالرحمة والعلم، ولم يذكر رسالته ولا نبوته، ولو كان نبياً؛ لذكر ذلك كما ذكر غيره. وأما قوله في آخر القصة: ﴿وما فعلته عن أمري﴾؛ فإنه لا يدل على أنه نبي، وإنما يدل على الإلهام والتحديث؛ كما يكون

(١) في (ب): «المؤنة».

لغير الأنبياء؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾، ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾.

ومنها: أَنَّ العلم الذي يَعْلَمُهُ اللَّهُ لعباده نوعان: عِلْمٌ مكتسبٌ يدرِّكه العبد بجده واجتهاده، ونوعٌ: عِلْمٌ لَدُنِّي يهبُهُ اللَّهُ لمن يمتنُّ عليه من عباده؛ لقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾.

ومنها: التأدب مع المعلم وخطاب المتعلِّم إيَّاه أَلطف خطاب؛ لقول موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾: فأخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة، وأنتَ هل تأذنُ لي في ذلك أم لا؟ وإقراره بأنَّه يتعلَّم منه؛ بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكِبَر، الذي لا يُظهِر للمعلِّم افتقاره إلى علمه، بل يدَّعي أنَّه يتعاون هو وإيَّاه، بل ربَّما ظنَّ أنه يَعْلَمُ معلِّمه وهو جاهلٌ جدًّا؛ فالذلُّ للمعلم وإظهارُ الحاجة إلى تعليمه من أنفع شيءٍ للمتعلم.

ومنها: تواضع الفاضل للمتعلم ممَّن دونه؛ فَإِنَّ موسى بلا شكٍّ أَفضل من الخضر.

ومنها: تعلُّم العالم الفاضل للعلم الذي لم يتمهَّر فيه ممَّن مهَّرَ فيه، وإنَّ كان دونه في العلم بدرجاتٍ كثيرة؛ فَإِنَّ موسى عليه السلام من أولي العزم من المرسلين، الذين منحهم الله وأعطاهم من العلم ما لم يعط سواهم، ولكن في هذا العلم الخاصِّ كان عند الخضر ما ليس عنده؛ فلهذا حرص على التعلُّم منه؛ فعلى هذا لا ينبغي للفقهاء المحدثين إذا كان قاصراً في علم النحو أو الصرف أو نحوه من العلوم أن لا يتعلَّمه ممَّن مهَّرَ فيه، وإنَّ لم يكن محدثاً ولا فقيهاً.

ومنها: إضافة العلم وغيره من الفضائل لله تعالى، والإقرار بذلك، وشكر الله عليها؛ لقوله: ﴿تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ﴾؛ أي: مما علمك الله تعالى.

ومنها: أن العلم النافع هو العلم المرشد إلى الخير، فكلُّ علم يكون فيه رشد وهداية لطريق^(١) الخير وتحذيرٌ عن طريق الشرِّ أو وسيلةٌ لذلك؛ فَإِنَّه من العلم النافع، وما سوى ذلك؛ فإمَّا أن يكون ضارًّا أو ليس فيه فائدة؛ لقوله: ﴿أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾.

ومنها: أن من ليس له قوَّة الصبر على صحبة العالم والعلم وحسن الثبات على

(١) في (ب): «لطريق».

ذلك؛ أنه [يفوته بحسب عدم صبره كثير من] ^(١) العلم؛ فمن لا صبر له؛ لا يدرك العلم، ومن استعمل الصبر ولازمه؛ أدرك به كل أمر سعى فيه؛ لقول الخضر يتعذر من موسى بذكر المانع لموسى من الأخذ عنه؛ إنه لا يصبر معه.

ومنها: أن السبب الكبير لحصول الصبر إحاطة الإنسان علماً وخبرةً بذلك الأمر الذي أمر بالصبر عليه، وإلاً؛ فالذي لا يدره أو لا يدري غايته ولا نتيجته ولا فائدته وثمرته ليس عنده سبب الصبر؛ لقوله: ﴿وكيف تصبر على ما لم تُحِطْ به خُبراً﴾؛ فجعل الموجب لعدم صبره عدم إحاطته خُبراً بالأمر.

ومنها: الأمر بالتأني والتثبت وعدم المبادرة إلى الحكم على الشيء حتى يعرف ما يُراد منه وما هو المقصود.

ومنها: تعليق الأمور المستقبلية التي من أفعال العباد بالمشيئة، وأن لا يقول الإنسان للشيء: إني فاعل ذلك في المستقبل إلا أن يقول إن شاء الله.

ومنها: أن العزم على فعل الشيء ليس بمنزلة فعله؛ فإن موسى قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً﴾: فوطّن نفسه على الصبر ولم يفعل.

ومنها: أن المعلم إذا رأى المصلحة في إيزاعه للمتعلم أن يترك الابتداء في السؤال عن بعض الأشياء حتى يكون المعلم هو الذي يوقفه عليها؛ فإن المصلحة تتبّع؛ كما إذا كان فهمه قاصراً، أو نهاه عن الدقيق في سؤال الأشياء التي غيرها أهم منها أو لا يدركها ذهنه، أو يسأل سؤالاً لا يتعلّق في موضع البحث.

ومنها: جواز ركوب البحر في غير الحالة التي يخاف منها.

ومنها: أن الناسي غير مؤاخذ بنسيانه؛ لا في حقّ الله، ولا في حقوق العباد؛ لقوله: ﴿لا تَوَاخِذُنِي بِمَا نَسِيتُ﴾.

ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يأخذ من أخلاق الناس ومعاملاتهم العفو منها وما سمحت به أنفسهم، ولا ينبغي له أن يكلّفهم ما لا يطيقون أو يشقّ عليهم ويرهقهم؛ فإنّ هذا مدعاة إلى النفور منه والسامة، بل يأخذ المتيسّر ليتيسر له الأمر.

(١) في (أ): «أنه ليس بأهل لتلقي العلم». ثم عدّل عنها الشيخ في هامش (ب) إلى ما أثبت.

ومنها: أَنَّ الأمور تجري أحكامها على ظاهرها، وتُعلَّقُ بها الأحكام الدنيويَّة في الأموال والدماء وغيرها؛ فَإِنَّ موسى عليه السلام أنكر على الخضرِ خرَقَه السفينة وقتل الغلام، وأنَّ هذه الأمور ظاهرها أنَّها من المنكر، وموسى عليه السلام لا يَسْعُهُ السكوتُ عنها في غير هذه الحال التي صَحِبَ عليها الخضر، فاستعجل عليه السلام، وبادَرَ إلى الحكم في حالتها العامَّة، ولم يلتفت إلى هذا العارض الذي يوجب عليه الصبر وعدم المبادرة إلى الإنكار.

ومنها: القاعدة الكبيرة الجليلة، وهو أَنَّهُ يُدْفَعُ الشرُّ الكبير بارتكاب الشرِّ الصغير، ويُراعى أكبر المصلحتين بتفويت أدناهما؛ فَإِنَّ قتل الغلام شرٌّ، ولكنَّ بقاءه حتى يفتن أبويه عن دينهما أعظمُ شراً منه، وبقاء الغلام من دون قتل وعصمته وإن كان يظُنُّ أَنَّهُ خيرٌ؛ فالخير ببقاء دين أبويه وإيمانهما خيرٌ من ذلك؛ فلذلك قَتَلَهُ الخضر. وتحت هذه القاعدة من الفروع والفوائد ما لا يدخلُ تحت الحصر، فتزاحمُ المصالح والمفاسدُ كُلُّها داخلٌ في هذا.

ومنها: القاعدة الكبيرة أيضاً، وهي أَنَّ عمل الإنسان في مال غيره إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة أَنَّهُ يجوزُ، ولو بلا إذن، حتى ولو ترتَّب على عمله إتلافُ بعض مال الغير؛ كما حَرَقَ الخضر السفينةَ لتعيبَ فتسلَّم من غَضَب الملك الظالم؛ فعلى هذا: لو وقع حرقُ أو غرقُ أو نحوهما في دار إنسانٍ أو ماله، وكان إتلافُ بعض المال أو هدمُ بعض الدار فيه سلامةً للباقي؛ جاز للإنسان، بل شُرِعَ له ذلك؛ حفظاً لمال الغير. وكذلك لو أراد ظالمٌ أخذَ مال الغير، ودفع إليه إنسانٌ بعض المال افتداءً للباقي؛ جاز، ولو من غير إذن.

ومنها: أَنَّ العمل يجوز في البحر كما يجوز في البر؛ لقوله: ﴿يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾، ولم ينكر عليهم عملهم.

ومنها: أَنَّ المسكين قد يكون له مالٌ لا يبلغُ كفايته ولا يخرجُ بذلك عن اسم المسكنة؛ لِأَنَّ اللَّهَ أخبر أَنَّ هؤلاء المساكين لهم سفينة.

ومنها: أَنَّ القتل من أكبر الذنوب؛ لقوله في قتل الغلام: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكَرًا﴾.

ومنها: أَنَّ القتل قصاصاً غير مُنْكَرٍ؛ لقوله: ﴿بَغِيرِ نَفْسٍ﴾.

ومنها: أَنَّ العبد الصالح يحفظُهُ اللَّه في نفسه وفي ذُرِّيَّتِهِ.

ومنها: أَنَّ خدمة الصالحين أو مَنْ يتعلَّقُ بهم أفضل من غيرها؛ لِأَنَّهُ عَلَّلَ

استخراج كنزهما وإقامة جدارهما بأن^(١) أباهما صالح.

ومنها: استعمال الأدب مع الله تعالى في الألفاظ؛ فإن الخضر أضاف عَيْبَ السفينة إلى نفسه؛ بقوله: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، وأما الخير؛ فأضافه إلى الله تعالى؛ لقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾؛ كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، وقالت الجن: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾؛ مع أنَّ الكلَّ بقضاء الله وقدره.

ومنها: أنه ينبغي للصاحب أن لا يفارق صاحبه في حالة من الأحوال ويترك صحبته حتى يُعْتَبَ وَيُعْذَر منه؛ كما فعل الخضر مع موسى.

ومنها: أن موافقة الصاحب لصاحبه في غير الأمور المحذورة مدعاة وسبب لبقاء الصحة وتأكدّها؛ كما أنَّ عدم الموافقة سبب لقطع المرافقة.

[ومنها: أن هذه القضايا التي أجراها الخضر هي قدر محض، أجراها الله وجعلها على يد هذا العبد الصالح ليستدل العباد بذلك على ألطافه في أقضيته، وأنه يقدر على العبد أموراً يكرهها جداً وهي صلاح دينه، كما في قضية الغلام، أو وهي صلاح دنياه كما في قضية السفينة، فأراهم نموذجاً من لطفه وكرمه ليعرفوه، ويرضوا غاية الرضا بأقداره الكريمة].

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الذِّكْرِينِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٢﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٣﴾ فَاتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَرْغُبُ فِي عَتِبٍ حِمِيٍّ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَذَا الْقَرْيَيْنِ إِنَّمَا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِنَّمَا أَنْ تَنْخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٥﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا ﴿٨٦﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ لِحُسْنِهِ وَنَسْفُوْلُ لَهُ مِنْ أَمْرٍ أَيْسَرًا ﴿٨٧﴾﴾.

﴿٨٣﴾ كان أهل الكتاب أو المشركون سألوا رسول الله ﷺ عن قصّة ذي القرنين، فأمره الله أن يقول: ﴿سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾: فيه نبأ مفيد وخطاب عجيب؛ أي: سأتلو عليكم من أحواله ما يُتَذَكَّر فيه ويكون عبرة، وأما ما سوى ذلك من أحواله؛ فلم يثله عليهم.

﴿٨٤ - ٨٥﴾ ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: مَلَكْنَاهُ اللَّهُ تَعَالَى وَمَكَّنَهُ مِنَ النُّفُوزِ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَانْقِيَادِهِمْ لَهُ. ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا. فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾؛ أي: أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمَوْصِلَةَ لَهُ لِمَا وَصَلَ إِلَيْهِ مَا بِهِ يَسْتَعِينُ عَلَى قَهْرِ الْبُلْدَانِ وَسَهُولَةِ الْوُصُولِ إِلَى أَقْصَايِ الْعِمْرَانِ، وَعَمِلَ بِتِلْكَ الْأَسْبَابِ الَّتِي أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا؛ أَي: اسْتَعْمَلَهَا عَلَى وَجْهَيْهَا؛ فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنَ الْأَسْبَابِ يَسْلُكُهُ، وَلَا كُلُّ أَحَدٍ يَكُونُ قَادِرًا عَلَى السَّبَبِ؛ فَإِذَا اجْتَمَعَ الْقُدْرَةُ عَلَى السَّبَبِ الْحَقِيقِيِّ وَالْعَمَلُ بِهِ؛ حَصَلَ الْمَقْصُودُ، وَإِنْ عُدِمَا أَوْ أَحَدُهُمَا؛ لَمْ يَحْضُرْ، وَهَذِهِ الْأَسْبَابُ الَّتِي أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا لَمْ يُخْبِرْنَا اللَّهُ وَلَا رَسُولُهُ بِهَا، وَلَمْ تَتَنَاقَلْهَا الْأَخْبَارُ عَلَى وَجْهِ يَفِيدُ الْعِلْمَ؛ فَلِهَذَا لَا يَسْعُنَا غَيْرُ السَّكُوتِ عَنْهَا وَعَدَمِ الْإِلْتِفَاتِ لِمَا يَذْكُرُهُ النُّقْلَةُ لِلْإِسْرَائِيلِيَّاتِ وَنَحْوِهَا، وَلَكِنَّا نَعْلَمُ بِالْجُمْلَةِ أَنَّهَا أَسْبَابٌ قَوِيَّةٌ كَثِيرَةٌ دَاخِلِيَّةٌ وَخَارِجِيَّةٌ، بِهَا صَارَ لَهُ جَنْدٌ عَظِيمٌ ذُو عَدَدٍ وَعُدَدٍ وَنِظَامٍ، وَبِهِ تَمَكَّنَ مِنْ قَهْرِ الْأَعْدَاءِ وَمِنْ تَسْهِيلِ الْوُصُولِ إِلَى مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا وَأَنْحَائِهَا.

﴿٨٦﴾ فَأَعْطَاهُ اللَّهُ مَا بَلَغَ بِهِ ﴿مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾، حَتَّى رَأَى الشَّمْسُ فِي مَرَأَى الْعَيْنِ كَأَنَّهَا ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾؛ أَي: سُودَاءَ، وَهَذَا الْمَعْتَادُ لِمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَفْقِ الشَّمْسِ الْغَرْبِيِّ مَاءً؛ رَأَاهَا تَغْرُبُ فِي نَفْسِ الْمَاءِ، وَإِنْ كَانَتْ فِي غَايَةِ الْارْتِفَاعِ. ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا﴾؛ أَي: عِنْدَ مَغْرِبِهَا ﴿قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾؛ أَي: إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَهُمْ بِقَتْلِ أَوْ ضَرْبٍ أَوْ أَسْرِ وَنَحْوِهِ، وَإِمَّا أَنْ تُخَسِّنَ إِلَيْهِمْ؛ فَخَيَّرَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ؛ لِأَنَّ الظَّاهِرَ أَنَّهُمْ [إِمَّا] كَفَّارٌ أَوْ فَسَاقٌ أَوْ فِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ غَيْرَ فَسَاقٍ؛ لَمْ يَرْخُصْ لَهُ فِي تَعَذِّبِهِمْ.

﴿٨٧﴾ فَكَانَ عِنْدَ ذِي الْقُرْنَيْنِ مِنَ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ مَا اسْتَحَقَّ بِهِ الْمَدْحُ وَالثَّنَاءُ؛ لِتَوْفِيقِ اللَّهِ لَهُ لَذَلِكَ، فَقَالَ: سَأَجْعَلُهُمْ قَسَمِينَ: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾: بِالْكَفْرِ، ﴿فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾؛ أَي: تَحْصُلُ لَهُ الْعُقُوبَتَانِ؛ عَقُوبَةُ الدُّنْيَا، وَعَقُوبَةُ الْآخِرَةِ.

﴿٨٨﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جِزَاءُ الْحُسْنَى﴾؛ أَي: فَلَهُ الْجَنَّةُ وَالْحَالَةُ الْحَسَنَةُ عِنْدَ اللَّهِ جِزَاءُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾؛ أَي: وَسَنُخَسِّنُ إِلَيْهِ وَنُلْطِفُ لَهُ بِالْقَوْلِ وَنَيِّسُرُ لَهُ الْمَعَامِلَةَ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ مِنَ الْمُلُوكِ الصَّالِحِينَ [وَالْأَوْلِيَاءِ الْعَادِلِينَ الْعَالَمِينَ؛ حَيْثُ وَافَقَ مَرْضَاةَ اللَّهِ فِي مَعَامِلَةِ كُلِّ أَحَدٍ بِمَا يَلِيقُ بِحَالِهِ].

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ ٨٩ ﴿إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجْدهَا تَطَلَّعَ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ ٩٠ ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ ٩١ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ ٩٢ ﴿إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ ٩٣ ﴿قَالُوا يَنْذَا لَٱلْقَرَيْنِ إِن يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ يَجْعَلْ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن يَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ ٩٤ ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ ٩٥ ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ ٩٦ ﴿إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنفُخُوا﴾ ٩٧ ﴿إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ ٩٨ ﴿فَمَا اسْطَٰعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُمْ نَفْبًا﴾ ٩٩ ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ ١٠٠ ﴿

﴿٨٩﴾ أي: لما وصل إلى مغرب الشمس؛ كرر راجعاً، قاصداً مطلعها، متبعاً للأسباب التي أعطاها الله.

﴿٩٠﴾ فوصل إلى مطلع الشمس فـ ﴿وجدها تطلَّع على قوم لم نجعل لهم من دونها سِتْرًا﴾؛ أي: وجدها تطلَّع على أناس ليس لهم سِتْرٌ من الشمس: إما لعدم استعدادهم في المساكن، وذلك لزيادة همجيتهم وتوحُّشهم وعدم تمذنتهم، وإما لكون الشمس دائمة عندهم لا تغرب [عنهم] غروباً يُذكر؛ كما يوجد ذلك في شرقي إفريقيا الجنوبي، فوصل إلى موضع انقطع عنه علم أهل الأرض فضلاً عن وصولهم إياه بأبدانهم.

﴿٩١﴾ ومع هذا؛ فكلُّ هذا بتقدير الله له وعلمه به، ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا [بما لديه خُبْرًا]؛ أي: بما عنده من الخير والأسباب العظيمة، وعلمنا معه حينما توجه وسار.

﴿٩٢ - ٩٣﴾ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا. حتى إذا بلغ بين السَّدَّيْنِ﴾: قال المفسرون: ذهب متوجِّهاً من المشرق قاصداً للشمال، فوصل إلى ما بين السَّدَّيْنِ، وهما سَدَّان كانا معروفين في ذلك الزمان، سَدَّان من سلاسل الجبال المتصلة يمنية ويسرة، حتى تتصل بالبحار^(١)، بين يأجوج ومأجوج وبين الناس، ﴿وجد﴾: من دون السدين ﴿قوماً لا يكادون يفقهون قولاً﴾؛ لعجَمَةِ ألسنتهم واستعجاب أذهانهم وقلوبهم.

﴿٩٤﴾ وقد أعطى الله ذا القرنين من الأسباب العلمية ما فقه به السنة أولئك القوم وفقههم وراجعهم وراجعوه، فاشتكوا إليه ضرر يأجوج ومأجوج، وهما أمتان

(١) في (ب): «وهما سَدَّان كانا سلاسل جبال معروفين في ذلك الزمان».

عظيمتان من بني آدم، فقالوا: ﴿إِنَّ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ مَفْسُدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾: بالقتل وأخذ الأموال وغير ذلك. ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾؛ أي: جُعلاً؛ ﴿عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾: ودل ذلك على عدم اقتدارهم بأنفسهم على بنيان السد، وعرفوا اقتدار ذي القرنين عليه، فبدلوا له أجره ليفعل ذلك، وذكروا له السبب الداعي، وهو إفسادهم في الأرض.

﴿٩٥﴾ فلم يكن ذو القرنين ذا طمع ولا رغبة في الدنيا ولا تاركاً لإصلاح أحوال الرعية، بل قصده الإصلاح؛ فلذلك أجاب طلبتهم؛ لما فيها من المصلحة، ولم يأخذ منهم أجره، وشكر ربه على تمكينه واقتداره، فقال لهم: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾؛ أي: مما تبذلون لي وتعطوني، وإنما أطلب منكم أن تعينوني بقوة منكم بأيديكم؛ ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾؛ أي: مانعاً من عبورهم عليكم.

﴿٩٦﴾ ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾؛ أي: قطع الحديد، فأعطوه ذلك، ﴿حتى إذا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾؛ أي: الجبلين اللذين بُني بينهما السد، ﴿قال انفخوا﴾: النار؛ أي أوقدوها إيقاداً عظيماً واستعملوا لها المنافيخ لتشتد فتذيب النحاس، فلما ذاب النحاس الذي يريد أن يُلصقه بين زُبَر الحديد، ﴿قال آتُونِي أَفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾؛ أي: نحاساً مذاباً، فأفرغ عليه القطر، فاستحكم السد استحكاماً هائلاً، وامتنع به من وراءه من الناس من ضرر ياجوج وماجوج.

﴿٩٧﴾ ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾؛ أي: فما لهم استطاعة ولا قدرة على الصعود عليه؛ لارتفاعه، ولا على نقيه؛ لإحكامه وقوته.

﴿٩٨﴾ فلما فعلَ هذا الفعل الجميل والأثر الجليل؛ أضاف النعمة إلى موليتها، وقال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾؛ أي: من فضله وإحسانه عليّ، وهذه حال الخلفاء والصالحين إذا منَّ الله عليهم بالنعم الجليلة؛ ازداد شكرهم وإقرارهم واعترافهم بنعمة الله؛ كما قال سليمان عليه السلام لما حَضَرَ عنده عرش ملكة سبأ مع البعد العظيم؛ قال: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾؛ بخلاف أهل التجبر والتكبر والعلو في الأرض؛ فإنَّ النعم الكبار تزيدهم أشراً وبطراً؛ كما قال قارون لما آتاه الله من الكنوز ما إنَّ مفاتيحه لتنوء بالعصبة أولي القوة؛ قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾. وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾؛ أي: لخروج ياجوج وماجوج. ﴿جَعَلَهُ﴾؛ أي: ذلك السد المحكم المتقن ﴿دَكَّاءً﴾؛ أي: دكة فانهدم، واستوى هو والأرض، ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾.

— ﴿وَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجٌ فِي بَعْضٍ وَفُتِحَ فِي الْأُصُورِ لِمَجْعَتِهِمْ جَمْعًا ۝٩٩﴾ .

﴿٩٩﴾ يحتمل أن الضمير يعود إلى يأجوج ومأجوج، وأنهم إذا خرجوا على الناس من كثرتهم واستيعابهم للأرض كلها يموج بعضهم ببعض؛ كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾، ويحتمل أن الضمير يعود إلى الخلائق يوم القيامة، وأنهم يجتمعون فيه، فيكثرون، ويموج بعضهم ببعض من الأهوال والزلازل العظام؛ بدليل قوله:

﴿وَفُتِحَ فِي الْأُصُورِ لِمَجْعَتِهِمْ جَمْعًا ۝٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا ۝١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۝١٠١﴾ .

﴿٩٩﴾ أي: إذا نفخ إسرافيل في الصور؛ أعاد الله الأرواح إلى الأجساد، ثم حَشَرَهُم وجمعهم لموقف القيامة، الأولين منهم والآخرين، والكافرين والمؤمنين؛ لِيَسْأَلُوا، وَيُحَاسَبُوا، وَيُجْزَوْا^(١) بأعمالهم.

﴿١٠٠﴾ فأما الكافرون على اختلافهم؛ فإنَّ جهنم جزاؤهم خالدين فيها أبدًا، ولهذا قال: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ﴾؛ أي: عُرِضَتْ لهم لتكون مأواهم ومنزلهم، وليتمتعوا بأغلالها وسعيرها وحميمها وزمهريرها، وليذوقوا من العقاب ما تبكم له القلوب، وتصم الآذان.

﴿١٠١﴾ وهذا آثار أعمالهم وجزاء أفعالهم؛ فإنَّهم في الدنيا كانت أعْيُنُهُمْ في غطاءٍ عن ذكر الله؛ أي: معرضين عن الذكر الحكيم والقرآن الكريم، وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه، وفي أعينهم أغطية تمنعهم من رؤية آيات الله النافعة؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾. ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾؛ أي: لا يقدرُونَ على سماع آيات الله، الموصلة إلى الإيمان؛ لبغضهم القرآن والرسول؛ فإنَّ المَبْغِضَ لا يستطيع أن يلقي سمعه إلى كلام من أبغضه؛ فإذا انحجبت عنهم طرق العلم والخير؛ فليس لهم سمع ولا بصر ولا عقل نافع؛ فقد كفروا بالله، وجحدوا آياته، وكذبوا رسله، فاستحقُّوا جهنم، وساءت مصيرًا.

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي آلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ۝١٠٢﴾ .

(١) كذا في النسختين وعدلت في (أ) بخط مغاير ويجزوا.

﴿١٠٢﴾ وهذا برهانٌ وبيانٌ لبطلان دعوى المشركين الكافرين، الذين اتَّخذوا بعض الأنبياء والأولياء شركاء لله يعبدونهم، ويزعمون أنهم يكونون لهم أولياء، ينجونهم من عذاب الله، ويُنبِلونهم ثوابه، وهم قد كفروا بالله وبرسوله^(١)، يقول الله لهم على وجه الاستفهام والإنكار المتقرّر بطلانه في العقول: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾؛ أي: لا يكون ذلك، ولا يوالي وليُّ الله معادياً لله أبداً؛ فإنَّ الأولياء موافقون لله في محبّته ورضاه وسخطه وبغضه، فيكون على هذا المعنى مشابهاً لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ * قالوا سبحانه أنت وليُّنا من دونهم؛ فمن زعم أنه يتَّخذ وليَّ الله وليّاً له وهو معادٍ لله؛ فهو كاذبٌ. ويُحتمل - وهو الظاهر - أنَّ المعنى: أفحسب الكفار بالله المنابذون لرسوله أن يتَّخذوا من دون الله أولياء ينصرونهم وينفعونهم من دون الله ويدفعون عنهم الأذى؟ هذا حسابٌ باطلٌ وظنٌّ فاسدٌ؛ فإنَّ جميع المخلوقين ليس بيدهم من النفع والضرر شيء، ويكون هذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَعَيْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾، ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشِّفَاعَةَ﴾. ونحو ذلك من الآيات التي يذكُر الله فيها أن المتَّخذ من دونه وليّاً ينصره ويواليه ضالٌّ خائب الرجاء غير نائل لبعض مقصوده. ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾؛ أي: ضيافة وقرى؛ فبئس النزل نُزلهم، وبئس جَهَنم ضيافتهم.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاءُهمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦).

﴿١٠٣﴾ أي: قل يا محمد للناس على وجه التحذير والإنذار: هل أخبركم بأخسر الناس «أعمالاً» على الإطلاق؟

﴿١٠٤﴾ «الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا»؛ أي: بطل واضمحَلَّ كلُّ ما عملوه من عمل، «وهم يحسبون أنهم» محسنون في صنعه؛ فكيف بأعمالهم التي يعلمون أنها باطلة وأنها محاذة لله ورسله ومعاداة؟!

﴿١٠٥﴾ فمن هم هؤلاء الذين خسرت أعمالهم فخسروا أنفسهم يوم القيامة وأهلهم يوم القيامة^(١) ألا ذلك هو الخسران المبين؟ ﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه﴾؛ أي: جحدوا الآيات القرآنية والآيات العيانة الدالة على وجوب الإيمان به وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر. ﴿فحِطَّتْ﴾: بسبب ذلك ﴿أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾: لأن الوزن فائدته مقابلة الحسنات بالسيئات والنظر في الراجح منها والمرجوح، وهؤلاء لا حسنات لهم؛ لعدم شرطها، وهو الإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾، لكن تعدد أعمالهم، وتحصى ويقررون بها، ويُخزّن بها على رؤوس الأشهاد ثم يعدّون عليها.

﴿١٠٦﴾ ولهذا قال: ﴿ذلك جزاؤهم﴾؛ أي: حبوط أعمالهم، وأنه لا يُقام لهم يوم القيامة وزن؛ لحقارتهم وخسّتهم بكفرهم بآيات الله واتخاذهم آياته ورسله هزواً يستهزئون بها ويسخّرون [منها]^(٢)، مع أن الواجب في آيات الله ورسله الإيمان التام بها والتعظيم لها والقيام بها أتم القيام، وهؤلاء عكسوا القضية، فانعكس أمرهم وتعسوا وانتكسوا في العذاب.

ولما بيّن مآل الكافرين وأعمالهم؛ بيّن أعمال المؤمنين ومآلهم، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٨﴾﴾

﴿١٠٧﴾ أي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: بقلوبهم، ﴿وعملوا الصالحات﴾: بجوارحهم، وشمل هذا الوصف جميع الدين؛ عقائده وأعماله، أصوله وفروعه الظاهرة والباطنة؛ فهؤلاء على اختلاف طبقاتهم من الإيمان والعمل الصالح، ﴿لهم جنات الفردوس﴾: يُحتمل أن المراد بجنات الفردوس أعلى الجنة ووسطها وأفضلها، وأنّ هذا الثواب لمن كَمَّلَ الإيمان والعمل الصالح، وهم الأنبياء والمقرَّبون، ويُحتمل أن يُراد بها جميع منازل الجنان، فيشمل هذا الثواب جميع طبقات أهل الإيمان من المقرَّبين والأبرار والمقتصدين؛ كلٌّ بحسب حاله، وهذا [أولى]^(٣) المعنيين؛ لعمومه، ولذكر الجنة بلفظ الجمع المضاف إلى الفردوس،

(١) كذا في (أ). وفي (ب): «فخسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة».

(٢) كذا في (ب). وفي (أ): «منهم». (٣) كذا في (ب). وفي (أ): «أول».

وَأَنَّ الْفَرْدوسَ يُطْلَقُ عَلَى الْبَسْتَانِ الْمَحْتَوِي عَلَى الْكَرَمِ أَوْ الْأَشْجَارِ الْمَلْتَفَّةِ، وَهَذَا صَادِقٌ عَلَى جَمِيعِ الْجَنَّةِ؛ فَجَنَّةُ الْفَرْدوسِ نُزِّلَ وَضِيافَةُ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَأَيُّ ضِيافَةٍ أَجَلٌ وَأَكْبَرُ وَأَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ الضِّيافَةِ، الْمَحْتَوِيَةِ عَلَى كُلِّ نَعِيمٍ لِلْقُلُوبِ وَالْأَرْوَاحِ وَالْأَبْدَانِ؟! وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ، مِنَ الْمَنَازِلِ الْأَنْيَقَةِ وَالرِّيَاضِ النَّاصِرَةِ وَالْأَشْجَارِ الْمُثْمِرَةِ وَالطَّيُورِ الْمَغْرُودَةِ الْمُشْجِيَةِ وَالْمَأْكَلِ اللَّذِيزَةِ وَالْمَشَارِبِ الشَّهِيَّةِ وَالنِّسَاءِ الْحَسَنَاتِ وَالْخُدَمِ وَالْوِلْدَانِ وَالْأَنْهَارِ السَّارِحَةِ وَالْمَنَازِلَ الرَّائِقَةِ وَالْجَمَالَ الْحَسَنِيَّ وَالْمَعْنَوِيَّ وَالنِّعْمَةَ الدَّائِمَةَ، وَأَعْلَى ذَلِكَ وَأَفْضَلُهُ وَأَجْلَهُ التَّنْعُمُ بِالْقُرْبِ مِنَ الرَّحْمَنِ وَنِيلَ رِضَاكَ الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ نَعِيمِ الْجَنَانِ، وَالتَّمَتُّعُ بِرُؤْيَا وَجْهِهِ الْكَرِيمِ وَسَمَاعِ كَلَامِ الرَّؤُوفِ الرَّحِيمِ فَلِلَّهِ تِلْكَ الضِّيافَةُ؛ مَا أَجْلَهَا وَأَجْمَلُهَا وَأَدْوَمُهَا وَأَكْمَلُهَا! وَهِيَ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَحِيطَ بِهَا وَصْفٌ أَحَدٌ مِنَ الْخَلَائِقِ، أَوْ تَخْطُرَ عَلَى الْقُلُوبِ؛ فَلَوْ عَلِمَ الْعِبَادُ بَعْضَ ذَلِكَ النَّعِيمِ عِلْمًا حَقِيقِيًّا يَصِلُ إِلَى قُلُوبِهِمْ لَطَارَتْ إِلَيْهَا قُلُوبُهُمْ بِالْأَشْوَاقِ، وَلَتَقَطَّعَتْ أَرْوَاحُهُمْ مِنْ أَلَمِ الْفِرَاقِ، وَلَسَارَوْا إِلَيْهَا زُرْفَاتٍ وَوَحْدَانًا، وَلَمْ يُوْثِرُوا عَلَيْهَا دُنْيَا فَانِيَةً وَلِذَاتٍ مَنْغَصَةً مُتَلَاشِيَةً، وَلَمْ يَفُوتُوا أَوْقَاتًا تَذْهَبُ ضَائِعَةً خَاسِرَةً، يَقَابِلُ كُلَّ لَحْظَةٍ مِنْهَا مِنَ النَّعِيمِ مِنَ الْحَقْبِ آلَافُ مُؤَلَّفَةٍ، وَلَكِنَّ الْغَفْلَةَ شَمَلَتْ، وَالْإِيمَانَ ضَعُفَ، وَالْعِلْمَ قَلَّ، وَالْإِرَادَةَ وَهَتْ^(١)، فَكَانَ مَا كَانَ؛ فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

﴿١٠٨﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: هَذَا هُوَ تَمَامُ النَّعِيمِ، أَنَّ فِيهَا النَّعِيمَ الْكَامِلَ، وَمِنْ تَمَامِهِ أَنَّهُ لَا يَنْقَطِعُ، ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾؛ أَي: تَحَوُّلًا وَلَا انْتِقَالًا؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَرُونَ إِلَّا مَا يَعْجِبُهُمْ وَيُبْهِجُهُمْ وَيَسُرُّهُمْ وَيَفْرَحُهُمْ، وَلَا يَرُونَ نَعِيمًا فَوْقَ مَا هُمْ فِيهِ.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِثَا مِثْلَهُ مِدَادًا﴾ (١٠٩).

﴿١٠٩﴾ أَي: قُلْ لَهُمْ مَخْبَرًا عَنْ عَظَمَةِ الْبَارِي وَسِعَةِ صِفَاتِهِ وَأَنَّهَا لَا يَحِيطُ الْعِبَادُ بِشَيْءٍ مِنْهَا: ﴿لَوْ كَانَ الْبَحْرُ﴾؛ أَي: هَذِهِ الْأَبْحَارُ الْمَوْجُودَةُ فِي الْعَالَمِ ﴿مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾؛ أَي: وَأَشْجَارُ الدُّنْيَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا مِنْ أَشْجَارِ الْبِلْدَانِ وَالْبَرَارِي وَالْبَحَارِ أَقْلَامٌ، ﴿لَنَفَذَ الْبَحْرُ﴾: وَتَكَسَّرَتِ الْأَقْلَامُ ﴿قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾.

رَبِّي: ﴿ وهذا شيء عظيم لا يحيط به أحد، وفي الآية الأخرى: ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾: وهذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان؛ لأن هذه الأشياء مخلوقة، وجميع المخلوقات منقضية منتهية، وأما كلام الله؛ فإنه من جملة صفاته، وصفاته غير مخلوقة ولا لها حد ولا منتهى؛ فأني سعة وعظمة تصورتها القلوب؛ فالله فوق ذلك، وهكذا سائر صفات الله تعالى؛ كعلمه وحكمته وقدرته ورحمته؛ فلو جمع علم الخلائق من الأولين والآخرين أهل السماوات وأهل الأرض؛ لكان بالنسبة إلى علم العظيم أقل من نسبة عصفور وقع على حافة البحر، فأخذ بمنقاره من البحر بالنسبة للبحر وعظمته، ذلك بأن الله له الصفات العظيمة الواسعة الكاملة، وأن إلى ربك المنتهى.

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَلَمْ أَهْدِكُمْ سَبِيلًا ﴾ (١١٠).

﴿ ١١٠ ﴾ أي: قل يا محمد للكفار وغيرهم: ﴿ إنما أنا بشر مثلكم ﴾؛ أي: لست بإله، ولا لي شركة في الملك، ولا علم بالغيب، ولا عندي خزائن الله، وإنما أنا بشر مثلكم، عبد من عبيد ربي. ﴿ يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد ﴾؛ أي: فضلت عليكم بالوحي الذي يوحى الله إلي، الذي أجله الإخبار لكم، ﴿ أنما إلهكم إله واحد ﴾؛ أي: لا شريك له ولا أحد يستحق من العبادة مثقال ذرة [غيره]، وأدعوكم إلى العمل الذي يقربكم منه ويُنيلكم ثوابه ويدفع عنكم عقابه، ولهذا قال: ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ﴾: وهو الموافق لشرع الله من واجب ومستحب، ﴿ ولا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾؛ أي: لا يراني بعمله، بل يعمل خالصاً لوجه الله تعالى؛ فهذا الذي جمع بين الإخلاص والمتابعة هو الذي ينال ما يرجو ويطلب، وأما مَنْ عدا ذلك؛ فإنه خاسر في دنياه وآخرها، وقد فاتته القرب من مولاه ونيل رضاه.

آخر تفسير سورة الكهف. والله الحمد.



تفسير سورة مريم

وهي مدنية^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿كَهَيِّصَ ١﴾ ذَكَرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُ زَكِرِيَّا ٢ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَى رَبُّهُ نَدَاءً خَفِيًّا ٣ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ٤ ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَأْيِ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ٥ ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ عَالِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٦ ﴿٦﴾

﴿٢﴾ أي: هذا ﴿ذَكَرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكِرِيَّا﴾: سنقصه عليك، ونفصله تفصيلاً يُعرِّف به حالة نبيه زكريا وآثاره الصالحة ومناقبه الجميلة؛ فإن في قصتها عبرة للمعتبرين وأسوة للمقتدين، ولأن في تفصيل رحمته لأوليائه وبأي سبب حصلت لهم مما يدعو إلى محبة الله تعالى والإكثار من ذكره ومعرفته والسبب الموصل إليه، وذلك أن الله تعالى اجتبى واصطفى زكريا عليه السلام لرسالته، وخصه بوحيه، فقام بذلك قيام أمثاله من المرسلين، ودعا العباد إلى ربه، وعلمهم ما علمه الله، ونصح لهم في حياته وبعد مماته كإخوانه من المرسلين ومن اتبعهم.

﴿٣ - ٤﴾ فلما رأى من نفسه الضعف، وخاف أن يموت، ولم يكن أحد ينوب منابه في دعوة الخلق إلى ربهم والنصح لهم، شكا إلى ربه ضعفه الظاهر والباطن، وناداه نداء خفياً؛ ليكون أكمل وأفضل وأتم إخلاصاً، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾؛ أي: وهى وضعف، وإذا ضعف العظم الذي هو عماد البدن؛ ضعف غيره. ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾؛ لأن الشيب دليل الضعف والكبر ورسول الموت ورائده ونذيره، فتوسل إلى الله تعالى بضعفه وعجزه، وهذا من أحب الوسائل إلى الله؛ لأنه يدل على التبري من الحول والقوة وتعلق القلب بحول الله وقوته. ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾؛ أي: لم تكن يا رب تردني خائباً ولا محروماً من الإجابة، بل لم تزل بي حفيّاً ولدعائي مجيباً، ولم تزل أطفأك تتوالى عليّ وإحسانك واصلاً

(١) كذا في النسختين، وقد حكي الإجماع على مكيتها ابن الجوزي والقرطبي. انظر كتاب «ابن السعدي مفسراً» (ص ٢٧٥).

إِلَيَّ، وَهَذَا تَوَسَّلَ إِلَى اللَّهِ بِإِنْعَامِهِ عَلَيْهِ وَإِجَابَةِ دَعَوَاتِهِ السَّابِقَةِ، فَسَأَلَ الَّذِي أَحْسَنَ سَابِقاً أَنْ يَتِمَّ إِحْسَانَهُ لَاحِقاً.

﴿٥﴾ ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾؛ أَي: وَإِنِّي خِفْتُ مِنْ يَتَوَلَّى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِي أَنْ لَا يَقُومُوا بِدِينِكَ حَقَّ الْقِيَامِ، وَلَا يَدْعُوا عِبَادَكَ إِلَيْكَ.

وظَاهِرُ هَذَا أَنَّهُ لَمْ يَرَفِهِمْ أَحَداً فِيهِ لِيَاقَةَ لِلْإِمَامَةِ فِي الدِّينِ، وَهَذَا فِيهِ شَفَقَةٌ زَكْرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَنَصْحُهُ وَأَنْ طَلَبَهُ لِلْوَلَدِ لَيْسَ كَطَلَبِ غَيْرِهِ؛ قَصْدُهُ مَجْرَدُ الْمَصْلَحَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَإِنَّمَا قَصْدُهُ مَصْلَحَةُ الدِّينِ وَالْخَوْفُ مِنْ ضِيَاعِهِ، وَرَأَى غَيْرَهُ غَيْرَ صَالِحٍ لَذَلِكَ، وَكَانَ بَيْتُهُ مِنَ الْبُيُوتِ الْمَشْهُورَةِ فِي الدِّينِ وَمَعْدَنُ الرِّسَالَةِ وَمُظَنَّةُ الْخَيْرِ، فَدَعَا اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَهُ وَلِذَا يَقُومُ بِالْدِّينِ مِنْ بَعْدِهِ، وَاشْتَكَى أَنَّ أَمْرَاتِهِ عَاقِرٌ؛ أَي: لَيْسَتْ تَلِدُ أَصْلَاحاً، وَأَنَّهُ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً؛ أَي: عَمراً يَنْدُرُ مَعَهُ وَجُودُ الشَّهْوَةِ وَالْوَلَدِ. ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً﴾.

﴿٦﴾ وَهَذِهِ الْوَلَايَةُ وَلايَةُ الدِّينِ وَمِيرَاثُ النَّبُوءَةِ وَالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَرْثُنِي وَيَرْثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾؛ أَي: عَبْدًا صَالِحًا تَرْضَاهُ وَتُحِبُّهُ إِلَى عِبَادِكَ.

وَالْحَاصِلُ أَنَّهُ سَأَلَ اللَّهَ وَلِذَا ذَكَرَ صَالِحاً يَبْقَى بَعْدَ مَوْتِهِ وَيَكُونُ وَلِيّاً مِنْ بَعْدِهِ وَيَكُونُ نَبِيّاً مُرَضِيّاً عِنْدَ اللَّهَ وَعِنْدَ خَلْقِهِ، وَهَذَا أَفْضَلُ مَا يَكُونُ مِنَ الْأَوْلَادِ، وَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعَبْدِهِ أَنْ يَرْزُقَهُ وَلِذَا صَالِحاً جَامِعاً لِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمُحَامَدِ الشِّيمِ، فَرَحِمَهُ رَبُّهُ وَاسْتَجَابَ دَعْوَتَهُ فَقَالَ:

﴿يَزَكِّرْكَ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً﴾ (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَقَدْ خَلَقْتَنِي مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً (٩) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً (١٠) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً (١١) ﴿

﴿٧﴾ أَي: بَشَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدِ الْمَلَائِكَةِ بِيَحْيَى، وَسَمَّاهُ اللَّهُ لَهُ يَحْيَى، وَكَانَ اسْمًا مُوَافِقًا لِمَسْمَاهِهِ؛ يَحْيَا حَيَاةَ حَسِيَّةٍ فَتَمُّ بِهِ الْمَتَّةُ، وَيَحْيَا حَيَاةَ مَعْنَوِيَّةٍ، وَهِيَ حَيَاةُ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ بِالْوَحْيِ وَالْعِلْمِ وَالِدِّينِ. ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً﴾؛ أَي: لَمْ يَسَمَّ هَذَا الْاسْمَ قَبْلَهُ أَحَدٌ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الْمَعْنَى: لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ مِثْلًا

ومسامياً؛ فيكون ذلك بشارَةً بكماله وأتصافه بالصفات الحميدة، وأنه فاق من قبله، ولكن على هذا الاحتمال؛ هذا العموم لا بد أن يكون مخصوصاً بإبراهيم وموسى ونوح عليهم السلام ونحوهم ممن هو أفضل من يحيى قطعاً.

﴿٨﴾ فحينئذ لما جاءت البشارة بهذا المولود الذي طلبه؛ استغرب وتعجب وقال: ﴿رَبِّ أُنَى يَكُونُ لِي غَلامٌ﴾: والحال أن المانع من وجود الولد موجود بي وبزوجتي، وكأنه وقت دعائه لم يستحضر هذا المانع؛ لقوة الوارد في قلبه وشدة الحرص العظيم على الولد، وفي هذه الحال حين قُبِلَتْ دعوته؛ تعجب من ذلك.

﴿٩﴾ فأجابه الله بقوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾؛ أي: الأمر مستغرب في العادة، وفي سنة الله في الخليقة، ولكن قدرة الله تعالى صالحة لإيجاده بدون أسبابها؛ فذلك هيّن عليه، ليس بأصعب من إيجاده قبل، ولم يك شيئاً.

﴿١٠﴾ ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾؛ أي: يطمئن بها قلبي، وليس هذا شكاً في خبر الله، وإنما هو كما قال الخليل عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي: فطلب زيادة العلم والوصول إلى عين اليقين بعد علم اليقين، فأجابه الله إلى طلبه رحمةً به. ﴿قَالَ آيَتُكَ أَنْ لَا تَكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا زَمْزَأً﴾، والمعنى واحد؛ لأنه تارة يعبر بالليالي، وتارة بالأيام، ومؤداها واحد، وهذا من الآيات العجيبة؛ فإن منعه من الكلام مدة ثلاثة أيام وعجزه عنه من غير خرس ولا آفة بل كان سويّاً لا نقص فيه من الأدلة على قدرة الله الخارقة للعوائد، ومع هذا ممنوع من الكلام الذي يتعلّق بالآدميين وخطابهم، وأما التسبيح [والتهليل] والذكر ونحوه فغير ممنوع منه، ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾.

﴿١١﴾ فاطمأن قلبه، واستبشر بهذه البشارة العظيمة، وامثل لأمر الله له بالشكر بعبادته وذكره، فعكف في محرابه، وخرج على قومه منه ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: بالإشارة والرمز، ﴿أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾: لأن البشارة بيحيى في حق الجميع مصلحة دينية.

﴿يَسْمِعُ خَلْدَ الْكَتَبِ بِقُوَّةٍ وَمَا يَنْتَهُ الْحَكَمُ صَبِيًّا﴾ ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُنْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾.

يَمَسِّنِي بَشَرًا وَلَمْ أَكُ بِبَعِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَنَّكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ .

﴿١٦﴾ لما ذكر قصة زكريا ويحيى، وكانت من الآيات العجيبة؛ انتقل منها إلى ما هو أعجب منها تدريجاً من الأدنى إلى الأعلى، فقال: ﴿وَأُذْكَرُ فِي الْكِتَابِ﴾: الكريم ﴿مريم﴾: عليها السلام، وهذا من أعظم فضائلها؛ أَنْ تُذْكَرَ فِي الْكِتَابِ الْعَظِيمِ الَّذِي يَتْلُوهُ الْمُسْلِمُونَ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا؛ تُذْكَرُ فِيهِ بِأَحْسَنِ الذِّكْرِ وَأَفْضَلِ الثَّنَاءِ؛ جَزَاءً لِعَمَلِهَا الْفَاضِلِ وَسَعِيهَا الْكَامِلِ؛ أَي: وَأُذْكَرُ فِي الْكِتَابِ مَرِيَمَ فِي حَالِهَا الْحَسَنَةِ حِينَ «انْتَبَذَتْ»؛ أَي: تَبَاعَدَتْ عَنْ أَهْلِهَا «مَكَانًا شَرْقِيًّا»؛ أَي: مِمَّا يَلِي الشَّرْقَ عَنْهُمْ.

﴿١٧﴾ «فَاتَّخَذْتُ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا»؛ أَي: سِتْرًا وَمَانِعًا، وَهَذَا التَّبَاعُدُ مِنْهَا وَاتِّخَاذُ الْحِجَابِ لَتَعْتَزَلَ وَتَتَفَرَّدَ بِعِبَادَةِ رَبِّهَا، وَتَقْنَتَ لَهُ فِي حَالَةِ الْإِخْلَاصِ وَالْخُضُوعِ وَالذَّلِّ لِلَّهِ تَعَالَى، وَذَلِكَ امْتِثَالٌ مِنْهَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ. يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾. وَقَوْلُهُ: «فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا»: وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، «فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا»؛ أَي: كَامِلًا مِنَ الرِّجَالِ فِي صُورَةٍ جَمِيلَةٍ وَهَيْئَةٍ حَسَنَةٍ لَا عَيْبَ فِيهِ وَلَا نَقْصَ؛ لَكُونِهَا لَا تَحْتَمِلُ رُؤْيَاهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ.

﴿١٨﴾ فلما رآته في هذه الحال، وهي معتزلة عن أهلها، منفردة عن الناس، قد اتَّخَذَتْ الْحِجَابَ عَنْ أَعْزَى النَّاسِ عَلَيْهَا، وَهُمْ أَهْلُهَا؛ خَافَتْ أَنْ يَكُونَ رَجُلًا قَدْ تَعَرَّضَ لَهَا بِسُوءٍ وَطَمِعَ فِيهَا، فَاعْتَصَمَتْ بِرَبِّهَا وَاسْتَعَاذَتْ مِنْهُ فَقَالَتْ لَهُ: «إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ»؛ أَي: أَلْتَجِئُ بِهِ، وَأَعْتَصِمُ بِرَحْمَتِهِ أَنْ تَنَالَنِي بِسُوءٍ، «إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا»؛ أَي: إِنْ كُنْتُ تَخَافُ اللَّهَ وَتَعْمَلُ بِتَقْوَاهُ؛ فَاتْرَكَ التَّعَرُّضَ لِي؛ فَجَمَعَتْ بَيْنَ الْإِعْتِصَامِ بِرَبِّهَا وَبَيْنَ تَخْوِيفِهِ وَتَرْهيبِهِ وَأَمْرِهِ بِلِزُومِ التَّقْوَى، وَهِيَ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ الْخَالِيَةِ وَالشَّبَابِ وَالبَعْدِ عَنِ النَّاسِ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ الْجَمَالِ الْبَاهِرِ وَالْبَشَرِيَّةِ الْكَامِلَةِ السَّوِيَّةِ، وَلَمْ يَنْطِقْ لَهَا بِسُوءٍ أَوْ يَتَعَرَّضَ لَهَا، وَإِنَّمَا ذَلِكَ خَوْفٌ مِنْهَا، وَهَذَا أَبْلَغُ مَا يَكُونُ مِنَ الْعَقَّةِ وَالبَعْدِ عَنِ الشَّرِّ وَأَسْبَابِهِ، وَهَذِهِ الْعَقَّةُ خُصُوصًا مَعَ اجْتِمَاعِ الدَّوَاعِي، وَعَدَمِ الْمَانِعِ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ، وَلِذَلِكَ أَثْنَى اللَّهُ عَلَيْهَا، فَقَالَ: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾؛ فَأَعَاضُهَا اللَّهُ بِعَقَّتِهَا وَلَدًا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، وَرَسُولًا مِنْ رُسُلِهِ.

﴿١٩﴾ فلما رأى جبريل منها الرُّوْعَ والخِيفَةَ؛ قَالَ: «إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ»؛

أي: إنما وظيفتي وشغلي تنفيذ رسالة ربي فيك، ﴿لَأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا﴾: وهذه بشارة عظيمة بالولد وزكاته؛ فَإِنَّ الزَّكَاةَ يستلزم تطهيره من الخصال الذميمة واتصافه بالخصال الحميدة.

﴿٢٠﴾ فتعجبت من وجود الولد من غير أب، فقالت: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾: والولد لا يوجد إلا بذلك.

﴿٢١﴾ ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئٌ وَلَنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾: تدل على كمال قدرة الله تعالى وعلى أَنَّ الأسباب جميعها لا تستقل بالتأثير، وإنما تأثيرها بتقدير الله، فيُري عباده خرق العوائد في بعض الأسباب العادية؛ لئلا يقفوا مع الأسباب، ويقطعوا النظر عن مقدرها ومسببها. ﴿ورحمة مئًا﴾؛ [أي]: ولنجعله رحمة مئًا به وبوالدته وبالناس: أما رحمة الله به؛ فَلَمَّا خَصَّهُ اللهُ بوحيه، ومنَّ عليه بما منَّ به على أولي العزم. وأما رحمته بوالدته؛ فَلَمَّا حصل لها من الفخر والثناء الحسن والمنافع العظيمة. وأما رحمته بالناس؛ فَإِنَّ أكبر نعمه عليهم أَنْ بَعَثَ فِيهِمْ رسولاً، يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة فيؤمنون به، ويطيعونه، وتحصل لهم سعادة الدنيا والآخرة. ﴿وكان﴾؛ أي: وجود عيسى عليه السلام على هذه الحالة ﴿أمرأ مقضيًا﴾: قضاء سابقاً؛ فلا بدَّ من نفوذ هذا التقدير والقضاء، فنفع جبريل عليه السلام في جيها.

﴿٢٢﴾ ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿فَنَادَتْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿وَهَزَيْتِ إِلَيْكِ يَجِئُكَ النَّخْلَةُ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا حِينًا﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَعَيْنًا فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ ﴿٢٧﴾.

﴿٢٢﴾ أي: لما حملت بعيسى عليه السلام؛ خافت من الفضيحة، فتباعدت عن الناس مكاناً قصياً.

﴿٢٣﴾ فلما قَرُبَ ولادها؛ أَلْجَأَهَا المَخَاضُ إلى جذع نخلة، فلما أَلْمَهَا وجع الولادة، ووجع الافراد عن الطعام والشراب، ووجع قلبها من قالة الناس، وخافت عدم صبرها؛ تَمَنَّتْ أَنَّها ماتت قبل هذا الحادث وكانت نَسِيًّا مَنْسِيًّا؛ فلا تُذَكَّرُ، وهذا التمني بناء على ذلك المزعج، وليس في هذه الأمنية خير لها ولا مصلحة، وإنما الخير والمصلحة بتقدير ما حَصَلَ.

﴿٢٤﴾ فحينئذٍ سَكَنَ الْمَلِكُ رَوْعَهَا، وَثَبَّتْ جَاشِئَهَا، وَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا؛ لَعَلَّهُ مِنْ^(١) مَكَانٍ أَنْزَلَ مِنْ مَكَانِهَا، وَقَالَ لَهَا: لَا تَخْزِينِي؛ أَي: لَا تَجْزَعِي وَلَا تَهْتَمِّي؛ فَ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتِكَ سَرِيًّا﴾؛ أَي: نَهْرًا تَشْرِبُ مِنْهُ.

﴿٢٥﴾ وَهَزَيَ إِلَيْكَ بِجَذَعِ النَّخْلَةِ تَسَاقُطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا؛ أَي: طَرِيًّا لَذِيذًا نَافِعًا.

﴿٢٦﴾ ﴿فَكَلِمِي﴾: مِنَ التَّمْرِ، ﴿وَاشْرِبِي﴾: مِنَ النَّهْرِ، ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾: بِعَيْسَى؛ فَهَذَا طَمَئِنَّتِهَا مِنْ جِهَةِ السَّلَامَةِ مِنَ أَلَمِ الْوِلَادَةِ وَحَصُولِ الْمَأْكَلِ وَالْمَشْرَبِ الْهَنِيِّ، وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ قَالَةِ النَّاسِ؛ فَأَمَرَهَا أَنَّهَا إِذَا رَأَتْ أَحَدًا مِنَ الْبَشَرِ أَنْ تَقُولَ عَلَى وَجْهِ الْإِشَارَةِ: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾؛ أَي: سَكُوتًا، ﴿فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾؛ أَي: لَا تَخَاطِبِيهِمْ بِكَلَامٍ لَتُسْتَرِيحِي مِنْ قَوْلِهِمْ وَكَلَامِهِمْ، وَكَانَ مَعْرُوفًا عَنْهُمْ أَنَّ السَّكُوتَ مِنَ الْعِبَادَاتِ الْمَشْرُوعَةِ. وَإِنَّمَا لَمْ تُؤَمَّرْ بِمَخَاطَبَتِهِمْ^(٢) فِي نَفْيِ ذَلِكَ عَنْ نَفْسِهَا، لِأَنَّ النَّاسَ لَا يَصْدُقُونَهَا، وَلَا فِيهِ فَائِدَةٌ، وَلِيَكُونَ تَبَرُّتُهَا بِكَلَامِ عَيْسَى فِي الْمَهْدِ أَعْظَمَ شَاهِدٍ عَلَى بَرَاءَتِهَا؛ فَإِنَّ إِيَّانَ الْمَرْأَةِ بَوْلِدٍ مِنْ دُونِ زَوْجٍ وَدَعَاوَاهَا أَنَّ مِنْ غَيْرِ أَحَدٍ مِنْ أَكْبَرِ الدَّعَاوَى الَّتِي لَوْ أَقِيمَ عِدَّةٌ مِنَ الشُّهُودِ لَمْ تَصْدُقْ بِذَلِكَ، فَجُعِلَتْ بَيِّنَةٌ هَذَا الْخَارِقُ لِلْعَادَةِ أَمْرًا مِنْ جَنْسِهِ، وَهُوَ كَلَامُ عَيْسَى فِي حَالِ صُغَرِهِ جَدًّا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

﴿فَآتَتْ بِهٍ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرُؤُا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ۝٢٧﴾ يَتَأَخَتَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۝٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۝٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِيَّ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝٣٣﴾.

﴿٢٧﴾ أَي: فَلَمَّا تَعَلَّتْ مَرْيَمُ مِنْ نَفَاسِهَا؛ أَتَتْ بِعَيْسَى قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، وَذَلِكَ لِعِلْمِهَا بِبَرَاءَةِ نَفْسِهَا وَطَهَارَتِهَا، فَآتَتْ غَيْرَ مَبَالِيَةٍ وَلَا مَكْتَرَةٍ، فَقَالُوا: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾؛ أَي: عَظِيمًا وَخِيمًا، وَأَرَادُوا بِذَلِكَ الْبَغْيَ حَاشَاهَا مِنْ ذَلِكَ.

﴿٢٨﴾ ﴿يَا أُخْتُ هَارُونَ﴾: الظَّاهِرُ أَنَّهُ أَخٌ لَهَا حَقِيقِيٌّ فَنَسَبُوهَا إِلَيْهِ، [وَكَانُوا

يسمون بأسماء الأنبياء، وليس هو هارون بن عمران أخا موسى، لأن بينهما قروناً كثيرة، ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾؛ أي؛ لم يكن أبوك إلا صالحين سالمين من الشرِّ، وخصوصاً هذا الشرُّ الذي يشيرون إليه، وقصدُهم: فكيف كنتِ على غير وصفهما وأتيبتِ بما لم يأتيا به؟! وذلك أن الذرِّية في الغالب بعضها من بعض في الصلاح وضده، فتعجبوا بحسب ما قام بقلوبهم؛ كيف وقع منها؟!

﴿٢٩﴾ ﴿فَأَشَارَتْ﴾ لهم ﴿إِلَيْهِ﴾؛ أي: كلّموه، وإنّما أشارت لذلك لأنّها أمرت عند مخاطبة الناس لها أن تقول: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾، فلما أشارت إليهم بتكليمه؛ تعجبوا من ذلك، وقالوا: ﴿كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾؛ لأنّ ذلك لم تجر به عادة ولا حصل من أحد في ذلك السن.

﴿٣٠﴾ فحينئذ قال عيسى عليه السلام وهو في المهد صبيّاً: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾: فخطبهم بوصفه بالعبودية، وأنه ليس فيه صفة يستحقُّ بها أن يكون إلهاً أو ابناً للإله، تعالى الله عن قول النصارى المخالفين لعيسى في قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾، ومدّعون موافقته، ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾؛ أي: قضى أن يؤتيني الكتاب، ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾: فأخبرهم بأنّه عبد الله، وأنّ الله علّمه الكتاب وجعله من جملة أنبيائه؛ فهذا من كماله لنفسه.

﴿٣١﴾ ثم ذكر تكميله لغيره، فقال: ﴿وَجَعَلَنِي مَبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ﴾؛ أي: في أيّ مكانٍ وأيّ زمان؛ فالبركة جعلها الله في من تعليم الخير والدعوة إليه والنهي عن الشرِّ والدعوة إلى الله في أقواله وأفعاله؛ فكلُّ من جالسه أو اجتمع به؛ نالته بركته وسعد به مصاحبه. ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾؛ أي: أوصاني بالقيام بحقوقه التي من أعظمها الصلاة، وحقوق عبادته التي أجلّها الزكاة؛ مدّة حياتي؛ أي: فأنا ممثّل لوصيّة ربّي، عاملٌ عليها، منفذٌ لها.

﴿٣٢﴾ وأوصاني أيضاً أن أبرّ والدتي فأحسن إليها غاية الإحسان، وأقوم بما ينبغي لها؛ لشرفها وفضلها، ولكونها والدّة لها حقُّ الولادة وتوابعها. ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾؛ أي: متكبراً على الله مترفعاً على عبادته، ﴿شَقِيًّا﴾: في دنيائي وأخراي، فلم يجعلني كذلك، بل جعلني مطيعاً له خاضعاً خاشعاً متذللاً متواضعاً لعباد الله سعيدياً في الدنيا والآخرة أنا ومن اتّبعتني.

﴿٣٣﴾ فلما تمَّ له الكمال ومحامد الخصال؛ قال: ﴿وسلامٌ عليَّ يومَ ولدتُ ويومَ أُموتُ ويومَ أُبعثُ حيًّا﴾؛ أي: من فضل ربي وكرمه حصلت لي السلامة يوم ولادتي ويوم موتي ويوم بعثي من الشرِّ والشیطان والعقوبة، وذلك يقتضي سلامته من الأهوال ودار الفجَّار، وأنَّه من أهل دار السلام؛ فهذه معجزةٌ عظيمة وبرهانٌ باهرٌ على أنَّه رسول الله وعبدُ الله حقًّا.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿٣٤ - ٣٥﴾ أي: ذلك الموصوف بتلك الصفات عيسى ابن مريم من غير شك ولا مِرية، بل ﴿قول الحق﴾ وكلام الله الذي لا أصدق منه قِيلًا ولا أحسن منه حديثًا؛ فهذا الخبر اليقيني عن عيسى عليه السلام، وما قيل فيه ممَّا يخالف هذا؛ فإنَّه مقطوعٌ ببطلانه، وغايته أن يكون شكًّا من قائله لا علم له به، ولهذا قال: ﴿الذي فيه يمترون﴾؛ أي: يشكون فيما رَوْن بشكهم ويجادلون بخِصَمهم؛ فمن قائل عنه: إنَّه الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن إفكهم وتقوْلهم علوًّا كبيرًا؛ ف﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد﴾؛ أي: ما ينبغي ولا يليق؛ لأنَّ ذلك من الأمور المستحيلة؛ لأنَّه الغنيُّ الحميد المالك لجميع الممالك؛ فكيف يتخذ من عباده ومماليكه ولدًا. ﴿سبحانه﴾؛ أي: تنزهه وتقُدِّسه عن الولد والنقص، ﴿إذا قضى أمرًا﴾؛ أي: من الأمور الصغار والكبار؛ لم يمتنع عليه ولم يستصعب، ﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾؛ فإذا كان قدره ومشيئته نافذة في العالم العلوي والسفلي، فكيف يكون له ولد؟ وإذا كان، إذا أراد شيئًا؛ قال له: كن فيكون؛ فكيف يُستبعدُ إيجاده عيسى من غير أب؟!

﴿٣٦﴾ ولهذا أخبر عيسى أنَّه عبدٌ مربوب كغيره، فقال: ﴿وإنَّ الله ربِّي ورَبُّكُمْ﴾: الذي خلقنا وصوّرنا ونفدَّ فينا تدبيره وصرفنا تقديره. ﴿فاعبدوه﴾؛ أي: أخلصوا له العبادة واجتهدوا في الإنابة. وفي هذا الإقرار بتوحيد الربوبية وتوحيد الإلهية والاستدلال بالأول على الثاني، ولهذا قال: ﴿هذا صراط مستقيم﴾؛ أي: طريق معتدلٌ موصلٌ إلى الله؛ لكونه طريق الرسل وأتباعهم، وما عدا هذا؛ فإنَّه من طرق الغي والضلال.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الْفَالِغُمُونَ أَيَّوْمٍ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ .

﴿٣٧﴾ لما بيّن تعالى حال عيسى ابن مريم الذي لا يُشكُّ فيها ولا يُمتري؛ أخبر أنّ الأحزاب؛ أي: فرق الضلال من اليهود والنصارى وغيرهم على اختلاف طبقاتهم اختلفوا في عيسى عليه السلام؛ فمن غالٍ فيه وجاف؛ فمنهم من قال: إنه الله! ومنهم من قال: إنه ابن الله! ومنهم من قال: إنه ثالث ثلاثة! ومنهم من لم يجعله رسولا، بل رماه بأنّه ولد بغيّ كاليهود! وكل هؤلاء أقوالهم باطلة، وآراؤهم فاسدة مبنية على الشك والعناد والأدلة الفاسدة والشبه الكاسدة، وكل هؤلاء مستحقون للوعيد الشديد، ولهذا قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: بالله ورسله وكتبه، ويدخل فيهم اليهود والنصارى، القائلون بعيسى قول الكفر، ﴿من مشهدٍ يومٍ عظيمٍ﴾؛ أي: مشهد يوم القيامة، الذي يشهده الأولون والآخرون، أهل السماوات وأهل الأرض، الخالق والمخلوق، الممتلىء بالزلازل والأهوال، المشتمل على الجزاء بالأعمال؛ فحيثُ يتبين ما كانوا يُخفون، ويبدون، وما كانوا يكتُمون.

﴿٣٨﴾ ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾؛ أي: ما أسمعهم وما أبصرهم في ذلك اليوم، فيقرّون بكفرهم وشركهم وأقوالهم، ويقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾: ففي القيامة يستيقنون حقيقة ما هم عليه. ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾: وليس لهم عذر في هذا الضلال؛ لأنّهم بين معاندٍ ضال على بصيرة عارف بالحقّ صادف عنه، وبين ضال عن طريق الحقّ، متمكّن من معرفة الحقّ والصواب، ولكنّه راضٍ بضلاله، وما هو عليه من سوء أعماله، غير ساعٍ في معرفة الحقّ من الباطل.

وتأمّل كيف قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ بعد قوله: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ بَيْنَهُمْ﴾، ولم يقل: فويلٌ لهم؛ ليعود الضمير إلى الأحزاب؛ لأنّ من الأحزاب المختلفين طائفة [أصابت] ووافقت الحقّ فقالت في عيسى: إنّهُ عبدُ الله ورسولُهُ، فأمنوا به واتبعوه؛ فهؤلاء مؤمنون غير داخلين في هذا الوعيد؛ فلهذا خصّ الله بالوعيد الكافرين.

﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ .

﴿٣٩ - ٤٠﴾ الإنذار: هو الإعلام بالمخوف على وجه الترهيب والإخبار بصفاته، وأحق ما يُنذر به ويخوف به العباد يوم الحسرة حين يُقضى الأمر، فيُجمع الأولون والآخرون في موقفٍ واحدٍ، ويُسألون عن أعمالهم؛ فمن آمن بالله وأتبع رسله؛ سَعِدَ سعادةً لا يشقى بعدها، ومن لم يؤمن بالله ويتبع رسله؛ شقى شقاوةً لا يسعد^(١) بعدها، وخَسِرَ نفسه وأهله؛ فحينئذٍ يتحسّر ويندم ندامةً تنقطع^(٢) منها القلوب، وتتصدّع منها الأفئدة، وأئى حسرة أعظم من فوات رضا الله وجنته واستحقاق سخطه والنار على وجه لا يَتَمَكَّنُ من الرجوع لِيَسْتَأْنِفَ العمل، ولا سبيل له إلى تغيير حاله بالعود إلى الدنيا؟! فهذا قدامهم، والحال أنهم في الدنيا في غفلة عن هذا الأمر العظيم؛ لا يخطر بقلوبهم، ولو خطر؛ فعلى سبيل الغفلة، قد عمّتهم الغفلة، وشملتهم السكره؛ فهم لا يؤمنون بالله، ولا يتبعون رسله، قد ألهمتهم دنياهم، وحالت بينهم وبين الإيمان شهواتهم المنقضية الفانية؛ فالدنيا وما فيها من أولها إلى آخرها ستذهب عن أهلها ويذهبون عنها، وسيرث الله الأرض ومن عليها، ويرجعهم إليه، فيجازيهم بما عملوا فيها، وما خسروا فيها أو ربحوا؛ فمن عمل خيراً؛ فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك؛ فلا يلومن إلا نفسه.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ۖ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَأْتَبُتْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۚ يَأْتَبُتْ إِنِّي قَالَ جَآءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۖ يَأْتَبُتْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۚ يَأْتَبُتْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۚ قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَكْفُرُ ۖ إِنَّمَا كُنْتُ فِي شَكٍّ مِّمَّنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَشْيَ ۖ أَلَا أَكُونُ بِدُعَاءِ رَبِّي شَاقِيًّا ۚ فَلَمَّا آخَزْتُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۖ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۖ﴾

أجل الكتب وأفضلها وأعلاها هذا الكتاب المبين والذكر الحكيم؛ فإن ذكر فيه الأخبار؛ كانت أصدق الأخبار وأحقها وأنفعها، وإن ذكر فيه الأمر والنهي؛ كانت أجل الأوامر والنواهي وأعدلها وأقسطها، وإن ذكر فيه الجزاء والوعود والوعيد؛ كان

(١) في (ب): «لا سعادة».

(٢) في (ب): «تقطع».

أصدق الأنبياء وأحقها وأدلها على الحكمة والعدل والفضل، وإن ذَكَرَ فيه الأنبياء والمرسلون؛ كان المذكور فيه أكمل من غيره وأفضل، ولهذا كثيراً ما يُبدىء ويعيدُ في قصص الأنبياء الذين فضّلهم على غيرهم، ورفَع قدرهم وأعلى أمرهم بسبب ما قاموا به من عبادة الله ومحبتّه والإنابة إليه والقيام بحقوقه وحقوق العباد ودعوة الخلق إلى الله والصبر على ذلك والمقامات الفاخرة والمنازل العالية، فذكر الله في هذه السورة جملةً من الأنبياء؛ يأمر الله رسوله أن يذكّرهم؛ لأنّ في ذكرهم إظهار الثناء على الله وعليهم، وبيان فضله وإحسانه إليهم، وفيه الحثُّ على الإيمان بهم ومحبتهم والافتداء بهم فقال:

﴿٤١﴾ ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾: جمع الله له بين الصديقيّة والنبوة؛ فالصديق كثير الصدق؛ فهو الصادق في أقواله وأفعاله وأحواله، المصدق بكل ما أُمِر بالتصديق به، وذلك يستلزم العلم العظيم، الواصل إلى القلب، المؤثر فيه، الموجب لليقين، والعمل الصالح الكامل، وإبراهيم عليه السلام هو أفضل الأنبياء كلّهم بعد محمد ﷺ، وهو الأب الثالث للطوائف الفاضلة، وهو الذي جعل الله في ذُرِّيَّتِهِ النبوة والكتاب، وهو الذي دعا الخلق إلى الله، وصبر على ما ناله من العذاب العظيم، فدعا القريب والبعيد، واجتهد في دعوة أبيه مهما أمكنه.

﴿٤٢﴾ وذكر الله مراجعته إيّاه فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾: مهجناً له عبادة الأوثان: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾؛ أي: لم تعبد أصناماً ناقصة في ذاتها وفي أفعالها؛ فلا تسمع، ولا تبصر، ولا تملك لعابدها نفعا ولا ضرا، بل لا تملك لأنفسها شيئا من النفع، ولا تقدر على شيء من الدفع؟! فهذا برهانٌ جلّي دالٌّ على أنّ عبادة الناقص في ذاته وأفعاله مستقبّح عقلاً وشرعاً، ودلّ تنبيهه وإشارته أنّ الذي يجب ويحسن عبادة مَنْ له الكمال، الذي لا ينال العبادُ نعمةً إلّا منه، ولا يدفع عنهم نقمةً إلّا هو، وهو الله تعالى.

﴿٤٣﴾ ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾؛ أي: يا أبَتِ لا تخفّرني وتقول: إنّني ابتُك، وإنّ عندك ما ليس عندي، بل قد أعطاني الله من العلم ما لم يُعطِكَ، والمقصود من هذا قوله: ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾؛ أي: مستقيماً معتدلاً، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وطاعته في جميع الأحوال.

وفي هذا من لطف الخطاب ولينه ما لا يخفى، فإنّه لم يقل: يا أبَتِ أنا عالمٌ وأنت جاهلٌ، أو: ليس عندك من العلم شيء، وإنّما أتى بصيغة [تقتضي] أنّ عندي

وعندك علماً، وأن الذي وصل إلي لم يصل إليك ولم يأتك؛ فينبغي لك أن تتبّع الحجة وتنفاد لها.

﴿٤٤﴾ ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾: لَأَنْ مَنْ عَبَدَ غَيْرَ اللَّهِ؛ فقد عبد الشيطان؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾: فمن اتَّبَعَ خطواته؛ فقد اتَّخَذَهُ وَلِيًّا، وكان عاصياً لله بمنزلة الشيطان. وفي ذكر إضافة العصيان إلى اسم الرحمن إشارة إلى أَنَّ المعاصي تمنع العبد من رحمة الله وتُغْلِقُ عليه أبوابها؛ كما أَنَّ الطاعة أكبر الأسباب لنيل رحمته.

﴿٤٥﴾ ولهذا قال: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾؛ أي: بسبب إصرارك على الكفر، وتماديك في الطغيان، ﴿فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾؛ أي: في الدنيا والآخرة، فتنزّل بمنزلة الذميمة، وترتفع في مراتعه الوحشية، فتدرج الخليل عليه السلام بدعوة أبيه بالأسهل فالأسهل، فأخبره بعلمه، وَأَنَّ ذَلِكَ مُوجِبٌ لِاتِّبَاعِكَ إِيَّاي، وَأَنَّكَ إِنْ أَطَعْتَنِي؛ اهتديت إلى صراط مستقيم. ثم نهاه عن عبادة الشيطان، وأخبره بما فيها من المضار. ثم حذّره عقاب الله ونقمته إن أقام على حاله، وَأَنَّهُ يَكُونُ وَلِيًّا لِلشَّيْطَانِ.

﴿٤٦﴾ فلم ينجح هذا الدعاء بذلك الشقي، وأجاب بجواب جاهل وقال: ﴿أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾: فتبجّع بآلهته التي هي من الحجر والأصنام، ولَمْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ رَغْبَتِهِ عَنْهَا، وهذا من الجهل المفرط والكفر الوحيم؛ يتمدح بعبادة الأوثان ويدعو إليها. ﴿لَنْ لَمْ تَنْتَهَ﴾؛ أي: عن شتم آلِهَتِي ودعوتي إلى عبادة الله، ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾؛ أي: قتلاً بالحجارة، ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾؛ أي: لا تكلمني زماناً طويلاً.

﴿٤٧﴾ فأجابه الخليل جواب عباد الرحمن عند خطاب الجاهلين، ولم يشتمه، بل صبر، ولم يقابل أباه بما يكره، وقال: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾؛ أي: ستسلم من خطابي إياك بالشم والسب وبما تكره، ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾؛ أي: لا أزال أدعو الله لك بالهداية والمغفرة بأن يهديك للإسلام الذي به تحصل المغفرة؛ فَإِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا؛ أي: رحيماً رءوفاً بحالي معتنياً بي، فلم يزل يستغفر الله له رجاء أن يهديه الله، فلما تبين له أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ، وَأَنَّهُ لَا يَفِيدُ فِيهِ شَيْئاً؛ ترك الاستغفار له وتبرأ منه.

وقد أمرنا الله بالتباعد ملة إبراهيم؛ فمن اتبع ملته سلوك طريقه في الدعوة إلى الله بطريق العلم والحكمة واللين والسهولة والانتقال من رتبة إلى رتبة^(١)، والصبر على ذلك، وعدم السأمة منه، والصبر على ما ينال الداعي من أذى الخلق بالقول والفعل، ومقابلة ذلك بالصفح والعفو، بل بالإحسان القولي والفعل.

﴿٤٨﴾ فلما أيس من قومه وأبيه؛ قال: ﴿واعتزلكم وما تدعون من دون الله﴾؛ أي: أنتم وأصنامكم، ﴿وأدعو ربي﴾: وهذا شاملٌ لدعاء العبادة ودعاء المسألة، ﴿عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيًا﴾؛ أي: عسى الله أن يسعدني بإجابة دعائي وقبول أعمالي، وهذه وظيفة من أيس ممن دعاهم - فاتبعوا أهواءهم، فلم تنجع فيهم المواعظ، فأصروا في طغيانهم يعمهون - أن يشتغل بإصلاح نفسه، ويرجو القبول من ربه، ويعتزل الشر وأهله.

﴿٤٩﴾ ولما كان مفارقة الإنسان لوطنه ومألفه وأهله وقومه من أشق شيء على النفس لأمر كثيرة معروفة، ومنها انفراذه عمن يتعزز بهم ويتكثر، وكان من ترك شيئاً لله؛ عوضه الله خيراً منه، واعتزل إبراهيم قومه؛ قال الله في حقه: ﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاً﴾: من إسحاق ويعقوب، ﴿جعلنا نبياً﴾: فحصل له وهؤلاء الصالحين^(٢) المرسلين إلى الناس، الذين خصهم الله بوحيه، واختارهم لرسالته، واصطفاهم من العالمين.

﴿٥٠﴾ ﴿وهبنا لهم﴾؛ أي: لإبراهيم وابنيه إسحاق ويعقوب، ﴿من رحمنا﴾: وهذا يشمل جميع ما وهب الله لهم من الرحمة من العلوم النافعة والأعمال الصالحة والذرية الكثيرة المنتشرة، الذين قد كثر فيهم الأنبياء والصالحون، ﴿وجعلنا لهم لساناً صدقاً علياً﴾: وهذا أيضاً من الرحمة التي وهبها لهم؛ لأن الله وعد كل محسن أن ينشر له ثناء صادقاً بحسب إحسانه، وهؤلاء من أئمة المحسنين، فنشر الله الثناء الحسن الصادق غير الكاذب العالي غير الخفي، فذكرهم ملاً الخافقين، والثناء عليهم ومحبتهم امتلأت بها القلوب وفاضت بها الألسنة، فصار قدوة للمقتدين وأئمة للمهتدين، ولا تزال أذكأرهم في سائر العصور متجددة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

(١) في (ب): «من مرتبة إلى مرتبة».

(٢) في (ب): «فحصل له هبة هؤلاء الصالحين».

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَذِيرًا مِّن جَانِبِ الطُّورِ
الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِّن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾.

﴿٥١﴾ أي: واذكر في هذا القرآن العظيم موسى بن عمران على وجه التبجيل له والتعظيم والتعريف بمقامه الكريم وأخلاقه الكاملة. ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾: قُرىء بفتح اللام على معنى أَنَّ اللَّهَ تعالى اختاره، واستخلصه، واصطفاه على العالمين، وقرىء بكسرهما على معنى أَنَّهُ ﴿مُخْلَصًا﴾ لِلَّهِ تعالى في جميع أعماله وأقواله ونيَّاتِهِ، فوصفُهُ الإخلاص في جميع أحواله، والمعنيان متلازمان؛ فَإِنَّ اللَّهَ أَخْلَصَهُ لإخلاصه، وإخلاصُهُ موجبٌ لاستخلاصه، وأجلُّ حالةٍ يوصفُ بها العبدُ الإخلاص منه والاستخلاص من ربِّه. ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾؛ أي: جمع الله له بين الرسالة والنبوة؛ فالرسالة تقتضي تبليغ كلام المرسل وتبليغ جميع ما جاء به من الشرع دَقُّه وجِلُّه، والنبوة تقتضي إحياء الله إليه وتخصيصه بإنزال الوحي إليه؛ فالنبوة بينه وبين ربِّه، والرسالة بينه وبين الخلق.

﴿٥٢﴾ بل خَصَّهُ اللَّهُ من أنواع الوحي بأجلِّ أنواعه وأفضلها، وهو تكليمه تعالى وتقريبه مناجياً لله تعالى، وبهذا اختَصَّ من بين الأنبياء بأنَّه كليم الرحمن، ولهذا قال: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِّن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾؛ أي: الأيمن من موسى في وقت مسيره، أو: الأيمن؛ أي: الأبرك من اليمن والبركة، ويدلُّ على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَن بَوْرِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾. ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾: والفرق بين النداء والنجاء: أَنَّ النداء هو الصوت الرفيع، والنجاء ما دون ذلك.

وفي هذا إثبات الكلام لله تعالى وأنواعه من النداء والنجاء؛ كما هو مذهب أهل السنة والجماعة؛ خلافاً لمن أنكر ذلك من الجهمية والمعتزلة، ومن نحا نحوهم.

﴿٥٣﴾ وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِّن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾: هذا من أكبر فضائل موسى وإحسانه ونصحه لأخيه هارون: أَنَّهُ سَأَلَ رَبَّهُ أَن يُشْرِكَه فِي أَمْرِهِ وَأَن يَجْعَلَهُ رَسُولًا مِّثْلَهُ، فاستجاب الله له ذلك، ووهب له من رحمته أخاه هارون نبياً؛ فنبوة هارون تابعة لنبوة موسى عليهما السلام، فساعده على أمره وأعانه عليه.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ
بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾.

﴿٥٤﴾ أي: واذكر في القرآن الكريم هذا النبي العظيم، الذي خَرَجَ مِنْهُ الشَّعْبُ

العربي، أفضل الشعوب وأجلها، الذين منهم سيّد ولد آدم. ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾؛ أي: لا يَعدُّ وعداً إلّا وَفَى به، وهذا شاملٌ للوعد الذي يعقده مع الله أو مع العباد، ولهذا لما وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه له؛ قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾: وفى بذلك، ومكّن أباه من الذبح الذي هو أكبر مصيبة تصيب الإنسان. ثم وَصَفَهُ بالرسالة والنبوة التي هي أكبر منن الله على عبده، وجعله^(١) من الطبقة العليا من الخلق.

﴿٥٥﴾ ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾؛ أي: كان مقيماً لأمر الله على أهله، فيأمرهم بالصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود، وبالزكاة المتضمنة للإحسان إلى العبيد؛ فكمّل نفسه، وكمّل غيره، وخصوصاً أخصّ الناس عنده، وهم أهله؛ لأنهم أحقّ بدعوته من غيرهم. ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾: وذلك بسبب امتثاله لمراضي ربه واجتهاده فيما يرضيه؛ ارتضاه الله وجعله من خواصّ عباده وأوليائه المقربين؛ فرضي الله عنه، ورضي هو عن ربه.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيْسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۖ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۖ﴾.

﴿٥٦﴾ أي: اذكر في الكتاب^(٢) على وجه التعظيم والإجلال والوصف بصفات الكمال إدريس. ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾: جمَعَ الله له بين الصّدّيقية الجامعة للتصديق التام والعلم الكامل واليقين الثابت والعمل الصالح، وبين اصطفايته لوحيه واختياره لرسالته.

﴿٥٧﴾ ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾؛ أي: رفع الله ذكره في العالمين ومنزلته بين المقربين، فكان عالي الذكر عالي المنزلة.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۖ﴾.

﴿٥٨﴾ لما ذكّر هؤلاء الأنبياء المكرمين وخواصّ المرسلين وذكّر فضائلهم ومراتبهم؛ قال: ﴿وَلِئَلَّكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾؛ أي: أنعم الله عليهم نعمة لا تُلحق ومئة لا تُسبَق؛ من النبوة والرسالة، وهم الذين أمرنا أن ندعو الله أن يهدينا صراط الذين أنعم عليهم، وأن من أطاع الله كان ﴿مع الذين أنعم الله عليهم

(١) في (ب): «وأهلها».

(٢) في (ب): «الكتب».

من النبيين... الآية، وأن بعضهم ﴿من ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾؛ أي: من ذُرِّيَّتِهِ. ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ﴾: فهذه خير بيوت العالم، اصطفاهم الله واختارهم واجتباهم، وكان حالهم عند تلاوة آيات الرحمن عليهم، المتضمنة للإخبار بالغيوب وصفات عَلام الغيوب والإخبار باليوم الآخر والوعد والوعيد؛ ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾؛ أي: خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرهبة ما أوجب لهم البكاء والإنابة والسجود لربهم، ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله؛ خَرُّوا عليها صُماً وعُمياناً.

وفي إضافة الآيات إلى اسمه الرحمن دلالة على أن آياته من رحمته بعباده وإحسانه إليهم؛ حيث هداهم بها إلى الحق، وبصّرهم من العمى، وأنقذهم من الضلالة، وعلمهم من الجهالة.

﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ٦٠ جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ٦١ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَقْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ٦٢ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ٦٣﴾.

﴿٥٩﴾ لما ذَكَرَ تعالى هؤلاء الأنبياء... المخلصون^(١)، المتَّبِعُونَ لمراضي ربهم، المنبِيون إليه؛ ذكر مَنْ أتى بعدهم وبدَّلوا ما أُمروا به، وأنه خَلَفَ ﴿من بعدهم خَلَفٌ﴾: رجعوا إلى الخَلَفِ والوراء، ف ﴿أضاعوا الصَّلَاةَ﴾: التي أُمروا بالمحافظة عليها وإقامتها، فتهاوَّنوا بها وضيَّعوها، وإذا ضيَّعوا الصلاة التي هي عماد الدين وميزان الإيمان والإخلاص لربِّ العالمين، التي هي آكد الأعمال وأفضل الخصال؛ كانوا لما سواها من دينهم أضيغَ وله أرفَضَ. والسبب الداعي لذلك أنهم اتَّبَعُوا شهواتِ أنفسهم وإراداتها، فصارت همُّهم منصرفةً إليها مقدَّمة لها على حقوق الله، فنشأ من ذلك التضييع لحقوقه والإقبال على شهواتِ أنفسهم مهما لاحقَ لهم حصلوها، وعلى أيِّ وجهٍ اتَّفقت تناولوها. ﴿فسوف يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾؛ أي: عذاباً مضاعفاً شديداً.

﴿٦٠﴾ ثم استثنى تعالى فقال: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾: عن الشرك والبدع والمعاصي،

(١) في النسختين، وضعت كلمة: (قطع) بخط صغير فوق كلمة «المخلصون».

فأقلع عنها، وندم عليها، وعزم عزمًا جازمًا أن لا يعاودها، ﴿وَأَمِنْ﴾: بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾: وهو العمل الذي شرعه الله على ألسنة رسله إذا قصد به وجهه، ﴿فَأُولَئِكَ﴾: الذين جمعوا بين التوبة والإيمان والعمل الصالح، ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾: المشتعلة على النعيم المقيم والعيش السليم وجوار الرب الكريم، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾: من أعمالهم، بل يجدونها كاملة، موفرة أجورها، مضاعفة عددها.

﴿٦١﴾ ثم ذكر أن الجنة التي وعدهم بدخولها ليست كسائر الجنات، وإنما هي ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾؛ أي: جنات إقامة لا ظعن فيها ولا جَوْل ولا زوال، وذلك لسعتها وكثرة ما فيها من الخيرات والسرور والبهجة والحبور. ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾؛ أي: التي وعدها الرحمن، أضافها إلى اسمه الرحمن؛ لأنها فيها من الرحمة والإحسان ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وسماها تعالى رَحْمَتَهُ، فقال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. وأيضاً؛ ففي إضافتها إلى رحمته ما يدل على استمرار سرورها، وأنها باقية ببقاء رحمته التي هي أثرها وموجبها.

والعباد في هذه الآية المراد عبادُ الهيئته، الذين عبدوه والتزموا شرائعه، فصارت العبودية وصفاً لهم؛ كقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾، ونحوه؛ بخلاف عباده المماليك فقط، الذين لم يعبدوه؛ فهؤلاء وإن كانوا عبيداً لربوبيته لأنه خلقهم ورزقهم ودبرهم؛ فليسوا داخلين في عبيد الهيئته، العبودية الاختيارية التي يمدح صاحبها، وإنما عبوديتهم عبودية اضطرار لا مدح لهم فيها.

وقوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾: يُحْتَمَلُ أن تكون متعلقة بوعد الرحمن، فيكون المعنى على هذا: أَنَّ اللَّهَ وَعَدَهُمْ إِيَّاهَا وعداً غائباً لم يشاهدوه، ولم يَرَوْه فآمنوا بها، وصدقوا غيبها، وسعوا لها سعيها مع أنهم لم يَرَوْها؛ فكيف لو رأوها؛ لكانوا أشد لها طلباً وأعظم فيها رغبة وأكثر لها سعيًا، ويكون في هذا مدح لهم بإيمانهم بالغيب، الذي هو الإيمان النافع.

ويُحْتَمَلُ أن تكون متعلقة بعبادته؛ أي: الذين عبدوه في حال غيبهم وعدم رؤيتهم إِيَّاهُ؛ فهذه عبادتهم ولم يروه؛ فلو رأوه؛ لكانوا أشد له عبادةً وأعظم إنابةً وأكثر حباً وأجل شوقاً.

ويُحْتَمَلُ أيضاً أَنَّ المعنى: هذه الجنات التي وعدها الرحمن عباده من الأمور

التي لا تدركها الأوصاف ولا يعلمها أحدٌ إلا الله؛ ففيه من التشويق لها والوصف المجمل ما يهيج النفوس، ويزعج الساكن إلى طلبها، فيكون هذا مثل قوله: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾.

والمعاني كلها صحيحة ثابتة، ولكن الاحتمال الأول أولى؛ بدليل قوله: ﴿إنه كان وعده مائتاً﴾: لا بد من وقوعه؛ فإنه لا يُخلف الميعاد، وهو أصدق القائلين.

﴿٦٢﴾ ﴿لا يسمعون فيها لغواً﴾؛ أي: كلاماً لاغياً لا فائدة فيه ولا ما يؤثم؛ فلا يسمعون فيها شتماً ولا عيباً ولا قولاً فيه معصية لله أو قولاً مكدرًا، ﴿إلا سلاماً﴾؛ أي: [إلا] الأقوال السالمة من كل عيب؛ من ذكر لله، وتحية، وكلام سرور وبشارة، ومطابقة الأحاديث الحسنة بين الإخوان، وسماع خطاب الرحمن، والأصوات الشجيّة من الحور والملائكة والولدان، والنعيمات المطربة، والألفاظ الرخيمة؛ لأن الدار دار السلام؛ فليس فيها إلا السلام التام من جميع الوجوه. ﴿ولهم رزقهم فيها بكرةً عشياً﴾؛ أي: أرزاقهم من المأكّل والمشارب وأنواع اللذات مستمرةً حيثما طلبوا وفي أي وقت رغبوا، ومن تمامها ولذتها وحسنها أن تكون في أوقات معلومة بكرةً وعشياً؛ ليعظم وقعها، ويتم نفعها.

﴿٦٣﴾ ذ ﴿تلك الجنة﴾: التي وصفناها بما ذكر ﴿التي نورث من عبادنا من كان تقياً﴾؛ أي: نورثها المتقين، ونجعلها منزلهم الدائم، الذي لا يظعنون عنه ولا يبعون عنه جِولاً؛ كما قال تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين﴾.

﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَمْ يَكُنْ آيِدِينَا وَمَا خَلَقْنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ شَيْئاً رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَمْ سَمِياً ۝٦٤﴾.

﴿٦٤﴾ استبطأ النبي ﷺ جبريل عليه السلام مرة في نزوله إليه، فقال له: لو تأتينا أكثر ممّا تأتينا؛ شوقاً^(١) إليه وتوخّشاً لفراقه وليطمئن قلبه بنزوله؛ فأنزل الله تعالى على لسان جبريل: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾؛ أي: ليس لنا من الأمر شيء، إن أمرنا؛ ابتدنا أمره ولم نعص له أمراً؛ كما قال عنهم: ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون﴾؛ فنحن عبيد مأمورون. ﴿له ما بين أيدينا وما خلفنا

وما بين ذلك؛ أي: له الأمور الماضية والمستقبلية والحاضرة في الزمان والمكان؛ فإذا تبين أن الأمر كله لله، وأنا عبيد مدبرون، فيبقى الأمر دائراً بين هل تقتضيه الحكمة الإلهية فينفضه أم لا تقتضيه فيؤخره؟ ولهذا قال: ﴿وما كان ربك نسياً﴾؛ أي: لم يكن الله لينساك ويهملك؛ كما قال تعالى: ﴿ما ودّعك ربك وما قلى﴾؛ بل لم يزل معتنياً بأمرورك مجرباً لك على أحسن عوائده الجميلة وتدبيره الجميلة؛ أي: فإذا تأخر نزولنا عن الوقت المعتاد؛ فلا يحزنك ذلك ولا يهّمك، واعلم أن الله هو الذي أراد ذلك؛ لما له من الحكمة فيه.

﴿٦٥﴾ ثم علّل إحاطة علمه وعدم نسيانه بأنه ﴿رب السموات والأرض﴾؛ فربوبيّته للسموات والأرض، وكونهما على أحسن نظام وأكملة، ليس فيه غفلة ولا إهمال ولا سدى ولا باطل؛ برهاناً قاطعاً على علمه الشامل؛ فلا تشغل نفسك بذلك، بل اشغلها بما ينفعك ويعود عليك طائلاً، وهو عبادته وحده لا شريك له، ﴿واصطبر لعبادته﴾؛ أي: اصبر نفسك عليها، واجهدها، وقم عليها أتم القيام وأكملة بحسب قدرتك، وفي الاشتغال بعبادة الله تسليّة للعابد عن جميع التعلّقات والمشتتات؛ كما قال تعالى: ﴿ولا تمدّد عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه...﴾ إلى أن قال: ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها...﴾ الآية.

﴿هل تعلم له سمياً﴾؛ أي: هل تعلم لله مسامياً ومشابهاً ومماثلاً من المخلوقين؟ وهذا استفهام بمعنى النفي المعلوم بالعقل؛ أي: لا تعلم له مسامياً ولا مشابهاً؛ لأنّه الربّ وغيره مربوب، الخالق وغيره مخلوق، الغني من جميع الوجوه، وغيره فقير بالذات من كلّ وجه، الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وغيره ناقص ليس فيه من الكمال إلّا ما أعطاه الله تعالى؛ فهذا برهان قاطع على أن الله هو المستحقّ لإفراجه بالعبوديّة، وأنّ عبادته حقّ، وعبادة ما سواه باطل؛ فلهذا أمر بعبادته وحده والاصطبار لها، وعلّل [ذلك] بكماله وانفراجه بالعظمة والأسماء الحسنى.

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِثْ لَسَوْفَ أَخْرَجَ حَيًّا ۖ ۝٦٦ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا ۖ ۝٦٧﴾.

﴿٦٦﴾ المراد بالإنسان هاهنا كلّ منكر للبعث مستبعد لوقوعه؛ فيقول مستفهماً على وجه النفي والعناد والكفر: ﴿إِذَا مَا مِثْ لَسَوْفَ أَخْرَجَ حَيًّا﴾؛ أي: كيف

يعيدني الله حيًا بعد الموت وبعد ما كنتُ رميمًا؟! هذا لا يكون ولا يُتَصَوَّر! وهذا بحسب عقله الفاسد ومقصده السيئ وعنايه لرسُل الله وكتبه؛ فلو نَظَرَ أدنى نَظَرٍ وتأمل أدنى تأمل؛ لرأى استبعاده للبعث في غاية السخافة.

﴿٦٧﴾ ولهذا ذكر تعالى برهاناً قاطعاً ودليلاً واضحاً يعرفه كلُّ أحدٍ على إمكان البعث، فقال: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾؛ أي: أولاً يلتفتُ نظره ويستذكرُ حالته الأولى، وأنَّ الله خلقه أولَ مرَّةٍ ولم يَكُ شيئاً؟! فمن قَدَّرَ على خلقه من العدم، ولم يَكُ شيئاً مذكوراً؛ أليس بقادرٍ على إنشائه بعدما تمزَّق، وجمعه بعدما تفرَّق؟! وهذا كقوله: ﴿وهو الذي يُبدِئُ الخلقَ ثم يعيدهُ وهو أهونُ عليه﴾.

وفي قوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ﴾: دعوة للنظر بالدليل العقلي بالطف خطاب، وأنَّ إنكار من أنكرَ ذلك مبنيٌّ على غفلةٍ منه عن حاله الأولى، وإلَّا؛ فلو تَذَكَّرَها وأحضَرها في ذهنه؛ لم ينكز ذلك.

﴿قَوْرَيْكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا﴾ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَولىٰ بِهَا صِلِيًا﴾ ﴿٧٠﴾.

﴿٦٨﴾ أقسم الله تعالى وهو أصدق القائلين بربوبيَّته لَيَحْشُرَنَّ [هؤلاء المنكرين للبعث هم وشياطينهم، فيجمعهم لميقاتٍ يوم معلوم، ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا﴾؛ أي: جاثين على ركبهم من شدة الأهوال وكثرة الزلزال وفضاعة الأحوال، منتظرين لحكم الكبير المتعال.

﴿٦٩﴾ ولهذا ذكر حكمه فيهم، فقال: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًا﴾؛ أي: ثم لننزعَنَّ من كلِّ طائفةٍ وفرقةٍ من الظالمين المشتركين في الظلم والكفر والعتوَّ أشدَّهم عتوًّا وأعظمهم ظلماً وأكبرهم كفراً، فيقدِّمهم إلى العذاب، ثم هكذا يقدِّم إلى العذاب الأغلظ إثماً فالأغلظ، وهم في تلك الحال متلاعنون؛ يلعن بعضهم بعضاً، ويقول أخراهم لأولاهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾ [قال لكل لضعف ولكن لا تعلمون] وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لَكُم علينا من فضل... ﴿٧٠﴾.

﴿٧٠﴾ وكل هذا تابعٌ لعدله وحكمته وعلمه الواسع، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَولىٰ بِهَا صِلِيًا﴾؛ أي: علمنا محيطٌ بمن هو أولى صليًا بالنار، وقد

علمناهم، وعلمنا أعمالهم واستحقاقها وقسطها من العذاب.

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا ﴿٧٢﴾.

﴿٧١﴾ وهذا خطابٌ لسائر الخلائق؛ برَّهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم؛ أنه ما منهم من أحدٍ إلا سيردُ النار، حكماً حُتِّمه الله على نفسه، وأوعد به عباده؛ فلا بدَّ من نفوذِهِ، ولا محيدَ عن وقوعه. واختُلفَ في معنى الورود: ف قيل: ورودُها حضورُها للخلائق كلُّهم حتى يحصلُ الانزعاج من كلِّ أحدٍ، ثم بعدُ يُنَجَّى الله المتقين.

وقيل: ورودُها دخولُها، فتكون على المؤمنين برِّاً وسلاماً. وقيل: الورودُ هو المرور على الصراط الذي هو على متن جهنم، فيمرُّ الناس على قدر أعمالهم؛ فمنهم من يمرُّ كلمح البصر، وكالريح، وكأجاويد الخيل، وكأجاويد الركاب، ومنهم من يسعى، ومنهم يمشي مشياً، ومنهم من يزحفُ زحفاً، ومنهم من يُخْطَفُ فيلقى في النار؛ كلٌّ بحسب تقواه.

﴿٧٢﴾ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾: الله تعالى بفعل المأمور واجتناب المحذور. ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾: أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿فِيهَا جِثًا﴾: وهذا بسبب ظلمهم وكفرهم، وجب لهم^(١) الخلودُ وحقُّ عليهم العذاب، وتقطعت بهم الأسباب.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ (٧٣) وَكَرَّ أَهْلُكَا بَقَلُّهُمْ بَيْنَ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِءَا ﴿٧٤﴾.

﴿٧٣﴾ أي: وإذا تُتْلَى على هؤلاء الكفار آياتنا بيناتٍ؛ أي: واضحات الدلالة على وحدانية الله وصدق رسله، توجبُ لمن سَمِعَهَا صدقَ الإيمان وشدةَ الإيقان؛ قابلوها بضدِّ ما يجب لها، واستهزؤوا بها وبمن آمن بها، واستدلُّوا بحسن حالهم في الدنيا على أنهم خيرٌ من المؤمنين، فقالوا معارضين للحق: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾؛ أي: نحن والمؤمنون ﴿خَيْرٌ مَقَامًا﴾؛ أي: في الدنيا من كثرة الأموال والأولاد وتفوق^(٢) الشهوات. ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾؛ أي: مجلساً؛ أي: فاستنتجوا من هذه المقدمة الفاسدة بسبب أنهم أكثر مالاً وأولاداً، وقد حصلت [لهم] أكثر مطالبهم من

(٢) في (ب): «وتوفر».

(١) في (ب): «له».

الدُّنْيَا، ومجالسهم وأنديتهم مزخرفة مزوّقة، والمؤمنون بخلاف هذه الحال؛ فهم خيرٌ من المؤمنين!!

﴿٧٤﴾ وهذا دليلٌ في غاية الفساد، وهو من باب قلب الحقائق، وإلّا؛ فكثره الأموال والأولاد وحسن المنظر كثيراً ما يكون سبباً لهلاك صاحبه وشقاؤه وشره، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا﴾؛ أي: متاعاً من أوإن وفرش وبيوت وزخارف، ﴿وَرِثِيًا﴾^(١)؛ أي: أحسن مرأى ومنظراً من غصارة العيش وسرور اللذات وحسن الصور؛ فإذا كان هؤلاء المهلكون أحسن منهم أثاناً ورثياً، ولم يمنعهم ذلك من حلول العقاب بهم؛ فكيف يكون هؤلاء وهم أقلّ منهم وأذلّ معتصمين من العذاب، ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيِّكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾؟! وعَلِمَ مِنْ هَذَا أَنْ الاستدلال على خير الآخرة بخير الدنيا من أفسد الأدلة وأنه من طرق الكفار.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾. ﴿٧٥﴾

﴿٧٥﴾ لما ذكر دليلهم الباطل الدالّ على شدة عنادهم وقوة ضلالهم؛ أخبر هنا أنّ مَنْ كان في الضلالة؛ بأن رَضِيَها لنفسه، وسعى فيها؛ فإنّ الله يمدّه منها ويزيده فيها حبّاً؛ عقوبة له على اختيارها على الهدى؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، ﴿وَنَقَلْبُ أَفْتَدَتْهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا﴾؛ أي: القائلون: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾، ﴿مَا يُوْعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ﴾: بقتل أو غيره، ﴿وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾: التي هي بابُ الجزاء على الأعمال. ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾؛ أي: فحيثُ يَتَبَيَّنُ لَهُمْ بَطْلَانُ دَعْوَاهُمْ، وَأَنَّهَا دَعْوَى مَضْمَحَلَّة، وَيَتَيَقَّنُونَ أَنَّهم أَهْلُ الشَّرِّ وَأَضْعَفُ جُنْدًا، وَلَكِنْ لَا يَقْدِرُ هَذَا الْعِلْمُ شَيْئًا؛ لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُهُمُ الرُّجُوعُ إِلَى الدُّنْيَا فَيَعْمَلُونَ غَيْرَ عَمَلِهِمُ الْأَوَّلِ.

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾. ﴿٧٦﴾

﴿٧٦﴾ لما ذكر أنه يُمدُّ للظالمين^(٢) في ضلالهم؛ ذَكَرَ أَنَّهُ يَزِيدُ الْمُهْتَدِينَ هِدَايَةً مِنْ فَضْلِهِ عَلَيْهِمْ وَرَحْمَتِهِ، وَالْهُدَى يَشْمَلُ الْعِلْمَ النَّافِعَ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ؛ فَكُلُّ مَنْ

(١) في (ب): «وأحسن رثياً». وقد شطب الشيخ أحسن في (أ).

(٢) في (ب): «للضالين».

سَلَكَ طريقاً في العلم والإيمان والعمل الصالح؛ زاده الله منه، وسهّله عليه، ويسّره له، ووهب له أموراً آخر لا تدخل تحت كسبه، وفي هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصه؛ كما قاله السلف الصالح.

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿لِيُزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾، ﴿وَإِذَا تُلِيتَ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾. ويدل عليه أيضاً الواقع؛ فَإِنَّ الإيمان قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح، والمؤمنون متفاوتون في هذه الأمور أعظم تفاوت.

ثم قال: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾؛ أي: الأعمال الباقية التي لا تنقطع إذا انقطع غيرها، ولا تضمحل هي الصالحات منها؛ من صلاة وزكاة وصوم وحج وعمرة وقراءة وتسيب وتكبير وتحميد وتهليل وإحسان إلى المخلوقين وأعمال قلبية وبدنية؛ فهذه الأعمال ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾؛ أي: خير عند الله ثوابها وأجرها، وكثير للعاملين نفعها وردّها، وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل في غير باب؛ فإنه ما ثم غير الباقيات الصالحات عمل ينفع ولا يبقى لصاحبه ثوابه ولا ينجع، ومناسبتة ذكر الباقيات الصالحات. والله أعلم: أنه لما ذكر أن الظالمين جعلوا أحوال الدنيا من المال والولد وحسن المقام ونحو ذلك علامة لحسن حال صاحبها؛ أخبر هنا أن الأمر ليس كما زعموا، بل العمل الذي هو عنوان السعادة ومنشور الفلاح، هو العمل بما يحبه الله ويرضاه.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا ۖ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۖ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ۖ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾.

﴿٧٧﴾ أي: أفلا تعجب من حالة هذا الكافر الذي جمع بين كفره بآيات الله ودعواه الكبيرة أنه سيؤتي في الآخرة مالاً وولداً؛ أي: يكون من أهل الجنة، هذا من أعجب الأمور؛ فلو كان مؤمناً بالله وأدعى هذه الدعوى؛ لسهل الأمر. وهذه الآية وإن كانت نازلة في كافر معين^(١)؛ فإنها تشمل كل كافر زعم أنه على الحق، وأنه من أهل الجنة.

﴿٧٨﴾ قال الله توبيخاً له وتكذيباً: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾؛ أي: أحاط علمه بالغيب

(١) وهو العاص بن وائل؛ كما في «صحيح البخاري» (٤٧٣٥) عن خباب رضي الله عنه.

حتى عَلِمَ ما يكون، وأنَّ من جملة ما يكونُ أَنَّهُ يُؤْتَى يومَ القيامةَ مالاً وولداً. ﴿٧٩﴾ اتَّخَذَ عندَ الرحمنِ عهداً: أَنَّهُ ناثِلٌ ما قاله؛ أي: لم يكنْ شيءٌ من ذلك، فعَلِمَ أَنَّهُ متقوِّلٌ قائلٌ ما لا علم له به. وهذا التقسيم والترديدُ في غاية ما يكون من الإلزام وإقامة الحجَّة؛ فإنَّ الذي يزعم أَنه حاصلٌ له خيرٌ عندَ الله في الآخرة لا يخلو: إما أَن يكونَ قولُهُ صادراً عن علم بالغيوب المستقبلِ، وقد عَلِمَ أَنَّ هذا لله وحده؛ فلا أحد يعلم شيئاً من المستقبلات الغيبية إلا ما أطلعه الله عليه^(١) من رسله.

وإما أَن يكونَ متَّخِذاً عهداً عندَ الله بالإيمان به واتباع رسله الذين عَهِدَ الله لأهلِهِ، وأَوْزَعَ أَنَّهُم أهل الآخرة، والناجون^(٢) الفائزون؛ فإذا انتفى هذان الأمران؛ عَلِمَ بذلك بطلان الدعوى.

﴿٧٩﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾؛ أي: ليس الأمر كما زعم؛ فليس للقائل اطلاعٌ على الغيب، لأنَّه كافرٌ ليس عنده من علم الرسائل^(٣) شيءٌ، ولا اتَّخَذَ عندَ الرحمنِ عهداً؛ لكفرِهِ وعدم إيمانه ولكِنَّه يستحقُّ ضدَّ ما تقوَّلَهُ، وإنَّ قوله مكتوبٌ محفوظٌ ليُجازى عليه ويعاقب، ولهذا قال: ﴿سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾؛ أي: نزيدُه من أنواع العقوبات كما ازداد من الغي والضلال.

﴿٨٠﴾ ﴿وَنَرِئُهُ ما يَقُولُ﴾؛ أي: نرثه ماله وولده، فينتقل من الدنيا فرداً بلا مال ولا أهل ولا أنصارٍ ولا أعوان، ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾: فيرى من وخيم العقابِ ما هو جزاء أمثاله من الظالمين.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (٨١) ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (٨٢) [٤] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾ (٨٣) ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ (٨٤).

﴿٨٣﴾ وهذا من عقوبة الكافرين: أَنَّهُم لَمَّا لم يعتصموا بالله ولم يتمسكوا بحبل الله، بل أشركوا به ووالوا أعداءه من الشياطين؛ سلَّطهم عليهم وقبضهم، فجعلت الشياطينُ تَؤْزُهُم إلى المعاصي أزًّا، وتزعجهم إلى الكفر إزعاجاً، فيوسوسون لهم،

(١) في (ب): «إليه».

(٢) في (ب): «الناجون».

(٣) في (ب): «الرسل».

(٤) لم تذكر الآيتان (٨١ - ٨٢) في النسختين، ولم تفسرا.

ويوحون إليهم، ويزينون لهم الباطل، ويقبّحون لهم الحق، فيدخل حبّ الباطل في قلوبهم ويتشربها، فيسعى فيه سعي المحقّ في حقّه، فينصره بجهده، ويحارب عنه، ويجاهد أهل الحق في سبيل الباطل، وهذا كلّ جزء له على تولّيه من وليّه وتولّيه لعدوّه؛ جعل له عليه سلطاناً، وإلّا؛ فلو آمن بالله وتوكّل عليه؛ لم يكن له عليه سلطان؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾.

﴿٨٤﴾ ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على هؤلاء الكفار المستعجلين بالعذاب، ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾؛ أي: إنّ لهم أياماً معدودة؛ لا يتقدّمون عنها ولا يتأخّرون، نُمهّلهم ونحلم عنهم مدة ليراجعوا أمر الله؛ فإذا لم ينجع فيهم ذلك؛ أخذناهم أخذ عزيز مقتدر.

﴿يَوْمَ نَخْشِرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ۖ ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمَجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ زُرْدًا ۖ ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۖ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿٨٥﴾ يخبر تعالى عن تفاوت الفريقين: المتّقين والمجرمين، وأنّ المتّقين له باتّقاء الشرك والبدع والمعاصي، يحشّروهم إلى موقف القيامة مكرمين مبجلين معظّمين، وأنّ مآلهم الرحمن، وقصدهم المنان وفداً^(١) إليه، والوافد لا بدّ أن يكون في قلبه من الرجاء وحسن الظنّ بالوافد إليه ما هو معلوم، فالمتّقون يقدّون إلى الرحمن راجين منه رحمته وعميم إحسانه والفوز بعطاياه في دار رضوانه، وذلك بسبب ما قدّموه من العمل بتقواه واتباع مرضيه، وأنّ الله عهد إليهم بذلك الثواب على السنة رسله، فتوجّهوا إلى ربّهم مطمئنين به، واثقين بفضله.

﴿٨٦﴾ وأما المجرمون؛ فإنّهم يُساقون ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرْدًا﴾؛ أي: عطاشاً، وهذا أبشع ما يكون من الحالات سوقهم على وجه الدّل والصغار إلى أعظم سجن وأفظع عقوبة، وهو جهنّم، في حال ظمئهم ونصبهم؛ يستغيثون فلا يُغاثون، ويدعون فلا يُستجاب لهم، ويستشفعون فلا يُشفع لهم.

﴿٨٧﴾ ولهذا قال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾؛ أي: ليست الشفاعة ملكهم ولا لهم منها شيء، وإنّما هي لله تعالى، ﴿قل لله الشفاعة جميعاً﴾، وقد أخبر أنّه لا تنفعهم شفاعة الشافعين؛ لأنّهم لم يتخذوا عنده عهداً بالإيمان به وبرسله، وإلّا؛ فمن اتّخذ

(١) في (ب): «وفوداً».

عنده عهداً، فأمن به وبرسله، وأتبعهم؛ فإنه ممن ارتضاه الله وتحصل له الشفاعة؛ كما قال تعالى: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾. وسمى الله الإيمان به وأتباع رسله عهداً؛ لأنه عهد في كتبه وعلى ألسنة رسله بالجزاء الجميل لمن أتبعهم.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝٨٨﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنَّة ۝٨٩ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ۝٩٠ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ۝٩٥﴾.

﴿٨٨﴾ وهذا تقييح وتشنيع لقول المعاندين الجاحدين، الذين زعموا أن الرحمن اتخذ ولداً؛ كقول النصارى: المسيح ابن الله، واليهود: عزيز ابن الله، والمشركين: الملائكة بنات الله؛ تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

﴿٨٩ - ٩١﴾ ﴿لقد جئتم شيئاً إدًّا﴾؛ أي: عظيماً وخيماً من عظيم أمره أنه: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ﴾: على عظمتها وصلابتها؛ ﴿يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ﴾؛ أي: من هذا القول، ﴿وتنشق الأرض﴾: منه؛ أي: تنصدع وتنفطر، ﴿وتخر الجبال هداً﴾؛ أي: تندك الجبال ﴿أن دعوا للرحمن ولداً﴾؛ أي: من أجل هذه الدعوى القبيحة تكاد هذه المخلوقات أن يكون منها ما ذكر.

﴿٩٢﴾ وال حال أنه ﴿ما ينبغي﴾؛ أي: لا يليق ولا يكون ﴿للمرحمن أن يتخذ ولداً﴾: وذلك لأن اتخاذه الولد يدل على نقصه واحتياجه، وهو الغني الحميد، والولد أيضاً من جنس والديه، والله تعالى لا شبه له ولا مثل ولا سمي.

﴿٩٣﴾ ﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً﴾؛ أي: ذليلاً منقاداً غير متعاص ولا ممتنع، الملائكة والإنس والجن وغيرهم، الجميع ممالك متصرف فيهم، ليس لهم من الملك شيء، ولا من التدبير شيء؛ فكيف يكون له ولد وهذا شأنه وعظمته ملكه؟!

﴿٩٤﴾ ﴿لقد أحصاهم وعدهم عدداً﴾؛ أي: لقد أحاط علمه بالخلائق كلهم، أهل السماوات والأرض، وأحصاهم، وأحصى أعمالهم؛ فلا يضل ولا ينسى ولا تخفى عليه خافية.

﴿٩٥﴾ ﴿وكلهم آتية يوم القيامة فرداً﴾؛ أي: لا أولاد ولا مال ولا أنصار، ليس معه إلا عمله، فيجازيه الله ويوفيّه حسابه، إن خيراً؛ فخير، وإن شراً فشر؛ كما

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ۝٩٦﴾.

﴿٩٦﴾ هذا من نعمه على عباده الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح: أَنْ وَعَدَهُمْ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ وُدًّا؛ أي: محبة ووداداً في قلوب أوليائه وأهل السماء والأرض، وإذا كان لهم في القلوب وُدٌّ؛ تيسر لهم كثيرٌ من أمورهم، وحصل لهم من الخيرات والدعوات والإرشاد والقبول والإمامة ما حَصَلَ، ولهذا ورد في الحديث الصحيح: ^(١) «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا؛ نادى جبريل: إني أحبُّ فلاناً؛ فأحبه. فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ فلاناً؛ فأحبه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض» وإنما جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ وُدًّا لأنه ودوه، وأحبه، فودَّدهم إلى أوليائه وأحبابه.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ۝٩٧ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ۝٩٨﴾.

﴿٩٧﴾ يخبر تعالى عن نعمته، وأنه يسرُّ هذا القرآن الكريم بلسان الرسول محمد ﷺ؛ يسرُّ ألفاظه ومعانيه؛ ليحصل المقصودُ منه والانتفاع به؛ ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾: بالترغيب في الميسر به من الثواب العاجل والآجل، وذكر الأسباب الموجبة للبشارة، ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾؛ أي: شديدين في باطلهم، أقوياء في كفرهم، فتنذِرهم، فتقوم عليهم الحجة، وتبين لهم المحجة، فيهلك مَنْ هَلَكَ عن بيئته، ويحيى مَنْ حيَّ عن بيئته.

﴿٩٨﴾ ثم توعدهم بإهلاك المكذبين قبلهم، فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ﴾: من قوم نوح وعاد وثمود وفرعون وغيرهم من المعاندين المكذبين، لما استمروا في طغيانهم؛ أهلكهم الله؛ فليس لهم من باقية. ﴿هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾: والركز: الصوت الخفي؛ أي: لم يبقَ منهم عينٌ ولا أثرٌ، بل بقيت أخبارهم عبرةً للمعتبرين، وأسماؤهم عظةً للمتعظين.

تم تفسير سورة مريم. ولله الحمد والشكر.



(١) أخرجه البخاري (٦٠٤٠) ومسلم (٢٦٣٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

تفسير سورة طه

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طه﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١﴾ إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٢﴾ تَزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٣﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٤﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٥﴾ وَإِنْ يُجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾

﴿١ - ٢﴾ ﴿طه﴾: من جملة الحروف المقطعة المفتحة بها كثير من السور، وليست اسماً للنبي ﷺ. ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾؛ أي: ليس المقصود بالوحي وإنزال القرآن عليك وشرع الشريعة لتشقى بذلك، ويكون في الشريعة تكليف يشق على المكلفين، وتعجز عنه قوى العاملين، وإنما الوحي والقرآن والشرع شرعه الرحيم الرحمن، وجعله موصلاً للسعادة والفلاح والفوز، وسهله غاية التسهيل، ويسر كل طريقه وأبوابه، وجعله غذاء للقلوب والأرواح وراحة للأبدان، فتلقته الفطر السليمة والعقول المستقيمة بالقبول والإذعان؛ لعلمها بما احتوى عليه من الخير في الدنيا والآخرة.

﴿٣﴾ ولهذا قال: ﴿إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾: إِلَّا ليتذكر به من يخشى الله تعالى، فيتذكر ما فيه من الترغيب لأجل^(١) المطالب فيعمل بذلك، ومن الترهيب عن الشقاء والخسران فيرهب منه، ويتذكر به الأحكام الحسنة الشرعية المفصلة التي كان مستقراً في عقله حسناتها مجملًا، فوافق التفصيل ما يجده في فطرته وعقله، ولهذا سمى الله تذكراً، والتذكير شيء كان موجوداً؛ إِلَّا أن صاحبه غافل عنه أو غير مستحضر لتفصيله.

وخص بالتذكير من يخشى؛ لأن غيره لا ينتفع به، وكيف ينتفع به من لم يؤمن بجنة ولا نار ولا في قلبه من خشية الله مثقال ذرة!؟ هذا ما لا يكون، ﴿سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى. وَيَتَجَبَّبُهَا الْأَشْقَى. الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾.

﴿٤﴾ ثم ذكر جلاله هذا القرآن العظيم، وأنه تنزيل خالق الأرض والسماوات،

(١) في (ب): «إلى أجل».

المدبر لجميع المخلوقات؛ أي: فاقبلوا تنزيله بغاية الإذعان والمحبة والتسليم، وعظموه نهاية التعظيم. وكثيراً ما يقرن بين الخلق والأمر؛ كما في هذه الآية وكما في قوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾، وفي قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾، وذلك أنه الخالق الأمر الناهي؛ فكما أنه لا خالق سواه؛ فليس على الخلق إلزام ولا أمر ولا نهى إلا من خالقهم. وأيضاً؛ فإن خلقه للخلق فيه من التدبير^(١) القدرى الكونى، وأمره فيه التدبير الشرعى الدينى؛ فكما أن الخلق لا يخرج عن الحكمة، فلم يخلق شيئاً عبثاً؛ فكذلك لا يأمر ولا ينهى إلا بما هو عدل وحكمة وإحسان.

﴿٥﴾ فلما بين أنه الخالق المدبر الأمر الناهي؛ أخبر عن عظمته وكبريائه، فقال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ﴾: الذي هو أرفع المخلوقات وأعظمها وأوسعها، ﴿اسْتَوَى﴾: استواء يليق بجلاله ويناسب عظمته وجماله، فاستوى على العرش، واحتوى على الملك.

﴿٦﴾ ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾: من ملك وإنسي وجني وحيوان وجمادٍ ونبات، ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾؛ أي: الأرض؛ فالجميع ملك لله تعالى، عبيد مدبرون مسخرون تحت قضائه وتدبيره، ليس لهم من الملك شيء، ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

﴿٧﴾ ﴿وَلَنْ تَجْعَزَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ﴾: الكلام الخفي، ﴿وَأَخْفَى﴾: من السر، الذي في القلب ولم ينطق به، أو السر ما خطر على القلب، وأخفى ما لم يخطر؛ يعلم تعالى أنه يخطر في وقته وعلى صفته. المعنى أن علمه تعالى محيط بجميع الأشياء؛ دقيقها وجليلها؛ خفيها وظاهرها؛ فسواء جهرت بقولك أو أسرته؛ فالكل سواء بالنسبة لعلمه تعالى.

﴿٨﴾ فلما قرّر كماله المطلق بعموم خلقه وعموم أمره ونهيه وعموم رحمته وسعة عظمته وعلوه على عرشه وعموم ملكه وعموم علمه؛ نتج من ذلك أنه المستحق للعبادة، وأن عبادته هي الحق التي يوجبها الشرع والعقل والفطرة، وعبادة غيره باطلّة، فقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبود بحق ولا مألوه بالحب والذل والخوف والرجاء والمحبة والإنابة والدعاء إلا هو. ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾؛

(١) كذا في (أ) وفي (ب): «فيه التدبير».

أي: له الأسماء الكثيرة الكاملة الحسنی: من حسننها أنها كلها أسماء دالة على المدح؛ فليس فيها اسم لا يدل على المدح والحمد، ومن حسننها أنها ليست أعلاماً محضة، وإنما هي أسماء وأوصاف، ومن حسننها أنها دالة على الصفات الكاملة وأن له من كل صفة أكملها وأعمها وأجلها، ومن حسننها أنه أمر العباد أن يدعوه بها؛ لأنها وسيلة مقربة إليه؛ يحبها ويحب من يحبها، ويحب من يحفظها، ويحب من يبحث عن معانيها، ويتعبد له بها؛ قال تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنی فادعوه بها﴾.

﴿وهل أتاك حديث موسى ﴿٩﴾ إذ رأى نارا فقال لأهله امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هَذِي ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَّى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا أَخَذْتُكَ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ (١).

﴿٩ - ١٠﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ على وجه الاستفهام التقريری والتعظيم لهذه القصة والتفخيم لها: ﴿هل أتاك حديث موسى﴾: في حاله التي هي مبدأ سعادته ومنشأ نبوته؛ أنه رأى نارا من بعيد، وكان قد ضل الطريق، وأصابه البرد، ولم يكن عنده ما يتدفأ به في سفره. فقال لأهله: ﴿إني آنست﴾؛ أي: أبصرت ﴿نارا﴾: وكان ذلك في جانب الطور الأيمن. ﴿لعلني آتيكم منها بقبس﴾: تصطلون به، ﴿أو أجد على النار هدي﴾؛ أي: من يهديني الطريق. وكان مطلبه النور الحسي والهداية الحسية، فوجد ثم النور المعنوي؛ نور الوحي الذي تستنير به الأرواح والقلوب، والهداية الحقيقية؛ هداية الصراط المستقيم الموصلة إلى جنات النعيم، فحصل له أمر لم يكن في حسابه ولا خطر بباله.

﴿١١﴾ ﴿فلما أتاه﴾؛ أي: النار التي آنسها من بعيد، وكانت في الحقيقة نورا، وهي نار تحرق وتشرق، ويدل على ذلك قوله ﷺ: «حجابه النور أو النار، لو كشفه؛ لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره» (٢). فلما وصل إليها؛ نودي منها؛ أي: ناداه الله؛ كما قال: ﴿ونادينا من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا﴾.

(١) ما بين المعقوفين زيادة على النسختين. (٢) أخرجه مسلم (١٧٩)، عن أبي موسى.

﴿١٢﴾ ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾: أخبره أنه ربُّه، وأمره أن يستعدَّ ويتهيأً لمناجاته ويهتَمَّ لذلك، ويُلْقِي نعليه، لأنَّه بالوادي المقدَّس المطهر المعظم، ولو لم يكن من تقدِّيسه إلَّا أنَّه^(١) اختاره لمناجاته كليمه موسى؛ لكفى. وقد قال كثيرٌ من المفسِّرين: إِنَّ اللَّهَ أمره أن يُلْقِي نعليه لأنهما من جلد حمار^(٢)؛ فاللَّهُ أعلم بذلك.

﴿١٣﴾ ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾؛ أي: تخيَّرتك واصطفيتك من الناس، وهذه أكبر نعمة ومئة أنعم الله بها عليه تقتضي من الشكر ما يليق بها، ولهذا قال: ﴿فاسمِعْ لِمَا يُوحَى﴾؛ أي: ألقِ سمعك للذي أوحى إليك؛ فإنَّه حقيقةً بذلك؛ لأنَّه أصل الدين ومبدؤه وعماد الدعوة الإسلامية.

﴿١٤﴾ ثم بيَّن الذي يوحى إليه بقوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾؛ أي: الله المستحقُّ الألوهية المتَّصف بها؛ لأنَّه الكامل في أسمائه وصفاته، المنفرد بأفعاله، الذي لا شريك له ولا مثيل ولا كفو ولا سميَّ. ﴿فَاغْبُذْنِي﴾: بجميع أنواع العبادة ظاهرها وباطنها أصولها وفروعها. ثم خَصَّ الصَّلَاةَ بالذكر، وإن كانت داخلةً في العبادة؛ لفضلها وشرفها وتضمُّنها عبوديَّة القلب واللسان والجوارح. وقوله: ﴿لِذِكْرِي﴾: اللام للتعليل؛ أي: أقم الصلاة لأجل ذكركَ إِيَّاي؛ لأنَّ ذكره تعالى أجَلُّ المقاصد، وبه^(٣) عبوديَّة القلب، وبه سعادته؛ فالقلب المعطلُّ عن ذكر الله معطلُّ عن كلِّ خير وقد خرب كلَّ الخراب، فشرع الله للعباد أنواعَ العبادات التي المقصود منها إقامة ذكره، وخصوصاً الصلاة؛ قال تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تُنْهِي عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾؛ أي: ما فيها من ذكر الله أكبرُ من نهيها عن الفحشاء والمنكر، وهذا النوع يقال له: توحيدُ الإلهية وتوحيدُ العبادة؛ فالألوهية وصفه تعالى، والعبوديَّة وصفُ عبده.

﴿١٥﴾ ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾؛ أي: لا بدَّ من وقوعها، ﴿أُكَادُ أَخْفِيهَا﴾؛ أي: عن نفسي؛ كما في بعض القراءات؛ كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا

(١) في (ب): «أَنَّهُ اللَّهُ».

(٢) أخرجه الترمذي (١٧٣٤)، والحاكم في «المستدرک» (٣٧٩/٢)، وتعقبه الذهبي، وقال الألباني: «ضعيف جداً». انظر «ضعيف سنن الترمذي» (٢٩١).

(٣) في (ب): «وَهُوَ».

عَلِمُهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَقَالَ: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾؛ فَعَلِمُهَا قَدْ أَخْفَاهُ عَنِ الْخَلَائِقِ كُلِّهِمْ؛ فَلَا يَعْلَمُهَا مَلَكَ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَالْحِكْمَةُ فِي إِتْيَانِ السَّاعَةِ: ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾: مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ؛ فَهِيَ الْبَابُ لِدَارِ الْجَزَاءِ، ﴿لِيُجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيُجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾.

﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ (١٦).

﴿١٦﴾ أَي: فَلَا يَصُدُّكَ وَيَشْغَلُكَ عَنِ الْإِيمَانِ بِالسَّاعَةِ وَالْجَزَاءِ وَالْعَمَلِ لِذَلِكَ مَنْ كَانَ كَافِرًا بِهَا، غَيْرَ مُعْتَقِدٍ لَوْقُوعِهَا، يَسْعَى فِي الشُّكِّ فِيهَا وَالتَّشْكِيكِ، وَيَجَادُلُ فِيهَا بِالْبَاطِلِ، وَيَقِيمُ مِنَ الشُّبْهِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ؛ مُتَّبِعًا فِي ذَلِكَ هَوَاهُ، لَيْسَ قَصْدُهُ الْوَصُولَ إِلَى الْحَقِّ، وَإِنَّمَا قُصَّارَاهُ اتِّبَاعُ هَوَاهُ؛ فَيَأْيَاكَ أَنْ تَصْغِي إِلَى مَنْ هُذِهِ حَالُهُ أَوْ تَقْبَلَ شَيْئًا مِنْ أَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ الصَّادَةِ عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا وَالسَّعْيِ لَهَا سَعِيهَا. وَإِنَّمَا حَذَّرَ اللَّهُ تَعَالَى عَمَّنْ هُذِهِ حَالُهُ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَخَوْفَ مَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِ بَوْسُوسَتِهِ وَتَدْجِيلِهِ وَكُونِ النُّفُوسِ مُجْبُولَةً عَلَى التَّشْبِهِ وَالْإِقْتِدَاءِ بِأَبْنَاءِ الْجِنْسِ، وَفِي هَذَا تَنْبِيْهُ وَإِشَارَةٌ إِلَى التَّحْذِيرِ عَنْ كُلِّ دَاعٍ إِلَى بَاطِلٍ، يَصُدُّ عَنِ الْإِيمَانِ الْوَاجِبِ أَوْ عَنْ كَمَالِهِ، أَوْ يَوْقِعُ الشُّبْهَةَ فِي الْقَلْبِ، وَعَنِ النَّظَرِ فِي الْكُتُبِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى ذَلِكَ.

وَذَكَرَ فِي هَذَا الْإِيمَانِ بِهِ وَعِبَادَتِهِ وَالْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ الثَّلَاثَةَ أَصُولُ الْإِيمَانِ وَرُكْنُ الدِّينِ، وَإِذَا تَمَّتْ؛ تَمَّ أَمْرُ الدِّينِ، وَنَقَضَهُ أَوْ فَقَدَهُ بِنَقْصِهَا أَوْ نَقْصِ شَيْءٍ مِنْهَا. وَهَذِهِ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْإِخْبَارِ عَنْ مِيزَانِ سَعَادَةِ الْفِرْقِ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَشَقَاوَتِهِمْ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿فَتَرْدَى﴾؛ أَي: تَهْلِكُ وَتَشْقَى إِنْ اتَّبَعْتَ طَرِيقَ مَنْ يَصُدُّ عَنْهَا، وَقَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمِينُكَ يَمْوَسَى ۖ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَسَى بِهَا عَلَى عَنِي وَلِي فِيهَا مَتَارِبٌ أُخْرَى ۚ قَالَ أَلْفُهَا يَمْوَسَى ۖ فَالْقَنَافَا فَإِذَا هِيَ حِجَّةٌ تَسْعَى ۚ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ۚ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ فَخَرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ۚ لِنُؤْيِكَ مِنْ ءَايَتِنَا الْكُبْرَى ۚ﴾ (١٧).

﴿١٧﴾ لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ لِمُوسَى أَصْلَ الْإِيمَانِ؛ أَرَادَ أَنْ يَبَيِّنَ لَهُ وَيُرِيَهُ مِنْ آيَاتِهِ مَا

يطمئن به قلبه، وتقرُّ به عينه، ويقوى إيمانه بتأييد الله له على عدوه، فقال: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾: هذا مع علمه تعالى، ولكن لزيادة الاهتمام في هذا الموضوع؛ أخرج الكلام بطريق الاستفهام.

﴿١٨﴾ فقال موسى: ﴿هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي﴾: ذكر فيها هاتين المنفعتين؛ منفعة لجنس الآدمي، وهو أنه يعتمد عليها في قيامه ومشيه، فيحصل فيها معونة ومنفعة للبهايم، وهو أنه كان يرعى الغنم؛ فإذا رعاها في شجر الخبط ونحوه؛ هش بها؛ أي: ضرب الشجر ليتساقط ورقه فيرعاها الغنم. هذا الخلق الحسن من موسى عليه السلام الذي من آثاره حُسْنُ رعاية الحيوان البهيم والإحسان إليه دلٌّ على عناية من الله له واصطفاءً وتخصيص تقتضيه رحمة الله وحكمته. ﴿ولي فيها مآرب﴾؛ أي: مقاصد ﴿أخرى﴾: غير هذين الأمرين.

ومن أدب موسى عليه السلام أن الله لما سأله عما في يمينه، وكان السؤال محتملاً عن السؤال عن عينها أو منفعتها؛ أجابه بعينها ومنفعتها.

﴿١٩ - ٢٠﴾ فقال الله له: ﴿ألقها يا موسى. فآلقاها فإذا هي حية تسعى﴾: انقلبت بإذن الله ثعباناً عظيماً، فولّى موسى موسى هارباً خائفاً ولم يعقب.

وفي وصفها بأنها تسعى إزالةً لوهم يمكن وجوده، وهو أن يُظنَّ أنها تخيل لا حقيقة؛ فكونها تسعى يزيل هذا الوهم.

﴿٢١﴾ فقال الله لموسى: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾؛ أي: ليس عليك منها بأس، سنعيدها سيرتها الأولى؛ أي: هيئتها وصفتها؛ إذ كانت عصا، فامتثل موسى أمر الله إيماناً به وتسليماً، فأخذها، فعادت عصاه التي كان يعرفها. هذه آية.

﴿٢٢﴾ ثم ذكر الآية الأخرى، فقال: ﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾؛ أي: أدخل يدك إلى جيبك، وضمَّ عليك عضدك الذي هو جناح الإنسان؛ ﴿تَخْرُجْ بِيضاً مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾؛ أي: بياضاً ساطعاً من غير عيب ولا برص. ﴿آية أخرى﴾.

﴿٢٣﴾ قال الله: ﴿فذاذك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾؛ ﴿لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾؛ أي: فعلنا ما ذكرنا من انقلاب العصا حية تسعى ومن خروج اليد بياضاً للناظرين، لأجل أن تُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى الدالة على صحة رسالتك وحقيقة ما جئت به، فيطمئن قلبك، ويزداد علمك، وتثق بوعده الله لك بالحفظ والنصرة، ولنكون حجة وبرهاناً لمن أُرْسِلْتَ إليهم.

﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَؤُلَاءِ آخِيَ ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَىٰ تُسَيِّدَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَتَذَكَّرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ .

﴿٢٤﴾ لما أوحى الله إلى موسى ونبأه وأراه الآيات الباهرات؛ أرسله إلى فرعون ملك مصر، فقال: ﴿أذهب إلى فرعون إنه طغى﴾؛ أي: تمرّد وزاد على الحدّ في الكفر والفساد والعلو في الأرض والقهر للضعفاء، حتى إنّه ادّعى الربوبية والألوهية قبحه الله؛ أي: وطغيانه سبب لهلاكه، ولكن من رحمة الله وحكمته وعدله أنّه لا يعذب أحداً إلّا بعد قيام الحجة بالرسل.

﴿٢٥﴾ فحينئذ علّم موسى عليه السلام أنّه تحمّل حملاً عظيماً؛ حيث أرسل إلى هذا الجبار العنيد، الذي ليس له منازع في مصر من الخلق، وموسى عليه السلام وحده، وقد جرى منه ما جرى من القتل، فامتثل أمر ربّه، وتلقّاه بالانشرح والقبول، وسأله المعونة وتيسير الأسباب التي هي من تمام الدّعوة، فقال: ﴿ربّ اشرخ لي صدري﴾؛ أي: وسّعه وافسّحه لأتحمّل الأذى القولي والفعلّي، ولا يتكدر قلبي بذلك، ولا يضيق صدري؛ فإنّ الصدر إذا ضاق؛ لم يصلح صاحبه لهداية الخلق ودعوتهم؛ قال الله لنبيّه محمد ﷺ: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾، وعسى الخلق يقبلون الحقّ مع اللين وسعة الصدر واتسراحه عليهم.

﴿٢٦﴾ ﴿ويسّر لي أمري﴾؛ أي: سهل عليّ كلّ أمرٍ أسلكه وكلّ طريق أقصده في سبيلك، وهون عليّ ما أمامي من الشدائد، ومن تيسير الأمر أن ييسّر للداعي أن يأتي جميع الأمور من أبوابها، ويخاطب كلّ أحدٍ بما يناسب له، ويدعوه بأقرب الطرق الموصلة إلى قبول قوله.

﴿٢٧ - ٢٨﴾ ﴿واحلّل عقدة من لساني. يفقهوا قولي﴾: وكان في لسانه ثقل لا يكاد يفهم عنه الكلام كما قال المفسرون؛ كما قال الله عنه: إنّهُ قال: ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لساناً﴾، فسأل الله أن يحلّ منه عقدة؛ يفقهوا ما يقول، فيحصل المقصود التأمّن من المخاطبة والمراجعة والبيان عن المعاني.

﴿٢٩ - ٣٠﴾ ﴿واجعل لي وزيراً من أهلي﴾؛ أي: عويناً يعاونني ويؤازرنني

ويساعدني على من أرسلت إليهم، وسأل أن يكون من أهله؛ لأنه من باب البر، وأحق بـ الإنسان قرابته. ثم عيَّنه بسؤاله، فقال: ﴿هارونَ أخي﴾.

﴿٣١ - ٣٢﴾ ﴿اشدد به أزري﴾؛ أي قوّني به وشدّ به ظهري. قال الله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَمَا سُلْطَانًا﴾، ﴿وأشركه في أمري﴾؛ أي: في النبوة؛ بأن تجعله نبياً رسولاً كما جعلتني.

﴿٣٣ - ٣٤﴾ ثم ذكر الفائدة في ذلك، فقال: ﴿كي نسبحك كثيراً. ونذكرك كثيراً﴾: علم عليه الصلاة (والسلام)^(١) أن مدار العبادات كلها والدين على ذكر الله، فسأل الله أن يجعل أخاه معه يتساعدان ويتعاونان على البر والتقوى، فيكثر منهما ذكر الله من التسبيح والتهليل وغيره من أنواع العبادات.

﴿٣٥﴾ ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾: تعلم حالنا وضعفنا وعجزنا وافتقارنا إليك في كل الأمور، وأنت أبصر بنا من أنفسنا وأرحم؛ فمَنْ علينا بما سألناك، وأجب لنا فيما دعوناك.

﴿٣٦﴾ فقال الله: ﴿قَدْ أَوْتَيْتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾؛ أي: أعطيت جميع ما طلبت، فسنشرح صدرك، ونيسر أمرك، ونحل عقدة من لسانك؛ يفقهوا قولك، ونشدّ ﴿عَضُدَكَ بِأَخِيكَ هَارُونَ﴾، ونجعل لكما سلطاناً؛ فلا يصلون إليكما بآياتنا، أنتما ومن أتبعكما الغالبون.

وهذا السؤال من موسى عليه السلام، يدل على كمال معرفته بالله وكمال فطنته ومعرفته للأمور وكمال نصحه، وذلك أن الداعي إلى الله المرشد للخلق، خصوصاً إذا كان المدعو من أهل العناد والتكبر والطغيان^(٢)، يحتاج إلى سعة صدر، وحلم تام على ما يصيبه من الأذى، ولسان فصيح يتمكن من التعبير به عن ما يريده ويقصده، بل الفصاحة والبلاغة لصاحب هذا المقام من ألزم ما يكون؛ لكثرة المراجعات والمراوضات، ولحاجته لتحسين الحق وتزيينه بما يقدر عليه؛ ليحببه إلى النفوس، وإلى تقبيح الباطل وتهجينه لينفر عنه، ويحتاج مع ذلك أيضاً أن يتيسر له أمره، فيأتي البيوت من أبوابها، ويدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن؛ يعامل الناس كلّاً بحسب حاله، وتمام ذلك أن يكون لمن هذه صفته أعوان ووزراء يساعدونه على مطلوبه؛ لأن الأصوات إذا كثرت؛ لا

(١) كلمة (السلام) زيادة على النسختين. (٢) في (ب): «عناد وتكبر وطغيان».

بَدَّ أَنْ تَوَثَّرَ؛ فَلِذَلِكَ سَأَلَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هَذِهِ الْأُمُورَ، فَأَعْطَيْهَا.

وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى حَالَةِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُرْسَلِينَ إِلَى الْخَلْقِ؛ رَأَيْتَهُمْ بِهَذِهِ الْحَالِ بِحَسَبِ أَحْوَالِهِمْ، خُصُوصاً خَاتَمَهُمْ وَأَفْضَلَهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ؛ فَإِنَّهُ فِي الدَّرُوءَةِ الْعَلِيَا مِنْ كُلِّ صِفَةِ كِمَالٍ، وَلَهُ مِنْ شَرْحِ الصَّدْرِ وَتَيْسِيرِ الْأَمْرِ وَفَصَاحَةِ اللِّسَانِ وَحَسَنِ التَّعْبِيرِ وَالْبَيَانِ وَالْأَعْوَانِ عَلَى الْحَقِّ مِنَ الصَّحَابَةِ فَمَنْ بَعْدَهُمْ مَا لَيْسَ لغيره.

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَى ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْدِفْهُ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفْهُ فِي الْيَمِّ فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَلَلْتَ نَفْسًا فَجَعَيْنَاكَ مِنَ الْغَمْرِ وَفَنَّكَ نُوحًا فَلَيْتَ سِينِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْؤُؤُا ﴿٤٠﴾ وَأَصْطَنَعْتَكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾.

﴿٣٧ - ٣٩﴾ لما ذكر منته على عبده ورسوله موسى بن عمران في الدين والوحي والرسالة وإجابة سُؤْلِهِ؛ ذكر نعمته عليه وقت التربية والتنقّلات في أطواره، فقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾: حيث ألهمنا أمك أن تقدّك في التابوت وقت الرّضاع خوفاً من فرعون؛ لأنّه أمر بذبح أبناء بني إسرائيل، فأخفته أمّه وخافت عليه خوفاً شديداً، فقدّفته في التابوت، ثم قدّفته في اليم؛ أي: شط نيل مصر، فأمر الله اليم أن يلقيه في الساحل، وقبّض أن يأخذه أعدى الأعداء لله ولموسى، ويتربّى في أولاده، ويكون قرّة عين لمن رآه، ولهذا قال: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾؛ فكل من رآه أحبه. ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾؛ أي: ولتتربّى على نظري وفي حفظي وكلاءتي، وأيّ نظر وكفالة أجل وأكمل من ولاية البرّ الرحيم القادر على إيصال مصالح عبده ودفع المضار عنه؛ فلا ينتقل من حالة إلى حالة إلّا والله تعالى هو الذي دبّر ذلك لمصلحة موسى!

﴿٤٠﴾ ومن حسن تدبيره أنّ موسى لما وقع في يد عدوّه؛ قلقّت أمّه قلقاً شديداً، وأصبح فؤادها فارغاً، وكادت تُخَيِّرُ به، لولا أنّ الله ثبتّها وربط على قلبها؛ ففي هذه الحالة حرّم الله على موسى المراضع؛ فلا يقبل ثدي امرأة قط؛ ليكون ماله إلى أمّه فترضّعه ويكون عندها مطمئنة ساكنة قريبة العين، فجعلوا يعرضون عليه المراضع؛ فلا يقبل ثدياً، فجاءت أخت موسى، فقالت لهم: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾: على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون، ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ

تَقَرَّرَ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنْ وَقَتَلْتَ نَفْسًا: وهو القبطي لما دخل المدينة وقت غفلة من أهلها وَجَدَ رجلين يقتتلان: واحد من شيعة موسى والآخر من عدوه قبطي، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه، فَوَكَّزَهُ موسى ففضى عليه، فدعا الله وسأله المغفرة فَغَفَرَ لَهُ، ثم فرَّ هارباً لما سمع أنَّ المَلَأَ طَلَبُوهُ يريدون قتله. ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾^(١): من عقوبة الذنب ومن القتل، ﴿وَفَتَّنَاكَ فُتُونًا﴾؛ أي: اختبرناك وَبَلَّوْنَاكَ فوجدناك مستقيماً في أحوالك، أو نَقَّلْنَاكَ في أحوالك وأطوارك حتى وصلت إلى ما وصلت إليه. ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾: حين فرَّ هارباً من فرعون وملئه حين أرادوا قتله، فتوجَّه إلى مدين، ووصل إليها، وتزوَّج هناك، ومكث عشر سنين أو ثمان سنين، ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾؛ أي: جئت مجيئاً ليس اتفاقاً من غير قصد ولا تدبير مثلاً، بل بقدرٍ ولطف مثلاً^(٢)، ولهذا يدلُّ على كمال اعتناء الله بكليمه موسى عليه السلام.

﴿٤١﴾ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾؛ أي: أجريت عليك صنائعي ونعمي وحسن عوائدي وتربيتي؛ لتكون لنفسي حبيباً مختصاً، وتبلغ في ذلك مبلغاً لا يناله أحد من الخلق إلاَّ النادر منهم.

وإذا كان الحبيب إذا أراد اصطناع حبيبه من المخلوقين، وأراد أن يبلغ من الكمال المطلوب له ما يبلغ؛ يبذل غاية جهده ويسعى نهاية ما يمكنه في إيصاله لذلك؛ فما ظنك بصنائع الربِّ القادر الكريم؟! وما تحسبه يفعل بمن أراداه لنفسيه، واصطفاه من خلقه.

﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نُبَيِّنُ فِي ذِكْرِي﴾ ٤١ ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ٤٢ ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّكُمْ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ ٤٣ ﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَقْرُقَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ﴾ ٤٤ ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسَمِعُ وَارَىٰ﴾ ٤٥ ﴿

﴿٤٢﴾ لما امتنَّ الله على موسى بما امتنَّ به من النعم الدينية والدنيوية؛ قال له: ﴿أذهب أنت وأخوك﴾: هارون ﴿بآياتي﴾؛ أي: الآيات التي مني، الدالة على الحقِّ وحسنه وقبح الباطل؛ كاليد والعصا ونحوها؛ في تسع آياتٍ إلى فرعون وملئه،

(١) في (ب): «فنجاه الله».

(٢) في (ب): «أي جئت مجيئاً قد مضى به القدر وعلمه الله وأراد به في هذا الوقت وهذا الزمان وهذا المكان ليس مجيئك».

﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾؛ أي: لا تفترأ ولا تكسلا عن مداومة ذِكْرِي بالاستمرار عليه والزَّمَاهُ كما وعدتُما بذلك: ﴿كِي نَسَبَحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾؛ فَإِنَّ ذَكَرَ اللَّهُ فِيهِ مَعُونَةً عَلَى جَمِيعِ الْأُمُورِ؛ يَسْهَلُهَا، وَيَخَفِّفُ حَمْلَهَا.

﴿٤٣﴾ ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾؛ أي: جاوز الحدَّ في كفرِهِ وطغيانِهِ وظلمهِ وعدوانهِ.

﴿٤٤﴾ ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا﴾؛ أي: سهلاً لطيفاً برفق ولين وأدب في اللفظ من دون فحش ولا صلف ولا غِلْظَةٍ في المقال أو فظاظَةٍ في الأفعال. ﴿لَعَلَّهُ﴾: بسبب القول اللين ﴿يَتَذَكَّرُ﴾: ما ينفعه فيأتيهِ ﴿أَوْ يَخْشَى﴾: ما يضرُّهُ فيتركه؛ فَإِنَّ القولَ اللَّيِّنَ دَاعٍ لِّلذِّكْرِ، والقول الغليظ منقُورٌ عن صاحبه، وقد فُسر القول اللَّيِّنُ في قوله: ﴿قُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزْكَىٰ. وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾؛ فَإِنَّ فِي هَذَا الْكَلَامِ مِنْ لُطْفِ الْقَوْلِ وَسَهُولَتِهِ وَعَدَمِ بَشَاعَتِهِ مَا لَا يَخْفَى عَلَى الْمُتأمل؛ فَإِنَّهُ أَتَى بِـ ﴿هَلْ﴾ الدَّالَّةَ عَلَى الْعَرَضِ وَالْمَشَاوَرَةِ، الَّتِي لَا يَشْمُزُّ مِنْهَا أَحَدٌ، ودعاه إِلَى التَّزْكِي والتَّطَهُّرِ مِنَ الْأَدْنَاسِ، الَّتِي أَصْلُهَا التَّطَهُّرُ مِنَ الشُّرْكِ، الَّذِي يَقْبَلُهُ كُلُّ عَقْلٍ سَلِيمٍ، وَلَمْ يَقُلْ: أَزْكِيكَ، بَلْ قَالَ: ﴿تَزْكَى﴾: أَنْتَ بِنَفْسِكَ، ثُمَّ دَعَاهُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ الَّذِي رَبَّاهُ وَأَنْعَمَ عَلَيْهِ بِالنِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، الَّتِي يَنْبَغِي مُقَابَلَتَهَا بِشُكْرِهَا وَذِكْرِهَا، فَقَالَ: ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾، فَلَمَّا لَمْ يَقْبَلْ هَذَا الْكَلَامَ اللَّيِّنَ الَّذِي يَأْخُذُ حَسَنُهُ بِالْقُلُوبِ؛ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَنْجُعُ فِيهِ تَذَكُّيرٌ، فَأَخَذَهُ اللَّهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ.

﴿٤٥﴾ ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا﴾؛ أي: يبادرنا بالعقوبة والإيقاع بنا قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَهُ رِسَالَتُكَ، وَنَقِيمُ عَلَيْهِ الْحُجَّةَ، ﴿أَوْ أَنْ يُطْغَى﴾؛ أي: يَتمَرَّدَ عَنِ الْحَقِّ، وَيَطْغَى بِمُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ وَجُنْدِهِ وَأَعْوَانِهِ.

﴿٤٦﴾ ﴿قَالَ لَا تَخَافَا﴾: أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْكُمَا؛ ﴿إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾؛ أي: أَنْتُمَا بِحِفْظِي وَرِعَايَتِي، أَسْمَعُ قَوْلَكُمَا، وَأَرَى جَمِيعَ أَحْوَالِكُمَا؛ فَلَا تَخَافَا مِنْهُ. فزَالِ الْخَوْفُ عَنْهُمَا، وَاطْمَأْنَنْتَ قُلُوبُهُمَا بِوَعْدِ رَبِّهِمَا.

﴿فَأَنبَأَهُ قَوْلًا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْدِبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ۖ ﴿٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۖ ﴿٨﴾﴾.

﴿٤٧﴾ أي: فَأَنبَأَهُ بِهَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ: دَعْوَتُهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَتَخْلِيصُ هَذَا الشَّعْبِ الشَّرِيفِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ قَيْدِهِ وَتَعْبِيدِهِ لَهُمْ؛ لِيَتَحَرَّرُوا وَيَمْلِكُوا أَمْرَهُمْ، وَيَقِيمَ فِيهِمْ

موسى^(١) شرع الله ودينه. ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بَيِّنَاتٍ﴾: تدلُّ على صدقنا، فألقى موسى عصاه؛ فإذا هي ثعبانٌ مبينٌ، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين... إلى آخر ما ذَكَرَ الله عنهما. ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾؛ أي: من اتَّبَعَ الصراط المستقيم واهتدى بالشرع المبين؛ حصلت له السلامة في الدنيا والآخرة.

﴿٤٨﴾ ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا﴾؛ أي: خبرنا^(٢) من عند الله لا من عند أنفسنا؛ ﴿أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾؛ أي: كَذَّبَ بأخبار الله وأخبار رسوله، وتولَّى عن الانقياد لهم واتباعهم، ولهذا فيه الترغيب لفرعون بالإيمان والتصديق واتباعهما والترهيب من ضد ذلك، ولكن لم يُفِذ فيه هذا الوعظ والتذكير، فأنكر ربه وتفر وجادل في ذلك ظلماً وعناداً.

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى﴾ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿٥١﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَانِ ﴿٥٤﴾ ﴿مِنَّا خَلَقْنَكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٥﴾﴾.

﴿٤٩﴾ أي: قال فرعون لموسى على وجه الإنكار: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا موسى؟﴾ ﴿٥٠﴾ فأجاب موسى بجواب شافٍ كافٍ واضح، فقال: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾؛ أي: ربُّنا الذي خلق جميع المخلوقات، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، [الدال] على حسن صنعة من خلقه، من كبر الجسم وصغره وتوسطه وجميع صفاته، ثم هدى كل مخلوق إلى ما خلقه له، وهذه الهداية الكاملة^(٣) المشاهدة في جميع المخلوقات؛ فكل مخلوق تجده يسعى لما خلق له من المنافع وفي دفع المضار عنه، حتَّى إِنَّ الله أعطى الحيوان البهيم من العقل ما يتمكن^(٤) به على ذلك، ولهذا كقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾: فالذي خلق المخلوقات، وأعطاه خلقها الحسن الذي لا تقترح العقول فوق حسنه، وهداها لمصالحها؛ هو الربُّ على الحقيقة؛ فإنكاره إنكارٌ لأعظم الأشياء وجوداً،

(١) في (ب): «ويقيم موسى فيهم».

(٢) في (ب): «خبر».

(٣) في (ب): «العامة».

(٤) في (ب): «ما يتمكن».

وهو مكابرة ومجاهرة بالكذب؛ فلو قُدِّرَ أَنَّ الإنسان أنكر من الأمور المعلومة ما أنكر؛ كان إنكاره لرَبِّ العالمين أكبر من ذلك.

﴿٥١﴾ ولهذا لما لم يمكن فرعون أن يعانِدَ هذا الدليل القاطع؛ عدل إلى المشاغبة، وحاد عن المقصود، فقال لموسى: ﴿فما بال القرون الأولى﴾؛ أي: ما شأنهم؟ وما خبرهم؟ وكيف وصلت بهم الحال وقد سبقونا إلى الإنكار والكفر والظلم والعناد ولنا فيهم أسوة؟

﴿٥٢﴾ فقال موسى: ﴿علمها عند ربِّي في كتاب لا يضلُّ ربِّي ولا ينسى﴾؛ أي: قد أحصى أعمالهم من خير وشرٍّ، وكتبه في كتابه^(١)، وهو اللوح المحفوظ، وأحاط به علماً وخبراً؛ فلا يضلُّ عن شيء منها ولا ينسى ما عَلِمَهُ منها، ومضمون ذلك أنهم قَدِمُوا إلى ما قَدَّمُوهُ ولاقُوا أعمالهم وسيجازون عليها؛ فلا معنى لسؤالك واستفهامك يا فرعون عنهم؛ فتلك أمةٌ قد خلت، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم؛ فإن كان الدليل الذي أوردناه عليك والآيات التي أريناكها قد تحقَّقت صدقها وبقينها، وهو الواقع؛ فانقذ إلى الحقِّ، ودع عنك الكفر والظلم وكثرة الجدل بالباطل، وإن كنت قد شككت فيها أو رأيته غير مستقيمة؛ فالطريق مفتوح، وباب البحث غير مغلق، فَرُدِّ الدليل بالدليل والبرهان بالبرهان، ولن تَجِدَ لذلك سبيلاً ما دام الملوان^(٢)؛ كيف وقد أخبر الله عنه أنه جَحَدَها مع استيقانها؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلماً وَعُلُوّاً﴾، وقال موسى: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاءِ إلَّا ربُّ السموات والأرض بصائر﴾؟! فَعَلِمَ أنه ظالمٌ في جداله، قصده العلوُّ في الأرض.

﴿٥٣﴾ ثم استطرد في هذا الدليل القاطع بذكر كثير من نعمه وإحسانه الضروري، فقال: ﴿الذي جَعَلَ لكم الأرض مَهْدًا﴾؛ أي: فرأشاً بحالة تتمكنون من السكون فيها والقرار والبناء والغراس وإثارتها للازدراع وغيره، ودلَّلها لذلك، ولم يجعلها ممتنعة عن مصلحةٍ من مصالحكم. ﴿وسَلَكْ لكم فيها سُبُلًا﴾؛ أي: نفذ لكم الطرق الموصلة من أرض إلى أرض، ومن قطر إلى قطر، حتى كان الآدميون يتمكنون من الوصول إلى جميع الأرض بأسهل ما يكون، ويتنفعون بأسفارهم أكثر مما ينتفعون بإقامتهم. ﴿وأنزل من السماء ماءً فأخرجنا به أزواجاً من نباتٍ شتى﴾؛

(١) في (ب): «في كتاب».

(٢) الملوان: أي الليل والنهار.

أي: أنزل المطر، فأحيا به الأرض بعد موتها، وأثبت بذلك جميع أصناف النوبات على اختلاف أنواعها وتشتت أشكالها وتباين أحوالها، فساقه وقدره ويسره رزقاً لنا ولأنعامنا، ولولا ذلك؛ لهلك مَنْ عليها من آدمي وحيوان.

﴿٥٤﴾ ولهذا قال: ﴿كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْعَامَكُمْ﴾: وسياقها على وجه الامتنان؛ ليدل ذلك على أن الأصل في جميع النوبات الإباحة؛ فلا يَحْزُمُ منها إلّا ما كان مضرّاً كالسموم ونحوه. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾؛ أي: لذوي العقول الرزينة والأفكار المستقيمة، على فضل الله وإحسانه ورحمته وسعة جوده وتمام عنايته، وعلى أنه الربُّ المعبود المالك المحمود، الذي لا يستحقُّ العبادة سواه، ولا الحمد والمدح والثناء إلّا مَنْ امتنَّ بهذه النعم، وعلى أنه على كلِّ شيء قدير؛ فكما أحيا الأرض بعد موتها؛ إنّ ذلك لمحيي الموتى. وخصَّ الله أولي النُّهى بذلك لأنَّهم المنتفعون بها الناظرون إليها نظر اعتبار، وأمّا مَنْ عداهم؛ فإنَّهم بمنزلة البهائم السارحة والأنعام السائمة، لا ينظرون إليها نظر اعتبار، ولا تنفذ بصائرهم إلى المقصود منها، بل حظُّهم حظُّ البهائم؛ يأكلون ويشربون وقلوبهم لاهية وأجسادهم^(١) مُغرِضة، ﴿وَكَايُنَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

﴿٥٥﴾ ولما ذَكَرَ كرم الأرض وحسن شكرها لما يُنْزِلُهُ الله عليها من المطر، وأنَّها بإذن ربِّها تُخرج النبات المختلف الأنواع؛ أخبر أنه خَلَقْنَا منها، وفيها يعيدُنَا إذا متنا فدفنَّا فيها، ومنها يخرجُنَا ﴿تَارَةً أُخْرَى﴾؛ فكما أوجدنا منها من العدم، وقد علمنا ذلك وتحققناه؛ فسيعيدُنَا بالبعث منها بعد موتنا؛ ليجازينا بأعمالنا التي عملناها عليها. وهذان دليلان على الإعادة عقليَّان واضحيان: إخراج النبات من الأرض بعد موتها، وإخراج المكلفين منها في إيجادهم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْؤُوسٍ ﴿٥٧﴾ فَلَمَّا آتَيْنَاكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوِيًّا ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ آفَرَئِي

(١) في (ب): «وأجسامهم».

﴿٦١﴾ [فَنَنْزَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَجِرِينَ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُتَنَالَى ﴿٦٣﴾ فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوُا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَمْوِسُ يَا إِمَّا أَنْ تَلْقَىٰ وَلِئَامًا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلِ الْقَوَا فَاذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيْبُهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسْعَى ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفُ إِلَّا نَكَتَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٦٩﴾ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجْدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنَّا لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تُطِيعُوا أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّمَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧١﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَلَيْنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾ ﴿١﴾].

﴿٥٦﴾ يخبر تعالى أنه أرى فرعون من الآيات والعبر والقواطع جميع أنواعها العيانية والأفقية والنفسية؛ فما استقام ولا ارعوى، وإنما كذب وتولى؛ كذب الخبير وتولى عن الأمر والنهي، وجعل الحق باطلاً والباطل حقاً، وجادل بالباطل ليضل الناس.

﴿٥٧﴾ فقال: ﴿أَجْتَنَّا لِنُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ﴾: زعم أن هذه الآيات التي أراه إياها موسى سحرٌ وتمويه، المقصود منها إخراجهم من أرضهم والاستيلاء عليها؛ ليكون كلامه مؤثراً في قلوب قومه؛ فإنَّ الطُّباع تميل إلى أوطانها، ويصعبُ عليها الخروج منها ومفارقتها، فأخبرهم أن موسى هذا قصده؛ لِيُغْضَوْهُ وَيَسْعَوْا فِي مُحَارَبَتِهِ.

﴿٥٨﴾ ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ﴾: مثل سحرِكَ، فأمهلنا واجعل لنا ﴿موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى﴾؛ أي: مستوٍ علمنا وعلمك به، أو مكاناً مستوياً معتدلاً لتتمكن من رؤية ما فيه.

﴿٥٩﴾ فقال موسى: ﴿موعدكم يوم الزينة﴾: وهو عيدهم الذي يتفرغون فيه ويقطعون شواغلهم، ﴿وأن يُخْشَرَ الناس ضحى﴾؛ أي: يُجمعون كلهم في وقت

الضحي. وإِنَّمَا سَأَلَ مُوسَى ذَلِكَ لِأَنَّ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَوَقْتُ الضَّحَى مِنْهُ يَحْصُلُ مِنْهُ كَثْرَةُ الْجَمَاعِ وَرُؤْيَا الْأَشْيَاءِ عَلَى حَقَائِقِهَا مَا لَا يَحْصُلُ فِي غَيْرِهِ.

﴿٦٠﴾ ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾؛ أَي: جَمِيعَ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِمَّا يَكِيدُ بِهِ مُوسَى، فَأَرْسَلَ فِي مَدَائِنِهِ مَنْ يَحْشُرُ السَّحْرَةَ الْمَاهِرِينَ فِي سِحْرِهِمْ، وَكَانَ السَّحَرُ إِذْ ذَاكَ مُتَوَفِّرًا، وَعِلْمُهُ ^(١) مَرْغُوبًا فِيهِ، فَجَمَعَ خَلْقًا كَثِيرًا مِنَ السَّحْرَةِ، ثُمَّ أَتَى كُلَّ مِنْهُمَا لِلْمُوعَدِ، وَاجْتَمَعَ النَّاسُ لِلْمُوعَدِ، فَكَانَ الْجَمْعُ حَافِلًا، حَضَرَهُ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ وَالْمَلَأُ وَالْأَشْرَافُ وَالْعَوَامُّ وَالصِّغَارُ وَالْكِبَارُ، وَحَضُّوا النَّاسَ عَلَى الْجَمْعِ، وَقَالُوا: ﴿لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ لَعَلَّنَا نَتَّبِعَ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ﴾.

﴿٦١﴾ فَحِينَ اجْتَمَعُوا مِنْ جَمِيعِ الْبُلْدَانِ؛ وَعَظَّمَهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ، وَقَالَ لَهُمْ: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ ^(٢) لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ؛ أَي: لَا تَنْصُرُوا مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْبَاطِلِ بِسِحْرِكُمْ، وَتَغَالِبُونَ الْحَقَّ، وَتَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ، فَيَسْتَأْصِلُكُمْ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ، وَيَخِيبُ سَعْيَكُمْ وَافْتِرَاؤَكُمْ؛ فَلَا تَدْرِكُونَ مَا تَطْلُبُونَ مِنَ النَّصْرِ وَالْجَاهِ عِنْدَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِ، وَلَا تَسْلُمُوا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

﴿٦٢﴾ وَكَلامُ الْحَقِّ لَا بَدَأَ أَنْ يُوَثِّرَ فِي الْقُلُوبِ، لَا جَرَمَ ارْتَفَعَ الْخِصَامُ وَالنِّزَاعُ بَيْنَ السَّحْرَةِ لَمَّا سَمِعُوا كَلَامَ مُوسَى وَارْتَبَكُوا، وَلَعَلَّ مِنْ جُمْلَةِ نِزَاعِهِمْ الْاشْتِبَاهُ فِي مُوسَى هَلْ هُوَ عَلَى الْحَقِّ أَمْ لَا؟ وَلَكِنَّهُمْ إِلَى الْآنَ مَا تَمَّ أَمْرُهُمْ؛ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا؛ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ؛ فَحِينَئِذٍ أُسْرُوا فِيمَا بَيْنَهُمُ النِّجْوَى، وَأَنْتُمْ يَتَّفِقُونَ عَلَى مَقَالَةٍ وَاحِدَةٍ؛ لِيَنْجَحُوا فِي مَقَالِهِمْ وَفَعَالِهِمْ، وَلِيَتَمَسَّكَ النَّاسُ بِدِينِهِمْ.

﴿٦٣﴾ وَالنِّجْوَى الَّتِي أُسْرُوا فِيهَا فَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِهِمَا﴾؛ كَمَقَالَةِ فِرْعَوْنَ السَّابِقَةِ؛ فَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ تَوَافِقًا مِنْ فِرْعَوْنَ وَالسَّحْرَةِ عَلَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ، وَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ تَلْقِينًا مِنْهُمْ مَقَالَتِهِ الَّتِي صَمَّمُ عَلَيْهَا وَأَظْهَرَهَا لِلنَّاسِ، وَزَادُوا عَلَى قَوْلِ فِرْعَوْنَ أَنْ قَالُوا: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾؛ أَي: طَرِيقَةَ السَّحْرِ؛ حَسَدَكُمْ عَلَيْهَا، وَأَرَادَ أَنْ يَظْهَرَ عَلَيْكُمْ؛ لِيَكُونَ لَهُ الْفَخْرُ وَالصِّيْتُ وَالشُّهْرَةُ، وَيَكُونَ هُوَ الْمَقْصُودُ بِهَٰذَا الْعِلْمِ الَّذِي شَغَلْتُمْ زَمَانَكُمْ فِيهِ وَيَذْهَبُ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَأْكُلُونَ بِسَبَبِهِ، وَمَا يَتَّبِعُ ذَلِكَ مِنَ الرِّيَاسَةِ.

(١) فِي (ب): «وَعِلْمُهُ عِلْمًا».

(٢) فِي (ب): «وَيَحْكُم».

﴿٦٤﴾ وَهَذَا حُضْرٌ مِنْ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ^(١) عَلَى الْاجْتِهَادِ فِي مِغَالِبَتِهِ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾؛ أَي: أَظْهَرُوهُ دَفْعَةً وَاحِدَةً مَتَظَاهِرِينَ مُتَسَاعِدِينَ فِيهِ مُتَنَاصِرِينَ مُتَفَقًّا رَأْيَكُمْ وَكَلِمَتَكُمْ، ﴿ثُمَّ أَتُوا صَفًّا﴾: لِيَكُونَ أَمَكْنَ لِعَمَلِكُمْ وَأَهْيَبَ لَكُمْ فِي الْقُلُوبِ، وَلَثَلًا يَتْرَكَ بَعْضُكُمْ بَعْضَ مَقْدُورِهِ مِنَ الْعَمَلِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ مَنْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ وَنَجَحَ وَغَلَبَ غَيْرَهُ؛ فَإِنَّهُ الْمَفْلَحُ الْفَائِزُ؛ فَهَذَا يَوْمٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ مِنَ الْأَيَّامِ؛ فَمَا^(٢) أَصْلِبُهُمْ فِي بَاطِلِهِمْ وَأَشَدَّهُمْ فِيهِ! حَيْثُ أَتُوا بِكُلِّ سَبَبٍ وَوَسِيلَةٍ وَمُمْكِنٍ وَمَكِيدَةٍ يَكِيدُونَ بِهَا الْحَقَّ.

﴿٦٥﴾ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَيُظْهِرَ الْحَقَّ عَلَى الْبَاطِلِ، فَلَمَّا تَمَّتْ مَكِيدَتُهُمْ وَانْحَصَرَ قَصْدُهُمْ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْعَمَلُ؛ ﴿قَالُوا﴾ لِمُوسَى: ﴿إِنَّمَا أَنْ تَلْقَى﴾: عَصَاكَ، ﴿وَإِنَّمَا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾: خَيْرُهُ مُوْهِمِينَ أَنَّهُمْ عَلَى جِزْمٍ مِنْ ظُهُورِهِمْ عَلَيْهِ بِأَيِّ حَالَةٍ كَانَتْ.

﴿٦٦﴾ فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: ﴿لِلَّهِ الْقُوَا﴾: فَالْقُوا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَهُمْ؛ ﴿فَإِذَا حَبَالَهُمْ وَعَصِيَهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾؛ أَي: إِلَى مُوسَى ﴿مَنْ سَحَرَهُمْ﴾: الْبَلِغُ، ﴿أَنَّهُا تَسْعَى﴾: [أَنَّهُا حَيَاتٍ تَسْعَى].

﴿٦٧﴾ فَلَمَّا خُيِّلَ إِلَى مُوسَى ذَلِكَ؛ أَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً كَمَا هُوَ مُقْتَضَى الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَإِلَّا؛ فَهُوَ جَازِمٌ بِوَعْدِ اللَّهِ وَنَصْرِهِ.

﴿٦٨﴾ ﴿قُلْنَا لَهُ﴾: تَثَبُّتًا وَتَطْمِينًا: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾: عَلَيْهِمْ؛ أَي: سَتَعْلُو عَلَيْهِمْ، وَتَقْهَرُهُمْ، وَيَذُلُّوْا لَكَ، وَيَخْضَعُوا.

﴿٦٩﴾ ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾؛ أَي: عَصَاكَ؛ ﴿فَتَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾؛ أَي: كَيْدُهُمْ وَمَكْرَهُمْ لَيْسَ بِمُثْمِرٍ لَهُمْ وَلَا نَاجِحٍ؛ فَإِنَّهُ مِنْ كَيْدِ السَّحَرَةِ الَّذِينَ يَمْوَهُونَ عَلَى النَّاسِ وَيُلْبَسُونَ الْبَاطِلَ وَيَخَيَّلُونَ أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ.

﴿٧٠﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ، فَتَلْقَفَتْ مَا صَنَعُوا كُلَّهُ وَأَكَلَتْهُ، وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ لِذَلِكَ الصَّنِيعِ، فَعَلِمَ السَّحَرَةُ عِلْمًا يَقِينًا أَنَّ هَذَا لَيْسَ بِسِحْرٍ، وَأَنَّهُ مِنَ اللَّهِ، فَبَادَرُوا لِلْإِيمَانِ، ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ﴾ سَاجِدِينَ، ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى

(١) فِي (ب): «بَعْضٌ».

(٢) فِي (ب): «فَلَهُ دَرَاهِمُ مَا...». وَقَدْ طَمَسَهَا الشَّيْخُ فِي (أ).

وهارون)، فوق الحق وظهر وسطع، وبطل السحر والمكر والكيد في ذلك المجمع العظيم، فصارت بيّنة ورحمة للمؤمنين وحجة على المعاندين.

﴿٧١﴾ فقال فرعون للسحرة: ﴿آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾؛ أي: كيف أقدمتم على الإيمان من دون مراجعة مني ولا إذن، استغرب ذلك منهم لأدبهم معه وذللهم وانقيادهم له في كل أمر من أمورهم، وجعل هذا من ذاك، ثم استلج فرعون في كفره وطغيانه بعد هذا البرهان، واستخف بقوله^(١) قومه، وأظهر لهم أن هذه الغلبة من موسى للسحرة ليس لأن الذي معه الحق، بل لأنه تمالأ هو والسحرة ومكروا ودبروا أن يخرجوا فرعون وقومه من بلادهم، فقبل قومه هذا المكر منه، وظنّوه صدقاً، فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين؛ مع أن هذه المقالة التي قالها لا تدخل عقل من له أدنى مُسكة من عقل ومعرفة بالواقع؛ فإن موسى أتى من مدين وحيداً، وحين أتى؛ لم يجتمع بأحد من السحرة ولا غيرهم، بل بادَرَ إلى دعوة فرعون وقومه، وأراهم الآيات، فأراد فرعون أن يعارض ما جاء به موسى، فسعى ما أمكنه، وأرسل في مدائنه من يجمع له كل ساحر عليم، فجاؤوا إليه، ووعدهم الأجر والمنزلة عند الغلبة، وهم حرصوا غاية الحرص وكادوا أشد الكيد على غلبتهم لموسى، وكان منهم ما كان؛ فهل يمكن أو يتصوّر مع هذا أن يكونوا دبروا هم وموسى وأتفقوا على ما صدر؟! هذا من أمحل المحال. ثم توعد فرعون السحرة فقال: لَا قُطْعَنَ ﴿أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾: كما يفعل بالمحارب الساعي بالفساد؛ يَقْطَعُ يده اليمنى ورجله اليسرى. ﴿وَلَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾؛ أي: لأجل أن تشتهروا وتخزوا. ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى﴾؛ يعني: بزعمه هو وأمه^(٢) وأنه أشد عذاباً من الله وأبقى؛ قلباً للحقائق، وترهيباً لمن لا عقل له.

﴿٧٢﴾ ولهذا؛ لما عَرَفَ السحرة الحق ورزقهم الله من العقل ما يدركون به الحقائق؛ أجابوه بقولهم: ﴿لَنْ نُؤْيِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ [أي لن نختارك وما وعدتنا به من الأجر والتقريب على ما أَرَانَا اللهُ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ]: الدالّات على أن الله هو الربُّ المعبود وحده، المعظم المبجل وحده، وأن ما سواه باطل، ونؤيّرَكَ على الذي فطرنا وخلقنا، هذا لا يكون. ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾: مما أوعدتنا به من القطع والصلب والعذاب، ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾؛ أي:

(١) في (ب): «عقول».

(٢) كذا في (أ)، وفي (ب): «هو أو الله».

إنما توعدنا به غاية ما يكون في هذه الحياة الدنيا ينقضي ويزول ولا يضرنا؛ بخلاف عذاب الله لمن استمر على كفره؛ فإنه دائم عظيم. وهذا كأنه جوابٌ منهم لقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾. وفي هذا الكلام من السحرة دليلٌ على أنه ينبغي للعاقل أن يوازن بين لذات الدنيا ولذات الآخرة وبين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

﴿٧٣﴾ ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾؛ أي: كُفِّرْنَا ومعاصينا؛ فإنَّ الإيمان مكفرٌ للسيئات، والتوبة تجب ما قبلها. وقولهم: ﴿وما أَكْرَهْتَنَا عليه من السحر﴾: الذي عارضنا به الحق. هذا دليلٌ على أنهم غير مختارين في عملهم المتقدم، وإنما [أكرههم] ^(١) فرعونُ إكراهاً. والظاهر - والله أعلم - أنَّ موسى لما وعظهم - كما تقدّم في قوله: ﴿وَلَكُمْ لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ أثرٌ معهم ووقع منهم موقعاً كبيراً، ولهذا تنازعوا بعد هذا الكلام والموعظة. ثمَّ إنَّ فرعونَ ألزمهم ذلك وأكرههم على المكر الذي أجرّوه، ولهذا تكلموا بكلامه السابق قبل إتيانهم؛ حيث قالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا﴾، فَجَرّوا على ما سنّه لهم وأكرههم عليه. ولعلَّ هذه النكتة التي قامت بقلوبهم من كراهتهم لمعارضة الحقّ بالباطل، وفعلهم ما فعلوا على وجه الإغماض هي التي أثّرت معهم ورحمهم الله بسببها، ووفّقهم للإيمان والتوبة. ﴿والله خبيرٌ﴾: مما أوعدتنا ^(٢) من الأجر والمنزلة والجاه، ﴿وأبقى﴾: ثواباً وإحساناً، لا ما يقول فرعون: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾؛ يريد أنه أشدَّ عذاباً وأبقى.

وجميع ما أتى من قصص موسى مع فرعون يذكُر الله فيه إذا أتى على قصة السحرة أن فرعون توعدهم بالقطع والصلب ولم يذكر أنه فعل ذلك، ولم يأت في ذلك حديثٌ صحيح، والجزم بوقوعه أو عدمه يتوقّف على الدليل. والله أعلم بذلك وغيره، [ولكن توعده إياهم بذلك مع اقتداره، دليل على وقوعه، ولأنه لو لم يقع لذكره الله، ولاتفاق الناقلين على ذلك].

﴿إِنَّكُمْ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾.

﴿٧٤﴾ يخبر تعالى أنَّ مَنْ أتاه وقَدِمَ عليه مجرماً - أي: وصفه الجرم من كل وجه،

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «أكرهم». (٢) في (ب): «وعدتنا».

وذلك يستلزم الكفر - واستمرَّ على ذلك حتى مات؛ فإنَّ له نار جهنم الشديد نكالها، العظيمة أغلالها، البعيد قعرها، الأليم حرها وقرها، التي فيها من العقاب ما يُذيب الأكباد والقلوب، ومن شدة ذلك أنَّ المعذب فيها لا يموت ولا يحيا، لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة يتلذذ بها، وإنَّما حياته محسوة بعذاب القلب والروح والبدن، الذي لا يُقدَّر قدره ولا يُفتر عنه ساعة؛ يستغيث فلا يُغاث، ويدعو فلا يُستجاب له؛ نعم؛ إذا استغاث؛ أغيث بماء كالمهل يشوي الوجوه، وإذا دعا؛ أجيب: بأخسؤوا فيها، ولا تكلمون.

﴿٧٥ - ٧٦﴾ ومن يأت ربَّه مؤمناً به، مصداقاً لرسله، متبعاً لكاتبه، قد عمل الصالحات الواجبة والمستحبة؛ ﴿فأولئك لهم الدرجات العلى﴾؛ أي: المنازل العاليات في الغرف المزخرفات، واللذات المتواصلات، والأنهار السارحات، والخلود الدائم، والسرور العظيم، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. و﴿ذلك﴾: الثواب ﴿جزاء من تزكى﴾؛ أي: تطهر من الشرك والكفر والفسوق والعصيان: إما أنَّ لا يفعلها بالكلية، أو يتوب مما فعله منها، وزكى أيضاً نفسه، ونماها بالإيمان والعمل الصالح؛ فإنَّ للتزكية معنيين: التنقية، وإزالة الخبث، والزيادة بحصول الخير، وسميت الزكاة زكاة لهذين الأمرين.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ۖ فَلَئِنَّهُمْ فَرَعُونَ ۚ فَعَشِيَهُمْ مِّنَ اللَّيْلِ مَا عَشَوُا ۖ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ۖ﴾

﴿٧٧ - ٧٩﴾ لما ظهر موسى بالبراهين على فرعون وقومه؛ مكث في مصر يدعوهم إلى الإسلام ويسعى في تخليص بني إسرائيل من فرعون وعذابه، وفرعون في عتو ونفور، وأمره شديد على بني إسرائيل، ويريه الله من الآيات والعبر ما قصه الله علينا في القرآن، وبني إسرائيل لا يقدرون أن يُظهروا إيمانهم ويعلنوه، قد اتخذوا بيوتهم مساجد، وصبروا على فرعون وأذاه، فأراد الله تعالى أن ينجيهم من عدوهم ويمكن لهم في الأرض؛ ليعبدوه جَهْرًا ويُقيموا أمره، فأوحى إلى نبيه موسى أن يواعد بني إسرائيل سرًا ويسيروا أول الليل لئتمادوا^(١) في الأرض، وأخبره أنَّ فرعون وقومه سَيَتَّبِعُونَهُ، فخرجوا أول الليل، جميع بني إسرائيل [هم] ونساؤهم وذريَّتُهم، فلما أصبح أهل مصر، وإذا هم ليس فيهم منهم داع ولا

(١) في (ب): «الكلمة غير واضحة».

مَجِيبٌ، فَحَقَّقَ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ فِرْعَوْنَ، وَأَرْسَلَ فِي الْمَدَائِنِ مَنْ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسَ وَيَحْضُرُهُمْ عَلَى الْخُرُوجِ فِي أَثَرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، [ليوقع بهم وينفذ غيظه، واللَّهُ غالب على أمره، فتكاملت جنود فرعون فصار بهم يتبع بني إسرائيل] فَاتَّبَعُوهُمْ مَشْرِقِينَ، فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ؛ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى: إِنَّا لَمَدْرُكُونَ، وَقَلِّقُوا، وَخَافُوا: الْبَحْرَ أَمَامَهُمْ. وَفِرْعَوْنَ مِنْ وَرَائِهِمْ؛ قَدْ امْتَلَأَ عَلَيْهِمْ غِيظًا وَحَنَقًا، وَمُوسَى مُطْمَئِنُّ الْقَلْبِ سَاكِنُ الْبَالِ، قَدْ وَثَّقَ بِوَعْدِ رَبِّهِ فَقَالَ: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾؛ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ يَضْرِبَ الْبَحْرَ بَعْصَاهُ، فَضْرِبَهُ، فَانْفَرَقَ اثْنِي عَشَرَ طَرِيقًا، وَصَارَ الْمَاءُ كَالْجِبَالِ الْعَالِيَةِ عَنْ يَمِينِ الطَّرِيقِ وَيسَارِهَا، وَأَيَسَّ اللَّهُ طُرُقَهُمُ الَّتِي انْفَرَقَ عَنْهَا الْمَاءُ، وَأَمَرَهُمُ اللَّهُ أَنْ لَا يَخَافُوا مِنْ إِدْرَاكِ فِرْعَوْنَ وَلَا يَخْشَوْا مِنَ الْغَرَقِ فِي الْبَحْرِ، فَسَلَكُوا فِي تِلْكَ الطَّرِيقِ، فَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، فَسَلَكُوا وَرَاءَهُمْ، حَتَّى تَكَامَلَ قَوْمُ مُوسَى خَارِجِينَ وَقَوْمُ فِرْعَوْنَ دَاخِلِينَ؛ أَمَرَ اللَّهُ الْبَحْرَ، فَالْتَطَمَ عَلَيْهِمْ، وَغَشِيَهِمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهِمْ، وَغَرَقُوا كُلَّهُمْ، وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَبَنُو إِسْرَائِيلَ يَنْظُرُونَ إِلَى عَدُوِّهِمْ، قَدْ أَقْرَأَ اللَّهُ أَعْيُنَهُمْ بِهَلَاكِهِ^(١)، وَهَذَا عَاقِبَةُ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ وَعَدَمُ الْإِهْتِدَاءِ بِهَدْيِ اللَّهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾: بِمَا زَيَّنَ لَهُمُ مِنَ الْكُفْرِ، وَتَهَجَّجِينَ مَا أَتَى بِهِ مُوسَى، وَاسْتَخْفَافِهِ إِيَّاهُمْ، وَمَا هَدَاهُمْ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ، فَأَوْرَدَهُمْ مَوَارِدَ الْغِيِّ وَالضَّلَالِ، ثُمَّ أَوْرَدَهُمْ مَوَارِدَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ.

﴿يَبْنَیْ إِسْرَءِیْلَ قَدْ أَجْبَيْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنْ وَالسَّلَوى (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢)﴾.

﴿٨٠ - ٨١﴾ يَذْكُرُ تَعَالَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِثَّةَ الْعَظِيمَةِ عَلَيْهِمْ بِإِهْلَاكِ عَدُوِّهِمْ، وَمَوَاعِدَتِهِ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِجَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ؛ لِيَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ الَّذِي فِيهِ الْأَحْكَامُ الْجَلِيلَةُ وَالْأَخْبَارُ الْجَمِيلَةُ، فَتَتِمَّ عَلَيْهِمُ النِّعْمَةُ الدِّينِيَّةُ بَعْدَ النِّعْمَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَيَذْكُرُ مِثَّةَ أَيْضًا عَلَيْهِمْ فِي التَّيِّهِ بِإِنْزَالِ الْمَنْ وَالسَّلَوى وَالرِّزْقِ الرَّغْدِ الْهَنِيِّ، الَّذِي يَحْصُلُ لَهُمْ بِلَا مَشَقَّةٍ، وَأَنَّهُ قَالَ لَهُمْ: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾؛ أَي: وَاشْكُرُوهُ عَلَى مَا أَسَدَى إِلَيْكُمْ مِنَ النِّعَمِ. ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾؛ أَي: فِي رِزْقِهِ فَتُسْتَعْمَلُونَهُ فِي مَعَاصِيهِ وَتُبْطَرُونَ النِّعْمَةَ فَإِنَّكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ حَلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي؛

(١) كَذَا فِي (أ) وَفِي (ب): «بِهَلَاكِهِمْ».

أي: غضبتُ عليكم ثم عذبتكم. ﴿وَمَنْ يَخْلُلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾؛ أي: ردي وهلك وخاب وخسر؛ لأنه عَدِمَ الرِّضَا والإحسان، وحلَّ عليه الغضب والخسران.

﴿٨٢﴾ ومع هذا؛ فالتوبة معروضة، ولو عمل العبد ما عمل من المعاصي، ولهذا قال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾؛ أي: كثير المغفرة والرحمة، ﴿لَمَنْ تَابَ﴾: من الكفر والبدعة والفسوق، و﴿آمَنَ﴾: بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾: من أعمال القلب والبدن وأقوال اللسان، ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾؛ أي: سلك الصراط المستقيم، وتابع الرسول الكريم، واقتدى بالذين القويم؛ فهذا يغفر الله أوزاره، ويعفو عما تقدّم من ذنبه وإصراره؛ لأنه أتى بالسبب الأكبر للمغفرة والرحمة، بل الأسباب كلها منحصرة في هذه الأشياء؛ فإنَّ التوبة تجب ما قبلها، والإيمان والإسلام يهدم ما قبله، والعمل الصالح الذي هو الحسنات يُذهب السيئات، وسلوك طرق الهداية، بجميع أنواعها، من تعلّم علم وتدبّر آية أو حديث، حتى يتبيّن له معنى من المعاني يهتدي به، ودعوة إلى دين الحقّ وردّ بدعة أو كفر أو ضلالة وجهاد وهجرة وغير ذلك، من جزئيات الهداية كلها مكفّرات للذنوب محصّلات لغاية المطلوب.

﴿٨٣﴾ وَمَا أَعَجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَتَرَى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ يَقْوِمُ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَقْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾

﴿٨٣﴾ كان الله تعالى قد واعد موسى أن يأتيه لينزل عليه التوراة ثلاثين ليلة، فأتّمها بعشر، فلما تمّ الميقات؛ بادر موسى عليه السلام إلى الحضور للموعود شوقاً لرّبه وحرصاً على موعوده، فقال الله له: ﴿وَمَا أَعَجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾؛ أي: ما الذي قدّمك عليهم؟ ولم لم تصبر حتى تقدّم أنت وهم؟

﴿٨٤﴾ ﴿قال هم أولاء على أثري﴾؛ أي: قريباً مني، وسيصلون في أثري، والذي عَجَّلَنِي إليك يا ربّ الطلب^(١) لقربك والمسارة^(٢) في رضاك والشوق^(٣) إليك.

(٢) في (ب): «ومسارة».

(١) في (ب): «طلباً».

(٣) في (ب): «وشوقاً».

﴿٨٥﴾ فقال الله له: ﴿فإِنَّا قد فَتَنَّا قَوْمَكَ من بعدِكَ﴾؛ أي: بعبادتهم للعجل ابتليناهم واختبرناهم فلم يصبروا، وحين وصلت إليهم المحنة كفروا، ﴿وأضلَّهم السامريُّ﴾: فأخرج لهم عجلاً جسداً صاعاً فصار له خوار، وقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى، فنسيه موسى، فافتتن به بنو إسرائيل، فعبدوه، ونهاهم هارون، فلم ينتهوا.

﴿٨٦﴾ فلما رجع موسى إلى قومه وهو غضبان أسف؛ أي: ممتلىء غيظاً وحنقاً وغماً؛ قال لهم موبخاً ومقبحاً لفعالهم: ﴿يا قوم أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعِداً حَسَناً﴾: وذلك بإنزال التوراة. ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾؛ أي: المدة فتناولتم غيبيتي وهي مدة قصيرة؟! هذا قول كثير من المفسرين، ويحتمل أن معناه: أفضال عليكم عهد النبوة والرسالة، فلم يكن لكم بالنبوة علم ولا أثر، واندرست آثارها، فلم تقفوا منها على خير، فانمحت آثارها لبعث العهد بها، فعبدتم غير الله لغلبة الجهل وعدم العلم بآثار الرسالة؟! أي: ليس الأمر كذلك، بل النبوة بين أظهركم، والعلم قائم، والعدر غير مقبول. ﴿أم أردتُمْ﴾: بفعالكم ﴿أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ من رَبِّكُمْ﴾؛ أي: فتعرضتم لأسبابه واقتحمتم موجب عذابه، وهذا هو الواقع. ﴿فأخلفتم موعدي﴾: حين أمرتكم بالاستقامة ووصيت بكم هارون فلم ترقبوا غائباً ولم تحترموا حاضراً.

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْتَهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُمْ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾.

﴿٨٧ - ٨٨﴾ أي: قالوا له: ما فعلنا الذي فعلنا عن تعمدٍ منا وملكٍ منا لأنفسنا، ولكن السبب الداعي لذلك أننا تأثمنا من زينة القوم التي عندنا، وكانوا فيما يذكرون استعاروا حلياً كثيراً من القبط، فخرجوا وهو معهم، وألقوه وجمعوه حين ذهب موسى ليراجعوه فيه إذا رجع، وكان السامريُّ قد بصر يوم الغرق بأثر الرسول، فسوّلت له نفسه أن يأخذ قبضةً من أثره، وأنه إذا ألقاها على شيءٍ حيٍّ فتنة وامتحاناً، فألقاها على ذلك العجل الذي صاعه بصورة عجل، فتحرّك العجل وصار له خوار وصوت، وقالوا: إن موسى ذهب يطلب ربّه، وهو هاهنا، فنسيه.

﴿٨٩﴾ وهذا من بلادتهم وسخافة عقولهم؛ حيث رأوا هذا الغريب الذي صار له خوار بعد أن كان جماداً، فظنّوه إله الأرض والسماوات، أفلا يرون أن العجل لا

﴿يَرْجِعْ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾؛ أي: لا يتكلم ويراجعهم ويراجعونه، ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؛ فالعادم للكمال والكلام والفعال لا يستحق أن يُعْبَدَ، وهو أنقص من عابديه؛ فإنهم يتكلمون ويقدرّون على بعض الأشياء من النفع والدفع بإقدار الله لهم.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَنْفَوِرْ إِنَّمَا فَتَنَّاهُ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبَعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ۝٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ۝٩١﴾ قَالَ يَهْدُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۝٩٢﴾ أَلَا تَتَّبِعُنِي أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ۝٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحَتِي وَلَا يَرَأْسِي ۝٩٤﴾ حَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ۝٩٥﴾.

﴿٩٠ - ٩١﴾ أي: إنهم باتخاذهم^(١) العجل ليسوا معذورين فيه؛ فإنه وإن كانت عَرَضَتْ لهم الشبهة في أصل عبادته؛ فإن هارون قد نهاهم عنه، وأخبرهم أنه فتنة، وأن ربهم الرحمن الذي منه النعم الظاهرة والباطنة، الدافع للنقم، وأنه أمرهم أن يتبعوه ويعتزلوا العجل، فأبوا وقالوا: ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾.

﴿٩٢ - ٩٣﴾ فأقبل موسى على أخيه لاثماً له، وقال: ﴿يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا. أَنْ لَا تَتَّبِعَنِ﴾: فتخبرني لأبادر للرجوع إليهم. ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾: في قلبي: ﴿أَخْلَفَنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحَ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمَفْسِدِينَ﴾: فأخذ موسى برأس هارون ولحيته يجره من الغضب والعتب عليه.

﴿٩٤﴾ فقال هارون: ﴿يَا ابْنَ أُمِّ﴾: تريق له، وإلا فهو شقيقه. ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾: فإنك أمرتني أن أخلّفك فيهم؛ فلو تبعتك؛ لتركت ما أمرتني بلزوميه، وخشيت لاثمتك، وأن تقول: فرقت بين بني إسرائيل؛ حيث تركتهم وليس عندهم راع ولا خليفة؛ فإن هذا يفرّقهم، ويشتت شملهم؛ فلا تجعلني مع القوم الظالمين، ولا تشمت فينا الأعداء. فندم موسى على ما صنع بأخيه وهو غير مستحق لذلك، فقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

ثم أقبل على السامري:

(١) في (ب): «أن اتخاذهم».

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِرُ﴾ ٩٥ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ ٩٦ ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفَنَّهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ ٩٧ ﴿

﴿٩٥ - ٩٦﴾ أي: ما شأنك يا سامري حيث فعلت ما فعلت؟ فقال: ﴿بَصُرْتُ بما لم ينصروا به﴾: وهو جبريل عليه السلام على فرس، رآه وقت خروجهم من البحر وغرق فرعون وجنوده على ما قاله المفسرون، ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ حَافِرِ فَرَسِهِ، فَنَبَذْتُهَا عَلَى الْعَجَلِ،﴾ وكذلك سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي: أَنْ أَقْبِضَهَا ثُمَّ أَنْبِذَهَا، فكان ما كان.

﴿٩٧﴾ فقال له موسى: اذهب؛ أي: تباعد عني واستأخر مني. ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾؛ أي: تعاقب في الحياة عقوبة، لا يدنو منك أحدٌ ولا يَمَسُّكَ أحدٌ، حتى إن من أراد القرب منك؛ قلت له: لا تَمَسَّنِي ولا تَقْرُبْ مِنِّي؛ عقوبة على ذلك؛ حيث مس ما لم يمسه غيره وأجرى ما لم يجره أحدٌ. ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفَنَّهُ﴾: فتجاوز بعملك من خير وشر. ﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾؛ أي: العجل، ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾: ففعل موسى ذلك؛ فلو كان إلهاً؛ لامتنع ممن يريد به بأذى ويسعى له بالإتلاف. وكان قد أشرب العجل في قلوب بني إسرائيل، فأراد موسى عليه السلام إتلافه وهم ينظرون على وجه لا تمكن إعادته؛ بالإحراق والسحق وذريه في اليم ونسفه؛ ليزول ما في قلوبهم من حبه كما زال شخصه، ولأن في إبقائه محنة؛ لأن في النفوس أقوى داعٍ إلى الباطل.

فلما تبين لهم بطلانه؛ أخبرهم بمن يستحق العبادة وحده لا شريك له، فقال:

﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ٩٨ ﴿

﴿٩٨﴾ أي: لا معبود إلا وجهه الكريم؛ فلا يؤله ولا يحب ولا يرجى ولا يخاف ولا يدعى إلا هو؛ لأنه الكامل الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى، المحيط علمه بجميع الأشياء، الذي ما من نعمة بالعباد إلا منه، ولا يدفع سوء إلا هو؛ فلا إله إلا هو، ولا معبود سواه.

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ۖ ﴿٩٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ۖ ﴿١٠٠﴾ خَلِيلَيْنِ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ۖ ﴿١٠١﴾﴾ .

﴿٩٩﴾ يمتنُّ الله تعالى على نبيه ﷺ بما قصَّه عليه من أنباء السابقين وأخبار السالفين؛ كهذه القصَّة العظيمة، وما فيها من الأحكام وغيرها، التي لا ينكرها أحدٌ من أهل الكتاب؛ فأنت لم تدرُس أخبار الأولين، ولم تتعلَّم ممَّن دراهم؛ فأخبارك بالحقِّ اليقين من أخبارهم دليلٌ على أنَّك رسولُ الله حقًّا، وما جئت به صدقًا، ولهذا قال: ﴿وقد آتيناك مِن لَدُنَّا﴾؛ أي: عطيةٌ نفيسة ومِنحةٌ جزيلة من عندنا، ﴿ذِكْرًا﴾: وهو هذا القرآن الكريم؛ ذكَّرُ للأخبار السابقة واللاحقة، وذكَّرُ يَتَذَكَّرُ به ما لله تعالى من الأسماء والصفات الكاملة، ويَتَذَكَّرُ به أحكام الأمر والنهي وأحكام الجزاء، وهذا ممَّا يدلُّ على أنَّ القرآن مشتملٌ على أحسن ما يكون من الأحكام، التي تشهد العقول والفطر بحسنها وكمالها، ويذكُرُ هذا القرآن ما أودعَ الله فيها، وإذا كان القرآن ذكْرًا للرسول ولأمته؛ فيجبُ تلقُّيه بالقبول والتسليم والانقياد والتعظيم، وأن يُهتَدَى بنوره إلى الصراط المستقيم، وأن يُقبِلوا عليه بالتعلُّم والتعليم.

﴿١٠٠﴾ وأما مقابلته بالإعراض أو ما هو أعظم منه من الإنكار؛ فإنه كفرٌ لهذه النعمة، ومن فعل ذلك؛ فهو مستحقٌّ للعقوبة، ولهذا قال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾: فلم يؤمن به أو تهاون بأوامره ونواهيه أو بتعلُّم معانيه الواجبة، ﴿فإنَّه يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾: وهو ذنبه الذي بسببه أعرض عن القرآن، وأولاه الكفر والهجران.

﴿١٠١﴾ ﴿خالدين فيه﴾؛ أي: في وزرهم؛ لأنَّ العذاب هو نفس الأعمال، تنقلب عذاباً على أصحابها بحسب صغرها وكبرها، ﴿وساءَ لهم يومَ القيامةِ حِمْلًا﴾؛ أي: بش الحمل الذي يحملونه والعذاب الذي يعذبونه يوم القيامة.

ثم استطرد فذكر أحوال يوم القيامة وأهواله فقال:

﴿يَوْمَ يُفْخَخُ فِي الصُّورِ وَتَخْشُرُ الْمَجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۖ ﴿١٠٢﴾ يَخَفَتُونَ يَتَنَبَّهُونَ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۖ ﴿١٠٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَثْلُثُ طَرِيقَةً إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ۖ ﴿١٠٤﴾﴾ .

﴿١٠٢﴾ - ١٠٢﴾ أي: إذا نُفِخَ في الصور، وخرج الناس من قبورهم؛ كل على حسب حاله؛ فالمتَّقون يُخْشَرُونَ إلى الرحمن وفداً، والمجرمون يُخْشَرُونَ زُرْقًا

أَلْوَانُهُمْ مِنَ الْخَوْفِ وَالْقَلَقِ وَالْعَطَشِ؛ يَتَنَاجَوْنَ بَيْنَهُمْ وَيَتَخَفَتُونَ^(١) فِي قِصْرِ مَدَّةِ الدُّنْيَا وَسُرْعَةِ الْآخِرَةِ، فيقول بعضهم ما لبثتم إلا عشرة أيام، ويقول بعضهم غير ذلك، واللّه يعلم تخافتهم ويسمع ما يقولون: ﴿إِذْ يَقُولُ امْثَلْهُمْ طَرِيقَةً﴾؛ أي: أعدلهم وأقربهم إلى التقدير: ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾: والمقصود من هذا الندم العظيم؛ كيف ضيعوا الأوقات القصيرة وقطعوا ساهين لاهين معرضين عما ينفعهم مقبلين على ما يضرهم؛ فها قد حضر الجزاء، وحق الوعيد، فلم يبق إلا الندم والدعاء بالويل والثبور؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ. قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۖ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۚ يَوْمَئِذٍ تَبْنَعُ الدَّاعِي لَآ عِوَجَ لَّهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۚ يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفْعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ ۖ عَلَّمَ ۖ ﴿١٠٧﴾ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ۚ ﴿١٠٨﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِرٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ۚ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿١٠٥ - ١٠٧﴾ يخبر تعالى عن أهوال القيامة وما فيها من الزلازل والقلاقل، فقال: ﴿ويسألونك عن الجبال﴾؛ أي: ماذا يصنع بها يوم القيامة؟ وهل تبقى بحالها أم لا؟ ﴿فقل ينسفها ربي نسفا﴾؛ أي: يزيلها ويقلعها من أماكنها، فتكون كالعن وكالرمل، ثم يدكها فيجعلها هباء منبثا، فتضمحل وتلاشى، ويسويها بالأرض، ويجعل الأرض ﴿قاعا صفصفا﴾: مستويا، ﴿لا ترى فيها﴾: أيها الناظر، ﴿عوجا﴾: هذا من تمام استوائها، ﴿ولا أمتا﴾؛ أي: أودية وأماكن منخفضة أو مرتفعة، فتبرز الأرض وتتسع للخلائق ويمدّها الله مدّ الأديم، فيكونون في موقف واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر.

﴿١٠٨ - ١١٠﴾ ولهذا قال: ﴿يومئذ يبنعون الداعي﴾: وذلك حين يبعثون من قبورهم ويقومون منها؛ يدعوهم الداعي إلى الحضور والاجتماع للموقف، فينبعونه مهطعين إليه، لا يلتفتون عنه، ولا يعرجون يمنة ولا يسرة. وقوله: ﴿لا عوج له﴾؛

(١) في (ب): «ويتخافون».

أي: لا عوج لدعوة الداعي، بل تكون دعوته حقاً وصدقاً لجميع الخلق، يُسمِعهم جميعهم، ويصيح لهم أجمعين، فيحضرّون لموقف القيامة خاشعةً أصواتهم للرحمن. ﴿فلا تسمعُ إلا همساً﴾؛ أي: إلا وطء الأقدام أو المخافاة سرّاً بتحريك الشفتين فقط؛ يملكهم الخشوع والسكوت^(١) والإنصات؛ انتظاراً لحكم الرحمن فيهم، وتعنوا وجوههم؛ أي: تذلل وتخضع، فترى في ذلك الموقف العظيم الأغنياء والفقراء والرجال والنساء والأحرار والأرقاء والملوك والسوقة، ساكتين منصتين خاشعةً أبصارهم خاضعةً رقابهم جاثين على رُكبتهم عانيةً وجوههم، لا يدرون ماذا ينفصل كل منهم به ولا ماذا يفعل به، قد اشتغل كل بنفسه وشأنه عن أبيه وأخيه وصديقه وحبيبه، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يُغنيه، [فحينئذ] يحكم فيه الحاكم العدل الديان، ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء بالحرمان.

والأمل بالربّ الكريم الرحمن الرحيم أن يري الخلائق منه من الفضل والإحسان والعفو والصّفح والغفران ما لا تعبّر عنه الألسنة ولا تتصوّره الأفكار، ويتطلّع لرحمته إذ ذاك جميع الخلق؛ لما يشاهدونه، فيختصّ المؤمنون به وبرسله بالرحمة. فإن قيل من أين لكم هذا الأمل؟ وإن شئت قلت: من أين لكم هذا العلم بما ذُكر؟

قلنا: لما نعلمه من غلبة رحمته لغضبه، ومن سعة جوده الذي عمّ جميع البرايا، ومما نشاهده في أنفسنا وفي غيرنا من النعم المتواترة في هذه الدار، وخصوصاً في فضل القيامة؛ فإنّ قوله: ﴿وخشعت الأصوات للرحمن﴾ ﴿إلا من أذن له الرحمن﴾، مع قوله: ﴿الملك يومئذ الحق للرحمن﴾، مع قوله ﷺ: «إنّ لله مائة رحمة، أنزل لعباده رحمةً بها يتراحمون ويتعاطفون، حتى إن البهيمة ترفع حافرّها عن ولدها خشيةً أن تطأه»،^(٢) [أي]: من الرحمة المودعة في قلبها؛ فإذا كان يوم القيامة؛ ضمّ هذه الرحمة إلى تسع وتسعين رحمةً، فرحم بها العباد، مع قوله ﷺ: «لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها»^(٣)؛ فقل ما شئت عن رحمته؛ فإنّها فوق ما تقول، وتصوّر فوق ما شئت؛ فإنّها فوق ذلك؛ فسبحان من رحم في عدله

(١) في (ب): «والسكون».

(٢) كما في «صحيح البخاري» (٦٠٠٠)، و«مسلم» (٢٧٥٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤) بنحوه.

وعقوبته، كما رحم في فضله وإحسانه ومثوبته، وتعالى مَنْ وسعت رحمته كل شيء، وعمَّ كرمه كل حي، وجلَّ من غني عن عباده رحيم بهم، وهم مفتقرون إليه على الدوام في جميع أحوالهم؛ فلا غنى لهم عنه طرفة عين.

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾؛ أي: لا يشفع أحدٌ عنده من الخلق إلا مَنْ^(١) أذِنَ له في الشفاعة، ولا يأذن إلا لمن رَضِيَ قوله؛ أي: شفاعته؛ من الأنبياء والمرسلين وعباده المقربين فيمن ارتضى قوله وعمله، وهو المؤمن المخلص؛ فإذا اختلف واحدٌ من هذه الأمور؛ فلا سبيل لأحدٍ إلى شفاعته من أحد.

﴿١١٢ - ١١١﴾ وينقسم الناس في ذلك الموقف قسمين: ظالمين بكفرهم وشرهم؛ فهؤلاء لا ينالهم إلا الخيبة والحرمان والعذاب الأليم في جهنم وسخط الديان. والقسم الثاني: مَنْ آمَنَ الإيمان المأمور به، وعمل صالحاً من واجب ومسنون؛ ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾؛ أي: زيادة في سيئاته. ﴿وَلَا هَضْمًا﴾؛ أي: نقصاً من حسناته، بل تُغْفَرُ ذُنُوبُهُ وتُطَهَّرُ عيوبه وتضاعفُ حسناته، ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يضاعفها ويؤتِ من لدنه أجراً عظيماً﴾.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿١١٣﴾.

﴿١١٣﴾ أي: وكذلك أنزلنا هذا الكتاب باللسان الفاضل العربي الذي تفهمونه وتفقهونه ولا يخفى عليكم لفظه ولا معناه. ﴿وصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾؛ أي: نوعانها أنواعاً كثيرة؛ تارةً بذكر أسمائه الدالة على العدل والانتقام، وتارةً بذكر المثالات التي أحلها بالأمم السابقة، وأمر أن تُعْتَبَرَ بها الأمم اللاحقة، وتارةً بذكر آثار الذنوب وما تُكْسِبُهُ من العيوب، وتارةً بذكر أهوال القيامة وما فيها من المزعجات والمقلقات، وتارةً بذكر جهنم وما فيها من أنواع العقاب وأصناف العذاب؛ كل هذا رحمةً بالعباد؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾: الله، فيتركون من الشر والمعاصي ما يضرهم، ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾: فيعملون من الطاعات والخير ما ينفعهم، فكونه عربياً وكونه مصرفاً فيه من الوعيد أكبر سبب وأعظم داع للتقوى والعمل الصالح؛ فلو كان غير عربيٍّ أو غير مصرفٍ فيه؛ لم يكن له هذا الأثر.

(١) في (ب): «إذا».

﴿فَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (١١٢).

﴿١١٤﴾ لما ذكر تعالى حكمه الجزائي في عبادِهِ، وحكمه الأمري الديني الذي أنزله في الكتاب وكان هذا من آثار ملكه؛ قال: ﴿فتعالى الله﴾؛ أي: جلّ وارتفع وتقدّس عن كلّ نقص وآفة. ﴿الملك﴾: الذي المُلْكُ وصفه، والخلق كلّهم ممالك له، وأحكام المُلْكِ القدريّة والشرعيّة نافذة فيهم. ﴿الحق﴾؛ أي: وجوده ومُلكه وكَماله حقّ؛ فصفاة الكمال لا تكون حقيقة إلاّ لذي الجلال، ومن ذلك الملك؛ فإنّ غيره من الخلق، وإن كان له ملك في بعض الأوقات على بعض الأشياء؛ فإنّه ملكٌ قاصرٌ باطلٌ يزول، وأما الربُّ؛ فلا يزال ولا يزول ملكاً حياً قيوماً جليلاً. ﴿ولا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾؛ أي: لا تبادِرْ بتلقّف القرآن حين يتلوه عليك جبريل، وأصبر حتى يفرغ منه؛ فإذا فرغ منه؛ فاقراه؛ فإنّ الله قد ضَمَّنَ لك جمعه في صدرك وقراءتك إيّاه؛ كما قال تعالى: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾. ولما كانت عَجَلَتُهُ ﷺ على تلقّف الوحي ومبادرتُهُ إليه يدلُّ على محبّته التامّة للعلم وحرصه عليه؛ أمره تعالى أن يسأله زيادة العلم؛ فإنّ العلم خيرٌ، وكثرة الخير مطلوبة، وهي من الله، والطريق إليها الاجتهاد والشوق للعلم وسؤال الله والاستعانة به والافتقار إليه في كل وقت.

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة الأدب في تلقّي العلم، وأنّ المستمع للعلم ينبغي له أن يتأثّر ويصبر حتى يفرغ المملي والمعلّم من كلامه المتّصل بعضه ببعض؛ فإذا فرغ منه؛ سأل إن كان عنده سؤال، ولا يبادِرُ بالسؤال وقطع كلام مُلقّي العلم؛ فإنّه سببٌ للحرمان، وكذلك المسؤول ينبغي له أن يستملي سؤال السائل ويعرف المقصود منه قبل الجواب؛ فإنّ ذلك سببٌ لإصابة الصواب.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عِزْمًا﴾ (١١٥).

﴿١١٥﴾ أي: ولقد وصّينا آدم وأمرناه وعَهِدْنَا إليه عهداً ليقوم به، فالتزمه وأذعن له وانقاد وعزم على القيام به، ومع ذلك نَسِيَ ما أُمِرَ به، وانتقضت عزمته المحكّمة، فجري عليه ما جرى، فصار عبرةً لذريّته، وصارت طبائعهم مثل طبيعة آدم؛ نسي فنسيّت ذريّته، وخَطِئُوا فخطئوا، ولم يثبت على العزم المؤكّد وهم

كذلك، وبادر بالتوبة من خطيئته، وأقرَّ بها، واعترفَ فَعُفِرَتْ له، ومن يشابهُ أباه فما ظلم.

ثم ذكر تفصيل ما أجمله، فقال:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَتَّخِذُكَ مِنْ دُونِكَ وَلِرَؤُوفٍ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١١٩﴾ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّخِذُكَ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبُلَى ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢١﴾ ثُمَّ أَجْبَيْنَاهُ رَبُّهُ فَقَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿١١٦﴾ أي: لما أكمل خلق آدم بيده، وعلمه الأسماء، وفضله وكرمه؛ أمر الملائكة بالسجود له إكراماً وتعظيماً وإجلالاً، فبادروا بالسجود ممتثلين، وكان بينهم إبليس، فاستكبر عن أمرِ ربِّه، وامتنع من السجود لآدم، وقال: ﴿أنا خيرُ منه خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾.

﴿١١٧ - ١١٨﴾ فتبينت حينئذٍ عداوته البليغة لآدم وزوجهِ لما كان عدواً لله، وظهر من حسده ما كان سبب العداوة، فحذَّر الله آدم وزوجه منه، وقال: لا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى: إذا أخرجت منها؛ فإنَّ لك فيها الرزق الهني والراحة التامة، ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى. وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾؛ أي: تصيبك الشمس بحرِّها، فضْمِنَ له استمرار الطعام والشراب والكسوة والماء وعدم التعب والنَّصب، ولكنَّه نهاه عن أكل شجرة معيَّنة، فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿١٢٠﴾ فلم يزل الشيطان يوسوسُ لهما ويُزَيِّنُ أكل الشجرة ويقول: ﴿هل أدُّلك على شجرة الخلد﴾؛ أي: [الشجرة] التي من أكل منها خُلِدَ في الجنة، ﴿ومُلْكٍ لا يَبُلَى﴾؛ أي: لا ينقطع إذا^(١) أكلت منها.

﴿١٢١﴾ فأناه بصورة ناصح، وتلطَّف له في الكلام؛ فاغترَّ به آدم، فأكلا^(٢) من الشجرة، فسَقَطَ في أيديهما وسَقَطَتْ كسوتُهما، واتَّضحت معصيتهما، وبدا لكل منهما سؤاؤه الآخر بعد أن كانا مستورين، وجعلا يَخْصِفَانِ على أنفسهما من ورق

(٢) في (ب): «وأكلا».

(١) في (ب): «إن».

أشجار الجنة؛ ليستتر بذلك، وأصابهما من الخجل ما الله به عليم. ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾: فبادرا إلى التوبة والإنابة وقالوا:

﴿١٢٢﴾ ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾: فاجتبه ربه واختاره ويسر له التوبة، فتاب عليه وهدى، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها، ورجع كيد العدو عليه، ويطل مكره، فتمت النعمة عليه وعلى ذريته، ووجب عليهم القيام بها والاعتراف وأن يكونوا على حذر من هذا العدو المرابط الملازم لهم ليلاً ونهاراً، ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبوينكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سواتهما إنه يراكم هو وقبيله [من حيث لا ترونهم] إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾.

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿١٢٣﴾ يخبر تعالى أنه أمر آدم وإبليس أن يهبطا إلى الأرض، وأن يتخذوا^(١) الشيطان عدواً لهم، فيأخذوا الحذر منه، ويعدوا له عدته، ويحاربوه، وأنه سينزل عليهم كتباً ويرسل إليهم رسلاً يبينون لهم الطريق المستقيم الموصلة إليه وإلى جنته، ويحذرونهم من هذا العدو المبين، وأنهم أي وقت جاءهم ذلك الهدى الذي هو الكتب والرسول؛ فإن من اتبعه؛ اتبع ما أمر به، واجتنب ما نهى عنه؛ فإنه لا يضل في الدنيا ولا في الآخرة ولا يشقى فيهما، بل قد هدي إلى صراط مستقيم في الدنيا والآخرة، وله السعادة والأمن في الآخرة. وقد نفى عنه الخوف والحزن في آية أخرى بقوله: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَخُوفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، واتباع الهدى بتصديق الخبر وعدم معارضته بالشبه، وامتنال الأمر بأن لا يعارضه بشهوة.

﴿١٢٤﴾ ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾؛ أي: كتابي الذي يتذكر به جميع المطالب العالية، وأن يتركه على وجه الإعراض عنه أو ما هو أعظم من ذلك؛ بأن يكون على وجه الإنكار له والكفر به. ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾؛ أي: فإن جزاءه أن نجعل

(١) أي: آدم وزوجه وذريته.

معيشتَه ضيقة مشقة، ولا يكون ذلك إلا عذاباً. وفُسِّرَت المعيشَةُ الضَّنْكَ بعذاب القبر، وأنه يُضَيَّقُ عليه قبره، ويُخَصِّرُ فيه، ويعذبُ جزاءً لإِعْرَاضِهِ عن ذِكْرِ رَبِّهِ، وهذه إحدى الآيات الدالة على عذاب القبر.

والثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ...﴾ الآية.

والثالثة: قوله: ﴿وَلَنَذِقْنَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾.

والرابعة: قوله عن آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا...﴾ الآية.

والذي أوجب لمن فسرهما بعذاب القبر فقط من السلف وقصروها على ذلك - والله أعلم - آخر الآية، وأنَّ الله ذَكَرَ في آخرها عذاب يوم القيامة.

وبعض المفسرين يرى أن المعيشة الضَّنْكَ عامة في دار الدنيا؛ بما يُصِيبُ المعرض عن ذِكْرِ رَبِّهِ من الهموم والغموم والآلام، التي هي عذابٌ معجل، وفي دار البرزخ، وفي الدار الآخرة؛ لإطلاق المعيشة الضَّنْكَ وعدم تقييدها. ﴿ونحشُرُهُ﴾؛ أي: لهذا المعرض عن ذِكْرِ رَبِّهِ ﴿يومَ القيامة أعمى﴾: البصر على الصحيح؛ كما قال تعالى: ﴿ونحشُرُهُم يومَ القيامة على وجوههم غُمياً وبُكماً وضُماً﴾.

﴿١٢٥﴾ ﴿قال﴾: على وجه الدُّلِّ والمراجعة والتألم والضجر من هذه الحالة: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أعمى وقد كنتُ﴾: في دار الدنيا ﴿بصيراً﴾: فما الذي صيّرني إلى هذه الحالة البشعة؟

﴿١٢٦﴾ ﴿قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها﴾: بإِعْرَاضِكَ عنها، ﴿وكذلك اليوم تنسى﴾؛ أي: تُتْرَكُ في العذاب؛ فأجيب بأنَّ هذا هو عينُ عملك، والجزاء من جنس العمل؛ فكما غَمِيتَ عن ذِكْرِ رَبِّكَ، وعَشِيتَ عنه، ونسيتَه ونسيتَ حَظَّكَ منه؛ أعمى الله بَصَرَكَ في الآخرة، فحَشَرْتَ إلى النار أعمى أصم أبكم، وأعرضَ عنك، ونَسِيكَ في العذاب.

﴿١٢٧﴾ ﴿وكذلك﴾؛ أي: لهذا الجزاء نجزيه ﴿مَن أسرف﴾: بأن تعدَّى الحدود وارتكب المحارم وجاوز ما أُذِنَ له، ﴿ولم يؤمن بآيات ربِّه﴾: الدالة على جميع مطالب الإيمان دلالة واضحة صريحة؛ فالله لم يَظْلِمْهُ ولم يَضَعْ العقوبة في غير محلِّها، وإنَّما السبب إسرافه وعدم إيمانه. ﴿وللعذاب الآخرة أشدُّ﴾: من عذاب الدنيا أضعافاً مضاعفة، ﴿وأبقى﴾: لكونه لا ينقطع؛ بخلاف عذاب الدنيا؛ فإنه منقطع؛ فالواجب الخوف والحذر من عذاب الآخرة.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي
النُّهَى ۝﴾ (١٢٨).

﴿١٢٨﴾ أي: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ﴾: لهؤلاء^(١) المكذِّبين المعرضين ويدلُّهم على سلوك طريق الرشاد وتجئب طريق الغي والفساد ما أحلَّ الله بالمكذِّبين قبلهم من القرون الخالية والأمم المتتابعة، الذين يعرفون قَصَصَهُمْ، ويتناقلون أسماهم، وينظرون بأعينهم مساكنهم من بعدهم؛ كقوم هودٍ وصالح ولوط وغيرهم، وأنهم لما كذبوا رُسُلَنَا وأعرضوا عن كُتُبِنَا؛ أصبناهم بالعذاب الأليم؛ فما الذي يؤمن هؤلاء أن يحلَّ بهم ما حلَّ بأولئك؟ ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيِّكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾: لا شيء من هذا كله، فليس هؤلاء الكفار خيراً من أولئك حتى يُدْفَع عنهم العذاب بخيرهم، بل هم شرُّ منهم، لأنهم كفروا بأشرف الرسل وخير الكتب، وليس لهم براءة مزبورة وعهد عند الله، وليسوا كما يقولون إنَّ جَمْعَهُمْ ينفعهم ويدفع عنهم، بل هم أذلُّ وأحقر من ذلك؛ فإهلاك القرون الماضية بذنوبهم من أسباب الهداية؛ لكونها من الآيات الدالة على صحَّة رسالة الرسل الذين جاؤوهم وبطلان ما هم عليه، ولكن ما كلُّ أحدٍ ينتفع بالآيات، إنَّما ينتفع بها أولو النُّهى؛ أي: العقول السليمة والفطر المستقيمة، والألباب التي تزجر أصحابها عمَّا لا ينبغي.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزِمَامٍ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۝ فَاَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ۝﴾ (١٢٩).

﴿١٢٩﴾ هذه تسلية للرسول وتصبير له عن المبادرة إلى إهلاك المكذِّبين المعرضين، وأن كفرهم وتكذيبهم سببٌ صالحٌ لحلول العذاب بهم ولزومِهِ لهم؛ لأنَّ الله جَعَلَ العقوبات سبباً وناشئاً عن الذنوب ملازماً لها، وهؤلاء قد أتوا بالسبب، ولكن الذي أخره عنهم كلمة ربِّك المتضمنة لإمهالهم وتأخيرهم وضرب الأجل المسمَّى؛ فالأجل المسمَّى ونفوذ كلمة الله هو الذي أخر عنهم العقوبة إلى إِبَّانٍ وقتها، ولعلَّهم يراجعون أمر الله فيتوب عليهم ويرفع عنهم العقوبة إذا لم تحقَّ عليهم الكلمة.

(١) في (ب): «هؤلاء».

﴿١٣٠﴾ ولهذا أمر الله رسوله بالصبر على أذيتهم بالقول، وأمره أن يتعوّض عن ذلك وليستعين عليه بالتسبيح ﴿بحمد﴾ ربّه في هذه الأوقات الفاضلة؛ ﴿قبل طلوع الشمس وقبل^(١) غروبها﴾، وفي أطراف النهار أوله وآخره؛ عموم بعد خصوص، وأوقات ﴿الليل﴾ وساعاته، لعلّك إن فعلت ذلك ترضى بما يعطيك ربك من الثواب العاجل والآجل، وليطمئن قلبك، وتقرّ عينك بعبادة ربك، وتتسلّى بها عن أذيتهم؛ فيخفّ حينئذ عليك الصبر.

﴿وَلَا تَمَدَّنْ عَيْنَكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَابْقَى﴾ ﴿١٣١﴾.

﴿١٣١﴾ أي: ولا تمدّ ﴿عَيْنَكَ﴾ معجباً ولا تكرر النظر مستحسناً إلى أحوال الدنيا والممتعّين بها من المأكّل والمشارب اللذيذة والملابس الفاخرة والبيوت المزخرفة والنساء المجملّة؛ فإنّ ذلك كلّ زهرة ﴿الحياة الدنيا﴾؛ تبتهج بها نفوس المغترّين، وتأخذ إعجاباً بأبصار المعرضين، ويتمتّع بها بقطع النظر عن الآخرة القوم الظالمون، ثم تذهب سريعاً وتمضي جميعاً، وتقتل محبيها وعشاقها فيندمون حيث لا تنفع الندامة، ويعلمون ما هم عليه إذا قدّموا يوم^(٢) القيامة، وإنّما جعلها الله فتنة واختباراً ليعلم من يقف عندها ويغترّ بها ومن هو أحسن عملاً. كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾. ﴿ورزق ربك﴾: العاجل من العلم والإيمان وحقائق الأعمال الصالحة، والآجل من النعيم المقيم والعيش السليم في جوار الرب الرحيم، ﴿خير﴾: مما متّعنا به أزواجاً في ذاته وصفاته، ﴿وابقى﴾: لكونه لا ينقطع أكلها دائم وظلّها؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُوْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

وفي هذه الآية إشارة إلى أنّ العبد إذا رأى من نفسه طموحاً إلى زينة الدنيا وإقبالاً عليها أن يُذكّرّها ما أمامها من رزق ربّه، وأن يوازن بين هذا وهذا.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ ﴿١٣٢﴾.

﴿١٣٢﴾ أي: حثّ أهلك على الصلاة، وأزعجهم إليها من فرض ونفل، والأمر بالشيء أمر بجميع ما لا يتمّ إلّا به، فيكون أمراً بتعليمهم ما يصلح الصلاة ويفسدها

(١) في (ب): «وغروبها».

(٢) في (ب): «في يوم».

وَيُكْمِلُهَا. ﴿وَاضْطَبِّرْ عَلَيْهَا﴾؛ أي: على الصلاة بإقامتها بحدودها وأركانها [وآدابها] وخشوعها؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مَشَقٌّ عَلَى النَّفْسِ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي إِكْرَاهُهَا وَجَهَادُهَا عَلَى ذَلِكَ وَالصَّبْرَ مَعَهَا دَائِمًا؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَقَامَ صَلَاتَهُ عَلَى الْوَجْهِ الْمَأْمُورِ بِهِ؛ كَانَ لَهَا سِوَاهَا مِنْ دِينِهِ أَحْفَظَ وَأَقْوَمَ، وَإِذَا ضَيَّعَهَا؛ كَانَ لَهَا سِوَاهَا أَضْيَعُ. ثُمَّ ضَمِنَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ الرِّزْقَ، وَأَنْ لَا يَشْغَلَهُ الْإِهْتِمَامُ بِهِ عَنْ إِقَامَةِ دِينِهِ، فَقَالَ: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾؛ أي: رِزْقَكَ عَلَيْنَا، قَدْ تَكَفَّلْنَا بِهِ كَمَا تَكَفَّلْنَا بِأَرْزَاقِ الْخَلَائِقِ كُلِّهِمْ؛ فَكَيْفَ بِمَنْ قَامَ بِأَمْرِنَا وَاشْتَغَلَ بِذِكْرِنَا؟! وَرِزْقُ اللَّهِ عَامٌّ لِلْمُتَّقِي وَغَيْرِهِ؛ فَيَنْبَغِي الْإِهْتِمَامُ بِمَا يَجْلِبُ السَّعَادَةَ الْأَبَدِيَّةَ، وَهُوَ التَّقْوَى، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿لِلتَّقْوَى﴾: الَّتِي هِيَ فِعْلُ الْمَأْمُورِ وَتَرْكُ الْمَنْهِيِّ؛ فَمَنْ قَامَ بِهَا؛ كَانَ لَهُ الْعَاقِبَةُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ؟ أَوَلَمْ يَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ ﴿١٣٣﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ ﴿١٣٤﴾ ﴿قُلْ كُلُّ مُرْتَضٍ فَرَضُوا فَنَتَّبِعُوا مَنِ أَصْحَبَ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ ﴿١٣٥﴾.

﴿١٣٣﴾ أي: قال المكذَّبون للرسول ﷺ: هَلَّا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ؛ يَعْنُونَ آيَاتِ الْإِقْتِرَاحِ؛ كَقَوْلِهِمْ: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا. أَوْ تَسْقِطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾، وَهَذَا تَعَثُّتُ مِنْهُمْ وَعِنَادُ وَظَلَمٌ؛ فَإِنَّهُمْ هُمُ وَالرَّسُولُ بَشَرٌ عِبِيدُ اللَّهِ؛ فَلَا يَلِيقُ مِنْهُمْ الْإِقْتِرَاحُ بِحَسَبِ أَهْوَائِهِمْ، وَإِنَّمَا الَّذِي يَنْزِلُهَا وَيَخْتَارُ مِنْهَا مَا يَخْتَارُ بِحَسَبِ حُكْمَتِهِ هُوَ اللَّهُ، وَلَمَّا كَانَ^(١) قَوْلُهُمْ: ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ؟﴾: يَقْتَضِي أَنَّهُ لَمْ يَأْتِهِمْ بِآيَةٍ عَلَى صِدْقِهِ وَلَا بَيِّنَةٌ عَلَى حَقِّهِ، وَهَذَا كَذِبٌ وَافْتِرَاءٌ؛ فَإِنَّهُ أَتَى مِنَ الْمَعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ وَالْآيَاتِ الْقَاهِرَاتِ مَا يَحْضُلُ بَعْضُهُ الْمَقْصُودُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَوَلَمْ [تَأْتِهِمْ]﴾: إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي قَوْلِهِمْ، وَأَنْهُمْ يَطْلُبُونَ الْحَقَّ بِدَلِيلِهِ، ﴿بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾؛ أي: هَذَا الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ، الْمَصْدُوقُ لَهَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْكِتَابِ السَّابِقَةِ، الْمَطَابِقُ لَهَا، الْمَخْبَرُ بِمَا أَخْبَرَتْ بِهِ، وَتَصْدِيقُهُ أَيْضًا مَذْكُورٌ فِيهَا، وَمُبَشَّرٌ بِالرَّسُولِ بِهَا، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً

(١) فِي (ب): «وَلَا».

وَذَكِّرْ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٣٤﴾ فَالآيَاتُ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ وَيَزِيدُهَا إِيمَانَهُمْ وَلِيَقَانَهُمْ، وَأَمَّا الْمَعْرِضُونَ عَنْهَا الْمَعَارِضُونَ لَهَا؛ فَلَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَلَا يَتَنَفَعُونَ بِهَا. ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

﴿١٣٤﴾ وَإِنَّمَا الْفَائِدَةُ فِي سَوْقِهَا إِلَيْهِمْ وَمَخَاطَبَتِهِمْ بِهَا لِتَقْوَمَ عَلَيْهِمْ حُجَّةُ اللَّهِ، وَلِئَلَّا يَقُولُوا حِينَ يَنْزِلُ بِهِمُ الْعَذَابُ: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُخْزَى﴾: بِالْعُقُوبَةِ؛ فَهَا قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولِي وَمَعَهُ آيَاتِي وَبِرَاهِنِي؛ فَإِنْ كُتِّمَ كَمَا تَقُولُونَ؛ فَصَدَّقُوهُ.

﴿١٣٥﴾ ﴿قُلْ﴾: يَا مُحَمَّدُ مَخَاطَبًا لِلْمُكَذِّبِينَ لَكَ الَّذِينَ يَقُولُونَ تَرَبَّصُوا بِهِ رَبِّبِ الْمُنُونِ: ﴿قُلْ كُلٌّ مَتَرَبِّصٌ﴾: فَتَرَبَّصُوا بِبِي الْمَوْتِ، وَأَنَا أَتَرَبَّصُ بِكُمْ الْعَذَابَ، ﴿قُلْ﴾ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ؟ أَيْ: الظُّفْرُ أَوْ الشَّهَادَةُ؛ فَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يَصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا. ﴿فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصُّرَاطِ السَّوِيِّ﴾؛ أَيْ: الْمُسْتَقِيمِ، ﴿وَمَنْ أَهْتَدَى﴾: بِسُلُوكِهِ أَنَا أَمْ أَنْتُمْ؛ فَإِنَّ صَاحِبَهُ هُوَ الْفَائِزُ الرَّاشِدُ النَّاجِي الْمَفْلُحُ، وَمَنْ حَادَّ عَنْهُ خَاسِرٌ خَائِبٌ مُعَذَّبٌ. وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ الرَّسُولَ هُوَ الَّذِي بِهَذِهِ الْحَالَةِ، وَأَعْدَاؤُهُ بِخِلَافِهِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.



تفسير سورة الأنبياء عليهم السلام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ ① مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ تُخَذِّلُ إِلَّا أَسْتَعْوَهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ② لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتَوْنَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ③ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ④.

﴿١﴾ هَذَا تَعَجُّبٌ مِنْ حَالَةِ النَّاسِ، وَأَنْتُمْ ① لَا يَنْجَعُ فِيهِمْ تَذَكِيرٌ، وَلَا يَزْعَوُونَ

إلى نذير، وأنهم قد قرب حسابهم ومجازاتهم على أعمالهم الصالحة والطالحة،
والحال أنهم ﴿فِي غَفْلَةٍ مَّعْرُوضُونَ﴾؛ أي: غفلة عما خُلِقُوا له، وإعراض عما رُجُوا
به، كأنهم للدنيا خُلِقُوا، وللتمتع بها ولدوا، وأن الله تعالى لا يزال يجدد لهم
التذكير والوعظ، ولا يزالون في غفلتهم وإعراضهم.

﴿٢﴾ ولهذا قال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مَعْدَتٌ﴾: يذكّرهم ما ينفعهم
ويحثّهم عليه، وما يضرهم ويرهبهم منه. ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ﴾: سماعاً تقوم عليهم به
الحجّة، ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾.

﴿٣﴾ ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: قلوبهم غافلة معرضة لاهية بمطالبها الدنيوية،
وأبدانهم لاعبة، قد اشتغلوا بتناول الشهوات والعمل بالباطل والأقوال الرديّة، مع أن
الذي ينبغي لهم أن يكونوا بغير هذه الصفة؛ تُقْبِل قُلُوبُهُمْ على أمر الله ونهيه،
وتستمعه استماعاً تفقه المراد منه، وتسعى جوارحهم في عبادة ربهم التي خلقوا
لأجلها، ويجعلون القيامة والحساب والجزاء منهم على بال؛ فبذلك يتم لهم أمرهم
وتستقيم أحوالهم وتزكو أعمالهم. وفي معنى قوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾:
قولان:

أحدهما: أن هذه الأمة هي آخر الأمم، ورسولها آخر الرسل، وعلى أمته تقوم
الساعة؛ فقد قُرب الحساب منها بالنسبة لما قبلها من الأمم؛ لقوله ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا
والساعة كهاتين»؛ وقرن بين إصبعيه السبابة والتي تليها^(١).

والقول الثاني: أن المراد بقرب الحساب الموت، وأن من مات قامت قيامته
ودخل في دار الجزاء على الأعمال، وأن هذا تعجّب من كلّ غافل معرض لا يدري
متى يفجؤه الموت صباحاً أو مساءً؛ فهذه حالة الناس كلّهم؛ إلا من أدركته العناية
الربانيّة، فاستعدّ للموت وما بعده.

ثم ذكر ما يتناجى به الكافرون الظالمون على وجه العناد ومقابلة الحقّ بالباطل،
وأنهم تناجّوا وتواطؤوا فيما بينهم أن يقولوا في الرسول ﷺ: إِنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ؛ فما
الذي فضّله عليكم وخصّه من بينكم؟! فلو ادّعى أحد منكم مثل دعواه؛ لكان قوله
من جنس قوله، ولكنّه يريد أن يتفضّل عليكم ويرأس فيكم؛ فلا تطيعوه ولا
تصدّقوه، وإنّه ساحر، وما جاء به من القرآن سحر؛ فانفروا عنه ونفّروا الناس،

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٥)، ومسلم (٢٩٥١).

وقولوا: ﴿أَفَتَأْتُونَ السَّخَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصِرُونَ﴾: هذا وهم يعلمون أنه رسول الله حقاً بما يشاهدون^(١) من الآيات الباهرة ما لم يشاهد غيرهم، ولكن حملهم على ذلك الشقاء والظلم والعناد.

﴿٤﴾ والله تعالى قد أحاط علماً بما تناجوا به، وسيجازيهم عليه، ولهذا قال: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ﴾: الخفي والجلي ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: في جميع ما احتوت عليه أقطارهما. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾: لسائر الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات. ﴿الْعَلِيمُ﴾: بما في الضمائر، وأكثته السرائر.

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ أَفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾
 ﴿٥﴾ مَا آمَنَّا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾.

﴿٥﴾ يذكر تعالى اثتفأك المكذبين بمحمد ﷺ وبما جاء به من القرآن العظيم، وأنهم تقولوا فيه^(٢)، وقالوا فيه الأقاويل الباطلة المختلفة؛ فتارة يقولون: أضغاث أحلام بمنزلة كلام النائم الهادي الذي لا يُحسُّ بما يقول! وتارة يقولون: افتراه واختلقه وتقولُه من عند نفسه! وتارة يقولون: إنه شاعرٌ وما جاء به شعر! وكلُّ من له أدنى معرفة بالواقع من حالة الرسول، ونظر في هذا الذي جاء به؛ جزم جزمًا لا يقبل الشك أنه أجلُّ الكلام وأعلاه، وأنه من عند الله، وأنَّ أحدًا من البشر لا يقدرُ على الإتيان بمثل بعضه؛ كما تحدَّى الله أعداءه بذلك ليعارضوه مع توفر دواعيهم لمعارضته وعداوته، فلم يقدرُوا على شيء من معارضته وهم يعلمون ذلك؛ وإلا فما الذي أقامهم وأقعدهم وأقض مضاجعهم وبلبل ألسنتهم إلا الحق الذي لا يقوم له شيء، وإنما يقولون هذه الأقوال فيه حيث لم يؤمنوا به؛ تنفيراً عنه لمن لم يعرفه، وهو أكبر الآيات المستمرة الدالة على صحة ما جاء به الرسول ﷺ وصدقه، وهو كافٍ شافٍ؛ فمن طلب دليلًا غيره أو اقترح آية من الآيات سواه؛ فهو جاهل ظالم مشبه لهؤلاء المعاندين الذين كذبوه، وطلبوا من الآيات الاقتراحية ما هو أضرُّ شيء عليهم، وليس لهم فيها مصلحة؛ لأنهم إن كان قصدُهم معرفة الحق إذا تبين دليله؛ فقد تبين دليله بدونها، وإن كان قصدُهم التعجيز وإقامة العذر لأنفسهم إن لم يأت بما طلبوا؛ فإنهم بهذه الحالة على فرض إتيان ما طلبوا من الآيات لا يؤمنون قطعاً؛ فلو جاءتهم كل آية لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم، ولهذا قال الله

(١) في (ب): «شاهدوا».

(٢) في (ب): «كلمة غير واضحة».

عنهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ﴾؛ أي: كنانة صالح وعصا موسى ونحو ذلك.

﴿٦﴾ قال الله: ﴿مَا آمَنْتُ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾؛ أي: بهذه الآيات المقترحة، وإنما سنّته تقتضي أن من طلبها، ثم حصلت له، فلم يؤمن؛ أن يعاجله بالعقوبة؛ فالأولون ما آمنوا بها، أفؤمن هؤلاء بها؟! ما الذي فضلهم على أولئك؟! وما الخير الذي فيهم يقتضي الإيمان عند وجودها؟! وهذا الاستفهام بمعنى النفي؛ أي: لا يكون ذلك منهم أبداً.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَلَوْنَا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾
 ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْتَهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾.

﴿٧ - ٩﴾ هذا جوابُ لُشْبَةِ المكذّبين للرسول القائلين: هَلَّا كَانَ مَلَكًا لَا يَحْتَاجُ إِلَى طَعَامٍ وَشَرَابٍ وَتَصَرُّفٍ فِي الْأَسْوَاقِ! وهَلَّا كَانَ خَالِدًا! فإذا لم يكن كذلك؛ دلّ على أنه ليس برسول! وهذه الشُّبَّةُ ما زالت في قلوب المكذّبين للرسول، تشابهوا في الكفر؛ فتشابهت أقوالهم؛ فأجاب تعالى عن هذه الشُّبَّةِ، لهؤلاء المكذّبين للرسول، الْمُقِرِّينَ بِإثبات الرُّسُلِ قبله، ولو لم يكن إلّا إبراهيم عليه السلام، الذي قد أَقَرَّ بنبوّته جميع الطوائف، والمشركون يزعمون أنّهم على دينه وملّته؛ بأنّ الرُّسُلَ قبل محمد ﷺ كلّهم من البشر الذين يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وتطرأ عليهم العوارض البشرية من الموت وغيره، وأنّ الله أرسلهم إلى قومهم وأممهم، فصَدَّقَهُمْ مَنْ صَدَّقَهُمْ، وكَذَّبَهُمْ مَنْ كَذَّبَهُمْ، وأنّ الله صَدَّقَهُمْ ما وَعَدَهُمْ به من النجاة والسعادة لهم ولأتباعهم، وأهلك المسرفين المكذّبين لهم؛ فما بال محمد ﷺ تُقام الشُّبَّةُ الباطلة على إنكار رسالته، وهي موجودة في إخوانه المرسلين، الذين يقرُّ بهم المكذّبون لمحمد؟! فهذا إلزامٌ لهم في غاية الوضوح، وأنهم إن أقرُّوا برسول من البشر، ولن يقرُّوا برسول من غير البشر، أنّ شبههم باطلة، قد أبطلوها هم بإقرارهم بفسادها وتناقضهم بها.

فلو قُدِّرَ انتقالهم هذا إلى إنكار نبوة البشر رأساً، وأنّه لا يكون نبيٌّ إلّا لم يكن مَلَكًا مخلدًا لا يأكل الطعام؛ فقد أجاب الله عن هذه الشبهة بقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ. وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ

رَجُلًا وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴿١﴾، وَأَنَّ الْبَشَرَ لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِتَلْقَى الْوَحْيِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، ﴿٢﴾ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٣﴾؛ فَإِنْ حَصَلَ مَعَكُمْ شَكٌّ وَعَدَمُ عِلْمٍ بِحَالَةِ الرُّسُلِ الْمُتَقَدِّمِينَ؛ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ مِنَ الْكُتُبِ السَّالِفَةِ؛ كَأَهْلِ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ؛ يَخْبِرُونَكُمْ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ، وَأَنْتُمْ كُلُّهُمْ بَشَرٌ مِنْ جِنْسِ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ.

وهذه الآية وإن كان سببها خاصًا بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين من أهل^(١) الذكر، وهم أهل العلم؛ فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين أصوله وفروعه إذا لم يكن عند الإنسان علمٌ منها أن يسأل من يعلمها؛ ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما عملوه.

وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم نهى عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم، ونهى له أن يتصدى لذلك. وفي هذه الآية دليل على أن النساء ليس منهن نبيّة؛ لا مريم ولا غيرها؛ لقوله: ﴿إِلَّا رَجَالًا﴾.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٠﴾.

﴿١٠﴾ أي: ﴿لقد أنزلنا إليكم﴾: أيها المرسل إليهم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﴿كتاباً﴾: جليلاً وقرآناً مبيناً. ﴿فيه ذِكْرُكُمْ﴾؛ أي: شرفكم وفخركم وارتفاعكم: إن تذكّرتُم به ما فيه من الأخبار الصادقة فاعتقدتموها، وامتلئتم ما فيه من الأوامر، واجتنبتم ما فيه من النواهي؛ ارتفع قدرُكم وعظم أمرُكم. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: ما ينفعكم وما يضركم؛ كيف لا^(٢) تعلمون على ما فيه ذِكْرُكم وشرفُكم في الدنيا والآخرة؟! فلو كان لكم عقل؛ لسلكتُم هذا السبيل، فلما لم تسلكوه وسلكتُم غيره من الطرق التي فيها ضَعُتْكم وخَسَّتْكم في الدنيا والآخرة وشقاؤتكم فيهما؛ علم أنه ليس لكم معقولٌ صحيحٌ ولا رأيٌ رجيحٌ.

وهذه الآية مصداقها ما وقع؛ فإن المؤمنين بالرسول والذين^(٣) تذكّروا بالقرآن من الصحابة فَمَنْ بَعْدَهُمْ؛ حصل لهم من الرِّفْعَةِ والعلوِّ الباهر والصيت العظيم والشرف على الملوك ما هو أمرٌ معلومٌ لكلِّ أحدٍ؛ كما أنه معلومٌ ما حصل لمن لم يَزِفْغ بهذا

(١) في (ب): «لأهل».

(٢) في (ب): «لا ترضون ولا تعلمون». وقد شطب الشيخ كلمة لا ترضون في (أ).

(٣) في (ب): «الذين».

القرآن رأساً، ولم يهتد به ويتزكى به من المقتِ والضَّعةِ والتَّذسِّيةِ والشقاوةِ؛ فلا سبيل إلى سعادة الدنيا والآخرة إلا بالتذكُّر بهذا الكتاب.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَنَّا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿١١﴾ يقول تعالى محذراً لهؤلاء الظالمين المكذِّبين للرسول بما فعل بالأمم المكذبة لغيره من الرسل: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ أي: أهلكنا بعذابٍ مستأصل ﴿من قرية﴾: تَلَفَتْ عن آخرها، ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾.

﴿١٢ - ١٣﴾ وَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُهْلَكِينَ لَمَّا أَحْسَوْا بِعَذَابِ اللَّهِ وَعِقَابِهِ وَبَاسِرِهِمْ نَزُولِهِ؛ لم يمكن لهم الرجوعُ، ولا طريق لهم إلى النزوع، وإنما ضربوا الأرض بأرجلهم ندماً وقلقاً وتحسُّراً على ما فعلوا، فقبل لهم على وجه التهكُّم بهم: ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾؛ أي: لا يفيدكم الركض والندم، ولكن؛ إن كان لكم اقتدار؛ فارجعوا إلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ مِنَ اللَّذَّاتِ وَالْمُسْتَهْياتِ وَمَسَاكِكُمْ الْمَزْخِرَاتِ وَدُنْيَاكُمْ الَّتِي غَرَّتْكُمْ وَأَلْهَتْكُمْ حَتَّى جَاءَكُمْ أَمْرُ اللَّهِ؛ فكونوا فيها متمكِّنين، وللذَّاتِ جَانِينَ، وفي منازلكم مطمئنين معظمين؛ لَعَلَّكُمْ أَنْ تَكُونُوا مَقْصُودِينَ فِي أُمُورِكُمْ كَمَا كُنْتُمْ سَابِقًا مَسْئُولِينَ مِنْ مَطَالِبِ الدُّنْيَا كَحَالَتِكُمُ الْأُولَى، وهيهات!

﴿١٤﴾ أَيْنَ الْوَصُولُ إِلَى هَذَا وَقَدْ فَاتَ الْوَقْتُ، وَحُلَّ بِهِمُ الْعِقَابُ وَالْمَقْتُ، وَذَهَبَ عَنْهُمْ عِزُّهُمْ وَشَرَفُهُمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَحَضَرَهُمْ نَدَمُهُمْ وَتَحَسُّرُهُمْ؟! وَلِهَذَا ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

﴿١٥﴾ ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾؛ أي: الدعاء بالويل والشبور والندم والإقرار على أَنفُسِهِمْ بِالظُّلْمِ وَأَنَّ اللَّهَ عَادِلٌ فِيمَا أَحَلَّ بِهِمْ، ﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾؛ أي: بمنزلة النبات الذي قد حُصِدَ وَأَنِيمَ؛ قد خمدت منهم الحركات، وسكنت منهم الأصوات؛ فاحذروا أيُّهَا الْمَخَاطِبُونَ، أَنْ تَسْتَمِرُّوا عَلَى تَكْذِيبِ أَشْرَفِ الرُّسُلِ، فيحلَّ بكم كما حلَّ بأولئك.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينٍ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَا تَخَذُنَا مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعَالِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿١٦﴾ يخبر تعالى أنه ما خلق السماوات والأرض عبثاً ولا لعباً من غير فائدة، بل خلقها بالحق وللحق؛ ليستدل بها العباد على أنه الخالق العظيم، المدبر الحكيم، الرحمن الرحيم، الذي له الكمال كله والحمد كله والعزة كلها، الصادق في قوله، الصادقة رسله فيما تخبر عنه، وأنه القادر على خلقهما مع سعتيهما وعظميهما، قادر على إعادة الأجساد بعد موتها؛ ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

﴿١٧﴾ ﴿لو أردنا أن نتخذ لهوا﴾: على الفرض والتقدير المحال؛ ﴿لأخذناه من لدنا﴾؛ أي: من عندنا، ﴿إن كنا فاعلين﴾: ولم نطلعكم على ما فيه عبث ولهو؛ لأن ذلك نقص ومثل سوء لا نحب أن نريه إياكم؛ فالسماوات والأرض اللذان بمرأى منكم على الدوام لا يمكن أن يكون القصد منهما العبث واللهو؛ كل هذا تنزل مع العقول الصغيرة وإقناعها بجميع الوجوه المقنعة؛ فسبحان الحليم الرحيم الحكيم في تنزيله الأشياء منازلها.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ (١٨) ﴿وَلَمْ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (١٩) ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ (٢٠).

﴿١٨﴾ يخبر تعالى أنه تكفل بإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإن كان باطل قيل وجوده به؛ فإن الله ينزل من الحق والعلم والبيان ما يدمغه فيضمحل ويتبين لكل أحد بطلانه. ﴿فإذا هو زاهق﴾؛ أي: مضمحل فإن. وهذا عام في جميع المسائل الدينية، لا يورد مبطل شبهة عقلية ولا نقلية في إحقاق باطل أو رد حق؛ إلا وفي أدلة الله من القواطع العقلية والنقلية ما يذهب ذلك القول الباطل ويقمعه؛ فإذا هو متبين بطلانه لكل أحد. وهذا يتبين باستقراء المسائل مسألة مسألة؛ فإنك تجدها كذلك. ثم قال: ولكم أيها الواصفون الله بما لا يليق به من اتخاذ الولد والصاحبة ومن الأنداد والشركاء حظكم من ذلك ونصيبكم، الذي تدركون الويل والندامة والخسران، ليس لكم مما قلتم فائدة، ولا يرجع عليكم بعائدة تؤملونها، وتعملون لأجلها، وتسعون في الوصول إليها؛ إلا عكس مقصودكم، وهو الخيبة والحرمان.

﴿١٩﴾ ثم أخبر أنه له ملك السماوات والأرض وما بينهما؛ فالكل عبيده ومماليكه، فليس لأحد منهم ملك ولا قسط من الملك ولا معاونته عليه، ولا يشفع

إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ؛ فكيف يتَّخذ من هؤلاء آلهة؟! وكيف يُجعل لله منها ولد؟! فتعالى وتقدَّس المالك العظيم الذي خضعت له الرقاب، وذُلَّتْ له الصعاب، وخشعت له الملائكة المقربون، وأذعنوا له بالعبادة الدائمة المستمرة أجمعون؛ ولهذا قال: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾؛ أي: [من] الملائكة، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾؛ أي: لا يملُّون، ولا يسأمون لشدة رغبتهم وكمال محبتهم وقوة أبدانهم.

﴿٢٠﴾ ﴿يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾؛ أي: مستغريقين في العبادة والتسبيح في جميع أوقاتهم، فليس في أوقاتهم وقت فارغ ولا خالٍ منها، وهم على كثرتهم بهذه الصفة.

وفي هذا من بيان عظمتِهِ وجلالة سلطَانِهِ وكمال علمِهِ وحكمته ما يوجب أن لا يُعبَدَ إِلَّا هو، ولا تُضَرَفَ العبادة لغيره.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَبَّحَنَ اللَّهُ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

﴿٢١﴾ لما بيَّن تعالى كمال اقتدارِهِ وعظمتِهِ وخضوع كل شيء له؛ أنكر على المشركين الذين اتَّخذوا من دون الله آلهة من الأرض في غاية العجز وعدم القدرة. ﴿هم يُنشِرُونَ﴾: استفهام بمعنى النفي؛ أي: لا يقدرُونَ على نشرِهِم وحشرِهِم؛ يفسرها قوله تعالى: ﴿واتَّخذوا من دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ. وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً وَلَا مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نَشوراً﴾، ﴿واتَّخذوا من دون الله آلهة لعلَّهم يُنصرون. لَا يستطيعُونَ نصرَهُم وهم لهم جندٌ محضرون﴾.

﴿٢٢﴾ فالمشرك يُعبَدُ المخلوق الذي لا ينفع ولا يضرُّ، ويدعُ الإخلاص لله الذي له الكمالُ كُلُّهُ ويده الأمرُ والنفعُ والضرُّ، وهذا من عدم توفيقه وسوء حفظه وتوفُّر جهله وشدة ظلمِهِ؛ فإنَّه لَا يصلحُ الوجود إِلَّا على إِلَه واحد؛ كما أنَّه لم يوجد إِلَّا ربُّ واحد، ولهذا قال: ﴿لو كان فيهِمَا﴾؛ أي: في السماوات والأرض، ﴿آلهة إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾: في ذاتهما، وفَسَدَ مَنْ فيهما من المخلوقات.

وبيان ذلك: أنَّ العالم العلويَّ والسفليَّ على ما يُرى في أكمل ما يكون من الصَّلاح والانتظام، الذي ما فيه خللٌ ولا عيبٌ ولا ممانعةٌ ولا معارضةٌ، فدلَّ ذلك

على أن مدبره واحدٌ وربّه واحدٌ وإلهه واحدٌ؛ فلو كان له مدبران وربان أو أكثر من ذلك؛ لاختل نظامه وتقوّضت أركانه؛ فإنهما يتمانعان ويتعارضان، وإذا أراد أحدهما تدبير شيء وأراد الآخر عدمه؛ فإنّه محالٌ وجود مرادهما معاً، ووجود مراد أحدهما دون الآخر يدلُّ على عجز الآخر وعدم اقتداره، واتفاقهما على مرادٍ واحدٍ في جميع الأمور غير ممكن؛ فإذا يتعيّن أن القاهر الذي يوجد مرادّه وحدّه من غير ممانع ولا مدافع هو الله الواحد القهار، ولهذا ذكر الله دليل التمانع في قوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سِبْحَانُ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، ومنه على أحد التأويلين قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا. سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾؛ ولهذا قال هنا: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾؛ أي: تنزهه وتقدّس عن كلّ نقص لكماله وحده، ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾: الذي هو سقف المخلوقات وأوسعها وأعظمها؛ فربوبيّته ما دونه من باب أولى، ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ أي: الجاحدون الكافرون من اتّخاذ الولد والصاحبة، وأن يكون له شريك بوجه من الوجوه.

﴿٢٣﴾ ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾: لعظمته وعزّته وكمال قدرته^(١)؛ لا يقدر أحد أن يمانعه أو يعارضه؛ لا بقول ولا بفعل، ولكمال حكمته ووضع الأشياء مواضعها وإتقانها أحسن شيء يقدره العقل؛ فلا يتوجّه إليه سؤال؛ لأنّ خلقه ليس فيه خلل ولا إخلال. ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: المخلوقون كلّهم، ﴿يُسْأَلُونَ﴾: عن أفعالهم وأقوالهم؛ لعجزهم وفقرهم، ولكونهم عبيداً، قد استحقّت أفعالهم وحركاتهم؛ فليس لهم من التصرف والتدبير في أنفسهم ولا في غيرهم مثقال ذرّة.

﴿٢٤﴾ ثم رجع إلى تهجين حال المشركين، وأنّهم اتّخذوا من دونه آلهة؛ فقلّ لهم موبخاً ومقرّعاً: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾؛ أي: حجّتكم ودليلكم على صحّة ما ذهبتم إليه، ولن يجدوا لذلك سبيلاً، بل قد قامت الأدلة القطعيّة على بطلانه، ولهذا قال: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّعِي وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي﴾؛ أي: قد اتّفقت الكتب والشرائع على صحّة ما قلت لكم من إبطال الشرك؛ فهذا كتاب الله الذي فيه ذكّر كلّ شيء بأدلّته العقليّة والنقليّة، وهذه الكتب السابقة كلّها براهين^(٢) وأدلة لما قلت. ولما علم أنّهم قامت عليهم الحجّة والبرهان على بطلان ما ذهبوا

إليه؛ علم أنه لا برهان لهم؛ لأن البرهان القاطع يُجزم أنه لا معارض له، وإلا؛ لم يكن قطعياً، وإن وُجد معارضات؛ فإنها شبه لا تغني من الحق شيئاً. وقوله: ﴿بل أكثرهم لا يعلمون الحق﴾؛ أي: وإنما أقاموا على ما هم عليه تقليداً لأسلافهم؛ يجادلون بغير علم ولا هدى، وليس عدم علمهم الحق لخفايته وغموضه، وإنما ذلك لإعراضهم عنه، وإلا؛ فلو التفتوا إليه أدنى التفات؛ تبيّن لهم الحق من الباطل تبيّناً واضحاً جلياً، ولهذا قال: ﴿فهم معرضون﴾.

﴿٢٥﴾ ولما حول تعالى على ذكر المتقدمين، وأمر بالرجوع إليها في بيان هذه المسألة؛ بيّنها أتمّ تبين في قوله: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحى إليه أنه لا إله إلاّ أنا فاعبدون﴾: فكل الرسل الذين من قبلك مع كتبهم زُبدُ رسالتهم وأصلها الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له وبيان أنه الإله الحق المعبود وأن عبادة ما سواه باطلة.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْـَٔفُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌُ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿٢٦﴾ يخبر تعالى عن سفاهة المشركين المكذّبين للرسول، وأنهم زعموا - قبحهم الله - أن الله اتخذ ولداً، فقالوا: الملائكة بنات الله! تعالى الله عن قولهم، وأخبر عن وصف الملائكة بأنهم ^(١) عبيدٌ مربوبون مدبرون، ليس لهم من الأمر شيء، وإنما هم مُكْرَمُونَ عند الله، قد ألزمهم ^(٢) الله، وصيّرهم من عبيد كرامته ورحمته، وذلك لما خصّهم به من الفضائل والتطهير عن الرذائل، وأنهم في غاية الأدب مع الله والامتنال لأوامره.

﴿٢٧﴾ ﴿لا^(٣) يسـَٔفونه بالقول﴾؛ أي: لا يقولون قولاً مما يتعلّق بتدبير المملكة حتى يقول الله؛ لكمال أدبهم وعلمهم بكمال حكمته وعلمه. ﴿وهم بأمره يعملون﴾؛ أي: مهما أمرهم؛ امتثلوا لأمره، ومهما دبرهم عليه؛ فعلوه؛ فلا

(٢) في (ب): «أكرمهم».

(١) في (ب): «بأنه».

(٣) في (ب): «فلا».

يعصونه طرفة عين، ولا يكون لهم عملٌ بأهواء أنفسهم من دون أمر الله.

﴿٢٨﴾ ومع هذا؛ فالله قد أحاط بهم علمه، فعلم ﴿ما بين أيديهم وما خلفهم﴾؛ أي: أمورهم الماضية والمستقبلية؛ فلا خروج لهم عن علمه؛ كما لا خروج لهم عن أمره وتدبيره، ومن جزئيات وصفهم بأنهم لا يسبقونه بالقول أنهم لا يشفعون لأحد بدون إذنه ورضاه؛ فإذا أُذِنَ لهم وارتضى مَنْ يشفعون فيه شفَعُوا فيه؛ ولكنه تعالى لا يرضى من القول والعمل إلا ما كان خالصاً لوجهه متبعاً فيه الرسول.

وهذه الآية من أدلة إثبات الشفاعة، وأن الملائكة يشفعون. ﴿وهم من خشيته شافعون﴾؛ أي: خائفون وجلون، قد خضعوا لجلاله، وعنت وجوههم لعزه وجماله.

﴿٢٩﴾ فلما بين أنه لا حق لهم في الألوهية، ولا يستحقون شيئاً من العبودية بما وصفهم به من الصفات المقتضية لذلك؛ ذكر أيضاً أنه لا حظ لهم ولا بمجرد الدعوى، وأن مَنْ قال منهم: إني إله من دون الله على سبيل الفرض والتنزل. ﴿فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين﴾: وأي ظلم أعظم من ادعاء المخلوق الناقص الفقير إلى الله من جميع الوجوه مشاركتة^(١) الله في خصائص الإلهية والربوبية؟!

﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ أَسْمَوَاتٍ وَالْأَرْضَ كَانَتْا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٠).

﴿٣٠﴾ أي: أولم ينظر هؤلاء الذين كفروا بربهم، وجحدوا الإخلاص له في العبودية ما يدلهم دلالة مشاهدة على أنه الرب المحمود الكريم المعبود، فيشاهدون السماء والأرض، فيجدونهما ﴿رتقاً﴾؛ هذه ليس فيها سحب ولا مطر، وهذه هامة ميتة لا نبات فيها، ﴿ففتقناهما﴾؛ السماء بالمطر، والأرض بالنبات. أليس الذي أوجد في السماء السحاب بعد أن كان الجو صافياً لا قرعة فيه، وأودع فيه الماء الغزير، ثم ساقه إلى بلد ميت قد اغبرت أرجاؤه وقحط عنه ماؤه، فأمطره فيها، فاهتزت وتحركت وربت وأنبت من كل زوج بهيج مختلف الأنواع متعدد المنافع؛ أليس ذلك دليلاً على أنه الحق وما سواه باطل، وأنه

(١) في (ب): «مشاركه».

محبي الموتى، وأنه الرحمن الرحيم؟ ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: إيماناً صحيحاً ما في شك ولا شرك.

ثم عدّد تعالى الأدلة الأفقيّة، فقال:

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْكًَا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿٣١﴾ أي: ومن الأدلة على قدرته وكماله ووحدانيته ورحمته أنه لما كانت الأرض لا تستقرّ إلاّ بالجبال؛ أرساها بها، وأوتدّها لئلاّ تميد بالعباد؛ أي: لئلاّ تضطرب؛ فلا يتمكنّ العباد من السكون فيها ولا حرثها ولا الاستقرار بها، فأرساها بالجبال، فحصل بسبب ذلك من المصالح والمنافع ما حصل.

ولما كانت الجبال المتّصل بعضها ببعض قد اتّصلت اتصالاً كثيراً جداً؛ فلو بقيت بحالها جبلاً شامخاتٍ وقللاً باذخاتٍ؛ لتعطّل الاتصال بين كثير من البلدان؛ فمن حكمة الله ورحمته أن جعل بين تلك الجبال ﴿فِجَاجًا سُبُلًا﴾؛ أي: طرقاً سهلة لا حَزَنَةً، ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾: إلى الوصول إلى مطالبهم من البلدان، ولعلّهم يهتدون بالاستدلال بذلك على وحدانيّة المئان.

﴿٣٢ - ٣٣﴾ ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْكًَا﴾: للأرض التي أنتم عليها ﴿مَحْفُوظًا﴾: من السقوط؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾؛ محفوظاً أيضاً من استراق الشياطين للسمع. ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾؛ أي: غافلون لا هون.

وهذا عامٌّ في جميع آيات السماء؛ من علوّها، وسعتها، وعظمتها، ولونها الحسن، وإتقانها العجيب، وغير ذلك من المشاهد، فيها من الكواكب الثوابت والسيّارات، وشمسها وقمرها النّيّرات، المتولّد عنهما الليل والنهار، وكونهما دائماً في فلكهما سابحين. وكذلك النجوم، فتقوم بسبب ذلك منافع العباد من الحرّ والبرد والفصول، ويعرفون حساب عباداتهم ومعاملاتهم، ويستريحون في ليلهم ويهدؤون ويسكنون، وينتشرون في نهارهم ويسعون في معاشهم؛ كل هذه الأمور إذا تدبّرها اللبيب وأمعن فيها النظر؛ جزم جزماً لا شك فيه أن الله جعلها مؤقّنة في وقت معلوم إلى أجل محتوم، يقضي العباد منها مآربهم، وتقوم بها منافعهم، وليستمتعوا وينتفعوا، ثم بعد هذا ستزول وتضمحلّ ويفنيها الذي أوجدها ويُسكّنُها الذي

حركها، وينتقل المكلفون إلى دار غير هذه الدار؛ يجدون فيها جزاء أعمالهم كاملاً موفراً، ويعلم أن المقصود من هذه الدار أن تكون مزرعةً لدار القرار، وأنها منزل سفر لا محل إقامة.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ (٣٤) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٣٥).

﴿٣٤﴾ لما كان أعداء الرسول يقولون: ﴿تربصوا به ربنا المنون﴾؛ قال الله تعالى: هذا طريق مسلوكة ومعبدة منهوك؛ فلم نجعل لبشر من قبلك يا محمد الخلد في الدنيا؛ فإذا مت؛ فسيبيل أمثالك من الرسل والأنبياء والأولياء [وغيرهم]. ﴿أفإن مت فهم الخالدون﴾؛ أي: فهل إذا مت؛ خلدوا بعدك، فليهنهم الخلود إذا إن كان، وليس الأمر كذلك، بل كل من عليها فان.

﴿٣٥﴾ ولهذا قال: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾: وهذا يشمل سائر نفوس الخلائق، وأن هذا كأس لا بد من شربه وإن طال بالعبد المدى وعمر سنين، ولكن الله تعالى أوجد عبادة في الدنيا، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالخير والشر وبالغنى^(١) والفقر والعز والذل والحياة والموت؛ فتنه منه تعالى؛ ﴿ليبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾، ومن يفتتن عند مواقع الفتن ومن ينجو، ثم ﴿إلينا ترجعون﴾: فنجازيكم بأعمالكم؛ إن خيراً فخير، وإن شراً؛ فشر، وما ربك بظلام للعبيد. وهذه الآية تدل على بطلان قول من يقول ببقاء الخضر، وأنه مخلد في الدنيا؛ فهو قول لا دليل عليه، ومناقض للأدلة الشرعية.

﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ إِذَا هُمْ يَنْتَحِدُونَ﴾ (٣٦) ﴿إِلَّا هُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْتَهِزُونَ﴾ (٣٧) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٨) ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِِهِمْ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٣٩) ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ (٤٠) ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَأَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَخَافَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٤١).

(١) في (ب): «بالغنى».

﴿٣٦﴾ وهذا من شدة كفرهم؛ فإنَّ المشركين إذا رأوا رسول الله ﷺ؛ استهزؤا به وقالوا: ﴿أهذا الذي يذكُرْ آلِهَتكم﴾؛ أي: هذا^(١) المحتقر بزعمهم، الذي يسبُّ آلِهَتكم ويذمُّها ويقع فيها؛ أي: فلا تُبالوا به، ولا تحتفلوا به. هذا استهزاؤهم واحتقارهم له بما هو من كماله؛ فإنَّه الأكمل الأفضل، الذي من فضائله ومكارمه إخلاصُ العبادة لله، وذمُّ كلِّ ما يُعْبَدُ من دونه وتنقُّصه، وذكُّرُ محلِّه ومكانته، ولكنَّ محلَّ الازدراء والاستهزاء هؤلاء الكفار الذين جَمَعُوا كلَّ خُلُقٍ ذميم، ولو لم يكن إلَّا كفرهم بالربِّ وجحدهم لرسوله، فصاروا بذلك من أخس الخلق وأردلهم، ومع هذا؛ فذكُرهم للرحمن الذي هو أعلى حالاتهم كافرون به؛ لأنَّه لا يذكرونه ولا يؤمنون به إلَّا وهم مشركون؛ فذكُرهم كفرًا وشركًا؛ فكيف بأحوالهم بعد ذلك؟! ولهذا قال: ﴿وهم يذكُرُ الرحمن هم كافرون﴾. وفي ذكر اسمه الرحمن هنا بيانٌ لقباحة حالهم، وأنهم كيف قابلوا الرحمن - مُسْدي النعم كلها، ودافع النقم، الذي ما بالعباد من نعمةٍ إلَّا منه، ولا يدفع السوء إلَّا هو - بالكفر والشرك.

﴿٣٧﴾ ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾؛ أي: خُلِقَ عَجولاً، يبادِرُ الأشياء، ويستعجلُ بوقوعها؛ فالمؤمنون يستعجلون عقوبة الله للكافرين ويتباطؤونها، والكافرون يتولَّون ويستعجلون بالعذاب تكذيباً وعناداً ويقولون: ﴿متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين﴾، والله تعالى يُنْهَلُ ولا يُهْمَلُ، ويحلِّمُ ويجعلُ لهم أجلاً مؤقتاً، ﴿إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾. ولهذا قال: ﴿سأريكم آياتي﴾؛ أي: في انتقامي ممَّن كَفَر بي وعصاني، ﴿فلا تستعجلون﴾: ذلك.

﴿٣٨﴾ وكذلك الذين كفروا يقولون: ﴿متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين﴾: قالوا هذا القول اغتراراً ولما يحقُّ عليهم العقاب وينزلُ بهم العذاب.

﴿٣٩﴾ فلو ﴿يعلم الذين كفروا﴾ حالهم الشنيعة ﴿حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم﴾؛ إذ قد أحاطَ بهم من كلِّ جانب، وغَشِيَهُم من كلِّ مكان، ﴿ولا هم يُنصرون﴾؛ أي: لا ينصرهم غيرهم؛ فلا نُصِروا، ولا انتصروا.

﴿٤٠﴾ ﴿بل تأتيهم﴾ النار ﴿بغتة﴾: فتهتُّهم من الانزعاج والذعر والخوف العظيم. ﴿فلا يستطيعون ردّها﴾: إذ هم أذلُّ وأضعف من ذلك. ﴿ولا هم يُنظرون﴾؛ أي: يُمهَلون فيؤخَّر عنهم العذاب؛ فلو علموا هذه الحالة حقَّ المعرفة؛ لما استعجلوا

(١) في (ب): «أهذا».

بالعذاب، ولخافوه أشدَّ الخوف، ولكن لما ترحل عنهم هذا العلم؛ قالوا ما قالوا.
 ﴿٤١﴾ ولما ذكّر استهزاءهم برسوله بقولهم: ﴿ألهذا الذي يدكّر ألهتكم﴾؛ سلاه
 بأن هذا دأب الأمم السالفة مع رسلهم، فقال: ﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك
 فحاق بالذين سخروا منهم﴾؛ أي: نزل بهم، ﴿ما كانوا به يستهزئون﴾؛ أي: نزل
 بهم العذاب وتقطعت عنهم الأسباب؛ فليحذر هؤلاء أن يصيبهم ما أصاب أولئك
 المكذبين.

﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِأَيْلٍ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٤٢)
 أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ (٤٣) بَلْ
 مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْفُصُهَا مِنْ
 أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (٤٤).

﴿٤٢﴾ يقول تعالى ذاكراً هؤلاء الذين اتَّخذوا من دونه آلهة، وأنهم
 محتاجون مضطرون إلى ربهم الرحمن، الذي رحمته شملت البر والفاجر في ليلهم
 ونهارهم، فقال: ﴿قل من يكفركم﴾؛ أي: يحرسكم ويحفظكم ﴿بالليل﴾: إذا^(١)
 كنتم نائمين على فرشكم وذهبت حواشكم، وبالنهار وقت انتشاركم وغفلتكم ﴿من
 الرحمن﴾؛ أي: بدله غيره؛ أي: هل يحفظكم أحدٌ غيره؟ لا حافظ إلا هو. ﴿بل
 هم عن ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾: فلهذا أشركوا به، وإلا؛ فلو أقبلوا على [ذكر]
 ربهم، وتلقوا نصائحه؛ لهدوا لِرُشْدِهِمْ، ووقفوا في أمرهم.

﴿٤٣﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾؛ أي: إذا أردناهم بسوء؛ هل من
 آلهتهم من يقدّر على منعهم من ذلك السوء والشرّ النازل بهم؟ ﴿لا يستطيعون نصرَ
 أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾؛ أي: لا يعانون على أمورهم من جهتنا، وإذا لم
 يعانون من الله؛ فهم مَخْذُولُونَ في أمورهم، لا يستطيعون جلبَ منفعةٍ ولا دفعِ
 مَضَرَّةٍ.

﴿٤٤﴾ والذي أوجب لهم استمرارهم على كفرهم وشركهم قوله: ﴿بل مَتَّعْنَا
 هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾؛ أي: أمددناهم بالأموال والبنين، وأطلنا
 أعمارهم، فاشتغلوا بالتمتع بها، ولهوا بها عما له خُلُقُوا، وطال عليهم الأمد،

فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ، وَعَظُمَ طُغْيَانُهُمْ، وَتَغَلَّظَ كُفْرَانُهُمْ؛ فَلَوْ لَفَتُوا أَنْظَارَهُمْ إِلَى مَنْ عَنْ يَمِينِهِمْ وَعَنْ يَسَارِهِمْ مِنَ الْأَرْضِ؛ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا هَالِكًا، وَلَمْ يَسْمَعُوا إِلَّا صَوْتَ نَاعِيَةٍ، وَلَمْ يَحْسُوا إِلَّا بِقُرُونٍ مُتَابِعَةٍ عَلَى الْهَلَاكِ، وَقَدْ نَصَبَ الْمَوْتُ فِي كُلِّ طَرِيقٍ - لِقِتْنَاصِ النُّفُوسِ - الْأَشْرَاكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾؛ أَي: بِمَوْتِ أَهْلِهَا وَفَنَائِهِمْ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ؛ فَلَوْ رَأَوْا هَذِهِ الْحَالَةَ؛ لَمْ يَغْتَرُّوا وَيَسْتَمِرُّوا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ. ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾: الَّذِينَ بَوَسِعَهُمُ الْخُرُوجُ عَنْ قَدْرِ اللَّهِ، وَبِطَاقَتِهِمُ الْامْتِنَاعُ مِنَ الْمَوْتِ؛ فَهَلْ هَذَا وَصْفُهُمْ حَتَّى يَغْتَرُّوا بِطُولِ الْبَقَاءِ؟ أَمْ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُ رَبِّهِمْ، لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ، أَذْعَنُوا وَذَلُّوا وَلَمْ يَظْهَرْ مِنْهُمْ أَدْنَى مِمَانَعَةٍ؟

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ (٤٥) وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَنْوَلِنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾.

﴿٤٥﴾ أَي: ﴿قُلْ﴾: يَا مُحَمَّدُ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ: ﴿إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾؛ أَي: إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ، لَا آتِيكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ عِنْدِي، وَلَا عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ، وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ، وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ، وَإِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِمَا أَوْحَاهُ اللَّهُ لِي؛ فَإِنْ اسْتَجَبْتُمْ فَقَدْ اسْتَجَبْتُمْ لِلَّهِ، وَسَيُثَبِّتُكُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَإِنْ أَعْرَضْتُمْ وَعَارَضْتُمْ؛ فَلَيْسَ بِيَدِي مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، وَإِنَّمَا الْأَمْرُ لِلَّهِ، وَالتَّقْدِيرُ كُلُّهُ لِلَّهِ. ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ﴾؛ أَي: الْأَصْمُ لَا يَسْمَعُ صَوْتًا؛ لِأَنَّهُ سَمِعَهُ قَدْ فَسَدَ وَتَعَطَّلَ، وَشَرَطَ السَّمَاعُ مَعَ الصَّوْتِ أَنْ يَوْجَدَ مَحَلًّا قَابِلًا لِذَلِكَ. كَذَلِكَ الْوَحْيُ سَبَبٌ لِحَيَاةِ الْقُلُوبِ وَالْأَرْوَاحِ وَلِلْفَقْهِ عَنِ اللَّهِ، وَلَكِنْ إِذَا كَانَ الْقَلْبُ غَيْرَ قَابِلٍ لِسَمَاعِ الْهُدَى؛ كَانَ بِالنِّسْبَةِ لِلْهُدَى وَالْإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الْأَصْمِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْأَصْوَاتِ؛ فَهَؤُلَاءِ الْمَشْرُكُونَ صَمٌّ عَنِ الْهُدَى؛ فَلَا يُسْتَعْرَبُ عَدَمُ اهْتِدَائِهِمْ، خُصُوصًا فِي هَذِهِ الْحَالَةِ الَّتِي لَمْ يَأْتِهِمُ الْعَذَابُ، وَلَا مَسَّهُمْ أَلَمُهُ.

﴿٤٦﴾ فَلَوْ مَسَّهُمْ ﴿نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾؛ أَي: وَلَوْ جُزْءٌ يَسِيرٌ وَلَا يَسِيرٌ مِنْ عَذَابِهِ؛ ﴿لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾؛ أَي: لَمْ يَكُنْ قَوْلُهُمْ إِلَّا الدُّعَاءُ بِالْوَيْلِ وَالتَّبُورِ وَالنَّدَمِ وَالْاعْتِرَافِ بِظُلْمِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَاسْتِحْقَاقِهِمُ الْعَذَابَ.

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (٤٧).

﴿٤٧﴾ يَخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَكْمِهِ الْعَدْلِ وَقَضَائِهِ الْقِسْطِ بَيْنَ عِبَادِهِ إِذَا جَمَعَهُمْ يَوْمَ

القيامة، وأنه يضع لهم الموازين العادلة التي يبين فيها مثاقيل الذر الذي^(١) توزن به الحسنات والسيئات؛ ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾: مسلمة و^(٢) لا كافرة ﴿شَيْئاً﴾: بأن تُنْقَصَ من حسناتها أو يُزَادَ في سيئاتها، وإن كَانَ مثقال ذرة^(٣) من خردل التي هي أصغر الأشياء وأحقرها من خير أو شرٍّ أتينا بها وأحضرناها، ليجازى بها صاحبها؛ كقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾، ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾. ﴿وَكُفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾؛ يعني بذلك نفسه الكريمة؛ فكفى بها حاسباً؛ أي: عالماً بأعمال العباد، حافظاً لها، مثبتاً لها في الكتاب، عالماً بمقاديرها ومقادير ثوابها وعقابها واستحقاقها، موصلاً للعمال جزاءها.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذَكَرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٤٨) ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ (٤٩) ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ (٥٠).

﴿٤٨﴾ كثيراً ما يَجْمَعُ تعالى بين هذين الكتابين الجليلين اللذين لم يَطْرُقَ العالم أفضلُ منهما ولا أعظمُ ذكراً ولا أبركُ ولا أعظمُ هدىً وبياناً، وهما التوراة والقرآن، فأخبر أنه أتى موسى أصلاً وهارون تبعاً الفرقان، وهو التوراة الفارقة بين الحق والباطل والهدى والضلال، وأنها ﴿ضياء﴾؛ أي: نورٌ يهتدي به المهتدون، ويأتئ به السالكون، وتُعرَفُ به الأحكام، ويميّز به بين الحلال والحرام، وينير في ظلمة الجهل والبدع والغواية وذكرًا للمتقين؛ يتذكرون به ما ينفعهم وما يضرهم، ويتذكرون به الخير والشر، وخصّ المتقين بالذكر، لأنهم المنتفعون بذلك علماً وعملاً.

﴿٤٩﴾ ثم فسّر المتقين فقال: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾؛ أي: يخشونه في حال غيبتهم وعدم مشاهدة الناس لهم؛ فمع المشاهدة أولى، فيتورعون عما حُرِّمَ، ويقومون بما أُلِزمَ. ﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾؛ أي: خائفون وجلون؛ لكمال معرفتهم برّبهم، فجمعوا بين الإحسان والخوف، والعطف هنا من باب عطف الصفات المتغايرات الواردة على شيء واحد وموصوف واحد.

﴿٥٠﴾ ﴿وهذا﴾؛ أي: القرآن، ﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾: فوصفه بوصفين جليلين: كونه ذكراً يُتَذَكَّرُ به جميع المطالب؛ من معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن

(٢) في (ب): «أو».

(١) في (ب): «التي».

(٣) في (ب): «حبة».

صفات الرسل والأولياء وأحوالهم، ومن أحكام الشرع من العبادات والمعاملات وغيرها، ومن أحكام الجزاء والجنة والنار، فَيَتَذَكَّرُ به المسائل والدلائل العقلية والنقلية، وسماء ذكراً؛ لأنه يَذْكُرُ ما رَكَزَهُ الله في العقول والفطر من التصديق بالأخبار الصادقة، والأمر بالحسن عقلاً، والنهي عن القبيح عقلاً.

وكونه مباركاً يقتضي كثرة خيره ونمائها وزيادتها، ولا شيء أعظم بركة من هذا القرآن؛ فإن كل خير ونعمة وزيادة دينية أو دنيوية أو أخروية؛ فإنها بسببه وأثر عن العمل به؛ فإذا كان ذِكْرًا مباركاً؛ وجب تلقّيه بالقبول والانقياد والتسليم، وشكر الله على هذه المنحة الجليلة، والقيام بها، واستخراج بركته؛ بتعلم ألفاظه ومعانيه.

ومقابلته بضد هذه الحالة؛ من الإعراض عنه، والإضراب عنه صفحاً، وإنكاره، وعدم الإيمان به؛ فهذا من أعظم الكفر وأشد الجهل والظلم، ولهذا أنكر تعالى على مَنْ أنكره، فقال: ﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مَنَّكَرُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلَ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ زَيْكُمُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مَدِينٍ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَيْدًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا إِنَّكَ أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُمُ كَيْدُهُمْ هَذَا فَتَوَلَّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَمْ لَكُمْ تَعَبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَنْتَظِرُ كَوْنِي بَرَكًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ

(١) في النسختين: «إلى آخر القصة وهو قوله: ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾».

وَلَوْطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٧﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ ۖ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدٌ ﴿٧٨﴾ .

﴿٥١﴾ لما ذكر تعالى موسى ومحمداً ﷺ وكتابيهما؛ قال: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رُشدَهُ من قبلُ﴾؛ أي: من قبل إرسال موسى ومحمد ونزول كتابيهما، فأراه الله ملكوت السماوات والأرض، وأعطاه من الرُشد الذي كَمَّلَ به نفسه ودعا الناس إليه ما لم يؤتِه أحدٌ من العالمين غير^(١) محمد، وأضاف الرُشد إليه لكونه رُشدًا بحسب حاله وعلو مرتبته، وإلّا؛ فكلُّ مؤمنٍ له من الرُشد بحسب ما معه من الإيمان. ﴿وكُنّا به عالمين﴾؛ أي: أعطيناه رُشدَه، واختَصَّصْنَاهُ بالرسالة والخُلة، واصطفيناه في الدنيا والآخرة؛ لعلمنا أنّه أهلٌ لذلك وكفءٌ له؛ لذكائه وذكائه.

ولهذا ذَكَرَ حاجَتَهُ لقومه، ونهيههم عن الشُّرك، وتكسير الأصنام وإلزامهم بالحجّة، فقال:

﴿٥٢﴾ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾: التي مثلُتموها؛ نَحْثُمُوهَا بأيديكم على صور بعض المخلوقات، ﴿التي أنتم لها عاكفون﴾: مقيمون على عبادتها، ملازمون لذلك؛ فما هي؟ وأيُّ فضيلة ثبتت لها؟ وأين عقولُكم التي ذهبت حتى أفنيتم أوقاتكم بعبادتها؛ والحال أنكم مثلتموها ونحْثُمُوهَا بأيديكم؛ فهذا من أكبر العجائب؛ تعبدون ما تنجّتون؟!

﴿٥٣﴾ فأجابوا بغير حجّة جواب العاجز الذي ليس بيده أدنى شبهة، فقالوا: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾: كذلك يفعلون فسلكننا سبيلهم واتبعناهم على عبادتها!! ومن المعلوم أنّ فعل أحدٍ من الخلق سوى الرُّسل ليس بحجّة ولا تجوز به القدوة، خصوصاً في أصل الدين وتوحيد ربِّ العالمين.

﴿٥٤﴾ ولهذا قال لهم إبراهيمٌ مضللاً للجميع: ﴿لقد كنتم أباءؤكم في ضلال مبين﴾؛ أي: ضلال بيّن واضح، وأيُّ ضلال أبلغ من ضلالهم في الشُّرك وترك التوحيد؟! أي: فليس ما قلتم يصلحُ للتمسُّك به، وقد اشتركتم وإياهم في الضلال الواضح البيّن لكلِّ أحدٍ.

وقطعاً، وكانت مجموعةً في بيت واحد فكسرها كلها، ﴿إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ﴾؛ أي: إلّا صنمهم الكبير؛ فإنّه تركه لمقصد سيّئته.

وتأمل هذا الاحتراز العجيب؛ فإنّ كلّ ممقوتٍ عند الله لا يُطلق عليه ألفاظ التعظيم إلّا على وجه إضافته لأصحابه؛ كما كان النبي ﷺ إذا كتب إلى ملوك الأرض المشركين يقول: إلى عظيم الفُرس... إلى عظيم الروم... ونحو ذلك^(١) ولم يقل: إلى العظيم! وهنا قال تعالى: ﴿إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ﴾، ولم يقل: كبيراً من أصنامهم؛ فهذا ينبغي التنبيه له والاحتراز من تعظيم ما حقره الله؛ إلّا إذا أضيف إلى من عظّمه. وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾؛ أي: ترك إبراهيم تكسير صنمهم هذا لأجل أن يرجعوا إليه، ويستملوا حجّته، ويلتفتوا إليها، ولا يُعرضوا عنها، ولهذا قال في آخرها: ﴿فَرَجِعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ﴾.

﴿٥٩﴾ فحين رأوا ما حلّ بأصنامهم من الإهانة والخزي؛ ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾: فرموا إبراهيم بالظلم الذي هم أولى به حيث كسرها، ولم يدروا أن تكسيره لها من أفضل مناقبه ومن عدله وتوحيده، وإنّما الظالم من اتخذها آلهةً، وقد رأى ما يفعل بها.

﴿٦٠﴾ ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ - أي: يعيبيهم ويذمهم، ومن هذا شأنه لا بدّ أن يكون هو الذي كسرها، أو أنّ بعضهم سمعه يذكر أنه سيكيدها - ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾.

﴿٦١﴾ فلما تحقّقوا أنه إبراهيم؛ ﴿قَالُوا فَاتُوا بِهِ﴾؛ أي: بإبراهيم، ﴿عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ﴾؛ أي: بمرأى منهم وسماع، ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾؛ أي: يحضرون ما يصنع بمن كسّر آلهتهم. وهذا الذي أراد إبراهيم وقصّد: أن يكون بيان الحقّ بمشهد من الناس؛ ليشاهدوا الحقّ وتقوم عليهم الحجّة؛ كما قال موسى حين واعد فرعون: ﴿مَوْعِدْكَ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسَ ضَحَّى﴾.

﴿٦٢﴾ فحين حضر الناس وأخضر إبراهيم؛ قالوا له: ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا﴾؛ أي: التكسير ﴿بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾؟ وهذا استفهام تقرير؛ أي: فما الذي جرّأك؟ وما الذي أوجب لك الإقدام على هذا الأمر؟

﴿٦٣﴾ فقال إبراهيم والناس مشاهدون: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾؛ أي: كسرها

(١) كما في «صحيح البخاري» (٧ و ٤٤٢٤)، ومسلم (١٧٧٣).

غضباً عليها لما عُدَّتْ معه، وأراد أن تكونَ العبادةُ منكم لصنمكم الكبير وحده، وهذا الكلامُ من إبراهيمَ القصدُ منه إلزامُ الخصمِ وإقامةُ الحجَّةِ عليه، ولهذا قال: ﴿فاسألُوهم إن كانوا ينطقون﴾، وأراد الأصنامَ المكسرة؛ أسألوها لم كُسِرَتْ؟ والصنم الذي لم يكسر؛ اسألوه لأي شيء كُسِرَها؟ إن كان عندهم نطق؛ فسيجيئونكم إلى ذلك، وأنا وأنتم وكلُّ أحدٍ يدري أنها لا تنطق، ولا تتكلم، ولا تنفع ولا تضر، بل ولا تنصر نفسها ممَّن يريدُها بأذى.

﴿٦٤﴾ ﴿فرجعوا إلى أنفسهم﴾؛ أي: ثابت عليهم عقولُهم، ورجعت إليهم أحلامُهم، وعلموا أنَّهم ضالُّون في عبادتها، وأقروا على أنفسهم بالظلم والشرك، ﴿فقالوا إنكم أنتم الظالمون﴾: فحصل بذلك المقصود، ولزمتهم الحجَّةُ بإقرارهم أنَّ ما هم عليه باطل، وأنَّ فعلهم كفر وظلم.

﴿٦٥﴾ ولكن لم يستمروا على هذه الحالة، ولكن ﴿نكسوا على رؤوسهم﴾؛ أي: انقلب الأمر عليهم، وانتكست عقولهم، وضلَّت أحلامهم، فقالوا لإبراهيم: ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾؛ فكيف تهكِّمُ بنا، وتستهزئ بنا، وتأمرنا أن نسألها، وأنت تعلم أنها لا تنطق؟

﴿٦٦﴾ فقال إبراهيمُ موثقاً لهم ومعلنًا بشركهم على رؤوس الأشهاد ومبينًا عدم استحقاق آلهتهم للعبادة: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾: فلا نفع ولا دفع.

﴿٦٧﴾ ﴿أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: ما أضلَّكم وأخسرَ صفقتكم وما أخسَّكم أنتم وما عبدتُم من دُونِ اللَّهِ!! إن كنتم تعقلونَ عرفتم هذه الحال، فلما عدمتم العقلَ وارتكبتم الجهلَ والضلالَ على بصيرة؛ صارت البهائم أحسنَ حالاً منكم.

﴿٦٨﴾ فحينئذٍ لما أفحمهم ولم يبينوا حجَّة؛ استعملوا قوتهم في معاقبته، ف﴿قالوا حرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾؛ أي: اقتلوه أشنع القتلَات بالإحراق غضباً لآلهتكم ونصرةً لها؛ فتعساً لهم تعساً، حيث عبدوا من أقروا أنه يحتاج إلى نصرهم واتخذوه إلهاً!!

﴿٦٩﴾ فانتصر الله لخليله لما ألقوه في النار، وقال لها: ﴿كوني بزداءً وسلاماً على إبراهيم﴾: فكانت عليه برداً وسلاماً، لم يتلَّه فيها أذى، ولا أحسَّ بمكروه.

﴿٧٠﴾ ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾: حيث عزموا على إحراقه، ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ

الأخسرين﴿؛ أي: في الدنيا والآخرة؛ كما جعل الله خليله وأتباعه هم الرابحين المفلحين.

﴿٧١﴾ ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا﴾: وذلك أنه لم يؤمن به من قومه إلا لوط عليه السلام، قيل: إنه ابن أخيه، فنجاه الله، وهاجر ﴿إلى الأرض التي بارَكنا فيها للعالمين﴾؛ أي: الشام، فغادر قومه في بابل من أرض العراق، ﴿وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم﴾. ومن بركة الشام أن كثيراً من الأنبياء كانوا فيها، وأن الله اختارها مهاجراً لخليله، وفيها أحد بيوتِه الثلاثة المقدَّسة، وهو بيت المقدس.

﴿٧٢﴾ ﴿ووهبنا له﴾: حين اعتزل قومه، ﴿إسحاق ويعقوب﴾: ابن إسحاق، ﴿نافلة﴾: بعدما كبر وكانت زوجته عاقراً، فبشَّرتَه الملائكة بإسحاق، ﴿ومن وراء إسحاق يعقوب﴾، ويعقوب هو إسرائيل الذي كانت منه الأمة العظيمة، وإسماعيل بن إبراهيم الذي كانت منه الأمة الفاضلة العريَّة، ومن ذريَّته سيد الأولين والآخرين. ﴿وكلاً﴾: من إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ﴿جعلنا صالحين﴾؛ أي: قائمين بحقوقه وحقوق عباده.

﴿٧٣﴾ ﴿ومن صلاحهم أنه جعلهم أئمة يهدون بأمره، وهذا من أكبر نعم الله على عبده: أن يكون إماماً يَهْتَدِي به المهتدون، ويمشي خلفه السالكون، وذلك لما صبروا، وكانوا بآياتِ الله يوقنون.

وقوله: ﴿يهدون بأمرنا﴾؛ أي: يهدون الناس بديننا، لا يأمرّون بأهواء أنفسهم، بل بأمر الله ودينه وأتباع مرضاته، ولا يكون العبدُ إماماً حتى يدعو إلى أمر الله.

﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات﴾: يفعلونها ويدعون الناس إليها، وهذا شاملٌ للخيرات كلها^(١) من حقوق الله وحقوق العباد، ﴿واقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾: هذا من باب عطف الخاص على العام؛ لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ولأنَّ مَنْ كَمَّلهما كما أمر؛ كان قائماً بدينه، ومن ضيَّعهما؛ كان لما سواهما أضيع، ولأنَّ الصلاة أفضل الأعمال التي فيها حقُّه، والزكاة أفضل الأعمال التي فيها الإحسان لخلقه.

﴿وكانوا لنا﴾؛ أي: لا لغيرنا ﴿عابدين﴾؛ أي: مديمين على العبادات القلبية

(١) في (ب): «الجميع الخيرات».

والقولية والبدنية في أكثر أوقاتهم، فاستحقوا أن تكون العبادة وصفهم، فاتصفوا بما أمر الله به الخلق، وخلقهم لأجله.

﴿وَلَوْطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبْثِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوِءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿٧٤﴾ هذا ثناء من الله على رسوله لوط عليه السلام بالعلم الشرعي والحكم بين الناس بالصواب والسداد، وأن الله أرسله إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله وينهاهم عما هم عليه من الفواحش، فلبث يدعوهم، فلم يستجيبوا له، فقلب الله عليهم ديارهم، وعذبهم عن آخرهم؛ لأنهم ﴿كانوا قوم سوء فاسقين﴾: كذبوا الداعي وتوعدوه بالإخراج، ونجى الله لوطاً وأهله، فأمره أن يسري بهم ليلاً ليعبدوا عن القرية، فسروا ونجوا من فضل الله عليهم ومنته.

﴿٧٥﴾ ﴿وأدخلناه في رحمتنا﴾: التي من دخلها كان من الآمنين من جميع المخاوف، النائلين كل خير وسعادة وبر وسرور وثناء، وذلك لأنه من الصالحين، الذين صلحت أعمالهم، وزكت أحوالهم، وأصلح الله فاسدهم، والصلاح هو السبب لدخول العبد برحمة الله؛ كما أن الفساد سبب لحرمانه الرحمة والخير، وأعظم الناس صلاحاً الأنبياء عليهم السلام، ولهذا يصفهم بالصلاح، وقال سليمان عليه السلام: ﴿وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوِءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿٧٦- ٧٧﴾ أي: واذكر عبدنا ورسولنا نوحاً عليه السلام مثنياً مادحاً حين أرسله الله إلى قومه، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً؛ يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن الشرك به، ويبدي فيهم ويعيد، ويدعوهم سراً وجهاراً وليلاً ونهاراً، فلما رآهم لا ينجع فيهم الوعظ ولا يفيد لديهم الزجر؛ نادى ربه وقال: ﴿رب لا تدز على الأرض من الكافرين ديّاراً. إنك إن تدزهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾؛ فاستجاب الله له، فأغرقهم، ولم يبق منهم أحداً، ونجى الله نوحاً وأهله ومن معه من المؤمنين في الفلك المشحون، وجعل ذريته هم الباقين، ونصره الله على قومه المستهزئين.

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَسُلَيْمَانَ الريحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿٧٨﴾ أي: واذكر هذين النبيين [الكريمين^(١)] داود وسليمان مثنياً مبجلاً؛ إذ أتاهما الله العلم الواسع والحكم بين العباد؛ بدليل قوله: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾؛ أي: إذ تحاكم إليهما صاحبُ حرثٍ نفشت فيه غنم القوم الأخرى؛ أي: رعت ليلاً، فأكلت ما في أشجاره ورعت زرعه، ففضى فيه داود عليه السلام بأن الغنم تكون لصاحب الحرث؛ نظراً إلى تفريط أصحابها، فعاقبهم بهذه العقوبة، وحكم فيها سليمان بحكم موافق للصواب؛ بأن أصحاب الغنم يدفعون غنمهم إلى صاحب الحرث، فينتفع بدرّها وصوفها، ويقومون على بستان صاحب الحرث حتى يعود إلى حاله الأولى؛ فإذا عاد إلى حاله؛ تراذوا، ورجع كل منهما بماله، وكان هذا من كمال فهمه وفطنته عليه السلام.

﴿٧٩﴾ ولهذا قال: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾؛ أي: فهّمناه هذه القضية، ولا يدل ذلك أن داود لم يفهمه الله في غيرها، ولهذا خصّها بالذكر؛ بدليل قوله: ﴿وَكُلًّا﴾: من داود وسليمان آتيناهما ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾: وهذا دليل على أن الحاكم قد يصيب الحق والصواب، وقد يخطئ ذلك، وليس بملوم إذا أخطأ مع بذل اجتهاده.

ثم ذكر ما خصّ به كلا منهما، فقال: ﴿وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾: وذلك أنه كان من أعبد الناس وأكثرهم لله ذكراً وتسبيحاً وتمجيداً، وكان قد أعطاه الله من حسن الصوت ورفقته ورخامته ما لم يؤتّه أحداً من الخلق، فكان إذا سبّح وأثنى على الله؛ جاوبته الجبال الصمّ والطيور البهيم، ولهذا فضل الله عليه وإحسانه، ولهذا^(٢) قال: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

(٢) في (ب): «فلهذا».

(١) في (أ): «الكريم».

﴿٨٠﴾ ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾؛ أي: عَلَّمَ اللَّهُ داود عليه السلام صَنْعَةَ الدُّرُوعِ؛ فهو أول من صَنَعَهَا وَعَلَّمَهَا وَسَرَتْ صِنَاعَتُهُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُ، فَأَلَانَ اللَّهُ لَهُ الْحَدِيدَ، وَعَلَّمَهُ كَيْفَ يَسْرُدُهَا، وَالْفَائِدَةُ فِيهَا كَبِيرَةٌ؛ ﴿لِتُخَصِّنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾؛ أي: هي وقاية لكم وحفظٌ عند الحرب واشتداد البأس. ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾: نعمة الله عليكم؛ حيث أجراها على يد عبده داود؟ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ سِرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسِرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾.

يُحْتَمَلُ أَنْ تَعْلِمَ اللَّهُ لداود صَنْعَةَ الدُّرُوعِ وَإِلَانَتَهَا أَمْرٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ، وَأَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ الْمَفْسُورُونَ: إِنَّ اللَّهَ أَلَانَ لَهُ الْحَدِيدَ، حَتَّى كَانَ يَعْمَلُهُ كَالْعَجِينِ وَالطِّينِ مِنْ دُونِ إِذَابَةٍ لَهُ عَلَى النَّارِ.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَعْلِمَ اللَّهُ لَهُ عَلَى جَارِي الْعَادَةِ، وَأَنْ إِلَانَةَ الْحَدِيدِ لَهُ بِمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ مِنْ الْأَسْبَابِ الْمَعْرُوفَةِ الْآنَ لِإِذَابَتِهَا، وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَمَتَنَ [بِذَلِكَ] عَلَى الْعِبَادِ وَأَمَرَهُمْ بِشُكْرِهَا، وَلَوْلَا أَنَّ صِنْعَتَهُ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ مَقْدُورَةً لِلْعِبَادِ؛ لَمْ يَمْتَنَنَّ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ وَيَذْكُرَ فَائِدَتَهَا؛ لِأَنَّ الدُّرُوعَ الَّتِي صَنَعَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَتَعَذَّرَ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ أَعْيَانُهَا، وَإِنَّمَا الْمَثَلُ بِالْجِنْسِ. وَالْإِحْتِمَالُ الَّذِي ذَكَرَهُ الْمَفْسُورُونَ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ؛ إِلَّا قَوْلُهُ: ﴿وَأَلَّنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾، وَلَيْسَ فِيهِ أَنَّ الْإِلَانَةَ مِنْ دُونِ سَبَبٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ.

﴿٨١﴾ ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾؛ أي: سَخَّرْنَاهَا ﴿عَاصِفَةً﴾؛ أي: سَرِيعَةً فِي مَرُورِهَا، ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾: حَيْثُ دَبَّرَتْ أَمْتَلَّتْ أَمْرَهُ، غَدُوُّهَا شَهْرٌ وَزَوَاحُهَا شَهْرٌ، ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾: وَهِيَ أَرْضُ الشَّامِ؛ حَيْثُ كَانَ مَقَرُّهُ، فَيَذْهَبُ عَلَى الرِّيحِ شَرْقًا وَغَرْبًا، وَيَكُونُ مَاوَاهَا وَرَجُوعُهَا إِلَى الْأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ. ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾: قَدْ أَحَاطَ عِلْمُنَا بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، وَعَلِمْنَا مِنْ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ مَا أَوْصَلْنَاهُمَا بِهِ إِلَى مَا ذَكَرْنَا.

﴿٨٢﴾ ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾: وَهَذَا أَيْضًا مِنْ خَصَائِصِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَهُ الشَّيَاطِينَ وَالْعِفَارِيَّتَ، وَسَلَّطَهُ عَلَى تَسْخِيرِهِمْ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْهَا غَيْرُهُمْ، فَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ يَغُوصُ لَهُ الْبَحْرَ وَيَسْتَخْرِجُ الدُّرَّ وَاللُّؤْلُؤَ وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْمَلُ لَهُ ﴿مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾. وَسَخَّرَ طَائِفَةً مِنْهُمْ لِبِنَاءِ بَيْتِ الْمَقْدَسِ، وَمَاتَ وَهُمْ عَلَى عَمَلِهِ، وَبَقُوا بَعْدَهُ سَنَةً، حَتَّى عُلِمَ مَوْتُهُ؛ كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ

تعالى. ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾؛ أي: لا يقدرون على الامتناع منه وعصيانِهِ، بل حَفِظَهُمُ اللَّهُ له بِقُوَّتِهِ وَعِزَّتِهِ وَسُلْطَانِهِ.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُمْ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾.

﴿٨٣﴾ أي: واذكر عبدنا ورسولنا أيوب مثنياً معظماً له رافعاً لقدرِهِ حين ابتلاه ببلاء شديد فوجَّده صابراً راضياً عنه، وذلك أَنَّ الشيطان سُلِّطَ على جسده ابتلاءً من الله وامتحاناً، فنفخ في جسده، فتقرَّح قروحاً عظيمة، ومكث مدَّةً طويلة، واشتدَّ به البلاء، ومات أهله، وذهب ماله، فنادى ربَّه: رَبِّ ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾: فتوسَّل إلى الله بالإخبار عن حال نفسه، وأَنَّهُ بلغ الضُّرُّ منه كُلَّ مبلغ، وبرحمة ربِّه الواسعة العامة.

﴿٨٤﴾ فاستجاب الله له وقال له: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مَغْتَسلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾: فركض برجلِهِ، فخرجت من ركضتِهِ عَيْنُ ماء باردة، فاغتسل منها، وشرب، فأذهب الله ما به من الأذى. ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ﴾؛ أي: ردَدْنَا عليه أهله وماله. ﴿وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾: بأنَّ منحه الله [مع] العافية من الأهل والمال شيئاً كثيراً، ﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾: به حيثُ صَبَرَ ورضي، فأثابه الله ثواباً عاجلاً قبل ثواب الآخرة. ﴿وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ﴾؛ أي: جعلناه عبرةً للعابدين الذين يتفعون بالصبر؛ فإذا رأوا ما أصابه من البلاء، ثم ما أثابه بعد زواله، ونظروا السبب؛ وجدوه الصبر، ولهذا أثنى الله عليه به في قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، فجعلوه أسوةً وقدوةً عندما يصيِّبُهُمُ الضُّرُّ.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾.

﴿٨٥﴾ أي: واذكر عبادنا المصطفَّين وأنبياءنا المرسلين بأحسن الذكر، واثن عليهم أبلغ الثناء: ﴿إِسْمَاعِيلَ﴾ ابن إبراهيم، ﴿وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ﴾: نَبِيَّينِ من أنبياء بني إسرائيل؛ ﴿كُلٌّ﴾ من هؤلاء المذكورين ﴿من الصابرين﴾. والصبر: هو جِسْنُ النفس ومنعها مما تميل بطبعها إليه، وهذا يشمل أنواع الصبر الثلاثة: الصبرُ على طاعة الله، والصبرُ عن معصية الله، والصبرُ على أقدار الله المؤلمة.

فلا يستحقُّ العبد اسم الصبر التام حتى يوفِّي هذه الثلاثة حقَّها؛ فهؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد وصَّفهم الله بالصبر؛ فدلَّ أنهم وفَّوها حقَّها وقاموا بها كما ينبغي.

﴿٨٦﴾ ووصفهم أيضاً بالصلاح، وهو يشمل: صلاح القلب بمعرفة الله ومحبة الإنابة إليه كلَّ وقت، وصلاح اللسان؛ بأن يكون رطباً من ذكر الله، وصلاح الجوارح باشتغالها بطاعة الله وكفَّها عن المعاصي.

فصبرهم وصلاحهم أدخلهم الله برحمته، وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين، وأثابهم الثواب العاجل والآجل، ولو لم يكن من ثوابهم إلا أن الله تعالى نوة بذكرهم في العالمين، وجعل لهم لسان صدق في الآخرين؛ لكفى بذلك شرفاً وفضلاً.

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿٨٧ - ٨٨﴾ أي: واذكر عبدنا ورسولنا ﴿وَذَا النُّونِ﴾، وهو يونس؛ أي: صاحب النون، وهي الحوت، بالذكر الجميل والثناء الحسن؛ فإنَّ الله تعالى أرسله إلى قومه، فدعاهم، فلم يؤمنوا، فوعدهم بنزول العذاب بأمدٍ سمَّاه لهم، فجاءهم العذاب، ورأوه عياناً، فعجُّوا إلى الله وضجُّوا وتابوا، فرفع الله عنهم العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿فلولا كانت قرية آمنت فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾، وقال: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ. فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾. وهذه الأمة العظيمة الذين آمنوا بدعوة يونس من أكبر فضائله، ولكنه عليه الصلاة والسلام ذهب مغاضباً وأبى عن ربه للذنوب التي لم يذكرها الله لنا في كتابه ولا حاجة لنا إلى تعيينها؛ لقوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ... وهو مليمٌ﴾؛ أي: فاعلٌ ما يُلام عليه، [والظاهر أن عجلته ومغاضبته لقومه وخروجه من بين أظهرهم قبل أن يأمره الله بذلك]. وظنَّ أن الله لا يقدر عليه؛ أي: يضيِّق عليه في بطن الحوت، أو ظنَّ أنه سيفوت الله تعالى، ولا مانع من غرور هذا الظنِّ للكمُّل من الخلق على وجه لا يستقرُّ ولا يستمرُّ عليه، فركب في السفينة مع أناس، فاقترعوا مَنْ يُلْقون منهم في البحر لما خافوا

الغرق إن بَقُوا كُلَّهُمْ، فأصابَت القرعةُ يونسَ، فالتقمه الحوتُ، وذهب فيه ^(١) إلى ظلمات البحار، فنادى في تلك الظلمات: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فأقرَّ لله تعالى بكمال الألوهية، ونزَّهه عن كل نقص وعيبٍ وآفةٍ، واعترفَ بظلم نفسه وجنائه؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ. لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، ولهذا قال هنا: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾؛ أي: الشدة التي وقع فيها، ﴿وكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾: وهذا وعدٌ وبشارةٌ لكل مؤمن وقع في شدةٍ وغمٍّ: أَنَّ الله تعالى سَيُنْجِيهِ مِنْهَا وَيَكْشِفُ عَنْهُ، وَيَخَفِّفُ لِيَمَانِيهِ؛ كما فعل بيونس عليه السلام.

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُوتُكَ رَغْبًا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿٨٩﴾ أي: واذكر عبدنا ورسولنا زكريَّا، منوهاً بذكره، ناشراً لمناقبه وفضائله التي من جملتها هذه المنقبة العظيمة، المتضمنة لئصحه للخلق ورحمة الله إياه، وأنه ﴿نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾؛ أي: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا. وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا. يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾: من هذه الآيات علمنا أَنَّ قوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾: أَنَّهُ لما تقارب أجله؛ خاف أن لا يقوم أحدٌ بعده مقامه في الدعوة إلى الله والنصح لعباد الله، وأن يكون في وقته فرداً ولا يُخْلَفَ من يشفعه ويعينه على ما قام به. ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾؛ أي: خير الباقيين، وخير من خَلَفَنِي بخير، وأنت أرحمُ بعبادك مِنِّي، ولكنِّي أريدُ ما يطمئنُّ به قلبي، وتسكنُ له نفسي ويجري في موازيني ثوابه.

﴿٩٠﴾ ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى﴾: النبيُّ الكريم، الذي لم يجعل الله له من قبل سمياً، ﴿وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ زَوْجَهُ﴾: بعدما كانت عاقراً لا يصلحُ رحمها للولادة، فأصلح الله رَحِمَهَا للحمل لأجل نبيِّه زكريا، وهذا من فوائد المجلس والقرين الصالح؛ أَنَّهُ مباركٌ على قرينه، فصار يحيى مشتركاً بين الوالدين. ولما ذَكَرَ هؤلاء

الأنبياء والمرسلين كلاً على انفراده؛ أثنى عليهم عموماً، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾؛ أي: يبادرون إليها، ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة، ويكملونها على الوجه اللائق الذي ينبغي، ولا يتركون فضيلةً يقدرون عليها إلا انتهزوا الفرصة فيها. ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾؛ أي: يسألوننا الأمور المرغوب فيها من مصالح الدنيا والآخرة، ويتعوذون بنا من الأمور المرهوب منها من مضار الدارين، وهم راغبون [راهبون]، لا غافلون لاهون، ولا مدلون. ﴿وكانوا لنا خاشعين﴾؛ أي: خاضعين متذللين متضرعين، وهذا لكمال معرفتهم بربهم.

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾^(٩١) إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُيُوتٌ ﴿٩٤﴾ .

﴿٩١﴾ أي: واذكر مريم عليها^(١) السلام مثيلاً عليها مبيناً لقدرها شاهراً لشرفها، فقال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾؛ أي: حفظته من الحرام وقربانه، بل ومن الحلال، فلم تنزوج؛ لاشتغالها بالعبادة واستغراق وقتها بالخدمة لربها، وحين جاءها جبريل في صورة بشرٍ سويٍّ تامٍّ الخلق والحسن؛ ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾، فجازاها الله من جنس عملها ورزقها ولداً من غير أب، بل نفخ فيها جبريل عليه السلام، فحملت بإذن الله، ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾؛ حيث حملت به ووضعته من دون مسيس أحد، وحيث تكلم في المهد، وبرأها مما ظنُّ بها المتهمُون، وأخبر عن نفسه في تلك الحالة، وأجرى الله على يديه من الخوارق والمعجزات ما هو معلوم، فكانت وابنها آيةً للعالمين، يتحدث بها جيلاً بعد جيل، ويعتبر بها المعقبون.

﴿٩٢﴾ ولما ذَكَرَ الأنبياء عليهم السلام؛ قال مخاطباً للناس: و ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾؛ أي: هؤلاء الرسل المذكورون هم أُمَّتُكُمْ وأُمَّتُكُمْ الذين بهم تأتمون ويهديهم تقتدون، كلُّهم على دين واحدٍ وصراطٍ واحدٍ، والربُّ أيضاً واحدٌ، ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾: الذي خلقْتُمْ وربَّيْتُمْ بنعمتي^(٢) في الدين والدنيا؛ فإذا كان

(١) في (ب): «عليه».

(٢) في (ب): «بنعمي».

الرَّبُّ واحداً والنَّبِيُّ واحداً والدينَ واحداً، وهو عبادةُ الله وحده لا شريك له بجميع أنواع العبادة؛ كان وظيفتكم والواجبُ عليكم القيامُ بها، ولهذا قال: ﴿فَاعْبُدُونِ﴾: فرتب العبادة على ما سبق بالفاء ترتيب المسبب على سببه.

﴿٩٣﴾ وكان اللائقُ الاجتماعُ على هذا الأمر وعدم التفرُّق فيه، ولكنَّ البغي والاعتداء أبايلاً إلا الافتراق والتقطع، ولهذا قال: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: تفرَّق الأحزاب المنتسبون لأتباع الأنبياء فرقاً، وتشتَّتوا كلُّ يدَّعي أن الحقَّ معه والباطل مع الفريق الآخر، وكلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون. وقد علِّم أنَّ المصيب منهم مَنْ كان سالكاً للدين القويم والصراط المستقيم، مؤتماً بالأنبياء، وسيظهر هذا إذا انكشفَ الغطاء، وبرَّحَ الخفاء، وحَسَرَ الله الناس لفصل القضاء؛ فحينئذٍ يتبين الصادق من الكاذب، ولهذا قال: ﴿كُلٌّ﴾: من الفرق المتفرقة وغيرهم، ﴿إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾؛ أي: فنجازيهم أتمَّ الجزاء.

﴿٩٤﴾ ثم فصل جزاء فيهم منطوقاً ومفهوماً، فقال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: الأعمال التي شرعتها الرسلُ وحُثَّت عليها الكتب، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: بالله وبرسله وما جاؤوا به، ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ﴾؛ أي: لا نضيع سعيه ولا نبطله، بل نضاعفه له أضعافاً كثيرة. ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾؛ أي: مثبتون له في اللوح المحفوظ وفي الصحف التي مع الحفظة؛ أي: ومن لم يعمل من الصالحات أو عملها وهو ليس بمؤمن؛ فإنه محرومٌ خاسرٌ في دينه ودنياه.

﴿وَحَرَّمٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٩٥﴾.

﴿٩٥﴾ أي: يمتنع على القرى المهلكة المعذبة الرجوع إلى الدنيا ليستدركوا ما فرطوا فيه؛ فلا سبيل إلى الرجوع لمن أهلك وعذب، فليحذر المخاطبون أن يستمروا على ما يوجب الإهلاك، فيقع بهم، فلا يمكن رفعه، وليقبلوا وقت الإيمان والإدراك.

﴿حَقَّ إِذَا فَتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ وَأَقْرَبَ الْوَعْدِ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا تَوَلَّيْنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾.

﴿٩٦﴾ هذا تحذيرٌ من الله للناس أن يقيموا على الكفر والمعاصي، وأنه قد قَرُبَ انفتاح يأجوج ومأجوج، وهما قبيلتان عظيمتان من بني آدم، وقد سدَّ عليهم

ذو القرنين لما شُكِّي إليه إفسادهم في الأرض، وفي آخر الزمان يفتَحُ السدُّ عنهم؛ فيخرجونَ إلى الناس، وفي هذه الحالة والوصف الذي ذَكَرَهُ اللَّهُ من كُلِّ مكان مرتفع، وهو الحذب، ﴿يَنْسِلُونَ﴾؛ أي: يسرعون.

في هذا دلالة على كثرتهم الباهرة، وإسراعهم في الأرض، إما بذواتهم، وإما بما خَلَقَ اللَّهُ لهم من الأسباب التي تقربُ لهم البعيد، وتسهلُ عليهم الصعب، وأنهم يَفْهَرُونَ الناس، ويَعْلُونَ عليهم في الدنيا، وأنه لا يدان لأحدٍ بقتالهم.

﴿٩٧﴾ ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾؛ أي: يوم القيامة الذي وَعَدَ اللَّهُ بآتيانه، ووَعْدُهُ حَقٌّ وصدق؛ ففي ذلك اليوم ترى أبصار الكفار شاخصة من شدة الأفزاع والأحوال المزعجة والقلقل المفطعة، وما كانوا يعرفون من جنائياتهم وذنوبهم، وأنهم يَدْعُونَ بالويل والثبور والندم والحسرة على ما فات ويقولون: لقد ﴿كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ اليوم العظيم، فلم نَزَلْ فيها مستغرقين، وفي لهو الدنيا متمتعين، حتى أتانا اليقين، ووردنا القيامة؛ فلو كان يموتُ أحدٌ من الندم والحسرة لماتوا. ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾: اعترفوا بظلمهم وعَدَلَ اللَّهُ فيهم؛ فحينئذٍ يُؤْمَرُ بهم إلى النار هم وما كانوا يعبدون، ولهذا قال:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءِ آلهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

﴿٩٨﴾ أي: وإنَّكم^(١) أيها العابدون، مع الله آلهة غيره، ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: وقودها وحطبها، ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾: وأصنامكم.

﴿٩٩﴾ والحكمة في دخول الأصنام النار وهي جماد لا تعقل، وليس عليها ذنب؛ بيان كَذِبٍ من اتَّخَذَهَا آلهة، وليزداد عذابهم؛ فلهذا قال: ﴿لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءِ آلهَةً مَا وَرَدُوهَا﴾: هذا كقوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾، وكلٌّ من العابدين والمعبودين فيها خالدون، لا يخرجون منها، ولا يتقلون عنها.

﴿١٠٠﴾ ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾: من شدة العذاب، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾: صمّ بكم عمي، أو لا يسمعون من الأصوات غير صوتها؛ لشدة غليانها، واشتداد زفيرها وتغيظها.

﴿١٠١ - ١٠٢﴾ ودُخول آلهة المشركين النار إنما هو الأصنام أو من عبده وهو راض بعبادته، وأما المسيح وعزير والملائكة ونحوهم ممن عبده من الأولياء؛ فإنهم لا يعذبون فيها، ويدخلون في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾؛ أي: سبقت لهم سابقة السعادة في علم الله وفي اللوح المحفوظ وفي تسييرهم في الدنيا لليسرى والأعمال الصالحة. ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا﴾؛ أي: عن النار ﴿مُبْعَدُونَ﴾: فلا يدخلونها، ولا يكونون قريباً منها، بل يُبْعَدُونَ عنها غاية البعد، حتى لا يسمعوها حسيها، ولا يروا شخصها. ﴿وَهُمْ فِيهَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾: من المآكل والمشارب والمناكح والمناظر مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، مستمرّ لهم ذلك، يزداد حسنه على الأحقاب.

﴿١٠٣﴾ ﴿لَا يَخْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾؛ أي: لا يقلقهم إذا فزع الناس أكبر فزع، وذلك يوم القيامة، حين تقرب النار تتغيظ على الكافرين والعاصين، فيفزع الناس لذلك الأمر، وهؤلاء لا يخزنهم؛ لعلمهم بما يقدمون عليه، وأن الله قد آمنهم مما يخافون. ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾: إذا بعثوا من قبورهم وآتوا على النجائب وفداً لنشورهم مهنيين لهم قائلين: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تَوَعَدُونَ﴾: فليهنكم ما وعدكم الله، وليعظم استبشاركم بما أمامكم من الكرامة، وليكثر فرحكم وسروركم بما أمّنكم الله من المخاوف والمكاره.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾.

﴿١٠٤﴾ يخبر تعالى أنه يوم القيامة يطوي السماوات على عظمها وأتساعها كما يطوي الكاتب للسجل؛ أي: الورقة المكتوب فيها؛ فتنشر نجومها، وتكور^(١) شمسها وقمرها، وتزول عن أماكنها.

﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ﴾؛ أي: إعادتنا للخلق مثل ابتدائنا لخلقهم؛ فكما ابتدأنا خلقهم ولم يكونوا شيئاً؛ كذلك نعيدهم بعد موتهم، ﴿وَعَدَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾: ننفذ ما وعدنا؛ لكمال قدرته، وأنه لا تمتنع منه الأشياء.

﴿١٠٥﴾ ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾: وهو الكتاب المزبور، والمراد الكتب المنزلة؛ كالطورا، ونحوها، ﴿مِّنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾؛ أي: كتبناه في الكتب المنزلة بعدما كتبناه في الكتاب السابق الذي هو اللوح المحفوظ وأم الكتاب الذي توافقه جميع التقادير المتأخرة عنه والمكتوب في ذلك: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ﴾؛ أي: أرض الجنة، ﴿يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾: الذين قاموا بالمأمورات، واجتنبوا المنهيات؛ فهم الذين يورثهم الله الجنات؛ كقول أهل الجنة: ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾، ﴿وَأورثنا الأرض ننبأ من الجنة حيث نشاء﴾، ويحتمل أن المراد الاستخلاف في الأرض، وأن الصالحين يمكن الله لهم في الأرض، ويوليهم عليها؛ كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ...﴾ الآية.

﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ إِلَهُكُمْ إِنَّهُ وَحْدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَادَّبْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنِ آذَرْتُ أَقْرَبُ أَم بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُمْ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنِ آذَرْتُ لَعَلَّهُمْ فَتَنَةٌ لَّكُمْ وَمِنَعَ إِلَيَّ جِئِ ۖ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١١﴾

﴿١٠٦﴾ يُثْنِي اللَّهُ تَعَالَى عَلَى كِتَابِهِ الْعَزِيزِ الْقَرَّانِ وَيُبَيِّنُ كِفَايَتَهُ التَّامَّةَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ وَأَنَّهُ لَا يُسْتَغْنَى عَنْهُ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾؛ أي: يتبَلَّغون به في الوصول إلى ربهم وإلى دار كرامته، فيوصلهم إلى أجل المطالب وأفضل الرغائب، وليس للعابدين الذين هم أشرف الخلق وراءه غاية؛ لأنه الكفيل بمعرفة ربهم بأسمائه وصفاته وأفعاله وبالإخبار بالغيوب الصادقة وبال دعوة لحقائق الإيمان وشواهد الإيقان، المبيِّن للمأمورات كلها والمنهيات جميعها، المعروف بعيوب النفس والعمل والطرق التي ينبغي سلوكها في دقيق الدين وجليله، والتَّحْذِيرُ مِنْ طُرُقِ الشَّيْطَانِ، وبيان مداخلة على الإنسان؛ فمن لم يُغْنِهِ الْقُرْآنُ؛ فلا أغناه الله، وَمَنْ لَا يَكْفِيهِ؛ فلا كفاه الله.

﴿١٠٧﴾ ثم أثنى على رسوله الذي جاء بالقرآن، فقال: ﴿وما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾: فهو رحمته المهداة لعباده؛ فالْمُؤْمِنُونَ به قَبِلُوا هذه الرحمة وشكروها وقاموا بها، وَغَيْرُهُمْ كفروها، وبَدَّلُوا نعمة الله كَفْرًا، وَأَبَوْا رحمة الله ونعمته.

﴿١٠٨﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾: الذي لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ إِلَّا هُوَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: مُنْقَادُونَ لِعِبَادَتِهِ مُسْتَسْلِمُونَ لِأُلُوهِيَّتِهِ؛ فَإِنْ فَعَلُوا؛ فَلْيُحْمَدُوا رَبَّهُمْ عَلَى مَا مِنْ عَلَيْهِم بِهَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي فَاقَتِ الْمُنَى.

﴿١٠٩ - ١١٠﴾ وَإِنْ ﴿تَوَلَّوْا﴾: عَنِ الْإِنْقِيَادِ لِعِبَادِيَّةِ رَبِّهِمْ؛ فَحَذَّرَهُمْ حُلُولَ الْمَثَلَاتِ وَنَزُولِ الْعُقُوبَةِ. ﴿فَقُلْ أَذَنْتُكُمْ﴾؛ أي: أَعْلَمْتُكُمْ بِالْعُقُوبَةِ، ﴿عَلَى سِوَاءٍ﴾؛ أي: عِلْمِي وَعِلْمُكُمْ بِذَلِكَ مُسْتَوٍ؛ فَلَا تَقُولُوا إِذَا نَزَلَ بِكُمْ الْعَذَابُ: مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ، بَلِ الْآنَ اسْتَوَى عِلْمِي، وَعِلْمُكُمْ لَمَّا أُنْذَرْتُمْ وَحُذِرْتُمْ وَأَعْلَمْتُكُمْ بِمَالِ الْكُفْرِ، وَلَمْ أَكُتْمُ عَنْكُمْ شَيْئًا. ﴿وَإِنْ أَذْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾؛ أي: مِنَ الْعَذَابِ؛ لِأَنَّ عِلْمَهُ عِنْدَ اللَّهِ، وَهُوَ بِيَدِهِ؛ لَيْسَ لِي مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ.

﴿١١١﴾ ﴿وَإِنْ أَذْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾؛ أي: لَعَلَّ تَأْخِيرَ الْعَذَابِ الَّذِي اسْتَعْجَلْتُمُوهُ شَرٌّ لَّكُمْ، وَإِنْ تَمَتَّعُوا فِي الدُّنْيَا إِلَىٰ حِينٍ، ثُمَّ يَكُونُ أَعْظَمَ لِعُقُوبَتِكُمْ.

﴿١١٢﴾ ﴿قَالَ رَبُّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾؛ أي: بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ؛ فَاسْتَجَابَ اللَّهُ هَذَا الدُّعَاءَ، وَحَكَمَ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ بِمَا عَاقَبَ اللَّهُ بِهِ الْكَافِرِينَ مِنْ وَقْعَةِ بَدْرِ وَغَيْرِهَا. ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾؛ أي: نَسْأَلُ رَبَّنَا الرَّحْمَنَ وَنَسْتَعِينُ بِهِ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ مِنْ قَوْلِكُمْ: سَنُظْهِرُ عَلَيْكُمْ، وَسَيُضْمَحِلُّ دِينَكُمْ! فَنَحْنُ فِي هَذَا لَا نَعْجَبُ بِأَنْفُسِنَا، وَلَا نَتَّكِلُ عَلَىٰ حَوْلِنَا وَقُوَّتِنَا، وَإِنَّمَا نَسْتَعِينُ بِالرَّحْمَنِ الَّذِي نَاصِيَةُ كُلِّ مَخْلُوقٍ بِيَدِهِ، وَنَرْجُوهُ أَنْ يُتِمَّ مَا اسْتَعْنَاهُ بِهِ مِنْ رَحْمَتِهِ. وَقَدْ فَعَلَ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.



تفسير سورة الحج

قبل مكة وقبل مدينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَابِعُهَا النَّاسُ أَتَقُومُوا رِيبَكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾.

﴿١﴾ يخاطب الله الناس كافة بأن يتقوا ربهم الذي رباهم بالنعمة الظاهرة والباطنة، فحقيق بهم أن يتقوه بترك الشرك والفسوق والعصيان، ويمثلوا أوامره مهما استطاعوا. ثم ذكر ما يعينهم على التقوى ويحذرهم من تركها، وهو الإخبار بأحوال القيامة، فقال: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾: لا يُقَدَّرُ قَدْرُهُ وَلَا يُبْلَغُ كُنْهُهُ، ذَلِكَ بِأَنَّهَا إِذَا وَقَعَتِ السَّاعَةُ؛ رَجَفَتِ الْأَرْضُ، وَارْتَجَّتْ، وَزُلْزِلَتْ زَلْزَالَهَا، وَتَصَدَّعَتِ الْجِبَالُ، وَانْدَكَّتْ، وَكَانَتْ كَثِيبًا مَهِيلًا، ثُمَّ كَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا، ثُمَّ انْقَسَمَ النَّاسُ ثَلَاثَةَ أَزْوَاجٍ؛ فَهَنَّاكَ تَنْفَطِرُ السَّمَاءُ، وَتَكْوَرُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، وَتَنْتَشِرُ النُّجُومُ، وَيَكُونُ مِنَ الْقَلَاقِلِ وَالْبَلَابِلِ مَا تَنْصَدِعُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَتَجِلُّ مِنْهُ الْأَفْتَدَةُ، وَتَشِيبُ مِنْهُ الْوُلْدَانُ، وَتَذُوبُ لَهُ الصُّمُّ الصَّلَابُ.

﴿٢﴾ ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾: مع أَنَّهَا مَجْبُولَةٌ عَلَى شِدَّةِ مَحَبَّتِهَا لَوْلِيهَا، خُصُوصًا فِي هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي لَا يَعِيشُ إِلَّا بِهَا، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا﴾: مِنْ شِدَّةِ الْفَزَعِ وَالْهَوْلِ، ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ﴾؛ أَي: تَحْسِبُهُمْ أَيُّهَا الرَّائِي لَهُمْ سُكَارَىٰ مِنَ الْخَمْرِ، وَلَيْسُوا سُكَارَىٰ.

﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾: فَلِذَلِكَ أَذْهَبَ عَقُولَهُمْ، وَفَرَّغَ قُلُوبَهُمْ، وَمَلَأَهَا مِنَ الْفَزَعِ، وَبَلَّغَتْ الْقُلُوبَ الْحَنَاجِرَ، وَشَخَصَتِ الْأَبْصَارَ، [و] فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ، وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا، وَيَوْمَئِذٍ يَفْقَرُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ، وَهَنَّاكَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدِيهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا، يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا، وَتَسْوَدُّ حِينُودٌ وَجُوهٌ وَتَبْيِضُ وَجُوهٌ، وَتُنْصَبُ الْمَوَازِينُ الَّتِي يوزَنُ بِهَا مَثَاقِيلُ الذُّرِّ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَتُنْشَرُ صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ وَمَا فِيهَا مِنْ جَمِيعِ

الأعمال والأقوال والنيات من صغير وكبير، ويُنصَبُ الصراط على متن جهنم، وتُزَلَفُ الجنة للمتقين، وبُرَزَتِ الجحيم للغاوين، إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً، وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً، ويقال لهم: لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً، وإذا نادوا ربهم ليُخْرِجْهم منها؛ قال: اخسؤوا فيها ولا تكلمون؛ قد غضب عليهم الرب الرحيم، وخَضَرَهُمُ العذاب الأليم، وأيسوا من كل خير، ووجدوا أعمالهم كلها، لم يفقدوا منها نقيراً ولا قَظْميَراً.

هذا؛ والمتقون في روضات الجنات يُخْبِرُونَ، وفي أنواع اللذات يَتَفَكَّهُونَ، وفيما اشتَهَتْ أنفسهم خالِدُونَ؛ فحقيق بالعاقل الذي يَعْرِفُ أَنَّ كُلَّ هَذَا أمامه أَنْ يُعَدَّ له عَذَبُهُ، وَأَنْ لَا يُلْهِمَهُ الأمل فيترك العمل، وَأَنْ تكون تقوى الله شعاره، وخوفه دثاره، ومحبة الله وذكره روح أعماله.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَتَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

﴿٣ - ٤﴾ أي: ومن الناس طائفة وفرقة؛ سلكوا طريق الضلال، وجعلوا يجادلون بالباطل الحق؛ يريدون إحقاق الباطل وإبطال الحق، والحال أنهم في غاية الجهل، ما عندهم من العلم شيء، وغاية ما عندهم تقليد أئمة الضلال من كل شيطان مريد متمرد على الله وعلى رسوله معانيد لهم، قد شاقَّ الله ورسوله، وصار من الأئمة الذين يدعون إلى النار. ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: قَدَّرَ على هذا الشيطان المريد، ﴿أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ﴾؛ أي: اتبعه؛ ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾: عن الحق ويجنبه الصراط المستقيم؛ ﴿ويهديه إلى عذاب السعير﴾: وهذا نائب إبليس حقاً؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ عنه: ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾. فهذا الذي يجادل في الله قد جمع بين ضلاله بنفسه وتصديه إلى إضلال الناس، وهو متبع ومقلد لكل شيطان مريد، ظلمات بعضها فوق بعض، ويدخل في هذا جمهور أهل الكفر والبدع؛ فَإِنَّ أَكْثَرَهُمْ مقلدة يجادلون بغير علم.

﴿يَتَّبِعُهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن نَّبَرٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنَبَيِّنَ لَكُمْ وَنَقُرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِنَّكَ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُّتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ

أَرَدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَرَأَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ
 اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَثْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ ⑤ ذَلِكَ يَأْنُّ لِلَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتُمْ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنْتُمْ عَلَى
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑥ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ⑦ .

⑤ يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ﴾؛ أي: شك واشتباه وعدم علم بوقوعه، مع أن الواجب عليكم أن تصدقوا ربكم وتصدقوا رسله في ذلك، ولكن إذا أبيتم إلا الريب؛ فهاكم دليلين عقليين تشاهدونهما، كل واحد منهما يدل دلالة قطعية على ما شككتكم فيه، ويُرْزِلُ عن قلوبكم الريب:

أحدهما: الاستدلال بابتداء خلق الإنسان، وأن الذي ابتدأه سيعيده، فقال فيه: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾: وذلك بخلق أبي البشر آدم عليه السلام، ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾؛ أي: مني، ولهذا ابتداء أول التخليق، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾؛ أي: تنقلب تلك النطفة بإذن الله دماً أحمر، ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ﴾؛ أي: ينتقل الدم مضغاً؛ أي: قطعة لحم بقدر ما يُمضغ، وتلك المضغ تارة تكون ﴿مُخَلَّقَةً﴾؛ أي: مصوراً منها خلق الآدمي. وتارة ﴿غَيْرُ مُخَلَّقَةٍ﴾: بأن تقذفها الأرحام قبل تخليقها، ﴿لِنَبَيِّنَ لَكُمْ﴾: أصل نشأتكم؛ مع قدرته تعالى على تكميل خلقه في لحظة واحدة، ولكن لِيُبَيِّنَ لَنَا كمال حكمته وعظيم قدرته وسعة رحمته.

﴿وَنُقَرِّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾: [أي:]: ونُقَرِّ؛ أي: نبقي في الأرحام من الحمل الذي لم تقذفه الأرحام ما نشاء إبقاءه إلى أجل مسمى، وهو مدة الحمل، ﴿ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ﴾: من بطون أمهاتكم ﴿طِفْلاً﴾: لا تعلمون شيئاً، وليس لكم قدرة، وسخرنا لكم الأمهات، وأجّرنا لكم في ثديها الرزق، ثم تُنْقَلُونَ^(١) طوراً بعد طور حتى تبلغوا أشدكم، وهو كمال القوة والعقل. ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَتُوفَّى﴾: من قبل أن يبلغ سن الأشد، ومنكم من يتجاوزُه فيردُّ ﴿إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ﴾؛ أي: أخسّه وأردلّه، وهو سنُّ الهرم والتخريف، الذي به يزول العقل ويضمحل كما زالت باقي القوة وضعفت، ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾؛ أي: لأجل أن لا يعلم هذا المعمر شيئاً مما كان يعلمه قبل ذلك، وذلك لضعف عقله؛ ففوة الآدمي محفوفة بضعفين: ضعف الطفولية ونقصها، وضعف الهرم ونقصه؛ كما

(١) في (ب): «تنتقلون».

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

والدليل الثاني: إحياء الأرض بعد موتها، فقال الله فيه: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾؛ أي: خاشعة مغبرة لا نبات فيها ولا خضرة، ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ﴾؛ أي: تحرّكت بالنبات، ﴿وَرَبَّتْ﴾؛ أي: ارتفعت بعد خُشوعها، وذلك لزيادة نباتها، ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾؛ أي: صنف من أصناف النبات ﴿بِهَيْجٍ﴾؛ أي: يَبْهَجُ الناظرين ويسر المتأملين.

﴿٦ - ٧﴾ فهذان الدليلان القاطعان يدلّان على هذه المطالب الخمسة، وهي هذه: ﴿ذَلِكَ﴾: الذي أنشأ آدمي من ما وصّف لكم وأحيا الأرض بعد موتها، ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾؛ أي: الربّ المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلّا له، وعبادته هي الحق، وعبادة غيره باطلة. ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾: كما ابتدأ الخلق، وكما أحيا الأرض بعد موتها، ﴿وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: كما أشهدكم من بديع قدرته وعظيم صنعته ما أشهدكم، ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾: فلا وجه لاستبعادها، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾: فيجازيكم بأعمالكم حسنًا وسيئًا.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ (٨) ﴿ثَانِي عَطْفِهِ﴾ يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِقُوهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ [الْحَرِيقِ] (٩) ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (١٠) [١].

﴿٨﴾ المجادلة المتقدمة للمقلّد، وهذه المجادلة للشيطان المريد الدّاعي إلى البدع، فأخبر أنّه ﴿يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾؛ أي: يجادل رسل الله وأتباعهم بالباطل ليُدْحِضَ به الحق، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: صحيح، ﴿وَلَا هُدًى﴾؛ أي: غير متّبع في جداله هذا من يهديه؛ لا عقل مرشد، ولا متبوع مهتد، ﴿وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾؛ أي: واضح بين؛ [أي:] فلا له حجة عقلية ولا نقلية، إن هي إلّا شبهات يوحياها إليه الشيطان، وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم.

﴿٩﴾ ومع هذا: ﴿ثَانِي عَطْفِهِ﴾؛ أي: لاوي جانبه وعنقه، وهذا كناية عن كبره عن الحق واحتقاره للخلق؛ فقد فرح بما معه من العلم غير النافع، واحتقر أهل

الحق وما معهم من الحق؛ ﴿ليضل﴾ الناس؛ أي: ليكون من دعاة الضلال.

ويدخل تحت هذا جميع أئمة الكفر والضلال. ثم ذَكَرَ عقوبتهم الدنيوية والأخروية، فقال: ﴿له في الدنيا خزي﴾؛ أي: يفتضح هذا في الدنيا قبل الآخرة. وهذا من آيات الله العجبية؛ فإنك لا تجد داعياً من دعاة الكفر والضلال إلا وله من المَقَتِ بين العالمين واللعنة والبُغْض والذُّم ما هو حقيق به، وكلُّ بحسب حاله. ﴿ونذيقه يوم القيامة عذاب [الحريق]﴾؛ أي: نذيقه حرَّها الشديد وسعيرها البليغ، وذلك بما قدَّمت يده. ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْعُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿١١﴾ أي: ومن الناس مَنْ هو ضعيف الإيمان، لم يدخل الإيمان قلبه، ولم تخالطه بشاشته، بل دخل فيه إما خوفاً وإما عادة على وجه لا يثبت عند المحن. ﴿فإن أصابه خيرٌ اطمأن به﴾؛ أي: إن استمرَّ رزقه رغداً ولم يحصل له من المكاره شيء اطمأن بذلك الخير، لا إيمانه^(١)؛ فهذا ربَّما أن الله يعافيه ولا يقيض له من الفتن ما ينصرف به عن دينه. ﴿وإن أصابته فتنة﴾: من حصول مكروه أو زوال محبوب؛ ﴿انقلب على وجهه﴾؛ أي: ارتدَّ عن دينه؛ ﴿خسر الدنيا والآخرة﴾: أما في الدنيا؛ فإنه لا يحصل له بالردة ما أمَّله، الذي جعل الردة رأساً لماله وعوضاً عما يظن إدراكه، فخاب سعيه، ولم يحصل له إلا ما قُسم له، وأما الآخرة؛ فظاهراً، حُرِّم الجنة التي عرضها السماوات والأرض، واستحقَّ النار. ﴿ذلك هو الخسران المبين﴾؛ أي: الواضح البين.

﴿١٢ - ١٣﴾ ﴿يدعوا﴾: هذا الراجع على وجهه من دون الله ما لا ينفعه ولا يضره، وهذا صفة كلِّ مدعوٍّ ومعبودٍ من دون الله؛ فإنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرراً. ﴿ذلك هو الضلال البعيد﴾: الذي قد بلغ في البعد إلى حدِّ النهاية؛ حيث أعرض عن عبادة النافع الضارِّ الغني المغني، وأقبل على عبادة مخلوق مثله

(١) كذا في (أ)، وفي (ب): «لا بإيمانه».

أو دونه، ليس بيده من الأمر شيء، بل هو إلى حصول ضد مقصوده أقرب، ولهذا قال: ﴿يَدْعُو لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾: فَإِنَّ ضَرُّهُ فِي الْعَقْلِ وَالْبَدَنِ وَالْدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَعْلُومٌ. ﴿لِبَنَسِ الْمَوْلَى﴾؛ أي: هَذَا الْمَعْبُودُ، ﴿وَلِبَنَسِ الْعَشِيرِ﴾؛ أي: الْقَرِينِ الْمَلَاذِمِ عَلَى صَحْبَتِهِ؛ فَإِنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْمَوْلَى وَالْعَشِيرِ حَصُولَ النِّفْعِ وَدَفْعَ الضَّرَرِ؛ فَإِذَا لَمْ يَحْصُلْ شَيْءٌ مِنْ هَذَا؛ فَإِنَّهُ مَذْمُومٌ مَلُومٌ.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (١٤).

﴿١٤﴾ لما ذكر تعالى المجادل بالباطل، وأنه على قسمين: مقلِّد وداع؛ ذكر أن المتسمي بالإيمان أيضاً على قسمين: قسم لم يدخل الإيمان قلبه كما تقدّم. والقسم الثاني: المؤمن حقيقته؛ صدق ما معه من الإيمان بالأعمال الصالحة، فأخبر تعالى أنه يدخلهم ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: وَسُمِّيَتِ الْجَنَّةُ جَنَّةً لِاشْتِمَالِهَا عَلَى الْمَنَازِلِ وَالْقُصُورِ وَالْأَشْجَارِ وَالنَّوَابِتِ الَّتِي تُجْنَى مِنْ فِيهَا وَيَسْتَرُّ بِهَا مِنْ كَثَرَتِهَا. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾: فَمَهْمَا أَرَادَهُ تَعَالَى؛ فَعَلَهُ؛ مِنْ غَيْرِ مَمَانَعٍ وَلَا مَعَارِضٍ، وَمِنْ ذَلِكَ إِيصَالُ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِلَيْهَا، جَعَلْنَا اللَّهَ مِنْهُمْ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ.

﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ (١٥).

﴿١٥﴾ أي: مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ وَأَنَّ دِينَهُ سَيُضْمَحَلُّ فَإِنَّ النِّصْرَ مِنَ اللَّهِ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، [فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ]: النِّصْرُ عَنِ الرَّسُولِ^(١)، ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ﴾؛ أي: مَا يَكِيدُ بِهِ الرَّسُولُ وَيَعْمَلُهُ مِنْ مُحَارِبَتِهِ وَالْحَرَصِ عَلَى إِبْطَالِ دِينِهِ مَا يُغِيظُهُ مِنْ ظُهُورِ دِينِهِ. وَهَذَا اسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَى النِّفْيِ، وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شِفَاءِ غِيظِهِ بِمَا يَعْمَلُهُ مِنَ الْأَسْبَابِ.

وَمَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: يَا أَيُّهَا الْمَعَادِي لِلرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، السَّاعِي فِي إطفاء دينه، الَّذِي يَظُنُّ بِجَهْلِهِ أَنَّ سَعْيَهُ سَيَفِيدُهُ شَيْئاً! اعْلَمْ أَنَّكَ مَهْمَا فَعَلْتَ مِنَ الْأَسْبَابِ، وَسَعَيْتَ فِي كَيْدِ الرَّسُولِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُذْهِبُ غِيظَكَ وَلَا يَشْفِي كَمَدَكَ؛

(١) زيادة من هامش (أ). وفي (ب): «فليمدد ذلك الظان بسبب»؛ أي: حبل من السماء وليرق إليها، ثم ليقطع النصر النازل عليه من السماء.

فليس لك قدرة في ذلك، ولكن سنشير عليك برأي تتمكن به من شفاء غيظك ومن قطع النصر عن الرسول إن كان ممكناً: اتب الأمر مع بابيه، وارتي إليه بأسبابه: اعمد إلى جبل من ليف أو غيره، ثم علقه في السماء، ثم اصعد به حتى تصل إلى الأبواب التي ينزل منها النصر، فسدها وأغلقها واقطعها؛ فبهذه الحال تشفي غيظك؛ فهذا هو الرأي والمكيده، وأما سوى هذه الحال؛ فلا يخطر ببالك أنك تشفي بها غيظك، ولو ساعدك من ساعدك من الخلق.

وهذه الآية الكريمة فيها من الوعد والبشارة بنصر الله لدينه ولرسوله وعباده المؤمنين ما لا يخفى، ومن تأيس الكافرين الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره ولو كره الكافرون؛ أي: وسعوا مهما أمكنهم.

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ أَلَّا اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (١٦).

﴿١٦﴾ أي: وكذلك لما فصلنا في هذا القرآن ما فصلنا؛ جعلناه آيات بينات واضحات دالات على جميع المطالب والمسائل النافعة، ولكن الهداية بيد الله؛ فمن أراد الله هدايته؛ اهتدى بهذا القرآن، وجعله إماماً له وقدوة واستضاء بنوره، ومن لم يرد الله هدايته؛ فلو جاءته كل آية؛ ما آمن ولم ينفعه القرآن شيئاً، بل يكون حجة عليه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْمُجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ (١٧) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١٨) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (١٩) ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصِمُوا فِي رَبِّهِمَا^(١) فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ (٢٠) ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ (٢١) ﴿وَلَهُمْ مَقْطِعٌ مِنْ حديدٍ﴾ (٢٢) ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (٢٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجَاوَزُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (٢٤) ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ﴾ (٢٥).

(١) في النسختين: «إلى قوله: ﴿وهودوا إلى صراط الحميد﴾».

﴿١٧﴾ يخبر تعالى عن طوائف أهل الأرض من الذين أوتوا الكتاب من المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين ومن المجوس ومن المشركين: أَنَّ اللَّهَ سَيَجْمَعُهُمْ جميعهم ليوم القيامة، ويفصل بينهم بحكمه العدل، ويجازيهم بأعمالهم التي حفظها وكتبها وشهدها، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

﴿١٩ - ٢٢﴾ ثم فصل هذا الفصل بينهم بقوله: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾: كُلٌّ يدعي أَنَّهُ المحقُّ. ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: يشمل كُلَّ كافر من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والمشركين، ﴿قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾؛ أي: يُجعل لهم ثيابٌ من قَطْران، وتُشعل فيها النار؛ ليعمَّهم العذابُ من جميع جوانبهم، ﴿يَصُبُّ مِنْ فَوْقَ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾: الماء الحارُّ جدًّا، ﴿يُضْهِرُّ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾: من اللحم والشحم والأمعاء من شدة حرِّه وعظيم أمره. ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾: بيد الملائكة الغلاظ الشداد تضربهم فيها وتقمعهم. كلُّما أرادوا أن يخرجوا منها أُعيدوا فيها؛ فلا يُفترُّ عنهم العذاب ولا هُمْ يُنظَرُونَ، ويقال لهم توبيخاً: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾؛ أي: المحرق للقلوب والأبدان.

﴿٢٣﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: ومعلوم أَنَّ هذا الوصف لا يصدق على غير المسلمين، الذين آمنوا بجميع الكتب وجميع الرسل، ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾؛ أي: يسَّوَّرون في أيديهم، رجالهم ونسأؤهم أساور الذهب، ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾: فتمَّ نعيمهم بذلك^(١): أنواع المأكولات اللذيذات، المشتمل عليها لفظ الجنات، وذكر الأنهار السَّارحات، أنهار الماء واللبن والعسل والخمر، وأنواع اللباس والحلي الفاخر.

﴿٢٤﴾ وذلك بسبب أنَّهم ﴿هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾: الذي أفضله وأطيبه كلمة الإخلاص، ثم سائر الأقوال الطيبة التي فيها ذكر الله أو إحسان إلى عباد الله. ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾؛ أي: الصراط المحمود، وذلك لأنَّ جميع الشرع كله محتوٍ على الحكمة والحمد وحسن المأمور به وقبح المنهي [عنه]، وهو الدين الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، المشتمل على العلم النافع والعمل الصالح. أو: وهدوا إلى صراط الله الحميد؛ لأنَّ الله كثيراً ما يُضيف الصراط إليه؛ لأنَّه يوصل صاحبه إلى الله. وفي ذكر الحميد هنا ليبين أنَّهم نالوا الهداية بحمد ربهم

(١) كذا في (أ). وفي (ب): «بذكر». وهو الصواب.

ومثته عليهم، ولهذا يقولون في الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾.

﴿١٨﴾ واعترض تعالى بين هذه الآيات بذكر سجود المخلوقات له؛ جميع من في السماوات والأرض، والشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، والشجر، والدواب الذي يشمل الحيوانات كلها. وكثير من الناس، وهم المؤمنون: ﴿وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾؛ أي: وَجِبَ وَكُتِبَ لكفره وعدم إيمانه، فلم يوفقه الله للإيمان؛ لأنَّ الله أهانه. ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مَكْرَمٍ﴾: ولا راد لما أراد، ولا معارض لمشيئته؛ فإذا كانت المخلوقات كلها ساجدةً لرَبِّها، خاضعةً لعظمته، مستكينةً لعزته، عانيةً لسلطانه؛ دلَّ أنه وحده الربُّ المعبودُ الملكُ المحمودُ، وأنَّ من عدل عنه إلى عبادة سواه؛ فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً، وخسر خسراناً مُبيناً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَلَفِ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَمِ يُظْلَمِ نُذْقُهُ مِنْ عَذَابِ الْبَاسِ﴾ (٢٥).

﴿٢٥﴾ يخبر تعالى عن شناعة ما عليه المشركون الكافرون برَبِّهم، وأنهم جمَعوا بين الكفر بالله ورسوله، وبين الصدَّ عن سبيل الله، ومنَع الناس من الإيمان، والصدَّ أيضاً عن المسجد الحرام الذي ليس ملكاً لهم ولا لأبائهم، بل الناس فيه سواء المقيم فيه والطارئ إليه، بل صدُّوا عنه أفضل الخلق محمداً وأصحابه، والحال أنَّ المسجد الحرام من حرمةٍ واحترامه وعظمته أنَّ ﴿مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذْقُهُ مِنْ عَذَابِ الْبَاسِ﴾؛ فمجرَّد الإرادة للظلم^(١) والإلحاد في الحرم موجب للعذاب، وإنَّ كان غيرُه لا يعاقب العبدُ إلَّا بعمل الظلم؛ فكيف بمن أتى فيه أعظم الظلم من الكفر والشرك والصدَّ عن سبيله ومنع من يريده بزيارة؟! فما ظنُّهم أن يفعل الله بهم؟!.

وفي هذه الآية الكريمة وجوب احترام الحرم وشدة تعظيمه والتحذير من إرادة المعاصي فيه وفعلها.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ

(١) في (ب): «إرادة الظلم».

يَأْتِيكَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَاكْلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْسِنَ الْفَقِيرِ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَقَاتُلَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ۝

﴿٢٦﴾ يذكر تعالى عظمة البيت الحرام وجلالته وعظمة بانيه، وهو خليل الرحمن، فقال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾؛ أي: هيأناه له وأنزلناه إياه، وجعل قسماً من ذُرِّيَّتِهِ من سكانه، وأمره الله بينانيه، فبناه على تقوى الله، وأسسّه على طاعة الله، وبناه هو وابنه إسماعيل، وأمره أن لا يُشْرِكْ به شيئاً؛ بأن يُخْلِصَ لله أعماله وبينيه على اسم الله. ﴿وَطَهَّرْ بَيْتِي﴾؛ أي: من الشرك والمعاصي ومن الأنجاس والأدناس، وأضافه الرحمن إلى نفسه لشرفه وفضله ولتعظيم محبته في القلوب، وتنصب إليه الأفئدة من كل جانب، وليكون أعظم لتطهيره وتعظيمه؛ لكونه بيت الرب للطائفين به والعاكفين عنده، المقيمين لعبادة من العبادات من ذكر وقراءة وتعلم علم وتعليمه وغير ذلك من أنواع القرب، ﴿وَالرُّكُوعِ السُّجُودِ﴾؛ أي: المصلين؛ أي: طهره لهؤلاء الفضلاء الذين همهم طاعة مولاهم وخدمته والتقرب إليه عند بيته؛ فهؤلاء لهم الحق ولهم الإكرام، ومن إكرامهم تطهير البيت لأجلهم. ويدخل في تطهيره تطهيره من الأصوات اللاغية والمرتفعة التي تشوش على المتعبدين بالصلاة والطواف.

وقدّم الطواف على الاعتكاف والصلاة لاختصاصه بهذا البيت، ثم الاعتكاف لاختصاصه بجنس المساجد.

﴿٢٧﴾ ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾؛ أي: أعلمهم به، وادعهم إليه، وبلغ دانيهم وقاصيهم فرضه وفضيلته؛ فإنك إذا دعوتهم؛ أتوك حُجَّاجاً وعماراً. ﴿رَجَالاً﴾؛ أي: مشاة على أرجلهم من الشوق، ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾؛ أي: ناقة ضامر تقطع المهامة والمفاز، وتواصل السير حتى تأتي إلى أشرف الأماكن، ﴿مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾؛ أي: من كل بلد بعيد.

وقد فعل الخليل عليه السلام ثم من بعده ابنه محمد ﷺ، فدعيا الناس إلى حج هذا البيت، وأبديا في ذلك وأعادا، وقد حصل ما وعد الله به؛ أنه الناس رجالاً وركبانا من مشارق الأرض ومغاربها.

﴿٢٨﴾ ثم ذكر فوائد زيارة بيت الله الحرام مرغبا فيه، فقال: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ

لهم ﴿٢٩﴾ أي: لينالوا بيت الله منافع دينية من العبادات الفاضلة، والعبادات التي لا تكون إلا فيه، ومنافع دنيوية، من التكسب وحصول الأرباح الدنيوية، وكل هذا أمرٌ مشاهدٌ، كلٌ يعرفه. ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾: وهذا من المنافع الدينية والدنيوية؛ أي: ليذكروا اسم الله عند ذبح الهدايا شكراً لله على ما رَزَقَهُمْ منها ويسرّها لهم؛ فإذا ذبحتموها؛ ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾؛ أي: شديد الفقر.

﴿٢٩﴾ ثم لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ؛ أي: يقضوا نُسُكَهُمْ ويزيلوا الوسخ والأذى الذي لِحَقَّهْم في حال الإحرام، ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾: التي أوجبها على أنفسهم من الحج والعمرة والهدايا، ﴿وَلْيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾؛ أي: القديم، أفضل المساجد على الإطلاق، المعتقد من تسلط الجبابرة عليه. وهذا أمرٌ بالطواف، خصوصاً بعد الأمر بالمناسك عموماً؛ لفضله وشرفه، ولكونه المقصود، وما قبله وسائل إليه. ولعله والله أعلم أيضاً لفائدة أخرى، وهو أنَّ الطواف مشروعٌ كلَّ وقتٍ، وسواء كان تابعاً لِنُسُكٍ أم مستقلاً بنفسه.

﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَجَلْتَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْتَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ خُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾.

﴿٣٠﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي^(١): ذكرنا لكم من تلحم الأحكام وما فيها من تعظيم حُرُمَاتِ اللَّهِ وإجلالها وتكريمها؛ لأنَّ تعظيم حُرُمَاتِ اللَّهِ من الأمور المحبوبة لله المقربة إليه التي من عَظَمَها وأَجَلَّها أثابه الله ثواباً جزيلاً، وكانت خيراً له في دينه ودنياه وأخراه عند ربه. وحرماثُ الله كلُّ ما له حرمةٌ وأمرٌ باحترامه من عبادة^(٢) أو غيرها؛ كالمناسك كلها، والحرم والإحرام، والهدايا، والعبادات التي أمر الله العباد بالقيام بها؛ فتعظيمها إجلالاً بالقلب ومحبةً وتكميلُ العبودية فيها غير متهاونٍ ولا متكاسلٍ ولا متاقلٍ. ثم ذَكَرَ مَنَّةً وإحسانه بما أحله لعباده من بهيمة الأنعام من إبل وبقرٍ وغنم، وشرعها من جملة المناسك التي يَتَقَرَّبُ بها إليه، فعظمت مَنَّةً فيها

(١) كذا في (أ) وفي (ب): «الذي». (٢) في (ب): «عبادة».

من الوجهين. ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ في القرآن تحريمه من قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكَ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ...﴾ الآية. ولكن الذي من رحمته بعباده أن حرّمه عليهم وَمَنَعَهُمْ منه تزكية لهم وتطهيراً من الشرك به وقول الزور^(١)، ولهذا قال: ﴿فاجتنبوا الرجس﴾؛ أي: الخبث القذر ﴿من الأوثان﴾؛ أي: الأنداد التي جعلتموها آلهة مع الله؛ فإنّها أكبر أنواع الرجس.

والظاهر أن ﴿من﴾ هنا ليست لبيان الجنس كما قاله كثير من المفسرين، وإنّما هي للتبويض، وأنّ الرجس عام في جميع المنهيات المحرّمات، فيكون منهياً عنها عموماً، وعن الأوثان التي هي بعضها خصوصاً، ﴿واجتنبوا قول الزور﴾؛ أي: جميع الأقوال المحرّمات؛ فإنّها من قول الزور، [الذي هو الكذب ومن ذلك شهادة الزور، فلما نهاهم عن الشرك والرجس وقول الزور].

﴿٣١﴾ أمرهم أن يكونوا ﴿حُفَّاءَ لِلَّهِ﴾؛ أي: مقبلين عليه وعلى عبادته، معرضين عما سواه. ﴿غير مشركين به ومن يشرك بالله﴾: فمثله ﴿فكأنما خرّ من السماء﴾؛ أي: سقط منها، ﴿فتخطفه الطير﴾: بسرعة، ﴿أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾؛ أي: بعيد. كذلك المشركون^(٢)؛ فالإيمان بمنزلة السماء محفوظة مرفوعة، ومن ترك الإيمان بمنزلة الساقط من السماء عرضة للآفات والبليّات؛ فإما أن تخطفه الطير فتقطع أعضاءه، كذلك المشرك إذا ترك الاعتصام بالإيمان؛ تخطفته الشياطين من كلّ جانب، ومزقوه، وأذهبوا عليه دينه ودنياه.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعْكِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقَوَّى الْقُلُوبِ ۖ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ يَحْمِلُهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْغَنِيِّ ۖ﴾.

﴿٣٢﴾ أي: ذلك الذي ذكرنا لكم من تعظيم حرّماته وشعائره، والمراد بالشعائر أعلام الدين الظاهرة:

ومنها: المناسك كلّها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّافَاَ وَالْمَرُوءَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾.

ومنها: الهدايا والقربان للبيت، وتقدّم أنّ معنى تعظيمها إجلالها والقيام بها وتكميلها على أكمل ما يقدر عليه العبد.

(١) في (ب): «وتطهيراً من الشرك به وقوله الزور».

(٢) في (ب): «المشرك».

ومنها: الهدايا؛ فتعظيمها باستحسانها واستسمانها، وأن تكون مكملة من كل وجه. فتعظيم شعائر الله صادر من تقوى القلوب؛ فالمعظم لها يبرهن على تقواه وصحة إيمانه؛ لأن تعظيمها تابع لتعظيم الله وإجلاله.

﴿٣٣﴾ ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾؛ أي: في الهدايا، ﴿منافع إلى أجل مسمى﴾: هذا في الهدايا المسوقة من البذن ونحوها؛ ينتفع بها أربابها بالركوب والحلب ونحو ذلك مما لا يضرها إلى أجل مسمى مقدّر موقت، وهو ذبحها إذا وصلت محلها، وهو البيت العتيق؛ أي: الحرم كله، منى وغيرها؛ فإذا ذبحت؛ أكلوا منها وأهدوا وأطعموا البائس الفقير.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۚ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٤﴾ أي: ﴿ولكل أمة﴾: من الأمم السالفة ﴿جعلنا منسكاً﴾؛ أي: فاستبقوا إلى الخيرات وتسارعوا إليها، ولنظر أيكم أحسن عملاً. والحكمة في جعل الله لكل أمة منسكاً؛ لإقامة ذكره والالتفات لشكره، ولهذا قال: ﴿ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإنهم إله واحد﴾: وإن اختلفت أجناس الشرائع؛ فكلها متفقة على هذا الأصل، وهو ألوهية الله وإفراؤه بالعبودية وترك الشرك به، ولهذا قال: ﴿فله أسلموا﴾؛ أي: انقادوا واستسلموا له لا لغيره؛ فإن الإسلام له طريق إلى الوصول إلى دار السلام. ﴿وبشّر المخبتين﴾: بخير الدنيا والآخرة، والمخبت، الخاضع لربه، المستسلم لأمره، المتواضع لعباده.

﴿٣٥﴾ ثم ذكر صفات المخبتين، فقال: ﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾؛ أي: خوفاً وتعظيماً، فتركوا لذلك المحرمات لخوفهم ووجلهم من الله وحده. ﴿والصابرين على ما أصابهم﴾: من البأساء والضراء وأنواع الأذى؛ فلا يجري منهم لتسخط شيء من ذلك، بل صبروا ابتغاء وجه ربهم؛ محتسبين ثوابه، مرتقبين أجره. ﴿والمقيمي الصلاة﴾؛ أي: الذين جعلوها قائمة مستقيمة كاملة؛ بأن أدوا اللازم فيها والمستحب وعبوديتها الظاهرة والباطنة. ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾: وهذا يشمل جميع النفقات الواجبة؛ كالزكاة والكفارة والنفقة على الزوجات والماليك والأقارب، والنفقات المستحبة؛ كالصدقات بجميع وجوهها.

وأتى بـ ﴿من﴾ المفيدة للتبويض ليُعَلِّمَ سهولة ما أمر الله به ورغب فيه، وأنه جزء يسير مما رَزَقَ الله، ليس للعبد في تحصيله قدرة لولا تيسيرُ الله له ورزقه إيَّاه؛ فيا أيُّها المرزوق من فضل الله! أنفق مما رَزَقَكَ الله؛ ينفق الله عليك ويرزق من فضله.

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٣٦﴾ هذا دليل على أن الشعائر عامٌ في جميع أعلام الدين الظاهرة، وتقدم أن الله أخبر أن من عَظَّمَ شعائره؛ فإن ذلك من تقوى القلوب، وهنا أخبر أن من جملة شعائره البُدن؛ أي: الإبل والبقر على أحد القولين، فَتُعَظَّمُ وتستسمن وتُستحسن. ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾؛ أي: المهدى وغيره من الأكل والصدقة والانتفاع والثواب والأجر. ﴿فاذكروا اسم الله عليها﴾؛ أي: عند ذبحها، قولوا: بسم الله، واذبحوها ﴿صَوَافَّ﴾؛ أي: قائمات؛ بأن تُقام على قوائمها الأربع، ثم تُعَقَّل يدها اليسرى، ثم تُنَحَّر. ﴿فإذا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾؛ أي: سقطت في الأرض جنوبها حين تُسلخ ثم يسقط الجزار جنوبها على الأرض؛ فحينئذ قد استعدت لأن يُؤْكَلَ منها؛ ﴿فكلوا منها﴾: وهذا خطابٌ للمهدي، فيجوز له الأكل من هديه، ﴿وأطعموا القانع والمعتَرَّ﴾؛ أي: الفقير الذي لا يسأل تقنعاً وتعففاً، والفقير الذي يسأل؛ فكل منهما له حقٌّ فيهما. ﴿كذلك سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾؛ أي: البدن، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: الله على تسخيرها؛ فإنه لولا تسخيرُه لها؛ لم يكن لكم بها طاقة، ولكنه ذلَّلها لكم وسَخَّرها رحمةً بكم وإحساناً إليكم؛ فاحمدوه.

﴿٣٧﴾ وقوله: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾؛ أي: ليس المقصود منها ذبحها فقط، ولا ينال الله من لحومها ولا دماؤها شيء؛ لكونه الغني الحميد، وإنما يناله الإخلاص فيها والاحتساب والنية الصالحة، ولهذا قال: ﴿ولكن يناله التقوى منكم﴾: ففي هذا حثٌ وترغيبٌ على الإخلاص في النحر، وأن يكون القصد وجه الله وحده؛ لا فخراً ولا رياءً ولا سمعةً ولا مجرد عادة، وهكذا سائر العبادات إن لم يقرن بها الإخلاص وتقوى الله؛ كانت كالقشور الذي لا لب فيه والجسد الذي لا روح فيه. ﴿كذلك سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾؛ أي: تعظموه

وَتَجْلُوهُ، كما ﴿هَذَاكُمْ﴾؛ أي: مقابلةً لهديته إياكم؛ فإنه يستحق أكمل الثناء وأجل الحمد وأعلى التعظيم. ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾: بعبادة الله؛ بأن يعبدوا الله كأنهم يرونه؛ فإن لم يصلوا إلى هذه الدرجة؛ فليعبدوه معتقدين وقت عبادتهم اطلاعه عليهم ورؤيته إياهم، والمحسنين لعباد الله بجميع وجوه الإحسان؛ من نفع مال أو علم أو جاه أو نصيح أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو كلمة طيبة ونحو ذلك؛ فالمحسِنون لهم البشارة من الله بسعادة الدنيا والآخرة، وسيُحسِنُ الله إليهم كما أحسنوا في عبادته ولعباده؛ ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (٣٨).

﴿٣٨﴾ هذا إخبار ووعد وبشارة من الله للذين آمنوا أن الله يدفع عنهم كل مكروه، ويدفع عنهم كل شر بسبب إيمانهم: من شر الكفار وشر وسوسة الشيطان وشرور أنفسهم وسيئات أعمالهم، ويحمل عنهم عند نزول المكاره ما لا يتحملون، فيخفف عنهم غاية التخفيف، كل مؤمن له من هذه المدافعة والفضيلة بحسب إيمانه، فمستقل ومستكثر.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾؛ أي: خائن في أمانته التي حمّله الله إياها، فيبخس حقوق الله عليه ويخونها ويخون الخلق. ﴿كُفُورٍ﴾: لنعم الله، يوالي عليه الإحسان، ويتوالى منه الكفر والعصيان؛ فهذا لا يحبه الله، بل يُبغضه ويمقته وسيجازهه على كفره وخيانته. ومفهوم الآية أن الله يحب كل أمين قائم بأمانته شكور لمولاه.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِإِنْفِهِمْ ظُلْمًا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صُلُوحُ رَبِّعٍ وَصَلَوَاتُ وَمَسْجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾.

﴿٣٩﴾ كان المسلمون في أول الإسلام ممنوعين من قتال الكفار ومأمورين بالصبر عليهم لحكمة إلهية، فلما هاجروا إلى المدينة، وأوذوا وحصل لهم منعة

وَقُوَّةٌ؛ أَذْنُ لَهُمْ بِالْقِتَالِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى^(١): ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ﴾: يُفْهِمُ مِنْهُ أَنَّهُمْ كَانُوا قَبْلُ مَمْنُوعِينَ، فَأُذِنَ اللَّهُ لَهُمْ بِقِتَالِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لَهُمْ لِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا بِمَنْعِهِمْ مِنْ دِينِهِمْ وَأَذِنَتْهُمْ عَلَيْهِ وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ دِيَارِهِمْ. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾: فَلَيْسَتْ تُنْصَرُوهُ وَلَيْسَتْ تُعِينُوهُ بِهِ.

﴿٤٠﴾ ثم ذكر صفة ظلمهم، فقال: ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾؛ أي: أَلْجَأُوا إِلَى الْخُرُوجِ بِالْأَذْيَةِ وَالْفِتْنَةِ، ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا﴾: أَنْ ذَنْبَهُم الَّذِي نَقَمَ مِنْهُمْ أَعْدَاؤُهُمْ، ﴿أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾؛ أي: إِلَّا أَنَّهُمْ وَخَدُوا اللَّهَ وَعَبَدُوهُ مَخْلَصِينَ لَهُ الدِّينَ؛ فَإِنْ كَانَ هَذَا ذَنْبًا؛ فَهُوَ ذَنْبُهُمْ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَقْصُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾: وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى حِكْمَةِ الْجِهَادِ؛ فَإِنَّ^(٢) الْمَقْصُودَ مِنْهُ إِقَامَةُ دِينِ اللَّهِ، أَوْ^(٣) ذُبُّ الْكُفَّارِ الْمُؤْذِنِ لِلْمُؤْمِنِينَ الْبَادِئِينَ لَهُمْ بِالْإِعْتِدَاءِ عَنْ ظَلَمِهِمْ وَاعْتِدَائِهِمْ، وَالتَّمَكُّنُ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَإِقَامَةِ الشَّرَائِعِ الظَّاهِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾: فَيَدْفَعُ اللَّهُ بِالْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ ضَرَرَ الْكَافِرِينَ؛ ﴿لَهَدَمْتُ صَوَامِعَ وَبِيْعَ وَصُلُوكَ وَمَسَاجِدَ﴾؛ أي: لَهَدَمْتُ هَذِهِ الْمَعَابِدَ الْكِبَارَ لَطَوَائِفِ أَهْلِ الْكِتَابِ مَعَابِدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَسَاجِدَ لِلْمُسْلِمِينَ. ﴿يُذَكِّرُ فِيهَا﴾؛ أي: فِي هَذِهِ الْمَعَابِدِ ﴿اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾: تُقَامُ فِيهَا الصَّلَوَاتُ، وَتُتْلَى فِيهَا كُتُبُ اللَّهِ، وَيُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ بِأَنْوَاعِ الذِّكْرِ؛ فَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ؛ لَاسْتَوْلَى الْكُفَّارُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَخَرَّبُوا مَعَابِدَهُمْ وَفَتَنُوهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، فَدَلَّ هَذَا أَنَّ الْجِهَادَ مَشْرُوعٌ لِأَجْلِ دَفْعِ الصَّائِلِ وَالْمُؤْذِي، وَمَقْصُودٌ لغيره. وَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْبُلْدَانَ الَّتِي حَصَلَتْ فِيهَا الطَّمَأْنِينَةُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ، وَعُمُرَتْ مَسَاجِدُهَا، وَأَقِيمَتْ فِيهَا شَعَائِرُ الدِّينِ كُلُّهَا مِنْ فُضَائِلِ الْمُجَاهِدِينَ وَبِرَكَّتِهِمْ، دَفَعَ اللَّهُ عَنْهَا الْكَافِرِينَ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

فَإِنْ قُلْتَ: نَرَى الْآنَ مَسَاجِدَ الْمُسْلِمِينَ عَامِرَةً لَمْ تَخْرُبْ؛ مَعَ أَنَّهَا كَثِيرٌ مِنْهَا إِمَارَةُ صَغِيرَةٌ وَحُكُومَةٌ غَيْرُ مَنْظَّمَةٍ، مَعَ أَنَّهُمْ لَا يَدَانِ لَهُمْ بِقِتَالِ مَنْ جَاوَزَهُمْ مِنَ الْإِفْرَنْجِ، بَلْ نَرَى الْمَسَاجِدَ الَّتِي تَحْتَ وِلَايَتِهِمْ وَسَيَطَرَتِهِمْ عَامِرَةً، وَأَهْلُهَا آمِنُونَ مَطْمَئِنُونَ؛ مَعَ قُدْرَةِ وَلَايَتِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ عَلَى هَدْمِهَا، وَاللَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمْتُ هَذِهِ الْمَعَابِدَ، وَنَحْنُ لَا نَشَاهِدُ دَفْعًا؟

(٢) فِي (ب): «وَأَنْ».

(١) فِي (ب): «قَالَ تَعَالَى».

(٣) فِي (ب): «وَذَبْ».

أجيب بأن جواب هذا السؤال والاستشكال داخل في عموم هذه الآية وفرد من أفرادها؛ فإنَّ مَنْ عَرَفَ أحوال الدول الآن ونظامها، وأنها تعتبر كلَّ أمة وجنس تحت ولايتها وداخل في حكمها؛ تعتبره عضواً من أعضاء المملكة وجزءاً من أجزاء الحكومة، سواء كانت تلك الأمة مقتدرة بعددها أو عددها أو مالها أو علمها أو خدمتها، فتراعي الحكومات مصالح ذلك الشعب الدينيَّة والدينيَّة، وتخشى إن لم تفعل ذلك أن يختل نظامها وتفقد بعض أركانها، فيقوم من أمر الدين بهذا السبب ما يقوم، خصوصاً المساجد؛ فإنَّها ولله الحمد في غاية الانتظام، حتى في عواصم الدول الكبار، وتراعي تلك الدول الحكومات المستقلة؛ نظراً لخواطر رعاياهم المسلمين، مع وجود التحاسد والتباغض بين دول النصارى، الذي أخبر الله أنه لا يزال إلى يوم القيامة، فتبقى الحكومة المسلمة التي لا تقدر تدافع عن نفسها سالمة من كثير ضررهم^(١)؛ لقيام الحسد عندهم؛ فلا يقدر أحدهم أن يمدَّ يده عليها، خوفاً من احتمائها بالآخر، مع أن الله تعالى لا بد أن يري عباده من نصر الإسلام والمسلمين ما قد وعدَّ به في كتابه، وقد ظهرت ولله الحمد أسبابه بشعور المسلمين بضرورة رجوعهم إلى دينهم، والشعور مبدأ العمل؛ فنحمدُه ونسأله أن يُتِمَّ نعمته، ولهذا قال في وعده الصادق المطابق للواقع: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾؛ أي: يقوم بنصر دينه، مخلصاً له في ذلك، يقاتل في سبيله لتكون كلمة الله هي العليا.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾؛ أي: كامل القوة، عزيز، لا يُرام، قد قهر الخلائق وأخذ بنواصيصهم. فأبشروا يا معشر المسلمين؛ فإنكم وإن ضَعُفَ عددكم وعددكم وقوي عدد عدوكم^(٢)؛ فإن ركنكم القوي العزيز ومعتمدكم على مَنْ خَلَقَكُمْ وَخَلَقَ ما تعملون؛ فاعملوا بالأسباب المأمور بها، ثم اطلبوا منه نصركم؛ فلا بد أن ينصركم، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، وقوموا أيها المسلمون بحق الإيمان والعمل الصالح؛ فقد ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾.

(١) في (ب): «من ضررهم».

(٢) في (ب): «وقوي عدد عدوكم وعدتكم». ولعل الصواب: «وقوي عدد عدوكم وعددكم».

﴿٤١﴾ ثم ذكر علامة مَنْ ينصره، وبها يُعرف أَنَّ مَنْ ادَّعى أَنه يَنْصُرُ اللَّهَ وَيَنْصُرُ دينه ولم يَتَّصِفْ بهذا الوصف؛ فهو كاذب، فقال: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ؛ أَي: مَلَكْنَاهُمْ إِيَّاهَا، وجعلناهم المتسلطين عليها من غير منازع يَنَازِعُهُمْ ولا معارِضَ؛ ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾: في أوقاتها وحدودها وأركانها وشروطها في الجمعة والجماعات. ﴿وَاتُوا الزَّكَاةَ﴾: التي عليهم خصوصاً، وعلى رعيَّتْهم عموماً، آتَوْهَا أَهْلُهَا الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا. ﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ﴾: وهذا يَشْمَلُ كُلَّ مَعْرُوفٍ حُسْنُهُ شرعاً وعقلاً من حقوق اللَّه وحقوق الآدميين. ﴿وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: كُلَّ مَنْكَرٍ شرعاً وعقلاً، معروف قبْهه، والأمر بالشيء والنهي عنه يَدْخُلُ فِيهِ مَا لَا يَتِمُّ إِلَّا بِهِ؛ فإذا كان المعروف والمنكر يتوقَّف على تعلُّم وتعليم أجبروا الناس على التعلُّم والتعليم، وإذا كان يتوقَّف على تأديب مقدَّر شرعاً أو غير مقدَّر؛ كأنواع التعزير؛ قاموا بذلك، وإذا كان يتوقَّف على جعل أناس متصدِّين له؛ لزم ذلك، ونحو ذلك مما لَا يَتِمُّ الأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ إِلَّا بِهِ.

﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾؛ أَي: جميع الأمور ترجعُ إلى اللَّه، وقد أخبر أَنَّ العاقبة للتقوى؛ فمن سَلَطَهُ اللَّه على العباد من الملوك وقام بأمر اللَّه؛ كانت له العاقبة الحميدة والحالة الرشيدة، ومن تَسَلَّطَ عليهم بالجَبَرُوت، وأقام فيهم هوى نفسه؛ فَإِنَّهُ وَإِنْ حَصَلَ لَهُ مَلِكٌ مُوقَّتٌ؛ فَإِنَّ عَاقِبَتَهُ غَيْرُ حَمِيدَةٍ؛ فَوَلَايَتُهُ مَشْؤُومَةٌ، وعاقبته مذمومة.

﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْنَؤُا مِعْطَلَةً وَقَصِرَ مَشِيدِ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْأَلْوَاحَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٢ - ٤٤﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: وَإِنْ يَكْذِبُوكَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ؛ فَلَسْتُ بِأَوَّلَ رَسُولٍ كَذَّبَ، وليسوا بأول أمة كَذَّبَتْ رسولها؛ ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ. وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ (وقوم لوط). وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾؛ أَي: قوم شعيب. ﴿وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾: المكذِّبين، فلم أعاجِلْهم بالعقوبة، بل أمهلْتهم حتى استمرُّوا في طغيانهم يعمهون وفي كفرهم وشرهم يزدادون، ﴿ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ﴾:

بالعذاب أَخَذَ عزيز مقتدر. ﴿فكيف كان نكير﴾؛ أي: إنكارهم عليهم كفرهم وتكذيبهم كيف حاله؟! كان أشدَّ العقوبات وأفظع المثلات؛ فمنهم من أغرقه، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من أهلِكَ بالريح العقيم، ومنهم من خُسِفَ به الأرض، ومنهم من أُرْسِلَ عليه عذاب يوم الظُّلَّة؛ فليعتبر بهم هؤلاء المكذبون أن يصيبهم ما أصابهم؛ فإنهم ليسوا خيراً منهم، ولا كُتِبَ لهم براءة في الكتب المنزلة من الله. وكم من المعذبين المهلكين أمثال هؤلاء كثير!

﴿٤٥﴾ ولهذا قال: ﴿فكأين من قرية﴾؛ أي: وكم من قرية، ﴿أهلكناها﴾: بالعذاب الشديد والخزي الدنيوي، ﴿وهي ظالمة﴾: بكفرها بالله وتكذيبها لرسوله، لم يكن عقوبتنا لها ظلماً منا. ﴿فهي خاوية على عروشها﴾؛ أي فديارهم مهتمة قصورها وجدرانها، قد سقطت على عروشها^(١)، فأصبحت خراباً بعد أن كانت عامرة، وموحشة بعد أن كانت آهلة بأهلها آنسة. ﴿وبشر معطلة وقصر مشيد﴾؛ أي: وكم من بئر قد كان يزدحم عليه الخلق لشربهم وشرب مواشيهم، فقُتِدَ أهله وعُدِمَ منه الوارد والصادر! وكم من قصر تعب عليه أهله فشيّدوه ورفعوه وحصّنه وزخرفوه؛ فحين جاءهم أمر الله؛ لم يُغن عنهم شيئاً، وأصبح خالياً من أهله، قد صاروا عبرة لمن اعتبر ومثلاً لمن فكّر ونظر.

﴿٤٦﴾ ولهذا دعا الله عباده إلى السير في الأرض لينظروا ويعتبروا، فقال: ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾: بأبدانهم وقلوبهم؛ ﴿فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾: آيات الله ويتأملون بها مواقع عبره، ﴿أو آذان يسمعون بها﴾: أخبار الأمم الماضين وأنباء القرون المعدّين، وإلا فمجرد نظر العين وسماع الأذن وسير البدن الخالي من التفكير والاعتبار غير مفيد ولا موصل إلى المطلوب، ولهذا قال: ﴿فإنها لا تغمى الأبصار ولكن تغمى القلوب التي في الصدور﴾؛ أي: هذا العمى الضار في الدين عمى القلب عن الحق حتى لا يشاهده كما لا يشاهد الأعمى المرثيات، وأما عمى البصر؛ فغايبته بلغة ومنفعة دنيوية.

﴿وَسْتَغْلِبُكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٤٧) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمَلَتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَاهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴿٤٨﴾.

﴿٤٧﴾ أي: يتعجّلُ هؤلاء المكذبون بالعذاب لجهلهم وظلمهم وعنادهم

(١) في (ب): «سقطت عروشها».

وتعجزاً لله وتكذيباً لرسله، ولن يُخْلِفَ الله وعده؛ فما وَعَدَهُمْ به من العذاب لا بدّ من وقوعه، ولا يمنّهم منه مانع، وأمّا عَجَلَتُهُ والمبادرة فيه؛ فليس ذلك إليك يا محمد، ولا يستفزّك عجلتهم وتعجزهم إيانا؛ فإنّ أمامهم يوم القيامة الذي يُجمع فيه أولهم وآخرهم، ويجازون بأعمالهم، ويقع بهم العذاب الدائم الأليم، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾: من طوله وشدّته وهولِهِ؛ فسواء أصابهم عذاب في الدنيا أم تأخّر عنهم العذاب؛ فإنّ هذا اليوم لا بدّ أن يدركهم.

ويُحتمل أنّ المراد أنّ الله حليم، ولو استعجلوا العذاب؛ فإنّ يوماً عنده كألف سنة مما تعدّون؛ فالمدّة وإنّ تطاولتْموها، واستبطأتم فيها نزول العذاب؛ فإنّ الله يمهّل المدد الطويلة، ولا يُهمل، حتى إذا أخذ الظالمين بعذابه؛ لم يُفْلِتْهم.

﴿٤٨﴾ ﴿وَكَايُنْ مِنْ قَرِيبٍ أَمَلِيتُ لَهَا﴾؛ أي: أمهلتها مدة طويلة، ﴿وهي ظالمة﴾؛ أي: مع ظلمهم، فلم يكن مبادرتهم بالظلم موجّباً لمبادرتنا بالعقوبة، ﴿ثم أخذتها بالعذاب وإلّٰي المصير﴾؛ أي: مع عذابها في الدنيا سترجع إلى الله فيعذبها بذنوبها؛ فليحذر هؤلاء الظالمون من حلول عقاب الله، ولا يغتروا بالإمهال.

﴿قُلْ يَتَايَأُ النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾.

﴿٤٩﴾ يأمر تعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ أن يخاطب الناس جميعاً بأنّه رسول الله حقّاً؛ مبشراً للمؤمنين بثواب الله، منذراً للكافرين والظالمين من عقابه. وقوله: ﴿مبين﴾ أي: بيّن الإنذار، وهو التخويف مع الإعلام بالمخوف، وذلك لأنّه أقام البراهين الساطعة على صدق ما أنذرهم به.

﴿٥٠﴾ ثم ذكر تفصيل النذارة والبشارة، فقال: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا﴾: بقلوبهم إيماناً صحيحاً صادقاً، ﴿وعملوا الصالحات﴾: بجوارحهم ﴿في جنّات النعيم﴾؛ أي: الجنّات التي يُنْعَمُ بها بأنواع النعيم من المأكّل والمشارب والمناكح والصّور والأصوات والتنعّم برؤية الربّ الكريم وسماع كلامه.

﴿٥١﴾ ﴿والذين كفروا﴾؛ أي: جحدوا نعمة ربّهم، وكذبوا رُسُلَهُ وآياته^(١).

(١) كذا في النسختين؛ فقد سها المؤلف رحمه الله وأدخل الآيتين (٥٦ و٥٧) من هذه السورة مع الآية (٥١).

فأولئك ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾؛ أي: الملازمون لها، المصاحبون لها في كل أوقاتهم؛ فلا يخفف عنهم من عذابها، ولا يفتر عنهم لحظة من عقابها.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿٥٢﴾ يخبر تعالى بحكمته البالغة واختياره لعباده وأن الله ما أرسل قبل محمد ﴿من رسول ولا نبيٍّ إلا إذا تمَنَّى﴾؛ أي: قرأ قراءته التي يذكر بها الناس ويأمرهم وينهاهم، ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾؛ أي: في قراءته من طرده ومكايده ما هو مناقض لتلك القراءة مع أن الله تعالى قد عصم الرسل بما يبلغون عن الله وحفظ وحيه أن يشتبه أو يختلط بغيره، ولكن هذا إلقاء من الشيطان غير مستقر ولا مستمر، وإنما هو عارض يعرض ثم يزول، وللعوارض أحكام، ولهذا قال: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾؛ أي: يزيله، ويذهب، ويبطله، ويبين أنه ليس من آياته. و﴿يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾؛ أي: يتقنها، ويحررها، ويحفظها، فتبقى خالصة من مخالطة إلقاء الشيطان. ﴿والله [عزيز]﴾^(١)؛ أي: كامل القوة والافتداز؛ فبكمال قوته يحفظ وحيه، ويزيل ما تلقيه الشياطين. ﴿حَكِيمٌ﴾: يضع الأشياء مواضعها.

﴿٥٣﴾ فمن كمال حكمته مكن الشياطين من الإلقاء المذكور؛ ليحصل ما ذكره بقوله ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً﴾: لطائفتين من الناس لا يبالي الله بهم: [وهم الذين] ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾؛ أي: ضَعْفٌ وعدم إيمان تام وتصديق جازم، فيؤثر في قلوبهم أدنى شبهة تطرأ عليها؛ فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان؛ داخلهم الربُّ والشك، فصار فتنه لهم.

﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: الغليظة التي لا يؤثر فيها زجر ولا تذكير، ولا تفهم عن الله وعن رسوله لقسوتها؛ فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان؛ جعلوه حجة لهم على باطلهم، وجادلوا به، وشاقوا الله ورسوله، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ

(١) كذا في النسختين؛ وعليه فسرها المؤلف والآية: ﴿عَلِيمٌ﴾.

بعيد؛ أي: مشاققة لله ومعاندة للحق ومخالفة له بعيد من الصواب. فما يلقيه الشيطان يكون فتنة لهؤلاء الطائفتين، فيظهر به ما في قلوبهم من الخبث الكامن فيها.

﴿٥٤﴾ وَأَمَّا الطَّائِفَةُ الثَّالِثَةُ؛ فَإِنَّهُ يَكُونُ رَحْمَةً فِي حَقِّهَا، وَهُمْ الْمَذْكُورُونَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّ الْحَقَّ مِنْ رَبِّكَ﴾: وَأَنَّ اللَّهَ مَنَّحَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ مَا بِهِ يَعْرِفُونَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ وَالرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ، فَيَفْرُقُونَ^(١) بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ الْحَقِّ الْمُسْتَقَرِّ الَّذِي يُحْكِمُهُ اللَّهُ، وَالْبَاطِلَ الْعَارِضَ الَّذِي يَنْسَخُهُ اللَّهُ، بِمَا عَلَى كُلِّ مَنِهْمَا مِنَ الشَّوَاهِدِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ حَكِيمٌ يَقِضُ بَعْضَ أَنْوَاعِ الْإِبْتِلَاءِ وَلِيُظْهِرَ بِذَلِكَ كِمَاتِنَ الْنُفُوسِ الْخَيْرَةِ وَالشَّرِيرَةِ؛ ﴿فِيُؤْمِنُوا بِهِ﴾: بِسَبَبِ ذَلِكَ، وَيَزْدَادُ إِيمَانُهُمْ عِنْدَ دَفْعِ الْمَعَارِضِ وَالشُّبْهِ؛ ﴿فَتُخْبِتُ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أَي: تَخْشَعُ وَتَخْضَعُ وَتَسْلِمُ لِحُكْمَتِهِ، وَهَذَا مِنْ هِدَايَتِهِ إِيَّاهُمْ. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾: بِسَبَبِ إِيمَانِهِمْ ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: عِلْمَ بِالْحَقِّ وَعَمَلَ بِمُقْتَضَاهُ؛ فَيُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَهَذَا النَّوعُ مِنْ تَثْبِيتِ اللَّهِ لِعَبْدِهِ.

وهذه الآيات فيها بيان أن الرسول ﷺ أسوة بإخوانه المرسلين؛ لما وَقَعَ مِنْهُ عِنْدَ قِرَائَتِهِ ﷺ ﴿وَالنَّجْمِ﴾، فَلَمَّا بَلَغَ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾؛ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي قِرَاءَتِهِ: تِلْكَ الْغَرَائِقُ الْعُلَى. وَإِنَّ شَفَاعَتَهُنَّ^(٢) لَتُرْتَجَى؛ فَحَصَلَ بِذَلِكَ لِلرَّسُولِ حَزَنٌ وَلِلنَّاسِ فِتْنَةٌ؛ كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ، فَانْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَاتِ^(٣).

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيرَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ٥٥﴾ أَلَمْ تَرَ يَوْمَ إِذْ لَلَّهِ بِحُكْمٍ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ٥٦ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ٥٧﴾.

﴿٥٥﴾ يخبر تعالى عن حالة الكفار، وأنهم لا يزالون في شك مما جئتهم به يا محمد؛ لعنادهم وإعراضهم، وأنهم^(٤) لا يبرحون مستمرين على هذه الحال، ﴿حَتَّىٰ

(١) في (ب): «يميزون». (٢) في (أ) و(ب): «شفاعتهم».

(٣) قصة الغرائق اختلف العلماء في ثبوتها عن النبي ﷺ، انظر تفسير ابن كثير (٤٤١/٥) وفتح الباري (٤٣٩/٨) والدرر المنثور (٦٦١/٤) وأضواء البيان (٧٣٠/٤) وللشيخ الألباني رسالة مفردة بعنوان نصب المجانيق لنسف قصة الغرائق.

(٤) في (ب): «وأنه».

تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً؛ أَي: مفاجأة، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ﴾؛ أَي: لا خير فيه، وهو يوم القيامة؛ فإذا جاءتهم الساعة أو أتاهم ذلك اليوم؛ علم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، وندموا حيث لا ينفعهم الندم، وأبلسوا، وأيسوا من كل خير، وودّوا لو آمنوا بالرسول واتّخذوا معه سبيلاً. ففي هذا تحذيرهم من إقامتهم على مِرْيَتِهِمْ وفِرْيَتِهِمْ.

﴿٥٦ - ٥٧﴾ ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ﴾؛ أَي: يوم القيامة ﴿لِلَّهِ﴾: تعالى لا غيره، ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾: بحكمه العدل وقضائه الفصل. ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا﴾: بالله ورسوله وما جاؤوا به، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: ليصدقوا بذلك إيمانهم ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾: نعيم القلب والروح والبدن مما لا يصفه الواصفون ولا تدركه العقول. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: بالله ورسوله، ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: الهادية للحق والصواب، فأعرضوا عنها أو عاندوها ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾: لهم من شدّته وألمه وبلوغه للأفئدة؛ كما استهانوا برسوله وآياته؛ أهانهم الله بالعذاب.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُلُوبُهُمْ مُتَّخِلَةٌ فَلَا يَرْزُقُوهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لِيَدْخُلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾.

﴿٥٨﴾ هذه بشارّة كبرى لمن هاجر في سبيل الله، فخرج من داره ووطنه وأولاده وماله ابتغاء وجه الله ونصرة لدين الله؛ فهذا قد وجب أجره على الله؛ سواء مات على فراشه أو قُتِلَ مجاهداً في سبيل الله. ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾: في البرزخ وفي يوم القيامة^(١)؛ بدخول الجنة الجامعة للروح والريحان والحسن والإحسان ونعيم القلب والبدن، ويَحْتَمَلُ أَنَّ المراد^(٢) أَنَّ المهاجر في سبيل الله قد تكفّل برزقه في الدنيا رزقاً واسعاً حسناً، سواء علم الله منه أنه يموت على فراشه أو يُقْتَلُ شهيداً؛ فكلّهم مضمون له الرزق؛ فلا يتوهم أنه إذا خرج من دياره وأمواله سيفتقر ويحتاج؛ فَإِنَّ رَازِقَهُ هو خير الرازقين. وقد وقع كما أخبر؛ فَإِنَّ المهاجرين السابقين تركوا ديارهم وأبناءهم وأموالهم نُصْرَةَ لدين الله، فلم يَلْبَثُوا إِلَّا يسيراً حتى فتح الله عليهم البلاد، ومكّنهم من العباد، فاجتَبَوْا من أموالها ما كانوا به من أغنى الناس.

(١) في (ب): «وفي القيامة».

(٢) في (ب): «المعنى».

﴿٥٩﴾ ويكون على هذا القول قوله: ﴿لِيَدْخِلْنَهُمْ مُدْخَلَ رِضْوَنِهِ﴾: إمّا ما يفتح الله عليهم من البلدان، خصوصاً فتح مكة المشرفة؛ فإنّهم دخلوها في حالة الرضا والسرور، وإمّا المراد به رزق الآخرة، وأنّ ذلك دخول الجنة، فتكون الآية جمعت بين الرزقين؛ رزق الدنيا ورزق الآخرة. واللفظ صالح لذلك كله، والمعنى صحيح؛ فلا مانع من إرادة الجميع. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾: بالأمور؛ ظاهرها وباطنها، متقدّمها ومتأخّرها. ﴿حَلِيمٌ﴾: يعصيه الخلاق ويبارزونه بالعظام، وهو لا يعاجلهم بالعقوبة، مع كمال اقتداره، بل يواصل لهم رزقه، ويسدي إليهم فضله.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌ غَفُورٌ﴾ (٦٠).

﴿٦٠﴾ ذلك بأنّ من جُنِيَ عليه وظلّم؛ فإنّه يجوز له مقابلة الجاني بمثل جنايته؛ فإنّ فعل ذلك؛ فليس عليه سبيل، وليس بمَلُوم؛ فإنّ بُغِيَ عليه بعد هذا؛ فإنّ الله ينصره؛ لأنّه مظلوم؛ فلا يجوز أن يُبَغَى عليه بسبب أنّه استوفى حقّه، وإذا كان المجازي غيره بإساءته إذا ظلم بعد ذلك؛ نصره الله؛ فالذي بالأصل لم يعاقب أحداً إذا ظلم وجُنِيَ عليه؛ فالنصر إليه أقرب. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌ غَفُورٌ﴾؛ أي: يعفو عن المذنبين؛ فلا يعاجلهم بالعقوبة، ويغفر ذنوبهم، فيزيلها ويزيل آثارها عنهم؛ فالله هذا وصفه المستقرّ اللازم الذاتي، ومعاملته لعباده في جميع الأوقات بالعفو والمغفرة، فينبغي لكم أيها المظلومون المجنّي عليهم أن تعفوا وتصفحوا وتغفروا؛ لِيُعَامِلَكُمُ اللَّهُ كما تعاملون عباده؛ فمن عفا وأصلح؛ فأجره على الله.

﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٦١) ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَدٌ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَبَدٌ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٦٢).

﴿٦١﴾ ذلك الذي شرّع لكم تلك الأحكام الحسنة العادلة هو حسن التصرف في تقديره وتديبره، الذي ﴿يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾؛ أي: يدخل هذا على هذا وهذا على هذا، يأتي بالليل بعد النهار، وبالنهار بعد الليل، ويزيد في أحدهما ما ينقصه من^(١) الآخر، ثم بالعكس، فيترتب على ذلك قيام الفصول ومصالح الليل والنهار

والشمس والقمر، التي هي من أجل نعمه على العباد، وهي من الضروريات لهم. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾: يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات. ﴿بَصِيرٌ﴾: يرى دبيب النملة السوداء تحت الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، سواء منكم من أسر القول ومن جهر به، ومن هو مُستخف بالليل وسارب بالنهار.

﴿٦٢﴾ ﴿ذَلِكَ﴾: صاحب الحكم والأحكام، ﴿بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾؛ أي: الثابت الذي لا يزال ولا يزول، فالأول الذي ليس قبله شيء، الآخر الذي ليس بعده شيء، كامل الأسماء والصفات، صادق الوعد، الذي وعده حق ولقاؤه حق ودينه حق وعبادته هي الحق النافعة الباقية على الدوام. ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾: من الأصنام والأنناد من الحيوانات والجمادات، ﴿هُوَ الْبَاطِلُ﴾: الذي هو باطل في نفسه، وعبادته باطلة؛ لأنها متعلقة بمضمحل فإن، فتبطل تبعاً لغايتها ومقصودها. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾: العلي في ذاته؛ فهو عالٍ على جميع المخلوقات، وفي قدره؛ فهو كامل الصفات، وفي قهره لجميع المخلوقات، الكبير في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته، الذي من عظمته وكبريائه أَنَّ الأرض قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه، ومن كبريائه أَنَّ كرسیه وَسِعَ السموات والأرض، ومن عظمته وكبريائه أَنَّ نواصي العباد بيده؛ فلا يتصرفون إلا بمشيئته، ولا يتحركون إلا بإرادته، وحقيقة الكبرياء التي لا يعلمها إلا هو؛ لا مَلَكٌ مقرب ولا نبي مرسل: أَنَّها كُلُّ صفة كمال وجلال وكبرياء وعظمة؛ فهي ثابتة له، وله من تلك الصفة أجلها وأكملها، ومن كبريائه أَنَّ العبادات كُلَّها، الصادرة من أهل السموات والأرض كُلَّها، المقصود منها تكبيره وتعظيمه وإجلاله وإكرامه، ولهذا كان التكبير شعاراً للعبادات الكبار كالصلاة وغيرها.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ ﴿٦٣﴾ لَمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَفِيُّ الْحَكِيمُ ﴿٦٤﴾.

﴿٦٣﴾ هذا حث منه تعالى وترغيب في النظر بآياته الدالة على وحدانيته وكماله، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ أي: ألم تشاهد ببصرك وبصيرتك، ﴿أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾: وهو المطر، فينزل على أرض خاشعة مجدبة، قد اغبرت أرجاؤها وييس ما فيها من شجر ونبات، فتصبح مخضرة؛ قد اكتست من كل زوج كريم، وصار لها بذلك منظر بهيج، أَنَّ الذي أحياها بعد موتها وهمودها لمحيي الموتى بعد أن كانوا رميماً. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾: اللطيف: الذي يدرك بواطن الأشياء وخفياتها

وسرائرها، الذي يسوق إلى عباده^(١) الخير، ويدفع عنه الشر بطرق لطيفة تخفي على العباد. ومن لطفه أنه يري عبده عزته في انتقامه، وكمال اقتداره، ثم يظهر لطفه بعد أن أشرف العبد على الهلاك. ومن لطفه أنه يعلم مواقع القطر من الأرض وبذور الأرض في بواطنها، فيسوق ذلك الماء إلى ذلك البذر الذي خفي على علم الخلائق، فينبث منه أنواع النبات. ﴿خبير﴾: بسائر الأمور وخبايا الصدور وخفايا الأمور.

﴿٦٤﴾ ﴿له ما في السموات﴾ والأرض خلقاً وعبداً، يتصرف فيهم بملكه وحكمته وكمال اقتداره، ليس لأحد غيره من الأمر شيء. ﴿وإن الله لهو الغني﴾: بذاته، الذي له الغنى المطلق التام من جميع الوجوه. ومن غناه أنه لا يحتاج إلى أحد من خلقه ولا يواليهم من ذلة ولا يتكثر بهم من قلة. ومن غناه أنه ما اتخذ صاحبة ولا ولدًا. ومن غناه أنه صمد لا يأكل ولا يشرب ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه الخلق بوجه من الوجوه؛ فهو يطعم ولا يطعم. ومن غناه أن الخلق كلهم مفتقرون إليه؛ في إيجادهم وإعدادهم وإمدادهم، وفي دينهم ودنياهم. ومن غناه أنه لو اجتمع من في السماوات ومن في الأرض، الأحياء منهم والأموات، في صعيد واحد، فسأل كل منهم ما بلغت أميته، فأعطاهم فوق أمانيتهم؛ ما نقص ذلك من ملكه شيء. ومن غناه أن يده سحاء بالخير والبركات الليل والنهار، لم يزل إفضاله على الأنفاس. ومن غناه وكرمه ما أودعه في دار كرامته مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ﴿الحميد﴾؛ أي: المحمود في ذاته، وفي أسمائه؛ لكونها حسنى، وفي صفاته؛ لكونها كلها صفات كمال، وفي أفعاله؛ لكونها دائرة بين العدل والإحسان والرحمة والحكمة، وفي شرعه؛ لكونه لا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة، الذي له الحمد الذي يملأ ما في السماوات والأرض وما بينهما وما شاء بعدها، الذي لا يخصي العباد ثناء على حمده، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يُثني عليه عباده، وهو المحمود على توفيق من يوفقه وخذلان من يخذله، وهو الغني في حمده، الحميد في غناه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَائِك تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ

تَقَعَّ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا يَذْنِبُهُ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَخْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ .

﴿٦٥﴾ أي: ألم تشاهد ببصرك وقلبك نعمة ربك السابغة وأياديه الواسعة، و﴿إِنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾: من حيوانات ونبات وجمادات؛ فجميع ما في الأرض مسخر لبني آدم؛ حيواناتها لركوبه وحمله وأعماله وأكله وأنواع انتفاعه، وأشجارها وثمارها يقاتها، وقد سلط على غرسها واستغلالها، ومعادنها يستخرجها وينتفع بها. ﴿وَالْفَلَكَ﴾؛ أي: وسخر لكم الفلك، وهي السفن، ﴿تجري في البحر بأمره﴾: تحملكم وتحمل تجارتكم وتوصلكم من محل إلى محل وتستخرجون من البحر حلية تلبسونها. ومن رحمته بكم أنه ﴿يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾؛ فلولا رحمته وقدرته؛ لسقطت السماء على الأرض، فتلف ما عليها، وهلك من فيها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾: أرحم بهم من والديهم ومن أنفسهم، ولهذا يريد لهم الخير، ويريدون لها الشر والضرر. ومن رحمته أن سخر لهم ما سخر من هذه الأشياء.

﴿٦٦﴾ ﴿وهو الذي أحياكم﴾: وأوجدكم^(١) من العدم، ﴿ثم يميتكم﴾: بعد أن أحياكم، ﴿ثم يحييكم﴾: بعد موتكم؛ ليجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. ﴿وَالْإِنْسَانَ﴾؛ أي: جنسه إلا من عصمه الله؛ ﴿لكفور﴾: لنعم الله، كفور بالله، لا يعترف بإحسانه، بل ربما كفر بالبعث وقدره ربّه.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأُمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَّ هُدًى مُسْتَقِيمٌ﴾ ﴿٦٧﴾ وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَخْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ .

﴿٦٧﴾ يخبر تعالى أنه جعل لكل أمة ﴿منسكاً﴾؛ أي: معبداً وعبادة، قد تختلف في بعض الأمور، مع اتفاقها على العدل والحكمة؛ كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ

(١) في (ب): «أوجدكم».

جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ... ﴿الآية﴾، ﴿هَمَّ نَاسِكُوهُ﴾؛ أي: عاملون عليه بحسب أحوالهم؛ فلا اعتراض على شريعة من الشرائع، خصوصاً من الأميين أهل الشرك والجهل المبين؛ فإنه إذا ثبتت رسالة الرسول بأدلتها؛ وجب أن يُتَلَقَّى جميع ما جاء به بالقبول والتسليم وترك الاعتراض، ولهذا قال: ﴿فَلَا يَنَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ﴾؛ أي: لا يَنَازِعُكَ المكذَّبون لك، ويعترضون على بعض ما جئتهم به بعقولهم الفاسدة؛ مثل منازعتهم في حل الميتة بقياسهم الفاسد؛ يقولون: تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قَتَلَ اللَّهُ؟! وكقولهم: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾... ونحو ذلك من اعتراضاتهم التي لا يلزم الجواب عن أعيانها، وهم منكرون لأصل الرسالة، وليس فيها مجادلة ومحااجة بانفرادها، بل لكلِّ مقام مقال؛ فصاحب هذا الاعتراض المنكِرُ لرسالة الرسول إذا زَعَمَ أَنَّهُ يَجَادِلُ لِيَسْتَرِشِدَ؛ يُقال له: الكلامُ معك في إثبات الرسالة وعدمها، وإلَّا؛ فالإقتصارُ على هذه دليلٌ أَنَّ مقصوده التعنت والتعجيز، ولهذا أمر الله رسوله أن يدعُو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ويمضي على ذلك؛ سواءً اعترضَ المعارضون أم لا، وأنه لا ينبغي أن يثنيكَ عن الدَّعوة شيء؛ لأنَّك على ﴿هَدًى مُسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: معتدلٍ، موصل للمقصود، متضمن علم الحق والعمل به؛ فأنت على ثقةٍ من أمرِكَ ويقينٍ من دينك، فيوجبُ ذلك لك الصلابة والمضي لما أمرك به ربُّكَ، ولست على أمرٍ مشكوكٍ فيه أو حديثٍ مفترى، فتقف مع الناس ومع أهوائهم وآرائهم ويوقِفُكَ اعتراضهم، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾.

مع أنَّ في قوله: ﴿إِنَّكَ لَعَلَى هَدًى مُسْتَقِيمٍ﴾: إرشاداً لأجوبة المعارضين على جزئيات الشرع بالعقل الصحيح؛ فإنَّ الهدى وصفٌ لكلِّ ما جاء به الرسول، والهدى ما تحصَّلَ به الهداية في مسائل الأصول والفروع، وهي المسائل التي يُعرَفُ حسنُها وعدلُها وحكمتُها بالعقل والفطرة السليمة، ولهذا يُعرَفُ بتدبُّر تفاصيل المأمورات والمنهيات.

﴿٦٨ - ٦٩﴾ ولهذا أمره الله بالعدول عن جدالهم في هذه الحالة، فقال: ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: هو عالمٌ بمقاصدكم ونيَّاتكم؛ فمجازيكم عليها في يوم القيامة الذي يحكم الله بينكم ﴿فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾: فمن وافق الصراط المستقيم؛ فهو من أهل النعيم، ومن زاغ عنه؛ فهو من أهل الجحيم.

﴿٧٠﴾ ومن تمام حكمه أن يكون حكماً بعلم؛ فلذلك ذَكَرَ إحاطة علمه وإحاطة كتابه، فقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾: لا يخفى عليه منها خافية من ظواهر الأمور وبواطنها؛ خفيها وجلّيتها، متقدّمها ومتأخّرها؛ [إن] ذلك العلم المحيط بما في السماء والأرض، قد أثبتّه الله في كتاب، وهو: اللوح المحفوظ، حين خَلَقَ الله القلم؛ «قال له: اكتب! قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة»^(١). ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾: وإن كان تصوّره عندكم لا يُحاط به؛ فالله تعالى يسير عليه أن يحيط علماً بجميع الأشياء، وأن يكتب ذلك في كتاب مطابق للواقع.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (٧١) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَُمُ النَّارِ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّرَ الْمَصِيرَ (٧٢)﴾.

﴿٧١﴾ يذكر تعالى حالة المشركين به العادلين به غيره، وأن حالهم أقبح الحالات، وأنه لا مستند لهم على ما فعلوه؛ فليس لهم به علم، وإنما هو تقليد تلقّوه عن آبائهم الضالين، وقد يكون الإنسان لا علم عنده بما فعله، وهو في نفس الأمر له حجة ما علمها، فأخبر هنا أن الله لم يُنزل في ذلك ﴿سُلْطَاناً﴾؛ أي: حجة تدلّ عليه وتجوّزه، بل قد أنزل البراهين القاطعة على فسادِه وبطلانِه، ثم توعد الظالمين منهم المعاندين للحق، فقال: ﴿وما للظالمين من نصير﴾: ينصّرهم من عذاب الله إذا نزل بهم، وحلّ.

﴿٧٢﴾ وهل هؤلاء الذين لا علم لهم بما هم عليه قصد في اتباع الآيات والهدى إذا جاءهم أم هم راضون بما هم عليه من الباطل، ذكر ذلك بقوله: ﴿وإذا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾: التي هي آيات الله الجليلة المستلزمة لبيان الحق من الباطل؛ لم يلتفتوا إليها، ولم يرفعوا بها رأساً، بل ﴿تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر﴾: من بغضها وكرهتها؛ ترى وجوههم معبسة وأبشارهم مكفهرة. ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ

(١) أخرجه أحمد (٣١٧/٥)، وأبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥)، والحديث صححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٣)، و«السنة» لابن أبي عاصم (٤٨/١).

بالذين يتلون عليهم آياتنا؛ أي: يكادون يوقعون بهم القتل والضرب البليغ من شدة بغضهم وبغض الحق وعداوته؛ فهذه الحالة من الكفار بش الحالة وشرها بش الشر، ولكن ثم ما هو شر منها: حالتهم التي يؤولون إليها؛ فلهذا قال: ﴿قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدّها الله الذين كفروا وبش المصير﴾: فهذه شرها طويل عريض، ومكروها وآلامها تزداد على الدوام.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤)﴾.

﴿٧٣ - ٧٤﴾ هذا مثل ضربّه الله لقبح عبادة الأوثان وبيان نقصان عقول من عبدها وضعف الجميع، فقال: ﴿يا أيها الناس﴾: هذا خطاب للمؤمنين والكفار؛ المؤمنون يزدادون علماً وبصيرة، والكافرون تقوم عليهم الحجة. ﴿ضرب مثل فاستمعوا له﴾؛ أي: ألقوا إليه أسماعكم، وافهموا^(١) ما احتوى عليه، ولا يصادف منكم قلوباً لاهية وأسماعاً معرضة، بل ألقوا إليه القلوب والأسماع، وهو هذا: ﴿إن الذين تدعون من دون الله﴾: شمل كل ما يدعى من دون الله، ﴿لن يخلقوا ذباباً﴾: الذي هو من أحقر المخلوقات وأخسها؛ فليس في قدرتهم خلق هذا المخلوق الضعيف؛ فما فوقه من باب أولى، ﴿ولو اجتمعوا له﴾: بل أبلغ من ذلك: لو ﴿يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه﴾: وهذا غاية ما يصير من العجز. ﴿ضعف الطالب﴾: الذي هو المعبود من دون الله، ﴿والمطلوب﴾: الذي هو الذباب؛ فكل منهما ضعيف، وأضعف منهما من يتعلق بهذا الضعيف وينزله منزلة رب العالمين؛ فهذا ما قدر الله حق قدره، حيث سوى الفقير العاجز من جميع الوجوه بالغني القوي من جميع الوجوه، سوى من لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً بمن هو النافع الضار المعطي المانع مالك الملك والمتصرف فيه بجميع أنواع التصريف.

﴿إن الله لقوي عزيز﴾؛ أي: كامل القوة، كامل العزة، من كمال قوته وعزته: أن نواصي الخلق بيديه، وأنه لا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإرادته.

(١) في (ب): «وتفهموا».

ومشيئته؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ومن كمال قوته: أنه يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ومن كمال قوته: أنه يبعث الخلق كلهم، أولهم وآخرهم بصيحة واحدة، ومن كمال قوته أنه أهلك الجبابرة والأمم العاتية بشيء يسير وسوط من عذابه.

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿٧٥ - ٧٦﴾ لما بين تعالى كماله وضعف الأصنام وأنه المعبود حقاً؛ بين حالة الرسل وتمييزهم عن الخلق بما تميزوا به من الفضائل، فقال: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ أي: يختار ويجتبي من الملائكة رسلاً ومن الناس رسلاً؛ يكونون أزكى ذلك النوع وأجمعه لصفات المجد وأحقه بالاصطفاء؛ فالرسل لا يكونون إلا صفوة الخلق على الإطلاق، والذي اختارهم واجتباهم ليس جاهلاً بحقائق الأشياء، أو يعلم شيئاً دون شيء، وإن^(١) المصطفى لهم السميع البصير، الذي قد أحاط علمه وسمعته وبصره بجميع الأشياء؛ فاخياره إياهم عن علم منه أنهم أهل لذلك، وأن الوحي يصلح فيهم؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾. ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾؛ أي: هو يرسل الرسل يدعون الناس إلى الله؛ فمنهم المجيب، ومنهم الراذ لدعوتهم، ومنهم العامل، ومنهم الناكل؛ فهذا وظيفة الرسل، وأما الجزاء على تلك الأعمال؛ فمصيورها إلى الله؛ فلا تعدم منه فضلاً وعدلاً.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿٧٧﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالصلاة، وخص منها الركوع والسجود

(١) في (ب): «وإنما».

لفضلتهما وركنيتيهما وعبادته التي هي قرّة العيون وسلوة القلب المحزون، وإن ربوبيته وإحسانه على العباد يقتضي منهم أن يُخْلِصُوا له العبادة، ويأمرهم بفعل الخير عموماً، وعَلَّقَ تعالى الفلاح على هذه الأمور، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾؛ أي: تفوزون بالمطلوب المرغوب، وتنجون من المكروه المرهوب؛ فلا طريق للفلاح سوى الإخلاص في عبادة الخالق والسعي في نفع عبده؛ فمن وُفِّقَ لذلك؛ فله القَدْخُ المَعْلَى من السعادة والنجاح والفلاح.

﴿٧٨﴾ ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾: والجهاد بذل الوسع في حصول الغرض المطلوب؛ فالجهاد في الله حق جهاده هو القيام التام بأمر الله، ودعوة الخلق إلى سبيله بكل طريق موصل إلى ذلك؛ من نصيحة وتعليم وقتال وأدب وزجر ووعظ وغير ذلك. ﴿هو اجتباكم﴾؛ أي: اختاركم يا معشر المسلمين من بين الناس، واختار لكم الدين، ورضيه لكم، واختار لكم أفضل الكتب وأفضل الرسل؛ فقابلوا هذه المنحة العظيمة بالقيام بالجهاد فيه حق القيام. ولما كان قوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾؛ ربما تَوَهَّم متوهم أن هذا من باب تكليف ما لا يُطاق أو تكليف ما يشق؛ احتَرَزَ منه بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾؛ أي: مشقة وعسر، بل يسره غاية التيسير، وسهّله بغاية السهولة؛ فأولاً: ما أمر وألزم إلا بما هو سهل على النفوس لا يُثْقِلُها ولا يَؤُودُها، ثم إذا عَرَضَ بعض الأسباب الموجبة للتخفيف؛ خَفَّفَ ما أمر به: إما بإسقاطه، أو إسقاط بعضه.

ويؤخذ من هذه الآية قاعدة شرعية، وهي أن «المشقة تجلب التيسير» و«الضرورات تبيح المَخْطورات»، فيدخل في ذلك من الأحكام الفروعية شيء كثير معروف في كتب الأحكام.

﴿مَلَّةٌ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾؛ أي: هذه الملة المذكورة والأوامر المزبورة ملّة أبيكم إبراهيم، التي ما زال عليها؛ فالزموها واستمسكوا بها. ﴿هو سمّاكم المسلمين من قبل﴾؛ أي: في الكتب السابقة مذكورون ومشهورون، ﴿وفي هذا﴾؛ أي: هذا الكتاب وهذا الشرع؛ أي: ما زال هذا الاسم لكم قديماً وحديثاً؛ ﴿ليكون الرسول شهيداً عليكم﴾: بأعمالكم خيرها وشرها، ﴿وتكونوا شهداء على الناس﴾: لكونكم خير أمة أخرجت للناس، أمة وسطاً عدلاً خياراً، تشهدون للرسل أنهم بلّغوا أممهم، وتشهدون على الأمم أن رُسُلَهُم بلّغتهم بما أخبركم الله به في كتابه.

﴿فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ﴾: بأركانها وشروطها وحدودها وجميع لوازمها، ﴿وَاتُوا

الزَّكَاةَ: المفروضة لمستحقيها؛ شُكراً لله على ما أولاكم. ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ أي: امتنعوا به، وتوكلوا عليه^(١) في ذلك، ولا تتكلموا على حولكم وقوتكم. ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾: الذي يتولى أموركم، فيدبركم بحسن تدبيره، ويصرفكم على أحسن تقديره. ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾؛ أي: نعم المولى لمن تولاه فحصل له مطلوبه، ونعم النصير لمن استنصره فدفع عنه المكروه.

تم تفسير [سورة] الحج. والحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة المؤمنين

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ١ ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ ٢ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ ٣ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ ٤ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوحِهِمْ خَافِضُونَ﴾ ٥ ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ ٦ ﴿فَمَن ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ ٧ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ ٨ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ ٩ ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ ١٠ ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ١١ ﴿

هذا تنويه من الله بذكر عبادِهِ المؤمنين، وذكر فلاحهم وسعادتهم، وبأي شيء وصلوا إلى ذلك، وفي ضمن ذلك الحث على الانصاف بصفاتهم والترغيب فيها؛ فليزين العبد نفسه وغيره على هذه الآيات؛ يعرف بذلك ما معه وما مع غيره من الإيمان زيادةً ونقصاً، كثرةً وقلةً.

﴿١﴾ فقله: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾؛ أي: قد فازوا وسعدوا ونجحوا، وأدركوا كل ما يرام، المؤمنون الذين آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين.

﴿٢﴾ الذين من صفاتهم الكاملة أنهم ﴿في صلاتهم خاشعون﴾: والخشوع في الصلاة هو حضور القلب بين يدي الله تعالى، مستحضراً لقربه، فيسكن لذلك قلبه، وتطمئن نفسه، وتسكن حركاته، ويقبل التفاته، متأدباً بين يدي ربه، مستحضراً

(١) في (ب): «على». وفي (أ): طمس وكتب فوق السطر بخط مغاير «عليه».

جميع ما يقوله ويفعله في صلاته من أول صلاته إلى آخرها، فتتفي بذلك الوسواس والأفكار الرديئة، وهذا روح الصلاة والمقصود منها، وهو الذي يُكْتَبُ للعبد؛ فالصلاة التي لا خشوع فيها ولا حضور قلب، وإن كانت مُجْزِيَةً مثاباً عليها؛ فإن الثواب على حسب ما يَغْقِلُ القلب منها.

﴿٣﴾ ﴿والذين هم عن اللغو﴾: وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فائدة، ﴿معرضون﴾: رغبة عنه وتنزيهاً لأنفسهم وترفعاً عنه، وإذا مرؤا باللغو مرؤا كراماً، وإذا كانوا معرضين عن اللغو؛ فأعراضهم عن المحرّم من باب أولى وأحرى، وإذا مَلَكَ العبدُ لسانه وَخَزَنَهُ إِلَّا فِي الْخَيْرِ؛ كان مالِكاً لأمره؛ كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل حين وصّاه بوصايا؛ قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟». قلت: بلى يا رسول الله! فأخذ بلسان نفسه وقال: «كفّ عليك هذا»^(١). فالمؤمنون من صفاتهم الحميدة كفّ ألسنتهم عن اللغو والمحرّمات.

﴿٤﴾ ﴿والذين هم للزكاة فاعلون﴾؛ أي: مؤدّون لزكاة أموالهم على اختلاف أجناس الأموال؛ مزكين لأنفسهم من أدناس الأخلاق ومساوئ الأعمال التي تزكو النفوس بتركها وتجنّبها؛ فأحسنوا في عبادة الخالق في الخشوع في الصلاة، وأحسنوا إلى خلقه بأداء الزكاة.

﴿٥﴾ ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾: عن الزنا، ومن تمام حفظها تجنّب ما يدعو إلى ذلك؛ كالنظر واللمس ونحوهما، فحفظوا فروجهم من كلّ أحد.

﴿٦﴾ ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾: من الإماء المملوكات؛ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ: بقربهما؛ لأن الله تعالى أحلها.

﴿٧﴾ ﴿فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ﴾: غير الزوجة والسرية؛ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾: الذين تعدّوا ما أحلّ الله إلى ما حرّمه، المتجرّئون على محارم الله. وعموم هذه الآية يدلّ على تحريم [نكاح] المتعة؛ فإنّها ليست زوجة حقيقة مقصوداً بقاؤها ولا مملوكة، وتحريم نكاح المحلل لذلك. ويدلّ قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾: أنّه يُشْتَرَطُ في حلّ المملوكة أن تكون كلّها في ملكه؛ فلو كان له بعضها؛ لم تحلّ؛ لأنّها ليست ممّا ملكت يمينه، بل هي ملك له ولغيره؛ فكما أنّه لا يجوز أن يَشْتَرِكَ

(١) أخرجه أحمد (٢٣١/٥)، والترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٢٩٧٣)، وقال الترمذي: «حديث

حسن صحيح». وانظر «الإرواء» (٤١٣).

في المرأة الحرّة زوجان؛ فلا يجوز أن يشترك في الأمة المملوكة سيدان.

﴿٨﴾ ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾؛ أي: مراعون لها، ضابطون، حافظون، حريصون على القيام بها وتنفيذها. وهذا عام في جميع الأمانات التي هي حق لله، والتي هي حق للعباد؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾: فجميع ما أوجبه الله على عبده أمانة على العبد حفظها بالقيام التام بها. وكذلك يدخل في ذلك أمانات الآدميين؛ كأمانات الأموال والأسرار ونحوهما؛ فعلى العبد مراعاة الأمرين وأداء الأمانتين؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾، وكذلك العهد يشمل العهد الذي بينهم وبين ربهم والذي بينهم وبين العباد، وهي الالتزامات والعقود التي يعقدها العبد؛ فعليه مراعاتها والوفاء بها، ويحرّم عليه التفريط فيها وإهمالها.

﴿٩﴾ ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾؛ أي: يداومون عليها في أوقاتها وحدودها وأشراطها وأركانها؛ فمدحهم بالخشوع بالصلاة وبالمحافظة عليها، لأنّه لا يتم أمرهم إلّا بالأمرين؛ فمن يداوم على الصلاة من غير خشوع أو على الخشوع من دون محافظة عليها؛ فإنّه مذموم ناقص.

﴿١٠﴾ ﴿أولئك﴾: الموصوفون بتلك الصفات ﴿هم الوارثون﴾.

﴿١١﴾ ﴿الذين يرثون الفردوس﴾: الذي هو أعلى الجنة ووسطها وأفضلها؛ لأنهم حلّوا من صفات الخير أعلاها وذروتها، أو المراد بذلك جميع الجنة؛ ليدخل بذلك عموم المؤمنين على درجاتهم في مراتبهم كلّ بحسب حاله. ﴿هم فيها خالدون﴾: لا يظعنون عنها ولا يبتغون عنها جولا؛ لاشتمالها على أكمل النعيم وأفضله وأتمه من غير مكدر ولا منغص.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظًا فَكَسَوْنَا الْعِظَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمِتَّونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾.

ذكر الله في هذه الآيات أطوار آدمي وتنقلاته من ابتداء خلقه إلى آخر ما يصير إليه:

﴿١٢﴾ فذكر ابتداء خلق أبي النوع البشري آدم عليه السلام، وأنه ﴿من سُلالة

من طين؛ أي: قد سُلِّتْ وأُخِذَتْ من جميع الأرض، ولذلك جاء بنوه على قدر الأرض: منهم الطيب والخبيث وبين ذلك، والسهل والحزن وبين ذلك.

﴿١٣﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾؛ أي: جنس الآدميين ﴿نُطْفَةً﴾: تَخْرُجُ من بين الصُّلب والترائب، فتستقر ﴿فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾: وهو الرحم، محفوظة من الفساد والريح وغير ذلك.

﴿١٤﴾ ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ﴾: التي قد استقرت قبل ﴿عَلَقَةٍ﴾؛ أي: دمًا أحمر بعد مضي أربعين يوماً من النطفة، ثم ﴿خَلَقْنَا الْعَلَقَةَ﴾: بعد أربعين يوماً ﴿مُضْغَةً﴾؛ أي: قطعة لحم صغيرة بقدر ما يُمَضَّغ من صغرها، ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ﴾: اللينة ﴿عِظَامًا﴾: صلبة قد تخللت اللحم بحسب حاجة البدن إليها، ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾؛ أي: جعلنا اللحم كسوة للعظام؛ كما جعلنا العظام عماداً للحم، وذلك في الأربعين الثالثة، ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾: نفخ فيه الروح، فانتقل من كونه جماداً إلى أن صار حيواناً. ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾؛ أي: تعالى وتعاظم وكثر خيره، ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾. ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين. ثم سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون؛ فخلقه كله حسناً، والإنسان من أحسن مخلوقاته، بل هو أحسنها على الإطلاق؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، ولهذا كان خواصه أفضل المخلوقات وأكملها.

﴿١٥﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾: الخلق ونفخ الروح، ﴿لَمَيِّتُونَ﴾: في أحد أطواركم وتنفلاتكم.

﴿١٦﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾: فتجازون بأعمالكم حسننها وسيئها؛ قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾. ألم يك نطفةً من مني يُمنى. ثم كان علقه فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ ١٧ ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ ١٨ ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَكُةٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ١٩ ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدَّهْنِ وَصَنِيعٌ لِلْآكِلِينَ﴾ ٢٠ ﴿

﴿١٧﴾ لما ذكر تعالى خلق آدمي؛ ذكر مسكنه وتوفّر النعم عليه من كل وجه، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ﴾: سقفاً للبلاد ومصلحة للعباد، ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾؛ أي: سبع سماوات طباقاً، كل طبقة فوق الأخرى، قد زينت بالأنجم والشمس والقمر، وأودع فيها من مصالح الخلق ما أودع. ﴿وَمَا كُنَّا عَنْ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾؛ فكما أن خلقنا عامّاً لكل مخلوق؛ فعلمنا أيضاً محيطاً بما خلقنا؛ فلا نغفل مخلوقاً ولا ننساه، ولا نخلق خلقاً فنضيعه، ولا نغفل عن السماء فتقع على الأرض، ولا ننسى ذرة في لجج البحار وجوانب الفلوات ولا دابة إلا سقنا إليها رزقها، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا﴾: وكثيراً ما يقرن تعالى بين خلقه وعلمه؛ كقوله: ﴿إِلَّا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾، ﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾؛ لأنّ خلق المخلوقات من أقوى الأدلة العقلية على علم خالقها وحكمته.

﴿١٨﴾ ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾: يكون رزقاً لكم ولأنعامكم بقدر ما يكفيكم؛ فلا ينقصه [بحيث لا يكفي الأرض والأشجار، فلا يحصل منه المقصود. ولا يزيده زيادة لا تحتمل]، بحيث يتلف المساكن، ولا تعيش منه النباتات والأشجار، بل أنزله وقت الحاجة لنزوله، ثم صرفه عند التضرر من دوامه، ﴿فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: أنزلناه عليها، فسكن واستقر وأخرج بقدرة منزله جميع الأزواج النباتية، وأسكنه أيضاً معداً في خزائن الأرض؛ بحيث لم يذهب نازلاً حتى لا يوصل إليه ولا يبلغ قعره. ﴿وَأِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾: إمّا بأن لا ننزله، أو ننزله فيذهب نازلاً لا يوصل إليه، أو لا يوجد منه المقصود منه، ولهذا تنبيه منه لعباده أن يشكروه على نعمته ويقدرُوا عَدمَهَا؛ ماذا يحصلُ به من الضرر؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾.

﴿١٩﴾ ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ﴾؛ أي: بذلك الماء، ﴿جَنَّاتٍ﴾؛ أي: بساتين ﴿مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾: خصّ تعالى هذين النوعين، مع أنه ينشر منه غيرهما من الأشجار؛ لفضلهما ومنافعهما التي فاقت بها الأشجار، ولهذا ذكر العام في قوله: ﴿لَكُمْ﴾؛ أي: في تلك الجنات فواكه كثيرة منها تأكلون من تينٍ وأترجٍ ورماني وتفاع وغيرها.

﴿٢٠﴾ ﴿وَشَجَرَةٍ تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾: وهي شجرة الزيتون؛ أي: جنسها، خُصّت بالذكر لأنّ مكانها خاص في أرض الشام، ولمنافعها التي ذُكر بعضها في

قوله: ﴿كُنْتُ بِالْذَّهْنِ وَصِنَعُ لِلْكَالِينَ﴾؛ أي: فيها الزيت الذي هو دهنٌ، يُسْتَعْمَلُ استعماله من الاستصباح به، واصطبغ للكالين؛ أي: يجعل إداماً للكالين وغير ذلك من المنافع.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا بِهَا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿٢١﴾ أي: ومن نعمه عليكم أن سَخَّرَ لكم الأنعام؛ الإبل والبقر والغنم، فيها عبرة للمعتبرين ومنافع للمنتفعين، ﴿تُنْقِضُوا بِهَا فِي بُطُونِهَا﴾: من لبن يخرج من بين قُرْبٍ ودم خالص سائغ للشاربين، ﴿ولكم فيها منافع كثيرة﴾: من أصوافها وأوبارها وأشعارها، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظَغَنِكُمْ ويوم إقامتِكُمْ، ﴿ومنها تأكلون﴾: أفضل المأكَل من لحم وشحم.

﴿٢٢﴾ ﴿وعليها وعلى الفلكِ تَحْمَلُونَ﴾؛ أي: جعلها سفناً لكم في البر، تحملون عليها أثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغية إلا بشِقِّ الأنفس؛ كما جعل لكم السفن في البحر تحملكم وتحمل متاعكم قليلاً كان أو كثيراً؛ فالذي أنعم بهذه النعم وصنَّف أنواع الإحسان وأدرَّ علينا من خيره المدرار هو الذي يستحقُّ كمال الشُّكر وكمال الثناء والاجتهاد في عبوديته وأن لا يُستعان بنعمه على معاصيه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عِزَّةٌ فَلَا تَغْفِرُوا ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ حِجَّةٌ قَدَرْتُمْ بِهٖ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفَالَكَ بِأَعْيُنِنَا ووَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُفْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَازٍ وَأَهْلًا ﴿٢٧﴾ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَالِكِ فَقُلْ أَتَدْعُو اللَّهَ الَّذِي بَخَسْنَا مِنَ الْقُوَّةِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ وَقُلْ رَبِّ أَرِنِي مِثْلَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٢٣﴾ يذكر تعالى رسالة عبده ورسوله نوح عليه السلام أول رسول أرسله لأهل الأرض، فأرسله إلى قومه، وهم يعبدون الأصنام، فأمرهم بعبادة الله وحده، فقال: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾؛ أي: أخلصوا له العبادة؛ لأنَّ العبادة لا تصحُّ إلا بإخلاصها. ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ﴾: فيه إبطال ألوهية غير الله وإثبات الإلهية لله تعالى؛ لأنَّه الخالق الرازق الذي له الكمال كلُّه، وغيره بخلاف ذلك. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: ما أنتم عليه من عبادة الأوثان والأصنام التي صُوِّرت على صور قوم صالحين، فعبدوها مع الله؟

﴿٢٤﴾ فاستمرَّ على ذلك يدعوهم سرًّا وجهاراً وليلاً ونهاراً ألف سنة إلا خمسين عاماً، وهم لا يزدادون إلاَّ عتواً ونفوراً، ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ﴾: من قومه الأشراف والسادة المتبوعون على وجه المعارضة لنبيِّهم نوح والتحذير من أتباعه: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: ما هذا إلاَّ بشرٌ مثلكم، قصده حين ادَّعى النبوة أن يزيد عليكم فضيلة ليكون متبوعاً، وإلاَّ؛ فما الذي يفضله عليكم وهو من جنسكم؟! وهذه المعارضة لا زالت^(١) موجودة في مكذَّبي الرسل، وقد أجاب الله عنها بجواب شافٍ على السنة رسله؛ كما في قوله: ﴿قَالُوا﴾؛ أي: لرسُلهم. ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ. قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾: فأخبروا أنَّ هذا فضلُ الله ومُنَّته، فليس لكم أن تحجَّروا على الله، وتمنَّعوه من إيصال فضله علينا.

وقالوا أيضاً: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾: وهذه أيضاً معارضةً بالمشيئة باطلة؛ فإنَّه وإن كان لو شاء لأنزل ملائكة؛ فإنَّه حكيمٌ رحيمٌ، حكمته ورحمته تقتضي أن يكون الرسول من جنس الآدميين؛ لأنَّ الملائكة لا قدرة لهم على مخاطبته، ولا يمكن أن يكون إلاَّ بصورة رجل، ثم يعود اللبس عليهم كما كان. وقولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾؛ أي: بإرسال الرسول ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ وأيُّ حجة في عدم سماعهم إرسال رسول في آبائهم الأولين؟! لأنَّهم لم يحيطوا علماً بما تقدَّم؛ فلا يجعلون جهلهم حجةً لهم! وعلى تقدير أنَّه لم يرسل منهم رسولاً: فإما أن يكونوا على الهدى؛ فلا حاجة لإرسال الرسول إذ ذاك، وإما أن يكونوا على

(١) في (ب): «ما زالت».

غيره؛ فليحمدوا ربَّهم ويشكروه أن خَصَّهم بنعمةٍ لم تأتِ آبَاءهم ولا شعروا بها، ولا يجعلوا عدم الإحسان على غيرهم سبباً لكفرهم للإحسان إليهم.

﴿٢٥﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾؛ أي: مجنون، ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ﴾؛ أي: انتظروا به ﴿حتى حين﴾: إلى أن يأتيه الموت.

وهذه الشبه [التي] أوردوها^(١) معارضةً لنبوءة نبيهم دالةً على شدة كفرهم وعنادهم وعلى أنهم في غاية الجهل والضلال؛ فإنَّها لا تَصْلُحُ للمعارضة بوجه من الوجوه؛ كما ذكرنا، بل هي في نفسها متناقضة متعارضة؛ فقلوه: ﴿ما هذا إلا بشرٌ مثلكم يريد أن يتفضلَ عليكم﴾؛ أثبتوا أنَّ له عقلاً يكيدهم به ليعلوهم ويسودهم، ويحتاج مع هذا أن يُحذَرَ منه لئلا يُغترَّ به؛ فكيف يلتئم مع قولهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ؟! وهل هذا إلا من مشبه ضال، منقلب عليه الأمر، قصده الدفع بأيّ طريق اتفق له، غير عالم بما يقول. ويأبى الله إلا أن يُظهر خزي مَنْ عاداه وعادى رسله.

﴿٢٦﴾ فلما رأى نوحٌ أنه لا يفيدهم دعاؤه إلا فراراً؛ ﴿قال رب أنصُرني بما كذَّبون﴾: فاستنصر ربَّه عليهم غضباً لله حيث ضيعوا أمره وكذَّبوا رسله. وقال: ﴿رب لا تَذَر على الأرض من الكافرين دياراً. إنك إن تَذَرهم يَظِلُّوا عبادَكَ ولا يَلِدوا إلا فاجراً كَفَّاراً﴾. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾.

﴿٢٧﴾ ﴿فَأَوْحِينَا إِلَيْهِ﴾: عند استجابتنا له سبباً ووسيلةً للنجاة قبل وقوع أسبابه: ﴿أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾؛ أي: السفينة ﴿بِأَعِينِنَا وَوَحِينَا﴾؛ أي: بأمرنا لك ومعونتنا، وأنت في حفظنا وكلاءتنا؛ بحيث نراك ونسمعك. ﴿فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا﴾: بإرسال الطوفان الذي عَذَّبوا به، ﴿وَفَارَ الْتَوْرُ﴾؛ أي: فارت الأرض وتفجرت عيوناً حتى محلُّ النار الذي لم تجر العادة إلا ببعده عن الماء. ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾؛ أي: أدخل في الفلك من كلِّ جنس من الحيوانات ذكراً وأنثى تبقى^(٢) مادة النسل لسائر الحيوانات التي اقتضت الحكمة الربَّانية إيجادها في الأرض. ﴿وَأَهْلِكَ﴾؛ أي: أدخلهم ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾: كإبنة، ﴿ولا تخاطبني في الذين ظَلَمُوا﴾؛ أي: لا تدعني أن أنجيهم؛ فإنَّ القضاء والقدر قد حتم. ﴿إِنَّهُمْ مَفْرُقُونَ﴾.

﴿٢٨﴾ ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ﴾؛ أي: علوتم عليها

(٢) كذا في (أ). وفي (ب): «لتبقى».

(١) في (ب): «أوردوها».

واستقلت بكم في تيار الأمواج ولجج اليم؛ فاحمدوا الله على النجاة والسلامة.
وقل^(١): ﴿الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين﴾: وهذا تعليم منه له ولمن معه
أن يقولوا هذا شكراً له وحمداً على نجاتهم من القوم الظالمين في عملهم وعذابهم.
﴿٢٩﴾ ﴿وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين﴾؛ أي: وبقيت
عليكم نعمة أخرى؛ فادعوا الله فيها، وهي أن ييسر الله لكم منزلاً مباركاً،
فاستجاب الله دعاءه؛ قال الله: ﴿وفضيت الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً
للقوم الظالمين...﴾ إلى أن قال: ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك
وعلى أمم ممن معك...﴾ الآية.

﴿٣٠﴾ ﴿إن في ذلك﴾؛ أي: في هذه القصة ﴿آيات﴾: تدل على أن الله
وحده المعبود، وعلى أن رسوله نوحاً صادقاً، وأن قومه كاذبون، وعلى رحمة الله
بعباده؛ حيث حملهم في صلب أبيهم نوح في الفلك لما غرق أهل الأرض،
والفلك أيضاً من آيات الله؛ قال تعالى: ﴿ولقد تركناها آية فهل من مدكر﴾. ولهذا
جمعها هنا؛ لأنها تدل على عدة آيات ومطالب. ﴿وإن كنا لمبتلين﴾.

﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ ﴿٣١﴾ ﴿فأرسلنا فيهم رسولاً منهم أن عبدوا الله ما لكم من إله
غيره أفلا تنقون﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلفاء الآخرة وأترفنهم في الحياة
الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿ولئن أطعتم
بشراً مثلكم إنكم إذا لخسيرون﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿أيعدكم أنكم إذا متتم وكنتن نراباً وعظماً أنكم تخرجون﴾ ﴿٣٥﴾
﴿هيات هيات لما توعدون﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿إن هي إلا حيائنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبتغين
﴿٣٧﴾ ﴿إن هو إلا رجل أفترى على الله كذباً وما نحن لمؤمنين﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿قال رب أنصرتي بما
كذبون﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿قال عما قيل ليصيحن ندين﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلنهم غشاة
فبعدا للقوم الظالمين﴾ ﴿٤١﴾.

﴿٣١﴾ لما ذكر نوحاً وقومه وكيف أهلكهم؛ قال: ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرناً
آخرين﴾: الظاهر أنهم ثمود قوم صالح عليه السلام؛ لأن هذه القصة تشبه قصتهم.
﴿٣٢﴾ ﴿فأرسلنا فيهم رسولاً منهم﴾: من جنسهم يعرفون نسبه وحسبه وصدقه؛

ليكونَ ذلكَ أسرعَ لانقيادِهِم إذا كانَ منهم وأبعد عن اشمئزازِهِم، فدعا إلى ما دعَتْ إليه الرسلُ أممهم: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾: فكلُّهم اتَّفَقُوا على هذه الدعوة، وهي أول دعوة يدعون بها أممهم؛ الأمر بعبادة الله، والإخبار أنَّه المستحقُّ لذلك، والنهي عن عبادة ما سواه، والإخبار ببطلان ذلك وفساده، ولهذا قال: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: ربِّكم فَتَجْتَنِّبُوا هذه الأوثان والأصنام.

﴿٣٣﴾ فقال ﴿الْمَلَأْ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: قال الرؤساء الذين جَمَعُوا بين الكفر والمعاندة وإنكار البعث والجزاء، وأطغاهم ترفُّهم في الحياة الدُّنْيَا؛ معارضةً لنبیِّهم وتكذيباً وتحذيراً منه. ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾؛ أي: من جنسكم، ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾: فما الذي يُفَضِّلُهُ عليكم؟! فهلاً كان ملكاً لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب!

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَيْتُنْ أَطْعَمْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾؛ أي: إن تبعتموه وجعلتموه لكم رئيساً وهو مثلكم؛ إنكم لمسلوبو العقل نادمون على ما فعلتم! وهذا من العجب؛ فإنَّ الخسارَ والندامةَ حقيقةً لمن لم يتابعه ولم يُنْقِذْ له، والجهلُ والسفهُ العظيم لِمَنْ تكَبَّرَ عن الانقياد لبشرٍ خَصَّه الله بوحیه، وفضَّله برسالته وابتلي بعبادة الشجر والحجر، وهذا نظيرُ قولهم: ﴿قَالُوا أَبَشَرًا مِثَّنَا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ. أَلَلْقَيْنَا الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشِرٌّ﴾.

﴿٣٥ - ٣٦﴾ فلما أنكروا رسالته وَرَدُّوها؛ أنكروا ما جاء به من البعث بعد الموت والمجازاة على الأعمال، فقالوا: ﴿أَيَعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مَخْرَجُونَ. هِيَ هِيَ هِيَ لَمَّا تَوَعَّدُونَ﴾؛ أي: بعيدٌ بعيدٌ ما يعدُّكم به من البعث بعد أن تمزقتم وكنتم تراباً وعظاماً. فنظروا نظراً قاصراً، ورأوا هذا بالنسبة إلى قُدْرِهِم غير ممكن، فقاوسوا قدرة الخالق بقُدْرِهِم، تعالى الله، فأنكروا قدرته على إحياء الموتى، وعجزوه غاية التعجيز، ونسوا خَلْقَهُم أول مرة، وأنَّ الذي أنشأهم من العدم؛ فإعادته لهم بعد البلاء أهون عليه، وكلاهما هيِّنٌ لديه؛ فلم لا يُنْكَرُونَ أول خَلْقِهِم ويكابرون المحسوسات ويقولون: إِنَّا لَمْ نَزَلْ مَوْجُودِينَ، حتى يَسْلَمَ لهم إنكارهم البعث ويُنتَقَلْ معهم إلى الاحتجاج على إثبات وجود الخالق العظيم؟! وهنا دليل آخر، وهو أن الذي أحيا الأرض بعد موتها؛ إنَّ ذلك لمحيي الموتى؛ إنَّه على كل شيء قدير. وثمَّ دليل آخر، وهو ما أجاب به المنكرين للبعث

في قوله: ﴿بَلْ عَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ. إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾. فقال في جوابهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾؛ أي: في البلى ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ﴾.

﴿٣٧﴾ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾؛ أي: يموت أناس ويحيا أناس، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

﴿٣٨﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾^(١): فلهذا أتى بما أتى به من توحيد الله وإثبات المعاد! ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾؛ أي: ارفعوا عنه العقوبة بالقتل وغيره احتراماً له ولأنه مجنونٌ غير مؤاخذ بما يتكلم به؛ أي: فلم يبقَ بزعمهم الباطل مجادلةً معه لصحة ما جاء به؛ فإنهم قد زعموا بطلانه، وإنما بقي الكلام هل يوقعون به أم لا؛ فبزعمهم أن عقولهم الرزينة اقتضت الإبقاء عليه وترك الإيقاع به مع قيام الموجب!! فهل فوق هذا العناد والكفر غاية؟!

﴿٣٩﴾ ولهذا لما اشتد كفرهم ولم ينفع فيهم الإنذار؛ دعا عليهم نبيهم، فقال: ﴿رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ﴾؛ أي: بإهلاكهم وخزيهم الدنيوي قبل الآخرة.

﴿٤٠ - ٤١﴾ قال الله مجيباً لدعوته: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ. فَأَخَذْتَهُمُ الصَّبْحَةَ بِالحَقِّ﴾: لا بالظلم والجور، بل بالعدل وظلمهم أخذتهم الصيحة فأهلكتهم عن آخرهم. ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾؛ أي: هشيماً يئساً بمنزلة غثاء السيل الملقى في جنبات الوادي، وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمٍ مُخْتَصِرٍ﴾. ﴿فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: أتبعوا مع عذابهم البعد واللعنة والذم من العالمين؛ ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾^(٤٢) مَا تَسْقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ^(٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولًا تَرًّا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رَسُولًا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ^(٤٤)﴾.

﴿٤٢ - ٤٣﴾ أي: ثم أنشأنا من بعد هؤلاء المكذبين المعاندين ﴿قُرُونًا آخَرِينَ﴾:

(١) سها المؤلف - رحمه الله - وقام بتفسير الآية (٢٥) من نفس السورة؛ وصواب الآية: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

كُلُّ أُمَّةٍ فِي وَقتٍ مَسْمُومَةٍ وَأَجَلٌ مُّحَدَّدٌ، لَا تَتَقَدَّمُ عَنْهُ وَلَا تَتَأَخَّرُ، وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا مُّتَّبَعَةً لَعَلَّهُمْ يُؤْمِنُونَ وَيَنْبِشُونَ، فَلَمْ يَزَلِ الْكُفْرُ وَالتَّكْذِيبُ دَابَّ الْأُمَمِ الْعُصَاةَ وَالْكَافِرَةَ الْبَغَاةَ، ﴿كُلُّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾: مع أَنَّ كُلَّ رَسولٍ يَأْتِي مِنَ الْآيَاتِ مَا يُؤْمِنُ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ، بَلْ مَجْرَدُ دَعْوَةِ الرِّسَالِ وَشَرْعِهِمْ يَدُلُّ عَلَى حَقِّيَّةِ مَا جَاؤُوا بِهِ.

﴿٤٤﴾ ﴿فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾: بِالْهَلَاكِ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ بَاقِيَةٌ، وَتَعَطَّلَتْ مَسَاكِنُهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾: يَتَحَدَّثُ بِهِمْ مَنْ بَعْدَهُمْ، وَيَكُونُونَ عِبْرَةً لِلْمُتَّقِينَ وَنَكَالًا لِلْمُكْذِبِينَ وَخِزْيًا عَلَيْهِمْ مَقْرُونًا بِعَذَابِهِمْ. ﴿فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: مَا أَشْقَاهُمْ! وَتَعَسَّأَ لَهُمْ! مَا أَخْسَرَ صَفْقَتَهُمْ!

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٤٥﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَأَتُومِنُ لِسِتْرَيْنِ مِثْلَنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

مر عليّ منذ زمانٍ طويلٍ كلامٌ لبعض الغلماء، لَا يَحْضُرُنِي الْآنَ اسْمُهُ، وَهُوَ أَنَّهُ بَعْدَ [بَعَث] مُوسَى وَنَزولِ التَّوْرَةِ، رَفَعَ اللَّهُ الْعَذَابَ عَنِ الْأُمَمِ؛ أَي: عَذَابَ الْاسْتِثْصَالِ، وَشَرَعَ لِلْمُكْذِبِينَ الْمَعَانِدِينَ بِالْجِهَادِ، وَلَمْ أَذِرْ مِنْ أَيْنَ أَخَذَهُ، فَلَمَّا تَذَبَّرْتُ هَذِهِ الْآيَاتِ مَعَ الْآيَاتِ الَّتِي فِي سُورَةِ الْقَصَصِ؛ تَبَيَّنَ لِي وَجْهُهُ: أَمَّا هَذِهِ الْآيَاتُ؛ فَلَأَنَّ اللَّهَ ذَكَرَ الْأُمَمَ الْمُهْلَكَةَ الْمُتَّبَعَةَ عَلَى الْهَلَاكِ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ أَرْسَلَ مُوسَى بَعْدَهُمْ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ التَّوْرَةَ فِيهَا الْهُدَايَةَ لِلنَّاسِ، وَلَا يَرِدُ عَلَى هَذَا إِهْلَاكُ فِرْعَوْنَ؛ فَإِنَّهُ قَبْلَ نَزولِ التَّوْرَةِ.

وَأَمَّا الْآيَاتُ الَّتِي فِي سُورَةِ الْقَصَصِ؛ فَهِيَ صَرِيحَةٌ جَدًّا؛ فَإِنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ هَلَاكَ فِرْعَوْنَ؛ قَالَ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بِصَائِرٍ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: فَهَذَا صَرِيحٌ أَنَّهُ آتَاهُ الْكِتَابَ بَعْدَ هَلَاكِ الْأُمَمِ الْبَاغِيَةِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَنْزَلَهُ بِصَائِرٍ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً.

وَلَعَلَّ مِنْ هَذَا مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي سُورَةِ يُونُسَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾؛ أَي: مِنْ بَعْدِ نُوحٍ، ﴿رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ. ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ...﴾ الْآيَاتِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿٤٥﴾ فقلوه: ﴿ثم أرسلنا موسى﴾: ابن عمرانَ كليمَ الرحمن، ﴿وأخاه هارون﴾: حين سأل ربّه أن يُشركه في أمره فأجاب سُؤلَه، ﴿بآياتنا﴾: الدالّة على صدقهما وصحّة ما جاء به، ﴿وسلطانٍ مُبينٍ﴾؛ أي: حجّة بيّنة من قوتها أن تفهّر القلوب وتتسلّط عليها لقوّتها فتتقادّ لها قلوبُ المؤمنين وتقومُ الحجّة البيّنة على المعاندين. وهذا كقوله: ﴿ولقد آتينا موسى تسعَ آياتٍ بيّناتٍ﴾: ولهذا رئيسُ المعاندين عرّف الحقَّ وعانده. ﴿فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم﴾: بتلك الآيات البيّنات، فقال له [فرعون] ^(١): ﴿إنّي لأظنّك يا موسى مسحوراً﴾. فقال موسى: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا ربُّ السموات والأرض بصائر وإنّي لأظنّك يا فرعونُ مشبوراً﴾. وقال تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾.

﴿٤٦﴾ وقال هنا: ﴿ثم أرسلنا موسى وأخاه هارونَ بآياتنا وسلطانٍ مُبينٍ﴾. إلى فرعونَ وملئِهِ: كهامان وغيره من رؤسائهم، ﴿فاستكبروا﴾؛ أي: تكبّروا عن الإيمان بالله واستكبروا على أنبيائه، ﴿وكانوا قوماً عالين﴾؛ أي: وصفهم العلوّ والقهرُ والفسادُ في الأرض، فلهذا صدر منهم الاستكبار، ذلك غيرُ مستكثرٍ منهم.

﴿٤٧﴾ ﴿فقالوا﴾ كبراً وتيهاً وتحذيراً لضعفاء العقول وتمويهاً: ﴿أنؤمنُ لبشرين مثلين﴾: كما قاله من قبلهم سواء بسواء؛ تشابهت قلوبهم في الكفر، فتشابهت أقوالهم وأفعالهم، وجحدوا منّة الله عليهما بالرسالة. ﴿وقومُهما﴾؛ أي: بنو إسرائيل. ﴿لنا عابدون﴾؛ أي: معبدون بالأعمال والأشغال الشاقة؛ كما قال تعالى: ﴿وإذ نجّيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبّحون أبناءكم ويستخيون نساءكم وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيمٌ﴾: فكيف نكون تابعين بعد أن كنّا متبوعين؟! وكيف يكون هؤلاء رؤساء علينا؟! ونظيرُ قولهم قولُ قوم نوح: ﴿أنؤمنُ لك واتّبعك الأرذلون﴾، ﴿وما نراك اتّبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي﴾.

﴿٤٨﴾ من المعلوم أن هذا لا يضلّح لدفع الحقّ، وأنه تكذيبٌ ومعاندةٌ، ولهذا قال: ﴿فكذبوهما فكانوا من المهلكين﴾: في الغرق في البحر وبنو إسرائيل ينظرون.

﴿٤٩﴾ ﴿ولقد آتينا موسى﴾: بعدما أهلك الله فرعونَ وخلّص الشعبَ الإسرائيلي مع موسى وتمكّن حينئذٍ من إقامة أمر الله فيهم وإظهار شعائره؛

(١) في (أ): «موسى»، والصواب ما أثبت من (ب).

وَعَدَهُ اللَّهُ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِ التَّوْرَةُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَذَهَبَ لَمِيقَاتِ رَبِّهِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾. ولهذا قال هنا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾؛ أي: بمعرفة تفاصيل الأمر والنهي والثواب والعقاب ويعرفون ربهم بأسمائِهِ وصفاتِهِ.

﴿رَجَعْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً وَأَوَّيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ (٥٠).

﴿٥٠﴾ أي: وامتننا على عيسى ابن مريم وجعلناه وأمه من آيات الله العجيبة؛ حيث حملته وولده من غير أب، وتكلم في المهد صبياً، وأجرى الله على يديه من الآيات ما أجرى. ﴿وَأَوَّيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ﴾؛ أي: مكان مرتفع، وهذا والله أعلم وقت وضعها، ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾؛ أي: مستقر وراحة، ﴿وَمَعِينٍ﴾؛ أي: ماء جارٍ؛ بدليل قوله: ﴿قَدْ جَعَلْنَا لَكَ رَبِّكَ تَحْتِكَ﴾؛ أي: تحت المكان الذي أنت فيه لارتفاعه ﴿سَرِيًّا﴾؛ أي: نهراً، وهو المعين. ﴿وَهَزَيْنَا إِلَيْكَ النُّخْلَةَ نُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا. فَكُلْ مِنْهُ وَاشْرَبْ مِنْهُ وَقَرَّ عَيْنُكَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أَمْثَلُكُمْ أَنَّهُ وَجَدَ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُوا (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرَهُمْ فِي عَمَرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (٥٤) أَيْحَسِبُونَ أَنَّ مَا يُدْهَرُ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ (٥٥) شَارِعٍ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦).

﴿٥١﴾ هذا أمرٌ منه تعالى لرسليه بأكل الطيبات التي هي: الرزق والطيب الحلال، والشكر لله^(١) بالعمل الصالح الذي به يصلح القلب والبدن والدنيا والآخرة، ويخبرهم أنه بما يعملون عليم؛ فكل عمل عمله وكل سعي اكتسبه؛ فإن الله يعلمه، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء وأفضله، فدل هذا على أن الرسل كلهم متفقون على إباحة الطيبات من المأكَل وتحريم الخبائث منها، وأنهم متفقون على كل عمل صالح، وإن تنوعت بعض أجناس المأمورات واختلفت بها الشرائع؛ فإنها كلها عمل صالح، ولكن تتفاوت بتفاوت الأزمنة. ولهذا؛ الأعمال الصالحة التي هي صلاح في جميع الأزمنة قد اتفقت عليها الأنبياء والشرائع؛ كالأمر بتوحيد الله وإخلاص الدين له ومحبة وخوفه ورجائه والبر والصدق والوفاء بالعهد

(١) في (ب): «الرزق الطيب الحلال وشكر الله».

وصلية الأرحام وبرّ الوالدين والإحسان إلى الضعفاء والمساكين واليتامى والحنوّ والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك من الأعمال الصالحة، ولهذا كان أهل العلم والكتب السابقة والعقل حين بعث الله محمداً ﷺ يستدلّون على نبوته بأجناس ما يأمر به وينهى عنه؛ كما جرى لهرقل وغيره؛ فإنه إذا أمر بما أمر به الأنبياء الذين من قبله ونهى عما نهوا عنه؛ دلّ على أنّه من جنسهم؛ بخلاف الكذاب؛ فلا بدّ أن يأمر بالشرّ وينهى عن الخير.

﴿٥٢﴾ ولهذا قال تعالى للرسول: ﴿وَأَنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً﴾؛ أي: جماعتكم يا معشر الرسل ﴿واحدة﴾: متفقّة على دين واحد وربكم واحد. ﴿فَاتَّقُونِ﴾: بامتنال أوامري واجتناب زواجري. وقد أمر الله المؤمنين بما أمر به المرسلين؛ لأنهم بهم يفتنون وخلفهم يسلكون، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنَّ كُنتُم مِّنْ عِبَادِهِ تَعْبُدُونَ﴾: فالواجب على^(١) كل المنتسبين إلى الأنبياء وغيرهم أن يمتثلوا لهذا ويعملوا به.

﴿٥٣﴾ ولكنّ أبى الظالمون المفترون^(٢) إلاّ عصياناً، ولهذا قال: ﴿فَنَقُطِعُوا أَمْهَـم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾؛ أي: تقطّع المنتسبون إلى أتباع الأنبياء ﴿أَمْهَـم﴾؛ أي: دينهم ﴿بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾؛ أي: قطعاً. ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾؛ أي: بما عندهم من العلم والدين ﴿فَرِحُونَ﴾: يزعمون أنّهم المحقّون، وغيرهم على غير الحقّ، مع أن المحقّ منهم من كان على طريق الرّسل من أكل الطيبات والعمل الصالح، وما عداهم فإنّهم مبطلون.

﴿٥٤﴾ ﴿فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ﴾؛ أي: في وسط جهلهم بالحقّ ودعواهم أنّهم هم المحقّون ﴿حتى حين﴾؛ أي: إلى أن ينزل العذاب بهم؛ فإنّهم لا ينفع فيهم وعظّ، ولا يفيدهم زجرٌ؛ فكيف^(٣) يفيد بمن يزعم أنّه على الحقّ ويطمع في دعوة غيره إلى ما هو عليه؟

﴿٥٥ - ٥٦﴾ ﴿إِيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينٍ﴾. نساغ لهم في الخيرات؛ أي: أیظنون أنّ زیادتنا إياهم بالأموال والأولاد دليل على أنّهم من أهل الخير والسعادة، وأنّ لهم خير الدنيا والآخرة، وهذا مقدّم لهم؟! ليس الأمر

(٢) أي: المغلوبون في الخصومة.

(١) في (ب): «من».

(٣) في (ب): «وكيف».

كذلك؛ ﴿بل لا يشعرون﴾: أئما نُملِي لهم ونُملِهُم ونُمدِّهم بالنعم ليزدادوا إثمًا وليتوقَّر عقابهم في الآخرة، وليغْتَبِطُوا بما أوتوا، حتى إذا فَرِحُوا بما أوتوا؛ أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْحَزَنِ لَهُمْ هُمْ لَهَا سَعِيقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا تَكُفُّ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَبْلُغُ الْحَقَّ وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ الْإِسَاءَةِ وَالْأَمْنِ، الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّ عَطَاءَ اللَّهِ إِيَاهُمْ فِي الدُّنْيَا دَلِيلٌ عَلَى خَيْرِهِمْ وَفَضْلِهِمْ؛ ذَكَرَ الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ الْإِحْسَانِ وَالْخَوْفِ، فَقَالَ:

﴿٥٧﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾؛ أَي: وَجِلُونَ، مُشْفِقَةٌ قُلُوبُهُمْ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ؛ خَوْفًا أَنْ يَضَعَ عَلَيْهِمْ عَدْلَهُ؛ فَلَا يُبْقِي لَهُمْ حَسَنَةً، وَسَوْءَ ظَنُّ بَأَنفُسِهِمْ أَنْ لَا يَكُونُوا قَدْ قَامُوا بِحَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَوْفًا عَلَى إِيْمَانِهِمْ مِنَ الزَّوَالِ، وَمَعْرِفَةً مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ وَمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْإِجْلَالِ وَالْإِكْرَامِ. وَخَوْفُهُمْ وَإِشْفَاقُهُمْ يَوْجِبُ لَهُمُ الْكَفَّ عَمَّا يَوْجِبُ الْأَمْرُ الْمَخَوْفُ مِنَ الذُّنُوبِ وَالتَّقْصِيرِ فِي الْوَاجِبَاتِ.

﴿٥٨﴾ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أَي: إِذَا ثَلَيْتَ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ؛ زَادَتْهُمْ إِيْمَانًا، وَتَفَكَّرُوا أَيْضًا فِي الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَتَدَبَّرُونَهَا، فَتَبَيَّنَ لَهُمْ مِنْ مَعَانِي الْقُرْآنِ وَجَلَالَتِهِ وَاتِّفَاقِهِ وَعَدَمِ اخْتِلَافِهِ وَتَنَاقُضِهِ وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَخَوْفِهِ وَرَجَائِهِ وَأَحْوَالِ الْجَزَاءِ، فَيَحْدُثُ لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ تَفَاصِيلِ الْإِيْمَانِ مَا لَا يُعْبَرُ عَنْهُ اللَّسَانُ، وَتَفَكَّرُوا أَيْضًا فِي الْآيَاتِ الْأَفْقِيَّةِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ...﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ.

﴿٥٩﴾ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾؛ أَي: لَا شَرَكًا جَلِيًّا؛ كَاتَخَذَ غَيْرَ اللَّهِ مَعْبُودًا يَدْعُوهُ وَيَرْجُوهُ، وَلَا شَرَكًا خَفِيًّا؛ كَالرِّيَاءِ وَنَحْوِهِ، بَلْ هُمْ مُخْلِصُونَ لِلَّهِ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ وَسَائِرِ أَحْوَالِهِمْ.

﴿٦٠﴾ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا؛ أَي: يَعْطُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مِمَّا أَمَرُوا بِهِ مَا آتَوْا مِنْ كُلِّ مَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ وَزَكَاةٍ وَحَجٍّ وَصَدَقَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَمَعَ هَذَا

﴿قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾؛ أي: خائفة ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾؛ أي: خائفة عند عرض أعمالها عليه والوقوف بين يديه أن تكون أعمالهم غير منجية من عذاب الله؛ لعلمهم برّبهم، وما يستحقّه من أصناف العبادات.

﴿٦١﴾ ﴿أُولَٰئِكَ يَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾؛ أي: في مَيدان التَّسارع في أفعال الخير؛ همُّهم ما يقرّبهم إلى الله، وإرادتهم مصروفة فيما يُنجي من عذابه؛ فكلُّ خير سمعوا به أو سَنَحَتْ لَهُمُ الْفُرْصَةُ [إليه]؛ انتهزوه وبَادَرُوهُ؛ قد نَظَرُوا إِلَىٰ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَأَصْفِيَائِهِ أَمَامِهِمْ، وَيَمَنَةً وَيسرة؛ يسارعون في كلِّ خير، وينافسون في الزُّلْفَىٰ عِنْدَ رَبِّهِمْ؛ فنافسُوهُمْ، وَلَمَّا كَانَ الْمَسَابِقُ لِغَيْرِهِ الْمَسَارَعُ؛ قد يسبقُ لِجَدِّهِ وتشميره، وقد لا يسبقُ لتقصيره؛ أخبر تعالى أن هؤلاء من القسم السابقين، فقال: ﴿وَهُمْ لَهَا﴾؛ أي: للخيرات، ﴿سَابِقُونَ﴾: قد بلغوا ذُرُوتَهَا، وتبارَوْا هُمُ وَالرَّعِيلُ الْأَوَّلُ، ومع هذا قد سبقت لهم من الله سابقة السعادة أَنَّهُمْ سَابِقُونَ.

﴿٦٢﴾ وَلَمَّا ذَكَرَ مَسَارَعَتَهُمْ إِلَى الْخَيْرَاتِ وَسَبَقَهُمْ إِلَيْهَا؛ رَبُّمَا وَهَمَّ وَاهِمٌ أَنَّ الْمَطْلُوبَ مِنْهُمْ وَمِنْ غَيْرِهِمْ أَمْرٌ غَيْرُ مَقْدُورٍ أَوْ مَتَعَسِّرٍ؛ أخبر تعالى أنه ﴿لَا نَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ أي: بقدر ما تسعه ويفضّلُ من قوتها عنه، ليس ممّا يستوعب قوتها؛ رحمةً منه وحكمةً؛ لتيسير طريق الوصول إليه، ولتعمّر جادة السالكين في كلِّ وقت إليه. ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾: وهو الكتاب الأول الذي فيه كل شيء، وهو يطابق كلَّ واقع يكون؛ فلذلك كان حقًّا. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: ينقص من إحسانهم، أو يزداد^(١) في عقوبتهم وعصيانهم.

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾ (٦٣) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَخْفِرُونَ (٦٤) لَا تَجْعَلُوا الْيَوْمَ لَنَا لَا نُصْرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ ءَايَاتِي تُنَادِي عَلَيْكُمْ فَاكْتَسَبْتُ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا تَعْذِّبُهُمْ أَنْفُسُهُمْ فَكُفُّوا عَنْهُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّهُم لَمَكِيدُونَ (٦٦) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ يُكْرَهُوا (٦٧) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَكَانُوا لِلْحَقِّ كَافِرِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ يُكْرَهُوا (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَكَانُوا لِلْحَقِّ كَافِرِينَ (٧٠) وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَلَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١) ﴿٢﴾

(١) في (ب): «يزاد».

(٢) الآيات ما بين المعقوفتين؛ لا توجد في النسختين.

﴿٦٣﴾ يخبر تعالى أَنَّ قُلُوبَ الْمَكْذِبِينَ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا؛ أَي: وَسَطِ غَمْرَةٍ مِنَ الْجَهْلِ وَالظُّلْمِ وَالْغَفْلَةِ وَالْإِعْرَاضِ تَمْنَعُهُمْ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى هَذَا الْقُرْآنِ؛ فَلَا يَهْتَدُونَ بِهِ، وَلَا يَصِلُ إِلَى قُلُوبِهِمْ مِنْ شَيْءٍ، ﴿وَإِذَا قُرَأَ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا، وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾؛ فَلَمَّا كَانَتْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْهُ؛ عَمِلُوا^(١) بِحَسَبِ هَذَا الْحَالِ مِنَ الْأَعْمَالِ الْكَافِرِيَّةِ وَالْمَعَانِدَةِ لِلشَّرْعِ مَا هُوَ مُوجِبٌ لِعِقَابِهِمْ، وَلَكِنْ ﴿لَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ﴾: هَذِهِ الْأَعْمَالُ ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾؛ أَي: فَلَا يَسْتَغْرِبُوا عَدَمَ وَقُوعِ الْعَذَابِ فِيهِمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يُنْهِلُهُمْ لِيَعْمَلُوا هَذِهِ الْأَعْمَالِ الَّتِي بَقِيَتْ عَلَيْهِمْ مِمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمْ؛ فَإِذَا عَمِلُوهَا، وَاسْتَوْفَوْهَا؛ انْتَقَلُوا بِشَرِّ حَالَةٍ إِلَى غَضَبِ اللَّهِ وَعِقَابِهِ.

﴿٦٤ - ٦٥﴾ ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ﴾؛ أَي: مُتَنَعِمِيهِمُ الَّذِينَ مَا اعْتَادُوا إِلَّا التَّرَفَ وَالرَّفَاهِيَةَ وَالنَّعِيمَ، وَلَمْ تَحْصُلْ لَهُمُ الْمَكَارَةُ؛ فَإِذَا أَخَذْنَا هُمْ ﴿بِالْعَذَابِ﴾، وَوَجَدُوا مِنْهُ؛ ﴿إِذَا هُمْ يَجَارُونَ﴾: يَصْرُخُونَ وَيَتَوَجَّعُونَ؛ لِأَنَّهُ أَصَابَهُمْ أَمْرٌ خَالَفَ مَا هُمْ عَلَيْهِ، وَيَسْتَغِيثُونَ، فَيَقَالُ لَهُمْ: ﴿لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنْهُ لَا تَنْصُرُونَ﴾: وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمُ النَّصْرَةُ مِنَ اللَّهِ، وَانْقَطَعَ عَنْهُمْ الْغَوْثُ مِنْ جَانِبِهِ؛ لَمْ يَسْتَطِيعُوا نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ، وَلَمْ يَنْصُرْهُمْ أَحَدٌ.

﴿٦٦﴾ فَكَأَنَّهُ قِيلَ: مَا السَّبَبُ الَّذِي أَوْصَلَهُمْ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ؟ قَالَ: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾: لَتُؤْمِنُوا بِهَا وَتُقْبِلُوا عَلَيْهَا، فَلَمْ تَفْعَلُوا ذَلِكَ، بَلْ ﴿كُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ﴾؛ أَي: رَاجِعِينَ الْقَهْقَرَى إِلَى الْخَلْفِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ بَاتِّبَاعَهُمُ الْقُرْآنَ يَتَقَدَّمُونَ، وَبِالْإِعْرَاضِ عَنْهُ يَسْتَأْخِرُونَ، وَيَنْزِلُونَ إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ.

﴿٦٧﴾ ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾: قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: مَعْنَاهُ: مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ: الضَّمِيرُ يَعُودُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْهُودِ عِنْدَ الْمُخَاطَبِينَ أَوْ الْحَرَمِ؛ أَي: مُتَكَبِّرِينَ عَلَى النَّاسِ بِسَبَبِهِ، يَقُولُونَ: نَحْنُ أَهْلُ الْحَرَمِ؛ فَنَحْنُ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِنَا وَأَعْلَى. ﴿سَامِرًا﴾؛ أَي: جَمَاعَةً يَتَحَدَّثُونَ بِاللَّيْلِ حَوْلَ الْبَيْتِ. ﴿تَهْجُرُونَ﴾؛ أَي: يَقُولُونَ الْكَلَامَ الْهَجْرَ الَّذِي هُوَ الْقَبِيحُ فِي هَذَا الْقُرْآنِ؛ فَالْمَكْذُبُونَ كَانَتْ طَرِيقَتُهُمْ فِي الْقُرْآنِ الْإِعْرَاضُ عَنْهُ، وَيُوصِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِذَلِكَ، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾، وَقَالَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ.

(١) فِي (أ): «عَمِلُوا». وَالصَّوَابُ كَمَا أَثْبَتَ فِي (ب).

وَتَضَحَّكُونَ وَلَا تَبْكُونَ. وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦٨﴾، ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ فلما كانوا جامعين لهذه الرذائل؛ لَا جَرَمَ حَقَّتْ عَلَيْهِمُ الْعُقُوبَةُ، وَلَمَّا وَقَعُوا فِيهَا؛ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ نَاصِرٌ يَنْصُرُهُمْ وَلَا مَغِيثٌ يُنْقِذُهُمْ، وَيُوبِّخُونَ عِنْدَ ذَلِكَ بِهَذِهِ الْأَعْمَالِ السَّاقِطَةِ.

﴿٦٨﴾ ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾؛ أي: أفلا يتفكرون في القرآن ويتأملونه ويتدبرونه؛ أي: فإنهم لو تدبروه؛ لأَوْجَبَ لَهُمُ الْإِيمَانُ، وَلَمَنَعَهُمْ مِنَ الْكُفْرِ، وَلَكِنَّ الْمَصِيبَةَ الَّتِي أَصَابَتْهُمْ بِسَبَبِ إِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ. ودل هذا على أَنَّ تدبُّرَ القرآن يدعو إلى كُلِّ خَيْرٍ وَيُعْصِمُ مِنْ كُلِّ شَرٍّ، والذي منعهم من تدبره أَنَّ على قلوبهم أَقْفَالُهَا. ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: أَوْ منعهم من الإيمان أَنَّهُ جَاءَهُمْ رَسُولٌ وَكِتَابٌ مَا جَاءَ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ، فرضوا بسلك طريق آبائهم الضالِّين، وعارضوا كُلَّ مَا خَالَفَ ذَلِكَ! وَلِهَذَا قَالُوا هُمْ وَمَنْ أَشْبَهُهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾. فَأَجَابَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ فَهَلْ تُتَّبِعُونِ﴾: إِنْ كَانَ قَصْدُكُمْ الْحَقَّ. فَأَجَابُوا بِحَقِيقَةِ أَمْرِهِمْ: ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾.

﴿٦٩﴾ وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مَنكَرُونَ﴾؛ أي: أَوْ منعهم من اتباع الحقَّ أَنَّ رَسُولَهُمْ مُحَمَّدًا ﷺ غير معروفٍ عندهم فهم منكَرُونَ له يقولون: لَا نَعْرِفُهُ وَلَا نَعْرِفُ صَدَقَهُ، دعونا [حتى] نَنْظُرَ حَالَهُ وَنَسْأَلَ عَنْهُ مَنْ لَهُ بِهِ خَبْرَةٌ؟ أي: لَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ كَذَلِكَ؛ فَإِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ الرَّسُولَ ﷺ مَعْرِفَةً تَامَةً، صَغِيرَهُمْ وَكَبِيرَهُمْ، يَعْرِفُونَ مِنْهُ كُلَّ خُلُقٍ جَمِيلٍ، وَيَعْرِفُونَ صَدَقَهُ وَأَمَانَتَهُ، حَتَّى كَانُوا يَسْمُونَهُ - قَبْلَ الْبَعْثَةِ -: الْأَمِينُ^(١)؛ فَلِمَ لَا يَصَدِّقُونَهُ حِينَ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ الْعَظِيمِ وَالصِّدْقِ الْمَيِّينِ؟!

﴿٧٠﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾؛ أي: جنون؛ فلهذا قال ما قال! والمجنون غير مسموع منه، وَلَا عِبْرَةَ بِكَلَامِهِ؛ لِأَنَّهُ يَهْذِي بِالْبَاطِلِ وَالْكَلامِ السَّخِيفِ! قال اللَّهُ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ فِي هَذِهِ الْمَقَالَةِ: ﴿بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: بِالْأَمْرِ الثَّابِتِ الَّذِي هُوَ صَدَقٌ وَعَدْلٌ لَا اخْتِلَافَ فِيهِ وَلَا تَنَاقُضَ؛ فَكَيْفَ يَكُونُ مَنْ جَاءَ بِهِ، بِهِ جِنَّةٌ؟! وَهَلَّا يَكُونُ إِلَّا فِي أَعْلَى دَرَجِ الْكَمَالِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ! وَأَيْضًا؛ فَإِنَّ فِي

(١) كما في قصة بناء الكعبة: أخرجه الإمام أحمد (٣/٤٢٥)، والحاكم (١/٤٥٨)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/٢٩٢): «رواه أحمد، وفيه هلال بن جندب، وهو ثقة، وفيه كلام، وبقيته رجاله رجال الصحيح». وانظر «فقه السيرة» (ص ٨٠) فقد حسنها الشيخ الألباني.

هذا الانتقال مما تقدّم؛ أي: بل الحقيقة التي منعته من الإيمان أنّه ﴿جاءهم بالحقّ وأكثرهم للحقّ كارهون﴾، وأعظم الحقّ الذي جاءهم به: إخلاصُ العبادة لله وحده، وترك ما يُعبَد من دون الله، وقد علم كراحتهم لهذا الأمر وتعجّبهم منه؛ فكونُ الرسول أتى بالحقّ، وكونُهم كارهين للحقّ بالأصل، هو الذي أوجب لهم التكذيب بالحقّ؛ لا شكّاً ولا تكذيباً للرسول؛ كما قال تعالى: ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآياتِ الله يخحدون﴾.

﴿٧١﴾ فإن قيل: لم يكن الحقّ موافقاً لأهوائهم؛ لأجل أن يؤمنوا أو يُسرّعوا الانقياد؟ أجاب تعالى بقوله: ﴿ولو اتَّبَعَ الحقُّ أهواءهم لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾: ووجه ذلك أن أهواءهم متعلّقة بالظلم والكفر والفساد من الأخلاق والأعمال؛ فلو اتَّبَعَ الحقُّ أهواءهم؛ لفسدتِ السماوات والأرض؛ لفساد التصرف والتدبير المبني على الظلم وعدم العدل؛ فالسماوات والأرض ما استقامتا إلّا بالحقّ والعدل. ﴿بل أتيناهم بذكرهم﴾؛ أي: بهذا القرآن المذكّر لهم بكل خير، الذي به فخرهم وشرفهم حين يقومون به ويكونون به سادة الناس. ﴿فهم عن ذكرهم مُعْرِضُونَ﴾: شقاوة منهم وعدم توفيق؛ ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾؛ فالقرآن ومن جاء به أعظم نعمة ساقها الله إليهم، فلم يقابلوها إلا بالرد والإعراض؛ فهل بعد هذا الحرمان حرمان؟! وهل يكون وراءه إلّا نهاية الخسران؟!

﴿أَمْ تَتْلُوهُمْ حَرَمًا فَخِرَاجٌ رَّبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (٧٢).

﴿٧٢﴾ أي: أو منعهم من اتباعك يا محمد أنك تسألهم على الإجابة أجراً؛ ﴿فهم من مغرم مثقلون﴾: يتكلّفون من اتباعك بسبب ما تأخذ منهم من الأجر والخراج، ليس الأمر كذلك. ﴿فخِرَاجٌ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾: وهذا كما قال الأنبياء لأممهم: ﴿يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجريّ إلّا على الله﴾؛ أي: ليسوا يدعون الخلق طمعاً فيما يُصيّبهم منهم من الأموال، وإنما يدعونهم نصحاً لهم وتحصيلاً لمصالحهم، بل كان الرسل أنصح للخلق من أنفسهم، فجزأهم الله عن أممهم خير الجزاء، ورزقنا الاقتداء بهم في جميع الأحوال.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٧٣) ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُنَّ﴾ (٧٤).

﴿٧٣ - ٧٤﴾ ذكر الله تعالى في هذه الآيات الكريمات كل سبب موجب

لِلإِيمَانِ، وَذَكَرَ الْمَوَانِعَ، وَبَيَّنَ فُسَادَهَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، فَذَكَرَ مِنَ الْمَوَانِعِ: أَنَّ قُلُوبَهُمْ فِي غَمْرَةٍ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ، وَأَنَّهُمْ اقْتَدَوْا بِآبَائِهِمْ، وَأَنَّهُمْ قَالُوا: بِرَسُولِهِمْ جُنَّةً؛ كَمَا تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا.

وَذَكَرَ مِنَ الْأُمُورِ الْمَوْجِبَةِ لِإِيمَانِهِمْ: تَدَبُّرُ الْقُرْآنِ، وَتَلَقُّي نِعْمَةِ اللَّهِ بِالْقَبُولِ، وَمَعْرِفَةُ حَالِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَكَمَالِ صِدْقِهِ وَأَمَانَتِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا، وَإِنَّمَا سَعْيُهُ لِنَفْعِهِمْ وَمَصْلَحَتِهِمْ، وَأَنَّ الَّذِي يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ، سَهْلٌ عَلَى الْعَامِلِينَ لِاسْتِقَامَتِهِ، مُوصِلٌ إِلَى الْمَقْصُودِ مِنْ قَرَبٍ، حَنِيفِيَّةٌ سَمْحَةٌ؛ حَنِيفِيَّةٌ فِي التَّوْحِيدِ، سَمْحَةٌ فِي الْعَمَلِ؛ فَدَعَاكَ إِيَّاهُمْ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ مُوجِبٌ لِمَنْ يَرِيدُ الْحَقَّ أَنْ يَتَّبِعَكَ؛ لِأَنَّهُ مِمَّا تَشْهَدُ الْعُقُولُ وَالْفُطَرُ بِحُسْنِهِ وَمُوَافَقَتِهِ لِلْمَصَالِحِ؛ فَأَيْنَ يَذْهَبُونَ إِنْ لَمْ يَتَابِعُوا؟ فَإِنَّهُمْ لَيْسَ عِنْدَهُمْ مَا يُغْنِيهِمْ وَيَكْفِيهِمْ عَنْ مَتَابَعَتِكَ؛ لِأَنَّهُمْ ﴿عَنِ الصِّرَاطِ﴾: نَاكِبُونَ، مُتَجَبِّبُونَ، مُنْحَرِفُونَ عَنِ الطَّرِيقِ الْمَوْصِلِ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى دَارِ كَرَامَتِهِ، لَيْسَ فِي أَيْدِيهِمْ إِلَّا ضَلَالَاتٌ وَجَهَالَاتٌ، وَهَكَذَا كُلُّ مَنْ خَالَفَ الْحَقَّ؛ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ مُنْحَرِفًا فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُمْ لَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ ۝٧٦ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٧﴾.

﴿٧٥﴾ هَذَا بَيَانٌ لَشِدَّةِ تَمَرُّدِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، وَأَنَّهُمْ إِذَا أَصَابَهُم الضُّرُّ؛ دَعَوْا اللَّهَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُمْ لِيُؤْمِنُوا، أَوْ ابْتِلَاهُمْ بِذَلِكَ لِيَرْجِعُوا إِلَيْهِ؛ أَنَّ اللَّهَ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْهُمْ؛ ﴿لَجُّوا﴾؛ أَيُّ: اسْتَمَرُّوا ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾؛ أَيُّ: يَجُولُونَ فِي كُفْرِهِمْ حَاطِرِينَ مُتَرَدِّدِينَ؛ كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ حَالَهُمْ عِنْدَ رُكُوبِ الْفُلْكِ، وَأَنَّهُمْ يَدْعُونَ^(١) مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، وَيَسْتَوْنُ مَا يَشْرِكُونَ بِهِ، فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ؛ إِذَا هُمْ يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ الشَّرْكَ وَغَيْرَهُ.

﴿٧٦﴾ ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾: قَالَ الْمَفْسُورُونَ: الْمَرَادُ بِذَلِكَ الْجُوعُ الَّذِي أَصَابَهُمْ سَبْعَ سِنِينَ، وَأَنَّ اللَّهَ ابْتَلَاهُمْ بِذَلِكَ لِيَرْجِعُوا إِلَيْهِ بِالذُّلِّ وَالِاسْتِسْلَامِ، فَلَمْ

(١) فِي (ب): «يَدْعُونَهُ».

يَنْجَعُ فِيهِمْ، وَلَا نَجَحَ مِنْهُمْ أَحَدٌ. ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾؛ أَي: خضعوا وذُلُّوا، ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾: إِلَيْهِ وَيَفْتَقِرُونَ، بَلْ مَرَّ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ ثُمَّ زَالَ كَأَنَّهُ لَمْ يُصِْبْهُمْ، لَمْ يَزَالُوا فِي غِيْهِمْ وَكَفَرَهُمْ.

﴿٧٧﴾ وَلَكِنْ وِرَاءَهُمُ الْعَذَابُ الَّذِي لَا يَرُدُّ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَخْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾: كَالْقَتْلِ يَوْمَ بَدْرٍ وَغَيْرِهِ؛ ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾: آيِسُونَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، قَدْ حَضَرَهُمُ الشَّرُّ وَأَسْبَابُهُ؛ فَلِيُخَذِّرُوا قَبْلَ نَزُولِ عَذَابِ اللَّهِ الشَّدِيدِ، الَّذِي لَا يَرُدُّ؛ بِخِلَافِ مَجْرَدِ الْعَذَابِ؛ فَإِنَّهُ رُبَّمَا أَقْلَعَ عَنْهُمْ؛ كَالْعُقُوبَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ الَّتِي يُؤَذِّبُ اللَّهُ بِهَا عِبَادَهُ؛ قَالَ تَعَالَى فِيهَا: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾.

﴿٧٨﴾ يَخْبِرُ تَعَالَى بِمَنْنِهِ عَلَى عِبَادِهِ الدَّاعِي لَهُمْ إِلَى شُكْرِهِ وَالْقِيَامِ بِحَقِّهِ، فَقَالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ﴾: لِيُتَذَرِكُوا بِهِ الْمَسْمُوعَاتِ فَتَنْتَفِعُوا فِي دِينِكُمْ وَدُنْيَاكُمْ، ﴿وَالْأَبْصَارَ﴾: لِيُتَذَرِكُوا بِهَا الْمُبْصَرَاتِ فَتَنْتَفِعُوا بِهَا^(١) فِي مَصَالِحِكُمْ، ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾؛ أَي: الْعُقُولَ الَّتِي تَدْرِكُونَ بِهَا الْأَشْيَاءَ وَتَتَمَيِّزُونَ بِهَا عَنِ الْبَهَائِمِ؛ فَلَوْ عَدِمْتُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْعُقُولَ بَأَنْ كُنْتُمْ صُمًّا عَمِيًّا بِكَمَا؛ مَاذَا تَكُونُ حَالَكُمْ؟ وَمَاذَا تَفْقِدُونَ مِنْ ضُرُورِيَّاتِكُمْ وَكَمَالِكُمْ؟ أَفَلَا تَشْكُرُونَ الَّذِي مَنَّ عَلَيْكُمْ بِهَذِهِ النِّعَمِ؛ فَتَقُومُونَ بِتَوْحِيدِهِ وَطَاعَتِهِ؟ وَلَكِنَّكُمْ قَلِيلًا شَاكِرِكُمْ^(٢) مَعَ تَوَالِي النِّعَمِ عَلَيْكُمْ.

﴿٧٩﴾ ﴿وَهُوَ﴾: تَعَالَى ﴿الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أَي: بَثَّكُمْ فِي أَقْطَارِهَا وَجِهَاتِهَا، وَسَلَّطَكُمْ عَلَى اسْتِخْرَاجِ مَصَالِحِهَا وَمَنَافِعِهَا، وَجَعَلَهَا كَافِيَةً لِمَعَايِشِكُمْ وَمَسَاكِينِكُمْ. ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾: بَعْدَ مَوْتِكُمْ فَيَجَازِيكُمْ بِمَا عَمِلْتُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَتُحَدِّثُ الْأَرْضُ الَّتِي كُنْتُمْ فِيهَا بِأَخْبَارِهَا.

﴿٨٠﴾ ﴿وَهُوَ﴾: تَعَالَى وَحْدَهُ ﴿الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾؛ أَي: الْمَتَصَرِّفُ فِي الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ. ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾؛ أَي: تَعَاقُبُهُمَا وَتَنَاقُؤُهُمَا؛ فَلَوْ شَاءَ أَنْ يَجْعَلَ النَّهَارَ سَرْمَدًا، مَنَ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ

(٢) كَذَا فِي (ب)، وَفِي (أ): «شَكَرَهُمْ».

(١) فِي (ب): «فَتَنْتَفِعُونَ بِهِ».

فيه؟ ولو شاء أن يجعل الليل سرمداً من إله غير الله يأتاكم بضياء أفلا تَبْصِرُونَ؟ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لَتَسْكُنُوا فيه وَلِتَبْتَغُوا من فضله ولعلكم تشكرون. ولهذا قال هنا: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ فتعرفون أن الذي وهب لكم من النعم السمع والأبصار والأفئدة، والذي تَشْرَكُم في الأرض وحده، والذي يُحيي ويميت وحده، والذي يتصرف بالليل والنهار وحده؛ إن ذلك موجب لكم أن تُخْلِصُوا له العبادة وحده لا شريك له، وتتركوا عبادة مَنْ لا ينفع ولا يضر ولا يتصرف بشيء، بل هو عاجز من كل وجه؛ فلو كان لكم عقل؛ لم تفعلوا ذلك.

﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا لَمَبَعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾.

﴿٨١ - ٨٣﴾ أي: بل سلك هؤلاء المكذبون مسلك الأولين من المكذبين بالبعث، واستبعدوه غاية الاستبعاد، وقالوا: ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِنْآ لَمَبَعُوثُونَ﴾؛ أي: هذا لا يُتَصَوَّر ولا يدخل العقل بزعمهم. ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: ما زلنا نوجد بأن البعث كائن نحن وآبائنا، ولم نره، ولم يأت بعد. ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: قَصَصُهُمْ وَأَسْمَارُهُم التي يُتَحَدَّثُ بها وتلهي، وإلا؛ فليس لها حقيقة، وكذبوا قَبْحَهُم الله؛ فَإِنَّ الله أَرَاهِم من آيَاتِهِ أَكْبَرَ من البعث، ومثله: ﴿لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ من خَلْقِ النَّاسِ﴾، ﴿وَضَرَبَ لَنَا مِثْلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ...﴾. الآيات، ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ...﴾ الآيات.

﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْمَكْرَشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِزُ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ يَبْدَأُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُخِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾.

﴿٨٤ - ٨٥﴾ أي: قل لهؤلاء المكذبين بالبعث، العادلين بالله غيره؛ محتجاً عليهم بما أثبتوه وأقرؤا به من توحيد الربوبية وانفراد الله بها على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة، وبما أثبتوه من خلق المخلوقات العظيمة على ما أنكروه من إعادة الموتى الذي هو أسهل من ذلك: ﴿لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾؛ أي: مَنْ هو الخالق للأرض وَمَنْ عليها من حيوان ونبات وجمادٍ وبحارٍ وأنهارٍ وجبال، المالك

لذلك، المدبر له؛ فإنك إذا سألتهم^(١) عن ذلك؛ لا بد أن يقولوا: الله وحده. فقل لهم إذا أقرأوا بذلك: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: أفلا ترجعون إلى ما ذكركم الله به مما هو معلوم عنكم مستقر في فطركم قد يغيبه الإعراض في بعض الأوقات، والحقيقة أنكم إن رجعتم إلى ذاكرتكم بمجرد التأمل؛ علمتم أن مالك ذلك هو المعبود وحده، وأن إلهية من هو مملوك أبطل الباطل.

﴿٨٦ - ٨٧﴾ ثم انتقل إلى ما هو أعظم من ذلك، فقال: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ﴾: وما فيها من النيرات والكواكب السيارات والثواب، ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾: الذي هو أعلى المخلوقات وأوسعها وأعظمها؛ فمن الذي خلق ذلك ودبره وصرّفه بأنواع التدبير؟ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾؛ أي: سيقرون بأن الله رب ذلك كله، قل لهم حين يقرّون بذلك: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: عبادة المخلوقات العاجزة وتتقون الرب العظيم كامل القدرة عظيم السلطان؟! وفي هذا من لطف الخطاب من قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ والوعظ بأداة العرض الجاذبة للقلوب ما لا يخفى.

﴿٨٨ - ٨٩﴾ ثم انتقل إلى إقراهم بما هو أعظم من ذلك كله، فقال: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي: ملك كل شيء من العالم العلوي والعالم السفلي، ما نبصره وما لا نبصره، والملكو صيغة مبالغة؛ بمعنى الملك. ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾: عباده من الشر ويدفع عنهم المكاره ويحفظهم مما يضرهم، ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾؛ أي: لا يقدر أحد أن يجير على الله ولا يدفع الشر الذي قدره الله، بل ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه. ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾؛ أي: سيقرون أن الله المالك لكل شيء، المجير الذي لا يجار عليه، ﴿قُلْ﴾ لهم حين يقرّون بذلك ملزماً لهم: ﴿فَأَنى تُسْحَرُونَ﴾؛ أي: فأين تذهب عقولكم حيث عبدتم من علمتم أنهم لا ملك لهم ولا قسط من الملك، وأنهم عاجزون من جميع الوجوه، وتركتم الإخلاص للمالك العظيم القادر المدبر لجميع الأمور؟ فالعقول التي دلتكم على هذا لا تكون إلا مسحورة، وهي بلا شك قد سحرها الشيطان بما زين لهم، وحسن لهم وقلب الحقائق لهم فسحر عقولهم، كما سحرت السحرة أعين الناس.

﴿بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿٩٠﴾ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيٍّ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذْ

لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ .

﴿٩٠ - ٩٢﴾ يقول تعالى: بل أتينا هؤلاء المكذبين بالحق؛ المتضمن للصدق في الأخبار، العدل في الأمر والنهي؛ فما بالهم لا يعترفون به، وهو أحق أن يتبع، وليس عندهم ما يعوضهم عنه إلا الكذب والظلم؟! ولهذا قال: ﴿وإنهم لكاذبون. ما اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾: كذب يُعَرَّفُ بخبر الله وخبر رسوله، ويُعَرَّفُ بالعقل الصحيح، ولهذا نبّه تعالى على الدليل العقلي على امتناع إلهين فقال: ﴿إِذَا﴾؛ أي: لو كان معه آلهة كما يقولون؛ ﴿لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾؛ أي: لانفرد كل واحد من الإلهين بمخلوقاته واستقل بها، ولحرص على ممانعة الآخر ومغالبتها، ﴿وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾؛ فالغالب يكون^(١) هو الإله؛ فمع التمانع^(٢) لا يمكن وجود العالم ولا يتصور أن ينتظم هذا الانتظام المدهش للعقول، واعتبر ذلك بالشمس والقمر والكواكب الثابتة والسيارة؛ فإنها منذ خلقت وهي تجري على نظام واحد وترتيب واحد، كلها مسخرة بالقدر، مدبرة بالحكمة لمصالح الخلق كلهم، ليست مقصورة على مصلحة أحد دون أحد، ولن ترى فيها خلافاً ولا تناقضاً ولا معارضة في أدنى تصرف؛ فهل يتصور أن يكون ذلك تقدير إلهين ربّين. ﴿سبحان الله عما يصفون﴾: قد نطقت بلسان حالها، وأفهمت ببديع أشكالها: أن المدبر لها إله واحد؛ كامل الأسماء والصفات، قد افتقرت إليه جميع المخلوقات في ربوبيته لها وفي إلهيته لها؛ فكما لا وجود لها ولا دوام إلا بربوبيته؛ كذلك لا صلاح لها ولا قوام إلا بعبادته وإفراده بالطاعة. ولهذا نبّه على عظمة صفاته بأنموذج من ذلك، وهو علمه المحيط، فقال: ﴿عالم الغيب﴾؛ أي: الذي غاب عن أبصارنا وعلمنا من الواجبات والمستحيلات والامكانات ﴿والشهادة﴾: وهو ما نشاهد من ذلك. ﴿فتعالى﴾؛ أي: ارتفع وعظم ﴿عما يشركون﴾: به، ولا علم عندهم إلا ما علمه الله.

﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَى أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ .

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «أن يكون». والصواب ما أثبت.

(٢) كذا في (ب). في (أ): «فمن التمانع». والصواب ما أثبت.

﴿٩٣ - ٩٥﴾ لَمَّا أَقَامَ تَعَالَى عَلَى الْمَكْذِبِينَ أَدْلَتُهُ الْعَظِيمَةُ، فَلَمْ يَلْتَفِتُوا لَهَا، وَلَمْ يُذْعِنُوا لَهَا؛ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ، وَوُعِدُوا بِنَزُولِهِ، وَأَرْشَدَ اللَّهُ رَسُولَهُ أَنْ يَقُولَ: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ﴾؛ أَي: أَيَّ وَقْتٍ أَرَيْتَنِي عَذَابَهُمْ وَأَحْضَرْتَنِي ذَلِكَ، ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾؛ أَي: اعْصِمْنِي وَارْحَمْنِي مِمَّا ابْتَلَيْتَهُمْ بِهِ مِنَ الذُّنُوبِ الْمَوْجِبَةِ لِلنَّقَمِ، وَاحْمِنِي أَيْضاً مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي يَنْزِلُ بِهِمْ؛ لِأَنَّ الْعُقُوبَةَ الْعَامَّةَ تَعُمُّ عِنْدَ نَزُولِهَا الْعَاصِيَ وَغَيْرِهِ. قَالَ اللَّهُ فِي تَقْرِيبِ عَذَابِهِمْ: ﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾: وَلَكِنْ إِنْ أَخْرَزْنَاهُ؛ فَلِحِكْمَةٍ، وَإِلَّا؛ فَقَدَرْتَنَا صَالِحَةً لِإِقْبَاعِهِ [فِيهِمْ].

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨).

﴿٩٦﴾ هَذَا مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِهَا، فَقَالَ: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾؛ أَي: إِذَا أَسَاءَ إِلَيْكَ أَعْدَاؤُكَ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ؛ فَلَا تَقَابِلْهُمْ بِالْإِسَاءَةِ؛ مَعَ أَنَّهُ يَجُوزُ مَعَاqِبَةُ الْمُسِيءِ بِمِثْلِ إِسَاءَتِهِ، وَلَكِنْ ادْفَعْ إِسَاءَتَهُمْ إِلَيْكَ بِالْإِحْسَانِ مِنْكَ إِلَيْهِمْ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ فَضْلٌ مِنْكَ عَلَى الْمُسِيءِ، وَمِنْ مَصَالِحِ ذَلِكَ أَنَّهُ تَخَفُّ الإِسَاءَةِ عَنْكَ فِي الْحَالِ وَفِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَأَنَّهُ أَدْعَى لَجَلْبِ الْمُسِيءِ إِلَى الْحَقِّ، وَأَقْرَبَ إِلَى نَدَمِهِ وَأَسْفِهِ وَرَجُوعِهِ بِالتَّوْبَةِ عَمَّا فَعَلَ، وَيُتَّصَفُ^(١) الْعَافِي بِصِفَةِ الْإِحْسَانِ، وَيَقْهَرُ بِذَلِكَ عَدُوَّهُ الشَّيْطَانَ، وَيَسْتَوْجِبُ الثَّوَابَ مِنَ الرَّبِّ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وَمَا يُلْقَاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

وقوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾؛ أَي: بِمَا يَقُولُونَ مِنَ الْأَقْوَالِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِلْكَفْرِ وَالتَّكْذِيبِ بِالْحَقِّ، قَدْ أَحَاطَ عَلَمُنَا بِذَلِكَ، وَقَدْ حَلِمْنَا عَنْهُمْ وَأَمَهَلْنَاهُمْ وَصَبَرْنَا عَلَيْهِمْ، وَالْحَقُّ لَنَا، وَتَكْذِيبُهُمْ لَنَا؛ فَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَصْبِرَ عَلَى مَا يَقُولُونَ، وَتَقَابِلْهُمْ بِالْإِحْسَانِ. هَذِهِ وَظِيفَةُ الْعَبْدِ فِي مَقَابَلَةِ الْمُسِيءِ مِنَ الْبَشَرِ.

﴿٩٧ - ٩٨﴾ وَأَمَّا الْمُسِيءُ مِنَ الشَّيَاطِينِ؛ فَإِنَّهُ لَا يُفِيدُ فِيهِ الْإِحْسَانُ، وَلَا يَدْعُو

(١) فِي (ب): «وَلِيُتَّصَفَ».

جَزَيْتُهُ إِلَّا لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ؛ فالوظيفة في مقابلته أن يسترشد بما أرشد الله إليه رسوله، فقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ﴾؛ [أي: أعتصم بحولك وقوتك متبرئاً من حولي وقوتي]، ﴿مَنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ. وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾؛ أي: أعوذ بك من الشر الذي يصيبني بسبب مباشرتهم وهمزهم ومسهم، ومن الشر الذي بسبب حضورهم ووسوستهم، وهذه استعاذة من مادة الشر كله وأصله، ويدخل فيه الاستعاذة من جميع نزغات الشيطان ومن مسه ووسوسته؛ فإذا أعاد الله عبده من هذا الشر، وأجاب دعاءه؛ سَلِمَ من كل شر، ووفق لكل خير.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٠٠﴾.

﴿٩٩ - ١٠٠﴾ يخبر تعالى عن حال مَنْ خَصَرَهُ الموت من المفرطين الظالمين: أنه يندم في تلك الحال إذا رأى ماله، وشاهد قُبْحَ أعماله، فيطلب الرجعة إلى الدنيا، لا للتمتع بلذاتها واقتطاف شهواتها، وإنما ذلك يقول: ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾: من العمل وفرطت في جنب الله. ﴿كَلَّا﴾؛ أي: لا رجعة له ولا إمهال، قد قضى الله أنهم إليها لا يرجعون، ﴿إِنَّهَا﴾؛ أي: مقالته التي تمتئ فيها الرجوع إلى الدنيا ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾؛ أي: مجرد قول باللسان، لا يفيد صاحبه إلا الحسرة والندم، وهو أيضاً غير صادق في ذلك؛ فإنه لو رُدَّ لَعَادَ لما نُهِيَ عنه. ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي: من أمامهم وبين أيديهم برزخ، وهو الحاجز بين الشيتين؛ فهو هنا الحاجز بين الدنيا والآخرة، وفي هذا البرزخ يتنعم المطيعون، ويعذب العاصون من موتهم إلى يوم يبعثون؛ أي: فليعدوا له عُدَّتَهُ، وليأخذوا له أهْبَتَهُ.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْأَلُونَ ۝١٠١ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۝١٠٣ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمْ أَلْنَارِ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ۝١٠٤ أَلَمْ تَكُنْ أَتَيْنِي تَتْلُوا وَحَىٰ عَلَيْنَا فَوَقَفْنَا فِيهَا خَالِدُونَ ۝١٠٥ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ۝١٠٦ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ۝١٠٧ قَالَ اخْشَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝١٠٨ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ۝١٠٩ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَعِيرًا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ

ذَكَرَى وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١٠١﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ ﴿١٠٢﴾ قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَتَنَّا آلَ الْعَادِينَ ﴿١٠٤﴾ قُلْ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ .

﴿١٠١﴾ يخبر تعالى عن هول يوم القيامة، وما في ذلك [اليوم] من المزعجات والمقلقات، وأنه إذا نُفِخَ في الصور نفخة البعث، فحُشِرَ الناس أجمعون، لميقات يوم معلوم؛ أنه يُصِيبُهُم من الهول ما يُنْسِيهِم أنسابهم التي هي أقوى الأسباب، فغير الأنساب من باب أولى، وأنه لا يسأل أحدٌ أحداً عن حاله؛ لاشتغاله بنفسه؛ فلا يدري هل يَنجُو نَجَاةً لا شقاوة بعدها أو يشقى شقاوة لا سعادة بعدها؛ قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ. يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ. لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

﴿١٠٢﴾ وفي القيامة مواضع يشتد كربها ويعظم وقعها؛ كالميزان الذي يُمَيِّزُ به أعمالُ العبد، وَيُنْظَرُ فيه بالعدل ما له وما عليه، وتبين فيه مثاقيل الذر من الخير والشر. ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾: بأن رَجَحَتْ حسناته على سيئاته؛ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: لنجاتهم من النار، واستحقاقهم الجنة، وفوزهم بالثناء الجميل.

﴿١٠٣﴾ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾: بأن رَجَحَتْ سيئاته على حسناته وأحاطت بها خطيئاته؛ ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾: كلُّ خسارة غير هذه الخسارة؛ فإنها بالنسبة إليها سهلة، ولكن هذه خسارة صعبة؛ لا يُجَبَّرُ مُصَابِهَا، ولا يُسْتَذْرَكُ فَائِثُهَا؛ خسارة أبدية وشقاوة سرمديّة، قد خسر نفسه الشريفة التي يتمكّن بها من السعادة الأبدية، ففوتها هذا النعيم المقيم في جوار الربّ الكريم. ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾: لا يخرجون منها أبد الآبدين، وهذا الوعيد إنما هو - كما ذكرنا - لمن أحاطت خطيئاته بحسناته، ولا يكون ذلك إلا كافراً؛ فعلى هذا لا يُحَاسَبُ مُحَاسَبَةً مِنْ تَوَرُّنُ حَسَنَاتِهِ وَسَيِّئَاتِهِ؛ فَإِنَّهُمْ لَا حَسَنَاتَ لَهُمْ، وَلَكِنْ تَعَدُّ أَعْمَالُهُمْ وَتُحْصَى، فَيُوقَفُونَ عَلَيْهَا، وَيَقْرَرُونَ بِهَا، وَيُخَزَّنُونَ بِهَا.

وَأَمَّا مَنْ مَعَهُ أَصْلُ الْإِيمَانِ، وَلَكِنْ عَظُمَتْ سَيِّئَاتُهُ، فَرَجَحَتْ عَلَى حَسَنَاتِهِ؛ فَإِنَّهُ وَإِنْ دَخَلَ النَّارَ؛ لَا يَخْلُدُ فِيهَا كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ نصوص الكتاب والسنة.

﴿١٠٤﴾ ثم ذَكَرَ تعالى سوء مصير الكافرين، فقال: ﴿تَلَفُّحٌ وَجْوهُهُمُ النَّارُ﴾؛ أي: تغشاهم من جميع جوانبهم، حتى تصيب أعضاءهم الشريفة، ويتقطّع لهبها عن

وجوههم، ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالْحَوَى﴾: قد عَبَسَتْ وجوههم وَقَلَصَتْ شفاههم، من شدة ما هم فيه، وعظيم ما يَلْقَوْنَهُ.

﴿١٠٥﴾ فيقال لهم توبيحاً ولوماً: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾: تُدْعَوْنَ بِهَا لِتُؤْمِنُوا وَتُعْرَضَ عَلَيْكُمْ لِتَنْظُرُوا؛ ﴿فَكَنتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ﴾: ظلماً منكم وعناداً، وهي آيات بينات، دالّات على الحق والباطل، مبيّنات للمحق والمبطل؟!!

﴿١٠٦﴾ فحينئذ أقرؤا بظلمهم حيث لا ينفع الإقرار: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾؛ أي: غلبت علينا الشقاوة الناشئة عن الظلم والإعراض عن الحق والإقبال على ما يضر وترك ما ينفع، ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾: في عملهم، وإن كانوا يَدْرُونَ أَنَّهُمْ ظَالِمُونَ؛ أي: فعلنا في الدنيا فعل التائه الضال السفيه؛ كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

﴿١٠٧﴾ ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾: وهم كاذبون في وعدهم هذا؛ فإنهم كما قال تعالى: ﴿لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾، ولم يُنَبِّحِ الله لهم حجة، بل قطع أعمارهم، وعمرهم في الدنيا ما يتذكر فيه من تذكر^(١)، ويرتدع فيه المجرم.

﴿١٠٨﴾ فقال الله جواباً لسؤالهم: ﴿اخْسَوْوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا﴾: وهذا القول - نسأله تعالى العافية - أعظم قول على الإطلاق يسمعه المجرمون في التخييب والتوبيخ والذل والخسار والتأيس من كل خير والبشرى بكل شر، وهذا الكلام والغضب من الرب الرحيم أشد عليهم، وأبلغ في نكابتهم من عذاب الجحيم.

﴿١٠٩﴾ ثم ذكر الحال التي أوصلتهم إلى العذاب وقطعت عنهم الرحمة، فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾: فجمعوا بين الإيمان المقتضي لأعماله الصالحة، والدعاء لربهم بالمغفرة والرحمة، والتوسل إليه بربوبيته ومثته عليهم بالإيمان، والإخبار بسعة رحمته وعموم إحسانه، وفي ضمنه ما يدل على خضوعهم وخشوعهم وانكسارهم لربهم وخوفهم ورجائهم؛ فهؤلاء سادات الناس وفضلاؤهم.

﴿١١٠﴾ ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ﴾: أيها الكفرة الأنذال ناقصو العقول والأحلام، ﴿سِخْرِيًّا﴾: تهزؤون بهم وتحتقرونهم حتى اشتغلتم بذكر السفه، ﴿حَتَّى أَنْسَوَكُمْ

ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ: وهذا الذي أوجبَ لهم نسيانَ الذِّكْرِ اشتغالهم بالاستهزاء بهم؛ كما أنَّ نسيانهم للذِّكْرِ يحثُّهم على الاستهزاء؛ فكلُّ من الأمرين يمدُّ الآخر؛ فهل فوق هذه الجرأة جرأة؟!

﴿١١١﴾ ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾: على طاعتي وعلى أذاكم حتى وصلوا إليَّ ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾: بالنعيم المقيم والنَّجاة من الجحيم؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ...﴾ الآيات.

﴿١١٢ - ١١٤﴾ ﴿قَالَ﴾ لهم على وجه اللوم وأنهم سفهاء الأحلام حيث اكتسبوا في هذه المدَّة اليسيرة كلَّ شرٍّ أوصَلهم إلى غضبه وعقوبته، ولم يكتسبوا ما اكتسبه المؤمنون من الخير^(١) الذي يوصلهم إلى السعادة الدائمة ورضوان ربهم: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ. قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾: كلامهم هذا مبنيٌّ على استقصارهم جدًّا لمدَّة مكثهم في الدنيا، وأفاد ذلك، لكنَّه لا يفيدُ مقداره ولا يعيِّنه؛ فلهمذا قالوا: ﴿فَاسْأَلِ الْعَادِينَ﴾؛ أي: الضابطين لعدده، وأمَّا هم؛ ففي شغل شاغل وعذاب مذهل عن معرفة عدده. فقال لهم: ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾: سواء عيَّنتُم عدَّه أم لا، ﴿لَوْ أَنكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ عَلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾.

﴿١١٥ - ١١٦﴾ أي: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ أيها الخلق، ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾؛ أي: سدى وباطلاً تأكلون وتشربون وتمرحون وتتمتعون بلذات الدنيا وترككم لا نأمركم ولا ننهاكم^(٢) ولا نثيبكم ونعاقبكم، ولهذا قال: ﴿وَأَنْتُمْ عَلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾؟ لا يخطر هذا ببالكم. ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾؛ أي: تعاظم وارتفع عن هذا الظنِّ الباطل الذي يرجع إلى القدح في حكمته، ﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾: فكونه ملكاً للخلق كلُّهم حقًّا في صدقه ووعدِهِ [و] وعيده مألوهاً معبوداً لما له من الكمال ربُّ العرش العظيم فما دونه من باب أولى يمتنع أن يخلُقكم عبثاً.

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾.

(٢) في (ب): «وننهاكم».

(١) في (ب): «الخير».

﴿١١٧﴾ أي: ومن دعا مع الله آلهة غيره بلا بينة من أمره ولا برهان على ذلك يدل على^(١) ما ذهب إليه، وهذا قيد ملازم؛ فكل من دعا غير الله؛ فليس له برهان على ذلك، بل دلت البراهين على بطلان ما ذهب إليه، فأعرض عنها ظلماً وعناداً؛ فهذا سيقدم على ربه فيجازيه بأعماله ولا ينيله من الفلاح شيئاً؛ لأنه كافر، ﴿إنه لا يفلح الكافرون﴾: فكفرهم منعهم من الفلاح.

﴿١١٨﴾ ﴿وقل﴾: داعياً لربك مخلصاً له الدين: ﴿رب اغفر﴾: لنا حتى نتجنبنا من المكروه، وارحمنا لتوصلنا برحمتك إلى كل خير. ﴿وأنت خير الراحمين﴾: فكل راحم للعبد؛ فالله خير له منه، أرحم بعبد من الوالدة بولدها، وأرحم به من نفسه.

تم تفسير سورة المؤمنين من فضله^(٢) وإحسانه



تفسير سورة النور

وهي مدينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾.

﴿١﴾ أي: هذه ﴿سورة﴾ عظيمة القدر، ﴿أنزلناها﴾: رحمة منا بالعباد، وحفظناها من كل شيطان، ﴿وفرَضناها﴾: أي: قدرنا فيها ما قدرنا من الحدود والشهادات وغيرها، ﴿وأنزلنا فيها آياتٍ بَيِّنَاتٍ﴾: أي: أحكاماً جليلاً وأوامر وزواجر وحكماً عظيمة؛ ﴿لعلكم تذكرون﴾: حين نبين لكم، ونُعَلِّمكم ما لم تكونوا تعلمون.

ثم شرع في بيان تلك الأحكام المشار إليها، فقال:

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾.

﴿٢﴾ هذا الحكم في الزاني والزانية البكرين: أنهما يُجلد كل منهما مائة جلدة،

(١) في (ب): «ولا برهان يدل على». (٢) في (ب): «فضل الله».

وأما الثيب؛ فقد دلت السنة الصحيحة المشهورة أن حده الرجم^(١).

ونهانا تعالى أن تأخذنا رافةً بهما^(٢) في دين الله تمنعنا من إقامة الحد عليهما، سواء رافة طبيعية، أو لأجل قرابة أو صداقة أو غير ذلك، وأن الإيمان موجب لانتفاء هذه الرافة المانعة من إقامة أمر الله؛ فرحمته حقيقة بإقامة الحد^(٣) عليه، فنحن وإن رجعنا لجريان القدر عليه؛ فلا نرحمه من هذا الجانب.

وأمر تعالى أن يخضّر عذاب الزانيين طائفة؛ أي: جماعة من المؤمنين؛ ليشتهر ويحصل بذلك الخزي والارتداع، وليشاهدوا الحد فعلاً؛ فإن مشاهدة أحكام الشرع بالفعل مما يقوى به العلم، ويستقر بها الفهم، ويكون أقرب لإصابة الصواب؛ فلا يزاؤ فيه ولا ينقص. والله أعلم.

﴿الزَّانِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤).

﴿٣﴾ هذا بيان لرديلة الزنا، وأنه يدنس عرض صاحبه وعرض من قارنه ومازجه ما لا يفعله بقية الذنوب، فأخبر أن الزاني لا يقدم على نكاحه من النساء إلا أنثى زانية تناسب حاله حالها، أو مشركة بالله لا تؤمن ببعث ولا جزاء، ولا تلتزم أمر الله.

والزانية كذلك لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك.

﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: حرم عليهم أن ينكحوا زانياً أو ينكحوا زانية. ومعنى الآية أن من اتصف بالزنا من رجل أو امرأة، ولم تثب من ذلك؛ أن المقدم على نكاحه مع تحريم الله لذلك لا يخلو إما أن لا يكون ملتزماً لحكم الله ورسوله؛ فذاك لا يكون إلا مشركاً، وإما أن يكون ملتزماً لحكم الله ورسوله، فأقدم على نكاحه، مع علمه بزناه؛ فإن هذا النكاح زنا، والناكح زانٍ مسافح؛ فلو كان مؤمناً بالله حقاً؛ لم يقدم على ذلك.

وهذا دليل صريح على تحريم نكاح الزانية حتى تتوب، وكذلك نكاح الزاني حتى يتوب؛ فإن مقارنة الزوج لزوجته والزوجة لزوجها أشد الاقترانات

(١) كما في «صحيح البخاري» (٦٨١٤)، ومسلم (١٦٩٢).

(٢) في (ب): «رافة في».

(٣) في (ب): «حد الله».

والازدواجات، وقد قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾؛ أي: قرناءهم، فحرّم الله ذلك لما فيه من الشرّ العظيم، وفيه من قِلّة الغيرة وإلحاق الأولاد الذين ليسوا من الزوج، وكون الزاني لا يعفها بسبب اشتغاله بغيرها؛ مما بعضه كافٍ في التحريم^(١).

وفي هذا دليلٌ أنّ الزاني ليس مؤمناً كما قال النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»^(٢)؛ فهو وإن لم يكن مشركاً، فلا يُطلق عليه اسم المدح الذي هو الإيمان المطلق.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ .

﴿٤﴾ لما عظمّ تعالى أمر الزنا^(٣) بوجوب جلده وكذا رَجْمِهِ إن كان محصناً، وأنه لا تجوز مقارنته ولا مخالطته على وجه لا يَسْلَم فيه العبد من الشر؛ بين تعالى تعظيم الإقدام على الأعراض بالرمي بالزنا، فقال: ﴿والذين يرمون المحصنات﴾؛ أي: النساء الأحرار العفاف، وكذلك الرجال، لا فرق بين الأمرين، والمراد بالرمي الرمي بالزنا؛ بدليل السياق. ﴿ثم لم يأتوا﴾: على ما رموا به ﴿بأربعة شهداء﴾؛ أي: رجال عدول يشهدون بذلك صريحاً ﴿فاجلدوهم ثمانين جلدَةً﴾: بسوط متوسطٍ يؤلّم فيه، ولا يبالغ بذلك حتى يتلفه؛ لأن القصد التأديب لا الإتلاف.

وفي هذا تقريرٌ حدّ القذف، ولكن بشرط أن يكون المقدوف كما قال تعالى محصناً مؤمناً، وأما قذف غير المحصن؛ فإنه يوجبُ التعزير، ﴿ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً﴾؛ أي: لهم عقوبة أخرى، وهو أنّ شهادة القاذف غير مقبولة، ولو حدّ على القذف، حتى يتوب؛ كما يأتي. ﴿وأولئك هم الفاسقون﴾؛ أي: الخارجون عن طاعة الله، الذين قد كثر شرهم، وذلك لانتهاك ما حرّم الله، وانتهاك عِزِّ أخيه، وتسليط الناس على الكلام بما تكلم به، وإزالة الأخوة التي عقدها الله بين أهل الإيمان، ومحبة أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا. وهذا دليل على أن القذف من كبائر الذنوب.

(١) في (ب): «كافٍ للتحريم».

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) كذا في (ب)، وفي (أ) يوجد بياض على الكلمة. ولعل الصواب الزاني، والله أعلم.

﴿٥﴾ وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: فالتوبة في هذا الموضع أن يُكَذِّبَ القاذف نفسه، ويقرَّ أنه كاذبٌ فيما قال، وهو واجب عليه أن يُكَذِّبَ نفسه، ولو تيقَّن وقوعه؛ حيث لم يأت بأربعة شهداء؛ فإذا تاب القاذف وأصلح عَمَلَهُ وبَدَّلَ^(١) إساءته إحساناً؛ زال عنه الفسق، وكذلك تُقبل شهادته على الصحيح؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، يغفرُ الذنوبَ جميعاً لمن تاب وأناب. وإنما يُجلَّدُ القاذف إذا لم يأت بأربعة شهداء إذا لم يكن زوجاً؛ فإن كان زوجاً؛ فقد دُكِّرَ بقوله:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَمِيسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَمِيسَةُ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

وإنما كانت شهاداتُ الزوج على زوجته دائرة عنه الحد؛ لأنَّ الغالب أنَّ الزوج لا يُقدِّم على رمي زوجته التي يدنسُه ما يدنسُها إلا إذا كان صادقاً، ولأنَّ له في ذلك حقاً، وخوفاً من إلحاق أولادٍ ليسوا منه به، ولغير ذلك من الحكم المفقودة في غيره، فقال:

﴿٦ - ٧﴾ ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾؛ أي: الأحرار لا المملوكات ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ﴾: على رَمِيهِمْ بذلك ﴿شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾: بأن لم يُقيموا شهداء على ما رموهم به، ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾: سماها شهادة لأنها نائبةٌ منابَ الشهود؛ بأن يقول: أشهدُ بالله أنِّي لمن الصادقين فيما رميتها به. ﴿وَالْخَامِيسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾؛ أي: يزيد في الخامسة مع الشهادة المذكورة مؤكداً تلك الشهادات بأن يدَّعو على نفسه باللعة إن كان كاذباً؛ فإذا تَمَّ لعائنه؛ سقط عنه حدُّ القذف.

وظاهرُ الآياتِ ولو سَمَّى الرجلُ الذي رماها به؛ فإنه يسقطُ حَقُّه تَبَعاً لها. وهل يُقام عليها الحدُّ بمجرد لعان الرجل ونكولها أم تُحبس؟ فيه قولان للعلماء، الذي يدلُّ عليه الدليل أنه يُقام عليها الحدُّ؛ بدليل قوله: ﴿وَيَدْرَأُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ

(١) في (ب): «بَدَّلَ».

تَشْهَدُ... ﴿٩﴾ إلى آخره؛ فلولا أن العذاب - وهو الحد - قد وَجِبَ بِلْعَانِهِ؛ لم يكن لعانها دارثاً له.

﴿٨ - ٩﴾ ﴿ويدروا عنها﴾؛ أي: يدفع عنها العذاب إذا قابلت شهادات الزوج بشهادات من جنسها؛ ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، وتزید فی الخامسة مؤكدةً لذلك أن تدعو على نفسها بالغضب، فإذا تمَّ اللعان بينهما؛ فُرق بينهما [إلى] الأبد، وانتفى الولد الملاعن عنه.

وظاهر الآيات يدل على اشتراط هذه الألفاظ عند اللعان منه ومنها، واشتراط الترتيب فيها، وأن لا يُنْقَضَ منها شيء ولا يبدل شيء بشيء، وأن اللعان مختص بالزوج إذا رمى امرأته، لا بالعكس، وأن الشبه في الولد مع اللعان لا عبرة به؛ كما لا يعتبر مع الفراش، وإنما يعتبر الشبه حيث لا مرجح إلا هو.

﴿١٠﴾ ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم﴾: وجواب الشرط محذوف يدل عليه سياق الكلام؛ أي: لأحل بأحد المتلاعنين الكاذب منهما ما دعا به على نفسه، ومن رحمته وفضله ثبوت هذا الحكم الخاص بالزوجين؛ لشدة الحاجة إليه، وأن بين لكم شدة الزنا وفظاعته وفظاعة القذف به، وأن شرع التوبة من هذه الكبائر وغيرها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِآيَاتِكُمْ غُصْبَةً مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ^(١) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ^(٢) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ^(٣) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ^(٤) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ^(٥) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ^(٦) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ^(٧) يَعْظَمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ^(٨) وَيَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ^(٩) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ^(١٠) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ

(١) في النسختين إلى آخر الآيات وهو قوله: ﴿لهم مغفرة ورزق كريم﴾.

عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴿٢٥﴾ بِتَأْيِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ
وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ
مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ
أَن يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ
لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾
يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ لَقَدْ كُذِّبَتْ لِلْحَيِثُوتِ وَالْخِثْيُونِ
لِلْحَيِثُوتِ وَالطَّيِّبَاتِ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴿٣١﴾

لما ذكر فيما تقدّم تعظيم الرمي بالرّضا عموماً؛ صار ذلك كأنه مقدّمة لهذه القصّة التي وقعت على أشرف النساء أم المؤمنين رضي الله عنها، وهذه الآيات نزلت في قصة الإفك المشهورة الثابتة في الصحاح والسُّنن والمساند^(١)، وحاصلها أنّ النبي ﷺ في بعض غزواته ومعه زوجته عائشة الصديقة بنت الصديق، فانقطع عَقْدُهَا، فأنحسبت في طلبه، ورَحَلُوا جَمَلَهَا وَهُوَدَجَهَا فلم يَفْقِدوها، ثم استقلّ الجيش راحلاً، وجاءت مكانهم، وعلمت أنّهم إذا فقدوها؛ رجعوا إليها، فاستمروا في مسيرهم، وكان صفوان بن المعطل السُّلَميّ من أفاضل الصحابة رضي الله عنه، قد عرّس في أخريات القوم ونام، فرأى عائشة رضي الله عنها، فعرفها، فأناخ راحلته، فركبَها من دون أن يكلمها أو تكلمه، ثم جاء يقودُ بها بعدما نزل الجيش في الظهيرة، فلما رأى بعض المنافقين الذين في صحبة النبي ﷺ في ذلك السفر مجيء صفوان بها في هذه الحال؛ أشاع ما أشاع، ووشي الحديث، وتلقّفته الألسن، حتى اغترّ بذلك بعض المؤمنين، وصاروا يتناقلون هذا الكلام، وانحسب الوحي مدّة طويلة عن رسول الله ﷺ، وبلغ الخبر عائشة بعد ذلك بمدّة، فحزنت حزناً شديداً؛ فأنزل الله براءتها في هذه الآيات، ووعظ الله المؤمنين وأعظّم ذلك، ووَصَّاهم بالوصايا النافعة.

(١) قصة الإفك: أخرجها البخاري (٤٧٥٠ و ٤٧٥٧)، ومسلم (٢٧٧٠)، وأحمد (١٩٤/٦)، وانظر «تفسير ابن كثير» (٢٣/٦).

﴿١١﴾ فقله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ﴾؛ أي: الكذب الشنيع، وهو رمي أم المؤمنين، ﴿عَصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾؛ أي: جماعة منتسبون إليكم يا معشر المؤمنين، منهم المؤمن الصادق في إيمانه، لكنه اغترّ بترويج المنافقين، ومنهم المنافق. ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾: لما تَضَمَّنَ ذلك تبرئة أم المؤمنين ونزاهتها والتنويه بذكرها، حتى تناول عموم المدح سائر زوجات النبي ﷺ، ولما تَضَمَّنَ من بيان الآيات المضطرّ إليها العباد، التي ما زال العمل بها إلى يوم القيامة؛ فكل هذا خيرٌ عظيم، لولا مقالة أهل الإفك، لم يحصل بذلك^(١)، وإذا أراد الله أمراً؛ جعل له سبباً، ولذلك جَعَلَ الخطاب عاماً مع المؤمنين كلهم، وأخبر أن قَدْح بعضهم ببعض كقدح في أنفسهم؛ ففيه أن المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم واجتماعهم على مصالحهم كالجسد الواحد، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً؛ فكما أنه يكره أن يقدح أحد في عرضه؛ فليكره من كل أحد أن يقدح في أخيه المؤمن الذي بمنزلة نفسه، وما لم يصل العبد إلى هذه الحالة؛ فإنه من نقص إيمانه وعدم نصح. ﴿لِكُلِّ امْرِيٍّ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾: وهذا وعيدٌ للذين جاؤوا بالإفك، وأنهم سيعاقبون على ما قالوا من ذلك، وقد حدّ النبي ﷺ منهم جماعة، ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾؛ أي: معظم الإفك، وهو المنافق الخبيث عبد الله بن أبي بن سلول لعنه الله. ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: ألا وهو الخلود في الدرك الأسفل من النار.

﴿١٢﴾ ثم أرشد الله عباده عند سماع مثل هذا الكلام، فقال: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾؛ أي: ظنّ المؤمنون بعضهم ببعض خيراً، وهو السلامة مما رُمُوا به، وأن ما معهم من الإيمان المعلوم يدفع ما قيل فيهم من الإفك الباطل. ﴿وَقَالُوا﴾ بسبب ذلك الظن: ﴿سُبْحَانَكَ﴾؛ أي: تنزيهاً لك من كل سوء، وعن أن تبطل أصفياك بالأمور الشنيعة. ﴿هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾؛ أي: كذب وبهت من أعظم الأشياء وأبينها؛ فهذا من الظن الواجب حين سماع المؤمن عن أخيه المؤمن مثل هذا الكلام، وأن يبرئه بلسانه، ويكذب القائل لذلك.

﴿١٣﴾ ﴿لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بَأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾؛ أي: هلاً جاء الرامون على ما رَمَوْا به بأربعة شهداء؛ أي: عدول مرضيين، ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ

الكاذبون ﴿١٤﴾: وإن كانوا في أنفسهم قد تيقنوا ذلك؛ فإنهم كاذبون في حكم الله؛ لأنه حرّم عليهم التكلّم بذلك من دون أربعة شهود، ولهذا قال: ﴿فأولئك عند الله هم الكاذبون﴾: ولم يقل: فأولئك هم الكاذبون، وهذا كله من تعظيم حرمة عِرض المسلم؛ بحيث لا يجوز الإقدام على رميه من دون نصاب الشهادة بالصدق.

﴿١٤﴾ ﴿ولولا فضلُ الله عليكم ورحمتهُ في الدنيا والآخرة﴾: بحيث شملكم إحسانه فيهما في أمر دينكم ودنياكم ﴿لَمَسَّكُمْ فيما أَفْضَيْتُمْ﴾؛ أي: خضتم ﴿فيه﴾: من شأن الإفك ﴿عذابٌ عظيمٌ﴾: لاستحقاقكم ذلك بما قلتم، ولكن من فضل الله عليكم ورحمته أن شرّع لكم التوبة، وجعل العقوبة مطهرة للذنوب.

﴿١٥﴾ ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسَّبْتِ﴾: أي: تلقّفونه ويلقيه بعضكم إلى بعض وتستوشون حديثه وهو قولٌ باطل. ﴿وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علمٌ﴾: والأمران محظوران؛ التكلّم بالباطل، والقول بلا علم. ﴿وتحسبونه هيناً﴾: فلذلك أقدم عليه من أقدم من المؤمنين الذين تابوا منه. وتطهّروا بعد ذلك. ﴿وهو عند الله عظيمٌ﴾: وهذا فيه الزجرُ البالغ عن تعاطي بعض الذنوب على وجه التهاون بها؛ فإن العبد لا يفيدُه حسابُه شيئاً، ولا يخفّف من عقوبته الذنب، بل يضاعف الذنب، ويسهل عليه مواقعة مرة أخرى.

﴿١٦﴾ ﴿ولولا إذ سمعتموه﴾؛ أي: وهلاً إذ سمعتم أيها المؤمنون كلام أهل الإفك، ﴿قلتم﴾: منكرين لذلك معظمين لأمره: ﴿ما يكون لنا أن نتكلّم بهذا﴾؛ أي: ما ينبغي لنا وما يليق بنا الكلام بهذا الإفك الممين؛ لأن المؤمن يمنعه إيمانه من ارتكاب القبائح. ﴿هذا بهتانٌ﴾؛ أي: كذب عظيم.

﴿١٧﴾ ﴿يعظّمكم الله أن تعودوا لمثله﴾؛ أي: لنظيره من رمي المؤمنين بالفجور؛ فالله يعظّمكم وينصّحكم عن ذلك، ونعم المواعظ والنصائح من ربنا؛ فيجب علينا مقابلتها بالقبول والإذعان والتسليم والشكر له على ما بين لنا، أن الله نِعماً يعظّمكم به. ﴿إن كنتم مؤمنين﴾: دلّ ذلك على أن الإيمان الصادق يمنع صاحبه من الإقدام على المحرّمات.

﴿١٨﴾ ﴿وبيّن الله لكم الآيات﴾: المشتمة على بيان الأحكام والوعظ والزجر والترغيب والترهيب، يوضّحها لكم توضيحاً جلياً. ﴿والله عليم حكيم﴾^(١)؛ أي:

(١) زيادة من هامش (أ) بخط مغاير.

كامل العلم، عامُ الحكمة؛ فمن علمه وحكمته أن علمكم من علمه، وإن كان ذلك راجعاً لمصالحكم في كل وقت.

﴿١٩﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَحْبُونُ أَنْ تَشِيْعَ الْفَاحِشَةُ﴾؛ أي: الأمور الشنيعة المستقبحة، فيحبون أن تشتهر الفاحشة ﴿فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: موجه للقلب والبدن، وذلك لغشّه لإخوانه المسلمين، ومحبة الشرّ لهم، وجراءته على أعراضهم؛ فإذا كان هذا الوعيد لمجرد محبة أن تشيع الفاحشة واستحلاء ذلك بالقلب؛ فكيف بما هو أعظم من ذلك من إظهاره ونقله؟ وسواء كانت الفاحشة صادرة أو غير صادرة، وكل هذا من رحمة الله لعباده المؤمنين، وصيانة أعراضهم؛ كما صان دماءهم وأموالهم، وأمرهم بما يقتضي المصافاة، وأن يحبّ أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾: فلذلك علمكم، ويبيّن لكم ما تجهلونه.

﴿٢٠﴾ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: قد أحاط بكم من كل جانب ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ عليكم، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ﴾: لما بيّن لكم هذه الأحكام والمواعظ والحكم الجليّة، ولما أمهل من خالف أمره، ولكن فضله ورحمته، وأن ذلك وصفه اللازم أثر لكم من الخير الدنيوي والأخروي ما لن تحصوه أو تعدّوه.

﴿٢١﴾ ولما نهى عن هذا الذنب بخصوصه؛ نهى عن الذنوب عموماً، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾؛ أي: طرقه ووساوسه. وخطوات الشيطان يدخل فيها سائر المعاصي المتعلقة بالقلب واللسان والبدن.

ومن حكمته تعالى أن بيّن الحكم - وهو النهي عن اتباع خطوات الشيطان - والحكمة - وهو بيان ما في المنهي عنه من الشرّ المقتضي والداعي لتركه -، فقال: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ﴾؛ أي: الشيطان ﴿يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾؛ أي: ما تستفحشه العقول والشرائع من الذنوب العظيمة مع ميل بعض النفوس إليه، ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾: وهو ما تُنكره العقول ولا تعرفه؛ فالمعاصي التي هي خطوات الشيطان لا تخرج عن ذلك، فهى الله عنها العباد نعمة منه عليهم أن يشكروه ويذكروه؛ لأن ذلك صيانة لهم عن التدنّس بالردائل والقبائح؛ فمن إحسانه عليهم أن نهاهم عنها كما نهاهم عن أكل السموم القاتلة ونحوها. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ ما زكى منكم من أحد أبداً؛ أي: ما تطهر من اتباع خطوات الشيطان؛ لأنّ الشيطان يسعى هو وجنّده في الدعوة إليها وتحسينها، والنفس ميالة إلى السوء أمانة

به، والنقصُ مستولٍ على العبدِ من جميع جهاته، والإيمانُ غير قوِيٍّ؛ فلو خُلِّيَ وهذه الدواعي؛ ما زكى أحدٌ بالتطهّر من الذنوب والسيئات والنماء بفعل الحسنات؛ فإنّ الزكاء يتضمّن الطهارة والنماء، ولكنّ فضلَه ورحمته أوجبا أن يتزكى منكم من تزكّى، وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم! آت نفسي تقواها، وزكّها أنت خيرٌ من زكّاها، أنت وليّها ومولاها»^(١). ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ﴾: من يعلمُ منه أن يتزكى بالتزكية، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿٢٢﴾ ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾؛ أي: لا يحلف ﴿أولو الفضل منكم والسّعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليغفوا وليصفحوا﴾: كان من جملة الخائضين في الإفك مسطح بن أثاثه، وهو قريب لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان مسطح فقيراً من المهاجرين في سبيل الله، فحلف أبو بكر أن لا يُنفقَ عليه؛ لقوله الذي قال، فنزلت هذه الآية [ينهاه]^(٢) عن هذا الحلف المتضمّن لقطع النفقة عنه، ويحثّه على العفو والصفح، ويعدّه بمغفرة الله إن غفر له، فقال: ﴿أَلَا تَحْبُونُ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: إذا عامَلْتُم عبيدَه بالعفو والصفح؛ عاملكم بذلك، فقال أبو بكر لما سمع هذه الآية: بلى والله؛ إني لأحبُّ أن يغفرَ الله لي، فرجّع النفقة إلى مسطح.

وفي هذه الآية دليلٌ على النفقة على القريب، وأنّه لا تُترك النفقة والإحسان بمعصية الإنسان، والحثُّ على العفو والصفح ولو جرى منه ما جرى من أهل الجرائم.

﴿٢٣﴾ ثم ذكر الوعيدَ الشديدَ على رمي المحصنات، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾؛ أي: العفاف عن الفجور ﴿الْغَافِلَاتِ﴾: اللاتي^(٣) لم يخطر ذلك بقلوبهنّ، ﴿الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾: واللعنة لا تكون إلا على ذنب كبير، وأكّد اللعنة بأنّها متواصلة عليهم في الدارين. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: وهذا زيادةٌ على اللعنة، أبعدهم عن رحمته وأحلّ بهم شدةً نقمته، وذلك العذاب يوم القيامة.

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٢) من حديث زيد بن أرقم.

(٢) في (ب): «يزكي».

(٣) كذا في (ب). وفي (أ): «ينهاهم».

(٤) في (ب): «التي».

﴿٢٤﴾ ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: فكلُّ جارحةٍ تشهدُ عليه بما عَمِلَتْه، يُنْطِقُهَا الذي أنطق كلَّ شيءٍ؛ فلا يمكنه الإنكار، ولقد عدل في العباد مَنْ جَعَلَ شهودَهُمْ من أنفسهم.

﴿٢٥﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّقُهمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾؛ أي: جزاءهم على أعمالهم الجزاء الحقُّ الذي بالعدل والقسط؛ يجدون جزاءها موافقاً لم يفقدوا منها شيئاً، ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهذا الكتابِ لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضراً ولا يَظْلِمُ رَبُّكَ أحداً﴾، ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ في ذلك الموقف العظيم ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾، فيعلمون انحصار الحقِّ المبين في الله تعالى؛ فأوصافه العظيمة حقٌّ، وأفعاله هي الحقُّ، وعبادته هي الحقُّ، ولقاؤه حقٌّ، [ووعده] ووعيدُه حقٌّ، وحكمه الدينيُّ والجزائيُّ حقٌّ، ورسُلُه حقٌّ؛ فلا ثمَّ حقٌّ إلا في الله، وما من الله.

﴿٢٦﴾ ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾؛ أي: كلُّ خبيثٍ من الرجال والنساء والكلمات والأفعال مناسبٌ للخبيث وموافقٌ له ومقتربٌ به ومشاكلٌ له، وكلُّ طيبٍ من الرجال والنساء والكلمات والأفعال مناسبٌ للطيب وموافقٌ له ومقتربٌ به ومشاكلٌ له؛ فهذه كلمةٌ عامةٌ وحصرٌ لا يخرجُ منه شيءٌ، من أعظم مفرداته أنَّ الأنبياء، خصوصاً أولي العزم منهم، خصوصاً سيدهم محمد ﷺ، الذي هو أفضلُ الطيبين من الخلق على الإطلاق، لا يناسبهم إلا كلُّ طيبٍ من النساء؛ فالقدح في عائشة رضي الله عنها بهذا الأمر قدحٌ في النبي ﷺ، وهو المقصودُ بهذا الإفك من قصد المنافقين؛ فمجردُ كونها زوجةً للرسول ﷺ يعلمُ أنَّها لا تكون إلا طيبةً طاهرةً من هذا الأمر القبيح؛ فكيف وهي ما هي^(١) صديقةُ النساء وأفضلُهن وأعلمُهن وأطيبُهن حبيبةُ رسول ربِّ العالمين التي لم ينزل الوحيُّ عليه وهو في لحافِ زوجةٍ من زوجاته غيرها^(٢)؟!

ثم صرَّح بذلك بحيث لا يبقى لمبطل مقالاً، ولا لشكٍّ وشبهةٍ مجالاً، فقال: ﴿أُولَئِكَ مَبْرُؤُونَ مما يقولون﴾: والإشارةُ إلى عائشة رضي الله عنها أصلاً، وللمؤمنات المحصنات الغافلات تبعاً لها. ﴿مَغْفِرَةٌ﴾: تستغرق الذنوب. ﴿وَرَزَقٌ كريمٌ﴾: في الجنة صادرٌ من الربِّ الكريم.

(١) في (ب): «وهي هي».

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٨١)، ومسلم (٢٤٤٢) عن عائشة رضي الله عنها.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ .

﴿٢٧﴾ يُرشد الباري عباده المؤمنين أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم بغير استئذان؛ فإنَّ في ذلك عدَّة مفسدٍ:

منها: ما ذكره الرسول ﷺ: حيث قال: «إِنَّمَا جُعِلَ الاستئذانُ من أجل البصر»^(١)؛ فبسبب الإخلال به يقع البصر على العورات التي داخل البيوت؛ فإنَّ البيت للإنسان في ستر عورة ما وراءه بمنزلة الثوب في ستر عورة جسده.

ومنها: أنَّ ذلك يوجب الرِّيبة من الداخل، ويتَّهم بالشرِّ سرقة أو غيرها؛ لأنَّ الدُّخول خفية يدلُّ على الشرِّ، ومنع الله المؤمنين من دخول غير بيوتهم ﴿حتى تَسْتَأْذِنُوا﴾^(٢)؛ أي: تستأذِنوا، سمى الاستئذان استئناساً؛ لأنَّ به يحصلُ الاستئناس، وبعده تحصل الوحشة، ﴿وتُسَلِّمُوا على أهلها﴾: وصفة ذلك ما جاء في الحديث: «السلام عليكم، أَدْخِلْ؟»^(٣). ﴿ذَلِكُمْ﴾؛ أي: الاستئذان المذكور ﴿خيرٌ لكم لعلَّكم تَذَكَّرُونَ﴾: لاشتماله على عدَّة مصالح، وهو من مكارم الأخلاق الواجبة؛ فإنَّ أذن؛ دخل المستأذن.

﴿٢٨﴾ ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾: فلا تدخلوا فيها ﴿حتى يُؤْذَنَ لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا﴾؛ أي: فلا تمتنعوا من الرجوع ولا تغضبوا منه؛ فإنَّ صاحب المنزل لم يمتنعكم حقاً واجباً لكم، وإنَّما هو متبرِّع؛ فإنَّ شاء أذن أو منع؛ فأنتم لا تأخذ أحدكم الكبر والاشمئزاز من هذه الحال؛ ﴿هو أَزْكَىٰ لكم﴾؛ أي: أشدُّ لتطهيركم من السيئات وتنميتكم بالحسنات. ﴿والله بما تعملون عليم﴾: فيجازي كلَّ عامل بعمله من كثرة وقلة وحسنٍ وعديه.

(١) أخرجه البخاري (٦٢٤١)، ومسلم (٢١٥٦) من حديث سهل بن سعد.

(٢) في (ب): «يستأنسوا».

(٣) أخرجه أحمد (٤١٤/٣)، وأبو داود (٥١٧٦)، والترمذي (٢٨٥٣)، والحديث صحيحه الألباني في «الصحيحة» (٨١٨).

﴿٢٩﴾ هَذَا الْحُكْمُ فِي الْبُيُوتِ الْمَسْكُونَةِ سِوَاهُ كَانَ فِيهَا مَتَاعٌ لِلْإِنْسَانِ أَمْ لَا، وَفِي الْبُيُوتِ غَيْرِ الْمَسْكُونَةِ الَّتِي لَا مَتَاعَ فِيهَا لِلْإِنْسَانِ، وَأَمَّا الْبُيُوتُ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا أَهْلُهَا، وَفِيهَا مَتَاعٌ الْإِنْسَانِ الْمَحْتَاجُ لِلدُّخُولِ إِلَيْهِ، وَلَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ يَتِمَكَّنُ مِنْ اسْتِئْذَانِهِ، وَذَلِكَ كِبُيُوتِ الْكِرَاءِ وَغَيْرِهَا؛ فَقَدْ ذَكَرَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾؛ أَي: حَرْجٌ وَإِثْمٌ؛ دَلٌّ عَلَى أَنَّ الدُّخُولَ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ فِي الْبُيُوتِ السَّابِقَةِ أَنَّهُ مُحَرَّمٌ وَفِيهِ حَرْجٌ ﴿أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾: وَهَذَا مِنْ احْتِرَازَاتِ الْقُرْآنِ الْعَجَبِيَّةِ؛ فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾: لَفْظٌ عَامٌّ فِي كُلِّ بَيْتٍ لَيْسَ مَلِكًا لِلْإِنْسَانِ، أَخْرَجَ مِنْهُ تَعَالَى الْبُيُوتَ الَّتِي لَيْسَتْ مَلَكَهَ وَفِيهَا مَتَاعُهُ وَلَيْسَ فِيهَا سَاكِنٌ، فَاسْقَطَ الْحَرْجَ فِي الدُّخُولِ إِلَيْهَا. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾: أَحْوَالَكُمْ الظَّاهِرَةَ وَالْخَفِيَّةَ، وَعَلِمَ مَصَالِحَكُمْ؛ فَلِذَلِكَ شَرَعَ لَكُمْ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ وَتَضْطَرُّونَ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ.

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّونَ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٢٩).

﴿٣٠﴾ أَي: أَرْشِدِ الْمُؤْمِنِينَ وَقُلْ لَهُمُ الَّذِينَ مَعَهُمْ إِيْمَانٌ يَمْنَعُهُمْ مِنْ وَقُوعِ مَا يُخِلُّ بِالْإِيْمَانِ ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾: عَنِ النَّظَرِ إِلَى الْعَوْرَاتِ وَإِلَى النِّسَاءِ الْأَجْنِبِيَّاتِ وَإِلَى الْمُرْدَانِ، الَّذِينَ يُخَافُ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِمُ الْفِتْنَةُ وَإِلَى زِينَةِ الدُّنْيَا الَّتِي تَفْتِنُ وَتَوَقِّعُ فِي الْمَحْذُورِ. ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾: عَنِ الْبُطْحِ الْحَرَامِ فِي قُبُلٍ أَوْ ذُبُرٍ أَوْ مَا دُونَ ذَلِكَ وَعَنِ التَّمَكُّنِ مِنْ مَسْهَا وَالنَّظَرِ إِلَيْهَا. ﴿ذَلِكَ﴾: الْحَفِظُ لِلْأَبْصَارِ وَالْفُرُوجِ ﴿أَزْكَى لَهُمْ﴾: أَطْهَرُ وَأَطْيَبُ وَأَنْمَى لِأَعْمَالِهِمْ؛ فَإِنَّ مَنْ حَفِظَ فَرْجَهُ وَبَصَرَهُ؛ طَهَّرَ مِنَ الْحَبَثِ الَّذِي يَتَدَنَّسُ بِهِ أَهْلُ الْفَوَاحِشِ، وَزَكَّتْ أَعْمَالَهُ بِسَبَبِ تَرْكِ الْمَحْرَمِ الَّذِي ^(١) تَطْمَعُ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَتَدْعُو إِلَيْهِ؛ فَمَنْ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ؛ عَوَّضَهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ، وَمَنْ غَضَّ بَصَرَهُ عَنِ الْمَحْرَمِ أَنْارَ اللَّهُ بَصِيرَتَهُ، وَلَئِنْ الْعَبْدُ إِذَا حَفِظَ فَرْجَهُ وَبَصَرَهُ عَنِ الْحَرَامِ وَمَقْدَمَاتِهِ مَعَ دَوَاعِي الشَّهْوَةِ؛ كَانَ حَفِظَهُ لْغَيْرِهِ أَبْلَغَ، وَلِهَذَا سَمَّاهُ اللَّهُ حَفِظًا؛ فَالشَّيْءُ الْمَحْفُوظُ إِنْ لَمْ يَجْتَهِدْ حَافِظُهُ فِي مَرَاقِبَتِهِ وَحَفِظِهِ وَعَمَلِ الْأَسْبَابِ الْمَوْجِبَةِ لِحَفِظِهِ؛ لَمْ يَنْحَفِظْ، كَذَلِكَ الْبَصَرُ وَالْفَرْجُ إِنْ لَمْ يَجْتَهِدِ الْعَبْدُ فِي حَفِظِهِمَا؛ أَوْقَعَاهُ فِي بَلَايَا وَمَحَنٍ.

(١) فِي (ب): «الَّتِي».

وتأمل كيف أمر بحفظ الفرج مطلقاً لأنه لا يُباح في حالة من الأحوال، وأما البصر؛ فقال: ﴿يَغْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾: أتى بأداة مِنْ الدالة على التبعيض؛ فإنه يجوز النظر في بعض الأحوال لحاجة؛ كنظر الشاهد والمعامل والخاطب ونحو ذلك. ثم ذكرهم بعلمه بأعمالهم ليجتهدوا في حفظ أنفسهم من المحرمات.

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الذِّي لَمْ يَطْهَرُوا عَلَى عَوَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿٣١﴾ لما أمر المؤمنين بغض الأبصار وحفظ الفروج؛ أمر المؤمنات بذلك، فقال: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾: عن النظر إلى العورات والرجال بشهوة ونحو ذلك من النظر الممنوع. ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾: من التمكين من جماعها أو مسها أو النظر المحرم إليها، ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾: كالثياب الجميلة والحلي وجميع البدن كله من الزينة. ولما كانت الثياب الظاهرة لا بد لها منها؛ قال: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾؛ أي: الثياب الظاهرة التي جرت العادة بلبسها إذا لم يكن في ذلك ما يدعو إلى الفتنة بها، ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾: ولهذا لكمال الاستتار.

ويدل ذلك على أن الزينة التي يحرم إداؤها يدخل فيها جميع البدن كما ذكرنا. ثم كرر النهي عن إبداء زينتهن؛ ليستثني منه قوله: ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾؛ أي: أزواجهن، ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ﴾: يشمل الأب بنفسه والجد وإن علا، [أو أبائهن أو أبناء بُعُولَتِهِنَّ]: ويدخل فيه الأبناء، أو أبناء البعولة مهما نزلوا، [أو إخوانهن أو بنى إخوانهن]: أشقاء أو لأب أو لأم. ﴿أو بنى أخواتهن أو نسائهن﴾؛ أي: يجوز للنساء أن ينظر بعضهن إلى بعض مطلقاً، ويحتمل أن الإضافة تقتضي الجنسية؛ أي: النساء المسلمات اللاتي من جنسكن؛ ففيه دليل لمن قال: إن المسلمة لا يجوز أن تنظر إليها الذميمة، ﴿أو ما ملكت أيمانهن﴾: فيجوز للمملوك إذا كان كله للأنثى أن ينظر لسيدته ما دامت مالكة له كله؛ فإذا زال الملك أو بعضه؛ لم يجز

النظر، ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾؛ أي: [أو] ^(١) الذين يَتَّبِعُونَكُمْ ويتعلّقون بكم من الرجال الذين لا إربةَ لهم في هذه الشهوة؛ كالمعتوه الذي لا يدري ما هنالك، وَكَالْعِثْنِ الذي لم يبقَ له شهوةٌ لا في فرجه ولا في قلبه؛ فَإِنَّ هَذَا لَا مَحْذُورَ مِنْ نَظَرِهِ. ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾؛ أي: الأطفال الذين دونَ التمييز؛ فَإِنَّهُ يَجُوزُ نَظَرُهُمُ لِلنِّسَاءِ الْأَجَانِبِ، وَعَلَّلَ تَعَالَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ﴿لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾؛ أي: ليس لهم علمٌ بذلك، ولا وجدت فيهم الشهوة بعد، ودلّ هذا أَنَّ المميّزَ تسترُ منه المرأةُ؛ لَأَنَّهُ يَظْهَرُ عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ.

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾؛ أي: لا يَضْرِبْنَ الْأَرْضَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيَصُوتَ ما عليهنَّ من حلي كخلاخل وغيرها، فَتُعْلَمَ زِينَتُهَا بِسَبَبِهِ، فَيَكُونَ وَسِيلَةً إِلَى الْفِتْنَةِ.

وَيُؤْخَذُ مِنْ هَذَا وَنَحْوِهِ قَاعِدَةٌ سَدُّ الْوَسَائِلِ، وَأَنَّ الْأَمْرَ إِذَا كَانَ مَبَاحاً وَلَكِنَّهُ يَفْضِي إِلَى مُحْرَمٍ أَوْ يُخَافُ مِنْ وَقْعِهِ؛ فَإِنَّهُ يَمْنَعُ مِنْهُ. فَالضَّرْبُ بِالرَّجْلِ فِي الْأَرْضِ الْأَصْلُ أَنَّهُ مَبَاحٌ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ وَسِيلَةً لَعِلْمِ الزَّيْنَةِ؛ مَنَعَ مِنْهُ.

ولما أمر تعالى بهذه الأوامر الحسنة، ووَصَّى بِالْوَصَايَا الْمُسْتَحْسَنَةِ، وَكَانَ لَا بَدَّ مِنْ وَقْعِ تَقْصِيرٍ مِنَ الْمُؤْمِنِ بِذَلِكَ؛ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالتَّوْبَةِ، فَقَالَ: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾، [لأنَّ الْمُؤْمِنَ يَدْعُوهُ إِيمَانُهُ إِلَى التَّوْبَةِ]. ثُمَّ عَلَّقَ عَلَى ذَلِكَ الْفَلَاحَ، فَقَالَ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾: فلا سَبِيلَ إِلَى الْفَلَاحِ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ، وَهِيَ الرُّجُوعُ مِمَّا يَكْرَهُهُ اللَّهُ ظَاهِراً وَبَاطِناً إِلَى مَا يَحِبُّهُ ظَاهِراً وَبَاطِناً. ودلّ هذا أَنَّ كُلَّ مُؤْمِنٍ مُحْتَاجٌ إِلَى التَّوْبَةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ خَاطِبُ الْمُؤْمِنِينَ جَمِيعاً. وَفِيهِ الْحَثُّ عَلَى الْإِخْلَاصِ بِالتَّوْبَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ﴾؛ أي: لا لِمَقْصِدٍ غَيْرِ وَجْهِهِ مِنْ سَلَامَةٍ مِنْ آفَاتِ الدُّنْيَا أَوْ رِيَاءٍ وَسَمْعَةٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الْفَاسِدَةِ.

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْطِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٢﴾ وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۚ وَآتُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِنَتَكُمْ عَلَى الْبِعَاءِ إِنْ أَرَدْنَا تَحْصِنًا لَّيَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٣﴾.

(١) في (أ): «والذين».

﴿٣٢﴾ يَأْمُرُ تَعَالَى الْأَوْلِيَاءَ وَالْأَسْيَادَ بِالنِّكَاحِ مَنْ تَحْتَ وَلَا يَتَّبِعُهُمْ مِنَ الْإِيَامَى، وَهُمْ مَنْ لَا أَزْوَاجَ لَهُمْ مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ ثَيِّبٍ وَأَبْكَارٍ، فَيَجِبُ عَلَى الْقَرِيبِ وَوَلِيِّ الْيَتِيمِ أَنْ يَزُوجَ مَنْ يَحْتَاجُ لِلزَّوْاجِ مِمَّنْ تَجِبُ ثَقَّتُهُ عَلَيْهِ، وَإِذَا كَانُوا مَأْمُورِينَ بِالنِّكَاحِ مَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ؛ كَانَ أَمْرُهُمْ بِالنِّكَاحِ بَأَنْفُسِهِمْ مِنْ بَابِ أُولَى. ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾: يُحْتَمَلُ أَنَّ الْمَرَادَ بِالصَّالِحِينَ صَلَاحُ الدِّينِ، وَأَنَّ الصَّالِحَ مِنَ الْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ - وَهُوَ الَّذِي لَا يَكُونُ فَاجِرًا زَانِيًا - مَأْمُورٌ سَيِّدُهُ بِالنِّكَاحِ جَزَاءً لَهُ عَلَى صَلَاحِهِ وَتَرْغِيئًا لَهُ فِيهِ، وَلِأَنَّ الْفَاسِدَ بِالزَّانَا مِنْهِيٌّ عَنْ تَزْوُجِهِ، فَيَكُونُ مُؤَيِّدًا لِلْمَذْكُورِ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ أَنَّ نِكَاحَ الزَّانِي وَالزَّانِيَةِ مُحَرَّمٌ حَتَّى يَتُوبَ، وَيَكُونُ التَّخْصِيصُ بِالصَّلَاحِ فِي الْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ دُونَ الْأَحْرَارِ؛ لَكثْرَةِ وَجُودِ ذَلِكَ فِي الْعَبِيدِ عَادَةً.

وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الْمَرَادَ بِالصَّالِحِينَ الصَّالِحِينَ لِلتَّزْوُجِ الْمُحْتَاجِينَ إِلَيْهِ مِنَ الْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ، يُؤَيِّدُ هَذَا الْمَعْنَى أَنَّ السَّيِّدَ غَيْرَ مَأْمُورٍ بِتَزْوِيجِ مَمْلُوكِهِ قَبْلَ حَاجَتِهِ إِلَى الزَّوْاجِ، وَلَا يَبْعُدُ إِرَادَةُ الْمَعْنَيْنِ كِلَيْهِمَا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ يَكُونُوا فَقَرَاءً﴾؛ أَيُّ: الْأَزْوَاجِ وَالْمَتَزَوِّجِينَ، ﴿يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: فَلَا يَمْنَعُكُمْ مَا تَتَوَهَّمُونَ مِنْ أَنَّهُ إِذَا تَزَوَّجَ افْتَقَرَ بِسَبَبِ كَثْرَةِ الْعَائِلَةِ وَنَحْوِهِ.

وَفِيهِ حُثٌّ عَلَى التَّزْوُجِ وَوَعْدٌ لِلْمَتَزَوِّجِ بِالْغِنَى بَعْدَ الْفَقْرِ. ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾: كَثِيرُ الْخَيْرِ عَظِيمُ الْفَضْلِ. ﴿عَلِيمٌ﴾: بِمَنْ يَسْتَحِقُّ فَضْلَهُ الدِّينِيُّ وَالْدُنْيَوِيُّ أَوْ أَحَدُهُمَا مِمَّنْ لَا يَسْتَحِقُّ، فَيُعْطِي كَلًّا مَا عِلْمُهُ، وَاقْتَضَاهُ حُكْمُهُ.

﴿٣٣﴾ ﴿وَلَيْسْتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: هَذَا حُكْمُ الْعَاجِزِ عَنِ النِّكَاحِ، أَمْرُهُ اللَّهُ أَنْ يَسْتَغْفَرَ؛ أَنْ يَكْفَى عَنْ الْمَحْرَمِ وَيَفْعَلَ الْأَسْبَابَ الَّتِي تَكْفِيهِ عَنْهُ، مِنْ صَرْفِ دَوَاعِي قَلْبِهِ بِالْأَفْكَارِ الَّتِي تَخْطُرُ بِإِقْبَاعِهِ فِيهِ، وَيَفْعَلَ أَيْضًا كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ! مِنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ؛ فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؛ فَعَلَيْهِ بِالْصُّومِ، فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ»^(١). وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾؛ أَيُّ: لَا يَقْدِرُونَ نِكَاحًا: إِمَّا لْفَقْرِهِمْ، أَوْ فَقْرَ أَوْلِيَائِهِمْ وَأَسْيَادِهِمْ، أَوْ امْتِنَاعِهِمْ مِنْ تَزْوِيجِهِمْ، وَلَيْسَ لَهُمْ قُدْرَةٌ^(٢) عَلَى إِجْبَارِهِمْ عَلَى ذَلِكَ. وَهَذَا التَّقْدِيرُ أَحْسَنُ مِنْ تَقْدِيرِ مَنْ قَدَّرَ لَا يَجِدُونَ مَهْرَ نِكَاحٍ، وَجَعَلُوا الْمُضَافَ إِلَيْهِ نَائِبًا

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٥٠٦٥)، وَمُسْلِمٌ (١٤٠٠) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ.

(٢) فِي (ب): «مِنْ قُدْرَةٍ».

مناب المضاف؛ فإن في ذلك محذورين: أحدهما: الحذف في الكلام، والأصل عدم الحذف. والثاني: كون المعنى قاصراً على مَنْ له حالان: حالة غنى بماله، وحالة عُدْم، فيخرج العبيد والإماء وَمَنْ إنكأه على وليه كما ذكرنا، ﴿حتى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: وعدٌ للمستعفف أن الله سَيَغْنِيهِ وَيُسِّرُ له أمره، وأمرٌ له بانتظار الفرج؛ لئلا يشقَّ عليه ما هو فيه.

وقوله: ﴿والذين يبتغون الكتاب مما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً﴾؛ أي: من ابتغى وطلب منكم الكتابة وأن يَشْتَرِي نفسه من عبيد وإماء؛ فأجيبوه إلى ما طلب، وكاتبوه، ﴿إن علمتم فيهم﴾؛ أي: في الطالبين للكتابة ﴿خيراً﴾؛ أي: قدرة على التكسب وصلاًحاً في دينه؛ لأن في الكتابة تحصيل المصلحتين: مصلحة العتق والحرية، ومصلحة العوض الذي يبذله في فداء نفسه، وربما جدَّ واجتهد وأدرك لسيده في مدة الكتابة من المال ما لا يحصل في رقه، فلا يكون ضررٌ على السيد في كتابته، مع حصول عظيم المنفعة للعبد؛ فلذلك أمر الله بالكتابة على هذا الوجه أمرٌ إيجاب؛ كما هو الظاهر، أو أمر استحباب على القول الآخر، وأمر بمعاونتهم على كتابتهم؛ لكونهم محتاجين لذلك؛ بسبب أنهم لا مال لهم، فقال: ﴿وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾؛ يدخل في ذلك أمر سيده الذي كاتبه أن يعطيه من كتابته أو يسقط عنه منها وأمر الناس بمعاونتهم، ولهذا جعل الله للمكاتبين قسطاً من الزكاة ورغب في إعطائه بقوله: ﴿من مال الله الذي آتاكم﴾؛ أي: فكما أن المال مال الله، وإئتما الذي بأيديكم عطيةً من الله لكم ومحض مئة؛ فأحسنوا لعباد الله كما أحسن الله إليكم.

ومفهوم الآية الكريمة أن العبد إذا لم يطلب الكتابة؛ لا يؤمر سيده أن يبتدىء بكتابته، وأنه إذا لم يعلم منه خيراً؛ بأن عِلِمَ منه عكسه: إما أنه يعلم أنه لا كسب له، فيكون بسبب ذلك كلاً على الناس ضائعاً، وإما أن يخاف إذا عتق وصار في حرية نفسه أن يتمكن من الفساد؛ فهذا لا يؤمر بكتابته، بل ينهى عن ذلك؛ لما فيه من المحذور المذكور.

ثم قال تعالى: ﴿ولا تكرهوا فتياتكم﴾؛ أي: إماءكم ﴿على البغاء﴾؛ أي: أن تكون زانية؛ ﴿إن أردن تحصناً﴾: لأنه لا يتصور إكراهها إلا بهذه الحال، وأما إذا لم تُردَّ تحصناً؛ فإنها تكون بغياً يجب على سيدها منعها من ذلك، وإنما هذا نهى لما كانوا يستعملونه في الجاهلية من كون السيد يُجبر أُمته على البغاء؛ ليأخذ منها أجرة

ذلك، ولهذا قال: ﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: فلا يَلِيقُ بكم أن تكونَ إِمَاؤُكم خيراً منكم وأعفَ عن الزُّنا وأتمَّ تفعلونَ بهنَّ ذلكَ لأجل عَرَضِ الْحَيَاةِ؛ متاع قليل يَغْرَضُ ثم يزولُ؛ فكسبُكم النَّزَاهَةُ والنِّظَافَةُ والمروءَةُ بقطع النظر عن ثوابِ الآخرة وعقابِها أَفْضَلُ من كسبِكم العَرَضِ القليل الذي يُكْسِبُكُمْ الرَّذَالَةَ والخِسَةَ.

ثم دعا مَنْ جرى منه الإكراه إلى التوبة، فقال: ﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: فليَتُبْ إلى الله، وليَقْلَعْ عما صدر منه مما يُغْضِبُهُ؛ فإذا فَعَلَ ذلكَ؛ غَفَرَ اللَّهُ ذُنُوبَهُ وَرَجِمَهُ؛ كما رَجِمَ نفسه بفكائها من العذاب، وكما رَجِمَ أُمَّتَهُ بعدم إكراهها على ما يضرُّها.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٣٤).

﴿٣٤﴾ هَذَا تَعْظِيمٌ وَتَفْخِيمٌ لِهَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي تَلَاهَا عَلَى عِبَادِهِ؛ لِيَعْرِفُوا قَدْرَهَا وَيَقُومُوا بِحَقِّهَا، فَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ﴾؛ أَي: وَاضِحَاتِ الدَّلَالَةِ عَلَى كُلِّ أَمْرٍ تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَصُولِ وَالْفُرُوعِ؛ بَحِثْ لَا يَبْقَى فِيهَا إِشْكَالٌ وَلَا شَبْهَةٌ. ﴿و﴾: أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ أَيْضاً ﴿مَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾: مِنْ أَخْبَارِ الْأَوَّلِينَ؛ الصَّالِحِ مِنْهُمْ وَالطَّالِحِ، وَصِفَةِ أَعْمَالِهِمْ، وَمَا جَرَى لَهُمْ وَجَرَى عَلَيْهِمْ؛ تَعْتَبِرُونَهُ مَثَلًا وَمَعْتَبَرًا لِمَنْ فَعَلَ مِثْلَ أَعْمَالِهِمْ أَنْ يُجَازَى مِثْلَ مَا جُوزُوا. ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ أَي: وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ؛ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ؛ يَتَّعِظُ بِهَا الْمُتَّقُونَ، فَيَكْفُتُونَ عَمَّا يَكْرَهُ اللَّهُ إِلَى مَا يَحِبُّهُ اللَّهُ.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْيَصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٣٥).

﴿٣٥﴾ «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»: الْحَسْبِيُّ وَالْمَعْنَوِيُّ. وَذَلِكَ أَنَّهُ تَعَالَى بِذَاتِهِ نُورٌ، وَحِجَابُهُ نُورٌ، الَّذِي لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ، وَبِهِ اسْتِنَارَ الْعَرْشُ وَالْكَرْسِيُّ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّورُ، وَبِهِ اسْتِنَارَتِ الْجَنَّةُ. وَكَذَلِكَ [النُّور] الْمَعْنَوِيُّ يَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ؛ فَكُتَابُهُ نُورٌ، وَشَرْعُهُ نُورٌ، وَالْإِيمَانُ وَالْمَعْرِفَةُ فِي قُلُوبِ رُسُلِهِ وَعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ نُورٌ؛ فَلَوْلَا نُورُهُ تَعَالَى؛ لَتَرَاكَمَتِ الظُّلُمَاتُ، وَلِهَذَا كُلُّ مَحَلٍّ يَفْقَدُ نُورَهُ؛ فَثَمَّ الظُّلْمَةُ وَالْحَصَرُ. ﴿مِثْلُ نُورِهِ﴾: الَّذِي

يهدي إليه، وهو نورُ الإيمان والقرآن في قلوب المؤمنين ﴿كمشكاة﴾؛ أي: كوة ﴿فيها مصباح﴾: لأنَّ الكوة تجمع نورَ المصباح بحيث لا يتفرَّق. ذلك ﴿المصباح في زُجاجة الزجاجة﴾: من صفائها وبهائها، ﴿كأنها كوكبٌ دُرِّيٌّ﴾؛ أي: مضيء إضاءة الدرِّ، ﴿يوقدُ﴾: ذلك المصباح الذي في تلك الزجاجة الدُرِّيَّة ﴿من شجرة مباركة زيتونة﴾؛ أي: يوقد من زيت الزيتون، الذي ناره من أنور ما يكون ﴿لا شرقية﴾: فقط؛ فلا تصيبها الشمس آخر النهار ﴿ولا غربية﴾: فقط؛ فلا تصيبها الشمس [آخر]^(١) النهار. وإذا انتفى عنها الأمران؛ كانت متوسطةً من الأرض؛ كزيتون الشام؛ تصيبه الشمس أول النهار وآخره، فيخسُن ويطيب ويكونُ أصفى لزيتها، ولهذا قال: ﴿يكادُ زيتُها﴾: من صفائه ﴿يضيءُ ولو لم تمسسه نارٌ﴾: فإذا مسَّته النار؛ أضاء إضاءةً بليغة. ﴿نورٌ على نورٍ﴾؛ أي: نور النار ونور الزيت.

وجه هذا المثل الذي ضربه الله وتطبيقه على حالة المؤمن ونورِ الله في قلبه أنَّ فطرته التي فطرَ عليها بمنزلة الزيت الصافي؛ ففطرته صافيةٌ مستعدةٌ للتعاليم الإلهية والعمل المشروع؛ فإذا وصل إليه العلم والإيمان؛ اشتعل ذلك النور في قلبه بمنزلة اشتعال النار في فتيلة ذلك المصباح، وهو صافي القلب من سوء القصد وسوء الفهم عن الله، إذا وصل إليه الإيمان؛ أضاء إضاءةً عظيمةً لصفائه من الكدورات، وذلك بمنزلة صفاء الزُجاجة الدُرِّيَّة، فيجتمع له نورُ الفطرة ونورُ الإيمان ونورُ العلم وصفاء المعرفة نورٌ على نوره.

ولما كان هذا من نور الله تعالى، وليس كلُّ أحدٍ يصلحُ له ذلك؛ قال: ﴿يهدي الله لنوره من يشاء﴾: ممَّن يعلم زكاه وطهارته، وأنه يزكي معه وينمو. ﴿ويضربُ الله الأمثال للناس﴾: ليعقلوا عنه ويفهموا؛ لطفاً منه بهم، وإحساناً إليهم، وليتَّضحَ الحقُّ من الباطل؛ فإنَّ الأمثال تقرَّب المعاني المعقولة من المحسوسة، فيعلمها العبادُ علماً واضحاً. ﴿والله بكلِّ شيءٍ عليمٌ﴾: فعلمه محيطٌ بجميع الأشياء، فلَتَعْلَمُوا أنَّ ضربة الأمثال ضَرَبُ مَنْ يعلمُ حقائق الأشياء وتفاصيلها وأنها مصلحةٌ للعباد؛ فليكن اشتغالكم بتدبرها وتعقلها لا بالاعتراض عليها ولا بمعارضتها؛ فإنَّه يعلم وأنتم لا تعلمون.

ولما كان نورُ الإيمان والقرآن أكثر وقوع أسبابه في المساجد؛ ذكرها منوهاً بها، فقال:

(١) كذا في النسخين، وقد طمست الكلمة في (أ) وكتب بدلها: أول، بخط مغاير. وهو الصواب.

﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ (٣٦) ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَلَا تَبْصُرُ لِيَجْزِيَهمَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٧).

﴿٣٦﴾ أي: يُتَعَبَّدُ لِلَّهِ ﴿فِي بُيُوتٍ﴾: عَظِيمَةٌ فَاضِلَةٌ هِيَ أَحَبُّ الْبِقَاعِ إِلَيْهِ، وَهِيَ الْمَسَاجِدُ، ﴿أُذِنَ لِلَّهِ﴾؛ أي: أَمْرٌ وَوَصْىٌ ﴿أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾: هَذَانِ مَجْمُوعُ أَحْكَامِ الْمَسَاجِدِ، فَيَدْخُلُ فِي رَفْعِهَا بِنَاوَاهَا وَكُنُشُهَا وَتَنْظِيفُهَا مِنَ النِّجَاسَاتِ وَالْأَذَى وَصَوْنُهَا عَنِ الْمَجَانِينِ وَالصَّبِيَّانِ الَّذِينَ لَا يَتَحَرَّزُونَ عَنِ النِّجَاسَاتِ وَعَنِ الْكَافِرِ وَأَنْ تُصَانَ عَنِ اللَّغْوِ فِيهَا وَرَفْعِ الْأَصْوَاتِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ. ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾: يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الصَّلَاةُ كُلُّهَا؛ فَرَضُهَا وَنَفْلُهَا، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ، وَالتَّسْبِيحُ، وَالتَّهْلِيلُ، وَغَيْرِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الذِّكْرِ، وَتَعَلُّمُ الْعِلْمِ وَتَعْلِيمُهُ، وَالْمَذَاكِرَةُ فِيهَا، وَالْإِعْتِكَافُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَادَاتِ الَّتِي تُفْعَلُ فِي الْمَسَاجِدِ، وَلِهَذَا كَانَتْ عِمَارَةُ الْمَسَاجِدِ عَلَى قِسْمَيْنِ: عِمَارَةُ بَنِيَانٍ وَصِيَانَةٍ لَهَا، وَعِمَارَةُ بِذِكْرِ اسْمِ اللَّهِ مِنَ الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا، وَهَذَا أَشْرَفُ الْقِسْمَيْنِ، وَلِهَذَا شُرِعَتْ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ فِي الْمَسَاجِدِ وَجُوبًا عِنْدَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ وَاسْتِحَابًا عِنْدَ آخَرِينَ.

﴿٣٧﴾ ثُمَّ مَدَحَ تَعَالَى عَمَّارَهَا بِالْعِبَادَةِ، فَقَالَ: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ﴾: إِخْلَاصًا ﴿بِالْغُدُوِّ﴾: أَوَّلَ النَّهَارِ ﴿وَالْآصَالِ﴾: آخِرَهُ ﴿رِجَالٌ﴾: خَصَّ هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ لِشَرْفِهِمَا وَلِتَيَسَّرَ السَّيْرُ فِيهِمَا إِلَى اللَّهِ وَسَهُولَتِهِ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ التَّسْبِيحُ فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا، وَلِهَذَا شُرِعَتْ أَذْكَارُ الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ وَأَوْرَادُهُمَا عِنْدَ الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ؛ أَي: يَسْبَحُ فِيهَا لِلَّهِ رِجَالٌ، وَأَيُّ رِجَالٍ؟! لَيْسُوا مِمَّنْ يُوَثِّرُ عَلَى رَبِّهِ دُنْيَا ذَاتٍ لِّذَاتٍ وَلَا تِجَارَةً وَمَكَاسِبَ مُشْغَلَةً عَنْهُ. ﴿لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ﴾: وَهَذَا يَشْمَلُ كُلَّ تَكْسُبٍ يُقْصَدُ بِهِ الْعِوَضُ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾: مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ؛ لَكَثْرَةِ الْإِشْتَغَالِ بِالْبَيْعِ عَلَى غَيْرِهِ؛ فَهَؤُلَاءِ الرِّجَالُ وَإِنْ اتَّجَرُوا وَبَاعُوا وَاشْتَرَوْا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا مَحْذُورَ فِيهِ، لَكِنَّهُ لَا تُلْهِيهِمْ تِلْكَ بَأَنْ يَقْدِمُوهَا وَيُوَثِّرُوهَا عَلَى ﴿ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾: بَلْ جَعَلُوا طَاعَةَ اللَّهِ وَعِبَادَتَهُ غَايَةَ مَرَادِهِمْ وَنَهَايَةَ مَقْصِدِهِمْ؛ فَمَا حَالُ بَيْنِهِمْ وَبَيْنَهَا رَفْضُوهُ.

وَلَمَّا كَانَ تَرْكُ الدُّنْيَا شَدِيدًا عَلَى أَكْثَرِ النُّفُوسِ وَحُبُّ الْمَكَاسِبِ بِأَنْوَاعِ التِّجَارَاتِ مَحْبُوبًا لَهَا، وَشَقُّ عَلَيْهَا تَرْكُهَا فِي الْغَالِبِ وَتَتَكَلَّفُ مِنْ تَقْدِيمِ حَقِّ اللَّهِ عَلَى ذَلِكَ؛ ذَكَرَ مَا يَدْعُوهَا إِلَى ذَلِكَ تَرْغِيبًا وَتَرْهِيْبًا، فَقَالَ: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ

وَالْأَبْصَارُ: من شدة هوله وإزعاجه للقلوب والأبدان؛ فلذلك خافوا ذلك اليوم، فسَهَّلَ عليهم العمل وترك ما يشغل عنه.

﴿٣٨﴾ لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا: والمراد بـ ﴿أحسن ما عملوا﴾: أعمالهم الحسنة الصالحة؛ لأنها أحسن ما عملوا؛ لأنهم يعملون المباحات وغيرها؛ فالثواب لا يكون إلا على العمل الحسن؛ كقوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيََهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، ﴿ويزيدهم من فضله﴾: زيادة كثيرة عن الجزاء المقابل لأعمالهم. ﴿والله يَزِيقُ مَنْ يَشَاءُ بغير حساب﴾: بل يُعْطِيهِ من الأجر ما لا يبلغه عمله، بل ولا تبلغه أمنيته، ويعطيه من الأجر بلا عد ولا كيل، وهذا كناية عن كثرته جداً.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَفْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُمُ لَمْ يَكِدْ يَرَهَا وَمَنْ لَمْ يَعْمَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٤٠﴾﴾.

هذان مثلان ضربهما الله لأعمال الكفار في بطلانها وذهابها سدى وتحسر عاملها منها، فقال:

﴿٣٩﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: برئهم وكذبوا رسله ﴿أعمالهم كسراب بقيعة﴾؛ أي: بقاع لا شجر فيه ولا نبت ﴿بحسبه الظمآن ماء﴾: شديد العطش، الذي يتوهم ما لا يتوهم غيره، بسبب ما معه من العطش، وهذا حساباً باطل، فيقصده ليزيل ظمأه ﴿حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾: فندم ندماً شديداً، وازداد ما به من الظمأ بسبب انقطاع رجائه؛ كذلك أعمال الكفار بمنزلة السراب، تُرى ويظنُّها الجاهل الذي لا يدري الأمور أعمالاً نافعة، فيغرُّه صورتها، ويخلُّبه خيالها، وبحسبها هو أيضاً أعمالاً نافعة لهواه، وهو أيضاً محتاج إليها، بل مضطرٌّ إليها؛ كاحتياج الظمآن للماء، حتى إذا قدم على أعماله يوم الجزاء وجدها ضائعة، ولم يجدها شيئاً، والحال أنه لم يذهب لا له ولا عليه، بل ﴿وجد الله عنده فوفاه حساباً﴾: لم يخف عليه من عمله نقيز ولا قِطْمِير، ولن يَغْدَمَ منه قليلاً ولا كثيراً. ﴿والله سريع الحساب﴾: فلا يَسْتَبْطِئُ الجاهلون ذلك الوعد؛ فإنه لا بدَّ من إتيانه، ومثلها الله بالسراب الذي ﴿بقيعة﴾؛ أي: لا شجر فيه ولا نبات، وهذا مثال لقلوبهم؛ لا خير

فيها ولا برّ فتزكو فيها الأعمال، وذلك للسبب المانع، وهو الكفر.

﴿٤٠﴾ والمثل الثاني لبطلان أعمال الكفار: ﴿كَظَلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾: بعيدٍ قعرُهُ طويل مداه، ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظِلْمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾: ظلمة البحر اللُّجِّي، ثم فوقه ظلمة الأمواج المتراكمة، ثم فوق ذلك ظلمة السحب المدلهمة، ثم فوق ذلك ظلمة الليل البهيم، فاشتدت الظلمة جدًّا؛ بحيث أنَّ الكائن في تلك الحال ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْهَا﴾: مع قربها إليه؛ فكيف بغيرها؟! كذلك الكفار تراكمت على قلوبهم الظلمات؛ ظلمة الطبيعة التي لا خير فيها، وفوقها ظلمة الكفر، وفوق ذلك ظلمة الجهل، وفوق ذلك ظلمة الأعمال الصادرة عمَّا ذُكِرَ، فبقوا في الظلمة متحيّرين، وفي غمرتهم يَغْمَهُونَ، وعن الصراط المستقيم مُذْبِرُونَ، وفي طرق الغي والضلال يتردّدون، وهذا لأنَّ الله خَذَلَهُمْ فلم يُعْطِهِمْ من نوره. ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾: لأنَّ نفسه ظالمة جاهلة، فليس فيها من الخير والنور إلَّا ما أعطاه مولاها ومنحها ربُّها.

يُحْتَمَلُ أَنَّ هَٰذِينَ الْمَثَالِينَ لأعمال جميع الكفار؛ كلُّ منهما منطبقٌ عليها، وعددهما لتعدد الأوصاف، ويُحْتَمَلُ أَنَّ كُلَّ مَثَالٍ لَطَائِفَةٍ وَفَرْقَةٍ؛ فالأوّل للمتبوعين، والثاني للتابعين. والله أعلم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّيْتُ كُلَّ قَدِّ عِلْمٍ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ وَاللَّهُ عَلَيْهِ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿٤١﴾ نبّه^(١) تعالى عباده على عظمته وكمال سلطانه وافتقار جميع المخلوقات له في ربوبيّتها وعبادتها، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: من حيوان وجمادٍ، ﴿وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ﴾؛ أي: صفات أجنحتها في جَوْ السماء تسبّح ربُّها. ﴿كُلٌّ﴾: من هذه المخلوقات ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾؛ أي: كلُّ له صلاةٌ وعبادةٌ بحسب حاله اللائقة به، وقد ألهمه الله تلك الصلاة والتسبيح: إما بواسطة الرسل كالجن والإنس والملائكة، وإما بإلهام منه تعالى كسائر المخلوقات غير ذلك.

وهذا الاحتمال أرجح؛ بدليل قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾؛ أي: علم جميع

(١) في (ب): «ينبه».

أفعالها، فلم يخفَ عليه منه شيء، وسيجازيهم بذلك، فيكون على هذا قد جَمَعَ بين علمها بأعمالهم، وذلك بتعليمه، وبين علمه بأعمالهم المتضمن للجزاء. ويُحتمل أنَّ الضمير في قوله: ﴿قد علم صلاته وتسبيحه﴾: يعود إلى الله، وأنَّ الله تعالى قد عَلِمَ عباداتهم، وإنَّ لم تَعْلَمُوا أيُّها العبادُ منها إلَّا ما أطلعكم الله عليه. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

﴿٤٢﴾ فلما بيَّن عبوديتهم وافتقارهم إليه من جهة العبادة والتوحيد؛ بيَّن افتقارهم من جهة الملك والتربية والتدبير، فقال: ﴿ولله ملكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: خالقهما^(١) ورازقهما والمتصرفُ فيهما في حكمه الشرعيِّ والقدريِّ في هذه الدار وفي حكمه الجزائيِّ بدار القرار؛ بدليل قوله: ﴿والى الله المصيرُ﴾؛ أي: مرجع الخلق ومآلهم ليجازيهم بأعمالهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾ يَقْلَبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿٤٣﴾ أي: ألم تشاهد ببصرك عظيم قدرة الله وكيف ﴿يُزْجِي﴾؛ أي: يسوق ﴿سَحَابًا﴾: قطعاً متفرقة، ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ﴾: بين تلك القطع، فيجعله سحاباً مترامياً مثل الجبال ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾؛ أي: الوابل والمطر يخرج من خلال السحاب نقطاً متفرقة؛ ليحصل بها الانتفاع من دون ضرر، فتمتلىء بذلك الغدران، وتتدفق الخُلجان، وتسيل الأودية، وتنبث الأرض من كلِّ زوج كريم. وتارة ينزل الله من ذلك السحاب بَرْدًا يُؤَلِّفُ ما يصيبه ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: بحسب اقتضاء حكمه القدريِّ وحكمته التي يُخَمِّدُ عليها، ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ﴾؛ أي: يكاد ضوء برق ذلك السحاب من شدته ﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾؛ أليس الذي أنشأها وساقها لعبادته المفتقرين وأنزلها على وجه يحصل به النفع ويتنفي به الضرر كامل القدرة نافذ المشيئة واسع الرحمة؟!

﴿٤٤﴾ ﴿يَقْلَبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾: من حرٍّ إلى برد، ومن بردٍ إلى حرٍّ، ومن ليل

(١) في (ب): «خالقها».

إلى نهار، ونهار إلى ليل ويُبدّل الأيام بين عباده. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾؛ أي: لذوي البصائر والعقول النافذة للأمور المطلوبة منها كما تنفذ الأبصار إلى الأمور المشاهدة الحسيّة؛ فالبصير ينظرُ إلى هذه المخلوقات نظرَ اعتبار وتفكر وتدبر لما أريد بها ومنها، والمعرض الجاهل نظرُهُ إليها نظرُ غفلة بمنزلة نظرِ البهائم.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤٥).

﴿٤٥﴾ ينبّه عباده على ما يشاهدونه أنّه خَلَقَ جميع الدوابّ التي على وجه الأرض ﴿مِن مَّاءٍ﴾؛ أي: مادّتها كلّها الماء؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾؛ فالحيوانات التي تتوالد، مادّتها ماء النطفة حين يلقح الذكر الأنثى، والحيوانات التي تتولّد من الأرض لا تتولّد إلّا من الرطوبات المائيّة؛ كالحشرات، لا يوجد منها شيء يتولّد من غير ماء أبداً؛ فالمادّة واحدة، ولكن الخلقة مختلفة من وجوه كثيرة. ﴿فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾؛ كالحية ونحوها، ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾؛ كالأدميين وكثير من الطيور، ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾؛ كبهيمة الأنعام ونحوها؛ فاختلافها مع أنّ الأصل واحد يدل على نفوذ مشيئة الله وعموم قدرته. ولهذا قال: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾؛ أي: من المخلوقات على ما يشاءه من الصفات. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ كما أنزل المطر على الأرض، وهو لقاح واحد، والأمّ واحدة، وهي الأرض، والأولاد مختلفو الأصناف والأوصاف. ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مَّتَجَاوِرَاتٍ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِّضُ لُبَّهَا عَلَى بَعْضِ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا ءَايَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٤٦).

﴿٤٦﴾ أي: لقد رَحِمْنَا عبادنا وأنزلنا إليهم آياتٍ بَيِّنَاتٍ؛ أي: واضحات الدلالة على جميع المقاصد الشرعيّة والآداب المحمودّة والمعارف الرشيدة، فاتّضحت بذلك السُّبُل، وتبيّن الرُّشْد من الغي والهُدَى من الضلال؛ فلم يبق أدنى شبهة لمبطل يتعلّق بها، ولا أدنى إشكال لمريد الصواب؛ لأنّها تنزيلٌ مِّن كَمَلِ علمه وكَمَلَتْ رحمته وكَمَلْ بيانه؛ فليس بعد بيانه بيان. لِيَهْلِكَ بَعْدَ ذَلِكَ مَن هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَخِيَا مَن حَيٍّ عَن بَيِّنَةٍ. ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾: مِمَّنْ سَبَقَتْ لَهُمْ سَابِقَةُ الْحَسَنِ وَقَدَّمَ الصَّدَق

﴿إلى صراطٍ مستقيم﴾؛ أي: طريق واضح مختصر موصل إليه وإلى دار كرامته متضمن العلم بالحق وإثارة العمل به. عَمَّ البيان التأم لجميع الخلق، وخصَّص بالهداية مَنْ يشاء؛ فهذا فضله وإحسانه، وما فضل الكريم بممنون، وذاك عدله، وقَطَعَ الحجة للمحتج، والله أعلم حيث يجعل مع مواقع إحسانه.

﴿وَقِيلُوا ءَأَمَنَا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمْ لَقَاءٌ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفَى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ أَوْ يَبْلُؤَ إِلَيْكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ .

﴿٤٧﴾ يخبر تعالى عن حالة الظالمين ممن في قلبه مرض وضعف إيمان أو نفاق وزنب وضعف، علم أنهم يقولون بالسنتهم ويلتزمون الإيمان بالله والطاعة، ثم لا يقومون بما قالوا، ويتولى فريق منهم عن الطاعة تولى عظيماً؛ بدليل قوله: ﴿وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾؛ فَإِنَّ الْمُتَوَلَّى قد يكون له نيّة عودٍ ورجوع إلى ما تولى عنه، وهذا المتولى معرض لا التفات له ولا نَظَرَ لما تولى عنه. وتجذّ هذه الحالة مطابقة لحال كثير ممن يدّعي الإيمان والطاعة لله، وهو ضعيف الإيمان، تجذّه لا يقوم بكثير من العبادات، خصوصاً العبادات التي تشقّ على كثير من النفوس؛ كالزكوات، والنفقات الواجبة والمستحبة، والجهاد في سبيل الله، ونحو ذلك.

﴿٤٨﴾ ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: إذا صار بينهم وبين أحدٍ حكومة ودُعوا إلى [حكم] الله ورسوله، ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾: يريدون أحكام الجاهلية ويفضلون أحكام القوانين غير الشرعية على الأحكام الشرعية؛ لعلمهم أنّ الحقّ عليهم، وأنّ الشرع لا يحكم إلّا بما يطابق الواقع.

﴿٤٩﴾ ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى حكم الشرع ﴿مُذْعِنِينَ﴾: وليس ذلك لأجل أنّه حكم شرعي، وإنّما ذلك لأجل موافقة أهوائهم؛ فليسوا بمدوحين في هذه الحال، ولو أتوا إليه مذعنين؛ لأنّ العبد حقيقة مَنْ يتبع الحقّ فيما يحبّ ويكره، وفيما يسره ويحزنه. وأما الذي يتبع الشرع عند موافقة هواه وينبذّه عند مخالفته، ويقدم الهوى على الشرع؛ فليس بعبّد على الحقيقة.

﴿٥٠﴾ قال الله في لومهم على الإعراض عن الحكم الشرعي: ﴿أَفَى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾؛ أي: علة أخرجت القلب عن صحته وأزالت حاسته فصار بمنزلة المريض

الذي يعرضُ عما ينفعه ويُقبلُ على ما يضره. ﴿أَمْ ارْتَابُوا؟﴾ أي: شكوا وقلقت قلوبهم من حكم الله ورسوله واتهموه أنه لا يحكم بالحق. ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ؟﴾ أي: يحكم عليهم حكماً ظالماً جائراً، وإنما هذا وصفهم؛ ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، وأما حكم الله ورسوله؛ ففي غاية العدالة والقسط وموافقة الحكمة، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

وفي هذه الآيات دليل على أن الإيمان ليس هو مجرد القول حتى يقترب به العمل، ولهذا نفى الإيمان عمّن تولى عن الطاعة ووجوب الانقياد لحكم الله ورسوله في كل حال، وأن من لم يتخذ له دلاً على مرض في قلبه وزنب في إيمانه، وأنه يحرم إساءة الظن بأحكام الشريعة، وأن يظن بها خلاف العدل والحكمة.

ولما ذكر حالة المعرضين عن الحكم الشرعي، ذكر حالة المؤمنين الممدوحين، فقال:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥١) وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢).

﴿٥١﴾ أي: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: حقيقة، الذين صدّقوا إيمانهم بأعمالهم حين يدعون إلى الله ورسوله ليحكم بينهم: سواء وافق أهواءهم أو خالفها، ﴿أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾؛ أي: سمعنا حكم الله ورسوله وأجبنا من دعانا إليه وأطعنا طاعة تامة سالمة من الحرج. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: حَصَرَ الْفَلَاحَ فِيهِمْ؛ لِأَنَّ الْفَلَاحَ الْفَوْزُ بِالْمَطْلُوبِ وَالنَّجَاةُ مِنَ الْمَكْرُوهِ، وَلَا يُفْلِحُ إِلَّا مَنْ حَكَّمَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَأَطَاعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ.

﴿٥٢﴾ ولما ذكر فضل الطاعة في الحكم خصوصاً؛ ذكر فضلها عموماً في جميع الأحوال، فقال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: فيصدق خبرهما ويمثل أمرهما ﴿وَيَخْشَ اللَّهَ﴾؛ أي: يخافه خوفاً مقروناً بمعرفة، فيترك ما نهى عنه، ويكف نفسه عما تهوى، ولهذا قال: ﴿وَيَتَّقْهُ﴾: بترك المحذور؛ لِأَنَّ التَّقْوَى عِنْدَ الْإِطْلَاقِ يَدْخُلُ فِيهَا فَعْلُ الْمَأْمُورِ وَتَرْكُ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، وَعِنْدَ اقْتِرَانِهَا بِالْبَرِّ أَوْ الطَّاعَةِ - كَمَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ - تَفْسَّرُ بِتَوْقِي عَذَابِ اللَّهِ بِتَرْكِ مَعَاصِيهِ. ﴿فَأُولَئِكَ﴾: الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَخَشْيَةِ اللَّهِ وَتَقْوَاهُ ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾: بِنَجَاتِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ؛ لِتَرْكِهِمْ أَسْبَابَهُ، وَوَصُولِهِمْ إِلَى الثَّوَابِ؛ لِفَعْلِهِمْ أَسْبَابَهُ؛ فَالْفَوْزُ مُحْصُورٌ فِيهِمْ، وَأَمَّا

مَنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِوَصْفِهِمْ؛ فَإِنَّهُ يَفُوتُهُ مِنَ الْفُوزِ بِحَسَبِ مَا قَصُرَ عَنْهُ مِنْ هَذِهِ الْأَوْصَافِ الْحَمِيدَةِ.

واشتملت هذه الآية على الحق المشترك بين الله وبين رسوله، وهو الطاعة المستلزمة للإيمان، والحق المختص بالله، وهو الخشية والتقوى، وبقي الحق الثالث المختص بالرسول، وهو التعزير والتوقيف؛ كما جمَعَ بين الحقوق الثلاثة في سورة الفتح في قوله: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَزَّوْهُ وَتُقِرُّوهُ وَتَسْبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَاسُ الْمُنِيرِ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿٥٣﴾ يخبر تعالى عن حالة المتخلفين عن الرسول ﷺ في الجهاد من المنافقين ومن في قلوبهم مرض وضعف إيمان أنهم يقسمون بالله: ﴿لئن أُمِرْتُمْ﴾: فيما يُسْتَقْبَلُ أو لئن نصبت عليهم حين خرجت؛ ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ والمعنى الأول أولى. قال الله راداً عليهم: ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا﴾؛ أي: لا نحتاج إلى إقسامكم وإلى أعداركم؛ فإن الله قد نبأنا من أخباركم. وطاعتكم معروفة لا تخفى علينا، قد كُنَّا نعرف منكم الثاقل والكسل من غير عذر؛ فلا وجه لعذرهم وقسمكم، إنما يحتاج إلى ذلك من كان أمره محتماً وحاله مُشْتَبِهَةً؛ فهذا ربما يفيد العذر براءة، وأما أنتم؛ فكلأ ولما، وإنما يُنْتَظَرُ بكم ويُخاف عليكم حلول بأس الله ونقمته، ولهذا توعدهم بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: فيجازيكم عليها أتم الجزاء.

﴿٥٤﴾ هذه حالهم في نفس الأمر، وأما الرسول عليه الصلاة والسلام؛ فوظيفته أن يأمرهم وينهاكهم، ولهذا قال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن﴾: امتثلوا؛ كان حظكم وسعادتكم، وإن ﴿تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾: من الرسالة، وقد أذاها، ﴿وعليكم ما حُمِّلْتُمْ﴾: من الطاعة، وقد بانت حالكم وظهرت، فبان ضلالكم وغيبكم واستحقاقكم العذاب. ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾: إلى الصراط المستقيم قولاً وعملاً؛ فلا سبيل لكم إلى الهداية إلا بطاعته، وبدون ذلك لا يمكن، بل هو محال. ﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾؛ أي: تبليغكم البين الذي لا يُبْقِي لأحد شكاً ولا شبهة، وقد فعل ﷺ؛ بَلَّغَ البلاغ المبين، وإنما الذي يحاسبكم ويجازيكم هو الله تعالى؛ فالرسول ليس له من الأمر شيء، وقد قام بوظيفته.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ .

﴿٥٥﴾ هذا من أوعاده الصادقة التي شوهد تأويلها ومخبرها؛ فإنه وعد من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة أن يستخلفهم في الأرض، يكونون هم الخلفاء فيها، المتصرفين في تدبيرها، وأنه يمكن ﴿لهم دينهم الذي ارتضى لهم﴾، وهو دين الإسلام الذي فاق الأديان كلها، ارتضاه لهذه الأمة لفضيلها وشرفها ونعمته عليها بأن يتمكنوا من إقامته وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة في أنفسهم وفي غيرهم؛ لكون غيرهم من أهل الأديان وسائر الكفار مغلوبين ذليلين، وأنه يبدلهم ﴿من بعد خوفهم﴾؛ الذي كان الواحد منهم لا يتمكن من إظهار دينه وما هو عليه إلا بأذى كثير من الكفار، وكون جماعة المسلمين قليلين جداً بالنسبة إلى غيرهم، وقد رماهم أهل الأرض عن قوس واحدة، وبغوا لهم الغوائل، فوعدهم الله هذه الأمور وقت نزول الآية، وهي لم تشهد الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها والتمكين من إقامة الدين الإسلامي والأمن التام بحيث يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً ولا يخافون أحداً إلا الله، فقام صدر هذه الأمة من الإيمان والعمل الصالح بما يفوق^(١) على غيرهم، فمكّنهم من البلاد والعباد، وفتحت مشارق الأرض ومغاربها، وحصل الأمن التام والتمكين التام؛ فهذا من آيات الله العجيبة الباهرة، ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة، مهما قاموا بالإيمان والعمل الصالح؛ فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله، وإنما يسلط عليهم الكفار والمنافقين ويبدلهم في بعض الأحيان بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح. ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾: التمكن والسلطنة التامة لكم يا معشر المسلمين، ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾: الذين خرجوا عن طاعة الله وفسدوا، فلم يصلحوا لصالح، ولم يكن فيهم أهلية للخير؛ لأن الذي يترك الإيمان في حال عزه وقهره وعدم وجود الأسباب المانعة منه يدل على فساد نيته وخُبث طويته؛ لأنه لا داعي له لترك الدين إلا ذلك.

ودلت هذه الآية أن الله قد مكّن من قبلنا واستخلفهم في الأرض؛ كما قال موسى لقومه: ﴿وَيَسْتَخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرْ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، وقال تعالى:

(١) في (ب): «يفوقون».

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ [ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين] وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿٥٦﴾ يأمر تعالى بإقامة الصلاة بأركانها وشروطها وآدابها ظاهراً وباطناً، وبإيتاء الزكاة من الأموال التي استخلف الله عليها العباد وأعطاهم إياها؛ بأن يؤتوها الفقراء وغيرهم ممن ذكّرهم الله لمصرف الزكاة؛ فهذان أكبر الطاعات وأجلهما، جامعتان لحقه وحق خلقه، للإخلاص للمعبود وللإحسان إلى العبيد. ثم عطف عليهما الأمر العام، فقال: ﴿وأطيعوا الرسول﴾: وذلك بامثال أوامره واجتناب نواهيه، ﴿ومن يطع الرسول فقد أطاع الله﴾، ﴿لعلكم﴾: حين تقومون بذلك ﴿تُرْحَمُونَ﴾: فمن أراد الرحمة؛ فهذا طريقها، ومن رجاها من دون إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة^(١) الرسول؛ فهو متمن كاذب، وقد مته نفسه الأمانى الكاذبة.

﴿٥٧﴾ ﴿لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض﴾: فلا يغرزك ما متّعوا به في الحياة الدنيا؛ فإن الله وإن أمهلهم؛ فإنه لا يمهّلهم؛ ﴿نمتّعهم قليلاً ثم نضطرّهم إلى عذاب غليظ﴾. ولهذا قال هنا: ﴿وماؤهم النار ولبئس المصير﴾؛ أي: بش المال مآل الكافرين؛ مآل الشر والحسرة والعقوبة الأبدية.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَفْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَفَاتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَفْذِنُوا كَمَا اسْتَفْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿٥٨﴾ أمر المؤمنين أن يستأذِنهم ممالئكمهم والذين لم يبلغوا الحلم منهم، قد ذكّر الله حكمته، وأنه ثلاث عوارث للمستأذنين عليهم؛ وقت نومهم بالليل بعد العشاء، وعند انبياهم قبل صلاة الفجر؛ فهذا في الغالب أن النائم يستعمل للنوم

في الليل ثوباً غير ثوبه المعتاد، وأما نومُ النهار؛ [فلماً]^(١) كان في الغالب قليلاً قد ينام فيه العبد بشيابه المعتادة؛ قيده بقوله: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ﴾؛ أي: للقائلة وسط النهار؛ ففي ثلاث^(٢) هذه الأحوال يكون المماليك والأولاد الصغار كغيرهم لا يمكنون من الدخول إلا بإذن، وأما ما عدا هذه الأحوال الثلاثة؛ فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾؛ أي: ليسوا كغيرهم؛ فإنهم يحتاج إليهم دائماً، فيشق الاستئذان منهم في كل وقت، ولهذا قال: ﴿طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾؛ أي: يترددون عليكم في قضاء أشغالكم وحوائجكم. ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾: بياناً مقروناً بحكمته؛ ليتأكد ويتقوى ويعرف به رحمة شارعه وحكمته، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: له العلم المحيط بالواجبات و[المستحيلات]^(٣) والممكنات والحكمة التي وضعت كل شيء موضعه، فأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، وأعطى كل حكم شرعي حكمه اللائق به، ومنه هذه الأحكام التي بيّنها وبينَ ماخذها وحسنها.

﴿٥٩﴾ ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ﴾: وهو إنزالُ المنى يقظةً أو مناماً؛ ﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: في سائر الأوقات، والذين من قبلهم هم الذين ذكّرهم الله بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا...﴾ الآية. ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾: ويوضحها ويفصل أحكامها. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وفي هاتين الآيتين فوائد:

منها: أن السيد وولي الصغير مخاطبان بتعليم عبيدهم ومن تحت ولايتهم من الأولاد العلم والآداب الشرعية؛ لأن الله وجه الخطاب إليهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسْتَ أَذْنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ...﴾ الآية، ولا يمكن ذلك إلا بالتعليم والتأديب، ولقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾.

ومنها: الأمر بحفظ العورات والاحتياط لذلك من كل وجه، وأن المحلل والمكان الذي مظنة لرؤية عورة الإنسان فيه، أنه منهى عن الاغتسال فيه والاستنجاء ونحو ذلك.

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «فلو». (٢) في (ب): «ثلاثة».

(٣) كذا في (ب). وفي (أ): «المستحبات». والصواب ما أثبت من (ب).

ومنها: جواز كشف العورة لحاجة؛ كالحاجة عند النوم وعند البول والغائط ونحو ذلك.
ومنها: أنَّ المسلمين كانوا معتادين القيلولة وسط النهار؛ كما اعتادوا نوم الليل؛
لأنَّ الله خاطبهم ببيان حالهم الموجودة.
ومنها: أنَّ الصغير الذي دون البلوغ لا يجوز أن يمكن من رؤية العورة، ولا
يجوز أن ترى عورته؛ لأنَّ الله لم يأمر باستئذانهم إلا عن أمر ما يجوز.
ومنها: أنَّ المملوك أيضاً لا يجوز أن يرى عورة سيده؛ كما أنَّ سيده لا يجوز
أن يرى عورته؛ كما ذكرنا في الصغير.
ومنها: أنه ينبغي للواعظ والمعلم ونحوهم ممن يتكلم في مسائل العلم الشرعي أن
يقرن بالحكم بيان مأخذه ووجهه، ولا يلقيه مجرداً عن الدليل والتعليل؛ لأنَّ الله لما
بين الحكم المذكور؛ علَّله بقوله: ﴿ثلاث عورات لكم﴾.
ومنها: أنَّ الصغير والعبد مخاطبان كما أنَّ وليهما مخاطب؛ لقوله: ﴿ليس
عليكم ولا عليهم جناح بعدهن﴾.
ومنها: أنَّ ريق الصبي طاهر، ولو كان بعد نجاسة؛ كالقيء؛ لقوله تعالى:
﴿طوافون عليكم﴾؛ مع قول النبي ﷺ حين سُئِلَ عن الهرة: «إنها ليست بنجس،
إنها من الطوافين عليكم والطوافات»^(١).
ومنها: جواز استخدام الإنسان من تحت يده من الأطفال على وجه معتاد لا
يشقُّ على الطفل؛ لقوله: ﴿طوافون عليكم﴾. ومنها: أنَّ الحكم المذكور المفصل
إنما هو لما دون البلوغ، وأما^(٢) ما بعد البلوغ؛ فليس إلا الاستئذان.
ومنها: أنَّ البلوغ يحصل بالإنزال، فكلُّ حكم شرعي رُتِبَ على البلوغ؛ حصل
بالإنزال، وهذا مجمع عليه، وإنما الخلاف هل يَحْضُلُ البلوغ بالسن أو الإنبات
للعانة. والله أعلم.

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ
غَيْرَ مُتَّبِعَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾
﴿٦٠﴾ ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾؛ [أي]: اللاتي قَعَدْنَ عن الاستمتاع والشهوة،
﴿اللّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾؛ أي: لَا يَطْمَعْنَ فِي النِّكَاحِ وَلَا يَطْمَعُ فِيهِنَّ، وذلك لكونها

(١) أخرجه أبو داود (٧٥)، والترمذي (٩٢)، والنسائي (٥٥/١)، وابن ماجه (٣٦٧)، والحديث
صححه جماعة من أهل العلم. انظر «الإرواء» (١٧٣).

(٢) في (ب): «فأما».

عجوزاً لا تشتهي أو دميمة الخلقة لا تشتهي ولا تشتهي. ﴿فليس عليهن جناح﴾؛ أي: حرج وإثم، ﴿أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾؛ أي: الثياب الظاهرة كالخمار ونحوه، الذي قال الله فيه للنساء: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾؛ فهؤلاء يجوز لهن أن يكشفن وجوههن لأمن المحذور منها وعليها.

ولما كان نفى الحرج عنهن في وضع الثياب ربما تؤهمن منه جواز استعمالها لكل شيء؛ دفع هذا الاحتراز بقوله: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾؛ أي: غير مظهرات للناس زينة من تجمل بثياب ظاهرة، وتستر وجهها، ومن ضرب الأرض ليعلم ما تخفي من زينتها؛ لأن مجرد الزينة على الأنثى، ولو مع تسترها، ولو كانت لا تشتهي؛ يفتن فيها ويوقع الناظر إليها في الحرج. ﴿وَأَنْ يَسْتَغْفِرْنَ خَيْرَ لِهِنَّ﴾: والاستغفار طلب العفة بفعل الأسباب المقتضية لذلك من تزوج وترك لما يخشى منه الفتنة. ﴿والله سميع﴾: لجميع الأصوات. ﴿عليم﴾: بالنيات والمقاصد؛ فليحذرن من كل قول وقصد فاسد، ويعلنن أن الله يجازي على ذلك.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُمُ مَفَاحِشُهُمْ أَوْ صَدِيقَتُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ بَيِّنٌ لِلَّهِ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿٦١﴾ يخبر تعالى عن مثته على عباده، وأنه لم يجعل عليهم في الدين من حرج، بل يسره غاية التيسير، فقال: ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج﴾؛ أي: ليس على هؤلاء جناح في ترك الأمور الواجبة التي تتوقف على واحد منها، وذلك كالجهاد ونحوه مما يتوقف على بصر الأعمى أو سلامة الأعرج أو صحة المريض، ولهذا المعنى العام الذي ذكرناه؛ أطلق الكلام في ذلك، ولم يقيد؛ كما قيد قوله: ﴿ولا على أنفسكم﴾؛ أي: حرج، ﴿أن تأكلوا من بيوتكم﴾؛ أي: بيوت أولادكم. وهذا موافق للحديث الثابت: «أنت ومالك لأبيك»^(١).

(١) أخرجه أحمد (١٧٩/٢)، وأبو داود (٣٥٣٠)، وابن ماجه (٢٢٩١)، والحديث صححه الألباني في «الإرواء» (٨٣٨).

والحديث الآخر: «إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ، وَإِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ»^(١).

وليس المراد من قوله: «مِنْ بَيْوتِكُمْ»: بيت الإنسان نفسه؛ فَإِنَّ هَذَا مِنْ بَابِ تَحْصِيلِ الْحَاصِلِ، الَّذِي يُنْزَعُ عَنْهُ كَلَامُ اللَّهِ، وَلَئِنَّ نَفْيَ الْحَرْجِ عَمَّا يُظُنُّ أَوْ يَتَوَهَّمُ فِيهِ الْإِثْمُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ، وَأَمَّا بَيْتُ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ؛ فَلَيْسَ فِيهِ أَدْنَى تَوْهْمٍ. «أَوْ بَيْوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بَيْوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بَيْوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بَيْوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بَيْوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بَيْوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بَيْوتِ أَخَوَالِكُمْ أَوْ بَيْوتِ خَالَاتِكُمْ»: وهؤلاء معروفون. «أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ»؛ أي: البيوت التي أنتم متصرفون فيها بوكالة أو ولاية ونحو ذلك، وَأَمَّا تَفْسِيرُهَا بِالْمَمْلُوكِ؛ فَلَيْسَ بِوَجْهِ؛ لَوْجِهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْمَمْلُوكَ لَا يُقَالُ فِيهِ: مَلَكَتْ مَفَاتِحَهُ، بَلْ يُقَالُ: مَا مَلَكَتُمُوهُ، أَوْ: مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ؛ لِأَنَّهُمْ مَالِكُونَ لَهُ جَمْلَةً، لَا لِمَفَاتِحِهِ فَقَط. وَالثَّانِي: أَنَّ بَيْوتَ الْمَمَالِكِ غَيْرُ خَارِجَةٍ عَنْ بَيْتِ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ؛ لِأَنَّ الْمَمْلُوكَ وَمَا مَلَكَهُ لِسَيِّدِهِ؛ فَلَا وَجْهَ لِنَفْيِ الْحَرْجِ عَنْهُ.

«أَوْ صَدِيقِكُمْ»: وهذا الحرج المنفي من^(٢) الأكل من هذه البيوت؛ كُلُّ ذَلِكَ إِذَا كَانَ بِدُونِ إِذْنٍ، وَالْحِكْمَةُ فِيهِ مَعْلُومَةٌ مِنَ السِّيَاقِ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْمَسْمُومِينَ قَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ وَالْعُرْفُ بِالمَسَامَحَةِ فِي الْأَكْلِ مِنْهَا؛ لِأَجْلِ الْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ أَوْ التَّصَرُّفِ التَّامِّ أَوْ الصَّدَاقَةِ؛ فَلَوْ قُدِّرَ فِي أَحَدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ عَدَمُ الْمَسَامَحَةِ وَالشُّعْ فِي الْأَكْلِ الْمَذْكُورِ؛ لَمْ يَجْزِ الْأَكْلُ وَلَمْ يَرْتَفِعِ الْحَرْجُ نَظَرًا لِلْحِكْمَةِ وَالْمَعْنَى. وَقَوْلُهُ: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا»؛ فَكُلُّ ذَلِكَ جَائِزٌ؛ أَكُلَ أَهْلُ الْبَيْتِ الْوَاحِدِ جَمِيعًا، أَوْ أَكَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَحْدَهُ، وَهَذَا نَفْيٌ لِلْحَرْجِ لَا نَفْيٌ لِلْفَضِيلَةِ، وَإِلَّا؛ فَلَا فَضْلَ الْاجْتِمَاعِ عَلَى الطَّعَامِ. «فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا»: نَكْرَةٌ فِي سِيَاقِ الشَّرْطِ؛ يَشْمَلُ بَيْتَ الْإِنْسَانِ وَبَيْتَ غَيْرِهِ، سَوَاءٌ كَانَ فِي الْبَيْتِ سَاكِنٌ أَمْ لَا؛ فَإِذَا دَخَلَهَا الْإِنْسَانُ؛ «فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ»؛ أَي: فَلَيْسَلَمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ؛ لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَأَنَّهُمْ شَخْصٌ وَاحِدٌ مِنْ تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ؛ فَالسَّلَامُ مَشْرُوعٌ لِدُخُولِ سَائِرِ الْبُيُوتِ؛ مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ بَيْنَ بَيْتٍ وَبَيْتٍ، وَالِاسْتِثْنَاءُ تَقَدَّمَ أَنْ فِيهِ تَفْصِيلٌ فِي أَحْكَامِهِ، ثُمَّ مَدَحُ هَذَا السَّلَامِ، فَقَالَ: «تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مَبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ»؛ أَي: سَلَامُكُمْ بِقَوْلِكُمْ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، أَوْ: السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ؛ إِذْ تَدْخُلُونَ الْبُيُوتَ «تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ»؛ أَي: قَدْ شَرَعَهَا لَكُمْ وَجَعَلَهَا تَحِيَّةَكُمْ، «مَبَارَكَةٌ»: لِاشْتِمَالِهَا عَلَى

(١) أخرجه أحمد (٣١/٦)، وأبو داود (٣٥٢٨)، والنسائي (٢٤٠/٧). وانظر ما قبله.

(٢) في (ب): «عن».

السلامة من النقص وحصول الرحمة والبركة والثماء والزيادة، ﴿طيبة﴾: لأنها من الكلم الطيب المحبوب عند الله، الذي فيه طيب نفس للمحييا ومحبة وجلب مودة.

لما بين لنا هذه الأحكام الجليلة؛ قال: ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾: الدلالات على أحكامه الشرعية وحكمها ﴿لعلكم تعقلون﴾: عنه؛ فتفهمونها وتعقلونها بقلوبكم، ولتكونوا من أهل العقول والألباب الرزينة؛ فإن معرفة أحكامه الشرعية على وجهها يزيد في^(١) العقل وينمو به اللب؛ لكون معانيها أجل المعاني وآدابها أجل الآداب، ولأن الجزء من جنس العمل؛ فكما استعمل عقله للعقل عن ربه وللتفكر في آياته التي دعاه إليها؛ زاده من ذلك.

وفي هذه الآيات دليل على قاعدة عامة كلية، وهي: أن العرف والعادة مخصص للألفاظ؛ كتخصيص اللفظ للفظ؛ فإن الأصل أن الإنسان ممنوع من تناول طعام غيره مع أن الله أباح الأكل من بيوت هؤلاء للعرف والعادة؛ فكل مسألة تتوقف على الإذن من مالك الشيء إذا علم إذنه بالقول أو العرف؛ جاز الإقدام عليه.

وفيها: دليل على أن الأب يجوز له أن يأخذ ويتملك من مال ولده ما لا يضره؛ لأن الله سمى بيته بيتاً للإنسان.

وفيها: دليل على أن المتصرف في بيت الإنسان كزوجته وأخته ونحوهما يجوز لهما الأكل عادة وإطعام السائل المعتاد.

وفيها: دليل على جواز المشاركة في الطعام، سواء أكلوا مجتمعين أو متفرقين، ولو أفضى ذلك إلى أن يأكل بعضهم أكثر من بعض.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا إِنْ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْلُونَ مِنْكُمْ لَوْ أَدَّاءً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٣﴾ أَلَا إِنَّ إِلَهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

﴿٦٢﴾ هَذَا إِرْشَادُ مِنَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا مَعَ الرَّسُولِ ﷺ عَلَيْهِ أَمْرٌ جَامِعٌ؛ أَي: مِنْ ضَرُورَتِهِ أَوْ مَصْلَحَتِهِ أَنْ يَكُونُوا فِيهِ جَمِيعًا؛ كَالْجِهَادِ وَالْمَشَاوِرَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَشْتَرِكُ فِيهَا الْمُؤْمِنُونَ؛ فَإِنَّ الْمَصْلَحَةَ تَقْتَضِي اجْتِمَاعَهُمْ عَلَيْهِ وَعَدَمُ تَفَرُّقِهِمْ؛ فَالْمُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ حَقًّا لَا يَذْهَبُ لِأَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ؛ لَا يَرْجِعُ لِأَهْلِيهِ، وَلَا يَذْهَبُ لِبَعْضِ الْحَوَائِجِ الَّتِي يَشُدُّ بِهَا عَنْهُمْ؛ إِلَّا بِإِذْنٍ مِنَ الرَّسُولِ أَوْ نَائِبِهِ مِنْ بَعْدِهِ، فَجَعَلَ مُوجِبَ الْإِيمَانِ عَدَمَ الذَّهَابِ إِلَّا بِإِذْنٍ، وَمَدَحَهُمْ عَلَى فَعْلِهِمْ هَذَا وَأَدَبَهُمْ مَعَ رَسُولِهِ وَوَلِيِّ الْأَمْرِ مِنْهُمْ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: وَلَكِنْ؛ هَلْ يَأْذَنُ لَهُمْ أَمْ لَا؟ ذَكَرَ لِإِذْنِهِ لَهُمْ شَرْطَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ لَشَأْنٍ مِنْ شُؤْنِهِمْ وَشُغْلٍ مِنْ أَشْغَالِهِمْ، فَأَمَّا مَنْ يَسْتَأْذِنُ مِنْ غَيْرِ عَذْرٍ؛ فَلَا يُؤْذَنُ لَهُ. وَالثَّانِي: أَنْ يَشَاءَ الْإِذْنُ، فَتَقْتَضِيهِ الْمَصْلَحَةُ مِنْ دُونِ مَضَرَّةٍ بِالْآذِنِ؛ قَالَ: ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾: فَإِذَا كَانَ لَهُ عَذْرٌ، وَاسْتَأْذَنَ؛ فَإِنْ كَانَ فِي قَعْوَدِهِ وَعَدَمِ ذَهَابِهِ مَصْلَحَةٌ بِرَأْيِهِ أَوْ شَجَاعَتُهُ وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ لَمْ يَأْذَنُ لَهُ. وَمَعَ هَذَا؛ إِذَا اسْتَأْذَنَ وَأْذَنَ لَهُ بِشَرْطِيهِ؛ أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ لِمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ مَقْصَرًا فِي الْاسْتِثْنَانِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: يَغْفِرُ لَهُمُ الذُّنُوبَ، وَيَرْحَمُهُمْ؛ بِأَنْ جَوَّزَ لَهُمُ الْاسْتِثْنَانِ مَعَ الْعَذْرِ.

﴿٦٣﴾ ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾؛ [أَي لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ إِثَّاكُمْ، وَدُعَاءَكُمْ لِلرَّسُولِ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا]، فَإِذَا دَعَاكُمْ؛ فَاجِيبُوهُ وَجُوبًا، حَتَّى إِنَّهُ تَجِبُ إِجَابَةُ الرَّسُولِ ﷺ فِي حَالِ الصَّلَاةِ، وَلَيْسَ أَحَدٌ إِذَا قَالَ قَوْلًا يَجِبُ عَلَى الْأُمَّةِ قَبُولُ قَوْلِهِ وَالْعَمَلُ بِهِ إِلَّا الرَّسُولُ؛ لِعَصَمَتِهِ، وَكَوْنِنَا مُخَاطَبِينَ بِاتِّبَاعِهِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾. وَكَذَلِكَ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَكُمْ لِلرَّسُولِ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا؛ فَلَا تَقُولُوا: يَا مُحَمَّدُ عِنْدَ نَدَائِكَ، أَوْ: يَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ! كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ، بَلْ مِنْ شَرَفِهِ وَفَضْلِهِ وَتَمَيُّزِهِ ﷺ عَنْ غَيْرِهِ أَنْ يُقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! يَا نَبِيَّ اللَّهِ! ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾. لَمَّا مَدَحَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ الَّذِينَ إِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ؛ تَوَعَّدَ مَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ وَذَهَبَ مِنْ غَيْرِ اسْتِثْنَانٍ؛ فَهُوَ؛ وَإِنْ خَفِيَ عَلَيْكُمْ بِذَهَابِهِ عَلَى وَجْهِ خَفِيٍّ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾؛ أَي: يَلُودُونَ وَقَتَ تَسَلُّلِهِمْ وَانْطِلَاقِهِمْ بِشَيْءٍ يَحْجُبُهُمْ عَنِ الْعْيُونِ؛ فَاللَّهُ يَعْلَمُهُمْ، وَسَيَجَازِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَتَمَّ الْجَزَاءِ، وَلِهَذَا تَوَعَّدَهُمْ بِقَوْلِهِ:

﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره﴾؛ أي: يذهبون إلى بعض شؤونهم عن أمر الله ورسوله؛ فكيف بمن لم يذهب إلى شأن من شؤونهم، وإنما ترك أمر الله من دون شغل له؛ ﴿أن تُصيِّبهم فتنة﴾؛ أي: شرك وشراً، ﴿أو يُصيِّبهم عذاب أليم﴾.

﴿٦٤﴾ ﴿ألا إنَّ لله ما في السموات والأرض﴾: مُلكاً وعبيداً يتصرف فيهم بحكمه القدرى وحكمه الشرعى. ﴿قد يعلم ما أنتم عليه﴾؛ أي: قد أحاط علمه بما أنتم عليه من خير وشراً، وعلم جميع أعمالكم؛ أحصاها علمه، وجرى بها قلمه، وكتبها عليكم الحفظ الكرام الكاتبون. ﴿ويوم يُرْجَعون إليه﴾؛ أي^(١): يوم القيامة ﴿فنبئهم بما عملوا﴾: يخبرهم بجميع أعمالهم؛ دقيقتها وجليلها؛ إخباراً مطابقاً لما وَقَعَ منهم، ويستشهد عليهم أعضاءهم؛ فلا يعدمون منه فضلاً أو عدلاً. ولما قيَّد علمه بأعمالهم؛ ذكر العموم بعد الخصوص، فقال: ﴿والله بكلِّ شيءٍ عليم﴾.



تفسير سورة الفرقان

وهي مكية عند الجمهور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقِيرًا﴾ ﴿٢﴾.

﴿١﴾ هذا بيان لعظمته الكاملة وتفردّه بالوحدانية من كل وجه وكثرة خيراياه وإحسانه، فقال: ﴿تبارك﴾؛ أي: تعظم، وكملت أوصافه، وكثرت خيراياه، الذي من أعظم خيراياه ونعمه أن نزل هذا القرآن الفارق بين الحلال والحرام والهدى والضلال وأهل السعادة من أهل الشقاوة، ﴿على عبده﴾: محمد ﷺ، الذي كمل مراتب العبودية وفاق جميع المرسلين؛ ﴿ليكون﴾: ذلك الإنزال للفرقان على عبده ﴿للعالمين نذيراً﴾: ينذرهم بأس الله ونقمته ويبين لهم مواقع رضا الله من سخطه، حتى إنَّ مَنْ قَبِلَ نِذَارَتَهُ وعمل بها؛ كان من الناجين في الدنيا والآخرة، الذين حصَلَتْ لهم السعادة الأبدية والمُلْكُ السَّرمديُّ؛ فهل فوق هذه النعمة وهذا الفضل

(١) في (ب): «في».

والإحسان شيء؟! فتبارك الذي هذا [من] بعض إحسانه وبركاته.

﴿٢﴾ ﴿الذي له مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: له التصرف فيهما^(١) وحده، وجميع مَنْ فيهما^(٢) ممالك وعبيد له مذعنون لعظمته خاضعون لربوبيته فقراء إلى رحمته، الذي ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ﴾: وكيف يكون له ولد أو شريك؛ وهو المالك وغيره مملوك، وهو القاهر وغيره مقهور، وهو الغني بذاته من جميع الوجوه والمخلوقون مفتقرون إليه [فقراً ذاتياً]^(٣) من جميع الوجوه! وكيف يكون له شريك في الملك ونواصي العباد كلهم بيديه؛ فلا يتحركون أو يسكنون ولا يتصرفون إلا بإذنه؛ فتعالى الله عن ذلك علواً قديراً؛ فلم يقدره حق قدره مَنْ قال فيه ذلك، ولهذا قال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾: شمل العالم العلوي والعالم السفلي من حيواناته ونباتاته وجماداته، ﴿فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾؛ أي: أعطى كل مخلوق منها ما يليق به ويناسبه من الخلق وما تقتضيه حكمته من ذلك؛ بحيث صار كل مخلوق لا يتصور العقل الصحيح أن يكون بخلاف شكله وصورته المشاهدة، بل كل جزء وعضو من المخلوق الواحد لا يناسبه غير محله الذي هو فيه؛ قال تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى. وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾، وقال تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾.

ولما بين كماله وعظمته وكثرة إحسانه؛ كان ذلك مقتضياً لأن يكون وحده المحبوب المألوه المعظم المفرد بالإخلاص وحده لا شريك له؛ ناسب أن يذكر بطلان عبادة ما سواه، فقال:

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾.

﴿٣﴾ أي: من أعجب العجائب وأدل الدليل على سقاهم ونقص عقولهم، بل أدل على ظلمهم وجراءتهم على ربهم: أن اتَّخَذُوا آلِهَةً بهذه الصفة، في غاية^(٣) العجز أنها لا تقدر على خلق شيء، بل هم مخلوقون، بل بعضهم مما عملته أيديهم، ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؛ أي: لا قليلاً ولا كثيراً؛ لأنه نكرة في سياق النفي. ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾؛ أي: بعثاً بعد الموت.

(٢) في (أ): «فقراء».

(١) في (ب): «فيها».

(٣) في (ب): «كمال».

فأعظمُ أحكام العقل بطلانُ إلهيتها وفسادُها وفسادُ عقل من اتخذها آلهةً وشركاءَ للخالق لسائر المخلوقات من غير مشاركةٍ له في ذلك، الذي بيده النفع والضُّر والعطاء والمنع، الذي يُحيي ويميتُ ويبعثُ مَنْ في القبور ويجمعُهُمْ يومَ النشور، وقد جعلَ لهم دارين: دار الشقاء والخزي والتَّكال لمن اتخذ معه آلهةً أخرى، ودار الفوز والسعادة والنعيم المقيم لمن اتخذَه وحده معبوداً.

ولما قرّر بالدليل القاطع الواضح صحّة التوحيد وبطلان ضده؛ قرّر صحّة الرسالة وبطلان قول من عارضها واعترضها، فقال:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِزُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤١﴾ وَقَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٤٢ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانَ عَافُونَ رَجِيمًا ۝٤٣﴾.

﴿٤١﴾ أي: وقال الكافرون بالله، الذي أوجب لهم كُفْرهم أن قالوا في القرآن والرسول: إن هذا القرآن كذبٌ كَذَبه محمد، وإفكٌ افتراه على الله، وأعانه على ذلك قومٌ آخرون؛ فردّ الله عليهم ذلك بأن هذا مكابرةٌ منهم وإقدامٌ على الظلم والزور الذي لا يمكن أن يدخل عقل أحدٍ؛ وهم أشدُّ الناس معرفةً بحالة الرسول ﷺ وكمال صدقه وأمانته وبرّه التام، وأنه لا يمكنه لا هو ولا سائر الخلق أن يأتوا بهذا القرآن الذي هو أجلُّ الكلام وأعلاه، وأنه لم يجتمع بأحدٍ يُعينه على ذلك؛ ﴿فقد جاؤوا﴾ بهذا القول ظلماً ﴿وزوراً﴾.

﴿٤٢﴾ ومن جملة أقاويلهم فيه أن قالوا: هذا الذي جاء به محمدٌ ﴿أساطيرُ الأولين اكتتبها﴾؛ أي: هذا قصص الأولين وأساطيرهم، التي تتلقاها الأفواه وينقلها كلُّ أحدٍ، استنسخها محمدٌ؛ ﴿فهي تُملى عليه بُكرةً وأصيلًا﴾: وهذا القول منهم فيه عدةٌ عظام:

منها: رميهم الرسول الذي هو أبرُّ الناس وأصدقهم بالكذب والجرأة العظيمة.
ومنها: إخبارهم عن هذا القرآن الذي هو أصدق الكلام وأعظمه وأجله بأنه كذبٌ وافتراءٌ.

ومنها: أن في ضمن ذلك أنهم قادرون أن يأتوا بمثله، وأن يضاهي المخلوق الناقص من كل وجه للخالق الكامل من كل وجه بصفة من صفاته، وهي الكلام.

ومنها: أَنَّ الرِّسُولَ قَدْ عَلِمْتَ حَالَهُ^(١)، وَهُمْ أَشَدُّ النَّاسِ عِلْمًا بِهَا؛ أَنَّهُ لَا يَكْتُبُ وَلَا يَجْتَمِعُ بِمَنْ يَكْتُبُ لَهُ؛ وَهُمْ قَدْ زَعَمُوا ذَلِكَ.

﴿٦﴾ فَلِذَلِكَ رَدَّ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أَي: أَنْزَلَهُ مَنْ أَحَاطَ عِلْمُهُ بِمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَالْجَهْرِ وَالسِّرِّ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾. وَوَجْهُ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ أَنَّ الَّذِي أَنْزَلَهُ هُوَ الْمَحِيطُ بِعِلْمِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَيَسْتَحِيلُ وَيَمْتَنِعُ أَنْ يَقُولَ مَخْلُوقٌ وَيَقُولَ عَلَيْهِ هَذَا الْقُرْآنُ، وَيَقُولَ: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِهِ، وَيَسْتَحِيلُ دِمَاءُ مَنْ خَالَفَهُ وَأُمُومَالَهُمْ، وَيَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ قَالَ لَهُ ذَلِكَ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ، وَمَعَ ذَلِكَ؛ فَهُوَ يُؤَيِّدُهُ وَيَنْصُرُهُ عَلَى أَعْدَائِهِ وَيُمْكِّنُهُ مِنْ رِقَابِهِمْ وَبِلَادِهِمْ؛ فَلَا يُمْكِنُ أَحَدًا أَنْ يُنْكِرَ هَذَا الْقُرْآنَ إِلَّا بَعْدَ إِنْكَارِ عِلْمِ اللَّهِ، وَهَذَا لَا يَقُولُ بِهِ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي آدَمَ سِوَى الْفَلَّاسِفَةِ الدُّهْرِيَّةِ.

وَأَيْضًا: فَإِنَّ ذِكْرَ عِلْمِهِ تَعَالَى الْعَامِ يَنْبَهُهُمْ وَيَحْضُهُمْ عَلَى تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَأَنَّهُمْ لَوْ تَدَبَّرُوا؛ لَرَأَوْا فِيهِ مِنْ عِلْمِهِ وَأَحْكَامِهِ مَا يَدُلُّ دَلَالَةً قَاطِعَةً عَلَى أَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ.

وَمَعَ إِنْكَارِهِمْ لِلتَّوْحِيدِ وَالرِّسَالَةِ؛ مِنْ لَطْفِ اللَّهِ بِهِمْ أَنَّهُ لَمْ يَدَغِّهِمْ وَظَلَمَهُمْ، بَلْ دَعَاهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَوَعَدَهُمْ بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ إِنْ هُمْ تَابُوا وَرَجَعُوا، فَقَالَ: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا﴾؛ أَي: وَصَفُهُ الْمَغْفِرَةُ لِأَهْلِ الْجَرَائِمِ وَالذُّنُوبِ إِذَا فَعَلُوا أَسْبَابَ الْمَغْفِرَةِ، وَهِيَ الرُّجُوعُ عَنْ مَعَاصِيهِ وَالتَّوْبَةُ مِنْهَا. ﴿رَحِيمًا﴾: بِهِمْ؛ حَيْثُ لَمْ يَعْاجِلْهُمْ بِالْعُقُوبَةِ وَقَدْ فَعَلُوا مَقْتَضَاهَا وَحَيْثُ قَبِلَ تَوْبَتَهُمْ بَعْدَ الْمَعَاصِي، وَحَيْثُ مَحَا مَا سَلَفَ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَحَيْثُ قَبِلَ حَسَنَاتِهِمْ، وَحَيْثُ أَعَادَ الرَّاجِعُ إِلَيْهِ بَعْدَ شُرُودِهِ وَالْمَقْبِلُ عَلَيْهِ بَعْدَ إِعْرَاضِهِ إِلَى حَالَةِ الْمَطِيعِينَ الْمُنِيبِينَ إِلَيْهِ.

﴿وَقَالُوا مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُودُ مَعَهُ نَنْذِرًا ۖ أَوْ يُنْفِثُ إِلَيْنَا كَذْرًا أَوْ تَكُونُ لَكُمُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۝ أَنْظِرْ كَيْفَ صَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلُ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

الْأَنهَرُ وَيَجْعَلَ لَكَ فُجُورًا ﴿١٥﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١٦﴾ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّطًا وَزَفِيرًا ﴿١٧﴾ وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٨﴾ لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ .

﴿٧﴾ هذا من مقالة المكذبين للرسول، التي قَدَحُوا [بها] في رسالتيه، وهو أنهم اعترضوا بأنه هَلَّا كَانَ مَلَكًا أَوْ مَلِكًا أَوْ يَسَاعِدُهُ مَلَكٌ؛ فقالوا: ﴿مال هذا الرسول﴾؛ أي: ما لهذا الذي ادَّعى الرسالة تهكمًا منهم واستهزاء ﴿يأكل الطعام﴾: وهذا من خصائص البشر؛ فهَلَّا كَانَ مَلَكًا لَا يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْبَشَرُ، ﴿ويمشي في الأسواق﴾: للبيع والشراء، وهذا بزعمهم لَا يَلْقَى بَمَنْ يَكُونُ رَسُولًا؛ مع أن الله قال: ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾. ﴿لولا أنزل إليه مَلَكٌ﴾؛ أي: هَلَّا أُنْزِلَ مَعَهُ مَلَكٌ يَسَاعِدُهُ وَيَعَاوَنُهُ ﴿فيكون معه نذيرًا﴾: وبزعمهم أنه غير كافٍ للرسالة، ولا بطوقه وقدرته القيام بها.

﴿٨﴾ ﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ﴾؛ أي: مَالٌ مُجْمُوعٌ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ، ﴿أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾: فيستغني بذلك عن مشيه في الأسواق لطلب الرزق، ﴿وقال الظالمون﴾: حملهم على القول ظُلْمُهُمْ، لَا اشْتِبَاهَ مِنْهُمْ: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾: هذا وقد علموا كمال عقله وحسن حديثه وسلامته من جميع المطاعن.

﴿٩﴾ ولما كانت هذه الأقوال منهم عجيبة جدًا؛ قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾: وهي: هَلَّا كَانَ مَلَكًا وَزَالَتْ عَنْهُ خَصَائِصُ الْبَشَرِ، أَوْ مَعَهُ مَلَكٌ لِأَنَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى مَا قَالَ، أَوْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ، أَوْ جُعِلَتْ لَهُ جَنَّةٌ تُغْنِيهِ عَنِ الْمَشْيِ فِي الْأَسْوَاقِ، أَوْ أَنَّهُ كَانَ مَسْحُورًا. ﴿فَضْلُوا فَلَا [يَسْتَطِيعُونَ]﴾^(١) سَبِيلًا: قالوا: أقوالاً متناقضة، كُلُّهَا جَهْلٌ وَضَلَالٌ وَسَفَهٌ، لَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا هِدَايَةٌ، بَلْ وَلَا فِي شَيْءٍ مِنْهَا أَدْنَى شَبْهَةٍ تَقْدُخُ فِي الرِّسَالَةِ، فَبِمَجَرَّدِ النَّظَرِ إِلَيْهَا وَتَصَوُّرِهَا يَجْزِمُ الْعَاقِلُ بِبَطْلَانِهَا، وَيَكْفِيهِ عَنْ رَدِّهَا. ولهذا أمر تعالى بالنظر إليها وتدبرها والنظر: هل تَوْجِبُ التَّوَقُّفَ عَنِ الْجَزْمِ لِلرَّسُولِ بِالرِّسَالَةِ وَالصَّدْقِ؟!

﴿١٠﴾ ولهذا أخبر أنه قادر على أن يعطيك خيرًا كثيرًا في الدنيا، فقال: ﴿تبارك الذي إن شاء جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾؛ أي: خيرًا مما قالوا، ثم فسره بقوله:

(١) في النسختين: «يهتدون».

﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا﴾: مرتفعة مزخرفة؛ فقد رتبته ومشيبته لا تقصُر عن ذلك، ولكنه تعالى لما كانت الدنيا عنده في غاية البعد والحقارة؛ أعطى منها أوليائه ورسله ما اقتضته حكمته منها، واقتراح أعدائهم بأنهم هلاً رزقوا منها رزقاً كثيراً جداً ظلم وجرأة.

﴿١١﴾ ولما كانت تلك الأقوال التي قالوها معلومة الفساد؛ أخبر تعالى أنها لم تصدُر منهم لطلب الحق ولا لاتباع البرهان، وإنما صدرت منهم تعنتاً وظلماً وتكديباً بالحق، فقالوا ما في قلوبهم من ذلك، ولهذا قال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾: والمكذب المتعنت الذي ليس له قصد في اتباع الحق لا سبيل إلى هدايته ولا حيلة في مجادلته، وإنما له حيلة واحدة، وهي ^(١) نزول العذاب به؛ فلهذا قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾؛ أي: ناراً عظيمة قد اشتد سعيها وتغيظت على أهلها واشتد زفيرها.

﴿١٢﴾ ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾؛ أي: قبل وصولهم ووصولها إليها؛ ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا﴾: عليهم ﴿وزفيرًا﴾: تعلق منهم الأفئدة، وتتصدع القلوب، ويكاد الواحد منهم يموت خوفاً منها ودُعراً، قد غضبت عليهم لغضب خالقها، وقد زاد لهيبها لزيادة كفرهم وشرهم.

﴿١٣﴾ ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضِيقًا مُقَرَّنِينَ﴾؛ أي: وقت عذابهم ^(٢) وهم في وسطها جمع في مكان، بين ضيق المكان وتراحم السكان وتقربينهم بالسلاسل والأغلال؛ فإذا وصلوا لذلك المكان النحس وحبسوا في أشد حبس؛ ﴿دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾: دعوا على أنفسهم بالثبور والخزي والفضيحة، وعلموا أنهم ظالمون معتدون، قد عدل فيهم الخالق حيث أنزلهم بأعمالهم هذا المنزل.

﴿١٤﴾ وليس ذلك الدعاء والاستغاثة بنافعة لهم ولا مغنية من عذاب الله، بل يُقال لهم: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾؛ أي: لو زاد ما قلتم أضعاف أضعافه؛ ما أفادكم إلا الهَمُّ والغَمُّ والحزن.

لما بين جزاء الظالمين؛ ناسب أن يذكر جزاء المتقين، فقال:

﴿قُلْ أَذَلَّكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَاصِرًا ﴿١٥﴾ لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولا ﴿١٦﴾﴾.

(٢) في (ب): «أي عذابهم».

(١) في (ب): «وهو».

﴿١٥﴾ أَي: قُلْ لَهُمْ مَبِينًا لِسَفَاهَةِ رَأْيِهِمْ وَاخْتِيَارِهِمُ الضَّارَّ عَلَى النَّافِعِ: **أَذْلِكُ**: الذي وَصَفْتُ لَكُمْ مِنَ الْعَذَابِ **﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾**: التي زَادَهَا تَقْوَى اللَّهِ؛ فَمَنْ قَامَ بِالتَّقْوَى؛ فَاللَّهُ قَدْ وَعَدَهُ إِيَّاهَا، **﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً﴾**: عَلَى تَقْوَاهُمْ، **﴿وَمُصِيرًا﴾**: مَوْثَلًا يَرْجِعُونَ إِلَيْهَا، وَيَسْتَقَرُّونَ فِيهَا، وَيَخْلُدُونَ دَائِمًا أَبَدًا.

﴿١٦﴾ **﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُونَ﴾**؛ أَي: يَطْلُبُونَ وَتَتَعَلَّقُ بِهِ أَمَانِيهِمْ وَمَشِيئَتُهُمْ؛ مِنْ الْمَطَاعِمِ، وَالْمَشَارِبِ اللَّذِيذَةِ، وَالْمَلَابِسِ الْفَاخِرَةِ، وَالنِّسَاءِ الْجَمِيلَاتِ، وَالْقُصُورِ الْعَالِيَاتِ، وَالْجَنَّاتِ وَالْحَدَائِقِ الْمَرْجُحَةِ^(١)، وَالْفَوَاكِهُ الَّتِي تَسُرُّ نَاضِرِيهَا وَآكِلِيهَا مِنْ حُسْنِهَا وَتَنُوعِهَا وَكَثْرَةِ أَصْنَافِهَا، وَالْأَنْهَارِ الَّتِي تَجْرِي فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ وَبَسَاتِينِهَا حَيْثُ شَاؤُوا يَصْرِفُونَهَا وَيَفْجُرُونَهَا أَنْهَارًا مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَأَنْهَارًا مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارًا مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ، وَأَنْهَارًا مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَرَوَائِحِ طَيِّبَةٍ، وَمَسَاكِنَ مَزْخَرَفَةٍ، وَأَصْوَاتٍ شَجِيَّةٍ تَأْخُذُ مِنْ حُسْنِهَا بِالْقُلُوبِ، وَمَزَاوِرَ الْإِخْوَانِ، وَالتَّمَتُّعَ بِلِقَاءِ الْأَحْبَابِ، وَأَعْلَى مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ التَّمَتُّعُ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِ الرَّبِّ الرَّحِيمِ، وَسَمَاعِ كَلَامِهِ وَالْحِظْوَةِ بِقُرْبِهِ وَالسَّعَادَةِ بِرِضَاةِ، وَالْأَمْنِ مِنْ سَخَطِهِ وَاسْتِمْرَارِ هَذَا النِّعَمِ وَدَوَامِهِ وَزِيَادَتِهِ عَلَى مَمَرِ الْأَوْقَاتِ وَتَعَاقِبِ الْآنَاتِ. **﴿كَانَ﴾**: دَخُولُهَا وَالْوُصُولُ إِلَيْهَا **﴿عَلَى رَبِّكَ وَعَدًا مَسْئُولًا﴾**: يَسْأَلُهُ إِيَّاهَا عِبَادُهُ الْمُتَّقُونَ بِلِسَانِ حَالِهِمْ وَلِسَانِ مَقَالِهِمْ.

فَأَيُّ الدَّارَيْنِ الْمَذْكُورَتَيْنِ خَيْرٌ وَأَوْلَى بِالْإِيثَارِ؟! وَأَيُّ الْعَامِلِينَ عُمَالِ دَارِ الشَّقَاءِ أَوْ عُمَالِ دَارِ السَّعَادَةِ أَوْلَى بِالْفَضْلِ وَالْعَقْلِ وَالْفَخْرِ يَا أَوْلَى الْأَلْبَابِ؟! لَقَدْ وَضَحَ الْحَقُّ وَاسْتَنَارَ السَّبِيلُ، فَلَمْ يَبْقَ لِلْمُفْرَطِ عَذْرٌ فِي تَرْكِهِ الدَّلِيلِ؛ فَزَجُوكَ يَا مَنْ قَضَيْتَ عَلَى أَقْوَامٍ بِالشَّقَاءِ وَأَقْوَامٍ بِالسَّعَادَةِ أَنْ تَجْعَلَنَّا مِمَّنْ كَتَبْتَ لَهُمُ الْحَسَنَى وَزِيَادَةَ، وَنَسْتَعِثُ بِكَ اللَّهُمَّ مِنْ حَالَةِ الْأَشْقِيَاءِ وَنَسْأَلُكَ الْمَعَاذَةَ مِنْهَا.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ ١٧ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَوَأَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ١٨ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا نَقُولُوكَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يظْلِمَ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ١٩ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ

مِنَ الْمُتْرَكِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُوا وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ .

﴿١٧﴾ يخبر تعالى عن حالة المشركين وشركائهم يوم القيامة وتبريهم منهم وبطلان سعيهم، فقال: ﴿ويوم يحشرهم﴾؛ أي: المكذبين المشركين، ﴿وما يعبُدون من دون الله فيقول﴾: الله مخاطباً للمعبودين على وجه التقرير لمن عبدهم: ﴿أنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلّوا السبيل﴾: هل أمرتموهم بعبادتكم وزيتهم لهم ذلك أم ذلك من تلقاء أنفسهم؟

﴿١٨﴾ ﴿قالوا سبحانك﴾: نزهوا الله عن شرك المشركين به، وبرّؤوا أنفسهم من ذلك، ﴿ما كان ينبغي لنا﴾؛ أي: لا يليق بنا ولا يحسن منا أن نتخذ من دونك من أولياء نولّاهم ونعبدهم وندعوهم؛ فإذا كنّا محتاجين ومفتقرين إلى عبادتك ومتبرّين من عبادة غيرك؛ فكيف تأمر أحداً بعبادتنا؟! هذا لا يكون. أو: سبحانك أن نتخذ ﴿من دونك من أولياء﴾: ولهذا كقول المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتّخذوني وأمّي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب. ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربّي وربّكم...﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة هؤلاء إياكم كانوا يعبدون. قالوا سبحانك أنت وليّنا من دونهم بل كانوا يعبدون الجنّ أكثرهم بهم مؤمنون﴾، ﴿وإذا حُشِرَ الناسُ كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾.

فلما نزهوا أنفسهم أن يدعوا لعبادة غير الله أو يكونوا أضلّوهم؛ ذكروا السبب الموجب لإضلال المشركين، فقالوا: ﴿ولكن متّعتهم وآباءهم﴾: في لذات الدنيا وشهواتها ومطالبها النفسيّة، ﴿حتى نسوا الذّكر﴾: اشتغالا في لذات الدنيا وإكباباً على شهواتها؛ فحافظوا على دنياهم وضيعوا دينهم، ﴿وكانوا قوماً بوراً﴾؛ أي: بائرين، لا خير فيهم، ولا يصلّحون لصالح، لا يصلّحون إلّا للهلاك والبوار، فذكروا المانع من اتّباعهم الهدى، وهو التمتع في الدنيا، الذي صرفهم عن الهدى، وعدم المقتضي للهدى، وهو أنّهم لا خير فيهم؛ فإذا عدّموا^(١) المقتضي ووُجِدَ

المانع؛ فلا تشاء من شرٍّ وهلاكٍ إلاَّ وجَدْتَهُ فيهم.

﴿١٩﴾ فلما تبرؤا منهم؛ قال الله توبيخاً وتقريعاً للمعاندين: ﴿فقد كذبوكم بما تقولون﴾: إنَّهم أمروكم بعبادتهم ورَضُوا فِعْلَكُمْ وإنَّهم شفِعاء لكم عند ربكم؛ كذبوكم في ذلك الزعم، وصاروا من أكبر أعدائكم، فحقَّ عليكم العذاب. ﴿فما تستطيعون صرفاً﴾: للعذاب عنكم بفِعْلِكُمْ أو بفداءٍ أو غير ذلك ﴿ولا نصراً﴾: لعجزكم وعدم ناصرِكم. هذا حكم الضالِّين المقلِّدين الجاهلين كما رأيت، أسوأ حكم وأشرُّ مصير. وأما المعاند منهم الذي عَرَفَ الحقَّ وصدَفَ عنه؛ فقال في حقِّه: ﴿ومن يظلم منكم﴾: بترك الحقِّ ظلماً وعناداً؛ ﴿نُدِّقْهُ عذاباً كبيراً﴾: لا يُقَادَرُ قَدْرُهُ ولا يُنَلَّغُ أمرُهُ.

﴿٢٠﴾ ثم قال تعالى جواباً لقول المكذبين -: ﴿ما لهذا الرسول يأكلُ الطعام ويمشي في الأسواق﴾ -: [﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلاَّ إنَّهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾]: فما جَعَلْنَاهُمْ جسداً لا يأكلون الطعام وما جَعَلْنَاهُمْ ملائكة؛ فلك فيهم أسوة، وأمَّا الغنى والفقْر؛ فهو فتنةٌ وحكمةٌ من الله تعالى؛ كما قال: ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة﴾: الرسول فتنةٌ للمرسل إليهم واختبارٌ للمطيعين من العاصين، والرُّسل فتَنَاهُمْ بدعوة الخلق، والغني فتنةٌ للفقير، والفقير فتنةٌ للغني، وهكذا سائر أصناف الخلق في هذه الدار دار الفتن والابتلاء والاختبار، والقصد من تلك الفتنة: ﴿أنصبرون﴾، فتقومون بما هو وظيفتكم اللازمة الراتبه، فيثيبكم مولاكم، أم لا تصبرون فتستحقُّون المعاقبة؟ ﴿وكان ربُّك بصيراً﴾: يعلم أحوالكم، ويضطفي من يَعْلَمُهُ يَضْلُحُ لرسالته، ويختصُّه بتفضيله ويعلم أعمالكم فيجازيكم عليها إنَّ خيراً فخير وإنَّ شراً فشر.

﴿٢١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُوتُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾

﴿٢١﴾ أي: قال المكذبون للرسول، المكذبون بوعد الله ووعيده، الذين ليس في قلوبهم خوفُ الوعيد ولا رجاءُ لقاء الخالق: ﴿لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾؛ أي: هلاً نزلت الملائكة تشهد لك بالرسالة وتؤيِّدك عليها، أو تنزل رسلاً مستقلين، أو نرى ربنا فيكلِّمنا ويقول: هذا رسولي؛ فاتبعوه! وهذا معارضة للرسول

بما ليس بمعارض، بل بالتكبر والعلو والعتو. ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾: حيث اقترحوا هذا الاقتراح وتجروا هذه الجرأة؛ فمن أنتم يا فقراء ويا مساكين حتى تطلبوا رؤية الله وتزعموا^(١) أن الرسالة متوقفة ثبوتها على ذلك؟! وأي كبر أعظم من هذا؟! ﴿وَعَتَوْا عَتَوْاً كَبِيراً﴾؛ أي: قسوا وصلبوا عن الحق قساوة عظيمة؛ فقلوبهم أشد من الأحجار وأصلب من الحديد، لا تلين للحق ولا تُضغي للناصحين؛ فلذلك لم ينجع فيهم وعظ ولا تذكير، ولا اتبعوا الحق حين جاءهم النذير، بل قابلوا أصدق الخلق وأنصحهم وآيات الله البينات بالإعراض والتكذيب [والمعارضة]؛ فأَيُّ عتو أكبر من هذا العتو؟! ولذلك بطلت أعمالهم، واضمحلت، وخسروا أشد الخسران، [وحرموا غاية الحرمان].

﴿٢٢﴾ ﴿يَوْمَ يَرُونَ الْمَلَائِكَةَ﴾: [التي اقترحوا نُزُولَهَا]، ﴿لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾: وذلك أنهم لا يَرَوْنَهَا مع استمرارهم على جُزْمِهِمْ وعنادهم إلا لعقوبتهم وحلول البأس بهم: فأول ذلك عند الموت إذا تنزلت عليهم الملائكة؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾. ثم في القبر حيث^(٢) يأتيهم منكز ونكير، فيسألهم عن ربهم ونبئهم ودينهم، فلا يجيبون جواباً يُنجيهم، فيحلون بهم النعمة وتزول عنهم بهم الرحمة.

ثم يوم القيامة حين تسوقهم الملائكة إلى النار، ثم يسلمونهم لخزنة جهنم، الذين يتولون عذابهم ويباشرهم عقابهم. فهذا الذي اقترحوه وهذا الذي طلبوه إن استمرؤا على إجرامهم لا بد أن يَرَوْهُ وَيَلْقَوْهُ، وحينئذ يتعوذون من الملائكة ويفرون، ولكن لا مفر لهم، ﴿وَيَقُولُونَ جَبْرًا مَخْجُورًا﴾: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾.

﴿٢٣﴾ ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾؛ أي: أعمالهم التي رَجَوْا أن تكون خيراً وتعبوا فيها، ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾؛ أي: باطلاً مضمحلاً قد خسروه وخرموا أجره وعوقبوا عليه، وذلك لفقده الإيمان وصدوره عن مكذب لله ورسله؛ فالعمل الذي يقبله الله ما صدر من المؤمن المخلص المصدق للرسل المتبع لهم فيه.

(١) في (ب): «وتزعمون».

(٢) في (ب): «حين».

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ۝٢٤﴾.

﴿٢٤﴾ أي: في ذلك اليوم الهائل كثير البلبال، ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾: الذين آمنوا بالله وعملوا صالحاً وأتقوا ربَّهم ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾: من أهل النار، ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾؛ أي: مستقرَّهم في الجنة وراحتهم التي هي القيلولة هو المستقرُّ النافع والراحة التامة؛ لاشتغال ذلك على تمام النعيم الذي لا يشوبه كدر؛ بخلاف أصحاب النار؛ فإنَّ جهنم مستقرَّهم ساءت مستقرًّا ومقيلًا، وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء؛ لأنَّه لا خير في مقيل أهل النار ومستقرَّهم؛ كقوله: ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّ وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ نَزِيرًا ۝٢٥ أَلَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ۝٢٦ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَوْمَئِذٍ لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ۝٢٩﴾.

﴿٢٥ - ٢٦﴾ يُخْبِرُ تعالى عن عَظَمَةِ يومِ القيامة وما فيه من الشدَّة والكروب ومزعجات القلوب، فقال: ﴿وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّ﴾: وذلك الغمام الذي ينزل الله فيه؛ ينزل من فوق السماوات، فَتَنْفَطِرُ له السماوات وتَشْقُقُ وتنزل [ملائكة] ^(١) كل سماء، فيقفون صفًّا صفًّا، إمَّا صفًّا واحدًا محيطًا بالخلاق، وإمَّا كل سماء يكونون صفًّا، ثم السماء التي تليها صفًّا ^(٢)، وهكذا القصد أنَّ الملائكة على كثرتهم وقوتهم ينزلون محيطين بالخلق مذعنين لأمر ربهم لا يتكلَّم منهم أحد إلا بإذن من الله؛ فما ظنك بالآدمي الضعيف، خصوصاً الذي بارز ماله بالعهائم، وأقدم على مساحطه، ثم قدم عليه بذنوب وخطايا لم يتب منها، فيحكم فيه الملك الخلاق ^(٣) بالحكم الذي لا يجوز ولا يظلم مثقال ذرَّة، ولهذا قال: ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾: لصعوبته الشديدة وتعسر أمره عليه؛ بخلاف المؤمن؛ فإنَّه

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «الملائكة».

(٢) رواه الحاكم (٥٦٩/٤ و ٥٧٠) عن ابن عباس موقوفاً، وقال الذهبي: «إسناده قوي». ورواه الدارمي في «الرد على الجهمية» (١٤٢ و ١٤٣)، وانظر «الدر المثور» (١٢٣/٥).

(٣) في (ب): «الحق».

يسيرُ عليه خفيفُ الحمل: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا. وَنَسْوَقُ الْمَجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ زُرَّادًا﴾. وقوله: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم القيامة، ﴿الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾: لا يبقى لأحدٍ من المخلوقين مُلْكٌ ولا صورةٌ مُلْكٍ؛ كما كانوا في الدنيا، بل قد تساوت الملوك ورعاياهم والأحرار والعبيد والأشراف وغيرهم.

ومما يرتاحُ له القلبُ وتطمئنُ به النفس وينشرحُ له الصدرُ أنه أضاف الملك في يوم القيامة لاسمِهِ الرحمن؛ الذي وسعت رحمته كلُّ شيءٍ، وعمَّت كلُّ حيٍّ، وملأت الكائنات، وعمرت بها الدنيا والآخرة، وتمَّ بها كلُّ ناقص، وزال بها كلُّ نقص، وغلبت الأسماء الدالةُ عليه الأسماء الدالةُ على الغضب، وسبقت رحمته غضبه وغلبته؛ فلها سبق والغلبة، وخلقَ هذا آدميَّ الضعيف وشرفه وكرمه ليُتمَّ عليه نعمته وليتغمَّده برحمته، وقد حضروا في موقف الذلِّ والخضوع والاستكانة بين يديه؛ ينتظرون ما يحكم فيهم وما يُجري عليهم، وهو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم؛ فما ظنُّك بما يعاملهم به، ولا يَهْلِكُ على الله إلا هالكٌ، ولا يخرج من رحمته إلا من غلبت عليه الشقاوة، وحقت عليه كلمة العذاب.

﴿٢٧﴾ ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ: بِشُرْكِهِ وَكَفَرِهِ وَتَكْذِيبِهِ لِلرَّسْلِ﴾ ﴿على يديه﴾: تأسفاً وتحسراً وحزناً وأسفاً، ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾؛ أي: طريقاً بالإيمان به وتصديقه وأتباعه.

﴿٢٨﴾ ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا﴾: وهو الشيطان الإنسيُّ أو الجنِّيُّ ﴿خليلًا﴾؛ أي: حبيباً مضافاً، عاديئُ أنصح الناس لي وأبرهم بي وأرفقهم بي، وواليتُ أعدى عدوِّ لي، الذي لم تُفِذني ولايتهُ إلا الشقاء والخسار والخزي والبوار.

﴿٢٩﴾ ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾: حيث زين له ما هو عليه من الضلال بخدعه وتسويله، ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾: يزين له الباطل ويبخُّ له الحقَّ ويعده الأمان ثم يتخلَّى عنه ويتبرأ منه؛ كما قال لجميع أتباعه حين قُضي الأمرُ وفرغَ الله من حساب الخلق: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْ مَوْا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُضِرِّكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُضِرِّخِي إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ...﴾ الآية؛ فلينظر العبد لنفسه وقت الإمكان،

وَلْيَتَذَكَّرْ^(١) الْمُمْكِنَ قَبْلَ أَنْ لَا يُمْكِنَ، وَلْيُوَالِيَ مَنْ وَلَايَتُهُ فِيهَا سَعَادَتُهُ، وَيُعَادِيَ مَنْ تَنَفَعَهُ عِدَاوَتُهُ وَتَضَرَّرَهُ صِدَاقَتُهُ. وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ.

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَذَرِبْ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿٣٠﴾ ﴿وقال الرسول﴾: منادياً لربه وشاكياً عليه إعراض قوميه عما جاء به ومتأسفاً على ذلك منهم: ﴿يا ربَّ إِنَّ قَوْمِي﴾: الذي أرسلتني لهدايتهم وتبليغهم ﴿اتَّخَذُوا هَذِهِ الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾؛ أي: قد أعرضوا عنه وهجروه وتركوه، مع أنَّ الواجب عليهم الانقياد لحكمه والإقبال على أحكامه والمشى خلفه.

﴿٣١﴾ قال الله مسلماً لرسوله ومخبراً: إِنَّ هَؤُلَاءِ الْخَلْقَ لَهُمْ سَلَفٌ صَنَعُوا كَصَنَاعِهِمْ، فَقَالَ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: من الذين لا يصلحون للخير ولا يزكون عليه؛ يعارضونهم، ويرثون عليهم، ويجادلونهم بالباطل. من بعض فوائد ذلك أن يعلو الحق على الباطل، وأن يتبين الحق ويتضح اتِّصاحاً عظيماً؛ لأنَّ معارضة الباطل للحق مما تزيده وضوحاً وبياناً وكمالاً استدلالاً، وأن نتبين ما يفعل الله بأهل الحق من الكرامة، وبأهل الباطل من العقوبة؛ فلا تحزن عليهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، ﴿وكفى بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾: يهديك فيحصل لك المطلوب ومصالح دينك ودنياك، ﴿ونصيراً﴾: ينصرك على أعدائك، ويدفع عنك كلَّ مكروه في أمر الدين والدنيا؛ فاكثف به وتوكل عليه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

﴿٣٢﴾ هذا من جملة مقترحات الكفار الذي توحيه إليهم أنفسهم، فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾؛ أي: كما أنزلت الكتب قبله. وأيُّ محذور من نزوله على هذا الوجه؟! بل نزوله على هذا الوجه أكمل وأحسن، ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ﴾: أنزلناه متفرقاً ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾: لأنَّه كلما نزل عليه شيء من القرآن؛ ازداد طمأنينة وثباتاً، وخصوصاً عند ورود أسباب القلق؛ فإنَّ نزول القرآن عند حدوثه يكون له موقعٌ عظيمٌ وثبیتٌ كثيرٌ أبلغ مما لو كان نازلاً قبل ذلك ثم تذكره

(١) في (ب): «وليتذكرك».

عند حلول سببه، ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾؛ أي: مَهْلَنَاهُ، ودرَجْنَاكَ فيه تدريجاً.

وهذا كله يدلُّ على اعتناء الله بكتابه القرآن وبرسوله محمد ﷺ؛ حيث جعل إنزال كتابه جارياً على أحوال الرسول ومصالحه الدينية.

﴿٣٣﴾ ولهذا قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾: يعارضون به الحق ويدفعون به رسالتك، ﴿إِلَّا جِنَّاتِكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾؛ أي: أنزلنا عليك قرآنًا جامعاً للحق في معانيه والوضوح والبيان التام في ألفاظه؛ فمعانيه كلها حق وصدق لا يشوبها باطل ولا شبهة بوجه من الوجوه، وألفاظه وحدوده للأشياء أوضح ألفاظاً وأحسن تفسيراً، مبين للمعاني بياناً كاملاً.

وفي هذه الآية دليل على أنه ينبغي للمتكلم في العلم من محدث ومعلم وواعظ أن يقتدي بربه في تدبيره حال رسوله، كذلك العالم يدبر أمر الخلق، وكلما حدث موجب أو حصل موسم؛ أتى بما يناسب ذلك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والمواعظ الموافقة لذلك.

وفيه ردٌّ على المتكلمين من الجهمية ونحوهم ممن يرى أن كثيراً من نصوص القرآن محمولة على غير ظاهرها، ولها معانٍ غير ما يفهم منها؛ فإذا على قولهم لا يكون القرآن أحسن تفسيراً من غيره، وإنما التفسير الأحسن على زعمهم تفسيرهم الذي حرّفوا له المعاني تحريفاً!

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْلَىٰ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾.

﴿٣٤﴾ يخبر تعالى عن حال المشركين الذين كذبوا رسوله وسوء مآلهم وأنهم يُحْشَرُونَ على وجوههم: في أشنع مرأى وأفظع منظر، تسحبهم ملائكة العذاب ويجزؤونهم ﴿إلى جهنم﴾: الجامعة لكل عذاب وعقوبة، ﴿أولئك﴾: الذين بهذه الحال ﴿شرٌّ مكاناً﴾: ممن آمن بالله وصدق رسله ﴿وأضل سبيلاً﴾: وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء؛ فإن المؤمنين حسن مكانهم ومستقرهم، واهتدوا في الدنيا إلى الصراط المستقيم، وفي الآخرة إلى الوصول إلى جنات النعيم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِنَا فَدَمْزَلْنَهُمْ نَدِيمًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمٌ نَوحٌ لَّمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّيسِ وَقُرُونًا

بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيْرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْتُ مَطَرَ السَّوءِ أَفْكَمَ يَكُونُوا يَكُونُوهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ شُورًا ﴿٤٠﴾ .

﴿٣٥ - ٤٠﴾ أشار تعالى إلى هذه القصص، وقد بسطها في آياتٍ أخرى؛ ليحذّر المخاطبين من استمرارهم على تكذيب رسولهم، فيصيبهم ما أصاب هؤلاء الأمم الذين كانوا^(١) قريباً منهم ويعرفون قصصهم بما استفاضوا واشتبهوا عنهم، ومنهم من يرون آثارهم عياناً؛ كقوم صالح في الحجر، والقرية التي^(٢) أَمْطَرْتُ مَطَرَ السَّوءِ بحجارة من سجيل؛ يمرون عليهم مصبحين وبالليل في أسفارهم؛ فَإِنَّ أُولَئِكَ الْأُمَمَ لَيْسُوا شَرًّا مِنْهُمْ، ورسولهم ليسوا خيراً من رسول هؤلاء؛ ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾، ولكن الذي منع هؤلاء من الإيمان مع ما شاهدوا من الآيات أنهم كانوا لا يرجون بعثاً ولا نُشُوراً؛ فلا يرجون لقاء ربهم، ولا يخشون نكاله؛ فلذلك استمروا على عنادهم، وإلا؛ فقد جاءهم من الآيات ما لا يبقى معه شك ولا شبهة ولا إشكال ولا ارتياب.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَخِذُّوكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَوَيْتَ مِنَ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِن هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ .

﴿٤١﴾ أي: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ﴾: يا محمد؛ هؤلاء المكذبون لك، المعاندون لآيات الله، المستكبرون في الأرض؛ استهزؤوا بك، واحترقوا، وقالوا على وجه الاحتقار والاستصغار: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾؛ أي: غير مناسب ولا لائق أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ هَذَا الرَّجُلَ! وهذه من شدة ظلمهم وعنادهم وقلوبهم الحقائق؛ فَإِنَّ كَلَامَهُمْ هَذَا يُفْهِمُ أَنَّ الرَّسُولَ - حاشاه - في غاية الخسة والحقارة، وأنه لو كانت الرسالة لغيره؛ لكان أنسب. ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾؛ فهذا الكلام لا يصدر إلا من أجهل الناس وأضلهم، أو من أعظمهم عناداً، وهو متجاهل، قصده ترويح ما معه من الباطل بالقدح بالحق وبمن جاء به، وإلا؛ فمن تدبر أحوال محمد بن عبد الله ﷺ؛ وَجَدَهُ رَجُلَ الْعَالَمِ وَهَمَامِهِمْ وَمَقْدَمَهُمْ فِي الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ وَاللُّبِّ وَالرِّزَانَةِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الشِّيمِ وَالْعِفَّةِ

(١) في (ب): «الذين قريباً».

(٢) كذا في (ب). وفي (أ): «الذي».

والشجاعة والكرم وكلُّ خُلُقٍ فاضلٍ. وأنَّ المحتقرَ له والشانئ له قد جمع من السُّفَه والجهل والضلال والتناقض والظلم والعدوان ما لا يجمعه غيره. وحسبه جهلاً وضلالاً أن يَقْدَحَ بهذا الرسول العظيم والهُمام الكريم، والقصد من قدحهم فيه واستهزائهم به؛ تصلبهم على باطلهم وغروراً لضعفاء العقول.

﴿٤٢﴾ ولهذا قالوا: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ [هذا الرجل]: بأن يجعل الآلهة إلهاً واحداً، ﴿لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾: لأضلَّنَا. زعموا قبْحهم الله أن الضلال هو التوحيد، وأنَّ الهدى ما هم عليه من الشرك؛ فلهذا تواصوا بالصبر عليه، ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾، وهنا قالوا: ﴿لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾: والصبر يُحمد في المواضع كلها؛ إلّا في هذا الموضع؛ فإنه صبرٌ على أسباب الغضب، وعلى الاستكثار من حطب جهنم، وأما المؤمنون؛ فهم كما قال الله عنهم: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، ولما كان هذا حكماً منهم بأنهم المهتدون والرسول ضالٌّ، وقد تقرر أنَّهم لا حيلة فيهم توعدّهم بالعذاب، وأخبر أنهم في ذلك الوقت، ﴿حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾: يعلمون علماً حقيقياً، ﴿مَنْ﴾ هو ﴿أَضَلَّ سَبِيلًا﴾. ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا...﴾ الآيات.

﴿٤٣﴾ وهل فوق ضلال مَنْ جعل إلهه معبوده^(١)؛ فما هو به فعله؟! فلهذا قال: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾: ألا تعجب من حاله وتنظر ما هو فيه من الضلال وهو يحكم لنفسه بالمنازل الرفيعة، ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾؛ أي: لست عليه بمسيطرٍ مسلط، بل إنما أنت منذرٌ قد^(٢) قمتَ بوظيفتك. وحسابه على الله.

﴿٤٤﴾ ثُمَّ سَجَّلَ تَعَالَى عَلَى ضَلَالِهِمُ الْبَلِيغَ بِأَنْ سَلَبَهُمُ الْعُقُولَ وَالْأَسْمَاعَ، وَشَبَّهَهُمْ فِي ضَلَالِهِمُ بِالْأَنْعَامِ السَّائِمَةِ الَّتِي لَا تَسْمَعُ إِلَّا دَعَاءَ وَنداءٍ ﴿صَمٌّ بِكُمْ عَمِيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، بل هم أضلُّ من الأنعام؛ فإنَّ^(٣) الأنعام يهديها راعيها فتتهدي، وتعرف طريق هلاكها فتجتنبه، وهي أيضاً أسلم عاقبةً من هؤلاء، فتبين بهذا أن الرامي للرسول بالضلال أحقُّ بهذا الوصف، وأنَّ كلَّ حيوان بهيم؛ فهو أهدى منه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظَّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُمُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ ﴿٤٦﴾.

(٢) في (ب): «وقد».

(١) كذا في النسختين.

(٣) في (ب): «لأن».

﴿٤٥ - ٤٦﴾ أي: ألم تشاهد ببصرك وبصيرتك كمال قدرة ربك وسعة رحمته: أنه مدَّ على العباد الظلَّ، وذلك قبل طلوع الشمس، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على الظلَّ ﴿دليلاً﴾: فلولا وجود الشمس؛ لما عُرِفَ الظلُّ؛ فإنَّ الضدَّ يعرف بضده، ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾؛ فكلُّما ارتفعت الشمس؛ تقلَّص الظلُّ شيئاً فشيئاً، حتى يذهب بالكُلِّيَّة. فتوالي الظل والشمس على الخلق الذي يشاهدونه عياناً، وما يترتَّب على ذلك من اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما وتعاقب الفصول وحصول المصالح الكثيرة بسبب ذلك؛ من أدلِّ دليل على قدرة الله وعظمته، وكمال رحمته وعنايته بعباده، وأنه وحده المعبود المحمود المحبوب المعظم ذو الجلال والإكرام.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ ﴿٤٧﴾.

﴿٤٧﴾ أي: من رحمته بكم ولطفه أن جعل الليل لكم بمنزلة اللباس الذي يغشاكم حتى تستقروا فيه، وتهذؤوا بالنوم وتسبَّت حركاتكم؛ أي: تنقطع عند النوم؛ فلولا الليل؛ لما سكن العباد، ولا استمروا في تصرفهم، فضرَّهم ذلك غاية الضرر، ولو استمروا أيضاً الظلام؛ لتعطَّلت عليهم معاشهم ومصالحهم، ولكنه جعل النهار نُشُورًا؛ ينتشرون فيه لتجاراتهم وأسفارهم وأعمالهم، فيقوم بذلك ما يقوم من المصالح.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ ﴿٤٨﴾
لِنُخْرِجَ بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْـَاسٍ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٤٨ - ٤٩﴾ أي: هو وحده الذي رحم عباده وأدرَّ عليهم رزقه بأن أرسل الرياح مبشرات بين يدي رحمته، وهو المطر، فثار بها السحاب وتألَّف، وصار كِسْفًا وَأَلْقَحَتُهُ وأدرَّته بإذن أمرها والمتصرف فيها؛ ليقع استبشار العباد بالمطر قبل نزوله، وليستعدوا له قبل أن يَفْجَأَهُمْ دفعةً واحدة، ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾: يطهر من الحدث والخبث، ويطهر من الغش والأدناس، وفيه بركة من بركته؛ أنه أنزله ليحيي به بلدةً ميتاً، فتختلف أصناف النوبات والأشجار فيها مما يأكل الناس والأنعام، ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْـَاسٍ كَثِيرًا﴾؛ أي: نسقيكموه أنتم وأنعامكم؛ أليس الذي أرسل الرياح المبشرات، وجعلها في عملها متنوعات، وأنزل

من السماء ماء طهوراً مباركاً، فيه رزقُ العباد ورزقُ بهائمهم؛ هو الذي يستحقُّ أن يُعبدَ وحده ولا يُشركَ معه غيره؟!

﴿٥٠﴾ ولما ذكر تعالى هذه الآيات العيانة المشاهدة، وصرفها للعباد ليعرفوه ويشكروه ويذكروه؛ مع ذلك: أبى ﴿أكثرُ الناس إلا كُفوراً﴾: لفساد أخلاقهم وطبائعهم.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿٥١﴾ يخبر تعالى عن نفوذ مشيئته، وأنه لو شاء؛ لبعث في كل قرية نذيراً؛ أي: رسولاً ينذِرهم ويحذّرهم؛ فمشيئته غير قاصرة عن ذلك، ولكن اقتضت حكمته ورحمته بك وبالعباد يا محمد أن أرسلك إلى جميعهم؛ أحمرهم وأسودهم، عربيتهم وعجميتهم، إنسهم وجنهم.

﴿٥٢﴾ ﴿فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ﴾: في ترك شيء مما أُرسلتَ به، بل ابذل جهدك في تبليغ ما أُرسلتَ به، ﴿وَجَاهِدْهُمْ﴾: بالقرآن ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾؛ أي: لا تُبقي من مجهودك في نصر الحق وقمع الباطل إلا بذلته، ولو رأيت منهم من التكذيب والجرأة ما رأيت؛ فابذل جهدك، واستفرغ وسعك، ولا تيأس من هدايتهم، ولا تترك إبلأغهم لأهوائهم.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾.

﴿٥٣﴾ أي: ﴿وهو﴾: وحده ﴿الذي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾: يلتقيان؛ البحر العذب، وهي الأنهار السارحة على وجه الأرض، والبحر الملح، وجعل منفعة كل واحد منهما مصلحة للعباد. ﴿وجعل بينهما برزخاً﴾؛ أي: حاجزاً يحجز من اختلاط أحدهما بالآخر، فتذهب المنفعة المقصودة منها ﴿وحجراً محجوراً﴾؛ أي: حاجزاً حصيناً.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ سَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾.

﴿٥٤﴾ أي: وهو الله وحده لا شريك له الذي خلق آدمي من ماء مهين، ثم نشر منه ذرية كثيرة، وجعلهم أنساباً وأصهاراً، متفرقين ومجتمعين، والمادة كلها من

ذَٰلِكَ الْمَاءَ الْمَمِيعَ؛ فَهَٰذَا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ اقْتِدَارِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾،
وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ عِبَادَتَهُ هِيَ الْحَقُّ وَعِبَادَةُ غَيْرِهِ بَاطِلَةٌ؛ لِقَوْلِهِ:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۚ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ۝٥٥﴾.

﴿٥٥﴾ أي: يعبدون أصناماً وأمواتاً لا تضرُّ ولا تنفع، ويجعلونها أنداداً لمالك
النفع والضرر والعطاء والمنع؛ مع أَنَّ الواجب عليهم أن يكونوا مُفْتَدِينَ بِإِرشَادَاتِ
رَبِّهِمْ، ذَابِّينَ عَنْ دِينِهِ، وَلَكِنَّهُمْ عَكَسُوا الْقَضِيَّةَ، ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾:
فَالْبَاطِلُ الَّذِي هُوَ الْأَوْثَانُ وَالْأَنْدَادُ أَعْدَاءُ لِلَّهِ؛ فَالْكَافِرُ عَاوِئُهَا وَظَاهِرُهَا عَلَىٰ رَبِّهَا،
وَصَارَ عَدُوًّا لِرَبِّهِ مَبَارِزاً لَهُ فِي الْعَدَاوَةِ وَالْحَرْبِ؛ هَٰذَا هُوَ الَّذِي خَلَقَهُ وَرَزَقَهُ وَأَنْعَمَ
عَلَيْهِ بِالنَّعْمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَلَيْسَ يَخْرُجُ عَنْ مَلِكِهِ وَسُلْطَانِهِ وَقَبْضَتِهِ، وَاللَّهُ لَمْ
يَقْطَعْ عَنْهُ إِحْسَانَهُ وَبِرَّهُ، وَهُوَ بِجَهْلِهِ مُسْتَمِرٌّ عَلَىٰ هَٰذِهِ الْمَعَادَاةِ وَالْمُبَارَاةِ.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ
إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بُذُوبَ عِبَادِهِ
خَيْرًا ۝٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ
فَسَأَلَ بِهِ عِبَادَهُ خَيْرًا ۝٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ
فُتُورًا ۝٦٠﴾ نَفُورًا ۝٦١﴾.

﴿٥٦﴾ يخبر تعالى أَنَّهُ مَا أَرْسَلَ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ مُسَيِّطِرًا عَلَى الْخَلْقِ، وَلَا
جَعَلَهُ مَلَكًا، وَلَا عِنْدَهُ خَزَائِنُ الْأَشْيَاءِ، وَإِنَّمَا أَرْسَلَهُ ﴿مُبَشِّرًا﴾: يَبَشِّرُ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ
بِالثَّوَابِ الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ. ﴿وَنَذِيرًا﴾: يَنْذِرُ مَنْ عَصَى اللَّهَ بِالعِقَابِ الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ،
وَذَٰلِكَ مُسْتَلَزِمٌ لِتَبَيُّنِ مَا بِهِ الْبِشَارَةُ، وَمَا تَحْصُلُ بِهِ النَّذَارَةُ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي.

﴿٥٧﴾ وَإِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ لَا تَسْأَلُهُمْ عَلَى إِبْلَاجِهِمُ الْقُرْآنَ وَالْهُدَى أَجْرًا حَتَّى يَمْنَعَهُمْ
ذَٰلِكَ مِنْ اتِّبَاعِكَ وَيتَكَلَّفُونَ مِنَ الْغَرَامَةِ، ﴿إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾؛
أَي: إِلَّا مَن شَاءَ أَن يُنْفِقَ نَفَقَةً فِي مَرْضَاةِ رَبِّهِ وَسَبِيلِهِ؛ فَهَٰذَا؛ وَإِنْ رَغِبْتُمْ فِيهِ؛
فَلَسْتُ أَجْبِرُكُمْ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ أَيْضًا أَجْرًا لِي عَلَيْكُمْ، وَإِنَّمَا هُوَ رَاجِعٌ لِمَصْلَحَتِكُمْ
وَسُلُوكِكُمْ لِلسَّبِيلِ الْمَوْصِلَةِ إِلَى رَبِّكُمْ.

﴿٥٨﴾ ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَيَسْتَعِينَ بِهِ، فَقَالَ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ﴾: الَّذِي
لَهُ الْحَيَاةُ الْكَامِلَةُ الْمَطْلُوقَةُ ﴿الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾؛ أَي: اعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ

في الأمور المتعلقة بك والمتعلقة بالخلق، ﴿وكفى به بذنوب عباده خبيراً﴾: يَغْلَمُها ويجازي عليها؛ فانتَ ليس عليك من هداهم شيء، وليس عليك حفظ أعمالهم، وإنَّما ذلك كله بيد الله.

﴿٥٩﴾ ﴿الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى﴾: بعد ذلك ﴿على العرش﴾: الذي هو سقف المخلوقات وأعلاها وأوسعها وأجملها، ﴿الرحمن﴾: استوى على عرشه الذي وسع السماوات والأرض باسمه الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء، فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات، فأثبت بهذه الآية خلقه للمخلوقات وإطلاعه على ظاهريهم وباطنيهم وعُلُوّه فوق العرش ومباينته إياهم. ﴿فاسأل به خبيراً﴾؛ يعني: بذلك نفسه الكريمة؛ فهو الذي يعلم أوصافه وعظمته وجلاله، وقد أخبركم بذلك، وأبان لكم من عظمته ما [تسعدون]^(١) به من معرفته، فعرفه العارفون وخضعوا لجلاله، واستكبر عن عبادته الكافرون، واستكفوا عن ذلك.

﴿٦٠﴾ ولهذا قال: ﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن﴾؛ أي: وحده، الذي أنعم عليكم بسائر النعم، ودفع عنكم جميع النقم، ﴿قالوا﴾ جحداً وكفراً: ﴿وما الرحمن﴾: بزعمهم الفاسد أنهم لا يعرفون الرحمن، وجعلوا من جملة قوادحهم في الرسول أن قالوا: ينهانا عن اتخاذ آلهة مع الله، وهو يدعو معه إلهاً آخر؛ يقول: يا رحمن^(٢)! ونحو ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿قل اذعوا لله أو اذعوا للرحمن أيّما ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾: فأسماءه تعالى كثيرة لكثرة أوصافه وتعدد كماله؛ فكل واحد منها دل^(٣) على صفة كمال، ﴿أنسجد لما تأمرنا﴾؛ أي: لمجرد أمرك إيانا، وهذا مبنيّ منهم على التكذيب بالرسول واستكبارهم عن طاعته، ﴿وزادهم﴾: دعوتهم إلى السجود للرحمن ﴿نفورا﴾: هرباً من الحق إلى الباطل وزيادة كفر وشقاء.

﴿نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْزَغَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾.

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «تستعدون».

(٢) أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» (٣٥٥). وانظر «تفسير الطبري» (١٧/٥٨٠).

(٣) في (ب): «دال».

كَرَّرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ قَوْلَهُ: ﴿تَبَارَكَ﴾؛ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؛ لِأَنَّ مَعْنَاهَا كَمَا تَقَدَّمَ أَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ الْبَارِي وَكَثْرَةِ أَوْصَافِهِ وَكَثْرَةِ خَيْرَاتِهِ وَإِحْسَانِهِ.

وَهَذِهِ السُّورَةُ فِيهَا مِنَ الْإِسْتِدْلَالِ عَلَى عَظَمَتِهِ وَسَعَةِ سُلْطَانِهِ وَنَفُوذِ مَشِيئَتِهِ وَعُمُومِ عَلَيْهِ وَقُدْرَتِهِ وَإِحَاطَةِ مَلِكِهِ فِي الْأَحْكَامِ الْأَمْرِيَّةِ وَالْأَحْكَامِ الْجَزَائِيَّةِ وَكَمَالِ حِكْمَتِهِ.

وَفِيهَا: مَا يَدُلُّ عَلَى سَعَةِ رَحْمَتِهِ وَوَاسِعِ جُودِهِ وَكَثْرَةِ خَيْرَاتِهِ الدِّينِيَّةِ وَالْدُنْيَوِيَّةِ مَا هُوَ مُقْتَضٍ لِتَكَرُّارِ هَذَا الْوَصْفِ الْحَسَنِ.

﴿٦١﴾ فَقَالَ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾: وَهِيَ النُّجُومُ عُمُومًا أَوْ مَنَازِلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ الَّتِي [تَنْزِلُهَا] ^(١) مَنَزَلَةً مَنَزَلَةً، وَهِيَ بِمَنْزِلَةِ الْبُرُوجِ وَالْقَلَاعِ لِلْمَدَنِ فِي حِفْظِهَا، كَذَلِكَ النُّجُومُ بِمَنْزِلَةِ الْبُرُوجِ الْمَجْعُولَةِ لِلْحِرَاسَةِ؛ فَإِنَّهَا رَجُومٌ لِلشَّيَاطِينِ، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾: فِيهِ النُّورُ وَالْحَرَارَةُ، وَهِيَ ^(٢) الشَّمْسُ ﴿وَقَمَرًا مَنِيرًا﴾: فِيهِ النُّورُ لَا الْحَرَارَةُ، وَهَذَا مِنْ أَدَلَّةِ عَظَمَتِهِ وَكَثْرَةِ إِحْسَانِهِ؛ فَإِنَّ مَا فِيهَا مِنْ الْخَلْقِ الْبَاهِرِ وَالتَّذْبِيرِ الْمُنْتَظَمِ وَالْجَمَالِ الْعَظِيمِ دَالٌّ عَلَى عَظَمَةِ خَالِقِهَا فِي أَوْصَافِهِ كُلِّهَا، وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَصَالِحِ لِلْخَلْقِ وَالْمَنَافِعِ دَلِيلٌ عَلَى كَثْرَةِ خَيْرَاتِهِ.

﴿٦٢﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾؛ أَي: يَذْهَبُ أَحَدُهُمَا؛ فَيُخَلِّفُهُ الْآخَرُ، هَكَذَا أَبَدًا لَا يَجْتَمِعَانِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ، ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكْرًا﴾؛ أَي: لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ بِهِمَا وَيَعْتَبِرَ وَيَسْتَدِلَّ بِهِمَا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمَطَالِبِ الْإِلَهِيَّةِ وَيَشْكُرَ اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ، وَلِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ اللَّهَ وَيَشْكُرَهُ، وَلَهُ وَرَدٌ مِنَ اللَّيْلِ أَوْ النَّهَارِ؛ فَمَنْ فَاتَهُ وَرَدُهُ مِنْ أَحَدِهِمَا؛ أَدْرَكَهُ فِي الْآخِرِ، وَأَيْضًا؛ فَإِنَّ الْقُلُوبَ تَتَقَلَّبُ وَتَتَنَقَّلُ فِي سَاعَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فَيَحْدُثُ لَهَا النَّشَاطُ وَالْكَسَلُ وَالذُّكْرُ وَالْغَفْلَةُ وَالْقَبْضُ وَالْبَسْطُ وَالْإِقْبَالُ وَالْإِعْرَاضُ، فَجَعَلَ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَتَوَالَى عَلَى الْعِبَادِ وَيَتَكَرَّرَانِ؛ لِيَحْدُثَ لِهَمَا الذُّكْرُ وَالنَّشَاطُ وَالشُّكْرُ لِلَّهِ فِي وَقْتٍ آخَرَ، وَلِأَنَّ أَوْقَاتَ ^(٣) الْعِبَادَاتِ تَتَكَرَّرُ بِتَكَرُّرِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ؛ فَكُلَّمَا تَكَرَّرَتِ الْأَوْقَاتُ؛ أَحْدَثَ لِلْعَبْدِ هِمَّةً غَيْرَ هِمَّتِهِ الَّتِي كَسَلَتْ فِي الْوَقْتِ الْمَتَقَدِّمِ، فَزَادَ فِي تَذْكُرِهَا وَشُكْرِهَا، فَوَظَّافُ الطَّاعَاتِ بِمَنْزِلَةِ سَقْيِ الْإِيمَانِ الَّذِي يَمُدُّهُ؛ فَلَوْلَا ذَلِكَ؛ لَذَوَى غَرْسُ الْإِيمَانِ وَيَبَسَ، فَلِلَّهِ أَنْتُمْ حَمْدٌ وَأَكْمَلُهُ عَلَى ذَلِكَ.

(١) كَذَا فِي (ب). وَفِي (أ): «تَنْزِلُ». (٢) فِي (ب): «وَهُوَ».

(٣) فِي (ب): «أَوْرَادُ».

ثم ذكر من جملة كثرة خيرِهِ، مَنَّهُ على عبادِهِ الصالحين وتوفيقِهِم للأعمال الصالحات التي أكَسَبَتْهُم المنازلِ العَالِيَاتِ في غرفِ الجنات، فقال:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝^(١٤) وَالَّذِينَ يَسْتُرُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ۝^(١٥) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝^(١٦) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝^(١٧) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ۝^(١٨) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝^(١٩) يُضَاعَفْ لَهُ الْمَكَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيُخْلَدْ فِيهِ مُهَانًا ۝^(٢٠) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝^(٢١) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ۝^(٢٢) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۝^(٢٣) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ۝^(٢٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝^(٢٥) أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْفُرْقَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا مَجِيَّةً وَسَلَامًا ۝^(٢٦) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝^(٢٧) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ۝^(٢٨)﴾.

﴿٦٣﴾ العبوديَّةُ لِلَّهِ نوعان: عبوديَّةُ لربوبيَّتِهِ؛ فهذه يشترك فيها سائرُ الخلق؛ مسلمُهُم وكافرُهُم، برُّهُم وفاجرُهُم؛ فكلُّهُم عبيدٌ لِلَّهِ مربوبون مدبرون، ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾.

وعبوديَّةُ لآلوهيَّتِهِ وعبادته ورحمته، وهي عبوديَّةُ أنبيائه وأوليائه، وهي المراد هنا، ولهذا أضافها إلى اسمه الرحمن؛ إشارةً إلى أنَّهم إنَّما وصلوا إلى هذه الحال بسبب رحمته، فَذَكَرَ [أَنَّ] صفاتهم أكملُ الصفات ونعوتهم أفضلُ النعوت، فوصفَهُم بأنَّهم ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾؛ أي: ساكنين متواضعين لِلَّهِ وللخلق؛ فهذا وصفٌ لهم بالوقارِ والسَّكِينَةِ والتَّواضُعِ لِلَّهِ ولعبادِهِ، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾؛ أي: خطابٌ جهل؛ بدليل إضافة الفعل وإسناده لهذا الوصف، ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾؛ أي:

خَاطَبُوهُمْ خَطَاباً يَسْلَمُونَ فِيهِ مِنَ الْإِثْمِ، وَيَسْلَمُونَ مِنْ مَقَابِلَةِ الْجَاهِلِ بِجَهْلِهِ، وَهَذَا مَدْحٌ لَهُمْ بِالْحِلْمِ الْكَثِيرِ وَمَقَابِلَةِ الْمَسِيءِ بِالْإِحْسَانِ وَالْعَفْوِ عَنِ الْجَاهِلِ وَرِزَانَةِ الْعَقْلِ الَّذِي أَوْصَلَهُمْ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ.

﴿٦٤﴾ ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾؛ أَي: يَكْثُرُونَ مِنْ صَلَاةِ اللَّيْلِ مُخْلِصِينَ فِيهَا لِرَبِّهِمْ مُتَذَلِّلِينَ لَهُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿٦٥﴾ ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾؛ أَي: ادْفَعْهُ عَنَّا بِالْعَصْمَةِ مِنْ أَسْبَابِهِ وَمَغْفِرَةٍ مَا وَقَعَ مِنَّا مِمَّا هُوَ مُقْتَضٍ لِلْعَذَابِ، ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾؛ أَي: مُلَازِمًا لِأَهْلِهَا بِمَنْزِلَةِ مُلَازِمَةِ الْغَرِيمِ لِغَرِيمِهِ.

﴿٦٦﴾ ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾: وَهَذَا مِنْهُمْ عَلَى وَجْهِ التَّضَرُّعِ لِرَبِّهِمْ، وَبَيَانِ شِدَّةِ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُمْ لَيْسَ فِي طَاقَتِهِمْ احْتِمَالُ هَذَا الْعَذَابِ، وَلِيَتَذَكَّرُوا مِثْلَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ؛ فَإِنَّ صَرْفَ الشِدَّةِ بِحَسَبِ شِدَّتِهَا وَفُظَاعَتِهَا يَعْظُمُ وَقَعُهَا، وَيَشْتَدُّ الْفَرْحُ بِصَرَفِهَا.

﴿٦٧﴾ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا: النِّفَقَاتِ الْوَاجِبَةِ وَالْمُسْتَحْبَةِ﴾ ﴿لَمْ يُسْرِفُوا﴾: بِأَن يَزِيدُوا عَلَى الْحَدِّ فَيَدْخُلُوا فِي قِسْمِ التَّبْذِيرِ، ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾: فَيَدْخُلُوا فِي بَابِ الْبُخْلِ وَالشُّحِّ، وَإِهْمَالِ الْحَقُوقِ الْوَاجِبَةِ، ﴿وَكَانَ﴾: إِنْفَاقُهُمْ ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾: بَيْنَ الْإِسْرَافِ وَالتَّقْتِيرِ ﴿قَوَامًا﴾: يَبْذُلُونَ فِي الْوَاجِبَاتِ مِنَ الزُّكُوتِ وَالْكَفَارَاتِ وَالنِّفَقَاتِ الْوَاجِبَةِ وَفِيمَا يَنْبَغِي عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَنْبَغِي مِنْ غَيْرِ ضَرَرٍ وَلَا ضِرَارٍ، وَهَذَا مِنْ عَدْلِهِمْ وَاقْتِسَادِهِمْ.

﴿٦٨﴾ ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾: بَلْ يَغْبُدُونَهُ وَحْدَهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حَفَاءً مُقْبِلِينَ عَلَيْهِ مُعْرِضِينَ عَمَّا سِوَاهُ، ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾: وَهِيَ نَفْسُ الْمُسْلِمِ وَالْكَافِرِ الْمَعَاهدِ ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: كَقَتْلِ النَّفْسِ بِالنَّفْسِ، وَقَتْلِ الزَّانِيِ الْمُحْصَنِ وَالْكَافِرِ الَّذِي يَجِلُّ قَتْلُهُ، ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾: بَلْ يَحْفَظُونَ فُرُوجَهُمْ؛ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ، ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾؛ أَي: الشَّرْكَ بِاللَّهِ أَوْ قَتْلَ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ بِغَيْرِ حَقٍّ أَوْ الزِّنَا؛ فَسَوْفَ ﴿يُنَلِّقُ أَثَامًا﴾.

﴿٦٩﴾ ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ﴾؛ أَي: فِي الْعَذَابِ ﴿مِهْنَانًا﴾، فَالْوَعِيدُ بِالْخُلُودِ لِمَنْ فَعَلَهَا كُلُّهَا ثَابِتٌ لَا شَكَّ فِيهِ، وَكَذَلِكَ لِمَنْ

أشركَ بالله، وكذلك الوعيد بالعذاب الشديد على كلِّ واحدٍ من هذه الثلاثة؛ لكونها إمَّا شرك وإمَّا من أكبر الكبائر، وأما خلود القاتل والزاني في العذاب؛ فإنه لا يتناوله الخلود؛ لأنه قد دلت النصوص القرآنية والسنة النبوية أنَّ جميع المؤمنين سيخرجون من النار، ولا يخلد فيها مؤمنٌ، ولو فعل من المعاصي ما فعل. ونصَّ تعالى على هذه الثلاثة لأنها أكبر الكبائر: فالشرك فيه فساد الأديان، والقتل فيه فساد الأبدان، والزنا فيه فساد الأعراض.

﴿٧٠﴾ ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾: عن هذه المعاصي وغيرها بأنَّ أفلحَ عنها في الحال، وندم على ما مضى له من فعلها، وعزم عزمًا جازمًا أن لا يعود، ﴿وَأَمَّنَ﴾ بالله إيمانًا صحيحًا يقتضي ترك المعاصي وفعل الطاعات، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾: مما أمر به الشارع إذا قصَّد به وجه الله؛ ﴿فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾؛ أي: تتبدل أفعالهم وأقوالهم التي كانت مستعدة لعمل السيئات، تتبدل حسنات، فيتبدل شركهم إيمانًا، ومعصيتهم طاعةً، وتتبدل نفس السيئات التي عملوها ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة وإنابة وطاعة، تبدل حسنات كما هو ظاهر الآية، وورد في ذلك حديث الرجل الذي حاسبه الله ببعض ذنوبه، فعدها عليه، ثم أبدل مكان كل سيئة حسنة، فقال: يا رب! إن لي سيئات لا أراها هاهنا^(١). والله أعلم. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾: لمن تاب يغفر الذنوب العظيمة. ﴿رَحِيمًا﴾: بعباده؛ حيث دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بالعظائم، ثم وفَّقهم لها، ثم قبلها منهم.

﴿٧١﴾ ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾؛ أي: فليعلم أنَّ توبته في غاية الكمال؛ لأنها رجوعٌ إلى الطريق الموصل إلى الله، الذي هو عينُ سعادة العبد وفلاحه؛ فَلْيُخْلِصْ فيها، وَلْيُخْلِصْها من شوائب الأغراض الفاسدة. فالمقصود من هذا الحث على تكميل التوبة وأتباعها على أفضل الوجوه وأجلها؛ ليقدم على من تاب إليه، فيوفيه أجره بحسب كمالها.

﴿٧٢﴾ ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾؛ أي: لا يحضرون الزور؛ أي: القول والفعل المحرم، فيجتنبون جميع المجالس المشتملة على الأقوال المحرمة أو الأفعال المحرمة؛ كالخوض في آيات الله، والجدال الباطل، والغيبة، والنميمة، والسب، والقذف، والاستهزاء، والغناء المحرم، وشرب الخمر، وفرش الحرير

(١) أخرجه مسلم (١٩٠) من حديث أبي ذر.

والصور... ونحو ذلك، وإذا كانوا لا يشهدون الزور؛ فمن باب أولى وأحرى أن لا يقولوه ويفعلوه، وشهادة الزور داخله في قول الزور، تدخل في هذه الآية بالأولية، ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾: وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فيه فائدة دينية ولا دنيوية؛ ككلام السفهاء ونحوهم ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾؛ أي: نَزَّهُوا أَنْفُسَهُمْ، وأكرموا عن الخوض فيه، ورأوا الخوض فيها وإن كان لا إثم فيه؛ فإنه سفة ونقص للإنسانية والمروءة؛ فربُّوا بأنفسهم عنه. وفي قوله: ﴿إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾: إشارة إلى أنهم لا يقصدون حضوره ولا سماعه، ولكن عند المصادفة التي من غير قصد يُكْرِمُونَ أَنْفُسَهُمْ عنه.

﴿٧٣﴾ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾: التي أَمَرَهُمْ باستماعها والاهتمام بها ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾؛ أي: لم يقابلوها بالإعراض عنها، والصمم عن سماعها، وصرف النظر والقلوب عنها كما يفعله من لم يؤمن بها ويصدق، وإنما حالهم فيها وعند سماعها كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾: يقابلونها بالقبول والافتقار إليها والانقياد والتسليم لها، وتجد عندهم آذاناً سامعة وقلوباً واعية، فيزداد بها إيمانهم، ويتم بها إيقانهم، وتُخَدِّثُ لَهُمْ نشاطاً، ويفرحون بها سروراً واعتباطاً.

﴿٧٤﴾ ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا﴾؛ أي: قَرَنَاتِنَا من أصحابِ أَقْرَانٍ وَزَوَاجٍ، ﴿وَذُرِّيَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾؛ أي: تَقَرُّ بِهِمْ أَعْيُنُنَا، وإذا اسْتَقْرَأْنَا حَالَهُمْ وَصَفَاتِهِمْ؛ عَرَفْنَا مِنْ هِمَمِهِمْ وَعَلَوْ مَرْتَبَتِهِمْ [أَنَّهُمْ لَا تَقَرُّ أَعْيُنُهُمْ حَتَّى يَرَوْهُمْ مُطِيعِينَ لِرَبِّهِمْ عَالِمِينَ عَامِلِينَ وَهَذَا كَمَا أَنَّهُ دَعَاءُ لِأَزْوَاجِهِمْ] وَذُرِّيَاتِهِمْ فِي صَلَاحِهِمْ؛ فَإِنَّهُ دَعَاءُ لَأَنْفُسِهِمْ؛ لِأَنَّ نَفْعَهُ يَعُودُ عَلَيْهِمْ، وَلِهَذَا جَعَلُوا ذَلِكَ هَبَةً لَهُمْ، ﴿هَبْ لَنَا﴾، بَلْ دَعَاؤُهُمْ يَعُودُ إِلَى نَفْعِ عَمُومِ الْمُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّ بِصَلَاحٍ مَنْ ذَكَرَ يَكُونُ سَبَباً لِمَصْلَاحٍ كَثِيرٍ مِمَّنْ يَتَعَلَّقُ بِهِمْ وَيَنْتَفِعُ بِهِمْ.

﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾؛ أي: أَوْصَلْنَا يَا رَبَّنَا إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ الْعَالِيَةِ؛ دَرَجَةِ الصَّدِيقِينَ وَالْكَمَلِ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، وَهِيَ دَرَجَةُ الْإِمَامَةِ فِي الدِّينِ، وَأَنْ يَكُونُوا قُدْوَةً لِلْمُتَّقِينَ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، يُقْتَدَى بِأَفْعَالِهِمْ وَيَطْمَثُنْ لِأَقْوَالِهِمْ وَيَسِيرَ أَهْلُ الْخَيْرِ خَلْفَهُمْ، فَيَهْدُونَ وَيَهْتَدُونَ. وَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّ الدَّعَاءَ بِلُغٍ شَيْءٌ دَعَاءٌ بِمَا لَا يَتِمُّ إِلَّا بِهِ، وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ - دَرَجَةُ الْإِمَامَةِ فِي الدِّينِ - لَا تَتِمُّ إِلَّا بِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾:

فهذا الدعاء يستلزم من الأعمال والصبر على طاعة الله وعن معصيته وأقداره المؤلمة ومن العلم التام الذي يوصل صاحبه إلى درجة اليقين خيراً كثيراً وعطاء جزيلاً، وأن يكونوا في أعلى ما يمكن من درجات الخلق بعد الرسل.

﴿٧٥ - ٧٦﴾ ولهذا لما كانت هممهم ومطالبهم عالية، كان الجزء من جنس العمل، فجازاهم بالمنازل العاليات، فقال: ﴿أولئك يُجْزَوْنَ الغرفة بما صبروا﴾؛ أي: المنازل الرفيعة والمساكن الأنيقة الجامعة لكل ما يشتهى وتلذه الأعين، وذلك بسبب صبرهم نالوا ما نالوا؛ كما قال تعالى: ﴿والملائكة يَدْخُلُونَ عليهم من كل باب. سلامٌ عليكم بما صَبَرْتُمْ فنعم عُقْبَى الدَّارِ﴾، ولهذا قال هنا: ﴿وَيُلْقَوْنَ فيها تحيةً وسلاماً﴾: من ربهم ومن ملائكته الكرام ومن بعض على بعض، ويسلمون من جميع المنغصات والمكدرات.

والحاصل أن الله وَصَفَهُم بالوقار، والسكينة، والتواضع له ولعباده، وحسن الأدب، والحلم، وسعة الخلق، والعفو عن الجاهلين، والإعراض عنهم، ومقابلة إساءتهم بالإحسان، وقيام الليل، والإخلاص فيه، والخوف من النار، والتضرع لربهم أن يُنَجِّيَهُم منها، وإخراج الواجب والمستحب في النفقات، والاقتصاد في ذلك. وإذا كانوا مقتصدين في الإنفاق الذي جرت العادة بالتفريط فيه أو الإفراط؛ فاقتصادهم وتوسطهم في غيره من باب أولى، والسلامة من كبائر الذنوب، والاتصاف بالإخلاص لله في عبادته، والعفة عن الدماء والأعراض، والتوبة عند صدور شيء من ذلك، وأنهم لا يحضرون مجالس المنكر والفسوق القولية والفعلية، ولا يفعلونها بأنفسهم، وأنهم يتزهدون من اللغو والأفعال الرديئة، التي لا خير فيها، وذلك يستلزم مروءتهم وإنسانيَّتَهُم وكمالهم ورفعة أنفسهم عن كل خسيس قولي وفعل، وأنهم يقابلون آيات الله بالقبول لها والتفهم لمعانيها والعمل بها والاجتهاد في تنفيذ أحكامها، وأنهم يدعون الله تعالى بأكمل الدعاء في الدعاء الذي ينتفعون به، وينتفع به من يتعلق بهم، وينتفع به المسلمون من صلاح أزواجهم وذريَّتِهِم، ومن لوازم ذلك سعيهم في تعليمهم ووعظهم ونصيحهم؛ لأنَّ مَنْ حَرَصَ على شيء ودعا الله فيه؛ لا بد أن يكون متسبباً فيه، وأنهم دَعَوْا الله ببلوغ أعلى الدرجات الممكنة لهم، وهي درجة الإمامة والصدقية؛ فلله ما أعلى هذه الصفات، وأرفع هذه الهمم، وأجل هذه المطالب، وأزكى تلك النفوس، وأطهر تلك القلوب، وأصفى هؤلاء الصفوة، وأتقى هؤلاء السادة. ولله فضل الله عليهم، ونعمته، ورحمته التي جللتهم، ولطفه الذي أوصلهم إلى هذه المنازل.

وَلِلَّهِ مِثَّةُ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ بَيَّنَّ لَهُمْ أَوْصَافَهُمْ وَنَعَتْ لَهُمْ هَيْئَاتِهِمْ، وَبَيَّنَّ لَهُمْ هِمَمَهُمْ وَأَوْضَحَ لَهُمْ أَجْوَرَهُمْ؛ لِيَشْتَاقُوا إِلَى الْإِتِّصَافِ بِأَوْصَافِهِمْ، وَيَبْذُلُوا جَهْدَهُمْ فِي ذَلِكَ، وَيَسْأَلُوا الَّذِي مِنْ عَلَيْهِمْ وَأَكْرَمَهُمْ، الَّذِي فَضَّلَهُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ وَفِي كُلِّ وَقْتٍ وَأَوَانٍ أَنْ يَهْدِيَهُمْ كَمَا هَدَاهُمْ، وَيَتَوَلَّاهُمْ بِتَرْبِيَّتِهِ الْخَاصَّةِ كَمَا تَوَلَّاهُمْ.

فَاللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، وَإِلَيْكَ الْمَشْتَكَى، وَأَنْتَ الْمُسْتَعَانُ، وَبِكَ الْمُسْتَغَاثُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ، لَا نَمْلِكُ لَأَنْفُسِنَا نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، وَلَا نَقْدِرُ عَلَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنَ الْخَيْرِ إِنْ لَمْ تُسَيِّرْ ذَلِكَ لَنَا؛ فَإِنَّا ضِعْفَاءُ عَاجِزُونَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، نَشْهَدُ أَنَّكَ إِنْ وَكَلْتَنَا إِلَى أَنْفُسِنَا طَرْفَةَ عَيْنٍ؛ وَكَلْتَنَا إِلَى ضَعْفٍ وَعَجْزٍ وَخَطِيئَةٍ؛ فَلَا نَتَّقِي يَا رَبَّنَا إِلَّا بِرَحْمَتِكَ، الَّتِي بِهَا خَلَقْتَنَا وَرَزَقْتَنَا وَأَنْعَمْتَ عَلَيْنَا بِمَا أَنْعَمْتَ مِنَ النِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَصَرَفْتَ عَنَّا مِنَ النِّقَمِ؛ فَارْحَمْنَا رَحْمَةً تُغْنِينَا بِهَا عَنْ رَحْمَةٍ مِّنْ سِوَاكَ، فَلَا خَابَ مِنْ سَأَلِكَ وَرَجَاكَ.

﴿٧٧﴾ وَلَمَّا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَضَافَ هَؤُلَاءِ الْعِبَادَ إِلَى رَحْمَتِهِ وَاخْتَصَّصَهُمْ بِعِبَادِيَّتِهِ لَشَرَفِهِمْ وَفَضْلِهِمْ، رَبُّمَا تَوَهُمُ مَتَوَهُمُ أَنَّهُ وَأَيْضًا غَيْرُهُمْ؛ فَلِمَ لَا يَدْخُلُ فِي الْعِبَادِيَّةِ؟ فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يِيَالِي وَلَا يِعْبَأُ بِغَيْرِ هَؤُلَاءِ، وَأَنَّهُ لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ إِيَّاهُ دَعَاءُ الْعِبَادَةِ وَدَعَاءُ الْمَسْأَلَةِ؛ مَا عْبَأَ بِكُمْ وَلَا أَحْبَبَكُمْ، فَقَالَ: ﴿قُلْ مَا يَغْنَبُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزِمَامِكُمْ﴾؛ أَيُّ: عَذَابًا يُلْزِمُكُمْ لَزُومَ الْغَرِيمِ لَغَرِيمِهِ، وَسَوْفَ يَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

تم تفسير سورة الفرقان. فلهذا الحمد والثناء والشكر أبدا.

تفسير سورة الشعراء

وهي مكية عند الجمهور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَّرَ ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَخِشٌ قَشَّكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنْ شَاءَ نَزَّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَطَلَكَ أَغْنَتْهُمْ هَٰذَا خُلُوعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدِّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَأْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ .

﴿١ - ٢﴾ يشير الباري تعالى إشارة تدلُّ على التعظيم لآيات الكتاب المُبين البيّن الواضح الدالُّ على جميع المطالب الإلهيّة والمقاصد الشرعيّة؛ بحيث لا يبقى عند الناظر فيه شكٌ ولا شبهةٌ فيما أخبر به أو حكم به؛ لوضوحه ودلالته على أشرف المعاني وارتباط الأحكام بحكمها وتعليقها بمناسبتها، فكان رسول الله ﷺ يُنذِرُ به الناس، ويَهْدِي به الصراطَ المستقيمَ، فيتهدي بذلك عبَادُ الله المتّقون، ويعرِضُ عنه من كُتِبَ عليه الشقاء، فكان يحزنُ حزناً شديداً على عدم إيمانهم؛ حرصاً منه على الخير، ونصحاً لهم.

﴿٣﴾ فلَهَذَا قال تعالى لنبيه: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾؛ أي: مهلكها وشاقٌ عليها ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: فلا تفعل ولا تُذهِبْ نَفْسَكَ عليهم حسرات؛ فإنَّ الهداية بيد الله، وقد أدّيت ما عليك من التبليغ، وليس فوق هَذَا القرآن المُبين آيةٌ حتى تُنزلَها ليؤمنوا بها؛ فإنَّه كافٍ شافٍ لمن يريد الهداية.

﴿٤﴾ ولَهَذَا قال: ﴿إِنْ نَشَأْ نُنزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾؛ أي: من آيات الاقتراح ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ﴾؛ أي: أعناق المكذّبين ﴿لَهَا خاضعين﴾: ولكن لا حاجة إلى ذلك ولا مصلحة فيه؛ فإنَّه إذ ذاك الوقت يكون الإيمان غير نافع، وإنَّما الإيمان النافع الإيمان بالغيب؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا...﴾ الآية.

﴿٥﴾ ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُخَدَّثٌ﴾: يأمرهم وينهاهم ويذكّرهم ما ينفعهم ويضرهم ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾: بقلوبهم وأبدانهم. هَذَا إعراضهم عن الذكر المحدث الذي جرت العادةُ أنّه يكون موقعه أبلغ من غيره؛ فكيف بإعراضهم عن غيره؟! وهذا لأنَّهم لا خير فيهم، ولا تنجّع فيهم المواعظ.

﴿٦﴾ ولَهَذَا قال: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾؛ أي: بالحق، وصار التكذيبُ لهم سجيّة لا تتغيّر ولا تبدل، ﴿فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾؛ أي: سيقع بهم العذاب ويحلُّ بهم ما كذبوا به؛ فإنَّهم قد حقّت عليهم كلمة العذاب.

﴿٧﴾ قال الله منبهاً على التفكير الذي ينفع صاحبه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زوج كَرِيمٍ﴾: من جميع أصناف النباتات، حسنة المنظر، كريمة في نفعها.

﴿٨﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾: على إحياء الله الموتى بعد موتهم؛ كما أحيا

الأرض بعد موتها، ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾.

﴿٩﴾ ﴿وإن ربك لهو العزيز﴾: الذي قد قهر كل مخلوق، ودان له العالم العلوي والسفلي. ﴿الرحيم﴾: الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل جوده إلى كل حي، العزيز الذي أهلك الأشقياء بأنواع العقوبات، الرحيم بالسعداء؛ حيث أنجاهم من كل شر وبلاء.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ أَنْتَ الْمَرْسَلُ﴾ (١) ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَنْفَقُونَ﴾ (٢) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٣) وَيَصِيبُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَايَ فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (٤) وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٥) قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِمَا بَيْنَ يَدَيَّ إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (٦) فَاتَيَا فِرْعَوْنَ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧) أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ (٨) قَالَ أَلَمْ تُزَكِّكْ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عَمْرِكَ سِنِينَ (٩) وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٠) قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (١١) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢) وَلَكَ نِعْمَةٌ تَمْثُلُ عَلَىٰ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ (١٣) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (١٤) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (١٥) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْمَعُونَ (١٦) قَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (١٧) قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ أَلَدَىٰ أُزِيلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (١٨) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ (١٩) قَالَ لِمَنْ أَتَّخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمُسْجِفِينَ (٢٠) قَالَ أُولُو حِجَّتِكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٢١) قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٢٣) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ (٢٤) قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٢٥) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٢٦) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْبَعٌ فِي الدِّانِ حَشِيرِينَ (٢٧) بِأَتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٢٩) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُنْتَفِعُونَ (٣٠) لَعَلَّنَا نَنْفَعِ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ (٣١) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَا أَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٣٢) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٣٣) قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا

(١) في النسختين: إلى آخر القصة. قوله: ﴿إن ربك لهو العزيز﴾: ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾. وإن ربك لهو العزيز الرحيم.

مَا أَنْتُمْ مُثْقَلُونَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا جَاهِلْمُ وَعَصِيَّتُهُمْ وَقَالُوا يِعْرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِيُونَ ﴿٤٤﴾ قَالَتِ
 مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَتِ السَّحَرَةُ سِحْجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ
 ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ إِقَامَةٌ لِّكَيْدِكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ
 فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَنْجِلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّتَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٠﴾ قَالُوا لَا ضَرَرَ لَنَا إِلَىٰ رَبِّنَا
 مُتَقَلِّبُونَ ﴿٥١﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ
 مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ﴿٥٣﴾ فَأَوْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ هَذِهِ لَشِرْذِمَةٌ
 قَلِيلُونَ ﴿٥٥﴾ وَلَهُمْ لَنَا لَعَابُطُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿٥٧﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٨﴾ وَكُنُوزٍ
 وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٥٩﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٦٠﴾ فَأَتَيْنَهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦١﴾ فَلَمَّا تَرَوْا الْجَمْعَانَ
 قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَنَذْكُرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَكْفِيُنِي ﴿٦٣﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ
 أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٤﴾ وَأَزَلَّانَا نَمُ الْآخِرِينَ ﴿٦٥﴾
 وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ
 مُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٩﴾

أعاد الباري تعالى قصّة موسى وثناها في القرآن ما لم يُثنَ غيرها؛ لكونها مشتملة على حكم عظيمة وعبر، وفيها نبؤة مع الظالمين والمؤمنين، وهو صاحب الشريعة الكبرى، وصاحب التوراة أفضل الكتب بعد القرآن، فقال:

﴿١٠ - ١١﴾ واذكُرْ حالة موسى الفاضلة وقت نداء الله إياه حين كلمه ونبأه وأرسله، فقال: ﴿إِنَّ ابْنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾: الذين تكبروا في الأرض وعملوا على أهلها وادّعى كبيرهم الربوبية، ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾؛ أي: قُلْ لَهُمْ بَلِيْنٌ قَوْلٍ وَلَطْفٌ عِبَارَةٍ: أَلَا تَتَّقُونَ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ فَتَتَّقُونَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ.

﴿١٢ - ١٤﴾ فقال موسى عليه السلام معتذراً من ربه ومبيناً لعذره وسائلاً له المعونة على هذا الحمل الثقيل: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾. ويضيق صدري ولا ينطلق لساني، فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾. ويسر لي أمري. واخلل عُقْدَةَ من لساني. يَفْقَهُوا قَوْلِي واجعل لي وزيراً من أهلي. هَارُونَ أَخِي، ﴿فَارْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾: فأجاب الله طلبته ونبأ أخاه [هارون] كما نبأه، ﴿فَارْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾؛ أي: معاوناً لي على أمري. ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾؛ أي: في قتل القبطي، ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾.

﴿١٥ - ١٧﴾ ﴿قَالَ كَلَّا﴾؛ أي: لا يتمكنون من قتلك؛ فإننا سنجعل لكما سلطاناً؛ فلا يصلون إليكما [بآياتنا] أنتما ومن اتبعكما الغالبون، ولهذا لم يتمكن فرعون من قتل موسى مع منابذته له غاية المنابذة وتسفيه رأيه وتضليله وقومه، ﴿فأذهباً بآياتنا﴾: الدالة على صدقكما وصحة ما جئتما به، ﴿إننا معكم مستمعون﴾: أحفظكما وأكلؤكما، ﴿فأتيا فرعونَ فقولا إننا رسول رب العالمين﴾؛ أي: أرسلنا إليك لتؤمن به وبنا، وتنقاد لعبادته وتدع لتوحيده. ﴿أن أُرسلَ معنا بني إسرائيل﴾: فكف عنهم عذابك، وازفغ عنهم يدك؛ ليعبدوا ربهم، ويقيموا أمر دينهم.

﴿١٨ - ١٩﴾ فلما جاء لفرعون وقال له ما قال الله لهما؛ لم يؤمن فرعون، ولم يلن، وجعل يعارض موسى، فقال: ﴿ألم نربك فينا وليداً﴾؛ أي: ألم ننعم عليك ونقوم بتربيتك منذ كنت وليداً في مهدك ولم تزل كذلك، ﴿ولبثت فينا من عمرِكَ سنين. وفعلتَ فَعَلَتَكَ التي فَعَلْتَ﴾: وهي قتل موسى للقبطي حين استغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فَوَكَرَهُ موسى ففَضَى عليه... الآية. ﴿وأنت من الكافرين﴾؛ أي: وأنت إذ ذاك طريقك طريقنا وسبيلك سبيلنا في الكفر، فأقر على نفسه بالكفر من حيث لا يدري.

﴿٢٠ - ٢٢﴾ فقال موسى: ﴿فعلتها إذا وأنا من الضَّالِّينَ﴾؛ أي: عن غير كفر، وإنما كان عن ضلال وسفه، فاستغفرتُ ربي فغفر لي، ﴿ففررتُ منكم لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾: حين تراجعتم بقتلي، فهربتُ إلى مدين، ومكثتُ سنين، ثم جئكم وقد وهب ﴿لي ربي حُكماً وجَعَلني من المرسلين﴾.

فالحاصل أن اعتراض فرعون على موسى اعتراض جاهل أو متجاهل؛ فإنه جعل المانع من كونه رسولاً أن جرى منه القتل، فبيّن له موسى أن قتله على وجه الضلال والخطأ الذي لم يقصد نفس القتل، وأن فضل الله تعالى غير ممنوع منه أحد؛ فلم منعتم ما منحني الله من الحكم والرسالة؟

بقي عليك يا فرعون إدلاؤك بقولك: ﴿ألم نربك فينا وليداً﴾؟ وعند التحقيق يتبين أن لا منة لك فيها، ولهذا قال موسى: ﴿وتلك نعمة﴾ تمنُّ بها ﴿عليَّ أن عبَدتُ بني إسرائيل﴾؛ أي: تدلي عليّ بهذه المنّة لأنك سخّرت بني إسرائيل، وجعلتهم لك بمرتلة العبيد، وأنا قد أسلمتني من تعبيدك وتسخيرك، وجعلتها عليّ نعمة؛ فعند التصوّر يتبين أن الحقيقة أنك ظلمت هذا الشعب الفاضل، وعدبتهم

وَسَخَّرْتَهُمْ بِأَعْمَالِكِ، وَأَنَا قَدْ سَلَّمَنِي اللَّهُ مِنْ أَذَاكَ، مَعَ وَصُولِ أَذَاكَ لِقَوْمِي؛ فَمَا هَذِهِ الْمَنَّةُ الَّتِي تَمُتُ^(١) بِهَا وَتُدْلِي بِهَا؟!

﴿٢٣ - ٢٥﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ: وَهَذَا إِنكَارُ مَنْ لَرَبِّهِ ظُلْماً وَعِلْواً، مَعَ تَيَقُّنِ صِحَّةِ مَا دَعَاهُ إِلَيْهِ مُوسَى، ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾: أَيُّ: الَّذِي خَلَقَ الْعَالَمَ الْعُلُويَّ وَالسُّفْلِيَّ، وَدَبَّرَهُ بِأَنْوَاعِ التَّنْذِيرِ، وَرَبَّاهُ بِأَنْوَاعِ التَّرْبِيَةِ، وَمِنْ جُمْلَةِ ذَلِكَ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمَخَاطِبُونَ؛ فَكَيْفَ تَنْكِرُونَ خَالِقَ الْمَخْلُوقَاتِ وَفَاطِرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾، فَقَالَ فِرْعَوْنُ مُتَجَرِّهاً وَمُعْجِهاً لِقَوْلِهِ: ﴿أَلَا تَسْتَمْعُونَ﴾: مَا يَقُولُهُ هَذَا الرَّجُلُ.

﴿٢٦ - ٢٧﴾ فَقَالَ مُوسَى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾: تَعَجَّبْتُمْ أَمْ لَا، اسْتَكْبَرْتُمْ أَمْ أَدْعَيْتُمْ، فَقَالَ فِرْعَوْنُ مُعَانِداً لِلْحَقِّ قَادِحاً بِمَنْ جَاءَ بِهِ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾: حَيْثُ قَالَ خِلَافَ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ، وَخَالَفْنَا فِيمَا ذَهَبْنَا إِلَيْهِ؛ فَالْعَقْلُ عِنْدَهُ وَأَهْلُ الْعَقْلِ مَنْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ لَمْ يُخْلَقُوا، أَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مَا زَالَتَا مَوْجُودَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ مُوجِدٍ، وَأَنَّهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ خَالِقٍ! وَالْعَقْلُ عِنْدَهُ أَنْ يُعَبِّدَ الْمَخْلُوقَ النَاقِصُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ! وَالْجَنُونَ عِنْدَهُ أَنْ يُثَبَّتَ الرَّبُّ الْخَالِقَ لِلْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ وَالْمَنْعَمُ بِالنَّعْمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ وَيُدْعَى إِلَى عِبَادَتِهِ! وَزَيْنَ لِقَوْمِهِ هَذَا الْقَوْلُ، وَكَانُوا سَفَهَاءَ الْأَحْلَامِ خَفِيفِي الْعُقُولِ، ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

﴿٢٨﴾ فَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مُجِيباً لِإِنْكَارِ فِرْعَوْنَ وَتَعْطِيلِهِ لَرَبِّ الْعَالَمِينَ: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾: مِنْ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾: فَقَدْ أَذِنْتُ لَكُمْ مِنَ الْبَيَانِ وَالتَّبْيِينِ مَا يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ لَهُ أَدْنَى مُسَكَّةٍ مِنْ عَقْلٍ؛ فَمَا بِالْكُمْ تَتَجَاهَلُونَ فِيمَا أَخَاطَبُكُمْ بِهِ؟! وَفِيهِ إِيْمَاءٌ وَتَنْبِيْةٌ إِلَى أَنَّ الَّذِي رَمَيْتُمْ بِهِ مُوسَى مِنَ الْجَنُونِ أَنَّهُ دَاوُكُم، فَرَمَيْتُمْ أَزْكَى الْخَلْقِ عَقْلاً وَأَكْمَلَهُمْ عِلْماً [بِالْجَنُونِ]!، وَالْحَالُ أَنَّكُمْ أَنْتُمْ الْمَجَانِينُ؛ حَيْثُ ذَهَبَتْ عَقُولُكُمْ عَنْ إِنْكَارِ أَظْهَرِ الْمَوْجُودَاتِ؛ خَالِقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ وَمَا بَيْنَهُمَا؛ فَإِذَا جَحَذْتُمُوهُ؛ فَأَيُّ شَيْءٍ تَتَبَتُّونَ؟! وَإِذَا جَهَلْتُمُوهُ؛ فَأَيُّ شَيْءٍ تَعْلَمُونَ؟! وَإِذَا لَمْ تَوْفِنَا بِهِ وَبَيِّنَاتِهِ؛ فَبَأْيُ شَيْءٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ تَوْفِنُونَ؟! تَاللَّهِ؛ إِنَّ الْمَجَانِينَ الَّذِينَ بِمَنْزِلَةِ الْبَهَائِمِ أَعْقَلُ مِنْكُمْ، وَإِنَّ الْأَنْعَامَ السَّارِحَةَ أَهْدَى مِنْكُمْ.

(١) فِي (ب): «كَلِمَةٌ غَيْرُ وَاضِحَةٍ مِنْ حَيْثُ الْخَطُّ».

﴿٢٩ - ٣٣﴾ فلما خنقت فرعونَ الحجةَ وعجزت قدرتهُ وبيانه عن المعارضة؛ **﴿قال﴾**: متوعداً لموسى بسلطانه: **﴿لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾**: زعم قبحه الله أنه قد طمع في إضلال موسى، وأن لا يتَّخذَ إلهاً غيره، وإلاً؛ فقد تقرر أنه هو ومن معه على بصيرة من أمرهم، فقال له موسى: **﴿أولو جثثك بشيءٍ مُبين﴾**؛ أي: آية ظاهرة جليّة على صحّة ما جثت به من خوارق العادات، **﴿قال فأت به إن كنت من الصادقين﴾**. فألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ؛ أي: ذكر الحيات. **﴿مبين﴾**: ظاهر لكل أحدٍ لا خيال ولا تشبيه، **﴿ونزع يده﴾**: من جيبه، **﴿فإذا هي بيضاء للنّاظرين﴾**؛ أي: لها نورٌ عظيم لا نقص فيه لمن نظر إليها.

﴿٣٤ - ٣٧﴾ **﴿قال﴾** فرعون **﴿للملأ حوله﴾**: معارضاً للحقّ ومَن جاء به: **﴿إنّ هذا لساحرٌ عليمٌ. يريد أن يُخرِجَكُم من أرضِكُم﴾**: مؤه عليهم لعلمه بضغف عقولهم أنّ هذا من جنس ما يأتي به السحرة؛ لأنّه من المتقرّر عندهم أنّ السحرة يأتون من العجائب بما لا يقدرُ عليه الناس، وخوفهم أنّه قصده بهذا السحر التوصل إلى إخراجهم من وطنهم؛ ليجدوا ويجهدوا في معاداة مَن يريد إجلاءهم عن أولادهم وديارهم، **﴿فماذا تأمرون﴾** أن نفعل به؟ **﴿قالوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾**؛ أي: أخزهما، **﴿وابعث في المدائن حاشرين﴾**: جامعين للناس، يأتوك أولئك [الحاشرون] **﴿بكلّ سحرٍ عليم﴾**؛ أي: ابعث في جميع مُدُنِكَ التي هي مقرّ العلم ومعدن السحر مَن يجمع لك كلّ ساحرٍ ماهرٍ عليمٍ في سحره؛ فإنّ الساحر يُقَابِلُ بسحر من جنس سحره، وهذا من لطفِ الله؛ أن يري العباد بطلان ما مؤه به فرعونُ الجاهل الضالّ المضلّ أنّ ما جاء به موسى سحرٌ؛ قيصهم أن جمعوا أهل المهارة بالسحر؛ لينعقد المجلس عن حضرة الخلق العظيم، فيظهر الحقّ على الباطل، ويقر أهل العلم وأهل الصناعة بصحّة ما جاء به موسى، وأنّه ليس بسحر.

﴿٣٨ - ٤٠﴾ فعمل فرعون برأيهم، فأرسل في المدائن من يجمعُ السحرة، واجتهد في ذلك وجدّ، **﴿فَجَمَعَ السحرة لميقات يوم معلوم﴾**: قد واعدهم إياه موسى، وهو يوم الزينة الذي يتفرغون فيه من أشغالهم، **﴿وقيل للناس هل أنتم مُجْتَمِعُونَ﴾**؛ أي: نودي بعموم الناس بالاجتماع في ذلك اليوم الموعود، **﴿لعلنا نَتَّبِعُ السحرة إن كانوا هم الغالبين﴾**؛ أي: قالوا للناس: اجتمعوا لِنَنْظُرُوا غلبة السحرة لموسى، وأنهم ماهرون في صناعتهم، فتتبعهم ونعظّمهم ونعرف فضيلة علم

السحر. فلو وَفَّقُوا للحقِّ؛ لقالوا: لعلنا نَتَّبِعَ المحقَّ منهم، ونعرف الصواب؛ فلذلك ما أفاد فيهم ذلك إِلَّا قيامَ الحجة عليهم.

﴿٤١ - ٤٢﴾ ﴿فلما جاء السحرة﴾: ووصلوا لفرعون؛ قالوا له: ﴿إِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾: لموسى، ﴿قال نعم﴾: لكم أجر وثواب، وإنا لكم لَمِنَ المقرَّبينَ عندي؛ وَعَدَّهم الأجرَ والقربةَ منه؛ ليزدادَ نشاطَهم ويأتوا بكلِّ مقدورهم في معارضة ما جاء به موسى.

﴿٤٣ - ٤٥﴾ ﴿فلما اجتمعوا للموعِدِ هم وموسى وأهل مصر؛ وعظَّمهم موسى وذكَّرهم وقال: ﴿وَيْلَكُمْ لا تفتروا على الله كذباً فَيُسْجِتْكُمْ بعذابٍ وقد خابَ مِن افترى﴾، فتنازعوا وتخاصموا، ثم شَجَّعهم فرعونُ وشَجَّع بعضهم بعضاً، ﴿قال لهم موسى ألقوا ما أنتم مُلقون﴾؛ أي: ألقوا كل ما في خواطركم إلقاؤه ولم يقيده بشيءٍ دون شيءٍ لجزمه ببطلان ما جاؤوا به من معارضة الحق، ﴿فألقوا حبالَهم وعصيَّهم﴾: فإذا هي حياثُ تسعى، وسَحَرُوا بذلك أعين الناس. ﴿وقالوا بعزةَ فرعونَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾: فاستعانوا بعزةَ عبدٍ ضعيفٍ عاجزٍ من كلِّ وجهٍ؛ إِلَّا أَنَّهُ قد تجبَّر وحصلَ له صورة مُلْكٍ وجنودٍ، فغرَّتْهم تلك الأبهة، ولم تنفذ بصائرُهم إلى حقيقة الأمر، أو أَنَّ هَذَا قَسَمَ منهم بعزةَ فرعونَ، والمقسَم عليه أَنَّهُم غالبون، ﴿فألقى موسى عصاه فإذا هي ثَلَقَتْ﴾: تبتلعُ وتأخذُ ﴿ما يَأْفِكُونَ﴾: فَالْتَقَتْ جميعُ ما أَلْقَوْا من الحبال والعصي؛ لَأَنَّهُا إِفْكٌ وكذبٌ وزورٌ، وذلك كُلُّه باطلٌ لا يقوم للحقِّ ولا يقاومُه.

﴿٤٦ - ٤٨﴾ ﴿فلما رأى السحرة هذه الآيةَ العظيمةَ؛ تيقَّنوا لعلمِهم أَن هذا ليس بسحرٍ، وإِنَّمَا هو آيَةٌ من آياتِ الله ومعجزةٌ تنبئُ بصدق موسى وصحَّة ما جاء به، ﴿فألْقَى السحرةُ ساجدين﴾: لربِّهم، ﴿قالوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ موسى وهارونَ﴾: وانقمع الباطلُ في ذلك المجمع، وأقرَّ رؤساؤه ببطلانِهِ، ووضَحَ الحقُّ وظهر، حتى رأى ذلك الناظرون بأبصارهم.

﴿٤٩ - ٥١﴾ ﴿ولكن أبى فرعونُ إِلَّا عتَوْا وضلَّالاً وتمادياً في غِيهِ وعناداً، فقال للسحرة: ﴿أَنتُمْ لَهُ قَبْلُ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ يتعجَّب وَيُعْجَب قومه من جرائتهم عليه وإقدامِهِم على الإيمانِ من غيرِ إذْنِهِ ومؤامرتِهِ، ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحَرَ﴾: هَذَا؛ وهو الذي جمع السحرة، وملَّوه الذين أشاروا عليه بجمعِهِم من مدائِنِهِم، وقد علموا أَنَّهُم ما اجتمعوا بموسى ولا رأوه قبل ذلك، وأنهم جاؤوا من السحر بما

يَحِيزُ النَّازِرِينَ وَيُهِيلُهُمْ، وَمَعَ ذَلِكَ؛ فَرَاخَ عَلَيْهِمْ هَذَا الْقَوْلُ الَّذِي هُمْ بِأَنْفُسِهِمْ وَقَفُوا عَلَى بَطْلَانِهِ؛ فَلَا يُسْتَكْرَى عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْعُقُولِ أَنْ لَا يُؤْمِنُوا بِالْحَقِّ الْوَاضِحِ وَالْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ قَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ عَنْ أَيِّ شَيْءٍ كَانَ، أَنَّهُ عَلَى خِلَافِ حَقِيقَتِهِ؛ صَدَّقُوهُ. ثُمَّ تَوَعَّدَ السَّحَرَةَ، فَقَالَ: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾؛ أَيُّ: الْيَدِ الْيُمْنَى وَالرَّجْلَ الْيُسْرَى؛ كَمَا يَفْعَلُ بِالْمُفْسِدِ فِي الْأَرْضِ، ﴿وَلَأَصْلَبُنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾: لَتَحْتَزُوا وَتَذَلُّوا، فَقَالَ السَّحَرَةُ حِينَ وَجَدُوا حِلَاوَةَ الْإِيمَانِ وَذَاقُوا لَذَّتَهُ: ﴿لَا ضَيْرَ﴾؛ أَيُّ: لَا نُبَالِي بِمَا تَوَعَّدْتَنَا بِهِ، ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ. إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾: مِنَ الْكُفْرِ وَالسَّحَرِ وَغَيْرِهِمَا ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: بِمُوسَى مِنْ هَؤُلَاءِ الْجُنُودِ. فَثَبَّتَهُمُ اللَّهُ وَصَبَّرَهُمْ؛ فَيُحْتَمَلُ أَنَّ فِرْعَوْنَ فَعَلَ [بِهِمْ] مَا تَوَعَّدَهُمْ بِهِ لِسُلْطَانِهِ وَاقْتِدَارِهِ إِذْ ذَاكَ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّ اللَّهَ مَنَعَهُ مِنْهُمْ.

﴿٥٢﴾ ثُمَّ لَمْ يَزَلْ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ مُسْتَمِرِّينَ عَلَى كُفْرِهِمْ؛ يَأْتِيهِمْ مُوسَى بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، وَكَلَّمَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ وَبَلَغَتْ مِنْهُمْ كُلُّ مَبْلَغٍ؛ وَعَدُوا مُوسَى وَعَاهَدُوهُ لَئِنْ كَشَفَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلَيَرْسَلَنَّ مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَيَكْشِفُهُ اللَّهُ، ثُمَّ يَنْكُثُونَ. فَلَمَّا يَتَسَّسَ مُوسَى مِنْ إِيْمَانِهِمْ، وَحَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ، وَأَنَّ لَبَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَنْجِيَهُمْ مِنْ أَسْرِهِمْ وَيُمْكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ؛ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى: ﴿أَنْ أُنْزِلَ بِعِبَادِي﴾؛ أَيُّ: أَخْرِجْ بَيْنِي إِسْرَائِيلَ أَوَّلَ اللَّيْلِ؛ لِيَتِمَادُوا وَيَتَمَهَّلُوا فِي ذَهَابِهِمْ ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾؛ أَيُّ: سَيَتَّبِعُكُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ. وَوَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ؛ فَإِنَّهُمْ لَمَّا أَصْبَحُوا، وَإِذَا بَنُو إِسْرَائِيلَ قَدْ سَرَوْا كُلَّهُمْ مَعَ مُوسَى.

﴿٥٣ - ٥٦﴾ ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾: يَجْمَعُونَ النَّاسَ؛ لِيُوقِعَ بَيْنِي إِسْرَائِيلَ، وَيَقُولُ مُشْجِعاً لِقَوْمِهِ: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾؛ أَيُّ: بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ. وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾: فَتَرِيدُ أَنْ تَنْفَذَ غِيظَنَا فِي هَؤُلَاءِ الْعَبِيدِ الَّذِينَ أَبْقُوا مَتًّا، ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِرُونَ﴾؛ أَيُّ: الْحَظَرُ عَلَى الْجَمِيعِ مِنْهُمْ، وَهُمْ أَعْدَاءُ لِلْجَمِيعِ، وَالْمَصْلَحَةُ مُشْتَرَكَةٌ.

﴿٥٧ - ٥٩﴾ فَخَرَجَ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ فِي جَيْشٍ عَظِيمٍ وَنَفِيرٍ عَامٍّ، لَمْ يَتَخَلَّفْ مِنْهُمْ سِوَى أَهْلِ الْأَعْدَارِ الَّذِينَ مَنَعَهُمُ الْعَجْزُ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾؛ أَيُّ: بَسَاتِينَ مِصْرَ وَجَنَّاتِهَا الْفَائِقَةُ وَعُيُونُهَا الْمَتَدَفِّقَةُ وَزُرُوعٌ قَدْ مَلَأَتْ أَرْضِيهِمْ وَعَمَرَتْ بِهَا حَاضِرَتَهُمْ وَبُوَادِيَهُمْ، ﴿وَمَقَامِ كَرِيمٍ﴾: يُعْجِبُ النَّازِرِينَ وَيُلْهِي الْمُتَأَمِّلِينَ؛ تَمَتَّعُوا بِهِ دَهْرًا طَوِيلًا، وَقَضَوْا بِلَذَائِهِ وَشَهَوَاتِهِ عَمْرًا مَدِيدًا عَلَى الْكُفْرِ

والعناد والتكبر على العباد والته العظيم، ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا﴾؛ أي: هذه البساتين والعيون والزروع والمقام الكريم ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: الذين جَعَلُوهم من قَبْلُ عبيدَهم وَسُخَّرُوا في أعمالهم الشاقَّة؛ فسبحان مَنْ يُؤْتِي الْمَلِكَ مَنْ يَشَاءُ وَيَنْزِعُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ وَيَعِزُّ مَنْ يَشَاءُ بِطَاعَتِهِ، وَيَذِلُّ مَنْ يَشَاءُ بِمَعْصِيَتِهِ.

﴿٦٠ - ٦٢﴾ ﴿فَاتَّبَعُوهم مَشْرِقِينَ﴾؛ أي: اتَّبَعَ قَوْمُ فِرْعَوْنَ قَوْمَ مُوسَى وَقْتَ شُرُوقِ الشَّمْسِ، وساقوا خَلْفَهُم مُّحِثِينَ عَلَى غِيْظٍ وَحَنَقٍ قَادِرِينَ، ﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ﴾؛ أي: رَأَى كُلُّ مَنهُمَا صَاحِبَهُ، ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى﴾: شَاكِينَ لِمُوسَى وَحَزَنِينَ: ﴿إِنَّا لَمُذْرَكُونَ﴾. فَقَالَ مُوسَى مُثَبِّتًا لَهُمْ وَمُخْبِرًا لَهُمْ بِوَعْدِ رَبِّهِ الصَّادِق: ﴿كَلَّا﴾؛ أي: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا ذَكَرْتُمْ أَنْكُمْ مُذْرَكُونَ، ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾: لِمَا فِيهِ نَجَاتِي وَنَجَاتُكُمْ.

﴿٦٣ - ٦٨﴾ ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾: فَضْرِبَهُ، ﴿فَانْفَلَقَ﴾: اثْنِي عَشْرَ طَرِيقًا، ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّودِ﴾؛ أي: الْجَبَلِ ﴿الْعَظِيمِ﴾: فَدَخَلَهُ مُوسَى وَقَوْمُهُ، ﴿وَأَزَلَفْنَا ثُمَّ﴾: فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ ﴿الْآخِرِينَ﴾؛ أي: فِرْعَوْنَ [وَأَقَوْمَهُ، وَقَرْنَاهُمْ، وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي ذَلِكَ الطَّرِيقِ الَّذِي سَلَكَ مِنْهُ مُوسَى وَقَوْمُهُ، ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾: اسْتَكْمَلُوا خَارِجِينَ، لَمْ يَتَخَلَّفْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾: لَمْ يَتَخَلَّفْ مِنْهُمْ عَنِ الْغَرَقِ أَحَدٌ. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾: عَظِيمَةً عَلَى صَدَقِ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَطْلَانِ مَا عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾: مَعَ هَذِهِ الْآيَاتِ الْمُقْتَضِيَةِ لِلْإِيمَانِ؛ لِفَسَادِ قُلُوبِكُمْ، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾: بِعِزَّتِهِ أَهْلَكَ الْكَافِرِينَ الْمَكْذِبِينَ، وَبِرَحْمَتِهِ نَجَّى مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ^(١) ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا مِنْ عَنَاقِبِنَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَبْقَوْنَكَمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُبَسِّئُنِي ثُمَّ يُجَحِّينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ

(١) في النسختين إلى آخر هذه القصة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٧﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْهِمْنِي الْفَصْلَاحِينَ ﴿٨٨﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٩﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٩٠﴾ وَأَغْفِرْ لِأَيِّئِ اللَّهِ كَانَ مِنَ الصَّالِينَ ﴿٩١﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٩٢﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٩٣﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٩٤﴾ وَأَزَلَفْتُ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٥﴾ وَبَرَزْتُ الْجَحِيمَ لِلْغَاوِينَ ﴿٩٦﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٧﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿٩٨﴾ فَكَبَّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٩﴾ وَخُودُوا إِلَيْسَ أَجْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ قَالُوا هُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿١٠١﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٠٢﴾ إِذْ تُسَوِّدُكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْأَعْمَجُونَ ﴿١٠٤﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا صِدِّيقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٧﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٩﴾ .

﴿٦٩ - ٧١﴾ أي: وَاثِلْ يَا مُحَمَّدُ عَلَى النَّاسِ نَبَا إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ وَخَبْرَهُ الْجَلِيلِ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ بِخُصُوصِهَا، وَإِلَّا؛ فَلَهُ أَنْبَاءٌ كَثِيرَةٌ، وَلَكِنْ مِنْ أَعْجَبِ أَنْبَاءِهِ وَأَفْضَلِهَا هَذَا النَّبَأُ الْمَتَضَمِّنُ لِرِسَالَتِهِ وَدَعْوَتِهِ قَوْمَهُ وَمَحَاجَّتِهِ إِيَّاهُمْ وَ[إِطَالَهُ] ^(١) مَا هُمْ عَلَيْهِ، وَلِذَلِكَ قَيَّدَهُ بِالظَّرْفِ فَقَالَ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ. قَالُوا: متبجحين بعبادتهم: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾: نَنْجُثُهَا وَنَعْمَلُهَا بِأَيْدِينَا، ﴿فَنَنْظُلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾؛ أَي: مُقِيمِينَ عَلَى عِبَادَتِهَا فِي كَثِيرٍ مِنْ أَوْقَاتِنَا.

﴿٧٢ - ٧٤﴾ فَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَبِينًا لَعَدَمِ اسْتِحْقَاقِهَا لِلْعِبَادَةِ: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾: فَيَسْتَجِيبُونَ دَعَاءَكُمْ وَيَفْرَجُونَ كَرْبَكُمْ وَيَزِيلُونَ عَنْكُمْ كُلَّ مَكْرُوهِ، ﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾: فَأَقْرُوا أَنَّ ذَلِكَ كُلُّهُ غَيْرُ مُوجُودٍ فِيهَا؛ فَلَا تَسْمَعْ دَعَاءَ، وَلَا تَنْفَعْ، وَلَا تَضُرْ! وَلِهَذَا لَمَّا كَسَرَهَا وَقَالَ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾؛ قَالُوا لَهُ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءُ يَنْطِقُونَ﴾؛ أَي: هَذَا أَمْرٌ مُتَقَرَّرٌ مِنْ حَالِهَا، لَا يَقْبَلُ الْإِشْكَالَ وَالشَّكَّ. فَلَجَّؤُوا إِلَى تَقْلِيدِ آبَائِهِمُ الضَّالِّينَ، فَقَالُوا: ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾: فَتَبِعْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَسَلَكْنَا سَبِيلَهُمْ، وَحَافَظْنَا عَلَى عَادَاتِهِمْ.

﴿٧٥ - ٨٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ: أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ كُلُّكُمْ خُصُومٌ فِي [هَذَا] الْأَمْرِ، وَالْكَلَامُ مَعَ الْجَمِيعِ وَاحِدٌ: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ. أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ. فَإِنَّهُمْ

(١) كَذَا فِي (ب). وَفِي (أ): «وَإِطَالَهُمْ».

عدو لي: ﴿فَلْيَضْرِبُوا بِأَدْنَى شَيْءٍ مِنَ الضَّرَرِ، وَلْيَكِيدُوا فَلَا يَقْدِرُونَ.﴾ [إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ. الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِي]: هو [الْمُنْفَرِدُ]^(١) بنعمة الخلق ونعمة الهداية للمصالح الدينية والدنيوية، ثم خَصَّصَ منها بعض الضروريات، فقال: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ. وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشفِيَنِي. وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ. وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾: فهذا هو وحده المنفرد بذلك، فيجب أن يُفَرَّدَ بالعبادة والطاعة، وتترك هذه الأصنام التي لا تخلق ولا تهدي، ولا تمرض ولا تشفي، ولا تطعم ولا تسقي، ولا تميت ولا تحيي، ولا تنفع عابديها بكشف الكروب ولا مغفرة الذنوب؛ فهذا دليل قاطع وحجة باهرة لا تقدر أنتم وآباؤكم على معارضتها، فدل على اشتراككم في الضلال وترككم طريق الهدى والرشد. قال الله تعالى: ﴿وَحَاجُّهُ قَوْمُهُ قَالُوا أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ...﴾ الآيات.

﴿٨٣ - ٨٤﴾ ثم دعا عليه السلام ربّه، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾؛ أي: علماً كثيراً أعرف به الأحكام والحلال والحرام، وأحكم به بين الأنام، ﴿وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾: من إخوانه الأنبياء والمرسلين، ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾؛ أي: اجعل لي ثناء صدقٍ مستمرٍّ إلى آخر الدهر. فاستجاب الله دعاءه، فوهب له من العلم والحكم ما كان به من أفضل المرسلين، وألحقه بإخوانه المرسلين، وجعله محبوباً مقبولاً معظماً مثنياً عليه في جميع الملل في كل الأوقات، قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ. إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿٨٥﴾ ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾؛ أي: من أهل الجنة التي يورثهم الله إياها، فأجاب الله دعاءه، وفرّع منزلته في جنات النعيم.

﴿٨٦﴾ ﴿وَاعْفُزْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾: وهذا الدعاء بسبب الوعد الذي قال لأبيه: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿٨٧ - ٨٩﴾ ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي: بالتوبيخ على بعض الذنوب والعقوبة عليها والفضيحة، بل أسعدني في ذلك اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «المتفرد».

بنون؟ ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾: فهذا الذي ينفعه عندك، وهذا الذي ينجو من العقاب ويستحق جزيل الثواب.

والقلب السليم: معناه: الذي سَلِمَ من الشرك والشك ومحبة الشر والإصرار على البدعة والذنوب، ويلزم من سلامته مما ذُكِرَ اتصافه بأضدادها من الإخلاص والعلم واليقين ومحبة الخير وتزيينه في قلبه، وأن تكون إرادته ومحبه تابعة لمحبة الله، وهواه تبعاً لما جاء عن الله.

﴿٩٠ - ٩٥﴾ ثم ذكر من صفات ذلك اليوم العظيم وما فيه من الثواب والعقاب، فقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾؛ أي: قُرِبَتْ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: ربهم، الذين امتثلوا أوامره، واجتنبوا زواجره وأتقوا سخطه وعقابه. ﴿وَبُرَزَّتِ الْجَحِيمُ﴾؛ أي: بُرِزَتْ واستعدت بجميع ما فيها من العذاب ﴿لِلْغَاوِينَ﴾: الذين أَوْضَعُوا في معاصي الله، وتجروا على محاربه، وكذبوا رسله، وردوا ما جاؤهم به من الحق، ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ. مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾: بأنفسهم؛ أي: فلم يكن من ذلك من شيء، وظهر كذبهم وخزيهم، ولاحث خسارتهم وفضيحتهم، وبان ندمهم، وضل سعيهم. ﴿فَكُنْكِبُوا فِيهَا﴾؛ أي: ألقوا في النار ﴿هم﴾؛ أي: ما كانوا يعبدون، ﴿وَالْغَاوُونَ﴾: العابدون لها، ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾: من الإنس والجن، الذين أَرَّهم إلى المعاصي أَرًا، وتسَلَّطَ عليهم بشركهم وعدم إيمانهم، فصاروا من دعايته والساعين في مرضاته، وهم ما بين داعٍ لطاعته ومجيبٍ لهم ومقلدٍ لهم على شركهم.

﴿٩٦ - ١٠٤﴾ ﴿قَالُوا﴾؛ أي: جنود إبليس الغاؤون لأصنامهم وأوثانهم التي عبدوها: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: في العبادة والمحبة والخوف والرجاء، وندعوكم كما ندعوه. فتبين لهم حينئذ ضلالهم، وأقروا بعدل الله في عقوبتهم، وأنها في محلها، وهم لم يُسَوِّوْهم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ؛ إِلَّا في العبادة، لا في الخلق؛ بدليل قولهم: ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أَنَّهُمْ مَقْرُونُونَ أَنَّ اللَّهَ رَبُّ الْعَالَمِينَ كُلِّهِمْ، الذين من جملتهم أصنامهم وأوثانهم، ﴿وَمَا أَضَلُّنَا﴾: عن طريق الهدى والرشد ودعانا إلى طريق الغي والفسق ﴿إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾: وهم الأئمة الذين يدعون إلى النار، ﴿فَمَا لَنَا﴾: حينئذ ﴿مَنْ شَافِعِينَ﴾: يشفعون لنا لِنُنْقِذَنَا من عذابه ﴿وَلَا صَدِيقَ حَمِيمٍ﴾؛ أي: قريب مصافٍ ينفعنا بأدنى نفع؛ كما جرت العادة بذلك في الدنيا؛ فأيسوا من كل خير، وأبلسوا بما كسبوا، وتمنوا العودة إلى الدنيا ليعملوا

صالحاً؛ ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ﴾؛ أي: رجعة إلى الدنيا وإعادة إليها، ﴿فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: لنسلم من العقاب ونستحق الثواب. هيهات هيهات؛ قد حيل بينهم وبين ما يشتهون، وقد غُلِّقَتْ منهم الرُّهون. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾: الذي ذَكَّرْنَا لَكُمْ وَوَصَّفْنَا ﴿لَايَةً﴾: لكم، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: مع نزول الآيات.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾^(١) ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِيَّاهُ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٠٩﴾ قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١٠﴾ قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١١﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٢﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٤﴾ قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَبْنُوحْ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٦﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٧﴾ فَانجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَاحِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١١٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢١﴾.

﴿١٠٥ - ١١٠﴾ يذكر تعالى تكذيب قوم نوح لرسولهم نوح، وما ردَّ عليهم وردُّوا عليه، وعاقبة الجميع، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾: جمعهم، لأنَّ^(٢) تكذيب نوح كتكذيب جميع المرسلين؛ لأنَّهم كلُّهم اتَّفَقُوا على دعوة واحدة وأخبار واحدة؛ فتكذيب أحدهم كتكذيب جميع ما جاؤوا به من الحق. كذبوه ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾: في النسب ﴿نُوحٌ﴾: وإنما ابتعث الله الرسل من نسب من أرسل إليهم؛ لئلا يسمتروا من الانقياد له، ولأنَّهم يعرفون حقيقة؛ فلا يحتاجون أن يبحثوا عنه، فقال لهم مخاطباً بالطف خطاب؛ كما هي طريقة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾: الله تعالى، فتركون ما أنتم مقيمون عليه من عبادة الأوثان، وتُخْلِصُونَ العبادة لله وحده. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾: فكونه رسولا إليهم بالخصوص يوجب لهم تلقي ما أُرْسِلَ به إليهم، والإيمان به، وأن يشكروا الله تعالى على أن خَصَّهم بهذا الرسول الكريم. وكونه أميناً يقتضي أنه لا يقول^(٣) على الله، ولا يزيد في وحيه ولا ينقص. ولهذا يوجب لهم التصديق بخبره

(١) في النسختين: إلى آخر القصة.

(٢) في (ب): «وجعل».

(٣) في (ب): «يقول».

والطاعة لأمره، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾: فيما أمركم به ونهاكم^(١) عنه؛ فَإِنَّ هَذَا هُوَ الذي يترتب على كونه رسولاً إليهم أميناً؛ فلذلك رتبته بالفاء الدالة على السبب، فذكر السبب الموجب، ثم ذكر انتفاء المانع، فقال: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾: فتكلفون من المَعْرَمِ الثَقِيلِ ﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: أرجو بذلك القُرْبَ منه والثواب الجزيل، وأما أنتم؛ فمُنِّيْتِي ومُنْتَهَى إرادتي منكم التَّصَحُّ لَكُمْ وسلوككم الصراط المستقيم، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾: كرر ذلك عليه السلام؛ لتكريره دعوة قومه وطول مكثه في ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾، و﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا. فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا...﴾ الآيات.

﴿١١١﴾ فقالوا ردًا لدعوته ومعارضة له بما ليس يَصْلُحُ للمعارضة: ﴿أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ﴾؛ أي: كيف نتبعك ونحن لا نرى أتباعك إِلَّا أسافل الناس وأراذلهم وسَقَطَهم. بهذا يُعَرَّفُ تكبرهم عن الحق وجهلهم بالحقائق؛ فإنهم لو كان قصدُهم الحق؛ لقالوا - إن كان عندهم إشكال وشك في دعوته -: بَيْنَ لَنَا صَحَّةٌ مَا جِئْتُ بِهِ بِالطَّرْقِ الموصلة إلى ذلك! ولو تأملوا حق التأمل؛ لعلموا أَنَّ أتباعه هم الْأَعْلَوْنَ، خيار الخلق، أهل العقول الرزينة والأخلاق الفاضلة، وأنَّ الأَرْدَلَ مَنْ سُلِبَ خاصية عقله، فاستحسن عبادة الأحجار، ورضي أن يسجد لها ويدعوها، وأبى الانقياد لدعوة الرُّسُلِ الْكُمَّلِ. وبمجرد ما يتكلم أحد الخصمين في الكلام الباطل؛ يُعَرَّفُ فساد ما عنده؛ بقطع النظر عن صحة دعوى خصمه؛ فقوم نوح لما سمعنا عنهم أنهم قالوا في ردِّهم دعوة نوح: ﴿أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ﴾: فَبَنُوا على هذا الأصل الذي كلُّ أحدٍ يعرف فسادَهُ ردَّ دعوتِهِ؛ عرفنا أنَّهم ضالُّون مخطئون، ولو لم نشاهد من آيات نوح ودعوته العظيمة ما يفيدُ الجزم واليقين بصدقِهِ وصحَّة ما جاء به.

﴿١١٢ - ١١٥﴾ فقال نوح عليه السلام: ﴿وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ. إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾؛ أي: أعمالهم وحسابهم على الله، إنما عليَّ التبليغ، وأنتم دعوهم عنكم؛ إن كان ما جئكم به الحق؛ فانقادوا له، وكلُّ له عمله، ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: كأنهم - قبَّحهم الله - طلبوا منه أن يطردهم عنه

(١) في (ب): «وأنهاكم».

تَكْبَرًا وَتَجْبُرًا لِيُؤْمِنُوا، فَقَالَ: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَسْتَحْقُونَ الطَّرْدَ وَالْإِهَانَةَ، وَإِنَّمَا يَسْتَحْقُونَ الْإِكْرَامَ الْقَوْلِيَّ وَالْفِعْلِيَّ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾. ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾؛ أَي: مَا أَنَا إِلَّا مُنْذِرٌ وَمُبْلَغٌ عَنِ اللَّهِ، وَمُجْتَهِدٌ فِي نَصْحِ الْعِبَادِ وَلَيْسَ لِي مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ إِنْ الْأَمْرُ إِلَّا لِلَّهِ.

﴿١١٦﴾ فَاسْتَمَرَ نُوحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى دَعْوَتِهِمْ لَيْلًا وَنَهَارًا، سِرًّا وَجَهَارًا، فَلَمْ يَزِدَادُوا إِلَّا نَفُورًا، وَ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ﴾: مِنْ دَعْوَتِكَ إِنَّا نَأْتِيكَ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ؛ ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾؛ أَي: لَنَقْتُلَنَّكَ شَرًّا قَتْلًا؛ بِالرَّمْيِ بِالْحِجَارَةِ؛ كَمَا يُقْتَلُ الْكَلْبُ قَتْلًا لَهْمًا! مَا أَقْبَحَ هَذِهِ الْمَقَابِلَةُ! يَقَابِلُونَ النَّاصِحَ الْأَمِينَ الَّذِي هُوَ أَشْفَقُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ بِشَرِّ مُقَابَلَةٍ.

﴿١١٧ - ١١٨﴾ لَا جَرَمَ لَمَّا انْتَهَى ظَلْمُهُمْ وَاشْتَدَّ كُفْرُهُمْ؛ دَعَا عَلَيْهِمْ نَبِيُّهُمْ بِدَعْوَةِ أَحَاطَتْ بِهِمْ، فَقَالَ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَارًا...﴾. ﴿الْآيَاتِ، وَهَنَا قَالَ: ﴿رَبِّ إِن قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾؛ أَي: أَهْلِكَ الْبَاغِي مَنًّا، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنََّّهُمُ الْبَغَاةُ الظَّالِمَةُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿١١٩ - ١٢٢﴾ ﴿فَانْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾؛ أَي: السَّفِينَةِ ﴿الْمَشْحُونِ﴾: مِنَ الْخَلْقِ وَالْحَيَوَانَاتِ، ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾؛ أَي: بَعْدَ نُوحٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿الْبَاقِينَ﴾؛ أَي: جَمِيعِ قَوْمِهِ. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾؛ أَي: نَجَاةِ نُوحٍ وَأَتْبَاعِهِ وَإِهْلَاكَ مَنْ كَذَّبَهُ ﴿لَايَةً﴾: دَالَّةٌ عَلَى صِدْقِ رُسُلِنَا وَصَحَّةِ مَا جَاؤُوا بِهِ وَبَطْلَانِ مَا عَلَيْهِ أَعْدَاؤُهُمُ الْمَكْذُبُونَ بِهِمْ. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: الَّذِي قَهَرَ بَعْرَهُ أَعْدَاءَهُ فَأَغْرَقَهُمُ بِالطُّوفَانِ. ﴿الرَّحِيمُ﴾: بِأَوْلِيَائِهِ؛ حَيْثُ نَجَّى نُوحًا وَمَنْ مَعَهُ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ.

﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾^(١) ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ آلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُرُّ رَسُولٍ آمِينَ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ مَائَةً تَبْنُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ ﴿١٣٣﴾ وَحَنَّتِ

وَعِیُونَ ﴿١٢٦﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٢٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٢٦﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٢٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٠﴾ .

﴿١٢٣ - ١٢٧﴾ أي: كَذَبَتِ الْقَبِيلَةُ الْمَسْمُوءَةَ عَادًا رَسُولَهُمْ هودًا، وَتَكْذِيبُهُمْ لَهُ تَكْذِيبٌ لغيره؛ لِاتِّفَاقِ الدَّعْوَةِ، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾: فِي النِّسْبِ ﴿هُودٌ﴾: بِلُطْفٍ وَحَسَنِ خُطَابٍ: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾: اللَّهُ، فَتَتْرَكُونَ الشَّرْكَ وَعِبَادَةَ غَيْرِهِ، ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾؛ أي: أُرْسَلَنِي اللَّهُ إِلَيْكُمْ رَحْمَةً بِكُمْ وَاعْتِنَاءً بِكُمْ، وَأَنَا أَمِينٌ؛ تَعْرِفُونَ ذَلِكَ مِنِّي. رَتَّبَ عَلَى ذَلِكَ قَوْلَهُ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾؛ أي: أَدُوا حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ التَّقْوَى، وَأَدُوا حَقِّي؛ بِطَاعَتِي فِيمَا أَمَرَكُم بِهِ وَأَنَهَاكُم عَنْهُ؛ فَهَذَا مُوجِبٌ لِأَنْ تَتَّبِعُونِي وَتُطِيعُونِي، وَلَيْسَ ثَمَّ مَانِعٌ يَمْنَعُكُم مِنَ الْإِيمَانِ، فَلَسْتُ أَسْأَلُكُمْ عَلَى تَبْلِيغِي إِيَّاكُمْ وَنُصْحِي لَكُمْ أَجْرًا حَتَّى تَسْتَقِيلُوا ذَلِكَ الْمَغْرَمَ. ﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: الَّذِي رَبَّاهُمْ بِنِعْمِهِ وَأَدَّرَ عَلَيْهِمْ فَضْلَهُ وَكَرَّمَهُ؛ خُصُوصًا مَا رَبَّنِي بِهِ أَوْلِيَاءَهُ وَأَنْبِيََاءَهُ.

﴿١٢٨ - ١٣٥﴾ ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾؛ أي: مَدْخَلَ بَيْنَ الْجِبَالِ ﴿آيَةً﴾؛ أي: عِلَامَةً ﴿تَعْبَثُونَ﴾؛ أي: تَفْعَلُونَ ذَلِكَ عَبَثًا لِغَيْرِ فَائِدَةٍ تَعُودُ بِمَصَالِحِ دِينِكُمْ وَدُنْيَاكُمْ، ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾؛ أي: بَرَكًا وَمَجَابِي لِلْمِيَاهِ؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾: وَالْحَالُ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى الْخُلُودِ لِأَحَدٍ. ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ﴾: بِالْخَلْقِ ﴿بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾: قَتَلًا وَضَرْبًا وَأَخَذَ أَمْوَالٍ. وَكَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَعْطَاهُمْ قُوَّةَ عَظِيمَةً، وَكَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَسْتَعِينُوا بِقُوَّتِهِمْ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَلَكِنَّهُمْ فَخَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا وَقَالُوا: مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟ وَاسْتَعْمَلُوا قُوَّتَهُمْ فِي مَعَاصِي اللَّهِ وَفِي الْعِبَثِ وَالسَّفَهَةِ؛ فَلِذَلِكَ نَهَاكُم نَبِيُّهُمْ عَنْ ذَلِكَ. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: وَاتْرَكُوا شِرْكَكُمْ وَبَطَرَكُمْ ﴿وَأَطِيعُوا﴾: حَيْثُ عَلِمْتُمْ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ أَمِينٌ نَاصِحٌ. ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ﴾؛ أي: أَعْطَاكُمْ ﴿بِمَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: أَمَدَّكُمْ بِمَا لَا يُجْهَلُ وَلَا يُتَكَّرُ مِنَ الْأَنْعَامِ، ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ﴾: مِنْ إِبِلٍ وَبَقَرٍ وَغَنَمٍ، ﴿وَبَنِينَ﴾؛ أي: وَكَثْرَةَ نَسْلِ؛ كَثُرَ أَمْوَالُكُمْ وَكَثُرَ أَوْلَادُكُمْ؛ خُصُوصًا الذَّكَورَ؛ أَفْضَلَ الْقَسَمِينَ. هَذَا تَذَكِيرُهُمْ بِالنِّعَمِ، ثُمَّ ذَكَرَهُمْ حُلُولَ عَذَابِ اللَّهِ فَقَالَ: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ أي: إِنِّي مِنْ شَفَقَتِي عَلَيْكُمْ، وَبِرِّي بِكُمْ أَخَافُ أَنْ يَنْزَلَ بِكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. إِذَا نَزَلَ لَا يُرَدُّ إِنْ اسْتَمَرَّيْتُمْ عَلَى كُفْرِكُمْ وَبَغْيِكُمْ.

﴿١٣٦ - ١٣٨﴾ فقالوا معاندين للحقّ مكذّبين لنبيّهم: ﴿سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين﴾؛ أي: الجميع على حدّ سواء! وهذا غاية العتوّ؛ فإنّ قوماً بلغت بهم الحال إلى أن صارت مواعظ الله التي تُذيبُ الجبال الصّم الصّلاب، وتتصدّع لها أفئدة أولي الألباب، وجودها وعدمها عندهم على حدّ سواء؛ لقوم انتهى ظلمهم واشتدّ شقاؤهم وانقطع الرجاء من هدايتهم، ولهذا قالوا: ﴿إن هذا إلّا خُلِقَ الأولين﴾؛ أي: هذه الأحوال والنعم ونحو ذلك عادة الأولين؛ تارة يستغنون، وتارة يفتقرون، وهذه أحوال الدهر؛ لأنّ هذه محنٌ ومنحٌ من الله تعالى وابتلاء لعباده. ﴿وما نحن بمُعذّبين﴾: وهذا إنكارٌ منهم للبعث، أو تنزّلٌ مع نبيّهم وتهكّم به؛ أنّا على فرض أنّنا نُبعث؛ فإنّنا كما أدّرت علينا النعم في الدنيا؛ كذلك لا تزال مستمرة علينا إذا بُعثنا.

﴿١٣٩ - ١٤٠﴾ ﴿فكذبوه﴾؛ أي: صار التكذيب سجيّة لهم وخُلُقاً لا يردّعهم عنه رادّع؛ ﴿فأهلكناهم﴾: ﴿بريح صرصر عاتية. سخّرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنّهم أعجاز نخل خاوية﴾. ﴿إنّ في ذلك لآية﴾: على صديق نبيّنا هود عليه السلام، وصحّة ما جاء به، وبطلان ما عليه قومه من الشرك والجبروت. ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾: مع وجود الآيات المقتضية للإيمان، ﴿وإنّ ربّك لهو العزيز﴾: الذي أهلك بقوته قوم هود على قوتهم وبطشهم. ﴿الرحيم﴾: بنبيّه هود حيث نجاه ومنّ معه من المؤمنين.

﴿كَذَبَتْ ثمودُ الْمُرْسَلِينَ﴾^(١) ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ﴿١٤٢﴾ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هُمْ بِأَمِينٍ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنَحُّتُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَيِّنَاتٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةُ لِمَا شَرِبْتُمْ وَلَكُمْ شَرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسَوْءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَمَعَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾.

﴿١٤١ - ١٤٤﴾ ﴿كَذَبْتَ ثُمُودَ﴾ القَبِيلَةُ المَعْرُوفَةُ فِي مَدَائِنِ الْحِجْرِ
 ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾: كَذَبُوا صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، الَّذِي جَاءَ بِالتَّوْحِيدِ، الَّذِي دَعَا إِلَى
 الْمُرْسَلُونَ، فَكَانَ تَكْذِيبُهُمْ لَهُ تَكْذِيبًا لِلْجَمِيعِ، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ﴾: فِي
 النَّسَبِ بَرَفِيقَ وَلِيْنٍ: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾: اللَّهُ تَعَالَى وَتَدْعُونَ الشِّرْكَ وَالْمَعَاصِي. ﴿إِنِّي
 لَكُمْ رَسُولٌ﴾: مِنْ اللَّهِ رَبِّكُمْ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ لَطْفًا بِكُمْ وَرَحْمَةً، فَتَلَقُّوا رَحْمَتَهُ
 بِالْقَبُولِ، وَقَابِلُوهَا بِالِإِذْعَانِ. ﴿أَمِينَ﴾: تَعْرِفُونَ ذَلِكَ مِنِّي، وَذَلِكَ يَوْجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ
 تَوْمِنُوا بِي وَبِمَا جِئْتُ بِهِ، ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾: فَتَقُولُونَ: يَمْنَعُنَا مِنْ
 اتِّبَاعِكَ أَنْتَ تَرِيدُ أَخْذَ أَمْوَالِنَا. ﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أَي: لَا أَطْلُبُ
 الثَّوَابَ إِلَّا مِنْهُ.

﴿١٤٥ - ١٥٢﴾ ﴿اُتْرَكَوْنَ فِي مَا هَاهُنَا آمَنِينَ. فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ
 طَلَعُوا هَظِيمٌ﴾؛ أَي: نَضِيدٌ كَثِيرٌ؛ أَي: أَتَحْسِبُونَ أَنَّكُمْ تُتْرَكُونَ فِي هَذِهِ الْخَيْرَاتِ
 وَالنَّعْمِ سُدًى تَتَنَعَّمُونَ وَتَمْتَعُونَ كَمَا تَمْتَعُ الْأَنْعَامُ؟ وَتُتْرَكُونَ سُدًى لَا تُؤْمَرُونَ وَلَا
 تُنْهَوْنَ، وَتَسْتَعِينُونَ بِهَذِهِ النَّعْمِ عَلَى مَعَاصِي اللَّهِ، ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا
 فَارِهِينَ﴾؛ أَي: بَلَغَتْ بِكُمْ الْفَرَاهَةُ وَالْحِذْقُ إِلَى أَنْ أَتَّخِذْتُمْ بُيُوتًا مِنَ الْجِبَالِ الصَّمَّ
 الصَّلَابِ. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا. وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾: الَّذِينَ تَجَاوَزُوا
 الْحَدَّ، ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾؛ أَي: الَّذِينَ وَصَفُهُمْ وَدَابَّهُمْ
 الْإِفْسَادُ فِي الْأَرْضِ بِعَمَلِ الْمَعَاصِي وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهَا إِفْسَادًا لَا إِصْلَاحَ فِيهِ، وَهَذَا أَضَرُّ
 مَا يَكُونُ؛ لِأَنَّهُ شَرُّ مُحَضَّرٍ، وَكَأَنَّ أَنْاسًا عَنْدهُمْ مُسْتَعِدُّونَ لِمَعَارِضَةِ نَبِيِّهِمْ. مُوَضَّعُونَ
 فِي الدَّعْوَةِ لِسَبِيلِ الْعُتَى، فَهَاهُمْ صَالِحٌ عَنِ الْاِغْتِرَارِ بِهِمْ، وَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ
 فِيهِمْ: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾.

﴿١٥٣ - ١٥٤﴾ ﴿فَلَمْ يُفِذْ فِيهِمْ هَذَا النِّهْيُ وَالْوَعْدُ شَيْئًا، فَقَالُوا لصَالِحٍ﴾: ﴿إِنَّمَا
 أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ﴾؛ أَي: قَدْ سُجِرْتَ فَأَنْتَ تَهْذِي بِمَا لَا مَعْنَى لَهُ، وَ﴿مَا^(١) أَنْتَ
 إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾؛ فَأَيُّ فَضِيلَةٍ فَقُتْنَا بِهَا حَتَّى تَدْعُونَا إِلَى اتِّبَاعِكَ، ﴿فَأَتِ بَابِيَةَ إِنْ كُنْتُ
 مِنَ الصَّادِقِينَ﴾؛ هَذَا مَعَ أَنْ مَجْرَدَ اعْتِبَارِ حَالَتِهِ وَحَالَةِ مَا دَعَا إِلَيْهِ مِنْ أَكْبَرِ الْآيَاتِ
 الْبَيِّنَاتِ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءَ بِهِ وَصَدْقِهِ، وَلَكِنَّهُمْ مِنْ قَسَوْتِهِمْ سَأَلُوا آيَاتِ الْاِقْتِرَاحِ الَّتِي
 فِي الْغَالِبِ لَا يُفْلِحُ مَنْ طَلَبَهَا؛ لِكُونِ طَلَبِهِ مَبْنِيًّا عَلَى التَّعَنُّتِ لَا عَلَى الْاِسْتِشَادِ.

(١) فِي (ب): شَطَبَتْ «الْوَاو».

﴿١٥٥ - ١٥٦﴾ فقال صالح: ﴿هذه ناقة﴾: تخرج من صخرة صماء ملساء - تابعنا في هذا كثيراً من المفسرين، ولا مانع من ذلك - ترونها وتشاهدونها بأجمعكم، ﴿لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾؛ أي: تشرب ماء البئر يوماً، وأنتم تشربون لبنها، ثم تصدّر عنكم اليوم الآخر، وتشربون أنتم ماء البئر، ﴿ولا تمسوها بسوء﴾: بعقر أو غيره؛ ﴿فيأخذكم عذاب يوم عظيم﴾.

﴿١٥٧ - ١٥٩﴾ فخرجت، واستمرت عندهم بتلك الحال، فلم يؤمنوا، واستمروا على طغيانهم، ﴿فعقروها فأصبحوا نادمين﴾. فأخذهم العذاب: وهي صيحة نزلت عليهم فدمرتهم أجمعين. ﴿إن في ذلك لآية﴾: على صدق ما جاء به رسلنا وبطلان قول معارضيهم. ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾. وإن ربك لهو العزيز الرحيم.

﴿كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ^(١)﴾ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَنْ نَمُوتَ بِأَلُوطٍ لَنْ نَمُوتَ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَجَنَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ (١٧١) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥)﴾.

﴿١٦٠ - ١٦٧﴾ قال لهم وقالوا كما قال من قبلهم، تشابهت قلوبهم في الكفر، فتشابهت أقوالهم، وكانوا مع شركهم يأتون فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين؛ يختارون نكاح الذكران المستقذر الخبيث، ويرغبون عما خلق لهم من أزواجهم؛ لإسرافهم وعدوانهم، فلم يزل ينهاهم حتى ﴿قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين﴾؛ أي: من البلد.

﴿١٦٨ - ١٧٥﴾ فلما رأى استمرارهم عليه؛ ﴿قال إني لعملكم من القالين﴾؛ أي: المبغضين [له] الناهين عنه المحذرين، قال: ﴿رب نجني وأهلي مما

يعملون: من فعله وعقوبته، فاستجاب الله له ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾. إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ؛ أي: الباقيين في العذاب، وهي امرأته. ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾؛ أي حجارة من سجيل، ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾: أهلكهم الله عن آخرهم. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُو الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْمِرَاسِيِّنَ^(١)﴾ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلَ﴾ (١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّیْ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُو الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١)﴾.

﴿١٧٦ - ١٨٠﴾ أصحاب الأيكة؛ أي: البساتين الملتفة الأشجار^(٢)، وهم أصحاب مدين، فكذبوا نبيهم شعيباً الذي جاء بما جاء به المرسلون. ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾: الله تعالى فتركون ما يُسَخِّطُهُ وَيُغْضِبُهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي، ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾: يترتب على ذلك أن تتقوا الله، وتطيعون.

﴿١٨١ - ١٨٤﴾ وكانوا مع شركهم يبخسون المكايل والموازين؛ فلذلك قال لهم: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾؛ أي: أتموه وأكملوه، ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾: الذين ينقصون الناس أموالهم ويسلبونها ببخس المكيال والميزان، ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾؛ أي: بالميزان العادل الذي لا يميل، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلَ﴾؛ أي: الخليقة الأولين؛ فكما انفرد بخلقكم وخلق من قبلكم من غير مشاركة له في ذلك؛ فأفردوه بالعبادة والتوحيد، وكما أنعم عليكم بالإيجاد والإمداد بالنعم؛ فقابلوه بشكره.

(٢) في (ب): «أشجاره».

(١) في النسختين: إلى آخر القصة.

﴿١٨٥ - ١٨٧﴾ قالوا له مكذِّبين له رادِّين لقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ﴾: فَأَنْتَ تَهْذِي وَتَتَكَلَّمُ كَلَامَ الْمَسْحُورِ الَّذِي غَايَتُهُ أَنْ لَا يُؤَاخَذَ بِهِ، ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾: فَلَيْسَ فَيْكَ فَضِيلَةٌ اخْتَصَصْتَ بِهَا عَلَيْنَا حَتَّى تَدْعُوْنَا إِلَى اتِّبَاعِكَ. وَهَذَا مِثْلُ قَوْلٍ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَنْ بَعْدَهُمْ، مِمَّنْ عَارَضُوا الرِّسْلَ بِهَذِهِ الشَّبَهَةِ، الَّتِي لَمْ يَزَالُوا يُذَلُّونَ بِهَا وَيَصُولُونَ وَيَتَفَقَّحُونَ عَلَيْهَا؛ لِاتِّفَاقِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ، وَتَشَابُهِ قُلُوبِهِمْ، وَقَدْ أَجَابَتْ عَنْهَا الرِّسْلُ بِقَوْلِهِمْ: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾. ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾: وَهَذَا جَرَاءَةٌ مِنْهُمْ وَظَلَمٌ وَقَوْلٌ زَوْرٌ، قَدْ انطَوُوا عَلَى خِلَافِهِ؛ فَإِنَّهُ مَا مِنْ رَسُولٍ مِنَ الرِّسْلِ وَاجَهَ قَوْمَهُ وَدَعَاهُمْ وَجَادَلَهُمْ وَجَادَلُوهُ؛ إِلَّا وَقَدْ أَظْهَرَ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْآيَاتِ مَا بِهِ يَتَّقِنُونَ صِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ، خُصُوصاً شُعَيْباً عَلَيْهِ السَّلَامُ، الَّذِي يَسْمَى خَطِيبَ الْأَنْبِيَاءِ؛ لِحَسَنِ مَرَاجَعَتِهِ قَوْمَهُ وَمَجَادَلَتِهِمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ؛ فَإِنَّ قَوْمَهُ قَدْ تَقَيَّنُوا صِدْقَهُ وَأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ حَقٌّ، وَلَكِنْ إِيْخْبَارَهُمْ عَنْ ظُنِّ كَذِبِهِ كَذِبٌ مِنْهُمْ. ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾؛ أَي: قَطْعَ عَذَابٍ تَسْتَأْصِلُنَا، ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾؛ كَقَوْلِ إِخْوَانِهِمْ: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أَوْ أَنَّهُمْ طَلَبُوا بَعْضَ آيَاتِ الْاِقْتِرَاحِ الَّتِي لَا يَلْزَمُ تَتْمِيمُ مُطْلُوبٍ مِنْ سَأْلِهَا.

﴿١٨٨﴾ ﴿قَالَ﴾ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ أَي: نَزُولِ الْعَذَابِ وَوُقُوعِ آيَاتِ الْاِقْتِرَاحِ لَسْتُ أَنَا الَّذِي آتَى بِهَا وَأَنْزَلَهَا بِكُمْ، وَلَيْسَ عَلَيَّ إِلَّا تَبْلِيغُكُمْ وَنُصْحُكُمْ، وَقَدْ فَعَلْتُ، وَإِنَّمَا الَّذِي يَأْتِي بِهَا رَبِّي، الْعَالِمُ بِأَعْمَالِكُمْ وَأَحْوَالِكُمْ، الَّذِي يُجَازِيكُمْ وَيَحَاسِبُكُمْ.

﴿١٨٩ - ١٩١﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾؛ أَي: صَارَ التَّكْذِيبُ لَهُمْ وَصْفًا، وَالْكَفْرُ لَهُمْ دِينًا، بِحَيْثُ لَا تَفِيدُهُمُ الْآيَاتُ، وَلَيْسَ بِهِمْ حِيلَةٌ إِلَّا نَزُولُ الْعَذَابِ، ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ﴾: أَظْلَتُهُمْ سَحَابَةٌ، فَاجْتَمَعُوا تَحْتَهَا مُسْتَلْذِينَ لظِلِّهَا غَيْرِ الظِّلِيلِ، فَأَحْرَقَتْهُمْ بِالْعَذَابِ، فَظَلُّوا تَحْتَهَا خَامِدِينَ، وَلَدَيَارَهُمْ مَفَارِقِينَ، وَلِدَارِ الشَّقَاءِ وَالْعَذَابِ نَازِلِينَ، ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ﴾: لَا كَرَّةَ لَهُمْ إِلَى الدُّنْيَا فَيَسْتَأْنِفُوا الْعَمَلَ، وَلَا يُقْتَرُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ سَاعَةً وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ. ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ﴾: دَالَّةٌ عَلَى صِدْقِ شُعَيْبٍ وَصَحَّةِ مَا دَعَا إِلَيْهِ وَبَطْلَانِ رَدِّ قَوْمِهِ عَلَيْهِ، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: مَعَ رُؤْيَيْتِهِمُ الْآيَاتِ؛ لِأَنَّهُمْ لَا زَكَاءَ فِيهِمْ وَلَا خَيْرَ لَدَيْهِمْ؛ ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾. ﴿وَإِنْ رَبُّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: الَّذِي امْتَنَعَ بِقَوْتِهِ عَنْ إِدْرَاكِ أَحَدٍ وَقَهَرَ كُلَّ مَخْلُوقٍ.

﴿الرحيم﴾: الذي الرحمة وصفه، ومن آثارها جميع الخيرات في الدنيا والآخرة، من حين أوجد الله العالم إلى ما نهاية له، ومن عزته أن أهلك أعداءه حين كذبوا رسله، ومن رحمته أن نجى أوليائه ومن اتبعهم من المؤمنين.

﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوْ لَوْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُوا بَنَى إِسْرَءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

﴿١٩٢﴾ لما ذكر قصص الأنبياء مع أممهم، وكيف دعّوهم وردّوا عليهم به، وكيف أهلك الله أعداءهم وصارت لهم العاقبة؛ ذكر هذا الرسول الكريم والنبي المصطفى العظيم وما جاء به من الكتاب الذي فيه هداية لأولي الألباب، فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: فالذي أنزله فاطر الأرض والسموات، المربي جميع العالم العلوي والسفلي، وكما أنه ربّاهم بهدائيتهم لمصالح دنياهم وأبدانهم؛ فإنه يربّيهم أيضاً بهدائيتهم لمصالح دينهم وأخراهم، ومن أعظم ما ربّاهم به إنزال هذا الكتاب الكريم، الذي اشتمل على الخير الكثير والبرّ الغزير، وفيه من الهداية لمصالح الدارين والأخلاق الفاضلة ما ليس في غيره، [و] في قوله: ﴿إِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ من تعظيمه وشدة الاهتمام فيه من كونه نزل من الله لا من غيره مقصوداً فيه نفعتكم وهدايتكم.

﴿١٩٣ - ١٩٥﴾ ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾: وهو جبريل عليه السلام، الذي هو أفضل الملائكة وأقواهم، الأمين الذي قد أمّن أن يزيد فيه أو ينقص ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾: يا محمد ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾: تهدي به إلى طريق الرشاد وتنذر به عن طريق الغي، ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾: وهو أفضل الألسنة، بلغة من بعث إليهم وياشر دعوتهم أصلاً، اللسان البين الواضح.

وتأمل كيف اجتمعت هذه الفضائل الفاخرة في هذا الكتاب الكريم؛ فإنه أفضل الكتب، نزل به أفضل الملائكة، على أفضل الخلق، على أفضل بضعة فيه، وهي قلبه على أفضل أمة أخرجت للناس، بأفضل الألسنة وأفصحها وأوسعها، وهو اللسان العربي المبين.

﴿١٩٦﴾ ﴿وَأَنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: قد بشرت به كتبُ الأولين وصدقته، وهو لما نزل طَبَقَ ما أخبرت به، صدَّقها، بل جاء بالحق وصدق المرسلين.

﴿١٩٧﴾ ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ﴾: على صحته وأنه من الله ﴿أَن يَغْلَمَهُ علماء بني إسرائيل﴾: الذين قد انتهى إليهم العلم، وصاروا أعلم الناس، وهم أهل الصنف؛ فإنَّ كلَّ شيء يحصل به اشتباه يُزَجَّع فيه إلى أهل الخبرة والدراية، فيكون قولهم حجة على غيرهم؛ كما عرف السحرة الذين مَهَرُوا في علم السحر صدق معجزة موسى، وأنه ليس بسحر؛ فقول الجاهلين بعد هذا لا يؤبَهُ به.

﴿١٩٨ - ١٩٩﴾ ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾: الذين لا يفقهون لسانهم ولا يقدرّون على التعبير لهم كما ينبغي. ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾: يقولون ما نفقهُ ما يقول ولا ندري ما يدعو إليه! فَلْيَحْمَدُوا ربهم أن جاءهم على لسان أفصح الخلق وأقدرهم على التعبير على المقاصد بالعبارات الواضحة وأنصحهم، وليأدروا إلى التصديق به وتلقّيه بالتسليم والقبول.

﴿٢٠٠ - ٢٠٣﴾ ولكنَّ تكذيبهم له من غير شبهة إنَّ هو إلا محض الكفر والعناد وأمر قد توارثته الأمم المكذبة؛ فلماذا قال: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمَجْرِمِينَ﴾؛ أي: أَدْخَلْنَا التَّكْذِيبَ وَأَنْظَمْنَاهُ فِي قُلُوبِ أَهْلِ الْإِجْرَامِ؛ كما يَدْخُلُ السِّلْكُ فِي الْإِبْرَةِ، فتشربته، وصار وصفاً لها، وذلك بسبب ظلمهم وجرمهم؛ فلذلك ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾: على تكذيبهم، ﴿فِيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: يأتيهم على حين غفلة وعدم إحساس منهم ولا استشعار بنزوله؛ ليكون أبلغ في عقوبتهم والثكال بهم، ﴿فَيَقُولُوا﴾: إذ ذاك: ﴿هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾؛ أي: يطلبون أن يُنْظَرُوا وَيُمَهَّلُوا، والحال أنه قد فات الوقت، وحلَّ بهم العذاب الذي لا يُرْفَع عنهم، ولا يُقْتَر سَاعَةٌ.

﴿أَفِيعْذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ ﴿٢٠١﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٢﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٣﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنُونَ﴾ ﴿٢٠٤﴾.

﴿٢٠٤﴾ يقول تعالى: ﴿أَفِيعْذَابِنَا﴾: الذي هو العذاب الأليم العظيم الذي لا يُسْتَهَانُ به ولا يُخْتَفَرُ ﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾؟! فما الذي غرهم؟! هل فيهم قوَّة وطاقَة للصبر عليه؟! أم عندهم قوَّة يقدرّون على دفعه أو رفعه إذا نزل؟! أم يُعْجِزُونَا ويظنون أننا لا نقدر على ذلك؟!!

﴿٢٠٥ - ٢٠٧﴾ ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾؛ أي: أفرايت إذا لم نستعجل عليهم بإنزال العذاب وأمهلناهم عدة سنين يتمتعون في الدنيا، ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾: من العذاب، ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾: من اللذات والشهوات؛ أي: أي شيء تغني عنهم وتفيدهم، وقد مضت وبطلت واضمحلت، وأعقبت تبعاتها، وضوعف لهم العذاب عند طول المدة. القصد أن الحذر من وقوع العذاب واستحقاقهم له، وأما تعجيله [أو]^(١) تأخيره؛ فلا أهميَّة تحته، ولا جدوى عنده.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ ﴿٢٠٨﴾ ذَكَرْنِي وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا نَزَّلْنَا بِهِ الشَّيَاطِينَ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴿٢١٢﴾.

﴿٢٠٨ - ٢٠٩﴾ يُخْبِرُ تعالى عن كمال عدله في إهلاك المكذِّبين، وأنه ما أوقع بقرية هلاكاً وعذاباً إلا بعد أن يُغذِّرَ منهم، ويبعث فيهم النذُرَ بالآيات البينات، فيدعونهم إلى الهدى، وينهونهم عن الردى، ويذكرونهم بآيات الله، وينبهونهم على أيامه في نعمه ونقمه. ﴿ذَكَرْنِي﴾: لهم وإقامة حُجة عليهم، ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾: فنهلك القرى قبل أن نُنذِرَهم ونأخذهم وهم غافلون عن النذر؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾، ﴿رَسُولاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾.

﴿٢١٠ - ٢١٢﴾ ولما بيَّن تعالى كمال القرآن وجلالته؛ نَرَّه عن كلِّ صفة نقص، وحماه وقت نزوله وبعد نزوله من شياطين الجن والإنس، فقال: ﴿وَمَا نَزَّلْنَا بِهِ الشَّيَاطِينَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾؛ أي: لا يليق بحالهم ولا يناسبهم، ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾: ذلك ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾: قد أبعدوا عنه، وأعدت لهم الرجوم لحفظه، ونزل به جبريل أقوى الملائكة، الذي لا يقدر شيطان أن يقرِّبه أو يحوم حول ساحته، وهذا كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُكْرَبَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ ﴿٢١٣﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَخُفِّضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَاكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾.

﴿٢١٣﴾ ينهى تعالى رسوله أصلاً وأُمَّته أسوة له في ذلك عن دعاء غير الله من

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «و».

جميع المخلوقين، وأنَّ ذلك موجبٌ للعذاب الدائم والعقاب السرمدي؛ لكونه شركاً، ومن يشرك بالله؛ فقد حرَّم الله عليه الجنة، ومأواه النار، والنهي عن الشيء أمرٌ بضده؛ فالنهي عن الشرك أمرٌ بإخلاص العباداة لله وحده لا شريك له؛ محبةً وخوفاً ورجاءً وذلاً وإنابةً إليه في جميع الأوقات.

﴿٢١٤﴾ ولَمَّا أمره بما فيه كمال نفسه؛ أمره بتكميل غيره، فقال: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾: الذين هم أقربُ الناس إليك، وأحقُّهم بإحسانك الديني والدنيوي، وهذا لا ينافي أمره بإنذار جميع الناس؛ كما إذا أمر الإنسان بعموم الإحسان، ثم قيل له: أحسن إلى قرابتك؛ فيكون هذا الخصوص^(١) دالاً على التأكيد وزيادة الحث. فامتثل ﷺ هذا الأمر الإلهي، فدعا سائر بطون قريش، فعمم وخصَّص، وذكرهم ووعظهم، ولم يبقِ ﷺ من مقدوره شيئاً من نصحتهم وهدايتهم إلاَّ فعله، فاهتدى من اهتدى، وأعرض من أعرض.

﴿٢١٥﴾ ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: بلين جانبك، ولطف خطابك لهم وتودُّدك وتحبُّبك إليهم وحسن خُلُقك والإحسان التام بهم، وقد فعل ﷺ ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾؛ فهذه أخلاقه ﷺ أكمل الأخلاق التي يحصل بها من المصالح العظيمة ودفع المضار ما هو مشاهد؛ فهل يليق بمؤمن بالله ورسوله يدعي اتِّباعه والافتداء به أن يكون كلاً على المسلمين، شرس الأخلاق، شديد الشكيمة [عليهم]، غليظ القلب، فظ القول فظيعة، وإن رأى منهم معصية أو سوء أدب؛ هَجَرَهُمْ وَمَقَّتَهُمْ وَأَبْغَضَهُمْ، لا لين عنده، ولا أدب لديه، ولا توفيق؛ قد حصل من هذه المعاملة من المفاسد وتعطيل المصالح ما حصل، ومع ذلك تَجِدُهُ مُحَقَّرًا لِمَنِ اتَّصَفَ بِصِفَاتِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ، وقد^(٢) رماه بالثفاق والمداهنة، وذكر نفسه ورفَّعها وأعجَبَ بعمله؟! فهل يعدُّ هذا^(٣) إلاَّ من جهله وتزيين الشيطان وخدعه له؟!

﴿٢١٦﴾ ولِهَذَا قَالَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾: في أمر من الأمور؛ فلا تتبرأ منهم، ولا تترك معاملتهم بخفض الجناح ولين الجانب، بل تبرأ من عملهم؛

(١) في (ب): «خصوصاً».

(٢) في (ب): «قد».

(٣) في (ب): «فهو هذا».

فِعْظُهُمْ عَلَيْهِ، وَاَنْصَحَهُمْ، وَاَبْذَلَ قَدْرَتَكَ فِي رَدِّهِمْ عَنْهُ وَتَوْبَتِهِمْ مِنْهُ. وَهَذَا الدَّفْعُ احْتِرَازٌ وَهُمْ مِنْ يَتَوَهَّمُ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: يَقْتَضِي الرِّضَاءَ بِجَمِيعِ مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ مَا دَامُوا مُؤْمِنِينَ، فَدَفَعَ هَذَا بِهَذَا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرِنَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾.

﴿٢١٧﴾ أَعْظَمُ مُسَاعِدٍ لِلْعَبْدِ عَلَى الْقِيَامِ بِمَا أُمِرَ بِهِ الْاعْتِمَادُ عَلَى رَبِّهِ وَالِاسْتِعَانَةُ بِمَوْلَاهُ عَلَى تَوْفِيقِهِ لِلْقِيَامِ بِالْمَأْمُورِ؛ فَلِذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾: وَالتَّوَكُّلُ هُوَ اعْتِمَادُ الْقَلْبِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي جَلْبِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ، مَعَ ثِقَتِهِ بِهِ وَحَسَنِ ظَنِّهِ بِحَصُولِ مَطْلُوبِهِ؛ فَإِنَّهُ عَزِيزٌ رَحِيمٌ؛ بَعَزَّتْهُ يَقْدُرُ عَلَى إِبْصَالِ الْخَيْرِ وَدَفْعِ الشَّرِّ عَنْ عَبْدِهِ، وَبِرَحْمَتِهِ بِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ.

﴿٢١٨ - ٢٢٠﴾ ثُمَّ نَبَّهَهُ عَلَى الْاسْتِعَانَةِ بِاسْتِحْضَارِ قُرْبِ اللَّهِ وَالتَّزْوُلِ فِي مَنْزِلِ الْإِحْسَانِ، فَقَالَ: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ. وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾؛ أَي: يَرَاكَ فِي هَذِهِ الْعِبَادَةِ الْعَظِيمَةِ، الَّتِي هِيَ الصَّلَاةُ؛ وَقْتَ قِيَامِكَ وَتَقْلُبِكَ رَاكِعًا وَسَاجِدًا؛ خَصَّهَا بِالذِّكْرِ لِفَضْلِهَا وَشَرَفِهَا، وَلِأَنَّ مِنْ اسْتِحْضَارِ فِيهَا قُرْبَ رَبِّهِ؛ خَشَعَ وَذَلَّ وَأَكْمَلَهَا، وَبِتَكْمِيلِهَا يَكْمُلُ سَائِرُ عَمَلِهِ، وَيَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى جَمِيعِ أُمُورِهِ. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾: لِسَائِرِ الْأَصْوَاتِ عَلَى اخْتِلَافِهَا وَتَشْتَتُّهَا وَتَنَوُّعِهَا. ﴿الْعَلِيمُ﴾: الَّذِي أَحَاطَ بِالظُّوَاهِرِ وَالْبَوَاطِنِ وَالْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ. فَاسْتِحْضَارُ الْعَبْدِ رُؤْيَا اللَّهِ لَهُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ، وَسَمْعُهُ لِكُلِّ مَا يَنْطِقُ بِهِ، وَعِلْمُهُ بِمَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ قَلْبُهُ مِنَ الْهَمِّ وَالْعَزَمِ وَالنِّيَّاتِ؛ مِمَّا يَعِينُهُ عَلَى مِثْلَةِ الْإِحْسَانِ.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرَهُمْ كَذِبُوكَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَذِكْرٍ كَثِيرٍ ﴿٢٢٧﴾ وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٨﴾﴾.

هَذَا جَوَابٌ لِمَنْ قَالَ مِنْ مَكْذِبِي الرِّسُولِ: إِنَّ مُحَمَّدًا يَنْزِلُ عَلَيْهِ شَيْطَانٌ، وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ شَاعِرٌ.

﴿٢٢١ - ٢٢٣﴾ فَقَالَ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾؛ أَي: أَخْبِرْكُمْ الْخَبَرَ الْحَقِيقِيَّ الَّذِي لَا

شكَّ فيه ولا شبهة عن^(١) مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ عَلَيْهِ؛ أَي: بصفة الأشخاص الذين تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ. ﴿تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ﴾؛ أَي: كذاب كثير القول للزُّورِ والإفك بالباطل، ﴿أَنِيمَ﴾: فِي فَعْلِهِ كَثِيرُ الْمَعَاصِي. هَذَا الَّذِي تَنَزَّلُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ وَتَنَاسَبَ حَالُهُ حَالَهُمْ. ﴿يُلْقُونَ﴾: عَلَيْهِ ﴿السَّمْعَ﴾: الَّذِي يَسْتَرْقُونَهُ مِنَ السَّمَاءِ، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾؛ أَي: أَكْثَرُ مَا يُلْقُونَ إِلَيْهِ كَذِبًا، فَيَصْدُقُ وَاحِدَةً وَيَكْذِبُ مَعَهَا مَائَةً، فَيَخْتَلِطُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ، وَيُضْمَحَلُّ الْحَقُّ بِسَبَبِ قَلْتِهِ وَعَدَمِ عِلْمِهِ. فَهَذِهِ صِفَةُ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ، وَهَذِهِ صِفَةُ وَحِيهِمْ لَهُ.

وَأَمَّا مُحَمَّدٌ ﷺ؛ فَحَالُهُ مَبَايِنَةٌ لِهَذِهِ الْأَحْوَالِ أَعْظَمُ مَبَايِنَةٍ؛ لِأَنَّهُ الصَّادِقُ الْأَمِينُ الْبَارُّ الرَّاشِدُ، الَّذِي جُمِعَ بَيْنَ بَرِّ الْقَلْبِ وَصِدْقِ اللَّهْجَةِ وَنَزَاهَةِ الْأَفْعَالِ مِنَ الْمَحْرَمِ، وَالْوَحْيِ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَيْهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يَنْزِلُ مُحْرُوسًا مُحْفُوظًا مُشْتَمَلًا عَلَى الصِّدْقِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا رَيْبَ؛ فَهَلْ يَسْتَوِي يَا أَهْلَ الْعُقُولِ هَذَا وَأَوْلَئِكَ؟! وَهَلْ يَشْتَبِهَانِ إِلَّا عَلَى مَجْنُونٍ لَا يَمِيزُ وَلَا يَفَرِّقُ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ؟!

﴿٢٢٤ - ٢٢٦﴾ فَلَمَّا نَزَّهَهُ عَنْ نَزُولِ الشَّيَاطِينِ عَلَيْهِ؛ بَرَّاهُ أَيْضًا مِنَ الشُّعْرَاءِ، فَقَالَ: ﴿وَالشُّعْرَاءُ﴾؛ أَي: هَلْ أُنَبِّئُكُمْ أَيْضًا عَنْ حَالَةِ الشُّعْرَاءِ وَوَصْفِهِمُ الثَّابِتُ؛ فَإِنَّهُمْ ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾: عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى، الْمُقْبِلُونَ عَلَى طَرِيقِ الْغَيِّ وَالرَّدَى؛ فَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ غَاوُونَ، وَتَجَدُّ أَتْبَاعُهُمْ كُلُّ غَاوٍ ضَالٌّ فَاسِدٌ. ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: غَوَايَتَهُمْ وَشِدَّةَ ضَلَالَتِهِمْ، ﴿أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ﴾: مِنْ أَوْدِيَةِ الشُّعْرِ ﴿يَهيمُونَ﴾: فَتَارَةً فِي مَدْحٍ، وَتَارَةً فِي قَدْحٍ، وَتَارَةً فِي صِدْقٍ، وَتَارَةً فِي كَذِبٍ، وَتَارَةً يَتَغَزَّلُونَ، وَأُخْرَى يَسْخَرُونَ، وَمَرَّةً يَمْرَحُونَ، وَأَوْنَةً يَحْزَنُونَ؛ فَلَا يَسْتَقِرُّ لَهُمْ قَرَارٌ، وَلَا يَثْبُتُونَ عَلَى حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ. ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾؛ أَي: هَذَا وَصْفُ الشُّعْرَاءِ: أَنَّهُمْ تَخَالَفُ أَقْوَالَهُمْ أَفْعَالَهُمْ؛ فَإِذَا سَمِعْتَ الشَّاعِرَ يَتَغَزَّلُ بِالْغَزْلِ الرَّقِيقِ؛ قُلْتَ: هَذَا أَشَدُّ النَّاسِ غَرَامًا، وَقَلْبُهُ فَارِعٌ مِنْ ذَاكَ، وَإِذَا سَمِعْتَهُ يَمْدَحُ أَوْ يَذُمُّ؛ قُلْتَ: هَذَا صِدْقٌ! وَهُوَ كَذِبٌ. وَتَارَةً يَتَمَدَّحُ بِأَفْعَالٍ لَمْ يَفْعَلْهَا، وَتَرَوُكُ لَمْ يَتْرُكْهَا، وَكَرَّمَ لَمْ يَحْمِ حَوْلَ سَاحَتِهِ، وَشَجَاعَةً يَعْلُو بِهَا عَلَى الْفَرَسَانِ، وَتَرَاهُ أَجْبَنَ مِنْ كُلِّ جَبَانٍ. هَذَا وَصْفُهُمْ؛ فَانْظُرْ هَلْ يَطَابِقُ حَالَةَ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ الرَّاشِدِ الْبَارِّ، الَّذِي يَتَّبِعُهُ كُلُّ رَاشِدٍ وَمُهْتَدٍ، الَّذِي قَدْ اسْتَقَامَ عَلَى الْهُدَى وَجَانِبِ الرَّدَى وَلَمْ تَتَنَاقُضْ أَفْعَالُهُ، [وَلَمْ

(١) فِي (ب): «عَلَى».

تُخَالِفَ أَقْوَالَهُ أَفْعَالَهُ^(١)؛ الذي لا يأْمُرُ إِلَّا بِالْخَيْرِ، ولا يَنْهَى إِلَّا عَنِ الشَّرِّ، ولا أَخْبَرَ بِشَيْءٍ إِلَّا صَدَقَ، ولا أَمَرَ بِشَيْءٍ إِلَّا كَانَ أَوَّلُ الْفَاعِلِينَ لَهُ، ولا نَهَى عَنْ شَيْءٍ إِلَّا كَانَ أَوَّلُ التَّارِكِينَ لَهُ؛ فهل تَنَاسَبَ حَالُهُ حَالَةَ الشُّعْرَاءِ أَوْ يَقَارِبُهُمْ؟ أَمْ هُوَ مُخَالَفٌ لَهُمْ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ؟ فَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَى هَذَا الرَّسُولِ الْأَكْمَلِ، وَالْهَمَامِ الْأَفْضَلِ، أَبَدَ الْأَبَدِينَ، وَدَهَرَ الدَّاهِرِينَ، الَّذِي لَيْسَ بِشَاعِرٍ وَلَا سَاحِرٍ وَلَا مَجْنُونٍ، وَلَا يَلِيقُ بِهِ إِلَّا كُلُّ كَمَالٍ.

﴿٢٢٧﴾ وَلَمَّا وَصَفَ الشُّعْرَاءَ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ؛ اسْتَشْنَى مِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَأَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَانْتَصَرَ مِنْ أَعْدَائِهِ الْمَشْرِكِينَ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوهُمْ، فَصَارَ شَعْرُهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ وَأَثَارِ إِيْمَانِهِمْ؛ لَاشْتِمَالِهِ عَلَى مَدْحِ أَهْلِ الْإِيْمَانِ وَالْإِنْتِصَارِ مِنْ أَهْلِ الشُّرْكِ وَالْكَفْرِ وَالذَّبِّ عَنِ دِينِ اللَّهِ وَتَبْيِينَ الْعُلُومِ النَّافِعَةِ وَالْحَثِّ عَلَى الْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ، فَقَالَ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾: إِلَى مَوْقِفٍ وَحِسَابٍ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَلَا حَقًّا إِلَّا اسْتَوْفَاهُ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.



تفسير سورة النمل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ۝ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زِينَتًا لهُمْ أَصْنَعْنَاهُمْ فَهُمْ يَحْمِلُونَ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسِرُونَ ۝ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ ۝.

﴿١﴾ يَنْبَهُ تَعَالَى عِبَادَهُ عَلَى عَظَمَةِ الْقُرْآنِ، وَيَشِيرُ إِلَيْهِ إِشَارَةً دَالَّةً عَلَى التَّعْظِيمِ، فَقَالَ: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾؛ أَي: هِيَ أَعْلَى الْآيَاتِ وَأَقْوَى الْبَيِّنَاتِ

وأوضح الدلالات وأبينها على أجل المطالب وأفضل المقاصد وخير الأعمال وأزكى الأخلاق؛ آيات تدل على الأخبار الصادقة والأوامر الحسنة والنهي عن كل عمل وخيم وخُلِقَ دَمِيم، آيات بلغت في وضوحها وبيانها للبصائر النيرة مبلغ الشمس للأبصار، آيات دلت على الإيمان ودعت للوصول إلى الإيقان وأخبرت عن الغيوب الماضية والمستقبلية [على] طبق ما كان ويكون، آيات دعت إلى معرفة الرب العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وأفعاله الكاملة، آيات عرّفتنا برسله وأوليائه ووصفتهم حتى كأننا ننظر إليهم بآبصارنا.

﴿٢﴾ ولكن مع هذا؛ لم ينتفع بها كثير من العالمين، ولم يهتد بها جميع المعاندين؛ صوناً لها عن من لا خير فيه ولا صلاح ولا زكاء في قلبه، وإنما اهتدى بها من خَصَّهم الله بالإيمان واستنارث بذلك قلوبهم وصَفَتْ سرائرهم، فلهذا قال: ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: تهديهم إلى سلوك الصراط المستقيم، وتبين لهم ما ينبغي أن يَسْلُكُوهُ أو يَتْرَكُوهُ، وتبشّرهم بثواب الله. المرتّب على الهداية لهذا الطريق.

﴿٣﴾ ربّما قيل: لعلّه يكثر مدعو الإيمان؛ فهل يُقبل من كلّ أحد ادّعى أنه مؤمنٌ ذلك؟ أم لا بدّ لذلك من دليل وهو الحق؟ فلذلك بيّن تعالى صفة المؤمنين، فقال: ﴿الَّذِينَ يقيمون الصلاة﴾: فرضها ونفلها؛ فيأتون بأفعالها الظاهرة من أركانها وشروطها وواجباتها [بل] ومستحباتها وأفعالها الباطنة وهو الخشوع الذي هو روحها ولبّها؛ باستحضار قرب الله وتدبّر ما يقوله المصلي ويفعله، ﴿ويؤتون الزكاة﴾: المفروضة لمستحقّها. ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾؛ أي: قد بلغ معهم الإيمان إلى أن وصل إلى درجة اليقين، وهو العلم التأمّ الواصل إلى القلب الدّاعي إلى العمل، ويقينهم بالآخرة يقتضي كمال سعيهم لها وحذرهم من أسباب العذاب وموجبات العقاب، وهذا أصل كل خير.

﴿٤﴾ إنّ الذين لا يؤمنون بالآخرة: ويكذبون بها ويكذبون من جاء بإثباتها؛ زئناً لهم أعمالهم فهم يغمّهون: حائرين، مترددين، مؤثرين سَخَطَ الله على رضاه، قد انقلبت عليهم الحقائق، فرأوا الباطل حقاً والحقّ باطلاً.

﴿٥﴾ أولئك الذين لهم سوء العذاب: أي: أشدّه وأسوؤه وأعظمه. ﴿وهم بالآخرة هم الأخسرون﴾: حصَرَ الخَسَارَ فيهم لكونهم خَسِرُوا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وخسروا الإيمان الذي دعتهم إليه الرسل.

﴿٦﴾ ﴿وَإِنَّكَ لَتَلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ [عليه]﴾^(١)؛ أي: وإن هذا القرآن الذي ينزل عليك، وتلقئه ينزل من عند حكيم، يَضَعُ الأشياءَ مواضعها، وينزلها منازلها، [خبير]^(٢) بأسرار الأحوال^(٣) وبواطنها كظواهرها. وإذا كان من عند حكيم [خبير]^(٢)؛ علم أنه كله حكمة ومصالح للعباد من الذي أعلم بمصالحهم منهم.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾^(٤) سَتَائِكُمْ مِنْهَا يَخْبِرُ أَوْ آتِيَكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْوِسْ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوِسْ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُولِ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حِسًّا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ يَيْضَاءً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي شِئْنِ مَا نَبِئْتُ إِيكَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ إِنَّهُمْ كَافُونَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَفِئْتَهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

﴿٧﴾ يعني: اذكر هذه الحالة الفاضلة الشريفة من أحوال موسى بن عمران ابتداء الوحي إليه واصطفائه برسالته وتكليم الله إياه، وذلك أنه لما مكث في مدين عدة سنين، وسار بأهله من مدين متوجهاً إلى مصر، فلما كان في أثناء الطريق؛ ضلّ، وكان في ليلة مظلمة باردة، فقال لهم: ﴿إني آنستُ ناراً﴾؛ أي: أبصرتُ ناراً من بعيد، ﴿سأتیکم منها بخبر﴾: عن الطريق، ﴿أو آتیکم بشهابٍ قبسٍ لعلکم تصطلون﴾؛ أي: تستدفئون، وهذا دليل على أنه تائه ومشتد برده هو وأهله.

﴿٨﴾ ﴿فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها﴾؛ أي: ناداه الله تعالى وأخبره أن هذا محل مقدس مبارك، ومن بركته أن جعله الله موضعاً لتكليم الله لموسى وندائه وإرساله. ﴿وسبحان الله رب العالمين﴾: عن أن يُظن به نقص أو سوء، بل هو الكامل في وصفه وفعله.

﴿٩﴾ ﴿يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم﴾؛ أي: أخبره الله أنه الله المستحق للعبادة وحده لا شريك له؛ كما في الآية الأخرى: ﴿إني أنا الله لا إله إلا أنا

(٢) كذا في النسختين.
(٤) في النسختين إلى آخر قصته.

(١) في النسختين: «خبير».
(٣) في (ب): «الأمور».

فَاغْبُذْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي. ﴿العزیز﴾: الذي قَهَرَ جميع الأشياء وأذعنت له كلُّ المخلوقات. ﴿الحكيم﴾: في أمره وخلقِهِ، ومن حكمته أَنْ أَرْسَلَ عبده موسى بن عمران، الذي عَلِمَ اللَّهُ مِنْهُ أَنَّهُ أَهْلٌ لِرِسَالَتِهِ وَوَحْيِهِ وَتَكْلِيمِهِ، وَمِنْ عَزَّتِهِ أَنْ تَعْتَمِدَ عَلَيْهِ وَلَا تَسْتَوْحِشَ مِنْ انْفِرَادِكَ وَكَثْرَةِ أَعْدَائِكَ وَجَبْرَوْتِهِمْ؛ فَإِنَّ نَوَاصِيَهُمْ بِيَدِ اللَّهِ وَحَرَكَاتِهِمْ وَسُكُونِهِمْ بِتَدْبِيرِهِ.

﴿١٠﴾ ﴿وَالَّتِي عَصَاكَ﴾: فَالْقَاهَا، ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾: وَهُوَ ذَكَرَ الْحَيَاتِ سَرِيعِ الْحَرَكَةِ؛ ﴿وَلَّى مُذْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾: دُعِرَا مِنْ الْحَيَةِ الَّتِي رَأَى عَلَى مَقْتَضَى الطَّبَائِعِ الْبَشَرِيَّةِ، فَقَالَ اللَّهُ لَهُ: ﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ﴾، وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿اقْبَلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾. ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾: لِأَنَّ جَمِيعَ الْمَخَافِ مَنْدَرَجَةٌ فِي قَضَائِهِ وَقُدْرِهِ وَتَصْرِيفِهِ وَأَمْرِهِ، فَالَّذِينَ اخْتَصَّاهُمُ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَاصْطَفَاهُمْ لَوْحِيهِ لَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَخَافُوا غَيْرَ اللَّهِ؛ خُصُوصًا عِنْدَ زِيَادَةِ الْقُرْبِ مِنْهُمْ وَالْحِظْوَةِ بِتَكْلِيمِهِ.

﴿١١﴾ ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حَسَنًا بَعْدَ سَوْءٍ﴾؛ أَي: فَهَذَا الَّذِي هُوَ مُحَلٌّ الْخَوْفِ وَالْوَحْشَةِ؛ بِسَبَبِ مَا أَسَدَى مِنَ الظُّلْمِ وَمَا تَقَدَّمَ لَهُ مِنَ الْجُرْمِ، وَأَمَّا الْمُرْسَلُونَ؛ فَمَا لَهُمْ وَلِلْوَحْشَةِ وَالْخَوْفِ؟! وَمَعَ هَذَا؛ مَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ بِمَعَاصِي اللَّهِ وَ^(١)تَابَ وَأَنَابَ فَبَدَّلَ سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ وَمَعَاصِيهِ طَاعَاتٍ؛ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ؛ فَلَا يَبْأُسُ أَحَدٌ مِنْ رَحْمَتِهِ وَمَغْفِرَتِهِ؛ فَإِنَّهُ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، وَهُوَ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بَوْلَدِهَا.

﴿١٢﴾ ﴿وَادْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾: لَا بَرَصَ وَلَا نَقْصَ، بَلْ بَيَاضٌ يَبْهَرُ النَّاطِرِينَ شِعَاعُهُ ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾؛ أَي: هَاتَانِ الْآيَتَانِ - انْقِلَابُ الْعَصَا حَيَّةً تَسْعَى وَإِخْرَاجُ الْيَدِ مِنَ الْجَيْبِ فَتَخْرُجُ بَيْضَاءَ - فِي جُمْلَةٍ تِسْعِ آيَاتٍ تَذْهَبُ بِهَا وَتَدْعُو فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾: فَسَقُوا بِشُرْكِهِمْ وَعَتَوْهُمْ وَعَلَوْهُمْ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ وَاسْتِكْبَارِهِمْ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ.

﴿١٣﴾ فَذَهَبَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ، وَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَأَرَاهُمُ الْآيَاتِ، ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مَبْصُرَةً﴾: مُضِيئَةً تَدُلُّ عَلَى الْحَقِّ وَتُبْصِرُ بِهَا كَمَا تُبْصِرُ الْأَبْصَارُ بِالشَّمْسِ، ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾: لَمْ يَكْفِهِمْ مَجْرَدُ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ

سحر، بل قالوا: مبین ظاهر لكل أحد! وهذا من أعجب العجائب؛ الآيات المبصرات والأنوار الساطعات تجعل من آيين الخزعبلات وأظهر السحر، هل هذا إلا من أعظم المكابرة وأوقح السفسطة؟!

﴿١٤﴾ ﴿وجحدوا بها﴾؛ أي: كفروا بآيات الله جاحدين لها، ﴿واستيقنوها أنفسهم﴾؛ أي: ليس جحدهم مستنداً إلى الشك والريب، وإنما جحدهم مع علمهم وتيقنهم بصحتها ﴿ظلماً﴾: منهم لحق ربهم ولأنفسهم، ﴿وعلوأ﴾: على الحق وعلى العباد وعلى الانقياد للرسول. ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾: أسوأ عاقبة؛ دمرهم الله، وغرقهم في البحر، وأخزاهم، وأورث مساكنهم المستضعفين من عباده.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ^(١) وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْخَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ

﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَبْتَائِهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَاطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ

﴿١٦﴾ وَخُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ

﴿١٧﴾ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمَلَةٌ يَبْتَائِهَا النَّمْلُ أَذْخَلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ

﴿١٨﴾ فَنَبَسَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ رِزْقِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ

﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَيْدَهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ

﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ

﴿٢١﴾ فَمَكَتْ عِيرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبِيلٍ بَنِيَّ يَقِينٍ

﴿٢٢﴾ إِلَيَّ وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَمَّا عُرِضَ عَظِيمُ

﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ

﴿٢٤﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّحَابِ وَيَرْسُلُ فِي السَّحَابِ الْمُسَوِّدَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ

﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ

﴿٢٦﴾ قَالَ سَنُنْظِرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ

﴿٢٧﴾ أَذْهَبَ يَكْتُمِي هَذَا قَالِقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ

﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَبْأَيُّهَا الْمَلَأُوا إِيَّيَ أَفْقَى إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ

﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٥﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأَتَوْهُ مُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَتْ يَتَأْتِيَ الْهَٰؤُلَاءِ لَوْلَا أَنزَلْنَاهُ فِي
 أَمْرٍ مَّا كُنْتُمْ قَاطِعَةً أَمْرَ حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٧﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلَا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ
 فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً
 وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٩﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ
 سُلَيْمَنَ قَالَ أَسِئِدُونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَيْنِي اللَّهُ خَيْرَ مِمَّا آتَيْتُكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٤١﴾ أَنِجْ
 إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٤٢﴾ قَالَ يَتَأْتِيَ الْهَٰؤُلَاءِ أَيْكُمُ
 بِأَتَيْنِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتَوْني مُسْلِمِينَ ﴿٤٣﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن
 مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٤٤﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ
 طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا
 يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَزِيزٌ كَرِيمٌ ﴿٤٥﴾ قَالَ تَكَرُّوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرُ أَتَنْهَدِي أَمْ تَكُونُ مِن
 الْآذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ
 ﴿٤٧﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٨﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا
 رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقِيهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مَُّرَدٌّ مِّنْ قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ
 نَفْسِي وَأَاسَلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٩﴾ ﴿٥٠﴾

﴿١٥﴾ يذكر في هذا القرآن وبنوه بمئته على داود وسليمان ابنه بالعلم الواسع
 الكثير؛ بدليل التذكير؛ كما قال تعالى: ﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحَرْثِ إذ
 نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ. فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّا آتَيْنَا حَكْمًا
 وَعِلْمًا...﴾ الآية. وقالوا شاكرين لربهما منته الكبرى بتعليمهما: ﴿الحمد لله الذي
 فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: فحمدا لله على جعلهما من المؤمنين أهل
 السعادة، وأنهم كانوا من خواصهم. ولا شك أن المؤمنين أربع درجات:
 الصالحون، ثم فوقهم الشهداء، ثم فوقهم الصديقون، ثم فوقهم الأنبياء. وداود
 وسليمان من خواص الرسل، وإن كانوا دون درجة أولي العزم الخمسة، لكنهم من
 جملة الرسل الفضلاء الكرام، الذين نوه الله بذكرهم ومدحهم في كتابه مدحا
 عظيما، فحمدوا الله على بلوغ هذه المنزلة، وهذا عنوان سعادة العبد: أن يكون
 شاكرًا لله على نعمه الدينية والدنيوية، وأن يرى جميع النعم من ربه؛ فلا يفخر بها
 ولا يعجب بها، بل يرى أنها تستحق عليه شكريا كثيرا.

﴿١٦﴾ فلما مدحهما مشتركين؛ خَصَّ سليمان بما خَصَّهُ به لكون الله أعطاه ملكاً عظيماً وصار له من الماجريات ما لم يكن لأبيه صلى الله عليهما وسلم، فقال: ﴿وورث سليمان داود﴾؛ أي: ورث علمه ونبوته، وانضمَّ علم أبيه إلى علمه، فلعله تعلَّم من أبيه ما عنده من العلم مع ما كان عليه من العلم وقت أبيه؛ كما تقدَّم من قوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾. ﴿وقال﴾: شكراً لله وتبجحاً بإحسانه وتحذُّثاً بنعمته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مِنْ مِثْلِ طَيْرٍ﴾: فكان عليه الصلاة والسلام يفقه ما تقول وتتكلم به؛ كما راجع الهدد وراجعته، وكما فهم قول النملة للنمل كما يأتي، وهذا لم يكن لأحدٍ غير سليمان عليه السلام، ﴿وأوتينا من كل شيء﴾؛ أي: أعطانا الله من النعم ومن أسباب الملك ومن السلطنة والقهر ما لم يؤت أحداً من الآدميين، ولهذا دعا ربّه، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مَلِكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾: فسخر الله له الشياطين يَعمَلُونَ له كلَّ ما شاء من الأعمال التي يَعمَلُ عنها غيرهم، وسخر له الريح غُدُوها شهرٌ وزواحها شهرٌ. ﴿إِنَّ هَذَا﴾: الذي أعطانا الله، وفضلنا، واختصنا به ﴿لهو الفضل المبين﴾: الواضح الجلي، فاعترف أكمل اعتراف بنعمة الله تعالى.

﴿١٧﴾ ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: أي جُمِعَ له جنوده الكثيرة الهائلة المتنوعة من بني آدم ومن الجن والشياطين ومن الطيور. ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: يُدَبَّرُونَ ويردُّ أولهم على آخرهم وينظَّمون غاية التنظيم في سيرهم ونزولهم وحلهم وتزحالهم، قد استعدَّ لذلك وأعدَّ له عدته، وكلُّ هذه الجنود مؤتمرة بأمره لا تقدر على عصيانه ولا تتمرد عليه؛ كما قال تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾؛ أي: أعط بغير حساب.

﴿١٨﴾ فسار بهذه الجنود الضخمة في بعض أسفاره، ﴿حتى إذا اتَّوَا على وادي النمل قالت نملة﴾: منبهة لرفقتها وبني جنسها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَخَاطَبُكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: فنصحت هذه النملة وأسمعت النمل: إما بنفسها، ويكون الله قد أعطى النمل أسماعاً خارقة للعادة؛ لأنَّ التنبيه للنمل الذي قد ملأ الوادي بصوت نملة واحدة من أعجب العجائب. وإما بأنها أخبرت مَنْ حولها من النمل ثم سرى الخبر من بعضهم لبعض حتى بَلَغَ الجميع وأمرتهم بالحذر والطريق في ذلك، وهو دخول مساكنهنَّ، وعرفت حالة سليمان وجنوده وعظمة سلطانه، واعتذرت عنهم أنَّهم إنَّ حَطَموكم؛ فليس عن قصدٍ منهم ولا شعورٍ.

﴿١٩﴾ فسمع سليمان عليه الصلاة والسلام قولها وفهمه، ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ

قولها: ﴿إِعْجَاباً مِنْهُ بِفَصَاحَتِهَا وَنُصْحِهَا وَحَسَنِ تَعْبِيرِهَا، وَهَذَا حَالُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ الْأَدَبُ الْكَامِلُ، وَالتَّعَجُّبُ فِي مَوْضِعِهِ، وَأَنْ لَا يَبْلُغَ بِهِمُ الضَّحِكُ إِلَّا إِلَى التَّبَسُّمِ؛ كَمَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ جُلُّ ضَحِكِهِ التَّبَسُّمُ^(١)؛ فَإِنَّ الْقَهْقَهَةَ تَدُلُّ عَلَى خُفَةِ الْعَقْلِ وَسُوءِ الْأَدَبِ، وَعَدَمِ التَّبَسُّمِ وَالْعَجَبِ مِمَّا يَتَّعَجَّبُ مِنْهُ يَدُلُّ عَلَى شِرَاسَةِ الْخَلْقِ وَالْجَبْرُوتِ، وَالرَّسُلُ مَنْزُهِونَ عَنْ ذَلِكَ. وَقَالَ شَاكِرٌ لِلَّهِ الَّذِي أَوْصَلَهُ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾؛ أَي: أَلْهِمْنِي وَوَفَّقْنِي ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾: فَإِنَّ النِّعْمَةَ عَلَى الْوَالِدَيْنِ نِعْمَةٌ عَلَى الْوَلَدِ، فَسَأَلَ رَبَّهُ التَّوْفِيقَ لِلْقِيَامِ بِشُكْرِ نِعْمَتِهِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ عَلَيْهِ وَعَلَى وَالِدَيْهِ، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ﴾؛ أَي: وَوَفَّقْنِي أَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ؛ لِكُونِهِ مُوَافِقاً لِأَمْرِكَ مُخْلِصاً فِيهِ سَالِماً مِنَ الْمَفْسَدَاتِ وَالْمُنْقَصَاتِ، ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ﴾: الَّتِي مِنْهَا الْجَنَّةُ، ﴿فِي﴾: جُمْلَةُ ﴿عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾: فَإِنَّ الرَّحْمَةَ مَجْعُولَةٌ لِلصَّالِحِينَ عَلَى اخْتِلَافِ دَرَجَاتِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ. فَهَذَا نَمُودَجٌ ذَكَرَهُ اللَّهُ مِنْ حَالَةِ سُلَيْمَانَ عِنْدَ سَمَاعِ خُطَابِ النَّمْلَةِ وَنَدَائِهَا.

﴿٢٠﴾ ثُمَّ ذَكَرَ نَمُودَجاً آخَرَ مِنْ مَخَاطَبَتِهِ لِلطَّيْرِ، فَقَالَ: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾: دَلٌّ هَذَا عَلَى كِمَالِ عَزَمِهِ وَحَزْمِهِ وَحَسَنِ تَنْظِيمِهِ لِحُجُودِهِ وَتَدْبِيرِهِ بِنَفْسِهِ لِلْأُمُورِ الصَّغَارِ وَالْكِبَارِ، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يُهْمِلْ هَذَا الْأَمْرَ، وَهُوَ تَفَقُّدُ الطَّيْرِ، وَالنَّظَرُ هَلْ هِيَ مَوْجُودَةٌ كُلُّهَا أَمْ مَفْقُودَةٌ مِنْهَا شَيْءٌ؟ وَهَذَا هُوَ الْمَعْنَى لِلآيَةِ.

وَلَمْ يَصْنَعْ شَيْئاً مَنْ قَالَ: إِنَّهُ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ لِيَنْظَرَ أَيْنَ الْهَدَّهْدُ مِنْهُ لِيَدُلَّهُ عَلَى بَعْدِ الْمَاءِ وَقَرْبِهِ؛ كَمَا زَعَمُوا عَنْ الْهَدَّهْدِ أَنَّهُ يَبْصُرُ الْمَاءَ تَحْتَ الْأَرْضِ الْكَثِيفَةِ؛ فَإِنَّ هَذَا الْقَوْلَ لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ دَلِيلٌ، بَلِ الدَّلِيلُ الْعَقْلِيُّ وَاللَّفْظِيُّ دَالٌّ عَلَى بَطْلَانِهِ: أَمَّا الْعَقْلِيُّ؛ فَإِنَّهُ قَدْ عُرِفَ بِالْعَادَةِ وَالتَّجَارِبِ وَالْمَشَاهِدَاتِ أَنَّ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ كُلُّهَا لَيْسَ مِنْهَا شَيْءٌ يَبْصُرُ هَذَا الْبَصَرَ الْخَارِقَ لِلْعَادَةِ وَيَنْظُرُ الْمَاءَ تَحْتَ الْأَرْضِ الْكَثِيفَةِ، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ؛ لَذَكَرَهُ اللَّهُ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَكْبَرِ الْآيَاتِ. وَأَمَّا الدَّلِيلُ اللَّفْظِيُّ؛ فَلَوْ أُرِيدَ هَذَا الْمَعْنَى؛ لِقَالَ: وَطَلَبَ الْهَدَّهْدَ لِيَنْظُرَ لَهُ الْمَاءَ، فَلَمَّا فَقَدَهُ؛ قَالَ مَا قَالَ، أَوْ: فَفَتَّشَ عَنِ الْهَدَّهْدِ، أَوْ: بَحَثَ عَنْهُ. وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَارَاتِ. وَإِنَّمَا تَفَقَّدَ الطَّيْرَ لِيَنْظَرَ الْحَاضِرَ مِنْهَا وَالْغَائِبَ وَلِزُومِهَا لِلْمَرَكَزِ وَالْمَوَاضِعِ الَّتِي عَيْنُهَا لَهَا. وَأَيْضاً؛ فَإِنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٤/١٩٠)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٣٦٤٥)، وَالحَدِيثُ صَحِيحُ الْأَلْبَانِيِّ فِي «مَخْتَصَرِ الشَّمَائِلِ» (١٩٤).

السلام لا يحتاج ولا يضطرُّ إلى الماء بحيث يحتاج لهندسة الهدهد؛ فإنَّ عنده من الشياطين والعمالقة ما يحفرون له الماء، ولو بلغ في العمق ما بلغ، وسخر الله له الريح غدوها شهرٌ ورواحها شهرٌ؛ فكيف مع ذلك يحتاج إلى الهدهد؟!

وهذه التفسير التي توجد وتشتهر بها أقوال لا يُعرف غيرها تنقل هذه الأقوال عن بني إسرائيل مجرّدة، ويغفل الناقل عن مناقضتها للمعاني الصحيحة وتطبيقها على الأقوال، ثم لا تزال تتناقل وينقلها المتأخّر مسلماً للمتقدّم، حتى يُظنَّ أنّها الحقُّ، فيقع من الأقوال الرديّة في التفسير ما يقع، واللبيب الفطن يعرف أنّ هذا القرآن الكريم العربيّ المبين الذي خاطب الله به الخلق كلّهم عالمهم وجاهلهم وأمرهم بالتفكير في معانيه وتطبيقها على ألفاظه العربيّة المعروفة المعاني التي لا تجهلها العربُ العرباء، وإذا وجد أقوالاً منقولة عن غير رسول الله ﷺ، رَدّها إلى هذا الأصل؛ فإن وافقه؛ قبلها؛ لكون اللفظ دالاً عليها، وإن خالفته لفظاً ومعنى أو لفظاً أو معنى؛ رَدّها وجزم ببطلانها؛ لأنَّ عنده أصلاً معلوماً مناقضاً لها، وهو ما يعرفه من معنى الكلام ودلالته.

والشاهد أنّ تفقّد سليمان عليه السلام للطير وفقّده الهدهد يدلُّ على كمال حزمه وتدبيره للملك بنفسه وكمال فطنته، حتى فقّد هذا الطائر الصغير، ﴿فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين﴾؛ أي: هل عدم رؤيتي إيّاه لقلة فطنتي به لكونه خفياً بين هذه الأمم الكثيرة؟ أم على بابها بأن كان غائباً من غير إذني ولا أمري؟!

﴿٢١﴾ فحينئذ تغيط عليه وتوعده فقال: ﴿لأعذبنّه عذاباً شديداً﴾: دون القتل ﴿أو لأذبحنه أو ليأتينيّ بسلطان مبين﴾؛ أي: حجة واضحة على تخلفه. وهذا من كمال ورعه وإنصافه؛ أنّه لم يقسم على مجرد عقوبته بالعذاب أو القتل؛ لأنَّ ذلك لا يكون إلّا من ذنب، وغيبته قد تحتمل أنها لعذر واضح؛ فلذلك استثناه لورعه وفطنته.

﴿٢٢﴾ ﴿فمكث غير بعيد﴾: ثم جاء، وهذا يدلُّ على هيبة جنوده منه وشدة ائتمارهم لأمره، حتى إن هذا الهدهد الذي خلّفه العذر الواضح لم يقدر على التخلف زمناً كثيراً، ﴿فقال﴾ لسليمان: ﴿أحطت بما لم تحط به﴾؛ أي: عندي من العلم علمٌ ما أحطت به على علمك الواسع وعلو درجتك فيه، ﴿وجئتُك من سبأ﴾: القبيلة المعروفة في اليمن ﴿بنباً يقين﴾؛ أي: خبر متيقن.

﴿٢٣﴾ ثم فسّر هذا النبا فقال: ﴿إني وجدت امرأة تملكهم﴾؛ أي: تملك قبيلة

سبأ، وهي امرأة، ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾: يؤتاه الملوك من الأموال والسلاح والجنود والحصون وقلاع ونحو ذلك، ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: كرسي ملكها الذي تجلس عليه عرش هائل، وَعِظْمُ الْعُرُوشِ تَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ الْمَمْلَكَةِ وَقُوَّةِ السُّلْطَانِ وَكَثْرَةِ رِجَالِ الشُّورَى.

﴿٢٤﴾ ﴿وَجَدْنَاهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: هم مشركون يعبدون الشمس، ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾: فرأوا ما هم عليه هو الحق، ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾: لَأَنَّ الَّذِي يَرَى أَنَّ الَّذِي عَلَيْهِ حَقٌّ لَا مَطْمَعَ فِي هِدَايَتِهِ حَتَّى تَتَغَيَّرَ عَقِيدَتُهُ.

﴿٢٥﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿أَلَا هَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: يعلم الخفي الخبيء في أقطار السماوات وأنحاء الأرض من صغار المخلوقات وبذور النباتات وخفايا الصدور، ويخرج خبء الأرض والسماء بإنزال المطر وإنبات النبات، ويخرج خبء الأرض عند النفخ في الصور وإخراج الأموات من الأرض ليجازيهم بأعمالهم، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

﴿٢٦﴾ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا تنبغي العبادة والإنابة والذل والحب إلا له؛ لَأَنَّهُ الْمَالُوه؛ لما له من الصفات الكاملة والنعم الموجبة لذلك. ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾: الذي هو سقف المخلوقات، ووسع الأرض والسماوات. فهذا الملك عظيم السلطان كبير الشأن هو الذي يُدَلُّ لَهُ وَيُخْضَعُ وَيُسْجَدُ لَهُ وَيُرْكَعُ.

﴿٢٧ - ٢٨﴾ فسلم الهدهد حين ألقى إليه هذا النبا العظيم، وتعجب سليمان كيف خفي عليه، وقال مثبتاً لكماله وعقله ورزاقته: ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. اذْهَبْ بَكِتَابِي هَذَا﴾: وسيأتي نصه، ﴿فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ﴾؛ أي: استأخر غير بعيد، ﴿فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾: إليك وما يترجعون به.

﴿٢٩ - ٣١﴾ فذهب به، فألقاه عليها، فقالت لقومها: ﴿إِنِّي أَلْقِي إِلَيْكِ كِتَابَ كَرِيمٍ﴾؛ أي: جليل المقدر، من أكبر ملوك الأرض، ثم بينت مضمونه، فقالت: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. أُنْ لَا تَغْلُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾؛ أي: لا تكونوا فوقى، بل اخضعوا تحت سلطاني، وانقادوا لأوامري، وأقبلوا إليّ مسلمين. ولهذا في غاية الوجازة مع البيان التام؛ فإنه تضمن نهيه^(١) عن

(١) في (ب): «نهيهم».

العلو عليه والبقاء على حالهم التي هم عليها، والانقياد لأمره والدخول تحت طاعته، ومجيئهم إليه ودعوتهم إلى الإسلام. وفيه استحباب ابتداء الكتب بالبسملة كاملة، وتقديم الاسم في أول عنوان الكتاب.

﴿٣٢ - ٣٣﴾ فمن حزمها وعقلها أن جمعت كبار دولتها ورجال مملكتها وقالت: ﴿يا أيها الملاء أفتوني في أمري﴾؛ أي: أخبروني ماذا نجيبه به؟! وهل ندخل تحت طاعته وننقاد أم ماذا نفعل؟! ﴿ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون﴾؛ أي: ما كنت مستبدة بأمر دون رأيكم ومشورتكم، ﴿قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد﴾؛ أي: إن رددت عليه قوله، ولم تدخل في طاعته؛ فإننا أقوياء على القتال. فكأنهم مالوا إلى هذا الرأي الذي لو تم، لكان فيه دمارهم، ولكنهم أيضاً لم يستقروا عليه، بل قالوا: ﴿والأمر إليك﴾؛ أي: الرأي ما رأيت؛ لعلمهم بعقلها وحزمها ونصحها لهم، ﴿فانظري﴾: نظر فكري وتدبر ﴿ماذا تأمرين﴾.

﴿٣٤ - ٣٥﴾ فقالت لهم مقنعة لهم عن رأيهم، ومبينّة سوء مغبة القتال: ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها﴾: قتلاً وأسراً ونهباً لأموالها وتخريباً لديارها، ﴿وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾؛ أي: جعلوا الرؤساء السادة أشرف الناس من الأرذلين^(١)؛ أي: فهذا رأي غير سديد، وأيضاً؛ فلست بمطيعه له قبل الاختبار وإرسال من يكشف عن أحواله ويتدبرها، وحينئذ نكون على بصيرة من أمرنا. فقالت: ﴿وإني مرسله إليهم بهديّة فناظرة بم يرجع المرسلون﴾: منه؛ هل يستمر على رأيه وقوله؟ أم تخذعه الهدية وتبدل فكرته؟! وكيف أحواله وجنوده؟!

﴿٣٦﴾ فأرسلت إليه بهديّة^(٢) مع رسل من عقلاء قومها وذوي الرأي منهم. ﴿فلما جاء سليمان﴾؛ أي: جاء الرسل بالهدية، ﴿قال﴾: منكرأ عليهم ومتغيظاً على عدم إجابتهم: ﴿أتمدّونن بمال فما آتاني الله خيراً مما آتاكم﴾: فليست تقع عندي موقعاً، ولا أفرح بها، قد أغناني الله عنها، وأكثر عليّ النعم، ﴿بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾: لحبكم للدنيا، وقلة ما بأيديكم بالنسبة لما أعطاني الله.

﴿٣٧﴾ ثم أوصى الرسول من غير كتاب لما رأى من عقله وأنه سينقل كلامه على وجهه، فقال: ﴿ارجع إليهم﴾؛ أي: بهديتكم، ﴿فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم﴾؛ أي: لا طاقة لهم ﴿بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾: فرجع إليهم

(٢) في (ب): «له هدية».

(١) في (ب): «الأذلين».

وَأَبْلَغَهُمْ مَا قَالَ سُلَيْمَانُ، وَتَجَهَّزُوا لِلْمَسِيرِ إِلَى سُلَيْمَانَ.

﴿٣٨ - ٤٠﴾ وَعَلِمَ سُلَيْمَانُ أَنَّهُمْ لَا بَدْءَ أَنْ يَسِيرُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ لِمَنْ خَضَرَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بَعْرَشُهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾؛ أَي: لِأَجْلِ أَنْ نَتَصَرَّفَ فِيهِ قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمُوا فَتَكُونَ أَمْوَالُهُمْ مُحْتَرَمَةً، ﴿قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجِنِّ﴾: وَالْعَفْرَيْتُ هُوَ الْقَوِيُّ النَشِيطُ جَدًّا، ﴿أَنَا أَتَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لِقَوِيٍّ أَمِينٌ﴾: وَالظَّاهِرُ أَنَّ سُلَيْمَانَ إِذْ ذَاكَ فِي الشَّامِ، فَيَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَبَأٍ نَحْوَ مَسِيرَةِ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ؛ شَهْرَانِ ذَهَابًا وَشَهْرَانِ إِيَابًا، وَمَعَ ذَلِكَ يَقُولُ هَذَا الْعَفْرَيْتُ: أَنَا أَلْتَزِمُ بِالْمَجِيءِ بِهِ عَلَى كِبَرِهِ وَثِقَلِهِ وَبُعْدِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَجْلِسِكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ، وَالْمَعْتَادُ مِنَ الْمَجَالِسِ الطَّوِيلَةِ أَنْ تَكُونَ مَعْظَمَ الضُّحَى نَحْوَ ثُلُثِ يَوْمٍ، هَذَا نَهَايَةُ الْمَعْتَادِ، وَقَدْ يَكُونُ دُونَ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرَ، وَهَذَا الْمَلِكُ الْعَظِيمُ الَّذِي عِنْدَ أَحَادٍ رَعِيَّتِهِ هَذِهِ الْقُوَّةُ وَالْقُدْرَةُ.

وَأَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾: قَالَ الْمَفْسُورُونَ: هُوَ رَجُلٌ عَالِمٌ صَالِحٌ عِنْدَ سُلَيْمَانَ، يُقَالُ لَهُ: أَصْفَ بْنَ بَرْخِيَا، كَانَ يَعْرِفُ اسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ؛ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ: ﴿أَنَا أَتَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾: بِأَنْ يَدْعُوَ اللَّهَ بِذَلِكَ الْاسْمِ، فَيَحْضُرُ حَالًا، وَأَنَّهُ دَعَا اللَّهَ، فَحَضَرَ. فَاللَّهُ أَعْلَمُ؛ هَلْ هَذَا الْمَرَادُ، أَمْ أَنَّ عِنْدَهُ عِلْمًا مِنَ الْكِتَابِ يَقْتَدِرُ بِهِ عَلَى جَلْبِ الْبَعِيدِ وَتَحْصِيلِ الشَّدِيدِ؟! ﴿فَلَمَّا رَأَاهُ﴾ سُلَيْمَانَ ﴿مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ﴾: حَمْدُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى أَقْدَارِهِ وَمُلْكِهِ وَتَيْسِيرِ الْأُمُورِ لَهُ، وَ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾؛ أَي: لِيَخْتَبِرَنِي بِذَلِكَ، فَلَمْ يَغْتَرَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ وَقُدْرَتِهِ كَمَا هُوَ دَأْبُ الْمُلُوكِ الْجَاهِلِينَ، بَلْ عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ اخْتِبَارٌ مِنْ رَبِّهِ، فَخَافَ أَنْ لَا يَقُومَ بِشُكْرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ، ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّ هَذَا الشُّكْرَ لَا يَنْتَفِعُ اللَّهُ بِهِ، وَإِنَّمَا يَرْجِعُ نَفْعُهُ إِلَى صَاحِبِهِ، فَقَالَ: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾: غَنِيٌّ عَنْ أَعْمَالِهِ، كَرِيمٌ كَثِيرُ الْخَيْرِ، يَعُمُّ بِهِ الشَّاكِرُ وَالْكَافِرُ؛ إِلَّا أَنَّ شُكْرَ نَعْمِهِ دَاعٍ لِلْمَزِيدِ مِنْهَا، وَكَفَرُهَا دَاعٍ لَزَوَالِهَا.

﴿٤١﴾ ثُمَّ قَالَ لِمَنْ عِنْدَهُ: ﴿نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾؛ أَي: غَيِّرُوهُ بِزِيَادَةٍ وَنَقْصٍ، وَنَحْنُ فِي ذَلِكَ ^(١): ﴿نَنْظُرُ﴾: مُخْتَبِرِينَ لِعَقْلِهَا: ﴿أَتَهْتَدِي﴾ لِلصَّوَابِ وَيَكُونُ عِنْدَهَا

(١) فِي (ب): «وَنَحْوُ ذَلِكَ».

ذَكَاءَ وَفُطْنَةً تَلِيْقُ بِمَلِكِهَا، ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

﴿٤٢﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾: قادمةً على سليمان؛ عرض عليها عرشها، وكان عهدُها به قد خَلَفَتْه في بلدِها، و﴿قِيلَ لَهَا أَهْكَذَا عَرْشُكَ﴾؛ أي: أنه استقرَّ عندنا أن لك عرشاً عظيماً؛ فهل هو كهذا العرش الذي أَحْضَرْنَاهُ لك؟ ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾: وهذا من ذكائها وفطنتها: لم تَقُلْ هو لوجود التغير فيه والتكثير، ولم تَنْفِ أنه هو لأنها عَرَفَتْه، فَأَتَتْ بلفظٍ محتمل للأمرين، صادقٍ على الحالين.

فقال سليمان متعجباً من هدايتها وعقلها وشاكراً لله أن أعطاه أعظمَ منها: ﴿وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا﴾؛ أي: الهداية والعقل والحزم من قبل هذه الملكة، ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾: وهي الهداية النافعة الأصلية.

وَيُحْتَمَلُ أَنَّ هَذَا مِنْ قَوْلِ مَلِكَةٍ سَبَأَ: وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ عَنْ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَسُلْطَانِهِ وَزِيَادَةَ اقْتِدَارِهِ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ الَّتِي رَأَيْنَا فِيهَا قُدْرَتَهُ عَلَى إِحْضَارِ الْعَرْشِ مِنَ الْمَسَافَةِ الْبَعِيدَةِ، فَادَّعَيْنَا لَهُ وَجِئْنَا مُسْلِمِينَ لَهُ خَاضِعِينَ لِسُلْطَانِهِ.

﴿٤٣﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: عن الإسلام، وإلّا؛ فلها من الذكاء والفطنة ما به تعرفُ الحقَّ من الباطل، ولكنَّ العقائد الباطلة تُذْهِبُ بصيرة القلب. ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾: فاستمرَّت على دينهم، وانفراد الواحد عن أهل الدين والعادة المستمرة بأمر يراه بعقله من ضلالهم وخطئهم من أندر ما يكون؛ فلهاذا لَا يُسْتَغْرَبُ بقاؤها على الكفر.

﴿٤٤﴾ ثُمَّ إِنَّ سُلَيْمَانَ أَرَادَ أَنْ تَرَى مِنْ سُلْطَانِهِ مَا يَبْهَرُ الْعُقُولَ، فَأَمَرَهَا أَنْ تَدْخُلَ الصَّرْحَ، وهو ^(١) المجلس المرتفع المتسع، وكان مجلساً من قوارير، تجري تحته الأنهار. ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾: ماء؛ لأنَّ القوارير شَفَافَةٌ يرى الماء الذي تحتها كأنه بذاته يجري ليس دونه شيء، ﴿وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا﴾: للخيضة، وهذا أيضاً من عقلها وأدبها؛ فإنها لم تَمْنَعْ من الدُخُولِ للمحل الذي أَمَرَتْ بدخوله لعلَّها أنها لم تُسْتَدْعَ إلّا للإكرام، وأنَّ ملكَ سليمان وتنظيمه قد بناه على الحكمة، ولم يكن في قلبها أدنى شكٍّ من حالة السوء بعدما رأت ما رأت، فلما استعدَّت للخوض؛ قيل لها: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ﴾؛ أي: مجلسٌ ﴿مِنْ قَوَارِيرَ﴾: فلا حاجة منك لكشف الساقين؛ فحينئذٍ لما وصلت إلى سليمان وشاهدت ما

(١) في (ب): «وهي».

شاهدت وعلمت نبؤته ورسالته؛ تابث ورجعت عن كفرها و﴿قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾.

فهذا ما قصه الله علينا من قصة ملكة سبأ وما جرى لها مع سليمان، وما عدا ذلك من الفروع المولدة والقصص الإسرائيلية؛ فإنه لا يتعلق بالتفسير لكلام الله، وهو من الأمور التي يقف الحزم بها على الدليل المعلوم المعصوم، والمنقولات في هذا الباب كلها أو أكثرها ليس كذلك؛ فالحزم كل الحزم الإعراض عنها وعدم إدخالها في التفسير. والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٤٥)
 قَالَ يَتَقَوَّمُ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾
 قَالُوا أَطِيعْنَا بَكَ وَيَمَن مَعَكَ قَالَ طَعِبْتُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ بَيْتٌ رَهِيطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَبَلَكَ يَوْمَهُمْ خَاوِبَةً يَمَّا ظَلَمُوا إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَبَحَيْنَا أَلَذِّبَاتٍ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

﴿٤٥﴾ يخبر تعالى أنه أرسل إلى ثمود القبيلة المعروفة أخاهم في النسب صالحاً، وأنه أمرهم أن يعبدوا الله وحده، ويتروكوا الأنداد والأوثان؛ ﴿فإذا هم فريقان يختصمون﴾: منهم المؤمن، ومنهم الكافر - وهم معظمهم -.

﴿٤٦﴾ قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة؛ أي: لم تبادرون فعل السيئات وتحرصون عليها قبل فعل الحسنات التي بها تحسن أحوالكم وتصلح أموركم الدينية والدنيوية، والحال أنه لا موجب لكم إلى الذهاب لفعل السيئات ﴿لولا تستغفرون الله﴾: بأن تتوبوا من شريككم وعصيانكم وتدعون أن يغفر لكم، ﴿لعلكم ترحمون﴾: فإن رحمة الله قريب من المحسنين، والثائب من الذنوب هو من المحسنين.

﴿٤٧﴾ ﴿قَالُوا﴾: لَنَبِيَّهُمْ صَالِحٌ مَكْذُوبٌ وَمَعَارِضِينَ: ﴿أَطِيعْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾: زَعَمُوا قَبَّحَهُمُ اللَّهُ أَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا عَلَى وَجْهِ صَالِحٍ خَيْرًا، وَأَنَّهُ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ صَارُوا سَبَبًا لَمَنْعِ بَعْضِ مَطَالِبِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ! فَقَالَ لَهُمْ صَالِحٌ: ﴿طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ أَي: مَا أَصَابَكُمْ إِلَّا بِذُنُوبِكُمْ. ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾: بِالسَّيِّئِ وَالضَّرَّاءِ، وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ؛ لِيَنْظُرَ هَلْ تُقْلَعُونَ وَتَتُوبُونَ أَمْ لَا؛ فَهَذَا دَأْبُهُمْ فِي تَكْذِيبِ نَبِيِّهِمْ وَمَا قَابَلُوهُ بِهِ.

﴿٤٨﴾ ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾: الَّتِي فِيهَا صَالِحٌ، الْجَامِعَةُ لِمَعْظَمِ قَوْمِهِ ﴿تِسْعَةَ رَهْطٍ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾؛ أَي: وَصَفُهُمُ الْإِفْسَادَ فِي الْأَرْضِ، وَلَا لَهُمْ قَصْدٌ وَلَا فِعْلٌ بِالْإِصْلَاحِ، قَدْ اسْتَعَدُّوا لِمُعَادَاةِ صَالِحٍ وَالطَّعْنِ فِي دِينِهِ وَدَعْوَةِ قَوْمِهِمْ إِلَى ذَلِكَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا. وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ. الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾.

﴿٤٩﴾ فَلَـمْ يَزَالُوا بِهَذِهِ الْحَالِ الشَّنِيعَةِ حَتَّى أَنَّهُمْ مِنْ عِدَاوَتِهِمْ ﴿تَقَاسَمُوا﴾ فِيمَا بَيْنَهُمْ؛ كُلُّ وَاحِدٍ أَقْسَمَ لِلْآخَرِ: ﴿لَنَبَيَّتْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾؛ أَي: لَنَأْتِيَنَّهُمْ ^(١) لَيْلًا هُوَ وَأَهْلُهُ، فَلَنَقْتُلَنَّهُمْ، ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لَوْلِيهِ: إِذَا قَامَ عَلَيْنَا وَادَّعَى عَلَيْنَا أَنَّا قَتَلْنَاهُمْ؛ نَنكِرُ ذَلِكَ وَنَنْفِيهِ وَنَحْلِفُ: ﴿إِنَّا لَصَادِقُونَ﴾.

﴿٥٠﴾ فَنَوَاطَوْا عَلَى ذَلِكَ، ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا﴾: دَبَّرُوا أَمْرَهُمْ عَلَى قَتْلِ صَالِحٍ وَأَهْلِهِ عَلَى وَجْهِ الْخُفْيَةِ حَتَّى مِنْ قَوْمِهِمْ ^(٢) خَوْفًا مِنْ أَوْلِيَائِهِ، ﴿وَمَكَّرْنَا مَكْرًا﴾: بَنَصَرِ نَبِيِّنَا صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَسْيِيرِ أَمْرِهِ وَإِهْلَاكِ قَوْمِهِ الْمَكْذُوبِينَ. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿٥١﴾ ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾: هَلْ حَصَلَ مَقْصُودُهُمْ وَأَدْرَكُوا بِذَلِكَ الْمَكْرَ مَطْلُوبَهُمْ؟ أَمْ انْتَقَضَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ؟! وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: أَهْلَكْنَاهُمْ وَاسْتَأْصَلْنَا شَأْنَهُمْ فَجَاءَتْهُمْ صَيْحَةُ عَذَابٍ فَأُهْلِكُوا عَنْ آخِرِهِمْ.

﴿٥٢﴾ ﴿فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ﴾: قَدْ تَهَدَّمَتْ جِدَارُهَا عَلَى سَقُوفِهَا، وَأَوْحَشَتْ مِنْ سَاكِنَيْهَا، وَعَطَلَتْ مِنْ نَازِلِيهَا ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾؛ أَي: هَذَا عَاقِبَةُ ظَلَمِهِمْ وَشِرْكَهِمْ بِاللَّهِ وَبِغِيهِمْ فِي الْأَرْضِ. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: الْحَقَائِقَ، وَيَتَدَبَّرُونَ

(٢) فِي (ب): «حَتَّى قَوْمِهِمْ».

(١) فِي (ب): «نَأْتِيَهُمْ».

وقائع الله في أوليائه وأعدائه، فيعتبرون بذلك، ويعلمون أن عاقبة الظلم الدمار والهلاك، وأن عاقبة الإيمان والعدل النجاة والفوز.

﴿٥٣﴾ ولهذا قال: ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾؛ أي: أنجينا المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وكانوا يتَّقون الشرك بالله والمعاصي، ويعملون بطاعته وطاعة رسوله.

﴿وَلَوْ طَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾^(١) ﴿٥٤﴾ أَيْنَكُم لَأَتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾^(٢) ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْأَسُ يَنْطَهَرُونَ﴾^(٣) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾^(٤) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾^(٥).

﴿٥٤﴾ أي: واذكر عبدنا ورسولنا لوطاً ونبأه الفاضل حين قال لقومه داعياً لهم إلى الله وناصحاً: ﴿اتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾؛ أي: الفعلة الشنعاء التي تستفحشها العقول والفطر وتستقبحها الشرائع. ﴿وَأَنْتُمْ تَبْصِرُونَ﴾: ذلك وتعلمون قبّحه، فعاندتم وارتكبتم ذلك ظلماً منكم وجراً على الله.

﴿٥٥﴾ ثم فسّر تلك الفاحشة فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾؛ أي: كيف توصّلتم إلى هذه الحال، فصارت شهوتكم للرجال وأدبارهم محلّ الغائط والنجس والخبث، وتركتم ما خلق الله لكم من النساء من المحال الطيبة التي جيلت النفوس إلى الميل إليها، وأنتم انقلب عليكم الأمر، فاستحسنتم القبيح، واستقبختم الحسن؟! ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ [مُسْرِفُونَ]﴾^(٦): متجاوزون لحدود الله متجرّئون على محارمه.

﴿٥٦﴾ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾: قبول ولا انزجار ولا تذكّر وادّكار، إنّما كان جوابهم المعارضة والمناقضة والتوعّد لنبيهم الناصح ورسولهم الأمين بالإجلاء عن وطنه والتشريد عن بلده؛ فما كان جواب قومه ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾: فكأنه قيل: ما نقمتهم منهم وما ذنبهم الذي أوجب لهم الإخراج؟ فقالوا: ﴿إِنَّهُمْ أَنْأَسُ يَنْطَهَرُونَ﴾؛ أي: ينتزهون عن اللواط وأدبار الذكور!! فقبحهم الله؛

(١) في النسختين: إلى آخر القصة.

(٢) كذا في النسختين. وصواب الآية ﴿تَجْهَلُونَ﴾.

جعلوا أفضل الحسنات بمنزلة أقبح السيئات، ولم يكتفوا بمعصيتهم لنبيهم فيما وعظهم به، حتى وصلوا إلى إخراجِه، والبلاء موكل بالمنطق؛ فهم قالوا: أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون! ومفهوم هذا الكلام: وأنتم متلوثون بالخبث والقذارة المقتضي لنزول العقوبة بقريبتكم ونجاة من خرج منها.

﴿٥٧ - ٥٨﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا هَا مِنْ الْغَابِرِينَ﴾: وذلك لما جاءته الملائكة في صورة أضياف، وسمع بهم قومه، فجاؤوا إليه يريدونهم بالشر، وأغلق الباب دونهم، واشتد الأمر عليه، ثم أخبرتهم الملائكة عن جليلة الحال، وأنهم جاؤوا لاستنقاذه وإخراجه من بين أظهرهم، وأنهم يريدون إهلاكهم، وأن موعدهم الصبح، وأمره أن يسري بأهله ليلاً إلا امرأته؛ فإنه سيصيبها ما أصابهم، فخرج بأهله ليلاً، فنجوا، وصبَحهم العذاب، فقلب الله عليهم ديارهم، وجعل أعلاها أسفلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك، ولهذا قال هنا: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فِئَاءَ مَطَرِ الْمُنْذَرِينَ﴾؛ أي: بشس المطر مطرهم، وبشس العذاب عذابهم؛ لأنهم أنذروا وخوفوا فلم ينزعجوا ولم يرتدعوا، فأحل الله بهم عقابه الشديد.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۚ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿٥٩﴾ أي: قل الحمد لله الذي يستحق كمال الحمد والمدح والثناء؛ لكمال أوصافه وجميل معروفه وهباته وعدله وحكمته في عقوبته المكذبين وتعذيب الظالمين، وسلم أيضاً على عباده الذين تخيرهم واصطفاهم على العالمين من الأنبياء والمرسلين وصفوة الله رب العالمين، وذلك لرفع ذكركم وتنويعاً بقدرهم وسلامتهم من الشر والأدناس وسلامة ما قالوه في ربهم من النقائص والعيوب. ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: وهذا استفهام قد تقرّر وعرف؛ أي: الله الرب العظيم كامل الأوصاف عظيم الألفاف خير أم الأصنام والأوثان التي عبدوها معه وهي ناقصة من كل وجه؛ لا تنفع ولا تضر ولا تملك لأنفسها ولا لإعابديها مثقال ذرة من الخير؛ فالله خير مما يشركون.

ثم ذكر تفاصيل ما به يُعرف ويتعين أنه الإله المعبود، وأن عبادته هي الحق وعبادة ما سواه هي الباطل، فقال:

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَابًا ذَاتَ

بَهْجَةٍ مَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ؕ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ هُمْ يَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ .

﴿٦٠﴾ أي: أَمِنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَمَا فِيهَا مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنَّجْمِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهَا مِنْ جِبَالٍ وَبِحَارٍ وَأَنْهَارٍ وَأَشْجَارٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ﴾؛ أي: لِأَجْلِكُمْ ﴿مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ﴾؛ أي: بِسَاتِينَ ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾؛ أي: حَسَنَ مَنْظَرٍ مِنْ كَثْرَةِ أَشْجَارِهَا وَتَنَوُّعِهَا وَحَسَنِ ثَمَارِهَا. ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾: لَوْلَا مِثْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِإِنْزَالِ الْمَطَرِ. ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾: فَعَلَّ هَذِهِ الْأَفْعَالَ حَتَّى يُعْبَدَ مَعَهُ وَيُشْرَكَ بِهِ، ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾: بِهِ غَيْرُهُ، وَيَسُوُّونَ بِهِ سِوَاهُ، مَعَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ وَحْدَهُ خَالِقُ الْعَالَمِ الْعُلَوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ وَمَنْزِلُ الرِّزْقِ.

﴿أَمِنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ؕ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦١﴾ .

﴿٦١﴾ أي: هَلِ الْأَصْنَامُ وَالْأَوْثَانُ النَاقِصَةُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ الَّتِي لَا فَعَلَ مِنْهَا وَلَا رِزْقَ وَلَا نَفْعَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الَّذِي ﴿جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾: يَسْتَقَرُّ عَلَيْهَا الْعِبَادُ وَيَتِمَكَّنُونَ مِنَ السَّكَنِ وَالْحَرثِ وَالْبِنَاءِ وَالذَّهَابِ وَالْإِيَابِ، ﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾؛ أي: جَعَلَ فِي خِلَالِ الْأَرْضِ أَنْهَارًا يَتَنَفَّعُ بِهَا الْعِبَادُ فِي زُرُوعِهِمْ وَأَشْجَارِهِمْ وَشُرْبِهِمْ وَشُرْبِ مَوَاشِيهِمْ، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾؛ أي: جِبَالًا تُرْسِيهَا وَتُثَبِّتُهَا لِثَلَاثِ تَمِيدَ وَتَكُونُ أَوْتَادًا لَهَا لِثَلَاثِ تَضْطَرِبُ، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ﴾: الْبَحْرِ الْمَالِحِ وَالْبَحْرِ الْعَذْبِ ﴿حَاجِزًا﴾: يَمْنَعُ مِنْ اخْتِلَاطِهِمَا فَتَوَاتُ الْمَنْفَعَةُ الْمَقْصُودَةُ مِنْ كُلِّ مَنِمَا، بَلْ جَعَلَ بَيْنَهُمَا حَاجِزًا مِنَ الْأَرْضِ؛ جَعَلَ مَجْرَى الْأَنْهَارِ فِي الْأَرْضِ مَبْعُدَةً عَنِ الْبِحَارِ، فَيَحْضُلُ مِنْهَا مَقَاصِدُهَا وَمَصَالِحُهَا. ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾: فَعَلَ ذَلِكَ حَتَّى يُغْدَلَ بِهِ اللَّهُ وَيُشْرَكَ بِهِ مَعَهُ، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: فَيُشْرِكُونَ بِاللَّهِ تَقْلِيدًا لِرُؤْسَائِهِمْ، وَإِلَّا؛ فَلَوْ عَلِمُوا حَقَّ الْعِلْمِ لَمْ يَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا.

﴿أَمِنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ؕ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَدْكُرُونَ﴾ ﴿٦٢﴾ .

﴿٦٢﴾ أي: هَلِ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ الَّذِي أَقْلَقَتْهُ الْكَرُوبُ وَتَعَسَّرَ عَلَيْهِ الْمَطْلُوبُ وَاضْطَرَّ لِلْخِلَاصِ بِمَا هُوَ فِيهِ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ؟! وَمَنْ يَكْشِفُ السُّوءَ؟ أي: الْبَلَاءَ وَالشَّرَّ وَالنَّقْمَةَ؟ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ؟! وَمَنْ يَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ يُمْكِّنُكُمْ مِنْهَا وَيَمُدُّ لَكُمْ بِالرِّزْقِ وَيُوَصِّلُ إِلَيْكُمْ نِعْمَهُ وَتَكُونُونَ خُلَفَاءَ مَنْ قَبْلَكُمْ كَمَا أَنَّهُ سَيَمِيتُكُمْ وَيَأْتِي

بقوم بعدكم؟! إله مع الله يفعل هذه الأفعال؟! لا أحد يفعل مع الله شيئاً من ذلك، حتى بإقراركم أيها المشركون، ولهذا كانوا إذا مسهم الضرُّ دَعَوْا اللَّهَ مخلصين له الدين؛ لعلهم أنه وحده المقتدر على دفعه وإزالته، ﴿قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ﴾؛ أي: قليلاً تذكركم وتذبركم للأمور التي إذا تذكّرتموها اذكرتم ورجعتم إلى الهدى، ولكن الغفلة والإعراض شاملٌ لكم؛ فلذلك ما ازعويتم ولا اهتديتم.

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ تَعْلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٦٣).

﴿٦٣﴾ أي: من هو الذي يهديكم حين تكونون في ظلمات البر والبحر حيث لا دليل ولا مغلّم يرى ولا وسيلة إلى النجاة إلا هدايته لكم وتيسيره الطريق وجعل ما جعل لكم من الأسباب التي تهتدون بها؟! ﴿وَمَنْ يَرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾؛ أي: بين يدي المطر، فيرسلها، فتثير السحاب، ثم تولّفه، ثم تجمعها، ثم تُلْقِئُهَا، ثم تُدْرِئُهَا، فيستبشر بذلك العباد قبل نزول المطر. ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ﴾: فعل ذلك؟! أم هو وحده الذي انفرد به؟! فلم أشركتم معه غيره وعبدتم سواه؟! ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: تعظم وتنزه وتقدس عن شركهم وتسيويهم به غيره.

﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٦٤).

﴿٦٤﴾ أي: من هو الذي يبدأ الخلق وينشئ المخلوقات ويبتدي خلقها ثم يعيد الخلق يوم البعث والنشور؟! ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ بالمطر والنبات؟! ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ﴾: يفعل ذلك ويقدر عليه، ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾؛ أي: حجّتكم ودليلكم على ما قلتم: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وإلا؛ فبتقدير أنكم تقولون: إنّ الأصنام لها مشاركة له في شيء من ذلك؛ فذلك مجرّد دعوى صدّقوها بالبرهان، وإلا؛ فاعرفوا أنّكم مبطلون لا حجة لكم، فارجعوا إلى الأدلة اليقينية والبراهين القطعية الدالة على أنّ الله هو المتفرد بجميع التصرفات وأنّه المستحق أن يُصرف^(١) له جميع أنواع العبادات.

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (٦٥) ﴿بَلْ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ (٦٦) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا

تَرَابًا وَمَأْبَاؤُنَا أَنِنَّا لَمُخْرِجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ [قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾] ^(١).

﴿٦٥﴾ يخبر تعالى أنه المنفرد بعلم غيب السماوات والأرض؛ كقوله تعالى: ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾، وكقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ...﴾ إلى آخر السورة؛ فهذه الغيوب ونحوها اختص الله بعلمها، فلم يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل، وإذا كان هو المنفرد بعلم ذلك، والمحيط علمه بالسرائر والبواطن والخفايا؛ فهو الذي لا تنبغي العبادة إلا له.

ثم أخبر تعالى عن ضعف علم المكذبين بالآخرة، منتقلاً من شيء إلى ما هو أبلغ منه، فقال: ﴿وما يشعرون﴾؛ أي: وما يدرون ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي: متى البعث والنشور والقيام من القبور؛ أي: فلذلك لم يستعدوا.

﴿٦٦﴾ ﴿بل أذكركم في الآخرة﴾؛ أي: بل ضعف وقل ولم يكن يقيناً ولا علماً واصلاً إلى القلب، وهذا أقل وأدنى درجة للعلم، ضعفه ووهاؤه، بل ليس عندهم علم ولا ضعف، وإنما ﴿هم في شك منها﴾؛ أي: من الآخرة، والشك زال به العلم؛ لأن العلم بجميع مراتبه لا يجامع الشك. ﴿بل هم منها﴾؛ أي: من الآخرة ﴿عمون﴾: قد عميت عنها بصائرهم، ولم يكن في قلوبهم من وقوعها، ولا احتمال، بل أنكروها واستبعدوها.

﴿٦٧﴾ ولهذا قال: ﴿وقال الذين كفروا إذا كنا تراباً وأبأونا أننا لمُخْرِجُونَ﴾؛ أي: هذا بعيد غير ممكن؛ قاسوا قدرة كامل القدرة بقدرهم الضعيفة.

﴿٦٨﴾ ﴿لقد وعدنا هذا﴾؛ أي: البعث ﴿نحن وأبأونا من قبل﴾؛ أي: فلم يجئنا ولا رأينا منه شيئاً. ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾؛ أي: قصصهم وأخبارهم التي تقطع بها الأوقات، وليس لها أصل، ولا صدق فيها. فانتقل في الإخبار عن أحوال المكذبين بالإخبار أنهم لا يدرون متى وقت الآخرة، ثم الإخبار بضعف علمهم فيها، ثم الإخبار بأنه شك، ثم الإخبار بأنه عمى، ثم الإخبار بإنكارهم

(١) الآية ما بين المعقوفتين زيادة على النسختين.

لذلك واستبعادهم وقوعه؛ أي: وبسبب هذه الأحوال؛ تَرَحَّلْ خَوْفَ الآخرة من قلوبهم، فأقدموا على معاصي الله، وسَهَّلْ عليهم تكذيب الحق والتصديق بالباطل، واستحلوا الشهوات على القيام بالعبادات، فخسروا دُنياهم وأخراهم.

﴿٦٩﴾ ثُمَّ نَبَّهَهُمْ عَلَى صَدَقَ مَا أَخْبَرْتَ بِهِ الرُّسُلَ، فَقَالَ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾؛ فلا تجدون مجرماً قد استمرَّ على إجرامه إلَّا وعاقبته شرُّ عاقبة، وقد أحلَّ الله به من الشرِّ والعقوبة ما يُلِيقُ بحاله.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢)﴾.

﴿٧٠﴾ أي: لا تحزن يا محمدُ على هؤلاء المكذِّبين وعدم إيمانهم؛ فإنَّك لو علمت ما فيهم من الشرِّ وأنَّهم لا يَصْلُحُونَ للخير؛ لم تأسَّ ولم تحزن، ولا يضيق صدرك ولا تقلق نفسك بمكرهم؛ فإنَّ مكرهم سيعود عاقبته عليهم، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

﴿٧١﴾ ويقولُ المكذِّبون بالمعاد وبالحقِّ الذي جاء به الرسولُ مستعجلين للعذاب: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: وهذا من سفاهة رأيهم وجهلهم؛ فإنَّ وقوعه ووقته قد أَجَلَهُ اللهُ بِأَجَلِهِ وَقَدَّرَهُ بِقَدَرٍ؛ فلا يدلُّ عدم استعجاله على بعض مطلوبهم، ولكن مع هذا قال تعالى محذراً لهم وقوع ما يستعجلون^(١):

﴿٧٢﴾ ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ﴾؛ أي: قرب منكم وأوشك أن يقع بكم بعض الذي تستعجلون: من العذاب.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٧٥)﴾.

﴿٧٣﴾ ينبه عباده على سعة جوده وكثرة أفضاله، ويحثهم على شكرها، ومع هذا؛ فأكثر الناس قد أعرضوا عن الشكر، واشتغلوا بالنعم عن المنعم.

﴿٧٤﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾؛ أي: تنطوي عليه ﴿صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾: فليحذروا من عالم السرائر والظواهر وليراقبوه.

(١) في (ب): «ما استعجلوه».

﴿٧٥﴾ ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: خَفِيَّةٍ وَسِرٍّ مِنْ أَسْرَارِ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾: قَدْ أَحَاطَ ذَلِكَ الْكِتَابُ بِجَمِيعِ مَا كَانَ وَيَكُونُ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ؛ فَكُلُّ حَادِثٍ يَحْدُثُ جَلِيٍّ أَوْ خَفِيٍّ؛ إِلَّا وَهُوَ مُطَابِقٌ لِمَا كَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصِّلُ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٧٧﴾.

﴿٧٦﴾ وهذا خبر عن هيمنة القرآن على الكتب السابقة وتفصيله وتوضيحه لما كان فيها قد وقع فيه اشتباه واختلاف عند بني إسرائيل، فقضه هذا القرآن قصاً زال به الإشكال، وبيّن الصواب من المسائل المختلف فيها.

﴿٧٧﴾ وإذا كان بهذه المثابة من الجلالة والوضوح وإزالة كل خلافٍ وفصل كل مشكل؛ كان أعظم نعم الله على العباد، ولكن ما كل أحدٍ يقابلُ النعمة بالشكر، ولهذا بيّن أن نفعه ونوره وهُدهد مختصّ بالمؤمنين، فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ﴾: من الضلالة والغَيِّ والشبه، ﴿وَرَحْمَةً﴾: تنلج له صدورهم وتستقيم به أمورهم الدينية والدنيوية، ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: به المصدقين له المتلقين له بالقبول المقبلين على تدبره المتفكرين في معانيه؛ فهؤلاء تحصل لهم به الهداية إلى الصراط المستقيم والرحمة المتضمنة للسعادة والفوز والفلاح.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٧٨﴾.

﴿٧٨﴾ أي: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَفْصِلُ بَيْنَ الْمُخْتَصِمِينَ وَسَيُحْكُمُ بَيْنَ الْمُخْتَلِفِينَ بِحُكْمِهِ الْعَدْلَ وَقَضَائِهِ الْقِسْطَ؛ فَالْأُمُورُ؛ وَإِنْ حَصَلَ فِيهَا اشْتِبَاهٌ فِي الدُّنْيَا بَيْنَ الْمُخْتَلِفِينَ لَخَفَاءِ الدَّلِيلِ أَوْ لِبَعْضِ الْمَقَاصِدِ؛ فَإِنَّهُ سَيُبَيِّنُ فِيهَا الْحَقَّ الْمَطَابِقَ لِلْوَاقِعِ حِينَ يُحْكُمُ اللَّهُ فِيهَا. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: الَّذِي قَهَرَ الْخَلَائِقَ فَادْعَنُوا لَهُ. ﴿الْعَلِيمُ﴾: بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، الْعَلِيمُ بِأَقْوَالِ الْمُخْتَلِفِينَ، وَعَنْ مَاذَا صَدَرَتْ، وَعَنْ غَايَاتِهَا وَمَقَاصِدِهَا، وَسَيَجَازِي كُلَّ مَا عَلِمَهُ فِيهِ.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَ وَلَا تَسْمِعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾.

﴿٧٩﴾ أي: اعتمد على ربك في جلب المصالح ودفع المضار وفي تبليغ الرسالة وإقامة الدين وجهاد الأعداء. ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾: الواضح، والذي على الحق يدعو إليه ويقوم بنصرته أحق من غيره بالتوكل؛ فإنه يسعى في أمر مجزوم به، معلوم صدقه، لا شك فيه ولا مزية، وأيضاً؛ فهو حق في غاية البيان، لا خفاء به ولا اشتباه.

﴿٨٠﴾ وإذا قمت بما حملت وتوكلت على الله في ذلك؛ فلا يضرك ضلال من ضلّ وليس عليك هداهم؛ فلماذا قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ﴾؛ أي: حين تدعوهم وتناديهم، وخصوصاً: ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾: فإنه يكون أبلغ في عدم إسماعهم.

﴿٨١﴾ ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾: كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. ﴿إِنْ تَسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: هؤلاء الذين ينقادون لك، الذين يؤمنون بآيات الله وينقادون لها بأعمالهم واستسلامهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ. وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ (٨٢).

﴿٨٢﴾ أي: إذا وقع على الناس القول الذي حتمه الله وفرض وقته؛ ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً﴾ خارجة ﴿مِّنَ الْأَرْضِ﴾، أو دابة من دواب الأرض، ليست من السماء، وهذه الدابة ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾؛ أي: تكلم العباد ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾؛ أي: لأجل أن الناس ضُغِفَ علمهم وبقينهم بآيات الله؛ فإظهار^(١) الله هذه الدابة من آيات الله العجيبة؛ ليبين للناس ما كانوا فيه يمترون. وهذه الدابة المشهورة التي تخرج في آخر الزمان، وتكون من أشراط الساعة؛ كما تكاثرت بذلك الأحاديث^(٢)، [لم يذكر الله ورسوله كيفية هذه الدابة، وإنما ذكر أثرها والمقصود منها، وأنها من آيات الله؛ تكلم الناس كلاماً خارقاً للعادة حين يقع القول على الناس

(١) في (ب): «فأظهر».

(٢) كما في «صحيح مسلم» (١٥٨ و ٢٩٤٧)، و«مسند الإمام أحمد» (٢٦٨/٥)، وانظر كتاب «أشراط الساعة» للشيخ يوسف الوابل وفقه الله.

وحين يمترون بآيات الله، فتكون حجة وبرهاناً للمؤمنين، وحجة على المعاندين^(١).

﴿وَيَوْمَ نَخْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَازًا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿٨٣﴾ يخبر تعالى عن حالة المكذبين في موقف القيامة، وأن الله يجمعهم ويخشُر من كل أمة من الأمم فوجاً وطائفة، ﴿مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: يُجْمَعُ أُولَهُمْ على آخرهم، وآخرهم على أولهم؛ ليعمهم السؤال والتوبيخ واللوم.

﴿٨٤﴾ ﴿حتى إذا جاؤوا﴾: وحضروا؛ قال لهم موبخاً ومقرعاً: ﴿أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا﴾؛ أي: الواجب عليكم التوقف حتى ينكشف لكم الحق، وأن لا تتكلموا إلا بعلم؛ فكيف كذبتهم بأمر لم تحيطوا به علماً. ﴿أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: يسألهم عن علمهم وعن عملهم، فيجد علمهم تكديباً بالحق وعملهم لغير الله، أو على غير سنة رسولهم.

﴿٨٥﴾ ﴿ووقع القول عليهم بما ظلموا﴾؛ أي: حقت عليهم كلمة العذاب بسبب ظلمهم الذي استمرؤا عليه وتوجهت عليهم الحجة، ﴿فهم لا ينطقون﴾: لأنه لا حجة لهم.

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لِسَانِكُمْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿٨٦﴾ أي: ألم يشاهدوا هذه الآية العظيمة والنعمة الجسيمة، وهو تسخير الله لهم الليل والنهار، هذا بظلمته ليسكنوا فيه ويستريحوا من التعب ويستعدوا للعمل، وهذا بضياؤه لينتشروا فيه في معاشهم وتصرفاتهم. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: على كمال وحدانية الله وسبوغ نعمته.

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَّهٍ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَرَأَى الْجِبَالَ تَحْسِبًا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ

(١) ما بين المعقوفتين زيادة من هامش (أ) وفي هامش (ب): «ولم يأت دليل يدل على كيفيتها، ولا من أي نوع، وإنما دلت الآية الكريمة على أن الله يخرجها للناس، وأن هذا التكليم منها خارق للعوائد المألوفة، وأنه من الأدلة على صدق ما أخبر الله به في كتابه. والله أعلم».

خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ .

﴿٨٧﴾ يخوفُ تعالى عباده ما أمامهم من يوم القيامة وما فيه من المحن والكروب ومزعجات القلوب، فقال: ﴿ويوم يُنفخُ في الصور ففزع﴾: بسبب النفخ فيه ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: انزعجوا وارتاعوا وماج بعضهم ببعض خوفاً مما هو مقدّمة له ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾: مِمَّنْ أكرمه الله وثبته وحفظه من الفزع. ﴿وكل﴾ من الخلق عند النفخ في الصور ﴿أتوه داخرين﴾: صاغرين ذليلين؛ كما قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾. ففي ذلك اليوم يتساوى الرؤساء والمرؤوسون في الدُّل والخضوع لمالك الملك.

﴿٨٨﴾ ومن هؤلاء أنك ﴿ترى الجبال تحسبها جامدة﴾: لا تفقد شيئاً منها^(١)، وتظنّها باقية على الحال المعهودة، وهي قد بلغت منها الشدائد والأحوال كل مبلغ، وقد تفتّت، ثم تضمحل وتكون هباءً منبثاً، ولهذا قال: ﴿وهي تمرّ مرّ السحاب﴾: من خفتها وشدّة ذلك الخوف، وذلك ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما [تفعلون]﴾^(٢): فيجازيكم بأعمالكم.

﴿٨٩﴾ ثم بيّن كيفية جزائه، فقال: ﴿من جاء بالحسنة﴾: اسم جنس، يشمل كل حسنة قولية أو فعلية أو قلبية، [فله عشر أمثالها]^(٣): هذا أقلّ التفضيل. ﴿وهم من فزع يومئذ آمنون﴾؛ أي: من الأمر الذي فزع الخلق لأجله آمنون، وإن كانوا يفرعون معهم.

﴿٩٠﴾ ﴿ومن جاء بالسّيئة﴾: اسم جنس يشمل كل سيئة، ﴿فكُبَّتْ وجوههم في النار﴾؛ أي: ألقوا في النار على وجوههم، ويقال لهم: ﴿هل تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـذِهِ الْبَلَدَةِ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ

(١) في (ب): «لا تفقد منها».

(٢) في النسختين: «تعملون».

(٣) كذا في النسختين؛ والآية: ﴿فله خير منها﴾.

الْمُنْذِرِينَ ﴿٩١﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٢﴾ .

﴿٩١﴾ أي: قل لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَا أَمَرْتُ أَنْ أُعْبَدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ﴾؛ أي: مكة المكرمة ﴿الَّذِي﴾^(١) حَرَّمَهَا ﴿وَأَنْعَمَ عَلَى أَهْلِهَا؛ فَيَجِبُ أَنْ يَقَابِلُوا ذَلِكَ بِالشُّكْرِ وَالْقَبُولِ، ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾: من العلويات والسفليات؛ أتى به لثلاً يَتَوَهَّمُ اختصاصُ ربوبيَّتِهِ بالبيت وحده. وَأَمَرْتُ لِأَنْ ﴿أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٢)؛ أي: أبادر إلى الإسلام. وقد فعل ﷺ؛ فإنه أول هذه الأمة إسلاماً، وأعظمها استسلاماً.

﴿٩٢﴾ ﴿و﴾ أَمَرْتُ أَيْضاً ﴿أَنْ أَتْلُو﴾ عَلَيْكُمْ ﴿الْقُرْآنَ﴾: لِيَتَهْتَدُوا بِهِ وَتَقْتَدُوا وَتَعْلَمُوا أَلْفَاظَهُ وَمَعَانِيَهُ؛ فَهَذَا الَّذِي عَلَيَّ، وَقَدْ أَدَيْتَهُ، ﴿فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾: نَفْعُهُ يَعُودُ عَلَيْهِ، وَثَمَرَتُهُ عَائِدَةٌ إِلَيْهِ، ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾: وليس بيدي من الهداية شيء.

﴿٩٣﴾ ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الذي له الحمد في الأولى والآخرة، ومن جميع الخلق، خصوصاً أهل الاختصاص والصفوة من عباده؛ فَإِنَّ الَّذِي وَقَعَ وَالَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَقَعَ^(٣) مِنْهُمْ مِنَ الْحَمْدِ وَالثَنَاءِ عَلَى رَبِّهِمْ أَعْظَمُ مِمَّا يَقَعُ مِنْ غَيْرِهِمْ؛ لِرَفْعَةِ دَرَجَاتِهِمْ وَكَمَالِ قُرْبِهِمْ مِنْهُ وَكَثْرَةِ خَيْرَاتِهِ عَلَيْهِمْ، ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾: معرفة تدلُّكُمْ عَلَى الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يَرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ مَا تَسْتَتِيرون بِهِ فِي الظُّلُمَاتِ؛ لِيَهْلِكَ مِنْ هَٰلِكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: بل قد علم ما أنتم عليه من الأعمال والأحوال، وعلم مقدار جزاء تلك الأعمال، وسيحكم بينكم حكماً تحمدونه عليه، ولا يكون لكم حجة بوجه من الوجوه عليه.

تم تفسير سورة النمل بفضل الله وإعانتة وتيسيره، ونسأله تعالى أن لا تزال الطافه ومعونته مستمرة علينا وواصله منه إلينا، فهو أكرم الأكرمين، وخير الراحمين، وموصل المنقطعين، ومجيب السائلين، ميسر الأمور العسيرة، وفتاح أبواب بركاته، ومجزل في جميع الأوقات هباته، ميسر القرآن للمتذكرين، ومسهل طرقه وأبوابه للمقبلين، ويمد مائدة خيراته ومبراته للمتفكرين. والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

على يد جامعہ ومملیہ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد اللہ السعدي غفر اللہ له

(٢) في النسختين: «أول المسلمين».

(١) في (ب): «التي».

(٣) فإن الذي ينبغي أن يقع.

ولوالديه ولجميع المسلمين. وذلك في ٢٢ رمضان سنة ١٣٤٣. وتمّ تحريره من
خط مؤلفه في ٢٩ ذي الحجة سنة ١٣٤٦.



تم الجزء الخامس من «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ويليهِ
الجزء السادس، أوله تفسير سورة القصص.
ويليه في النشر عقب هذا أصول التفسير وتفسير ألفاظ عامة يكثر في
القرآن مرورها، ويحتاجُ الناس إلى معرفتها^(١).

(١) انظر مقدمة الكتاب.

المجلد السادس
من
تيسير الكريم الرحمن
في
تفسير كلام المنان

من ممن الله على عبده وابن عبده وابن أمته
عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعيدي

تفسير سورة القصص

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓةٓ﴾ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) (١) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَرَبِّي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَاعْلَمِيهِ فِي الْمِيزِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْقِطْعَةُ مَالِ فِرْعَوْنَ يَكُونُ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذُهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٩) وَأَصْبَحَ قُودًا أُمِّ مُوسَىٰ فَرِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتِ لِأُخْتِيهِ قُصِيَّةٌ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيبٌ فَأَرْدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُخْتِهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَوْ عَلِمَ آدَمُ وَعَدَ اللَّهِ حَقًّا وَلَئِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٢) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُمَ وَاسْتَوَىٰ ءَايَتْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَىٰ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَىٰ الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٥) قَالَ

رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي
أَسْتَصِرُّهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصِرُّهُ قَالَ لَمْ يُؤْمَرَ إِلَيْكَ لَعْنُوٌّ مُبِينٌ ﴿٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْطَشَ بِالَّذِي هُوَ
عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَّىٰ أَرِيدُ أَنْ نَقْتُلَنَّكَ كَمَا قَتَلْنَا نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي
الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمْوَسَّىٰ إِنَّكَ
الْمَلَأَ بِأَتَمِرُونَ بِكَ لِيُقْتَلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ
نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ
﴿١٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ
تَذَوَّدَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا سَعَىٰ حَتَّىٰ يَبْصُرَ الرَّعَاءُ وَأُبْنَا شَيْخَ كَبِيرٌ ﴿١٣﴾ فَسَقَى
لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿١٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا
تَمْشَىٰ عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ
عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَبَاقُ اسْتَشْجِرْهُ
إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرَكَ الْفَوِيُّ الْآمِنُ ﴿١٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَىٰ
أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمْنِي جِئْتُ بِإِنِّ أَنْعَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُشْغِيَ عَلَيْكَ سَعِيذَاتِ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَةَ
عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿١٨﴾ ﴿١٩﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ
الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَصُوفٍ مِنَ
النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ
مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوَسَّىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهْتَزُّ
كَأَنهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمَّا يُعِقَبْ يَمْوَسَّىٰ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٢٢﴾ أَسْأَلُكَ بِذَلِكَ
فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ يَصْصَاءٍ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَلَذَلِكَ بُرْهَانًا مِنْ
رَبِّكَ إِلَيَّ فَرَعُونَ وَمَلَائِكَةُ إِنْهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا
فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٢٤﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي
أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٢٥﴾ قَالَ سَنُنْذِرُ عَصَاكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا
بَيْنَيْنَا أُنْتَمَا وَمِنْ أُنْتَعَمَّا الْفَالِغُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِبَيْنَيْنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا

سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّیْ أَعْلَمُ بِمَا جَاءَ
بِالْهَدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيهَا
الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْتَمِدَنَّ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي
أَطْلُعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ
يَغْتَرِبُونَ الْحَقَّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِنَّمَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ
فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَذْكُرُونَ إِلَى الْكَارِ وَيَوْمَ
الْقِيَمَةِ لَا يُبْصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ
﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى
وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ
الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا فِرْعَوْنَ فَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ
تَتْلُوَا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن
رَحِمَهُ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ لَا
أَن تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ
وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوفِيَ مِثْلَ مَا أُوفِيَ
مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوفِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَيْفُونٍ ﴿٤٨﴾
قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِنْ لَمْ
يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ
إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٢﴾ .

﴿٢﴾ ﴿تلك﴾ الآيات المستحقة للتعظيم والتفخيم، ﴿آيات الكتاب المبين﴾ :
لكل أمر يحتاج إليه العباد؛ من معرفة ربهم، ومعرفة حقوقه، ومعرفة أوليائه
وأعدائه، ومعرفة وقائعه وأيامه، ومعرفة ثواب الأعمال وجزاء العمال؛ فهذا القرآن
قد بيّنها غاية التبيين، وجلاها للعباد، ووضّحها .

﴿٣﴾ من جملة ما أبان، قصة موسى وفرعون؛ فإنه أبداها وأعادها في عدة
مواضع، وبسطها في هذا الموضع، فقال: ﴿نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون
بالحق﴾ : فإن نبأهما غريب وخبرهما عجيب، ﴿لقوم يؤمنون﴾ : فإليهم يُساق

الخطابُ ويوجِّهُ الكلام؛ حيث إنَّ معهم من الإيمان ما يُقبِلُونَ به على تدبُّر ذلك وتلقَّيه بالقبول والاهتداء بمواقع العِبَر، ويزدادون به إيماناً و يقيناً وخيراً إلى خيرهم، وأما مَنْ عداهم؛ فلا يستفيدون منه إلَّا إقامة الحجَّة عليهم، وصانه الله عنهم، وجعل بينهم وبينه حجاباً أن يفقهوه.

﴿٤﴾ فأول هذه القصَّة: ﴿إِنَّ فرعونَ علا في الأرض﴾: في ملكه وسلطانه وجنوده وجبروته، فصار من أهل العلوِّ فيها، لا من الأغلبن فيها، ﴿وجعل أهلها شيعاً﴾؛ أي: طوائف متفرقة يتصرَّف فيهم بشهوته وينفَّذ فيهم ما أراد من قهره وسطوته، ﴿يستضعف طائفة منهم﴾: وتلك الطائفة هم بنو إسرائيل، الذين فضَّلهم الله على العالمين، الذي ينبغي له أن يكرِّمهم ويجلِّهم، ولكنَّه استضعفهم بحيث إنه رأى أنَّهم لا مَنعةَ لهم تمنعُهم مما أراد فيهم، فصار لا يُبالي بهم ولا يهتمُّ بشأنهم، وبلغت به الحال إلى أنَّه ﴿يَذبحُ أبناءهم ويستحيي نساءهم﴾: خوفاً من أن يكثرُوا فيغمروه في بلاده، ويصير لهم الملك. ﴿إنَّه كان من المفسدين﴾: الذين لا قصدَ لهم في صلاح^(١) الدين ولا صلاح^(١) الدنيا. وهذا من إفساده في الأرض.

﴿٥﴾ ﴿ونريد أن نُمَنَّ على الذين استضعفوا في الأرض﴾: بأن نُزيل عنهم موادَّ الاستضعاف ونُهِّلِكَ من قواهم ونخذل من ناوهم، ﴿ونجعلهم أئمة﴾ في الدين، وذلك لا يحصلُ مع الاستضعاف، بل لابدُّ من تمكين في الأرض، وقدرَة تامَّة، ﴿ونجعلهم الوارثين﴾: للأرض، الذين لهم العاقبة في الدنيا قبل الآخرة.

﴿٦﴾ ﴿ونمكن لهم في الأرض﴾: فهذه الأمور كُلُّها قد تعلَّقت بها إرادة الله وجرت بها مشيئته. ﴿و﴾: كذلك نريد أن ﴿نُريَ فرعونَ وهامان﴾: وزيره و جنودَهما: التي بها صالوا، وجالوا وعلَّوا وبعَّوا، ﴿منهم﴾؛ أي: من هذه الطائفة المستضعفة ﴿ما كانوا يَحذرون﴾: من إخراجهم من ديارهم، ولذلك كانوا يسعون في قمعهم وكسر شوكتهم وتقتيل أبنائهم الذين هم محلُّ ذلك؛ فكلُّ هذا قد أَرادَه الله، وإذا أرادَ أمراً؛ سهَّلَ أسبابه ونهَّجَ طريقه، وهذا الأمر كذلك؛ فإنَّه قدَّر وأجرى من الأسباب - التي لم يشعر بها لا أولياؤه ولا أعداؤه - ما هو سببُ موصلٍ إلى هذا المقصود.

(١) في (ب): «إصلاح».

﴿٧﴾ فأول ذلك لما أوجد الله رسوله موسى الذي جعل استنقاذ هذا الشعب الإسرائيلي على يديه وبسببه، وكان في وقت تلك المخافة العظيمة التي يذبحون بها الأبناء، أوحى إلى أمه أن ترضعه ويمكث عندها، ﴿فإذا خفت عليه﴾: بأن أحسست أحداً تخافين عليه منه أن يوصله إليهم، ﴿فألقيه في اليم﴾؛ أي: نيل مصر، في وسط تابوت مغلق، ﴿ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾: فبشرها بأنه سيردّه عليها وأنه سيكبر ويسلم من كيدهم ويجعله الله رسولاً، ولهذا من أعظم البشائر الجليلة. وتقديم هذه البشارة^(١) لأم موسى ليطمئن قلبها، ويسكن روعها.

﴿٨﴾ فكأنها خافت عليه، وفعلت ما أمرت به، ألقته في اليم، وساقه الله تعالى، حتى التقطه ﴿آل فرعون﴾: فصار من لقطهم، وهم الذين باشروا وجذانه؛ ﴿ليكون لهم عدواً وحزناً﴾؛ أي: لتكون العاقبة والمآل من هذا الالتقاط أن يكون عدواً لهم وحزناً يخزئهم؛ بسبب أن الحذر لا ينفع من القدر، وأن الذي خافوا منه من بني إسرائيل قيض الله أن يكون زعيمهم يتربى تحت أيديهم وعلى نظريهم ويكفالتهم.

وعند التدبر والتأمل تجد في طي ذلك من المصالح لبني إسرائيل ودفع كثير من الأمور الفادحة بهم ومنع كثير من التعديات قبل رسالته؛ بحيث إنه صار من كبار المملكة، وبالطبع لا بد أن يحصل منه مدافعة عن حقوق شعبه، هذا وهو هو ذو الهمة العالية والغيرة المتوقدة، ولهذا وصلت الحال بذلك الشعب المستضعف - الذي بلغ بهم الذل والإهانة إلى ما قص الله علينا بعضه - أن صار بعض أفرادهم ينازع ذلك الشعب القاهر العالي في الأرض كما سيأتي بيانه، وهذا مقدمة للظهور؛ فإن الله تعالى من سننه الجارية أن جعل الأمور تمشي على التدرج شيئاً فشيئاً، ولا تأتي دفعة واحدة. وقوله: ﴿إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾؛ أي: فأرذنا أن نعاقبهما على خطيئتهما، ونكيدهم جزاء على مكرهم وكيدهم.

﴿٩﴾ فلما التقطه آل فرعون؛ حزن الله عليه امرأة فرعون الفاضلة الجليلة المؤمنة آسية بنت مزاحم، ﴿وقالت﴾: هذا الولد ﴿قرّة عين لي ولك لا تقتلوه﴾؛ أي: أبوه لنا لتقرّ به أعيننا، ونسرّ به في حياتنا، ﴿عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾؛ أي: لا

(١) في (ب): «البشائر».

يخلو: إمّا أن يكون بمنزلة الخدم الذين يَسْعَوْنَ في نفعنا وخدمتنا، أو نرقّيه درجة^(١) أعلى من ذلك؛ نجعلهُ ولدًا لنا ونكرمهُ ونُجِلَّهُ. فقَدَّرَ اللهُ تعالى أنّه نَفَعَ امرأةَ فرعون التي قالت تلك المقالة؛ فإنّه لما صار قُرَّةَ عين لها وأحبَّته حبًّا شديدًا، فلم يزل لها بمنزلة الولد الشفيق، حتى كَبُرَ، ونَبَّأَ اللهُ، وأرسله، فبادرت إلى الإسلام والإيمان به، رضي الله عنها، وأرضاها. قال الله تعالى [عن] هذه المراجعات والمقاولات في شأن موسى: ﴿وهم لا يشعرون﴾: ما جرى به القلم، ومضى به القدر من وصوله إلى ما وَصَلَ إليه. وهذا من لطفه تعالى؛ فإنَّهم لو شَعَرُوا؛ لكان لهم وله شأن آخر.

﴿١٠﴾ ولما فقدت موسى أمه حزنت حزناً شديداً، وأصبح فؤاؤها فارغاً من القلق الذي أزعجها على مقتضى الحالة البشرية، مع أنّ الله تعالى نهاها عن الحزن والخوف، ووعدها برده. ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾؛ أي: بما في قلبها ﴿لَوْ لَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾: فنبَّئناها، فصبرت ولم تُبْدِ به؛ ﴿لَتَكُونَ﴾: بذلك الصبر والثبات ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: فإنَّ العبد إذا أصابته مصيبةٌ فصبر وثبت؛ ازداد بذلك إيمانه، ودلَّ ذلك على أنَّ استمرار الجزع مع العبد دليلٌ على ضعف إيمانه.

﴿١١﴾ ﴿وَقَالَتْ﴾ أم موسى ﴿لَأُخْتِي قُصِيهٍ﴾؛ أي: اذهبي فقُصِّي الأثر عن أخيك، وابحثي عنه؛ من غير أن يُحِسَّ بك أحدٌ أو يشعروا بمقصودك، فذهبت تقصُّه، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: أبصرته على وجهٍ كأنَّها مارةٌ لا قصد لها فيه، وهذا من تمام الحزم والحذر؛ فإنَّها لو أبصرته وجاءت إليهم قاصدةً؛ لظنَّوا بها أنها هي التي ألقته، فربَّما عزموا على ذبحه عقوبةً لأهله.

﴿١٢﴾ ومن لطف الله بموسى وأمه أن مَنَعَهُ من قبول ثدي امرأة، فأخرجه إلى السوق رحمةً به، ولعل أحداً يطلبه، فجاءت أخته وهو بتلك الحال، ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾: وهذا جُلُّ غرضهم؛ فإنَّهم أحبُّوه حبًّا شديداً، وقد منعهُ اللهُ من المراضع، فخافوا أن يموت.

﴿١٣﴾ فلما قالت لهم أخته تلك المقالة المشتملة على الترغيب في أهل هذا البيت بتمام حفظه وكفالاته والنصح له؛ بادروا إلى إجابتها، فأغْلَمَتْهم ودلَّتْهم على أهل هذا البيت. ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ﴾: كما وَعَدْنَاهَا بذلك؛ ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا

(١) في (ب): «منزلة».

تَحْزَنَ: بحيث إنه تربى عندها على وجه تكون فيه آمنة مطمئنة تفرح به وتأخذ الأجرة الكثيرة على ذلك، ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾: فأريناها بعض ما وعدناها به عياناً ليطمئن بذلك قلبها ويزداد إيمانها، ولتعلم أنه سيحصل وعد الله في حفظه ورسالته. ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾: فإذا رأوا السبب متشوشاً؛ شوش ذلك إيمانهم؛ لعدم علمهم الكامل أن الله تعالى يجعل المحن والعقبات الشاقة^(١) بين يدي الأمور العالية والمطالب الفاضلة.

فاستمر موسى عليه الصلاة والسلام عند آل فرعون يتربى في سلطانهم ويركب مراكبهم ويلبس ملابستهم، وأمه بذلك مطمئنة، قد استقر أنها أمه من الرضاع، ولم يستنكر ملازمته إياها و[حنوها عليه]^(٢). وتأمل هذا اللطف وصيانة نبى موسى من الكذب في منطقهِ وتيسير الأمر الذي صار به التعلق بينه وبينها، الذي بان للناس هو الرضاع الذي بسببه يسميها أمًا، فكان الكلام الكثير منه ومن غيره في ذلك كله صدقاً وحققاً.

﴿١٤﴾ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾: من القوة والعقل واللب، وذلك نحو أربعين سنة في الغالب، ﴿وَاسْتَوَى﴾: كملت فيه تلك الأمور ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾؛ أي: حكماً يعرف به الأحكام الشرعية، ويحكم به بين الناس، وعلماً كثيراً. ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾: في عبادة الله، المحسنين لخلق الله؛ يعطيهم علماً وحكماً بحسب إحسانهم. ودل هذا على كمال إحسان موسى عليه السلام.

﴿١٥ - ١٧﴾ ﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها﴾: إما وقت القائلة أو غير ذلك من الأوقات التي بها يغفلون عن الانتشار، ﴿فوجد فيها رجلين يقتتلان﴾: [أي] يتخاصمان ويتضاربان. ﴿هذا من شيعته﴾؛ أي: من بني إسرائيل، ﴿وهذا من عدوه﴾: القبط، ﴿فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه﴾: لأنه قد اشتهر وعلم الناس أنه من بني إسرائيل، واستغاثه لموسى دليل على أنه بلغ موسى عليه السلام مبلغاً يخاف منه ويرجى من بيت المملكة والسلطان. ﴿فوكزه موسى﴾؛ أي: وكز الذي من عدوه استجابة لاستغاثته الإسرائيلي، ﴿فقضى عليه﴾؛ أي: أماته من تلك الوكزة لشديتها وقوة موسى. فندم موسى عليه السلام على ما جرى منه، و﴿قال هذا من عمل الشيطان﴾؛ أي: من تزيينه ووسوسته. ﴿إنه عدو مضل﴾

(٢) في (أ): «حنوه عليها».

(١) في (ب): «المحن الشاقة».

مبين: ﴿فلذلك أجرى ما أجرى بسبب عداوته بينة وحرصه على الإضلال. ثم استغفر ربه، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: خصوصاً للمُخْبِتِينَ إليه، المبادرين للإنبابة والتوبة؛ كما جرى من موسى عليه السلام، ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾: بالتوبة والمغفرة والنعم الكثيرة، ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهيراً﴾؛ أي: مُعيناً ومساعداً ﴿لِلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: لا أعين أحداً على معصية. وهذا وعدٌ من موسى عليه السلام بسببِ مِثَّةِ اللَّهِ عليه أن لا يُعين مجرماً كما فعل في قتل القبطي، وهذا يفيد أن النعم تقتضي من العبد فعل الخير وترك الشر.

﴿١٨ - ١٩﴾ فلما جرى منه قتل الذي هو من عدوه؛ أصبح ﴿في المدينة خائفاً يترقب﴾: هل يشعر به آل فرعون أم لا؟ وإنما خاف لأنه قد عَلِمَ أَنَّهُ لا يتجرأ أحدٌ على مثل هذه الحال سوى موسى من بني إسرائيل. فبينما هو على تلك الحال؛ ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ﴾: على عدوه. ﴿يَسْتَضْرِخُهُ﴾: على قبطي آخر، ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى﴾: موبخاً على حاله: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾؛ أي: بين الغواية ظاهر الجراءة، ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ﴾: موسى ﴿بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾: أي له وللمخاصم المستصرخ لموسى؛ أي: لم يزل اللجاج بين القبطي والإسرائيلي، وهو يستغيث بموسى، فأخذته الحمية، حتى هم أن يبطش بالقبطي، ﴿قَالَ﴾ له القبطي زاجراً له عن قتله: ﴿أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تَرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ﴾: لأن من أعظم آثار الجبار في الأرض قتل النفس بغير حق. ﴿وَمَا تَرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُوحِينَ﴾: وإلا؛ فلو أردت الإصلاح؛ لَحُلَّتْ بيني وبينه من غير قتل أحد. فانكف موسى عن قتله، وازعوى لوعظه وزجره.

﴿٢٠﴾ وشاع الخبر بما جرى من موسى في هاتين القضيتين حتى تراود ملاً فرعون وفرعون على قتله، وتشاوروا على ذلك، فقبض^(١) الله ذلك الرجل الناصح، وبادرهم إلى الإخبار لموسى بما اجتمع عليه رأي ملئهم، فقال: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾؛ أي: ركضاً على قدميه من نُصْحِهِ لموسى وخوفه أن يوقعوا به قبل أن يشعر، فقال: ﴿يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْتِمُرُونَ﴾؛ أي: يتشاورون فيك؛ ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ﴾: عن المدينة ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾: فامثل نُصْحِهِ.

(١) في (ب): «وقيض».

﴿٢١﴾ ﴿فخرج منها خائفاً يترقب﴾: أن يُوقَعَ به القتل، ودعا الله و ﴿قال رب نجني من القوم الظالمين﴾: فإنه قد تاب من ذنبه، وفعله غضباً من غير قصد منه للقتل؛ فتوعدّهم له ظلّم منهم وجراًء.

﴿٢٢﴾ ﴿ولمّا توجهت لِقَاءَ مَدْيَنَ﴾؛ أي: قاصداً بوجهه مدينَ، وهو جنوبي فلسطين؛ حيث لا ملك لفرعون، ﴿قال عسى ربّي أن يهديني سواء السبيل﴾؛ أي: وسط الطريق المختصر الموصل إليها بسهولة ورفق. فهده الله سواء السبيل، فوصل إلى مَدْيَنَ.

﴿٢٣﴾ ﴿ولمّا ورد ماء مَدْيَنَ وجدَ عليه أمةً من الناس يسقون﴾: مواشيهم، وكانوا أهل ماشية كثيرة، ﴿ووجد من دونهم﴾؛ أي: دون تلك الأمة ﴿امراتين تزدودان﴾: غنّهما عن حياض الناس؛ لعجزهما عن مزاحمة الرجال، ويخلّهم وعدم مروءتهم عن السقي لهما، ﴿قال﴾: لهما موسى: ﴿ما خطبُكما﴾؛ أي: ما شأنكما بهذه الحالة؟ ﴿قالتا لا نسقي حتى يُضدِرَ الرّعاء﴾؛ أي: قد جرت العادة أنّه لا يحصل لنا سقي حتى يُضدِرَ الرّعاء مواشيهم؛ فإذا خلا لنا الجو؛ سقينا، ﴿وأبونا شيخ كبير﴾؛ أي: لا قوّة له على السقي، فليس فينا قوّة نقتدِرُ بها، ولا لنا رجال يزاجمون الرّعاء.

﴿٢٤﴾ ﴿فرّق لهما موسى عليه السلام ورجّهما، فسقى لهما﴾: غير طالب منهما الأجر، ولا له قصدٌ غير وجه الله تعالى، فلما سقى لهما، وكان ذلك وقت شدة حرّ وسط النهار؛ بدليل قوله: ﴿ثمّ تولى إلى الظّل﴾؛ مستريحاً لتلك الظلال بعد التعب، ﴿فقال﴾ في تلك الحالة مستزقاً ربّه: ﴿ربّ إنّي لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾؛ أي: إنّي مفتقرٌ للخير الذي تسوّقه إليّ وتيسّره لي، ولهذا سؤال منه بحالِهِ، والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال.

﴿٢٥﴾ ﴿فلم يزل في هذه الحالة داعياً ربه متملقاً، وأما المرأتان؛ فذهبتا إلى أبيهما وأخبرتا بما جرى، فأرسل أبوهما إحداهما إلى موسى، فجاءته ﴿تمشي على استحياء﴾، وهذا يدلُّ على كرم عنصرها وخلقها الحسن؛ فإنّ الحياء من الأخلاق الفاضلة، وخصوصاً في النساء، ويدلُّ على أنّ موسى عليه السلام لم يكن فيما فعله من السقي لهما بمنزلة الأجير والخادم الذي لا يستحقى منه عادة، وإنّما هو عزيز النفس، رأث من حسن خُلُقِهِ ومكارم أخلاقه ما أوجب لها الحياء منه، ﴿قالت﴾: له: ﴿إنّ أبي يدعوكَ لِيُخْزِيكَ أَجَرَ ما سَقَيْتَ لنا﴾؛ أي: لا لمنّ عليك، بل أنت

الذي ابتدأتنا بالإحسان، وإِنَّمَا قَصْدُهُ أَنْ يَكَاِفُتَكَ عَلَى إِحْسَانِكَ، فَأَجَابَهَا مُوسَى، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ﴾: من ابتداء السبب الموجب لهربه إلى أَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ، ﴿قَالَ﴾: لَهُ مَسْكَنٌ رَوْعُهُ جَابِرٌ قَلْبُهُ: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾؛ أَي: لِيَذْهَبْ خَوْفُكَ وَرَوْعُكَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ نَجَّاكَ مِنْهُمْ حَيْثُ وَصَلْتَ إِلَى هَذَا الْمَحَلِّ الَّذِي لَيْسَ لَهُمْ عَلَيْهِ سُلْطَانٌ.

﴿٢٦﴾ ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا﴾؛ أَي: إِحْدَى ابْنَتَيْهِ: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾؛ أَي: اجْعَلْهُ أَجِيرًا عِنْدَكَ يَرْعَى الْغَنَمَ وَيَسْقِيهَا، ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾؛ أَي: إِنَّ مُوسَى أَوْلَى مَنْ اسْتَوْجَرَ؛ فَإِنَّهُ جَمَعَ الْقُوَّةَ وَالْأَمَانَةَ، وَخَيْرَ أَجِيرٍ اسْتَوْجَرَ مَنْ جَمَعَهُمَا؛ [أَي]: الْقُوَّةَ وَالْقُدْرَةَ عَلَى مَا اسْتَوْجَرَ عَلَيْهِ، وَالْأَمَانَةَ فِيهِ بِعَدَمِ الْخِيَانَةِ، وَهَذَانِ الْوَصْفَانِ يَنْبَغِي اعْتِبَارُهُمَا فِي كُلِّ مَنْ يَتَوَلَّى لِلْإِنْسَانِ عَمَلًا بِإِجَارَةٍ أَوْ غَيْرِهَا؛ فَإِنَّ الْخِلَلَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِفَقْدِهِمَا أَوْ فَقْدِ إِحْدَاهُمَا، وَأَمَّا اجْتِمَاعُهُمَا؛ فَإِنَّ الْعَمَلَ يَتِمُّ وَيَكْمُلُ. وَإِنَّمَا قَالَتْ ذَلِكَ لِأَنَّهَا شَاهَدَتْ مِنْ قُوَّةِ مُوسَى عِنْدَ السَّقِيِّ لَهُمَا وَنَشَاطِهِ مَا عَرَفَتْ بِهِ قُوَّتَهُ، وَشَاهَدَتْ مِنْ أَمَانَتِهِ وَدَيَانَتِهِ وَأَنَّهُ رَحِمَهُمَا فِي حَالَةٍ لَا يُرْجَى نَفْعُهُمَا، وَإِنَّمَا قَصْدُهُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى.

﴿٢٧﴾ ﴿قَالَ﴾ صَاحِبُ مَدْيَنَ لِمُوسَى: ﴿إِنِّي أَرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيِ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي﴾؛ أَي: تَصِيرَ أَجِيرًا عِنْدِي ﴿ثَمَانِي حِجَجٍ﴾؛ أَي: ثَمَانِي سَنِينَ، ﴿فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾: تَبْرُعُ مِنْكَ لَا شَيْءَ وَاجِبٌ عَلَيْكَ. ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُثَقِّ عَلَيْكَ﴾: فَأَحْتَمُ عَشَرَ السَّنِينَ، أَوْ مَا أَرِيدُ أَنْ أَسْتَأْجِرَكَ لِأَكْلَفِكَ أَعْمَالًا شَاقَّةً، وَإِنَّمَا اسْتَأْجَرْتُكَ لَعَمَلٍ سَهْلٍ يَسِيرٍ لَا مَشَقَّةَ فِيهِ. ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: فَرَعْبَهُ فِي سَهُولَةِ الْعَمَلِ وَفِي حَسَنِ الْمَعَامَلَةِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ الصَّالِحَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُحَسِّنَ خُلُقَهُ مَهْمَا أَمَكَنَهُ، وَأَنَّ الَّذِي يُطَلَّبُ مِنْهُ أُبْلَغُ مِنْ غَيْرِهِ.

﴿٢٨﴾ ﴿قَالَ﴾ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مُجِيبًا لَهُ فِيمَا طَلَبَ مِنْهُ: ﴿ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾؛ أَي: هَذَا الشَّرْطُ الَّذِي أَنْتَ ذَكَرْتَ رَضِيْتُ بِهِ، وَقَدْ تَمَّ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ، ﴿أَيُّمَا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾: سَوَاءٌ قَضَيْتُ الثَّمَانِ الْوَاجِبَةَ أَمْ تَبَرَّعْتُ بِالزَّائِدِ عَلَيْهَا، ﴿وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾: حَافِظٌ يَر_اقِبُنَا وَيَعْلَمُ مَا تَعَاقَدْنَا عَلَيْهِ.

وهَذَا الرَّجُلُ أَبُو الْمَرَاتَيْنِ صَاحِبُ مَدْيَنَ لَيْسَ بِشُعَيْبِ النَّبِيِّ الْمَعْرُوفِ كَمَا اشْتَهَرَ

عند كثير من الناس؛ فَإِنَّ هَذَا قَوْلٌ لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ دَلِيلٌ^(١)، وغاية ما يكون أن شعيباً عليه السلام قد كانت بلدُهُ مدينَ، وهذه القضية جرت في مدينَ؛ فأين الملازمة بين الأمرين؟! وأيضاً؛ فإنه غير معلوم أن موسى أدركَ زمانَ شعيبٍ؛ فكيف بشخصه؟! ولو كان ذلك الرجلُ شعيباً؛ لذكره الله تعالى، ولسمَّته المرأتان. وأيضاً؛ فَإِنَّ شعيباً عليه الصلاة والسلام قد أهلك الله قومه بتكذيبهم إياه، ولم يبقَ إِلَّا مَنْ آمَنَ به، وقد أعاذ الله المؤمنينَ به أن يرضُوا لبنتي نبيهم بمنعهما عن الماء وصدَّ ماشيتهما حتى يَأْتِيَهُمَا رَجُلٌ غَرِيبٌ فيحسِنُ إليهما ويسقي ماشيتهما، وما كان شعيبٌ ليرضى أن يرعى موسى عنده ويكون خادماً له وهو أفضلُ منه وأعلى درجة؛ إِلَّا أَنْ يُقَالَ: هَذَا قَبْلُ نَبْوَةِ موسى؛ فلا منافاة. وعلى كُلِّ حال؛ لَا يُعْتَمَدُ على أَنَّهُ شعيبُ النبيِّ بغير نقل صحيح عن النبي ﷺ. والله أعلم.

﴿٢٩﴾ ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾: يُحْتَمَلُ أَنَّهُ قَضَى الْأَجَلَ الْوَاجِبَ أَوْ الزَّائِدَ عَلَيْهِ كَمَا هُوَ الظَّنُّ بِمُوسَى وَوَفَائِهِ؛ اشْتِاقٌ إِلَى الْوُصُولِ إِلَى أَهْلِهِ وَوَالِدَيْهِ وَعَشِيرَتِهِ وَوَطَنِهِ، وَظَنٌّ^(٢) مِنْ طُولِ الْمَدَّةِ أَنَّهُمْ قَدْ تَنَاسَوْا مَا صَدَرَ مِنْهُ. ﴿سَارَ بِأَهْلِهِ﴾: قاصداً مصر، ﴿أَنَسَ﴾؛ أي: أَبْصَرَ، ﴿مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً﴾، ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسَ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَضْطَلُونَ﴾: وَكَانَ قَدْ أَصَابَهُمُ الْبَرْدُ، وَتَاهُوا الطَّرِيقَ.

﴿٣٠﴾ ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ﴾: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾: فَأَخْبِرَهُ بِالْهُوِّيَّةِ وَرَبُوبِيَّةِ، وَيُلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ يَأْمُرَهُ بِعِبَادَتِهِ وَتَأْلُفِهِ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى، ﴿فَاغْبِذْني وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾.

﴿٣١﴾ ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾: فَالْقَاهَا، ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ﴾: تَسْعَى سَعِيّاً شَدِيداً، وَلَهَا صُورَةٌ مُهَيْلَةٌ ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾: ذَكَرَ الْحَيَاتِ الْعَظِيمِ، ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾؛ أي: يَرْجِعُ لَاسْتِيْلَاءِ الرُّوعِ عَلَى قَلْبِهِ، فَقَالَ اللَّهُ لَهُ: ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾: وَهَذَا أَبْلَغُ مَا يَكُونُ فِي التَّأْمِينِ وَعَدَمِ الْخَوْفِ؛ فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿أَقْبِلْ﴾:

(١) قال الطبري (١٩/٥٦٢): «وهذا مما لا يدرك علمه إلا بخبر ولا خبر بذلك تجب حجته». وقال ابن كثير: «إنه لو كان إياه [أنه شعيب النبي عليه السلام] لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن هاهنا، وما جاء في بعض الأحاديث، من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده»، «تفسير ابن كثير» (٦/٢٣٨).

(٢) في (ب): «وعلم».

يقتضي الأمر بإقباله ويجب عليه الامتثال، ولكن قد يكون إقباله وهو لم يزل الأمر المخوف، فقال: ﴿وَلَا تَخَفْ﴾: أمر له بشيئين: إقباله، وأن لا يكون في قلبه خوف. ولكن يبقى احتمال، وهو أنه قد يُقْبَلُ وهو غير خائف، ولكن لا تحصل له الوقاية والأمن من المكروه فقال: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾: فحينئذ اندفع المحذور من جميع الوجوه. فأقبل موسى عليه السلام غير خائف ولا مرعوب، بل مطمئناً واثقاً بخبر ربه، قد ازداد إيمانه وتم يقينه. فهذه آية أراه الله إياها قبل ذهابه إلى فرعون؛ ليكون على يقين تام، ليكون أجراً له وأقوى وأصلب.

﴿٣٢﴾ ثم أراه الآية الأخرى، فقال: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ﴾؛ أي: أَدْخِلْهَا ﴿فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوٍ﴾: فَسَلَكَهَا وَأَخْرَجَهَا كَمَا ذَكَرَ^(١) اللَّهُ تَعَالَى، ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾؛ أي: ضَمَّ جَنَاحَكَ - وهو عَضْدُكَ - إِلَى جَنْبِكَ؛ لِيَزُولَ عَنْكَ الرَّهْبُ وَالْخَوْفُ. ﴿فَذَنْكَ﴾؛ أي: انْقِلَابَ الْعَصَا حَيَّةً وَخُرُوجَ الْيَدِ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوٍ ﴿بِرَهَانَيْنِ مِنْ رَبِّكَ﴾؛ أي: حجتان قاطعتان من الله ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُنَّ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾: فلا يكفيهم مجرد الإنذار وأمر الرسول إياهم، بل لا بد من الآيات الباهرة إن نفعت.

﴿٣٣ - ٣٤﴾ وَقَالَ ﴿مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مُعْتَذِرًا مِنْ رَبِّهِ وَسَائِلًا لَهُ الْمَعُونَةَ عَلَى مَا حَمَلَهُ وَذَكَرًا لَهُ الْمَوَانِعَ الَّتِي فِيهِ لِيُزِيلَ رَبُّهُ مَا يَخْذَرُهُ مِنْهَا﴾: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾؛ أي: ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ. وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾؛ أي: معاوناً ومساعداً، يصدّقون فإنه مع تضافر الأخبار يقوى الحق.

﴿٣٥﴾ فأجابه الله إلى سؤاله، فقال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾؛ أي: نعاونك به ونقويك. ثم أزال عنه محذور القتل، فقال: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾؛ أي: تسلطاً وتمكناً من الدعوة بالحجة والهيبة الإلهية من عدوهما لهما؛ ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾: وذلك بسبب آياتنا وما دلّت عليه من الحق وما أزعجت به من باشرها ونظر إليها؛ فهي التي بها حصل لكما السلطان، واندفع بها عنكم كيد عدوكم^(٢)، وصارت لكم أبلغ من الجنود أولي العدد والعدد. ﴿أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾: ولهذا وعد لموسى في ذلك الوقت، وهو وحده فريد، وقد رجع إلى بلده بعدما كان شريداً، فلم تزل الأحوال تتطور والأمور تنتقل حتى أنجز له موعوده، ومكنه

(١) في (ب): «ذكره».

(٢) في (ب): «عدوهم».

من العباد والبلاد، وصار له ولأتباعه الغلبة والظهور.

﴿٣٦﴾ فذهب موسى برسالة ربه، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾: واضحات الدلالة على ما قال لهم^(١)، ليس فيها قصور ولا خفاء، ﴿قَالُوا﴾: على وجه الظلم والعلو والعناد: ﴿مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرٍ﴾؛ كما قال فرعون في تلك الحال التي ظهر فيها الحق، واستعلى على الباطل، واضمحل الباطل، وخضع له الرؤساء العارِفون حقائق الأمور: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾! هذا؛ وهو الذكي غير الزكي، الذي بلغ من المكر والخداع والكيد ما قصه الله علينا، وقد علم ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض، ولكن الشقاء غالب، ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ﴾: وقد كذبوا في ذلك؛ فإن الله أرسل يوسف قبل موسى؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾.

﴿٣٧﴾ ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾: حين زعموا أن الذي جاءهم به سحر وضلال، وأن ما هم عليه هو الهدى: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾؛ أي: إذا لم تُفِدِ المقابلة معكم وتبين الآيات البينات وأبيتم إلا التماذي في غيكم واللجاج على كفركم؛ فالله تعالى العالم بالمهتدي وغيره ومن تكون له عاقبة الدار؛ نحن أم أنتم. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾: فصار عاقبة الدار لموسى وأتباعه والفلاح والفوز، وصار لأولئك الخسار وسوء العاقبة والهلاك.

﴿٣٨﴾ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾: متجرباً على ربه ومموهاً على قومه السفهاء أخفاء العقول: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾؛ أي: أنا وحدي إلهكم ومعبودكم، ولو كان ثم إله غيري؛ لعلمته! فانظر إلى هذا الورع التام من فرعون؛ حيث لم يقل: ما لكم من إله غيري! بل تورّع وقال: ما علمت لكم من إله غيري! ولهذا لأنه عندهم العالم الفاضل، الذي مهما قال؛ فهو الحق، ومهما أمر؛ أطاعوه.

فلما قال هذه المقالة التي قد تحتمل أن ثم إلهاً غيره؛ أراد أن يحقق النفي الذي جعل فيه ذلك الاحتمال، فقال لهامان: ﴿فَأَوْقَدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾: ليجعل له لبناً من فخار، ﴿فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً﴾؛ أي: بناءً عالياً^(٢)؛

(١) في (ب): «ما قاله لهم».

﴿لَعَلِّي أَطْلُعَ إِلَى إِلَهِي مُوسَى وَإِنِّي لِأُظْهِرَهُ﴾ كاذباً ولكن سنحقق هذا الظن ونريكم كَذِبَ موسى.

فانظر هذه الجراءة العظيمة على الله، التي ما بلغها آدمي! كَذِبَ موسى، وأدعى أنه الله، ونفى أن يكون له علمٌ بالإله الحق، وفعل الأسباب ليتوصل إلى إله موسى، وكل هذا ترويج. ولكن العجب من هؤلاء الملأ الذين يزعمون أنهم كبارُ المملكة المدبرون لشؤونها؛ كيف لعب هذا الرجل بعقولهم، واستخف أحلامهم؟! وهذا لفسقهم الذي صار صفةً راسخةً فيهم؛ فسد دينهم، ثم تبع ذلك فساد عقولهم؛ فنسألك اللهم الثبات على الإيمان، وأن لا تُزيغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وتَهَبْ لنا من لَدُنْكَ رحمةً إنَّكَ أَنْتَ الوهاب.

﴿٣٩﴾ قال تعالى: ﴿واستكبر هو وجنوده في الأرض بغيرِ الحق﴾: استكبروا على عبادِ الله، وساموهم سوء العذاب، واستكبروا على رسلِ الله وما جاؤوهم به من الآيات، فكذبوها، وزعموا أنَّ ما هم عليه أعلى منها وأفضل، ﴿وظنُّوا أنهم إلينا لا يُرجعون﴾: فلذلك^(١) تجرؤوا، وإلَّا؛ فلو علموا أو ظنُّوا أنهم يُرجعون إلى الله؛ لما كان منهم ما كان.

﴿٤٠﴾ ﴿فأخذناه وجنوده﴾: عندما استمرَّ عنادُهم وبَغْيُهم، ﴿فنبذناهم في اليَمِّ فانظر كيف كان عاقبةَ الظالمين﴾: كانت أشْرُ العواقبِ وأخسرها عاقبةً، أعقبتها العقوبةُ الدنيويَّةُ المستمرةُ المتصلةُ بالعقوبةِ الأخرويَّةِ.

﴿٤١﴾ ﴿وجعلناهم أئمةً يدعون إلى النار﴾؛ أي: جعلنا فرعونَ وملاه من الأئمة الذين يُقتدى بهم، ويُمشى خلفهم إلى دار الخزي والشقاء. ﴿ويوم القيامة لا يُنصرون﴾: من عذاب الله؛ فهم أضعف شيء عن دفعه عن أنفسهم، وليس لهم من دون الله من وليٍّ ولا نصير.

﴿٤٢﴾ ﴿وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة﴾؛ أي: وأتبعناهم زيادةً في عقوبتهم وخزيهم في الدنيا لعنةً يلعون، ولهم عند الخلق الشاء القبيح والمقت والذم، وهذا أمرٌ مشاهد؛ فهم أئمةُ الملعونين في الدنيا ومقدمتهم. ﴿ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾: المبعدين، المستقذرة أفعالهم، الذين^(٢) اجتمع عليهم مقتُ الله ومقتُ خلقه ومقتُ أنفسهم.

(١) في (ب): «فذلك».

(٢) في (ب): «الذي».

﴿٤٣﴾ ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾: وهو التوراة ﴿من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾: الذين كان خاتمهم في الإهلاك العام فرعون وجنوده، وهذا دليل على أنه بعد نزول التوراة انقطع الهلاك العام، وشرع جهاد الكفار بالسيف؛ ﴿بصائر للناس﴾؛ أي: كتاب الله الذي أنزله على موسى فيه بصائر للناس؛ أي: أمور يبصرون بها ما ينفعهم وما يضرهم، فتقوم الحجّة على العاصي، وينتفع بها المؤمن، فتكون رحمة في حقّه وهداية له إلى الصراط المستقيم، ولهذا قال: ﴿وهديّ ورحمةً لهم يتذكرون﴾.

﴿٤٤﴾ ولما قصّ الله على رسوله ما قصّ من هذه الأخبار الغيبية؛ نبّه العباد على أنّ هذا خبرٌ إلهيٌّ محضٌ، ليس للرسول طريقٌ إلى علمه؛ إلّا من جهة الوحي؛ ولهذا قال: ﴿وما كنت بجانب الغربي﴾؛ أي: بجانب الطور الغربي وقت قضائنا لموسى الأمر، ﴿وما كنت من الشاهدين﴾: على ذلك حتى يُقال: إنه وصل إليك من هذا الطريق.

﴿٤٥﴾ ﴿ولكنّا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر﴾: فاندرس العلم ونُسيت آياته، فبعثناك في وقتٍ اشتدّت الحاجة إليك وإلى ما علّمناك وأوحينا إليك، ﴿وما كنت ثاوياً﴾؛ أي: مقيماً، ﴿في أهل مدينٍ تتلو عليهم آياتنا﴾؛ أي: تعلّمهم وتعلّم منهم، حتى أخبرت بما أخبرت من شأن موسى في مدين. ﴿ولكنّا كنّا مرسلين﴾؛ أي: ولكنّ ذلك الخبر الذي جئت به عن موسى أثرٌ من آثار إرسالنا إياك ووحى لا بسبيل لك إلى علمه بدون إرسالنا.

﴿٤٦﴾ ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾: موسى وأمرناه أن يأتي القوم الظالمين ويبلغهم رسالتنا ويُرِيهم من آياتنا وعجايبنا ما قصّصنا عليك.

والمقصود أن الماجريات التي جرت لموسى عليه الصلاة والسلام في هذه الأماكن، فقصصتها كما هي من غير زيادة ولا نقص، لا يخلو من أحد أمرين: إمّا أن تكون حَضَرَتها وشاهدَتها، أو ذهبت إلى محالّها فتعلّمتها من أهلها؛ فحينئذٍ قد لا يدلّ ذلك على أنّك رسول الله؛ إذ الأمور التي يُخبر بها عن شهادة ودراسة من الأمور المشتركة غير المختصة بالأنبياء، ولكن هذا قد علّم وتيقّن أنه ما كان وما صار؛ فأولياؤك وأعداؤك يعلمون عدم ذلك. فتعيّن الأمر الثاني، وهو أن هذا جاءك من قِبَل الله ووحيه وإرساله، فثبت بالدليل القطعيّ صحة رسالتك ورحمة الله بك للعباد، ولهذا قال: ﴿ولكن رحمة من

رَبِّكَ لِنُذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ؛ أَي: العرب وقريش؛ فَإِنَّ الرِّسَالَةَ عِنْدَهُمْ لَا تُعْرَفُ وَقَدْ أُرْسِلَ الرَّسُولُ وَقَبْلَهُ بِأَزْمَانٍ مُتَطَاوِلَةٍ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْذَكُرُونَ﴾: تَفْصِيلُ الْخَيْرِ فَيَفْعَلُونَهُ، وَالشَّرَّ فَيَتْرَكُونَهُ. فَإِذَا كُنْتَ بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ؛ كَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِمُ الْمَبَادَرَةُ إِلَى الْإِيمَانِ بِكَ وَشُكْرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي لَا يُقَادَرُ قَدْرُهَا وَلَا يُذَرَّكَ شُكْرُهَا. وَإِنْذَارُهُ لِلْعَرَبِ لَا يَنْفِي أَنْ يَكُونَ مَرْسَلًا لِغَيْرِهِمْ؛ فَإِنَّهُ عَرَبِيٌّ، وَالْقُرْآنُ الَّذِي نَزَلَ^(١) عَلَيْهِ عَرَبِيٌّ، وَأَوَّلُ مَنْ بَاشَرَ بِدَعْوَتِهِ الْعَرَبُ، فَكَانَتْ رِسَالَتُهُ لَهُمْ أَصْلًا وَلِغَيْرِهِمْ تَبَعًا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.

﴿٤٧﴾ ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي، لَقَالُوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أَي: فَارْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ، لَدَفْعِ حُجَّتِهِمْ، وَقَطْعِ مَقَالَتِهِمْ.

﴿٤٨﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾: الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ ﴿مِنْ عِنْدِنَا﴾: وَهُوَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَوْحَيْنَاهُ إِلَيْكَ، ﴿قَالُوا﴾: مَكْذُوبٌ لَهُ وَمُعْتَرِضِينَ بِمَا لَيْسَ يُعْتَرِضُ بِهِ: ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلُ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾؛ أَي: أُنْزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ مِنَ السَّمَاءِ جَمْلَةً وَاحِدَةً؛ أَي: فَأَمَّا مَا دَامَ يَنْزِلُ مُتَفَرِّقًا؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَيُّ دَلِيلٍ فِي هَذَا؟! وَأَيُّ شَبْهَةٍ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ حِينَ نَزَلَ مُفَرَّقًا؟! بَلْ مِنْ كَمَالِ هَذَا الْقُرْآنِ وَاعْتِنَاءِ اللَّهِ بِمَنْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ أَنْ نَزَلَ مُتَفَرَّقًا؛ لِيُثَبِّتَ اللَّهُ بِهِ فُؤَادَ رَسُولِهِ، وَيَحْصُلَ زِيَادَةُ الْإِيمَانِ لِلْمُؤْمِنِينَ، ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾. وَأَيْضًا؛ فَإِنَّ قِيَاسَهُمْ عَلَى كِتَابِ مُوسَى قِيَاسٌ قَدْ نَقَضُوهُ؛ فَكَيْفَ يَقِيسُونَهُ عَلَى كِتَابِ كُفْرِهِمْ بِهِ وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ؟! وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾؛ أَي: الْقُرْآنُ وَالتَّوْرَةُ تَعَاوَنَا فِي سِحْرِهِمَا وَإِضْلَالِ النَّاسِ ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُمْ كَافِرُونَ﴾: فَثَبَّتَ بِهَذَا أَنَّ الْقَوْمَ يَرِيدُونَ إِبْطَالَ الْحَقِّ بِمَا لَيْسَ بِبِرْهَانٍ، وَيَنْقُضُونَهُ بِمَا لَا يُنْقَضُ، وَيَقُولُونَ الْأَقْوَالَ الْمُتَنَاقِضَةَ الْمُخْتَلِفَةَ، وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ كَافِرٍ، وَلِهَذَا صَرَّحَ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِالْكَتَابَيْنِ وَالرُّسُولَيْنِ.

﴿٤٩﴾ ﴿وَلَكِنْ هَلْ كَفَرُهُمْ بِهِمَا طَلَبًا لِلْحَقِّ وَاتِّبَاعًا لِأَمْرِ عِنْدَهُمْ خَيْرٌ مِنْهُمَا، أَمْ

(١) فِي (ب): «أُنْزِلَ».

مَجْرَدُ هَوًى؟! قال تعالى ملزماً لهم بذلك: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا﴾؛ أي: من التوراة والقرآن؛ ﴿اتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: ولا سبيل لهم ولا لغيرهم أن يأتوا بمثلهما؛ فإنه ما طرق العالم منذ خَلَقَهُ اللَّهُ مثل هُذَيْنِ الْكِتَابَيْنِ علماً وهدىً وبياناً ورحمةً للخلق، وهذا من كمال الإنصاف من الداعي أن قال: أنا مقصودي الحق والهدى والرشد، وقد جئْتُكم بهذا الكتاب المشتمل على ذلك الموافق لكتاب موسى؛ فيجب علينا جميعاً الإذعان لهما واتباعهما من حيث كونُهُما هدىً وحقاً؛ فَإِنْ جئْتُمُونِي بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا؛ اتَّبِعْتُهُ، وإلا؛ فلا أترك هدىً وحقاً قد علمته لغير هدىً وحق.

﴿٥٠﴾ ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾: فلم يأتوا بكتابٍ أَهْدَى مِنْهُمَا، ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾؛ أي: فاعلم أن تركهم اتِّباعَكَ ليسوا ذاهبين إلى حقٍّ يعرفونه ولا إلى هدىً، وإنَّما ذلك مجرد اتِّباع لأهوائِهِمْ. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هَدًى مِنَ اللَّهِ﴾: فهذا من أضلِّ الناس؛ حيث عرض عليه الهدى والصراف المستقيم الموصل إلى الله وإلى دار كرامته؛ فلم يلتفت إليه، ولم يُقْبَلْ عليه، ودعاه هواه إلى سلوك الطرق الموصلة إلى الهلاك والشقاء، فاتَّبعه وترك الهدى؛ فهل أحدٌ أضلُّ ممَّنْ هُذَا وصفه؟! وَلَكِنْ ظَلَمَهُ وَعَدَوَانَهُ وَعَدَمَ مُحَبَّتِهِ لِلْحَقِّ هُوَ الَّذِي أَرْجَبَ لَهُ أَنْ يَبْقَى عَلَى ضَلَالِهِ وَلَا يَهْدِيَهُ اللَّهُ؛ فَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: الذين صار الظلمُ لهم وصفاً والعنادُ لهم نعتاً، جاءهم الهدى فرفضوه، وعَرَضَ لَهُمُ الْهَوَى فَتَبِعُوهُ، سَدُّوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَبْوَابَ الْهَدَايَةِ وَطُرُقَهَا، وفتحوا عليهم أبواب الغواية وسبُلَهَا؛ فهم في غيِّهم وظلمهم يعمهون، وفي شقائِهِمْ وهلاكِهِمْ يتردّدون، وفي قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾: دليلٌ على أَنَّ كُلَّ مَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لِلرَّسُولِ، وَذَهَبَ إِلَى قَوْلٍ مُخَالَفٍ لِقَوْلِ الرَّسُولِ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَذْهَبْ إِلَى هَدًى، وإنَّما ذهب إلى هوى.

﴿٥١﴾ ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾؛ أي: تابغناه وواصلناه وأنزلناه شيئاً فشيئاً رحمة بهم ولطفاً؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: حين تتكرَّرُ عليهم آيَاتُهُ، وتنزِلُ عليهم بيناتُهُ وقت الحاجة إليها، فصار نزولُهُ متفرِّقاً رحمةً بهم، فلم يعترضوا بما هو من مصالحهم؟!

فصل

في ذِكْرِ بعض الفوائد والعبر في هذه القصة العجيبة

فمنها: أَنَّ آيَاتِ اللَّهِ [تعالى] وعبره وأيامه في الأمم السابقة إنما يستفيد بها ويستنير المؤمنون؛ فعلى حسب إيمان العبد تكون عبرته، وَأَنَّ اللَّهَ تعالى إنما يسوقُ القصص لأجلهم، وأما غيرهم؛ فلا يعباُ الله بهم، وليس لهم منها نورٌ وهدى.

ومنها: أَنَّ اللَّهَ تعالى إذا أراد أمراً؛ هيا أسبابه، وأتى بها شيئاً فشيئاً بالتدريج لا دفعة واحدة.

ومنها: أَنَّ الأُمَّةَ المستضعفة، ولو بلغت في الضعف ما بلغت، لا ينبغي لها أن يستولي عليها الكسل عن طلب حقها، ولا الإيأس من ارتقائها إلى أعلى الأمور، خصوصاً إذا كانوا مظلومين؛ كما استنقذ الله أمة بني إسرائيل الأُمَّة الضعيفة من أسر فرعون وملته، ومكنهم في الأرض، وملكهم بلادهم.

ومنها: أَنَّ الأُمَّة ما دامت ذليلةً مقهورة، لا تأخذ حقها، ولا تتكلم به لا يقوم لها أمر دينها ولا دُنياها، ولا يكون لها إمامة فيه.

ومنها: لطف الله بأم موسى وتهوينه عليها المصيبة بالبشارة بأنَّ اللَّهَ [تعالى] سيردُ إليها ابنها، ويجعله من المرسلين.

ومنها: أَنَّ اللَّهَ يقدِّرُ على عبده بعض المشاقِّ لِيُنِيلَهُ سروراً أعظم من ذلك، أو يدفع عنه شراً أكثر منه؛ كما قدر على أم موسى ذلك الحزن الشديد والهمَّ البليغ الذي هو وسيلة إلى أن يصل إليها ابنها على وجه تطمئنُّ به نفسها، وتقرُّ به عينها، وتزداد به غبطة وسروراً.

ومنها: أَنَّ الخوف الطبيعي من الخلق لا يُنافي الإيمان ولا يزيله؛ كما جرى لأم موسى، ولموسى من تلك المخاوف.

ومنها: أَنَّ الإيمان يزيد وينقص، وَأَنَّ من أعظم ما يزيد به الإيمان، ويتم به اليقين؛ الصبر عند المزعجات، والتثبت من الله عند المقلقات؛ كما قال تعالى: ﴿لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ليزداد إيمانها بذلك، ويطمئن قلبها.

ومنها: أَنَّ من أعظم نعم الله على عبده وأعظم معونة للعبد على أموره تثبيتُ الله إِيَّاه وربطُ جأشه وقلبه عند المخاوف وعند الأمور المذهلة؛ فإنه بذلك

يتمكّن من القول الصواب والفعل الصواب؛ بخلاف من استمرّ قلبه وروعه وانزعاجه؛ فإنه يضيع فكره، ويذهل عقله؛ فلا يتفّع بنفسه في تلك الحال.

ومنها: أن العبد ولو عرّف أن القضاء والقدر ووعّد الله نافذ لا بدّ منه؛ فإنه لا يهمل فعل الأسباب التي أمر بها، ولا يكون ذلك منافياً لإيمانه بخبر الله؛ فإن الله قد وعد أم موسى أن يرده عليها، ومع ذلك اجتهدت في رده، وأرسلت أخته لتقصّه وتطلّبه.

ومنها: جواز خروج المرأة في حوائجها وتكليمها للرجال من غير محذور كما جرى لأخت موسى وابنتي صاحب مدين.

ومنها: جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع والدلالة على من يفعل ذلك.

ومنها: أن الله من رحمته بعبده الضعيف الذي يريد إكرامه أن يُريه من آياته ويُشهِدَه من بيناته ما يزيد به إيمانه؛ كما ردّ الله موسى على أمّه؛ لتعلم أن وعد الله حقّ.

ومنها: أن قتل الكافر الذي له عهدٌ بعقدٍ أو عرفٍ لا يجوز؛ فإن موسى عليه السلام عدّ قتله القبطيّ الكافر ذنباً، واستغفر الله منه.

ومنها: أن الذي يقتل النفوس بغير حقّ؛ يعدّ من الجبارين الذين يفسدون في الأرض.

ومنها: أن من قتل النفوس بغير حقّ، وزعم أنه يريد الإصلاح في الأرض وتهيب أهل المعاصي؛ فإنه كاذبٌ في ذلك، وهو مفسدٌ؛ كما حكى الله قول القبطيّ: ﴿إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين﴾: على وجه التقرير له لا الإنكار.

ومنها: أن إخبار الرجل غيره بما قيل فيه على وجه التحذير له من شرّ يقع فيه؛ لا يكون ذلك نميمَةً، بل قد يكون واجباً؛ كما أخبر ذلك الرجل لموسى ناصحاً له ومحذراً.

ومنها: أنه إذا خاف القتل والتلف في الإقامة؛ فإنه لا يلقي بيده إلى التهلكة، ولا يستسلم لذلك، بل يذهب عنه كما فعل موسى.

ومنها: أنه عند تراحم المفسدين؛ إذا كان لا بدّ من ارتكاب إحداهما؛ فإنه يرتكب الأخفّ منهما الأسلم؛ كما أن موسى لما دار الأمر بين بقاءه في مصر ولكنه

يُقتل، أو^(١) يذهب إلى بعض البلدان البعيدة التي لا يَعْرِفُ الطريق إليها، وليس معه دليلٌ يدلُّه^(٢) غير ربِّه، ولكن هذه الحالة أرجى^(٣) للسلامة من الأولى، فتبعها موسى.

ومنها: أَنَّ الناظر في العلم عند الحاجة إلى التكلُّم فيه إذا لم يترجَّح عنده أحدُ القولين؛ فإنه يستهدي ربِّه، ويسأله أن يَهْدِيَه الصواب من القولين بعد أن يقصد بقلبه الحقَّ ويبحث عنه؛ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَخِيبُ من هذه حاله؛ كما خرج موسى تلقاء مدين، فقال: ﴿عسى ربِّي أن يَهْدِيَنِي سِوَى السَّبِيلِ﴾.

ومنها: أَنَّ الرحمة بالخلق والإحسان على مَنْ يَعْرِفُ وَمَنْ لا يَعْرِفُ من أخلاق الأنبياء، وَأَنَّ من الإحسان سقي الماشية الماء وإعانة العاجز.

ومنها: استحباب الدعاء بتبيين الحال وشرحها، ولو كان الله عالماً بها؛ لأنه تعالى يحبُّ تضرُّع عبده وإظهار ذلِّه ومسكنته؛ كما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

ومنها: أَنَّ الحياء - خصوصاً من الكرام - من الأخلاق الممدوحة.

ومنها: المكافأة على الإحسان لم يزل دأب الأمم السابقين.

ومنها: أَنَّ العبد إذا فعل العمل لله تعالى، ثم حصل له مكافأة عليه من غير قصدٍ بالقصد الأول؛ فإنه^(٤) لا يُلام على ذلك؛ كما قبل موسى مجازاة صاحب مدين عن معروفه الذي لم يبتغ له، ولم يستشرف بقلبه على عوض.

ومنها: مشروعية الإجارة، وأنها تجوز على رعاية الغنم ونحوها مما لا يُقدَّر به العمل، وإنما مرده العرف.

ومنها: أَنَّهُ تجوز الإجارة بالمنفعة، ولو كانت المنفعة بضعاً.

ومنها: أَنَّ خطبة الرجل لابنته الرجل الذي يتخيَّره لا يلام عليه.

ومنها: أَنَّ خير أجبرٍ وعاملٍ يعمل للإنسان أن يكونَ قوياً أميناً.

ومنها: أَنَّ من مكارم الأخلاق أن يُحَسِّنَ خُلُقَه لأجيرِه وخادمِه، ولا يشقُّ عليه بالعمل؛ لقوله: ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُثْقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

(٢) في (ب): «دليل له».

(٤) في (ب): «أنه».

(١) في (ب): «و».

(٣) في (ب): «أقرب».

ومنها: جواز عقد الإجارة وغيرها من العقود من دون إشهاد؛ لقوله: ﴿والله على ما نقول وكيل﴾.

ومنها: ما أجرى الله على يد موسى من الآيات البينات والمعجزات الظاهرة من الحية وانقلاب يده بيضاء من غير سوء ومن عصمة الله لموسى وهارون من فرعون ومن الغرق.

ومنها: أن من أعظم العقوبات أن يكون الإنسان إماماً في الشر، وذلك بحسب معارضته لآيات الله وبيناته؛ كما أن من أعظم نعمة أنعم الله بها على عبده، أن يجعله إماماً في الخير هادياً مهدياً.

ومنها: ما فيها من الدلالة على رسالة محمد ﷺ؛ حيث أخبر بذلك تفصيلاً مطابقاً وتأصيلاً موافقاً قصه قصاً صدق به المرسلين وأيد به الحق المبين، من غير حضور شيء من تلك الوقائع، ولا مشاهدة لموضع واحد من تلك المواضع، ولا تلاوة درس فيها شيئاً من هذه الأمور، ولا مجالسة أحد من أهل العلم، إن هو إلا رسالة الرحيم الرحمن، ووحى أنزله عليه الكريم المنان؛ لينذر به قوماً جاهلين، وعن النذر والرسول غافلين؛ فصلوات الله وسلامه على من مجرد خبره ينبيء أنه رسول الله، ومجرد أمره ونهيه ينبئ العقول النيرة أنه من عند الله؛ كيف وقد تطابق على صحة ما جاء به وصدق به، خبر الأولين والآخرين، والشرع الذي جاء به من رب العالمين، وما جُبل عليه من الأخلاق الفاضلة التي لا تناسب ولا تصلح إلا لأعلى الخلق درجة، والنصر المبين لدينه وأمته، حتى بلغ دينه مبلغ الليل والنهار، وفتحت أمته معظم بلدان الأمصار بالسيف والسنان وقلوبهم بالعلم والإيمان، ولم تزل الأمم المعاندة والملوك الكفرة المتعاضدة ترميه بقوس واحدة وتكيد له المكائد وتمكر لإطفائه وإخفائه وإخماده من الأرض، وهو قد بهرها وعلاها، لا يزداد إلا نمواً، ولا آياته وبراهينه إلا ظهوراً، وكل وقت من الأوقات يظهر من آياته ما هو عبرة للعالمين، وهداية للعالمين، ونوراً وبصيرة للمتوسمين. والحمد لله وحده.

﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُنَالَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّنَا بِهِ ءِأَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ [مُتْلِينَ] ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ

بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ وَمَنَّا رَزَقْنَهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥١﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِي الْجَنَّةَ لَكُمْ ﴿٥٢﴾ .

﴿٥٢﴾ يذكر تعالى عظمة القرآن وصدقته وحقه، وأن أهل العلم بالحقيقة يعرفونه، ويؤمنون به، ويقرؤون بأنه الحق، فقال: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله﴾: وهم أهل التوراة والإنجيل، الذين لم يغيروا ولم يبدلوا، ﴿هم به﴾؛ أي: بهذا القرآن ومن جاء به ﴿يؤمنون﴾.

﴿٥٣﴾ ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾: استمعوا له وأذعنوا، و﴿قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا﴾: لموافقته ما جاءت به الرسل، ومطابقته لما دُكر في الكتب، واشتماله على الأخبار الصادقة والأوامر والنواهي الموافقة لغاية الحكمة، وهؤلاء الذين تفيد شهادتهم وينفع قولهم؛ لأنهم لا يقولون ما يقولون إلا عن علم وبصيرة؛ لأنهم أهل الخبرة وأهل الكتب، وغيرهم لا يدلُّ ردهم ومعارضتهم للحق على شبهة فضلاً عن الحجة؛ لأنهم ما بين جاهل فيه أو متجاهل معاند للحق؛ قال تعالى: ﴿قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا...﴾ الآيات، وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ [مُسْلِمِينَ]﴾^(١): فلذلك ثبتنا على ما من الله به علينا من الإيمان، فصدقنا بهذا القرآن، آمناً بالكتاب الأول والكتاب الآخر، وغيرنا ينقض تكذيبه بهذا الكتاب إيمانه بالكتاب الأول.

﴿٥٤﴾ ﴿أُولَٰئِكَ﴾: الذين آمنوا بالكتابين ﴿يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾: أجراً على الإيمان الأول، وأجراً على الإيمان الثاني؛ ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾: على الإيمان، وثبتوا على العمل، فلم تُزعزعهم^(٢) عن ذلك شبهة، ولا ثنائهم عن الإيمان رياسة ولا شهوة. ﴿و﴾ من خصالهم الفاضلة التي هي من آثار إيمانهم الصحيح أنهم ﴿يَدْرُؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ﴾؛ أي: دأبهم وطريقتهم الإحسان لكل أحد، حتى للمسيء إليهم بالقول والفعل؛ يقابلونه بالقول الحميد والفعل الجميل؛ لعلمهم بفضيلة هذا الخلق العظيم، وأنه لا يوفق له إلا ذو حظ عظيم.

﴿٥٥﴾ ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾: من جاهل خاطبهم به، ﴿قَالُوا﴾: مقالة عباد الرحمن أولي الألباب: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾؛ أي: كلٌ سيجازى بعمله الذي عمّله وحده، ليس عليه من وزر غيره شيء، ولزم من ذلك أنهم يتبرؤون مما

(٢) في (ب): «يزعزعهم».

(١) في النسختين: «مؤمنين».

عليه الجاهلون من اللغو والباطل والكلام الذي لا فائدة فيه. ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: لا تسمعون منّا إلاّ الخير، ولا نخطبكم بمقتضى جهلكم؛ فإنكم وإن رضيتم لأنفسكم هذا المرتع اللثيم؛ فإنّا ننزّه أنفسنا عنه ونصونها عن الخوض فيه، ﴿لَا نَبْغِي الْجَاهِلِينَ﴾: من كلّ وجه.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦).

﴿٥٦﴾ يخبر تعالى أنّك يا محمد - وغيرك من باب أولى - لا تقدر على هداية أحد، ولو كان من أحبّ الناس إليك؛ فإنّ هذا أمرٌ غير مقدور للخلق؛ هداية التوفيق وخلق الإيمان في القلب، وإنّما ذلك بيد الله تعالى؛ يهدي من يشاء وهو أعلم بمن يصلح للهداية فيهديه ممن لا يصلح لها فيبقيه على ضلاله. وأمّا إثبات الهداية للرسول في قوله تعالى: ﴿وإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: فتلك هداية البيان والإرشاد؛ فالرسول يبيّن الصراط المستقيم، ويرغب فيه، ويبذل جهده في سلوك الخلق له، وأمّا كونه يخلق في قلوبهم الإيمان، ويوفّقهم بالفعل؛ فحاشا وكلاً، ولهذا لو كان قادراً عليها؛ لهدى من وصل إليه إحسانه ونصره ومنعه من قومه؛ عمّه أبا طالب، ولكنه أوصل إليه من الإحسان بالدعوة له للدين والنصح التام ما هو أعظم مما فعله معه عمّه، ولكنّ الهداية بيد الله.

﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعِ الْهُدَى مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا أَمِنًا يُجِئَ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٧) وَكَمْ أَفْلَكْنَا مِنْ قَرِيبٍ بِطَرَتْ مَعِيشَتُهُ فَيَلْكَ مَسْكَنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَدِيرٍ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثُونَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَلْعَنُوا عَلَيْهِمْ ءَابَتُنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (٥٩).

﴿٥٧﴾ يخبر تعالى أنّ المكذّبين من قريش وأهل مكة يقولون للرسول ﷺ: ﴿إِنْ نَّبِيعِ الْهُدَى مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾: بالقتل والأسر ونهب الأموال؛ فإنّ الناس قد عادوك وخالفوك؛ فلو تابعتك؛ لتعرضنا لمعاداة الناس كلّهم، ولم يكن لنا بهم طاقة. وهذا الكلام منهم يدلّ على سوء الظنّ بالله تعالى، وأنّه لا ينصر دينه ولا يعلي كلمته، بل يمكنّ الناس من أهل دينه، فيسومونهم سوء العذاب، وظنّوا أنّ الباطل سيعلو على الحق. قال الله مبيناً لهم حاله هم بها دون الناس وأنّ الله اختصهم بها، فقال: ﴿أَوَلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا أَمِنًا يُجِئَ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾؛ أي:

أولم نجعلهم متمكنين مُمكنين في حرم يكثره المتابون ويقصده الزائرون، قد احترمه القريبُ والبعيد؛ فلا يُهاجُ أهلُه، ولا يُنتَقَصون بقليل ولا كثير، والحالُ أن كلَّ ما حولهم من الأماكن قد حَفَّ بها الخوف من كلِّ جانب، وأهلُها غيرُ آمنين ولا مطمئنين؛ فليُحمدوا ربَّهم على هذا الأمن التام الذي ليس فيه غيرُهم، وعلى الرزق الكثير الذي يُجبي إليهم من كلِّ مكان من الثمرات والأطعمة والبضائع ما به يرتزقون ويتوسعون، وليتبعوا هذا الرسولَ الكريم؛ ليتَّم لهم الأمنُ والرغدُ وإياهم وتكذيبه والبطرُ بنعمة الله؛ فيبدلوا من بعدِ أمنهم خوفاً، وبعد عزِّهم ذلاً، وبعد غناهم فقراً.

﴿٥٨﴾ ولهذا توعدُّهم بما فعل بالأُمم قبلهم، فقال: ﴿وكم أهلكنا من قريةٍ بطَرتْ معيشتها﴾؛ أي: فخرت بها وألقتها واشتغلت بها عن الإيمان بالرسول، فأهلكهم الله، وأزال عنهم النعمة، وأحلَّ بهم النعمة، ﴿فتلك مساكنهم لم تُسكن من بعدهم إلا قليلاً﴾؛ لتوالي الهلاك والتلف عليهم وإيحاشها من بعدهم، ﴿وكنَّا نحن الوارثين﴾: للعباد؛ نميَّتْهم ثم يرجعُ^(١) إلينا جميع ما متَّعناهم به من النعم، ثم نعيدهم إلينا، فنجازيهم بأعمالهم.

﴿٥٩﴾ ومن حكمته ورحمته أن لا يعذب الأُمم بمجرد كفرهم قبل إقامة الحجَّة عليهم بإرسال الرسل إليهم، ولهذا قال: ﴿وما كان ربُّك مُهلكَ القرى﴾؛ أي: بكفرهم وظلمهم؛ ﴿حتى يبعثَ في أمِّها﴾؛ أي: في القرية والمدينة التي إليها يرجعون، ونحوها يترددون، وكلُّ ما حولها ينتجعها، ولا تخفى عليه أخبارها، ﴿رسولاً يتلو عليهم آياتنا﴾: الدالة على صحَّة ما جاء به وصدق ما دعاهم إليه، فيبلغُ قوله قاصيهم ودانيهم؛ بخلاف بعث الرسل في القرى البعيدة والأطراف النائية؛ فإنَّ ذلك مظنةُ الخفاء والجفاء، والمدن الأمَّهات مظنةُ الظهور والانتشار، وفي الغالب أنَّهم أقلُّ جفاء من غيرهم، ﴿وما كنَّا مُهلِكِي القرى إلاَّ وأهلُها ظالمون﴾: بالكفر والمعاصي، مستحقُّون للعقوبة. والحاصلُ أن الله لا يعذب أحداً إلا بظلمه وإقامة الحجَّة عليه.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ شَيْءٍ فَتَنَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(١٠)
 أَفَن وَعَدَّتْهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَنَقِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَنَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُخْضَرِينَ^(١١) ﴿﴾.

﴿٦٠﴾ هَذَا حِصٌّ مِنْهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ عَلَى الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا وَعَدَمِ الْاِغْتِرَارِ بِهَا، وَعَلَى الرِّغْبَةِ فِي الْآخِرَةِ وَجَعَلَهَا مَقْصُودَ الْعَبْدِ وَمَطْلُوبَهُ، وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّ جَمِيعَ مَا أُوتِيَ الْخَلْقُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالْأَمْتَعَةِ وَالنِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ وَاللَّذَاتِ كُلُّهَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا؛ أَي: يَتَمَتَّعُ بِهِ وَقَتًا قَصِيرًا مَتَاعًا قَاصِرًا مَحْشُورًا بِالْمَنْغَصَاتِ مَمْزُوجًا بِالْغُصَصِ، وَيَتَزَيَّنُ بِهِ زَمَانًا يَسِيرًا لِلْفَخْرِ وَالرِّيَاءِ، ثُمَّ يَزُولُ ذَلِكَ سَرِيعًا، وَيَنْقُضِي جَمِيعًا، وَلَمْ يَسْتَفِدْ صَاحِبُهُ مِنْهُ إِلَّا الْحَسْرَةَ وَالنَّدَمَ وَالْخِيبَةَ وَالْحَرَمَانَ، ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾: مِنَ النِّعَمِ الْمَقِيمِ وَالْعَيْشِ السَّلِيمِ ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾؛ أَي: أَفْضَلُ فِي وَصْفِهِ وَكَمِّيَّتِهِ، وَهُوَ دَائِمٌ أَبَدًا وَمُسْتَمِرٌّ سَرْمَدًا، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ أَي: أَفَلَا تَكُونُ لَكُمْ عَقُولٌ بِهَا تَزِنُونَ؛ أَيُّ الْأَمْرَيْنِ أَوْلَى بِالْإِثَارِ؟! وَأَيُّ الدَّارَيْنِ أَحَقُّ لِلْعَمَلِ لَهَا؟! فَدَلَّ ذَلِكَ أَنَّهُ بِحَسَبِ عَقْلِ الْعَبْدِ يُؤَثِّرُ الْآخِرَى عَلَى الدُّنْيَا، وَأَنَّهُ مَا أَثَرَ أَحَدُ الدُّنْيَا إِلَّا لِنَقْصٍ فِي عَقْلِهِ.

﴿٦١﴾ وَلِهَذَا نَبَّهَ الْعُقُولَ عَلَى الْمَوَازَنَةِ بَيْنَ عَاقِبَةِ مُؤَثِّرِ الدُّنْيَا وَمُؤَثِّرِ الْآخِرَةِ، فَقَالَ: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ﴾؛ أَي: هَلْ يَسْتَوِي مُؤْمِنٌ، سَاعَ لِلْآخِرَةِ سَعِيَّهَا، قَدْ عَمِلَ عَلَى وَعْدِ رَبِّهِ لَهُ بِالثَّوَابِ الْحَسَنِ الَّذِي هُوَ الْجَنَّةُ وَمَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ الْعَظِيمِ؛ فَهُوَ لَاقِيهِ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَلَا ارْتِيَابٍ؛ لِأَنَّهُ وَعَدٌ مِنْ كَرِيمٍ صَادِقٍ الْوَعْدِ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ لِعَبْدٍ قَامَ بِمَرْضَاتِهِ وَجَانِبَ سَخَطِهِ؛ ﴿كَمَنْ مَتَّغْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فَهُوَ يَأْخُذُ فِيهَا وَيُعْطِي، وَيَأْكُلُ وَيَشْرَبُ، وَيَتَمَتَّعُ كَمَا تَتَمَتَّعُ الْبَهَائِمُ، قَدْ اشْتَغَلَ بِدُنْيَاهُ عَنْ آخِرَتِهِ، وَلَمْ يَرْفَعْ بِهَدْيِ اللَّهِ رَأْسًا، وَلَمْ يَنْقُذْ لِلْمُرْسَلِينَ؛ فَهُوَ لَا يَزَالُ كَذَلِكَ؛ لَا يَتَزَوَّدُ مِنْ دُنْيَاهُ إِلَّا الْخُسَارَ وَالْهَلَكَ. ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ﴾: لِلْحِسَابِ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَقْدَمْ خَيْرًا لِنَفْسِهِ، وَإِنَّمَا قَدَّمَ جَمِيعَ مَا يَضُرُّهُ، وَانْتَقَلَ إِلَى دَارِ [الْجَزَاءِ بِالْأَعْمَالِ]؛ فَمَا ظَنُّكُمْ إِلَّا بِصِيرِ إِلَيْهِ؟! وَمَا تَحْسِبُونَ مَا يَصْنَعُ بِهِ؟! فَلْيَخْتَرِ الْعَاقِلُ لِنَفْسِهِ مَا هُوَ أَوْلَى بِالِاخْتِيَارِ وَأَحَقُّ الْأَمْرَيْنِ بِالْإِثَارِ.

﴿يَوْمَ يَبْدَأُ بِهِمْ فَأَقُولَ أَتَى شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يَبْدَأُ بِهِمْ فَأَقُولَ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾.

﴿٦٢ - ٦٣﴾ هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَمَّا يَسْأَلُ عَنْهُ الْخَلَائِقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّهُ

يسألهم عن أصول الأشياء؛ عن عبادة الله، وإجابة رسله، فقال: ﴿يَوْمَ يناديهم﴾؛ أي: ينادي مَنْ أشركوا به شركاء يعبدونهم ويرجون نفعهم ودفع الضرر عنهم، فيناديهم ليبين لهم عجزها وضلالهم، ﴿فيقول أين شركائي﴾: وليس لله شريك، ولكن ذلك بحسب زعمهم وافترائهم، ولهذا قال: ﴿الذين كنتم تزعمون﴾: فأين هم بذواتهم؟! وأين نفعهم؟! وأين دفعهم؟! ومن المعلوم أنهم يتبين لهم في تلك الحال أن الذي عبدوه ورجوه باطل مضمحل في ذاته وما رجوا منه، فيقرؤن على أنفسهم بالضلالة والغواية، ولهذا ﴿قال الذين حق عليهم القول﴾: من الرؤساء والقادة في الكفر والشر؛ مقرين بغوايتهم وإغوائهم: ﴿ربنا هؤلاء﴾: التابعون ﴿الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا﴾؛ أي: كلنا قد اشتك في الغواية وحق عليه كلمة العذاب، ﴿تبرأنا إليك﴾: من عبادتهم؛ أي: نحن برآء منهم ومن عملهم. ﴿ما كانوا إيانا يعبدون﴾: وإنما كانوا يعبدون الشياطين.

﴿٦٤﴾ ﴿وقيل﴾ لهم: ﴿ادعوا شركاءكم﴾: على ما أملت فيهم من النفع، فأمروا بدعائهم في ذلك الوقت الحرج الذي يضطر فيه العابد إلى مَنْ عبده، ﴿فدعوه﴾: لينفعوهم أو يدفعوا عنهم من عذاب الله من شيء، ﴿فلم يستجيبوا لهم﴾: فعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين مستحقين للعقوبة، ﴿ورأوا العذاب﴾: الذي سيحل بهم عياناً بأبصارهم بعدما كانوا مكذبين به منكبين له؛ ﴿لو أنهم كانوا يهتدون﴾؛ أي: لما حصل عليهم ما حصل، ولهدوا إلى صراط الجنة كما اهتدوا في الدنيا، ولكن لم يهتدوا، فلم يهتدوا.

﴿٦٥ - ٦٦﴾ ﴿يَوْمَ يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾: هل صدقتموهم واتبعتموهم؟ أم كذبتموهم وخالفتموهم؟ ﴿فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون﴾؛ أي: لم يحيروا عن هذا السؤال جواباً، ولم يهتدوا إلى الصواب، ومن المعلوم أنه لا يُنجي في هذا الموضع إلا التصريح بالجواب الصحيح المطابق لأحوالهم من أننا أجبناهم بالإيمان والانقياد، ولكن لما علموا تكذيبهم لهم وعنادهم لأمرهم؛ لم ينطقوا بشيء، ولا يمكن أن يتساءلوا، ويتراجعوا بينهم في ماذا يجيبون به، ولو كان كذباً.

﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَمسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ (٦٧).

﴿٦٧﴾ لما ذكر تعالى سؤال الخلق عن معبودهم وعن رسلهم؛ ذكر الطريق الذي ينجو به العبد من عقاب الله تعالى، وأنه لا نجاة إلا لمن اتصف بالتوبة من

الشرك والمعاصي، وآمن بالله فعبده، وآمن برسوله فصَدَّقَهم، وعمل صالحاً متَّبِعاً فيه للرسول. ﴿فَعَسَى أَنْ يَكُونَ﴾: من جَمَعَ هذه الخصال ﴿من المفلحين﴾: الناجحين بالمطلوب، الناجين من المرهوب؛ فلا سبيل إلى الفلاح بدون هذه الأمور.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾.

﴿٦٨ - ٧٠﴾ هذه الآيات فيها عموم خلقه لسائر المخلوقات، ونفوذ مشيئته بجميع البريات، وانفراذه باختيار من يختاره ويختصه من الأشخاص والأوامر والأزمان والأماكن، وأنَّ أحداً ليس له^(١) من الأمر والاختيار شيء، وأنه تعالى منزّه عن كل ما يشركون به من الشريك والظهير والعوين والولد والصاحبة ونحو ذلك مما أشرك به المشركون، وأنه العالم بما أكتنّه الصدور وما أعلنوه، وأنه وحده المعبود المحمود في الدنيا والآخرة على ما له من صفات الجلال والجمال، وعلى ما أسداه إلى خلقه من الإحسان والإفضال، وأنه هو الحاكم في الدارين؛ في الدنيا بالحكم القدري الذي أثره جميع ما خلق وذراً، والحكم الديني الذي أثره جميع الشرائع والأوامر والنواهي. وفي الآخرة يحكم بحكمه القدري والجزائي، ولهذا قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: فيجازي كلّا منكم بعمله من خير وشر.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾.

﴿٧١ - ٧٣﴾ هذا امتنان من الله على عباده؛ يدعوهم به إلى شكره والقيام بعبوديته وحقه أن^(٢) جعل لهم من رحمته النهار ليتبغوا من فضل الله ويتشربوا لطلب أرزاقهم ومعاشيهم في ضيائه، والليل ليهدؤوا فيه ويسكنوا وتستريح أبدانهم وأنفسهم من تعب التصرف في النهار؛ فهذا من فضله ورحمته بعباده؛ فهل أحد

(٢) في (ب): «أنه».

(١) في (ب): «لهم».

يقدّر على شيء من ذلك فلو جعل ﴿عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون﴾: مواعظ الله وآياته سماع فهم وقبول وانقياد، ولو ﴿جعل عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون﴾: مواقع العبر ومواضع الآيات فتستنير بصائرهم وتسلكون الطريق المستقيم، وقال في الليل: ﴿أفلا تسمعون﴾، وفي النهار: ﴿أفلا تبصرون﴾؛ لأن سلطان السمع في الليل أبلغ من سلطان البصر، وعكسه النهار.

وفي هذه الآيات تنبيه إلى أن العبد ينبغي له أن يتدبر نعم الله عليه، ويستبصر^(١) فيها، ويقيسها بحال عدمها؛ فإنه إذا وازن بين حالة وجودها وبين حالة عدمها؛ تنبه عقله لموضع المنية؛ بخلاف من جرى مع العوائد، ورأى أن هذا أمر لم يزل مستمراً ولا يزال، وعمى قلبه عن الثناء على الله بنعمه ورؤية افتقاره إليها في كل وقت؛ فإن هذا لا يحدث له فكرة شكر ولا ذكر.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَزَعَنَّا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿٧٤ - ٧٥﴾ أي: ويوم ينادي الله المشركين به العادلين به غيره، الذين يزعمون أن له شركاء يستحقون أن يعبدوا وينفعون ويضرّون؛ فإذا كان يوم القيامة؛ أراد الله أن يظهر جراتهم وكذبهم في زعمهم وتكذيبهم^(٢) لأنفسهم؛ يناديهم ﴿أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾؛ أي: بزعمهم لا بنفس الأمر؛ كما قال: ﴿وما يتبع الذين يذعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾، فإذا حضروا هم وإياهم؛ نزع ﴿من كل أمة﴾: من الأمم المكذبة ﴿شهداء﴾: يشهد على ما جرى في الدنيا من شركهم واعتقادهم، وهؤلاء بمنزلة المنتخبين؛ أي: انتخبنا من رؤساء المكذبين من يتصدى للخصومة عنهم والمجادلة عن إخوانهم، وهم على طريق واحد؛ فإذا برزوا للمحاكمة، ﴿فقلنا هاتوا برهانكم﴾: حججتكم ودليلكم على صحة شرككم؛ هل أمرناكم بذلك؟ هل أمرتكم رُسلي؟ هل وجدتم ذلك في شيء من كتبي؟ هل فيهم أحد يستحق شيئاً من الإلهية؟ هل ينفعونكم أو يدفعون عنكم من عذاب الله أو يغنون عنكم؟ فليفعلوا إذاً إن كان فيهم أهلية ولئروكم إن كان لهم قدرة، ﴿فعلموا﴾: حينئذ بطلان قولهم وفساده، و﴿أن الحق لله﴾: تعالى، قد

(١) في (ب): «ويتبصر».

(٢) في (ب): «وتكذيب».

تَوَجَّهَتْ عَلَيْهِمُ الْخُصُومَةُ وَاِنْقَطَعَتْ حُجَّتُهُمْ وَاَفْلَجَتْ حُجَّةَ اللَّهِ، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: من الكذب والإفك؛ اضمحل وتلاشى وعدم، وعلموا أن الله قد عدل فيهم؛ حيث لم يضع العقوبة إلا بمن استحقها واستأهلها.

﴿إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾^(١) ﴿وَأَيَّدْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَسَنُورٌ بِالْعَصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾^(٧٦) ﴿وَاتَّبَعَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٧٧) ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ دُؤْبِهِ الْمُجْرِمُونَ﴾^(٧٨) ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونٌ إِنَّهُمْ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾^(٧٩) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفْلَحُ إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾^(٨٠) ﴿فَسَقْنَا بِهِمْ صَبَرَهُمُ الْقُرُونِ مَا كَانُوا يَفْرَحُونَ﴾^(٨١) ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآكُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَآكُ لَا يَقْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾^(٨٢) .

﴿٧٦﴾ يخبر تعالى عن حالة قارون وما فعل وفعل به ونصح وعظ، فقال: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾؛ أي: من بني إسرائيل، الذين فضلوا العالمين وفاقوهم في زمانهم، وامتن الله عليهم بما امتن به، فكانت حالهم مناسبة للاستقامة، ولكن قارون بهذا بغى على قومه، وطغى بما أُوتيه من الأموال العظيمة المُطغية، ﴿وَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾؛ أي: كنوز الأموال شيئاً كثيراً، ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَسَنُورٌ بِالْعَصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾: والعصبة من العشرة إلى التسعة إلى السبعة ونحو ذلك؛ أي: حتى إن مفاتيح خزائن أمواله تُثقل الجماعة القوية عن حملها؛ هذه المفاتيح؛ فما ظنك بالخزائن؟! ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾: ناصحين له محذرين له عن الطغيان: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾؛ أي: لا تفرح بهذه الدنيا العظيمة، وتفتخر بها، وتلهيك عن الآخرة؛ فإن الله لا يحب الفرحين بها المكبين على محبتها.

(١) في النسختين: إلى آخر القصة.

﴿٧٧﴾ ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾؛ أي: قد حصل عندك من وسائل الآخرة ما ليس عند غيرك من الأموال، فابتغ بها ما عند الله، وتصدق، ولا تقتصر على مجرد نيل الشهوات وتحصيل اللذات، ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾؛ أي: لا نأمرُك أن تتصدق بجميع مالك وتبقى ضائعاً، بل أنفق لآخرتك واستمتع بدنياك استمتاعاً لا يثلم دينك ولا يضر بآخرتك، ﴿وَأَحْسِنْ﴾: إلى عباد الله ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ﴾: عليك بهذه الأموال، ﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾: بالتكبر والعمل بمعاصي الله والاشتغال بالنعم عن المنعم. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْمَفْسِدِينَ﴾: بل يعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

﴿٧٨﴾ ﴿قَالَ﴾ قَارُونُ رَاثًا لِنَصِيحَتِهِمْ كَافِرًا لِنِعْمَةِ رَبِّهِ: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾؛ أي: إنما أدركت هذه الأموال بكسبي ومعرفتي بوجوه المكاسب وحذقي. أو: على علم من الله بحالي؛ يعلم أنني أهل لذلك؛ فلم تنصحوني على ما أعطاني الله؟! قال تعالى مبيناً أن عطائه ليس دليلاً على حسن حالة المغطى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾: فما المانع من إهلاك قارون مع مضي عادتنا وسئتنا بإهلاك من هو مثله وأعظم منه إذا فعل ما يوجب الهلاك؟! ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾: بل يعاقبهم الله ويعذبهم على ما يعلمه منهم؛ فهم وإن أثبتوا لأنفسهم حالة حسنة وشهدوا لها بالثجاة؛ فليس قولهم مقبولاً، وليس ذلك راداً عنهم من العذاب شيئاً؛ لأن ذنوبهم غير خفية؛ فإنكارهم لها لا محل له.

﴿٧٩﴾ فلم يزل قارون مستمراً على عناده وبغيه وعدم قبول نصيحة قومه، فرحاً بطراً، قد أعجبته نفسه وغره ما أوتيته من الأموال، ﴿فَخَرَجَ﴾ ذات يوم ﴿فِي زِينَتِهِ﴾؛ أي: بحالة أرفع ما يكون من أحوال دنياه، قد كان له من الأموال ما كان، وقد استعدّ وتجمل بأعظم ما يمكنه، وتلك الزينة في العادة من مثله تكون هائلة، جمعت زينة الدنيا وزهرتها وبهجتها وغضارتها وفخرها، فرمقته في تلك الحالة العيون، وملأت بزته القلوب، واختلبت زينته النفوس، فانقسم فيه الناظرون قسمين، كل تكلم بحسب ما عنده من الهمة والرغبة، ﴿قَالَ الَّذِينَ يَرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾؛ أي: الذين تعلقوا إرادتهم فيها، وصارت منتهى رغبتهم، ليس لهم إرادة في سواها: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾: من الدنيا ومتاعها وزهرتها، ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾: وصدقوا إنه لذو حظ عظيم لو كان الأمر منتهياً إلى رغباتهم وإنه

ليس وراء الدنيا دار أخرى؛ فإنه قد أُعطيَ منها ما به غايةُ التمتع^(١) بنعيم الدنيا، واقتدر بذلك على جميع مطالبه، فصار هذا الحظُّ العظيم بحسبِ همَّتِهِمْ، وإنَّ هِمَّةً جعلت هذا غاية مرادها ومنتهى مطلبها؛ لمن أدنى الهمم وأسفلها وأدناها، وليس لها أدنى صعود إلى المراتب العالية والمطالب الغالية.

﴿٨٠﴾ ﴿وقال الذين أوتوا العلم﴾: الذين عرفوا حقائق الأشياء ونظروا إلى باطن الدنيا حين نظر أولئك إلى ظاهرها: ﴿ويلكم﴾: متوجِّعين من ما تمثَّلوا لأنفسهم، راثنين لحالهم، منكرين لمقالهم، ﴿ثوابُ الله﴾: العاجلُ من لذة العبادة ومحَبَّةِ والإنابة إليه والإقبال عليه، والآجلُ من الجنة وما فيها ممَّا تشتهيهِ الأنفس وتلذُّ الأعينُ خير من هذا الذي تمثِّلُتم ورجبُتم فيه؛ فهذه حقيقة الأمر، ولكن ما كلُّ مَنْ يعلم ذلك يؤثر الأعلى على الأدنى، فما يُلَقَّى ذلك ويوفَّق له ﴿إلا الصابرون﴾: الذين حبسوا أنفسهم على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره المؤلمة وصبروا على جواذب الدنيا وشهواتها أن تشغلهم عن ربهم وأن تحولَ بينهم وبين ما خَلَقُوا له؛ فهؤلاء الذين يؤثرون ثوابَ الله على الدنيا الفانية.

﴿٨١﴾ فلما انتهت بقارون حالةُ البغي والفخر، واُزِيَّت الدنيا عنده، وكَثُرَ بها إعجابه؛ بَعَثَهُ العذاب، ﴿فَحَسَفْنَا به وبدارِهِ الأرض﴾: جزاء من جنسِ عملِهِ؛ فكما رفع نفسه على عباد الله؛ أنزله الله أسفلَ سافلين هو وما اغترَّ به من داره وأثاثِهِ ومتاعِهِ. ﴿فما كان له من فئة﴾؛ أي: جماعةٍ وعصبةٍ وخدم وجنود، ﴿ينصرونه من دونِ الله وما كان من المتصربين﴾؛ أي: جاءه العذاب فما نُصِرَ ولا انتَصَرَ.

﴿٨٢﴾ ﴿وأصبح الذين تَمَثَّلُوا مكانه بالأمس﴾؛ أي: الذين يريدون الحياة الدنيا، الذين قالوا: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارونُ ﴿يقولون﴾: متوجِّعين ومعتَبِرِينَ وخائفِينَ من وقوع العذاب بهم: ﴿ويكأنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ من عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: يَضِيقُ الرِّزْقَ على من يشاء. فعلمنا حينئذٍ أنَّ بسطَهُ لقارون ليس دليلاً على خير فيه، وأنَّا غالطون في قولنا: إنَّه لذو حظٍّ عظيم، و﴿لولا أن مَنَّ الله علينا﴾: فلم يعاقبنا على ما قُلْنَا؛ فلولا فضلُه ومُنَّته؛ ﴿لخسف بنا﴾: فصار هلاكُ قارون عقوبةً له وعبرةً وموعظةً لغيره، حتى إنَّ الذين غبطوه سمعتَ كيف نَدِمُوا، وتغيَّرَ فِكْرُهُم الأول، ﴿ويكأنَّه لا يفلحُ الكافرون﴾؛ أي: لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

(١) في (ب): «التنعيم».

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٨٣).

﴿٨٣﴾ لما ذَكَرَ تعالى قَارُونََ وما أُوتِيَهُ مِنَ الدُّنْيَا وما صَارَتْ إِلَيْهِ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ، وَأَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ قَالُوا: ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا؛ رَغِبَ تَعَالَى فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَأَخْبَرَ بِالسَّبَبِ الْمَوْصِلِ إِلَيْهَا، فَقَالَ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾: الَّتِي أَخْبَرَ اللَّهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ وَأَخْبَرَتْ بِهَا رُسُلُهُ الَّتِي قَدْ جَمَعَتْ كُلُّ نَعِيمٍ وَانْدَفَعَتْ عَنْهَا كُلُّ مَكْذَرٍ وَمَنْعَصٍ، ﴿نَجْعَلُهَا﴾: دَارًا وَقَرَارًا ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾؛ أَي: لَيْسَ لَهُمْ إِرَادَةُ؛ فَكَيْفَ الْعَمَلُ لِلْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ وَالتَّكَبُّرِ عَلَيْهِمْ وَعَلَى الْحَقِّ؟! ﴿وَلَا فَسَادًا﴾: وَهَذَا شَامِلٌ لَجَمِيعِ الْمَعَاصِي؛ فَإِذَا كَانَ^(١) لَا إِرَادَةَ لَهُمْ فِي الْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ وَلَا الْفَسَادِ^(٢)؛ لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ إِرَادَتُهُمْ مَصْرُوفَةً إِلَى اللَّهِ، وَقَصْدُهُمُ الدَّارَ الْآخِرَةَ، وَحَالُهُمُ التَّوَاضُّعُ لِعِبَادِ اللَّهِ وَالْإِنْقِيَادَ لِلْحَقِّ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُتَّقُونَ، الَّذِينَ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾؛ أَي: حَالَةُ الْفَلَاحِ وَالنَّجَاحِ الَّتِي تَسْتَقَرُّ وَتَسْتَمِرُّ لِمَنْ اتَّقَى اللَّهَ تَعَالَى. وَغَيْرُهُمْ، وَإِنْ حَصَلَ لَهُمْ بَعْضُ الظُّهُورِ وَالرَّاحَةِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَطُولُ وَقْتُهُ، وَيَزُولُ عَنْ قَرِيبٍ.

وَعَلِمَ مِنْ هَذَا الْحَصْرِ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْعُلُوَّ فِي الْأَرْضِ أَوْ الْفَسَادَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ نَصِيبٌ، وَلَا لَهُمْ مِنْهَا نَصِيبٌ.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّا مَنَّا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٨٤).

﴿٨٤﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مِضَاعِفَةِ فَضْلِهِ وَتَمَامِ عَدْلِهِ، فَقَالَ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾: شَرَطَ فِيهَا أَنْ يَأْتِيَ بِهَا الْعَامِلُ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَعْمَلُهَا وَلَكِنْ يَقْتَرِنُ بِهَا مَا لَا تُقْبَلُ مِنْهُ أَوْ يُبْطَلُهَا؛ فَهَذَا لَمْ يَجِءْ بِالْحَسَنَةِ، وَالْحَسَنَةُ اسْمُ جِنْسٍ يَشْمَلُ جَمِيعَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِحَقِّهِ تَعَالَى وَحَقُوقِ الْعِبَادِ^(٣)، ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾؛ أَي: أَعْظَمُ وَأَجْلُّ، وَفِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾: هَذَا التَّضْعِيفُ لِلْحَسَنَةِ لَا بَدَّ مِنْهُ، وَقَدْ يَقْتَرِنُ بِذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ مَا تَزِيدُ بِهِ الْمِضَاعِفَةَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يضاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾:

(٢) فِي (ب): «وَالْإِفْسَاد».

(١) فِي (ب): «كَانُوا».

(٣) فِي (ب): «وَحَقَّ عِبَادِهِ».

بحسب حال العاملِ وعمله ونفعه ومحلّه ومكانه، ﴿ومن جاء بالسيئة﴾: وهي كل ما نهى الشارع عنه نهى تحريم؛ ﴿فلا يُجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون﴾؛ كقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿٨٥﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾؛ أي: أنزله، وفرض فيه الأحكام، وبين فيه الحلال والحرام، وأمرك بتبليغه للعالمين والدعوة لأحكامه جميع المكلفين؛ لا يليق بحكمته أن تكون الحياة هي الحياة الدنيا فقط من غير أن يُثاب العباد ويعاقبوا، بل لا بد أن يردك إلى معاد يُجازى فيه المحسنون بإحسانهم والمسيئون بمعصيتهم، وقد بينت لهم الهدى وأوضحت لهم المنهج؛ فإن تبعوك؛ فذلك حظهم وسعادتهم، وإن أبوا إلا عضيبتك والقدر بما جئت به من الهدى وتفضيل ما معهم من الباطل على الحق؛ فلم يبق للمجادلة محل، ولم يبق إلا المجازاة على الأعمال من العالم بالغيب والشهادة والمحق والمبطل، ولهذا قال: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾: وقد علم أن رسوله هو المهتدي الهادي، وأن أعداءه هم الضالون المضلون.

﴿٨٦﴾ ﴿وما كنت تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾؛ أي: لم تكن متحرراً لتزول هذا الكتاب عليك، ولا مستعداً له، ولا متصدياً، ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾: بك وبالعباد، فأرسلك بهذا الكتاب الذي رَجِمَ به العالمين، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، وزكاهم وعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ﴿ضلال مبين﴾: فإذا علمت أنه أنزله إليك رحمة منه؛ علمت أن جميع ما أمر به ونهى عنه؛ فإنه رحمة وفضل من الله؛ فلا يكن في صدرك حرج من شيء منه، وتظن أن مخالفه أصلح وأنفع، ﴿فلا تكوننَّ ظهيراً للكافرين﴾؛ أي: معيناً لهم على ما هو من شعب كفرهم، ومن جملة مظاهرهم أن يقال في شيء منه: إنه خلاف الحكمة والمصلحة والمنفعة.

﴿٨٧﴾ ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ﴾: بل أبلغها وأنفذها، ولا تُبالِ بمكرهم، ولا يَخْدَعُكَ عنها، ولا تتبِعْ أهواءهم، ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾؛ أي: اجعل الدعوة إلى ربك منتهى قصدك وغاية عملك، فكلُّ ما خالف ذلك؛ فارقضه من رياءٍ أو سمعةٍ أو موافقةٍ أغراض أهل الباطل؛ فإنَّ ذلك داعٍ إلى الكون معهم ومساعدتهم على أمرهم، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ﴾: لا في شركهم، ولا في فروعه وشعبه التي هي جميع المعاصي.

﴿٨٨﴾ ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾: بل اخلِصْ لله عبادتك؛ فإنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: فلا أحد يستحق أن يؤله ويحبَّ ويعبدَ إلاَّ الله الكامل الباقي الذي ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾: وإذا كان كلُّ شيءٍ هالكٌ مضمحلٌّ سواء؛ فعبادة الهالك الباطل باطلَةٌ ببطان غايتها وفساد نهايتها، ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾: في الدنيا والآخرة، ﴿وإِلَيْهِ﴾: لا إلى غيره ﴿تَرْجَعُونَ﴾: فإذا كان ما سوى الله باطلاً هالكاً، والله هو الباقي الذي لا إله إلا هو، وله الحكم في الدنيا والآخرة، وإليه مرجعُ الخلائق كلهم؛ ليجازيهم بأعمالهم؛ تعيَّن على مَنْ له عقلٌ أن يعبدَ الله وحده لا شريك له، ويعملَ لما يقربه ويُدنيه، ويحذَر من سخطه وعقابه، وأن يُقَدِّم على ربه غير ثابت ولا مقلع عن خطيئه وذنوبه.

تم تفسير سورة القصص.

ولله الحمد والثناء والمجد دائماً أبداً.



تفسير سورة العنكبوت

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ أَلَمْ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُزَكَّوْا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْقَهُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾.

﴿١ - ٣﴾ يخبر تعالى عن تمام حكمته، وأنَّ حكمته لا تقتضي أن كلَّ مَنْ قال إنه مؤمنٌ وادَّعى لنفسه الإيمان؛ أن يتيقوا في حالة يسلمون فيها من الفتن والمحن، ولا يغرَضُ لهم ما يشوِّش عليهم إيمانهم وفروعه؛ فإنهم لو كان الأمر كذلك؛ لم

يتميز الصادق من الكاذب والمحق من المبطل، ولكن سنته وعادته في الأولين وفي هذه الأمة أن يبتليهم بالسراء والضراء والعسر واليسر^(١) والمنشط والمكره والغنى والفقر وإدالة الأعداء عليهم في بعض الأحيان ومجاهدة الأعداء بالقول والعمل ونحو ذلك من الفتن، التي ترجع كلها إلى فتنة الشبهات المعارضة للعقيدة والشهوات المعارضة للإرادة؛ فمن كان عند ورود الشبهات يثبت إيمانه ولا يتزلزل ويدفعها^(٢) بما معه من الحق، وعند ورود الشهوات الموجبة والداعية إلى المعاصي والذنوب أو الصارفة عن ما أمر الله به ورسوله، يعمل بمقتضى الإيمان ويجاهد شهوته؛ دل ذلك على صدق إيمانه وصحته، ومن كان عند ورود الشبهات تؤثر في قلبه شكاً وريباً، وعند اعتراض الشهوات تصرفه إلى المعاصي أو تصدّفه عن الواجبات؛ دل ذلك على عدم صحة إيمانه وصدقه. والناس في هذا المقام درجات لا يحصيها إلا الله؛ فمستقل ومستكثر. فنسأل الله تعالى أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يثبت قلوبنا على دينه؛ فالابتلاء والامتحان للنفوس بمنزلة الكبر يخرج خبثها وطبيها.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفُتُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ١.

﴿٤﴾ أي: أحسب الذين همهم فعل السيئات وارتكاب الجنایات أن أعمالهم ستُهمل وأن الله سيغفل عنهم أو يفوتونه؛ فلذلك أقدموا عليها وسهل عليهم عملها؟! ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ أي: ساء حكمهم؛ فإنه حكم جائر لتضمّنه إنكار قدرة الله وحكمته، وأن لديهم قدرة يمتنعون بها من عقاب الله، وهم أضعف شيء وأعجزه.

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ٢. ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ٣.

﴿٥﴾ يعني: يا أيها المحب لربه، المشتاق لقربه ولقائه، المسارع في مرضاته! أبشّر بقرب لقاء الحبيب؛ فإنه آت، وكل ما هو آت قريب^(٣)، فتزوّد للقاءه، وسرّ نحوه مستصحباً الرجاء مؤملاً الوصول إليه.

(٢) في (ب): «ويدفعه».

(١) في (ب): «واليسر والعسر».

(٣) في (ب): «إنما هو قريب».

﴿٦﴾ ولكن ما كل من يدَّعي يُعطى بدعواه، ولا كل من تمنى يُعطى ما تمناه؛ فإنَّ الله سميعٌ للأصوات عليمٌ بالنيَّات؛ فمن كان صادقاً في ذلك؛ أناله ما يرجو، ومن كان كاذباً؛ لم تنفعه دعواه، وهو العليم بمن يضلُّحُ لحبِّه ومن لا يصلح، ﴿وَمَنْ جَاهَدْ﴾: نفسه وشيطانه وعدوه الكافر؛ ﴿فإنَّما يجاهدُ لنفسه﴾: لأنَّ نفعه راجعٌ إليه، وثمرته عائدةٌ إليه، والله غنيٌّ عن العالمين، لم يأمرهم بما أمرهم به ليتنفَّع به، ولا نهاهم عمَّا نهاهم عنه بخلاً منه عليهم، وقد علم أنَّ الأوامر والنواهي يحتاج المكلَّف فيها إلى جهادٍ؛ لأنَّ نفسه تتأقل بطبعها عن الخير، وشيطانه ينهأ عنه، وعدوه الكافر يمنعه من إقامة دينه كما ينبغي، وكلُّ هذه^(١) معارضاٌ تحتاج إلى مجاهداتٍ وسعي شديد.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٧).

﴿٧﴾ يعني: أنَّ الذين منَّ الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح سيكفِّر الله عنهم سيئاتهم؛ لأنَّ الحسنات يُذهبن السيئات، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ وهي أعمال الخير من واجبات ومستحبات، فهي أحسن ما يعمل العبد؛ لأنَّه يعمل المباحات أيضاً وغيرها.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٨).

﴿٨﴾ أي: وأمرنا الإنسان ووصَّيناه بوالديه حُسناً؛ أي: ببرهما والإحسان إليهما بالقول والعمل، وأن يحافظ على ذلك ولا يعقهما ويسيء إليهما في قوله وعمله، ﴿وإن جاهدَاكَ﴾ على أن تشرك ﴿بي ما ليس لك به علمٌ﴾: وليس لأحد علمٌ بصحَّة الشرك بالله، وهذا تعظيمٌ لأمر الشرك. ﴿فلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: فأجازيكم بأعمالكم؛ فبرُّوا والديكم، وقدَّموا طاعتها إلَّا على طاعة الله ورسوله؛ فإنَّها مقدَّمة على كل شيء.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ (٩).

(١) في (ب): «هذا».

﴿٩﴾ أَي: مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا؛ فَإِنَّ اللَّهَ وَعَدَهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ فِي جَمْلَةِ عِبَادِ^(١) اللَّهِ الصَّالِحِينَ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، كُلٌّ عَلَى حَسَبِ دَرَجَتِهِ وَمُرْتَبَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ؛ فَالْإِيمَانُ الصَّحِيحُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ عُنْوَانٌ عَلَى سَعَادَةِ صَاحِبِهِ، وَأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الرَّحْمَنِ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿١٠ - ١١﴾ لما ذكر تعالى أَنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ يَمْتَحِنَ مَنْ ادَّعَى الْإِيمَانَ؛ لِيُظْهِرَ الصَّادِقَ مِنَ الْكَاذِبِ؛ بَيِّنَ تَعَالَى أَنَّ مِنَ النَّاسِ فَرِيقًا لَا صَبْرَ لَهُمْ عَلَى الْمُحَنِّ وَلَا ثَبَاتَ لَهُمْ عَلَى بَعْضِ الزَّلَازِلِ، فَقَالَ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾: بِضَرْبٍ أَوْ أَخْذٍ مَالٍ أَوْ تَعْيِيرٍ؛ لِيَرْتَدَّ عَنْ دِينِهِ، وَلِيَرَاجِعَ الْبَاطِلَ؛ ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾؛ أَي: يَجْعَلُهَا صَادَةً لَهُ عَنِ الْإِيمَانِ وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِ؛ كَمَا أَنَّ الْعَذَابَ صَادٌّ عَمَّا هُوَ سَبِيهِ. ﴿وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾: لِأَنَّهُ مُوَافِقٌ لِلْهُوَى.

فهذا الصنف من الناس من الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾. ﴿أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾: حَيْثُ أَخْبَرَكَم^(٢) بِهَذَا الْفَرِيقِ الَّذِي حَالُهُ كَمَا وَصَفَ لَكُمْ، فَتَعْرِفُونَ بِذَلِكَ كَمَالَ عِلْمِهِ وَسَعَةَ حُكْمَتِهِ. ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾؛ أَي: فَلِذَلِكَ قَدَّرَ مَحَنًا وَابْتِلَاءً؛ لِيُظْهِرَ عِلْمَهُ فِيهِمْ، فَيُجَازِيَهُمْ بِمَا ظَهَرَ مِنْهُمْ، لَا بِمَا يَعْلَمُهُ بِمَجْرَدِهِ؛ لِأَنَّهُمْ قَدْ يَحْتَجُّونَ عَلَى اللَّهِ أَنَّهُمْ لَوْ ابْتَلَوْا لَنُتَبُوا.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتَ أَثْقَالَهُمْ وَلَيْسَ لَكَ يَوْمَ أَلْفَيْكُمْ عَمَّا كَانُوا يَقْتُرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

(١) في (ب): «عباده».

(٢) في (ب): «خبركم».

﴿١٢﴾ يخبر تعالى عن افتراء الكفار ودعوتهم للمؤمنين إلى دينهم، وفي ضمن ذلك تحذير المؤمنين من الاغترار بهم والوقوع في مكرهم، فقال: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا﴾: فاتركوا دينكم أو بعضه، واتبعونا في ديننا؛ فإننا نضمن لكم الأمر، ونحمل خطاياكم﴾: وهذا الأمر ليس بأيديهم؛ فلهذا قال: ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء﴾: لا قليل ولا كثير؛ فلهذا التحمل ولو رضي به صاحبه؛ فإنه لا يفيد شيئاً؛ فإن الحق لله، والله تعالى لم يمكن العبد من التصرف في حقه إلا بأمره وحكمه، وحكمه أن لا تزر وازرة وزر أخرى.

﴿١٣﴾ ولما كان قوله: ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء﴾: قد يتوهم منه أيضاً أن الكفار الداعين إلى كفرهم - ونحوهم ممن دعا إلى باطله - ليس عليهم إلا ذنبهم الذي ارتكبه دون الذنب الذي فعله غيرهم، ولو كانوا متسببين فيه؛ قال محترزاً عن هذا الوهم: ﴿ولنحملن أثقالهم﴾؛ أي: أثقال ذنوبهم التي عملوها، ﴿وأثقالاً مع أثقالهم﴾: وهي الذنوب التي بسببهم ومن جرأتهم؛ فالذنب الذي فعله التابع لكل من التابع والمتبوع حصّة منه: هذا لأنه فعله وباشره، والمتبوع لأنه تسبّب في فعله ودعا إليه؛ كما أن الحسنة إذا فعلها التابع له أجرها بالمباشرة وللداعي أجره بالتسبب، ﴿وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون﴾: من الشرّ وتزيينه وقولهم: ﴿ولنحمل خطاياكم﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٤) فَأَجْنَحَتْ أَصْحَابُ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ .

﴿١٤﴾ يخبر تعالى عن حكمه وحكمته في عقوبات ^(١) الأمم المكذبة، وأن الله أرسل عبده ورسوله نوحاً عليه [الصلاة و] السلام إلى قومه يدعوهم إلى التوحيد وإفراد الله بالعبادة والنهي عن الأنداد والأصنام، ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ﴾: نبياً داعياً ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾: وهو لا يني بدعوتهم ولا يفتّر في نصحهم؛ يدعوهم ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، فلم يرشدوا ولا ^(٢) اهتدوا بل استمروا على كفرهم وطغيانهم، حتى دعا عليهم نبيهم نوح عليه الصلاة والسلام مع شدة صبره وحلمه واحتماله، فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا﴾، ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾؛ أي:

(١) في (ب): «عقوبة».

(٢) في (ب): «ولم».

الماء الذي نزل من السماء بكثرة وَتَبَعَ^(١) من الأرض بشدة، ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾؛ مستحقون للعذاب.

﴿١٥﴾ ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾: الذين ركبوا معه؛ أهله ومن آمن به، ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾؛ أي: السفينة أو قصة نوح ﴿آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾: يعتبرون بها على أَنَّ مَنْ كَذَّبَ الرسل آخرُ أمرِهِ الهلاكُ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ سيجعل الله لهم من كُلِّ هَمٍّ فرجاً ومن كل ضيقٍ مخرجاً، وجعل الله أيضاً السفينة؛ أي: جنسها آية للعالمين؛ يعتبرون بها رحمة ربهم الذي قَيَّضَ لهم أسبابها، ويسَّرَ لهم أمرها، وجعلها تحملهم، وتحمل متاعهم من محلٍّ إلى محلٍّ، ومن قطر إلى قطر.

﴿وَاِذْ يَرْاهِمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١١) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^(١٢) وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ^(١٣) أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ^(١٤) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(١٥) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحِمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقَابُونَ^(١٦) وَمَا أَشَدُّ بَعْجَازٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ^(١٧)﴾.

﴿١٦﴾ يذكر تعالى أنه أرسل خليفه إبراهيم عليه السلام إلى قومه يدعوهم إلى الله، فقال لهم^(٢): ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾؛ أي: وحْدَهُ وأخلصوا له العبادة وامتلوا ما أمركم به، ﴿وَاتَّقُوهُ﴾: أَنْ يَغْضَبَ عَلَيْكُمْ فيعَذِّبْكُمْ، وذلك بترك ما يَغْضِبُهُ من المعاصي. ﴿ذَلِكُمْ﴾؛ أي: عبادة الله وتقواه ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾: من ترك ذلك، وهذا من باب إطلاق أفعال التفضيل بما ليس في الطرف الآخر منه شيء؛ فَإِنْ تَرَكَ عبادة الله وَتَرَكَ تقواه لا خير فيه بوجه، وإنَّما كانت عبادة الله وتقواه خيراً للناس لأنه لا سبيل إلى نيل كرامته في الدنيا والآخرة إِلَّا بِذَلِكَ، وكلُّ خيرٍ يوجد في الدنيا والآخرة؛ فَإِنَّهُ من آثار عبادة الله وتقواه. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: ذلك؛ فاعلموا الأمور، وانظروا ما هو أولى بالإيثار.

(٢) في (ب): «فقال».

(١) في (ب): «فتبع».

﴿١٧ - ١٨﴾ فلَمَّا أَمَرَهُم بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَتَقْوَاهُ؛ نَهَاَهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَبَيَّنَّ لَهُمْ نَقْصَهَا وَعَدَمَ اسْتِحْقَاقِهَا لِلْعِبُودِيَّةِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾: تَنْجِتُونَهَا، وَتَخْلُقُونَهَا بِأَيْدِيكُمْ، وَتَخْلُقُونَ لَهَا أَسْمَاءَ الْآلِهَةِ، وَتَخْتَلِقُونَ الْكَذِبَ بِالْأَمْرِ بِعِبَادَتِهَا وَالتَّمَسُّكِ بِذَلِكَ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: فِي نَقْصِهِ وَأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ مَا يَدْعُو إِلَى عِبَادَتِهِ، ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾: فَكَأَنَّهُ قِيلَ: قَدْ بَانَ لَنَا أَنَّ هَذِهِ الْأَوْثَانَ مَخْلُوقَةٌ نَاقِصَةٌ لَا تَمْلِكُ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نَشُورًا، وَأَنَّ مَنْ هَذَا وَصْفُهُ لَا يَسْتَحِقُّ أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنَ الْعِبَادَةِ وَالتَّأْلِهِ، وَالْقُلُوبُ لَا بَدَأَ أَنْ تَطْلُبَ مَعْبُودًا تَأْلَهُ وَتَسْأَلَهُ حَوَائِجَهَا. فَقَالَ حَائِثًا لَهُمْ عَلَى مَنْ يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ: ﴿فَايْتَفَعُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾: فَإِنَّهُ هُوَ الْمَيْسِرُ لَهُ الْمَقْدَرُ الْمَجِيبُ لِدَعْوَةِ مَنْ دَعَاهُ لِمَصَالِحِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾: وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ لِكُونِهِ الْكَامِلُ النَّافِعُ الضَّارُّ الْمَتَفَرِّدُ بِالتَّدْبِيرِ، ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾: وَحْدَهُ؛ لِكُونَ جَمِيعِ مَا وَصَلَ وَيَصِلُ إِلَى الْخَلْقِ مِنَ النِّعَمِ فَمِنْهُ، وَجَمِيعِ مَا انْدَفَعَ وَبِنَدَفٍ مِنَ النِّقَمِ عَنْهُمْ؛ فَهُوَ الدَّافِعُ لَهَا. ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: فَيَجَازِيكُمْ^(١) عَلَى مَا عَمِلْتُمْ، وَيَنْبِئُكُمْ بِمَا أَسْرَرْتُمْ وَأَعْلَنْتُمْ؛ فَاحْذَرُوا الْقُدُومَ عَلَيْهِ وَأَنْتُمْ عَلَى شِرْكِكُمْ، وَارْغَبُوا فِيمَا يَقْرُبُكُمْ إِلَيْهِ وَيُثَبِّتُكُمْ عِنْدَ الْقُدُومِ عَلَيْهِ.

﴿١٩﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ﴾: يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

﴿٢٠﴾ ﴿قُلْ﴾: لَهُمْ إِنْ خَصَلَ مَعَهُمْ رَيْبٌ وَشَكٌّ فِي الْإِبْتِدَاءِ: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾: بِأَبْدَانِكُمْ وَقُلُوبِكُمْ، ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾: فَإِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ أَمَامَ مِنَ الْآدَمِيِّينَ وَالْحَيَوَانَاتِ لَا تَزَالُ تَوْجِدُ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَتَجِدُونَ النَّبَاتَ وَالْأَشْجَارَ كَيْفَ تَحْدُثُ وَقْتًا بَعْدَ وَقْتٍ، وَتَجِدُونَ السَّحَابَ وَالرِّيَّاحَ وَنَحْوَهَا مُسْتَمِرَّةً فِي تَجَدُّدِهَا، بَلِ الْخَلْقُ دَائِمًا فِي بَدْءٍ وَإِعَادَةٍ؛ فَاَنْظُرْ إِلَيْهِمْ وَقْتَ مَوْتِهِمُ الصَّغَرَى - النُّومِ -؛ وَقَدْ هَجَمَ عَلَيْهِمُ اللَّيْلُ بِظِلَامِهِ، فَسَكَنَتْ مِنْهُمْ الْحَرَكَاتُ، وَانْقَطَعَتْ مِنْهُمْ الْأَصْوَاتُ، وَصَارُوا فِي فَرْشِهِمْ وَمَأْوَاهُمْ كَالْمَيْتِينَ، ثُمَّ إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا عَلَى ذَلِكَ طُولَ لَيْلِهِمْ حَتَّى انْفَلَقَ الْأَصْبَاحُ، فَانْتَبَهُوا مِنْ رَقْدَتِهِمْ، وَبُعِثُوا مِنْ مَوْتِهِمْ؛ قَائِلِينَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا

(١) فِي (ب): «يَجَازِيكُمْ».

بعدما أماننا وإليه التُّشور. ولهذا قال: ﴿ثُمَّ اللَّهُ﴾: بعد الإعادة ﴿يُنْشِئُ النُّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾: وهي النُّشْأَةُ التي لَا تَقْبَلُ مَوْتًا وَلَا نَوْمًا، وإِنَّمَا هو الخلود والدوام في إحدى الدارين. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: فقدرته تعالى لَا يُعْجِزُهَا شَيْءٌ، وكما قَدَرَ بها على ابتداء الخلق؛ فقدرته على الإعادة من باب أولى وأحرى.

﴿٢١﴾ ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: هو المنفرد بالحكم الجزائي، وهو إثابة الطائعين ورحمتهم، وتعذيبُ العاصين والتنكيل بهم، ﴿وإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾؛ أي: ترجعون إلى الدار التي بها تجري عليكم أحكام عذابه ورحمته، فاستسبوا في هذه الدار ما هو من أسباب رحمته من الطاعات، وابتعدوا من أسباب عذابه وهو المعاصي.

﴿٢٢﴾ ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾؛ أي: يا هؤلاء المكذبون المتجرؤون على المعاصي! لا تحسبوا أنه مغفولٌ عنكم أو أنكم معجزون^(١) لله في الأرض ولا في السماء؛ فلا تُغَرِّتْكُمْ قدرتكم وما زينَتْ لكم أنفسكم وخذعتكم من النجاة من عذاب الله، فليستُم بمُعْجِزِينَ لله في جميع أقطار العالم، ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾: يتولَّاكم فيحصل لكم مصالح دينكم ودنياكم. ﴿وَلَا نَصِيرٌ﴾: ينصركم فيدفع عنكم المكاره.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَائِدُوا اللَّهَ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَسْأَوْنَ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿٢٣﴾ يخبر تعالى من هم الذين زال عنهم الخيرُ وحصل لهم الشرُّ، وأنهم الذين كفروا به وبرسله وبما جاؤوهم به، وكذبوا بقاء الله، فليس عندهم إلا الدنيا؛ فلذلك أقدموا^(٢) على ما أقدموا عليه من الشرك والمعاصي؛ لأنه ليس في قلوبهم ما يخوفهم من عاقبة ذلك، ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ يَسْأَوْنَ مِنْ رَحْمَتِي﴾؛ أي: فلذلك لم يعملوا سبباً واحداً يُحْصِلُونَ به الرحمة، وإلَّا؛ فلو طمعوا في رحمته؛ لعملوا لذلك أعمالاً.

والإياس من رحمة الله من أعظم المحاذير، وهو نوعان: إياسُ الكفار منها وتركهم جميع سبب يقربهم منها. وإياسُ العصاة بسبب كثرة جنایاتهم أو حششتهم فملكَتْ قلوبهم، فأحدث لها الإياس. ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: مؤلم موجه.

(١) في (ب): «أو معجزين الله».

(٢) في (ب): «قدموا».

وكان هذه الآيات معترضات بين كلام إبراهيم لقومه وردهم عليه، والله أعلم بذلك.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَسُكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن تَنْصِيرٍ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿٢٤﴾ أي: فما كان مجاوبة قوم إبراهيم لإبراهيم^(١) حين دعاهم إلى ربه قبول دعوته والاهتداء بنصحه ورؤية نعمة الله عليهم بإرساله إليهم، وإنما كان مجاوبتهم له شرًّا مجاوبة، ﴿قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾: أشنع القتل، وهم أناس مقتدرون، لهم السلطان، فآلقوه في النار، ﴿فأنجاه الله﴾: منها. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: فيعلمون صحة ما جاءت به الرسل وبرهم ونصحهم وبطلان قول من خالفهم وناقضهم، وأن المعارضين للرسل كأنهم تواصوا وحث بعضهم بعضاً على التكذيب.

﴿٢٥﴾ وقال: لهم إبراهيم في جملة ما قاله من نصحه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: غاية ذلك مودة في الدنيا ستنتقطع وتضمحل، ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾؛ أي: يتبرأ كل من العابدين والمعبودين من الآخر، وإذا خسر الناس؛ كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين؛ فكيف تتعلقون بمن يعلم أنه سيتبرأ من عابديه، ويلعنهم. وأن ماوى الجميع العابدين والمعبودين ﴿النار﴾: وليس أحد ينصُرهم من عذاب الله، ولا يدفع عنهم عقابه.

﴿فَقَامَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَمَأْتِيَّتُهُ بَعْثُهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿٢٦﴾ أي: لم يزل إبراهيم عليه الصلاة والسلام يدعو قومه، وهم مستمرّون

(١) في (ب): «إبراهيم».

على عنادهم؛ إِلَّا أَنَّهُ آمَنَ لَهُ بِدَعْوَتِهِ لَوْطَ الَّذِي نَبَّأَهُ اللَّهُ وَأَرْسَلَهُ إِلَى قَوْمِهِ كَمَا سَيَأْتِي ذِكْرُهُ، ﴿وَقَالَ﴾: إِبْرَاهِيمُ حِينَ رَأَى أَنَّ دَعْوَةَ قَوْمِهِ لَا تَفِيدُهُمْ شَيْئًا: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾؛ أَي: هَاجِرٌ أَرْضِ السَّوْءِ، وَمُهَاجِرٌ إِلَى الْأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ، وَهِيَ الشَّامُ. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾؛ أَي: الَّذِي لَهُ الْقُوَّةُ، وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى هِدَايَتِكُمْ، وَلَكِنَّهُ حَكِيمٌ، مَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ ذَلِكَ.

وَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَفَارَقَهُمْ وَهُمْ بِحَالِهِمْ؛ لَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّهُ أَهْلَكَهُمْ بِعَذَابٍ، بَلْ ذَكَرَ اعْتَزَالَهُ إِيَّاهُمْ وَهَجْرَتَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ، فَأَمَّا مَا يُذَكَّرُ فِي الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَتَحَ عَلَى قَوْمِهِ بَابَ الْبَعْوَضِ، فَشَرَبَ دِمَاءَهُمْ، وَأَكَلَ لِحُومَهُمْ، وَأَثْلَفَهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ؛ فَهَذَا يَتَوَقَّفُ الْجُزْمُ بِهِ عَلَى الدَّلِيلِ الشَّرْعِيِّ، وَلَمْ يَوْجَدْ؛ فَلَوْ كَانَ اللَّهُ اسْتَأْصَلَهُمْ بِالْعَذَابِ؛ لَذَكَرَهُ كَمَا ذَكَرَ إِهْلَاكَ الْأُمَمِ الْمَكْذُوبَةِ، وَلَكِنْ هَلْ مِنْ أَسْرَارِ ذَلِكَ أَنَّ الْخَلِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَرْحَمِ الْخَلْقِ وَأَفْضَلِهِمْ وَأَحْلَمِهِمْ وَأَجْلَهُمْ؛ فَلَمْ يَدْعُ عَلَى قَوْمِهِ كَمَا دَعَا غَيْرَهُ، وَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُجْزِيَ بِسَبَبِهِ عَذَابًا عَامًّا؟ وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ رَاجِعُ الْمَلَائِكَةِ فِي إِهْلَاكَ قَوْمِ لُوطَ، وَجَادَلَهُمْ، وَدَافَعَ عَنْهُمْ، وَهُمْ لَيْسُوا قَوْمَهُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْحَالِ.

﴿٢٧﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾؛ أَي: بَعْدَمَا هَاجَرَ إِلَى الشَّامِ، ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾: فَلَمْ يَأْتِ بَعْدَهُ نَبِيٌّ إِلَّا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، وَلَا نَزَلَ كِتَابٌ إِلَّا عَلَى ذُرِّيَّتِهِ، حَتَّى خُتِمُوا بِابْنِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ. وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ (١) الْمَنَاقِبِ وَالْمَفَاخِرِ، أَنَّ تَكُونَ مَوَادُّ الْهَدَايَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالسَّعَادَةِ وَالْفَلَاحِ وَالْفَوْزِ فِي ذُرِّيَّتِهِ، وَعَلَى أَيْدِيهِمْ اهْتَدَى الْمُهْتَدُونَ، وَأَمِنَ الْمُؤْمِنُونَ، وَصَلَحَ الصَّالِحُونَ، ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾: مِنَ الزَّوْجَةِ الْجَمِيلَةِ فَائِثَةِ الْجَمَالِ، وَالرِّزْقِ الْوَاسِعِ، وَالْأَوْلَادِ الَّذِينَ بِهِمْ قَوَّتْ عَيْنُهُ، وَمَعْرِفَةُ اللَّهِ وَمَحَبَّتُهُ وَالْإِنَابَةُ إِلَيْهِ. ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَيَمِينُ الصَّالِحِينَ﴾: بَلْ هُوَ وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ أَفْضَلُ الصَّالِحِينَ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً. فَجَمَعَ اللَّهُ لَهُ بَيْنَ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَنْتَوْنَ الْفَاحِشَةُ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٨) أَيْنَكُمْ لَأَنْتَوْنَ الرِّجَالُ وَتَقَطَّعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي كَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ فَمَا

كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ [وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا تَحَرَّبْنَا عَلَى مَنْ فِيهَا لَنُجِيتَهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًاكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِوَى يَوْمِهِمْ وَصَافَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًاكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾] (١).

تقدم أن لوطاً عليه السلام آمن لإبراهيم وصار من المهتدين به، وقد ذكروا أنه ليس من ذرية إبراهيم، وإنما هو ابن أخي إبراهيم؛ فقله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾: وإن كان عاماً؛ فلا يناقض كون لوط نبياً رسولاً، وهو ليس من ذُرِّيَّتِهِ؛ لأن الآية جيء بها لسياق المدح والثناء على الخليل، وقد أخبر أن لوطاً اهتدى على يديه، ومن اهتدى على يديه؛ أكمل ممن اهتدى من ذُرِّيَّتِهِ بالنسبة إلى فضيلة الهادي. والله أعلم.

﴿٢٨ - ٢٩﴾ فأرسل الله لوطاً إلى قومه، وكانوا مع شركهم قد جمعوا بين فعل الفاحشة في الذكور وتقطيع السبيل وفُشُو المُنْكَرَات في مجالسهم، فنصحهم لوط عن هذه الأمور، وبيّن لهم قبائحها في نفسها وما تؤول إليه من العقوبة البليغة، فلم يَزْعَمُوا ولم يَذْكُرُوا. ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

﴿٣٠ - ٣٥﴾ فأيس منهم نبيهم، وعلم استحقاقهم العذاب، وجزع من شدة تكذيبهم له، فدعا عليهم، و﴿قال رب انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾: فاستجاب الله دعاءه، فأرسل الملائكة لإهلاكهم، فمروا بإبراهيم قبل ذلك، وبشروه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، ثم سألهم إبراهيم: أين يريدون؟ فأخبروه أنهم يريدون إهلاك قوم لوط، فجعل يراجعهم ويقول: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾، فقالوا له: ﴿لَنُنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًاكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾: ثم مَضَوْا حتى أتوا

(١) ما بين المعقوفين زيادة لا توجد في (أ). وفي (ب): إلى آخر القصة.

لوطاً، فسأه مجيئهم، وضاق بهم ذرعاً؛ بحيث إنه لم يعرفهم، وظنَّ أنهم من جملة أبناء السبيل الضيوف، فخاف عليهم من قومه، فقالوا له: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾: وأخبروه أنهم رسل الله، ﴿إِنَّا مِنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ. إِنَّا نَنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رَجْزاً﴾؛ أي: عذاباً ﴿مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾: فأمرهم أن يسري بأهله ليلاً، فلما أصبحوا؛ قلبَ الله عليهم ديارهم، فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارةً من سجيل متتابعة حتى أبادتهم وأهلكتهم فصاروا سمرأً من الأسمار وعبرةً من العبر. ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: تركنا من ديار قوم لوط أثاراً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ الْعِبْرَ بِقُلُوبِهِمْ فَيَنْتَفِعُونَ بِهَا؛ كما قال تعالى: ﴿وَرِئَكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ. وَبِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ مَدِينَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَتَقَوْمَ عَبْدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّحْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ (٣٧).

﴿٣٦ - ٣٧﴾ أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إِلَى مَدِينَ﴾: القبيلة المعروفة المشهورة ﴿شُعَيْبًا﴾: فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، والإيمان بالبعث ورجائه والعمل له، ونهاهم عن الإفساد في الأرض ببخس المكاييل والموازين والسعي بقطع الطرق. ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: فأخذهم عذاب الله، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾.

﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِنِهِمْ وَزَيْتُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ (٣٨) وَقَدَرُوا وَفِرْعَوْنُ وَهَمْنٌ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُؤَمِّنُونَ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَافِكِينَ (٣٩) فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠).

﴿٣٨﴾ أي: وكذلك ما فعلنا بعادٍ وثمود، وقد علمت^(١) قصصهم، وتبين لكم بشيء تشاهدونه بأبصاركم من مساكنهم وأثارهم التي بانوا عنها، وقد جاءتهم رسلهم بالآيات البينات المفيدة للبصيرة، فكذبوهم وجادلوهم، وزين لهم الشيطان

(١) في (ب): «علمت».

عملهم، حتى ظنوا أنه أفضل مما جاءتهم به الرسل.

﴿٣٩﴾ وكذلك قارون وفرعون وهامان، حين بعث الله إليهم موسى بن عمران بالآيات البينات والبراهين الساطعات، فلم ينقادوا، واستكبروا في الأرض على عباد الله فأذلوهم، وعلى الحق فردوه فلم يقدروا على النجاء حين نزلت بهم العقوبة. ﴿وما كانوا سابقين﴾: الله ولا فائتين، بل سلّموا واستسلموا.

﴿٤٠﴾ ﴿فكلاً﴾: من هؤلاء الأمم المكذبة ﴿أخذنا بذنبي﴾: على قدره وبعقوبة مناسبة له، ﴿فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾؛ أي: عذاباً يخصبهم كقوم عاد حين أرسل الله ﴿عليهم الريح العقيم﴾ و﴿سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾، ﴿ومنهم من أخذته الصيحة﴾: كقوم صالح، ﴿ومنهم من خسفنا به الأرض﴾: كقارون، ﴿ومنهم من أغرقنا﴾: كفرعون وهامان وجنودهما. ﴿وما كان الله﴾؛ أي: ما ينبغي ولا يليق به تعالى أن يظلمهم لكمال عدله وغناه التام عن جميع الخلق، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾: منعوها حقها التي هي بصديده؛ فإنها مخلوقة لعبادة الله وحده؛ فهؤلاء وضعوها في غير موضعها، وشغلوها^(١) بالشهوات والمعاصي، فضروها غاية الضرر من حيث ظنوا أنهم ينفعونها.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَلَئِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتُ لَبَيَّتُ الْعَنْكَبُوتُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿٤١﴾ هذا مثل ضرب به الله لمن عبد معه غيره يقصد به التعزُّز والتقوي والنفع، وأن الأمر بخلاف مقصوده؛ فإن مثله كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً يقيمها من الحر والبرد والآفات، ﴿وإن أوهن البيوت﴾: أضعفها وأوهاها ﴿لبيت العنكبوت﴾: فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة، وبيتها من أضعف البيوت؛ فما ازدادت باتخاذها إلا ضعفاً.

كذلك هؤلاء الذين يتخذون من دونه أولياء فقراء عاجزون من جميع الوجوه،

(١) في (ب): «وأشغلوها».

وحين اتَّخذوا الأولياء من دونه يتعزَّزون بهم ويستنصرونهم؛ ازدادوا ضَعْفاً إلى ضعفهم ووهناً إلى وهنهم؛ فإنَّهم اتَّكلوا عليهم في كثير من مصالحهم، وألقَوْها عليهم، وتخلَّوْا هم عنها؛ على أنَّ أولئك سيقومون بها، فخذلوهم، فلم يحصلوا منهم على طائل، ولا أنالوهم من معونتهم أقلَّ نائل؛ فلو كانوا يعلمون حقيقة العلم حالهم وحال مَنْ اتَّخذوهم؛ لم يتَّخذوهم، ولتبرَّؤوا منهم، ولتولَّوْا ربَّ القادر الرحيم، الذي إذا تولَّاه عبده وتوكَّل عليه؛ كفاه مؤونة دينه ودنياه، وازداد قوَّة إلى قوَّته في قلبه وبدنه^(١) وحاله وأعماله.

﴿٤٢﴾ ولَمَّا بَيَّنَّ نِهَآيَةَ ضَعْفِ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ؛ ارْتَقَى مِنْ هَذَا إِلَى مَا هُوَ أْبْلَغُ مِنْهُ، وَأَنَّهَا لَيْسَ بِشَيْءٍ، بَلْ هِيَ مَجْرَدُ أَسْمَاءٍ سَمَّوْهَا وَظَنُّوا عِتْقَ دَوَاهَا، وَعِنْدَ التَّحْقِيقِ يَتَبَيَّنُ لِلْعَاقِلِ بَطْلَانُهَا وَعَدَمُهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ أَي: إِنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ - وَهُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ - أَنَّهُمْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شَيْئاً مَوْجُوداً وَلَا إِلَهاً لَهُ حَقِيقَةٌ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: الَّذِي لَهُ الْقُوَّةُ جَمِيعاً، الَّتِي قَهَرَ بِهَا جَمِيعَ الْخَلْقِ. ﴿الْحَكِيمُ﴾: الَّذِي يَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا، الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَأَتَقَنَ مَا أَمَرَهُ.

﴿٤٣﴾ ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضَرِبِهَا لِلنَّاسِ﴾؛ أَي: لِأَجْلِهِمْ وَلِانْتِفَاعِهِمْ وَتَعْلِيمِهِمْ؛ لِكُونِهَا مِنَ الطَّرِيقِ الْمَوْضُوعَةِ لِلْعُلُومِ؛ لِأَنَّهَا تُقَرِّبُ الْأُمُورَ الْمَعْقُولَةَ بِالْأُمُورِ الْمَحْسُوسَةِ، فَيَتَضَحَّ الْمَعْنَى الْمَطْلُوبُ بِسَبَبِهَا؛ فَهِيَ مُصْلِحَةٌ لِعُمُومِ النَّاسِ. ﴿و﴾ لَكِنْ ﴿مَا يَعْقِلُهَا﴾: لِفَهْمِهَا وَتَدْبِيرِهَا وَتَطْبِيقِهَا عَلَى مَا ضَرِبَتْ لَهُ وَعَقَّلَهَا فِي الْقَلْبِ. ﴿إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾؛ أَي: إِلَّا أَهْلُ الْعِلْمِ الْحَقِيقِيِّ، الَّذِينَ وَصَلَ الْعِلْمُ إِلَى قُلُوبِهِمْ. وَهَذَا مَدْحٌ لِلْأَمْثَالِ الَّتِي يَضْرِبُهَا، وَحُثٌّ عَلَى تَدْبِيرِهَا وَتَعْقِلِهَا، وَمَدْحٌ لِمَنْ يَعْقِلُهَا، وَأَنَّهُ عِنَاةٌ عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَعَلِمَ أَنَّ مَنْ لَمْ يَعْقِلْهَا لَيْسَ مِنَ الْعَالِمِينَ.

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْأَمْثَالَ الَّتِي يَضْرِبُهَا اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ إِنَّمَا هِيَ لِلْأُمُورِ الْكِبَارِ وَالْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ وَالْمَسَائِلِ الْجَلِيلَةِ، فَأَهْلُ الْعِلْمِ يَعْرِفُونَ أَنَّهَا أَهَمُّ مِنْ غَيْرِهَا؛ لِاعْتِنَاءِ اللَّهِ بِهَا، وَحُثِّهِ عِبَادَهُ عَلَى تَعْقِلِهَا وَتَدْبِيرِهَا، فَيَبْذُلُونَ جَهْدَهُمْ فِي مَعْرِفَتِهَا،

(١) فِي (ب): «وَفِي بَدَنِهِ».

وأما من لم يَعْقِلْهَا مع أَهْمِيَّتِهَا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَعْرِفِ الْمَسَائِلَ الْمَهْمَةَ، فَعَدَمَ مَعْرِفَتِهِ غَيْرَهَا مِنْ بَابٍ أَوَّلَى وَأَحْرَى، وَلِهَذَا أَكْثَرُ مَا يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ فِي أَصُولِ الدِّينِ وَنَحْوِهَا.

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٤).

﴿٤٤﴾ أي: هو تعالى المنفردُ بخلق السماواتِ على علوّها وارتفاعها وسَعَتِهَا وحسنها وما فيها من الشمس والقمر والكواكب والملائكة، والأرض وما فيها من الجبال والبحار والبراري والقفار والأشجار ونحوها، وكلُّ ذَلِكَ خَلَقَهُ بِالْحَقِّ؛ أي: لَمْ يَخْلُقْهَا عَبَثًا وَلَا سَدَى وَلَا لغير فائدة، وإنّما خلقها ليقوم أمره وشرّعه، ولتتمّ نعمته على عباده، وليبرّوا من حكمته وقهره وتديبره ما يدلّهم على أَنَّهُ وَحْدَهُ معبودهم ومحبوبهم وإلّهم. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: على كثير من المطالب الإيمانيّة، إذا تدبّرها المؤمن؛ رأى ذَلِكَ فيها عياناً.

﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (٤٥).

﴿٤٥﴾ يأمر تعالى بتلاوة وحيه وتنزيله، وهو هَذَا الْكِتَابُ الْعَظِيمُ، ومعنى تِلَاوَتِهِ: اتِّبَاعُهُ بِامْتِثَالِ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَاجْتِنَابِ مَا يَنْهَى عَنْهُ [عنه]، والاهْتِدَاءُ بِهِدَاهُ، وتصديق أخباره، وتدبّر معانيه، وتلاوة ألفاظه. فصار تلاوةً لفظيةً جزءً المعنى وبعضه، وإذا كان هَذَا معنى تلاوة الكتاب؛ عَلِمَ أَنَّ إِقَامَةَ الدِّينِ كُلُّهُ دَاخِلَةٌ فِي تِلَاوَةِ الْكِتَابِ، فيكون قوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾: من باب عطف الخاصّ على العامّ؛ لفضل الصلاة وشرفها وآثارها الجميلة، وهي: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾: فالْفَحْشَاءُ كُلُّ مَا اسْتُعْظِمَ وَاسْتُفْجِحَ مِنَ الْمَعَاصِي الَّتِي تَشْتَهِيهَا النُّفُوسُ، وَالْمُنْكَرُ كُلُّ مَعْصِيَةٍ تُنْكِرُهَا الْعُقُولُ وَالْفِطَرُ.

ووجه كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر: أَنَّ الْعَبْدَ الْمُقِيمَ لَهَا الْمُتَمِّمَ لِأَرْكَانِهَا وَشُرُوطِهَا وَخُشُوعِهَا يَسْتَبِيرُ قَلْبُهُ وَيَتَطَهَّرُ فُؤَادُهُ وَيَزْدَادُ إِيمَانُهُ وَتَقْوَى رَغْبَتُهُ فِي الْخَيْرِ وَتَقَلُّ أَوْ تَعْدَمُ رَغْبَتُهُ فِي الشَّرِّ؛ فَبِالضَّرُورَةِ مَدَاوِمَتِهَا، وَالْمَحَافَظَةُ عَلَيْهَا عَلَى هَذَا الْوَجْهِ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ؛ فَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ مَقَاصِدِ الصَّلَاةِ^(١) وَثَمَرَاتِهَا.

(١) في (ب): «أعظم مقاصدها».

وَتَمَّ فِي الصَّلَاةِ مَقْصُودٌ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا وَأَكْبَرُ، وَهُوَ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْبَدَنِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا خَلَقَ الْعِبَادَ^(١) لِعِبَادَتِهِ، وَأَفْضَلُ عِبَادَةٍ تَقَعُ مِنْهُمْ الصَّلَاةُ، وَفِيهَا مِنْ عِبُودِيَّاتِ الْجَوَارِحِ كُلِّهَا مَا لَيْسَ فِي غَيْرِهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾: وَيُخْتَمَلُ أَنَّهُ لَمَّا أَمَرَ بِالصَّلَاةِ وَمَدَحَهَا؛ أَخْبَرَ أَنَّ ذِكْرَهُ تَعَالَى خَارِجُ الصَّلَاةِ أَكْبَرُ مِنَ الصَّلَاةِ؛ كَمَا هُوَ قَوْلُ جَمْهُورِ الْمَفْسِّرِينَ، لَكِنَّ الْأَوَّلَ أَوْلَى؛ لِأَنَّ الصَّلَاةَ أَفْضَلُ مِنَ الذِّكْرِ خَارِجِهَا، وَلَا تَهَا - كَمَا تَقَدَّمَ - بِنَفْسِهَا مِنْ أَكْبَرِ الذِّكْرِ. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾: مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، فَيَجَازِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ أَكْمَلَ الْجَزَاءِ وَأَوْفَاهُ.

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَاللَّهُنَّ وَاللَّهُمَّ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٤٦).

﴿٤٦﴾ يَنْهَى تَعَالَى عَنْ مُجَادَلَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ إِذَا كَانَتْ عَنْ غَيْرِ بَصِيرَةٍ مِنَ الْمُجَادِلِ أَوْ بَغَيْرِ قَاعِدَةٍ مَرْضِيَّةٍ، وَأَنْ لَا يُجَادِلُوا إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ؛ بِحَسَنِ خُلُقٍ وَلَطْفٍ وَلِينٍ كَلَامٍ وَدَعْوَةٍ إِلَى الْحَقِّ وَتَحْسِينِهِ، وَرَدُّ عَنِ الْبَاطِلِ وَتَهْجِينِهِ بِأَقْرَبِ طَرِيقٍ مُوصِلٍ لَذَلِكَ، وَأَنْ لَا يَكُونَ الْقَصْدُ مِنْهَا مُجَرَّدَ الْمُجَادَلَةِ وَالْمُغَالَبَةِ وَحُبِّ الْعُلُوِّ، بَلْ يَكُونُ الْقَصْدُ بَيَانِ الْحَقِّ وَهَدَايَةِ الْخَلْقِ، ﴿إِلَّا﴾: مَنْ ظَلَمَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ بِأَنْ ظَهَرَ مِنْ قَصْدِهِ وَحَالِهِ أَنَّهُ لَا إِرَادَةَ لَهُ فِي الْحَقِّ، وَإِنَّمَا يُجَادِلُ عَلَى وَجْهِ الْمَشَاغِبَةِ وَالْمُغَالَبَةِ؛ فَهَذَا لَا فَائِدَةَ فِي جِدَالِهِ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْهَا ضَائِعٌ، ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَاللَّهُنَّ وَاللَّهُمَّ وَاحِدٌ﴾؛ أَي: وَلَتَكُنْ مُجَادِلَتُكُمْ لِأَهْلِ الْكِتَابِ مَبْنِيَّةً عَلَى الْإِيمَانِ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَأُنزِلَ إِلَيْهِمْ، وَعَلَى الْإِيمَانِ بِرُسُولِكُمْ وَرُسُولِهِمْ، وَعَلَى أَنَّ الْإِلَهَ وَاحِدٌ، وَلَا تَكُنْ مُنَازَرَتُكُمْ إِيَّاهُمْ عَلَى وَجْهِ يَحْصُلُ بِهِ الْقَدْحُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ أَوْ بِأَحَدٍ مِنَ الرُّسُلِ كَمَا يَفْعَلُهُ الْجَهْلَةُ عِنْدَ مُنَازَرَةِ الْخُصُومِ يَقْدَحُ بِجَمِيعٍ مَا مَعَهُمْ مِنْ حَقٍّ وَبَاطِلٍ؛ فَهَذَا ظَلَمٌ وَخُرُوجٌ عَنِ الْوَاجِبِ وَآدَابِ النَّظَرِ؛ فَإِنَّ الْوَاجِبَ أَنْ يُرَدَّ مَا مَعَ الْخُصْمِ مِنَ الْبَاطِلِ، وَيُقْبَلَ مَا مَعَهُ مِنَ الْحَقِّ، وَلَا يُرَدُّ الْحَقُّ لِأَجْلِ قَوْلِهِ، وَلَوْ كَانَ كَافِرًا.

وَأَيْضًا؛ فَإِنَّ بِنَاءَ مُنَازَرَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى هَذَا الطَّرِيقِ فِيهِ إِلْزَامٌ لَهُمْ بِالْإِقْرَارِ بِالْقُرْآنِ وَبِالرُّسُولِ الَّذِي جَاءَ بِهِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا تَكَلَّمَ فِي الْأَصُولِ الدِّينِيَّةِ وَالَّتِي اتَّفَقَتْ عَلَيْهَا

الأنبياء والكُتُب وتقرّرت عند المتناظرين وثبتت حقائقها عندهما وكانت الكتب السابقة والمرسلون مع القرآن ومحمد ﷺ قد بيّنتها، ودلّت عليها وأخبرت بها؛ فإنه يلزم التصديق بالكتب كلها والرسل كلهم، وهذا من خصائص الإسلام، فأما أن يُقال: نؤمن بما دلّ عليه الكتابُ الفلانيُّ دون الكتابِ الفلاني، وهو الحقُّ الذي صدّق ما قبله؛ فهذا ظلمٌ وهوى^(١)، وهو يرجع إلى قوله بالتكذيب؛ لأنه إذا كذب القرآن الدالّ عليها المصدق لما بين يديه من التوراة؛ فإنه مكذب لما زعم أنه به مؤمن. وأيضاً؛ فإنّ كلّ طريق تثبت بها نبوة أي نبي كان؛ فإنّ مثلها وأعظم منها دالة على نبوة محمد ﷺ، وكلُّ شبهة يُقدح بها في نبوة محمد ﷺ؛ فإنّ مثلها أو^(٢) أعظم منها يمكن توجيهها إلى نبوة غيره؛ فإذا ثبت بطلانها في غيره؛ فثبت بطلانها في حقّه ﷺ أظهر وأظهر. وقوله: ﴿ونحنُ له مسلمون﴾؛ أي: متقادون مستسلمون لأمره، ومن آمن به واتّخذهُ إلهاً وآمن بجميع كتبه ورسله وانقاد لله واتبع رسله؛ فهو السعيد، ومن انحرف عن هذا الطريق؛ فهو الشقي.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْثَبُ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآزَابِ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿٤٧﴾ أي: ﴿وكذلك أنزلنا إليك﴾: يا محمد، هذا ﴿الكتاب﴾ الكريم، المبيّن كلّ نبأ عظيم، الداعي إلى كلّ خلق فاضل وأمر كامل، المصدق للكتب السابقة، المخبر به الأنبياء الأقدمون، ﴿فالذين آتيناهم الكتاب﴾: فعرفوه حق معرفته ولم يداخلهم حسدٌ وهوى، ﴿يؤمنون به﴾: لأنهم تيقنوا صدقه بما لديهم من الموافقات، وبما عندهم من البشارات، وبما تميّزوا به من معرفة الحسن والقبح والصدق والكذب. ﴿ومن هؤلاء﴾: الموجودين ﴿من يؤمن به﴾: إيماناً عن بصيرة لا عن رغبة ولا رهبة، ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون﴾: الذين دأبهم الجحود للحق والعناد له، وهذا حصّر لمن كفر به؛ أنّه لا يكون من أحدٍ قصده متابعة الحق، وإلا؛ فكلُّ من له عقلٌ أو ألقى السمع وهو شهيدٌ. ومما يدلّ على صحته أنّه جاء به هذا النبي الأمين، الذي عرّف قومه صدقه وأمانته ومدخله ومخرجه وسائر

(١) في (ب): «وجور».

(٢) في (ب): «و».

أحواله، وهو لا يكتب بيده خطأ، بل ولا^(١) يقرأ خطأ مكتوباً، فإتيانه به في هذه الحال من أظهر البينات القاطعة التي لا تقبل الارتياب أنه من عند الله العزيز الحميد.

﴿٤٨﴾ ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو﴾؛ أي: تقرأ ﴿مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ بِمِمْبِنِكَ إِذَا﴾: لو كنت بهذه الحال ﴿لَارْتَابَ الْمُبِطْلُونَ﴾: فقالوا تَعَلَّمَهُ مِنَ الْكِتَابِ السَّابِقَةِ أَوْ اسْتَنْسَخَهُ مِنْهَا، فَأَمَّا وَقَدْ نَزَلَ عَلَى قَلْبِكَ كِتَابًا جَلِيلًا تَحَدَّثْتَ بِهِ الْفَصَحَاءَ وَالْبُلَغَاءَ الْأَعْدَاءَ الْأَلْدَاءَ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ أَوْ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، فَعَجَزُوا غَايَةَ الْعَجْزِ، بَلْ وَلَا حَدَّثْتَهُمْ أَنْفُسَهُمْ بِالْمَعَارِضَةِ؛ لَعَلَّهُمْ بِيَلَاغِيَتِهِ وَفَصَاحَتِهِ، وَأَنْ كَلَامَ أَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ لَا يَبْلُغُ أَنْ يَكُونَ مِجَارِيًّا لَهُ أَوْ عَلَى مَنَوَالِهِ، وَلِهَذَا قَالَ:

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَنِي فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾. ﴿٤٩﴾

﴿٤٩﴾ أي: بل هذا القرآن ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾: لا خَفِيَّاتٍ ﴿فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾: وهم سادة الخلق وعقلاؤهم، وأولو الألباب منهم والكُمَّلُ منهم، فإذا كان آيَاتِ بَيِّنَاتٍ فِي صُدُورِ أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ؛ كَانُوا حُجَّةً عَلَى غَيْرِهِمْ، وَإِنْكَارٌ غَيْرِهِمْ لَا يَضُرُّ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا ظُلْمًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾: لَأَنَّهُ لَا يَجْحَدُهَا إِلَّا جَاهِلٌ، تَكَلَّمَ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَلَمْ يَقْتَدِ بِأَهْلِ الْعِلْمِ، وَهُوَ مُتَمَكِّنٌ مِنْ مَعْرِفَتِهِ عَلَى حَقِيقَتِهِ، وَإِمَّا مُتَجَاهِلٌ عَرَفَ أَنَّهُ حَقٌّ فَعَانَدَهُ، وَعَرَفَ صِدْقَهُ فَخَالَفَهُ.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِيهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾. ﴿٥٢﴾

﴿٥٠﴾ أي: واعترض هؤلاء الظالمون المكذبون للرسول ولما جاء به، واقترحوا عليه نزول آيات عيَّنوها؛ كقولهم: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً...﴾ الآيات، فتعيين الآيات ليس عندهم ولا عند الرسول ﷺ؛ فَإِنْ فِي ذَلِكَ تَدْبِيرٌ مَعَ اللَّهِ، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَا، وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَا، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قُلْ إِنَّمَا^(٢) الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾: إِنْ شَاءَ أَنْزَلَهَا أَوْ مَنَعَهَا، ﴿وإِنَّمَا

(١) في (ب): «خطأ ولا».

(٢) في (ب): «ولهذا قال: إنما...».

أنا نذيرٌ مبينٌ»: وليس لي مرتبة فوق هذه المرتبة. وإذا كان القصد بيان الحق من الباطل؛ فإذا حصل المقصود بأي طريق كان؛ كان اقتراح الآيات المعينات على ذلك ظلماً وجوراً وتكبّراً على الله وعلى الحق، بل لو قُدِّرَ أن تنزل تلك الآيات ويكون في قلوبهم أنهم لا يؤمنون بالحق إلا بها؛ كان ذلك ليس بإيمان، وإنما ذلك شيء وافق أهواءهم، فآمنوا لا لأنه حق، بل لتلك الآيات؛ فأني فائدة حصلت في إنزالها على التقدير الفرضي؟

﴿٥١﴾ ولما كان المقصود بيان الحق؛ ذكر تعالى طريقه، فقال: ﴿أولم يكفهم﴾: في علمهم بصدق ما جئت به، ﴿أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾: وهذا كلام مختصر جامع فيه من الآيات البينات والدلالات الباهرات شيء كثير؛ فإنه كما تقدّم إتيان الرسول به بمجردة وهو أمي من أكبر الآيات على صدقه، ثم عجزهم عن معارضته وتحديهم إيّاه^(١) آية أخرى، ثم ظهوره وبروزه جهراً علانيةً يتلى عليهم، ويقال هو من عند الله، قد أظهره الرسول وهو في وقت قل فيه أنصاره وكثّر مخالفوه وأعداؤه؛ فلم يخف، ولم يثن ذلك عزمه، بل صرح به على رؤوس الأشهاد، ونادى به بين الحاضر والباد؛ بأن هذا كلام ربي؛ فهل أحد يقدر على معارضته أو ينطق بمباراته أو يستطيع مجاراته؟! ثم إخباره عن قصص الأولين وأبناء السالفين^(٢) والغيوب المتقدمة والمتأخرة، مع مطابقته للواقع.

ثم هيمنته على الكتب المتقدمة وتصحيحه للصحيح، ونفي ما أذخل فيها من التحريف والتبديل، ثم هدايته لسواء السبيل في أمره ونهيه؛ فما أمر بشيء فقال العقل: ليت له لم يأمر به، ولا نهى عن شيء فقال العقل: ليت له لم ينه عنه، بل هو مطابق للعدل والميزان والحكمة المعقولة لذوي البصائر والعقول، ثم مسابرة إرشاداته وهدايته وأحكامه لكل حال وكل زمان بحيث لا تصلح الأمور إلا به؛ فجميع ذلك يكفي من أراد تصديق الحق، وعمل على طلب الحق؛ فلا كفى الله من لم يكف القرآن، ولا شفى الله من لم يشف الفرقان، ومن اهتدى به واكتفى؛ فإنه رحمة له وخير^(٣)؛ فلذلك قال: ﴿إن في ذلك لرحمةً وذكرى لقوم يؤمنون﴾: وذلك لما يحصلون فيه من العلم الكثير، والخير الغزير، وتزكية القلوب والأرواح،

(١) في (ب): «إيّاهم».

(٢) في (ب): «السابقين».

(٣) في (ب): «فإنه خير له».

وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية والأسرار الربانية.

﴿٥٢﴾ ﴿قُلْ كَفَى بِاللّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾: فأنا قد استشهدته؛ فإن كنت كاذباً؛ أحلّ بي ما به تعتبرون، وإن كان إنما يؤيدني، وينصرني، ويسرّ لي الأمور؛ فلتكفكم هذه الشهادة الجليّة من الله؛ فإن وقع في قلوبكم أن شهادته - وأنتم لم تسمّوه ولم تروّه - لا تكفي دليلاً؛ فإنه ﴿يعلم ما في السموات والأرض﴾: ومن جملة معلوماته حالي وحالك ومقالي لكم^(١)؛ فلو كنت متقولاً عليه مع علمه بذلك وقدرته على عقوبتي؛ لكان قدحاً في علمه وقدرته وحكمته؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولْ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: حيث خسرُوا الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وحيث فاتهم النعيم المقيم، وحيث حصل لهم في مقابلة الحقّ الصحيح كلُّ باطل قبيح، وفي مقابلة النعيم كلُّ عذاب أليم، فخسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة.

﴿وَسْتَجْلِبُونَهُ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٣)
 ﴿يَسْتَجْلِبُونَهُ بِالْعَذَابِ وَلَئِنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٥٥).

﴿٥٣﴾ يخبر تعالى عن جهل المكذّبين للرسول وما جاء به، وأنهم يقولون استعجالاً للعذاب وزيادةً تكذيب: ﴿متى هذا الوعدُ إن كُنْتُمْ صادقين؟﴾ يقول تعالى: ﴿ولولا أجلٌ مسمى﴾: مضروبٌ لنزوله ولم يأت بعد، ﴿لجاءهم العذاب﴾: بسبب تعجيزهم لنا وتكذيبهم الحقّ؛ فلو آخذناهم بجهلهم؛ لكان كلامهم أسرع لبلائهم وعقوبتهم، ولكن مع ذلك؛ فلا يستبطنون^(٢) نزوله فإنه سيأتيهم ﴿بغتةً وهم لا يشعرون﴾ فوق كما أخبر الله تعالى، لما قدموا لبدْرٍ بطرينَ مفاخرين ظانين أنهم قادرون على مقصودهم، فأحانهم^(٣) الله، وقتل كبارهم، واستوعب جملة أشرارهم، ولم يبقَ منهم بيتٌ إلّا أصابته تلك المصيبة، فاتاهم العذاب من حيث لم يحتسبوا، ونزل بهم وهم لا يشعرون.

(٢) في (ب): «فلا يستعجلون».

(١) في (ب): «ومقالكم».

(٣) أي: أهلكهم.

﴿٥٤﴾ هذا؛ وإن لم ينزل عليهم العذاب الديني؛ فإن أمامهم العذاب الأخروي الذي لا يخلص منهم أحد منه، سواء عوجل بعذاب الدنيا أو أمهل، ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾: ليس لهم عنه معدل ولا متصرف؛ قد أحاطت بهم من كل جانب كما أحاطت بهم ذنوبهم وسيئاتهم وكفرهم، وذلك العذاب هو العذاب الشديد.

﴿٥٥﴾ ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: فإن أعمالكم انقلبت عليكم عذاباً، وشملكم العذاب كما شملكم الكفر والذنوب.

﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرٍ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾

﴿٥٦ - ٥٩﴾ يقول تعالى: ﴿يا عبادي الذين آمنوا﴾: بي وصدقوا رسولي، ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾: فإذا تعذرت عليكم عبادة ربكم في أرض؛ فارتحلوا منها إلى أرض أخرى؛ حيث كانت العبادة لله وحده؛ فأماكن العبادة ومواضعها واسعة، والمعبود واحد، والموت لا بد أن ينزل بكم، ثم ترجعون إلى ربكم، فيجازي من أحسن عبادته وجمع بين الإيمان والعمل الصالح بإنزاله الغرف العالية والمنازل الأنيفة الجامعة، لما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، وأنتم فيها خالدون. فنعمة تلك المنازل في جنات النعيم أجر العاملين لله. ﴿الذين صبروا﴾: على عبادة الله ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾: في ذلك، فصبرهم على عبادة الله يقتضي بذل الجهد والطاقة في ذلك، والمحاربة العظيمة للشيطان، الذي يدعوهم إلى الإخلال بشيء من ذلك. وتوكلهم يقتضي شدة اعتمادهم على الله، وحسن ظنهم به أن يحقق ما عزموا عليه من الأعمال ويكملها. ونص على التوكل وإن كان داخلاً في الصبر؛ لأنه يحتاج إليه في كل فعل وترك مأمور به، ولا يتم إلا به.

﴿وَكَأَنِّ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٦٠﴾

﴿٦٠﴾ أي: الباري تبارك وتعالى قد تكفل بأرزاق الخلائق كلهم قويهم وعاجزهم؛ فكم ﴿من دابة﴾ في الأرض ضعيفة القوى ضعيفة العقل، ﴿لا تحمل رزقها﴾: ولا تدخره، بل لم تنزل لا شيء معها من الرزق، ولا يزال الله يسخر لها

الرِّزْقَ فِي كُلِّ وَقْتٍ بَوَقْتِهِ. ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾: فكلكم عيال الله القائم برزقكم كما قام بِخَلْقِكُمْ وتُدبِيرِكُمْ. ﴿وهو السميع العليم﴾: فلا تخفى^(١) عليه خافية، ولا تهلك دابة من عدم الرزق بسبب أنها خافية عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾.

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَإِنِّي يَوْمَئِذٍ ۖ سَأَلْتَهُمْ مَنْ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٦١) وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٦٢).

﴿٦١ - ٦٣﴾ هذا استدلال على المشركين المكذبين بتوحيد الإلهية والعبادة، والزام لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية؛ فأنت لو ﴿سألتهم من خلق السموات والأرض؟ ومن نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها؟ ومن بيده تدبير جميع الأشياء؟﴾ ﴿ليقولن: الله﴾ وحده، ولا اعترفوا بعجز الأوثان ومن عبده مع الله على شيء من ذلك! فاعجب لافكهم وكذبهم وعدولهم إلى من أقروا بعجزه وأنه لا يستحق أن يدبر شيئاً! وستجل عليهم لعدم العقل، وأنهم السفهاء ضعفاء الأحلام! فهل تجد أضعف عقلاً وأقل بصيرة ممن أتى إلى حجر أو قبر ونحوه - وهو يدري أنه لا ينفع ولا يضر ولا يخلق ولا يرزق -، ثم صرف له خالص الإخلاص وصافي العبودية، وأشركه مع الرب الخالق الرازق النافع الضار؟! وقل: الحمد لله الذي بين الهدى من الضلال، وأوضح بطلان ما عليه المشركون؛ ليحذره الموقفون. وقل: الحمد لله الذي خلق العالم العلوي والسفلي، وقام بتدبيرهم ورزقهم، وبسط الرزق على من يشاء، وضيقه على من يشاء حكماً منه، ولعلمه بما يصلح عباده، وما ينبغي لهم.

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُمْ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَوَانُ لَو كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَجَّهْتُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْتَمْنَعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٦٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَنَحْطِفُ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَيَا لَبِطِلٍ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمَ اللَّهُ يَكْفُرُونَ﴾ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ

(١) في (ب): «تخفى».

أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٥﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٦﴾ .

﴿٦٤﴾ يخبر تعالى عن حالة الدنيا والآخرة، وفي ضمن ذلك التزهيد في الدنيا والتشويق للأخرى، فقال: ﴿وما هذه الحياة الدنيا﴾: في الحقيقة ﴿إلا لهو ولعب﴾: تلهو بها القلوب، وتلعب بها الأبدان؛ بسبب ما جعل الله فيها من الزينة واللذات والشهوات الخالبة للقلوب المعرضة، الباهجة للعيون الغافلة، المفرحة للنفوس المبطلّة الباطلة، ثم تزول سريعاً وتنقضي جميعاً ولم يحصل منها محبهاً إلا على الندم والحسرة والخسران. وأما الدار الآخرة؛ فإنها دار ﴿الحيوان﴾؛ أي: الحياة الكاملة، التي من لوازمها أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة، وقواهم في غاية الشدة؛ لأنها أبدان وقوى خُلِقَتْ للحياة، وأن يكون موجوداً فيها كل ما تكمل به الحياة، وتتم به اللذة من مفرحات القلوب وشهوات الأبدان من المآكل والمشارب والمناكح وغير ذلك، ممّا لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

﴿لو كانوا يعلمون﴾: لما آثروا الدنيا على الآخرة، ولو كانوا يعقلون؛ لما رغبوا عن دار الحيوان، ورغبوا في دار اللهو واللعب. فدلّ ذلك: أن^(١) الذين يعلمون لا بدّ أن يؤثروا الآخرة على الدنيا؛ لما يعلمونه من حالة الدارين.

﴿٦٥ - ٦٦﴾ ثم ألزم تعالى المشركين بإخلاصهم لله في حال^(٢) الشدة عند ركوب البحر وتلاطم أمواجه وخوفهم الهلاك؛ يتركون إذا أندادهم، ويخلصون الدعاء لله وحده لا شريك له، فلما زالت عنهم الشدة - ونجّاهم من أخلصوا له الدعاء إلى البرّ - أشركوا به من لا نجّاهم من شدة، ولا أزال^(٣) عنهم مشقة؛ فهلاًّ أخلصوا لله الدعاء في حال الرخاء والشدة واليسر والعسر؛ ليكونوا مؤمنين به حقاً، مستحقّين ثوابه، مندفعاً عنهم عقابه، ولكن شركهم هذا بعد نعمتنا عليهم بالنجاة من البحر ليكون غاقبته كفر ما آتيناهم، ومقابلة النعمة بالإساءة، وليكملوا تمتّعهم في الدنيا، الذي هو كتمتّع الأنعام، ليس لهم هم إلا بطونهم وفروجهم. ﴿فسوف يعلمون﴾: حين ينتقلون من الدنيا إلى الآخرة شدة الأسف وأليم العقوبة.

(٢) في (ب): «حالة».

(١) في (ب): «على أن» .

(٣) في (ب): «زال».

﴿٦٧﴾ ثم امتنَّ عليهم بحرمه الآمن، وأنهم أهلُه في أمنٍ وسعةٍ ورزقٍ، والناس من حولهم يُتَخَطَّفُونَ ويخافون، أفلا يعبدونَ الذي أطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوفٍ؟! ﴿أفبالباطل يؤمنونَ﴾: وهو ما هم عليه من الشركِ والأقوالِ والأفعالِ الباطلة، ﴿وبنعمةِ الله﴾: هم ﴿يكفرونَ﴾؟ فأين ذهبَتْ عقولهم، وانسلختْ أحلامُهم حيث آثروا الضلالَ على الهدى، والباطلَ على الحقِّ والشَّقَاءَ على السعادة، وحيث كانوا أظلمَ الخلق؟!

﴿٦٨﴾ فمن ﴿أظلمَ ممَّن افترى على الله كذباً﴾: فنسب ما هو عليه من الضلالِ والباطلِ إلى الله، ﴿وكذبَ بالحقِّ لما جاءه﴾: على يدِ رسوله محمدٍ ﷺ، ولكنَّ هذا الظالمَ العنيدَ أمامه جهنَّم، ﴿أليس في جهنَّم مثوىً للكافرينَ﴾: يُؤخَذُ بها منهم الحقُّ، ويُخزَوْنَ بها، وتكون منزلهم الدائم الذي ^(١) لا يخرجون منه؟

﴿٦٩﴾ ﴿والذين جاهدوا فينا﴾: وهم الذين هاجروا في سبيلِ الله وجاهدوا أعداءهم وبَدَلُوا مجهودهم في اتِّباعِ مرضاته؛ ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾؛ أي: الطرق الموصلة إلينا، وذلك لأنَّهم محسنون. والله مع المحسنين: بالعون والنصر والهداية.

دلَّ هذا على أنَّ أحرى الناس بموافقة الصواب أهلُ الجهاد، وعلى أنَّ مَنْ أحسنَ فيما أمرَ به؛ أعانه الله ويسَّرَ له أسبابَ الهداية، وعلى أنَّ مَنْ جدَّ واجتهد في طلب العلم الشرعي؛ فإنَّه يحصلُ له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبه أمورٌ إلهيَّةٌ خارجةٌ عن مدركِ اجتهدِهِ، وتيسَّرَ له أمر العلم؛ فإنَّ طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيلِ الله، بل هو أحدُ نوعي الجهاد، الذي لا يقومُ به إلا خواصُّ الخلق، وهو الجهادُ بالقول واللسان للكفار والمنافقين، والجهادُ على تعليم أمور الدين وعلى ردِّ نزاع المخالفين للحقِّ، ولو كانوا من المسلمين.

تم تفسير سورة العنكبوت - بحمد الله وعونه.



(١) في (ب): «الذين».

تفسير سورة الروم

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْعَلَّ ١﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي آدَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ
 سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ
 مَنْ يَشَاءُ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
 يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ ﴿٧﴾ ۝

﴿١ - ٥﴾ كانت الفرس والروم في ذلك الوقت من أقوى دول الأرض، وكان
 يكون بينهما من الحروب والقتال ما يكون بين الدول المتوازنة، وكانت الفرس
 مشركين يعبدون النار، وكانت الروم أهل كتاب ينتسبون إلى التوراة والإنجيل، وهم
 أقرب إلى المسلمين من الفرس، [فكان المؤمنون] ^(١) يحبون غلبتهم وظهورهم على
 الفرس، وكان المشركون لاشتراكهم والفرس في الشرك يحبون ظهور الفرس على
 الروم، فظهر الفرس على الروم وغلبوهم ^(٢) غلباً لم يحط بِمُلْكِهِمْ بل بأدنى
 أرضهم، ففرح بذلك مشركو مكة وحزن المسلمون، فأخبرهم الله، ووعدهم أن
 الروم ستغلب الفرس ﴿في بضْعِ سنين﴾: تسع أو ثمان ونحو ذلك مما لا يزيد على
 العشر ولا ينقص عن الثلاث، وأن غلبة الفرس للروم ثم غلبة الروم للفرس كل
 ذلك بمشيئته وقدره، ولهذا قال: ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد﴾: فليس الغلبة
 والنصر لمجرد وجود الأسباب، وإنما هي لا بد أن يقترن بها القضاء والقدر.

﴿ويومئذ﴾؛ أي: يوم يغلب الروم الفرس ويقهرونهم، ﴿يفرح المؤمنون﴾.
 ينصر الله ينصر من يشاء؛ أي: يفرحون بانتصارهم على الفرس، وإن كان
 الجميع كفاراً، ولكن بعض الشر أهون من بعض، ويحزن يومئذ المشركون. ﴿وهو
 العزيز﴾: الذي له العزة التي قهر بها الخلائق أجمعين، يؤتي الملك من يشاء،
 وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء. ﴿الرحيم﴾: بعباده
 المؤمنين؛ حيث قيض لهم من الأسباب التي تسعدهم وتنصرهم ما لا يدخل في
 الحساب.

(١) في (أ): «فكانوا».

(٢) في (ب): «غلبوهم».

﴿٦﴾ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ: فَتَيَقَّنُوا ذَلِكَ، واجزِمُوا به، واعْلَمُوا أَنَّهُ لَا بَدْءَ مِنْ وَقْعِهِ. فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ الَّتِي فِيهَا هَذَا الْوَعْدُ؛ صَدَّقَ بِهَا الْمُسْلِمُونَ، وَكَفَرَ بِهَا الْمُشْرِكُونَ، حَتَّى تَرَاهُنَّ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ وَبَعْضَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى مَدَّةِ سَنِينَ عَيْنُوهَا، فَلَمَّا جَاءَ الْأَجَلُ الَّذِي ضَرَبَهُ اللَّهُ. انتصر الروم على الفرس، وَأَجْلَوْهُمْ مِنْ بِلَادِهِمُ الَّتِي أَخَذُوهَا مِنْهُمْ، وَتَحَقَّقَ وَعْدُ اللَّهِ. وَهَذَا مِنَ الْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا اللَّهُ قَبْلَ وَقْعِهَا وَوَجَدَتْ فِي زَمَانٍ مَنْ أَخْبَرَهُمُ اللَّهُ بِهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أَنَّ مَا وَعَدَ اللَّهُ بِهِ حَقٌّ؛ فَلِذَلِكَ يُوْجَدُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَكْذِبُونَ بِوَعْدِهِ، وَيَكْذِبُونَ آيَاتِهِ.

﴿٧﴾ وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ؛ أَي: لَا يَعْلَمُونَ بِوَاطِنِ الْأَشْيَاءِ وَعَوَاقِبِهَا، وَإِنَّمَا يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا: فَيَنْظُرُونَ إِلَى الْأَسْبَابِ، وَيَجْزِمُونَ بِوُقُوعِ الْأَمْرِ الَّذِي فِي رَأْيِهِمْ انْعَقَدَتْ أَسْبَابُ وَجُودِهِ، وَيَتَيَقَّنُونَ عَدَمَ الْأَمْرِ الَّذِي لَمْ يَشَاهِدُوا لَهُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمَقْتَضِيَةِ لَوْجُودِهِ شَيْئًا؛ فَهَمَّ وَاقِفُونَ مَعَ الْأَسْبَابِ، غَيْرُ نَازِلِينَ إِلَى مَسَبِّهَا الْمُتَصَرِّفِ فِيهَا. ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾: قَدْ تَوَجَّهَتْ قُلُوبُهُمْ وَأَهْوَاؤُهُمْ وَإِرَادَاتُهُمْ إِلَى الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا وَحَطَامَتِهَا؛ فَعَمِلَتْ لَهَا وَسْعَةً وَأَقْبَلَتْ بِهَا وَأَدْبَرَتْ، وَغَفَلَتْ عَنِ الْآخِرَةِ؛ فَلَا الْجَنَّةَ تَشْتَاقُ إِلَيْهَا، وَلَا النَّارَ تَخَافُهَا وَتَخْشَاهَا، وَلَا الْمَقَامَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ يَرْوُّعُهَا وَيَزْعَجُهَا، وَهَذَا عَلَامَةُ الشَّقَاءِ، وَعُنْوَانُهُ الْغَفْلَةُ عَنِ الْآخِرَةِ.

وَمِنَ الْعَجَبِ أَنَّ هَذَا الْقِسْمَ مِنَ النَّاسِ قَدْ بَلَغَتْ بِكَثِيرٍ مِنْهُمْ الْفُطْنَةُ وَالذِّكَاؤُ فِي ظَاهِرِ الدُّنْيَا إِلَى أَمْرِ يَحِيرُ الْعُقُولَ وَيَدْهَشُ الْأَلْبَابَ، وَأَظْهَرُوا مِنَ الْعَجَائِبِ الذَّرِّيَّةِ^(١) وَالْكَهْرِبَائِيَّةِ وَالْمَرَآكِبِ الْبَرِّيَّةِ وَالْبَحْرِيَّةِ وَالْهَوَائِيَّةِ مَا فَاقُوا بِهِ، وَبَرَّزُوا وَأَعْجَبُوا بِعُقُولِهِمْ، وَرَأَوْا غَيْرَهُمْ عَاجِزًا عَمَّا أَقْدَرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَنَظَرُوا إِلَيْهِمْ بَعِينَ الْإِحْتِقَارِ وَالْإِزْدِرَاءِ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ أَبْلَدُ النَّاسِ فِي أَمْرِ دِينِهِمْ، وَأَشَدُّهُمْ غَفْلَةً عَنْ آخِرَتِهِمْ، وَأَقْلَمُهُمْ مَعْرِفَةً بِالْعَوَاقِبِ. قَدْ رَأَاهُمْ أَهْلُ الْبَصَائِرِ الْنَافِذَةِ فِي جَهْلِهِمْ يَتَخَبَّطُونَ، وَفِي ضَلَالِهِمْ يَغْمَهُونَ، وَفِي بَاطِلِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ، نَسُوا اللَّهَ فَأَنَسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ، أَوْلَتْكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ، ثُمَّ نَظَرُوا إِلَى مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ وَأَقْدَرَهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَفْكَارِ الدَّقِيقَةِ فِي الدُّنْيَا وَظَاهِرِهَا، وَحَرَمُوا مِنَ الْعَقْلِ الْعَالِيِّ، فَعَرَفُوا أَنَّ الْأَمْرَ لِلَّهِ وَالْحُكْمَ لَهُ فِي عِبَادِهِ، إِنَّهُ هُوَ إِلَّا تَوْفِيقُهُ أَوْ^(٢) خِذْلَانُهُ، فَخَافُوا رَبَّهُمْ وَسَلَّوْهُ أَنْ يَتِمَّ لَهُمْ مَا وَهَبَهُمْ مِنْ نُورِ الْعُقُولِ وَالْإِيمَانِ حَتَّى يَصِلُوا إِلَيْهِ وَيَحْلُتُوا بِسَاحَتِهِ. وَهَذِهِ الْأُمُورُ لَوْ قَارَنَهَا الْإِيمَانُ

(١) فِي (ب): «النَّارِيَّة».

(٢) فِي (ب): «و».

وَبُيِّنَتْ عَلَيْهِ؛ لَأَثْمَرَ الرِّقْيَ الْعَالِيَّ وَالْحَيَاةَ الطَّيْبَةَ، وَلَكِنهَا لَمَّا بُنِيَ كَثِيرٌ مِنْهَا عَلَى الْإِلْحَادِ؛ لَمْ تَثْمُرْ إِلَّا هَبُوطَ الْأَخْلَاقِ وَأَسْبَابَ الْفَنَاءِ وَالتَّدْمِيرِ.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَائِي رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوَى الشُّوَاعِ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿٨﴾ أي: أفلم يتفكر هؤلاء المكذبون لرسول الله ولقائه ﴿في أنفسهم﴾؛ فإن في أنفسهم آيات يغرفون^(١) بها أن الذي أوجدهم من العدم سيعيدهم بعد ذلك، وأن الذي نقلهم أطواراً من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى آدمي قد نفخ فيه الروح إلى طفل إلى شاب إلى شيخ إلى هرم غير لائق أن يتركهم سدى مهملين. لا يَنْهَوْنَ، ولا يُؤْمَرُونَ، ولا يثابون، ولا يعاقبون. ﴿ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾؛ أي: ليلوكم أيكم أحسن عملاً، ﴿وأجل مسمى﴾؛ أي: مؤقت بقاؤهما إلى أجل تنقضي به الدنيا وتجيء القيامة، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات. ﴿وإن كثيراً من الناس بلبقاء ربهم لكافرون﴾: فلذلك لم يستعدوا للقاءه، ولم يصدقوا رسله التي أخبرت به.

﴿٩﴾ وهذا الكفر عن غير دليل، بل الأدلة القاطعة دلت على البعث والجزاء، ولهذا نبههم على السير في الأرض والنظر في عاقبة الذين كذبوا رسلهم وخالفوا أمرهم ممن هم أشد من هؤلاء قوة وأكثر آثاراً في الأرض من بناء قصور ومصانع ومن غرس أشجار ومن زرع وإجراء أنهار، فلم تُغن عنهم قوتهم، ولا نفعتهم آثارهم حين كذبوا رسلهم الذين جاؤوهم بالبينات الدالات على الحق وصحة ما جاؤوهم به؛ فإنهم حين ينظرون في آثار أولئك؛ لم يجدوا إلا أمماً بائدة، وخلقاً مهلكين، ومنازل بعدهم موحشة. وذم من الخلق عليهم متتابع، وهذا جزاء معجل نموذج للجزاء الآخروي ومبتدأ له؛ وكل هذه الأمم المهلكة لم يظلمهم الله بذلك الإهلاك، وإنما ظلموا أنفسهم وتسببوا في هلاكها.

(١) في (ب): «يعرف».

﴿١٠﴾ ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَصَاوُوا﴾؛ أي: المسيئين ﴿السَّوْءَى﴾؛ أي: الحالة السيئة الشنيعة، وصار ذلك داعياً لهم لأن ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾: فهذا عقوبة لسوءهم وذنوبهم، ثم ذلك الاستهزاء والتكذيب يكون سبباً لأعظم العقوبات وأعضل المثالات.

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفَخُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾.

﴿١١ - ١٣﴾ يخبر تعالى أنه المتفرّد بإبداء المخلوقات، ثم يعيدهم. ثم إليه يُرجعون بعد إعادتهم ليجازيهم بأعمالهم. ولهذا ذكر جزاء أهل الشر ثم جزاء أهل الخير، فقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾: ويقوم الناس لرب العالمين، [ويرون]^(١) القيامة عياناً، يومئذ ﴿يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾؛ أي: يياسون من كل خير، وذلك أنهم ما قَدَّمُوا لذلك اليوم إلّا الإجمام، وهي الذنوب من كفر وشرك ومعاصي، فلما قَدَّمُوا أسباب العقاب، ولم يخلطوها بشيء من أسباب الثواب؛ أيسوا، وأبلسوا، وأفلسوا، وضلّ عنهم ما كانوا يفترونه من نفع شركائهم وأنهم يشفعون لهم، ولهذا قال: ﴿ولم يكن لهم من شركائهم﴾: التي عبّدها مع الله ﴿شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين﴾: تبرأ المشركون ممّن أشركوهم مع الله، وتبرأ المعبودون وقالوا: تبرأنا إليك، ما كانوا إيانا يعبدون، والتعنوا وابتعدوا.

﴿١٤ - ١٦﴾ وفي ذلك اليوم يفترق أهل الخير والشر كما افتترقت أعمالهم في الدنيا. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: آمنوا بقلوبهم وصدّقوا ذلك بالأعمال الصالحة ﴿فهم في روضة﴾: فيها سائر أنواع النبات وأصناف المشتّيات ﴿يُحْبَرُونَ﴾؛ أي: يُسَرَّون، وينعمون بالمأكّل اللذيذة والأشربة والحدود الحسان والخدم والولدان والأصوات المطربات والسماع المشجي والمناظر العجيبة والروائح الطيبة والفرح والسرور واللذة والحبور، مما لا يقدّر أحد أن يصفه. ﴿وأما الذين كفروا﴾: وجحدوا نعمه، وقابلوها بالكفر، ﴿وكذبوا بآياتنا﴾: التي جاءتهم بها

رَسُولُنَا ﴿فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ﴾: فيه، قد أحاطت بهم جهنم من جميع جهاتهم، وأطلع العذاب الأليم على أفئدتهم، وشوى الحميم وجوهرهم، وقطع أمعاءهم؛ فأين الفرق بين الفريقين؟! وأين التساوي بين المنعمين والمعذبين؟!.

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿١٧ - ١٨﴾ هذا إخبار عن تنزهه عن السوء والنقص وتقديسه عن أن يماثله أحد من الخلق، وأمر للعباد أن يسبحوه حين يُمسون، وحين يُصبحون، ووقت العشي ووقت الظهيرة؛ فهذه الأوقات الخمسة أوقات الصلوات الخمس، أمر الله عباده بالتسبيح فيها والحمد، ويدخل في ذلك الواجب منه؛ كالمشتملة عليه الصلوات الخمس، والمستحب؛ كأذكار الصباح والمساء وأدبار الصلوات وما يقترن بها من النوافل؛ لأن هذه الأوقات التي اختارها الله لأوقات المفروضات هي أفضل الأوقات؛ فالتسبيح والتحميد فيها والعبادة فيها أفضل من غيرها، بل العبادة وإن لم تشمل على قول: سبحان الله؛ فإن الإخلاص فيها تنزيه لله بالفعل أن يكون له شريك في العبادة، أو أن يستحق أحد من الخلق ما يستحقه من الإخلاص والإنابة.

﴿١٩﴾ ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾: كما يُخرج النبات من الأرض الميتة، والسنبل من الحبة، والشجرة من النواة، والفرخ من البيضة، والمؤمن من الكافر... ونحو ذلك. ﴿ويُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾: بعكس المذكور، ﴿ويُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: فينزل عليها المطر وهي ميتة هامدة؛ فإذا أنزل عليها الماء؛ اهتزت، وربت، وأنبثت من كل زوج بهيج. ﴿وكذلك تُخْرَجُونَ﴾: من قبوركم.

فهذا دليل قاطع وبرهان ساطع أن الذي أحيا الأرض بعد موتها فإنه يحيي الأموات؛ فلا فرق في نظر العقل بين الأمرين، ولا موجب لاستبعاد أحدهما مع مشاهدة الآخر.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢٠﴾ هَذَا شَرْعٌ فِي تَعْدَادِ آيَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى انْفِرَادِهِ بِالْإِلَهِيَّةِ وَكَمَالِ عَظَمَتِهِ وَنَفُوذِ مَشِيئَتِهِ وَقُوَّةِ اقْتِدَارِهِ وَجَمِيلِ صَنِيعِهِ وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ، فَقَالَ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾: وَذَلِكَ بِخَلْقِ أَصْلِ النَّسْلِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾؛ [أَي: الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ أَصْلِ وَاحِدٍ وَمَادَّةٍ وَاحِدَةٍ]، وَبَثَّكُمْ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَأَرْجَائِهَا.

فَفِي ذَلِكَ آيَاتٌ عَلَى أَنَّ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ هَذَا الْأَصْلِ، وَبَثَّكُمْ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ هُوَ الرَّبُّ الْمَعْبُودُ الْمَلِكُ الْمَحْمُودُ وَالرَّحِيمُ الْوَدُودُ، الَّذِي سَيُعِيدُكُمْ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ.

﴿٢١﴾ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾: الدَّالَّةُ عَلَى رَحْمَتِهِ وَعَنَائَتِهِ بِعِبَادِهِ وَحُكْمَتِهِ الْعَظِيمَةِ وَعِلْمِهِ الْمُحِيطِ، ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾: تَنَاسُبُكُمْ، وَتَنَاسُبُونَهُنَّ، وَتَشَاكُلُكُمْ، وَتَشَاكِلُونَهُنَّ؛ ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾: بِمَا رَتَّبَ عَلَى الزَّوَاجِ مِنَ الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِلْمَوَدَّةِ وَالرَّحْمَةِ، فَحَصَلَ بِالزَّوْجَةِ الْإِسْتِمْتَاعُ وَاللَّذَّةُ وَالْمَنْفَعَةُ بِوُجُودِ الْأَوْلَادِ وَتَرْبِيَتِهِمْ وَالسَّكُونُ إِلَيْهَا؛ فَلَا تَجِدُ بَيْنَ أَحَدٍ فِي الْغَالِبِ مِثْلَ مَا بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ مِنَ الْمَوَدَّةِ وَالرَّحْمَةِ. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾: يُعْمِلُونَ أَفْكَارَهُمْ، وَيَتَدَبَّرُونَ آيَاتِ اللَّهِ، وَيَتَّقِلُونَ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقُ السِّنِّكِمِ وَالْوَنِكْرِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٢٢).

﴿٢٢﴾ وَالْعَالَمُونَ: هُمُ أَهْلُ الْعِلْمِ الَّذِينَ يَفْهَمُونَ الْعِبَرَ وَيَتَدَبَّرُونَ الْآيَاتِ، وَالْآيَاتُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ: فَمِنْ آيَاتِ خَلْقِ «السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»: وَمَا فِيهِمَا؛ أَنَّ ذَلِكَ دَالٌّ عَلَى عَظَمَةِ سُلْطَانِ اللَّهِ وَكَمَالِ اقْتِدَارِهِ، الَّذِي أَوْجَدَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةَ، وَكَمَالِ حُكْمَتِهِ؛ لِمَا فِيهَا مِنَ الْإِتْقَانِ، وَسَعَةِ عِلْمِهِ؛ لِأَنَّ الْخَالِقَ لَا بَدَّ أَنْ يَعْلَمَ مَا خَلَقَهُ؛ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾، وَعَمُومِ رَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَنَافِعِ الْجَلِيلَةِ، وَأَنَّهُ الْمُرِيدُ الَّذِي يَخْتَارُ مَا يَشَاءُ؛ لِمَا فِيهَا مِنَ التَّخْصِصَاتِ وَالْمَزَايَا، وَأَنَّهُ وَحْدَهُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ وَيُوحَّدَ؛ لِأَنَّهُ الْمُنْفَرِدُ بِالْخَلْقِ؛ فَيَجِبُ أَنْ يُفَرَّدَ بِالْعِبَادَةِ.

فَكُلُّ هَذِهِ أَدَلَّةٌ عَقْلِيَّةٌ نَبَّهَ اللَّهُ الْعُقُولَ إِلَيْهَا، وَأَمَرَهَا بِالتَّفَكُّرِ وَاسْتِخْرَاجِ الْعِبَرَةِ مِنْهَا، ﴿وَكَذَلِكَ فِي «اِخْتِلَافِ السَّنَنِ وَالْوَنَنِ»﴾: عَلَى كَثَرَتِكُمْ وَتَبَايُنِكُمْ مَعَ أَنَّ

الأصل واحدٌ ومخارج الحروف واحدةٌ، ومع ذلك؛ لا تجدُ صوتين متَّفقيين من كل وجه، ولا لونين متشابهين من كلِّ وجه؛ إلا وتجد من الفرق بين ذلك ما به يحصل التمييز.

وهذا دالٌّ على كمال قدرته ونفوذه مشيئته وعنايته بعباده ورحمته بهم، أن قدر ذلك الاختلاف؛ لئلا يقع التشابه، فيحصل الاضطراب، ويفوت كثير من المقاصد والمطالب.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآبَاقُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٢٣).

﴿٢٣﴾ أي: سماع تدبُّر وتعقُّل للمعاني والآيات في ذلك؛ إنَّ ذلك دليلٌ على رحمة الله تعالى؛ كما قال: ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وعلى تمام حكمته؛ إذ حكمته اقتضت سكون الخلق في وقت ليستريحوا [به] ويجموا، وانتشارهم في وقت لمصالحهم الدنيئة والدنيوية، ولا يتم ذلك إلا بتعاقب الليل والنهار عليهم، والمنفرد بذلك هو المستحق للعبادة.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢٤).

﴿٢٤﴾ أي: ومن آياته أن يُنزل عليكم المطر الذي تحيا به البلاد والعباد، ويريكُم قبل نزوله مقدَّماته من الرعد والبرق الذي يُخاف ويُطمع فيه. ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ﴾: دالةٌ على عموم إحسانه وسعة علمه وكمال إتقانه وعظيم حكمته، وأنه يُحيي الموتى، كما أحيا الأرض بعد موتها، ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: لهم عقولٌ تعقل بها ما تسمعه وتراه وتحفظه، وتستدلُّ به على ما جعل دليلاً عليه.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ (٢٥) ﴿وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْءٌ لَّمْ يَكُنْ لَّهُ قَبْلُ نَافِلًا﴾ (٢٦) ﴿وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٧).

﴿٢٥﴾ أي: ومن آياته العظيمة أن قامت السماوات والأرض واستقرتا وثبتتا لأمره، فلم ينزلزلا، ولم تسقط السماء على الأرض؛ فقدركه العظيمة التي بها

أَمْسَكَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا؛ يَقْدِرُ بِهَا عَلَى أَنَّهُ إِذَا دَعَا الْخَلْقَ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ؛ إِذَا هُمْ يَخْرُجُونَ. ﴿لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾.

﴿٢٦﴾ ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: الْكُلُّ خَلْقُهُ وَمَمَالِكُهُ وَالْمَتَصَرِّفُ فِيهِمْ مِنْ غَيْرِ مَنَازِعٍ وَلَا مُعَاوَنٍ وَلَا مُعَارِضٍ، وَكُلُّهُمْ قَانِتُونَ لَجَلَالِهِ، خَاضِعُونَ لِكَمَالِهِ.

﴿٢٧﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ﴾؛ أَي: إِعَادَةُ الْخَلْقِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، ﴿أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾: مِنْ ابْتِدَاءِ خَلْقِهِمْ، وَهَذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْأَذْهَانِ وَالْعُقُولِ؛ فَإِذَا كَانَ قَادِرًا عَلَى الْإِبْتِدَاءِ الَّذِي تَقْرَأُونَ بِهِ؛ كَانَ قَدْرَتُهُ عَلَى الْإِعَادَةِ الَّتِي هِيَ أَهْوَنُ أَوْلَى وَأَوْلَى.

وَلَمَّا ذَكَرَ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ مَا بِهِ يَعتَبَرُ الْمُعْتَبِرُونَ، وَيَتَذَكَّرُ الْمُؤْمِنُونَ، وَيَسْتَبْصِرُ الْمُهْتَدُونَ؛ ذَكَرَ الْأَمْرَ الْعَظِيمَ وَالْمَطْلَبَ الْكَبِيرَ، فَقَالَ: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: وَهُوَ كُلُّ صِفَةٍ كَمَالٍ، وَالْكَمَالُ مِنْ تِلْكَ الصِّفَةِ، وَالْمَحَبَّةُ وَالْإِنَابَةُ النَّاتِمَةُ الْكَامِلَةِ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ الْمُخْلِصِينَ وَالذِّكْرَ الْجَلِيلَ وَالْعِبَادَةَ مِنْهُمْ؛ فَالْمَثَلُ الْأَعْلَى هُوَ وَصْفُهُ الْأَعْلَى وَمَا تَرْتَّبَ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا كَانَ أَهْلُ الْعِلْمِ يَسْتَعْمِلُونَ فِي حَقِّ الْبَارِي قِيَاسَ الْأَوْلَى، فَيَقُولُونَ: كُلُّ صِفَةٍ كَمَالٍ فِي الْمَخْلُوقَاتِ؛ فَخَالِفُهَا أَحَقُّ بِالْإِتِّصَافِ بِهَا عَلَى وَجْهِ لَا يَشَارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ، وَكُلُّ نَقْصٍ فِي الْمَخْلُوقِ ^(١) يُنْزَعُ عَنْهُ؛ فَتَنْزِيَهُ الْخَالِقِ عَنْهُ مِنْ بَابِ أَوْلَى وَأُحْرَى. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ أَي: لَهُ الْعِزَّةُ الْكَامِلَةُ وَالْحِكْمَةُ الْوَاسِعَةُ، فَعَزَّتْهُ أَوْجَدَ بِهَا الْمَخْلُوقَاتِ وَأَظْهَرَ الْمَأْمُورَاتِ، وَحَكَمْتُهُ أَتَقَنَ بِهَا مَا صَنَعَهُ وَأَحْسَنَ فِيهَا مَا شَرَعَهُ.

﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ. ﴿٢٩﴾.

﴿٢٨﴾ هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ لِجُبْحِ الشُّرْكِ وَتَهْجِينِهِ، مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ لَا يَحْتَاجُ إِلَى حُلٍّ وَتَرْحَالٍ وَإِعْمَالِ الْجَمَالِ. ﴿هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ﴾؛ أَي: هَلْ أَحَدٌ مِنْ عِبِيدِكُمْ وَإِمَائِكُمْ الْأَرْقَاءِ يَشَارِكُكُمْ فِي رِزْقِكُمْ، وَتَرَوْنَ

(١) فِي (ب): «الْمَخْلُوقَاتِ».

أَنْتُمْ وَهُمْ فِيهِ عَلَى حَدِّ سِوَاءٍ. ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾؛ أَي: كَالْأَحْرَارِ الشُّرَكَاءِ فِي الْحَقِيقَةِ، الَّذِينَ ^(١) يُخَافُ مِنْ قِسْمِهِ وَاخْتِصَاصِ كُلِّ شَيْءٍ بِحَالِهِ؟! لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ شَرِيكاً لَكُمْ فِيمَا رَزَقَكُمْ اللَّهُ تَعَالَى، هَذَا؛ وَلَسْتُمْ الَّذِينَ خَلَقْتُمُوهُمْ وَرَزَقْتُمُوهُمْ، وَهُمْ أَيْضاً مِمَّا لَيْكُمُ مِثْلُكُمْ؛ فَكَيْفَ تَرْضَوْنَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ شَرِيكاً مِنْ خَلْقِهِ، وَتَجْعَلُونَهُ بِمَنْزِلَتِهِ وَعَدِيلاً لَهُ فِي الْعِبَادَةِ، وَأَنْتُمْ لَا تَرْضَوْنَ مَسَاوَاةَ مَمَالِيكُمْ لَكُمْ؟! هَذَا مِنْ أَعْجَبِ الْأَشْيَاءِ، وَمَنْ أَدْلُ شَيْءٍ عَلَى سَفَهٍ مِنْ اتِّخَذَ شَرِيكاً مَعَ اللَّهِ، وَأَنْ مَا اتَّخَذَهُ بَاطِلٌ مُضْمَحَلٌّ، لَيْسَ مَسَاوِياً لِلَّهِ وَلَا لَهُ مِنَ الْعِبَادَةِ شَيْءٍ. ﴿كَذَلِكَ نَفْصُلُ الْآيَاتِ﴾: بِتَوْضِيحِهَا بِأَمْثَلِهَا ﴿لَقَوْمٍ يَغْفِلُونَ﴾: الْحَقَائِقَ وَيَعْرِفُونَ. وَأَمَّا مَنْ لَا يَعْقِلُ؛ فَلَوْ فَصَّلْتَ لَهُ الْآيَاتُ وَبَيَّنْتَ لَهُ الْبَيِّنَاتُ؛ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَقْلٌ يَبْصُرُ بِهِ مَا تَبَيَّنَ، وَلَا لُبٌّ يَعْقِلُ بِهِ مَا تَوَضَّحَ؛ فَأَهْلُ الْعُقُولِ وَالْأَلْبَابِ هُمُ الَّذِينَ يُسَاقُ إِلَيْهِمُ الْكَلَامُ، وَيُوجَّهُ الْخُطَابُ.

﴿٢٩﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ هَذَا الْمِثَالِ أَنَّ مَنْ اتَّخَذَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شَرِيكاً يَعْْبُدُهُ وَيَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ فِي أُمُورِهِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مَعَهُ مِنَ الْحَقِّ شَيْءٌ؛ فَمَا الَّذِي أَوْجَبَ لَهُمُ الْإِقْدَامَ عَلَى أَمْرِ بَاطِلٍ تَوَضَّحَ بِطِلَالَتِهِ وَظَهَرَ بَرَهَانُهُ؟ أَوْجَبَ لَهُمُ ذَلِكَ اتِّبَاعُ الْهَوَى، فَلِهَذَا قَالَ: ﴿بَلْ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: هَوَيْتْ أَنْفُسَهُمُ النَّاقِصَةُ الَّتِي ظَهَرَ مِنْ نَقْصِهَا ^(٢) مَا تَعَلَّقَ بِهِ هَوَاهَا أَمْراً يَجْزِمُ الْعَقْلُ بِفَسَادِهِ وَالْفِطْرُ بِرَدِّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ دَلَّهِمْ عَلَيْهِ وَلَا بَرَهَانَ قَادَهُمْ إِلَيْهِ، ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ؟﴾؛ أَي: لَا تَعْجَبُوا مِنْ عَدَمِ هِدَايَتِهِمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَضَلَّهُمْ بِظُلْمِهِمْ، وَلَا طَرِيقَ لِهِدَايَةِ مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مُعَارِضاً لِلَّهِ أَوْ مُنَازِعاً لَهُ فِي مُلْكِهِ، ﴿وَمَالِهِمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾: يَنْصُرُونَهُمْ حِينَ تَحَقُّ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ، وَتَنْقَطِعُ بِهِمُ الْوَصْلُ وَالْأَسْبَابُ.

﴿فَاقْصِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٣١﴾ ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ ﴿٣٢﴾.

﴿٣٠﴾ يَأْمُرُ تَعَالَى بِالْإِخْلَاصِ لَهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَإِقَامَةِ دِينِهِ، فَقَالَ: ﴿فَأَقِمْ

(٢) فِي (ب): «نَقْصَانَهَا».

(١) فِي (ب): «الَّذِي».

وَجْهَكَ؛ أي: انصبه ووجهه ﴿لِلدِّينِ﴾: الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان، بأن تتوجه بقلبك وقصدك وبَدَنِكَ إلى إقامة شرائع الدين الظاهرة كالصلاة والزكاة والصوم والحج ونحوها، وشرائعه الباطنة كالمحبة والخوف والرجاء والإنابة، والإحسان في الشرائع الظاهرة والباطنة؛ بأن تعبد الله فيها كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك.

وخص الله إقامة الوجه؛ لأن إقبال الوجه تبع لإقبال القلب، ويترتب على الأمرين سعي البدن، ولهذا قال: ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: مقبلًا على الله في ذلك معرضًا عما سواه، وهذا الأمر الذي أمرناك به هو ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾: ووضع في عقولهم حُسْنَهَا واستقْبَاحَ غيرها؛ فإن جميع أحكام الشرع الظاهرة والباطنة قد وَضَعَ اللَّهُ في قلوب الخلق كلهم الميل إليها، فوضع في قلوبهم محبة الحق وإيثار الحق، وهذا حقيقة الفطرة. وَمَنْ خَرَجَ عَنْ هَذَا الْأَصْلِ؛ فلعارض عرض لفطرته أفسدها؛ كما قال النبي ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ؛ فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ أَوْ نَصْرَانِيَّةٍ أَوْ يَمَجَّسَانِهِ»^(١). ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾؛ أي: لا أحد يبدل خلق الله فيجعل المخلوق على غير الوضع الذي وَضَعَهُ اللَّهُ. ﴿ذَلِكَ﴾: الذي أمرناك به ﴿الَّذِينَ الْقِيَمُ﴾؛ أي: الطريق المستقيم الموصل إلى الله وإلى كرامته؛ فإن مَنْ أقام وجهه للدين حنيفًا؛ فإنه سالك الصراط المستقيم في جميع شرائعه وطرقه، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: فلا يتعرفون الذين القِيَم، وإن عرفوه؛ لم يسلكوه.

﴿٣١﴾ ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ﴾: وهذا تفسير لإقامة الوجه للدين؛ فإن الإنابة إنابة القلب وانجذاب دواعيه لمراضى الله تعالى، ويلزم من ذلك عمل^(٢) البدن بمقتضى ما في القلب، فشمّل ذلك العبادات الظاهرة والباطنة، ولا يتم ذلك إلا بترك المعاصي الظاهرة والباطنة؛ فلذلك قال: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾؛ فهذا يشمل فعل المأمورات وترك المنهيات، وخص من المأمورات الصلاة لكونها تدعو إلى الإنابة والتقوى لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾: فهذا إعانتها على التقوى، ثم قال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾: فهذا حثها على الإنابة. وخص من

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٩)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في (ب): «حمل».

المنهيات أصلها، والذي لا يقبل معه عمل، وهو الشرك، فقال: ﴿ولا تكونوا من المشركين﴾: لكون الشرك مضاداً للإجابة التي رُوحها الإخلاص من كل وجه.

﴿٣٢﴾ ثم ذكر حالة المشركين مهجناً لها ومقبّحاً، فقال: ﴿من الذين فرّقوا دينهم﴾: مع أنّ الدين واحد، وهو إخلاص العبادة لله وحده، وهؤلاء المشركون فرّقوه: منهم من يعبد الأوثان والأصنام، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين، ومنهم يهود، ومنهم نصارى، ولهذا قال: ﴿وكانوا شيعاً﴾؛ أي: كل فرقة من فرق الشرك تاهت وتعصبت على نصر ما معها من الباطل ومنازمة غيرهم ومحاربتهم. ﴿كل حزب بما لديهم﴾: من العلوم المخالفة لعلوم الرسل ﴿فرحون﴾: به يحكمون لأنفسهم بأنه الحق وأن غيرهم على باطل.

وفي هذا تحذير للمسلمين من تشبّثهم وتفرّقهم فرقا، كل فريق يتعصب لما معه من حق وباطل، فيكونون مشابهين بذلك للمشركين في التفرّق، بل الدين واحد، والرسول واحد، والإله واحد، وأكثر الأمور الدينية وقع فيها الإجماع بين العلماء والأئمة، والأخوة الإيمانية قد عقدها الله وربطها أتم ربط؛ فما بال ذلك كله يلغى ويبنى التفرّق والشقاق بين المسلمين على مسائل خفيفة أو فروع خلافية يضل بها بعضهم بعضاً ويتميز بها بعضهم عن بعض؟! فهل هذا إلا من أكبر نزغات الشيطان وأعظم مقاصده التي كاد بها المسلمين؟! وهل السعي في جمع كلمتهم وإزالة ما بينهم من الشقاق المبني على ذلك الأصل الباطل إلا من أفضل الجهاد في سبيل الله وأفضل الأعمال المقربة إلى الله؟!

ولما أمر تعالى بالإجابة إليه، وكان المأمور بها هي الإجابة الاختيارية، التي تكون في حال العسر واليسر والسعة والضيقة؛ ذكر الإجابة الاضطرارية التي لا تكون مع الإنسان إلا عند ضيقه وكرهه؛ فإذا زال عنه الضيق؛ تبدّأ وراء ظهره، وهذه غير نافعة، فقال:

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٣ - ٣٤﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾: مرض أو خوف من هلاك ونحوه، ﴿دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾: ونسوا ما كانوا به يشركون في تلك الحال؛ لعلمهم أنه

لا يكشف الضّرَّ إِلَّا الله، ﴿وَإِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً﴾: شفاهم من مرضهم وآمنهم من خوفهم، ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾: ينقضون تلك الإنابة التي صدرت منهم، ويشركون به مَنْ لا دَفَعَ عنهم ولا أغنى ولا أفقر ولا أغنى، وكلُّ هذا كفرٌ بما آتاهم الله ومَنْ به عليهم حيث أنجاهم وأنقذهم من الشدة وأزال عنهم المشقة؛ فهلاً قابلوا هذه النعمة الجليلة بالشكر والدوام على الإخلاص له في جميع الأحوال؟!

﴿٣٥﴾ ﴿أَمْ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾؛ أي: حجة ظاهرة، ﴿فَهُوَ﴾؛ أي: ذلك السلطان ﴿يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْرِكُونَ﴾: ويقول لهم: اثبتوا على شرككم واستمروا على شككم؛ فإن ما أنتم عليه هو الحق، وما دعتكم الرسل إليه باطل؛ فهل ذلك السلطان موجودٌ عندهم حتى يوجب لهم شدة التمسك بالشرك؟ أم البراهين العقلية والسمعية والكتب السماوية والرسل الكرام وسادات الأنام قد نهوا أشدَّ النهي عن ذلك، وحذروا من سلوك طرقه الموصلة إليه، وحكموا بفساد عقل ودين من ارتكبه؟! فشركٌ هؤلاء بغير حجة ولا برهان، وإنما هو أهواء النفوس ونزغات الشيطان.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾
﴿٣٦﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ .

﴿٣٦ - ٣٧﴾ يخبر تعالى عن طبيعة أكثر الناس في حال الرخاء والشدة أنهم إذا أذاقهم الله منه رحمةً من صحّةٍ وغنىٍ ونصرٍ ونحو ذلك؛ فرحوا بذلك فرحاً بطر لا فرح شكرٍ وتبجح بنعمة الله. ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ﴾؛ أي: حالٌ تسوؤهم، وذلك ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: من المعاصي، ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾: يياسون من زوال ذلك الفقر والمرض ونحوه، وهذا جهلٌ منهم وعدم معرفة. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾: فالقنوط بعدما علم أن الخير والشر من الله والرزق سعة وضيقه من تقديره ضائع ليس له محل؛ فلا تنظر أيها العاقل لمجرد الأسباب، بل اجعلْ نَظْرَكَ لمسببها، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: فهم الذين يعتبرون ببسطِ الله لِمَنْ يَشَاءُ وَقَبْضِهِ، ويعرفون بذلك حكمة الله ورحمته وجوده وجذب القلوب لسؤاله في جميع مطالب الرزق.

﴿فَتَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾
﴿٣٨﴾ وَمَا عَاقِبَتُ مَنْ رَبًّا لِيَرْبُؤًا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِثُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا عَاقِبَتُ مَنْ زَكَاةً يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٩﴾ .

﴿٣٨﴾ أي: فأعطِ القريب منك - على حسب قربه وحاجته - حقه الذي أوجبه الشارع أو حضّ عليه من النفقة الواجبة والصدقة والهدية والبرّ والسلام والإكرام والعفو عن زلته والمسامحة عن هفوته، وكذلك آتِ المسكين الذي أسكنته^(١) الفقر والحاجة ما تُزيل به حاجته وتدفع به ضرورته من إطعامه وسقيه وكسوته. ﴿وابن السبيل﴾: الغريب المنقطع به في غير بلده، الذي في مظنة شدة الحاجة، وأنه لا مال معه ولا كسب قد دبر نفسه به في سفره؛ بخلاف الذي في بلده؛ فإنه وإن لم يكن له مال، لكن لا بدّ في الغالب أن يكون في حرفة أو صناعة ونحوها تسدّ حاجته، ولهذا جعل الله في الزكاة حصّةً للمسكين وابن السبيل.

﴿ذلك﴾؛ أي: إيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل: ﴿خيرٌ للذين يريدون﴾: بذلك العمل ﴿وجه الله﴾؛ أي: خير غزير وثواب كثير؛ لأنه من أفضل الأعمال الصالحة، والنفع المتعدّي الذي وافق محلّه المقرون به الإخلاص؛ فإن لم يُردّ به وجه الله؛ لم يكن خيراً للمعطي، وإن كان خيراً ونفعاً للمعطي؛ كما قال تعالى: ﴿لا خيرَ في كثيرٍ من نجواهم إلاّ من أمر بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاحٍ بينَ الناس﴾: مفهومها أنّ هذه المستثنيات خير؛ لنفعها المتعدّي، ولكن من يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله؛ فسوف نؤتيه أجراً عظيماً، وقوله: ﴿وأولئك﴾: الذين عملوا هذه الأعمال وغيرها لوجه الله، ﴿هم المفلحون﴾: الفائزون بثواب الله الناجون من عقابه.

﴿٣٩﴾ ولما ذكر العمل الذي يُقصد به وجهه من النفقات؛ ذكر العمل الذي يُقصد به مقصد دنيوي، فقال: ﴿وما آتيتُم من ربا ليُرَبّوا في أموال الناس﴾؛ أي: ما أعطيتُم من أموالكم الزائدة عن حوائجكم، وقصدكم بذلك أن يُربّوا؛ أي: يزيد في أموالكم؛ بأن تُعطوها لمن تطمعون أن يعاوضكم عنها بأكثر منها؛ فهذا العمل لا يربو أجره عند الله؛ لكونه معدوم الشرط الذي هو الإخلاص.

ومثل ذلك العمل الذي يُراد به الزيادة في الجاه والرياء عند الناس؛ فهذا كله لا يربو عند الله. ﴿وما آتيتُم من زكاةٍ﴾؛ أي: مال يطهركم من الأخلاق الرذيلة، ويظهر أموالكم من البخل بها، ويزيد في دفع حاجة المعطي؛ ﴿تريدون﴾: بذلك ﴿وجه الله فأولئك هم المضعفون﴾؛ أي: المضاعف لهم الأجر، الذين تربو

(١) في (ب): «أسكنته».

نَفَقَاتُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، وَيُرِيهَا اللَّهُ لَهُمْ، حَتَّى تَكُونَ شَيْئًا كَثِيرًا، وَدَلَّ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ﴾: أَنَّ الصَّدَقَةَ مَعَ اضْطِرَارٍّ مِنْ يَتَعَلَّقُ بِالْمُنْفَقِ أَوْ مَعَ ذَنْبٍ عَلَيْهِ لَمْ يَقْضِهِ وَيَقْدُمُ عَلَيْهِ الصَّدَقَةُ؛ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِزَكَاةٍ يُؤْجَرُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ، وَيُرَدُّ تَصَرُّفُهُ شَرْعًا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الَّذِي يُمَدِّحُ: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾؛ فَلَيْسَ مَجْرَدُ إِيْتَاءِ الْمَالِ خَيْرًا، حَتَّى يَكُونَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ عَلَى وَجْهِ يَتَزَكَّى بِهِ الْمُؤْتِي.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِثْلَ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٤٠﴾ يخبر تعالى أنه وحده المنفرد بخلقكم ورزقكم وإماتتكم وإحيائكم، وأنه ليس أحد من الشركاء التي يدعوها المشركون من يشارك الله في شيء من هذه الأشياء؛ فكيف يشركون بمن انفرد بهذه الأمور من ليس له تصرف فيها بوجه من الوجوه؟ فسبحانه وتعالى، وتقدس، وتنزهه، وعلا عن شريكهم؛ فلا يضره ذلك، وإنما وبأله^(١) عليهم.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿٤١﴾ أي: استعلن ﴿الفساد في البر والبحر﴾؛ أي: فساد معاشهم ونقصها وحلول الآفات بها وفي أنفسهم من الأمراض والوباء وغير ذلك، وذلك بسبب ما قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ مِنَ الْأَعْمَالِ الْفَاسِدَةِ الْمَفْسُودَةِ بِطَبْعِهَا. هذه المذكورة، ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾؛ أي: ليعلموا أنه المجازي على الأعمال، فعجل لهم نموذجاً من جزاء أعمالهم في الدنيا؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: عن أعمالهم التي أثرت لهم من الفساد ما أثرت، فتصلح أحوالهم، ويستقيم أمرهم؛ فسبحان من أنعم ببلائه، وتفضل بعقوبته، وإلا؛ فلو أذاقهم جميع ما كسبوا؛ ما ترك على ظهرها من دابة.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿٤٢﴾ والأمر بالسير في الأرض يدخل فيه السير بالأبدان^(٢) والسير في القلوب للنظر والتأمل بعواقب المتقدمين، ﴿كان أكثرهم مشركين﴾: تجدون عاقبتهم شرًا

(١) في (ب): «وبالهم».

(٢) في (ب): «في الأبدان».

العواقب، ومآلهم شرٌّ مآلٍ: عذابٌ استأصلهم، وذمٌّ، ولعنٌ من خلق الله يتبعهم، وخزني متواصلٌ؛ فاحذروا أن تفعلوا أفعالهم؛ يُحذى بكم حذوهم؛ فإن عدل الله وحكمته في كل زمان ومكان.

﴿فَاقْرَءْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤٣﴾ أي: أقبل بقلبك وتوجّه بوجهك، واسع ببدنك لإقامة الدين القيم المستقيم، فنفذ أوامره ونواهيه بجد واجتهاد، وقم بوظائفه الظاهرة والباطنة، وبادر زمانك وحياتك وشبابك، ﴿من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله﴾: وهو يوم القيامة، الذي إذا جاء، لا يمكن رده، ولا يرجأ العاملون ليستأنفوا^(١) العمل، بل فرغ من الأعمال، ولم يبق إلا جزاء العمال. ﴿يومئذ يصدعون﴾؛ أي: يتفرقون عن ذلك اليوم، ويصدرون أشتاتاً متفاوتين؛ ليروا أعمالهم.

﴿٤٤ - ٤٥﴾ ﴿مَنْ كَفَرَ﴾: منهم، ﴿فعليه كفره﴾: ويعاقب هو بنفسه، لا تزر وازرة وزر أخرى، ﴿ومن عمل صالحاً﴾: من الحقوق التي لله والتي للعباد الواجبة والمستحبة ﴿فلا نفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ﴾: لا لغيرهم؛ ﴿يَمْهَدُونَ﴾؛ أي: يهيئون، ولأنفسهم يعمرن آخرتهم، ويستعدون للفوز بمنازلها وغرفاتها، ومع ذلك جزاؤهم ليس مقصوراً على أعمالهم، بل يجزيهم الله من فضله الممدود وكرمه غير المحدود ما^(٢) لا تبلغه أعمالهم، وذلك لأنه أحبهم، وإذا أحب الله عبداً؛ صب عليه الإحسان صباً، وأجزل له العطايا الفاخرة، وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، ولهذا بخلاف الكافرين؛ فإن الله لما أبغضهم ومقتهم؛ عاقبهم وعذبهم، ولم يزد من قبلهم؛ فلهذا قال: ﴿إنه لا يحب الكافرين﴾.

﴿وَمَنْ آتَيْنَاهُ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَتٍ وَلِيَذِّقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْزِيَ الْفَلَكَ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٦﴾ أي: ومن^(٣) الأدلة الدالة على رحمته وبعثه الموتى وأنه الإله المعبود

(٢) في (ب): «وما».

(١) في (ب): «أن يستأنفوا».

(٣) في (ب): «من».

والملك المحمود، أن أرسل ﴿الرياح﴾: أمام المطر ﴿مبشرات﴾: بإثارتها للسحاب ثم جمعها، فبشر بذلك النفوس قبل نزوله، ﴿وليديقكم من رحمته﴾: فيُنزَل عليكم مطراً تحيا به البلاد والعباد وتذوقون من رحمته ما تعرفون أنَّ رحمته هي المنقذة للعباد الجالبة لأرزاقهم، فتشاقون إلى الإكثار من الأعمال الصالحة الفاتحة لخزائن الرحمة، ﴿ولتجزي الفلك﴾: في البحر ﴿بأمره﴾: القدري، ﴿وليتبتغوا من فضله﴾: بالتصرف في معاشكم ومصالحكم. ﴿ولعلكم تشكرون﴾: مَنْ سَخَّر لكم الأسباب، ويسر لكم الأمور؛ فهذا المقصود من النعم أن تقابل بشكر الله تعالى؛ ليزيدكم الله منها، ويبقيها عليكم، وأما مقابلة النعم بالكفر والمعاصي؛ فهذه حال من بدل نعمة الله كفراً، ونعمته محنة، وهو معرض لها للزوال والانتقال منه إلى غيره.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقَمْنَا مِنْ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧).

﴿٤٧﴾ أي: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك﴾: في الأمم السالفة ﴿رسلاً إلى قومهم﴾: حين جحدوا توحيد الله وكذبوا بالحق، فجاءتهم رسلهم يدعونهم إلى التوحيد والإخلاص والتصديق بالحق وبطلان ما هم عليه من الكفر والضلال، وجاؤوهم بالبينات والأدلة على ذلك، فلم يؤمنوا ولم يزولوا عن غيهم، ﴿فانتقمنا من الذين أجرموا﴾: ونصرنا المؤمنين أتباع الرسل، ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾؛ أي: أوجبنا ذلك على أنفسنا، وجعلناه من جملة الحقوق المتعينة، ووعدناهم به؛ فلا بد من وقوعه، فأنتم أيها المكذبون لمحمد ﷺ إن بقيتم على تكذيبكم؛ حلت بكم العقوبة، ونصرناه عليكم.

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ﴾ (٤٨) ﴿وَلَنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْسِكِينَ﴾ (٤٩) ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُخْرِجُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ أَمْرِهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٥٠).

﴿٤٨ - ٤٩﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته وتمام نعمته أنه ﴿يرسل الرياح فتثير سحاباً﴾: من الأرض، ﴿فيبسطه في السماء﴾؛ أي: يمدّه ويوسّعه ﴿كيف يشاء﴾؛ أي: على أي حالة أرادها من ذلك، ﴿ثم يجعله﴾؛ أي: ذلك السحاب الواسع ﴿كسفاً﴾؛ أي: سحاباً ثخيناً قد طبّق بعضه فوق بعض. ﴿فترى الودق﴾

يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ؛ أَي: السحاب؛ نَقْطًا صَغَارًا مَتَفَرِّقَةً، لَا تَنْزِلُ جَمِيعًا فَتُقْسِدُ مَا أَتَتْ عَلَيْهِ، ﴿فَإِذَا أَصَابَ﴾؛ أَي: بِذَلِكَ الْمَطَرِ مَنْ ﴿يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾: يَبْشُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِنَزُولِهِ، وَذَلِكَ لَشِدَّةِ حَاجَتِهِمْ وَضُرُورَتِهِمْ إِلَيْهِ؛ فَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لُمُيلِسِينَ﴾؛ أَي: آيِسِينَ قَانِطِينَ لِتَأْخُرَ وَقْتُ مَجِيئِهِ؛ أَي: فَلَمَّا نَزَلَ فِي تِلْكَ الْحَالِ؛ صَارَ لَهُ مَوْقِعٌ عَظِيمٌ عِنْدَهُمْ وَفَرَحٌ وَاسْتِبْشَارٌ.

﴿٥٠﴾ ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: فَاهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ. ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾: الَّذِي أَحْيَا الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴿لَمُخْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: فَقَدَرْتُهُ تَعَالَى لَا يَتَعَصَى عَلَيْهَا شَيْءٌ، وَإِنْ تَعَصَى عَلَى قَدَرِ خَلْقِهِ، وَدَقَّ عَنْ أَفْهَامِهِمْ، وَحَارَتْ فِيهِ عَقُولُهُمْ.

﴿وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الضُّمَّةَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمِّيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾.

﴿٥١﴾ يخبر تعالى عن حالة الخلق وأنهم مع هذه النعم عليهم بإحياء الأرض بعد موتها ونشر رحمة الله تعالى: لو أرسلنا على هذا النبات الناشئ عن المطر وعلى زروعهم ريحاً مضرّة متلفّة أو منقصّة، ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾: قَدْ تَدَاعَى إِلَى التَّلَفِ، ﴿لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾: فَيَنْسُونَ النِّعَمَ الْمَاضِيَةَ، وَيَبَادِرُونَ إِلَى الْكُفْرِ! وَهَؤُلَاءِ لَا يَنْفَعُ فِيهِمْ وَعْظٌ وَلَا زَجْرٌ.

﴿٥٢﴾ ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الضُّمَّةَ الدُّعَاءَ﴾: وَبِالْأُولَى: ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾: فَإِنَّ الْمَوَانِعَ قَدْ تَوَفَّرَتْ فِيهِمْ عَنِ الْإِنْقِيَادِ وَالسَّمَاعِ النَّافِعِ كَتَوَفَّرَ هَذِهِ الْمَوَانِعُ الْمَذْكُورَةُ عَنْ سَمَاعِ الصَّوْتِ الْحَسِيِّ.

﴿٥٣﴾ ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمِّيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾: لِأَنَّهُمْ لَا يَقْبَلُونَ الْإِبْصَارَ بِسَبَبِ عَمَاهُمْ؛ فَلَيْسَ فِيهِمْ ^(١) قَابِلِيَّةٌ لَهُ. ﴿إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾: فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَنْفَعُ فِيهِمْ إِسْمَاعُ الْهُدَى، الْمُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا بِقُلُوبِهِمْ، الْمُنْقَادُونَ لِأَوَامِرِنَا، الْمُسْلِمُونَ لَنَا؛ لِأَنَّ مَعَهُمُ الدَّاعِيَ الْقَوِيَّ لِقَبُولِ النَّصَائِحِ وَالْمَوَاعِظِ، وَهُوَ

استعدادهم للإيمان بكل آية من آيات الله، واستعدادهم لتنفيذ ما يقدرون عليه من أوامر الله ونواهيه.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (٥٤).

﴿٥٤﴾ يخبر تعالى عن سعة علمه وعظيم اقتداره وكمال حكمته؛ أنه ابتداء خلق آدميين من ضعف، وهو الأطوار الأولى من خلقه من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى أن صار حيواناً في الأرحام إلى أن ولد وهو في سن الطفولية، وهو إذ ذاك في غاية الضعف وعدم القوة والقدرة، ثم ما زال الله يزيد في قوته شيئاً فشيئاً، حتى بلغ سن الشباب، واستوثق قوته، وكملت قواه الظاهرة والباطنة، ثم انتقل من هذا الطور ورجع إلى الضعف والشيبة والهرم. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾: بحسب حكمته، ومن حكمته أن يري العبد ضعفه، وأن قوته محفوفة بضعفين، وأنه ليس له من نفسه إلا النقص، ولولا تقوية الله له؛ لما وصل إلى قوة وقدرة، ولو استمرت قوته في الزيادة؛ لطغى وبغى وعتا، وليعلم العباد كمال قدرة الله، التي لا تزال مستمرة؛ يخلق بها الأشياء، ويدبر بها الأمور، ولا يلحقها إعياء ولا ضعف ولا نقص بوجه من الوجوه.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِدُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّا كُنَّا لَا نَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾.

﴿٥٥﴾ يخبر تعالى عن يوم القيامة وسرعة مجيئه، وأنه إذا قامت الساعة؛ أقسم ﴿المجرمون﴾: بالله أنهم ﴿ما لبثوا﴾: في الدنيا ﴿إلا ساعة﴾، وذلك اعتذار منهم؛ لعله ينفعهم العذر، واستقصار لمدة الدنيا. ولما كان قولهم كذباً لا حقيقة له؛ قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: ما زالوا وهم في الدنيا يؤفكون عن الحقائق ويأتفكون الكذب؛ ففي الدنيا كذبوا الحق الذي جاء^(١) به المرسلون، وفي الآخرة أنكروا الأمر المحسوس، وهو اللبث الطويل في الدنيا؛ فهذا خلقتهم القبيح، والعبد يبعث على ما مات عليه.

(١) في (ب): «جاءتهم».

﴿٥٦﴾ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان؛ أي: من الله عليهم بهما، وصارا وصفاً لهم، العلم بالحق والإيمان المستلزم إثبات الحق، وإذا كانوا عالمين بالحق، مؤثرين له؛ لزم أن يكون قولهم مطابقاً للواقع مناسباً لأحوالهم؛ فلماذا قالوا الحق: ﴿لقد لبِثْنا في كتاب الله﴾؛ أي: في قضائِهِ وقدرِهِ الذي كتبه الله عليكم وفي حكمه ﴿إلى يوم البعث﴾؛ أي: عُمرتم عمراً يتذكر فيه المتذكر، ويتدبر فيه المتدبر ويعتبر فيه المعبر، حتى صار البعث، ووصلتم إلى هذه الحال. ﴿فلماذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾: فلذلك أنكرتموه في الدنيا، وأنكرتم إقامتكم في الدنيا وقتاً تتمكنون فيه من الإنابة والتوبة، فلم يزل الجهل شعاركم، وآثاره من التكذيب والخسارِ دثاركم.

﴿٥٧﴾ ﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم﴾: فإن كذبوا، وزعموا أنهم ما قامت عليهم الحجة، أو ما تمكنوا من الإيمان؛ ظهر كذبهم بشهادة أهل العلم والإيمان وشهادة جلودِهِم وأيديهِم وأرجلِهِم، وإن طلبوا الإعذار، وأنهم يردون، ولا يعودون لما نهوا عنه؛ لم يمكنوا؛ فإنه فات وقت الإعذار، فلا تقبل معذرتهم. ﴿ولا هم يستغثون﴾؛ أي: يُزال عتبهم والعتاب عنهم.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَأَصْبَحَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَصْفًا﴾

﴿٥٨ - ٥٩﴾ أي: ﴿ولقد ضربنا﴾: لأجل عنايتنا ورَحْمَتنا ولطفنا وحسن تعليمنا للناس في هذا القرآن من كلِّ مثل: تتضح به الحقائق وتُعرف به الأمور وتنقطع به الحجة، وهذا عامٌّ في الأمثال التي يضرِبها الله في تقريب الأمور المعقولة بالمحسوسة، وفي الإخبار بما سيكون وجلاء حقيقته حتى كأنه وَقَعَ، ومنه في هذا الموضع ذكرُ الله تعالى ما يكون يوم القيامة، وحالة المجرمين فيه، وشدة أسفِهِم، وأنه لا يقبل منهم عذر ولا عتاب، ولكن أبى الظالمون الكافرون إلا معاندة الحق الواضح، ولهذا قال: ﴿ولئن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ﴾؛ أي: أي آية تدلُّ على صحة ما جئت به، ﴿ليقولنَّ الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون﴾؛ أي: قالوا للحق: إنه باطل! وهذا من كفرهم وجراءتهم وطبع الله على قلوبهم وجهلهم المفرط، ولهذا قال: ﴿كذلك يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: فلا يدخلها خير، ولا تدرك الأشياء على حقيقتها، بل ترى الحق باطلاً والباطل حقاً.

﴿٦٠﴾ ﴿فَاصْبِرْ﴾: على ما أمرت به وعلى دعوتهم إلى الله ولو رأيت منهم إعراضاً؛ فلا يصدّئك ذلك. ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾؛ أي: لا شك فيه، وهذا مما يُعين على الصبر؛ فإنّ العبد إذا علم أنّ عمله غير ضائع، بل سيجدّه كاملاً؛ هانّ عليه ما يلقاه من المكاره، وتيسّر^(١) عليه كلّ عسير، واستقلّ من عمله كلّ كثير. ﴿وَلَا يَسْتَخَفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾؛ أي: قد ضعف إيمانهم وقلّ يقيئهم فخفتّ لذلّك أحلامهم، وقلّ صبرهم؛ فإنّك أن يستخفّك هؤلاء؛ فإنّك إن لم تجعلهم^(٢) منك على بالٍ، وتحذّر منهم، وإلا؛ استخفوك وحملوك على عدم الثبات على الأوامر والنواهي، والنفوس تساعدهم على هذا، وتطلّب التشبه والموافقة^(٣)، وهذا مما يدلّ على أنّ كلّ مؤمن موقن رزين العقل؛ يسهلّ عليه الصبر، وكلّ ضعيف اليقين؛ ضعيف العقل خفيفه؛ فالأول بمنزلة اللبّ، والآخر بمنزلة القشور. فالله المستعان.



تفسير سورة لقمان

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يَتَّقُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

﴿٢﴾ يشير تعالى إشارة دالة على التعظيم إلى ﴿آيات الكتاب الحكيم﴾؛ أي: آياته محكمة صدرت من حكيم خبير.

ومن^(٤) إحكامها أنّها جاءت بأجلّ الألفاظ وأفصحها وأبينها، الدالة على أجلّ المعاني وأحسنها.

ومن إحكامها أنّها محفوظة من التغيير والتبديل والزيادة والنقص والتحريف.

(٢) في (ب): «تجعل».

(٤) في (ب): «من».

(١) في (ب): «ويسر».

(٣) في (ب): «والموافقة».

ومن إحكامها أن جميع ما فيها من الأخبار^(١) السابقة واللاحقة والأمور الغيبية كلها مطابقة للواقع، مطابق لها الواقع، لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية، ولم يخبر بخلافها نبي من الأنبياء، ولم يأت ولن يأت علم محسوس ولا معقول صحيح يناقض ما دلّت عليه.

ومن إحكامها أنها ما أمرت بشيء إلا وهو خالص المصلحة أو راجحها، ولا نهت عن شيء إلا وهو خالص المفسدة أو راجحها، وكثيراً ما يجمع بين الأمر بالشيء مع ذكر حكمته وفائدته، والنهي عن الشيء مع ذكر مضرته.

ومن إحكامها أنها جمعت بين الترغيب والترهيب والوعظ البليغ الذي تعتدل به النفوس الخيرة، وتحتكم فتعمل بالحزم.

ومن إحكامها: أنك تجد آياتها^(٢) المتكررة كالقصص والأحكام ونحوها قد اتفقت كلها وتواطأت، فليس فيها تناقض ولا اختلاف؛ فكلما ازداد بها البصير تدبراً وأعمل فيها العقل تفكيراً؛ انبهر عقله وذهل لبه من التوافق والتواطؤ، وجزم جزمًا لا يمتري فيه أنه تنزيل من حكيم حميد.

﴿٣﴾ ولكن مع أنه حكيم يدعو إلى كل خلق كريم وينهى عن كل خلق لئيم، أكثر الناس محرومون من الاهتداء به، معرضون عن الإيمان والعمل به؛ إلا من وفقه الله تعالى وعصمه، وهم المحسنون في عبادة ربهم، والمحسنون إلى الخلق؛ فإنه ﴿هدى﴾: لهم يهديهم إلى الصراط المستقيم، ويحذرهم من طرق الجحيم. ﴿ورحمة﴾: لهم تحصل لهم به السعادة في الدنيا والآخرة والخير الكثير والثواب الجزيل والفرح والسرور، ويندفع عنهم الضلال والشقاء.

﴿٤﴾ ثم وصف المحسنين بالعلم التام، وهو اليقين الموجب للعمل والخوف من عقاب الله، فيتركون معاصيه، ووصفهم بالعمل، وخص من العمل عمليين فاضلين: ﴿الصلاة﴾ المشتملة على الإخلاص، ومناجاة الله تعالى، والتعبد العام للقلب واللسان والجوارح المعينة على سائر الأعمال. ﴿والزكاة﴾: التي تزكي صاحبها من الصفات الرذيلة، وتنفع أخاه المسلم وتسد حاجته، ويبين بها أن العبد يؤثر محبة الله على محبته للمال، فيخرج^(٣) محبوبه من المال لما هو أحب إليه، وهو طلب مرضاة الله.

(٢) في (ب): «آياته».

(١) في (ب): «الأحكام».

(٣) في (ب): «فيخرجه».

﴿٥﴾ فَ﴿أُولَئِكَ﴾: المحسنون الجامعون بين العلم التام والعمل ﴿على هدى﴾؛ أي: عظيم كما يفيدُه التنكيرُ، وذلك الهدى حاصلٌ لهم وواصلٌ إليهم ﴿من ربهم﴾: الذي لم يزل يربِّيهم بالنعمة ويدفعُ عنهم النقمَ، ولهذا الهدى الذي أوصله إليهم من تربيته الخاصة بأوليائه، وهو أفضلُ أنواع التربية. ﴿وأولئك هم المفلحون﴾: الذين أدركوا رضا ربهم وثوابه الدنيوي والأخروي، وسلموا من سخطه وعقابه، وذلك لسلوكلهم طريق الفلاح، الذي لا طريقَ له غيرها.

ولما ذَكَرَ تعالى المهتدين بالقرآن المقبلين عليه؛ ذَكَرَ من أَعرض عنه ولم يرفع به رأساً، وأنه عوقب على ذلك بأن تَعَوَّضَ عنه كل باطل من القول، فترك أعلى الأقوال وأحسن الحديث، واستبدل به أسفل قول وأقبحه؛ فلذلك قال:

﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا نُتِلَ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قُورًا فَنَسَخْنَاهُ بِعَذَابٍ آلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾.

﴿٦﴾ أي: ﴿ومن الناس من﴾: هو محرومٌ مخدولٌ ﴿يشترى﴾؛ أي: يختارُ ويرغب رغبة من يبذلُ الثمن في الشيء، ﴿لهو الحديث﴾؛ أي: الأحاديث الملهية للقلوب، الصادة لها عن أجلٍ مطلوب، فدخل في هذا كلُّ كلامٍ محرَّم وكلُّ لغوٍ وباطل^(١) وهذيان؛ من الأقوال المرغبة في الكفر والفسوق والعصيان، ومن أقوال الرادين على الحق المجادلين بالباطل ليُدْحِضُوا به الحق، ومن غيبةٍ ونميمةٍ وكذبٍ وشمٍ وسبٍّ، ومن غناء ومزامير شيطان. ومن الماجريات الملهية التي لا نفع فيها في دين ولا دنيا؛ فهذا الصنف من الناس ﴿يشترى لهو الحديث﴾ عن هدى الحديث ﴿ليضل﴾ الناس ﴿بغير علم﴾؛ أي: بعد ما ضلَّ في فعله أضلَّ غيره؛ لأن الإضلال ناشئ عن الضلال، وإضلاله في هذا الحديث صدُّه عن الحديث النافع والعمل النافع والحق المبين والصراط المستقيم، ولا يتمُّ له هذا حتى يقدح في الهدى والحق، ويتخذ آيات الله هُزُوًا، يَسْخَرُ^(٢) بها ويمنَّ جاء بها؛ فإذا جمع بين مدح الباطل والترغيب فيه والقدح في الحق والاستهزاء به وبأهله؛ أضلَّ مَنْ لا علم

(١) في (ب): «لغو باطل».

(٢) في (ب): «ويسخر».

عنده، وَخَدَّعَهُ بما يوحيه إليه من القول الذي لا يميّزه ذلك الضالُّ، ولا يعرف حقيقته، ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ (مهين)﴾^(١): بما ضلُّوا، وأضلُّوا، واستهزؤوا بآيات الله، وكذبوا الحقَّ الواضح.

﴿٧﴾ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾: ليؤمنَ بها وينقادَ لها، ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾؛ أي: أدبر إِدْبَارَ مُسْتَكْبِرٍ عنها رادُّ لها ولم تدخل قلبه ولا أثرت فيه بل أدبر عنها ﴿كَأَنَّ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾، بل: ﴿كَأَنَّ فِي أَذُنَيْهِ وَقْرًا﴾؛ أي: صمماً لا تصل إليها الأصوات؛ فهذا لا حيلة في هدايته. ﴿فَبَشَّرَهُ﴾: بشارَةً تؤثر في قلبه الحزن والغم، وفي بشرته السوء والظلمة والغبرة، ﴿بِعَذَابِ الْيَمِّ﴾: مؤلم لقلبه ولبدنه، لا يقاдр قدره، ولا يُدرى بعظيم أمره؛ فهذه^(٢) بشارَةُ أَهْلِ الشَّرِّ؛ فلا نعمتِ البشارة.

﴿٨ - ٩﴾ وأما بشارَةُ أَهْلِ الْخَيْرِ؛ فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: جمعوا بين عبادة الباطن بالإيمان والظاهر بالإسلام والعمل الصالح، ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾: بشارَةُ لَهُمْ بما قدّموه وقرى لهم بما أسلفوه ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: في جنات النعيم نعيم القلب والروح والبدن. ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾: لا يمكن أن يُخْلَفَ ولا يغيّر ولا يتبدّل. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: كامل العزّة، كامل الحكمة، من عزّته وحكمته، وَفَقَّ مِنْ وَفَقٍ، وَخَذَلَ بحسب ما اقتضاه علمه فيهم وحكمته.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْأَرْضَ رَوْسًى أَنْ تُمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَزَلَّنا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَاتَّبَعْنَاهَا مِنْ كُلِّ نَوْحٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

﴿١٠﴾ يتلو تعالى على عباده آثاراً من آثار قدرته وبدائع من بدائع حكمته ونعماً من آثار رحمته، فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾: السبع على عظمها وسعّتها وكثافتها وارتفاعها الهائل ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾؛ أي: ليس لها عمد، ولو كان لها عمد؛ لرؤيت، وإنما استقرّت، واستمسكتْ بقدره الله تعالى، ﴿وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَواسِي﴾؛ أي: جبلاً عظيمة ركزها في أرجائها وأنحائها لئلاً ﴿تُمِيدَ بِكُمْ﴾؛ فلولاً الجبال الراسيات؛ لمادت الأرض ولما استقرّت بساكنيها، ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ

(١) في النسختين: ﴿اليم﴾. والآية: ﴿مهين﴾.

(٢) في (ب): «وهذه».

دَابَّةٌ؛ أَي: نشر في الأرض الواسعة من جميع أصناف الدواب التي هي مسخرة لبني آدم ولمصالحهم ومنافعهم، ولما بثها في الأرض؛ علم تعالى أنه لا بد لها من رزق تعيش به، فأنزل من السماء ماء مباركاً، ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زوجِ كَرِيمٍ﴾: المنظر، نافع، مبارك، فرتعت فيه الدواب المنبئة، وسكن إليه كل حيوان.

﴿١١﴾ ﴿هَذَا﴾؛ أَي: خَلَقُ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ من جماد وحيوان وسوق أرزاق الخلق إليهم، ﴿خَلَقَ اللَّهُ﴾: وحده لا شريك له، كلُّ مَقَرٍّ بِذَلِكَ، حتى أنتم يا معشر المشركين، ﴿فَأُرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾؛ أَي: الذين جعلتموهم له شركاء تدعونهم وتعبدونهم، يلزم على هذا أن يكون لهم خَلَقٌ كَخَلْقِهِ وَرِزْقٌ كَرِزْقِهِ؛ فَإِنْ كَانَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ؛ فَأُرُونِيهِ؛ لِيَصِحَّ مَا ادَّعَيْتُمْ فِيهِمْ مِنْ اسْتِحْقَاقِ الْعِبَادَةِ. وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يُرَوْهُ شَيْئاً مِنَ الْخَلْقِ لَهَا؛ لِأَنَّ جَمِيعَ الْمَذْكُورَاتِ قَدْ أَفْرُوا أَنَّهَا خَلَقَ اللَّهُ وَحْدَهُ، وَلَا تُمْ شَيْءٌ يَعْلَمُ غَيْرَهَا، فَثَبِتَ عَجْزَهُمْ عَنْ إِثْبَاتِ شَيْءٍ لَهَا تَسْتَحِقُّ بِهِ أَنْ تُعْبَدَ، وَلَكِنْ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهَا عَنْ غَيْرِ عِلْمٍ وَبِصِيرَةٍ، بَلْ عَنْ جَهْلٍ وَضَلَالٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾؛ أَي: جَلِيٍّ وَاضِحٍ؛ حَيْثُ عَبَدُوا مِنْ لَا يَمْلِكُ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً وَلَا مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نَشُوراً، وَتَرَكُوا الْإِخْلَاصَ لِلْخَالِقِ الرَّازِقِ الْمَالِكِ لِكُلِّ الْأُمُورِ.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (١٧) وَلِذَلِكَ قَالَ لُقْمَانُ لِأَبْنَيْهِ وَهُوَ يَعْظُمُ يَتِيمًا لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٨) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلْهُ فِي عَامَتَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ (١٩) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَى تَعَالَى إِلَهِكَ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٠) يَتَّبِعُ إِنَّمَا إِنْ تَكُ يَشْقَالُ حَبْرٌ مِّنْ حَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَكِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٢١) يَتَّبِعُ أَقْبَرُ الصَّلَاةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبَرَ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٢٢) وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ (٢٣) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ

وَأَغْضَضَ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْمَلِيعِ ﴿١١﴾ .

﴿١٢﴾ يخبرُ تعالى عن امتنانه على عبده الفاضل لقمان بالحكمة، وهي العلم بالحق على وجهه وحكمته؛ فهي العلم بالأحكام، ومعرفة ما فيها من الأسرار والأحكام؛ فقد يكون الإنسان عالماً ولا يكون حكيماً، وأما الحكمة؛ فهي مستلزمة للعلم، بل وللعمل، ولهذا فُسِّرَت الحكمةُ بالعلم النافع والعمل الصالح. ولما أعطاه الله هذه المنة العظيمة؛ أمره أن يشكره على ما أعطاه؛ ليبارك له فيه، وليزيده من فضله، وأخبره أن شكر الشاكرين يعودُ نفعه عليهم، وأن من كفر فلم يشكر الله؛ عاد وبال ذلك عليه، والله غني عنه حميدٌ فيما يقدره ويقضيه على من خالف أمره؛ فغناه تعالى من لوازم ذاته، وكونه حميداً في صفات كماله حميداً في جميل صنعه من لوازم ذاته، وكل واحد من الوصفين صفة كمال، واجتماع أحدهما إلى الآخر زيادة كمال إلى كمال.

واختلف المفسرون هل كان لقمان نبياً أو عبداً صالحاً^(١)، والله تعالى لم يذكر عنه إلا أنه آتاه الحكمة، وذكر بعض ما يدل على حكمته في وعظه لابنه، فذكر أصول الحكمة وقواعدها الكبار، فقال:

﴿١٣﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ لِقْمَانُ لَابِنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾؛ أو: قال له قولاً به يعظه، والوعظ: الأمر والنهي^(٢) المقرون بالترغيب والترهيب؛ فأمره بالإخلاص ونهاه عن الشرك وبيّن له السبب في ذلك، فقال: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾: ووجه كونه عظيماً أنه لا أفظع وأبشع ممّن سوّى المخلوق من تراب بمالك الرقاب، وسوّى الذي لا يملك من الأمر شيئاً بمالك الأمر كله، وسوّى الناقص الفقير من جميع الوجوه بالرّب الكامل الغنيّ من جميع الوجوه، وسوّى من لم يُنعمَ بمِثقال ذرّة من النعم، بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم ودنياهم وأخراهم وقلوبهم وأبدانهم إلا منه، ولا يصرف السوء إلا هو؛ فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟! وهل أعظم ظلماً ممّن

(١) قال ابن كثير: «ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبياً، وإنما ينقل كونه نبياً عن عكرمة إن صح السند إليه، فإنه رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث وكيع عن إسرائيل عن جابر عن عكرمة قال: كان لقمان نبياً، وجابر هذا ابن يزيد الجعفي، وهو ضعيف، والله أعلم». «تفسير ابن كثير» (٦/٣٣٧).

(٢) في (ب): «يعظه بالأمر والنهي».

خلقه الله لعبادته وتوحيده، فذهب بنفسه الشريفة، فجعلها في أخس المراتب، جعلها عابدة لمن لا يسوى شيئاً، فظلم نفسه ظلماً كبيراً؟!

﴿١٤﴾ ولما أمر بالقيام بحقه بترك الشرك الذي من لوازمه القيام بالتوحيد؛ أمر بالقيام بحق الوالدين، فقال: ﴿ووصينا الإنسان﴾؛ أي: عهدنا إليه وجعلناه وصيةً عنده سنسأله عن القيام بها وهل حفظها أم لا؟ فوصيناه ﴿بوالديه﴾، وقلنا له: ﴿اشكّر لي﴾: بالقيام بعبوديتي وأداء حقوقي وأن لا تستعين بنعمي على معصيتي ﴿ولوالديك﴾: بالإحسان إليهما بالقول اللين والكلام اللطيف والفعل الجميل والتواضع لهما وإكرامهما وإجلالهما والقيام بمؤونتهما واجتناب الإساءة إليهما من كل وجه بالقول والفعل، فوصيناه بهذه الوصية وأخبرناه أن ﴿إليّ المصير﴾؛ أي: سترجع أيها الإنسان إلى من وصاك وكلفك بهذه الحقوق، فيسألك: هل قمت بها فيثيبك الثواب الجزيل، أم ضيعتها فيعاقبك العقاب الوبيل؟! ثم ذكر السبب الموجب لبرّ الوالدين في الأم، فقال: ﴿حملته أمه وهناً على وهن﴾؛ أي: مشقة على مشقة؛ فلا تزال تلاقي المشاق من حين يكون نطفة من الوحم والمرض والضعف والثقل وتغير الحال، ثم وجع الولادة ذلك الوجع الشديد، ثم ﴿فصاله في عامين﴾: وهو ملازم لحضانه أمه وكفالتها ورضاعها. أفما يحسن بمن تحمّل على ولده هذه الشدائد مع شدة الحب أن يؤكد على ولده، ويوصي إليه بتمام الإحسان إليه؟

﴿١٥﴾ ﴿وإن جاهدك﴾؛ أي: اجتهد والداك ﴿على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾: ولا تظن أن هذا داخل في الإحسان إليهما؛ لأن حق الله مقدّم على حق كل أحد، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولم يقل: وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم؛ فعظمهما، بل قال: ﴿فلا تطعهما﴾؛ أي: في الشرك^(١)، وأما برّهما؛ فاستمرّ عليه، ولهذا قال: ﴿وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾؛ أي: صحبة إحسان إليهما بالمعروف، وأما اتّباعهما وهما بحالة الكفر والمعاصي؛ فلا يتّبعهما، ﴿واتّبغ سبيل من أناب إليّ﴾: وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله، المستسلمون لربهم، المنيبون إليه، واتّباع سبيلهم أن يسلك مسلكهم في الإنابة إلى الله، التي هي انجذاب دواعي القلب وإراداته إلى الله، ثم يتّبعها سعي

(١) في (ب): «بالشرك».

البدن فيما يرضي الله ويقرب منه، ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾: الطائع والعاصي والمنيب وغيره، ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: فلا يخفى على الله من أعمالهم خافية.

﴿١٦﴾ ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾: التي هي أصغر الأشياء وأحقرها ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾؛ أي: في وسطها، ﴿أَوْ فِي السَّمُوتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾: في أي جهة من جهاتهما؛ ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾: لسعة علمه وتمام خبرته وكمال قدرته، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾؛ أي: لطف في علمه وخبرته، حتى أطلع على البواطن والأسرار وخفايا القفار والبحار. والمقصود من هذا الحث على مراقبة الله والعمل بطاعته مهما أمكن، والترهيب من عمل القبيح قل أو كثُر.

﴿١٧﴾ ﴿يَا بَنِيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾: حثه عليها وخصها لأنها أكبر العبادات البدنية، ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: وذلك يستلزم العلم بالمعروف؛ ليأمر به، والعلم بالمنكر؛ لينهى عنه، والأمر بما لا يتم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر إلا به، من الرفق والصبر، وقد صرح به في قوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾: ومن كونه فاعلاً لما يأمر به، كافاً لما ينهى عنه، فتضمن هذا تكميل نفسه بفعل الخير وترك الشر، وتكميل غيره بذلك بأمره ونهيه. ولما علم أنه لا بد أن يتلى إذا أمر ونهى وأن في الأمر والنهي مشقة على النفوس؛ أمره بالصبر على ذلك، فقال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ﴾: الذي وعظ به لقمان ابنه ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾؛ أي: من الأمور التي يُعْزَمُ عليها، ويهتم بها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم.

﴿١٨﴾ ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: لا تملأ وتعبس بوجهك للناس تكبراً عليهم وتعاضماً، ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾؛ أي: بطراً فخراً بالنعم ناسياً المنعم معجباً بنفسك. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾: في نفسه وهيبته وتعاضمه ﴿فَخُورٍ﴾: بقوله.

﴿١٩﴾ ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾؛ أي: امش متواضعاً مستكيناً لا مشي البطر والتكبر ولا مشي التماوت، ﴿وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾: أدباً مع الناس ومع الله، ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾؛ أي: أفظعها وأبشعها ﴿لِصَوْتِ الْحَمِيرِ﴾: فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدة ومصلحة؛ لما اختص بذلك الحمار الذي قد عُلِمَتْ خسسته وبلاذته.

وهذه الوصايا التي وصى بها لقمان لابنه؛ تجمع أمهات الحكم، وتستلزم ما لم

يُذَكِّرُ مِنْهَا^(١)، وَكُلُّ وَصِيَّةٍ يُقْرَنُ بِهَا مَا يَدْعُو إِلَى فَعْلِهَا إِنْ كَانَتْ أَمْرًا وَإِلَى تَرْكِهَا إِنْ كَانَتْ نَهْيًا، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى مَا ذَكَرْنَا فِي تَفْسِيرِ الْحِكْمَةِ: أَنَّهَا الْعِلْمُ بِالْأَحْكَامِ وَحِكْمِهَا وَمُنَاسِبَاتِهَا: فَأَمْرُهُ بِأَصْلِ الدِّينِ وَهُوَ التَّوْحِيدُ، وَنَهَاهُ عَنِ الشِّرْكِ، وَبَيَّنَّ لَهُ الْمَوْجِبَ لِتَرْكِهِ. وَأَمْرُهُ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ، وَبَيَّنَّ لَهُ السَّبَبَ الْمَوْجِبَ لِبِرِّهِمَا، وَأَمْرُهُ بِشُكْرِهِ وَشُكْرِهِمَا، ثُمَّ احْتَرَزَ بِأَنْ مَحَلَّ بِرِّهِمَا وَامْتِثَالِ أَوْامِرِهِمَا مَا لَمْ يَأْمُرَا بِمَعْصِيَةٍ، وَمَعَ ذَلِكَ؛ فَلَا يَعْتَقِبُهُمَا، بَلْ يَحْسُنُ إِلَيْهِمَا، وَإِنْ كَانَ لَا يَطِيعُهُمَا إِذَا جَاهَدَاهُ عَلَى الشِّرْكِ. وَأَمْرُهُ بِمِرَاقَبَةِ اللَّهِ وَخَوْفِهِ الْقَدُومِ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ إِلَّا أَتَى بِهَا، وَنَهَاهُ عَنِ التَّكْبُرِ. وَأَمْرُهُ بِالتَّوَاضُّعِ وَنَهَاهُ عَنِ الْبَطَرِ وَالْأَشْرِ وَالْمَرْحِ. وَأَمْرُهُ بِالسُّكُونِ فِي الْحَرَكَاتِ وَالْأَصْوَاتِ، وَنَهَاهُ عَنِ ضِدِّ ذَلِكَ. وَأَمْرُهُ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَبِالصَّبْرِ اللَّذِينَ يَسْهَلُ بِهِمَا كُلُّ أَمْرٍ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾. فَحَقِيقُ بَمَنْ أَوْصَى بِهِذِهِ الْوَصَايَا أَنْ يَكُونَ مَخْصُوصًا بِالْحِكْمَةِ مَشْهُورًا بِهَا، وَلِهَذَا مِنْ مَنَّةِ اللَّهِ [عَلَيْهِ وَعَلَى سَائِرِ] عِبَادِهِ أَنْ قَصَّ عَلَيْهِمْ مِنْ حِكْمَتِهِ مَا يَكُونُ لَهُمْ بِهِ أَسُوءَ حَسَنَةٍ.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلَوْ كَانِ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢٠ - ٢١﴾ يَمْتَنُّ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ بِنِعَمِهِ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى شُكْرِهَا وَرَوْيَتِهَا وَعَدَمِ الْغَفْلَةِ عَنْهَا، فَقَالَ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾؛ أَي: تَشَاهَدُوا وَتُبْصِرُوا بِأَبْصَارِكُمْ وَقُلُوبِكُمْ، ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾: مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ كُلِّهَا مَسْخَرَاتٍ لِنَفْعِ الْعِبَادِ، ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالْأَشْجَارِ وَالزَّرُوعِ وَالْأَنْهَارِ وَالْمَعَادِنِ وَنَحْوِهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أَي: عَمَّكُمْ وَغَمَرَكُمْ نِعْمَهُ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ؛ الَّتِي نَعْلَمُ بِهَا وَالَّتِي تَخْفَى عَلَيْنَا؛ نَعَمُ الدُّنْيَا وَنَعَمُ الدِّينِ، حَصُولُ الْمَنَافِعِ وَدَفْعُ الْمَضَارِّ؛ فَوَظِيفَتُكُمْ أَنْ تَقُومُوا بِشُكْرِ هَذِهِ النِّعَمِ بِمَحَبَّةِ الْمُنْعَمِ وَالْخُضُوعِ لَهُ وَصَرْفِهَا فِي الْإِسْتِعَانَةِ عَلَى طَاعَتِهِ وَأَنْ لَا يُسْتَعَانَ بِشَيْءٍ مِنْهَا عَلَى مَعْصِيَتِهِ. ﴿و﴾ لَكِنْ مَعَ تَوَالِي هَذِهِ النِّعَمِ ﴿مِنْ﴾ النَّاسِ مَنْ: لَمْ يَشْكُرْهَا، بَلْ كَفَرَهَا، وَكَفَرَ بِمَنْ أَنْعَمَ بِهَا، وَجَحَدَ الْحَقَّ الَّذِي أَنْزَلَ

(١) فِي (ب): «فِيهَا».

به كتبه، وأرسل به رسله، فجعل ﴿يَجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾؛ أي: يجادل عن الباطل ليدحض به الحق، ويدفع به ما جاء به الرسول من الأمر بعبادة الله وحده، ولهذا المجادل على غير بصيرة؛ فليس جداله عن علم؛ فيترك شأنه، ويسمح له في الكلام. ﴿ولا هدى﴾: يقتدي به بالمهتدين ﴿ولا كتاب منير﴾؛ أي: نير مبين للحق؛ فلا معقول ولا منقول ولا اقتداء بالمهتدين، وإنما جداله في الله مبني على تقليد آباء غير مهتدين، بل ضالين مضلين، ولهذا قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾: على أيدي رسله؛ فإنه الحق، وبُيِّنَتْ لهم أدلته الظاهرة، ﴿قَالُوا﴾ معارضين ذلك: ﴿بَلْ نَتَّبِعْ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾: فلا نترك ما وجدنا عليه آبائنا لقول أحد كائناً من كان. قال تعالى في الرد عليهم وعلى آبائهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾؛ أي: فاستجاب له آبائهم، ومشوا خلفه، وصاروا من تلاميذ الشيطان، واستولت عليهم الحيرة؛ فهل هذا موجب لاتباعهم لهم ومشيههم على طريقتهم؟! أم ذلك يرهبهم من سلوك سبيلهم، وينادي على ضلالهم وضلال من تبعهم؟! وليس دعوة الشيطان لآبائهم ولهم محبة لهم ومودة، وإنما ذلك عداوة لهم ومكر لهم، وبالحقيقة أتباعه من أعدائه الذين تمكن منهم، وظفر بهم، وقرث عينه^(١) باستحقاقهم عذاب السعير بقبول دعوته.

﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ٢٢﴾ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ٢٣﴾ تَمِيعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ٢٤﴾.

﴿٢٢﴾ ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾؛ أي: يخضع له وينقاد له بفعل الشرائع مخلصاً له دينه، ﴿وهو محسن﴾: في ذلك الإسلام؛ بأن كان عمله مشروعاً، قد اتبع فيه الرسول ﷺ، أو: ومن يسلم وجهه إلى الله بفعل جميع العبادات وهو محسن فيها؛ بأن يعبد الله كأنه يراه؛ فإن لم يكن يراه؛ فإنه يراه. أو: ومن يسلم وجهه إلى الله بالقيام بحقوقه، وهو محسن إلى عباد الله، قائم بحقوقهم، والمعاني متلازمة، لا فرق بينها إلا من جهة اختلاف مورد اللفظتين، وإلا؛ فكلها متفقة على القيام بجميع شرائع الدين على وجه تقبل به وتكمل؛ فمن فعل ذلك؛

(١) في (ب): «عينهم».

﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾؛ أي: بالعروة التي من تمسك بها؛ توثق ونجا وسلم من الهلاك وفاز بكل خير، ومن لم يسلم وجهه لله، أو: لم يحسن؛ لم يستمسك بالعروة الوثقى، وإذا لم يستمسك [بالعروة الوثقى]؛ لم يكن ثم إلا الهلاك والبوار. ﴿والى الله عاقبة الأمور﴾؛ أي: رجوعها وموئلتها ومنتهاها، فيحكم في عبادته ويجازيهم بما آلت إليه أعمالهم، ووصلت إليه عواقبهم، فليستعدوا لذلك الأمر.

﴿٢٣﴾ ﴿ومن كفر فلا يحزنك كفره﴾: لأنك أدت ما عليك من الدعوة والبلاغ؛ فإذا لم يهتد^(١)؛ فقد وجب أجرك على الله، ولم يبق للحزن موضع على عدم اهتدائه؛ لأنه لو كان فيه خير؛ لهداه الله، ولا تحزن أيضاً على كونهم تجرؤوا عليك بالعداوة، ونابدوك المحاربة، واستمروا على غيهم وكفرهم، ولا تتحرق عليهم بسبب أنهم ما بودروا بالعذاب، إن ﴿إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا﴾: من كفرهم وعداوتهم وسعيهم في إطفاء نور الله وأذى رسله. إنه ﴿علیم بذات الصدور﴾: التي ما نطق بها الناطقون؛ فكيف بما ظهر وكان شهادة!

﴿٢٤﴾ ﴿نمتعهم قليلاً﴾: في الدنيا؛ ليزداد إثمهم ويتوفر عذابهم. ﴿ثم نضطرهم﴾؛ أي: لنجئهم ﴿إلى عذاب غليظ﴾؛ أي: انتهى في عظمه وكبره وفظاعته وألمه وشدته.

﴿ولین سألتهن من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ (٢٥) ﴿لله ما في السموات والأرض إن الله هو الغني الحميد﴾ (٢٦) ﴿ولو أنما في الأرض من شجرة أقلن والبحر يمدد من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾ (٢٧) ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير﴾ (٢٨) ﴿

﴿٢٥﴾ أي: ﴿ولئن﴾ سألت هؤلاء المشركين المكذبين بالحق: ﴿من خلق السموات والأرض﴾: لعلموا أن أصنامهم ما خلقت شيئاً من ذلك، ولبادروا بقولهم: ﴿الله﴾: الذي خلقهما وحده، ف﴿قل﴾ لهم ملزماً لهم ومحتجاً عليهم بما أقرؤا به على ما أنكروا: ﴿الحمد لله﴾: الذي بين النور وأظهر الاستدلال عليكم من أنفسكم؛ فلو كانوا يعلمون؛ لجزموا أن المنفرد بالخلق والتدبير هو الذي يُفرد

(١) في (ب): «يهتدوا».

بالعبادة والتوحيد، ولكن ﴿أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: فلذلك أشركوا به غيره، ورَضُوا بتناقص ما ذهبوا إليه على وجه الحيرة والشك لا على وجه البصيرة.

﴿٢٦﴾ ثم ذكر في هاتين الآيتين نموذجاً من سعة أوصافه؛ ليدعو عباده إلى معرفته ومحبته وإخلاص الدين له، فذكر عموم ملكه، وأن جميع ما في السماوات والأرض، وهذا شامل لجميع العالم العلوي والسفلي؛ أنه ملكه، يتصرف فيهم بأحكام الملك القدريّة وأحكامه الأمرية وأحكامه الجزائية؛ فكلهم عبيد ممالك مدبرون مسخرون، ليس لهم من الملك شيء، وأنه واسع الغنى؛ فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه أحد من الخلق، ﴿ما أريد منهم من رزقٍ وما أريد أن يُطِعمون﴾، وأن أعمال النبين والصدّيقين والشهداء والصالحين لا تنفع الله شيئاً، وإنما تنفع عامليها، والله غني عنهم وعن أعمالهم، ومن غناه أن أغناهم وأقناهم في دنياهم وأخراهم.

ثم أخبر تعالى عن سعة حمده، وأن حمده من لوازم ذاته؛ فلا يكون إلا حميداً من جميع الوجوه؛ فهو حميد في ذاته، وهو حميد في صفاته؛ فكل صفة من صفاته يستحق عليها أكمل حمد وأتمّه؛ لكونها صفات عظيمة وكمال، وجميع ما فعله وخلقه يُحمد عليه، وجميع ما أمر به ونهى عنه يُحمد عليه، وجميع ما حكم به في العباد وبين العباد في الدنيا والآخرة يُحمد عليه.

﴿٢٧﴾ ثم أخبر عن سعة كلامه وعظمة قوله بشرح يبلغ من القلوب كل مبلغ، وتنبه له العقول وتحير فيه الأفئدة وتسيح في معرفته أولو الأبواب والبصائر، فقال: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾: يكتب بها، ﴿والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر﴾: مداداً يستمد بها؛ لتكسرت تلك الأقلام، ولفني ذلك المداد، ولم تنفذ كلمات الله: وهذا ليس مبالغة لا حقيقة له، بل لما علم تبارك وتعالى أن العقول تتقاصر عن الإحاطة ببعض صفاته، وعلم تعالى أن معرفته لعباده أفضل نعمة أنعم بها عليهم وأجل منقبة حصلوها، وهي لا تمكّن على وجهها، ولكن ما لا يُذكر كله لا يُترك كله، فنبههم تعالى على بعضها تنبيهاً تستنير به قلوبهم، وتنشّح له صدورهم، ويستدلّون بما وصلوا إليه إلى ما لم يصلوا إليه، ويقولون كما قال أفضلهم، وأعلمهم بربه: «لا تُخصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»^(١)، وإلا؛ فالأمر أجل من ذلك وأعظم.

(١) كما في «صحيح مسلم» (٤٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وهذا التمثيل من باب تقريب المعنى الذي لا يُطاق الوصول إليه إلى الأفهام والأذهان، وإلّا؛ فالأشجار وإن تضاَعَفَتْ على ما ذَكَرَ أضعافاً كثيرة، والبحور لو امتدَّت بأضعاف مضاعفة؛ فإنّه يُتَصَوَّرُ نفاذها وانقضاؤها؛ لكونها مخلوقة، وأمّا كلام الله تعالى؛ فلا يُتَصَوَّرُ نفاذه، بل دلّنا الدليل الشرعي والعقلي على أنّه لا نفاذ له ولا منتهى؛ فكل شيء ينتهي إلّا الباري وصفاته، ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾، وإذا تصوّر العقل حقيقة أوّلِيّته تعالى وآخِرِيّته، وأن^(١) كلّ ما فرضه الذهن من الأزمان السابقة مهما تسلسل الفرض والتقدير؛ فهو تعالى قبل ذلك إلى غير نهاية، وأنّه مهما فرض الذهن والعقل من الأزمان المتأخّرة وتسلسل الفرض والتقدير وساعد على ذلك مَنْ ساعد بقلبه ولسانه؛ فالله تعالى بعد ذلك إلى غير غاية ولا نهاية، والله في جميع الأوقات يحكّم ويتكلّم ويقول ويفعل كيف أراد، وإذا أراد، لا مانع له من شيء من أقواله وأفعاله؛ فإذا تصوّر العقل ذلك؛ عرف أن المثل الذي ضربه الله لكلامه لِيُذَكِّرَ العباد شيئاً منه، وإلّا؛ فالأمر أعظم وأجلّ.

ثم ذكر جلالة عزّته وكمال حكمته، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: له العزّة جميعاً الذي ما في العالم العلوي والسفلي من القوّة إلّا منه، هو الذي أعطاهم للخلق؛ فلا حول ولا قوّة إلّا به، وبِعزّته قهر الخلق كلّهم، وتصرف فيهم ودبرهم، وبحكمته خَلَقَ الخلق، وابتدأه بالحكمة، وجعل غايته والمقصود منه الحكمة، وكذلك الأمر والنهي وَجَدَ بالحكمة، وكانت غايته المقصودة الحكمة؛ فهو الحكيم في خلقه وأمره.

﴿٢٨﴾ ثم ذكر عظمة قدرته وكمالها، وأنّه لا يمكن أن يتصوّرها العقل، فقال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعُثْكُمْ إِلَّا كُنُفْسٍ وَاحِدَةً﴾: وهذا شيء يحير العقول: أَنَّ خَلَقَ جميع الخلق على كثرتهم وبعثهم بعد موتهم بعد تفرّقهم في لمحة واحدة كخلقه نفساً واحدة؛ فلا وجه لاستبعاد البعث والنشور والجزاء على الأعمال؛ إلّا الجهل بعظمة الله وقوّة قدرته. ثم ذَكَرَ عموم سمعه لجميع المسموعات وبصره لجميع المبصّرات، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ أَلَيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي أَلَيْلٍ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ

يَجْرِي لِآلِكِ لَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ .

﴿٢٩﴾ وهذا فيه أيضاً انفراده بالتصرف والتدبير، وسعة تصرفه بإيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل؛ أي: إدخال أحدهما على الآخر؛ فإذا دخل أحدهما؛ ذهب الآخر، وتسخيره للشمس والقمر يجريان بتدبير ونظام لم يختل منذ خلقهما؛ ليقيم بذلك من مصالح العباد ومنافعهم في دينهم ودنياهم ما به يعتبرون ويتفعلون، و﴿كل﴾ منهما ﴿يجري إلى أجل مسمى﴾: إذا جاء ذلك الأجل؛ انقطع جريانهما وتعطل سلطانهما، وذلك في يوم القيامة حين تكوّر الشمس، ويخسف القمر، وتنتهي دار الدنيا، وتبتدىء الدار الآخرة. ﴿وأن الله بما تعملون﴾: من خير وشر. ﴿خبير﴾: لا يخفى عليه شيء من ذلك، وسيجازيكم على تلك الأعمال بالثواب للمطيعين والعقاب للعاصين.

﴿٣٠﴾ ﴿ذلك﴾^(١): الذي بين لكم من عظمته وصفاته ما بين ﴿بأن الله هو الحق﴾: في ذاته وفي صفاته، ودينه حق، ورسله حق، ووعدته حق، ووعدته حق، وعبادته هي الحق. ﴿وأن ما يدعون من دونه الباطل﴾: في ذاته وصفاته؛ فلولا إيجاد الله له؛ لما وُجد، ولولا إمداده؛ لما بقي؛ فإذا كان باطلاً؛ كانت عبادته أبطل وأبطل. ﴿وأن الله هو العلي﴾: بذاته فوق جميع مخلوقاته الذي علت صفاته أن يقاس بها صفات [أحد من الخلق]، وعلا على الخلق؛ فقهرهم ﴿الكبير﴾: الذي له الكبرياء في ذاته وصفاته، وله الكبرياء في قلوب أهل السماء والأرض.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ .

﴿٣١﴾ أي: ألم تر من آثار قدرته ورحمته وعنايته بعباده أن سخر البحر تجري فيه الفلك بأمره القدري ولطفه وإحسانه؛ ﴿ليريكم من آياته﴾: ففيها الانتفاع والاعتبار. ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ فهم المنتفعون بالآيات ﴿صبار﴾

(١) في (ب): «وذلك».

على الضراء. ﴿شكور﴾ على السراء، صَبَّارٌ على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره، شكورٌ لله على نِعَمِهِ الدنيئة والدنيوة.

﴿٣٢﴾ وذكر تعالى حال الناس عند ركوبهم البحر وغشيان الأمواج كالظلل فوقهم أنهم يخلصون الدعاء لله والعبادة، ﴿فلما نَجَّاهم إلى البر﴾: انقسموا فريقين: فرقة مقتصدة؛ أي: لم تقم بشكر الله على وجه الكمال، بل هم مذبذبون ظالمون لأنفسهم، وفرقة كافرة لنعمة الله جاحدة لها، ولهذا قال: ﴿وما يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾؛ أي: غدار، ومن غدره أنه عاهد ربّه لئن أنجيتنا من البحر وشدّته ل نكوننّ من الشاكرين. فغدر، ولم يفِ بذلك. ﴿كفور﴾: لنعم الله؛ فهل يليق بمنّ نَجَّاهم الله من هذه الشدّة إِلَّا القيام التام بشكر نعم الله؟!

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ انْقِرَاءَ رَبِّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْرِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَاوِزٌ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿٣٣﴾ يأمر تعالى الناس بتقواه، التي هي امتثال أوامره وترك زواجه، ويستلفتهم لخشية يوم القيامة، اليوم الشديد الذي فيه كلُّ أحدٍ لا يهتمه إِلَّا نفسه. و﴿لا يجرى والدٌ عن ولده ولا مولودٌ﴾ عن والده شيئاً: لا يزيد في حسناته ولا ينقص من سيئاته، قد تمّ على كلِّ عبدٍ عمله، وتحقّق عليه جزاءه. فلفت النظر لهذا اليوم المهيل مما يقوّي العبد ويسهل عليه تقوى الله، وهذا من رحمة الله بالعباد؛ يأمرهم بتقواه التي فيها سعادتهم، ويعدّهم عليها الثواب، ويحذّرهم من العقاب، ويزعجهم إليه بالمواعظ والمخوفات، فلك الحمد يا ربّ العالمين. ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾: فلا تمتروا فيه، ولا تعملوا عمل غير المصدق؛ فلهذا قال: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾: بزينتها وزخارفها وما فيها من الفتن والمعجن. ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾: الذي هو الشيطان، الذي ما زال يخدع الإنسان، ولا يغفل عنه في جميع الأوقات؛ فإنّ لله على عباده حقّاً، وقد وعدهم موعداً يجازيهم فيه بأعمالهم وهل وفوا حقّه أم قصّروا فيه؟ وهذا أمرٌ يجب الاهتمام به، وأن يجعله العبد نصب عينيه ورأس مال تجارته التي يسعى إليه، ومن أعظم العوائق عنه والقواطع دونه الدنيا الفتانة والشيطان الموشوس المسوّل، فهي تعالى عباده أن تغرهم الدنيا أو يغرهم بالله الغرور، ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا

تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ .

﴿٣٤﴾ قد تقرر أن الله تعالى أحاط علمه بالغيب والشهادة والظواهر والبواطن، وقد يُطْلَعُ الله عباده على كثير من الأمور الغيبية، وهذه الأمور الخمسة من الأمور التي طَوَى علمها عن جميع الخلق؛ فلا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب، فضلاً عن غيرهما، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾؛ أي: يعلم متى مُرْسَاهَا؛ كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا. قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً...﴾ الآية، ﴿وَيُنْزَلُ الْغَيْثُ﴾؛ أي: هو المنفرد بإنزاله، وعلم وقت نزوله، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾: فهو الذي أنشأ ما فيها، وعلم ما هو؛ هل هو ذكر أم أنثى؟

ولهذا يسأل الملك الموكل بالأرحام ربّه: هل هو ذكر أم أنثى؟ فيقضي الله ما يشاء^(١). ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾: من كَسَبَ دينها ودُنْيَاهَا، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾: بل الله تعالى هو المختص بعلم ذلك جميعه. ولَمَّا خَصَّصَ [اللَّهُ] هذه الأشياء؛ عَمَّمْ علمه بجميع الأشياء، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾: محيط بالظواهر والبواطن والخفايا والخبائيا والسرائر، ومن حكمته التامة أن أخفى علم هذه الخمسة عن العباد؛ لأن في ذلك من المصالح ما لا يخفى على من تدبر ذلك.

تم تفسير سورة لقمان بفضل الله وعونه والحمد لله.



تفسير سورة السجدة

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ .

﴿٢﴾ يخبر تعالى أن هذا الكتاب الكريم تنزيل نزل من رب العالمين، الذي

(١) كما في «صحيح البخاري» (٦٥٩٥)، و«مسلم» (٢٦٤٦) من حديث أنس رضي الله عنه.

رَبَّاهُمْ بِنِعْمَتِهِ، وَمَنْ أَعْظَمَ مَا رَبَّاهُمْ بِهِ هَذَا الْكِتَابُ، الَّذِي فِيهِ كُلُّ مَا يُصْلِحُ أَحْوَالَهُمْ وَيَتِمُّمُ أَخْلَاقَهُمْ، وَأَنَّهُ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَا شَكَّ وَلَا امْتِرَاءَ.

﴿٣﴾ وَمَعَ ذَلِكَ؛ قَالَ الْمَكْذِبُونَ لِلرَّسُولِ الظَّالِمُونَ فِي ذَلِكَ: افْتَرَاهُ مُحَمَّدٌ وَاخْتَلَقَهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ! وَهَذَا مِنْ أَكْبَرِ الْجَرَاءَةِ عَلَى إِنْكَارِ كَلَامِ اللَّهِ، وَرَمَى مُحَمَّدٍ بِأَعْظَمِ الْكُذِبِ، وَقُدْرَةِ الْخَلْقِ عَلَى كَلَامٍ مِثْلِ كَلَامِ الْخَالِقِ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ، مِنْ الْأُمُورِ الْعِظَائِمِ، قَالَ اللَّهُ رَادًّا عَلَى مَنْ قَالَ: افْتَرَاهُ: ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ﴾: الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿مَنْ رَبُّكَ﴾: أَنْزَلَهُ رَحْمَةً لِلْعِبَادِ، ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾؛ أَي: هُمْ فِي حَالِ ضَرُورَةٍ وَفَاقَةٍ لِإِرْسَالِ الرَّسُولِ وَإِنْزَالِ الْكِتَابِ لِعَدَمِ النَّذِيرِ، بَلْ هُمْ فِي جَهْلِهِمْ يَغْمَهُونَ، وَفِي ظُلْمَةٍ ضَلَالِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ، فَأَنْزَلْنَا الْكِتَابَ عَلَيْكَ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾: مِنْ ضَلَالِهِمْ، فَيَعْرِفُونَ الْحَقَّ وَيُؤْثِرُونَهُ. وَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ كُلُّهَا مُنَاقِضَةٌ لِتَكْذِيبِهِمْ لَهُ، وَإِنَّمَا تَقْتَضِي مِنْهُمْ الْإِيمَانَ وَالتَّصَدِيقَ التَّامَّ بِهِ، وَهُوَ كَوْنُهُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَنَّهُ حَقٌّ، وَالْحَقُّ مَقْبُولٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَأَنَّهُ لَا رَيْبَ فِيهِ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ؛ فَلَيْسَ فِيهِ مَا يُوجِبُ الرِّيبَةَ؛ لَا بِخَبَرٍ غَيْرِ مُطَابِقٍ لِلْوَاقِعِ ^(١)، وَلَا بِخَفَاءٍ وَاشْتِبَاهٍ مَعَانِيهِ، وَأَنَّهُمْ فِي ضَرُورَةٍ وَحَاجَةٍ إِلَى الرِّسَالَةِ، وَأَنْ فِيهِ الْهَدَايَةُ لِكُلِّ خَيْرٍ وَإِحْسَانٍ.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (١) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٢) ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٣) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٤) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٥) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٦).

﴿٤﴾ يَخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كِمَالِ قُدْرَتِهِ بِخَلْقِهِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، أُولَئِكَ يَوْمَ الْأَحَدِ، وَآخِرُهَا الْجُمُعَةُ، مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى خَلْقِهَا بِلَحْظَةٍ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى رَفِيقٌ حَكِيمٌ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ: الَّذِي هُوَ سَقْفُ الْمَخْلُوقَاتِ اسْتِوَاءً يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾: يَتَوَلَّاهُمْ فِي أُمُورِهِمْ فَيَنْفَعُهُمْ ﴿وَلَا شَفِيعَ﴾:

(١) فِي (ب): «لَا بِخَبَرٍ لَا يَطَابِقُ الْوَاقِعَ».

يشفعُ لكم إن توجّه عليكم العقاب. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾: فتعلمون أن خالق الأرض والسموات، المستوي على العرش العظيم، الذي انفرد بتدبيركم وتوليكم، وله الشفاعة كلها، هو المستحق لجميع أنواع العبادة!

﴿٥﴾ ﴿يَذُبُّ الْأَمْرَ﴾: القدريّ والأمر الشرعيّ، الجميع هو المنفرد بتدبيره، نازلة تلك التدابير من عند الملك القدير، ﴿مَنْ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾: فيُسعِدُ بها ويشقي، ويغني ويُفقر، ويعزّ ويذلّ ويكرم ويهين، ويرفع أقواماً ويضع آخرين، وينزل الأرزاق، ﴿ثُمَّ يَفْرُجُ إِلَيْهِ﴾؛ أي: الأمر ينزل من عنده، ويعرّجُ إليه ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾: وهو يعرّجُ إليه، ويصلّه في لحظة.

﴿٦﴾ ﴿ذَلِكَ﴾: الذي خلق تلك المخلوقات العظيمة، الذي استوى على العرش العظيم، وانفرد بالتدبير في المملكة، ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾: فبسعة علمه وكمال عزّته وعموم رحمته أوجدّها، وأودّع فيها من المنافع ما أودّع، ولم يعسرْ عليه تدبيرها.

﴿٧﴾ ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾؛ أي: كل مخلوق خلقه الله؛ فإن الله أحسن خلقه، وخلقَه خلقاً يليقُ به ويوافقه؛ فهذا عامٌّ، ثم خصّ آدميّ لشرفه وفضله، فقال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾: وذلك بخلق آدم عليه السلام أبي البشر.

﴿٨﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ﴾؛ أي: ذريّة آدم ناشئة ﴿مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾: وهو النطفة المستقرّة الضعيفة.

﴿٩﴾ ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ بلحمه وأعضائه وأعصابه وعروقه، وأحسن خلقته، ووضع كل عضو منه بالمحل الذي لا يليقُ به غيره، ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾: بأن أرسل إليه الملك؛ فينفخ فيه الروح، فيعود بإذن الله حيواناً بعد أن كان جماداً، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾؛ أي: ما زال يعطيكم من المنافع شيئاً فشيئاً حتى أعطاكم السمع والأبصار ﴿وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾: الذي خلقكم، وصوّركم.

﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾﴾ قل يَتَوَفَّنَكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿١٠﴾ أي: قال المكذّبون بالبعث على وجه الاستبعاد: ﴿إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: بليتنا وتمزّقنا وتفرّقنا في المواضع التي لا تعلم، ﴿إِنَّا لَفِي خَلْقٍ

جديد؛ أي: لمبعوثون بعثاً جديداً؛ بزعمهم أن هذا من أبعد الأشياء! وذلك بقياسهم^(١) قدرة الخالق على قُدْرِهِمْ^(٢)، وكلامهم هذا ليس لطلب الحقيقة، وإنما هو ظلم وعناد وكفر ببقاء ربهم وجحد، ولهذا قال: ﴿بل هم بلبقاء ربهم كافرون﴾: فكلامهم غلیم^(٣) مصدره وغايته، وإلا؛ فلو كان قصدهم بيان الحق لبيّن لهم من الأدلة القاطعة على ذلك ما يجعله مشاهداً للبصيرة بمنزلة الشمس للبصر، ويفهم أنهم عندهم^(٤) علم أنهم قد ابتدئوا من العدم؛ فلا إعادة أسهل من الابتداء، وكذلك الأرض الميتة ينزل الله عليها المطر فتحيا بعد موتها، وينبت به متفرق بذورها.

﴿١١﴾ ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾؛ أي: جعله الله وكيلاً على قبض الأرواح، وله أعوان، ﴿ثم إلى ربكم ترجعون﴾: فيجازيكم بأعمالكم، وقد أنكرتم البعث؛ فانظروا ماذا يفعل الله بكم.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ﴿١٢﴾ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٤﴾.

﴿١٢﴾ لما ذكر تعالى رجوعهم إليه يوم القيامة؛ ذكر حالهم في مقامهم بين يديه، فقال: ﴿ولو ترى إذ المجرمون﴾: الذين أصرّوا على الذنوب العظيمة، ﴿ناكسوا رؤوسهم عند ربهم﴾: خاشعين خاضعين، أذلاء مقرّين [بجرمهم]^(٥)، سائلين الرجعة قائلين: ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا﴾؛ أي: بان لنا الأمر ورأيناه عياناً، فصار عين يقين، ﴿فارجعنا نعمل صالحاً إِنَّا موقنون﴾؛ أي: صار عندنا الآن يقين بما كنا نكذب به؛ أي: لرأيت أمراً فظيماً وحالاً مزعجة وأقواماً خاسرين وسؤالاً غير مجاب؛ لأنه قد مضى وقت الإمهال.

﴿١٣﴾ وكل هذا بقضاء الله وقدره؛ حيث خلّى بينهم وبين الكفر والمعاصي؛

(١) في (ب): «لقياسهم».

(٢) بقدرهم.

(٣) في (ب): «ظلم».

(٤) في (ب): «معهم».

(٥) كذا في (ب). وفي (أ): «بجرمكم».

فلَهَذَا قَالَ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾؛ أي: لهدينا الناس كلهم وجمعناهم على الهدى، فمشيئتنا صالحة لذلك، ولكن الحكمة تأبى أن يكونوا كلهم على الهدى، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾؛ أي: وجب وثبت ثبوتاً لا تغير فيه، ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾: فهذا الوعد لا بد منه ولا محيد عنه؛ فلا بد من تقرير أسبابه من الكفر والمعاصي.

﴿١٤﴾ ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾؛ أي: يقال للمجرمين الذين ملكهم الذل، وسألوا الرجعة إلى الدنيا؛ ليستدركوا ما فاتهم: قد فات وقت الرجوع، ولم يبق إلا العذاب، فذوقوا العذاب الأليم بما نسيتُمْ لقاء يومكم هذا، وهذا النسيان نسيان ترك؛ أي: بما أعرضتم عنه، وتركتم العمل له، وكأنتكم غير قادمين عليه ولا ملاقيه. ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾؛ أي: تركناكم بالعذاب جزاءً من جنس عملكم؛ فكما نسيتُمْ نسيتم، ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾؛ أي: العذاب غير المنقطع؛ فإن العذاب إذا كان له أجل وغاية؛ كان فيه بعض التنفيس والتخفيف، وأما عذاب جهنم - أعاذنا الله منه -؛ فليس فيه روح راحة ولا انقطاع لعذابهم فيها؛ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: من الكفر والفسوق والمعاصي.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٧﴾.

﴿١٥﴾ لما ذكّر الكافرين بآياته وما أعد لهم من العذاب؛ ذكّر المؤمنين بها ووضّفهم وما أعد لهم من الثواب، فقال: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾؛ أي: إيماناً حقيقياً من يوجد منه شواهد الإيمان، وهم ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ، فَتَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتِ الْقُرْآنِ، وَأَتَتْهُمْ النَّصَائِحُ عَلَى أَيْدِي رُسُلِ اللَّهِ، وَدَعَا إِلَى التَّذَكُّرِ؛ سَمِعُوهَا فَقَبِلُوهَا وَانْقَادُوا وَخَرُّوا سُجَّدًا﴾؛ أي: خاضعين لها خضوع ذكّر لله وفرح بمعرفته، ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾: لا بقلوبهم ولا بأبدانهم فيمتنعون من الانقياد لها، بل متواضعون لها، قد تلقّوها بالقبول والتسليم وقابلوها بالانشراح والتسليم، وتوصلوا بها إلى مرضاة الرب الرحيم، واهتدوا بها إلى الصراط المستقيم.

﴿١٦﴾ ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾؛ أي: ترتفع جنوبهم وتنزعج عن

مضاجعها اللذيذة إلى ما هو أَلذُّ عندهم منه وأحبُّ إليهم، وهو الصلاة في الليل ومناجاة الله تعالى، ولهذا قال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾؛ أي: في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية ودفع مضارهما ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾؛ أي: جامعين بين الوصفين؛ خوفاً أن تُرَدَّ أعمالهم، وطمعاً في قبولها؛ خوفاً من عذاب الله، وطمعاً في ثوابه، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾: من الرزق قليلاً أو كثيراً، ﴿يُنْفِقُونَ﴾: ولم يذكر قيد النفقة، ولا المنفق عليه؛ ليدلَّ على العموم؛ فإنه يدخل فيه النفقة الواجبة؛ كالزكوات والكفارات ونفقة الزوجات والأقارب، والنفقة المستحبة في وجوه الخير، والنفقة والإحسان المالي خيرٌ مطلقاً؛ سواء وافق فقيراً أو غنياً^(١)، قريباً أو بعيداً، ولكن الأجر يتفاوت بتفاوت النفع، فهذا عملهم.

﴿١٧﴾ وأما جزاؤهم؛ فقال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾: يدخل فيه جميع نفوس الخلق؛ لكونه نكرة في سياق النفي؛ أي: فلا يعلم أحدٌ ﴿مَا أَخْفَى لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾: من الخير الكثير والنعيم الغزير والفرح والسرور واللذة والحبور؛ كما قال تعالى على لسان رسوله: «أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»^(٢)؛ فكما صلُّوا في الليل ودعوا وأخفوا العمل؛ جازاهم من جنس عملهم، فأخفى أجرهم، ولهذا قال: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٢٠﴾.

﴿١٨﴾ ينبئه تعالى العقول على ما تقرَّرَ فيها من عدم تساوي المتفاوتتين المتباينتين، وأن حكمته تقتضي عدم تساويهما، فقال: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا﴾: قد عمَّر قلبه بالإيمان، وانقادت جوارحه لشرائعه، واقتضى إيمانه آثاره وموجباته من ترك مساحطة الله التي يضرُّ وجودها بالإيمان، ﴿كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا﴾: قد خرب قلبه وتعطل من الإيمان، فلم يكن فيه وازعٌ ديني، فأسرعت جوارحه بموجبات الجهل

(١) في (ب): «غنياً أو فقيراً».

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٧٩) ومسلم (٢٨٢٤) عن أبي هريرة.

والظلم في^(١) كل إثم ومعصية، وخرج بفسقه عن طاعة ربّه، أفيستوي هذان الشخصان؟! ﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾: عقلاً وشرعاً؛ كما لا يستوي الليل والنهار والضياء والظلمة، وكذلك لا يستوي ثوابهما في الآخرة.

﴿١٩﴾ ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: من فروض ونوافل، ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ﴾ ﴿الْمَأْوَى﴾؛ أي: الجنات التي هي مأوى اللذات، ومعدن الخيرات، ومحل الأفراح، ونعيم القلوب والنفوس والأرواح، ومحل الخلود، وجوار الملك المعبود، والتمتع بقربه والنظر إلى وجهه وسماع خطابه، ﴿فَرُزًا﴾: لهم؛ أي: ضيافة وقرى؛ ﴿وَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: فأعمالهم التي تفضل الله بها عليهم هي التي أوصلتهم لتلك المنازل الغالية العالية، التي لا يمكن التوصل إليها ببذل الأموال، ولا بالجنود والخدم، ولا بالأولاد، بل ولا بالنفوس والأرواح، ولا يتقرب إليها بشيء أصلاً سوى الإيمان والعمل الصالح.

﴿٢٠﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾؛ أي: مقرهم ومحل خلودهم النار، التي جمعت كل عذاب وشقاء، ولا يُقتر عنهم العقاب ساعة، ﴿كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾: فكَلَّمَا حَدَّثْتَهُمْ إِرَادَتُهُمْ بالخروج لبلوغ العذاب منهم كل مبلغ؛ رُدُّوا إليها، فذهب عنهم روح ذلك الفرج، واشتد عليهم الكرب، ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكَذِّبُونَ﴾.

فهذا عذاب النار الذي يكون فيه مقرهم ومأواهم، وأما العذاب الذي قبل ذلك ومقدمة له، وهو عذاب البرزخ؛ فقد ذُكر بقوله:

﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَأَعْلَمَهُم بِرَجْعَتِهِ﴾ ﴿٢١﴾.

﴿٢١﴾ أي: ولنذيقن المفسدين المكذبين نموذجاً من العذاب الأدنى، وهو عذاب البرزخ، فنذيقهم طرفاً منه قبل أن يموتوا: إما بعذاب بالقتل ونحوه كما جرى لأهل بدر من المشركين، وإما عند الموت؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾، ثم يكمل لهم العذاب الأدنى في برزخهم.

وهذه الآية من الأدلة على إثبات عذاب القبر، ودلالاتها ظاهرة؛ فإنه قال:

(١) في (ب): «من».

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى﴾؛ أي: بعض وجزء منه، فدلَّ على أن ثَمَّ عذاباً أدنى قبل العذاب الأكبر، وهو عذاب النار، ولما كانت الإذاقة من العذاب الأدنى في الدنيا قد لا يتَّصلُ بها الموت، فأخبر تعالى أنه يذيقهم ذلك؛ لعلهم يرجعون إليه، ويتوبون من ذنوبهم؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢٢﴾ أي: لا أحد أظلم وأزيد تعدياً ممن ذُكِّرَ بآياتِ ربِّه، التي أوصلها إليه ربُّه، الذي يريد تربيته وتكميل نعمته عليه على يد رسوله، تأمره وتذكره مصالحه الدينية والدنيوية، وتنهاء عن مضاره الدينية والدنيوية، التي تقتضي أن يقابلها بالإيمان والتسليم والانقياد والشكر، فقابلها هذا الظالم بضدِّ ما ينبغي، فلم يؤمن بها ولا اتَّبَعها، بل أعرض عنها وتركها وراء ظهره؛ فهذا من أكبر المجرمين، الذين يستحقُّون شديد العقوبة، ولهذا قال: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿٢٣﴾ لما ذكر تعالى آياته التي ذُكِّرَ بها عباده، وهو القرآن الذي أنزله على محمد ﷺ، ذكر أنه ليس ببدع من الكتب، ولا من جاء به بغريب من الرسل، فقد أتى الله ﴿موسى الكتاب﴾: الذي هو التوراة المصدَّقة للقرآن، التي قد صدَّقها القرآن، فتطابق حقُّهما، وثبت برهانُهما. ﴿فلا تكن في مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾: لأنَّه قد توارث أدلَّة الحق وبيئاته، فلم يبق للشكِّ والمِرْيَةِ محلٌّ، ﴿وجعلناه﴾؛ أي: الكتاب الذي آتيناه موسى ﴿هدى لبني إسرائيل﴾: يهتدون به في أصول دينهم، وفروعهم، وشرائعه موافقةً لذلك الزمان في بني إسرائيل، وأما هذا القرآن الكريم؛ فجعله الله هدايةً للناس كلِّهم؛ لأنَّه هدايةٌ للخلق في أمر دينهم ودنياهم إلى يوم القيامة، وذلك لكمالِهِ وعلوِّهِ، ﴿وإنَّه في أم الكتاب لدينا لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾.

﴿٢٤﴾ ﴿وجعلنا منهم﴾؛ أي: من بني إسرائيل، ﴿أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾؛ أي: علماء بالشرع وطرق الهداية مهتدين في أنفسهم يهدون غيرهم بذلك الهدى؛ فالكتاب الذي أنزل إليهم هدى، والمؤمنون به منهم على قسمين: أُمَّة يهدون

بأمرِ الله، وأتباع مهتدون بهم، والقسمُ الأول أرفع الدرجات بعد درجة النبوة والرسالة، وهي درجة الصديقين، وإنما نالوا هذه الدرجة العالية، ﴿لما صبروا﴾: على التعلم والتعليم والدعوة إلى الله والأذى في سبيله، وكفوا نفوسهم عن جماحها في المعاصي واسترسالها في الشهوات. ﴿وكانوا بآياتنا يوقنون﴾؛ أي: وصلوا في الإيمان بآيات الله إلى درجة اليقين، وهو العلم التام الموجب للعمل، وإنما وصلوا إلى درجة اليقين؛ لأنهم تعلموا تعلماً صحيحاً، وأخذوا المسائل عن أدلتها المفيدة لليقين، فما زالوا يتعلمون المسائل، ويستدلون عليها بكثرة الدلائل، حتى وصلوا لذلك؛ فبالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين.

﴿٢٥﴾ وثم مسائل اختلف فيها بنو إسرائيل، منهم من أصاب فيها الحق، ومنهم من أخطأ خطأ أو عمداً، والله تعالى ﴿يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾: وهذا القرآن يقص على بني إسرائيل بعض الذي يختلفون فيه؛ فكل خلاف وقع بينهم، ووُجد في القرآن تصديق لأحد القولين؛ فهو الحق، وما عداه مما خالفه باطل.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكَانِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْمَاءَ إِلَى الْآرِضِ فَخَرَجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿٢٦﴾ يعني: أولم يتبين لهؤلاء المكذبين للرسول^(١) ويهديهم إلى الصواب كم أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ الَّذِينَ سَلَكَوا مَسَلَكَهُمْ، ﴿يمشون في مساكنهم﴾: فيشاهدونها عياناً؛ كقوم هود وصالح وقوم لوط. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾: يستدل بها على صدق الرسل التي جاءتهم، وبطلان ما هم عليه من الشرك والشر، وعلى أَنَّ مَنْ فعل مثل فعلهم؛ فَعِلَ بهم كما فَعِلَ بأشياعه من قبل، وعلى أَنَّ الله تعالى مجازي العباد وباعثهم للحشر والتناد. ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾: آيات الله، فيعونها، فينتفعون بها؛ فلو كان لهم سمعٌ صحيحٌ وعقلٌ رجيحٌ؛ لم يقيموا على حالةٍ يجزم بها^(٢) بالهلاك.

(١) في (ب): «الرسل».

(٢) في (ب): «لم يجزم».

﴿٢٧﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾: بأبصارهم نعمتنا وكمال حكمتنا، ﴿أَنَا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾: التي لا نبات فيها، فيسوق الله المطر الذي لم يكن قبلُ موجوداً فيها، فيفرغُه فيها من السحاب أو من الأنهار؛ ﴿فَنَخْرِجُ بِهِ زَرْعاً﴾؛ أي: نباتاً مختلف الأنواع، ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ﴾: وهو نباتُ البهائم ﴿وَأَنْفُسُهُمْ﴾: وهو طعام الآدميين. ﴿أَفَلَا يَبْصُرُونَ﴾: تلك المنة التي أحيا الله بها البلاد والعباد، فيستبصرون فيهتدون بذلك البصر وتلك البصيرة إلى الصراط المستقيم؟ ولكن غلب عليهم العمى، واستولت عليهم الغفلة، فلم يبصروا في ذلك بصر الرجال، وإنما نظروا إلى ذلك نظر الغفلة ومجرد العادة، فلم يوقفوا للخير.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَانْتَظَرِ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴿٣٠﴾.

﴿٢٨﴾ أي: يستعجلُ المجرمون بالعذاب الذي وُعدوا به على التكذيب جهلاً منهم ومعاندة، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾: الذي يفتح بيننا وبينكم بتعذيبنا على زعمكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ [أيها الرسل] ﴿صَادِقِينَ﴾: في دعواكم.

﴿٢٩﴾ ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾: الذي يحصلُ به عقابكم لا تستفيدون به شيئاً؛ فلو كان إذا حصل؛ حصل إمهالكم لتستدركوا ما فاتكم حين صار الأمر عندكم يقيناً؛ لكان لذلك وجه، ولكن إذا جاء يومُ الفتح؛ انقضى الأمر، ولم يبق للمحنة والابتلاء محلٌّ، فلا ﴿ينفعُ الذين كفروا إيمانهم﴾: لأنه صار إيماناً ضرورة، ﴿ولا هم يُنْظَرُونَ﴾؛ أي: يُمهَلون، فيؤخَّر عنهم العذاب، فيستدركون أمرهم.

﴿٣٠﴾ ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ﴾: لما وصل خطابهم لك وظلمهم إلى حالة الجهل واستعجال العذاب. ﴿وانْتَظَرِ﴾: الأمر الذي يحلُّ بهم؛ فإنه لا بدُّ منه، ولكن له أجلٌ إذا جاء لا يتقدم ولا يتأخر، ﴿إنهم منتظرون﴾: بك ربِّ المنون، ومتربصون بكم دوائر السوء، والعاقبة للثقوى.

تم تفسير سورة السجدة بحول الله ومُنَّه. فله تعالى كمال الحمد والثناء والمجد.



تفسير سورة الأحزاب

[وهي] مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾
وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ
وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾.

﴿١ - ٢﴾ أي: يا أيها الذي من الله عليه بالنبوة واختصه بوحيه وفضله على سائر الخلق! اشكر نعمه ربك عليك باستعمال تقواه التي أنت أولى بها من غيرك، والذي يجب عليك منها أعظم من سواك؛ فامتثل أوامره ونواهيه، وبلغ رسالاته، وأد إلى عبادِهِ وَخِيَهُ، وابدل النصيحة للخلق، ولا يصدّك عن هذا المقصود صاّد ولا يردك عنه رادّ، فلا تطع كلّ كافر قد أظهر العداوة لله ولرسوله^(١)، ولا منافق قد استبطن التكذيب والكفر وأظهر ضده؛ فهؤلاء هم الأعداء على الحقيقة؛ فلا تطعهم في بعض الأمور التي تنقض التقوى وتناقضها، ولا تتبّع أهواءهم؛ يضلّوك عن الصواب. ﴿و﴾ لكن ﴿اتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾: فإنه هو الهدى والرحمة، وارجُ بذلك ثواب ربك؛ فإنه ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾: يجازيكم بحسب ما يعلّمه منكم من الخير والشر.

﴿٣﴾ فإن وقع في قلبك أنّك إن لم تطعهم في أهوائهم المضلّة؛ حصل عليك منهم ضرر، أو حصل نقص في هداية الخلق؛ فادفع ذلك عن نفسك، واستعمل ما يقاومه ويقاوم غيره، وهو التوكّل على الله؛ بأن تعتمد على ربك اعتماد من لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً في سلامتك من شرهم وفي إقامة الدين الذي أمرت به، وثق بالله في حصول ذلك الأمر على أي حال كان.

﴿وكفى بالله وكيلاً﴾: توكل إليه الأمور، فيقوم بها وبما هو أصلح للعبد، وذلك لعلمه بمصالح عبده من حيث لا يعلم العبد، وقدرته على إيصالها إليه من حيث لا يقدر عليها العبد، وأنه أرحم بعبده من نفسه ومن والديه وأرأف به من كلّ

أحيد، خصوصاً خواصَّ عبيده، الذين لم يزل يرِيهم ببرّه ويدُرُّ عليهم بركاتِه الظاهرة والباطنة، خصوصاً وقد أمره بإلقاء أموره إليه، ووعدّه أن يقوم بها؛ فهناك لا تسأل عن كلِّ أمرٍ يتيسَّر، وصعب يتسهَّل^(١)، وخطوب تَهون، وكروب تزول، وأحوال وحوائج تُقضى، وبركات تنزل، ونقَم تُدْفَع، وشرور تُرْفَع. وهناك ترى العبد، الضعيف الذي فوّض أمره لسيّده قد قام بأمورٍ لا تقوم بها أمة من الناس، وقد سهَّل الله عليه ما كان يصعبُ على فحول الرجال. وبالله المستعان.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿١﴾ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢﴾﴾.

﴿٤﴾ يعاتبُ تعالى عباده عن التكلم بما لا حقيقة له من الأقوال، ولم يجعله الله تعالى كما قالوا؛ فإنَّ ذلك القول منكم كذبٌ وزورٌ يترتب عليه منكرات من الشرع، وهذه قاعدة عامة في التكلم في كلِّ شيء والإخبار بوقوع ووجود ما لم يجعله الله تعالى، ولكن خصَّ هذه الأشياء المذكورة لوقوعها وشدة الحاجة إلى بيانها، فقال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾: هذا لا يوجد؛ فإياكم أن تقولوا عن أحد: إنَّ له قلبين في جوفه، فتكونوا كاذبين على الخلقة الإلهية، ﴿وما جعل أزواجكم اللاتي تظاهرون منهن﴾: بأن يقول أحدكم لزوجته أنت علي كظهر أمي أو كأمي؛ فما جعلهنَّ الله ﴿أمهاتكم﴾: أمك من ولدك وصارت أعظم النساء عليك حرمةً وتحريمًا، وزوجتك أحلُّ النساء لك؛ فكيف تشبه أحد المتناقضين بالآخر؟! هذا أمرٌ لا يجوز؛ كما قال تعالى: ﴿الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هنَّ أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللاتي ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً﴾.

﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم﴾: والأدعياء: الولد الذي كان الرجل يدعيه وهو ليس له، أو يدعى إليه بسبب تبنيّه إيّاه؛ كما كان الأمر في الجاهلية^(٢) وأول الإسلام، فأراد الله تعالى أن يُبطله ويزيله، فقدّم بين يدي ذلك بياناً قُبِحه، وأنه باطلٌ وكذبٌ، وكل باطلٍ وكذبٍ لا يوجد في شرع الله ولا يتّصف به عبادُ الله،

(١) في (ب): «يسهل».

(٢) في (ب): «بالجاهلية».

يقول تعالى: فاللّه لم يجعل الأدعياء الذين تدعونهم أو يدعون إليكم أبناءكم؛ فإنّ أبناءكم في الحقيقة من ولدتموهم وكانوا منكم، وأمّا هؤلاء الأدعياء من غيركم؛ فلا جعل الله هذا كهذا، ﴿ذلكم﴾: القول الذي تقولون في الدّعيّ: إنّ ابن فلان الذي ادّعاه، أو والده فلان، ﴿قولكم بأفواهكم﴾؛ أي: قول لا حقيقة له ولا معنى له، ﴿واللّه يقول الحقّ﴾؛ أي: اليقين والصدق؛ فلذلك أمركم باتّباعه على قوله وشرعيه؛ فقولهُ حقّ، وشرعهُ حقّ، والأقوال والأفعال الباطلة لا تُنسب إليه بوجه من الوجوه، وليست من هدايته؛ لأنه لا يَهْدِي إلّا إلى السبيل المستقيمة والطرق الصادقة، وإنّ كان ذلك واقعاً بمشيئته؛ فمشيئته عامّة لكلّ ما وجد من خير وشرّ.

﴿٥﴾ ثم صرح لهم بترك الحالة الأولى المتضمّنة للقول الباطل، فقال: ﴿ادعوههم﴾؛ أي: الأدعياء ﴿لأبائهم﴾: الذين ولدوهم ﴿هو أقسط عند الله﴾؛ أي: أعدل وأقوم وأهدى، ﴿فإن لم تعلّموا آباءهم﴾: الحقيقيين ﴿فإخوانكم في الدين ومواليكم﴾؛ أي: إخوانكم في دين الله ومواليكم في ذلك؛ فادعوههم بالأخوة الإيمانيّة الصادقة والموالاة على ذلك؛ فترك الدعوة إلى من تبناهم حتّى لا يجوز فعلها، وأما دعاؤهم لأبائهم؛ فإنّ علموا؛ دعوا إليهم، وإن لم يعلموا؛ اقتصر على ما يُعلّم منهم، وهو أخوة الدين والموالاة؛ فلا تظنّوا أنّ حالة عدم علمكم بأبائهم عذر في دعوتهم إلى من تبناهم؛ لأنّ المحذور لا يزول بذلك.

﴿وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به﴾: بأن سبق على لسان أحدكم دعوته إلى من تبناهم؛ فهذا غير مؤاخذ به، أو علم أبوه ظاهراً فدعوتموه إليه، وهو في الباطن غير أبيه^(١)؛ فليس عليكم^(٢) في ذلك حرج إذا كان خطأ. ﴿ولكنّ﴾ يؤاخذكم بما تعمّدت قلوبكم من الكلام بما لا يجوز. ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾: غفر لكم ورحمكم؛ حيث لم يعاقبكم بما سلف، وسمح لكم بما أخطأتم به، ورحمكم؛ حيث بين لكم أحكامه التي تُصلح دينكم ودنياكم؛ فله الحمد تعالى.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجَهُمْ أَمْهَنَهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَيْكُمْ أُولِيَّاءِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾.

(١) في (ب): «ليس أباه».

(٢) في (ب): «فليس في عليكم».

﴿٦﴾ يخبر تعالى المؤمنين خبراً يعرفون به حالة الرسول ﷺ ومرتبته، فيعاملونه بمقتضى تلك الحالة، فقال: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾: أقرب ما للإنسان وأولى ما له نفسه؛ فالرسول أولى به من نفسه؛ لأنه عليه الصلاة والسلام بذل لهم من النصح والشفقة والرأفة ما كان به أرحم الخلق وأرفهم؛ فرسول الله أعظم الخلق مئة عليهم من كل أحد؛ فإنه لم يصل إليهم مثقال ذرة من الخير ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر إلا على يديه وبسببه؛ فلذلك وجب عليهم^(١) إذا تعارض مراد النفس أو مراد أحد من الناس مع مراد الرسول أن يقدم مراد الرسول، وأن لا يعارض قول الرسول بقول أحد كائناً ما كان، وأن يفدوه بأنفسهم وأموالهم وأولادهم، ويقدموا محبته على محبة الخلق كلهم، وألا يقولوا حتى يقول، ولا يتقدموا بين يديه، وهو ﷺ أب للمؤمنين؛ كما في قراءة بعض الصحابة يربهم كما يربي والد أولاده، فترتب على هذه الأبوة أن كان نساؤه أمهاتهم؛ أي: في الحرمة والاحترام والإكرام، لا في الخلوة والمحرمية، وكأن هذا مقدمة لما سيأتي في قصة زيد بن حارثة، الذي كان يدعى قبل زيد بن محمد، حتى أنزل الله: ﴿ما كان محمد أباً أحد من رجالكم﴾، فقطع نسبه وانتسابه منه.

فأخبر في هذه الآية أن المؤمنين كلهم أولاد للرسول؛ فلا مزية لأحد عن أحد، وإن انقطع عن أحدهم انتساب الدعوة؛ فإن النسب الإيماني لم ينقطع عنه؛ فلا يحزن ولا يأسف، وترتب على أن زوجات الرسول أمهات المؤمنين: أنهن لا يحلن^(٢) لأحد من بعده؛ كما سيصرح^(٣) بذلك، ولا يحل لكم أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً.

﴿وأولو الأرحام﴾؛ أي: الأقارب قربوا أو بعدوا ﴿بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾؛ أي: في حكمه، فيرث بعضهم بعضاً ويبر بعضهم بعضاً؛ فهم أولى من الحلف والنصرة، والأدعياء الذين كانوا من قبل يرثون بهذه الأسباب ذوي الأرحام، فقطع تعالى التوارث بذلك، وجعله للأقارب لطفاً منه وحكمة؛ فإن الأمر لو استمر على العادة السابقة؛ لحصل من الفساد والشر والتحيل لحرمان الأقارب من الميراث شيء كثير، ﴿من المؤمنين والمهاجرين﴾؛ أي: سواء كان الأقارب مؤمنين مهاجرين أو^(٤) غير مهاجرين؛ فإن ذوي الأرحام مقدمون في ذلك. وهذه

(١) في (ب): «عليه».

(٢) في (ب): «لا يحل».

(٣) في (ب): «كما الله صرح».

(٤) في (ب): «و».

الآية حجة على ولاية ذوي الأرحام في جميع الولايات؛ كولاية النكاح والمال وغير ذلك، ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾؛ أي: ليس لهم حق مفروض، وإنما هو بإرادتكم، إن شئتم أن تبرعوا^(١) لهم تبرعاً وتعطوهم معروفاً منكم، ﴿كَانَ﴾: ذلك الحكم المذكور ﴿فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾؛ أي: قد سطر وكتب وقدره الله؛ فلا بد من نفوذه.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (٧) لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾.

﴿٧ - ٨﴾ يخبر تعالى أنه أخذ من النبيين عموماً ومن أولي العزم - وهم هؤلاء الخمسة المذكورون خصوصاً - ميثاقهم الغليظ وعهدهم الثقيل المؤكد على القيام بدين الله والجهاد في سبيله، وأن هذا سبيل قد مشى عليه الأنبياء المتقدمون، حتى ختموا بسيدهم وأفضلهم محمد ﷺ، وأمر الناس بالافتداء بهم، ويسأل الله الأنبياء وأتباعهم عن هذا العهد الغليظ؛ هل وفوا فيه وصدقوا فيثيبهم جنات النعيم، أم كفروا فيعذبهم العذاب الأليم؟ قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَ تَكُمْ جُنُودٌ فَآنَسْنَا عَلَيْهِمْ رِجًا وَجُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (٩) إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ (١٠) هُنَاكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (١١).

﴿٩ - ١١﴾ يذكر تعالى عباده المؤمنين نعمته عليهم، ويحثهم على شكرها حين جاءتهم جنود أهل مكة والحجاز من فوقهم وأهل نجد من أسفل منهم، وتعاهدوا وتعاهدوا على استئصال الرسول والصحابة، وذلك في وقعة الخندق، ومالاتهم طوائف اليهود الذين حوالي المدينة، فجاؤوا بجنود عظيمة وأمم كثيرة، وخندق رسول الله ﷺ على المدينة، فحاصروا المدينة، واشتد الأمر، وبلغت القلوب الحناجر، حتى بلغ الظن من كثير من الناس كل مبلغ لما رأوا من الأسباب

(١) في (ب): «تبرعوا».

المستحكمة والشدائد الشديدة، فلم يزل الحصارُ على المدينة مدةً طويلة، والأمْر كما وصف الله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾؛ أي: الظنون السيئة أنَّ الله لا ينصر دينه ولا يتم كلمته، ﴿هَٰنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾: بهذه الفتنة العظيمة، ﴿وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾: بالخوف والقلق والجوع؛ ليتبين إيمانهم ويزيد إيقانهم، فظهر ولله الحمد من إيمانهم وشدة يقينهم ما فاقوا فيه الأولين والآخرين. وعندما اشتدَّ الكرب وتفاقمَت الشدائد؛ صار إيمانهم عين اليقين، ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾.

وهنالكَ تبين نفاق المنافقين، وظهر ما كانوا يضمرون؛ قال تعالى:

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (١٢).

﴿١٢﴾ وهذه عادة المنافق عند الشدة والمحنة؛ لا يثبت إيمانه، وينظر بعقله القاصر إلى الحالة الحاضرة^(١)، ويصدق ظنه.

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَتَآَهَلُ يُثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ (١٣) ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوَّهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا﴾ (١٤) ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلَّفُونَ أَلَا أَتْبَنُ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ (١٥) ﴿قُلْ لَّنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٦) ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِن أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهْمَ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَإِلَّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٧) ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّضِينَ مِنْكُمْ وَالْقَالِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٨) ﴿أَشْحَثَ عَلَيْكُمْ إِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأْبَهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ إِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشْحَثَ عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (١٩) ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَكَوِبُونَ عَنِ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٢٠) ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ

(١) في (ب): «القاصرة».

حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ فَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَافِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَبَنَاتَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْلُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴿١﴾

﴿١٣﴾ ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ﴾: من المنافقين بعد ما جزعوا وقلَّ صبرهم صاروا أيضاً من المخذلين؛ فلا صبروا بأنفسهم، ولا تركوا الناس من شرهم، فقالت هذه الطائفة: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾: يريدون: يا أهل المدينة! فنادوهم باسم الوطن المنبئ^(٢) عن التسمية فيه؛ إشارة إلى أنَّ الدين والأخوة الإيمانية ليس له في قلوبهم قدر؛ وأنَّ الذي حملهم على ذلك مجرد الخور الطبيعي. ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾؛ أي: في موضعكم الذي خرجتم إليه خارج المدينة، وكانوا عسكروا دون الخندق وخارج المدينة، ﴿فَارْجِعُوا﴾: إلى المدينة. فهذه الطائفة تُخَذِّلُ عن الجهاد وتبين أنَّهم لا قوة لهم بقتال عدوهم ويأمرونهم بترك القتال؛ فهذه الطائفة أشرُّ الطوائف وأضرُّها، وطائفة أخرى دونهم، أصابهم الجبنُ والجزع، وأحبُّوا أن ينخللوا عن الصفوف، فجعلوا يعتذرون بالأعذار الباطلة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾؛ أي: عليها الخطر ونخافُ عليها أن يَهْجُمَ عليها الأعداء ونحن غيبٌ عنها؛ فأذن لنا؛ نرجع إليها فنحرسها، وهم كذبة في ذلك، ﴿وما هي بعورة إن يريدون﴾؛ أي: ما قصدُهم ﴿إِلَّا فراراً﴾: ولكن جعلوا هذا الكلام وسيلةً وعذراً لهم؛ فهؤلاء قلَّ إيمانهم، وليس له ثبوت عند اشتداد المحن.

﴿١٤﴾ ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمُ﴾: المدينة ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾؛ أي: لو دخل الكفار إليها

(١) الآيات ما بين المعقوفتين إلى ٢٧ لا توجد في النسختين.

(٢) في (ب): «المنبي فيه».

من نواحيها واستولوا عليها؛ لا كان ذلك، ثم سُئِلَ هُؤَلاءِ ﴿الفتنة﴾؛ أي: الانقلاب عن دينهم والرجوع إلى دين المستولين المتغلبين، ﴿لأتوها﴾؛ أي: لأعطوها مبادرين، ﴿وما تَلَبَّثُوا بها إِلَّا يسيراً﴾؛ أي: ليس لهم منعة ولا تصلب على الدين، بل بمجرد ما تكون الدولة للأعداء؛ يعطونهم ما طلبوا، ويوافقونهم على كفرهم.

﴿١٥﴾ هُذِهِ حالهم، والحال أنهم قد ﴿عاهدوا الله من قبل لا يولُّونَ الأدبارَ وكانَ عهدُ الله مسؤولاً﴾: سيسألهم عن ذلك العهد، فيجِدُهم قد نَقَضُوهُ؛ فما ظَنُّهم إذا برَّبُّهم؟!

﴿١٦﴾ ﴿قُلْ﴾: لهم لائماً على فرارهم ومخبراً أنهم لا يفيدُهم ذلك شيئاً: ﴿لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾: فلو كنتم في بيوتكم؛ لبرز الذين كُتِبَ عليهم القتلُ إلى مضاجعهم، والأسبابُ تنفع إذا لم يعارضها القضاء والقدر؛ فإذا جاء القضاء والقدر؛ تلاشى كلُّ سبب، وبطلت^(١) كل وسيلة ظنها الإنسان تنجيه، ﴿وَإِذَا﴾: حين فررتُم؛ لتسلموا من الموت والقتل، لتنعَموا في الدنيا؛ فإنكم ﴿لَا تَمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾: متاعاً لا يسوى فراركم وترككم أمر الله وتفويتكم على أنفسكم التمتع الأبدي في النعيم السرمدي.

﴿١٧﴾ ثم بيَّن أنَّ الأسبابَ كُلَّها لا تغني عن العبد شيئاً إذا أَرَادَهُ اللهُ بسوءٍ، فقال: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ﴾؛ أي: يَمْنَعُكُمْ من ﴿اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً﴾؛ أي: شراً، ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾: فإنه هو المعطي المانع، الضار النافع، الذي لا يأتي بالخير إلا هو، ولا يدفعُ السوء إلا هو، ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً﴾: يتولَّاهم فيجلب لهم المنافع^(٢) ﴿وَلَا نَصِيراً﴾: ينصرهم^(٣) فيدفع عنهم المضار؛ فلم يمتثلوا طاعة المنفرد بالأمور كُلِّها، الذي نفذت مشيئته ومضى قدره ولم ينفع مع ترك ولايته ونصرتِه وليٍّ ولا ناصرٍ.

﴿١٨﴾ ثم توعَّد تعالى المخذلين المعوقين وتهدَّدهم فقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعُوقِينَ مِنْكُمْ﴾: عن الخروج لمن لم يخرجوا، ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ﴾: الذين خرجوا: ﴿هَلُمُّوا إِلَيْنَا﴾؛ أي: ارجعوا كما تقدَّم من قولهم: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾، وهم مع تعويقهم وتخذيلهم ﴿لَا يَأْتُونَ الْبَاسَ﴾: القتال والجهاد

(٢) في (ب): «النفعة».

(١) في (ب): «وبطل».

(٣) في (ب): «أي ينصرهم».

بأنفسهم، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾: فهم أشد الناس حرصاً على التخلف لعدم الداعي لذلك من الإيمان والصبر، [ووجود] المقتضي للجبن من النفاق وعدم الإيمان.

﴿١٩﴾ ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾: بأبدانهم عند^(١) القتال، وأموالهم عند النفقة فيه؛ فلا يجاهدون بأموالهم وأنفسهم، ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾: نظر المَغْشِي ﴿عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾: من شدة الجبن الذي خلع قلوبهم والقلق الذي أذهلهم وخوفاً من إجبارهم على ما يكرهون من القتال، ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾: وصاروا في حال الأمن والطمأنينة؛ ﴿سَلَقُوكُمْ بِالْأَسِنَّةِ حِذَادٍ﴾؛ أي: خاطبوكم وتكلموا معكم بكلام حديد ودعوا غير صحيحة، وحين تسمعهم تظنهم أهل الشجاعة والإقدام. ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾: الذي يُراد منهم، وهذا شرٌّ ما في الإنسان: أن يكون شحيحاً بما أمر به، شحيحاً بما له أن ينفقه في وجهه، شحيحاً في بدنه أن يجاهد أعداء الله أو يدعو إلى سبيل الله، شحيحاً بجاهه، شحيحاً بعلمه ونصيحته ورأيه. ﴿أُولَئِكَ﴾: الذين بتلك الحالة ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا﴾: بسبب عدم إيمانهم؛ أحبط الله أعمالهم. ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾: وأما المؤمنون؛ فقد وقاهم الله شح أنفسهم، ووفقههم لبذل ما أمروا به من بذل أبدانهم في القتال في سبيله وإعلاء كلمته، وأموالهم للنفقة في طرق الخير، وجاههم وعلمهم.

﴿٢٠﴾ ﴿يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾؛ أي: يظنون أن هؤلاء الأحزاب الذين تحزبوا على حرب رسول الله ﷺ وأصحابه لم يذهبوا حتى يستأصلوهم، فخاب ظنهم، وبطل حسابانهم. ﴿وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾: مرة أخرى، ﴿يُودُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ﴾؛ أي: لو أتى الأحزاب مرة ثانية مثل هذه المرة؛ ودَّ هؤلاء المنافقون أنهم ليسوا في المدينة، ولا في القرب منها، وأنهم مع الأعراب في البادية، يستخبرون عن أخباركم، ويسألون عن أنباءكم ماذا حصل عليكم؛ فتباً لهم وبعداً؛ فليسوا ممن يُغالي^(٢) بحضورهم، فلو ﴿كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتِلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾: فلا تبالوهم، ولا تأسؤا عليهم.

﴿٢١﴾ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾: حيث حَضَرَ الهيَجَاءَ بنفسه الكريمة، وبأشْرَ موقف الحرب وهو الشريف الكامل والبطل^(٣) الباسل، فكيف تشعّون

(٢) في (ب): «يبالي».

(١) في (ب): «عن».

(٣) في (ب): «الكامل البطل».

بأنفسكم عن أمرٍ جاد^(١) رسولُ الله ﷺ بنفسه فيه، فتأسَّوا به في هذا الأمر وغيره.

واستدلَّ الأصوليون في هذه الآية على الاحتجاج بأفعال الرسول ﷺ، وأنَّ الأصل أنَّ أُمَّته أسوئته في الأحكام؛ إلَّا ما دلَّ الدليل الشرعيُّ على الاختصاص به؛ فالأسوة نوعان: أسوة حسنة وأسوة سيئة، فالأسوة الحسنة في الرسول ﷺ؛ فإنَّ المتأسِّي به سالكُ الطريق الموصل إلى كرامة الله، وهو الصراط المستقيم، وأمَّا الأسوة بغيره إذا خالفه؛ فهو الأسوة السيئة؛ كقول المشركين^(٢) حين دعته الرسل للتأسِّي بهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾: وهذه الأسوة الحسنة إنَّما يسلكها ويوفِّق لها مَنْ كان يرجو الله واليوم الآخر؛ فإنَّ ذلك ما معه^(٣) من الإيمان وخوفِ الله ورجاءِ ثوابه وخوفِ عقابه يحثُّه على التأسِّي بالرسول ﷺ.

﴿٢٢﴾ لما ذكر حالة المنافقين عند الخوف؛ ذكر حال المؤمنين فقال: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ﴾: الذين تحزَّبوا ونزلوا منازلهم وانتهى الخوف، ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾: في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِبًا﴾: ﴿وَصَدَّقَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ﴾: فإنَّا رأينا ما أَخْبَرْنَا بِهِ، ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾: ذلك الأمر ﴿إِلَّا إِيمَانًا﴾: في قلوبهم، ﴿وَتَسْلِيمًا﴾: في جوارحهم، وانقياداً لأمر الله.

﴿٢٣﴾ ولما ذكر أنَّ المنافقين عاهدوا الله لا يولُّون الأعداء ونقضوا ذلك العهد؛ ذكر وفاء المؤمنين به، فقال: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: وَفَّوا به وأتموه وأكملوه، فبذلوا مُهَجَّهُمْ في مرضاته، وسَبَّلُوا نفوسهم في طاعته. ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾؛ أي: إرادته ومطلوبه وما عليه من الحق، فقتل في سبيل الله أو مات مؤدياً لحقه لم ينقضه شيئاً، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾: تكميل ما عليه؛ فهو شارِع في قضاء ما عليه ووفاء نَحْبِهِ ولما يُكْمِلُهُ، وهو في رجاء تكميله ساع في ذلك مجدٍّ، ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾: كما بدَّل غيرهم، بل لم يزلوا على العهد، لا يلوون ولا يتغيرون؛ فهؤلاء الرجال على الحقيقة، ومن^(٤) عداهم فضَّوْزهم صورُ رجال وأما الصفات؛ فقد قَصَّرَتْ عن صفاتِ الرجال.

(١) في (ب): «جاء».

(٢) الكفار.

(٣) في (ب): «فإن ما معه».

(٤) في (ب): «وما».

﴿٢٤﴾ ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾؛ أي: بسبب صدقهم في أقوالهم وأحوالهم ومعاملتهم مع الله واستواء ظاهريهم وباطنيهم، قال الله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا...﴾ الآية؛ أي: قدرنا ما قدرنا من هذه الفتن والمحن والزلازل ليتبين الصادق من الكاذب، فيَجْزِيَ الصادقين بصدقهم، ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ﴾: الذين تغيَّرت قلوبهم وأعمالهم عند حلول الفتن، ولم يفوا بما عاهدوا الله عليه، ﴿إِنْ شَاءَ﴾: تعذيبهم؛ بأن لم يشأ هدايتهم، بل علم أنهم لا خير فيهم، فلم يوفقهم، ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾: بأن يوفقهم للتوبة والإنابة، وهذا هو الغالب على كرم الكريم، ولهذا ختم الآية باسمين دالِّين على المغفرة والفضل والإحسان، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾؛ غفوراً لذنوب المسرفين على أنفسهم، ولو أكثروا من العصيان، إذا أتوا بالمتاب. ﴿رَحِيمًا﴾: بهم؛ حيث وقَّهم للتوبة، ثم قَبِلها منهم، وستر عليهم ما اجترحوه.

﴿٢٥﴾ ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾؛ أي: ردَّهم خائنين، لم يحصل لهم الأمر الذي كانوا حريصين عليه، مغتاضين، قادرين عليه، جازمين بأن لهم الدائرة، قد غرَّتهم جموعهم وأعجبوا بتحزُّبهم وفرحوا بعددهم وعددهم، فأرسل الله عليهم ريحاً عظيمةً، وهي ^(١) ريح الصَّبا، فزعزت مراكزهم، وقوَّضت خيامهم، وكفأت قدورهم، وأزعجتهم، وضربهم الله بالرعب، فانصرفوا بغَيْظهم، وهذا من نصر الله لعباده المؤمنين. ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾: بما صَنَعَ لهم من الأسباب العادية والقدرية. ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾: لا يغالِبُه أحدٌ إِلَّا غَلَبَ، ولا يستنصره أحدٌ إِلَّا غَلَبَ، ولا يعجزه أمرٌ أراده، ولا ينفع أهل القوة والعزة قوتهم وعزَّتهم إن لم يُعْنَهُمْ بقوَّته وعزَّته.

﴿٢٦﴾ ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ﴾؛ أي: عاونوهم ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾؛ أي: من اليهود ﴿مِنْ صِيَاصِيهِمْ﴾؛ أي: أنزلهم من حصونهم نزولاً مظفوراً بهم مجعولين تحت حكم الإسلام، ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ﴾: فلم يقولوا على القتال، بل استسلموا وخضعوا وذُلُّوا. ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾: وهم الرجال المقاتلون، ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾: من عداهم من النساء والصبيان.

(١) في (ب): «وهو».

﴿٢٧﴾ ﴿وَأَوْرَثَكُمْ﴾؛ أي: غنمكم ﴿أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطُوهَا﴾؛ أي: أرضاً كانت من قبل من شرفها وعزتها عند أهلها لا تتمكنون من وطنها، فمكنكم الله، وخذلهم، وغنمتم أموالهم، وقتلتموهم، وأسزتموهم، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾: لا يعجزه شيء، ومن قدرته قدر لكم ما قدر.

وكانت هذه الطائفة من أهل الكتاب هم بنو قريظة من اليهود في قرية خارج المدينة غير بعيد، وكان النبي ﷺ حين هاجر إلى المدينة وادعاهم وهادتهم فلم يقاتلهم ولم يقاتلوه، وهم باقون على دينهم، لم يغير عليهم شيئاً، فلما رأوا يوم الخندق الأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله وكثرتهم وقلة المسلمين، وظنوا أنهم سيستأصلون الرسول والمؤمنين، وساعد على ذلك تدجيل بعض رؤسائهم عليهم، فنقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ، ومالوا المشركين على قتاله، فلما خذل الله المشركين؛ تفرغ رسول الله ﷺ لقتالهم، فحاصروهم في حصنهم، فنزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه، فحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم وتغنم أموالهم، فأتى الله لرسوله والمؤمنين المنة، وأسبغ عليهم النعمة، وأقر أعينهم بخذلان من انخدل من أعدائهم، وقتل من قتلوا، وأسر من أسروا، ولم يزل لطف الله بعباده المؤمنين مستمراً.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْتُمْ أَمْ تَتَذَكَّرْنَ﴾
 ﴿وَأَسْرَحَكُمْ سَرَكَاً جَمِلاً﴾ (٢٨) ﴿وَلِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾ (٢٩).

﴿٢٨﴾ لما اجتمع نساء رسول الله ﷺ عليه في الغيرة، وطلبن منه النفقة والكسوة؛ طلبن منه أمراً لا يقدر عليه في كل وقت، ولم يزلن في طلبهن متفقات وفي^(١) مرادهن متعنتات، فشق ذلك على الرسول، حتى وصلت به الحال إلى أنه ألى منهن شهراً، فأراد الله أن يسهل الأمر على رسوله، وأن يرفع درجة زوجاته، ويذهب عنهن كل أمر ينقص أجرهن فأمر رسوله أن يخبرهن^(٢)، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾؛ أي: ليس لكن في غيرها مطلب، وصرتن ترضين لوجودها وتغضبن لفقدائها؛ فليس لي فيكن أرب وحاجة وأتن بهذه

(١) في (ب): «متفقات في».

(٢) في (ب): «يخبرهن».

الحال، ﴿فَتَعَالَيْنِ أُمْتُغَكُنَّ﴾: شيئاً مما عندي من الدنيا، ﴿وَأَسْرُخُكُنَّ﴾؛ أي: أفارقكن ﴿سراحاً جميلاً﴾: من دون مغاضبة ولا مشاتمة، بل بسعة صدرٍ وانسراح بال، قبل أن تبلغ الحال إلى ما لا ينبغي.

﴿٢٩﴾ ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ﴾؛ أي: هذه الأشياء مرادُكُمْ وغايةُ مقصودِكُمْ، وإذا حصل لَكُمْ الله ورسوله والجنة؛ لم تبالين بسعة الدنيا وضيقها ويُسرها وعُسرها، وقنعتن من رسول الله بما تيسر، ولم تطلبن منه ما يشق عليه، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمَحْسَنَاتِ مِثْنَ أَجْرٍ عَظِيمًا﴾: رتب الأجر على وصفهن بالإحسان؛ لأنه السبب الموجب لذلك، لا لكونهن زوجاتٍ للرسول؛ فإن مجرد ذلك لا يكفي، بل لا يفيد شيئاً مع عدم الإحسان، فخيرهن رسول الله ﷺ في ذلك، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة كلهن، لم^(١) يتخلفن منهن واحدة رضي الله عنهن.

وفي هذا التخيير فوائد عديدة:

منها: الاعتناء برسوله والغيرة عليه أن يكون بحالة يشق عليه كثرة مطالب زوجاته الدنيوية.

ومنها: سلامته ﷺ بهذا التخيير من تبعة حقوق الزوجات، وأنه يبقى في حرية نفسه إن شاء أعطى وإن شاء منع، ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له.

ومنها: تنزيهه عما لو كان فيهن من تؤثر الدنيا على الله ورسوله والدار الآخرة عنها، وعن مقارنتها.

ومنها: سلامة زوجاته رضي الله عنهن عن الإثم والتعرض لسخط الله ورسوله، فحسم الله بهذا التخيير عنهن التسخط على الرسول الموجب لسخطه المُسخطِ لربه الموجب لعقابه.

ومنها: إظهار رفعتهن وعلو درجاتهن وبيان علو همهن أن كان الله ورسوله والدار الآخرة مرادهن ومقصودهن دون الدنيا وحطامها.

ومنها: استعدادهن بهذا الاختيار للأمر الخيار للوصول إلى خيار درجات الجنة وأن يكن زوجاته في الدنيا والآخرة.

(١) في (ب): «ولم».

ومنها: ظهورُ المناسبةِ بينه وبينهنَّ؛ فإنه أكملُ الخلق، وأراد الله أن تكون نساؤه كاملاتٍ مكملاتٍ طيباتٍ مطيباتٍ، ﴿الطيباتُ للطيبين والطيبونُ للطيبات﴾.

ومنها: أن هذا التخيير داع وموجب للقناعة التي يطمئن لها القلب وينشرح لها الصدر، ويزول عنهنَّ جشعُ الحرص وعدم الرضا الموجب لقلق القلب واضطرابه وهمه وغمه.

ومنها: أن يكون اختيارهنَّ لهذا سبباً لزيادة أجرهنَّ ومضاعفته، وأن يكنَّ بمرتبة ليس فيها أحدٌ من النساء، ولهذا قال:

﴿يَنسَاءَ الَّتِي مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ٣٠﴾ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ٣١﴾.

﴿٣٠﴾ لما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة؛ ذَكَرَ مضاعفةَ أجرهنَّ ومضاعفةَ وزرهنَّ وإثمنهنَّ لو جرى منهنَّ؛ ليزداد حذرهنَّ وشكرهنَّ الله تعالى، فجعل من أتى منهنَّ بفاحشة ظاهرة لها العذاب ضعفين.

﴿٣١﴾ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ؛ أي: تطيع الله ورسوله وتعمل صالحاً قليلاً أو كثيراً، ﴿نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ؛ أي: مثل ما نعطي غيرها مرتين، ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾: وهي الجنة، فَقَنُتْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَعَمِلْنَ صَالِحًا، فعلم بذلك أجرهنَّ.

﴿يَنسَاءَ الَّتِي لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ٣٣﴾ وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤﴾.

﴿٣٢﴾ يقول تعالى: ﴿يا نساء النبي﴾: خطابٌ لهنَّ كلهنَّ ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾: الله؛ فَإِنَّكُنَّ بذلك تفقن النساء ولا يلحقكنَّ أحدٌ من النساء؛ فكمَلْنَ التقوى بجميع وسائلها ومقاصدها، فلهذا أرشدنَّ إلى قطع وسائل المحرم، فقال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾؛ أي: في مخاطبة الرجال، أو بحيث يسمعون، فَتَلْنَ في ذلك، وتكَلِّمْنَ بكلام رقيق، يدعو ويطمع ﴿الذي في قلبه مرضٌ﴾؛ أي:

مرض شهوة الزنا فإنه مستعدٌ ينتظرُ أدنى محركٍ يحركه لأن قلبه غيرُ صحيح؛ فإن القلب الصحيح ليس فيه شهوةٌ لما حرم الله؛ فإن ذلك لا تكاد تُميله ولا تُحركه الأسباب لصحة قلبه وسلامته من المرض؛ بخلاف مريض القلب الذي لا يتحملُ ما يتحملُ الصحيح، ولا يصبرُ على ما يصبرُ عليه؛ فأدنى سببٍ يوجبُ ويدعوه إلى الحرام يُجيبُ دعوته ولا يتعاضى عليه؛ فهذا دليلٌ على أن الوسائل لها أحكام المقاصد؛ فإن الخضوع بالقول واللين فيه في الأصل مباح، ولكن لما كان وسيلةً إلى المحرم؛ منع منه، ولهذا ينبغي للمرأة في مخاطبة الرجال أن لا تُلينَ لهم القول.

ولما نهاهم عن الخضوع في القول؛ فربما توهّم أنهم مأموراتٌ بإغلاظ القول؛ دَفَعَ هذا بقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾؛ أي: غير غليظ ولا جاف؛ كما أنه ليس بليّن خاضع. وتأمل كيف قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾، ولم يقل: فلا تَلينَ بالقول، وذلك لأن المنهيّ عنه القول اللين الذي فيه خضوع المرأة للرجل وانكسارها عنده، والخاضع هو الذي يُطمع فيه، بخلاف من تكلم كلاماً ليناً ليس فيه خضوع، بل ربما صار فيه ترفع وقهرٌ للخصم؛ فإن هذا لا يطمع فيه خصمه، ولهذا مدح الله رسوله باللين، فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾، وقال لموسى وهارون: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾. فقولاً له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى.

ودل قوله: ﴿فِيَطْمَعِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾؛ مع أمره بحفظ الفرج وثناؤه على الحافظين لفروجهم والحافظات، ونهيه عن قربان الزنا: أنه ينبغي للعبد إذا رأى من نفسه هذه الحالة، وأنه يهش^(١) لفعل المحرم عندما يرى أو يسمع كلام من يهواه ويجد دواعي طمعه قد انصرفت إلى الحرام، فليعرف أن ذلك مرض، فليجتهد في إضعاف هذا المرض وحسم الخواطر الرديّة ومجاهدة نفسه على سلامتها من هذا المرض الخطر وسؤال الله العصمة والتوفيق، وأن ذلك من حفظ الفرج المأمور به.

﴿٣٣﴾ ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾؛ أي: اقْرَرنَ فيها؛ لأنه أسلم وأحفظ لكنن، ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَةِ الْأُولَى﴾؛ أي: لا تُكَيِّرنَ الخروج متجملات أو متطيّبات كعادة أهل الجاهلية الأولى، الذين لا علم عندهم ولا دين؛ فكلُّ هذا دفع للشر وأسبابه.

(١) في (ب): «يشتهي».

ولما أمرهنَّ بالتقوى عموماً وبجزئيات من التقوى نصَّ عليها لحاجة النساء إليها، كذلك أمرهن بالطاعة، خصوصاً الصلاة والزكاة اللتان يحتاجهما ويضطرُّ إليهما كلُّ أحد، وهما أكبر العبادات وأجلُّ الطاعات، وفي الصلاة الإخلاص للمعبود، وفي الزكاة الإحسان إلى العبيد.

ثم أمرهنَّ بالطاعة عموماً، فقال: ﴿وَأَطِئْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: يدخل في طاعة الله ورسوله كلُّ أمرٍ أمراً^(١) به أمرٌ إيجاب أو^(٢) استحباب، ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ﴾: بأمركنَّ بما أمركنَّ به ونهيكنَّ عما^(٣) نهاكنَّ عنه؛ ﴿لِيَذْهَبَ عَنْكُمُ الرِّجْسُ﴾؛ أي: الأذى والشر والخبث ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾: حتى تكونوا طاهرينَّ مطهرين؛ أي: فاحمدوا، ربكم واشكروه على هذه الأوامر والنواهي التي أخبركم بمصلحتها، وأنها محض مصلحتكم، لم يرد الله أن يجعل عليكم بذلك حرجاً ولا مشقة، بل لتزكَّى نفوسكم، وتطهر^(٤) أخلاقكم، وتُحَسِّنَ أعمالكم، ويعظم بذلك أجركم.

﴿٣٤﴾ ولما أمرهنَّ بالعمل الذي هو فعلٌ وتركٌ؛ أمرهنَّ بالعلم، وبينَ لهنَّ طريقه، فقال: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾، والمراد بآيات الله القرآن، والحكمة أسرارُه أو سنَّةُ رسوله، وأمرهنَّ بذكره يشمل ذكراً لفظه بتلاوته وذكر معناه بتدبره والتفكير فيه واستخراج أحكامه وحكمه، وذكر العمل به وتأويله.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾: يدرك سرائر^(٥) الأمور وخفايا الصدور وخبايا السماوات والأرض والأعمال التي تبين وتُسَرُّ؛ فلفظه وخبرته يقتضي حُثَّهنَّ على الإخلاص وإسرار الأعمال ومجازاة الله على تلك الأعمال. ومن معاني اللطيف: الذي يسوق عبده إلى الخير، ويعصمه من الشر بطريق خفية لا يشعر بها، ويسوق إليه من الرزق ما لا يدريه، ويريه من الأسباب التي تكرهها النفوس، ما يكون ذلك طريقاً له إلى أعلى الدرجات وأرفع المنازل.

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ

(١) في (ب): «أمر».

(٢) في (ب): «و».

(٣) في (ب): «بما».

(٤) في (ب): «ولتطهر».

(٥) في (ب): «أسرار».

وَحَتَّمَا بِهِ وَالزَّمَا بِهِ ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾؛ أي: الخيار هل يفعلونه أم لا؟ بل يعلم المؤمن والمؤمنة أن الرسول أولى به من نفسه؛ فلا يجعل بعض أهواء نفسه حجاباً بينه وبين أمر الله ورسوله، ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً﴾؛ أي: بيتنا؛ لأنه ترك الصراط المستقيم الموصلة إلى كرامة الله إلى غيرها من الطرق الموصلة للعذاب الأليم، فذكر أولاً السبب الموجب لعدم معارضة أمر الله ورسوله، وهو الإيمان، ثم ذكّر المانع من ذلك، وهو التخويف بالضلال الدال على العقوبة والنكال.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٣٧﴾ وكان سبب نزول هذه الآيات^(١) أن الله تعالى أراد أن يشرع شرعاً عاماً للمؤمنين أن الأدعياء ليسوا في حكم الأبناء حقيقة من جميع الوجوه، وأن أزواجهم لا جناح على من تبتأهم نكاحهن، وكان هذا من الأمور المعتادة التي لا تكاد تزول إلا بحادث كبير، فأراد أن يكون هذا الشرع قولاً من رسوله وفعلاً، وإذا أراد الله أمراً؛ جعل له سبباً، فكان^(٢) زيد بن حارثة يُدعى زيد بن محمد، قد تبتأه النبي ﷺ، فصار يُدعى إليه، حتى نزل ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾؛ ف قيل له: زيد بن حارثة، وكانت تحته زينب بنت جحش ابنة عمة رسول الله ﷺ، وكان قد^(٣) وقع في قلب الرسول لو طلقها زيد لتزوجها، فقدّر الله أن يكون بينها وبين زيد ما اقتضى أن جاء زيد بن حارثة يستأذن النبي ﷺ في فراقها؛ قال الله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ؛ أي: بالإسلام، ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾: بالعتق والإرشاد والتعليم حين جاءك مشاوراً في فراقها، فقلت له ناصحاً له ومخبراً بمصلحته مقدماً لها على رغبتك مع وقوعها في قلبك: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾؛ أي: لا تفارقها واصبر على ما جاءك منها.

(١) أخرجه البخاري (٤٧٨٧ و ٧٤٢٠)، وقال الحافظ في «الفتح» (٥٢٣/٨): «وقد أخرج ابن أبي حاتم هذه القصة من طريق السدي فساقتها سياقاً واضحاً حسناً».

(٢) في (ب): «وكان».

(٣) في (ب): «وقد كان قد».

﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾: تعالى في أمورك عامة وفي أمر زوجك خاصة؛ فَإِنَّ التقوى تحث على الصبر وتأمّر به، ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾: والذي أخفاه أنّه لو طلقها زيد؛ لتزوجها ﷺ، ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾: في عدم إبداء ما في نفسك، ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾: فَإِنَّ خشيته جالبة لكل خير مانعة من كل شر، ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾؛ أي: طابت نفسه ورغب عنها وفارقها، ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾: وإنّا فعلنا ذلك لفائدة عظيمة، وهي: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾: حيث رأوك تزوّجت زوج زيد بن حارثة الذي كان من قَبْلُ يَنْتَسِبُ إِلَيْكَ، ولما كان قوله: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾: عامّاً في جميع الأحوال، وكان من الأحوال ما لا يجوز ذلك، وهي قبل انقضاء وطره منها؛ قَيَّدَ ذَلِكَ بقوله: ﴿إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾؛ أي: لا بدّ من فعله ولا عائق له ولا مانع.

وفي هذه الآيات المشتملات^(١) على هذه القصة فوائد:

منها: الثناء على زيد بن حارثة، وذلك من وجهين: أحدهما: أَنَّ اللَّهَ سَمَّاهُ فِي الْقُرْآنِ وَلَمْ يَسْمُ مِنَ الصَّحَابَةِ بِاسْمِهِ غَيْرَهُ. والثاني: أَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّهُ أَنْعَمَ عَلَيْهِ؛ أَيُّ: بنعمة الإسلام والإيمان، وهذه شهادة من الله له أنه مسلم مؤمن ظاهراً وباطناً، وإلّا؛ فلا وجه لتخصيصه بالنعمة؛ إِلَّا أَنَّ^(٢) المراد بها النعمة الخاصة.

ومنها: أَنَّ الْمُعْتَقَ فِي نِعْمَةِ الْمُعْتَقِ.

ومنها: جواز تزوج زوجة^(٣) الدّعي كما صرح به.

ومنها: أَنَّ التَّعْلِيمَ الْفَعْلِيَّ أْبْلَغُ مِنَ الْقَوْلِي، خصوصاً إذا اقترن بالقول؛ فَإِنَّ ذَلِكَ نُوِّرَ عَلَى نُورٍ.

ومنها: أَنَّ الْمَحَبَّةَ الَّتِي فِي قَلْبِ الْعَبْدِ لَغَيْرِ زَوْجَتِهِ وَمَمْلُوكَتِهِ وَمَحَارِمِهِ إِذَا لَمْ يَقْتَرِنْ بِهَا مَحْذُورٌ لَا يَأْتُمُّ عَلَيْهَا الْعَبْدُ، وَلَوْ اقْتَرَنَ بِذَلِكَ أَمْنِيَّتُهُ أَنْ لَوْ طَلَّقَهَا زَوْجُهَا لَتَزَوَّجَهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْعَى فِي فِرْقَةٍ بَيْنَهُمَا أَوْ يَتَسَبَّبُ بِأَيِّ سَبَبٍ كَانَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَخْفَى ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ.

ومنها: أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَدْ بَلَّغَ الْبَلَاغَ الْمُبِين، فلم يدغ شيئاً مما أوحى إليه إلّا

(٢) في (ب): «لولا أن».

(١) في (ب): «المشتملة».

(٣) في (ب): «بزوجة».

وبلَّغَهُ، حتَّى هَذَا الأمر الذي فيه عتابه، وَهَذَا يدلُّ عَلَى أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَلَا يَقُولُ إِلَّا مَا أَوْحَى إِلَيْهِ، وَلَا يَرِيدُ تَعْظِيمَ نَفْسِهِ.

ومنها: أَنَّ الْمُسْتَشَارَ مُؤْتَمَنٌ، يَجِبُ عَلَيْهِ - إِذَا اسْتُشِيرَ فِي أَمْرٍ مِنَ الْأُمُور - أَنْ يُشِيرَ بِمَا يَعْلَمُهُ أَصْلَحَ لِلْمُسْتَشِيرِ^(١)، وَلَوْ كَانَ لَهُ حِظٌّ نَفْسٍ بِتَقَدُّمِ^(٢) مَصْلَحَةِ الْمُسْتَشِيرِ عَلَى هَوَى نَفْسِهِ وَغَرَضِهِ.

ومنها: أَنَّ مِنَ الرَّأْيِ الْحَسَنِ لِمَنْ اسْتَشَارَ فِي فِرَاقِ زَوْجَةٍ أَنْ يُؤَمَّرَ بِإِمْسَاكِهَا مَعَهَا أَمَّا صَلَاحُ الْحَالِ؛ فَهُوَ أَحْسَنُ مِنَ الْفِرَاقِ.

ومنها: أَنَّهُ يَتَعَيَّنُ أَنْ يَقْدَّمَ الْعَبْدُ خَشْيَةَ اللَّهِ عَلَى خَشْيَةِ النَّاسِ، وَأَنَّهَا أَحَقُّ مِنْهَا وَأَوْلَى.

ومنها: فَضِيلَةُ زَيْنِ رِضَى اللَّهِ عَنْهَا أَمَ الْمُؤْمِنِينَ؛ حَيْثُ تَوَلَّى اللَّهُ تَرْوِيجَهَا مِنْ رَسُولِهِ ﷺ مِنْ دُونِ خُطْبَةٍ وَلَا شَهَادَةٍ، وَلِهَذَا كَانَتْ تَفْتَخِرُ بِذَلِكَ عَلَى أَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَتَقُولُ: زَوَّجَكُنْ أَهْلِيكَ وَزَوَّجَنِي اللَّهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ^(٣).

ومنها: أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا كَانَتْ ذَاتُ زَوْجٍ لَا يَجُوزُ نِكَاحُهَا وَلَا السَّعْيُ فِيهِ وَفِي أَسْبَابِهِ حَتَّى يَقْضِيَ زَوْجُهَا وَطْرَهُ مِنْهَا، وَلَا يَقْضِي وَطْرَهُ حَتَّى تَنْقُضِيَ عِدَّتُهَا؛ لِأَنَّهَا قَبْلَ انْقِضَاءِ عِدَّتِهَا وَهِيَ فِي عَصْمَتِهِ أَوْ فِي حَقِّهِ الَّذِي لَهُ وَطَرٌ إِلَيْهَا وَلَوْ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ (٢٨) الَّذِينَ يُلَاقُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٢٩) ﴿

﴿٣٨﴾ هَذَا دَفْعٌ لَطْعَنِ مَنْ طَعَنَ فِي الرَّسُولِ ﷺ فِي كَثْرَةِ أَزْوَاجِهِ، وَأَنَّهُ طَعَنَ بِمَا لَا مَطْعَنَ فِيهِ، فَقَالَ: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ﴾؛ أَي: إِثْمٌ وَذَنْبٌ ﴿فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾؛ أَي: قَدَّرَ لَهُ مِنَ الزَّوْجَاتِ؛ فَإِنَّ هَذَا قَدْ أَبَاحَهُ اللَّهُ لَهُ كَمَا أَبَاحَهُ لِلْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾؛ أَي: لَا بَدَّ مِنْ وَقْعِهِ.

(١) فِي (ب): «لِلْمُسْتَشَارِ».

(٢) فِي (ب): «فِيَقْدَمُ».

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٧٤٢٠) مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ.

﴿٣٩﴾ ثُمَّ ذَكَرَ مَنْ هُم الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ قَدْ خَلَوْا هَذِهِ سُنَّتَهُمْ وَعَادَتَهُمْ، وَأَنْهُمْ الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ: فَيَتْلُونَ عَلَى الْعِبَادِ آيَاتِ اللَّهِ وَحُجَّجَهُ وَبِرَاهِينَهُ وَيَدْعُونَهُمْ إِلَى اللَّهِ، ﴿وَيَخْشَوْنَهُ﴾: وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا﴾: إِلَّا اللَّهَ؛ فَإِذَا كَانَ هَذَا سَنَةً فِي الْأَنْبِيَاءِ الْمُعْصُومِينَ الَّذِينَ وَظِيفَتْهُمْ قَدْ أَذَوْهَا وَقَامُوا بِهَا أَمَّ الْقِيَامِ، وَهُوَ دَعْوَةُ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ وَالْخَشْيَةِ مِنْهُ وَحَدَهُ، الَّتِي تَقْضِي فِعْلَ كُلِّ مَأْمُورٍ وَتَرْكُ كُلِّ مُحْظُورٍ، [دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ لَا نَقْصَ فِيهِ بِوَجْهِهِ]. ﴿وَكُفِيَ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾: مُحَاسِبًا عِبَادَهُ مُرَاقِبًا أَعْمَالَهُمْ. وَعُلِمَ مِنْ هَذَا أَنَّ النِّكَاحَ مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ.

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ ﴿٤٠﴾.

﴿٤٠﴾ أَي: لَمْ يَكُنِ الرَّسُولُ ﴿مُحَمَّدٌ﴾: ﷺ ﴿أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾: أَيُّهَا الْأُمَّةُ، فَقَطَعَ انْتِسَابَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ مِنْهُ مِنْ هَذَا الْبَابِ. وَلَمَّا كَانَ هَذَا النَّفْيُ عَامًّا فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ إِنَّ حُمُلَ ظَاهِرِ اللَّفْظِ عَلَى ظَاهِرِهِ؛ أَي: لَا أَبَوَّةُ نَسَبٍ وَلَا أَبَوَّةُ ادِّعَاءٍ، وَكَانَ قَدْ^(١) تَقَرَّرَ فِيمَا تَقَدَّمَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَبٌ لِلْمُؤْمِنِينَ كُلِّهِمْ، وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ، فَاحْتَرَزَ أَنْ يَدْخُلَ هَذَا النَّوْعُ بِعَمُومِ النَّهْيِ الْمَذْكُورِ؛ فَقَالَ: ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾؛ أَي: هَذِهِ مَرْتَبَتُهُ؛ مَرْتَبَةُ الْمَطَاعِ الْمَتَّبِعِ الْمُتَهْتَدِ بِهِ الْمُؤْمِنِ لَهُ الَّذِي يَجِبُ تَقْدِيمُ مَحَبَّتِهِ عَلَى مَحَبَّةِ كُلِّ أَحَدٍ، النَّاصِحِ، الَّذِي لَهُمْ - أَي: لِلْمُؤْمِنِينَ - مِنْ بَرِّهِ وَنُصْحِهِ كَأَنَّهُ أَبٌ لَهُمْ، ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾؛ أَي: قَدْ أَحَاطَ عِلْمُهُ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، وَيَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ، وَمَنْ يَضْلُحْ لِفَضْلِهِ وَمَنْ لَا يَضْلُحْ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ ﴿٤١﴾ وَسِعْهُ بَكْرُهُ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ نَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾.

﴿٤١﴾ يَا مَرِ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِذِكْرِهِ ذِكْرًا كَثِيرًا؛ مِنْ تَهْلِيلٍ وَتَحْمِيدٍ وَتَسْبِيحٍ وَتَكْبِيرٍ

(١) فِي (ب): «وَقَدْ كَانَ».

وغير ذلك من كل قول فيه قربة إلى الله، وأقل ذلك أن يلازم الإنسان أورد الصباح والمساء وأدبار الصلوات الخمس وعند العوارض والأسباب، وينبغي مداومة ذلك في جميع الأوقات على جميع الأحوال؛ فإن ذلك عبادة يسبق بها العامل وهو مستريح وداع إلى محبة الله ومعرفته وعون على الخير وكف للسان عن الكلام القبيح.

﴿٤٢﴾ ﴿وَسَبِّحْوهُ بكرةً وأصيلاً﴾؛ أي: أول النهار وآخره؛ لفضلهما وشرفهما وسهولة العمل فيهما.

﴿٤٣﴾ ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً﴾؛ أي: من رحمته بالمؤمنين ولطفه بهم أن جعل من صلاته عليهم وثناؤه وصلاة ملائكته ودعائهم ما يخرجهم من ظلمات الذنوب والجهل إلى نور الإيمان والتوفيق والعلم والعمل؛ فهذه أعظم نعم أنعم بها على العباد الطائعين، تستدعي منهم شكرها والإكثار من ذكر الله الذي لطف بهم ورحمهم وجعل حملة عرشه أفضل الملائكة ومن حوله يسبحون بحمد ربهم، ويستغفرون للذين آمنوا، فيقولون: ﴿ربنا وسعت كل شيء رحمةً وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم. ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم. وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك الفوز العظيم﴾: فهذه رحمته ونعمته عليهم في الدنيا.

﴿٤٤﴾ ﴿وأما رحمته بهم في الآخرة؛ فأجل رحمة وأفضل ثواب، وهو الفوز برضا ربهم وتحيته، واستماع كلامه الجليل، ورؤية وجهه الجميل، وحصول الأجر الكبير الذي لا يدره ولا يعرف كنهه إلا من أعطاهم إياه، ولهذا قال: ﴿تحيتهم يوم يلقونه سلاماً وأعد لهم أجراً كريماً﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿وَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ ﴿٤٨﴾.

﴿٤٥﴾ هذه الأشياء التي وصف الله بها رسوله محمداً ﷺ هي المقصود من رسالته وزبدتها وأصولها التي اختص بها، وهي خمسة أشياء:

أحدها: كونه ﴿شاهداً﴾؛ أي: شاهداً^(١) على أمته بما عملوه من خير وشر؛ كما قال تعالى: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾، ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيدٍ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾: فهو ﷺ شاهد عدل مقبول.

الثاني والثالث: كونه ﴿مبشراً ونذيراً﴾: وهذا يستلزم ذكر المبشر والمنذر وما يبشر به وينذرُ والأعمال الموجبة لذلك: فالمبشر هم المؤمنون المتقون، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح وترك المعاصي، لهم البشرى في الحياة الدنيا بكل ثواب دنيويٍّ ودينيٍّ رُتِبَ على الإيمان والتقوى، وفي الأخرى بالنعيم المقيم، وذلك كله يستلزم ذكر تفصيل المذكور من تفاصيل الأعمال وخصال التقوى وأنواع الثواب. والمنذر هم المجرمون الظالمون، أهل الظلم والجهل، لهم النذارة في الدنيا من العقوبات الدنيوية والدينية المرتبة على الجهل والظلم، وفي الأخرى بالعقاب الويل والعذاب الطويل. وهذه الجملة تفصيلها ما جاء به ﷺ من الكتاب والسنة المشتمل على ذلك.

﴿٤٦﴾ الرابع: كونه ﴿داعياً إلى الله﴾؛ أي: أرسله الله يدعو الخلق إلى ربهم ويشوقهم^(٢) لكرامته ويأمرهم بعبادته التي خلَقوا لها، وذلك يستلزم استقامته على ما يدعو إليه وذكر تفاصيل ما يدعو إليه؛ بتعريفهم لربهم بصفاته المقدسة، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، وذكر أنواع العبودية، والدعوة إلى الله بأقرب طريق موصل إليه، وإعطاء كل ذي حق حقه، وإخلاص الدعوة إلى الله لا إلى نفسه وتعظيمها؛ كما قد يعرض ذلك لكثير من النفوس في هذا المقام، وذلك كله بإذن ربه له^(٣) في الدعوة وأمره وإرادته وقدره.

الخامس: كونه ﴿سراجاً منيراً﴾ وذلك يقتضي أن الخلق في ظلمة عظيمة، لا نور يهتدى به في ظلماتها، ولا علم يُستدلُّ به في جهاتها، حتى جاء الله بهذا النبي الكريم، فأضاء الله به تلك الظلمات، وعلم به من الجهالات، وهدى به ضلالاً إلى الصراط المستقيم، فأصبح أهل الاستقامة قد وَضَحَ لهم الطريق، فَمَشَوْا خلف هذا الإمام، وعرفوا به الخير والشر وأهل السعادة من أهل الشقاوة، واستناروا به

(١) في (ب): «مشاهداً».

(٢) في (ب): «ويشوقهم».

(٣) في (ب): «بإذن الله».

لمعرفة معبودهم، وعرفوه بأوصافه الحميدة وأفعاله السديدة وأحكامه الرشيدة.

﴿٤٧﴾ وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾: ذكر في هذه الجملة المبشر، وهم المؤمنون، وعند ذكر الإيمان بمفرده تدخل فيه الأعمال الصالحة، وذكر المبشر به، وهو الفضل الكبير؛ أي: العظيم الجليل الذي لا يقدر قدره من النصر في الدنيا وهداية القلوب وغفران الذنوب وكشف الكروب وكثرة الأرزاق الدارة وحصول النعم السارة والفوز برضا ربهم وثوابه والنجاة من سخطه وعقابه، وهذا مما ينشط العاملين أن يذكر لهم من ثواب الله على أعمالهم ما به يستعينون على سلوك الصراط المستقيم، وهذا من جملة حكم الشرع: كما أن من حكمه أن يذكر في مقام التهيب العقوبات المرتبة على ما يرهّب منه؛ ليكون عوناً على الكف عما حرم الله.

﴿٤٨﴾ ولما كان ثم طائفة من الناس مستعدة للقيام بصدد الداعين إلى الله من الرسل وأتباعهم، وهم المنافقون الذين أظهروا الموافقة في الإيمان وهم كفرة فجرة في الباطن، والكفار ظاهراً وباطناً؛ نهى الله رسوله عن طاعتهم وحذره ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَطْعَمُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾؛ أي: في كل أمر يصد عن سبيل الله، ولكن لا يقتضي هذا أذاهم، بل لا تطعمهم، ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾: فإن ذلك جالب لهم وداع إلى قبول الإسلام وإلى كف كثير من أذيتهم له ولأهله، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾: في إتمام أمرك وخذلان عدوك، ﴿وَكُفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾: توكل إليه الأمور المهمة، فيقوم بها ويسهلها على عبده.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

﴿٤٩﴾ يخبر تعالى المؤمنين أنهم إذا نكحوا المؤمنات ثم طلقوهن من قبل أن يمسوهن؛ فليس عليهن في ذلك عدة يعتد بها أزواجهن عليهن، وأمرهم بتمتعهن بهذه الحالة بشيء من متاع الدنيا الذي يكون فيه جبر لخواتمهن لأجل فراقهن، وأن يفارقوهن فراقاً جميلاً من غير مخاصمة ولا مشاتمة ولا مطالبة ولا غير ذلك.

ويستدل بهذه الآية على أن الطلاق لا يكون إلا بعد النكاح، فلو طلقها قبل أن ينكحها أو علّق طلاقها على نكاحها؛ لم يقع؛ لقوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾، فجعل الطلاق بعد النكاح، فدل على أنه قبل ذلك لا محل له. وإذا

كان الطلاق الذي هو فرقة تامة وتحريم تام لا يقع قبل النكاح؛ فالتحريم ناقص لظهار أو إيلاء ونحوه من باب أولى وأحرى أن لا يقع قبل النكاح؛ كما هو أصح قولي العلماء.

[وإدل] على جواز الطلاق لأن الله أخبر به عن المؤمنين على وجه لم يلمهم عليه، ولم يؤنبهم مع تصدير الآية بخطاب المؤمنين.

وعلى جوازه قبل المسيس؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾.

وعلى أن المطلقة قبل الدخول لا عدّة لها، بل بمجرد طلاقها يجوز لها التزوج حيث لا مانع.

وعلى أن عليها العدّة بعد الدخول. وهل المراد بالدخول والمسيس الوطء كما هو مجمع عليه أو وكذلك الخلوة ولو لم يحصل معها وطء كما أفتى بذلك الخلفاء الراشدون، وهو الصحيح؛ فمتى^(١) دخل عليها وطئها أم لا، إذا خلا بها، وجب عليها العدّة.

وعلى أن المطلقة قبل المسيس تمتع على الموسع قدره وعلى المقتر قدره، ولكن هذا إذا لم يفرض لها مهر؛ فإن كان لها مهر مفروض؛ فإنه إذا طلق قبل الدخول؛ تنصّف المهر، وكفى عن المتعة.

وعلى أنه ينبغي لمن فارق زوجته قبل الدخول أو بعده أن يكون الفراق جميلاً يحمد فيه كل منهما الآخر، ولا يكون غير جميل؛ فإن في ذلك من الشر المترتب عليه من قدح كل منهما بالآخر شيء كثير.

وعلى أن العدّة حق للزوج؛ لقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾: دل مفهومه أنه لو طلقها بعد المسيس؛ كان له عليها عدة.

وعلى أن المفارقة بالوفاة تعتد مطلقاً؛ لقوله: ﴿ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ...﴾ الآية.

وعلى أن من عدا غير المدخول بها من المفارقات من الزوجات بموت أو حياة عليهنّ العدة.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّ لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجْرَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِنْ أَفْءٍ

(١) في (ب): «فمن».

اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتٍ عَمَّكَ وَبَنَاتٍ عَمَّتِكَ وَبَنَاتٍ خَالَكَ وَبَنَاتٍ خَالَتِكَ أَلَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَأَمْرَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾.

﴿٥٠﴾ يقول تعالى ممتثلاً على رسوله بإحلاله له ما أحلّ مما يشترك هو والمؤمنون وما ينفرد به ويختص: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ﴾؛ أي: أعطيتهن مهرهن من الزوجات، وهذا من الأمور المشتركة بينه وبين المؤمنين؛ فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَذَلِكَ يَبَاحُ لَهُمْ مَن ^(١) آتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ مِنَ الْأَزْوَاجِ. ﴿و﴾ كَذَلِكَ أَحْلَلْنَا لَكَ ﴿مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾؛ أي: الإماء التي ملكت، ﴿مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾: من غنيمة الكفار من عبيدهم، والأحرار مَن لَهُنَّ زَوْجٌ مِنْهُمْ وَمَنْ لَا زَوْجَ لَهُنَّ، وهذا أيضاً مشترك، وكذلك من المشترك قوله: ﴿وَبَنَاتٍ عَمَّكَ وَبَنَاتٍ عَمَاتِكَ وَبَنَاتٍ خَالَكَ وَبَنَاتٍ خَالَتِكَ﴾: شمل العمّ والعمة والخال والخالة القرييين والبعيدين، وهذا حصرُ المحللات، يؤخذ من مفهومه أَنَّ ما عداهنَّ من الأقارب غير محلّل؛ كما تقدّم في سورة النساء؛ فَإِنَّهُ لَا يُبَاحُ مِنَ الْأَقْرَابِ مِنَ النِّسَاءِ غَيْرَ هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعِ، وما عداهنَّ من الفروع مطلقاً، والأصول مطلقاً، وفروع الأب والأم، وإن نزلوا، وفروع مَن فوقهم لصلبه؛ فَإِنَّهُ لَا يُبَاحُ.

وقوله: ﴿اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ [معك]: قَيْدٌ لِحُلِّ هَؤُلَاءِ لِلرَّسُولِ؛ كما هو الصواب من القولين في تفسير هذه الآية، وأما غيره عليه الصلاة والسلام؛ فقد علّم أَنَّ هذا قيد لغير الصّحة. ﴿و﴾ أَحْلَلْنَا لَكَ ﴿أَمْرَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾: بمجرّد هبتها نفسها، ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾؛ أي: هذا تحت الإرادة والرغبة، ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ يعني: إباحة الموهوبة ^(٢)، وأما المؤمنون؛ فلا يحلّ لهم أَنْ يَتَزَوَّجُوا أَمْرَةً بِمَجْرَدِ هبتها نفسها لهم. ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾؛ أي: قد علمنا ما على المؤمنين وما يحلّ لهم وما لا يحل من الزوجات وملك اليمين، وقد أعلّمناهم بذلك، وبيّنا فرائضه فما في هذه الآية مما يخالف ذلك؛ فَإِنَّهُ خَاصٌّ لَكَ؛ لكون الله جَعَلَهُ خطاباً للرّسول وحده بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ...﴾ إلى آخر الآية.

(١) في (ب): «ما».

(٢) في (ب): «الموهبة».

وقوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: وأَبَخْنَا لَكَ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ مَا لَمْ تُبَحِّ لِهِمْ، وَوَسَّعْنَا عَلَيْكَ مَا لَمْ نُوَسِّعْ عَلَى غَيْرِكَ؛ ﴿لَكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾: وهذا من زيادة اعتناء الله تعالى برسوله ﷺ، ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾؛ أي: لم يزل متصفاً بالمغفرة والرحمة، وينزل على عباده من مغفرته ورحمته وجوده وإحسانه ما اقتضته حكمته، ووجدت منهم أسبابه.

﴿تُرْجَى مِنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤَيَّ إِلَيْكَ مِنْ تَشَاءُ وَمِنْ أَبْغَيْتَ مِنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَءَ أَعْيُنُهُمْ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ (٥١).

﴿٥١﴾ وهذا أيضاً من توسعة الله على رسوله ورحمته به أن أباح له ترك القسم بين زوجاته على وجه الوجوب، وأنه إن فعل ذلك؛ فهو تبرع منه، ومع ذلك؛ فقد كان ﷺ يجتهد في القسم بينهن في كل شيء، ويقول: «اللهم! هذا قسمي فيما أملك؛ فلا تلمني فيما لا أملك»^(١)، فقال هنا: ﴿تُرْجَى مِنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ﴾؛ أي: تؤخر من أردت من زوجاتك، فلا تؤويها إليك، ولا تبئت عندها، ﴿وَتُؤَيَّ إِلَيْكَ مِنْ تَشَاءُ﴾؛ أي: تضمها وتبيت عندها، ﴿و﴾ مع ذلك؛ لا يتعين هذا الأمر. فمن ﴿أَبْغَيْتَ﴾؛ أي: أن تؤويها، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾: والمعنى أن الخيرة بيدك في ذلك كله. وقال كثير من المفسرين: إن هذا خاص بالواهبات له أن يرجي من يشاء ويؤوي من يشاء؛ أي: إن شاء؛ قبل من وهبت نفسها له، وإن شاء؛ لم يقبلها. والله أعلم.

ثم بين الحكمة في ذلك، فقال: ﴿ذَلِكَ﴾؛ أي: التوسعة عليك وكون الأمر راجعاً إليك وبيدك وكون ما جاء منك إليهن تبرعاً منك؛ ﴿أَدْنَى أَنْ تَقْرَءَ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾: لعلمهن أنك لم تترك واجباً ولم تفرط في حق لازم، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾؛ أي: ما يعرض لها عند أداء الحقوق الواجبة والمستحبة وعند المزامحة في الحقوق؛ فلذلك شرع لك التوسعة يا رسول الله؛ لتطمئن قلوب زوجاتك، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾؛ أي: واسع العلم، كثير

(١) أخرجه أحمد (١٤٤/٦)، وأبو داود (٢١٣٤)، وابن ماجه (١٩٧١)، والنسائي (٦٤/٧)، والترمذي (١١٤٠)، وابن حبان (٥/١٠)، والحاكم (١٨٢/٢)، وصححه ووافقه الذهبي، واختلف في وصله وإرساله، وانظر: «الأرواء» (٢٠١٨).

الحلم، ومن علمه أن شرع لكم ما هو أصلح لأموركم وأكثر لأجوركم، ومن حلمه أن لم يعاقبكم بما صدر منكم، وما أصرت عليه قلوبكم من الشر.

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ۝٥٢﴾ .

﴿٥٢﴾ وهذا شكر من الله الذي لم يزل شكوراً لزوجات رسوله رضي الله عنهن، حيث اخترن الله ورسوله والدار الآخرة؛ أن رجمهن وقصر رسوله عليهن، فقال: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾: زوجاتك الموجودات، ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾؛ أي: ولا أن تطلق بعضهن فتأخذ بدها، فحصل بهذا أمنهن من الضرائر ومن الطلاق؛ لأن الله قضى أنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، لا يكون بينه وبينهن فرقة، ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾؛ أي: حسن غيرهن؛ فلا يخللن لك، ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾؛ أي: السراري؛ فذلك جائز لك؛ لأن المملوكات في كراهة الزوجات لسن بمنزلة الزوجات في الإضرار للزوجات. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾؛ أي: مراقباً للأمور وعالماً بما إليه تؤول وقائماً بتدبيرها على أكمل نظام وأحسن إحكام.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَقْسِمِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْخَوِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَلُّوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ۝٥٣﴾ .

﴿٥٣﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالتأدب مع رسول الله ﷺ في دخول بيوته، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ﴾؛ أي: لا تدخلوها بغير إذن للدخول فيها لأجل الطعام، وأيضاً لا تكونوا «ناظرين» إناؤه؛ أي: منتظرين ومتأنين لانتظار نضجه أو سعة صدر بعد الفراغ منه. والمعنى: أنكم لا تدخلوا بيوت النبي ﷺ إلا بشرطين: الإذن لكم بالدخول، وأن يكون جلوسكم بمقدار الحاجة، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ

فانتشروا ولا مُستأنسين لحديثٍ ﴿٥١﴾؛ أي: قبل الطعام وبعده.

ثم بيّن حكمة النهي وفائدته، فقال: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ﴾؛ أي: انتظاركم الزائد على الحاجة ﴿كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾؛ أي: يتكلّف منه ويشقّ عليه حبسكم إيّاه عن شؤون بيته وأشغاله فيه، ﴿فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾: أن يقول لكم: اخْرُجُوا! كما هو جاري العادة أن الناس - خصوصاً أهل الكرم منهم - يَسْتَخْيُونَ أن يُخْرِجُوا الناس من مساكنهم، ﴿وَلَكِنْ﴾ لكن ﴿اللَّهُ لَا يَسْتَخْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾: فالأمر الشرعي، ولو كان يُتَوَهَّم أن في تركه أدياً وحياء؛ فإن^(١) الحزم كلّ الحزم اتباع الأمر الشرعي، وأن يجزَم أن ما خالفه ليس من الأدب في شيء، والله تعالى لا يستحيي أن يأمركم بما فيه الخير لكم والرفق لرسوله كائنًا ما كان.

فهذا أدبهم في الدخول في بيوته، وأما أدبهم معه في خطاب زوجاته؛ فإنه: إمّا أن يحتاج إلى ذلك، أو لا يحتاج إليه؛ فإن لم يحتاج إليه؛ فلا حاجة إليه، والأدب تركه، وإن احتيج إليه، كأن يسألهنّ متاعاً أو غيره من أواني البيت أو نحوها؛ فإنهنّ يُسألنّ ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾؛ أي: يكون بينكم وبينهنّ سترٌ يستر عن النظر؛ لعدم الحاجة إليه، فصار النظر إليهنّ ممنوعاً بكلّ حال، وكلامهنّ فيه التفصيل الذي ذكره الله. ثم ذكر حكمة ذلك بقوله: ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾؛ لأنه أبعد عن الريبة، وكلّما بُعد الإنسان عن الأسباب الداعية إلى الشر؛ فإنه أسلم له وأطهر لقلبه؛ فلهذا من الأمور الشرعيّة التي بيّن الله كثيراً من تفاصيلها أن جميع وسائل الشر وأسبابه ومقدماته ممنوعة، وأنه مشروع البعد عنها بكلّ طريق.

ثم قال كلمة جامعة وقاعدة عامة: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾: يا معشر المؤمنين؛ أي: غير لائق ولا مستحسن منكم، بل هو أقبح شيء، ﴿أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾؛ أي: أذية قولية أو فعلية بجميع ما يتعلق به، ﴿وَلَا أَنْ تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبْدًا﴾: هذا من جملة ما يؤذيه؛ فإنه ﷺ له مقام التعظيم والرفعة والإكرام، وتزوّج زوجاته بعده مخلّ بهذا المقام، وأيضاً؛ فإنهنّ زوجاته في الدنيا والآخرة، والزوجة باقية بعد موته؛ فلذلك لا يحلّ نكاح زوجاته بعده لأحدٍ من أمته. ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً﴾: وقد امثلت هذه الأمة هذا الأمر، واجتنب ما نهى الله عنه منه، ولله الحمد والشكر.

(١) في (ب): «فإنه».

﴿٥٤﴾ ثم قال تعالى: ﴿إِنْ تُبَدُّوا شَيْئًا﴾؛ أي: تظهروه، ﴿أَوْ تُخْفَوْه فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾: يعلم ما في قلوبكم، وما أظهرتموه؛ فيجازيكم عليه.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَ فِي عَابَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ وَأَقْبَيْنِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ .

﴿٥٥﴾ لَمَّا ذَكَرَ أَنَّهُنَّ لَا يُسْأَلْنَ مُتَاعاً إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَكَانَ اللَّفْظُ عَامًّا لِكُلِّ أَحَدٍ؛ احتِيجَ أَنْ يُسْتَنْثَى مِنْهُ هَؤُلَاءِ الْمَذْكُورُونَ مِنَ الْمَحَارِمِ، وَأَنَّهُ ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾ فِي عَدَمِ الْإِحْتِجَابِ عَنْهُنَّ، وَلَمْ يَذْكَرْ فِيهَا الْأَعْمَامُ وَالْأَخْوَالُ؛ لِأَنَّهُنَّ إِذَا لَمْ يَخْتَجِبْنَ عَمَّنْ هُنَّ عَمَاتُهُ وَخَالَاتُهُ مِنْ أَبْنَاءِ الْإِخْوَةِ وَالْأَخَوَاتِ مَعَ رَفْعَتِهِنَّ عَلَيْهِمْ؛ فَعَدَمَ إِحْتِجَابِهِنَّ عَنْ عَمَّهُنَّ وَخَالَهِنَّ مِنْ بَابِ أُولَى، وَلِأَنَّ مَنْطُوقَ الْآيَةِ الْأُخْرَى الْمَصْرُوحَةَ بِذِكْرِ الْعَمِّ وَالْخَالِ مُقَدِّمَةً عَلَى مَا يُفْهَمُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا نِسَاءَهُنَّ﴾؛ أَي: لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يَحْتَجِبْنَ عَنْ نِسَائِهِنَّ؛ أَي: اللَّاتِي مِنْ جِنْسِهِنَّ فِي الدِّينِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ مَخْرَجاً لِنِسَاءِ الْكُفَّارِ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ جِنْسَ النِّسَاءِ؛ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ لَا تَحْتَجِبُ عَنِ الْمَرْأَةِ، ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾: مَا دَامَ الْعَبْدُ فِي مِلْكِهَا جَمِيعَهُ، وَلَمَّا رَفَعَ الْجُنَاحَ عَنْ هَؤُلَاءِ؛ شَرَطَ فِيهِ وَفِي غَيْرِهِ لَزُومَ تَقْوَى اللَّهِ، وَأَنْ لَا يَكُونَ فِي ذَلِكَ مَحْذُورٌ شَرْعِيٌّ، فَقَالَ: ﴿وَأَتَّقِينَ اللَّهَ﴾؛ أَي: اسْتَعْمِلْنَ تَقْوَاهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾: يَشْهَدُ أَعْمَالُ الْعِبَادِ ظَاهِرَهَا وَبَاطِنَهَا، وَيَسْمَعُ أَقْوَالَهُمْ، وَيَرَى حَرَكَاتِهِمْ؛ ثُمَّ يُجَازِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَتَمَّ الْجَزَاءِ وَأَوْفَاهُ.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ﴿٥٦﴾ .

﴿٥٦﴾ وهذا فيه تنبيه على كمال رسول الله ﷺ ورفعة درجته وعلو منزلته عند الله وعند خلقه ورفع ذكره، و﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ تعالى ﴿وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ﴾ عليه؛ أي: يشني الله عليه بين الملائكة وفي الملائكة الأعلى لمحبتة تعالى له، ويشني عليه الملائكة المقربون، ويدعون له ويتضرعون. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾: اقتداء بالله وملائكته، وجزاء له على بعض حقوقه عليكم، وتكميلاً لإيمانكم، وتعظيماً له ﷺ ومحبة وإكراماً، وزيادة في حسناتكم. وتكفيراً من سيئاتكم، وأفضل هيئات الصلاة عليه - عليه الصلاة والسلام - ما علم به أصحابه: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد

مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد^(١). وهذا الأمر بالصلاة والسلام عليه مشروع في جميع الأوقات، وأوجبته كثير من العلماء في الصلاة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾﴾.

﴿٥٧ - ٥٨﴾ لما أمر تعالى بتعظيم رسوله ﷺ والصلاة والسلام عليه؛ نهى عن أذيته، وتوعد عليها، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: وهذا يشمل كل أذية قولية أو فعلية من سب وشتم أو تنقص له أو لدينه أو ما يعود إليه بالأذى، ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا﴾؛ أي: أبعدهم وطردهم، وَمِنْ لَعْنِهِمْ فِي الدُّنْيَا أَنَّهُ يَتَحْتَمُّ^(٢) قَتْلُ مَنْ شَتَمَ الرَّسُولَ وَأَذَاهُ، ﴿وَالْآخِرَةُ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾^(٣): جزاء له على أذاه أن يؤذى بالعذاب [الأليم]^(٤)، فأذية الرسول ليست كأذية غيره؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لا يؤمن العبد بالله حتى يؤمن برسوله، وله من التعظيم الذي هو من لوازم الإيمان ما يقتضي ذلك أن لا يكون مثل غيره، وإن كان أذية المؤمنين عظيمة وإثمها عظيمًا، ولهذا قال فيها: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾؛ أي: بغير جناية منهم موجبة للأذى، ﴿فَقَدْ احْتَمَلُوا﴾: على ظهورهم ﴿بُهْتَانًا﴾: حيث آذوهم بغير سبب، ﴿وَإِثْمًا مُبِينًا﴾: حيث تعدوا عليهم وانتهكوا حرمة أمر الله باحترامها، ولهذا كان سب أحاد المؤمنين موجبًا للتعزير بحسب حالته وعلو مرتبته؛ فتعزير مَنْ سَبَّ الصَّحَابَةَ أبلغ، وتعزير مَنْ سَبَّ الْعُلَمَاءَ وَأَهْلَ الدِّينِ أعظم من غيرهم.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّارُ كُلُّ لَازِوَجِكَ وَبَنَانِكَ وَسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يَذِينَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلْبِيهِنَّ ذَلِكَ أَدَقَّ أَنْ يُعْرِقَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ لَنْ لَرَّ يَنْتَهِي الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَارُواوَنَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ

(١) أخرجه البخاري (٦٣٥٧)، ومسلم (٤٠٦) من حديث كعب بن عجرة. وانظر «جلاء الأفهام» لابن القيم.

(٢) في النسختين: «اليماء».

(٣) في (ب): «يحتم».

(٤) كذا في النسختين.

أَيْنَمَا تُقِفُوا أَخِذُوا وَقْتِكُمْ لِقَائِهِ ۖ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ .

﴿٥٩﴾ هذه الآية هي التي تسمى آية الحجاب، فأمر الله نبيه أن يأمر النساء عموماً، ويبدأ بزوجاته وبناته - لأنهن أكد من غيرهن، ولأن^(١) الأمر لغيره ينبغي أن يبدأ بأهله قبل غيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾. ﴿أَنْ يُذِنَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلَابِيهِنَّ﴾: وهن اللاتي يكنن فوق الثياب من ملحفة وخمار ورداء ونحوه؛ أي: يغطين بها وجوههن وصدورهن، ثم ذكر حكمة ذلك، فقال: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾: دل على وجود أدية إن لم يحتجبن، وذلك لأنهن إذا لم يحتجبن، ربما ظن أنهن غير عفيفات، فيتعرض لهن من في قلبه مرض، فيؤذيهن، وربما استهين بهن، وظن أنهن إماء، فتهاون بهن من يريد الشر؛ فالاحتجاب حاسم لمطامع الطامعين فيهن. ﴿وكان الله غفوراً رحيمًا﴾: حيث غفر لكم ما سلف ورجمكم بأن بين لكم الأحكام وأوضح الحلال والحرام؛ فهذا سد للباب من جهتهن.

﴿٦٠ - ٦١﴾ وأما من جهة أهل الشر؛ فقد توعدهم بقوله: ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ﴾؛ أي: مرض شك أو شهوة، ﴿والمرجفون في المدينة﴾؛ أي: المخوفون المرهبون الأعداء، المحدثون^(٢) بكثرتهم وقوتهم وضعف المسلمين، ولم يذكر المعمول الذي ينتهون عنه؛ ليعم ذلك كل ما توحى به أنفسهم إليهم، وتوسوس به، وتدعو إليه من الشر من التعريض بسب الإسلام وأهله، والإرجاف بالمسلمين، وتوهين قواهم، والتعرض للمؤمنات بالسوء والفاحشة. وغير ذلك من المعاصي الصادرة من أمثال هؤلاء.

﴿لَنُغَرِّبَنَّكَ بِهِمْ﴾؛ أي: نأمرك بعقوبتهم وقتالهم ونسلطك عليهم، ثم إذا فعلنا ذلك؛ لا طاقة لهم بك، وليس لهم قوة ولا امتناع، ولهذا قال: ﴿ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً﴾؛ أي: لا يجاورونك في المدينة إلا قليلاً؛ بأن تقتلهم أو تنفيهم، وهذا فيه دليل لنفي أهل الشر الذين يتضرر بإقامتهم بين أظهر المسلمين؛ فإن ذلك أحسم للشر وأبعد منه، ويكونون ﴿ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً﴾؛ أي: مبغدين حيث^(٣)

(٢) في (ب): «المحدثون».

(١) في (ب): «ولأنه».

(٣) في (ب): «أين».

وَجِدُوا، لَا يَحْصُلُ لَهُمْ أَمْنٌ، وَلَا يَقْرَأُ^(١) لَهُمْ قَرَارٌ، يَخْشَوْنَ أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُحْبَسُوا أَوْ يَعَاقَبُوا.

﴿٦٢﴾ ﴿سُئِلَ اللَّهُ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾: أَنْ مَنْ تَمَادَى فِي الْعَصِيَانِ وَتَجَرَأَ عَلَى الْأَذَى وَلَمْ يَنْتَهِ مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ يَعَاقِبُ عَقُوبَةً بَلِيغَةً، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾؛ أَي: تَغْيِيرًا، بَلْ سُنَّتُهُ تَعَالَى وَعَادَتُهُ جَارِيَةٌ مَعَ الْأَسْبَابِ الْمَقْتَضِيَةِ لِأَسْبَابِهَا.

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُذِيرُكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيِّنَنَّ أَطْعَمَنَا اللَّهُ وَأَطْعَمَنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطْعَمْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَهُمْ مِنْكَ الْعَذَابَ وَالْعَنَتُمْ لَعَنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾.

﴿٦٣﴾ أَي: يَسْتَخْبِرُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ اسْتِعْجَالًا لَهَا، وَبَعْضُهُمْ تَكْذِيبًا لَوْقَعَهَا وَتَعْجِيزًا لِلَّذِي أَخْبَرَ بِهَا، ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ أَي: لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ؛ فَلَيْسَ لِي وَلَا لْغَيْرِي بِهَا عِلْمٌ، وَمَعَ هَذَا؛ فَلَا^(٢) تَسْتَبْطِئُوهَا، ﴿وَمَا يُذِيرُكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾.

﴿٦٤ - ٦٦﴾ وَمَجْرَدُ مَجِيءِ السَّاعَةِ قَرِيبًا وَبَعْدًا لَيْسَ تَحْتَهُ نَتِيجَةٌ وَلَا فَائِدَةٌ، وَإِنَّمَا النَتِيجَةُ وَالْخَسَارُ وَالرِّيحُ وَالشَّقَاوَةُ^(٣) وَالسَّعَادَةُ: هَلْ يَسْتَحِقُّ الْعَبْدُ الْعَذَابَ أَوْ يَسْتَحِقُّ الثَّوَابَ؛ فَهَذِهِ سَأَخْبِرُكُمْ بِهَا وَأَصِفُ لَكُمْ مَسْتَحَقَّهَا، فَوْصِفُ مَسْتَحَقِّ الْعَذَابِ وَوَصْفُ الْعَذَابِ؛ لِأَنَّ الْوَصْفَ الْمَذْكُورَ مَنْطِقِيٌّ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ بِالسَّاعَةِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ﴾؛ أَي: الَّذِينَ صَارَ الْكُفْرُ دَابَّهُمْ وَطَرِيقَتَهُمُ الْكُفْرُ بِاللَّهِ وَبِرُسُلِهِ وَبِمَا جَاؤُوا بِهِ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ، فَأَبْعَدَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَكَفَى بِذَلِكَ عِقَابًا، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾؛ أَي: نَارًا مَوْقَدَةً تُسَعَّرُ فِي أَجْسَامِهِمْ، وَيَبْلُغُ الْعَذَابَ إِلَى أَفْئِدَتِهِمْ، وَيَخْلُدُونَ فِي ذَلِكَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ، فَلَا يَخْرُجُونَ مِنْهُ، وَلَا يُفَقِّرُ عَنْهُمْ سَاعَةٌ، ﴿وَلَا يَجِدُونَ﴾ لَهُمْ ﴿وِلِيًّا﴾: فَيُعْطِيهِمْ مَا طَلَبُوهُ ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾: يَدْفَعُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ، بَلْ قَدْ تَخَلَّى عَنْهُمْ الْعَلِيِّ النَّصِيرِ وَأَحَاطَ بِهِمْ عَذَابُ السَّعِيرِ، وَبَلَغَ مِنْهُمْ مَبْلَغًا عَظِيمًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾: فَيَذُقُونَ

(١) فِي (ب): «وَلَا يَقْرَأُ».

(٢) فِي (ب): «قَدْ تَسْتَبْطِئُونَهَا».

(٣) فِي (ب): «وَالشَّقَا».

حرَّها، ويشتدُّ عليهم أمرُها، ويتحسرون على ما أسلفوا. و ﴿يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾: فسلَّمنا من هذا العذاب، واستحقَّقنا كالمطيعين جزيل الثواب، ولكن أمانة فات وقتها، فلم تفدهم إلا حسرةً وندماً وهماً وغماً وألماً.

﴿٦٧﴾ ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا﴾: وقلَّدناهم على ضلالهم، ﴿فَاضْلُومُوا السَّبِيلَ﴾؛ كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصِي الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا. يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا. لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ [بعد إذ جاءني]...﴾ الآية.

﴿٦٨﴾ ولما علموا أنَّهم هم وكبراءهم مستحقُّون للعقاب؛ أرادوا أن يشتفوا ممَّن أضلُّوهم، فقالوا: ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾: فيقول الله ﴿لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾: فكلُّكم اشركتم في الكفر والمعاصي، فتشركون في العقاب، وإن تفاوت عذاب بعضكم على بعض بحسب تفاوت الجرم.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكَوْنُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجْهًا﴾. ﴿١٩﴾

﴿٦٩﴾ يحذِّر تعالى عباده المؤمنين عن أذية رسولهم محمد ﷺ النبي الكريم الرؤوف الرحيم، فيقابلوه بضدَّ ما يجب له من الإكرام والاحترام، وأن لا يتشبهوا بحال الذين آذوا موسى بن عمران كليم الرحمن، فبرَّاه الله مما قالوا من الأذية؛ أي: أظهر الله لهم براءته، والحال أنَّه عليه الصلاة والسلام ليس محلَّ التهمة والأذية؛ فإنَّه كان وجيهاً عند الله، مقرباً لديه، من خواص المرسلين، ومن عباد الله^(١) المخلصين، فلم يزجرهم ما له من الفضائل عن أذيته والتعرض له بما يكره. فاحذروا أيُّها المؤمنون أن تتشبهوا بهم في ذلك، والأذية المشار إليها هي قول بني إسرائيل عن موسى^(٢) لما رأوا شدة حياثه وتستره عنهم: إنَّه ما يمنعه من ذلك إلا أنَّه آدر؛ أي: كبير الخصيتين، واشتهر ذلك عندهم، فأراد الله أن يبرِّئه منهم، فاغتسل يوماً، ووضع ثوبه على حجر، ففرَّ الحجر بثوبه، فأهوى موسى عليه السلام في طلبه، فمرَّ به على مجالس بني إسرائيل، فأروه أحسن خلق الله، فزال عنه ما رموه به^(٣).

(١) في (ب): «عباده».

(٢) في (ب): «الموسى».

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٠٤)، ومسلم (٣٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾.

﴿٧٠﴾ يأمر تعالى المؤمنين بتقواه في جميع أحوالهم في السر والعلانية، ويخص منها ويندب للقول السديد، وهو القول الموافق للصواب أو المقارب له عند تعذر اليقين من قراءة وذكر وأمر بمعروف ونهي عن منكر وتعلم علم وتعليمه والحرص على إصابة الصواب في المسائل العلمية وسلوك كل طريق موصل لذلك وكل وسيلة تُعين عليه. ومن القول السديد لين الكلام ولطفه في مخاطبة الأنام والقول المتضمن للنصح والإشارة بما هو الأصلح.

﴿٧١﴾ ثم ذكر ما يترتب على تقواه وقول القول السديد، فقال: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾؛ أي: يكون ذلك سبباً لصلاحها وطريقاً لقبولها؛ لأن استعمال التقوى تُتَقَبَّلُ به الأعمال؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾: ويوفق فيه الإنسان للعمل الصالح، ويُصْلِحُ الله الأعمال أيضاً بحفظها عما يفسدها وحفظ ثوابها ومضاعفته؛ كما أن الإخلال بالتقوى والقول السديد سبب لفساد الأعمال وعدم قبولها وعدم ترتب آثارها عليها، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾: أيضاً ﴿ذُنُوبَكُمْ﴾: التي هي السبب في هلاككم؛ فالتقوى تستقيم بها الأمور، ويندفع بها كل محذور، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لَعَذَابُ اللَّهِ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

﴿٧٢﴾ يعظم تعالى شأن الأمانة التي ائتمن الله عليها المكلفين، التي هي امتثال الأوامر واجتناب المحارم في حال السر والخفية كحال العلانية، وأنه تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة السماوات والأرض والجبال عرض تخيير لا تحتيم، وأنتك إن قمت بها وأدبتيها على وجهها؛ فلك الثواب، وإن لم تقومي بها ولم تؤدبها؛ فعليك العقاب، ﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾؛ أي: خوفاً أن لا يقمن بما حملن، لا عصياناً لرَبَّن ولا زهداً في ثوابه، وعرضها الله على الإنسان على ذلك الشرط المذكور، فقبلها وحملها مع ظلمه وجهله، وحمل هذا الحمل الثقيل.

﴿٧٣﴾ فانقسم الناس بحسب قيامهم بها وعدمه إلى ثلاثة أقسام: منافقون

[أظهروا أنهم] قاموا بها ظاهراً لا باطناً، ومشركون تركوها ظاهراً وباطناً، ومؤمنون قائمون بها ظاهراً وباطناً. فذكرَ الله تعالى أعمالَ هذه الأقسام الثلاثة وما لهم من الثواب والعقاب، فقال: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾: فله تعالى الحمدُ حيث خَتَمَ هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين الدالَّين على تمام مغفرة الله وسعة رحمته وعموم جوده، مع أنَّ المحكوم عليهم كثيرٌ، منهم لم يستحقَّ المغفرة والرحمة، لنفاقه وشركه.

تم تفسير سورة الأحزاب بحمد الله وعونه.



تفسير سورة سبا

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ (٢).

﴿١﴾ ﴿الحمدُ﴾: الثناء بالصفات الحميدة والأفعال الحسنة؛ فله تعالى الحمد؛ لأنَّ جميع صفاته يُحمد عليها لكونها صفات كمال، وأفعاله يُحمد عليها لأنَّها دائرة بين الفضل الذي يُحمد عليه ويُشكر، والعدل الذي يُحمد عليه ويُعترف بحكمته فيه. وَحَمَدَ نَفْسَهُ هنا على أنَّ ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾: مُلْكاً وعبيداً يتصرَّف فيهم بحمده. ﴿وله الحمدُ في الآخرة﴾: لأنَّ في الآخرة يظهر من حمده والثناء عليه ما لا يكون في الدنيا؛ فإذا قضى الله تعالى بين الخلائق كلَّهم، ورأى الناس والخلق كلَّهم ما حكم به وكمال عدله وقسطه وحكمته فيه؛ حمدوه كلَّهم على ذلك، حتى أهل العقاب؛ ما دخلوا النار إلاَّ وقلوبهم ممتلئة من حمده، وأنَّ هذا من جزاء أعمالهم، وأنَّه عادلٌ في حكمه بعقابهم.

وأما ظهورُ حمده في دار النعيم والثواب؛ فذلك شيء قد تواردت به الأخبار وتوافق عليه الدليلُ السمعيُّ والعقليُّ؛ فإنَّهم في الجنة يرون من توالي نعم الله

وإدراج خيره وكثرة بركاته وسعة عطاياه التي لم يبق في قلوب أهل الجنة أمنية ولا إرادة إلا وقد أعطي فوق ما تمئى وأراد، بل يُغَطُّون من الخير ما لم تتعلّق به أمانيتهم ولم يخطر بقلوبهم؛ فما ظنك بحمدهم لرّبهم في هذه الحال مع أن في الجنة تضمحلّ العوارض والقواطع التي تقطع عن معرفة الله ومحبّته والثناء عليه، ويكون ذلك أحبّ إلى أهلها من كلّ نعيم وألذّ عليهم من كلّ لذة؟! ولهذا؛ إذا رأوا الله تعالى وسمعوا كلامه عند خطابه لهم؛ أذهلهم ذلك عن كلّ نعيم، ويكون الذكر لهم في الجنة كالنفس متواصلاً في جميع الأوقات، هذا إذا أضفت ذلك إلى أنّه يظهر لأهل الجنة في الجنة كلّ وقت من عظمة ربهم وجلاله وجماله وسعة كماله ما يوجب لهم كمال الحمد والثناء عليه. ﴿وهو الحكيم﴾: في ملكه وتديره، الحكيم في أمره ونهيه. ﴿الخبير﴾: المطلّع على سرائر الأمور وخفاياها.

﴿٢﴾ ولهذا فصلَ علمه بقوله: ﴿يعلم ما يلج في الأرض﴾؛ أي: من مطر وبذر وحيوان، ﴿وما يخرج منها﴾: من أنواع النباتات وأصناف الحيوانات، ﴿وما ينزل من السماء﴾: من الأملاك والأرزاق والأقدار، ﴿وما يعرج فيها﴾: من الملائكة والأرواح وغير ذلك. ولما ذكر مخلوقاته وحكمته فيها وعلمه بأحوالها؛ ذكر مغفرته ورحمته لها، فقال: ﴿وهو الرحيم الغفور﴾؛ أي: الذي الرحمة والمغفرة وصفه، ولم تنزل آثارهما تنزل على العباد^(١) كلّ وقت بحسب ما قاموا به من مقتضياتهما.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ مَغْفِرُونَ وَرَزَقَ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ هُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ ﴿٥﴾﴾.

﴿٣﴾ لما بين تعالى عظمته بما وصف به نفسه، وكان هذا موجباً لتعظيمه وتقديسه والإيمان به؛ ذكر أن من أصناف الناس طائفة لم تُقدّر ربّها حقّ قدره، ولم تعظمه حق عظمته، بل كفروا به وأنكروا قدرته على إعادة الأموات وقيام الساعة، وعارضوا بذلك رسله، فقال: ﴿وقال الذين كفروا﴾؛ أي: بالله وبرسله وبما جاؤوا به، فقالوا بسبب كفرهم: ﴿لا تأتينا الساعة﴾؛ أي: ما هي إلا هذه الحياة الدنيا

نموت ونحيا! فأمر الله رسوله أن يردّ قولهم ويُنْبِطِلَهُ ويقسيم على البعث وأنه سيأتيهم، واستدلّ على ذلك بدليل من أقرّ به؛ لزمه أن يصدّق بالبعث ضرورة، وهو علمه تعالى الواسع العام، فقال: ﴿عالم الغيب﴾؛ أي: الأمور الغائبة عن أبصارنا وعن علمنا؛ فكيف بالشهادة؟! ثم أكّد علمه فقال: ﴿لا يعزّب﴾؛ أي: لا يغيب عن علمه ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: جميع الأشياء بذواتها وأجزائها، حتى أصغر ما يكون من الأجزاء، وهو المِثْقَال منها، ﴿ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلّا في كتاب مبين﴾؛ أي: قد أحاط به علمه وجرى به قلمه وتضمّنه الكتاب المبين الذي هو اللوح المحفوظ.

فالذي لا يخفى عن علمه مِثْقَال الذرة فما دونه في جميع الأوقات، ويعلم^(١) ما تَنقُصُ الأرض من الأموات وما يبقى من أجسادهم؛ قادرٌ على بعثهم من باب أولى، وليس بعثهم بأعجب من هذا العلم المحيط.

﴿٤﴾ ثم ذكر المقصود من البعث، فقال: ﴿ليجزّي الذين آمنوا﴾: بقلوبهم صدّقوا الله، وصدّقوا رسله تصديقاً جازماً، ﴿وعملوا الصالحات﴾: تصديقاً لإيمانهم. ﴿أولئك لهم مغفرة﴾: لذنوبهم، بسبب إيمانهم وعملهم يندفع بها كلُّ شرٍّ وعقاب، ﴿ورزق كريم﴾: بإحسانهم، يحصل لهم به كلُّ مطلوب ومرغوب وأمنية.

﴿٥﴾ ﴿والذين سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾؛ أي: سعوا فيها كفرّاً بها وتعجيزاً لمن جاء بها وتعجيزاً لمن أنزلها كما عجزوه في الإعادة بعد الموت. ﴿أولئك لهم عذاب من رجز اليم﴾؛ أي: مؤلم لأبدانهم وقلوبهم.

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾.

﴿٦﴾ لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث، وأنهم يرون ما أنزل على رسوله ليس بحق؛ ذكر حالة الموفّقين من العباد، وهم أهل العلم، وأنهم يرون ما أنزل الله على رسوله؛ من الكتاب وما اشتمل عليه من الأخبار ﴿هو الحق﴾؛ أي: الحقّ منحصّر فيه، وما خالفه وناقضه فإنه باطل؛ لأنهم وصلوا من العلم إلى درجة

(١) في (ب): «وعلم».

اليقين، ويرون أيضاً أنه في أوامره ونواهيهِ؛ ﴿يَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾: وذلك لأنهم^(١) جزموا بصدق ما أخبر بها من وجوه كثيرة: من جهة علمهم بصدق مَنْ أخبر بها، ومن جهة موافقتها للأمور الواقعة والكتب السابقة، ومن جهة ما يشاهدون من أخبارها التي تقع عياناً، ومن جهة ما يشاهدون من الآيات العظيمة الدالة عليها في الآفاق وفي أنفسهم، ومن جهة موافقتها لما دلت عليه أسماؤه تعالى وأوصافه، ويرون في الأوامر والنواهي أنها تهدي إلى الصراط المستقيم المتضمن للأمور^(٢) بكل صفة تزكي النفس وتنمي الأجر وتفيد العامل وغيره؛ كالصدق والإخلاص وبر الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلى عموم الخلق ونحو ذلك، وتنتهي عن كل صفة قبيحة، تدنس النفس، وتحبط الأجر، وتوجب الإثم والوزر من الشرك والزنا والربا والظلم في الدماء والأموال والأعراض.

وهذه منقبة لأهل العلم وفضيلة وعلامة لهم، وأنه كلما كان العبد أعظم علماً وتصديقاً بأخبار ما جاء به الرسول وأعظم معرفةً بحكم أوامره ونواهيهِ؛ كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجةً على ما جاء به الرسول، احتج الله بهم على المكذبين المعاندين كما في هذه الآية وغيرها.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مَزْقٍ إِنْكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ٧﴾ أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ حِجَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ شَاءَ نَحْصِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ٩﴾.

﴿٧﴾ أي: ﴿وقال الذين كفروا﴾: على وجه التكذيب والاستهزاء والاستبعاد، وذكر وجه الاستبعاد؛ أي: قال بعضهم لبعض: ﴿هل ندلكم على رجلٍ ينبئكم إذا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مَزْقٍ إِنْكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؛ يعنون بذلك الرجل رسول الله ﷺ، وأنه رجل أتى بما يُستغرب منه، حتى صار بزعمهم فرجةً يتفرجون عليه وأعجوبةً يسخرون منه، وأنه كيف يقول: إنكم مبعوثون بعد ما مُزِقْتُمُ الْبِلَى وتفرقت أوصالكم، واضمحلت أعضاؤكم!

﴿٨﴾ فهذا الرجل الذي يأتي بذلك: هل افتري ﴿على الله كذباً﴾: فتجراً عليه

(٢) في (ب): «اللامر».

(١) في (ب): «أنهم».

وقال ما قال، ﴿أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾: فلا يُستغرب منه؛ فَإِنَّ الجنون فنونٌ، وكلُّ هذا منهم على وجه العناد والظلم، ولقد علموا أنه أصدقُ خلقِ الله وأعقلهم، ومن عليهم أَنَّهُمْ أبدووا وأعادوا في معاداتهم، وبذلوا أَنفُسَهُمْ وأموالَهُمْ في صدِّ الناس عنه؛ فلو كان كاذباً مجنوناً؛ لم ينبغ لكم يا أهل العقول غير الزاكية أن تُضغوا لما قال ولا تحتفلوا بدعوته؛ فَإِنَّ المجنون لا ينبغي للعاقل أن يُلْفِتَ إليه نَظْرَهُ أو يبلغَ قوله منه كلُّ مبلغ، ولولا عنادكم وظلمكم؛ لَبَادَرْتُمْ لإجابته وَلَبِثْتُمْ دعوته، ولكن ما تُغني الآياتُ والتَّذرُّعُ عن قوم لا يؤمنون، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾، ومنهم الذين قالوا تلك المقالة ﴿فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾؛ أي: في الشقاء العظيم والضلال البعيد الذي ليس بقريب من الصواب، وأيُّ شقاءٍ وضلالٍ أبلغ من إنكارهم لقدرة الله على البعث، وتكذيبهم لرسولهم الذي جاء به، واستهزائهم به، وجزمهم بأنَّ ما جاؤوا به هو الحقُّ فرأوا الحقَّ باطلاً والباطل والضلال حقاً وهدى؟!

﴿٩﴾ ثم نبَّههم على الدليل العقلي الدالُّ على عدم استبعاد البعث الذي استبعدوه، وأنَّهُمْ لو نظروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض، فرأوا من قدرة الله فيهما ما يُبْهِرُ العقول، ومن عظمته ما يُذهِلُ العلماء الفحول، وأنَّ خلقَهُما وعظمتَهُما وما فيهما من المخلوقات أعظم من إعادة الناس بعد موتهم من قبورهم؛ فما الحاملُ لهم على ذلك التكذيب مع التصديق بما هو أكبر منه؟! نعم؛ ذاك خبرٌ غيبيٌّ إلى الآن ما شاهدوه؛ فلذلك كَذَّبُوا به. قال الله: ﴿إِنْ نَشَأْ نُخَسِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾؛ أي: من العذاب؛ لأنَّ الأرض والسماء تحت تدبيرنا؛ فَإِنْ أَمَرْنَاهُمَا؛ لم يستعصيا؛ فاحذروا إصراركم على تكذيبكم فنعاقبكم أشدَّ العقوبة. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾؛ أي: خلق السماوات والأرض وما فيهما من المخلوقات ﴿لَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾: فكلُّما كان العبد أعظم إنابةً إلى الله؛ كان انتفاعه بالآياتِ أعظم؛ لأنَّ المنيبَ مَقْبَلٌ إلى ربِّه، قد توجَّهت إرادته وهماؤه لربِّه، ورجع إليه في كلِّ أمر من أموره، فصار قريباً من ربِّه، ليس له همٌّ إِلَّا الاشتغال بمرضاته، فيكون نظره للمخلوقات نظراً فكرياً وعبرة لا نظر غفلة غير نافعة.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَاجَالُ أَوِّى مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۖ إِنَّ آتِئَةَ السَّيِّئَاتِ وَقَدَّرَ فِي السَّرِّ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝﴾

﴿١٠ - ١١﴾ أي: ولقد مَنَّا على عبدنا ورسولنا داود عليه الصلاة والسلام، وآتيناه فضلاً من العلم النافع والعمل الصالح والنعم الدينيَّة والديويَّة: ومن نعمه عليه:

ما خصَّه به من أمره تعالى الجمادات كالجبال والحيوانات من الطيور أن تؤوَّبَ معه وتُرجَع التسبيح بحمد ربِّها مجاوبَةً له، وفي هذا من النعمة عليه أن كان ذلك من خصائصه التي لم تكن لأحد قبله ولا بعده، وأن ذلك يكون منهضاً له ولغيره على التسبيح إذا رآوا هذه الجمادات والحيوانات تتجاوب بتسبيح ربِّها وتمجيدِه وتكبيرِه وتمجيدِه؛ كان ذلك مما يهيج على ذكر الله تعالى.

ومنها: أن ذلك كما قال كثير من العلماء أنه طرباً بصوت داود؛ فإن الله تعالى قد أعطاه من حُسن الصوت ما فاق به غيره، وكان إذا رجَّع التسبيح والتهليل والتمجيد^(١) بذلك الصوت الرخيم الشَّجي المطرب؛ طرب كل من سَمِعَهُ من الإنس والجن، حتى الطيور والجبال، وسبَّحت بحمد ربِّها.

ومنها: أنه لعله ليحصل له أجر تسبيحها، لأنه سبب ذلك، وتسبح تبعاً له.

ومن فضله عليه أن ألان له الحديد؛ ليعمل الدروع السابغات، وعلمه تعالى كيفية صنعته؛ بأن يقدِّره في ﴿السرد﴾؛ أي: يقدِّره خلقاً ويصنعه كذلك ثم يَدْخُل بعضها ببعض، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صِنْعَةَ لُبُوسٍ لَكُمْ لِيُخَصِّنْكُمْ مِنْ أَسْكُمُ فَهْلَ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾، ولما ذَكَرَ ما امتنَّ به عليه وعلى آله؛ أمره بشكره وأن يَعْمَلُوا صالحاً، ويراقبوا الله تعالى فيه بإصلاحه وحفظه من المفسدات؛ فإنه بصيرٌ بأعمالهم، مطلع عليها، لا يخفى عليه منها شيء.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوهاً شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَاهُ نَهْرَ عَيْنٍ الْقَطْرِ وَمنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذِذِ رِيَّةٌ وَمَنْ يَزِجْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٧﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَحِفَافٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورِ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿١٢﴾ لَمَّا ذَكَرَ فَضْلَهُ عَلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ذَكَرَ فَضْلَهُ عَلَى ابْنِهِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ، وَأَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ وَتَحْمِلُهُ وَتَحْمِلُ جَمِيعَ مَا مَعَهُ وَتَقْطَعُ الْمَسَافَةَ الْبَعِيدَةَ جَدًّا فِي مَدَّةٍ يَسِيرَةٍ، فَتَسِيرُ فِي الْيَوْمِ مَسِيرَةَ شَهْرَيْنِ: ﴿غَدَوُهَا شَهْرٌ﴾؛ أَي: أَوَّلَ النَّهَارِ إِلَى الزَّوَالِ، ﴿وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ﴾: مِنَ الزَّوَالِ إِلَى آخِرِ النَّهَارِ، ﴿وَأَسْلَمْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ﴾؛ أَي: سَخَّرْنَا لَهُ عَيْنَ الثَّحَاسِ وَهَئِلْنَا^(١) لَهُ الْأَسْبَابَ فِي اسْتِخْرَاجِ مَا يُسْتَخْرَجُ مِنْهَا مِنَ الْأَوَانِي وَغَيْرِهَا، وَسَخَّرَ اللَّهُ لَهُ أَيْضًا^(٢) الشَّيَاطِينَ وَالْجِنَّ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَسْتَعْصُوا^(٣) عَنْ أَمْرِهِ، ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

﴿١٣﴾ وَأَعْمَالُهُمْ^(٤)؛ كُلُّ مَا شَاءَ سُلَيْمَانُ عَمَلُوهُ؛ ﴿مَنْ مَحَارِبٌ﴾: وَهُوَ كُلُّ بِنَاءٍ يُعْقَدُ وَتَحْكَمُ بِهِ الْأَبْنِيَّةُ؛ فَهَذَا فِيهِ ذِكْرُ الْأَبْنِيَّةِ الْفَخْمَةِ. ﴿وَتَمَائِيلٌ﴾؛ أَي: صُورُ الْحَيَوَانَاتِ وَالْجِمَادَاتِ مِنْ إِتْقَانِ صَنَعَتِهِمْ، وَقَدَرَتِهِمْ عَلَى ذَلِكَ، وَعَمَلُهُمْ لِسُلَيْمَانَ. ﴿وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾؛ أَي: كَالْبَرْكِ الْكَبِيرِ يَعْمَلُونَهَا لِسُلَيْمَانَ لِلطَّعَامِ؛ لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى مَا لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ غَيْرُهُ. ﴿وَوَعَمَلُونَ لَهُ قُدُورًا﴾ رَاسِيَاتٍ: لَا تُزَالُ^(٥) عَنْ أَمَاكِنِهَا مِنْ عَظَمِهَا، فَلَمَّا ذَكَرَ مِثْلَهُ عَلَيْهِمْ؛ أَمَرَهُمْ بِشُكْرِهَا، فَقَالَ: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ: وَهُمْ دَاوُدُ وَأَوْلَادُهُ وَأَهْلُهُ؛ لِأَنَّ الْمِنَّةَ عَلَى الْجَمِيعِ، وَكَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْمَصَالِحِ عَائِدٌ لِكُلِّهِمْ﴾ شُكْرًا: لِلَّهِ عَلَى مَا أَعْطَاهُمْ، وَمُقَابَلَةٌ لِمَا أَوْلاَهُمْ. ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾: فَأَكْثَرُهُمْ لَمْ يَشْكُرُوا اللَّهَ تَعَالَى عَلَى مَا أَوْلاَهُمْ مِنْ نِعَمِهِ وَدَفَعَ عَنْهُمْ مِنَ النِّقَمِ. وَالشُّكْرُ: اعْتِرَافُ الْقَلْبِ بِمِنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَلْقِيْهَا افْتِقَارًا إِلَيْهَا، وَصَرَفُهَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَصَوْنُهَا عَنْ صَرَفِهَا فِي الْمَعْصِيَةِ.

﴿١٤﴾ فَلَمْ يَزَلِ الشَّيَاطِينُ يَعْمَلُونَ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامُ كُلَّ بِنَاءٍ، وَكَانُوا قَدْ مَوَّهُوا عَلَى الْإِنْسِ، وَأَخْبَرُوهُمْ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ، وَيُطْلَعُونَ عَلَى الْمَكْنُونَاتِ، فَأَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُرِيَّ الْعِبَادَ كَذِبَهُمْ فِي هَذِهِ الدَّعْوَى، فَمَكْثُوا يَعْمَلُونَ عَلَى عَمَلِهِمْ، وَقَضَى اللَّهُ الْمَوْتَ عَلَى سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَاتَّكَأَ عَلَى عَصَاهُ، وَهِيَ الْمَنْسَأَةُ، فَصَارُوا إِذَا مَرَوْا بِهِ وَهُوَ مَتَّكِيٌّ عَلَيْهَا؛ ظَنُّوهُ حَيًّا وَهَابُوهُ، فَغَدَوْا عَلَى عَمَلِهِمْ كَذَلِكَ سَنَةً كَامِلَةً عَلَى مَا قِيلَ، حَتَّى سُلِّطَتْ دَابَّةُ الْأَرْضِ عَلَى عَصَاهُ، فَلَمْ

(٢) فِي (ب): «أَيْضًا لَهُ».

(٤) فِي (ب): «وَأَعْمَالُهُ».

(١) فِي (ب): «سَهْلُنَا».

(٣) فِي (ب): «لَا يَسْتَعْصُونَ».

(٥) فِي (ب): «لَا تَزُولُ».

تزل ترعاه حتى باد وسقط، فسقط سليمان، وتفرقت الشياطين وتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين: وهو العمل الشاق عليهم؛ فلو علموا الغيب؛ لعلموا موت سليمان الذي هم أحرص شيء عليه ليسلموا مما هم فيه.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَمْ بَلَدَةٍ طَيِّبَةٍ رَبُّهَا غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْمَلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَمَشَى مِنْ سُورٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرُ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالٍ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾.

﴿١٥ - ١٩﴾ سبأ قبيلة معروفة في أداني اليمن، ومسكنهم بلدة يقال لها: مارب، ومن نعم الله ولطفه بالناس عموماً وبالعرب خصوصاً أنه قص في القرآن أخبار المهلكين والمعاقبين ممن كان يجاور العرب، ويشاهد آثاره، ويتناقل الناس أخباره؛ ليكون ذلك أدعى إلى التصديق وأقرب للموعظة، فقال: ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم﴾؛ أي: محلهم الذي يسكنون فيه ﴿آية﴾: والآية هنا ما أدر الله عليهم من النعم، وصرف عنهم من النقم، الذي يقتضي ذلك منهم أن يعبدوا الله ويشكروه. ثم فسر الآية بقوله: ﴿جنتان عن يمين وشمال﴾: وكان لهما واد عظيم تأتيه سيول كثيرة، وكانوا بنوا سداً محكماً يكون مجمعاً للماء، فكانت السيول تأتيه، فيجتمع هناك ماء عظيم، فيفرقونه على بساتينهم التي عن يمين ذلك الوادي وشماله، وتغل لهما تلك الجنتان العظيمتان من الثمار ما يكفيهما ويحصل لهما به الغبطة والسرور، فأمرهم الله بشكر نعمة التي أدرها عليهم من وجوه كثيرة:

منها: هاتان الجنتان اللتان غالب أقواتهم منهما.

ومنها: أن الله جعل بلدتهم بلدة طيبة لحسن هوائها وقلة وخمها وحصول الرزق الرغد فيها.

ومنها: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَعَدَهُمْ إِنْ شَكَرُوا أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ وَيَرْحَمَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿بَلَدٌ طَيِّبٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

ومنها: أَنَّ اللَّهَ لَمَّا عَلِمَ احتياجهم في تجارتهم ومكاسبهم إلى الأرض المباركة - الظاهر أنها قُرى صنعاء كما قاله غير واحد من السلف، وقيل: إنها الشام -؛ هيأ لهم من الأسباب ما به يتيسر وصولهم إليها بغاية السهولة من الأمن وعدم الخوف وتواصل القرى بينهم وبينها؛ بحيث لا يكون عليهم مشقة بحمل الزاد والمزاد، ولهذا قال: ﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير﴾؛ أي: سيراً مقدراً يعرفونه ويحكمون عليه بحيث لا يتيهون عنه ليالي وأياماً.

﴿آمين﴾؛ أي: مطمئنين في السير في تلك الليالي والأيام غير خائفين، وهذا من تمام نعمة الله عليهم أَنَّ أَمْتَهُمْ من الخوف. فأغرضوا عن المنعم وعن عبادته، وبطروا النعمة وملوها، حتى إنهم طلبوا وتمنوا أن تتباعد أسفارهم بين تلك القرى التي كان السير فيها متيسراً. ﴿وظلموا أنفسهم﴾: بكفرهم بالله وبنعمته، فعاقبهم الله تعالى بهذه النعمة التي أطعته، فأبادهها عليهم، فأرسل عليها ﴿سيل العرم﴾؛ أي: السيل المتوعر الذي خرب سدهم، وأتلف جناتهم، وخرب بساتينهم، فتبدلت تلك الجنات ذات الحداثق المعجبة والأشجار المثمرة، وصار بدلها أشجار لا نفع فيها. ولهذا قال: ﴿وبدلناهم بجنّتهم جنتين ذواتي أكل﴾؛ أي: شيء قليل من الأكل الذي لا يقع منهم موقعا، ﴿خفط وأثل وشيء من سدر قليل﴾: وهذا كله شجر معروف، وهذا من جنس عملهم؛ فكما بدلوا الشكر الحسن بالكفر القبيح؛ بدلوا تلك النعمة بما ذكر. ولهذا قال: ﴿ذلك جزئناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور﴾؛ أي: وهل نُجازي جزاء العقوبة - بدليل السياق - إلا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَبَطَرَ النِّعْمَةَ؟! فلما أصابهم ما أصابهم؛ تفرقوا وتمزقوا بعدما كانوا مجتمعين، وجعلهم الله أحاديث يتحدّث بهم وأسماراً للناس، وكان يضرب بهم المثل، فيقال: «تفرقوا أيدي سبا»؛ فكل أحد يتحدّث بما جرى لهم، ولكن لا ينتفع بالعبرة فيهم إلا مَنْ قال الله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾: صَبَّارٍ على المكاره والشدائد، يتحمّلها لوجه الله، ولا يتسخطها، بل يصبر عليها، شكورٍ لنعمة الله تعالى، يُقِرُّ بها، ويعترف، ويشي على من أولاهها، ويصرفها في طاعته.

فهذا إذا سمع بقصّتهم وما جرى منهم وعليهم؛ عَرَفَ بذلك أَنَّ تلك العقوبة

جزاء لكفرهم نعمة الله، وأن من فعل مثلهم؛ فُعل به كما فُعل بهم، وأن شُكر الله تعالى حافظ للنعمة دافع للنقمة، وأن رُسُل الله صادقون فيما أخبروا به، وأن الجزاء حق كما رأى أنموذجه في دار الدنيا.

﴿٢٠﴾ ثم ذكر أن قوم سبا من الذين صدَّق عليهم إبليس ظنه؛ حيث قال لربه: ﴿فِعْزَتِكَ أَتُوعِنَهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾: وهذا ظن من إبليس لا يقين؛ لأنه لا يعلم الغيب ولم يأتيه خبر من الله أنه سيُغويهم أجمعين؛ إلا من استثنى؛ فهؤلاء وأمثالهم ممن صدَّق عليه إبليس ظنه ودعاهم وأغواهم، ﴿فَاتَّبِعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: ممن لم يكفر بنعمة الله؛ فإنه لم يدخل تحت ظن إبليس، ويحتمل أن قصة سبا انتهت عند قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾. ثم ابتداء فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على جنس الناس، فتكون الآية عامة في كل من اتبعه.

﴿٢١﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ﴾؛ أي: لإبليس ﴿عليهم من سلطان﴾؛ أي: تسلط وقهر وقسر على ما يريده منهم، ولكنَّ حكمة الله تعالى اقتضت تسليطه وتسويله لبني آدم؛ ﴿لَنَعْلَمَ مِنْ يَوْمُنَا بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾؛ أي: ليقوم سوق الامتحان، ويُعلم به الصادق من الكاذب، ويُعرف من كان إيمانه صحيحاً يثبت عند الامتحان والاختبار واللقاء الشبه الشيطانية ممن إيمانه غير ثابت يترزُل بأدنى شبهة ويزول بأقل دأع يدعوهُ إلى ضده؛ فالله تعالى جعله امتحاناً يمتحن به عباده ويظهرُ الخبيث من الطيب. ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾: يحفظ العباد ويحفظ عليهم أعمالهم، ويحفظُ تعالى جزاءها؛ فيوفيهم إياها كاملة موفرة.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرْكٍ وَمَا لَكُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُمْ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿٢٢ - ٢٣﴾ أي: ﴿قل﴾: يا أيها الرسول للمشركين بالله غيره من المخلوقات التي لا تنفع ولا تضر ملزماً لهم بعجزها وميئناً بطلان عبادتها: ﴿ادعوا الذين زعمتُم من دون الله﴾؛ أي: زعمتموهم شركاء لله إن كان دعاؤكم ينفع؛ فإنهم قد توفرت فيهم أسباب العجز وعدم إجابة الدعاء من كل وجه؛ فإنهم ليس لهم أدنى ملك، فلا يملكون مِثْقَالَ ذَرَّةٍ في السماوات والأرض: على وجه الاستقلال، ولا على

وجه الاشتراك، ولهذا قال: ﴿وما لهم﴾؛ أي: لتلك الآلهة الذين زعمتم ﴿فيهما﴾؛ أي: في السماوات والأرض ﴿من شرك﴾؛ أي: لا شرك قليل ولا كثير؛ فليس لهم ملك ولا شركة ملك.

بقي أن يقال: ومع ذلك؛ فقد يكونون أعواناً للمالك ووزراء له؛ فدعاهم يكون نافعاً؛ لأنهم بسبب حاجة الملك إليهم يقضون حوائج من تعلق بهم، فنفي تعالى هذه المرتبة، فقال: ﴿وما له﴾؛ أي: لله تعالى الواحد القهار ﴿منهم﴾؛ أي: من هؤلاء المعبودين ﴿من ظهير﴾؛ أي: معاون وزير يساعده على الملك والتدبير. فلم يبق إلا الشفاعة، فنفاها بقوله: ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾: فهذه أنواع التعلقات التي يتعلق بها المشركون بأندادهم وأوثانهم من البشر والشجر والحجر وغيرهم، قطعها الله وبين بطلانها تبيناً حاسماً لمواد الشرك قاطعاً لأصوله؛ لأن المشرك إنما يدعو ويعبد غير الله؛ لما يرجو منه من النفع؛ فهذا الرجاء هو الذي أوجب له الشرك؛ فإذا كان من يدعو غير الله لا مالكا للنفع والضر ولا شريكاً للمالك ولا عوناً وظهيراً للمالك ولا يقدر أن يشفع بدون إذن المالك؛ كان هذا الدعاء وهذه العبادة ضلالاً في العقل باطلة في الشرع، بل ينعكس على المشرك مطلوبه ومقصوده؛ فإنه يريد منها النفع، فبين الله بطلانه وعدمه، وبين في آيات أخر ضررها على عابديها^(١)، وأنه يوم القيامة يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضاً ومأواهم النار، وإذا حشّر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين.

والعجب أن المشرك استكبر عن الانقياد للرسول بزعمهم أنهم بشر، ورضي أن يعبد ويدعو الشجر والحجر، استكبر عن الإخلاص للملك الرحمن الديان، ورضي بعبادة من ضره أقرب من نفعه طاعة لأعدى عدو له وهو الشيطان!

وقوله: ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾: يُحتمل أن الضمير في هذا الموضع يعود إلى المشركين؛ لأنهم مذكورون في اللفظ، والقاعدة في الضمائر أن تعود إلى أقرب مذكور، ويكون المعنى: إذا كان يوم القيامة وفزع عن قلوب المشركين؛ أي: زال الفزع وسئلوا حين رجعت إليهم عقولهم عن حالهم في الدنيا وتكذيبهم للحق الذي جاءت به الرسل؛ أنهم

(١) في (ب): «ضرره على عابديه».

يَقْرُونَ أَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ بَاطِلٌ، وَأَنَّ مَا قَالَ اللَّهُ وَأُخْبِرَتْ بِهِ عَنْهُ رِسْلُهُ هُوَ الْحَقُّ، فَبَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ، وَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ، وَاعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ. ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾: بذاته فوق جميع المخلوقات، وقهره لهم وعلو قدره بما له من الصفات العظيمة جليلة المقدار. ﴿الْكَبِيرُ﴾: في ذاته وصفاته، ومن علوه أَنَّ حُكْمَهُ تَعَالَى يَعْلُو، وَتَذَعُنْ لَهُ النُّفُوسُ، حَتَّى نَفُوسَ الْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُشْرِكِينَ، وَهَذَا الْمَعْنَى أَظْهَرَ، وَهُوَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ.

وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الضَّمِيرَ يَعُودُ إِلَى الْمَلَائِكَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ؛ سَمِعَتْهُ الْمَلَائِكَةُ فَصَعِقُوا وَخَرُّوا لِلَّهِ سَجْدًا، فَيَكُونُ أَوَّلُ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ، فَيَكَلِّمُهُ اللَّهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ؛ فَإِذَا زَالَ الصَّعَقُ عَنْ قُلُوبِ الْمَلَائِكَةِ وَزَالَ الْفَزَعُ، فَيَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَنْ ذَلِكَ الْكَلَامِ الَّذِي صَعِقُوا مِنْهُ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: قَالَ الْحَقُّ: إِمَّا إجمالاً لَعَلَّهُمْ أَنَّهُ لَا يَقُولُ إِلَّا حَقًّا، وَإِمَّا أَنْ يَقُولُوا: قَالَ كَذَا وَكَذَا^(١)، لِلْكَلَامِ الَّذِي سَمِعُوهُ مِنْهُ، وَذَلِكَ مِنَ الْحَقِّ. فَيَكُونُ الْمَعْنَى عَلَى هَذَا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللَّهِ تِلْكَ الْآلِهَةَ الَّتِي وَصَفْنَا لَكُمْ عَجْزَهَا وَنَقَصَهَا وَعَدَمَ نَفْعِهَا بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ كَيْفَ صَدَفُوا وَصَرَفُوا عَنْ إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلرَّبِّ الْعَظِيمِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ الَّذِي مِنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ الْكَرَامَ وَالْمُقَرَّبِينَ مِنَ الْخَلْقِ يَبْلُغُ بِهِمُ الْخُضُوعُ وَالصَّعَقُ عِنْدَ سَمَاعِ كَلَامِهِ هَذَا الْمُبْلَغُ، وَيَقْرُونَ كُلُّهُمْ لِلَّهِ أَنَّهُ لَا يَقُولُ إِلَّا الْحَقُّ؛ فَمَا بِالْهُؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ اسْتَكْبَرُوا عَنْ عِبَادَةِ مَنْ هَذَا شَأْنُهُ وَعَظَمَةُ مَلِكِهِ وَسُلْطَانِهِ؟! فَتَعَالَى الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ عَنْ شَرِكِ الْمُشْرِكِينَ وَافِكِهِمْ وَكَذِبِهِمْ.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ أَسْمَانٍ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا نَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿٢٤﴾ يَا مَرْءَ تَعَالَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَقُولَ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ وَيَسْأَلَهُ عَنْ صَحَّةِ^(٢)

(١) كما في «صحيح البخاري» (٤٨٠٠)، و«السنن» لأبي عاصم (٥١٥).

(٢) في (ب): «حجة».

شركه: ﴿مَنْ يَرْزُقْكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: فَإِنَّهُمْ لَا بَدَّ أَنْ يَقْرُوا أَنَّ اللَّهَ، وَلِئِنْ لَمْ يَقْرُوا؛ فَ﴿قُلِ اللَّهُ﴾: فَإِنَّكَ لَا تَجِدُ مِنْ يَدْفَعُ هَذَا الْقَوْلَ. فَإِذَا تَبَيَّنَ أَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ الَّذِي يَرْزُقْكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيُنْزِلُ لَكُمْ الْمَطَرَ وَيُنْبِتُ لَكُمْ النَّبَاتَ وَيَفْجُرُ لَكُمْ الْأَنْهَارَ وَيُطْلِعُ لَكُمْ مِنْ ثَمَارِ الْأَشْجَارِ وَجَعَلَ لَكُمْ الْحَيَوَانَاتِ جَمِيعَهَا لِنَفْعِكُمْ وَرَزَقَكُمْ؛ فَلِمَ تَعْبُدُونَ مَعَهُ مَنْ لَا يَرْزُقْكُمْ شَيْئاً وَلَا يَفِيدُكُمْ نَفْعاً؟! وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾؛ أَي: إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ مَتَى وَمَنْكُمْ عَلَى الْهُدَى مُسْتَعْلِيَةً عَلَيْهِ، أَوْ فِي ضَلَالٍ بَيْنٍ مَنْغَمَرَةٌ فِيهِ.

وهذا الكلام يقولُهُ مَنْ تَبَيَّنَ لَهُ الْحَقُّ وَاتَّضَحَ لَهُ الصَّوَابُ وَجَزَمَ بِالْحَقِّ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ وَبَطْلَانِ مَا عَلَيْهِ خَصْمُهُ؛ أَي: قَدْ شَرَحْنَا مِنَ الْأَدَلَّةِ الْوَاضِحَةِ عِنْدَنَا وَعِنْدَكُمْ مَا بِهِ يُغْلَمُ عِلْماً يَقِينِيّاً لَا شَكَّ فِيهِ مَنْ الْمَحَقُّ مَنَا وَمَنْ الْمَبْطُلُ وَمَنْ الْمَهْتَدِي وَمَنْ الضَّالُّ، حَتَّى إِنَّهُ يَصِيرُ التَّعْيِينُ بَعْدَ ذَلِكَ لَا فَائِدَةَ فِيهِ؛ فَإِنَّكَ إِذَا وَازَنْتَ^(١) بَيْنَ مَنْ يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ الْخَالِقِ لِسَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ، الْمُتَصَرِّفِ فِيهَا بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ التَّصَرُّفَاتِ، الْمُسْدِي جَمِيعِ النِّعَمِ، الَّذِي رَزَقَهُمْ وَأَوْصَلَ إِلَيْهِمْ كُلَّ نِعْمَةٍ وَدَفَعَ عَنْهُمْ كُلَّ نِقْمَةٍ، الَّذِي لَهُ الْحَمْدُ كُلُّهُ وَالْمَلِكُ كُلُّهُ وَكُلُّ أَحَدٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ قَمَرٌ دُونَهُمْ خَاضِعُونَ لِهَيْبَتِهِ مُتَذَلِّلُونَ لِعَظَمَتِهِ، وَكُلُّ الشُّفْعَاءِ تَخَافُهُ، لَا يَشْفَعُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ فِي ذَاتِهِ وَأَوْصَافِهِ وَأَفْعَالِهِ، الَّذِي لَهُ كُلُّ كَمَالٍ وَكُلُّ جَلَالٍ وَكُلُّ جَمَالٍ وَكُلُّ حَمْدٍ وَثَنَاءٍ وَمَجْدٍ، يَدْعُو إِلَى التَّقَرُّبِ لِمَنْ هَذَا شَأْنُهُ، وَإِخْلَاصِ الْعَمَلِ لَهُ، وَيَنْهَى عَنِ عِبَادَةِ مَنْ سِوَاهُ، وَبَيْنَ مَنْ يَتَقَرَّبُ إِلَى أَوْثَانٍ وَأَصْنَامٍ وَقُبُورٍ لَا تَخْلُقُ وَلَا تَرْزُقُ وَلَا تَمْلِكُ لَأَنْفُسِهَا وَلَا لِمَنْ عَبَدَهَا نَفْعاً وَلَا ضَرّاً وَلَا مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نَشُوراً، بَلْ هِيَ جَمَادَاتٌ لَا تَعْقِلُ وَلَا تَسْمَعُ دَعَاءَ عَابِدِيهَا، وَلَوْ سَمِعَتْهُ؛ مَا اسْتَجَابَتْ لَهُمْ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشُرَكَائِهِمْ وَيَتَبَرَّوْنَ مِنْهُمْ وَيَتَلَاعَنُونَ بَيْنَهُمْ، لَيْسَ لَهُمْ قِسْطٌ مِنَ الْمَلِكِ، وَلَا شَرَكَةٌ فِيهِ وَلَا إِعَانَةٌ فِيهِ، وَلَا لَهُمْ شَفَاعَةٌ يَسْتَقْلُونَ بِهَا دُونَ اللَّهِ؛ فَهُوَ يَدْعُو مَنْ هَذَا وَصْفُهُ، وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ مَهْمَا أَمَكْنَهُ، وَيُعَادِي مَنْ أَخْلَصَ الدِّينَ لِلَّهِ وَيَحَارِبُهُ، وَيَكْذِبُ رَسْلَ اللَّهِ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ وَحْدَهُ؛ تَبَيَّنَ لَكَ^(٢) أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ: الْمَهْتَدِي مِنَ الضَّالِّ وَالشَّقِيّ مِنَ السَّعِيدِ، وَلَمْ يَحْتَجْ إِلَى أَنْ يَعِينَ لَكَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ وَصْفَ الْحَالِ أَوْضَحَ مِنْ لِسَانِ الْمَقَالِ.

(١) فعل الشرط، كذا في الحاشية بخط المؤلف رحمه الله.

(٢) جواب الشرط، كذا في الحاشية بخط المؤلف رحمه الله.

﴿٢٥﴾ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: كلُّ منَّا ومنكم له عمله، أنتم لا تُسألون عن إجرامنا وذنوبنا لو أذنبنا، ونحن لا نُسأل عن أعمالكم؛ فليكن المقصودُ منَّا ومنكم طَلَبُ الحقائق وسلوك طريق الإنصاف، ودَعُوا ما كُنَّا نعملُ، ولا يكن مانعاً لكم من اتِّباع الحق؛ فإنَّ أحكام الدنيا تجري على الظواهر، ويَتَّبَع فيها الحقُّ ويُجْتَنَّبُ الباطلُ، وأما الأعمال؛ فلها دارٌ أخرى يَحْكُمُ فيها أحكامُ الحاكمين، ويفصلُ بين المختصمين أعدلُ العادلين.

﴿٢٦﴾ ولهذا قال: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾؛ أي: يحكم بيننا حكماً يَتَبَيَّنُ به الصادقُ من الكاذب، والمستحقُّ للثواب من المستحقُّ للعقاب وهو خير الفاتحين.

﴿٢٧﴾ ﴿قُلْ﴾: لهم يا أيها الرسولُ، وَمَنْ نَابَ منك: ﴿أروني الذين ألحقتم به شركاء﴾؛ أي: أين هم؟ وأين السبيل إلى معرفتهم؟ وهل هم في الأرض أم في السماء؟ فإنَّ عالم الغيب والشهادة قد أخبرنا أنَّه ليس في الوجود له شريكٌ: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرُّهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ قل أنتبنون الله بما لا يعلم... ﴿[الآية]﴾، ﴿وما يتَّبِعُ الذين يدعون من دون الله شركاء؟ إنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وإنَّ هم إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، وكذلك خواصُّ خلقه من الأنبياء والمرسلين لا يعلمون له شريكاً؛ فيا أيُّها المشركون! أروني الذين ألحقتم بزعمكم الباطل بالله شركاء! وهذا السؤال لا يمكنهم الإجابة عنه، ولهذا قال: ﴿كلا﴾؛ أي: ليس لله شريكٌ ولا ندٌّ ولا ضدٌّ، ﴿بل هو الله﴾: الذي لا يستحقُّ التأله والتعبد إلا هو ﴿العزیزُ﴾: الذي قهر كلَّ شيء؛ فكلُّ ما سواه فهو مقهورٌ مسخرٌ مدبَّر. ﴿الحكيم﴾: الذي أتقن ما خلَّقه، وأحسن ما شرَّعه، ولو لم يكن في حكمته في شرعه إلا أنَّه أمر بتوحيده وإخلاص الدين له، وأحبَّ ذلك وجعله طريقاً للنجاة، ونهى عن الشرك به وأتخذ الأنداد من دونه، وجعل ذلك طريقاً للشقاء والهلاك؛ لكفى^(١) بذلك برهاناً على كمال حكمته؛ فكيف وجميع ما أمر به ونهى عنه مشتمل على الحكمة؟!

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(١) في (ب): «يكفي».

﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعْرِفُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

﴿٢٨﴾ يخبر تعالى أنه ما أرسل رسوله ﷺ إلا ليبشّر جميع الناس بثواب الله، ويخبرهم بالأعمال الموجبة لذلك، وينذرهم عقاب الله، ويخبرهم بالأعمال الموجبة له؛ فليس لك من الأمر شيء، وكل ما افترح عليك أهل التكذيب والعناد؛ فليس من وظيفتك، إنما ذلك بيد الله تعالى. ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾؛ أي: ليس لهم علم صحيح، بل إما جهال أو معاندون لم^(١) يعملوا بعلمهم، فكأنهم لا علم لهم، ومن عدم علمهم جعلهم عدم الإجابة لما اقترحوه على الرسول موجبا لردّ دعوته.

﴿٢٩﴾ فمما اقترحوه استعجالهم العذاب الذي أنذّرهم به، فقال: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾: وهذا ظلم منهم؛ فأني ملازمة بين صدقه وبين الإخبار بوقت وقوعه؟! وهل هذا إلا ردّ للحقّ وسفه في العقل؟! أليس النذير في أمر من أحوال الدنيا لو جاء قوما يعلمون صدقه ونصحه ولهم عدو ينتهز الفرصة منهم ويعدّ لهم، فقال لهم: تركت عدوكم قد سار يريد اجتياحكم واستئصالكم؛ فلو قال بعضهم: إن كنت صادقا؛ فأخبرنا بأية ساعة يصل إلينا؟ وأين مكانه الآن؟ فهل يعدّ هذا القائل عاقلا أم يحكم بسفه وجنونه؟! هذا والمخبر يمكن صدقه وكذبه، والعدو قد يبدو له غيرهم وقد تنحلّ عزمته، وهم قد يكون بهم منعة يدافعون بها عن أنفسهم؛ فكيف بمن كذب أصدق الخلق المعصوم في خبره، الذي لا ينطق عن الهوى بالعذاب اليقين، الذي لا مدفع له ولا ناصر منه، أليس ردّ خبره بحجة عدم بيان وقت وقوعه من أسفه السفه؟!

﴿٣٠﴾ ﴿قل﴾ لهم مخبرا بوقت وقوعه الذي لا شك فيه: ﴿لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون﴾: فاحذروا ذلك اليوم وأعدوا له عدته.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُؤْمِنَ بِهِذَا الْقُرْآنُ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ رَرَيْتَ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ

(١) في (ب): «ولم».

صَدَدْنَكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بِلَ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بِلَ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾

﴿٣١﴾ لما ذكر تعالى أنَّ ميعادَ المستعجلين بالعذاب لا بدَّ من وقوعه عند حلول أجله؛ ذكر هنا حالهم في ذلك اليوم، وأَنَّك لو رأيتَ حالهم إذ وقفوا عند ربهم واجتمع الرؤساء والأتباع في الكفر والضلال؛ لرأيتَ أمراً عظيماً وهولاً جسيماً، ورأيتَ كيف يتراجع و ﴿يرجع بعضهم إلى بعض القول﴾، فيقول ﴿الذين استضعفوا﴾: وهم الأتباع، ﴿للذين استكبروا﴾: وهم القادة: ﴿لولا أنتم لَكُنَّا مؤمنين﴾: ولكُنكم حلُتم بيننا وبين الإيمان، وزينتم لنا الكفران^(١)، فتبعناكم على ذلك، ومقصودهم بذلك أن يكون العذاب على الرؤساء دونهم.

﴿٣٢﴾ قال الذين استكبروا للذين استضعفوا: مستفهمين لهم ومخبرين أنَّ الجميع مشتركون في الجرم: ﴿أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم﴾؛ أي: بقوتنا وقهرنا لكم، ﴿بل كنتم مجرمين﴾؛ أي: مختارين للإجرام، لستم مقهورين عليه، وإن كنَّا قد زينَّا لكم؛ فما كان لنا عليكم من سلطان.

﴿٣٣﴾ فقال ﴿الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾؛ أي: بل الذي دهانا منكم ووصل إلينا من إضلالكم ما دبّرتموه من المكر في الليل والنهار؛ إذ تحسّنون لنا الكفر وتدعوننا إليه، وتقولون: إنَّه الحق، وتقذحون في الحق، وتهجنونه وتزعمون أنَّه الباطل؛ فما زال مكركم بنا وكيدكم إيانا حتى أغويتمونا وفتنتمونا. فلم تُفد تلك المراجعة بينهم شيئاً إلا تبري بعضهم من بعض والندامة العظيمة، ولهذا قال: ﴿وأسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾؛ أي: زال عنهم ذلك الاحتجاج الذي احتجَّ به بعضهم^(٢) لينجو من العذاب، وعلم أنَّه ظالم مستحقُّ له، فندم كل منهم غاية الندم، وتمنى أن لو كان على الحق، وأنَّه ترك^(٣) الباطل الذي أوصله إلى هذا العذاب، سراً في أنفسهم؛ لخوفهم من الفضيحة في إقرارهم على أنفسهم! وفي بعض مواقف القيامة وعند

(٢) في (ب): «بعضهم على بعض».

(١) في (ب): «الكفر».

(٣) في (ب): «وترك».

دخولهم النار يُظهرون ذلك الندم جهراً: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا. يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا...﴾ ﴿الآيات، وقالوا لو كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ. فاعترفوا بذنبيهم فسحقاً لأصحاب السَّعِيرِ﴾. ﴿وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا﴾: يُعْلَوْنَ كما يُعْلَى المسجون الذي سيهان في سجنه؛ كما قال تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ...﴾ ﴿الآيات. هل يُجْزَوْنَ﴾: في هذا العذاب والتكال وتلك الأغلال الثقالة ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾: من الكفر والفسوق والعصيان.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْفَيْصِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَمْ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿٣٤﴾ يخبر تعالى عن حالة الأمم الماضية المكذبة للرسول أنها كحال هؤلاء الحاضرين المكذبين لرسولهم محمد ﷺ، وأن الله إذا أرسل رسولا في قرية من القرى؛ كفر به متترفوها، وأبطرتهم نعمتهم، وفخروا بها.

﴿٣٥﴾ وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً؛ أي: ممن اتَّبَعَ الحق، ﴿وما نحن بمُعذَّبين﴾؛ أي: أولاً لسنا بمبعوثين؛ فإن بُعِثنا؛ فالذي أعطانا الأموال والأولاد في الدنيا؛ سيعطينا أكثر من ذلك في الآخرة، ولا يعذبنا.

﴿٣٦﴾ فأجابهم الله تعالى بأنَّ بَسْطَ الرزق وتضييقه ليس دليلاً على ما زعمتم؛ فإنَّ الرزق تحت مشيئة الله؛ إن شاء؛ بسطه لعبده، وإن شاء؛ ضيقه.

﴿٣٧﴾ وليست الأموال والأولاد ﴿بالتي﴾ تقرب إلى الله ﴿زُلْفَى﴾: وتُدنِّي إليه، وإنَّما الذي يقرب منه زلفى الإيمان بما جاء به المرسلون والعمل الصالح الذي هو من لوازم الإيمان؛ فإنَّ أولئك^(١) لهم الجزاء عند الله تعالى مضاعفاً الحسنه بعشر

(١) في (ب): «فأولئك».

أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة لا يعلمها إلا الله. ﴿وهم في الغُرَفَاتِ آمَنُونَ﴾؛ أي: في المنازل العاليات المرتفعات جداً، ساكنين فيها مطمئنين، آمنون من المكدرات والمنغصات لما هم فيه من اللذات وأنواع المشتهيات، وآمنون من الخروج منها والحزن فيها.

﴿٣٨﴾ وأما الذين سعوا في آياتنا على وجه التعجيز لنا ولرسلنا والتكذيب؛ ﴿أولئك في العذاب مُخَضَّرُونَ﴾.

﴿٣٩﴾ ثم أعاد تعالى أنه ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾: وَيَقْدِرُ لَهُ ليرتب عليه قوله: ﴿وما أنفقتم من شيء﴾: نفقة واجبة أو مستحبة على قريب أو جار أو مسكين أو يتيم أو^(١) غير ذلك، ﴿فهو﴾ تعالى ﴿يُخْلِفُهُ﴾: فلا تتوهموا أن الإنفاق مما يُنْقِصُ الرِّزْقَ، بل وعد بالخلف للمنفق الذي يسط الرزق لمن يشاء وَيَقْدِرُ. ﴿وهو خيرُ الرازقين﴾: فاطلبوا الرزق منه، واسعوا في الأسباب التي أمركم بها.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيْسَ مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ قَالِيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُم لِبَعْضٍ نَفَقًا وَلَا ضِرًّا وَقُولُوا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿٤٢﴾.

﴿٤٠ - ٤١﴾ ﴿ويوم يحشرهم جميعاً﴾؛ أي: العابدين لغير الله والمعبودين من دونه من الملائكة، ﴿ثم يقول﴾: الله ﴿للملائكة﴾: على وجه التوبيخ لِمَن عَبَدَهُمْ: ﴿أهلؤاء إياكم كانوا يعبدون﴾؟ فتبرؤوا من عبادتهم و﴿قالوا سبحانك﴾؛ أي: تنزيهاً لك وتقديساً أن يكون لك شريك أو ند، ﴿أنت ولينا من دونهم﴾: فنحن مفتقرون إلى ولايتك، مضطرون إليها؛ فكيف ندعو غيرنا إلى عبادتنا؟ أم كيف نصلح لأن نتخذ من دونك أولياء وشركاء، ولكن هؤلاء المشركون ﴿كانوا يعبدون الجن﴾؛ أي: الشياطين، يأمرؤنهم^(٢) بعبادتنا أو عبادة غيرنا، فيطيعونهم بذلك، وطاعتهم هي عبادتهم؛ لأن العبادة الطاعة؛ كما قال تعالى مخاطباً لكل من اتخذ معه آلهة: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين. وإن أعبدوني هذا صراط مستقيم﴾. ﴿أكثرهم بهم مؤمنون﴾؛ أي: مصدقون للجن متقادون لهم؛ لأن الإيمان هو التصديق الموجب للانقياد.

(٢) في (ب): «يأمرؤن».

(١) في (ب): «و».

﴿٤٢﴾ فلما تبرؤوا منهم؛ قال تعالى مخاطباً لهم^(١): ﴿فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا﴾: تقطعت بينكم الأسباب، وانقطع بعضكم من بعض، ﴿ونقول للذين ظلموا﴾: بالكفر والمعاصي بعدما ندخلهم النار: ﴿ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون﴾: فاليوم عاينتموها ودخلتموها جزاء لتكذيبكم وعقوبة لما أحدثه ذلك التكذيب من عدم الهرب من أسبابها.

﴿وَإِذَا تَنَالَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا يَتَنَتَوْنَ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا ءَاتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا ءَاتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤٣﴾ يخبر تعالى عن حالة المشركين عندما تنال عليهم آيات الله البينات وحججه الظاهرات وبراهينه القاطعات، الدالة على كل خير، الناهية عن كل شر، التي هي أعظم نعمة جاءتهم ومنية وصلت إليهم، الموجبة لمقابلتها بالإيمان والتصديق والانقياد والتسليم، أنهم يقابلونها بضد ما ينبغي ويكذبون من جاءهم بها ويقولون: ﴿ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم﴾؛ أي: هذا قصده حين يأمركم بالإخلاص لله لتركوا عوائد آبائكم الذين تعظمون وتمشون خلفهم، فردوا الحق بقول الضالين، ولم يوردوا^(٢) برهاناً ولا شبهة؛ فأى شبهة إذا أمرت الرسل بعض الضالين باتباع الحق فادَّعَوْا أن إخوانهم الذين على طريقتهم لم يزالوا عليه؟! وهذه السفاهة ورد الحق بأقوال الضالين إذا تأملت كل حق رد؛ فإذا هذا ماله، لا يرد إلا بأقوال الضالين من المشركين والدَّهريين والفلاسفة والصابئين والملحدين في دين الله المارقين؛ فهم أسوة كل من رد الحق إلى يوم القيامة.

ولما احتجوا بفعل آبائهم وجعلوها دافعة لما جاءت به الرسل؛ طعنوا بعد هذا بالحق، ﴿وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى﴾؛ أي: كذب افتراه هذا الرجل الذي جاء به، ﴿وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين﴾؛ أي: سحر ظاهر بين لكل أحد؛ تكذيباً بالحق وترويجاً على السفهاء.

﴿٤٤﴾ ولما بين ما ردوا به الحق، وأنها أقوال دون مرتبة الشبهة، فضلاً أن

(٢) في (ب): «يردوا».

(١) في (ب): «قال تعالى لهم».

تكون حجة؛ ذكر أنهم وإن أراد أحد أن يحتج لهم؛ فإنهم لا مستند لهم ولا لهم شيء يعتمدون عليه أصلاً، فقال: ﴿وما آتيناهم من كتب يدرسونها﴾: حتى تكون عمدة لهم، ﴿وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾: حتى يكون عندهم من أقواله وأحواله ما يدفعون به ما جثتهم به؛ فليس عندهم علم ولا أثاره من علم.

﴿٤٥﴾ ثم خوفهم ما فعل بالأمم المكذبين قبلهم، فقال: ﴿وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا﴾؛ أي: ما بلغ هؤلاء المخاطبون ﴿معشار ما آتيناهم فكذبوا﴾؛ أي: الأمم الذين من قبلهم ﴿رسلي فكيف كان نكير﴾؛ أي: إنكاري عليهم وعقوبي إياهم، قد أعلمنا ما فعل بهم من النكال، وأن منهم من أغرقه، ومنهم من أهلكه بالريح العقيم وبالصيحة وبالرجفة وبالحسف بالأرض وبإرسال الحاصب من السماء؛ فاحذروا يا هؤلاء المكذبون أن تدوموا على التكذيب، فياخذكم كما أخذ من قبلكم ويصيبكم ما أصابهم.

﴿٤٦﴾ قل إنما أعظكم بوجده أن تقوموا لله مثنى وفردى ثم تفكروا ما بصاحبكم من جنه إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴿٤٦﴾ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شيء شهيد ﴿٤٧﴾ قل إن ربي يقذف بالحق عليم الغيوب ﴿٤٨﴾ قل جاء الحق وما يبدئ البطل وما يعبد ﴿٤٩﴾ قل إن ضللت فإلما أضل على نفسي وإن اهتديت فإلما يوحى إلي ربي إنه سميع قريب ﴿٥٠﴾.

﴿٤٦﴾ أي: ﴿قل﴾: يا أيها الرسول لهؤلاء المكذبين المعاندين المتصدئين لرد الحق وتكذيبه والقدح بمن جاء به: ﴿إنما أعظكم بواحدة﴾؛ أي: بخصلة واحدة أشير إليكم بها وأنصح لكم في سلوكها، وهي طريق نصف، لست أدعوكم بها إلى اتباع قولي ولا إلى ترك قولكم من دون موجب لذلك، وهي: ﴿أن تقوموا لله مثنى وفردى﴾؛ أي: تنهضوا بهمة ونشاط وقصد لاتباع الصواب وإخلاص لله مجتمعين ومتباحثين في ذلك ومتناظرين وفردى، كل واحد يخاطب نفسه بذلك؛ فإذا قُمت لله مثنى وفردى؛ استعملتم فكركم وأجلتموه وتدبرتم أحوال رسولكم: هل هو مجنون فيه صفات المجانين من كلامه وهيئته وصفته؟ أم هو نبي صادق منذر لكم ما يضرركم مما أمامكم من العذاب الشديد؟ فلو قبلوا هذه الموعظة واستعملوها؛ لتبين لهم أكثر من غيرهم أن رسول الله ﷺ ليس بمجنون؛ لأن هيئته ليست كهيئات المجانين في خنقهم واختلاجهم ونظرهم، بل هيئته أحسن الهيئات، وحركاته أجل الحركات، وهو أكمل الخلق أدباً وسكينة وتواضعاً ووقاراً، لا يكون إلا لأرزن الرجال عقلاً.

ثم إذا تأملوا كلامه الفصيح ولفظه المليح وكلماته التي تملأ القلوب أمناً وإيماناً وترزقي النفوس وتطهر القلوب وتبعث على مكارم الأخلاق وتحث على محاسن الشيم وترهب عن مساوئ الأخلاق ورذائلها، إذا تكلم؛ رَمَقَتْهُ العيونُ هيبةً وإجلالاً وتعظيماً؛ فهل هذا يشبه هذيان المجانين وعربدتهم وكلامهم الذي يشبه أحوالهم؟! فكل من تدبر أحواله وقصده استعلام: هل هو رسولُ الله أم لا؟ سواء تفكر وحده أم معه غيره؛ جزم بأنه رسولُ الله حقاً ونبه صدقاً، خصوصاً المخاطبين، الذي هو صاحبهم، يعرفون أول أمره وآخره.

﴿٤٧﴾ وثُمَّ مانعٌ للنفوس آخرُ عن اتِّباع الداعي إلى الحقِّ، وهو أنه يأخذ أموال من يستجيب له ويأخذ أجره على دعوته، فيبين الله تعالى نزاهة رسوله عن هذا الأمر، فقال: ﴿قل ما سألتكم من أجرٍ﴾؛ أي: على اتِّباعكم للحقِّ ﴿فهو لكم﴾؛ أي: فأشهدكم أن ذلك الأجر على التقدير أنه لكم. ﴿إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد﴾؛ أي: محيط علمه بما أدعو إليه؛ فلو كنتُ كاذباً؛ لأخذني بعقوبته، وشهيد أيضاً على أعمالكم، سيحفظها عليكم ثم يجازيكم بها.

﴿٤٨﴾ ولَمَّا بَيَّنَّ البراهين الدالة على صحة الحقِّ وبطلان الباطل؛ أخبر تعالى أن هذه سنته وعادته أن يَقْذِفَ بالحقِّ على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق؛ لأنه بين من الحقِّ في هذا الموضع وردَّ به أقوال المكذِّبين ما كان عبرةً للمعتبرين وآيةً للمتأملين؛ فإنك كما ترى كيف اضمحلت أقوال المكذِّبين، وتبين كذبهم وعنادهم، وظهر الحقُّ وسطع، وبطل الباطل وانقمع، وذلك بسبب بيان ﴿علام الغيوب﴾، الذي يعلم ما تنطوي عليه القلوب من الوسواس والشبه، ويعلم ما يقابل ذلك ويدفعه من الحُجج، فيعلم بها عباده، ويبينها لهم.

﴿٤٩﴾ ولهذا قال: ﴿قل جاء الحقُّ﴾؛ أي: ظهر وبان وصار بمنزلة الشمس وظَهَرَ سلطانه، ﴿وما يُبدى الباطل وما يعيد﴾؛ أي: اضمحل وبطل أمره وذهب سلطانه؛ فلا يُبدى ولا يُعيد.

﴿٥٠﴾ ولَمَّا تَبَيَّنَ الحقُّ بما دعا إليه الرسولُ، وكان المكذِّبون له يرمونه بالضلال؛ أخبرهم بالحقِّ، ووضَّحه لهم وبيَّن لهم عجزهم عن مقاومته، وأخبرهم أن رميهم له بالضلال ليس بضائر الحقِّ شيئاً ولا دافع ما جاء به، وأنه إن ضلَّ - وحاشاه من ذلك، لكن على سبيل التنزُّل في المجادلة -؛ فإنما يضلُّ على نفسه؛ أي: ضلاله قاصر على نفسه، غير متعدٍّ إلى غيره، ﴿وإن اهتديتُ﴾: فليس ذلك من نفسي وحولي وقوتي،

وَأِنَّمَا هِدَايَتِي بِمَا ﴿يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾: فهو مادة هدايتي؛ كما هو مادة هداية غيري؛
إِنَّ رَبِّي سَمِيعٌ لِلأَقْوَالِ وَالْأَصْوَاتِ كُلِّهَا، قَرِيبٌ مِّمَّنْ دَعَاهُ وَسَأَلَهُ وَعَبَدَهُ.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فِرَعَوُا فَلَا فُوتَ وَأَخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا ءَأَمَنَّا بِهِ وَأَنْتَ لَهُمْ
التَّنَاوُسُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ
﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿٥١﴾ يقول تعالى: ﴿ولو ترى﴾: أيها الرسولُ ومن قام مقامك حال هؤلاء
المكذِّبين ﴿إِذْ فِرَعَوُا﴾: حين رأوا العذاب وما أخبرتهم به الرسلُ وما كذبوا به؛
لرأيتُ أمراً هائلاً ومنظراً مفضعاً وحالة منكراً وشدةً شديدةً، وذلك حين يحقُّ عليهم
العذاب، وليس لهم عنه مهربٌ ولا فوْتٌ، ﴿وَأَخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾: أي: ليس
بعيداً عن محلِّ العذاب، بل يُؤَخِّذُونَ ثم يُقَذِّفُونَ في النار.

﴿٥٢﴾ ﴿وقالوا﴾: في تلك الحال: آمناً بالله، وصدَّقنا ما به كذبنا، ﴿و﴾ لكن
﴿أَنْتَ لَهُمُ التَّنَاوُسُ﴾؛ أي: تناول الإيمان، ﴿من مكانٍ بعيدٍ﴾: قد حيل بينهم
وبينه، وصار من الأمور المُحَالَّة في هذه الحالة.

﴿٥٣﴾ فلو أنهم آمنوا وقتَ الإمكان؛ لكان إيمانهم مقبولاً، ولكنهم ﴿كفروا به
من قبلُ وَيَقْذِفُونَ﴾؛ أي: يرمون ﴿بالغيبِ من مكانٍ بعيدٍ﴾: بقذفهم الباطل
ليُدْحِضُوا به الحقُّ، ولكن لا سبيل إلى ذلك؛ كما لا سبيل للرامي من مكانٍ بعيد
إلى إصابة الغرض؛ فكذلك الباطلُ من المُحَال أن يغلب الحقُّ أو يدفعه، وإنَّما
يكون له صولةٌ وقتَ غفلةِ الحقِّ عنه، فإذا برزَ الحقُّ وقاومَ الباطلُ؛ قمعه.

﴿٥٤﴾ ﴿وحيل بينهم وبينَ ما يَشْتَهُونَ﴾: من الشهواتِ واللذاتِ والأولاد
والأموال والخدم والجنود، قد انفردوا بأعمالهم، وجاؤوا فرادى كما خُلِقُوا وَتَرَكُوا
ما خُوِّلُوا وراءَ ظهورهم، ﴿كما فعل بأشْيَاعِهِمْ﴾: من الأممِ السابقين حين جاءهم
الهلاك حيل بينهم وبينَ ما يشتهون. ﴿إنَّهم كانوا في شكٍّ مُرِيبٍ﴾؛ أي: مُخْذِثِ
الرَّيْبَةِ وقلق القلب؛ فلذلك لم يؤمنوا، ولم يعتبوا حين استغفبوا.

تم تفسير سورة سبأ.

ولله الحمد والمئة والفضل، ومنه العون، وعليه التوكُّل، وبه الثقة^(١).

تفسير سورة فاطر

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مِّثْنَى وَتِلْكَ وَرَبُّكَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾.

﴿١﴾ يمدح [الله] تعالى نفسه الكريمة المقدسة على خلقه السماوات والأرض وما اشتملتا عليه من المخلوقات؛ لأن ذلك دليل على كمال قدرته وسعة ملكه وعموم رحمته وبديع حكمته وإحاطة علمه. ولما ذكر الخلق؛ ذكر بعده ما يتضمن الأمر، وهو أنه جعل ﴿الملائكة رسلاً﴾: في تدبير أوامره القدريّة ووسائط بيّنه وبين خلقه في تبليغ أوامره الدينيّة. وفي ذكره أنّه جعل الملائكة رسلاً ولم يستثن منهم أحداً دليل على كمال طاعتهم لربهم وانقيادهم لأمره؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾. ولما كانت الملائكة مدبرات بإذن الله ما جعلهم الله موكلين فيه؛ ذكر قوتهم على ذلك وسرعة سيرهم؛ بأن جعلهم ﴿أولي أجنحة﴾: تطير بها فتسرّع بتنفيذ ما أمرت به، ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾؛ أي: منهم من له جناحان وثلاثة وأربعة بحسب ما اقتضته حكمته. ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾؛ أي: يزيد بعض مخلوقاته على بعض في صفة خلقها وفي القوة وفي الحسن وفي زيادة الأعضاء المعهودة وفي حسن الأصوات ولذّة النغمات. ﴿إنّ الله على كلّ شيء قدير﴾: فقدرته تعالى تأتي على ما يشاؤه، ولا يستعصي عليها شيء، ومن ذلك زيادة مخلوقاته بعضها على بعض.

﴿٢﴾ ثم ذكر انفرادَه تعالى بالتدبير والعطاء والمنع، فقال: ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك﴾: من رحمته عنهم ﴿فلا مرسل له من بعده﴾: فهذا يوجب التعلّق بالله تعالى والافتقار إليه من جميع الوجوه، وأن لا يدعى إلّا هو ولا يخاف ويرجى إلّا هو. ﴿وهو العزيز﴾: الذي قهر الأشياء كلّها. ﴿الحكيم﴾: الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا

إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَ تُؤَفَّكَونَ ﴿٣﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ .

﴿٣﴾ يأمرُ تعالى جميع الناس أن يذكروا نعمته عليهم، وهذا شاملٌ لذكرها بالقلب اعترافاً وباللسان ثناءً وبالجوارح انقياداً، فإنَّ ذَكَرَ نِعْمِهِ تعالى داعٌ لشكره. ثمَّ نَبَّهَهُمْ على أصول النعم، وهي الخلق والرزق، فقال: ﴿هل من خالق غيرُ الله يرزقكم من السماء والأرض﴾: ولما كان من المعلوم أنَّه ليس أحدٌ يَخْلُقُ ويرزقُ إِلَّا اللهُ؛ نتج من ذلك أن كان ذلك دليلاً على ألوهيته وعبوديته، ولهذا قال: ﴿لا إله إِلَّا هو فآفَ تُؤَفَّكَونَ﴾؛ أي: تُضَرِّفُونَ من عبادة الخالق الرازق لعبادة المخلوق المرزوق.

﴿٤﴾ ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾: يا أيُّها الرسول؛ فلك أسوةٌ بمن قبلَكَ من المرسلين؛ ﴿فقد كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾: فأهلك المكَذِّبُونَ، ونَجَّى اللهُ الرسل وأتباعهم. ﴿وإلى الله تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ .

﴿٥ - ٦﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيُّها الناس إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾: بالبعث والجزاء على الأعمال ﴿حَقٌّ﴾؛ أي: لا شك فيه ولا مريّة ولا تردّد، قد دلّت على ذلك الأدلة السمعية والبراهين العقلية، فإذا كان وعده حقّاً؛ فتهيؤوا له وبادروا أوقاتكم الشريفة بالأعمال الصالحة ولا يقطعْكم عن ذلك قاطع. ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾: بلذاتها وشهواتها ومطالبها النفسية، فتلهيكم عما خلقتكم له، ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾: الذي هو الشيطان، الذي هو عدوكم في الحقيقة. ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾؛ أي: لتكن منكم عداوته على بالٍ، ولا تُهملوا محاربته كلَّ وقت؛ فإنَّه يراكم وأنتم لا تَرَوْنَهُ، وهو دائماً لكم بالمرصاد. ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾: هذا غايته ومقصوده ممّن تبعه أن يُهانَ غاية الإهانة بالعذاب الشديد.

﴿٧﴾ ثم ذكر أنَّ الناس انقسموا بحسب طاعة الشيطان وعدمها إلى قسمين، ودَكَرَ جزاء كلٍّ منهما، فقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: جحدوا ما جاءت به الرسل ودلّت عليه الكتب ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾: في نار جهنّم، شديدٌ في ذاته ووصفه،

وأنهم خالدون فيها أبداً، ﴿والذين آمنوا﴾: بقلوبهم بما دعا الله إلى الإيمان به، ﴿وعملوا﴾ - بمقتضى ذلك الإيمان بجوارحهم - الأعمال الصالحة ﴿لهم مغفرة﴾: لذنوبهم، يزول بها عنهم الشر والمكروه، ﴿وأجر كبير﴾: يحصل به المطلوب.

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٨).

﴿٨﴾ يقول تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ﴾: عمله السيئ القبيح، زينه له الشيطان وحسنه في عينه^(١)، ﴿فرآه حسناً﴾؛ أي: كمن هداه الله إلى الصراط المستقيم والدين القويم؛ فهل يستوي هذا وهذا؟! فالأول عمل السيئ، ورأى الحق باطلاً والباطل حقاً، والثاني عمل الحسن ورأى الحق حقاً والباطل باطلاً، ولكن الهداية والإضلال بيد الله تعالى. ﴿فإنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على الضالين الذين زُيِّنَ لهم سوء أعمالهم، وصدَّهم الشيطان عن الحق ﴿حسرات﴾: فليس عليك إلا البلاغ، وليس عليك من هداهم شيء، والله هو الذي يجازيهم بأعمالهم. ﴿إنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرٌ سَكَابًا فَسُقْنَتُهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَخْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ الْشُّورُ﴾ (٩).

﴿٩﴾ يخبر تعالى عن كمال اقتداره وسعة جوده وأنه ﴿أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلىٰ بلدٍ مَّيِّتٍ﴾: فأنزله الله عليها، ﴿فأخيينا به الأرض بعد موتها﴾: فحييت البلاد والعباد، وارتزقت الحيوانات، ورتعت في تلك الخيرات، ﴿كذلك﴾: الذي أحيا الأرض بعد موتها ينشر الأموات من قبورهم بعدما مرَّ قهَمُ البلاء، فيسوق إليهم مطراً كما ساقه إلى الأرض الميتة، فينزلهم عليهم، فتحيا الأجساد والأرواح من القبور، فيأتون للقيام بين يدي الله، ليحكم بينهم ويفصل بحكمه العدل.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يُورُ﴾ (١٠).

﴿١٠﴾ أي: يا مَنْ يُريد العزَّة! اطلبها ممن هي بيده؛ فإنَّ العزَّة بيد الله، ولا

(١) في (ب): «عينه».

تُنال إِلَّا بطاعته، وقد ذَكَرَهَا بقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾: من قراءة وتسميح وتحميد وتهليل وكل كلام حسن طيب، فيُرفع إلى الله، ويُعرض عليه، ويُثني الله على صاحبه بين الملائ الأعلى، ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ﴾: من أعمال القلوب وأعمال الجوارح ﴿يَرْفَعُهُ﴾: الله تعالى إليه أيضاً كالكلم الطيب. وقيل: والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب؛ فيكون رفع الكلم الطيب بحسب أعمال العبد الصالحة فهي التي ترفع كلمه الطيب، فإذا لم يكن له عمل صالح؛ لم يُرَفَّعْ له قول إلى الله تعالى. فهذه الأعمال التي تُرفع إلى الله تعالى وَيَرْفَعُ الله صاحبها ويعزّه، وأمّا السيئات؛ فإنّها بالعكس، يريد صاحبها الرفعة بها، ويمكّر ويكيّد ويعود ذلك عليه، ولا يزداد إِلَّا هواناً ونزولاً، ولهذا قال: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾: يُهانون فيه غاية الإهانة. ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورٌ﴾؛ أي: يهلك ويضمحل ولا يفيدهم شيئاً؛ لأنّه مكرّ بالباطل لأجل الباطل.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (١١).

﴿١١﴾ يذكر تعالى خلقه الآدمي وتنقله في هذه الأطوار من تراب إلى نطفة وما بعدها، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾؛ أي: لم يزل ينقلكم طوراً بعد طورٍ حتى أوصلكم إلى أن كنتم أزواجاً؛ ذكر يتزوج أنثى، ويراد بالزواج الذرية والأولاد؛ فهو وإن كان النكاح من الأسباب فيه؛ فإنّه مقترن بقضاء الله وقدره وعلمه. ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾: وكذلك أطوار الآدمي كلّها بعلمه وقضائه ﴿وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾؛ أي: عمر الذي كان معمرّاً عمراً طويلاً، ﴿إِلَّا﴾: بعلمه تعالى، أو: وما ينقص من عمر الإنسان الذي هو بصدد أن يصل إليه لولا ما سلكه من أسباب قصر العمر؛ كالزنا وعقوق الوالدين وقطيعة الأرحام ونحو ذلك مما ذُكر أنّها من أسباب قصر العمر، والمعنى أنّ طول العمر وقصره بسبب وبغير سبب كله بعلمه تعالى، وقد أثبت ذلك ﴿فِي كِتَابٍ﴾: حوى ما يجري على العبد في جميع أوقاته وأيام حياته. ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾؛ أي: إحاطة علمه بتلك المعلومات الكثيرة، وإحاطة كتابه بها.

فهذه ثلاثة أدلّة من أدلّة البعث والنشور، كلّها عقلية، نبّه الله عليها في هذه الآيات: إحياء الأرض بعد موتها، وأنّ الذي أحيّاها سيحيي الموتى. وتنفّل الآدمي في تلك الأطوار، فالذي أوجده ونفّله طبقاً بعد طبق وحالاً بعد حال حتى بلغ ما

قُدِّرَ له؛ فهو على إعادته وإنشائه النشأة الأخرى أقدر، وهو أهون عليه. وإحاطة علمه بجميع أجزاء العالم العلوي والسفلي دقيقتها وجليلها، الذي في القلوب، والأجنّة التي في البطون، وزيادة الأعمار ونقصها، وإثبات ذلك كله في كتاب؛ فالذي كان هذا^(١) يسيراً عليه؛ فإعادته للأموات أيسر وأيسر. فتبارك من كثّر خيره، ونبه عباده على ما فيه صلاحهم في معاشهم ومعادهم.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِيرَ لَبَتُّوْا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾

﴿١٢﴾ هذا إخبار عن قدرته وحكمته ورحمته، أنه جعل البحرين لمصالح العالم الأرضي كلهم، وأنه لم يسو بينهما؛ لأن المصلحة تقتضي أن تكون الأنهار عذبة فراتاً سائغاً شرابها؛ لينتفع بها الشاربون والغارسون والزارعون، وأن يكون البحر ملحاً أجاجاً؛ لئلا يفسد الهواء المحيط بالأرض بروائح ما يموت في البحر من الحيوانات، ولأنه ساكن لا يجري؛ فملوحته تمنعه من التغير، وتكون حيواناته أحسن وألذ، ولهذا قال: ﴿ومن كل﴾: من البحر الملح والعذب ﴿تأكلون لَحْمًا طَرِيًّا﴾: وهو السمك المتيسر صيده في البحر، ﴿وتستخرجون حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾: من لؤلؤ ومرجان وغيره مما يوجد في البحر، فهذه مصالح عظيمة للعباد.

ومن المصالح أيضاً والمنافع في البحر أن سخره الله تعالى يحمل الفلك من السفن والمراكب، فتراها تمخر البحر وتشقه، فتسلك من إقليم إلى إقليم آخر ومن محل إلى محل، فتحمل السائرين وأثقالهم وتجاراتهم، فيحصل بذلك من فضل الله وإحسانه شيء كثير، ولهذا قال: ﴿وَلَبَتُّوْا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿١٣﴾ ومن ذلك أيضاً إيلاجه تعالى الليل بالنهار والنهار بالليل؛ يَدْخُلُ هذا على هذا وهذا على هذا، كلما أتى أحدهما؛ ذهب الآخر، ويزيد أحدهما وينقص

(١) أضاف الشيخ هنا في هامش (أ) و(ب): «نعت» ثم شطب عليها في هامش (أ).

الْآخِرُ وَيَتَسَاوِيَانِ، فيقوم بذلك ما يقوم من مصالح العباد في أبدانهم وحيواناتهم وأشجارهم وزروعهم، وكذلك ما جعل الله في تسخير الشمس والقمر من مصالح الضياء والنور والحركة والسكون وانتشار العباد في طلب فضله وما فيهما من تنضيج الثمار وتجفيف ما يجفف^(١) وغير ذلك مما هو من الضروريات التي لو فُقدت؛ لَلَحِقَ النَّاسَ الضَّرَرُ.

وقوله ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: كلٌّ من الشمس والقمر يسيران في فلكهما ما شاء الله أن يسيرا؛ فإذا جاء الأجل وقُرِبَ انقضاء الدنيا؛ انقطع سيرهما، وتعطل سلطانهما، وخسف القمر، وكُوِّرَتِ الشمس، وانتثرت النجوم.

فلما بيّن تعالى ما بيّن من هذه المخلوقات العظيمة وما فيها من العبر الدالة على كماله وإحسانه قال: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾؛ أي: الذي انفرد بخلق هذه المذكورات وتسخيرها هو الربُّ المألوه المعبود الذي له الملك كله. ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾: من الأوثان والأصنام، لا يملكون ﴿مِنْ قُطْمِيرٍ﴾؛ أي: لا يملكون شيئاً لا قليلاً ولا كثيراً، حتى ولا القطمير الذي هو أحقر الأشياء، وهذا من تنصيص النفي وعمومه؛ فكيف يُدْعَوْنَ وهم غير مالكيين لشيء من ملك السماوات والأرض؟!

﴿١٤﴾ ومع هذا: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ﴾: لا يسمعون؛ لأنهم ما بين جماد^(٢) وأموات وملائكة مشغولين بطاعة ربهم، ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾: على وجه الفرض والتقدير ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾: لأنهم لا يملكون شيئاً ولا يرضى أكثرهم بعبادة مَنْ عَبدَهُ، ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ﴾؛ أي: يتبرؤون منكم، ويقولون: سبحانك أنتَ ولينا من دونهم، ﴿وَلَا يَنْبُتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾؛ أي: لا أحد ينبتك أصدق من الله العليم الخبير؛ فاجزِمْ بأنَّ هذا الأمر الذي نبأ به كأنه رأي عين، فلا تشكَّ فيه ولا تمتَر. فتضمَّنت هذه الآيات الأدلة والبراهين الساطعة الدالة على أنَّ تعالى المألوه المعبود الذي لا يستحق شيئاً من العبادة سواء، وأنَّ عبادة ما سواه باطلة متعلقة بباطل لا تفيد عابده شيئاً.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اسْتُرُوا أَفْئِدَتَكُمْ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (١٥) إِنَّ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ

(١) في (ب): «وتخفيف ما يخفف». (٢) في (ب): «جمادات».

وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَلَئِنْ دَعُ
مُنْقَلَةً إِلَىٰ جِهْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم
بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ .

﴿١٥﴾ يخاطبُ تعالى جميع الناس، ويخبرهم بحالهم ووصفهم، وأنهم فقراء
إلى الله من جميع الوجوه: فقراء في إيجادهم؛ فلولا إيجاده إياهم لم يوجدوا، فقراء
في إعدادهم بالقوى والأعضاء والجوارح، التي لولا إعداده إياهم بها؛ لما استعدوا
لأي عمل كان، فقراء في إمدادهم بالأقوات والأرزاق والنعم الظاهرة والباطنة؛ فلولا
فضله وإحسانه وتيسيره الأمور، لما حصل لهم من الرزق والنعم شيء، فقراء في
صرف النقم عنهم ودفع المكاريه وإزالة الكرب والشدائد؛ فلولا دفعه عنهم وتفريجه
لكرباتهم وإزالته لعسرهم؛ لاستمرت عليهم المكاريه والشدائد، فقراء إليه في تربيتهم
بأنواع التربية وأجناس التدبير، فقراء إليه في تألههم له وحُبهم له وتعبدهم وإخلاص
العبادة له تعالى؛ فلو لم يوفقهم لذلك؛ لهلكوا وفسدت أرواحهم وقلوبهم
وأحوالهم، فقراء إليه في تعليمهم ما لا يعلمون وعملهم بما يضلحهم؛ فلولا تعليمه؛
لم يتعلموا، ولولا توفيقه؛ لم يضلحوا؛ فهم فقراء بالذات إليه بكل معنى وبكل
اعتبار، سواء شعروا ببعض أنواع الفقر أم لم يشعروا، ولكن الموفق منهم الذي لا
يزال يشاهد فقره في كل حال من أمور دينه ودنياه، ويتضرع له ويسأله أن لا يكله إلى
نفسه طرفة عين وأن يعينه على جميع أموره، ويستصحب هذا المعنى في كل وقت؛
فهذا حريٌّ بالإعانة التامة من ربه وإلهه الذي هو أرحم به من الوالدة بولدها.

﴿والله هو الغني الحميد﴾؛ أي: الذي له الغنى التام من جميع الوجوه؛ فلا
يحتاج إلى ما يحتاج إليه خلقه، ولا يفتقر إلى شيء مما يفتقر إليه الخلق، وذلك
لكمال صفاته، وكونها كلها صفات كمال ونعوت جلال، ومن غناه تعالى أنه أغنى
الخلق في الدنيا والآخرة، الحميد في ذاته، وأسمائه؛ لأنها حسنى، وأوصافه؛
لكونها عليا، وأفعاله؛ لأنها فضل وإحسان وعدل وحكمة ورحمة، وفي أوامره
ونواهيه؛ فهو الحميد على ما فيه، وعلى ما منه^(١)، وهو الحميد في غناه، الغني
في حمده.

(١) «قوله على ما فيه: أي من الصفات، وعلى ما منه من الفضل والإنعام وعلى الجزاء بالعدل»،

كذا في هامش نسخة (أ) بخط المؤلف.

﴿١٦﴾ «إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ»: يُحْتَمَلُ أَنَّ الْمَرَادَ: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِغَيْرِكُمْ مِنَ النَّاسِ أَطْوَعَ لِلَّهِ مِنْكُمْ، وَيَكُونُ فِي هَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ بِالْهَلَاكِ وَالْإِبَادَةِ، وَأَنْ مَشِيتُهُ غَيْرُ قَاصِرَةٍ عَنْ ذَلِكَ. وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الْمَرَادَ بِذَلِكَ إِبْثَابُ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ، وَأَنْ مَشِيتُهُ اللَّهُ تَعَالَى نَافِذَةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَفِي إِعَادَتِكُمْ بَعْدَ مَوْتِكُمْ خَلْقًا جَدِيدًا، وَلَكِنْ لَذَلِكَ الْوَقْتُ أَجَلٌ قَدَرَهُ اللَّهُ لَا يَتَقَدَّمُ عَنْهُ وَلَا يَتَأَخَّرُ.

﴿١٧﴾ «وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ»: أَيُّ: بِمَمْتَنَعٍ وَلَا مُعْجَزٍ لَهُ.

﴿١٨﴾ وَيَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى الْأَخِيرِ مَا ذَكَرَهُ بَعْدَهُ فِي قَوْلِهِ: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى»؛ أَيُّ: فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلُّ أَحَدٍ يُجَازَى بِعَمَلِهِ، وَلَا يَحْمِلُ أَحَدٌ ذَنْبَ أَحَدٍ. «وَأَنْ تَذُغَ مُثْقَلَةٌ»: أَيُّ: نَفْسٌ مُثْقَلَةٌ بِالْخَطَايَا وَالذُّنُوبِ تَسْتَعِيْثُ بِمَنْ يَحْمِلُ عَنْهَا بَعْضُ أَوْزَارِهَا، «لَا يُخْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى»: فَإِنَّهُ لَا يَخْمَلُ عَنْ قَرِيبٍ، فَلَيْسَتْ حَالُ الْآخِرَةِ بِمَنْزِلَةِ حَالِ الدُّنْيَا يَسَاعِدُ الْحَمِيمَ حَمِيمَهُ وَالصَّدِيقُ صَدِيقَهُ، بَلْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتِمُّ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ لَهُ حَقٌّ عَلَى أَحَدٍ، وَلَوْ عَلَى وَالِدَيْهِ وَأَقَارِبِهِ. «إِنَّمَا تَنْذَرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ»: أَيُّ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقْبَلُونَ النَّذَارَةَ وَيَنْتَفِعُونَ بِهَا، أَهْلُ الْخَشْيَةِ لِلَّهِ بِالْغَيْبِ. الَّذِينَ^(١) يَخْشَوْنَهُ فِي حَالِ السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ وَالْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ وَأَهْلُ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ بِحُدُودِهَا وَشُرُوطِهَا وَأَرْكَانِهَا وَوَاجِبَاتِهَا وَخُشُوعِهَا؛ لِأَنَّ الْخَشْيَةَ لِلَّهِ تَسْتَدْعِي مِنَ الْعَبْدِ الْعَمَلَ بِمَا يَخْشَى مِنْ تَضْيِيعِهِ الْعِقَابَ وَالْهَرَبَ مِمَّا يَخْشَى مِنْ ارْتِكَابِهِ الْعَذَابَ، وَالصَّلَاةُ تَدْعُو إِلَى الْخَيْرِ وَتَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ. «وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ»: أَيُّ: وَمَنْ زَكَّى نَفْسَهُ بِالتَّنْقِي مِنَ الْعُيُوبِ كَالرِّبَاءِ وَالْكِبَرِ وَالْكَذِبِ وَالْغَشِّ وَالْمَكْرِ وَالْخُدَاعِ وَالنِّفَاقِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ، وَتَحَلَّى بِالْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ مِنَ الصَّدْقِ وَالْإِخْلَاصِ وَالتَّوَاضُّعِ وَلِينِ الْجَانِبِ وَالتَّصَحُّعِ لِلْعِبَادِ وَسَلَامَةِ الصَّدْرِ مِنَ الْحَقْدِ وَالْحَسَدِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ مَسَاوِيءِ الْأَخْلَاقِ؛ فَإِنَّ تَزَكِّيَّتَهُ يَعُودُ نَفْعُهَا إِلَيْهِ وَيَصِلُ مَقْصُودُهَا إِلَيْهِ، لَيْسَ يَضِيعُ مِنْ عَمَلِهِ شَيْءٌ. «وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ»: فَيَجَازِي الْخَلَائِقَ عَلَى مَا أَسْلَفُوهُ، وَيَحَاسِبُهُمْ عَلَى مَا قَدَّمُوهُ وَعَمِلُوهُ، وَلَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا.

«وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ

﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَنْجَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾

إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ .

﴿١٩ - ٢٣﴾ يخبر تعالى أنه لا يتساوى الأضداد في حكمة الله وفيما أودع في فطر عباده، فلا ﴿يستوي الأعمى﴾: فاقد البصر ﴿والبصير﴾. ولا الظلمات ولا النور. ولا الظل ولا الحرور. وما يستوي الأحياء ولا الأموات؛ فكما أنه من المتقرر عندكم الذي لا يقبل الشك أن هذه المذكورات لا تتساوى؛ فكذلك فلتعلموا أن عدم تساوي المتضادات المعنوية أولى وأولى؛ فلا يستوي المؤمن والكافر، ولا المهتدي والضال، ولا العالم والجاهل، ولا أصحاب الجنة وأصحاب النار، ولا أحياء القلوب وأمواتها؛ فبين هذه الأشياء من التفاوت والفرق ما لا يعلمه إلا الله تعالى. فإذا علمت المراتب وميزت الأشياء وبان الذي ينبغي أن يتنافس في تحصيله من ضده؛ فليختر الحازم لنفسه ما هو أولى به وأحق بالإتيار. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾: سماع فهم وقبول؛ لأنه تعالى هو الهادي الموفق. ﴿وما أنت بمسمع من في القبور﴾؛ أي: أموات القلوب، أو: كما أن دعاءك لا يفيد سكان القبور شيئاً، كذلك لا يفيد المعرض المعاند شيئاً، ولكن وظيفة النذارة وإبلاغ ما أرسلت به؛ قبل منك أم لا، ولهذا قال: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾.

﴿٢٤﴾ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: مجرد إرسالنا إياك بالحق؛ لأن الله تعالى بعثك على حين فترة من الرسل وطموس من السبل واندراس من العلم وضرورة عظيمة إلى بعثك، فبعثك الله رحمة للعالمين، وكذلك ما بعثناك به من الدين القويم والصراط المستقيم حق لا باطل، وكذلك ما أرسلناك به من هذا القرآن العظيم وما اشتمل عليه من الذكر الحكيم حق وصدق، ﴿بشيراً﴾: لمن أطاعك بثواب الله العاجل والآجل ﴿ونذيراً﴾^(١): لمن عصاك بعقاب الله العاجل والآجل، ولست ببدع من الرسل. فما ﴿من أمة﴾: من الأمم الماضية والقرون الخالية ﴿إلا خلا فيها نذير﴾: يقيم عليهم حجة الله؛ ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويخيا من حي عن بينة﴾.

﴿وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير﴾ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ .

(١) في (ب): «نذيراً».

﴿٢٥﴾ أي: وإن يكذبك أيها الرسول هؤلاء المشركون؛ فلست أول رسول كُذِّبَ، ﴿فقد كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾: الدَّلَالَاتِ عَلَى الْحَقِّ وَعَلَى صَدَقِهِمْ فِيمَا أَخْبَرُوهُمْ بِهِ. ﴿وَالزُّبُرِ﴾؛ أي: الكتب المكتوبة المجموع فيها كثير من الأحكام. ﴿وَالكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾؛ أي: المضيء في أخباره الصادقة وأحكامه العادلة، فلم يكن تكذيبهم إياهم ناشئاً عن اشتباه أو قصور بما جاءتهم به الرسل، بل بسبب ظلمهم وعنادهم.

﴿٢٦﴾ ثم أخذت الذين كفروا: بأنواع العقوبات ﴿فكيف كان نكير﴾: عليهم؟ كان أشد النكير وأعظم التنكيل؛ فيأياكم وتكذيب هذا الرسول الكريم، فيصيبكم كما أصاب أولئك من العذاب الأليم والخزي الوخيم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ أَلْوَانٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.

يذكر تعالى خلقه للأشياء المتضادات التي أصلها واحد ومادتها واحدة وفيها من التفاوت والفرق ما هو مشاهد معروف؛ ليدل العباد على كمال قدرته وبديع حكمته:

﴿٢٧﴾ فمن ذلك أن الله تعالى أنزل من السماء ماء، فأخرج به من الثمرات المختلفات والنباتات المتنوعات ما هو مشاهد للناظرين، والماء واحد والأرض واحدة. ومن ذلك الجبال التي جعلها الله أوتاداً للأرض؛ تجدها جبلاً مشتبكاً، بل جبلاً واحداً، وفيها ألوان متعددة، فيها ﴿جُدَدٌ بَيَضٌ﴾؛ أي: طرائق بيض، وفيها طرائق صفراء وحمراء، وفيها ﴿غَرَابِيبُ سُودٌ﴾؛ أي: شديدة السواد جداً.

﴿٢٨﴾ ومن ذلك الناس والدواب والأنعام؛ فيها من اختلاف الألوان والأوصاف والأصوات والهيئات ما هو مرئي بالأبصار مشهود للنظار، والكل من أصل واحد ومادة واحدة، فتفاوتها دليلٌ عقليٌّ على مشيئة الله تعالى التي خَصَّصَتْ ما خَصَّصَتْ منها بلونه ووصفه، وقدرة الله تعالى حيث أوجدها كذلك، وحكمته ورحمته حيث كان ذلك الاختلاف وذلك التفاوت فيه من المصالح والمنافع ومعرفة الطرق ومعرفة الناس بعضهم بعضاً ما هو معلوم، وذلك أيضاً دليلٌ على سعة علم الله تعالى، وأنه يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ. ولكن الغافل ينظر في هذه الأشياء وغيرها نَظَرُ غَفْلَةٍ لا تحدث

له تذكراً، وإنما ينتفع بها من يخشى الله تعالى ويعلم بفكره الصائب وجه الحكمة فيها، ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾: فكل من كان بالله أعلم؛ كان أكثر له خشية، وأوجب له خشية الله الانكفاف عن المعاصي والاستعداد للقاء من يخشاه، وهذا دليل على فضيلة العلم؛ فإنه داع إلى خشية الله، وأهل خشيته هم أهل كرامته؛ كما قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾: كامل العزة، ومن عزته خلق هذه المخلوقات المتضادات. ﴿غَفُورٌ﴾: لذنوب التائبين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجْرَهُمْ وَيَرْبِّدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٢٩﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾: أي: يتبعونه في أوامره فيمتثلونها وفي نواهيه فيتركونها وفي أخباره فيصدقونها ويعتقدونها ولا يقدمون عليه ما خالفه من الأقوال، ويتلون أيضاً ألفاظه بدراسته، ومعانيه بتتبعها واستخراجها، ثم خص من التلاوة بعدما عم الصلاة - التي هي عماد الدين ونور المسلمين وميزان الإيمان وعلامة صدق الإسلام - النفقة^(١) على الأقارب والمساكين واليتامى وغيرهم من الزكاة والكفارات والنذور والصدقات، ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: في جميع الأوقات؛ ﴿يَرْجُونَ﴾: بذلك ﴿تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾؛ أي: لن تكسد وتفسد، بل تجارة هي أجل التجارات وأعلاها وأفضلها ألا وهي رضا ربهم والفوز بجزيل ثوابه والنجاة من سخطه وعقابه، وهذا فيه الإخلاص^(٢) بأعمالهم، وأنهم لا يرجون بها من المقاصد السيئة والنيات الفاسدة شيئاً.

﴿٣٠﴾ ذكر أنهم حصل لهم ما رَجَوْه، فقال: ﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أَجْرَهُمْ﴾؛ أي: أجور أعمالهم على حسب قِلَّتِها وكثرتها وحُسْنِها وعدَمِها، ﴿وَيَرْبِّدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾: زيادة عن أجورهم. ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾: غفر لهم السيئات، وقَبِلَ منهم القليل من الحسنات.

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ يَعْبَادُهُ لَخَيْرُ

(١) في (ب): «والنفقة».

(٢) في (ب): «أنهم يخلصون».

بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُاذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي آتَانَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ .

﴿٣١﴾ يذكر تعالى أن الكتاب الذي أوحاه إلى رسوله ﴿هو الحق﴾: من كثرة ما اشتمل عليه من الحق، كأن الحق منحصر فيه؛ فلا يكن في قلوبكم حرج منه ولا تبتروا منه ولا تستهينوا به؛ فإذا كان هو الحق؛ لزم أن كل ما دل عليه من المسائل الإلهية والغيبية وغيرها مطابق لما في الواقع؛ فلا يجوز أن يراد به ما يخالف ظاهره وما دل عليه. ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾: من الكتب والرسول؛ لأنها أخبرت به، فلما وُجدَ وظهر؛ ظهر به صدقها؛ فهي بشرت به وأخبرت، وهو صدقها، ولهذا لا يمكن أحداً أن يؤمن بالكتب السابقة وهو كافر بالقرآن أبداً؛ لأن كفره به ينقض إيمانه بها؛ لأن من جملة أخبارها الخبر عن القرآن، ولأن أخبارها مطابقة لأخبار القرآن. ﴿إن الله بعباده لخبير بصير﴾: فيعطي كل أمة وكل شخص ما هو اللائق بحالِهِ، ومن ذلك أن الشرائع السابقة لا تليق إلا بوقتها وزمانها، ولهذا ما زال الله يرسل الرسل رسولاً بعد رسول حتى ختمهم بمحمد ﷺ، فجاء بهذا الشرع الذي يصلح لمصالح الخلق إلى يوم القيامة، ويتكفل بما هو الخير في كل وقت، ولهذا لما كانت هذه الأمة أكمل الأمم عقولاً وأحسنهم أفكاراً وأرقهم قلوباً وأزكاهم أنفسهم؛ اصطفاها تعالى واصطفى لهم دين الإسلام وأورثهم الكتاب المهيم على سائر الكتب.

﴿٣٢﴾ ولهذا قال: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾: وهم هذه الأمة. ﴿فمنهم ظالم لنفسه﴾: بالمعاصي التي هي دون الكفر، ﴿ومنهم مقتصد﴾: مقتصر على ما يجب عليه، تارك للمحرم، ﴿ومنهم سابق بالخيرات﴾: أي: سارع فيها، واجتهد فسبق غيره، وهو المؤدي للفرائض، المكثّر من النوافل، التارك للمحرم والمكروه؛ فكلهم اصطفاها الله تعالى لورثة هذا الكتاب، وإن تفاوتت مراتبهم وتميزت أحوالهم؛ فلكل منهم قسط من وراثته، حتى الظالم لنفسه؛ فإن ما معه من أصل الإيمان وعلوم الإيمان وأعمال الإيمان من وراثته الكتاب؛ لأن المراد بوراثته الكتاب وراثته علمه وعمله ودراسة ألفاظه واستخراج معانيه، وقوله:

﴿يَا ذَنُ اللّٰه﴾: راجعٌ إلى السابق إلى الخيرات^(١)؛ لئلا يغترَّ بعمله، بل ما سَبَقَ إلى الخيرات إلَّا بتوفيق الله تعالى ومعونته؛ فينبغي له أن يشتغلَ بشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه. ﴿ذٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾؛ أي: وراثَةُ الكتاب الجليل لمن اصطفى تعالى من عباده هو الفضلُ الكبيرُ الذي جميع النعم بالنسبة إليه كالعدم، فأجلُّ النعم على الإطلاق وأكبرُ الفضل وراثَةُ هذا الكتاب.

﴿٣٣﴾ ثم ذكر جزاء الذين أوزَّههم كتابه، ﴿جَنَاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾؛ أي: جناتٌ مشتملاتٌ على الأشجار والظلِّ والظليل والحدائق الحسنة والأنهار المتدفقة والقصور العالية والمنازل المزخرفة في أبدٍ لا يزول وعيش لا ينفد. والعَدْنُ: الإقامة؛ فجَنَاتِ عَدْنٍ؛ أي: جنات إقامة، أضافها للإقامة لأنَّ الإقامة والخلود وصفها ووصف أهلها، ﴿يَدْخُلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾: وهو الحُلِي الذي يجعل في اليدين على ما يحبُّون ويرون أنَّه أحسنُّ من غيره، الرجال والنساء في الحلية في الجنة سواء. ﴿وَيَدْخُلُونَ فِيهَا ﴿لَوْلُؤَا﴾: يُنظَّم في ثيابهم وأجسادهم، ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾: من سندس ومن إستبرق أخضر.

﴿٣٤﴾ ﴿وَيَدْخُلُونَ فِيهَا﴾: ﴿لَمَّا تَمَّ نَعِيمُهُمْ وَكَمَلَتْ لَذَّتُهُمْ﴾؛ ﴿قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾: وهذا يشملُ كلَّ حزنٍ؛ فلا حزنٌ يعرض لهم بسبب نقص في جمالهم ولا في طعامهم وشرابهم ولا في لذاتهم ولا في أجسادهم ولا في دوام لبيتهم؛ فهم في نعيم ما يرون عليه مزيداً، وهو في تزايدٍ أبد الآباد. ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾: حيث غَفَرَ لنا الزلات. ﴿شُكُورٌ﴾: حيث قَبِلَ مِنَّا الحسناتِ وضاعفها، وأعطانا من فضله ما لم تَبْلُغْه أعمالنا ولا أمانينا. فبمغفرته؛ نَجُوا من كلِّ مكروه ومرهوب، وبشكره وفضله؛ حصل لهم كلُّ مرغوبٍ محبوبٍ.

﴿٣٥﴾ ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا﴾؛ أي: أنزلنا نزول حلول واستقرار، لا نزول معبرٍ واعتبارٍ ﴿دَارِ الْمُقَامَةِ﴾؛ أي: الدار التي تدوم فيها الإقامة، والدار التي يُرْغَب في المقام فيها؛ لكثرة خيراتها وتوالي مسراتها وزوال كدوراتها، وذلك الإحلال بفضله علينا وكرمه، لا بأعمالنا؛ فلولاً فضله؛ لما وَصَلْنَا إلى ما وَصَلْنَا إليه، ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾؛ أي: لا تعبٌ في الأبدان ولا في القلبِ والثوى ولا في كثرة التمتع.

(١) في (ب): «بالخيرات».

ولهذا يدل على أن الله تعالى يجعل أبدانهم في نشأة كاملة ويهيئ لهم من أسباب الراحة على الدوام ما يكونون بهذه الصفة؛ بحيث لا يمسمهم نصب ولا لغوب ولا هم ولا حزن.

ويدل على أنهم لا ينامون في الجنة؛ لأن النوم فائدته زوال التعب وحصول الراحة به، وأهل الجنة بخلاف ذلك، ولأنه موث أصغر، وأهل الجنة لا يموتون. جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَحَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٣٦﴾ لما ذكر تعالى حال أهل الجنة ونعيمهم؛ ذكر حال أهل النار وعذابهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: جحدوا ما جاءتهم به رسلهم من الآيات وأنكروا لقاء ربهم، ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾: يعذبون فيها أشد العذاب وأبلغ العقاب، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾: بالموت ﴿فَيَمُوتُوا﴾: فيستريحوا، ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾: فشدة العذاب وعظمته مستمر عليهم في جميع الآتات واللحظات. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾.

﴿٣٧﴾ ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾؛ أي: يصرخون ويتصايحون ويستغيثون ويقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾: فاعترفوا بذنبهم، وعرفوا أن الله عدل فيهم، ولكن سألوا الرجعة في غير وقتها، فيقال لهم ألم: ﴿نُعَمِّرْكُم مَّا﴾؛ أي: دهرًا وعمراً ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾؛ أي: يتمكن فيه من أراد التذكر من العمل، متغناكم في الدنيا، وأدرنا عليكم الأرزاق، وقبضنا لكم أسباب الراحة، ومددنا^(١) لكم في العمر، وتابغنا عليكم الآيات، وواصلنا إليكم النذر، وابتليناكم بالسراء والضراء؛ لنتبينوا إلينا وترجعوا إلينا، فلم ينبج فيكم إنذار، ولم نفد فيكم موعظة، وأخزنا عنكم العقوبة، حتى إذا انقضت آجالكم وتمت أعماركم ورحلتم عن دار الإمكان بأشرف الحالات ووصلتم إلى هذه الدار دار الجزاء على

(١) في (ب): «ومدينا».

الأعمال؛ سألتُم الرجعة! هيهات هيهات! فات وقتُ الإمكان، وغضب عليكم الرحيم الرحمن، واشتدَّ عليكم عذاب النار، ونسيكُم أهل الجنة، فامكثوا فيها خالدين مخلدين وفي العذاب مُهانين، ولهذا قال: ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾: ينصُرهم فيُخْرِجُهم منها، أو يخفِّفُ عنهم من عذابها.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٣٨).

﴿٣٨﴾ لَمَّا ذَكَرَ جَزَاءَ أَهْلِ الدَّارَيْنِ، وَذَكَرَ أَعْمَالَ الْفَرِيقَيْنِ؛ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ سَعَةِ عِلْمِهِ تَعَالَى وَاطِّلاَعِهِ عَلَى غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّتِي غَابَتْ عَنْ أَبْصَارِ الْخَلْقِ وَعَنْ عِلْمِهِمْ، وَأَنَّهُ عَالِمٌ بِالسَّرَائِرِ وَمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ الصُّدُورُ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالزَّكَاةِ وَغَيْرِهِ، فَيُعْطِي كُلَّ مَا يَسْتَحِقُّهُ، وَيَنْزِلُ كُلَّ أَحَدٍ مِنْزِلَتَهُ.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا نَجْمًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٣٩).

﴿٣٩﴾ يَخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كَمَالِ حِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ أَنَّهُ قَدَّرَ بِقَضَائِهِ السَّابِقِ أَنْ يَجْعَلَ بَعْضَهُمْ يَخْلَفُ بَعْضًا فِي الْأَرْضِ، وَيُرْسِلَ لِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ النُّذْرَ، فَيَنْظُرَ كَيْفَ يَعْمَلُونَ؟ ﴿فَمَنْ كَفَرَ﴾: بِاللَّهِ وَبِمَا جَاءَتْ بِهِ رِسَالُهُ؛ فَإِنَّ كُفْرَهُ عَلَيْهِ، وَعَلَيْهِ إِثْمُهُ وَعَقُوبَتُهُ، وَلَا يَخْمِلُ عَنْهُ أَحَدٌ، وَلَا يَزِدَادُ الْكَافِرَ بِكُفْرِهِ إِلَّا مَقْتٌ رَبِّهِ لَهُ وَبِغَضِهِ إِيَّاهُ، وَأَيُّ عَقُوبَةٍ أَعْظَمُ مِنْ مَقْتِ الرَّبِّ الْكَرِيمِ؟! ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾؛ أَي: يَخْسِرُونَ أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ وَمَنَازِلَهُمْ فِي الْجَنَّةِ؛ فَالْكَافِرُ لَا يَزَالُ فِي زِيَادَةِ مِنَ الشَّقَاءِ وَالْخَسْرَانِ وَالْخِزْيِ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ خَلْقِهِ وَالْحَرَمَانِ.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ لَآتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ (٤٠).

﴿٤٠﴾ يَقُولُ تَعَالَى مُعْجِزًا لِآلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ وَمُبَيِّنًا نَقْصَهَا وَبَطْلَانَ شِرْكِهِمْ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ: ﴿قُلْ﴾ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَهُمْ: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾؛ أَي: أَخْبِرُونِي عَنْ شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ: هَلْ هُمْ مُسْتَحَقُّونَ لِلدَّعَاءِ وَالْعِبَادَةِ؟! فَأُرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ: هَلْ خَلَقُوا بَحْرًا أَمْ خَلَقُوا جِبَالًا أَوْ خَلَقُوا حَيَوَانًا أَوْ خَلَقُوا جِمَادًا؟! سَيَقْرُونَ أَنَّ الْخَالِقَ لِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى. أَمْ لَشُرَكَائِكُمْ ﴿شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾: فِي خَلْقِهَا وَتَدْبِيرِهَا؟! سَيَقُولُونَ: لَيْسَ لَهُمْ شَرِكَةٌ! فَإِذَا لَمْ يَخْلُقْ شَيْئًا

ولم يَشْرِكُوا الْخَالِقَ فِي خَلْقِهِ؛ فلم عبدُثُمُوهم ودعوثُمُوهم مع إقراركم بعجزهم؟! فانقضى الدليل العقلي على صحة عبادتهم، ودل على بطلانها.

ثم ذكر الدليل السمعي، وأنه أيضاً منتفٍ، فلهذا قال: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا﴾: يتكلّم بما كانوا به يَشْرِكُونَ؛ يأمرُهم بالشرك وعبادة الأوثان. ﴿فَهُمْ﴾: في شركهم ﴿عَلَى بَيِّنَةٍ﴾: من ذلك الكتاب الذي نَزَلَ عليهم في صحة الشرك، ليس الأمر كذلك؛ فإنهم ما نزل عليهم كتابٌ قبل القرآن، ولا جاءهم نذيرٌ قبل رسول الله محمد ﷺ، ولو قُدِّرَ نزولُ كتاب إليهم وإرسالُ رسول إليهم وزعموا أنه أمرهم بِشْرِكِهِمْ؛ فإننا نجزمُ بكذبهم؛ لأنَّ الله قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾: فالرسلُ والكتبُ كُلُّها متفقةٌ على الأمر بإخلاص الدين لله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾. فإن قيل: إذا كان الدليل العقلي والنقلي قد دَلَّ على بطلان الشرك؛ فما الذي حمل المشركين على الشرك وفيهم ذوو العقول والذكاء والفتنة؟! أجاب تعالى بقوله: ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾؛ أي: ذلك الذي مَشَوْا عليه ليس لهم فيه حُجَّةٌ، وإنَّما ذلك توصيةٌ لبعضهم لبعض به، وتزيينٌ بعضهم لبعض، واقتداء المتأخِّر بالمتقدِّم الضالِّ، وأماني مَنَّاها الشياطين. وزَيَّنَ لهم سوء أعمالهم^(١)، فنشأت في قلوبهم، وصارت صفةً من صفاتها، فعَسَرَ زوالُها وتَعَسَّرَ انفصالُها، فحصل ما حَصَلَ من الإقامة على الكفر والشرك الباطل المضمحل.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

﴿٤١﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته وتمام رحمته وسعة حلمه ومغفرته، وأنه تعالى ﴿يَمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: عن الزوال؛ فإنَّهما لو زالتا؛ ما أمسكهما أحدٌ من الخلق، لعجزت قُدْرَتُهُم وقواهم عنهما، ولكِنَّه تعالى قضى أن يكونا كما وُجِدا؛ ليحصلَ للخلق القَرَارُ والنفع والاعتبار، وليعلموا من عظيم سلطانه وقوة قدرته ما به تمتلئ قلوبُهم له إجلالاً وتعظيماً ومحبةً وتكريماً، وليعلموا كمال حلمه ومغفرته بامهال المذنبين وعدم معاجلتِهِ للعاصين، مع أنه لو أمر السماء؛ لَحَصَبَتْهُمْ، ولو أذن للأرض؛ لابتلعتهن، ولكن وَسِعَتْهُنَّ مغفرته وحلمه وكرمه. ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

(١) في (ب): «وزين لهم أعمالهم».

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولَىٰ فَلَنْ يُجِدَ إِسْنَتَ اللَّهِ تُبْدِلًا وَلَنْ يُجِدَ إِسْنَتَ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ .

﴿٤٢﴾ أي: وأقسم هؤلاء الذين كذبوك يا رسول الله قسماً اجتهدوا فيه بالآيمان الغليظة: ﴿لئن جاءهم نذيرٌ ليكوننَّ أهدى من إحدى الأمم﴾؛ أي: أهدى من اليهود والنصارى أهل الكتب، فلم يفوا بتلك الإقسامات والعهود، ﴿فلما جاءهم نذيرٌ﴾: لم يهتدوا، ولم يصيروا أهدى من إحدى الأمم، بل لم يدوموا على ضلالهم الذي كان، بل ﴿ما زادهم﴾ ذلك ﴿إلا نفوراً﴾: زيادة ضلال وبغي وعناد.

﴿٤٣﴾ وليس إقسامهم المذكور لقصد حسنٍ وطلبٍ للحق، وإلا؛ لو فقهوا له، ولكنه صادرٌ عن استكبارٍ في الأرض على الخلق وعلى الحق، وبهرجةٍ في كلامهم هذا؛ يريدون به المكر والخداع، وأنهم أهل الحق الحريصون على طلبه، فيغتر بهم المغترون، ويمشي خلفهم المقتدون، ﴿ولا يحيق المكر السيئ﴾: الذي مقصوده مقصودٌ سيئٌ ومآله وما يرمي إليه سيئٌ باطل ﴿إلا بأهله﴾: فمكرهم إنما يعود عليهم. وقد أبان الله لعباده في هذه المقالات وتلك الإقسامات أنهم كذبةٌ في ذلك مزورون، فاستبان خزيهم، وظهرت فضيحتهم، وتبين قصدهم السيئ، فعاد مكرهم في نحورهم، وردَّ الله كيدهم في صدورهم، فلم يبقَ لهم إلا انتظارُ ما يحلُّ بهم من العذاب، الذي هو سنَّةُ الله في الأولين، التي لا تبدل ولا تغير؛ أن كلَّ من سار في الظلم والعناد والاستكبار على العباد أن تحلَّ به نقمته وتُسلب عنه نعمته، فليترقب هؤلاء ما فعل بأولئك.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُمْ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانَتْ عَلَيْهِمْ قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبٍ وَلَا كُنَ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَّا أَجَلٌ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ .

﴿٤٤﴾ يحضُّ تعالى على السير في الأرض في القلوب والأبدان للاعتبار لا لمجرد النظر والغفلة، وأن ينظروا إلى عاقبة الذين من قبلهم ممن كذبوا الرسل

وكانوا أكثر منهم أموالاً وأولاداً وأشدَّ قوةً وعَمَرُوا الأرضَ أكثرَ مما عَمَرَهَا^(١) هؤلاء، فلما جاءهم العذابُ؛ لم تنفعهم قوتُهم، ولم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، ونفذت فيهم قدرةُ الله ومشيتُهُ، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُنْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾: لكمال علمه وقدرته. ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيرًا﴾.

﴿٤٥﴾ ثم ذَكَرَ تعالى كمالَ حلمِهِ وشِدَّةَ إِمهالِهِ وإِنظارِهِ أربابَ الجرائمِ والذنوبِ، فقال: ﴿وَلَوْ يَؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾: من الذنوبِ ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾؛ أي: لاستوعبت العقوبةُ حتى الحيواناتِ غيرَ المكلفةِ. ﴿وَلَكِنْ﴾: يُمهِّلهم تعالى ولا يُهمِّلهم^(٢)، ﴿يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾: فيجازيهم بحسبِ ما عَلَّمَهُ منهم من خيرٍ وشرٍّ.

تم تفسير سورة فاطر. والحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة يس

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَس ١﴾ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْعَقِهِمْ بَغْلًا فَنُفِثَتْ فِيهِ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاتَاهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾

﴿٢﴾ هذا قسمٌ من الله تعالى بالقرآن الحكيم الذي وَضَعَهُ الحكمة، وهي وضعُ

(١) في (ب): «وعَمَرُوا أكثرَ مما عَمَرُواها». (٢) في (ب): «يمهِّلهم».

كُلُّ شَيْءٍ مَوْضَعُهُ: وَضَعُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ فِي الْمَحَلِّ^(١) اللَّائِقَ بِهِمَا، وَوَضَعَ الْجِزَاءَ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ فِي مَحَلِّهِمَا اللَّائِقَ بِهِمَا؛ فَأَحْكَامُهُ الشَّرْعِيَّةُ وَالْجِزَائِيَّةُ كُلُّهَا مُشْتَمِلَةٌ عَلَى غَايَةِ الْحِكْمَةِ. وَمِنْ حِكْمَةِ هَذَا الْقُرْآنِ أَنَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَ ذِكْرِ الْحُكْمِ وَحِكْمَتِهِ، فَيَنْبِئُهُ الْعُقُولُ عَلَى الْمُنَاسَبَاتِ وَالْأَوْصَافِ الْمُقْتَضِيَةِ لِتَرْتِيبِ الْحُكْمِ عَلَيْهَا.

﴿٣﴾ ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾: هَذَا الْمَقْسَمُ عَلَيْهِ، وَهُوَ رِسَالَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَنَّكَ يَا مُحَمَّدٌ مِنْ جَمَلَةِ الْمُرْسَلِينَ، فَلَسْتُ بِبَدْعٍ مِنَ الرُّسُلِ. وَأَيْضاً؛ فَجِئْتُ بِمَا جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ مِنَ الْأَصُولِ الدِّينِيَّةِ. وَأَيْضاً؛ فَمَنْ تَأَمَّلَ أَحْوَالَ^(٢) الْمُرْسَلِينَ وَأَوْصَافَهُمْ وَعَرَفَ الْفَرْقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ غَيْرِهِمْ؛ عَرَفَ أَنَّكَ مِنْ خِيَارِ الْمُرْسَلِينَ بِمَا فِيكَ مِنَ الصِّفَاتِ الْكَامِلَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ. وَلَا يَخْفَى مَا بَيْنَ الْمَقْسَمِ بِهِ وَهُوَ الْقُرْآنُ الْحَكِيمُ وَبَيْنَ الْمَقْسَمِ عَلَيْهِ وَهُوَ رِسَالَةُ الرُّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ الْإِتِّصَالِ، وَأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ لِرِسَالَتِهِ دَلِيلٌ وَلَا شَاهِدٌ إِلَّا هَذَا الْقُرْآنُ الْحَكِيمُ؛ لَكَفَى بِهِ دَلِيلًا وَشَاهِدًا عَلَى رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بَلِ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ أَقْوَى الْأَدَلَةِ الْمُتَّصِلَةِ الْمُسْتَمِرَّةِ عَلَى رِسَالَةِ الرُّسُولِ، فَأَدَلَّةُ الْقُرْآنِ كُلُّهَا أَدَلَّةٌ لِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

﴿٤﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ بِأَعْظَمِ أَوْصَافِ الرُّسُولِ ﷺ، الدَّالَّةَ عَلَى رِسَالَتِهِ، وَهُوَ أَنَّهُ ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: مُعْتَدِلٌ، مُوَصَّلٌ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى دَارِ كَرَامَتِهِ، وَذَلِكَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ مُشْتَمِلٌ عَلَى أَعْمَالٍ، وَهِيَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ الْمُصْلِحَةُ لِلْقَلْبِ وَالْبَدَنِ وَالْدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْأَخْلَاقُ الْفَاضِلَةُ الْمَزْكِيَّةُ لِلنَّفْسِ الْمُطَهَّرَةِ لِلْقَلْبِ الْمُنْمِيَّةِ لِلْأَجْرِ، فَهَذَا الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي هُوَ وَصَفُ الرُّسُولِ ﷺ وَوَصَفُ دِينِهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ.

فَتَأَمَّلْ جَلَالََةَ هَذَا الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ كَيْفَ جَمَعَ بَيْنَ الْقَسَمِ بِأَشْرَفِ الْأَقْسَامِ عَلَى أَجَلٍ مُقَسَّمٍ عَلَيْهِ، وَخَبَرُ اللَّهِ وَحْدَهُ كَافٍ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى أَقَامَ مِنَ الْأَدَلَّةِ الْوَاضِحَةِ وَالْبَرَاهِينِ السَّاطِعَةِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ عَلَى صِحَّةِ مَا أَقْسَمَ عَلَيْهِ مِنْ رِسَالَةِ رَسُولِهِ مَا نَبَّهْنَا عَلَيْهِ وَأَشْرْنَا إِشَارَةً لَطِيفَةً لِسُلُوكِ طَرِيقِهِ.

﴿٥﴾ وَهَذَا الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾؛ فَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ بِهِ كِتَابَهُ وَأَنْزَلَهُ طَرِيقًا لِعِبَادِهِ مُوَصِّلًا لَهُمْ إِلَيْهِ، فَحَمَاهُ بِعِزَّتِهِ عَنِ التَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ، وَرَجَّمَ بِهِ عِبَادَهُ رَحْمَةً أَتَّصَلَتْ بِهِمْ حَتَّى أَوْصَلَتْهُمْ إِلَى دَارِ رَحْمَتِهِ، وَلِهَذَا خَتَمَ الْآيَةَ بِهَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ.

(١) فِي (ب): «الْمَوْضِع».

(٢) فِي (ب): «أَصُول».

﴿٦﴾ فلما أقسم تعالى على رسالته، وأقام الأدلة عليها؛ ذَكَرَ شِدَّةَ الحاجة إليها واقتضاء الضرورة لها، فقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾: وهم العربُ الأميون، الذين لم يزالوا خالين من الكتب، عادمين الرسل، قد عَمَتَتْهُمُ الجهالة وغمرَتْهُمُ الضلالة، وأَضَحَكُوا عليهم وعلى سَفَهِهِمُ عقولَ العالمين، فأرسل الله إليهم رسولاً من أنفسهم يزكِّيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لَفِي ضلالٍ مبين، فينذرُ العربَ الأميين وَمَنْ لِحَقِّ بِهِمْ مِنْ كُلِّ أُمِّيٍّ، ويذكرُ أهلَ الكتب بما عندهم من الكتب؛ فنعمةُ الله به على العرب خصوصاً وعلى غيرهم عموماً.

﴿٧﴾ ولكن هؤلاء الذين بُعِثَتْ [فيهم] لإنذارهم بعدما أُنذِرْتَهُمْ انقسموا قسمين: قسمٌ ردُّ لما جئت به ولم يَقْبَلِ النِّذَارَةَ، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: نفذ فيهم القضاء والمشية أنهم لا يزالون في كفرهم وشركهم، وإنما حَقَّ عليهم القول بعد أن عُرِضَ عليهم الحقُّ فرفضوه؛ فحيثُ عوقبوا بالطبع على قلوبهم.

﴿٨﴾ وذَكَرَ الموانع من وصول الإيمان لقلوبهم، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾: وهي جمع غُلٍّ، والغُلُّ ما يُغْلُ به العُنُق؛ فهو للعنق بمنزلة القيد للرجل. وهذه الأغلال التي في [الأذقان]^(١) عظيمةٌ قد وَصَلَتْ ﴿إِلَى﴾: أذقانهم، ورفعت رؤوسهم إلى فوق. ﴿فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾؛ أي: رافعوا رؤوسهم من شِدَّةِ الغُلِّ الذي في أعناقهم؛ فلا يستطيعون أن يَخْفِضُوهَا.

﴿٩﴾ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾؛ أي: حاجزاً يحجزهم عن الإيمان؛ ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾: قد غمرهم الجهل والشقاء من جميع جوانبهم، فلم تُفِدْ فيهم النِّذَارَةُ.

﴿١٠﴾ ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: وكيف يؤمن من طبع على قلبه ورأى الحقَّ باطلاً والباطلَ حقاً؟!.

﴿١١﴾ والقسم الثاني الذين قَبِلُوا النِّذَارَةَ وقد ذَكَرَهُمْ بقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾؛ أي: إنما تنفع نذارتك وَيَتَعَبُ بِنُضْحِكَ ﴿مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾؛ أي: من قضده اتباع الحق وما ذَكَرَ به، ﴿وَحَشِيَ الرَّحْمَنُ بِالْغَيْبِ﴾؛ أي: مَنْ اتَّصَفَ بهذين الأمرين: القصد

(١) كذا في (أ) و(ب)، وقد صوبت في (أ) بخط مغاير «الأعناق».

الحسن في طلب الحق، وخشية الله تعالى؛ فهم الذين يتتبعون برسالتك ويزكون بتعليمك، وهذا الذي وُفق لهذين الأمرين، بشره ﴿بمغفرة﴾: لذنوبه ﴿وأجر كريم﴾: لأعماله الصالحة ونيتِه الحسنة.

﴿١٢﴾ ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾؛ أي: نبعثهم بعد موتهم لِنُجَازِيَهُمْ عَلَى الْأَعْمَالِ، ﴿وَنُكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾: من الخير والشر، وهو أعمالهم التي عملوها وبأشروها في حال حياتهم، ﴿وَأَنَارُهُمْ﴾: وهي آثار الخير وآثار الشر التي كانوا هم السبب في إيجادها في حال حياتهم وبعد وفاتهم، وتلك الأعمال التي نشأت من أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم؛ فكل خير عمل به أحد من الناس بسبب علم العبد وتعليمه أو نصحه أو أمره بالمعروف أو نهيه عن المنكر أو علم أودعه عند المتعلمين أو في كتب يُنتفع بها في حياته وبعد موته أو عمل خيراً من صلاة أو زكاة أو صدقة أو إحسانٍ فاقتدى به غيره، أو عمل مسجداً أو محلاً من المحال التي يرتقب بها الناس وما أشبه ذلك؛ فإنها من آثاره التي تُكْتَبُ له، وكذلك عمل الشر، ولهذا: «من سنَّ سنةً حسنةً؛ فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سنَّ سنةً سيئةً، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»^(١).

وهذا الموضع يبين لك علو مرتبة الدعوة إلى الله والهداية إلى سبيله بكل وسيلة وطريق موصل إلى ذلك، ونزول درجة الداعي إلى الشر الإمام فيه، وأنه أسفل الخليقة وأشدّهم جرماً وأعظمهم إثماً، ﴿وكلّ شيء﴾: من الأعمال والنيات وغيرها ﴿أخصيناه في إمام مبين﴾؛ أي: كتاب هو أم الكتب، وإليه مرجع الكتب التي تكون بأيدي الملائكة، وهو اللوح المحفوظ.

﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾^(٢) ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا نَكَّادُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا الْبَلِّغُ الْمُبِينِ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرُ بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ دُكِّرْتُمْ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِقُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنَ الْقَرْيَةِ رَجُلٌ يَسْعَى

(١) كما في «صحيح مسلم» برقم: (١٠١٧) عن جرير بن عبد الله.

(٢) في النسختين: إلى آخر القصة.

قَالَ يَتَقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِي لَا
 أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِي
 عَنْهُمْ شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونَ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ
 فَاسْمِعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ
 الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَزِلُّنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُّزِيلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن
 كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَحْضَرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا
 كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَرِهَ اللَّهُمَّ مُّشْرِكُوا قَوْمَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣٦﴾
 وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٧﴾ .

﴿١٣﴾ أي: واضرب لهؤلاء المكذبين برسالتك الرادين لدعوتك مثلاً يعتبرون به
 ويكون لهم موعظة إن وُفِّقوا للخير، وذلك المثل أصحاب القرية وما جرى منهم
 من التكذيب لرسول الله وما جرى عليهم من عقوبته ونكاله، وتعيين تلك القرية لو
 كان فيه ^(١) فائدة؛ لعينها الله، فالتعرض لذلك وما أشبهه من باب التكلف والتكلم
 بلا علم، ولهذا إذا تكلم أحد في مثل هذه الأمور؛ تجد عنده من الخبط والخلط
 والاختلاف الذي لا يستقر له قرار ما تعرف به أن طريق العلم الصحيح الوقوف مع
 الحقائق وترك التعرض لما لا فائدة فيه، وبذلك تزكو النفس ويزيد العلم من حيث
 يظن الجاهل أن زيادته بذكر الأقوال التي لا دليل عليها ولا حجة عليها ولا يخلص
 منها من الفائدة إلا تشويش الذهن واعتياد الأمور المشكوك فيها. والشاهد أن هذه
 القرية جعلها الله مثلاً للمخاطبين. ﴿إذ جاءها المرسلون﴾: من الله تعالى؛
 يأمرونهم بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له، وينهونهم عن الشرك والمعاصي.

﴿١٤﴾ ﴿إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث﴾؛ أي: قويناها بثالث،
 فصاروا ثلاثة رسل؛ اعتناء من الله بهم، وإقامة للحجة بتوالي الرسل إليهم،
 ﴿فقالوا﴾ لهم: ﴿إنا إليكم مرسلون﴾.

﴿١٥﴾ فأجابوهم بالجواب الذي ما زال مشهوراً عند من رد دعوة الرسل،
 فقالوا: ﴿ما أنتم إلا بشر مثلنا﴾؛ أي: فما الذي فضلكم علينا وخصكم من دوننا؟!

قالت الرسل لأممهم: **﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ، وَلَكِنْ [اللَّهُ] يَمُنُّ عَلَىٰ مِنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، ﴿١٦﴾ وَمَا أُنْزِلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾**؛ أي: أنكروا عموم الرسالة، ثم أنكروا أيضاً المخاطبين لهم، فقالوا: **﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾**.

﴿١٦﴾ فقالت هؤلاء الرسل الثلاثة: **﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾**: فلو كنا كاذبين؛ لأظهر^(١) الله خزيَنَا ولِبَادَرَنَا بالعقوبة.

﴿١٧﴾ **﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾**؛ أي: البلاغ المبين الذي يحصل به توضيح الأمور المطلوب بيانها، وما عدا هذا من آيات الاقتراح أو^(٢) من سرعة العذاب؛ فليس إلينا، وإنما وظيفتنا التي هي البلاغ المبين قمنا بها وبيئنا لكم؛ فإن اهتديتم؛ فهو حظكم وتوفيقكم، وإن ضللتكم؛ فليس لنا من الأمر شيء.

﴿١٨﴾ فقال أصحاب القرية لرسلهم: **﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾**؛ أي: لم نر على قدمكم علينا واتصالكم بنا إلا الشر، وهذا من أعجب العجائب؛ أن يجعل من قدم عليهم بأجل نعمة ينعم الله بها على العباد وأجل كرامة يكرمهم بها، وضرورتهم إليها فوق كل ضرورة، قد قدم بحالة شر زادت على الشر الذي هم عليه واستشأموا بها، ولكن الخذلان وعدم التوفيق يضيع بصاحبه أعظم مما^(٣) يضيع به عدوه، ثم توعدوهم فقالوا: **﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾**؛ أي: لنقتلكنم رجماً بالحجارة أشنع القتل، **﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**.

﴿١٩﴾ فقالت لهم رسلهم: **﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾**: وهو ما معهم من الشرك والشر المقتضي لوقوع المكروه والنقمة وارتفاع المحبوب والنعمة. **﴿إِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾**؛ أي: بسبب أننا ذكركم ما فيه صلاحكم وحظكم قلتم لنا ما قلتم، **﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾**: متجاوزون للحد متجرهمون في قولكم. فلم يزدكم دعاؤهم إلا نفوراً واستكباراً.

﴿٢٠﴾ **﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾**: حرصاً على نضح قومه حين سمع ما دعت إليه الرسل وآمن به وعلم ما رد به قومه عليهم، فقال لهم: **﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾**: فأمرهم باتباعهم، ونصحهم على ذلك، وشهد لهم بالرسالة.

﴿٢١﴾ ثم ذكر تأييداً لما شهد به ودعا إليه، فقال: **﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ**

(٢) في (ب): «و».

(١) في (ب): «لظهر».

(٣) في (ب): «ما».

أَجْرًا؛ أَي: اتَّبِعُوا مَنْ نَصَحَكُمْ نُصْحًا يَعُودُ إِلَيْكُمْ بِالْخَيْرِ، وَلَيْسَ يَرِيدُ مِنْكُمْ أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَجْرًا عَلَى نَصِيحِهِ لَكُمْ وَإِرْشَادِهِ؛ فَهَذَا مُوجِبٌ لِاتِّبَاعِ مَنْ هَذَا وَصَفُهُ. بَقِيَ أَنْ يُقَالَ: فَلَعَلَّهُ يَدْعُو وَلَا يَأْخُذُ أَجْرَةً وَلَكِنَّهُ لَيْسَ عَلَى الْحَقِّ، فَدَفَعَ هَذَا الْاِحْتِرَازَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾: لِأَنَّهُمْ لَا يَدْعُونَ إِلَّا لِمَا يَشْهَدُ الْعَقْلُ الصَّحِيحُ بِخُسْنِهِ، وَلَا يَنْهَوْنَ إِلَّا بِمَا يَشْهَدُ الْعَقْلُ الصَّحِيحُ بِقُبْحِهِ.

﴿٢٢ - ٢٥﴾ فَكَأَنَّ قَوْمَهُ لَمْ يَقْبَلُوا نُصْحَهُ، بَلْ عَادُوا لِاتِّمَنِ لَهْ عَلَى اتِّبَاعِ الرُّسُلِ وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لِلَّهِ وَحْدَهُ، فَقَالَ: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ أَي: وَمَا الْمَانِعُ لِي مِنْ عِبَادَةِ مَنْ هُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ؛ لِأَنَّهُ الَّذِي فَطَرَنِي وَخَلَقَنِي وَرَزَقَنِي وَإِلَيْهِ مَالُ جَمِيعِ الْخَلْقِ فَيَجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ؛ فَالَّذِي بِيَدِهِ الْخَلْقُ وَالرِّزْقُ وَالْحُكْمُ بَيْنَ الْعِبَادِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ وَيُثْنَى عَلَيْهِ وَيُمَجَّدَ دُونَ مَنْ لَا يَمْلِكُ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَلَا عَطَاءً وَلَا مَنَعًا وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نَشُورًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَتَأْخُذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شِفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾: لِأَنَّهُ لَا أَحَدٌ يَشْفَعُ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ؛ فَلَا تُغْنِي شِفَاعَتُهُمْ عَنِّي شَيْئًا ﴿وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ﴾: مِنْ الضَّرِّ الَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ بِي. ﴿إِنِّي إِذَا﴾؛ أَي: إِنْ عَبَدْتُ آلِهَةً هَذَا وَصَفُهَا ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾: فَجَمَعَ فِي هَذَا الْكَلَامِ بَيْنَ نُصَحِهِمْ، وَالشَّهَادَةِ لِلرُّسُلِ بِالرِّسَالَةِ وَالْإِهْتِدَاءِ، وَالْإِخْبَارِ بِتَعَيُّنِ^(١) عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَذِكْرِ الْأَدْلَةِ عَلَيْهَا، وَأَنَّ عِبَادَةَ غَيْرِهِ بَاطِلَةٌ، وَذَكَرَ الْبَرَاهِينَ عَلَيْهَا وَالْأَخْبَارَ بِضَلَالِ مَنْ عَبَدَهَا، وَالْإِعْلَانَ بِإِيْمَانِهِ جَهْرًا مَعَ خَوْفِهِ الشَّدِيدِ مِنْ قَتْلِهِمْ، فَقَالَ: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾.

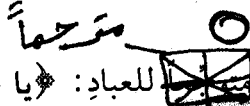
﴿٢٦ - ٢٧﴾ فَقَتَلَهُ قَوْمُهُ لَمَّا سَمِعُوا مِنْهُ وَرَاجَعَهُمْ بِمَا رَاجَعَهُمْ بِهِ. ﴿قِيلَ﴾: لَهْ فِي الْحَالِ: ﴿أَدْخُلِ الْجَنَّةَ﴾. فَقَالَ مُخْبِرًا بِمَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنَ الْكِرَامَةِ عَلَى تَوْحِيدِهِ وَإِخْلَاصِهِ وَنَاصِحًا لِقَوْمِهِ بَعْدَ وَفَائِهِ كَمَا نَصَحَ لَهُمْ فِي حَيَاتِهِ: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ. بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾؛ أَي: بِأَيِّ شَيْءٍ غَفَرَ لِي فَأَزَالُ عَنِّي أَنْوَاعَ الْعُقُوبَاتِ، وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ: بِأَنْوَاعِ الْمَثُوبَاتِ وَالْمَسْرُوتِ؛ أَي: لَوْ وَصَلَ عَلَمُ ذَلِكَ إِلَى قُلُوبِهِمْ؛ لَمْ يَقِيمُوا عَلَى شُرْكِهِمْ.

﴿٢٨﴾ قَالَ اللَّهُ فِي عَقُوبَةِ قَوْمِهِ: ﴿وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾؛ أَي: مَا اخْتَجْنَا أَنْ نَتَكَلَّفَ فِي عَقُوبَتِهِمْ فَتَنْزَلَ جُنْدًا مِنَ السَّمَاءِ لِإِتْلَافِهِمْ.

(١) فِي (ب): «بَتَعْيِينِ».

﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾: لعدم الحاجة إلى ذلك، وعظمة اقتدار الله تعالى، وشدة ضعف بني آدم، وأنهم أدنى شيء يصيبهم من عذاب الله يكفيهم.

﴿٢٩﴾ ﴿إِنْ كَانَتْ﴾؛ أي: ما كانت عقوبتهم ﴿إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً﴾؛ أي: صوتاً واحداً تكلم به بعض ملائكة الله؛ ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾: قد تقطعت قلوبهم في أجوافهم وانزعجوا لتلك الصيحة فأصبحوا خامدين لا صوت ولا حركة ولا حياة بعد ذلك العتو والاستكبار ومقابلة أشرف الخلق بذلك الكلام القبيح وتجبرهم عليهم.



﴿٣٠﴾ قال الله للعباد: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾: يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون؛ أي: ما أعظم شقاءهم وأطول عناءهم وأشد جهلهم حيث كانوا بهذه الصفة القبيحة التي هي سبب لكل شقاء وعذاب ونكال.

﴿٣١ - ٣٢﴾ ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾. وإن كل لما جميع لدينا محضرون؛ يقول تعالى: ألم ير هؤلاء ويعتبروا بمن قبلهم من القرون المكذبة التي أهلكها الله تعالى وأوقع بها عقابها، وأن جميعهم قد باد وهلك فلم يرجع إلى الدنيا ولن يرجع إليها، وسيعيد الله الجميع خلقاً جديداً، وبيعثهم بعد موتهم، ويحضرون بين يديه تعالى؛ ليحكم بينهم بحكمه العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها، ويؤت من لدنه أجراً عظيماً.

﴿وَأَيُّ لَّهُمُ الْأَرْضُ الَّتِي تَحْيِيهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦).

﴿٣٣﴾ أي: ﴿وَأَيُّ لَّهُمُ﴾: على البعث والنشور والقيام بين يدي الله تعالى للجزاء على الأعمال هذه ﴿الْأَرْضُ الَّتِي تَحْيِيهَا﴾: أنزل الله عليها المطر فأخياها (١) بعد موتها، ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾: من جميع أصناف الزروع ومن جميع أصناف النبات التي تأكله أنعامهم.

(١) في (ب): «فأصاها».

○ الكلمة السابقة هي

(منوجهاً) وهذه الخطوط

﴿٣٤﴾ ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الأرض الميتة ﴿جَنَّاتٍ﴾؛ أي: بساتين فيها أشجار كثيرة، وخصوصاً النخيل والأعناب، اللذان هما أشرف الأشجار، ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾؛ أي: في الأرض ﴿من العيون﴾: جعلنا في الأرض تلك الأشجار والنخيل والأعناب.

﴿٣٥﴾ ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾: قوتاً وفاكهة وأدماً ولذة. ﴿وَالْحَالِ أَنْ تِلْكَ الثَّمَارِ﴾: عملتها ﴿أَيْدِيهِمْ﴾: وليس لهم فيها صنع ولا عمل، إن هو إلا صنعة أحكم الحاكمين وخير الرازقين، وأيضاً؛ فلم تَعْمَلْهُ أَيْدِيهِمْ بطبخ ولا غيره، بل أوجد الله هذه الثمار غير محتاجة لطبخ ولا شيء تؤخذ من أشجارها فتؤكل في الحال. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾: مَنْ سَأَلَ لَهُمْ هَذِهِ النِّعَمَ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهِمْ مِنْ جُودِهِ وَإِحْسَانِهِ مَا بِهِ تَصْلُحُ أُمُورُ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، أَلَيْسَ الَّذِي أَحْيَا الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَنْبَتَ فِيهَا الزَّرْعَ وَالْأَشْجَارَ وَأَوْدَعَ فِيهَا لِلذِّدِّ الثَّمَارَ وَأَظْهَرَ ذَلِكَ الْجَنَى مِنْ تِلْكَ الْغُصُونِ وَفَجَّرَ الْأَرْضَ الْيَابِسَةَ الْمَيِّتَةَ بِالْعُيُونِ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى؟ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

﴿٣٦﴾ ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾؛ أي: الأصناف كلها ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾: فَنَوَّعَ فِيهَا مِنَ الْأَصْنَافِ مَا يَعْسُرُ تَعْدَادُهُ، ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾: فَنَوَّعَهُمْ إِلَى ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَفَاوَتْ بَيْنَ خَلْقِهِمْ وَخَلَقِهِمْ وَأَوْصَافِهِمُ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾: مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي قَدْ خُلِقَتْ وَغَابَتْ عَنْ عِلْمِنَا، وَالَّتِي لَمْ تُخْلَقْ بَعْدَ؛ فَسُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكَ أَوْ ظَهِيرٌ أَوْ عَوِيْنٌ أَوْ وَزِيرٌ أَوْ صَاحِبَةٌ أَوْ وَلَدٌ أَوْ سَمِيٌّ أَوْ شَبِيهٌ أَوْ مِثْلٌ فِي صِفَاتِ كَمَالِهِ وَنِعَوَاتِ جَلَالِهِ، أَوْ يُعْجِزَهُ شَيْءٌ يَرِيدُهُ.

﴿وَأَيَّاهُ لَهُمْ أَيْلٌ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ (٣٧) ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٣٨) ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ (٣٩) ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَيْلٌ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٤٠).

﴿٣٧﴾ أي: ﴿وَأَيَّاهُ لَهُمْ﴾: على نفوذ مشيئته وكمال قدرته وإحيائه الموتى بعد موتهم ﴿اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾؛ أي: نزيل الضياء العظيم الذي طَبَّقَ الْأَرْضَ فَنَبَذَهُ بِالظُّلْمَةِ وَنَحَلَّهَا مَحَلَّهُ؛ ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾.

﴿٣٨﴾ وكذلك نزيل هذه الظلمة التي عَمَّتْهُمْ وَشَمِلَتْهُمْ، فَنُظْلِعُ^(١) الشَّمْسَ،

(١) في (ب): «فَنُظْلِعُ».

فتضيء الأقطار، وينتشر الخلق لمعايشهم ومصالحهم، ولهذا قال: ﴿والشمس تجري لمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾؛ أي: دائماً تجري لمستقر لها، قدرها الله، لا تتعداه ولا تقصر عنه وليس لها تصرف في نفسها ولا استعصاء على قدرة الله تعالى. ﴿ذلك تقدير العزيز﴾: الذي بعزته دبر هذه المخلوقات العظيمة بأكمل تدبير وأحسن نظام. ﴿العليم﴾: الذي بعلمه جعلها مصالح لعباده ومنافع في دينهم ودنياهم.

﴿٣٩﴾ ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾: ينزلها^(١)، كل ليلة ينزل منها واحدة، حتى: يصغر جداً فيعود كالعرجون القديم؛ أي: عرجون النخلة الذي من قدمه نش وصغر حجمه وانحنى، ثم بعد ذلك ما زال يزيد شيئاً فشيئاً حتى يتم نوره، ويتساق ضياؤه.

﴿٤٠﴾ وكل من الشمس والقمر والليل والنهار قدره الله تقديرأ لا يتعداه، وكل له سلطان ووقت، إذا وجد؛ عدم الآخر، ولهذا قال: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تذر القمر﴾؛ أي: في سلطانه الذي هو الليل؛ فلا يمكن أن توجد الشمس في الليل، ﴿ولا الليل سابق النهار﴾: فيدخل عليه قبل انقضاء سلطانه. ﴿وكل﴾: من الشمس والقمر والنجوم ﴿في فلك يسبحون﴾؛ أي: يترددون على الدوام؛ فكل هذا دليل ظاهر وبرهان باهر على عظمة الخالق وعظمة أوصافه، خصوصاً وصف القدرة والحكمة والعلم في هذا الموضع.

﴿وَمَا يَكُنْ لَّكُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْهُونِ﴾ (٤١) ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ (٤٢) ﴿وَلَوْ نَشَاءُ نَفْرَقَهُم فَلَا صَرْيَخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُقَدَّرُونَ﴾ (٤٣) ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٤٤) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٤٥) ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِن آيَةٍ مِن آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ (٤٦) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا اللَّهَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَطُغِيَ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٤٧) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨) ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ (٤٩) ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٥٠).

﴿٤١﴾ أي: ودليل لهم وبرهان على أن الله وحده المعبود؛ لأنه المنعم بالنعم

(١) في (ب): «ينزل بها».

الصارف للثقم الذي من جملة نعمه ﴿أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: قال كثير من المفسرين: المراد بذلك آباؤهم^(١).

﴿٤٢﴾ ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ﴾ أي: للموجودين من^(٢) بعدهم ﴿من مثله﴾ أي: من مثل ذلك الفلك؛ أي: جنسه ﴿ما يركبون﴾: به. فذكر نعمته على الآباء بحملهم في السفن؛ لأن النعمة عليهم نعمة على الذرية.

وهذا الموضع من أشكال المواضع علي في التفسير؛ فإن ما ذكره كثير من المفسرين من أن المراد بالذرية الآباء مما لا يُعْهَدُ في القرآن إطلاق الذرية على الآباء، بل فيه^(٣) من الإبهام وإخراج الكلام عن موضوعه ما يباه كلام رب العالمين وإرادته البيان والتوضيح لعباده. وثم احتمال أحسن من هذا، وهو أن المراد بالذرية الجنس، وأنهم هم بأنفسهم؛ لأنهم هم من ذرية بني آدم، ولكن ينقُص هذا المعنى قوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ من مثله ما يركبون﴾: إن أريد: وخلقنا من مثل ذلك الفلك؛ أي: لهؤلاء المخاطبين ما يركبون من أنواع الفلك، فيكون ذلك تكريراً للمعنى تأباه فصاحة القرآن. فإن أريد بقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ من مثله ما يركبون﴾: الإبل التي هي سفن البر؛ استقام المعنى وأتضح؛ إلا أنه يبقى أيضاً أن يكون الكلام فيه تشويش؛ فإنه لو أريد هذا المعنى؛ لقال: وآية لهم أننا حملناهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون، فأما أن يُقال في الأول: حملنا ذريتهم، وفي الثاني: حملناهم؛ فإنه لا يظهر المعنى إلا أن يُقال: الضمير عائد إلى الذرية. والله أعلم بحقيقة الحال.

فلما وصلت في الكتابة إلى هذا الموضع؛ ظهر لي معنى ليس ببعيد من مراد الله تعالى، وذلك أن مَنْ عَرَفَ جلاله كتاب الله وبيانه التام من كل وجه للأمر الحاضرة والماضية والمستقبلية، وأنه يذكُر من كل معنى أعلاه وأكمل ما يكون من أحواله، وكانت الفلك من آياته تعالى ونعمه على عباده من حين أنعم عليهم بتعلمها إلى يوم القيامة، ولم تزل موجودة في كل زمان إلى زمان المواجهين بالقرآن، فلما خاطبهم الله تعالى بالقرآن، وذكّر حالة الفلك، وعلم تعالى أنه سيكون أعظم آيات الفلك في غير وقتهم وفي غير زمانهم حين يُعَلِّمُهُمْ صنعة الفلك البحرية الشراعية

(١) وهو اختيار ابن جرير (٥٢١/٢٠)، والبغوي (١٩/٦)، وابن كثير (٥٦٤/٦).

(٢) في (ب): «فيها».

(٣) في (ب): «في».

منها والتارية والجوية السابحة في الجو كالطيور ونحوها والمراكب البرية ممّا كانت الآية العظمى فيه لم توجد إلا في الذرية؛ نبّه في الكتاب على أعلى نوع من أنواع آياتها، فقال: ﴿وآية لهم أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُم فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾؛ أي: المملوء ركبانا وأمتعة، فحملهم الله تعالى، ونجّاهم بالأسباب التي علّمهم الله بها من الغرق.

﴿٤٣﴾ ولهذا نبّههم على نعمته عليهم حيث ^(١) أنجاهم من الغرق مع قدرته على ذلك، فقال: ﴿وإن نشأ نُغْرِقْهُمْ فلا صرِيخَ لهم﴾؛ أي: لا أحد يصرخ لهم فيعاوئهم على الشدة ولا يزيل عنهم المشقة، ﴿ولا هم يُنْقِذُونَ﴾: مما هم فيه.

﴿٤٤﴾ ﴿إلا رحمةً مِنَّا ومتاعاً إلى حين﴾: حيث لم نُغْرِقْهُمْ لطفاً بهم وتمتعاً لهم إلى حين، لعلهم يرجعون، أو يستدركون ما فرط منهم.

﴿٤٥﴾ ﴿وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم﴾؛ أي: من أحوال البرزخ والقيامة وما في الدنيا من العقوبات؛ ﴿لعلكم ترحمون﴾: أعرضوا عن ذلك، فلم يرفعوا به رأساً، ولو جاءتهم كل آية.

﴿٤٦﴾ ولهذا قال: ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين﴾: وفي إضافة الآيات إلى ربهم دليل على كمالها ووضوحها؛ لأنه ما أبين من آيات الله ولا أعظم بياناً، وإن من جملة تربية الله لعباده أن أوصل إليهم الآيات التي يستدلون بها على ما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

﴿٤٧﴾ ﴿وإذا قيل لهم أنفقوا ممّا رزقكم الله﴾؛ أي: من الرزق الذي من به الله عليكم، ولو شاء لسلبكم إياه، ﴿قال الذين كفروا للذين آمنوا﴾: معارضين للحق محتجين بالمشيئة: ﴿أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم﴾: أيها المؤمنون، لفي ضلال مبين: حيث تأمرونا بذلك، وهذا مما يدل على جهلهم العظيم أو تجاهلهم الخويم؛ فإن المشيئة ليست حجة لعاص أبدأ؛ فإنه وإن كان ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ فإنه تعالى مكّن العباد وأعطاهم من القوة ما يقدرّون على فعل الأمر واجتناب النهي؛ فإذا تركوا ما أمروا به؛ كان ذلك اختياراً منهم لا جبراً لهم وقهراً.

﴿٤٨ - ٤٩﴾ ﴿ويقولون﴾: على وجه التكذيب والاستعجال: ﴿متى هذا الوعد

(١) في (ب): «حين».

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٥٠﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: لَا يَسْتَبْعِدُوا ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ عَنْ قَرِيبٍ، ﴿٥١﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴿٥٢﴾: وهي نفخة الصور. ﴿تَأْخُذْهُمْ﴾؛ أي: تصيبهم ﴿وَهُمْ يَخْضَمُونَ﴾؛ أي: وهم لاهون عنها، لم تَخْطُرْ على قلوبهم في حال خصوصيتهم وتشاجرهم بينهم، الذي لا يوجد في الغالب إِلَّا وَقْتُ الْغَفْلَةِ.

﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَخَذْتُهُمْ وَقْتُ غَفْلَتِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَنْظُرُونَ وَلَا يُمَهِّلُونَ؛ ﴿٥١﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً؛ أي: لا قليلة ولا كثيرة، ﴿وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿وَيُفْخِخُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَنْوَلِّنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ قَالِيَوْمَ لَا تُظَلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾.

﴿٥١﴾ النفخة الأولى هي نفخة الفزع والموت. وهذه نفخة البعث والنشور؛ فإذا نُفِخَ في الصور؛ خرجوا ﴿من الأجداث﴾ والقبور ﴿يَنْسِلُونَ﴾ إلى ربهم؛ أي: يسرعون للحضور بين يديه، لا يتمكّنون من التأنّي والتأخّر.

﴿٥٢﴾ وفي تلك الحال يحزن المكذّبون ويظهرون الحسرة والندم ويقولون: ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾؛ أي: من رقدتنا في القبور؛ لأنه ورد في بعض الأحاديث أنّ لأهل القبور رقدة قبيل النفخ في الصور^(١). فيُجابون ويُقال لهم: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾؛ أي: هذا الذي وعدكم الله به ووعدتكم به الرسل، فظهر صدقهم رأي عين. ولا تُحَسَبَ أنّ ذكر الرحمن في هذا الموضع لمجرد الخبر عن وعده، وإنّما ذلك للإخبار بأنّه في ذلك اليوم العظيم سَيَرَوْنَ من رحمته ما لا يَخْطُرُ على الظنون ولا حَسَبَ به الحاسبون؛ كقوله: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾، ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾، ونحو ذلك مما يَذْكُرُ اسمه الرحمن في هذا.

﴿٥٣﴾ ﴿إِنْ كَانَتْ﴾: البعثة من القبور ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾: يَنْفُخُ فيها إسرافيل في الصور، فتحي الأجساد؛ ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾: الأولون والآخرون، والإنس والجن؛ ليحاسبوا على أعمالهم.

(١) كما في «صحيح البخاري» (٤٨١٤)، و«مسلم» (٢٩٥٥) من حديث أبي هريرة.

﴿٥٤﴾ ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾: لَا يُنْقَصُ مِنْ حَسَنَاتِهَا وَلَا يُزَادُ فِي سَيِّئَاتِهَا. ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ؛ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا؛ فَلِيَحْمَدَ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ؛ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ.

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَّهُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِفُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾.

﴿٥٥ - ٥٦﴾ لما ذكر تعالى أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ لَا يُجْزَى ^(١) إِلَّا مَا عَمِلَهُ؛ ذَكَرَ جَزَاءَ الْفَرِيقَيْنِ، فَبَدَأَ بِجَزَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ﴿فِي شُغْلٍ فَكَّهُونَ﴾؛ أَي: فِي شُغْلٍ مُفَكِّهِ لِلنَّفْسِ مُلِذٌ لَهَا مِنْ كُلِّ مَا تَهْوَاهُ النَّفُوسُ وَتَلَذُّهُ الْعَيُونُ وَيَتَمَنَّاهُ الْمُتَمَنُّونَ، وَمِنْ ذَلِكَ افْتِضَاضُ الْعَذَارَى الْجَمِيلَاتِ؛ كَمَا قَالَ: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾: مِنْ الْحُورِ الْعِينِ اللَّاتِي قَدْ جَمَعْنَ حَسَنَ الْوُجُوهِ وَالْأَبْدَانِ وَحَسَنَ الْأَخْلَاقِ ﴿فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ﴾؛ أَي: ^(٢) السَّرَرِ الْمَزِينَةِ بِاللِّبَاسِ الْمَزْخَرَفِ الْحَسَنِ ﴿مُتَكِفُونَ﴾: عَلَيْهَا اتِّكَاءٌ دَالًّا عَلَى كَمَالِ الرَّاحَةِ وَالطَّمَأِينَةِ وَاللَّذَّةِ.

﴿٥٧﴾ ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾: كَثِيرَةٌ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الثَّمَارِ اللَّذِيذَةِ؛ مِنْ عَنَبٍ، وَتِينٍ، وَرَمَانٍ، وَغَيْرِهَا، ﴿وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾؛ أَي: يَطْلُبُونَ؛ فَمَهْمَا طَلَبُوهُ وَتَمَنَّوْهُ؛ أَذْرَكَوهُ.

﴿٥٨﴾ وَلَهُمْ أَيْضًا ﴿سَلَامٌ﴾ حَاصِلٌ لَهُمْ ﴿مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾: فِي هَذَا كَلَامِ الرَّبِّ تَعَالَى لِأَهْلِ الْجَنَّةِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ، وَأَكَّدَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿قَوْلًا﴾: وَإِذَا سَلَّمَ عَلَيْهِمُ الرَّبُّ الرَّحِيمُ؛ حَصَلَتْ لَهُمُ السَّلَامَةُ التَّامَةُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، وَحَصَلَتْ لَهُمُ التَّحِيَّةُ الَّتِي لَا تَحِيَّةَ أَعْلَى مِنْهَا وَلَا نَعِيمَ مِثْلِهَا؛ فَمَا ظَنُّكَ بِتَحِيَّةِ مَلِكِ الْمُلُوكِ، الرَّبِّ الْعَظِيمِ، الرَّءُوفِ الرَّحِيمِ، لِأَهْلِ دَارِ كِرَامَتِهِ، الَّذِينَ أَحَلَّ عَلَيْهِمْ رِضْوَانَهُ؛ فَلَا يَسْخَطُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا؛ فَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدَّرَ أَنْ لَا يَمُوتُوا أَوْ تَزُولَ قُلُوبُهُمْ عَنْ أَمَاكِنِهَا مِنَ الْفَرْحِ وَالْبَهْجَةِ وَالسُّرُورِ؛ لَحَصَلَ ذَلِكَ، فَتَرْجُو رَبَّنَا أَنْ لَا يَخْرِمَنَا ذَلِكَ النَّعِيمَ، وَأَنْ يُمَتِّعَنَا بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ.

﴿وَأَمْسَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يٰبَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا

(١) فِي (ب): «لَا يَجَازِي».

(٢) فِي (ب): «أَي عَلَى».

كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٨﴾ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٩﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنْتَ يُبْعِرُونَ ﴿٧١﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَنَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَائَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾

﴿٥٩﴾ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى جَزَاءَ الْمُتَّقِينَ؛ ذَكَرَ جَزَاءَ الْمَجْرِمِينَ، ﴿و﴾ أَنَّهُمْ يُقَالُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿امْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمَجْرَمُونَ﴾؛ أَي: تَمَيَّزُوا عَنِ الْمُؤْمِنِينَ، وَكُونُوا عَلَى حِدَةٍ؛ لِيُؤْتِيَهُمْ وَيُقَرِّعَهُمْ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ قَبْلَ أَنْ يُدْخِلَهُمُ النَّارَ، فَيَقُولُ لَهُمْ:

﴿٦٠﴾ ﴿الَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾؛ أَي: آمَرْتُكُمْ وَأَوْصَيْكُمْ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِي وَأَقُولُ لَكُمْ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾؛ أَي: لَا تَطِيعُوهُ! وَهَذَا التَّوْبِيخُ يَدْخُلُ فِيهِ التَّوْبِيخُ عَنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي؛ لِأَنَّهَا كُلُّهَا طَاعَةٌ لِلشَّيْطَانِ وَعِبَادَةٌ لَهُ، ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾: فَحَذَّرْتُمْ مِنْهُ غَايَةَ التَّحْذِيرِ، وَأَنْذَرْتُمْ عَنْ طَاعَتِهِ، وَأَخْبَرْتُمْ بِمَا يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ.

﴿٦١﴾ ﴿و﴾ أَمَرْتُمْكُمْ: أَنْ تَعْبُدُونِي بِامْتِثَالِ أَوْامِرِي وَتَرْكِ زَوَاجِرِي. ﴿هَذَا﴾؛ أَي: عِبَادَتِي وَطَاعَتِي وَمَعْصِيَةِ الشَّيْطَانِ ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾: فَعُلُومُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَأَعْمَالُهُ تَرْجِعُ إِلَى هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ؛ أَي: فَلَمْ تَحْفَظُوا عَهْدِي وَلَمْ تَعْمَلُوا بِوَصِيَّتِي، فَوَالَيْتُمْ عَدُوَّكُمْ.

﴿٦٢﴾ فَأَظْلَلُ ﴿مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾؛ أَي: خَلَقًا كَثِيرًا. ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾؛ أَي: أَفَلَا كَانَ لَكُمْ عَقْلٌ يَأْمُرُكُمْ بِمَوَالَاةِ رَبِّكُمْ وَوَلِيَّتِكُمُ الْحَقِّ، وَيُزَجِّرُكُمْ عَنْ اتِّخَاذِ أَعْدَى الْأَعْدَاءِ لَكُمْ وَلِيًّا؟ فَلَوْ كَانَ لَكُمْ عَقْلٌ صَحِيحٌ؛ لَمَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ.

﴿٦٣﴾ فَإِذَا أَطْعَمْتُمُ الشَّيْطَانَ، وَعَادَيْتُمُ الرَّحْمَنَ، وَكَذَّبْتُمْ بِلِقَائِهِ، وَوَرَدْتُمُ الْقِيَامَةَ دَارَ الْجَزَاءِ، وَحَقٌّ عَلَيْكُمُ الْقَوْلُ بِالْعَذَابِ، فَ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾: وَتَكْذِبُونَ بِهَا؛ فَانْظُرُوا إِلَيْهَا عَيَانًا! فَهَنَّاكَ تَنْزَعُجُ مِنْهُمْ الْقُلُوبُ، وَتَزُوْغُ الْأَبْصَارُ، وَيَحْصُلُ الْفَرْغُ الْأَكْبَرُ.

﴿٦٤﴾ ثُمَّ يُكْمِلُ ذَلِكَ بِأَنْ يُؤَمَّرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ، وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾؛ أَي: ادْخُلُوهَا عَلَى وَجْهِ تَضْلَاكُمُ، وَيَحِيطُ بِكُمْ حَرُّهَا، وَيَبْلُغُ مِنْكُمْ كُلَّ مَبْلَغٍ بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَتَكْذِيبِكُمْ لِرُسُلِ اللَّهِ.

﴿٦٥﴾ قال تعالى في بيان وَضَفِهِم الفظيع في دار الشقاء: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾: بِأَنْ نَجْعَلَهُمْ خُرْسًا فَلَا يَتَكَلَّمُونَ، فَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى إنْكَارِ مَا عَمِلُوهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ. ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾؛ أَي: تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَعْضَاؤُهُمْ بِمَا عَمِلُوهُ، وَيُنْطِقُهَا الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ.

﴿٦٦﴾ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾: بِأَنْ نَذْهَبَ أَبْصَارَهُمْ كَمَا طَمَسْنَا عَلَى نُطْقِهِمْ؛ ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾؛ أَي: فَبَادِرُوا إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ الطَّرِيقُ إِلَى الْوَصُولِ إِلَى الْجَنَّةِ. ﴿فَأَنَّى يُنْصَرُونَ﴾: وَقَدْ طُمِسَتْ أَبْصَارُهُمْ!؟

﴿٦٧﴾ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾؛ أَي: لِأَذْهَبْنَا حَرَكَتَهُمْ، ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا﴾: إِلَى الْأَمَامِ، ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾: إِلَى وَرَائِهِمْ، لِيَعْدُوا عَنِ النَّارِ.

والمعنى: أَنَّ هَؤُلَاءِ الْكَافِرَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ، وَلَمْ يَكُنْ بَدْءٌ مِنْ عِقَابِهِمْ، وَفِي ذَلِكَ الْمَوْطِنِ مَا تَمَّ إِلَّا النَّارُ قَدْ بُرُزَتْ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ نَجَاةٌ إِلَّا بِالْعَبُورِ عَلَى الصِّرَاطِ، وَهَذَا لَا يَسْتَطِيعُهُ إِلَّا أَهْلُ الْإِيمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ فِي نُورِهِمْ، وَأَمَّا هَؤُلَاءِ؛ فَلَيْسَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ فِي النِّجَاةِ مِنَ النَّارِ؛ فَإِنْ شَاءَ؛ طَمَسَ أَعْيُنَهُمْ، وَأَبْقَى حَرَكَتَهُمْ فَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَى الصِّرَاطِ لَوْ اسْتَبَقُوا إِلَيْهِ وَبَادَرُوهُ، وَإِنْ شَاءَ؛ أَذْهَبَ حَرَكَتَهُمْ فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا التَّقَدُّمَ وَلَا التَّأَخُّرَ، الْمَقْصُودُ أَنَّهُمْ لَا يَغْبُرُونَهُ، فَلَا تَحْصُلُ لَهُمْ النِّجَاةُ.

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (٦٨).

﴿٦٨﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ﴾: مِنْ بَنِي آدَمَ ﴿نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾؛ أَي: يَعُودُ إِلَى الْحَالَةِ الَّتِي ابْتَدَأَ مِنْهَا؛ حَالَةَ الضَّعْفِ؛ ضَعْفَ الْعَقْلِ وَضَعْفَ الْقُوَّةِ. ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾: أَنَّ الْآدَمِيَّ نَاقِصٌ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، فَيَتَدَارَكُوا قُوَّتَهُمْ وَعُقُولَهُمْ، فَيَسْتَغْمِلُونَهَا فِي طَاعَةِ رَبِّهِمْ؟

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ (٦٩) لِيُنْذَرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠).

﴿٦٩﴾ يَنْزُهُ تَعَالَى نَبِيَّهَ مُحَمَّدًا ﷺ عَمَّا رَمَاهُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ مِنْ أَنَّهُ شَاعِرٌ، وَأَنَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ شِعْرٌ، فَقَالَ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾: أَنْ يَكُونَ شَاعِرًا؛ أَي: هَذَا مِنْ جِنْسِ الْمَحَالِ أَنْ يَكُونَ شَاعِرًا؛ لِأَنَّهُ رَشِيدٌ مُهْتَدٍ، وَالشُّعْرَاءُ غَاوُونَ، يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، وَلَئِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَسَمَ جَمِيعَ الشُّبْهِ الَّتِي يَتَعَلَّقُ بِهَا الضَّالُّونَ عَنْ رَسُولِهِ، فَحَسَمَ أَنْ يَكُونَ يَكْتُبُ أَوْ يَقْرَأُ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ مَا عَلَّمَهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾؛ أي: ما هذا الذي جاء به إلا ذكرٌ يتذكر به أولو الألباب جميع المطالب الدينية؛ فهو مشتملٌ عليها أتم اشتمال، وهو يذكرُ العقولَ ما رَكَزَ اللَّهُ في فِطْرَها من الأمر بكلِّ حسن والنهي عن كلِّ قبيح. ﴿وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾؛ أي: مبينٌ لما يُطْلَبُ بيانه، ولهذا حذف المعمول؛ ليدلَّ على أنَّه مبينٌ لجميع الحقِّ بأدلته التفصيلية والإجمالية والباطل وأدلة بطلانه. أنزله الله كذلك على رسوله.

﴿٧٠﴾ ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾؛ أي: حيُّ القلب واعية؛ فهو الذي يزكو على هذا القرآن، وهو الذي يزداد من العلم منه والعمل، ويكون القرآن لقلبه بمنزلة المطر للأرض الطيبة الزاكية، ﴿وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾: لأنهم قامت عليهم به حُجَّةُ الله وانقطع احتجاجهم، فلم يبقَ لهم أدنى عذرٍ وشبهةٌ يدلون بها.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيئُنَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلَائِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَكُنْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿٧١ - ٧٣﴾ يأمرُ تعالى العباد بالنظر إلى ما سَخَّرَ لهم من الأنعام وذلَّلها وجَعَلَهُم مالَكِينَ لها مطاوعةٌ لهم في كلِّ أمرٍ يريدونه منها، وأَنَّهُ جعلَ لهم فيها منافع كثيرةً من حَمْلِهِمْ وَحَمْلِ أَنْقَالِهِمْ وَمَحَامِلِهِمْ وَأَمْتِعَتِهِمْ من محلٍّ إلى محلٍّ، ومن أَكْلِهِمْ منها، وفيها دفءٌ، ومن أوبارها وأصوافها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين، وفيها زينةٌ وجمالٌ وغيرُ ذلك من المنافع المشاهدة منها. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الله تعالى الذي أنعم بهذه النعم، ويخلصون له العبادة، ولا يتمتعون بها تمتعاً خالياً من العبرة والفكرة؟!

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْصَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿٧٤ - ٧٥﴾ هذا بيانٌ لبطلان آلهة المشركين التي ^(١) اتَّخَذُواها مع الله تعالى وَرَجَّوْا نَصْرَها وَشَفَعَهَا؛ فإنها في غاية العجز. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾: ولا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ: فإذا كانوا لا يستطيعون نَصْرَهُمْ؛ فكيف يَنْصُرُونَهُمْ؟! والنصر له شرطان: الاستطاعة [والقدرة] ^(٢)؛ فإذا استطاع: يبقى: هل يُريدُ نصرَةً مِنْ عِنْدِهِ أم

(١) في (ب): «الذين».

(٢) كذا في هامش (أ). ولا توجد في (ب)، ولعل الصواب: «الإرادة».

لا؟ فنفي الاستطاعة ينفي الأمرين كليهما. ﴿وهم لهم جُندٌ محضرون﴾؛ أي: محضرون هم وهم في العذاب، ومتبرئ بعضُهم من بعض، أفلا تبرؤوا في الدنيا من عبادة هؤلاء وأخلصوا العبادة للذي بيده الملك والنفع والضرر والعطاء والمنع وهو الوليُّ النصير؟!

﴿فَلَا يَخْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٧٦).

﴿٧٦﴾ أي: فلا يخزُنْكَ يا أيُّها الرسولُ قول المكذِّبين، والمراد بالقول ما دلَّ عليه السياق، كلُّ قول يقدِّحون فيه في الرسول أو فيما جاء به؛ أي: فلا تشغل قلبك بالحزن عليهم. ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ فنجازيهم على حسب علمنا بهم، وإلا؛ فقولهم لا يضرُّك شيئاً.

﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْجِ الْعِظَمُ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٣).

هذه الآيات الكريمات فيها ذكرُ شبهة منكري البعث والجواب عنها باتِّمَّ جوابٌ وأحسِنه وأوضحه.

﴿٧٧﴾ فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ﴾: المنكرُ للبعث أو^(١) الشاك فيه أمراً يفيدُه اليقين التامُ بوقوعه، وهو ابتداء خلقه ﴿من نطفة﴾، ثم تنقله في الأطوار شيئاً فشيئاً، حتى كبر وشبَّ وتمَّ عقله واستتبَّ؛ ﴿فإذا هو خصيمٌ مبينٌ﴾: بعد أن كان ابتداء خلقه من نطفة؛ فلينظر التفاوت بين هاتين الحالتين، وليعلم أن الذي أنشأه من العدم قادرٌ على أن يعيده بعدما تفرَّق وتمزَّق من باب أولى.

﴿٧٨﴾ ﴿وضرب لنا مثلاً﴾: لا ينبغي لأحد أن يضرِّبه، وهو قياسُ قدرة الخالق بقدرة المخلوق، وأنَّ الأمر المُستبعدُ على قدرة المخلوق مُستبعدٌ على قدرة

(١) في (ب): «و».

الخالق، فَسَّرَ هَذَا الْمَثْلَ بِقَوْلِهِ: ﴿قَالَ﴾: ذَلِكَ الْإِنْسَانُ: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾؛ أَي: هَلْ أَحَدٌ يُحْيِيهَا؟ اسْتِفْهَامُ إِنكَارٍ؛ أَي: لَا أَحَدٌ يُحْيِيهَا بَعْدَمَا بَلِيَتْ وَتَلَاشَتْ. هَذَا وَجْهُ الشَّبْهِ وَالْمَثْلِ، وَهُوَ أَنَّ هَذَا أَمْرٌ فِي غَايَةِ الْبَعْدِ عَلَى مَا يُعْهَدُ مِنْ قُدْرَةِ الْبَشَرِ، وَهَذَا الْقَوْلُ الَّذِي صَدَرَ مِنْ هَذَا الْإِنْسَانِ غَفْلَةٌ مِنْهُ وَنِسْيَانٌ لِبَتْدَاءِ خَلْقِهِ؛ فَلَوْ قَطِنَ لِخَلْقِهِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً، فَوُجِدَ عَيَاناً؛ لَمْ يَضْرِبْ هَذَا الْمَثْلَ.

﴿٧٩﴾ فَأَجَابَ تَعَالَى عَنْ هَذَا الْاسْتِبْعَادِ بِجَوَابٍ شَافٍ كَافٍ، فَقَالَ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: وَهَذَا بِمَجَرَّدِ تَصَوُّرِهِ يَعْلَمُ بِهِ عِلْماً يَقِيناً لَا شَبْهَةَ فِيهِ أَنَّ الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ قَادِرٌ عَلَى الْإِعَادَةِ ثَانِي مَرَّةً، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَى الْقُدْرَةِ إِذَا تَصَوَّرَهُ الْمَتَصَوِّرُ. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾: هَذَا أَيْضاً دَلِيلٌ ثَانٍ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ أَنَّ عِلْمَهُ تَعَالَى مُحِيطٌ بِجَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهَا فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ، وَيَعْلَمُ مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْ أَجْسَادِ الْأَمْوَاتِ وَمَا يَبْقَى، وَيَعْلَمُ الْغَيْبَ وَالشَّهَادَةَ؛ فَإِذَا أَقَرَّ الْعَبْدُ بِهَذَا الْعِلْمِ الْعَظِيمِ؛ عِلْمَ أَنَّهُ أَعْظَمُ وَأَجَلُّ مِنْ إِحْيَاءِ اللَّهِ الْمَوْتَى مِنْ قُبُورِهِمْ.

﴿٨٠﴾ ثُمَّ ذَكَرَ دَلِيلاً ثَالِثاً، فَقَالَ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً إِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تَوَفَّدُونَ﴾: فَإِذَا أَخْرَجَ النَّارَ الْيَابِسَةَ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ الَّذِي هُوَ فِي غَايَةِ الرُّطُوبَةِ مَعَ تَضَادِّهِمَا وَشِدَّةِ تَخَالُفِهِمَا؛ فَأَخْرَاجُهُ الْمَوْتَى مِنْ قُبُورِهِمْ مِثْلَ ذَلِكَ.

﴿٨١﴾ ثُمَّ ذَكَرَ دَلِيلاً رَابِعاً، فَقَالَ: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: عَلَى سَعْتِهِمَا وَعَظَمِهِمَا ﴿بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾؛ أَي: أَنْ يَعِيدَهُمْ بِأَعْيَانِهِمْ ﴿بَلَى﴾: قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ؛ فَإِنَّ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ. ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾: وَهَذَا دَلِيلٌ خَامِسٌ؛ فَإِنَّهُ تَعَالَى الْخَلَّاقُ الَّذِي جَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ؛ مُتَقَدِّمُهَا وَمَتَأَخَّرُهَا، صَغِيرُهَا وَكَبِيرُهَا؛ كُلُّهَا أَثَرٌ مِنْ آثَارِ خَلْقِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَعْصِي عَلَيْهِ مَخْلُوقٌ أَرَادَ خَلْقَهُ؛ فإِعَادَتُهُ لِلْأَمْوَاتِ فَرْدٌ مِنْ أَفْرَادِ آثَارِ خَلْقِهِ.

﴿٨٢﴾ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً﴾: نَكْرَةٌ فِي سِيَاقِ الشَّرْطِ فَتَعُمُّ كُلَّ شَيْءٍ، ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾؛ أَي: فِي الْحَالِ مِنْ غَيْرِ تَمَانَعٍ.

﴿٨٣﴾ ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾: وَهَذَا دَلِيلٌ سَادِسٌ؛ فَإِنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمَلِكُ الْمَالِكُ لِكُلِّ شَيْءٍ؛ الَّذِي جَمِيعُ مَا سَكَنَ فِي الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ مُلْكٌ لَهُ وَعَبِيدٌ مَسْخُورُونَ مَدْبُرُونَ، يَتَصَرَّفُ فِيهِمْ بِأَقْدَارِهِ الْحَكْمِيَّةِ وَأَحْكَامِهِ الشَّرْعِيَّةِ وَأَحْكَامِهِ الْجَزَائِيَّةِ؛ فإِعَادَتُهُ إِيَّاهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ لِيَنْفِذَ فِيهِمْ حُكْمَ الْجَزَاءِ مِنْ تَمَامِ مُلْكِهِ،

ولهذا قال: ﴿وإليه تُرْجَعُونَ﴾: من غير امتراء ولا شك؛ لتواتر البراهين القاطعة والأدلة الساطعة على ذلك. فتبارك الذي جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور.

تم تفسير سورة يس.

فله تعالى الحمد كما ينبغي لجلاله، وله الثناء كما يليق بكماله، وله المجد كما تستدعيه عظمته وكبرياؤه، وصلى الله على محمد وسلم.



تفسير سورة الصافات

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۝٥ إِنَّا رَبَّاءُ السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِرَبِّنَا أَلْكُوكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ۝٧ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلَمٍ الْاَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُخُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خِطَفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ۝١١﴾.

﴿١ - ٤﴾ هذا قسم منه تعالى بالملائكة الكرام في حال عباداتها وتبديرها ما^(١) تدبره بإذن ربها على ألوهيته تعالى وربوبيته، فقال: ﴿والصافات صفا﴾؛ أي: صفوفاً في خدمة ربهم، وهم الملائكة، ﴿فالزاجرات زجراً﴾: وهم الملائكة يزجرون السحاب وغيره بأمر الله، ﴿فالتاليات ذكراً﴾: وهم الملائكة الذين يتلون كلام الله تعالى، فلما كانوا متألّهين^(٢) لربهم ومتعبدين في خدمته ولا يعصونه طرفة عين؛ أقسم بهم على ألوهيته، فقال: ﴿إنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ﴾: ليس له شريك في الإلهية؛ فأخلصوا له الحب والخوف والرجاء وسائر أنواع العبادة.

﴿٥﴾ ﴿ربُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾؛ أي: هو الخالق لهذه المخلوقات، الرازق^(٣) لها، المدبّر لها؛ فكما أنه لا شريك له في ربوبيته

(٢) في (ب): «متألّهين».

(١) في (ب): «في ما».

(٣) في (ب): «والرازق».

إِيَّاهَا؛ فَكَذَلِكَ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي أَلُوهُيَّتِهِ. وَكَثِيرًا مَا يَقَرُّرُ تَعَالَى تَوْحِيدَ الْإِلَهِيَّةِ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ دَالٌّ عَلَيْهِ. وَقَدْ أَقَرَّ بِهِ أَيْضًا الْمُشْرِكُونَ فِي الْعِبَادَةِ، فَيُلْزِمُهُمْ بِمَا^(١) أَقَرُّوا بِهِ عَلَى مَا أَنْكَرُوهُ. وَخَصَّ اللَّهُ الْمَشَارِقَ بِالذِّكْرِ؛ لِدَلَالَتِهَا عَلَى الْمَغَارِبِ، أَوْ لِأَنَّهَا مَشَارِقُ النُّجُومِ الَّتِي سَيَذْكُرُهَا. فَلِهَذَا قَالَ:

﴿٦٩ - ٩٠﴾ «إِنَّا زَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ. وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ. لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى»: ذَكَرَ اللَّهُ فِي الْكَوَاكِبِ هَاتَيْنِ الْفَائِدَتَيْنِ الْعَظِيمَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا: كَوْنُهَا زِينَةً لِلْسَّمَاءِ؛ إِذْ لَوْلَاهَا؛ لَكَانَتِ السَّمَاءُ جَرَمًا مَظْلَمًا لَا ضَوْءَ فِيهِ^(٢)، وَلَكِنْ زِينَتُهَا فِيهَا؛ لِتَسْتَنِيرَ^(٣) أَرْجَاؤُهَا وَتُخَسِّنَ صَوْرَتُهَا، وَيُتَهَدَى بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَيَحْصُلَ فِيهَا مِنَ الْمَصَالِحِ مَا يَحْصُلُ. وَالثَّانِيَّةُ: حِرَاسَةُ السَّمَاءِ عَنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ يَصِلُ بِتَمَرُّدِهِ إِلَى اسْتِمَاعِ الْمَلَأِ الْأَعْلَى، وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ؛ إِذَا اسْتَمَعَتْ قَذْفَتَهَا بِالشَّهْبِ الثَّوَابِقِ ﴿مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾: طَرْدًا لَهُمْ وَإِعَادًا عَنْ اسْتِمَاعِ مَا يَقُولُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾؛ أَيُّ: دَائِمٌ مَعْدٌ لَهُمْ لِتَمَرُّدِهِمْ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِمْ.

﴿١٠﴾ وَلَوْلَا أَنَّهُ تَعَالَى اسْتَنْتَى؛ لَكَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَسْتَمَعُونَ شَيْئًا أَصْلًا، وَلَكِنْ قَالَ: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾؛ أَيُّ: إِلَّا مَنْ تَلَقَّفَ مِنَ الشَّيَاطِينِ الْمَرْدَةَ الْكَلِمَةَ الْوَاحِدَةَ عَلَى وَجْهِ الْخَفِيَّةِ وَالسَّرْقَةِ، ﴿فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ﴾: تَارَةً يَدْرِكُهُ قَبْلَ أَنْ يُوَصِّلَهَا إِلَى أَوْلِيَائِهِ فَيَنْقَطِعَ خَبَرُ السَّمَاءِ، وَتَارَةً يُخْبِرُ بِهَا قَبْلَ أَنْ يَدْرِكَهُ الشَّهَابُ، فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذِبَةٍ، يَرُوجُونَهَا بِسَبَبِ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ.

﴿١١﴾ وَلَمَّا بَيَّنَّ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةَ؛ قَالَ: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾؛ أَيُّ: أَسْأَلَ مِنْكَرِي خَلْقِهِمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ: ﴿أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا﴾؛ أَيُّ: إِيجَادُهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ أَشَدُّ خَلْقًا وَأَشَقُّ. ﴿أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾: مَنْ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ؛ فَلَا بَدَّ أَنْ يَقْرَأُوا أَنَّ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ، فَيُلْزِمُهُمْ إِذَا الْإِقْرَارَ بِالْبَعْثِ، بَلْ لَوْ رَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ وَفَكَّرُوا فِيهَا؛ لَعَلِمُوا أَنَّ ابْتِدَاءَ خَلْقِهِمْ مِنْ طِينٍ لَا زَبَّ أَصْعَبُ عِنْدَ الْفِكْرِ مِنْ إِنْشَائِهِمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَا زَبَّ﴾؛ أَيُّ: قَوِيٍّ شَدِيدٍ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾.

(٢) فِي (ب): «فِيهَا».

(١) فِي (ب): «مَا».

(٣) فِي (ب): «لِيَسْتَنِيرَ».

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ وَإِذَا رَأَوْا وَعظًا أَوَّاهًا لَمْبَعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ كَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَبُولُنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿١٢﴾ ﴿بل عجبْتَ﴾: أيها^(١) الرسولُ أو أيُّها الإنسانُ من تكذيب مَنْ كَذَبَ بالبعث بعد أن أُرِيتَهم من الآياتِ العظيمةِ والأدلةِ المستقيمةِ، وهو حقيقةٌ محلُّ عجبٍ واستغرابٍ؛ لأنَّه مما لا يَقْبَلُ الإنكارَ. ﴿و﴾ أعجبُ من إنكارِهِمْ وأبلغُ منه أَنَّهُمْ ﴿يَسْخَرُونَ﴾: ممَّنْ جاء بالخبر عن البعثِ، فلم يَكْفِهِمْ مجردُ الإنكارِ، حتى زادوا السخريةَ بالقول الحقِّ.

﴿١٣﴾ ﴿و﴾ من العجبِ أيضاً أَنَّهُمْ ﴿إِذَا ذُكِّرُوا﴾: ما يعرفون في فِطْرِهِمْ وعُقُولِهِمْ وفِطْنَتِهِمْ وَلَقَدْ نَظَرَهُمْ إِلَيْهِ ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾: ذَلِكَ؛ فَإِنْ كَانَ جَهْلًا؛ فَهُوَ مِنْ أَدَلِّ الدَّلَائِلِ عَلَى شِدَّةِ بِلَادَتِهِمْ الْعَظِيمَةِ؛ حَيْثُ ذُكِّرُوا مَا هُوَ مُسْتَقَرٌّ فِي الْفِطْرِ معلومٌ بالعقل لا يقبلُ الإشكالَ، وَإِنْ كَانَ تَجَاهُلًا وَعِنَادًا؛ فَهُوَ أَعْجَبُ وَأَغْرَبُ.

﴿١٤﴾ وَمِنَ الْعَجَبِ أَيْضًا أَنَّهُمْ إِذَا أُقِيمَتْ عَلَيْهِمُ الْأَدْلَةُ، وَذُكِّرُوا الْآيَاتِ الَّتِي يَخْضَعُ لَهَا فَحَوْلُ الرِّجَالِ وَالْبَابُ الْأَلْبَاءِ، يَسْخَرُونَ مِنْهَا وَيَعْجَبُونَ.

﴿١٥﴾ وَمِنَ الْعَجَبِ أَيْضًا قَوْلُهُمْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: فَجَعَلُوا أَعْلَى الْأَشْيَاءِ وَأَجْلَهَا - وَهُوَ الْحَقُّ - فِي رَتْبَةِ أَخْسَرِ الْأَشْيَاءِ وَأَحْقَرِهَا.

﴿١٦ - ١٧﴾ وَمِنَ الْعَجَبِ أَيْضًا قِيَاسُهُمْ قُدْرَةَ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ عَلَى قُدْرَةِ الْآدَمِيِّ النَّاqصِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، فَقَالُوا اسْتَبْعَادًا وَإِنْكَارًا: ﴿إِذَا مِثْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ. أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾.

﴿١٨﴾ وَلَمَّا كَانَ هَذَا مُنْتَهَى مَا عِنْدَهُمْ وَغَايَةُ مَا لَدَيْهِمْ؛ أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ أَنْ يُجِيبَهُمْ بِجَوَابٍ مُشْتَمِلٍ عَلَى تَرْهِيْبِهِمْ^(٢)، فَقَالَ: ﴿قُلْ نَعَمْ﴾: سَتُبْعَثُونَ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَوَّلُونَ، وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ: ذَلِيلُونَ صَاغِرُونَ لَا تَمْتَنِعُونَ، وَلَا تَسْتَعْصِمُونَ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ.

﴿١٩﴾ ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾: يَنْفُخُ إِسْرَافِيلُ فِيهَا فِي الصُّورِ. ﴿فَإِذَا هُمْ﴾

(٢) فِي (ب): «تَرْهِيْبُهُمْ».

(١) فِي (ب): «يَا أَيُّهَا».

مبعوثون من قبورهم ﴿يَنْظُرُونَ﴾: كما ابتدئ خلقهم، بُعِثُوا بجميع أجزائهم حفاة عراة غرلاً.

﴿٢٠﴾ وفي تلك الحال يُظهِرون الندم والخزي والخسار، وَيَدْعُونَ بالويل والثبور، ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾؛ فقد أقرُّوا بما كانوا في الدنيا به يهزؤون! ^(١)

﴿٢١﴾ فيقال لهم: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾: بين العباد فيما بينهم وبين ربهم من الحقوق وفيما بينهم وبين غيرهم من الخلق.

﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَقْدَرُهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿وَقَفَّوْهُمْ لِيَتَذَكَّرُوا﴾ (٢٣) مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ ﴿٢٤﴾ بَلْ هُمْ آيَوْمَ مُسْتَلِمُونَ ﴿٢٥﴾.

﴿٢٢ - ٢٣﴾ أي: إذا حضروا يوم القيامة وعاینوا ما به يكذبون ورأوا ما به يستسخرون؛ يُؤْمَرُ بهم إلى النار التي بها يكذبون، فيقال: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: أَنفُسَهُم بِالْكَفْرِ وَالشَّرِّ وَالْمَعَاصِي ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾: الَّذِينَ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِمْ، كُلُّ يُضْمُّ إِلَى مَنْ يُجَانِسُهُ فِي الْعَمَلِ، ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ الَّتِي زَعَمُوهَا، أَجْمَعُوهُمْ جَمِيعاً، وَاهْدُوهُمْ ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾؛ أي: سَوْقُوهُمْ سَوْقاً عَنِيفاً إِلَىٰ جَهَنَّمَ.

﴿٢٤﴾ ﴿و﴾ بعدما يتعيَّن أمرهم إلى النار وَيَغْرِفُونَ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ دَارِ الْبَوَارِ؛ يُقَالُ: ﴿تَفَوَّهُمْ﴾: قَبْلَ أَنْ تَوْصِلُوهُمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ، ﴿إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾: عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَهُ فِي الدُّنْيَا؛ لِيُظْهَرَ عَلَىٰ رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ كَذِبُهُمْ وَفُضِيحَتُهُمْ.

﴿٢٥﴾ فيقال لهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ﴾: أي: مَا الَّذِي جَرَىٰ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ، وَمَا الَّذِي طَرَقَكُمْ، لَا يَنْصَرُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً، وَلَا يَغِيثُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً، بعدما كُتِبَ تَزْعُمُونَ فِي الدُّنْيَا أَنَّ آلِهَتَكُمْ سَتَدْفَعُ عَنْكُمْ الْعَذَابَ وَتُغَيِّثُكُمْ أَوْ ^(٢) تَشْفَعُ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ؟!

﴿٢٦﴾ فكانهم لَا يَجِيبُونَ هَذَا السُّؤَالَ؛ لِأَنَّهُمْ قَدْ عَلَاهُم الدُّلُّ وَالصَّغَارُ، وَاسْتَسْلَمُوا لِعَذَابِ النَّارِ وَخَشَعُوا وَخَضَعُوا وَأَبْلَسُوا، فَلَمْ يَنْطِقُوا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَلِمُونَ﴾.

(٢) فِي (ب): «و».

(١) فِي (ب): «يَسْتَهْزِؤُونَ».

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِيْنَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا تَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَٰئِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ .

﴿٢٧ - ٢٨﴾ لما جُمِعوا هم وأزواجهم وآلهتهم وهُدوا إلى صراط الجحيم ووقفوا فسئلوا فلم يجيبوا؛ أقبلوا فيما بينهم يلوم بعضهم بعضاً على إضلالهم وضلالهم، فقال الأتباع للمتبعين الرؤساء: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾؛ أي: بالقوة والغلبة فتضللونا، ولولا أنتم؛ لكنا مؤمنين.

﴿٢٩ - ٣٢﴾ ﴿قَالُوا﴾ لهم: ﴿بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ما زلتم مشركين كما نحن مشركون؛ فأئي شيء فضلكم علينا؟! وأئي شيء يوجب لومنا؟! ﴿و﴾ الحال أنه ﴿مَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾؛ أي: قهر لكم على اختيار الكفر، ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِيْنَ﴾: متجاوزين للحد^(١)، ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾: نحن وإياكم ﴿قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰئِقُونَ﴾: العذاب؛ أي: حق علينا قدر ربنا وقضاؤه أننا وإياكم سنذوق العذاب ونشترك في العقاب. ﴿ف﴾ لذلك ﴿أَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾؛ أي: دعوناكم إلى طريقتنا التي نحن عليها، وهي الغواية، فاستجبتم لنا؛ فلا تلومونا ولوموا أنفسكم.

﴿٣٣ - ٣٤﴾ قال تعالى: ﴿فَأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾: وإن تفاوتت^(٢) مقادير عذابهم بحسب جرمهم؛ كما اشتركوا في الدنيا على الكفر اشتركوا في الآخرة بجزائهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿٣٥ - ٣٦﴾ ثم ذكر أن إجرامهم قد بلغ الغاية وجاوز النهاية، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾: فدعوا إليها وأمروا بترك الإلهية ما سواه ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾: عنها وعلى من جاء بها، ﴿وَيَقُولُونَ﴾ معارضة لها: ﴿إِنَّا لَا تَارِكُوا آلِهَتِنَا﴾: التي لم نزل نعبدها نحن وآباؤنا، لقول ﴿شَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾؛ يعنون:

(٢) في (ب): «تفاوت».

(١) في (ب): «للحق».

محمدًا ﷺ، فلم يكفهم قَبْحُهُمُ اللّهُ الإِعْرَاضُ عَنْهُ وَلَا مَجْرَدُ تَكْذِيبِهِ، حَتَّى حَكَمُوا عَلَيْهِ بِأَظْلَمِ الْأَحْكَامِ، وَجَعَلُوهُ شَاعِرًا مَجْنُونًا، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ الشَّعْرَ وَالشَّعْرَاءَ، وَلَا وَصْفُهُ وَصْفَهُمْ، وَأَنَّهُ أَعْقَلَ خَلْقِ اللّهِ وَأَعْظَمُهُمْ رَأْيًا.

﴿٣٧﴾ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى نَاقِضًا لِقَوْلِهِمْ: ﴿بَلْ جَاءَ﴾: مُحَمَّدٌ ﴿بِالْحَقِّ﴾؛ أَي: مُجِيبُهُ حَقًّا، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الشَّرْعِ وَالْكِتَابِ حَقًّا، ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾؛ أَي: وَمُجِيبُهُ صَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ؛ فَلَوْلَا مُجِيبُهُ وَإِرْسَالُهُ؛ لَمْ يَكُنِ الرِّسَالُ صَادِقِينَ؛ فَهُوَ آيَةٌ وَمُعْجِزَةٌ لِّكُلِّ رَسُولٍ قَبْلَهُ؛ لِأَنَّهُمْ أَخْبَرُوا بِهِ وَيَشْرَوْنَ، وَأَخَذَ اللّهُ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ لَنْ جَاءَهُمْ لِيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلِيَنْصُرُوهُ، وَأَخَذُوا ذَلِكَ عَلَى أَمْمِهِمْ، فَلَمَّا جَاءَ؛ ظَهَرَ صِدْقُ الرِّسَالِ الَّذِينَ قَبْلَهُ، وَتَبَيَّنَ كَذِبُ مَنْ خَالَفَهُمْ، فَلَوْ قَدَّرَ عَدَمَ مُجِيبِهِ، وَهُمْ قَدْ أَخْبَرُوا بِهِ؛ لَكَانَ ذَلِكَ قَادِحًا فِي صِدْقِهِمْ. وَصَدَّقَ أَيْضًا الْمُرْسَلِينَ؛ بِأَن جَاءَ بِمَا جَاؤُوا بِهِ، وَدَعَا إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ، وَأَمَّنَ بِهِمْ، وَأَخْبَرَ بِصِحَّةِ رِسَالَتِهِمْ وَنُبُوءَتِهِمْ وَشَرْعِهِمْ.

﴿٣٨ - ٣٩﴾ وَلَمَّا كَانَ قَوْلُهُمُ السَّابِقُ: ﴿إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ قَوْلًا صَادِرًا مِنْهُمْ يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ صَدَقًا أَوْ^(١) غَيْرَهُ؛ أَخْبَرَ تَعَالَى بِالْقَوْلِ الْفَصْلَ الَّذِي لَا يَحْتَمِلُ غَيْرَ الصَّدَقِ وَالْيَقِينِ، وَهُوَ الْخَبَرُ الصَّادِرُ مِنْهُ تَعَالَى، فَقَالَ: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾؛ أَي: الْمُؤَلِّمِ الْمَوْجِعِ، ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ﴾: فِي إِذَاقَةِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: فَلَمْ نَظْلِمْكُمْ، وَإِنَّمَا عَدَلْنَا فِيكُمْ.

وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْخَطَابُ لَفْظُهُ عَامًّا، وَالْمُرَادُ بِهِ الْمَشْرُكُونَ؛ اسْتَشْنَى تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ:

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ ٤٠ ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَرَوْا رِزْقًا مَّعْلُومًا﴾ ٤١ ﴿فَوَكَهَهُمْ مَّكْرَمُونَ﴾ ٤٢ ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ٤٣ ﴿عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ ٤٤ ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ﴾ ٤٥ ﴿بِضَاءٍ لَّذَوِّ السَّعِيرِينَ﴾ ٤٦ ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ ٤٧ ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ ٤٨ ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ ٤٩.

﴿٤٠﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾: فَإِنَّهُمْ غَيْرُ ذَائِقِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ؛ لِأَنَّهُمْ أَخْلَصُوا لِلَّهِ الْأَعْمَالِ، فَأَخْلَصَهُمْ وَاخْتَصَّاهُمْ بِرَحْمَتِهِ وَجَادَ عَلَيْهِمْ بِلُطْفِهِ.

(١) فِي (ب): «و».

﴿٤١ - ٤٢﴾ ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾؛ أي: غير مجهول، وإنّما هو رزقٌ عظيمٌ جليلٌ لا يُجهلُ أمرُهُ ولا يُبلَّغُ كُنْهُهُ، فسره بقوله: ﴿فَوَاكِهُ﴾: من جميع أنواع الفواكه التي تتفكّك بها النفس للذّتها في لونها وطعمها. ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾: لا مهانون محتقرون، بل معظّمون مبجلون موقّرون، قد أكرم بعضهم بعضاً، وأكرمتهُم الملائكةُ الكرامُ، وصاروا يدخّلون عليهم من كلّ باب، ويهتّئونهم ببلوغ أهنأ الثواب، وأكرمهم أكرم الأكرمين وجادّ عليهم بأنواع الكرامات من نعيم القلوب والأرواح والأبدان.

﴿٤٣﴾ ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾؛ أي: الجنات التي النعيم وَصَفُها والسرورُ نعمُها، وذلك لما جمَعته ممّا لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا حَظَرَ على قلب بشر، وسلمت من كلّ مخلٍّ بنعيمها من جميع المكدرات والمنقّصات.

﴿٤٤﴾ ﴿وَمِنْ كَرَامَتِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَإِكْرَامُ بَعْضُهُمْ أَعْظَمُ عَلَى الْآخَرِ﴾: وهي المجالس المرتفعةُ المزينة بأنواع الأكسية الفاخرة المزخرفة المجملّة؛ فهم مُتَكئون عليها على وجهِ الراحة والطّمانينة والفرح، ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾: فيما بينهم، قد صَفَتْ قلوبُهم ومحبتُهم فيما بينهم، ونعموا باجتماع بعضهم مع بعض؛ فإنّ مقابلة وجوههم تدلُّ على تقابل قلوبهم وتأدّب بعضهم مع بعض، فلم يستدبره أو يجعله إلى جانبه، بل من كمال السرور والأدب ما دلّ عليه ذلك التقابل.

﴿٤٥ - ٤٧﴾ ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾؛ أي: يتردّد الولدان المستعدّون لخدمتهم عليهم بالأشربة اللذيذة بالكاسات الجميلة المنظر المُثَرَّعة من الرحيق المختوم بالمسك، وهي كاساتُ الخمر، وتلك الخمرُ تخالِفُ حَمَرَ الدُّنيا من كل وجه؛ فإنّها في لونها ﴿بَيضاء﴾ من أحسن الألوان، وفي طعمها ﴿لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ﴾: يلتذُّ^(١) شارِبها بها وقت شربها وبعده، وأنّها سالمة من غول العقل وذهابه ونزفه ونزف مال صاحبها، وليس فيها صداع ولا كدر.

﴿٤٨ - ٤٩﴾ ﴿فَلَمَّا ذُكِّرَ طَعَامُهُمْ وَشَرَابُهُمْ وَمَجَالِسُهُمْ. وَعَمُومُ النَّعِيمِ وَتَفَاصِيلُهُ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، لَكِنْ فَصَّلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ لِتُعْلَمَ فَتَشْتَاقَ النَّفُوسُ إِلَيْهَا؛ ذُكِّرَ أَزْوَاجُهُمْ، فَقَالَ: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عَيْنٍ﴾؛ أي: وعند أهل دار النعيم في محلاتهم القريبة حورٌ حسانٌ كاملاتُ الأوصافِ قاصراتُ الطرفِ: إمّا أنّها

(١) في (ب): «يلتذذ».

قَصَرَتْ طَرْفَهَا عَلَى زَوْجِهَا لَعْفَتَهَا، وعدم مجاوزته لغيره، ولجمال زوجها وكماله؛ بحيث لا تطلُبُ في الجنة سواه، ولا ترغبُ إلا به. وإِذَا لَأَنَّهَا قَصَرَتْ طَرْفَ زَوْجِهَا عَلَيْهَا، وذلك يدلُّ على كمالها وجمالها الفائق، الذي أوجب لزوجها أن يَقْصُرَ طَرْفَهُ عَلَيْهَا. وَقْصُرُ الطَّرْفِ أَيْضاً يدلُّ على قْصُرِ النَفْسِ وَالْمَحَبَّةِ عَلَيْهَا، وكلا المعنيين محتمل، وكلاهما صحيح.

وكلُّ هَذَا يدلُّ على جمال الرجال والنساء في الجنة ومحبة بعضهم بعضاً محبة لا يَطْمَحُ إلى غيره وشدة عقبتهم كلهم وأنه لا حَسَدَ فِيهَا ولا تَبَاغُضَ ولا تَشَاخُنَ، وذلك لانتفاء أسبابه. ﴿عَيْنٌ﴾؛ أي: حسانُ الأعين جميلاتُها ملاحُ الحديق. ﴿كَأَنَّهُنَّ﴾؛ أي: الحور ﴿بَنِيضٌ مَكْنُونٌ﴾؛ أي: مستور، وذلك من حسنهن وصفائهن، وكون ألوانهن أحسن الألوان وأبهاها، ليس فيه كدر ولا شين.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ٥٠ ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ ٥١ ﴿يَقُولُ أَهْلَكَ لَمَنِ الْمَصْدَقِينَ﴾ ٥٢ ﴿إِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ ٥٣ ﴿قَالَ هَلْ أُنتُمْ مُّطْلِعُونَ﴾ ٥٤ ﴿فَأُطْلِعَ فَرَّاهُ فِي سَوَاءِ الْحَجِيرِ﴾ ٥٥ ﴿قَالَ تَأَلَّاهُ إِنْ كِدْتُ لَمَدِينٍ﴾ ٥٦ ﴿وَلَوْلَا رِغْمَةُ رَبِّي لَكُنْتَ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ﴾ ٥٧ ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَرِينَ﴾ ٥٨ ﴿إِلَّا مَوَلَّتْنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ ٥٩ ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ٦٠ ﴿لِيُنْزِلَ هَذَا فَيَلْعَمَ السَّامِعُونَ﴾ ٦١ ﴿.

﴿٥٠ - ٥٩﴾ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى نَعِيمَهُم وَتَمَامَ سُورِهِم بِالْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْأَزْوَاجِ الْحَسَانِ وَالْمَجَالِسِ الْحَسَنَةِ؛ ذَكَرَ تَذَاكُرَهُمْ فِيْمَا بَيْنَهُمْ وَمَطَارَحَتَهُمْ لِلْأَحَادِيثِ عَنِ الْأُمُورِ الْمَاضِيَةِ وَأَنَّهُمْ مَا زَالُوا فِي الْمَحَادَثَةِ وَالتَّسْأُلِ حَتَّى أَفْضَى ذَلِكَ بِهِمْ إِلَى أَنْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾: فِي الدُّنْيَا يَنْكِرُ الْبَعْثَ وَيَلُومُنِي عَلَى تَصَدِيقِي بِهِ، وَيَقُولُ لِي: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمَصْدَقِينَ﴾. إِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ؟ أَي: مَجَازُونَ بِأَعْمَالِنَا؟! أَي: كَيْفَ تَصَدِّقُ بِهَذَا الْأَمْرِ الْبَعِيدِ، الَّذِي فِي غَايَةِ الْاسْتِغْرَابِ، وَهُوَ أَنَّنَا إِذَا تَمَرَّزْنَا قَصِرْنَا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّنَا نُبْعَثُ وَنَعَادُ ثُمَّ نَحَاسِبُ وَنُجَازِي بِأَعْمَالِنَا؟ أَي: يَقُولُ صَاحِبُ الْجَنَّةِ لِإِخْوَانِهِ: هَذِهِ قِصَّتِي وَهَذَا خَبْرِي أَنَا وَقَرِينِي، مَا زِلْتُ أَنَا مُؤْمِنًا مُصَدِّقًا، وَهُوَ مَا زَالَ مُكَذِّبًا مُنْكَرًا لِلْبَعْثِ، حَتَّى مِتْنَا، ثُمَّ بُعِثْنَا، فَوَصَلْتُ أَنَا إِلَى مَا تَرَوْنَ مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي أَخْبَرْتَنَا بِهِ الرِّسْلَ، وَهُوَ لَا شَكَّ أَنَّهُ قَدْ وَصَلَ إِلَى الْعَذَابِ. فَهَلِ ﴿أَنْتُمْ مُّطْلِعُونَ﴾: لِنَنْظُرَ إِلَيْهِ فَنَزِدَادَ غِبْطَةً وَسُرُورًا بِمَا نَحْنُ فِيهِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ رَأْيَ عَيْنٍ؟! وَالظَّاهِرُ مِنْ حَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَسُرُورِ بَعْضِهِمْ

ببعض وموافقة بعضهم بعضاً أنهم أجابوه لما قال، وذهبوا تبعاً له للاطلاع على قرينه. ﴿فَاطْلَعْ﴾ فرأى قرينه ﴿فِي سِوَاءِ الْجَحِيمِ﴾؛ أي: في وسط العذاب وغمراته. والعذاب قد أحاط به، فقال له لائماً على حاله وشاكراً لله على نعمته أن نجاه من كيده: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كَذَبْتُ لَتُزْدِينَ﴾؛ أي: تهلكني بسبب ما أدخلت علي من الشبه بزعمك، ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾: على أن ثبتني على الإسلام ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِينَ﴾: في العذاب معك. ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾. إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ؟ أي: يقوله المؤمن مبتهجاً بنعمة الله على أهل الجنة بالخلود الدائم والسلامة من العذاب. استفهام بمعنى الإثبات والتقرير. وقوله: ﴿فَأَقْبِلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾، وَحَذَفَ المعمول، والمقام مقام لذة وسرور، فدل ذلك على أنهم يتساءلون بكل ما يتلذذون بالتحدث به والمسائل التي وقع فيها النزاع والإشكال، ومن المعلوم أن لذة أهل العلم بالتساؤل عن العلم والبحث عنه فوق اللذات الجارية في أحاديث الدنيا؛ فلهم من هذا النوع النصيب الوافر، ويحصل لهم من انكشاف الحقائق العلمية في الجنة ما لا يمكن التعبير عنه.

﴿٦٠﴾ فلما ذكر تعالى نعيم الجنة ووصفه بهذه الأوصاف الجميلة؛ مدحه وشوق العاملين وحثهم على العمل له، فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: الذي حصل لهم به كل خير وكل ما تهوى النفوس وتشتهي، واندفع عنهم به كل محذور ومكروه؛ فهل فوز يُطلب فوقه، أم هو غاية الغايات ونهاية النهايات؛ حيث حل عليهم رضا رب الأرض والسموات، وفرحوا بقربه، وتنعموا بمعرفته، واستروا برويته، وطرَبوا لكلامه؟!

﴿٦١﴾ ﴿لِمَثَلِ هَذَا فليعمل العاملون﴾: فهو أحق ما أنفق فيه نفائس الأنفاس، وأولى ما شمر إليه العارفون الأكياس، والحسرة كل الحسرة أن يمضي على الحازم وقت من أوقاته وهو غير مشغل بالعمل الذي يقرب لهذه الدار؛ فكيف إذا كان يسير بخطاياه إلى دار البوار؟!

﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نَزْلاً أَمْ سَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ (١٦) ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ (١٧) ﴿إِنَّهَا سَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ (١٨) ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ (١٩) ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْ مِنْهَا الْبَطُونَ﴾ (٢٠) ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ﴾ (٢١) ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ (٢٢) ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آيَاتَهُمْ ضَالِّينَ﴾ (٢٣) ﴿فَهُمْ عَلَى آثَرِهِمْ يُهْرَثُونَ﴾ (٢٤) ﴿وَلَقَدْ صَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٥) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ

مُنْذِرِينَ ﴿٧١﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧٢﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٣﴾ .

﴿٦٢﴾ ﴿أذلك خير﴾؛ أي: ذلك النعيم الذي وصفناه لأهل الجنة خير أم العذاب الذي يكون في الجحيم من جميع أصناف العذاب؛ فأَيُّ الطعامين أولى؟ الطعام الذي وُصِفَ في الجنة، ﴿أم﴾ طعام أهل النار، وهو ﴿شجرة الزقوم﴾؟

﴿٦٣ - ٦٦﴾ ﴿إنا جعلناها فتنَةً﴾؛ أي: عذاباً ونكالاً ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾: أنفسهم بالكفر والمعاصي. ﴿إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم﴾؛ أي: وسطه؛ فهذا مخرجها ومعينها؛ شرُّ المعادن وأسوؤها، وشرُّ المغرس يدل على شرِّ الغراس وخسسته، ولهذا نبهنا الله على شرها بما ذكر أين تنبت به وبما ذكر من صفة ثمرتها، وأنها كرؤوس الشياطين؛ فلا تسأل بعد هذا عن طعمها وما تفعل في أجوافهم وبطونهم. وليس لهم عنها مندوحة ولا مَغْدِلٌ^(١)، ولهذا قال: ﴿فإنهم لا ياكلون منها فمالئون منها البطون﴾: فهذا طعام أهل النار؛ فبئس الطعام طعامهم.

﴿٦٧﴾ ثم ذكر شرابهم، فقال: ﴿ثم إنَّ لهم عليها﴾؛ أي: على أثر هذا الطعام ﴿لَشَوْباً من حميم﴾؛ أي: ماء حاراً قد تهاوى حره؛ كما قال تعالى: ﴿وإن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الوجوه بشس الشراب وساءت مُرْتَفَقاً﴾، وكما قال تعالى: ﴿وسقوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾.

﴿٦٨﴾ ﴿ثم إنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾؛ أي: مآلهم ومقرهم ومأواهم ﴿إلى الجحيم﴾: ليدوقوا من عذابه الشديد وحره العظيم ما ليس عليه مزيد من الشقاء.

﴿٦٩ - ٧٣﴾ كأنه قيل: ما الذي أوصلهم إلى هذه الدار؟ فقال: ﴿إنهم أَلْفَوْا﴾؛ أي: وجدوا ﴿آباءهم ضالِّينَ﴾. فهم على آثارهم يُهْرَعُونَ؛ أي: يسرعون في الضلال، فلم يلتفتوا إلى ما دعاهم إليه الرسل ولا إلى ما حذرتهم عنه الكتب ولا إلى أقوال الناصحين، بل عارضوهم بأن قالوا: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على آثَارِهِم مَّقْتَدُونَ. ﴿ولقد ضلَّ قبلهم﴾؛ أي: قبل هؤلاء المخاطبين ﴿أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾: وقليل منهم آمن واهتدى، ﴿ولقد أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ﴾: ينذرونهم عن غيرهم وضلالهم، ﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾: كانت عاقبتهم الهلاك والخزي والفضيحة؛ فليحذر هؤلاء أن يستمروا على ضلالهم فيصيبهم مثل ما أصابهم.

﴿٧٤﴾ ولما كان المُنْذَرُونَ ليسوا^(١) كلهم ضالِّين، بل منهم مَنْ آمَنَ وأُخْلِصَ الدين لله؛ استثنَاهُمُ الله من الهلاك، فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾؛ أي: الذين أُخْلِصَهُمُ اللَّهُ وَخَصَّهُم بِرَحْمَتِهِ لِإِخْلَاصِهِمْ؛ فَإِنَّ عَوَاقِبَهُمْ صَارَتْ حَمِيدَةً. ثم ذكر نموذجاً من عواقب الأمم المكذِّبين، فقال:

﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا فَلَنِعَمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرًّا أَبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَرَكَّعْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمْنَا عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿٧٥ - ٨٢﴾ يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه السلام أول الرسل أنه لما دعا قومه إلى الله تلك المدة الطويلة، فلم يزدحم دعاؤه إلا فراراً؛ أنه نادى ربه، فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا...﴾ الآية، وقال: ﴿رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٢). فاستجاب الله له، ومدح تعالى نفسه، فقال: ﴿فَلَنِعَمَ الْمُجِيبُونَ﴾: لدعاء الداعين وسماع تبتليهم وتضرعهم، أجابه إجابةً طابقت ما سأل، نَجَّاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ، وأغرق جميع الكافرين، وأبقى نسله وذريته متسلسلين؛ فجميع الناس من ذُرِّيَّةِ نوح عليه السلام، وجعل له ثناءً حسناً مستمراً إلى وقت الآخرين، وذلك لأنه محسنٌ في عبادة الخالق، محسنٌ إلى الخلق، وهذه سنَّته تعالى في المحسنين؛ أَنْ يَنْشُرَ لَهُمُ مِنَ الثَّنَاءِ عَلَى حَسَبِ إِحْسَانِهِمْ، ودلَّ قوله: ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾: أَنَّ الْإِيمَانَ أَرْفَعُ مَنَازِلَ الْعِبَادِ، وأنه مشتملٌ على جميع شرائع الدين وأصوله وفروعه؛ لِأَنَّ اللَّهَ مَدَحَ بِهِ خَوَاصَّ خَلْقِهِ.

﴿وَإِذْ مِنْ شِعْبِهِ لَإِبْرَاهِيمَ^(٣) ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَفَبِكُلِّ عَالَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَظَكَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَهُ الْعَالَمِينَ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾﴾

(١) في (ب): «ليس».

(٢) هذا دعاء لوط عليه السلام على قومه. وأما دعاء نوح: ﴿قال رب انصُرني بما كذبون﴾ [المؤمنون: ٢٦].

(٣) في النسختين: إلى آخر القصة.

مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٦﴾ فَرَأَى عَلَيْهِمْ صَرِيحًا بِالْإِيمَانِ ﴿٩٧﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرِفُونَ ﴿٩٨﴾ قَالَ اتَّبِعُونَا مَا نُنَجِّيكَ إِلَّا بِنُوحٍ ۖ وَأَلَّا تَكُونَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٩٩﴾ وَآلَهُ خَلَقُوا وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٠٠﴾ قَالُوا إِنَّا لَمُبْتَلُونَ ۖ فَأَلْقُوهُ فِي الْخِثْيَانِ ۖ فَأَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿١٠١﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَبِّحِينَ ﴿١٠٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٣﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠٤﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ۖ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَتَأْتٍ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٥﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَكَلَّمَا الْجِجِينَ ﴿١٠٦﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَرَبَّصْ ۖ قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَا ۖ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٧﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْبَاقِي ۖ وَنَدَيْنَاهُ بِذِي عَظِيمٍ ﴿١٠٨﴾ وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٩﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۖ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۖ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ .

﴿٨٣ - ٨٤﴾؛ أي: وإن من شيعة نوح عليه السلام ومن هو على طريقتيه في النبوة والرسالة ودعوة الخلق إلى الله وإجابة الدعاء إبراهيم الخليل عليه السلام. ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾: من الشرك والشبه والشهوات المانعة من تصور الحق والعمل به. وإذا كان قلب العبد سليماً؛ سليم من كل شر، وحصل له كل خير.

﴿٨٥ - ٨٧﴾ ومن سلامته أنه سليم من غش الخلق وحسدهم وغير ذلك من مساوئ الأخلاق، ولهذا نصح الخلق في الله، وبدأ بأبيه وقومه، فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ؟ هَذَا اسْتِفْهَامٌ عَلَىٰ وَجْهِ (١) الإنكار والزام لهم بالحجة. ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾؟ أي: اتبعون من دون آلهة (٢) كذباً ليست بآلهة، ولا تصلح للعبادة؟! ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: أن يفعل بكم وقد عبدتم معه غيره؟! وهذا ترهيب لهم بالجزاء بالعقاب على الإقامة على شركهم، وما الذي ظنتم برَبِّ الْعَالَمِينَ من النقص حتى جعلتم له أنداداً وشركاء؟!

﴿٨٨ - ٩٣﴾ فأراد عليه السلام أن يكسر أصنامهم ويتمكن من ذلك، فانتهاز الفرصة في حين غفلة منهم لما ذهبوا إلى عيد من أعيادهم، فخرج معهم، ﴿فَنَظَرَ

(١) في (ب): «بمعنى».

(٢) كذا في (أ) وفي (ب): «أي تعبدونه آلهة كذباً». ولعل الصواب: «من دونه» أو: «من دون الله».

نظرة في النجوم. فقال: إني سقيم: في الحديث الصحيح: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات: قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وقوله عن زوجته: إنها أختي»^(١). والقصد أنه تخلف عنهم ليتّم له الكيد بآلهتهم. ولهذا «تولّوا عنه مدبرين»، فلما وجد الفرصة؛ «فراغ إلى آلهتهم»؛ أي: أسرع إليها على وجه الخفية والمراوغة، «فقال» متهمّاً بها: «ألا تأكلون. ما لكم لا تنطقون»؛ أي: فكيف يليق أن تُعبدَ وهي أنقص من الحيوانات التي تأكل و^(٢)تكلّم، وهذه جماد لا تأكل ولا تكلّم؟! «فراغ عليهم ضرباً باليمين»؛ أي: جعل يضربها بقوّته ونشاطه حتى جعلها جذاذاً؛ إلا كبيراً لهم لعلمهم إليه يرجعون.

﴿٩٤ - ٩٦﴾ «فأقبلوا إليه يزفون»؛ أي: يسرعون ويُهرعون؛ يريدون أن يوقعوا به بعد ما بحثوا و«قالوا: مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتَانِ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ»؟ «وقيل لهم: سمعنا فتى يذكُرهم يُقال له: إبراهيم»، يقول «تالله لأكيدنّ أصنامكم بعد أن تولّوا مدبرين». فوبّخوه ولا موه، فقال: «بل فعَلَهُ كبيرهم هذا فاسألوه إن كانوا ينطقون. فرجّعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون. ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون. قال أتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم... الآية، و«قال» هنا: «أتعبدون ما تنجّتون»؛ أي: تنجّتون بأيديكم وتصنعونه؛ فكيف تعبدونهم وأنتم الذين صنعتموهم، وتتركون الإخلاص لله الذي «خلقكم وما تعملون»؟! «

﴿٩٧ - ٩٨﴾ «قالوا ابنوا له بنياناً»؛ أي: عالياً مرتفعاً وأوقدوا فيه النار، «فألقوه في الجحيم»: جزاء على ما فعل من تكسير آلهتهم، وأرادوا «به كيداً»: ليقْتلوه أشنع قتلّة؛ «فجعلناهم الأسفلين»: ردّ الله كيدهم في نُحورهم، وجعل النار على إبراهيم برداً وسلاماً.

﴿٩٩﴾ «و» لما فعلوا فيه هذا الفعل، وأقام عليهم الحجة، وأعذر منهم؛ «قال إني ذاهب إلى ربّي»؛ أي: مهاجر إليه، قاصدٌ إلى الأرض المباركة أرض الشام «سهيدين»: يدلّني على^(٣) ما فيه الخير لي من أمر ديني ودنياي. وقال في الآية الأخرى: «وأعترزكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربّي عسى ألا أكون بدعاء ربّي شقيّاً».

(١) كما في «صحيح البخاري» (٣٣٥٨)، و«مسلم» (٢٣٧١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في (ب): «أو».

(٣) في (ب): «أو».

﴿١٠٠﴾ رَبِّ هَبْ لِي: ولدأ يكون ﴿من الصالحين﴾، وذلك عندما أيس من قومه، ولم يرَ فيهم خيراً؛ دعا الله أن يَهَبَ له غلاماً صالحاً ينفع الله به في حياته وبعد مماته.

﴿١٠١﴾ فاستجاب الله له وقال: ﴿فبَشِّرْناهُ بِغلامٍ حَلِيمٍ﴾: وهذا إسماعيلُ عليه السلام بلا شك؛ فإنه ذكر بعده البشارة بإسحاق، ولأنَّ الله تعالى قال في بُشْراه بإسحاق: ﴿فبَشِّرْناها بِإسحاقٍ ومن وراء إسحاق يعقوب﴾: فدلَّ على أنَّ إسحاقَ غير الذبيح، ووَصَفَ الله إسماعيلَ عليه السلام بالحلم، وهو يتضمَّن الصبرَ وحسن الخُلُق وسعة الصدر والعفو عمن جنى.

﴿١٠٢﴾ ﴿فلَمَّا بَلَغَ الغلامُ معه السَّعي﴾؛ أي: أدرك أن يسعى معه، وبلغ سنًا يكون في الغالب أحبَّ ما يكون لوالديه؛ قد ذهبَتْ مشقَّتُهُ وأقبلَتْ منفعتُهُ، فقال له إبراهيمُ عليه السلام: ﴿إِنِّي أرى في المنام أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾؛ أي: قد رأيت في النوم والرؤيا أنَّ الله يأمرُنِي بِذَبْحِكَ، ورؤيا^(١) الأنبياءِ وحي. ﴿فانظُرْ ماذا ترى﴾؛ فإنَّ أمر الله تعالى لا بدَّ من تنفيذه، فقال إسماعيلُ صابراً محتسباً مرضياً لرَبِّه وباراً بوالده: ﴿يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ﴾؛ أي: امض لما أَمَرَكَ الله، ﴿سَتَجِدُنِي إِن شاء الله من الصَّابرين﴾: أخبر أباه أنَّه موطنٌ نفسَه على الصبر، وقرَنَ ذلك بمشيئة الله تعالى؛ لأنَّه لا يكون شيءٌ بدون مشيئة الله.

﴿١٠٣﴾ ﴿فلَمَّا أَسْلَمَّا﴾؛ أي: إبراهيم وابنه إسماعيل: إبراهيم جازماً بقتل ابنه وثمرة فؤاده امتثالاً لأمر ربِّه وخوفاً من عقابه، والابن قد وطَّن نفسه على الصبر، وهانت عليه في طاعة ربِّه ورضا والده، ﴿وَتَلَّهُ لِلجِبين﴾؛ أي: تلَّ إبراهيمُ إسماعيلَ على جبينه لِيُضَجِّعَهُ فيذبحه، وقد انكبَّ لوجهه؛ لئلاً ينظرَ وقت الذبح إلى وجهه.

﴿١٠٤ - ١٠٥﴾ ﴿ونادينا﴾: في تلك الحال المزعجة والأمر المدهش: ﴿أن يا إبراهيم. قد صدَّقْتَ الرؤيا﴾؛ أي: قد فعلت ما أُمِرْتَ به؛ فإنَّكَ وطَّنتَ نفسك على ذلك، وفعلت كلَّ سبب، ولم يبقَ إلَّا إمرار السكين على حلقه. ﴿إنَّا كذلك نَبْجِزِي المحسنين﴾: في عبادتنا، المقدِّمين رضانا على شهواتِ أنفسهم.

﴿١٠٦﴾ ﴿إِنَّ هَذَا﴾: الذي امتحنَّا به إبراهيمُ عليه السلام ﴿لهو البلاءِ المُبين﴾؛ أي: الواضح الذي تبيَّنَ به صفاء إبراهيم وكمال محبَّته لرَبِّه وخلَّته؛ فإنَّ إسماعيلَ

(١) في (ب): «ورأي».

عليه الصلاة (والسلام)^(١) لما وَهَبَهُ اللَّهُ لإبراهيم؛ أَحَبَّهُ حُبًّا شديداً، وهو خليل الرحمن، والخَلَّةُ أعلى أنواع المحبة، وهو منصب لا يقبل المشاركة، ويقتضي أن تكون جميع أجزاء القلب متعلقةً بالمحبيب، فلما تعلقَت شعبةٌ من شُعَبِ قَلْبِهِ بابنه إسماعيل؛ أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُصَفِّي وَدَّهَ وَيَخْتَبِرَ خُلَّتَهُ، فأمره أن يذبح مَنْ زَاخَمَ حُبَّهُ حَبَّ رَبِّهِ، فلما قَدَّمَ حَبَّ اللَّهِ وآثَرَهُ عَلَى هَوَاهُ وَعَزَمَ عَلَى ذَبْحِهِ وَزَالَ مَا فِي الْقَلْبِ مِنَ الْمَزَاحِمِ، بَقِيَ الذَّبْحُ لَا فَائِدَةَ فِيهِ؛ فَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾.

﴿١٠٧﴾ ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾؛ أَي: صَارَ بَدَلَهُ ذَبْحٌ مِنَ الْغَنَمِ عَظِيمٍ ذَبَحَهُ إِبْرَاهِيمُ، فَكَانَ عَظِيماً: مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ كَانَ فِدَاءً لِإِسْمَاعِيلَ، وَمِنْ جِهَةِ أَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ الْعِبَادَاتِ الْجَلِيلَةِ، وَمِنْ جِهَةِ أَنَّهُ كَانَ قَرِيبَانَا وَسَنَّةً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

﴿١٠٨ - ١٠٩﴾ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾؛ أَي: وَأَبْقَيْنَا عَلَيْهِ ثَنَاءً صَادِقاً فِي الْآخِرِينَ؛ كَمَا كَانَ فِي الْأَوَّلِينَ؛ فَكُلُّ وَقْتٍ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَإِنَّهُ فِيهِ مَحْبُوبٌ مَعْظَمٌ مِثْنَى عَلَيْهِ. ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾؛ أَي: تَحِيَّةٌ عَلَيْهِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾.

﴿١١٠﴾ ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾: فِي عِبَادَةِ اللَّهِ وَمُعَامَلَةِ خَلْقِهِ أَنْ تُفَرَّجَ عَنْهُمْ الشَّدَائِدُ، وَتُجْعَلَ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ وَالنَّاءُ الْحَسَنُ.

﴿١١١﴾ ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾: بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِالْإِيمَانِ بِهِ، الَّذِينَ بَلَغَ بِهِمُ الْإِيمَانُ إِلَى دَرَجَةِ الْيَقِينِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾.

﴿١١٢﴾ ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: هَذِهِ الْبَشَارَةُ الثَّانِيَةُ بِإِسْحَاقَ؛ الَّذِي مِنْ وَرَائِهِ يَعْقُوبُ، فَبُشِّرَ بِوُجُودِهِ وَبِقَائِهِ وَوُجُودَ دُرِّيَّتِهِ وَكَوْنَهُ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ؛ فَهِيَ بَشَارَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ.

﴿١١٣﴾ ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾؛ أَي: أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمَا الْبَرَكَاتِ الَّتِي هِيَ النَّمُو وَالزِّيَادَةُ فِي عِلْمِهِمَا وَعَمَلِهِمَا وَذُرِّيَّتِهِمَا، فَنَشَرَ اللَّهُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا ثَلَاثَ أُمَمٍ عَظِيمَةٍ: أُمَّةَ الْعَرَبِ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ، وَأُمَّةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأُمَّةَ الرُّومِ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْحَاقَ. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مَحْسَنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مَبِينٌ﴾؛ أَي: مِنْهُمْ الصَّالِحُ وَالظَّالِمُ، وَالْعَادِلُ وَالظَّالِمُ، الَّذِي تَبَيَّنَ ظُلْمُهُ بِكُفْرِهِ وَشُرْكِهِ، وَلَعَلَّ هَذَا مِنْ بَابِ دَفْعِ الْإِيهَامِ؛ فَإِنَّهُ لَمَّا قَالَ: ﴿وَبَارَكْنَا

عليه وعلى إسحاق؛ اقتضى ذلك البركة في ذُرِّيَّتِهِمَا، وأن من تمام البركة أن تكون الذُرِّيَّةُ كُلُّهُمْ محسنين، فأخبر الله تعالى أن منهم محسناً وظالماً. والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ^(١)﴾ (١١٤) ﴿وَجَعَلْنَاهُمَا مِنَّا الْكَرْبَ الْعَظِيمَ^(٢)﴾ (١١٥) ﴿وَصَرَّيْنَاهُمَا فَكَاوُنَا هُمُ الْفَالِغِينَ^(٣)﴾ (١١٦) ﴿وَأَنبَلَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ^(٤)﴾ (١١٧) ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ^(٥)﴾ (١١٨) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ^(٦)﴾ (١١٩) ﴿سَلَّمَ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ^(٧)﴾ (١٢٠) ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ^(٨)﴾ (١٢١) ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ^(٩)﴾ (١٢٢).

﴿١١٤ - ١٢٢﴾ يذكرُ تعالى مَنَّهُ على عبديه ورسوله موسى وهارون ابني عمران بالنبوة والرسالة والدعوة إلى الله تعالى، ونجاتهما وقومهما من عدوِّهما فرعون، ونصرهما عليه، حتى أغرقه الله وهم ينظرون، وإنزال الله عليهما الكتاب المستبين، وهو التوراة التي فيها الأحكام والمواعظ وتفصيل كل شيء، وأن الله هداهما الصراط المستقيم؛ بأن شرعَ لهما ديناً ذا أحكام وشرائع مستقيمة موصلة إلى الله، ومنَّ عليهما بسلوكيه. ﴿وتَرَكْنَا عليهما في الآخِرِينَ. سلامٌ على موسى وهارون﴾؛ أي: أبقى عليهما ثناء حسناً وتحيّة في الآخِرِينَ، ومن باب أولى وأحرى في الأولين. ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين. إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلَئِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَنَّ الْمُرْسَلِينَ^(١٠)﴾ (١٢٣) ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَأَلَا تَتَّقُونَ^(١١)﴾ (١٢٤) ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ^(١٢)﴾ (١٢٥) ﴿أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ^(١٣)﴾ (١٢٦) ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ^(١٤)﴾ (١٢٧) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ لَمُخْضَرُونَ^(١٥)﴾ (١٢٨) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ^(١٦)﴾ (١٢٩) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ^(١٧)﴾ (١٣٠) ﴿سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ^(١٨)﴾ (١٣١) ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ^(١٩)﴾ (١٣٢) ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ^(٢٠)﴾ (١٣٣).

﴿١٢٣ - ١٣٢﴾ يمدحُ تعالى عبده ورسوله إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالنبوة والرسالة والدعوة إلى الله، وأنه أمر قومه بالتقوى وعبادة الله وحده، ونهاهم عن عبادتهم صنماً لهم يقال له: بعل، وتركهم عبادة الله الذي خلق الخلق، وأحسن خلقهم ورباهم فأحسن تربيتهم، وأدرَّ عليهم النعم الظاهرة والباطنة، وأنكم كيف تركتم عبادة من هذا شأنه إلى عبادة صنم لا يضر ولا ينفع ولا يخلق ولا يرزق، بل لا يأكل ولا يتكلم، وهل هذا إلا من أعظم الضلال والسفاهة والغبي. ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: فيما دعاهم إليه، فلم يتقادوا له، قال الله متوعداً لهم: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُخْضَرُونَ﴾؛ أي:

يوم القيامة في العذاب، ولم يذكر لهم عقوبة دنيوية ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾؛ أي: الذين أخلصهم الله وَمَنْ عَلَيْهِمْ بَاتِّبَاعُ نَبِيِّهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مُحْضَرِينَ فِي الْعَذَابِ، وَإِنَّمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ جَزِيلُ الثَّوَابِ. ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾؛ أي: على إلياس ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾: ثناءً حسناً. ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْلِيسَ﴾؛ أي: تحية من الله ومن عباده عليه. ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾: فأثنى الله عليه كما أثنى على إخوانه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿وَإِنَّ لَوْطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٣) ﴿إِذْ بَحَّثْنَا وَآهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ (١٣٤) ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ (١٣٥) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ﴾ (١٣٦) ﴿وَأَنكَرُ لَنُفُورٍ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ﴾ (١٣٧) ﴿وَبِأَيُّ لَأَفْلًا تَعْقِلُونَ﴾ (١٣٨).

﴿١٣٣ - ١٣٨﴾ وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله لوط بالنبوة والرسالة ودعوته إلى الله قومه ونهيههم عن الشرك وفعل الفاحشة، فلما لم ينتهوا؛ نجاه الله وأهله أجمعين، فسروا ليلاً، فنجوا؛ ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾؛ أي: الباقين المعذبين، وهي زوجة لوط، لم تكن على دينه. ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ﴾: بأن قلَّبنا عليهم ديارهم فجعلنا عاليها سافلها، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود حتى هَمَدُوا وَخَمَدُوا، ﴿وَأَنكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على ديار قوم لوط ﴿مُصْبِحِينَ. وبالليل﴾؛ أي: في هذه الأوقات يكثر تردُّدكم إليها ومروركم بها، فلم تقبل الشك والمِرَّة. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: الآيات والعبر وتزجرون عما يوجب الهلاك؟!

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٩) ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ (١٤٠) ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ (١٤١) ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ (١٤٢) ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ (١٤٣) ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٤٤) ﴿فَبَدَّدْنَا بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ (١٤٥) ﴿وَأَلْبَسْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾ (١٤٦) ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (١٤٧) ﴿فَأَمَّا نُوا فَتَعَنَّتْهُمْ إِلَى جِينٍ﴾ (١٤٨).

﴿١٣٩﴾ وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله يونس بن متى؛ كما أثنى على إخوانه المرسلين بالنبوة والرسالة والدعوة إلى الله.

﴿١٤٠﴾ وذكر تعالى عنه أنه عاقبه عقوبة دنيوية أنجاه منها بسبب إيمانه وأعماله الصالحة، فقال: ﴿إِذْ أَبَقَ﴾؛ أي: من ربه مغاضباً له ظاناً أنه لا يقدر عليه ويحبسه

في بطن الحوت، ولم يذكر الله ما غاضب عليه ولا ذنبه الذي ارتكبه؛ لعدم فائدتنا بذكره، وإنما فائدتنا بما ذكرنا عنه أنه أذنب، وعاقبه الله مع كونه من الرُّسل الكرام، وأنه نجاه بعد ذلك، وأزال عنه الملام، وقِيضَ له ما هو سبب صلاحه. فلما أَبَقَ؛ لجأ ﴿إلى الفلك المشحون﴾: بالركاب والأمتعة.

﴿١٤١﴾ فلما رَكِبَ مع غيره والفلك شاحن؛ ثقلت السفينة، فاحتاجوا إلى إلقاء بعض الركبان، وكأنهم لم يجدوا لأحد مزية في ذلك، فاقترعوا على أن مَنْ قُرِعَ وغُلِبَ؛ أُلقي في البحر؛ عدلاً من أهل السفينة، وإذا أراد الله أمراً؛ هياً أسبابه، فلما اقترعوا؛ أصابت القرعة يونس. ﴿فكان من المُدْحَضِينَ﴾؛ أي: المغلوبين، فألقي في البحر.

﴿١٤٢﴾ ﴿فالتَّخَمَةُ الحوتُ وهو﴾: وقت التقامه ﴿مُليماً﴾؛ أي: فاعل ما يلام عليه، وهو مغاضبته لربه.

﴿١٤٣ - ١٤٤﴾ ﴿فلولا أنه كان من المسبحين﴾؛ أي: في وقته السابق بكثرة عبادته لربه وتسبيحه وتحميده وفي بطن الحوت حيث قال: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾؛ ﴿لَلَيْثِ في بطنه إلى يوم يُنْعَثُونَ﴾؛ أي: لكانت مقبرته، ولكن بسبب تسبيحه وعبادته لله؛ نجاه الله تعالى، وكذلك ينجي الله المؤمنين عند وقوعهم في الشدائد.

﴿١٤٥﴾ ﴿فَبَنَدْنَاهُ بالعراء﴾: بأن قَذَفَهُ الحوت من بطنه بالعراء، وهي الأرض الخالية العارية من كل أحد، بل ربما كانت عارية من الأشجار والظلال. ﴿وهو سقيم﴾؛ أي: قد سَقِمَ ومَرِضَ بسبب حبسه في بطن الحوت حتى صار مثل الفرخ الممعوط من البيضة.

﴿١٤٦﴾ ﴿وَأَنْبَتْنَا عليه شجرة من يقطين﴾: تُظَلُّه بظلها الظليل؛ لأنها باردة الظلال، ولا يسقط عليها ذباب، وهذا من لطفه به وبره.

﴿١٤٧ - ١٤٨﴾ ثم لَطَفَ به لطفاً آخر، وامتَنَ عليه مِنَّةً عظيمة، وهو أنه أرسله ﴿إلى مائة ألف﴾: من الناس ﴿أو يزيدون﴾: عنها، والمعنى أنهم إن لم يزدوا عنها؛ لم ينقصوا، فدعاهم إلى الله تعالى، ﴿فآمنوا﴾: فصاروا في موازينه؛ لأنه الداعي لهم، ﴿فمَتَّعْنَاهُمْ إلى حين﴾: بأن صَرَفَ الله عنهم العذاب بعد ما انعقدت أسبابه؛ قال تعالى: ﴿فلولا كانت قرية آمنت فَنَفَعْنَا إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كَشَفْنَا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومَتَّعْنَاهُمْ إلى حين﴾.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُتُونَ﴾ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهَمْ يَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَاتُوا بِكَيْبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ .

﴿١٤٩﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾؛ أي: اسأل المشركين بالله غيره، الذين عبدوا الملائكة وزعموا أنها بنات الله، فجمعوا بين الشرك بالله ووصفه بما لا يليق بجلاله. ﴿الرَّبُّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾؛ أي: هذه قسمة ضيزى، وقول جائر من جهة جعلهم الولد لله تعالى، ومن جهة جعلهم أربدا القسمين وأخسهما له، وهو البنات، التي لا يَرْضُونَهُنَّ لأنفسهم؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾، ومن جهة جعلهم الملائكة بنات لله، وحكمهم بذلك.

﴿١٥٠﴾ قال تعالى في بيان كذبهم: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾: خَلَقَهُمْ؛ أي: ليس الأمر كذلك؛ فإنهم ما شهدوا خلقهم، فدل على أنهم قالوا هذا القول بلا علم، بل افتراء على الله.

﴿١٥١ - ١٥٧﴾ ولهذا قال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهَمْ﴾؛ أي: كذبهم الواضح؛ ﴿يَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. أَصْطَفَى﴾؛ أي: اختار ﴿الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ. مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾: هذا الحكم الجائر. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: وتميزون هذا القول الباطل الجائر؟ فإنكم لو تَذَكَّرْتُمْ؛ لم تقولوا هذا القول. ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾؛ أي: حجة ظاهرة على قولكم من كتاب أو رسول، وكل هذا غير واقع، ولهذا قال: ﴿فَاتُوا بِكُتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: فإن من يقول قولاً لا يُقِيمُ عليه حجة شرعية؛ فإنه كاذب متعمد أو قائل على الله بلا علم.

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُمُ الْخِزْيَةَ نَسَبًا وَقَدْ عَلِمَتِ الْخِزْيَةُ إِنَّهُمْ لَمُخْضَرُونَ﴾ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلُصِينَ ﴿١٦٠﴾ .

﴿١٥٨﴾ أي: جعل هؤلاء المشركون بالله بين الله وبين الخِزْيَةِ نَسَبًا؛ حيث زعموا أن الملائكة بنات الله، وأن أمهاتهم سَرَوَاتُ الْجَنِّ! والحال أن الخِزْيَةَ قد علمت أنهم مُخْضَرُونَ بين يدي الله لِيُجَازِيَهُمْ؛ فهم عباد أذلاء؛ فلو كان بينهم

وبيّنه نسب؛ لم يكونوا^(١) كذلك.

﴿١٥٩ - ١٦٠﴾ ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾: الملك العظيم، والكامل الحليم، عما يصفه به المشركون من كل وصف أوجبه كفرهم وشركهم. ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلُصِينَ﴾: فإنه لم يُنزّه نفسه عما وصفوه به؛ لأنهم لم يصفوه إلا بما يليق بجلاله، وبذلك كانوا مخلصين.

﴿فَاتَّكُرُ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿مَا أَشْرَ عَلَيْهِ بَفَتْنَيْنِ﴾ ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ ﴿١٦١﴾.

﴿١٦١ - ١٦٣﴾ أي: إنكم أيها المشركون ومن عبدتموه مع الله لا تقدرون أن تفتنوا وتضلوا أحداً إلا من قضى الله أنه من أهل الجحيم، فتقد^(٢) فيه القضاء الإلهي. والمقصود من هذا بيان عجزهم وعجز آلهتهم عن إضلال أحد، وبيان كمال قدرة الله تعالى؛ أي: فلا تطمعوا بإضلال عباد الله المخلصين وحزبه المفلحين.

﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ ﴿وَأَنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ ﴿وَأَنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ ﴿١٦٦﴾.

﴿١٦٤ - ١٦٦﴾ هذا فيه بيان براءة الملائكة عليهم السلام عما قاله فيهم المشركون، وأنهم عباد الله، لا يعصونه طرفة عين؛ فما منهم من أحد إلا وله مقام وتدير قد أمره^(٣) الله به لا يتعداه ولا يتجاوز، وليس لهم من الأمر شيء، ﴿وَأَنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾: في طاعة الله وخدمته، ﴿وَأَنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾: لله عما لا يليق به؛ فكيف مع هذا يصلحون أن يكونوا شركاء لله، تعالى الله!

﴿وَأَن كَانُوا يَقُولُونَ﴾ ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلُصِينَ﴾ ﴿فَكَفَرُوا بِهِ﴾ ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ ﴿وَأَنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى جِئَ﴾ ﴿وَأَبْصَرَهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ﴿أَفَعِدَابُنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِنِهِمْ فَسَاءَ الْمُنْذِرِينَ﴾ ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى جِئَ﴾ ﴿وَأَبْصَرَهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿وَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٧٢﴾.

﴿١٦٧ - ١٧٠﴾ يخبر تعالى أن هؤلاء المشركين يُظهرون التمني ويقولون: لو جاءنا من الذكر والكتب ما جاء الأولين؛ لأخلصنا لله العبادة، بل لكنا المخلصين على الحقيقة، وهم كذبة في ذلك؛ فقد جاءهم أفضل الكتب فكفروا به، فعلم أنهم

(١) في (ب): «لم يكن».

(٢) في (ب): «فينفذ».

(٣) في (ب): «أمر الله».

(٤) في النسختين: إلى آخر السورة.

متمردون على الحق. ﴿فسوف يعلمون﴾: العذاب حين يقع بهم.

﴿١٧١ - ١٧٩﴾ ولا يحسبوا أيضاً أنهم في الدنيا غالبون، بل قد سبقت كلمة الله التي لا مرد لها ولا مخالف لها لعباده المرسلين وجنوده المفليحين أنهم الغالبون لغيرهم المنصورون من ربهم نصراً عزيزاً يتمكنون فيه من إقامة دينهم. وهذه بشارة عظيمة لمن اتصف بأنه من جند الله؛ بأن كانت أحواله مستقيمة، وقاتل من أمر بقتالهم أنه غالب منصور. ثم أمر رسوله بالإعراض عمن عاندوا ولم يقبلوا الحق، وأنه ما بقي إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب، ولهذا قال: ﴿وأبصرهم فسوف يَبْصِرُونَ﴾: مَنْ يَحِلُّ به النكال؛ فإنه سيحل بهم. ﴿فإذا نزل بساحتهم﴾؛ أي: نزل عليهم وقريباً منهم، ﴿فساء صباح المُنْذِرِينَ﴾؛ لأنه صباح الشر والعقوبة والاستتصال. ثم كرر الأمر بالتولي عنهم وتهديدهم بوقوع العذاب.

﴿١٨٠ - ١٨٢﴾ ولما ذكر في هذه السورة كثيراً من أقوالهم الشنيعة التي وصفوه بها؛ نزه نفسه عنها، فقال: ﴿سبحان ربك﴾؛ أي: تنزه وتعالى، ﴿رب العزة﴾؛ أي: الذي عز فقهر كل شيء، واعتز عن كل سوء يصفونه به، ﴿وسلام على المرسلين﴾: لسلامتهم من الذنوب والآفات، وسلامة ما وصفوا به فاطر الأرض والسموات. ﴿والحمد لله رب العالمين﴾: الألف واللام للاستغراق؛ فجميع أنواع الحمد من الصفات الكاملة العظيمة والأفعال التي ربي بها العالمين وأدر عليهم فيها النعم وصرف عنهم بها الثقم ودبرهم تعالى في حركاتهم وسكونهم وفي جميع أحوالهم كلها لله تعالى؛ فهو المقدس عن النقص، المحمود بكل كمال، المحبوب المعظم، ورسله سالمون مسلم عليهم، ومن اتبعهم في ذلك له السلامة في الدنيا والآخرة، وأعداؤه لهم الهلاك والعطب في الدنيا والآخرة.

تم تفسير سورة الصافات في ٦ شوال سنة ١٣٤٣^(١).

على يد جامعِهِ وكاتبِهِ عبد الرحمن بن ناصر السعدي.

وصلى الله على محمدٍ وسلم تسليمًا. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات^(٢).

(١) في (ب): «تم تفسير سورة الصافات في ٢٥ رجب ١٣٤٥».

(٢) في (ب): «تم تفسير المجلد السادس من تفسير الشيخ عبد الرحمن الناصر العبد الله بن سعدي غفر الله له ورحمه، وذلك في أربع وعشرين من رجب سنة ألف وثلثمائة وخمس وأربعين، بقلم الفقير إلى ربه محمد بن منصور بن إبراهيم بن زامل، على خط مؤلفه وجامعه شيخنا الشيخ عبد الرحمن جزاه الله خيراً. آمين. وصلى الله على نبيه وسلم».

المجلد السابع^(١)
من
تيسير الكريم المنان
في
تفسير آيات القرآن

لجامعه

عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي
غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين

(١) في (ب): «المجلد السابع من تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، من منن الله على عبده وابن عبده وابن أمته عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي».

تفسير سورة ص

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ۝١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَجِئْ بِحُجَّتٍ مِنْهُمْ وَتُنْذِرُهُمْ وَمُنْذِرُهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ ۝٣ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٤ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٥ مَا سِعَتْنَا بِهِدَا فِي الْعِلْمِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا خِلْقَةٌ ۝٦ أَنزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُورُوا عَذَابٍ ۝٧ أَمْرٌ عِنْدَهُ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ۝٨ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَزْنُوا فِي الْأَسْبَابِ ۝٩ جُنْدٌ مِمَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ۝١٠﴾

﴿١﴾ هذا بيان من الله تعالى لحال القرآن وحال المكذبين به معه ومع من جاء به، فقال: ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾؛ أي: ذي القدر العظيم والشرف، المذكر للعباد كل ما يحتاجون إليه من العلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومن العلم بأحكام الله الشرعية، ومن العلم بأحكام المعاد والجزاء؛ فهو مذكر لهم في أصول دينهم وفروعه. وهنا لا يحتاج إلى ذكر المقسم عليه؛ فإن حقيقة الأمر أن المقسم به وعليه شيء واحد، وهو هذا القرآن الموصوف بهذا الوصف الجليل.

﴿٢﴾ فإذا كان القرآن بهذا الوصف؛ عُلِمَ ضرورة العباد إليه فوق كل ضرورة، وكان الواجب عليهم تلقيه بالإيمان والتصديق والإقبال على استخراج ما يتذكر به منه، فهدى الله من هدى لهذا، وأبى الكافرون به وبمن أنزله، وصار معهم عزة وشقاق، عزة وامتناع عن الإيمان به، واستكبار وشقاق له؛ أي: مشاقة ومخاصمة في رده وإبطاله وفي القذح بمن جاء به.

﴿٣﴾ فتوعدهم بإهلاك القرون الماضية المكذبة بالرسول، وأنهم حين جاءهم الهلاك؛ نادوا واستغاثوا في صرف العذاب عنهم، ولكن ﴿لَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾؛ أي: وليس الوقت وقت خلاص مما وقعوا فيه ولا فرج لما أصابهم، فليحذر هؤلاء أن يدوموا على عزتهم وشقاقهم؛ فيصيئهم ما أصابهم.

﴿٤﴾ ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾؛ أي: عجب هؤلاء المكذبون في أمر ليس محلّ عجب أن جاءهم منذرٌ منهم ليتمكّنوا من التلقّي عنه وليعرفوه حقّ المعرفة، ولأنّه من قومهم؛ فلا تأخذهم النخوة القوميّة عن اتّباعه؛ فهذا مما يوجب الشكر عليهم وتمام الانقياد له، ولكنّهم عكسوا القضية، فتعجبوا تعجب إنكار، وقالوا من كفرهم وظلمهم: ﴿هَذَا سَاحِرٌ كَذَابٌ﴾!

﴿٥﴾ وَذَنِبُوا عِنْدَهُمْ أَنَّهُ ﴿جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾؛ أي: كيف ينهى عن اتّخاذ الشركاء والأنداد ويأمُر بإخلاص العبادة لله وحده؟! ﴿إِنَّ هَذَا﴾: الذي جاء به ﴿لشَيْءٍ عَجَابٍ﴾؛ أي: يقضى منه العجب لبطالته وفساده عندهم.

﴿٦﴾ ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾: المقبول قولهم، محرّضين قومهم على التمسك بما هم عليه من الشرك. ﴿أَنْ افْشَوْا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾؛ أي: استمروا عليها وجاهدوا نفوسكم في الصبر عليها وعلى عبادتها، ولا يردكم عنها رادّ، ولا يصدّكم عن عبادتها صادّ. ﴿إِنَّ هَذَا﴾: الذي جاء به محمدٌ من النهي عن عبادتها ﴿لشَيْءٍ يُرَادُّ﴾؛ أي: يُفْصَدُ؛ أي: له قصدٌ ونيةٌ غير صالحة في ذلك، وهذه شبهةٌ لا تروج إلّا على السفهاء؛ فإنّ مَنْ دعا إلى قول حقٍّ أو غير حقٍّ لا يُردُّ قوله بالقدح في نيّته؛ فنيّته وعمله له، وإنّما يُردُّ بمقابلته بما يُبطله ويفسده من الحجج والبراهين، وهم قصدُهم أنّ محمداً ما دعاكم إلى ما دعاكم إلّا ليرأس فيكم ويكون معظماً عندكم متبوعاً.

﴿٧﴾ ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾: القول الذي قاله والدين الذي دعا إليه ﴿فِي الْمَلَّةِ الْآخِرَةِ﴾؛ أي: في الوقت الأخير، فلا أذكرنا عليه آباءنا، ولا آباؤنا أدركوا آباءهم عليه؛ فامضوا على الذي مضى عليه آباؤكم؛ فإنّه الحقّ، وما هذا الذي دعا إليه محمدٌ إلّا اختلاقٌ اختلقه وكذبٌ افتراه. وهذه أيضاً شبهةٌ من جنس شبهتهم الأولى؛ حيث ردّوا الحقّ بما ليس بحجّة لردّ أدنى قول، وهو أنّه قولٌ مخالف لما عليه آباؤهم الضالّون؛ فأين في هذا ما يدلّ على بطالته؟!

﴿٨﴾ ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾؛ أي: ما الذي فضّله علينا حتى ينزل الذّكر عليه من دوننا ويخصّه الله به؟! وهذه أيضاً شبهةٌ، أين البرهان فيها على ردّ ما قاله؟ وهل جميع الرسل إلّا بهذا الوصف؟! يمنّ الله عليهم برسالته ويأمُرهم بدعوة الخلق إلى الله. ولهذا؛ لما كانت هذه الأقوال الصادرة منهم لا يصلح شيء منها لردّ ما جاء به الرسول؛ أخبر تعالى من أين صدّرت، وأنّهم ﴿فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾: ليس عندهم علمٌ ولا بيّنة، فلما وقعوا في الشكّ وارتضوا به وجاءهم

الحقَّ الواضحُ وكانوا جازمين بإقامتهم على شكِّهم؛ قالوا ما قالوا من تلك الأقوال لدفع الحقِّ، لا عن بينة من أمرهم، وإنما ذلك من باب الائتفak منهم. ومن المعلوم أنَّ مَنْ هو بهذه الصفة يتكلَّم عن شكٍّ وعناد؛ فإنَّ^(١) قوله غيرُ مقبول ولا قاذح أدنى قدح في الحقِّ، وأنه يتوجَّه عليه الذمُّ واللوم بمجرد كلامه، ولهذا توعدُّهم بالعذاب، فقال: ﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ﴾؛ أي: قالوا هذه الأقوال وتجرَّؤوا عليها؛ حيث كانوا ممتنعين في الدنيا، لم يصبهم من عذاب الله شيء؛ فلو ذاقوا عذابه؛ لم يتجرَّؤوا.

﴿٩﴾ ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾: فيعطون منها مَنْ شاؤوا ويمنعون منها مَنْ شاؤوا؛ حيث قالوا: ﴿أَنْزِلْ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾؛ أي: هذا فضله تعالى ورحمته، وليس ذلك بأيديهم حتى يتجرَّؤوا على الله.

﴿١٠﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾: بحيث يكونون قادرين على ما يريدون، ﴿فَلْيَرْزُقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾: الموصلة لهم إلى السماء، فيقطعوا الرحمة عن رسول الله! فكيف يتكلَّمون وهم أعجزُ خلق الله وأضعفهم بما تكلموا به؟!

﴿١١﴾ ﴿أَمْ قَصَدُهمُ التَّحْزُبَ وَالتَّجَنُّدَ وَالتَّعَاوُنَ عَلَى نَصْرِ الْبَاطِلِ وَخِذْلَانِ الْحَقِّ، وَهُوَ الْوَاقِعُ؛ فَإِنَّ هَذَا الْمَقْصُودَ لَا يَتِمُّ لَهُمْ، بَلْ سَعِيهمُ خَائِبٌ، وَجَنْدُهُمْ مَهْزُومٌ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿جَنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ (١٢) ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ (١٣) ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ﴾ (١٤) ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مِمَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ (١٥).

﴿١٢ - ١٥﴾ يحذِّرهم تعالى أن يفعلَ بهم ما فعل بالأمم من قبلهم، الذين كانوا أعظم قوَّةً منهم وتحزُّباً على الباطل. ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ﴾: قوم هود وفرعون ذي الأوتاد؛ أي: الجنود العظيمة والقوَّة الهائلة، ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾: قوم صالح، وأصحاب الأيكة؛ أي: الأشجار والبساتين الملتفة، وهم قوم شعيب. ﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾: الذين اجتمعوا بقوَّتهم وعددهم وعددهم على ردِّ الحقِّ، فلم تُغن عنهم شيئاً ﴿إِنْ كُلُّ﴾: من هؤلاء ﴿إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ﴾: عليهم ﴿عِقَابٌ﴾: الله،

وهؤلاء ما الذي يطهرهم ويزكّيهم أن لا يُصيّبهم ما أصاب أولئك؟! فليستظروا ﴿صبيحة واحدة ما لها من فوق﴾؛ أي: من رجوع وردّ، تهلكهم، وتستأصلهم إن أقاموا على ما هم عليه.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ١٦ ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾.

﴿١٦﴾ أي: قال هؤلاء المكذبون من جهلهم ومعاندتهم الحقّ مستعجلين للعذاب: ﴿رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْنًا﴾؛ أي: قِطْنًا وما قسم لنا من العذاب عاجلاً ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾: ولجؤا في هذا القول، وزعموا أنّك يا محمد إن كنت صادقاً؛ فعلامة صدقك أن تأتينا بالعذاب.

﴿١٧﴾ فقال لرسوله: ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾: كما صبر من قبلك من الرسل؛ فإن قولهم لا يضرّ الحقّ شيئاً، ولا يضرّونك في شيء، وإنما يضرّون أنفسهم.

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ١٧ ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾

﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ ١٨ ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُمْ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ ٢٠ ﴿

﴿٧١﴾ لَمَّا أمر الله رسوله بالصبر على قومه؛ أمره أن يستعين على الصبر بالعبادة لله وحده، ويتذكّر حال العابدين؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾. ومن أعظم العابدين نبيّ الله داود عليه الصلاة والسلام، ذو ﴿الأيدي﴾؛ أي: القوة العظيمة على عبادة الله تعالى في بدنه وقلبه. ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾؛ أي: رجع إلى الله في جميع الأمور بالإجابة إليه بالحبّ والتأله والخوف والرجاء وكثرة التضرّع والدعاء، رجع إليه عندما يقع منه بعض الخلل بالإقلاع والتوبة النصوح.

﴿١٨ - ١٩﴾ ومن شدة إجابته لربه وعبادته أن سَخَّرَ الله الجبال معه تسبّح معه بحمد ربه ﴿بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾: أول النهار وآخره، ﴿و﴾ سَخَّرَ ﴿الطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾: معه مجموعة. ﴿كُلٌّ﴾: من الجبال والطير ﴿لَهُ﴾ تعالى ﴿أَوَّابٌ﴾: امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾: فهذه منتهى الله عليه بالعبادة.

﴿٢٠﴾ ثم ذكر منتهى عليه بالملك العظيم، فقال: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾؛ أي: قوّيناه بما أعطيناه من الأسباب وكثرة العدّد والعدّد التي بها قوى الله ملكه. ثم ذكر منتهى عليه بالعلم، فقال: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾؛ أي: النبوة والعلم العظيم ﴿وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾؛ أي: الخصومات بين الناس.

﴿٢١﴾ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصَمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَخَرُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعِجَةً وَلِيَ نَعِجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِجِكَ إِلَى نَعِجَتِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَتَابٍ ﴿٢٥﴾ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ .

﴿٢١﴾ لما ذكر تعالى أنه أتى نبيه داود الفصل في الخطاب بين الناس، وكان معروفاً بذلك مقصوداً؛ ذَكَرَ تعالى نبأ خصمين اختصما عنده في قضية جعلهما الله فتنة لداود وموعظة لخلل ارتكبه، فتاب الله عليه وغفر له وقبض له هذه القضية، فقال لنبيه محمد ﷺ: ﴿وهل أتاك نبأ الخصم﴾: فإنه نبأ عجيب، ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا﴾: على داود ﴿المحراب﴾؛ أي: محلّ عبادته من غير إذن ولا استئذان، ولم يدخلوا عليه مع باب.

﴿٢٢﴾ فلذلك لما دخلوا عليه بهذه الصورة؛ فزِعَ منهم وخاف، فقالوا له: نحن خصمان؛ فلا تخف، ﴿بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾: بالظلم، ﴿فَاخْرُجْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾؛ أي: بالعدل ولا تمل مع أحدهما، ﴿وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾.

﴿٢٣﴾ والمقصود من هذا أن الخصمين قد عَرَفَ أَنَّ قصدهما الحق الواضح الصرف، وإذا كان ذلك؛ فسيقضون عليه نباهم بالحق، فلم يشمتر نبي الله داود من وعظهما له ولم يؤنبهما، فقال أحدهما: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾: نص على الأخوة في الدين أو النسب أو الصداقة؛ لاقتضائها عدم البغي، وأن بغية الصادر منه أعظم من غيره، ﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعِجَةً﴾؛ أي: زوجة، وذلك خير كثير يوجب عليه القناعة بما آتاه الله، ﴿وَلِيَ نَعِجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾، فطمع فيها، ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾؛ أي: دعها لي وخلّها في كفالتي، ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾؛ أي: غلبني في القول، فلم يزل بي حتى أدركها أو كاد.

﴿٢٤﴾ فقال داود لما سمع كلامه، ومن المعلوم من السياق السابق من كلامهما

أَنَّ هَذَا هُوَ الْوَاقِعُ؛ فَلِهَذَا لَمْ يَحْتَجْ أَنْ يَتَكَلَّمَ الْآخَرُ؛ فَلَا وَجَهَ لِلْإِعْتِرَاضِ بِقَوْلِ الْقَائِلِ: لِمَ حَكَمَ دَاوُدُ قَبْلَ أَنْ يَسْمَعَ كَلَامَ الْخَصْمِ الْآخَرِ؟ ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَىٰ نَعَاجِهِ﴾: وَهَذِهِ عَادَةُ الْخُلَطَاءِ وَالْقُرَنَاءِ الْكَثِيرِ مِنْهُمْ، فَقَالَ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: لِأَنَّ الظُّلْمَ مِنْ صِفَةِ النُّفُوسِ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: فَإِنَّ مَا مَعَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ يَمْنَعُهُمْ مِنَ الظُّلْمِ، ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾. ﴿وظَنَّ دَاوُدُ﴾: حِينَ حَكَمَ بَيْنَهُمَا ﴿أَنَّمَا فَتْنَاهُ﴾؛ أَي: اخْتَبَرْنَاهُ وَدَبَّرْنَا عَلَيْهِ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ لِيَتَنَبَّهُ، ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾: لَمَّا صَدَرَ مِنْهُ، ﴿وَوَحَّرَ رَاكِعًا﴾؛ أَي: سَاجِدًا، ﴿وَأَنَابَ﴾: لِلَّهِ تَعَالَى بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ وَالْعِبَادَةِ.

﴿٢٥﴾ ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾: الَّذِي صَدَرَ مِنْهُ، وَأَكْرَمَهُ اللَّهُ بِأَنْوَاعِ الْكِرَامَاتِ، فَقَالَ: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى﴾؛ أَي: مَنَزَلَةً عَالِيَةً وَقَرِيبَةً مَثًا، ﴿وَحَسَنَ مَآبٍ﴾؛ أَي: مَرْجِعٍ. وَهَذَا الذَّنْبُ الَّذِي صَدَرَ مِنْ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَذْكُرْهُ اللَّهُ لِعَدَمِ الْحَاجَةِ إِلَى ذِكْرِهِ؛ فَالْتَعَرُّضُ لَهُ مِنْ بَابِ التَّكَلُّفِ، وَإِنَّمَا الْفَائِدَةُ مَا قَصَّه اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ لَطْفِهِ بِهِ وَتَوْبَتِهِ وَإِنَابَتِهِ وَأَنَّهُ ارْتَفَعَ مَحَلُّهُ فَكَانَ بَعْدَ التَّوْبَةِ أَحْسَنَ مِنْ قَبْلُهَا.

﴿٢٦﴾ ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾: تَنْفُذُ فِيهَا الْقَضَايَا الدِّينِيَّةَ وَالدُّنْيَوِيَّةَ، ﴿فَاخُكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾؛ أَي: الْعَدْلَ، وَهَذَا لَا يَتِمُّكَ مِنْهُ إِلَّا بِعِلْمِ بِالْوَاجِبِ وَعِلْمِ بِالْوَاقِعِ وَقُدْرَةِ عَلَى تَنْفِيزِ الْحَقِّ، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى﴾: فَتَمِيلَ مَعَ أَحَدٍ لِقَرَابَةٍ أَوْ صَدَاقَةٍ أَوْ مُحِبَّةٍ أَوْ بَغْضٍ لِلْآخَرِ، ﴿فِيضْلُكَ﴾: الْهَوَى ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾: وَيُخْرِجُكَ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾: خُصُوصًا الْمُتَعَمِّدِينَ مِنْهُمْ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾؛ فَلَوْ ذَكَرُوهُ وَوَقَعَ خَوْفُهُ فِي قُلُوبِهِمْ؛ لَمْ يَمِيلُوا مَعَ الْهَوَى الْفَاتِنِ.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾
 ﴿٢٧﴾ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ
 ﴿٢٨﴾ كَتَبَ أَرْزَلُهُ إِلَيْكَ مَبْرُوكٌ لِيَذَبَّ عَنْكَ وَيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾

﴿٢٧﴾ يخبر تعالى عن تمام حكمته في خلقه السماوات والأرض، وأنه لم يخلقهما ﴿باطلاً﴾؛ أي: عبثاً ولعباً من غير فائدة ولا مصلحة. ﴿ذلك ظنُّ الذين كفروا﴾: برَّبِّهِمْ حَيْثُ ظَنُّوا مَا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ. ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾:

فإنها التي تأخذ الحق منهم وتبلغ منهم كل مبلغ. وإنما خلق الله السماوات والأرض بالحق وللحق، فخلقهما ليُعَلِّمَ العباد كمال علمه وقدرته وسعة سلطانه، وأنه تعالى وحده المعبود دون من لم يخلق مثقال ذرة من السماوات والأرض، وأن البعث حق، وسيفصل الله بين أهل الخير والشر، ولا يظن الجاهل بحكمة الله أن يسوي الله بينهما في حكمه.

﴿٢٨﴾ ولهذا قال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾: هذا غير لائق بحكمتنا وحكمنا.

﴿٢٩﴾ ﴿كَتَابَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾: فيه خير كثير وعلم غزير، فيه كل هدى من ضلالة وشفاء من داء ونور يُسْتَضَاءُ به في الظلمات، وكل حكم يحتاج إليه المكلفون، وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب ما كان به أجل كتاب طرّق العالم منذ أنشأه الله، ﴿لِيَذَّبُرُوا آيَاتِهِ﴾؛ أي: هذه الحكمة من إنزاله؛ ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها، ويتأملوا أسرارها وحكمها؛ فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة تُذكرُ بركته وخبره، وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، وأن القراءة المشتملة على التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود، ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾؛ أي: أولو العقول الصحيحة، يتذكرون بتدبرهم لها كل علم ومطلوب. فدل هذا على أنه بحسب لب الإنسان وعقله يحصل له التذكر والانتفاع بهذا الكتاب.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٣٠) إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِئَتِ الْيَتَامَى (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاسٍ (٣٧) وَأَخْرَيْنَ مُفْرِنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لَآلِفًا وَحُشْنَ مَتَابٍ (٤٠).

﴿٣٠﴾ لما أننى الله تعالى على داود وذكر ما جرى له ومنه؛ أننى على ابنه سليمان عليهما السلام، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾؛ أي: أنعمنا به عليه وأقرزنا به عينه. ﴿نِعَمَ الْعَبْدِ﴾: سليمان عليه السلام، فإنه اتصف بما يوجب المدح، وهو ﴿إنه أواب﴾؛ أي: رجع إلى الله في جميع أحواله بالتأله والإنابة والمحبة والذكر

والدُّعاء والتضرُّع والاجتهاد في مرضاة الله وتقديمها على كل شيء.

﴿٣١ - ٣٣﴾ ولهذا؛ لما عُرِضَتْ [عليه] الخيل الجياد السبق ﴿الصافنات﴾؛ أي: التي من وصفها الصُّفُونُ، وهو رفع إحدى قوائمها عند الوقوف، وكان لها منظرٌ رائعٌ وجمالٌ معجَبٌ، خصوصاً للمحتاج إليها؛ كالمُلوِك؛ فما زالت تُغْرَضُ عليه حتى غابت الشمس في الحجاب، فألهته عن صلاة المساء وذكِّره، فقال نداماً على ما مضى منه، وتقرُّباً إلى الله بما ألهاه عن ذكره، وتقديماً لحبِّ الله على حبِّ غيره: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾: وضمَّنَ أَحْبَبْتُ معنى آثرتُ؛ أي: آثرتُ حُبَّ الخير الذي هو المالُ عموماً وفي الموضع المرادُ الخيل ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ. رَدُّوْهَا عَلَيَّ﴾: فردَّوها، ﴿فَطَفِقَ﴾: فيها ﴿مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾؛ أي: جعل يعقرها بسيفه في سوقها وأعناقها.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَقَدْ فِتْنَا سُلَيْمَانَ﴾؛ أي: ابتليناه واختبرناه بذهاب ملكه وانفصاله عنه بسبب خلل اقتضته الطبيعة البشرية، ﴿وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾؛ أي: شيطاناً قضى الله وقدر أن يجلس على كرسي ملكه ويتصرف في الملك في مدَّة فتنة سليمان، ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾: سليمان إلى الله تعالى، وتاب.

﴿٣٥ - ٣٩﴾ وَقَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ: فاستجاب الله له، وغفر له، وردَّ عليه مُلْكَه، وزادَه مُلْكاً لم يحصل لأحد من بعده، وهو تسخيرُ الشياطين له يبنون ما يريد ويغوصون له في البحر يستخرجون الدُّرَّ والحليَّ، ومن عصاه منهم؛ قرَّنه في الأصْفاد وأوثقه، وقلنا له: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾: فقرَّ به عيناً، ﴿فَامْنُنْ﴾: على من شئت، ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾: مَنْ شئت ﴿بَغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: لا حرج عليك في ذلك ولا حساب؛ لعلمه تعالى بكمال عدله وحسن أحكامه.

﴿٤٠﴾ ولا تحسبن هذا لسليمان في الدنيا دون الآخرة، بل له في الآخرة خيرٌ عظيمٌ، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحَسَنَ مَّآبٍ﴾؛ أي: هو من المقرَّبين عند الله المكرَّمين بأنواع الكرامات لله.

فصل

فيما تبين لنا من الفوائد والحكم في قصة داود وسليمان عليهما السلام.
فمنها: أن الله تعالى يقصُّ على نبيه محمد ﷺ أخباراً من قبله ليثبت فؤاده

وتطمئن نفسه، ويذكر له من عباداتهم وشدة صبرهم وإنابتهم ما يشوقه إلى منافستهم والتقرب إلى الله الذي تقربوا له والصبر على أذى قومه، ولهذا في هذا الموضع لما ذكر الله ما ذكر من أذية قومه وكلامهم فيه وفيما جاء به؛ أمره بالصبر، وأن يذكر عبده داود فيتسلى به.

ومنها: أن الله تعالى يمدح ويحب القوة في طاعته؛ قوة القلب والبدن؛ فإنه يحصل منها من آثار الطاعة وحسنها وكثرتها ما لا يحصل مع الوهن وعدم القوة، وأن العبد ينبغي له تعاطي أسبابها وعدم الركون إلى الكسل والبطالة المخلة بالقوة المضعفة للنفس.

ومنها: أن الرجوع إلى الله في جميع الأمور من أوصاف أنبياء الله وخواص خلقه؛ كما أثنى الله على داود وسليمان بذلك؛ فليقتد بهما المقتدون، وليهتد بهداهم السالكون، ﴿أولئك الذين هدى الله فيبهداهم اقتده﴾.

ومنها: ما أكرم الله به نبيه داود عليه السلام من حسن الصوت العظيم الذي جعل الله بسببه الجبال الضم والطيور البهم يجاوبنه إذا رجع صوته بالتسبيح، ويسبخن معه بالعشي والإشراق.

ومنها: أن من أكبر نعم الله على عبده أن يرزقه العلم النافع ويعرف الحكم والفصل بين الناس؛ كما امتن الله به على عبده داود عليه السلام.

ومنها: اعتناء الله تعالى بأنبيائه وأصفياؤه عندما يقع منهم بعض الخلل بفتنته إياهم وابتلائهم بما به يزول عنهم المحذور، ويعودون إلى أكمل من حالتهم الأولى؛ كما جرى لداود وسليمان عليهما السلام.

ومنها: أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الخطأ فيما يبلغون عن الله تعالى؛ لأن مقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك، وأنه قد يجري منهم بعض مقتضيات الطبيعة من المعاصي، ولكن الله يتداركهم ويبادهم بلطفه.

ومنها: أن داود عليه السلام في أغلب أحواله لازماً محرابه لخدمة ربه، ولهذا تسور الخصمان عليه المحراب؛ لأنه كان إذا خلا في محرابه؛ لا يأتيه أحد، فلم يجعل كل وقته للناس مع كثرة ما يرُد عليه من الأحكام، بل جعل له وقتاً يخلو فيه بربه وتقر عينه بعبادته، وتعينه على الإخلاص في جميع أموره.

ومنها: أنه ينبغي استعمال الأدب في الدخول على الحكماء وغيرهم؛ فإن الخصمين لما دخلا على داود في حالة غير معتادة ومن غير الباب المعهود؛

فَرَجَ مِنْهُمْ، واشتدَّ عليه ذلك، ورآه غيرُ لائقٍ بالحال.

ومنها: أنه لا يمنعُ الحاكمُ من الحكمِ بالحقِّ سوءُ أدبِ الخصمِ وفعلِهِ ما لا ينبغي.

ومنها: كمالُ حلمِ داود عليه السلام؛ فإنه ما غضبَ عليهما حينَ جاءه بغيرِ استئذان، وهو الملكُ، ولا انتهرهما، ولا وبَّخهما.

ومنها: جوازُ قولِ المظلومِ لِمَنْ ظَلَمَهُ: أنتَ ظَلَمْتَنِي أو: يا ظالم! ونحو ذلك أو باغٍ علي! لقولهما: ﴿خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾.

ومنها: أنَّ الموعوظَ والمنصوحَ، ولو كان كبيرَ القدرِ جليلَ العلمِ، إذا نَصَحَهُ أحدٌ أو وَعَظَهُ؛ لا يغضبُ ولا يشمتُ، بل يبادِرُهُ بالقَبولِ والشكرِ؛ فإنَّ الخصمينِ نَصَحَا داودَ، فلم يشمتُ ولم يغضبْ ولم يَفْنِهْ ذلكَ عن الحقِّ، بل حكمَ بالحقِّ الصَّرف.

ومنها: أنَّ المخالطةَ بين الأقارب والأصحاب وكثرةَ التعلُّقاتِ الدنيويَّةِ الماليَّةِ موجبةٌ للتعادي بينهم، وبغى بعضهم على بعضٍ، وأنه لا يردُّ عن ذلك إلا استعمالُ تقوى الله والصبر على الأمور بالإيمان والعمل الصالح، وأنَّ هذا من أقلِّ شيءٍ في الناس.

ومنها: أنَّ الاستغفارَ والعبادةَ، خصوصاً الصلاةَ، من مكفَّراتِ الذنوبِ؛ فإنَّ اللهَ رَتَّبَ مغفرةَ ذنبِ داود على استغفاره وسجوده.

ومنها: إكرامُ اللهَ لعبدهِ داود وسليمانَ بالقربِ منه وحسنِ الثوابِ، وأنَّ لا يظنُّ أن ما جرى لهما منقَصٌ لدرجتِهما عند الله تعالى، وهذا مِن تمامِ لطفِهِ بعباده المخلصين؛ أنه إذا غفرَ لهم وأزال أثرَ ذنوبهم؛ أزال الآثارَ المترتبةَ عليه كُلِّها، حتى ما يقع في قلوبِ الخلقِ؛ فإنَّهم إذا علموا ببعضِ ذنوبهم؛ وقع في قلوبهم نزولهم عن درجتهم الأولى، فأزال الله تعالى هذه الآثارَ، وما ذاكَ بعزیز على الكريم الغفار.

ومنها: أنَّ الحكمَ بين الناس مرتبةٌ دينيَّةٌ تولَّاهَا رسلُ الله وخوَّاصُّ خلقه، وأنَّ وظيفةَ القائمِ بها الحكمُ بالحقِّ ومجانبةُ الهوى؛ فالحكمُ بالحقِّ يقتضي العلمَ بالأمور الشرعيَّةِ والعلمَ بصورةِ القضيةِ المحكوم بها وكيفيةَ إدخالها في الحكم الشرعي؛ فالجاهلُ بأحدِ الأمرين لا يَصْلُحُ للحكم، ولا يحلُّ له الإقدام عليه.

ومنها: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْحَاكِمِ أَنْ يَخْذَرَ الْهَوَى وَيَجْعَلَهُ مِنْهُ عَلَى بَالٍ؛ فَإِنَّ النُّفُوسَ لَا تَخْلُو مِنْهُ، بَلْ يَجَاهِدُ نَفْسَهُ بِأَنَّ^(١) يَكُونَ الْحَقُّ مَقْصُودَهُ، وَأَنْ يَلْقَى عَنْهُ وَقْتُ الْحُكْمِ كُلِّ مُحِبَّةٍ أَوْ بَغْضٍ لِأَحَدِ الْخَصْمَيْنِ.

ومنها: أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ فَضَائِلِ دَاوُدَ وَمِنْ مَنِّ اللَّهِ عَلَيْهِ حَيْثُ وَهَبَهُ لَهُ، وَأَنَّ مِنْ أَكْبَرِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى عَبْدِهِ أَنْ يَهَبَ لَهُ وَلِذَا صَالِحاً؛ فَإِنَّ كَانَ عَالِماً؛ كَانَ نُوراً عَلَى نُورٍ.

ومنها: ثَنَاءُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى سُلَيْمَانَ وَمَدْحِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

ومنها: كَثْرَةُ خَيْرِ اللَّهِ وَبِرِّهِ بِعَبِيدِهِ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْهِمْ بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ وَمُكَارَمِ الْأَخْلَاقِ، ثُمَّ يُنْثِي عَلَيْهِمْ بِهَا، وَهُوَ الْمُتَفَضِّلُ الْوَهَّابُ.

ومنها: تَقْدِيمُ سُلَيْمَانَ مُحِبَّةَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مُحِبَّةِ كُلِّ شَيْءٍ.

ومنها: أَنَّ كُلَّ مَا شَغَلَ الْعَبْدَ عَنِ اللَّهِ؛ فَإِنَّهُ مَشْغُورٌ مَذْمُومٌ؛ فَلْيُفَارِقْهُ وَلْيُقْبِلْ عَلَى مَا هُوَ أَفْعَلُ لَهُ.

ومنها: الْقَاعِدَةُ الْمَشْهُورَةُ: مَنْ تَرَكَ شَيْئاً لِلَّهِ؛ عَوَّضَهُ اللَّهُ خَيْراً مِنْهُ. فَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَقَرَ الْجِيَادَ الصَّافِنَاتِ الْمُحِبَّةِ لِلنُّفُوسِ تَقْدِيماً لِمُحِبَّةِ اللَّهِ، فَعَوَّضَهُ اللَّهُ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ؛ بِأَنْ سَخَّرَ لَهُ الرِّيحَ الرُّخَاءَ اللَّيِّنَةَ الَّتِي تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى حَيْثُ أَرَادَ وَقَصَدَ، غَدَوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ، وَسَخَّرَ لَهُ الشَّيَاطِينَ أَهْلَ الْاِقْتِدَارِ عَلَى الْأَعْمَالِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا الْآدَمِيُّونَ.

ومنها: أَنَّ تَسْخِيرَ الشَّيَاطِينِ لَا تَكُونُ لِأَحَدٍ بَعْدَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ومنها: أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ مَلِكاً نَبِيّاً، يَفْعَلُ مَا أَرَادَ، وَلَكِنَّهُ لَا يَرِيدُ إِلَّا الْعَدْلَ، بِخِلَافِ النَّبِيِّ الْعَبْدِ؛ فَإِنَّهُ تَكُونُ إِرَادَتُهُ تَابِعَةً لِأَمْرِ اللَّهِ؛ فَلَا يَفْعَلُ وَلَا يَتَرَكَ إِلَّا بِالْأَمْرِ؛ كَحَالِ نَبِيِّنَا ﷺ، وَهَذِهِ الْحَالُ أَكْمَلُ.

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِلْأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ يَدَكَ مِنَّا فَخُذْ رِبْعَهُ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿٤١﴾ أي: ﴿واذكر﴾: في هذا الكتاب ذي الذكر ﴿عبدنا أيوب﴾: بأحسن الذكر، وأثن عليه بأحسن الثناء؛ حين أصابه الضرُّ فصبر على ضرِّه، فلم يشتك لغير ربِّه، ولا لجأ إلَّا إليه. فنادى ربِّه: ﴿داعياً، وإليه لا إلى غيره شاكياً، فقال: ربُّ ﴿إني مَسْنِي الشَّيْطَانُ بِبُضْبٍ وَعَذَابٍ﴾؛ أي: بأمر مُشِقٍّ متعبٍ معذبٍ، وكان سُلْطَ على جسده فنَفَخ فيه حتى تَفَرَّخَ ثم تَقَيَّحَ بعد ذلك، واشتدَّ به الأمر، وكذلك هلك أهله وماله.

﴿٤٢﴾ ف قيل له: ﴿اركض برجلِكَ﴾؛ أي: اضرب الأرض بها؛ لينبغ لك منها عينٌ تغتسلُ منها وتشربُ، فيذهب عنك الضرُّ والأذى، ففعل ذلك، فذهب عنه الضرُّ وشفاه الله تعالى.

﴿٤٣﴾ ﴿ووهبنا له أهله﴾: قيل: إنَّ الله تعالى أحياهم له ﴿ومثلهم معهم﴾: في الدنيا، وأغناه الله وأعطاه مالا عظيماً، ﴿رحمةً منا﴾: بعبدنا أيوب حيث صَبَرَ فأثناه من رحمته ثواباً عاجلاً وآجلاً. ﴿وذكرى لأولي الألباب﴾؛ أي: وليتذكر أولو العقول بحالة أيوب ويعتبروا فيعلموا أنَّ مَنْ صَبَرَ على الضرِّ؛ فإنَّ^(١) الله تعالى يُثَبِّه ثواباً عاجلاً وآجلاً ويستجيبُ دعاءه إذا دعاه.

﴿٤٤﴾ ﴿وخذ بيدك ضغثاً﴾؛ أي: حزمة شماريخ، ﴿فاضرب به ولا تحنث﴾: قال المفسرون: وكان في مرضه وضرِّه قد غضب على زوجته في بعض الأمور، فحلف لئن شفاه الله ليضربنَّها مائة جلدَةٍ، فلما شفاه الله، وكانت امرأته صالحةً محسنةً إليه؛ رحمها الله ورحمه، فأفتاه أن يضربها بِضَغْثٍ فيه مائةُ شمراخٍ ضربةً واحدةً فيبَرَّ في يمينه. ﴿إنا وجَدناه﴾؛ أي: أيوب ﴿صابراً﴾؛ أي: ابتليناه بالضرِّ العظيم فصبر لوجه الله تعالى. ﴿نعم العبدُ﴾: الذي كَمَلَ مراتبُ العبوديَّة في حال السراءِ والضراءِ والشدةِ والرخاءِ، ﴿إنَّه أوابٌ﴾؛ أي: كثير الرجوع إلى الله في مطالبه الدينيَّة والدنيويَّة، كثير الذكر لربِّه والدعاء والمحبة والتأله.

﴿واذكر عبدنا إبراهيمَ وإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْآلِدَى وَالْأَبْصَرِ ۖ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ۖ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ ۖ﴾.

﴿٤٥﴾ يقول تعالى: ﴿واذكر عِبَادَنَا﴾: الذين أخلصوا لنا العبادة ذكراً حسناً

﴿إبراهيم﴾: الخليل ﴿و﴾ ابنه ﴿إسحاق﴾ وابن ابنه ﴿يعقوب أولي الأيدي﴾؛ أي: القوة على عبادة الله تعالى، ﴿والأبصار﴾؛ أي: البصيرة في دين الله. فوصفهم بالعلم النافع والعمل الصالح الكثير.

﴿٤٦﴾ ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ﴾: عظيمة وخصيصة جسيمة، وهي: ﴿ذكرى الدار﴾: جعلنا ذكرى الدار الآخرة في قلوبهم والعمل لها صفوة وقتهم. والإخلاص والمراقبة لله وصفهم الدائم، وجعلناهم ذكرى الدار، يتذكروا بأحوالهم المتذكروا ويعتبر بهم المعتبر، ويذكرون بأحسن الذكر.

﴿٤٧﴾ ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُضْطَفِينَ﴾: الذين اصطفاهم الله من صفوة خلقه ﴿الأخيار﴾: الذين لهم كل خلق كريم وعمل مستقيم.

﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ ﴿٤٨﴾ هَذَا ذِكْرٌ ﴿٤٩﴾.

﴿٤٨﴾ أي: واذكر هؤلاء الأنبياء بأحسن الذكر، وأثن عليهم أحسن الثناء؛ فإن كلاً منهم من الأخيار، الذين اختارهم الله من الخلق، واختار لهم أكمل الأحوال من الأعمال والأخلاق والصفات الحميدة والخصال السديدة.

﴿٤٩﴾ هَذَا؛ أي: ذكروا هؤلاء الأنبياء الصفوة، وذكروا أوصافهم ﴿ذكر﴾: في هذا القرآن ذي الذكر، يتذكروا بأحوالهم المتذكرون، ويشتاق إلى الاقتداء بأوصافهم الحميدة المقتدون، ويعرف ما من الله عليهم به من الأوصاف الزكية، وما نشر لهم من الثناء بين البرية. فهذا نوع من أنواع الذكر، وهو ذكر أهل الخير. ومن أنواع الذكر ذكر جزاء أهل الخير وأهل الشر ولهذا قال:

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مِّنْ أَلْوَابٍ ﴿٥٠﴾ مُّكِّنِينَ فِيهَا يُدْعَوْنَ فِيهَا بِفَكِّهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصْرِاتٌ مُّطَّرِفَاتٌ ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَكُمْ مِنْ نَّعَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴿٥٥﴾

﴿٤٩﴾ أي: ﴿وإن للمتقين﴾: ربهم؛ بامثال الأوامر واجتناب النواهي من كل مؤمن ومؤمنة ﴿لحسن مآب﴾؛ أي: لمآباً حسناً ومرجعاً مستحسناً.

﴿٥٠﴾ ثم فسره وفصله فقال: ﴿جنات عدن﴾؛ أي: جنات إقامة لا يبغى صاحبها بدلاً منها من كمالها وتمام نعيمها، وليسوا بخارجين منها ولا بمخرجين، ﴿مفتحة لهم الأبواب﴾؛ أي: مفتحة لأجلهم أبواب منازلها ومسكنها، لا يحتاجون

أَنْ يَفْتَحُوهَا هُمْ، بَلْ هُمْ مَخْدُومُونَ، وَهَذَا دَلِيلٌ أَيْضاً عَلَى الْأَمَانِ التَّامِّ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِي جَنَاتِ عَدْنٍ مَا يَوْجِبُ أَنْ تُغْلَقَ لِأَجْلِهِ أَبْوَابُهَا.

﴿٥١﴾ ﴿مُتَكَبِّرِينَ فِيهَا﴾: عَلَى الْأَرَائِكِ الْمَزِينَاتِ وَالْمَجَالِسِ الْمَزْخَرَفَاتِ. ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾؛ أَي: يَأْمُرُونَ خِدَامَهُمْ أَنْ يَأْتُوا ﴿بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾: مِنْ كُلِّ مَا تَشْتَهِيهِ نَفُوسُهُمْ وَتَلَذُّهُ أَعْيُنُهُمْ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ النِّعَمِ وَكَمَالِ الرَّاحَةِ وَالطَّمَأْنِينَةِ وَتَمَامِ اللَّذَّةِ.

﴿٥٢﴾ ﴿وَعِنْدَهُمْ﴾: مِنْ أَزْوَاجِهِمُ الْحُورِ الْعِينِ ﴿قَاصِرَاتُ﴾ طَرْفِهِنَّ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ، وَطَرْفُ أَزْوَاجِهِنَّ عَلَيْهِنَّ لِحِمَالِهِنَّ كُلُّهُنَّ وَمَحَبَّةُ كُلِّ مِنْهُمَا لِلْآخَرِ وَعَدَمُ طَمْوِجِهِ لِغَيْرِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَبْغِي بِصَاحِبِهِ بَدَلاً وَلَا عَنْهُ عِوَضاً، ﴿أُتْرَابٍ﴾؛ أَي: عَلَى سَنٍّ وَاحِدٍ، أَعْدَلُ سَنِّ الشَّبَابِ وَأَحْسَنُهُ وَالَّذِهِ.

﴿٥٣﴾ ﴿هَذَا مَا تَوْعَدُونَ﴾: أَيُّهَا الْمُتَّقُونَ ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾: جَزَاءٌ عَلَى أَعْمَالِكُمُ الصَّالِحَةِ.

﴿٥٤﴾ ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا﴾: الَّذِينَ ^(١) أوردناه عَلَى أَهْلِ دَارِ النِّعَمِ ﴿مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾؛ أَي: انْقِطَاعٍ، بَلْ هُوَ دَائِمٌ مُسْتَقَرٌّ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ، مُتَزَايِدٌ فِي جَمِيعِ الْآنَاتِ، وَلَيْسَ هَذَا بِعَظِيمٍ عَلَى الرَّبِّ الْكَرِيمِ، الرَّءُوفِ الرَّحِيمِ، الْبَرِّ الْجَوَادِ، الْوَاسِعِ الْغَنِيِّ، الْحَمِيدِ اللَّطِيفِ، الرَّحْمَنِ، الْمَلِكِ الدِّيانِ، الْجَلِيلِ الْجَمِيلِ الْمَنَّانِ، ذِي الْفَضْلِ الْبَاهِرِ وَالْكَرَمِ الْمُتَوَاتِرِ، الَّذِي لَا تُحْصَى نِعْمُهُ وَلَا يُحَاطَ بِبَعْضِ بَرِّهِ.

﴿هَذَا وَارِثٌ لِلطَّافِينَ لَشَرِّ مَنَاقِبٍ ۖ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَنَسَ الْهَادِ ۖ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ۖ وَآخِرٌ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ۖ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَنِحٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ بِهِمْ إِلَيْهِمْ صَلَوا النَّارِ ۖ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْجَأَ بِكُمْ أَنتُمْ قَدْ مَسُّوهُ لَنَا فَنَسَ الْفَرَارِ ۖ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ۖ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ۖ أَخَذَتْهُمْ سَخِرْيَا أَمْ رَاعَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ۖ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ۖ﴾.

﴿٥٥﴾ ﴿هَذَا﴾ الْجَزَاءُ لِلْمُتَّقِينَ مَا وَصَفْنَاهُ، ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾؛ أَي: لِلْمُتَجَاوِزِينَ لِلْحُدُودِ فِي الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي ﴿لَشَرِّ مَآبٍ﴾؛ أَي: لَشَرِّ مَرْجِعٍ وَمُنْقَلَبٍ.

﴿٥٦﴾ ثم فَصَّلَهُ فقال: ﴿جَهَنَّمَ﴾: التي جمع فيها كلَّ عذاب واشتدَّ حرُّها وانتهى قرُّها ﴿يُضَلُّونَهَا﴾؛ أي: يعذبون فيها عذاباً يحيطُ بهم من كل وجه، لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل. ﴿فَبئسَ المِهَادُ﴾: المَعْدُ لهم مسكناً ومستقراً.

﴿٥٧﴾ ﴿هَذَا﴾: المهاد، هذا العذاب الشديد والخزي والفضيحة والنكال. ﴿فَلْيَذوقوه حَمِيمٌ﴾: ماءً حارًّا قد اشتدَّ حرُّه، يشربونه فيقطع أمعاءهم، ﴿وَعَسَاقٌ﴾: وهو أكره ما يكون من الشراب من قيح وصديد، مرُّ المذاق، كرية الرائحة.

﴿٥٨﴾ ﴿وَأَخْرَجَ مِنْ شَكْلِهِ﴾؛ أي: من نوعه ﴿أَزْوَاجٌ﴾؛ أي: عدَّة أصناف من أصناف العذاب، يعذبون بها ويُخزَوْنَ بها.

﴿٥٩ - ٦٠﴾ وعند تواردهم على النار يشتُم بعضهم بعضاً ويقول بعضهم لبعض: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾: النار ﴿لَا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارَ﴾. قالوا؛ أي: الفوج المقبل المقتحم: ﴿بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمَّمْتُمْوه﴾؛ أي: العذاب ﴿لَنَا﴾: بدعوتكم لنا وفِتْنَتِكُمْ وإضلالكم وتسيبكم. ﴿فَبئسَ القَرَارُ﴾: قرار الجميع قرار السوء والشر.

﴿٦١﴾ ثم دعوا على المغوين لهم: ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ﴾. وقال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿٦٢﴾ ﴿وقالوا﴾: وهم في النار: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾؛ أي: كنَّا نزعُم أنَّهم من الأشرار المستحقين لعذاب النار، وهم المؤمنون، تَفَقَّدَهُمْ أَهْلُ النَّارِ قَبَحَهُمُ اللَّهُ؛ هل يَرَوْنَهُمْ فِي النَّارِ؟

﴿٦٣﴾ ﴿أَتَخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾؛ أي: عدم رؤيتنا لهم دائر بين أمرين: إمَّا أَنَّا غَالِطُونَ فِي عَدْنَا إِيَّاهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ، بل هم من الأخيار، وإمَّا كَلَامُنَا لَهُمْ مِنْ بَابِ السَّخَرَةِ وَالْإِسْتِهْزَاءِ بِهِمْ، وهذا هو الواقع؛ كما قال تعالى لأهل النار: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا، وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ. فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾.

والأمر الثاني: أَنَّهُمْ لَعَلَّهُمْ زَاغَتْ أَبْصَارُنَا عَنْ رُؤْيَتِهِمْ مَعْنَا فِي الْعَذَابِ، وإلَّا؛ فهم معنا معذبون، ولكن تجاوزتْهُمُ أَبْصَارُنَا! فيُحْتَمَلُ أَنَّ هَذَا الَّذِي فِي قُلُوبِهِمْ، فتكون العقائد التي اعتقدوها في الدنيا وكثرة ما حكموا لأهل الإيمان بالنار تمكَّنت من قلوبهم وصارت صبغةً لها، فدخلوا النار وهم بهذه الحالة، فقالوا ما قالوا.

وَيُحْتَمَلُ أَنَّ كَلَامَهُمْ هَذَا كَلَامٌ تَمْوِيهِ؛ كَمَا مَوْهَوْا فِي الدُّنْيَا مَوْهَوْا حَتَّى فِي النَّارِ، وَلِهَذَا يَقُولُ أَهْلُ الْأَعْرَافِ لِأَهْلِ النَّارِ: ﴿أَهْوَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

﴿٦٤﴾ قَالَ تَعَالَى مُؤَكِّدًا مَا أَخْبَرَ بِهِ، وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ: ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾: الَّذِي ذَكَرْتُ لَكُمْ ﴿لَحَقٌّ﴾: مَا فِيهِ شَكٌّ وَلَا مِزْيَةٌ ﴿تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنِّي إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٦٥) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْفَقْرُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِاللَّيْلِ الْأَوَّلَى إِذِ يَخْفَسُونَ (٦٩) إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُمُ سَجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُم مِّن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَأَخْرِجْهَا مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَهُم أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) قُلْ مَا اسْتَغْلَزَ عَلَيَّ مِن بَاطِلٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالِينَ (٨٧) وَلِنُعَلِّمَن نِّبَأَهُ بِعَدِّ جَعِينٍ (٨٨).

﴿٦٥﴾ ﴿قُلْ﴾: يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَهُوَ الْأَمْرُ الْمَكْذِبِينَ إِنْ طَلَبُوا مِنْكَ مَا لَيْسَ لَكَ وَلَا بِيَدِكَ: ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾: هَذَا نَهَايَةُ مَا عِنْدِي، وَأَمَّا الْأَمْرُ؛ فَلِلَّهِ تَعَالَى، وَلَكِنِّي أَمَرْتُكُمْ وَأَنْهَيْتُكُمْ وَأَحْثَكُمُ عَلَى الْخَيْرِ وَأَزْجُرُكُمْ عَنِ الشَّرِّ؛ فَمَنْ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَعَلَيْهَا. ﴿وَمَا مِنِّي إِلَّا اللَّهُ﴾؛ أَيُّ: مَا أَحَدٌ يُوَلِّهِ وَيُعْبَدُ بِحَقِّ إِلَّا اللَّهُ، ﴿الوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾: هَذَا تَقْرِيرٌ لِأَلُوْهِيَّتِهِ بِهَذَا الْبَرْهَانِ الْقَاطِعِ، وَهُوَ وَحْدَتُهُ تَعَالَى وَقَهْرُهُ لِكُلِّ شَيْءٍ؛ فَإِنَّ الْقَهْرَ مِلَازِمٌ لِلْوَحْدَةِ؛ فَلَا يَكُونُ قَهَّارَيْنِ مُتَسَاوِيَيْنِ فِي قَهْرِهِمَا أَبَدًا، فَالَّذِي يَقْهَرُ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ هُوَ الْوَاحِدُ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ، وَهُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ كَمَا كَانَ قَاهِرًا وَحْدَهُ.

﴿٦٦﴾ وَقَرَّرَ ذَلِكَ أَيْضًا بِتَوْحِيدِ الرِّبَوِيَّةِ، فَقَالَ: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ أَيُّ: خَالَقُهُمَا وَمَرْبُّهُمَا وَمُدَبِّرُهُمَا بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ التَّدَابِيرِ، ﴿الْعَزِيزُ﴾: الَّذِي

له القوة التي بها خَلَقَ المخلوقات العظيمة. ﴿الْفَقَارُ﴾: لجميع الذنوب؛ صغيرها وكبيرها، لمن تاب إليه وأقْلَع منها. فهذا الذي يحب، ويستحق أن يُعْبَدَ دُونَ مَنْ لَا يَخْلُق، وَلَا يَرْزُق وَلَا يَضُرُّ، وَلَا يَنْفَع، وَلَا يَمْلِكُ من الأمر شيئاً، وليس له قُوَّة الاقتدار، وَلَا بِيَدِهِ مَغْفِرَةُ الذُّنُوبِ والأوزار.

﴿٦٧ - ٦٨﴾ ﴿قُل﴾: لهم مخوفاً ومَحْذَرًا ومنهضاً لهم ومنذراً: ﴿هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: ما أنبأتكم به من البعث والنشور والجزاء على الأعمال خَبَرٌ عَظِيمٌ ينبغي الاهتمام الشديد بشأنه، وَلَا يَنْبَغِي إِغْفَالُهُ. وَلَكِنْ ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مَعْرِضُونَ﴾: كأنه ليس أمامكم حساب ولا عقاب ولا ثواب.

﴿٦٩ - ٧٠﴾ فَإِنْ شَكَكْتُمْ فِي قَوْلِي وَامْتَرَيْتُمْ فِي خَبْرِي؛ فَإِنِّي أَخْبِرُكُمْ بِأَخْبَارٍ لَا عِلْمَ لِي بِهَا وَلَا دَرَسْتُهَا فِي كِتَابٍ؛ فَإِخْبَارِي بِهَا عَلَى وَجْهٍ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصٍ أَكْبَرُ شَاهِدٍ لَصَدَقِي وَأَدُلُّ دَلِيلٌ عَلَى حَقِّ مَا جِئْتُكُمْ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾؛ أي: الملائكة؛ ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾؛ لَوْلَا تَعْلِيمُ اللَّهِ إِيَّاي وَإِيحَاؤُهُ إِلَيَّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنْ يُوْحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر النذارة جليها؛ فَلَا نَذِيرَ أَبْلَغَ مِنْ نَذَارَتِهِ ﷺ.

﴿٧١ - ٧٢﴾ ثُمَّ ذَكَرَ اخْتِصَامَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى، فَقَالَ: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ: عَلَى وَجْهِ الْإِخْبَارِ، ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾؛ أي: مادته من طين، ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾؛ أي: سويت جسمه وتم، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوْحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾.

﴿٧٣ - ٧٤﴾ فَوَطَّنَ الْمَلَائِكَةُ الْكَرَامُ أَنْفُسَهُمْ عَلَى ذَلِكَ حِينَ يَتِمُّ خَلْقُهُ وَنَفْخُ الرُّوحِ فِيهِ امْتِثَالاً لِرَبُّهُمْ وَإِكْرَاماً لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا تَمَّ خَلْقُهُ فِي بَدْنِهِ وَرُوْحِهِ، وَامْتَحَنَ اللَّهُ آدَمَ وَالْمَلَائِكَةَ فِي الْعِلْمِ، وَظَهَرَ فَضْلُهُ عَلَيْهِمْ؛ أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِالسُّجُودِ، فَسَجَدُوا ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، إِلَّا إِبْلِيسَ﴾: لَمْ يَسْجُدْ، ﴿اسْتَكْبَرَ﴾: عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ، وَاسْتَكْبَرَ عَلَى آدَمَ، ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾: فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى.

﴿٧٥﴾ فَقَالَ اللَّهُ لَهُ مُوبِّخاً وَمَعَاتِباً: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾؛ أي: شَرَفْتَهُ وَكَرَّمْتَهُ وَاخْتَصَصْتَهُ بِهَذِهِ الْخَصِيصَةِ الَّتِي اخْتَصَّ بِهَا عَنْ سَائِرِ الْخَلْقِ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي عَدَمَ التَّكَبُّرِ عَلَيْهِ. ﴿اسْتَكْبَرْتَ﴾: فِي امْتِنَاعِكَ ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾.

﴿٧٦﴾ ﴿قَالَ﴾ إِبْلِيسُ مُعَارِضاً لِرَبِّهِ مُنَاقِضاً: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾: وَبِزَعْمِهِ أَنَّ عِنَصَرَ النَّارِ خَيْرٌ مِنْ عِنَصَرِ الطِّينِ، وَهَذَا مِنَ الْقِيَاسِ الْفَاسِدِ؛

فَإِنَّ عُنْصَرَ النَّارِ مَادَّةُ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ وَالْعُلُوِّ وَالطَّيْشِ وَالْخَفَّةِ، وَعُنْصَرُ الطِّينِ مَادَّةُ الرِّزَانَةِ وَالتَّوَاضُّعِ وَإِخْرَاجِ أَنْوَاعِ الْأَشْجَارِ وَالنَّبَاتَاتِ، وَهُوَ يَغْلِبُ النَّارَ وَيَطْفِئُهَا، وَالنَّارُ تَحْتَاجُ إِلَى مَادَّةٍ تَقُومُ بِهَا وَالطِّينُ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ. فَهَذَا قِيَاسُ شَيْخِ الْقَوْمِ، الَّذِي عَارَضَ بِهِ الْأَمْرَ الشَّفَاهِيَّ مِنَ اللَّهِ، قَدْ تَبَيَّنَ غَايَةُ بَطْلَانِهِ وَفَسَادِهِ؛ فَمَا بِالْكَ بِأَقْيَسَةِ التَّلَامِيزِ الَّذِينَ عَارَضُوا الْحَقَّ بِأَقْيَسَتِهِمْ؛ فَإِنَّهَا كُلُّهَا أَعْظَمُ بَطْلَانًا وَفَسَادًا مِنْ هَذَا الْقِيَاسِ.

﴿٧٧ - ٧٨﴾ فَقَالَ اللَّهُ لَهُ: اخْرُجْ ﴿مِنْهَا﴾؛ أَي: مِنَ السَّمَاءِ وَالْمَحَلِّ الْكَرِيمِ، ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾؛ أَي: مَبْعَدٌ مَدْحُورٌ، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ أَي: طَرْدِي وَإِبْعَادِي ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾: دَائِمًا أَبَدًا.

﴿٧٩﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ: لَشِدَّةِ عِدَاوَتِهِ لِآدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ؛ لِيَتِمَّكَنَ مِنْ إِغْوَاءِ مَنْ قَدَّرَ اللَّهُ أَنْ يُغْوِيَهُ.

﴿٨٠ - ٨١﴾ فَ﴿قَالَ﴾ اللَّهُ مُجِيبًا لِدَعْوَتِهِ حَيْثُ اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ ذَلِكَ: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ. إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾: حِينَ تُسْتَكْمَلُ الذَّرِيَّةُ، وَيَتِمُّ الْامْتِحَانُ.

﴿٨٢ - ٨٣﴾ فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ مُنْظَرٌ؛ بَادَى رَبَّهُ مِنْ خَبْثِهِ بِشِدَّةِ الْعِدَاوَةِ لِرَبِّهِ وَلِآدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ، فَقَالَ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾:

يُحْتَمَلُ أَنَّ الْبَاءَ لِلْقَسَمِ، وَأَنَّهُ أَقْسَمَ بِعِزَّةِ اللَّهِ لِيُغْوِيَنَّهُمْ كُلَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾: عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ سَيَحْفَظُهُمْ مِنْ كَيْدِهِ. وَوُحِتَ أَنَّ الْبَاءَ لِلْإِسْتِعَانَةِ، وَأَنَّهُ لَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ عَاجِزٌ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، وَأَنَّهُ لَا يَضِلُّ أَحَدًا إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَاسْتَعَانَ بِعِزَّةِ اللَّهِ عَلَى إِغْوَاءِ ذُرِّيَّةِ آدَمَ. هَذَا وَهُوَ عَدُوُّ اللَّهِ حَقًّا، وَنَحْنُ يَا رَبَّنَا الْعَاجِزُونَ الْمُقْصَرُونَ، الْمَقْرُونُونَ لَكَ بِكُلِّ نِعْمَةٍ، ذُرِّيَّةٌ مِنْ شَرَفَتِهِ وَكَرَمَتِهِ؛ فَنَسْتَعِينُ بِعِزَّتِكَ الْعَظِيمَةِ، وَقُدْرَتِكَ، وَرَحْمَتِكَ الْوَاسِعَةِ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ، وَرَحْمَتِكَ الَّتِي أَوْصَلَتْ إِلَيْنَا بِهَا مَا أَوْصَلَتْ مِنَ النِّعَمِ الدِّينِيَّةِ وَالْدُنْيَوِيَّةِ، وَصَرَفَتْ بِهَا مَا عَنَّا صَرَفَتْ مِنَ النَّقَمِ، أَنْ تَعِينَنَا عَلَى مُحَارَبَتِهِ وَعِدَاوَتِهِ وَالسَّلَامَةِ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّكَهِ، وَنَحْسِنُ الظَّنَّ بِكَ أَنْ تَجِيبَ دَعَاءَنَا، وَنُؤْمِنُ بِوَعْدِكَ الَّذِي قُلْتَ لَنَا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾؛ فَقَدْ دَعَوْنَاكَ كَمَا أَمَرْتَنَا، فَاسْتَجِبْ لَنَا كَمَا وَعَدْتَنَا. ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

﴿٨٤ - ٨٥﴾ ﴿قَالَ﴾ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾؛ أَي: الْحَقُّ وَصَفِي وَالْحَقُّ قَوْلِي، ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿٨٦﴾ فَلَمَّا بَيَّنَّ الرُّسُولُ لِلنَّاسِ الدَّلِيلَ، وَوَضَّحَ لَهُمُ السَّبِيلَ؛ قَالَ اللَّهُ لَهُ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾؛ أَي: عَلَى دَعَائِي إِيَّاكُمْ ﴿مِنْ أَجْرِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾: أَدْعِي

أمرأ ليس لي، وأقفو ما ليس لي به علم، لا أتبع إلا ما يوحى إليّ.
﴿٨٧﴾ ﴿إِنْ هُوَ﴾؛ أي: هذا الوحي والقرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾: يتذكرون به كل ما ينفعهم من مصالح دينهم ودنياهم، فيكون شرفاً ورفعةً للعالمين به وإقامة حجة على المعاندين.

فهذه السورة العظيمة مشتملة على الذكر الحكيم، والنبأ العظيم، وإقامة الحجج والبراهين على من كذب بالقرآن، وعارضه، وكذب من جاء به، والإخبار عن عباد الله المخلصين، وجزاء المتقين والطاغين؛ فلهذا أقسم في أولها بأنه ذو الذكر، ووصفه في آخرها بأنه ذكرٌ للعالمين، وأكثر التذكير بها فيما بين ذلك؛ كقوله: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا﴾، ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا﴾، ﴿رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى﴾، ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾. اللهم علمنا منه ما جهلنا، وذكّرنا منه ما نسينا نسيان غفلة ونسيان ترك.

﴿٨٨﴾ ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَاهُ﴾؛ أي: خبره ﴿بعد حين﴾: وذلك حين يقع عليهم العذاب، وتتقطع عنهم الأسباب.

تم تفسير سورة ص بمئه تعالى وعونه.



تفسير سورة الزمر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ١ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ فَاغْبِ اللَّهُ تَخْلِصًا لَهُ الَّذِينَ ٢ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ٣ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ٤﴾.

﴿١﴾ يخبر تعالى عن عظمة القرآن وجلالة من تكلم به ونزل منه، وأنه نزل من الله العزيز الحكيم؛ أي: الذي وصفه الألوهية للخلق، وذلك لعظمته وكماله والعزة التي قهر بها كل مخلوق، وذلك له كل شيء والحكمة في خلقه وأمره؛ فالقرآن نازل ممن هذا وصفه، والكلام وصف للمتكلم، والوصف يتبع الموصوف؛ فكما أن الله تعالى الكامل من كل وجه الذي لا مثيل له؛ فكذلك كلامه كامل من كل وجه لا

مثيل له؛ فهذا وحده كافٍ في وصف القرآن دالٌّ على مرتبته.

﴿٢﴾ ولُكِنِّه مع هذا زاد بياناً لكماله بمن نَزَلَ عليه، وهو محمد ﷺ، الذي هو أشرف الخلق، فعَلِمَ أنه أشرف الكتب، وبما نزل به، وهو الحق، فنزل بالحق الذي لا مِرْيَةَ فيه لإخراج الخلق من الظلمات إلى النور، ونزل مشتملاً على الحق في أخباره الصادقة وأحكامه العادلة؛ فكلُّ ما دلَّ عليه؛ فهو أعظم أنواع الحق من جميع المطالب العلمية، وما بعد الحق إلا الضلال.

ولمَّا كان نازلاً من الحق مشتملاً على الحق لهداية الخلق على أشرف الخلق؛ عَظُمَتْ فيه النعمة، وجَلَّتْ، ووجب القيام بشكرها، وذلك بإخلاص الدين لله؛ فلِهَذَا قال: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾؛ أي: أخلص لله تعالى جميع دينك من الشرائع الظاهرة والسرائع الباطنة: الإسلام والإيمان والإحسان؛ بأن تُفَرِّدَ الله وحده بها، وتقصدَ به وجهه، لا غير ذلك من المقاصد.

﴿٣﴾ ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾: هذا تقريرٌ للأمر بالإخلاص، وبيانٌ أنه تعالى كما أنه له الكمال كله وله التفضل على عباده من جميع الوجوه؛ فكذلك له الدين الخالص الصافي من جميع الشوائب؛ فهو الدين الذي ارتضاه لنفسه وارتضاه لصفوة خلقه وأمرهم به؛ لأنه متضمنٌ للتأله لله في حبه وخوفه ورجائه والإنابة إليه في عبوديته والإنابة إليه في تحصيل مطالب عباده، وذلك الذي يُصْلِحُ القلوب ويزكِّيها ويطهرها؛ دون الشرك به في شيء من العبادة؛ فإنَّ الله بريء منه، وليس لله فيه شيء؛ فهو أغنى الشركاء عن الشرك، وهو مفسدٌ للقلوب والأرواح والدنيا والآخرة، مشقٍ للنفوس غاية الشقاء.

فلذلك لما أمر بالتوحيد والإخلاص؛ نهى عن الشرك به، وأخبر بدمٍ من أشرك به، فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾؛ أي: يتولَّونهم بعبادتهم ودعائهم، متعذِّرين عن أنفسهم، وقائلين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾؛ أي: لترفع حوائجنا لله، وتشفع لنا عنده، وإلا؛ فنحن نعلم أنها لا تخلق ولا ترزق ولا تملك من الأمر شيئاً؛ أي: فهؤلاء قد تركوا ما أمر الله به من الإخلاص، وتجرؤوا على أعظم المحرَّمات، وهو الشرك، وقاسوا الذي ليس كمثله شيء الملك العظيم بالملوك، وزعموا بعقولهم الفاسدة ورأيهم السقيم أنَّ الملوك كما أنه لا يوصل إليهم إلا بوجهاء وشفعاء ووزراء يرفعون إليهم حوائج رعاياهم ويستعطفونهم عليهم ويمهدون لهم الأمر في ذلك؛ أنَّ الله تعالى كذلك!

وهذا القياس من أفسد الأقيسة، وهو يتضمّن التسوية بين الخالق والمخلوق، مع ثبوت الفرق العظيم عقلاً ونقلاً وفطرة؛ فإنّ الملوك إنّما احتاجوا للوساطة بينهم وبين رعاياهم؛ لأنّه^(١) لا يعلمون أحوالهم، فيحتاج من يُعلّمهم بأحوالهم، وربّما لا يكون في قلوبهم رحمةٌ لصاحب الحاجة، فيحتاج من يُعطفهم عليه، ويسترحمهم لهم، ويحتاجون إلى الشفعاء والوزراء، ويخافون منهم، فيقضون حوائج من توسّطوا لهم مراعاةً لهم ومدارةً لخواطِرهم، وهم أيضاً فقراء؛ قد يمنعون لما يخشون من الفقر، وأمّا الربّ تعالى؛ فهو الذي أحاط علمه بظواهر الأمور وبواطنها، الذي لا يحتاج من يخبره بأحوال رعيّته وعباده، وهو تعالى أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، لا يحتاج إلى أحدٍ من خلقه يجعله راحماً لعباده، بل هو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم، وهو الذي يحثهم ويدعوهم إلى الأسباب التي ينالون بها رحمته، وهو يريد من مصالحهم ما لا يريدونه لأنفسهم، وهو الغنيّ، الذي له الغنى التام المطلق، الذي لو اجتمع الخلق من أولهم وآخرهم في صعيدٍ واحدٍ، فسألوه، فأعطى كلّ منهم ما سأل وتمنى؛ لم ينقصوا غناه شيئاً، ولم ينقصوا مما عنده إلّا كما ينقصُ البحرُ إذا غُمسَ فيه المِخيطُ، وجميع الشفعاء يخافونه؛ فلا يشفعُ منهم أحدٌ إلّا بإذنه، وله الشفاعةُ كلّها؛ فهذه الفروق يُعلم جهلُ المشركين به وسفهُهم العظيمُ وشدةُ جراتهم عليه، ويُعلم أيضاً الحكمة في كون الشرك لا يغفره الله تعالى؛ لأنّه يتضمّن القدح في الله تعالى، ولهذا قال حاكماً بين الفريقين المخلصين والمشرّكين وفي ضمنه التهديد للمشرّكين: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: وقد علّم أنّ حكمه أنّ المؤمنين المخلصين في جنات النعيم، ومن يشرك بالله؛ فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾: أي: لا يوفّق للهداية إلى الصراط المستقيم ﴿مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾: أي: وصفه الكذب أو^(٢) الكفر؛ بحيث تأتيه المواعظ والآيات ولا يزول عنه ما اتّصف به، ويُريه الله الآيات فيجحدّها ويكفر بها ويكذب؛ فهذا أتى له الهدى وقد سدّ على نفسه الباب، وعوقب بأن طبع الله على قلبه فهو لا يؤمن.

(١) كذا في النسختين. وعُدلت في (أ): «لأنهم» بخط مغاير.

(٢) في (ب): «و».

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝﴾.

﴿٤﴾ أي: ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولدا﴾: كما زعم ذلك من زعمه من سفهاء الخلق ﴿لاصطفى مما يخلق ما يشاء﴾؛ أي: لاصطفى بعض مخلوقاته التي يشاء اصطفاؤه واختصه لنفسه، وجعله بمنزلة الولد، ولم يكن حاجةً إلى اتخاذ الصاحبة. ﴿سبحانه﴾: عما ظنه به الكافرون أو نسبه إليه الملحدون. ﴿هو الله الواحد القهار﴾؛ أي: الواحد في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته وفي أفعاله؛ فلا شبهة له في شيء من ذلك ولا مماثل؛ فلو كان له ولد؛ لاقتضى أن يكون شبيهاً له في وحدته؛ لأنه بعضه وجزء منه. القهار لجميع العالم العلوي والسفلي؛ فلو كان له ولد؛ لم يكن مقهوراً، ولكان له إدلال على أبيه ومناسبةً منه، ووحدته تعالى وقهره متلازمان؛ فالواحد لا يكون إلا قهاراً، والقهار لا يكون إلا واحداً، وذلك ينفي الشراكة له من كل وجه.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُوِّرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْفَعْلُ ۝ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَنَزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِينَ ۚ أَنْتُمْ يُخْلَقُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ۝ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۚ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝﴾.

﴿٥﴾ يخبر تعالى أنه ﴿خلق السموات والأرض﴾؛ أي: بالحكمة والمصلحة، وليأمر العباد وبنهاهم وبيههم ويعاقبهم. ﴿يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل﴾؛ أي: يدخل كل منهما على الآخر، ويحله محله؛ فلا يجتمع هذا وهذا، بل إذا أتى أحدهما؛ انعزل الآخر عن سلطانه، ﴿وسخر الشمس والقمر﴾: بتسخير منظم وسير مقنن. ﴿كل﴾: من الشمس والقمر ﴿يجري﴾: متأثراً عن تسخيره تعالى ﴿لأجل مسمى﴾: وهو انقضاء هذه الدار وخرابها، فيخرب الله آلائها وشمسها وقمرها، وينشئ الخلق نشأةً جديدةً؛ ليستقروا في دار القرار الجنة أو

النار. ﴿الَا هُوَ الْعَزِيزُ﴾: الذي لَا يُغَالَبُ، الْقَاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ، الَّذِي لَا يَسْتَعْصِي عَلَيْهِ شَيْءٌ، الَّذِي مِنْ عَزَّتِهِ أَوْجَدَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةَ، وَسَخَّرَهَا، تَجْرِي بِأَمْرِهِ. ﴿الْغَفَّارُ﴾: لِذُنُوبِ عِبَادِهِ التَّوَّابِينَ الْمُؤْمِنِينَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾، الْغَفَّارُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِهِ بَعْدَ مَا رَأَى مِنْ آيَاتِهِ الْعَظِيمَةِ ثُمَّ تَابَ وَأَنَابَ.

﴿٦﴾ وَمِنْ عَزَّتِهِ أَنْ ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾: عَلَى كَثَرَتِكُمْ وَانْتِشَارِكُمْ فِي أَنْحَاءِ الْأَرْضِ، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: وَذَلِكَ لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا وَتَسْكُنَ إِلَيْهِ وَتَتَمَّ بِذَلِكَ النِّعْمَةُ، ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ﴾؛ أَي: خَلَقَهَا بِقَدْرِ نَازِلٍ مِنْهُ رَحْمَةً بِكُمْ ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾: وَهِيَ الَّتِي ذَكَرَهَا فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾، وَخَصَّهَا بِالذِّكْرِ مَعَ أَنَّهُ أَنْزَلَ لِمَصَالِحِ عِبَادِهِ مِنَ الْبَهَائِمِ غَيْرَهَا؛ لِكثْرَةِ نَفْعِهَا وَعَمُومِ مَصَالِحِهَا وَلَشَرْفِهَا وَلَا خِتَاصِهَا بِأَشْيَاءٍ لَا يَصْلُحُ غَيْرُهَا؛ كَالْأُضْحِيَّةِ وَالْهَدْيِ وَالْعَقِيقَةِ وَوَجُوبِ الزَّكَاةِ فِيهَا وَاخْتِصَاصِهَا بِالذِّبَةِ. وَلَمَّا ذَكَرَ خَلْقَ آبِنَا وَأَمْنَا؛ ذَكَرَ ابْتِدَاءَ خَلْقِنَا، فَقَالَ: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾؛ أَي: طَوْرًا بَعْدَ طَوْرٍ، وَأَنْتُمْ فِي حَالٍ لَا يَدُ مَخْلُوقٍ تَمْسُكُكُمْ وَلَا عَيْنٌ تَنْظُرُ إِلَيْكُمْ، وَهُوَ قَدْ رَبَّاهُمْ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ الضَّيِّقِ ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾: ظُلْمَةُ الْبُطْنِ، ثُمَّ ظُلْمَةُ الرَّحِمِ، ثُمَّ ظُلْمَةُ الْمَشِيمَةِ. ﴿ذَلِكُمْ﴾: الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَخَلَقَكُمْ وَخَلَقَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ وَالنَّعَمَ ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾؛ أَي: الْمَالُوهُ الْمَعْبُودُ الَّذِي رَبَّاهُمْ وَدَبَّرَكُمْ؛ فَكَمَا أَنَّهُ الْوَاحِدُ فِي خَلْقِهِ وَتَرْبِيَّتِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَلِكَ؛ فَهُوَ الْوَاحِدُ فِي أُلُوهِيَّتِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَى تُضْرَفُونَ﴾: بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ، بَيَانِ اسْتِحْقَاقِهِ تَعَالَى الْإِخْلَاصَ وَحْدَهُ، إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ الَّتِي لَا تَدْبُرُ شَيْئًا، وَلَيْسَ لَهَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ!!

﴿٧﴾ ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾: لَا يَضُرُّهُ كُفْرُكُمْ كَمَا لَا يَنْتَفِعُ بِطَاعَتِكُمْ، وَلَكِنْ أَمْرُهُ وَنَهْيُهُ لَكُمْ مُحَضُّ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ عَلَيْكُمْ. ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾: لِكَمَالِ إِحْسَانِهِ بِهِمْ وَعِلْمِهِ أَنَّ الْكُفْرَ يُشْقِيهِمْ شَقَاوَةً لَا يَسْعُدُونَ بَعْدَهَا، وَلَآئِهْ خَلَقَهُمْ لِعِبَادَتِهِ؛ فَهِيَ الْغَايَةُ الَّتِي خَلَقَ لَهَا الْخَلْقَ؛ فَلَا يَرْضَى أَنْ يَدْعَوْا مَا خَلَقَهُمْ لِأَجْلِهِ.

﴿وإن تشكروا﴾: لِلَّهِ تَعَالَى بِتَوْحِيدِهِ وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾: لِرَحْمَتِهِ

بكم ومحبتة للإحسان عليكم ولفعليكم ما خلقكم لأجله، وكما أنه لا يتضرر بشرككم ولا ينتفع بأعمالكم وتوحيدكم؛ كذلك كل أحد منكم له عمله من خير وشر. ﴿ولا تزرز وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم﴾: في يوم القيامة، ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾: إخباراً أحاط به علمه وجرى عليه قلمه وكتبته عليكم الحفظ الكرام وشهدت^(١) به عليكم الجوارح، فيجازي كلًا منكم ما يستحقه. ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾؛ أي: بنفس الصدور وما فيها من وصف بر أو فجور. والمقصود من هذا الإخبار بالجزاء بالعدل التأم.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْ نَّسِيِّ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِّنْ قَبْلٍ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۝﴾.

﴿٨﴾ يخبر تعالى عن كرمه بعبده وإحسانه وبره وقلّة شكر عبده، وأنه حين يمسه الضر من مرض أو فقر أو وقوع في كربة بحر أو غيره؛ أنه يعلم أنه لا يُنجيه في هذه الحال إلا الله، فيدعوه متضرعاً منيباً، ويستغيث به في كشف ما نزل به ويلجأ في ذلك. ﴿ثم إذا خوّله﴾: الله ﴿نعمة منه﴾: بأن كشف ما به من الضر والكربة، ﴿نسي ما كان يدعو إليه من قبل﴾؛ أي: نسي ذلك الضر الذي دعا الله لأجله، ومرّ كأنه ما أصابه ضر، واستمر على شركه، ﴿وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله﴾؛ أي: ليضل بنفسه ويضل غيره؛ لأن الإضلال فرع عن الضلال، فأتى بالملزوم ليدل على اللازم. ﴿قل﴾: لهذا العاتي الذي بدلّ نعمة الله كفراً: ﴿تمتّع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار﴾: فلا يغنيك ما تمتّع به إذا كان المآل النار، ﴿أفرأيت إن متّعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون﴾. ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون.

﴿أَمَنَ هُوَ فَنِتَّ ءَانَاءَ إِلَيْكَ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَرَجُوا رَحْمَةً رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ۝﴾.

﴿٩﴾ هذه مقابلة بين العامل بطاعة الله وغيره، وبين العالم والجاهل، وأن هذا من الأمور التي تقرر في العقول تباينها، وعلم علماء يقيناً تفاوتها؛ فليس المعرض

(١) في (ب): «وشهد».

عن طاعة ربِّه المتَّبِع لهواه كمن هو قانتٌ؛ أي: مطيعٌ لله بأفضل العبادات، وهي الصلاة، وأفضل الأوقات، وهي أوقات الليل، فوصَّفه بكثرة العمل وأفضله، ثم وصَّفه بالخوف والرجاء، وذكر أنَّ متعلِّقَ الخوف عذابُ الآخرة على ما سَلَفَ من الذُّنوب، وأنَّ متعلِّقَ الرجاءِ رحمةُ الله، فوصفه بالعمل الظاهر والباطن. ﴿قل هل يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾: ربُّهم ويعلمون دينه الشرعيَّ ودينه الجزائيَّ وما له في ذلك من الأسرار والحكم، ﴿والَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: شيئاً من ذلك، لا يستوي هؤلاء ولا هؤلاء؛ كما لا يستوي الليل والنهار والضياء والظلام والماء والنار. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾: إذا ذُكِّروا ﴿أُولُو الْأَلْبَابِ﴾؛ أي: أهل العقول الزكيَّة الذكيَّة؛ فهم الذين يُؤثِّرون الأعلى على الأدنى؛ فيؤثِّرون العلم على الجهل، وطاعة الله على مخالفتِه؛ لأنَّ لهم عقولاً ترشِّدُهم للنظر في العواقب؛ بخلاف مَنْ لا لبَّ له ولا عقل؛ فإنَّه يَتَّخِذُ إِلَهه هواه.

﴿قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿١٠﴾ أي: قل منادياً لأشرف الخلق، وهم المؤمنون، آمراً لهم بأفضل الأوامر، وهي التقوى، ذاكراً لهم السبب الموجب للتقوى، وهو ربوبية الله لهم وإنعامه عليهم، المقتضي ذلك منهم أن يتَّقوه، ومن ذلك ما منَّ الله عليهم به من الإيمان؛ فإنه موجبٌ للتقوى؛ كما تقول: أيُّها الكريم تصدَّق! وأيُّها الشجاع قاتل! وذكر لهم الثواب المنشط في الدنيا، فقال: ﴿للَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾: بعبادة ربِّهم لهم ﴿حَسَنَةٌ﴾: رزقٌ واسعٌ ونفسٌ مطمئنةٌ وقلبٌ منشرحٌ؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَةً﴾. ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾: إذا مُنِعْتُمْ من عبادتِه في أرض؛ فهاجروا إلى غيرها تعبدون فيها ربِّكم وتتمكِّنون من إقامة دينكم. ولمَّا قال: ﴿للَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾؛ كان لبعض النفوس مجالاً في هذا الموضع، وهو أنَّ النصَّ عامٌ؛ أنَّه كلٌّ مَنْ أحسن؛ فله في الدنيا حسنة؛ فما بال مَنْ آمن في أرض يُضْطَهَدُ فيها ويُمْتَهَنُ لا يحصل له ذلك؟ دَفَعَ هذا الظنَّ بقوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾: وهنا بشارَةٌ نصٌّ عليها النبي ﷺ بقوله: «لا تزال طائفةٌ من أمتي على الحقِّ ظاهرين لا يضرُّهم مَنْ خَذَلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمرُ الله وهم على ذلك»^(١). تشير إليه هذه الآية وترمي

(١) ورد عن جمع من الصحابة، وقد صرح عدد من العلماء بتواتر الحديث منهم =

إليه من قريب، وهو أنه تعالى أخبر أن أرضه واسعة؛ فمهما مُنِعْتُمْ من عبادته في موضع؛ فهاجروا إلى غيرها. وهذا عام في كل زمان ومكان؛ فلا بد أن يكون لكل مهاجر ملجأ من المسلمين يلجأ إليه وموضع يتمكن من إقامة دينه فيه.

﴿إِنَّمَا يُؤْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: وهذا عام في جميع أنواع الصبر: الصبر على أقدار الله المؤلمة؛ فلا يتسخطها، والصبر عن معاصيه؛ فلا يرتكبها، والصبر على طاعته حتى يؤذيها، فوعد الله الصابرين أجرهم بغير حساب؛ أي: بغير حد ولا عد ولا مقدار، وما ذاك إلا لفضيلة الصبر ومحله عند الله، وأنه معين على كل الأمور.

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (١١) ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١٢) ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٣) ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ (١٤) ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانِ الْمُبِينُ (١٥) لَمْ يَنْ تَوْفِيهِمْ ظُلْمًا مِنَ النَّارِ وَمَنْ تَحِيَّتُهُمْ ظُلْمٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُمْ يَعْجَبُونَ فَاتَّقُوا (١٦) .

﴿١١﴾ أي: ﴿قل﴾: يا أيها الرسول، للناس: ﴿إني أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا له الدين﴾: في قوله في أول السورة: ﴿فاعبد الله مخلصاً له الدين﴾.

﴿١٢﴾ ﴿وأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾: لأني الداعي الهادي للخلق إلى ربهم، فيقتضي أنني أول من ائتمر بما أمر به وأول من أسلم، وهذا الأمر لا بد من إيقاعه من محمد ﷺ وممن زعم أنه من أتباعه؛ فلا بد من الإسلام في الأعمال الظاهرة والإخلاص لله في الأعمال الظاهرة والباطنة.

﴿١٣﴾ ﴿قل إنني أخاف إن عصيت ربي﴾: فيما أمرني به من الإخلاص والإسلام ﴿عذاب يوم عظيم﴾: يخلد فيه من أشرك ويعاقب فيه من عصى.

﴿١٤ - ١٥﴾ ﴿قل الله أعبد مخلصاً له ديني﴾. فاعبدوا ما شئتم من دونه: ﴿كما قال تعالى﴾: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد. ولا أنا عابد ما عبدتم. ولا أنتم عابدون ما أعبد. لكم دينكم ولي دين. ﴿قل إن الخاسرين﴾: حقيقة هم ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾: حيث حرّموها الثواب،

= شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط» (١/٦٩)، والكتاني في «نظم المتناثر» (٩٣)،
والزبيدي في «لقط اللآلئ المتناثرة» (٦٨)، والألباني في «صلاة العيدين» (ص ٣٩ - ٤٠).

واستحقَّت بسببهم وخيم العقاب، ﴿وأهلهم يوم القيامة﴾؛ أي: فُرِّقَ بينهم وبينهم، واشتدَّ عليهم الحزنُ، وعظُمَ الخسرانُ. ﴿ألا ذلك هو الخسرانُ المبينُ﴾: الذي ليس مثله خسرانٌ، وهو خسرانٌ مستمرٌّ لا ربح بعده، بل ولا سلامة.

﴿١٦﴾ ثم ذكر شدة ما يحصل لهم من الشقاء، فقال: ﴿لهم من فوقهم ظلٌّ من النار﴾؛ أي: قطع عذاب كالسحاب العظيم، ﴿ومن تحتهم ظلٌّ، ذلك﴾: الوصفُ الذي وصفنا به عذاب أهل النار سوطٌ يسوقُ الله به عباده إلى رحمته، ﴿يُخَوِّفُ الله به عباده يا عبادٍ فاتقون﴾؛ أي: جعل ما أعدّه لأهل الشقاء من العذاب داع^(١) يدعو عباده إلى التقوى وزجراً عما يوجب العذاب؛ فسبحان من رَجَمَ عباده في كل شيء! وسَهَّلَ لهم الطرق الموصلة إليه، وحَثَّهم على سلوكها، ورَغَّبهم بكلِّ مرغَب تشاقُّ له النفوس وتطمئنُّ له القلوب، وحذَّرهم من العمل لغيره^(٢) غاية التحذير، وذكر لهم الأسباب الزاجرة عن تركه.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٧﴾ لما ذكَّر تعالى حال المجرمين؛ ذكَّر حال المنيبين وثوابهم، فقال: ﴿والذين اجتنَبوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾: والمراد بالطَّاغُوت في هذا الموضع عبادة غير الله؛ فاجتنَبوها في عبادتها، وهذا من أحسن الاحتراز من الحكيم العليم؛ لأنَّ المدح إنما يتناول المجتنب لها في عبادتها. ﴿وأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾: بعبادته وإخلاص الدين له، فانصرفت دواعيهم من عبادة الأصنام إلى عبادة الملك العلَّام، ومن الشرك والمعاصي إلى التوحيد والطاعات. ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾: التي لا يُقَادَرُ قَدْرُهَا ولا يَغْلُمُ وَضْفُهَا إِلَّا مَنْ أَكْرَمَهُمْ بها، وهذا شاملٌ للبشرى في الحياة الدنيا بالثناء الحسن والرؤيا الصالحة والعناية الربَّانية من الله، التي يروْنَ في خلالها أَنَّهُ مريدٌ لإكرامهم في الدنيا والآخرة، وَلَهُمُ الْبُشْرَى في الآخرة عند الموت وفي القبر وفي القيامة، وخاتمةُ البشرى ما يبشِّرهم به الربُّ الكريم من دوام رضوانه وبرِّه وإحسانه وحلول أمانه في الجنة.

﴿١٨﴾ وَلَمَّا أَخْبَرَ أَنَّ لَهُمُ الْبُشْرَى؛ أمره الله ببشارتهم، وذكر الوصف الذي

(١) كذا في النسختين والصواب «داعياً». (٢) في (ب): «من العمالة».

استَحَقُّوا به البشارة، فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ. الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾: وهذا جنسٌ يشملُ كلَّ قولٍ؛ فهم يستمعون جنسَ القول ليميزوا بين ما ينبغي إثارته مما ينبغي اجتنابه؛ فلَهذا كان من حزمهم وعقلهم أَنَّهُم يَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ، وَأَحْسَنُهُ عَلَى الإِطْلَاقِ كَلَامُ اللَّهِ وَكَلَامُ رَسُولِهِ؛ كما قال في هذه السورة: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا...﴾ الآية.

وفي هذه الآية نكتة، وهي أَنَّهُ لما أخبر عن هؤلاء الممدوحين أَنَّهُم يستمعون القول فيتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ؛ كَأَنَّهُ قيل: هل من طريقٍ إلى معرفة أَحْسَنِهِ حتى نَتَّصِفَ بصفات أولي الألباب، وحتى نَعْرِفَ أَنَّ مَنْ أثره عَلِمْنَا أَنَّهُ من أولي الألباب؟ قيل: نعم؛ أَحْسَنُهُ ما نصَّ اللَّهُ عليه بقوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا...﴾ الآية. أولئك الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أولئك الذين هَدَاهُمُ اللَّهُ: لأحسن الأخلاق والأعمال، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾؛ أي: العقول الزاكية، ومن لُبُّهُمْ وحزمهم أَنَّهُم عَرَفُوا الحسن من غيره، وآثروا ما ينبغي إثارته على ما سواه، وهذا علامةُ العقل، بل لا علامةُ للعقل سوى ذلك؛ فَإِنَّ الذي لا يميز بين الأقوال حسنِها وقبيحِها؛ ليس من أهل العقول الصحيحة، أو الذي يميزُ لكنْ غلبت شهوته عقله فبقي عقله تابعاً لشهوته فلم يؤثرِ الأحسن؛ كان ناقصَ العقل.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ۖ﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَوْا رَبَّهُمْ هَلَمْ عُرِفُوا مِنْ فَوْقِهَا عُرِفُوا مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾.

﴿١٩﴾ أي: أفمن وجبت عليه كلمةُ العذاب باستمراره على غِيهِ وعناده وكفرِهِ؛ فَإِنَّهُ لا حيلة لك في هدايته، ولا تقدرُ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ لا محالة.

﴿٢٠﴾ لَكِنَّ الْغَبْنَ كُلَّ الْغَبْنِ وَالْفُوزَ كُلَّ الْفُوزِ لِلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ الْكِرَامَةِ وَأَنْوَاعِ النِّعَمِ مَا لَا يُقَادَرُ قَدْرُهُ، ﴿لَهُمْ عُرْفٌ﴾؛ أي: منازلٌ عاليةٌ مزخرفةٌ من حسنِها وبهائِها وصفائِها أَنَّهُ يُرى ظاهرها من باطنِها وباطنُها من ظاهرها، ومن علوها وارتفاعِها أَنَّهُ تَرى الكوكبَ الغابرُ في الأفقِ الشرقيِّ أو الغربيِّ، ولَهذا قال: ﴿مِنْ فَوْقِهَا عُرْفٌ﴾؛ أي: بعضها فوق بعضٍ ﴿مَبْنِيَّةٌ﴾: بذهب وفضة وملاطها المسكُ الأذفر، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: المتدفقةُ المسقية للساتين الزاهرة والأشجار الطاهرة، فتغلُّ أنواعُ الثمار اللذيذة والفاكهة النضيجة. ﴿وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾: وقد وعد المتقين هذا الثواب؛ فلا بدَّ من الوفاء به؛ فليوفوا بخصال التقوى؛ ليوَفِّيَهُمْ أَجُورَهُمْ.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾ .

﴿٢١﴾ يُذَكِّرُ تعالى أولي الألباب ما أنزله من السماء من الماء، وأنه سلكه ينابيع في الأرض؛ أي: أودعه فيها ينبوعاً يُسْتَخْرَجُ بسهولة ويسر. ﴿ثم يخرجه به زرعاً مختلفاً ألوانه﴾: من بُرٍّ وذرّةٍ وشعيرٍ وأرزٍ وغير ذلك، ﴿ثم يهيج﴾: عند استكمالِهِ أو عند حدوث آفةٍ فيه، ﴿فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً﴾: متكسراً. ﴿إن في ذلك لَذِكْرٍ لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾: يذكرون به عناية ربهم ورحمته بعباده، حيث يسر لهم هذا الماء وخزّنه بخزائن الأرض تبعاً لمصالحهم، ويذكرون به كمال قدرته، وأنه يُحيي الموتى كما أحيا الأرض بعد موتها، ويذكرون به أن الفاعل هو المستحق للعبادة. اللهم! اجعلنا من أولي الألباب، الذين نوهت بذكرهم، وهديتهم بما أعطيتهم من العقول وأزنتهم من أسرار كتابك وبديع آياتك ما لم يصل إليه غيرهم؛ إنك أنت الوهاب.

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ .

﴿٢٢﴾ أي: أفيستوى من شرح الله صدره للإسلام، فأتسع لتلقي أحكام الله والعمل بها منشراحاً قرير العين على بصيرة من أمره، وهو المراد بقوله: ﴿فهو على نورٍ من ربه﴾: كمن ليس كذلك؛ بدليل قوله: ﴿فويلٌ للقاسية قلوبهم من ذكرِ الله﴾؛ أي: لا تلين لكتابه ولا تتذكر آياته ولا تطمئن بذكره، بل هي معرضة عن ربها، ملتفتة إلى غيره؛ فهؤلاء لهم الويل الشديد والشر الكبير. ﴿أولئك في ضلال مبين﴾: وأي ضلال أعظم من ضلال من أغرض عن وليه، ومن كل السعادة في الإقبال عليه، وقسا قلبه عن ذكره، وأقبل على كل ما يضره؟! .

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا فَنَشِعُرُهُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ .

﴿٢٣﴾ يخبر تعالى عن كتابه الذي نزل أنه أحسن الحديث على الإطلاق؛ فأحسن الحديث كلام الله، وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله هذا القرآن، وإذا

كان هو الأحسن؛ عَلِمَ أَنَّ ألفاظه أَفصَحُ الألفاظ وأوضحها، وأنَّ معانيه أَجَلُ المعاني؛ لَأَنَّهُ أَحْسَنُ الحديث في لفظه ومعناه. ﴿متشابهاً﴾: في الحسن والائتلاف وعدم الاختلاف بوجه من الوجوه، حتى إنه كُلُّما تدبَّره المتدبِّر وتفكَّر فيه المتفكِّر؛ رأى من اتِّفَاقه - حتى في معانيه الغامضة - ما يَبْهَرُ الناظرين ويجزم بأنَّه لا يصدُرُ إِلَّا من حكيم عليم، هَذَا المراد بالتَّشَابُه في هَذَا الموضع، وأما في قوله تعالى: ﴿هو الذي أنزَلَ عليك الكتابَ منه آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾؛ فالمرادُ بها: التي تشبَّه على فهم كثير من الناس، ولا يزول هَذَا الاشتباه إِلَّا بِرَدِّهَا إِلَى الْمُحْكَم، ولهذا قال: ﴿منه آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾: فجعل التشابه لبعضه، وهنا جَعَلَهُ كُلَّهُ مُتَشَابِهاً؛ أي: في حسنه؛ لأنَّه قال: ﴿أَحْسَنُ الْحَدِيثِ﴾، وهو سورٌ وآياتٌ، والجميعُ يشبَّه بعضه بعضاً؛ كما ذكرنا. ﴿مثنائي﴾؛ أي: تُثْنَى فيه القصصُ والأحكامُ والوعدُ والوعيدُ وصفاتُ أهل الخير وصفاتُ أهل الشرِّ، وتُثْنَى فيه أسماءُ الله وصفاته، وهَذَا من جلالته وحسنه؛ فَإِنَّهُ تعالى لَمَّا عَلِمَ احتياجَ الخلقِ إِلَى معانيه المَزَكِيَّةِ للقلوبِ المَكْمُلَةِ للأخلاق، وأنَّ تلكَ المعاني للقلوبِ بمنزلةِ الماءِ لسقي الأشجار؛ فكما أَنَّ الأشجارَ كُلُّما بَعْدَ عَهْدِهَا بسقي الماءِ؛ نقصت، بل رُبَّما تَلَفَتْ، وكُلُّما تَكَرَّرَ سقيها؛ حَسُنَتْ وأثمرت أنواعُ الثمارِ النافعة؛ فكذلكَ القلبُ يحتاجُ دائماً إِلَى تَكَرُّرِ معاني كلامِ الله تعالى عليه، وأنَّه لو تَكَرَّرَ عليه المعنى مرةً واحدةً في جميع القرآن؛ لم يَقَعْ منه موقِعاً، ولم تحْصُلِ النتيجةُ منه.

ولهذا سلكْتُ في هَذَا التفسيرِ هَذَا المسلكَ الكريم؛ اقتداءً بما هو تفسيرٌ له؛ فلا تجدُ فيه الحوالةَ على موضعٍ من المواضع، بل كُلُّ موضعٍ تجدُ تفسيرَه كاملاً المعنى غيرَ مراعٍ لما مضى مما يُشَبِّهُهُ، وإنَّ كان بعضُ المواضع يكون أبسطَ من بعضٍ وأكثرَ فائدةً، وهكذا ينبغي للقارئ للقرآنِ المتدبِّر لمعانيه أن لا يَدَعَ التدبُّرَ في جميعِ المواضعِ منه؛ فَإِنَّهُ يحْصُلُ له بسببِ ذَلِكَ خيرٌ كثيرٌ ونفعٌ غزيرٌ. ولما كان القرآنُ العظيمُ بهذه الجلالةِ والعظمةِ؛ أثَّرَ في قلوبِ أولي الألبابِ المهتدين؛ فللهذا قال تعالى: ﴿تَفْشَعُرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾: لما فيه من التخويفِ والترهيبِ المزعج، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾؛ أي: عند ذكر الرجاء والترغيب؛ فهو تارةً يَرْغِبُهُم لعمل الخير، وتارةً يَرْهَبُهُم من عمل الشرِّ. ﴿ذَلِكَ﴾: الذي ذكره الله من تأثير القرآن فيهم ﴿هَدَى اللَّهُ﴾؛ أي: هدايةً منه لعباده، وهو من جملةِ فضله وإحسانه عليهم، ﴿يَهْدِي بِهِ﴾؛ أي: بسببِ ذَلِكَ ﴿مَنْ

يُشَاءُ ﴿٢٤﴾ من عباده. وَيُخْتَمَلُ أَنَّ المرادَ بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾؛ أي: القرآن الذي وَصَفْنَاهُ لَكُمْ ﴿هُدَى اللَّهِ﴾: الذي لا طريقَ يوصلُ إلى الله إِلَّا منه. ﴿يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده، مِمَّنْ حَسَنَ قَصْدُهُ؛ كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾. ﴿وَمَنْ يَضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾: لَأَنَّهُ لا طريقَ يوصلُ إليه إِلَّا توفيقُهُ، والتوفيقُ للإقبال على كتابِهِ، فإذا لم يحصلْ هَذَا؛ فلا سبيلَ إلى الهدى، وما هو إِلَّا الضلالُ المبين والشقاء.

﴿أَفَمَنْ يَتَّقِ بِوَجْهِهِ سَوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَالْتَهُمْ أَلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾.

﴿٢٤﴾ أي: أفيستوي هذا الذي هداه الله، ووفقه لسلوك الطريق الموصلة لدار كرامته كمن كان في الضلال، واستمرَّ على عناده حتى قَدِمَ القيامة فجاءه العذاب العظيم فجعلَ يَتَّقِي بوجهِهِ الذي هو أشرفُ الأعضاء، وأدنى شيءٍ من العذاب يؤثرُ فيه، فهو يَتَّقِي فيه سوءَ العذاب؛ لَأَنَّهُ قد غُلَّتْ يده ورجلاه؟! ﴿وقيل للظالمين﴾: أنفُسَهُم بالكفرِ والمعاصي توبيخاً وتقريعاً: ﴿ذوقوا ما كنتم تكسبون﴾.

﴿٢٥﴾ ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: من الأمم كما كَذَّبَ هؤلاء، ﴿فأتاهم العذابُ من حيثُ لا يشعرون﴾: جاءهم في غفلةٍ أولَ نهارٍ أو هم قائلون.

﴿٢٦﴾ ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ﴾: بذلك العذاب ﴿الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: فافتضحوا عند الله وعند خلقِهِ. ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾: فليحذرْ هؤلاء من المَقَامِ على التكذيبِ فيصيبُهُم ما أصاب أولئك من التعذيب.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿وَأَنَّا عَرَبِيَّاءُ غَيْرِ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾.

﴿٢٧﴾ يخبر تعالى أَنَّهُ ضَرَبَ في القرآن من جميع الأمثال؛ أمثال أهل الخير وأمثال أهل الشرِّ وأمثال التوحيد والشرك، وكلُّ مثلٍ يقربُ حقائق الأشياء والحكمة في ذلك؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: عندما نوضحُ لهم الحقَّ، فيعلمون ويعملون.

﴿٢٨﴾ ﴿قَرَأْنَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾؛ أي: جعلناه قرآناً عَرَبِيًّا واضحَ الألفاظ سهلَ المعاني، خصوصاً على العرب، غير ذي عوج؛ أي: ليس فيه خللٌ ولا نقصٌ بوجهٍ من الوجوه؛ لا في ألفاظه ولا في معانيه. وهذا يستلزمُ كمالَ اعتداله واستقامته؛ كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا. قَيِّمًا﴾. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الله تعالى؛ حيث سهَّلنا عليهم طُرُقَ التقوى العلميَّة والعملية بهذا القرآن العربيَّ المستقيم، الذي ضَرَبَ الله فيه من كلِّ مثل.

﴿٢٩﴾ ثم ضَرَبَ مثلاً للشرك والتوحيد، فقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا﴾؛ أي: عبداً. ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ مِثْلَ شُرَكَائِكَ﴾: فهم كثيرون، وليسوا متَّفِقِينَ على أمرٍ من الأمور وحالةٍ من الحالات حتى تُمَكِّنَ راحته، بل هم متشاكسون متنازعون فيه، كلُّ له مطلبٌ يريد تنفيذه ويريد الآخرَ غيره؛ فما تظنُّ حالَ هذا الرجل مع هؤلاء الشركاء المتشاكسين؟! ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾؛ أي: خالصاً له قد عَرَفَ مقصودَ سيِّده وحصلت له الراحةُ التامة. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾؛ أي: هذان الرجلان ﴿مِثْلًا﴾؟ لا يستويان، كذلك المشرك فيه شركاء متشاكسون، يدعو هذا ثم يدعو هذا، فتراه لا يستقرُّ له قرارٌ ولا يطمئنُّ قلبه في موضع، والموحِّد مخلصٌ لربه، قد خلَّصه الله من الشركة لغيره؛ فهو في أتمِّ راحةٍ وأكمل طمأنينة. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: على تبين الحقِّ من الباطل وإرشاد الجهال. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿٣٠﴾ ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾؛ أي: كلُّكم لا بدُّ أن يموت، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾.

﴿٣١﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾: فيما تنازعتم فيه، فيفصل بينكم بحكمه العادل، ويُجازي كلَّ ما عملَ، أحصاه الله ونسوه.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (٣٢) ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (٣٣) ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٤) ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣٥).

﴿٣٢﴾ يقول تعالى محذراً ومخبراً أنه لا أظلم وأشدُّ ظلماً ﴿مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾: إمَّا بنسبته إلى ما لا يليقُ بجلاله، أو بادعاء النبوة، أو الإخبار بأن الله قال كذا أو أخبر بكذا أو حكم بكذا وهو كاذب؛ فهذا داخلٌ في قوله تعالى:

﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: إِنْ كَانَ جَاهِلًا وَإِلَّا فَهُوَ أَشْنَعُ وَأَشْنَعُ، أَوْ ﴿كَذَّبَ [بِالصِّدْقِ]﴾^(١) إِذْ جَاءَهُ؛ أَي: مَا أَظْلَمَ مِمَّنْ جَاءَهُ الْحَقُّ الْمُؤَيَّدُ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَذَّبَهُ، فَتَكْذِيبُهُ ظُلْمٌ عَظِيمٌ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ رَدَّ الْحَقَّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ لَهُ؛ فَإِنْ كَانَ جَامِعًا بَيْنَ الْكَذْبِ عَلَى اللَّهِ وَالتَّكْذِيبِ بِالْحَقِّ؛ كَانَ ظُلْمًا عَلَى ظُلْمٍ. ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾: يَحْصُلُ بِهَا الْاِسْتِفَاءُ مِنْهُمْ وَأَخْذُ حَقِّ اللَّهِ مِنْ كُلِّ ظَالِمٍ وَكَافِرٍ، ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿٣٣﴾ وَلَمَّا ذَكَرَ الْكَاذِبَ الْمَكْذُوبَ وَجَنَائِثَهُ وَعَقُوبَتَهُ؛ ذَكَرَ الصَّادِقَ الْمَصْذُوقَ وَثَوَابَهُ، فَقَالَ: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾: فِي قَوْلِهِ وَعَمَلِهِ، فَدَخَلَ فِي ذَلِكَ الْأَنْبِيَاءُ وَمَنْ قَامَ مَقَامَهُمْ مِمَّنْ صَدَقَ فِيمَا قَالَهُ عَنْ خَيْرِ اللَّهِ وَأَحْكَامِهِ، وَفِيمَا فَعَلَهُ مِنْ خِصَالِ الصِّدْقِ، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾؛ أَي: بِالصِّدْقِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَجِيءُ الْإِنْسَانُ بِالصِّدْقِ، وَلَكِنْ قَدْ لَا يَصْدُقُ بِهِ بِسَبَبِ اسْتِكْبَارِهِ أَوْ احْتِقَارِهِ لِمَنْ قَالَهُ وَأَتَى بِهِ؛ فَلَا بَدَّ فِي الْمَدْحِ مِنَ الصِّدْقِ وَالتَّصْدِيقِ، فَصَدَّقُهُ يَدُلُّ عَلَى عِلْمِهِ وَعَدْلِهِ، وَتَصْدِيقُهُ يَدُلُّ عَلَى تَوَاضُعِهِ وَعَدَمِ اسْتِكْبَارِهِ. ﴿أُولَئِكَ﴾؛ أَي: الَّذِينَ وَقَفُوا لِلْجَمْعِ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ ﴿هُمْ الْمُتَّقُونَ﴾: فَإِنَّ جَمِيعَ خِصَالِ التَّقْوَى تَرْجِعُ إِلَى الصِّدْقِ بِالْحَقِّ وَالتَّصْدِيقِ بِهِ.

﴿٣٤﴾ ﴿لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: مِنَ الثَّوَابِ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ؛ فَكُلُّ مَا تَعَلَّقَتْ بِهِ إِرَادَتُهُمْ وَمَشِئَتُهُمْ مِنْ أَصْنَافِ اللَّذَاتِ وَالْمَشْتَهَاتِ؛ فَإِنَّهُ حَاصِلٌ لَهُمْ مَعْدُ مَهِيًّا. ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾: الَّذِينَ يَعْبُدُونَ اللَّهَ كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ؛ فَإِنْ لَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهُ؛ فَإِنَّهُ يَرَاهُمْ، الْمُحْسِنِينَ إِلَى عِبَادِ اللَّهِ.

﴿٣٥﴾ ﴿لِيَكْفُرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: عَمَلُ الْإِنْسَانِ لَهُ ثَلَاثُ حَالَاتٍ: إِمَّا أَسْوَأَ، أَوْ أَحْسَنَ، أَوْ لَا أَسْوَأَ وَلَا أَحْسَنَ، وَالْقِسْمُ الْأَخِيرُ قِسْمُ الْمُبَاحَاتِ وَمَا لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ ثَوَابٌ وَلَا عِقَابٌ، وَالْأَسْوَأُ الْمَعَاصِي كُلُّهَا، وَالْأَحْسَنُ الطَّاعَاتُ كُلُّهَا. فَبِهَذَا التَّفْصِيلِ يَتَبَيَّنُ مَعْنَى الْآيَةِ، وَأَنَّ قَوْلَهُ ﴿لِيَكْفُرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾؛ أَي: ذُنُوبَهُمُ الصَّغَارَ وَالْكِبَارَ بِسَبَبِ إِحْسَانِهِمْ وَتَقْوَاهُمْ، ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أَي: بِحَسَنَاتِهِمْ كُلُّهَا، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

(١) فِي السَّخْتِينِ «بِالْحَقِّ».

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۖ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ۝﴾ .

﴿٣٦ - ٣٧﴾ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾؛ أي: أليس من كرمه وجوده وعنايته بعبده الذي قام بعبوديته وامثل أمره واجتنب نهيه، خصوصاً أكمل الخلق عبودية لربه، وهو محمد ﷺ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَكْفِيهِ فِي أَمْرِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ وَيُدْفَعُ عَنْهُ مِنْ نَافِئِهِ بِسُوءٍ. ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾: من الأصنام والأندادِ أَنْ تَنَالَكَ بِسُوءٍ، وَهَذَا مِنْ غِيْهِمْ وَضَلَالِهِمْ. ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ. وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾: لأنه تعالى الذي بيده الهداية والإضلال، وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾: له العزة الكاملة التي فَهَرَّ بِهَا كُلُّ شَيْءٍ، وَبِعَزَّتِهِ يَكْفِي عَبْدَهُ، وَيُدْفَعُ عَنْهُ مَكْرَهُمْ ﴿ذِي انْتِقَامٍ﴾: مَمَّنْ عَصَاهُ، فَاحْذَرُوا مُوجِبَاتِ نَقْمَتِهِ.

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ۝﴾ .

﴿٣٨﴾ أي: ولئن سألت هؤلاء الضلال الذين يخوفونك بالذين من دونه وأقمت عليهم دليلاً من أنفسهم، فقلت: ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: لم يُثْبِتُوا لآلهتهم من خَلْقِهَا شَيْئاً، ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾: الذي خلقها الله وحده. ﴿قُلْ﴾: لهم مقررّاً عجز آلهتهم بعدما بينت قدرة الله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ﴾؛ أي: أخبروني ﴿مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾: أيُّ ضَرٍّ كَانَ، ﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ﴾: بإزالته بالكلية أو بتخفيفه من حال إلى حال؟ ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾: يوصل إليَّ بها منفعة في ديني أو دنياي، ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾: ومانعاتها عني؟ سيقولون: لا يكشفون الضُرَّ ولا يمسكون الرحمة، قل لهم بعدما تبين الدليل القاطع على أنه وحده المعبود، وأنه الخالق للمخلوقات، النافع الضار وحده، وأن غيره عاجز من كل وجه عن الخلق والنفع والضر، مستجلباً كفايته، مستدفعاً مكرهم وكيدهم. ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ أي: عليه يعتمد المعتمدون في جلب مصالحهم ودفع مضارهم، فالذي بيده وحده الكفاية هو حسبي سيكفيني كل ما أهتمني، وما لا أهتم به.

﴿قُلْ يَتَقَوَّمُوا أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٣٩ - ٤٠﴾ أي: ﴿قل﴾ لهم يا أيها الرسول: ﴿يا قوم اعملوا على مكانتكم﴾؛ أي: على حالتكم التي رَضِيتُموها لأنفسِكُم من عبادة من لا يستحق من العبادة شيئاً ولا له من الأمر شيء، ﴿إني عاملٌ﴾: على ما دعوتكم إليه من إخلاص الدين لله تعالى وحده، ﴿فسوف تعلمون﴾: لمن العاقبة و﴿من يأتيه عذابٌ يُخْزِيهِ﴾: في الدنيا، ﴿ويحلُّ عليه﴾: في الأخرى ﴿عذابٌ مُّقِيمٌ﴾: لا يحولُ عنه ولا يزول. وهذا تهديدٌ عظيمٌ لهم، وهم يعلمون أنَّهم المستحقون للعذاب المقيم، ولكن الظلم والعناد حالٌ بينهم وبين الإيمان.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَيْتْ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ بِمُكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

﴿٤١﴾ يخبر تعالى أنه أنزل على رسوله الكتاب المشتمل على الحق في أخباره وأوامره ونواهيه، الذي هو مادة الهداية وبلاغ لمن أراد الوصول إلى الله وإلى دار كرامته، وأنه قامت به الحجة على العالمين. ﴿فمن اهتدى﴾: بنوره واتباع أوامره؛ فإن نفع ذلك يعود إلى نفسه ﴿ومن ضلَّ﴾: بعدما تبين له الهدى ﴿فإنما يضلُّ عليها﴾: لا يضر الله شيئاً. ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾: تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها وتجبرهم على ما تشاء، وإنما أنت مبلغٌ تؤذي إليهم ما أمرت به.

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسَكٍ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿٤٢﴾ يخبر تعالى أنه المتفرّد بالتصرف بالعباد في حال يقظتهم ونومهم وفي حال حياتهم وموتهم، فقال: ﴿اللَّهُ يتوفى الأنفس حين موتها﴾: وهذه الوفاة الكبرى وفاة الموت، وإخباره أنه يتوفى الأنفس وإضافة الفعل إلى نفسه لا ينافي أنه قد وكل بذلك ملك الموت وأعوانه؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾، ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموتُ توفته رُسُلُنَا وهم لا يفرطون﴾؛ لأنه تعالى يضيف الأشياء إلى نفسه باعتبار أنه الخالق المدبر، ويضيفها إلى أسبابها باعتبار أن من سنه تعالى وحكمته أن جعل لكل أمر من الأمور سبباً. وقوله:

﴿وَالَّذِي لَمْ يَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾: وهذه الموتة الصغرى؛ أي: ويمسك النفس التي لم تَمُتْ في منامها، ﴿فِيْمَسِكُ﴾: من هاتين النفسين النفس ﴿التي قضى عليها الموت﴾، وهي نفس مَنْ كان مات أو قُضِيَ أَنْ يَمُوتَ في منامه، ﴿وَيُرْسَلُ﴾ النفس ﴿الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: إلى استكمال رِزْقِهَا وَأَجْلِهَا. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾: على كمال اقتداره وإحيائه الموتى بعد موتهم.

وفي هذه الآية دليلٌ على أَنَّ الرُّوحَ والنفسَ جِسْمٌ قائمٌ بِنَفْسِهِ، مخالفٌ جوهره جَوْهَرُ الْبَدَنِ، وَأَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ مَدْبُرَةٌ يَتَصَرَّفُ اللَّهُ فِيهَا فِي الْوَفَاةِ وَالْإِمْسَاكِ وَالْإِرْسَالِ، وَأَنَّ أَرْوَاحَ الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ تَتَلَقَّى فِي الْبَرْزَخِ فَتَجْتَمِعُ فَتُحَادِثُ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ أَرْوَاحَ الْأَحْيَاءِ، وَيُمْسِكُ أَرْوَاحَ الْأَمْوَاتِ.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَقُولُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿٤٣﴾ ينكر تعالى على مَنْ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ شُفَعَاءَ يَتَعَلَّقُ بِهِمْ وَيَسْأَلُهُمْ وَيَعْبُدُهُمْ، ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ مَبِيتٌ جَهْلُهُمْ وَأَنَّهَا لَا تَسْتَحِقُّ شَيْئًا مِنَ الْعِبَادَةِ: ﴿أُولَئِكَ كَانُوا﴾؛ أي: مَنْ اتَّخَذْتُمْ مِنَ الشُّفَعَاءِ ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾؛ أي: لَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ، بَلْ وَلَيْسَ لَهُمْ عَقْلٌ يَسْتَحْفِظُونَ أَنْ يُمَدِّحُوا بِهِ؛ لِأَنَّهَا جِمَادَاتٌ مِنْ أَحْجَارٍ وَأَشْجَارٍ وَصُورٍ وَأَمْوَاتٍ؛ فَهَلْ يُقَالُ: إِنَّ لِمَنْ اتَّخَذَهَا عَقْلًا، أَمْ هُوَ مِنْ أَضَلِّ النَّاسِ وَأَجْهَلِهِمْ وَأَعْظَمِهِمْ ظِلْمًا؟!

﴿٤٤﴾ ﴿قُلْ﴾: لَهُمْ: ﴿لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾: لِأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ، وَكُلُّ شَفِيعٍ؛ فَهُوَ يَخَافُهُ، وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَشْفَعَ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ؛ فَإِذَا أَرَادَ رَحْمَةً عَبْدِهِ؛ أَذِنَ لِلشَّفِيعِ الْكَرِيمِ عِنْدَهُ أَنْ يَشْفَعَ رَحْمَةً بِالْأَتَنِينِ. ثُمَّ قَرَّرَ أَنَّ الشَّفَاعَةَ كُلَّهَا لَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: جَمِيعٌ مَا [فِيهِمَا]^(١) مِنَ الذَّوَاتِ وَالْأَفْعَالِ وَالصِّفَاتِ؛ فَالْوَاجِبُ أَنْ تُطْلَبَ الشَّفَاعَةُ مِمَّنْ يَمْلِكُهَا وَتُخْلَصَ لَهُ الْعِبَادَةُ. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: فَيَجَازِي الْمَخْلَصَ لَهُ بِالثَّوَابِ الْجَزِيلِ، وَمَنْ أَشْرَكَ بِهِ بِالْعَذَابِ الْوَبِيلِ.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ

دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ .

﴿٤٥ - ٤٦﴾ يَذْكُرُ تَعَالَى حَالَةَ الْمُشْرِكِينَ وَمَا الَّذِي اقْتَضَاهُ شُرْكُهُمْ: أَنَّهُمْ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى تَوْحِيداً لَهُ وَأَمراً بِإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ وَتَرْكِ مَا يَعْبُدُ مِنْ دُونِهِ؛ أَنَّهُمْ يَشْمَتُونَ وَيَنْفَرُونَ وَيَكْرَهُونَ ذَلِكَ أَشَدَّ الْكَرَاهَةِ. ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾: مَنْ الْأَصْنَامُ وَالْأَنْدَادُ، وَدَعَا الدَّاعِي إِلَى عِبَادَتِهَا وَمَدَحِهَا؛ ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾: بِذَلِكَ فَرِحاً بِذِكْرِ مَعْبُودَاتِهِمْ، وَلَكُونِ الشَّرْكَ مُوَافِقاً لَاهْوَانِهِمْ وَهَذِهِ الْحَالُ أَشْرُ الْحَالَاتِ وَأَسْنَعُهَا وَلَكِنْ مَوْعِدُهُمْ يَوْمُ الْجَزَاءِ؛ فَهَنَّاكَ يَوْخَذُ الْحَقُّ مِنْهُمْ وَيُنْظَرُ: هَلْ تَنْفَعُهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شَيْئاً؟! وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أَي: خَالِقُهُمَا وَمُدَبِّرُهُمَا، ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾: الَّذِي غَابَ عَنْ أَبْصَارِنَا وَعِلْمِنَا ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾: الَّذِي نَشَاهَدُهُ، ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وإن من أعظم الاختلاف اختلاف الموحدين المخلصين القائلين: إن ما هم عليه هو الحق وإن لهم الحسنى في الآخرة دون غيرهم، والمشركين الذين اتخذوا من دونك الأنداد والأوثان وسووا بك^(١) من لا يسوى شيئاً، وتنقصوك غاية التنقص، واستبشروا عند ذكر آلهم، واشمازوا عند ذكرك وزعموا مع هذا أنهم على الحق وغيرهم على الباطل وأن لهم الحسنى؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، وقد أخبرنا بالفصل بينهم بعدها بقوله: ﴿هَٰذَانِ خَصِمَانِ اِخْتَصِمَا فِي رَبِّهِمَا فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ...﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾، ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾؛ ففي هذه الآية بيان عموم خلقه تعالى وعموم علمه وعموم حكمه بين عباده؛ فقد رتبه التي نشأت عنها المخلوقات،

(١) في (ب): «فيك».

وعلمهُ المحيطُ بكلِّ شيءٍ دالٌّ على حكمه بين عباده وبعثِهِم وعليهِ بأعمالهم خيرها وشرُّها وبمقاديرِ جزائِها، وخلقُهُ دالٌّ على علمِهِ، ألا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿٤٧﴾ لما ذكر تعالى أنَّ الحاكم بين عباده، وذكر مقالة المشركين وشناعتِها، كأنَّ النفوس تشوَّفت إلى ما يفعل الله بهم يوم القيامة، فأخبر أنَّ لهم سوءَ ﴿العذاب﴾؛ أي: أشدَّه وأفظعه؛ كما قالوا أشدَّ الكفر وأشنَّعه، وأنَّهم على الفرض والتقدير لو كان لهم ما في الأرض جميعاً من ذهبها وفضتها ولؤلئها وحيواناتها وأشجارها وزروعها وجميع أوانيها وأثاثها، ومثله معه، ثم بدَّلوه ﴿يوم القيامة﴾ ليفتدوا به من العذاب وينجوا منه؛ ما قُبِلَ منهم، ولا أغنى عنهم من عذاب الله شيئاً، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنونٌ إلَّا مَنْ أتى الله بقلب سليم. ﴿وبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾؛ أي: يظنون من السخط العظيم والمقَتِّ الكبير، وقد كانوا يحكمون لأنفسهم بغير ذلك.

﴿٤٨﴾ ﴿وبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾؛ أي: الأمور التي تسوؤُهُم بسبب صنيعهم وكَسْبِهِم، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾: من الوعيد والعذاب، نزلَ بهم، وحلَّ عليهم العقابُ.

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا نُمًّا إِذَا حَوْلَتُهُ نِعْمَةٌ مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿٤٩﴾ يخبر تعالى عن حالة الإنسان وطبيعته أنَّه حين يَمَسُّه ضرٌّ من مرض أو شدة أو كرب، ﴿دعانا﴾: ملحاً في تفريج ما نزلَ به، ﴿ثم إذا حَوْلَتُهُ نِعْمَةٌ مِنَّا﴾: فكشفنا ضرَّه، وأزلنا مَشَقَّتَه؛ عاد بربه كافراً ولمعرفه منكراً، و﴿قال إنما أُوتِيتُهُ على علم﴾؛ أي: علم من الله أنَّي له أهلٌ وأُنِّي مستحقٌّ له؛ لأنِّي كريم عليه، أو على علم منِّي بطُرُق تحصيله، قال تعالى: ﴿بل هي فتنة﴾: يبتلي الله به عباده

لِيَنْظُرَ مَنْ يَشْكُرُهُ مِمَّنْ يَكْفُرُهُ. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: فلذلك يعدّون الفتنة منحةً، ويشبّه عليهم الخير المحض بما قد يكون سبباً للخير أو للشر.

﴿٥٠﴾ قال تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: قولهم: ﴿إِنَّمَا أُوتِيَهُ عَلَى عِلْمٍ﴾؛ فما زالت متوارثة عند المكذّبين، لا يقرّون بنعمة ربّهم، ولا يروّون له حقاً، فلم يزل دأبهم حتى أهلكوا، ولم يغنِ عنهم ما كانوا يكسبون: حين جاءهم العذاب!

﴿٥١﴾ ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا﴾: والسيئات في هذا الموضع العقوبات؛ لأنّها تسوء الإنسان وتُخزّئته. ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيَّصِبُ بِهِمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا﴾: فليسوا خيراً من أولئك، ولم يُكْتَبْ لهم براءة في الزُّبر.

﴿٥٢﴾ ولما ذكر أنهم اغترّوا بالمال وزعموا بجهلهم أنّه يدلّ على حسن حال صاحبه؛ أخبرهم تعالى أنّ رزقه لا يدلّ على ذلك، وأنه ﴿يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾: من عباده، سواء كان صالحاً أو طالحاً. ﴿وَيَقْدِرُ﴾: الرزق؛ أي: يضيّقه على مَنْ يشاء صالحاً أو طالحاً؛ فرزقه مشترك بين البريّة، والإيمان والعمل الصالح يخصّ به خير البريّة ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: بسط الرزق وقبضه؛ لعلمهم أنّ مرجع ذلك عائد إلى الحكمة والرحمة، وأنّه أعلم بحال عبده؛ فقد يضيّق عليهم الرزق لطفاً بهم؛ لأنّه لو بسطه؛ لَبَغَوْا في الأرض، فيكون تعالى مراعيّاً في ذلك صلاح دينهم الذي هو مادة سعادتهم وفلاحهم. والله أعلم.

﴿قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿وَأَنِيعُوا أَحْسَنَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمِنَ السَّخِرِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَىٰ الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تِلْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٥٩﴾.

﴿٥٣﴾ يخبر تعالى عباده المسرفين بسعة كرمه، ويحثّهم على الإنابة قبل أن لا يمكنهم ذلك، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا أيّها الرسول ومن قام مقامه من الدّعاة لدين الله

مخبراً للعباد عن ربهم: ﴿يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾: باتباع ما تدعوهم إليه أنفسهم من الذنوب والسعي في مساخطة عَلامِ الغُيوب، ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾؛ أي: لا تيأسوا منها، فَتَلْقُوا بأيديكم إلى التَهْلُكَةِ، وتقولوا: قد كَثُرَتْ ذُنُوبُنَا وتراكمت عيوبُنَا؛ فليس لها طريقٌ يزيلُها ولا سبيلٌ يصرفُها فتبقون بسبب ذلك مصرين على العصيان، متزودين ما يغضب عليكم الرحمن، ولكن اعرفوا ربكم بأسمائِهِ الدَّالَّةِ على كرمِهِ وجودِهِ، واعلموا أَنَّهُ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جميعاً من الشرك والقتل والزنا والربا والظلم وغير ذلك من الذنوب الكبار والصغار. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾؛ أي: وصفهُ المغفرة والرحمة وصفان لازمان ذاتيان لا تنفك ذاته عنهما، ولم تزل آثارُهما سارية في الوجود، ماثلة للموجود، تسخُ يداه من الخيرات آناء الليل والنهار، ويوالي النعم على العباد والفواضل في السر والجهر، والعطاء أحب إليه من المنع، والرحمة سبقت الغضب وغلَبته.

﴿٥٤﴾ ولكن لمغفرته ورحمته وتبليهما أسباب؛ إن لم يأت بها العبد؛ فقد أغلق على نفسه باب الرحمة والمغفرة، أعظمها وأجلها - بل لا سبب لها غيره - الإنابة إلى الله تعالى بالتوبة النصوح، والدُّعاء والتضرُّع والتأله والتعبد؛ فهلم إلى هذا السبب الأجل والطريق الأعظم، ولهذا أمر تعالى بالإنابة إليه والمبادرة إليها، فقال: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾: بقلوبكم، ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾: بجوارحكم، إذا أفرَدت الإنابة؛ دخلت فيها أعمال الجوارح، وإذا جُمِعَ بينهما كما في هذا الموضع؛ كان المعنى ما ذكرنا. وفي قوله: ﴿إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾: دليل على الإخلاص، وأنه من دون إخلاص لا تفيد الأعمال الظاهرة والباطنة شيئاً ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾: مجيئاً لا يذفع، ﴿ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾.

﴿٥٥﴾ فكانه قيل: ما هي الإنابة والإسلام، وما جزئياتها وأعمالها؟ فأجاب تعالى بقوله: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾: مما أمركم من الأعمال الباطنة؛ كمحبة الله وخشيته وخوفه ورجائه والنصح لعباده ومحبة الخير لهم وترك ما يضاؤ ذلك، ومن الأعمال الظاهرة؛ كالصلاة والزكاة [والصيام] والحج والصدقة وأنواع الإحسان ونحو ذلك مما أمر الله به، وهو أحسن ما أنزل إلينا من ربنا، فالمتتبع لأوامر ربّه في هذه الأمور ونحوها هو المنيب المسلم ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾: وكلُّ هذا حثٌّ على المبادرة وانتهاز الفرصة.

﴿٥٦﴾ ثم حذرهم ﴿أن﴾ لا يستمروا على غفلتهم حتى يأتيهم يوم يندمون فيه ولا تنفع الندامة، و﴿تقول نفس﴾ يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله؛ أي: في جانب حقه. ﴿وإن كنت﴾: في الدنيا ﴿لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾: في إتيان الجزاء حتى رأته عياناً.

﴿٥٧﴾ ﴿أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين﴾: و﴿لو﴾ في هذا الموضع للتمني؛ أي: ليت أن الله هداني، فأكون متقياً له، فأسلم من العقاب، وأستحق الثواب، وليست ﴿لو﴾ هنا شرطية؛ لأنها لو كانت شرطية؛ لكانوا محتجين بالقضاء والقدر على ضلالهم، وهي حجة باطلة، ويوم القيامة تضحل كل حجة باطلة.

﴿٥٨﴾ ﴿أو تقول حين ترى العذاب﴾: وتجزم بوروده: ﴿لو أن لي كرامة﴾؛ أي: رجعة إلى الدنيا: لكنت ﴿من المحسنين﴾.

﴿٥٩﴾ قال تعالى في أن ذلك غير ممكن ولا مفيد، وأن هذه أمانى باطلة لا حقيقة لها؛ إذ لا يتجدد للعبد لو ردَّ بيان بعد البيان الأول: ﴿بلى قد جاءتك آياتي﴾: الدالة دلالة لا يمتري فيها على الحق، ﴿فكذبت بها واستكبرت﴾: عن اتباعها، ﴿وكنت من الكافرين﴾: فسؤال الرد إلى الدنيا نوع عبث، فلو ردوا؛ لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون.

﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٦٠) وَيَسْجَى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَقَارِنِهِمْ لَا يَمَسُّهُمْ أَلْسُوءٌ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١).

﴿٦٠﴾ يخبر تعالى عن خزي ﴿الذين كذبوا﴾ عليه، وأن وجوههم يوم القيامة ﴿مسودة﴾: كأنها الليل البهيم، يعرفهم بذلك أهل الموقف، فالحق أبلغ واضح كأنه الصبح؛ فكما سودوا وجه الحق بالكذب؛ سود الله وجوههم جزاء من جنس عملهم؛ فلهم سواد الوجوه ولهم العذاب الشديد في جهنم، ولهذا قال: ﴿أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾: عن الحق، وعن عبادة ربهم، المفترين عليه، بلى والله؛ إن فيها لعقوبة وخزياً وسخطاً يبلغ من المتكبرين كل مبلغ، ويؤخذ الحق منهم بهما^(١)، والكذب على الله يشمل الكذب عليه باتخاذ الشريك والولد والصاحبة، والإخبار عنه بما لا يليق بجلاله، أو ادعاء النبوة، أو القول في شرعه بما لم يقله والإخبار بأنه قاله وشرعه.

(١) في (ب): «بها».

﴿٦١﴾ ولما ذَكَرَ حَالَةَ الْمُتَكَبِّرِينَ؛ ذَكَرَ حَالَةَ الْمُتَّقِينَ، فقال: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾؛ أي: بنجاتهم، وذلك لِأَنَّ مَعَهُم آلَةَ النِّجَاةِ، وَهُوَ تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى، الَّتِي هِيَ الْعُدَّةُ عِنْدَ كُلِّ هَوْلٍ وَشِدَّةٍ. ﴿لَا يَمَسُّهُمْ السُّوءُ﴾؛ أي: العذاب الَّذِي يَسُوؤُهُمْ، ﴿وَلَا هُمْ يَخْزَنُونَ﴾: فَفُتِيَ عَنْهُمْ مَبَاشَرَةُ الْعَذَابِ وَخَوْفُهُ، وَهَذَا غَايَةُ الْأَمَانِ؛ فَلَهُمُ الْأَمْنُ التَّامُّ يَصْحَبُهُمْ حَتَّى يَوْصِلَهُمْ إِلَى دَارِ السَّلَامِ؛ فَحِينَئِذٍ يَأْمَنُونَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَمَكْرُوهٍ، وَتَجْرِي عَلَيْهِمْ نَضْرَةُ النِّعَمِ، وَيَقُولُونَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ، إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاقِبَتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿٦٢﴾ يَخْبُرُ تَعَالَى عَنْ عَظَمَتِهِ وَكَمَالِهِ الْمَوْجِبِ لَخُسْرَانٍ مَنْ كَفَرَ بِهِ، فَقَالَ: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾: هَذِهِ الْعِبَارَةُ وَمَا أَشَبَّهَا مِمَّا هُوَ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ - غَيْرَ اللَّهِ - مَخْلُوقَةٌ؛ ففِيهَا رَدٌّ عَلَى كُلِّ مَنْ قَالَ بِقَدَمِ بَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ؛ كَالْفَلَسَفَةِ الْقَائِلِينَ بِقَدَمِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ، وَكَالْقَائِلِينَ بِقَدَمِ الْأَرْوَاحِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَقْوَالِ أَهْلِ الْبَاطِلِ الْمُتَضَمِّنَةِ تَعْطِيلِ الْخَالِقِ عَنْ خَلْقِهِ، وَلَيْسَ كَلَامُ اللَّهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمَخْلُوقَةِ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ صِفَةُ الْمُتَكَلِّمِ - وَاللَّهُ تَعَالَى بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ أَوَّلُ لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ -؛ فَأَخَذَ أَهْلُ الْإِعْتَزَالِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ وَنَحْوِهَا أَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ أَعْظَمِ الْجَهْلِ؛ فَإِنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَلَمْ يَخْدُثْ لَهُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ مَعْطَلًا عَنْهَا بِوَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ.

وَالشَّاهِدُ مِنْ هَذَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ خَالِقٌ لَجَمِيعِ الْعَالَمِ الْعُلَوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ، وَأَنَّهُ ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾، وَالْوَكَالَةُ التَّامَّةُ لَا بَدَّ فِيهَا مِنْ عِلْمِ الْوَكِيلِ بِمَا كَانَ وَكِيلًا عَلَيْهِ، وَإِحَاطَتِهِ بِتَفَاصِيلِهِ، وَمِنْ قُدْرَةِ تَامَّةٍ عَلَى مَا هُوَ وَكِيلٌ عَلَيْهِ؛ لِيَتِمَّكَنَ مِنَ التَّصَرُّفِ فِيهِ، وَمِنْ حِفْظِ لِمَا هُوَ وَكِيلٌ عَلَيْهِ، وَمِنْ حِكْمَةٍ وَمَعْرِفَةٍ بِوُجُوهِ التَّصَرُّفَاتِ لِيَصْرِفَهَا وَيُدَبِّرَهَا عَلَى مَا هُوَ الْأَلِيُّ؛ فَلَا تَتِمُّ الْوَكَالَةُ إِلَّا بِذَلِكَ كُلِّهِ؛ فَمَا نَقَصَ مِنْ ذَلِكَ؛ فَهُوَ نَقْصٌ فِيهَا. وَمِنْ الْمَعْلُومِ الْمَتَقَرَّرِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَنْزَعٌ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ فِي صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ؛ فإِخْبَارُهُ بِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ؛ يَدُلُّ عَلَى إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ عَلَى تَدْبِيرِهَا، وَكَمَالِ تَدْبِيرِهِ، وَكَمَالِ حِكْمَتِهِ الَّتِي يَضَعُ بِهَا الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا.

﴿٦٣﴾ ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: مفاتيحها علماً وتدبيراً؛ فـ ﴿مَا

يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٤﴾. فَلَمَّا بَيَّنَّ مِنْ عَظَمَتِهِ مَا يَقْتَضِي أَنَّ تَمَتُّلِي الْقُلُوبِ لَهُ إِجْلَالًا وَإِكْرَامًا؛ ذَكَرَ حَالٍ مِنْ عَكْسِ الْقَضِيَّةِ فَلَمْ يَقْدِرْهُ حَقُّ قَدْرِهِ، فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: الدَّالَّةُ عَلَى الْحَقِّ الْيَقِينِ وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ؛ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: خَسَرُوا مَا بِهِ تَصْلُحُ الْقُلُوبُ مِنَ التَّأَلُّهِ وَالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ، وَمَا بِهِ تَصْلُحُ الْأَلْسُنُ مِنْ إِشْغَالِهَا بِذِكْرِ اللَّهِ، وَمَا تَصْلُحُ بِهِ الْجَوَارِحُ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ، وَتَعَوُّضُوا عَنْ ذَلِكَ كُلِّ مَفْسِدٍ لِلْقُلُوبِ وَالْأَبْدَانِ، وَخَسِرُوا جَنَاتِ النِّعَمِ، وَتَعَوُّضُوا عَنْهَا بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ.

﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ تَأْمُرَوْنَ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهُ فَاغْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾.

﴿٦٤﴾ ﴿قل﴾ يا أيها الرسول لهؤلاء الجاهلين الذين دَعَوْكَ إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ: ﴿أَغْيَرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾؛ أَي: هَذَا الْأَمْرُ صَدَرَ مِنْ جَهْلِكُمْ، وَإِلَّا؛ فَلَوْ كَانَ لَكُمْ عِلْمٌ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى الْكَامِلُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، مُسَدِّي جَمِيعِ النِّعَمِ هُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ دُونَ مَنْ كَانَ نَاقِصًا مِنْ كُلِّ وَجْهِ لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ؛ لَمْ تَأْمُرُونِي بِذَلِكَ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الشَّرْكَ بِاللَّهِ مُحِبٌّ لِلْأَعْمَالِ، مُفْسِدٌ لِلْأَحْوَالِ.

﴿٦٥﴾ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾: مِنْ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ، ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾: هَذَا مَفْرَدٌ مُضَافٌ يَعُمُّ كُلَّ عَمَلٍ، فِيهِ نُبُوَّةُ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ أَنَّ الشَّرْكَ مُحِبٌّ لِجَمِيعِ الْأَعْمَالِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ لَمَّا عَدَّدَ كَثِيرًا مِنْ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ؛ قَالَ عَنْهُمْ: ﴿ذَلِكَ هَدَى اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾: دِينُكَ وَآخِرَتُكَ؛ فَبِالشَّرْكِ تُحْبَطُ الْأَعْمَالُ، وَيُسْتَحَقُّ الْعِقَابُ وَالثَّكَالُ.

﴿٦٦﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿بَلِ اللَّهُ فَاغْبُدْ﴾: لَمَّا أَخْبَرَ أَنَّ الْجَاهِلِينَ يَأْمُرُونَهُ بِالشَّرْكِ، وَأَخْبَرَ عَنْ شِنَاعَتِهِ؛ أَمَرَهُ بِالْإِخْلَاصِ، فَقَالَ: ﴿بَلِ اللَّهُ فَاغْبُدْ﴾؛ أَي: أَخْلِصْ لَهُ الْعِبَادَةَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾: اللَّهُ عَلَى تَوْفِيقِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَكَمَا أَنَّهُ [تَعَالَى] يُشْكِرُ عَلَى النِّعَمِ الدُّنْيَوِيَّةِ كَصِحَّةِ الْجِسْمِ وَعَافِيَتِهِ وَحُصُولِ الرِّزْقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ كَذَلِكَ يُشْكِرُ عَلَيْهِ بِالنِّعَمِ الدِّينِيَّةِ؛ كَالْتَوْفِيقِ لِلْإِخْلَاصِ وَالتَّقْوَى، بَلِ نِعَمُ الدِّينِ هِيَ النِّعَمُ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَفِي تَدَبُّرِ أَنَّهَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَالشُّكْرُ لِلَّهِ عَلَيْهَا سَلَامَةٌ مِنْ آفَةِ الْعُجْبِ الَّتِي تُغْرِضُ لكَثِيرٍ مِنَ الْعَامِلِينَ بِسَبَبِ جَهْلِهِمْ، وَإِلَّا؛

فلو عرف العبد حقيقة الحال؛ لم يُعْجَبْ بنعمة تستحق عليه زيادة الشكر.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿٦٧﴾ يقول تعالى: وما قَدَّر هؤلاء المشركون ربَّهم ﴿حَقَّ قَدْرِهِ﴾: ولا عظموه حقَّ تعظيمه، بل فعلوا ما يناقض ذلك من إشراكهم به مَنْ هو ناقص في أوصافه وأفعاله؛ فأوصافه ناقصة من كل وجه، وأفعاله ليس عنده نفع ولا ضرر ولا عطاء ولا منع ولا يملك من الأمر شيئاً، فسوّوا هذا المخلوق الناقص بالخالق الربِّ العظيم، الذي من عظمته الباهرة وقدرته القاهرة أنَّ جميع الأرض يوم القيامة قبضة للرحمن، وأنَّ السماوات على سَعَتِها وعظمها مطويات بيمينه، فلا عظمه حقَّ عظمته مَنْ سَوَّى به غيره، ولا أظلم منه. ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾؛ أي: تنزهه، وتعظم عن شركهم به.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بَشُورَ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿٦٨﴾ لما خَوْفَهُم تعالى من عظمته؛ خَوْفَهُم بأحوال يوم القيامة، ورغبتهم ورهبهم، فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾: وهو قرنٌ عظيم لا يَعْلَمُ عظمته إلا خالقه ومن أطلعه الله على علمه من خلقه، فينفخ فيه إسرافيل عليه السلام أحد الملائكة المقربين وأحد حملة عرش الرحمن؛ ﴿فَصَعِقَ﴾؛ أي: غشي أو مات على اختلاف القولين، ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: كلهم، لَمَّا سَمِعُوا نفخة الصور؛ أزعجتهم من شدتها وعظمتها، وما يعلمون أنها مقدمة له، ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾: ممن ثبتته الله عند النفخة، فلم يَصْعَقْ؛ كالشهداء أو بعضهم وغيرهم، وهذه النفخة الأولى نفخة الصَّعِقِ ونفخة الفزع، ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ﴾: النفخة الثانية؛ نفخة البعث، ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾؛ أي: قد قاموا من قبورهم لبعثهم وحسابهم ينظرون قد تَمَّتْ منهم الخلقة الجسدية والأرواح، وشخصت أبصارهم؛ ﴿يَنْظُرُونَ﴾: ماذا يفعل الله بهم؟

﴿٦٩﴾ «وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا»: علم من هذا أَنَّ الأنوار الموجودة تذهب يوم القيامة وتضمحل، وهو كذلك؛ فَإِنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّ الشَّمْسُ تُكْوَرُ والقَمَرُ يُخْسَفُ والنُّجُومُ تُنْتَثَرُ ويكون الناس في ظلمة؛ فتشرق عند ذلك الأرض بنور ربها عندما يتجلى وينزل للفصل بينهم، وذلك اليوم يَجْعَلُ اللَّهُ لِلْخَلْقِ قُوَّةً، وينشئهم نشأة يَقْوُونَ على أن لا يحرقهم نوره ويتمكنون أيضاً من رؤيته، وإلا؛ فنوره تعالى عظيم، لو كَشَفَهُ؛ لأحرقت سُبحَاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه^(١).

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾؛ أي: كتاب الأعمال وديوانه، وَضِعَ ونُشِرَ ليقراً ما فيه من الحسنات والسيئات؛ كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾، ويقال للعامل من تمام العدل والإنصاف: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾. ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾: لِيُسْأَلُوا عَنِ التَّبْلِيغِ وعن أمهم ويشهدوا عليهم، ﴿وَالشَّهَدَاءَ﴾: من الملائكة والأعضاء والأرض، ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾؛ أي: العدل التام والقسط العظيم؛ لَأَنَّهُ حَسَابٌ صَادِرٌ مِّمَّنْ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَمَنْ هُوَ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَكِتَابُهُ الَّذِي هُوَ اللُّوحُ الْمُحْفُوظُ مُحِيطٌ بِكُلِّ مَا عَمِلُوهُ، وَالْحَفَظَةُ الْكَرَامُ الَّذِينَ لَا يَعْصُونَ رَبَّهُمْ قَدْ كَتَبَتْ عَلَيْهِمْ مَا عَمِلُوهُ، وَأَعْدَلُ الشَّهَدَاءُ قَدْ شَهِدُوا عَلَى ذَلِكَ الْحُكْمِ، فَحُكِمَ بِذَلِكَ مَنْ يَعْلَمُ مَقَادِيرَ الْأَعْمَالِ وَمَقَادِيرَ اسْتِحْقَاقِهَا لِلثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، فَيَحْصُلُ حُكْمٌ يَقْرَأُ بِهِ الْخَلْقُ، وَيَعْتَرِفُونَ لِلَّهِ بِالْحَمْدِ وَالْعَدْلِ، وَيَعْرِفُونَ بِهِ مِنْ عَظَمَتِهِ وَعِلْمِهِ وَحُكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ مَا لَمْ يَخْطُرْ بِقُلُوبِهِمْ، وَلَا تَعْبُرُ عَنْهُ أَلْسِنُهُمْ.

﴿٧٠﴾ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِمَا قَسَّيْتُمُوهَا فَتَبَخَّرْتُمْ عَلَيْهَا قِيلَ ادْخُلُوا هَٰذِهِ سَبِيلَكُمْ فَبِأَظْفَارِكُمْ أُخْرِجْتُمْ مِّنْهَا وَيُؤْتَىٰ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْبَحَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ

(١) كما في «صحيح مسلم» (١٧٩) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدُّهُ وَأَوْزَنَّا الْأَرْضَ نَنبَرُأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾
وَرَبِّ الْمَلَائِكَةِ حَافِيَتٍ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ
لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾ .

﴿٧١﴾ لما ذَكَرَ تعالى حُكْمَهُ بَيْنَ عِبَادِهِ الَّذِينَ جَمَعَهُمْ فِي خَلْقِهِ وَرِزْقِهِ وَتَدْبِيرِهِ
وَاجْتِمَاعِهِمْ فِي مَوْقِفِ الْقِيَامَةِ؛ فَرَفَّهَمُ تَعَالَى عِنْدَ جَزَائِهِمْ كَمَا افْتَرَقُوا فِي الدُّنْيَا
بِالْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ وَالتَّقْوَى وَالْفُجُورِ، فَقَالَ: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ﴾؛ أَيِ:
سَوْقًا عَنِيفًا، يُضْرَبُونَ بِالسَّيَاطِ الْمَوْجِعَةِ مِنَ الزَّبَانِيَةِ الْغَلَاطِ الشَّدَادِ، إِلَى شَرِّ مَحْبَسٍ
وَأَفْظَعِ مَوْضِعٍ، وَهِيَ جَهَنَّمُ، الَّتِي قَدْ جَمَعَتْ كُلَّ عَذَابٍ، وَخَضَرُهَا كُلُّ شَقَاءٍ،
وَزَالَ عَنْهَا كُلُّ سُرُورٍ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دُعَاءً﴾؛ أَيِ:
يُدْفَعُونَ إِلَيْهَا دَفْعًا، وَذَلِكَ لَامْتِنَاعِهِمْ مِنْ دُخُولِهَا وَيُسَاقُونَ إِلَيْهَا، ﴿زَمْرًا﴾؛ أَيِ:
فِرْقًا مُتَفَرِّقَةً، كُلُّ زَمْرَةٍ مَعَ الزَمْرَةِ الَّتِي تَنَاسَبَ عَمَلُهَا وَتَشَاكُلُ سَعْيِهَا، يَلْعَنُ بَعْضُهُمْ
بَعْضًا وَيَبْرَأُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، ﴿حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا﴾؛ أَيِ: وَصَلُوا إِلَى سَاحَتِهَا،
﴿فُتِحَتْ﴾: لَهُمْ؛ أَيِ: لِأَجْلِهِمْ ﴿أَبْوَابُهَا﴾: لِقُدُومِهِمْ وَقُرَى لِنَزُولِهِمْ، ﴿وَقَالَ لَهُمْ
خَزَنَتُهَا﴾: مَهْتَبِينَ لَهُمْ بِالشَّقَاءِ الْأَبَدِيِّ وَالْعَذَابِ السَّارِمِيِّ، وَمَوْبُخِينَ لَهُمْ عَلَى
الْأَعْمَالِ الَّتِي أَوْصَلَتْهُمْ إِلَى هَذَا الْمَحَلِّ الْفَظِيعِ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾؛ أَيِ: مِنْ
جَنَسِكُمْ، تَعْرِفُونَهُمْ وَتَعْرِفُونَ صِدْقَهُمْ، وَتَتِمَكَّنُونَ مِنَ التَّلَقِّيِ عَنْهُمْ، ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ
آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾: الَّتِي أَرْسَلَهُمُ اللَّهُ بِهَا، الدَّالَّةُ عَلَى الْحَقِّ الْيَقِينِ بِأَوْضَحِ الْبَرَاهِينِ،
﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾؛ أَيِ: وَهَذَا يُوجِبُ عَلَيْكُمْ اتِّبَاعَهُمْ وَالْحَذَرَ مِنْ
عَذَابِ هَذَا الْيَوْمِ بِاسْتِعْمَالِ تَقْوَاهُ، وَقَدْ كَانَتْ حَالُكُمْ بِخِلَافِ هَذِهِ الْحَالِ، ﴿قَالُوا﴾:
مَقْرَبِينَ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْ حُجَّةَ اللَّهِ قَامَتْ عَلَيْهِمْ: ﴿بَلَى﴾: قَدْ جَاءَنَا رُسُلٌ رَبَّنَا بِآيَاتِهِ
وَبَيِّنَاتِهِ، وَبَيَّنَّا لَنَا غَايَةَ التَّبْيِينِ، وَحَذَرْنَا مِنْ هَذَا الْيَوْمِ. ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ
عَلَى الْكَافِرِينَ﴾؛ أَيِ: بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَجَبَتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ الَّتِي هِيَ لِكُلِّ مَنْ
كَفَرَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَجَحَّدَ مَا جَاءَتْ بِهِ الْمُرْسَلُونَ، فَاعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ وَقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ.

﴿٧٢﴾ فَقِيلَ لَهُمْ عَلَى وَجْهِ الْإِهَانَةِ وَالْإِذْلَالِ: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾: كُلُّ
طَائِفَةٍ تَدْخُلُ مَعَ الْبَابِ الَّذِي يَنَاسِبُهَا وَيُؤَافِقُ عَمَلَهَا، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: أَبَدًا لَا
يُظْعَنُونَ عَنْهَا وَلَا يُفْتَرَّ عَنْهُمْ الْعَذَابُ سَاعَةً وَلَا يُنْظَرُونَ، ﴿فَبَشِّرْهُمُ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾؛
أَيِ: بِشَرِّ الْمَقَرِّ النَّارِ مَقْرَهُمْ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ تَكَبَّرُوا عَلَى الْحَقِّ، فَجَازَاهُمُ اللَّهُ مِنْ
جَنَسِ عَمَلِهِم بِالْإِهَانَةِ وَالْإِذْلَالِ وَالْخِزْيِ.

﴿٧٣﴾ ثم قال عن أهل الجنة: ﴿وسيق الذين اتَّقُوا رَبَّهم﴾: بتوحيده والعمل بطاعته سَوَقَ إكرام وإعزاز يُخْشَرون وقدَّأ على النجائب ﴿إلى الجنة زُمرًا﴾: فرحين مستبشرين، كلُّ زمرة مع الزمرة التي تناسبُ عملها وتشاكله، ﴿حتى إذا جاؤوها﴾؛ أي: وصلوا لتلك الرحاب الرحبية والمنازل الأنيقة، وهبَّ عليهم ريحها ونسيمها وأنَّ خلودها ونعيمها، ﴿وفُتِحَتْ﴾ لهم ﴿أبوابها﴾: فُتِحَ إكرام لكرام الخلق ليُكرَّموا فيها، ﴿وقال لهم خزنتُها﴾: تهنئة لهم وترحيباً: ﴿سلامٌ عليكم﴾؛ أي: سلامٌ من كلِّ آفةٍ وشرِّ حالٍ عليكم ﴿طِبْتُمْ﴾؛ أي: طابت قلوبكم بمعرفة الله ومحبيته وخشيته، وألستكم بذكره وجوارحكم بطاعته. ﴿فد﴾ بسبب طيبكم ﴿ادخلوها خالدين﴾: لأنَّها الدارُ الطيبة، ولا يَلِيقُ بها إلا الطيبون. وقال في النار: ﴿فُتِحَتْ أبوابُها﴾، وفي الجنة ﴿وفُتِحَتْ﴾: بالواو؛ إشارةً إلى أنَّ أهل النارَ بمجرَّد وصولهم إليها؛ فُتِحَتْ لهم أبوابها من غير إنظارٍ ولا إمهال، وليكونَ فُتْحُها في وجوههم وعلى وصولهم أعظمَ لحرِّها وأشدَّ لعذابها، وأمَّا الجنة؛ فإنَّها الدارُ العاليةُ الغالية، التي لا يوصلُ إليها ولا ينالها كلُّ أحدٍ إلَّا مَنْ أتى بالوسائل الموصلة إليها، ومع ذلك؛ فيحتاجون لدُخولها لشفاعةٍ أكرم الشفعاء عليه، فلم تُفْتَحْ لهم بمجرَّد ما وصلوا إليها، بل يستشفعون إلى الله بمحمدٍ ﷺ، حتى يشفع، فيشفعه الله تعالى^(١).

وفي الآيات دليلٌ على أنَّ النارَ والجنةَ لهما أبوابٌ تُفْتَحُ وتُغْلَقُ، وأنَّ لكلٍّ منهما خزنة، وهما الدارانِ الخالصتانِ اللتانِ لا يَدْخُلُ فيهما إلَّا مَنْ استَحَقَّهما؛ بخلاف سائر الأمكنة والدُّور.

﴿٧٤﴾ ﴿وقالوا﴾ عند دخولهم فيها واستقرارهم حامدين ربهم على ما أولاهم ومنَّ عليهم وهداهم: ﴿الحمدُ لله الذي صدَّقنا وعده﴾؛ أي: وَعَدَنَا الجنة على ألسنة رسله أن آمنا وصلَّحنا؛ فوفي لنا بما وَعَدَنَا وأنجزَ لنا ما مَنَّا، ﴿وأورثنا الأرض﴾؛ أي: أرض الجنة ﴿نَتَّبِعُوا من الجنة حيثُ نشاء﴾؛ أي: ننزل منها أيَّ مكان شِئنا، ونتناول منها أيَّ نعيم أرذنا، ليس ممنوعاً عنَّا شيء نريدُه، ﴿فنعم أجرُ العاملين﴾: الذين اجتهدوا بطاعة ربهم في زمنٍ قليلٍ منقطع، فنالوا بذلك خيراً عظيماً باقياً مستمراً. وهذه الدارُ التي تستحقُّ المدحَ على الحقيقة، التي يُكْرِمُ الله

(١) كما في «صحيح البخاري» (٤٧١٢)، و«صحيح مسلم» (١٩٤).

فيها خواص خلقه، ورضيها الجواد الكريم لهم نزلًا، وبنى أعلاها وأحسنها وعرسها بيده وحشاها من رحمته وكرامته ما ببعضه يفرح الحزين، ويزول الكدر، ويتم الصفاء.

﴿٧٥﴾ ﴿وترى الملائكة﴾: أيها الرائي ذلك اليوم العظيم ﴿حافين من حول العرش﴾؛ أي: قد قاموا في خدمة ربهم واجتمعوا حول عرشه خاضعين لجلاله معترفين بكماله مستغريقين بجماله، ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾؛ أي: ينزهونه عن كل ما لا يليق بجلاله مما نسب إليه المشركون وما لم ينسبوا. ﴿وقضي بينهم﴾؛ أي: بين الأولين والآخرين من الخلق ﴿بالحق﴾: الذي لا اشتباه فيه ولا إنكار ممن عليه الحق. ﴿وقيل الحمد لله رب العالمين﴾: لم يذكر القائل من هو؛ ليدل ذلك على أن جميع الخلق نطقوا بحمد ربهم وحكمته على ما قضى به على أهل الجنة وأهل النار، حمد فضل وإحسان، وحمد عدل وحكمة.

تم تفسير سورة الزمر بحمد الله وعونه.



تفسير سورة المؤمن

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ ۝ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ۝﴾.

﴿١ - ٣﴾ يخبر تعالى عن كتابه العظيم وأنه صادر ومنزل من الله المألوه المعبود لكماله وانفراذه بأفعاله. ﴿العزیز﴾: الذي قهر بعزته كل مخلوق. ﴿العليم﴾: بكل شيء، ﴿غافر الذنب﴾: للمذنبين، ﴿وقابل التوب﴾: من التائبين، ﴿شديد العقاب﴾: على من تجرأ على الذنوب ولم يتب منها، ﴿ذي الطول﴾؛ أي: التفضل والإحسان الشامل. فلما قرر ما قرر من كماله، وكان ذلك موجباً لأن يكون وحده المألوه الذي تخلص له الأعمال؛ قال: ﴿لا إله إلا هو إليه المصير﴾.

ووجه المناسبة بذكر نزول القرآن من الله الموصوف بهذه الأوصاف أن هذه الأوصاف مستلزمة لجميع ما يشتمل عليه القرآن من المعاني؛ فإن القرآن: إما إخبار

عن أسماء الله وصفاته وأفعاله، وهذه أسماء وأوصاف وأفعال. وإما إخبار عن الغيوب الماضية والمستقبل؛ فهي من تعليم العليم لعباده. وإما إخبار عن نعمه العظيمة وآلائه الجسيمة وما يوصل إلى ذلك من الأوامر؛ فذلك يدل عليه قوله: ﴿ذِي الطُّولِ﴾. وإما إخبار عن نعيمه الشديدة وعمّا يوجبها ويقتضيها من المعاصي؛ فذلك يدل عليه قوله: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾. وإما دعوة للمذنبين إلى التوبة والإنابة والاستغفار؛ فذلك يدل عليه قوله: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾. وإما إخبار بأنه وحده المألوه المعبود وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على ذلك والحث عليه والنهي عن عبادة ما سوى الله وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على فسادها والترهيب منها؛ فذلك يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾. وإما إخبار عن حكمه الجزائي العدل وثواب المحسنين وعقاب العاصين؛ فهذا يدل عليه قوله: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾. فهذا جميع ما يشتمل عليه القرآن من المطالب العليات.

﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْزِرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبَلَدِ ۝ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَيَجْعَلُوا يَابِطِلَ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۝﴾.

﴿٤﴾ يخبر تبارك وتعالى أنه ما يجادل في آياته إلا الذين كفروا، والمراد بالمجادلة هنا المجادلة لرد آيات الله ومقابلتها بالباطل؛ فهذا من صنيع الكفار، وأما المؤمنون؛ فيخضعون للحق ليدحضوا به الباطل^(١)، ولا ينبغي للإنسان أن يغتر بحالة الإنسان الدنيوية ويظن أن إعطاء الله إياه في الدنيا دليل على محبته له وأنه على الحق، ولهذا قال: ﴿فَلَا يَغْزِرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبَلَادِ﴾؛ أي: ترددهم فيها بأنواع التجارات والمكاسب، بل الواجب على العبد أن يغتبر الناس بالحق وينظر إلى الحقائق الشرعية ويزن بها الناس، ولا يزن الحق بالناس كما عليه من لا علم ولا عقل له.

﴿٥﴾ ثم هدد من جادل بآيات الله لينبطلها كما فعل من قبله من الأمم من ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ وعاد ﴿وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، الذين تحزبوا وتجمعوا على الحق ليبطلوه

(١) كذا في (أ). وفي (ب): «فيخضعون لله تعالى الذي يلقي الحق ليدحض به الباطل».

وعلى الباطل لينصروه، ﴿و﴾ أَنَّهُ بَلَغَتْ بِهِمُ الْحَالُ وَأَلَّ بِهِمُ التَّحَرُّبُ إِلَى أَنَّهُ هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ: مِنَ الْأُمَمِ ﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾؛ أَي: يَقْتُلُوهُ، وَهَذَا أَبْلَغُ مَا يَكُونُ لِلرُّسُلِ، الَّذِينَ هُمْ قَادَةُ أَهْلِ الْخَيْرِ، الَّذِينَ مَعَهُمُ الْحَقُّ الصَّرْفُ، الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا اشْتِبَاهَ، هُمُومًا بِقَتْلِهِمْ؛ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْبَغْيِ وَالضَّلَالِ وَالشَّقَاءِ إِلَّا الْعَذَابُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا يَخْرُجُونَ مِنْهُ؟! وَلِهَذَا قَالَ فِي عِقَابِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةَ وَالْآخِرَوِيَّةَ: ﴿فَأَخَذْتَهُمْ﴾؛ أَي: بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ وَتَحَرُّبِهِمْ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُ﴾: كَانَ أَشَدَّ الْعِقَابِ وَأَفْظَعَهُ، إِنَّهُ هُوَ ^(١) إِلَّا صِيحَّةٌ أَوْ حَاصِبٌ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ، أَوْ يَأْمُرُ الْأَرْضَ أَنْ تَأْخُذَهُمْ أَوْ الْبَحْرَ أَنْ يُغْرَقَهُمْ؛ فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ.

﴿٦﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا؛ أَي: كَمَا حَقَّتْ عَلَى أَوْلَئِكَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الضَّلَالِ الَّتِي نَشَأَتْ عَنْهَا كَلِمَةُ الْعَذَابِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحَقْتُمْ وَذَلِكَ هُوَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾

﴿٧﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كَمَالِ لَطْفِهِ تَعَالَى بِعِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا قِيَّضَ لَأَسْبَابِ سَعَادَتِهِمْ مِنَ الْأَسْبَابِ الْخَارِجَةِ عَنْ قُدْرِهِمْ مِنْ اسْتِغْفَارِ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ لَهُمْ وَدَعَائِهِمْ لَهُمْ بِمَا فِيهِ صَلَاحُ دِينِهِمْ وَآخِرَتِهِمْ، وَفِي ضَمَنِ ذَلِكَ الْإِخْبَارِ عَنْ شَرَفِ حَمَلَةِ الْعَرْشِ وَمَنْ حَوْلَهُ وَقُرْبِهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ وَكَثْرَةِ عِبَادَتِهِمْ وَنُصْحِهِمْ لِعِبَادِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ أَنْ اللَّهَ يُحِبُّ ذَلِكَ مِنْهُمْ، فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾؛ أَي: عَرْشِ الرَّحْمَنِ، الَّذِي هُوَ سَقْفُ الْمَخْلُوقَاتِ وَأَعْظَمُهَا وَأَوْسَعُهَا وَأَحْسَنُهَا وَأَقْرَبُهَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، الَّذِي وَسِعَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ وَالْكَرْسِيِّ، وَهَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةُ قَدْ وَكَّلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِحَمْلِ عَرْشِهِ الْعَظِيمِ؛ فَلَا شَكَّ أَنَّهُمْ مِنْ أَكْبَرِ الْمَلَائِكَةِ وَأَعْظَمِهِمْ وَأَقْوَامِهِمْ، وَاخْتِيَارَ اللَّهُ لَهُمْ لِحْمَلِ عَرْشِهِ وَتَقْدِيمِهِمْ فِي الذِّكْرِ وَقُرْبِهِمْ مِنْهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ أَفْضَلُ

أجناس الملائكة عليهم السلام؛ قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾، ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾: من الملائكة المقرَّبين في المنزلة والفضيلة، ﴿يَسْبَحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾: هذا مدح لهم بكثرة عبادتهم لله تعالى، وخصوصاً التسبيح والتحميد، وسائر العبادات تدخل في تسبيح الله وتحميده؛ لأنها تنزيه له عن كون العبد يصرفها لغيره وحمد له تعالى، بل الحمد هو العبادة لله تعالى، وأما قول العبد: «سبحان الله وبحمده»؛ فهو داخل في ذلك، وهو من جملة العبادات، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾: وهذا من جملة فوائد الإيمان وفضائله الكثيرة جداً؛ أن الملائكة الذين لا ذنوب عليهم يستغفرون لأهل الإيمان؛ فالمؤمن بإيمانه تسبب لهذا الفضل العظيم.

ولما كانت المغفرة لها لوازم لا تتم إلا بها - غير ما يتبادر إلى كثير من الأذهان أن سؤالها وطلبها غاية مجرد مغفرة الذنوب - ذكر تعالى صفة دعائهم لهم بالمغفرة بذكر ما لا تتم إلا به، فقال: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾: فعلمك قد أحاط بكل شيء، لا يخفى عليك خافية ولا يعزُب عن علمك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ورحمتك وسعت كل شيء؛ فالكون علويّه وسفليّه قد امتلأ برحمة الله تعالى، ووسعتهم، ووصل إلى ما وصل إليه خلقه، ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾: من الشرك والمعاصي، ﴿وَاتَّبِعُوا سَبِيلَكَ﴾: باتباع رسلك بتوحيديك وطاعتك، ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾؛ أي: قهم العذاب نفسه، وقهم أسباب العذاب.

﴿٨﴾ ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنِ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾: على السنة رسلك ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾؛ أي: صلح بالإيمان والعمل الصالح ﴿مَنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾: زوجاتهم وأزواجهن وأصحابهم ورفقائهم ﴿وَوَدَّرِيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾: القاهر لكل شيء؛ فبِعزَّتِكَ تغفر ذنوبهم، وتكشف عنهم المحذور، وتوصلهم بها إلى كل خير. ﴿الْحَكِيمُ﴾: الذي يضع الأشياء مواضعها؛ فلا نسألك يا ربنا أمراً تقتضي حكمتك خلافاً، بل من حكمتك التي أخبرت بها على السنة رسلك واقتضاها فضلك المغفرة للمؤمنين.

﴿٩﴾ ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾؛ أي: الأعمال السيئة وجزاءها؛ لأنها تسوء صاحبها، ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾: لأن رحمتك لم تزل مستمرة على العباد، لا يمنعها إلا ذنوب العباد وسيئاتهم؛ فمن وقته السيئات؛

وَفَقَّهَ لِلْحَسَنَاتِ وَجَزَائِهَا الْحَسَنَ. ﴿وَذَلِكَ﴾؛ أَي: زوال المحذور بوقاية السيئات وحصول المحبوب بحصول الرحمة؛ ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: الذي لا فوز مثله، ولا يتنافس المتنافسون بأحسن منه.

وقد تَضَمَّنَ هَذَا الدُّعَاءُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ: كَمَالُ مَعْرِفَتِهِمْ بِرَبِّهِمْ، وَالتَّوَسُّلُ إِلَى اللَّهِ بِأَسْمَائِهِ الْحَسَنَى الَّتِي يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ التَّوَسُّلُ بِهَا إِلَيْهِ، وَالدُّعَاءُ بِمَا يَنَاسِبُ مَا دَعَا اللَّهَ فِيهِ. فَلَمَّا كَانَ دَعَاؤُهُمْ بِحَصُولِ الرَّحْمَةِ وَإِزَالَةِ أَثَرِ مَا اقْتَضَتْهُ النُّفُوسُ الْبَشَرِيَّةُ الَّتِي عَلَّمَ اللَّهُ نَقْصَهَا وَاقْتِضَاءَهَا لَمَّا اقْتَضَتْهُ مِنَ الْمَعَاصِي وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْمُبَادِيءِ وَالْأَسْبَابِ الَّتِي قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا عِلْمًا؛ تَوَسَّلُوا بِالرَّحِيمِ الْعَلِيمِ. وَتَضَمَّنَ كَمَالُ أَدْبِهِمْ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى بِإِقْرَارِهِمْ بِرَبِّيَّتِهِ لَهُمُ الرِّبَوِيَّةُ الْعَامَّةُ وَالْخَاصَّةُ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، وَإِنَّمَا دَعَاؤُهُمْ لِرَبِّهِمْ صَدْرٌ مِنْ فَقِيرٍ بِالذَّاتِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ لَا يُدْلِي عَلَى رَبِّهِ بِحَالَةٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، إِنَّهُ هُوَ إِلَّا فَضْلُ اللَّهِ وَكَرَمُهُ وَإِحْسَانُهُ. وَتَضَمَّنَ مُوَافَقَتَهُمْ لِرَبِّهِمْ تَمَامَ الْمَوَافَقَةِ؛ بِمُحَبَّةٍ مَا يُحِبُّهُ مِنَ الْأَعْمَالِ، الَّتِي هِيَ الْعِبَادَاتُ الَّتِي قَامُوا بِهَا وَاجْتَهَدُوا اجْتِهَادَ الْمُحِبِّينَ، وَمِنَ الْعَمَالِ الَّذِينَ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ يُحِبُّهُمْ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ بَيْنِ خَلْقِهِ؛ فَسَائِرُ الْخَلْقِ الْمَكْلُوفِينَ يَبْغِضُهُمُ اللَّهُ إِلَّا الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ؛ فَمِنْ مُحَبَّةِ الْمَلَائِكَةِ لَهُمْ دَعَاؤُ اللَّهِ وَاجْتِهَادُهُ فِي صَلَاحِ أَحْوَالِهِمْ؛ لِأَنَّ الدُّعَاءَ لِلشَّخْصِ مِنْ أَدْلُ الدَّلَائِلِ عَلَى مُحَبَّتِهِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَدْعُو إِلَّا لِمَنْ يُحِبُّهُ.

وتضمن ما شرحه الله، وفصله من دعائهم - بعد قوله: ﴿يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ - التَّوْبَةَ اللَّطِيفَةَ عَلَى كَيْفِيَّةٍ تَدَبَّرَ كِتَابُهُ، وَأَنْ لَا يَكُونَ الْمُتَدَبِّرُ مُقْتَصِرًا عَلَى مُجَرَّدِ مَعْنَى اللَّفْظِ بِمُفْرَدِهِ، بَلْ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَدَبَّرَ مَعْنَى اللَّفْظِ؛ فَإِذَا فَهَمَهُ فَهَمًا صَحِيحًا عَلَى وَجْهِهِ؛ نَظَرَ بِعَقْلِهِ إِلَى ذَلِكَ الْأَمْرِ وَالطَّرِيقِ الْمَوْصِلَةِ إِلَيْهِ، وَمَا لَا يَتِمُّ إِلَّا بِهِ، وَمَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ؛ وَجَزَمَ بِأَنَّ اللَّهَ أَرَادَهُ؛ كَمَا يَجْزَمُ أَنَّهُ أَرَادَ الْمَعْنَى الْخَاصَّ الدَّالَّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ، وَالَّذِي يُوجِبُ الْجَزْمَ لَهُ، بِأَنَّ اللَّهَ أَرَادَهُ أَمْرَانِ: أَحَدُهُمَا: مَعْرِفَتَهُ وَجَزَمَهُ بِأَنَّهُ مِنْ تَوَابِعِ الْمَعْنَى وَالتَّوَقُّفِ عَلَيْهِ. الثَّانِي: عَلِمَهُ بِأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ عِبَادَهُ بِالتَّوْبَةِ وَالتَّفَكُّرِ فِي كِتَابِهِ. وَقَدْ عَلَّمَ تَعَالَى مَا يَلْزَمُ مِنْ تِلْكَ الْمَعَانِي، وَهُوَ الْمَخْبَرُ بِأَنَّ كِتَابَهُ هَدًى وَنُورٌ وَتَبْيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّهُ أَفْصَحُ الْكَلَامِ وَأَجْلَهُ إِضَاحًا؛ فَبِذَلِكَ يَحْصُلُ لِلْعَبْدِ مِنَ الْعِلْمِ الْعَظِيمِ وَالْخَيْرِ الْكَثِيرِ بِحَسَبِ مَا وَفَّقَهُ اللَّهُ لَهُ.

وقد كان في تفسيرنا هذا كثيرٌ من هذا من به الله علينا، وقد يخفى في بعض

الآيات مأخذه على غير المتأمل صحيح الفكرة، ونسأله تعالى أن يفتح علينا من خزائن رحمته ما يكون سبباً لصلاح أحوالنا وأحوال المسلمين، فليس لنا إلا التعلق بكرمه والتوسل بإحسانه الذي لا نزال نتقلب فيه في كل الآفات وفي جميع اللحظات، ونسأله من فضله أن يقينا شر أنفسنا المانع والمعوق لوصول رحمته؛ إنه الكريم الوهاب، الذي تفضل بالأسباب ومسبباتها. وتضمن ذلك أن المقارن من زوج وولد وصاحب يسعد بقرينه ويكون اتصاله به سبباً لخير يحصل له خارج عن عمله، وسبب عمله؛ كما كانت الملائكة تدعو للمؤمنين ولمن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، وقد يقال: إنه لا بد من وجود صلاحهم؛ لقوله: ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾؛ فحيث يكون ذلك من نتيجة عملهم. والله أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَفْتِنَا أَفَئِنَّا لَفَهِلَ بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَسَّلُوا فَلَئِنْ لَبِثَكُمْ فِيهِ أَلْعَلَّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿١٠﴾ يخبر تعالى عن الفضيحة والخزي الذي يصيب الكافرين وسؤالهم الرجعة والخروج من النار، وامتناع ذلك عليهم وتوبيخهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أطلقه ليشمل أنواع الكفر كلها من الكفر بالله أو بكتبه أو برسله أو باليوم الآخر، حين يدخلون النار، ويقرؤون أنهم مستحقون لها؛ لما فعلوه من الذنوب والأوزار، فيمقتون أنفسهم لذلك أشد المقت، ويعضبون عليها غاية الغضب، فينادون عند ذلك ويقال لهم: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ﴾؛ أي: إياكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون؛ أي: حين دعيتكم الرسل وأتباعهم إلى الإيمان، وأقاموا لكم من البينات ما تبين به الحق، فكفرتم وزهدتم في الإيمان الذي خلقكم الله له، وخرجتم من رحمته الواسعة، فمقتكم وأبغضكم؛ فهذا ﴿أكبر من مقتكم أنفسكم﴾؛ أي: فلم يزل هذا المقت مستمراً عليكم، والسخط من الكريم حالاً بكم، حتى آلت بكم الحال إلى ما آلت؛ فالיום حل عليكم غضب الله وعقابه، حين نال المؤمنون رضوان الله وثوابه.

﴿١١﴾ فتمنوا الرجوع و﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَفْتِنَا﴾: يريدون الموت الأولى وما بين النفختين على ما قيل، أو العدم المحض قبل إيجادهم ثم أماتهم بعد ما أوجدتهم، و﴿وَأَخْيَيْنَا أَفْتِنَا﴾: الحياة الدنيا والحياة الأخرى، ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ﴾

من سبيل ﴿١٢﴾ أي: تحسروا وقالوا ذلك، فلم يفد ولم ينجع.

﴿١٢﴾ ووبّخوا على عدم فعل أسباب النجاة، فقليل لهم: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾؛ أي: إذا دعي لتوحيده وإخلاص العمل له ونُهي عن الشرك به، ﴿كَفَرْتُمْ﴾: به، واشمأزت لذلك قلوبكم ونفرتُم غاية النفور، ﴿وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾؛ أي: هذا الذي أنزلكم هذا المنزل وبوأكم هذا المقيّل والمحلّ أنكم تكفرون بالإيمان وتؤمنون بالكفر، ترضون بما هو شرّ وفساد في الدنيا والآخرة، وتكرهون ما هو خيرٌ وصالح في الدنيا والآخرة، تؤثرون سبب الشقاوة والذلّ والغضب، وتزهّدون بما هو سبب الفوز والفلاح والظفر: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾. ﴿فَالْحَكْمَ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾: العلي: الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه: علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر، ومن علو قدره كمال عدله تعالى، وأنّه يضع الأشياء مواضعها، ولا يساوي بين المتقين والفجار. الكبير الذي له الكبرياء والعظمة والمجد في أسمائه وصفاته وأفعاله، المتنزه عن كل آفة وعيب ونقص؛ فإذا كان الحكم له تعالى، وقد حكم عليكم بالخلود الدائم؛ فحكمه ^(١) لا يغيّر ولا يبدل.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ ﴿١٣﴾
فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾

﴿١٣﴾ يذكر تعالى نعمه العظيمة على عباده بتبيين الحق من الباطل بما يري عباده من آياته النفسية والآفاقية والقرآنية الدالة على كل مطلوب مقصود، الموضحة للمهدي من الضلال، بحيث لا يبقى عند الناظر فيها والمتأمل لها أدنى شك في معرفة الحقائق، وهذا من أكبر نعمه على عباده حيث لم يبق الحق مشتبهاً ولا الصواب ملتبساً بل نوع الدلالات ووضح الآيات؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة، وكلما كانت المسائل أجلاً وأكبر؛ كانت الدلائل عليها أكثر

وأيسر؛ فانظر إلى التوحيد، لما كانت مسألته من أكبر المسائل، بل أكبرها؛ كثرت الأدلة عليها العقلية والنقلية وتنوعت، وضرب الله لها الأمثال، وأكثر لها من الاستدلال، ولهذا ذكرها في هذا الموضع، ونبه على جملة من أدلتها، فقال: ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين﴾.

ولما ذكر أنه يري عباده آياته؛ نبه على آية عظيمة، فقال: ﴿وينزل لكم من السماء رزقاً﴾؛ أي: مطراً به ترتزقون وتعيشون أنتم وبهائمكم، وذلك يدل على أن النعم كلها منه؛ فمنه نعم الدين، وهي المسائل الدينية والأدلة عليها وما يتبع ذلك من العمل بها، والنعم الدنيوية كلها كالنعم الناشئة عن الغيث الذي تحيا به البلاد والعباد، وهذا يدل دلالة قاطعة أنه وحده هو المعبود الذي يتعين إخلاص الدين له؛ كما أنه وحده المنعم. ﴿وما يتذكركم﴾: بالآيات حين يُذكّر بها ﴿إلا من ينبئ﴾: إلى الله تعالى بالإقبال على محبته وخشيته وطاعته والتضرع إليه؛ فهذا الذي يتفجع بالآيات، وتصير رحمة في حقه، ويزداد بها بصيرة.

﴿١٤﴾ ولما كانت الآيات تثمر التذكّر، والتذكّر يوجب الإخلاص لله؛ رتب الأمر على ذلك بالفاء الدالة على السببية، فقال: ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين﴾: وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة. والإخلاص معناه تخلص القصد لله تعالى في جميع العبادات الواجبة والمستحبة، حقوق الله وحقوق عباده؛ أي: أخلصوا لله تعالى في كل ما تدينونه به، وتتقربون به إليه، ﴿ولو كره الكافرون﴾: لذلك؛ فلا تبالوا بهم، ولا يثنكم ذلك عن دينكم، ولا تأخذكم بالله لومة لائم؛ فإن الكافرين يكرهون الإخلاص لله وحده غاية الكراهة؛ كما قال تعالى: ﴿وإذا ذكّر الله وحده اشمأزّت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكّر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾.

﴿١٥﴾ ثم ذكر من جلاله وكماله ما يقتضي إخلاص العبادة له، فقال: ﴿رفيع الدرجات ذو العرش﴾؛ أي: العلي الأعلى، الذي استوى على العرش واختص به وارتفعت درجاته ارتفاعاً باين به مخلوقاته وارتفع به قدره وجلّت أوصافه وتعالّت ذاته أن يتقرب إليه إلا بالعمل^(١) الزكي الطاهر المطهر، وهو الإخلاص الذي يرفع درجات أصحابه ويقربهم إليه ويجعلهم فوق خلقه. ثم ذكر نعمته على عباده

(١) في (ب): «العمل».

بالرسالة والوحي، فقال: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾؛ أي: الوحي الذي للأرواح والقلوب بمنزلة الأرواح للأجساد؛ فكما أنَّ الجسد بدون الروح لا يحيا ولا يعيش؛ فالروح والقلب بدون روح الوحي لا يَصلُحُ ولا يفلح؛ فهو تعالى ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾: الذي فيه نفع العباد ومصلحتهم ﴿على مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾: وهم الرسل الذين فضَّلهم، واختَصَّهم لوحيه ودعوة عباده.

والفائدة في إرسال الرسل هو تحصيل سعادة العباد في دينهم ودنياهم وآخرتهم، وإزالة الشقاوة عنهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم، ولهذا قال: ﴿لِيُنذِرَ﴾: من ألقى الله إليه الوحي ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾؛ أي: يخوف العباد بذلك ويحثهم على الاستعداد له بالأسباب المنجية مما يكون فيه؛ وسمَّاه يوم التلاق لأنه يلتقي فيه الخالق والمخلوق، والمخلوقون بعضهم مع بعض، والعاملون وأعمالهم وجزاؤهم.

﴿١٦﴾ ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾؛ أي: ظاهرون على الأرض، وقد^(١) اجتمعوا في صعيد واحد لا عوج ولا أمت فيه، يسمعون الداعي وينفذهم البصر. ﴿لا يخفى على الله منهم شيء﴾: لا من ذواتهم ولا من أعمالهم ولا من جزاء تلك الأعمال ﴿لِمَنْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ﴾؛ أي: من هو المالك لذلك اليوم العظيم الجامع للأولين والآخرين، أهل السماوات وأهل الأرض، الذي انقطعت فيه الشركة في الملك وتقطعت الأسباب، ولم يبق إلا الأعمال الصالحة أو السيئة، الملك ﴿لله الواحد القهار﴾؛ أي: المنفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ فلا شريك له في شيء منها بوجه من الوجوه. القهار لجميع المخلوقات، الذي دانت له المخلوقات وذلت وخضعت، خصوصاً في ذلك اليوم الذي عنت فيه الوجوه للحي القيوم، يومئذ لا تكلم نفس إلا بإذنه.

﴿١٧﴾ ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾: في الدنيا من خيرٍ وشرٍّ قليل وكثير. ﴿لا ظلم اليوم﴾: على أحد بزيادة في سيئاته أو نقص من حسناته. ﴿إنَّ الله سريع الحساب﴾؛ أي: لا تستبطنوا ذلك اليوم؛ فإنه آت، وكل آت قريب، وهو أيضاً سريع المحاسبة لعباده يوم القيامة لإحاطة علمه وكمال قدرته.

﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ﴾ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا سَفِيحٍ يُطَاعُ ﴿٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ

دُونِهِ لَا يَقْضُونَ يَشَقُّ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾

﴿١٨﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَأُنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾؛ أي: يوم القيامة التي قد، أزفت وقربت، وآن الوصول إلى أهوالها وقلاقلها وزلازلها. ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾؛ أي: قد ارتفعت وبقيت أفئدتهم هواءً ووصلت القلوب من الروح والكرب إلى الحناجر شاخصة أبصارهم ﴿كَاطِمِينَ﴾: لا يتكلمون إلا مَنْ أذن له الرحمن وقال صواباً، وكاطمين على ما في قلوبهم من الروح الشديد والمزعجات الهائلة. ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾؛ أي: قريب ولا صاحب ﴿وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ﴾: لأنَّ الشُّفَعَاءَ لا يشفعون في الظالم نفسه بالشرك، ولو قُدِّرَتْ شفاعتهم؛ فالله تعالى لا يرضى شفاعتهم فلا يقبلها.

﴿١٩﴾ ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾: وهو النظر الذي يخفيه العبد من جلسيه ومقارنيه، وهو نظر المسارقة، ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾: مما لم يبينه العبد لغيره؛ فالله تعالى يعلم ذلك الخفي؛ فغيره من الأمور الظاهرة من باب أولى وأحرى.

﴿٢٠﴾ ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾: لأنَّ قوله حقٌّ وحكمه الشرعي حقٌّ وحكمه الجزائي حقٌّ، وهو المحيط علماً وكتابةً وحفظاً بجميع الأشياء، وهو المنزه عن الظلم والنقص وسائر العيوب، وهو الذي يقضي قضاءه القدري، الذي إذا شاء شيئاً كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو الذي يقضي بين عباده المؤمنين والكافرين في الدنيا ويفصل بينهم بفتح ينضّر به أوليائه وأحبابه. ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾: وهذا شامل لكل ما عُبد من دون الله، ﴿لَا يَقْضُونَ بَشَيْءٍ﴾: لعجزهم وعدم إرادتهم للخير واستطاعتهم لفعله. ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ﴾: لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنُّن الحاجات. ﴿الْبَصِيرُ﴾^(١): بما كان، وما يكون، وما يُنْصَرُ، وما لا يُنْصَرُ، وما يعلم العباد وما لا يعلمون.

قال في أول هاتين الآيتين: ﴿وَأُنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾، ثم وصفها بهذه الأوصاف المقتضية للاستعداد لذلك اليوم العظيم؛ لاشتمالها على الترغيب والترهيب.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُدَوِّنُهُمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ

(١) في النسختين: «العليم».

بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاذْكُرُوا اللَّهَ إِنَّهُمْ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ .

﴿٢١ - ٢٢﴾ يقول تعالى: ﴿أولم يسيروا في الأرض﴾؛ أي: بقلوبهم وأبدانهم سيرةً نظرٍ واعتبارٍ وتفكيرٍ في الآثار، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم من المكذبين، فسيجدونها شرَّ العواقب، عاقبة الهلاك والدمار والخزي والفضيحة، وقد كانوا أشدَّ قوَّةً من هؤلاء في العدد والعدد وكبر الأجسام، ﴿و﴾ أشدَّ آثاراً في الأرض: من البناء والغرس، وقوَّة الآثار تدلُّ على قوة المؤثر فيها وعلى تمنُّعه بها، ﴿فأخذهم الله﴾: بعقوبته ﴿بذنوبهم﴾: حين أصروا واستمروا عليها. ﴿إنه قويٌّ شديد العقاب﴾: فلم تغنِ قوتهم عند قوَّة الله شيئاً، بل من أعظم الأمم قوة قوم عاد الذين قالوا من أشدَّ منا قوَّة؟! أرسل الله إليهم ريحاً أضعفت قواهم ودمرتهم كلَّ تدمير.

ثم ذكر نموذجاً من أحوال المكذبين بالرسول وهو فرعون وجنوده فقال:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ^(١) ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَوْمَهُمْ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَقَوْمُ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَضُرُّكُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّسَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَقَوْمُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُؤَلَّفُونَ مِثْلَ بَعْدِ مِثْلِهِ مِنْ اللَّهِ يَوْمَ عَاصٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ

(١) في النسختين: إلى آخر القصة.

هَادٍ ۝ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَقٌّ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنِ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ۝ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَعْرِضُونَ سُلْطَانًا عَلَيْهِمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۝ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَتْلُجُ الْأَسْبَابَ ۝ أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطْلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأُظْهِرُكُمْ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَقُولُ بِقَوْمٍ أَتَّيْعُونَ آهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ۝ يَقُولُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ۝ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝ وَتَقُولُ مَا لِيَ أَذْعُوكُمْ إِلَى النَّارِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى الْعَزِيزِ الْفَقِيرِ ۝ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكَ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۝ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَؤُصْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝ فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِفِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ۝ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ۝

﴿٢٣﴾ أي: ﴿ولقد أرسلنا﴾: إلى جنس هؤلاء المكذبين ﴿موسى﴾: ابن عمران ﴿بآياتنا﴾: العظيمة الدالة دلالة قطعية على حقيقة^(١) ما أرسل به وبطلان ما عليه من أرسل إليهم من الشرك وما يتبعه ﴿وسلطان مبین﴾: أي: حجة بيّنة تتسلط على القلوب فتدع عن لها كالحية والعصا ونحوهما من الآيات البيّنات التي أيد الله بها موسى، ومكّنه من ما دعا إليه من الحق.

﴿٢٤﴾ والمبعوث إليهم ﴿فرعون وهامان﴾: وزيره ﴿وقارون﴾: الذي كان من قوم موسى فبغى عليهم بماله، فكلهم ردوا عليه أشد الرد، وقالوا: ﴿ساحر كذاب﴾.

(١) في (ب): «حقيقة».

﴿٢٥﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا﴾: وأيده الله بالمعجزات الباهرة الموجبة لتمام الإذعان؛ لم يقابلوها بذلك، ولم يكفهم مجرد الترك والإعراض، بل ولا إنكارها ومعارضتها بباطلهم، بل وصلت بهم الحال الشنيعة إلى أن ﴿قالوا اقْتُلُوا أبناء الذين آمنوا معه واستخيو نساءهم وما كُند الكافرين﴾: حيث كادوا هذه المكيدة وزعموا أنهم إذا قتلوا أبناءهم لم يَفُؤُوا، وبَقُوا في رَقْمهم وتحت عبوديتهم. فما كيدهم ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾: حيث لم يتم لهم ما قصدوا، بل أصابهم ضد ما قصدوا، أهلكهم الله، وأبادهم عن آخرهم.

قاعدة: وتدبر هذه النكتة التي يكثر مرورها بكتاب الله تعالى إذا كان السياق في قصّة معيّنة أو على شيء معيّن، وأراد الله أن يحكم على ذلك المعيّن بحكم لا يختص به؛ ذَكَرَ الْحُكْمَ وعلّقه على الوصف العام؛ ليكون أعم، وتدرج فيه الصورة التي سيق الكلام لأجلها، وليندفع الإيهام باختصاص الحكم بذلك المعيّن؛ فلهذا لم يقل: وما كيدهم إِلَّا فِي ضَلَالٍ، بل قال: ﴿وَمَا كُندُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

﴿٢٦﴾ و﴿قال فرعون﴾: متكبراً متجبراً مغروراً لقومه السفهاء: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ موسى وليذع ربه﴾؛ أي: زعم قبحه الله أنه لولا مراعاة خواطر قومه؛ لقتله، وأنه لا يمنعه منه دعاء ربه. ثم ذكر الحامل له على إرادة قتله، وأنه نصّح لقومه وإزالة للشّر في الأرض، فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾: الذي أنتم عليه ﴿أو أن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾: وهذا من أعجب ما يكون! أن يكون شرُّ الخلق ينصح الناس عن اتباع خير الخلق. هذا من التمويه والترويج الذي لا يدخل إِلَّا عقل مَنْ قال الله فيهم: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

﴿٢٧﴾ و﴿قال موسى﴾: حين قال فرعون تلك المقالة الشنيعة التي أوجّبها له طغيانه واستعان فيها بقوته واقتداره مستعيناً بربه: ﴿إِنِّي عَذْتُ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾؛ أي: امتنعتُ بربوبيته التي دبر بها جميع الأمور ﴿من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب﴾؛ أي: يحمله تكبره وعدم إيمانه بيوم الحساب على الشرّ والفساد، يدخل فيه فرعون وغيره كما تقدّم قريباً في القاعدة، فمنعه الله تعالى بلطفه من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، وقبض له من الأسباب ما اندفع به عنه شرُّ فرعون وملئه.

﴿٢٨﴾ ومن جملة الأسباب هذا الرجل المؤمن الذي من آل فرعون من بيت المملكة، لا بد أن يكون له كلمة مسموعة، وخصوصاً إذا كان يظهر موافقتهم ويكتم إيمانه؛ فإنهم يراعونه في الغالب ما لا يراعونه لو خالفهم في الظاهر؛ كما

منع الله رسوله محمداً ﷺ بعمه أبي طالب من قریش؛ حيث كان أبو طالب كبيراً عندهم موافقاً لهم على دينهم، ولو كان مسلماً؛ لم يحصل منه ذلك المنع، فقال ذلك الرجل المؤمن الموفق العاقل الحازم مقبلاً فعل قومه وشناعة ما عزموا عليه: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ؟﴾ أي: كيف تستحلون قتله وهذا ذنبه وجرمه أنه يقول ربِّي الله، ولم يكن أيضاً قولاً مجرداً عن البينات، ولهذا قال: ﴿وقد جاءكم بالبينات من ربكم﴾: لأن بينته اشتهرت عندهم اشتهاً علم به الصغير والكبير؛ أي: فهذا لا يوجب قتله؛ فهلاً أبطلتم قبل ذلك ما جاء به من الحق، وقابلتم البرهان ببرهان يردّه ثم بعد ذلك نظرتم هل يحل قتله إذا ظهرتم عليه بالحجة أم لا؟! فأما وقد ظهرت حجته واستعلى برهانه؛ فبينكم وبين حل قتله مفاوز تنقطع بها أعناق المطي.

ثم قال لهم مقالة عقلية تقنع كل عاقل بأي حالة قُدرت، فقال: ﴿وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم﴾: أي: موسى بين أمرين إما كاذب في دعواه أو صادق فيها، فإن كان كاذباً فكذبه عليه وضرره مختص به، وليس عليكم في ذلك ضرر؛ حيث امتنعتم من إجابته وتصديقه، وإن كان صادقاً، وقد جاءكم بالبينات وأخبركم أنكم إن لم تجيبوه عذبكم الله عذاباً في الدنيا وعذاباً في الآخرة؛ فإنه لا بد أن يصيبكم بعض الذي يعدكم، وهو عذاب الدنيا. وهذا من حسن عقله ولطف دفعه عن موسى؛ حيث أتى بهذا الجواب الذي لا تشويش فيه عليهم، وجعل الأمر دائراً بين تلك الحالتين، وعلى كل تقدير؛ فقتله سفة وجهل منكم.

ثم انتقل - رضي الله عنه وأرضاه وغفر له ورحمه - إلى أمر أعلى من ذلك وبيان قرب موسى من الحق فقال: ﴿إن الله لا يهدي من هو مسرف﴾؛ أي: متجاوز الحد بترك الحق والإقبال على الباطل، ﴿كذاب﴾: بنسبته ما أسرف فيه إلى الله؛ فهذا لا يهديه الله إلى طريق الصواب؛ لا في مدلوله، ولا في دليله، ولا يوفق للصراط المستقيم؛ أي: وقد رأيتم ما دعا موسى إليه من الحق وما هداه الله إلى بيانه من البراهين العقلية والخوارق السماوية؛ فالذي اهتدى هذا الهدى لا يمكن أن يكون مسرفاً ولا كاذباً. وهذا دليل على كمال علمه وعقله ومعرفته بربه.

﴿٢٩﴾ ثم حذر قومه ونصحهم وخوفهم عذاب الآخرة ونهاهم عن الاغترار بالملك الظاهر، فقال: ﴿يا قوم لكم الملك اليوم﴾؛ أي: في الدنيا ﴿ظاهرين في

الأرض: ﴿على رعيَّتكم تنفّذون فيهم ما شئتم من التدبير؛ فهَبْكم حصل لكم ذلك وتمّ ولن يتمّ؛ ﴿فمن ينصّرنا من بأس الله﴾؛ أي: عذابه ﴿إن جاءنا﴾. وهذا من حسن دعوتِهِ؛ حيث جعل الأمر مشتركاً بينه وبينهم بقوله: ﴿فمن ينصّرنا﴾، وقوله: ﴿إن جاءنا﴾؛ ليفهمهم أنّه ينصّح لهم كما ينصّح لنفسه ويرضى لهم ما يرضى لنفسه، ف﴿قال فرعون﴾: معارضاً له في ذلك ومغرّراً لقومه أن يتبعوا موسى: ﴿ما أريكم إلّا ما أرى وما أهديكم إلّا سبيل الرشاد﴾: وصدق في قوله: ﴿ما أريكم إلّا ما أرى﴾، ولكن ما الذي رأى؟! رأى أن يستخفّ قومه فيتابعوه ليقمّ بهم رياسته، ولم يرَ الحقّ معه، بل رأى الحقّ مع موسى وجحد به مستيقناً له، وكذب في قوله: ﴿ما أهديكم إلّا سبيل الرشاد﴾؛ فإنّ هذا قلبٌ للحقّ؛ فلو أمرهم باتّباعه اتّباعاً مجرداً على كفره وضلاله؛ لكان الشرُّ أهونَ، ولكنه أمرهم باتّباعه، وزعم أنّ في اتّباعه اتّباعَ الحقّ، وفي اتّباع الحقّ اتّباعَ الضلال.

﴿٣٠﴾ ﴿وقال الذي آمن﴾: مكرّراً دعوة قومه، غير آيس من هدايتهم؛ كما هي حالة الدّعاة إلى الله تعالى؛ لا يزالون يدعون إلى ربّهم، ولا يرُدّهم عن ذلك رادّ، ولا يشينهم عتوٌّ من دَعَوِهِ عن تكرار الدعوة، فقال لهم: ﴿يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب﴾؛ يعني: الأمم المكذّبين الذين تحزّبوا على أنبيائهم واجتمعوا على معارضتهم.

﴿٣١﴾ ثم بيّنهم فقال: ﴿مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم﴾؛ أي: مثل عاداتهم في الكفر والتكذيب، وعادة الله فيهم بالعقوبة العاجلة في الدنيا قبل الآخرة، ﴿وما الله يريد ظلماً للعباد﴾: فيعذبهم بغير ذنب أذنبوه ولا جرم أسلفوه.

﴿٣٢﴾ ولما خوّفهم العقوبات الدنيوية؛ خوّفهم العقوبات الآخروية، فقال: ﴿ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التّنادي﴾؛ أي: يوم القيامة؛ حين ينادي أهل الجنة أهل النار: ﴿أن قد وجّدنا ما وعدنا ربّنا حقّاً...﴾ إلى آخر الآيات، ونادى أصحاب النار أصحاب الجنّة أن أفيضوا علينا من الماء أو ممّا رزقكم الله قالوا إنّ الله حرّمهما على الكافرين، وحين ينادي أهل النار مالكاً: ﴿ليقض علينا ربّك﴾، فيقول: ﴿إنّكم ماكثون﴾، وحين ينادون ربّهم: ﴿ربّنا أخرجنا منها فإنّ عذنا فأنا ظالمون﴾، فيجيبهم: ﴿اخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾، وحين يُقال للمشرّكين: ﴿ادعوا شركاءكم فدعّوهم فلم يستجيبوا لهم﴾.

﴿٣٣﴾ فَخَوَّفَهُمُ رَاضِي اللَّهِ عَنْ هَذَا الْيَوْمِ الْمَهُولِ، وَتَوَجَّعَ لَهُمْ إِنْ أَقَامُوا عَلَى شُرَكِهِمْ بِذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مَدْبِرِينَ﴾؛ أَي: قَدْ ذَهَبَ بِكُمْ إِلَى النَّارِ. ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾: لَا مِنْ أَنْفُسِكُمْ قُوَّةٌ تَدْفَعُونَ بِهَا عَذَابَ اللَّهِ وَلَا يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ أَحَدٍ، ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾. فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ. ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾: لِأَنَّ الْهَدْيَ بِيَدِ اللَّهِ تَعَالَى. فَإِذَا مَنَعَ عَبْدَهُ الْهَدْيَ لَعَلِمَهُ أَنَّهُ غَيْرُ لَاتِقٍ بِهِ لَخْبَثِهِ؛ فَلَا سَبِيلَ إِلَى هِدَايَتِهِ.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ﴾: بَنُ يَعْقُوبَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ﴿مِنْ قَبْلِ﴾: إِتْيَانِ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِ، وَأَمَرَكُمْ بِعِبَادَةِ رَبِّكُمْ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ﴿فَمَا زَلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾: فِي حَيَاتِهِ، ﴿حَتَّى إِذَا هَلَكَ﴾: أَزْدَادَ شَكِّكُمْ وَشُرَكَّكُمْ، ﴿وَقُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾؛ أَي: هَذَا ظَنُّكُمْ الْبَاطِلَ وَحِسَابَانِكُمُ الَّذِي لَا يَلِيقُ بِاللَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّهُ تَعَالَى لَا يَتْرِكُ خَلْقَهُ سَدَى لَا يَأْمُرُهُمْ وَبَيْنَهُمْ، بَلْ يَرْسِلُ^(١) إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ؛ وَظَنَّ أَنَّ اللَّهَ لَا يَرْسِلُ رَسُولًا ظَنَّ ضَلَالًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ مِنْهُ مَسْرِفٌ [مَرْتَابٌ]^(٢)﴾: وَهَذَا هُوَ وَصْفُهُمُ الْحَقِيقِيِّ الَّذِي وَصَفُوا بِهِ مُوسَى ظُلْمًا وَعُلُوًّا؛ فَهُمْ الْمَسْرِفُونَ بِتَجَاوُزِهِمُ الْحَقَّ وَعَدُولِهِمْ عَنْهُ إِلَى الضَّلَالِ، وَهُمْ الْكَذِبَةُ حَيْثُ نَسَبُوا ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ وَكَذَّبُوا رَسُولَهُ؛ فَالَّذِي وَصَفَهُ السَّرْفُ وَالْكَذِبُ لَا يَنْفَكُ عَنْهُمَا لَا يَهْدِيهِ اللَّهُ وَلَا يَوْفُقُهُ لِلْخَيْرِ؛ لِأَنَّهُ رَدُّ الْحَقِّ بَعْدَ أَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ وَعَرَفَهُ؛ فَجَزَاؤُهُ أَنْ يَعَاقِبَهُ اللَّهُ بِأَنْ يَمْنَعَهُ الْهَدْيَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، ﴿وَنَقَلْبُ أَفْنَدْتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَِّ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿٣٥﴾ ثُمَّ ذَكَرَ وَصْفَ الْمَسْرِفِ الْكَذَّابِ، فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾: الَّتِي بَيَّنَّتِ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ وَصَارَتْ مِنْ ظُهُورِهَا بِمَنْزِلَةِ الشَّمْسِ لِلْبَصَرِ؛ فَهُمْ يَجَادِلُونَ فِيهَا عَلَى وَضُوحِهَا لِيَذْفَعُوهَا وَيُطِيلُوهَا ﴿بَغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾؛ أَي: بِغَيْرِ حُجَّةٍ وَبِرَهَانٍ، وَهَذَا وَصْفٌ لَزِمَ لِكُلِّ مَنْ جَادَلَ فِي آيَاتِ اللَّهِ؛ فَإِنَّهُ مِنَ الْمَحَالِ أَنْ يَجَادَلَ بِسُلْطَانٍ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ لَا يِعَارِضُهُ مَعَارِضٌ؛ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يِعَارِضَ بَدِيلٌ شَرْعِيٌّ أَوْ عَقْلِيٌّ أَصْلًا. ﴿كَبِيرٌ﴾: ذَلِكَ الْقَوْلُ الْمُتَضَمِّنُ لِرَدِّ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ

(١) فِي (ب): «وَيَرْسِلُ».

(٢) فِي النُّسخَتَيْنِ: «كَذَّابٌ». وَعَلَيْهِ سَارَ الْمُؤَلِّفُ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي تَفْسِيرِهِ لِلآيَةِ.

﴿مقتناً عند الله وعند الذين آمنوا﴾: فالله أشدُّ بغضاً لصاحبه؛ لأنه تضمنَ التكذيب بالحقِّ والتصديق بالباطل ونسبته إليه، وهذه أمورٌ يشتدُّ بغضُ الله لها ولمن اتَّصف بها، وكذلك عباده المؤمنون يمقتون على ذلك أشدَّ المقت موافقةً لربهم، وهؤلاء خواصُّ خلق الله تعالى؛ فمقتُّهم دليلٌ على شناعة من مقتوه. ﴿كذلك﴾؛ أي: كما طبع على قلوب آل فرعون، ﴿يطبعُ الله على كلِّ قلبٍ متكبرٍ جبارٍ﴾: متكبر في نفسه على الحقِّ برده وعلى الخلق باحتقارهم، جبار بكثرة ظلمه وعدوانه.

﴿٣٦ - ٣٧﴾ ﴿وقال فرعونُ﴾: معارضاً لموسى ومكذباً له في دعوته إلى الإقرار بربِّ العالمين الذي على العرش استوى وعلى الخلق اعتلى: ﴿يا هامان ابن لي صرحاً﴾؛ أي: بناءً عظيماً مرتفعاً، والقصد منه: لعلِّي أطلع ﴿إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً﴾: في دعواه أن لنا رباً، وأنه فوق السماوات، ولكنه يريد أن يحتاط فرعون ويختبر الأمر بنفسه، قال الله تعالى في بيان الذي حمله على هذا القول: ﴿وكذلك زُيِّنَ لفرعونَ سوءَ عمله﴾: فزُيِّنَ له العمل السيئ، فلم يزل الشيطان يزينه وهو يدعو إليه ويحسنه حتى رآه حسناً ودعا إليه وناظر مناظرة المحقِّين وهو من أعظم المفسدين. ﴿وضدَّ عن السبيل﴾: الحق بسبب الباطل الذي زُيِّنَ له. ﴿وما كيدُ فرعونَ﴾: الذي أراد أن يكيد به الحق ويوهم به الناس أنه محقٌّ وأن موسى مبطلٌ ﴿إلا في تبابٍ﴾؛ أي: خسارة وبوار، لا يفيده إلا الشقاء في الدنيا والآخرة.

﴿٣٨﴾ ﴿وقال الذي آمن﴾: معيداً نصيحته لقومه: ﴿يا قوم اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرِّشَادِ﴾: لا كما يقول لكم فرعون؛ فإنه لا يهديكم إلا طريق الغيِّ والفساد.

﴿٣٩﴾ ﴿يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاعٌ﴾: يَتَمَتَّعُ بها وَيُتَنَعَّمُ قليلاً، ثم تنقطع وتضمحلُّ؛ فلا تغرَّركم وتخدعنكم عما خلقتكم له. ﴿وإن الآخرة هي دارُ القرار﴾: التي هي محلُّ الإقامة ومنزل السكون والاستقرار؛ فينبغي لكم أن تؤثروها وتعملوا لها عملاً يسعدكم فيها.

﴿٤٠﴾ ﴿من عمل سيئة﴾: من شرك أو فسوق أو عصيان ﴿فلا يُجْزَى إلا مثلاً﴾؛ أي: لا يجازى إلا بما يسوؤه ويحزنه؛ لأن جزاء السيئة السوء. ﴿ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى﴾: من أعمال القلوب والجوارح وأقوال اللسان؛ ﴿فأولئك يدخلون الجنةَ يُرزقون فيها بغير حسابٍ﴾؛ أي: يعطون أجرهم بلا حدٍّ ولا عدٍّ، بل يعطيهم الله ما لا تبلغه أعمالهم.

﴿٤١﴾ ﴿ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة﴾: بما قلت لكم، ﴿وتدعونني إلى النار﴾: بترك اتباع نبي الله موسى عليه السلام.

﴿٤٢﴾ ثم فسر ذلك فقال: ﴿تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم﴾: أنه يستحق أن يُعبدَ من دون الله، والقول على الله بلا علم من أكبر الذنوب وأقبحها. ﴿وأنا أدعوكم إلى العزيز﴾: الذي له القوة كلها، وغيره ليس بيده من الأمر شيء: ﴿الغفار﴾: الذي يسرف العباد على أنفسهم ويتجرؤون على مساحطه، ثم إذا تابوا وأنبأوا إليه؛ كفر عنهم السيئات والذنوب ودفع موجباتها من العقوبات الدنيوية والأخروية.

﴿٤٣﴾ ﴿لا جرم﴾؛ أي: حقاً يقيناً ﴿أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة﴾؛ أي: لا يستحق [من] الدعوة إليه والحث على اللجأ إليه في الدنيا ولا في الآخرة لعجزه ونقصه، وأنه لا يملك نفعا ولا ضرا ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ﴿وأن مردنا إلى الله﴾: تعالى فسيجازي كل عامل بعمله، ﴿وأن المسرفين هم أصحاب النار﴾: وهم الذين أسرفوا على أنفسهم بالتجري على ربهم بمعاصيه والكفر به دون غيرهم.

﴿٤٤﴾ فلما نصحهم وحذّره وأنذرهم ولم يطيعوه ولا وافقوه؛ قال لهم: ﴿فستذكرون ما أقول لكم﴾: من هذه النصيحة، وسترون مغبة عدم قبولها حين يحلّ بكم العقاب وتحرمون جزيل الثواب، ﴿وأفوض أمري إلى الله﴾؛ أي: ألجأ إليه وأعتصم وألقي أموري كلها لديه وأتوكل عليه في مصالحه ودفع الضرر الذي يصيبني منكم أو من غيركم. ﴿إن الله بصير بالعباد﴾: يعلم أحوالكم وما يستحقون: يعلم حالي وضعفي فيمنعني منكم ويكفيني شرّكم، ويعلم أحوالكم فلا تتصرفون إلا بإرادته ومشيتيه؛ فإن سلطكم عليّ؛ فبحكمة منه تعالى وعن إرادته ومشيتيه صدر ذلك.

﴿٤٥ - ٤٦﴾ ﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا﴾؛ أي: وقى الله القوي الرحيم ذلك الرجل المؤمن الموفق عقوبات ما مكر فرعون وآله له من إرادة إهلاكه وإتلافه لأنه بادأهم بما يكرهون وأظهر لهم الموافقة التامة لموسى عليه السلام، ودعاهم إلى ما دعاهم إليه موسى، ولهذا أمر لا يحتملونه، وهم الذين لهم القدرة إذ ذاك، وقد أغضبهم واشتدّ حنقهم عليه، فأرادوا به كيداً، فحفظه الله من كيدهم ومكرهم، وانقلب كيدهم ومكرهم على أنفسهم. ﴿وحاق بآل فرعون سوء العذاب﴾:

أغرقهم الله تعالى في صبيحة واحدة عن آخرهم، وفي البرزخ: ﴿النار يُعْرَضُونَ عليها غدواً وعشيّاً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آلَ فرعونَ أشدَّ العذاب﴾: فهذه العقوبات الشنيعة التي تحل بالمكذّبين لرسول الله المعاندين لأمره.

﴿وَإِذْ يَتَحَاوَنَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ۖ﴾ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ۖ﴾ (٤٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَتِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ۖ﴾ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَأْتِيَكُم رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۖ﴾ (٥٠).

﴿٤٧﴾ يخبر تعالى عن تخاصم أهل النار وعتاب بعضهم بعضاً واستغاثتهم بخزنة النار وعدم الفائدة في ذلك، فقال: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَنَ فِي النَّارِ﴾: يحتجّ التابعون بإغواء المتبوعين، ويتبرأ المتبوعون من التابعين، ﴿فيقول الضعفاء﴾: أي: الأتباع للقادة الذين استكبروا على الحق ودعّوهم إلى ما استكبروا لأجله: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾: أنتم أغويتمونا وأضلّثتمونا، وزيّتم لنا الشرك والشر، ﴿فهل أنتم مغنون عَنَّا نصيباً من النار﴾: أي: ولو قليلاً.

﴿٤٨﴾ قال الذين استكبروا: مبيّنين لعجزهم ونفوذ الحكم الإلهي في الجميع: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾: وجعل لكل قسطه من العذاب؛ فلا يزداد في ذلك ولا ينقص منه ولا يغيّر ما حكم به الحكيم.

﴿٤٩﴾ وقال الذين في النار: من المستكبرين والضعفاء ﴿لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عَنَّا يوماً من العذاب﴾: لعله تحصل بعض الراحة.

﴿٥٠﴾ قَالُوا ﴿لهم موبّخين ومبيّنين أن شفاعتهم لا تنفعهم ودعاؤهم لا يفيدهم شيئاً﴾: ﴿أولم تَكُ تأتيكم رسلُكم بالبينات﴾: التي تبَيّنتم بها الحق والصراط المستقيم وما يقرب من الله وما يبعد منه، ﴿قَالُوا بلى﴾: قد جاؤنا بالبينات، وقامت علينا حجة الله البالغة، فظلمنا وعاندنا الحق بعدما تبَيّن، ﴿قَالُوا﴾: أي: الخزنة لأهل النار متبرّئين من الدعاء لهم والشفاعة: ﴿فادعوا﴾: أنتم، ولكن هذا الدعاء هل يغني شيئاً أم لا؟ قال تعالى: ﴿وما دعاء الكافرين إِلَّا في ضلال﴾: أي: باطل لاغ؛ لأنّ الكفر محبّط لجميع الأعمال صادّاً لإجابة الدعاء.

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿٥١﴾ لما ذَكَرَ عقوبة آل فرعون في الدنيا والبرزخ ويوم القيامة، وَذَكَرَ حالة أهل النار الفظيعة الذين نابذوا رسله وحاربوهم؛ قال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: بالحجة والبرهان والنصر، وفي الآخرة بالحكم ولأتباعهم بالثواب ولمن حاربهم بشدة العذاب.

﴿٥٢﴾ ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ﴾: حين يعتذرون، ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾؛ أي: الدار السيئة التي تسوء نازليها.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿٥٣ - ٥٤﴾ لما ذكر ما جرى لموسى وفرعون وما آل إليه أمر فرعون وجنوده، ثم ذكر الحكم العامّ الشامل له ولأهل النار؛ ذكر أنه أعطى موسى ﴿الهدى﴾؛ أي: الآيات والعلم الذي يهتدي به المهتدون، ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾؛ أي: جعلناه متوارثاً بينهم من قرن إلى آخر، وهو التوراة، وذلك الكتاب مشتمل على الهدى، الذي هو العلم بالأحكام الشرعية وغيرها، وعلى التذكّر للخير بالترغيب فيه وعن الشرّ بالترهيب عنه، وليس ذلك لكلّ أحد، وإنما هو ﴿لأولي الأبواب﴾.

﴿٥٥﴾ ﴿فَاصْبِرْ﴾: يا أيها الرسول كما صبر مَنْ قبلك من أولي العزم المرسلين، ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾؛ أي: ليس مشكوكاً فيه أو فيه ريب أو كذب حتى يعسر عليك الصبر، وإنما هو الحقّ المحض والهدى الصّرف الذي يصبر عليه الصابرون ويجتهد في التمسك به أهل البصائر؛ فقله: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾: من الأسباب التي تحثّ على الصبر على طاعة الله وعن ما يكره الله، ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾: المانع لك من تحصيل فوزك وسعادتك، فأمره بالصبر الذي فيه يحصل المحبوب، وبالاستغفار الذي فيه دفع المحذور، وبالتسبيح بحمد الله تعالى، خصوصاً ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾: اللذين هما أفضل الأوقات، وفيهما من الأوراد والوظائف الواجبة والمستحبة ما فيهما؛ لأنّ في ذلك عوناً على جميع الأمور.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي عَايَةِ اللَّهِ يَغَيِّرُ سُلْطَانَهُ أَتْلَهُمْ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبَرٌ مَّا هُمْ بِبَالِيغِيهِ فَاَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّكُمْ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿٥٦﴾ يخبر تعالى أن من جادل في آياته لِيُبْطِلَهَا بالباطل بغير بَيِّنَةٍ من أمره ولا حِجَّةٍ أن هذا صادر من كبر في صدورهم على الحق وعلى مَنْ جاء به؛ يريدون الاستعلاء عليه بما معهم من الباطل؛ فهذا قصدهم ومرادهم، ولكن هذا لا يتم لهم، وليسوا بباليغيه؛ فهذا نص صريح وبشارة بأن كل من جادل الحق أنه مغلوب، وكل من تكبر عليه فهو في نهايته ذليل، ﴿فاستعذ﴾؛ أي: اعتصم والجأ ﴿بالله﴾: ولم يذكر ما يستعيز منه إرادة^(١) للعموم؛ أي: استعذ بالله من الكبر الذي يوجب التكبر على الحق، واستعذ بالله من شياطين الإنس والجن، واستعذ بالله من جميع الشرور. ﴿إنه هو السميع﴾: لجميع الأصوات على اختلافها. ﴿البصير﴾: بجميع المراتب بأي محل وموضع وزمان كانت.

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا نَذْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿٥٧﴾ يخبر تعالى بما تقرّر في العقول أن ﴿خلق السماوات والأرض﴾ على عظمهما وسعتهما أعظم و﴿أكبر من خلق الناس﴾؛ فإن الناس بالنسبة إلى خلق السماوات والأرض من أصغر ما يكون؛ فالذي خلق الأجرام العظيمة وأتقنها قادر على إعادة الناس بعد موتهم من باب أولى وأحرى، وهذا أحد الأدلة العقلية الدالة على البعث دلالة قاطعة بمجرد نظر العاقل إليها، يستدل بها استدلالاً لا يقبل الشك والشبهة بوقوع ما أخبر به الرسل من البعث؛ وليس كل أحد يجعل فكره لذلك، ويقبل بتدبره، ولهذا قال: ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾: ولذلك لا يعتبرون بذلك، ولا يجعلونه منهم على بال.

﴿٥٨﴾ ثم قال تعالى: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء﴾؛ أي: كما لا يستوي الأعمى والبصير؛ كذلك لا يستوي مَنْ آمَنَ بالله وعمل الصالحات وَمَنْ كان مستكبراً على عبادة ربه، مقدماً على

(١) في (ب): «ما يستعيز إرادة».

معاصيه، ساعياً في مساحطه، ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: تذكركم قليل، وإلا؛ فلو تذكّرت مراتب الأمور ومنازل الخير والشرّ والفرق بين الأبرار والفجار، وكانت لكم هِمةً عليّةً؛ لأثرتم النافع على الضارّ، والهدى على الضلال، والسعادة الدائمة على الدنيا الفانية.

﴿٥٩﴾ ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ^(١) لَا رَيْبَ فِيهَا﴾: قد أخبرت بها الرسل الذين هم أصدق الخلق، ونطقت بها الكتب السماوية التي جميع أخبارها أعلى مراتب الصدق، وقامت عليها الشواهد المريّة والآيات الأفقيّة. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مع هذه الأمور التي توجب كمال التصديق والإذعان.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ ﴿٦٠﴾.

﴿٦٠﴾ هذا من لطفه بعباده ونعمته العظيمة؛ حيث دعاهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم وأمرهم بدعائه دعاء العبادة ودعاء المسألة ووعدهم أن يستجيب لهم، وتوعد من استكبر عنها، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾؛ أي: ذليلين حقيرين، يجتمع عليهم العذاب والإهانة جزاءً على استكبارهم.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْآيَاتِ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا تَوَفَّكَ ﴿٦٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَكْرًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾.

تدبر هذه الآيات الكريمات الدالة على سعة رحمة الله، وجزيل فضله، ووجوب شكره، وكمال قدرته، وعظيم سلطانه، وسعة ملكه، وعموم خلقه لجميع الأشياء، وكمال حياته، واتصافه بالحمد على كل ما اتصف به من الصفات الكاملة وما فعله

من الأفعال الحسنة، وتعام ربوبيته، وانفراده فيها، وأن جميع التدبير في العالم العلوي والسفلي في ماضي الأوقات وحاضرها ومستقبلها بيد الله تعالى، ليس لأحد من الأمر شيء ولا من القدرة شيء. فينتج من ذلك أنه تعالى المألوه المعبود وحده الذي لا يستحق أحد من العبودية شيئاً كما لم يستحق من الربوبية شيئاً، وينتج من ذلك امتلاء القلوب بمعرفة الله تعالى ومحبة وخوفه ورجائه. وهذان الأمران - وهما معرفته وعبادته - هما اللذان خلق الله الخلق لأجلهما، وهما الغاية المقصودة منه تعالى لعباده، وهما الموصلان إلى كل خير وفلاح وصلاح وسعادة دنيوية وأخروية، وهما [اللذان هما] أشرف عطايا الكريم لعباده، وهما أشرف اللذات على الإطلاق، وهما اللذان إن فاتا فأتى كل خير وحضر كل شر. فنسأله تعالى أن يملأ قلوبنا بمعرفته ومحبه، وأن يجعل حركاتنا الباطنة والظاهرة خالصة لوجهه تابعة لأمره؛ إنه لا يتعاضده سؤال، ولا يحفيه نوال.

﴿٦١﴾ فقله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ؛ أَي: لأجلكم جعل الله الليل مظلماً، لتسكنوا فيه﴾: من حركاتكم التي لو استمرت لضرت؛ فتأوون إلى فرشكم، ويلقي الله عليكم النوم الذي يستريح به القلب والبدن، وهو من ضروريات الآدمي، لا يعيش بدونه، ويسكن فيه^(١) أيضاً كل حبيب إلى حبيبه، ويجتمع الفكر، وتقل الشواغل. ﴿و﴾ جعل تعالى ﴿النهار مبصراً﴾: منيراً بالشمس المستمرة في الفلك، فتقومون من فرشكم إلى أشغالكم الدنيوية والدنيوية؛ هذا لذكره وقراءته، وهذا لصلاته، وهذا لطلبه العلم ودراسته، وهذا لبيعه وشرائه، وهذا لبنائه أو حدادته أو نحوها من الصناعات، وهذا لسفره براً وبحراً، وهذا لفلاحته، وهذا لتصلح حيواناته. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾؛ أي: عظيم كما يدل عليه التنكير ﴿على الناس﴾: حيث أنعم عليهم بهذه النعم وغيرها، وصرف عنهم النقم، وهذا يوجب عليهم تمام شكره وذكره. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾: بسبب جهلهم وظلمهم. ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾، الذين يقرؤون بنعمة ربهم ويخضعون لله ويحبونه، ويصرفونها في طاعة مولاهم ورضاه.

﴿٦٢﴾ ﴿ذَلِكُمْ﴾^(٢): الذي فعل ما فعل ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾؛ أي: المنفرد بالإلهية والمنفرد بالربوبية؛ لأن انفراده بهذه النعم من ربوبيته، وإيجابها للشكر من ألوهيته.

(١) في (ب): «يسكن أيضاً».

(٢) في (ب): «ذلك».

﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾: تقريرُ لربوبيته^(١)، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: تقريرُ أَنَّهُ المستحقُّ للعبادة وحده لا شريك له. ثم صرح بالأمر بعبادته، فقال: ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: كيف تُصرفون عن عبادته وحده لا شريك له بعدما أبان لكم الدليل، وأنار لكم السبيل.

﴿٦٣﴾ ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾؛ أي: عقوبةً على جحدهم لآيات الله وتعديهم على رسله؛ صُرفوا عن التوحيد والإخلاص؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاهُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

﴿٦٤﴾ ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾؛ أي: قارةً ساكنةً مهيأةً لكلِّ مصالحكم، تتمكنون من حرثها وغرسها والبناء عليها والسفر والإقامة فيها، ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَاءً﴾: سقفاً للأرض الذي أنتم فيها، قد جعل الله فيها ما تنتفعون به من الأنوار والعلامات، التي يُهتدى بها في ظلمات البرِّ والبحر، ﴿وَصَوَّرَكُمُ أَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾: فليس في جنس الحيوانات أحسنُ صورةً من بني آدم؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، وإذا أردت أن تعرف حسنَ الآدميِّ وكمالَ حكمةِ الله تعالى فيه؛ فانظرْ إليه عضواً عضواً؛ هل تجدُ عضواً من أعضائه يليقُ به ويصلحُ أن يكون في غير محله، وانظر أيضاً إلى الميل الذي في القلوب بعضهم لبعض؛ هل تجدُ ذلك في غير الآدميين، وانظر إلى ما خصَّه الله به من العقل والإيمان والمحبة والمعرفة التي هي أحسن الأخلاق المناسبة لأجمل الصور. ﴿وَرَزَقَكُمُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾: وهذا شاملٌ لكلِّ طيبٍ من مأكَلٍ ومشربٍ ومنكحٍ وملبسٍ ومنظرٍ ومسمع وغير ذلك من الطيبات التي يسرها الله لعباده ويسر لهم أسبابها ومنعهم من الخبائث التي تضادها وتضرُّ أبدانهم وقلوبهم وأديانهم. ﴿ذَلِكُمْ﴾: الذي دبرَ الأمور وأنعم عليكم بهذه النعم، ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: تعاضم وكثر خيره وإحسانه، المرئي جميع العالمين بنعمه.

﴿٦٥﴾ ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾: الذي له الحياة الكاملة التامة المستلزمة لما تستلزمه من صفاته الذاتية التي لا تتم حياته إلَّا بها؛ كالسمع والبصر والقدرة والعلم والكلام وغير ذلك من صفات كماله ونعوت جلاله. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبود بحق إلَّا وجهه الكريم، ﴿فَادْعُوهُ﴾: وهذا شاملٌ لدعاء العبادة ودعاء المسألة ﴿مُخْلِصِينَ

(١) في النسختين قدم قوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» على قوله: «خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ».

له الدين ﴿٦٦﴾ أي: اقصدا بكل عبادۃ ودعاء وعمل وجهۃ الله تعالى؛ فإن الإخلاص هو المأمور به؛ كما قال تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾. ﴿الحمد لله رب العالمين﴾؛ أي: جميع المحامد والمدائح والثناء؛ بالقول كنطق الخلق بذكره، والفعل كعبادتهم له؛ كل ذلك لله تعالى وحده لا شريك له؛ لكماله في أوصافه وأفعاله وتما م نعمه.

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْكِتَابُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفُفٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشْدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُوْتَوَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلِعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرُ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿٦٦﴾ لما ذكر الأمر بإخلاص العبادۃ لله وحده، وذكر الأدلة على ذلك والبيانات؛ صرح بالنهي عن عبادۃ ما سواه، فقال: ﴿قل﴾ يا أيها النبي، ﴿إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله﴾: من الأوثان والأصنام، وكل ما عبد من دون الله، ولست على شك من أمري، بل على يقين وبصيرة، ولهذا قال: ﴿لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: بقلبي ولساني وجوارحي؛ بحيث تكون منقادۃ لطاعته مستسلمة لأمره، وهذا أعظم مأمور به على الإطلاق؛ كما أن النهي عن عبادۃ ما سواه أعظم منهي عنه على الإطلاق.

﴿٦٧﴾ ثم قرّر هذا التوحيد بأنه الخالق لكم والمطور لخلقكم؛ فكما خلقكم وحده؛ فاعبدوه وحده، فقال: ﴿هو الذي خلقكم من تراب﴾: وذلك بخلقه أصلكم وأبيكم آدم عليه السلام، ﴿ثم من نطفة﴾: وهذا ابتداء خلق سائر النوع الإنساني ما دام في بطن أمه، فنبّه بالابتداء على بقاء الأَطوار من العلقۃ فالمضغة فالعظام فنفخ الروح، ﴿ثم يخرجكم طفلاً ثم﴾: هكذا تنتقلون في الخلقة الإلهية حتى ﴿تبغوا أشدكم﴾: من قوة العقل والبدن وجميع قواه الظاهرة والباطنة، ﴿ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل﴾: بلوغ الأشد، ﴿ولتبغوا﴾: بهذه الأَطوار المقدرة [إلى] أجل ﴿مسمى﴾: تنتهي عنده أعماركم. ﴿ولعلكم تعقلون﴾: أحوالكم فتعلمون أن المطور لكم في هذه الأَطوار كامل الاقتدار، وأنه الذي لا تنبغي العبادۃ إلا له، وأنكم ناقصون من كل وجه.

﴿٦٨﴾ ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾؛ أي: هو المنفرد بالإحياء والإماتة؛ فلا تموت نفس بسبب أو بغير سبب إلا بإذنه ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عَمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾. ﴿فَإِذَا قُضِيَ أَمْرٌ﴾: جليلاً أو حقيراً ﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾: لا رد في ذلك ولا مثوية ولا تمنع.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَحْدِلُونَ فِي مَا آتَى اللَّهُ أَنَّهُ يُضْرَفُونَ﴾ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿٦٩﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَحْدِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾: الواضحة البيّنة متعجباً من حالهم الشنيعة، ﴿أَنَّهُ يُضْرَفُونَ﴾؛ أي: كيف ينعدلون عنها؟! وإلى أي شيء يذهبون بعد البيان التام؟! هل يجدون آيات بيّنات تعارض آيات الله؟! لا والله. أم يجدون شبهاً توافق أهواءهم ويصلون بها لأجل باطلهم؟!.

﴿٧٠ - ٧٢﴾ فبئس ما استبدلوا واختاروا لأنفسهم بتكذيبهم بالكتاب الذي جاءهم من الله وبما أرسل الله به رسله الذين هم خيرُ الخلق وأصدقهم وأعظمهم عقولاً؛ فهؤلاء لا جزاء لهم سوى النار الحامية، ولهذا توعدهم الله بعذابها، فقال: ﴿فسوف يعلمون إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾: التي لا يستطيعون معها حركة، ﴿والسلاسل﴾: التي يقرنون بها هم وشیاطينهم ﴿يُسْحَبُونَ﴾. في الحميم؛ أي: الماء الذي اشتد غليانه وحره، ﴿ثم في النار يُسْجَرُونَ﴾: يوقد عليهم اللهب العظيم، فيُضَلُّون^(١) بها، ثم يوبّخون على شركهم وكذبهم.

﴿٧٣ - ٧٤﴾ ويقال ﴿لهم أين ما كنتم تشركون﴾. من دون الله: هل نفعوكم أو دفعوا عنكم بعض العذاب؟! ﴿قالوا ضلوا عنّا﴾؛ أي: غابوا ولم يحضروا، ولو حضروا؛ لم ينفعوا. ثم إنهم أنكروا فقالوا: ﴿بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً﴾:

(١) في (ب): «ويصلون».

يُحْتَمَلُ أَنَّ مَرَادَهُمْ بِذَلِكَ الْإِنْكَارَ، وَظَنُّوا أَنَّهُ يَنْفَعُهُمْ وَيُفِيدُهُمْ، وَيُحْتَمَلُ - وَهُوَ الْأَظْهَرُ - أَنَّ مَرَادَهُمْ بِذَلِكَ الْإِقْرَارَ عَلَى بَطْلَانِ إِلَهِيَّةِ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لِلَّهِ شَرِيكٌ فِي الْحَقِيقَةِ، وَإِنَّمَا هُمْ ضَالُّونَ مَخْطُوتُونَ بِعِبَادَةِ مَعْدُومِ الْإِلَهِيَّةِ، وَيدُلُّ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾؛ أَي: كَذَلِكَ الضَّلَالُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا الضَّلَالُ الْوَاضِحُ لِكُلِّ أَحَدٍ، حَتَّى إِنَّهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ يَقْرَأُونَ بِبَطْلَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَتَبَيَّنُ لَهُمْ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾، وَيدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ﴾، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ...﴾ الْآيَاتِ.

﴿٧٥﴾ وَيُقَالُ لِأَهْلِ النَّارِ: ﴿ذُلُّكُمْ﴾: الْعَذَابُ الَّذِي تُوعَى عَلَيْكُمْ ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾؛ أَي: تَفْرَحُونَ بِالْبَاطِلِ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَبِالْعُلُومِ الَّذِي خَالَفْتُمْ بِهَا عُلُومَ الرُّسُلِ، وَتَمْرَحُونَ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ بَغْيًا وَعَدْوَانًا وَظُلْمًا وَعَصْيَانًا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾، وَكَمَا قَالَ قَارُونَ لَهُ: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾، وَهَذَا هُوَ الْفَرَحُ الْمَذْمُومُ الْمَوْجِبُ لِلْعِقَابِ؛ بِخِلَافِ الْفَرَحِ الْمَمْدُوحِ، الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِيهِ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾، وَهُوَ الْفَرَحُ بِالْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

﴿٧٦﴾ ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾: كُلُّ بَطْطِقَةٍ مِنْ طَبَقَاتِهَا عَلَى قَدَرِ عَمَلِهِ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا أَبَدًا. ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾: مَثْوَى يُخْزَوْنَ فِيهِ وَيَهَانُونَ وَيُحْبَسُونَ وَيُعَذَّبُونَ، وَيَتَرَدَّدُونَ بَيْنَ حَرِّهَا وَزَمْهَرِيرِهَا.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمًا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَقَّعُكَ فَإِنَّا يَرْجِعُونَ﴾ (٧٧).

﴿٧٧﴾ أَي: ﴿فَاصْبِرْ﴾: يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ عَلَى دَعْوَةِ قَوْمِكَ وَمَا يَنَالُكَ مِنْهُمْ مِنْ أذى، وَاسْتَعِزْ عَلَى صَبْرِكَ بِإِيمَانِكَ. ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾: سَيَنْصُرُ دِينَهُ وَيُعْلِي كَلِمَتَهُ وَيَنْصُرُ رِسْلَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاسْتَعِزْ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا بِتَوَقُّعِ الْعُقُوبَةِ بِأَعْدَائِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَكَيْمًا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾: فِي الدُّنْيَا؛ فَذَلِكَ، ﴿أَوْ تَتَوَقَّعُكَ﴾: قَبْلَ عِقُوبَتِهِمْ، ﴿فَإِنَّا يَرْجِعُونَ﴾: فَنَجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ؛ فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ.

ثُمَّ سَلَّاهُ وَصَبَّرَهُ بِذِكْرِ إِخْوَانِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾ .

﴿٧٨﴾ أي: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً﴾: كثيرين إلى قومهم يذعنونهم ويصبرون على أذاهم. ﴿منهم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾: خبرهم، ﴿ومنهم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾: وكل الرسل مدبرون ليس بيدهم شيء من الأمر. ﴿وما كان لأحدٍ منهم أن يأتي بآية﴾: من الآيات السمعية والعقلية ﴿إلا بإذن الله﴾؛ أي: بمشيئته وأمره؛ فاقترح المقترح على الرسل الإتيان بالآيات ظلم منهم وتعتت وتكذيب بعد أن أيدهم الله بالآيات الدالة على صدقهم وصحة ما جاؤوا به. ﴿فإذا جاء أمر الله﴾: بالفصل بين الرسل وأعدائهم والفتح، ﴿قضي﴾: بينهم ﴿بالحق﴾: الذي يقع الموقع ويوافق الصواب بإنجاء الرسل وأتباعهم وإهلاك المكذبين، ولهذا قال: ﴿وخسر هنالك﴾؛ أي: وقت القضاء المذكور ﴿المبطلون﴾: الذين وصفهم الباطل وما جاؤوا به من العلم والعمل باطل، وغايتهم المقصودة لهم باطلة، فليحذر هؤلاء المخاطبون أن يستمروا على باطلهم، فيخسروا كما خسر أولئك؛ فإن هؤلاء لا خير منهم ولا لهم براءة في الكتب بالنجاة.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ .

﴿٧٩ - ٨٠﴾ يمتن تعالى على عباده بما جعل لهم من الأنعام التي بها جملة من الإنعام: منها منافع الركوب عليها والحمل، ومنها منافع الأكل من لحومها والشرب من ألبانها، ومنها [منافع] الدفء واتخاذ الآلات والأمتعة من أصوافها وأوبارها وأشعارها... إلى غير ذلك من المنافع. ﴿ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم﴾: من الوصول إلى الأفطار البعيدة، وحصول السرور بها والفرح عند أهلها. ﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾؛ أي: على الرواحل البرية والفلك البحرية يحملكم الله، الذي سخرها، وهياً لها ما هياً من الأسباب، التي لا تتم إلا بها.

﴿٨١﴾ ﴿ويريكم آياته﴾: الدالة على وحدانيته وأسمائه وصفاته، وهذا من أكبر نعمه؛ حيث أشهد عباده آياته النفسية وآياته الأفقية ونعمه الباهرة وعددها عليهم ليعرفوه ويشكروه ويذكروه. ﴿فأي آيات الله تُنْكِرُونَ﴾؛ أي: أي آية من آياته لا

تعترفون بها؟! فإنكم قد تقرّر عندكم أن جميع الآيات والنعم منه تعالى، فلم يبق للإنكار محل، ولا للإعراض عنها موضع، بل أوجبت لذوي الألباب بذل الجهد واستفراغ الوسع للاجتهاد في طاعته والتبثّل في خدمته والانقطاع إليه.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعَهُمْ إِيْمَتُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَلَتْ اللَّهُ أَلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿٨٢﴾ بحث تعالى المكذّبين لرسولهم على السّير في الأرض بأبدانهم وقلوبهم وسؤال العالمين، ﴿فينظروا﴾: نظر فكر واستدلال لا نظر غفلة وإهمال ﴿كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾: من الأمم السالفة؛ كعاد وثمود وغيرهم ممن كانوا أعظم منهم قوّة وأكثر أموالاً وأشدّ آثاراً في الأرض من الأبنية الحصينة والغراس الأنيقة والزروع الكثيرة. ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾: حين جاءهم أمر الله، فلم تغن عنهم قوتهم، ولا افتدوا بأموالهم، ولا تحصنوا بحصونهم.

﴿٨٣﴾ ثم ذكر جرمهم الكبير، فقال: ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات﴾: من الكتب الإلهيّة والخوارق العظيمة، والعلم النافع المبيّن للهدى من الضلال والحق من الباطل، ﴿فرحوا بما عندهم من العلم﴾: المناقض لدين الرسل، ومن المعلوم أن فرحهم به يدلّ على شدّة رضاهم به وتمسّكهم ومعاداة الحقّ الذي جاءت به الرسل وجعل باطلهم حقاً، وهذا عامّ لجميع العلوم التي نوقض بها ما جاءت به الرسل، ومن أحقّها بالدخول في هذا، علوم الفلسفة والمنطق اليوناني الذي رذّت به كثير من آيات القرآن، ونقصت قدره في القلوب، وجعلت أدلّته اليقينيّة القاطعة أدلّة لفظيّة لا تنفيذ شيئاً من اليقين، ويقدم عليها عقول أهل السّفه والباطل، وهذا من أعظم الإلحاد في آيات الله والمعارضة لها والمناقضة؛ فالله المستعان، ﴿وحاق بهم﴾: أي: نزل ما كانوا يستهزئون به من العذاب.

﴿٨٤﴾ ﴿فلما رأوا بأسنا﴾: أي: عذابنا؛ أقرّوا حيث لا ينفعهم الإقرار، و﴿قالوا آمنا بالله وحده وكفّرنا بما كنا به مشركين﴾: من الأصنام والأوثان، وتبرّأنا من كلّ ما خالف الرسل من علم أو عمل.

﴿٨٥﴾ ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بِأَسْنًا﴾؛ أي: في تلك الحال، وهذه سنة الله وعادته ﴿التي خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾: أن المكذبين حين ينزل بهم بأسُ الله وعقابه إذا آمنوا؛ كان إيمانهم غير صحيح ولا منجياً لهم من العذاب، وذلك لأنه إيمانٌ ضرورة؛ قد اضطرُّوا إليه، وإيمانٌ مشاهدة، وإثماً الإيمان [النافع] الذي ينجي صاحبه هو الإيمان الاختياري الذي يكون إيماناً بالغيب، وذلك قبل وجود قرائن العذاب، ﴿وَحَسِرَ هُنَالِكَ﴾؛ أي: وقت الإهلاك وإذاقة البأس ﴿الكافرون﴾: دينهم ودنياهم وأخراهم، ولا يكفي مجرد الخسارة في تلك الدار، بل لا بد من خسران يشقي في العذاب الشديد والخلود فيه دائماً أبداً.

تم تفسير سورة المؤمن بحمد الله ولطفه ومعونته لا بحولنا وقوتنا. فله الشكر والثناء.



تفسير سورة السجدة^(١)

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كَتَبْتُ فَصْلَتَ ءَايَتِكُمْ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ ۝ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَى أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاستَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۚ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝﴾.

﴿٢﴾ يخبر تعالى عباده أن هذا الكتاب الجليل والقرآن الجميل ﴿تنزيل﴾: صادر من الرحمن الرحيم: الذي وسعت رحمته كل شيء، الذي من أعظم رحمته وأجلها إنزال هذا الكتاب، الذي حصل به من العلم والهدى والنور والشفاء والرحمة والخير الكثير ما هو من أجل نعمة على العباد، وهو الطريق للسعادة في الدارين.

﴿٣﴾ ثم أننى على الكتاب بتمام البيان، فقال: ﴿فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾؛ أي: فُصِّلَ كُلُّ شيءٍ من أنواعه على جِدَّتِهِ، وهذا يستلزمُ البيان التامَّ والتفريق بين كلِّ شيءٍ وتمييز الحقائق، ﴿قَرَأْنَا عَرَبِيًّا﴾؛ أي: باللغة الفصحى أكمل اللغات، فصلت آيَاتُهُ وجُعِلَ عربيًّا. ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لأجل أن يتبيَّنَ لهم معناه كما يتبيَّنَ لفظه، ويتَّضحَ لهم الهدى من الضلال والغَيُّ من الرشاد، وأمَّا الجاهلون الذين لا يزيدهم الهدى إلَّا ضلالاً ولا البيانُ إلَّا عمى؛ فهؤلاء لم يَسْقِ الكلامَ لأجلهم، و﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذِرهم لا يؤمنون﴾.

﴿٤﴾ ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾؛ أي: بشيراً بالشواب العاجل والآجل، ونذيراً بالعقاب العاجل والآجل، وذكر تفصيلهما، وذكر الأسباب والأوصاف التي تحصل بها البشارة والنذارة، وهذه الأوصاف للكتاب مما يوجب أن يُتَلَقَّى بالقبول والإذعان والإيمان والعمل به، ولكن أعرض أكثر الخلق عنه إعراض المستكبرين، ﴿فهم لا يسمعون﴾: له سماع قبول وإجابة، وإن كانوا قد سمعوه سماعاً تقوم عليهم به الحجَّة الشرعيَّة.

﴿٥﴾ ﴿وَقَالُوا﴾؛ أي: هؤلاء المعرضون عنه مبينين عدم انتفاعهم به بسدِّ الأبواب الموصلة إليه: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾؛ أي: أغطية مغشاة، ﴿مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾؛ أي: صمم فلا نسمع لك ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾: فلا نراك؛ القصدُ من ذلك أنَّهم أظهروا الإعراض عنه من كلِّ وجه، وأظهروا بُغْضَهُ والرِّضا بما هم عليه، ولهذا قالوا: ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾؛ أي: كما رضيت بالعمل بدينك؛ فإننا راضون كلُّ الرضا بالعمل في ديننا، وهذا من أعظم الخذلان؛ حيث رضوا بالضلال عن الهدى، واستبدلوا الكفر بالإيمان، وباعوا الآخرة بالدنيا.

﴿٦ - ٧﴾ ﴿قُلْ﴾: لهم يا أيُّها النبي: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾؛ أي: هذه صفتي ووظيفتي: أني بشرٌ مثلكم، ليس بيدي من الأمر شيء، ولا عندي ما تستعجلون به، وإنما فضّلني الله عليكم وميّزني وخصّني بالوحي الذي أوحاه إليَّ وأمرني باتباعه ودعوتكم إليه. ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾؛ أي: اسلكوا الصراط الموصول إلى الله تعالى بتصديق الخبر الذي أخبر به واتباع الأمر واجتناب النهي، هذا حقيقة الاستقامة، ثم الدوام على ذلك، وفي قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾: تنبيه على الإخلاص، وأنَّ العامل ينبغي له أن يجعلَ مقصوده وغايته التي يعمل لأجلها الوصولَ إلى الله وإلى دار كرامته؛ فبذلك يكون عمله خالصاً صالحاً نافعاً، وبفواته يكون عمله باطلاً.

ولمَّا كَانَ الْعَبْدُ وَلَوْ حَرَصَ عَلَى الْإِسْقَامَةِ لَا بَدَأَ أَنْ يَحْصَلَ مِنْهُ خَلَلٌ بِتَقْصِيرِ بِمَأْمُورٍ أَوْ ارْتِكَابِ مَنْهِيٍّ؛ أَمْرُهُ بِدَوَاءِ ذَلِكَ بِالِاسْتِغْفَارِ الْمُتَضَمِّنِ لِلتَّوْبَةِ، فَقَالَ: ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾، ثُمَّ تَوَعَّدَ مَنْ تَرَكَ الْإِسْقَامَةَ فَقَالَ: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ. الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾؛ أَيُّ: الَّذِينَ عَبَدُوا مِنْ دُونِهِ مَنْ لَا يَمْلِكُ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نَشُورًا، وَدُسُوا^(١) أَنْفُسَهُمْ فَلَمْ يَزْكُوهَا بِتَوْحِيدِ رَبِّهِمْ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ، وَلَمْ يُصَلُّوا وَلَا زَكُّوا؛ فَلَا إِخْلَاصَ لِلْخَالِقِ بِالتَّوْحِيدِ وَالصَّلَاةِ، وَلَا نَفْعَ لِلْخَلْقِ بِالزَّكَاةِ وَغَيْرِهَا. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾؛ أَيُّ: لَا يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ وَلَا بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ؛ فَلِذَلِكَ لَمَّا زَالَ الْخَوْفُ مِنْ قُلُوبِهِمْ؛ أَقْدَمُوا عَلَى مَا أَقْدَمُوا عَلَيْهِ مِمَّا يَضُرُّهُمْ فِي الْآخِرَةِ.

﴿٨﴾ وَلَمَّا ذَكَرَ الْكَافِرِينَ؛ ذَكَرَ الْمُؤْمِنِينَ وَوَصَفَهُمْ وَجَزَاءَهُمْ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: بِهَذَا الْكِتَابِ وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِمَّا دَعَا إِلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَصَدَّقُوا إِيْمَانَهُمْ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الْجَامِعَةِ لِلْإِخْلَاصِ وَالْمُتَابَعَةِ، ﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾؛ أَيُّ: عَظِيمٌ ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾؛ أَيُّ: غَيْرُ مَقْطُوعٍ وَلَا نَافِذٍ، بَلْ هُوَ مُسْتَمَرٌّ مَدَى الْأَوْقَاتِ، مُتَزَايِدٌ عَلَى السَّاعَاتِ، مُشْتَمِلٌ عَلَى جَمِيعِ اللَّذَاتِ وَالْمُسْتَهْيَاتِ.

﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لَيْنٌ ﴿١٠﴾ ثُمَّ أَسْرَوْنَ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَالْأَرْضِ أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَفَضَّلْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَرَبَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾.

﴿٩ - ١٠﴾ يَنْكُرُ تَعَالَى وَيَعْجَبُ مِنْ كُفْرِ الْكَافِرِينَ بِهِ، الَّذِينَ جَعَلُوا مَعَهُ أَندَادًا، يُشْرِكُونَهُمْ مَعَهُ، وَيَبْذُلُونَ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ مِنْ عِبَادَاتِهِمْ، وَيَسُوءُونَهُمْ بِالرَّبِّ الْعَظِيمِ الْمَلِكِ الْكَرِيمِ، الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ الْكَثِيفَةَ الْعَظِيمَةَ فِي يَوْمَيْنِ، ثُمَّ دَحَاها فِي يَوْمَيْنِ؛ بَأَن جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا تُرْسِيهَا عَنِ الزَّوَالِ وَالتَّرْزُلِ وَعَدَمِ الْإِسْتِقْرَارِ؛ فَكَمَّلَ خَلْقَهَا وَدَحَاها وَأَخْرَجَ أَقْوَاتَهَا وَتَوَابَعَ ذَلِكَ ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لَيْنٌ﴾: عَنْ ذَلِكَ؛ فَلَا يَنْبُتُكَ مِثْلُ خَيْرٍ؛ فَهَذَا الْخَبَرُ الصَّادِقُ الَّذِي لَا زِيَادَةَ فِيهِ وَلَا نَقْصَ.

﴿١١﴾ ﴿ثم﴾: بعد أن خَلَقَ الأرض ﴿استوى﴾؛ أي: قصد ﴿إلى﴾: خلق السماء وهي دخانٌ: قد ثار على وجه الماء، ﴿فقال لها﴾: ولما كان هذا التخصيصُ يوهِمُ الاختصاص؛ عَطَفَ عليه بقوله: ﴿وللأرض اثنتا طوعاً أو كَرْهاً﴾؛ أي: انقاداً لأمرَي طائعتين أو مُكْرَهَتَيْن؛ فلا بدَّ من نفوذه، ﴿قالنا آتينا طائعين﴾؛ أي: ليس^(١) لنا إرادةٌ تخالف إرادتك.

﴿١٢﴾ ﴿ففضاهنَّ سبعَ سمواتٍ في يومين﴾: فتمَّ خلقُ السماواتِ والأرضِ في ستة أيام؛ أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، مع أنَّ قدرةَ الله ومشيئته صالحةٌ لخلق الجميع في لحظة واحدة، ولكن مع أنَّه قدير؛ فهو حكيمٌ رفيقٌ؛ فمن حكمته ورفقه أن جعل خَلْقَها في هذه المدة المقدرة. واعلم أنَّ ظاهر هذه الآية مع قوله تعالى في النازعات لما ذَكَرَ خَلْقَ السماواتِ؛ قال: ﴿والأرضَ بعد ذلك دحاهاً﴾: يَظْهَرُ منهما التعارضُ! مع أنَّ كتابَ الله لا تعارض فيه ولا اختلاف! والجواب عن ذلك ما قاله كثير من السلف: أنَّ خَلْقَ الأرض وصورتها متقدِّم على خلق السماواتِ كما هنا. ودَخِيَ الأرض بأن ﴿أخرجَ منها ماءها ومَرْعاها. والجبالَ أرساها﴾: متأخراً على^(٢) خلقِ السماواتِ؛ كما في سورة النازعات، ولهذا قال [فيها]: ﴿والأرضَ بعد ذلك دحاهاً. أخرجَ منها...﴾ إلى آخره، ولم يقل: والأرضَ بعد ذلك خَلَقَها. وقوله: ﴿وأوحى في كلِّ سماءٍ أمرها﴾؛ أي: الأمر والتدبير اللائقَ بها، التي اقتضته حكمةُ أحكم الحاكمين، ﴿وزيَّنا السماء الدنيا بمصابيح﴾: هي النجوم؛ يُستَنارُ بها ويُهتدى، وتكون زينةً وجمالاً للسماء ظاهراً وجمالاً لها باطناً بجعلها رجوماً للشياطين؛ لئلاً يَسْتَرْقِ السَّمْعَ فيها. ﴿ذلك﴾: المذكور من الأرض وما فيها والسماء وما فيها ﴿تقديرُ العزيز العليم﴾: الذي عزَّته قَهَرُها الأشياء ودَبَّرَها وخالَقَ بها المخلوقات. ﴿العليم﴾ الذي أحاط علمُه بالمخلوقات والغائب والشاهد.

فترك المشركين الإخلاصَ لهذا الربِّ العظيم الواحد القهَّار، الذي انقادتِ المخلوقاتُ لأمره، ونفَذَ فيها قدره من أعجب الأشياء، واتَّخَذَهم له أنداداً يسوونهم به وهم ناقصون في أوصافهم وأفعالهم أعجب وأعجب، ولا دواء لهؤلاء إن استمرَّ إعراضهم إلَّا العقوبات الدنيويَّة والأخرويَّة؛ فلهذا خوْفُهم بقوله:

(١) في (ب): «ليس».

(٢) في (ب): «عن».

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ .

﴿١٣ - ١٤﴾ أي: فإن أعرض هؤلاء المكذبون بعدما بُيِّنَ لهم من أوصاف القرآن الحميدة ومن صفات الإله العظيم، ﴿فقل أنذرتكم صاعقة﴾؛ أي: عذاباً يستأصلكم ويجتاحكم، ﴿مثل صاعقة عادٍ و ثمود﴾: القيلتين المعروفتين؛ حيث اجتاحهم العذاب، وحلَّ عليهم وبيل العقاب، وذلك بظلمهم وكفرهم؛ حيث جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم؛ أي: يتبع بعضهم بعضاً متوالين، ودعوتهم جميعاً واحدة: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾؛ أي: يأمرهم بالإخلاص لله، وينهونهم عن الشرك به، فردوا رسالتهم وكذبوهم، و﴿قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾؛ أي: وأما أنتم؛ فبشر مثلنا، ﴿فإننا بما أُرْسِلْتُمْ به كافرين﴾: وهذه الشبهة لم تزل متوارثة بين المكذبين بالأمم، وهي من أوهى الشبه؛ فإنه ليس من شرط الإرسال أن يكون المرسل ملكاً، وإنما شرط الرسالة أن يأتي الرسول بما يدلُّ على صدقه، فليقدحوا إن استطاعوا بصدقهم بقادح عقليٍّ أو شرعيٍّ، ولن يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَبْلِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾﴾ .

هذا تفصيل لقصة هاتين الأمتين عادٍ و ثمود:

﴿١٥﴾ فأما عادٌ؛ فكانوا مع كفرهم بالله وجحدهم بآيات الله وكفرهم برسله مستكبرين ﴿في الأرض﴾ قاهرين لمن حولهم من العباد ظالمين لهم قد أعجبتهم قوتهم، ﴿وقالوا من أشدُّ منا قوة﴾: قال تعالى ردّاً عليهم بما يعرفه كلُّ أحد: ﴿أولم يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾: فلولا خلقه إياهم؛ لم يوجدوا؛ فلو نظروا إلى هذه الحال نظراً صحيحاً؛ لم يغترون بقوتهم.

﴿١٦﴾ فعاقبهم الله عقوبةً تناسب قوتهم التي اغتروا بها، ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً﴾؛ أي: ريحاً عظيمةً من قوتها وشدتها، لها صوت مزعج كالرعد

القاصف، فسخرها الله ﴿عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾، ﴿نحسات﴾: فدمرتهم وأهلكتهم فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، وقال هنا: ﴿لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا﴾: الذي اختزوا به وافتضحوا بين الخليقة، ﴿ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون﴾؛ أي: لا يمتنعون من عذاب الله، ولا يتفنعون^(١) أنفسهم.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ ﴿١٨﴾.

﴿١٧﴾ ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾: وهم القبيلة المعروفة، الذين سكنوا الحجر وحواليه، الذين أرسل الله إليهم صالحاً عليه السلام يدعوهم إلى توحيد ربهم وينهاهم عن الشرك، وآتاهم الله الناقة آية عظيمة لها شربٌ ولهم شربٌ يوم معلوم، يشربون لبنها يوماً ويشربون من الماء يوماً، وليسوا ينفقون عليها، بل تأكل من أرض الله، ولهذا قال هنا: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾؛ أي: هداية بيان، وإنما نصّ عليهم، وإن كان جميع الأمم المهلكة قد قامت عليهم الحجة وحصل لهم البيان؛ لأن آية ثمود آية باهرة قد رآها صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم، وكانت آية مبصرة، فلماذا خصّهم بزيادة البيان والهدى، ولكنهم من ظلمهم وشرّهم استحبوا ﴿العمى﴾ الذي هو الكفر والضلال ﴿على الهدى﴾ الذي هو العلم والإيمان، فأخذهم ﴿العذاب﴾ بما كانوا يكسبون، لا ظلماً من الله لهم.

﴿١٨﴾ ﴿وَجَعَلْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾؛ أي: نجى الله صالحاً عليه السلام ومن اتبعه من المؤمنين المتقين للشرك والمعاصي.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَيُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِمَ جُلِدُوا لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَئِيهِ تَرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُصَبِّحُوا مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا

(١) في (ب): «ولا يمتنعون».

قَالَنَّا مَتَّوٰى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ .

﴿١٩﴾ يخبر تعالى عن أعدائه الذين بارزوه بالكفر به وبآياته وتكذيب رسله ومعاداتهم ومحاربتهم وحالهم الشنيعة حين يُحْشَرُونَ؛ أي: يجمعون ﴿إلى النار فهم يُوزَعُونَ﴾؛ أي: يرذ أولهم على آخرهم، ويتبع آخرهم أولهم، ويساقون إليها سوقاً عنيفاً، لا يستطيعون امتناعاً ولا ينصرون أنفسهم ولا هم ينصرون.

﴿٢٠﴾ ﴿حتى إذا ما جاؤوها﴾؛ أي: حتى إذا وردوا على النار وأرادوا الإنكار أو أنكروا ما عملوه من المعاصي، ﴿شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم﴾: عموم بعد خصوص، ﴿بما كانوا يعملون﴾؛ أي: شهد عليهم كل عضو من أعضائهم؛ فكل عضو يقول: أنا فعلت كذا وكذا يوم كذا وكذا، وخص هذه الأعضاء الثلاثة؛ لأن أكثر الذنوب إنما تقع بها أو بسببها.

﴿٢١﴾ فإذا شهدت عليهم، عاتبوها ﴿وقالوا لجلودهم﴾: هذا دليل على أن الشهادة تقع من كل عضو كما ذكرنا، ﴿لم شهدتم علينا﴾: ونحن ندافع عنكم؟ ﴿قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء﴾: فليس في إمكاننا الامتناع عن الشهادة حين أنطقنا الذي لا يستعصي أحد عن مشيئته^(١)، ﴿وهو خلقكم أول مرة﴾: فكما خلقكم بذواتكم وأجسامكم؛ خلق أيضاً صفاتكم، ومن ذلك الإنطاق. ﴿وإليه ترجعون﴾: في الآخرة، فيجزىكم بما عملتم. ويحتمل أن المراد بذلك الاستدلال على البعث بالخلق الأول كما هو طريقة القرآن.

﴿٢٢﴾ ﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم﴾؛ أي: وما كنتم تختفون عن شهادة أعضائكم عليكم ولا تحاذرون من ذلك. ﴿ولكن ظننتم﴾: بإقدامكم على المعاصي ﴿أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون﴾: فلذلك صدّر منكم ما صدّر.

﴿٢٣﴾ وهذا الظن صار سبب هلاكهم وشقائهم، ولهذا قال: ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم برَبِّكم﴾: الظن السيئ؛ حيث ظننتم به ما لا يليق بجلاله، ﴿أرداكم﴾؛ أي: أهلككم، ﴿فأصبحتم من الخاسرين﴾: لأنفسهم وأهليهم وأديانهم؛ بسبب الأعمال التي أوجبها لكم ظنكم القبيح برَبِّكم. فحققت عليكم كلمة العقاب^(٢)

(١) في (ب): «لا يستعصي عن مشيئته أحد».

(٢) في (ب): «العذاب».

والشقاء، ووجب عليكم الخلود الدائم في العذاب، الذي لا يُقْتَر عنهم ساعة.

﴿٢٤﴾ ﴿فَإِنْ يَضْرِبُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾: فلا جَلَدَ عليها ولا صَبْرَ، وكلُّ حالة قُدِّرَ إمكانُ الصبر عليها؛ فالنار لا يمكن الصبر عليها، وكيف الصبر على نار قد اشتدَّ حرُّها وزادت على نار الدنيا بسبعين ضعفاً وعظم غليانُ حميمها وزاد تَتَنُّ صديدها وتضاعف برْدُ زمهريرها، وعظمت سلاسلها وأغلالها، وكَبُرَتْ مقامِعها، وَعَلَّظَ خُزَّانها، وزال ما في قلوبهم من رحمتهم، وختام ذلك سَخَطُ الجبار، وقوله لهم حين يدعونه ويستغيثون: ﴿اخْسَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾. ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا﴾؛ أي: يطلبوا أن يزال عنهم العتب، فيرجعوا إلى الدنيا؛ ليستأنفوا العمل، ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْمُغْتَبِينَ﴾: لأنَّه ذهب وقته، وعُمِّروا ما يُعَمَّر فيه من تذكُّر، وجاءهم النذير، وانقطعت حجتهم، مع أنَّ استعتابهم كذبٌ منهم، فلو رُدُّوا؛ لَعَادُوا لما نُهوا عنه ولأنَّهم لَكَاذِبُونَ.

﴿وَقِضْنَا لَهُمْ قُرْآنَهُ فَرَزَنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾.

﴿٢٥﴾ أي: ﴿وَقِضْنَا﴾: لهؤلاء الظالمين الجاحدين للحق ﴿قرناء﴾: من الشياطين؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾؛ أي: تزعجهم إلى المعاصي، وتحثهم عليها، بسبب ما زَيَّنُوا ﴿لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: فالدنيا زخرفوها بأعينهم ودَعَوْهم إلى لذاتها وشهواتها المحرَّمة، حتى افْتَتَنُوا فَأَقْدَمُوا على معاصي الله وسَلَكُوا ما شَاؤُوا من محاربة الله ورسوله، والآخرة بَعُدُوا عنها عليهم وأنسَوْهم ذِكْرَهَا، وربما أَوْقَعُوا عليهم الشُّبه بعدم وقوعها، فترَحَّلَ خوفُها من قلوبهم، فقادوهم إلى الكفر والبدع والمعاصي. وهذا التسليط والتقييض من الله للمكذِّبين الشياطين بسبب إغراضهم عن ذِكْرِ الله وآياته وجحودهم الحق؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ. وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾. ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾؛ أي: وجب عليهم ونزل القضاء والقدرُ بعذابهم ﴿في﴾ جملة ﴿أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾: لأديانهم وآخرتهم، ومن خَسِرَ؛ فلا بدَّ أن يَذِلَّ ويشقى ويعذَّب.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَمْجِدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرَنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴿

﴿٢٦﴾ يخبر تعالى عن إعراض الكفار عن القرآن وتواصيهم بذلك، فقال: ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن﴾؛ أي: أعرضوا عنه بأسماعكم، وإياكم أن تلتفتوا أو تضرعوا إليه وإلى من جاء به؛ فإن اتفق أنكم سمعتموه أو سمعتم الدعوة إلى أحكامه، فالغوا فيه؛ أي: تكلموا بالكلام الذي لا فائدة فيه، بل فيه المضرة، ولا تمكّنوا مع قدرتكم أحداً يملك عليكم الكلام به وتلاوة ألفاظه ومعانيه، هذا لسان حالهم ولسان مقالهم في الإعراض عن هذا القرآن. ﴿لعلكم﴾: إن فعلتم ذلك ﴿تغلبون﴾: وهذا شهادة من الأعداء، وأوضح الحق ما شهدت به الأعداء؛ فإنهم لم يحكموا بغلبتهم لمن جاء بالحق إلا في حال الإعراض عنه والتواصي بذلك، ومفهوم كلامهم أنهم إن لم يلغوا فيه، بل استمعوا إليه وألقوا أذهانهم؛ أنهم لا يغلبون؛ فإن الحق غالب غير مغلوب، يعرف هذا أصحاب الحق وأعداؤه.

﴿٢٧﴾ ولما كان هذا ظلماً منهم وعناداً؛ لم يبقَ فيهم مطمع للهداية، فلم يبقَ إلا عذابهم ونكالهم، ولهذا قال: ﴿فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون﴾: وهو الكفر والمعاصي؛ فإنها أسوأ ما كانوا يعملون؛ لكونهم يعملون المعاصي وغيرها؛ فالجزاء بالعقوبة إنما هو على عمل الشرك^(١)، ولا يظلم ربك أحداً.

﴿٢٨﴾ ﴿ذلك جزاء أعداء الله﴾: الذين حاربوه وحاربوا أولياءه؛ بالكفر والتكذيب والمجادلة والمجادلة. ﴿[النار] لهم فيها دار الخلد﴾؛ أي: الخلود الدائم، الذي لا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا هم ينصرون، وذلك ﴿جزاء بما كانوا بآياتنا يمجّدون﴾؛ فإنها آيات واضحة وأدلة قاطعة مفيدة لليقين، فأعظم الظلم وأكبر العناد جحدها والكفر بها.

﴿٢٩﴾ ﴿وقال الذين كفروا﴾؛ أي: الاتباع منهم؛ بدليل ما بعده على وجه

(١) في (ب): «الشر».

الحنق على مَنْ أَضَلَّهُمْ: ﴿رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْس﴾؛ أي: الصنفين اللذين قادانا إلى الضلال والعذاب من شياطين الجنِّ وشياطين الإنس الدعاة إلى جهنم، ﴿نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾؛ أي: الأذلين المهانين؛ كما أضلُّونا وفتنونا وصاروا سبباً لنزولنا؛ ففي هذا بيانٌ حنقٍ بعضهم على بعض، وتبريٍ بعضهم من بعض.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٣٠) ﴿نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ (٣١) ﴿نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ (٣٢).

﴿٣٠﴾ يخبر تعالى عن أوليائِهِ، وفي ضمن ذلك تشييطهم والحثُّ على الاقتداء بهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾؛ أي: اعترفوا ونطقوا ورضوا بربوبية الله تعالى واستسلموا لأمره، ثم استقاموا على الصراط المستقيم علماً وعملاً؛ فلهم البُشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة. ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾: الكرام؛ أي: يتكرَّر نزولهم عليهم مبشرين لهم عند الاحتضار ﴿أَنْ لَا تَخَافُوا﴾: على ما يستقبل من أمرهم، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾: على ما مضى، فنفوا عنهم المكروه الماضي والمستقبل. ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾: فإنها قد وجبت لكم وثبتت، وكان وعد الله مفعولاً.

﴿٣١﴾ ويقولون لهم أيضاً مثبتين لهم ومبشرين: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾: يحثونهم في الدنيا على الخير ويُزيِّنونه لهم، ويرهَّبونهم عن الشرِّ ويقبِّحونه في قلوبهم، ويدَّعون الله لهم، ويثبتونهم عند المصائب والمخاوف، وخصوصاً عند الموت وشِدَّتِهِ والقبر وظلمته وفي القيامة وأهوالها، وعلى الصراط وفي الجنة؛ يهثِّونهم بكرامة ربِّهم، ويدخلون عليهم من كلِّ باب، سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار، ويقولون لهم أيضاً: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة، ﴿مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ﴾: قد أعدَّ وهبىء، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾؛ أي: تطلبون من كلِّ ما تتعلَّق به إرادتكم وتطلبونه، من أنواع اللذات والمشتهيات، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطرَ على قلب بشر.

﴿٣٢﴾ ﴿نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾؛ أي: هذا الثواب الجزيل والنعيم المقيم نُزِّلَ وضيافةً من غفورٍ غفر لكم السيئات، رحيمٍ حيث وفَّقكم لفعل الحسنات ثم قبلها

منكم؛ فبمغفرته أزال عنكم المحذور، وبرحمته أنالكم المطلوب.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٣).

﴿٣٣﴾ هذا استفهام بمعنى النفي المتقرر؛ أي: لا أحد ﴿أحسن قولاً﴾؛ أي: كلاماً وطريقةً وحالة ﴿ممن دعا إلى الله﴾: بتعليم الجاهلين، ووعظ الغافلين والمعرضين، ومجادلة المبطلين؛ بالأمر بعبادة الله بجميع أنواعها، والحث عليها، وتحسينها مهما أمكن، والزجر عما نهى الله عنه، وتقييده بكل طريق يوجب تركه، خصوصاً من هذه الدعوة إلى أصل دين الإسلام وتحسينه، ومجادلة أعدائه والتي هي أحسن، والنهي عما يضاده من الكفر والشرك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومن الدعوة إلى الله تحبيبه إلى عباده؛ بذكر تفاصيل نعمه وسعة جوده وكمال رحمته وذكر أوصاف كماله ونعوت جلاله.

ومن الدعوة إلى الله الترغيب في اقتباس العلم والهدى من كتاب الله وسنة رسوله، والحث على ذلك بكل طريق موصل إليه. ومن ذلك الحث على مكارم الأخلاق، والإحسان إلى عموم الخلق، ومقابلة المسيء بالإحسان، والأمر بصلة الأرحام وبرّ الوالدين. ومن ذلك الوعظ لعموم الناس في أوقات المواسم والعوارض والمصائب بما يناسب ذلك الحال، إلى غير ذلك مما لا تنحصر أفرادها بما يشملها الدعوة إلى الخير كله، والترهيب من جميع الشر.

ثم قال تعالى: ﴿وعمل صالحاً﴾؛ أي: مع دعوته الخلق إلى الله بادر هو بنفسه إلى امثال أمر الله بالعمل الصالح الذي يرضي ربه، ﴿وقال إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾؛ أي: المنقادين لأمره، السالكين في طريقه، وهذه المرتبة تمامها للصدّيقين الذين عملوا على تكميل أنفسهم وتكميل غيرهم وحصلت لهم الورثة التامة من الرسل؛ كما أن من أشر الناس قولاً من كان من دعاة الضلال السالكين لسبله، وبين هاتين المرتبتين المتباينتين، التي ارتفعت إحداها إلى أعلى عليين، ونزلت الأخرى إلى أسفل سافلين، مراتب لا يعلمها إلا الله، وكلها معمورة بالخلق، ولكل درجات مما عملوا، وما ربك بغافل عما يعملون.

﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) وَمَا يَأْمُرُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا ذُرٌّ حَظٍ عَظِيمٍ (٣٥).

﴿٣٤﴾ يقول تعالى: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة﴾؛ أي: لا يستوي فعل

البحسنات والطاعات لأجل رضا الله تعالى ولا فعل السيئات والمعاصي التي تُسَخِّطُهُ ولا تُرضيه، ولا يستوي الإحسانُ إلى الخلق ولا الإساءة إليهم لا في ذاتها ولا في وصفها ولا في جزائها. ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾. ثم أمر بإحسان خاص، له موقع كبير، وهو الإحسان إلى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ، فقال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ أي: فإذا أَسَاءَ إِلَيْكَ مَسِيءٌ من الخلق، خصوصاً من له حقٌّ كبيرٌ عليك؛ كالأقارب والأصحاب ونحوهم، إساءةً بالقول أو بالفعل؛ فقابله بالإحسان إليه؛ فَإِنْ قَطَعَكَ؛ فَصِلْهُ، وَإِنْ ظَلَمَكَ؛ فَاعْفُ عَنْهُ، وَإِنْ تَكَلَّمَ فِيكَ غَائِباً أَوْ حَاضِراً؛ فَلَا تَقَابِلْهُ، بَلْ اعْفُ عَنْهُ وَعَامِلْهُ بِالْقَوْلِ اللَّيِّنِ، وَإِنْ هَجَرَكَ وَتَرَكَ خَطَابَكَ؛ فَطِيبْ لَهُ الْكَلَامَ وَابْذُلْ لَهُ السَّلَامَ؛ فإذا قابِلْتَ الإساءة بالإحسان؛ حصل فائدةٌ عظيمةٌ. ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوةٌ كأنه وليٌ حميمٌ﴾؛ أي: كأنه قريبٌ شفيقٌ.

﴿٣٥﴾ ﴿وَمَا يُلْقَاهَا﴾؛ أي: وما يوفق لهذه الخصلة الحميدة ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَنَفْسَهُمْ عَلَى مَا تَكْرَهُ، وَأَجْبَرُوا عَلَى مَا يَحِبُّهُ اللَّهُ؛ فَإِنَّ النفوسَ مجبولةٌ على مقابلة المَسِيءِ بِإِسَاءَتِهِ، وعدم العفو عنه؛ فكيف بالإحسان؛ فإذا صَبَرَ الإنسان نفسه وامْتَثَلَ أَمْرَ رَبِّهِ وَعَرَفَ جَزِيلَ الثَّوَابِ وَعَلِمَ أَنَّ مَقَابِلَتَهُ لِلْمَسِيءِ بِجِنْسِ عَمَلِهِ لَا يَفِيدُهُ شَيْئاً وَلَا يَزِيدُ الْعِدَاوَةَ إِلَّا شِدَّةً، وَأَنَّ إِحْسَانَهُ إِلَيْهِ لَيْسَ بِوَاضِعٍ قَدَرَهُ، بَلْ مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ؛ هَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ وَفَعَلَ ذَلِكَ مَتَلَذِّداً مُسْتَحْلِياً لَهُ. ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾: لكونها من خصال خواص الخلق، التي ينال بها العبد الرفعة في الدنيا والآخرة، التي هي من أكبر خصال مكارم الأخلاق.

﴿وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٣٦) وَمِنْ عَائِنَتِهِ أَيْلٌ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِتَائِهِ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ عَائِنَتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَشِيعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنْ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩).

﴿٣٦﴾ لما ذكر تعالى ما يُقَابَلُ به العدو من الإنس، وهو مقابلة إساءته بالإحسان؛ ذكر ما يُدْفَعُ به العدو الجني، وهو الاستعاذة بالله والاحتماء من شره، فقال: ﴿وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾؛ أي: أي وقت من الأوقات أحسست بشيء من نَزَعَاتِ الشَّيْطَانِ؛ أي: من وساوسه وتزيينه للشر وتكسيه عن الخير

وإصابة ببعض الذنوب وإطاعة له ببعض ما يأمر به، ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾؛ أي: أسأله مفتقراً إليه أن يعيدَكَ ويعصِمَكَ منه. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: فإنه يسمع قولك وتضرعك، ويعلمُ حالك واضطرارك إلى عصمته وحمايته.

﴿٣٧﴾ ثم ذكر تعالى أن ﴿مِنْ آيَاتِهِ﴾: الدالة على كمال قدرته ونفوذه مشيئته وسعة سلطانه ورحمته بعباده وأنه الله وحده لا شريك له، ﴿اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾: هذا بمنفعة ضيائه وتصرف العباد فيه، وهذا بمنفعة ظلمه وسكون الخلق فيه، ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾: اللذان لا تستقيم معاشُ العباد ولا أبدانُ حيواناتهم إلا بهما، وبهما من المصالح ما لا يحصى عدده. ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾: فإنهما مدبران مسخران مخلوقان، ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾؛ أي: اعبدوه وحده؛ لأنه الخالق العظيم، ودعوا عبادة ما سواه من المخلوقات، وإن كُبر جرمه وكثرت مصالحه فإن ذلك ليس منه، وإنما هو من خالقه تبارك وتعالى ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِتَاءَ تَعْبُدُونَ﴾: فخصّوه بالعبادة وإخلاص الدين له.

﴿٣٨﴾ ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا﴾: عن عبادة الله تعالى، ولم ينقادوا لها؛ فإنهم لن يضرّوا الله شيئاً، والله غني عنهم، وله عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولهذا قال: ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾؛ يعني: الملائكة المقرّبين، ﴿يَسْبَحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾؛ أي: لا يملّون من عبادته؛ لقوتهم وشدة الداعي القوي منهم إلى ذلك.

﴿٣٩﴾ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾: الدالة على كمال قدرته وانفراده بالملك والتدبير والوحدانية، ﴿أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾؛ [أي]: لا نبات فيها، ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾؛ أي: المطر، ﴿اهْتَزَّتْ﴾؛ أي: تحرّكت بالنبات، ﴿وَرَبَتْ﴾: ثم أنبتت من كل زوج بهيج؛ فحيي بها العباد والبلاذ. ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا﴾: بعد موتها وهمودها ﴿لَمُحْيِي الْمَوْتِ﴾: من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم. ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: فكما لم تعجز قدرته على إحياء الأرض بعد موتها لا تعجز عن إحياء الموتى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَحْفَظُونَ عَلَيْهَا﴾: ﴿أَفَنَ يُلْقَى فِي النَّارِ خَبْرٌ مِّنْ بَآئِتٍ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا﴾ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴿

﴿٤٠﴾ الإلحادُ في آياتِ الله: الميلُ بها عن الصوابِ بأيِّ وجه كان: إمَّا بإنكارها وجحودها وتكذيب مَنْ جاء بها، وإمَّا بتحريفها وتصريفها عن معناها الحقيقي وإثبات معانٍ ما أرادها الله منها، فتوعدُّ تعالى مَنْ ألحد فيها بأنَّه لا يخفى عليه، بل هو مطلع على ظاهره وباطنه، وسيجازهه على إلحاده بما كان يعمل، ولهذا قال: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ﴾: مثل الملحدِ بآياتِ الله ﴿خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمَنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: من عذابِ الله، مستحقًّا لثوابه؟ من المعلوم أنَّ هذا خيرٌ.

لَمَّا تَبَيَّنَ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ والطريق المنجي من عذابه من الطريق المهلك؛ قال: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾: إن شئتم؛ فاسلكوا طريق الرُّشدِ الموصلة إلى رضا ربِّكم وجنته، وإن شئتم؛ فاسلكوا طريق الغيِّ المسخطة لربكم الموصلة إلى دار الشقاء. ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: يجازيكم بحسب أحوالكم وأعمالكم؛ كقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾.

﴿٤١ - ٤٢﴾ ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾؛ أي: يجحدون القرآن الكريم، المذَّكر للعباد جميع مصالحهم الدنيَّة والدنيويَّة والأخرويَّة، المعلي لِقَدَرٍ من أتبعه، ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾: نعمة من ربهم على يد أفضل الخلق وأكملهم. ﴿وَالْحَالِ إِنَّهُ﴾: كتابٌ جامعٌ لأوصاف الكمال، ﴿عَزِيزٌ﴾؛ أي: منيعٌ من كلِّ مَنْ أراد به تحريف أو سوء، ولهذا قال: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾؛ أي: لا يقرُّبه شيطانٌ من شياطين الإنس والجنِّ لا بسرقة ولا بإدخال ما ليس منه به ولا بزيادة ولا نقص؛ فهو محفوظٌ في تنزيله، محفوظة ألفاظه ومعانيه، قد تكفل مَنْ أنزله بحفظه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ﴾: في خلقه وأمره، يضع كلَّ شيء موضعه وينزلها منازلها ﴿حَمِيدٌ﴾: على ما له من صفات الكمال ونعوت الجلال، وعلى ما له من العدل والإفضال؛ فلهذا كان كتابه مشتملاً على تمام الحكمة وعلى تحصيل المصالح والمنافع ودفع المفاسد والمضار التي يُحَمَّدُ عليها.

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿٤٣﴾ أي: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾: أيها الرسول من الأقوال الصادرة ممَّن كذبك وعاندك ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾؛ أي: من جنسها، بل ربَّما إنهم تكلموا بكلام واحد؛ كتعجب جميع الأمم المكذبة للرُّسل من دعوتهم إلى الإخلاص لله وعبادته وحده لا شريك له، وردَّهم هذا بكلِّ طريق يقدرُون عليه، وقولهم: ما أنتم

إلا بشرٌ مثلنا، واقتراحهم على رسلهم الآيات التي لا يلزمهم الإتيان بها... ونحو ذلك من أقوال أهل التكذيب؛ لما تشابهت قلوبهم في الكفر؛ تشابهت أقوالهم، وصبر الرسل عليهم السلام على أذاهم وتكذيبهم؛ فاضبر كما صبر من قبلك.

ثم دعاهم إلى التوبة والإتيان بأسباب المغفرة، وحذرهم من الاستمرار على الغي، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾؛ أي: عظيمة يمحو بها كل ذنب لمن أقلع وتاب، ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾: لمن أصر واستكبر.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٤٤﴾.

﴿٤٤﴾ يخبر تعالى عن فضله وكرمه؛ حيث أنزل كتابه عربياً على الرسول العربي بلسان قومه ليبين لهم، وهذا مما يوجب لهم زيادة الاعتناء به والتلقي له والتسليم، وأنه لو جعله قرآناً أعجمياً بلغة غير العرب؛ لاعترض المكذبون، وقالوا: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾؛ أي: هلاً بينت آياته ووضحت وفُسرَت، ﴿أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾؛ أي: كيف يكون محمدٌ عربياً والكتاب أعجمياً؟! هذا لا يكون. فنفى الله تعالى كل أمر يكون فيه شبهة لأهل الباطل عن كتابه، ووصفه بكل وصف يوجب لهم الانقياد، ولكن المؤمنون الموفقون انتفعوا به وارتفعوا، وغيرهم بالعكس من أحوالهم، ولهذا قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾؛ أي: يهديهم لطريق الرشيد والصراط المستقيم، ويعلمهم من العلوم النافعة ما به تحصل الهداية التامة، وشفاء لهم من الأسقام البدنية والأسقام القلبية؛ لأنه يزجر عن مساوىء الأخلاق وأقبح الأعمال، ويحث على التوبة النصوح التي تغسل الذنوب وتشفي القلب. ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: بالقرآن ﴿فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾؛ أي: صمم عن استماعه وإعراض، ﴿وهو عليهم عمى﴾؛ أي: لا يبصرون به رشداً، ولا يهتدون به، ولا يزيدهم إلا ضلالاً؛ فإنهم إذا ردوا الحق؛ ازدادوا عمى إلى عماهم وغياً إلى غيهم. ﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾؛ أي: ينادون إلى الإيمان ويدعون إليه فلا يستجيبون؛ بمنزلة الذي ينادى وهو في مكان بعيد، لا يسمع داعياً ولا يجيب منادياً. والمقصود أن الذين لا يؤمنون بالقرآن لا ينتفعون بهداه ولا يبصرون بنوره ولا يستفيدون منه خيراً؛ لأنهم سدوا على أنفسهم أبواب الهدى بإعراضهم وكفرهم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٥﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾: كما آتيناك الكتاب، فصنع به الناس ما صنعوا معك؛ اختلفوا فيه: فمنهم من آمن به واهتدى وانتفع، ومنهم من كذبه ولم ينتفع به، وإن الله تعالى لولا جلمه وكلمته السابقة بتأخير العذاب إلى أجل مستمى لا يتقدم عليه ولا يتأخر؛ ﴿لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾: بمجرد ما يتميز المؤمنون من الكافرين؛ بإهلاك الكافرين بالحال؛ لأن سبب الهلاك قد وجب وحق. ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾: أي: قد بلغ بهم إلى الريب الذي يُقلِّبهم؛ فلذلك كذبوه وجحدوه.

﴿٤٦﴾ ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾: وهو العمل الذي أمر الله به ورسوله ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾: نفعه وثوابه في الدنيا والآخرة. ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾: ضرره وعقابه في الدنيا والآخرة، وفي هذا حث على فعل الخير وترك الشر، وانتفاع العاملين بأعمالهم الحسنة، وضررهم بأعمالهم السيئة، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾: فيحمل أحداً فوق سيئاته.

﴿إِلَيْهِ يُرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ آئِنَ شُرَكَائِي قَالُوا ءَإِذْكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿٤٧ - ٤٨﴾ هذا إخبار عن سعة علمه تعالى واختصاصه بالعلم الذي لا يطلع عليه سواه، فقال: ﴿إِلَيْهِ يُرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾؛ أي: جميع الخلق يُردُّ^(١) علمها إلى الله تعالى، ويقرون بالعجز عنه؛ الرسل والملائكة وغيرهم. ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا﴾؛ أي: وعائها الذي تخرج منه، وهذا شامل لثمرات جميع الأشجار التي في البلدان والبراري؛ فلا تخرج ثمرة شجرة من الأشجار إلا وهو يعلمها علماً تفصيلياً. ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى﴾: من بني آدم وغيرهم من أنواع

(١) في (ب): «تُرَدُّ».

الحيوانات إِلَّا بعلمه، ﴿وَلَا تَضَعْ﴾ [أَنْتَى حَمَلَهَا] ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾؛ فكيف سَوَى
المشركون به تعالى مَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ وَلَا سَمْعَ وَلَا بَصَرَ؟ ﴿وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ﴾؛ أَيِ:
المشركين به يوم القيامة توبيخاً وإظهاراً لكذبهم، فيقول لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾:
الذين زعمتم أَنَّهُمْ شُرَكَائِي، فعبدتموهم وجادلتم على ذَلِكَ وَعَادَيْتُمْ الرِّسْلَ
لأَجْلِهِمْ^(١)؟ ﴿قَالُوا﴾: مَقْرِّينَ بِيَطْلَانَ إِلَهِيَّتَهُمْ وَشُرَكَتَهُمْ مَعَ اللَّهِ: ﴿أَذْنَاكَ مَا مِنَّا مِنْ
شَهِيدٍ﴾؛ أَيِ: أَعْلَمْنَاكَ يَا رَبَّنَا وَاشْهَدْ عَلَيْنَا أَنَّهُ مَا مِنَّا أَحَدٌ يَشْهَدُ بِصَحَّةِ إِلَهِيَّتِهِمْ
وَشُرَكَتِهِمْ؛ فَكُنَّا الْآنَ [قَدْ] رَجَعْنَا إِلَى بَطْلَانِ عِبَادَتِهَا وَتَبَرَّأْنَا مِنْهَا، وَلِهَذَا قَالَ:
﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ﴾: مَنْ دُونَ اللَّهِ؛ أَيِ: ذَهَبَتْ عَقَائِدُهُمْ وَأَعْمَالُهُمْ الَّتِي
أَفْتَوْا فِيهَا أَعْمَارَهُمْ عَلَى عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ، وَظَنُّوا أَنَّهَا تَفِيدُهُمْ، وَتَدْفَعُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ،
وَتَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، فَخَابَ سَعْيُهُمْ، وَانْتَقَضَ ظَنُّهُمْ، وَلَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ شُرَكَائِهِمْ
شَيْئاً. ﴿وُظُنُّوا﴾؛ أَيِ: أَيقِنُوا فِي تِلْكَ الْحَالِ ﴿مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ﴾؛ أَيِ: مَنْقِذٍ
يَنْقِذُهُمْ وَلَا مَغِيثٍ وَلَا مُلْجَأٍ. فَهَذِهِ عَاقِبَةُ مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ غَيْرَهُ، يُبَيِّنُهَا اللَّهُ لِعِبَادِهِ،
لِيَحْذَرُوا الشَّرْكَ بِهِ.

﴿لَا يَسْتَعِمْ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَوْسُقْ فَنُوطٌ﴾ (٤٩) وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً
مِمَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءِ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا إِلَى وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَكِنْ رُجِعْتَ إِلَى رَبِّيَ إِنَّ لِي
عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى فَلَنُنِيبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَإِذَا أَنْعَمْنَا
عَلَى الْإِنْسَانِ أَغْرَضَ وَنَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١).

﴿٤٩﴾ هَذَا إِخْبَارٌ عَنْ طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ هُوَ، وَعَدَمُ صَبْرِهِ وَجَلْدِهِ، لَا
عَلَى الْخَيْرِ وَلَا عَلَى الشَّرِّ، إِلَّا مَنْ نَقَلَهُ اللَّهُ مِنْ هَذِهِ الْحَالِ إِلَى حَالِ الْكَمَالِ،
فَقَالَ: ﴿لَا يَسْأُمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾؛ أَيِ: لَا يَمَلُّ دَائِماً مِنْ دُعَاءِ اللَّهِ فِي
الْغِنَى وَالْمَالِ وَالْوَلَدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَطَالِبِ الدُّنْيَا، وَلَا يَزَالُ يَعْمَلُ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا
يَقْتَنَعُ بِقَلِيلٍ وَلَا بِكَثِيرٍ^(٢) مِنْهَا؛ فَلَوْ حَصَلَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا مَا حَصَلَ؛ لَمْ يَزَلْ طَالِباً
لِلزِّيَادَةِ. ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾؛ أَيِ: الْمَكْرُوهُ كَالْمَرَضِ وَالْفَقْرِ وَأَنْوَاعِ الْبَلَايَا، ﴿فَيَوْسُقْ
فَنُوطٌ﴾؛ أَيِ: يَيْأَسُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَظُنُّ أَنَّ هَذَا الْبَلَاءَ هُوَ الْقَاضِي عَلَيْهِ
بِالْهَلَاكِ، وَيَتَشَوَّشُ مِنْ إِتْيَانِ الْأَسْبَابِ عَلَى غَيْرِ مَا يَحِبُّ وَيَطْلُبُ؛ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا^(٣)

(١) فِي (ب): «لَأَجْلِي».

(٢) فِي (ب): «كَثِير».

(٣) فِي (ب): «صَبْرُوا».

وعملوا الصالحات؛ فَإِنَّهُمْ إِذَا أَصَابَهُمُ الْخَيْرُ وَالنَّعْمَةُ وَالْمَحَابُّ؛ شَكَرُوا اللَّهَ تَعَالَى، وَخَافُوا أَنْ تَكُونَ نِعْمُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ اسْتِدْرَاجًا وَإِمَهَالًا، وَإِنْ أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ؛ صَبَرُوا وَرَجَّوْا فَضْلَ رَبِّهِمْ فَلَمْ يَيَّاسُوا.

﴿٥٠﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيْتُنْ أَذْقَنَاهُ﴾؛ أَي: الْإِنْسَانَ الَّذِي لَا يَسَامُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُؤْوِسَ قَنُوطَ ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾؛ أَي: بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ الَّذِي أَصَابَهُ؛ بِأَنْ عَافَاهُ اللَّهُ مِنْ مَرَضِهِ أَوْ أَغْنَاهُ مِنْ فَقْرِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى؛ بَلْ يَبْغِي وَيَطْغَى وَيَقُولُ: ﴿هَذَا لِي﴾؛ أَي: أَتَانِي لِأَتِي لَهُ أَهْلٌ وَأَنَا مُسْتَحَقٌّ لَهُ، ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾، وَهَذَا إِنكَارٌ مِنْهُ لِلْبَعْثِ، وَكَفَرٌ لِلنَّعْمَةِ وَالرَّحْمَةِ الَّتِي أَذَاقَهَا اللَّهُ لَهُ، ﴿وَلَيْتُنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْخُسْنَى﴾؛ أَي: عَلَى تَقْدِيرِ إِتْيَانِ السَّاعَةِ، وَأَتِي سَارِجٍ إِلَى رَبِّي؛ إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى؛ فَكَمَا حَصَلَتْ لِي النَّعْمَةُ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّهَا سَتَحْصُلُ لِي فِي الْآخِرَةِ! وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْجَرَءِ وَالْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ؛ فَلِهَذَا تَوَعَّدَهُ [اللَّهُ] بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَنَنْبِتَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾؛ أَي: شَدِيدٍ جَدًّا.

﴿٥١﴾ ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾: بِصَحَّةٍ أَوْ رِزْقٍ أَوْ غَيْرِهِمَا ﴿أَعْرَضَ﴾: عَنْ رَبِّهِ وَعَنْ شُكْرِهِ، ﴿وَنَأَى﴾؛ أَي: تَرَفَّعَ ﴿بِجَانِبِهِ﴾: عَجَبًا وَتَكْبَرًا، ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾: أَي: الْمَرَضُ أَوْ الْفَقْرُ أَوْ غَيْرُهُمَا ﴿فَذُوْ دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾؛ أَي: كَثِيرٍ جَدًّا؛ لِعَدَمِ صَبْرِهِ؛ فَلَا صَبْرَ فِي الضَّرَاءِ وَلَا شُكْرَ فِي الرِّخَاءِ؛ إِلَّا مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ وَمَنْ عَلَيْهِ.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ﴾ ﴿٥٢﴾ سَرُّهُمَا ءَايَتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكُنْ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾.

﴿٥٢﴾ أَي: ﴿قُلْ﴾: لِهَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ بِالْقُرْآنِ الْمَسَارِعِينَ إِلَى الْكُفْرَانِ: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ﴾: هَذَا الْقُرْآنُ ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ وَلَا ارْتِيَابٍ، ﴿ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ﴾؛ أَي: مُعَانِدَةِ اللَّهِ وَلِرَسُولِهِ؛ لِأَنَّهُ تَبَيَّنَ لَكُمْ الْحَقُّ وَالصَّوَابُ، ثُمَّ عَدَلْتُمْ عَنْهُ لَا إِلَى حَقٍّ، بَلْ إِلَى بَاطِلٍ وَجَهْلٍ؛ فَإِذَا تَكُونُونَ أَضَلُّ النَّاسِ وَأَظْلَمَهُمْ.

﴿٥٣﴾ فَإِنْ قُلْتُمْ أَوْ شَكَكْتُمْ بِصَحَّتِهِ وَحَقِيقَتِهِ؛ فسيقيم الله لكم، ويريكُم من آياته في الآفاق؛ كآياتِ التي في السماء وفي الأرض وما يُخْذِثُ الله تعالى من الحوادثِ العظيمة الدالة للمستبصر على الحق. ﴿وفي أنفسهم﴾: مما اشتملت عليه أبدانهم من بديع آياتِ الله وعجائبِ صنعته وباهر قدرته، وفي حلول العقوبات والمثلات في المكذبين ونصر المؤمنين، ﴿حتى يتبين لهم﴾: من تلك الآياتِ بياناً لا يقبل الشك، ﴿أنه الحق﴾: وما اشتمل عليه حق، وقد فعل تعالى؛ فإنه أرى عباده من الآيات ما به تبين [لهم] أنه الحق، ولكن الله هو الموفق للإيمان مَنْ شاء، والخاذل لمن يشاء. ﴿أو لم يكفِ بربك أنه على كل شيء شهيد﴾؛ أي: أولم يكفهم - على أن القرآن حق، ومن جاء به صادق - شهادة الله تعالى؛ فإنه قد شهد له بالصدق، وهو أصدق الشاهدين، وأيده ونصره نصراً متضمناً لشهادته القولية عند من شك فيها.

﴿٥٤﴾ ﴿ألا إنهم في مزية من لقاء ربهم﴾؛ أي: في شك من البعث والقيامة، وليس عندهم دار سوى الدار الدنيا؛ فلذلك لم يعملوا للآخرة، ولم يلتفتوا لها. ﴿ألا إنه بكل شيء محيط﴾: علماً وقدره وعزة.

تم تفسير سورة السجدة بمنه تعالى.



تفسير سورة الشورى

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ① عَسَى ② كَذَلِكَ يُرْوَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ③﴾ لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ④ نَكَادُ السَّمَوَاتِ يَنْقَطِرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ⑤ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِظَ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ⑥ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ⑦ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالْظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ⑧ أَرِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑨ ﴿

﴿١ - ٥﴾ يخبر تعالى أنه أوحى هذا القرآن العظيم على النبي الكريم كما أوحى إلى من قبله من الأنبياء والمرسلين؛ ففيه بيان فضله بإنزال الكتب وإرسال الرسل سابقاً ولاحقاً، وأن محمداً ﷺ ليس ببدع من الرسل، وأن طريقته طريقة من قبله، وأحواله تناسب أحوال من قبله من المرسلين، وما جاء به يشابه ما جاؤوا به؛ لأن الجميع حقٌ وصدق، وهو تنزيلٌ من اتّصف بالالوهية والعزة العظيمة والحكمة البالغة، وأن جميع العالم العلوي والسفلي مُلكه وتحت تدبيره القدري والشرعي، وأنه ﴿العلي﴾ بذاته وقدره وقهره. ﴿العظيم﴾: الذي من عظمته ﴿تكاد السموات يتفطرن^(١) من فوقهن﴾: على عظمها وكونها جماداً، ﴿والملائكة﴾: الكرام المقرّبون خاضعون لعظمته مستكينون لعزته مذعنون بربوبيته، ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾: ويعظمونه عن كل نقص، ويصفونه بكل كمال، ﴿ويستغفرون لمن في الأرض﴾: عما يصدر منهم مما لا يليق بعظمة ربهم وكبريائه، مع أنه تعالى ﴿الغفور الرحيم﴾: الذي لولا مغفرته ورحمته؛ لعاجل الخلق بالعقوبة المستأصلة.

وفي وصفه تعالى بهذه الأوصاف بعد أن ذكر أنه أوحى إلى الرسل كلهم عموماً وإلى محمد - صلى الله عليهم وسلم - خصوصاً إشارة إلى أن هذا القرآن الكريم فيه من الأدلة والبراهين والآيات الدالة على كمال الباري تعالى ووصفه بهذه الأسماء العظيمة الموجبة لامتلاء القلوب من معرفته ومحبه وتعظيمه وإجلاله وإكرامه وصرف جميع أنواع العبودية الظاهرة والباطنة له تعالى، وأن من أكبر الظلم وأفحش القول اتّخاذ أندادٍ من دونه، ليس بيدهم نفع ولا ضرر^(٢)، بل هم مخلوقون مفتقرون إلى الله في جميع أحوالهم.

﴿٦﴾ ولهذا عقبه بقوله: ﴿والذين اتّخذوا من دونه أولياء﴾: يتولّونهم بالعبادة والطاعة؛ كما يعبدون الله ويطيعونه؛ فإنما اتّخذوا الباطل، وليسوا بأولياء على الحقيقة. ﴿الله حفيظٌ عليهم﴾: يحفظ عليهم أعمالهم فيجازيهم بخيرها وشرها، ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾: فتسأل عن أعمالهم، وإنما أنت مبلغ أديت وظيفتك.

﴿٧﴾ ثم ذكر مثته على رسوله وعلى الناس حيث أنزل الله ﴿قرآنًا عربياً﴾ بين الألفاظ والمعاني، ﴿لتنذر أم القرى﴾: وهي مكة المكرمة، ﴿ومن حولها﴾: من قرى العرب، ثم يسري هذا الإنذار إلى سائر الخلق، ﴿وتنذر﴾: الناس ﴿يوم﴾

الْجَمْعُ: الذي يجمعُ الله به الأولين والآخرين، وتخبرهم أنه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، وأنَّ الخلق ينقسمون فيه فريقين: فريقاً ﴿فِي الْجَنَّةِ﴾: وهم الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وفريقاً ﴿فِي السَّعِيرِ﴾: وهم أصناف الكفرة المكذبين.

﴿٨﴾ ﴿و﴾ مع هذا فلو شاء الله لَجَعَلَ الناسَ ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: على الهدى؛ لأنَّه القادر الذي لا يمتنع عليه شيء، ولكنه أراد أن يُدْخَلَ في رحمته مَنْ شاء من خواصِّ خلقه، وأمَّا الظالمون الذين لا يَصْلُحون لصالِح؛ فإنَّهم محرومون من الرحمة؛ فما لهم من دون الله من وليٍّ يتولَّاهم فيحصلُ لهم المحبوب، ولا نصيرٍ يدفعُ عنهم المكروه.

﴿٩﴾ والذين اتَّخذوا من دونه أولياء يتولَّونهم بعبادتهم إيَّاهم؛ فقد غلطوا أقبح غلط؛ ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ الذي يتولَّاه عبده بعبادته وطاعته والتقرب إليه بما أمكن من أنواع التقربات، ويتولَّى عباده عموماً بتدبيره ونفوذِ القدر فيهم، ويتولَّى عباده المؤمنين خصوصاً بإخراجهم من الظلمات إلى النور، وتربيتهم بلطفه، وإعانتهم في جميع أمورهم. ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أي: هو المتصرِّف بالإحياء والإماتة ونفوذِ المشيئة والقدرة؛ فهو الذي يستحقُّ أن يُعْبَدَ وحده لا شريك له.

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ ﴿١٠﴾ ﴿فَاطْرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿١١﴾ ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٢﴾.

﴿١٠﴾ يقول تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ﴾: من أصول دينكم وفروعه مما لم تتفقوا عليه ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾: يُرَدُّ إلى كتابه وإلى سنَّة رسوله؛ فما حكما به؛ فهو الحقُّ، وما خالف ذلك؛ فباطلٌ. ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي﴾؛ أي: فكما أنَّه تعالى الربُّ الخالق الرازق المدبِّر؛ فهو تعالى الحاكم بين عباده بشرعه في جميع أمورهم. ومفهوم الآية الكريمة أنَّ اتفاق الأُمَّة حجة قاطعة؛ لأنَّ الله تعالى لم يأمرنا أن نَرُدَّ إليه إلَّا ما اختلفنا فيه؛ فما اتَّفَقنا عليه يكفي اتفاق الأُمَّة عليه؛ لأنَّها معصومة عن الخطأ، ولا بدَّ أن يكون اتفاقها موافقاً لما في كتاب الله وسنَّة رسوله. وقوله: ﴿عليه توكلتُ﴾؛ أي: اعتمدتُ بقلبي عليه في جلب المنافع ودفع المضارِّ، واتِّقاً

به تعالى في الإسعاف بذلك، ﴿وإليه أنيب﴾؛ أي: أتوجه بقلبي وبدني إليه وإلى طاعته وعبادته، وهذان الأصلان كثيراً ما يذكرهما الله في كتابه؛ لأنهما يحصل بمجموعهما كمال العبد، ويفوته الكمال بقوتهما أو قوت أحدهما؛ كقوله تعالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾، وقوله: ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾.

﴿١١﴾ ﴿فاطر السموات والأرض﴾؛ أي: خالقهما بقدرته ومشيتيه وحكمته. ﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾: لتسكنوا إليها وتنتشر منكم الذرية ويحصل لكم من النفع ما يحصل، ﴿ومن الأنعام أزواجاً﴾؛ أي: ومن جميع أصنافها نوعين ذكراً وأنثى؛ لتبقى وتنمو لمنافعكم الكثيرة، ولهذا عداها باللام الدالة على التعليل؛ أي: جعل ذلك لأجلكم ولأجل النعمة عليكم، ولهذا قال: ﴿يذروكم فيه﴾؛ أي: ييئسكم ويكثركم ويكثر مواشيكم بسبب أن جعل لكم من أنفسكم، وجعل لكم من الأنعام أزواجاً. ﴿ليس كمثله شيء﴾؛ أي: ليس يشبهه تعالى ولا يماثله شيء من مخلوقاته لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله؛ لأن أسماء كلها حسنى، وصفاته صفات^(١) كمال وعظمة، وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك؛ فليس كمثله شيء؛ لانفرادِهِ وتوحيده بالكمال من كل وجه. ﴿وهو السميع﴾: لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات. ﴿البصير﴾: يرى دبيب النملة السوداء، في الليلة الظلماء، على الصخرة الصماء، ويرى سريان القوت في أعضاء الحيوانات الصغيرة جداً، وسريان الماء في الأغصان الدقيقة.

وهذه الآية ونحوها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة من إثبات الصفات ونفي مماثلة المخلوقات، وفيها رد على المشبهة في قوله: ﴿ليس كمثله شيء﴾، وعلى المعطلة في قوله: ﴿وهو السميع البصير﴾.

﴿١٢﴾ وقوله: ﴿له مقاليد السموات والأرض﴾؛ أي: له ملك السماوات والأرض، وبيده مفاتيح الرحمة والأرزاق والنعم الظاهرة والباطنة؛ فكل الخلق مفتقرون إلى الله في جلب مصالحهم ودفع المضار عنهم في كل الأحوال، ليس بيد أحد من الأمر شيء، والله تعالى هو المعطي المانع الضار النافع، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع الشر إلا هو، وما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده، ولهذا قال هنا: ﴿يسط الرزق لمن

(١) في (ب): «صفة».

يَشَاءُ؟ أَي: يوسّعه ويعطيه من أصناف الرزق ما شاء، ﴿وَيَقْدِرُ﴾؛ أَي: يضيّق على مَنْ يَشَاءُ حتى يَكُونَ بقدر حاجته، لا يزيدُ عنها، وكلُّ هَذَا تابعٌ لعلمه وحكمته؛ فلِهَذَا قال: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: فيعلم أحوالَ عبادِهِ، فيعطي كلًّا ما يَلِيقُ بحكمته، وتقتضيه مشيئته.

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿١٣﴾ هذه أكبرُ منّةٍ أنعم الله بها على عباده أن شرّع لهم من الدين خيرَ الأديان وأفضلها وأزكاها وأطهرها، دين الإسلام، الذي شرّعه الله للمصطفين المختارين من عباده، بل شرّعه الله لخيار الخيار وصفوة الصفوة، وهم أولو العزم من المرسلين، المذكورون في هذه الآية، أعلى الخلق درجة وأكملهم من كل وجه؛ فالدين الذي شرّعه الله لهم لا بدّ أن يكون مناسباً لأحوالهم موافقاً لكمالهم، بل إنّما كملهم الله، واصطفاهم بسبب قيامهم به؛ فلولا الدين الإسلامي؛ ما ارتفع أحدٌ من الخلق؛ فهو روح السعادة وقطبُ رحى الكمال، وهو ما تضمّنه هذا الكتاب الكريم ودعا إليه من التوحيد والأعمال والأخلاق والآداب. ولهذا قال: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾؛ أَي: أمركم أن تقيموا جميعَ شرائع الدين أصوله وفروعه؛ تقيمونه بأنفسكم، وتجتهدون في إقامته على غيركم، وتعاونون على البرِّ والتقوى، ولا تعاونون على الإثم والعدوان، ﴿ولا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾؛ أَي: ليحصل منكم الاتفاق على أصول الدين وفروعه، واحرصوا على أن لا تفرّقكم المسائل وتحزّبكم أحزاباً، فتكونون شيعاً يعادي بعضكم بعضاً مع اتفاقكم على أصل دينكم.

ومن أنواع الاجتماع على الدين وعدم التفرق فيه ما أمر به الشارع من الاجتماعات العامة؛ كاجتماع الحجّ والأعياد والجُمع والصلوات الخمس والجهاد وغير ذلك من العبادات التي لا تتم ولا تكمل إلا بالاجتماع لها وعدم التفرق. ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾؛ أَي: شقٌّ عليهم غاية المشقة؛ حيث دعوتهم إلى الإخلاص لله وحده؛ كما قال عنهم: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، وقولهم: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾. ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ

يشاء؟ أي: يختار من خليقته مَنْ يعلم أَنَّهُ يَصْلُحُ للاجتماع لرسالته وولايته، ومنه أن اجتبى هذه الأمة وفضلها على سائر الأمم واختار لها أفضل الأديان وخيرها. ﴿ويَهْدِي إليه من يُنِيبُ﴾: هذا السبب الذي من العبد يتوصل به إلى هداية الله تعالى، وهو إنابته لربه، وانجذاب دواعي قلبه إليه، وكونه قاصداً وجهه؛ فحسُن مقصد العبد مع اجتهاده في طلب الهداية من أسباب التيسير لها؛ كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾.

وفي هذه الآية أن الله ﴿يَهْدِي إليه من يُنِيبُ﴾، مع قوله: ﴿وَاتَّبَعَ سُبُلَ من أَنَابَ إِلَيَّ﴾، مع العلم بأحوال الصحابة رضي الله عنهم وشدة إنابتهم: دليل على أن قولهم حجة، خصوصاً الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين.

﴿وَمَا نَفَرُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُصِّى بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَلِكَ قَادَعُ وَأَسْتَقَمَ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا نَنْتَعِ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿١٤﴾ لما أَمَرَ تعالى باجتماع المسلمين على دينهم، ونهاهم عن التفرق؛ أخبرهم أنهم لا يَغْتَرُّوا بما أنزل الله عليهم^(١) من الكتاب؛ فإن أهل الكتاب لم يتفرقوا حتى أنزل الله عليهم الكتاب الموجب للاجتماع، ففعلوا ضد ما يأمر به كتابهم، وذلك كله بغياً وعدواناً منهم؛ فإنهم تباغضوا، وتحاسدوا، وحصلت بينهم المشاحنة والعداوة، فوقع الاختلاف؛ فاحذروا أيها المسلمون أن تكونوا مثلهم. ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾؛ أي: بتأخير العذاب القاضي إلى أجل مسمى، ﴿لَفُصِّى بينهم﴾: ولكن حكمته وحلمه اقتضى تأخير ذلك عنهم. ﴿وإن الذين أُورِثُوا الكتاب من بعدهم﴾؛ أي: الذين ورثوهم، وصاروا خلفاً لهم ممن ينتسب إلى العلم منهم، ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾؛ أي: لفي اشتباه كثير يوقع في الاختلاف؛ حيث اختلف سلفهم بغياً وعناداً؛ فإن خلفهم اختلفوا شكاً وارتياباً، والجميع مشتركون في الاختلاف المذموم.

(١) في (ب): «أنكم لا تغترون بما أنزل الله عليكم».

﴿١٥﴾ ﴿فَلَذَلِكَ فَادُعْ﴾؛ أي: فللدين القويم والصراط المستقيم، الذي أنزل الله به كُتُبَهُ وأرسل رُسُلَهُ؛ فَادُعْ إِلَيْهِ أَمْتُكَ، وَحَضُّهُمْ عَلَيْهِ، وَجَاهِدْ عَلَيْهِ مَنْ لَمْ يَقْبَلْهُ. ﴿وَاسْتَقِمْ﴾: بِنَفْسِكَ ﴿كَمَا أَمَرْتُ﴾؛ أي: استقامةً موافقةً لأمر الله؛ لا تفريط ولا إفراط، بل امتثالاً لأوامر الله، واجتناباً لنواهيه، على وجه الاستمرار على ذلك؛ فَأَمَرَهُ بِتَكْمِيلِ نَفْسِهِ بِلزوم الاستقامة، وَبِتَكْمِيلِ غَيْرِهِ بِالدَّعْوَةِ إِلَى ذَلِكَ. وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ أَمْرَ الرَّسُولِ ﷺ أَمْرٌ لَأَمَّتِهِ إِذَا لَمْ يَرِدْ تَخْصِيصٌ لَهُ. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾؛ أي: أهواء المنحرفين عن الدين من الكفرة والمنافقين، إِمَّا بِاتِّبَاعِهِمْ عَلَى بَعْضِ دِينِهِمْ، أَوْ بِتَرْكِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، أَوْ بِتَرْكِ الاستقامة؛ فَإِنَّكَ إِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لِمَنْ الظَّالِمِينَ، وَلَمْ يَقِلْ وَلَا تَتَّبِعْ دِينَهُمْ؛ لِأَنَّ حَقِيقَةَ دِينِهِمْ الَّذِي شَرَعَهُ اللَّهُ لَهُمْ هُوَ دِينُ الرِّسْلِ كُلِّهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَتَّبِعُوهُ، بَلْ أَتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَاتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوَاً وَلَعِباً، ﴿وَقُلْ﴾: لَهُمْ عِنْدَ جَدَالِهِمْ وَمَنَازِرَتِهِمْ: ﴿أَمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾؛ أي: لتكن مناظرتك لهم مبنيةً على هذا الأصل العظيم، الدالّ على شرف الإسلام وجلالته وهيمته على سائر الأديان، وَأَنَّ الدِّينَ الَّذِي يَزْعُمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ عَلَيْهِ جِزَاءٌ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَفِي هَذَا إِرْشَادٌ إِلَى أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ إِنْ نَظَرُوا مَنَازِرَةً مَبْنِيَّةً عَلَى الْإِيمَانِ بِبَعْضِ الْكُتُبِ أَوْ بِبَعْضِ الرِّسْلِ دُونَ غَيْرِهِ؛ فَلَا يَسْلُمُ لَهُمْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْكِتَابَ الَّذِي يَدْعُونَ إِلَيْهِ وَالرَّسُولَ الَّذِي يَنْتَسِبُونَ إِلَيْهِ مِنْ شَرَطِهِ أَنْ يَكُونَ مُصَدِّقاً بِهَذَا الْقُرْآنِ وَبِمَنْ جَاءَ بِهِ؛ فَكُتَابُنَا وَرَسُولُنَا لَمْ يَأْمُرْنَا إِلَّا بِالْإِيمَانِ بِمُوسَى وَعِيسَى وَالتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا وَصَدَّقَ بِهَا وَأَخْبَرَ أَنَّهَا مُصَدِّقَةٌ لَهُ وَمَقَرَّةٌ بِصَحَّتِهِ، وَأَمَّا مُجَرَّدُ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَمُوسَى وَعِيسَى الَّذِينَ لَمْ يَوْصِفُوا لَنَا وَلَمْ يُوَافِقُوا لِكِتَابِنَا؛ فَلَمْ يَأْمُرْنَا بِالْإِيمَانِ بِهِمْ.

وقوله: ﴿وَأَمَرْتُ لِأَعْدَلْ بَيْنَكُمْ﴾؛ أي: فِي الْحُكْمِ فِيمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ؛ فَلَا تَمْنَعْنِي عِدَاوَتُكُمْ وَبُغْضُكُمْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْعَدْلِ بَيْنَكُمْ، وَمِنْ الْعَدْلِ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ أَهْلِ الْأَقْوَالِ الْمُخْتَلِفَةِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ أَنْ يُقْبَلَ مَا مَعَهُمْ مِنَ الْحَقِّ وَيُرَدَّ مَا مَعَهُمْ مِنَ الْبَاطِلِ. ﴿اللَّهُ رُبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾؛ أي: هُوَ رَبُّ الْجَمِيعِ، لَسْتُمْ بِأَحَقَّ بِهِ مِنَّا، ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾: مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، ﴿لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾؛ أي: بَعْدَمَا تَبَيَّنَتْ الْحَقَائِقُ وَاتَّضَحَّ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ وَالْهُدَى مِنَ الضَّلَالِ؛ لَمْ يَبْقَ لِلْجِدَالِ وَالْمَنَازَعَةِ مَحَلٌّ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْجِدَالِ إِنَّمَا هُوَ بَيَانُ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ؛ لِيَهْتَدِيَ الرَّأشِدُ، وَلِتَقْوَمَ الْحُجَّةُ عَلَى الْغَاوِي. وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهَذَا أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ لَا يَجَادِلُونَ، كَيْفَ وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾!؟

وَأَمَّا الْمَرَادُ مَا ذَكَرْنَا. ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾: يوم القيامة، فيجزى كلًّا بعمله، ويتبين حينئذ الصادق من الكاذب.

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (١٦).

﴿١٦﴾ وهذا تقرير لقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾؛ فأخبر هنا أن ﴿الذين يحاجون في الله﴾: بالحجج الباطلة والشبه المتناقضة ﴿من بعد ما استجيب﴾: لله؛ أي: من بعد ما استجاب لله أولو الألباب والعقول لما بين لهم من الآيات القاطعة والبراهين الساطعة؛ فهؤلاء المجادلون للحق من بعدما تبين ﴿حجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾؛ أي: باطلة مدفوعة ﴿عند ربهم﴾؛ لأنها مشتملة على ردِّ الحق، وكلُّ ما خالف الحق؛ فهو باطل، ﴿وعليهم غضب﴾: بعصيانهم وإعراضهم عن حجج الله وبياناته وتكذيبها، ﴿ولهم عذاب شديد﴾: هو أثر غضب الله عليهم؛ فهذه عقوبة كلِّ مجادل للحق بالباطل.

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ (١٧) ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارِقُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (١٨).

﴿١٧﴾ لما ذكر تعالى أن حججه واضحة بينة بحيث استجاب لها كلُّ من فيه خير؛ ذكر أصلها وقاعدتها، بل جميع الحجج التي أوصلها إلى العباد ترجع إليه، فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾: فالكتاب هو هذا القرآن العظيم الذي نزل بالحق، واشتمل على الحق والصدق واليقين، وكلُّه آيات بينات وأدلة واضحات على جميع المطالب الإلهية والعقائد الدينية، فجاء بأحسن المسائل وأوضح الدلائل.

وأما الميزان؛ فهو العدل والاعتبار بالقياس الصحيح والعقل الرجيح؛ فكلُّ الدلائل العقلية من الآيات الأفقية^(١) والنفسية والاعتبارات الشرعية والمناسبات والعلل والأحكام والحكم داخله في الميزان الذي أنزله الله تعالى ووضعه بين عباده

(١) في (ب): «الأفاقية».

لَيَزِنُوا بِهِ مَا أَثْبَتَهُ وَمَا نَفَاهُ مِنَ الْأُمُورِ، وَيَعْرِفُوا بِهِ صَدَقَ مَا أَخْبَرَ بِهِ وَأُخْبِرَتْ بِهِ رِسْلُهُ. فَمَا خَرَجَ عَنْ هُذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ - عَنِ الْكِتَابِ وَالْمِيزَانِ - مِمَّا قِيلَ: إِنَّهُ حُجَّةٌ أَوْ بَرَهَانٌ أَوْ دَلِيلٌ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَارَاتِ؛ فَإِنَّهُ بَاطِلٌ مُتَنَاقِضٌ قَدْ فَسَدَتْ أَصُولُهُ وَانْهَدَمَتْ مَبَانِيهِ وَفُرُوعُهُ، يَعْرِفُ ذَلِكَ مَنْ خَبَرَ الْمَسَائِلَ وَمَاخَذَهَا، وَعَرَفَ التَّمْيِيزَ بَيْنَ رَاجِحِ الْأَدْلَةِ مِنْ مَرْجُوحِهَا، وَالْفَرْقَ بَيْنَ الْحُجَجِ وَالشُّبْهِ.

وَأَمَّا مَنْ اغْتَرَّ بِالْعِبَارَاتِ الْمَزْخَرَةِ وَالْأَلْفَافِ الْمَمْوُهِةِ وَلَمْ تَنْفُذْ بِصِيرَتِهِ إِلَى الْمَعْنَى الْمُرَادِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ هَذَا الشَّانِ، وَلَا مِنْ فِرْسَانِ هَذَا الْمِيدَانِ؛ فَوِفَاقُهُ وَخِلَافُهُ سِيَانٌ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مَخَوْفًا لِلْمُسْتَعْجِلِينَ لِقِيَامِ السَّاعَةِ الْمُنْكَرِينَ لَهَا، فَقَالَ: ﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾؛ أَي: لَيْسَ بِمَعْلُومٍ بَعْدَهَا وَلَا مَتَى تَقُومُ؛ فَهِيَ فِي كُلِّ وَقْتٍ مُتَوَقَّعٌ وَقَوْعُهَا مَخُوفٌ وَجَبُّهَا.

﴿١٨﴾ ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾: عِنَادًا وَتَكْذِيبًا وَتَعْجِيزًا لِرَبِّهِمْ، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَشْفِقُونَ مِنْهَا﴾؛ أَي: خَائِفُونَ؛ لِإِيمَانِهِمْ بِهَا، وَعِلْمُهُمْ بِمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنَ الْجَزَاءِ بِالْأَعْمَالِ، وَخَوْفُهُمْ لِمَعْرِفَتِهِمْ بِرَبِّهِمْ أَنَّ لَا تَكُونُ أَعْمَالُهُمْ مُنْجِيَةً [لَهُمْ] وَلَا مُسَعِدَةً، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾: الَّذِي لَا مِزْيَةَ فِيهِ، وَلَا شَكَّ يَعْتَرِيهِ. ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾؛ أَي: بَعْدَمَا امْتَرَوْا فِيهَا، مَارُوا الرِّسْلَ وَأَتْبَاعَهُمْ بِإِثْبَاتِهَا؛ فَهَمَّ فِي شِقَاقٍ^(١) ﴿بَعِيدٍ﴾؛ أَي: مُعَانِدَةً وَمُخَاصِمَةً غَيْرَ قَرِيبَةٍ مِنَ الصَّوَابِ، بَلْ فِي غَايَةِ الْبَعْدِ عَنِ الْحَقِّ. وَأَيُّ بَعْدٍ أَبْعَدَ مِمَّنْ كَذَّبَ بِالْدارِ الَّتِي هِيَ الدَّارُ عَلَى الْحَقِيقَةِ؟ وَهِيَ الدَّارُ الَّتِي خُلِقَتْ لِلْبَقَاءِ الدَّائِمِ وَالْخُلُودِ السَّرْمَدِ، وَهِيَ دَارُ الْجَزَاءِ الَّتِي يُظْهِرُ اللَّهُ فِيهَا عَدْلَهُ وَفَضْلَهُ، وَإِنَّمَا هَذِهِ الدَّارُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا كِرَاكِبٌ قَالَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَحَلَ^(٢) وَتَرَكَّهَا، وَهِيَ دَارُ عُبُورٍ وَمَمَرٌ لَا مَحَلَّ اسْتِقْرَارٍ، فَصَدَقُوا فِي الدَّارِ الْمُضْمَحَلَّةِ الْفَانِيَةِ حَيْثُ رَأَوْهَا وَشَاهَدُوهَا، وَكَذَّبُوا بِالْدارِ الْآخِرَةِ الَّتِي تَوَاتَرَتْ بِالْأَخْبَارِ عَنْهَا الْكُتُبُ الْإِلَهِيَّةُ وَالرِّسْلُ الْكَرَامُ وَأَتْبَاعُهُمْ، الَّذِينَ هُمْ أَكْمَلُ الْخَلْقِ عَقُولًا وَأَغْزَرُهُمْ عِلْمًا وَأَعْظَمُهُمْ فَطْنَةً وَفَهْمًا.

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (١٨) مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرَّتَ الْآخِرَةِ نَزَدَتْ لَهُمْ فِي حَرَّتِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرَّتَ الدُّنْيَا تَوَدَّتْ مِنْهَا وَمَا لَمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (١٩) .

(١) كَذَا فِي النِّسْخَتَيْنِ وَالْآيَةِ: فِي «ضَلَالِ بَعِيدٍ».

(٢) فِي (ب): «رَاح».

﴿١٩﴾ يخبر تعالى بلطفه بعبادِهِ: ليعرفوه ويحبّوه ويتعرّضوا للطفه وكرمه، واللطف من أوصافه تعالى معناه: الذي يدرك الضمائر والسرائر، الذي يوصل عباده - وخصوصاً المؤمنين - إلى ما فيه الخير لهم من حيث لا يعلمون ولا يحتسبون. فمن لطفه بعبده المؤمن أن هداه إلى الخير هداية لا تخطر بباله بما يسر له من الأسباب الدّاعية له إلى ذلك من فطرته على محبة الحق والانقياد له وإيزاعه تعالى لملائكته الكرام أن يُبَتِّتوا عباده المؤمنين ويحثّوهم على الخير ويُلقوا في قلوبهم من تزيين الحق ما يكون داعياً لاتباعه. ومن لطفه أن أمر المؤمنين بالعبادات الاجتماعية التي بها تقوى عزائمهم وتنبعث هممهم ويحصل منهم التنافس على الخير والرغبة فيه واقتداء بعضهم ببعض. ومن لطفه أن قيّض كل سبب يعوقه ويحول بينه وبين المعاصي، حتى إنّه تعالى إذا علم أن الدنيا والمال والرياسة ونحوها مما يتنافس فيه أهل الدنيا تقطع عبده عن طاعته أو تحمله على الغفلة عنه أو على معصيته؛ صرفها عنه، وقَدَّرَ عليه رزقه، ولهذا قال هنا: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾: بحسب اقتضاء حكمته ولطفه، ﴿وهو القوي العزيز﴾: الذي له القوة كلها؛ فلا حول ولا قوة لأحد من المخلوقين إلّا به، الذي دانت له جميع الأشياء.

﴿٢٠﴾ ثم قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾؛ أي: أجراها وثوابها، فأمن بها وصدق وسعى لها سعيها، ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾: بأن نضاعف عمله وجزاءه أضعافاً كثيرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾، ومع ذلك؛ فنصبيه من الدنيا لا بد أن يأتيه، ﴿وَمَنْ كَانَ يَرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾: بأن كانت الدنيا هي مقصوده وغاية مطلوبه، فلم يقدم لآخرته، ولا رجا ثوابها، ولم يخش عقابها، ﴿نُؤْتِيهِ مِنْهَا﴾: نصيبه الذي قسّم له، ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾: قد حُرِمَ الجَنَّةَ ونعيمها، واستحق النار وجحيمها. وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نَوْفٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ...﴾ إلى آخر الآيات.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رُوحَاتِ الْجَنَاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢) ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقَرَفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣)﴾.

﴿٢١﴾ يخبر تعالى أن المشركين اتَّخذوا شركاء يوالونهم ويشتركون هم وإياهم في الكفر وأعماله من شياطين الإنس الدُّعاة إلى الكفر، ﴿شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾: من الشُّرك والبدع وتحريم ما أحلَّ الله وتحليل ما حرَّم الله ونحو ذلك ممَّا اقتضته أهواؤهم، مع أن الدِّين لا يكون إلَّا ما شرَّعه الله تعالى ليُدينَ به العبادُ ويتقربوا به إليه؛ فالأصل الحَجْرُ على كلِّ أحدٍ أن يشرَّع شيئاً ما جاء عن الله وعن رسوله؛ فكيف بهؤلاء الفسقة المشركين هم [وآباؤهم] وهم على الكفر. ﴿ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم﴾؛ أي: لولا الأجل المسمَّى الذي ضربه الله فاصلاً بين الطوائف المختلفة، وأنه سيؤخرهم إليه؛ لقضي بينهم في الوقت الحاضر بسعادة المحق وإهلاك المبطل؛ لأن المُقتضي للإهلاك موجود، ولكن أمامهم العذاب الأليم في الآخرة؛ هؤلاء وكلُّ ظالم.

﴿٢٢﴾ وفي ذلك اليوم ﴿ترى الظالمين﴾: أنفَسَهم بالكفر والمعاصي، ﴿مشفقين﴾؛ أي: خائفين وجلين، ﴿مما كَسَبُوا﴾: أن يعاقبوا عليه، ولَمَّا كان الخائف قد يقَعُ به ما أشفق منه وخافه وقد لا يقَعُ؛ أخبر أنه ﴿واقع بهم﴾: العقاب الذي خافوه؛ لأنهم أتوا بالسبب التام الموجب للعقاب من غير معارض من توبة ولا غيرها، ووصلوا موضعاً فات فيه الإنظار والإمهال. ﴿والذين آمنوا﴾ بقلوبهم بالله ويكتبه ورسله وما جاؤوا به، ﴿وعملوا الصالحات﴾: يشمَلُ فيه كلُّ عمل صالح من أعمال القلوب وأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات؛ فهؤلاء ﴿في روضات الجنات﴾؛ أي: الرِّوضات المضافة إلى الجنَّات، والمضاف يكون بحسب المضاف إليه؛ فلا تسأل عن بهجة تلك الرياض المونقة، وما فيها من الأنهار المتدفقة، والفياض المغشبة، والمناظر الحسنة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة، والأصوات الشجية المطربة، والاجتماع بكلِّ حبيب، والأخذ من المعاشرة والمنادمة بأكمل نصيب؛ رياض لا تزداد على طول المدى إلَّا حسناً وبهاءً، ولا يزداد أهلها إلَّا اشتياقاً إلى لذاتها ووداداً. ﴿لهم ما يشاؤون﴾: فيها؛ أي: في الجنات؛ فمهما أرادوا؛ فهو حاصل، ومهما طلبوا؛ حصل، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطرَ على قلب بشر. ذلك ﴿الفضل الكبير﴾: وهل فوز أكبر من الفوز برضا الله تعالى والتَّعُمُّ بقربه في دار كرامته؟!

﴿٢٣﴾ ﴿ذلك الذي يبشِّر الله به عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾؛ أي: هذه البشارة العظيمة التي هي أكبر البشائر على الإطلاق بشَّر بها الرحيم الرحمن

على يد أفضل خلقه لأهل الإيمان والعمل الصالح؛ فهي أجل الغايات، والوسيلة الموصلة إليها أفضل الوسائل، ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على تبليغي إياكم هذا القرآن ودعوتكم إلى أحكامه ﴿أَجْرًا﴾؛ فلست أريد أخذ أموالكم ولا التولي عليكم والترأس ولا غير ذلك من الأغراض ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾.

يُحْتَمَلُ أَنَّ الْمَرَادَ: لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا؛ إِلَّا أَجْرًا وَاحِدًا، هو لكم، وعائد نفعه إليكم، وهو أن تَوَدُّونِي وتحبوني في القرابة؛ أي: لأجل القرابة، ويكون على هذا المودة الزائدة على مودة الإيمان؛ فَإِنَّ مَوَدَّةَ الْإِيمَانِ بالرسول وتقديم محبته على جميع المحاب بعد محبة الله فرض على كل مسلم، وهؤلاء طَلَبَ منهم زيادة على ذلك أن يحبوه لأجل القرابة؛ لِأَنَّهُ ﷺ قد باشر بدعوته أقرب الناس إليه، حتى إِنَّهُ قِيلَ: إِنَّهُ لَيْسَ فِي بَطْنِ قُرَيْشٍ أَحَدٌ إِلَّا وَلِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهِ قَرَابَةٌ.

وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الْمَرَادَ: إِلَّا مَوَدَّةَ اللَّهِ تَعَالَى المودة الصادقة، وهي التي يصحبها التقرب إلى الله والتوسل بطاعته الدالة على صحتها وصدقها، ولهذا قال: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾؛ أي: في التقرب إلى الله.

وعلى كلا القولين؛ فهذا الاستثناء دليل على أَنَّهُ لَا يَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا بِالْكُلِّيَّةِ؛ إِلَّا أَنْ يَكُونَ شَيْئًا يَعُودُ نَفْعُهُ إِلَيْهِمْ؛ فلهذا ليس من الأجر في شيء، بل هو من الأجر منه لهم ﷺ؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾، وقولهم: ما لفلان عندك ذنب إِلَّا أَنَّهُ مُحَسِّنٌ إِلَيْكَ.

﴿وَمَنْ يَفْتَرِ حَسَنَةً﴾: من صلاة أو صوم أو حج أو إحسان إلى الخلق، ﴿نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾: بأن يشرح الله صدره ويسر أمره ويكون سبباً للتوفيق لعمل آخر، ويزداد بها عمل المؤمن ويرتفع عند الله وعند خلقه، ويحصل له الثواب العاجل والآجل. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾: يغفر الذنوب العظيمة، ولو بلغت ما بلغت عند التوبة منها، ويشكر على العمل القليل بالأجر الكثير؛ فبمغفرته يغفر الذنوب ويسر العيوب، ويشكره يتقبل الحسنات ويضاعفها أضعافاً كثيرة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشِإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَبَدِّلُ اللَّهُ الْبَاطِلَ بِالْحَقِّ بِكَلِمَتَيْهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١١).

﴿٢٤﴾ يعني: أم يقول المكذبون للرسول ﷺ جرأة منهم وكذباً: ﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾: فَرَمَوْكَ بِأَشْنَعِ الْأُمُورِ وأقبحها، وهو الافتراء على الله بادعاء النبوة

والنسبة إلى الله ما هو بريء منه، وهم يعلمون صدقك وأمانتك؛ فكيف يتجرؤون على هذا الكذب الصراح؟! بل تجرؤوا بذلك على الله تعالى؛ فإنه قدح في الله؛ حيث مكّنك من هذه الدعوة العظيمة المتضمنة - على موجب زعمهم - أكبر الفساد في الأرض؛ حيث مكّنه الله من التصريح بالدعوة، ثم بنسبتها إليه، ثم يؤيده بالمعجزات الظاهرات والأدلة القاهرات والنصر المبين والاستيلاء على من خالفه، وهو تعالى قادر على حسم هذه الدعوة من أصلها ومآذنها، وهو أن يختم على قلب الرسول ﷺ؛ فلا يعي شيئاً، ولا يدخل إليه خيرٌ، وإذا ختم على قلبه؛ انحسم الأمر كله وانقطع؛ فهذا دليل قاطع على صحة ما جاء به الرسول، وأقوى شهادة من الله له على ما قال، ولا يوجد شهادة أعظم منها ولا أكبر، ولهذا من حكمته ورحمته وسنته الجارية أنه يمحو الباطل ويزيله، وإن كان له صولة في بعض الأوقات؛ فإن عاقبته الاضمحلال، ﴿وَيُحِقُّ الْحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ﴾: الكونية التي لا تبدل ولا تغير^(١)، ووعده الصادق، وكلماته الدينية التي تحقق ما شرعه من الحق وتثبت في القلوب وتبصر أولي الأبواب، حتى إن من جملة إحقاقه تعالى الحق أن يقبض له الباطل ليقاومه؛ فإذا قاومه؛ صال عليه الحق ببراهينه وبيّناته، فظهر من نوره وهده ما به يضمحل الباطل وينقمع ويتبين بطلانه لكل أحد، ويظهر الحق لكل الظهور لكل أحد. ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ أي: بما فيها وما اتصفت به من خيرٍ وشرٍّ وما أكتته ولم تبدّه.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢٥) ﴿وَسَتَجِبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (٢٧) ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (٢٨).

﴿٢٥﴾ هذا بيان لكمال كرم الله تعالى وسعة جوده وتمام لطفه بقبول التوبة الصادرة ﴿عن عباده﴾: حين يُقْلَعُونَ عن ذنوبهم ويندمون عليها ويعزمون على أن لا يعاودوها إذا قصدوا بذلك وجه ربهم؛ فإن الله يقبلها بعدما انعقدت سبباً للهلاك ووقوع العقوبات الدنيوية والدينية، فيعفو ﴿عن السيئات﴾: ويمحوها، ويمحو أثرها

(١) في (ب): «لا تغير ولا تبدل».

من العيوب، وما اقتضته من العقوبات، ويعود التائب عنده كريماً كأنه ما عمل سوءاً قط، ويحبّه ويوفّقه لما يقربه إليه.

ولما كانت التوبة من الأعمال العظيمة التي قد تكون كاملة بسبب تمام الإخلاص والصدق فيها، وقد تكون ناقصة عند نقصهما، وقد تكون فاسدة إذا كان القصد منها بلوغ غرض من الأغراض الدنيوية، وكان محل ذلك القلب الذي لا يعلمه إلا الله؛ ختم هذه الآية بقوله: ﴿ويعلم ما تفعلون﴾.

﴿٢٦﴾ فالله تعالى دعا جميع العباد إلى الإنابة إليه والتوبة من التقصير، فانقسموا بحسب الاستجابة له إلى قسمين: مستجيبين، وصَفَهُم بقوله: ﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾؛ أي: يستجيبون لرّبهم لما دعاهم إليه، وينقادون له، ويلبّون دعوته؛ لأنّ ما معهم من الإيمان والعمل الصالح يحملهم على ذلك؛ فإذا استجابوا له؛ شَكَرَ الله لهم، وهو الغفور الشكور، وزادهم ﴿من فضله﴾: توفيقاً ونشاطاً على العمل، وزادهم مضاعفة في الأجر زيادة عن ما تستحقّه أعمالهم من الثواب والفوز العظيم. وأما غير المستجيبين لله، وهم المعاندون الذين كفروا به وبرسله؛ فلهم عذاب شديد في الدنيا والآخرة.

﴿٢٧﴾ ثم ذكر أن من لطفه بعباده أنّه لا يوسّع عليهم الدنيا سعة تضرّ بأديانهم، فقال: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض﴾؛ أي: لغفلوا عن طاعة الله، وأقبلوا على التمتع بشهوات الدنيا، فأوجبت لهم الإكباب على ما تشتهيه نفوسهم، ولو كان معصية وظلماً. ﴿ولكن ينزل بقدر ما يشاء﴾: بحسب ما اقتضاه لطفه وحكمته، ﴿إنّه بعباده خبير بصير﴾: كما في بعض الآثار أنّ الله تعالى يقول: «إنّ من عبادي من لا يضلّح إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته؛ لأفسده ذلك، وإنّ من عبادي من لا يضلّح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته؛ لأفسده ذلك، وإنّ من عبادي من لا يضلّح إيمانه إلا الصحة، ولو أمرضته؛ لأفسده ذلك، وإنّ من عبادي من لا يضلّح إيمانه إلا المرض، ولو عافيته؛ لأفسده ذلك، إنّي أدبر أمر عبادي بعلمي بما في قلوبهم، إني خبير بصير»^(١).

﴿٢٨﴾ وهو الذي ينزل الغيث﴾؛ أي: المطر الغزير الذي به يغيث البلاد والعباد ﴿من بعد ما قنطوا﴾: وانقطع عنهم مدّة ظنّوا أنه لا يأتيهم، وأيسوا، وعملوا

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الأولياء» (١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/٣١٨).

لذلك الجذب أعمالاً، فيُنزِلُ الله الغيث، ﴿وَيُنْشُرُ﴾ به ﴿رَحْمَتَهُ﴾ من إخراج الأَقْوَاتِ لِلْأَدَمِيِّينَ وبهائمهم، فيقع عندهم موقعاً عظيماً، ويستبشرون بذلك ويفرحون. ﴿وهو الوليُّ﴾: الذي يتولى عباده بأنواع التدبير، ويتولى القيام بمصالح دينهم ودنياهم ﴿الحميد﴾: في ولايته وتدبيره، الحميد على ما له من الكمال وما أوصله إلى خلقه من أنواع الأفضال.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ (٢٩).

﴿٢٩﴾ أي: ومن أدلة قدرته العظيمة وأنه سيحيي الموتى بعد موتهم: ﴿خَلْقُ﴾ هذه ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ على عَظَمِهما وسعتهما، الدالُّ على قدرته وسعة سلطانه، وما فيهما من الإتقان والإحكام دالٌّ على حكمته، وما فيهما من المنافع والمصالح دالٌّ على رحمته، وذلك يدلُّ على أنه المستحقُّ لأنواع العبادة كُلِّها، وأنَّ إلهية ما سواه باطلة. ﴿وما بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: نشر في السماوات والأرض من أصناف الدوابِّ، التي جعلها الله مصالحَ ومنافعَ لعباده. ﴿وهو على جمعهم﴾؛ أي: جمع الخلق بعد موتهم لموقف القيامة ﴿إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾: فقدرته ومشيتته صالحان لذلك، ويتوقَّف وقوعه على وجود الخبر الصادق، وقد علم أنه قد تواترت أخبار المرسلين وكتبهم بوقوعه.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٣٠) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٣١).

﴿٣٠﴾ يخبر تعالى أنه ما أصاب العبادَ من مصيبةٍ في أبدانهم وأموالهم وأولادهم وفيما يحبُّون ويكون عزيزاً عليهم إلَّا بسبب ما قدَّمته أيديهم من السيئات، وأنَّ ما يعفو الله عنه أكثر؛ فإنَّ الله لا يظلم العبادَ، ولكن أنفُسهم يظلمون، ﴿ولو يؤاخذُ الله الناسَ بما كَسَبُوا ما تَرَكْ على ظهرها من دَابَّةٍ﴾.

﴿٣١﴾ وليس إهمالاً منه تعالى تأخيرُ العقوبات ولا عجزاً: فما ﴿أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: معجزين قدرةَ الله عليكم، بل أَنْتُمْ عاجزون في الأرض، ليس عندكم امتناع عما ينفذه الله فيكم، ﴿وما لكم من دُونِ الله من وَلِيٍّ﴾: يتولَّاكم، فيحصل لكم المنافع ﴿ولا نصير﴾: يدفع عنكم المضارَّ.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (٣٢) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبْنَ وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّخِصٍ ﴿٣٥﴾ .

﴿٣٢﴾ أي: ومن أدلة رحمته وعنايته بعباده ﴿الجواري في البحر﴾: من السفن والمراكب النارية والشرائية التي من عظمها ﴿كالأعلام﴾، وهي الجبال الكبار التي سخر لها البحر العجاج، وحفظها من التطام الأمواج، وجعلها تحمِلُكم وتحمل أمعتكم الكثيرة إلى البلدان والأقطار البعيدة، وسخر لها من الأسباب ما كان معونة على ذلك.

﴿٣٣ - ٣٤﴾ ثم نبّه على هذه الأسباب بقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾: التي جعلها الله سبباً لمشيها، ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾؛ أي: الجواري ﴿رَوَاكِدَ﴾: على ظهر البحر لا تتقدّم ولا تتأخر. ولا ينتقض هذا بالمراكب النارية؛ فإن من شرط مشيها وجود الريح، وإن شاء الله تعالى؛ أوبق الجواري بما كسب أهلها؛ أي: أغرقها في البحر وأتلفها، ولكنه يحلم ويعفو عن كثير. ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾؛ أي: كثير الصبر على ما تكرهه نفسه، ويشقُّ عليها فيكرهها عليه من مشقة طاعة أو رذع داع إلى معصية أو رذع نفسه عند المصائب عن التسخّط، شكور في الرخاء، وعند النعم يعترف بنعمة ربه، ويخضع له، ويصرفها في مرضاته؛ فهذا الذي ينتفع بآيات الله، وأمّا الذي لا صبر عنده ولا شكر له عند^(١) نعم الله؛ فإنه معرض أو معاند لا ينتفع بالآيات.

﴿٣٥﴾ ثم قال تعالى: ﴿ويعلم الذين يجادلون في آياتنا﴾: ليُظِلُّوها بباطلهم، ﴿ما لهم من مَخِصٍ﴾؛ أي: لا ينقذهم منقذٌ مما حلَّ بهم من العقوبة.

﴿فَمَا أُوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَنَعُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٣٦) وَالَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ كِبَادَ الْإِنِّمِ وَالْفَوْحِشِ وَإِذَا مَا عَصَبُوا هُمْ يَعْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ .

﴿٣٦﴾ هذا تزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة وذكر الأعمال الموصلة إليها؛

فقال: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾: من ملكٍ ورياسةٍ وأموالٍ وبينينَ وصحةٍ وعافيةٍ بدنيةٍ، ﴿فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: لذَّةٌ منغصَّةٌ منقطعةٌ، ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾: من الثواب الجزيل والأجر الجليل والنعيم المقيم ﴿خَيْرٌ﴾ من لذَّاتِ الدُّنْيَا، خيريةٌ لا نسبةً بينهما ﴿وَأَبْقَى﴾: لأنَّه نعيمٌ لا منغصٌ فيه ولا كَدَرٌ ولا انتقالٌ.

ثم ذكر لمن هذا الثواب، فقال: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ أي: جمعوا بين الإيمان الصحيح المستلزم لأعمال الإيمان الظاهرة والباطنة، وبين التوكُّل الذي هو الآلة لكلِّ عمل؛ فكلُّ عمل لا يَضَحُّهُ التوكُّل؛ فغير تامٍّ، وهو الاعتماد بالقلب على الله في جلب ما يحبه العبد ودفع ما يكرهه مع الثقة به تعالى.

﴿٣٧﴾ ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾: والفرق بين الكبائر والفواحش - مع أنَّ جميعَهما كبائرٌ - أنَّ الفواحش هي الذُّنُوبُ الكبائرُ التي في النفوس داع إليها كالزَّنا ونحوه، والكبائر ما ليس كذلك، هذا عند الاقتران، وأمَّا مع إفراد كلِّ منهما عن الآخر؛ فإنَّ الآخر يدخل فيه. ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾؛ أي: قد تخلَّقوا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشِّيم، فصار الحلم لهم سَجِيَّةً وحسن الخلق لهم طبيعةً، حتى إذا أغضبَهم أحدٌ بمقاله أو فعاله؛ كظموا ذلك الغضب، فلم يُنفِذوه، بل غفروه، ولم يقابلوا المسيء إلا بالإحسان والعفو والصفح، فترتَّب على هذا العفو والصفح من المصالح ودفع المفسدات في أنفسهم وغيرهم شيءٌ كثير؛ كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾. وما يُلقَّاها إلا الذين صَبَرُوا وما يُلقَّاها إلا ذو حظٍّ عظيمٌ.

﴿٣٨﴾ ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾؛ أي: انقادوا لطاعته، ولَبَّوْا دعوته، وصار قصدُهم رضوانه وغايَتُهُم الفوزُ بقربه، ومن الاستجابة لله إقامةُ الصَّلَاةِ وإيتاءُ الزَّكَاةِ؛ فلذلك عطفَهما على ذلك من باب عطف العامِّ على الخاصِّ الدالِّ على شرفه وفضله، فقال: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾؛ أي: ظاهرها وباطنها فرضها ونفلها، ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾: من النفقات الواجبة؛ كالزَّكَاةِ والنفقة على الأقارب ونحوهم، والمستحبة؛ كالصدقات على عموم الخلق. ﴿وَأَمْرُهُمْ﴾: الدينيُّ والدنيويُّ، ﴿شُورَى بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: لا يستبدُّ أحدٌ منهم برأيه في أمر من الأمور المشتركة بينهم، ولهذا لا يكون إلا فرعاً عن اجتماعهم وتوآلفهم وتواؤدِّهم وتحابُّهم؛ وكمال عقولهم أنَّهم إذا أرادوا أمراً من الأمور التي تحتاجُ إلى إعمال الفكر والرأي فيها؛ اجتمعوا لها وتشاوروا وبحثوا فيها، حتى إذا تبَيَّنَتْ لهم المصلحة؛ انتهزوها

ويادروها، وذلك كالرأي في الغزو والجهاد وتولية الموظفين لإمارة أو قضاء أو غيره، وكالبحث في المسائل الدينية عموماً؛ فإنها من الأمور المشتركة، والبحث فيها لبيان الصواب مما يحبه الله، وهو داخل في هذه الآية.

﴿٣٩﴾ والذين إذا أصابهم البغي؛ أي: وصل إليهم من أعدائهم ﴿هم ينتصرون﴾: لقوتهم وعزتهم، ولم يكونوا أذلاء عاجزين عن الانتصار؛ فوصفهم بالإيمان، والتوكل على الله، واجتناب الكبائر والفواحش الذي تكفر به الصغائر، والانقياد التام، والاستجابة لرئهم، وإقامة الصلاة، والإنفاق في وجوه الإحسان، والمشاركة في أمورهم، والقوة، والانتصار على أعدائهم؛ فهذه خصال الكمال قد جمعوها، ويلزم من قيامها فيهم فعل ما هو دونها وانتفاء ضدها.

﴿وَجَزَّوْا سَنَةً سِنَّةً مِّثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٠) وَلَمَّا نَبَزَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) .

﴿٤٠﴾ ذكر الله في هذه الآية مراتب العقوبات، وأنها على ثلاث مراتب: عدل، وفضل، وظلم. فمرتبة العدل: جزاء السيئة بسيئة مثلها؛ لا زيادة ولا نقص؛ فالنفس بالنفس، وكل جارحة بالجارحة المماثلة لها، والمال يضمن بمثله.

ومرتبة الفضل: العفو والإصلاح عن المسيء، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾؛ يجزيه أجراً عظيماً وثواباً كثيراً، وشرط الله في العفو الإصلاح فيه ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يلبق بالعفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته؛ فإنه في هذه الحال لا يكون مأموراً به، وفي جعل أجر العافي على الله مما يهيج على العفو وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله الله به؛ فكما يحب أن يعفو الله عنه؛ فليعفو عنهم، وكما يحب أن يسامحه الله؛ فليسامحهم؛ فإن الجزاء من جنس العمل.

وأما مرتبة الظلم؛ فقد ذكرها بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾: الذين يجنون على غيرهم ابتداءً، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته؛ فالزيادة ظلم.

﴿٤١﴾ ﴿وَلَمَنْ انتصر﴾ من ﴿بعد ظلمه﴾؛ أي: انتصر ممن ظلمه بعد وقوع الظلم عليه ﴿فأولئك ما عليهم من سبيل﴾؛ أي: لا حرج عليهم في ذلك. ودل قوله: ﴿والذين إذا أصابهم البغي﴾، وقوله: ﴿وَلَمَنْ انتصر بعد ظلمه﴾: أنه لا بد

من إصابة البغي والظلم ووقوعه، وأما إرادة البغي على الغير وإرادة ظلمه من غير أن يَقَع منه شيء؛ فهذا لا يجازى بمثله، وإنما يؤدَّب تأديباً يردِّعه عن قول أو فعل صدر منه.

﴿٤٢﴾ ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾؛ أي: إنما تتوجَّه الحجة بالعقوبة الشرعية ﴿على الذين يظلمون الناس وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾: وهذا شاملٌ للظلم والبغي على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: موجعٌ للقلوب والأبدان بحسب ظلمهم وبغيهم.

﴿٤٣﴾ ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾: على ما يناله من أذى الخلق، ﴿وَعَفَرَ﴾: لهم بأن سمح لهم عما يصدر منهم ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾؛ أي: لمن الأمور التي حثَّ الله عليها وأكدها وأخبر أنه لا يُلقَّاها إلا أهل الصبر والحظوظ العظيمة، ومن الأمور التي لا يوفق لها إلا أولو العزائم والهمم وذوو الألباب والبصائر؛ فإن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل من أشقَّ شيء عليها، والصبر على الأذى والصفح عنه ومغفرته ومقابلته بالإحسان أشقَّ وأشقَّ، ولكنه يسيرٌ على من يسره الله عليه وجاهد نفسه على الاتصاف به، واستعان الله على ذلك، ثم إذا ذاق العبدُ حلاوته، ووجد آثاره؛ تلقَّاه برحب الصدر وسعة الخلق والتلذُّذ فيه.

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَمُ مِنْ وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُوكَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ۖ﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشَعِينَ مِنَ الدَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ۖ﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَمُ مِنْ سَبِيلٍ ۖ﴾.

﴿٤٤﴾ يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإضلال، وأنه ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾: بسبب ظلمه ﴿فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾: يتولَّى أمره ويهديه، ﴿وترى الظالمين لما رَأَوْا الْعَذَابَ﴾: مرأى ومنظراً فظيماً صعباً شنيعاً يُظْهِرُونَ النَّدَمَ العظيم والحزن على ما سَلَفَ منهم، ﴿ويقولون هل إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾؛ أي: هل لنا طريقٌ أو حيلةٌ إلى رجوعنا إلى الدنيا لنعمل غير الذي كنَّا نعمل، وهذا طلبٌ للأمر المُحَال الذي لا يمكن.

﴿٤٥﴾ ﴿وتراهم يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: على النار ﴿خَاشَعِينَ مِنَ الدَّلِيلِ﴾؛ أي: ترى أجسامهم خاشعةً للدَّلِيلِ الذي في قلوبهم، ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ﴾؛ أي: ينظرون إلى النار مسارقةً وشزراً من هيبتها وخوفها، ﴿وقال الذين آمنوا﴾: حين

ظهرت عواقبُ الخلق وتبيّن أهلُ الصدق من غيرهم: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾: على الحقيقة، ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: حيث فوّتوا أنفسهم جزيل الثواب وحصلوا على أليم العقاب وفُرقَ بينهم وبين أهلهم فلم يجتمعوا بهم آخر ما عليهم. ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾: أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾؛ أي: في سوائه ووسطه منغمرين لا يخرجون منه أبداً، ولا يُفْتَرُ عنهم وهم فيه مُبْلِسُونَ.

﴿٤٦﴾ ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: كما كانوا في الدنيا يُمْنُونَ أَنْفُسَهُمْ بِذَلِكَ^(١)؛ ففي القيامة يتبيّن لهم ولغيرهم أن أسبابهم التي أمْلَوْهَا تَقَطَّعَتْ، وأنه حين جاءهم عذابُ الله لم يُدْفَعْ عنهم، ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾: تحضّل به هدايته؛ فهؤلاء ضلّوا حين زعموا في شركائهم النفع ودفع الضرر، فتبيّن حينئذٍ ضلالهم.

﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلَجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ (٤٧) ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِلَّا أَلْبَلَعُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَجَحَّ بِهَا وَإِنْ نَضَاهُمْ سَيْئَةً يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ (٤٨).

﴿٤٧﴾ يأمر تعالى عباده بالاستجابة له بامتنال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه وبالمبادرة بذلك وعدم التسويف ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ﴾: يوم القيامة، الذي إذا جاء؛ لا يمكن رده واستدراك الفائت، وليس للعبد في ذلك اليوم ملجأ يلجأ إليه فيفوت ربه ويهرب منه، بل قد أحاطت الملائكة بالخلقة من خلفهم، ونودوا: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾: وليس للعبد في ذلك اليوم نكير لما اقترفه وأجرمه، بل لو أنكر؛ لشهدت عليه جوارحه. وهذه الآية ونحوها فيها ذمُّ الأمل والأمر بانتهاز الفرصة في كل عمل يغرّض للعبد؛ فإنَّ للتأخير آفات.

﴿٤٨﴾ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾: عمّا جئتم به بعد البيان التام ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾: تحفظ أعمالهم وتساءل عنها، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾: فإذا أديت ما عليك؛ فقد وجب أجرك على الله، سواء استجابوا أم أعرضوا، وحسابهم على الله الذي يحفظ عليهم صغير أعمالهم وكبيرها وظاهرها وباطنها. ثم ذكر تعالى حالة الإنسان،

(١) في (ب): «يمنون بذلك أنفسهم».

وأنه إذا أذاقه الله رحمةً من صحّة بدنٍ ورزقٍ رغيدٍ وجاهٍ ونحوه؛ ﴿فرح بها﴾؛ أي: فرح فرحاً مقصوراً عليها لا يتعدّاها، ويلزم من ذلك طمأنينته بها وإعراضه عن المنعم. ﴿وإن تُصِيبهم سبئةٌ﴾؛ أي: مرضٌ أو فقرٌ أو نحوهما ﴿بما قدّمت أيديهم فإنّ الإنسان كفورٌ﴾؛ أي: طبيعته كفرانُ النعمة السابقة والتسخط لما أصابه من السيئة.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ۖ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّكُمْ عَلَيْهِ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾.

﴿٤٩ - ٥٠﴾ هذه الآية فيها الإخبار عن سعة ملكه تعالى ونفوذه تصرفه في الملك في الخلق لما يشاء والتدبير لجميع الأمور، حتى إنّ تدبيره تعالى من عموميه أنّه يتناول المخلوقة عن الأسباب التي يباشرها العباد؛ فإنّ النكاح من الأسباب لولادة الأولاد؛ فالله تعالى هو الذي يعطيهم من الأولاد ما يشاء؛ فمن الخلق من يهب له إناثاً، ومنهم من يهب له ذكوراً، ومنهم من يزوجه؛ أي: يجمع له ذكوراً وإناثاً، ومنهم من يجعله عقيماً لا يولد له. ﴿إنه عليمٌ﴾: بكل شيء. ﴿قديرٌ﴾: على كل شيء. فيتصرف بعلمه وإتقانه الأشياء وبقدرته في مخلوقاته.

﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُلْكِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيَ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذنيه مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٌ ۝٥١﴾ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتب ولا آليمن ولكن جعلناه نورا تهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ۝٥٢ صراط الله الذي لكم ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ۝٥٣﴾.

﴿٥١﴾ لما قال المكذبون لرسول الله الكافرون بالله: ﴿لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية﴾: من كبرهم وتجبرهم؛ ردّ الله عليهم بهذه الآية الكريمة، وأنّ تكليمه تعالى لا يكون إلّا لخواصّ خلقه؛ للأنبياء والمرسلين وصفوته من العالمين، وأنّه يكون على أحد هذه الأوجه: إمّا أن يكلمه الله وحياً، بأن يُلقي الوحي في قلب الرسول من غير إرسال ملكٍ ولا مخاطبة منه شفاهاً، ﴿أو﴾ يكلمه منه شفاهاً، لكنه ﴿من وراء حجابٍ﴾؛ كما حصل لموسى بن عمران كليم الرحمن، ﴿أو﴾ يكلمه الله بواسطة الرسول الملكي؛ فيرسل ﴿رسولاً﴾؛ كجبريل أو غيره من الملائكة، ﴿فيوحي بآذنه﴾؛ أي: بإذن ربه لا بمجرّد هواه؛ إنّّه تعالى عليّ الذات عليّ الأوصاف، عظيمها، عليّ الأفعال، قد قهر كل شيء، ودانت له المخلوقات، ﴿حكيمٌ﴾ في وضعه كل شيء في موضعه من المخلوقات والشرائع.

﴿٥٢﴾ ﴿وَكَذَلِكَ﴾ حين أوحينا إلى الرسل قبلك، ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾: وهو هذا القرآن الكريم، سَمَّاهُ رُوحاً؛ لِأَنَّ الرُّوحَ يحيا به الجسدُ، والقرآنُ تحيا به القلوبُ والأرواحُ، وتحيا به مصالحُ الدُّنيا والدينِ؛ لما فيه من الخير الكثير والعلم الغزير، وهو محضُ مَنَّةِ اللَّهِ على رُسُولِهِ وعباده المؤمنين من غير سببٍ منهم، ولهذا قال: ﴿مَا كُنْتَ تَذَرِي﴾؛ أي: قبل نزوله عليك ﴿مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾؛ أي: ليس عندك علمٌ بأخبار الكتب السابقة، ولا إيمانٌ وعملٌ بالشرائع الإلهية، بل كنت أُميئاً لا تخطئ ولا تقرأ، فجاءك هذا الكتابُ الذي ﴿جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾: يستضيئون به في ظُلُمَاتِ الكفر والبدع والأهواء المُرَدِيَّةِ، ويعرفون به الحقائق، ويهتدون به إلى الصراط المستقيم. ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: تبيِّنه لهم، وتوضِّحه، [وتنيره] وترغبهم فيه، وتنههم عن ضده، وترهبهم منه.

﴿٥٣﴾ ثم فُسِّر الصراط المستقيم، فقال: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: الصراط الذي نَصَبَهُ اللَّهُ لعباده وأخبرهم أَنَّهُ موصِلٌ إليه وإلى دار كرامَتِهِ. ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾؛ أي: ترجعُ جميعُ أمورِ الخير والشرِّ، فيجازي كلاً بعملِهِ^(١)؛ إن خيراً فخيرٌ وإن شراً فشرٌّ.

تم تفسير سورة الشورى.

والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً على تيسيره وتسهيله.



تفسير سورة الزخرف

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُولَى الْأَلْتَابِ ﴿٤﴾ لَدِينَا لَعَلُّ حَكِيمٍ ﴿٥﴾ أَنْفَضَرْتُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴿٦﴾

(١) في (ب): «بحسب عمله».

﴿١ - ٣﴾ هَذَا قَسَمٌ بِالْقُرْآنِ عَلَى الْقُرْآنِ، فَأَقْسَمَ بِالْكِتَابِ الْمُبِينِ، وَأَطْلَقَ، وَلَمْ يَذْكُرِ الْمُتَعَلِّقَ؛ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ مُبَيَّنٌ لِكُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْعِبَادُ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾: هَذَا الْمَقْسَمُ عَلَيْهِ أَنَّهُ جُعِلَ بِأَفْصَحِ اللُّغَاتِ وَأَوْضَحِهَا وَأَبْيَنَهَا، وَهَذَا مِنْ بَيَانِهِ. وَذَكَرَ الْحِكْمَةَ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ أَلْفَاظُهُ وَمَعَانِيهِ لَتُسَيِّرُهَا وَقَرِيبُهَا مِنَ الْأَذْهَانِ.

﴿٤﴾ ﴿وَلِئَنَّهُ﴾؛ أَيِ: هَذَا الْكِتَابِ ﴿لَدِينَا﴾ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى فِي أَعْلَى الرُّتَبِ وَأَفْضَلِهَا ﴿لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾؛ أَيِ: لَعَلِّي فِي قَدْرِهِ وَشَرْفِهِ وَمَحَلِّهِ، حَكِيمٌ فِيمَا يَشْتَمَلُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَالْأَخْبَارِ؛ فَلَيْسَ فِيهِ حَكْمٌ مُخَالَفٌ لِلْحِكْمَةِ وَالْعَدْلِ وَالْمِيزَانِ.

﴿٥﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ حِكْمَتَهُ وَفَضْلَهُ يَقْتَضِي أَنْ لَا يَتْرَكَ عِبَادَهُ هَمَلًا لَا يَرْسِلُ إِلَيْهِمْ رَسُولًا وَلَا يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ كِتَابًا وَلَوْ كَانُوا مُسْرِفِينَ ظَالِمِينَ، فَقَالَ: ﴿أَفَنْضِرُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾؛ أَيِ: أَفَنْعِضُ عَنْكُمْ وَنَتْرِكُ الْإِنْزَالَ الذِّكْرَ إِلَيْكُمْ وَنَضْرِبُ عَنْكُمْ صَفْحًا لِأَجْلِ إِعْرَاضِكُمْ وَعَدَمِ انْقِيَادِكُمْ [لَهُ]، بَلْ نَنْزِلُ عَلَيْكُمْ الْكِتَابَ، وَنَوْضِحُ لَكُمْ فِيهِ كُلَّ شَيْءٍ؛ فَإِنْ آمَنْتُمْ بِهِ وَاهْتَدَيْتُمْ؛ فَهُوَ مِنْ تَوْفِيقِكُمْ، وَإِلَّا؛ قَامَتْ عَلَيْكُمْ الْحِجَّةُ، وَكُتِّمَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِكُمْ.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ ① وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ② فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ③.

﴿٦ - ٨﴾ يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّ هَذِهِ سَتُنَا فِي الْخَلْقِ أَنْ لَا نَتْرُكَهُمْ هَمَلًا؛ فَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ: يَأْمُرُونَهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَمْ يَزَلِ التَّكْذِيبُ مُوْجُودًا فِي الْأُمَمِ. ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾: جَحْدًا لِمَا جَاءَ بِهِ، وَتَكِبْرًا عَلَى الْحَقِّ، ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ﴾ مِنْ هَؤُلَاءِ ﴿بَطْشًا﴾؛ أَيِ: قُوَّةَ وَأَفْعَالًا وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ، ﴿وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أَيِ: مَضَتْ أَمْثَالُهُمْ وَأَخْبَارُهُمْ وَبَيِّنَاتُ لَكُمْ مِنْهَا مَا فِيهِ عِبْرَةٌ وَمُزْدَجَّرٌ عَنِ التَّكْذِيبِ وَالْإِنْكَارِ.

﴿وَلَيْنَ سَأَلْنَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ ④ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوهَا ⑤ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا

لَمَنْ سَخَّرَهَا وَالثَّنَاءُ عَلَيْهِ تَعَالَى بِذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقَرَّنِينَ﴾؛ أَي: لَوْلَا تَسْخِيرُهُ لَنَا مَا سَخَّرَ مِنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ؛ مَا كُنَّا مُطِيقِينَ لِذَلِكَ وَقَادِرِينَ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ مِنْ لَطْفِهِ وَكَرَمِهِ تَعَالَى سَخَّرَهَا وَذَلَّلَهَا وَيَسَّرَ أَسْبَابَهَا. وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا بَيَانُ أَنَّ الرَّبَّ الْمَوْصُوفَ بِمَا ذَكَرَهُ مِنْ إِفَاضَةِ النِّعَمِ عَلَى الْعِبَادِ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ، وَيُصَلَّى لَهُ وَيُسَجَّدَ^(١).

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ (١٥) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوْمَنْ يَكْشُرْ فِي الْغَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ أَلَيْسَتْ لَهُمْ نِسَاءٌ مِمَّنْ قَبْلَهُ فَهَمَّ بِهِ فَتَسْكَنُ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ (٢٣) قُلْ أُولَئِكَ حِجَّتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءُكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ فَاظْطَرَّ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥) ﴿

﴿١٥﴾ يخبر تعالى عن شناعة قول المشركين الذين جعلوا لله تعالى ولداً، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحد. وأن ذلك باطلٌ من عدة أوجه: منها: أنَّ الخلقَ كُلَّهُم عباده، والعبودية تنافي الولادة. ومنها: أنَّ الولد جزءٌ من والديه، والله تعالى بائنٌ من خلقه مباينٌ لهم في صفاته ونعوت جلاله، والولد جزءٌ من الوالد؛ فمحالٌ أن يكون لله تعالى ولدٌ.

﴿١٦﴾ ومنها: أنَّهم يزعمون أنَّ الملائكة بناتُ الله، ومن المعلوم أنَّ البنات أدونُ الصنفين؛ فكيف يكون لله البناتُ ويصطفيهن بالبنين ويفضلهن بهن؟! فإذا؛ يكونون أفضلٌ من الله! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً!

﴿١٧﴾ ومنها: أنَّ الصنف الذي نسبوه لله - وهو البنات - أدونُ الصنفين وأكرهما لهما، حتى إنهم من كراحتهم لذلك ﴿إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ

(١) الآية رقم (١٤) لم أجد لها تفسيراً في النسختين.

مثلاً ظلَّ وجهه مسوداً؛ من كراهته وشدة بغضه؛ فكيف يجعلون لله ما يكرهون؟! ﴿١٨﴾ ومنها: أن الأنثى ناقصة في وصفها وفي منطقها وبيانها، ولهذا قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْحِلْيَةِ﴾؛ أي: يجمُلُ فيها لنقص جماله، فيجمُلُ بأمرٍ خارج منه^(١)، ﴿وهو في الخصام﴾؛ أي: عند الخصام الموجب لإظهار ما عند الشخص من الكلام ﴿غير مبين﴾؛ أي: غير مبين لحجته ولا مفصح عما احتوى عليه ضميره؛ فكيف ينسبونهنَّ لله تعالى!؟

﴿١٩﴾ ومنها: أنهم ﴿جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن^(٢) إناثاً﴾: فتجرؤوا على الملائكة العباد المقربين، ورفّوهم عن مرتبة العبادة والذلَّ إلى مرتبة المشاركة لله في شيء من خواصه، ثم نزلوا بهم عن مرتبة الذكورية إلى مرتبة الأنوثة؛ فسبحان من أظهر تناقض مَنْ كَذَبَ عليه وعاند رسله! ومنها: أن الله ردَّ عليهم بأنهم لم يشهدوا خلقَ الله لملائكته؛ فكيف يتكلمون بأمر من المعلوم عند كلِّ أحدٍ أنه ليس لهم به علم؟! ولكن لا بدَّ أن يُسألوا عن هذه الشهادة، وستكتب عليهم ويعاقبون عليها.

﴿٢٠﴾ وقوله تعالى: ﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾: فاحتجوا على عبادتهم الملائكة بالمشيئة، وهي حجة لم يزل المشركون يطرقونها، وهي حجة باطلة في نفسها عقلاً وشرعاً؛ فكلُّ عاقل لا يقبل الاحتجاج بالقدر، ولو سلَّكه في حالة من أحواله؛ لم يثبت عليها قدمه، وأما شرعاً؛ فإنَّ الله تعالى أبطل الاحتجاج به، ولم يذكره عن غير المشركين به المكذِّبين لرسله؛ فإنَّ الله تعالى قد أقام الحجة على العباد؛ فلم يبقَ لأحدٍ عليه حجة أصلاً، ولهذا قال هنا: ﴿ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرُصون﴾؛ أي: يتخرَّصون تخرُّصاً لا دليل عليه، ويتخبَّطون خَبْطَ عشواء.

﴿٢١﴾ ثم قال: ﴿أم آتيناهم كتاباً من قبليه فهم به مستمسكون﴾: يخبرهم بصحة أفعالهم وصدق أقوالهم؟! ليس الأمر كذلك؛ فإنَّ الله أرسل محمداً نذيراً إليهم، وهم لم يأتهم نذيرٌ غيره؛ أي: فلا عقل ولا نقل، وإذا انتفى الأمران؛ فلا ثمَّ إلا الباطل.

﴿٢٢﴾ نعم؛ لهم شبهة من أوهى الشبه، وهي تقليد آبائهم الضالِّين، الذين ما

(١) في (ب): «عنه».

(٢) في (ب): «عباد الله».

زال الكفرة يردّون بتقليدهم دعوة الرسل، ولهذا قال هنا: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾؛ أي: على دين وملة، ﴿وإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾؛ أي: فلا نتبع ما جاء به محمد ﷺ.

﴿٢٣﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾؛ أي: منعموها وملؤها الذين أطعّتهم الدنيا وغرّتهم الأموال واستكبروا على الحق: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾؛ أي: فهؤلاء ليسوا ببدع منهم، وليسوا بأول من قال هذه المقالة. وهذا الاحتجاج من هؤلاء المشركين الضالّين بتقليدهم لأبائهم الضالّين ليس المقصود به اتباع الحق والهدى، وإنّما هو تعصّب محض، يُراد به نصره ما معهم من الباطل.

﴿٢٤﴾ ولهذا كلُّ رسول يقول لِمَنْ عَارَضَهُ بِهَذِهِ الشُّبْهَةِ الْبَاطِلَةِ: ﴿أَوَلَوْ جِئْتَكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾؛ أي: أفتتبعوني^(١) لأجل الهدى؟ ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾: فعَلِمَ بهذا أنّهم ما أرادوا اتباع الحق والهدى، وإنّما قصدهم اتباع الباطل والهوى.

﴿٢٥﴾ ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾: بتكذيبهم الحقّ وردّهم إيّاه بهذه الشبهة الباطلة، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾: فليحذر هؤلاء أن يستمرّوا على تكذيبهم فيصيبهم ما أصابهم.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْغَرَبَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهَمَّ يَقْسِمُونَ رَحِمَتَ رَبِّكَ إِنَّهُمْ يَدْعُوا قِسْمَنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمَتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿٢٦﴾ يخبر تعالى عن ملة إبراهيم الخليل عليه السلام، الذي ينتسب إليه أهل الكتاب والمشركون، وكلّهم يزعم أنّه على طريقتة، فأخبر عن دينه الذي ورّثه في ذريّته، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾: الذين اتّخذوا من دون الله آلهة

(١) في (ب): «فهل تتبعوني؟».

يَعْبُدُونَهُمْ وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِمْ: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: مبغضٌ له مجتنِبٌ معادٍ لأهله.

﴿٢٧﴾ ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾؛ فَإِنِّي أَتَوَلَّاهُ وَأَرْجُو أَنْ يَهْدِيَني لِلْعِلْمِ بِالْحَقِّ وَالْعَمَلِ بِالْحَقِّ^(١)؛ فكَما فَطَرَنِي وَذَبَّرَنِي بِمَا يُضْلِحُ بَدَنِي وَدُنْيَايَ، فَسَيَهْدِيَنِي لِمَا يُضْلِحُ دِينِي وَأَخْرَجَنِي.

﴿٢٨﴾ ﴿وَجَعَلَهَا﴾؛ أي: هُذه الخِصْلَةُ الحَمِيدَةُ الَّتِي هِيَ أُمُّ الْخِصَالِ وَأَسَاسُهَا، وَهِيَ إِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَالتَّبَرُّيُّ مِنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾؛ أي: فِي ذَرِّيَّتِهِ^(٢)، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: إِلَيْهَا ﴿يَرْجِعُونَ﴾: لَشَهْرَتِهَا عَنْهُ وَتَوْصِيَّتِهِ لَذَرِّيَّتِهِ وَتَوْصِيَةِ بَعْضِ بَنِيهِ كَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ لِبَعْضٍ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفَاهَةٍ نَفْسِهِ...﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ.

﴿٢٩﴾ فَلَمْ تَزَلْ هُذه الْكَلِمَةُ مَوْجُودَةً فِي ذَرِّيَّتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى دَخَلَهُمُ الثَّرَفُ وَالطُّغْيَانُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَأَبَاءَهُمْ﴾: بِأَنْوَاعِ الشَّهَوَاتِ، حَتَّى صَارَتْ هِيَ غَايَتَهُمْ وَنَهَايَةُ مَقْصُودِهِمْ، فَلَمْ تَزَلْ يَتَرَبَّى حُبُّهَا فِي قُلُوبِهِمْ، حَتَّى صَارَتْ صِفَاتٍ رَاسِخَةً وَعُقَائِدَ مُتَأَصِّلَةً. ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾: الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مِزْيَةَ وَلَا اشْتِبَاهَ، ﴿وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾؛ أي: بَيَّنَّ الرِّسَالَةَ، قَامَتْ أَدْلَةُ رِسَالَتِهِ قِيَامًا بَاهِرًا بِأَخْلَاقِهِ وَمُعْجَزَاتِهِ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ، وَبِمَا صَدَّقَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ وَبِنَفْسِ دَعْوَتِهِ ﷺ.

﴿٣٠﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾: الَّذِي يَوْجِبُ عَلَى مَنْ لَهُ أَدْنَى دِينٍ وَمَعْقُولٍ أَنْ يَقْبَلَهُ وَيَنْقَادَ لَهُ، ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾: وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْمَعَانِدَةِ وَالْمَشَاقَّةِ؛ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَكْتَفُوا بِمَجْرَدِ الْإِعْرَاضِ عَنْهُ، بَلْ وَلَا جَحْدَهُ، فَلَمْ يَرْضَوْا حَتَّى قَدَحُوا بِهِ قَدْحًا شَنِيعًا، وَجَعَلُوهُ بِمَنْزِلَةِ السِّحْرِ الْبَاطِلِ الَّذِي لَا يَأْتِي بِهِ إِلَّا أَخْبَثُ الْخَلْقِ وَأَعْظَمُهُمْ افْتِرَاءً، وَالَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ طُغْيَانُهُمْ بِمَا مَتَّعَهُمُ اللَّهُ بِهِ وَأَبَاءَهُمْ.

﴿٣١﴾ ﴿وَقَالُوا﴾: مُقْتَرِحِينَ عَلَى اللَّهِ بِعَقُولِهِمُ الْفَاسِدَةِ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾؛ أي: مَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُمْ مَبْجَلٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ أَوْ أَهْلِ الطَّائِفِ؛ كَالْوَلِيدِ بْنِ الْمَغِيرَةِ وَنَحْوِهِ مِمَّنْ هُوَ عِنْدَهُمْ عَظِيمٌ.

﴿٣٢﴾ قَالَ اللَّهُ رَدًّا لِاقْتِرَاحِهِمْ: ﴿لَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةً رَبِّكَ﴾؛ أي: أَهْمُ الْخِزَانِ

(١) فِي (ب): «وَالْعَمَلُ بِهِ».

(٢) فِي (ب): «أَي: ذَرِّيَّتِهِ».

لرحمة الله، وييدهم تديرها، فيعطون النبوة والرسالة من يشاؤون، ويمنعونها ممن يشاؤون؟! ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾؛ أي: في الحياة الدنيا، ﴿و﴾ الحال أن رحمة ﴿رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾: من الدنيا؛ فإذا كانت معاش العباد وأرزاقهم الدنيوية بيد الله تعالى، هو الذي يقسمها بين عباده، فيبسط الرزق على من يشاء ويضيقه على من يشاء بحسب حكمته؛ فرحمته الدنيوية - التي أعلاها النبوة والرسالة - أولى وأحرى أن تكون بيد الله تعالى؛ فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

فعلم أن اقتراحهم ساقط لاغ، وأن التدبير للأمور كلها دينيها ودنيويها بيد الله وحده، هذا إقناع لهم من جهة غلطهم في الاقتراح الذي ليس في أيديهم منه شيء، إن هو إلا ظلم منهم ورد للحق. وقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾: لو عرفوا حقائق الرجال والصفات التي بها يُعرف علو قدر الرجل، وعظم منزلته عند الله وعند خلقه؛ لعلموا أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب هو أعظم الرجال قدراً، وأعلاهم فخراً، وأكملهم عقلاً، وأغزهم علماً، وأجلهم رأياً وعزماً وحزماً، وأكملهم خلقاً، وأوسعهم رحمةً، وأشدهم شفقةً، وأهداهم وأتقاهم، وهو قطب دائرة الكمال، وإليه المنتهى في أوصاف الرجال، ألا وهو رجل العالم على الإطلاق؛ يعرف ذلك أولياؤه وأعداؤه؛ إلا من ضل وكابر؛ فكيف يُفضل عليه المشركون من لم يشم مثقال ذرة من كماله، ومن حزمه ومنتهى عقله أن جعل إلهه الذي يعبده ويدعوه ويتقرب إليه صنماً أو شجراً أو حجراً لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع، وهو كل على مولاه، يحتاج لمن يقوم بمصالحه؟! فهل هذا إلا من فعل السفهاء والمجانين؟! فكيف يجعل مثل هذا عظيماً؟! أم كيف يُفضل على خاتم الرسل وسيد ولد آدم ﷺ؟! ولكن الذين كفروا لا يعقلون.

وفي هذه الآية تنبيه على حكمة الله تعالى في تفضيل الله بعض العباد على بعض في الدنيا؛ ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سَخِرِيًّا﴾؛ أي: ليسخر بعضهم بعضاً في الأعمال والحرف والصنائع؛ فلو تساوى الناس في الغنى ولم يحتج بعضهم إلى بعض؛ لتعطلت كثير من مصالحهم ومنافعهم.

وفيها دليل على أن نعمته الدنيوية خير من النعمة الدنيوية؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَوَّنُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿٣٣ - ٣٥﴾ يخبر تعالى بأن الدنيا لا تسوى عنده شيئاً، وأنه لولا لطفه ورحمته بعباده التي لا يقدم عليها شيئاً؛ لو سَّع الدنيا على الذين كفروا توسيعاً عظيماً، وَلَجَعَلَ ﴿لبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾؛ أي: درجاً من فضة، ﴿عليها يظهرون﴾: إلى سطوحهم، ﴿ولِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَوَّنُونَ﴾: من فضة، ولجعل لهم ﴿زُخْرَفًا﴾؛ أي: لزخرف لهم دُنياهم بأنواع الزخارف وأعطاهم ما يشتهون، ولكن منعه من ذلك رحمته بعباده؛ خوفاً عليهم من التسارع في الكفر وكثرة المعاصي بسبب حب الدنيا. ففي هذا دليل على أنه يمنع العباد بعض أمور الدنيا منعاً عاماً أو خاصاً لمصالحهم، وأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة. وأن كل هذه المذكورات متاع الحياة الدنيا منغصة مكدرة فانية، وأن الآخرة عند الله تعالى خير للمتقين لرُبهم بامثال أوامره واجتناب نواهيه؛ لأن نعيمها تام كامل من كل وجه، وفي الجنة ما تشتهي النفس وتلد الأعين، وهم فيها خالدون. فما أشد الفرق بين الدارين!

﴿وَمَن يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لِّمَن شِطَّلَانًا فَهُوَ لِمَن قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَبَتَّىٰ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنسَ الْقَرِينَ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَتَكُرُّ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿٣٦﴾ يخبر تعالى عن عقوبته البليغة بمن أعرض عن ذكره، فقال: ﴿ومَن يَعِشْ﴾؛ أي: يعرض ويصد ﴿عن ذكر الرحمن﴾: الذي هو القرآن العظيم، الذي هو أعظم رحمة رحم بها الرحمن عباده؛ فمن قبلها؛ فقد قبل خير المواهب، وفاز بأعظم المطالب والرغائب، ومن أعرض عنها وردّها؛ فقد خاب وخسر خسارة لا يسعد بعدها أبداً، وقِيض له الرحمن شيطاناً مريداً يقارنه ويصاحبه ويعده ويمنيه ويؤزّه إلى المعاصي أژا.

﴿٣٧﴾ ﴿وإنهم ليصدونهم عن السبيل﴾؛ أي: الصراط المستقيم والدين القويم، ﴿ويحسبون أنهم مهتدون﴾: بسبب تزيين الشيطان للباطل وتحسينه له وإعراضهم عن الحق، فاجتمع هذا وهذا. فإن قيل: فهل لهذا من عذر من حيث إنه ظن أنه

مهتدٍ وليس كذلك؟ قيل: لا عذر لهذا وأمثاله الذين مصدرُ جهلهم الإعراض عن ذكرِ الله مع تمكّنهم على الاهتداء، فزهّدوا في الهدى مع القدرة عليه، ورغبوا في الباطل؛ فالذنبُ ذنبهم والجرمُ جرّمهم.

﴿٣٨﴾ فهذه حالةُ هذا المعرض عن ذكرِ الله في الدنيا مع قرينه، وهو الضلال والغى وانقلاب الحقائق، وأما حاله إذا جاء ربّه في الآخرة؛ فهو شرُّ الأحوال، وهو الندم والتحسّر والحزن الذي لا يُجَبّر مصائبه والتبرّي من قرينه، ولهذا قال تعالى: ﴿حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بُعدُ المشرقين فبئس القرين﴾؛ كما في قوله تعالى: ﴿ويومَ يَعِضُ الظالمُ على يديه يقولُ يا ليتني اتّخذْتُ مع الرسولِ سبيلاً. يا ويلتني ليتني لم اتّخذْ فلاناً خليلاً. لقد أضلّني عن الذّكرِ بعد إذ جاءني وكان الشيطانُ للإنسانِ خذولاً﴾.

﴿٣٩﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَن يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾؛ أي: ولا ينفعكم يوم القيامة اشتراككم في العذاب أنتم وقرناؤكم وأخلاؤكم، وذلك لأنكم اشتركتم في الظلم فاشتركتم في عقابه وعذابه، ولن ينفعكم أيضاً روح التسلي في المصيبة؛ فإنّ المصيبة إذا وقعت في الدنيا واشترك فيها المعاقبون؛ هان عليهم بعضُ الهون، وتسلى بعضهم ببعض، وأما مصيبة الآخرة؛ فإنّها جمعت كلَّ عقاب ما فيه أدنى راحة، حتى ولا هذه الراحة. نسألك يا ربنا العافية وأن تُريحنا برحمتك.

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْغَمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّمَا تَذَهَبُ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَفِعُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ تُرِيكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَسْمِعْ بِالَّذِي أَوْحَى إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسَأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤٠﴾ يقول تعالى لرسوله ﷺ مسلماً له عن امتناع المكذّبين عن الاستجابة له وأنهم لا خيرَ فيهم ولا فيهم زكاء يدعوهم إلى الهدى: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾؛ أي: الذين لا يسمعون، ﴿أو تهدي الغمي﴾: الذين لا يبصرون أو تهدي مَنْ هو ﴿في ضلال مبين﴾؛ أي: بين واضح لعلّه بضلاله ورضاه به؛ فكما أنّ الأصم لا يسمع الأصوات، والأعمى لا يبصر، والضالّ ضلالاً مبيناً لا يهتدي؛ فهؤلاء قد فسدت فطرّهم وعقولهم بإعراضهم عن الذّكر، واستحدثوا عقائد فاسدة وصفات

خبيثة تمنعهم وتَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْهُدَى، وتَوْجِبُ لَهُمُ الْإِزْدِيَادَ مِنَ الرَّدَى.

﴿٤١﴾ فَهَؤُلَاءِ لَمْ يَبْقَ إِلَّا عَذَابُهُمْ وَنَكَالُهُمْ إِمَّا فِي الدُّنْيَا أَوْ فِي الْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾؛ أَي: فَإِنْ ذَهَبْنَا بِكَ قَبْلَ أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ؛ فَاعْلَمْ بِخَبَرِنَا الصَّادِقِ أَنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ.

﴿٤٢﴾ ﴿أَوْ تُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾: مِنَ الْعَذَابِ، ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾: وَلَكِنْ ذَلِكَ مُتَوَقَّفٌ عَلَى اقْتِضَاءِ الْحِكْمَةِ لِتَعْجِيلِهِ أَوْ تَأْخِيرِهِ؛ فَهَذِهِ حَالُكَ وَحَالُ هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ.

﴿٤٣﴾ وَأَمَّا أَنْتَ؛ ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾: فَعَلًا وَاتِّصَافًا بِمَا يَأْمُرُ بِالِاتِّصَافِ بِهِ، وَدَعْوَةً إِلَيْهِ، وَحِرْصًا عَلَى تَنْفِيذِهِ بِنَفْسِكَ وَفِي غَيْرِكَ. ﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: مُوَصَّلٌ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى دَارِ كَرَامَتِهِ، وَهَذَا مِمَّا يَوْجِبُ عَلَيْكَ زِيَادَةَ التَّمَسُّكِ بِهِ وَالِاهْتِدَاءِ، إِذَا عَلِمْتَ أَنَّهُ حَقٌّ وَعَدْلٌ وَصَدَقَ تَكُونُ بَانِيًا عَلَى أَصْلِ أَصِيلٍ، إِذَا بَنَى غَيْرُكَ عَلَى الشُّكُوكِ وَالْأَوْهَامِ وَالظُّلُمِ وَالْجَوْرِ.

﴿٤٤﴾ ﴿وَإِنَّهُ﴾؛ أَي: هَذَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، ذِكْرٌ ﴿لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾؛ أَي: فَخَرٌ لَكُمْ وَمَنْقَبَةٌ جَلِيلَةٌ وَنِعْمَةٌ لَا يَقَادِرُ قَدْرُهَا وَلَا يَعْرِفُ وَصْفُهَا، وَيَذَكِّرُكُمْ أَيْضًا مَا فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ الدُّنْيَوِيِّ وَالْآخِرَوِيِّ، وَيَحْثُكُمُ عَلَيْهِ، وَيَذَكِّرُكُمْ الشَّرَّ وَيُرْهَبُكُمْ عَنْهُ. ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾: عَنْهُ؛ هَلْ قُمْتُمْ بِهِ فَارْتَفَعْتُمْ وَانْتَفَعْتُمْ؟ أَمْ لَمْ تَقُومُوا بِهِ فَيَكُونُ حِجَّةً عَلَيْكُمْ وَكَفْرًا مِنْكُمْ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ؟

﴿٤٥﴾ ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾: حَتَّى يَكُونَ لِلْمُشْرِكِينَ نَوْعٌ حِجَّةٌ يَتَّبِعُونَ فِيهَا أَحَدًا مِنَ الرُّسُلِ؛ فَإِنَّكَ لَوْ سَأَلْتَهُمْ وَاسْتَخْبَرْتَ^(١) عَنْ أَحْوَالِهِمْ؛ لَمْ تَجِدْ أَحَدًا مِنْهُمْ يَدْعُو إِلَى اتِّخَاذِ إِلَهٍ آخَرَ مَعَ اللَّهِ، وَأَنَّ كُلَّ الرُّسُلِ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ يَدْعُونَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، وَكُلُّ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ يَقُولُ لِقَوْمِهِ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، فَدَلَّ هَذَا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَيْسَ لَهُمْ مُسْتَنَدٌ فِي شُرْكِهِمْ لَا مِنْ عَقْلِ صَحِيحٍ وَلَا نَقْلٍ عَنِ الرُّسُلِ.

(١) كَذَا فِي (ب) وَفِي (أ): «اسْتَخْبَرْتَ».

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ^(١) فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَتَّبِعُهُ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْقَوِي آلِ يَاسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مِثِّي وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلٰٓئِكَةُ مُقَرَّرِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَافِرُونَ فَطَاغُوا فَنَسِيقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿٤٦﴾ لما قال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾؛ يبين تعالى حال موسى ودعوته التي هي أشهر ما يكون من دَعَوَاتِ الرسل، ولأنَّ الله تعالى أكثر من ذِكْرِهَا فِي كِتَابِهِ، فَذَكَرَ حَالَهُ مَعَ فِرْعَوْنَ [فَقَالَ]: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾: التي دَلَّتْ دَلَالَةً قَاطِعَةً عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءَ بِهِ؛ كَالْعَصَا وَالْحَيَّةِ وَإِرْسَالِ الْجِرَادِ وَالْقَمَلِ... إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ، ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: فدعاهم إلى الإقرار بربهم، ونهاهم عن عبادة ما سواه.

﴿٤٧ - ٤٨﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾؛ أي: ردُّوْهَا وَأَنْكَرُوهَا وَاسْتَهْزَؤُوا بِهَا ظِلْمًا وَعُلُوًّا، فَلَمْ يَكُنْ لِقُصُورِ الْآيَاتِ وَعَدَمِ وَضُوحِ فِيهَا، وَلِهَٰذَا قَالَ: ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾؛ أي: الآيةُ الْمَتَأَخَّرَةُ أَعْظَمُ مِنَ السَّابِقَةِ، ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾: كَالْجِرَادِ وَالْقَمَلِ وَالضَّفَادِعِ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفْصَلَاتٍ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: إلى الإسلام وَيُذْعِنُونَ لَهُ؛ لِيُزِيلَ شُرَكَاهُمْ وَشُرُّهُمْ.

﴿٤٩﴾ ﴿وَقَالُوا﴾ عندما نزل عليهم العذاب: ﴿يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾: يعنون: موسى عليه السلام، وَهَٰذَا إِمَّا مِنْ بَابِ التَّهْكُمِ بِهِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ هَٰذَا الْخُطَابُ عِنْدَهُمْ مَدْحًا، فَتَضَرَّعُوا إِلَيْهِ بِأَنْ خَاطَبُوهُ بِمَا يَخَاطَبُونَ بِهِ مَنْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ عِلْمَاؤُهُمْ، وَهُمْ السَّحَرَةُ، فَقَالُوا: ﴿يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾؛ أي: بما

(١) في (ب): إلى آخر القصة.

خَصَّكَ اللَّهُ بِهِ وَفَضَّلَكَ بِهِ مِنَ الْفَضَائِلِ وَالْمَنَاقِبِ أَنْ يَكْشِفَ عَنَّا الْعَذَابَ، ﴿إِنَّا لَمَهْتَدُونَ﴾: إِنْ كَشَفَ اللَّهُ عَنَّا ذَلِكَ.

﴿٥٠﴾ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾؛ أَي: لَمْ يَفُوا بِمَا قَالُوا، بَلْ غَدَرُوا، وَاسْتَمَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفْصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾، وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا: ﴿يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِتُنْكَشِفَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلِنَرْسِلَنَ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغَوَى إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾.

﴿٥١﴾ ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ: مُسْتَعْلِيًّا بِيَاظِلِّي قَدْ غَرَّهَ مُلْكُهُ وَأَطْغَاهُ مَا لَهُ وَجُنُودُهُ: ﴿يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾؛ أَي: أَلَسْتُ الْمَالِكُ لَذَلِكَ الْمُتَصَرِّفِ فِيهِ؟ ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾؛ أَي: الْأَنْهَارُ الْمُنْسَحَبَةُ مِنَ النَّيْلِ فِي وَسْطِ الْقُصُورِ وَالْبَسَاتِينِ. ﴿أَفَلَا تَبْصُرُونَ﴾: هَذَا الْمَلِكُ الطَّوِيلُ الْعَرِيضُ؟! وَهَذَا مِنْ جِهْلِهِ الْبَلِيغِ؛ حَيْثُ افْتَخَرَ بِأَمْرِ خَارِجٍ عَنْ ذَاتِهِ، وَلَمْ يَفْخَرْ بِأَوْصَافِ حَمِيدَةٍ، وَلَا أَعْمَالِ سَدِيدَةٍ.

﴿٥٢﴾ ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾؛ يَعْنِي قَبَّحَهُ اللَّهُ بِالْمَهِينِ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ كَلِيمَ الرَّحْمَنِ الْوَجِيهَ عِنْدَ اللَّهِ؛ أَي: أَنَا الْعَزِيزُ وَهُوَ الذَّلِيلُ الْمَهَانَ الْمُحْتَقَرُ؛ فَأَيُّنَا خَيْرٌ؟! ﴿وَوُكِّلَ﴾ مَعَ هَذَا؛ فَلَا ﴿يَكَاذُ يُبِينُ﴾ عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ بِالْكَلَامِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِفَصِيحِ اللِّسَانِ، وَهَذَا لَيْسَ مِنَ الْعِيُوبِ فِي شَيْءٍ، إِذَا كَانَ يُبَيِّنُ مَا فِي قَلْبِهِ، وَلَوْ كَانَ ثَقِيلًا عَلَيْهِ الْكَلَامُ.

﴿٥٣﴾ ثُمَّ قَالَ فِرْعَوْنُ: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ﴾؛ أَي: فَهَلَّا كَانَ مُوسَى بِهَذِهِ الْحَالَةِ: أَنْ يَكُونَ مَزِينًا مُجَمَّلًا بِالْحُلِيِّ وَالْأَسَاوِرِ، ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّنِينَ﴾: يَعَاوَنُونَهُ عَلَى دَعْوَتِهِ وَيُؤَيِّدُونَهُ عَلَى قَوْلِهِ.

﴿٥٤﴾ ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾؛ أَي: اسْتَخَفَّ عَقُولَهُمْ بِمَا أَبْدَى لَهُمْ مِنْ هَذِهِ الشُّبْهِ، الَّتِي لَا تَسْمَنُ وَلَا تَغْنِي مِنْ جُوعٍ، وَلَا حَقِيقَةُ تَحْتَهَا، وَلَيْسَتْ دَلِيلًا عَلَى حَقٍّ وَلَا عَلَى بَاطِلٍ، وَلَا تَرُوجُ إِلَّا عَلَى ضَعْفَاءِ الْعُقُولِ؛ فَأَيُّ دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ فِرْعَوْنَ مُحَقٌّ لَكُونِ مَلِكِ مِصْرَ لَهُ وَأَنْهَارُهُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِ؟! وَأَيُّ دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَى بَطْلَانِ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى لِقَلَّةِ أَتْبَاعِهِ وَثِقَلِ لِسَانِهِ وَعَدَمِ تَحْلِيَةِ اللَّهِ لَهُ؟! وَلَكِنَّهُ لَقِيَ مَلَأَ لَا مَعْقُولَ عِنْدَهُمْ؛ فَمَهْمَا قَالَ؛ أَتَّبَعُوهُ؛ مِنْ حَقٍّ وَبَاطِلٍ. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا

فاسقين: فبسبب فسقهم قيض لهم فرعون، يزين لهم الشرك والشر.

﴿٥٥ - ٥٦﴾ ﴿فَلَمَّا أَسْفُونَا﴾؛ أي: أغضبونا بأفعالهم، ﴿انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ. فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخَرِينَ﴾: ليعتبر بهم المعتبرون، ويتعظ بأحوالهم المتعظون.

﴿وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْآرِضِ يَخْلِفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّمَا لَعَلَّمُ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمُوتُ بِهَا وَأَتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّكُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ إِلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿٥٧﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾؛ أي: نهي عن عبادته وجعلت عبادته بمنزلة عبادة الأصنام والأنداد، ﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾: المكذبون لك ﴿منه﴾؛ أي: من أجل هذا المثل المضروب، ﴿يَصُدُّونَ﴾؛ أي: يستلجئون في خصومتهم لك ويصيحون ويزعمون أنهم قد غلبوا في حجَّتهم وأفلجوا.

﴿٥٨﴾ ﴿وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾؛ يعني: عيسى؛ حيث نهي عن عبادة الجميع، وشورك بينهم بالوعيد على من عبدهم، ونزل أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾. ووجه حجَّتهم الظالمة أنهم قالوا: قد تقرر عندنا وعندك يا محمد أن عيسى من عباد الله المقربين الذين لهم العاقبة الحسنة؛ فلم سويت بينه وبينها في النهي عن عبادة الجميع؟! فلولا أن حجَّتك باطلة؛ لم تتناقض؟! ولم قلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾؟! وهذا اللفظ بزعمهم يعم الأصنام وعيسى؛ فهل هذا إلا تناقض؟ وتناقض الحجة دليل على بطلانها! هذا أنهى ما يقررون به هذه الشبهة الذين^(١) فرحوا بها واستبشروا وجعلوا يصدون ويتباشرون. وهي - والله الحمد - من

(١) كذا في (أ) و(ب): «الذي».

أضعف الشبه وأبطلها؛ فَإِنَّ تسوية الله بين النهي عن عبادة المسيح وبين النهي عن عبادة الأصنام؛ لأنَّ العبادة حقٌّ لله تعالى، لا يستحقُّها أحدٌ من الخلق لا الملائكة المقرَّبون ولا الأنبياء المرسلون ولا من سواهم من الخلق؛ فأَيُّ شبهةٍ في تسوية النهي عن عبادة عيسى وغيره؟!

﴿٥٩﴾ وليس تفضيل عيسى [عليه] السلام وكونه مقرَّباً عند ربِّه ما يدلُّ على الفرق بينه وبينها في هذا الموضع، وإِنَّمَا هو كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾: بالنبوة والحكمة والعلم والعمل، ﴿وَجَعَلْنَاهُ مِثْلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: يعرفون به قدرة الله تعالى على إيجاده من دون أب. وَأَمَّا قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾؛ فالجواب عنها من ثلاثة أوجه: أحدها: أَنَّ قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَنَّ ﴿مَا﴾ اسمٌ لما لا يعقل لا يدخل فيه المسيح ونحوه. الثاني: أَنَّ الخطاب للمشرِّكين الذين بمكة وما حولها، وهم إِنَّمَا يعبدون أصناماً وأوثاناً ولا يعبدون المسيح. الثالث: أَنَّ الله قال بعد هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾؛ فلا شكَّ أَنَّ عيسى وغيره من الأنبياء والأولياء داخلون في هذه الآية.

﴿٦٠﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾؛ أي: لجعلنا بَدَلَكُمْ ملائكةً يَخْلُقونكم في الأرض، ويكونون في الأرض حتى ترسل إليهم ملائكةً من جنسهم، وأما أنتم يا معشر البشر؛ فلا تطيقون أن ترسل إليكم الملائكة؛ فمن رحمة الله بكم أن أرسل إليكم رُسُلًا من جنسكم تتمكنون من الأخذ عنهم.

﴿٦١﴾ ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ﴾؛ أي: وإنَّ عيسى عليه السلام للدليل على الساعة، وأنَّ القادر على إيجاده من أمِّ بلا أب قادرٌ على بعثِ الموتى من قبورهم، أو: وإنَّ عيسى عليه السلام سينزل في آخر الزمان ويكونُ نزوله علامةً من علامات الساعة، ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾؛ أي: لا تشكَّنَّ في قيام الساعة؛ فَإِنَّ الشكَّ فيها كفر، ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾: بامتنال ما أمرتكم واجتناب ما نهيتكم، ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾: موصلٌ إلى الله عزَّ وجلَّ.

﴿٦٢﴾ ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾: عما أمركم الله به؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾: حريصٌ على إغوائكم، باذِلٌ جهده في ذلك.

﴿٦٣﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾: الدالة على صدق نبوته وصحة ما جاءهم

به من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ونحو ذلك من الآيات، ﴿قال﴾: لبي إسرائيل: ﴿قد جئتكم بالحكمة﴾: النبوة والعلم بما ينبغي على الوجه الذي ينبغي، ﴿ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه﴾؛ أي: أبين لكم صوابه وجوابه، فيزول عنكم بذلك اللبس، فجاء عليه السلام مكملًا ومتممًا لشريعة موسى عليه السلام ولأحكام التوراة، وأتى ببعض التسهيلات الموجبة للانقياد له وقبول ما جاءهم به. ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾؛ أي: اعبدوا الله وحده لا شريك له، وامثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، وآمنوا بي، وصدقوني، وأطيعون.

﴿٦٤﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾: ففيه الإقرار بتوحيد الربوبية بأن الله هو المربي لجميع خلقه بأنواع النعم الظاهرة والباطنة، والإقرار بتوحيد العبودية بالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وإخبار عيسى عليه السلام أنه عبد من عباد الله، ليس كما قال النصارى فيه^(١): إنه ابن الله أو ثالث ثلاثة، والإخبار بأن هذا المذكور صراط مستقيم موصل إلى الله وإلى جنته.

﴿٦٥﴾ فلما جاءهم عيسى عليه السلام بهذا، ﴿اختلف الأحزاب﴾: المتحزبون على التكذيب، ﴿من بينهم﴾: كل قال بعيسى عليه السلام مقالة باطلة ورد ما جاء به؛ إلا من هدى الله من المؤمنين، الذين شهدوا له بالرسالة، وصدقوا بكل ما جاء به، وقالوا: إنه عبد الله ورسوله. ﴿فويل للذين ظلموا [من عذاب يوم أليم]﴾؛ أي: ما أشد حزن الظالمين! وما أعظم خسارهم في ذلك اليوم!

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿يَعْبَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا شَتَّهِبَ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٧١﴾ ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿٧٣﴾.

﴿٦٦﴾ يقول تعالى: ما ينتظر المكذبون؟! وما يتوقعون ﴿إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون﴾؛ أي: فإذا جاءت؛ فلا تسألوا عن أحوال من كذب بها واستهزأ بمن جاء بها.

(١) في (ب): «كما قال فيه النصارى».

﴿٦٧﴾ وَإِنِ الْآخِلَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمُتَخَالِفِينَ عَلَى الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ وَمَعْصِيَةِ اللَّهِ، **﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾** : لِأَنَّ خُلَّتْهُمْ وَمَحَبَّتُهُمْ فِي الدُّنْيَا لَغَيْرِ اللَّهِ، فَانْقَلَبَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَدَاوَةً **﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾** : لِلشُّرْكِ وَالْمَعَاصِي؛ فَإِنَّ مَحَبَّتَهُمْ تَدُومُ وَتَتَّصِلُ بِدَوَامِ مَنْ كَانَتْ الْمَحَبَّةُ لِأَجْلِهِ.

﴿٦٨﴾ ثُمَّ ذَكَرَ ثَوَابَ الْمُتَّقِينَ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَنَادِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا يَسُرُّ قُلُوبَهُمْ وَيُذْهِبُ عَنْهُمْ كُلَّ آفَةٍ وَشَرٍّ، فيقول: **﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾**؛ أَي: لَا خَوْفٌ يَلْحَقُكُمْ فِيمَا تَسْتَقْبِلُونَهُ مِنَ الْأُمُورِ، وَلَا حُزْنٌ يُصِيبُكُمْ فِيمَا مَضَى مِنْهَا، وَإِذَا انْتَفَى الْمَكْرُوهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ؛ ثَبَتَ الْمَحْبُوبُ الْمَطْلُوبُ.

﴿٦٩﴾ **﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾**؛ أَي: وَصَفَهُمُ الْإِيمَانُ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَذَلِكَ يَشْمَلُ لِلتَّصَدِيقِ بِهَا، وَمَا^(١) لَا يَتِمُّ التَّصَدِيقُ إِلَّا بِهِ مِنَ الْعِلْمِ بِمَعْنَاهَا وَالْعَمَلِ بِمَقْتَضَاهَا، وَكَانُوا مُسْلِمِينَ لِلَّهِ مُنْقَادِينَ لَهُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ، فَجَمَعُوا بَيْنَ الْإِتِّصَافِ بِعَمَلِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ.

﴿٧٠﴾ **﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾** : الَّتِي هِيَ دَارُ الْقَرَارِ **﴿أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾**؛ أَي: مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ عَمَلِكُمْ مِنْ كُلِّ مُقَارَنٍ لَكُمْ مِنْ زَوْجَةٍ وَوَلَدٍ وَصَاحِبٍ وَغَيْرِهِمْ، **﴿تُخْبَرُونَ﴾**؛ أَي: تَنْعَمُونَ وَتُكْرَمُونَ، وَيَأْتِيكُمْ مِنْ فَضْلِ رَبِّكُمْ مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالسُّرُورِ وَالْأَفْرَاحِ وَاللَّذَاتِ مَا لَا تُعْبِرُ الْأَلْسُنُ عَنْ وَصْفِهِ.

﴿٧١﴾ **﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصَحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾**؛ أَي: تَدُورُ عَلَيْهِمْ خِدَامُهُمْ مِنَ الْوِلْدَانِ الْمُخْلَدِينَ بِطَعَامِهِمْ بِأَحْسَنِ الْأَوَانِي وَأَفْخَرِهَا، وَهِيَ صَحَافُ الذَّهَبِ، وَبِشْرَابِهِمْ بِالطُّفِ الْأَوَانِي، وَهِيَ الْأَكْوَابُ الَّتِي لَا عَرَى لَهَا، وَهِيَ مِنْ أَصْفَى الْأَوَانِي، مِنْ فَضْةٍ أَعْظَمَ مِنْ صَفَاءِ الْقَوَارِيرِ، **﴿وَفِيهَا﴾**؛ أَي: الْجَنَّةُ **﴿مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾** : وَهَذَا اللَّفْظُ جَامِعٌ، يَأْتِي عَلَى كُلِّ نَعِيمٍ وَفَرَحٍ وَقَرَّةٍ عَيْنٍ وَسُرُورٍ قَلْبٍ؛ فَكُلُّ مَا تَشْتَهِيهِ النَّفُوسُ مِنْ مَطَاعِمٍ وَمَشَارِبٍ وَمَلَابِسٍ وَمَنَاحِكٍ، وَلَذَّةِ الْعَيْونِ مِنْ مَنَاطِرٍ حَسَنَةٍ وَأَشْجَارٍ مُحَدَّقَةٍ وَنَعَمٍ مُوَنْقَةٍ وَمَبَانٍ مَزْخَرَفَةٍ؛ فَإِنَّهُ حَاصِلٌ فِيهَا مَعْدٌ لِأَهْلِهَا عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ وَأَفْضَلِهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: **﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾**. **﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾** : وَهَذَا هُوَ تَمَامُ نَعِيمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَهُوَ الْخُلْدُ الدَّائِمُ فِيهَا، الَّذِي يَتَضَمَّنُ دَوَامَ نَعِيمِهَا وَزِيَادَتَهُ وَعَدَمَ انْقِطَاعِهِ.

﴿٧٢﴾ ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ﴾: الموصوفة بأكمل الصفات هي ﴿التي أورثتموها بما كنتم تعملون﴾؛ أي: أورثكم الله إياها بأعمالكم، وجعلها من فضله جزاء لها، وأودع فيها من رحمته ما أودع.

﴿٧٣﴾^(١) ﴿لكم فيها فاكهة كثيرة﴾؛ كما في الآية الأخرى: ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾، ﴿منها تاكلون﴾؛ أي: مما تتخيرون من تلك الفواكه الشهية والثمار اللذيذة تاكلون.

ولما ذكر نعيم الجنة عقبه بذكر عذاب جهنم، فقال:

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (٧٤) لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ حَسَنَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لَاحِقٌ لِّكُذُوبِهِمْ ﴿٧٨﴾.

﴿٧٤﴾ ﴿إِنَّ المجرمين﴾: الذين أجرموا بكفرهم وتكذيبهم ﴿في عذاب جهنم﴾؛ أي: منغمرون فيه، محيط بهم العذاب من كل جانب، ﴿خالدون﴾: فيه لا يخرجون منه أبداً.

﴿٧٥﴾ و﴿لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ﴾: العذاب ساعة [لا بإزالته]^(٢) ولا بتحويل عذابه، ﴿وهم فيه مبلسون﴾؛ أي: آيسون من كل خير، غير راجين للفرج، وذلك أنهم ينادون ربهم، فيقولون: ﴿ربنا أخرجنا منها فإن عذابنا ظالمون. قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾.

﴿٧٦﴾ وهذا العذاب العظيم بما قدمت أيديهم وبما ظلموا به أنفسهم، والله لم يظلمهم ولم يعاقبهم بلا ذنب ولا جرم.

﴿٧٧﴾ ﴿ونادوا﴾: وهم في النار لعلهم يحصل لهم استراحة: ﴿يا مالِك ليَقْضِ علينا ربُّك﴾؛ أي: ليُمَتِّنا^(٣) فنستريح؛ فإننا في غم شديد وعذاب غليظ لا صبر لنا عليه ولا جلد، ف﴿قال﴾ لهم مالِك خازن النار حين طلبوا منه أن يَدْعُو الله لهم أن يقضي عليهم: ﴿إنكم ماكثون﴾؛ أي: مقيمون فيها لا تخرجون عنها أبداً، فلم

(١) في (ب): «قدم تفسير الآية (٧٣) على الآية (٧٢).

(٢) في (ب) بإزالته.

(٣) في (ب): «ليمتنا».

يَحْضُلْ لَهُمْ مَا قَصَدُوهُ، بَلْ أَجَابَهُمْ بِنَقِيضِ قَصْدِهِمْ، وَزَادَهُمْ غَمًّا إِلَى غَمِّهِمْ.
 ﴿٧٨﴾ ثُمَّ وَبَّخَهُمْ بِمَا فَعَلُوا، فَقَالَ: ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ﴾: الذي يوجب عليكم
 أَنْ تَتَّبِعُوهُ، فَلَوْ تَبِعْتُمُوهُ؛ لَفَزْتُمْ وَسَعَدْتُمْ، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾: فَلِذَلِكَ
 شَقِيقُكُمْ شَقَاوَةٌ لَا سَعَادَةَ بَعْدَهَا.

﴿أَمْ أَمْرًا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ (٧٩) أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلْ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ
 يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾.

﴿٧٩﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَمْ أَمْرًا أَمْرًا﴾؛ أَي: أَمْرَ الْمَكْذِبِينَ بِالْحَقِّ الْمَعَانِدُونَ لَهُ
 ﴿أَمْرًا﴾؛ أَي: كَادُوا كِيدًا وَمَكْرًا لِلْحَقِّ وَلَمَنْ جَاءَ بِالْحَقِّ لِيُدْحِضُوهُ بِمَا مَوْهُوا مِنْ
 الْبَاطِلِ الْمَزْخَرِ الْمَزْوُوقِ، ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾؛ أَي: مُحْكَمُونَ أَمْرًا وَمُدَبِّرُونَ تَدْبِيرًا
 يَعْلُو تَدْبِيرَهُمْ وَيَنْقُضُهُ وَيَبْطِلُهُ. وَهُوَ مَا قَيَّضَهُ اللَّهُ مِنَ الْأَسْبَابِ وَالْأَدَلَّةِ لِإِحْقَاقِ الْحَقِّ
 وَإِبْطَالِ الْبَاطِلِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾.

﴿٨٠﴾ ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ﴾: بِجَهْلِهِمْ وَظُلْمِهِمْ ﴿أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾: الَّذِي لَمْ
 يَتَكَلَّمُوا بِهِ، بَلْ هُوَ سِرٌّ فِي قُلُوبِهِمْ، ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾؛ أَي: كَلَامُهُمُ الْخَفِيِّ الَّذِي
 يَتَنَاجَوْنَ بِهِ؛ أَي: فَلِذَلِكَ أَقْدَمُوا عَلَى الْمَعَاصِي، وَظَنُّوا أَنَّهَا لَا تَبْعَةٌ لَهَا وَلَا مَجَازَاةٌ
 عَلَى مَا خَفِيَ مِنْهَا، فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿بَلَى﴾؛ أَي: إِنَّا نَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ،
 ﴿وَرُسُلُنَا﴾: الْمَلَائِكَةُ الْكَرَامُ ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾: كُلُّ مَا عَمِلُوهُ، وَسَيَحْفَظُ ذَلِكَ
 عَلَيْهِمْ حَتَّى يَرِدُوا الْقِيَامَةَ فَيَجْذُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا، وَلَا يَظْلَمُ رَبُّكَ أَحَدًا.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ﴾ (٨١) سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ
 عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَقًّا يُلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٨٣﴾.

﴿٨١﴾ أَي: قُلْ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ الْكَرِيمُ لِلَّذِينَ جَعَلُوا لِلَّهِ وَلَدًا، وَهُوَ الْوَاحِدُ
 الْأَحَدُ، الْفَرْدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كَفْوًا أَحَدٌ: ﴿قُلْ
 إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾: لِذَلِكَ الْوَلَدُ؛ لِأَنَّهُ جِزءٌ مِنَ وَالِدِهِ، وَأَنَا أَوَّلُ
 الْخَلْقِ انْقِيَادًا لِلْأَمْرِ الْمَحْبُوبَةِ لِلَّهِ، وَلَكِنِّي أَوَّلُ الْمُنْكَرِينَ لِذَلِكَ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ نَفِيًّا،
 فَعَلِمَ بِذَلِكَ بَطْلَانَهُ؛ فَهَذَا احْتِجَاجٌ عَظِيمٌ عِنْدَ مَنْ عَرَفَ أَحْوَالَ الرُّسُلِ، وَأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ
 أَنَّهُمْ أَكْمَلُ الْخَلْقِ، وَأَنَّ كُلَّ خَيْرٍ فَهَمُّ أَوَّلِ النَّاسِ سَبْقًا إِلَيْهِ وَتَكْمِيلًا لَهُ. وَكُلُّ شَرٍّ فَهَمُّ
 أَوَّلِ النَّاسِ تَرْكًا لَهُ وَإِنْكَارًا لَهُ وَبَعْدًا مِنْهُ؛ فَلَوْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ، وَهُوَ الْحَقُّ؛ لَكَانَ
 مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَفْضَلُ الرُّسُلِ أَوَّلَ مَنْ عَبَدَهُ، وَلَمْ يَسْبِقْهُ إِلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ.

وَيُحْتَمَلُ أَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ: لَوْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ؛ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ لِلَّهِ، وَمِنْ عِبَادَتِي لِلَّهِ إِثْبَاتٌ مَا أَثْبَتَهُ وَنَفْيٌ مَا نَفَاهُ؛ فَهَذَا مِنَ الْعِبَادَةِ الْقَوْلِيَّةِ الْإِعْتِقَادِيَّةِ، وَيُلْزَمُ مِنْ هَذَا لَوْ كَانَ حَقًّا؛ لَكُنْتُ أَوَّلُ مُثَبِّتٍ لَهُ، فَعَلِمَ بِذَلِكَ بِطَلَانٌ دَعَا الْمُشْرِكِينَ وَفْسَادَهَا عَقْلًا وَنَقْلًا.

﴿٨٢﴾ ﴿سَبِّحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾: مِنَ الشَّرِيكِ وَالظَّهْمِيرِ وَالْعَوِينِ وَالْوَلَدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا نَسَبَهُ إِلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ.

﴿٨٣﴾ ﴿فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾؛ أَي: يَخُوضُوا بِالْبَاطِلِ وَيَلْعَبُوا بِالْمَحَالِّ؛ فَعِلْمُهُمْ ضَارَةٌ غَيْرُ نَافِعَةٍ، وَهِيَ الْخَوْضُ وَالْبَحْثُ بِالْعُلُومِ الَّتِي يَعَارِضُونَ بِهَا الْحَقَّ وَمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَأَعْمَالُهُمْ لَعِبٌ وَسَفَاهَةٌ لَا تَرْكِي النُّفُوسَ وَلَا تَتِمُّزُ الْمَعَارِفُ، وَلِهَذَا تَوَعَّدَهُمْ بِمَا أَمَامَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَقَالَ: ﴿حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾: فَسَيَعْلَمُونَ فِيهِ مَاذَا حَصَلُوا، وَمَا حَصَلُوا عَلَيْهِ مِنَ الشَّقَاءِ الدَّائِمِ وَالْعَذَابِ الْمُسْتَمِرِّ.

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ مَلَكًا أَسْمَوَاتٍ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾.

﴿٨٤﴾ يَخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ وَحْدَهُ الْمَالُوهُ الْمَعْبُودُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَاهْلُ السَّمَاوَاتِ كُلُّهُمْ، وَالْمُؤْمِنُونَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ يَعْبُدُونَهُ وَيَعْظُمُونَهُ وَيَخْضَعُونَ لِجَلَالِهِ وَيَفْتَقِرُونَ لِكَمَالِهِ، ﴿تَسْبُحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾، ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ﴾، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾. فَهُوَ تَعَالَى الْمَالُوهُ الْمَعْبُودُ الَّذِي يَأْلَهُ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ طَائِعِينَ مَخْتَارِينَ وَكَارِهِينَ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾؛ أَي: أَلُوهُيَّتُهُ وَمَحَبَّتُهُ فِيهِمَا وَأَمَّا هُوَ فَإِنَّهُ فَوْقَ عَرْشِهِ بَاطِنٌ مِنْ خَلْقِهِ مُتَوَحِّدٌ بِجَلَالِهِ مُتَمَجِّدٌ بِكَمَالِهِ. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾: الَّذِي أَحْكَمَ مَا خَلَقَهُ، وَاتَّقَنَ مَا شَرَعَهُ؛ فَمَا خَلَقَ شَيْئًا إِلَّا لِحِكْمَةٍ، وَلَا شَرَعَ شَيْئًا إِلَّا لِحِكْمَةٍ، وَحِكْمَةُ الْقَدَرِيِّ وَالشَّرْعِيِّ وَالْجَزَائِيِّ مُشْتَمِلٌ عَلَى الْحِكْمَةِ، ﴿الْعَلِيمُ﴾: بِكُلِّ شَيْءٍ، يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ وَلَا أَصْغَرَ مِنْهَا وَلَا أَكْبَرَ.

﴿٨٥﴾ ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾: ﴿تَبَارَكَ﴾؛

بمعنى. تعالى وتعظيم وكثر خيرُه وأتسعت صفاته وعظم ملكه، ولهذا ذكر سعة ملكه للسموات والأرض وما بينهما، وسعة علمه، وأنه بكل شيء عليم، حتى إنه تعالى انفرد بعلم الغيوب^(١)، التي لم يطلع عليها أحد من الخلق؛ لا نبي مرسل ولا ملك مقرب، ولهذا قال: ﴿وعنده علم الساعة﴾: قدّم الظرف ليفيد الحصر؛ أي: لا يعلم متى تجيء الساعة إلا هو. ومن تمام ملكه وسعته أنه مالك الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿واليه ترجعون﴾؛ أي: في الآخرة فيحكم بينكم بحكمه العدل.

﴿٨٦﴾ ومن تمام ملكه أنه لا يملك أحد من خلقه من الأمر شيئاً، ولا يقدم على الشفاعة عنده أحد إلا بإذنه. ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة﴾؛ أي: كل من دعي من دون الله من الأنبياء والملائكة وغيرهم لا يملكون الشفاعة ولا يشفعون إلا بإذن الله ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، ولهذا قال: ﴿إلا من شهد بالحق﴾؛ أي: نطق بلسانه مقراً بقلبه عالماً بما شهد به، ويشترط أن تكون شهادته بالحق، وهو الشهادة لله تعالى بالوحدانية، ولرسله بالنبوة والرسالة، وصحة ما جاؤوا به من أصول الدين وفروعه وحقايقه وشرائعه؛ فهؤلاء الذين تنفع فيهم شفاعَةُ الشافعين، وهؤلاء الناجون من عقاب الله، الحائزون لثوابه.

﴿٨٧﴾ ثم قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾؛ أي: ولئن سألت المشركين عن توحيد الربوبية ومن هو الخالق؛ لأقروا أنه الله وحده لا شريك له، ﴿فأنى يؤفكون﴾؛ أي: فكيف يضرفون عن عبادة الله والإخلاص له وحده؟! فإقرارهم بتوحيد الربوبية يلزمهم به الإقرار بتوحيد الألوهية، وهو من أكبر الأدلة على بطلان الشرك.

﴿٨٨﴾ ﴿وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾: هذا معطوف على قوله: ﴿وعنده علم الساعة﴾؛ أي: وعنده علم قبيله؛ أي: الرسول ﷺ شاكياً لربه تكذيب قومه، متحزناً على ذلك، متحسراً على عدم إيمانهم؛ فالله تعالى عالم بهذه الحال، قادر على معاجلتهم بالعقوبة، ولكنه تعالى حلیم، يمهّل العباد، ويستأني بهم لعلمهم يتوبون ويرجعون.

﴿٨٩﴾ ولهذا قال: ﴿فاصفح عنهم وقل سلام﴾؛ أي: اصفح عنهم ما يأتيك من

(١) في (ب): «انفرد بعلم كثير من الغيوب». ثم ضرب الشيخ على «كثير من» في (أ).

أَذْيَبْتَهُمُ الْقَوْلِيَّةَ وَالْفِعْلِيَّةَ، وَاغْفُ عَنْهُمْ، وَلَا يَذُرْ مِنْكَ لَهُمْ إِلَّا السَّلَامُ الَّذِي يَقَابِلُ بِهِ أُولُو الْأَلْبَابِ وَالْبَصَائِرُ لِلْجَاهِلِينَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾؛ أَي: خُطَاباً بِمَقْتَضَى جَهْلِهِمْ، ﴿قَالُوا سَلَاماً﴾. فَامْتَثِلَ ﷺ لِأَمْرِ رَبِّهِ، وَتَلَقَّى مَا يَصْدُرُ إِلَيْهِ مِنْ قَوْمِهِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأَذَى بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ، وَلَمْ يَقَابِلْهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ وَالْخُطَابِ الْجَمِيلِ؛ فَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَى مَنْ خَصَّهُ اللَّهُ بِالْخُلُقِ الْعَظِيمِ الَّذِي فَضَّلَ بِهِ أَهْلَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَارْتَفَعَ بِهِ أَعْلَى مِنْ كَوَاكِبِ الْجُوزَاءِ، وَقَوْلِهِ: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾؛ أَي: غِبْ ذُنُوبَهُمْ وَعَاقِبَةُ جُرْمِهِمْ.

تم تفسير سورة الزخرف. ولله الحمد والمنة.



تفسير سورة الدخان

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ٤﴾ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ٥﴾ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ٧﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ٨﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ٩﴾ فَأَرْقَبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُبِينٍ ١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ١١﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ١٢﴾ أَتَى لَهُمُ الْدُكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّجُ الْبَحْثِ ١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ ١٦﴾.

﴿١ - ٣﴾ هَذَا قِسْمٌ بِالْقُرْآنِ عَلَى الْقُرْآنِ، فَاقْسَمَ بِالْكِتَابِ الْمُبِينِ لِكُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَى بَيَانِهِ أَنَّهُ أَنْزَلَهُ ﴿فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾؛ أَي: كَثِيرَةِ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ، وَهِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ، الَّتِي هِيَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، فَأَنْزَلَ أَفْضَلَ الْكَلَامِ بِأَفْضَلِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ عَلَى أَفْضَلِ الْأَنَامِ بِلُغَةِ الْعَرَبِ الْكَرَامِ؛ لِيُنذِرَ بِهِ قَوْمًا عَمَّتْهُمْ الْجَهَالَةُ وَغَلَبَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَاوَةُ، فَيَسْتَضِيئُوا بِنُورِهِ، وَيَقْتَسِبُوا مِنْ هُدَاهُ، وَيَسِيرُوا وَرَاءَهُ، فَيَحْصُلَ لَهُمُ الْخَيْرُ الدُّنْيَوِيُّ وَالْخَيْرُ الْآخِرِيُّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾.

﴿٤﴾ ﴿فيها﴾؛ أي: في تلك الليلة الفاضلة التي نَزَلَ فيها القرآن، ﴿يُفَرِّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾؛ أي: يفصل ويميِّز ويكتب كلُّ أمرٍ قدرِيٍّ وشرعيٍّ حكم الله به. وهذه الكتابة والفرقان الذي يكون في ليلة القدر إحدى^(١) الكتابات التي تُكتب وتميِّز، فتطابق الكتاب الأول الذي كتب الله به مقادير الخلائق وآجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وأحوالهم. ثم إنَّ الله تعالى قد وَكَّلَ ملائكةً تكتب ما سيجري على العبد وهو في بطن أمه. ثم وَكَّلَهُمْ بعد خروجه^(٢) إلى الدنيا؛ وَكَّلَ به كراماً كاتبين يكتبون ويحفظون عليه أعماله. ثم إنَّه تعالى يقدِّرُ في ليلة القدر ما يكونُ في السنة، وكلُّ هذا من تمام علمه وكمال حكمته وإتقان حفظه واعتناؤه تعالى بخلقه.

﴿٥﴾ ﴿أمرأ من عندنا﴾؛ أي: هذا الأمر الحكيم أمرٌ صادرٌ من عندنا. ﴿إنا كنا مرسلين﴾: للرسل ومنزليين للكتب، والرسلُ تبلغُ أوامر المرسل وتخيِّرُ بأقداره.

﴿٦﴾ ﴿رحمة من ربك﴾؛ أي: إن إرسال الرسل وإنزال الكتب التي أفضلها القرآن رحمة من ربِّ العباد بالعباد؛ فما رحم الله عباده برحمة أجل من هدايتهم بالكتب والرسل، وكلُّ خير ينالونه في الدنيا والآخرة؛ فإنه من أجل ذلك وبسببه. ﴿إنه هو السميع العليم﴾؛ أي: يسمع جميع الأصوات، ويعلم جميع الأمور الظاهرة والباطنة، وقد علم تعالى ضرورة العباد إلى رسله وكتبه، فرحمهم بذلك ومنَّ عليهم؛ فله^(٣) تعالى الحمد والمنَّة والإحسان.

﴿٧ - ٨﴾ ﴿ربَّ السموات والأرض وما بينهما﴾؛ أي: خالق ذلك ومدبِّره والمتصرِّف فيه بما يشاء، ﴿إن كنتم موقنين﴾؛ أي: عالمين بذلك علماً مفيداً لليقين؛ فاعلموا أنَّ الربَّ للمخلوقات هو إلهها الحق، ولهذا قال: ﴿لا إله إلا هو﴾؛ أي: لا معبود إلا وجهه، ﴿يحيي ويميت﴾؛ أي: هو المتصرِّف وحده بالإحياء والإماتة، وسيجمعكم بعد موتكم فيجزيكُم بعمَلِكُم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. ﴿ربكم وربُّ آبائكم الأولين﴾؛ أي: ربُّ الأولين والآخرين؛ مربِّيهم بالنعم، والدافع عنهم بالنقم.

﴿٩﴾ فلما قرَّر تعالى ربوبيَّته وألوهيَّته بما يوجب العلم التام ويدفع الشك؛ أخبر أنَّ الكافرين مع هذا البيان: ﴿في شك يلعبون﴾؛ أي: منغمرون في الشكوك

(١) في النسختين: «أحد». وأضيفت الألف المقصورة في (أ) بخط مغاير.

(٢) في (ب): «فله».

(٣) في (ب): «وجوده».

والشُّبُهَات، غافلون عَمَّا خُلِقُوا لَهُ، قد اشتغلوا باللعب الباطل الذي لا يُجدي عليهم إِلَّا الضَّرر.

﴿١٠ - ١٦﴾ ﴿فَارْتَقِبْ﴾؛ أي: انتظر فيهم العذاب؛ فَإِنَّهُ قد قَرَّبَ وَأَنَّ أَوَانَهُ، ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾. يَغْشَى النَّاسَ؛ أي: يعمُّهم ذَلِكَ الدخان، ويقال لهم: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. واختلف المفسرون في المراد بهذا الدخان:

فَقِيلَ: إِنَّهُ الدخان الذي يَغْشَى النَّاسَ وَيَعْمُهُمْ حينَ تَقَرَّبَ النَّارُ مِنَ الْمُجْرِمِينَ في يوم القيامة، وَأَنَّ اللَّهَ تَوَعَّدَهُمْ بِعَذَابٍ يومَ الْقِيَامَةِ، وَأَمَرَ نَبِيَّهٖ أَنْ يَنْتَظِرَ بِهِمْ ذَلِكَ اليومَ. وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْمَعْنَى أَنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ هِيَ طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ فِي تَوَعُّدِ الْكَفَّارِ وَالتَّائِبِ بِهِمْ وَتَرْهِيْبِهِمْ بِذَلِكَ اليومِ وَعَذَابِهِ وَتَسْلِيَةِ الرُّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِالِانْتِظَارِ بِمَنْ آذَاهُمْ. وَيُؤَيِّدُهُ أَيْضاً أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿أَتَى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾، وَهَذَا يُقَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْكَفَّارِ حينَ يَطْلُبُونَ الرَّجُوعَ إِلَى الدُّنْيَا، فيقال: قد ذهبَ وَقْتُ الرَّجُوعِ.

وقيل: إِنَّ المراد بذلك ما أَصَابَ كَفَّارَ قُرَيْشٍ حينَ امْتَنَعُوا مِنَ الْإِيمَانِ وَاسْتَكْبَرُوا عَلَى الْحَقِّ، فدعا عليهم النَّبِيُّ ﷺ، فقال: «اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَيْهِمْ بِسَنِينَ كَسَنِي يوسُفَ»^(١). فأرسل الله عليهم الجوعَ العَظِيمَ، حَتَّى أَكَلُوا الْمِيتَاتِ وَالْعِظَامَ، وَصَارُوا يَرَوْنَ الَّذِي بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ كَهَيْئَةِ الدَّخَانِ، وَلَيْسَ بِهِ، وَذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ، فيكون على هَذَا قَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ﴾: أَنَّ ذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَبْصَارِهِمْ وَمَا يَشَاهِدُونَ، وَلَيْسَ بِدُخَانٍ حَقِيقَةً، وَلَمْ يَزَالُوا بِهِذِهِ الْحَالَةِ حَتَّى اسْتَرْحَمُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَسَلَّوْهُ أَنْ يَدْعُوَ اللَّهَ لَهُمْ أَنْ يَكْشِفَهُ اللَّهُ عَنْهُمْ، [فَدَعَا رَبَّهُ]؛ فَكَشَفَهُ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَعَلَى هَذَا فيكون قَوْلُهُ: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾: إِخْبَارٌ بِأَنَّ اللَّهَ سَيَصْرِفُهُ عَنْهُمْ^(٢)، وَتَوَعُّدٌ لَهُمْ أَنْ يَعُودُوا إِلَى الْاِسْتِكْبَارِ وَالتَّكْذِيبِ، وَإِخْبَارٌ بِوُقُوعِهِ، فَوَقَعَ، وَأَنَّ اللَّهَ سَيَعَاقِبُهُمْ بِالْبَطْشَةِ الْكَبْرَى، قَالُوا: وَهِيَ وَقْعَةٌ بِدِرٍّ. وَفِي هَذَا الْقَوْلِ نَظَرٌ ظَاهِرٌ.

وقيل: إِنَّ المراد بذلك أَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، وَأَنَّهُ يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ دُخَانٌ يَأْخُذُ بِأَنْفَاسِ النَّاسِ وَيَصِيبُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ كَهَيْئَةِ الدَّخَانِ.

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٤ و ٤٨٢١)، ومسلم (٢٧٩٧) من حديث ابن مسعود.

(٢) في (ب): «عنكم». وقد صَوَّبَهَا الشَّيْخُ فِي (أ): «عنهم».

والقول هو الأول^(١). وفي الآية احتمال أن المراد بقوله: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ. يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ. رَبَّنَا اكشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ. أَتَى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ. ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِثْلُنَا مَجْنُونٌ﴾: أن هذا كله [يكون] يوم القيامة، وأن قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ. يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾: أن هذا ما وقع لقريش كما تقدم.

وإذا أنزلت^(٢) هذه الآيات على هذين المعنيين؛ لم تجد في اللفظ ما يمنع من ذلك، بل تجدُها مطابقةً لهما أتم المطابقة، وهذا الذي يظهر عندي ويترجَّح. والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ^(٣) وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿٧﴾ أَنْ أَذُوا إِلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ إِيَّايَ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٨﴾ وَأَنْ لَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِيَّايَ مَا يَكْفُرُ بِسُلْطَانِ مُبِينٍ ﴿٩﴾ وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَيْكَ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿١٠﴾ وَإِنْ لَرَأَوْنَا لِي فَاغْتَبِلُونِ ﴿١١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَؤُلَاءَ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ فَأَنزِلْ بِعَذَابِي قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿١٣﴾ وَأَتْرِكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴿١٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿١٦﴾ وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَتَكِيهِنَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ بَجَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ أَلَمِينَ ﴿٢٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُمْ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُفْسِرِينَ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ أَخَّرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمَا لَيْتَنَاهُمْ مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَكُوا مُبِينٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿١٧﴾ لما ذكر تعالى تكذيب من كذب الرسول محمداً ﷺ؛ ذكر أن لهم سلفاً من المكذبين، فذكر قصتهم مع موسى، وما أحلَّ الله بهم؛ ليرتدع هؤلاء المكذبون عن ما هم عليه، فقال: ﴿ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون﴾؛ أي: ابتليناهم واختبرناهم بإرسال رسولنا موسى بن عمران إليهم، الرسول الكريم الذي فيه من الكرم ومكارم الأخلاق ما ليس في غيره.

(١) قال ابن كثير: «وقد وافق ابن مسعود على تفسير الآية بهذا - وأن الدخان مضى - جماعة من السلف كمجاهد وأبي العالية وإبراهيم النخعي والضحاك وعطية العوفي وهو اختيار ابن جرير» «تفسير ابن كثير» ط الشعب (٧/٢٣٣).

(٢) في (ب): «نزلت». (٣) في (ب): «إلى آخر القصة».

﴿١٨﴾ ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾؛ أي: قال لفرعون وملئه: أدُّوا إليَّ عباد الله؛ يعني بهم: بني إسرائيل؛ أي: أرسلوهم وأطلقوهم من عذابكم وسومكم إيَّاهم سوء العذاب؛ فإنَّهم عشيرتي وأفضل العالمين في زمانهم، وأنتم قد ظلمتموهم واستعبدتموهم بغير حقٍّ، فأرسلوهم ليعبدوا ربَّهم. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾؛ أي: رسول من ربِّ العالمين، أمينٌ على ما أرسلني به، لا أكتمكم منه شيئاً، ولا أزيد فيه ولا أنقص، وهذا يوجب تمام الانقياد له.

﴿١٩﴾ ﴿وَأَنْ لَا تَغْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾: بالاستكبار عن عبادته والعلوُّ على عباد الله. ﴿إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: بحجَّة بينة ظاهرة، وهو ما أتى به من المعجزات الباهرات والأدلة القاهرة.

﴿٢٠﴾ فكذبوه وهُمُّوا بقتله، فلجأ إلى الله^(١) من شرِّهم، فقال: ﴿وَإِنِّي عَذْتُ رَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾؛ أي: تقتلونني أشدَّ القتل بالرجم بالحجارة.

﴿٢١﴾ ﴿وَإِنْ لَمْ تَوْفَّنَا لِي فَأَعْتَزِلُونِ﴾؛ أي: لكم ثلاث مراتب: الإيمان بي، وهو مقصودي منكم. فإنَّ لم تحصل منكم هذه المرتبة؛ فاعتزلون لا علي ولا لي؛ فاكفوني شرِّكم. فلم تحصل منهم المرتبة الأولى ولا الثانية، بل لم يزالوا متمردين عاتين على الله محاربين لنبيه موسى عليه السلام غير ممكنين له من قومه بني إسرائيل.

﴿٢٢﴾ ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هُوَ لَا قُوَّةَ لِمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: قد أجرموا جرماً يوجب تعجيل العقوبة، فأخبر عليه السلام بحالهم، وهذا دعاء بالحال التي هي أبلغ من المقال؛ كما قال عن نفسه عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

﴿٢٣﴾ فأمره الله أن يسري بعباده ليلاً، وأخبره أنَّ فرعون وقومه سيبيعونه.

﴿٢٤﴾ ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهَوًا﴾؛ [أي: بحاله]، وذلك أنَّه لما سرى موسى ببني إسرائيل كما أمره الله، ثم تبعهم فرعون، فأمر الله موسى أن يضرب البحر، فضربه، فصار اثني عشر طريقاً، وصار الماء من بين تلك الطرق كالجبال العظيمة، فسلكه موسى وقومه، فلما خرجوا منه؛ أمره الله أن يتركه ﴿رَهَوًا﴾؛ أي: بحاله؛ ليسلكه فرعون وجنوده. ﴿إِنَّهُمْ جَنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾: فلما تكامل قوم موسى خارجين منه وقوم فرعون داخلين فيه؛ أمره الله تعالى أن يلتطم عليهم، فغرقوا عن آخرهم، وتركوا ما

(١) في (ب): «فلجأ بالله».

مُتَّعُوا بِهِ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَأَوْرَثَهُ اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ كَانُوا مُسْتَعْبِدِينَ لَهُمْ.

﴿٢٥ - ٢٨﴾ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْونَ. وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. وَنِعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ. كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا﴾؛ أَي: هَذِهِ النِّعْمَةُ^(١) الْمَذْكُورَةُ ﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾. وَفِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

﴿٢٩﴾ ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾؛ أَي: لَمَّا أَتَلَفَهُمُ اللَّهُ وَأَهْلَكَهُمْ لَمْ تَبْكْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ؛ أَي: لَمْ يُحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُؤْسَ عَلَى فِرَاقِهِمْ، بَلْ كُلُّ اسْتَبْشَرَ بِهَلَاكِهِمْ وَتَلَفِهِمْ، حَتَّى السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ؛ لِأَنَّهُمْ مَا خَلَفُوا مِنْ آثَارِهِمْ إِلَّا مَا يَسُودُ وَجُوهَهُمْ وَيُوجِبُ عَلَيْهِمُ اللَّعْنَةَ وَالْمَقَتَّ مِنَ الْعَالَمِينَ. ﴿وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾؛ أَي: مَمْهَلِينَ عَنِ الْعُقُوبَةِ، بَلْ اصْطَلَمَتْهُمْ فِي الْحَالِ.

﴿٣٠ - ٣١﴾ ثُمَّ امْتَنَّ تَعَالَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾: الَّذِي كَانُوا فِيهِ ﴿مَنْ فِرْعَوْنُ﴾: إِذْ يَذْبُحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ، ﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا﴾؛ أَي: مُسْتَكْبِرًا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، ﴿مَنْ الْمُسْرِفِينَ﴾: الْمُتَجَاوِزِينَ لِحُدُودِ اللَّهِ الْمُتَجَرِّئِينَ عَلَى مُحَارَمِهِ.

﴿٣٢﴾ ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَا لَهُمْ﴾؛ أَي: اصْطَفَيْنَاهُمْ وَانْتَقَيْنَاهُمْ ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾: مَنَّا بِهِمْ وَبِاسْتِحْقَاقِهِمْ لَذَلِكَ الْفَضْلَ ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾؛ أَي: عَالَمِي زَمَانِهِمْ وَمَنْ قَبْلَهُمْ وَبَعْدَهُمْ، حَتَّى أَتَى اللَّهُ بِأَمَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَفَضَّلُوا الْعَالَمِينَ كُلَّهُمْ، وَجَعَلَهُمُ اللَّهُ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، وَامْتَنَّ عَلَيْهِمْ بِمَا لَمْ يَمْتَنِّ بِهِ عَلَى غَيْرِهِمْ.

﴿٣٣﴾ ﴿وَأَتَيْنَاهُمْ﴾؛ أَي: بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾: الْبَاهِرَةِ وَالْمُعْجَزَاتِ الظَّاهِرَةِ ﴿مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ﴾؛ أَي: إِحْسَانٌ كَثِيرٌ ظَاهِرٌ مَنَّا عَلَيْهِمْ وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ عَلَى صَحَّةِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴿٢٦﴾ فَأَنُؤَاتُوا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٧﴾ أَهَمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْغِ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٢٨﴾.

﴿٣٤ - ٣٥﴾ يخبر تعالى ﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ﴾: الْمَكْذِبِينَ، يَقُولُونَ: مُسْتَعْبِدِينَ لِلْبَعْثِ وَالنُّشُورِ: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾؛ أَي: مَا هِيَ إِلَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا؛ فَلَا بَعْثَ وَلَا نُشُورَ، وَلَا جَنَّةَ وَلَا نَارَ.

(١) فِي (ب): «النعم».

﴿٣٦﴾ ثم قالوا متجربئين على ربهم معجزين له: ﴿فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾: وهذا من اقتراح الجَهْلَةِ المعاندِين في مكان سحيق؛ فأَيُّ ملازمة بين صدق الرسول ﷺ وأنه متوقف على الإتيان بآبائهم؛ فإن الآيات قد قامت على صدق ما جاءهم به وتواترت تواتراً عظيماً من كل وجه؟!

﴿٣٧﴾ قال تعالى: ﴿أهم خير﴾؛ أي: هؤلاء المخاطبون، ﴿أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين﴾؟ فإنهم ليسوا خيراً منهم، وقد اشتركوا في الإجرام؛ فليتوقعوا من الهلاك ما أصاب إخوانهم المجرمين.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنِ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ يَبِقْتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿٣٨ - ٣٩﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته وتمام حكمته، وأنه ما خلق السماوات والأرض لآعباً، ولا لهواً، وسدى من غير فائدة، وأنه ما خلقهما ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾؛ أي: نفس خلقهما بالحق، وخلقهما مشتمل على الحق، وأنه أوجدهما ليعبدوه وحده لا شريك له، وليأمر العباد وينهاهم ويشيهم ويعاقبهم. ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾؛ فلذلك لم يتفكروا في خلق السماوات والأرض.

﴿٤٠﴾ ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾: وهو يوم القيامة، الذي يفصل الله به بين الأولين والآخرين وبين كل مختلفين، ﴿مبقأتهم﴾؛ أي: الخلائق ﴿أجمعين﴾: كلهم سيجمعهم الله فيه، ويحضرهم ويحضر أعمالهم، ويكون الجزاء عليها.

﴿٤١﴾ لا ينفع ﴿مولى عن مولى شيئاً﴾: لا قريب عن قريبه، ولا صديق عن صديقه، ﴿ولا هم ينصرون﴾؛ أي: يمنعون من عذاب الله عز وجل؛ لأنَّ أحداً من الخلق لا يملك من الأمر شيئاً.

﴿٤٢﴾ ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾: فإنه هو الذي ينتفع ويرتفع برحمة الله تعالى التي تسبب إليها، وسعى لها سعيها في الدنيا. ثم قال تعالى:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيرِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلِي الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خَذَرُهُ فَأَعْيَوُهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٤٣ - ٥٠﴾ لما ذَكَرَ يوم القيامة، وأنه يفصل بين عباده فيه؛ ذَكَرَ افتراقهم إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير، وهم الآثمون بعمل الكفر والمعاصي، وأنَّ طعامهم ﴿شجرة الزقوم﴾: شرُّ الأشجار وأفظعُها، وأنَّ طعامها ﴿كالمهل﴾؛ أي: كالصديد المتن خبيث الريح والطعم شديد الحرارة، ﴿يَغلي في﴾ بطونهم ﴿كغلي الحميم﴾، ويقال للمعذب: ﴿دُقْ﴾: هذا العذاب الأليم والعقاب الوخيم، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ العزيزُ الكريمُ﴾؛ أي: بزعمك أنك عزيزٌ ستمتنع من عذاب الله، وأنتَ كريم على الله لا يصيبك بعذاب؛ فالיום تبين لك أنك أنت الذليل المهان الخسيس. ﴿إِنَّ هَذَا﴾ العذاب العظيم، ﴿ما كنتم به تمترون﴾؛ أي: تشكون؛ فالآن صار عندكم حقُّ اليقين.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَرَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعْنَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴿٥٦﴾ فَذَلِكُمْ أَجْرُهُمْ لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿٥١ - ٥٣﴾ هذا جزاء المتقين لله، الذي اتَّقوا سَخَطه وعذابه بتركهم المعاصي وفعلهم الطاعات، فلما انتفى السخط عنهم والعذاب؛ ثبت لهم الرضا من الله والثواب العظيم في ظلِّ ظليل من كثرة الأشجار والفواكه، وعيون سارحة تجري من تحتهم الأنهار يفجرونها تفجيراً، في جنات النعيم، فأضاف الجنات إلى النعيم؛ لأنَّ كُلَّ ما اشتملت عليه، كله نعيمٌ وسرورٌ كامل من كلِّ وجه، ما فيه منغصٌ ولا مكدرٌ بوجه من الوجوه، ولباسهم من الحرير الأخضر من السندس والإستبرق؛ أي: غليظ الحرير ورقيقه ممَّا تشتهيه أنفسهم، ﴿متقابلين﴾: في قلوبهم ووجوههم في كمال الراحة والطمأنينة والمحبة والعشرة الحسنة والآداب المستحسنة.

﴿٥٤﴾ ﴿كذلك﴾: النعيم التام والسرور الكامل، ﴿ورَوَّجْنَاهُمْ بحورٍ﴾^(١)؛ أي: نساء جميلات من جمالهنَّ وحسنهنَّ أنه يحارُّ الطرف في حسنهنَّ، وينبهر العقل بجمالهنَّ وينخلبُ اللبُّ لكمالهنَّ، ﴿عينٍ﴾؛ أي: ضخام الأعين حسانها.

﴿٥٥﴾ ﴿يدعون فيها﴾: أي: الجنة ﴿بكلِّ فاكهة﴾: مما له اسمٌ في الدنيا ومما

(١) في (ب): «بحور عين».

لا يوجد له اسمٌ ولا نظير في الدنيا؛ فمهما طلبوه من أنواع الفاكهة وأجناسها؛ أحضر لهم في الحال من غير تعبٍ ولا كلفةٍ، آمنين من انقطاع ذلك، وآمنين من مضرته، وآمنين من كلِّ مكدرٍ، وآمنين من الخروج منها والموت.

﴿٥٦﴾ ولهذا قال: ﴿لا يذوقون فيها الموتَ إِلَّا المَوتَةَ الْأُولَى﴾؛ أي: ليس فيها موتٌ بالكليّة، ولو كان فيها موتٌ يُستثنى؛ لم يستثنِ المَوتَةَ الْأُولَى التي هي المَوتَةُ في الدنيا، فتمَّ لهم كلُّ محبوبٍ مطلوبٍ، ﴿ووقاهم عذابَ الجحيمِ﴾.

﴿٥٧﴾ ﴿فضلاً من ربِّك﴾؛ أي: حصول النعيم واندفاع العذاب عنهم من فضل الله عليهم وكرمه؛ فإنه تعالى هو الذي وفّقهم للأعمال الصالحة، التي بها نالوا خير الآخرة وأعطاهم أيضاً ما لم تبلغه أعمالهم. ﴿ذلك هو الفوزُ العظيمُ﴾: وأيُّ فوزٍ أعظم من نيل رضوان الله وجنته والسلامة من عذابه وسخطه.

﴿٥٨﴾ ﴿فإنما يسرّناه﴾؛ أي: القرآن ﴿بلسانك﴾؛ أي: سهّلناه بلسانك الذي هو أفصح الألسنة على الإطلاق وأجلّها، فتيسر به لفظه، وتيسر به معناه، ﴿لعلّهم يتذكّرون﴾: ما فيه نفعهم فيفعلونه، وما فيه ضررهم فيتذكّرونه.

﴿٥٩﴾ ﴿فارتقب﴾؛ أي: انتظر ما وعدك ربُّك من الخير والنصر. ﴿إنّهم مرتقبون﴾: ما يحلُّ بهم من العذاب، وفرق بين الارتقابين: رسول الله وأتباعه يرتقبون الخير في الدنيا والآخرة، وضدّهم يرتقبون الشرّ في الدنيا والآخرة.

تم تفسير سورة الدخان. ولله الحمد والمنة.



تفسير سورة الجاثية

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ١﴾ تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ٢ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ٣ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٤ وَأَخْلَافَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٥ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ٦ وَلِلَّهِ أَفَّاكٌ أَتُوبُ ٧ يَسْمَعُ آيَاتُ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا

هَزُوا أُولَئِكَ لَمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩﴾ مَن رَّآيَهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا
مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَذَا هَدَى الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَّبِعُ رِيَّهُمْ لَمْ عَذَابٌ مِّن رَّحْمَةٍ
أَلِيمٌ ﴿١١﴾ .

﴿١ - ٢﴾ يخبرُ تعالى خبراً يتضمَّن الأمرَ بتعظيم القرآن والاعتناء به؛ أنه ﴿تنزيلُ
من الله﴾: المألوه المعبود؛ لما اتَّصف به من صفات الكمال، وانفرد به من النعم،
الذي له العزة الكاملة والحكمة الثَّامة.

﴿٣ - ٥﴾ ثم أُيد ذلك بما ذكره من الآيات الأفقيَّة والنفسية؛ من خلق السماوات
والأرض، وما بثَّ فيهما من الدواب، وما أودعَ فيهما من المنافع، وما أنزل الله
من الماء الذي يحيي به الله البلاد والعباد؛ فهذه كلها آيات بينات وأدلة واضحة
على صدق هذا القرآن العظيم وصحة ما اشتمل عليه من الحكم والأحكام، ودالات
أيضاً على ما لله تعالى من الكمال، وعلى البعث والنشور.

﴿٦ - ١٠﴾ ثم قَسَمَ تعالى الناس بالنسبة إلى الانتفاع بآياته وعدمه إلى قسمين:
قسمٌ يستدلُّون بها، ويتفكِّرون بها، وينتفعون فيرتفعون، وهم المؤمنون بالله
وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر إيماناً تاماً، وصل بهم إلى درجة اليقين، فزكى
منهم العقول، وازدادت به معارفهم وألبابهم وعلومهم.

وقسمٌ يسمعُ آيات الله سماعاً تقوم به الحجة عليه، ثم يعرض عنها ويستكبر،
كأنه ما سمعها؛ لأنها لم تزك قلبه ولا طهرته، بل بسبب استكباره عنها؛ ازداد
طغيانه، وأنه إذا علم من آيات الله شيئاً؛ اتَّخذها هزواً، فتوعده الله تعالى بالويل،
فقال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾؛ أي: كذاب في مقاله، أثيم في فعالة، وأخبر أن له
عذاباً أليماً، وأن ﴿من ورائهم جهنم﴾: تكفي في عقوبتهم البليغة، وأنه ﴿لا يُغْنِي
عنهم ما كَسَبُوا﴾: من الأموال ﴿شيئاً ولا ما اتَّخذوا من دون الله أولياء﴾^(١):
يستنصرون بهم، فخذلوهم أحوَج ما كانوا إليهم لو نفعوا.

﴿١١﴾ فلما بيَّن آياته القرآنية والعيانية، وأن الناس فيها على قسمين؛ أخبر أن
القرآن المشتمل على هذه المطالب العالية؛ أنه هدى، فقال: ﴿هذا هدى﴾: وهذا
وصف عام لجميع القرآن؛ فإنه يهدي إلى معرفة الله تعالى بصفاته المقدسة وأفعاله

(١) في (ب): «من أولياء».

الحميدة، ويهدي إلى معرفة رسله وأوليائهم وأعدائهم وأوصافهم، ويهدي إلى الأعمال الصالحة، ويدعو إليها، ويبين الأعمال السيئة وينهى عنها، ويهدي إلى بيان الجزاء على الأعمال، ويبين الجزاء الدنيوي والأخروي؛ فالمهتدون اهتدوا به فأفلحوا وسعدوا. ﴿والذين كفروا بآيات ربهم﴾: الواضحة القاطعة، التي لا يكفر بها إلا من اشتد ظلمه، وتضاعف طغيانه، ﴿لهم عذاب من رجز اليم﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيُنْزِلَ مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿١٢﴾ يخبر تعالى عن فضله على عباده وإحسانه إليهم بتسخير البحر لسير المراكب والسفن بأمره وتيسيره^(١)، ﴿لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾: بأنواع التجارات والمكاسب، ﴿ولعلكم تشكرون﴾: الله تعالى؛ فإنكم إذا شكرتموه؛ زادكم من نعمه وأثابكم على شكركم أجراً جزيلاً.

﴿١٣﴾ ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾؛ أي: من فضله وإحسانه، وهذا شامل لأجرام السماوات والأرض، ولما أودع الله فيهما من الشمس والقمر والكواكب الثوابت والسيارات وأنواع الحيوانات وأصناف الأشجار والثمار وأجناس المعادن وغير ذلك ممّا هو معدّ لمصالح بني آدم ومصالح ما هو من ضروراته؛ فهذا يوجب عليهم أن يبذلوا غاية جهدهم في شكر نعمته، وأن تغلغل أفكارهم في تدبر آياته وحكمه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. وجملة ذلك أنّ خلقها وتدبيرها وتسخيرها دالٌّ على نفوذ مشيئة الله وكمال قدرته.

وما فيها من الإحكام والإتقان وبديع الصنعة وحسن الخلق دالٌّ على كمال حكمته وعلمه.

وما فيها من السعة والعظمة والكثرة دالٌّ على سعة ملكه وسلطانه.

وما فيها من التخصيصات والأشياء المتضادات دليلٌ على أنه الفعال لما يريد.

وما فيها من المنافع والمصالح الدنيئة والدنيوية دليلٌ على سعة رحمته وشمول فضله وإحسانه وبديع لطفه وبرّه، وكلُّ ذلك دالٌّ على أنه وحده المألوه المعبود

(١) في (ب): «وتيسيره».

الذي لا تنبغي العبادة والذُّلُّ والمحبة إلا له، وأنَّ رسله صادقون فيما جاؤوا به .
فهذه أدلة عقلية واضحة لا تقبل ريباً ولا شكاً .

﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ .

﴿١٤ - ١٥﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بحسن الخلق والصبر على أذية المشركين به الذين ﴿لا يرجون أيام الله﴾؛ أي: لا يرجون ثوابه ولا يخافون وقائعه في العاصين؛ فإنه تعالى سيجزي كل قوم ﴿بما كانوا يكسبون﴾: فأنتم يا معشر المؤمنين يجزيكم على إيمانكم وصفحكم وصبركم ثواباً جزيلاً، وهم إن استمروا على تكذيبهم؛ فلا يحل بكم ما حل بهم من العذاب الشديد والخزي، ولهذا قال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ .

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْعَمَلَ وَالنَّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَاهُمْ يَسِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْآيَةُ بَقِيَّةً يَنْهَوْنَ عَنْ رَبِّكَ يَقْضَىٰ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾ .

﴿١٦﴾ أي: ولقد أنعمنا على بني إسرائيل نعماً لم تحصل لغيرهم من الناس، وآتيناهم ﴿الكتاب﴾؛ أي: التوراة والإنجيل والحكم بين الناس والنبوة التي امتازوا بها، وصارت النبوة في ذرية إبراهيم عليه السلام، أكثرهم من بني إسرائيل، ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾: من المأكَل والمشارب والملابس وإنزال المن والسلوى عليهم، ﴿وفضَّلناهم على العالمين﴾؛ أي: على الخلق بهذه النعم. ويخرج من هذا العموم اللفظي هذه الأمة؛ فإنهم خير أمة أخرجت للناس، والسياق يدل على أن المراد غير هذه الأمة؛ فإن الله يقص علينا ما امتنَّ به على بني إسرائيل وميَّزهم على غيرهم .

وأيضاً؛ فإن الفضائل التي فاق بها بنو إسرائيل من الكتاب والحكم والنبوة وغيرها من النعوت قد حصلت كلها لهذه الأمة، وزادت عليهم هذه الأمة فضائل كثيرة؛ فهذه الشريعة شريعة بني إسرائيل جزء منها؛ فإنَّ هذا الكتاب مهيمٌ على سائر الكتب السابقة، ومحمد ﷺ مصدق لجميع المرسلين .

﴿١٧﴾ ﴿وآتيناهم﴾؛ أي: آتيناه بني إسرائيل ﴿بينات﴾؛ أي: دلالات تبيِّن الحق من الباطل ﴿من الأمر﴾: القدر الذي أوصله الله إليهم، وتلك الآيات هي

المعجزات التي رآوها على يد موسى عليه السلام؛ فهذه النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل تقتضي الحال أن يقوموا بها على أكمل الوجوه، وأن يجتمعوا على الحق الذي بيّنه الله لهم، ولكن انعكس الأمر، فعاملوها بعكس ما يجب، وافترقوا فيما أمروا بالاجتماع به، ولهذا قال: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾؛ أي: الموجب لعدم الاختلاف، وإنما حملهم على الاختلاف، البغي من بعضهم على بعض والظلم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: فيميز المحق من المبطل، والذي حمله على الاختلاف الهوى أو غيره.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿١٨﴾ أي: ثم شرعنا لك شريعة كاملة تدعو إلى كل خير، وتنهى عن كل شر من أمرنا الشرعي، ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾؛ فإن في اتباعها السعادة الأبدية والصلاح والفلاح، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: الذين تكون أهويتهم غير تابعة للعلم ولا ماضية خلفه، وهم كل من خالف شريعة الرسول ﷺ هواه وإرادته؛ فإنه من أهواء الذين لا يعلمون.

﴿١٩﴾ ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾؛ أي: لا ينفعونك عند الله، فيحصلوا لك الخير، ويدفعوا عنك الشر إن اتبعتهم على أهوائهم، ولا تصلح أن توافقهم وتواليهم؛ فإنك وإياهم متباينون، وبعضهم ولي لبعض. ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾: يخرجهم من الظلمات إلى النور بسبب تقواهم وعملهم بطاعته.

﴿هَٰذَا بَصِيرَةٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿٢٠﴾ أي: ﴿هَٰذَا﴾ القرآن الكريم والذكر الحكيم ﴿بَصَائِرُ لِّلنَّاسِ﴾؛ أي: يحصل به التبصرة في جميع الأمور للناس، فيحصل به الانتفاع للمؤمنين، ﴿وَالْهُدَى وَالرَّحْمَةُ﴾ ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾: فيهتدون به إلى الصراط المستقيم في أصول الدين وفروعه، ويحصل به الخير والسرور والسعادة في الدنيا والآخرة، وهي الرحمة، فتزكو به نفوسهم، وتزداد به عقولهم، ويزيد به إيمانهم ويقينهم، وتقوم به الحجة على من أصر وعاند.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَّجْيُهُمْ وَمَنَاجُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢١﴾ أي: أم حسب المسيئون المكثرون من الذنوب المقصرون في حقوق ربهم، ﴿أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾: بأن قاموا بحقوق ربهم، واجتنبوا مساخطه، ولم يزالوا مؤثرين رضاه على هوى أنفسهم؛ أي: أحسبوا أن يكونوا ﴿سواء﴾ في الدنيا والآخرة؟ ساء ما ظنوا وحسبوا، وساء ما حكموا به؛ فإنه حكم يخالف حكمة أحكم الحاكمين وخير العادلين، ويناقض العقول السليمة والفطر المستقيمة، ويضاد ما نزلت به الكتب وأخبرت به الرسل، بل الحكم الواقع القطعي أن المؤمنين العاملين الصالحات، لهم النصر والفلاح والسعادة والثواب في العاجل والآجل؛ كل على قدر إحسانه، وأن المسيئين لهم الغضب والإهانة والعذاب والشقاء في الدنيا والآخرة.

﴿وَعَلَى اللَّهِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْقَوِيِّ وَلَئِيْزِي كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿٢٢﴾ أي: خلق الله السماوات والأرض بالحكمة، وليُعبد وحده لا شريك له، ثم يجازي بعد ذلك من أمرهم بعبادته، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة؛ هل شكروا الله تعالى وقاموا بالمأمور؟ أم كفروا فاستحقوا جزاء الكفور؟

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَفَّيْهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٣) ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَحَيَاتُنَا مَا يَمُوتُ وَإِنَّا لَنَكْفُرُ وَنَكْفُرُ وَمَا لَنَا بِذَلِكَ مِنَ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٢٤) ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا آبَاءَنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٥) ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿٢٣﴾ يقول تعالى: ﴿أفرأيت﴾: الرجل الضال الذي، ﴿اتخذ إلهه هواه﴾: فما هويته سلكه؛ سواء كان يرضي الله أم^(١) يسخطه، ﴿وأضله الله على علم﴾: من الله [تعالى] أنه لا تليق به الهداية. ولا يزكو عليها، ﴿وختم على سمعه﴾: فلا يسمع ما ينفعه، ﴿وقلبيه﴾: فلا يعي الخير، ﴿وجعل على بصره غشاوة﴾: تمنعه من نظر الحق. ﴿فمن يهديه من بعد الله﴾؛ أي: لا أحد يهديه، وقد سد الله عليه أبواب الهداية، وفتح له أبواب الغواية، وما ظلمه الله، ولكن هو الذي ظلم نفسه،

(١) في (ب): «أو».

وتسبب لمنع رحمة الله عليه. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: ما ينفعكم فتسلكونه وما يضرُّكم فتجتنبونه؟!

﴿٢٤﴾ ﴿وقالوا﴾؛ أي: منكرو البعث: ﴿ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾: إن هي إلا عاداتٌ وجريٌّ على رسوم الليل والنهار، يموت أناس ويحيا أناس، وما مات؛ فليس براجع إلى الله ولا مجازيه بعمله. وقولهم هذا صادرٌ عن غير علم، ﴿إن هم إلا يظنون﴾: فأنكروا المعاد، وكذبوا الرسل الصادقين من غير دليل دلهم ولا برهان، إن هي إلا ظنون واستبعاداتٌ خالية عن الحقيقة.

﴿٢٥﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بيناتٍ ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾: وهذا جراءة منهم على الله؛ حيث اقترحوا هذا الاقتراح، وزعموا أن صدق رسل الله متوقف على الإتيان بآبائهم، وإنهم لو جاؤوهم بكل آية؛ لم يؤمنوا؛ إلا إن اتبعتهم الرسل على ما قالوا، وهم كذبةٌ فيما قالوا، وإنما قصدهم دفع دعوة الرسل، لا بيان الحق.

﴿٢٦﴾ قال تعالى: ﴿قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾: وإلا؛ فلو وصل العلم باليوم الآخر إلى قلوبهم؛ لعملوا له أعمالاً وتهيؤوا له.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُعَذِّبُ بِحَسْرَةِ الْفَاطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَرَأَى كُلُّ أَتَمَةٍ جَائِئَةً كُلُّ أَتَمَةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كَيْفِهَا أَلْيَوْمَ يُعْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كَيْفَ نَبِّئُكَ بِمَا لَكَ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ ۚ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ أَلْيَوْمَ نَنسِيكُ مَا نَسِيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُمْ بِأَنكُم تَأْخُذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُرُوكًا ۖ وَغَرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ قَالِیْمٌ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَوُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٢٧﴾ يخبر تعالى عن سعة ملكه وانفراجه بالتصرف والتدبير في جميع الأوقات، وأنه ﴿يوم تقوم الساعة﴾؛ ويجمع الخلائق لموقف القيامة؛ يحصل الخسار على المبطلين، الذين أتوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وكانت أعمالهم باطلة لأنها متعلقة بالباطل، فبطلت في يوم القيامة، اليوم الذي تستبين فيه^(١) الحقائق واضمحلت عنهم، وفاتهم الثواب، وحصلوا على أليم العقاب.

﴿٢٨﴾ ثم وصف تعالى شدة يوم القيامة وهوله ليحذره العباد ويستعد له العباد، فقال: ﴿وترى﴾: أيها الرائي لذلك اليوم، ﴿كل أمة جاثية﴾: على ركبها خوفاً وذعراً وانتظاراً لحكم الملك الرحمن. ﴿كل أمة تدعى إلى كتابها﴾؛ أي: إلى شريعة نبيهم الذي جاءهم من عند الله، وهل قاموا بها فيحصل [لهم] الثواب والنجاة؟ أم ضيعوها فيحصل لهم الخسران؟ فأمّة موسى يدعون إلى شريعة موسى، وأمّة عيسى كذلك، وأمّة محمد كذلك، وهكذا غيرهم؛ كل أمة تدعى إلى شرعها الذي كلفت به، هذا أحد الاحتمالات في الآية، وهو معنى صحيح في نفسه، غير مشكوك فيه.

ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿كل أمة تدعى إلى كتابها﴾؛ أي: إلى كتاب أعمالها وما سطر عليها من خير وشر، وأن كل أحد يجازى بما عمله بنفسه؛ كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾. ويحتمل أن المعنيين كليهما مراد من الآية.

﴿٢٩﴾ ويدل على هذا قوله: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: هذا كتابنا الذي أنزلنا عليكم يفصل [بينكم] بالحق الذي هو العدل، ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُتِبَ تَعْمَلُونَ﴾: فهذا كتاب الأعمال.

﴿٣٠﴾ ولهذا فصل ما يفعل الله بالفريقين، فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: إيماناً صحيحاً، وصدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة من واجبات ومستحبات، ﴿فِيَدْخُلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾: التي محلها الجنة، وما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾؛ أي: المفاز والنجاة والربح والفلاح الواضح البين، الذي إذا حصل للعبد؛ حصل له كل خير، واندفع عنه كل شر.

(١) في (ب): «به».

﴿٣١﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: بالله، فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿أفلم تكن آياتي تتلى عليكم﴾، وقد دلتكم على ما فيه صلاحكم ونهتكم عما فيه ضرركم، وهي أكبر نعمة وصلت إليكم لو وقّمت لها، ولكن استكبرتم عنها وأعرضتم وكفرتم بها، فجنيتُم أكبر جناية، وأجرمتُم أشدَّ الجرم؛ فاليوم تجزون ما كنتم تعملون.

﴿٣٢﴾ ويؤيخون أيضاً بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ﴾: منكرين لذلك: ﴿ما ندري ما الساعة إن نظنَّ إلا ظنًّا وما نحن بمستيقنين﴾: فهذه حالهم في الدنيا، وحال البعث الإنكار له، وردُّوا^(١) قول مَنْ جاء به.

﴿٣٣﴾ قال تعالى: ﴿وبدا لهم سيئات ما عملوا﴾؛ أي: وظهر لهم يوم القيامة عقوبات أعمالهم، ﴿وحاق بهم﴾؛ أي: نزل ﴿ما كانوا به يستهزئون﴾؛ أي: نزل بهم العذاب الذي كانوا في الدنيا يستهزئون بوقوعه وبمن جاء به.

﴿٣٤﴾ ﴿وقيل اليوم ننساكم﴾؛ أي: نترككم في العذاب ﴿كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾؛ فإنَّ الجزء من جنس العمل، ﴿ومأواكم النار﴾؛ أي: هي مقرُّكم ومصيركم. ﴿وما لكم من ناصرين﴾: ينصرونكم من عذابِ الله ويدفعون عنكم عقابه.

﴿٣٥﴾ ﴿ذلكم﴾: الذي حصل لكم من العذاب. بسبب ﴿أنكم اتَّخذتم آياتِ الله هزواً﴾: مع أنها موجبةٌ للجدِّ والاجتهاد وتلقِّيها بالسُرور والاستبشار والفرح، ﴿وغرَّكم الحياة الدنيا﴾: بزخارفها ولذاتها وشهواتها، فاطمأنتم إليها، وعملتُم لها، وتركتم العمل للدار الباقية. ﴿فاليوم لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾؛ أي: ولا يُمهلون ولا يردُّون إلى الدنيا ليعملوا صالحاً.

﴿٣٦﴾ ﴿فلله الحمد﴾: كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم^(٢) سلطانه، ﴿ربَّ السمواتِ وربَّ الأرضِ ربَّ العالمين﴾؛ أي: له الحمد على ربوبيته لسائر الخلق^(٣)؛ حيث خلقهم وربَّاهم، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة.

﴿٣٧﴾ ﴿وله الكبرياء في السموات والأرض﴾؛ أي: له الجلال والعظمة والمجد؛ فالحمد فيه الشاء على الله بصفات الكمال ومحَبَّته تعالى وإكرامه،

(٢) في (ب): «الجلاله وعظيم».

(١) في (ب): «ورُدَّ».

(٣) في (ب): «الخلق».

والكبرياء فيها عظمتُه وجلالُه، والعبادة مبنية على ركنين: محبة الله والذلُّ له، وهما ناشتان عن العلم بمحامد الله وجلاله وكبريائه، ﴿وهو العزيز﴾: القاهر لكل شيء. ﴿الحكيم﴾: الذي يضع الأشياء مواضعها؛ فلا يشرع ما يشرعه إلا لحكمة ومصلحة، ولا يخلق ما يخلقه إلا لفائدة ومنفعة.

تم تفسير سورة الجاثية. ولله الحمد والمنة^(١) والفضل.



تفسير سورة الأحقاف

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

﴿حَمَّ ۝ تَزِيلُ الْكَرْبِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذَرُوا مُعْرِضُونَ ۝﴾

﴿٢﴾ هذا ثناء منه تعالى على كتابه العزيز وتعظيم له، وفي ضمن ذلك إرشاد العباد إلى الاهتداء بنوره والإقبال على تدبر آياته واستخراج كنوزه.

﴿٣﴾ ولما بين إنزال كتابه المتضمن للأمر والنهي؛ ذكر خلقه السماوات والأرض، فجمع بين الخلق والأمر، ﴿ألا له الخلق والأمر﴾؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾، وكما قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أُنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ. خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾؛ فالله تعالى هو الذي خلق المكلفين، وخلق مساكينهم، وسخر لهم ما في السماوات وما في الأرض، ثم أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وأمرهم ونهاهم، وأخبرهم أن هذه الدار دار أعمال وممر للعمال، لا دار إقامة لا يرحل عنها أهلها، وهم^(٢) سيتنقلون منها إلى دار الإقامة والقرارة وموطن الخلود والدوام، وإنما أعمالهم التي عملوها في هذه الدار سيجدون ثوابها في تلك الدار كاملاً موفراً، وأقام تعالى الأدلة الدالة على تلك الدار، وأذاق العباد نموذجاً من الثواب والعقاب العاجل؛ ليكون أدعى لهم إلى طلب المحبوب والهرب من المرهوب، ولهذا قال هنا: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ

(١) في (ب): «والنعمة».

(٢) في (ب): «وأنهم».

والأرض وما بينهما إِلَّا بِالْحَقِّ؛ أَي: لا عبثاً ولا سدى، بل ليعرف العباد عظمة خالقهما، ويستدلوا على كماله، ويعلموا أَنَّ الذي خلقهما على عظمهما قادرٌ على أن يعيدَ العباد بعد موتِهِم للجزاء، وأنَّ خلقهما وبقاءهما مقدرٌ إلى أجل مسمى.

فلما أخبر بذلك، وهو أصدق القائلين، وأقام الدليل، وأثار السبيل؛ أخبر مع ذلك أَنَّ طائفةً من الخلق قد أبوا إلا إعراضاً عن الحقِّ وصدوفاً عن دعوة الرسل، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذَرُوا مُعْرِضُونَ﴾. وأمَّا الذين آمنوا؛ فلما علموا حقيقة الحال؛ قبلوا وصايا ربِّهم، وتلقَّوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالانقياد والتعظيم، ففازوا بكلِّ خير، واندفع عنهم كلُّ شرٍّ.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنَبِّئُونَ بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَتُكْرَمُونَ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ (٢) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٣)﴾.

﴿٤﴾ أَي: ﴿قل﴾: لهؤلاء الذين أشركوا بالله أوثاناً وأنداداً لا تملك نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، قل لهم مبيناً عجز أوثانهم، وأنها لا تستحق شيئاً من العبادة: ﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات﴾: هل خلقوا من أجرام السماوات والأرض شيئاً؟ هل خلقوا جبلاً؟ هل أجزوا أنهاراً؟ هل نشروا حيواناً؟ هل أنبتوا أشجاراً؟ هل كان منهم معاونة على خلق شيء من ذلك؟ لا شيء من ذلك بإقرارهم على أنفسهم (١) فضلاً عن غيرهم. فهذا دليلٌ عقليٌّ قاطعٌ على أَنَّ كلَّ من سوى الله؛ فعبادته باطلة.

ثم ذكر انتفاء الدليل النقلي، فقال: ﴿اتنوني بكتابٍ من قبل هذا﴾: الكتاب، يدعو إلى الشرك، ﴿أو إثارة من علم﴾: موروثة عن الرسل يأمر بذلك. من المعلوم أَنهم عاجزون أن يأتوا عن أحدٍ من الرسل بدليل يدلُّ على ذلك، بل نجم ونتيقتن أَن جميع الرسل دَعَوْا إلى توحيد ربِّهم ونَهَوْا عن الشرك به، وهي أعظم ما يؤثر عنهم من العلم؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، وكلُّ رسول قال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾،

(١) في (ب): «بأنفسهم».

فَعَلِمَ أَنَّ جِدَالَ الْمَشْرِكِينَ فِي شِرْكِهِمْ غَيْرَ مُسْتَنْدِينَ^(١) عَلَى بَرَهَانٍ وَلَا دَلِيلٍ، وَإِنَّمَا اعْتَمَدُوا عَلَى ظَنُونٍ كَاذِبَةٍ وَأَرَاءٍ كَاسِدَةٍ وَعُقُولٍ فَاسِدَةٍ، يَدْلِكُ عَلَى فُسَادِهَا اسْتِقْرَاءُ أَحْوَالِهِمْ وَتَتَبُّعُ عُلُومِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ وَالنَّظَرُ فِي حَالٍ مِنْ أَقْنَوْا أَعْمَارَهُمْ بِعِبَادَتِهِ؛ هَلْ أَفَادَهُمْ شَيْئًا فِي الدُّنْيَا أَوْ فِي الْآخِرَةِ.

﴿٥ - ٦﴾ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾؛ أَي: مَدَّةَ مَقَامِهِ فِي الدُّنْيَا لَا يَنْتَفِعُ بِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ، ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾: لَا يَسْمَعُونَ مِنْهُمْ دُعَاءً وَلَا يَجِيبُونَ لَهُمْ نِدَاءً. هَذَا حَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِهِمْ، وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً يَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَتَبَرَّأُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنبَغِ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَنْزِلُهُ قُلٌّ إِنْ أَفَرَيْنَاهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ إِنْ أَنِيعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿٧﴾ أَي: ﴿وَإِذَا تُتْلَى﴾: عَلَى الْمَكْذِبِينَ ﴿آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾: بِحَيْثُ تَكُونُ عَلَى وَجْهِ لَا يُمْتَرَىٰ بِهَا، وَلَا يَشْكُ فِي وَقْعِهَا وَحَقِّهَا؛ لَمْ تُفْزِهِمْ خَيْرًا، بَلْ قَامَتْ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ الْحُجَّةُ، وَيَقُولُونَ مِنْ إِفْكَهِمْ وَإِفْتِرَائِهِمْ ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾؛ أَي: ظَاهِرٌ لَا شَكَّ فِيهِ. وَهَذَا مِنْ بَابِ قَلْبِ الْحَقَائِقِ، الَّذِي لَا يَرُوجُ إِلَّا عَلَىٰ ضَعْفَاءِ الْعُقُولِ، وَإِلَّا؛ فَبَيْنَ الْحَقِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ وَبَيْنَ السِّحْرِ مِنَ الْمُنَافَاةِ وَالْمُخَالَفَةِ أَعْظَمَ مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَكَيْفَ يَقَاسُ الْحَقُّ - الَّذِي عَلَا وَارْتَفَعَ ارْتِفَاعًا عَلَا عَلَى الْأَفْلَاقِ، وَفَاقَ بَضْوَتِهِ وَنُورَهُ نُورَ الشَّمْسِ، وَقَامَتْ الْأَدَلَّةُ الْأَفْقِيَّةُ وَالنَّفْسِيَّةُ عَلَيْهِ، وَأَقْرَبَتْ بِهِ، وَأَذْعَنْتْ أُولُو الْبَصَائِرِ وَالْعُقُولُ الرِّزِينَةُ بِالْبَاطِلِ الَّذِي هُوَ السِّحْرُ الَّذِي لَا يَصْدُرُ إِلَّا مِنْ ضَالٍّ ظَالِمٍ خَبِيثٍ النَّفْسِ خَبِيثِ الْعَمَلِ؛ فَهُوَ مُنَاسِبٌ لَهُ وَمُوَافِقٌ لِحَالِهِ؟! وَهَلْ هَذَا إِلَّا مِنَ الْبَهْرَجَةِ؟!

﴿٨﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾؛ أَي: افْتَرَى مُحَمَّدٌ هَذَا الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ؛ فَلَيْسَ

(١) فِي (ب): «مُسْتَنْدِينَ فِيهِ».

من عند الله، ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إِنْ افْتَرَيْتُهُ﴾؛ فالله عليّ قادرٌ وبما تفيضون فيه عالمٌ؛ فكيف لم يعاقبني على افترائي الذي زعمتم؛ فهل ﴿تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾: إِنْ أَرَادَنِي اللَّهُ بُزْراً أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ؟ ﴿كُفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾: فلو كنت متقولاً عليه؛ لأخذ مني باليمين، ولعاقبني عقاباً يراه كلُّ أحدٍ؛ لأنَّ هذا أعظم أنواع الافتراء لو كنت متقولاً. ثم دعاهم إلى التوبة مع ما صدر منهم من معاندة الحق ومخاصمته، فقال: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾؛ أي: فتوبوا إليه، وأقلعوا عما أنتم فيه يغفر لكم ذنوبكم، ويرحمكم فيوفقكم للخير، ويشيكم جزيل الأجر.

﴿٩﴾ ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾؛ أي: لست بأول رسول جاءكم حتى تستغربوا رسالتي وتستنكروا دعوتي؛ فقد تقدّم من الرسل والأنبياء من وافقت دعوتي دعوتهم؛ فلاي شيء تنكرون^(١) رسالتي؟! ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾؛ أي: لست إلا بشراً، ليس بيدي من الأمر شيء، والله تعالى [هو] المتصرفُ بي وبكم، الحاكم عليّ وعليكم، ولست آتي بالشيء من عندي. ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: فَإِنْ قَبِلْتُمْ رسالتي وأجبتم دعوتي؛ فهو حظكم ونصيبكم في الدنيا والآخرة، وإن رددتم ذلك عليّ؛ فحسابكم على الله، وقد أنذرتكم، ومن أنذر فقد أعذر.

﴿١٠﴾ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾؛ أي: أخبروني لو كان هذا القرآن من عند الله، وشهد على صحته الموقفون من أهل الكتاب، الذين عندهم من الحق ما يعرفون أنه الحق، فأمنوا به واهتدوا، فتطابقت أنباء الأنبياء وأتباعهم النبلاء واستكبرتم أيها الجهلاء الأغبياء؛ فهل هذا إلا أعظم الظلم وأشدُّ الكفر؟! ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾: ومن الظلم الاستكبار عن الحق بعد التمكن منه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ سَبَقُوا هَذَا إِنْكَ قَدِيرٌ ﴿١١﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿١١ - ١٢﴾ أي: قال الكفار بالحق معاندين له وراذلين لدعوته: ﴿لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾؛ أي: ما سبقنا إليه المؤمنون، أي: لكننا أول مبادرٍ به وسابقٍ إليه!

ولهذا من البهجة في مكان؛ فأني دليل يدل على أن علامة الحق سبق المكذبين به للمؤمنين؟! هل هم أذكى نفوساً؟! أم أكمل عقولاً؟! أم الهدى بأيديهم؟! ولكن هذا الكلام الذي صدر منهم يعزّون به أنفسهم، بمنزلة من لم يقدر على الشيء ثم طَفِقَ يذمه، ولهذا قال: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ﴾؛ أي: هذا السبب الذي دعاهم إليه أنهم لما لم يهتدوا بهذا القرآن، وفاتهم أعظم المواهب وأجل الرغائب؛ قدحوا فيه بأنه كذب، وهو الحق الذي لا شك فيه ولا امتراء يعتريه، ﴿الذي﴾ قد وافق الكتب السماوية، خصوصاً أكملها وأفضلها بعد القرآن، وهي ^(١) التوراة التي أنزلها الله على ﴿موسى إماماً ورحمة﴾؛ أي: يقتدي بها بنو إسرائيل ويهتدون بها، ويحصل لهم خير الدنيا والآخرة.

﴿وهذا﴾: القرآن ﴿كتابٌ مصدق﴾: للكتب السابقة، شهد بصدقها وصدقها بموافقتها لها، وجعله الله ﴿لساناً عربياً﴾: ليسهل تناوله ويتيسر تذكره؛ ﴿لينذر الذين ظلموا﴾: أنفسهم بالكفر والفسوق والعصيان إن استمروا على ظلمهم بالعذاب الويل، ويشر المحسنين في عبادة الخالق وفي نفع المخلوقين بالثواب الجزيل في الدنيا والآخرة، ويذكر الأعمال التي ينذر عنها والأعمال التي يشر بها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٣﴾ أي: إن الذين أقرؤا ربهم، وشهدوا له بالوحدانية، والتزموا طاعته، وداموا على ذلك، و﴿استقاموا﴾ مدة حياتهم؛ ﴿فلا خوف عليهم﴾: من كل شرٍّ أمامهم، ﴿ولا هم يحزنون﴾: على ما خلفوا وراءهم.

﴿١٤﴾ ﴿أولئك أصحاب الجنة﴾؛ أي: أهلها الملازمون لها، الذين لا يبغون عنها جِوْلاً ولا يريدون بها بدلاً، ﴿خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون﴾: من الإيمان بالله، المقتضي للأعمال الصالحة، التي استقاموا عليها.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ

وَالَّذِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلَحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾
أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَحْصَى الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي
كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ .

﴿١٥﴾ هذا من لطفه تعالى بعباده وشكره للوالدين أن وصّى الأولاد وعهد إليهم أن يحسنوا إلى والديهم بالقول اللطيف والكلام اللين وبذل المال والنفقة وغير ذلك من وجوه الإحسان، ثم نبّه على ذكر السبب الموجب لذلك، فذكر ما تحمّلت الأم من ولدها، وما قاسته من المكاره وقت حملها، ثم مشقة ولادتها المشقة الكبيرة، ثم مشقة الرضاع وخدمة الحضانه، وليست المذكورات مدة يسيرة ساعة أو ساعتين، وإنما ذلك مدة طويلة قدرها ﴿ثلاثون شهراً﴾: للحمل تسعة أشهر ونحوها، والباقي للرضاع، هذا الغالب. ويستدل بهذه الآية مع قوله: ﴿والوالدات يرضعن أولادهنّ حولين كاملين﴾: أن أقلّ مدّة الحمل ستة أشهر؛ لأنّ مدّة الرضاع وهي سنتان إذا سقطت ^(١) منها السنتان؛ بقي ستة أشهر مدة للحمل، ﴿حتى إذا بلغ أشده﴾؛ أي: نهاية قوّته وشبابه وكمال عقله، ﴿وبلّغ أربعين سنة﴾ قال ربّ أوزعني؛ أي: ألهمني ووفّقني، ﴿أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ﴾؛ أي: نعم الدين ونعم الدنيا، وشكره بصرف النعم في طاعة مسديها وموليها ومقابلة مثته بالاعتراف والعجز عن الشكر والاجتهاد في الثناء بها على الله، والنعم على الوالدين نعم على أولادهم وذريّتهم لأنّهم لا بدّ أن ينالهم منها ومن أسبابها وآثارها، خصوصاً نعم الدين؛ فإنّ صلاح الوالدين بالعلم والعمل من أعظم الأسباب لصلاح أولادهم، ﴿وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾: بأن يكون جامعاً لما يصلحه سالماً مما يفسده؛ فهذا العمل الذي يرضاه الله ويقبله ويثيب عليه، ﴿وأصلح لي في ذرّيتي﴾: لما دعا لنفسه بالصلاح؛ دعا لذريّته أن يصلح الله أحوالهم، وذكر أنّ صلاحهم يعود نفعه على والديهم؛ لقوله: ﴿وأصلح لي﴾. ﴿إني تبّْتُ إليك﴾: من الذنوب والمعاصي ورجعت إلى طاعتك، ﴿وإني من المسلمين﴾.

﴿١٦﴾ ﴿أولئك﴾: الذين ذكرت أوصافهم ﴿الذين ننتقبّل عنهم أحسن ما عملوا﴾: وهو الطاعات؛ لأنّهم يعملون أيضاً غيرها، ﴿وتتجاوز عن سيّئاتهم في﴾: جملة ﴿أصحاب الجنة﴾: فحصل لهم الخير والمحبوّب، وزال عنهم الشرّ

(١) أي من الثلاثين شهراً.

والمكروه. ﴿وَعَدَ الصُّدُقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾؛ أي: لهذا الوعد الذي وعدناهم هو وعد صادق من أصدق القائلين الذي لا يخلف الميعاد.

﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَهِ أَفِ لَكُمْ أَتَعْدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ عَمَلًا وَلِيُؤْفِقَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿١٧﴾ لما ذكر تعالى حال الصالح البار لوالديه؛ ذكر حالة العاق، وأنها شرُّ الحالات، فقال: ﴿والذي قال لوالديه﴾: إذ دعيه إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وخوفاه الجزاء، وهذا أعظم إحسان يصدر من الوالدين لولدهما أن يدعوا إلى ما فيه سعادته الأبدية وفلاحه السرمدي، فقابلهما بأقبح مقابلة، فقال^(١): ﴿أف لَكُمْ﴾؛ أي: تباً لكم، ولما جئتما به.

ثم ذكر وجه استبعاده وإنكاره لذلك، فقال: ﴿أتعدانني أن أُخْرَجَ﴾: من قبري إلى يوم القيامة ﴿وقد خلتِ القرون من قبلي﴾: على التكذيب، وسلفوا على الكفر، وهم الأئمة المقتدى بهم لكل كفور وجهول ومعانيد. ﴿وهما﴾؛ أي: والداه ﴿يستغيثان الله﴾: عليه ويقولان له: ﴿ويلك آمِنْ﴾؛ أي: يبذلان غاية جهدهما ويسعيان في هدايته أشد السعي، حتى إنهما من حرصهما عليه إنهما يستغيثان الله له استغاثة الغريق، ويسألانه سؤال الشريك، ويعذلان ولدهما، ويتوجعان له، ويبينان له الحق، فيقولان: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾، ثم يقيمان عليه من الأدلة ما أمكنهما، وولدهما لا يزداد إلا عتواً ونفورا واستكباراً عن الحق وقدحاً فيه، ﴿فيقول ما هذا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: إلا منقول من كتب المتقدمين، ليس من عند الله، ولا أوحاه الله إلى رسوله، وكل أحد يعلم أن محمداً ﷺ أمي لا يكتب ولا يقرأ، ولا يتعلم^(٢) من أحد؛ فمن أين يتعلمه، وأنى للخلق أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً؟!

﴿١٨﴾ ﴿أولئك الذين﴾: بهذه الحالة الذميمة ﴿حق عليهم القول﴾؛ أي: حقت عليهم كلمة العذاب ﴿في﴾ جملة ﴿أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس﴾:

(١) في (ب): «وقال».

(٢) في (ب): «تعلم».

على الكفر والتكذيب، فسيدخل هؤلاء في غمارهم، ويغرقون في تيارهم. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾: والخسران فوات رأس مال الإنسان، وإذا فقد رأس ماله؛ فالأرباح من باب أولى وأحرى؛ فهم قد فاتهم الإيمان، ولم يحصلوا شيئاً^(١) من النعيم، ولا سلموا من عذاب الجحيم.

﴿١٩﴾ ﴿وَلِكُلٍّ﴾: من أهل الخير وأهل الشر ﴿درجات مما عملوا﴾؛ أي: كل على حسب مرتبته من الخير والشر، ومنازلهم في الدار الآخرة على قدر أعمالهم، ولهذا قال: ﴿وَلِيُؤْفِقَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: بأن لا يزداد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم.

﴿يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾.

﴿٢٠﴾ يذكر تعالى حال الكفار عند عرضهم على النار حين يُوبَّخُونَ ويُقَرَّعُونَ، فيقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾؛ حيث اطمأنتم إلى الدنيا، واغتررتم بلذاتها، ورضيتم بشهواتها، وألهتكم طيباتها عن السعي لآخرتكم، وتمتعتم تمتع الأنعام السارحة؛ فهي حظكم من آخرتكم. ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾؛ أي: العذاب الشديد الذي يهينكم، ويفضحكم [بما كنتم تقولون على الله غير الحق]^(٢)؛ أي: تنسبون الطريق الضالة التي أنتم عليها إلى الله وإلى حكمه وأنتم كذبة في ذلك، ﴿وبما كنتم تفسقون﴾؛ أي: تتكبرون عن طاعته، فجمعوا بين قول الباطل والعمل بالباطل والكذب على الله بنسبته إلى رضاه والقبح في الحق والاستكبار عنه، فعوقبوا أشد العقوبة.

﴿وَأَذْكُرْ أَنَا عَادِ إِذْ أُنذِرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾^(٣) وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا يَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُفَكِّكُنَا عَنْ ءِهَاتِنَا فَإِنَّا بِمَا نَعْبُدُ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِيتُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُنْطَرِفٌ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ رَهِبًا فَاصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا

(٢) كذا في السخيتين.

(١) في (ب): «على شيء».

(٣) في (ب): إلى آخر القصة.

مَسْكُونُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ .

﴿٢١﴾ أي: ﴿واذكر﴾: بالثناء الجميل ﴿أخا عاد﴾: وهو هود عليه السلام، حيث كان من الرسل الكرام، الذين فضّلهم الله تعالى بالدعوة إلى دينه وإرشاد الخلق إليه، ﴿إذ أنذر قومَه﴾: وهم عاد ﴿بالأحقاف﴾؛ أي: في منازلهم المعروفة بالأحقاف، وهي الرمال الكثيرة في أرض اليمن، ﴿وقد خلّت النُّذُر من بين يديه ومن خلفه﴾: فلم يكن بدعاً منهم ولا مخالفاً لهم، قائلاً لهم: ﴿أن لا تعبّدوا إلّا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾: فأمرهم بعبادة الله الجامعة لكل قول سديد وعمل حميد، ونهاهم عن الشُّرك والتَّنديد، وخوفهم إن لم يطيعوه العذاب الشَّديد، فلم تُفِذَ فيهم تلك الدعوة.

﴿٢٢﴾ ف﴿قالوا أجبنا لتأفكنا عن آلهتنا﴾؛ أي: ليس لك من القصد ولا معك من الحق إلّا أنك جدتنا على آلهتنا، فأردت أن تصرّفنا عنها، ﴿فأتينا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾: وهذا غاية الجهل والعناد.

﴿٢٣﴾ ﴿قال إنّا العلم عند الله﴾: فهو الذي بيده أزمنة الأمور ومقاليدها، وهو الذي يأتيكم بالعذاب إن شاء، ﴿وأبلغكم ما أرسلت به﴾؛ أي: ليس عليّ إلّا البلاغ المبين، ﴿ولكنني أراكم قوماً تجهلون﴾: فلذلك صدر منكم ما صدر من هذه الجراءة الشديدة.

﴿٢٤ - ٢٥﴾ فأرسل الله عليهم العذاب العظيم، وهو الريح التي دمرتهم وأهلكتهم، ولهذا قال: ﴿فلما رأوه﴾؛ أي: العذاب، ﴿عارضاً مستقبل أوديتهم﴾؛ أي: معترضاً كالسحاب، قد أقبل على أوديتهم التي تسيل فتسقي نوابتهم ويشربون من آبارها وغدرانها، ﴿قالوا﴾: مستبشرين: ﴿هذا عارض ممطرنا﴾؛ أي: هذا السحاب سيمطرنا. قال تعالى: ﴿بل هو ما استعجلتم به﴾؛ أي: هذا الذي جئتم به على أنفسكم حيث قلتم: ﴿فأتينا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾. ﴿ريح فيها عذاب أليم. تدمر كل شيء﴾: تمرّ عليه من شدتها ونحسها، فسأطها الله عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، ﴿بأمر ربها﴾؛ أي: بإذنه ومشيئته، ﴿فأصبحوا لا يرى إلّا مساكنهم﴾: قد تلفت

مواسيهم وأموالهم وأنفسهم. ﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾: بسبب جرمهم وظلمهم.

﴿٢٦﴾ هذا مع أنَّ الله قد أدرَّ عليهم النِّعم العظيمة فلم يشكروه ولا ذكروه، ولهذا قال: ﴿ولقد مكَّناهم فيما إن مكَّناكم فيه﴾؛ أي: مكَّناهم في الأرض يتناولون طبيباتها، ويتمتَّعون يشهواتها، وعمرناهم عمراً يتذكَّر فيه من تذكَّر ويتعظ فيه المهتدي؛ أي: ولقد مكَّنا عاداً كما مكَّناكم يا هؤلاء المخاطبون؛ أي: فلا تحسبوا أنَّ ما مكَّناكم فيه مختصُّ بكم، وأنَّه سيدفع عنكم من عذاب الله شيئاً، بل غيركم أعظم منكم تمكيناً، فلم تُغن عنهم أموالهم ولا أولادهم ولا جنودهم من الله شيئاً، ﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة﴾؛ أي: لا قصور في أسماعهم ولا أبصارهم ولا أذهانهم حتى يقال: إنَّهم تركوا الحقَّ جهلاً منهم وعدم تمكُّن من العلم به ولا خلل في عقولهم، ولكنَّ التوفيق بيد الله، ﴿فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء﴾: لا قليل ولا كثير، وذلك بسبب أنَّهم يجحدون آيات الله الدَّالة على توحيدِهِ وإفراده بالعبادة، ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾؛ أي: نزل بهم العذاب الذي يكذبون بوقوعه، ويستهزئون بالرسَل الذين حذَّروهم منه.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْيِ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿٢٧ - ٢٨﴾ يحذِّر تعالى مشركي العرب وغيرهم بإهلاك الأمم المكذِّبين الذين هم حول ديارهم، بل كثيرٌ منهم في جزيرة العرب؛ كعادٍ وثمودٍ ونحوهم، وأنَّ الله تعالى صرَّف لهم ﴿الآياتِ﴾؛ أي: نوَّعها من كل وجه، ﴿لعلهم يرجعون﴾: عمَّا هم عليه من الكفر والتكذيب، فلما لم يؤمنوا؛ أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، ولم تنفعهم آلِهتهم التي يَدعون من دون الله من شيء، ولهذا قال هنا: ﴿فلولا نصرهم الذين اتَّخذوا من دون الله قُرْبَانًا آلِهَةً﴾؛ أي: يتقربون إليهم ويتألَّهونهم لرجاء نفعهم. ﴿بل ضلُّوا عنهم﴾: فلم يُجيبوهم ولا دَفَّعوا عنهم، ﴿وذلك إفكهم وما كانوا يفترون﴾^(١): من الكذب الذي يُمَثَّلون به أنفسهم؛ حيث يزعمون أنَّهم على الحق، وأنَّ أعمالهم ستُنفعهم، فضلَّت وبطلت.

(١) في (ب): «وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ﴾ (٢٩) قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَغْفِر لَكُمْ مِن ذُنُوبِكُمْ وَيُجْزِكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ .

﴿٢٩﴾ كان الله تعالى قد أرسل رسوله محمداً ﷺ إلى الخلق إنسهم وجنهم، وكان لا بدّ من إبلاغ الجميع لدعوة النبوة والرسالة؛ فالإنس يمكنه عليه الصلاة والسلام دعوتهم وإنذارهم، وأمّا الجن؛ فصرفهم الله إليه بقدرته وأرسل إليه ﴿نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا﴾؛ أي: وصّى بعضهم بعضاً بذلك، ﴿فلما قضي﴾: وقد وعّوه وأثر ذلك فيهم، ﴿ولّوا إلى قومهم منذرين﴾: نصحاً منهم لهم، وإقامة لحجة الله عليهم، وقضّهم الله معونة لرسوله ﷺ في نشر دعوته في الجن.

﴿٣٠﴾ ﴿قالوا يا قومنا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى﴾: لأنّ كتاب موسى أصلٌ للإنجيل وعمدةٌ لبني إسرائيل في أحكام الشرع، وإنّما الإنجيل متممٌ ومكملٌ ومغيّرٌ لبعض الأحكام، ﴿مصدقاً لما بين يديه يهدي﴾: هذا الكتاب الذي سمعناه، ﴿إلى الحق﴾: وهو الصواب في كلّ مطلوبٍ وخبر، ﴿والى طريقٍ مستقيم﴾: موصل إلى الله وإلى جنته من العلم بالله وبأحكامه الدينيّة وأحكام الجزاء.

﴿٣١﴾ فلما مدّحوا القرآن وبيّنوا محلّه ومرتبته؛ دَعَوْهم إلى الإيمان به، فقالوا: ﴿يا قومنا أجيبوا داعي الله﴾؛ أي: الذي لا يدعو إلّا إلى ربّه، لا يدعوكم إلى غرض من أغراضه ولا هوى، وإنّما يدعوكم إلى ربّكم ليُثبِتكم، ويزيل عنكم كلّ شرٍّ ومكروه، ولهذا قالوا: ﴿يغفر لكم من ذُنُوبِكُمْ ويُجْزِكُمْ من عذابِ أليم﴾: وإذا أجارهم من العذاب الأليم؛ فما ثمّ بعد ذلك إلّا النعيم؛ فهذا جزاء من أجاب داعي الله.

﴿٣٢﴾ ﴿ومن لا يُجِبْ داعي الله فليس بمعجزٍ في الأرض﴾: فإنّ الله على كلّ شيءٍ قديرٌ، فلا يفوته هارِبٌ ولا يغالِبُه مغالبٌ، ﴿وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلالٍ مبين﴾، وأيّ ضلالٍ أبلغ من ضلال مَنْ نادّته الرسل، ووصلت إليه النُذُرُ بالآيات البيّنات والحجج المتواترات فأعرض واستكبر؟! .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيِّ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَغَيِّ الْمَوْتِ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٣).

﴿٣٣﴾ هذا استدلالٌ منه تعالى على الإعادة بعد الموت بما هو أبلغُ منها، وهو ﴿أنه الذي خلق السماوات والأرض﴾ على عظمهما وسعتهما وإتقان خلقهما من دون أن يكثرَ بذلك، ولم يغيِّ بِخَلْقِهِنَّ؛ فكيف تعجزُه إعادتُكم بعد موتكم وهو ﴿على كل شيء قديرٌ﴾؟!

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٣٤) فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَتْهُمْ يَوْمَ بَرَزُوا مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَّغْ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٣٥).

﴿٣٤﴾ يخبر تعالى عن حال الكفار الفظيعة عند عرضهم على النار التي كانوا يكذبون بها، وأنهم يوبخون ويقال لهم: ﴿أليس هذا بالحق﴾؛ فقد حضرتموه وشاهدتموه عياناً، ﴿قالوا بلى وربنا﴾: فاعترفوا بذنوبهم وتبين كذبهم، ﴿قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾؛ أي: عذاباً لازماً دائماً كما كان كفرُكم صفةً لازمةً.

﴿٣٥﴾ ثم أمر تعالى رسوله أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له، وأن لا يزال داعياً لهم إلى الله، وأن يقتدي بصبر أولي العزم من المرسلين سادات الخلق أولي العزائم والهِمَمِ العالية، الذين عَظُم صَبْرُهُمْ وَتَمَّ يَقِينُهُمْ؛ فهم أحقُّ الخلق بالأسوة بهم والقفو لآثارهم والاهتداء بمنارهم، فامتثل ﷺ لأمر ربه، فصبر صبراً لم يصبره نبيُّ قبله، حتى رماه المعادون له عن قوسٍ واحدة، وقاموا جميعاً بصده عن الدعوة إلى الله، وفعلوا ما يمكنهم من المعادة والمحاربة، وهو ﷺ لم يزل صادعاً بأمر الله، مقيماً على جهاد أعداء الله، صابراً على ما يناله من الأذى، حتى مكَّن الله له في الأرض، وأظهر دينه على سائر الأديان وأُمته على الأمم، فصلى الله عليه وسلم تسليماً.

وقوله: ﴿ولا تستعجل لهم﴾؛ أي: لهؤلاء المكذبين المستعجلين للعذاب؛ فإنَّ هذا من جهلهم وحمقهم؛ فلا يستخفُّكَ بجهلهم ولا يَحْمِلُكَ ما ترى من استعجالهم على أن تدعو الله عليهم بذلك؛ فإنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ، و﴿كانهم﴾ حين ﴿يَرَوْنَ ما يوعدون لم يَلْبَثُوا﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾؛ فلا يحزنكَ تمتعهم القليل وهم صاترون إلى العذاب الويل، ﴿بلاغ﴾؛ أي: هذه الدنيا متاعها

وشهواتها ولذاتها بلغة منغصة ودفع وقت حاضر قليل، أو لهذا القرآن العظيم - الذي بيّنا لكم فيه البيان التام - بلاغ لكم وزاد إلى الدار الآخرة، ونعم الزاد والبلغة، زاد يوصل إلى دار النعيم، ويعصم من العذاب الأليم؛ فهو أفضل زاد يتزوده الخلائق، وأجل نعمة أنعم الله بها عليهم، ﴿فهل يُهْلِكُ﴾: بالعقوبات ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾؛ أي: الذين لا خير فيهم، وقد خرجوا عن طاعة ربهم، ولم يقبلوا الحق الذي جاءتهم به الرسل، وأعذر الله لهم وأنذرهم، فبعد ذلك إذ يستمرون على تكذيبهم وكفرهم، نسأل الله العصمة.

آخر تفسير سورة الأحقاف. والحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة القتال

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ۝٣﴾.

﴿١﴾ هذه الآيات مشتملات على ذكر ثواب المؤمنين، وعقاب العاصين، والسبب في ذلك، ودعوة الخلق إلى الاعتبار بذلك، فقال: ﴿الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله﴾: وهؤلاء رؤساء الكفر وأئمة الضلال، الذين جمعوا بين الكفر بالله وآياته والصدّ لأنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، التي هي الإيمان بما دعت إليه الرسل واتباعه؛ فهؤلاء ﴿أضلّ الله أعمالهم﴾؛ أي: أبطلها وأشقاهم بسببها، وهذا يشمل أعمالهم التي عملوها ليكيدوا بها الحق وأولياء الله، إنّ الله جعل كيدهم في نحورهم، فلم يدركوا مما قصدوا شيئاً، وأعمالهم التي يرجون أن يثابوا عليها؛ إنّ الله سيخبطها عليهم، والسبب في ذلك أنّهم اتبعوا الباطل، وهو كل غاية لا يُراد بها وجه الله من عبادة الأصنام والأوثان. والأعمال التي في نصر الباطل لما كانت باطلة؛ كانت الأعمال لأجلها باطلة.

﴿٢﴾ وأما ﴿الذين آمنوا﴾ بما أنزل الله على رسوله عموماً وعلى محمد ﷺ

خصوصاً، ﴿وعملوا الصالحات﴾: بأن قاموا بما عليهم من حقوق الله وحقوق العباد الواجبة والمستحبة، ﴿كفّر الله عنهم سيئاتهم﴾: صغارها وكبارها، وإذا كفّرت سيئاتهم؛ نَجَوْا من عذاب الدنيا والآخرة، ﴿وأصلح بالهم﴾؛ أي: أصلح دينهم ودنياهم وقلوبهم وأعمالهم، وأصلح ثوابهم بتنميته وتركيبته، وأصلح جميع أحوالهم.

﴿٣﴾ والسبب في ذلك أنهم اتَّبَعُوا الحقَّ الذي هو الصدق واليقين وما اشتمل عليه هذا القرآن العظيم الصادر من ربهم الذي ربّاهم بنعمته ودبرهم بلطفه، فربّاهم تعالى بالحق، فاتَّبَعُوهُ، فصلحت أمورهم، فلمّا كانت الغاية المقصودة لهم متعلّقة بالحق المنسوب إلى الله الباقي الحقّ المبين؛ كانت الوسيلة سالحة باقية، باقٍ ثوابها. ﴿كذلك يضربُ الله للناس أمثالهم﴾؛ حيث بيّن لهم تعالى أهل الخير وأهل الشر، وذكر لكلّ منهم صفةً يعرفون بها ويتميّزون؛ لِيَهْلِكَ من هَلَكَ عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة.

﴿فَإِذَا لَيْسَ لَكَ الَّذِينَ كَفَرُوا فُزِّبَ الْوَقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَنُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَبِلُوا بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴿١﴾ سَيِّدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴿٣﴾﴾.

﴿٤﴾ يقول تعالى مرشداً عباده إلى ما فيه صلاحهم ونصرهم على أعدائهم: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: في الحرب والقتال؛ فاصدقوهم القتال واضربوا منهم الأعناق حتى تُثْخِنُوهُمْ وتكسروا شوكتهم وتبطلوا شرّتهم؛ فإذا فعلتم ذلك ورأيتم الأسر أولى وأصلح؛ ﴿فشدوا الوثاق﴾؛ أي: الرباط، وهذا احتياط لأسرهم لئلا يهربوا؛ فإذا شدّ منهم الوثاق؛ اطمأنّ المسلمون من حربهم^(٢) ومن شرهم؛ فإذا كانوا تحت أسركم؛ فأنتم بالخيار بين المنّ عليهم وإطلاقهم بلا مال ولا فداء، وإمّا أن تفدوهم بأن لا تطلقوهم حتى يشتروا أنفسهم، أو يشتريهم أصحابهم بمال أو بأسير مسلم عندهم، وهذا الأمر مستمرٌّ ﴿حتى تَضَعَ الحربُ أوزارها﴾؛ أي: حتى لا يبقى حربٌ وتبقون في المسالمة والمهادنة؛ فإنّ لكلّ مقام مقالاً، ولكلّ حال حكماً.

(٢) كذا في (أ). وفي (ب): «هربهم».

(١) في (ب): «باقياً».

فالحال المتقدمة إنما هي إذا كان قتالٌ وحربٌ؛ فإذا كان في بعض الأوقات لا حرب فيه لسبب من الأسباب؛ فلا قتل ولا أسر. ﴿ذَلِكَ﴾: الحكم المذكور في ابتلاء المؤمنين بالكافرين ومداولة الأيام بينهم وانتصار بعضهم على بعض، ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾: فإنه تعالى على كل شيء قديرٌ، وقادرٌ على أن لا ينتصر الكفار في موضع واحد أبداً، حتى يبيد المسلمون خضراءهم، ﴿وَلَكِنْ لِيَنْلُوكَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾: ليقوم سوقُ الجهاد، وتتبين بذلك أحوال العباد الصادق من الكاذب، وليؤمن من آمن إيماناً صحيحاً عن تبصرة^(١) لا إيماناً مبنياً على متابعة أهل الغلبة؛ فإنه إيمانٌ ضعيفٌ جداً، لا يكاد يستمرُّ لصاحبه عند المحن والبلايا. ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: لهم ثوابٌ جزيلٌ وأجرٌ جميلٌ، وهم الذين قاتلوا مَنْ أَمَرُوا بِقِتَالِهِمْ؛ لتكون كلمة الله هي العليا؛ فهؤلاء لن ﴿يُضِلَّ﴾ الله أعمالهم؛ أي: لن يحبطها ويبطلها، بل يتقبلها وينميها لهم ويظهر من أعمالهم نتائجها في الدنيا والآخرة.

﴿٥﴾ ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾: إلى سلوك الطريق الموصلة إلى الجنة، ﴿وَيُصْلِحْ بِأَلْهِمْ﴾؛ أي: حالهم وأمورهم، وثوابهم يكون صالحاً كاملاً لا نكد فيه ولا تنغيص بوجه من الوجوه.

﴿٦﴾ ﴿وَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾؛ أي: عَرَّفَهَا أولاً بأن شَوَّقَهُمْ إليها، ونعتها لهم، وذكر لهم الأعمال الموصلة إليها، التي من جملتها القتل في سبيل الله، ووقفهم للقيام بما أمرهم به ورغَّبهم فيه، ثم إذا دخلوا الجنة؛ عَرَّفَهُمْ منازلهم وما احتوت عليه من النعيم المقيم والعيش السليم.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (٧) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصْلَ أَعْمَالُهُمْ﴾ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ﴾ (٩).

﴿٧﴾ هذا أمرٌ منه تعالى للمؤمنين أن يَنصُرُوا اللَّهَ بالقيام بدينه والدعوة إليه وجهاد أعدائه، والقصد بذلك وجه الله؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك؛ نصرهم وثبت أقدامهم؛ أي: يربط على قلوبهم بالصبر والطمأنينة والثبات، ويصبر أجسادهم على ذلك، ويعينهم على أعدائهم؛ فهذا وعدٌ من كريم صادق الوعد أن الذي ينصره بالأقوال والأفعال سينصره مولاه، ويسر له أسباب النصر من الثبات وغيره.

(١) في (ب): «بصيرة».

﴿٨﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَنَصَرُوا الْبَاطِلَ؛ فَإِنَّهُمْ فِي تَعَسٍ؛ أَي: انتكاس من أمرهم وخذلان، ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ أَي: أبطل أعمالهم التي يَكِيدُونَ بها الحقَّ، فرجع كيدهم في نحورهم، وبطلت أعمالهم التي يزعمون أنهم يريدون بها وجه الله.

﴿٩﴾ ذَلِكَ الْإِضْلَالُ والتعس للذين كفروا بسبب أنهم ﴿كَرَهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من القرآن الذي أنزله [الله] صلاحاً للعباد وفلاحاً لهم، فلم يقبلوه، بل أبغضوه وكرهوه، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

﴿١٠﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾.

﴿١٠﴾ أي: أفلا يسير هؤلاء المكذبون بالرسول ﷺ، ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: فَإِنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ عَاقِبَتَهُمْ إِلَّا شَرَّ الْعَوَاقِبِ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَلْتَفِتُونَ يَمَنَةً وَلَا يَسِرَةً إِلَّا وَجَدُوا مَا حَوْلَهُمْ قَدْ بَادُوا وَهَلَكُوا وَاسْتَأْصَلَهُمُ التَّكْذِيبُ وَالْكَفْرُ، فَخَمَدُوا، وَدَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَدِيَارَهُمْ، بَلْ دَمَّرَ أَعْمَالَهُمْ وَمَكْرَهُمْ، وَلِلْكَافِرِينَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ أَمْثَالُ هَذِهِ الْعَوَاقِبِ الْوَحِيمَةِ وَالْعَقُوبَاتِ الذَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُنَجِّيهِمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَيُجْزِلُ لَهُمْ كَثِيرَ الثَّوَابِ.

﴿١١﴾ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: فَتَوَلَّاهُمْ بِرَحْمَتِهِ، فَأَخْرَجَهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَتَوَلَّى جَزَاءَهُمْ وَنَصَرَهُمْ، ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ﴾: بِاللَّهِ تَعَالَى؛ حَيْثُ قَطَعُوا عَنْهُمْ وَلايَةَ اللَّهِ، وَسَدُّوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ رَحْمَتَهُ ﴿لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾: يَهْدِيهِمْ إِلَى سَبِيلِ السَّلَامِ، وَلَا يُنَجِّيهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَعِقَابِهِ، بَلْ أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ؛ يَخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

﴿١٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَوْى لَهُمْ ﴿١٢﴾.

﴿١٢﴾ لما ذكر تعالى أنه وليُّ المؤمنين؛ ذكر ما يفعل بهم في الآخرة من دخول الجنات، التي تجري من تحتها الأنهار، التي تسقي تلك البساتين الزاهرة، والأشجار الناضرة المثمرة؛ لكلِّ زوج بهيج، وكلِّ فاكهة لذيدة. ولمَّا ذَكَرَ أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ؛ ذكر أنهم وُكِّلُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ، فلم يتصفوا بصفات المروءة ولا الصفات الإنسانية، بل نزلوا عنها دركات، وصاروا كالأنعام التي لا عقل لها

ولا فضل، بل جل همهم ومقصدهم التمتع بلذات الدنيا وشهواتها، فترى حركاتهم الظاهرة والباطنة دائرة حولها غير متعدية لها إلى ما فيه الخير والسعادة، ولهذا كانت النار مثوى لهم؛ أي: منزلاً معداً لا يخرجون منها ولا يفتر عنهم من عذابها.

﴿وَكَاْنِ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيِكَ الَّتِي أَخْرَجَكَ أَهْلَكْتَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ (١٣).

﴿١٣﴾ أي: وكم من قرية من قرى المكذبين هي أشد قوة من قريتك في الأموال والأولاد والأعوان والأبنية والآلات، أهلكناهم حين كذبوا رسلنا، ولم تُفد فيهم المواعظ؛ فلم نجد لهم ناصراً، ولم تغن عنهم قوتهم من عذاب الله شيئاً؛ فكيف حال هؤلاء الضعفاء أهل قريتك إذ أخرجوك عن وطنك، وكذبوك وعادوك، وأنت أفضل المرسلين وخير الأولين والآخرين؟! أليسوا بأحق من غيرهم بالإهلاك والعقوبة، لولا أن الله تعالى بعث رسوله بالرحمة والتأيي بكل كافر وجاحد.

﴿أَفَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتِيمٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ (١٤).

﴿١٤﴾ أي: لا يستوي من هو على بصيرة من أمر دينه علماً وعملاً قد علم الحق واتبعه، ورجا ما وعده الله لأهل الحق؛ كمن هو أعمى القلب، قد رفض الحق وأضله واتبع هواه بغير هدى من الله، ومع ذلك يرى أن ما هو عليه هو الحق؛ فما أبعد الفرق بين الفريقين! وما أعظم التفاوت بين الطائفتين! أهل الحق وأهل الغي.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلَدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ (١٥).

﴿١٥﴾ أي: مثل الجنة التي أعدّها الله لعباده الذين اتقوا سخطه، واتبعوا رضوانه؛ أي: نعتها وصفتها الجميلة، ﴿فيها أنهار من ماء غير آسن﴾؛ أي: غير متغير لا بوخم ولا بريح منتنة ولا بمرارة ولا بكدورة، بل هو أعذب المياه وأصفاه وأطيبها ريحاً وألذها شرباً، ﴿وأنهار من لبن لم يتغير طعمه﴾: بحموضة ولا غيرها، ﴿وأنهار من خمر لذة للشاربين﴾؛ أي: يلتذ بها^(١) شاربها لذة عظيمة،

(١) في (ب): «به».

لا كخمر الدنيا الذي يُكره مذاقه ويُصدّع الرأس ويغوّل العقل، ﴿وأنهار من عسل مصفى﴾: من شمعهِ وسائر أوساخهِ. ﴿ولهم فيها من كل الثمرات﴾: من نخيل وعنب وتفتح ورماني وأترج وتين وغير ذلك ممّا لا نظير له في الدنيا؛ فهذا المحبوب المطلوب قد حصل لهم. ثم قال: ﴿ومغفرة من ربهم﴾: يزول بها عنهم المرهوب؛ فأَيُّ هؤلاء خيرٌ أم ﴿من هو خالد في النار﴾: التي اشتدّ حرّها وتضاعف عذابها، ﴿وسقوا﴾: فيها ﴿ماء حميماً﴾؛ أي: حارّاً جدّاً، ﴿فقطّع أمعاءهم﴾: فسبحان من فاوت بين الدارين والجزأين والعاملين والعملين.

﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْمَعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۖ تَقْوَاهُمْ ۖ﴾ (١٧).

﴿١٦﴾ يقول تعالى: ومن المنافقين ﴿مَنْ يَسْمَعُ إِلَيْكَ﴾: ما تقول؛ استماعاً لا عن قبول وانقياد، بل معرضةً لقلوبهم عنه، ولهذا قال: ﴿حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم﴾: مستفهمين عما قلت وما سمعوا ممّا لم يكن لهم فيه رغبة: ﴿ماذا قال آنفاً﴾؛ أي: قريباً! وهذا في غاية الذمّ لهم؛ فإنهم لو كانوا حريصين على الخير؛ لَأَلْقَوْا إليه أسماعهم ووعته لقلوبهم وانقادت له جوارحهم، ولكنهم بعكس هذه الحال، ولهذا قال: ﴿أولئك الذين طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: ختم عليها وسدّ أبواب الخير التي تصل إليها بسبب اتّباعهم أهواءهم التي لا يهتدون فيها إلّا الباطل.

﴿١٧﴾ ثم بيّن حال المهتدين، فقال: ﴿والذين اهتدوا﴾: بالإيمان والانقياد واتباع ما يرضي الله ﴿زادهم هدى﴾: شكراً منه تعالى لهم على ذلك، ﴿وآتاهم تقواهم﴾؛ أي: وفّقهم للخير، وحفّظهم من الشر. فذكر للمهتدين جزاءين: العلم النافع، والعمل الصالح.

﴿فَهِلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ ۖ﴾ (١٨).

﴿١٨﴾ أي: فهل ينظر هؤلاء المكذبون أو^(١) ينتظرون ﴿إلا الساعة أن تأتيهم بغتة﴾؛ أي: فجأة وهم لا يشعرون، ﴿فقد جاء أشراطها﴾؛ أي: علاماتها الدالة على قربها ﴿فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾؛ أي: من أين لهم إذا جاءتهم الساعة

وانقطعت آجالهم أن يتذكروا ويستعتبوا؛ قد فات ذلك وذهب وقت التذكُر؛ فقد عَمَرُوا ما يتذكَّر فيه من تذكُر وجاءهم النذير. ففي هذا الحثُّ على الاستعداد قبل مفاجأة الموت؛ فَإِنَّ موت الإنسان قيامُ ساعته.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ (١٩).

﴿١٩﴾ العلم لا بدُّ فيه من إقرار القلب ومعرفته بمعنى ما طَلِبَ منه علمه، وتماه أن يعملَ بمقتضاه. وهذا العلم الذي أمر الله به، وهو العلم بتوحيد الله، فرضُ عينٍ على كلِّ إنسان، لا يسقطُ عن أحدٍ كائناً مَنْ كان، بل كلُّ مضطرٍّ إلى ذلك.

والطريق إلى العلم بأنَّه لا إله إلا الله^(١) أمورٌ:

أحدها - بل أعظمها -: تدبُّر أسمائه وصفاته وأفعاله الدالة على كماله وعظمته وجلاله؛ فإنَّها توجب بذل الجهد في التألُّه له والتعبدُ للربِّ الكامل الذي له كلُّ حمدٍ ومجدٍ وجلالٍ وجمال.

الثاني: العلمُ بأنَّه تعالى المنفردُ بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنَّه المنفردُ بالألوهية.

الثالث: العلمُ بأنَّه المنفردُ بالنعم الظاهرة والباطنة الدنيئة والدنيوية؛ فإنَّ ذلك يوجب تعلق القلب به ومحَبَّته والتألُّه له وحده لا شريك له.

الرابع: ما نراه ونسمعه من الثوابِ لأوليائِهِ القائمين بتوحيده من النصر والنعم العاجلة، ومن عقوبتهِ لأعدائِهِ المشركين به؛ فإنَّ هذا داعٍ إلى العلم بأنَّه تعالى وحده المستحقُّ للعبادة كُلِّها.

الخامس: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عُبِدَتْ مع الله وأتخذت آلهة، وأنَّها ناقصةٌ من جميع الوجوه، فقيرةٌ بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعبديها نفعا ولا ضرا ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، ولا ينصرون مَنْ عبدَهم ولا ينفعونهم بمِثقال ذرَّةٍ من جلب خيرٍ أو دفع شرٍّ؛ فإنَّ العلم بذلك يوجب العلم بأنَّه لا إله إلا الله^(١) وبطلان إلهية ما سواه.

(١) في (ب): «هو».

السادس: اتَّفَقَ كتب الله على ذلك وتواطؤها عليه.

السابع: أن خواصَّ الخلق الذين هم أكملُ الخليقة أخلاقاً وعقولاً ورأياً وصواباً وعلماً - وهم الرسلُ والأنبياءُ والعلماءُ الربانيُّون - قد شهدوا لله بذلك.

الثامن: ما أقامه الله من الأدلَّةِ الأفقيَّةِ والنفسيةِ التي تدلُّ على التوحيد أعظم دلالةً وتنادي عليه بلسان حالها بما أودَّعها من لطائف صنعته وبديع حكمته وغرائب خلقه؛ فهذه الطرق التي أكثر الله من دعوة الخلق بها إلى أنه لا إله إلا الله، وأبداها في كتابه وأعادها، عند تأمل العبد في بعضها؛ لا بد أن يكون عنده يقينٌ وعلمٌ بذلك؛ فكيف إذا اجتمعت وتواطأت واتَّفقت وقامت أدلَّةٌ للتوحيد من كلِّ جانب؟! فهناك يرسخُ الإيمان والعلم بذلك في قلب العبد؛ بحيث يكون كالجبال الرواسي، لا تزلزله الشُّبه والخيالات، ولا يزداد على تكرُّر الباطل والشُّبه إلا نمواً وكمالاً. لهذا، وإن نظرت إلى الدليل العظيم والأمر الكبير - وهو تدبُّر هذا القرآن العظيم والتأمُّل في آياته؛ فإنَّه البابُ الأعظم إلى العلم بالتوحيد، ويحصلُ به من تفاصيله وجمله ما لا تحصل في غيره.

وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَذَنْبِكَ﴾؛ أي: اطلب من الله المغفرة لذنبك؛ بأنْ تفعل أسباب المغفرة من التوبة والدُّعاء بالمغفرة والحسنات الماحية وترك الذُّنوب والعفو عن الجرائم، ﴿و﴾ استغفر أيضاً ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾؛ فإنَّهم بسبب إيمانهم كان لهم حقٌّ على كلِّ مسلم ومسلمة، ومن جملة حقوقهم أن يدعى لهم ويُسْتَغْفَرَ لذنوبهم، وإذا كان مأموراً بالاستغفار لهم المتضمَّن لإزالة الذُّنوب وعقوباتها عنهم؛ فإنَّ من لوازم ذلك النَّصح لهم، وأن يحبَّ لهم من الخير ما يحبُّ لنفسه، ويكره لهم من الشرِّ ما يكره لنفسه، ويأمرهم بما فيه الخير لهم، وينهاهم عمَّا فيه ضررهم، ويعفو عن مساوئهم ومعاييبهم، ويحرصُ على اجتماعهم اجتماعاً تتألف به قلوبهم، ويزول ما بينهم من الأحقاد المفضية للمعاداة والشقاق، الذي به تكثُر ذنوبهم ومعاصيهم. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾؛ أي: تصرفاتكم وحركاتكم وذهابكم ومجيئكم، ﴿وَمُتَوَاكِمَكُمْ﴾: الذي به تستقرون؛ فهو يعلمكم في الحركات والسكنات، فيجازيكم على ذلك أتمَّ الجزاء وأوفاه.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ تُحْكَمُ وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلُ

مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴿

﴿٢٠﴾ يقول تعالى: ﴿ويقول الذين آمنوا﴾: استعجالاً ومبادرة للأوامر الشاقة: ﴿لولا نزلت سورة﴾؛ أي: فيها الأمر بالقتال، ﴿فإذا أنزلت سورة محكمة﴾؛ أي: ملزم العمل بها، ﴿وذكر فيها القتال﴾: الذي هو أشق شيء على النفوس؛ لم يثبت ضعفاء الإيمان على امثال هذه الأوامر، ولهذا قال: ﴿رايت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت﴾: من كراحتهم لذلك وشدة عليهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾.

﴿٢٠ - ٢١﴾ ثم ندبهم تعالى إلى ما هو الأليق بحالهم، فقال: ﴿فأولى لهم. طاعة وقول معروف﴾؛ أي: فأولى لهم أن يمتثلوا الأمر الحاضر المحتم عليهم، ويجمعوا عليه هممهم، ولا يطلبوا أن يشرع لهم ما هو شاق عليهم، وليفرحوا بعافية الله تعالى وعفوه، ﴿فإذا عزم الأمر﴾؛ أي: جاءهم أمر^(١) جد وأمر محتم، ففي هذه الحال، لو ﴿صدقوا الله﴾: بالاستعانة به وبذل الجهد في امثاله، ﴿لكان خيراً لهم﴾: من حالهم الأولى، وذلك من وجوه: منها: أن العبد ناقص من كل وجه، لا قدرة له إلا إن أعانه الله؛ فلا يطلب زيادة على ما هو قائم بصدده. ومنها: أنه إذا تعلقت نفسه بالمستقبل؛ ضعف عن العمل بوظيفة وقته الحاضر وبوظيفة المستقبل، أما الحال؛ فلأن الهمة انتقلت عنه إلى غيره، والعمل تبع للهمة. وأما المستقبل؛ فإنه لا يجيء حتى تفتّر الهمة عن نشاطها، فلا يعان عليه. ومنها: أن العبد المؤمل للآمال المستقبلية، مع كسله عن عمل الوقت الحاضر، شبيهة بالمتألي الذي يجزم بقدرته على ما يستقبل من أموره؛ فأحرى به أن يُخَذَّل ولا يقوم بما هم به و[وطن]^(٢) نفسه عليه؛ فالذي ينبغي أن يجمع العبد همه وفكرته ونشاطه على وقته الحاضر، ويؤدّي وظيفته بحسب قدرته، ثم كلما جاء وقت؛ استقبله بنشاط وهمّة عالية مجتمعة غير متفرقة، مستعيناً بربه في ذلك؛ فهذا حريٌّ بالتوفيق والتسديد في جميع أموره.

(١) في (ب): «الأمر».

(٢) كذا في هامش (ب) بعد أن صوبها الشيخ: وأما في (أ) فقد بقيت: «توعد».

﴿٢٢﴾ ثم ذكر تعالى حال المتولّي عن طاعة ربّه، وأنّه لا يتولّى إلى خير، بل إلى شرّ، فقال: ﴿فهل عسيتم إن تولّيتُم أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم﴾؛ أي: فهما أمران: إمّا التزام طاعة الله وامتنثال لأوامره؛ فتمّ الخير والرشد والفلاح. وإمّا إعراض عن ذلك وتولي عن طاعة الله؛ فما تمّ إلّا الفساد في الأرض بالعمل بالمعاصي وقطيعة الأرحام.

﴿٢٣﴾ ﴿أولئك الذين﴾: أفسدوا في الأرض، وقطّعوا أرحامهم. ﴿لعنهم الله﴾: بأن أبعدهم عن رحمته وقربوا من سخط الله ﴿فأصمّهم وأعمى أبصارهم﴾؛ أي: جعلهم لا يسمعون ما ينفعهم ولا يبصرون؛ فلم أذان ولكن لا تسمع سماع إذعان وقبول، وإنّما تسمع سماعاً تقوم بها^(١) حجة الله عليها، ولهم أعين ولكن لا يبصرون بها العبر والآيات، ولا يلتفتون بها إلى البراهين والبيّنات.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ قُلُوبٌ أَفْقَالُهَا﴾ (٢٤).

﴿٢٤﴾ أي: فهلاً يتدبّر هؤلاء المعرضون لكتاب الله ويتأملونه حقّ التأمل؛ فإنهم لو تدبّروه؛ لدلّهم على كلّ خير، ولحذّروهم من كلّ شرّ، ولملأ قلوبهم من الإيمان وأفندتهم من الإيقان، ولأوصلهم إلى المطالب العالية والمواهب الغالية، ولبيّن لهم الطريق الموصلة إلى الله وإلى جنته ومكملاتها ومفسداتها، والطريق الموصلة إلى العذاب، وبأيّ شيء يُحذر^(٢)، ولعرّفهم برّبهم وأسمائه وصفاته وإحسانه، ولشوّقهم إلى الثواب الجزيل، ورهبهم من العقاب الوبيل، ﴿أم على قلوب أفقألها﴾؛ أي: قد أغلق على ما فيها من الإعراض والغفلة والاعتراض^(٣)، وأقفلت فلا يدخلها خير أبداً؟! هذا هو الواقع.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ أَذْبَانِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ﴾ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَطِيضُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَتْبَعُوا مَا اسَّخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ (٢٨).

﴿٢٥﴾ يخبر تعالى عن حالة المرتدّين عن الهدى والإيمان على أعقابهم إلى

(٢) في (ب): «تحذر».

(١) في (ب): «به».

(٣) في (ب): «على ما فيها من الشر».

الضلال والكفران، ذلك لا عن دليل دلهم ولا برهان، وإنما هو تسويل من عدوهم الشيطان، وتزيين لهم وإملاء منه لهم؛ ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

﴿٢٦﴾ و﴿ذلك﴾: أنهم قد تبين لهم الهدى، فزهدوا فيه ورفضوه، و﴿قالوا﴾ للذين كرهوا ما نزل الله: ﴿من المبارزين العداوة لله ولرسوله: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ﴾؛ أي: الذي يوافق أهواءهم؛ فلذلك عاقبهم الله بالضلال والإقامة على ما يوصلهم إلى الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾: فلذلك فضحهم، وبينها لعباده المؤمنين؛ لئلا يغتروا بها.

﴿٢٧﴾ ﴿فكيف﴾ ترى حالهم الشنيعة ورؤيتهم الفظيعة، ﴿إذا توفقتهم الملائكة﴾: الموكلون بقبض أرواحهم، ﴿يضربون وجوههم وأدبارهم﴾: بالمقامع الشديدة.

﴿٢٨﴾ ﴿ذلك﴾: العذاب الذي استحقوه ونالوه، بسبب ﴿أنهم اتبعوا ما أسخط الله﴾: من كل كفر فسوق وعصيان، ﴿وكرهوا رضوانه﴾: فلم يكن لهم رغبة فيما يقربهم إليه ولا يدينهم منه، ﴿فأحبط أعمالهم﴾؛ أي: أبطلها وأذهبها، وهذا بخلاف من اتبع ما يرضي الله وكره سخطه؛ فإنه سيكفر عنه سيئاته ويضاعف له أجره وثوابه.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنْتَهُمْ﴾ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَفَรَّقْنَهُمْ إِسِيْمُهُمْ وَتَعَرَّفْنَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ بِأَنْبَاءِ مَا كُنْتُمْ بِآيَاتِنَا تُكَذِّبُونَ﴾.

﴿٢٩﴾ يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾: من شبهة أو شهوة؛ بحيث تخرج القلب عن حال صحته واعتداله، أن الله لا يخرج ما في قلوبهم من الأضغان والعداوة للإسلام وأهله! هذا ظن لا يليق بحكمة الله؛ فإنه لا بد أن يميز الصادق من الكاذب، وذلك بالابتلاء بالمحن التي من ثبَّت عليها ودام إيمانه فيها؛ فهو المؤمن حقيقة، ومن رذته على عقبيه، فلم يصبر عليها، وحين أتاه الامتحان جزع وضعف إيمانه وخرج ما في قلبه من الضغن وتبين نفاقه؛ هذا مقتضى الحكمة الإلهية.

﴿٣٠﴾ مع أنه تعالى قال: ﴿لو نشاء لأريناكمهم فلعرفتكم بسيماهم﴾؛ أي:

بعلاماتهم التي هي كالرسم^(١) في وجوههم، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾؛ أي: لا بد أن يظهر ما في قلوبهم ويتبين بفلتات ألسنتهم؛ فإن الألسن مغارف القلوب، يظهر فيها ما في القلوب من الخير والشر، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾: فيجازيكم عليها.

﴿٣١﴾ ثم ذَكَرَ أعظم امتحانٍ يمتحن به عباده، وهو الجهاد في سبيل الله، فقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾؛ أي: نختبر إيمانكم وصبركم، ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾: فمن امتثل أمر الله وجاهد في سبيل الله بنصر دينه وإعلاء كلمته؛ فهو المؤمن حقاً، ومن تكاسل عن ذلك؛ كان ذلك نقصاً في إيمانه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَالُهُمْ﴾.

﴿٣٢﴾ هذا وعيدٌ شديدٌ لمن جمع أنواع الشر كلها من الكفر بالله وصد الخلق عن سبيل الله الذي نصَّبه موصلاً إليه، ﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾؛ أي: عاندوه وخالفوه عن عمدٍ وعنادٍ، لا عن جهلٍ وغيٍّ وضلالٍ؛ فإنهم لن يضرُّوا الله شيئاً؛ فلا ينقص به ملكه، ﴿وَسَيُحِطُّ أَعْمَالُهُمْ﴾؛ أي: مساعيهم التي بذلوها في نصر الباطل؛ بأن لا تثمر لهم إلا الخيبة والخسران، وأعمالهم التي يرجون بها الثواب لا تُقبل؛ لعدم وجود شرطها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾.

﴿٣٣﴾ يأمر تعالى المؤمنين بأمرٍ به تتم [أمورهم] وتحصل سعادتهم الدينية والدنيوية، وهو طاعته وطاعة رسوله في أصول الدين وفروعه، والطاعة هي امتثال الأمر واجتناب النهي على الوجه المأمور به بالإخلاص وتمام المتابعة، وقوله: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾: يشمل النهي عن إبطالها بعد عملها بما يفسدها من من بها وإعجاب وفخرٍ وسمعةٍ، ومن عمل بالمعاصي التي تضمحل معها الأعمال ويحبط أجرها. ويشمل النهي عن إفسادها حال وقوعها بقطعها أو الإتيان بمفسدٍ من مفسداتها. فمبطلات الصلاة والصيام والحج ونحوها كلها داخله في هذا ومنهجي عنها.

ويستدلُّ الفقهاء بهذه الآية على تحريم قطع الفرض وكراهة قطع النفل من غير موجبٍ لذلك، وإذا كان الله قد نهى عن إبطال الأعمال؛ فهو أمرٌ بإصلاحها

(١) في (ب): «كالوسم».

وإكمالها وإتمامها والإتيان بها على الوجه الذي تَصْلُحُ به علماً وعملاً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۖ فَلَا تَهْتُمُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَهِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَفْزِكَ أَعْمَالُكُمْ ۖ﴾ (٣٥).

﴿٣٤﴾ هذه الآية والتي في البقرة^(١) قوله: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾: مقيدتان لكل نص مطلق فيه إحباط العمل بالكفر؛ فإنه مقيد بالموت عليه، فقال هنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ﴿وَصَدُّوا﴾: الخلق ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾: بتزهدهم إياهم بالحق، ودعوتهم إلى الباطل وتزيينه، ﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾: لم يتوبوا منه، ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾: لا بشفاعة ولا بغيرها؛ لأنه قد تحتم عليهم العقاب، وفاتهم الثواب، ووجب عليهم الخلود في النار، وسُدَّتْ عليهم رحمة الرحيم الغفار.

ومفهوم الآية الكريمة أنهم إن تابوا من ذلك قبل موتهم؛ فإنَّ الله يغفر لهم ويرحمهم ويدخلهم الجنة، ولو كانوا مفنين أعمارهم في الكفر به والصد عن سبيله والإقدام على معاصيه. فسبحان من فَتَحَ لعباده أبواب الرحمة ولم يغلقها عن أحد ما دام حياً متمكناً من التوبة. وسبحان الحليم الذي لا يعاجل العاصين بالعقوبة، بل يعافيه ويرزقهم كأنهم ما عصوه مع قدرته عليهم.

﴿٣٥﴾ ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾؛ أي: تضعفوا عن قتال عدوكم، ويستولي عليكم الخوف، بل اصبروا، واثبتوا، ووطنوا أنفسكم على القتال والجلاء طلباً لمرضاة ربكم ونصحاً للإسلام وإغضاباً للشيطان، ﴿و﴾ لا ﴿تَدْعُوا إِلَى﴾: المسالمة والمتاركة بينكم وبين أعدائكم طلباً للراحة، ﴿و﴾ الحال أنكم ﴿أَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَفْزِكَ﴾؛ أي: ينقصكم ﴿أَعْمَالُكُمْ﴾: فهذه الأمور الثلاثة كلٌ منها مقتضى للصبر وعدم الوهن كونهم الأعلى؛ أي: قد توفرت لهم أسباب النصر واعدوا من الله بالوعد الصادق؛ فإنَّ الإنسان لا يهن إلا إذا كان أذل من غيره وأضعف عدداً أو عدداً وقوة داخلية وخارجية.

الثاني: أنَّ الله معهم؛ فإنَّهم مؤمنون، والله مع المؤمنين بالعون والنصر والتأييد، وذلك موجب لقوة قلوبهم وإقدامهم على عدوهم.

الثالث: أَنَّ اللَّهَ لَا يَنْقُصُهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ شَيْئاً، بَلْ سَيُوفِيهِمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، خصوصاً عبادة الجهاد؛ فَإِنَّ النِّفْقَةَ تَضَاعَفَ فِيهِ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يَصِيْبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيْظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. وَلَا يَنْفَقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

فإذا عرف الإنسان أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُضِيعُ عَمَلَهُ وَجَهاده؛ أوجب له ذَلِكَ النشاط وبذل الجهد فيما يترتب عليه الأجر والثواب؛ فكيف إذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة؟! فَإِنَّ ذَلِكَ يوجب النشاط التام. فهذا من ترغيب الله لعباده وتنشيطهم وتقوية أنفسهم على ما فيه صلاحهم وفلاحهم.

﴿إِنَّمَا لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالُكُمْ ﴿٣٦﴾ إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّرُوا وَيَخْرُجْ أَضْعَافَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَكَأَنَّهُ هُوَ لَا يُدْعَوْنَ لِيُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿٣٦ - ٣٧﴾ هذا ترهيد منه تعالى لعباده في الحياة الدنيا؛ بإخبارهم عن حقيقة أمرها؛ بأنها لعبٌ ولهوٌ؛ لعبٌ في الأبدان ولهوٌ في القلوب، فلا يزال العبدُ لاهياً في ماله وأولاده وزينته ولذاته من النساء والمآكل والمشارب والمساكن والمجالس والمناظر والرياسات، لاعباً في كلِّ عمل لا فائدة فيه، بل هو دائرٌ بين البطالة والغفلة والمعاصي، حتى يستكمل^(١) دُنْيَاهُ وَيَخْضُرُهُ أَجَلُهُ؛ فإذا هذه الأمور قد وُلَّتْ وفارقت ولم يحصل العبدُ منها على طائل، بل قد تبين له خسارته وحرمانه وحضر عذابه؛ فهذا موجبٌ للعاقل الزهد فيها وعدم الرغبة فيها والاهتمام بشأنها، وإنما الذي ينبغي أن يهتم به ما ذكره بقوله: ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾: بأن تؤمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتقوموا بتقواه التي هي من لوازم الإيمان ومقتضياته، وهي العمل بمرضاته على الدوام، مع ترك معاصيه؛ فهذا الذي ينفع العبد، وهو الذي ينبغي أن يُتنافس فيه وتُبذل الهمم والأعمال في طلبه، وهو

(١) في (ب): «تستكمل».

مقصودُ الله من عباده؛ رحمةٌ بهم ولطفاً؛ ليشيَّهم الثوابَ الجزيل، ولهذا قال: ﴿وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم﴾؛ أي: لا يريدُ تعالى أن يكلفكم ما يشقُّ عليكم ويغنتكم من أخذ أموالكم وبقائكم بلا مال أو ينقصكم نقصاً يضرُّكم، ولهذا قال: ﴿إن يسألكموها فيخفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم﴾؛ أي: ما في قلوبكم من الضغن إذا طلب منكم ما تكرهون بذلك.

﴿٣٨﴾ والدليل على أنَّ الله لو طلب منكم أموالكم وأحفاكم بسؤالها أنكم تمتنعون منها، أنكم ﴿تدعون لتنفقوا في سبيل الله﴾: على هذا الوجه الذي فيه مصلحتكم الدينية والدنيوية، ﴿فمنكم من يبخل﴾؛ أي: فكيف لو سألكم وطلب منكم أموالكم في غير أمرٍ تروُّه مصلحة عاجلة؟! أليس من باب أولى وأحرى امتناعكم من ذلك؟! ثم قال: ﴿ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه﴾: لأنَّه حرم نفسه ثوابَ الله تعالى، وفاته خيرٌ كثير، ولن يضرَّ الله بترك الإنفاق شيئاً، فإن ﴿الله﴾: هو ﴿الغني وأنتم الفقراء﴾: تحتاجون إليه في جميع أوقاتكم لجميع أموركم، ﴿وإن تتولوا﴾: عن الإيمان بالله وامثال ما يأمركم به؛ ﴿يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾: في التولي، بل يطيعون الله ورسوله ويحبُّون الله ورسوله؛ كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾.

تم تفسير سورة القتال. والحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة الفتح

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٢ وَبَصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾.

﴿١﴾ هذا الفتح المذكور هو صلح الحديبية، حين صدَّ المشركون رسولَ الله ﷺ لما جاء معتمراً في قصة طويلة^(١)، صار آخر أمرها أن صالحهم

(١) كما في حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم عند البخاري (٢٧٣١ و ٢٧٣٢)، مرسله إلا أنه صرح بالسماع عن أصحاب رسول الله ﷺ انظر «الفتح» (٣٣٣/٥).

رسولُ الله ﷺ على وَضْعِ الحربِ بينه وبينهم عشرَ سنين، وعلى أن يعتَمَرَ من العامِ المقبل، وعلى أنْ مَنْ أراد أن يَدْخُلَ في عهدِ قريش وحلفهم؛ دَخَلَ، ومن أحبَّ أن يَدْخُلَ في عهدِ رسولِ الله ﷺ وعقده؛ فعل. وسببُ ذلك لما أَمَّنَ الناسَ بعضهم بعضاً؛ اتَّسَعَتِ دائرةُ الدعوةِ لدينِ الله عزَّ وجلَّ، وصار كلُّ مؤمنٍ بأيِّ محلٍّ كان من تلكِ الأقطارِ يَتِمَكَّنُ من ذلك، وأمكن الحريصُ على الوقوفِ على حقيقةِ الإسلام، فدخلَ الناسُ في تلكِ المدةِ في دينِ الله أفواجا؛ فلذلكِ سَمَّاهُ الله فتحاً، ووصفه بأنه فتحٌ مَبِينٌ؛ أي: ظاهرٌ جليٌّ، وذلكِ لأنَّ المقصودَ في فتحِ بلدانِ المشركين إِعْزَازُ دينِ الله وانتصارَ المسلمين، وهذا حصلَ بذلكِ الفتحِ.

﴿٢﴾ وَرَتَّبَ اللهُ عَلَى هَذَا الْفَتْحِ عِدَّةَ أُمُورٍ، فَقَالَ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾: وذلك - والله أعلم - بسببِ مَا حَصَلَ بِسَبَبِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ الْكَثِيرَةِ وَالِدُّخُولِ فِي الدِّينِ بِكَثْرَةٍ، وَبِمَا تَحْمِلُ ﷺ مِنْ تِلْكَ الشُّرُوطِ الَّتِي لَا يَصْبِرُ عَلَيْهَا إِلَّا أَوْلُو الْعِزْمِ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ مَنَاقِبِهِ وَكَرَامَاتِهِ ﷺ: أَنْ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، ﴿وَيَتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ﴾: بِإِعْزَازِ دِينِكَ وَنَصْرِكَ عَلَى أَعْدَائِكَ وَاتِّسَاعِ كَلِمَتِكَ، ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾: تَنَالُ بِهِ السَّعَادَةَ الْأَبَدِيَّةَ وَالْفَلَاحَ السَّامِيَّ.

﴿٣﴾ ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾؛ أي: قُوًيًا لَا يَتَضَعُّعُ فِيهِ الْإِسْلَامُ، بَلْ يَحْضُلُ الْإِنْتِصَارُ التَّامُّ وَقَمَعَ الْكَافِرِينَ وَذُلُّهُمْ وَنَقُصُّهُمْ، مَعَ تَوْفُّرِ قُوَى الْمُسْلِمِينَ وَنُمُوِّهِمْ وَنُمُوِّ أَمْوَالِهِمْ؛ [ثم] ذَكَرَ آثَارَ هَذَا الْفَتْحِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَرْدَادُوا إِلَى مَا مَعَهُمْ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۝٢ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٣ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ ۝٤ وَاللَّهُ عَلَى السَّوَةِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوَةِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝٥﴾.

﴿٤﴾ يخبر تعالى عن مثته على المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم، وهي السكون والطمأنينة والثبات عند نزول المحن المقلقة والأمور الصعبة التي تشوش

القلوب وتزعج الأبواب وتضعف النفوس؛ فمن نعمة الله على عبده في هذه الحال أن يثبتته ويربط على قلبه، وينزل عليه السكينة، ليتلقى هذه المشقات بقلب ثابت ونفس مطمئنة، فيستعد بذلك لإقامة أمر الله في هذه الحال، فيزداد بذلك إيمانه، ويتم إيقانه. فالصحابه رضي الله عنهم لما جرى ما جرى بين رسول الله ﷺ والمشركون من تلك الشروط التي ظاهرها أنها غضاضة عليهم وحط من أقدارهم، وتلك لا تكاد تصبر عليها النفوس، فلما صبروا عليها ووطنوا أنفسهم لها؛ ازدادوا بذلك إيماناً مع إيمانهم. وقوله: ﴿ولله جنود السموات والأرض﴾؛ أي: جميعها في ملكه وتحت تدبيره وقهره؛ فلا يظن المشركون أن الله لا ينصر دينه ونبيه، ولكنه تعالى عليهم حكيم، فتقتضي حكمته المداولة بين الناس في الأيام وتأخير نصر المؤمنين إلى وقت آخر.

﴿٥﴾ ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾: فهذا أعظم ما يحصل للمؤمنين؛ أي: يحصل لهم المرغوب المطلوب بدخول الجنات، ويزيل عنهم المحذور بتكفير السيئات، ﴿وكان ذلك﴾: الجزاء المذكور للمؤمنين، ﴿عند الله فوزاً عظيماً﴾: فهذا ما يفعل بالمؤمنين في ذلك الفتح المبين.

﴿٦﴾ وأما المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات؛ فإن الله يعذبهم بذلك ويريهما ما يسوؤهما؛ حيث كان مقصودهم خذلان المؤمنين، وظنوا بالله ظن السوء أنه لا ينصر دينه ولا يعلي كلمته، وأن أهل الباطل ستكون لهم الدائرة على أهل الحق، فأدار الله عليهم ظنهم، وكانت دائرة السوء عليهم في الدنيا، ﴿وغضب الله عليهم﴾: بما اقترفوه من المحادة لله ولرسوله، ﴿ولعنتهم﴾؛ أي: أبعدهم وأقصاهم عن رحمته، ﴿وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً﴾.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَازِيًا حَكِيمًا﴾.

﴿٧﴾ كرر الإخبار بأن له ملك السماوات والأرض وما فيهما من الجنود؛ ليعلم العباد أنه تعالى هو المعز المذل، وأنه سينصر جنوده المنسوبة إليه؛ كما قال تعالى: ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾، ﴿وكان الله عزيزاً﴾؛ أي: قوياً غالباً قاهراً لكل شيء، ومع عزته وقوته؛ فهو حكيم في خلقه. وتدبيره يجري على ما تقتضيه حكمته وإتقانه.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ٨ ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ٩ .

﴿٨﴾ أي: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾: أيها الرسول الكريم، ﴿شاهدًا﴾: لأمتك بما فعلوه من خير وشر، وشاهدًا على المقالات والمسائل حقها وباطلها، وشاهدًا لله تعالى بالوحدانية والانفراد بالكمال من كل وجه، ﴿ومبشرًا﴾: من أطاعك وأطاع الله بالشواب الدنيوي والديني والأخروي، ومنذراً من عصى الله بالعقاب العاجل والآجل، ومن تمام البشارة والنذارة بيان الأعمال والأخلاق التي يبشر بها وينذر؛ فهو المبين للخير والشر والسعادة والشقاوة والحق من الباطل.

﴿٩﴾ ولهذا رتب على ذلك قوله: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ أي: بسبب دعوة الرسول لكم وتعليمه لكم ما ينفعكم أرسلناه؛ لتقوموا بالإيمان بالله ورسوله، المستلزم ذلك لطاعتهما في جميع الأمور، ﴿وتعزروه وتوقروه﴾؛ أي: تعزروا الرسول ﷺ وتوقروه؛ أي: تعظموه، وتجلوه، وتقوموا بحقوقه، كما كانت له المنة العظيمة براقبكم، ﴿وتسبحوه﴾؛ أي: تسبحوا لله ﴿بكراً وأصيلاً﴾: أول النهار وآخره.

فذكر الله في هذه الآية الحق المشترك بين الله وبين رسوله، وهو الإيمان بهما، والمختص بالرسول، وهو التعزير والتوقير، والمختص بالله، وهو التسبيح له والتقدیس بصلاة أو غيرها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسْئُورٌ بِهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ١٠ .

﴿١٠﴾ هذه المبايعة التي أشار الله إليها هي بيعة الرضوان، التي بايع الصحابة رضي الله عنهم فيها رسول الله ﷺ على أن لا يفروا عنه؛ فهي عقد خاص، من لوازمه أن لا يفروا، ولو لم يبق منهم إلا القليل، ولو كانوا في حال يجوز الفراق فيها. فأخبر تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾: حقيقة الأمر أنهم ﴿يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾: ويعقدون العقد معه، حتى إنه من شدة تأكده أنه قال: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: كأنهم بايعوا الله وصافحوه بتلك المبايعة، وكل هذا لزيادة التأكيد والتقوية، وحملهم على الوفاء بها، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ نَكَثَ﴾: فلم يف بما عاهد الله عليه، ﴿فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾؛ أي: لأن وبال ذلك راجع إليه وعقوبته واصله له،

﴿ومن أوفى بما عاهدَ عليه الله﴾؛ أي: أتى به كاملاً موفراً، ﴿فسيوّتيه أجراً عظيماً﴾: لا يعلم عظمه وقدره إلا الذي آتاه إيّاه.

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّرَتْ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾.

﴿١١ - ١٣﴾ يذمّ تعالى المتخلفين عن رسول^(١) الله في الجهاد في سبيله من الأعراب، الذين ضَعُفَ إيمانُهم وكان في قلوبهم مرضٌ وسوء ظنٌّ بالله تعالى، وأنهم سيعتذرون؛ بأنّ أموالهم وأهليهم شغلتهم عن الخروج في سبيله، وأنهم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يستغفرَ لهم؛ قال الله تعالى: ﴿يقولون بالستينهم ما ليس في قلوبهم﴾: فإنّ طلبهم الاستغفارَ من رسول الله ﷺ يدلُّ على ندمهم وإقرارهم على أنفسهم بالذنب، وأنهم تخلفوا تخلفاً يحتاجُ إلى توبة واستغفار؛ فلو كان هذا الذي في قلوبهم؛ لكان استغفارُ الرسول نافعاً لهم؛ لأنهم قد تابوا وأنبأوا، ولكنّ الذي في قلوبهم أنّهم إنّما تخلفوا لأنهم ظنّوا بالله ظنّ السَّوءِ، فظنّوا ﴿أن لَنْ يَنْقَلِبَ الرسولُ والمؤمنون إلى أهليهم أبداً﴾؛ أي: أنّهم سيقتلون ويُسْتَأْصَلون، ولم يزل هذا الظنُّ يُزَيِّنُ في قلوبهم، ويطمئنُّون إليه حتى استحكَمَ، وسببُ ذلك أمران: أحدهما: أنّهم كانوا ﴿قوماً بُوراً﴾؛ أي: هلكى لا خير فيهم؛ فلو كان فيهم خير؛ لم يكن هذا في قلوبهم. الثاني: ضَعُفُ إيمانهم ويقينهم بوعد الله ونصر دينه وإعلاء كلمته، ولهذا قال: ﴿ومن لم يؤمن بالله ورسوله﴾؛ أي: فإنّه كافرٌ مستحقٌّ للعقاب، ﴿فإنّا أَعْتَدْنَا للكافرين سعيراً﴾.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٤﴾ أي: هو تعالى المنفردُ بملك السماوات والأرض، يتصرّف فيهما بما يشاء من الأحكام القدريّة والأحكام الشرعيّة والأحكام الجزائيّة، ولهذا ذكر حكم

الجزء المرتب على الأحكام الشرعية، فقال: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾: وهو مَنْ قام بما أمره الله به، ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾: مِمَّنْ تهاوَنَ بأمر الله، ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾؛ أي: وصفه اللازم الذي لا ينفك عنه المغفرة والرحمة، فلا يزال في جميع الأوقات يغفر للمذنبين، ويتجاوز عن الخطأين، ويتقبل توبة التائبين، وينزل خيره المدرار آناء الليل والنهار.

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِرِهِمْ لِنَاخِذُوهُمْ ذُرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ فَلَئَن تَتَّبِعُوا كَذَلِكَم قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٥﴾.

﴿١٥﴾ لما ذكر تعالى المخلفين وذمهم؛ ذكر أنَّ من عقوبتهم الدنيوية أنَّ الرسول ﷺ وأصحابه إذا انطلقوا إلى غنائم لا قتال فيها ليأخذوها؛ طلبوا منهم الصحبة والمشاركة، ويقولون: ﴿ذُرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ﴾: بذلك ﴿أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾؛ حيث حَكَمَ بعقوبتهم واختصاص الصحابة المؤمنين بتلك الغنائم شرعاً وقدرًا، ﴿قُلْ﴾: لهم: ﴿لَن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكَم قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾: إنكم محرومون منها بما جنيتم على أنفسكم وبما تركتم القتال أول مرة؛ ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾: مجيبين لهذا الكلام الذي مُبِعُوا به عن الخروج: ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾: على الغنائم! هذا منتهى علمهم في هذا الموضع، ولو فهموا رُشْدَهُمْ؛ لعلموا أنَّ حرمانهم بسبب عصيانهم، وأنَّ المعاصي لها عقوبات دنيوية ودينية، ولهذا قال: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَىٰ بِأَسْ شَدِيدٍ تَقْتُلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٦﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّتِ جَنَّتِ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يَُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٧﴾.

﴿١٦﴾ لما ذكر تعالى أنَّ المخلفين من الأعراب يتخلفون عن الجهاد في سبيله، ويعتذرون بغير عذر، وأنهم يطلبون الخروج معهم إذا لم يكن شوكة ولا قتال، بل لمجرد الغنيمة؛ قال تعالى ممتحناً لهم: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَىٰ بِأَسْ شَدِيدٍ﴾؛ أي: سيدعوكم الرسول وَمَنْ ناب منابه من الخلفاء

الراشدين والأئمة، وهؤلاء القوم فارس والروم ومن نحا نحوهم وأشبههم، ﴿تَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾؛ أي: إمّا هذا وإمّا هذا، وهذا هو الأمر الواقع؛ فإنهم في حال قتالهم ومقاتلتهم لأولئك الأقوام إذا كانت شدتهم وبأسهم معهم؛ فإنهم في تلك الحال لا يقبلون أن يبذلوا الجزية، بل إمّا أن يدخلوا في الإسلام، وإمّا أن يُقاتلوا على ما هم عليه، فلما أثخنهم المسلمون وضعفوا وذلّوا؛ ذهب بأسهم، فصاروا إمّا أن يسلموا وإمّا أن يبذلوا الجزية، ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا﴾: الداعي لكم إلى قتال هؤلاء، ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾: وهو الأجر الذي رتبّه الله ورسوله على الجهاد في سبيل الله، ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾: عن قتال من دعاكم الرسول إلى قتاله، ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. ودلّت هذه الآية على فضيلة الخلفاء الراشدين الداعين لجهاد أهل البأس من الناس، وأنّه تجب طاعتهم في ذلك.

﴿١٧﴾ ثم ذكر الأعذار التي يُعذّر بها العبد عن الخروج إلى الجهاد، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾؛ أي: في التخلف عن الجهاد لعذرهم المانع، ﴿وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: في امتثال أمرهما واجتناب نهيهما، ﴿يُذْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: فيها ما تشتهي النفس، وتلذذ الأعين، ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾: عن طاعة الله ورسوله، ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: فالسعادة كلّها في طاعة الله، والشقاوة في معصيته ومخالفته.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ ﴿١٨﴾ وَمَعَانِدَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَعَانِدَ كَثِيرَةٍ تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿١٨ - ١٩﴾ يخبر تعالى بفضله ورحمته برضاه عن المؤمنين إذ يبايعون الرسول ﷺ تلك المبايعة التي بيّضت وجوههم واكتسبوا بها سعادة الدنيا والآخرة. وكان سبب هذه البيعة - التي يقال لها: بيعة الرضوان؛ لرضا الله عن المؤمنين فيها. ويقال لها: بيعة أهل الشجرة - أن رسول الله ﷺ لما دارَ الكلام بينه وبين المشركين يوم الحديبية في شأن مجيئه، وأنه لم يجيء لقتال أحد، وإنما جاء زائراً هذا البيت معظماً له، فبعث رسول الله ﷺ عثمان بن عفان لمكة في ذلك، فجاء

خبر غير صادق أَنَّ عثمان قتله المشركون، فجمع رسولُ الله ﷺ مَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَكَانُوا نَحْوًا مِنْ أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةٍ، فَبَايَعُوهُ تَحْتَ شَجَرَةٍ عَلَى قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ وَأَنْ لَا يَفْرُوا حَتَّى يَمُوتُوا، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ رَضِيَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ فِي تِلْكَ الْحَالِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَكْبَرِ الطَّاعَاتِ وَأَجَلِ الْقُرْبَاتِ. ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾: مِنْ الْإِيمَانِ، ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾: شُكْرًا لَهُمْ عَلَى مَا فِي قُلُوبِهِمْ، زَادَهُمْ هُدًى، وَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجَزَعِ مِنْ تِلْكَ الشَّرُوطِ الَّتِي شَرَطَهَا الْمُشْرِكُونَ عَلَى رَسُولِهِ، فَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةَ تَبَيَّنَتْهُمْ، وَتَطْمَئِنُّ بِهَا قُلُوبُهُمْ، ﴿وَأَنَابَهُمْ فَتَحَّا قُورَيْبًا﴾: وَهُوَ فَتَحَ خَيْبَرَ، لَمْ يَحْضُرْهُ سِوَى أَهْلِ الْحَدِيثِ، فَاخْتَصُّوا بِخَيْبَرَ وَغَنَائِمِهَا جِزَاءً لَهُمْ وَشُكْرًا عَلَى مَا فَعَلُوهُ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْقِيَامِ بِمَرْضَاتِهِ، ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾؛ أَي: لَهُ الْعِزَّةُ وَالْقُدْرَةُ، الَّتِي قَهَرَ بِهَا الْأَشْيَاءَ؛ فَلَوْ شَاءَ؛ لَانْتَصَرَ مِنَ الْكُفَّارِ فِي كُلِّ وَقْعَةٍ تَكُونُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَكِنَّهُ حَكِيمٌ يَنْتَلِي بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ وَيَمْتَحِنُ الْمُؤْمِنَ بِالْكَافِرِ.

﴿٢٠﴾ ﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾: وَهَذَا يَشْمَلُ كُلَّ غَنِيمَةٍ عَنَّمَهَا الْمُسْلِمِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾؛ أَي: غَنِيمَةَ خَيْبَرَ؛ أَي: فَلَا تَحْسِبُوهَا وَحْدَهَا، بَلْ ثُمَّ شَيْءٌ كَثِيرٌ مِنَ الْغَنَائِمِ سَيَتَّبِعُهَا، ﴿وَأَحْمَدُوا اللَّهَ إِذْ كَفَّ أَيْدِي النَّاسِ﴾: الْقَادِرِينَ عَلَى قِتَالِكُمُ الْحَرِيشِينَ عَلَيْهِ ﴿عَنْكُمْ﴾: فَهِيَ نِعْمَةٌ وَتَخْفِيفٌ عَنْكُمْ، ﴿وَلَتَكُونَنَّ﴾: هَذِهِ الْغَنِيمَةُ ﴿آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: يَسْتَدْلُونَ بِهَا عَلَى خَيْرِ اللَّهِ الصَّادِقِ وَوَعْدِهِ الْحَقِّ وَثَوَابِهِ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّ الَّذِي قَدَّرَهَا سَيَقْدُرُ غَيْرَهَا، ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾: يَمَّا يَقْبِضُ لَكُمْ مِنَ الْأَسْبَابِ ﴿صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾: مِنَ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ.

﴿٢١﴾ ﴿وَأُخْرَى﴾؛ أَي: وَعَدَكُمْ أَيْضًا غَنِيمَةً أُخْرَى، ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾: وَقْتُ هَذَا الْخُطَابِ، ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾؛ أَي: هُوَ قَادِرٌ عَلَيْهَا وَتَحْتَ تَدْبِيرِهِ وَمُلْكِهِ، وَقَدْ وَعَدَكُمْ مِثْلَهَا؛ فَلَا يَدُّ مِنْ وَقُوعِ مَا وَعَدَ بِهِ؛ لِكَمَالِ اقْتِدَارِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

﴿وَلَوْ فَتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿٢٢﴾ سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾.

﴿٢٢﴾ هَذِهِ بَشَارَةٌ مِنَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِنَصْرِهِمْ عَلَى أَعْدَائِهِمُ الْكَافِرِينَ، وَأَنَّهُمْ لَوْ قَابَلُوهُمْ وَقَاتَلُوهُمْ؛ ﴿لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾: يَتَوَلَّى أَمْرَهُمْ،

﴿ولا نصيراً﴾: ينصُرهم ويعيُنهم على قتالكم، بل هم مخذولون مغلوبون.
 ﴿٢٣﴾ وهذه سنة الله في الأمم السابقة أن جند الله هم الغالبون، ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾.

﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً﴾ (٢٤) هم الذين كفروا وصدّوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لَر تعلموهم أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرة غير علمٍ ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزلزلوا لعدّنا الذين كفروا منهم عداًباً أليماً (٢٥).

﴿٢٤﴾ يقول تعالى ممثلاً على عباده بالعافية من شر الكفار ومن قتالهم، فقال: ﴿وهو الذي كف أيديهم﴾؛ أي: أهل مكة ﴿عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾؛ أي: من بعد ما قدرتم عليهم وصاروا تحت ولايتكم بلا عقد ولا عهد، وهم نحو ثمانين رجلاً، انحذروا على المسلمين ليصيبوا منهم غرّة، فوجدوا المسلمين متنبهين، فأمسكوهم، فتركوهم ولم يقتلوه؛ رحمة من الله بالمؤمنين إذ لم يقتلوه، ﴿وكان الله بما تعملون بصيراً﴾: فيجازي كل عامل بعمله، ويدبركم أيها المؤمنون بتدبيره الحسن.

﴿٢٥﴾ ثم ذكر تعالى الأمور المهيّجة على قتال المشركين، وهي كفرهم بالله ورسوله، وصدّهم رسول الله ومن معه من المؤمنين أن يأتوا للبيت الحرام زائرين معظمين له بالحج والعمرة، وهم الذين أيضاً صدّوا ﴿الهدى معكوفاً﴾؛ أي: محبوساً، ﴿أن يبلغ محله﴾: وهو محلّ ذبحه في مكة^(١)، حيث تذبح هدايا العمرة، فمنعوه من الوصول إليه ظلماً وعدواناً. وكل هذه أمور موجبة وداعية إلى قتالهم، ولكن ثم مانع، وهو وجود رجال ونساء من أهل الإيمان بين أظهر المشركين، وليسوا بمتميّزين^(٢) بمحلة أو مكانٍ يمكن أن لا ينالهم أذى؛ فلولا هؤلاء الرجال المؤمنون والنساء المؤمنات الذين لا يعلمهم المسلمون ﴿أن تطؤوهم﴾؛ أي: خشية أن تطؤوهم، ﴿فتصيبكم منهم معرة غير علم﴾: والمعرة ما يدخل تحت قتالهم من نيلهم بالأذى والمكروه، وفائدة أخرى، وهو أنه ليدخل

(١) في (ب): «وهو مكة المكرمة». (٢) في (ب): «متميّزين».

﴿فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾: فَيَمُنُّ عَلَيْهِم بِالْإِيمَانِ بَعْدَ الْكُفْرِ، وَبِالْهُدَى بَعْدَ الضَّلَالِ، فَيَمْنَعُكُم مِّن قِتَالِهِمْ لِهَذَا السَّبَبِ، ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾؛ أَي: لَوْ زَالُوا مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ، ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾: بِأَن نَّبِيحَ لَكُمْ قِتَالَهُمْ، وَنَأْذَنَ فِيهِ، وَنَنْصِرَكُمْ عَلَيْهِمْ.

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ لَمِيمَةً لِّمِيمَةِ الْجَنَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾.

﴿٢٦﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾: حَيْثُ أَنْفَوْا مِنْ كِتَابَةِ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، وَأَنْفَوْا مِنْ دُخُولِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِمْ فِي تِلْكَ السَّنَةِ ^(١)؛ لِثَلَا يَقُولُ النَّاسُ: دَخَلُوا مَكَّةَ قَاهِرِينَ لِقَرِيشٍ! وَهَذِهِ الْأُمُورُ وَنَحْوُهَا مِنْ أُمُورِ الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ تَزَلْ فِي قُلُوبِهِمْ حَتَّى أُوجِبَتْ لَهُمْ مَا أُوجِبَتْ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْمَعَاصِي، ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾: فَلَمْ يَحْمِلْهُمْ الْغَضَبَ عَلَى مُقَابَلَةِ الْمُشْرِكِينَ بِمَا قَابَلُوهُمْ بِهِ بَلْ صَبَرُوا لِحُكْمِ اللَّهِ وَالتَّزَمُوا الشُّرُوطَ الَّتِي فِيهَا تَعْظِيمُ حُرُمَاتِ اللَّهِ، وَلَوْ كَانَتْ مَا كَانَتْ، وَلَمْ يَبَالُوا بِقَوْلِ الْقَائِلِينَ وَلَا لَوْمِ اللَّائِمِينَ، ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾، وَهِيَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحَقُّهَا، أَلْزَمَهُمُ الْقِيَامُ بِهَا، فَالْتَزَمُوهَا وَقَامُوا بِهَا، ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا﴾: مِنْ غَيْرِهِمْ، ﴿وَكَانُوا أَهْلَهَا﴾: الَّذِينَ اسْتَأْهَلُوهَا؛ لَمَّا يَعْلَمُ اللَّهُ عِنْدَهُمْ وَفِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْخَيْرِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ مُحْلِفِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ ٢٧ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ٢٨﴾.

﴿٢٧﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾: وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى فِي الْمَدِينَةِ رُؤْيَا أَخْبَرَ بِهَا أَصْحَابَهُ؛ أَنَّهُمْ سَيَدْخُلُونَ مَكَّةَ وَيَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ، فَلَمَّا جَرَى يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ مَا جَرَى، وَرَجَعُوا مِنْ غَيْرِ دُخُولِ لِمَكَّةَ؛

كثُرَ في ذلك الكلام منهم، حتى إنهم قالوا ذلك لرسول الله ﷺ: ألم تُخبرنا أننا سنأتي البيت ونطوف به؟! فقال: «أخبرتكم أنه العام؟!»، قالوا: لا، قال: «فإنكم ستأتونه وتطوفون به». قال الله تعالى هنا: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾؛ أي: لا بدَّ من وقوعها وصدقها، ولا يقدح في ذلك تأخر تأويلها، ﴿لَتَدْخُلَنَّ المسجدَ الحرامَ إن شاء الله آمنينَ محلقينَ رؤوسكم ومقصرين﴾؛ أي: في هذه الحال المقتضية لتعظيم هذا البيت الحرام وأدائكم للنسك وتكميله بالحلل والتقصير وعدم الخوف. ﴿فعلَم﴾: من المصلحة والمنافع ﴿ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك﴾: الدخول بتلك الصفة ﴿فتحاً قريباً﴾.

﴿٢٨﴾ ولما كانت هذه الواقعة مما تشوشت بها قلوب بعض المؤمنين، وخفيت عليهم حكمتها، فبيّن تعالى حكمتها ومنفعتيها، وهكذا سائر أحكامه الشرعية؛ فإنها كلها هدى ورحمة، أخبر بحكم عام، فقال: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى﴾: الذي هو العلم النافع، الذي يهدي من الضلالة، ويبيّن طرق الخير والشر، ﴿ودين الحق﴾؛ أي: الدين الموصوف بالحق، وهو العدل والإحسان والرحمة، وهو كل عمل صالح مزكّ للقلوب مطهر للنفوس مربّ للأخلاق معلل للأقدار، ﴿ليظهره﴾: بما بعثه الله به ﴿على الدين كله﴾: بالحجة والبرهان، ويكون داعياً لإخضاعهم بالسيف واللسان.

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٢٩).

﴿٢٩﴾ يخبر تعالى عن رسوله محمد ﷺ وأصحابه من المهاجرين والأنصار؛ أنهم بأكمل الصفات وأجل الأحوال، وأنهم ﴿أشداء على الكفار﴾؛ أي: جادّين ومجتهدين في عداوتهم، وساعين في ذلك بغاية جهدهم، فلم يروا منهم إلا الغلظة والشدّة؛ فلذلك ذلّ أعداؤهم لهم وانكسروا وقهرهم المسلمون، ﴿رحماء بينهم﴾؛ أي: متحابون متراحمون متعاطفون كالجسد الواحد، يحبُّ أحدهم لأخيه ما يحبُّ لنفسه، هذه معاملتهم مع الخلق، وأمّا معاملتهم مع الخالق؛ فتراهم ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾؛ أي: وصفهم كثرة الصلاة التي أجل أركانها الركوع والسجود،

﴿يَتَغَنُّونَ﴾: بتلك العبادة ﴿فضلاً من الله ورضواناً﴾؛ أي: هذا مقصودهم، بلوغ رضا ربهم والوصول إلى ثوابه ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾؛ أي: قد أثرت العبادة من كثرتها وحسنها في وجوههم حتى استنارت، لما استنارت بالصلاة بواطنهم؛ استنارت ظواهرهم. ﴿ذلك﴾: المذكور ﴿مثلهم في التوراة﴾؛ أي: هذا وصفهم الذي وصفهم الله به مذكور بالتوراة هكذا.

وأما ﴿مثلهم في الإنجيل﴾؛ فإنهم موصوفون بوصف آخر، وأنهم في كمالهم وتعاونهم ﴿كزرع أخرج شطأه فآزره﴾؛ أي: أخرج فراخه فآزرته فراخه في الشباب والاستواء، ﴿فاستغلظ﴾: ذلك الزرع؛ أي: قوي وغلظ، ﴿فاستوى على سوقه﴾: جمع ساق، ﴿يعجب الزراع﴾: من كماله واستوائه وحسنه واعتداله، كذلك الصحابة رضي الله عنهم هم كالزرع في نفعهم للخلق واحتياج الناس إليهم، فقرة إيمانهم وأعمالهم بمنزلة قوة عروق الزرع وسوقه، وكون الصغير والمتأخر إسلامه قد لحق الكبير السابق، ووازره وعاوناه على ما هو عليه من إقامة دين الله والدعوة إليه، كالزرع الذي أخرج شطأه فآزره فاستغلظ، ولهذا قال: ﴿ليغيظ بهم الكفار﴾: حين يرون اجتماعهم وشدتهم على دينهم، وحين يتصادمون هم وهم في معارك النزال ومعامع القتال، ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا﴾: فالصحابة رضي الله عنهم، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، قد جمع الله لهم بين المغفرة التي من لوازمها وقاية شرور الدنيا والآخرة والأجر العظيم في الدنيا والآخرة.

ولنسق قصة الحديبية بطولها كما ساقها الإمام شمس الدين ابن القيم في «الهدى النبوي»؛ فإن فيها إعانة على فهم هذه السورة، وقد تكلم على معانيها وأسرارها. قال رحمه الله تعالى:

فصل في قصة الحديبية^(١)

قال نافع: كانت سنة ست في ذي القعدة. وهذا هو الصحيح، وهو قول الزهري وقتادة وموسى بن عقبة ومحمد بن إسحاق وغيرهم. وقال هشام بن عروة عن أبيه: خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية في رمضان، وكانت في شوال. وهذا

(١) انظر «زاد المعاد» (٢٨٦/٣) - تحقيق الأرناؤوطيين - وما بين المعقوفتين زيادة من المطبوع على النسختين.

وهم، وإنما كانت غزاة الفتح في رمضان. [وقد] قال أبو الأسود عن عروة: إنها كانت في ذي القعدة على الصواب. وفي «الصحيحين»^(١) عن أنس أن النبي ﷺ اعتمر أربع عمر، كلهن في ذي القعدة. فذكر منهنّ عمرة الحديبية.

وكان معه ألف وخمسمائة. هكذا في «الصحيحين»^(٢) عن جابر. وعنه فيهما^(٣): كانوا ألفاً وأربعمائة. وفيهما^(٤) عن عبد الله بن أبي أوفى: كنا ألفاً وثلاثمائة. قال قتادة: قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الجماعة الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال خمس عشرة مائة. قال: قلت: فإن جابر بن عبد الله قال: كانوا أربع عشرة مائة، قال: يرحمه الله وهم، هو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة. قلت: وقد صحّ عن جابر القولان، وصحّ عنه أنهم نحروا عام الحديبية سبعين بدنة، البدنة عن سبعة، فقليل له: كم كنتم؟ قال: ألفاً وأربعمائة بخيلنا ورجلنا؛ يعني: فارسهم وراجلهم. والقلب إلى هذا أميل، وهو قول البراء بن عازب ومعقل بن يسار وسلمة بن الأكوع في أصحّ الروايتين وقول المسيب بن حزن. قال شعبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن أبيه: كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفاً وأربعمائة، وغلط غلطاً بيناً من قال: كانوا سبعمائة! وعذره أنهم نحروا يومئذ سبعين بدنة، والبدنة قد جاء إجزاؤها عن سبعة وعن عشرة! وهذا لا يدل على ما قاله هذا القائل؛ فإنه قد صرح بأن البدنة كانت في هذه الغزوة عن سبعة؛ فلو كانت السبعون عن جميعهم؛ لكانوا أربعمائة وتسعين رجلاً، وقد قال في تمام الحديث بعينه أنهم كانوا ألفاً وأربعمائة.

فصل

فلما كانوا بذى الحليفة؛ قلّد رسول الله ﷺ الهدي وأشعره وأحرم بالعمرة وبعث عيناً له بين يديه من خزاعة يخبره عن قريش، حتى إذا كان قريباً من عسفان؛ أتاه عينه، فقال: إني قد تركت كعب بن لؤي قد جمعوا لك الأحابيش، وجمعوا لك جموعاً، وهم مقاتلون وصادوك عن البيت [ومانعوك]. واستشار النبي ﷺ أصحابه [وقال]: أترون أن نميل إلى ذراري هؤلاء الذين أعانواهم فنصيبهم؟ فإن

(١) البخاري (٤١٤٨)، ومسلم (١٢٥٣).

(٢) البخاري (٤١٥٣)، ومسلم (١٨٥٦ و ٧٢ و ٧٣).

(٣) البخاري (٤١٥٤)، ومسلم (١٨٥٦). (٤) البخاري (٤١٥٥)، ومسلم (١٨٥٧).

قَعَدُوا قَعَدُوا مَوْتُورِينَ مَحْزُونِينَ، وَإِنْ نَجَوْا؛ تَكُنْ عُنْقًا قَطَعَهَا اللَّهُ، أَمْ تَرَوْنَ أَنْ نُوْمَ الْبَيْتِ فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتِلْنَاهُ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، إِنَّمَا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَلَمْ نَجِءْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنْ؛ مَنْ حَالُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ؟ قَاتِلْنَاهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَرُوحُوا إِذَا!» فَرَاخُوا، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ؛ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِالْغَمِيمِ فِي خَيْلٍ لِقَرِيشٍ [طَلِيعَةٍ]؛ فَخَذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ». فَوَاللَّهِ مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ، حَتَّى إِذَا هُمْ بِغَبْرَةِ الْجَيْشِ، فَاَنْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقَرِيشٍ.

وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يَهْبِطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا؛ بَرَكْتَ بِهِ رَاحِلَتَهُ، فَقَالَ النَّاسُ: حُلْ حُلْ! فَالْحَثُّ، فَقَالُوا: خَلَّاتِ الْقَصَوَاءُ، خَلَّاتِ الْقَصَوَاءُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا خَلَّاتِ الْقَصَوَاءُ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخَلْقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ». ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةَ يَعْظُمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ؛ إِلَّا أَعْطَيْتُمُوهَا». ثُمَّ زَجَرَهَا، فَوُثِّبَتْ بِهِ، فَعَدَلَ، حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الْحَدِيبَةِ عَلَى ثَمَدٍ قَلِيلِ الْمَاءِ، إِنَّمَا يَتَبَرَّضُهُ النَّاسُ تَبَرُّضًا، فَلَمْ يَلْبِثِ النَّاسُ أَنْ نَزَحُوهُ، فَشَكُّوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْعَطَشَ، فَاَنْتَرَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ. قَالَ: فَوَاللَّهِ؛ مَا زَالَ يَجِيشُ لَهُمْ بِالرَّيِّ حَتَّى صَدَرُوا عَنْهَا.

وَفَزَعَتْ قَرِيشٌ لِنَزُولِهِ عَلَيْهِمْ، فَأَحَبَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ، فَدَعَا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ لِيَبْعَثَهُ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَيْسَ لِي بِمَكَّةَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي كَعْبٍ يَغْضِبُ لِي إِنْ أَوْذِيْتُ؛ فَأَرْسَلُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ؛ فَإِنَّ عَشِيرَتَهُ بِهَا، وَإِنَّهُ مَبْلَغٌ مَا أَرَدْتُ. فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ، فَأَرْسَلَهُ إِلَى قَرِيشٍ، وَقَالَ: «أَخْبِرْهُمْ أَنَا لَمْ نَأْتِ لِقِتَالِ، [وَأِنَّمَا جِئْنَا عَمَّارًا، وَادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ]. وَأَمْرُهُ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلًا بِمَكَّةَ مُؤْمِنِينَ وَنِسَاءً مُؤْمِنَاتٍ، فَيَدْخُلَ عَلَيْهِمْ، وَيُخْبِرَهُمْ بِالْفَتْحِ، وَيُخْبِرَهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَظْهَرُ دِينِهِ بِمَكَّةَ حَتَّى لَا يُسْتَخْفَى فِيهَا بِالْإِيمَانِ.

فَاَنْطَلَقَ عُثْمَانُ، فَمَرَّ عَلَى قَرِيشٍ بِبِلْدَحٍ، فَقَالُوا: أَيْنَ تَرِيدُ؟ فَقَالَ: بَعْثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَدْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ وَالْيَا إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرَكُمْ أَنَا لَمْ نَأْتِ لِقِتَالِ، وَإِنَّمَا جِئْنَا عَمَّارًا. قَالُوا: قَدْ سَمِعْنَا مَا تَقُولُ؛ فَاَنْفَذْ لِحَاجَتِكَ. وَقَامَ إِلَيْهِ أَبَانُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ، فَرَحَّبَ بِهِ، وَأَسْرَجَ فَرَسَهُ، فَحَمَلَ عُثْمَانُ عَلَى الْفَرَسِ، فَأَجَارَهُ، وَأَرْدَفَهُ أَبَانُ حَتَّى جَاءَ مَكَّةَ. وَقَالَ الْمُسْلِمُونَ قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ عُثْمَانُ: خَلَصَ عُثْمَانُ قَبْلَنَا إِلَى الْبَيْتِ وَطَافَ بِهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَظْنُّهُ طَافَ بِالْبَيْتِ وَنَحْنُ مُحْصَرُونَ». فَقَالُوا:

وما يمنعه يا رسول الله وقد خَلَصَ؟ قال: «ذاك ظَنِّي به أن لا يطوف بالكعبة حتى نظوف معه».

واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصلح، فرمى رجلٌ من أحد الفريقين رجلاً من الفريق الآخر، وكانت معركةٌ، وترامَوْا بالنبل والحجارة، وصاح الفريقان كلاهما، وارتهن كل واحدٍ من الفريقين بمن فيهم، وبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل، فدعا إلى البيعة، فثار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة فبايعوه على ألا يفروا فأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه، وقال: «هذه عن عثمان».

ولما تَمَّت البيعةُ؛ رجع عثمان، فقال له المسلمون: اشتفيت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت؟ فقال: بئسما ظننتم بي، والذي نفسي بيده؛ لو مكثت بها سنة ورسول الله ﷺ مقيمٌ بالحديبية ما طفْتُ بها حتى يطوف بها رسول الله ﷺ، ولقد دعَني قريشٌ إلى الطواف بالبيت فأبيتُ. فقال المسلمون: رسول الله ﷺ كان أعلمنا بالله وأحسننا ظناً.

وكان عمر آخذاً بيد رسول الله ﷺ للبيعة تحت الشجرة، فبايعه المسلمون كلهم إلا الجدُّ بن قيس، وكان معقل بن يسار آخذاً بغصنها يرفعه عن رسول الله ﷺ، وكان أول من بايعه أبو سنان الأسدي، وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات في أول الناس وأوسطهم وآخرهم.

فبينما هم كذلك؛ إذ جاء بدیل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزّلوا أعداد مياه الحديبية، معهم العودُ المطافيل، وهم مقاتلون وصادوك عن البيت. قال رسول الله ﷺ: «إنّا لم نجىء لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرّت بهم؛ فإن شاؤوا أماددهم ويخلّوا بيني وبين الناس، وإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس؛ فعلوا، وإلا؛ فقد جموا، وإن [هم] أبوا إلا القتال؛ فوالذي نفسي بيده؛ لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لينفذن الله أمره». قال بدیل: سأبلغهم ما تقول. فانطلق حتى أتى قريشاً، فقال: إني قد جئتكم من عند هذا الرجل، وسمعتة يقول قولاً؛ فإن شئتم عرضته عليكم. فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تحدّثنا عنه بشيء. وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعتة! قال: سمعتة يقول كذا وكذا.

[فحدثهم بما قال النبي ﷺ]، فقال عروة بن مسعود الثقفي: إن هذا قد عرض

عليكم خطة رشيد؛ فاقبلوها ودعوني آتة. فقالوا: ائتيه! فأتاه، فجعل يكلمه، فقال النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل، فقال له عروة عند ذلك: أي محمد! أرايت لو استأصلت قومك؛ هل سمعت بأحد من العرب اجتاحت أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى؛ فوالله؛ إني لأرى وجوهاً وأرى أوباشاً من الناس خليفاً أن يفرؤا ويدعوك. فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات! أنحن نفرُّ عنه وندعه؟! قال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده؛ لولا يدُ كانت لك عندي لم أجركُ بها لأجبتك. وجعل يكلم النبي ﷺ، وكلما كلّمه؛ أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة عند رأس النبي ﷺ، ومعه السيف، وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة إلى لحية النبي ﷺ؛ ضرب يده بنعل السيف، وقال: أخز يدك عن لحية رسول الله ﷺ! فرفع عروة رأسه، وقال: من ذا؟ قال: المغيرة بن شعبة. فقال: أي عُذْر! أو لستُ أسعى في غدرتك؟! وكان المغيرة صحبَ قوماً فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام؛ فأقبل، وأما المال؛ فلست منه في شيء». ثم إنَّ عروة جعل يرمق أصحاب رسول الله ﷺ؛ بعينه فوالله؛ ما تنخّم النبي ﷺ نخامة؛ إلّا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها جلده ووجهه، وإذا أمرهم؛ ابتدروا أمره، وإذا توضعاً؛ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم؛ خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدثون إليه النظر تعظيماً له. فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي قوم! والله؛ لقد وفدت على الملوك؛ على كسرى، وقيصر والنجاشي. والله؛ ما رأيت ملكاً يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحاب محمدٍ محمدًا. والله؛ إن تنخم نخامةً إلّا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم؛ ابتدروا أمره، وإذا توضعاً؛ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم؛ خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدثون إليه النظر تعظيماً له، وقد عرض عليكم خطة رشيد؛ فاقبلوها.

فقال رجل من بني كنانة: دعوني آتة! فقالوا: ائته! فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه؛ قال رسول الله ﷺ: «هَذَا فُلَانٌ، وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يَعْظُمُونَ الْبَدَنَ، فابْعَثُوا لَهُ». فبعثوها، فاستقبله القوم يلبّون، فلما رأى ذلك؛ قال: سبحان الله! لا ينبغي لهؤلاء أن يصدّوا عن البيت. فرجع إلى أصحابه، فقال: رأيتُ البُدْنَ قد قُلِدَتْ وأشعِرت، وما أرى أن يصدّوا عن البيت.

فقام مكرز بن حفص، [و] قال: دعوني آتة! فقالوا: ائته! فلما أشرف عليهم؛ قال النبي ﷺ: «هَذَا مَكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ، وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ». فجعل يكلم

رسول الله ﷺ، فبينما هو يكلمه؛ إذ جاء سهيل بن عمرو، فقال النبي ﷺ: «قد سهّل لكم من أمركم». فقال: هات اكتب بيننا وبينك كتاباً. فدعا الكاتب، فقال: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سهيل: أما الرحمن؛ فوالله ما ندري ما هو؟ ولكن اكتب: باسمك اللهم. كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله؛ لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم. فقال النبي ﷺ: «اكتب باسمك اللهم». ثم قال: «اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله». فقال سهيل: فوالله؛ لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صدّناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله. فقال النبي ﷺ: «إني رسول الله وإن كذبتُموني، اكتب: محمد بن عبد الله». فقال النبي ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به». فقال سهيل: والله؛ لا تتحدّث العرب أنا أخذنا ضغطة. ولكن ذلك من العام المقبل. فكتب. فقال سهيل: على أن لا يأتيك منّا رجل، وإن كان على دينك؛ إلا ردّذته علينا. فقال المسلمون: سبحان الله! كيف يردّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟ فبينما هم كذلك؛ إذ جاء أبو جندل بن سهيل [بن عمرو] يرسف في قيوده، قد خرج من أسفل مكة، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما قاضيك^(١) عليه أن تردّه [إلي]. فقال النبي ﷺ: «إنّا لم نقض الكتاب بعد». فقال: فوالله؛ إذا لا أصالحك على شيء أبداً. فقال النبي ﷺ: «فأجزه لي». فقال: ما أنا بمجيزه [لك]. فقال: «بلى فافعل». قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: [بلى] قد أجزناه. فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين! أردّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً؟! ألا ترون ما لقيت؟! وكان قد عذب في الله عذاباً شديداً.

قال عمر بن الخطاب: والله؛ ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ، فأتيت النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله! ألسنت نبي الله حقاً؟ قال: «بلى». قلت: ألسنا على الحقّ وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى». فقلت: علام نعطي الدنية في ديننا [إذا] ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا؟ فقال: «إني رسول الله، وهو ناصري، ولست أعصيه». قلت: أولست كنت تحدّثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، فأخبرتُك أنك تأتيه العام؟». قلت: لا. قال: «فإنك آتية ومطوف به». قال: فأتيت أبا بكر، فقلت له كما قلت لرسول الله ﷺ، وردّ عليه أبو بكر كما ردّ

(١) في المطبوع من زاد المعاد: «أقاضيك».

عليه رسول الله سواء، وزاد: «فاستمسك بغرزه حتى تموت، فوالله؛ إنه لعلی الحق». قال عمر: فعملتُ لذلك أعمالاً.

فلما فرغ من قضية الكتاب؛ قال رسول الله ﷺ: «قوموا وانحروا ثم احلقوا». فوالله ما قام منهم رجلٌ [واحدٌ]، حتى قال ثلاث مرات، فلما لم يقيم منهم أحدٌ؛ قام فدخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت [أم سلمة]: يا رسول الله! أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحداً [منهم] كلمة حتى تنحر بُذْنَكَ وتدعُو حالكك فيحلق لك. فقام، فخرج، فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك؛ نحر بُذنه ودعا حالقه فحلقه. فلما رأى الناس ذلك؛ قاموا، فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمًا. ثم جاءت نسوةٌ مؤمنات، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مِهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحْنُوهُنَّ...﴾. حتى بلغ ﴿بَعْصَمَ الْكُوفَرِ﴾، فطلق عمر يومئذٍ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية والأخرى صفوان بن أمية، ثم رجع إلى المدينة. وفي مرجعه أنزل الله عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا [ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً...﴾ إلى آخرها، فقال عمر: أفتح هو يا رسول الله؟ قال: «نعم». فقال الصحابة: هنيئاً لك يا رسول الله؛ فما لنا؟ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ الآية. انتهى.

وهذا آخر تفسير سورة الفتح. والله الحمد [والمنة].

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

نقلته من خط المفسر رحمه الله وعفا عنه، وكان الفراغ من كتابته في ١٣ ذي الحجة سنة ١٣٤٥، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، آمين.

بقلم الفقير إلى ربه، سليمان بن حمد العبد لله البسام، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.



قال الشاعر:

يا ناظراً فيه سل الله مرحمة على المصنف واستغفر لكتابه
واطلب لنفسك من خير تريد لها وبعد ذلك غفراناً لصاحبه

المجلد الثامن^(١) من تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام الملك المنان

لجامعه الفقير إلى الله
عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله المعروف بابن سعدي
غفر الله له ولجميع المسلمين

(١) في (ب): «المجلد الثامن من تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، من به الله على عبده وابن عبده وابن أمته عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي».

تفسير سورة الحجرات

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَالْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ ۖ بِالْقَوْلِ ۚ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَعْصُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۖ لِلنَّفْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ۖ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾

هذا متضمنٌ للأدب مع الله تعالى ومع رسول الله ﷺ والتعظيم والاحترام له ^(١) وإكرامه، فأمر الله عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالله ورسوله ^(٢) من امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، وأن يكونوا ماشين خلف أوامر الله، متبعين لسنة رسول الله ﷺ؛ في جميع أمورهم، وأن لا ^(٣) يتقدموا بين يدي الله ورسوله؛ فلا ^(٤) يقولوا حتى يقول، ولا يأمرُوا حتى يأمر، فإنَّ هذا حقيقةُ الأدب الواجب مع الله ورسوله، وهو عنوان سعادة العبد وفلاحه، وبفواته تفوته السعادةُ الأبديةُ والنعيم السرمديُّ. وفي هذا النهي الشديد عن تقديم قول غير الرسول ﷺ على قوله؛ فإنه متى استبانت سنة رسول الله ﷺ؛ وجب اتباعها وتقديمها على غيرها كائناً من كان.

﴿١﴾ ثم أمر الله بتقواه عموماً، وهي كما قال طلق بن حبيب: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخشى عقاب الله. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾؛ أي: لجميع الأصوات، في جميع الأوقات، في خفيِّ المواضع والجهات، ﴿علِيمٌ﴾: بالظواهر والبواطن، والسوابق واللواحق، والواجبات والمستحيلات والجائزات ^(٥). وفي ذكر الاسمين

(١) في (ب): «والتعظيم له واحترامه».

(٢) في (ب): «وبرسوله».

(٣) في (ب): «ولا».

(٤) في (ب): «والممكنات».

الكريمين بعد النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله والأمر بتقواه حتّى على امثال تلك الأوامر الحسنة والآداب المستحسنة وترهيب عن ضده^(١).

﴿٢﴾ ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾: وهذا أدب مع الرسول ﷺ في خطابه؛ أي: لا يرفع المخاطب له صوته معه فوق صوته، ولا يجهز له بالقول، بل يغض الصوت ويخاطبه بأدب ولين وتعظيم وتكريم وإجلال وإعظام، ولا يكون الرسول كأحدهم، بل يميزونه في خطابهم كما تميّز عن غيره في وجوب حقّه على الأمة، ووجوب الإيمان به، والحبّ الذي لا يتمّ الإيمان إلا به؛ فإن في عدم القيام بذلك محذوراً وخشية أن يحبط عمل العبد وهو لا يشعر؛ كما أن الأدب معه من أسباب حصول الثواب وقبول الأعمال.

﴿٣﴾ ثم مدح من غضّ صوته عند رسول الله ﷺ بأنّ الله امتحن قلوبهم للتقوى؛ أي: ابتلاها واختبرها، فظهرت نتيجة ذلك بأن صلّحت قلوبهم للتقوى. ثم وعدّهم المغفرة لذنوبهم، المتضمنة لزوال الشرّ والمكروه، وحصول الأجر العظيم، الذي لا يعلم وصفه إلّا الله تعالى، وفيه حصول كل محبوب. وفي هذا دليل على أن الله يمتحن القلوب بالأمر والنهي والمحن؛ فمن لازم أمر الله وأتبع رضاه وسارع إلى ذلك وقدمه على هواه؛ تمخّض وتمخّص للتقوى، وصار قلبه صالحاً لها، ومن لم يكن كذلك؛ علم أنه لا يصلح للتقوى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾

﴿٤﴾ نزلت هذه الآيات الكريمة في ناس^(٢) من الأعراب، الذين وصفهم الله بالجفاء، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله؛ قدموا وافدين على رسول الله ﷺ، فوجدوه في بيته وحجرات نسائه، فلم يصبروا ويتأدّبوا حتى يخرج، بل نادوه: يا محمد، يا محمد^(٣)؛ أي: اخرج إلينا. فذمّهم الله بعدم العقل؛ حيث لم يعقلوا عن الله الأدب مع رسوله واحترامه؛ كما أن من العقل استعمال الأدب؛ فأدب العبد عنوان عقله، وأنّ الله مريد به الخير.

(١) في (ب): «وترهيب عن عدم الامتثال». (٢) في (ب): «أناس».

(٣) انظر تفسير ابن جرير (٢٢/٢٨٥).

﴿٥﴾ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: غفور لما صدر عن عباده من الذنوب والإخلال بالآداب، رحيم بهم حيث لم يعاجلهم بذنوبهم بالعقوبات والمثلات.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِثْلِهِ فَنُصِيحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿٦﴾ وهذا أيضاً من الآداب التي على أولي الألباب التأدب بها واستعمالها، وهو أنه إذا أخبرهم فاسق بنبأ؛ أي: خبر: أن يتثبتوا في خبره، ولا يأخذوه مجرداً؛ فإن في ذلك خطراً كبيراً ووقوعاً في الإثم؛ فإن خبره إذا جعل بمنزلة خبر الصادق العدل؛ حكم بموجب ذلك ومقتضاه، فحصل من تلف النفوس والأموال بغير حق بسبب ذلك الخبر ما يكون سبباً للندامة، بل الواجب عند خبر الفاسق التثبت والتبيين؛ فإن دلت الدلائل والقرائن على صدقه؛ عمل به وصدق، وإن دلت على كذبه؛ كذب ولم يعمل به؛ ففيه دليل على أن خبر الصادق مقبول، وخبر الكاذب مردود، وخبر الفاسق متوقف فيه^(١)، ولهذا كان السلف يقبلون روايات كثير من الخوارج المعروفين بالصدق، ولو كانوا فاسقاً.

﴿وَأَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾﴾ فضلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾.

﴿٧﴾ أي: وليكن لديكم معلوماً أن ﴿رسول الله﴾ ﷺ بين أظهركم، وهو الرسول الكريم البار الراشد، الذي يريد بكم الخير، وينصح لكم، وتريدون لأنفسكم من الشر والمضرة ما لا يوافقكم الرسول عليه، و﴿لو يطيعكم في كثير من الأمر﴾ لشق عليكم وأعتكم، ولكن الرسول يرشدكم، والله تعالى يحب إليكم ﴿الإيمان﴾ ويزينه ﴿في قلوبكم﴾ بما أودع في قلوبكم من محبة الحق وإثاره، وبما نصب على الحق من الشواهد والأدلة الدالة على صحته وقبول القلوب والفطر له، وبما يفعله تعالى بكم من توفيقه للإجابة إليه، ويكره ﴿إليكم الكفر والفسوق﴾؛ أي: الذنوب الكبار. ﴿والعصيان﴾؛ أي: الذنوب الصغار؛ بما أودع في قلوبكم من

(١) في (ب): «متوقف فيه كما ذكرنا».

كراهة الشرّ وعدم إرادة فعله، وبما نَصَبَه من الأدلّة والشواهد على فسادِه ومضرّته وعدم قبول الفطر له، وبما يجعل الله في القلوب من الكراهة له.

﴿أولئك﴾؛ أي: الذين زَيَّنَ الله الإيمان في قلوبهم وحبَّبه إليهم، وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان ﴿هم الراشدون﴾؛ أي: الذين صلحت علومُهم وأعمالُهم، واستقاموا على الدين القويم والصراط المستقيم، وضدَّهم الغاؤون الذين حُبَّبَ إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وكرَّه إليهم الإيمان، والذنب ذنبُهم؛ فإنهم لما فسقوا؛ طبعَ الله على قلوبهم، ولما زاغوا؛ أزاعَ الله قلوبهم، ولما لم يؤمنوا بالحقِّ لَمَّا جاءهم أولُ مرة؛ قلب الله أفئدتهم.

﴿٨﴾ وقوله: ﴿فضلاً من الله ونعمة﴾؛ أي: ذلك الخير الذي حصل لهم هو بفضل الله عليهم وإحسانه، لا بحولهم وقوتهم. ﴿والله عليمٌ حكيمٌ﴾؛ أي: عليمٌ بمن يشكر النعمة فيوفِّقه لها ممَّن لا يشكرها ولا تليقُ به، فيضع فضله حيث تقتضيه حكمته.

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿٩﴾ هذا متضمَّنُ لنهي المؤمنين عن أن يبغِيَ بعضهم على بعض ويقتل بعضهم بعضاً، وأنه إذا اقتتلَت طائفتان من المؤمنين؛ فإن على غيرهم من المؤمنين أن يتلافوا هذا الشرَّ الكبير بالإصلاح بينهم والتوسط على أكمل وجه يقع به الصلح ويسلكوا الطرق الموصلة إلى ذلك؛ فإن صلحتا؛ فيها ونعمت. ﴿فإن بغتِ إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيءَ إلى أمرِ الله﴾؛ أي: ترجع إلى ما حدَّ الله ورسوله من فعل الخير وترك الشرِّ الذي من أعظمه الاقتتال. وقوله: ﴿فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل﴾: هذا أمرٌ بالصلح وبالعدل في الصلح؛ فإنَّ الصلح قد يوجد، ولكن لا يكون بالعدل، بل بالظلم والحيث على أحد الخصمين؛ فهذا ليس هو الصلح المأمورُ به، فيجب أن لا يراعى أحدهما لقراية أو وطن أو غير ذلك من المقاصد والأغراض، التي توجب العدول عن العدل. ﴿إنَّ الله يحبُّ المُقسِطينَ﴾؛ أي: العادلين في حكمهم بين الناس، وفي جميع الولايات التي تولوها، حتى إنه قد يدخل في ذلك عدلُ الرجل في أهله وعياله في أداء حقوقهم،

وفي الحديث الصحيح: «المقسطون عند الله على منابر من نور؛ الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»^(١).

﴿١٠﴾ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾: هَذَا عَقْدٌ عَقَدَهُ اللَّهُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ؛ أَنَّهُ إِذَا وَجَدَ مِنْ أَيِّ شَخْصٍ كَانَ فِي مَشْرِقِ الْأَرْضِ وَمَغْرِبِهَا الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ فَإِنَّهُ أَخٌ لِلْمُؤْمِنِينَ أَخُوَّةٌ تَوْجِبُ أَنْ يُحِبَّ لَهُ الْمُؤْمِنُونَ مَا يُحِبُّونَ لَأَنْفُسِهِمْ، وَيَكْرَهُوا لَهُ مَا يَكْرَهُونَ لَأَنْفُسِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ أَمْرًا بِالْأَخُوَّةِ الْإِيمَانِيَّةِ: «لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَنَاجَشُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ؛ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَكْذِبُهُ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(٢). وَفِيهِمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبَنِيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَشَبَكَ ﷺ بَيْنَ أَصَابِعِهِ»^(٣).

وَلَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِالْقِيَامِ بِحَقُوقِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ وَبِمَا يَحْصُلُ بِهِ التَّالَفُ وَالتَّوَادُّ وَالتَّوَاضُّلُ بَيْنَهُمْ، كُلُّ هَذَا تَأْيِيدٌ لِحَقُوقِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ؛ فَمِنْ ذَلِكَ إِذَا وَقَعَ الْاِقْتِتَالُ بَيْنَهُمْ الْمَوْجِبَ لَتَفَرُّقِ الْقُلُوبِ وَتَبَاغُضِهَا وَتَدَابُرِهَا؛ فَلْيُضْلِحِ الْمُؤْمِنُونَ بَيْنَ إِخْوَانِهِمْ، وَلْيَسْعُوا فِيهَا بِهَ يَزُولُ شَتَائِهِمْ.

ثُمَّ أَمَرَ بِالتَّقْوَى عُمُومًا، وَرَتَّبَ عَلَى الْقِيَامِ بِالتَّقْوَى وَبِحَقُوقِ الْمُؤْمِنِينَ الرَّحْمَةَ، فَقَالَ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾، وَإِذَا حَصَلَتِ الرَّحْمَةُ؛ حَصَلَ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَدَلٌّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ عَدَمَ الْقِيَامِ بِحَقُوقِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَعْظَمِ حَوَاجِبِ الرَّحْمَةِ.

وَفِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ مِنَ الْفَوَائِدِ غَيْرُ مَا تَقَدَّمَ: أَنَّ الْاِقْتِتَالَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ مَنَافٍ لِلْأَخُوَّةِ الْإِيمَانِيَّةِ، وَلِهَذَا كَانَ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ. وَأَنَّ الْإِيمَانَ وَالْأَخُوَّةَ الْإِيمَانِيَّةَ لَا يَزُولَانِ مَعَ وَجُودِ الْاِقْتِتَالِ؛ كَغَيْرِهِ مِنَ الذُّنُوبِ الْكِبَائِرِ، الَّتِي دُونَ الشَّرْكِ، وَعَلَى ذَلِكَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ. وَعَلَى وَجُوبِ الْإِصْلَاحِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْعَدْلِ. وَعَلَى وَجُوبِ قِتَالِ الْبُغَاةِ حَتَّى يَرْجِعُوا إِلَى أَمْرِ اللَّهِ، وَعَلَى أَنَّهُمْ لَوْ رَجَعُوا لِغَيْرِ أَمْرِ اللَّهِ؛ بِأَنْ رَجَعُوا عَلَى وَجْهِهِ لَا يَجُوزُ الْإِقْرَارُ عَلَيْهِ وَالتَّزَامُهُ؛ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ ذَلِكَ. وَأَنَّ أَمْوَالَهُمْ مَعْصُومَةٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَبَاحَ دِمَاءَهُمْ وَقَتَ اسْتِمْرَارِهِمْ عَلَى بَعْثِهِمْ خَاصَّةً دُونَ أَمْوَالِهِمْ.

(١) كَمَا فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» (١٨٢٧) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٦٠٦٤)، وَمُسْلِمٌ (٢٥٥٩).

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٦٠٢٦)، وَمُسْلِمٌ (١٩٩٩).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿١١﴾ وهذا أيضاً من حقوق المؤمنين بعضهم على بعض؛ أن: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾: بكلِّ كلام وقول وفعل دال على تحقير الأخ المسلم؛ فإنَّ ذلك حرام لا يجوز، وهو دال على إعجاب الساخر بنفسه، وعسى أن يكون المسخور به خيراً من الساخر، وهو الغالب والواقع؛ فإنَّ السخرية لا تقع إلَّا من قلب ممتلئ من مساوئ الأخلاق، متحل بكل خلق ذميم، متخل من كل خلق كريم، ولهذا قال النبي ﷺ: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»^(١).

ثم قال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: لا يعيب بعضكم على بعض، واللمز بالقول، والهمز بالفعل، وكلاهما منهى عنه حرام متوعّد عليه بالنار؛ كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لَّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ...﴾ الآية، وسمي الأخ المسلم نفساً لأخيه؛ لأن المؤمنين ينبغي أن يكون هكذا حالهم؛ كالجسد الواحد، ولأنه إذا همز غيره؛ أوجب للغير أن يهمزه، فيكون هو المتسبب لذلك، ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾؛ أي: لا يعير أحدكم أخاه ويلقبه بلقب يكره أن يقال فيه، وهذا هو التنازع، وأما الألقاب غير المذمومة؛ فلا تدخل في هذا. «بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان»؛ أي: بثما تبدلتم عن الإيمان والعمل بشرائعه وما يقتضيه بالإعراض عن أوامره ونواهيه باسم الفسوق والعصيان الذي هو التنازع بالألقاب، ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾: وهذا هو الواجب على العبد: أن يتوب إلى الله تعالى، ويخرج من حق أخيه المسلم باستحلاله والاستغفار والمدح له مقابلة على ذمه. ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾؛ فالناس قسمان: ظالم لنفسه غير تائب، وتائب مفلح، ولا ثم غيرهما.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿١٢﴾ نهى تعالى عن كثير من الظن السيئ بالمؤمنين، ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾:

وذلك كالظن الخالي من الحقيقة والقرينة، وكظن السوء الذي يقترب به كثير من الأقوال والأفعال المحرمة؛ فإن بقاء ظن السوء بالقلب لا يقتصر صاحبه على مجرد ذلك، بل لا يزال به حتى يقول ما لا ينبغي ويفعل ما لا ينبغي، وفي ذلك أيضاً إساءة الظن بالمسلم وبغضه وعداوته المأمور بخلافها منه، ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾؛ أي: لا تفتشوا عن عورات المسلمين، ولا تتبعوها، ودعوا المسلم على حاله، واستعملوا التغافل عن زلاته، التي إذا فُتشت؛ ظهر منها ما لا ينبغي، ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾: والغيبة كما قال النبي ﷺ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ، ولو كان فيه»^(١). ثم ذَكَرَ مثلاً منفراً عن الغيبة، فقال: «يَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ»: شبه أكل لحم ميتاً المكروه للنفوس غاية الكراهة باغتيابه؛ فكما أنكم تكرهون أكل لحمه، خصوصاً إذا كان ميتاً فاقد الروح؛ فكذلك فلتكرهوا غيبته وأكل لحمه حياً، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾: والتواب: الذي يأذن بتوبة عبده، فيوفقه لها، ثم يتوب عليه بقبول توبته، رحيمٌ بعباده؛ حيث دعاهم إلى ما ينفعهم، وقبل منهم التوبة. وفي هذه الآية دليل على التحذير الشديد من الغيبة، وأنها من الكبائر؛ لأن الله شبهها بأكل لحم الميت، وذلك من الكبائر.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١٣).

﴿١٣﴾ يخبر تعالى أنه خلق بني آدم من أصل واحد وجنس واحد، وكلهم من ذكر وأنثى، ويرجعون جميعهم إلى آدم وحواء، ولكن الله تعالى بثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً، وفرّقهم، وجعلهم شعوباً وقبائل؛ أي: قبائل صغاراً وكباراً، وذلك لأجل أن يتعارفوا؛ فإنه لو استقل كل واحد منهم بنفسه؛ لم يحصل بذلك التعارف الذي يترتب عليه التناصر والتعاون والتوارث والقيام بحقوق الأقارب، ولكن الله جعلهم شعوباً وقبائل؛ لأجل أن تحصل هذه الأمور وغيرها ممّا يتوقف على التعارف ولحوق الأنساب، ولكن الكرم بالتقوى؛ فأكرمهم عند الله أتقاهم، وهو أكثرهم طاعةً وانكفافاً عن المعاصي، لا أكثرهم قرابةً وقوماً، ولا أشرفهم نسباً، ولكن الله تعالى ﴿عليمٌ خبيرٌ﴾، يعلم منهم من يقوم بتقوى الله ظاهراً وباطناً ممن لا يقوم بذلك ظاهراً ولا باطناً، فيجازي كلّاً بما يستحق. وفي هذه الآية دليل على

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٩) من حديث أبي هريرة.

أَنْ مَعْرِفَةَ الْأَنْسَابِ مَطْلُوبَةٌ مَشْرُوعَةٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ جَعَلَهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِأَجْلِ ذَلِكَ.

﴿١٤﴾ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٦﴾ قُلْ أَتُحِبُّونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِلَّا سَلَمْتُكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾

﴿١٤﴾ يخبرُ تعالى عن مقالة الأعراب، الذين دخلوا في الإسلام على عهد رسول الله ﷺ دخولاً من غير بصيرة ولا قيام بما يجبُ ويقتضيه الإيمان؛ أنهم مع هذا ادَّعوا وقالوا ﴿آمنَّا﴾؛ أي: إيماناً كاملاً مستوفياً لجميع أموره. هذا موجب هذا الكلام، فأمر الله رسوله أن يردَّ عليهم، فقال: ﴿قل لم تؤمنوا﴾؛ أي: لا تدَّعوا لأنفسكم مقامَ الإيمان ظاهراً وباطناً كاملاً، ﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾؛ أي: دخلنا في الإسلام، واقتصرنا على ذلك، ﴿و﴾ السبب في ذلك أنه ﴿لمَّا يدخل الإيمانُ في قلوبكم﴾: وإنما أسلمتم خوفاً أو رجاءً أو نحو ذلك مما هو السبب في إيمانكم؛ فلذلك لم تدخل بشاشة الإيمان في قلوبكم. وفي قوله: ﴿ولمَّا يدخل الإيمانُ في قلوبكم﴾؛ أي: وقتَ هذا الكلام الذي صدر منكم، فكان فيه إشارة إلى أحوالهم بعد ذلك؛ فإن كثيراً منهم من الله عليهم بالإيمان الحقيقي والجهاد في سبيل الله، ﴿وإن تطيعوا الله ورسوله﴾: بفعل خير أو ترك شرٍّ ﴿لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾؛ أي: لا يَنْقُصْكُمْ منها مثقال ذرة، بل يوفيكُم إياها أكمل ما تكون، لا تفقدون منها صغيراً ولا كبيراً. ﴿إنَّ الله غفورٌ رحيمٌ﴾؛ أي: غفورٌ لمن تاب إليه وأتاب، رحيمٌ به؛ حيث قبل توبته.

﴿١٥﴾ ﴿إنما المؤمنون﴾؛ أي: على الحقيقة، ﴿الذين آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا في سبيل الله﴾؛ أي: من جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله؛ فإنَّ مَنْ جَاهَدَ الْكُفْرَ؛ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى الْإِيمَانِ التَّامِّ فِي قَلْبِهِ؛ لِأَنَّ مَنْ جَاهَدَ غَيْرَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَالْقِيَامِ بِشَرَائِعِهِ؛ فَجَاهَدَهُ لِنَفْسِهِ عَلَى ذَلِكَ مِنْ بَابٍ أَوَّلَى وَأُخْرَى، وَلِأَنَّ مَنْ لَمْ يَقَوْ عَلَى الْجِهَادِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى ضَعْفِ إِيْمَانِهِ. وشرط تعالى في الإيمان عدم الريب؛ أي: الشك؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ النَّافِعَ هُوَ الْحُزْمُ الْيَقِينِيُّ بِمَا

أمر الله بالإيمان به، الذي لا يعتريه شك بوجه من الوجوه. وقوله: ﴿أولئك هم الصادقون﴾؛ أي: الذين صدّقوا إيمانهم بأعمالهم الجميلة؛ فإنّ الصدق دعوى عظيمة في كل شيء يُدعى، يحتاج صاحبه إلى حجة وبرهان، وأعظم ذلك دعوى الإيمان، الذي هو مدار السعادة والفوز الأبديّ والفلاح السرمديّ؛ فمن ادّعاء وقام بواجباته ولوازمه؛ فهو الصادق المؤمن حقاً، ومن لم يكن كذلك؛ علِم أنه ليس بصادق في دعواه، وليس لدعواه فائدة؛ فإنّ الإيمان في القلب، لا يطلع عليه إلا الله تعالى؛ فإثباته ونفيه من باب تعليم الله بما في القلب وهو سوء أدب وظنّ بالله.

﴿١٦﴾ ولهذا قال: ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: وهذا شاملٌ للأشياء كلّها، التي من جملتها ما في القلوب من الإيمان والكفران والبرّ والفجور؛ فإنّ الله تعالى يعلم ذلك كلّهُ، ويجازي عليه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ.

﴿١٧﴾ هذه حالة من أحوال من ادّعى لنفسه الإيمان وليس به؛ فإنّهُ إمّا أن يكون ذلك تعليماً لله، وقد علم أنه عالمٌ بكلّ شيء، وإمّا أن يكون قصدُهم بهذا الكلام المنة على رسوله، وأنّهم قد بذلوا وتبرّعوا بما ليس من مصالحهم بل هو من حظوظه الدنيويّة، وهذا تجلُّلٌ بما لا يجمل، وفخرٌ بما لا ينبغي لهم الفخر به على رسوله؛ فإنّ المنة لله تعالى عليهم؛ فكما أنه تعالى هو المانُّ عليهم بالخلق والرزق والنعم الظاهرة والباطنة؛ فمُنّته عليهم بهدایتهم إلى الإسلام ومُنّته عليهم بالإيمان أفضل من كلّ شيء، ولهذا قال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

﴿١٨﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: الأمور الخفية فيهما، التي تخفى على الخلق؛ كالذي في لجج البحار، ومهائم القفار، وما جئهُ الليلُ أو واره النهار؛ يعلم قطرات الأمطار، وحبّات الرمال، ومكنونات الصدور، وخبايا الأمور، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابَسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾. ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: يُحصي عليكم أعمالكم ويوفّيكم إياها، ويجازيكم عليها بما تقتضيه رحمته الواسعة وحكمته البالغة.

تم تفسير سورة الحجرات بعون الله ومنه وجوده وكرمه. والحمد لله.



تفسير سورة ق

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ ﴿٤﴾﴾ .

﴿١﴾ يقسم تعالى بـ ﴿القرآن المجيد﴾؛ أي: وسيع المعاني، عظيمها، كثير الوجوه، كثير البركات، جزيل المبرات، والمجد سعة الأوصاف وعظمتها، وأحق كلام يوصف بذلك هذا القرآن، الذي قد احتوى على علوم الأولين والآخرين، الذي حوى من الفصاحة أكملها، ومن الألفاظ أجزلها، ومن المعاني أعمها وأحسنها.

﴿٢﴾ ولهذا موجب لكمال أتباعه وسرعة الانقياد له وشكر الله على المنة به، ولكن أكثر الناس لا يقدر نعم الله قدرها، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا﴾؛ أي: المكذبون للرسول ﷺ، ﴿أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾؛ أي: يُنذِرهم ما يضرهم ويأمرهم بما ينفعهم، وهو من جنسهم، يمكنهم التلقي عنه ومعرفة أحواله وصدقته، فتعجبوا من أمر لا ينبغي لهم التعجب منه، بل يتعجب من عقل من تعجب منه، ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾؛ أي: الذين حَمَلَهُمْ كُفْرُهُمْ وتكذيبُهُمْ لا نقص بذكائِهِمْ وآرائِهِمْ^(١): ﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾؛ أي: مستغرب.

وهم في هذا الاستغراب بين أمرين: إما صادقون في استغرابهم وتعجبهم؛ فهذا يدل على غاية جهلهم وضعف عقولهم؛ بمنزلة المجنون الذي يستغرب كلام العاقل، وبمنزلة الجبان الذي يتعجب من لقاء الفارس للفرسان، وبمنزلة البخيل الذي يستغرب سخاء أهل السخاء؛ فأى ضرر يلحق من تعجب من هذه حاله؟! وهل تعجبه إلا دليل على زيادة جهله وظلمه^(٢)؟! وإما أن يكونوا متعجبين على وجه يعلمون خطأهم فيه؛ فهذا من أعظم الظلم وأشنع.

﴿٣ - ٤﴾ ثم ذكر وجه تعجبهم، فقال: ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾: ففاسوا قدرة من هو على كل شيء قدير الكامل من كل وجه، بقدرة العبد الفقير

(٢) في (ب): «ظلمه وجهله».

(١) في (ب): «بقلوبهم وعقولهم».

العاجز من جميع الوجوه! وقاسوا الجاهل الذي لا علم له، بمن هو بكل شيء عليم، الذي يعلم ﴿مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ﴾: من أجسادهم مدة مقامهم في البرزخ^(١)، وقد أحصى في كتابه الذي هو عنده - محفوظ عن التغيير والتبديل - كل ما يجري عليهم في حياتهم ومماتهم. وهذا استدلال بكمال سعة علمه^(٢)، التي لا يحيط بها إلا هو على قدرته على إحياء الموتى.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ٥﴾.

﴿٥﴾ أي: ﴿بل﴾: كلامهم الذي صدر منهم إنما هو عناد وتكذيب للحق الذي هو أعلى أنواع الصدق. ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾؛ أي: مختلط مشتبه، لا يثبتون على شيء، ولا يستقر لهم قرار، فتارة يقولون عنك: إنك ساحر! وتارة: مجنون! وتارة: شاعر! وكذلك جعلوا القرآن عِصِينَ، كل قال فيه ما اقتضاه فيه رأيه الفاسد. وهكذا كل من كذب بالحق؛ فإنه في أمر مختلط، لا يدرى له وجه ولا قرار، فترى أموره متناقضة مؤتلفة؛ كما أن من اتبع الحق وصدق به قد استقام أمره واعتدل سبيله، وصدق فعله قبله.

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ٦ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرًا لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ٩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ١٠ رَزَقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ١١﴾.

﴿٦﴾ لما ذكر تعالى حالة المكذبين وما ذمهم به؛ دعاهم إلى النظر في آياته الأفقية كي يعتبروا ويستدلوا بها على ما جعلت أدلة عليه، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾؛ أي: لا يحتاج ذلك النظر إلى كلفة وشدّ رحل، بل هو في غاية السهولة، فينظرون ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾: قبة مستوية الأرجاء ثابتة البناء مزينة بالنجوم الخُتْس والجواري الكُتْس، التي ضربت من الأفق إلى الأفق في غاية الحسن والملاحة، لا ترى فيها عيباً ولا فروجاً ولا خللاً ولا إخلالاً، قد جعلها الله سقفاً لأهل الأرض، وأودع فيها من مصالحهم الضرورية ما أودع.

(١) في (ب): «برزخهم».

(٢) في (ب): «علمه وسعته».

﴿٧﴾ وإلى الأرض كيف مَدَدْنَاهَا وَوَسَّعْنَاهَا حَتَّى أَمَكْنَ كُلَّ حَيَوَانٍ السَّكُونُ فِيهَا وَالِاسْتِقْرَارُ^(١) وَالِاسْتِعْدَادُ لَجَمِيعِ مَصَالِحِهِ، وَأَرْسَاهَا بِالْجِبَالِ؛ لِتَسْتَقَرَّ مِنَ التَّزَلُّزِ وَالتَّمُوجِ. ﴿وَأَبْنَيْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾؛ أَي: مِنْ كُلِّ صَنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ النَّبَاتِ الَّتِي تَسُرُّ نَاضِرِيهَا، وَتُعْجِبُ مَبْصِرِيهَا، وَتَقَرُّ عَيْنَ رَامِقِيهَا^(٢) لِأَكْلِ بَنِي آدَمَ وَأَكْلِ بَهَائِمِهِمْ وَمَنَافِعِهِمْ.

﴿٨ - ١١﴾ وَخَصَّ مِنْ تِلْكَ الْمَنَافِعِ [بِالذِّكْرِ] الْجَنَّاتِ الْمُشْتَمِلَةَ عَلَى الْفَوَاكِهِ اللَّذِيذَةِ مِنَ الْعَنْبِ وَالرُّمَانِ وَالْأُتْرُجِّ وَالثَّفَاحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَصْنَافِ الْفَوَاكِهِ، وَمِنَ النَّخِيلِ الْبَاسِقَاتِ؛ أَي: الطُّوَالَ، الَّتِي يَطُولُ نَفْعُهَا^(٣)، وَتَرْتَفِعُ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى تَبْلُغَ مَبْلَغًا لَا يَبْلُغُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْأَشْجَارِ، فَتَخْرُجَ مِنَ الطَّلَعِ النَّضِيدِ فِي قَنَوَانِهَا مَا هُوَ رِزْقٌ لِلْعِبَادِ قَوْتًا وَأَدَمًا وَفَاكِهَةً يَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَذْكُرُونَ هِمَّ وَمَوَاشِيَهُمْ. وَكَذَلِكَ مَا يَخْرُجُ اللَّهُ بِالْمَطَرِ، وَمَا هُوَ أَثَرُهُ مِنَ الْأَنْهَارِ الَّتِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَ[الَّتِي] تَحْتِهَا مِنْ حُبِّ الْحَصِيدِ؛ أَي: مِنَ الزَّرْعِ الْمَحْصُودِ مِنْ بُرٍّ وَشَعِيرٍ وَذَرَّةٍ وَأَرْزٍّ وَدَخْنٍ وَغَيْرِهِ؛ فَإِنْ فِي النَّظَرِ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ﴿تَبْصَرَةٌ﴾: يُتَبَصَّرُ بِهَا^(٤) مِنْ عَمَى الْجَهْلِ، ﴿وَذِكْرَى﴾: يُتَذَكَّرُ بِهَا مَا يَنْفَعُ فِي الدِّينِ وَالْدُنْيَا، وَيُتَذَكَّرُ بِهَا مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ وَأَخْبَرَتْ بِهِ رُسُلُهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِكُلِّ أَحَدٍ، بَلْ ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ إِلَى اللَّهِ؛ أَي: مُقْبِلٍ عَلَيْهِ بِالْحُبِّ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَاجَابَةِ دَاعِيهِ، وَأَمَّا الْمَكْذَبُ أَوْ الْمَعْرُضُ؛ فَمَا تَغْنِي الْآيَاتُ وَالتَّذَكُّرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ.

وَحَاصِلُ هَذَا أَنَّ مَا فِيهَا مِنَ الْخَلْقِ الْبَاهِرِ وَالْقُوَّةِ وَالشَّدَّةِ^(٥) دَلِيلٌ عَلَى كِمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَا فِيهَا مِنَ الْحَسَنِ وَالْإِتْقَانِ وَبَدِيعِ الصَّنِيعَةِ وَبَدِيعِ^(٦) الْخَلْقَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، وَأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْمَصَالِحِ لِلْعِبَادِ دَلِيلٌ عَلَى رَحْمَةِ اللَّهِ الَّتِي وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وَجُودِهِ الَّذِي عَمَّ كُلَّ حَيٍّ، وَمَا فِيهَا مِنْ عَظَمَةِ الْخَلْقَةِ وَبَدِيعِ النِّظَامِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كَفْوًا أَحَدٌ، وَأَنَّهُ الَّذِي لَا تَبْغِي الْعِبَادَةُ وَالذُّلُّ وَالْحُبُّ إِلَّا لَهُ، وَمَا فِيهَا مِنْ إِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا دَلِيلٌ عَلَى

(١) فِي (ب): «وَالْقَرَارُ».

(٢) فِي (ب): «تَسُرُّ نَاضِرَهَا، وَتُعْجِبُ مَبْصَرَهَا، وَتَقَرُّ عَيْنَ رَامِقِهَا».

(٣) فِي (ب): «يَسْتَمِرُّ نَفْعُهَا وَيَطُولُ». (٤) فِي (ب): «بِهِ».

(٥) فِي (ب): «وَالشَّدَّةُ وَالْقُوَّةُ». (٦) فِي (ب): «وَعَجِيبٌ».

إحياء الله الموتى ليجازيهم بأعمالهم، ولهذا قال: ﴿وَأَخِينَا بِهِ بِلْدَةَ مِثَاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾.

ولمَّا ذَكَرْهُمْ بِهَذِهِ الْآيَاتِ السَّمَاوِيَةِ وَالْأَرْضِيَّةِ؛ خَوْفُهُمْ أَخَذَاتِ الْأُمَمِ، وَأَلَّا يَسْتَمِرُّوا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّكْذِيبِ، فَيَصِيبُهُمْ مَا أَصَابَ إِخْوَانَهُمْ مِنَ الْمَكْذُبِينَ، فَقَالَ:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيِّسِ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ ﴿١٤﴾ أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾.

﴿١٢ - ١٤﴾ أي: كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ رُسُلَهُمُ الْكَرَامَ وَأَنْبِيََاءَهُمُ الْعِظَامَ؛ كَنُوحٍ كَذَّبَهُ قَوْمُهُ، وَثَمُودُ كَذَّبُوا صَالِحًا، وَعَادُ كَذَّبُوا هُودًا، وَإِخْوَانُ لُوطٍ كَذَّبُوا لُوطًا، وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ كَذَّبُوا شُعَيْبًا، وَقَوْمُ تُبَّعٍ - وَتُبَّعُ كُلِّ مَلِكٍ مَلِكُ الْيَمَنِ فِي الزَّمَانِ السَّابِقِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ - فَقَوْمُ تُبَّعٍ كَذَّبُوا الرُّسُلَ الَّتِي أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يَخْبِرْنَا اللَّهُ مِنْ هُوَ ذَلِكَ الرُّسُولُ، وَأَيُّ تُبَّعٍ مِنَ التَّبَاعَةِ؛ لِأَنَّهُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - كَانَ مَشْهُورًا عِنْدَ الْعَرَبِ الْعَرَبَاءِ^(١)، الَّذِينَ لَا تَخْفَى مَاجِرَاتُهُمْ عَلَى الْعَرَبِ، خُصُوصًا مِثْلُ هَذِهِ الْحَادِثَةِ الْعَظِيمَةِ؛ فَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ كَذَّبُوا الرُّسُلَ الَّتِي أَرْسَلَهُمُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ، فَحَقَّ عَلَيْهِمْ وَعِيدُ اللَّهِ وَعَقُوبَتُهُ، وَلَسْتُمْ أَتِيهَا الْمَكْذُبُونَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرًا مِنْهُمْ، وَلَا رُسُلَهُمْ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنْ رُسُلِكُمْ؛ فَاحْذَرُوا جَرَمَهُمْ؛ لئَلَّا يَصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ.

﴿١٥﴾ ثم استدل تعالى بالخلق الأول - وهو النشأة الأولى - على الخلق الآخر - وهو النشأة الآخرة -؛ فكما أنه الذي أوجدَهُم بعدَ الْعَدَمِ؛ كَذَلِكَ يَعْيدُهُم بعدَ مَوْتِهِمْ وَصِرَورَتِهِمْ إِلَى الرُّفَاتِ وَالرَّمَمِ، فَقَالَ: ﴿أَفَعَيْنَا﴾؛ أي: أَفَعَجَزْنَا وَضَعَفْنَا قُدْرَتَنَا ﴿بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾: لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَلَمْ نَعْجِزْ وَنَعْيَ عَنْ ذَلِكَ، وَلَيْسُوا فِي شَكٍّ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا ﴿هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: هَذَا الَّذِي شَكُّوا فِيهِ وَالتَّبَسُّ عَلَيْهِمْ أَمْرُهُ، مَعَ أَنَّهُ لَا مَحَلَّ لِلْبَسِّ فِيهِ؛ لِأَنَّ الْإِعَادَةَ أَهْوَنُ مِنَ الْإِبْتِدَاءِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْهُ بِهِ نَفْسُهُ وَحَنُّ إِيَّاهُ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى

(١) في (ب): «كَانَ مَشْهُورًا عِنْدَ الْعَرَبِ؛ لَكُونَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ الْعَرَبَاءِ».

الْمُتَّقِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قِمِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾

﴿١٦﴾ يخبر تعالى أنه المتفرد بخلق^(١) جنس الإنسان ذكورهم وإناثهم، وأنه يعلم أحواله وما يُسِرُّه وتوسوس به نفسه^(٢)، وأنه ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾: الذي هو أقرب شيء إلى الإنسان، وهو [العرق]^(٣) المكتنف لثغرة النحر. وهذا مما يدعو الإنسان إلى مراقبة خالقه، المطلع على ضميره وباطنه، القريب إليه^(٤) في جميع أحواله، فيستحي منه أن يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره.

﴿١٧﴾ وكذلك ينبغي له أن يجعل الملائكة الكرام الكاتبين منه على بال، فيجلِّهم ويوقِّرهم ويحذر أن يفعل أو يقول ما يكتب عنه مملاً لا يرضي رب العالمين، ولهذا قال: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾؛ أي: يتلقَّيان عن العبد أعماله كلها، واحد ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾: يكتب الحسنات، و﴿وَالْآخَرُ﴾: عن الشمال: يكتب السيئات، وكل منهما مقيدٌ بذلك، متهميَّ لعمله الذي أعدَّ له، ملازمٌ لذلك.

﴿١٨﴾ ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾: خير أو شرٌّ ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾؛ أي: مراقب له، حاضرٌ لحاله؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كَرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾

﴿١٩﴾ أي: وجاءت هذا الغافل المكذب بآيات الله، ﴿سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾: الذي لا مردَّ له ولا مناص. ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾؛ أي: تتأخر وتنكص^(٥) عنه.

﴿٢٠﴾ ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ﴾؛ أي: اليوم الذي يلحق الظالمين ما أوعدهم الله به من العقاب والمؤمنين ما وعدهم به من الثواب.

﴿٢١﴾ ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ﴾: يسوقها إلى موقف القيامة؛ فلا يمكنها

(١) في (ب): «أنه الذي خلق». (٢) في (ب): «ويوسوس في صدره».

(٣) كذا في (ب) بعد أن صوبها الشيخ في الهامش. وفي (أ) بقيت كما هي: «العظم».

(٤) في (ب): «منه». (٥) في (ب): «وتحيد».

أن تتأخر عنه، ﴿وشهيد﴾: يشهد عليها بأعمالها؛ خيرها وشرها. وهذا يدل على اعتناء الله بالعباد، وحفظه لأعمالهم، ومجازاته لهم بالعدل.

﴿٢٢﴾ فهذا الأمر مما يجب أن يجعله العبد منه على بال، ولكن أكثر الناس غافلون، ولهذا قال: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا﴾؛ أي: يقال للمعرض المكذب يوم القيامة هذا الكلام توبيخاً ولوماً وتعنيفاً؛ أي: لقد كنت مكذباً بهذا تاركاً للعمل له^(١). ﴿ف﴾: الآن ﴿كشفنا عنك غطاءك﴾: الذي غطى قلبك فكشرك نومك واستمر^(٢) إعراضك، ﴿فبصرك اليوم حديد﴾: ينظر ما يزعجه ويروعه من أنواع العذاب والثكال، أو هذا خطاب من الله للعبد؛ فإنه في الدنيا في غفلة^(٣) عما خلق له، ولكنه يوم القيامة ينتبه ويزول عنه وسنه في وقت لا يمكنه أن يتدارك الفارط ولا يستدرك الفائت. وهذا كله تخويف من الله للعباد، وترهيب بذكر ما يكون على المكذبين في ذلك اليوم العظيم.

﴿وقال قرينه هذا ما لدي عتيد﴾ ﴿٢٣﴾ ألقيا في جهنم كل كفار عنيد ﴿٢٤﴾ مناع للخير معتبر ﴿٢٥﴾ الذي جعل مع الله إلهاً آخر فآلفياه في العذاب الشديد ﴿٢٦﴾ قال قرينه ربنا ما أطغيتم ولكن كان في ضلال بعيد ﴿٢٧﴾ قال لا تخصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد ﴿٢٨﴾ ما يبدل القول لدي وما أنا بظالم للعبيد ﴿٢٩﴾.

﴿٢٣﴾ يقول تعالى: ﴿وقال قرينه﴾؛ أي: قرين هذا المكذب المعرض من الملائكة، الذين وكلهم الله على حفظه وحفظ أعماله، فيحضره يوم القيامة، ويحضر أعماله، ويقول: ﴿هذا ما لدي عتيد﴾؛ أي: قد أحضرت ما جعلت عليه من حفظه وحفظ عمله.

﴿٢٤﴾ فيجازى بعمله، ويقال لمن استحق النار: ﴿ألقيا في جهنم كل كفار عنيد﴾؛ أي: كثير الكفر والعناد لآيات الله، المكثرون من المعاصي، المتجرئون على المحارم والمآثم.

﴿٢٥﴾ ﴿مناع للخير﴾؛ أي: يمنع الخير الذي قبله^(٤)، الذي أعظمه الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، مناع لنفع ماله وبدنه، ﴿معتد﴾: على عباد الله وعلى

(٢) في (ب): «ودام».

(١) في (ب): «به».

(٤) في (ب): «عنده».

(٣) في (ب): «أنه في غفلة في الدنيا».

حدوده، أئيم، أي: كثير الإثم، ﴿مريب﴾؛ أي: شاك في وعد الله ووعيده؛ فلا إيمان ولا إحسان، ولكن وصفه الكفر والعدوان والشك والريب والشح واتخاذ الآلهة من دون الرحمن.

﴿٢٦﴾ ولهذا قال: ﴿الذي جعل مع الله إلهاً آخر﴾؛ أي: عبد معه غيره ممن لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ﴿فألقيا﴾: أيها المَلَكَانِ القرينان ﴿في العذاب الشديد﴾: الذي هو معظمها وأشدّها وأشنعها.

﴿٢٧﴾ ﴿قال قرينه﴾: الشيطان متبرئاً منه حاملاً عليه إثمه: ﴿ربنا ما أطعنيته﴾: لأنني لم يكن لي عليه سلطان ولا حجة ولا برهان، ﴿ولكن كان في ضلالٍ بعيد﴾: فهو الذي ضلّ وبعُدَ عن الحقِّ باختياره؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وقال الشيطان لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ووعدتكم فأخلفتكم﴾^(١)... الآية.

﴿٢٨﴾ قال الله تعالى مجيباً لاختصاصهم: ﴿لا تَخْتَصِمُوا لَدِيَ﴾؛ أي: لا فائدة في اختصاصكم عندي، ﴿والحال أنني﴾ ﴿قد قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾؛ أي: جاءكم رسلي بالآيات البينات والحجج الواضحات والبراهين الساطعات، فقامت عليكم حجتي وانقطعت حجَّتكم، وقدمتم إليّ بما أسلفتم من الأعمال التي وجب جزاؤها.

﴿٢٩﴾ ﴿ما يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدِي﴾؛ أي: لا يمكن أن يخلف ما قاله الله وأخبر به؛ لأنه لا أصدق من الله قِيلاً، ولا أصدق حديثاً. ﴿وما أنا بظلامٍ للعبيد﴾: بل أجزيهم بما عملوا من خيرٍ وشرٍّ؛ فلا يزداد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ (٣٠) وَأَزَلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَكُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥).

﴿٣٠﴾ يقول تعالى مخوفاً لعباده: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ﴾: وذلك من كثرة ما ألقى فيها، ﴿ونقول هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾؛ أي: لا تزال تطلب الزيادة من المجرمين العاصين؛ غضباً لرَبِّها، وغيظاً على الكافرين، وقد^(٢) وعدّها الله ملاءها؛ كما قال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾: حتى يضع ربُّ العزة

(١) في (ب): ذكر المؤلف الآية إلى قوله تعالى: ﴿ولموا أنفسكم﴾.

(٢) في (ب): «حتى وقد».

عليها قدمه الكريمة المنزّهة عن التشبيه، فينزوي بعضها على بعض، وتقول: قط، قط^(١)؛ قد اكتفيت وامتألت.

﴿٣١﴾ ﴿وَأَزَلَقْتَ الْجَنَّةَ﴾؛ أي: قرّبت بحيث تشاهد ويُنظر ما فيها من النعيم المقيم والحبرة والسرور، وإنما أزلقت وقرّبت لأجل المتّقين لرّبهم، التاركين للشرك كبيره وصغيره^(٢)، الممّثّلين لأوامر ربهم، المنقادين له.

﴿٣٢﴾ ويقال لهم على وجه التّهنة: ﴿هَذَا مَا توعدون لكلّ أوّاب حفيظ﴾؛ أي: هذه الجنة وما فيها مما تشتهيهِ الأنفس وتلذّ الأعين هي التي وعد الله كلّ أوّاب؛ أي: رجّاع إلى الله في جميع الأوقات؛ بذكره وجبه والاستعانة به ودعائه وخوفه ورجائه. ﴿حفيظ﴾؛ أي: محافظ على ما أمر الله به؛ بامتناله على وجه الإخلاص والإكمال له على أتمّ الوجوه، حفيظ لحدوده.

﴿٣٣﴾ ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ﴾؛ أي: خافه على وجه المعرفة برّبه والرجاء لرحمته، ولازم على خشية الله في حال غيبه؛ أي: مغيبه عن أعين الناس. وهذه الخشية الحقيقية، وأمّا خشيته في حال نظر الناس وحضورهم؛ فقد يكون رياءً وسمعةً؛ فلا يدلّ على الخشية، وإنما الخشية النافعة خشيته في الغيب والشهادة، [ويحتمل أنّ المراد بخشية الله بالغيب، كالمراد بالإيمان بالغيب. وأنّ هذا مقابل للشهادة حيث يكون الإيمان والخشية ضرورياً لا اختيارياً حيث يعاين العذاب، وتأتي آيات الله وهذا هو الظاهر.] ﴿وجاء بقلبٍ منيب﴾؛ أي: وصفه الإنابة إلى مولاه، وانجذاب دواعيه إلى مرضيه.

﴿٣٤﴾ ويقال لهؤلاء الأتقياء الأبرار: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾؛ أي: دخولاً مقروناً بالسلامة من الآفات والشُرور، مأموناً فيه جميع مكاره الأمور؛ فلا انقطاع لنعيمهم ولا كدر ولا تنغيص. ﴿ذلك يومُ الخلود﴾: الذي لا زوال له ولا موت ولا شيء من المكدرات.

﴿٣٥﴾ ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾؛ أي: كلّ ما تعلّقت به مشيتهم؛ فهو حاصل فيها، ﴿ولدينا﴾: فوق ذلك ﴿مزيّد﴾؛ أي: ثواب يمدّهم به الرحمن الرحيم، ممّا لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأعظم ذلك وأجلّه وأفضله

(١) كما في «صحيح البخاري» (٧٣٨٤)، ومسلم (٢٨٤٨) عن أنس رضي الله عنه.

(٢) في (ب): «صغيره وكبيره».

النظر إلى وجهه الكريم، والتمتع بسماع كلامه، والتعظم بقربه، فنسأله من فضله^(١).

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحْيِيں ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٣٦﴾ يقول تعالى مخوفاً للمشركين المكذبين للرسول: ﴿وكم أهلكننا قبلهم من قرن؛ أي: أمماً كثيرة﴾ هم أشد منهم بطشاً؛ أي: قوةً وأثاراً في الأرض، ولهذا قال: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾؛ أي: بنوا الحصون المنيعة والمنازل الرفيعة، وغرسوا الأشجار، وأجروا الأنهار، وزرعوا، وعمَّروا، ودَّمَّروا، فلما كذبوا رسل الله وجحدوا آياته^(٢)؛ أخذهم الله بالعقاب الأليم والعذاب الشديد. ﴿هل من مَحْيِيں﴾؛ أي: لا مفرَّ لهم من عذاب الله حين نزل بهم ولا منقذ، فلم تغن عنهم قوتهم ولا أموالهم ولا أولادهم.

﴿٣٧﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾؛ أي: قلبٌ عظيمٌ حيٌّ ذكيٌّ زكيٌّ؛ فهذا إذا ورد عليه شيء من آيات الله؛ تذكَّر بها وانتفع فارتفع، وكذلك من ألقى سمعه إلى آيات الله واستمعها استماعاً يسترشد به وقلبه ﴿شَهِيدٌ﴾؛ أي: حاضرٌ؛ فهذا أيضاً له ذكرى وموعظةٌ وشفاءٌ وهدى، وأمَّا المعرض الذي لم يصغِ^(٣) سمعه إلى الآيات؛ فهذا لا تفيدُه شيئاً؛ لأنه لا قبول عنده، ولا تقتضي حكمه الله هدايةً من هذا نعته^(٤).

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَأَصْبَرَ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٣٨﴾ وهذا إخبارٌ منه تعالى عن قدرته العظيمة ومشيتته النافذة، التي أوجد بها أعظم المخلوقات؛ ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة؛ من غير تعبٍ ولا نصبٍ ولا لغوبٍ ولا إعياءٍ؛ فالذي أوجدتها على كبرها وعظمتها قادرٌ على إحياء الموتى من باب أولى وأحرى.

﴿٣٩ - ٤٠﴾ ﴿فَأَصْبَرَ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾: من الذمِّ لك والتكذيب بما جئت به، واشتغل عنهم وآله بطاعة ربِّك وتسبيحه أول النهار وآخره وفي أوقات الليل وأدبار

(١) في (ب): «فنسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم». (٢) في (ب): «آيات الله».

(٣) في (ب): «هذا وصفه ونعته».

(٤) في (ب): «لم يلقى».

الصلوات؛ فإن ذكر الله تعالى مسلّ للنفس مؤنس لها مهوّن للصبر.

﴿وَأَسْتَعِمْ يَوْمَ يَنَادُ النَّادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرُ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤١﴾ أي: ﴿واستمع﴾: بقلبك نداء المنادي، وهو إسرافيل عليه السلام، حين ينفخ في الصور ﴿من مكان قريب﴾: من الأرض^(١).

﴿٤٢﴾ ﴿يوم يسمعون الصَّيْحَةَ﴾؛ أي: كلُّ الخلائق يسمعون تلك ﴿الصَّيْحَةَ﴾: المزعجة المهولة ﴿بالحق﴾: الذي لا شك فيه ولا امتراء. ﴿ذلك يوم الخروج﴾: من القبور، الذي انفرد به القادر على كل شيء.

﴿٤٣ - ٤٤﴾ ولهذا قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ. يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾؛ أي: عن الخلائق ﴿سِرَاعًا﴾؛ أي: يسرعون لإجابة الداعي لهم إلى موقف القيامة. ﴿ذلك حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرُ﴾؛ أي: سهل على الله^(٢)، لا تعب فيه ولا كلفة.

﴿٤٥﴾ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾: لك مما يحزنك من الأذى، وإذا كنا أعلم بذلك؛ فقد علمت كيف اعتناؤنا بك وتيسيرنا لأمورك ونصرنا لك على أعدائك؛ فليفرح قلبك، ولتطمئن نفسك، ولتعلم أننا أرحم بك وأرف من نفسك، فلم يبق لك إلا انتظار وعد الله والتأسي بأولي العزم من رسل الله، ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾؛ أي: مسلط عليهم، ﴿إنما أنت منذرٌ ولكلِّ قوم هادٍ﴾، ولهذا قال: ﴿فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدَ﴾، والتذكير هو تذكير ما تقرّر في العقول والفطر من محبة الخير وإيثاره وفعله ومن بغض الشر ومجانبته، وإنما يتذكر بالتذكير من يخاف وعيد الله، وأما من لم يخفِ الوعيد ولم يؤمن به؛ فهذا فائدة تذكيره إقامة الحجّة عليه لئلا يقول: ما جاءنا من بشير ولا نذير.

آخر تفسير سورة ق.

والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.



(١) وفي هامش (ب) الخلق.

(٢) في (ب): «هين على الله يسير».

تفسير سورة والذاريات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا ﴿١﴾ فَأَلْمَلَتْ وَقَرَأَ ﴿٢﴾ فَأَلْمَلَتْ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَأَلْمَلَتْ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّ إِلَيْنَا لَوْعٌ ﴿٦﴾﴾ .

﴿١ - ٦﴾ هذا قسم من الله الصادق قي قيله بهذه المخلوقات العظيمة، التي جعل الله فيها من المصالح والمنافع ما جعل، على أن وعده صادق، وأن الدين الذي هو يوم الجزاء والمحاسبة على الأعمال لواقع لا محالة، ما له من دافع. فإذا أخبر به الصادق العظيم، وأقسم عليه، وأقام الأدلة والبراهين عليه؛ فلم يكذب به المكذبون، ويعرض عن العمل له العاملون؟! ﴿والذاريات﴾^(١): هي الرياح التي تذرو في هبوبها ﴿ذروا﴾: بليتها ولطفها وقوتها وإزعاجها، ﴿فالحاملات وقرأ﴾: هي السحاب، تحمل الماء الكثير، الذي ينفع الله به العباد والبلاد^(٢)، ﴿فالجاريات يسرا﴾: النجوم التي تجري على وجه اليسر والسهولة، فتزير بها السماوات، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ويتنفع بالاعتبار بها، والمقسمات ﴿أمرًا﴾: الملائكة التي تقسم الأمر وتدبره بإذن الله؛ فكل منهم قد جعله الله على تدبير أمر من أمور الدنيا والآخرة لا يتعدى ما حُد له وقدر ورسم ولا ينقص منه.

﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكَ لَفِي قَوْلٍ مُتَخَلِّفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾ .

﴿٧﴾ أي: ﴿والسما﴾: ذات الطرائق الحسنة، التي تشبه حُبكَ الرمال ومياه الغدران حين يحركها النسيم.

﴿٨﴾ ﴿إنكم﴾: أيها المكذبون لمحمد ﷺ، ﴿لفي قول مختلف﴾: منكم من يقول: ساحر! ومنكم من يقول: كاهن! ومنكم من يقول: مجنون! إلى غير ذلك من الأقوال المختلفة الدالة على حيرتهم وشكهم، وأن ما هم عليه باطل.

﴿٩﴾ ﴿يؤفك عنه من أفك﴾: أي: يُصرف عنه من صرف عن الإيمان وانصرف [قلبه] عن أدلة الله اليقينية وبراهينه. واختلاف قولهم دليل على فساده وبطلانه؛ كما

(١) في (ب): «والمراد بالذاريات». (٢) في (ب): «البلاد والعباد».

أَنَّ الْحَقَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ مُتَّفَقٌ؛ يَصْدُقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، لَا تَنَاقُضَ فِيهِ وَلَا اخْتِلَافَ، وَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى صِحَّتِهِ، وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؛ فَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ؛ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا.

﴿قِيلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمَرٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمِ الَّذِينَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فَنَّتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٥﴾ يقول تعالى: ﴿قِيلَ الْخَرَّاصُونَ﴾؛ أي: قاتل الله الذين كَذَّبُوا عَلَى اللَّهِ، وَجَحَدُوا آيَاتَهُ، وَخَاضُوا بِالْبَاطِلِ لِيُذْخِصُوا بِهِ الْحَقَّ، الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ.

﴿١١﴾ ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾؛ أي: فِي لُجَّةٍ مِنَ الْكُفْرِ وَالْجَهْلِ وَالضَّلَالِ، ﴿سَاهُونَ﴾.

﴿١٢﴾ ﴿يَسْأَلُونَ﴾: عَلَى وَجْهِ الشُّكِّ وَالتَّكْذِيبِ: ﴿أَيَّانَ [يَوْمِ الدِّينِ]﴾^(١): يَبْعَثُونَ؟ أَي: مَتَى يُبْعَثُونَ! مُسْتَبْعِدِينَ لَذَلِكَ!

﴿١٣ - ١٤﴾ فَلَا تَسْأَلُ عَنْ حَالِهِمْ وَسُوءِ مَا لَهُمْ! ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾؛ أَي: يَعْذَّبُونَ بِسَبَبِ مَا انْطَوَوْا عَلَيْهِ مِنْ خَبْثِ الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ، وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿ذُوقُوا فَنَّتَكُمْ﴾؛ أَي: الْعَذَابَ وَالنَّارَ، الَّذِي هُوَ أَثَرُ مَا افْتَنَوْا بِهِ مِنَ الْإِبْتِلَاءِ، الَّذِي صَيَّرَهُمْ إِلَى الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ. ﴿هَذَا﴾: الْعَذَابُ الَّذِي وَصَلْتُمْ إِلَيْهِ هُوَ ﴿الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾: فَالآنَ تَمَتَّعُوا بِأَنْوَاعِ الْعِقَابِ وَالنُّكَالِ، وَالسَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ، وَالسَّخَطِ وَالْوَبَالِ.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَا ءَانَهُمْ رَبُّهُمْ إِيَّاهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ آلِإِبْرَاهِيمَ مَا يَجْعَلُونَهُمْ وَلَا أَعْبَارَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٧﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٥﴾ يقول تعالى فِي ذِكْرِ ثَوَابِ الْمُتَّقِينَ وَأَعْمَالِهِمُ الَّتِي وَصَلُوا بِهَا إِلَى ذَلِكَ الْجَزَاءِ^(٢): ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾؛ أَي: الَّذِينَ كَانَتِ التَّقْوَى شِعَارَهُمْ وَطَاعَةُ اللَّهِ دَنَاهُمْ، ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾: مُشْتَمَلَاتٍ عَلَى جَمِيعِ أَصْنَافِ الْأَشْجَارِ وَالْفَوَاكِه، الَّتِي يَوْجَدُ لَهَا نَظِيرٌ فِي الدُّنْيَا، وَالَّتِي لَا يَوْجَدُ لَهَا نَظِيرٌ، مِمَّا لَمْ تَنْظُرِ الْعَيُونُ إِلَى مِثْلِهِ، وَلَمْ تَسْمَعْ

(١) فِي النَّسَخَتَيْنِ: «يَبْعَثُونَ».

(٢) فِي (ب): «الَّتِي أَوْصَلَتْهُمْ إِلَى ذَلِكَ الْجَزَاءِ».

الآذَانُ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ^(١)، ﴿وَعَيُونَ﴾: سَارِحَةٌ تَشْرَبُ مِنْهَا تِلْكَ الْبَسَاتِينَ، وَيَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يَفْجَرُونَهَا تَفْجِيرًا.

﴿١٦﴾ ﴿أَخْذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾: يُحْتَمَلُ أَنَّ الْمَعْنَى أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ قَدْ أَعْطَاهُمْ مَوْلَاهُمْ جَمِيعَ مَنَاهِمٍ مِنْ جَمِيعِ أَصْنَافِ النِّعَمِ، فَأَخَذُوا ذَلِكَ رَاضِينَ بِهِ، قَدْ قَرَّتْ بِهِ أَعْيُنُهُمْ، وَفَرَحَتْ بِهِ نَفْسُهُمْ، وَلَمْ يَطْلُبُوا مِنْهُ بَدَلًا، وَلَا يَبْغُونَ عَنْهُ حَوْلًا، وَكُلُّ قَدْ نَالَهُ مِنَ النِّعَمِ مَا لَا يَطْلُبُ عَلَيْهِ الْمَزِيدَ. وَيُحْتَمَلُ أَنَّ هَذَا وَصْفُ الْمُتَّقِينَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَّهُمْ أَخَذُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي؛ أَي: قَدْ تَلَقَّوْهَا بِالرَّحْبِ وَانْشَرَحَ الصُّدُورُ، مُنْقَادِينَ لِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ بِالْإِمْتِثَالِ عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ، وَلَمَّا نَهَى عَنْهُ بِالْإِنْزِجَارِ عَنْهُ لِلَّهِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِ؛ فَإِنَّ الَّذِي أَعْطَاهُمُ اللَّهُ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي هُوَ أَفْضَلُ الْعَطَايَا الَّتِي حَقُّهَا أَنْ تُتَلَقَّى بِالشُّكْرِ لِلَّهِ عَلَيْهَا وَالْإِنْقِيَادِ.

وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ أَصْقُ بَسِيَاقِ الْكَلَامِ؛ لِأَنَّهُ ذَكَرَ وَصْفَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَأَعْمَالَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾: الْوَقْتُ الَّذِي وَصَلُوا بِهِ إِلَى النِّعَمِ ﴿مُحْسِنِينَ﴾: وَهَذَا شَامِلٌ لِإِحْسَانِهِمْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِمْ؛ بِأَنْ يَعْبُدُوهُ كَأَنَّهُمْ يَرُونَهُ؛ فَإِنْ لَمْ يَكُونُوا يَرُونَهُ؛ فَإِنَّهُ يَرَاهُمْ، وَلِلْإِحْسَانِ إِلَى عِبَادِ اللَّهِ يَبْذُلُ النِّفْعَ وَالْإِحْسَانَ مِنْ مَالٍ أَوْ عِلْمٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ نَصِيحَةٍ أَوْ أَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهْيٍ عَنْ مَنكَرٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ وَجْهِ الْبِرِّ^(٢) وَطَرَقَ الْخَيْرَاتِ، حَتَّى إِنَّهُ يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْإِحْسَانَ بِالْقَوْلِ وَالْكَلَامِ اللَّيِّنِ وَالْإِحْسَانَ إِلَى الْمَمَالِكِ وَالْبَهَائِمِ الْمَمْلُوكَةِ وَغَيْرِ الْمَمْلُوكَةِ^(٣).

﴿١٧﴾ وَمِنْ أَفْضَلِ أَنْوَاعِ الْإِحْسَانِ فِي عِبَادَةِ الْخَالِقِ صَلَاةُ اللَّيْلِ الدَّالَّةُ عَلَى الْإِخْلَاصِ وَتَوَاطُؤُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَانُوا﴾؛ أَي: الْمُحْسِنُونَ، ﴿قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾؛ أَي: كَانَ هَجْوُهُمْ؛ أَي: نَوْمُهُمْ بِاللَّيْلِ قَلِيلًا، وَأَمَّا أَكْثَرُ اللَّيْلِ؛ فَإِنَّهُمْ قَانَتُونَ لِرَبِّهِمْ، مَا بَيْنَ صَلَاةٍ وَقِرَاءَةٍ وَذِكْرٍ وَدُعَاءٍ وَتَضَرُّعٍ.

﴿١٨﴾ ﴿وَبِالْأَسْحَارِ﴾: الَّتِي هِيَ قَبِيلُ الْفَجْرِ، ﴿هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾: اللَّهُ تَعَالَى، فَمَدُّوا صَلَاتَهُمْ إِلَى السَّحَرِ، ثُمَّ جَلَسُوا فِي خَاتِمَةِ قِيَامِهِمْ بِاللَّيْلِ يَسْتَغْفِرُونَ اللَّهُ تَعَالَى اسْتَغْفَارَ الْمَذْنِبِ لَذَنْبِهِ. وَلِلْاسْتَغْفَارِ بِالْأَسْحَارِ فَضِيلَةٌ وَخَصِيصَةٌ لَيْسَتْ لِغَيْرِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي وَصْفِ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾.

(١) فِي (ب): «عَلَى قُلُوبِ الْعِبَادِ». (٢) فِي (ب): «وَجْهَ الْإِحْسَانِ».

(٣) فِي (ب): «وَالْبَهَائِمِ الَّتِي تَمْلِكُ وَالَّتِي لَا تَمْلِكُ».

﴿١٩﴾ ﴿وفي أموالهم حق﴾: واجبٌ ومستحبٌ ﴿للمسائل والمحروم﴾؛ أي: للمحتاجين الذين يطلبون من الناس والذين لا يسألونهم.

﴿وفي الأرض آياتٌ للموقنين﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿وفي أنفسكم آفلا تبصرون﴾ ﴿٢١﴾ ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿وربّ السماء والأرض إنّهُ لَحَقُّ بِنْتَلٍ مَا أَنتُمْ نَاطِقُونَ﴾ ﴿٢٣﴾

﴿٢٠﴾ يقول تعالى داعياً عباده إلى التفكر والاعتبار: ﴿وفي الأرض آياتٌ للموقنين﴾: وذلك شاملٌ لنفس الأرض وما فيها من جبال وبحار وأنهار وأشجار ونبات تدلُّ المتفكر فيها، المتأمل لمعانيها على عظمة خالقها وسعة سلطانه وعميم إحسانه وإحاطة علمه بالظواهر والبواطن.

﴿٢١﴾ وكذلك في نفس العبد من العبر والحكمة والرحمة ما يدلُّ على أنّ الله واحدٌ أحدٌ فردٌ صمدٌ^(١)، وأنّه لم يخلق الخلق سدىً.

﴿٢٢﴾ وقوله: ﴿وفي السماء رزقكم﴾؛ أي: مادة رزقكم من الأمطار وصنوف الأقدار؛ الرزق الديني والدنيوي، وما توعدونه من الجزاء في الدنيا والآخرة؛ فإنه ينزل من عند الله كسائر الأقدار.

﴿٢٣﴾ فلما بيّن الآيات ونبه عليها تنبيهاً يتنبه به الذكيّ اللبيب؛ أقسم تعالى على أنّ وعده وجزاءه حقٌّ، وشبه ذلك بأظهر الأشياء لنا، وهو النطق، فقال: ﴿فوربّ السماء والأرض إنّهُ لَحَقُّ بِنْتَلٍ مَا أَنتُمْ نَاطِقُونَ﴾؛ فكما أنّكم لا تشكّون في نطقكم؛ فكذلك ينبغي أن لا يعتريكم الشكُّ في البعث والجزاء^(٢).

﴿هَلْ أَنتَ أَتَىكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَأَى إِلَهُه فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَرُوا فِيهِمْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَخُذُوا زِينَتَكُمْ لَئِيذُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرْرِهَا وَأَعْبَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ﴿٣١﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٢﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٣﴾ لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَ مِنْ طِينٍ ﴿٣٤﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ

(١) في (ب): «ما يدلُّ على أنّ الله وحده الأحد الفرد الصمد».

(٢) في (ب): «في البعث بعد الموت».

(٣) في (ب): لم تذكر الآيات التي بعدها.

رَبِّكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٥﴾ فَمَا وَحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٧﴾ .

﴿٢٤﴾ يقول تعالى: ﴿هل أتاك﴾؛ أي: أما جاءك؟ ﴿حديث ضيف إبراهيم المُكْرَمِينَ﴾: ونبأهم الغريب العجيب، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وأمرهم بالمرور على إبراهيم، فجاؤوه في صورة أضياف.

﴿٢٥﴾ ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ﴾: مجيباً لهم: ﴿سلام﴾؛ أي: عليكم، ﴿قوم منكرون﴾؛ أي: أنتم قوم منكرون، فأحْبُ أن تعرفوني بأنفسكم، ولم يعرفهم إلا بعد ذلك.

﴿٢٦﴾ ولهذا راغ ﴿إلى أهله﴾؛ أي: ذهب سريعاً في خفية ليحضر لهم قراهم، ﴿فجاء بعجل سمين﴾.

﴿٢٧﴾ ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾: وعرض عليهم الأكل، ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ؟﴾

﴿٢٨﴾ ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾: حين رأى أيديهم لا تصل إليه، ﴿قالوا لا تخف﴾: وأخبروه بما جاؤوا له، ﴿ويشروه بغلام عليم﴾: وهو إسحاق عليه السلام.

﴿٢٩﴾ فلما سمعت المرأة البشارة: ﴿أقبلت﴾: فرحةً مستبشرة ﴿في صرة﴾؛ أي: صيحة، ﴿فصكت وجهها﴾: وهذا من جنس ما يجري للنساء عند السرور ونحوه من الأقوال والأفعال المخالفة للطبيعة والعادة، ﴿وقالت عجوزٌ عقيمٌ﴾؛ أي: أني لي الولد وأنا عجوزٌ قد بلغت من السن ما لا تلد معه النساء! ومع ذلك؛ فأنا عقيمٌ غير صالحٍ رحمي للولادة أصلاً؛ فثم مانعان، كلُّ منهما مانعٌ من الولد، وقد ذكرت المانع الثالث في سورة هود في قولها: ﴿وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيءٌ عجيبٌ﴾.

﴿٣٠﴾ ﴿قالوا كذلك قال ربك﴾؛ أي: الله الذي قدر ذلك وأمضاه؛ فلا عجب في قدرة الله [تعالى]، ﴿إنه هو الحكيم العليم﴾؛ أي: الذي يضع الأشياء مواضعها، وقد وسع كل شيء علماً، فسلموا لحكمه، واشكروه على نعمته.

﴿٣١﴾ ﴿قال فما خطبكم أيُّها المرسلون﴾^(١)؛ أي: قال لهم إبراهيم عليه

(١) في (ب): «الآيات».

السلام: ما شأنكم أيها المرسلون؟! وماذا تريدون؟! لأنه استشعر^(١) أنهم رسل أرسلهم الله لبعض الشؤون المهمة.

﴿٣٢﴾ ﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مَجْرِمِينَ﴾: وهم قوم لوط، قد أجرموا بإشراكهم بالله وتكذيبهم لرسولهم وإتيانهم الفاحشة التي لم يَسْبِقْهُمْ إِلَيْهَا^(٢) أحد من العالمين.

﴿٣٣ - ٣٤﴾ ﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ. مَسْؤَمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾؛ أي: معلّمة على كل حجر اسم^(٣) صاحبه؛ لأنهم أسرفوا وتجاوزوا الحد. فجعل إبراهيم يجادلهم في قوم لوط، لعل الله يدفع عنهم العذاب، ف قيل له^(٤): ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾.

﴿٣٥ - ٣٦﴾ ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾: وهم بيت لوط عليه السلام؛ إلا امرأته؛ فإنها من المهلكين.

﴿٣٧﴾ ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾: يعتبرون بها ويعلمون أن الله شديد العقاب، وأن رسله صادقون مصدقون.

فصل

في ذكر بعض ما تضمّنته هذه القصة من الحكم والأحكام

منها: أن من الحكمة قصّ الله على عباده نبأ الأخيار والفجار؛ ليعتبروا بهم^(٥)، وأين وصلت بهم الأحوال.

ومنها: فضيلة^(٦) إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام؛ حيث ابتدأ الله قصّته بما يدلّ على الاهتمام بشأنها والاعتناء بها.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن إبراهيم الخليل، الذي أمر الله محمداً^(٧) وأُمَّته أن يتبعوا ملّته، وساقها الله في هذا الموضع على وجه المدح والثناء.

(١) في (ب): «أي ما شأنكم وما تريدون لأنه علم..»

(٢) في (ب): «قد أجرموا وأشركوا بالله، وكذبوا رسولهم، وأتوا الفاحشة الشنعاء التي ما سبقهم عليها».

(٤) في (ب): «قال الله».

(٣) في (ب): «سمة».

(٦) في (ب): «فضل».

(٥) في (ب): «بحالهم».

(٧) في (ب): «هذا النبي».

ومنها: أَنَّ الضَّيْفَ يُكْرَمُ بأنواع الإكرام؛ بالقول والفعل؛ لأنَّ الله وصف أضياف إبراهيم بأنَّهم مكرمون؛ أي: أكرمهم إبراهيم، ووصفَ الله ما صنع بهم من الضيافة قولاً وفعلًا، ومكرمون أيضاً عند الله [تعالى].

ومنها: أَنَّ إبراهيم عليه السلام قد كان بيته مأوىً للطارقين والأضياف؛ لأنَّهم دخلوا عليه من غير استئذانٍ، وإنَّما سلكوا طريق الأدب في ابتداء السلام، فردَّ عليهم إبراهيم سلاماً أكملَ من سلامهم وأتمَّ؛ لأنَّه أتى به جملة اسمية دالة على الثبوت والاستقرار.

ومنها: مشروعية تعرُّف من جاء إلى الإنسان أو صار له فيه نوعُ اتِّصال؛ لأنَّ في ذلك فوائد كثيرة.

ومنها: أدب إبراهيم ولطفه في الكلام؛ حيث قال: ﴿قَوْمٌ منكرون﴾، ولم يقل: أنكرتكم، وبين اللفظين من الفرق ما لا يخفى.

ومنها: المبادرة إلى الضيافة والإسراع بها؛ لأن خير البرِّ عاجله، ولهذا بادر إبراهيم بإحضار قري أضيافه.

ومنها: أَنَّ الدَّيْبِيحَةَ الحاضرة التي قد أعدَّت لغير الضيف الحاضر إذا جعلت له ليس فيها أقل إهانة، بل ذلك من الإكرام؛ كما فعل إبراهيم عليه السلام، وأخبر الله أَنَّ ضيفه مكرمون.

ومنها: ما منَّ الله به على خليله إبراهيم من الكرم الكثير، وكون ذلك حاضراً لديه^(١) وفي بيته معداً لا يحتاج إلى أن يأتي به^(٢) من السوق أو الجيران أو غير ذلك.

ومنها: أَنَّ إبراهيم هو الذي خدم أضيافه، وهو خليل الرحمن وسيِّد^(٣) من ضيِّف الضيفان.

ومنها: أنَّه قرَّبه إليهم في المكان الذي هم فيه، فلم يجعله في موضع ويقول لهم تفضُّلوا أو اتُّوا عليه؛ لأنَّ هذا أيسر وأحسن.

ومنها: حسن ملاطفة الضيف في الكلام اللين، خصوصاً عند تقديم الطعام إليه؛

(١) في (ب): «عنده».

(٢) في (ب): «أن يستلحقه».

(٣) في (ب): «وكبير».

فإن إبراهيم عرض عليهم عرضاً لطيفاً، فقال: ﴿ألا تأكلون﴾، ولم يقل: كلوا! ونحوه من الألفاظ التي غيرها أولى منها، بل أتى بأداة العرض، فقال: ﴿ألا تأكلون﴾؛ فينبغي للمقتدي به أن يستعمل من الألفاظ الحسنة ما هو المناسب واللائق بالحال؛ كقوله لأضيافه: ألا تأكلون؟ أو: ألا تفضلون؟ أو تشرفونا وتحسنون إلينا... ونحو ذلك^(١).

ومنها: أن من خاف من أحدٍ لسبب من الأسباب؛ فإن عليه أن يزيل عنه الخوف، ويذكر له ما يؤمن روعه ويسكن جأشه؛ كما قالت الملائكة لإبراهيم لما خافهم: ﴿لا تخف﴾، وأخبروه بتلك البشارة السارة بعد الخوف منهم.

ومنها: شدة فرح سارة امرأة إبراهيم، حتى جرى منها ما جرى من صك وجهها وصرتها غير المعهودة.

ومنها: ما أكرم الله به إبراهيم وزوجته سارة من البشارة بغلام عليم.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۖ فَتَوَلَّىٰ زُرْكُوهٖ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۖ فَآخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ۖ﴾.

﴿٣٨﴾ أي: ﴿وفي موسى﴾: وما أرسله الله به إلى فرعون وملئه بالآيات البينات والمعجزات الظاهرات آية للذين يخافون العذاب الأليم.

﴿٣٩﴾ فلما أتى موسى فرعون بذلك السلطان المبين؛ تولى فرعون ﴿بركته﴾؛ أي: أعرض بجانبه عن الحق، ولم يلتفت إليه، وقدحوا فيه أعظم القدح، فقالوا: ﴿ساحرٌ أو مجنونٌ﴾؛ أي: إن موسى لا يخلوا إما أن يكون ما أتى به سحراً وشعبذة ليس من الحق في شيء، وإما أن يكون مجنوناً لا يؤاخذ بما صدر منه لعدم عقله! هذا وقد علموا - خصوصاً فرعون - أن موسى صادق؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ۖ ظَلَمُوا وَعَلَوُا ۖ﴾، وقال موسى لفرعون: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر... الآية﴾.

﴿٤٠﴾ ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو ملِيمٌ﴾؛ أي: مذنب طاغ عات على الله، فأخذه [الله] أخذ عزيز مقتدر.

(١) في (ب): «... أو: ألا تفضلون علينا، وتشرفونا، وتحسنون إلينا... ونحوه».

(٢) في (ب): «... الآية».

وَأَتَقْنَاهَا وَجَعَلْنَاهَا سَقْفًا لِلْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهَا، ﴿بِأَيِّدٍ﴾؛ أي: بقوة وقدر عظيمة، ﴿وَأِنَّا لَمَوْسِعُونَ﴾: لأرجائها وأنحائها، وإِنَّا لَمَوْسِعُونَ أيضاً على عبادنا بالرزق الذي ما ترك دابة في مهامه القفار ولُجج البحار وأقطار العالم العلوي والسفلي إلا وأوصل إليها من الرزق ما يكفيها، وساق إليها من الإحسان ما يُغنيها. فسبحان من عمَّ بجوده جميع المخلوقات، وتبارك الذي وسعت رحمته جميع البريات.

﴿٤٨﴾ ﴿وَالْأَرْضُ فَرَشْنَاهَا﴾؛ أي: جعلناها فراشاً للخلق يتمكّنون فيها من كل ما تتعلّق به مصالحهم من مساكن وغراس وزرع وحريث وجلوس وسلوك للسبل^(١) الموصلة إلى مقاصدهم ومآربهم. ولَمَّا كَانَ الْفَرَّاشُ قد يكون صالحاً للانتفاع من كل وجه، وقد يكون من وجه دون وجه؛ أخبر تعالى أنه مَهْدَاهَا أحسن مهادٍ على أكمل الوجوه وأحسنها، وأثنى على نفسه بذلك، فقال: ﴿فَنَعَمَ الْمَاهِدُونَ﴾: الذي مَهَدَ لعباده ما اقتضته حكمته ورحمته^(٢).

﴿٤٩﴾ ﴿وَمَنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾؛ أي: صنفين ذكر وأنثى من كل نوع من أنواع الحيوانات، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾: لنعم الله التي أنعم بها عليكم في تقدير ذلك وحكمته؛ حيث جعل ما هو السبب لبقاء نوع الحيوانات كلها؛ لتقوموا بتنميتها وخدمتها وتربيتها فيحصل من ذلك ما يحصل من المنافع.

﴿٥٠﴾ فلما دعا العباد إلى النظر إلى آياته^(٣) الموجبة لخشيته والإنابة إليه؛ أمر بما هو المقصود من ذلك، وهو الفرار إليه؛ أي: الفرار مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً، فراراً من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، من الغفلة إلى الذكر؛ فمن استكمل هذه الأمور؛ فقد استكمل الدين كله، وزال عنه المرهوب، وحصل له غاية^(٤) المراد والمطلوب. وسمى الله الرجوع إليه فراراً؛ لأنّ في الرجوع إلى غيره^(٥) أنواع المخاوف والمكاره، وفي الرجوع إليه أنواع المحاب والأمن والسرور والسعادة والفوز، فيفرّ العبد من قضائه وقدره إلى قضائه وقدره، وكلُّ مَنْ خِفَتْ منه فررت منه إلا الله تعالى؛ فإنّه بحسب الخوف منه يكون الفرار إليه، ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾؛ أي: منذر لكم من عذاب الله ومخوف بين النذارة.

(٢) في (ب): «رحمته وإحسانه».

(٤) في (ب): «نهاية».

(١) في (ب): «للطرق».

(٣) في (ب): «لآياته».

(٥) في (ب): «الغيره».

﴿٥١﴾ ﴿لَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾: هَذَا مِنَ الْفِرَارِ إِلَى اللَّهِ، بَلْ هَذَا أَصْلُ الْفِرَارِ إِلَيْهِ: أَنْ يَفِرَّ الْعَبْدُ مِنْ اتِّخَاذِ آلِهَةٍ غَيْرِ اللَّهِ مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَنْدَادِ وَالْقُبُورِ وَغَيْرِهَا مِمَّا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَيَخْلِصَ [الْعَبْدُ] لِرَبِّهِ الْعِبَادَةَ وَالْخَوْفَ وَالرَّجَاءَ وَالِدُعَاءَ وَالْإِنَابَةَ.

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُّنٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿٥٢﴾ يقول الله مسلماً لرسوله ﷺ عن تكذيب المشركين بالله، المكذبين له، القائلين فيه من الأقوال الشنيعة ما هو منزّه عنه، وأنّ هذه الأقوال ما زالت دأباً وعادةً للمجرمين المكذّبين للرسول؛ فما أرسل الله من رسول؛ إلّا رماه قومه بالسكر أو الجنون.

﴿٥٣﴾ يقول الله تعالى: هذه الأقوال التي صَدَرَتْ مِنْهُمْ - الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ - هل هي أقوالٌ تواصَوْا بها، وَلَقَدْ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِهَا؛ فَلَا يُسْتَغْرَبُ بِسَبَبِ ذَلِكَ اتِّفَاقُهُمْ عَلَيْهَا؟! أَمْ ﴿هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ﴾؛ تشابهت قلوبهم وأعمالهم بالكفر والطغيان، فتشابهت أقوالهم الناشئة عن طغيانهم؟! وهذا هو الواقع؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، وكذلك المؤمنون لما تشابهت قلوبهم بالإذعان للحقّ وطلبه والسعي فيه؛ بادروا إلى الإيمان برسولهم وتعظيمهم وتوقيرهم وخطابهم بالخطاب اللائق بهم.

﴿قَوْلٌ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكَرْ فَإِنَّ الدِّكْرَى نَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿٥٤﴾ يقول تعالى آمراً رسوله بالإعراض عن المعرضين المكذّبين: ﴿قَتُولٌ عَنْهُمْ﴾؛ أي: لا تبالِ بهم، ولا تؤاخذهم، وأقبلْ على شأنك؛ فليس عليك لومٌ في ذنبهم، وإنّما عليك البلاغ، وقد أدّيت ما حملتَ وبلغتَ ما أرسلتَ به.

﴿٥٥﴾ ﴿وَذَكَرْ فَإِنَّ الدِّكْرَى نَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾: والتذكير نوعان: تذكيرٌ بما لم يُعْرِفَ تفصيله مما عُرِفَ مجمله بالفطر والعقول^(١)؛ فَإِنَّ اللَّهَ فَطَرَ الْعُقُولَ عَلَى مَحَبَّةِ الْخَيْرِ وَإِيثاره وكراهة الشرّ والزهد فيه، وشرعه موافقٌ لذلك؛ فكل أمرٍ ونهيٍ من

(١) في (ب): «مما عرف في الفطر والعقول مجمله».

الشرع؛ فهو^(١) من التذكير، وتامم التذكير أن يذكر ما في المأمور من الخير والحسن والمصالح، وما في المنهي عنه من المضار. والنوع الثاني من التذكير: تذكير بما^(٢) هو معلوم للمؤمنين، ولكن انسحبت عليه الغفلة والذهول، فيذكرون بذلك، ويكرّر عليهم؛ ليرسخ في أذهانهم، وينتبهوا، ويعملوا بما تذكّروه من ذلك، وليحدث لهم نشاطاً وهمّة توجب لهم الانتفاع والارتفاع. وأخبر الله أن الذكرى تنفع المؤمنين؛ لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإنابة وأتباع رضوان الله يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرى وتقع الموعظة منهم^(٣) موقعها؛ كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى. سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى. وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾، وأما من ليس معه إيمان ولا استعداد لقبول التذكير؛ فهذا لا ينفع تذكيره؛ بمنزلة الأرض السبخة التي لا يفيدها المطر شيئاً. وهؤلاء الصنف لو جاءتهم كل آية؛ لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (٥٨).

﴿٥٦﴾ هذه الغاية التي خَلَقَ الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي^(٤) عبادته المتضمنة لمعرفته ومحبته والإنابة إليه والإقبال عليه والإعراض عما سواه، وذلك متوقف على معرفة الله تعالى^(٥)؛ فإن تمام العبادة متوقف على المعرفة بالله^(٦)، بل كلما ازداد العبد معرفة بربه^(٧)؛ كانت عبادته أكمل؛ فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله؛ فما خلَقَهم لحاجة منه إليهم.

﴿٥٧﴾ فما يريد ﴿منهم من رزقٍ وما﴾ يريد ﴿أن يطعمون﴾: تعالى الغني المغني عن الحاجة إلى أحدٍ بوجه من الوجوه، وإنما جميع الخلق فقراء إليه في جميع حوائجهم ومطالبهم الضرورية وغيرها.

﴿٥٨﴾ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾؛ أي: كثير الرزق، الذي ما من دابة في الأرض ولا في السماء إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، ﴿ذُو

(١) في (ب): «فكل ما أمر به ونهى من الشرع فإنه».

(٢) في (ب): «ما».

(٣) في (ب): «وتقع منهم الموعظة».

(٤) في (ب): «وهو».

(٥) في (ب): «وذلك يتضمن معرفته تعالى».

(٦) في (ب): «لربه».

(٧) في (ب): «لله».

القُوَّةُ المتينُ؛ أي: الذي له القوة والقدرة كلها، الذي أوجد بها الأجرام العظيمة السفلية والعلوية، وبها تصرّف في الظواهر والبواطن، ونفذت مشيئته في جميع البريات؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يعجزه هارب، ولا يخرج عن سلطانه أحد، ومن قوّته أنه أوصل رزقه إلى جميع العالم، ومن قدرته وقوّته أنه يبعث الأموات بعدما مزّقهم البلى، وعصفت بهم^(١) الرياح، وابتلعتهم الطيور والسباع، وتفرّقوا وتمزّقوا في مهامه القفار ولجج البحار؛ فلا يفوته منهم أحد، ويعلم ما تنقّص الأرض منهم؛ فسبحان القوي المتين.

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِّثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٥٩) ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (٦٠).

﴿٥٩﴾ أي: ﴿فإن للذين ظلموا﴾: بتكذيبهم محمداً ﷺ من العذاب والنكال ﴿ذنوباً﴾؛ أي: نصيباً وقسطاً، مثل ما فعل بأصحابهم من أهل الظلم والتكذيب، ﴿فلا يستعجلون﴾: بالعذاب؛ فإن سنة الله في الأمم واحدة؛ فكلّ مكذب يدوم على تكذيبه من غير توبة وإنابة؛ فإنه لا بد أن يقع عليه العذاب ولو تأخر عنه مدة.

﴿٦٠﴾ ولهذا توعدّهم الله بيوم القيامة، فقال: ﴿قوله للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون﴾: وهو يوم القيامة، الذي قد وعدوا فيه بأنواع العذاب والنكال [والسلاسل] والأغلال؛ فلا مغيب ولا متقدّم لهم من عذاب الله. نعوذ بالله منه.



تفسير سورة الطور

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ﴾ (١) وَكَتَبَ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّعْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَمْ يَنْ دَافِعٌ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) قَوْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ

(١) في (ب): «بترابهم».

يُدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ﴿١٣﴾ هَٰذَا النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا بُصِيرُونَ ﴿١٥﴾ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴿١﴾

﴿١﴾ يقسم تعالى بهذه الأمور العظيمة المشتملة على الحكيم الجليل على البعث والجزاء للمتقين وللمكذبين^(١)، فأقسم بالطور، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، وأوحى إليه ما أوحى من الأحكام، وفي ذلك من المنة عليه وعلى أمته ما هو من آيات الله العظيمة ونعمه التي لا يُقَدَّرُ العباد لها على عدٍّ ولا ثمن.

﴿٢﴾ ﴿وكتاب مسطور﴾: يُحتمل أن المراد به اللوح المحفوظ، الذي كتب الله به كل شيء، ويُحتمل أن المراد به القرآن الكريم، الذي هو أفضل الكتب^(٢)، أنزله الله محتوياً على نبا الأولين والآخرين وعلوم السابقين واللاحقين.

﴿٣﴾ وقوله: ﴿فِي رَقٍّ﴾؛ أي: ورقٍ ﴿منشورٍ﴾؛ أي: مكتوبٍ، مسطرٍ، ظاهرٍ غير خفيٍّ، لا تخفى حاله على كل عاقل بصير.

﴿٤﴾ ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾: وهو البيت الذي فوق السماء السابعة، المعمور مدى الأوقات بالملائكة الكرام، [الذي] يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، يتعبّدون فيه لربهم، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، وقيل: إن البيت المعمور هو بيت الله الحرام المعمور بالطائفين والمصلّين والذاكرين كل وقت وبالوفود إليه بالحج والعمرة؛ كما أقسم الله به في قوله: ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدُ الْأَمِينُ﴾، وحقيق بيت هو أفضل بيوت الأرض، الذي يقصده الناس بالحج والعمرة، أحد أركان الإسلام ومبانيه العظام، التي لا يتم إلا بها، وهو الذي بناه إبراهيم وإسماعيل، وجعله الله مثابة للناس وأمناء؛ أن يقسم الله به، ويبين من عظمت ما هو اللائق به وبحرمته.

﴿٥﴾ ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾؛ أي: السماء التي جعلها الله سقفاً للمخلوقات وبناءً للأرض تستمد منها أنوارها، ويقتدى بعلاماتها ومناورها، ويُنزل الله منها المطر والرحمة وأنواع الرزق.

﴿٦﴾ ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾: أي: المملوء ماءً، قد سجره الله ومنعه من أن يفيض على وجه الأرض، مع أن مقتضى الطبيعة أن يغمر وجه الأرض، ولكن

(١) في (ب): «والمكذبين».

(٢) في (ب): «الكتاب».

حكيمته اقتضت أن يمنعه عن الجريان والفيضان؛ ليعيش مَنْ على وجه الأرض من أنواع الحيوان^(١). وقيل: إنَّ المراد بالمسجور: الموقد، الذي يوقد ناراً يوم القيامة، فيصير ناراً تَلْظَى، ممتلئاً على سعته من أصناف العذاب.

﴿٧﴾ هذه الأشياء التي أقسم الله بها ممّا يدلُّ على أنّها من آيات الله وأدلة توحيده وبراهين قدرته وبعثه الأموات، ولهذا قال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾؛ أي: لا بدّ أن يقع، ولا يخلفُ الله وعده وقيله.

﴿٨﴾ ﴿ما له من دافع﴾: يدفعه، ولا مانع يمنعه، لأنَّ قدرة الله لا يغالبها مغالبٌ ولا يفوتها هاربٌ.

﴿٩﴾ ثم ذكر وصفَ ذلك اليوم الذي يقع فيه^(٢) العذاب، فقال: ﴿يومَ تمورُ السَّماءُ مَوراً﴾؛ أي: تدور السماء وتضطرب وتدوم حركتها بانزعاج وعدم سكونٍ.

﴿١٠﴾ ﴿وتسير الجبالُ سيراً﴾؛ أي: تزولُ عن أماكنها، وتسير كسير السحاب، وتتلوّن كالعن المنفوش، وتبثُّ بعد ذلك حتى تصير مثل الهباء، وذلك كلّ لعظم هول يوم القيامة؛ [وفظاعة ما فيه من الأمور المزعجة والزلازل المقلقة التي أزعجت هذه الأجرام العظيمة] فكيف بالآدمي الضعيف؟!

﴿١١﴾ ﴿فويلٌ يومئذٍ للمكذّبين﴾: والويل كلمة جامعة لكل عقوبة وحزنٍ وعذابٍ وخوفٍ^(٣).

﴿١٢﴾ ثم ذكّر وصفَ المكذّبين، الذين استحقّوا به الويل، فقال: ﴿الذين هم في خَوْضٍ يلعبون﴾؛ أي: خوض بالباطل^(٤) ولعب به؛ فعلوهم وبحوثهم بالعلوم الضاّرة المتضمّنة للتكذيب بالحقّ والتصديق بالباطل، وأعمالهم أعمال أهل الجهل والسّفه واللعب؛ بخلاف ما عليه أهل التصديق والإيمان من العلوم النافعة والأعمال الصالحة.

﴿١٣ - ١٤﴾ ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾؛ أي: [يوم] يُدْفَعُونَ إِلَيْهَا دَفْعاً، ويساقون إليها سوقاً عنيفاً، ويجرون على وجوههم، ويُقال لهم توبيخاً ولوماً: ﴿هذه النارُ التي كنتم بها تكذبون﴾: فالיום ذوقوا عذاب الخلد الذي لا يُبْلَغُ قدره ولا يوصفُ أمره.

(١) في (ب): «الحيوانات».

(٢) في (ب): «به».

(٣) في (ب): «وخوف وعذاب».

(٤) في (ب): «في الباطل».

﴿١٥﴾ ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾: يُحْتَمَلُ أَنَّ الإِشَارَةَ إِلَى النَّارِ وَالْعَذَابِ؛ كَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ سِيَاقُ الْآيَاتِ^(١)؛ أَي: لَمَّا رَأَوْا النَّارَ وَالْعَذَابَ؛ قِيلَ لَهُمْ مِنْ بَابِ التَّقْرِيعِ: أَهَذَا سِحْرٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ؛ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ؟! أَمْ أَنْتُمْ فِي الدُّنْيَا لَا تَبْصِرُونَ؛ أَي: لَا بَصِيرَةَ لَكُمْ وَلَا عِلْمَ عِنْدَكُمْ، بَلْ كُنْتُمْ جَاهِلِينَ بِهَذَا الْأَمْرِ، لَمْ تَقُمْ عَلَيْكُمْ الْحِجَّةُ؟! وَالْجَوَابُ انْتِفَاءُ الْأَمْرَيْنِ: أَمَّا كَوْنُهُ سِحْرًا؛ فَقَدْ ظَهَرَ لَهُمْ أَنَّهُ أَحَقُّ الْحَقِّ وَأَصْدَقُ الصَّدْقِ الْمَنَافِي^(٢) لِلْسِحْرِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ. وَأَمَّا كَوْنُهُمْ لَا يَبْصِرُونَ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ بِخِلَافِ ذَلِكَ، بَلْ حِجَّةُ اللَّهِ قَدْ قَامَتْ عَلَيْهِمْ، وَدَعَتْهُمْ الرُّسُلَ إِلَى الْإِيمَانِ بِذَلِكَ، وَأَقَامَتْ مِنَ الْأَدْلَةِ وَالْبَرَاهِينِ عَلَى ذَلِكَ مَا يَجْعَلُهُ مِنْ أَعْظَمِ الْأُمُورِ الْمُبَرِّهَةَ الْوَاضِحَةَ الْجَلِيَّةَ.

وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الإِشَارَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصِرُونَ﴾: إِلَى مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنَ الْحَقِّ الْمُبِينِ وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ؛ أَي: أَفَتَتَصَوَّرُ مَنْ لَهُ عَقْلٌ أَنْ يَقُولَ عَنْهُ: إِنَّهُ سِحْرٌ، وَهُوَ أَعْظَمُ الْحَقِّ وَأَجْلَهُ، وَلَكِنْ لِعَدَمِ بَصِيرَتِهِمْ قَالُوا فِيهِ مَا قَالُوا^(٣).

﴿١٦﴾ ﴿اضْلَوْهَا﴾؛ أَي: ادْخُلُوا النَّارَ عَلَى وَجْهِ تَحِيْطٍ بِكُمْ وَتَشْمُلٍ^(٤) أَبْدَانَكُمْ وَتَطَّلِعَ عَلَى أَفْئِدَتِكُمْ، ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾؛ أَي: لَا يَفِيدُكُمْ الصَّبْرُ عَلَى النَّارِ شَيْئًا، وَلَا يَتَأَسَّى بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ، وَلَا يَخْفَفُ عَنْكُمْ الْعَذَابُ، وَلَيْسَتْ^(٥) مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي إِذَا صَبَرَ الْعَبْدُ عَلَيْهَا هَانَتْ مَشَقَّتُهَا وَزَالَتْ شِدَّتُهَا، وَإِنَّمَا فُعِلَ بِهِمْ ذَلِكَ بِسَبَبِ أَعْمَالِهِمُ الْخَبِيثَةِ وَكَسْبِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَكِهِينَ يَمَآءَ النَّهْمِ رَبِّمْ وَقَفْنَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿١٧﴾ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى عَقُوبَةَ الْمَكْذِبِينَ؛ ذَكَرَ نَعِيمَ الْمُتَّقِينَ؛ لِيَجْمَعَ بَيْنَ التَّرْغِيبِ

(١) فِي (ب): «الْآيَةِ». (٢) فِي (ب): «الْمُخَالَفِ».

(٣) فِي (ب): «وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الإِشَارَةَ إِلَى مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ مِنَ الْحَقِّ الْمُبِينِ وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ؛ أَي: أَهَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ سِحْرٌ أَمْ عَدَمُ بَصِيرَةِ بِكُمْ حَتَّى اشْتَبَهَ عَلَيْكُمْ الْأَمْرَ، وَحَقِيقَةُ الْأَمْرِ أَنَّهُ أَوْضَحُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَحَقُّ الْحَقِّ، وَأَنَّ حِجَّةَ اللَّهِ قَامَتْ عَلَيْهِمْ».

(٤) فِي (ب): «وَتَسْتَوْعِبُ جَمِيعًا». (٥) فِي (ب): «وَلَيْسَ».

والترهيب، فتكون القلوب بين الخوف والرجاء، فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾: لربهم، الذين اتَّقوا سخطه وعذابه بفعل أسبابه من امتثال الأوامر واجتناب النواهي، ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾؛ أي: بساتين، قد اكتست رياضها من الأشجار الملتفة والأنهار المتدفقة والقصور المُخَدِّقة والمنازل المُزَخَّرَة، ﴿وَنَعِيمٌ﴾: وهذا شاملٌ لنعيم القلب والروح والبدن.

﴿١٨﴾ ﴿فَاكْهِنَ بِمَا آتَاهُم رَّبُّهُمْ﴾؛ أي: معجبين به، متمتعين على وجه الفرح والسرور بما أعطاهم الله من النعيم الذي لا يمكن وصفه، و ﴿لَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، ﴿وَوَقَاهُم رَّبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾: فرزقهم المحبوب، ونجَّاهم من المرهوب، لَمَّا فعلوا ما أَحَبَّهُ [اللَّهُ] وجانبوا ما يسخطه.

﴿١٩﴾ ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾؛ أي: مما تشتهي أنفسكم من أصناف المأكَل والمشارب اللذيذة ﴿هَنِيئًا﴾؛ أي: متهنئين بذلك^(١) على وجه البهجة والفرح والسرور والحبور، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: نلتُم ما نلتُم بسبب أعمالكم الحسنة وأقوالكم المستحسنة.

﴿٢٠﴾ ﴿مُتَكِّثِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾: الاتكاء هو الجلوس على وجه التمكن والراحة والاستقرار، والسرر هي الأرائك المزينة بأنواع الزينة من اللباس الفاخر والفرش الزاهية. ووصف الله الشرر بأنها مصفوفة؛ ليدل ذلك على كثرتها وحسن تنظيمها واجتماع أهلها وسرورهم بحسن معاشرتهم وملاطفة بعضهم بعضاً^(٢). فلَمَّا اجتمع لهم من نعيم القلب والروح والبدن ما لا يخطرُ بالبال ولا يدور في الخيال من المأكَل والمشارب اللذيذة^(٣) والمجالس الحسنة الأنيقة؛ لم يبق إلا التمتع بالنساء اللاتي لا يتم سرورٌ إلا بهنَّ، فذكر تعالى أنَّ لهم من الأزواج أكمل النساء أوصافاً وخلقاً وأخلاقاً، ولهذا قال: ﴿وَزَوْجَانَهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾: وهنَّ النساء اللواتي قد جَمَعْنَ جمال الصورة الظاهرة وبهاءها ومن الأخلاق الفاضلة ما يوجب أن يحَيَّرْنَ بحسَنهنَّ الناظرين، ويسلبنَّ عقول العالمين، وتكاد الأفئدة أن تطير^(٤) شوقاً إليهنَّ ورغبةً في وصالهنَّ، والعِين: حسان الأعين مليحاتها، التي صفا بياضها وسوادها.

(١) في (ب): «بتلك المأكَل والمشارب». (٢) في (ب): «ولطف كلام بعضهم لبعض».

(٣) في (ب): «لا يتم سرور بدونهنَّ». (٤) في (ب): «تطيش».

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ آَلَفْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَآمَدَدْنَاهُمْ فِيكَهْهِ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَنْتَزِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ زِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَرَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَدْنَا عَذَابَ السُّمُورِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿٢١﴾ وهذا من تمام نعيم [أهل] الجنة: أن الحق الله بهم ذُرِّيَّتَهُم الذين اتبعوهم بإيمان؛ أي: لحقوهم بالإيمان الصادر من آبائهم، فصارت الذرية تبعاً لهم بالإيمان، ومن باب أولى؛ إذا تبعتهم ذُرِّيَّتَهُم بإيمانهم الصادر من أنفسهم؛ فهؤلاء المذكورون يُلْحِقُهُمُ اللهُ بمنازل آبائهم في الجنة، وإن لم يبلغوها؛ جزاءً لآبائهم، وزيادةً في ثوابهم، ومع ذلك؛ لا يَنْقُصُ اللهُ الآباء من أعمالهم شيئاً. ولما كان ربما توهم متوهم أن أهل النار كذلك يُلْحِقُ اللهُ بهم ذُرِّيَّتَهُم^(١)؛ أخبر أنه ليس حكم الدارين حكماً واحداً؛ فإنَّ النار دار العدل، ومن عدله تعالى أن لا يعذب أحداً إلا بذنب، ولهذا قال: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾؛ أي: مرتباً بعمله؛ فلا^(٢) تزر وازرة وزر أخرى، ولا يُخْمَلُ على أحدٍ ذنبُ أحدٍ، فهذا^(٣) اعتراض من فوائده إزالة هذا الوهم المذكور.

﴿٢٢﴾ وقوله: ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ﴾؛ أي: أمددنا أهل الجنة من فضلنا الواسع ورزقنا العميم، ﴿بِفَاكِهَةٍ﴾: من العنب والرمان والتفاح وأصناف الفواكه اللذيذة الزائدة على ما به يتقوتون، ﴿وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾: من كل ما طلبوه واشتهته أنفسهم من لحوم^(٤) الطير وغيرها.

﴿٢٣﴾ ﴿يَنْتَزِعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾؛ أي: تدور كاسات الرحيق والخمر عليهم، ويتعاطونها فيما بينهم، وتطوف عليهم الولدان المخلدون بأكواب وأباريق. ﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ﴾؛ أي: ليس في الجنة كلام لغو، وهو الذي لا فائدة فيه، ولا تأتيم، وهو الذي فيه إثم ومعصية. وإذا انتفى الأمران؛ ثبت الأمر الثالث، وهو أن كلامهم فيها سلام طاهر مسر للنفوس مفرح للقلوب، يتعاشرون أحسن

(١) في (ب): «أبناءهم وذريتهم».

(٢) في (ب): «لا».

(٣) في (ب): «هذا».

(٤) في (ب): «لحم».

عشرة، ويتنادمون أطيب المناداة، ولا يسمعون من ربهم إلا ما يُقرُّ أعينهم ويدلُّ على رضاه عنهم ومحبتهم لهم.

﴿٢٤﴾ ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ﴾؛ أي: خدم شباب، ﴿كَانَتْهُمْ لَوْلُؤْ [مَكْنُون]﴾^(١) من حسنهم وبهائهم، يدورون عليهم بالخدمة وقضاء أشغالهم^(٢)، ولهذا يدلُّ على كثرة نعيمهم وسعته وكمال راحتهم.

﴿٢٥﴾ ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾: عن أمور الدنيا وأحوالها.

﴿٢٦﴾ ﴿قَالُوا﴾: في ذكر بيان الذي أوصلهم إلى ما هم فيه من الحبرة والسرور: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾؛ أي: في دار الدنيا ﴿فِي أَهْلِنا مَشْفِقِينَ﴾؛ أي: خائفين وجِلين، فتركنا من خوفه الذنوب، وأصلحنا لذلك العيوب.

﴿٢٧﴾ ﴿فَمَنْ اللّٰهُ عَلَيْنَا﴾: بالهداية والتوفيق، ﴿وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾؛ أي: العذاب الحار الشديد حره.

﴿٢٨﴾ ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾: أن يقيتنا عذاب السَّمُوم، ويوصلنا إلى النعيم، ولهذا شاملٌ لدعاء العبادة ودعاء المسألة؛ أي: لم نزل نتقرب إليه بأنواع العبادات^(٣)، وندعوه في سائر الأوقات. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾: فمن برّه [بنا] ورحمته إيانا أنالنا رضاه والجنة، ووقانا سخطه والنار.

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّهِ رَبِّ النَّونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُهُمْ يَهْدًا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخُلُقُونَ (٣٥) أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمُضْطَرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلُّوا يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْآبَتْ وَلَكُمْ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣).

(١) في النسختين: «مشور». وصوبت (أ) بخط مغاير إلى: «مكنون».

(٢) في (ب): «وقضاء ما يحتاجون إليه». (٣) في (ب): «القربات».

﴿٢٩﴾ يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يُذَكِّرَ الناسَ مسلمهم وكافرهم؛ لتقوم حجة الله على الظَّالِمِينَ، ويهتدي بتذكيره الموقِّفون، وأن لا ييالي بقول المشركين المكذِّبين وأذيتهم وأقوالهم التي يَصُدُّون بها الناسَ عن اتِّباعه، مع علمهم أنه أبعدُ الناسَ عنها، ولهذا نفى عنه كلَّ نقص رَمَوْه به، فقال: ﴿فما أنتَ بنعمة ربِّك﴾؛ أي: منهُ ولطفه ﴿بكاهن﴾؛ أي: له رِثْيٌ من الجنِّ يأتيه بخير^(١) بعض الغيوب التي يضمُّ إليها مئة كذبة، ﴿ولا مجنون﴾: فاقد العقل^(٢)، بل أنت أكملُ الناسَ عقلاً، وأبعدهم عن الشياطين، وأعظمهم صدقاً، وأجلهم، وأكملهم.

﴿٣٠﴾ وتارة ﴿يقولون﴾ فيه: إنَّه ﴿شاعر﴾: يقول الشعر، والذي جاء به شعرٌ، والله يقول: ﴿وما علَّمناه الشعرَ وما ينبغي له﴾، ﴿نتربُّصُ به ربِّ المَنونِ﴾؛ أي: ننتظر به الموتَ، فيبطلُ^(٣) أمره ونستريح منه.

﴿٣١﴾ ﴿قل﴾: لهم جواباً لهذا الكلام السخيف: ﴿تربُّصوا﴾؛ أي: انتظروا بي الموتَ، ﴿فإني معكم من المتربِّصين﴾: نتربُّصُ بكم أن يصيبكم الله بعذابٍ من عنده، أو بأيدينا.

﴿٣٢﴾ ﴿أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قومٌ طاغون﴾؛ أي: ألهذا التَّكْذِيبُ لك والأقوال التي قالوها؛ هل صدرت عن عقولهم وأحلامهم؛ فبئس العقول والأحلام التي هُذه نتائجها وهذه ثمراتها^(٤)؛ فإنَّ عقولاً جعلت أكملَ الخلق عقلاً مجنوناً، وجعلت أصدقَ الصِّدْقِ وأحقَّ الحقِّ كذباً وباطلاً؛ لهي العقول التي ينزِّه المجانين عنها؟ أم الذي حملهم على ذلك ظلمهم وطغيانهم؟ وهو الواقع؛ فالطغيان ليس له حدٌّ^(٥) يقف عليه؛ فلا يُستغرب من الطاغية المتجاوزِ الحدَّ^(٦)، كلُّ قول وفعل صدَرَ منه.

﴿٣٣﴾ ﴿أم يقولون تَقُولُهُ﴾؛ أي: تقول محمد القرآن وقاله من تلقاء نفسه، ﴿بل لا يؤمنون﴾؛ فلو آمنوا؛ لم يقولوا ما قالوا.

﴿٣٤﴾ ﴿فلينأتوا بحديثٍ مثله إن كانوا صادقين﴾: إنَّه تقوله؛ فإنَّكم العربُ الفصحاء والفحول البلغاء، وقد تحدَّاكم أن تأتوا بمثله؛ فتصدق معارضتكم، أو

(١) في (ب): «بأخبار».

(٢) في (ب): «للعقل».

(٣) في (ب): «نتربص به الموت وننتظره فيه فسيبطل».

(٤) التي أثرت ما أثرت وصدر منها ما صدر. (٥) في (ب): «لا حد له».

(٦) في (ب): «للحد».

تقرؤا بصدقه، وإنكم لو اجتمعتم أنتم والإنس والجن؛ لم تقدروا على معارضته والإتيان بمثله؛ فحينئذ أنتم بين أمرين: إمّا مؤمنون به مقتدون^(١) بهديه، وإمّا معاندون متبعون لما علمتم من الباطل.

﴿٣٥﴾ ﴿أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾: وهذا استدلالٌ عليهم بأمرٍ لا يمكنهم فيه إلّا التسليم للحق، أو الخروج عن موجب العقل والدين. وبيان ذلك أنهم منكرون لتوحيد الله، مكذبون لرسوله، وذلك مستلزمٌ لإنكار أن الله خلقهم، وقد تقرّر في العقل مع الشرع أن ذلك لا يخلو^(٢) من أحد ثلاثة أمور: إمّا أنهم ﴿خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾؛ أي: لا خالق خلقهم؛ بل وجدوا من غير إيجادٍ ولا موجد؛ وهذا عينُ المحال. ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾: لأنفسهم؛ وهذا أيضاً محال؛ فإنه لا يتصور أن يوجدَ أحدٌ نفسه. فإذا بطل هذان الأمران وبان استحالتُهما؛ تعيّن القسم الثالث، وهو أن الله هو الذي خلقهم. وإذا تعيّن ذلك؛ علِمَ أن الله^(٣) تعالى هو المعبود وحده، الذي لا تنبغي العبادة ولا تَصْلُحُ إلّا له تعالى.

﴿٣٦﴾ وقوله: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: وهذا استفهامٌ يدلُّ على تقرير النفي؛ أي: ما خلقوا السماوات والأرض، فيكونوا شركاء لله، وهذا أمرٌ واضحٌ جداً. ﴿بَلِ الْمَكْذُوبُونَ^(٤)﴾ لا يوقنون؛ أي: ليس عندهم [علم تامٌّ و] يقينٌ يوجب لهم الانتفاع بالأدلة الشرعية والعقلية.

﴿٣٧﴾ ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُضْطَرُونَ﴾؛ أي: أعند هؤلاء المكذّبين خزائنُ رحمة ربك، فيعطوا^(٥) من يشاؤون ويمنعوا من يشاؤون^(٦)؛ أي: فلذلك حجروا على الله أن يُعطي النبوة عبده ورسوله محمداً ﷺ، وكأنّهم الوكلاء المفوضون على خزائن رحمة الله، وهم أحقرُّ وأذلُّ من ذلك؛ فليس في أيديهم لأنفسهم نفعٌ ولا ضررٌ ولا موتٌ ولا حياةٌ ولا نشورٌ؛ ﴿أَمْ هُمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؟ ﴿أَمْ هُمُ الْمُضْطَرُونَ﴾؛ أي: المتسلطون على خلق الله وملكه بالقهر والغلبة؟! ليس الأمر كذلك، بل هم العاجزون الفقراء.

(٢) في (ب): «أن الأمور لا تخلو».

(٤) في (ب): «ولكن المكذّبين».

(٦) في (ب): «يريدون».

(١) في (ب): «مقتدون».

(٣) في (ب): «علم أنه تعالى».

(٥) في (ب): «فيعطون».

﴿٣٨﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمْعُونَ فِيهِ﴾؛ أي: أَلَهُمْ أَطْلَاعٌ عَلَى الْغَيْبِ وَاسْتِمَاعٌ لَهُ بَيْنَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى، فَيُخْبِرُونَ عَنْ أُمُورٍ لَا يَعْلَمُهَا غَيْرُهُمْ، ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ﴾: الْمُدْعَى لِذَلِكَ ﴿بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾: وَأَتَى لَهُ ذَلِكَ وَاللَّهُ تَعَالَى عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ؛ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا؛ إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ يُخْبِرُهُ بِمَا أَرَادَ مِنْ عِلْمِهِ، وَإِذَا كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ، أَفْضَلُ الرُّسُلِ وَأَعْلَمُهُمْ وَإِمَامُهُمْ، وَهُوَ الْمَخْبِرُ بِمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَخْبَارِهِ الصَّادِقَةِ، وَالْمَكْذُوبُونَ هُمْ أَهْلُ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ وَالْغَيِّ وَالْعِنَادِ؛ فَأَيُّ الْمَخْبِرِينَ أَحَقُّ بِقَبُولِ خَبَرِهِ، خُصُوصًا وَالرَّسُولَ ﷺ قَدْ أَقَامَ مِنَ الْأَدْلَةِ وَالْبَرَاهِينِ عَلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ مَا يَوْجِبُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ^(١) عَيْنَ الْيَقِينِ وَأَكْمَلَ الصَّدَقِ، وَهُمْ لَمْ يُقِيمُوا عَلَى مَا ادَّعَوْهُ شَبْهَةً فَضْلًا عَنْ إِقَامَةِ حُجَّةٍ؟!

﴿٣٩﴾ وقوله: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ﴾: كَمَا زَعَمْتُمْ، ﴿وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾: فَتَجْمَعُونَ بَيْنَ الْمَحْذُورَيْنِ: جَعَلَكُمْ لَهُ الْوَلَدَ، وَاخْتِيَارُكُمْ لَهُ أَنْقَضَ الصَّنَفَيْنِ؛ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا التَّنْقِصِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ غَايَةٌ أَوْ دُونَهُ نَهَايَةٌ؟!

﴿٤٠﴾ ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ، ﴿أَجْرًا﴾: عَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، ﴿فَهُمْ مِنْ مَفْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾: لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، بَلْ أَنْتَ الْحَرِيصُ عَلَى تَعْلِيمِهِمْ تَبَرُّعًا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ، بَلْ تَبْذُلُ لَهُمُ الْأَمْوَالَ الْجَزِيلَةَ عَلَى قَبُولِ رِسَالَتِكَ وَالِاسْتِجَابَةِ لِأَمْرِكَ وَدَعْوَتِكَ^(٢)، وَتُعْطِي الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبَهُمْ؛ لِيَتِمَّ كُنَّ الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قُلُوبِهِمْ.

﴿٤١﴾ ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾: مَا كَانُوا يَعْلَمُونَهُ مِنَ الْغُيُوبِ، فَيَكُونُونَ قَدْ أَطْلَعُوا عَلَى مَا لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ، فَعَارِضُوهُ وَعَانَدُوهُ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ هُمُ الْأُمَّةُ الْأُمِّيَّةُ الْجَهْلَاءُ الضَّالُّونَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ الَّذِي عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ أَعْظَمُ مِنْ غَيْرِهِ، وَأَنْبَأَهُ اللَّهُ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ عَلَى مَا لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ، وَهَذَا كُلُّهُ إِلْزَامٌ لَهُمْ بِالطَّرِيقِ الْعَقْلِيَّةِ وَالنَّقْلِيَّةِ عَلَى فِسَادِ قَوْلِهِمْ وَتَصْوِيرِ بَطْلَانِهِ بِأَحْسَنِ الطَّرِيقِ وَأَوْضَحَهَا وَأَسْلَمَهَا مِنَ الْإِعْتِرَاضِ.

﴿٤٢﴾ وقوله: ﴿أَمْ يَرِيدُونَ﴾: بِقَدْجِهِمْ فِيكَ وَفِيمَا جَنَّتْ بِهِ ﴿كَيْدًا﴾: يَبْتَطِلُونَ بِهِ دِينَكَ، وَيُفْسِدُونَ بِهِ أَمْرَكَ. ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ﴾؛ أي: كَيْدُهُمْ فِي نَحْوَرِهِمْ، وَمُضَرَّتُهُ عَائِدَةٌ إِلَيْهِمْ، وَقَدْ فَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ، فَلَمْ يُبَيِّنِ الْكُفَارَ

(١) فِي (ب): «خَبْرَهُ».

(٢) فِي (ب): «وَالِاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِكَ».

من مقدورهم من المكر شيئاً إلا فعلوه، فنصر الله نبيّه عليهم، وأظهر دينه^(١)،
وَحَذَّلَهُمْ وانتصر منهم.

﴿٤٣﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ آلَةٌ غَيْرُ اللَّهِ؟ أَيْ: أَلَهُمْ إِلَهٌ يُدْعَى وَيَرْجَى نَفْعُهُ وَيُخَافُ مِنْ ضَرِّهِ غَيْرُ اللَّهِ تَعَالَى؟﴾ ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: فليس له شريك في الملك، ولا شريك في الوجدانيّة والعبادة، وهذا هو المقصود من الكلام الذي سبق لأجله، وهو بطلان عبادة ما سوى الله، وبيان فسادها بتلك الأدلة القاطعة، وأنّ ما عليه المشركون هو الباطل، وأنّ الذي ينبغي أن يُعْبَدَ ويصلى له وَيُسَجَّدَ وَيُخْلَصَ له دعاء العبادة ودعاء المسألة هو الله المألوه المعبود، كاملُ الأسماء والصفات، كثيرُ النعوتِ الحسنة والأفعال الجميلة، ذو الجلال والإكرام والعزّ الذي لا يُرام، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الكبير الحميدُ المجيدُ.

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ ﴿٤٤﴾ فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلْتَفِتُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾.

﴿٤٤﴾ يقول تعالى في ذكر بيان أنّ المشركين المكذّبين بالحقّ الواضح قد عتوا عن الحقّ وعسوا على الباطل، وأنّه لو قام على الحقّ كلُّ دليل؛ لما اتّبعوه، ولخالفوه وعاندوه: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾؛ أي: لو سقط عليهم من السماء من الآيات الباهرة كِسْفٌ^(٢)؛ أي: قطعٌ كبارٌ^(٣) من العذاب، ﴿يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾؛ أي: هذا سحبٌ متراكمٌ على العادة؛ أي: فلا يبالون بما رأوا من الآيات، ولا يعتبرون بها!

﴿٤٥﴾ وهؤلاء لا دواء لهم إلاّ العذاب والنكال، ولهذا قال: ﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلْتَفِتُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾: وهو يوم القيامة، الذي يصيبهم فيه من العذاب ما لا يقادِرُ قُدْرُهُ ولا يوصِفُ أمرُهُ.

﴿٤٦﴾ ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾؛ أي: لا قليلاً ولا كثيراً، وإن كان في الدنيا قد يوجد منهم كيدٌ يعيشون به زمناً قليلاً؛ فيوم القيامة يضمحلُّ كيدُهُم، وتبطلُ مساعيهم، ولا ينتصرون من عذاب الله، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

(١) في (ب): «فنصر الله نبيه ودينه عليهم». (٢) في (ب): «كسفاً».

(٣) في (ب): «قطعاً كباراً».

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٧) وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾.

﴿٤٧﴾ لما ذَكَرَ الله عذاب الظالمين في الآخرة؛ أخبر أن لهم عذاباً قبل^(١) عذاب يوم القيامة، وذلك شاملٌ لعذاب الدنيا بالقتل والسبي والإخراج من الديار، ولعذاب البرزخ والقبر. ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾؛ أي: فلذلك أقاموا على ما يوجب العذاب وشدة العقاب.

﴿٤٨ - ٤٩﴾ ولما بين تعالى الحجج والبراهين على بطلان أقوال المكذبين؛ أمر رسوله ﷺ أن لا يعبأ بهم شيئاً، وأن يصبر لحكم ربه القدري والشرعي؛ بلزومه والاستقامة عليه، ووَعَدَهُ الله الكفاية^(٢) بقوله: ﴿فإنك بأعيننا﴾؛ أي: بمرأى منا وحفظ واعتناء بأمرك، وأمره أن يستعين على الصبر بالذكر والعبادة، فقال: ﴿وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾؛ [أي]: من الليل؛ ففيه الأمر بقيام الليل، أو حين تقوم إلى الصلوات الخمس؛ بدليل قوله: ﴿ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم﴾؛ أي: آخر الليل، ويدخل فيه صلاة الفجر. والله أعلم.

تم تفسير سورة الطور. والحمد لله.



تفسير سورة والنجم

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَبْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتَسْمُرُونَ عَلَىٰ مَا بَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَشْقَى الْمَسْدُورَةُ مَا يَشْقَى ﴿١٦﴾ مَا رَآعَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾.

(١) في (ب): «دون».

(٢) في (ب): «بالكفاية».

﴿١﴾ يقسم تعالى بالنجم عند هُويِّه؛ أي: سقوطه في الأفق في آخر الليل عند إدبار الليل وإقبال النهار؛ لأنَّ في ذلك من الآيات العظيمة ما أوجب أن أقسم به، والصحيح أنَّ النجم اسم جنس شامل للنجوم كُلِّها. وأقسم بالنجوم على صحَّة ما جاء به الرسول ﷺ من الوحي الإلهي؛ لأنَّ في ذلك مناسبة عجيبة؛ فإنَّ الله تعالى جعل النجوم زينةً للسماء؛ فكذلك الوحي وأثاره زينةٌ للأرض؛ فلو لا العلم الموروث عن الأنبياء؛ لكان الناس في ظلمة أشدَّ من ظلمة الليل البهيم.

﴿٢﴾ والمقسم عليه تنزيه الرسول ﷺ [عن الضلال في علمه والغِي في قصده، ويلزم من ذلك أن يكون مهتدياً في علمه هادياً حسنَ القصدِ ناصحاً للخلق^(١)، بعكس ما عليه أهل الضلال من فساد العلم وسوء^(٢) القصد، وقال: ﴿صاحبكم﴾؛ لينبهم على ما يعرفونه منه من الصدق والهداية، وأنَّه لا يخفى عليهم أمره.

﴿٣ - ٤﴾ ﴿وما ينطق عن الهوى﴾؛ أي: ليس نطقه صادراً عن هوى نفسه. ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾؛ أي: لا يتبع إلا ما أوحى إليه من الهدى والتقوى في نفسه وفي غيره. ودلَّ هذا على أنَّ السَّنة وحيٌّ من الله لرسوله ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾. وأنَّه معصومٌ فيما يخبر به عن الله تعالى وعن شرعه؛ لأنَّ كلامه لا يصدر عن هوى، وإنَّما يصدر عن وحي يوحى^(٣).

﴿٥﴾ ثم ذكر المعلم للرسول ﷺ، وهو جبريل عليه السلام، أفضل الملائكة الكرام وأقواهم وأكملهم، فقال: ﴿علَّمه شديدُ القوى﴾؛ أي: نزل بالوحي على الرسول ﷺ جبريلُ عليه السلام، شديدُ القوى؛ أي: شديدُ القوَّة الظاهرة والباطنة، قويٌّ على تنفيذ ما أمره الله بتنفيذه، قويٌّ على إيصال الوحي إلى الرسول ﷺ ومنعه من اختلاس الشياطين له أو إدخالهم فيه ما ليس منه، ولهذا من حفظ الله لوحيه؛ أن أرسله مع هذا الرسول القوي الأمين.

﴿٦﴾ ﴿ذو مرة﴾؛ أي: قوَّة وخلقٍ حسنٍ وجمالٍ ظاهرٍ وباطنٍ، ﴿فاستوى﴾: جبريلُ عليه السلام.

﴿٧﴾ ﴿وهو بالأفق الأعلى﴾؛ أي: أفق السماء الذي هو أعلى من الأرض^(٤)؛

(٢) في (ب): «فساد».

(٤) في (ب): «الأعلى على الأرض».

(١) في (ب): «للأمة».

(٣) في (ب): «عن الوحي».

فهو من الأرواح العلوية، التي لا تتألفها الشياطين ولا يتمكنون من الوصول إليها.
﴿٨﴾ ﴿ثم دنا﴾: جبريل من النبي ﷺ لإيصال الوحي إليه، ﴿فتدلى﴾: عليه من الأفق الأعلى.

﴿٩﴾ ﴿فكان﴾: في قربه منه ﴿قَاب قَوْسَيْنِ﴾؛ أي: قدر قوسين، والقوس معروف، ﴿أو أدنى﴾؛ أي: أقرب من القوسين. وهذا يدل^(١) على كمال مباشرته للرسول ﷺ بالرسالة، وأنه لا واسطة بينه وبين جبريل عليه السلام.

﴿١٠﴾ ﴿فأوحى﴾ الله بواسطة جبريل عليه السلام ﴿إلى عبده﴾ [محمد ﷺ] ﴿ما أوحى﴾؛ أي: الذي أوحاه إليه من الشرع العظيم والنبا المستقيم.

﴿١١ - ١٢﴾ ﴿ما كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾؛ أي: اتَّفَقَ فُؤَادُ الرَّسُولِ ﷺ ورؤيته على الوحي الذي أوحاه الله إليه، وتواطأ عليه سمعه وبصره وقلبه^(٢)، وهذا دليل على كمال الوحي الذي أوحاه الله إليه، وأنه تلقاه منه تلقياً لا شك فيه ولا شبهة ولا ريب، فلم يكذب فؤاده ما رأى بصره، ولم يشك في ذلك^(٣).

ويُحْتَمَلُ أَنَّ الْمَرَادَ بِذَلِكَ مَا رَأَى ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْعَظِيمَةِ، وَأَنَّهُ تَبَيَّنَتْ حَقّاً بَقَلْبِهِ وَرُؤْيَتْ، هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ فِي تَأْوِيلِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ. وَقِيلَ: إِنَّ الْمَرَادَ بِذَلِكَ رُؤْيَةَ الرَّسُولِ ﷺ لِرَبِّهِ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ وَتَكْلِيمِهِ إِيَّاهُ. وَهَذَا اخْتِيَارُ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، فَأَثْبَتُوا بِهَذَا رُؤْيَةَ الرَّسُولِ ﷺ لِرَبِّهِ فِي الدُّنْيَا.

وَلَكِنَّ الصَّحِيحَ الْقَوْلَ الْأَوَّلَ، وَأَنَّ الْمَرَادَ بِهِ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى جَبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ الْأَصْلِيَّةِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا مَرَّتَيْنِ^{(٤)(٥)}: مَرَّةً فِي الْأَفْقِ الْأَعْلَى تَحْتَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا كَمَا تَقَدَّمَ، وَالْمَرَّةَ الثَّانِيَةَ فَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ لَيْلَةَ أُسْرِي بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

﴿١٣ - ١٤﴾ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾؛ أي: رَأَى مُحَمَّدٌ جَبْرِيلَ مَرَّةً أُخْرَى نَازِلاً إِلَيْهِ، ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾: وَهِيَ شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ جَدًّا فَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، سَمِيَتْ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى؛ لِأَنَّهُ يَنْتَهِي إِلَيْهَا مَا يَعْرِجُ مِنَ الْأَرْضِ، وَيَنْزِلُ إِلَيْهَا

(١) فِي (ب): «لِيَدُلَّ».

(٢) فِي (ب): «بِقَلْبِهِ».

(٣) فِي (ب): «بِذَلِكَ».

(٤) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١٧٧) عَنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٥) فِي (ب): «مَرَّتَيْنِ».

(٢) فِي (ب): «بِقَلْبِهِ وَبَصَرُهُ».

ما ينزل من الله من الوحي وغيره، أو لانتهاه علم المخلوقات^(١) إليها؛ أي: لكونها فوق السماوات والأرض؛ فهي المنتهى في علومها، أو لغير ذلك. والله أعلم. فرأى محمد ﷺ جبريل في ذلك المكان الذي هو محلُّ الأرواح العلوية الزاكية الجميلة التي لا يقربها شيطانٌ ولا غيره من الأرواح الخبيثة.

﴿١٥﴾ عند تلك الشجرة، ﴿جَنَّةَ الْمَأْوَى﴾؛ أي: الجنة الجامعة لكل نعيم؛ بحيث كانت محلاً تنتهي إليه^(٢) الأماني، وترغب فيها الإرادات، وتأوي إليها الرغبات. وهذا دليل على أن الجنة في أعلى الأماكن وفوق السماء السابعة.

﴿١٦﴾ ﴿إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾؛ أي: يغشاها من أمر الله شيء عظيم لا يعلّم وصفه إلا الله عز وجل.

﴿١٧﴾ ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾^(٣)؛ أي: ما زاغ يمنية ولا يسرة عن مقصوده ﴿وما طغى﴾؛ أي: وما تجاوز البصر. وهذا كمال الأدب منه صلوات الله وسلامه عليه؛ أن قام مقاماً أقامه الله فيه، ولم يقصُر عنه ولا تجاوزه ولا حاد عنه، وهذا أكمل ما يكون من الأدب العظيم، الذي فاق فيه الأولين والآخرين؛ فإن الإخلال يكون بأحد هذه الأمور: إما أن لا يقوم العبد بما أمر به، أو يقوم به على وجه التفريط، أو على وجه الإفراط، أو على وجه الحيدة يميناً وشمالاً. وهذه الأمور كلها منتفية عنه ﷺ.

﴿١٨﴾ ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾: من الجنة والنار وغير ذلك من الأمور التي رآها ﷺ ليلة أسري به.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذَا قُسِمَتْ ضَرِبَتٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿١٩ - ٢٠﴾ لما ذكّر تعالى ما جاء به محمد ﷺ من الهدى ودين الحق والأمر بعبادة الله وتوحيده؛ ذكّر بطلان ما عليه المشركون من عبادة من ليس له من

(٢) في (ب): «إليها».

(١) في (ب): «الخلق».

(٣) في (ب): «ما زاغ البصر وما طغى».

أوصاف الكمال شيء ولا تنفع ولا تضر، وإنما هي أسماء فارغة من المعنى سمّاها المشركون هم وآباؤهم الجهّال الضلّال، ابتدعوا لها من الأسماء الباطلة التي لا تستحقّها، فخدعوا بها أنفسهم وغيرهم من الضلّال؛ فالآلهة التي بهذه الحال لا تستحقّ مثقال ذرّة من العبادة، وهذه الأنداد التي سمّوها بهذه الأسماء زعموا أنها مشتقة من أوصاف هي متّصفة بها، فسمّوا اللات من الإله المستحقّ للعبادة، والعزى من العزيز، ومناة من المئان؛ إلحاداً في أسماء الله، وتجرياً على الشرك به! وهذه أسماء متجرّدة من^(١) المعاني؛ فكلّ من له أدنى مُسكة من عقل يعلم بطلان هذه الأوصاف فيها.

﴿٢١﴾ ﴿الكم الذكّر وله الأنثى﴾؛ أي: أتجعلون لله البنات بزعمكم ولكم البنون.

﴿٢٢﴾ ﴿تلك إذا قسمة ضيزى﴾؛ أي: ظالمة جائرة. وأيّ ظلم أعظم من قسمة تقتضي تفضيل العبد المخلوق على الخالق؟! تعالى عن قولهم علواً كبيراً.

﴿٢٣﴾ وقوله: ﴿إنّ هي إلّا أسماء سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾؛ أي: من حجة وبرهان على صحّة مذهبكم، وكلّ أمر ما أنزل الله فيه من سلطان؛ فهو باطل فاسد لا يتخذ ديناً، وهم في أنفسهم ليسوا بمتبّعين لبرهان يتقنّون به ما ذهبوا إليه، وإنما دلّهم على قولهم الظنّ الفاسد والجهل الكاسد، وما تهواه أنفسهم من الشرك والبدع الموافقة لأهويتهم، والحال أنّه لا موجب لهم يقتضي اتّباعهم الظنّ من فقد العلم والهدى، ولهذا قال تعالى: ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾؛ أي: الذي يرشدهم في باب التوحيد والنبوة وجميع المطالب التي يحتاج إليها العباد؛ فكلّها قد بيّنها الله أكمل بيان وأوضحه وأدله على المقصود، وأقام عليه من الأدلّة والبراهين ما يوجب لهم ولغيرهم اتّباعه، فلم يبق لأحد حجة ولا عذر من بعد البيان والبرهان، وإذا كان ما هم عليه غايته اتّباع الظنّ ونهايته الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي؛ فالبقاء على هذه الحال من أسفه السّفه وأظلم الظلم.

﴿٢٤ - ٢٥﴾ ومع ذلك يتمنّون الأمانى ويغترون بأنفسهم^(٢)! ولهذا أنكر تعالى على من زعم أنه يحصل له ما تمّنى وهو كاذب في ذلك، فقال: ﴿أم للإنسان ما

(٢) في (ب): «بأنفسكم».

(١) في (ب): «عن».

تَمْنَى . فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى : فيعطي منهما مَنْ يشاء ويمنع مَنْ يشاء ؛ فليس الأمر تابعاً لأمانيتهم ولا موافقاً لأهوائهم .

﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ .

﴿٢٦﴾ يقول تعالى منكرأ على مَنْ عَبَدَ غيره من الملائكة وغيرهم، وزعم أنها تنفعه وتشفع له عند الله يوم القيامة : ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ﴾ : من الملائكة المقرَّبين وكرام الملائكة ، ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً﴾ ؛ أي : لا تفيد من دعاها وتعلّق بها ورجاها ، ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ ؛ أي : لا بدّ من اجتماع الشرطين : إذنه تعالى في الشفاعة، ورضاه عن المشفوع له . ومن المعلوم المتقرّر أنّه لا يقبل من العمل إلّا ما كان خالصاً لوجه الله ، موافقاً فيه صاحبه الشريعة ؛ فالمشركون إذاً لا نصيب لهم من شفاعاة الشافعين ؛ [وقد^(١) سدّوا على أنفسهم رحمة أرحم الراحمين .

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُؤْنَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ تَسْمِيَةً الْأُنثَى﴾ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعَالَمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ ﴿٣٠﴾ .

﴿٢٧﴾ يعني : أنّ المشركين بالله، المكذّبين لرسله، الذين لا يؤمنون بالآخرة؛ [و] بسبب عدم إيمانهم بالآخرة؛ تجرّؤوا على ما تجرّؤوا عليه من الأقوال والأفعال المحاذة لله ولرسوله؛ من قولهم: الملائكة بناتُ الله! فلم ينزهوا ربّهم عن الولادة، ولم يكرموا الملائكة ويُجلّوهم عن تسميتهم إيّاهم إناثاً، والحال أنّه ليس لهم بذلك علمٌ لا عن الله ولا عن رسوله ولا دلّت على ذلك الفطر والعقول، بل العلمُ كلّهُ دالٌّ على نقيض قولهم، وأنّ الله منزّه عن الأولاد والصاحبة؛ لأنّه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلدْ ولم يولدْ، ولم يكن له كفواً أحدٌ، وأنّ الملائكة كرامٌ مقرَّبون إلى الله قائمون بخدمته، ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون﴾ .

(١) في (أ) : بياض . وما بين المعقوفتين من (ب) .

﴿٢٨﴾ والمشركون^(١) إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ فِي ذَلِكَ الْقَوْلَ الْقَبِيحَ، وهو الظنُّ^(٢) الذي لا يُغني من الحقِّ شيئاً؛ فَإِنَّ الْحَقَّ لَا بَدْءَ فِيهِ مِنَ الْيَقِينِ الْمُسْتَفَادِ مِنَ الْأَدَلَّةِ [القاطعة] والبراهين الساطعة.

﴿٢٩﴾ ولما كان هذا دأب هؤلاء المذكورين، أنهم لا غرض لهم في اتباع الحقِّ، وإنما غرضهم ومقصودهم ما تهواه نفوسهم؛ أمر الله رسوله بالإعراض عن من تولى عن ذكره، الذي هو الذكرُ الحكيم والقرآن العظيم [والنبا الكريم]، فأعرض عن العلوم النافعة، ولم يُرِدْ إِلَّا الحياة الدنيا؛ فهذا منتهى إرادته. ومن المعلوم أن العبد لا يعمل إِلَّا للشيء الذي يريده؛ فسعي هؤلاء^(٣) مقصورٌ على الدنيا ولذاتها وشهواتها كيف حصلت حَصْلُوهَا، وبأيِّ طريق سنحت ابتدروها.

﴿٣٠﴾ ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾؛ أي: هذا منتهى علمهم وغايته، وأما المؤمنون بالآخرة المصدّقون بها أولو الأبواب والعقول؛ فاهتمامهم وإرادتهم للدار الآخرة، وعلومهم أفضل العلوم وأجلّها، وهو العلم المأخوذ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والله تعالى أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ممّن لا يستحق ذلك فيكُله إلى نفسه ويخذله فيضلّ عن سبيل الله، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾: فيضع فضله حيث يعلم المحلّ اللائق به.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾
 ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُلِّ شَيْءٍ
 مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾^(٤).

﴿٣١﴾ يخبر تعالى أنه مالك الملك، المتفرّد بملك الدنيا والآخرة، وأن جميع ما فيهما^(٥) ملكٌ لله، يتصرّف فيهم تصرّف الملك العظيم في عبيده ومماليكه، ينفذ فيهم قدره، ويجري عليهم شرعه، ويأمرهم وينهاهم، ويجزيهم على ما أمرهم به ونهاهم عنه، فيثيب المطيع ويعاقب العاصي، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾ العمل من سيئات^(٥) الكفر فما دونه من المعاصي، وبما عملوه من أعمال الشرّ بالعقوبة الفظيعة^(٦)، ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾: في عبادة الله، وأحسنوا إلى خلق الله

(٢) في (ب): «إلا الظن».

(١) في (ب): «وهم إنما».

(٤) في (ب): «مّن في السماوات والأرض».

(٣) في (ب): «فسعيهم».

(٦) في (ب): «البليغة».

(٥) في (ب): «السيئات من الكفر».

بأنواع المنافع ﴿بِالْحُسْنَى﴾؛ أي: بالحالة الحسنة في الدنيا والآخرة، وأكبر ذلك وأجله رضا ربهم والفوز بالجنة وما فيها من النعيم^(١).

﴿٣٢﴾ ثم ذكر وصفهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾؛ أي: يفعلون ما أمرهم الله به من الواجبات، التي يكون تركها من كبائر الذنوب، ويتركون المحرمات الكبار من الزنا^(٢) وشرب الخمر وأكل الربا والقتل ونحو ذلك من الذنوب العظيمة، ﴿إِلَّا اللَّعْمَ﴾: وهو الذنوب الصغار التي لا يصير صاحبها عليها، أو التي يلزم العبد بها المرأة بعد المرأة على وجه الندرة والقلة؛ فهذه ليس مجرد الإقدام عليها مخرجاً للعبد من أن يكون من المحسنين؛ فإن هذه مع الإتيان بالواجبات وترك المحرمات تدخل تحت مغفرة الله التي وسعت كل شيء، ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾: فلولا مغفرته؛ لهلك البلاد والعباد، ولولا عفوه وحلمه؛ لسقطت السماء على الأرض، ولما ترك على ظهرها من دابة، ولهذا قال النبي ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان؛ مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر»^(٣). وقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بَطُونِ أُمّهَاتِكُمْ﴾؛ أي: هو تعالى أعلم بأحوالكم كلها، وما جبلكم عليه من الضعف والخور عن كثير مما أمركم الله به، ومن كثرة الدواعي إلى فعل^(٤) المحرمات، وكثرة الجواذب إليها، وعدم الموانع القويّة، والضعف موجود مشاهد منكم حين أخرجكم الله من الأرض، وإذ كنتم في بطون أمهاتكم، ولم يزل موجوداً فيكم، وإن كان الله تعالى قد أوجد فيكم قوة على ما أمركم به. ولكن الضعف لم يزل؛ فلعلمه تعالى بأحوالكم هذه؛ ناسبت الحكمة الإلهية والجود الرباني أن يتغمّدكم برحمته ومغفرته وعفوه، ويغمركم بإحسانه، ويزيل عنكم الجرائم والمآثم، خصوصاً إذا كان العبد مقصوده مرضاة ربه في جميع الأوقات، وسعيه فيما يقرب إليه في أكثر الآفات، وفراره من الذنوب التي يمتق بها عند مولاه، ثم تقع منه الفلته بعد الفلته؛ فإن الله تعالى أكرم الأكرمين^(٥) وأجود الأجودين، أرحم بعباده من الوالدة بولدها؛ فلا بدّ لمثل هذا أن يكون من مغفرة ربه قريباً، وأن يكون الله له في جميع أحواله مجيباً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَرْكُؤُوا

(١) في (ب): «والفوز بنعيم الجنة».

(٢) في (ب): «كالزنا».

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٣).

(٤) في (ب): «إلى بعض».

(٥) في (ب): «أرحم الراحمين».

أَنْفُسَكُمْ؛ أَي: تخبرون الناس بطهارتها^(١) على وجه التمدُّح عندهم، ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾؛ فَإِنَّ التَّقْوَى محلُّها القلبُ، واللَّه هو المَطَّلَع عليه، المجازي على ما فيه من بَرٍّ وتقوى، وأما النَّاسُ؛ فلا يغنون عنكم من الله شيئاً.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى^(٢) ٣٢ وَأَعْطَى قَلِيلًا ٣٣ وَأَكْثَى ٣٤ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ٣٥ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ٣٦ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ٣٧ أَلَا نَزَّرْنَا بِرِزْقٍ لَّأَنسٍ ٣٨ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ٣٩ وَأَن سَعِيَهُ سَوْفَ يَرَى ٤٠ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَ ٤١ وَأَن إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْسِنَتٌ ٤٢ وَأَنَّهُ هُوَ أَصْحَكَ ٤٣ وَأَبْكَى ٤٤ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ ٤٥ وَالْأُنثَى ٤٦ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ٤٧ وَأَن عَلَيْهِ الشَّعَاةُ الْآخِرَى^(٣) ٤٨ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ السَّعَرَى ٤٩ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأَوَّلَ ٥٠ وَنَمُودًا فَمَا أَبْقَى ٥١ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطَىٰ ٥٢ وَالْمُرْثَفَةَ أَمْوَىٰ ٥٣ فَغَشَّاهَا مَا عَنَّ ٥٤ فَيَأْتِي أَوْلَاءَ لَّيَالَىٰ ٥٥ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأَوَّلِ ٥٦ أَرَأَيْتَ الْآزِفَةَ ٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ٥٨ أَفَنَ هَذَا الْحَدِيثَ تَجْعَلُونَ ٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ٦٠ وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ ٦١ فَاسْتَجِدُّوا لِلَّهِ ۖ وَاعْبُدُوا ۝ ٦٢﴾.

﴿٣٣ - ٣٥﴾ يقول تعالى: أفرأيت قُبْحَ حالة من أُمِرَ بعبادة ربِّه وتوحيده فتولَّى عن ذلك وأعرض عنه؟! فَإِنَّ سَمَحَتْ نَفْسُهُ ببعض الشيء القليل؛ فَإِنَّهُ لَا يَسْتَمِرُّ عليه، بل يبخل ويكُدي ويمنع؛ فَإِنَّ الإحسان^(٤) ليس سَجِيَّةً له وطبعاً، بل طبعه التَّوَلَّى عن الطاعة وعدم الثبوت على فعل المعروف، ومع هذا؛ فهو يَزْكِي نفسه وينزلها غير منزلتها التي أنزلها الله بها. ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾: الْغَيْب فيخبر^(٥) به؟! أم هو متَقَوِّلٌ على الله متَجَرِّئٌ عليه جامع^(٦) بين المحذورين والإساءة والتزكية؟! كما هو الواقع؛ لَأَنَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْغَيْبِ، وَأَنَّهُ لَوْ قَدَّرَ أَنَّهُ ادَّعَى ذلك؛ فالإخبارات القاطعة عن علم الغيب التي على يد النبي المعصوم تدلُّ على نقيض قوله، وذلك دليل على بطلانه.

﴿٣٦ - ٣٧﴾ ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ﴾: هَذَا الْمَدْعَى ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى. وَإِبْرَاهِيمَ

(١) في (ب): «أَي: تطهرونها وتخبرون الناس بذلك».

(٢) في (أ) إلى آخر السورة. (٣) في (ب): «إلى آخر السورة».

(٤) في (ب): «المعروف».

(٥) في (ب): «على الجمع».

(٦) في (ب): «على الجمع».

الذي وَفَّى؛ أي: قام بجميع ما ابتلاه الله به، وأمره به من الشرائع وأصول الدين وفروعه.

﴿٣٨ - ٤١﴾ وفي تلك الصحف أحكام كثيرة، من أهمها ما ذكره الله بقوله: ﴿أَنْ لَا تَزِرَ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى. وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾؛ أي: كل عامل له عمله الحسن والسيئ؛ فليس له من عمل غيره وسعيه شيء، ولا يتحمل أحد عن أحد ذنباً، ﴿وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى﴾: في الآخرة، فيميز حسنه من سيئه، ثم يُجزاه الجزاء الأوفى؛ أي: المستكمل لجميع العمل، الخالص الحسن^(١) بالحسنى، والسيئ الخالص بالسوإى، والمشوب بحسبه؛ جزاء تُقَرُّ بعدله وإحسانه الخليقة كلها، وتَحْمَدُ الله عليه، حتى إِنَّ أهل النار ليدخلون^(٢) النار، وإنَّ قلوبهم مملوءة من حمد ربهم والإقرار له بكمال الحكمة ومقت أنفسهم، وأنهم الذين أوصلوا أنفسهم وأوردوها شرَّ الموارد. وقد استدل بقوله [تعالى]: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾: من يرى أَنَّ القُرْبَ لا يجوز^(٣) إهداؤها للأحياء ولا للأموات، قالوا: لأنَّ الله قال: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾؛ فوصول سعي غيره إليه منافي لذلك. وفي هذا الاستدلال نظر؛ فإنَّ الآية إنما تدلُّ على أنه ليس للإنسان إلا ما سعى بنفسه، وهذا حقٌّ لا خلاف فيه، وليس فيها ما يدلُّ على أنَّه لا يتفجع بسعي غيره إذا أهداه ذلك الغير إليه^(٤)؛ كما أنَّه ليس للإنسان من المال إلا ما هو في ملكه وتحت يده، ولا يلزم من ذلك أن لا يملك ما وَهَبَ الغير له من ماله الذي يملكه.

﴿٤٢﴾ وقوله: ﴿وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾؛ أي: إليه تنتهي الأمور، وإليه تصير الأشياء والخلائق بالبعث والنشور، وإلى الله المنتهى في كلِّ حال؛ فإليه ينتهي العلم والحكم والرحمة وسائر الكمالات.

﴿٤٣﴾ ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾؛ أي: هو الذي أوجد أسباب الضحك والبكاء، وهو الخير والشرُّ والفرح والسرور والهمُّ والحزن، وهو سبحانه له الحكمة البالغة في ذلك.

﴿٤٤﴾ ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾؛ أي: هو المنفرد بالإيجاد والإعدام، والذي

(٢) في (ب): «يدخلون».

(١) في (ب): «الحسن الخالص».

(٤) في (ب): «له».

(٣) في (ب): «لا يفيد».

أوجد الخلق وأمرهم ونهاهم، سيعيدهم بعد موتهم، ويجازيهم بتلك الأعمال التي عملوها في دار الدنيا.

﴿٤٥ - ٤٦﴾ ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ﴾: فسرهما^(١) بقوله: ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾:

وهذا اسمُ جنس شامل لجميع الحيوانات ناطقها وبهيمها؛ فهو المنفرد بخلقها ﴿من نطفةٍ إذا تمنى﴾: وهذا من أعظم الأدلة على كمال قدرته وانفراده بالعزة العظيمة؛ حيث أوجد تلك الحيوانات صغيرها وكبيرها من نطفةٍ ضعيفةٍ^(٢) من ماءٍ مهين، ثم نمّاها وكملها حتى بلغت ما بلغت، ثم صار الآدمي منها إمّا إلى أرفع المقامات في أعلى عليين، وإمّا إلى أدنى الحالات في أسفل سافلين.

﴿٤٧﴾ ولهذا استدلّ بالبداة على الإعادة، فقال: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النِّشَآةَ الْآخِرَى﴾:

فيعيد العباد من الأجداث، ويجمعهم ليوم الميقات، ويجازيهم على الحسنات والسيئات.

﴿٤٨﴾ ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾؛ أي: أغنى العباد بتيسير أمر معاشهم من

التجارات وأنواع المكاسب من الجِزَف وغيرها، ﴿وَأَقْنَى﴾؛ أي: أفاد عبادَه من الأموال بجميع أنواعها ما يصيرون به مقتنين لها ومالكين لكثير من الأعيان، وهذا من نعمه تعالى؛ أن أخبرهم^(٣) أن جميع النعم منه، وهذا يوجب للعباد أن يشكروه ويعبدوه وحده لا شريك له.

﴿٤٩﴾ ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى﴾: وهو^(٤) النجم المعروف بالشَّعْرَى العبور،

المسماة بالمرزم، وخَصَّها الله بالذكر وإن كان هو ربُّ كلِّ شيء؛ لأنَّ هذا النجم مما عُبد في الجاهلية، فأخبر تعالى أن جنس ما يعبد^(٥) المشركون مربوب مدبّر مخلوق؛ فكيف يتخذ مع الله آلهة؟!

﴿٥٠﴾ ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾: وهم قوم هود عليه السلام حين كذبوا

هوداً، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية.

﴿٥١﴾ ﴿وَتُحْمُودٌ﴾: قوم صالح عليه السلام؛ أرسله الله إلى ثمود، فكذبوه،

(١) في (ب): «فسر الزوجين».

(٢) في (ب): «كبيرها وصغيرها من نطفة قليلة».

(٣) في (ب): «وهذا من نعمه على عبادِه أن جميع...».

(٤) في (ب): «وهي».

(٥) في (ب): «يعبده».

فبعث الله إليهم الناقة آية، فعقروها وكذبوه، فأهلكهم الله [تعالى]، ﴿فما أبقي﴾: منهم أحداً، بل أبادهم^(١) عن آخرهم.

﴿٥٢﴾ ﴿وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى﴾: من هؤلاء الأمم، فأهلكهم الله وأغرقهم^(٢).

﴿٥٣ - ٥٤﴾ ﴿والمؤتفكة﴾: وهم قوم لوط عليه السلام، ﴿أهوى﴾: أي: أصابهم الله بعذاب ما عذب به أحداً من العالمين، قلب أسفل ديارهم أعلاها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل، ولهذا قال: ﴿فغشاها ما غشى﴾: أي: غشيها من العذاب الأليم الوخيم ما غشي؛ أي: شيء عظيم لا يمكن وصفه.

﴿٥٥﴾ ﴿فبأي آلاء ربك تتماري﴾: أي: فبأي نعم الله وفضله تشك أيها الإنسان؛ فإن نعم الله ظاهرة لا تقبل الشك بوجه من الوجوه؛ فما بالعباد من نعمة إلا منه تعالى، ولا يدفع النقم إلا هو.

﴿٥٦﴾ ﴿هذا نذير من النذر الأولى﴾: أي: هذا الرسول القرشي الهاشمي محمد بن عبد الله ليس ببدع من الرسل، بل قد تقدمه من الرسل السابقين، ودعوا إلى ما دعا إليه؛ فلا شيء تنكر رسالته؟! وبأي حجة تبطل دعوته؟! أليست أخلاقه أعلى أخلاق الرسل الكرام؟! أليس يدعو إلى كل خير وينهى عن كل شر^(٣)؟! ألم يأت بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد؟! ألم يهلك الله من كذب من قبله من الرسل الكرام؟! فما الذي يمنع العذاب عن المكذبين لمحمد سيد المرسلين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين؟!

﴿٥٧﴾ ﴿أزفت الآزفة﴾: أي: قربت القيامة ودنا وقتها وبانت علاماتها، ﴿ليس لها من دون الله كاشفة﴾: أي: إذا أتت القيامة وجاءهم العذاب الموعود به.

﴿٥٨﴾ ﴿ثم توعد المنكرين لرسالة الرسول محمد ﷺ، المكذبين لما^(٤) جاء به من القرآن الكريم، فقال:

﴿٥٩﴾ ﴿أفمن هذا الحديث تعجبون﴾: أي: أفمن هذا الحديث الذي هو خير

(١) في (ب): «أهلكهم الله».

(٢) في (ب): «وأغرقهم في اليم».

(٣) في (ب): «أليست دعوته إلى كل خير والنهي عن كل شر».

(٤) في (ب): «بما».

الكلام وأفضله وأشرفه تتعجبون، وتجعلونه من الأمور المخالفة للعادة، الخارقة للأمور والحقائق المعروفة؟! هذا من جهلهم وضلالهم وعنادهم، وإلّا؛ فهو الحديث الذي إذا حَدَّثَ صَدَقَ، وإذا قال قولاً فهو القول الفصل، ليس بالهزل، وهو القرآن^(١) العظيم، الذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله، الذي يزيد ذوي الأحلام رأياً وعقلاً وتسديداً وثباتاً وإيقاناً وإيماناً، بل الذي^(٢) ينبغي العَجَبُ من عقل من تعَجَّبَ منه وسفهه وضلاله.

﴿٦٠﴾ ﴿وتضحكون ولا تبكون﴾؛ أي: تستعجلون الضحك والاستهزاء به، مع أنه الذي ينبغي أن تتأثر منه النفوس وتلين له القلوب وتبكي له العيون؛ سماعاً لأمره ونهيهِ، وإصغاءً لوعده ووَعِيدِهِ، والتفاتاً لأخباره الصادقة الحسنة^(٣).

﴿٦١﴾ ﴿وأنتم سامدون﴾؛ أي: غافلون لاهون عنه وعن تدبيره^(٤)، وهذا من قلة عقولكم وأديانكم؛ فلو عبدتم الله وطلبتُم رضاه في جميع الأحوال؛ لما كنتم بهذه المثابة التي يأنف منها أولو الألباب.

﴿٦٢﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾: الأمر بالسجود لله خصوصاً يدلُّ على فضله، وأنه سرُّ العبادة ولُبُّها؛ فإنَّ روحها الخشوع لله والخضوع له، والسجود [هو] أعظم حالة يخضع بها [العبد]^(٥)؛ فإنه يخضع قلبه وبدنه، ويجعل أشرف أعضائه على الأرض المهينة موضع وطء الأقدام. ثم أمر بالعبادة عموماً الشاملة لجميع ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

تم تفسير سورة النجم.

والحمد لله [الذي لا نحصي ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يشني عليه عباده وصلى الله على محمد وسلّم تسليمًا كثيرًا].



(١) في (ب): «الكلام».

(٢) في (ب): «إيماناً و يقيناً، والذي».

(٣) في (ب): «الحسنة الصادقة».

(٤) في (ب): «أي: غافلون عنه لاهون عن تدبيره».

(٥) في (ب): «القلب». والكلمة في (أ) غير واضحة ولعلها: «العبد» كما هي في الطبعة الأولى.

تفسير سورة اقتربت الساعة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿اَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَعِيرٌ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ التَّنْذِرُ ﴿٥﴾﴾.

﴿١﴾ يخبر تعالى أن الساعة - وهي القيامة - اقتربت، وأن أوانها، وحان وقت مجيئها، ومع هذا^(١)؛ فهؤلاء المكذبون لم يزالوا مكذبين بها غير مستعدين لتزولها، ويريهم الله من الآيات العظيمة الدالة على وقوعها ما يؤمن على مثله البشر؛ فمن أعظم الآيات الدالة على صحة ما جاء به محمد بن عبدالله ﷺ أنه لما طلب منه المكذبون أن يُريهم من خوارق العادات ما يدل على صحة ما جاء به وصدقه^(٢)؛ أشار ﷺ إلى القمر، فانشق بإذن الله فلقين؛ فلقاً على جبل أبي قبيس، وفلقاً على جبل قيعقان، والمشركون وغيرهم يشاهدون هذه الآية العظيمة^(٣) الكائنة في العالم العلوي، التي لا يقدر الخلق على التمويه بها والتخيل، فشاهدوا أمراً ما رأوا مثله، بل ولم يسمعوا أنه جرى لأحد من المرسلين قبله نظيره، فانبهروا لذلك، ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولم يرد الله بهم خيراً، ففزعوا إلى بهتهم وطغيانهم، وقالوا: سحرنا محمد! ولكن علامة ذلك أنكم تسألون من ورّد عليكم^(٤) من السفر؛ فإنه إن قدر على سحركم؛ لم يقدر أن يسحر من ليس مشاهداً مثلكم! فسألوا كل من قدم، فأخبروهم بوقوع ذلك، فقالوا: ﴿سحر مستمر﴾! سحرنا محمد وسحر غيرنا!! وهذا من البهت الذي لا يروج إلا على أسفه الخلق وأضلهم عن الهدى والعقل.

﴿٢﴾ وهذا ليس إنكاراً منهم لهذه الآية وحدها، بل كل آية تأتيهم؛ فإنهم مستعدون لمقابلتها بالتكذيب^(٥) والرد لها، ولهذا قال: ﴿وإن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا﴾.

(٢) في (ب): «ما يدل على صدقه».

(٤) في (ب): «من قدم إليكم».

(١) في (ب): «ذلك».

(٣) في (ب): «الكبرى».

(٥) في (ب): «بالباطل».

فلم يعد الضمير على انشقاق القمر، [فلم يقل: وإن يروها]، بل قال: ﴿وإن يَرَوْا آيَةً يعرضوا﴾؛ فليس^(١) قصدهم اتباع الحق والهدى، وإنما مقصودهم اتباع الهوى.

﴿٣﴾ ولهذا قال: ﴿وكذبوا واتَّبَعُوا أهواءهم﴾؛ كقوله تعالى: ﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتَّبَعُونَ أهواءهم﴾؛ فإنه لو كان قصدهم اتباع الهدى؛ لأمنا قطعاً واتَّبَعُوا محمداً ﷺ؛ لأنه أراهم الله على يديه من البينات والبراهين والحجج القواطع ما دل على جميع المطالب الإلهية والمقاصد الشرعية، ﴿وكلُّ أمر مستقر﴾؛ أي: إلى الآن لم يبلغ الأمر غايته ومنتهاه، وسيصير الأمر إلى آخره؛ فالمصدق يتقلب في جنات النعيم ومغفرة الله ورضوانه، والمكذب يتقلب في سخط الله وعذابه خالداً مخلداً أبداً.

﴿٤﴾ وقال تعالى مبيناً أنهم ليس لهم قصد صحيح واتباع للهدى^(٢): ﴿ولقد جاءهم من الأنباء﴾؛ [أي: الأخبار السابقة واللاحقة والمعجزات الظاهرة] ﴿ما فيه مُزْجَرٌ﴾؛ أي: زاجر يزرهم عن غيهم وضلالهم.

﴿٥﴾ وذلك ﴿حكمة﴾: منه تعالى ﴿بالغة﴾؛ أي: لتقوم حجة على العالمين^(٣)، ولا يبقى لأحد على الله حجة بعد الرسل، ﴿فما تغني النذر﴾؛ كقوله تعالى: ﴿ولو جاءتهم كل آية لا يؤمنوا حتى يَرَوْا العذاب الأليم﴾.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ﴾ ﴿٦﴾ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَانَتْهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُتَهَاطِئِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ﴾.

﴿٦﴾ يقول تعالى لرسوله ﷺ: قد بان أن المكذبين لا حيلة في هداهم، فلم يبق إلا الإعراض عنهم^(٤)، فقال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾: وانتظر بهم يوماً عظيماً وهو لا جسيماً، وذلك حين ﴿يَدْعُ الدَّاعُ﴾؛ وهو إسرافيل عليه السلام ﴿إلى شيء نُكْرٍ﴾؛ أي: إلى أمر فظيع تنكره الخليقة، فلم تر منظرأ أفظع ولا أوجع منه، فينفخ إسرافيل نفخة يخرج بها^(٥) الأموات من قبورهم لموقف القيامة.

﴿٧﴾ ﴿خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ﴾؛ أي: من الهول والفرع الذي وصل إلى قلوبهم،

(١) في (ب): «وليس».

(٢) في (ب): «ولا اتباع الهدى».

(٣) في (ب): «المخالفين».

(٤) في (ب): «الإعراض عنهم والتولي عنهم. فتولَّ عنهم».

(٥) في (ب): «فينفخ إسرائيل في الصور نفخة يخرج منها».

فخضعت وذلت، وخشعت لذلك أبصارهم ﴿يخرجون من الأجداث﴾: وهي القبور ﴿كانتهم﴾: من كثرتهم وروجان بعضهم ببعض ﴿جرادٌ منتشر﴾: أي: مبعوثٌ في الأرض متكاثرٌ جداً.

﴿٨﴾ ﴿مهطعين إلى الدّاع﴾: أي: مسرعين لإجابة نداء^(١) الدّاعي، ولهذا يدلُّ على أنَّ الدّاعي يدعوهم ويأمرهم بالحضور لموقف القيامة، فيلبثون دعوته ويسرعون إلى إجابته، ﴿يقول الكافرون﴾: الذين قد حَضَرَ عذابهم: ﴿هذا يومٌ عسير﴾؛ كما قال تعالى: ﴿على الكافرين غير يسير﴾: مفهوم ذلك أنه يسيرٌ سهلٌ على المؤمنين.

﴿كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنوناً وازدجر﴾^(٢) ﴿٩﴾ ﴿ففتحنا أبواب السماء بماء مثمير﴾^(٣) ﴿١٠﴾ ﴿فجرت الأرض عيوناً فاللقى الماء على أمرٍ قد قدر﴾^(٤) ﴿١١﴾ ﴿وحملته على ذات ألواح ودسر﴾^(٥) ﴿١٢﴾ ﴿تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر﴾^(٦) ﴿١٣﴾ ﴿ولقد تركناها آيةً فهل من مدكر﴾^(٧) ﴿١٤﴾ ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾^(٨) ﴿١٥﴾ ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾^(٩) ﴿١٦﴾.

﴿٩﴾ لما ذكر تبارك وتعالى حال المكذبين لرسوله وأن الآيات لا تنفع فيهم ولا تجدي عليهم شيئاً؛ أنذرهم وخوفهم بعقوبات الأمم الماضية المكذبة للرسول وكيف أهلهم الله وأحلَّ بهم عقابه، فذكر قوم نوح؛ أول رسول بعثه الله إلى قوم يعبدون الأصنام، فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فامتنعوا من ترك الشرك، وقالوا: ﴿لا تذرُنْ آلهتكم ولا تذرُنْ وداً ولا سواعاً ولا يغوثَ ويعوقَ ونسراً﴾، ولم يزل نوح يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً سرّاً وجهاراً، فلم يزدهم ذلك إلّا عناداً وطغياناً وقدحاً في نبيهم، ولهذا قال هنا: ﴿فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون﴾: لزعمهم أنَّ ما هم عليه وآباؤهم من الشرك والضلال هو الذي يدلُّ عليه العقل، وأنَّ ما جاء به نوح عليه السلام جهلٌ وضلالٌ لا يصدر إلّا من المجانين، وكذبوا في ذلك، وقلبوا الحقائق الثابتة شرعاً وعقلاً^(٣)؛ فإنَّ ما جاء به هو الحقُّ الثابت الذي يرشد العقول النيرة المستقيمة إلى الهدى والنور والرُّشد، وما هم عليه جهلٌ وضلالٌ مبين. وقوله: ﴿وازدجر﴾؛ أي: زجره قومه وعنفوه لما دعاهم إلى الله تعالى، فلم

(١) في (ب): «مسرعين لنداء».

(٢) في (أ): إلى آخر قصته. وفي (ب) ذكرت الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر...﴾.

(٣) في (ب): «عقلاً وشرعاً».

يَكْفِيهِمْ قَبْحَهُمُ اللَّهُ عَدَمُ الْإِيمَانِ بِهِ وَلَا تَكْذِيبُهُمْ إِيَّاهُ، حَتَّى أَوْصَلُوا إِلَيْهِ مِنْ أَذْيَتِهِمْ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ، وَهَكَذَا جَمِيعُ أَعْدَاءِ الرِّسْلِ هَذِهِ حَالُهُمْ مَعَ أَنْبِيَائِهِمْ.

﴿١٠﴾ فَعِنْدَ ذَلِكَ دَعَا نُوحٌ رَبَّهُ، فَقَالَ: ﴿إِنِّي مَغْلُوبٌ﴾: لَا قُدْرَةَ لِي عَلَى الْإِنْتِصَارِ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْ قَوْمِهِ إِلَّا الْقَلِيلَ النَّادِرَ، وَلَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَى مَقَاوِمِهِمْ، ﴿فَانْتَصِرْ﴾: اللَّهُمَّ لِي مِنْهُمْ، وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَيَّارًا...﴾ الْآيَاتِ.

﴿١١﴾ فَأَجَابَ اللَّهُ سُؤْلَهُ، فَاِنْتَصِرْ^(١) لَهُ مِنْ قَوْمِهِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾؛ أَي: كَثِيرٍ جَدًّا مُتَابِعٍ.

﴿١٢﴾ ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾: فَجَعَلَتِ السَّمَاءُ يَنْزِلُ مِنْهَا مِنَ الْمَاءِ شَيْءٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ، وَتَفَجَّرَتِ الْأَرْضُ كُلُّهَا، حَتَّى التُّورُ الَّذِي لَمْ تَجْرِ الْعَادَةُ بِوُجُودِ الْمَاءِ فِيهِ، فَضَلًّا عَنْ كَوْنِهِ مَنِعًا لِلْمَاءِ؛ لِأَنَّهُ مَوْضِعُ النَّارِ، ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾؛ أَي: مَاءُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، ﴿عَلَى أَمْرٍ﴾: مِنَ اللَّهِ لَهُ بِذَلِكَ، ﴿قَدْ قُدِرَ﴾؛ أَي: قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ فِي الْأَزْلِ وَقَضَاهُ عَقُوبَةً لِهَؤُلَاءِ الظَّالِمِينَ الطَّاغِينَ.

﴿١٣﴾ ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾؛ أَي: وَنَجَّيْنَا عَبْدَنَا نُوحًا عَلَى السَّفِينَةِ ذَاتِ الْأَلْوَاحِ وَالْدُسُرِ^(٢)؛ أَي: الْمَسَامِيرِ الَّتِي قَدْ سُمِرَتْ بِهَا أَلْوَاخُهَا وَشُدَّ بِهَا أَسْرُهَا.

﴿١٤﴾ ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾؛ أَي: تَجْرِي بِنُوحٍ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ وَمَنْ حَمَلَهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَخْلُوقَاتِ بِرِعَايَةِ مِنَ اللَّهِ وَحَفِظٍ مِنْهَا عَنْ الْغَرَقِ وَنَظَرٍ وَكَلَاءَةٍ مِنْهُ تَعَالَى، وَهُوَ نَعَمُ الْحَافِظِ الْوَكِيلِ، ﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرًا﴾؛ أَي: فَعَلْنَا بِنُوحٍ مَا فَعَلْنَا مِنَ النَّجَاةِ مِنَ الْغَرَقِ الْعَامِّ جَزَاءً لَهُ؛ حَيْثُ كَذَّبَهُ قَوْمُهُ وَكَفَرُوا بِهِ، فَصَبَرَ عَلَى دَعْوَتِهِمْ، وَاسْتَمَرَّ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ، فَلَمْ يَرُدَّهُ عَنْهُ رَادًّا وَلَا صَدَّهُ عَنْ ذَلِكَ^(٣) صَادًّا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ...﴾ الْآيَةِ. وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّا أَهْلَكْنَا قَوْمَ نُوحٍ وَفَعَلْنَا بِهِمْ مَا فَعَلْنَا مِنَ الْعَذَابِ وَالْخِزْيِ جَزَاءً لَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ. وَهَذَا مُتَوَجِّهٌ عَلَى قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَهَا بِفَتْحِ الْكَافِ.

(٢) فِي (ب): «وَدُسُرٍ».

(١) فِي (ب): «وَانْتَصِرْ».

(٣) فِي (ب): «وَلَا صَدَّهُ عَنْهُ».

﴿١٥﴾ ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾؛ أي: ولقد تركنا قصة نوح مع قومه آيةً يتذكَّر بها المتذكِّرون على أنَّ من عصى الرُّسل وعاندَهم أَهْلَكَه الله بعقابٍ عامٍّ شديدٍ، أو أنَّ الضمير يعود إلى السفينة وجنسها، وأنَّ أصلَ صنعَتها تعليمٌ من الله لرسوله^(١) نوح عليه السلام، ثم أبقي الله صنعَتها وجنسها بين الناس؛ ليدلَّ ذلك على رحمته بخلقه وعنايته وكمال قدرته وبديع صنعته. ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾؛ أي: فهل متذكِّر للآيات ملقٍ ذهته وفكرته لما يأتيه منها؛ فإنَّها في غاية البيان واليسر؟

﴿١٦﴾ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾؛ أي: فكيف رأيت أيها المخاطبُ عذابَ الله الأليم وإنذاره الذي لا يبقى لأحدٍ عليه حجة.

﴿١٧﴾ ﴿وَلَقَدْ يَسْرُنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾؛ أي: ولقد يسرنا وسهَّلنا هذا القرآن الكريم ألفاظه للحفظ والأداء ومعانيه للفهم والعلم؛ لأنَّه أحسن الكلام لفظاً، وأصدقُه معنىً، وأبينه تفسيراً؛ فكلُّ من أقبل عليه؛ يسَّرَ الله عليه مطلوبه غاية التيسير، وسهَّله عليه، والذِّكر شاملٌ لكل ما يتذكَّر به العالمون من الحلال والحرام وأحكام الأمر والنهي وأحكام الجزاء والمواعظ والعبر والعقائد النَّافعة والأخبار الصادقة، ولهذا كان علم القرآن حفظاً وتفسيراً أسهل العلوم وأجلُّها على الإطلاق، وهو العلم النَّافع الذي إذا طلبه العبدُ؛ أُعِينَ عليه. قال بعضُ السلف عند هذه الآية: هل من طالب علم فيعان عليه. ولهذا يدعو الله عباده إلى الإقبال عليه والتذكُّر بقوله: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ ﴿٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسْرُنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٢٢﴾.

﴿١٨ - ١٩﴾ وعاد هي القبيلة المعروفة باليمن، أرسل الله إليهم هوداً عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته، فكذبوه، فأرسل الله عليهم ﴿ريحاً صَرْصَرًا﴾؛ أي: شديدة جداً. ﴿في يوم نحسٍ﴾؛ أي: شديد العذاب والشقاء عليهم ﴿مستمراً﴾: عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً.

﴿٢٠﴾ ﴿تنزعُ الناسَ﴾: من شدتها فترفعهم إلى جو السماء، ثم تدمغهم

(١) في (ب): «العبده».

بالأرض، فتهلكهم، فيصبحون ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾؛ أي: كأن جثثهم بعد هلاكهم مثل جذوع النخل الخاوي الذي اقتلعته^(١) الريح فسقط على الأرض؛ فما أهون الخلق على الله إذا عَصَوْا أمره!

﴿٢١﴾ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾: كان والله العذاب الأليم والنذارة التي ما أبت لأحد عليه حجة.

﴿٢٢﴾ ﴿وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾: كرر تعالى ذلك رحمة بعباده وعناية بهم؛ حيث دعاهم إلى ما يصلح دنياهم وآخرهم.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ (٢٣) ﴿فَقَالُوا أَبَشْرًا مِثَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ (٢٤) ﴿أَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ (٢٥) ﴿سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ مَنْ الْكُذَّابُ الْآثِرُ﴾ (٢٦) ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا السَّاعَةِ فَنُفِثَتْ لَهُمْ فَارِغَتُهُمْ وَأَصْطَرِجَ﴾ (٢٧) ﴿وَيَبْهَتُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ فِيسْمُهُ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْفَضٌ﴾ (٢٨) ﴿فَادَّوَا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ (٢٩) ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ (٣٥) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمٍ الْمُخْتَطِرِ﴾ (٣٦) ﴿وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (٣٧) ﴿

﴿٢٣﴾ أي: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾: وهم القبيلة المعروفة المشهورة في أرض الحِجْر نبيهم صالحاً عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأنذره العقاب إن هم خالفوه.

﴿٢٤﴾ فكذبوه واستكبروا عليه وقالوا كبراً وتيهياً: ﴿أَبَشْرًا مِثَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ﴾؛ أي: كيف نتبع بشراً لا ملكاً، مثلاً لا من غيرنا ممن هو أكبر عند الناس مثلاً، ومع ذلك؛ فهو شخص واحد. ﴿إِنَّا إِذَا﴾؛ أي: إن اتبعناه وهو في هذه^(٢) الحالة ﴿لَفِيَ ضَلالٍ وَسُعُرٍ﴾؛ أي: [إننا] لضالون أشقياء. وهذا الكلام من ضلالهم وشقائهم؛ فإنهم أنفوا أن يتبعوا رسولاً من البشر، ولم يأنفوا أن يكونوا عابدين للشجر والحجر والصُّور.

﴿٢٥ - ٢٦﴾ ﴿أَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾؛ أي: كيف يخصه الله من بيننا وينزل عليه الذكر؛ فأى مزية خصه من بيننا؟! وهذا اعتراض من المكذبين على الله لم يزلوا يدلون به ويصولون [ويحولون] ويردُّون به دعوة الرسل، وقد أجاب الله عن هذه الشبهة بقول الرسل لأممهم: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ

(٢) في (ب): «وهو بهذه».

(١) في (ب): «أصابته».

وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴿٢٦﴾: فالرسل مَنَّ اللَّهُ عليهم بصفات وأخلاق وكمالات بها صلحوا لرسالات ربهم والاختصاص بوحيه، ومن رحمته وحكمته أن كانوا من البشر؛ فلو كانوا من الملائكة؛ لم يمكن البشر أن يتلقوا عنهم، ولو جعلهم من الملائكة؛ لعاجل المكذبين لهم بالعقاب العاجل. والمقصود من هذا^(١) الكلام الصادر من ثمود لنبيهم صالح تكذيبه، ولهذا حكموا عليه بهذا الحكم الجائر، فقالوا: ﴿بل هو كذاب أشير﴾؛ أي: كثير الكذب والشر! فقبّحهم الله ما أسفه أحلامهم وأظلمهم وأشدهم مقابلةً للصادقين الناصحين بالخطاب الشنيع.

﴿٢٧﴾ لا جرم عاقبهم الله حين اشتد طغيانهم، فأرسل الله الناقة التي هي من أكبر النعم عليهم آية من آيات الله ونعمة؛ يحلبون من دُرّها^(٢) ما يكفيهم أجمعين، ﴿فتنة لهم﴾؛ أي: اختباراً منه لهم وامتحاناً، ﴿فارتقبهم واضطرب﴾؛ أي: اصبر على دعوتك إياهم وارتقب ما يحلّ بهم، أو ارتقب هل يؤمنون أو يكفرون.

﴿٢٨﴾ ﴿ونبئهم أن الماء قسمة بينهم﴾؛ أي: وأخبرهم أن الماء؛ أي: مورد لهم الذي يستعذبونه، قسمة بينهم وبين الناقة، لها شِرْبُ يوم ولهم شِرْبُ يوم آخر معلوم. ﴿كل شِرْبٍ مُّخْتَصِرٌ﴾؛ أي: يحضره من كان قسمته، ويخطر على من ليس بقسمة له.

﴿٢٩﴾ ﴿فنادوا صاحبهم﴾: الذي باشر عقرها، الذي هو أشقى القبيلة، ﴿فتعاطى﴾؛ أي: انقاد لما أمره به من عقرها، ﴿فعقر﴾.

﴿٣٠ - ٣٢﴾ ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾: كان أشدّ عذاب، أرسل الله عليهم صيحة ورجفة أهلكتهم عن آخرهم، ونجى الله صالحاً ومن آمن معه، ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾.

﴿كذبت قوم لوط بالندر﴾ (٣٢) ﴿إنا أرسلنا عليهم حصباً إلا آل لوط نجّيتهم بسحر﴾ (٣٤) ﴿نعمه بين عيناك كذلك نجزي من شكر﴾ (٣٥) ﴿ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر﴾ (٣٦) ﴿ولقد رزقناه ضيفاء فلمسنّا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر﴾ (٣٧) ﴿ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر﴾ (٣٨) ﴿فذوقوا عذابي ونذر﴾ (٣٩) ﴿ولقد يترنّ القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ (٤٠).

﴿٣٣ - ٤٠﴾ أي: ﴿كذبت قوم لوط﴾: لوطاً عليه السلام حين دعاهم إلى

(١) في (ب): «بهذا».

(٢) في (ب): «ضرعها».

عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن الشرك والفاحشة التي ما سبقهم بها أحد من العالمين، فكذبوه واستمروا على شركهم وقبائحهم، حتى إن الملائكة الذين جاؤوه بصورة أضياف، حين سمع بهم قومه؛ جاؤوا مسرعين يريدون إيقاع الفاحشة فيهم لعنهم الله وقبحهم وراودوه عنهم، فأمر الله جبريل عليه السلام، فطمس أعينهم بجناحه، وأنذرهم نبيهم بطشة الله وعقوبته، ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾، ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ﴾: قلب الله عليهم ديارهم، وجعل أسفلها أعلاها، وتنبعهم بحجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك للمسرفين، ونجى الله لوطاً وأهله من الكرب العظيم؛ جزاء لهم على شكرهم لربهم وعبادته وحده لا شريك له.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ﴾^(١) ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ ﴿٤٢﴾ أَكْفَارًا كُفِّرْنَا مِّنْ أَوْلَئِكَ أَمْرًا لَّكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْرِكُهُمُ الْجُمُوعُ وَيُلَوِّدُهُمُ الدُّبُرُ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مَّدَكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌّ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ وَهَبُوا فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٤﴾.

﴿٤١ - ٤٢﴾ أي: ﴿ولقد جاء آل فرعون﴾؛ أي: فرعون وقومه، ﴿النذير﴾: فأرسل الله إليهم موسى الكليم، وأيده بالآيات البينات والمعجزات الباهرات^(٢)، وأشهدهم من العبر ما لم يشهد غيرهم^(٣)، فكذبوا بآيات الله كلها، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فأغرقه وجنوده في اليم.

﴿٤٣﴾ والمراد من ذكر هذه القصص تحذير الناس والمكذبين لمحمد ﷺ، ولهذا قال: ﴿أكفاركم خير من أولئكم﴾؛ أي: أهؤلاء الذين كذبوا أفضل الرسل خير من أولئك^(٤) المكذبين الذين ذكر الله هلاكهم وما جرى عليهم؟ فإن كانوا

(١) في (أ): إلى آخر السورة. وفي (ب) ذكرت الآيات إلى نهاية السورة.

(٢) في (ب): «بالآيات الباهرات والمعجزات القاهرة».

(٣) في (ب): «ما لم يشهد عليهم أحداً غيرهم». (٤) في (ب): «هؤلاء».

خيراً منهم؛ أمكن أن يَنجُوا من العذاب ولم يصيبهم ما أصاب أولئك الأشرار، وليس الأمر كذلك؛ فإنَّهم إن لم يكونوا شراً منهم؛ فليسوا بخير منهم. ﴿٤٤﴾ أم لكم بَرَاءَةٌ في الزُّبُرِ؟ أي: أم أعطاكم الله عهداً وميثاقاً في الكتب التي أنزلها على الأنبياء، فتعتقدون حينئذٍ أنكم الناجون بأخبار الله ووعده؟! وهذا غير واقع، بل غير ممكن عقلاً وشرعاً أن تُكتب براءتهم في الكتب الإلهية المتضمنة للعدل والحكمة؛ فليس من الحكمة نجاة أمثال هؤلاء المعاندين المكذِّبين لأفضل الرسل وأكرمهم على الله.

﴿٤٤﴾ فلم يبق إلا أن يكون بهم قوَّةٌ ينتصرون بها، فأخبر تعالى أنهم يقولون: ﴿نحن جميع منتصرون﴾.

﴿٤٥﴾ قال تعالى مبيناً لضعفهم وأنهم مهزومون: ﴿سَيَهْزُمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾: فوقع كما أخبر؛ هزم الله جمعهم الأكبر يوم بدر، وقتلت صناديدهم وكبرائهم، فأذلُّوا^(١)، ونصر الله دينه ونبيّه وحزبه المؤمنين.

﴿٤٦﴾ ومع ذلك؛ فلهم موعدٌ يجمع به أولهم وآخرهم ومن أصيب في الدنيا منهم ومن متع بلذاته، ولهذا قال: ﴿بل الساعةُ موعدهم﴾: الذي يجازون به ويؤخذ منهم الحقُّ بالقسط، ﴿والساعةُ أدهى وأمرُّ﴾؛ أي: أعظم وأشقُّ وأكبر من كلِّ ما يتوهم أو يدور في الخيال^(٢).

﴿٤٧﴾ ﴿إنَّ المجرمينَ﴾؛ أي: الذين أكثروا من فعل الجرائم، وهي الذنوب العظيمة؛ من الشرك وغيره من المعاصي ﴿في ضلالٍ وسُعُرٍ﴾؛ أي: هم ضالُّون في الدنيا، ضلَّالٌ عن العلم وضلَّالٌ عن العمل الذي ينجيهم من العذاب، ويوم القيامة في العذاب الأليم والنار التي تستعر بهم وتشتعل في أجسامهم حتى تبلغ أفئدتهم.

﴿٤٨﴾ ﴿يوم يُسْحَبُونَ في النار على وجوههم﴾: التي هي أشرف ما بهم من الأعضاء، وألمها أشدُّ من [ألم] غيرها، فيهانون بذلك ويُخزَّون، ويقال لهم: ﴿ذوقوا مسَّ سَقَرٍ﴾؛ أي: ذوقوا ألم النار وأسفها وغيظها ولهبا.

﴿٤٩﴾ ﴿إنَّا كلَّ شيءٍ خَلَقْنَاهُ بقدرٍ﴾: وهذا شاملٌ للمخلوقات والعوالم العلوية والسفلية؛ إنَّ الله تعالى وحدَه خَلَقَهَا، لا خالق لها سواه، ولا مشارك له في

(١) في (ب): «وقتل من صناديدهم وكبرائهم ما ذلُّوا به».

(٢) في (ب): «بالبال».

خلقه^(١)، وخلقها بقضاء سبق به علمه وجرى به قلمه بوقتها ومقدارها، وجميع ما اشتملت عليه من الأوصاف.

﴿٥٠﴾ وذلك على الله يسير؛ فلهذا قال: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾: فإذا أراد شيئاً؛ قال له: كن فيكون؛ كما أراد؛ كلمح البصر؛ من غير ممانعة ولا صعوبة.

﴿٥١﴾ ﴿ولقد أهلكنا أشياعكم﴾: من الأمم السابقين، الذين عملوا كما عملتم وكذبوا كما كذبتهم، ﴿فهل من مذكر﴾؛ أي: متذكر يعلم أن سنة الله في الأولين والآخرين واحدة، وأن حكمته كما اقتضت إهلاك أولئك الأشرار فإن هؤلاء مثلهم، ولا فرق بين الفريقين.

﴿٥٢﴾ ﴿وكل شيء فعلوه في الزبر﴾؛ أي: كل ما فعلوه من خيرٍ وشرٍ مكتوبٍ عليهم في الكتب القدريّة.

﴿٥٣﴾ ﴿وكل صغير وكبير مستطر﴾؛ أي: مسطر مكتوب، وهذه حقيقة القضاء والقدر، وأن جميع الأشياء كلها قد علمها الله تعالى وسطرها عنده في اللوح المحفوظ؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

﴿٥٤ - ٥٥﴾ ﴿إن المتقين﴾: لله بفعل أوامره وترك نواهيه، الذين اتقوا الشرك والكبائر والصغائر ﴿في جناتٍ ونهر﴾؛ أي: في جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؛ من الأشجار اليانعة، والأنهار الجارية، والقصور الرفيعة، والمنازل الأنيفة، والمآكل والمشارب اللذيذة، والهور الحسان، والروضات البهية في الجنان، ورضا^(٢) الملك الديان والفوز بقربه، ولهذا قال: ﴿في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر﴾؛ فلا تسأل بعد هذا عما يعطيهم ربهم من كرامته وجوده ويمدّهم به من إحسانه ومثته! جعلنا الله منهم، ولا حرمنّا خير ما عنده بشر ما عندنا.

تم تفسير هذه السورة^(٣). والحمد لله.



(٢) في (ب): «ورضوان».

(١) في (ب): «خلقها».

(٣) في (ب): «تم تفسير سورة اقتربت».

تفسير سورة الرحمن

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ ١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ٤ الشَّمْسُ ٥ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ٦ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ٧ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ٨ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ٩ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ١٠ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ١١ فِيهَا فَتَكُمُهَا ١٢ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ١٣ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ ١٤ وَالرَّيْحَانُ ١٥ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦﴾ .

﴿١﴾ هذه السورة الكريمة الجليلة افتتحها باسمه الرحمن، الدال على سعة رحمته وعموم إحسانه وجزيل برّه وواسع فضله، ثم ذكّر ما يدل على رحمته وأثرها الذي أوصله الله إلى عباده من النعم الدينية والدنيوية والأخروية، وبعد كل جنس ونوع من نعمه ينبه الثقلين لشكره ويقول: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

﴿٢﴾ فذكر أنه: ﴿علم القرآن﴾؛ أي: علّم عباده ألفاظه ومعانيه ويسرّها على عباده، ولهذا أعظم مئة ورحمة رحم بها العباد، حيث أنزل عليهم قرآنًا عربيًّا بأحسن الألفاظ وأوضح المعاني^(١)، مشتمل على كل خير، زاجر عن كل شر.

﴿٣ - ٤﴾ ﴿خلق الإنسان﴾: في أحسن تقويم، كامل الأعضاء، مستوفى الأجزاء، محكم البناء، قد أتقن البارئ تعالى البديع خلقه أي إتقان، وميّزه على سائر الحيوانات بأن ﴿علّمه البيان﴾؛ أي: التبيين عمّا في ضميره. وهذا شامل للتعليم الثّقافي والتعليم الخطّي؛ فالبيان الذي ميّز الله به الآدمي على غيره من أجل نعمه وأكبرها عليه.

﴿٥﴾ ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾؛ أي: خلق الله الشمس والقمر وسخرهما يجريان بحساب مقنّن وتقدير مقدّر رحمة بالعباد وعناية بهم، وليقوم بذلك من مصالحهم ما يقوم، وليعرفوا عدد السنين والحساب.

﴿٦﴾ ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾؛ أي: نجوم السماء وأشجار الأرض تعرف

(١) في (ب): «وأحسن تفسير».

رَبُّهَا وَتَسْجُدُ لَهُ وَتَطِيعُ وَتَخْضَعُ^(١) وَتَتَقَادُ لِمَا سَخَّرَهَا لَهُ مِنْ مَصَالِحِ عِبَادِهِ وَمَنَافِعِهِمْ .
 ﴿٧ - ٨﴾ ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ : سَقْفًا لِلْمَخْلُوقَاتِ الْأَرْضِيَّةِ ، ﴿وَوَضَعَ﴾ [اللَّهُ] ﴿الْمِيزَانَ﴾ ؛ أَيُ : الْعَدْلَ بَيْنَ الْعِبَادِ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ الْمِيزَانُ الْمَعْرُوفُ وَحْدَهُ ، بَلْ هُوَ كَمَا ذَكَرْنَا ؛ يَدْخُلُ فِيهِ الْمِيزَانُ الْمَعْرُوفُ وَالْمِكْيَالُ الَّذِي تُكَالُ بِهِ الْأَشْيَاءُ وَالْمَقَادِيرُ وَالْمَسَاحَاتُ الَّتِي تُضَبَّطُ بِهَا الْمَجْهُولَاتُ وَالْحَقَائِقُ الَّتِي يُفْصَلُ بِهَا بَيْنَ الْمَخْلُوقَاتِ وَيُقَامُ بِهَا الْعَدْلُ بَيْنَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ ؛ أَيُ : أَنْزَلَ اللَّهُ الْمِيزَانَ لئَلَّا تَتَجَاوَزُوا الْحَدَّ فِي الْمِيزَانِ ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ لَوْ كَانَ يَرْجِعُ إِلَى عَقُولِكُمْ وَأَرَائِكُمْ ؛ لَحَصَلَ مِنَ الْخَلَلِ مَا اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ ، وَلَفْسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ .

﴿٩﴾ ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ ؛ أَيُ : اجْعَلُوهُ قَائِمًا بِالْعَدْلِ ، الَّذِي تَصِلُ إِلَيْهِ مَقْدَرَتُكُمْ وَإِمَّاكَانُكُمْ ، ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ ؛ أَيُ : لَا تَنْقُصُوهُ وَتَعْمَلُوا بِضَدِّهِ ، وَهُوَ الْجَوْرُ وَالظُّلْمُ وَالطُّغْيَانُ .

﴿١٠﴾ ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ : اللَّهُ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْكثَافَةِ وَالِاسْتِقْرَارِ وَاخْتِلَافِ أَوْصَافِهَا وَأَحْوَالِهَا ﴿لِلْأَنَامِ﴾ ؛ أَيُ : لِلْخَلْقِ ؛ لِكَيْ يَسْتَقَرُّوا عَلَيْهَا ، وَتَكُونَ لَهُمْ مَهَادًا وَفِرَاشًا ، يَبْنُونَ بِهَا وَيَحْرُثُونَ وَيَغْرِسُونَ وَيَحْفَرُونَ ، وَيَسْلُكُونَ سُبُلَهَا فِجَاجًا ، وَيَتَتَفَعُونَ بِمَعَادِنِهَا ، وَجَمِيعُ مَا فِيهَا مِمَّا تَدْعُو إِلَيْهِ حَاجَتُهُمْ بَلْ ضَرُورَتُهُمْ .

ثم ذكر ما فيها من الأقوات الضرورية ، فقال :

﴿١١﴾ ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ : وَهِيَ^(٢) جَمِيعُ الْأَشْجَارِ الَّتِي تَثْمُرُ الثَّمَرَاتِ الَّتِي يَتَفَكَّهُ بِهَا الْعِبَادُ مِنَ الْعَنْبِ وَالتِّينِ وَالرَّمَانِ وَالثَّقَافِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ ؛ أَيُ : ذَاتُ الْوَعَاءِ الَّذِي يَنْفَلِقُ عَنِ الْقِنْوَانِ الَّتِي تَخْرُجُ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى تَتِمَّ فَتَكُونَ قَوْتًا يَذْخَرُ وَيُؤْكَلُ^(٣) وَيَتَزَوَّدُ مِنْهُ الْمَقِيمُ وَالْمَسَافِرُ وَفَاكِهَةٌ لَذِيذَةٌ مِنْ أَحْسَنِ الْفَوَاكِهِ .

﴿١٢﴾ ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ ؛ أَيُ : ذُو السَّاقِ الَّذِي يُدَاسُ فَيَسْتَفْعُ بِتَبْنِهِ لِلْأَنْعَامِ وَغَيْرِهَا ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ حَبُّ الْبُرِّ وَالشَّعِيرِ وَالذُّرَّةُ وَالْأَرْزُ وَالِدَخْنُ وَغَيْرُ ذَلِكَ ، ﴿وَالرِّيحَانُ﴾ : يُحْتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ^(٤) جَمِيعُ الْأَرْزَاقِ الَّتِي يَأْكُلُهَا الْآدَمِيُّونَ ، فَيَكُونُ هَذَا مِنْ بَابِ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ ، وَيَكُونُ اللَّهُ [تَعَالَى] قَدْ اِمْتَنَّ عَلَى عِبَادِهِ

(٢) فِي (ب) : «وَهُوَ» .

(٤) فِي (ب) : «بِذَلِكَ» .

(١) فِي (ب) : «وَتَخْشَعُ» .

(٣) فِي (ب) : «يُؤْكَلُ وَيَذْخَرُ» .

بالقوت والرزق عموماً وخصوصاً. ويُحتمل أن المراد بالريحان الريحان المعروف، وأن الله امتنَّ على عباده بما يسره في الأرض من أنواع الروائح الطيبة والمشامِّ الفاخرة التي تسرُّ الأرواح وتشرح لها النفوس.

﴿١٣﴾ ولما ذَكَرَ جملةً كثيرةً من نعمه التي تشاهد بالأبصار والبصائر، وكان الخطابُ للثقلين الجن والإنس؛ قررهم تعالى بنعمه، فقال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ أي: فبأي نعم الله الدينيَّة والدينيَّة تكذِّبان؟ وما أحسن جواب الجن حين تلا عليهم النبي ﷺ هذه السورة؛ فكلُّما مرَّ بقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ قالوا^(١): ولا بشيءٍ من آلائك ربنا نكذب؛ فلك الحمد^(٢). فهكذا^(٣) ينبغي للعبد إذا تليت عليه نعم الله وآلاؤه أن يُقرَّ بها ويشكر ويحمد الله عليها.

ثم قال تعالى:

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ۖ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ۖ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿١١﴾.

﴿١٤﴾ وهذا من نعمه تعالى على عباده؛ حيث أراهم من آثار قدرته وبيدع صنعته أن ﴿خَلَقَ﴾ أبا ﴿الإنسان﴾، وهو آدم عليه السلام، ﴿مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾؛ أي: من طين مبلول، قد أحكم بله وأتقن، حتى جف فصار له صلصلة وصوت يشبه صوت الفخَّار، وهو الطين المشوي^(٤).

﴿١٥﴾ ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ﴾؛ أي: أبا الجن، وهو إبليس لعنه الله^(٥) ﴿مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ﴾؛ أي: من لهب النار الصافي، أو الذي قد خالطه الدخان. وهذا يدلُّ على شرف عنصر آدميِّ المخلوق من الطين والتراب، الذي هو محل الرزانة والثقل والمنافع؛ بخلاف عنصر الجان، وهو النار، التي هي محلُّ الخفة والطيش والشرِّ والفساد.

(١) في (ب): «فما مرَّ بقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالوا».

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٩١)، والحاكم (٤٧٣/٢) وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢١٥٠).

(٣) في (ب): «فهذا الذي».

(٤) في (ب): «صوت الفخار الذي طبخ على النار».

(٥) في (ب): «وهو إبليس اللعين».

﴿١٦﴾ ولما بَيَّن خَلَقَ الثَّقَلَيْنِ ومادة ذلك^(١)، وكان ذلك مِثَّةً منه تعالى عليهم^(٢)؛ قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾!؟

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾

﴿١٧ - ١٨﴾ أي: هو تعالى ربُّ كلِّ ما أشرقت عليه الشمس والقمر والكواكب النيرة، وكلُّ ما غربت عليه، وكلُّ ما كانا فيه؛ فالجميع تحت^(٣) تدبيره وربوبيته، وثناهما هنا باعتبار مشارقتها شتاءً وصيفاً. والله أعلم^(٤).

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾

﴿١٩ - ٢٣﴾ المراد بالبحرين: البحر العذب والبحر المالح؛ فهما يلتقيان [كلاهما]، فيصبُّ العذب في البحر المالح ويختلطان ويمتزجان، ولكنَّ الله تعالى جعل بينهما برزخاً من الأرض، حتى لا يبغي أحدهما على الآخر، ويحصل النفع بكلِّ منهما؛ فالعذب منه يشربون وتشرب أشجارهم وزروعهم وحروثهم، والملح به يطيبُ الهواء ويتولَّد الحوت والسماك واللؤلؤ والمرجان، ويكون مستقراً مسخراً للسفن والمراكب، ولهذا قال:

﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾

﴿٢٤ - ٢٥﴾ أي: وسخر تعالى لعباده السفن الجواري التي تمخرُ البحر وتشقُّه بإذن الله، التي ينشئها الآدميون، فتكون من عِظْمِهَا وكبرها^(٥) كالأعلام، وهي الجبال العظيمة، فيركبها الناس، ويحملون عليها أمتعتهم وأنواع تجارتهم وغير ذلك ممَّا تدعو إليه حاجتهم وضرورتهم، وقد حفظها حافظُ السماوات والأرض، وهذه من نعم الله الجليلة، ولهذا^(٦) قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾!؟

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾

(١) في (ب): «ولما بين مادة الثقلين».

(٢) في (ب): «على عباده».

(٣) في (ب): «وكلما غربت عليه فهي تحت».

(٤) في (ب): «وثناهما هنا لإرادة العموم مشرقى الشمس شتاءً وصيفاً ومغربها كذلك».

(٥) في (ب): «من كبرها وعظمتها».

(٦) في (ب): «فلذلك».

﴿٢٦ - ٢٨﴾ أَي: كُلُّ مَنْ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ إِنْسٍ وَجِنٍّ وَدَوَابٍّ وَسَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ يَفْنَى [وَيَمُوتُ] وَيَبِيدُ، وَيَبْقَى الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾؛ أَي: ذُو الْعِظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْمَجْدِ، الَّذِي يَعْظُمُ وَيَجْجُلُ وَيَجْلُ لِأَجَلِهِ، وَالْإِكْرَامِ الَّذِي هُوَ سَعَةُ الْفَضْلِ وَالْجُودِ، الَّذِي يَكْرُمُ أَوْلِيَائِهِ وَخَوَاصَّ خَلْقِهِ بِأَنْوَاعِ الْإِكْرَامِ، الَّذِي يَكْرِمُهُ أَوْلِيَائِهِ وَيَجْلُوْنَهُ وَيَعْظُمُونَهُ وَيَحْبُونَهُ وَيَنْبِيُونُ إِلَيْهِ وَيَعْبُدُونَهُ. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ؟﴾

﴿يَسْتَلْهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ﴿٢٩﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾.

﴿٢٩ - ٣٠﴾ أَي: هُوَ الْغَنِيُّ بِذَاتِهِ عَنْ جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَهُوَ وَاسِعُ الْجُودِ وَالْكَرَمِ، فَكُلُّ الْخَلْقِ مُفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ، يَسْأَلُونَهُ جَمِيعَ حَوَائِجِهِمْ بِحَالِهِمْ وَمَقَالِهِمْ، وَلَا يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ وَلَا أَقْلٌ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ تَعَالَى ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾: يَغْنِي فَقِيرًا وَيَجْبِرُ كَسِيرًا وَيُعْطِي قَوْمًا، وَيَمْنَعُ آخَرِينَ، وَيَمِيتُ، وَيُحْيِي، وَيَخْفِضُ، وَيَرْفَعُ^(١)، لَا يَشْغُلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ، وَلَا تَغْلُظُهُ الْمَسَائِلُ، وَلَا يَبْرُمُهُ إِلْحَاحُ الْمَلْحِينَ، وَلَا طَوْلُ مَسْأَلَةِ السَّائِلِينَ. فَسُبْحَانَ الْكَرِيمِ الْوَهَّابِ، الَّذِي عَمَّتْ مَوَاهِبُهُ أَهْلَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ، وَعَمَّ لَطْفُهُ جَمِيعَ الْخَلْقِ فِي كُلِّ الْآنَاتِ وَاللَّحْظَاتِ، وَتَعَالَى الَّذِي لَا يَمْنَعُهُ مِنَ الْإِعْطَاءِ^(٢) مَعْصِيَةُ الْعَاصِينَ وَلَا اسْتِغْنَاءُ الْفُقَرَاءِ الْجَاهِلِينَ بِهِ وَبِكْرَمِهِ.

وهذه الشؤون التي أخبر أنه [تعالى] ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾: هي تقاديره وتدابيره التي قدرها في الأزل وقضاها، لا يزال تعالى يمضيها وينفذها في أوقاتها التي اقتضتها حكمته، وهي أحكامه الدينية التي هي الأمر والنهي، والقدرية التي يجربها على عبادته مدة مقامهم في هذه الدار، حتى إذا تَمَّتْ هَذِهِ الْخَلِيقَةُ، وَأَفْنَاهُمْ^(٣) اللَّهُ تَعَالَى، وَأَرَادَ أَنْ يَنْفِذَ فِيهِمْ أَحْكَامَ الْجَزَاءِ وَيَرْبِيَهُمْ مِنْ عَدْلِهِ وَفَضْلِهِ وَكَثْرَةِ إِحْسَانِهِ مَا بِهِ يَعْرِفُونَهُ وَيُوحِّدُونَهُ؛ نَقَلَ الْمُكَافِلِينَ مِنْ دَارِ الْإِبْتِلَاءِ وَالْإِمْتِحَانِ إِلَى دَارِ الْحَيَوَانِ، وَفَرَّغَ حِينَئِذٍ لَتَنْفِيزِ هَذِهِ الْأَحْكَامِ الَّتِي جَاءَ وَقْتُهَا، وَهُوَ الْمَرَادُ بِقَوْلِهِ:

﴿سَفَرَعُ لَكُمْ إِلَهُ الْفَلَاحِ﴾ ﴿٣١﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾.

(٢) في (ب): «العطاء».

(١) في (ب): «ويرفع ويخفض».

(٣) في (ب): «وأفنى».

﴿٣١ - ٣٢﴾ أي: سَتَفْرُغُ لحسابكم ومجازاتكم بأعمالكم التي عملتموها في دار الدنيا.

﴿يَمْعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا﴾ [لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٣٤﴾] ^(١).

﴿٣٣ - ٣٤﴾ أي: إذا جمعهم الله في موقف القيامة؛ أخبرهم بعجزهم وضعفهم وكمال سلطانه ونفوذ مشيئته وقدرته، فقال معجزاً لهم: ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض؛ أي: تجدون مسلكاً ومنفذاً^(٢) تخرجون به عن ملك الله وسلطانه، فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾؛ أي: لا تخرجون منه إلا بقوة وتسليط منكم وكمال قدرة، وأنى لهم ذلك وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً؛ ففي ذلك الموقف لا يتكلم أحد إلا بإذنه، ولا تسمع إلا همساً، وفي ذلك الموقف يستوي الملوك والممالك والرؤساء والمرؤسون والأغنياء والفقراء.

ثم ذكر ما أعد لهم في ذلك اليوم ^(٣)، فقال:

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنَحَّاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٣٦﴾﴾ ^(٤).

﴿٣٥ - ٣٦﴾ أي: ﴿يرسل عليكم﴾ لهب صافٍ من النار ﴿ونحاس﴾ وهو اللهب الذي قد خالطه الدخان. والمعنى: أن هذين الأمرين الفظيعين يرسلان عليكم [يا معشر الجن والإنس] ويحيطان بكم فلا تنتصران؛ لا بناصر من أنفسكم، ولا بأحد ينصركم من دون الله. ولما كان تخويفه لعباده نعمة منه عليهم وسوطاً يسوقهم به إلى أعلى المطالب وأشرف المواهب؛ ذكر مثته بذلك فقال ^(٥): ﴿فإني آلاء ربكم تكدبان﴾!

[﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٣٨﴾﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٤٠﴾﴾ يَعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ سِجْنَهُمْ

(١) ما بين المعقوفتين زيادة على النسختين.

(٢) في (ب): «منفذاً أو مسلكاً».

(٣) في (ب): «في ذلك الموقف العظيم».

(٤) ذكرت الآيات في (أ). ولم تذكر في (ب).

(٥) في (ب): «امتن عليهم فقال».

فِيُؤْخَذُ بِالتَّوَصِيِّ وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ [١].

﴿٣٧ - ٣٨﴾ ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾؛ أي: يوم القيامة من الأحوال وكثرة البلبال وتراؤف الأوجال، فانخسفت شمسها وقمرها، وانتثرت نجومها؛ ﴿فَكَانَتْ﴾: من شدة الخوف والانزعاج ﴿وَرْدَةٌ كَالدَّهَانِ﴾؛ أي: كانت كالْمُهْل والرصاص المذاب ونحوه. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ!﴾

﴿٣٩ - ٤٠﴾ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾؛ أي: سؤال استعلام بما وقع؛ لأنه تعالى عالم الغيب والشهادة والماضي والمستقبل، ويريد أن يجازي العباد بما علمه من أحوالهم، وقد جعل لأهل الخير والشر يوم القيامة علامات يعرفون بها؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾.

﴿٤١ - ٤٢﴾ وقال هنا: ﴿يُعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾. فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ؟ أي: فيؤخذ بنواصي المجرمين وأقدامهم، فيُلْقَوْنَ في النار ويُسْحَبُونَ إليها. وإِنَّمَا يسألهم تعالى سؤال توبيخ وتقرير بما وقع منهم، وهو أعلم به منهم، وَلَكِنَّهُ تعالى يريد أن تَظْهَرَ للخلق حجته البالغة وحكمته الجليلة.

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِ ﴿٤٤﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾.

﴿٤٣ - ٤٥﴾ أي: يقال للمكذبين بالوعد والوعيد حين تُسْعَرُ الجحيم: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمَجْرِمُونَ﴾: فليهنهم تكذيبهم بها، وليذوقوا من عذابها ونكالها وسعيرها وأغلالها ما هو جزاء لهم على تكذيبهم^(٢)، يطوفون بين أطباق الجحيم ولهبها، ﴿وبين حميم آن﴾؛ أي: ماء حار جدًا قد انتهى حره، وزمهير قد اشتد برده وقره. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ!﴾

ولما ذكر ما يفعل بالمجرمين؛ ذكر جزاء المتقين الخائفين، فقال:

﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ ﴿٤٦﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ ﴿٤٨﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوَاجِنِ

(٢) في (ب): «ما هو جزاء لتكذيبهم».

(١) الآيات زيادة على النسختين.

(٣) في النسختين: إلى آخر السورة.

﴿٥٢﴾ فَإِنِ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَىٰ الْجَنَّتَيْنِ دَانِ ﴿٥٤﴾ فَإِنِ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِلَيْهِنَّ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَإِنِ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَانَتْهُنَّ أَلْيَافُوثٌ وَالْمَرَّجَاتُ ﴿٥٨﴾ فَإِنِ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾ فَإِنِ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمَنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَإِنِ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مِثْلَهُمَا تَانِ ﴿٦٤﴾ فَإِنِ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ مُضَاعَفَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَإِنِ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا نَهْجَةٌ وَنَخْلٌ وَرِيَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَإِنِ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَإِنِ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَارِ ﴿٧٢﴾ فَإِنِ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِلَيْهِنَّ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَإِنِ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرٍ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَإِنِ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ نَبْرَكَ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ .

﴿٤٦ - ٤٧﴾ أي: وللذي خاف ربّه وقيامه عليه، فترك ما نهى عنه، وفعل ما أمره به؛ له ﴿جَنَّتَانِ﴾ من ذهبٍ آتيتهما وحليتهما وبنيانهما وما فيهما، إحدى الجنتين جزاء على ترك المنهيات، والأخرى على فعل الطاعات.

﴿٤٨ - ٤٩﴾ ومن أوصاف تلك الجنتين أنّهما ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾؛ أي: فيهما من ألوان النعيم المتنوعة؛ نعيم الظاهر والباطن؛ ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؛ أي: فيهما الأشجار الكثيرة الزاهرة، ذوات الغصون الناعمة، التي فيها الثمار البانعة اللذيذة.

﴿٥٠ - ٥١﴾ وفي تلك الجنتين ﴿عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾: يفجرُونهما على ما يريدون ويشتهون.

﴿٥٢ - ٥٣﴾ ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ﴾: من جميع أصناف الفواكه ﴿زَوْجَانِ﴾؛ أي: صنفان؛ كل صنف له لَذَّةٌ ولوْ لَئْسَ لِلنَّوْعِ الْآخَرِ.

﴿٥٤ - ٥٥﴾ ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾: هذه صفة فُرُشِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وجُلُوسِهِمْ عليها، وأنَّهُمْ مُتَكَبِّرُونَ عليها؛ أي: جلُوسٌ تَمَكُّنٌ واستقرارٌ وراحةٌ؛ كجلُوسِ الملوك على الأسرّة، وتلك الفُرُشُ لا يعلم وصفها وحسنها إِلَّا اللَّهُ تعالى^(١)، حتى إنّ بطائنَها التي تلي الأرض منها من إستبرقٍ وهو أحسن الحرير

(١) في (ب): «عز وجل».

وأفخره؛ فكيف بظواهرها التي يباشرون^(١)، ﴿وَجْنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾: الجنى هو الثمر المستوي؛ أي: وثمر هاتين الجنتين قريبُ التناول، يناله القائم والقاعدُ والمضطجع.

﴿٥٦ - ٥٩﴾ ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾؛ أي: قد قصرنَ طرفهنَّ على أزواجهنَّ من حسنهنَّ وجمالهنَّ وكمال محبتهنَّ لهنَّ، وقصرنَ أيضاً طرفَ أزواجهنَّ عليهنَّ من حسنهنَّ وجمالهنَّ ولذَّة وصالهنَّ وشدة محبتهنَّ، ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾؛ أي: لم ينلهنَّ أحدٌ قبلهنَّ^(٢) من الإنس والجنِّ، بل هنَّ أبكارٌ عربٌ متحبيَّاتٌ إلى أزواجهنَّ؛ بحسن التبعل والتغشج والملاحة والدلال، ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾، وذلك لصفائهنَّ وجمال منظرهنَّ وبهائهنَّ.

﴿٦٠ - ٦١﴾ ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾؛ أي: هل جزاء مَنْ أحسن في عبادة الخالق، ونفع عبيده إلا أن يُحسنَ إليه بالثواب الجزيل والفوز الكبير والنعيم المقيم والعيش السليم؟ فهاتان الجنتان العاليتان للمقرَّبين.

﴿٦٢ - ٦٩﴾ ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانٍ﴾: من فضة بنيانهما وحليتهما وآنيتهما^(٣) وما فيهما لأصحاب اليمين، وتلك الجنتان ﴿مُدْهَامَتَانِ﴾؛ أي: سوداوان من شدة الخضرة والري^(٤)، ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ﴾؛ أي: فوّارتان، ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ﴾: من جميع أصناف الفواكه، وأخضها النخل والرمان، اللذان فيهما من المنافع ما فيهما.

﴿٧٠ - ٧٥﴾ ﴿فِيهِنَّ﴾؛ أي: في الجنات كلها ﴿خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ﴾؛ أي: خيرات الأخلاق حسان الأوجه، فجمعنَ بين جمال الظاهر والباطن وحسن الخلق والخلق. ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾؛ أي: محبوسات في خيام اللؤلؤ، قد تهيَّأن وأعددنَ أنفسهنَّ لأزواجهنَّ، ولا ينفي ذلك خروجهنَّ في البساتين ورياض الجنة كما جرت العادة لبنات الملوك المخدَّرات الخفِّيرات^(٥)، ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾. فبأي آلاء ربكما تكذِّبان؟!

﴿٧٦ - ٧٧﴾ ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رُفْرَفٍ خَضِرٍ﴾؛ أي: أصحاب هاتين الجنتين متكأهم على الرفرف الأخضر، وهي الفرش التي تحت^(٦) المجالس العالية، التي قد زادت على مجالسهم، فصار لها رفرفة من وراء مجالسهم؛ لزيادة البهاء وحسن

(١) في (ب): «التي تلي بشرتهم».

(٢) في (ب): «لم ينلهنَّ قبلهنَّ أحد».

(٣) في (ب): «وآنيتهما وحليتهما».

(٤) في (ب): «الخضرة التي هي أثر الري».

(٥) في (ب): «ونحوهنَّ الخفِّيرات».

(٦) في (ب): «فوق».

المنظر، ﴿وعبقري حسان﴾: العبقري نسبة لكل منسوج نسجاً حسناً فاخراً، ولهذا وصفها بالحسن الشامل لحسن الصفة و [حسن] المنظر ونعومة الملمس وهاتان الجنتان دون الجنة الأولىين؛ كما نصّ الله على ذلك بقوله: ﴿ومن دونهما جنتان﴾، وكما وصف الأوليين بعدة أوصاف لم يصف به^(١) الآخرين، فقال في الأوليين: ﴿فيهما عينان تجريان﴾، وفي الآخرين: ﴿عينان نضاختان﴾: ومن المعلوم الفرق بين الجارية والنضاجة، وقال في الأوليين: ﴿ذواتا أفنان﴾، ولم يقل ذلك في الآخرين، وقال في الأوليين: ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾، وفي الآخرين: ﴿فيهما فاكهة ونخل ورمآن﴾، وقد علّم ما بين الوصفين من التفاوت. وقال في الأوليين: ﴿متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان﴾، ولم يقل ذلك في الآخرين، بل قال: ﴿متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان﴾، وقال في الأوليين في وصف نسائهم وأزواجهم: ﴿فيهن قاصرات الطرف﴾ [لم يطمثن إنس قبلهم ولا جان]، وفي الآخرين: ﴿حور مقصورات في الخيام﴾، وقد علّم التفاوت بين ذلك، وقال في الأوليين: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾، فدل ذلك أن الأوليين جزاء المحسنين، ولم يقل ذلك في الأخيرتين، ومجرّد تقديم الأوليين على الآخرين يدل على فضلها.

فهذه الأوجه يُعرّف فضل الأوليين على الآخرين، وأنهما معدّتان للمقرّبين من الأنبياء والصدّيقين وخواصّ عباد الله الصالحين، وأن الآخرين معدّتان لعموم المؤمنين. وفي كل من الجنات المذكورات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وفيهن ما تشتهيهِ الأنفس وتلذّ الأعين، وأهلهنّ في غاية الراحة والرضا والطمأنينة وحسن المأوى، حتى إنّ كل واحدٍ منهم^(٢) لا يرى أحداً أحسن حالاً منه ولا أعلى من نعيمه الذي هو فيه.

﴿٧٨﴾ ولما ذكر سعة فضله وإحسانه؛ قال: ﴿تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾؛ أي: تعظم وكثر خيره الذي له الجلال الباهر والمجد الكامل والإكرام لأوليائه.

تم تفسير سورة الرحمن. ولله الحمد والشكر والثناء الحسن



(٢) في (ب): «حتى إنّ كلّاً منهم لا يرى».

(١) في (ب): «بها».

تفسير سورة الواقعة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِقَوْمِهَا كَذِبٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۝٤ وَسَوَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ۝٦ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٨ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٩ وَأَصْحَابُ الشَّعْمَةِ ۝١٠ وَالسَّيْفُونَ السَّيْفُونَ ۝١١ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝١٢ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝١٣ ثَلَاثَةٌ ۝١٤ مِنَ الْأَوَّلِينَ ۝١٥ وَقِيلَ مِنَ الْآخِرِينَ ۝١٦ عَلَى سُرُرٍ مَوْشَوْنَ ۝١٧ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَبِّلِينَ ۝١٨ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ۝١٩ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ ۝٢٠ مِنْ مَعِينٍ ۝٢١ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفَوْنَ ۝٢٢ وَقَلَّحُمَ مِمَّا يَسْتَحَرُونَ ۝٢٣ وَلَحِمٍ دَسِيسٍ ۝٢٤ وَمِمَّا يَشْتَبُونَ ۝٢٥ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٦ كَأَمْثَلِ الذُّلُولِ ۝٢٧ الْمَكْنُونِ ۝٢٨ جَزَاءً ۝٢٩ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٣٠ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٣١ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ۝٣٢﴾ [١].

﴿١ - ٣﴾ يخبر تعالى بحال الواقعة التي لا بد من وقوعها، وهي القيامة، التي ليس لوقعتها كاذبة؛ أي: لا شك فيها؛ لأنها قد تظاهرت عليها الأدلة العقلية والسمعية، ودلت عليها حكمته تعالى ﴿خافضة رافعة﴾؛ أي: خافضة لأناس في أسفل سافلين، رافعة لأناس في أعلى عليين، أو: خفضت بصوتها فأسمعت القريب، ورفعت فأسمعت البعيد.

﴿٤ - ٦﴾ ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾؛ أي: حُركت واضطربت، ﴿وَسَوَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾؛ أي: فتت، ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا﴾: فأصبحت ليس عليها جبل ولا مغلّم، قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً.

﴿٧ - ٩﴾ ﴿وَكُنْتُمْ﴾: أيها الخلق، ﴿أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾؛ أي: انقسمتم ثلاث فرق بحسب أعمالكم الحسنة والسيئة. ثم فصل أحوال الأزواج الثلاثة، فقال: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾: تعظيم لشأنهم وتفخيم لأحوالهم، ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾؛ أي: الشمال، ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾: تهويل لحالهم.

﴿١٠ - ١٤﴾ ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾؛ أي: السابقون في الدنيا إلى الخيرات هم السابقون في الآخرة لدخول الجنات، أولئك الذين لهذا وصفهم المقربون عند الله ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾: في أعلى عليين، في المنازل العاليات التي لا منزلة فوقها، وهؤلاء المذكورون ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: جماعة كثيرون من المتقدمين من هذه الأمة وغيرهم. ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾: وهذا يدل على فضل صدر هذه الأمة في الجملة على متأخريها^(١)؛ لكون المقربين من الأولين أكثر من المتأخرين، والمقربون هم خواص الخلق.

﴿١٥ - ١٦﴾ ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾؛ أي: مرمولة بالذهب والفضة واللؤلؤ والجوهر وغير ذلك من الحلي والزينة التي لا يعلمها إلا الله تعالى، ﴿مَتَكِّينَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: على تلك السرر، جلوس تمكّن وطمأنينة وراحة واستقرار، ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾: وجه كل منهم إلى وجه صاحبه؛ من صفاء قلوبهم وتقابلها بالمحبة وحسن أدبهم^(٢).

﴿١٧ - ١٩﴾ ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾؛ أي: يدور على أهل الجنة لخدمتهم^(٣) وقضاء حوائجهم ولدان صغار الأسنان في غاية الحسن والبهاء. ﴿كَأَنَّهُمْ لَوْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾؛ أي: مستور لا يناله ما يغيره، مخلوقون للبقاء والخلد؛ لا يهرمون ولا يتغيرون ولا يزيدون على أسنانهم، ويدورون عليهم بآنية شربهم؛ ﴿بِأَكْوَابٍ﴾: وهي التي لا عرى لها، ﴿وَأُبَارِيقٍ﴾: الأواني التي لها عرى، ﴿وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾؛ أي: من خمر لذيذ المشرب لا آفة فيه، ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾؛ أي: لا تصدّعهم رؤوسهم كما تصدّع خمرة الدنيا رأس شاربها، ولا هم عنها ﴿يُنْزِفُونَ﴾؛ أي: لا تنزف عقولهم ولا تذهب أحلامهم منها كما يكون لخمّر الدنيا. والحاصل أن كل^(٤) ما في الجنة من [أنواع] النعيم الموجود جنسه في الدنيا لا يوجد في الجنة فيه آفة؛ كما قال تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾، وذكر هنا خمر الجنة، ونفى عنه كل آفة توجد في الدنيا.

﴿٢٠﴾ ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾؛ أي: مهما تخيروا وراق في أعينهم واشتهته

(١) في (ب): «متأخريها».

(٢) في (ب): «وحسن أدبهم وتقابل قلوبهم».

(٣) في (ب): «للخدمة».

(٤) في (ب): «أن جميع ما».

نفوسهم من أنواع الفواكه الشهية والجنى اللذيذة؛ حَصَلَ لهم على أكمل وجه وأحسنه.

﴿٢١﴾ ﴿ولحم طير مما يشتهون﴾؛ أي: من كل صنف من الطيور يشتهونه، ومن أي جنس من لحمه أرادوا؛ إن شاؤوا^(١) مشوياً أو طيخاً أو غير ذلك.

﴿٢٢ - ٢٣﴾ ﴿وحور عِينٌ كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾؛ أي: ولهم حور عِين، والهوراء: التي في عيناها كحلّ وملاحه وحسن وبهاء، والعِينُ حسان الأعين ضخامها^(٢)، وحسنُ عين الأنثى^(٣)، من أعظم الأدلة على حسننها وجمالها. ﴿كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾؛ أي: كأنهن اللؤلؤ [الأبيض] الرطب الصافي البهي المستور عن الأعين والريح والشمس، الذي يكون لونه من أحسن الألوان، الذي لا عيب فيه بوجه من الوجوه؛ فكذلك الحور العين، لا عيب فيهن بوجه، بل هنّ كاملات الأوصاف جميلات الثعوت؛ فكل ما تأملته منها؛ لم تجذ فيه إلا ما يسر القلب^(٤) ويروق الناظر.

﴿٢٤﴾ وذلك النعيم المعد لهم ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾؛ فكما حسنت منهم الأعمال؛ أحسن الله لهم الجزاء، ووفر لهم الفوز والنعيم.

﴿٢٥ - ٢٦﴾ ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً﴾؛ أي: لا يسمعون في جنات النعيم كلاماً يلغي، ولا يكون فيه فائدة ولا كلاماً يؤثم صاحبه ﴿إلا قبيلاً سلاماً سلاماً﴾؛ أي: إلا كلاماً طيباً، وذلك لأنها دار الطيبين، ولا يكون فيها إلا كل طيب، وهذا دليل على حسن أدب أهل الجنة في خطابهم فيما بينهم، وأنه أطيّب كلام وأسرّه للقلوب^(٥) وأسلمه من كل لغو وإثم، نسأل الله من فضله.

[وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٩﴾ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴿١٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿١١﴾ وَفَنَكِهِ كَثِيرٍ ﴿١٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿١٣﴾ وَفُشٍّ مَّرْقُوعَةٍ ﴿١٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنشَاءً ﴿١٥﴾ جَعَلْنَهُمْ أَزْكَارًا ﴿١٦﴾ عُرْبًا أَرَابًا ﴿١٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿١٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِنْكَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٢٠﴾] ﴿٢١﴾.

(١) في (ب): «وإن شاؤوا».

(٢) في (ب): «والعين ضخام الأعين».

(٣) في (ب): «وحسن العين في الأنثى».

(٤) في (ب): «الخاطر».

(٥) في (ب): «للنفوس».

(٦) الآيات ما بين المعقوفتين زيادة على النسختين.

﴿٢٧ - ٣٤﴾ ثم ذَكَرَ ما أَعَدَّ لأَصْحَابِ الْيَمِينِ^(١)، فقال: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾؛ أي: شَأْنُهُمْ عَظِيمٌ وَحَالُهُمْ جَسِيمٌ، ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾؛ أي: مَقْطُوعٍ ما فِيهِ مِنَ الشُّوكِ وَالْأَغْصَانِ الرَّيْدِيَّةِ الْمَضْرُوءَةِ، مَجْعُولٍ مَكَانَ ذَلِكَ الشَّوْكِ الطَّيِّبِ. وَلِلسِّدْرِ مِنَ الْخَوَاصِّ الظِّلُّ الظَّلِيلُ وَرَاحَةُ الْجِسْمِ فِيهِ، ﴿وَوُطِّلِحَ مَنْضُودٍ﴾: وَالطَّلْحُ مَعْرُوفٌ، وَهُوَ شَجَرٌ كِبَارٌ يَكُونُ بِالْبَادِيَةِ تُنْضَدُ أَغْصَانُهُ مِنَ الثَّمَرِ اللَّذِيذِ الشَّهِيِّ، ﴿وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾؛ أي: كَثِيرٍ مِنَ الْعَيُونِ وَالْأَنْهَارِ السَّارِحَةِ وَالْمِيَاهِ الْمَتَدَفِّقَةِ، ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ. لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾؛ أي: لَيْسَتْ بِمَنْزِلَةِ فَاكِهَةِ الدُّنْيَا؛ تَنْقَطِعُ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ وَتَكُونُ مَمْنُوعَةً؛ أي: مَتَعَسِّرَةً عَلَى مُبْتَغِيهَا، بَلْ هِيَ عَلَى الدَّوامِ مَوْجُودَةٌ، وَجَنَاهَا قَرِيبٌ يَتَنَاوَلُهُ الْعَبْدُ عَلَى أَيِّ حَالٍ يَكُونُ، ﴿وَفُرْشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾؛ أي: مَرْفُوعَةٍ فَوْقَ الْأَسْرَةِ ارْتِفَاعًا عَظِيمًا، وَتِلْكَ الْفُرْشُ مِنَ الْحَرِيرِ وَالذَّهَبِ وَاللُّؤْلُؤِ وَمَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ.

﴿٣٥ - ٣٨﴾ ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾؛ أي: إِنَّا أَنْشَأْنَا نِسَاءَ أَهْلِ الْجَنَّةِ نَشْأَةً غَيْرَ النِّشْأَةِ الَّتِي كَانَتْ فِي الدُّنْيَا، نَشْأَةً كَامِلَةً، لَا تَقْبَلُ الْفَنَاءَ، ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾: صَخَارَهُنَّ وَكِبَارَهُنَّ، وَعَمُومَ ذَلِكَ يَشْمَلُ الْحُورَ الْعَيْنِ وَنِسَاءَ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَأَنَّ هَذَا الْوَصْفَ - وَهُوَ الْبِكَارَةُ - مُلَازِمٌ لَهُنَّ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ؛ كَمَا أَنَّ كَوْنَهُنَّ ﴿عُزْرَاءٌ أَتْرَابًا﴾: مُلَازِمٌ لَهُنَّ فِي كُلِّ حَالٍ، وَالْعَرُوبُ هِيَ الْمَرْأَةُ الْمُتَحَبِّبَةُ إِلَى بَعْلِهَا بِحَسَنِ لَفْظِهَا وَحَسَنِ هَيْئَتِهَا وَدَلَالِهَا وَجَمَالِهَا وَمَحَبَّتِهَا؛ فَهِيَ الَّتِي إِنْ تَكَلَّمْتَ سَبَبَ الْعُقُولِ، وَوَدَّ السَّامِعُ أَنَّ كَلَامَهَا لَا يَنْقُضِي، خُصُوصًا عِنْدَ غَنَائِهِنَّ بِتِلْكَ الْأَصْوَاتِ الرَّخِيمَةِ وَالنَّعْمَاتِ الْمَطْرِبَةِ، وَإِنَّ نَظَرَ إِلَى أَدْبِهَا وَسَمْتِهَا وَذَلَّهَا؛ مَلَأَتْ قَلْبَ بَعْلِهَا فَرَحًا وَسُرُورًا، وَإِنْ انْتَقَلَتْ^(٢) مِنْ مَحَلٍّ إِلَى آخَرَ؛ امْتَلَأَ ذَلِكَ الْمَوْضِعُ مِنْهَا رِيحًا طَيِّبًا وَنُورًا، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْغَنَجَةُ عِنْدَ الْجَمَاعِ، وَالْأَتْرَابُ: اللَّاتِي عَلَى سَنٍّ وَاحِدَةٍ ثَلَاثَ وَثَلَاثِينَ سَنَةً، الَّتِي هِيَ غَايَةُ مَا يَتِمَّنَّى وَنَهَايَةُ سَنِّ الشَّبَابِ؛ فَنِسَاؤُهُمْ عَرَبٌ أَتْرَابٌ مُتَّفَقَاتٌ مُؤْتَلِفَاتٌ رَاضِيَاتٌ مَرْضِيَّاتٌ لَا يَخْزَنُ وَلَا يُخْزَنُ، بَلْ هُنَّ أَفْرَاحُ النُّفُوسِ وَقُرَّةُ الْعَيُونِ وَجَلَاءُ الْأَبْصَارِ، ﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾؛ أي: مَعْدَاتُ لَهُمْ مَهَيَّاتُ.

﴿٣٩ - ٤٠﴾ ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ. وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾؛ أي: هَذَا الْقِسْمُ، وَهُمْ^(٣)

(١) فِي (ب): «ثُمَّ ذَكَرَ نَعِيمَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ». (٢) فِي (ب): «بَرَزَتْ».

(٣) فِي (ب): «مَنْ».

أصحاب اليمين، عدد كثير من الأولين وعدد كثير من الآخرين.

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا يُبَارِدُ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿٤١ - ٤٤﴾ المراد بأصحاب الشمال هم أصحاب النار والأعمال المشؤومة، فذكر الله لهم من العقاب ما هم حقيقون به، فأخبر أنهم ﴿في سَمُومٍ﴾؛ أي: ريح حارة من حر نار جهنم؛ تأخذ^(١) بأنفاسهم، وتقلقهم^(٢) أشد القلق، ﴿وحميمٍ﴾؛ أي: ماء حار يقطع أمعاءهم، ﴿وظلٍّ من يَحْمُومٍ﴾؛ أي: لهب نار يختلط^(٣) بدخان، ﴿لا بارد ولا كريم﴾؛ أي: لا برد فيه ولا كرم. والمقصود أن هناك الهم والغم والحزن والشر الذي لا خير فيه؛ لأن نفي الضد إثبات لصدّه.

﴿٤٥ - ٤٨﴾ ثم ذكر أعمالهم التي أوصلتهم إلى هذا الجزاء، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾؛ أي: قد ألهتهم دنياهم وعملوا لها وتنعموا وتمتعوا بها، فآلهاهم الأمل عن إحسان العمل؛ فهذا الترف الذي ذمهم الله عليه، ﴿وكانوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾؛ أي: وكانوا يفعلون الذنوب الكبار ولا يتوبون منها ولا يندمون عليها، بل يصرون على ما يُسَخِّطُ مولاهم، ففقدوا عليه بأوزار كثيرة غير مغفورة، وكانوا يُنْكِرُونَ البعث، فيقولون استبعاداً لوقوعه: ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ. أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾؛ أي: كيف نُبْعَثُ بعد موتنا وقد بلىنا فكُنَّا تراباً وعظاماً! هذا من المحال^(٤).

قال تعالى في جوابهم^(٥):

﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْبُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ إِلَيْهَا لَصَّالُونَ ﴿٥١﴾ لَّا يَكُونُ مِن شَجَرٍ مِّن زُفُورٍ ﴿٥٢﴾ فَالَّذِينَ فِيهَا الْبَاطِلُونَ ﴿٥٣﴾ فَتُصْرَفُونَ عَلَيْهِ مِن لَّعِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾

(٢) في (ب): «يقلقهم».

(١) في (ب): «ياخذ».

(٣) في (ب): «مختلط».

(٤) في (ب): «فكنا تراباً وعظاماً» ﴿إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ. أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾.

(٥) في (ب): «قال تعالى جواباً لهم ورداً عليهم».

فَشْرَبُوا شَرْبَ الْهَيْمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزِّلَ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ ﴿٥٧﴾ [١].

﴿٤٩ - ٥٠﴾ أي: قل: إِنَّ متقدّم الخلق ومتأخّره؛ الجميع سيبعثهم الله ويجمعهم لميقات يوم معلوم قدره الله لعباده حين تنقضي الخليقة، ويريد الله [تعالى] جزاءهم على أعمالهم التي عملوها في دار التكليف.

﴿٥١ - ٥٣﴾ ﴿ثم إنكم أيها الضالّون﴾: عن طريق الهدى، التابعون لطريق الرّدى، ﴿المكذّبون﴾: بالرسول ﷺ وما جاء به من الحقّ والوعد والوعيد، ﴿لاكلون من شجر من زقوم﴾: وهو أقبح الأشجار وأخشها وأنتها ريحاً وأبشعها منظراً، ﴿فماثلون منها البطون﴾: والذي أوجب لهم أكلها مع ما هي عليه من الشناعة، الجوع المفرط الذي يلهب في أكبادهم وتكاد تنقطع منه أفئدتهم، هذا الطعام الذي يدفعون به الجوع، وهو الذي لا يسمّن ولا يغني من جوع.

﴿٥٤ - ٥٦﴾ وأما شرابهم؛ فهو بئس الشراب، وهو أنهم يشربون على هذا الطعام من الماء الحميم الذي يغلي في البطون ﴿شرب الهيم﴾: وهي الإبل العطاش^(٢)، التي قد اشتدّ عطشها، أو أنّ الهيم داء يصيب الإبل لا تزوى معه من شرب الماء. ﴿هذا﴾: الطعام والشراب ﴿نزلهم﴾؛ أي: ضيافتهم ﴿يوم الدين﴾: وهي الضيافة التي قدّموها لأنفسهم وآثروها على ضيافة الله لأوليائه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزْلاً. خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوْلاً﴾.

﴿٥٧﴾ ثم ذكر الدليل العقليّ على البعث، فقال: ﴿نحن خلقناكم فلولا تصدّقون﴾؛ أي: نحن الذين أوجدناكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً من غير عجز ولا تعب، أفليس القادر على ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ بلى إنّهُ على كلّ شيء قدير، ولهذا وبّخهم على عدم تصديقهم بالبعث وهم يشاهدون ما هو أعظم منه وأبلغ.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ مَا أَنْتُمْ بَخْلَقُونَهُ ؕ أَمْ أَنْتُمْ خَلْقُونَهُ ؕ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

(١) الآيات ما بين المعقوفتين زيادة على النسختين.

(٢) في (ب): «شرب الإبل الهيم أي: العطاش».

﴿٥٨ - ٦٢﴾ أي: ﴿أفرايتم﴾ ابتداء خَلَقَكُمْ من المني الذي ﴿تُمْنون﴾ فهل أنتم خالقون ذلك المني، وما ينشأ منه أم الله تعالى الخالق؟ الذي خَلَقَ فيكم من الشهوة وآلتها في^(١) الذكر والأنثى، وهدي كلا منهما لما هنالك، وحُب بين الزوجين، وجعل بينهما من المودة والرَّحمة ما هو سبب التناسل^(٢)، ولهذا أحالهم الله تعالى بالاستدلال^(٣) بالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، فقال: ﴿ولقد علمتمُ النشأة الأولى فلولا تذكرون﴾: أن القادر على ابتداء خلقكم قادرٌ على إعادتكم.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ ١٢ ۖ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿١٣﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطًا مَّا فَظَلَمْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّا لَمَغْرُمُونَ ﴿١٥﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿١٦﴾

﴿٦٣ - ٦٧﴾ وهذا امتنانٌ منه على عباده؛ يدعوهم به إلى توحيدِهِ وعبادَتِهِ والإِنَابَةِ إليه؛ حيث أنعم عليهم بما يسره لهم من الحرث للزُّروع والثمار، فيخرجُ من ذلك من الأقوات والأرزاق والفواكه ما هو من ضروراتهم وحاجاتهم ومصلحتهم التي لا يقدرون أن يحصوها، فضلاً عن شكرها وأداء حقِّها، فقرَّروهم بمُنَّته، فقال: ﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾؛ أي: أنتم أخرجتموه نباتاً من الأرض؟ أم أنتم الذي نمِّيتُموه؟ أم أنتم الذين أخرجتم سُنبله وثمره حتى صار حباً حصيداً وثماراً نضيجاً؟ أم الله الذي انفرد بذلك وحده وأنعم به عليكم، وأنتم غاية ما تفعلون أن تحرثوا الأرض، وتشقوها، وتلقوا فيها البذر، ثم^(٤) لا علم عندكم بما يكون بعد ذلك ولا قدرة لكم على أكثر من ذلك؟ ومع ذلك؛ فنبههم على أن ذلك الحرث معرضٌ للأخطار لولا حفظ الله وإبقاؤه بُلغةً لكم ومتاعاً إلى حين. فقال: ﴿لو نشاء لجعلناه﴾؛ أي: الزرع المحرث وما فيه من الثمار ﴿حُطاماً﴾؛ أي: فتاتاً متحطماً لا نفع فيه ولا رزق، ﴿فَظَلْتُمْ﴾؛ أي: فصرتم بسبب جعله حطاماً بعد أن تعبتُم فيه، وأنفقتُم النفقات الكثيرة، ﴿تَفَكَّهُونَ﴾؛ أي: تندمون وتحسرون على ما أصابكم، ويزول بذلك فرحكم وسروركم وتفكُّهم، فتقولون: ﴿إِنَّا لَمَغْرُمُونَ﴾؛ أي: إِنَّا قد نقصنا وأصابتنا مصيبةٌ اجتاحتنا. ثم تعرفون بعد ذلك من أين أتيتُم، وبأي سبب ذهبتُم؟ فتقولون: ﴿بل نحن محرومون﴾! فاحمدوا الله تعالى حيث زَرَعَهُ [الله] لكم، ثم أبقاه وكمَّله لكم، ولم يرسل عليه من الآفات ما به تُحرمون من نفعِهِ وخيرِهِ.

(١) في (ب): «من».

(٢) في (ب): «للتناسل».

(٣) في (ب): «على الاستدلال».

(٤) في (ب): «ثم بعد ذلك».

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿٦٨ - ٧٠﴾ لما ذكر تعالى نعمته على عباده بالطعام؛ ذَكَرَ نعمته عليهم بالشراب العذب الذي منه يشربون، وأنه لولا أن الله يَسْرُه وسَهْلُه؛ لما كان لكم إليه سبيل^(١)، وأنه الذي أنزله ﴿من المزن﴾: وهو السحاب والمطر الذي يُنْزِلُه الله تعالى، فيكون منه الأنهار الجارية على وجه الأرض وفي بطنها، ويكون منه الغدران المتدفقة، ومن نعمته تعالى أن جعله عذبا فراتا تُسَيِّغُه النفوس، ولو شاء؛ لَجَعَلَه ملحاً ﴿أجاجاً﴾: لا يُنتفع به^(٢)، ﴿فلولا تشكرون﴾: الله تعالى على ما أنعم به عليكم.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

﴿٧١ - ٧٣﴾ وهذه نعمة تدخل في الضروريات التي لا غنى للخلق عنها؛ فإن الناس محتاجون إليها في كثير من أمورهم وحوائجهم، فقرّرهم تعالى بالنار التي أوجدها في الأشجار، وأن الخلق لا يقدرّون أن ينشئوا شجرها، وإنما الله تعالى قد أنشأها من الشجر الأخضر؛ فإذا هي نارٌ توقد بقدر حاجة العباد؛ فإذا فرغوا من حاجتهم؛ أطفئوها وأخمدوها. ﴿نحن جعلناها تذكرة﴾: للعباد بنعمة ربهم، وتذكرة بنار جهنم التي أعدّها الله للعاصين، وجعلها سوطاً يسوق به عباده إلى دار النعيم، ﴿ومتاعاً للمقوين﴾؛ أي المتتبعين أو المسافرين، وخَصَّ الله المسافرين؛ لأنّ نفع المسافرين بها أعظم من غيره، ولعلّ السبب في ذلك لأنّ الدنيا كلّها دار سفر، والعبء من حين ولد فهو مسافرٌ إلى ربه؛ فهذه النار جعلها الله متاعاً للمسافرين في هذه الدار وتذكرة لهم بدار القرار.

﴿٧٤﴾ فلما بيّن من نعمه ما يوجب الثناء عليه من عباده وشكره وعبادته؛ أمر بتسبيحه وتعظيمه^(٣)، فقال: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾؛ أي: نزهة ربك العظيم كامل الأسماء والصفات، كثير الإحسان والخيرات، وأخمده بقلبك ولسانك وجوارحك؛ لأنه أهلٌ لذلك، وهو المستحقُّ لأن يُشْكَرَ فلا يُكْفَر ويُذَكَّر فلا ينسى ويُطَاع فلا يُغْصَى.

(١) في (ب): «سبيل إليه».

(٢) في (ب): «ملحاً أجاجاً مكروهاً للنفوس».

(٣) في (ب): «وتحميده».

﴿فَلَا أَمْسُ يَمَوْفِقِ الْجُورِ ۖ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْمَلَكَيْنِ ﴿٨٥﴾ أَفِيْهِذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٦﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نُّظَرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصُورَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ .

﴿٧٥ - ٧٦﴾ أقسم تعالى بالأنجوم ومواقعها، أي: مساقطها في مغاربها وما يُخَدِّثُ الله في تلك الأوقات من الحوادث الدالة على عظمته وكبريائه وتوحيده، ثم عَظَّمَ هذا المقسم به، فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾، وإِنَّمَا كَانَ الْقِسْمُ عَظِيمًا؛ لِأَنَّ فِي النُّجُومِ وَجْرَانَهَا وَسُقُوطَهَا عِنْدَ مَغَارِبِهَا آيَاتٌ وَعِبَرٌ لَا يُمْكِنُ حَصْرُهَا.

﴿٧٧﴾ وَأَمَّا الْمَقْسَمُ عَلَيْهِ؛ فَهُوَ إِثْبَاتُ الْقُرْآنِ، وَأَنَّهُ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَا شَكَّ يَعْتَرِيهِ، وَأَنَّهُ ﴿كَرِيمٌ﴾؛ أَي: كَثِيرُ الْخَيْرِ غَزِيرُ الْعِلْمِ، فَكُلُّ خَيْرٍ وَعِلْمٍ؛ فَإِنَّمَا يُسْتَفَادُ مِنَ كِتَابِ اللَّهِ وَيُسْتَنْبَطُ مِنْهُ.

﴿٧٨﴾ ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾؛ أَي: مُسْتَوْرٍ عَنْ أَعْيُنِ الْخَلْقِ، وَهَذَا الْكِتَابُ الْمَكْنُونُ هُوَ اللَّوْحُ الْمُحْفُوظُ؛ أَي: أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَكْتُوبٌ فِي اللَّوْحِ الْمُحْفُوظِ، مُعَظَّمٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ مَلَائِكَتِهِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى.

وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْكِتَابِ الْمَكْنُونِ هُوَ الْكِتَابُ الَّذِي بِأَيْدِي الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يُنْزِلُهُمُ اللَّهُ لَوْحِيهِ وَرِسَالَتِهِ^(١)، وَأَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ أَنَّهُ مُسْتَوْرٌ عَنِ الشَّيَاطِينِ، لَا قُدْرَةَ لَهُمْ^(٢) عَلَى تَغْيِيرِهِ وَلَا الزِّيَادَةَ وَالنَّقْصَ مِنْهُ وَاسْتِرَاقِهِ.

﴿٧٩﴾ ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾؛ أَي: لَا يَمَسُّ الْقُرْآنَ إِلَّا الْمَلَائِكَةُ الْكَرَامُ، الَّذِينَ طَهَّرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْآفَاتِ وَالذُّنُوبِ وَالْعُيُوبِ، وَإِذَا كَانَ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، وَأَنَّ أَهْلَ الْخَبْثِ وَالشَّيَاطِينِ لَا اسْتَطَاعَةَ لَهُمْ وَلَا يَدَانِ إِلَى مَسِّهِ؛ دَلَّتِ الْآيَةُ تَنْبِيْهَا^(٣) عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَمَسَّ الْقُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ [كَمَا وَرَدَ بِذَلِكَ الْحَدِيثُ، وَلِهَذَا قِيلَ: إِنَّ الْآيَةَ خَبَرٌ بِمَعْنَى النَّهْيِ؛ أَي: لَا يَمَسُّ الْقُرْآنَ إِلَّا طَاهِرًا].

(١) فِي (ب): «بُوحِيهِ وَتَنْزِيلِهِ».

(٢) فِي (ب): «لَهَا».

(٣) فِي (ب): «بِتَنْبِيْهِهَا».

﴿٨٠﴾ ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الْمَوْصُوفَ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ الْجَلِيلَةِ هُوَ تَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي يَرْبِي عِبَادَهُ بِنِعْمَةِ الدِّينِيَّةِ وَالْدُنْيَوِيَّةِ، وَأَجَلٌ^(١) تَرْبِيَةً رَبِّي بِهَا عِبَادَهُ إِنْزَالُهُ هَذَا الْقُرْآنَ، الَّذِي قَدْ اشْتَمَلَ عَلَى مَصَالِحِ الدَّارَيْنِ، وَرَحِمَ اللَّهُ بِهِ الْعِبَادَ رَحْمَةً لَا يَقْدِرُونَ لَهَا شُكُورًا، وَمِمَّا يَجِبُ عَلَيْهِمْ^(٢) أَنْ يَقُومُوا بِهِ، وَيُعْلِنُوهُ، وَيَدْعُوا إِلَيْهِ، وَيُصَدِّعُوا بِهِ.

﴿٨١﴾ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَفْبَهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهَبُونَ﴾؛ أي: أَفَبِهَذَا الْكِتَابِ الْعَظِيمِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿أَنْتُمْ مُذْهَبُونَ﴾^(٣)؛ أي: تَخْتَفُونَ وَتَدْلُسُونَ خَوْفًا مِنَ الْخَلْقِ وَعَارِهِمْ وَالسُّتْهِمْ! هَذَا لَا يَنْبَغِي وَلَا يَلِيقُ! إِنَّمَا يَلِيقُ أَنْ يُدَاهَنَ بِالْحَدِيثِ الَّذِي لَا يَثْقُ صَاحِبُهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ؛ فَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا يَغَالِبُ بِهِ مَغَالِبٌ إِلَّا غَلَبَ، وَلَا يَصُولُ بِهِ صَائِلٌ إِلَّا كَانَ الْعَالِي عَلَى غَيْرِهِ، وَهُوَ الَّذِي لَا يُدَاهَنُ بِهِ وَيُخْتَفَى^(٤)، بَلْ يُضَدَّعُ بِهِ وَيُعْلَنُ.

﴿٨٢﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾؛ أي: تَجْعَلُونَ مُقَابِلَةَ مَنَّةِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِالرِّزْقِ التَّكْذِيبَ وَالْكَفْرَ لِنِعْمَةِ اللَّهِ، فَتَقُولُونَ: مُطِرْنَا بِنَوْءٍ كَذَا وَكَذَا!^(٥) وَتُضَيِّفُونَ النِّعْمَةَ لِغَيْرِ مُسْذِيهَا وَمُؤْلِيهَا؛ فَهَلَّا شَكَرْتُمْ اللَّهَ عَلَى إِحْسَانِهِ إِذْ أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ لِيَزِيدَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ؛ فَإِنَّ التَّكْذِيبَ وَالْكَفْرَ دَاعٍ لِرَفْعِ النِّعَمِ وَحُلُولِ النِّقَمِ.

﴿٨٣ - ٨٥﴾ ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ. وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ. وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾؛ أي: فَهَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الرُّوحُ الْحُلُقُومَ، وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ الْمُحْتَضِرَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ، وَالْحَالُ أَنَّا نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ بَعْلَمْنَا وَمَلَأْنَكُنَا، وَلَكِنْ لَا تَبْصِرُونَ.

﴿٨٦ - ٨٧﴾ ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾؛ أي: فَهَلَّا إِذَا^(٦) كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنْكُمْ غَيْرَ مَبْعُوثِينَ وَلَا مُحَاسِبِينَ وَمَجَازِينَ، تَرْجِعُونَ الرُّوحَ إِلَى بَدَنِهَا ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: وَأَنْتُمْ تَقْرَأُونَ أَنْكُمْ عَاجِزُونَ عَنْ رَدِّهَا إِلَى مَوْضِعِهَا؛ فَحِينِيذٍ إِنَّمَا أَنْ تَقْرَأُوا بِالْحَقِّ الَّذِي جَاءَ^(٧) بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَإِنَّمَا أَنْ تَعَايَدُوا فَتَعْلَمَ حَالَكُمْ وَسُوءَ مَا لَكُمْ.

(١) فِي (ب): «وَمِنْ أَجَلٍ».

(٢) فِي (ب): «عَلَيْهِمْ بِهِ».

(٣) فِي (ب): «تَذْهَبُونَ».

(٤) فِي (ب): «وَلَا يَخْتَفَى».

(٥) كَمَا فِي حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ: أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٨٤٦)، وَمُسْلِمٌ (٧١).

(٦) فِي (ب): «إِذَا».

(٧) فِي (ب): «جَاءَكُمْ».

﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنَزَّلُ مِنْ جَهَنَّمَ ﴿٩٣﴾ وَنَصْلَةً جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

﴿٨٨ - ٨٩﴾ ذكر الله تعالى أحوال الطوائف الثلاث: المقربين، وأصحاب اليمين، والمكذبين الضالين في أول السورة في دار القرار، ثم ذكر أحوالهم في آخرها عند الاحتضار والموت، فقال: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾؛ أي: إن كان الميت من المقربين إلى الله، المتقربين إليه بأداء الواجبات والمستحبات وترك المحرمات والمكروهات^(١) وفضول المباحات، ﴿ف﴾ لهم ﴿رَوْحٌ﴾؛ أي: راحة وطمأنينة وسرور وبهجة ونعيم القلب والروح، ﴿وَرَيْحَانٌ﴾: وهو اسم جامع لكل لذة بدنية من أنواع المأكول والمشرب وغيرها، وقيل: الريحان هو الطيب المعروف، فيكون من باب التعبير^(٢) بنوع الشيء عن جنسه العام، ﴿وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾: جامعة للأمرين كليهما، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فيبشر المقربون عند الاحتضار بهذه البشارة، التي تكاد تطير منها الأرواح فرحاً وسروراً^(٣)؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أُنْ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ. نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ. نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾، وقد فُسر^(٤) قوله [تبارك و] تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾: أَنَّ هَذِهِ الْبَشَارَةُ الْمَذْكُورَةُ هِيَ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

﴿٩٠ - ٩١﴾ وقوله: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾؛ وهم الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات، وإن حصل منهم بعض التقصير^(٥) في بعض الحقوق التي لا تخل بإيمانهم وتوحيدهم، فيقال لأحدهم: ﴿سَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾؛ أي: سلام حاصل لك من إخوانك أصحاب اليمين؛ أي: يسلمون عليه،

(١) في (ب): «﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ﴾ الميت ﴿من المقربين﴾ وهم الذين أدوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات».

(٢) في (ب): «فيكون تعبيراً بنوع».

(٣) في (ب): «من الفرح والسرور».

(٤) في (ب): «وحصل منهم التقصير».

(٥) في (ب): «أَوَّل».

ويحيونه عند وصوله إليهم ولقائهم له، أو يقال له: سلامٌ لك من الآفات والبليّات والعذاب؛ لأنك من أصحاب اليمين، الذين سلّموا من الموبقات.

﴿٩٢ - ٩٤﴾ ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكَذِبِينَ الضَّالِّينَ﴾ أي: الذين كذبوا بالحقّ وضلّوا عن الهدى، ﴿فَنُزِّلْ مِنْ حَمِيمٍ﴾ وتصليةٌ جحيم؛ أي: ضيافتهم يومَ قدومهم على ربّهم تصليةُ الجحيم التي تحيط بهم وتصلُ إلى أفئدتهم، وإذا استغاثوا من شدّة العطش والظمأ؛ ﴿يَغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

﴿٩٥﴾ ﴿إِنَّ هَذَا﴾: الذي ذكره الله تعالى من جزاء العباد بأعمالهم خيرها وشرّها وتفصيل ذلك ﴿لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾؛ أي: الذي لا شكّ فيه ولا مرية، بل هو الحقّ الثابت الذي لا بدّ من وقوعه، وقد أشهد الله عباده الأدلّة القواطع على ذلك، حتى صار عند أولي الألباب كأنّهم ذائقون له مشاهدون لحقيقته^(١)، فحمدوا الله تعالى على ما خضّهم من هذه النعمة العظيمة والمنحة الجسيمة.

﴿٩٦﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿فَسُبْحُ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾؛ فسبحان ربّنا العظيم، وتعالى وتنزه عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً، والحمد لله ربّ العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه.

تم تفسير سورة الواقعة.



سورة الحديد

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ① لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ② هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ③ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

(١) في (ب): «مشاهدون له».

بَصِيرٌ ﴿١﴾ لَمْ تَكُ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢﴾ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣﴾ .

﴿١﴾ يخبرُ تعالى عن عظمته وجلاله وسعة سلطانه أنَّ جميع ﴿ما في السموات والأرض﴾ من الحيوانات الناطقة [والصامتة] وغيرها والجوامد تسبِّحُ بحمد ربِّها وتنزهه عمَّا لا يليق بجلاله، وأنها قانتة لربِّها، منقادة لعزته، قد ظهرت فيها آثار حكمته، ولهذا قال: ﴿وهو العزيز الحكيم﴾؛ فهذا فيه بيان عموم افتقار المخلوقات العلوية والسفلية لربِّها في جميع أحوالها، وعموم عزته وقهره للأشياء كلها، وعموم حكمته في خلقه وأمره.

﴿٢﴾ ثم أخبر عن عموم ملكه، فقال: ﴿له ملك السموات والأرض يحيي ويميت﴾؛ أي: هو الخالق لذلك، الرازق المدبِّر لها بقدرته، ﴿وهو على كل شيء قدير﴾.

﴿٣﴾ ﴿هو الأول﴾: الذي ليس قبله شيء. ﴿والآخر﴾: الذي ليس بعده شيء. ﴿والظاهر﴾: الذي ليس فوقه شيء. ﴿والباطن﴾: الذي ليس دونه شيء. ﴿وهو بكل شيء عليم﴾: قد أحاط علمه بالظواهر والبواطن والسرائر والخفايا والأمور المتقدمة والمتأخرة.

﴿٤﴾ ﴿هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام﴾: أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، ﴿ثم استوى على العرش﴾: استواء يليق بجلاله فوق جميع خلقه، ﴿يعلم ما يلج في الأرض﴾: من حبّ وحيوان ومطر وغير ذلك، ﴿وما يخرج منها﴾: من نبت^(١) وشجر وحيوان وغير ذلك، ﴿وما ينزل من السماء﴾: من الملائكة والأقذار والأرزاق، ﴿وما يعرج فيها﴾: من الملائكة والأرواح والأدعية والأعمال وغير ذلك، ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾؛ كقوله: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابِعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا﴾: وهذه المعية معية العلم والإطلاع، ولهذا توعد ووعد بالمجازاة^(٢) بالأعمال بقوله: ﴿والله بما تعملون بصير﴾؛ أي: هو تعالى بصير بما يصدر منكم من الأعمال وما صدرت عنه تلك الأعمال من برٍّ وفجور؛ فمجازيكم عليها وحافظها عليكم.

(١) في (ب): «نبات».

(٢) في (ب): «على المجازاة».

﴿٥﴾ ﴿له ما في السموات والأرض﴾: ملكاً وخلقاً وعبيداً يتصرف فيهم بما شاءه من أوامره القدرية والشرعية الجارية على الحكمة الربانية، ﴿والى الله ترجع الأمور﴾: من الأعمال والعمال، فيعرض عليه العباد، فيميز الخبيث من الطيب، ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

﴿٦﴾ ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾؛ أي: يدخل الليل على النهار، فيغشيهم الليل بظلامه، فيسكنون ويهدؤون، ثم يدخل النهار على الليل، فيزول ما على الأرض من الظلام، ويضيء الكون، فيتحرك العباد، ويقومون إلى مصالحهم ومعاشهم، ولا يزال الله يكور الليل على النهار والنهار على الليل، ويداول بينهما في الزيادة والنقص والطول والقصر، حتى تقوم بذلك الفصول وتستقيم الأزمنة ويحصل من المصالح بذلك ما يحصل^(١)، فتبارك الله رب العالمين، وتعالى الكريم الجواد الذي أنعم على عباده بالنعم الظاهرة والباطنة، ﴿وهو عليهم بذات الصدور﴾؛ أي: بما يكون في صدور العالمين، فيوفق من يعلم أنه أهل لذلك، ويخذل من يعلم أنه لا يصلح لهديته^(٢).

﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لَتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ٨ هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبْتَغِي لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ٩ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٌ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتَلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١٠ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَمْ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ١١﴾.

﴿٧﴾ يأمر تعالى عباده بالإيمان به، وبرسوله وبما جاء به، وبالنفقة في سبيله من الأموال التي جعلها الله في أيديهم واستخلفهم عليها؛ لينظر كيف يعملون. ثم لما أمرهم بذلك؛ رغبهم وحثهم عليه بذكر ما رتب عليه من الثواب، فقال: ﴿فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجرٌ كبيرٌ﴾؛ أي: الذين جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله

(١) في (ب): «ما يحصل بذلك».

(٢) في (ب): «ويخذل من يعلمه لا يصلح لذلك».

والنفقة في سبيله لهم أجرٌ كبيرٌ، أعظمه وأجله رضا ربهم والفوز بدار كرامته وما فيها من النعيم المقيم الذي أعدّه الله للمؤمنين والمجاهدين.

﴿٨﴾ ثم ذكر السبب الداعي لهم إلى الإيمان وعدم المانع منه، فقال: ﴿وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا برّبكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين﴾؛ أي: وما الذي يمنعكم من الإيمان والحال أنّ الرسول محمداً ﷺ أفضل الرسل وأكرم داع دعا إلى الله يدعوكم؟! فهذا مما يوجب المبادرة إلى إجابة دعوته والتلبية والإجابة للحق الذي جاء به، وقد أخذ عليكم العهد والميثاق بالإيمان إن كنتم مؤمنين.

﴿٩﴾ ومع ذلك من لطفه وعنايته بكم أنّه لم يكتفِ بمجرد دعوة الرسول الذي هو أشرف العالم، بل أيّده بالمعجزات، ودلّكم على صدق ما جاء به بالآيات البينات؛ فلهذا قال: ﴿هو الذي يُنزل على عبده آيات بينات﴾؛ أي: ظاهرات تدلّ أهل العقول على صحة جميع^(١) ما جاء به، وأنّه الحق^(٢) اليقين؛ ﴿ليُخْرِجَكُم﴾: بإرسال الرسول إليكم وما أنزله الله على يده من الكتاب والحكمة ﴿من الظلمات إلى النور﴾؛ أي: من ظلمات الجهل والكفر^(٣) إلى نور العلم والإيمان. وهذا من رحمته بكم ورافته؛ حيث كان أرحم بعباده من الوالدة بولدها، ﴿وإنّ الله بكم لرؤوف رحيم﴾.

﴿١٠﴾ ﴿وما لكم ألا تنفقوا﴾^(٤) في سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض؛ أي: وما الذي يمنعكم من الثقة في سبيل الله؟ وهي^(٥) طرق الخير كلّها، ويوجب لكم أن تبخلوا، ﴿والحال أنّه ليس لكم شيء﴾، بل ﴿لله ميراث السموات والأرض﴾: فجميع^(٦) الأموال ستنتقل من أيديكم أو تنقلون عنها، ثم يعود الملك إلى مالكة تبارك وتعالى؛ فاجتنبوا الإنفاق ما دامت الأموال في أيديكم، وانتهزوا الفرصة. ثم ذكر تعالى تفاضل الأعمال بحسب الأحوال والحكمة الإلهية، فقال: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا﴾: المراد بالفتح هنا هو فتح الحُدَيْبِيَّة، حين جرى من الصلح بين

(١) في (ب): «على صدق كلّ ما جاء به». (٢) في (ب): «وأنّه حق اليقين».

(٣) في (ب): «الكفر والجهل». (٤) في (ب): «وما لكم لا تنفقون».

(٥) في (ب): «وهو». (٦) في (ب): «جميع».

الرسول وبين قريش، مما هو أعظم الفتوحات التي حصل فيها نشر الإسلام واختلاط المسلمين بالكافرين والدعوة إلى الدين من غير معارض، فدخل الناس من ذلك الوقت في دين الله أفواجا، واعتز الإسلام عزاً عظيماً، وكان المسلمون قبل هذا الفتح لا يقدرّون على الدعوة إلى الدين في غير البقعة التي أسلم أهلها كالمدينة وتوابعها، وكان مَنْ أسلم من أهل مكة وغيرها من ديار المشركين يُؤذَى وَيَخَافُ؛ فلذلك كان مَنْ أسلم قبل الفتح [وأنفق] وقاتل أعظم درجة وأجرأ وثواباً مَنْ لم يسلم ويقَاتِلَ وينفق إلا بعد ذلك؛ كما هو مقتضى الحكمة، ولهذا^(١) كان السابقون وفضلاء الصحابة غالبهم أسلم قبل الفتح. ولما كان التفضيل بين الأمور قد يُتَوَهَّم منه نقص وقدح في المفضول؛ احترز تعالى من هذا بقوله: ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾؛ أي: الذين أسلموا وقاتلوا وأنفقوا من قبل الفتح وبعده كلهم وَعَدَهُ اللَّهُ الجنة. وهذا يدل على فضل الصحابة كلهم رضي الله عنهم، حيث شهد الله لهم بالإيمان ووعدهم الجنة. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: فيجازي كلًّا منكم على ما يعلمه من عمله.

﴿١١﴾ ثم حث على النفقة في سبيله؛ لأنّ الجهاد متوقّف على النفقة فيه وبذل الأموال في التجهّز له، فقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَفْرِضُ اللَّهُ قَرْضاً حَسَناً﴾: وهي النفقة الطيبة التي تكون خالصة لوجه الله موافقة لمرضاة الله من مال حلال طيب طيبة به نفسه، وهذا من كرم الله تعالى؛ حيث سمّاه قرضاً، والمال ماله، والعبيد عبيده^(٢)، ووعد بالمضاعفة عليه أضعافاً كثيرة، وهو الكريم الوهاب، وتلك المضاعفة محلّها وموضعها يوم القيامة، يوم كلّ يتبيّن فقره، ويحتاج إلى أقلّ شيء من الجزاء الحسن، ولهذا قال:

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَنْفُسِهِمْ^(٣) بَشَرَكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنِفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنادونهم أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ

(١) في (ب): «ولذلك». (٢) في (ب): «والعبد عبده».

(٣) في (أ) إلى قوله: «وبش المصير»، وفي (ب) ذكر الآيات كاملة.

وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمُ اللَّهُ الْغَوْرُ ۖ قَالَيْمٌ لَا يُوْعَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَتْكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

﴿١٢﴾ يقول تعالى مبيناً لفضل الإيمان واغتراب أهله به يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾؛ أي: إذا كان يوم القيامة، وكَوَّرَتِ الشَّمْسُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وصار الناس في الظلمة، وَنُصِبَ الصِّرَاطُ على متن جهنم؛ فحينئذ ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمنهم، فيمشون بنورهم وأيمانهم^(١) في ذلك الموقف الهائل الصعب كل على قدر إيمانه، ويبشرون عند ذلك بأعظم بشارة، فيقال: ﴿بِشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: فله ما أحلى هذه البشارة بقلوبهم وألذها لنفوسهم؛ حيث حصل لهم كل مطلوب محبوب، ونجوا من كل شر ومرهوب.

﴿١٣﴾ فإذا رأى المنافقون المؤمنين يمشون بنورهم^(٢)، وهم قد طُفِيَءَ نورهم وبقوا في الظلمات حائرين؛ قالوا للمؤمنين: ﴿انْظُرُوا نَفْسًا مِنْ نَارِكُمْ﴾؛ أي: أمهلونا لننال من نوركم ما نمشي به لننجو من العذاب، ف﴿قِيلَ﴾ لهم: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾؛ أي: إن كان ذلك ممكناً، والحال أن ذلك غير ممكن، بل هو من المحالات، فَضُرِبَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴿بِسُورَةٍ﴾؛ أي: حائط منيع وحصن حصين ﴿لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾: وهو الذي يلي المؤمنين، ﴿وظَاهَرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾: وهو الذي يلي المنافقين.

﴿١٤﴾ فينادي المنافقون المؤمنين، فيقولون^(٣) تضرعاً وترحماً: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾: في الدنيا نقول: لا إله إلا الله، ونصلِّي ونصوم ونجاهد ونعمل مثل عملكم؟ ﴿قَالُوا بَلَى﴾: كنتم معنا في الدنيا وعملتُم في الظاهر مثل عملنا، وَلَكِنْ أَعْمَالُكُمْ أَعْمَالُ الْمُنَافِقِينَ مِنْ غَيْرِ إِيْمَانٍ وَلَا نِيَّةٍ صَادِقَةٍ صَالِحَةٍ، ﴿بَلْ فَتَنَّمْ أَنْفُسَكُمْ [وَتَرَبُّصْتُمْ]﴾^(٤) وارْتَبْتُمْ؛ أي: شككتُم في خبر الله الذي لا يقبل شكاً، ﴿وَوَغَرَّتْكُمْ الْأَمَانِيُّ﴾: الباطلة؛ حيث^(٥) تمئيتُم أن تنالوا منال المؤمنين وأنتم غير موقنين،

(١) في (أ): «بأيمنهم ونورهم». وقد استدرکها الشيخ في (ب) فقدم وأخر بوضع الحرف «م».

(٢) في (ب): «فإذا رأى المنافقون نور المؤمنين يمشون به».

(٣) في (ب): «ويقولون».

(٤) زيادة على النسختين.

(٥) في (ب): «التي».

﴿حتى جاء أمرُ الله﴾؛ أي: حتى جاءكم الموت وأنتم بتلك الحالة الذميمة، ﴿وعزَّكم بالله الغرور﴾: وهو الشيطان الذي زين لكم الكفر والريب فاطمأنتم به، ووثقتم بوعده وصدقتم خبره.

﴿١٥﴾ ﴿فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا﴾: ولو^(١) افتديتم بملء الأرض ذهباً ومثله معه؛ لما تقبل منكم. ﴿ماوأكم النار﴾؛ أي: مستقركم، ﴿هي مولاكم﴾: التي تتولَّاكم وتضمُّكم إليها، ﴿وبئس المصير﴾: النار؛ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ. فَأُمَّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ. نَارَ حَامِيَةٍ﴾.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٧﴾.

﴿١٦﴾ لما ذكر حال المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات في الدار الآخرة؛ كان ذلك مما يدعو القلوب إلى الخشوع لرَّبِّها والاستكانة لعظمتها، فعاتب الله المؤمنين على عدم ذلك، فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ الْحَقِّ﴾؛ أي: ألم يأت^(٢) الوقت الذي به تلين^(٣) قلوبهم وتخشع لذكر الله الذي هو القرآن وتنقاد لأوامره وزواجره وما نزل من الحق الذي جاء به محمد ﷺ، ولهذا فيه الحث على الاجتهاد على خشوع القلب لله تعالى ولما أنزله من الكتاب والحكمة، وأن يتذكر المؤمنون المواعظ الإلهية والأحكام الشرعية كل وقت ويحاسبوا أنفسهم على ذلك، ﴿ولا يكونوا كالذين أُوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد﴾؛ أي: ولا يكونوا كالذين أنزل الله عليهم الكتاب الموجب لخشوع القلب والانقياد التام، ثم لم يدوموا عليه، ولا ثَبَتُوا، بل طال عليهم الزمان، واستمرَّت بهم الغفلة، فاضمحَلَّ إيمانهم وزال إيقانهم؛ ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾: فالقلوب تحتاج في كل وقت إلى أن تُذكر بما أنزل^(٤) الله وتناطق بالحكمة، ولا ينبغي الغفلة عن ذلك؛ فإنَّه^(٥) سبب لقسوة القلب وجمود العين.

(٢) في (ب): «يجي».

(٤) في (ب): «أنزله».

(١) في (ب): «قلو».

(٣) في (ب): «الذي تلين به قلوبهم».

(٥) في (ب): «فإن ذلك».

﴿١٧﴾ ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: فَإِنَّ الْآيَاتِ تَدُلُّ الْعُقُولَ عَلَى الْمَطَالِبِ^(١)، وَالَّذِي أَحْيَا الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْأَمْوَاتَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ فَيَجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالَّذِي أَحْيَا الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا بِمَاءِ الْمَطَرِ، قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْقُلُوبَ الْمَيِّتَةَ بِمَا أَنْزَلَهُ مِنَ الْحَقِّ عَلَى رَسُولِهِ. وَهَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا عَقْلَ لِمَنْ لَمْ يَهْتَدِ بِآيَاتِ اللَّهِ وَلَمْ يَنْقُذْ لَشَرَائِعِ اللَّهِ.

﴿إِنَّ الْمُصْذِقِينَ وَالْمُصْذِقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾^(٢) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ^(٣).

﴿١٨﴾ ﴿إِنَّ الْمُصْذِقِينَ وَالْمُصْذِقَاتِ﴾: بِالتَّشْدِيدِ؛ أَي: الَّذِينَ أَكْثَرُوا مِنَ الصَّدَقَاتِ الشَّرْعِيَّةِ وَالنَّفَقَاتِ الْمَرْضِيَّةِ، ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾: بِأَنْ قَدَّمُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فِي طَرَقِ الْخَيْرَاتِ مَا يَكُونُ ذَخْرًا^(٤) لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، ﴿يَضَاعَفُ لَهُمْ﴾: الْحَسَنَةَ بَعِشْرَ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضَعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾: وَهُوَ مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ مِمَّا لَا تَعْلُمُهُ النُّفُوسُ.

﴿١٩﴾ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾: وَالْإِيمَانُ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ مَا^(٥) دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، هُوَ قَوْلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَعَمَلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ، فَيَشْمَلُ ذَلِكَ جَمِيعَ شَرَائِعِ الدِّينِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، فَالَّذِينَ جَمَعُوا [بَيْنَ] هَذِهِ الْأُمُورِ ﴿هُمْ الصَّدِيقُونَ﴾؛ أَي: الَّذِينَ مَرَّتَبَتُهُمْ فَوْقَ مَرَّتَبَةِ عُمُومِ الْمُؤْمِنِينَ وَدُونَ مَرَّتَبَةِ الْأَنْبِيَاءِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾؛ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ^(٦): «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ^(٥) كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ». وَهَذَا يَقْتَضِي شِدَّةَ عُلُوِّهِمْ وَرَفْعَتَهُمْ وَقُرْبَهُمْ مِنْ^(٦) اللَّهِ تَعَالَى، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾: فَهَذِهِ الْآيَاتِ جَمَعَتْ أَصْنَافَ الْخَلْقِ الْمُتَصَدِّقِينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءَ وَأَصْحَابَ

(١) فِي (ب): «عَلَى الْعِلْمِ بِالْمَطَالِبِ». (٢) فِي (ب): «مَذْخَرًا».

(٣) فِي (ب): «هُوَ مَا».

(٤) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٧٦٠) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) فِي (ب): «مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ». (٦) فِي (ب): «إِلَى».

الجحيم، فالمتصدقون الذين [كان] جُل عملهم الإحسان إلى الخلق وبذل النفع لهم^(١) بغاية ما يمكنهم، خصوصاً بالنفع بالمال في سبيل الله، والصديقون هم الذين كملوا مراتب الإيمان والعمل الصالح والعلم النافع واليقين الصادق، والشهداء هم الذين قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وبذلوا أنفسهم وأموالهم فقتلوا، وأصحاب الجحيم هم الكفار الذين كذبوا بآيات الله. وبقي قسم ذكرهم^(٢) الله في سورة فاطر، وهم المقتصدون الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات؛ إلا أنهم حصل منهم بعض التقصير بحقوق الله^(٣) وحقوق عباده؛ فهؤلاء مآلهم الجنة^(٤)، وإن حصل لبعضهم عقوبة ببعض ما فعل.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَسْجُ فَرَّتْهُ مَصْغَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَلًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢٠﴾ يخبر تعالى عن حقيقة الدنيا وما هي عليه، ويبين غايتها وغاية أهلها؛ بأنها ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾: تلعب بها الأبدان وتلهو بها القلوب، وهذا مصداقه ما هو موجود وواقع من أبناء الدنيا؛ فإنك تجدهم قد قطعوا أوقات عُمرهم بلهو قلوبهم وغفلتهم^(٥) عن ذكر الله وعمّا أمامهم من الوعد والوعيد، وتراهم قد اتخذوا دينهم لعباً ولهواً؛ بخلاف أهل اليقظة وعُمّال الآخرة؛ فإن قلوبهم معمورة بذكر الله ومعرفته ومحبته، وقد شغلوا^(٦) أوقاتهم بالأعمال التي تقربهم إلى الله من النفع القاصر والمتعدي. وقوله: ﴿وزينة﴾؛ أي: تزين في اللباس والطعام والشراب والمراكب والدور والقصور والجاه وغير ذلك، ﴿وتفاخر بينكم﴾؛ أي: كل واحد من أهلها يريد مفاخرة الآخر، وأن يكون هو الغالب في أمورها، والذي له الشهرة

(١) في (ب): «إليهم».

(٢) في (ب): «ذكره».

(٣) في (ب): «إلا أنهم حصل منهم تقصير ببعض حقوق الله».

(٤) في (ب): «إلى الجنة».

(٥) في (ب): «قد قطعوا أوقات أعمارهم بلهو القلوب والغفلة».

(٦) في (ب): «أشغلوا».

في أحوالها، ﴿وتكاثُر في الأموال والأولاد﴾؛ أي: كلُّ يريدُ أن يكون هو الكاثر لغيره في المال والولد، وهذا مصداقه وقوعه من محبِّي الدنيا والمطمئنين إليها؛ بخلاف مَنْ عَرَفَ الدنيا وحقيقتها، فجعلها معبراً، ولم يجعلها مستقراً، فنافس فيما يقربُه إلى الله، واتَّخذ الوسائل التي توصلُه إلى دار كرامته^(١)، وإذا رأى من يكاثُرُه وينافسه في الأموال^(٢) والأولاد؛ نافسه بالأعمال الصالحة.

ثم ضرب للدنيا مثلاً بغيثٍ نزل على الأرض، فاختلط به نبات الأرض مما يأكلُ الناسُ والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفاً، وأعجب نباته الكفار الذين قَصُرُوا نَظَرُهُمْ وَهَمَمُهُمْ على الدنيا^(٣)؛ جاءها من أمرِ الله ما أتلَفها، فهاجث ويبيست وعادت إلى حالها الأولى^(٤)؛ كأنه لم ينبث فيها خضراء ولا رُيَّي لها مَرَأى أنيق، كذلك الدنيا؛ بينما هي زاهيةٌ لصاحبها زاهرةٌ؛ مهما أراد من مطالبها حصل، ومهما توجهَ لأمر من أمورها؛ وجد أبوابه مفتحة؛ إذ أصابها القَدَرُ، فأذهبها^(٥) من يده، وأزال تسلُّطه عليها، أو ذهب به عنها، فرحل منها صفر اليدين؛ لم يتزوَّد منها سوى الكفن، فنبأ لمن أضحت هي غاية أمنيته ولها عمله وسعيه.

وأما العمل للآخرة؛ فهو الذي ينفع ويُنْذِر لصاحبه ويصحب العبدَ على الأبد، ولهذا قال تعالى: ﴿وفي الآخرة عذابٌ شديدٌ ومغفرةٌ من الله ورضوانٌ﴾؛ أي: حال الآخرة ما يخلو من هذين الأمرين: إمَّا العذابُ الشديدُ في نار جهنم وأغلالها وسلاسلها وأحوالها لمن كانت الدنيا هي غايته ومنتهى مطلبه، فتجراً على معاصي الله، وكذب بآيات الله، وكفر بأنعم الله، وإمَّا مغفرةٌ من الله للسيئات، وإزالة العقوبات، ورضوانٌ من الله يُجِلُّ من أحلَّه عليه^(٦) دارَ الرضوان لمن عرف الدنيا وسعى للآخرة سعيها؛ فهذا كله مما يدعو إلى الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغرور﴾؛ أي: إلا متاعٌ يُتَمَتَّعُ به وَيُتَنَقَّعُ به وَيُسْتَدْفَعُ به الحاجات؛ لا يَغْتَرُّ به ويطمئنُ إليه إلا أهل العقول الضعيفة، الذين يغرُّهم بالله الغرور.

﴿٢١﴾ ثم أمر بالمسابقة إلى مغفرة الله ورضوانه وجنته، وذلك يكون بالسعي

(١) في (ب): «إلى الله».

(٢) في (ب): «بالأموال».

(٣) في (ب): «همهم ونظرهم إلى الدنيا».

(٤) في (ب): «ما هاجث به ويبست فعدت على حالها الأولى».

(٥) في (ب): «بما أذهبها».

(٦) في (ب): «يحل ما أحلَّه به».

بأسباب المغفرة من التوبة النصوح، والاستغفار النافع، والبعد عن الذنوب ومظانها، والمسابقة إلى رضوان الله بالعمل الصالح، والحرص على ما يرضي الله على الدوام من الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى الخلق بجميع وجوه النفع، ولهذا ذكر الله الأعمال الموجبة لذلك، فقال: ﴿وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾، والإيمان بالله ورُسُلِهِ^(١) يدخل فيه أصول الدين وفروعها. ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: هذا الذي بيّناه لكم وذكرنا [لكم فيه] الطُّرُقَ الموصلة إلى الجنة والطُّرُقَ الموصلة إلى النار، وأن ثواب الله بالأجر الجزيل والثواب الجميل^(٢) من أعظم مئته على عباده وفضله، ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾: الذي لا يحصى ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يُثني عليه أحد من خلقه^(٣).

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٢٢) ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (٢٣) ﴿الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْآسَاءَ مِنَ النَّاسِ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (٢٤).

﴿٢٢﴾ يقول تعالى مخبراً عن عموم قضائه وقدره: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾: وهذا شامل لعموم المصائب التي تُصيبُ الخلق من خيرٍ وشرٍّ؛ فكلُّها قد كُتِبَتْ في اللوح المحفوظ صغيرها وكبيرها، وهذا أمرٌ عظيمٌ لا تحيطُ به العقول، بل تذهلُ عنده أفئدة أولي الألباب، ولكنه على الله يسيرٌ.

﴿٢٣﴾ وأخبر الله عباده بذلك لأجل أن تتقرَّرَ هذه القاعدة عندهم، وبينوا عليها ما أصابهم من الخير والشرٍّ؛ فلا يأسوا، ويحزنوا على ما فاتهم، مما طمِحت له أنفسهم وتشوَّفوا إليه؛ لعلمهم أن ذلك مكتوبٌ في اللوح المحفوظ، لا بدَّ من نفوذه ووقوعه؛ فلا سبيل إلى دفعه، ولا يفرحوا بما آتاهم الله فرحاً بطَرٍّ وأشرٍّ؛ لعلمهم أنَّهم ما أدركوه بحولهم وقوتهم، وإنَّما أدركوه بفضل الله ومَنه، فيشتغلوا بشكر مَنْ أولى النعم ودفع النقم، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾؛

(١) في (ب): «ورسوله».

(٢) في (ب): «وَأَنَّ فَضْلَ اللَّهِ بِالثَّوَابِ الْجَزِيلِ وَالْأَجْرِ الْجَمِيلِ».

(٣) في (ب): «عليه عباده».

أي: متكبر فظ غليظ معجب بنفسه فخور بنعم الله ينسبها إلى نفسه وتطغيه وتلهيه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَدْفَنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾.

﴿٢٤﴾ ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾؛ أي: يجمعون بين الأمرين الذميين اللذين كلُّ منهما كافٍ في الشر: البخل، وهو منع الحقوق الواجبة، ويأمرون الناس بذلك، فلم يكفهم بُخْلُهُمْ، حتى أمروا الناس بذلك، وحثوهم [على]^(١) هذا الخلق الذممي بقولهم وفعلهم، وهذا من إعراضهم عن طاعة ربهم وتوليهم عنها، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾: عن طاعة الله؛ فلا يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئاً، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾: الذي غناه من لوازم ذاته، الذي له ملك السموات والأرض، وهو الذي أغنى عباده وأقناهم، الحميد الذي له كل اسم حسن ووصف كامل وفعل جميل يستحق أن يُحمد عليه ويُثنى ويُعظم.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَصُرُّ وَرُسُلُهُمُ بِالْقَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٢٥) ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا^(٢) وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِثْلَهُم مَّثَنِيٌّ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٢٦) ثُمَّ قَفَيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بُرْسُلَنَا وَقَفَيْنَا يَٰعِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٢٧).

﴿٢٥﴾ يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾: وهي الأدلة والشواهد والعلامات الدالة على صدق ما جاؤوا به وحقّيته، ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾: وهو اسم جنس يشمل سائر الكتب التي أنزلها الله لهداية الخلق وإرشادهم ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، ﴿وَالْمِيزَانَ﴾: وهو العدل في الأقوال والأفعال، والدين الذي جاءت به الرسل كله عدل وقسط في الأوامر والنواهي وفي معاملات الخلق وفي الجنايات والقصاص والحدود والمواريث وغير ذلك، وذلك ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾: قياماً بدين الله، وتحصيلاً لمصالحهم التي لا يمكن حصرها وعدّها، وهذا دليل على أن الرسل متفقون في قاعدة الشرع، وهو القيام بالقسط، وإن

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «عليه».

(٢) في (أ) إلى قوله: «وكثير منهم فاسقون»، وفي (ب) ذكر الآيات كاملة.

اختلفت صور^(١) العدل بحسب الأزمنة والأحوال، «وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد»: من آلات الحرب؛ كالسلاح والدروع وغير ذلك، «ومنافع للناس»: وهو ما يشاهد من نفعه في أنواع الصناعات والحرف والأواني وآلات الحرث، حتى إنه قل أن يوجد شيء إلا وهو يحتاج إلى الحديد، «وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب»: أي: ليقيم تعالى سوق الامتحان بما أنزله من الكتاب والحديد، فيتبين من ينصره وينصر رسله في حالة^(٢) الغيب، التي ينفع فيها الإيمان قبل الشهادة، التي لا فائدة بوجود الإيمان فيها؛ لأنه حينئذ يكون ضرورياً. «إن الله لقوي عزيز»: أي: لا يعجزه شيء ولا يفوته هارب، ومن قوته وعزته أن أنزل الحديد الذي منه الآلات القوية، ومن قوته وعزته أنه قادر على الانتصار من أعدائه، ولكنه يتلي أوليائه بأعدائه؛ ليعلم من ينصره بالغيب.

وقرن تعالى بهذا^(٣) الموضع بين الكتاب والحديد؛ لأن بهذين الأمرين ينصر الله دينه ويعلي كلمته: بالكتاب الذي فيه الحجّة والبرهان، والسيف الناصر بإذن الله، وكلاهما قيامه بالعدل والقسط، الذي يستدل به على حكمة الباري وكماله وكمال شريعته التي شرعها على السنة رسله.

﴿٢٦﴾ ولما ذكر نبوة الأنبياء عموماً؛ ذكر من خواصهم النبيين الكريمين نوحاً وإبراهيم، اللذين جعل الله النبوة والكتاب في ذريتهما، فقال: «ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب»: أي: الأنبياء المتقدمين والمتأخرين، كلهم من ذرية نوح وإبراهيم عليهما السلام، وكذلك الكتب كلها نزلت على ذرية هذين النبيين الكريمين. «فمنهم»: أي: ممن أرسلنا إليهم الرسل «مهتدي»: بدعوتهم، منقاد لأمرهم، مسترشد بهداهم، «وكثير منهم فاسقون»: أي: خارجون عن طاعة الله وطاعة رسله^(٤)؛ كما قال تعالى: «وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين».

﴿٢٧﴾ «ثم قفينا»: أي: أتبعنا «على آثارهم برسُلنا وقفينا بعيسى ابن مريم»: خص الله عيسى عليه السلام؛ لأن السياق مع النصاري، الذين يزعمون اتباع عيسى، «وآتيناه الإنجيل»: الذي هو من كتب الله الفاضلة، «وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافةً ورحمةً»: كما قال تعالى: «لتجدنَّ أشدَّ الناس عداوةً للذين آمنوا

(١) في (ب): «أنواع».

(٢) في (ب): «حال».

(٣) في (ب): «في هذا».

(٤) في (ب): «خارجون عن طاعة الرسل والأنبياء».

اليهود والذين أشركوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَّيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ... ﴿٢٧﴾ الآيات، ولهذا كان النصارى الذين من غيرهم قلوباً حين كانوا على شريعة عيسى عليه السلام، ﴿ورهبانية ابتدعوها﴾: والرهبانية العبادة؛ فهم ابتدعوا من عند أنفسهم عبادة، ووظفوها على أنفسهم، والتزموا لوازم ما كتبها الله عليهم ولا فرضها، بل هم الذين التزموا بها من تلقاء أنفسهم؛ قضدهم بذلك رضا الله، ومع ذلك؛ ﴿فما رعوها حق رعايتها﴾؛ أي: ما قاموا بها، ولا أدوا حقوقها، فقصروا من وجهين: من جهة ابتداعهم، ومن جهة عدم قيامهم بما فرضوه على أنفسهم. فهذه الحال هي الغالب من أحوالهم، ومنهم من هو مستقيم على أمر الله، ولهذا قال: ﴿فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم﴾؛ أي: الذين آمنوا بمحمد ﷺ مع إيمانهم بعيسى؛ كل أعطاه الله على حسب إيمانه، ﴿وكثير منهم فاسقون﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ إِلَّا يَعْزِمُ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَفْزِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿٢٨﴾ وهذا الخطاب يُحتمل أنه خطاب لأهل الكتاب، الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام؛ يأمرهم أن يعملوا بمقتضى إيمانهم؛ بأن يتقوا الله فيتركوا معاصيه ويؤمنوا برسوله محمد ﷺ، وأنهم إن فعلوا ذلك؛ أعطاهم الله ﴿كفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾؛ أي: نصيبين من الأجر؛ نصيب على إيمانهم بالأنبياء الأقدمين، ونصيب على إيمانهم بمحمد ﷺ. ويُحتمل أن يكون الأمر عاماً؛ يدخل فيه أهل الكتاب وغيرهم، وهذا الظاهر، وأن الله أمرهم بالإيمان والتقوى، الذي يدخل فيه جميع الدين ظاهره وباطنه أصوله وفروعه، وأنهم إن امتثلوا هذا الأمر العظيم؛ أعطاهم [الله] ﴿كفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾؛ لا يعلم قدرهما ولا وصفهما^(١) إلا الله تعالى: أجر على الإيمان وأجر على التقوى، أو أجر على امتثال الأوامر وأجر على اجتناب النواهي، أو أن الثنية المراد بها تكرار الإيتاء مرة بعد أخرى. ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾؛ أي: يعطيكم علماً وهدياً ونوراً تمشون به في ظلمات الجهل، ويغفر لكم السيئات، ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾: فلا يُستغرب^(٢) كثرة هذا الثواب على

(٢) في (ب): «فلا يستكبر».

(١) في (ب): «وصفهما وقدرهما».

فضل ذي الفضل العظيم، الذي عمّ فضله أهل السماوات والأرض؛ فلا يخلو مخلوق من فضله طرفة عين ولا أقل من ذلك.

﴿٢٩﴾ وقوله: ﴿لَنَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَاقِدُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾؛ أي: بيّنا لكم فضلنا وإحساننا لمن آمن إيماناً عاماً واتقى الله وآمن برسوله؛ لأجل أن يكون عند أهل الكتاب علم بأنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله؛ أي: لا يحجرون على الله بحسب أهوائهم وعقولهم الفاسدة، فيقولون: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، وَيَتَمَنَّوْنَ عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِيَّ الْفَاسِدَةَ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى [أَنَّ] الْمُؤْمِنِينَ بِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، الْمُتَّقِينَ لِلَّهِ أَنَّ لَهُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَنُورًا وَمَغْفِرَةً؛ رَغْمًا عَلَى أَنْوَافِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَلِيَعْلَمُوا ﴿أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾: مِمَّنْ اقْتَضَتْ حُكْمُهُ تَعَالَى أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ فَضْلِهِ، ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾: الَّذِي لَا يَقَادَرُ قَدْرُهُ.

تم تفسير [سورة الحديد. ولله الحمد والممة. والحمد لله].



تفسير سورة قد سمع الله

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا^(١) وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهُتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ۝ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكَ ثَوَاعُظَةٌ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝﴾.

﴿١﴾ نزلت هذه الآيات الكريمات في رجل من الأنصار اشتكت زوجته إلى الله وجادلته إلى رسول الله ﷺ لَمَّا حَرَّمَهَا عَلَى نَفْسِهِ بَعْدَ الصُّحْبَةِ الطَّوِيلَةِ وَالْأَوْلَادِ،

(١) في (أ) إلى قول: «وللکافرين عذاب أليم»، وفي (ب) ذكر الآيات كاملة.

وكان هو رجلاً شيخاً كبيراً، فشكت حالها وحاله إلى الله وإلى رسول الله ﷺ، وكرّرت ذلك، وأبدت فيه وأعادته، فقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾؛ أي: تخاطبكما فيما بينكما. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾: لجميع الأصوات في جميع الأوقات على تفنن الحاجات. ﴿بَصِيرٌ﴾: يبصر ديبب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء^(١).

وهذا إخبار عن كمال سمعه وبصره، وإحاطتهما بالأمور الدقيقة والجليلة، وفي ضمن ذلك الإشارة بأن الله [تعالى] سيزيل شكواها ويرفع بلواها، ولهذا ذكر حكمها وحكم غيرها^(٢) على وجه العموم، فقال:

﴿٢﴾ ﴿الَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نَسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾: المظاهرة من الزوجة أن يقول الرجل لزوجته: أنت علي كظهر أمي، أو غيرها من محارمه، أو أنت علي حرام. وكان المعتاد عندهم في هذا اللفظ الظهر، ولهذا سماه الله ظهاراً، فقال: ﴿الَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نَسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾؛ أي: كيف يتكلمون بهذا الكلام الذي يعلمون^(٣) أنه لا حقيقة له، فيشبهون أزواجهم بأُمَّهَاتِهِم اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ؟! ولهذا عظم الله أمره وقبحه، فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾؛ أي: قولاً شنيعاً وكذباً^(٤)، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾: عمن صدر منه بعض المخالفات فتداركها بالتوبة النصوح.

﴿٣﴾ ﴿وَالَّذِينَ^(٥) يَظَاهِرُونَ مِنْ نَسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾: اختلف العلماء في معنى العود، فقليل معناه العزم على جماع من ظاهر منها، وأنه بمجرد عزمه؛ تجب عليه الكفارة المذكورة، ويدل على هذا أن الله تعالى ذكر في الكفارة أنها^(٦) تكون قبل المسيس، وذلك إنما يكون بمجرد العزم، وقيل: معناه حقيقة الوطء، ويدل على ذلك أن الله قال: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾، والذي قالوا إنما هو الوطء، وعلى كل من القولين؛ فإذا وجد العود؛ صار كفارة هذا التحريم ﴿تحرير

(١) في (ب): «في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء».

(٢) في (ب): «ولهذا ذكر حكم هذا الحكم وحكم غيره».

(٣) في (ب): «يعلم».

(٤) في (ب): «منكرًا من القول»؛ أي: قولاً شنيعاً. «وزوراً»؛ أي: كذباً».

(٥) في (ب): «فالذين».

(٦) في (ب): «أن».

رقبة ﴿١﴾: مؤمنة؛ كما قُيِّدَتْ في آية القتل^(١)؛ ذكر أو أنثى؛ بشرط أن تكون سالمة من العيوب الضارة^(٢) بالعمل ﴿من قبل أن يَتَمَاسَا﴾؛ أي: يلزم الزوج أن يترك وطء زوجته التي ظاهر منها حتى يكفّر برقبة. ﴿ذَلِكُمْ﴾: الحكم الذي ذكرناه لكم ﴿تَوْعِظُونَ بِهِ﴾؛ أي: يبيّن لكم حكمه مع التهيب المقرون به؛ لأن معنى الوعظ ذكر الحكم مع الترغيب والتهيب فالذي يريد أن يظاهر؛ إذا ذَكَرَ أَنْ^(٣) عليه عتق رقبة؛ كف نفسه عنه. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: فيجازي كلّ عامل بعمله.

﴿٤﴾ ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾: رقبة يُعْتَقُهَا؛ بأن لم يجدها أو لم يجد ثمنها، ﴿فَ﴾ عليه ﴿صِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ﴾: الصيام، ﴿فَإِطْعَامُ سِتِينَ مَسْكِينًا﴾: إمّا أَنْ^(٤) يطعمهم من قوت بلده ما يكفيهم؛ كما هو قول كثير من المفسرين، وإمّا أَنْ^(٤) يطعم كلّ مسكين مدّ برّ أو نصف صاع من غيره مما يُجْزِي في الفطرة؛ كما هو قول طائفة أخرى. ﴿ذَلِكَ﴾: الحكم الذي بيّناه لكم ووضّحناه، ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: وذلك بالتزام هذا الحكم وغيره من الأحكام والعمل به؛ فإنّ التزام أحكام الله والعمل بها من الإيمان، بل هي المقصودة، ويزداد بها^(٥) الإيمان ويكمل وينمو. ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾: التي تمنع من الوقوع فيها، فيجب أن لا تُتَعَدَى ولا يُقَصَّرَ عنها. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وفي هذه الآيات عدّة أحكام:

منها: لطف الله بعباده واعتناؤه بهم؛ حيث ذَكَرَ شكوى هذه المرأة المصابة، وأزالها، ورَفَعَ عنها البلوى، بل رفع البلوى بحكمه العام لكلّ مَنْ ابتلي بمثل هذه القضية.

ومنها: أن الظهار مختصّ بتحريم الزوجة؛ لأنّ الله قال: ﴿مَنْ نَسَاهُمْ﴾؛ فلو حرم أمته؛ لم يكن ذلك ظهاراً، بل هو من جنس تحريم الطيبات كالطعام والشراب؛ تجب فيه كفارة اليمين فقط.

ومنها: أنّه لا يصحّ الظهار من امرأة قبل أن يتزوَّجها؛ لأنّها لا تدخل في نسائه وقت الظهار؛ كما لا يصح طلاقها؛ سواء نجز ذلك أو علقه.

(٢) في (ب): «المضرة».

(٤) في (ب): «بأن».

(١) في (ب): «آية أخرى».

(٣) في (ب): «أنه يجب عليه».

(٥) في (ب): «ومما يزيد به».

ومنها: أن الظَّهَار محرَّم؛ لأن الله سماه ﴿منكراً من القولِ وزوراً﴾.

ومنها: تنبيه الله على الحكم وحكمته؛ لأن الله قال: ﴿ما هُنَّ أمهاتِهِمْ﴾.

ومنها: أنه يُكره للرجل أن ينادي زوجته ويدعوها^(١) باسم محارمه؛ كقوله: يا أمي يا أختي ونحو ذلك؛ لأنَّ ذلك يشبه المحرَّم.

ومنها: أنَّ الكُفَّارة إنَّما تجب بالَعُود؛ لما قال المظاهرُ على اختلاف القولين السابقين، لا بمجرد الظهار.

ومنها: أنه يجزئ في كفارة الرِّقبة الصغير والكبير والذكر والأنثى؛ لإطلاق الآية في ذلك.

ومنها: أنه يجب إخراجها إذا^(٢) كانت عتقاً أو صياماً قبل المسيس؛ كما قيَّده الله؛ بخلاف كفارة الإطعام؛ فإنه يجوز المسيس والوطء في أثنائها.

ومنها: أنه لعلَّ الحكمة في وجوب الكفارة قبل المسيس أنَّ ذلك ادعى لإخراجها؛ فإنه إذا اشتاق إلى الجماع، وعلم أنه لا يمكن من ذلك إلا بعد الكفارة؛ بادر بإخراجها^(٣).

ومنها: أنه لا بدَّ من إطعام ستين مسكيناً؛ فلو جمع طعام ستين مسكيناً، ودفعها لواحدٍ أو أكثر من ذلك دون الستين؛ لم يجز ذلك؛ لأنَّ الله قال: ﴿فإطعامُ ستين مسكيناً﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كِتُوبًا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقدْ أَنْزَلْنَا ءَايَاتٍ يَبَيِّنُ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ مُهِينٍ﴾ (٥).

﴿٥﴾ محادَّة الله ورسوله مخالفتُهُما ومعصيتُهُما، خصوصاً في الأمور الفظيعة؛ كمحادَّة الله ورسوله بالكفر ومعاداة أولياء الله. وقوله: ﴿كُتِبُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: أذِلُّوا وأهينوا كما فُعِلَ بمن قبلهم جزاءً وإفاقاً، وليس لهم حجة على الله؛ فإنَّ الله قد قامت حجَّته البالغة على الخلق، وقد أنزل من الآيات البيِّنات والبراهين ما يبيِّن الحقائق ويوضِّح المقاصد؛ فمن اتَّبَعها وعمل عليها، فهو من المهتدين الفائزين. ﴿وللْكَافِرِينَ﴾: بها ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾؛ أي: يهينهم ويذلُّهم؛

(٢) في (ب): «إن».

(١) في (ب): «وسميتها».

(٣) في (ب): «لإخراجها».

فكما^(١) تكبروا عن آيات الله؛ أهانهم وأذلهم.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنْشِئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَخَصَلَهُ اللَّهُ وَسُوءَ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾
 ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنْشِئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴿٦﴾

﴿٦﴾ يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ الخلق جميعاً فيقومون^(٢) من أجدانهم سريعاً، فيجازيهم بأعمالهم؛ وينبئهم بما عملوا من خير وشر؛ لأنه علم ذلك وكتبه في اللوح المحفوظ، وأمر الملائكة الكرام الحفظة بكتابته، لهذا العاملون قد نسوا ما عملوه والله أحصى ذلك. ﴿والله على كل شيء شهيد﴾: على الظواهر^(٣) والسرائر والخبايا والخفايا.

﴿٧﴾ ولهذا أخبر عن سعة علمه وإحاطته بما في السماوات والأرض من دقيق وجليل، وأنه ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا﴾: والمراد بهذه المعية معية العلم والإحاطة بما تناجوا به وأسرؤه فيما بينهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. ثم قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْآثِرِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَيُتْسِ الْمَصِيرُ﴾
 ﴿٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّا تَنْجِيْتُمْ فَلَا تَلْتَجُوا بِالْآثِرِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنْجُوا بِالْبَرِّ وَالْتَقَوُا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ ﴿٨﴾

﴿٨ - ٩﴾ النجوى هي التناجي بين اثنين فأكثر، وقد تكون في الخير وتكون في الشر، فأمر الله المؤمنين أن يتناجوا بالبر، وهو اسم جامع لكل خير وطاعة وقيام بحق الله وحق عباده^(٤)، والتقوى، وهي هنا اسم جامع لترك جميع المحارم والمآثم؛ فالمؤمن يمثل هذا الأمر الإلهي؛ فلا تجده مناجياً ومتحدثاً إلا بما يقربه

(٢) في (ب): «ويقومون».

(١) في (ب): «كما».

(٤) في (ب): «وقيام بحق لله ولعباده».

(٣) في (ب): «بالظواهر».

إلى^(١) الله ويباعده من سخطه، والفاجر يتهاونُ بأمر الله ويناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول؛ كالمنافقين الذين هذا دأبهم وحالهم مع الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾؛ أي: يسيئون الأدب في تحييتهم لك، ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾؛ أي: يسرون فيها^(٢) ما ذكره عالم الغيب والشهادة عنهم، وهو قولهم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾؛ ومعنى ذلك^(٣) أنهم يتهاونون بذلك، ويستدلون بعدم تعجيل العقوبة عليهم أن ما يقولونه^(٤) غيرُ محذور، قال تعالى في بيان أنه يمهّل ولا يهمل: ﴿حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾؛ أي: تكفيهم جهنم التي جمعت كل عذاب وشقاء^(٥) عليهم، تحيط بهم ويعذبون بها؛ فبئس^(٦) المصير. وهؤلاء المذكورون إما أناس من المنافقين، يظهرن الإيمان ويخاطبون الرسول ﷺ بهذا الخطاب^(٧) الذي يوهمون أنهم أرادوا به خيراً، وهم كذبة في ذلك، وإما أناس من أهل الكتاب الذين إذا سلّموا على رسول الله ﷺ؛ قالوا: السام عليك يا محمد^(٨). يعنون: الموت.

﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٠).

﴿١٠﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى﴾؛ أي: تناجي أعداء المؤمنين بالمؤمنين بالمكر والخديعة وطلب السوء من الشيطان الذي كيدُهُ ضعيف، [ومكره غير مفيد] ﴿لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: هذا غاية هذا المكر ومقصوده، ﴿وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله﴾: فإن الله [تعالى] وعد المؤمنين بالكفاية والنصر على الأعداء، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾: فأعداء الله ورسوله والمؤمنين مهما تناجوا ومكروا؛ فإن ضرر ذلك عائد إلى أنفسهم^(٩)، ولا يضر المؤمنين إلا شيء قدره الله وقضاه. ﴿وعلى الله فليَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: ليعتمدوا^(١٠) عليه ويتيقوا

(١) في (ب): «من».

(٢) في (ب): «ومعنى هذا».

(٣) في (ب): «كل شقاء وعذاب».

(٤) في (ب): «والخطاب للرسول ﷺ».

(٥) كما في «صحيح البخاري» (٦٣٥٦)، ومسلم (٢١٦٥) من حديث عائشة.

(٦) في (ب): «فإن ضررهم عائد على أنفسهم».

(٧) في (ب): «يعتمدوا».

بوعده؛ فَإِنْ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ؛ كَفَاهُ وَكَفَاهُ^(١) أَمَرَ دِينَهُ وَدُنْيَاهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿١١﴾ هَذَا آدَبٌ^(٢) مِنَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ [المؤمنين] إِذَا اجْتَمَعُوا فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ مَجْتَمَعَاتِهِمْ، وَاحْتِاجُ بَعْضِهِمْ أَوْ بَعْضُ الْقَادِمِينَ [عليهم] لِلتَّفَسُّحِ لَهُ فِي الْمَجْلِسِ؛ فَإِنَّ مِنَ الْآدَبِ أَنْ يَفْسَحُوا لَهُ؛ تَحْصِيلاً لِهَذَا الْمَقْصُودِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بَضَارٌ لِلْفَاسِحِ^(٣) شَيْئاً، فَيَحْصُلُ مَقْصُودُ أَخِيهِ مِنْ غَيْرِ ضَرَرٍ يَلْحَقُهُ، وَالْجِزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ؛ فَإِنَّ مَنْ فَسَحَ؛ فَسَحَ اللَّهُ لَهُ، وَمَنْ وَسَّعَ لِأَخِيهِ؛ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا﴾؛ أَيِ: ارْتَفَعُوا وَتَنَحَّوْا عَنْ مَجَالِسِكُمْ لِحَاجَةِ تَعْرِضٍ، ﴿فَانْشُرُوا﴾؛ أَيِ: فَبَادَرُوا لِلْقِيَامِ لِتَحْصِيلِ تِلْكَ الْمَصْلُحَةِ؛ فَإِنَّ الْقِيَامَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَرْفَعُ أَهْلَ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ دَرَجَاتٍ بِحَسَبِ مَا خَصَّهِمُ [اللَّهُ] بِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: فَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ؛ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ. وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ فَضِيلَةُ الْعِلْمِ، وَأَنْ زِينَتَهُ وَثَمَرَتَهُ التَّأْدُّبُ بِآدَابِهِ وَالْعَمَلُ بِمَقْتَضَاهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَجَئَّعْتُمْ أَرْسُلُوا رَسُولَكُمْ فَذُقُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٢) ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَتٌ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٣).

﴿١٢﴾ يَأْمُرُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّدَقَةِ أَمَامَ مُنَاجَاةِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ تَأْدِيباً لَهُمْ وَتَعْلِيماً وَتَعْظِيماً لِلرَّسُولِ ﷺ؛ فَإِنَّ هَذَا التَّعْظِيمَ خَيْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَأَطْهَرُ؛ أَيِ: بِذَلِكَ يَكْثُرُ خَيْرُكُمْ وَأَجْرُكُمْ، وَتَحْصُلُ لَكُمْ الطَّهَارَةُ مِنَ الْأَدْنَسِ، الَّتِي مِنْ جَمَلَتِهَا تَرَكَ احْتِرَامَ الرَّسُولِ ﷺ وَالْآدَبِ مَعَهُ بِكَثْرَةِ الْمُنَاجَاةِ الَّتِي لَا ثَمَرَةَ تَحْتَهَا؛ فَإِنَّهُ إِذَا أَمَرَ بِالصَّدَقَةِ بَيْنَ يَدَيْ مُنَاجَاةِهِ؛ صَارَ هَذَا مِيزَاناً لِمَنْ كَانَ حَرِيصاً عَلَى الْعِلْمِ وَالْخَيْرِ^(٤)؛ فَلَا يُبَالِي بِالصَّدَقَةِ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَرَصٌ وَلَا رَغْبَةٌ فِي الْخَيْرِ، وَإِنَّمَا مَقْصُودُهُ مَجَرَّدُ كَثْرَةِ الْكَلَامِ، فَيَنْكَفُ بِذَلِكَ عَنِ الَّذِي يَشُقُّ عَلَى الرَّسُولِ، هَذَا فِي الْوَاجِدِ

(١) فِي (ب): «كَفَاهُ وَتَوَلَّى».

(٢) فِي (ب): «تَأْدِيبٌ».

(٣) فِي (ب): «لِلْمَجَالِسِ».

(٤) فِي (ب): «الْخَيْرِ وَالْعِلْمِ».

للصدقة، وأما الذي لا يجد الصدقة؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَيِّقْ عَلَيْهِ الْأَمْرَ، بَلْ عَفَا عَنْهُ وَسَامَحَهُ وَأَبَاحَ لَهُ الْمَنَاجَاةَ بِدُونِ تَقْدِيمِ صَدَقَةٍ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا.

﴿١٣﴾ ثُمَّ لَمَّا رَأَى [تَبَارَكَ وَ] تَعَالَى شَفَقَةً الْمُؤْمِنِينَ وَمَشَقَّةَ الصَّدَقَاتِ عَلَيْهِمْ عِنْدَ كُلِّ مَنَاجَاةٍ؛ سَهَّلَ الْأَمْرَ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يُوَاجِذْهُمْ بِتَرْكِ الصَّدَقَةِ بَيْنَ يَدَيِ الْمَنَاجَاةِ، وَبَقِيَ التَّعْظِيمُ لِلرَّسُولِ وَالْاحْتِرَامُ بِحَالِهِ لَمْ يُنْسَخْ؛ لِأَنَّ هَذَا [الْحَكْمَ] مِنْ بَابِ الْمَشْرُوعِ لغيره، لَيْسَ مَقْصُوداً لِنَفْسِهِ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ هُوَ الْأَدَبُ مَعَ الرَّسُولِ وَالْإِكْرَامُ لَهُ، وَأَمَرَهُمْ تَعَالَى أَنْ يَقُومُوا بِالْمَأْمُورَاتِ الْكِبَارِ الْمَقْصُودَةِ بِنَفْسِهَا، فَقَالَ: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا؟﴾ أَي: لَمْ يَهْنُ عَلَيْكُمْ تَقْدِيمُ الصَّدَقَةِ، وَلَا يَكْفِي هَذَا؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَرْطِ الْأَمْرِ أَنْ يَكُونَ هِنًا عَلَى الْعَبْدِ، وَلِهَذَا قَيَّدَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ؟﴾ أَي: عَفَا لَكُمْ عَنْ ذَلِكَ، ﴿فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ﴾: بِأَرْكَانِهَا وَشُرُوطِهَا وَجَمِيعِ حُدُودِهَا وَلُوَاظِمِهَا، ﴿وَاتُوا الزَّكَاةَ﴾: الْمَفْرُوضَةَ فِي أَمْوَالِكُمْ إِلَى مُسْتَحَقِّهَا.

وَهَاتَانِ الْعِبَادَتَانِ هُمَا أُمُّ الْعِبَادَاتِ الْبَدَنِيَّةِ وَالْمَالِيَّةِ؛ فَمَنْ^(١) قَامَ بِهِمَا عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ؛ فَقَدْ قَامَ بِحَقُوقِ اللَّهِ وَحَقُوقِ عِبَادِهِ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: وَهَذَا أَشْمَلُ مَا يَكُونُ مِنَ الْأَوَامِرِ، فَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ طَاعَةُ اللَّهِ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ بِامْتِثَالِ أَوَامِرِهِمَا وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِمَا وَتَصَدِيقِ مَا أَخْبَرَا بِهِ وَالْوُقُوفُ عِنْدَ حُدُودِ الشَّرْعِ^(٢)، وَالْعِبَرَةُ فِي ذَلِكَ عَلَى الْإِخْلَاصِ وَالْإِحْسَانِ؛ فَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: فَيَعْلَمُ تَعَالَى أَعْمَالَهُمْ، وَعَلَى أَيِّ وَجْهِ صَدَرَتْ، فَيَجَازِيهِمْ عَلَى حَسَبِ عِلْمِهِ بِمَا فِي صُدُورِهِمْ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ^(٣) مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾ لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَعَاذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾.

(١) فِي (ب): «وَمِنْ».

(٢) فِي (ب): «حُدُودِ اللَّهِ».

(٣) فِي (أ) إِلَى قَوْلِهِ: «هُمْ الْخَاسِرُونَ»، وَفِي (ب) ذِكْرُ الْآيَاتِ كَامِلَةٌ.

﴿١٤ - ١٥﴾ يخبر تعالى عن شناعة حال المنافقين، الذين يَتَوَلَّوْنَ الكافرين من اليهود والنصارى وغيرهم مَمَّنْ غَضِبَ اللَّهُ عليهم ونالوا من لعنةِ اللَّهِ أوفى نصيب، وأنهم ليسوا من المؤمنين ولا من الكافرين: ﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾: فليسوا مؤمنين ظاهراً وباطناً؛ لأنَّ باطنهم مع الكفار، ولا مع الكفار ظاهراً وباطناً؛ لأنَّ ظاهرهم مع المؤمنين، وهذا وصفهم الذي نعتهم الله به، والحال أنَّهم يحلفون على ضده الذي هو الكذب، فيحلفون أنَّهم مؤمنون، والحال^(١) أنَّهم ليسوا مؤمنين، فجزاء هَؤُلَاءِ الخونة الفجرة الكذبة أنَّ الله أعدَّ لهم عذاباً شديداً لا يقادَرُ قدره ولا يُعْلَمُ وصفه؛ ﴿أَنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: حيث عملوا بما يُسْخِطُ^(٢) الله ويوجبُ عليهم العقوبة واللعنة.

﴿١٦﴾ ﴿اتَّخِذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾؛ أي: ترساً ووقايةً يتَّقون بها من لوم الله ورسوله والمؤمنين، فبسبب ذلك صدَّوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، وهو^(٣) الصراط الذي مَن سَلَكَه؛ أفضى به إلى جنات النعيم، ومن صدَّ عنه؛ فليس إلاَّ الصراط الموصل إلى الجحيم، ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: حيث استَكْبَرُوا عن الإيمان بالله والانقياد لآياته؛ أهانهم بالعذاب السرمدي الذي لا يُفْتَر عنهم ساعة ولا هم يُنْظَرُونَ.

﴿١٧﴾ ﴿لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾؛ أي: لا^(٤) تَدْفَعُ عنهم شيئاً من العذاب، ولا تحصُلُ لهم قسطاً من الثواب، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾: الملازمون لها، الذين لا يخرجون عنها، و﴿هم فيها خالدون﴾.

﴿١٨﴾ ومن عاش على شيء؛ مات عليه؛ فكما أنَّ المنافقين في الدنيا يمُوهون على المؤمنين ويحلفون لهم أنَّهم مؤمنون، فإذا كان يوم القيامة وبعثهم الله جميعاً؛ حلفوا لله كما حلفوا للمؤمنين، ويحسبون في حلفهم هذا ﴿أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾: لأنَّ كفرهم ونفاقهم وعقائدهم الباطلة لم تَزَلْ تَرْسُخُ في أذهانهم شيئاً فشيئاً، حتى غرَّتهم وظنُّوا أنَّهم على شيء يعتدُّ به ويعلقُ عليه الثواب، وهم كاذبون في ذلك، ومن المعلوم أنَّ الكذب لا يروِّجُ على عالم الغيب والشهادة.

﴿١٩﴾ وهذا الذي جرى عليهم من استحواذ الشيطان الذي استولى عليهم وزَيَّنَ

(١) في (ب): «وهم يعلمون أنهم».

(٢) في (ب): «يسخطه».

(٣) في (ب): «وهي».

(٤) في (ب): «فلا».

لهم أعمالهم وأنساهم ذَكَرَ الله، وهو العدو المبین الذي لا يريدُ بهم إلا الشرَّ، إنما يدعو حِزْبَهُ ليكونوا من أصحاب السعير، ﴿أولئك حزب الشيطان ألا إنَّ حزب الشيطان هم الخاسرون﴾: الذين خسروا دينهم ودنياهم وأنفسهم وأهلهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبُكُ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾.

﴿٢٠ - ٢١﴾ هذا وعدٌ ووعدٌ، وعيدٌ لمن حادَّ الله ورسوله بالكفر والمعاصي أنه مخذولٌ مذلولٌ لا عاقبة له حميدة، ولا راية له منصوره، ووعدٌ لمن آمن به وبرسوله وأتبع ما جاء به المرسلون فصار من حزب الله المفلحين أن لهم الفتح والنصر^(١) والغلبة في الدنيا والآخرة، وهذا وعدٌ لا يُخلفُ ولا يغيَّرُ؛ فإنه من الصادق القوي العزيز الذي لا يعجزه شيء يريده.

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿٢٢﴾.

﴿٢٢﴾ يقول تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؟ أَي: لا يجتمع هذا وهذا، فلا يكون العبد مؤمناً بالله واليوم الآخر حقيقة إلا كان عاملاً على مقتضى إيمانه^(٣) ولوازمه من محبة مَنْ قام بالإيمان وموالاته وبُغض مَنْ لم يَقُمْ به ومعاداته، ولو كان أقرب الناس إليه، وهذا هو الإيمان على الحقيقة، الذي وجدت ثمرته والمقصود منه، وأهل هذا الوصف هم الذين ﴿كَتَبَ﴾ الله ﴿في قلوبهم الإيمان﴾؛ أي: رسمه وثبته وعرسه غرساً لا يتزلزل ولا تؤثر فيه الشبهة والشكوك، وهم الذين قواهم الله ﴿بروح منه﴾؛ أي: بوحيه ومعونته ومدده الإلهي وإحسانه الرباني وهم الذين لهم الحياة الطيبة في هذه الدار، ولهم جنات النعيم في دار القرار، التي فيها كلُّ^(٤) ما تشتهيهِ الأنفس وتلذُّ

(١) في (ب): «النصرة».

(٢) في (أ) إلى آخر السورة، وفي (ب) ذكر الآيات إلى نهاية السورة.

(٣) في (ب): «من كل».

(٤) في (ب): «الإيمان».

الأعين وتختار، ولهم أفضل النعيم وأكبره^(١)، وهو أَنَّ اللَّهَ يُجِلُّ عَلَيْهِمْ رِضْوَانَهُ؛ فلا يسخطُ عليهم أبداً، ويرضون عن ربهم بما يعطيهم من أنواع الكرامات ووافر المثوبات وجزيل الهبات ورفيع الدرجات؛ بحيث لا يَرَوْنَ فوق ما أعطاهم مولاهم غايةً ولا وراءه^(٢) نهايةً، وأما مَنْ يزعمُ أَنَّهُ يؤمن بالله واليوم الآخر، وهو مع ذلك موادُّ لأعداء الله محبُّ لمن نَبَذَ^(٣) الإيمان وراء ظهره؛ فإنَّ هذا إيمانٌ زعميٌّ لا حقيقة له؛ فإنَّ كُلَّ أمرٍ لا بدَّ له من برهانٍ يصدِّقه؛ فمجردُ الدعوى لا تفيدُ شيئاً ولا يصدِّقُ صاحبها. والحمد لله^(٤).



تفسير سورة الحشر

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا^(٥) وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلْنَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيْخَرِىَ الْفَلْسَفِينَ (٥) وَمَا آفَاةُ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَا آفَاةُ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَى لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ

(١) في (ب): «ولهم أكبر النعيم وأفضله». (٢) في (ب): «فوقه».

(٣) في (ب): «ترك».

(٤) في (ب): «تم تفسير: قد سمع الله. بحمد الله وعونه وتسديده. والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على محمد وسلم تسليماً».

(٥) في (أ) إلى آخر ما ذكر الله من قصتهم، وفي (ب) ذكر الآيات إلى قوله: «فاعتبروا يا أولي الأبصار». ثم قال: إلى آخر القصة.

مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾
 لِلْفَقْرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ
 اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ
 إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ
 وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا
 اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ
 رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
 الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ
 يَتَّبِعُ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ
 لَيَأْكُلُنَّ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يُصَرُّوكَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتَ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
 قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُمْنُ لَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ
 شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَذَلِكَ الَّذِينَ مِنْ
 قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاتُوا أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَذَلِكَ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا
 كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَقِبَهُمَا أَنْتَهُمَا فِي النَّارِ
 خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴿

هذه السورة تُسمَّى سورة بني النضير، وهم طائفة كبيرة من اليهود في جانب المدينة وقت بعثة النبي ﷺ، فلما بُعث النبي ﷺ^(١) وهاجر إلى المدينة؛ كفروا به في جملة من كفر من اليهود، فهادن النبي ﷺ طوائف اليهود الذين هم جيرانه في المدينة، فلما كان بعد وقعة بدر بستة أشهر أو نحوها؛ خرج إليهم النبي ﷺ، وكلَّمهم أن يعينوه في دية الكلابيين الذين قتلهم عمرو بن أمية الضمري، فقالوا: نفعل يا أبا القاسم! اجلس هاهنا حتى نقضي حاجتك! فخلا بعضهم ببعض، وسؤل لهم الشيطان الشقاء الذي كُتب عليهم، فتأمروا بقتله ﷺ، فقالوا^(٢): أيكم يأخذ هذه

(١) في (ب): «فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة هادن سائر طوائف اليهود».

(٢) في (ب): «وقالوا».

الرحى فيصعد^(١) فيلقبها على رأسه يشدخه بها؟ فقال أشقاها عمرو بن جحاش: أنا. فقال لهم سلامٌ بن مشكم: لا تفعلوا؛ فوالله؛ لَيُخْبِرَنَّ بما هممتم به، وإنه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه.

وجاء الوحي على الفور إليه من ربه بما هموا به، فنهض مسرعاً، فتوجّه إلى المدينة، ولحقه أصحابه، فقالوا: نهضت ولم نشعر بك! فأخبرهم بما همّت يهود به، وبعث إليهم رسول الله ﷺ أن أخرجوا من المدينة ولا تساكُنوني بها، وقد أجَلَّتكم عشراً؛ فمن وجدث بعد ذلك؛ ضربت عنقه. فأقاموا أياماً يتجهّزون، وأرسل إليهم المنافق عبدالله بن أبي بن سلول أن لا تخرجوا من دياركم؛ فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم فيموتون دونكم، وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان. وطمع رئيسهم حيي بن أخطب فيما قال له، وبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إننا لا نخرج من ديارنا؛ فاصنع ما بدا لك! فكبر رسول الله ﷺ وأصحابه، ونهضوا إليهم، وعلي بن أبي طالب يحمل اللواء، وأقاموا على حصونهم يرمون بالنبل والحجارة، واعتزلتهم قريظة، وخانهم ابن أبي وحلفاؤهم من غطفان، فحاصروهم رسول الله ﷺ، وقطع نخلهم وحرّق، فأرسلوا إليه: نحن نخرج من المدينة، فأنزلهم على أن يخرجوا منها بنفوسهم وذرائعهم وأن لهم ما حملت إبلهم إلا السلاح. وقبض رسول الله ﷺ الأموال والسلاح.

وكانت بنو النضير خالصة لرسول الله ﷺ لنوائبه ومصالح المسلمين، ولم يخمّسها؛ لأن الله أفاءها عليه ولم يوجِف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب، وأجلاهم إلى خيبر، وفيهم حيي بن أخطب كبيرهم، واستولى على أرضهم وديارهم، وقبض السلاح، فوجد من السلاح خمسين درعاً وخمسين بيضة وثلاثمائة وأربعين سيفاً، هذا حاصل قصتهم كما ذكرها أهل السير^(٢).

﴿١﴾ فافتتح تعالى هذه السورة بالإخبار أن جميع من في السماوات والأرض تسبّح بحمد ربّها وتزكّيه عمّا لا يليق بجلاله وتعبّده وتخضع لعظمته^(٣)؛ لأنه العزيز الذي قد قهر كلّ شيء؛ فلا يمتنع عليه شيء، ولا يستعصي عليه عسير^(٤)، الحكيم

(١) في (ب): «ويصعد».

(٢) انظر «سيرة ابن هشام» (٢٥٧/٣)، و«الطبقات» لابن سعد (٥٧/٢).

(٣) في (ب): «لجلالته». (٤) في (ب): «مستعص».

في خلقه وأمره؛ فلا يخلُق شيئاً عبثاً، ولا يُشرع ما لا مصلحة فيه، ولا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته.

﴿٢﴾ ومن ذلك نصره لرسوله ﷺ على الذين كفروا من أهل الكتاب من بني النضير حين غَدَرُوا برسوله فأخرجهم من ديارهم وأوطانهم التي أَلْفَوْهَا وأحبوها، وكان إخراجهم منها أول حشر وجلاء كتبه الله عليهم على يد رسوله محمد ﷺ، فجلوا إلى خيبر. ودلت الآية الكريمة أن لهم حشراً وجلاءً غير هذا؛ فقد وقع حين أجلاهم النبي ﷺ من خيبر، ثم عمر رضي الله عنه أخرج بقيتهم منها. ﴿ما ظننتم﴾: أيها المسلمون ﴿أن يخرجوا﴾: من ديارهم؛ لحصانتها ومنعتها وعزهم فيها، ﴿وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله﴾: فأعجبوا بها، وغرَّتْهم، وحسبوا أنهم لا يَنَالون بها، ولا يَقْدِرُ عليها أحدٌ، وقَدَّرَ الله وراء ذلك كله، لا تغني عنه الحصون والقلاع ولا تجدي فيه ^(١) القوة والدفاع، ولهذا قال: ﴿فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا﴾؛ أي: من الأمر والباب الذي لم ^(٢) يخطر ببالهم أن يُؤْتُوا منه، وهو أنه تعالى: ﴿قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾: وهو الخوف الشديد، الذي هو جند الله الأكبر، الذي لا ينفع معه عددٌ ولا عدةٌ ولا قوةٌ ولا شدةٌ؛ فالأمر الذي يحتسبونه، ويظنون أن الخلل يدخل عليهم منه إن دخل، هو الحصون التي تحصَّنوا بها واطمأنَّتْ نفوسهم إليها، ومن وثق بغير الله؛ فهو مخدولٌ، ومن ركن إلى غير الله؛ كان وبالاً عليه ^(٣)، فأتاهم أمرٌ سماويٌّ نزل على قلوبهم، التي هي محلُّ الثبات والصبر أو الخور والضعف، فأزال قوتها وشدَّتها، وأورثها ضعفاً وخوراً وجبناً لا حيلة لهم في دفعه ^(٤)، فصار ذلك عوناً عليهم، ولهذا قال: ﴿يُخْرِبُونَ بَيْتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾، وذلك أنهم صالحوا النبي ﷺ على أن لهم ما حملت الإبل، فنقضوا لذلك كثيراً من سقوفهم التي استحسِنوها، وسلَّطوا المؤمنين بسبب بغيتهم على إخراج ديارهم وهدم حصونهم، فهم الذين جَنَوْا على أنفسهم وصاروا أكبر ^(٥) عونٍ عليها. ﴿فَاغْتَبَرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾؛ أي: البصائر النافذة والعقول الكاملة؛ فإن في هذا معبراً يُعرَف به صنع الله [تعالى] في المعاندين للحق، المتبعين لأهوائهم، الذين لم تنفعهم عزَّتْهم ولا مَنَعَتْهم قوتهم ولا حصَّتْهم

(١) في (ب): «فيهم».

(٢) في (ب): «فهو عليه وبال».

(٣) في (ب): «من أكبر».

(٤) في (ب): «لا».

(٥) في (ب): «لا حيلة لهم ولا منعة معه».

حصونهم، حين جاءهم أمرُ الله؛ وصل إليهم النكال بذنوبهم، والعبرة بعموم المعنى^(١) لا بخصوص السبب؛ فإنَّ هذه الآية تدلُّ على الأمر بالاعتبار، وهو اعتبار النظر بنظيره، وقياس الشيء على ما يشابهه^(٢)، والتفكير فيما تضمَّنته الأحكام من المعاني والحكم التي هي محلُّ العقل والفكرة، وبذلك يكملُ^(٣) العقل، وتتور البصيرة، ويزداد الإيمان، ويحصل الفهم الحقيقي.

﴿٣﴾ ثم أخبر تعالى أنَّ هؤلاء اليهود لم يصنِّعوا جميع ما يستحقون من العقوبة، وأنَّ الله خَفَّفَ عنهم، فلولا أنه كتبَ عليهم الجلاء الذي أصابهم وقضاه عليهم [وقدره] بقدره الذي لا يُبدَل ولا يُغيَّر؛ لكان لهم شأنٌ آخر من عذاب الدنيا ونكالها، ولكنهم وإن فاتهم العذاب الشديد الدنيوي؛ فإنَّ لهم في الآخرة عذاب النار الذي لا يمكن أن يعلم شدَّته إلَّا الله؛ فلا يخطر ببالهم أن عقوبتهم [قد] انقضت وفرغت ولم يبقَ لهم منها بقية؛ فما أعدَّ الله لهم من العذاب في الآخرة أعظم وأطم.

﴿٤﴾ و﴿ذلك﴾ لأنَّهم ﴿شأوا الله ورسوله﴾: وعادَوْهما وحاربوهما وسعوا في معصيتهما، وهذه سنته وعادته فيمن شأه. ﴿ومن يُشاق الله فإنَّ الله شديد العقاب﴾.

﴿٥﴾ ولما لام بنو النضير رسولَ الله ﷺ والمسلمين في قطع النخيل والأشجار، وزعموا أنَّ ذلك من الفساد وتوصلوا بذلك^(٤) إلى الطعن بالمسلمين، أخبر تعالى أنَّ قطع النخيل إن قطعوه أو إبقاءهم إيَّاه إن أبقوه؛ أنه بإذنه [تعالى] وأمره، ﴿وليُخزي الفاسقين﴾: حيث سلَّطكم على قطع نخيلهم وتحريقها؛ ليكون ذلك نكالاً لهم وخزياً في الدنيا وذلاً يُعرف به عجزُهم التأم الذي ما قدرُوا على استنقاذ نخيلهم الذي هو^(٥) مادة قوتهم. واللينة تشمل^(٦) سائر النخيل على أصحِّ الاحتمالات وأولاهَا؛ فهذه حال بني النضير وكيف عاقبهم الله [تعالى] في الدنيا.

﴿٦﴾ ثم ذكر مَنْ انتقلت إليه أموالهم وأمتعتهُم، فقال: ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم﴾؛ أي: من أهل هذه القرية، وهم بنو النضير، ﴿ف﴾: إنَّكم يا معشر المسلمين، ﴿ما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب﴾؛ أي: ما أجلبتم وحشدتم^(٧)؛

(١) في (ب): «اللفظ».

(٢) في (ب): «يزداد».

(٣) في (ب): «به».

(٤) في (ب): «التي هي».

(٥) في (ب): «واللينة اسم يشمل».

(٦) في (ب): «ما أوجفتم؛ أي: أجلبتم وأسرعتم وحشدتم عليه من خيل ولا ركاب».

أي: لم تتعبدوا بتحصيلها لا بأنفسكم ولا بمواشيكم، بل قذف الله في قلوبهم الرعب، فأتاكم صفواً عفواً، ولهذا قال: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَسْلُطُ رِسَالَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: من تمام قدرته أنه لا يمتنع عليه^(١) ممتنع ولا يتعزّز من دونه قويٌّ.

﴿٧﴾ وتعريف الفيء باصطلاح الفقهاء: هو ما أخذ من مال الكفار بحق من غير قتال؛ كهذا المال الذي فزوا وتركوه خوفاً من المسلمين، وسُمّي فيئاً؛ لأنه رجع من الكفار الذين هم غير مستحقّين له إلى المسلمين الذين لهم الحقّ الأوفر فيه. وحكمه العام كما ذكره الله بقوله: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾: عموماً، سواء كان في وقت الرسول^(٢) أو بعده على من تَوَلَّى من بعده من أمته، ﴿لِللَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾: وهذه الآية نظير الآية التي في سورة الأنفال^(٣)، وهي قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾؛ فهذا الفيء يُقسم خمسة أقسام: لله ولرسوله يُصْرَفُ في مصالح المسلمين العامة. وخمسٌ لذوي القربى، وهم بنو هاشم وبنو المطلب؛ حيث كانوا، يسوّى فيه بين ذكورهم وإناثهم، وإنّما دخل بنو المطلب في خمس الخمس مع بني هاشم ولم يدخل بقية بني عبد مناف؛ لأنهم شاركوا بني هاشم في دخولهم الشعب حين تعاقدت قريش على هجرهم^(٤) وعداوتهم، فنصروا رسول الله ﷺ؛ بخلاف غيرهم، ولهذا قال النبي ﷺ في بني عبد المطلب: «إنّهم لم يفارقوني في جاهليّة ولا إسلام»^(٥). وخمسٌ لفقراء اليتامى، وهم من لا أب له ولم يبلغ. وخمسٌ للمساكين. وخمسٌ^(٦) لأبناء السبيل، وهم الغرباء المنقطع بهم في غير أوطانهم. وإنّما قدر الله هذا التقدير وحصر الفيء في هؤلاء المعيّنين؛ لكي لا يكون

(١) في (ب): «منه». (٢) في (ب): «في قوله».

(٣) في (ب): «سواء أفاء الله في وقت رسوله». (٤) آية: (٤١).

(٥) في (ب): «في قوله».

(٦) في (ب): «حين تعاقدت على هجرهم قريش».

(٧) في (ب): «ونصروا».

(٨) كما في «المسند» (٨١/٤)، والنسائي (١٣١/٧)، وصححه الألباني في «الإرواء» (٧٨/٥).

(٩) في (ب): «وسهم».

دَوْلَةً؛ أي: مداولةً واختصاصاً ﴿بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾: فإنه لو لم يقدره؛ لتداولته الأغنياء الأقوياء، ولما حصلَ لغيرهم من العاجزين منه شيءٌ، وفي ذلك من الفساد ما لا يعلمه إلا الله؛ كما أنَّ في اتِّباع أمر الله وشرعه من المصالح ما لا يدخل تحت الحصر، ولذلك أمر الله بالقاعدة الكلِّية والأصل العام، فقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾: وهذا شاملٌ لأصول الدين وفروعه ظاهره وباطنه، وأنَّ ما جاء به الرسول يتعيَّن على العباد الأخذ به واتباعه، ولا تحلُّ مخالفته، وأنَّ نصَّ الرسول على حكم الشيء كنصُّ الله تعالى؛ لا رخصة لأحدٍ ولا عذر له في تركه، ولا يجوز تقديم قول أحدٍ على قوله. ثم أمر بتقواه التي بها عِمارة القلوب والأرواح والدُّنيا والآخرة، وبها السعادة الدائمة والفوز العظيم، وبإضاعتها الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: على من ترك التقوى وآثر اتِّباع الهوى.

﴿٨ - ٩﴾ ثم ذكر تعالى الحكمة والسبب الموجب لجعله تعالى أموالاً^(١) الفية لمن قدرها له، وأنَّهم حقيقون بالإعانة، مستحقُّون لأن تُجعل لهم، وأنَّهم ما بين مهاجرين؛ قد هجروا المحبوبات والمألوفات من الديار والأوطان والأحباب والخلان والأموال رغبةً في الله ونصرةً لدين الله ومحبةً لرسول الله؛ فهؤلاء هم الصادقون؛ الذين عملوا بمقتضى إيمانهم، وصدَّقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة والعبادات الشاقة؛ بخلاف من ادَّعى الإيمان وهو لم يصدِّقه بالجهد والهجرة وغيرهما من العبادات، وبين أنصار، وهم الأوس والخزرج، الذين آمنوا بالله ورسوله طوعاً ومحبةً واختياراً، وآووا رسول الله ﷺ، ومنعوه من الأحمر والأسود، وتبَّؤوا دار الهجرة والإيمان، حتى صارت موئلاً ومرجعاً يرجع إليه المؤمنون، ويلجأ إليه المهاجرون، ويسكن بحماه المسلمون؛ إذ كانت البلدان كلها بلدان حربٍ وشركٍ وشرٍّ، فلم يزل أنصارُ الدين يأوون^(٢) إلى الأنصار، حتى انتشر الإسلام وقوي وجعل يزداد^(٣) شيئاً فشيئاً، [وينمو قليلاً قليلاً] حتى فتحوا القلوب بالعلم والإيمان والقرآن، والبلدان بالسيف والسنان، الذين من جملة أوصافهم الجميلة أنَّهم ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾، وهذا لمحبتهم لله ورسوله، أحبُّوا أحبابه، وأحبُّوا من نصر دينه. ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾؛ أي: لا

(١) في (ب): «لجعله تعالى الأموال أموال الفية».

(٢) في (ب): «يزيد».

(٣) في (ب): «تاوي».

يَحْسُدُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَخَصَّهُمْ بِهِ مِنَ الْفَضَائِلِ وَالْمَنَاقِبِ الَّذِينَ^(١) هُمْ أَهْلُهَا.

وهذا يدلُّ على سلامة صدورهم وانتفاء الغلِّ والحقد والحسد عنها، ويدلُّ ذلك على أنَّ المهاجرين أفضل من الأنصار؛ لأنَّ الله قدَّمهم بالذكر، وأخبر أنَّ الأنصار لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، فدلُّ على أنَّ الله تعالى آتاهم ما لم يؤت الأنصار ولا غيرهم، ولأنَّهم جمعوا بين النصرة والهجرة، وقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾؛ أي: ومن أوصاف الأنصار التي فاقوا بها غيرهم وتميَّزوا بها عن سواهم الإيثار، وهو أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار بمحبِّ النفس من الأموال وغيرها، وبذلها للغير، مع الحاجة إليها، بل مع الضُّرورة والخصاصة، وهذا لا يكون إلا من خُلِقَ زكياً ومحبَّةً لله تعالى مقدَّمة على [محبَّة] شهوات النفس ولذاتها. ومن ذلك قصَّة الأنصاري^(٢) الذي نزلت الآية بسببه حين أثر ضيفه بطعامه وطعام أهله وأولاده وباتوا جوعاً.

والإيثار عكس الأثرة؛ فالإيثار محمود، والأثرة مذمومة؛ لأنها من خصال البخل والشح، ومن رزق الإيثار؛ فقد وقَّى شح نفسه، ﴿وَمَنْ يَوْقَ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾؛ ووقاية شح النفس يشمل وقايتها الشح في جميع ما أمر^(٣) به؛ فإنه إذا وقَّى العبد شح نفسه؛ سمحت نفسه بأوامر الله ورسوله، ففعلها طائعاً متقاداً منشراحاً بها صدره، وسمحت نفسه بترك ما نهى الله عنه، وإن كان محبوباً للنفس؛ تدعو إليه وتطلَّع إليه، وسمحت نفسه ببذل الأموال في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وبذلك يحصل الفلاح والفوز؛ بخلاف مَنْ لم يوقَّ شح نفسه، بل ابتلي بالشح بالخير الذي هو أصل الشرِّ ومادته.

﴿١٠﴾ فهذان^(٤) الصنفان الفضلان الزكيَّان هم الصحابة الكرام والأئمة الأعلام، الذين حازوا من السوابق والفضائل والمناقب ما سَبَقُوا به مَنْ بعدهم وأدركوا به مَنْ قبلهم، فصاروا أعيان المؤمنين وسادات المسلمين وقادات المتقين، وحسب من بعدهم من الفضل أن يسير خلفهم ويأتهم بهداهم، ولهذا ذكر الله من اللاحقين مَنْ هو مؤتمِّ بهم [وسائر خلفهم]، فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾؛ أي: من بعد

(١) في (ب): «التي».

(٢) كما في «صحيح البخاري» (٣٧٩٨)، ومسلم (٢٠٥٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) في (ب): «فهؤلاء».

(٣) في (ب): «أمرت».

المهاجرين والأنصار، ﴿يقولون﴾: على وجه التصح لأنفسهم ولسائر المؤمنين: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾: وهذا دعاء شامل لجميع المؤمنين من السابقين من الصحابة ومن قبلهم ومن بعدهم، وهذا من فضائل الإيمان؛ أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض ويدعو بعضهم لبعض؛ بسبب المشاركة في الإيمان، المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين، التي من فروعها أن يدعو بعضهم لبعض، وأن يحب بعضهم بعضاً، ولهذا ذكر الله في هذا الدعاء نفي الغل عن القلب، الشامل لقليله^(١) وكثيره، الذي إذا انتفى؛ ثبت ضده، وهو المحبة بين المؤمنين^(٢) والموالة والنصح ونحو ذلك مما هو من حقوق المؤمنين، فوصف الله من بعد الصحابة بالإيمان؛ لأن قولهم: ﴿سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾: دليل على المشاركة فيه^(٣)، وأنهم تابعون للصحابة في عقائد الإيمان وأصوله، وهم أهل السنة والجماعة، الذين لا يصدق هذا الوصف التام إلا عليهم، ووصفهم بالإقرار بالذنوب والاستغفار منها واستغفار بعضهم لبعض واجتهادهم في إزالة الغل والحق [عن قلوبهم] لإخوانهم المؤمنين؛ لأن دعاءهم بذلك مستلزم لما ذكرنا ومتضمن لمحبة بعضهم بعضاً، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، وأن ينصح له حاضراً وغائباً حياً وميتاً.

ودلت الآية الكريمة على أن هذا من جملة حقوق المؤمنين بعضهم لبعض. ثم ختموا دعاءهم باسمين كريمين دالين على كمال رحمة الله وشدة رأفته وإحسانه بهم، الذي من جملته: بل [من] أجله توفيقهم للقيام بحقوقه^(٤) وحقوق عباده. فهؤلاء الأصناف الثلاثة هم أصناف هذه الأمة، وهم المستحقون للفيء، الذي مصرفه راجع إلى مصالح الإسلام، وهؤلاء أهله الذين هم أهلهم، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

﴿١١﴾ ثم تعجب تعالى من حال المنافقين، الذين طمّعوا لإخوانهم من أهل الكتاب في نصرتهم ومولاتهم على المؤمنين، وأنهم يقولون لهم: ﴿لئن أخرجتم لتُخرجنَّ معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً﴾؛ أي: لا نطيع في عدم نصرتكم أحداً يعذلنا أو يخوفنا، ﴿وان^(٥) قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون﴾: في هذا الوعد الذي غرّوا به إخوانهم، ولا يستكثر هذا عليهم؛ فإن الكذب وصفهم،

(١) في (ب): «للمؤمنين».

(٢) في (ب): «الشامل لقليل الغل وكثيره».

(٣) في (ب): «في الإيمان».

(٤) في (ب): «بحقوق الله».

(٥) في (ب): «ولئن».

والغرور والخداع مقارنهم، والنفاق والجبن يصحبهم.

﴿١٢﴾ وللهذا كذبهم الله بقوله الذي وُجِدَ مخبره كما أخبر به ووقع طبق ما قال، فقال: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا﴾؛ أي: من ديارهم جلاءً ونفيًا ﴿لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾: لمحبتهم للأوطان، وعدم صبرهم على القتال، وعدم وفائهم بالوعد^(١)، ﴿وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾: بل يستولي عليهم الجبن ويملكهم الفشل وَيَخَذُلُونَ إِخْوَانَهُمْ أَحْوجَ ما كانوا إليهم، ﴿وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ﴾: على الفرض والتقدير^(٢)، ﴿لَيُؤَلِّقَنَّ الْأَذْيَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾؛ أي: سيحصل^(٣) منهم الإذبار عن القتال والنصرة، ولا يحصل لهم نصر من الله.

﴿١٣﴾ والسبب الذي حملهم على^(٤) ذلك أنكم أيها المؤمنون ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾: فخافوا منكم أعظم ممَّا يخافون الله، وقَدَّمُوا مخافة المخلوق الذي لا يملك لنفسه [ولا لغيره] نفعاً ولا ضرراً على مخافة الخالق الذي بيده الضر والنفع^(٥) والعطاء والمنع. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾: مراتب الأمور، ولا يعرفون حقائق الأشياء، ولا يتصوِّرون العواقب، وإنَّما الفقه كلُّ الفقه أن يكون خوف الخالق ورجاؤه ومحبته مقدمة على غيرها، وغيرها تبعاً لها.

﴿١٤﴾ ﴿لَا يِقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾؛ أي: في حال الاجتماع ﴿إِلَّا فِي قَرْيٍ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾؛ أي: لا يثبتون على قتالكم^(٦) ولا يعزمون عليه إلَّا إذا كانوا متحصنين في القرى أو من وراء الجدر والأسوار؛ فإنهم إذ ذاك ربَّما يحصل منهم امتناع اعتماداً على حصونهم وجُدُرهم لا شجاعة بأنفسهم، ولهذا من أعظم الدَّمِ. ﴿بِأَسْهُمَ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾؛ أي: بأسهم فيما بينهم شديد، لا آفة في أبدانهم ولا في قوتهم، وإنَّما الآفة في ضعف إيمانهم وعدم اجتماع كلمتهم، ولهذا قال: ﴿تَخَسَّبُ لَهُمْ جَمِيعًا﴾: حين تراهم مجتمعين ومتظاهرين، ﴿وَلَكِنْ قُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾؛ أي: متباغضة متفرقة متشتتة. ﴿ذَلِكَ﴾: الذي أوجب لهم اتصافهم بما ذُكِرَ ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: لا عقل عندهم ولا لب؛ فإنَّهم لو كانت لهم عقول؛ لآثروا الفاضل على المفضل، ولما رضوا لأنفسهم بأبخس الخطتين،

(٢) في (ب): «على ضرب المثل».

(٤) في (ب): «أوجب لهم».

(٦) في (ب): «لقتالكم».

(١) في (ب): «بوعدهم».

(٣) في (ب): «ليحصل».

(٥) في (ب): «النفع والضرر».

ولكانت كلمتهم مجتمعة وقلوبهم مؤتلفة؛ فبذلك يتناصرون ويتعاضدون ويتعاونون على مصالحتهم [ومنافعهم] الدينية والدنيوية؛ مثل هؤلاء المخذولين من أهل الكتاب، الذين انتصر الله لرسوله منهم، وأذاقهم الخزي في الحياة الدنيا، وعدم نصرٍ منّ وعدهم بالمعاونة.

﴿١٥﴾ ﴿كمثل الذين من قبلهم قريباً﴾: وهم كفار قريش، الذين ﴿زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾، وقال: لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ، وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ، فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفُتَاتَانِ؛ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ^(١)، وَقَالَ: إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ، إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ! فغرتهم أنفسهم، وغرهم من غرهم، الذين لم ينفعوهم ولم يدفعوا عنهم العذاب، حتى أتوا بدرأ بفخرهم وخيلائهم، طائنين أنهم مدركون برسول الله والمؤمنين أمانهم، فنصر الله رسوله والمؤمنين عليهم، فقتلوا كبارهم وصناديدهم، وأسروا من أسروا منهم، وفرّ من فرّ، وذاقوا بذلك وبال أمرهم وعاقبة شركهم وبغيهم. هذا في الدنيا، ﴿ولهم﴾ في الآخرة عذاب النار.

﴿١٦﴾ وَمَثَلُ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ غَرُّوا إِخْوَانَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ﴾؛ أَي: زَيْنَ لَهُ الْكُفْرَ وَحَسَنَهُ وَدَعَاهُ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اغْتَرَبَهُ وَكُفِرَ وَحَصَلَ لَهُ الشَّقَاءُ لَمْ يَنْفَعَهُ الشَّيْطَانُ الَّذِي تَوَلَّاهُ وَدَعَاهُ إِلَى مَا دَعَاهُ إِلَيْهِ بَلْ تَبَرَّأَ مِنْهُ، ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أَي: لَيْسَ لِي قُدْرَةٌ عَلَى دَفْعِ الْعَذَابِ عَنْكَ، وَلَسْتُ بِمَغْنٍ عَنْكَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنَ الْخَيْرِ.

﴿١٧﴾ ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا﴾؛ أَي: الداعي الذي هو الشيطان والمدعو الذي هو الإنسان حين أطاعه، ﴿أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾. ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾: الَّذِينَ اشْتَرَكُوا فِي الظُّلْمِ وَالْكَفْرِ، وَإِنْ اخْتَلَفُوا فِي شِدَّةِ الْعَذَابِ وَقُوَّتِهِ. وَهَذَا دَابُّ الشَّيْطَانِ مَعَ كُلِّ أَوْلِيَائِهِ؛ فَإِنَّهُ يَدْعُوهُمْ وَيُدْلِيهِمْ بِغُرُورٍ إِلَى مَا يَضُرُّهُمْ^(٢)، حَتَّى إِذَا وَقَعُوا فِي الشُّبَاكِ، وَحَاقَ^(٣) بِهِمْ أَسْبَابُ الْهَلَاكِ؛ تَبَرَّأَ مِنْهُمْ وَتَخَلَّى عَنْهُمْ، وَاللَّوْمُ كُلُّ اللَّوْمِ عَلَى مَنْ أَطَاعَهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَذَّرَ مِنْهُ وَأَنْذَرَ، وَأَخْبَرَ بِمَقَاصِدِهِ وَغَايَتِهِ وَنَهَايَتِهِ، فَالْمَقْدِمُ عَلَى طَاعَتِهِ عَاصٍ عَلَى بَصِيرَةٍ لَا عَذْرَ لَهُ.

(١) في (ب): «ذكر الآية حتى عقبه، وقال: الآية».

(٢) في (ب): «ويدلّهم إلى ما يضرهم بغرور».

(٣) في (ب): «وحاقت».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَهُمْ أَنفُسُهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿١٨﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجبه الإيمان ويقتضيه من لزوم تقواه سرًا وعلانية في جميع الأحوال، وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامره وشرائعه وحدوده، وينظروا ما لهم وما عليهم، وماذا حصلوا عليه من الأعمال التي تنفعهم أو تضرهم في يوم القيامة؛ فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم وقبلة قلوبهم، واهتموا للمقام^(١) بها؛ اجتهدوا في كثرة الأعمال الموصلة إليها وتصفيتها من القواطع والعوائق، التي توقفهم عن السير أو تعوقهم أو تصرفهم، وإذا علموا أيضاً أن ﴿الله خبير بما﴾: يعملون، لا تخفى عليه أعمالهم، ولا تضيع لديه، ولا يهملها؛ أوجب لهم الجِدَّ والاجتهاد.

ولهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدها؛ فإن رأى زللاً؛ تداركه بالإقلاع عنه والتوبة النصوح والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصراً في أمر من أوامر الله؛ بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتكميله^(٢) وإتقانه، ويقايس بين ممن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره؛ فإن ذلك يوجب له الحياء لا^(٣) محالة.

﴿١٩﴾ والحرمانُ كلُّ الحرمان أن يغفل العبد عن هذا الأمر، ويشابه قوماً نسوا الله، وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها فلم ينجحوا ولم يحصلوا على طائل، بل أنسأهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم قُرْطاً، فرجعوا بخسارة الدارين، وغُبنوا غبناً لا يمكن تداركه ولا يُجبر كسرُه؛ لأنهم ﴿هم الفاسقون﴾ الذين خرجوا عن طاعة ربهم، وأوضعوا في معاصيه.

(٢) في (ب): «تكميله وتتميمه».

(١) في (ب): «بالمقام».

(٣) في (ب): «بلا».

﴿٢٠﴾ فهل يستوي مَنْ حافظ على تقوى الله، ونظر لما قَدَّم لـغده فاستحقَّ جناتِ النعيم والعيش السليم مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، ومن غَفَلَ عن ذكره ونسي حقوقه فشقي في الدنيا، واستحقَّ العذاب في الآخرة؛ فالأُولون هم الفائزون، والآخرون هم الخاسرون.

﴿٢١﴾ ولَمَّا بَيَّنَّ تعالى لعباده ما بَيَّنَّ، وأمر عباده^(١) ونهاهم في كتابه العزيز؛ كان هذا موجِباً لأن يبادروا إلى ما دعاهم إليه وحَثَّهم عليه، ولو كانوا في القسوة وصلابة القلوب كالجبال الرواسي؛ فَإِنَّ هذا القرآن لو أنزله ﴿على جبل؛ لرأيتَه خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾؛ أي: لكمال تأثيره في القلوب؛ فَإِنَّ مواعظ القرآن أعظم المواعظ على الإطلاق، وأوامره ونواهيه محتوية على الحكم والمصالح المقرونة بها وهي من أسهل شيء على النفوس وأيسرها على الأبدان، خالية من التكلف^(٢)، لا تناقض فيها ولا اختلاف ولا صعوبة فيها ولا اعتساف، تصلح لكل زمانٍ ومكانٍ، وتليق لكلِّ أحدٍ. ثم أخبر تعالى أنه يضربُ للناس الأمثال، ويوضح لعباده [في كتابه] الحلال والحرام؛ لأجل أن يتفكروا في آياته ويتدبروها؛ فَإِنَّ التفكير فيها يفتح للعبد خزائن العلم، ويبين له طرق الخير والشر، ويحثه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، ويزجره عن مساوئ الأخلاق؛ فلا أنفع للعبد من التفكير في القرآن والتدبر لمعانيه.

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) ﴿

﴿٢٢﴾ هذه الآيات الكريمات قد اشتملت^(٣) على كثير من أسماء الله الحسنی وأوصافه العُلی؛ عظيمة الشأن، وبديعة البرهان. فأخبر أنه ﴿الله﴾: المألوه المعبود الذي ﴿لا إله إلا هو﴾: وذلك لكمال العظم وإحسانه الشامل وتديره العام، وكلُّ إله غيره^(٤)؛ فَإِنَّه باطل لا يستحقُّ من العبادة مثقال ذرة؛ لأنه فقير عاجز ناقص لا يملك

(٢) في (ب): «وأقلها تكلفاً».

(٤) في (ب): «سواه».

(١) في (ب): «وأمرهم».

(٣) في (ب): «اشتملن».

لنفسه ولا لغيره شيئاً. ثم وصف نفسه بعموم العلم، الشامل لما غاب عن الخلق وما يشاهدونه. وبعموم رحمته، التي وسعت كل شيء، ووصلت إلى كل حي.

﴿٢٣﴾ ثم كرّر ذكر عموم إلهيته وانفراده بها، وأنه المالك لجميع الممالك؛ فالعالم العلوي والسفلي وأهله، الجميع ممالكك لله فقراء مدبرون. ﴿القدوس السلام﴾؛ أي: المقدس السالم من كل عيب [وأفة] ونقص المعظم الممجّد؛ لأنّ القدوس يدلّ على التنزيه من كل نقص والتعظيم لله في أوصافه وجلاله. ﴿المؤمن﴾؛ أي: المصدّق لرسله وأنبيائه بما جاؤوا به بالآيات البينات والبراهين القاطعات والحجج الواضحات. ﴿العزیز﴾: الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد قهر كل شيء، وخضع له كل شيء. ﴿الجبار﴾: الذي قهر جميع العباد، وأذن له سائر الخلق، الذي يجبر الكسير ويغني الفقير. ﴿المتكبر﴾: الذي له الكبرياء والعظمة، المتنزّه عن جميع العيوب والظلم والجور. ﴿سبحان الله عما يشركون﴾: وهذا تنزيه عام عن كل ما وصفه به من أشرك به وعانده.

﴿٢٤﴾ ﴿هو الله الخالق﴾: لجميع المخلوقات. ﴿البارئ﴾: للمبروءات. ﴿المصور﴾: للمصوّرات. وهذه الأسماء متعلّقة بالخلق والتدبير والتقدير، وأنّ ذلك كله قد انفرد الله به لم يشاركه فيه مشارك. ﴿له الأسماء الحسنى﴾؛ أي: له الأسماء الكثيرة جداً، التي لا يحصيها ولا يعلمها أحد إلا هو^(١)، ومع ذلك؛ فكلّها حسنى؛ أي: صفات كمال، بل تدلّ على أكمل الصفات وأعظمها، لا نقص في شيء منها بوجه من الوجوه، ومن حسنّها أنّ الله يحبّها ويحبّ من يحبّها ويحبّ من عباده أن يدعوه ويسألوه بها^(٢). ومن كماله وأنّ له الأسماء الحسنى والصفات العليا أنّ جميع من في السماوات والأرض مفتقرون إليه على الدوام؛ يسبحون بحمده، ويسألونه حوائجهم، فيعطيه من فضله وكرمه ما تقتضيه رحمته وحكمته. ﴿وهو العزيز الحكيم﴾: الذي لا يريد شيئاً إلّا ويكون، ولا يكون شيئاً إلّا لحكمة ومصلحة.

تم تفسير هذه السورة^(٣).



(١) في (ب): «الله».

(٢) في (ب): «أن يدعوه بها ويسألوه».

(٣) في (ب): «تم تفسير سورة الحشر. فله الحمد على ذلك والمئة والإحسان».

تفسير سورة الممتحنة

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوَّيْ وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ^(١) تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَآيَتُهُ مَرْضَايَ يُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِنْ يَتَفَقَّهُوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءُ وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا أَنْ يَكْفُرُوا ﴿٢﴾ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ۚ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبْنَيْهِ لِاسْتَفْتِرَاءٍ لَكَ وَمَا أَمِلْتُكَ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَلِإِلَاحِكَ الْقَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْرِضْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَلَمُوا عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ ۞

ذكر كثير من المفسرين رحمهم الله أن سبب نزول هذه الآيات الكريمات في قصة حاطب بن أبي بلتعة؛ حين غزا النبي ﷺ غزاة الفتح^(٢)، فكتب حاطب إلى المشركين^(٣) من أهل مكة يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم؛ ليتخذ بذلك يداً

(١) في (أ): إلى قوله: ﴿ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾، وفي (ب) ذكر الآيات إلى قوله: ﴿فأولئك هم الظالمون﴾.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٩٠)، ومسلم (٢٤٩٤) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) في (ب): «قريش».

عندهم، لا شكاً ونفاقاً، وأرسله مع امرأة، فأخبر النبي ﷺ بشأنه، فأرسل إلى المرأة قبل وصولها، وأخذ منها الكتاب، وعاتب حاطباً، فاعتذر بعذر^(١) قبله النبي ﷺ.

وهذه الآيات فيها النهي الشديد عن موالة الكفار من المشركين وغيرهم وإلقاء المودة إليهم، وأن ذلك منافٍ للإيمان ومخالفٌ لملة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ومناقضٌ للعقل الذي يوجبُ الحذر كلَّ الحذر من العدو الذي لا يُبقي من مجهوده في العداوة شيئاً ويتنزه الفرصة في إيصال الضرر إلى عدوه.

﴿١﴾ فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ أي: اعملوا بمقتضى إيمانكم من ولاية مَنْ قام بالإيمان ومعاداة من عاداه؛ فإنه عدوٌّ لله وعدوٌّ للمؤمنين، فلا تتخذوا عدوِّي وعدوكم أولياء تُلقون إليهم بالمودة﴾؛ أي: تسارعون في مودتهم والسعي في أسبابها؛ فإنَّ المودة إذا حصلت؛ تبعثها النصرَةُ والموالاة، فخرج العبد من الإيمان، وصار من جملة أهل الكفران [وانفصل عن أهل الإيمان]. وهذا المتخذ للكافر ولياً عادماً المروءة أيضاً؛ فإنه كيف يوالي أعدى أعدائه، الذي لا يريد له إلا الشرَّ، ويخالف ربَّه ووليَّه الذي يريد به الخير، ويأمره به ويحثُّه عليه. ومما يدعو المؤمن أيضاً إلى معاداة الكفار أنَّهم قد كفروا بما جاء المؤمنين من الحقِّ، ولا أعظم من هذه المخالفة والمشاقَّة؛ فإنَّهم قد كفروا بأصل دينكم، وزعموا أنَّكم ضلَّالٌ على غير هدى، والحال أنَّهم كفروا بالحقِّ الذي لا شكَّ فيه ولا مريَّة، ومن ردَّ الحقَّ؛ فمحالٌ أن يوجد له دليلٌ أو حجةٌ تدلُّ على صحة قوله. بل مجرد العلم بالحقِّ^(٢) يدلُّ على بطلان قول من ردَّه وفساده.

ومن عداوتهم البليغة أنَّهم ﴿يُخْرِجُونَ الرِّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾: أيُّها المؤمنون من دياركم ويشردونكم من أوطانكم ولا ذنبَ لكم في ذلك عندهم إلا أنَّكم تؤمنون ﴿بالله ربِّكم﴾: الذي يتعيَّن على الخلق كلُّهم القيام بعبوديته؛ لأنَّه ربُّهم، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة [وهو الله تعالى]، فلمَّا أعرضوا عن هذا الأمر الذي هو أوجبُ الواجبات وقمَّتْ به؛ عادوكم وأخرجوكم من أجله من دياركم، فأئي دين وأي مروءة وعقل يبقى مع العبد إذا والى الكفار الذين لهذا وصفهم في كلِّ زمانٍ

(١) في (ب): «فاعتذر - رضي الله عنه - عذراً».

(٢) في (ب): «بل مجرد ردَّ الحق».

أو^(١) مكان، ولا يمنعهم منه إلا خوف أو مانع قوي. ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾؛ أي: إن كان خروجكم مقصودكم به الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله وابتغاء رضاه^(٢)؛ فاعملوا بمقتضى هذا من موالة أولياء الله ومعاداة أعدائه؛ فإن هذا من أعظم الجهاد^(٣) في سبيله، ومن أعظم ما يتقرب به المتقربون إلى الله ويتغنون به رضاه.

﴿تَسْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾؛ أي: كيف تسرون المودة للكافرين وتخفونها مع علمكم أن الله عالم بما تخفون وما تعلنون؛ فهو وإن خفي على المؤمنين؛ فلا يخفى على الله تعالى، وسيجازي العباد بما يعلمه منهم من الخير والشر. ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ﴾؛ أي: موالة الكافرين بعدما حذركم الله منها، ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾: لأنه سلك مسلكاً مخالفاً للشرع وللعقل والمروءة الإنسانية.

﴿٢﴾ ثم بين تعالى شدة عداوتهم تهييجاً للمؤمنين على عداوتهم: ﴿إِنْ يَتَفَقَّهْكُمْ﴾؛ أي: يجدوكم وتسرح لهم الفرصة في أذاكم، ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءَ﴾: ظاهرين، ﴿وَيَنْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾: بالقتل والضرب ونحو ذلك، ﴿وَالسَّيِّئَةُ بِالسُّوءِ﴾؛ أي: بالقول الذي يسوء من شتم وغيره، ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾: فإن هذا غاية ما يريدون منكم.

﴿٣﴾ فإن احتججتم وقلتم: نوالي الكفار لأجل القرابة والأموال؛ فلن تغني عنكم أموالكم ولا أولادكم من الله شيئاً ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فلذلك حذركم من موالة الكافرين الذين تضركم موالاتهم.

﴿٤﴾ ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ﴾: يا معشر المؤمنين، ﴿أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾؛ أي: قدوة صالحة وائتمام ينفعكم ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾: من المؤمنين؛ لأنكم قد أمرتم أن تتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً، ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: إذ تبرأ إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين من قومهم المشركين ومما يعبدون من دون الله، ثم صرحوا بعداوتهم غاية التصريح، فقالوا: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا﴾؛ أي: ظهر وبان ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾؛ أي: البغض

(٢) في (ب): «مرضاة الله».

(١) في (ب): «و».

(٣) في (ب): «فإن هذا هو الجهاد».

بالقلوب وزوال مودّتها والعداوة بالأبدان. وليس لتلك العداوة والبغضاء وقتٌ ولا حدٌّ، بل ذلك ﴿أبدًا﴾ ما دمتم مستمرّين على كفركم، ﴿حتى تؤمنوا بالله وحده﴾؛ أي: فإذا آمنتم بالله وحده؛ زالت العداوة والبغضاء وانقلبت مودةً وولايةً؛ فلکم أيّها المؤمنون أسوةً حسنةً في إبراهيم ومن معه في القيام بالإيمان والتوحيد ولوازم^(١) ذلك ومقتضياته وفي كلِّ شيءٍ تعبّدوا به لله وحده، ﴿إلا﴾: في خصلةٍ واحدةٍ، وهي: ﴿قول إبراهيم لأبيه﴾: آزر المشرك الكافر المعاند حين دعاه إلى الإيمان والتوحيد، فامتنع، فقال إبراهيم له: ﴿لأستغفرنَّ لك و﴾: الحال أني لا ﴿أملك لك من الله من شيء﴾: ولكنني أدعو ربّي عسى أن لا أكون بدعاء ربّي شقيًّا، فليس لكم أن تقتدوا بإبراهيم في هذه الحالة التي دعا بها للمشرك، فليس لكم أن تدعوا للمشرّكين وتقولوا^(٢): إنّنا في ذلك متّبعون لملة إبراهيم؛ فإنّ الله ذكّر عذر إبراهيم في ذلك بقوله: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلاّ عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنّه عدو لله تبرأ منه﴾^(٣)... الآية، ولكم أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه حين دَعَوْا الله وتوكّلوا عليه وأنابوا إليه واعترفوا بالعجز والتقصير، فقالوا: ﴿ربّنا عليك توكلنا﴾؛ أي: اعتمدنا عليك في جلب ما ينفعنا ودفع ما يضرّنا ووثقنا بك يا ربّنا في ذلك، ﴿واليك أتبنا﴾؛ أي: رجعنا إلى طاعتك ومرضاتك وجميع ما يقربُ إليك؛ فنحن في ذلك ساعون، وبفعل الخيرات مجتهدون، ونعلم أنّا إليك نصيرُ، فسنستعدُّ للقدوم عليك، ونعمل ما يزلّنا إليك^(٤).

﴿٥﴾ ﴿ربّنا لا تجعلنا فتنةً للذين كفروا﴾؛ أي: لا تسلّطهم علينا بذنوبنا، فيفتنونا، ويمنعونا مما يقدرّون عليه من أمور الإيمان، ويفتنون أيضاً بأنفسهم؛ فإنّهم إذا رأوا لهم الغلبة؛ ظنّوا أنّهم على الحقّ وأنّا على الباطل، فازدادوا كفرًا وطغيانًا، ﴿واغفر لنا﴾: ما اقترفنا من الذنوب والسيئات وما قصّرنا به من الأمور. ﴿ربّنا إنّك أنت العزيز﴾: القاهر لكلِّ شيءٍ. ﴿الحكيم﴾: الذي يضع الأشياء مواضعها؛ فبعزّتك^(٥) وحكمتك انصّرنا على أعدائنا، واغفر لنا ذنوبنا، وأصلح عيوبنا.

(١) في (ب): «والقيام بلوازم». (٢) في (ب): «وتقولون».

(٣) في (ب): «أتم الآية وهي: ﴿إن إبراهيم لحليم آواه منيب﴾».

(٤) في (ب): «ما يقربنا زلفى إليك». (٥) في (ب): «فمن عزّتك».

﴿٦﴾ ثم كَرَّرَ الْحَثَّ لَهُمْ عَلَى ^(١)الِاقْتِدَاءِ بِهِمْ وَقَالَ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ: لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ تَسَهَّلُ عَلَيْهِ هَذِهِ الْأُسْوَةُ، وَإِنَّمَا تَسَهَّلَ عَلَى مَنْ﴾ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ: فَإِنَّ الْإِيمَانَ وَاحْتِسَابَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ يَسَهِّلُ عَلَى الْعَبْدِ كُلِّ عَسِيرٍ، وَيَقْلِلُ لَدَيْهِ كُلَّ كَثِيرٍ، وَيُوجِبُ لَهُ [الْإِكْثَارَ مِنْ] الْإِقْتِدَاءِ بِعِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ؛ فَإِنَّهُ يَرَى نَفْسَهُ مَفْتَقَرًا [وَأَوْ] مُضْطَرًّا إِلَى ذَلِكَ غَايَةَ الْاضْطِرَارِ، وَمَنْ يَتَوَلَّ: عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَالتَّأْسِي بِرَسُولِ اللَّهِ؛ فَلَنْ يَضُرَّ إِلَّا نَفْسَهُ، وَلَا يَضُرُّ اللَّهَ شَيْئًا، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ: الَّذِي لَهُ الْغِنَى التَّامُّ الْمَطْلُوقُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ؛ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ بِوَجْهِهِ.﴾ الْحَمِيدُ: فِي ذَاتِهِ [وَأَسْمَائِهِ] وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ؛ فَإِنَّهُ مَحْمُودٌ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ.

﴿٧﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ هَذِهِ الْعَدَاوَةَ الَّتِي أَمَرَ [اللَّهُ] بِهَا الْمُؤْمِنِينَ لِلْمُشْرِكِينَ وَوَصَفَهُمْ بِالْقِيَامِ بِهَا؛ أَنَّهُمْ مَا دَامُوا عَلَى شِرْكِهِمْ وَكَفَرَهُمْ، وَأَنَّهُمْ إِنْ انْتَقَلُوا إِلَى الْإِيمَانِ؛ فَإِنَّ الْحُكْمَ يَدُورُ مَعَ عِلَّتِهِ، وَالْمُودَّةُ ^(٢)الْإِيمَانِيَّةُ تَرْجِعُ؛ فَلَا تَيَاسُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مِنْ رَجُوعِهِمْ إِلَى الْإِيمَانِ؛ ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مُودَّةً: سَبَبُهَا رَجُوعُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ.﴾ وَاللَّهُ قَدِيرٌ: عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَمَنْ ذَلِكَ هِدَايَةُ الْقُلُوبِ وَتَقْلِيلُهَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ: لَا يَتَعَاضَمُهُ ذَنْبٌ أَنْ يَغْفِرَهُ وَلَا [يَكْبُرَ عَلَيْهِ] عَيْبٌ أَنْ يَسْتُرَهُ،﴾ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وفي هذه الآية إشارة وبشارة بإسلام ^(٣)بعض المشركين، الذين كانوا إذ ذاك أعداء للمؤمنين، وقد وقع ذلك، ولله الحمد والمنة.

﴿٨﴾ وَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَاتُ الْمَهِيْجَةُ عَلَى عَدَاوَةِ الْكَافِرِينَ؛ وَقَعَتْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ كُلِّ مَوْقِعٍ، وَقَامُوا بِهَا أَتَمَّ الْقِيَامِ، وَتَأْتَمُّوا مِنْ صِلَةِ بَعْضِ أَقَارِبِهِمُ الْمُشْرِكِينَ، وَظَنُّوا أَنَّ ذَلِكَ دَاخِلٌ فِيْمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، فَأَخْبَرَهُمُ اللَّهُ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَدْخُلُ فِي الْمَحْرَمِ، فَقَالَ: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾؛ أَي: لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْمُكَافَأَةِ بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ لِلْمُشْرِكِينَ مِنْ أَقَارِبِكُمْ

(١) فِي (ب): «ثُمَّ كَرَّرَ الْحَثَّ عَلَى».

(٢) فِي (ب): «فَإِنَّ الْمُودَّةَ».

(٣) فِي (ب): «إِلَى إِسْلَامِ».

وغيرهم؛ حيث كانوا بحالٍ لم ينتصبوا لقتالكم في الدين والإخراج من دياركم؛ فليس عليكم جناحٌ أن تصلوهم؛ فإنَّ صَلَّتْهُمْ في هذه الحالة لا محذورٌ فيها ولا تَبَعَةٌ^(١)؛ كما قال تعالى في الأبوين الكافرين إذا كان ولدهما مسلماً: ﴿وإن جَاهَدَاكَ على أن تشرِكَ بي ما ليس لك به علمٌ فلا تُطْعِمهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾.

﴿٩﴾ وقوله: ﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين﴾؛ أي: لأجل دينكم؛ عداوةٌ لدين الله ولمن قام به، ﴿وأخرجوكم من دياركم وظاهروا﴾؛ أي: عاونوا غيرهم ﴿على إخراجكم﴾: نهاكم الله ﴿أن تؤلّوهم﴾: بالنصرة والمودة بالقول والفعل، وأما برُّكم وإحسانكم الذي ليس بتولٍّ للمشركين؛ فلم ينهكم الله عنه، بل ذلك داخلٌ في عموم الأمر بالإحسان إلى الأقارب وغيرهم من الآدميين وغيرهم، ﴿ومن يتولّهم﴾ منكم ﴿فأولئك هم الظالمون﴾: وذلك الظلم يكون بحسب التولي؛ فإن كان تولياً تاماً؛ كان ذلك كفراً مخرجاً عن دائرة الإسلام وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظٌ وما هو دونه^(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ^(٣)﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا مِنْ حِلٍّ لَمَنْ لَمْ يَلِدْ وَلَهُنَّ مَا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَالَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُفَّارِ وَسَلُّوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلَسْتُمْلَا مَا أَنفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يُخَوِّمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَرْزَاقِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَابَقْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَرْزَاقُهُمْ مِثْلَ مَا أَنفَقُوا وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿١٠﴾ لما كان صلح الحديبية؛ صالح النبي ﷺ المشركين على أن من جاء منهم إلى المسلمين مسلماً؛ أنه يردُّ إلى المشركين، وكان هذا لفظاً عاماً مطلقاً يدخل في عمومه النساء والرجال، فأما الرجال؛ فإنَّ الله لم ينه رسوله عن ردِّهم إلى الكفار^(٤) وفاءً بالشرط وتتميماً للصلح الذي هو من أكبر المصالح، وأما النساء؛ فلما كان ردُّهنَّ فيه مفسدٌ كثيرة؛ أمر المؤمنين إذا جاءهم ﴿المؤمناتُ مهاجراتٌ﴾: وشكوا في صدق إيمانهنَّ أن يمتحنوهنَّ ويختبروهنَّ بما يظهر به من صدقهنَّ من

(١) في (ب): «ولا مفسدة».

(٢) في (ب): «دون ذلك».

(٣) في (أ) إلى قوله: ﴿واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾، وفي (ب) ذكر الآيات كاملة.

(٤) في (ب): «المشركين».

إيمانٍ مغلظةٍ وغيرها؛ فإنه يُحتمل أن يكون إيمانها غير صادق، بل رغبةً في زوج أو بلدٍ أو غير ذلك من المقاصد الدنيوية؛ فإن كُنْ بهذا الوصف؛ تعيَّن ردهنَّ وفاءً بالشرط من غير حصول مفسدة؛ وإن امتحنوهنَّ فوجدنَّ صادقاتٍ، أو علموا ذلك منهنَّ من غير امتحانٍ؛ فلا يَرْجِعوهنَّ إلى الكفار. ﴿لَا هُنَّ حُلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾: فهذه مفسدةٌ كبيرةٌ [في ردهنَّ] راعاها الشارع وراعى أيضاً الوفاء بالشرط؛ بأن يُعطوا الكفار أزواجهنَّ ما أنفقوا عليهنَّ من المهر وتوابعه عوضاً عنهنَّ، ولا جناح حينئذٍ على المسلمين أن ينكحوهنَّ، ولو كان لهنَّ أزواجٌ في دار الشرك، ولكن بشرط أن يؤتوهنَّ أجورهنَّ من المهر والنفقة، وكما أنَّ المسلمة لا تحلُّ^(١) للكافر؛ فكذلك الكافرة لا تحلُّ للمسلم [أن يمسكها] ما دامت على كفرها؛ غير أهل الكتاب، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾. وإذا نهي عن الإمساك بعصمتها؛ فالنهي عن ابتداء تزويجها أولى، ﴿وَأَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ﴾: أيها المؤمنون حين ترجعُ زوجاتكم مرتداتٍ إلى الكفار؛ فإذا كان الكفار يأخذون من المسلمين نفقة من أسلمت من نسائهم؛ استحقَّ المسلمون أن يأخذوا مقابلة ما ذهب من زوجاتهم إلى الكفار.

وفي هذا دليلٌ على أنَّ خُرُوجَ البُضْعِ من الزوج متقومٌ؛ فإذا أفسد مفسدٌ نكاح امرأة رجل برضاع أو غيره؛ كان عليه ضمانُ المهر.

وقوله: ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ﴾؛ أي: ذلَّكم الحكم الذي ذكره الله وبيَّنه لكم حكمُ الله؛ بيَّنه لكم ووضَّحه^(٢). ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: فيعلم تعالى ما يصلح لكم من الأحكام، فيشرعه بحسب حكمته ورحمته^(٣).

﴿١١﴾ وقوله: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾: بأن ذهبنَّ مرتداتٍ، ﴿فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾: كما تقدَّم أنَّ الكفار إذا كانوا يأخذون بدل ما يفوت من أزواجهم إلى المسلمين؛ فمن ذهبت زوجته من المسلمين إلى الكفار، وفاتت عليه؛ فعلى المسلمين أن يعطوه^(٤) من الغنيمة بدل ما أنفق. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾: فإيمانكم بالله يقتضي منكم أن تكونوا ملازمين للتقوى على الدوام.

(١) في (ب): «لا يحل».

(٢) في (ب): «وبيَّنه لكم يحكم به بينكم».

(٣) في (ب): «ويُشرع لكم ما تقتضيه الحكمة». (٤) في (ب): «لزم أن يعطيه المسلمون».

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ^(١) يُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لَا يَشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿١٢﴾ هذه الشروط المذكورة في هذه الآية تسمى مبايعة النساء، اللاتي كنَّ يبايعنَّ على إقامة الواجبات المشتركة التي تجب على الذكور والنساء في جميع الأوقات، وأما الرجال؛ فيتفاوت ما يلزمهم بحسب أحوالهم ومراتبهم وما يتعيَّن عليهم، فكان النبي ﷺ يمثل ما أمره الله [به]، فكان إذا جاءت النساء يبايعنَّه والتزمن بهذه الشروط؛ بايَعْنَهُنَّ وَجَبَرَ قُلُوبَهُنَّ، واستغفر لهنَّ الله فيما يحصل منهنَّ من التقصير^(٢) وأدخلهنَّ في جملة المؤمنات، ﴿على أن لا يُشْرِكْنَ بالله شيئاً﴾: بل يفرِّذنَّ الله وحده بالعبادة، ﴿ولا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾: كما يجري لنساء الجاهلية الجاهلاء، ﴿ولا يَزْنِينَ﴾: كما كان ذلك موجوداً كثيراً في البغايا وذوات الأخدان، ﴿ولا يأتين ببُهْتَانٍ يفتريه بين أيديهنَّ وأرجلهنَّ﴾: والبُهتان الافتراء على الغير؛ أي: لا يفتريْن بكلِّ حالة، سواءً اتعلقت بهنَّ مع أزواجهنَّ^(٣) أو تعلق ذلك بغيرهم، ﴿ولا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾؛ أي: لا يعصينك في كلِّ أمرٍ تأمرهنَّ به؛ لأنَّ أمرك لا يكون إلَّا بمعروفٍ، ومن ذلك طاعتهنَّ لك في النهي عن النجاسة وشقِّ الجيوب وخمش الوجوه والدُّعاء بدعوى^(٤) الجاهلية، ﴿فَبَايَعْنَهُنَّ﴾: إذا التزمن بجميع ما ذُكر، ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ﴾: عن تقصيرهنَّ وتطبيباتهنَّ لخطأهنَّ. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾؛ أي: كثير المغفرة للعاصين والإحسان إلى المذنبين التائبين. ﴿رَحِيمٌ﴾: وسعت رحمته كلَّ شيءٍ وعمَّ إحسانه البرايا.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسْأُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَسْأَلُ الْكَافِرُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾.

﴿١٣﴾ أي: يا أيُّها المؤمنون إن كنتم مؤمنين بربكم، ومتبعين لرضاه، ومجانبين لسخطه، ﴿لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾: وإنما غضب عليهم لكفرهم، وهذا شاملٌ لجميع أصناف الكفار، ﴿قَدْ يَسْأُوا مِنَ الْآخِرَةِ﴾؛ أي: قد حُرِّموا من خير

(١) في (أ) إلى قوله: ﴿غفور رحيم﴾، وفي (ب) ذكر الآيات كاملة.

(٢) في (ب): «من التقصير منهن».

(٣) في (ب): «تعلقت بهن وأزواجهن».

(٤) في (ب): «بدعاء».

الآخرة، فليس لهم منها نصيب؛ فاحذروا أن تتولَّوهم فتوافقوهم على شرِّهم وشركهم^(١)، فتُحرِّموا خير الآخرة كما حُرِّموا. وقوله: ﴿كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾: حين أفضوا إلى الدار الآخرة، وشاهدوا^(٢) حقيقة الأمر، وعلموا علم اليقين أنَّهم لا نصيب لهم منها.

ويُحتمل أنَّ المعنى: قد يئسوا من الآخرة؛ أي: قد أنكروها وكفروا بها؛ فلا يُستَغْرَب حينئذٍ منهم الإقدام على مساخط الله وموجبات عذابه، وإياسهم من الآخرة كما يئس الكفار المنكرون للبعث في الدنيا من رجوع أصحاب القبور إلى الله تعالى.

تم تفسيرها. والله أعلم^(٣).



تفسير سورة الصف

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الْعَظِيمِ

﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾

﴿١﴾ وهذا بيان لعظمته تعالى وقهره وذلُّ جميع الأشياء^(٤) له تبارك وتعالى وأنَّ جميع مَنْ في السماوات والأرض يسبِّحون بحمد ربِّهم ويعبدونه ويسألونه حوائجهم. ﴿وهو العزيز﴾: الذي قهر الأشياء بعزَّته وسلطانيه. ﴿الحكيم﴾: في خلقه وأمره.

﴿٢ - ٣﴾ ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾؛ أي: لم تقولون الخير وتحثُّون عليه، وربما تمدَّحتُم به وأنتم لا تفعلونه، وتنهَوْنَ عن الشرِّ، وربما نَزَّهْتُم أنفسكم عنه وأنتم متلوِّثون متَّصفون^(٥) به؛ فهل تليقُ بالمؤمنين هذه الحالة الذميمة؟! أم من أكبر المقت عند الله أن يقول العبد ما لا يفعل؟! ولهذا ينبغي

(١) في (ب): «وكفرهم».

(٢) في (ب): «ووقفوا على».

(٣) في (ب): «تم تفسير سورة الممتحنة. والحمد لله رب العالمين».

(٤) في (ب): «متلوِّثون به ومتصفون به».

(٥) في (ب): «الخلق».

لِلْأَمْرِ بِالْخَيْرِ أَنْ يَكُونَ أَوَّلَ النَّاسِ إِلَيْهِ مَبَادِرَةً، وَالنَّاهِي عَنِ الشَّرِّ أَنْ يَكُونَ أَبْعَدَ النَّاسِ عَنْهُ^(١)؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وَقَالَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ [لِقَوْمِهِ]: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخْلِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُيِّنٌ مَرْصُورٌ﴾.

﴿٤﴾ هَذَا حَتْ مِنْ اللَّهِ لِعِبَادِهِ عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَتَعْلِيمٍ لَهُمْ كَيْفَ يَصْنَعُونَ، وَأَنَّهُمْ^(٢) يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَصُفُّوا فِي الْجِهَادِ صَفًّا مَتْرَاضًا مَتَسَاوِيًّا مِنْ غَيْرِ خَلَلٍ يَحْصُلُ فِي الصُّفُوفِ، وَتَكُونُ صَفُوفُهُمْ عَلَى نِظَامٍ وَتَرْتِيبٍ بِهِ تَحْصُلُ الْمَسَاوَاةُ بَيْنَ الْمُجَاهِدِينَ وَالتَّعَاوُدِ وَإِرْهَابِ الْعَدُوِّ وَتَنْشِيطِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَضَرَ الْقِتَالَ؛ صَفَّ أَصْحَابَهُ وَرَتَّبَهُمْ^(٣) فِي مَوَاقِفِهِمْ بِحَيْثُ لَا يَحْصُلُ اتِّكَالٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، بَلْ تَكُونُ^(٤) كُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ مَهْتَمَّةٌ بِمَرْكَزِهَا وَقَائِمَةٌ بِوُضُوعِهَا، وَبِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ تَتِمُّ الْأَعْمَالُ وَيَحْصُلُ الْكَمَالُ.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ لِمَ تُوذَوْنَ وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنَّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

﴿٥﴾ أَي: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ: مَوْخَاً لَهُمْ عَلَى صَنِيعِهِمْ، وَمَقْرَعاً لَهُمْ عَلَى أَذْيَتِهِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ: لِمَ تُؤْذَوْنَ؟ بِالْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، وَوَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ: وَالرَّسُولُ مِنْ حَقِّهِ الْإِكْرَامُ وَالْإِعْظَامُ وَالْقِيَامُ بِأَوَامِرِهِ^(٥) وَالْإِبْتِدَارُ لِحُكْمِهِ، وَأَمَّا أَذْيَةُ الرَّسُولِ الَّذِي إِحْسَانُهُ إِلَى الْخَلْقِ فَوْقَ كُلِّ إِحْسَانٍ بَعْدَ إِحْسَانِ اللَّهِ؛ فَفِي غَايَةِ الْوَقَاحَةِ وَالْجَرَاءَةِ وَالزِّيغِ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، الَّذِي قَدْ عَلِمُوهُ وَتَرَكَوهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾؛ أَي: انْصَرَفُوا عَنِ الْحَقِّ بِقَصْدِهِمْ، ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾: عَقُوبَةً لَهُمْ عَلَى زِيغِهِمْ الَّذِي اخْتَارُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ وَرِضْوَةِ لَهَا، وَلَمْ يُوقِفْهُمْ اللَّهُ لِلْهُدَى؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَلِيقُ بِهِمُ الْخَيْرُ وَلَا يَصْلُحُونَ إِلَّا لِلشَّرِّ. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾؛ أَي: الَّذِينَ لَمْ يَزَلِ الْفَسْقُ وَصْفًا لَهُمْ،

(١) فِي (ب): «مَنْهُ».

(٢) فِي (ب): «وَأَنَّهُ».

(٣) كَمَا جَاءَ فِي غَزْوَةِ بَدْرِ الْكُبْرَى. أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٥/٤٢٠).

(٤) فِي (ب): «وَالْإِنْقِيَادَ لِأَوَامِرِهِ».

(٥) فِي (ب): «يَكُونُ».

ليس لهم قصد^(١) في الهدى. وهذه الآية الكريمة تفيد أن إضلال الله لعبيده ليس ظلماً منه ولا حجة لهم عليه، وإنما ذلك بسبب منهم؛ فإنهم^(٢) الذين أغلقوا على أنفسهم باب الهدى بعدما عرفوه، فيجازيهم بعد ذلك بالإضلال^(٣) والزيف وتقلب القلوب عقوبة لهم وعدلاً منه بهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَقَلُبْ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَٰ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ^(٤) يَبْنَٰى إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿٦﴾ يقول تعالى مخبراً عن عناد بني إسرائيل المتقدمين الذين دعاهم عيسى بن مريم وقال لهم: ﴿يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم﴾؛ أي: أرسلني الله لأدعوكم إلى الخير وأنهاكم عن الشر، وأُبدني بالبراهين الظاهرة، ومما يدل على صدقي كوني ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾؛ أي: جئت بما جاء به موسى من التوراة والسرائع السماوية، ولو كنت مدَّعٍ للنبوة؛ لجئتُ بغير ما جاء به المرسلون، و ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾: أيضاً أنها أخبرت بي وبشَّرت، فجئتُ وبعثتُ مُصَدِّقًا لها، ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾: وهو محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب النبي الهاشمي؛ فعيسى عليه الصلاة والسلام كسائر الأنبياء^(٥)؛ يصدِّق بالنبي السابق، ويبشِّر بالنبي اللاحق؛ بخلاف الكذابين؛ فإنهم يناقضون الأنبياء أشدَّ مناقضة، ويخالفونهم في الأوصاف والأخلاق والأمر والنهي، ﴿فلما جاءهم﴾: محمد ﷺ الذي بشَّرَ به عيسى ﴿بالبينات﴾؛ أي: الأدلة الواضحة الدالة على أنه هو، وأنه رسول الله حقاً، ﴿قالوا﴾: معاندين للحقِّ مكذِّبين له: ﴿هذا سحرٌ مبين﴾: وهذا من أعجب العجائب، الرسول الذي قد وضحت رسالته

(١) في (ب): «لا قصد لهم».

(٢) في (ب): «بالضلال والزيف الذي لا حيلة لهم في دفعه وتقلب القلوب».

(٣) في (أ) إلى قوله: «ولو كره المشركون»، وفي (ب) ذكر الآيات كاملة.

(٥) في (ب): «كالأنبياء».

وصارت آيين من شمس النهار؛ يُجعل ساحراً بيّناً سحره؛ فهل في الخذلان أعظم من هذا؟! وهل في الافتراء أبلغ^(١) من هذا الافتراء الذي نفى عنه ما كان معلوماً من رسالته وأثبت له ما كان أبعد الناس عنه^(٢)؟!

﴿٧﴾ ومن أظلم ممّن افترى على الله الكذب: بهذا أو غيره والحال أنه لا عذر له وقد انقطعت حجته لأنه ﴿يدعى إلى الإسلام﴾: ويبيّن له ببراهينه وبيّناته، ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾: الذين لا يزالون على ظلمهم مستقيمين، لا تردّهم عنه موعظة ولا يزجرهم بيان ولا برهان، خصوصاً هؤلاء الظّلمة القائمين بمقابلة الحقّ ليردّوه، ولينصروا الباطل.

﴿٨﴾ ولهذا قال [الله] عنهم: ﴿يريدون ليُطفئوا نورَ الله بأفواههم﴾؛ أي: بما يصدّر منهم من المقالات الفاسدة التي يردّون بها الحقّ، وهي^(٣) لا حقيقة لها، بل تزيد البصير معرفة بما هم عليه من الباطل، ﴿والله متمّ نوره ولو كره الكافرون﴾؛ أي: قد تكفل الله بنصر دينه وإتمام الحقّ الذي أرسل به رسّله وإظهار^(٤) نوره في سائر الأقطار، ولو كره الكافرون، وبذلوا بسبب كراهته كلّ ما قدروا عليه مما يتوصّلون^(٥) به إلى إطفاء نور الله؛ فإنّهم مغلوبون، ومثّلهم كمثّل^(٦) من ينفخ عين الشمس بفيه ليطفئها؛ فلا على مرادهم حصولها، ولا سلمت عقولهم من النقص والقدح فيها.

﴿٩﴾ ثم ذكر سبب الظهور والانتصار للدين الإسلاميّ الحسيّ والمعنويّ، فقال: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ﴾: أي: بالعلم النافع والعمل الصالح، بالعلم الذي يهدي إلى الله وإلى دار كرامته، ويهدي لأحسن الأعمال والأخلاق، ويهدي إلى مصالح الدنيا والآخرة، ﴿ودين الحقّ﴾؛ أي: الدين الذي يُدان به ويُتعبّد لربّ العالمين، الذي هو حقّ وصدق لا نقص فيه ولا خلل يعتريه، بل أوامره غذاء القلوب والأرواح وراحة الأبدان، وترك نواهيه سلامة من الشرّ والفساد^(٧)، فما بُعث به النبيّ ﷺ من الهدى ودين الحقّ أكبر دليل وبرهان على

(١) في (ب): «أعظم».

(٢) في (ب): «التي».

(٣) في (ب): «وإشاعة».

(٤) في (ب): «ويذلوا بسبب كراهتهم كلّ سبب يتوصّلون به».

(٥) في (ب): «وصاروا بمنزلة من ينفخ».

(٦) في (ب): «وترك للنواهي التي تعاطيها سبب الشر والفساد».

صدقِهِ، وهو برهانٌ باقٍ ما بقي الدهر، كلما ازداد به العاقل تفكيراً؛ ازداد به فرحاً وتبصراً. ﴿ليظهره على الدين كله﴾؛ أي: ليعليه على سائر الأديان بالحجة والبرهان، ويظهر أهله القائمين به بالسيف والسنان.

فأما نفس الدين؛ فهذا الوصف ملازمٌ له في كل وقت، فلا يمكن أن يُغالبه مغالبٌ أو يخاصمه مخاصمٌ إلا فلجّه وبلسه، وصار له الظهور والقهر، وأما المنتسبون إليه؛ فإنهم إذا قاموا به واستناروا بنوره واهتدوا بهديه في مصالح دينهم ودنياهم؛ فكذلك لا يقوم لهم أحد، ولا بد أن يظهروا على أهل الأديان، وإذا ضيعوا واكتفوا منه بمجرد الانتساب إليه؛ لم ينفعهم ذلك، وصار إهمالهم له سبب تسليط الأعداء عليهم، ويعرف هذا من استقرأ الأحوال والنظر^(١) في أول المسلمين وآخرهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى بَيْعَةٍ (١٠) تُجِيبُكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (١١) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٢) يَقْفِرْ لَكُمْ دُونَكُمْ وَيَدْخُلَكُمْ جَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّتٍ عَذْوٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) تُحِبُّونَهَا نَصْرَ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحَ قَرِيبٍ وَيَسِّرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٤)﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنَتِ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٥)﴾.

﴿١٠﴾ هذه وصية ودلالة وإرشادٌ من أرحم الراحمين لعباده المؤمنين لأعظم تجارةٍ وأجل مطلوبٍ وأعلى مرغوبٍ يحصل بها النجاة من العذاب الأليم والفوز بالنعيم المقيم، وأتى بأداة العرض الدالة على أن هذا أمرٌ يرغب فيه كل متصبر ويسمو إليه كل لبيب.

﴿١١﴾ فكأنه قيل: ما هذه التجارة التي هذا قدرها؟ فقال: ﴿تؤمنون بالله ورسوله﴾: ومن المعلوم أن الإيمان التام هو التصديق الجازم بما أمر الله بالتصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح، التي من^(٣) أجلها الجهاد في سبيله^(٤)؛ فلهذا قال:

(١) في (ب): «نظر».

(٢) في (أ) إلى آخر السورة، وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

(٣) في (ب): «ومن».

(٤) في (ب): «سبيل الله».

﴿وتجاهدون في سبيلِ الله بأموالكم وأنفُسِكُمْ﴾؛ بأن تبذلوا نفوسكم ومهجكم لمصادمة أعداء الإسلام، والقصد نصر دين الله وإعلاء كلمته، وتنفقون ما تيسر من أموالكم في ذلك المطلوب؛ فإنَّ ذلك وإنَّ^(١) كان كريهاً للنفوس شاقاً عليها؛ فإنَّه ﴿خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون﴾: فإنَّ فيه الخير الدنيوي من النصر على الأعداء والعزَّ المنافي للذلِّ والرِّزق الواسع وسعة الصدر وانسراحه، والخير الأخروي بالفوز^(٢) بثواب الله والنجاة من عقابه.

﴿١٢﴾ ولهذا ذَكَرَ الجزء في الآخرة فقال: ﴿يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾: وهو^(٣) شاملٌ للصغائر والكبائر؛ فإنَّ الإيمان بالله والجهاد في سبيله مكفِّرٌ للذنوب، ولو كانت كبائر، ﴿ويُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾؛ أي: من تحت مساكنها وقصورها وغُرْفِها وأشجارها أنهارٌ من ماءٍ غير آسن وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغيَّر طعمه وأنهارٌ من خمرٍ لذَّةٍ للشاربين وأنهارٌ من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات، ﴿ومساكنٌ طيِّبةٌ في جناتٍ عدنٍ﴾؛ أي: جمعت كل طيب من علو وارتفاع وحسن بناء وزخرفة، حتَّى إنَّ أهل الغرف من أهل عليين يترءاهم أهل الجنة كما يترءى^(٤) الكوكب الدرِّي في الأفق الشرقي أو الغربي، وحتَّى إنَّ بناء الجنة بعضه من لبنٍ ذهب وبعضه من لبنٍ فضة^(٥)، وخيامها من اللؤلؤ والمرجان، وبعض المنازل من الزمرد والجواهر الملونة بأحسن الألوان، حتَّى إنَّها من صفاتها يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، وفيها من الطيب والحسن ما لا يأتي عليه وصف الواصفين ولا خطر على قلب أحدٍ من العالمين، لا يمكن أن يدركوه حتَّى يروهم ويتمتعوا بحسنه، وتقرَّ به أعينهم.

ففي تلك الحالة لولا أنَّ الله خَلَقَ أهل الجنة وأنشأهم نشأة كاملة لا تقبلُ العدم؛ لأوشك أن يموتوا من الفرح؛ فسبحان من لا يحصي أحدٌ من خلقه ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يُثني عليه أحدٌ من خلقه^(٦)، وتبارك الجليلُ الجميلُ، الذي أنشأ دار النعيم، وجعل فيها من الجلال والجمال ما يبهر عقولُ الخلق ويأخذُ بأفئدتهم، وتعالى من له الحكمة التامة، الذي^(٧) من جملة ما أنه لو

(١) في (ب): «ولو».

(٢) في (ب): «وفي الآخرة الفوز».

(٣) في (ب): «وهذا».

(٤) في (ب): «يتراءون».

(٥) في (ب): «من لبن ذهب ولبن فضة».

(٦) في (ب): «وفوق ما يثني عليه عباده».

(٧) في (ب): «التي».

أرى العباد الجنة^(١) ونظروا إلى ما فيها من النعيم؛ لما تخلف عنها أحد، ولما هناهم العيش في هذه الدار المنغصة المشوب نعيمها بألمها وفرحها^(٢) بترجها. وسُميت [الجنة] جنة عدن؛ لأن أهلها مقيمون فيها، لا يخرجون منها أبداً، ولا يبغون عنها حولاً. ذلك الثواب الجزيل والأجر الجميل هو الفوز العظيم الذي لا فوز مثله؛ فهذا الثواب الأخروي.

﴿١٣﴾ وأما الثواب الدنيوي لهذه التجارة؛ فذكره بقوله: ﴿وأخرى تحبونها﴾؛ أي: ويحصل لكم خضلة أخرى تحبونها، وهي: ﴿نصر من الله﴾: لكم على الأعداء، يحصل به العز والفرح، ﴿وفتح قريب﴾: تتسع به دائرة الإسلام، ويحصل به الرزق الواسع؛ فهذا جزاء المؤمنين المجاهدين، وأما المؤمنون من غير أهل الجهاد إذا قام غيرهم بالجهاد؛ فلم يؤنسهم الله تعالى من فضله وإحسانه، بل قال: ﴿وبشّر المؤمنين﴾؛ أي: بالثواب العاجل والآجل؛ كل على حسب إيمانه، وإن كانوا لا يبلغون مبلغ المجاهدين في سبيل الله؛ كما قال النبي ﷺ: «مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا؛ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ». فعجب لها أبو سعيد الخدري راوي الحديث، فقال: أعدها عليّ يا رسول الله! فأعدها عليه، ثم قال: «وأخرى يُرْفَعُ بها العبدُ مائة درجة في الجنة، ما بين كلِّ درجتين كما بين السماء والأرض». فقال: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله». رواه مسلم^(٣).

﴿١٤﴾ ثم قال تعالى: ﴿يا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾؛ أي: بالأقوال والأفعال، وذلك بالقيام بدين الله، والحرص على تنفيذه^(٤) على الغير وجهاد مَنْ عانده ونابذه بالأبدان والأموال، وَمَنْ نَصَرَ الْبَاطِلَ بما يزعمه من العلم، وَرَدَّ الْحَقَّ بدحض حجته وإقامة الحجة عليه والتحذير منه، ومن نصر دين الله تعلم كتاب الله وسنة رسوله [وتعليمه] والحثُّ على ذلك والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثم هيّج الله المؤمنين بالاقتراء بمن قبلهم من الصالحين بقوله: ﴿كما قال عيسى

(١) في (ب): «أنه لو أرى الخلائق الجنة حين خلقها».

(٢) في (ب): «وسرورها».

(٣) برقم (١٨٨٤) في (ب) جاء هذا الحديث: «إن في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض أعدها الله للمجاهدين في سبيله».

(٤) في (ب): «على إقامته».

ابن مريم للحواريين مَنْ أنصاري إلى الله ﴿١﴾؛ أي: قال لهم منها ﴿١﴾: من يعاونني ويقوم معي في نصر دين الله ﴿٢﴾ وَيَدْخُلْ مدخلي وَيَخْرُجْ مخرجي؟ فابتدَرَ الحواريون فقالوا: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾: فمضى [عيسى] عليه السلام على [أمر] الله و[انصر دين الله هو ومن معه من الحواريين، ﴿فَأَمَنْتُ طَائِفَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: بسبب دعوة عيسى والحواريين، ﴿وَكَفَرْتُ طَائِفَةً﴾: منهم، فلم ينقادوا لدعوتهم، فجاهد المؤمنون الكافرين، ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ﴾؛ أي: قُوَّيْنَاهُمْ ونصرناهم عليهم، ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾: عليهم، قاهرين لهم ﴿٣﴾. فأنتم يا أمة محمد! كونوا أنصارَ الله ودعاةَ دينه؛ يَنْصُرْكُمْ الله كما نَصَرَ مَنْ قَبْلَكُمْ، وَيُظْهِرْكُمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ.

تم تفسيرها. والحمد لله رب العالمين ﴿٤﴾.



تفسير سورة الجمعة

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الْعَظِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١﴾.

﴿١﴾ ﴿الملك القدوس العزيز الحكيم﴾؛ أي: يسبح لله وينقاد لأمره ويتألهه ويعبده جميع ما في السموات والأرض؛ لأنه الكامل الملك، الذي له ملك العالم العلوي والسفلي؛ فالجميع ممالكه وتحت تدبيره. القدوس المعظم المنزه عن كل آفة ونقص. العزيز القاهر للأشياء كلها. الحكيم في خلقه وأمره؛ فهذه الأوصاف العظيمة تدعو ﴿٥﴾ إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لِنِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٢﴾ وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ

(١) في (ب): «قال لهم عارضاً ومنهضاً». (٢) في (ب): «نصرتي لدين الله». (٣) في (ب): «وقاهرين». (٤) في (ب): «تمت والله الحمد». (٥) في (ب): «مما تدعو».

الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾.

﴿٢﴾ هو الذي بَعَثَ في الأميين رسولا: المراد بالأميين الذين لا كتاب عندهم ولا أثر رسالة من العرب وغيرهم ممن ليسوا من أهل الكتاب، فامتَنُ الله تعالى عليهم مَنَّةً عظيمةً أعظم من مَنَّتِه على غيرهم؛ لأنهم عادمون للعلم والخير، وكانوا في ﴿ضلال مبين﴾؛ يتعبدون للأصنام والأشجار^(١) والأحجار، ويتخلَّقون بأخلاق السباع الضارية، يأكل قوتهم ضعيفهم، وقد كانوا في غاية الجهل بعلوم الأنبياء، فبعث الله فيهم رسولا منهم يعرفون نسبه وأوصافه الجميلة وصدقه، وأنزل عليه كتابه، ﴿يَتْلُو عليهم آياته﴾: القاطعة الموجبة للإيمان واليقين، ﴿ويزكيهم﴾: بأن يفصل لهم الأخلاق الفاضلة ويحثهم عليها^(٢) ويزجرهم عن الأخلاق الرذيلة، ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾؛ أي: علم الكتاب^(٣) والسنة، المشتمل^(٤) على علوم الأولين والآخرين، فكانوا بعد هذا التعليم والتزكية من أعلم الخلق، بل كانوا أئمة أهل العلم والدين وأكمل الخلق أخلاقاً وأحسنهم هدياً وسمتاً، اهتدوا بأنفسهم، وهَدَّوْا غيرهم، فصاروا أئمة المهتدين وقادة المتقين^(٥)، فلهه تعالى عليهم بيعة^(٦) هذا الرسول أكمل نعمة وأجل منحة.

﴿٣﴾ وقوله: ﴿وآخرين منهم لَمَا يَلْحَقُوا بهم﴾؛ أي: وامتَنُ على آخرين من غير الأميين ممن يأتي بعدهم ومن أهل الكتاب ﴿لَمَا يَلْحَقُوا بهم﴾؛ أي: فيمن باشر^(٧) دعوة الرسول؛ يحتمل أنهم لَمَا يَلْحَقُوا بهم في الفضل، ويحتمل أن يكونوا لَمَا يَلْحَقُوا بهم في الزمان، وعلى كل؛ فكل المعنيين صحيح؛ فإن الذين بعث الله فيهم رسوله وشاهدوه وباشروا دعوته حصل لهم من الخصائص والفضائل ما لا يمكن أحداً أن يلحقهم فيها.

﴿٤﴾ وهذا من عزَّته وحكمته؛ حيث لم يترك عباده هَمَلاً ولا سُدىً، بل ابتعث فيهم الرسل وأمرهم ونهاهم، وذلك من [فضل الله العظيم]^(٨) الذي يؤتيه مَن يشاء

(١) في (ب): «للأشجار والأصنام».

(٢) في (ب): «بأن يحثهم على الأخلاق الفاضلة ويفصلها لهم».

(٣) في (ب): «القرآن».

(٤) في (ب): «المشتمل ذلك».

(٥) في (ب): «وهداة المؤمنين».

(٦) في (ب): «بيعت».

(٧) في (ب): «باشروا».

(٨) في (أ): «بياض».

من عباده، وهو أفضل من نعمته عليهم بعافية البدن وسعة الرزق وغير ذلك من النعم الدنيوية؛ فلا أفضل من نعمة الدين التي هي مادة الفوز والسعادة الأبدية.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا التَّوْبَةَ ثُمَّ لَمْ يُحْمَلُوا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَارًا^(١) يَتَسَاءَلُونَ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ^(٢) قُلْ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ رَعَيْتُمْ أَنْتُمْ أَوْلِيَاءَ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمْنُوا الْوَتَّ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ^(٣) وَلَا يَسْتَوُونَ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ^(٤) قُلْ إِنْ أَلَمْتُ أَلَدَى فُتُورٍ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْفِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عِلَاقِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^(٥)﴾.

﴿٥﴾ لما ذكر تعالى^(٢) مثته على هذه الأمة الذين بعث^(٣) فيهم النبي الأمي وما خصهم الله [به] من المزايا والمناقب التي لا يلحقهم فيها أحد، وهم الأمة الأمية، الذين فاقوا الأولين والآخرين، حتى أهل الكتاب الذين يزعمون أنهم العلماء الربانيون والأحبار المتقدمون؛ ذكر أن الذين حملهم الله التوراة من اليهود وكذا النصراني وأمرهم أن يتعلموها ويعملوا بها فلم يحملوها^(٤) ولم يقوموا بما حملوا به؛ أنهم لا فضيلة لهم، وأن مثلهم كمثل الحمار الذي يحمل فوق ظهره أسفاراً من كتب العلم؛ فهل يستفيد ذلك الحمار من تلك الكتب التي فوق ظهره؟! وهل تلحقه^(٥) فضيلة بسبب ذلك؟! أم حظّه منها حملها فقط؟ فهذا مثل علماء أهل الكتاب^(٦)، الذين لم يعملوا بما في التوراة الذي من أجله وأعظمه الأمر باتّباع محمد ﷺ والبشارة به والإيمان بما جاء به من القرآن؛ فهل استفاد من هذا وصفه من التوراة إلا الخيبة والخسران وإقامة الحجّة عليه؛ فهذا المثل مطابق لأحوالهم. ﴿بئس مثل القوم الذين كذبوا﴾ بآياتنا الدالة على صدق رسولنا وصحة^(٧) ما جاء به ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾؛ أي: لا يرشدهم إلى مصالحهم ما دام الظلم لهم وصفاً والعناد لهم نعتاً.

﴿٦﴾ ومن ظلم اليهود وعنادهم أنهم يعلمون أنهم على باطل ويزعمون أنهم

(١) في (أ) إلى قوله: «فينشككم بما كنتم تعملون». وفي (ب) ذكر الآيات كاملة.

(٢) في (ب): «لما ذكر الله مثته». (٣) في (ب): «ابتعث».

(٤) في (ب): «بما فيها وأنهم لم يحملوها».

(٥) في (ب): «وهل يلحق به».

(٦) في (ب): «مثل علماء اليهود».

(٧) في (ب): «صدق».

على حق، وأنهم أولياء لله من دون الناس! ولهذا أمر الله رسوله أن يقول لهم: إن كنتم صادقين في زعمكم أنكم على الحق وأولياء الله؛ ﴿فَتَمَنُّواْ الْمَوْتَ﴾: وهذا أمر خفيف؛ فإنهم لو علموا أنهم على حق؛ لما توقفوا عن هذا التحدي الذي جعله الله دليلاً على صدقهم إن تمّنوه و^(١) كذبهم إن لم يتمّنوه.

﴿٧﴾ ولما لم يقنع منهم مع الإعلان لهم بذلك؛ علّم أنهم عالمون ببطلان ما هم عليه وفساده، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَتَمَنُّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: من الذنوب والمعاصي التي يستوحشون من الموت من أجلها، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾: فلا يمكن أن يخفى عليه من ظلمهم شيء.

﴿٨﴾ هذا؛ وإن كانوا لا يتمّنون الموت بما قدّمت أيديهم، بل يفرّون^(٢) منه غاية الفرار؛ فإن ذلك لا ينجيهم، بل لابد أن يلاقىهم الموت الذي قد حتمه الله على العباد [وكتبه عليهم]، ثم بعد الموت واستكمال الآجال يُردّ الخلق كلّهم يوم القيامة إلى عالم الغيب والشهادة، فينبئهم بما كانوا يعملون من خيرٍ وشرٍّ قليل وكثير^(٣).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ^(٤) وَذَرُّوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿٩﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة والمبادرة إليها من حين يُنادى لها والسعي إليها، والمراد بالسعي هنا المبادرة [إليها] والاهتمام لها وجعلها أهمّ الأشغال، لا العدو الذي قد نُهي عنه عند المضي إلى الصلاة. وقوله: ﴿وَذَرُّوا الْبَيْعَ﴾؛ أي: اتركوا البيع إذا نودي للصلاة وامضوا إليها؛ فإنّ ﴿ذَلِكُمْ^(٥) خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: من اشتغالكم بالبيع، أو^(٦) تفويتكم الصلاة الفريضة التي هي من أكّد

(١) في (ب): «أو».

(٢) في (ب): «من قليل وكثير وخيرٍ وشر».

(٤) في (أ) إلى آخر السورة، وفي (ب) ذكر الآيات إلى نهاية السورة.

(٥) في (ب): «ذلك».

(٦) في (ب): «و».

(٢) في (ب): «ويفرون».

الفروض ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أَنْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى، وَأَنْ مَنْ أَثَرُ الدُّنْيَا عَلَى الدِّينِ؛ فَقَدْ خَسِرَ الْخُسَارَا الْحَقِيقِيَّةَ؛ مِنْ حَيْثُ يَظُنُّ^(١) أَنَّهُ يَرِيحُ.

﴿١٠﴾ وَهَذَا الْأَمْرُ بِتَرْكِ الْبَيْعِ مَوْقَتَ مَدَّةِ الصَّلَاةِ؛ ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾: لَطَلَبِ الْمَكَاسِبِ وَالتَّجَارَاتِ، وَلَمَّا كَانَ الْاِشْتَغَالُ بِالتَّجَارَةِ^(٢) مَظِنَّةٌ الْغَفْلَةُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ؛ أَمَرَ اللَّهُ بِالْإِكْثَارِ مِنْ ذِكْرِهِ؛ لِيَنْجِبَ بِهِذَا، فَقَالَ: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾؛ أَي: فِي حَالِ قِيَامِكُمْ وَقُعُودِكُمْ وَعَلَى جَنُوبِكُمْ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾: فَإِنَّ الْإِكْثَارَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَكْبَرُ أَسْبَابِ الْفَلَاحِ.

﴿١١﴾ ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾؛ أَي: خَرَجُوا مِنَ الْمَسْجِدِ حِرْصًا عَلَى ذَلِكَ اللَّهْوِ وَتِلْكَ التَّجَارَةِ وَتَرَكُوا الْخَيْرَ، ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾: تَخَطُّبُ النَّاسِ، وَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ، بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ النَّاسَ؛ إِذْ قَدِمَ الْمَدِينَةَ عَيْرَ تَحْمِلِ تِجَارَةً، فَلَمَّا سَمِعَ النَّاسُ بِهَا وَهَمَّ فِي الْمَسْجِدِ؛ انْفَضُّوا مِنَ الْمَسْجِدِ^(٣)، وَتَرَكُوا النَّبِيَّ ﷺ يَخْطُبُ اسْتِعْجَالًا لَمَّا لَا يَنْبَغِي أَنْ يُسْتَعْجَلَ لَهُ وَتَرَكَ أَدَبَ، ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾: مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ لَمَنْ لَازِمَ الْخَيْرِ وَصَبَرَ نَفْسَهُ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ^(٤)، ﴿خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ التَّجَارَةِ﴾: الَّتِي وَإِنْ حَصَلَ مِنْهَا بَعْضُ الْمَقَاصِدِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ قَلِيلٌ مُنْقَضٍ^(٥)، مَفُوتٌ لِخَيْرِ الْآخِرَةِ، وَلَيْسَ الصَّبْرُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ مَفُوتًا لِلرِّزْقِ؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾؛ فَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ؛ رَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ.

وفي هذه الآيات فوائد عديدة:

منها: أَنَّ الْجُمُعَةَ فَرِيضَةٌ عَلَى [جَمِيعِ] الْمُؤْمِنِينَ يَجِبُ عَلَيْهِمُ السَّعْيُ إِلَيْهَا^(٦) وَالْمُبَادَرَةُ وَالْاهْتِمَامُ بِشَأْنِهَا.

ومنها: أَنَّ الْخُطْبَتَيْنِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَرِيضَةٌ^(٧) يَجِبُ حُضُورُهُمَا؛ لِأَنَّهُ فُسِّرَ الذِّكْرُ هُنَا بِالْخُطْبَتَيْنِ، فَأَمَرَ اللَّهُ بِالْمُضِيِّ إِلَيْهِ وَالسَّعْيِ لَهُ.

ومنها: مَشْرُوعِيَّةُ النَّدَاءِ لِلْجُمُعَةِ^(٨) وَالْأَمْرُ بِهِ.

(١) فِي (ب): «ظَنُّ».

(٢) فِي (ب): «فِي التَّجَارَةِ».

(٣) كَمَا فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» (٨٩٩)، وَمُسْلِمٍ (٨٦٣).

(٤) فِي (ب): «عِبَادَةُ رَبِّهِ».

(٥) فِي (ب): «مَنْقُصٌ».

(٦) فِي (ب): «لِهَا».

(٧) فِي (ب): «فَرِيضَتَانِ».

(٨) فِي (ب): «لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ».

ومنها: النهي عن البيع والشراء بعد نداء الجمعة وتحريم ذلك، وما ذاك إلا لأنه يفوت الواجب ويشغل عنه^(١)، فدل ذلك على أن كل أمر وإن^(٢) كان مباحاً في الأصل، إذا كان ينشأ عنه تفويت واجب؛ فإنه لا يجوز في تلك الحال.

ومنها: الأمر بحضور الخطبتين^(٣) يوم الجمعة، وذم من لم يحضرهما^(٤)، ومن لازم ذلك الإنصات لهما^(٥).

ومنها: أنه ينبغي للعبد المقبل على عبادة الله وقت دواعي النفس لحضور اللهو والتجارات والشهوات، أن يذكرها بما عند الله من الخيرات وما لمؤثر رضاه على هواه.

تم تفسير سورة الجمعة بمن الله وعونه.

والحمد لله رب العالمين^(٦).



تفسير سورة المنافقين

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ^(٧) وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ يُحَسِّبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ قُلْ لَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾

(١) في (ب): «يشغل ويفوت الواجب». (٢) في (ب): «ولو».

(٣) في (ب): «الخطبة». (٤) في (ب): «لم يحضرها».

(٥) في (ب): «لها».

(٦) في (ب): «تم تفسير سورة الجمعة. والله الحمد والثناء».

(٧) في (أ) إلى قوله: «إن الله لا يهدي القوم الفاسقين»، وفي (ب) ذكر الآيات.

لَمْ يَكُنْ يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ ﴿١﴾

﴿١﴾ لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَكَثُرَ الْإِسْلَامُ فِيهَا وَعَزَّ^(١)؛ صَارَ أَنَاسٌ مِنْ أَهْلِهَا مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ يَظْهَرُونَ الْإِيمَانَ وَيَبْطِنُونَ الْكُفْرَ؛ لِيَبْقَى جَاهُهُمْ وَتُحَقَّقَ دِمَاؤُهُمْ وَتَسَلَّمَ أَمْوَالُهُمْ، فَذَكَرَ اللَّهُ مِنْ أَوْصَافِهِمْ مَا بِهِ يُعْرَفُونَ؛ لِكَيْ يَحْذِرَ الْعِبَادُ مِنْهُمْ وَيَكُونُوا مِنْهُمْ عَلَى بَصِيرَةٍ، فَقَالَ: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا﴾: عَلَى وَجْهِ الْكَذِبِ: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾: وَهَذِهِ الشَّهَادَةُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ عَلَى وَجْهِ الْكَذِبِ وَالنَّفَاقِ، مَعَ أَنَّهُ لَا حَاجَةَ لِشَهَادَتِهِمْ فِي تَأْيِيدِ رَسُولِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ ﴿يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾: فِي قَوْلِهِمْ وَدَعْوَاهُمْ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِحَقِيقَةٍ مِنْهُمْ.

﴿٢﴾ ﴿اتَّخِذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾؛ أَي: تَرَسَّأْ يَتَرَسَّسُونَ بِهَا مِنْ نَسَبَتِهِمْ إِلَى النَّفَاقِ، فَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ بِأَنْفُسِهِمْ، وَصُدُّوا غَيْرُهُمْ مِمَّنْ يَخْفَى عَلَيْهِ حَالُهُمْ. ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: حَيْثُ أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ وَأَبْطَنُوا الْكُفْرَ وَأَقْسَمُوا عَلَى ذَلِكَ وَأَوْهَمُوا صِدْقَهُمْ.

﴿٣﴾ ﴿ذَلِكَ﴾: الَّذِي زَيْنَ لَهُمُ النَّفَاقَ، ﴿بِ﴾ سَبَبِ ﴿أَنَّهُمْ﴾ لَا يَثْبُتُونَ عَلَى الْإِيمَانِ، بَلْ ﴿آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾: بِحَيْثُ لَا يَدْخُلُهَا الْخَيْرُ أَبَدًا. ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾: مَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَعُونَ مَا يَعُودُ بِمَصَالِحِهِمْ.

﴿٤﴾ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾: مِنْ رَوَائِهَا وَنَضَارَتِهَا، ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾؛ أَي: مِنْ حَسَنِ مَنْطِقِهِمْ تَسْتَلِدُّ لَاسْتِمَاعِهِ؛ فَأَجْسَامُهُمْ وَأَقْوَالُهُمْ مَعْجَبَةٌ، وَلَكِنْ لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ وَالْهَدْيِ الصَّالِحِ شَيْءٌ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَانَتْهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةً﴾: لَا مَنَفْعَةَ فِيهَا وَلَا يُنَالُ مِنْهَا إِلَّا الضَّرَرُ الْمَحْضُ. ﴿يَخْسِبُونَ كُلَّ صَبِيحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾: وَذَلِكَ لِجَبْنِهِمْ وَفَزَعِهِمْ وَضَعْفِ قُلُوبِهِمْ وَرَبِّهَا^(٢)؛ يَخَافُونَ أَنْ يُطْلَعَ عَلَيْهِمْ؛ فَهَؤُلَاءِ ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ عَلَى الْحَقِيقَةِ؛ لِأَنَّ الْعَدُوَّ الْمُبَارِزَ^(٣) الْمَتَمِّيزَ أَهْوَنُ مِنَ الْعَدُوِّ الَّذِي لَا يَشْعُرُ بِهِ، وَهُوَ مَخْدَعٌ مَآكِرٌ، يَزْعَمُ أَنَّهُ وَلِيٌّ، وَهُوَ الْعَدُوُّ الْمُبِينُ. ﴿فَاحْذَرْهُمْ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ اتَّى يُؤَفِّكَوْنَ﴾؛ أَي: كَيْفَ يُضَرِّقُونَ عَنِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَتْ أَدْلَتُهُ وَاتَّضَحَتْ مَعَالِمُهُ إِلَى الْكُفْرِ الَّذِي لَا يُفِيدُهُمْ إِلَّا الْخُسَارَ وَالشَّقَاءَ.

(١) فِي (ب): «الْمُسْلِمُونَ فِي الْمَدِينَةِ وَاعْتَزَّ الْإِسْلَامَ».

(٢) فِي (ب): «وَالرِّيبَ الَّذِي فِي قُلُوبِهِمْ». (٣) فِي (ب): «الْمُبَارِزَ».

﴿٥﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾: لهؤلاء المنافقين: ﴿تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾: عَمَّا صدر منكم؛ لتحسن أحوالكم، وتقبل أعمالكم؛ امتنعوا من ذلك أشد الامتناع، و﴿لَوْوَا رُؤُوسَهُمْ﴾: امتناعاً من طلب الدعاء من الرسول، ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾: عن الحق بغضاً له، ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾: عن اتباعه بغياً وعناداً. فهذه حالهم عندما يُدْعَوْنَ إلى طلب الدعاء من الرسول.

﴿٦﴾ وهذا من لطف الله وكرامته لرسوله؛ حيث لم يأتوا إليه فيستغفر لهم، فإنه ﴿سَوَاءٌ﴾ استغفر لهم أم لم يستغفر لهم ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾؟ وذلك لأنهم قوم فاسقون خارجون عن طاعة الله مؤثرون للكفر على الإيمان؛ فلذلك لا ينفع فيهم استغفار الرسول لو استغفر لهم؛ كما قال تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

﴿هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾^(١) وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾.

﴿٧﴾ وهذا من شدة عداوتهم للنبي ﷺ والمسلمين، لما رأوا اجتماع أصحابه وائتلافهم ومسارعتهم في مرضاة الرسول ﷺ؛ قالوا بزعمهم الفاسد: ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولٍ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾: فإنهم على زعمهم لولا أموال المنافقين ونفقاتهم عليهم؛ لما اجتمعوا في نصرة دين الله! وهذا من أعجب العجب أن يدعي هؤلاء المنافقون الذين هم أحرص الناس على خذلان الدين وأذية المسلمين مثل هذه الدعوى التي لا تروج إلا على من لا علم له بالحقائق^(٢)، ولهذا قال تعالى ردّاً لقولهم: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: فيؤتي الرزق من يشاء، ويمنعه من يشاء، ويسر الأسباب لمن يشاء، ويعسرها على من يشاء. ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ فلذلك قالوا تلك المقالة التي مضمونها أن خزائن الرزق في أيديهم وتحت مشيتهم.

﴿٨﴾ ﴿يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾: وذلك في

(١) في (أ) إلى قوله: «لا يعلمون»، وفي (ب) ذكر الآيات إلى قوله: «ولكن المنافقين لا يعلمون».

(٢) في (ب): «بحقائق الأمور».

غزوة المريسيع، حين صار بين بعض المهاجرين والأنصار بعض كلام كَذَر الخواطر؛ ظهر حينئذ نفاق المنافقين، وتبين ما في قلوبهم^(١)، وقال كبيرهم عبد الله بن أبي بن سلول: ما مثَلنا ومثَل هؤلاء - يعني: المهاجرين - إلا كما قال القائل: سَمَنْ كَلَبِكَ يَأْكُلُكَ. وقال: لئن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ؛ بزعمه أنه هو وإخوانه المنافقين الأعزُّون، وأنَّ رسول الله ومن اتبعه هم الأذَلُّون، والأمر بعكس ما قال هذا المنافق، فلهذا قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾: فهم الأعزَّاء، والمنافقون وإخوانهم من الكفار هم الأذَلَّاء. ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: ذلك؛ فلذلك زعموا أنَّهم الأعزَّاء اغتراراً بما هم عليه من الباطل.

ثم قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ^(٢) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِكُمْ أَلْعُتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَآ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَفَ وَآكُنْ مِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿٩﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإكثار من ذكره؛ فإنَّ في ذلك الربح والفلاح والخيرات الكثيرة، وبيناهم أنَّ تشغَلهم أموالهم وأولادهم عن ذكره؛ فإنَّ محبة المال والأولاد مجبولة عليها أكثر النفوس، فتتقدمها على محبة الله، وفي ذلك الخسارة العظيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾: أي: يُلْهِم مَالَهُ وولده عن ذكر الله، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: للسعادة الأبدية والنعيم المقيم؛ لأنَّهم آثروا ما يفنى على ما يبقى؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿١٠﴾ وقوله: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾: يدخل في هذه النفقات الواجبة من الزكاة والكفارات^(٣)، ونفقة الزوجات والمماليك، ونحو ذلك، والنفقات المستحبة؛

(١) في (ب): «وأظهروا ما في نفوسهم».

(٢) في (أ) إلى آخر السورة وفي (ب) ذكر الآيات إلى آخر السورة.

(٣) في (ب): «والكفارة».

كبدل المال في جميع المصالح، وقال: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾: ليدل ذلك على أنه تعالى لم يكلف العباد من النفقة ما يُغْنِيَهُمْ ويشق عليهم، بل أمرهم بإخراج جزء مما رزقهم ويسره ويسر أسبابه، فليشكروا الذي أعطاهم بمواساة إخوانهم المحتاجين، وليبادروا بذلك، الموت الذي إذا جاء؛ لم يمكن العبد أن يأتي بمثقال ذرة من الخير، ولهذا قال: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ﴾: متحسراً على ما فرط في وقت الإمكان، سائلاً الرجعة التي هي محال: ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾؛ أي: لأتدارك ما فرطت فيه، ﴿فَأَصْدَقَ﴾: من مالي ما به أنجو من العذاب، وأستحق [به] جزيل الثواب، ﴿وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: بأداء المأمورات كلها واجتناب المنهيات، ويدخل في هذا الحج وغيره.

﴿١١﴾ وهذا السؤال والتمني قد فات وقته، ولا يمكن تداركه، ولهذا قال: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾: المحتوم لها. ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: من خير وشر، فيجازيكم على ما علمه منكم من النيات والأعمال. تم تفسير سورة المنافقين. ولله الحمد.



تفسير سورة التغابن

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ^(١) وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُفِّسَكُمْ فِي كُرْسِيِّكُمْ^(٢) وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ^(٣) وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ^(٤) وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ

﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلَمُونَ^(٥) وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ

﴿١﴾ هذه الآيات الكريمات مشتملات على جملة كثيرة واسعة من أوصاف الباري العظيمة، فذكر كمال ألوهيته سبحانه [وتعالى]، وسعة غناه، وافتقار جميع الخلائق إليه، وتسبيح من في السماوات والأرض بحمد ربها، وأن الملك كله لله؛

(١) في (أ) إلى قوله: ﴿والله عليم بذات الصدور﴾، وفي (ب) ذكر الآيات.

فلا يخرج عن ملكه مخلوق^(١)، والحمد كله له؛ حمدٌ على ما له من صفات الكمال، وحمدٌ على ما أوجده من الأشياء، وحمدٌ على ما شرعه من الأحكام وأسداه من النعم، وقدرته شاملة لا يخرج عنها موجودٌ؛ فلا يعجزه شيءٌ يريد.

﴿٢﴾ وذكر أنه خلق العباد، وجعل منهم المؤمن والكافر؛ فإيمانهم وكفرهم كله بقضاء الله وقدره، وهو الذي شاء ذلك منهم؛ بأن جعل لهم قدرة وإرادة بها يتمكنون من كل ما يريدون من الأمر والنهي. ﴿والله بما تعملون بصيرٌ﴾.

﴿٣﴾ فلما ذكر خلق الإنسان المأمور المنهي؛ ذكر خلق باقي المخلوقات، فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؛ أي: أجرامهما وجميع ما فيهما فأحسن خلقهما ﴿بِالْحَقِّ﴾؛ أي: بالحكمة والغاية المقصودة له تعالى، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنَ تَقْوِيمٍ﴾؛ فالإنسان أحسن المخلوقات صورةً، وأبهاها منظرًا. ﴿وَالِيهِ الْمَصِيرُ﴾؛ أي: المرجع يوم القيامة، فيجازيكم على إيمانكم وكفركم، ويسألكم عن النعم والنعيم الذي أولاكم؛ هل قمتم بشكره أم لم تقوموا به^(٢)؟

﴿٤﴾ ثم ذكر عموم علمه، فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: من السرائر والظواهر والغيب والشهادة، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُغْلِبُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ أي: بما فيها من الأسرار الطيبة والخبايا الخبيثة والنيات الصالحة والمقاصد الفاسدة؛ فإذا كان عليماً بذات الصدور؛ تعين على العاقل البصير أن يحرص ويجتهد في حفظ باطنه من الأخلاق الرذيلة واتصافه بالأخلاق الجميلة.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهم وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ٥ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ ٦ ﴿

﴿٥﴾ لما ذكر تعالى من أوصافه الكاملة العظيمة ما به يُعرف، ويُعبد، ويُبدل الجهد في مرضاته، وتُجنب مسأخطه؛ أخبر بما فعل بالأمم السابقين والقرون الماضية، الذين لم تنزل أنباؤهم يتحدث بها المتأخرون، ويُخبر بها الصادقون، وأنهم حين جاءتهم رسلهم^(٣) بالحق؛ كذبوهم، وعاندوهم فأذاقهم الله وبَالَ أَمْرِهم

(١) في (ب): «فلا يخرج مخلوق عن ملكه». (٢) في (ب): «أم لم تقوموا بشكره».

(٣) في (ب): «الرسل».

في الدنيا، وأخزاهم فيها. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: في الدار الآخرة.

﴿٦﴾ ولهذا ذكر السبب في هذه العقوبة، فقال: ﴿ذَلِكَ﴾: النكال والوبال الذي أحللتناه بهم ﴿بأنه كانت تأتيهم رُسُلُهُم بالبينات﴾؛ أي: بالآيات الواضحات الدالة على الحق والباطل، فاشمأزوا واستكبروا على رسلهم، وقالوا: ﴿أُبَشِّرْ يَهُودُنَا﴾؛ أي: ليس لهم فضل علينا؛ ولأي شيء خَصَّهم الله دوننا؟! كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾: فهم حجروا فضل الله ومثته على أنبيائه أن يكونوا رسلاً للخلق، واستكبروا عن الانقياد لهم، فابتلوا بعبادة الأشجار والأحجار^(١) ونحوها، ﴿فكفروا﴾ بالله، ﴿وتولَّوا﴾ عن طاعته، ﴿واستغنى الله﴾ عنهم؛ فلا يبالي بهم ولا يضره ضلالهم شيئاً. ﴿والله غنيٌ حميدٌ﴾؛ أي: هو الغني الذي له الغنى التام المطلق من جميع الوجوه، الحميد في أقواله وأفعاله وأوصافه.

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِبُحْبُوحِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

﴿٧﴾ يخبر تعالى عن عناد الكافرين وزعمهم الباطل وتكذيبهم بالبعث بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، فأمر أشرف خلقه أن يُقسِمَ بربه على بعثهم وجزائهم بأعمالهم الخبيثة وتكذيبهم بالحق. ﴿وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾: فإنه وإن كان عسيراً، بل متعذراً بالنسبة إلى الخلق؛ فإن قواهم كلهم لو اجتمعت على إحياء ميت واحد؛ ما قدروا على ذلك، وأمّا الله تعالى، فإنه إذا أراد شيئاً؛ قال له^(٢): كن فيكون؛ قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾.

﴿فَتَأْمُرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿٨﴾ لما ذكر تعالى إنكار مَنْ أنكر البعث، وأن ذلك منهم موجب كفرهم بالله وآياته؛ أمر بما يعصم من الهلكة والشقاء، وهو الإيمان به وبرسوله وبكتابه^(٣)، وسمّاه الله نوراً؛ لأنّ النور ضدّ الظلمة؛ فما^(٤) في الكتاب الذي أنزله الله من

(١) في (ب): «الأحجار والأشجار». (٢) في (ب): «فإنه إذا أراد أمراً فإنما يقول له».

(٣) في (ب): «وهو الإيمان بالله ورسوله وكتابه».

(٤) في (ب): «وما».

الأحكام والشرائع والأخبار أنواراً يُهتدى بها في ظلمات الجهل المدلهمة، ويمشى بها في جندس الليل البهيم، وما سوى الاهتداء بكتاب الله؛ فهي علومٌ ضررها أكثر من نفعها، وشرها أكثر من خيرها، بل لا خير فيها ولا نفع؛ إلا ما وافق ما جاءت به الرسل، والإيمان بالله ورسوله وكتابه يقتضي الجزم التام واليقين الصادق بها والعمل بمقتضى ذاك التصديق من امتثال الأوامر واجتناب النواهي^(١). ﴿والله بما تعملون خبير﴾: فيجازيكم بأعمالكم الصالحة والسيئة.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾^(٢) وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾

﴿٩﴾ يعني: اذكروا يوم الجمع الذي يجمع الله به الأولين والآخرين، ويقفهم موقفاً هائلاً عظيماً، وينبئهم بما عملوا؛ فحينئذ يظهر الفرق والتغابن^(٣) بين الخلائق، ويرفع أقواماً إلى عليين في الغرف العاليات والمنازل المرتفعات المشتملة على جميع اللذات والشهوات، ويخفض أقواماً إلى أسفل سافلين محلّ لهم والغم^(٤) والحزن والعذاب الشديد، وذلك نتيجة ما قدموه لأنفسهم وأسلفوه أيام حياتهم، ولهذا قال: ﴿ذلك يوم التغابن﴾؛ أي: يظهر فيه التغابن والتفاوت بين الخلائق، ويغبن المؤمنون الفاسقين، ويعرف المجرمون أنهم^(٥) على غير شيء، وأنهم هم الخاسرون. فكأنه قيل: بأي شيء يحصل الفلاح والشقاء والنعيم والعذاب؟ فذكر [تعالى] أسباب ذلك بقوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾: إيماناً تاماً شاملاً لجميع ما أمر الله بالإيمان به، ﴿ويعمل صالحاً﴾: من الفرائض والنوافل؛ من أداء حقوق الله وحقوق عباده، ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، وتختاره الأرواح، وتحن إليه القلوب، ويكون نهاية كل مرغوب. ﴿خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾.

﴿١٠﴾ ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾؛ أي: كفروا بها من غير مستند شرعي

(١) في (ب): «المناهي».

(٢) في (أ) إلى: «المصير»، وفي (ب) ذكر الآيات إلى قوله: «وبئس المصير».

(٣) في (ب): «الفرق والتفاوت».

(٤) في (ب): «الغم والهم».

(٥) في (ب): «أنه».

ولا عقلي، بل جاءتهم الأدلة والبيّنات، فكذبوا بها وعاندوا ما دلّت عليه، ﴿أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير﴾: لأنّها جمعت كلّ بؤسٍ وشدةٍ وشقاءٍ وعذاب.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ^(١) إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ وَمَنْ يُمْرِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ وَاللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿١١﴾ يقول تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبةٍ إلّا بإذن الله﴾: وهذا عامٌ لجميع المصائب في النفس والمال والولد والأحباب ونحوهم؛ فجميع ما أصاب العباد بقضاء^(٢) الله وقدره؛ قد سبق بذلك علمُ الله وجرى به قلمُه ونفذت به مشيئته واقتضته حكمته، ولكنَّ الشأن كلَّ الشأن: هل يقومُ العبد بالوظيفة التي عليه في هذا المقام أم لا يقوم بها؟ فإنَّ قام بها؛ فله الثواب الجزيل والأجر الجميل في الدنيا والآخرة؛ فإذا آمن أنها من عند الله، فرضي بذلك وسلّم لأمره؛ هدى الله قلبه، فاطمأنَّ ولم يتزعج عند المصائب؛ كما يجري ممَّن لم يهدِ الله قلبه، بل يرزقه الله الثبات عند ورودها^(٣) والقيام بموجب الصبر، فيحصل له بذلك ثوابٌ عاجلٌ مع ما يدخر الله له يوم الجزاء من الأجر العظيم^(٤)؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَفِّقِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وعُلمَ من ذلك^(٥) أنَّ من لم يؤمن بالله عند ورود المصائب؛ بأن لم يلحظ قضاء الله وقدره بل وقف مع مجرد الأسباب؛ أنّه يُخذل ويكُله الله إلى نفسه، وإذا وُكِّل العبد إلى نفسه؛ فالنفس ليس عندها إلّا الهلع والجزع^(٦) الذي هو عقوبة عاجلةٌ على العبد قبل عقوبة الآخرة على ما فرط في واجب الصبر، هذا ما يتعلّق بقوله: ﴿وَمَنْ يُمْرِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ في مقام المصائب الخاص، وأمّا ما يتعلّق بها من حيث العموم اللَّفْظي؛ فإنَّ الله أخبر أنَّ كلَّ مَنْ آمَنَ؛ أي: الإيمانُ المأمور به، وهو^(٧) الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره،

(١) في (أ) إلى: ﴿فليتوكل المؤمنون﴾، وفي (ب): ذكر الآيات.

(٢) في (ب): «بقضاء». (٣) في (ب): «عندها».

(٤) في (ب): «من الثواب». (٥) في (ب): «وعلم من هذا».

(٦) في (ب): «الجزع والهلع». (٧) في (ب): «المأمور به من الإيمان».

وصدق إيمانه بما يقتضيه الإيمان من لوازمه^(١) وواجباته؛ أن هذا السبب الذي قام به العبد أكبر سبب لهداية الله له في أقواله وأفعاله وجميع أحواله^(٢) وفي علمه وعمله، وهذا أفضل جزاء يعطيه الله لأهل الإيمان؛ كما قال تعالى مخبراً أنه يثبت المؤمنين^(٣) في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأصل الثبات ثبات القلب وصبره وبقائه عند ورود كل فتنة، فقال: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾؛ فأهل الإيمان أهدى الناس قلباً وأثبتهم عند المزعجات والمقلقات، وذلك لما معهم من الإيمان.

﴿١٢﴾ وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾؛ أي: في امتثال أمرهما واجتناب نهيهما؛ فإن طاعة الله وطاعة رسوله مدار السعادة وعنوان الفلاح، ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾؛ أي: عن طاعة الله وطاعة رسوله، ﴿فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾؛ أي: يبلغكم ما أرسل به إليكم بلاغاً بيناً واضحاً، فتقوم عليكم به الحجة، وليس بيده من هدايتكم ولا من حسابكم شيء^(٤)، وإنما يحاسبكم على القيام بطاعة الله وطاعة رسوله أو عدم ذلك، عالم الغيب والشهادة.

﴿١٣﴾ ﴿اللَّهُ﴾ الذي ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: هو المستحق للعبادة والألوهية؛ فكل معبود سواه فباطل. ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: فليعتمدوا^(٥) عليه في كل أمر نابهم وفيما يريدون القيام به؛ فإنه لا يتيسر أمر من الأمور إلا بالله ولا سبيل إلى ذلك^(٦) إلا بالاعتماد على الله، ولا يتم الاعتماد على الله حتى يُحسن العبد ظنه بربه ويثق به في كفايته الأمر الذي يعتمد^(٧) عليه به، وبحسب إيمان العبد يكون توكله قوة وضعفاً^(٨).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ آزَوِجِكُمْ وَأَوْلَدِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتَنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

(١) في (ب): «من القيام بلوازمه».

(٢) في (ب): «في أحواله وأقواله وأفعاله».

(٣) في (ب): «كما قال تعالى في الأخبار أن المؤمنين يثبتهم الله».

(٤) في (ب): «من شيء».

(٥) في (ب): «يعتمدوا».

(٦) في (ب): «لذلك».

(٨) في (ب): «وبحسب إيمان العبد يكون توكله، فكلما قوي الإيمان قوي التوكل».

﴿١٤ - ١٥﴾ هَذَا تَحْذِيرٌ مِنَ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ عَنْ^(١) الْاِغْتِرَارِ بِالْأَزْوَاجِ وَالْأَوْلَادِ؛ فَإِنَّ بَعْضَهُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ، وَالْعَدُوُّ هُوَ الَّذِي يَرِيدُ لَكَ الشَّرَّ، فَوْطَيْفَتُكَ الْحَذَرُ مِمَّنْ هَذِهِ صِفَتُهُ^(٢)، وَالنَّفْسُ مَجْبُولَةٌ عَلَى مَحَبَّةِ الْأَزْوَاجِ وَالْأَوْلَادِ، فَنُصَحَ تَعَالَى عِبَادَهُ أَنْ تَوْجِبَ لَهُمْ هَذِهِ الْمَحَبَّةَ الْاِنْقِيَادَ لِمَطَالِبِ الْأَزْوَاجِ وَالْأَوْلَادِ، الَّتِي فِيهَا مَحْذُورٌ شَرْعِيٌّ^(٣)، وَرَغْبُهُمْ فِي امْتِثَالِ أَمْرِهِ وَتَقْدِيمِ مَرْضَاتِهِ بِمَا عِنْدَهُ مِنَ الْأَجْرِ الْعَظِيمِ، الْمَشْتَمِلِ عَلَى الْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ وَالْمَحَابِّ الْغَالِيَةِ، وَأَنْ يُوْثِرُوا الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ الْمُنْقَضِيَةِ. وَلَمَّا كَانَ النِّهْيُ عَنْ طَاعَةِ الْأَزْوَاجِ وَالْأَوْلَادِ فِيمَا هُوَ ضَرَرٌ عَلَى الْعَبْدِ وَالتَّحْذِيرُ مِنْ ذَلِكَ قَدْ يُوْهِمُ الْغِلْظَةَ عَلَيْهِمْ وَعِقَابَهُمْ؛ أَمَرَ تَعَالَى بِالْحَذَرِ مِنْهُمْ وَالصَّفْحِ عَنْهُمْ وَالْعَفْوِ؛ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَصَالِحِ مَا لَا يُمْكِنُ حَصْرُهُ، فَقَالَ: ﴿وَإِنْ تَغْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ؛ فَمَنْ عَفَا؛ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ صَفَحَ؛ صَفَحَ [اللَّهُ] عَنْهُ، وَمَنْ عَامَلَ اللَّهَ [تَعَالَى] فِيمَا يَحِبُّ، وَعَامَلَ عِبَادَهُ بِمَا^(٤) يَحِبُّونَ وَيَنْفَعُهُمْ؛ نَالَ مَحَبَّةَ اللَّهِ وَمَحَبَّةَ عِبَادِهِ وَاسْتَوْسَقَ لَهُ أَمْرُهُ.

﴿فَأَنفِقُوا لِلَّهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ^(٥) وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لَّأَنفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٦) **﴿١٦﴾** إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ **﴿١٧﴾** عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ **﴿١٨﴾**.

﴿١٦﴾ يَأْمُرُ تَعَالَى بِتَقْوَاهِ الَّتِي هِيَ امْتِثَالُ أَمْرِهِ وَاجْتِنَابُ نَوَاهِيهِ، وَقَيْدُ^(٦) ذَلِكَ بِالْاِسْتِطَاعَةِ وَالْقُدْرَةِ. فَهَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُلَّ وَاجِبٍ عَجَزَ عَنْهُ الْعَبْدُ يَسْقُطُ^(٧) عَنْهُ، وَأَنَّهُ إِذَا قَدَرَ عَلَى بَعْضِ الْمَأْمُورِ وَعَجَزَ عَنْ بَعْضِهِ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ وَيَسْقُطُ عَنْهُ مَا يَعْجُزُ عَنْهُ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ؛ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»^(٨). وَيدخل تحت هذه القاعدة الشرعية من الفروع ما لا يدخل تحت الحصر. وَقَوْلُهُ: ﴿وَاسْمِعُوا﴾؛ أَي: اسْمِعُوا مَا يَعِظُكُمُ اللَّهُ بِهِ وَمَا يَشْرَعُهُ لَكُمْ مِنْ

(١) فِي (ب): «مَنْ». (٢) فِي (ب): «مِمَّنْ هَذَا وَصْفُهُ».

(٣) فِي (ب): «وَالْأَوْلَادِ، وَلَوْ كَانَ فِيهَا مَا فِيهَا مِنَ الْمَحْذُورِ الشَّرْعِيِّ».

(٤) فِي (ب): «كَمَا يَحِبُّونَ». (٥) فِي الْأَصْلِ إِلَى آخِرِهَا.

(٦) فِي (ب): «وَقَيْدُ». (٧) فِي (ب): «أَنَّهُ يَسْقُطُ».

(٨) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٧٢٧٧)، وَمُسْلِمٌ (١٣٣٧) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الأحكام واعلموا ذلك وانقادوا له، ﴿وأطيعوا﴾: الله ورسوله في جميع أموركم، ﴿وأنفقوا﴾: من النفقات [الشرعية] الواجبة والمستحبة؛ يَكُنْ ذلك الفعل منكم خيراً لكم في الدنيا والآخرة؛ فَإِنَّ الخير كله في امتثال أوامر الله [تعالى] وقبول نصائحه والانقياد لشرعه، والشرُّ كله في مخالفة ذلك، ولكن ثَمَّ آفةٌ تمنع كثيراً من الناس من النفقة المأمور بها، وهو الشُّحُّ المجبولة عليه أكثر النفوس؛ فَإِنَّهَا تشحُّ بالمال وتحبُّ وجوده وتكره خروجه من اليد غاية الكراهة، فمن وقاه الله [تعالى] ﴿شُحِّ نَفْسِهِ﴾: بأن سمحت نفسه بالإنفاق^(١) النافع لها، ﴿فأولئك هم المفلحون﴾: لأنهم أدركوا المطلوب ونجوا من المرهوب، بل لعلَّ ذلك شاملٌ لكلِّ ما أمر به العبد ونهي عنه؛ فَإِنَّهُ إن كانت نفسه شحيحة لا تنقاد لما أمرت به ولا تخرج ما قبلها؛ لم يفلح، بل خسر الدنيا والآخرة، وإن كانت نفسه نفساً سمحة مطمئنة منسجمة لشرع الله طالبةً لمرضاته^(٢)؛ فَإِنَّهَا ليس بينها وبين فعل ما كلَّفت به إلا العلم به ووصول معرفته إليها والبصيرة بأنَّه مُرضٍ لله [تعالى]، وبذلك تفلح وتنجح وتفوز كلُّ الفوز.

﴿١٧﴾ ثم رَغِبَ تعالى في النفقة، فقال: ﴿إن تقرضوا الله قرضاً حسناً﴾: وهو كلُّ نفقة كانت من الحلال إذا قَصَدَ بها العبدُ وجه الله تعالى ووضعها موضعها، ﴿يضاعفه لكم﴾: النفقة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرة، ﴿و﴾ مع المضاعفة أيضاً ﴿يَغْفِرْ﴾ الله ﴿لكم﴾: بسبب الإنفاق والصدقة ذنوبكم؛ فَإِنَّ الذَّنْبَ يكفرها [الله] بالصدقات والحسنات؛ ﴿إِنَّ الحسنات يُذهِبْنَ السيئات﴾. ﴿والله شكورٌ﴾^(٣) حليمٌ: لا يعاجل من عصاه، بل يُمهِّلُهُ ولا يُهْمِّلُهُ، ﴿ولو يؤاخذُ الله الناس بما كَسَبُوا ما ترك على ظهرها من دابةٍ ولكن يؤخِّرُهُم إلى أجلٍ مسمى﴾، والله^(٤) تعالى شكورٌ، يقبلُ من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه الكثير من الأجر، ويشكر تعالى لمن تحمَّل من أجله المشاق والأثقال وأنواع التكاليف^(٥) الثقال، ومن ترك شيئاً لله؛ عَوَّضَهُ الله خيراً منه.

﴿١٨﴾ ﴿عالمُ الغيبِ والشهادة﴾؛ أي: ما غاب من^(٦) العباد من الجنود التي لا

(١) في (ب): «في الإنفاق». (٢) في (ب): «المرضاة الله».

(٣) في (أ) صححت بخط مغاير إلى «شكور» وفي (ب): «غفور». والآية «شكور».

(٤) في (ب): «وهو تعالى». (٥) في (ب): «المشاق وناء بالتكاليف الثقال».

(٦) في (ب): «عن».

يعلمها إلّا هو وما يشاهدونه من المخلوقات. ﴿العزیز﴾: الذي لا يغالب ولا يمانع، الذي قهر جميع^(١) الأشياء. ﴿الحكيم﴾: في خلقه وأمره، الذي يضع الأشياء مواضعها.

تم تفسير السورة. ولله الحمد^(٢).



تفسير سورة الطلاق

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ^(٣) وَأَحْضُوا أَلَدَةً^(٤) وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا^(٥) فَإِذَا بَلَغَ الْإِجْلَ فَمِنْكُمْ مَنْ يَعْرِفُ فَاوْفُوهُنَّ بِمَا عَرَفْنَ وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ كُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا^(٦) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا^(٧)﴾.

﴿١﴾ يقول تعالى مخاطباً لنبيه [محمد] ﷺ وللمؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾؛ أي: [إذا] أردتم طلاقهن، ﴿ف﴾: التمسوا لطلاقهن الأمر المشروع، ولا تبادروا بالطلاق من حين يوجد سببه من غير مراعاة لأمر الله، بل ﴿طَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾؛ أي: لأجل عدتهن؛ بأن يطلقها زوجها وهي طاهر في طهر لم يجامعها فيه؛ فهذا الطلاق هو الذي تكون العدة فيه واضحة بيّنة؛ بخلاف ما لو طلقها وهي حائض؛ فإنها لا تحتسب تلك^(٤) الحيضة التي وقع فيها الطلاق، وتطول عليها العدة بسبب ذلك، وكذلك لو طلقها في طهر وطىء فيه؛ فإنه لا يؤمن حملها، فلا

(١) في (ب): «كل».

(٢) في (ب): «تم تفسير التغبان».

(٣) في (أ) إلى قوله: ﴿قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾، وفي (ب) ذكر الآيات.

(٤) في (ب): «بتلك».

يَتَّبِعْنَ وَلَا يَتَضَحَّ^(١) بِأَيِّ عِدَّةٍ تَعْتَدُ، وَأَمَرَ تَعَالَى بِإِحْصَاءِ الْعِدَّةِ، أَي: ضَبَطَهَا بِالْحَيْضِ إِنْ كَانَتْ تَحِيضُ، أَوْ بِالشَّهْرِ إِنْ لَمْ تَكُنْ تَحِيضُ وَلَيْسَتْ حَامِلًا؛ فَإِنَّ فِي إِحْصَائِهَا أَدَاءً لِحَقِّ اللَّهِ، وَحَقَّ الزَّوْجِ الْمُطْلَقِ، وَحَقٌّ مِنْ سَيِّئِ زَوْجِهَا بَعْدَ، وَحَقُّهَا فِي النِّفْقَةِ وَنَحْوِهَا؛ فَإِذَا ضَبَطَتْ عِدَّتَهَا؛ عَلِمَتْ حَالَهَا عَلَى بَصِيرَةٍ، وَعَلِمَ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا مِنَ الْحَقُوقِ وَمَا لَهَا مِنْهَا، وَهَذَا الْأَمْرُ بِإِحْصَاءِ الْعِدَّةِ يَتَوَجَّهُ لِلزَّوْجِ وَلِلْمَرْأَةِ إِنْ كَانَتْ مَكْلُفَةً، وَإِلَّا؛ فَلَوْلِيَّهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾؛ أَي: فِي جَمِيعِ أُمُورِكُمْ، وَخَافُوهُ فِي حَقِّ الزَّوْجَاتِ الْمُطْلَقَاتِ.

﴿لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بَيْوتِهِنَّ﴾: مَدَّةُ الْعِدَّةِ، بَلْ تَلْزَمُ بَيْتَهَا الَّذِي^(٢) طَلَّقَهَا زَوْجُهَا وَهِيَ فِيهِ^(٣). ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾؛ أَي: لَا يَجُوزُ لَهُنَّ الْخُرُوجُ مِنْهَا، أَمَّا النَّهْيُ عَنْ إِخْرَاجِهَا؛ فَلَأَنَّ الْمَسْكَنَ يَجِبُ عَلَى الزَّوْجِ لِلزَّوْجَةِ^(٤) لَتُسَكَّمَلْ فِيهِ عِدَّتُهَا الَّتِي هِيَ حَقٌّ مِنْ حَقُوقِهِ، وَأَمَّا النَّهْيُ عَنْ خُرُوجِهَا؛ فَلَمَّا فِي خُرُوجِهَا مِنْ إِضَاعَةِ حَقِّ الزَّوْجِ وَعَدَمِ صَوْنِهِ، وَيَسْتَمُرُّ هَذَا النَّهْيُ عَنْ الْخُرُوجِ مِنَ الْبُيُوتِ وَالْإِخْرَاجِ إِلَى تَمَامِ الْعِدَّةِ. ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾؛ أَي: بِأَمْرِ قَبِيحٍ وَاضِحٍ مُوجِبٍ لِإِخْرَاجِهَا؛ بِحَيْثُ يُدْخَلُ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ الضَّرَرُ مِنْ عَدَمِ إِخْرَاجِهَا؛ كَالْأَذَى بِالْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ الْفَاحِشَةِ؛ فَفِي هَذِهِ الْحَالِ يَجُوزُ لَهُمْ إِخْرَاجُهَا؛ لِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي تَسَبَّبَتْ لِإِخْرَاجِ نَفْسِهَا، وَالْإِسْكَانُ فِيهِ جَبْرٌ لِمَخَاطَرِهَا وَرَفَقٌ بِهَا؛ فَهِيَ الَّتِي أَدْخَلْتَ الضَّرَرَ عَلَيْهَا. وَهَذَا^(٥) فِي الْمَعْتَدَةِ الرَّجْعِيَّةِ، وَأَمَّا الْبَائِنُ؛ فَلَيْسَ لَهَا سَكْنَى وَاجِبَةٌ؛ لِأَنَّ السَّكْنَى تَبْعٌ لِلنِّفْقَةِ، وَالنِّفْقَةُ تَجِبُ لِلرَّجْعِيَّةِ دُونَ الْبَائِنِ.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾؛ أَي: الَّتِي حَدَّهَا لِعِبَادِهِ وَشَرَعَهَا لَهُمْ وَأَمَرَهُمْ بِلِزْمِهَا وَالْوُقُوفِ مَعَهَا، ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾: بِأَنْ لَمْ يَقِفْ مَعَهَا، بَلْ تَجَاوَزَهَا أَوْ قَصَّرَ عَنْهَا، ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾؛ أَي: بَخَسَهَا حَقَّهَا^(٦)، وَأَضَاعَ نَصِيْبَهُ مِنْ اتِّبَاعِ حُدُودِ اللَّهِ الَّتِي هِيَ الصَّلَاحُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. ﴿لَا تَذَرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثَ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾؛ أَي: شَرَعَ اللَّهُ الْعِدَّةَ، وَحَدَّدَ الطَّلَاقَ بِهَا لِحُكْمٍ عَظِيمَةٍ:

(١) فِي (ب): «وَيَتَضَحَّ». (٢) فِي (ب): «بَلْ يَلْزَمُ بَيْتَهُنَّ الَّتِي».

(٣) فِي (ب): «فِيهَا».

(٤) فِي (ب): «فَإِنَّ الْمَسْكَنَ يَجِبُ لِلزَّوْجِ عَلَيْهَا».

(٥) فِي (ب): «الَّتِي أَدْخَلْتَ الضَّرَرَ عَلَى نَفْسِهَا. وَهَذِهِ».

(٦) فِي (ب): «حَظَّهَا».

فمنها: أنه لعلَّ الله يحدث في قلب المطلِّق الرحمة والمودة، فيراجع من طَلَّقها، ويستأنف عشرتها، فيتمكَّن من ذلك مدَّة العدة، أو لعلَّه يطلِّقها لسبب منها، فيزول ذلك السبب في مدَّة العدة، فيراجعها؛ لانتفاء سبب الطلاق.

ومن الحُكْم أنَّها مدة الترتُّص يُعلم براءة رحمها من زوجها.

﴿٢﴾ وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾؛ أي: [إذا] قاربن انقضاء العدة؛ لأنهنَّ لو خرجنَّ من العدة؛ لم يكن الزوج مخيراً بين الإمساك والفرق، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾؛ أي: على وجه المعاشرة الحسنة والصحبة الجميلة، لا على وجه الضُّرار وإرادة الشرِّ والحبس؛ فَإِنَّ إمساكها على هذا الوجه لا يجوز، ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾؛ أي: فراقاً لا محذور فيه، من غير تشاتم ولا تخاضم ولا قهر لها على أخذ شيء من مالها، ﴿وَأَشْهَدُوا﴾: على طلاقها ورجعتها، ﴿ذَوْنِي عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾؛ أي: رجلين مسلمين عدلين؛ لأنَّ في الإشهاد المذكور سداً لباب المخاصمة وكتمان كلِّ منهما ما يلزم بيانه، ﴿وَأَقِيمُوا﴾: أيها الشَّهداء ﴿الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾؛ أي: ائتوا بها على وجهها من غير زيادة ولا نقص، واقصدوا بإقامتها وجه الله تعالى^(١)، ولا تُراعوا بها قريباً لقربته ولا صاحباً لمحبته. ﴿ذَلِكُمْ﴾: الذي ذُكرنا لكم من الأحكام والحدود، ﴿يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يَوْمُنْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: فَإِنَّ الْإِيمَانَ^(٢) بالله واليوم الآخر يوجب لصاحبه^(٣) أَنْ يَتَّعِظَ بمواعظ الله وأنَّ يقدم لآخرته من الأعمال الصالحة ما يتمكَّن منها^(٤)؛ بخلاف من ترخَّل الإيمان من قلبه؛ فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من الشرِّ، ولا يعظَّم مواعظ الله؛ لعدم الموجب لذلك. ولما كان الطلاق قد يوقع في الضيق والكرب والغم؛ أمر تعالى بتقواه، ووعد مَنْ اتَّقاهُ^(٥) في الطلاق وغيره بأنَّ يجعل^(٦) له فرجاً ومخرجاً. فإذا أراد العبد الطلاق، ففعله على الوجه الشرعي، بأنَّ أوقعه طلاقاً واحدة في غير حيض ولا طهر أصابها فيه^(٧)؛ فإنه لا يضيق عليه الأمر، بل جعل الله له فرجاً وسعةً يتمكَّن بها من الرجوع إلى النِّكاح^(٨) إذا ندم على الطلاق.

والآية وإن كانت في سياق الطلاق والرجعة؛ فَإِنَّ العبرة بعموم اللفظ فكل من

(١) في (ب): «وجه الله وحده».

(٢) في (ب): «فإن من يؤمن».

(٣) في (ب): «يوجب له ذلك».

(٤) في (ب): «وأن من اتقاه».

(٥) في (ب): «ولا طهر قد وطئ فيه».

(٦) في (ب): «فإن من يؤمن».

(٧) في (ب): «ما تمكَّن منه».

(٨) في (ب): «فإن الله يجعل».

(٩) في (ب): «يتمكَّن فيها من مراجعة النِّكاح».

اتقى الله [تعالى] ولازم مرضاته^(١) في جميع أحواله؛ فإن الله يثيبه في الدنيا والآخرة، ومن جملة ثوابه أن يجعل له فرجاً ومخرجاً من كل شدة ومشقة، وكما أن من اتقى الله؛ جعل له فرجاً ومخرجاً؛ فمن لم يتق الله؛ يقع في الآصار^(٢) والأغلال التي لا يقدر على التخلص منها والخروج من تبعثها، واعتبر ذلك في الطلاق^(٣)؛ فإن العبد إذا لم يتق الله فيه، بل أوقعه على الوجه المحرم؛ كالثلاث ونحوها؛ فإنه لا بد أن يندم ندامة لا يتمكن من استدراكها^(٤) والخروج منها.

﴿٣﴾ وقوله: ﴿وِيرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾؛ أي: يسوق الله الرزق للمتقي من وجه لا يحتسبه ولا يشعر به، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾: في أمر دينه ودنياه؛ بأن يعتمد على الله في جلب ما ينفعه ودفع ما يضره ويتق به في تسهيل ذلك ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾؛ أي: كافيه الأمر الذي توكل عليه فيه^(٥)، وإذا كان الأمر في كفالة الغني القوي العزيز الرحيم؛ فهو أقرب إلى العبد من كل شيء، ولكن ربما أن الحكمة الإلهية اقتضت تأخيره إلى^(٦) الوقت المناسب له؛ فلهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالْعُمْرَةِ أَقْبَرُ﴾؛ أي: لا بد من نفوذ قضائه وقدره، ولكنه قد جعل ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾؛ أي: وقتاً ومقداراً لا يتعداه ولا يقصر عنه.

﴿وَالَّذِي يَتْنَسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ﴾^(٧) مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْنَا وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾.

﴿٤﴾ لما ذكر تعالى أن الطلاق المأمور به يكون لعدة النساء؛ ذكر العدة، فقال: ﴿وَالَّذِي يَتْنَسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾: بأن كنَّ يَحِضْنَ ثم ارتفع حيضهنَّ لكبر أو غيره ولم يُزَجَّ رجوعه؛ فإنَّ عدتها ثلاثة أشهر، جعل كل شهر مقابلة حيضة. ﴿وَالَّذِي لَمْ يَحِضْنَ﴾؛ أي: الصغار اللاتي لم يأتهنَّ الحيض بعد أو^(٨) البالغات اللاتي لم يأتهنَّ حيض بالكلية؛ فإتھنَّ كالأيسات، عدتهنَّ ثلاثة

(٢) في (ب): «وقع في الشدائد والآصار».

(١) في (ب): «مرضاة الله».

(٤) في (ب): «لا يمكنه استدراكها».

(٣) في (ب): «بالطلاق».

(٦) في (ب): «في».

(٥) في (ب): «به».

(٧) في (أ) إلى قوله: «ويعظم له أجراً»، وفي (ب) ذكر الآيات.

(٨) في (ب): «والبالغات».

أشهر، وأمّا اللائي يَحْضَنُ؛ فذكر الله عَدَّتْهُنَّ في قوله: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾. وقوله: ﴿وأولات الأحمال أجلهن﴾؛ أي: عَدَّتْهُنَّ ﴿أن يَضَعْنَ حملهن﴾؛ أي: جميع ما في بطونهن من واحد ومتعدد، ولا عبرة حينئذ بالأشهر ولا غيرها. ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً﴾؛ أي: من اتقى الله يَسِّرَ له الأمور، وسَهَّلَ عليه كلَّ عسير.

﴿٥﴾ ﴿ذلك﴾؛ أي: الحكم الذي بيّنه الله لكم ﴿أمر الله أنزله إليكم﴾: لتمشوا عليه وتأتشوا به^(١) وتُعَظِّمُوهُ. ﴿ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويغفّر له أجراً﴾؛ أي: يندفع عنه المحذور ويحصل له المطلوب.

﴿أَسْكَنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ^(٢) وَلَا تُضَارَّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمِلٌ فَلَا تُنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَنْتُمْ يُنْفِقُونَ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمَ فَسَتَضَعْنَ لَهُنَّ أُخْرَى ۖ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ لَا يُلْفِظْ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً ءَاتَاهُ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۖ﴾ (٧).

﴿٦﴾ تقدّم أنّ الله نهى عن إخراج المطلقات عن البيوت، وهنا أمر بإسكانهنّ وقدر إسكانهنّ بالمعروف، وهو البيت الذي يسكنه مثله ومثلها؛ بحسب وُجْدِ الزوج وعسره، ﴿ولا تضارّوهنّ لتضيّقوا عليهنّ﴾؛ أي: لا تضاروهنّ عند سكناهنّ بالقول أو الفعل؛ لأجل أن يملنّ فيخرجنّ من البيوت قبل تمام العدة، فتكونوا أنتم المنخرجين لهنّ. وحاصل هذا أنّه نهى عن إخراجهنّ ونهاهنّ عن الخروج، وأمر بسكناهنّ على وجه لا يحصل عليهنّ ضرر ولا مشقة، وذلك راجع إلى العرف. ﴿وإن كنّ﴾؛ أي: المطلقات ﴿أولات حمل فأنفقوا عليهنّ حتى يضعن حملهنّ﴾: وذلك لأجل الحمل الذي في بطنها إن كانت بائناً، ولها ولحملها إن كانت رجعية، ومنتهى النفقة إلى وضع الحمل^(٣)؛ فإذا وضعن حملهنّ؛ فإمّا أن يرضعن أولادهنّ أو لا، ﴿فإن أرضعن لكم فآتوهنّ أجورهنّ﴾: المسمّاة لهنّ إن كان مسمّى، وإلّا؛ فأجر المثل، ﴿وأنتمروا بينكم بمعروف﴾؛ أي: ليأمر كل واحد من الزوجين

(١) في (ب): «وتقوموا به».

(٢) في (أ) إلى قوله: «سيجعل الله بعد عسراً يسراً»، وفي (ب) ذكر الآيات.

(٣) في (ب): «ومنتهى النفقة حتى يضعن حملهن».

وغيرهما^(١) الآخر بالمعروف، وهو كل ما فيه منفعة ومصلحة في الدنيا والآخرة؛ فإن الغفلة عن الائتمار بالمعروف يحصل فيها من الضرر والشر^(٢) ما لا يعلمه إلا الله، وفي الائتمار تعاون على البر والتقوى. ومما يناسب هذا المقام أن الزوجين عند الفراق وقت العدة، خصوصاً إذا ولد بينهما^(٣) ولد، في الغالب يحصل من التنازع والتشاجر لأجل النفقة عليها وعلى الولد مع الفراق الذي لا يحصل في الغالب إلا مقروناً بالبغض، فيتأثر من ذلك^(٤) شيء كثير، فكل منهما يؤمر بالمعروف والمعاشرة الحسنة وعدم المشاققة والمنازعة^(٥) وينصح على ذلك، وإن تعاسرت^(٦): بأن لم يتفق الزوجان على^(٦) إرضاعها لولدها، «فسترضع له أخرى»: غيرها، و «لا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف»، وهذا حيث كان الولد يقبل ثدي غير أمه؛ فإن لم يقبل إلا ثدي أمه؛ تعينت لإرضاعه، ووجب عليها، وأجبرت إن امتنعت، وكان لها أجره المثل إن لم يتفقا على مسمى. وهذا مأخوذ من الآية الكريمة من حيث المعنى؛ فإن الولد لما كان في بطن أمه مدة الحمل لا خروج له منه^(٧)؛ عين تعالى على وليه النفقة، فلما ولد وكان يتمكن^(٨) أن يتقوت من أمه ومن غيرها؛ أباح تعالى الأمرين؛ فإذا كان بحالة لا يمكن أن يتقوت إلا من أمه؛ كان بمنزلة الحمل، وتعينت أمه طريقاً لقوته.

﴿٧﴾ ثم قدر تعالى النفقة بحسب حال الزوج، فقال: «لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ»؛ أي: لينفق الغني من غناه؛ فلا ينفق نفقة الفقراء، «وَمَنْ قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ»؛ أي: ضيق عليه، «فَلِيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ»؛ من الرزق. «لَا يَكُلْفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا»؛ وهذا مناسب للحكمة والرحمة الإلهية؛ حيث جعل كلاً بحسبه، وخفف عن المعسر، وأنه لا يكلفه إلا ما آتاه؛ فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها في باب النفقة وغيرها، «سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا»؛ وهذه بشارة للمعسرين أن الله تعالى سيزيل عنهم الشدة ويرفع عنهم المشقة؛ فإن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً.

(١) في (ب): «ومن غيرهما».

(٢) في (ب): «يحصل فيه من الشر والضرر».

(٣) في (ب): «لهما».

(٤) في (ب): «مع الفراق الذي في الغالب ما يصدر إلا عن بغض ويتأثر منه البغض».

(٥) في (ب): «والمخاصمة».

(٦) في (ب): «بأن لم تتفقا على».

(٧) في (ب): «مدة الحمل ليس له خروج منه». (٨) في (ب): «وكان يمكن».

﴿وَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا ^(١) وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا ثَقِيلًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا خَسِرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُمِيسَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُمْ رِزْقًا ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْثَرُ بَيْنَهُنَّ لِيُعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿٨ - ١٠﴾ يخبر تعالى عن إهلاكه الأمم العاتية والقرون المكذبة للرسل، وأن ^(٢) كثرتهم وقوتهم لم تُغنِ عنهم شيئاً ^(٣) حين جاءهم الحساب الشديد والعذاب الأليم، وأن الله أذاقهم من العذاب ما هو موجب أعمالهم السيئة، ومع عذاب الدنيا؛ فإن الله أعد لهم في الآخرة عذاباً شديداً، ﴿فاتقوا الله يا أولي الأبواب﴾؛ أي: يا ذوي العقول التي تفهم عن الله آياته وعبره، وأن الذي أهلك القرون الماضية بتكذيبهم؛ أن من بعدهم مثلهم، لا فرق بين الطائفتين.

﴿١١﴾ ثم ذكر عباده المؤمنين بما أنزل عليهم من كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ؛ ليخرج الخلق من ظلمات الجهل والكفر ^(٤) والمعصية إلى نور العلم والإيمان والطاعة؛ فمن الناس من آمن به، ومنهم من لم يؤمن به، ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً﴾: من الواجبات والمستحبات، ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: فيها من النعيم المقيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ﴿خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً﴾؛ أي: ومن لم يؤمن بالله ورسوله؛ فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ^(٥).

﴿١٢﴾ ثم أخبر تعالى أنه خلق السماوات والأرض ومن فيهن والأرضين السبع ^(٦) ومن فيهن وما بينهما، وأنزل الأمر، وهو الشرائع والأحكام الدينية، التي أوحاها إلى رسله لتذكير العباد ووعظهم، وكذلك الأوامر الكونية والقدرية التي يدبر

(١) في (أ) إلى آخر السورة، وفي ذكر الآيات إلي قوله تعالى: ﴿قد أحسن الله له رزقاً﴾.

(٢) في (ب): «المكذبة بالرسول أن». (٣) في (ب): «لم تنفعهم شيئاً».

(٤) في (ب): «الكفر والجهل». (٥) في (ب): «ذكر الآية (١٢)».

(٦) في (ب): «أخبر أنه خلق الخلق من السماوات السبع ومن فيهن والأرضين السبع».

بها الخلق؛ كل ذلك لأجل أن يعرفه العباد ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها وإحاطة علمه بجميع الأشياء؛ فإذا عَرَفُوهُ بأسمائه الحسنى وأوصافه المقدسة^(١)؛ عبدوه وأحبوه وقاموا بحقه؛ فهذه الغاية المقصودة من الخلق والأمر؛ معرفة الله وعبادته، فقام بذلك الموفقون من عباد الله الصالحين، وأعرض عن ذلك الظالمون المعرضون.

تم تفسيرها. والحمد لله.



تفسير سورة التحريم

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَغَّى مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ^(٢) وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَضَّ اللَّهُ لَكُمْ نُحْلَةً أَيْمَنِيكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذَا أَسَرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُمْ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَبْأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِنْ تَوَبَّأَ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَكِ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَمِنْ تَبَغَّى عِدَدَاتٍ سَيَحِبَّنَّ تَيْبَاتٍ وَبِكَارًا ﴿٥﴾﴾.

﴿١﴾ هذا عتاب من الله لنبيه محمد ﷺ حين حرَّم على نفسه سُرِّيَّته مارية أو شَرْبَ العسل مراعاةً لخاطر بعض زوجاته في قصَّةٍ معروفة^(٣)، فأنزل الله [تعالى] هذه الآيات. ﴿يا أيُّها النبي﴾؛ أي: يا أيُّها الذي أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة والوحي^(٤)، ﴿لم تحرِّم ما أحلَّ الله لك﴾: من الطيبات التي أنعم الله بها عليك وعلى أمتك، ﴿تبغى﴾: بذلك التحريم ﴿مرضاة أزواجك والله غفور رحيم﴾: هذا

(١) في (ب): «بأوصافه المقدسة وأسمائه الحسنى».

(٢) في (أ) إلى قوله: ﴿تبيات وأبكارا﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٤٩١٢)، ومسلم (١٤٧٤) عن عائشة رضي الله عنها.

(٤) في (ب): «والوحي والرسالة».

تصريح بأن الله قد غفر لرسوله ورفع عنه اللوم ورجحه.

﴿٢﴾ وصار ذلك التحريم الصادر منه سبباً لشرع حكم عام لجميع الأمة، فقال تعالى: ﴿قد فَرَضَ الله لكم تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾: وهذا عام في جميع أيمان المؤمنين^(١)؛ أي: قد شرع لكم وقدر ما به تَحُلُّ أَيْمَانِكُمْ قبل الحنث وما به تتكفرون^(٢) بعد الحنث، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ الله لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ...﴾ إلى أن قال: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾: فكل مَنْ حَرَّمَ حلالاً عليه من طعام أو شراب أو سُرِّيَّة أو حلف يميناً بالله على فعل أو ترك ثم حنث وأراد الحنث؛ فعليه هذه الكفارة المذكورة. وقوله: ﴿والله مولاكم﴾؛ أي: متولي أموركم ومرئيككم أحسن تربية في أمر دينكم ودنياكم وما به يندفع عنكم الشر؛ فلذلك فرض لكم تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ لتبرا ذِمَّتكم. ﴿وهو العليم الحكيم﴾: الذي أحاط علمه بظواهركم وبواطنكم، وهو الحكيم في جميع ما خلقه وحكم به؛ فلذلك شرع لكم من الأحكام ما يعلم أنه موافق لمصالحكم ومناسب لأحوالكم.

﴿٣﴾ وقوله: ﴿وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً﴾: قال كثير من المفسرين: هي حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، أسر لها النبي ﷺ حديثاً، وأمر^(٣) أن لا تُخْبِرَ به أحداً، فحدثت به عائشة رضي الله عنها، وأخبره الله بذلك الخبر الذي أذاعته، فعرفها ﷺ ببعض ما قالت وأعرض عن بعضه كرماء منه ﷺ وجلماً، فقالت له: ﴿مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا﴾: الخبر الذي لم يَخْرُجْ مِنَّا، ﴿قال نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾: الذي لا تخفى عليه خافية، يعلم السر وأخفى.

﴿٤﴾ وقوله: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى الله فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾: الخطاب للزوجتين الكريمتين حفصة وعائشة^(٤) رضي الله عنهما حين كانتا سبباً لتحريم النبي ﷺ على نفسه ما يحبه، فعرض الله عليهما التوبة، وعاتبهما على ذلك، وأخبرهما أن قلوبكما قد صَغَتْ؛ أي: مالت وانحرفت عما ينبغي لهن من الورع والأدب مع الرسول ﷺ واحترامه، وأن لا يَشْفَقَنَّ عليه، ﴿وإن تظاهرا عليه﴾؛ أي: تعاونا على

(١) في (ب): «فقال تعالى حاكماً حكماً عاماً في جميع الأيمان».

(٢) في (ب): «وما به الكفارة».

(٣) في (ب): «أمرها».

(٤) في (ب): «من أزواجه ﷺ عائشة وحفصة».

ما يشق عليه ويستمر هذا الأمر منكن، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَا وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةِ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾؛ أي: الجميع أعوانٌ للرسول مظاهرون. ومن كان هؤلاء أنصاره^(١)؛ فهو المنصور، وغيره إن يناوئه؛ فهو مخذول^(٢)، وفي هذا أكبر فضيلة وشرف لسيد المرسلين؛ حيث جعل الباري نفسه الكريمة وخواص خلقه أعواناً لهذا الرسول الكريم. وفيه^(٣) من التحذير للزوجتين الكريمتين ما لا يخفى.

﴿٥﴾ ثم خوفهما أيضاً بحالة تشق على النساء غاية المشقة، وهو الطلاق، الذي هو أكبر شيء عليهن، فقال: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكِ﴾؛ أي: فلا ترفعن عليه؛ فإنه لو طلقكن لا يضيق عليه الأمر، ولم يكن مضطراً ليكنن؛ فإنه سيجد^(٤) ويبدله الله أزواجاً خيراً منكن ديناً وجمالاً، وهذا من باب التعليق الذي لم يوجد ولا يلزم وجوده؛ فإنه ما طلقهن، ولو طلقهن؛ لكان ما ذكره الله من هذه الأزواج الفاضلات، الجامعات بين الإسلام وهو القيام بالشرائع الظاهرة، والإيمان وهو القيام بالشرائع الباطنة من العقائد وأعمال القلوب، والقنوت وهو دوام الطاعة واستمرارها. ﴿ثَابِتَاتٌ﴾: عما يكرهه الله، فوصفهن بالقيام بما يحبه الله والتوبة عما يكرهه الله. ﴿ثِيَابٌ وَأَبْكَارٌ﴾^(٥)؛ أي: بعضهن ثيب وبعضهن أبكار؛ ليتنوع ﷺ فيما يحب. فلما سمعن رضي الله عنهن هذا التخويف والتأديب؛ بادرن إلى رضا رسول الله ﷺ، فكان هذا الوصف منطبقاً عليهن، فصرن أفضل نساء المؤمنين. [وفي هذا دليل على أن الله تعالى لا يختار لرسوله إلا أكمل الأحوال وأعلى الأمور، فلما اختار الله لرسوله بقاء نسائه المذكورات معه دل على أنهن خير النساء وأكملهن]^(٦).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

﴿٦﴾ أي: يا من من الله عليهم بالإيمان! قوموا بلوازمه وشروطه، فاقوا أنفسكم وأهليكم ناراً، موصوفة بهذه الأوصاف الفظيعة، ووقاية الأنفس بإلزامها

(١) في (ب): «أعوانه».

(٢) في (ب): «وغيره ممن يناوئه مخذول».

(٣) في (ب): «وهذا فيه».

(٤) في (ب): «فإنه سيلقى».

(٥) كذا في النسختين. سقط قوله: «عابدات سائحات».

(٦) زيادة من هامش (ب).

أمر الله^(١) امتثالاً ونهيه اجتناباً والتوبة عما يُسَخِّطُ الله ويوجب العذاب، ووقاية الأهل والأولاد بتأديبهم وتعليمهم وإجبارهم على أمر الله؛ فلا يسلم العبد إلا إذا قام بما أمر الله به في نفسه وفيمن تحت ولايته^(٢) من الزوجات والأولاد وغيرهم ممن هم تحت ولايته وتصرفه، ووصف الله النار بهذه الأوصاف؛ ليزجر عباده عن التهاون بأمره، فقال: ﴿وَقُودَهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾، ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاظٌ شِدَادٌ﴾؛ أي: غليظة أخلاقهم، شديد^(٣) انتهازهم يفرعون بأصواتهم ويزعجون^(٤) بمرآهم ويهينون أصحاب النار بقوتهم، وينفذون^(٥) فيهم أمر الله الذي حتم عليهم بالعذاب^(٦)، وأوجب عليهم شدة العقاب، ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾: ولهذا فيه أيضاً مدح للملائكة الكرام، وانقيادهم لأمر الله، وطاعتهم له في كل ما أمرهم به.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿٧﴾ أي: يوبخ أهل النار يوم القيامة بهذا التوبيخ، فيقال لهم: ﴿يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم﴾؛ أي: فإنه ذهب وقت الاعتذار وزال نفعه، فلم يبق الآن إلا الجزاء على الأعمال، وأنتم لم تقدّموا إلا الكفر بالله والتكذيب بآياته ومحاربة رسله وأوليائه.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُؤْبَؤُا^(٧) إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ تُرْهِمُ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

﴿٨﴾ قد أمر الله بالتوبة النصوح في هذه الآية، ووعد عليها بتكفير السيئات ودخول الجنات والفوز والفلاح، حين يسعى المؤمنون يوم القيامة بنور إيمانهم، ويمشون بضياءه، ويتمتعون بروحه وراحته، ويشفقون إذا طُفِّتِ الأنوار التي تُعطى

(١) في (ب): «بالزمامها أمر الله والقيام بأمره». (٢) في (ب): «وفيما يدخل تحت ولايته».

(٣) في (ب): «عظيم». (٤) في (ب): «ويخيفون».

(٥) في (ب): «ويمثلون». (٦) في (ب): «العذاب».

(٧) طمس الذي في (أ). وفي (ب) ذكر الآيات إلى قوله: إنك على كل شيء قدير.

المنافقين، ويسألون الله أن يُنِّمَ لهم نورهم، فيستجيب الله دعوتهم، ويوصلهم بما^(١) معهم من النور واليقين إلى جنات النعيم وجوار الربِّ الكريم، وكلُّ هذا من آثار التوبة النصوح، والمراد بها التوبة العامة الشاملة لجميع الذنوب^(٢)، التي عقدها العبدُ لله، لا يريد بها إلَّا وجه الله^(٣) والقرب منه، ويستمرُّ عليها في جميع أحواله.

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ جَهْدُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَطَ عَلَيْهِمْ وَأَمَّا لَهُمْ جَهَنَّمُ وَبَشَ الْمَصِيرُ ۝﴾

﴿٩﴾ يأمر الله تعالى نبيه ﷺ بجهد الكفار والمنافقين والإغلاظ عليهم في ذلك، وهذا شاملٌ لجهادهم بإقامة الحجَّة عليهم ودعوتهم بالموعظة الحسنة^(٤) وإبطال ما هم عليه من أنواع الضلال، وجهادهم بالسلاح والقتال لمن أبى أن يُجيبَ دعوة الله وينقاد لحكمه؛ فإنَّ هذا يجاهد ويغلظُ له، وأما المرتبة الأولى؛ فتكون بالتَّي هي أحسن؛ فالكفار والمنافقون لهم عذابٌ في الدنيا بتسليط الله لرسوله وحزبه عليهم وعلى جهادهم، وعذاب النار في الآخرة ﴿وبش المصير﴾: الذي يصير إليها كل شقي خاسر.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ ثُوَجٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا^(٥) صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاسِطِينَ ۝﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝﴾ وَمِمَّنْ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُنَّ مِنَ الْقَانِنِينَ ۝﴾

هذان المثالان اللذان ضربهما الله للمؤمنين والكافرين؛ ليبين لهم أنَّ اتِّصال الكافر بالمؤمن وقربه منه لا يفيدُه شيئاً، وأنَّ اتِّصال المؤمن بالكافر لا يضرُّه شيئاً مع قيامه بالواجب عليه، فكأنَّ في ذلك إشارةً وتحذيراً لزوجات النبي ﷺ عن المعصية، وأنَّ اتِّصالهنَّ به ﷺ لا ينفعهنَّ شيئاً مع الإساءة، فقال:

(١) في (ب): «ما معهم».

(٢) في (ب): «إلا وجهه».

(٣) في (ب): «إقامة الحجَّة والموعظة الحسنة».

(٤) في (أ) طمس؛ ولعله إلى آخر السورة. وفي (ب) ذكر الآيات إلى آخر السورة.

﴿١٠﴾ ضَرَبَ الله مثلاً للذين كَفَرُوا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا؛ أي: المرأتان ﴿تحت عبيدين من عبادنا صالحين﴾: وهما نوح و لوط عليهما السلام، ﴿فخانتاهما﴾: في الدين؛ بأن كانتا على غير دين زوجيهما، وهذا المراد بالخيانة، لا خيانة النسب والفراش؛ فإنه ما بغت امرأة نبي قط، وما كان الله ليجعل امرأة أحد من أنبيائه بغيًا، ﴿فلم يُغنيا﴾؛ أي: نوح و لوط ﴿عنهما﴾؛ أي: عن امرأتيها، ﴿من الله شيئاً وقيل﴾ لهما ﴿ادخلا النار مع الداخلين﴾.

﴿١١﴾ ﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون﴾: وهي آسية بنت مزاحم رضي الله عنها، ﴿إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين﴾: فوصفها الله بالإيمان والتضرع لربها وسؤالها^(١) أجل المطالب، وهو دخول الجنة ومجاورة الرب الكريم، وسؤالها أن ينجيها [الله] من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة ومن فتنة كل ظالم، فاستجاب الله لها، فعاشت في إيمان كامل وثبات تام ونجاة من الفتن، ولهذا قال النبي ﷺ: «كَمُلَ من الرجال كثير، ولم يَكْمُلْ من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد. وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»^(٢).

﴿١٢﴾ وقوله: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها﴾؛ أي: حفظته وصانته عن الفاحشة؛ لكمال ديانتها وعفتها ونزاهتها، ﴿فتفخنا فيه من روحنا﴾: بأن نفخ جبريل عليه السلام في جيب درعها، فوصلت نفخته إلى مريم، فجاء منها عيسى عليه السلام الرسول الكريم والسيد العظيم، ﴿وَصَدَّقَتْ بكلمات ربها وكتبه﴾: وهذا وصف لها بالعلم والمعرفة؛ فإن التصديق بكلمات الله يشمل كلماته الدينية والقدرية، والتصديق بكتبه يقتضي معرفة ما به يحصل التصديق، ولا يكون ذلك إلا بالعلم والعمل، ولهذا قال: ﴿وكانت من القانتين﴾؛ أي: المداومين على طاعة الله^(٣) بخشية وخشوع. وهذا وصف لها بكمال العمل؛ فإنها رضي الله عنها صديقة. والصديقة هي كمال العلم والعمل.

تمت [ولله الحمد].



(١) في (ب): «والتضرع لربها وسؤالها لربها».

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٦٩)، ومسلم (٢٤٣١) عن أبي موسى دون ذكر خديجة.

(٣) في (ب): «المطيعين لله، المداومين على طاعته».

تفسير سورة الملك

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَانْجِبِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ انْجِبِ الْبَصَرَ كَرَيْنٍ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿١﴾ «تبارك الذي بيده الملك»؛ أي: تعظم وتعالى وكثر خيرُه وعمَّ إحسانه؛ من عظمته أن بيده ملك العالم العلوي والسفلي، فهو الذي خلقه ويتصرف فيه بما شاء من الأحكام القدرية والأحكام الدينية التابعة لحكمته. ومن عظمته كمال قدرته التي يقدر بها على كل شيء وبها أوجد ما أوجد من المخلوقات العظيمة؛ كالسماوات والأرض.

﴿٢﴾ و«خَلَقَ الموت والحياة»؛ أي: قدر لعباده أن يُخَيِّبَهُمْ ثم يُمَيِّتَهُمْ؛ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا؛ أي: أخلصه وأصوبه، وذلك أن الله (٢) خلق عباده وأخرجهم لهذه الدار؛ وأخبرهم أنهم سَيُنْقَلُونَ منها، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالشهوات المعارضة لأمره؛ فمن انقاد لأمر الله وأحسن العمل؛ أحسن الله له الجزاء في الدارين، ومن مال مع شهوات النفس ونبذ أمر الله؛ فله شرُّ الجزاء. «وهو العزيز»؛ الذي له العزة كلها، التي قهر بها جميع الأشياء وانقادت له المخلوقات. «الغفور»؛ عن المسيئين والمقصرين والمذنبين، خصوصاً إذا تابوا وأنابوا؛ فإنه يغفر ذنوبهم، ولو بلغت عنان السماء، ويستتر عيوبهم، ولو كانت ملء الدنيا.

﴿٣﴾ «الذي خلق سبع سموات طباقاً»؛ أي: كل واحدة فوق الأخرى، ولسن طبقة واحدة، وخلقها في غاية الحسن والإتقان، «ما ترى في خلق الرحمن من

(١) في (أ) طمس. وفي (ب) ذكر الآيات إلى قوله: «وهو حسير».

(٢) في (ب): «فإن الله».

تفاوت؛ أي: خلل ونقص، وإذا انتفى النقص من كل وجه؛ صارت حسنة كاملة متناسبة من كل وجه في لونها وهيئتها وارتفاعها وما فيها من الشمس [والقمر] والكواكب النيرات الثوابت منهن والسيارات، ولما كان كمالها معلوماً؛ أمر تعالى بتكرار النظر إليها والتأمل في أرجائها؛ قال: ﴿فارجع البصر﴾؛ أي: أعده إليها ناظراً معتبراً، ﴿هل ترى من فطور﴾؟ أي: نقص واختلال.

﴿٤﴾ ﴿ثم ارجع البصر كرتين﴾: [و] المراد بذلك كثرة التكرار، ﴿ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾؛ أي: عاجزاً عن أن يرى خللاً أو فطوراً، ولو حرص غاية الحرص.

ثم صرح بذكر حسننها، فقال:

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا^(١) لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ^(٥) وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ^(٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ^(٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ^(٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ^(٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ^(١٠) فَأَعْرِضُوا بِذُنُوبِهِمْ فَحَقًّا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ^(١١)﴾.

﴿٥﴾ أي: ولقد جمَّلنا ﴿السَّماءَ الدُّنْيَا﴾: التي ترونها وتليكم، ﴿بِمَصَابِيحَ﴾: وهي النجوم على اختلافها في النور والضياء؛ فإنه لولا ما فيها من النجوم؛ لكانت سقفاً مظلماً لا حسن فيه ولا جمال، ولكن جعل الله هذه النجوم زينةً للسماء، وجمالاً ونوراً وهدايةً يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ولا ينافي إخباره أنه زين السماء الدنيا بمصابيح أن يكون كثير من النجوم فوق السماوات السبع؛ فإن السماوات شفافة، وبذلك تحصل الزينة للسماء الدنيا وإن لم تكن الكواكب فيها، ﴿وجعلناها﴾؛ أي: المصابيح ﴿رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾: الذين يريدون استراق خبر السماء، فجعل الله هذه النجوم حراسةً للسماء عن تلقف الشياطين أخبار الأرض؛ فهذه الشهب التي تُرمى من النجوم أعدها الله في الدنيا للشياطين، ﴿وأعدنا لهم﴾: في الآخرة ﴿عَذَابَ السَّعِيرِ﴾: لأنهم تمردوا على الله، وأضلوا عباده.

﴿٦﴾ ولهذا كان أتباعهم من الكفار مثلهم قد أعدَّ الله لهم عذاب السعير؛

(١) في (أ) طمس. وفي (ب) ذكر الآيات إلى قوله: ﴿ما كنا في أصحاب السعير﴾.

فلهاذا^(١) قال: ﴿وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير﴾: التي يهان بها أهلها^(٢) غاية الهوان.

﴿٧﴾ ﴿إذا ألقوا فيها﴾: على وجه الإهانة والدُّل، ﴿سمعوا لها شهيقاً﴾؛ أي: صوتاً عالياً فظيعاً.

﴿٨﴾ ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾؛ أي: تكاد على اجتماعها أن يفارق بعضها بعضاً وتتقطع من شدة غيظها على الكفار؛ فما ظنك ما تفعل بهم إذا حُصِّلُوا فيها؟! ثم ذكر توبيخ الخزنة لأهلها، فقال: ﴿كلُّمَّا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾؛ أي: حالكم هذه واستحقاقكم النار كأنكم لم تخبروا عنها ولم تحذركم النذر منها.

﴿٩﴾ ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾: فجمعوا بين تكذيبهم الخاص والتكذيب العام بكل ما أنزل الله، ولم يكفهم ذلك، حتى أعلنوا بضلال الرُّسل المنذرين، وهم الهداة المهتدون، ولم يكتفوا بمجرد الضلال، بل جعلوا ضلالهم ضلالاً كبيراً؛ فأبى عناد وتكبر وظلم يشبه هذا؟!.

﴿١٠﴾ ﴿وَقَالُوا﴾: معترفين بعدم أهليتهم للهدى والرشاد: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾: فنقوا عن أنفسهم طرق الهدى، وهي السمع لما أنزل الله وجاءت به الرسل، والعقل الذي ينفع صاحبه ويوقفه على حقائق الأشياء وإيثار الخير والانزجار عن كل ما عاقبته ذميمة، فلا سمع لهم ولا عقل. وهذا بخلاف أهل اليقين والعرفان وأرباب الصدق والإيمان؛ فإنهم أيّدوا إيمانهم بالأدلة السمعية، فسمعوا ما جاء من عند الله وجاء به رسول الله علماً ومعرفة وعملاً، والأدلة العقلية المعرفة للهدى من الضلال، والحسن من القبيح، والخير من الشر، وهم في الإيمان بحسب ما من الله عليهم به من الاقتداء بالمعقول والمنقول؛ فسبحان من يختص بفضله من يشاء، ويمن على من يشاء من عباده، ويخذل من لا يصلح للخير.

﴿١١﴾ قال تعالى عن هؤلاء الدّاخلين للنار المعترفين بظلمهم وعنادهم: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾؛ أي: بعداً لهم وخسارة وشقاء؛ فما

(٢) في (ب): «الذي يهان به أهله».

(١) في (ب): «ولهذا».

أشقاها وأرداهم؛ حيث فاتهم ثواب الله، وكانوا ملازمين للسعير التي تستعر في أبدانهم، وتطَّلِعُ على أفئدتهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (١٢).

﴿١٢﴾ لما ذكر حالة الأشقياء الفجار؛ ذكر وصف الأبرار السعداء^(١)، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾؛ أي: في جميع أحوالهم، حتى في الحالة التي لا يطلع عليهم فيها إلا الله؛ فلا يقدمون على معاصيه، ولا يقصرون عما أمرهم به^(٢). ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾: لذنوبهم، وإذا غَفَرَ اللَّهُ ذُنُوبَهُمْ؛ وقاهم شرَّها ووقاهم عذاب الجحيم. ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾: وهو ما أعدَّه الله لهم في الجنة من النعيم المقيم والملك الكبير واللذات المتواصلات والقصور والمنازل العاليات^(٣) والحرور الحسان والخدم والولدان، وأعظم من ذلك وأكبر، رضا الرحمن الذي يُجِلُّه على ساكني^(٤) الجنان.

﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّكُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١٣) ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٤).

﴿١٣﴾ هذا إخبار من الله بسعة علمه وشمول لطفه، فقال: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾؛ أي: كلَّها سواءً لديه لا يخفى عليه منها خافية، ف﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ أي: بما فيها من النيات والإرادات؛ فكيف بالأقوال والأفعال التي تُسمع وتُرى؟!

﴿١٤﴾ ثم قال مستدلاً بدليل عقلي على علمه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾؛ فمن خَلَقَ الخلق وأتقنه وأحسنه؛ كيف لا يعلمه؟! ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾: الذي لطف علمه وخبره، حتى أدرك السرائر والضمائر والخبايا والخفايا والغيوب، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾، ومن معاني اللطيف أنه الذي يَلْطِفُ بعبده ووليّه، فيسوق إليه البرّ والإحسان من حيث لا يشعر، ويعصمه من الشر من حيث لا يحتسب، ويرقيه إلى أعلى المراتب بأسباب لا تكون من العبد^(٥) على بال، حتى إنه يذيقه المكاره

(١) في (ب): «ذكر حالة السعداء الأبرار». (٢) في (ب): «فيما أمر به».

(٣) في (ب): «واللذات والمشتبهات والقصور العاليات».

(٤) في (ب): «أهل». (٥) في (ب): «لا تكون منه».

ليوصله^(١) بها إلى المحابِّ الجليلة والمطالب^(٢) النبيلة.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾
 ﴿١٥﴾ أي: هو الذي سَخَّرَ لكم الأرضَ ودَلَّلَهَا؛ لتدركوا منها كلَّ ما تعلقت به حاجتُكم من غرس وبناء وحرث وطريق يُتَوَصَّلُ بها إلى الأقطار النائية والبلدان الشاسعة، ﴿فامشوا في مناكبها﴾؛ أي: لطلب الرزق والمكاسب، ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾؛ أي: بعد أن تنتقلوا من هذه الدار التي جَعَلَهَا الله امتحاناً وبلغَةً يُتَبَلَّغُ بها إلى الدار الآخرة؛ تُبعثون بعد موتكم وتُحشرون إلى الله؛ ليجازيكم بأعمالكم الحسنة والسيئة.

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ ﴿١٦﴾ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٧﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٩﴾﴾

﴿١٦﴾ هذا تهديدٌ ووعيدٌ لمن استمرَّ في طغيانه وتعديه وعصيانه الموجب للثكال وحلول العقوبة، فقال: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ﴾: وهو الله تعالى العالي على خلقه، ﴿أَنْ يُخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾: بكم وتضطربُ حتى تهلكوا وتُتَلَفُوا^(٤).

﴿١٧ - ١٨﴾ ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾؛ أي: عذاباً من السماء يحصِبُكم وينتقمُ الله منكم، ﴿فستعلمون كيف نذير﴾؛ أي: كيف يأتيكم ما أنذرتكم به الرسل والكتب؛ فلا تحسبوا أنَّ أَمْنَكُمْ من الله أن يعاقبكم بعقاب من الأرض ومن السماء ينفعُكم، فستجدون عاقبة أمركم سواء طال عليكم الأمد^(٥) أو قَصُرَ؛ فَإِنَّ مَن قَبْلَكُمْ كَذَّبُوا كَمَا كَذَّبْتُمْ، فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى؛ فأنظروا كيف إنكارُ الله عليهم؛ عاجلهم بالعقوبة الدنيويَّة قبل عقوبة الآخرة؛ فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِرٌ وَيَقْبِضْنَ مَا يَمَسُّهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

(١) في (ب): «ليتوصل».

(٢) في (ب): «والمقامات النبيلة».

(٣) في (أ) إلى قوله: (فكيف كان نكير). وفي (ب) ذكر الآيات.

(٤) في (ب): «حتى تلفكم وتهلككم».

(٥) في (ب): «الزمان».

﴿١٩﴾ ولهذا عتابٌ وحثٌ على النظر إلى حالة الطير التي سخرها الله وسخر لها الجوَّ والهواء؛ تصفُ فيه أجنحتها للطيران وتقبضُها للوقوع، فتظلُّ سابحةً في الجوِّ مترددةً فيه بحسب إرادتها وحاجتها، ﴿ما يمسكهنَّ إلاَّ الرحمنُ﴾: فإنه الذي سخر لهنَّ الجوَّ وجعل أجسادها وخلقته^(١) في حالة مستعدة للطيران؛ فمن نظر في حالة الطير واعتبر فيها؛ دلَّته على قدرة الباري وعنايته الربانيَّة، وأَنَّ الواحدُ الأحد الذي لا تنبغي العبادة إلَّا له. ﴿إنَّه بكلُّ شيءٍ بصيرٌ﴾: فهو المدبِّر لعباده بما يليق بهم وتقضيه حكمته.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصُرُّكُمْ مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢٠﴾ يقول تعالى للعتاة النافرين عن أمره، المعرضين عن الحق: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هو جنْدٌ لكم ينصُرُكم من دونِ الرحمنِ﴾؛ أي: ينصُرُكم إذا أرادَ الرحمنُ بكم^(٢) سوءاً فيدفعه عنكم؛ أي: من الذي ينصُرُكم على أعدائكم غير الرحمن؛ فإنه تعالى هو الناصر المعزُّ المذلُّ، وغيره من الخلق لو اجتمعوا على نصر عبدٍ لم ينفعوه بمثقال^(٣) ذرَّةٍ على أيِّ عدوٍّ كان؛ فاستمراؤُ الكافرين على كفرهم بعد أن علِّموا أَنَّهُ لا ينصُرُهم أحدٌ من دون الرحمن غرورٌ وسفَهٌ.

﴿٢١﴾ ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾؛ أي: الرزق كُلُّه من الله؛ فلو أَمْسَكَ عنكم الرزق؛ فمن الذي يرسله لكم؟ فإنَّ الخلق لا يقدرون على رزق أنفسهم؛ فكيف بغيرهم؟! فالرازق المنعم الذي لا يصيب العبادَ نعمةً إلَّا منه هو الذي يستحقُّ أن يُفَرَّدَ بالعبادة، ولكنَّ الكافرون ﴿لَجُّوا﴾؛ أي: استمروا ﴿فِي عُتُوٍّ﴾؛ أي: قسوةٍ وعدمٍ لينٍ للحق، ﴿وَنُفُورٍ﴾؛ أي: شرودٍ عن الحق.

﴿أَفَن يَبْتَئِي مُرْكَبًا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَبْتَئِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿٢٢﴾ أي: أيُّ الزجلين أهدى؛ من كان تائهاً في الضلال غارقاً في الكفر قد انتكس قلبه فصار الحقُّ عنده باطلاً والباطل حقاً، ومن كان عالماً بالحق، مؤثراً له، عاملاً به، يمشي على الصراط المستقيم في أقواله وأعماله وجميع أحواله؟! فبمجرد

(١) في (ب): «جعل أجسادهن وخلقتهن».

(٢) في (ب): «إذا أراد بكم الرحمن».

(٣) في (ب): «مثقال».

النظر إلى حال الرجلين؛ يعلم الفرق بينهما والمهتدي من الضالّ منهما. والأحوال أكبر شاهد من الأقوال.

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ^(١) وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢٣﴾ يقول تعالى مبيناً أنه المعبود وحده وداعياً عباده إلى شكره وإفراده بالعبادة: ﴿هو الذي أنشأكم﴾؛ أي: أوجدكم من العدم؛ من غير معاون له ولا مظاهر، ولما أنشأكم؛ كملّ لكم الوجود بالسمع والأبصار والأفئدة، وهذه الثلاثة هي أفضل^(٢) أعضاء البدن وأكمل القوى الجسمانيّة، ولكثكم^(٣) مع هذا الإنعام ﴿قليلًا ما تشكرون﴾ الله، قليل منكم الشاكر، وقليل منكم الشكر.

﴿٢٤﴾ ﴿قل هو الذي ذرأكم في الأرض﴾؛ أي: بثكم في أقطارها، وأسكنكم في أرجائها، وأمركم ونهاكم، وأسدى عليكم من النعم ما به تتفعون، ثم بعد ذلك يحشركم ليوم القيامة، ولكنّ هذا الوعد بالجزاء ينكره هؤلاء المعاندون.

﴿٢٥﴾ ﴿ويقولون﴾: تكذيباً: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾؟ جعلوا علامة صدقهم أن يخبروهم^(٤) بوقت مجيئه، وهذا ظلم وعناد.

﴿٢٦﴾ فإنما ﴿العلم عند الله﴾: لا عند أحد من الخلق، ولا ملازمة بين هذا الخبر^(٥) وبين الإخبار بوقته؛ فإنّ الصدق يُعرف بأدلته، وقد أقام الله من الأدلة والبراهين على صحّته ما لا يبقى معه أدنى شك لمن ألقى السمع وهو شهيد.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّتَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا^(٦) وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٢٧﴾ يعني أنّ محلّ تكذيب الكفار وغرورهم به حين كانوا في الدنيا؛ فإذا كان

(١) في (أ) إلى قوله: ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾. وفي ذكر الآيات.

(٢) في (ب): «أنفع». (٣) في (ب): «ولكنه».

(٤) في (ب): «أن يخبروا». (٥) في (ب): «بين صدق هذا الخبر».

(٦) في (أ) إلى آخر السورة. وفي (ب) ذكر الآيات إلى آخر السورة.

يوم الجزاء، ورأوا العذاب منهم ﴿زُلْفَةً﴾؛ أي: قريباً؛ ساءهم ذلك وأفظعهم وأفلقهم^(١)، فتغيّرت لذلك وجوههم، ووبّخوا على تكذيبهم، وقيل لهم: ﴿هذا الذي كنتم به تدعون﴾: فالיום رأيتموه عياناً، وانجلي لكم الأمر، وتقطّعت بكم الأسباب، ولم يبقَ إلّا مباشرة العذاب^(٢).

﴿٢٨﴾ ولما كان المكذبون للرسول ﷺ الذين يردّون دعوته ينتظرون هلاكه ويتربّصون به ريب المنون؛ أمره الله أن يقول لهم: إنكم وإن حصلت لكم أمانيتكم^(٣) و﴿أهلكني الله ومن معي﴾: فليس ذلك بنافع لكم شيئاً؛ لأنكم كفرتم بآيات الله، واستحققتُم العذاب؛ فمن يجيركم ﴿من عذاب أليم﴾: قد تحتّم وقوعه بكم؛ فإذا تعبكم وحرّضكم على هلاكي غير مفيد ولا مجدٍ لكم شيئاً.

﴿٢٩﴾ ومن قولهم: إنهم على هدى والرسول على ضلالٍ؛ أعادوا في ذلك وأبدوا، وجادلوا عليه وقاتلوا، فأمر الله نبيه أن يُخبر عن حاله وحال أتباعه ما به يتبين لكلٍّ أحدٍ هداهم وتقواهم، وهو أن يقولوا: ﴿آمناً به وعليه توكلنا﴾: والإيمان يشمل التصديق الباطن والأعمال الباطنة والظاهرة، ولما كانت الأعمال وجودها وكماؤها متوقفة على التوكل؛ خصّ الله التوكل من بين سائر الأعمال، وإلّا؛ فهو داخل في الإيمان، ومن جملة لوازمه؛ كما قال تعالى: ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾؛ فإذا كانت هذه حال الرسول وحال من اتّبعه، وهي الحال التي تتعين للفلاح وتتوقف عليها السعادة، وحالة أعدائه بضدّها؛ فلا إيمان لهم ولا توكل؛ علِمَ بذلك من هو على هدى ومن هو في ضلال مبين.

﴿٣٠﴾ ثم أخبر عن انفراده بالنعم، خصوصاً الماء^(٤) الذي جعل الله منه كلّ شيء حيّ، فقال: ﴿قل أرايتم إن أصبح ماؤكم غوراً﴾؛ أي: غائراً، ﴿فمن يأتيكم بماءٍ معينٍ﴾: تشربون منه وتسقون أنعامكم وأشجاركم وزروعكم؟ ولهذا استفهام بمعنى النفي؛ أي: لا يقدر أحدٌ على ذلك غير الله تعالى.

تم تفسير سورة الملك والحمد لله^(٥).

(١) في (ب): «وقلقل أفئدتهم».

(٢) في (ب): «ولم يبقَ إلّا مباشرة العذاب، وتقطّعت بكم الأسباب».

(٣) في (ب): «أنتم وإن حصلت لكم أمانيتكم».

(٤) في (ب): «بالماء».

(٥) في (ب): «تمت والله الحمد».

تفسير سورة ن

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتَبْصُرُ وَتُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمْ الْمَقْتُولُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾

﴿١ - ٢﴾ يقسم تعالى بالقلم، وهو اسم جنس شامل للأقلام التي تكتب بها أنواع العلوم، ويسطرُ بها المنشور والمنظوم^(١)، وذلك أَنَّ القلم وما يسطرُ^(٢) به من أنواع الكلام من آياته^(٣) العظيمة، التي تستحقُّ أن يُقَسِّمَ [الله] بها على براءة نبيه محمد ﷺ مما نسبته إليه أعداؤه من الجنون؛ فنفي عنه ذلك^(٤) بنعمة ربه عليه وإحسانه؛ حيث منَّ عليه بالعقل الكامل والرأي الجزل والكلام الفصل، الذي هو أحسن ما جرت به الأقلام وسطره الأنام، وهذا هو السعادة في الدنيا.

﴿٣﴾ ثم ذكر سعادته في الآخرة، فقال: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾؛ أي: لأجراً عظيماً كما يفيدُه التنكير، غير مقطوع^(٥)، بل هو دائم مستمر، وذلك لما أسلفه ﷺ من الأعمال الصالحة والأخلاق الكاملة والهداية إلى كل خير.

﴿٤﴾ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾؛ أي: علياً^(٦) به، مستعلياً بخُلُقِكَ الذي منَّ الله عليك به. وحاصل خُلُقِهِ العظيم ما فسَّرتَه به أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لمن سألها عنه، فقالت: كان خلقه القرآن^(٧). وذلك نحو قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ...﴾ الآية، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ...﴾ الآية، وما أشبه ذلك من الآيات الدالات على اتصافه ﷺ بمكارم الأخلاق،

(١) في (ب): «المنظوم والمنثور».

(٢) في (ب): «يسطرون به».

(٣) في (ب): «من آيات الله».

(٤) في (ب): «نفى عنه الجنون».

(٥) في (ب): «﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا﴾؛ أي: عظيماً كما يفيدُه التنكير «غير مَمْنُونٍ»؛ أي: مقطوع».

(٦) في (ب): «علياً به».

(٧) أخرجه مسلم (٧٤٦).

(٨) في (ب): «ذكر الآية إلى قوله: ﴿رءوف رحيم﴾».

والآيات الحاثات على كلِّ خُلُقٍ جميل^(١)، فكان له منها أكملها وأجلها، وهو في كلِّ خصلة منها في الذروة العليا، فكان [ﷺ] سهلاً ليناً قريباً من الناس، مجيباً لدعوة مَنْ دعاه، قاضياً لحاجة من استقضاه، جابراً لقلب مَنْ سألَه لا يحرمه ولا يردُّه خائباً. وإذا أراد أصحابُه منه أمراً؛ وافقهم عليه وتابعهم فيه إذا لم يكن فيه محذور، وإن عَزَمَ على أمرٍ؛ لم يستبدَّ به دونهم، بل يشاورهم ويؤامرهم، وكان يقبل من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم، ولم يكن يعاشِرُ جليساً إلا أتمَّ عشرة وأحسنها، فكان لا يعبسُ في وجهه، ولا يغلِظُ عليه في مقالَه، ولا يطوي عنه بشره، ولا يمسك عليه فلتات لسانه، ولا يؤاخذُه بما يصدرُ منه من جفوة، بل يُحسنُ إليه^(٢) غاية الإحسان، ويحتمله غاية الاحتمال ﷺ.

﴿٥ - ٦﴾ فلما أنزله الله في أعلى المنازل [من جميع الوجوه]، وكان أعداؤه ينسبون إليه أنه مجنون مفتون؛ قال: ﴿فَسْتَبْصِرْ وَتُبْصِرُونَ. بِأَيْكُمْ الْمَفْتُونُ﴾: وقد تبين أنه أهدى الناس وأكملهم لنفسه ولغيره، وأن أعداءه أضلُّ الناس وشرُّ الناس للناس^(٣)، وأنهم هم الذين فتنوا عبادة الله وأضلُّوهم عن سبيله، وكفى بعلم الله بذلك؛ فإنه [هو] المحاسب المجازي.

﴿٧﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾: ولهذا فيه تهديدٌ للضالِّين، ووعدٌ للمهتدين، وبيانٌ لحكمة الله؛ حيث كان يهدي مَنْ يضلُّ للهداية دون غيره.

﴿فَلَا تُطِيعِ الْمَكْذِبِينَ﴾^(٤) ﴿٨﴾ وَذُوا لَوْ نَذَرْنُ فَيْدَهُنَّ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِيعِ كُلَّ حَلَافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَكَذَا مَثَلٌ بَنِيهِ ﴿١١﴾ مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أُنِيمٍ ﴿١٢﴾ عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسْمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ ﴿١٦﴾.

﴿٨﴾ يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَلَا تُطِيعِ الْمَكْذِبِينَ﴾: الذين كذبوك وعاندوا الحق؛ فإنهم ليسوا أهلاً لأن يُطاعوا؛ لأنهم لا يأمرُونَ إلا بما يوافق أهواءهم، وهم لا يريدون إلا الباطل؛ فالمطيع لهم مُقَدِّمٌ على ما يضرُّه، ولهذا عامٌ في كلِّ مكذب وفي كلِّ طاعة ناشئة عن التكذيب، وإن كان السياق في شيء.

(١) في (ب): «الحاثات على الخلق العظيم». (٢) في (ب): «إلى عشيره».

(٣) في (ب): «أضل الناس للناس».

(٤) في (أ) إلى قوله: ﴿سنسمه على الخرطوم﴾، وفي (ب) ذكر الآيات.

خاص، وهو أنَّ المشركين طلبوا من النبي ﷺ أن يسكت عن عيب ألتهم ودينهم ويسكتوا عنه.

﴿٩﴾ ولهذا قال: ﴿وَدُّوا﴾؛ أي: المشركون، ﴿لَوْ تَذَهَّنْ﴾؛ أي: توافقههم على بعض ما هم عليه: إمَّا بالقول، أو بالفعل، أو بالسكوت عما يتعيَّن الكلام فيه ﴿فَيَذَهَبُونَ﴾، ولكن اصدغ بأمر الله، وأظهر دين الإسلام؛ فإنَّ تمام إظهاره نقض^(١) ما يضاؤه وعيب ما يناقضه.

﴿١٠﴾ ﴿وَلَا تَطْغِ كُلَّ حَلَّافٍ﴾؛ أي: كثير الحلف؛ فإنَّه لا يكون كذلك إلَّا وهو كذَّابٌ، ولا يكون كذَّاباً إلَّا وهو ﴿مُهَيِّنٌ﴾؛ أي: خسيس النفس، ناقض الهمة، ليس له رغبة^(٢) في الخير، بل إرادته في شهوات نفسه الخسيسة.

﴿١١﴾ ﴿هَمَّازٍ﴾؛ أي: كثير العيب للناس والطعن فيهم^(٣) بالغيبة والاستهزاء وغير ذلك، ﴿مَشَاءٍ بَنِيمٍ﴾؛ أي: يمشي بين الناس بالنميمة، وهو نقلُ كلام بعض الناس لبعض لقصد الإفساد بينهم وإيقاع العداوة والبغضاء.

﴿١٢﴾ ﴿مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ﴾: الذي يلزمه القيام به من النفقات الواجبة والكفارات والزكَّوات وغير ذلك. ﴿مَعْتَدٍ﴾: على الخلق؛ يظلمهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم^(٤). ﴿أَثِيمٍ﴾؛ أي: كثير الإثم والذنوب المتعلقة في حقِّ الله [تعالى].

﴿١٣﴾ ﴿عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ﴾؛ أي: غليظ شرس الخلق، قاس، غير منقاد للحق. ﴿زَنِيمٌ﴾؛ أي: دعي ليس له أصل ولا مادة ينتج منها الخير، بل أخلاقه أقبح الأخلاق، ولا يرجى منه فلاح. له زِنَمَةٌ؛ أي: علامة في الشرِّ يعرف بها.

﴿١٤﴾ وحاصل هذا أنَّ الله تعالى نهى عن طاعة كلِّ حلافٍ كذاب خسيس النفس سيِّئ الأخلاق، خصوصاً الأخلاق المتضمَّنة للإعجاب بالنفس، والتكبر على الحقِّ وعلى الخلق، والاحتقار للناس بالغيبة والنميمة، والطعن فيهم، وكثرة المعاصي.

﴿١٥﴾ وهذه الآيات وإن كانت نزلت في بعض المشركين؛ كالوليد بن المغيرة أو غيره^(٥)؛ لقوله عنه: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ. إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ

(١) في (ب): «بنقض».

(٢) في (ب): «همة».

(٣) في (ب): «كثير العيب والطعن في الناس».

(٤) في (ب): «في ظلمهم في الدماء والأموال والأعراض».

(٥) انظر «فتح الباري» (٦٦٢/٨).

الأولين»؛ أي: لأجل كثرة ماله وولده طغى واستكبر عن الحق ودفعه حين جاءه وجعله من جملة أساطير الأولين التي يمكن صدقها وكذبها؛ فإنها عامة في كل من اتصف بهذا الوصف؛ لأن القرآن نزل لهداية الخلق كلهم، ويدخل فيه أول الأمة وآخرهم، وربما نزل بعض الآيات في سبب أو [في] شخص من الأشخاص، لتتضح به القاعدة العامة، ويُعرف به أمثال الجزئيات الداخلة في القضايا العامة.

﴿١٦﴾ ثم توعد تعالى من جرى منه ما وصف الله بأن الله سيبسّمه ﴿على الخرطوم﴾: في العذاب، وليعذبه عذاباً ظاهراً يكون عليه سمة وعلامة في أشق الأشياء عليه وهو وجهه.

﴿إِنَّا بَلَوْتَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ^(١) أَقْسَمُوا لَيَصْرُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ فَأُطْلِقُوا وَهُمْ يَخْشِفُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَتْهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَا عَلَىٰ حَرٍِّ قَدِيرٍ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا تُسْمِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَوَيْلًا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبَّنَا أَن يُبَدِّلَ حَزَنًا مِنَّا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿١٧ - ١٨﴾ يقول تعالى: إِنَّا بَلَوْنَا هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ بِالْخَيْرِ، وأمهلناهم، وأمددناهم بما شئنا من مال وولد وطول عمر ونحو ذلك ممّا يوافق أهواءهم، لا لكرامتهم علينا، بل ربّما يكون استدراجاً لهم من حيث لا يعلمون، فاغترارهم بذلك نظير اغترار أصحاب الجنة الذين هم فيها شركاء، حين أينعت أشجارها، وزهت ثمارها^(٢)، وآن وقت صرامها وجزموا أنّها في أيديهم وطوع أمرهم، وأنّه ليس ثمّ مانع يمنعهم منها، ولهذا أقسموا وحلفوا من غير استثناء أنّهم سيصرمونها؛ أي: يجذونها مصبحين، ولم يذروا أنّ الله بالمرصاد، وأنّ العذاب سيخلفهم عليها ويأذيهم إليها.

﴿١٩ - ٢٠﴾ ﴿طَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾؛ أي: عذاب نزل عليها ليلاً، ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾: فأبادها، وأتلفها، ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾؛ أي: كالليل المظلم، وذهبت الأشجار والثمار.

(١) في (أ) طمس. وفي (ب) إلى آخر القصة بعد ذكر الآية (١٩).

(٢) في (ب): «حيث زهت ثمارها، وأينعت أشجارها».

﴿٢١ - ٢٢﴾ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِهَذَا الْوَاقِعِ الْمَلَم، وَلِهَذَا تَنَادَا فِيمَا بَيْنَهُمْ لَمَّا أَصْبَحُوا؛ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ﴿اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ﴾.

﴿٢٣ - ٢٤﴾ ﴿فَانْطَلِقُوا﴾: قَاصِدِينَ لَهَا^(١)، ﴿وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ﴾: فِيمَا بَيْنَهُمْ بِمَنْعٍ^(٢) حَقَّ اللَّهُ تَعَالَى، وَيَقُولُونَ: ﴿لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ﴾؛ أَي: بَكَرُوا قَبْلَ انْتِشَارِ النَّاسِ، وَتَوَاصَوْا مَعَ ذَلِكَ بِمَنْعِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ. وَمِنْ شِدَّةِ حِرْصِهِمْ وَبِخْلِهِمْ أَنَّهُمْ يَتَخَفَتُونَ بِهَذَا الْكَلَامِ مَخَافَتَهُ خَوْفًا أَنْ يَسْمَعَهُمْ أَحَدٌ فَيُخْبِرَ الْفُقَرَاءَ.

﴿٢٥﴾ ﴿وَعَدُوا﴾: فِي هَذِهِ الْحَالَةِ الشَّنِيعَةِ وَالْقَسْوَةِ وَعَدَمِ الرَّحْمَةِ ﴿عَلَى حَرِدٍ قَادِرِينَ﴾؛ أَي: عَلَى إِمْسَاكِ وَمَنْعٍ لِحَقِّ اللَّهِ جَازِمِينَ بِقَدَرَتِهِمْ عَلَيْهَا.

﴿٢٦ - ٢٧﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾: عَلَى الْوَصْفِ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ كَالصَّرِيمِ، ﴿قَالُوا﴾: مِنَ الْحَيْرَةِ وَالْانْزِعَاجِ، ﴿إِنَّا لَضَالُّونٌ﴾؛ أَي: تَائِهُونَ عَنْهَا، لَعَلَّهَا غَيْرَهَا، فَلَمَّا تَحَقَّقُوا وَرَجَعَتْ إِلَيْهِمْ عَقُولُهُمْ؛ قَالُوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ﴾: مِنْهَا، فَعَرَفُوا حَيْثُذِ أَنَّهُ عَقُوبَةٌ.

﴿٢٨﴾ ﴿فَقَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾؛ أَي: أَعَدَلُهُمْ وَأَحْسَنُهُمْ طَرِيقَةً: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾؛ أَي: تَنْزَهُونَ اللَّهَ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ ظَنُّكُمْ أَنَّ قَدَرَتَكُمْ مُسْتَقْلَةً، فَلَوْلَا اسْتَشْنَيْتُمْ وَقَلَّتُمْ^(٣): إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَجَعَلْتُمْ مَشِيَّتَكُمْ تَابِعَةً لِمَشِيَّتِهِ^(٤)؛ لَمَّا جَرَى عَلَيْكُمْ مَا جَرَى.

﴿٢٩﴾ ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾؛ أَي: اسْتَدْرَكُوا بَعْدَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ بَعْدَمَا وَقَعَ الْعَذَابُ عَلَى جَنَّتِهِمْ، الَّذِي لَا يُرْفَعُ، وَلَكِنْ لَعَلَّ تَسْبِيحَهُمْ هَذَا وَإِقْرَارَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالظُّلْمِ يَنْفَعُهُمْ فِي تَخْفِيفِ الْإِثْمِ وَيَكُونُ تَوْبَةً.

﴿٣٠ - ٣٢﴾ وَلِهَذَا نَدَمُوا نَدَامَةً عَظِيمَةً، وَأَقْبَلَ ﴿بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَامِؤْنَ﴾: فِيمَا أَجْرُوهُ وَفَعَلُوهُ، ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾؛ أَي: مُتَجَاوِزِينَ لِلْحَدِّ فِي حَقِّ اللَّهِ وَحَقِّ عِبَادِهِ، ﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾: فَهُمْ رَجَاوُ اللَّهِ أَنْ يُبَدِّلَهُمْ خَيْرًا مِنْهَا، وَوَعَدُوا أَنْ^(٥) سِيرَغَبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَلْحُقُونَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنْ كَانُوا كَمَا قَالُوا؛ فَالظَّاهِرُ أَنَّ اللَّهَ أَبَدْلَهُمْ فِي الدُّنْيَا

(٢) فِي (ب): «وَلَكِنْ بِمَنْعٍ».

(٤) فِي (ب): «لِلْمَشِيَّةِ اللَّهِ».

(١) فِي (ب): «لَهَا».

(٣) فِي (ب): «فَقَلَّتُمْ».

(٥) فِي (ب): «أَنْهُمْ».

خيراً منها؛ لأن من دعا الله صادقاً ورغب إليه ورجاه؛ أعطاه سؤاله.

﴿٣٣﴾ قال تعالى معظماً^(١) ما وقع: ﴿كذلك العذاب﴾؛ أي: الدنيوي لمن أتى بأسباب العذاب أن يسلبه الله^(٢) الشيء الذي طغى به وبغى وآثر الحياة الدنيا وأن يزيله عنه أحوج ما يكون إليه، ﴿ولعذاب الآخرة أكبر﴾: من عذاب الدنيا، ﴿لو كانوا يعلمون﴾: فإن من علم ذلك؛ أوجب له الانزجار عن كل سبب يوجب العقاب ويحرم الثواب^(٣).

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ^(٤)﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿أَفَجَعَلَ الْمُتَّقِينَ كَالْمُجْرِمِينَ^(٥)﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾
 أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخْتَرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾

﴿٣٤ - ٤١﴾ يخبر تعالى بما أعدّه للمتقين للكفر والمعاصي، من أنواع النعيم والعيش السليم في جوار أكرم الأكرمين، وأن حكمته تعالى لا تقتضي أن يجعل المتقين^(٥) القانتين لرَبِّهِم، المنقادين لأوامره، المتبعين مرضيَّه، كالمجرمين الذين أَوْضَعُوا في معاصيه والكفر بآياته ومعاندة رسله ومحاربة أوليائه، وأن من ظنَّ أنه يسويهم في الثواب؛ فإنه قد أساء الحكم، وأن حكمه [حكم] باطلٌ ورأيه فاسدٌ، وأن المجرمين إذا ادَّعُوا ذلك؛ فليس لهم مستندٌ، لا كتابٌ فيه يدرسون ويتلون أنهم من أهل الجنة، وأن لهم ما طلبوا وتخيروا، وليس لهم عند الله عهدٌ ويمينٌ بالغة إلى يوم القيامة أن لهم ما يحكمون، وليس لهم شركاء وأعوانٌ على إدراك ما طلبوا؛ فإن كان لهم شركاء وأعوانٌ؛ فليأتوا بهم إن كانوا صادقين. ومن المعلوم أن جميع ذلك منتفٍ؛ فليس لهم كتابٌ ولا لهم عهدٌ عند الله في النجاة ولا لهم شركاء يعينونهم، فعلم أن دعواهم باطلةٌ فاسدةٌ. وقوله: ﴿سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ﴾ بذلك زعيمٌ؛ أي: أيُّهم الكفيل بهذه الدعوى التي تبيّن بطلانها؛ فإنه لا يمكن أحداً أن يتصدّر بها ولا يكون زعيماً فيها^(٦).

(١) في (ب): «ميتناً». (٢) في (ب): «أن يسلب الله العبد».

(٣) في (ب): «ويحل العقاب».

(٤) في (أ) إلى قوله: ﴿فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.

(٥) في (ب): «المسلمين».

(٦) في (ب): «بهذه الدعوى الفاسدة؛ فإنه لا يمكن التصدر بها ولا الزعامة فيها».

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ ^(١) وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَشِيعَةً أَنْصَرَمَ رُءُوسُهُمْ ذَلَّةً وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴿

﴿٤٢ - ٤٣﴾ أي: إذا كان يوم القيامة، وانكشف فيه من القلاقل والزلازل والأهوال ما لا يدخل تحت الوهم، وأتى الباري لفصل القضاء بين عباده ومجازاتهم، فكشف عن ساقه الكريمة التي لا يشبهها شيء، ورأى الخلائق من جلال الله وعظمته ما لا يمكن التعبير عنه؛ فحينئذ ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾: لله، فيسجد المؤمنون الذين كانوا يسجدون لله طوعاً واختياراً، ويذهب الفجار المنافقون ليسجدوا؛ فلا يقدرّون على السجود، وتكون ظهورهم كصياصي البقر؛ لا يستطيعون الانحناء، وهذا الجزء من جنس عملهم؛ فإنهم كانوا يُدْعَوْنَ في الدنيا إلى السجود لله وتوحيده وعبادته وهم سالمون لا علة فيهم؛ فيستكبرون عن ذلك، ويأبؤون؛ فلا تسأل يومئذ عن حالهم وسوء مآلهم؛ فإن الله قد سَخَطَ عليهم، وحقّت عليهم كلمة العذاب، وتقطّعت أسبابهم، ولم تنفعهم الندامة والاعتذار يوم القيامة؛ ففي هذا ما يزعج القلوب عن المقام على المعاصي ويوجب التدارك مدة الإمكان.

﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ يَهْدِ﴾ ^(٢) سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأَمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عَنْدهُمْ أَنْبَاءُ فَهُمْ يَكْفُيُونَ ﴿٤٧﴾ فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْاُتُوْتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَنْ تَذَكَّرْنَا بَعْثَهُ مِنْ رَبِّهِ لَئِنَّا بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَأَجْبَنَهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴿

﴿٤٤ - ٤٥﴾ أي: دعني والمكذّبين بالقرآن العظيم؛ فإن عليّ جزاءهم، ولا تستعجل لهم؛ فسنستدرجهم ﴿من حيث لا يعلمون﴾: فئمئذهم بالأموال والأولاد، ونئمئذهم في الأرزاق والأعمال؛ ليغتروا ويستمرؤا على ما يضرهم، وهذا ^(٣) من كيد الله لهم. وكيد الله لأعدائه متين قوي، يبلغ من ضررهم وعقوبتهم كل ^(٤) مبلغ.

(١) في (أ) إلى قوله: ﴿وهم سالمون﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.

(٢) في (أ) إلى آخر السورة. وفي (ب) ذكر الآيات.

(٣) في (ب): «فإن هذا». (٤) في (ب): «وعذابهم فوق كل مبلغ».

﴿٤٦﴾ ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾؛ أي: ليس لنفورهم عنك وعدم تصديقهم لك سببٌ يوجب لهم ذلك^(١)؛ فَإِنَّكَ تَعْلَمُهُمْ وتَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ لمحض مصلحتهم من غير أن تطلبهم من أموالهم مغرمًا يُثْقَلُ عليهم.

﴿٤٧﴾ ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾: ما كان عندهم من الغيوب، وقد وجدوا [فيها] أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ، وَأَنَّ لَهُمُ الثَّوَابَ عِنْدَ اللَّهِ؛ فَهَذَا أَمْرٌ مَا كَانَ، وَإِنَّمَا كَانَتْ حَالُهُمْ حَالِ مُعَانِدٍ ظَالِمٍ.

﴿٤٨ - ٥٠﴾ فلم يَبْقَ إِلَّا الصَّبْرُ لِأَذَاهُمْ وَالتَّحُمُّلُ لِمَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ وَالِاسْتِمْرَارُ عَلَى دَعْوَتِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾؛ أي: لما حُكِمَ بِهِ شَرْعًا وَقَدْرًا؛ فَالْحُكْمُ الْقُدْرِيُّ يُضَبَّرُ عَلَى الْمُؤْذِي مِنْهُ وَلَا يُتَلَقَّى بِالسُّخْطِ وَالْجَزَعِ، وَالْحُكْمُ الشَّرْعِيُّ يَقَابَلُ بِالْقَبُولِ وَالتَّسْلِيمِ وَالِانْقِيَادِ [التَّامِّ] لِأَمْرِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾: وَهُوَ يُونُسُ بْنُ مَتَّى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ أَي: وَلَا تُشَابِهْهُ فِي الْحَالِ الَّتِي أَوْصَلَتْهُ وَأَوْجَبَتْ لَهُ الْإِنْجِبَاسَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ، وَهُوَ عَدِمَ صَبْرَهُ عَلَى قَوْمِهِ الصَّبْرَ الْمَطْلُوبَ مِنْهُ وَذَهَابَهُ مَغَاضِبًا لِرَبِّهِ، حَتَّى رَكِبَ [فِي] الْبَحْرِ، فَاقْتَرَعَ أَهْلُ السَّفِينَةِ حِينَ ثَقُلَتْ بِأَهْلِهَا أَيُّهُمْ يَلْقَوْنَ؛ لَكِي تَخَفَّ بِهِمْ، فَوَقَعَتِ الْقِرْعَةُ عَلَيْهِ، فَالْتَقَمَهُ الْحَوْثُ وَهُوَ مَلِيمٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾؛ أَي: وَهُوَ فِي بَطْنِهَا قَدْ كَظُمَتْ عَلَيْهِ، أَوْ: نَادَى وَهُوَ مَغْتَمٌّ مَهْتَمٌّ، فَقَالَ^(٢): لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ، وَقَدَفَتْهُ الْحَوْثُ مِنْ بَطْنِهَا بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ، وَأَنْبَتَ اللَّهُ عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ، وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ﴾؛ أَي: لَطُرِحَ فِي الْعَرَاءِ، وَهِيَ الْأَرْضُ الْخَالِيَةُ، ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾: وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَمَّدَهُ بِرَحْمَتِهِ، فَتُبِّدَ وَهُوَ مَمْدُوحٌ، وَصَارَتْ حَالُهُ أَحْسَنَ مِنْ حَالِهِ الْأَوَّلَى، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾؛ أَي: اخْتَارَهُ وَاصْطَفَاهُ وَنَقَّاهُ مِنْ كُلِّ كَدَرٍ، فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ؛ أَي: الَّذِينَ صَلَحَتْ أَعْمَالُهُمْ وَأَقْوَالُهُمْ وَنِيَّاتُهُمْ وَأَحْوَالُهُمْ.

﴿٥١ - ٥٢﴾ فَامْتَثِلْ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ أَمَرَ اللَّهُ^(٣)، فَصَبِرْ لِحُكْمِ رَبِّهِ صَبْرًا لَا يَدْرِكُهُ [فِيهِ] أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ، فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ الْعَاقِبَةَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَمْ يَبْلُغْ^(٤) أَعْدَاؤُهُ فِيهِ إِلَّا مَا يَسُوؤُهُمْ، حَتَّى إِنَّهُمْ حَرَّصُوا عَلَى أَنْ يُزْلِقُوهُ ﴿بِأَبْصَارِهِمْ﴾؛ أَي: بِصَيِّبِهِ

(١) فِي (ب): «وَعَدَمَ تَصْدِيقِهِمْ لِمَا جِئْتَ بِهِ سَبَبٌ يَوْجِبُ لَهُمْ ذَلِكَ».

(٢) فِي (ب): «بَانَ قَالَ».

(٣) فِي (ب): «أَمَرَ رَبَّهُ».

(٤) فِي (ب): «وَلَمْ يَدْرِكْ».

بأعينهم من حسدهم وحقنهم وغيظهم. هذا منتهى ما قدرُوا عليه من الأذى الفعلي، والله حافظه وناصره. وأمّا الأذى القولي؛ فيقولون فيه أقوالاً بحسب ما توحى إليهم قلوبهم، فيقولون تارة: مجنون! وتارة: شاعر! وتارة: ساحر! ^(١) قال تعالى: ﴿وما هو إلا ذكرٌ للعالمين﴾؛ أي: وما هذا القرآن العظيم ^(٢) والذكر الحكيم إلا ذكرٌ للعالمين، يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم. والحمد لله ^(٣).



تفسير سورة الحاقة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝٣﴾ ^(٤) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٌ ۝٧ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾.

١ - ٣ ﴿الحاقة﴾: من أسماء يوم القيامة؛ لأنها تحق وتُنزل بالخلق وتظهر فيها حقائق الأمور ومخبات الصدور؛ فعظم تعالى شأنها وفخمه بما كرّره من قوله: ﴿الحاقة. ما الحاقة. وما أدراك ما الحاقة﴾؛ فإن لها شأنًا عظيمًا وهولاً جسيمًا ^(٥).

«ومن عظمتها أن الله أهلك الأمم المكذبة بها بالعذاب العاجل».

﴿٤﴾ ثم ذكر نموذجاً من أحوالها الموجودة في الدنيا المشاهدة فيها، وهو ما ^(٦) أحله من العقوبات البليغة بالأمم ^(٧) العاتية، فقال: ﴿كذّبت ثمود﴾: وهم القبيلة المشهورة سكان الحجر الذين أرسل الله إليهم رسوله صالحاً عليه السلام؛ ينهاهم عما هم عليه من الشرك ويأمرهم بالتوحيد، فردّوا دعوته، وكذبوه، وكذبوا ما

(١) في (ب): «تارة ساحر! وتارة شاعر». (٢) في (ب): «القرآن الكريم».

(٣) في (ب): «تم تفسير سورة ن. والحمد لله رب العالمين».

(٤) في (أ) إلى قوله: ﴿فهل ترى لهم من باقية﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.

(٥) زيادة: في هامش (ب): لم يشر المؤلف إلى مكانها. ولعل مكانها المناسب في هذا الموضع.

(٦) في (ب): «مما أحله». (٧) في (ب): «في الأمم».

أخبر^(١) به من يوم القيامة، وهي القارعة التي تفرع الخلق بأهوالها، وكذلك عاد الأولى سكان حضرموت حين بعث الله إليهم رسوله هوداً عليه الصلاة والسلام، يدعوهم إلى عبادة الله وحده، فكذبوه، وأنكروا ما أخبر به من البعث، فأهلك الله الطائفتين بالهلاك العاجل^(٢).

﴿٥﴾ ﴿٥﴾ فإمّا ثمود فاهلكوا بالطاغية: وهي الصيحة العظيمة الفظيعة، التي قطعت^(٣) قلوبهم وزهقت لها أرواحهم، فأصبحوا موتى لا يرى إلا مساكنهم وجثثهم.

﴿٦﴾ ﴿٦﴾ وإمّا عاد فاهلكوا بريح صرصر: أي: قوّة شديدة الهبوب لها صوت أبلغ من صوت الرعد القاصف. ﴿عاتية﴾: أي: عتت على خزائنها على قول كثير من المفسرين، أو عتت على عاد، وزادت على الحد كما هو الصحيح.

﴿٧﴾ ﴿٧﴾ سخّرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً: أي: نحساً وشراً فظيماً عليهم فدمرتهم وأهلكتهم؛ ﴿فترى القوم فيها صرعى﴾: أي: هلكى موتى، ﴿كانهم أعجاز نخل خاوية﴾: أي: كأنهم جذوع النخل التي قد قطعت رؤوسها الخاوية الساقط بعضها على بعض.

﴿٨﴾ ﴿٨﴾ فهل ترى لهم من باقية؟: وهذا استفهام بمعنى النفي المتقرر.

﴿وَجَاءَ قَرَعُونَ مِنْ قَبْلِهِ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾^(٤) ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً﴾^(٥) إِنَّا لَنَّا طَعْنَا أَلَمًا مِمَّنْ لَكُمْ فِي النَّارِ ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكُرَةً وَرَبِّهَا أُذُنٌ رَاعِيَةٌ﴾^(٦).

﴿٩ - ١٠﴾ أي: وكذلك غير هاتين الأمتين الطاغيتين عاد وثمود جاء غيرهم من الطغاة العتاة؛ كفرعون مصر الذي أرسل الله إليه عبده ورسوله موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، وأراهم من الآيات البيّنات ما تيقنوا بها الحق، ولكن جحدوا وكفروا ظلماً وعلواً، وجاء من قبله من المكذّبين ﴿والمؤتفكات﴾: أي: قرى قوم لوط؛ الجميع جاؤوا ﴿بالخاطئة﴾: أي: بالفعل الطاغية، وهو الكفر والتكذيب والظلم والمعادنة وما انضم إلى ذلك من أنواع المعاصي^(٥) والفسوق، ﴿فَعَصَوْا

(١) في (ب): «أخبرهم به».

(٢) في (ب): «انصدعت منها قلوبهم».

(٣) في (أ): إلى قوله: ﴿أُذُنٌ رَاعِيَةٌ﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.

(٤) في (ب): «الفواحش».

رَسُولَ رَبِّهِمْ: وهذا اسم جنس؛ أي: كلُّ من هؤلاء كذبوا الرسول الذي أرسله الله إليهم^(١)؛ فأخذ الله الجميع ﴿أَخَذَهُ رَابِيَةً﴾؛ أي: زائدة على الحدِّ والمقدار الذي يحصلُ به هلاكهم.

﴿١١ - ١٢﴾ ومن جملة هؤلاء^(٢) قومُ نوح؛ أغرقهم الله في اليَمِّ حين طغى الماء على وجه الأرض^(٣) وعلا على مواضعها الرفيعة، وامتنَّ الله على الخلق الموجودين بعدهم أن^(٤) حملهم ﴿في الجارية﴾، وهي السفينة؛ في أصلاب آبائهم وأمهاتهم، الذين نجَّاهم الله؛ فاحمدوا الله واشكروا الذي نجَّاهم حين أهلك الطاغين، واعتبروا بآياته الدالة على توحيده، ولهذا قال: ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾؛ أي: الجارية، والمراد جنسها [لكم] ﴿تَذَكُّرَةً﴾: تذكركم أول سفينة صُنِعَتْ وما قصَّتْها، وكيف نجَّى الله عليها مَنْ آمَن به واتَّبَعَ رسوله وأهلك أهل الأرض كُلَّهُمْ؛ فإنَّ جنس الشيء مذكَّرٌ بأصله. وقوله: ﴿وَتَعْبِهَا أَذُنٌ وَاغِيَةٌ﴾؛ أي: يعقلها^(٥) أولو الألباب، ويعرفون المقصود منها ووجه الآية بها. وهذا بخلاف أهل الإعراض والغفلة وأهل البلادة وعدم الفطنة؛ فإنَّهم ليس لهم انتفاعٌ بآيات الله؛ لعدم وعيهم عن الله وتفكيرهم بآياته^(٦).

﴿فَإِذَا تُفْخَعُ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾^(٧) ﴿وَحُلَّتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾^(٨) ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾^(٩) ﴿وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾^(١٠) ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾^(١١) ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾^(١٢).

﴿١٣ - ١٨﴾ لما ذكر تعالى ما فعله بالمكذِّبين لرسله، وكيف جازاهم وعجَّلَ لهم العقوبة في الدنيا، وأنَّ الله نجَّى الرسل وأتباعهم؛ كان هذا مقدِّمةً للجزاء^(١٣) الآخرويِّ وتوفية الأعمال كاملة يوم القيامة، فذكر الأمور الهائلة التي تقع أمام يوم القيامة، وأنَّ أول ذلك أنَّه ينفخ إسرافيل ﴿في الصور﴾ - إذا تكاملت الأجساد نابتة - نفخة واحدة؛ فتخرج الأرواح، فتدخل كلُّ روح في جسدها؛ فإذا الناس قيامٌ لربِّ

(١) في (ب): «إليه».

(٢) في (ب): «أو لئلك».

(٣) في (ب): «طغى في الأرض».

(٤) في (ب): «أن الله».

(٥) في (ب): «تعقلها».

(٦) في (ب): «وفكرهم بآيات الله».

(٧) في (أ): إلى قوله: ﴿لا تخفى منكم خافية﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.

(٨) في (ب): «مقدمة لذكر الجزاء».

العالمين، ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾؛ أي: فتتت الجبال، واطمحت واخلطت بالأرض، وُنُسِفَتْ عليها^(١)، فكان الجميع قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً. لهذا ما يُصنع بالأرض وما عليها، وأمّا ما يُصنع بالسماء؛ فإنّها تضطرب وتمور وتشقق^(٢) ويتغيّر لونها، وتتهي بعد تلك الصلابة والقوة العظيمة، وما ذاك إلا لأمر عظيم أزعجها وكربٍ جسيم هائل أوهاها وأضعفها، ﴿وَالْمَلَكُ﴾؛ أي: الملائكة الكرام ﴿على أرجائها﴾؛ أي: على جوانب السماء وأركانها، خاضعين لربهم، مستكينين لعظمته، ﴿ويحملُ عرشُ ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾: أملاك في غاية القوة، إذا أتى للفصل بين العباد والقضاء بينهم بعدله وقسطه وفضله، ولهذا قال: ﴿يومئذ تُغْرَضُونَ﴾: على الله، ﴿لا تخفى منكم خافية﴾: لا من أجسادكم وذواتكم^(٣)، ولا من أعمالكم وصفاتكم؛ فإنّ الله تعالى عالم الغيب والشهادة، ويحشرُ العباد حفاةً عراءَ غُرلاً في أرضٍ مستوية يسمعون الداعي وينفذهم البصر، فحينئذ يجازيهم بما عملوا، ولهذا ذكّر كيفية الجزاء، فقال:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَ كَتَبْتُ بِبَيِّنَةٍ﴾^(٤) ﴿فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِي﴾^(٥) ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِي﴾^(٦) ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾^(٧) ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾^(٨) ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾^(٩) ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِغَةِ﴾^(١٠).

﴿١٩ - ٢٠﴾ وهؤلاء هم أهل السعادة؛ يُعْطَوْنَ كُتُبُهُم التي فيها أعمالهم الصالحة بأيمانهم تمييزاً لهم وتنوياً بشأنهم ورفعاً لمقدارهم، ويقول أحدُهم عند ذلك من الفرح والسرور ومحبة أن يُطلع الخلق على ما من الله عليه به من الكرامة: ﴿هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِي﴾؛ أي: دونكم كتابي فاقرؤوه؛ فإنه يبشّر بالجنّات وأنواع الكرامات ومغفرة الذنوب وستر العيوب، والذي أوصلني إلى هذه الحال ما من الله به عليّ^(٥) من الإيمان بالبعث والحساب والاستعداد له بالممكن من العمل، ولهذا قال: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِي﴾؛ أي: أيقنت؛ فالظن هنا بمعنى اليقين.

(١) في (ب): «ونسفت على الأرض». (٢) في (ب): «وتشقق».

(٣) في (ب): «لا من أجسامكم وأجسادكم».

(٤) في (أ): إلى قوله: «بما أسلفتم في الأيام الخالية». وفي (ب): ذكر الآيات.

(٥) في (ب): «عليّ به».

﴿٢١ - ٢٤﴾ ﴿فهو في عيشة راضية﴾؛ أي: جامعة لما تشتهيهِ الأنفس وتلذُّ الأعين وقد رضوها ولم يختاروا عليها غيرها، ﴿في جنة﴾: عالية المنازل والقصور عالية المحل، ﴿قطوفها دانية﴾؛ أي: ثمرها وجناها من أنواع الفواكه قريبة سهلة تناول على أهلها، ينالها أهلها قياماً وقعوداً ومتكئين، ويقال لهم إكراماً: ﴿كلوا واشربوا﴾؛ أي: من كل طعام لذيق وشراب شهي، ﴿هنيئاً﴾؛ أي: تامة كاملاً من غير مكدر ولا منغص. وذلك الجزاء حصل لكم ﴿بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾: من الأعمال الصالحة - وترك الأعمال السيئة - من صلاة وصيام وصدقة وحج وإحسان إلى الخلق وذكر لله وإنابة إليه؛ فالأعمال جعلها الله سبباً لدخول الجنة ومادةً لنعيمها وأصلاً لسعادتها.

﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْبَهُ بِإِثْمِهِ فَيَقُولُ يَلَيِّنُنِي لَرَأُوتَ كَيْبِي﴾^(١) ﴿وَلَرَأُوتَ مَا حَسْبِيَ﴾^(٢) ﴿يَلَيِّنُنِي كَانَتْ الْقَاضِيَةَ﴾^(٣) ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾^(٤) ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِي﴾^(٥) ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾^(٦) ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾^(٧) ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾^(٨) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَزِيدُونَ إِلَّا اللَّهَ الْعَظِيمَ﴾^(٩) ﴿وَلَا يَخْصُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمُسْكِينِ﴾^(١٠) ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ﴾^(١١) ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾^(١٢) ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِطُونَ﴾^(١٣) .

﴿٢٥ - ٢٩﴾ هؤلاء هم أهل الشقاء؛ يعطون كتبهم المشتملة على أعمالهم السيئة^(٢) بشمالهم؛ تمييزاً لهم وخزياً وعاراً وفضيحة، فيقول أحدهم من الهم والغم والحزن^(٣): ﴿يا ليتني لم أوتَ كتابي﴾؛ لأنه يبشر بدخول النار والخسارة الأبدية، ﴿ولم أدر ما حسبي﴾؛ أي: ليتني كنت نسياً منسياً ولم أبعث وأحاسب، ولهذا قال: ﴿يا ليتها كانت القاضية﴾؛ أي: يا ليت موتي هي الموتة التي لا بعث بعدها.

ثم التفت إلى ماله وسلطانه؛ فإذا هو وبأل عليه لم يقدم منه لآخرته ولا ينفعه لو افتدى به من العذاب شيئاً^(٤)، فيقول: ﴿ما أغنى عني مالي﴾؛ أي: ما نفعني لا في الدنيا - لم أقدم منه شيئاً - ولا في الآخرة؛ قد ذهب وقت نفعه، ﴿هلك عني

(١) في (أ): إلى قوله: ﴿لا يأكله إلا الخاطئون﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.

(٢) في (ب): يعطون كتب أعمالهم السيئة. (٣) في (ب): «والخزي».

(٤) في (ب): «ولم ينفعه في الافتداء من عذاب الله».

سُلْطَانِيَّةٌ؛ أي: ذهب واضمحَلَّ، فلم تنفع الجنود ولا الكثرة ولا العُدَدُ ولا العُدَدُ^(١) ولا الجاه العريض، بل ذهب ذلك كله أدراج الرياح، وفات بسببه المتاجر والأرباح، وحضرت بدله الهموم والغموم والأتراح.

﴿٣٧ - ٣٠﴾ فحينئذٍ يؤمر بعذابه، فيقال للزبانية الغلاظ الشداد: ﴿خُذُوهُ فَعْلُوهُ﴾؛ أي: اجعلوا في عنقه غلاً يخنقه، ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾؛ أي: قلبوه على جمرها ولهبها، ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً﴾: من سلاسل الجحيم في غاية الحرارة، ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾؛ أي: انظموه فيها بأن تدخل في دبره وتخرج من فمه ويعلّق فيها فلا يزال يعذب بهذا العذاب الفظيع؛ فيئس العذاب والعقاب، وواحسرة له من التوبيخ والعتاب؛ فإنَّ السبب الذي أوصله إلى هذا المحلّ ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾: بأن كان كافراً بربه معانداً لرسله راداً ما جاؤوا به من الحقّ، ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾؛ أي: ليس في قلبه رحمة يرحم بها الفقراء والمساكين؛ فلا يطعمهم من ماله ولا يحضّ غيره على إطعامهم؛ لعدم الوازع في قلبه، وذلك لأنّ مدار السعادة ومادّتها أمران: الإخلاص لله الذي أصله الإيمان بالله، والإحسان إلى الخلق بجميع وجوه الإحسان، الذي من أعظمها دفع ضرورة المحتاجين بإطعامهم ما يتقوّتون به، وهؤلاء لا إخلاص ولا إحسان؛ فلذلك استحقّوا ما استحقّوا. ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿حَمِيمٌ﴾؛ أي: قريب أو صديق يشفع له لينجو من عذاب الله أو يفوز بشوابه^(٢). ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾، ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ﴾. وليس له ﴿طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسَلِينَ﴾: وهو صديد أهل النار، الذي هو في غاية الحرارة والمرارة وتنن الرياح وقبح الطعم^(٣)، لا يأكل هذا الطعام الذميم ﴿إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾، الذين أخطؤوا الصراط المستقيم، وسلکوا كلَّ طريق يوصلهم إلى الجحيم^(٤)؛ فلذلك استحقّوا العذاب الأليم.

﴿فَلَا أَقِيمُ يَمَا تُبْصِرُونَ﴾^(٥) ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ﴾

(١) في (ب): «فلم تنفع الجنود الكثيرة ولا العُدَدُ الخطيرة».

(٢) في (ب): «بشواب الله».

(٣) في (ب): «في غاية الحرارة وتنن الرياح وقبح الطعم ومرارته».

(٤) في (ب): «وسلکوا سبل الجحيم».

(٥) في (أ): «إلى آخر السورة. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة».

شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا يَقُولُ كَافِرٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَلَّذِكْرُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ .

﴿٣٨ - ٤٣﴾ أقسم تعالى بما يُبَصِّرُ الخلق من جميع الأشياء وما لا يبصرونه، فدخل في ذلك كلُّ الخلق، بل دخل^(١) في ذلك نفسه المقدسة، على صدق الرسول بما جاء به من هذا القرآن الكريم، وأنَّ الرسول الكريم بلغه عن الله تعالى، ونزّه الله رسوله عمّا رماه به أعداؤه من أنه شاعرٌ أو ساحرٌ، وأنَّ الذي حملهم على ذلك عدم إيمانهم وتذكُّرهم؛ فلو آمنوا وتذكَّروا ما ينفعهم ويضرُّهم، ومن ذلك أن ينظروا في حال محمدٍ ﷺ ويرمُقوا أوصافه وأخلاقه لبروا أمراً مثل الشمس يدلُّهم على أنه رسول الله حقّاً وأن ما جاء به ﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾، لا يليقُ أن يكون قولاً للبشر، بل هو كلامٌ دالٌّ على عظمة من تكلم به وجلالة أوصافه وكمال تربيته للخلق^(٢) وعلوه فوق عباده. وأيضاً؛ فإنَّ هذا ظن منهم بما لا يليق بالله وحكمته.

﴿٤٤ - ٤٧﴾ فإنه ﴿لَوْ تَقَوَّلَ﴾: عليه وافترى ﴿بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾: الكاذبة، ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾: وهو عرقٌ متصلٌ بالقلب إذا انقطع هلك^(٣) منه الإنسان؛ فلو قدر أنَّ الرسول - حاشا وكلا - تقوَّل على الله؛ لعاجله بالعقوبة وأخذه أخذٌ عزيزٌ مقتدر؛ لأنَّه حكيمٌ قديرٌ على كلِّ شيءٍ^(٤)؛ فحكمته تقتضي أن لا يُنْهَلَ الكاذب عليه الذي يزعم أنَّ الله أباح له دماء مَنْ خالفه وأموالهم، وأنَّه هو وأتباعه لهم النجاة، ومَنْ خالفه؛ فله الهلاك. فإذا كان الله قد أيدَّ رسوله بالمعجزات، وبرهن على صدق ما جاء به بالآيات البينات، ونصره على أعدائه، ومكَّنه من نواصيهم؛ فهو أكبر شهادة منه على رسالته. وقوله: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾؛ أي: لو أهلكه؛ ما امتنع هو بنفسه ولا قدَّرَ أحدٌ أن يمنعه من عذاب الله. ﴿٤٨﴾ ﴿وَإِنَّهُ﴾؛ أي: القرآن الكريم، ﴿لَلَّذِكْرُ لِلْمُتَّقِينَ﴾: يتذكَّرون به مصالح دينهم ودنياهم، فيعرفونها ويعملون عليها، يذكَّروهم العقائد الدينية والأخلاق المرضية

(١) في (ب): «بل يدخل».

(٢) في (ب): «العبادة».

(٣) في (ب): «مات».

(٤) في (ب): «لأنَّه حكيم. على كلِّ شيءٍ قدير».

والأحكام الشرعية، فيكونون من العلماء الربانيين، والعباد العارفين، والأئمة المهديين.
﴿٤٩﴾ ﴿وَأِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مَكَذِبِينَ﴾: به، وهذا فيه تهديد ووعد للمكذبين،
وأنه^(١) سيعاقبهم على تكذيبهم بالعقوبة البليغة.

﴿٥٠﴾ ﴿وَأِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾: فإنهم لما كفروا به ورأوا ما وعدهم به؛
تحسروا إذ لم يهتدوا به ولم ينقادوا لأمره، ففاتهم الشواب، وحصلوا على أشد
العذاب، وتقطعت بهم الأسباب.

﴿٥١﴾ ﴿وَأِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾؛ أي: أعلى مراتب العلم؛ فإن أعلى مراتب العلم
اليقين، وهو العلم الثابت الذي لا يتزلزل ولا يزول. واليقين مراتبه ثلاثة، كل
واحدة أعلى مما قبلها: أولها علم اليقين، وهو العلم المستفاد من الخبر. ثم عين
اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة البصر. ثم حق اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة
الذوق والمباشرة. وهذا القرآن بهذا الوصف؛ فإن ما فيه من العلوم المؤيدة
بالبراهين القطعية وما فيه من الحقائق والمعارف الإيمانية يحصل به لمن ذاقه حق
اليقين.

﴿٥٢﴾ ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾؛ أي: نزهه عما لا يليق بجلاله، وقُدسه
بذكر أوصاف جلاله وجماله وكماله.

تم تفسير سورة الحاقة. والحمد لله رب العالمين^(٢).



تفسير سورة سأل سائل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ
الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَبِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ
يُرَوَّنُهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَرَنَّهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾.

(١) في (ب): «فإنه».

(٢) في (ب): «والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً على كماله وإفضاله وعدله».

﴿١ - ٤﴾ يقول تعالى مبيناً لجهل المعاندين واستعجالهم لعذاب الله استهزاءً وتعنُّتاً وتعجيزاً: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ أي: دعا داع واستفتح مستفتح، ﴿بعذاب واقع للكافرين﴾: لاستحقاقهم له بكفرهم وعنادهم. ﴿ليس له دافع من الله﴾؛ أي: ليس لهذا العذاب الذي استعجل به مَنْ استعجل من متمردي المشركين أحد يدفعه قبل نزوله أو يرفعه بعد نزوله، وهذا حين دعا النُّضْر بن الحارث القرشي أو غيره من المكذِّبين^(١)، فقال: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ...﴾ [إلى آخر الآيات]؛ فالعذاب لا بدَّ أن يقع عليهم من الله؛ فإمَّا أن يُعَجَّلَ لهم في الدنيا، وإمَّا أن يُدَخَّرَ^(٢) لهم في الآخرة؛ فلو عرفوا الله وعرفوا عظمتهم وسعة سلطانه وكمال أسمائه وصفاته؛ لما استعجلوا، ولا استسلموا وتأدَّبوا، ولهذا ذكر تعالى من عظمتهم ما يضادُّ أقوالهم القبيحة، فقال: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ. تَغْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾؛ أي: ذي العلوِّ والجلال والعظمة والتدبير لسائر الخلق، الذي تَغْرُجُ إليه الملائكة بما جعلها^(٣) على تدبيره، وتَغْرُجُ إليه الرُّوح، وهذا اسم جنس يشمل الأرواح كلها؛ برَّها وفاجرَها، وهذا عند الوفاة، فأما الأبرار؛ فتخرج أرواحهم إلى الله، فيؤذن لهم من سماءٍ إلى سماءٍ، حتى تنتهي إلى السماء التي فيها الله عزَّ وجلَّ، فتحيي ربَّها وتسلم عليه وتحظى بقربه، وتبتهج بالذنو منه، ويحصل لها منه الثناء والإكرام والبرُّ والإعظام، وأما أرواحُ الفجَّار؛ فتخرج، فإذا وصلت إلى السماء؛ استأذنت، فلا^(٤) يؤذن لها، وأعيدت إلى الأرض.

ثم ذكر المسافة التي تَغْرُجُ فيها الملائكة والرُّوح^(٥) إلى الله، وأنها تخرج في يوم بما يسر لها من الأسباب وأعانها عليه من اللطافة والخفة وسرعة السير، مع أنَّ تلك المسافة على السير المعتاد مقدار خمسين ألف سنة، من ابتداء العروج إلى وصولها ما حُدَّ لها، وما تنتهي إليه من الملائكة الأعلى؛ فهذا المُلْك العظيم والعالم الكبير علويُّه وسفليُّه جميعه قد تولَّى خلقه وتدبيره العلويُّ الأعلى، فعلم أحوالهم الظاهرة والباطنة، [وَعَلِمَ] مستقرَّهم ومستودعهم، وأوصلهم من رحمته وبرِّه وإحسانه^(٦) ما عمَّهم وشملهم، وأجرى عليهم حكمه القدريَّ وحكمه الشرعيَّ

(٢) في (ب): «يؤخر».

(٤) في (ب): «فلم يؤذن».

(٦) في (ب): «ورزقه».

(١) في (ب): «المشركين».

(٣) في (ب): «بما دبرها».

(٥) في (ب): «والأرواح».

وحكمه الجزائي؛ فبؤساً لأقوام جهلوا عظمتهم ولم يقدروه حقَّ قدره، فاستعجلوا بالعذاب على وجه التعجيز والامتحان. وسبحان الحليم الذي أمهلهم وما أمهلهم، وأدّوه فصبر عليهم وعافاهم ورزقهم!

هذا أحد الاحتمالات في تفسير هذه الآية الكريمة، فيكون هذا العروج والصعود في الدنيا؛ لأن السباق الأول يدل عليه^(١). ويُحتمل أن هذا في يوم القيامة، وأن الله [تبارك و] تعالى يظهر لعباده في يوم القيامة من عظمتهم وجلاله وكبريائه، ما هو أكبر دليل على معرفته مما يشاهدونه من عروج الأملاك والأرواح، صاعدةً ونازلةً بالتدابير الإلهية والشؤون الربانية^(٢) في ذلك اليوم الذي مقداره خمسين ألف سنة من طوله وشدته، لكن الله تعالى يخففه على المؤمن.

﴿٥ - ٧﴾ وقوله: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾؛ أي: اصبر على دعوتك لقومك صبراً جميلاً، لا تَصْجَرْ فيه ولا ملل، بل استمر على أمر الله، وادع عباده إلى توحيده، ولا يمنعك عنهم ما ترى من عدم انقيادهم وعدم رغبتهم؛ فإن في الصبر على ذلك خيراً كثيراً. ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾: الضمير يعود إلى البعث الذي فيه عذاب السائلين بالعذاب؛ أي: إن حالهم حال المنكر له، والذي غلبت عليه الشفوة والسكره، حتى تباعد جميع ما أمامه من البعث والنشور، والله يراه قريباً؛ لأنه رفيقٌ حليمٌ لا يَعْجَلُ، ويعلم أنه لا بد أن يكون، و[كل] ما هو آتٍ فهو قريب.

ثم ذكر أهوال ذلك اليوم وما [يكون] فيه، فقال:

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ^(٣) ۖ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ^(٤) ۖ وَلَا يَسْتَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا^(٥) ۖ يَصْرُوهُ^(٦) يَوْمَ تَقْدِرُ مِنْ عَذَابٍ يَوْمِي^(٧) بَيْنَهُ^(٨) ۖ وَصَجَّتْهُ^(٩) وَأَخِيهِ^(١٠) ۖ وَفَصَّلَتْهُ^(١١) أَلَّتِي تَوْبَهُ^(١٢) ۖ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ^(١٣) ۖ كَلَّا ۖ إِنَّهَا لَظَى^(١٤) ۖ نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى^(١٥) ۖ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى^(١٦) وَجَمَعَ فَأَوْعَى^(١٧) ۖ﴾.

﴿٨ - ٩﴾ أي: ﴿يوم﴾ القيامة تقع فيه هذه الأمور العظيمة ﴿تكون السماء كالمُهْل﴾: وهو الرصاص المذاب من تشققها وبلوغ الهول منها كل مبلغ، ﴿وتكون الجبال كالعهن﴾: وهو الصوف المنفوش، ثم تكون بعد ذلك هباءً مثوراً فتضمحل.

(١) في (ب): «على هذا».

(٢) في (ب): «والشؤون في الخليقة».

(٣) في (أ): إلى قوله: ﴿وجمع فأوعى﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.

﴿١٠ - ١٤﴾ فإذا كان هذا الانزعاج والقلق^(١) لهذه الأجرام الكبيرة الشديدة؛ فما ظنك بالعبد الضعيف الذي قد أثقل ظهره بالذنوب والأوزار؟! أليس حقيقياً أن ينخلع قلبه و[ينزعج] لبه ويذهل عن كل أحد؟! ولهذا قال: ﴿ولا يسأل حميمٌ حميماً يُبصرونهم﴾؛ أي: يشاهد الحميم - وهو القريب - حميمه؛ فلا يبقى في قلبه متسع لسؤاله^(٢) عن حاله ولا فيما يتعلق بعشرتهم ومودتهم ولا يهتم إلا نفسه. ﴿يود المجرم﴾: الذي حَقَّ عليه العذاب ﴿لو يفتدي من عذاب يومئذٍ ببنيه. وصاحبه﴾؛ أي: زوجته، وأخيه. وفصيلته؛ أي: قرابته، ﴿التي تؤويه﴾؛ أي: التي جرت عاداتها في الدنيا أن تتناصَرَ ويعينَ بعضها بعضاً؛ ففي [يوم] القيامة لا ينفع أحدٌ أحداً، ولا يشفع أحدٌ إلا بإذن الله، بل لو يفتدي المجرم المستحق للعذاب بجميع ما في الأرض ثم ينجيه ذلك؛ لم ينفعه^(٣).

﴿١٥ - ١٨﴾ ﴿كلًّا﴾؛ أي: لا حيلة ولا مناص لهم، قد حَقَّت عليهم كلمة ربك^(٤)، وذهب نفع الأقارب والأصدقاء، ﴿إنها لظى. نزاعة للشوى﴾؛ أي: النار التي تتلظى تنزع من شدتها للأعضاء الظاهرة والباطنة^(٥)، ﴿تدعو﴾: إلى نفسها^(٦) ﴿من أذبر وتولى. وجمع فأوعى﴾؛ أي: أدبر عن اتباع الحق، وأعرض عنه؛ فلا غرض له فيه^(٧)، وجمع الأموال بعضها فوق بعض، وأوعاها فلم ينفق منها ما ينفعه ويدفع عنه النار؛ فالتار تدعو هؤلاء إلى نفسها^(٨)، وتستعدُّ للالتهاب بهم.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾^(٩) ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾^(١٠) ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾^(١١) ﴿إِلَّا الْمَصْلِينَ﴾^(١٢) ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾^(١٣) ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾^(١٤) ﴿لِلسَّائِلِ وَالْمَرْغُورِ﴾^(١٥) ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيْرَ الَّذِينَ﴾^(١٦) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾^(١٧) ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾^(١٨) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾^(١٩) ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ

(١) في (ب): «القلق والانزعاج». (٢) في (ب): «السؤال حميمه».

(٣) في (ب): «ثم ينجيه، لم ينفعه ذلك».

(٤) في (ب): «قد حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون».

(٥) في (ب): «أي للأعضاء الظاهرة والباطنة من شدة عذابها».

(٦) في (ب): «تدعو إليها». (٧) في (ب): «فليس له فيه غرض».

(٨) في (ب): «فإن النار تدعوهم إلى نفسها».

(٩) في (أ): «إلى قوله: ﴿في جنات مكرمون﴾. وفي (ب): ذكر الآيات».

مَلُومِينَ ﴿٢٠﴾ فَمِنْ أَيْنَ وَرَّاهُ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٢٤﴾ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَّمُونَ ﴿٢٥﴾ .

﴿١٩ - ٢١﴾ وهذا الوصف للإنسان من حيث هو؛ ووَصَفَ طَبِيعَتَهُ [الأصلية] أنه هُلُوعٌ، وفسر الهُلُوعُ بقوله^(١): ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً﴾: فيجزع إن أصابه فقرٌ أو مرضٌ أو ذهابٌ محبوبٌ له من مالٍ أو أهلٍ أو وليدٍ، ولا يستعمل في ذلك الصبر والرضا بما قضى الله، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾: فلا يُنْفِقُ مما آتاه الله، ولا يشكر الله على نعمه وبرّه فيجزع في الضراء ويمنع في السراء.

﴿٢٢ - ٢٣﴾ ﴿لَا الْمَصْلُينَ﴾: الموصوفين بتلك الأوصاف؛ فإنهم إذا مسَّهم الخير؛ شكروا الله وأنفقوا مما خولهم [الله]، وإذا مسَّهم الشرُّ؛ صبروا واحتسبوا. وقوله في وصفهم: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾؛ أي: مداومون عليها في أوقاتها بشروطها ومكملاتها، وليسوا كمن لا يفعلها، أو يفعلها وقتاً دون وقتٍ، أو يفعلها على وجه ناقص.

﴿٢٤ - ٢٥﴾ ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾: من زكاة وصدقة، ﴿لِلسَّائِلِ﴾: الذي يتعرَّض للسؤال، ﴿وَالْمَحْرُومِ﴾: وهو المسكين الذي لا يسأل الناس فيعطوه ولا يفتن له فيتصدق عليه.

﴿٢٦﴾ ﴿وَالَّذِينَ يَصَّدَّقُونَ يَوْمَ الدِّينِ﴾؛ أي: يؤمنون بما أخبر به وأخبرت به الرسل من الجزاء والبعث، ويتيقنون ذلك، فيستعدُّون للآخرة، ويسعون لها سعيها. والتصديق بيوم الدين يلزم منه التصديق بالرسول وبما جاؤوا به من الكتب.

﴿٢٧ - ٢٨﴾ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾؛ أي: خائفون وجلون، فيتركون لذلك كلَّ ما يقربهم من عذاب الله. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾؛ أي: هو العذاب الذي يُخْشَى ويُحْذَرُ.

﴿٢٩ - ٣١﴾ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾: فلا يطؤون بها وطئاً محرماً من زنا أو لواطٍ أو وطءٍ في دُبُرٍ أو حيضٍ ونحو ذلك، ويحفظونها أيضاً من النظر إليها ومسّها ممَّن لا يجوز له ذلك، ويتركون أيضاً وسائل المحرّمات الداعية لفعل الفاحشة، ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾؛ أي: سرّيّاتهم، ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ

ملومين﴿: في وطنهنّ في المحلّ الذي هو محلّ الحرث. ﴿فمن ابتغى وراء ذلك﴾؛ أي: غير الزوجة وملك اليمين، ﴿فأولئك هم العادون﴾؛ أي: المتجاوزون ما أحل الله إلى ما حرم الله. ودلّت هذه الآية على تحريم نكاح المتعة؛ لكونها غير زوجة مقصودة ولا ملك يمين.

﴿٣٢﴾ ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾؛ أي: مراعون لها حافظون مجتهدون على أدائها والوفاء بها، وهذا شامل لجميع الأمانات التي بين العبد وبين ربّه؛ كالتكليف السريّة التي لا يطلع عليها إلا الله، والأمانات التي بين العبد وبين الخلق في الأموال والأسرار، وكذلك العهد شامل للعهد الذي عاهد عليه الله، والعهد الذي عاهد الخلق عليه^(١)؛ فإنّ العهد يُسأل عنه العبد؛ هل قام به ووفّاه أم رفضه وخانه فلم يقم به.

﴿٣٣﴾ ﴿والذين هم بشهادتهم قائمون﴾؛ أي: لا يشهدون إلا بما يعلمونه من غير زيادة ولا نقص ولا كتمان، ولا يحابي فيها قريباً ولا^(٢) صديقاً ونحوه، ويكون القصد بإقامتها^(٣) وجه الله؛ قال تعالى: ﴿وأقيموا الشهادة لله﴾، ﴿يا أيّها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾. ﴿٣٤﴾ ﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون﴾: بالمداومة عليها على أكمل الوجوه^(٤).

﴿٣٥﴾ ﴿أولئك﴾؛ أي: الموصفون بتلك الصفات، ﴿في جنات مكرمون﴾؛ أي: قد أوصل الله لهم من الكرامة والنعيم المقيم، ما تشتهيهِ الأنفس، وتلذّ الأعين، وهم فيها خالدون.

وحاصل هذا أنّ الله وصف أهل السعادة والخير بهذه الأوصاف الكاملة والأخلاق المرضيّة الفاضلة من العبادات البدنيّة؛ كالصلاة والمداومة عليها، والأعمال القلبية؛ كخشية الله الداعية لكلّ خير، والعبادات الماليّة، والعقائد النافعة، والأخلاق الفاضلة؛ ومعاملة الله ومعاملة خلقه أحسن معاملة؛ من إنصافهم وحفظ حقوقهم وأماناتهم^(٥) والعفة التامة بحفظ الفروج عمّا يكرهه الله تعالى.

(١) في (ب): «عليه الخلق».

(٢) في (ب): «أو».

(٣) في (ب): «بها».

(٤) في (ب): «بمداومتها على أكمل وجوها».

(٥) في (ب): «وحفظ عهودهم وأسرارهم».

﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِكَ مُهْطِينَ^(١)﴾ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيْطَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةً نَّعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ .

﴿٣٦ - ٣٩﴾ يقول تعالى مبيناً اغترار الكافرين: ﴿فمال الذين كفروا قبلك مهطعين﴾؛ أي: مسرعين، ﴿عن اليمين وعن الشمال عزين﴾؛ أي: قطعاً متفرقة وجماعات متنوعة^(٢)، كل منهم بما لديه فرح. ﴿أيطع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم﴾؛ أي^(٣) سبب أطمعهم وهم لم يقدموا سوى الكفر والجحود لرب^(٤) العالمين؟! ولهذا قال: ﴿كلاً﴾: أي: ليس الأمر بأمانيتهم ولا إدراك ما يشتهون بقوتهم، ﴿إنا خلقناهم مما يعلمون﴾؛ أي: من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب؛ فهم ضعفاء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

﴿فَلَا أَقِمْ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ^(٥)﴾ (٤٠) إِنَّا لَقَدِرُونَ ﴿٤١﴾ عَلَى أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤٢﴾ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْنَاثِ سِرَّاءَ كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٤﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذُلُّ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٥﴾ .

﴿٤٠ - ٤١﴾ هذا إقسام منه تعالى بالمشارق والمغارب للشمس والقمر والكواكب؛ لما فيها من الآيات الباهرات على البعث وقدرته على تبديل أمثالهم وهم بأعيانهم؛ كما قال تعالى: ﴿وننشئكم فيما لا تعلمون﴾. ﴿وما نحن بمسبوقين﴾؛ أي: ما أحد يسبقنا ويفوتنا ويعجزنا إذا أردنا أن نعيده.

﴿٤٢﴾ فإذا تقرر البعث والجزاء، واستمروا على تكذيبهم وعدم انقيادهم لآيات الله؛ ﴿فذَرَهُمْ يَخُوضُوا ويلعبوا﴾؛ أي: يخوضوا بالأقوال الباطلة والعقائد الفاسدة، ويلعبوا بدينهم، ويأكلوا ويشربوا ويتمتعوا، ﴿حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾: فإن الله قد أعد لهم فيه من النكال والوبال ما هو عاقبة خوضهم ولعبهم.

﴿٤٣ - ٤٤﴾ ثم ذكر حال الخلق حين يلاقون اليوم الذي يوعدون، فقال: ﴿يوم

(١) في (أ): إلى قوله: ﴿كلاً إنا خلقناهم مما يعلمون﴾: وفي (ب) ذكر الآيات.

(٢) في (ب): «متوزعة». (٣) في (ب): «بأي».

(٤) في (ب): «برب».

(٥) في (أ): طمس، وفي (ب) ذكر الآيات إلى آخر السورة.

يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ؛ أَي: القبور ﴿سراعاً﴾: مجيبين لدعوة الداعي مهطعين إليها، ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾؛ أَي: كأنهم إلى علم يؤثون ويقصدون؛ فلا^(١) يتمكنون من الاستعصاء على الداعي ولا الالتواء عن نداء المنادي^(٢)، بل يأتون أذلاء مقهورين للقيام بين يدي رب العالمين، ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُقُهُمْ ذُلَّةٌ﴾: وذلك أَنَّ الذُّلَّةَ والقلق قد ملك قلوبهم، واستولى على أفئدتهم، فخشعت منهم الأبصار، وسكنت [منهم] الحركات، وانقطعت الأصوات. فهذه الحال والمآل هو يومهم ﴿الذي كانوا يوعدون﴾: ولا بد من الوفاء بوعد الله. تمت. والحمد لله.

تفسير سورة نوح عليه السلام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ^(١) مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(٢)﴾ قَالَ يَقُولُونَ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ^(٣) أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا^(٤) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ^(٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا^(٦) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا^(٧) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا فِيءَآذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا شِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا^(٨) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا^(٩) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا^(١٠) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ كَانُمْ عَنْكَ فَارًا^(١١) وَتَتَذَكَّرُ بِأَمْرِي وَبَيْنَ وَجْهِكَ لَكَ جَنَّتٌ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا^(١٢) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا^(١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا^(١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا^(١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا^(١٦) وَاللَّهُ أَلْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ بِأَنَّا^(١٧) ثُمَّ يُبْدِكُمْ فِيهَا وَيَخْرِجَكُمْ إِخْرَاجًا^(١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا^(١٩) لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا^(٢٠) قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي

(١) في (ب): «أَي: يؤمرون ويسرعون؛ أَي: فلا».

(٢) في (ب): «والالتواء لنداء المنادي».

(٣) في (أ): طمس، وفي (ب) إلى آخر السورة.

وَاتَّبِعُوا مَن لَّرَ بَزْدُهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكْرُؤًا مَّكَرًا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا نَدْرَنَ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا نَدْرَنَ وَدًّا وَلَا سَوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِمَّا خَطَبْتَنَّهُمْ أَغْرِقُوا فَأَدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْآرِضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يَضْلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَارًا ﴿٢٨﴾ .

لم يذكر الله في هذه السورة إلا^(١) قصّة نوح وحدها؛ لطول لَبْنِهِ في قومه وتكرار دعوته إلى التوحيد ونهيه عن الشرك:

﴿١﴾ فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَرْسَلَ نُوحًا^(٢) إِلَى قَوْمِهِ رَحْمَةً بِهِمْ وَإِنْذَارًا [لَهُمْ] مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ؛ خَوْفًا مِنْ اسْتِمْرَارِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ، فَيَهْلِكُهُمْ [اللَّهُ] هَلَاكًا أَبَدِيًّا، وَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا سَرْمَدِيًّا.

﴿٢ - ٤﴾ فَامْتَثَلَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَذَلِكَ، وَابْتَدَرَ لِأَمْرِ اللَّهِ، فَقَالَ: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أَي: وَاضِحُ النَّذَارَةِ بَيْنَهَا، وَذَلِكَ لِتَوْضِيحِهِ مَا أَنْذَرَ بِهِ وَمَا أَنْذَرَ عَنْهُ، وَيَأْتِي شَيْءٌ تَحْصُلُ النِّجَاةُ؛ بَيِّنَ ذَلِكَ^(٣) بَيَانًا شَافِيًّا، فَأَخْبَرَهُمْ وَأَمَرَهُمْ بِأَصْلِ ذَلِكَ^(٤)، فَقَالَ: ﴿إِنْ عِبَدُوا اللَّهَ وَاتَّقَوْهُ﴾: وَذَلِكَ بِإِفْرَادِهِ تَعَالَى بِالْعِبَادَةِ وَالتَّوْحِيدِ^(٥) وَالبعد عن الشرك وطرقه ووسائله؛ فَإِنَّهُمْ إِذَا اتَّقَوْا اللَّهَ؛ غَفَرَ ذُنُوبَهُمْ؛ وَإِذَا غَفَرَ ذُنُوبَهُمْ، حَصَلَ لَهُمُ النِّجَاةُ مِنَ الْعَذَابِ وَالْفَوْزُ بِالشَّوَابِ، ﴿وَيُؤْخِرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أَي: يَمْتَنِعْكُمْ فِي هَذِهِ الدَّارِ وَيُدْفِعْ عَنْكُمْ الْهَلَاكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى؛ أَي: مُقَدَّرَ الْبَقَاءِ فِي الدُّنْيَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ إِلَى وَقْتٍ مُّحْدُودٍ، وَلَيْسَ الْمَتَاعُ أَبَدًا؛ فَإِنَّ الْمَوْتَ لَا بَدَّ مِنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: كَمَا^(٦) كَفَرْتُمْ بِاللَّهِ وَعَانَدْتُمْ الْحَقَّ.

﴿٥ - ٧﴾ فَلَمْ يَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ، وَلَا انْقَادُوا لِأَمْرِهِ، فَقَالَ شَاكِيًا لِّرَبِّهِ: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا. فَلَمْ يَزِدْهُمْ دَعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾؛ أَي: نَفُورًا عَنِ الْحَقِّ

(١) فِي (ب): «سُورَى».

(٢) فِي (ب): «أَنَّهُ أَرْسَلَهُ».

(٣) فِي (ب): «بَيْنَ جَمِيعِ ذَلِكَ».

(٤) فِي (ب): «وَأَمَرَهُمْ بِبَزْدَةِ مَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ».

(٥) فِي (ب): «بِالتَّوْحِيدِ وَالْعِبَادَةِ».

(٦) فِي (ب): «لَمَّا».

وإعراضاً، فلم يبق لذلك فائدة؛ لأنَّ فائدة الدَّعوة أن يحصل جميع المقصود أو بعضه، ﴿وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم﴾؛ أي: لأجل أن يستجيبوا؛ فإذا استجابوا؛ غفرت لهم، وهذا^(١) محض مصلحتهم، ولكن^(٢) أبوا إلا تمادياً على باطلهم ونفوراً عن الحق، ﴿جعلوا أصابعهم في آذانهم﴾؛ حَذَرَ سماع ما يقول لهم نبيُّهم نوحٌ عليه السلام، ﴿واستغشوا ثيابهم﴾؛ أي: تغطوا بها غطاءً يخشاهم بعداً عن الحق وبغضاً له، ﴿وأصروا﴾: على كفرهم وشُرِّهم، ﴿واستكبروا﴾: على الحق ﴿استكباراً﴾: فشرهم ازداد وخيرهم بعد.

﴿٨ - ٩﴾ ثم إني دعوتهم جهاراً؛ أي: بمسمع منهم كلهم، ﴿ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً﴾: كل هذا حرصٌ ونصحٌ، وإتيانهم بكلِّ طريق يظنُّ به حصول المقصود^(٣).

﴿١٠ - ١٢﴾ ﴿فقلت استغفروا ربكم﴾؛ أي: اتركوا ما أنتم عليه من الذنوب واستغفروا الله منها؛ ﴿إنَّه كان غفاراً﴾: كثير المغفرة لمن تاب واستغفر، فرغَّبهم بمغفرة الذنوب وما يترتب عليها من الثواب واندفاع العقاب، ورغَّبهم أيضاً بخير الدنيا العاجل، فقال: ﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾؛ أي: مطراً متتابعاً يروي الشعاب والوهاد، ويحيي البلاد والعباد، ﴿ويُمِدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾؛ أي: يكثر أموالكم التي تدركون بها ما تطلبون من الدنيا وأولادكم، ﴿ويجعل لكم جناتٍ ويجعل لكم أنهاراً﴾: وهذا من أبلغ ما يكون من لَذَاتِ الدنيا ومطالبها.

﴿١٣ - ١٤﴾ ﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾؛ أي: لا تخافون لله عظمةً وليس لله عندكم قَدْرٌ، ﴿وقد خَلَقَكُمْ أطواراً﴾؛ أي: خلقاً من بعد خلقٍ في بطن الأم ثم في الرضاع ثم في سنِّ الطفوليَّة ثم التمييز ثم الشباب ثم إلى آخر ما يصل^(٤) إليه الخلق؛ فالذي انفرد بالخلق والتدبير البديع متعيَّن أن يُفَرَّدَ بالعبادة والتوحيد، وفي ذكر ابتداء خلقهم تنبيهٌ لهم على المعاد^(٥)، وأنَّ الذي أنشأهم من العدم قادرٌ على أن يعيدهم بعد موتهم.

﴿١٥ - ١٦﴾ واستدلَّ أيضاً^(٦) بخلق السماوات التي هي أكبر من خلق الناس،

(١) في (ب): «فكان هذا».

(٢) في (ب): «وإتيانهم بكل باب يظن أن يحصل منه المقصود».

(٣) في (ب): «وصل».

(٤) في (ب): «تنبيه لهم على الإقرار بالمعاد».

(٥) في (ب): «واستدلَّ أيضاً عليهم».

فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾؛ أي: كل سماءٍ فوق الأخرى، ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾: لأهل الأرض، ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾: ففيه تنبيهٌ على عظم خلق هذه الأشياء، وكثرة المنافع في الشمس والقمر، الدالة على رحمة الله^(١) وسعة إحسانه؛ فالعظيم الرحيم يستحق أن يعظم ويحب^(٢) ويخاف ويرجى.

﴿١٧ - ١٨﴾ ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾: حين خلق أباكم آدم وأنتم في صلبه، ﴿ثُمَّ يَعِيدُكُمْ فِيهَا﴾: عند الموت، ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾: للبعث والنشور؛ فهو الذي يملك الحياة والموت والنشور.

﴿١٩ - ٢٠﴾ ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بَسَاطًا﴾؛ أي: مبسوطةً مهيئةً للانتفاع بها، ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾: فلولا أنه بسطها؛ لما أمكن ذلك، بل ولا أمكنهم حرثها وغرسها وزرعها والبناء والسكون على ظهرها.

﴿٢١ - ٢٤﴾ ﴿قَالَ نُوحٌ﴾: شاكيًا لربه: إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ وَالْوَعْدَ وَالتَّذْكَيرَ مَا نَجَّعَ فِيهِمْ وَلَا أَفَادَ: ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾: فيما أمرتهم به، ﴿وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خُسَارًا﴾؛ أي: عصوا الرسول الناصح الدال على الخير، واتبعوا الملاء والأشراف الذين لم تزد لهم أموالهم ولا أولادهم إلا خسارًا؛ أي: هلاكًا وتفويتًا للأرباح؛ فكيف يَمَنُّ انقَادَ لَهُمْ وَأَطَاعَهُمْ؟! ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا كِبَارًا﴾؛ أي: مكرًا كبيرًا بليغًا في معاندة الحق. قالوا لهم داعين إلى الشرك مزينين له: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾: فدعوهم إلى التعصّب على ما هم عليه من الشرك، وأن لا يدعوا ما عليه آبائهم الأقدمون، ثم عَيَّنُوا آلِهَتَهُمْ، فقالوا: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾: وهذه أسماء رجال صالحين؛ لما ماتوا؛ زَيَّنَ الشَّيْطَانُ لِقَوْمِهِمْ أَنْ يَصُورُوا صُورَهُمْ؛ لينشطوا بزعمهم على الطاعة إذا رأوها، ثم طال الأمد، وجاء غير أولئك، فقال لهم الشيطان: إِنَّ أَسْلَافَكُمْ يَعْبُدُونَهُمْ وَيَتَوَسَّلُونَ بِهِمْ، وَبِهِمْ يُسْقَوْنَ الْمَطَرُ، فَعْبُدُوهُمْ، وَلِهَذَا وَصَّى رُؤَسَاؤُهُمْ لِلتَّابِعِينَ لَهُمْ أَنْ لَا يَدْعُوا عِبَادَةَ هَذِهِ الْأَصْنَامِ^(٣)، ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾؛ أي: أضلّ الكبار والرؤساء بدعوتهم كثيرًا من الخلق. ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾؛ أي: لو كان ضلالهم عند دعوتي إياهم للحق^(٤)؛ لكان مصلحةً، ولكن لا يزدون بدعوة الرؤساء إِلَّا ضلالًا؛ أي: فلم يبق محلٌّ لنجاحهم وصلاحهم.

(١) في (ب): «على رحمته».

(٢) في (ب): «ويحب ويعبد ويخاف...».

(٤) في (ب): «بحق».

(٣) في (ب): «الآلهة».

﴿٢٥﴾ ولَهَذَا ذِكْرُ اللَّهِ عَذَابُهُمْ وَعَقوبَتُهُمُ الدُّنْيَوِيَّةُ وَالْآخِرَوِيَّةُ، فَقَالَ: ﴿مَمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾: فِي الْيَمِّ الَّذِي أَحَاطَ بِهِمْ، ﴿فَأَدْخِلُوا نَاراً﴾: فَذَهَبَتْ أَجْسَادُهُمْ فِي الْغُرُقِ وَأَرْوَاهُمْ لِلنَّارِ وَالْحَرَقِ. وَهَذَا كُلُّهُ بِسَبَبِ خَطِيئَاتِهِمُ الَّتِي أَتَاهُمْ نَبِيُّهُمْ [نُوحٌ] يَنْذِرُهُمْ عَنْهَا وَيُخَيِّرُهُمْ بِشَوْمِهَا وَمَغْبِتِهَا، فَرَفَضُوا مَا قَالَ، حَتَّى حُلَّ بِهِمُ الثَّكَالُ، ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً﴾: يَنْصُرُونَهُمْ حِينَ نَزَلَ بِهِمُ الْأَمْرُ، وَلَا أَحَدٌ يَقْدِرُ يِعَارِضُ الْقَضَاءَ وَالْقَدَرَ.

﴿٢٦ - ٢٧﴾ ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾: يَدُورُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ. وَذَكَرَ السَّبَبَ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاغْراً كُفَّاراً﴾؛ أَي: بِقَاوُضِهِمْ مَفْسُدةً مُحَضَّةً لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ، وَإِنَّمَا قَالَ نُوحٌ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ مَعَ كَثْرَةِ مَخَالَطَتِهِ إِيَّاهُمْ وَمَزَاوَلَتِهِ لِأَخْلَاقِهِمْ؛ عَلِمَ بِذَلِكَ نَتِيجَةَ أَعْمَالِهِمْ؛ فَلِهَذَا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ دَعْوَتُهُ^(١) فَأَغْرَقَهُمْ أَجْمَعِينَ، وَنَجَّى نُوحاً وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

﴿٢٨﴾ ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً﴾: خَصَّ الْمَذْكُورِينَ لِتَأَكُّدِ حَقِّهِمْ وَتَقْدِيمِ بَرِّهِمْ، ثُمَّ عَمَّمَ الدُّعَاءَ، فَقَالَ: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً﴾؛ أَي: خَسَاراً وَدَمَاراً وَهَلَاكاً.

تم تفسير سورة نوح. والحمد لله^(٢).



تفسير سورة قل أوحى إلي

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝﴾.

﴿١﴾ أَي: ﴿قُلْ﴾: يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لِلنَّاسِ، ﴿أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾: صَرَفَهُمُ اللَّهُ إِلَى رُسُولِهِ لِسَمَاعِ آيَاتِهِ؛ لِتَقْوَمَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ وَتَتِمَّ عَلَيْهِمُ

(١) فِي (ب): «لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ اسْتَجَابَ دَعْوَتَهُ».

(٢) فِي (ب): «تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ».

النعمة ويكونوا منذرين^(١) لقومهم، وأمر [الله] رسوله أن يقصّ نبأهم على الناس، وذلك أنهم لما حضروه؛ قالوا: أنصتوا، فلما أنصتوا؛ فهموا معانيه ووصلت حقائقه إلى قلوبهم. ﴿فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً﴾؛ أي: من العجائب الغالية والمطالب العالية.

﴿٢﴾ ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾: والرُّشدُ: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يرشد الناس إلى مصالح دينهم ودنياهم، ﴿فَأَمَّا بِهِ وَلِن تُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾: فجمعوا بين الإيمان الذي يدخل فيه جميع أعمال الخير، وبين التَّقوى المتضمنة لترك الشرِّ، وجعلوا السبب الداعي لهم إلى الإيمان وتوابعه ما علموه من إرشادات القرآن، وما اشتمل عليه من المصالح والفوائد واجتناب المضار؛ فإنَّ ذلك آيةٌ عظيمةٌ وحجَّةٌ قاطعةٌ لمن استنار به واهتدى بهديه، وهذا الإيمان النافع المثمر لكلِّ خير، المبنِي على هداية القرآن؛ بخلاف إيمان العوائد والمزبى والإلف ونحو ذلك؛ فإنه إيمان تقليد تحت خطر الشبهات والعوارض الكثيرة.

[﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ ﴿٤﴾] ^(٢).

﴿٣﴾ ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾؛ أي: تعالت عظمته وتقدَّست أسماؤه، ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾: فعلموا من جدِّ الله وعظمته ما دلَّهم على بطلان مَنْ يزعم أنَّ له صاحبةً أو ولداً؛ لأنَّ له العظمة والجلال ^(٣) في كلِّ صفة كمال، واتَّخَذَ الصاحبة والولد ينافي ذلك؛ لأنَّه يضادُّ كمال الغنى.

﴿٤﴾ ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾؛ أي: قولاً جائراً عن الصواب متعدياً للحدِّ، وما حمله على ذلك إلَّا سفههُ وضعفُ عقله، وإلَّا؛ فلو كان رزينا مطمئناً؛ لعرف كيف يقول.

﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ﴿٥﴾.

﴿٥﴾ أي: كنَّا مغترِّين قبل ذلك، غرَّتنا السادة ^(٤) والرؤساء من الجنِّ والإنس، فأحسنَّا بهم الظنَّ، وحسبناهم ^(٥) لا يتجرؤون على الكذب على الله؛ فلذلك كنَّا

(٢) الآيات زيادة لا توجد في النسختين.

(٤) في (ب): «غرنا القادة...».

(١) في (ب): «نذاراً».

(٣) في (ب): «الكمال».

(٥) في (ب): «وظنناهم».

قبل ذلك على طريقهم؛ فاليوم إذ بان لنا الحق؛ سلكنا طريقه^(١)، وانقذنا له، ولم نبالي بقول أحد من الخلق^(٢) يعارض الهدى.

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يُؤْذُونَ رِجَالًا مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (١).

﴿٦﴾ أي: كان الإنس يعوذون بالجن^(٣) عند المخاوف والأفزع ويعبدونهم، فزاد الإنس الجن رهقاً؛ أي: طغياناً وتكبراً، لما رأوا الإنس يعبدونهم ويستعيذون بهم، ويحتمل أن الضمير وهي الواو ترجع^(٤) إلى «الجن»؛ أي: زاد الجن الإنس ذُعراً وتخويفاً لما رأوهم يستعيذون بهم ليلجئوهم إلى الاستعاذة بهم والتمسك بما هم عليه، فكان الإنسي إذا نزل بوايد مخوف؛ قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ (٧).

﴿٧﴾ أي: فلما أنكروا البعث؛ أقدموا على الشرك والطغيان.

[﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَهَا مِثْلَ ثَرَسٍ شَدِيدٍ وَشُهْبًا﴾ (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدَ لِّلسَّمِيعِ فَمَن يَسْمَعُ آلَانَ يَجِدْ لَهَا شُهَابًا رَّصَدًا﴾ (٩)]^(٥).

﴿٨ - ٩﴾ ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾؛ أي: أتيناه واختبرناها، ﴿فَوَجَدْنَاهَا مِثْلَ ثَرَسٍ شَدِيدٍ﴾: عن الوصول إلى أرجائها والدنو منها، ﴿وشُهْبًا﴾: يرمى بها من استرق السمع، وهذا مخالف لعادتنا^(٦) الأولى؛ فإننا كنا نتمكّن من الوصول إلى خبر السماء فإننا ﴿كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِّلسَّمِيعِ﴾: فتلقّف من أخبار السماء ما شاء الله، ﴿فَمَن يَسْمَعُ آلَانَ يَجِدْ لَهَا شُهَابًا رَّصَدًا﴾؛ أي: مرصداً له معدداً لإتلافه وإحراقه؛ أي: وهذا له شأن عظيم ونبأ جسيم، وجزموا أن الله تعالى أراد أن يحدث في الأرض حادثاً كبيراً من خير أو شر؛ فلهذا قالوا:

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ (١٠).

(١) في (ب): «إذ بان لنا الحق؛ رجعنا إليه...».

(٢) في (ب): «من الناس».

(٣) في (ب): «يعبدون الجن ويستعيذون بهم».

(٤) في (ب): «ويحتمل أن الضمير في (زادوهم) يرجع إلى الجن، ضمير الواو».

(٥) الآيات زيادة لا توجد في النسختين. (٦) في (ب): «وهذا بخلاف عادتنا».

﴿١٠﴾ أي: لا بد من هذا أو هذا؛ لأنهم رأوا الأمر تغير عليهم تغيراً أنكروه، فعرفوا بفطنتهم أن هذا الأمر يريد الله ويحدثه في الأرض، وفي هذا بيان لأدبهم إذ أضافوا الخير إلى الله تعالى، والشر حذفوا فاعله تأدباً [مع الله].

[﴿وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَائِفًا قَدْ دَا﴾] (١١) [١].

﴿١١﴾ ﴿وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾؛ أي: فساق وفجار وكفار، ﴿كُنَّا طَائِفًا قَدْ دَا﴾؛ أي: فرقاً متنوعةً وأهواءً متفرقة؛ كل حزب بما لديهم فرحون.

﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾.

﴿١٢﴾ أي: وأنا في وقتنا الآن تبين لنا كمال قدرة الله وكمال عجزنا، وأن نواصينا بيد الله؛ فلن نعجزه في الأرض ولن نعجزه إن هربنا وسعينا بأسباب الفرار والخروج عن قدرته، لا ملجأ منه إلا إليه.

[﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾] (١٣) ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾] (١٤) [٢].

﴿١٣﴾ ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى﴾: وهو القرآن الكريم الهادي إلى الصراط المستقيم، وعرفنا هدايته وإرشاده؛ أثر في قلوبنا، فآمنّا به، ثم ذكروا ما يرغب المؤمن، فقالوا: ﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾؛ أي: من آمن به إيماناً صادقاً؛ فلا عليه نقص^(٣) ولا أذى يلحقه، وإذا سلّم من الشر؛ حصل له الخير؛ فالإيمان سبب داع إلى [حصول] كل خير وانتفاء كل شر.

﴿١٤﴾ ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾؛ أي: الجائرون العادلون عن الصراط المستقيم، ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾؛ أي: أصابوا طريق الرشد الموصل لهم إلى الجنة ونعيمها.

﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾] (١٥) [وَأَلَّوْا اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لِأَسْفَيْنَتِهِمْ مَلَهُ عَذَابًا لَنُفِيقَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾] (١٦) [٢].

(١) الآية زيادة لا توجد في النسختين.

(٢) الآيات زيادة لا توجد في النسختين.

(٣) في (ب): «فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ» إيماناً صادقاً ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾؛ أي: لا نقصاً ولا طغياناً.

﴿١٥ - ١٧﴾ ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾: وذلك جزاء على أعمالهم، لا ظلم من الله لهم، فإنَّهم ﴿لو استقاموا على الطريقة﴾: المثلى، ﴿لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾؛ أي: هنيئاً مريئاً، ولم يمنعهم ذلك إلا ظلمهم وعدوانهم، ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾؛ أي: لنختبرهم [فيه] ونمتحنهم ليظهر الصادق من الكاذب، ﴿ومن يعرض عن ذكر ربِّه يسئلكه عذاباً صَعَدًا﴾؛ أي: من أعرض عن ذكر الله الذي هو كتابه، فلم يتَّبعه وينقذ له، بل لها عنه وغفل؛ ﴿يَسْأَلُكَ عَذَاباً صَعَدًا﴾؛ أي: بليغاً شديداً^(٢).

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ ﴿١٨﴾ [وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا] ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَقِصْ اللَّهُ رَسُولَهُ فَلَنْ لَمْ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرَيْتَ أَقْرَبَ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَمْ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَلِيمٌ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾] ﴿٣﴾.

﴿١٨﴾ ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾؛ أي: لا دعاء عبادة ولا دعاء مسألة؛ فإنَّ المساجد التي هي أعظم محالَّ العبادة مبنية على الإخلاص لله والخضوع لعظمته والاستكانة لعزَّته.

﴿١٩﴾ ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾؛ أي: يسأله ويتعبَّد له ويقرأ القرآن كاد الجنُّ من تكاثُرهم عليه، ﴿يَكُونُونَ^(٤) عليه لِبَدًا﴾؛ أي: متلبِّدين متراكمين حرصاً على [سماع] ما جاء به من الهدى.

﴿٢٠﴾ ﴿قُلْ﴾: لهم يا أيُّها الرسول، مبيناً حقيقة ما تدعو إليه: ﴿إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾؛ أي: أوحدَه وحده لا شريك له، وأخلع ما دونه من الأنداد والأوثان، وكلُّ ما يتَّخذه المشركون من دونه.

(١) في (ب): «بل غفل عنه ولها».

(٢) في (ب): «شديداً بليغاً».

(٤) في (ب): «أن يكونوا».

(٣) الآيات زيادة لا توجد في النسختين.

﴿٢١ - ٢٢﴾ ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾: فَإِنِّي عَبْدٌ لِّسَ لِي مِنَ الْأَمْرِ وَالتَّصَرُّفِ شَيْءٌ^(١)، ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾؛ أَي: لَا أَحَدٌ أَسْتَجِيرُ بِهِ يَنْقُذُنِي مِنَ عَذَابِ اللَّهِ، وَإِذَا كَانَ الرَّسُولُ الَّذِي هُوَ أَكْمَلُ الْخَلْقِ لَا يَمْلِكُ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا وَلَا يَمْنَعُ نَفْسَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَهُ بِسُوءٍ؛ فَغَيْرُهُ مِنَ الْخَلْقِ مِنْ بَابِ أَوْلَى وَأُخْرَى، ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾؛ أَي: مُلْجَأً وَمُنْتَصِرًا.

﴿٢٣﴾ ﴿إِلَّا بِلَاغٍ مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾؛ أَي: لَيْسَ لِي مَزِيَّةٌ عَلَى النَّاسِ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ خَصَّنِي بِبِلَاغِ رِسَالَاتِهِ وَدَعْوَةِ خَلْقِهِ إِلَيْهِ^(٢)، وَبِذَلِكَ تَقُومُ الْحُجَّةُ عَلَى النَّاسِ، ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾: وَهَذَا الْمُرَادُ بِهِ الْمَعْصِيَةُ الْكُفْرِيَّةُ كَمَا قَيَّدَتْهَا التَّصَوُّصُ الْآخِرُ الْمَحْكَمَةُ، وَأَمَّا مُجَرَّدُ الْمَعْصِيَةِ؛ فَإِنَّهُ لَا يُوْجِبُ الْخُلُودَ فِي النَّارِ؛ كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَالْأَحَادِيثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأُئِمَّةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

﴿٢٤﴾ ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾؛ أَي: شَاهَدُوهُ عَيَانًا وَجَزَمُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ، ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾: فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ حَقِيقَةُ الْمَعْرِفَةِ، ﴿مَنْ أَوْفَى نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾: حِينَ لَا يَنْصَرُهُمْ غَيْرُهُمْ، وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْتَصِرُونَ، وَإِذْ يُخْشَرُونَ فِرَادَى كَمَا خُلِقُوا أَوَّلَ مَرَّةٍ.

﴿٢٥ - ٢٦﴾ ﴿قُلْ لَهُمْ إِنْ سَأَلُوكَ فَقَالُوا: مَتَى هَذَا الْوَعْدُ؟﴾: ﴿إِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾؛ أَي: غَايَةً طَوِيلَةً؛ فَعَلِمُ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾: مِنَ الْخَلْقِ، بَلْ انْفَرَدَ بِعِلْمِ الضَّمَائِرِ وَالْأَسْرَارِ وَالْغُيُوبِ^(٣).

﴿٢٧﴾ ﴿إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾؛ أَي: فَإِنَّهُ يَخْبِرُهُ بِمَا اقْتَضَتْ حُكْمَتُهُ أَنْ يَخْبِرَهُ بِهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الرِّسْلَ لَيْسُوا كَغَيْرِهِمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ أَيْدَهُمَ بِتَأْيِيدٍ مَا أَيْدَهُ أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ، وَحَفِظَ مَا أَوْحَاهُ إِلَيْهِمْ حَتَّى يَبْلُغُوهُ عَلَى حَقِيقَتِهِ؛ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَقْرَبَهُ الشَّيَاطِينُ فَيَزِيدُوا فِيهِ^(٤) أَوْ يَنْقُصُوا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾؛ أَي: يَحْفَظُونَهُ بِأَمْرِ اللَّهِ.

(١) فِي (ب): «لَيْسَ لِي مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ وَلَا مِنَ التَّصَرُّفِ شَيْءٌ».

(٢) فِي (ب): «وَدَعْوَةُ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ». (٣) فِي (ب): «وَالْغَيْبِ».

(٤) فِي (ب): «أَنْ تَخْطِبَهُمُ الشَّيَاطِينُ وَلَا يَزِيدُوا فِيهِ».

﴿٢٨ - ٢٩﴾ ﴿لِيَعْلَمَ﴾ بِذَلِكَ ﴿أَنْ قَدْ أُنْبِغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ﴾: بما جعله لهم من الأسباب، ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾؛ أي: بما عندهم وما أسروه وما أعلنوه، ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾.

وفي هذه السورة فوائد عديدة^(١):

منها: وجود الجن، وأنهم [مكلفون] مأمورون منهئون مجازون بأعمالهم؛ كما هو صريح في هذه السورة وغيرها.

ومنها: أن رسول الله ﷺ مبعوث^(٢) إلى الجن كما هو مبعوث^(٣) إلى الإنس؛ فإن الله صرف نفر الجن ليستمعوا ما يوحى إليه ويبلغوا قومهم.

ومنها: ذكاء الجن ومعرفتهم بالحق، وأن الذي ساقهم إلى الإيمان هو ما تحققوه من هداية القرآن وحسن أدبهم في خطابهم.

ومنها: اعتناء الله برسوله وحفظه لما جاء به؛ فحين ابتدأت بشائر نبوته والسماء محروسة بالنجوم، والشياطين قد هربت من^(٤) أماكنها، وأزعجت عن مراصدها، وأن الله رَجَمَ به أهل الأرض^(٥) رحمة ما يُقَدَّرُ لها قدر، وأراد بهم ربهم رشداً، فأراد أن يظهر من دينه وشرعه ومعرفته في الأرض ما تبتهج به^(٥) القلوب، وتفرح به أولو الألباب، وتظهر به شعائر الإسلام، وينقمع به أهل الأوثان والأصنام.

ومنها: شدة حرص الجن على استماعهم للرسول ﷺ وتراكمهم عليه.

ومنها: أن هذه السورة قد اشتملت على الأمر بالتوحيد، والنهي عن الشرك، وبيّنت حالة الخلق، وأن كلَّ أحدٍ منهم لا يستحقُّ من العبادة مثقالَ ذرة؛ لأنَّ الرسول محمداً ﷺ إذا كان لا يملك لأحدٍ نفعاً ولا ضرراً، بل ولا يملك لنفسه؛ علم أن الخلق كلُّهم كذلك؛ فمن الخطأ والظلم^(٧) اتِّخَاذُ مَنْ هَذَا وصفه إلهاً آخر^(٨).

(١) في (ب): «فوائد كثيرة».

(٢) في (ب): «رسول».

(٣) في (ب): «عن».

(٤) في (ب): «رحم به الأرض وأهلها».

(٥) في (ب): «له».

(٦) في (ب): «شدة حرص الجن لاستماع الرسول».

(٧) في (ب): «إلهاً مع الله».

(٨) في (ب): «والغلط».

ومنها: أَنَّ علوم الغيوب^(١) قد انفرد الله بعلمها؛ فلا يعلمها أحدٌ من الخلق؛ إِلَّا من ارتضاه الله واختصّه^(٢) بعلم شيء منها.

تم تفسيرها. والحمد لله رب العالمين^(٣).



تفسير سورة المزمل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ ﴿١﴾ قُمْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾﴾ نَضْفَهُ^(٤) أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَاذْكُرْ أَنْتَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَأَصْرِ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْبِزْهُمْ هَزِيرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾.

﴿١ - ٥﴾ المزمل: المتغطي بشيابه كالمدثر، وهذا الوصف حصل من رسول الله ﷺ حين أكرمه الله برسالته، وابتدأه بإنزال وحيه بإرسال جبريل إليه^(٥)، فرأى أمراً لم ير مثله ولا يقدر على الثبات عليه^(٦)، إِلَّا المرسلون، فاعتراه عند ذلك^(٧) انزعاج، حين رأى جبريل عليه السلام، فأتى إلى أهله، فقال: «زملوني زملوني»، وهو ترعد فرائضه، ثم جاءه جبريل، فقال: اقرأ. فقال: «ما أنا بقارئ». فغطه حتى بلغ منه الجهد، وهو يعالجه على القراءة، فقرأ ﷺ^(٨).

ثم ألقى الله عليه الثبات، وتابع عليه الوحي، حتى بلغ مبلغاً ما بلغه أحد من المرسلين؛ فسبحان الله ما أعظم التفاوت بين ابتداء نبوته ونهايتها! ولهذا

(١) في (ب): «علوم الغيب».

(٢) في (ب): «تم تفسير سورة قل أوحى إليّ. والله الحمد».

(٣) في (أ): إلى قوله: «ومهلهم قليلاً». وفي (ب): ذكر الآيات.

(٤) في (ب): «وابتدأه بإنزال جبريل إليه».

(٥) في (ب): «له».

(٦) في (ب): «فاعتراه في ابتداء ذلك».

(٨) كما في «صحيح البخاري» (٣) ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

خاطبه الله بهذا الوصف الذي وُجِدَ منه في أول أمره، فأمره هنا بالعبادات المتعلقة به، ثم أمره بالصبر على أذية قومه^(١)، ثم أمر بالصَّذْعَ بأمره وإعلان دعوتهم إلى الله، فأمره هنا بأشرف العبادات، وهي الصلاة، وبأكّد الأوقات وأفضلها، وهو قيام الليل. ومن رحمته [تعالى] أنّه لم يأمره بقيام الليل كلّ، بل قال: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. ثم قدر ذلك فقال: ﴿نُصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ﴾؛ أي: من النصف ﴿قَلِيلًا﴾: بأن يكون الثلث ونحوه، ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على النصف، فيكون نحو الثلثين^(٢)، ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾؛ فإنّ ترتيل القرآن به يحصل التدبُّر والتفكير وتحريك القلوب به والتعبّد بآياته والتهيؤ والاستعداد التامّ له؛ فإنّه قال: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾؛ أي: نوحى إليك هذا القرآن الثقيل؛ أي: العظيمة معانيه، الجليلة أوصافه، وما كان بهذا الوصف حقيقاً أن يُتَهَيَّأَ له ويُرتَّل ويُتَفَكَّرَ فيما يشتمل عليه.

﴿٦﴾ ثم ذكر الحكمة في أمره بقيام الليل، فقال: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾؛ أي: الصلاة فيه بعد النوم، ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾؛ أي: أقرب إلى حصول^(٣) مقصود القرآن؛ يتواطأ عليه القلب واللسان، وتقلُّ الشواغل، ويفهم ما يقول، ويستقيم له أمره.

﴿٧﴾ وهذا بخلاف النهار؛ فإنّه لا يحصل به هذه المقاصد^(٤)، ولهذا قال: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾؛ أي: تردداً في^(٥) حوائجك ومعاشك يوجب اشتغال القلب وعدم تفرّغه التفرُّغ التامّ.

﴿٨﴾ واذكر اسم ربك: شامل لأنواع الذّكر كلّها، ﴿وَتَبَتَّلْ إِلِهِ تَتَبِيلًا﴾؛ أي: انقطع إليه^(٦)؛ فإنّ الانقطاع إلى الله والإنابة إليه هو: الانفصال بالقلب عن الخلاق، والاتّصاف بمحبّة الله وما^(٧) يقرب إليه ويدني من رضاه.

﴿٩﴾ ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾: وهذا اسم جنس؛ يشمل المشرق والمغرب كلّها؛ فهو تعالى ربُّ المشرق والمغرب، وما يكون فيها من الأنوار، وما هي

(٢) في (ب): «فيكون الثلثين ونحوها».

(٤) في (ب): «هذا المقصود».

(٦) في (ب): «إلى الله تعالى».

(١) في (ب): «أعدائه».

(٣) في (ب): «إلى تحصيل».

(٥) في (ب): «على».

(٧) في (ب): «وكل ما».

مصلحة له من العالم العلوي والسفلي؛ فهو رب كل شيء وخالقه ومدبره. ﴿لا إله إلا هو﴾؛ أي: لا معبود إلا وجهه الأعلى، الذي يستحق أن يُخَصَّ بالمحبة والتعظيم والإجلال والتكريم، ولهذا قال: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾؛ أي: حافظاً ومدبراً لأمره كلها.

﴿١٠﴾ فلما أمره الله بالصلاة خصوصاً وبالذكر عموماً، وذلك يحصل للعبد ملكة قوية في تحمل الأثقال وفعل المُشَقِّ^(١) من الأعمال؛ أمره بالصبر على ما يقوله^(٢) المعاندون له ويسبونه ويسبون ما جاء به، وأن يمضي على أمر الله؛ لا يصده عنه صاذاً ولا يردُّه راداً، وأن يَهْجُرَهُمْ هَجْراً جميلاً، وهو الهجر حيث اقتضت المصلحة [الهجر]، الذي لا أذية فيه، بل يعاملهم بالهجر والإعراض عن^(٣) أقوالهم التي تؤذيه، وأمره بجدهم بالتي هي أحسن.

﴿١١﴾ ﴿وذرنِي والمكذِبِينَ﴾؛ أي: اتركني وإيَّاهم، فسأنتقم منهم، وإن أمهلتهم؛ فلا أهمِّلهم. وقوله: ﴿أُولِي النِّعْمَةِ﴾؛ أي: أصحاب النعمة والغنى، الذين طَعَّوْا حين وسَّع الله عليهم من رزقه وأمدهم من فضله؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾. أن رآه استغنى.

ثم توعدهم بما عنده من العقاب فقال:

﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا﴾ ١٢ ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ ١٣ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ ١٤.

﴿١٢ - ١٣﴾ أي: إن عندنا ﴿أنكالا﴾؛ أي: عذاباً شديداً جعلناه تنكيلاً للذي لا يزال مستمراً على ما يغضب الله، ﴿وجحيماً﴾؛ أي: ناراً حامية، ﴿وطعاماً ذا غُصَّةٍ﴾ وذلك لمرارته وبشاعته وكراهة طعمه وريحه الخبيث المنتن، ﴿وعذاباً أليماً﴾؛ أي: موجعاً مفضعاً.

﴿١٤﴾ وذلك ﴿يوم تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾: من الهول العظيم، فكانت ﴿الْجِبَالُ﴾: الراسيات الصم الصلاب ﴿كثيباً مهيلاً﴾؛ أي: بمنزلة الرمل المنهال المنتثر، ثم إنها تَبْسُ بعد ذلك فتكون كالهباء المنتثر.

(٢) في (ب): «على ما يقول فيه».

(١) في (ب): «الثقل».

(٣) في (ب): «عنهم وعن».

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ .

﴿١٥ - ١٦﴾ يقول تعالى: احمّدوا ربّكم على إرسال هذا النبيّ الأميّ العربيّ البشير النذير الشاهد على الأُمّة بأعمالهم، واشكروه، وقوموا بهذه النعمة الجليلة، وإياكم أن تكفّروا، فتعصّوا رسولكم، فتكونوا كفرعون حين أرسل الله إليه موسى بن عمران، فدعاه إلى الله، وأمره بالتوحيد، فلم يصدّقه، بل عصاه، فأخذه الله ﴿أخذاً وبيلاً﴾؛ أي: شديداً بليغاً.

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنْفِطِرَةٌ بِئْسَ كَانَ وَعْدُكُمْ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾ .

﴿١٧ - ١٨﴾ أي: فكيف يحصل لكم الفكاك والنّجاة يوم القيامة، اليوم المهيّل أمره، العظيم خطره^(١)، الذي يشيبُ الولدان وتذوبُ له الجمادات العظام؛ فتنفطر السماء وتنتشر نجومها^(٢). ﴿كان وعده مفعولاً﴾؛ أي: لا بدّ من وقوعه ولا حائل دونه.

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ .

﴿١٩﴾ أي: إنّ هذه الموعظة التي نبأ الله بها من أحوال يوم القيامة وأهوالها تذكرة يتذكّر بها المتّقون وينزجر بها المؤمنون. ﴿فمن شاء اتّخذ إلى ربّه سبيلاً﴾؛ أي: طريقاً موصلاً إليه، وذلك باتّباع شرعه؛ فإنّه قد أبانه كلّ البيان وأوضحه غاية الإيضاح، وفي هذا دليل على أنّ الله تعالى أقدر العباد على أفعالهم ومكّنهم منها، لا كما يقوله الجبريّة: إنّ أفعالهم تقع بغير مشيئتهم؛ فإنّ هذا خلاف النقل والعقل^(٣).

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلَاثِي إِلَيْلٍ ﴿٤﴾ وَبَضْعُمْ وَلَيْلَةٍ مِّنَ اللَّيْلِ مَعَكَ وَاللَّهُ يَقْدِرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلَيْهِ أَن لَّنْ نَّحْصُوهُ فَنَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُمْ مَّرْضَىٰ

(١) في (ب): «قدره».

(٢) في (ب): «فتنفطر به السماء وتنتشر به نجومها».

(٣) في (ب): «العقل والنقل».

(٤) في (أ): إلى آخر السورة. وفي (ب) ذكر الآية كاملة.

وَأَخْرُونَ يُضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَنْتَقُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرُونَ يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاَقْرَبُوا مَا تَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقْلِمُوا لِنَفْسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

﴿٢٠﴾ ذكر الله في أول هذه السورة أنه أمر رسوله بقيام نصف الليل أو ثلثيه أو ثلثه^(١)، والأصل أن أمته أسوة له في الأحكام، وذكر في هذا الموضع أنه امتثل ذلك هو وطائفة معه من المؤمنين. ولما كان تحرير الوقت المأمور به مشقة على الناس؛ أخبر أنه سهل عليهم في ذلك غاية التسهيل؛ فقال: ﴿والله يقدر الليل والنهار﴾؛ أي: يعلم مقاديرهما وما يمضي ويبقى منهما^(٢)، ﴿علم أن لن تحصوه﴾؛ أي: لن تعرفوا مقداره من غير زيادة ولا نقص؛ لكون ذلك يستدعي انتباهاً وعناء زائداً؛ أي: فحُفِّ عنكم وأمركم بما تيسر عليكم سواء زاد على المقدّر أو نُقِصَ، ﴿فاقروا ما تيسر من القرآن﴾؛ أي: ممّا تعرفون ولا^(٣) يشقّ عليكم، ولهذا كان المصلي بالليل مأموراً بالصلاة ما دام نشيطاً؛ فإذا فتر أو كسل أو نرس؛ فليسترخ ليأتي الصلاة بطمأنينة وراحة.

ثم ذكر بعض الأسباب المناسبة للتخفيف، فقال: ﴿علم أن سيكون منكم مريض﴾: يشقّ عليهم صلاة نصف الليل أو ثلثيه^(٤) أو ثلثه، فليصل المريض ما يسهل عليه، ولا يكون أيضاً مأموراً بالصلاة قائماً عند مشقة ذلك، بل لو شقت عليه الصلاة النافلة؛ فله تركها، وله أجر ما كان يعمل صحيحاً. ﴿وأخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله﴾؛ أي: وعلم أن منكم مسافرين يسافرون للتجارة؛ ليستغنوا عن الخلق، ويتكفّفوا عنهم^(٥)؛ أي: فالمسافر حاله تناسب التخفيف، ولهذا خُفِّ عنه في صلاة الفرض، فأبيح له جمع الصلاتين في وقت واحد وقصر الصلاة الرباعية. وكذلك ﴿آخرون يقتلون في سبيل الله فاقروا ما تيسر منه﴾: فذكر تعالى تخفيفين؛ تخفيفاً للصحيح المقيم يراعي فيه نشاطه من غير أن يكلف عليه تحرير الوقت، بل يتحرى الصلاة الفاضلة، وهي ثلث الليل بعد نصفه الأول، وتخفيفاً للمريض والمسافر، سواء كان سفره للتجارة أو لعبادة من جهاد أو حج أو

(١) في (ب): «ثلثه أو ثلثيه».

(٢) في (ب): «ومما لا».

(٣) في (ب): «عن الناس».

(٤) في (ب): «وما يمضي منهما ويبقى».

(٥) في (ب): «صلاة ثلثي الليل أو نصفه».

غيره^(١)؛ فإنه [أيضاً] يراعي ما لا يكلفه؛ فله الحمد والثناء؛ حيث لم يجعل علينا^(٢) في الدين من حرج، بل سهل شرعه، وراعى أحوال عباده ومصالح دينهم وأبدانهم ودنياهم.

ثم أمر العباد بعبادتين هما أمُّ العبادات وعمادها: إقامة الصلاة التي لا يستقيم الدين إلّا بها، وإيتاء الزكاة التي هي برهانُ الإيمان وبها تحصلُ المواساة للفقراء والمساكين، فقال^(٣): ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾؛ أي: بأركانها وحدودها وشروطها وجميع مكملاتها^(٤)، ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾؛ أي: خالصاً لوجه الله بنية صادقة وتثبيت من النفس ومال طيب، ويدخل في هذا الصدقة الواجبة والمستحبة.

ثم حثَّ على عموم الخير وأفعاله، فقال: ﴿وَمَا تَقْدُمُوا لَأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَقِدُّوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْراً﴾: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. وليعلم أن مثقال ذرة في هذه الدار من الخير^(٥) يقابله أضعاف أضعاف الدنيا وما عليها في دار النعيم المقيم من اللذات والشهوات، وأن الخير والبر في هذه الدنيا مادة الخير والبر في دار القرار وبذره وأصله وأساسه. فوا أسفاه على أوقات مضت في الغفلات! ووا حسراته على أزمان تقضت في غير^(٦) الأعمال الصالحات! ووا غوثاه من قلوب لم يؤثّر فيها وعظّ بارئها ولم ينجع فيها تشويق من هو أرحم بها من نفسها^(٧)! فلك اللهم الحمد وإليك المشتكى وبك المستغاث ولا حول ولا قوة إلّا بك.

﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: وفي الأمر بالاستغفار بعد الحث على أفعال الطاعة والخير فائدة كبيرة، وذلك أن العبد لا^(٨) يخلو من التقصير فيما أمر به: إما أن لا يفعله أصلاً، أو يفعله على وجه ناقص، فأمر بترقيع ذلك بالاستغفار؛ فإن العبد يذنب أثناء الليل والنهار؛ فمتى لم يتغمّده الله برحمته ومغفرته؛ فإنه هالك.

تم تفسيرها. والحمد لله^(٩).



(١) في (ب): «من قتال أو جهاد أو حج أو عمرة ونحو ذلك».

(٢) في (ب): «الذي ما جعل على الأمة». (٣) في (ب): «ولهذا قال».

(٤) في (ب): «بأركانها وشروطها ومكملاتها». (٥) في (ب): «من الخير في هذه الدار».

(٦) في (ب): «بغير». (٧) في (ب): «منها».

(٨) في (ب): «ما». (٩) في (ب): «تم تفسير سورة المزمل».

تفسير سورة المدثر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿بِأَيِّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾﴾.

﴿١ - ٢﴾ تقدم أن المزمّل والمدثر بمعنى واحد، وأن الله أمر رسوله ﷺ بالاجتهاد في عبادات^(١) الله القاصرة والمتعدية، فتقدم هناك الأمر له بالعبادات الفاضلة القاصرة، والصبر على أذى قومه، وأمره هنا بالإعلان بالدعوة والصّدع بالإنذار، فقال: ﴿قم﴾؛ أي: بجدّ ونشاط ﴿فأنذر﴾: الناس بالأقوال والأفعال التي يحصل بها المقصود وبيان حال المنذر عنه ليكون ذلك أدعى لتركه.

﴿٣﴾ ﴿وربك فكبر﴾؛ أي: عظمه بالتوحيد، واجعل قصدك في إنذارك وجه الله وأن يعظمه العباد، ويقوموا بعبادته.

﴿٤﴾ ﴿وثيابك فطهر﴾: يُحتمل أن المراد بالثياب^(٢) أعماله كلها. وبتطهيرها: تخليصها، والنّصح بها، وإيقاعها على أكمل الوجوه، وتنقيتها عن المبطلات والمفسدات والمنقصات من شرك ورياء ونفاق وعُجبٍ وتكبرٍ وغفلةٍ وغير ذلك مما يؤمر العبد باجتنابه في عباداته، ويدخل في ذلك تطهير الثياب من النجاسة؛ فإنّ ذلك من تمام التطهير للأعمال، خصوصاً في الصلاة، التي قال كثير من العلماء: إنّ إزالة النجاسة عنها شرط من شروطها^(٣).

ويُحتمل أن المراد بثيابه الثياب المعروفة؛ أنّه مأمور بتطهيرها عن جميع النجاسات في جميع الأوقات، خصوصاً عند الدّخول في الصلوات.

﴿٥﴾ وإذا كان مأموراً بطهارة^(٤) الظاهر؛ فإنّ طهارة الظاهر من تمام طهارة الباطن: ﴿والرّجز فاهجر﴾: يُحتمل أن المراد بالرجز الأصنام والأوثان التي عبّدت مع الله، فأمره بتركها والبراءة منها ومما نُسب إليها من قول أو عمل، ويُحتمل أن المراد بالرجز أعمال الشرّ كلّها وأقواله، فيكون أمراً له بترك الذنوب صغارها

(١) في (ب): «عبادة».

(٢) في (ب): «بثيابه».

(٣) في (ب): «من شروط الصلاة».

(٤) في (ب): «بتطهير».

وكبارها^(١) ظاهرها وباطنها، فیدخل فی هذا الشرك فما دونه^(٢).

﴿٦﴾ ﴿ولا تَمُنُّنَ تَسْتَكْثِرُنَّ﴾؛ أي: لا تَمُنُّنَ على الناس بما أسديت إليهم من النعم الدينية والدنيوية، فتستكثر بتلك المنة، وترى لك الفضل عليهم^(٣)، بل أحسن إلى الناس مهما أمكنك، وأنس عندهم إحسانك، واطلُبْ أجرك من الله تعالى^(٤)، واجعل مَنْ أحسنت إليه وغيره على حد سواء.

وقد قيل: إنَّ معنى هذا ألا تعطي أحداً شيئاً وأنت تريد أن يكافئك عليه بأكثر منه، فيكون هذا خاصاً بالنبي ﷺ.

﴿٧﴾ ﴿ولربك فاضبر﴾؛ أي: احتسب بصبرك واقصد به وجه الله تعالى.

فامثل رسول الله ﷺ لأمر ربّه، وبادر فيه^(٥)، فأنذر الناس وأوضح لهم بالآيات البينات جميع المطالب الإلهية، وعظّم الله تعالى، ودعا الخلق إلى تعظيمه، وطهر أعماله الظاهرة والباطنة من كل سوء، وهجر كل ما يُعْبَدُ من دون الله^(٦) وما يُعْبَدُ معه من الأصنام وأهلها والشر وأهله، وله المنة على الناس بعد منة الله، من غير أن يطلبَ عليهم بذلك^(٧) جزاء ولا شكوراً، وصبر لربّه^(٨) أكمل صبر: فصبر على طاعة الله، وعن معاصيه، وصبر على أقداره^(٩) المؤلمة، حتى فاق أولي العزم من المرسلين. صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الْنَاقُورِ﴾ ﴿فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ ﴿١٠﴾.

﴿٨ - ١٠﴾ أي: فإذا نُفِخَ في الصور للقيام من القبور، وجميع الخلائق^(١٠) للبعث والنشور، ﴿فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾: لكثرة أهواله وشدائده، ﴿على الكافرين غير يسير﴾؛ لأنهم قد آيسوا من كل خير وأيقنوا بالهلاك والبوار. ومفهوم

(١) في (ب): «صغيرها وكبيرها».

(٢) في (ب): «فیدخل فی ذلك الشرك وما دونه».

(٣) في (ب): «وترى لك عليهم بإحسانك المنة».

(٤) في (ب): «ولا تطلب أجره إلا من الله». (٥) في (ب): «إليه».

(٦) في (ب): «وهجر كل ما يبعد عن الله». (٧) في (ب): «منهم على ذلك».

(٨) في (ب): «لله».

(٩) في (ب): «وعن معاصي الله وعلى أقدار الله».

(١٠) في (ب): «الخلق».

ذَٰلِكَ أَنَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ يَسِيرٌ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾.

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۖ (١٢) وَبَيْنَ شُهُودًا ۖ (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۖ (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۖ (١٥) كَلَّا ۚ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ۖ (١٦) سَأَرْفُقُهُ صِعُودًا ۖ (١٧) إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ ۖ (١٨) فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ (١٩) ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ ۖ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۖ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۖ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۖ (٢٤) إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۖ (٢٥) سَأُضْلِيهِ سَقَرًا ۖ (٢٦) وَمَا أَذْرَكَ مَا سَقَرٌ ۖ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۖ (٢٨) لَوَاسُوءًا لِلْبَشَرِ ۖ (٢٩) عَلَيْنَا نَسْعَةُ عَشْرٍ ۖ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفِيقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَرْذَابَ الَّذِينَ آمَنُوا يَمِينًا وَلَا يَرْثَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِقَوْلِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۖ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ۖ (٣١)﴾.

﴿١١ - ٣٠﴾ هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة^(٢)، المعاند للحق، المبارز^(٣) لله ولرسوله بالمحاربة والمشاقة، فذمه الله ذمًا لم يذم به غيره^(٤)، وهذا جزاء كل من عاند الحق ونابذه؛ أن له الخزي في الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى، فقال:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾؛ أي: خلقته منفرداً بلا مال ولا أهل ولا غيره، فلم أزل أربيّه وأعطيه، فجعلت له مالاً ممدوداً؛ أي: كثيراً، ﴿و﴾ جعلت له بنين؛ أي: ذكوراً، ﴿شهوداً﴾؛ أي: حاضرين عنده^(٥) على الدوام، يتمتع بهم ويقضي بهم حوائجه ويستنصر بهم، ﴿ومهدت له تمهيداً﴾؛ أي: مكنته من الدنيا وأسبابها حتى انقادت له مطالبه وحصل له^(٦) ما يشتهي ويريد. ﴿ثم﴾: مع هذه النعم والإمدادات ﴿يطمع أن أزيد﴾؛ أي: يطمع أن ينال نعيم الآخرة كما نال نعيم الدنيا، ﴿كللاً﴾؛ أي: ليس الأمر كما طمع، بل هو بخلاف مقصوده ومطلوبه، وذلك ﴿إنه﴾^(٧) كان لآياتنا عنيداً: عرفها^(٨) ثم أنكرها، ودعته إلى الحق فلم يتفقد

(١) في (أ): إلى قوله: ﴿وما هي إلا ذكري للبشر﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٥٠٦/٢) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) في (ب): «معاند الحق والمبارز».

(٤) في (ب): «لم يذمه غيره».

(٥) في (ب): «دائماً حاضرين عنده».

(٦) في (ب): «حصل على».

(٧) في (ب): «لأنه».

(٨) في (ب): «أي: معانداً عرفها».

لها، ولم يكفِه أنه أعرض عنها وتولَّى^(١)، بل جعل يحاربها ويسعى في إبطالها، ولهذا قال عنه: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ﴾؛ أي: في نفسه. ﴿وَقَدَّرَ﴾: ما فُكِّرَ فيه؛ ليقول قولاً يبطل به القرآن، ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾. ثم قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ؛ لأنه قَدَّرَ أمراً ليس في طوره، وتسوّر على ما لا يناله هو ولا أمثاله، ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾: ما يقول، ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾: في وجهه وظاهره نفرة عن الحق وبُغضاً له، ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾؛ أي: تولَّى، ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾: نتيجة سعيه الفكري والعلمي والقولي، ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾. إن هذا إلا قول البشر؛ أي: ما هذا كلام الله، بل كلام البشر، وليس أيضاً كلام البشر الأخيار، بل كلام الأشرار منهم والفجار^(٢) من كل كاذب سحار، فتبأ له! ما أبعد من الصواب! وأحراه بالخسارة والتَّباب! كيف يدور في الأذهان أو يتصوره ضمير أي^(٣) إنسان أن يكون أعلى الكلام وأعظمه كلام الرب الكريم الماجد العظيم^(٤) يشبه كلام المخلوقين الفقراء الناقصين؟! أم كيف يتجرأ هذا الكاذب العنيد على وصفه بهذا الوصف لكلام الله تعالى^(٥)؛ فما حقُّه إلا العذاب الشديد [والنكال]، ولهذا قال تعالى: ﴿سَأُضْلِيهِ سَقَرَ﴾. وما أدراك ما سَقَرَ. لا تُبقي ولا تذر؛ أي: لا تبقي من الشدة ولا على المعذب شيئاً إلا وبلَّغته. ﴿لَوْاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾؛ أي: تلوحهم وتُصلِّيهم في عذابها وتقلقهم بشدة حرّها وقَرّها. ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾: من الملائكة، خزنة لها، غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون.

﴿٣١﴾ ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾: وذلك لشدّتهم وقوّتهم، ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: يحتمل أن المراد؛ إلا لعذابهم وعقابهم في الآخرة ولزيادة نكالهم فيها، والعذاب يسمّى فتنة؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾. ويحتمل أن المراد أننا ما أخبرناكم بعدّتهم إلا لنعلم من يصدّق ممّن^(٦) يكذب. ويدلّ على هذا ما ذكره بعده في قوله: ﴿لَيْسَتِ يَفْقَهُنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيزداد الذين آمنوا إيماناً﴾: فإن أهل الكتاب إذا وافق ما عندهم وطابقه؛ ازداد يقينهم بالحق، والمؤمنون كلّما أنزل الله آية، فآمنوا بها وصدّقوا؛ ازداد إيمانهم، ﴿ولا يرتاب الذين أُوتوا الكتاب والمؤمنون﴾؛ أي: ليزول عنهم الريب والشك، وهذه مقاصد جليّة يعتني بها أولو الألباب، وهي السعي في اليقين وزيادة الإيمان في كلّ وقت

(١) في (ب): «أعرض وتولى عنها».

(٢) في (ب): «بل كلام الفجار منهم والأشرار».

(٣) في (ب): «كلّ».

(٤) في (ب): «الرب العظيم الماجد الكريم».

(٥) في (ب): «على وصفه كلام المبدئ المعيد».

(٦) في (ب): «ومن».

وكل مسألة من مسائل الدين، ودفع الشكوك والأوهام التي تَعْرِضُ في مقابلة الحق، فجعل ما أنزله على رسوله محصلاً لهذه المقاصد^(١) الجلية، ومميزاً للصادقين من الكاذبين^(٢)، ولهذا قال: ﴿وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾؛ أي: شك وشبهة ونفاق، ﴿وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾: وهذا على وجه الحيرة والشك منهم والكفر بآيات الله، وهذا وذاك من هداية الله لمن يهديه وإضلاله لمن يُضِلُّه، ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾: فمن هداه الله؛ جعل ما أنزل^(٣) على رسوله رحمة في حقه وزيادة في إيمانه ودينه، ومن أضله؛ جعل ما أنزل على رسوله زيادة شقاء عليه وحيرة وظلمة في حقه، والواجب أن يُتَلَقَّى ما أخبر الله به^(٤) ورسوله بالتسليم، فإنه ﴿لَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة وغيرهم ﴿إِلَّا هُوَ﴾: فإذا كنتم جاهلين بجنوده، وأخبركم بها العليم الخبير؛ فعليكم أن تصدقوا خبره من غير شك ولا ارتياب، ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾؛ أي: وما هذه الموعظة والتذكار مقصوداً به العبث واللعب، وإنما المقصود به أن يتذكر به البشر ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركوه.

﴿كَلَّا وَالْقَمَرَ ۝ (٣٢) وَاللَّيْلَ إِذَا أَزْبَرَ ۝ (٣٣) وَالصُّبْحَ إِذَا أَشْفَرَ ۝ (٣٤) إِنَّمَا يَلْتَمِذُ الْكَبِيرُ ۝ (٣٥) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ۝ (٣٦) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝ (٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةٌ ۝ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْآلِينَ ۝ (٣٩) فِي جَنَّتٍ يَنْسَاءُونَ ۝ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۝ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۝ (٤٢) قَالُوا لَوْ نَكُنَّ مِنَ الْمَصْلِينَ ۝ (٤٣) وَلَمْ نَكُنْ نَطْعُمُ الْيَتَامَى ۝ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَاطِئِينَ ۝ (٤٥) وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الَّذِينَ ۝ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ۝ (٤٧) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفِيعَةُ الشُّفَعَاءِ ۝ (٤٨) فَمَا لَمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ۝ (٤٩) كَانَهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ۝ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ۝ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةٌ ۝ (٥٢) كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ۝ (٥٣) كَلَّا إِنَّكُمْ تَذْكُرُونَ ۝ (٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكِّرْهُ ۝ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ الْقُوَى وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ ۝ (٥٦)﴾.

﴿٣٢ - ٣٤﴾: ﴿كَلَّا﴾: هنا بمعنى حقاً، أو بمعنى ألا الاستفتاحية، فأقسم تعالى بالقمر، وبالليل وقت إدباره، والنهار وقت إسفاره؛ لاشتغال المذكورات على آيات الله

(١) في (ب): «الفوائد».

(٢) في (ب): «ما أنزله الله».

(٣) في (ب): «ما أنزله الله».

(٤) في (ب): «به الله».

(٥) في (أ): إلى آخر السورة. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

العظيمة الدالة على كمال قدرة الله وحكمته وسعة سلطانه وعموم رحمته وإحاطة علمه .

﴿٣٥ - ٣٧﴾ والمقسّم عليه قوله: ﴿إِنَّهَا لِإِحْدَى الْكُبَرِ﴾؛ أي: إِنَّ النَّارَ لِإِحْدَى^(١) الْعِظَائِمِ الطَّائِمَةِ وَالْأُمُورِ الْهَائِمَةِ؛ فَإِذَا أَعْلَمْنَاكُمْ بِهَا وَكُنْتُمْ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِهَا؛ فَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ فَيَعْمَلْ بِمَا يَقْرُبُهُ إِلَى اللَّهِ وَيُذْنِيهِ مِنْ رِضَاهُ وَيُزْلِفَهُ مِنْ دَارِ كَرَامَتِهِ، أَوْ يَتَأَخَّرَ عَمَّا خُلِقَ لَهُ وَعَمَّا يَحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ، فَيَعْمَلْ بِالْمَعَاصِي، وَيَتَقَرَّبَ إِلَى جَهَنَّمَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ...﴾ الآية.

﴿٣٨ - ٤٨﴾ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾: مِنْ أَعْمَالِ الشَّرِّ وَأَعْمَالِ السُّوءِ^(٢) ﴿رَهِيْنَةً﴾: بِهَا مَوْثِقَةٌ بِسَعِيْهَا، قَدْ أُلْزِمَ^(٣) عُنُقَهَا وَغُلٌّ فِي رِقَبَتِهَا وَاسْتَوْجِبَتْ بِهِ الْعَذَابَ، ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾: فَإِنَّهُمْ لَمْ يَرْتَهِنُوا، بَلْ أَطْلَقُوا وَفَرَحُوا ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾. عَنْ الْمَجْرُمِينَ؛ أَي: فِي جَنَّاتٍ قَدْ حَصَلَ لَهُمْ فِيهَا^(٤) جَمِيعُ مَطْلُوبَاتِهِمْ وَتَمَّتْ لَهُمُ الرَّاحَةُ وَالطَّمَأْنِينَةُ، حَتَّى أَقْبَلُوا يَتَسَاءَلُونَ، فَأَفْضَتْ بِهِمُ الْمُحَادَثَةُ أَنْ سَأَلُوا عَنْ الْمَجْرُمِينَ؛ أَيُّ حَالٍ وَصَلُوا إِلَيْهَا؟ وَهَلْ وَجَدُوا مَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ [تَعَالَى]؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلَعُونَ عَلَيْهِمْ، فَاطَّلَعُوا عَلَيْهِمْ فِي وَسْطِ الْجَحِيمِ يَعَذِّبُونَ، فَقَالُوا لَهُمْ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾؛ أَي: أَيُّ شَيْءٍ أَدْخَلَكُمْ فِيهَا؟ وَبِأَيِّ ذَنْبٍ اسْتَحَقَّيْتُمُوهَا؟ فَقَالُوا: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلُوحِينَ﴾. وَلَمْ نَكُ نَطْعِمُ الْمَسْكِينِ: ﴿فَلَا إِخْلَاصَ لِلْمَعْبُودِ وَلَا إِحْسَانَ وَلَا نَفْعَ لِلخَلْقِ الْمُحْتَاجِينَ﴾، ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾؛ أَي: نَخُوضُ بِالْبَاطِلِ وَنَجَادِلُ بِهِ الْحَقَّ، ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾: هَذِهِ آثَارُ الْخُوضِ بِالْبَاطِلِ، وَهُوَ التَّكْذِيبُ بِالْحَقِّ، وَمَنْ أَحَقَّ الْحَقُّ يَوْمَ الدِّينِ، الَّذِي هُوَ مُحَلٌّ الْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ وَظَهْوَرُ مُلْكِ اللَّهِ وَحُكْمِهِ الْعَدْلِ لِسَائِرِ الْخَلْقِ، فَاسْتَمَرَّ عَمَلُنَا عَلَى هَذَا الْمَذْهَبِ الْبَاطِلِ^(٥) ﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾؛ أَي: الْمَوْتُ، فَلَمَّا مَاتُوا عَلَى الْكُفْرِ؛ تَعَذَّرَتْ حِينَئِذٍ عَلَيْهِمُ الْحِجَلُ، وَانْسَدَّتْ فِي وُجُوهِهِمْ بَابُ الْأَمَلِ. ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى، وَهَؤُلَاءِ لَا يَرْضَى اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ.

(١) فِي (ب): ﴿إِنَّهَا﴾؛ أَي: النَّارَ ﴿لِإِحْدَى الْكُبَرِ﴾، أَي: لِإِحْدَى... .

(٢) فِي (ب): «مِنْ أَعْمَالِ السُّوءِ وَأَعْمَالِ الشَّرِّ».

(٣) فِي (ب): «مَا لَزِمَ».

(٤) فِي (ب): «بِهَا».

(٥) فِي (ب): «فَاسْتَمَرَّ عَلَيْنَا عَلَى هَذَا الْمَذْهَبِ الْفَاسِدِ».

﴿٤٩ - ٥٣﴾ فَلَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ مَالَ الْمُخَالِفِينَ وَبَيَّنَّ مَا^(١) يَفْعَلُ بِهِمْ؛ عَطَفَ عَلَى الْمَوْجُودِينَ بِالْعِتَابِ وَاللُّومِ، فَقَالَ: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾؛ أَي: صَادِّينَ غَافِلِينَ عَنْهَا، ﴿كَأَنَّهُمْ﴾: فِي نَفَرَتِهِمُ الشَّدِيدَةِ مِنْهَا ﴿حُمُرٌ مُسْتَنْفَرَةٌ﴾؛ أَي: [كَأَنَّهُمْ] حُمُرٌ وَحِشٌ نَفَرَتْ؛ فَتَفَرَّ بَعْضُهَا بَعْضًا فَزَادَ عَذُوبَهَا، ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾؛ أَي: مِنْ صَائِدٍ وَرَامَ يَرِيدُهَا أَوْ مِنْ أَسَدٍ وَنَحْوِهِ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ مَا يَكُونُ مِنَ التَّنْفُورِ عَنِ الْحَقِّ، وَمَعَ هَذَا الْكُفُورِ وَالْإِعْرَاضِ^(٢) يَدْعُونَ الدَّعَاوِي الْكِبَارَ؛ فَيُرِيدُ ﴿كُلُّ﴾ وَاحِدٌ ﴿مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مَنشُورَةً﴾: نَازِلَةٌ عَلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ؛ يَزْعَمُ أَنَّهُ لَا يَنْقَادُ لِلْحَقِّ؛ إِلَّا بِذَلِكَ، وَقَدْ كَذَّبُوا؛ فَإِنَّهُمْ لَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ؛ لَمْ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ؛ لَأَنَّهُمْ^(٣) جَاءَتْهُمْ الْآيَاتُ الْبَيِّنَاتُ، الَّتِي تَبَيَّنَ الْحَقُّ وَتَوَضَّحَ؛ فَلَوْ كَانَ فِيهِمْ خَيْرٌ؛ لَأَمَنُوا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَلَّا﴾؛ أَي: لَا نَعْطِيهِمْ^(٤) مَا طَلَبُوا، وَهُمْ مَا قَصَدُوا بِذَلِكَ إِلَّا التَّعْجِيزَ، ﴿بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾: فَلَوْ كَانُوا يَخَافُونَهَا؛ لَمَا جَرَى مِنْهُمْ مَا جَرَى.

﴿٥٤ - ٥٦﴾ ﴿كَلَّا [إِنَّهُ]^(٥) تَذْكُرَةٌ﴾: الضَّمِيرُ إِمَّا أَنْ يَعُودَ عَلَى هَذِهِ السُّورَةِ أَوْ عَلَى مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْمَوْعِظَةِ، ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾: لِأَنَّهُ قَدْ بَيَّنَّ لَهُ السَّبِيلَ وَوَضَّحَ لَهُ الدَّلِيلَ. ﴿[وَمَا يَذْكُرُونَ]^(٦) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾: فَإِنَّ مَشِيئَةَ اللَّهِ^(٧) نَافِذَةٌ عَامَّةٌ، لَا يَخْرُجُ عَنْهَا حَادِثٌ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ؛ فَفِيهَا رَدٌّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ، الَّذِينَ لَا يُدْخِلُونَ أَفْعَالَ الْعِبَادِ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللَّهِ، وَالْجَبَرِيَّةِ، الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ لِلْعَبْدِ مَشِيئَةٌ وَلَا فِعْلٌ حَقِيقَةٌ، وَإِنَّمَا هُوَ مُجْبُورٌ عَلَى أَفْعَالِهِ، فَاتَّبَعَتْ تَعَالَى لِلْعِبَادِ مَشِيئَةٌ حَقِيقَةٌ وَفِعْلًا، وَجَعَلَ ذَلِكَ تَابِعًا لِمَشِيئَتِهِ، وَ﴿وَهُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾؛ أَي: هُوَ أَهْلُ أَنْ يُتَّقَى وَيُعْبَدَ؛ لِأَنَّهُ الْإِلَهَ الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ، وَأَهْلُ أَنْ يَغْفَرَ لِمَنْ اتَّقَاهُ وَاتَّبَعَ رِضَاهُ.

تمت . ولله الحمد والمنة^(٨).



-
- (١) فِي (ب): «وَرَهَّبَ مِمَّا» .
 (٢) فِي (ب): «فَأِنَّهُمْ» .
 (٣) فِي (ب): «فَأِنَّهُمْ» .
 (٤) فِي (ب): «كَلَّا»: أَنْ نَعْطِيَهُمْ» .
 (٥) فِي النَّسَخَتَيْنِ: «إِنَّهَا» . وَعَلَيْهِ فُسِّرَهَا . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .
 (٦) فِي (أ): «وَمَا تَشَاوُونَ» . وَفِي (ب): «وَمَا يَشَاوُونَ» .
 (٧) فِي (ب): «مَشِيئَتَهُ» .
 (٨) فِي (ب): «تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمَدْثَرِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ» .

تفسير سورة القيامة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ (١) وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ (١) ﴿أَحْسَبُ الْإِنْسَانَ أَنْ تُجَمَعَ عَظَامُهُ﴾ (٢) ﴿بَلْ قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ (٣) ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ (٤) ﴿يَسْتَلْ أَتَىٰ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ (٥) .

﴿١﴾ ليست ﴿لا﴾ ها هنا نافية ولا زائدة، وإنما أتى بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، ولكثرة الإتيان بها مع اليمين لا يستغرب الاستفتاح بها، وإن لم تكن في الأصل موضوعة للاستفتاح؛ فالمقسم به في هذا الموضع هو المقسم عليه، وهو البعث بعد الموت، وقيام الناس من قبورهم، ثم وقوفهم ينتظرون ما يَحْكُمُ به الربُّ عليهم.

﴿٢﴾ ﴿ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾: وهي جميع النفوس الخيرة والفاجرة، سميت لؤامة لكثرة تلونها وترددها (٢) وعدم ثبوتها على حالة من أحوالها، ولأنها عند الموت تلوم صاحبها على ما فعلت (٣)، بل نفس المؤمن تلوم صاحبها في الدنيا على ما حصل منه من تفريط أو تقصير في حق من الحقوق أو غفلة، فجمع بين الإقسام بالجزاء وعلى الجزاء وبين مستحق الجزاء.

﴿٣ - ٤﴾ ثم أخبر مع هذا أن بعض المعاندين يكذبون (٤) بيوم القيامة، فقال: ﴿أَحْسَبُ الْإِنْسَانَ أَنْ لَنْ تُجَمَعَ عَظَامُهُ﴾: بعد الموت؛ كما قال [في الآية الأخرى]: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾، فاستبعد من جهله وعدوانه قدرة الله على خلق عظامه التي هي عمادُ البدن، فردَّ عليه بقوله: ﴿بلى قادرين على أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾؛ أي: أطراف أصابعه وعظامه، وذلك مستلزم (٥) لخلق جميع أجزاء البدن؛ لأنها إذا وُجدت الأنامل والبنان؛ فقد تمتَّ خلقة الجسد.

﴿٥ - ٦﴾ وليس إنكاره لقدرة الله تعالى قصوراً بالدليل الدال على ذلك، وإنما وقع ذلك منه لأن إرادته وقصده التكذيب (٦) بما أمامه من البعث. والفجور: الكذب مع التعمد.

(١) في (أ): إلى قوله: ﴿يسأل أيان يوم القيامة﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.

(٢) في (ب): «تردها وتلومها». (٣) في (ب): «ما عملت».

(٤) في (ب): «يكذب». (٥) في (ب): «المستلزم لذلك».

(٦) في (ب): «وإنما ذلك منه أن قصده وإرادته أن يكذب».

ثم ذكر أحوال القيامة فقال:

﴿إِذَا رَفَ الْأَبْصَرُ ۖ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۗ﴾ (٧) ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۗ﴾ (٨) ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَلَمْ أَفَرَّ ۚ﴾ (٩) ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۚ﴾ (١٠) ﴿إِلَّا رِبْكُ يَوْمَئِذٍ الشَّنَقَرُ ۗ﴾ (١١) ﴿يَبْنُؤُا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۚ﴾ (١٢) ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۚ﴾ (١٣) ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِرُهُ ۚ﴾ (١٤).

﴿٧ - ١٠﴾ أي: ﴿إِذَا﴾ كانت القيامة؛ برقت الأبصار من الهول العظيم وشخصت فلا تطرف؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ. مَهْطَعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدَتْهُمْ أَسْوَادُ السَّمَاءِ وَالْقَمَرُ ۖ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۖ﴾ (١٠) ﴿وَمَا لَمْ يَجْتَمِعَا مِنْذَ خَلَقَهُمَا اللَّهُ تَعَالَىٰ، فَيَجْمَعُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُخَسِفُ الْقَمَرَ، وَتَكْوُرُ الشَّمْسُ، ثُمَّ يَقْدِفَانِ فِي النَّارِ؛ لِيَرَى الْعِبَادُ أَنََّّهُمَا عَبْدَانِ مَسْخَرَانِ، وَلِيَرَى مَنْ عَبْدَهُمَا أَنَّهُمَا كَانُوا كَاذِبِينَ،﴾ (١١) ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ﴾: حين يرى تلك القلائل المزعجات (٢): ﴿أَيْنَ الْمَفْرُ؟﴾ أي: أين الخلاص والفكاك (٣) مما طرقنا وألّم بنا (٤)؟

﴿١١ - ١٣﴾ ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾؛ أي: لا ملجأ لأحدٍ دون الله، ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾: لسائر العباد، فليس في إمكان أحدٍ أن يستتر أو يهرب عن ذلك الموضع، بل لا بد من إيقافه؛ ليجزى بعمله، ولهذا قال: ﴿يَبْنُؤُا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾؛ أي: بجميع عمله الحسن والسيئ، في أول وقته وآخره، وينبأ بخبر لا ينكره.

﴿١٤ - ١٥﴾ ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾؛ أي: شاهدٌ ومحاسبٌ، ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِرُهُ﴾: فإنها معاذير لا تقبل، بل يقرّر بعمله (٥)، فيقرّ به؛ كما قال تعالى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾: فالعبد وإن أنكر أو اعتذر عما عمله؛ فإنكاره واعتذاره لا يفيدانه شيئاً؛ لأنه يشهد عليه سمعه وبصره وجميع جوارحه بما كان يعمل، ولأنّ استعتابه قد ذهب وقته وزال نفعه، ﴿فِيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

(١) في (أ): إلى قوله: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِرُهُ﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.

(٢) في (ب): «والمزعجات».

(٣) في (ب): «والفرار».

(٤) في (ب): «وأصابنا».

(٥) في (ب): «لا تقبل ولا تقابل ما يقرّر به العبد».

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنبَغْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ .

﴿١٦ - ١٩﴾ كان النبي ﷺ إذا جاءه جبريل بالوحي وشرع في تلاوته [عليه]؛ بادَرَهُ النبي ﷺ من الحرص قبل أن يفرغ، وتلاه مع تلاوة جبريل إيَّاه^(١)، فنهاه الله عن ذلك، وقال: ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه﴾: وقال هنا: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ .

ثم ضمن له تعالى أنه لا بد أن يحفظه ويقرأه ويجمعه الله في صدره، فقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾؛ فالحرص الذي في خاطرك إنما الداعي له حذر الفوات والنسيان؛ فإذا ضَمِنَهُ الله لك؛ فلا موجب لذلك، ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنبَغْ قُرْآنَهُ﴾؛ أي: إذا أكمل جبريل ما يوحى إليك^(٢)؛ فحينئذ اتَّبِعْ ما قرأه فاقراه^(٣)، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾؛ أي: بيان معانيه. فوعده بحفظ لفظه وحفظ معانيه، وهذا أعلى ما يكون، فامتثل ﷺ لأدب ربِّه، فكان إذا تلا عليه جبريل القرآن بعد هذا؛ أنصتَ له؛ فإذا فرغ؛ قرأه.

وفي هذه الآية أدب لأخذ العلم: أن لا يبادر المتعلم^(٤) للعلم قبل أن يفرغ المعلم من المسألة التي شرع فيها؛ فإذا فرغ منها؛ سألَه عما أشكل عليه. وكذلك إذا كان في أول الكلام ما يوجب الرد أو الاستحسان أن لا يبادر برده أو قبوله قبل^(٥) الفراغ من ذلك الكلام؛ ليتبين ما فيه من حق أو باطل، وليفهمه فهماً يتمكن فيه من الكلام فيه على وجه الصواب^(٦). وفيها أن النبي ﷺ كما بين للأمة ألفاظ الوحي؛ فإنه قد بين لهم معانيه.

﴿كَلَّا بَلْ يُحِيطُونَ الْعَاجِلَ﴾ (٢٠) وَيَذَرُونَ الْآخِرَ ﴿٢١﴾ وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ رَبَّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَجُودَ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَنْزِيلُ أَنْ يُفَعَّلَ بِهَا فَاقرَةٌ ﴿٢٥﴾ .

(١) كما في «صحيح البخاري» (٤٩٢٧)، ومسلم (٤٤٨).

(٢) في (ب): «إذا أكمل جبريل قراءة ما أوحى الله إليك».

(٣) في (ب): «واقراه».

(٤) في (ب): «المتعلم المعلم». وعدل عنها الشيخ في هامش (أ) كما هو مثبت.

(٥) في (ب): «حتى».

(٦) في (ب): «وليفهمه فهماً يتمكن به من الكلام عليه».

﴿٢٠ - ٢١﴾ أي: هذا الذي أوجب لكم الغفلة والإعراض عن وعظ الله وتذكيره أنكم ﴿نَحْبُونُ الْعَاجِلَةَ﴾، وتسعون فيما يحصلها وفي لذاتها وشهواتها، وتؤثرونها على الآخرة، فتذرون العمل لها؛ لأنّ الدنيا نعيمها ولذاتها عاجلة، والإنسان مولعٌ بحبِّ العاجل، والآخرة متأخر ما فيها من النعيم المقيم؛ فلذلك غفلتم عنها وتركتموها كأنكم لم تخلقوا لها وكأنّ هذه الدار هي دار القرار التي تُبدّل فيها نفائس الأعمار ويُسعى لها آناء الليل والنهار، وبهذا انقلبت عليكم الحقيقة، وحصل من الخسار ما حصل؛ فلو أثرتم الآخرة على الدنيا ونظرتكم العواقب^(١) نظر البصير العاقل؛ لأنجحتكم وربحتكم ربحاً لا خسار^(٢) معه، وفزتم فوزاً لا شقاء يصحبه.

﴿٢٢ - ٢٣﴾ ثم ذكر ما يدعو إلى إثارة الآخرة ببيان حال أهلها وتفاوتهم فيها، فقال في جزاء المؤثرين للآخرة على الدنيا: ﴿وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ﴾؛ أي: حسنة بهيّة لها رونقٌ ونورٌ مما هم فيه من نعيم القلوب وبهجة النفوس ولذة الأرواح، ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾؛ أي: ينظرون إلى ربهم^(٣) على حسب مراتبهم؛ منهم من ينظره كلّ يوم بكرةً وعشيّاً، ومنهم من ينظره كلّ جمعة مرةً واحدةً، فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم وجماله الباهر الذي ليس كمثله شيءٌ؛ فإذا رأوه؛ نسوا ما هم فيه من النعيم، وحصل لهم من اللذة والسرور ما لا يمكن التعبير عنه، ونضرت وجوههم، فازدادوا^(٤) جمالاً إلى جمالهم، فنسأل الله الكريم أن يجعلنا معهم.

﴿٢٤ - ٢٥﴾ وقال في المؤثرين العاجلة على الآجلة، [و] ﴿وَجُودَ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾؛ أي: معبسةٌ كدرة^(٥) خاشعةٌ ذليلةٌ، ﴿نَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾؛ أي: عقوبةٌ شديدةٌ وعذابٌ أليمٌ؛ فلذلك تغيّرت وجوههم وعبست.

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّفَاقَ﴾^(٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿وَنَظَرَ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾^(٧) وَالْفَنَاءُ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾^(٨) فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾^(٩) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ

(١) في (ب): «للعواقب».

(٢) في (ب): «خسارة».

(٣) في (ب): «تنظر إلى ربها».

(٤) في (ب): «مكدرة».

(٥) في (أ): إلى آخر السورة. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

يَتَمَطَّى ﴿٣٢﴾ أَوَّلَ لَكَ فَأَوَّلَ ﴿٣٣﴾ ثُمَّ أَوَّلَ لَكَ فَأَوَّلَ ﴿٣٤﴾ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٥﴾ أَلَمْ يَخْلُقْنَا مِنْ مَّيِّمٍ يُمْنٍ ﴿٣٦﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ فَخْلَقٍ فَسَوَى ﴿٣٧﴾ لَجَعَلْنَا مِنَ الرَّجَمَنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣٨﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُخَيَّرَ اللَّوْنُ ﴿٣٩﴾ ﴿٤٠﴾ .

﴿٢٦ - ٣٠﴾ يَعِظُ تعالى عباده بذكر المحتضر حال السياق^(١)، وأنه إذا بلغت روحه^(٢) ﴿الترافي﴾: وهي العظام المكتنفة لشجرة النحر؛ فحينئذ يشتد الكرب، ويطلب كل وسيلة وسبب يظن أن يحصل به الشفاء والراحة، ولهذا قال: ﴿وقيل مَنْ راقٍ﴾؛ أي: من يرقيه، من الرقية؛ لأنهم انقطعت آمالهم من الأسباب العادية، فتعلقوا بالأسباب الإلهية^(٣)، ولكن القضاء والقدر إذا حتم وجاء؛ فلا مرد له، ﴿وظنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾: للدنيا، ﴿والتفت السَّاقُ بالسَّاق﴾؛ أي: اجتمعت الشدائد والتفت، وعظم الأمر، وصعب الكرب، وأريد أن تخرج الروح من البدن الذي ألفته^(٤) ولم تزل معه، فتساق إلى الله تعالى ليجازيها^(٥) بأعمالها ويقررها بفعالها؛ فهذا الزجر الذي ذكره الله يسوق القلوب إلى ما فيه نجاتها ويزجرها عما فيه هلاكها.

﴿٣١ - ٣٣﴾ وَلَكِنَّ الْمَعَانِدَ الذي^(٦) لا تنفع فيه الآيات لا يزال مستمراً على غيِّه^(٧) وكفره وعنده، ﴿فلا صدق﴾؛ أي لا آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، ﴿ولا صلى﴾. ولكن كذب: بالحق في مقابلة التصديق، ﴿وتولى﴾: عن الأمر والنهي، هذا وهو مطمئن قلبه غير خائف من ربه، بل ﴿ذهب إلى أهله يَتَمَطَّى﴾؛ أي: ليس على بآله شيء.

﴿٣٤ - ٣٥﴾ ثُمَّ تَوَعَّدَهُ بقوله: ﴿أولى لك فأولى﴾. ثم أولى لك فأولى: وهذه كلمات وعيد؛ كررها لتكرير وعيده.

﴿٣٦ - ٤٠﴾ ثُمَّ ذَكَرَ الْإِنْسَانَ بِخَلْقِهِ الْأَوَّلِ، فقال: ﴿أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾؛ أي: مهملاً^(٨) لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب؟ هذا حساباً باطل

(١) في (ب): «بذكر حال المحتضر عند السياق».

(٢) في (ب): «الروح».

(٣) في (ب): «فلم يبق إلا الأسباب الإلهية».

(٤) في (ب): «أن تخرج الروح التي ألفت البدن».

(٥) في (ب): «حتى يجازيها».

(٦) في (ب): «التي».

(٨) في (ب): «معطلاً».

(٧) في (ب): «بغيه».

وظنُّ بالله غير ما يليق بحكمته. ﴿أَلَمْ يَكْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى . ثُمَّ كَانَ﴾: بعد المنيِّ ﴿عَلَقَةً﴾؛ أي: دماً، ﴿فَخَلَقَ﴾: الله منها الحيوان، وسواه؛ أي: أتقنه وأحكمه، ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى . أَلَيْسَ ذَلِكَ﴾؛ أي: الذي خلق الإنسان وطوره إلى هذه الأطوار المختلفة^(١) ﴿بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُخْبِيَ الْمَوْتَى؟﴾: بلى إنَّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

تم تفسير سورة القيامة . والحمد لله ربِّ العالمين . صلى الله على محمدٍ وسلَّم^(٢) .



تفسير سورة الإنسان

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ (١) ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (٢) ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (٣).

﴿١﴾ ذكر الله في هذه السورة أول حال الإنسان ومنتهاها ومتوسطها^(٣): فذكر أنَّه مرَّ عليه دهرٌ طويلٌ، وهو الذي قبل وجوده، وهو معدوم، بل ليس مذكوراً.

﴿٢﴾ ثُمَّ لَمَّا أَرَادَ خَلْقَهُ؛ خلق أباه آدم من طين، ثم جعل نسله متسلسلاً ﴿من نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾؛ أي: ماء مهين مستقذر، ﴿نَبْتَلِيهِ﴾: بذلك؛ لنعلم هل يرى حاله الأولى ويتفطن لها أم ينساها وتغرَّه نفسه؟ فأنشأه الله وخلق له القوى الظاهرة والباطنة^(٤)؛ كالسمع والبصر وسائر الأعضاء، فأتَمَّها له وجعلها سالمةً يتمكن بها من تحصيل مقاصده.

(١) في (ب): «الذي خلق الإنسان بهذه الأطوار».

(٢) في (ب): «تم تفسير سورة القيامة . والله الحمد والمنة . وذلك في ١٦ صفر سنة ١٣٤٤» .
وجاء في (ب): قبل تفسير سورة الإنسان ما نصه: «المجلد التاسع من «تيسير الرحيم الرحمن في تفسير القرآن» لجامعه الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدي غفر الله له ولوالديه وللمسلمين . آمين» .

(٣) في (ب): «ومبتداها ومتوسطها ومنتهاها» . (٤) في (ب): «الباطنة والظاهرة» .

﴿سلاسل﴾: في نار جهنم؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ﴾، ﴿وَأَغْلَالاً﴾: تُعَلُّ بها أيديهم إلى أعناقهم ويوثقون بها، ﴿وسعيراً﴾؛ أي: ناراً تستعر بها أجسامهم وتُحرق بها أبدانهم، كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ؛ بَدَلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ، وَهَذَا الْعَذَابُ الدَّائِمُ مُؤَبَّدٌ لَهُمْ^(١)، مَخْلُدُونَ فِيهِ سَرْمَداً.

﴿٥﴾ وَأَمَّا ﴿الْأَبْرَارُ﴾، وهم الذين بَرَّتْ قُلُوبُهُمْ بما فيها من معرفة الله ومحَبَّته^(٢) والأخلاق الجميلة؛ فَبَرَّتْ أَعْمَالُهُمْ^(٣)، واستعملوها بأعمال البرِّ، فأخبر^(٤) أَنَّهُمْ ﴿يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ﴾؛ أي: شرابٍ لذيذٍ من خمرٍ [قد] مُزِجَ بِكَافُورٍ؛ أي: خلط به^(٥) لِيَبْرُدَّهُ وَيَكْسِرَ حَدَّتَهُ، وَهَذَا الْكَافُورُ فِي غَايَةِ اللَّذَّةِ، قد سلم من كُلِّ مَكْدَرٍ وَمَنْعَصٍ موجودٍ في كافور الدنيا؛ فَإِنَّ الْآفَةَ الْمَوْجُودَةَ فِي الدُّنْيَا تَعْدَمُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي الْجَنَّةِ^(٦)؛ كما قال تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾، ﴿وَأَزْوَاجٌ مَطَهَّرَةٌ﴾، ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهُهُ الْإِنْفُسُ وتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾.

﴿٦﴾ ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾؛ أي: ذَلِكَ الْكَأْسُ اللَّذِيذُ الَّذِي يَشْرَبُونَهُ لَا يَخَافُونَ نَفَاذَهُ، بَلْ لَهُ مَادَّةٌ لَا تَنْقُطُ، وَهِيَ عَيْنٌ دَائِمَةُ الْفَيْضَانِ وَالْجُرْيَانِ، يَفْجُرُهَا عِبَادُ اللَّهِ تَفْجِيرًا أَتَى شَاؤُوا وَكَيْفَ أَرَادُوا؛ فَإِنْ شَاؤُوا؛ صَرَفُوهَا إِلَى الْبَسَاتِينِ الزَّاهِرَاتِ أَوْ إِلَى الرِّيَاضِ النَّضْرَاتِ، أَوْ بَيْنَ جَوَانِبِ الْقُصُورِ وَالْمَسَاكِنِ الْمَزْخَرَفَاتِ، أَوْ إِلَى أَيِّ جِهَةٍ يَرَوْنَهَا مِنَ الْجِهَاتِ الْمُؤَثَّقَاتِ.

﴿٧﴾ ثُمَّ ذَكَرَ جُمْلَةً مِنْ أَعْمَالِهِمْ^(٧)، فَقَالَ: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾؛ أي: بما أُلْزِمُوا بِهِ أَنْفُسُهُمْ لِلَّهِ مِنَ النَّذُورِ وَالْمَعَاهِدَاتِ، وَإِذَا كَانُوا يُوفُونَ بِالنَّذْرِ الَّذِي هُوَ غَيْرُ وَاجِبٍ فِي الْأَصْلِ عَلَيْهِمْ^(٨) إِلَّا بِإِجَابِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ؛ كَانَ فَعْلُهُمْ وَقِيَامُهُمْ بِالْفُرُوضِ

(١) في (ب): «وهذا العذاب دائم لهم أبداً». (٢) في (ب): «من محبة الله ومعرفة».

(٣) في (ب): «جوارحهم». (٤) في (ب): «أخبر».

(٥) في (ب): «بكافور».

(٦) في (ب): «فإن الآفة الموجودة في الأسماء التي ذكر الله أنها في الجنة وهي في الدنيا تعد من الآخرة».

(٧) في (ب): «وقد ذكر جملة من أعمالهم في أول هذه السورة».

(٨) في (ب): «يوفون بالنذر وهو لم يجب عليهم».

الأصليّة من باب أولى وأحرى، ﴿ويخافون يوماً كان شرُّهُ مستطيراً﴾؛ أي: فاشياً منتشراً، فخافوا أن ينالهم شرُّه، فتركوا كلّ سبب موجب لذلك.

﴿٨ - ١٠﴾ ﴿ويطعمون الطّعامَ على حبِّه﴾؛ أي: وهم في حال يحبُّون فيها المال والطعام، لكنَّهم قدَّموا محبة الله على محبة نفوسهم، ويتحرَّون في إطعامهم أولى الناس وأحوَجهم، ﴿مسكيناً ويَتِيماً وأسيراً﴾: ويقصدون بإففاقهم وإطعامهم وجه الله تعالى، ويقولون بلسان الحال: ﴿إنَّما نطعمُكم لوجه الله لا نريدُ منكم جزاءً ولا شكوراً﴾؛ أي: لا جزاءً مالياً ولا ثناءً قولياً، ﴿إنا نخاف من ربِّنا يوماً عبوساً﴾؛ أي: شديد الجهمة والشرِّ، ﴿قمطيراً﴾؛ أي: ضنكاً ضيقاً.

﴿١١﴾ ﴿فوقاهُمُ اللهُ شرَّ ذلكَ اليومِ﴾: فلا يحزنهم الفزع الأكبر، وتلقَّاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون، ﴿ولقَّاهُم﴾؛ أي: أكرمهم وأعطاهم ﴿نُصرة﴾: في وجوهم، ﴿وسروراً﴾: في قلوبهم، فجمع لهم بين نعيم الظاهر والباطن.

﴿١٢﴾ ﴿وجزاهم بما صبروا﴾: على طاعته^(١) فعملوا ما أمكنهم منها، وعن معاصيه^(٢) فتركوها، وعلى أقداره^(٣) المؤلمة فلم يتسخطوها ﴿جنَّة﴾: جامعة لكلِّ نعيم سالمة من كلّ مكدر ومنغص، ﴿وحريراً﴾؛ كما قال تعالى: ﴿ولباسُهُم فيها حريراً﴾: ولعلَّ الله إنَّما خَصَّ الحريرَ لأنَّه لباسهم الظاهر الدالُّ على حال صاحبه.

﴿١٣﴾ ﴿متكئين فيها على الأرائك﴾: الاتكاء: التمكن من الجلوس في حال الطمأنينة والراحة والرِّفاهية^(٤)، والأرائك هي السُّرر التي عليها اللباس المزيّن، ﴿لا يَرَوْنَ فيها﴾؛ أي: في الجنة ﴿شمساً﴾: يضُرُّهم حرُّها، ﴿ولا زمهرياً﴾؛ أي: برداً شديداً، بل جميع أوقاتهم في ظلِّ ظليل، لا حرّاً ولا برداً؛ بحيث تلتذُّ به الأجساد ولا تتألَّم من حرٍّ ولا بردٍ.

﴿١٤﴾ ﴿ودانيةٌ عليهم ظلالها وذلَّلَتْ قُطُوفُها تَذليلاً﴾؛ أي: قُرِّبَتْ ثمراتها من مريدها تقريباً، ينالها وهو قائمٌ أو^(٥) قاعدٌ أو^(٥) مضطجعٌ.

﴿١٥ - ١٦﴾ ﴿ويُطافُ عليهم﴾؛ أي: يدور الولدان والخدم على أهل الجنة^(٦)،

(١) في (ب): «طاعة الله».

(٢) في (ب): «معاصي الله».

(٣) في (ب): «أقدار الله».

(٤) في (ب): «و».

(٥) في (ب): «ويُطاف» على أهل الجنة؛ أي: يدور عليهم الخدم والولدان.

(٦) في (ب): «في حال الرِّفاهية والطمأنينة».

﴿بَآئِيَةٍ مِنْ فَضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ. قَوَارِيرَ مِنْ فَضَّةٍ﴾؛ أي: مادتها فضة، وهي على صفاء القوارير، وهذا من أعجب الأشياء؛ أن تكون الفضة الكثيفة من صفاء جوهرها وطيب معدنها على صفاء القوارير، ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾؛ أي: قَدَّرُوا الأواني المذكورة على قدرِ رِبِّهِمْ؛ لا تزيد ولا تنقص؛ لأنها لو زادت؛ نقصت لذتها، ولو نقصت؛ لم تكفيهم لِرِبِّهِمْ^(١). ويُحتمل أن المراد: قَدَّرَهَا أَهْلُ الْجَنَّةِ^(٢) بمقدارِ يوافق لذتهم، فأتتهم على ما قَدَّرُوا في خواطرهم.

﴿١٧ - ١٨﴾ ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا﴾؛ أي: الجنة ﴿كَأْسًا﴾: وهو الإناء [المملوء] من خمر ورحيق. ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾؛ أي: خلطها ﴿زَنْجَبِيلًا﴾: ليطيب طعمه وريحه. ﴿عَيْنًا فِيهَا﴾؛ [أي: في الجنة] ﴿تَسْمَى سَلْسَبِيلًا﴾: سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِسلاستها ولذتها وحسنها.

﴿١٩﴾ ﴿وَيُطَوَّفُ﴾: على أهل الجنة في طعامهم وشرابهم وخدمتهم، ﴿وَلِدَانٍ مَخْلُودِينَ﴾؛ أي: خلقوا من الجنة للبقاء؛ لا يتغيرون ولا يكبرون، وهم في غاية الحسن، ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾: منتشرين في خدمتهم، ﴿حَسْبَتْهُمْ﴾: من حسنهم ﴿لَوْلُؤَا مُنْثَوْرًا﴾: وهذا من تمام لذة أهل الجنة؛ أن يكون خُدَامُهُم الولدان المخلدون، الذين تَسُرُّ رؤيتهم، ويدخلون في مساكنهم آمنين من تَبِعَتِهِمْ، ويأتونهم بما يدعون وتطلبه نفوسهم.

﴿٢٠﴾ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾؛ أي: رَمَقْتَ مَا أَهْلُ الْجَنَّةِ عَلَيْهِ^(٣) من النعيم الكامل، ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾: فتجد الواحد منهم عنده من [القصور و] المساكن والغرف المزيّنة المزخرفة ما لا يدركه الوصف، ولديه من البساتين الزاهرة والثمار الدانية والفواكه اللذيذة والأنهار الجارية والرياض المعجبة والطيور المطربة المشججة، ما يأخذ بالقلوب ويُفرِّج النفوس، وعنده من الرِّزْجَاتِ اللَّائِي هُنَّ في غاية الحسن والإحسان الجامعات لجمال الظاهر والباطن الخَيْرَاتِ الْحَسَنِ، ما يملأ القلب سروراً ولذة وحبوراً، وحوله من الولدان المخلدين والخدم المؤبدين ما به تحصل الراحة والطُمَأْنِينَةُ، وتتم لذة العيش وتكمل الغبطة، ثم علاوة ذلك ومعظمه الفوز برضا^(٤) الرب الرحيم وسماع خطابه ولذة قربهِ والابتهاج برضاه والخلود الدائم، وتزايد ما هم فيه من النعيم كل وقتٍ وحين؛ فسبحان المالك الملك^(٥) الحق المبین، الذي لا تَنفَدُ

(١) في (ب): «لم تف برّبهم».

(٢) في (ب): «أي: هناك في الجنة ورمقت ما هم فيه».

(٣) في (ب): «برؤية».

(٤) في (ب): «الملك المالك».

خزائنه ولا يقل خيره؛ كما^(١) لا نهاية لأوصافه؛ فلا نهاية لبره وإحسانه.

﴿٢١﴾ ﴿عاليهم ثياب سندس خضر﴾؛ أي: قد جللتهم ثياب السندس والاستبرق الأخضران اللذان هما أجل أنواع الحرير، فالسندس ما غلظ من الحرير، والاستبرق ما رق منه، ﴿وحلوا أساور من فضة﴾؛ أي: حلوا في أيديهم أساور الفضة؛ ذكورهم وإنائهم. وهذا وعد وعدهم الله، وكان وعده مفعولاً؛ لأنه لا أصدق منه قيلاً ولا حديثاً. وقوله: ﴿وسقاهم ربهم شراباً طهوراً﴾؛ أي: لا كدر فيه بوجه من الوجوه، مطهراً لما في بطونهم من كل أذى وقذى.

﴿٢٢﴾ ﴿[إن] هذا﴾: الجزء الجزيل [والعطاء الجميل] ﴿كان لكم جزاء﴾: على ما أسلفتموه من الأعمال، ﴿وكان سعيكم مشكوراً﴾؛ أي: القليل [منه] يجعل الله لكم به من النعيم [المقيم] ما لا يمكن حصره.

﴿٢٣﴾ وقوله تعالى لما ذكر نعيم الجنة: ﴿إننا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً﴾: فيه الوعد والوعيد وبيان كل ما يحتاجه العباد، وفيه الأمر بالقيام بأوامره وشرائعه أتم القيام والسعي في تنفيذها والصبر على ذلك.

﴿٢٤﴾ ولهذا قال: ﴿فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً﴾؛ أي: اصبر لحكمه القدري؛ فلا تسخطه، ولحكمه الديني؛ فامض عليه، ولا يعوقك عنه عائق، ﴿ولا تطع﴾: من المعاندين الذين يريدون أن يصدوك ﴿آثماً﴾؛ أي: فاعلاً إثمًا ومعصية، ﴿ولا كفوراً﴾: فإن طاعة الكفار والفجار والفساق لا بد أن تكون معصية لله^(٢)؛ فإنهم لا يأمرون إلا بما تهواه أنفسهم.

﴿٢٥﴾ ولما كان الصبر يستمد من القيام بطاعة الله^(٣) والإكثار من ذكره؛ أمر^(٤) الله بذلك، فقال: ﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً﴾؛ أي: أول النهار وآخره، فدخل في ذلك الصلوات المكتوبات، وما يتبعها من النوافل والذكر والتسبيح والتلهيل والتكبير في هذه الأوقات.

﴿٢٦﴾ ﴿ومن الليل فاسجد له﴾؛ أي: أكثر له من السجود، وذلك متضمن لكثرة الصلاة^(٥)، ﴿وسبحه ليلاً طويلاً﴾: وقد تقدم تقييد هذا المطلق بقوله: ﴿يا

(١) في (ب): «فكما».

(٢) في (ب): «ولما كان الصبر يساعده القيام بعبادة الله».

(٣) في (ب): «أمره الله».

(٤) في (ب): «أي: أكثر من السجود، ولا يكون ذلك إلا بالإكثار من الصلاة».

أَيُّهَا الْمَزْمُلُ. قَمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً. نِصْفُهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً. أَوْ زِدْ عَلَيْهِ... ﴿٢٧﴾

﴿٢٧﴾ وقوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾؛ أي: المكذِّبين لك أيها الرسول بعدما بَيَّنَّتْ لَهُمُ الْآيَاتُ وَرَغَّبُوا وَرَهَّبُوا، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يُفِذْ فِيهِمْ ذَلِكَ شَيْئاً، بَلْ لَا يَزَالُونَ يُؤْثِرُونَ ﴿الْعَاجِلَةَ﴾: وَيُطْمَثِّنُونَ إِلَيْهَا، ﴿وَيَذَرُونَ﴾؛ أي: يَتْرَكُونَ الْعَمَلَ وَيَهْمِلُونَ ﴿وَرَاءَهُمْ﴾؛ أي: أَمَامَهُمْ ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾: وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، الَّذِي مَقْدَارُهُ خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعْدُونَ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾؛ فَكَأَنَّهُمْ مَا خُلِقُوا إِلَّا لِلدُّنْيَا وَالْإِقَامَةِ فِيهَا.

﴿٢٨﴾ ثُمَّ اسْتَدَلَّ عَلَيْهِمْ وَعَلَى بَعْثِهِمْ بِدَلِيلٍ عَقْلِيٍّ، وَهُوَ دَلِيلُ الْإِبْتِدَاءِ، فَقَالَ: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ﴾؛ أي: أَوْجَدْنَاهُمْ مِنَ الْعَدَمِ، ﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾؛ أي: أَحْكَمْنَا خَلْقَتَهُمْ بِالْأَعْصَابِ وَالْعُرُوقِ وَالْأَوْتَارِ وَالْقُوَى الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، حَتَّى تَمَّ الْجِسْمُ وَاسْتَكْمَلَ وَتَمَكَّنَ مِنْ كُلِّ مَا يَرِيدُهُ؛ فَالَّذِي أَوْجَدَهُمْ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَعِيدَهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ لَجَزَائِهِمْ، وَالَّذِي نَقَّلَهُمْ فِي هَذِهِ الدَّارِ إِلَى هَذِهِ الْأَطْوَارِ لَا يَلِيقُ بِهِ أَنْ يَتَزَكَّاهُمْ سَدَى، لَا يُؤْمَرُونَ، وَلَا يُنْهَوْنَ، وَلَا يُثَابُونَ، وَلَا يُعَاقَبُونَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾؛ أي: أَنْشَأْنَاكُمْ لِلْبَعْثِ نَشْأَةً أُخْرَى، وَأَعَدْنَاكُمْ بِأَعْيَانِكُمْ، وَهَمَّ بِأَنْفُسِهِمْ أَمْثَالَهُمْ.

﴿٢٩﴾ ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾؛ أي: يَتَذَكَّرُ بِهَا الْمُؤْمِنُ، فَيَنْتَفِعُ بِمَا فِيهَا مِنَ التَّخْوِيفِ وَالتَّرْغِيبِ، ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾؛ أي: طَرِيقاً مُوصِلاً إِلَيْهِ؛ فَاللَّهُ يَبَيِّنُ الْحَقَّ وَالْهَدَى، ثُمَّ يَخَيِّرُ النَّاسَ بَيْنَ الْإِهْتِدَاءِ بِهَا أَوْ التُّفُورِ عَنْهَا؛ إِقَامَةً لِلْحُجَّةِ^(١)؛ لِيَهْلِكَ مِنْ هَٰلِكَ عَنْ يَبِئَةٍ، وَيَحْيَا مِنْ حَيٍّ عَنْ يَبِئَةٍ.

﴿٣٠﴾ ﴿وَمَا تَشَاوُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾: فَإِنَّ مَشِئَةَ اللَّهِ نَافِذَةٌ. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾: فَلَهُ الْحِكْمَةُ فِي هِدَايَةِ الْمَهْتَدِي وَإِضْلَالِ الضَّالِّ.

﴿٣١﴾ ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾: فَيَخْتَصُّهُ بِعَنَائَتِهِ، وَيُوفِّقُهُ لَأَسْبَابِ السَّعَادَةِ، وَيَهْدِيهِ لَطُرُقِهَا، ﴿وَالظَّالِمِينَ﴾: الَّذِينَ اخْتَارُوا الشَّقَاءَ عَلَى الْهَدَى، ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيماً﴾: بِظُلْمِهِمْ وَعَدْوَانِهِمْ.

تمت. ولله الحمد^(٢).



(١) فِي (ب): «مَعَ قِيَامِ الْحُجَّةِ».

(٢) فِي (ب): «تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْإِنْسَانِ. وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمُنَّة».

تفسير سورة المرسلات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتُ عُرْفًا﴾ ^(١) ﴿فَالْعَصْفَاتُ عَصْفًا﴾ ^(٢) ﴿وَالنَّشِيرَاتُ شَرًّا﴾ ^(٣) ﴿فَالْمُلْقَاتُ نَزًّا﴾ ^(٤) ﴿فَالْمُلْقَاتُ نَزًّا﴾ ^(٥) ﴿عُذْرًا أَوْ نَذْرًا﴾ ^(٦) ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ ^(٧) ﴿فَإِذَا الثُّجُمُ طُمِسَتْ﴾ ^(٨) ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ ^(٩) ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِفَتْ﴾ ^(١٠) ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِنَتْ﴾ ^(١١) ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ﴾ ^(١٢) ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ ^(١٣) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ ^(١٤) ﴿وَبَلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ^(١٥) .

﴿١ - ٦﴾ أقسم تعالى على البعث والجزاء على الأعمال بـ ﴿الْمُرْسَلَاتُ عُرْفًا﴾: وهي الملائكة التي يرسلها الله تعالى بشؤونه القدريّة وتدبير العالم، وبشؤونه الشرعيّة ووحيه إلى رسله، و ﴿عُرْفًا﴾: حال من المرسلات؛ أي: أرسلت بالعُرف والحكمة والمصلحة، لا بالثُكر والعبث. ﴿فَالْعَصْفَاتُ عَصْفًا﴾: وهي أيضاً الملائكة التي يرسلها الله تعالى، وَصَفَهَا بالمبادرة لأمره وسرعة تنفيذ أوامره كالريح العاصف أو أَنَّ العاصفات الرياح الشديدة التي يُسرِعُ هبوبها، ﴿وَالنَّاشِرَاتُ نَشْرًا﴾: يُحْتَمَلُ أَنَّ المراد بها الملائكة ^(١)؛ تنشر ما دُبِّرَتْ على نشره، أو أَنَّها السحاب التي يَنْشُرُ الله بها الأرض فيحييها بعد موتها. ﴿فَالْمُلْقَاتُ نَزًّا﴾: هي الملائكة تلقي أشرف الأوامر، وهو الذُّكْرُ الذي يرحم الله به عباده، ويذكّرهم فيه منافعهم ومصالحهم؛ تلقيه إلى الرسل ﴿عُذْرًا أَوْ نَذْرًا﴾؛ أي: إغذاراً وإنذاراً للناس؛ تنذر الناس ما أمامهم من المخاوف وتقطع أعدارهم ^(٢)؛ فلا يكون لهم حُجَّةٌ على الله. ﴿٧﴾ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾: من البعث والجزاء على الأعمال ﴿لَوَاقِعٌ﴾؛ أي: متحقّم وقوعه من غير شك ولا ارتياب.

﴿٨ - ١٤﴾ فإذا وقع؛ حصل من التغيّر ^(٤) للعالم والأحوال الشديدة ما يزعج القلوب وتشتدّ له الكروب فتتطمس الثُّجُم؛ أي: تتناثر وتزول عن أماكنها، وتُسَفّ الجبال، فتكون كالهباء المنثور، وتكون هي والأرض قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها

(١) في (أ): «إلى قوله»: «وبلّ يومئذ للمكذّبين». وفي (ب): ذكر الآيات.

(٢) في (ب): «يحتمل أنها الملائكة». (٣) في (ب): «معذرتهم».

(٤) في (ب): «التغيير».

عوجاً ولا أمتاً، وذلك اليوم هو اليوم الذي ﴿أُقْتُتْ﴾ فيه الرسل، وأُجِلَّتْ للحكم بينها وبين أممها، ولهذا قال: ﴿لَأَيَّ يَوْمٍ أُجِلَّتْ﴾: استفهامٌ للتعظيم والتفخيم والتهويل، ثم أجاب بقوله: ﴿ليوم الفصل﴾؛ أي: بين الخلاق بعضهم من بعض، وحساب كل منهم منفرداً.

﴿١٥﴾ ثم توعد المكذب بهذا اليوم، فقال: ﴿ويلٌ يومئذ للمكذِبِينَ﴾؛ أي: يا حسرتهم وشدة عذابهم وسوء منقلبهم، أخبرهم الله وأقسم لهم فلم يصدقوه؛ فلذلك استحقوا^(١) العقوبة البليغة.

﴿أَلَمْ تَكُنْ مِنَ الْآوَلِينَ﴾ (١٦) ﴿ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ (١٧) ﴿كَذَلِكَ نَفْعِلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ (١٨) ﴿وَيَلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِبِينَ﴾ (١٩).

﴿١٦ - ١٩﴾ أي: أما أهلكنا المكذِبِينَ السابقين، ثم نتبعهم بإهلاك من كذب من الآخرين، وهذه سنته السابقة واللاحقة في كل مجرم، لا بد من عقابه^(٢)، فلم لا تعتبرون بما ترون وتسمعون؟! ﴿ويلٌ يومئذ للمكذِبِينَ﴾: بعدما شاهدوا من الآيات البينات والعقوبات والمثلات.

﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ (٢٠) ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ (٢١) ﴿إِنَّ قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (٢٢) ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ (٢٣) ﴿وَيَلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِبِينَ﴾ (٢٤).

﴿٢٠ - ٢٤﴾ أي: أما خلقناكم أيها آدميئون ﴿من ماءٍ مهين﴾؛ أي: في غاية الحقارة، خرج من بين الصلب والترائب، حتى جعله الله ﴿في قرارٍ مكين﴾: وهو الرحم به يستقر وينمو، ﴿إلى قدر معلوم﴾: ووقتٍ مقدّر. ﴿فقدَرْنَا﴾؛ أي: قدَرْنَا ودَبَرْنَا ذلك الجنين في تلك الظلمات، ونقلناه من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى أن جعله الله جسداً و^(٣)نفخ فيه الروح، ومنهم من يموت قبل ذلك. ﴿فنعم القادرون﴾؛ يعني بذلك نفسه المقدسة؛ لأنَّ قَدَرَهُ تابعٌ لحكمته موافقٌ للحمد^(٤). ﴿ويلٌ يومئذ للمكذِبِينَ﴾، [بعد ما بيّن الله لهم الآيات وأراهم العبر والبيّنات].

(٢) في (ب): «عذابه».

(١) في (ب): «فاستحقوا».

(٣) في (ب): «ثم».

(٤) في (ب): «حيث كان قدراً تابعاً للحكمة وموافقاً للحمد».

﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوْاسِيَّ شِمِخْلَتٍ وَأَسْفَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ الْكَذِبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ .

﴿٢٥ - ٢٨﴾ أي: أما مَنَّا^(١) عليكم وأنعمنا بتسخير الأرض لمصالحكم فجعلناها ﴿كِفَاتًا﴾: لكم، ﴿أَحْيَاءً﴾: في الدور، ﴿وَأَمْوَاتًا﴾: في القبور؛ فكما أن الدور والقصور من نعم الله على عباده ومُنْتَهَى؛ فكذلك القبور رحمة في حقهم وسترٌ لهم عن كون أجسادهم باديةً للَسَّبَاعِ وغيرها. ﴿وجعلنا فيها رواسي﴾؛ أي: جبالاً ترسي الأرض لئلا تميذ بأهلها، فثبَّتْها الله بالجبال الراسيات الشامخات؛ أي: الطوال العراض. ﴿وَأَسْفَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾؛ أي: عذاباً زللاً؛ قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ. أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ. لو نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾. ﴿ويل يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾: مع ما أراهم الله من النعم التي انفرد بها، واختصَّهم بها فقابلوها بالكذب.

﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٢٩﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظِلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾ .

﴿٢٩ - ٣٤﴾ هذا من الويل الذي أعد للمجرمين المكذبين أن يقال لهم يوم القيامة: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾: ثم فسر ذلك بقوله: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾؛ أي: إلى ظل نار جهنم التي^(٢) تتمايز في خلاله ثلاث شعب؛ أي: قطع من النار تتعاوره^(٣) وتتناوبه وتجتمع به. ﴿لا ظليل﴾: ذلك الظل؛ أي: لا راحة فيه ولا طمأنينة، ﴿ولا يغني﴾: من مكث فيه ﴿من الَّهَبِ﴾: بل الَّهَبُ قد أحاط به يمنةً ويسرةً ومن كل جانب؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾، ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

ثم ذكر عِظَمَ شرر النار الدال على عظمها وفضاعتها وسوء منظرها، فقال: ﴿إنها ترمي بشررٍ كالقصر. كأنه جمالة صفر﴾: وهي السود التي تضرب إلى لون فيه صفرة، ولهذا يدل على أن النار مظلمة لخبثها وجرها وشررها، وأنها سوداء كريهة

(٢) في (ب): «الذي».

(١) في (ب): «أما مَنَّا».

(٣) في (ب): «أي: تتعاوره».

المنظر^(١) شديدة الحرارة؛ نسأل الله العافية منها، ومن الأعمال المقربة منها. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الشَّكْدِينَ ﴿٣٧﴾ هَذَا يَوْمٌ الْفَصْلِ جَمْعُكُمْ وَالْأُولَى ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الشَّكْدِينَ ﴿٤٠﴾.

﴿٣٥ - ٣٧﴾ أي: هذا اليوم العظيم الشديد على المكذبين، لا ينطقون فيه من الخوف والوجل الشديد، ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾؛ أي: لا تقبل معذرتهم ولو اعتذروا. ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعِذَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

﴿٣٨ - ٤٠﴾ ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمْعُكُمْ وَالْأُولَى﴾: لفصل بينكم ونحكم بين الخلائق. ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾: تقديرون على الخروج عن ملكي وتنجون به من عذابي، ﴿فَكِيدُونِ﴾؛ أي: ليس لكم قدرة ولا سلطان؛ كما قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتِطْعَمْتُمْ أَنْ تُنَفِّذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا، لَا تُنْفَذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾؛ ففي ذلك اليوم تبطل حيل الظالمين، ويضمحل مكرهم وكيدهم ويستسلمون لعذاب الله، ويبين لهم كذبهم في تكذيبهم. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ (٤١) وَفُؤَاكِهِ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُّوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْحَسَنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الشَّكْدِينَ ﴿٤٥﴾.

﴿٤١ - ٤٣﴾ ﴿لَمَّا ذَكَرَ عَقوبَةُ الْمُكَذِّبِينَ؛ ذَكَرَ مَثُوبَةُ^(٢) الْمُحْسِنِينَ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: للتكذيب، المتصفين بالتصديق في أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم، ولا يكونون كذلك إلا بأدائهم الواجبات وتركهم المحرمات، ﴿فِي ظِلَالٍ﴾: من كثرة الأشجار المتنوعة الزاهرة^(٣) البهية، ﴿وَعُيُونٍ﴾: جارية من السلسيل والرحيق وغيرهما، ﴿وَفُؤَاكِهِ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾؛ أي: من خيار الفواكه وأطيبها^(٤)، ويقال لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾: من المأكَل الشهية والأشربة اللذيذة، ﴿هَنِيئًا﴾؛ أي: من غير منغص ولا مكدر، ولا يتم هناؤه حتى يسلم الطعام والشراب من كل آفة ونقص،

(١) في (ب): «كربة المراءى».

(٢) في (ب): «ثواب».

(٣) في (ب): «الزاهية».

(٤) في (ب): «وطيها».

وحتى يجزموا أنه غير منقطع ولا زائل؛ ﴿بما كنتم تعملون﴾: فأعمالكم هي السبب الموصول لكم إلى جنات النعيم^(١) المقيم، وهكذا كل من أحسن في عبادة الله وأحسن إلى عباد الله، ولهذا قال: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾: ولو لم يكن من هذا الويل إلا فوات هذا النعيم؛ لكفى به حزناً وحرماناً^(٢).

﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ﴾ (٤٦) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا اللَّهَ لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدُ يُؤْمِنُونَ (٥٠) ﴿

﴿٤٦ - ٥٠﴾ هذا تهديد ووعد للمكذبين أنهم وإن أكلوا في الدنيا وشربوا وتمتعوا باللذات وغفلوا عن القربات؛ فإنهم مجرمون يستحقون ما يستحقه المجرمون، فتقطع عنهم اللذات، وتبقى عليهم التبعات. ومن إجرامهم أنهم إذا أمروا بالصلاة التي هي أشرف العبادات، و﴿قيل لهم اركعوا﴾: امتنعوا من ذلك؛ فأئي إجرام فوق هذا؟ وأئي تكذيب يزيد على هذا؟ ﴿ويَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾: ومن الويل عليهم أنهم تنسأ عنهم^(٣) أبواب التوفيق ويخرمون كل خير؛ فإنهم إذا كذبوا هذا القرآن الذي هو أعلى مراتب الصدق واليقين على الإطلاق؛ ﴿فإني حديثٌ بعده يؤمنون﴾: ألباطل الذي هو كاسمه لا يقوم عليه شبهة فضلاً عن الدليل؟ أم بكلام^(٤) مشرك كذاب أفاك ميين؟ فليس بعد الثور المبين إلا دياجي الظلمات، ولا بعد الصدق الذي قامت الأدلة والبراهين القاطعة إلا الإفك الصراح والكذب المبين^(٥) الذي لا يليق إلا بمن يناسبه؛ فتباً لهم ما أعماهم! وويحاً لهم ما أخسرهم وأشقاهم! نسأل الله العفو والعافية؛ إنه جواد كريم.

تمت .



(١) في (ب): «إلى هذا النعيم».

(٢) في (ب): «عليهم».

(٣) في (ب): «بكلام كل».

(٤) في (ب): «قامت الأدلة والبراهين على صدقه إلا الكذب الصراح والإفك المبين».

تفسير سورة عم

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١) عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُوَ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ .

١ - ٥ ﴿٥﴾ أي: عن أي شيء يتساءل المكذبون بآيات الله؟ ثم بين ما يتساءلون عنه فقال: ﴿عن النبي العظيم. الذي هم فيه مختلفون﴾؛ أي: عن الخبر العظيم الذي طال فيه نزاعهم وانتشر فيه خلافهم على وجه التكذيب والاستبعاد، وهو النبا الذي لا يقبل الشك ولا يدخله الريب، ولكن المكذبون بقاء ربهم لا يؤمنون، ولو جاءتهم كل آية، حتى يَرَوْا العذاب الأليم، ولهذا قال: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ. ثم كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾؛ أي: سيعلمون إذا نزل بهم العذاب ما كانوا به يكذبون حين ﴿يَدْعُونَ إلى نار جهنم دعا﴾. ويقال لهم: ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾. ثم ذكر^(١) تعالى النعم والأدلة الدالة على ما جاءت^(٢) به الرسل فقال:

﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ (١) ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (٢) ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ (٣) ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ (٤) ﴿وَجَعَلْنَا أَيْلًا لِّبَاسًا﴾ (٥) ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ (٦) ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ (٧) ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ (٨) ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ (٩) ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ (١٠) ﴿وَجَعَلْنَا أَلْفَاظًا﴾ (١١) .

٦ - ١٦ ﴿٦﴾ أي: أما أنعمنا عليكم بنعم جلييلة، فجعلنا لكم ﴿الأرض مهادًا﴾؛ أي: ممهدة مذللة^(١) لكم ولمصلحكم من الحروث والمسكن والسبل، ﴿والجبال أوتادًا﴾: تمسك الأرض لئلا تضطرب بكم وتميد، ﴿وخلقناكم أزواجًا﴾؛ أي: ذكورا وإناثا من جنس واحد؛ ليسكن كل منهما إلى الآخر، فتتكون^(٥) المودة والرحمة، وتنشأ عنهما الذرية. وفي ضمن هذا الامتنان بلذة المنكح. ﴿وجعلنا نومكم سباتًا﴾؛ أي: راحة لكم وقطعا لأشغالكم التي متى تمادت بكم؛ أضرت

(١) في (ب): «بين».

(٢) في (ب): «أخبرت».

(٣) في (أ): إلى قوله: ﴿ألفاظًا﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.

(٥) في (ب): «فتكون».

(٤) في (ب): «مهيئة».

بأبدانكم، فجعل الله الليل والنوم يُغشي الناس لتسكن^(١) حركاتهم الضارة وتحصل راحتهم النافعة، ﴿وبنينا فوقكم سبْعاً شِدَاداً﴾؛ أي: سبع سماوات في غاية القوة والصلابة والشدة، وقد أمسكها الله بقدرته، وجعلها سقفا للأرض، فيها عدة منافع لهم، ولهذا ذكر من منافع الشمس، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً﴾: نبه بالسراج على النعمة بنورها الذي صار ضرورة للخلق، وبالوهَّاج - وهي حرارتها - على ما فيها من الإنضاج والمنافع^(٢)، ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾؛ أي: السحاب ﴿مَاءً ثَجَّاجاً﴾؛ أي: كثيراً جداً؛ ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً﴾: من برّ وشعير وذرة وأرز وغير ذلك مما يأكله آدميون، ﴿ونباتاً﴾: يشمل سائر النباتات الذي جعله الله قوتاً لمواشيهم، ﴿وجنات ألفافاً﴾؛ أي: بساتين ملتفة فيها من جميع أصناف الفواكه اللذيذة؛ فالذي أنعم [عليكم] بهذه النعم الجليلة^(٣) التي لا يقدر قدرها ولا يحصى عددها؛ كيف تكفرون به وتكذبون ما أخبركم به من البعث والتشور؟! أم كيف تستعينون بنعمه على معاصيه وتجحدونها؟!

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتاً﴾ (١٧) ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَأَتُونَ أَفْوَاجاً﴾ (١٨) ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً﴾ (١٩) ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً﴾ (٢٠) ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً﴾ (٢١) ﴿لِلطَّغْيَيْنِ مَتَاباً﴾ (٢٢) ﴿لَيْسِينَ فِيهَا أَحْقَاباً﴾ (٢٣) ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَاباً﴾ (٢٤) ﴿إِلَّا حَيْمًا وَغَسَاقًا﴾ (٢٥) ﴿جَزَاءً وَفَاقاً﴾ (٢٦) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً﴾ (٢٧) ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَاباً﴾ (٢٨) ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً﴾ (٢٩) ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً﴾ (٣٠) .

﴿١٧ - ٢٥﴾ ذكر الله تعالى ما يكون في يوم القيامة الذي يتساءل عنه المكذبون ويحجده المعاندون؛ أنه يومٌ عظيم، وأن الله جعله ﴿مِيقَاتاً﴾ للخلق، ﴿يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ فيأتون ﴿أفواجاً﴾: ويجري فيه من الزعازع والقلقل ما يشيب له المولود^(٥) وتزعج له القلوب، ففسير الجبال حتى تكون كالهباء المبوث، وتنشق^(٦)

(١) في (ب): «فتنقطع».

(٢) في (ب): «كالضرورة للخلق، وبالوهاج الذي فيه الحرارة على حرارتها وما فيها من المصالح».

(٣) في (ب): «العظيمة».

(٤) في (أ): «إلى قوله: ﴿فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.

(٥) في (ب): «الوليد».

(٦) في (ب): «وتشق».

السماء حتى تكون أبواباً، ويفصل الله بين الخلائق بحكمه الذي لا يجور، وتوقد نار جهنم التي أرسدها الله وأعدّها للطّاغين وجعلها مثوى لهم ومأبأ، وأنهم يلبثون فيها أحقاباً كثيرة، والحقب على ما قاله كثير من المفسرين ثمانون سنة؛ فإذا وردوها^(١)؛ ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾؛ أي: لا ما يبرّد جلودهم ولا ما يدفع ظمأهم؛ ﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾؛ أي: ماء حارّاً يشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم ﴿وَعَسَاقًا﴾: وهو صديد أهل النار: الذي هو في غاية التّن وكراهة المذاق.

﴿٢٦ - ٣٠﴾ وإِنَّمَا اسْتَحَقُّوا هَذِهِ الْعُقُوبَاتِ الْفُظْيِعَةَ جَزَاءً لَهُمْ وَفَاقًا عَلَى مَا عَمِلُوا مِنَ الْأَعْمَالِ الْمُوَصَّلَةِ إِلَيْهَا، لَمْ يَظْلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، وَلِهَذَا ذَكَرَ أَعْمَالَهُمُ الَّتِي اسْتَحَقُّوا بِهَا هَذَا الْجَزَاءَ، فَقَالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾؛ أي: لَا يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ، وَلَا أَنَّ اللَّهَ يَجَازِي الْخَلْقَ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ؛ فَلِذَلِكَ أَهْمَلُوا الْعَمَلَ لِلْآخِرَةِ، ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾؛ أي: كَذَّبُوا بِهَا تَكْذِيبًا وَاضِحًا صَرِيحًا، وَجَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَانَدُوهَا، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾: مِنْ قَلِيلٍ وَكَثِيرٍ وَخَيْرٍ وَشَرٍّ، ﴿أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾؛ أي: أَثْبَتْنَاهُ^(٢) فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ؛ فَلَا يَحْسَبُ^(٣) الْمَجْرُمُونَ أَنَّا عَذَبْنَاهُمْ بِذُنُوبٍ لَمْ يَعْمَلُوهَا، وَلَا يَحْسِبُوا أَنَّهُ يَضِيعُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ شَيْءٌ أَوْ يُنْسَى مِنْهَا مِثْقَالُ ذَرَّةٍ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمَجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾. ﴿فَذُوقُوا﴾: أَيُّهَا الْمَكْذِبُونَ هَذَا الْعَذَابُ الْأَلِيمُ وَالْخِزْيُ الدَّائِمُ، ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾: فَكُلُّ وَقْتٍ وَحِينٍ يَزْدَادُ عَذَابُهُمْ. وَهَذِهِ الْآيَةُ أَشَدُّ الْآيَاتِ فِي شِدَّةِ عَذَابِ أَهْلِ النَّارِ، أَجَارَنَا اللَّهُ مِنْهَا.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾^(٤) ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾^(٥) ﴿وَوَاعِبَ آرَافًا﴾^(٦) ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾^(٧) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴿جَزَاءً مِمَّنْ رَبَّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾.

﴿٣١ - ٣٦﴾ لَمَّا ذَكَرَ حَالَ الْمَجْرِمِينَ؛ ذَكَرَ مَالَ الْمُتَّقِينَ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾؛ أي: الَّذِينَ^(٥) اتَّقَوْا سَخَطَ رَبِّهِمْ بِالْتَّمَسُّكَ بِطَاعَتِهِ وَالْانْكَفَافِ عَنْ

(١) فِي (ب): «وَهُمْ إِذَا وَرَدُوهَا». (٢) فِي (ب): «كُتِبْنَاهُ».

(٣) فِي (ب): «فَلَا يَخْشَى».

(٤) فِي (أ): إِلَى قَوْلِهِ: «عَطَاءً حِسَابًا». وَفِي (ب) ذَكَرَ الْآيَاتِ.

(٥) فِي (ب): «إِنَّ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ...».

معصيته^(١)؛ فلهم مفاز ومنجى وبعد عن النار، وفي ذلك المفاز لهم ﴿حداثق﴾: وهي البساتين الجامعة لأصناف الأشجار الزاهية بالثمار التي تتفجر بين خلالها الأنهار، وخص العنب^(٢) لشرفه وكثرته في تلك الحداثق. ولهم فيها زوجات على مطالب النفوس ﴿كواعب﴾: وهي النواهد اللاتي لم تتكسر ثديهن من شبابهن وقوتهن ونضارتهن^(٣). والأتراب اللاتي على سن واحد متقارب، ومن عادة الأتراب أن يكن متآلفات^(٤) متعاشرات، وذلك السن الذي هن فيه ثلاث وثلاثون سنة أعدل ما يكون من الشباب^(٥)، ﴿وكأساً دهاقاً﴾؛ أي: مملوءة من رحيق لذة للشاربين، ﴿لا يسمعون فيها لغواً﴾؛ أي: كلاماً لا فائدة فيه، ﴿ولا كذاباً﴾؛ أي: إثماً؛ كما قال تعالى: ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً. إلا قَيْلاً سلاماً سلاماً﴾، وإثماً أعطاهم الله هذا الثواب الجزيل من فضله وإحسانه^(٦). ﴿عطاء حساباً﴾؛ أي: بسبب أعمالهم التي وفقهم الله لها، وجعلها سبباً للوصول إلى كرامته^(٧).

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً﴾ (٣٧) ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْبَاطِنُ صَفّاً لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً﴾ (٣٨) ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَتَاباً﴾ (٣٩) ﴿إِنَّا أَنْزَرْنَكُمْ عَبْدًا قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً﴾ (٤٠).

﴿٣٧ - ٣٩﴾ أي: الذي أعطاهم هذه العطايا هو ربهم، ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: الذي خلقها ودبرها. ﴿الرحمن﴾: الذي رحمته وسعت كل شيء، فرباهم ورحمهم ولطف بهم حتى أدركوا ما أدركوا. ثم ذكر عظمته وملكه العظيم يوم القيامة، وأن جميع الخلق كلهم ساكتون ذلك اليوم^(٩) لا يتكلمون و ﴿لا يملكون منه خطاباً﴾؛ ﴿إلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً﴾: فلا يتكلم أحد إلا

(١) في (ب): «عما يكرهه».

(٢) في (ب): «وهي الناهد التي لم ينكسر ثديها من شبابها ونضارتها وقوتها».

(٣) في (ب): «متآلفات».

(٤) في (ب): «في أعدل سن الشباب».

(٥) في (ب): «هذا الثواب الجزيل جزاء من ربك لهم».

(٦) في (ب): «وجعلها ثمناً لجنته ونعيمها».

(٧) في (أ): «إلى آخر السورة. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة».

(٨) في (ب): «ذلك اليوم ساكتون».

بهذين الشرطين: أن يأذن الله له في الكلام، وأن يكون ما تكلم به صواباً؛ لأنّ ﴿ذلك اليوم﴾ [هو] ﴿الحق﴾: الذي لا يروج فيه الباطل ولا ينفع فيه الكذب. وفي ذلك اليوم ﴿يقوم الروح﴾: وهو جبريل عليه السلام، الذي هو أفضل^(١) الملائكة، ﴿والملائكة﴾: أيضاً يقوم الجميع ﴿صفاً﴾: خاضعين لله، لا يتكلمون إلاّ بإذنه^(٢). فلما رغب ورهب وبشّر وأنذر؛ قال: ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً﴾؛ أي: عملاً وقدم صدق يرجع إليه يوم القيامة.

﴿٤٠﴾ ﴿إنا أنذرناكم عذاباً قريباً﴾: لأنّه قد أرف مقبلاً، وكل ما هو آت [فهو] قريب. ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه﴾؛ أي: هذا الذي يهّمه ويفزع إليه، فليُنظر في هذه الدار ما قدّم لدار القرار^(٣)، ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إنّ الله خبير بما تعملون...﴾ الآيات؛ فإن وجد خيراً؛ فليحمد الله، وإن وجد غير ذلك؛ فلا يلومنّ إلا نفسه. ولهذا كان الكفار يتمنون الموت من شدة الحسرة والندم. نسأل الله أن يعافينا من الكفر والشرّ كلّه إنّهُ جواد كريم.

تمت (٤).



تفسير سورة النزاعات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرَقًا﴾ (١) ﴿وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا﴾ (٢) ﴿وَالسَّادِحَاتِ سَبْحًا﴾ (٣) ﴿فَالسَّيْفَتِ سَبْحًا﴾ (٤) ﴿فَالْمَدِيرَاتِ أَمْرًا﴾ (٥) ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّائِفَةُ﴾ (٦) ﴿تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ (٧) ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ (٨) ﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾ (٩) ﴿يَقُولُونَ أَوْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ (١٠) ﴿أَوْدَا كُنَّا عِظْلًا نَحِرَةً﴾ (١١) ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ (١٢) ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرًا وَجِدَةٌ﴾ (١٣) ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ (١٤).

(١) في (ب): «أشرف».

(٢) في (ب): «أشرف».

(٣) في (ب): «فليُنظر في هذه الدنيا إليه كما قال تعالى».

(٤) طمس الذي في (أ). وفي (ب): «تمّ تفسير سورة عم. والحمد لله رب العالمين».

(٥) في (أ): إلى قوله: «فإذا هم بالساهرة». وفي (ب): ذكر الآيات.

﴿١ - ٥﴾ هُذِهِ الْإِقْسَامَاتُ بِالْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ وَأَفْعَالُهُمُ الدَّالَّةُ عَلَى كَمَالِ انْقِيَادِهِمْ لِأَمْرِ اللَّهِ وَإِسْرَاعِهِمْ فِي تَنْفِيزِهِ^(١)؛ يُحْتَمَلُ أَنَّ الْمَقْسَمَ عَلَيْهِ الْجِزَاءُ وَالْبَعْثُ؛ بِدَلِيلِ الْإِتْيَانِ بِأَحْوَالِ الْقِيَامَةِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الْمَقْسَمَ عَلَيْهِ وَالْمَقْسَمُ بِهِ مَتَّحِدَانِ، وَأَنَّهُ أَقْسَمَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ بِهِمْ أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ السَّتَّةِ، وَلِأَنَّ فِي ذِكْرِ أَعْمَالِهِمْ هُنَا مَا يَتَضَمَّنُ الْجِزَاءَ الَّذِي تَتَوَلَّاهُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ الْمَوْتِ وَقَبْلَهُ وَبَعْدَهُ، فَقَالَ: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾: وَهِيَ الْمَلَائِكَةُ الَّتِي تَنْزِعُ الْأَرْوَاحَ بِقُوَّةٍ، وَتَغْرُقُ فِي نَزْعِهَا حَتَّى تَخْرُجَ الرُّوحَ فَتَجَاوِزَ بِعَمَلِهَا. ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾: وَهِيَ الْمَلَائِكَةُ أَيْضًا تَجْتَذِبُ الْأَرْوَاحَ بِقُوَّةٍ وَنَشَاطٍ، أَوْ أَنَّ النِّشْطَ^(٢) يَكُونُ لِأَرْوَاحِ الْمُؤْمِنِينَ وَالنِّزْعُ لِأَرْوَاحِ الْكُفَّارِ. ﴿وَالسَّابِحَاتِ﴾: أَيِ: الْمَتَرَدِّدَاتِ فِي الْهَوَاءِ صَعُودًا وَنَزُولًا، ﴿سَبْحًا﴾. فَالسَّابِقَاتِ: لَغِيرِهَا ﴿سَبْقًا﴾: فَتَبَادُرُ لِأَمْرِ اللَّهِ وَتَسْبِقُ الشَّيَاطِينَ فِي إِيْصَالِ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ؛ لِثَلَا تَسْتَرْقَهُ^(٣)، ﴿فَالْمَدْبُورَاتِ أَمْرًا﴾: [أَيِ]: الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ جَعَلَهُمُ اللَّهُ يَدْبُرُونَ^(٤) كَثِيرًا مِنْ أُمُورِ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ مِنَ الْأَمْطَارِ وَالتَّيَّابَاتِ [وَالْأَشْجَارِ] وَالرِّيَّاحِ وَالْبَحَارِ وَالْأَجْنَّةِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

﴿٦ - ٩﴾ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾: وَهِيَ قِيَامُ السَّاعَةِ، ﴿تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ﴾؛ أَيِ: الرَّجْفَةِ الْآخَرَى الَّتِي تَزْدُفُهَا وَتَأْتِي تَلَوَّهَا. ﴿قُلُوبٌ يَوْمئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾؛ أَيِ: مَنزَعَجَةٌ^(٥) مِنْ شِدَّةِ مَا تَرَى وَتَسْمَعُ، ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾؛ أَيِ: ذَلِيلَةٌ حَقِيرَةٌ قَدْ مَلَكَ قُلُوبَهُمُ الْخَوْفُ وَأَذْهَلَ أَفْئِدَتَهُمُ الْفَزَعُ وَغَلَبَ عَلَيْهِمُ التَّأْسُفُ، وَاسْتَوْلَتْ عَلَيْهِمُ الْحَسْرَةُ.

﴿١٠ - ١٤﴾ ﴿يَقُولُونَ﴾^(٦)؛ أَيِ: الْكُفَّارُ فِي الدُّنْيَا عَلَى وَجْهِ التَّكْذِيبِ: ﴿إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً﴾؛ أَيِ: بِأَلِيَّةٍ فَتَاتًا، ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾؛ أَيِ: اسْتَبَعَدُوا أَنْ يَبْعَثَهُمُ اللَّهُ وَيُعِيدَهُمْ بَعْدَمَا كَانُوا عِظَامًا نَخِرَةً جَهْلًا مِنْهُمْ بِقُدْرَةِ اللَّهِ وَتَجَرِيًّا عَلَيْهِ! قَالَ اللَّهُ فِي بَيَانِ سَهُولَةِ هَذَا الْأَمْرِ عَلَيْهِ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾: يُنْفَخُ^(٧) فِي الصُّورِ؛ فَإِذَا الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ ﴿بِالسَّاهِرَةِ﴾؛ أَيِ: عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ قِيَامًا يَنْظُرُونَ، فَيَجْمَعُهُمُ اللَّهُ، وَيَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ الْعَدْلِ، وَيَجَازِيهِمْ.

(١) فِي (ب): «تَنْفِيزُ أَمْرِهِ».

(٢) فِي (ب): «النِّزْعُ».

(٣) فِي (ب): «حَتَّى لَا تَسْتَرْقَهُ».

(٤) فِي (ب): «الَّذِينَ وَكَلَّهُمُ اللَّهُ أَنْ يَدْبُرُوا».

(٥) فِي (ب): «أَيِ: مَوْجِفَةٌ مَنزَعَجَةٌ».

(٦) الْآيَةُ (١٠) لَمْ يَفْسَرْهَا الْمُؤَلِّفُ.

(٧) فِي (ب): «وَيُنْفَخُ فِيهَا فِي».

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (١٥) ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ (١٦) ﴿أَذْهَبَ إِلَيْكَ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ (١٧) ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَزْكَى﴾ (١٨) ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ (١٩) ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ (٢٠) ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾ (٢١) ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَنْتَعَى﴾ (٢٢) ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾ (٢٣) ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (٢٤) ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ (٢٥) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ (٢٦).

﴿١٥ - ٢٥﴾ يقول الله تعالى لنبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿هل أتاك حديث موسى﴾: وهذا الاستفهام عن أمرٍ عظيم متحقق وقوعه؛ أي: هل أتاك حديثه. ﴿إذ ناداه ربُّه بالوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾: وهو المحلُّ الذي كلَّمه الله فيه، وامتنَّ عليه بالرسالة، وابتعثه بالوحي، واجتباها^(٢)، فقال له: ﴿أذهب إلى فرعونَ إِنَّهُ طَغَى﴾؛ أي: فانه عن طغيانه وشركه وعصيانِه بقولِ لِّينٍ وخطابٍ لطيفٍ لعله يتذكر أو يخشى، ﴿فَقُلْ له هل لك إلى أَن تَزْكَى﴾؛ أي: هل لك في خصلة حميدة ومحمدة جميلة يتنافس فيها أولو الألباب؟ وهي أَن تَزْكِيَ نفسك وتطهِّرها من دَنَس الكفر والطغيان إلى الإيمان والعمل الصالح. ﴿وأهديكَ إلى رَبِّكَ﴾؛ أي: أدلك عليه، وأبين لك مواقع رضاه من مواقع سخطه، ﴿فتخشى﴾: الله إذا علمت الصراط المستقيم. فامتنع فرعون ممَّا دعاه إليه موسى، ﴿فأراه الآية الكبرى﴾؛ أي: جنس الآية الكبرى؛ فلا ينافي تعددها، ﴿فألقي عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبينٌ. ونزع يده فإذا هي بيضاء للنَّاظرين﴾. ﴿فكذَّب﴾: بالحق، ﴿وعصى﴾: الأمر، ﴿ثم أدبر يسعى﴾؛ أي: يجتهد في مبارزة الحق ومحاربته. ﴿فحشر﴾: جنوده؛ أي: جمعهم، ﴿فنَادَى﴾: فقال: لهم: ﴿أنا ربُّكم الأعلى﴾: فأذعنوا له وأقروا بباطله حين استخفهم. ﴿فأخذه الله نكالَ الآخرة والأولى﴾؛ أي: جعل الله^(٣) عقوبته دليلاً وزاجراً ومبينةً لعقوبة الدنيا والآخرة.

﴿٢٦﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾: فَإِنَّ مَن يَخْشَى الله هو الذي ينتفع بالآيات والعبر؛ فإذا رأى عقوبة فرعون؛ عرف أن [كلَّ] من تكبر وعصى وبارز الملك الأعلى؛ يعاقبه في الدنيا والآخرة، وأمَّا مَن ترحلت خشيةُ الله من قلبه؛ فلو جاءته كلُّ آية؛ لم يؤمن بها.

(١) في (أ): طمس، وفي (ب): ذكر الآيات إلى قوله: ﴿لعبرة لمن يخشى﴾.

(٢) في (ب): «واخضعه بالوحي والاجتباء».

(٣) في (ب): «أي: صارت».

﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَرِ السَّمَاءَ بَنَاهَا﴾ (٢٧) ﴿رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيَهَا﴾ (٢٨) ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ (٢٩) ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (٣٠) ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ (٣١) ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ (٣٢) ﴿مَتَلًا لَكُمْ وَلَا تَنْفِكُوا﴾ (٣٣).

﴿٢٧ - ٣٣﴾ يقول تعالى مبيناً دليلاً واضحاً لمنكري البعث ومستبعدي إعادة الله للأجساد: ﴿أَنْتُمْ﴾: أيها البشر، ﴿أَشَدُّ خَلْقًا أَم السَّمَاءَ﴾: ذات الجرم العظيم والخلق القوي والارتفاع الباهر، ﴿بَنَاهَا﴾: الله، ﴿رَفَعَ سَمَكَهَا﴾؛ أي: جرمها وصورتها. ﴿فَسَوَّاهَا﴾: بإحكام وإتقانٍ يحير العقول ويذهل الألباب، ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾؛ أي: أظلمه، فعُمَّت الظلمة جميع أرجاء السماء، فأظلم وجه الأرض، ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾؛ أي: أظهر فيه الثور العظيم حين أتى بالشمس، فانتشر^(٢) الناس في مصالح دينهم ودنياهم، ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾؛ أي: بعد خلق السماء ﴿دَحَاهَا﴾؛ أي: أودع فيها منافعها، وفسر ذلك بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا. وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾؛ أي: ثَبَّتَهَا بِالْأَرْضِ^(٣)، فدحى الأرض بعد خَلْقِ السماوات؛ كما هو نصُّ هذه الآيات الكريمة، وأمّا خلق نفس الأرض؛ فمُتَقَدِّمٌ عَلَى خَلْقِ السَّمَاءِ؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ...﴾ إلى أن قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ...﴾ فالذي خلق السماواتِ العظام وما فيها من الأنوار والأجرام والأرض الغبراء الكثيفة^(٤)، وما فيها من ضروريات الخلق ومنافعهم لا بدُّ أن يبعث الخلق المكلفين فيجازيهم بأعمالهم^(٥)؛ فمن أحسن؛ فله الحسنَى، ومن أساء؛ فلا يلوَمَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ.

ولهذا ذكر بعد هذا قيام الساعة ثم الجزاء^(٦)، فقال:

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّائِفَةُ الْكَثِيرَى﴾ (٣٤) ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ (٣٥) ﴿وَوُزِنَتْ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾

(١) في (أ): إلى قوله: ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.

(٢) في (ب): «فامتدَّ». (٣) في (ب): «في الأرض».

(٤) في (ب): «الكثيفة الغبراء». (٥) في (ب): «على أعمالهم».

(٦) في (ب): «ولهذا ذكر بعد هذا القيام فالجزاء».

(٧) في (أ): إلى قوله: ﴿فإن الجنة هي المأوى﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.

﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾ .

﴿٣٤ - ٣٦﴾ أي: إذا جاءت القيامة الكبرى والشدة العظمى، التي يهون عندها كل شدة؛ فحينئذ يذهل الوالد عن ولده، والصاحب عن صاحبه، وكل محب عن حبيبه، و «يتذكر الإنسان ما سعى»: في الدنيا من خير وشر، فيتمنى زيادة مثقال ذرة في حسناته، ويغتمه ويحزن لزيادة مثقال ذرة في سيئاته، ويعلم إذ ذاك أن مادة ربحه وخسرانه ما سعه في الدنيا، وينقطع كل سبب ووصلة كانت في الدنيا سوى الأعمال، «وبرزت الجحيم لمن يرى»: أي: جعلت في البراز ظاهرة لكل أحد؛ قد هيئت^(١) لأهلها، واستعدت لأخذهم منتظرة لأمر ربها.

﴿٣٧ - ٣٩﴾ «فأما من طغى»: أي: جاوز الحد بأن تجرأ على المعاصي الكبار ولم يقتصر على ما حده الله، «وآثر الحياة الدنيا»: على الآخرة، فصار سعيه لها ووقته مستغرقاً في حظوظها وشهواتها، ونسي الآخرة والعمل^(٢) لها؛ «فإن الجحيم هي المأوى»: له؛ أي: المقر والمسكن لمن هذه حاله.

﴿٤٠ - ٤١﴾ «وأما من خاف مقام ربه»: أي: خاف القيام عليه ومجازاته بالعدل؛ فأثر هذا الخوف في قلبه، فنهى «النفس عن»: هواها الذي يصدّها عن طاعة الله، وصار هواه تبعاً لما جاء به الرسول، وجاهد الهوى والشهوة الصادتين عن الخير؛ «فإن الجنة»: المشتملة على كل خير وسرور ونعيم، «هي المأوى»: لمن هذا وصفه.

﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرهَا ﴿٤٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ مُنْهِنَهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنِ يَخَشَهَا ﴿٤٥﴾ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُؤْتَوْنَ لِأَعْيُنَيْهِ أَوْ صُحُفًا ﴿٤٦﴾﴾ .

﴿٤٢ - ٤٤﴾ أي: يسألك المتعنتون المكذبون بالبعث «عن الساعة»: متى وقوعها؟ و«أيان مرساها»؟! فأجابهم الله بقوله: «فيم أنت من ذكرها»: أي: ما الفائدة لك ولهم في ذكرها ومعرفة وقت مجيئها؛ فليس تحت ذلك نتيجة، ولهذا لما كان علم العباد للساعة ليس لهم فيه مصلحة دينية ولا دنيوية، بل المصلحة في

(١) في (ب): «برزت».

(٢) في (ب): «وترك العمل لها».

(٣) في (أ): طمس. وفي (ب) إلى آخر السورة.

إخفائه^(١) عليهم، طوى علم ذلك عن جميع الخلق واستأثر بعلمه فقال: ﴿إلى ربك منتهاها﴾؛ أي: إليه ينتهي علمها؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يُجَلِّها لوقتها إلا هو﴾.

﴿٤٥ - ٤٦﴾ ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا﴾؛ أي: إنما نذارتك نفعها لمن يخشى مجيء الساعة ويخاف الوقوف بين يدي الله^(٢)؛ فهم الذين لا يهتمهم إلا^(٣) الاستعداد لها والعمل لأجلها، وأما من لم^(٤) يؤمن بها؛ فلا يُبالى به ولا بتعنته؛ لأنه تعنت مبني على التكذيب والعناد^(٥)، وإذا وصل إلى هذه الحال؛ كان الإجابة عنه عبثاً، ينزه أحكم الحاكمين عنه^(٦).

تمت. والحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة عبس

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّمْ يَزْكَى (٣) أَوْ يَذْكُرُ فَنَنْفَعَهُ الْذِكْرَى (٤) إِنَّمَا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَمْ تَصْدَى (٦) وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَزْكَى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ۖ﴾.

سبب^(٨) نزول هذه الآيات الكريمات أنه جاء رجل من المؤمنين أعمى^(٩) يسأل النبي ﷺ ويتعلم منه، وجاءه رجل من الأغنياء، وكان حريصاً على هداية الخلق، فمال ﷺ وأصغى إلى الغني وصدَّ عن الأعمى الفقير؛ رجاء لهداية ذلك الغني وطمعاً في تزكيته، فعاتبه الله بهذا العتاب اللطيف فقال:

- (١) في (ب): «خفائه».
- (٢) في (ب): «بين يديه».
- (٣) في (ب): «سوى».
- (٤) في (ب): «من لا».
- (٥) في (ب): «على العناد والتكذيب».
- (٦) في (ب): «ينزه الحكيم عنه».
- (٧) في (أ): «إلى قوله: ﴿فأنت عنه تلهي﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.
- (٨) في (ب): «وسبب».
- (٩) وهو عبد الله بن أم مكتوم؛ كما في «سنن الترمذي» (٣٣٣١) والحاكم (٥١٤/٢).

﴿١ - ١٠﴾ ﴿عبس﴾؛ أي: في وجهه، ﴿وتولى﴾: في بدنه لأجل مجيء الأعمى له. ثم ذكر الفائدة في الإقبال عليه، فقال: ﴿وما يدريك لعله﴾؛ أي: الأعمى، ﴿يزكى﴾؛ أي: يتطهر عن الأخلاق الرذيلة ويتصف بالأخلاق الجميلة، ﴿أو يذكّر فتتفعه الذكرى﴾؛ أي: يتذكّر ما ينفعه فينتفع^(١) بتلك الذكرى، وهذه فائدة كبيرة، هي المقصودة من بعثة الرسل ووعظ الوعّاظ وتذكير المذكّرين؛ فأقبالك على مَنْ جاء بنفسه مفتقراً لذلك مقبلاً^(٢) هو الأليق الواجب، وأما تصديق وتعرضك للغني المستغني الذي لا يسأل ولا يستفتي لعدم رغبته في الخير مع تركك مَنْ^(٣) أهمّ منه؛ فإنه لا ينبغي لك؛ فإنه ليس عليك أن لا يزكى؛ فلو لم يتزك؛ فلست بمحاسب على ما عمله من الشر، فدلّ هذا على القاعدة المشهورة؛ أنه لا يترك أمر معلوم لأمر موهوم، ولا مصلحة متحققة لمصلحة متوهمة، وأنه ينبغي الإقبال على طالب العلم المفتقر إليه الحريص عليه^(٤) أزيد من غيره.

﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ (١١) ۝ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۝ (١٢) ۝ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ (١٣) ۝ رُفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝ (١٤) ۝ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝ (١٥) ۝ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝ (١٦) ۝ قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ ۝ (١٧) ۝ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ ۝ (١٨) ۝ مِنْ نُّفُوفٍ خَلَقْتَهُ فَقَدَرْتَهُ ۝ (١٩) ۝ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ ۝ (٢٠) ۝ ثُمَّ أَمَانَةً فَأَوْتَوْهُ ۝ (٢١) ۝ ثُمَّ إِذَا سَاءَ أَنْشَرُهُ ۝ (٢٢) ۝ كَلَّا لَمَّا بُدِئَ مَا بَشَرُ ۝ (٢٣) ۝ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ ۝ (٢٤) ۝ إِلَى طَاعِمِهِ ۝ (٢٥) ۝ أَنَا صَبَبْتُ الْمَاءَ صَبًّا ۝ (٢٦) ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝ (٢٧) ۝ فَأَبْثَا فِيهَا جَبًّا ۝ (٢٨) ۝ وَعَبَا وَفَضًّا ۝ (٢٩) ۝ وَزَيَّنَّاهَا فُتًلًا ۝ (٣٠) ۝ وَحَدَائِقَ غُلًّا ۝ (٣١) ۝ وَفُكَّهُمْ وَآبَا ۝ (٣٢) ۝ مَتَاعًا لَّكُم وَلِأَنْعَامِكُمْ ۝ (٣٣) ۝﴾.

﴿١١ - ١٦﴾ يقول تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾: أي: حقاً إن هذه الموعظة تذكّرة من الله يُذكّر بها عباده ويبين لهم في كتابه ما يحتاجون إليه ويبين الرشد من الغي؛ فإذا تبين ذلك؛ ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾؛ أي: عمل به؛ كقوله تعالى: ﴿وقلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾. ثم ذكر محلّ هذه التذكّرة وعظمتها ورفع قدرها، فقال: ﴿في صحفٍ مكرمة مرفوعة﴾: القدر والرتبة، ﴿مطهرة﴾: من الآفات وعن أن تنالها أيدي الشياطين أو يسترقوها، بل هي ﴿بأيدي سفرة﴾: وهم الملائكة الذين هم سفراء بين الله وبين عباده، ﴿كرام﴾؛ أي: كثيري الخير والبركة، ﴿بررة﴾: قلوبهم وأعمالهم. وذلك كله حفظ من الله لكتابه؛ أن

(١) في (ب): «فيعمل».

(٢) في (ب): «إليه».

(٣) في (ب): «ما».

(٤) في (أ): إلى قوله: «متاعاً لكم ولأنعامكم». وفي (ب): ذكر الآيات.

جعل السفراء فيه إلى الرسل الملائكة الكرام الأقوياء الأتقياء، ولم يجعل للشياطين عليه سبيلاً، وهذا مما يوجب الإيمان به وتلقيه بالقبول.

﴿١٧ - ٢٣﴾ ولكن مع هذا أبى الإنسان إلّا كُفُوراً، ولهذا قال تعالى: ﴿قَتَلَ الإنسان ما أَكْفَرَهُ﴾: لنعمة الله، وما أشدَّ معاندته للحقَّ بعدما تبين، وهو؛ ما هو؟ هو من أضعف الأشياء، خلقه الله من ماء مهين، ثم قدر خلقه وسوّاه بشراً سوياً، وأتقن قواه الظاهرة والباطنة، ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ﴾؛ أي: يسر له الأسباب الدنيئة والدنيوية، وهده السبيل، وبيّنه، وامتحنه بالأمر والنهي، ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾؛ أي: أكرمه بالدفن، ولم يجعله كسائر الحيوانات التي تكون جيفها على وجه الأرض، ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾؛ أي: بعثه بعد موته للجزاء؛ فالله هو المنفرد بتدبير الإنسان وتصريفه بهذه التصاريف، لم يشاركه فيه مشارك، وهو مع هذا لا يقوم بما أمره الله، ولم يقض ما فرضه عليه، بل لا يزال مقصراً تحت الطلب!

﴿٢٤ - ٣٢﴾ ثم أرشده الله^(١) إلى النظر والتفكر في طعامه، وكيف وصل إليه بعدما تكررت عليه طبقات عديدة ويسره [الله] له؛ فقال: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإنسانُ إِلَى طعامِهِ. أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً﴾؛ أي: أنزلنا المطر على الأرض بكثرة ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ﴾ للنبات ﴿شَقّاً. فَأَنْبَتْنَا فِيهَا﴾: أصنافاً مصنّفة من أنواع الأطعمة اللذيذة والأقوات الشهية، ﴿حَبّاً﴾: وهذا شاملٌ لسائر الحبوب على اختلاف أصنافها، ﴿وَعَنْباً وَقَضْباً﴾: وهو القث، ﴿وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً﴾: وخصّ هذه الأربعة لكثرة فوائدها ومنافعها، ﴿وَحَدائقَ غُلْباً﴾؛ أي: بساتين فيها الأشجار الكثيرة الملتفة^(٢)، ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبّاً﴾: الفاكهة ما يتفكك فيه الإنسان من تين وعنب وخوخ ورمّان وغير ذلك. والأب ما تأكله البهائم والأنعام، ولهذا قال: ﴿مَتاعاً لَكُمْ ولأنعامكم﴾: التي خلقها الله وسخرها لكم. فمن نظر في هذه النعم؛ أوجب له ذلك شكر ربّه وبذل الجهد في الإنابة إليه والإقبال على طاعته والتصديق لأخباره.

﴿فَإِذَا جَاءَتْ الصَّلَاةُ﴾^(٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِيهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ آتٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وَجُؤٌ يَوْمَئِذٍ مُنْفَرٌ ﴿٣٨﴾ ضَاكِكٌ مُشْتَبِرٌ ﴿٣٩﴾ وَجُؤٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيَّاهُ ﴿٤٠﴾ تَرْفَعُهَا قَفْرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُ الْفَجَرُ ﴿٤٢﴾.

(١) في (ب): «ثم أرشده تعالى».

(٢) في (ب): «الملتفة الكثيرة».

(٣) في (أ): «إلى آخر السورة. وفي (ب): ذكر الآيات».

﴿٣٣ - ٤٢﴾ أي: إذا جاءت صبيحة القيامة التي تُصْخُّ لهولها الأسماع وتزعج لها الأفئدة يومئذ؛ ممَّا يرى الناس من الأحوال وشدة الحاجة لسالف الأعمال؛ يفرُّ المرء من أعزِّ الناس إليه وأشفقهم عليه^(١)؛ من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته؛ أي: زوجته وبنيه، وذلك لأنَّه ﴿لكلِّ امرئٍ منهم يومئذ شأنٌ يُغنيه﴾؛ أي: قد أشغلته نفسه، واهتمَّ لفكاكها، ولم يكن له التفاتٌ إلى غيرها. فحينئذٍ ينقسم الخلقُ إلى فريقين: سعداء وأشقياء: فأما السعداء؛ فوجوههم ﴿يومئذٍ مسفرة﴾؛ أي: قد ظهر فيها السرور والبهجة ممَّا عرفوا من نجاتهم وفوزهم بالنعيم، ﴿ضاحكةٌ مستبشرة. ووجوه﴾: الأشقياء ﴿يومئذٍ عليها غبرة. ترهقها﴾؛ أي: تغشاها ﴿قتره﴾: فهي سوداء مظلمة مدلهمة، قد آيست من كلِّ خير، وعرفت شقاءها وهلاكها. ﴿أولئك﴾: الذين بهذا الوصف، ﴿هم الكفرة الفجرة﴾؛ أي: الذين كفروا بنعمة الله، وكذبوا بآياته، وتجرؤوا على محاربه^(٢). نسأل الله العفو والعافية؛ إنَّه جوادٌ كريمٌ.

والحمد لله ربِّ العالمين



تفسير سورة التكوير

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ① وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ②﴾^(٣) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ③ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ④ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ⑤ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ⑥ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ⑦ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّلَتْ ⑧ بَآئٍ ذُنْبٍ قِيلَتْ ⑨ وَإِذَا الْشُّجُفُ تُنْشَرَتْ ⑩ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ⑪ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ⑫ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ⑬ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ ⑭﴾.

﴿١ - ١٤﴾ أي: إذا حصلت هذه الأمور الهائلة؛ تميَّز الخلق، وعلم كلُّ^(٤) ما قدَّمه لآخرته وما أحضره فيها من خيرٍ وشرٍّ، وذلك أنَّه إذا كان يومُ القيامة؛ تَكُوِّرُ

(١) في (ب): «وأشفقهم لديه».

(٢) في (ب): «وكذبوا بآيات الله وتجرؤوا على محارم الله».

(٣) في (أ): «إلى قوله: ﴿علمت نفس ما أخفرت﴾: وفي (ب) ذكر الآيات.

(٤) في (ب): «كلُّ أحد».

الشمس؛ أي: تُجمع وتلف ويُخسف القمر ويلقيان في النار، ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾؛ أي: تغيّرت وتناثرت^(١) من أفلاكها، ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾؛ أي: صارت كثيباً مهيلًا، ثم صارت كالعهن المنفوش، ثم تغيّرت وصارت هباءً منبثًا وأزيلت^(٢) عن أماكنها، ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾؛ أي: عَطِّلَ الناس يومئذ نفائس أموالهم التي كانوا يهتمون لها، ويراعونها في جميع الأوقات، فجاءهم ما يُذهلهم عنها، فنبّه بالعشار - وهي النوق التي تتبعها أولادها، وهي أنفس أموال العرب إذ ذاك عندهم - على ما هو في معناها من كل نفيس.

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾؛ أي: جُمِعَتْ ليوم القيامة؛ ليقْتَصَّ الله من بعضها لبعض، ويرى العباد كمالَ عدليه، حتى إنّه يقتصّ للشاة الجماء من الشاة القرناء ثم يقال لها^(٣): «كوني تراباً»^(٤)، ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾؛ أي: أوقدت فصارت على عظمها ناراً تتوقّد، ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾؛ أي: قُرِنَ كُلُّ صاحب عمل مع نظيره، فجميع الأبرار مع الأبرار والفجار مع الفجار، وزوج المؤمنون بالحدود العينية والكافرون بالشرطين، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾، ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾، ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾.

﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ﴾: وهي التي كانت الجاهلية الجاهلاء تفعله من دفن البنات وهنّ أحياء من غير سبب إلا خشية الفقر، فتسأل: «بأيّ ذنب قُتِلَتْ»، ومن المعلوم أنّها ليس لها ذنب، ولكن هذا فيه^(٥) توبيخ وتقريع لقاتليها، ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُصِفَتْ﴾: المشتملة على ما عمله العاملون من خيرٍ وشرٍّ، ﴿نُشِرَتْ﴾: وفُرِقت على أهلها؛ فأخذ كتابه بيمينه وأخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾؛ أي: أزيلت؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾، ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمُوتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾، ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾؛ أي: أوقد عليها فاستعرت والتهبت التهاباً لم يكن لها قبل ذلك، ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنْفِلَتْ﴾؛ أي: قُرِبَتْ

(١) في (ب): «تساقطت».

(٢) في (ب): «وسيرت».

(٣) في (ب): «حتى إنّه ليقْتَصَّ من القرناء للجماء ثم يقول لها».

(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٨٠/٢٤)، وقد أورده الشيخ ناصر الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٩٦٦).

(٥) في (ب): «ففي هذا».

للمتقين، ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ﴾؛ أي: كل نفس لإتيانها في سياق الشرط، ﴿مَا أَحْضَرْتُ﴾؛ أي: ما حضر لديها من الأعمال التي قَدَّمْتُها؛ كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾.

وهذه الأوصاف التي وَصَفَ [اللَّهُ] بها يوم القيامة من الأوصاف التي تنزعج لها القلوب، وتشتدُّ من أجلها الكروب، وترتعد الفرائض، وتعمُّ المخاوف، وتحثُّ أولي الأبواب للاستعداد لذلك اليوم، وتزجُرهم عن كل ما يوجب اللوم، ولهذا قال بعض السلف: من أراد أن يَنْظُرَ ليوم القيامة كأنه رأي عين؛ فليَتَدَبَّرْ سورة ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾.

﴿فَلَا أَقِمْ بِالْخُسْفِ ١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنْ ١٦ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ١٧ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ٢٠ مُطَّلَعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ٢١ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِبَحِيمٍ ٢٢ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْأَمِينِ ٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ٢٧ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٢٩﴾.

﴿١٥ - ١٦﴾ أقسم تعالى ﴿بِالْخُسْفِ﴾: وهي الكواكب التي تخنس؛ أي: تتأخر عن سير الكواكب المعتاد^(٢) إلى جهة المشرق، وهي النجوم السبعة السيارة؛ الشمس والقمر والزهرة والمشتري والمريخ وزحل وعطارد؛ فهذه السبعة لها سيران: سيرٌ إلى جهة المغرب مع سائر الكواكب والفلك^(٣). وسير معاكسٌ لهذا من جهة المشرق تختصُّ به هذه السبعة دون غيرها، فأقسم الله بها في حال خنوسها؛ أي: تأخرها، وفي حال جريانها، وفي حال كُنُوسها؛ أي: استتارها بالنهار. ويُحتمل أن المراد بها جميع الكواكب السيارة وغيرها.

﴿١٧ - ١٨﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ﴾؛ أي: أقبل، وقيل أدبر^(٤)، والنهار ﴿إِذَا تَنَفَّسَ﴾؛ أي: بدت^(٥) علائم الصبح، وانشقَّ النور شيئاً فشيئاً حتى يستكمل وتطلع الشمس.

(١) في (أ): إلى آخر السورة. وفي (ب) ذكر الآيات.

(٢) في (ب): «المعتادة».

(٣) في (ب): «مع باقي الكواكب والأفلاك».

(٤) في (ب): «أي: أدبر، وقيل أقبل».

(٥) في (ب): «بانت».

﴿١٩﴾ وهذه آيات عظام أقسم الله عليها لقوة سند القرآن^(١) وجلالته وحفظه من كل شيطان رجيم، فقال: ﴿إنه لقول رسول كريم﴾: وهو جبريل عليه السلام، نزل به من الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين. نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين﴾. ووصفه الله بالكريم لكرم أخلاقه و[كثرة] خصاله الحميدة؛ فإنه أفضل الملائكة وأعظمهم رتبة عند ربه.

﴿٢٠﴾ ﴿ذي قوة﴾: على ما أمره الله به، ومن قوته أنه قلب ديار قوم لوط بهم فأهلكهم، ﴿عند ذي العرش﴾؛ أي: جبريل مقرّب عند الله، له منزلة رفيعة وخصيصة من الله اختصه بها، ﴿مكين﴾؛ أي: له مكانة ومنزلة فوق منازل الملائكة كلهم.

﴿٢١﴾ ﴿مطاع ثم﴾؛ أي: جبريل مطاع في الملاء الأعلى؛ لأنه^(٢) من الملائكة المقربين، نافذ فيهم أمره، مطاع رأيهم، ﴿أمين﴾؛ أي: ذو أمانة وقيام بما أمر به، لا يزيد ولا ينقص ولا يتعدى ما حُدّ له، وهذا كله يدل على شرف القرآن عند الله تعالى: فإنه بعث به هذا الملك الكريم الموصوف بتلك الصفات الكاملة، والعادة أن الملوك لا ترسل الكريم عليها إلا في أهمّ المهمات وأشرف الرسائل.

﴿٢٢﴾ ولما ذكر فضل الرسول الملكي الذي جاء بالقرآن؛ ذكر فضل الرسول البشري الذي نزل عليه القرآن، ودعا إليه الناس، فقال: ﴿وما صاحبكم﴾: وهو محمد ﷺ ﴿بمجنون﴾؛ كما يقوله أعداؤه المكذبون برسالته، المتقولون عليه [من] الأقوال التي يريدون أن يطفئوا بها ما جاء به^(٣)، بل هو أكمل الناس عقلاً، وأجزلهم رأياً، وأصدقهم لهجة.

﴿٢٣﴾ ﴿ولقد رآه بالأفق المبين﴾؛ أي: رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام^(٤) بالأفق البين الذي هو أعلى ما يلوح للبصر.

﴿٢٤﴾ ﴿وما هو على الغيب بضنين﴾؛ أي: وما هو على ما أوحاه الله إليه

(١) في (ب): «أقسم الله بها على علو سند القرآن».

(٢) في (ب): «لديه من الملائكة المقربين جنود».

(٣) في (ب): «أن يطفئوا بها ما جاء، ما شاؤوا وقدروا عليه».

(٤) تقدم تخريجه. وهو في «صحيح مسلم» (١٧٧). وانظر «تفسير سورة النجم».

بِمُتَّهِمٍ يزيد فيه أو ينقص أو يكتم بعضه، بل هو ﷺ أمينُ أهل السماء وأهل الأرض، الذي بلغ رسالات ربِّه البلاغَ المبين، فلم يشحْ بشيء منه عن غنيٍّ ولا فقيرٍ ولا رئيسٍ ولا مرؤوسٍ ولا ذكرٍ ولا أنثى ولا حضريٍّ ولا بدويٍّ، ولذلك بعثه الله في أمةٍ أميةٍ جاهلةٍ جهلاء، فلم يمت ﷺ حتى كانوا علماء ربّانيّين وأخباراً متفرّسين، إليهم الغاية في العلوم، وإليهم المنتهى في استخراج الدقائق والمفهوم^(١)، وهم الأساتذة، وغيرهم قصاراه أن يكون من تلاميذهم.

﴿٢٥﴾ ﴿وما هو بقول شيطانٍ رجيم﴾: لما ذكر جلالة كتابه وفضله^(٢) بذكر الرسولين الكريمين اللذين وصلَّ إلى الناس على أيديهما، وأثنى الله عليهما بما أثنى؛ دَفَعَ عنه كلَّ آفةٍ ونقصٍ مما يقدح في صدقه، فقال: ﴿وما هو بقول شيطانٍ رجيم﴾؛ أي: في غاية البعد عن الله وعن قربه.

﴿٢٦﴾ ﴿فأين تذهبون﴾؛ أي: كيف يخطر هذا ببالكم؟! وأين عزبت عنكم أذهانكم حتى جعلتم الحقَّ الذي هو في أعلى درجات الصدق بمنزلة الكذب الذي هو أنزل ما يكون وأرذل وأسفل الباطل؟! هل هذا إلّا من انقلاب الحقائق؟! الحقائق؟!!

﴿٢٧﴾ ﴿إنَّ هو إلّا ذكرٌ للعالمين﴾: يتذكرون به ربُّهم وماله من صفات الكمال وما ينزّه عنه من النقائص والردائل والأمثال، ويتذكرون به الأوامر والنواهي وحكمها؛ ويتذكرون به الأحكام القدريّة والشرعيّة والجزائيّة، وبالجملّة يتذكرون به مصالح الدارين، وينالون بالعمل به السعادتين.

﴿٢٨﴾ ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾: بعد ما تبيّن الرشد من الغيِّ والهدى من الضلال.

﴿٢٩﴾ ﴿وما تشاؤون إلّا أن يشاء الله ربُّ العالمين﴾؛ أي: فمشيئته نافذة لا يمكن أن تعارض أو تمنع. وفي هذه الآية وأمثالها ردُّ على فرقتي القدريّة النُفاة والقدريّة المجبرة؛ كما تقدّم مثالها. والله أعلم والحمد لله.



(١) في (ب): «والفهوم».

(٢) في (ب): «لما ذكر جلالاته وفضله».

تفسير سورة الانفطار

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ﴿٤﴾ عِلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾.

﴿١ - ٥﴾ أي: إذا انشقت السماء، وانفطرت، وتناثرت^(١) نجومها، وزال جمالها، وفُجرت البحار، فصارت بحراً واحداً، وبُعِثَتِ القبور بأن أُخرج ما فيها من الأموات وحُشِرُوا للموقف بين يدي الله للجزاء على الأعمال؛ فحينئذ ينكشف الغطاء، ويزول ما كان خفياً، وتعلم كل نفس ما معها من الأرباح والخسائر. هنالك يعرض الظالم على يديه إذا رأى ما قَدَّمَتْ يده^(٢) وأيقن بالشقاء الأبدي والعذاب السرمدي، وهنالك يفوز المتقون المقدمون لصالح الأعمال بالفوز العظيم والنعيم المقيم والسلامة من عذاب الجحيم.

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿٦ - ٨﴾ يقول تعالى معاتباً للإنسان المقصّر في حقه المتجرىء على معاصيه^(٤): ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾: أنهاوناً منك في حقوقه؟ أم احتقاراً منك لعذابه؟! أم عدم إيمان منك بجزائه؟! أليس هو ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ﴾: في أحسن تقويم، ﴿فَعَدَلَكَ﴾: وركبك تركيباً قوياً معتدلاً في أحسن الأشكال وأجمل الهيئات؟! فهل يليق بك أن تكفر نعمة^(٥) المنعم أو تتجحد إحسان

(١) في (ب): «انتثرت».

(٢) في (ب): «إذا رأى أعماله باطلة، وميزانه قد خف، والمظالم قد تداعت إليه، والسيئات قد حضرت لديه».

(٣) في (أ): «إلى قوله: ﴿تفعلون﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.

(٤) في (ب): «المقصّر في حق الله المتجرىء على مساخطه».

(٥) في (ب): «بنعمة».

المحسن؟! إن هذا إلا من جهلك وظلمك وعنادك وغشمك؛ فاحمد الله إذ لم يجعل صورتك صورة كلب أو حمار أو نحوهما من الحيوانات، ولهذا قال تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾.

﴿٩ - ١٢﴾ وقوله: ﴿كَلَّا بَلْ تَكْذِبُونَ بِالَّذِينَ﴾؛ أي: مع هذا الوعظ والتذكير لا تزالون مستمرين على التكذيب بالجزاء، وأنتم لا بد أن تحاسبوا على ما عملتم، وقد أقام الله عليكم ملائكة كراماً، يكتبون أقوالكم وأفعالكم ويعلمونها^(١)، فدخل في هذا أفعال القلوب وأفعال الجوارح؛ فاللائق بكم أن تكرمهم وتجلوهم.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿١٣ - ١٩﴾ المراد بالأبرار هم: القائمون بحقوق الله وحقوق عباده، الملازمون للبر في أعمال القلوب وأعمال الجوارح؛ فهؤلاء جزاؤهم النعيم في القلب والروح والبدن في دار الدنيا وفي دار البرزخ وفي دار القرار، ﴿وَإِنَّ الْفَجَّارَ﴾: الذين قصروا في حقوق الله وحقوق عباده، الذين فجرت قلوبهم ففجرت أعمالهم، ﴿لَفِي جَحِيمٍ﴾؛ أي: عذاب أليم في دار الدنيا ودار البرزخ وفي دار القرار، ﴿يَصَلُّونَهَا﴾: ويعذبون بها أشد العذاب ﴿يَوْمَ الَّذِينَ﴾؛ أي: يوم الجزاء على الأعمال، ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾؛ أي: بل هم ملازمون لها لا يخرجون منها، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾. ثم ما أدراك ما يوم الدين: ﴿فِي﴾ هذا تهويل لذلك اليوم الشديد، الذي يحير الأذهان، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾: ولو كانت قريبة أو حبيبة مصافية^(٤)؛ فكل مشتغل بنفسه لا يطلب الفكاك لغيرها. ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾: فهو الذي يفصل بين العباد، ويأخذ للمظلوم حقه من ظالمه. والله أعلم.



(١) في (ب): «ويعلمون أفعالكم».

(٢) في (أ): إلى آخر السورة. وفي (ب) ذكر الآيات.

(٣) في (ب): «ففي».

(٤) في (ب): «ولو كانت لها قريبة مصافية».

تفسير سورة المطففين

وهي مدنية^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾

﴿١ - ٦﴾ ﴿وَيْلٌ﴾: كلمة عذاب وعقاب^(٢)، ﴿لِلْمُطَفِّفِينَ﴾: وفسر الله المطففين بأنهم^(٣) ﴿الذين إذا اکتالوا على الناس﴾؛ أي: أخذوا منهم وفاء لهم عما قبلهم^(٤)، يستوفونه كاملاً من غير نقص، ﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم﴾؛ أي: إذا أعطوا الناس حقهم الذي لهم^(٥) عليهم بكيل أو وزن، ﴿يُخْسِرُونَ﴾؛ أي: ينقصونهم ذلك إما بمكيال وميزان ناقصين، أو بعدم ملء المكيال والميزان، أو بغير ذلك؛ فهذا سرقة لأموال الناس^(٦) وعدم إنصاف لهم منهم. وإذا كان هذا وعيداً^(٧) على الذين يبخسون الناس بالمكيال والميزان؛ فالذي يأخذ أموالهم قهراً وسرقة أولى بهذا الوعيد من المطففين.

ودلت الآية الكريمة على أنَّ الإنسان كما يأخذ من الناس الذي له يجب [عليه] أن يعطيهم كل ما لهم من الأموال والمعاملات، بل يدخل في عموم هذا الحجج والمقالات؛ فإنه كما أنَّ المتناظرين قد جرت العادة أنَّ كل واحدٍ منهما يحرص على ماله من الحجج؛ فيجب عليه أيضاً أن يبين ما لخصمه من الحجَّة^(٨) التي لا يعلمها، وأن ينظر في أدلة خصمه كما ينظر في أدلته هو، وفي هذا الموضع يُعرف إنصاف الإنسان من تعصُّبه واعتسافه وتواضعه من كبره وعقله من سفهه، نسأل الله التوفيق لكل خير.

(١) في (ب): «وهي مكية».

(٢) في (ب): «بقوله».

(٣) في (ب): «أخذوا منهم وفاء عما ثبت لهم قبلهم».

(٤) في (ب): «لنَّاس».

(٥) في (ب): «أو نحو ذلك، فهذا سرقة للناس».

(٦) في (ب): «الوعيد».

(٧) في (ب): «من الحجج».

(٨) في (ب): «من الحجج».

ثم توعد تعالى المطففين، وتعجب من حالهم وإقامتهم على ما هم عليه، فقال: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ. يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: فالذي جزأهم على التطفيف عدم إيمانهم باليوم الآخر؛ وإلا؛ فلو آمنوا به وعرفوا أنهم سيقومون بين يدي الله فيحاسبهم^(١) على القليل والكثير؛ لأقلعوا عن ذلك وتابوا منه.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ^(٢)﴾ (٧) وَمَا أَذْرَكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٩) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ (١١) وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمْ حُجِرُوا (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧)﴾.

﴿٧ - ٩﴾ يقول تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ﴾: وهذا شامل لكل فاجر من أنواع الكفرة والمنافقين والفاسقين، ﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾. ثم فسر ذلك بقوله: ﴿وما أدراك ما سِجِّينٌ. كتابٌ مرقومٌ﴾؛ أي: كتابٌ مذكور فيه أعمالهم الخبيثة. والسِّجِّينُ: المحلُّ الضيق الضنك، وسِجِّينٌ ضدُّ عليين، الذي هو محلُّ كتاب الأبرار كما سيأتي. وقد قيل: إنَّ سِجِّينَ هو أسفل الأرض السابعة مأوى الفجار ومستقرهم في معادهم.

﴿١٠ - ١٣﴾ ﴿وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾. ثم بيَّنه^(٣) بقوله: ﴿الَّذِينَ يَكْذِبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾؛ أي: يوم الجزاء، يوم يدين الله الناس فيه^(٤) بأعمالهم. ﴿وما يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾: على محارم الله متعدٍّ من الحلال إلى الحرام. ﴿أثِيمٌ﴾؛ أي: كثير الإثم؛ فهذا يحمله عدوانه على التكذيب، ويوجب له كبره ردُّ الحق^(٥)، ولهذا ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ﴾ آيات الله الدالة على الحق وعلى صدق ما جاءت به الرسل؛ كذبها وعاندها وقال: هذه ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: من ترهات المتقدمين وأخبار الأمم الغابرين، ليس من عند الله؛ تكبراً وعناداً.

﴿١٤ - ١٧﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ أَنْصَفَ وَكَانَ مَقْصُودُهُ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾؛ فإنه لا يكذب بيوم

(١) في (ب): «يقومون بين يدي الله يحاسبهم».

(٢) في (أ): «إلى قوله: ﴿ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.

(٣) في (ب): «ثم بين المكذبين». (٤) في (ب): «فيه الناس».

(٥) في (ب): «ويحمله كبره على ردِّ الحق».

الدين؛ لأنَّ الله^(١) قد أقام عليه من الأدلَّة القاطعة والبراهين [الساطعة] ما يجعله حقَّ اليقين^(٢)، وصار لبصائرهم بمنزلة^(٣) الشمس للأبصار؛ بخلاف مَنْ ران على قلبه كسبه وغطَّته معاصيه؛ فإنَّه محجوبٌ عن الحقِّ، ولهذا جوزي على ذلك بأن حُجِبَ عن الله كما حُجِبَ قلبه [في الدنيا] عن آيات الله. ﴿ثم إنَّهم﴾: مع هذه العقوبة البليغة، ﴿لصالو الجحيم﴾. ثم يقال: ﴿لهم توبيخاً وتقريعاً﴾: ﴿هذا الذي كنتم به تكذبون﴾: فذكر لهم ثلاثة أنواع من العذاب: عذاب الجحيم، وعذاب التوبيخ واللوم، وعذاب الحجاب عن^(٤) ربِّ العالمين، المتضمَّن لسخطه وغضبه عليهم، وهو أعظم عليهم من عذاب النار.

ودلَّ مفهوم الآية على أنَّ المؤمنين يرون ربَّهم يوم القيامة، وفي الجنة، ويتلذذون بالنظر إليه أعظم من سائر اللذات ويتهجون بخطابه ويفرحون بقربه؛ كما ذكر الله ذلك في عدَّة آيات من القرآن، وتواتر فيه النقل عن رسول الله.

وفي هذه الآيات التحذير من الذنوب؛ فإنَّها ترين على القلب وتغطيه شيئاً فشيئاً، حتى ينطمس نوره وتموت بصيرته، فتقلب عليه الحقائق، فيرى الباطل حقاً والحقَّ باطلاً. وهذا من أعظم^(٥) عقوبات الذنوب.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كَتَبَ مَرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُ الْمَرْقُومُ (٢١) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْمُومٍ (٢٥) خِتْلَعُهُمْ مِنْسَكٌّ (٢٦) فِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٧) وَمِرَاجُهُمْ مِنْ تَسْنِيمٍ (٢٨) أَعْيُنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمَرْقُومُونَ (٢٩)﴾.

﴿١٨ - ٢١﴾ لما ذكر أنَّ كتاب الفجار في أسفل الأمكنة وأضيقتها؛ ذكر أنَّ كتاب الأبرار في أعلاها وأوسعها وأفسحها، وأنَّ كتابهم المرقوم ﴿يشهده المرقَّبون﴾: من الملائكة الكرام وأرواح الأنبياء والصُّدِّيقين والشهداء^(٨)، وينوّه الله بذكرهم في الملأ الأعلى. وعليون: اسم لأعلى الجنة.

(١) في (ب): «فإن الله تعالى».

(٢) في (ب): «حق يقين».

(٣) في (ب): «وصار لقلوبهم مثل».

(٤) في (ب): «من».

(٥) في (ب): «من بعض».

(٦) في (أ): «إلى قوله: ﴿ومزاجه من تسنيم﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.

(٨) في (ب): «والشهداء والصديقين».

(٧) زيادة على النسختين.

﴿٢٢ - ٢٨﴾ فَلَمَّا ذَكَرَ كِتَابَهُمْ؛ ذَكَرَ أَنَّهُمْ فِي نَعِيمٍ، وَهُوَ اسْمُ جَامِعٍ لِنَعِيمِ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ وَالْبَدَنِ. ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾؛ أَي: عَلَى السَّرْرِ الْمَزِينَةِ بِالْفَرَشِ الْحَسَنِ، ﴿يَنْظُرُونَ﴾: إِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ النِّعَمِ، وَيَنْظُرُونَ إِلَى وَجْهِ رَبِّهِمُ الْكَرِيمِ، ﴿تَعْرِفُ﴾: أَيُّهَا النَّازِرُ^(١)، ﴿فِي وَجْهِهِمْ نَضْرَةٌ النَّعِيمِ﴾؛ أَي: بِهَاءِ^(٢) وَنَضَارَتِهِ وَرَوْنَقِهِ؛ فَإِنَّ تَوَالِي اللَّذَاتِ وَالْمَسَرَّاتِ وَالْأَفْرَاحِ^(٣) يَكْسِبُ الْوَجْهَ نُورًا وَحَسَنًا وَبَهْجَةً، ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ﴾: وَهُوَ مِنْ أَطْيَبِ مَا يَكُونُ مِنَ الْأَشْرِبَةِ وَالذَّهَاءِ، ﴿مَخْتُومٌ﴾ ذَلِكَ الشَّرَابُ ﴿خَتَامُهُ مَسْكٌ﴾: يُحْتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ مَخْتُومٌ عَنْ أَنْ يَدَاخِلَهُ شَيْءٌ يُنْقِصُ لَذَّتَهُ أَوْ يَفْسِدُ طَعْمَهُ، وَذَلِكَ الْخَتَامُ الَّذِي خَتَمَ بِهِ مَسْكٌ، وَيَحْتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُ الَّذِي يَكُونُ فِي آخِرِ الْإِنَاءِ الَّذِي يَشْرَبُونَ مِنْهُ الرِّحِيقَ حَثَالَةً، وَهِيَ الْمَسْكُ الْأَذْفَرُ؛ فَهَذَا الْكَدْرُ مِنْهُ الَّذِي جَرَتْ الْعَادَةُ فِي الدُّنْيَا أَنَّهُ يَرِاقُ يَكُونُ فِي الْجَنَّةِ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ. ﴿وَفِي ذَلِكَ﴾: النِّعِيمُ الْمَقِيمُ الَّذِي لَا يَعْلَمُ حَسَنَهُ وَمَقْدَارَهُ^(٤) إِلَّا اللَّهُ، ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾؛ أَي: فَلْيَتَسَابَقُوا^(٥) فِي الْمُبَادَرَةِ إِلَيْهِ وَالْأَعْمَالِ الْمَوْصِلَةِ إِلَيْهِ؛ فَهَذَا أَوْلَى مَا بُذِلَتْ فِيهِ نَفَائِسُ الْأَنْفَاسِ، وَأُحْرِي مَا تَزَاحَمَتْ لِلْوَصُولِ إِلَيْهِ فَحَوْلُ الرِّجَالِ. وَمَزَاجُ هَذَا الشَّرَابِ ﴿مِنْ تَسْنِيمٍ﴾: وَهِيَ عَيْنٌ ﴿يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾: صَرْفًا، وَهِيَ أَعْلَى أَشْرِبَةِ الْجَنَّةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ؛ فَلِذَلِكَ كَانَتْ خَالِصَةً لِلْمُقَرَّبِينَ، الَّذِينَ هُمْ أَعْلَى الْخَلْقِ مَنْزِلَةً، وَمَمْرُوجَةٌ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ؛ أَي: مَخْلُوطَةٌ بِالرِّحِيقِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَشْرِبَةِ اللَّذِيذَةِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾^(٦) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣١﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٢﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٣﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يُنظُرُونَ ﴿٣٤﴾ هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٥﴾.

﴿٢٩ - ٣٣﴾ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى جَزَاءَ الْمَجْرِمِينَ وَجَزَاءَ الْمُحْسِنِينَ، وَذَكَرَ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ التَّفَاوُتِ الْعَظِيمِ؛ أَخْبَرَ أَنَّ الْمَجْرِمِينَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا يَسْخَرُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِمْ وَ﴿يَضْحَكُونَ﴾: مِنْهُمْ، فَ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾: بِهِمْ عِنْدَ مَرُورِهِمْ عَلَيْهِمْ

(١) فِي (ب): «أَيُّهَا النَّازِرُ إِلَيْهِمْ».

(٢) فِي (ب): «بِهَاءِ النَّعِيمِ».

(٣) فِي (ب): «فَإِنَّ تَوَالِي اللَّذَّةِ وَالسَّرُورِ».

(٤) فِي (ب): «مَقْدَارُهُ وَحَسَنُهُ».

(٥) فِي (ب): «يَتَسَابَقُوا».

(٦) فِي (أ): إِلَى آخِرِ السُّورَةِ. وَفِي (ب) ذِكْرُ الْآيَاتِ.

احتقاراً لهم وازدراء، ومع هذا تراهم مطمئنين لا يخطر الخوف على بالهم، ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ﴾: صباحاً أو مساءً، ﴿انْقَلِبُوا فَكِهِينَ﴾؛ أي: مسرورين مغتبتين، وهذا أشد ما يكون^(١) من الاعتزاز؛ أنهم جمعوا بين غاية الإساءة مع الأمن^(٢) في الدنيا، حتى كأنهم قد جاءهم كتاب وعهد من الله^(٣) أنهم من أهل السعادة، وقد حكموا لأنفسهم أنهم أهل الهدى، وأن المؤمنين ضالون؛ افتراء على الله، وتجرؤوا على القول عليه بلا علم. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾؛ أي: وما أرسلوا وكلاء على المؤمنين، ملزمين بحفظ أعمالهم، حتى يحرصوا على ربيهم بالضلال، وما هذا منهم إلا تعنت وعناد وتلاعب ليس له مستند ولا برهان.

﴿٣٤ - ٣٦﴾ ولهذا كان جزاؤهم في الآخرة من جنس عملهم؛ قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ﴾؛ أي: يوم القيامة، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾: حين يرونهم في غمرات العذاب يتقلبون وقد ذهب عنهم ما كانوا يفترون، والمؤمنون في غاية الراحة والطمأنينة ﴿على الأرائك﴾: وهي السرر المزينة، ﴿ينظرون﴾: إلى ما أعد الله لهم من النعيم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم. ﴿هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون﴾؛ أي: هل جوزوا من جنس عملهم؟ فكما ضحكوا في الدنيا من المؤمنين ورمّوهم بالضلال؛ ضحك المؤمنون منهم في الآخرة، حين رأوهم^(٤) في العذاب والثكال الذي هو عقوبة الغي والضلال. نعم؛ ثوبوا ما كانوا يفعلون عدلاً من الله وحكمة. والله عليهم حكيم.



تفسير سورة الانشقاق

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الْعَظِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ^(٥)﴾ ① وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ② وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ③ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ④ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ⑤ يَتَأْتِيَ الْإِنْسَانَ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا فَمَلَقَيْهِ ⑥ فَأَمَّا مَنْ

(١) في (ب): «مغبوطين، وهذا من أعظم ما يكون».

(٢) في (ب): «والأمن».

(٣) في (ب): «كتاب من الله وعهد».

(٤) في (ب): «ورأوهم».

(٥) في (أ): «إلى قوله: ﴿بلى إن ربه كان به بصيراً﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.

أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَنَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ
 أَوْتِيَ كِتَابَهُ وِرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾
 إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُ لَنْ يَحْجُوزَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِم بَصِيرًا ﴿١٥﴾ .

﴿١ - ٢﴾ يقول تعالى مبيناً لما يكون في يوم القيامة من تغير الأجرام العظام: «إذا السماء انشَقَّتْ»؛ أي: انفطرت وتمايز بعضها من بعض، وانتشرت نجومها، وخسف شمسها وقمرها، «وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا»؛ أي: استمعت لأمره وألقت سمعها وأصاحت لخطابه، أي: حَقُّ لها ذلك؛ فإنها مسخرة مدبرة تحت مسخر ملك عظيم لا يعصى أمره ولا يخالف حكمه.

﴿٣ - ٥﴾ «وإذا الأرض مُدَّتْ»؛ أي: رجفت وارتجت ونُسِفَتْ عليها جبالها ودُكَّ ما عليها من بناء ومعلم فسويت، ومدَّها الله مدَّ الأديم، حتى صارت واسعة جداً، تسع أهل الموقف على كثرتهم، فتصير قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً، «وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا»؛ من الأموات والكنوز، «وَتَخَلَّتْ»؛ منهم؛ فإنه ينفخ في الصور، فتخرج الأموات من الأجداث إلى وجه الأرض، وتخرج الأرض كنوزها، حتى تكون كالإسطوان العظيم، يشاهده الخلق ويتحسرون على ما هم فيه يتنافسون، «وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ».

﴿٦﴾ «يا أيُّها الإنسان إنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمِلاقيه»؛ أي: إنك ساع إلى الله وعامل بأوامره ونواهيه ومتقرب إليه إمَّا بالخير وإمَّا بالشر، ثم تلاقي الله يوم القيامة؛ فلا تعدم منه جزاء بالفضل أو العدل؛ بالفضل إن كنت سعيداً، وبالعقوبة إن كنت شقيًّا^(١).

﴿٧ - ٩﴾ ولهذا ذكر تفصيل الجزاء، فقال: «فَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ»؛ وهم أهل السعادة، «فسوف يحاسب حساباً يسيراً»؛ وهو العرض اليسير على الله، فيقرره الله بذنوبه، حتى إذا ظنَّ العبد أنه قد هلك؛ قال الله تعالى: «إِنِّي قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أسترها لك اليوم»^(٢)، «وينقلب إلى أهله»؛ في الجنة «مسروراً»؛ لأنه قد نجا من العذاب وفاز بالثواب.

(١) في (ب): «جزاء بالفضل إن كنت سعيداً أو بالعدل إن كنت شقيًّا».

(٢) كما في «صحيح البخاري» (٦٠٧٠)، ومسلم (٢٧٦٨).

﴿١٠ - ١٥﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْتِي كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾؛ أي: بشماله من وراء ظهره^(١)، ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾: من الخزي والفضيحة، وما يجد في كتابه من الأعمال التي قَدَّمَهَا ولم يَتَّبِعْ منها، ﴿وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾؛ أي: تحيط به السعير من كلِّ جانب، وَيَقْلَبُ عَلَى عَذَابِهَا، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ ﴿كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾: لا يَخْطُرُ الْبَعْثُ عَلَى بَالِهِ، وَقَدْ أَسَاءَ، وَلَا^(٢) يَظُنُّ أَنَّهُ رَاجِعٌ إِلَى رَبِّهِ وَمَوْقُوفٌ بَيْنَ يَدَيْهِ. ﴿بَلَى إِنْ رَبُّكَ كَانَ بِهِ بِصِيرًا﴾: فَلَا يَحْسُنُ أَنْ يَتْرُكَهُ سَدَى لَا يُؤْمَرُ وَلَا يُنْهَى وَلَا يُثَابُ وَلَا يُعَاقَبُ.

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالْشَّفَقِ^(٣)﴾ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (١٩) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥)﴾.

﴿١٦ - ١٩﴾ أقسم في هذا الموضع بآيات الليل، فأقسم بالشفق؛ الذي هو بقية نور الشمس الذي هو مفتتح الليل، ﴿والليل وما وسق﴾؛ أي: احتوى عليه من حيوانات وغيرها، ﴿والقمر إذا اتسق﴾؛ أي: امتلأ نوراً بإبداره، وذلك أحسن ما يكون وأكثر منافع. والمقسم عليه قوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾؛ أي: أيها الناس ﴿طَبَقًا﴾: بعد ﴿طَبَقٍ﴾؛ أي: أطواراً متعدّدة وأحوالاً متباينة من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى نفخ الروح، ثم يكون وليداً وطفلاً ومميزاً^(٤)، ثم يجري عليه قَلَمُ التَّكْلِيفِ والأمر والنهي، ثم يموت بعد ذلك، ثم يُنْعَثُ ويجازى بأعماله؛ فهذه الطبقات المختلفة الجارية على العبد دالة على أَنَّ اللَّهَ وحده هو المعبود الموحّد المدبّر لعباده بحكمته ورحمته، وأنَّ العبد فقيرٌ عاجزٌ تحت تدبير العزيز الرحيم.

﴿٢٠ - ٢٤﴾ ومع هذا؛ فكثيرٌ من الناس لا يؤمنون، ﴿وإذا قُرِئَ عليهم القرآن لا يسجدون﴾؛ أي: لا يخضعون للقرآن ولا ينقادون لأوامره ونواهيه، ﴿بل الذين كفروا يكذبون﴾؛ أي: يعاندون الحقَّ بعدما تبين؛ فلا يُسْتَغْرَبُ عدم إيمانهم

(١) في (ب): «من خلفه».

(٢) في (ب): «ولم».

(٣) في (أ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات.

(٤) في (ب): «ثم مميز».

وانقيادهم^(١) للقرآن؛ فإنَّ المكذَّبَ بالحقِّ عناداً لا حيلة فيه، ﴿والله أعلم بما يُوعون﴾؛ أي: بما يعملونه وينوونه سرّاً؛ فالله يعلم سرّهم وجهرهم، وسيجازيهم بأعمالهم، ولهذا قال: ﴿فبشّرْهم بعذابِ أليم﴾: وسميت البشارة بشارة؛ لأنها تؤثر في البشارة سروراً أو غمّاً.

﴿٢٥﴾ فهذه حال أكثر الناس؛ التكذيب بالقرآن، وعدم الإيمان به. ومن الناس فريقٌ هداهم الله فآمنوا بالله وقبلوا ما جاءتهم به الرُّسل، ف﴿آمنوا وعملوا الصالحات﴾: فهؤلاء ﴿لهم أجرٌ غير ممنون﴾؛ أي: غير مقطوع، بل هو أجرٌ دائمٌ ممّا لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطرٌ على قلبٍ بشر. والحمد لله^(٢).



تفسير سورة البروج

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ^(٣)﴾ ١ وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ ٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ٣ قِيلَ أَصْحَابُ الْأَعْدُدِ ٤ أَلْتَارِ ذَاتِ الْوُفُودِ ٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ٩ إِنَّ الَّذِينَ فَنَوُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ فَنَزَعْنَا فِي الْفُورِ الْأَكْبَرِ ١٠ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ١١ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٢ إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَبَعِيدُ ١٣ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ١٤ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ١٥ فَعَالٌ لَمَّا رِيَدُ ١٦ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ الْجَنَّاتِ ١٧ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ١٨ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبِ ١٩ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ٢٠ بَلْ هُوَ قَرِيبٌ نَجِيدٌ ٢١ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ٢٢﴾.

﴿١ - ٣﴾ ﴿والسمااء ذات البروج﴾؛ أي: ذات المنازل المشتملة على منازل الشمس والقمر والكواكب المنتظمة في سيرها على أكمل ترتيب ونظام دال على كمال قدرة الله [تعالى] ورحمته وسعة علمه وحكمته. ﴿واليوم الموعود﴾: وهو

(١) في (ب): «وعدم انقيادهم». (٢) في (ب): «تم تفسير السورة. والله الحمد».

(٣) في (أ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الَّذِي وَعَدَ اللَّهُ الْخَلْقَ أَنْ يَجْمَعَهُمْ فِيهِ وَيَضُمُّ فِيهِ أَوَّلَهُمْ وَآخِرَهُمْ وَقَاصِيَهُمْ وَدَانِيَهُمْ، الَّذِي لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَغَيَّرَ وَلَا يُخْلِفَ اللَّهُ الْمِيعَادَ. ﴿وَشَاهِدْ وَمَشْهُودٌ﴾: وشمل هذا كُلُّ مَنْ اتَّصَفَ بِهَذَا الْوَصْفِ؛ أَي: مَبْصُرٍ وَمَبْصَرٍ وَحَاضِرٍ وَمَحْضُورٍ وَرَاءَ وَمَرْتَبِيٍّ. وَالْمَقْسَمُ عَلَيْهِ مَا تَضَمَّنَهُ هَذَا الْقِسْمُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْبَاهِرَةِ وَحُكْمِهِ الظَّاهِرَةِ وَرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ. وَقِيلَ: إِنَّ الْمَقْسَمَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ:

﴿٤ - ٩﴾ ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾: وَهَذَا دَعَاءٌ عَلَيْهِمْ بِالْهَلَاكِ، وَالْأُخْدُودُ الْحُقُفَرُ الَّتِي تُخْفَرُ فِي الْأَرْضِ، وَكَانَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ^(١) هَؤُلَاءِ قَوْمًا كَافِرِينَ، وَلَدِيهِمْ قَوْمٌ مُؤْمِنُونَ، فَرَاوَدُوهُمْ عَلَى الدُّخُولِ ^(٢) فِي دِينِهِمْ، فَامْتَنَعَ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ ذَلِكَ، فَشَقَّ الْكَافِرُونَ أُخْدُودًا فِي الْأَرْضِ، وَقَذَفُوا فِيهَا النَّارَ، وَقَعَدُوا حَوْلَهَا، وَفَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ، وَعَرَضُوهُمْ عَلَيْهَا؛ فَمَنْ اسْتَجَابَ لَهُمْ أَطْلَقُوهُ، وَمَنْ اسْتَمَرَّ عَلَى الْإِيمَانِ قَذَفُوهُ فِي النَّارِ، وَهَذَا غَايَةُ الْمَحَارَبَةِ لِلَّهِ وَلِحَزْبِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلِهَذَا لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَأَهْلَكَهُمْ وَتَوَعَّدَهُمْ، فَقَالَ: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾، ثُمَّ فَسَّرَ الْأُخْدُودَ بِقَوْلِهِ: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ. إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قَعُودٌ. وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾: وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ مَا يَكُونُ مِنَ التَّجَبُّرِ وَقِسَاوَةِ الْقَلْبِ؛ لِأَنَّهُمْ جَمَعُوا بَيْنَ الْكُفْرِ بِآيَاتِ اللَّهِ وَمَعَانِدَتِهَا وَمَحَارَبَةِ أَهْلِهَا وَتَعْذِيْبِهِمْ بِهَذَا الْعَذَابِ الَّذِي تَنْفَطِرُ مِنْهُ الْقُلُوبُ وَحُضُورُهُمْ إِيَّاهُمْ عِنْدَ لِقَائِهِمْ فِيهَا. وَالْحَالُ أَنَّهُمْ مَا نَقَمُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا حَالَةً ^(٣) يُمَدِّحُونَ عَلَيْهَا وَبِهَا سَعَادَتُهُمْ، وَهِيَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ ﴿بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾؛ أَي: الَّذِي لَهُ الْعِزَّةُ، الَّتِي قَهَرَ بِهَا كُلَّ شَيْءٍ، وَهُوَ حَمِيدٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَوْصَافِهِ ^(٤). ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: خَلَقًا وَعَبِيدًا يَتَصَرَّفُ فِيهِمْ بِمَا يَشَاءُ ^(٥). ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾: عِلْمًا وَسَمْعًا وَبَصَرًا؛ أَفَلَا خَافَ هَؤُلَاءِ الْمُتَمَرِّدُونَ عَلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَهُمُ ^(٦) الْعَزِيزُ الْمَقْتَدِرُ، أَوْ مَا عَلِمُوا كُلُّهُمْ أَنَّهُمْ ^(٧) مَمَالِكُ لِلَّهِ، لَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ سُلْطَةٌ مِنْ دُونِ إِذْنِ الْمَالِكِ؟! أَوْ خَفِيَ عَلَيْهِمْ

(١) قصة أصحاب الأخدود، أخرجها مسلم (٣٠٠٥).

(٢) في (ب): «للدخول». (٣) في (ب): «إلا خصلة».

(٤) في (ب): «وأوصافه وأفعاله».

(٥) في (ب): «يتصرف فيهم تصرف المالك بملكه».

(٦) في (ب): «على الله أن يبطش بهم». (٧) في (ب): «أو ما علموا أنهم جميعهم».

أَنَّ اللَّهَ مُحِيطٌ بِأَعْمَالِهِمْ مُجَازِيهِمْ عَلَيْهَا^(١)؟! كَلَّا إِنَّ الْكَافِرَ فِي غُرُورٍ، وَالْجَاهِلُ فِي عَمَى وَضَلَالٍ^(٢) عَنْ سِوَاءِ السَّبِيلِ.

﴿١٠﴾ ثُمَّ أَوَعَدَهُمْ وَوَعَدَهُمْ وَعَرَّضَ عَلَيْهِمُ التَّوْبَةَ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾؛ أَي: الْعَذَابُ الشَّدِيدُ الْمَحْرِقُ. قَالَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ^(٣): انْظُرُوا إِلَى هَذَا الْكَرَمِ وَالْجُودِ؛ قَتَلُوا أَوْلِيَاءَهُ وَأَهْلَ طَاعَتِهِ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ.

﴿١١﴾ وَلَمَّا ذَكَرَ عَقُوبَةَ الظَّالِمِينَ؛ ذَكَرَ ثَوَابَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: بِقُلُوبِهِمْ، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: بِجَوَارِحِهِمْ، ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾: الَّذِي حَصَلَ لَهُمْ^(٤) الْفَوْزُ بِرِضَا اللَّهِ وَدَارَ كِرَامَتِهِ.

﴿١٢﴾ ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾؛ أَي: إِنْ عَقُوبَتُهُ لِأَهْلِ الْجَرَائِمِ وَالذُّنُوبِ الْعَظَامِ لِقُوَّةٍ شَدِيدَةٍ^(٥)، وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمَرَصَادِ^(٦)؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخْذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

﴿١٣﴾ ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِيءُ وَيُعِيدُ﴾؛ أَي: هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِإِبْدَاءِ الْخَلْقِ وَإِعَادَتِهِ؛ فَلَا يَشَارِكُهُ فِي ذَلِكَ مُشَارِكٌ^(٧).

﴿١٤﴾ ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾: الَّذِي يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعَهَا لِمَنْ تَابَ، وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ لِمَنْ اسْتَغْفَرَهُ وَأَتَابَ. ﴿الْوَدُودُ﴾: الَّذِي يُحِبُّهُ أَحِبَابُهُ مُحَبَّةً لَا يَشَبِّهُهَا شَيْءٌ؛ فَكَمَا أَنَّهُ لَا يَشَابُهُ شَيْءٌ فِي صِفَاتِ الْجَلَالِ وَالْجَمَالِ وَالْمَعَانِي وَالْأَفْعَالِ؛ فَمُحَبَّتُهُ فِي قُلُوبِ خَوَاصِّ خَلْقِهِ التَّابِعَةِ لَذَلِكَ لَا يَشَبِّهُهَا شَيْءٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَحَابِّ، وَلِهَذَا كَانَتْ مُحَبَّتُهُ أَصْلَ الْعِبَادِيَّةِ، وَهِيَ الْمَحَبَّةُ الَّتِي تَتَقَدَّمُ جَمِيعَ الْمَحَابِّ وَتَغْلِبُهَا، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ غَيْرَهَا تَبَعاً لَهَا؛ كَانَتْ عَذَاباً عَلَى أَهْلِهَا، وَهُوَ تَعَالَى الْوَدُودُ الْوَادُّ لِأَحِبَابِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾: وَالْمُودَّةُ هِيَ الْمَحَبَّةُ الصَّافِيَّةُ.

وَفِي هَذَا سِرٌّ لَطِيفٌ؛ حَيْثُ قَرَنَ الْوَدُودَ بِالْغَفُورِ؛ لِيَدُلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الذُّنُوبِ إِذَا تَابُوا إِلَى اللَّهِ، وَأَنَابُوا غُفِرَ لَهُمْ ذُنُوبُهُمْ، وَأَحْبَبَهُمْ فَلَا يُقَالُ تَغْفِرُ ذُنُوبَهُمْ، وَلَا

(١) فِي (ب): «مُجَازٍ لَهُمْ عَلَى فَعَالِهِمْ». (٢) فِي (ب): «وَالظَّالِمُ فِي جَهْلٍ وَعَمَى».

(٣) أَي: الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ. انْظُرْ «تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ» (٣٩٣/٨).

(٤) فِي (ب): «بِهِ». (٥) فِي (ب): «وَالذُّنُوبُ الْعَظَامُ لِشَدِيدَةٍ».

(٦) فِي (ب): «وَهُوَ بِالْمَرَصَادِ لِلظَّالِمِينَ». (٧) فِي (ب): «فَلَا مُشَارِكُ فِي ذَلِكَ».

يرجع إليهم الود كما قاله بعض الغالطين، بل الله أفرح بتوبة عبده حين يتوب من رجل على راحلته عليها طعامه وشرابه وما يصلحه، فأضلها في أرض فلاة مهلكة، فأيس منها، فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت، فبينما هو على تلك الحال؛ إذا راحلته على رأسه، فأخذ بخطامها^(١). فالله أعظم فرحاً بتوبة العبد من هذا براجلته، وهذا أعظم فرح يقدر؛ فله الحمد والثناء وصفو الوداد ما أعظم برّه وأكثر خيرَه وأغزر إحسانه وأوسع امتنانه!

﴿١٥﴾ ﴿ذو العرش المجيد﴾؛ أي: صاحب العرش العظيم، الذي من عظمته أنه وسع السماوات والأرض والكرسي؛ فهي بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة في فلاة بالنسبة لسائر الأرض^(٢)، وخص الله العرش بالذكر لعظمته، ولأنه أخص المخلوقات بالقرب منه [تعالى]. وهذا على قراءة الجر يكون ﴿المجيد﴾ نعتاً للعرش، وأما على قراءة الرفع؛ فإنه يكون نعتاً لله^(٣)، والمجد سعة الأوصاف وعظمتها.

﴿١٦﴾ ﴿فَعَالٌ لِّمَا يَرِيدُ﴾؛ أي: مهما أراد شيئاً؛ فعله، إذا أراد شيئاً؛ قال له: كن، فيكون، وليس أحداً فعالاً لما يريد إلا الله؛ فإن المخلوقات ولو أرادت شيئاً؛ فإنه لا بد لإرادتها من معاون وممانع، والله لا معاون لإرادته ولا ممانع له ممّا أراد.

﴿١٧ - ١٨﴾ ثم ذكر من أفعاله الدالة على صدق ما جاءت به رسله، فقال: ﴿هل أتاكَ حديث الجنود. فرعون وثمود﴾: وكيف كذبوا المرسلين فجعلهم الله من المهلكين.

﴿١٩﴾ ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾؛ أي: لا يزالون مستمرين على التكذيب والعناد، لا تنفع فيهم الآيات، ولا تجدي لديهم العظات.

﴿٢٠﴾ ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾: قد أحاط بهم علماً وقدره؛ كقوله: ﴿إِنَّ

(١) كما في «صحيح البخاري» (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤) عن عدة من الصحابة بألفاظ مختلفة.

(٢) كما في كتاب «الأسماء والصفات» للبيهقي (٥٨) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، والحديث صححه الألباني في «الصحيح» (١٠٩) وقال: «واعلم أنه لا يصح حديث مرفوع عن النبي ﷺ في صفة العرش إلا هذا الحديث».

(٣) في (ب): «فإن المجيد نعت لله».

رَبِّكَ لِبِالْمِرْصَادِ؛ ففيه الوعيد الشديد للكافرين من عقوبة مَنْ هم في قبضته وتحت تدبيره.

﴿٢١ - ٢٢﴾ ﴿بل هو قرآن مجيد﴾؛ أي: وسيع المعاني عظيمها كثير الخير والعلم. ﴿في لوح محفوظ﴾: من التغيير والزيادة والنقص، ومحفوظ من الشياطين، وهو اللوح المحفوظ، الذي قد أثبت الله فيه كل شيء، وهذا يدل على جلالة القرآن وجزالته ورفعة قدره عند الله تعالى. والله أعلم.

تم تفسيرها^(١).



تفسير سورة الطارق

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾^(٢) ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْنَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ يَمَّ خَلْقٍ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَى رَجِيعِهِ لَقَائِدٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَا لَمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءُ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضُ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَآكِيذٌ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَيَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رُودًا ﴿١٧﴾.

﴿١ - ٤﴾ يقول الله تعالى: ﴿والسمااء والطارق﴾: ثم فسّر الطارق بقوله: ﴿النجم الثاقب﴾؛ أي: المضيء الذي يثقب نوره فيخرق السماوات فينفذ حتى يرى في الأرض. والصحيح أنه اسم جنس يشمل سائر النجوم الثواقب. وقد قيل: إنه زحل، الذي يخرق السماوات السبع وينفذها^(٣) فيرى منها، وسُمّي طارقاً لأنه يطرق ليلاً. والمقسم عليه قوله: ﴿إن كل نفس لما عليها حافظ﴾: يحفظ عليها أعمالها الصالحة والسيئة، وستجازى بعملها المحفوظ عليها.

(١) في (ب): «تم تفسير السورة».

(٢) في (أ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

(٣) في (ب): «وينفذ فيها».

﴿٥ - ٧﴾ ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾؛ أي: فليتدبر خلقته ومبدأه؛ فإنه مخلوق من ماءٍ دافقٍ: وهو المنى، الذي يخرج من بين الصلب والترائب: يحتمل أنه من بين صلب الرجل وترائب المرأة، وهي ثدياها، ويحتمل أن المراد المنى الدافق، وهو منى الرجل، وأن محلّه الذي يخرج منه ما بين صلبه وترائبه، ولعلّ هذا أولى؛ فإنه إنما وصف به الماء الدافق الذي يحسّ به ويشاهد دفقّه^(١)، وهو منى الرجل، وكذلك لفظ الترائب؛ فإنّها تستعمل للرجل؛ فإنّ الترائب للرجل بمنزلة الثديين للأنثى؛ فلو أريدت الأنثى؛ لقل^(٢) من الصلب والثديين ونحو ذلك. والله أعلم.

﴿٨ - ١٠﴾ فالذي أوجد الإنسان من ماءٍ دافقٍ يخرج من هذا الموضع الصعب قادرٌ على رجعه في الآخرة وإعادته للبعث والشّور والجزاء. وقد قيل: إنّ معناه أن الله على رجع الماء المدفوق في الصلب لقادرٌ، وهذا وإن كان المعنى صحيحاً؛ فليس هو المراد من الآية، ولهذا قال بعده: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾؛ أي: تختبر سرائر الصدور ويظهر ما كان في القلوب من خيرٍ وشرٍّ على صفحات الوجوه؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾؛ ففي الدنيا تنكتم كثيرٌ من الأشياء ولا يظهر عياناً للناس، وأمّا يوم القيامة^(٣)؛ فيظهر برّ الأبرار وفجورُ الفجار، وتصير الأمور علانيةً. وقوله: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ﴾؛ أي: من نفسه يدفع بها^(٤)، ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾: من خارج^(٥) ينتصر به، فهذا القسم على العاملين وقت عملهم وعند جزائهم.

﴿١١ - ١٤﴾ ثم أقسم قسماً ثانياً على صحة القرآن، فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ. وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾؛ أي: ترجع السماء بالمطر كلّ عام، وتنصدع الأرض للنبات، فيعيش بذلك الادميئون والبهائم، وترجع السماء أيضاً بالأقذار والشؤون الإلهية كلّ وقتٍ، وتنصدع الأرض عن الأموات، ﴿إِنَّهُ﴾؛ أي: القرآن، ﴿لَقَوْلٍ فَصْلٍ﴾؛ أي: حقٌ وصدقٌ بيّنٌ واضحٌ، ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾؛ أي: جدّ ليس بالهزل، وهو القول الذي يفصل بين الطوائف والمقالات، وتفصل به الخصومات.

(١) في (ب): «إنما وصف الله به الماء الدافق والذي يحسّ ويشاهد دفقّه».

(٢) في (ب): «لقال». (٣) في (ب): «وأمّا في القيامة».

(٤) في (ب): «﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ﴾: يدفع بها عن نفسه».

(٥) في (ب): «﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾: خارجي».

﴿١٥ - ١٧﴾ ﴿إِنَّهُمْ﴾ ؛ أي: المكذبين للرسول ﷺ وللقرآن، ﴿يَكِيدُونَ كِيداً﴾: ليدفعوا بكيدهم الحق ويؤيدوا الباطل، ﴿وَأَكِيدُ كِيداً﴾: لإظهار الحق، ولو كره الكافرون، ولدفع ما جاؤوا به من الباطل، ويعلم بهذا من الغالب؛ فإنَّ الآدميَّ أضعف وأحقر من أن يغالب القويَّ العليم في كيدِهِ. ﴿فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رَوِيداً﴾؛ أي: قليلاً، فسيعلمون^(١) عاقبة أمرهم حين ينزل بهم العقاب. تم تفسيرها^(٢). والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة سبح

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ (٢) ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ (٣) ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ (٤) ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ (٥) ﴿سُقْرَتَكَ فَلَا تَسْمَى﴾ (٦) ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ (٧) ﴿وَيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ (٨) ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ (٩) ﴿سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ (١٠) ﴿وَيَنْجَنِيهَا الْأَشَقَى﴾ (١١) ﴿الَّذِي يَصِلُ النَّارَ الْكُبْرَى﴾ (١٢) ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ (١٣) ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٤) ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ (١٥) ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (١٦) ﴿وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (١٧) ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (١٨) ﴿صُحُفٍ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ (١٩).

﴿١ - ٣﴾ يأمر تعالى بتسبيحه المتضمن لذكره وعبادته والخضوع لجلاله والاستكانة لعظمته، وأن يكون تسبيحاً يليق بعظمة الله تعالى؛ بأن تُذكرَ أسماؤه الحسنى العالية على كل اسم بمعناها العظيم الجليل^(٤)، وتذكر أفعاله التي منها أنه خلق المخلوقات فسواها؛ أي: أتقن وأحسن خلقها، ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ﴾: تقديره تتبعه جميع المقدرات، ﴿فَهْدَى﴾: إلى ذلك جميع المخلوقات، وهذه الهداية العامة التي مضمونها أنه هدى كل مخلوق لمصلحته.

﴿٤ - ٥﴾ وتذكر فيها نعمه الدنيوية، ولهذا قال^(٥): ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾؛ أي:

(١) في (ب): «فسيعلمون».

(٢) في (ب): «تم تفسير سورة الطارق».

(٣) في (أ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

(٤) في (ب): «الحسن العظيم».

(٥) في (ب): «قال فيها».

أنزل من السماء ماءً، فأنبث به أصناف^(١) النبات والعشب الكثير، فرتع فيه الناس والبهائم وجميع الحيوانات^(٢). ثم بعد أن استكمل ما قَدَّرَ له من الشباب؛ ألوى نباته وصَوَّحَ عشبه، ﴿فجعل غثاءً أحوى﴾؛ أي: أسود؛ أي: جعله هشياً رميمًا.

﴿٦ - ٧﴾ ويذكر فيها نعمه الدينيَّة، ولهذا امتنَّ الله بأصلها ومادَّتها، وهو القرآن، فقال: ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾؛ أي: سنحفظ ما أوحيناه إليك من الكتاب ونوعيه قلبك؛ فلا تنسى منه شيئاً، وهذه بشارة من الله كبيرة^(٣) لعبده ورسوله محمد ﷺ؛ أن الله سيعلمه علماً لا ينساه، ﴿إلا ما شاء الله﴾: مما اقتضت حكمته أن ينسيكه لمصلحة وحكمة بالغة. ﴿إنه يعلم الجهر وما يخفى﴾: ومن ذلك أنه يعلم ما يُضِلُّح عباده؛ أي: فلذلك يشرع ما أراد ويحكم بما يريد^(٤).

﴿٨﴾ ﴿ونيسرك لليسرى﴾: وهذه أيضاً بشارة أخرى^(٥)؛ أن الله ييسر رسوله ﷺ لليسرى في جميع أموره، ويجعل شرعه ودينه يسيراً^(٦).

﴿٩ - ١٣﴾ ﴿فذكرك﴾: بشرع الله وآياته، ﴿إن نفعك الذكرى﴾؛ أي: ما دامت الذكرى مقبولة والموعظة مسموعة، سواء حصل من الذكرى جميع المقصود أو بعضه. ومفهوم الآية أنه إن لم تنفع الذكرى؛ بأن كان التذكير يزيد في الشر أو ينقص من الخير؛ لم تكن مأموراً بها، بل منهياً عنها؛ فالذكرى ينقسم الناس فيها قسمين: منتفعون، وغير منتفعين. فأما المنتفعون فقد ذكرهم بقوله: ﴿سيدك من يخشى﴾: الله؛ فإن خشية الله تعالى والعلم بمجازاته على الأعمال توجب للعبد الانكفاف عما يكرهه الله^(٧) والسعي في الخيرات، وأما غير المنتفعين؛ فذكرهم بقوله: ﴿ويتجنبها الأشقى. الذي يضلى النار الكبرى﴾: وهي النار الموقدة، التي تطلُّع على الأفتدة، ﴿ثم لا يموت فيها ولا يخيا﴾؛ أي: يعذب عذاباً أليماً من غير راحة ولا استراحة، حتَّى إنهم يتمنَّون الموت؛ فلا يحصل لهم؛ كما قال تعالى: ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها﴾.

(١) في (ب): «أنواع».

(٢) في (ب): «كيرة من الله».

(٣) في (ب): «فلذلك يحكم بما».

(٤) في (ب): «كيرة».

(٥) في (ب): «إن خشيته لله وعلمه بأن سيجازيه على أعماله توجب للعبد الانكفاف عن المعاصي».

(٦) في (ب): «وكلى حيوان».

(٧) في (ب): «يسراً».

﴿١٤ - ١٥﴾ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾؛ أي: قد فاز وربح من طَهَّر نفسه ونَقَّاهَا من الشرك والظلم ومساوئ الأخلاق، ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾؛ أي: اتَّصَف بذكر الله، وانصبغ به قلبه، فأوجب له ذلك العمل بما يرضي الله، خصوصاً الصلاة، التي هي ميزانُ الإيمان. هذا معنى الآية [الكريمة]، وأمّا من فسّر قوله: ﴿تَزَكَّى﴾؛ يعني^(١): أخرج زكاة الفطر، و﴿ذكر اسم ربّه فصلّى﴾؛ أنّه صلاة العيد؛ فإنّه وإن كان داخلاً في اللفظ وبعض جزئياته؛ فليس هو المعنى وحده.

﴿١٦ - ١٧﴾ ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾؛ أي: تقدّمونها على الآخرة، وتختارون نعيمها المنعص المكدر الزائل على الآخرة، ﴿وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾: خيرٌ من الدنيا في كلّ وصفٍ مطلوب، ﴿وَأَبْقَى﴾؛ لكونها دار خلدٍ وبقاء [وصفاء] والدنيا دار فناء. فالمؤمن العاقل لا يختار الأردأ على الأجود، ولا يبيع لذّة ساعة بترحة الأبد، فحبُّ الدنيا وإيثارها على الآخرة رأس كلّ خطيئة.

﴿١٨ - ١٩﴾ ﴿إِنَّ هَذَا﴾: المذكور لكم في هذه السورة المباركة من الأوامر الحسنة والأخبار المستحسنة، ﴿لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى. صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾: اللّذين هما أشرف المرسلين بعد^(٢) محمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين. فهذه أوامر في كلّ شريعة؛ لكونها عائدة إلى مصالح الدارين، وهي مصالح في كلّ زمانٍ ومكان. تَمَّت. ولله الحمد^(٣).



تفسير سورة الغاشية

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾^(٤) ﴿١﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُشْفَى مِنْ عَيْنٍ عَاتِيَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْنَوْنَ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾

(١) في (ب): «بمعنى».

(٢) في (ب): «سوى النبي».

(٣) في (ب): «تمّ تفسير سورة سبح والله الحمد».

(٤) في (أ): «إلى قوله: «وزرابي ماثوثة». وفي (ب): ذكر الآيات».

فِيهَا سُرٌّ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْرَابٌ مُّضْوَوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَقَارٌ مَّصْفُوعَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَأِيُّ مَبْثُوءَةٌ ﴿١٦﴾ .

﴿١﴾ يذكر تعالى أحوال يوم القيامة وما فيها من الأحوال الطامة، وأنها تغشى الخلائق بشدائدها، فيجازون بأعمالهم، ويتميزون إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير. فأخبر عن وصف كلا الفريقين:

﴿٢ - ٧﴾ فقال في وصف أهل النار: ﴿وجوه يومئذ﴾؛ أي: يوم القيامة، ﴿خاشعة﴾: من الدُّلِّ والفضيحة والخزي، ﴿عاملة ناصبة﴾؛ أي: تاعبة في العذاب، تجرُّ على وجوها، ﴿وتغشى وجوههم النار﴾؛ ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿وجوه يومئذ خاشعة﴾: عاملة ناصبة: في الدنيا لكونهم في الدنيا أهل عبادات وعمل، ولكنه لما عدم شرطه، وهو الإيمان؛ صار يوم القيامة هباءً منثوراً.

وهذا الاحتمال وإن كان صحيحاً من حيث المعنى؛ فلا يدلُّ عليه سياق الكلام، بل الصواب المقطوع به هو الاحتمال الأول؛ لأنه قيده بالظرف، وهو يوم القيامة، ولأنَّ المقصود هنا بيان ذكر^(١) أهل النار عموماً، وذلك الاحتمال جزء قليل بالنسبة إلى أهل النار^(٢)، ولأنَّ الكلام في بيان حال الناس عند غشيان الغاشية؛ فليس فيه تعرُّض لأحوالهم في الدنيا.

وقوله: ﴿تضلى ناراً حامية﴾؛ أي: شديداً حرّها تحيط بهم من كلِّ مكان، ﴿تُسقى من عين آية﴾؛ أي: شديدة الحرارة^(٣)، ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾؛ فهذا شرايهم، وأما طعامهم؛ ف﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يُسمِنُ ولا يُغني من جوع﴾: وذلك لأنَّ^(٤) المقصود من الطعام أحد أمرين: إمَّا أن يسدَّ جوع صاحبه ويزيل عنه ألمه، وإمَّا أن يُسمِنَ بدنه من الهزال، وهذا الطعام ليس فيه شيء من هذين الأمرين، بل هو طعام في غاية المرارة والتُّنِّ والخسَّة، نسأل الله العافية.

﴿٨ - ١٦﴾ وأما أهل الخير؛ فوجوههم يوم القيامة ﴿ناعمة﴾؛ أي: قد جرت عليهم نضرة النعيم فتصَّرت أبدانهم واستنارت وجوههم وسُرُّوا غاية السرور، ﴿لسعيها﴾: الذي قدَّمته في الدنيا من الأعمال الصالحة والإحسان إلى عباد الله،

(١) في (ب): «وصف».

(٢) في (ب): «جزء قليل من أهل النار بالنسبة إلى أهلها».

(٣) في (ب): «حارة شديدة».

(٤) في (ب): «أن».

﴿راضية﴾: إذ وجدت ثوابه مدخراً مضاعفاً، فحمدت عقباه، وحصل لها كل ما تتمناه. وذلك أنها ﴿في جنّة﴾: جامعة لأنواع النعيم كلها، ﴿عالية﴾: في محلها ومنازلها؛ فمحلها في أعلى عليين، ومنازلها مساكن عالية، لها غرف، ومن فوق الغرف غرف مبنية يشرفون منها على ما أعد الله لهم من الكرامة. ﴿قطوفها دانية﴾؛ أي: كثيرة الفواكه اللذيذة المثمرة بالشمار الحسنة السهلة تناول؛ بحيث ينالونها على أي حال كانوا، لا يحتاجون أن يصعدوا شجرة أو يستعصي عليهم منها ثمرة. ﴿لا تسمع فيها﴾؛ أي: الجنّة ﴿لا غية﴾؛ أي: كلمة لغو وباطل فضلاً عن الكلام المحرم، بل كلامهم كلام حسن نافع، مشتمل على ذكر الله وذكر نعمه المتواترة عليهم وعلى الآداب الحسنة^(١) بين المتعاشرين الذي يسر القلوب ويشرح الصدور. ﴿فيها عين جارية﴾: وهذا اسم جنس؛ أي: فيها العيون الجارية التي يفجرونها ويصرفونها كيف شاؤوا وأتوا أرادوا. ﴿فيها سرر مرفوعة﴾: والسرر جمع سرير، وهي المجالس المرتفعة في ذاتها وبما عليها من الفرش اللينة الوطيفة. ﴿وأكواب موضوعة﴾؛ أي: أوانٍ مملئة من أنواع الأشربة اللذيذة، قد وضعت بين أيديهم، وأعدت لهم، وصارت تحت طلبهم واختيارهم، يطوف بها عليهم الولدان المخلدون. ﴿ونمارق مصفوفة﴾؛ أي: وسائد من الحرير والإستبرق وغيرهما مما لا يعلمه إلا الله، قد صُفّت للجلوس والالتكاء عليها، وقد أريحوا عن أن يضعوها أو يصفوها بأنفسهم. ﴿وزرابي مبثوثة﴾: والزرابي هي البسط الحسان، مبثوثة؛ أي: مملوءة بها مجالسهم من كل جانب.

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (٢) ﴿وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ (٣) ﴿وَالِى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (٤) ﴿وَالِى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (٥) ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٦) ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ (٧) ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ (٨) ﴿فَيَعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ (٩) ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ (١٠) ﴿ثُمَّ إِنَّ إِلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ (١١).

﴿١٧ - ٢٠﴾ يقول تعالى حثاً للذين لا يصدقون الرسول ﷺ ولغيرهم من الناس أن يتفكروا في مخلوقات الله الدالة على توحيده. ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾؛ أي: ألا ينظرون إلى خلقها البديع وكيف سخرها الله للعباد وذلّلها لمنافعهم الكثيرة

(١) في (ب): «والآداب المستحسنة».

(٢) في (أ): «إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة».

التي يضطرون إليها؟^(١) ﴿وإلى الجبال كيف نُصِبت﴾: بهيئة باهرة حصل بها الاستقرار للأرض^(٢) وثباتها من الاضطراب وأودع [الله] فيها من المنافع الجليلة ما أودع، ﴿وإلى الأرض كيف سُطِحَتْ﴾؛ أي: مُدَّتْ مدًّا واسعاً، وسُهِّلَتْ غاية التسهيل؛ ليستقرَّ العبادُ^(٣) على ظهرها ويتمكنوا من حرثها وغراسها والبنيان فيها وسلوك طرقها^(٤).

واعلم أنَّ تسطيحها لا ينافي أنَّها كرةٌ مستديرةٌ قد أحاطتْ الأفلاك فيها من جميع جوانبها كما دلَّ على ذلك النقل والعقل والحسُّ والمشاهدة؛ كما هو مذكورٌ معروفٌ عند كثير من الناس^(٥)، خصوصاً في هذه الأزمنة، التي وقف الناس على أكثر أرجائها بما أعطاهم الله من الأسباب المقرَّبة للبعد؛ فإنَّ التسطّيح إنَّما ينافي كروية الجسم الصغير جداً، الذي لو سطح؛ لم يبق له استدارةٌ تُذكر، وأمَّا جسم الأرض الذي هو كبيرٌ جداً واسعٌ^(٦)، فيكون كروياً مسطحاً، ولا يتنافى الأمران كما يعرف ذلك أرباب الخبرة.

﴿٢١ - ٢٢﴾ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾؛ أي: ذكّر الناس وعظهم وأنذَرهم وبشّرهم؛ فإنَّك مبعوثٌ لدعوة الخلق إلى الله وتذكيرهم، ولم تُبعثْ عليهم مسيطرأ عليهم مسلطاً^(٧) موكلأ بأعمالهم؛ فإذا قمت بما عليك؛ فلا عليك بعد ذلك لو لم؛ كقوله تعالى: ﴿وما أنت عليهم بجبارٍ. فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

﴿٢٣ - ٢٤﴾ وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾؛ أي: لكن مَنْ تَوَلَّى عن الطاعة وكفر بالله، ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾؛ أي: الشديد الدائم.

﴿٢٥ - ٢٦﴾ ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾؛ أي: رجوع الخلائق^(٨) وجمعهم في يوم القيامة. ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾: على ما عملوا^(٩) من خيرٍ وشرٍّ.

والحمد لله [رب العالمين].



(١) في النسختين لم يفسر قوله: ﴿وإلى السماء كيف رفعت﴾.

(٢) في (ب): «حصل بها استقرار الأرض».

(٣) في (ب): «الخلائق».

(٤) في (ب): «وسلوك الطرق الموصلة إلى أنواع المقاصد فيها».

(٥) في (ب): «أكثر الناس».

(٦) في (ب): «الذي هو في غاية الكبر والسعة».

(٧) في (ب): «مسيطرأ عليهم مسلطاً».

(٨) في (ب): «الخليقة».

(٩) في (ب): «فنحاسبهم على ما عملوا».

تفسير سورة والفجر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ ١﴾ وَلَيْلٍ عَشْرِ ٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ٤﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي
جَبْرِ ٥﴾ .

﴿١ - ٥﴾ الظاهر أن المقسم عليه هو المقسم به^(١)، وذلك جائز مستعمل إذا كان أمراً ظاهراً مهماً، وهو كذلك في هذا الموضع. فأقسم تعالى بالفجر، الذي هو آخر الليل ومقدمة النهار؛ لما في إدبار الليل وإقبال النهار من الآيات الدالة على كمال قدرة الله تعالى، وأنه تعالى هو^(٢) المدبّر لجميع الأمور، الذي لا تنبغي العبادة إلا له. ويقع في الفجر صلاة فاضلة معظمة يحسن أن يقسم الله بها، ولهذا أقسم بعده بالليالي العشر، وهي على الصحيح ليالي عشر رمضان أو عشر ذي الحجة^(٣)؛ فإنها ليالٍ مشتملة على أيام فاضلة، ويقع فيها من العبادات والقربات ما لا يقع غيرها. وفي ليالي عشر رمضان ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر، وفي نهارها صيام آخر رمضان، الذي هو أحد أركان^(٤) الإسلام العظام. وفي أيام عشر ذي الحجة الوقوف بعرفة، الذي يغفر الله فيه لعباده مغفرة يحزن لها الشيطان؛ فإنه ما^(٥) رُئي الشيطان أحقر ولا أدر منه^(٦) في يوم عرفة^(٧)؛ لما يرى من تنزل الأملاك والرحمة من الله على عباده^(٨)، ويقع فيها كثير من أفعال الحج والعمرة، وهذه أشياء معظمة مستحقة أن يقسم الله بها، ﴿والليل إذا يسر﴾؛ أي:

(١) في (ب): «الظاهر أن المقسم به هو المقسم عليه».

(٢) في (ب): «وأنه وحده».

(٣) انظر «زاد المعاد» لابن القيم (١/٥٦) فقد ذكر المفاضلة فيها بين العشر من ذي الحجة والعشر الأخير من رمضان.

(٤) في (ب): «الذي هو ركن من أركان».

(٥) في (ب): «فما».

(٦) في (ب): «من».

(٧) أخرجه مالك في «الموطأ» في الحج، باب: «جامع الحج»، وعنه عبدالرزاق (٨٨٣٢) مرسلًا عن عبيد الله بن كريب.

(٨) في (ب): «لعباده».

وقت سريانه وإرخائه ظلامه على العباد، فيسكنون ويستريحون ويطمثون رحمة منه تعالى وحكمة. ﴿هل في ذلك﴾: المذكور، ﴿قَسَمَ لذي حَجَرٍ﴾؛ أي: لذي عقل؟ نعم بعض ذلك يكفي لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۖ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)﴾.

﴿٦ - ١٤﴾ يقول تعالى: ﴿ألم تر﴾: بقلبك وبصيرتك، ﴿كيف فعل﴾: بهذه الأمم الطاغية، عاد وهي ﴿إرم﴾: القبيلة المعروفة في اليمن، ﴿ذات العِمَاد﴾؛ أي: القوة الشديدة والعتو والتجبر، ﴿التي لم يُخلق مثلها في البلاد﴾^(٢)؛ أي: في جميع البلدان في القوة والشدة؛ كما قال لهم نبيهم هود عليه السلام: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون﴾. ﴿وثمود الذين جابوا الصخر بالواد﴾؛ أي: وادي القرى؛ نحتوا بقوتهم الصخور فاتخذوها مساكن، ﴿وفرعون ذي الأوتاد﴾؛ أي: ذي الجنود الذي ثبتتوا ملكه كما ثبتت الأوتاد [و] ما يراد إمساكه بها، ﴿الذين طَعَوْا في البلاد﴾: هذا الوصف عائد إلى عاد وثمود وفرعون ومن تبعهم؛ فإنهم طَعَوْا في بلاد الله، وأدوا عباد الله في دينهم وديناهم. ولهذا قال: ﴿فأكثروا فيها الفساد﴾: وهو العمل بالكفر وشعبه من جميع أجناس المعاصي، وسعوا في محاربة الرُّسل وصدَّ الناس عن سبيل الله، فلما بلغوا من العتو ما هو موجب لهلاكهم؛ أرسل الله عليهم من عذابه ذُنُوباً وسوط عذاب، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾: لمن يعصيه^(٣)؛ يمهله قليلاً ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ﴾^(٤) فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحْضُونَ عَلَى

(١) في (أ): إلى قوله: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.

(٢) في (ب): ﴿التي لم يخلق مثلها﴾؛ أي: مثل عاد في البلاد.

(٣) في (ب): ﴿لمن عصاه﴾.

(٤) في (أ): إلى قوله: ﴿حَباً جمًّا﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.

طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ﴿١٩﴾ وَتَحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ .

﴿١٥ - ٢٠﴾ يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه جاهل ظالم لا علم له بالعواقب، يظنُّ الحالة التي تقع فيه تستمر ولا تزول، ويظنُّ أن إكرام الله في الدنيا وإنعامه عليه يدلُّ على كرامته [عنده] وقربه منه، وأنه إذا ﴿قَدَّرَ﴾ عليه رِزْقَه ﴿؟﴾ أي: ضيقه، فصار بِقَدَرِ قُوَّتِهِ لا يَفْضُلُ عنه؛ أن هذا إهانة من الله له، فردَّ الله عليه هذا الحساب، فقال: ﴿كَلَّا﴾؛ أي: ليس كلُّ مَنْ نَعَّمْتُهُ في الدنيا فهو كريمٌ عليّ، ولا كلُّ مَنْ قَدَّرْتُ عليه رِزْقَه فهو مهانٌ لديّ، وإنما الغنى والفقر والسعة والضيق ابتلاء من الله وامتحانٌ يمتحن به العباد؛ ليرى من يقوم له بالشكر والصبر، فيثيبه على ذلك الثواب الجزيل، ممَّن ليس كذلك، فينقله إلى العذاب الويل. وأيضاً؛ فإنَّ وقوف همّة العبد عند مراد نفسه فقط من ضعف همّة، ولهذا لا مَهْمُ الله على عدم اهتمامهم بأحوال الخلق المحتاجين، فقال: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرَمُونَ الْيَتِيمَ﴾: الذي فقد أباه وكاسبه واحتاج إلى جبر خاطره والإحسان إليه؛ فأنتم لا تكرمونه بل تهينونه، وهذا يدلُّ على عدم الرحمة في قلوبكم وعدم الرغبة في الخير، ﴿ولا تحاضون على طعام المسكين﴾؛ أي: لا يحضُّ بعضكم بعضاً على إطعام المحاويع من الفقراء والمساكين^(١)، وذلك لأجل الشحِّ على الدنيا ومحبتها الشديدة المتمكِّنة من القلوب. ولهذا قال: ﴿وتأكلون الثَّرَاثَ﴾؛ أي: المال المخلف، ﴿أكلاً لَمًّا﴾؛ أي: ذريعاً، لا تبقون على شيء منه، ﴿وتحبون المال حُبًّا جَمًّا﴾؛ أي: شديداً^(٢)، ولهذا كقولُه: ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خيرٌ وأبقى﴾، ﴿كَلَّا بَلْ تَحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾.

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾^(٣) ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾^(٤) ﴿وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ وَاتَى لَهُ الذِّكْرَى﴾^(٥) ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾^(٦) ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا وَلَا يُوثِقُ وِقَاظُهُ أَحَدًا﴾^(٧) ﴿يَتَابَتَا أَنْفُسُ الْمُظْمِئَةِ﴾^(٨) ﴿أَرْجِعِي إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَُرْضِيَةً﴾^(٩) ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾^(١٠) ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾^(١١) .

(١) في (ب): «من المساكين والفقراء».

(٢) في (ب): «أي: كثيراً شديداً».

(٣) في (أ): «إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة».

﴿٢١ - ٢٤﴾ «كَلَّا»؛ أي: ليس كلُّ ما أحببتم من الأموال وتنافستم فيه من اللذات بباقي لكم، بل أمامكم يومٌ عظيمٌ وهولٌ جسيمٌ تُدْكُ فيه الأرض والجبال وما عليها حتى تُجْعَلَ قاعاً صفصفاً لا عِوَجَ فيه ولا أمتاً، ويجيء الله لفصل القضاء بين عباده في ظُلُلٍ من الغمام، ويجيء الملائكة الكرام أهل السماوات كلُّهم^(١) «صفاً صفاً»؛ أي: صفاً بعد صفٍّ، كلُّ سماءٍ يجيء ملائكتها صفاً، يحيطون بمن دونهم من الخلق، وهذه الصفوف صفوفٌ خضوعٍ وذُلٌّ للملك الجبار، «وجيء يومئذٍ بجهنم»: تقودها^(٢) الملائكة بالسلاسل؛ فإذا وقعت هذه الأمور؛ ف«يومئذٍ يتذكرُ الإنسان»: ما قدّمه من خيرٍ وشرٍّ، «وأتى له الذكرى»: فقد فات أوانها وذهب زمانها، «يقول»: متحسراً على ما فرط في جنب الله: «يا ليتني قدّمتُ لحياتي»: الباقية الدائمة^(٣) عملاً صالحاً؛ كما قال تعالى: «يقول يا ليتني اتّخذتُ مع الرسولِ سبيلاً. يا ويلتى ليتني لم أتّخذ فلاناً خليلاً»، وفي هذا^(٤) دليلٌ على أنّ الحياة التي ينبغي السعي في كمالها وتحصيلها وكمالها^(٥) وفي تميم لذاتها هي الحياة في دار القرار؛ فإنّها دارُ الخلد والبقاء.

﴿٢٥ - ٢٦﴾ «فيومئذٍ لا يعذبُ عذابه أحدٌ»: لمن أهمل ذلك اليوم ونسي العمل له، «ولا يوثق وثاقه أحدٌ»؛ فإنّهم يقرون بسلاسل من نارٍ، ويسحبون على وجوههم في الحميم، ثم في النار يُسَجَرُونَ؛ فهذا جزاء المجرمين.

﴿٢٧ - ٣٠﴾ «وَأَمَّا مَنْ آمَنَ بِاللّهِ واطمأنَّ به»^(٦) وصدّق رسله؛ فيقال له: «يا أيّتها النفسُ المطمئنة»: إلى ذِكْرِ الله، الساكنة إلى حبه^(٧)، التي قرّت عينها بالله، «ارجعي إلى ربّك»: الذي ربّاك بنعمته، [وأسدى عليك من إحسانه ما صرت به من أوليائه وأحبابه] «راضيةً مرّضيةً»؛ أي: راضيةً عن الله وعن ما أكرمها به من الثواب، والله قد رضي عنها، «فادخلي في عبادي. وادخلي جنّتي»: وهذا تخاطبٌ به الروح يوم القيامة، وتخطبٌ به وقت السياق والموت^(٨).

والحمد لله رب العالمين.

(١) في (ب): «كلّها».

(٢) في (ب): «الدائمة الباقية».

(٣) في (ب): «التي ينبغي السعي في أصلها وكمالها».

(٤) في (ب): «وَأَمَّا مَنْ اطمأنَّ إلى الله وآمن به».

(٥) في (ب): «الحبه».

(٦) في (ب): «وتخاطب به في حال الموت».

(٧) في (ب): «يقودها».

(٨) في (ب): «وفي الآية».

تفسير سورة لا أقسم

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (٢) ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ (٤) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبْدًا ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ (٥) أَلَمْ نَجْعَلْ لَمْ عَيْنَيْنِ﴾ (٦) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ (٧) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (٨) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ (٩) فَكُ رَقَبَةً ﴿أَوْ إِطْعَمَهُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ (١٠) بَيْنَمَا ذَا مَقَرَبَةٍ ﴿أَوْ وَسَّكَيْنَا ذَا مَفْرَقَةٍ﴾ (١١) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ (١٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَيْنَانَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ﴾ (١٣).

﴿١ - ٣﴾ يقسم تعالى ﴿بهذا البلد﴾ الأمين، وهو (٢) مكة المكرمة، أفضل البلدان على الإطلاق، خصوصاً وقت حلول الرسول ﷺ فيها، ﴿ووالد وما ولد﴾؛ أي: آدم وذريته.

﴿٤ - ٧﴾ والمقسم عليه قوله: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾: يُحتمل أن المراد بذلك ما يكابده ويقاسيه من الشدائد في الدنيا وفي البرزخ ويوم يقوم الأشهاد، وأنه ينبغي له أن يسعى في عمل يريحه من هذه الشدائد ويوجب له الفرح والسرور الدائم، وإن لم يفعل؛ فإنه لا يزال يكابد العذاب الشديد أبد الآباد، ويحتمل أن المعنى لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم وأقوم خلقة يقدر (٣) على التصرف والأعمال الشديدة ومع ذلك فإنه لم يشكر الله على هذه النعمة العظيمة، بل بطر بالعافية، وتجبّر على خالقه، فحسب بجهله وظلمه أن هذه الحال ستدوم له، وأن سلطان تصرفه لا ينعزل، ولهذا قال [تعالى]: ﴿أيحسب أن لن يقدر عليه أحد﴾: ويطغى ويفتخر بما أنفق من الأموال على شهوات نفسه؛ فيقول ﴿أهلكت مالا لبدا﴾؛ أي: كثيراً بعضه فوق بعض. وسمى الله [تعالى] الإنفاق في الشهوات والمعاصي إهلاكاً؛ لأنه لا ينتفع المنفق بما أنفق، ولا يعود إليه (٤) من إنفاقه إلا

(١) في (أ): طمس. وفي (ب) ذكر الآيات إلى آخر السورة.

(٢) في (ب): «الذي هو». (٣) في (ب): «مقدر».

(٤) في (ب): «عليه».

النَّدَم والخسار والتَّعَب والْقَلَّة، لا كمن أنفق في مرضاة الله في سبيل الخير؛ فَإِنَّ هَذَا قد تاجر مع الله وربح أضعاف أضعاف ما أنفق، قال الله^(١) متوَعِّداً هَذَا الذي افتخر بما أنفق في الشهوات: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ؟﴾ أي: أَيُظَنُّ^(٢) في فعله هَذَا أَنَّ الله لا يراه ويحاسبه على الصغير والكبير؟! بل قد رآه الله وحفظ عليه أعماله ووكّل به الكرام الكاتبين لكل ما عمله^(٣) من خير وشر.

﴿٨ - ١٠﴾ ثم قرّره بنعمه، فقال: ﴿أَلَمْ نجعل له عينين. ولساناً وشفّتين﴾: للجمال والبصر والنطق وغير ذلك من المنافع الضرورية فيها؛ فهذه نعم الدنيا. ثم قال في نعم الدين: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾؛ أي: طريقَي الخير والشر؛ بيّنا له الهدى من الضلال، والرُّشد من الغي. فهذه المنن الجزيلة تقتضي من العبد أن يقوم بحقوق الله ويشكره^(٤) على نعمه، وأن لا يستعين بها على معاصي الله^(٥).

﴿١١﴾ وَلَكِنْ هَذَا الإنسان لم يفعل ذلك؛ ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾؛ أي: لم يقتحمها ويعبُر عليها؛ لأنه متَّبِعٌ لهواه^(٦)، وهذه العقبة شديدة عليه.

﴿١٢ - ١٦﴾ ثم فسّر هذه العقبة بقوله: ﴿فَكُ رَقَبَةٌ﴾؛ أي: فكُها من الرقِّ بعقها أو مساعدتها على أداء كتابتها، ومن باب أولى فكاك الأسير المسلم عند الكفار، ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾؛ أي: مجاعة شديدة؛ بأن يطعم وقت الحاجة أشدّ الناس حاجة، ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾؛ أي: جامعاً بين كونه يتيمًا وفقيراً ذا قرابة، ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾؛ أي: قد لزق بالتراب من الحاجة والضرورة.

﴿١٧﴾ ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: وعملوا الصالحات^(٧)؛ أي: آمنوا بقلوبهم بما يجب الإيمان به، وعملوا الصالحات بجوارحهم، فدخل في هَذَا كُلُّ^(٨) قول وفعل واجب أو مستحب، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾: على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره^(٩) المؤلمة؛ بأن يحثّ بعضهم بعضاً على الانقياد لذلك والإتيان به كاملاً منشراحاً به الصّدر مطمئنّة به النفس، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾: للخلق؛ من إعطاء محتاجهم، وتعليم جاهلهم، والقيام بما يحتاجون إليه من جميع الوجوه،

(١) في (ب): «قال تعالى».

(٢) في (ب): «أيحسب».

(٣) في (ب): «ما عمل».

(٤) في (ب): «ويشكر الله».

(٥) في (ب): «معاصيه».

(٦) في (ب): «لشهوته».

(٧) كذا في النسختين. ذكر الشيخ الآية: ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾.

(٨) في (ب): «من كل».

(٩) في (ب): «معصية الله وعلى أقدار الله».

ومساعدتهم على المصالح الدينيّة والدنيويّة، وأن يحبّ لهم ما يحبّ لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه.

﴿١٨﴾ ﴿أولئك﴾: الذين قاموا بهذه الأوصاف، الذين وفقهم الله لاقتحام [هذه] العقبة، ﴿أولئك أصحاب الميمنة﴾: لأنهم أدّوا ما أمر الله به من حقوقه وحقوق عباده، وتركوا ما نُهوا عنه، وهذا عنوان السعادة وعلامتها.

﴿١٩ - ٢٠﴾ ﴿والذين كفروا بآياتنا﴾: بأن نبذوا هذه الأمور وراء ظهورهم فلم يصدّقوا بالله ولا آمنوا به ولا عملوا صالحاً ولا رحموا عباد الله. أولئك ﴿أصحاب المشأمة﴾. عليهم نارٌ مؤصدة؛ أي: مغلقة، في عمَدٍ ممدّدة، قد مدّت من ورائها؛ لئلاً تنفتح أبوابها، حتى يكونوا في ضيقٍ وهمٍّ وشدةٍ.

والحمد لله.



تفسير الشمس وضحاها

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾^(١) ﴿١﴾ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ يَذِيقُهُمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾.

﴿١ - ٦﴾ أقسم تعالى بهذه الآيات العظيمة على النفس المفلحة وغيرها من النفوس الفاجرة، فقال: ﴿والشمس وضحاها﴾؛ أي: نورها ونفعها الصادر منها، ﴿والقمر إذا تلاها﴾؛ أي: تبعها في المنازل والنور، ﴿والنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا﴾؛ أي: جَلَّى ما على وجه الأرض وأوضحه، ﴿والليل إذا يغشاها﴾؛ أي: يغشى وجه الأرض، فيكون ما عليها مظلماً؛ فتعاقبُ الظُّلْمَةُ والضياءُ والشمس والقمر على هذا

(١) في (أ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

العالم بانتظام وإتقان وقيام^(١) لمصالح العباد أكبر دليل على أن الله بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير، وأنه المعبود وحده، الذي كل معبود سواه باطل^(٢)، ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا﴾: يحتمل أن ﴿مَا﴾ موصولة، فيكون الإقسام بالسما وبانيها، وهو الله تعالى^(٣)، ويحتمل أنها مصدرية، فيكون الإقسام بالسما وبنيانها الذي هو غاية ما يقدر من الأحكام والإتقان والإحسان. ونحو هذا^(٤) قوله: ﴿وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَاهَا﴾؛ أي: مدها ووسعها، فتمكن الخلق حينئذ من الانتفاع بها بجميع أوجه^(٥) الانتفاع.

﴿٧ - ٨﴾ ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾: يحتمل أن المراد: ونفس سائر المخلوقات الحيوانية؛ كما يؤيد هذا^(٦) العموم، ويحتمل أن الإقسام^(٧) بنفس الإنسان المكلف؛ بدليل ما يأتي بعده. وعلى كل؛ فالنفس آية كبيرة من آياته التي يحق الإقسام بها^(٨)؛ فإنها في غاية اللطف والخفة، سريعة التنقل والحركة والتغير والتأثر والانفعالات النفسية من الهم والإرادة والقصد والحب والبغض، وهي التي لولاها؛ لكان البدن مجرد تمثال لا فائدة فيه، وتسويتها على ما هي عليه^(٩) آية من آيات الله العظيمة.

﴿٩ - ١٠﴾ وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾؛ أي: طهر نفسه من الذنوب، ونقاها من العيوب، ورقاها بطاعة الله، وعلاها بالعلم النافع والعمل الصالح، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾؛ أي: أخفى نفسه الكريمة التي ليست حقيقة بقمعها وإخفائها بالتدس بالزئائل والذنوب من العيوب والذنوب^(١٠)، وترك ما يكملها وينميها، واستعمال ما يشينها ويدسها.

﴿١١ - ١٥﴾ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾؛ أي: بسبب طغيانها وترفعها عن الحق وعتوها على رسولهم^(١١)، ﴿إِذْ أَنْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾؛ أي: أشقى القبيلة^(١٢)، وهو قدار بن سالف؛ لعقرها؛ حين اتفقوا على ذلك وأمره فائتمر لهم، ﴿فَقَالَ لَهُمْ

(١) في (ب): «وانتظام».

(٢) في (ب): «باطل».

(٣) في (ب): «الذي هو الله تبارك وتعالى».

(٤) في (ب): «ونحو ذلك».

(٥) في (ب): «وجوه».

(٦) في (ب): «ذلك».

(٧) في (ب): «أن المراد بالإقسام».

(٨) في (ب): «التي حقيقة بالإقسام بها».

(٩) في (ب): «على هذا الوجه».

(١٠) في (ب): «والاقتراف للذنوب».

(١١) في (ب): «على رسول الله».

(١٢) انظر البخاري (٣٣٧٧)، ومسلم (٢٨٥٥).

رسول الله ﷺ: صالح عليه السلام محذراً: ﴿ناقة الله وسُفياها﴾؛ أي: احذروا عقر ناقة الله التي جعلها لكم آيةً عظيمةً، ولا تقابلوا نعمة الله عليكم بسقي لبنها أن تعقروها، فكذبوا نبيهم صالحاً، ﴿ففعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم﴾؛ أي: دمر عليهم، وعمهم بعقابه، وأرسل عليهم الصيحة من فوقهم والرجفة من تحتهم، فأصبحوا جائمين على ركبتهم، لا تجد منهم داعياً ولا مجيباً، ﴿فسواها﴾: عليهم؛ أي: سوى بينهم في العقوبة^(١)، ﴿ولا يخاف عقباها﴾؛ أي: تبعها. وكيف يخاف من هو قاهر لا يخرج عن قهره وتصرفه مخلوق. الحكيم في كل ما قضاه وشرعه. [تمت ولله الحمد].



تفسير سورة الليل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَنسَى ① وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ② وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ③ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ④﴾
 فَمَا مَنَ أَعْطَى وَآلَفَى ⑤ وَصَدَقَ بِالْحَقِّ ⑥ فَنَسِيْرُهُ لِيُسرَى ⑦ وَأَمَّا مَنْ يُحِلُّ وَاسْتَفَى ⑧ وَكَذَّبَ
 بِالْحَقِّ ⑨ فَنَسِيْرُهُ لِيُسرَى ⑩ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ⑪ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ⑫ وَإِنَّ لَنَا
 لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ⑬ فَأَنْذَرْتَكُمْ نَارًا تَلْفَى ⑭ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ⑮ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ⑯
 وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ⑰ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ⑱ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدُكُمْ مِنْ نَعْمَةٍ تُجْزَى ⑲ إِلَّا أَتَفَاءً
 وَقَبْرَهُ الْأَعْلَى ⑳ وَلَسَوْفَ يَرَى ㉑﴾.

﴿١ - ٢﴾ هذا قسم من الله بالزمان الذي تقع فيه أفعال العباد على تفاوت أحوالهم، فقال: ﴿والليل إذا يغشى﴾؛ أي: يعم الخلق بظلامه، فيسكن كل إلى مأواه ومسكنه، ويستريح العباد من الكد والتعب، ﴿والنهار إذا تجلَّى﴾: للخلق، فاستضاءوا بنوره، وانتشروا في مصالحهم.

﴿٣﴾ ﴿وما خلق الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾: إن كانت ﴿ما﴾ موصولة؛ كان إقساماً بنفسه

(١) في (ب): «بالعقوبة».

(٢) في (أ) إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

الكريمة الموصوفة بكونه^(١) خالق الذكور والإناث، وإن كانت مصدرية؛ كان قسماً بخلقه للذكر والأنثى، وكمال حكمته في ذلك؛ أن خلق من كل صنف من الحيوانات التي يريد إبقاءها ذكراً وأنثى؛ ليبقى النوع ولا يضمحل، وقاد كلاً منهما إلى الآخر بسلسلة الشهوة، وجعل كلاً منهما مناسباً للآخر؛ فتبارك الله أحسن الخالقين.

﴿٤﴾ وقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾: هذا هو المقسم عليه؛ أي: إن سعيكم أيها المكلّفون لمتفاوت تفاوتاً كثيراً، وذلك بحسب تفاوت نفس الأعمال ومقدارها والنشاط فيها، وبحسب الغاية المقصودة بتلك الأعمال؛ هل هو وجه الله الأعلى الباقي، فيبقى العمل^(٢) له ببقائه، وينتفع به صاحبه؟ أم هي غاية مضمحلة فانية؛ فيبطل السعي ببطانها ويضمحل باضمحلها؟ وهذا كل عمل يقصد به غير وجه الله [تعالى] بهذا الوصف.

﴿٥ - ٧﴾ ولهذا فضّل الله العاملين ووصف أعمالهم، فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى﴾؛ أي: ما أمر به من العبادات المالية كالزكوات والتفقات والكفارات^(٣) والصّدقات والإنفاق في وجوه الخير، والعبادات البدنية كالصلاة والصوم وغيرهما^(٤)، والمركبة من ذلك^(٥) كالحجّ والعمرة ونحوهما، ﴿وَاتَّقَى﴾: ما نُهي عنه من المحرّمات والمعاصي على اختلاف أجناسها، ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾؛ أي: صدّق بلا إله إلا الله، وما دلّت عليه من [جميع] العقائد الدينية وما ترتّب عليها من الجزاء [الأخروي]، ﴿فَسَنِّيْسِرْهُ لِلْيَسْرَى﴾؛ أي: نيسر له أمره ونجعله مسهلاً عليه^(٦) كل خير، ميسراً له ترك كل شر؛ لأنّه أتى بأسباب التيسير، فيسر الله له ذلك.

﴿٨ - ١٠﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾: بما أمر به، فترك الإنفاق الواجب والمستحب، ولم تسمح نفسه بأداء ما وجب لله، ﴿وَاسْتَغْنَى﴾: عن الله، فترك عبوديته جانباً، ولم ير نفسه مفتقرة غاية الافتقار إلى ربّها، الذي لا نجاة لها ولا فوز ولا فلاح إلا بأن يكون هو محبوبها ومعبودها الذي تقصده وتتوجّه إليه، ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾؛

(١) في (ب): «بأنه».

(٢) في (ب): «السعي».

(٣) في (ب): «والكفارات والتفقات».

(٤) في (ب): «ونحوهما».

(٥) في (ب): «والمركبة منهما».

(٦) في (ب): «أي: نسهل عليه أمره ونجعله ميسراً له».

أي: بما أوجب الله على العباد التصديق به من العقائد الحسنة، ﴿فَسَنِيْسِرُهُ لِلْعُسْرَى﴾؛ أي: للحالة العسرة والخصال الذميمة؛ بأن يكون ميسراً للشر أينما كان ومقيضاً له أفعال المعاصي. نسأل الله العافية.

﴿١١﴾ ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ﴾: الذي أطغاه واستغنى به وبخل به إذا هلك ومات؛ فإنه لا يصحب الإنسان^(١) إلا عمله الصالح. وأما ماله الذي لم يخرج منه الواجب؛ فإنه يكون وبالاً عليه؛ إذ لم يقدم منه لآخرته شيئاً.

﴿١٢﴾ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾؛ أي: إن الهدى المستقيم طريقه يوصل إلى الله ويدني من رضاه، وأما الضلال؛ فطرقة مسدودة عن الله، لا توصل صاحبها إلا للعذاب الشديد.

﴿١٣﴾ ﴿وَإِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾: ملكاً وتصرفاً، ليس له فيهما مشارك، فليرغب الراغبون إليه في الطلب، ولينقطع رجائهم عن المخلوقين.

﴿١٤ - ١٦﴾ ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾؛ أي: تستعر وتتوقد، ﴿لَا يَضِلَّهَا إِلَّا الْأَشْقَى. الَّذِي كَذَّبَ﴾: بالخبر، ﴿وَتَوَلَّى﴾: عن الأمر.

﴿١٧ - ٢١﴾ ﴿وَسَيَجْزِيهَا الْآتَى. الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾: بأن يكون قصده به تزكية نفسه وتطهيرها من الذنوب والأدناس^(٢)، قاصداً به وجه الله تعالى. فدل هذا على أنه إذا تضمن الإنفاق المستحب ترك واجب كدين ونفقة ونحوهما؛ فإنه غير مشروع، بل تكون عطيته مردودة عند كثير من العلماء؛ لأنه لا يتزكى بفعل مستحب يفوت عليه الواجب، ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾؛ أي: ليس لأحد من الخلق على هذا الآتقى نعمة تُجزى؛ إلا وقد كافأه عليها^(٣)، وربما بقي له الفضل والمئة على الناس، فتمحّض عبداً لله؛ لأنه رقيق إحسانه وحده، وأما من بقيت^(٤) عليه نعمة الناس فلم يجزها ويكافئها؛ فإنه لا بد أن يترك للناس ويفعل لهم ما ينقص إخلاصه.

وهذه الآية وإن كانت متناولة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، بل قد قيل: إنها نزلت بسببه^(٥)؛ فإنه رضي الله عنه ما لأحد عنده من نعمة تُجزى، حتى ولا رسول

(٢) في (ب): «والعيوب».

(٤) في (ب): «بقي».

(١) في (ب): «فإنه لا يصحبه».

(٣) في (ب): «بها».

(٥) في (ب): «في سببه».

الله ﷻ؛ إِلَّا نعمة الرسول، التي لا يمكن جزاؤها، وهي نعمة الدعوة إلى دين الإسلام وتعليم الهدى ودين الحق؛ فَإِنَّ لله ورسوله المنة على كلِّ أحدٍ، منة لا يمكن لها جزاء ولا مقابلة؛ فَإِنَّهَا متناولة لكلِّ من اتَّصف بهذا الوصف الفاضل، فلم يبقَ لأحدٍ عليه من الخلق نعمة تُجزى، فبقيت أعماله خالصةً لوجه الله تعالى، ولهذا قال: ﴿إِلَّا ابتغاء وجه ربِّه الأعلى. ولسوف يرضى﴾: هذا الأتقى بما يعطيه الله من أنواع الكرامات والمثوبات.

والحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة الضحى

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَىٰ ١﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ ٢ ﴿١﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣ ﴿٢﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ٤ ﴿٣﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَىٰ ٥ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَخَافَىٰ ٦ ﴿٥﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ٧ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ٨ ﴿٧﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ٩ ﴿٨﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ١٠ ﴿٩﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ١١ ﴿١٠﴾

﴿١ - ٣﴾ أقسم تعالى بالنهار إذا انتشر ضياؤه؛ بالضحى، وبالليل ﴿إذا سَجَى﴾ وإدلهمت ظلمته؛ على اعتناء الله برسوله ﷺ، فقال: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾؛ أي: ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أهملك منذ ربَّاك ورعاك، بل لم يزل يربيك أكمل^(٢) تربيةً ويُعليك درجةً بعد درجة، ﴿وما﴾: قلاك الله؛ أي: ما أبغضك منذ أحبك؛ فَإِنَّ نفي الضدِّ دليلٌ على ثبوت ضده، والنفي المحض لا يكون مدحاً إِلَّا إذا تضمن ثبوت كمال. فهذه حال الرسول ﷺ الماضية والحاضرة، أكمل حال وأتمها، محبة الله له واستمرارها وترقيته في درجات^(٣) الكمال ودوام اعتناء الله به.

﴿٤﴾ وأما حاله المستقبل؛ فقال: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾؛ أي: كلُّ

(١) في (أ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

(٢) في (ب): «أحسن».

(٣) في (ب): «درج».

حالة متأخرة من أحوالك؛ فإن لها الفضل على الحالة السابقة، فلم يزل ﷺ يصعد في درجات^(١) المعالي، ويمكن الله له^(٢) دينه، وينصره على أعدائه، ويسدده^(٣) في أحواله، حتى مات وقد وصل إلى حال ما^(٤) وصل إليها الأولون والآخرون؛ من الفضائل والنعم وقرّة العين وسرور القلب.

﴿٥﴾ ثم بعد هذا لا تسأل عن حاله في الآخرة من تفاصيل الإكرام وأنواع الإنعام، ولهذا قال: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾: وهذا أمر لا يمكن التعبير عنه إلا بهذه العبارة الجامعة الشاملة.

﴿٦ - ٨﴾ ثم امتنّ عليه بما يعلمه من أحواله الخاصة^(٥)، فقال: ﴿ألم يجدك يتيماً فأوى﴾؛ أي: وجدك لا أم لك ولا أب، بل قد مات أبوه وأمه وهو لا يدبر نفسه، فأواه الله، وكفله جدّه عبد المطلب، ثم لما مات جدّه؛ كفله الله عمّه أبا طالب، حتى أيّده [الله] بنصره وبالمؤمنين، ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾؛ أي: وجدك لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان، فعلمك ما لم تكن تعلم، ووفّقك لأحسن الأعمال والأخلاق. ﴿ووجدك عائلاً﴾؛ أي: فقيراً، فأغنّاك الله بما فتح^(٦) عليك من البلدان، التي جُبيت لك أموالها وخراجها، فالذي أزال عنك هذه النقائص سيزيل عنك كلّ نقص، والذي أوصلك إلى الغنى وآواك ونصرك وهداك، قابل نعمته بالشكران.

﴿٩ - ١١﴾ ولهذا قال: ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾؛ أي: لا تُسئ معاملة اليتيم، ولا يَضِقْ صدرك عليه، ولا تنهره، بل أكرمه، وأعطه ما تيسّر، واصنع به كما تحب أن يُصنَعَ بولدك من بعدك، ﴿وأما السائل فلا تنهر﴾؛ أي: لا يصدر منك كلام للسائل^(٧) يقتضي ردّه عن مطلوبه بنهر وشراسة خلق، بل أعطه ما تيسّر عندك، أو ردّه بمعروف وإحسان. ويدخل في هذا^(٨) السائل للمال والسائل للعلم، ولهذا كان المعلم مأموراً بحسن الخلق مع المتعلّم ومباشرته بالإكرام والتحنّن عليه؛ فإن في ذلك معونة له على مقصده وإكراماً لمن كان يسعى في نفع العباد والبلاد،

(١) في (ب): «درج».

(٢) في (ب): «ويمكن له الله».

(٣) في (ب): «ويسدّد له».

(٤) في (ب): «لا».

(٥) في (ب): «من الأحوال».

(٦) في (ب): «فأغنى بما فتح الله».

(٧) في (ب): «إلى السائل كلام».

(٨) في (ب): «وهذا يدخل فيه».

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾: وهذا يشمل النعم الدينية والدينية^(١)؛ أي: أثني على الله بها، وخصّها^(٢) بالذكر إن كان هناك مصلحة، وإلا؛ فحدّث بنعم الله على الإطلاق؛ فإنّ التحدّث بنعمة الله داع لشكرها وموجب لتحبيب القلوب إلى من أنعم بها؛ فإنّ القلوب مجبولة على محبة المحسن.



تفسير سورة ألم نشرح لك صدرك

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾^(١) ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾^(٢) ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾^(٣) ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾^(٤) ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾^(٥) ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾^(٦) ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾^(٧) ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَانصَبْ﴾^(٨).

﴿١ - ٤﴾ يقول تعالى ممتثلاً على رسوله: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾؛ أي: نوسّعه لشرائع الدين والدعوة إلى الله والأتصاف بمكارم الأخلاق والإقبال على الآخرة وتسهيل الخيرات، فلم يكن ضيقاً حرجاً لا يكاد ينقاد لخير ولا تكاد تجده منبسطاً، ﴿ووضّعنا عنك وزرك﴾؛ أي: ذنبك، ﴿الذي أنقضّ ظهرك﴾؛ أي: أثقل ظهرك؛ كما قال تعالى: ﴿ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر﴾، ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾؛ أي: أعلينا قدرك، وجعلنا لك الثناء الحسن العالي، الذي لم يصل إليه أحد من الخلق؛ فلا يُذكرُ الله؛ إلّا ذُكر معه رسوله ﷺ؛ كما في الدخول في الإسلام، وفي الأذان، والإقامة، والخطب^(٤)... وغير ذلك من الأمور التي أعلّى الله بها ذكر رسوله محمد ﷺ، وله في قلوب أمته من المحبة والإجلال والتعظيم ما ليس لأحد غيره بعد الله تعالى؛ فجزاه الله عن أمته أفضل ما جرى نبياً عن أمته.

(١) في (ب): ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ الدينية والدينية ﴿فحدّث﴾.

(٢) في (ب): ﴿وخصّصها﴾.

(٣) في (أ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

(٤) في (ب): «والخطبة».

﴿٥ - ٦﴾ وقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾: بشارة عظيمة أنه كلما وُجِدَ عسرٌ وصعوبة؛ فإنَّ اليسر يقارنه ويصاحبه، حتى لو دخل العسر جحر ضب؛ لدخل عليه اليسر فأخرجه؛ كما قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾، وكما قال النبي ﷺ: «وإنَّ الفرج مع الكرب، وإنَّ مع العسر يسراً»^(١).

وتعريف العسر في الآيتين^(٢) يدلُّ على أنه واحدٌ، وتنكير اليسر يدلُّ على تكراره؛ فلن يغلب عسرٌ يسرين.

وفي تعريفه بالألف واللام الدالُّ^(٣) على الاستغراق والعموم يدلُّ على أنَّ كلَّ عسرٍ وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ؛ فإنه في آخره التيسير ملازمٌ له.

﴿٧ - ٨﴾ ثم أمر [اللَّهُ] رسوله أصلاً والمؤمنين تبعاً بشكره والقيام بواجب نعمه، فقال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾؛ أي: إذا تفرَّغت من أشغالك، ولم يبقَ في قلبك ما يعوقه؛ فاجتهد في العبادة والدُّعاء، ﴿وَالِى رَّبِّكَ﴾: وحده ﴿فَارْغَبْ﴾؛ أي: أعظم الرغبة في إجابة دعائك وقبول دعواتك^(٤)، ولا تكن ممَّن إذا فرغوا^(٥)؛ لعبوا وأعرضوا عن ربهم وعن ذكره، فتكون من الخاسرين.

وقد قيل: إنَّ معنى هذا^(٦): ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ مِنَ الصَّلَاةِ وَأَكْمَلْتَهَا؛ فَانصَبْ فِي الدُّعَاءِ، وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ فِي سَوَالِ مَطَالِبِكَ.

واستدلَّ من قال هذا القول على مشروعية الدُّعاء والذكر عقب الصلوات المكتوبات. والله أعلم [وبذلك].

تمت. والحمد لله.



(١) جزء من وصية الرسول ﷺ لابن عباس. أخرجه الإمام أحمد (٣٠٧/١)، والترمذي (٢٥١٦) وقال: «حديث حسن صحيح».

(٢) في (ب): «الآية».

(٣) في (ب): «الدالة».

(٤) في (ب): «وعبادتك».

(٥) في (ب): «إذا فرغوا وتفرغوا».

(٦) في (ب): «معنى قوله».

تفسير سورة التين

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

﴿وَالزَّيْتُونَ﴾ (١) ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ (٢) ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ (٣) ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (٤) ﴿ثُمَّ رَدَدْتَهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ (٥) ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (٦) ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ﴾ (٧) ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨).

﴿١ - ٣﴾ «التين»: هو التين المعروف، وكذلك «الزيتون»؛ أقسم بهاتين الشجرتين؛ لكثرة منافع شجرهما وثمرهما، ولأن سلطانهما في أرض الشام محل نبوة عيسى ابن مريم عليه السلام، «وطور سينين»؛ أي: طور سيناء محل نبوة موسى عليه السلام (٢)، «وهذا البلد الأمين»؛ وهو مكة المكرمة محل نبوة محمد ﷺ. فأقسم تعالى بهذه المواضع المقدسة التي اختارها وابتعث منها أفضل الأنبياء وأشرفهم (٣).

﴿٤﴾ «والمقسم عليه قوله»: «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم»؛ أي: تام الخلق، متناسب الأعضاء، منتصب القامة، لم يفقد ممّا يحتاج إليه ظاهراً وباطناً شيئاً.

﴿٥ - ٦﴾ ومع هذه النعم العظيمة، التي ينبغي منه القيام بشكرها؛ فأكثر الخلق منحرفون عن شكر المنعم، مشغولون باللغو واللعب، قد رضوا لأنفسهم بأسافل الأمور وسفساف الأخلاق، فردّهم الله «في أسفل سافلين»؛ أي: أسفل النار موضع العصاة المتمردين على ربهم؛ إلا من من الله عليه بالإيمان والعمل الصالح والأخلاق الفاضلة العالية، «فلهم»: بذلك المنازل العالية، و«أجر غير ممنون»؛ أي: غير مقطوع، بل لذات متوافرة وأفراح متواترة ونعم متكاثرة؛ في أبد لا يزول، ونعيم لا يحول، أكلها دائم وظلها.

﴿٧ - ٨﴾ «فما يكذبك بعد بالدين»؛ أي: أي شيء يكذبك أنها الإنسان بيوم الجزاء على الأعمال؟ وقد رأيت من آيات الله الكثيرة ما يحصل لك به اليقين (٤)،

(١) في (أ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

(٢) في (ب): «موسى ﷺ». (٣) في (ب): «أفضل النبوات وأشرفها».

(٤) في (ب): «ما به يحصل لك اليقين».

ومن نعمه ما يوجب عليك أن لا تكفر بشيء منها^(١). ﴿اليس الله بأحكم الحاكمين﴾: فهل تقتضي حكمته أن يترك الخلق سدى لا يؤمرون ولا يُنهَوْنَ ولا يُثابون ولا يُعاقبون؟ أم الذي خلق الإنسان أطواراً بعد أطوار، وأوصل إليهم من النعم والخير والبر ما لا يحصونه، وربّاهم التربية الحسنة؛ لا بد أن يعيدهم إلى دار هي مستقرهم وغايتهم التي إليها يقصدون ونحوها يؤمّنون.

تمت. والحمد لله^(٢).



تفسير سورة اقرأ

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ^(١)﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِطْفَئٌ ﴿٦﴾ إِنَّ إِلَهَ رَبِّكَ الرَّحْمَنُ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَى ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْهَ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَنْعُ الزَّانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تَطِعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴿١٩﴾﴾.

﴿١﴾ هذه السورة أول السور القرآنية نزولاً على رسول الله ﷺ؛ فإنها نزلت عليه في مبادئ النبوة؛ إذ كان لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، فجاءه جبريل عليه [الصلاة و] السلام بالرُسالة، وأمره أن يقرأ، فامتنع وقال: ما أنا بقارىء! فلم يزل به حتى قرأ^(٤)؛ فأنزل الله [عليه]: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾: عموم الخلق.

﴿٢﴾ ثم خصَّ الإنسان، وذكر ابتداء خلقه ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾؛ فالذي خلق الإنسان واعتنى بتدبيره لا بد أن يدبره بالأمر والنهي، وذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب^(٥).

(١) في (ب): «مما أخبرك به». (٢) في (ب): «تمت. والله الحمد».

(٣) في (أ): إلى آخر السورة. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

(٤) تقدم تخريجه وهو في «الصحيحين».

(٥) في (ب): «إرسال الرسول إليهم، وإنزال الكتب عليهم».

ولهذا أتى ^(١) بعد الأمر بالقراءة بخلقه ^(٢) للإنسان.

﴿٣ - ٥﴾ ثم قال: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾؛ أي: كثير الصفات، واسعها، كثير الكرم والإحسان، واسع الجود، الذي من كرمه أن علّم أنواع العلوم ^(٣)، و﴿علّم بالقلم﴾. علّم الإنسان ما لم يعلم: فإنه تعالى أخرجه من بطن أمّه لا يعلم شيئاً، وجعل له السَّمْع والبصر والفؤاد، ويسّر له أسباب العلم؛ فعلمه القرآن، وعلمه الحكمة، وعلمه بالقلم، [الذي به تُحفظ العلوم] ^(٤) وتُضبط الحقوق، وتكون رسلاً للناس تنوب مناب خطابهم؛ فله الحمد والمئة الذي أنعم على عباده بهذه النعم، التي لا يقدرّون لها على جزاء ولا شكور، ثمّ منّ عليهم بالغنى وسعة الرزق.

﴿٦ - ٨﴾ ولكن الإنسان لجهله وظلمه؛ إذا رأى نفسه غنياً؛ طغى، وبغى، وتجبرّ عن الهدى، ونسي أنّ لربه ﴿الرّجعى﴾: ولم يخف الجزاء، بل ربّما وصلت به الحال أنّه يترك الهدى بنفسه ويدعو غيره إلى تركه، فينهى عن الصّلاة التي هي أفضل أعمال الإيمان.

﴿٩ - ١٤﴾ يقول الله لهذا المتمرد العاتى: ﴿أرأيت﴾: أيها الناهي للعبد إذا صلّى، ﴿إن كان﴾: العبد المصلّي ﴿على الهدى﴾: العلم بالحق والعمل به، ﴿أو أمر﴾: غيره ﴿بالتّقوى﴾: فهل يحسن أن ينهى من هذا وصفه؟! أليس نهيه من أعظم المحادة لله والمحاربة للحق؟! فإنّ النّهي لا يتوجّه إلّا لمن هو في نفسه على غير الهدى، أو كان يأمر غيره بخلاف التقوى، ﴿أرأيت إن كذّب﴾: النّاهي بالحق، ﴿وتولّى﴾: عن الأمر؟ أما يخاف الله ويخشى عقابه؟! ﴿ألم يعلم بأنّ الله يرى﴾: ما يعمل ويفعل.

﴿١٥ - ١٦﴾ ثمّ توعّده إن استمرّ على حاله، فقال: ﴿كلّاً﴾ لئن لم ينته: عمّا يقول ويفعل، ﴿لنّسفعا بالنّاصية﴾؛ أي؛ لنأخذن بناصيته أخذاً عنيفاً، وهي حقيقة بذلك؛ فإنّها ﴿ناصية كاذبة خاطئة﴾؛ أي: كاذبة في قولها، خاطئة في فعلها.

﴿١٧ - ١٨﴾ ﴿فلنذغ﴾: هذا الذي حقّ عليه العذاب ^(٥) ﴿نادية﴾؛ أي: أهل

(١) في (ب): «ذكر».

(٢) في (ب): «أن علم بالعلم».

(٣) كذا في (ب). وفي (أ): «الذي به تحفظ به العلوم».

(٤) في (ب): «العقاب».

مجلسه وأصحابه ومن حوله ليعينوه على ما نزل به، ﴿سَدَّعُوا الزَّبَانِيَةَ﴾؛ أي: خزنة جهنم لأخذه وعقوبته. فليُنظر أيُّ الفريقين أقوى وأقدر. فهذه حالة الناهي وما توعده به من العقوبة.

﴿١٩﴾ وأما حالة المنهي؛ فأمره الله أن لا يصغي إلى هذا الناهي، ولا ينقاد لنهايه، فقال: ﴿كَلَّا لَا تُطِغُهُ﴾؛ أي: فإنه لا يأمر إلا بما فيه الخسار^(١)، ﴿وَاسْجُدْ﴾: لرَبِّكَ، ﴿وَاقْتَرِبْ﴾: منه في السُّجود وغيره من أنواع الطاعات والقُرْبَات؛ فإنها كلها تدني من رضاه وتقرب منه. وهذا عامٌ لكلِّ ناهٍ عن الخير ولكلِّ منهيٍّ عنه، وإن كانت نازلةً في شأنِ أبي جهل حين نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة وعذبه^(٢) وآذاه.

تمت. والحمد لله رب العالمين^(٣).



تفسير سورة القدر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) نَزَّلَ الْمَلَكُ الْوَحْيَ فِيهَا يَأْذِنُ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرِ (٤) سَلَّمَ هِيَ خَلَّتْ مَطَلَعُ الْفَجْرِ (٥).

﴿١﴾ يقول تعالى مبيناً لفضل القرآن وعلو قدره: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾: [كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مَبْرُكَةٍ﴾] وذلك أَنَّ الله تعالى ابتدأ بإنزال القرآن^(٥) في رمضان في ليلة القدر، ورحم الله بها العباد رحمةً عامَّةً لا يقدر العباد لها شكراً، وسميت ليلة القدر لعظم قدرها وفضلها عند الله، ولأنَّه يقدر فيها ما يكون في العام من الآجال والأرزاق والمقادير القدريَّة.

(١) في (ب): «إلا بما فيه خسارة الدارين». (٢) في (ب): «وعبث به».

(٣) في (ب): «تمت. والله الحمد».

(٤) في (أ): «إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة».

(٥) في (ب): «بأنزاله».

﴿٢﴾ ثم فحّم شأنها وعظّم مقدارها، فقال: ﴿وما أدراك ما ليلة القدر﴾؛ أي: فإن شأنها جليل، وخطرها عظيم.

﴿٣﴾ ﴿ليلة القدر خيرٌ من ألف شهر﴾؛ أي: تعادل من فضلها ألف شهر، فالعمل الذي يقع فيها خيرٌ من العمل في ألف شهر خالية منها، وهذا مما تتحير فيه^(١) الألباب، وتندهش له العقول؛ حيث من [تبارك و] تعالى على هذه الأمة الضعيفة، القوة والقوى بليّة يكون العمل فيها يقابل ويزيد على ألف شهر، عمر رجل معمرٍ عمراً طويلاً نيفاً وثمانين سنة.

﴿٤﴾ ﴿تنزل الملائكة والروح فيها﴾؛ أي: يكثر نزولهم فيها، ﴿من كل أمر﴾.

﴿٥﴾ ﴿سلام هي﴾؛ أي: سالمة من كل آفة وشر، وذلك لكثرة خيرها، ﴿حتى مطلع الفجر﴾؛ أي: مبتدأها من غروب الشمس ومنتهاها طلوع الفجر^(٢). وقد تواترت الأحاديث في فضلها^(٣)، وأنها في رمضان، وفي العشر الأواخر منه، خصوصاً في أوتارها، وهي باقية في كل سنة إلى قيام الساعة، ولهذا كان النبي ﷺ يعتكف ويكثر من التعبد في العشر الأواخر من رمضان رجاء ليلة القدر. والله أعلم.



تفسير سورة لم يكن

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ﴾^(١) ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۖ﴾^(٢) ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ۖ﴾^(٣) ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ۖ﴾^(٤) ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا

(١) في (ب): «به».

(٢) في (ب): «أي: تنتهي من غروب الشمس إلى طلوع الفجر».

(٣) انظر «صحيح البخاري» كتاب فضل ليلة القدر. و«صحيح مسلم» باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها وبيان محلها وأرجى أوقات طلبها.

(٤) في (أ): طمس. وفي (ب) إلى آخر السورة.

الرَّكُوعُ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾ .

﴿١﴾ يقول تعالى: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب﴾؛ أي: من اليهود والنصارى، ﴿والمشركين﴾: من سائر أصناف الأمم، ﴿مُنْفَكِينَ﴾: عن كفرهم وضلالهم الذي هم عليه؛ أي: لا يزالون في غيهم وضلالهم، لا يزيدهم مرور الأوقات^(١) إلا كفرًا، ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾: الواضحة والبرهان الساطع.

﴿٢ - ٣﴾ ثم فسر تلك البيئة، فقال: ﴿رسول من الله﴾؛ أي: أرسله الله يدعو الناس إلى الحق، وأنزل عليه كتاباً يتلوه ليعلم الناس الحكمة ويزكيهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ولهذا قال: ﴿يَتْلُو صُحُفًا مَطْهُرَةً﴾؛ أي: محفوظة من^(٢) قربان الشياطين، لا يمسها إلا المطهرون؛ لأنها أعلى^(٣) ما يكون من الكلام، ولهذا قال عنها: ﴿فيها﴾؛ أي: في تلك الصحف ﴿كُتِبَ قِيمَةٌ﴾؛ أي: أخبار صادقة وأوامر عادلة تهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم؛ فإذا جاءتهم هذه البيئة؛ فحينئذ يتبين طالب الحق ممن ليس له مقصد في طلبه، فيهلك من هلك عن بيئة ويحيى من حي عن بيئة.

﴿٤﴾ وإذا لم يؤمن أهل الكتاب بهذا الرسول وينقادوا له؛ فليس ذلك ببدع من ضلالهم وعنادهم؛ فإنهم ما تفرقوا واختلفوا وصاروا أحزاباً ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُْ الْبَيِّنَةُ﴾: التي توجب لأهلها الاجتماع والاتفاق، ولكنهم لرداءتهم ونذالتهم لم يزدتهم الهدى إلا ضلالاً ولا البصيرة إلا عمى.

﴿٥﴾ مع أن الكتب كلها جاءت بأصل واحد ودين واحد؛ فما ﴿أَمَرُوا﴾ في سائر الشرائع، إلا أن يعبدوا ﴿الله مخلصين له الدين﴾؛ أي: قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله وطلب الزُلفى لديه، ﴿حنفاء﴾؛ أي: معرضين مائلين عن سائر الأديان المخالفة لدين التوحيد، وخص الصلاة والزكاة بالذكر مع أنهما داخلان في قوله: ﴿ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾؛ لفضلهما وشرفهما

(١) في (ب): «السنين».

(٢) في (ب): «عن».

(٣) في (ب): «لأنها في أعلى».

وكونهما العبادتين اللتين مَن قام بهما قام بجميع شرائع الدين. ﴿وذلك﴾؛ أي: التَّوْحِيدَ والإخلاص في الدِّينِ هو ﴿دين القِيَمَةِ﴾؛ أي: الدين المستقيم الموصل إلى جنَّات النِّعَمِ، وما سواه فطُرُقٌ موصلةٌ إلى الجحيم.

﴿٦﴾ ثم ذكر جزاء الكافرين بعدما جاءتهم البيِّنة، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾: قد أحاط بهم عذابها، واشتدَّ عليهم عقابها، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: لا يُقَتَّرُ عنهم العذاب، وهم فيها مَبْلِسُونَ. ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾: لأنَّهم عرفوا الحقَّ، وتركوه، وخسروا الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ.

﴿٧﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾: لأنَّهم عبدوا الله وعرفوه، وفازوا بنعيم الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿٨﴾ ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ﴾؛ أي: جنَّاتٌ إقامةٌ لا ظعن فيها ولا رحيل ولا طلب لغاية فوقها، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾: فرضي عنهم بما قاموا به من مرضيه، ورضوا عنه بما أعدَّ لهم من أنواع الكرامات [وجزيل المثوبات]. ﴿ذلك﴾: الجزاء الحسن ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾؛ أي: لمن خاف الله فأحجم عن معاصيه، وقام بما أوجب عليه^(١).

تمت. والحمد لله.



تفسير سورة إذا زلزلت

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾^(١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا^(٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا^(٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا^(٤) إِنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا^(٥) يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوَّا أَعْمَلَهُمْ^(٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ^(٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ^(٨).

﴿١ - ٢﴾ يخبر تعالى عما يكون يوم القيامة، وأن الأرض تنزلزل وترجف وترتج

(١) في (ب): «وقام بواجباته».

(٢) في (أ): «إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة».

حتى يسقط ما عليها من بناءٍ وَمَغْلَمٌ^(١)، فتندكُ جبالها، وتسوى تلالها، وتكون قاعاً صاففاً لا عوج فيه ولا أمتاً، «وأخرجت الأرض أثقالها»؛ أي: ما في بطنها من الأموات والكنوز.

﴿٣﴾ «وقال الإنسان»: إذا رأى ما عراها من الأمر العظيم [مستعظماً لذلك]: «ما لها»؛ أي: أي شيء عرض لها؟!

﴿٤ - ٥﴾ «يومئذ تحدث»: الأرض «أخبارها»؛ أي: تشهد على العاملين بما عملوا على ظهرها من خيرٍ وشرٍّ؛ فإن الأرض من جملة الشهود الذين يشهدون على العباد بأعمالهم. ذلك «بأن ربك أوحى لها»؛ أي^(٢): أمرها أن تخبر بما عمل عليها؛ فلا تعصي^(٣) لأمره.

﴿٦﴾ «يومئذ يضدرُ الناسُ»: من موقف القيامة [حين يقضي الله بينهم] «أشتاتاً»؛ أي: فرقاً متفاوتين، «ليروا أعمالهم»؛ أي: ليريهم الله ما عملوا من السيئات والحسنات^(٤)، ويريهم جزاءه موفراً.

﴿٧ - ٨﴾ «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره»: وهذا شامل عامٌ للخير والشرِّ كلّه؛ لأنّه إذا رأى مثقال الذرة التي هي أحقر الأشياء، وجوزي عليها؛ فما فوق ذلك من باب أولى وأحرى؛ كما قال تعالى: «يومَ تجدُ كلُّ نفسٍ ما عملت من خيرٍ محضراً وما عملت من سوءٍ تودّ لو أنّ بينها وبينه أمداً بعيداً»، «ووجدوا ما عملوا حاضراً»، وهذا فيه الترغيب^(٥) في فعل الخير، ولو قليلاً، والترهيب من فعل الشر، ولو حقيراً.

تفسير سورة العاديات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾^(٦) ﴿فَالْمُورِيَّتِ قَدْحًا﴾^(٧) ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾^(٨) ﴿فَأَنْزَلْنَ بِهِ نَقْعًا﴾^(٩)

(١) في (ب): «وَعَلَمٌ».

(٢) في (ب): «ولا تستعصي».

(٣) في (ب): «وهذه الآية فيها غاية الترغيب».

(٤) في (أ): «وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة».

فَوْسَطَنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَمَاهُ فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾.

﴿١﴾ أقسم [الله تبارك و] تعالى بالخيل؛ لما فيها من آياته^(١) الباهرة ونعمه الظاهرة ما هو معلوم للخلق، وأقسم تعالى بها في الحال التي لا يشاركها فيه غيرها من أنواع الحيوانات، فقال: ﴿والعاديات ضبحا﴾؛ أي: العاديات عدواً بليغاً قوياً يصدر عنه الضبح، وهو صوت نفّسها في صدرها عند اشتداد عدوها^(٢).

﴿٢﴾ ﴿فالموريات﴾: بحوافرهن ما يطآن عليه من الأحجار، ﴿قذحا﴾؛ أي: تنقذ^(٣) النار من صلابة حوافرهن وقوتهن إذا عدون.

﴿٣﴾ ﴿فالمغيرات﴾: على الأعداء، ﴿صبحا﴾: وهذا أمرٌ أغلبيٌّ أنَّ الغارة تكون صباحاً.

﴿٤ - ٥﴾ ﴿فأثرن به﴾؛ أي: بعدوهن وغارتتهن، ﴿نقعا﴾؛ أي: غباراً، ﴿فوسطن به﴾؛ أي: براكينهن ﴿جمعا﴾؛ أي: توسطن به جموع الأعداء الذين أغار عليهم.

﴿٦﴾ والمقسّم عليه قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾؛ أي: منوع للخير الذي لله عليه^(٤)؛ فطبيعة الإنسان وجبلة أن نفسه لا تسمح بما عليه من الحقوق فتؤديها كاملة موفرة، بل طبيعتها الكسل والمنع لما عليها^(٥) من الحقوق المالية والبدنية؛ إلّا من هداه الله وخرج عن هذا الوصف إلى وصف السماح بأداء الحقوق.

﴿٧﴾ ﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾؛ أي: إن الإنسان على ما يعرف من نفسه من المنع والكند لشاهد بذلك لا يجحده ولا ينكره؛ لأن ذلك [أمر] بين واضح، ويحتمل أن الضمير عائد إلى الله [تعالى]؛ أي: إن العبد لرَبِّه لکنود، والله شهيد على ذلك؛ ففيه الوعيد والتهديد الشديد لمن هو لرَبِّه کنود بأن الله عليه شهيد.

(١) في (ب): «آيات الله».

(٣) في (ب): «تنقذ».

(٥) في (ب): «عليه».

(٢) في (ب): «العدو».

(٤) في (ب): «المنوع للخير الذي عليه لرَبِّه».

﴿٨﴾ ﴿وإنه﴾؛ أي: الإنسان ﴿لحبُّ الخير﴾؛ أي: المال، ﴿لشديد﴾؛ أي: كثير الحبِّ للمال، وحبهُ لذلك هو الذي أوجب له ترك الحقوق الواجبة عليه؛ قدَّمَ شهوة نفسه على رضا^(١) ربِّه، وكلُّ هذا لأنَّه قصر نظره على هذه الدار، وغفل عن الآخرة.

﴿٩ - ١٠﴾ ولهذا قال حائاً له على خوف يوم الوعيد: ﴿أفلا يعلم﴾؛ أي: هلاً يعلم هذا المغتر، ﴿إذا بُعِثَ ما في القبور﴾؛ أي: أخرج الله الأموات من قبورهم لحشرهم ونشورهم، ﴿وحُصِّلَ ما في الصُّدُور﴾؛ أي: ظهر وبان ما فيها وما استتر في الصدور من كمائن الخير والشرِّ، فصار السرُّ علانيةً والباطن ظاهراً، وبان على وجوه الخلق نتيجة أعمالهم.

﴿١١﴾ ﴿إنَّ ربَّهم بهم يومئذٍ لخبير﴾؛ أي: مطلع على أعمالهم الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية، ومجازيهم عليها، وخصَّ خبرهم^(٢) بذلك اليوم مع أنه خيرٌ بهم كلَّ وقتٍ؛ لأنَّ المراد بهذا الجزاء على الأعمال^(٣) الناشئ عن علم الله وإطلاعه.



تفسير سورة القارعة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿القَارِعَةُ﴾ ① مَا الْقَارِعَةُ ② وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ③ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ④ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ⑤ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ⑥ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ⑦ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ⑧ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ⑨ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ⑩ نَارُ حَامِيَةٍ ⑪.

﴿١ - ٣﴾ ﴿القارعة﴾: من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لأنها تفرع الناس وتزعجهم

(١) في (ب): «حق».

(٢) في (ب): «خبره».

(٣) في (ب): «لأنَّ المراد بذلك الجزاء بالأعمال».

(٤) في (أ): «إلى آخرها». وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

بأهوالها، ولهذا عَظُم أمرها وفُخِّمَ بقوله: ﴿القارعةُ. ما القارعةُ. وما أدراك ما القارعةُ﴾. ﴿٤﴾ ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ: من شدة الفزع والهول، ﴿كالفراش الميثوث﴾؛ أي: كالجراد المنتشر الذي يموج بعضه في بعض، والفراش هي الحيوانات التي تكون في الليل يموج بعضها ببعض، لا تدري أين توجه؛ فإذا أوقد لها نار؛ تهافتت إليها لضعف إدراكها، فهذه حال الناس أهل العقول.

﴿٥﴾ وأما الجبال الصمُّ الصلاب؛ فتكون ﴿كالعهن المنفوش﴾؛ أي: كالصُوف المنفوش الذي بقي ضعيفاً جداً تطير به أدنى ريح؛ قال تعالى: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرُّ مرَّ السحاب﴾، ثم بعد ذلك تكون هباءً منثوراً، فتضمحل ولا يبقى منها شيء يشاهد. فحينئذ تَنْصَبُ الموازين، وينقسم الناس قسمين: سعداء وأشقياء:

﴿٦ - ٧﴾ ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾؛ أي: رجحت حسناته على سيئاته، ﴿فهو في عيشة راضية﴾: في جنات النعيم.

﴿٨ - ١١﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾: بأن لم تكن له حسنات تقاوم سيئاته، ﴿فَأُمُّ هَاوِيَةٍ﴾؛ أي: مأواه ومسكنه النار التي من أسماؤها الهاوية، تكون له بمنزلة الأمِّ الملازمة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾. وقيل: إِنَّ معنى ذلك: فأُمُّ دماغه هاوية في النار؛ أي: يلقى في النار على رأسه، ﴿وما أدراك ما هِيَّة﴾: وهذا تعظيم لأمرها. ثم فسرها بقوله: ﴿نَارٌ^(١) حَامِيَةٌ﴾؛ أي: شديدة الحرارة، قد زادت حرارتها على حرارة نار الدنيا بسبعين ضعفاً. نستجير بالله منها.



تفسير سورة ألهاكم التكاثر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّافِ الْأَتَمِّ

﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ^(٢)﴾ ① حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ② كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ⑤ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ⑥ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ⑦ ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ⑧﴾.

(١) في (ب): «بقوله: هي نار».

(٢) في (أ): إلى آخرها. وفي (ب) ذكر الآيات إلى آخر السورة.

﴿١﴾ يقول تعالى موبخاً عباده عن اشتغالهم عما خُلِقُوا له من عبادته وحده لا شريك له ومعرفته والإنابة إليه وتقديم محبته على كل شيء: ﴿أَلِهَآكُمُ﴾: عن ذلك المذكور، ﴿التَّكَاثُرُ﴾: ولم يذكر التَّكَاثُرَ به؛ ليشمل ذلك كل ما يَتَكَاثَرُ به المتكاثرون ويفتخرون به المفتخرون؛ من [التكاثر في] الأموال والأولاد والأنصار والجُنود والخدم والجاه وغير ذلك مما يقصد منه مكاثرة كل واحد للآخر، وليس المقصود منه وجه الله^(١).

﴿٢﴾ فاستمرت غفلتكم ولهوتكم وتشاغلکم ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾: فانكشف حينئذٍ لكم^(٢) الغطاء، ولكن بعدما تعذّر عليكم استنفاه. ودلّ قوله: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾: أن البرزخ دار المقصود منها النفوذ إلى الدار الآخرة^(٣)؛ لأن الله سَمَاهُم زائرین، ولم يسمهم مقيمين، فدلّ ذلك على البعث والجزاء على الأعمال^(٤) في دار باقية غير فانية.

﴿٣ - ٦﴾ ولهذا توعدّهم: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ. ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ. كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾؛ أي: لو تعلمون ما أمامكم علماً يصل إلى القلوب؛ لما ألهاكم التَّكَاثُرُ، ولبادرتكم إلى الأعمال الصالحة، ولكن عدم العلم الحقيقي صيركم إلى ما ترون، ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾؛ أي: لتَرِدُنَّ القيامة، فلتَرَوُنَّ الجحيم التي أعدّها الله للكافرين.

﴿٧﴾ ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾؛ أي: رؤية بصرية؛ كما قال تعالى: ﴿وَرَأَى الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾.

﴿٨﴾ ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ النَّعِيمَ﴾: الذي تنعمتم به في دار الدنيا؛ هل قمتم بشكره، وأديتم حق الله فيه، ولم تستعينوا به على معاصيه؛ فينعّمكم نعيماً أعلى منه وأفضل؟ أم اغتررتُم به، ولم تقوموا بشكره، بل ربّما استعنتم به على المعاصي^(٥)؛ فيعاقبكم على ذلك؟ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَذَّبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ...﴾ الآية.



(١) في (ب): «وليس المقصود به الإخلاص لله تعالى».

(٢) في (ب): «لكم حينئذٍ».

(٣) في (ب): «إلى الدار الباقية».

(٤) في (ب): «بالأعمال».

(٥) في (ب): «معاصي الله».

تفسير سورة والعصر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِيرٌ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ .

﴿١ - ٣﴾ أقسم تعالى بالعصر، الذي هو الليل والنهار، محل أفعال العباد وأعمالهم؛ أن كل إنسان خاسر، والخاسر ضد الرابح، والخسار مراتب متعددة متفاوتة: قد يكون خساراً مطلقاً؛ كحال من خسر الدنيا والآخرة، وفاته النعيم، واستحقَّ الجحيم.

وقد يكون خاسراً من بعض الوجوه دون بعض، ولهذا عمَّم الله الخسار لكل إنسان؛ إِلَّا مَنْ اتَّصَفَ بأربع صفات:

الإيمان بما أمر الله بالإيمان به، ولا يكون الإيمان بدون العلم؛ فهو فرع عنه لا يتم إلا به.

والعمل الصالح، وهذا شاملٌ لأفعال الخير كلها، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحقوق^(١) الله وحقوق^(١) عباده، الواجبة والمستحبة.

والتواصي بالحق الذي هو الإيمان والعمل الصالح؛ أي: يوصي بعضهم بعضاً بذلك، ويحثه عليه، ويرغبه فيه.

والتواصي بالصبر على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلمة. فبالأمرين الأولين يكمل العبد^(٢) نفسه، وبالأمرين الأخيرين يكمل غيره، ويتكامل الأمور الأربعة يكون العبد^(٢) قد سلم من الخسار وفاز بالربح العظيم.



(١) في (ب): «حق».

(٢) في (ب): «الإنسان».

تفسير سورة الهمة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾
 كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى
 الْأَفْنَدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾.

﴿١﴾ ﴿ويل﴾؛ أي: وعيدٌ ووبالٌ وشدةٌ عذاب، ﴿لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾؛ أي: الذي يهزم الناس بفعله ويلزمهم بقوله؛ فالهمّاز: الذي يعيبُ الناس ويطعنُ عليهم بالإشارة والفعل، واللمّاز: الذي يعيبهم بقوله.

﴿٢﴾ ومن صفة هذا الهمّاز [اللمّاز] أنّه لا همّ له سوى جمع المال وتعدّيته والغبطة به، وليس له رغبةٌ في إنفاقه في طرق الخيرات وصلة الأرحام ونحو ذلك.

﴿٣﴾ ﴿يحسب﴾: بجهله ﴿أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾: في الدنيا، فلذلك كان كدّه وسعيه [كلّه] في تنمية ماله، الذي يظنُّ أنّه ينمي عمره، ولم يدرك أن البخل يقصف الأعمار ويخرب الديار، وأن البرّ يزيد في العمر.

﴿٤ - ٧﴾ ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ﴾؛ أي: ليطرحن^(١) ﴿فِي الْحُطَمَةِ﴾. وما أدراك ما الحُطَمَةُ: تعظيمٌ لها وتهويلٌ لشأنها. ثم فسرها بقوله: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ﴾: التي وقودها الناس والحجارة، ﴿التي﴾: من شدتها ﴿تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْنَدَةِ﴾؛ أي: تنفذ من الأجسام إلى القلوب.

﴿٨﴾ ومع هذه الحرارة البليغة، هم محبسون فيها، قد أيسوا من الخروج منها، ولهذا قال: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ﴾؛ أي: مغلقة، ﴿فِي عَمَدٍ﴾: من خلف الأبواب، ﴿مَمْدُودَةٍ﴾: لثلاث يخرجوا منها؛ ﴿كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾، نعوذ بالله من ذلك، ونسأله العفو والعافية.



(١) في (ب): «يطرحن».

تفسير سورة الفيل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾.

﴿١ - ٥﴾ أي: أما رأيت من قدرة الله وعظيم شأنه ورحمته بعباده وأدلة توحيده وصدق رسوله [محمد] ﷺ ما فعله الله بأصحاب الفيل، الذين كادوا بيته الحرام، وأرادوا إخراجه؛ فتجهّزوا لأجل ذلك، واستصحبوا معهم الفيلة لهدمه، وجاؤوا بجمع لا قبّل للعرب به من الحبشة واليمن، فلما انتهوا إلى قرب مكة - ولم يكن بالعرب مدافعة، وخرج أهل مكة من مكة خوفاً [على أنفسهم] منهم - أرسل الله عليهم طيراً أبابيل؛ أي: متفرقة، تحمل أحجاراً^(١) محمّاة من سجيل، فرمّتهم بها، وتتبعن قاصيهم ودانيهم، فخمدوا وهمدوا، وصاروا كعصفٍ مأكول، وكفى الله شرهم، وردّ كيدهم في نحورهم، وقصّتهم معروفة مشهورة، وكانت تلك السنة التي ولد فيها رسول الله ﷺ، فصارت من جملة إرهابات دعوته وأدلة^(٢) رسالته. فله الحمد والشكر.



تفسير سورة لإيلاف قريش

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِلهِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾.

﴿١ - ٤﴾ قال كثير من المفسرين: إنّ الجار والمجرور متعلّق بالسورة التي قبلها؛ أي: فعلنا ما فعلنا بأصحاب الفيل؛ لأجل قريش وأمنهم واستقامة مصالحهم وانتظام رحلتهم في الشتاء لليمن وفي الصيف للشام لأجل التجارة والمكاسب.

(١) في (ب): «حجارة».

(٢) في (ب): «ومقدمات».

فأهلك الله من أرادهم بسوء، وعظم أمر الحرم وأهله في قلوب العرب، حتى احترموهم، ولم يعترضوا لهم في أي سفر أرادوا، ولهذا أمرهم الله بالشكر، فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾؛ أي: ليؤخذوه ويخلصوا له العبادة، ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾: فرغد الرزق والأمن من الخوف^(١) من أكبر النعم الدنيوية الموجبة لشكر الله تعالى. فلك اللهم الحمد والشكر على نعمك الظاهرة والباطنة. وخص الله الربوبية بالبيت^(٢) لفضله وشرفه، وإلا؛ فهو رب كل شيء.

* * *

تفسير سورة الماعون

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِاللَّيْلِ﴾ ① ﴿فَإِذَا الْآلَاءُ الْوَدَّعَ الْيَتِيمَ﴾ ② ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ ③ ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ ④ ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ⑤ ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ ⑥ ﴿وَيَسْمَعُونَ أَلْمَاعُونَ﴾ ⑦ ﴿.

﴿١﴾ يقول تعالى ذاماً لمن ترك حقوقه وحقوق عباده: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِاللَّيْلِ﴾؛ أي: بالبعث والجزاء؛ فلا يؤمن بما جاءت به الرسل.

﴿٢﴾ ﴿فَإِذَا الْآلَاءُ الْوَدَّعَ الْيَتِيمَ﴾؛ أي: يدفعه بعنفٍ وشدة، ولا يرحمه؛ لقساوة قلبه، ولأنه لا يرجو ثواباً ولا يخاف^(٣) عقاباً.

﴿٣﴾ ﴿وَلَا يَحْضُ﴾: غيره ﴿على طعام المسكين﴾: ومن باب أولى أنه بنفسه لا يطعم المسكين.

﴿٤ - ٥﴾ ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾؛ أي: الملتزمين^(٤) لإقامة الصلاة، ولكنهم ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾؛ أي: مضيعون لها، تاركون لوقتها، مُخِلُّونَ^(٥) بأركانها، وهذا لعدم اهتمامهم بأمر الله؛ حيث ضيعوا الصلاة التي هي أهم الطاعات، والسَّهْوُ عَنْ

(١) في (ب): «من المخاوف».

(٢) في (ب): «ولا يخشى».

(٣) في (ب): «مفتون».

(٤) في (ب): «بالربوبية البيت».

(٥) في (ب): «أي: الذين ملتزمون».

الصَّلَاة هو الذي يستحقُّ صاحبه الذمَّ واللوم^(١)، وأما السَّهْو في الصَّلَاة؛ فهذا يقع من كلِّ أحدٍ، حتَّى من النبي ﷺ^(٢).

﴿٧ - ٦﴾ ولهذا وصف الله هؤلاء بالرياء والقسوة وعدم الرحمة، فقال: ﴿الذين هم يراؤون﴾؛ أي: يعملون الأعمال لأجل رياء الناس، ﴿ويمنعون الماعون﴾؛ أي: يمنعون إعطاء الشيء الذي لا يضرُّ إعطاؤه على وجه العارية أو الهبة؛ كالإئاء والدُّلو والفأس ونحو ذلك ممَّا جرت العادة ببذله والسَّماح به^(٣)، فهؤلاء لشدة حرصهم يمنعون الماعون؛ فكيف بما هو أكثر منه؟!

وفي هذه السورة الحثُّ على إطعام^(٤) اليتيم والمساكين، والتَّحْضِيض على ذلك، ومراعاة الصَّلَاة، والمحافظة عليها، وعلى الإخلاص فيها، وفي سائر الأعمال^(٥)، والحثُّ على فعل المعروف، وبذل الأمور الخفيفة كعارية الإئاء والدُّلو والكتاب ونحو ذلك؛ لأنَّ الله ذمَّ من لم يفعل ذلك. والله سبحانه أعلم^(٦).



تفسير سورة الكوثر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾.

﴿١﴾ يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ [ممتناً عليه]: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾؛ أي: الخير الكثير والفضل الغزير، الذي من جملته ما يعطيه الله لنبيه ﷺ [يوم القيامة] من النهر الذي يقال له: الكوثر^(٧)، ومن الحوض^(٨)؛ طوله شهرٌ وعرضه

(١) في (ب): «الذم والوعيد».

(٢) كما في «صحيح البخاري» (٤٠١)، ومسلم (٥٧٢) من حديث ابن مسعود أنه ﷺ قال: «إنما

أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني».

(٤) في (ب): «إكرام».

(٣) في (ب): «والسماحة بها».

(٥) في (ب): «وعلى الإخلاص في جميع الأعمال».

(٦) في (ب): «والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب. والحمد لله رب العالمين».

(٧) في (ب): «والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب. والحمد لله رب العالمين».

(٨) في (ب): «والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب. والحمد لله رب العالمين».

(٧) كما في «صحيح مسلم» (٤٠٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٨) في (ب): «ومن الحوض الذي يقال له الكوثر».

شهر، ماؤه أشدّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، آيته عدد نجوم السماء^(١) في كثرتها واستنارتها، من شرب منه شربة؛ لم يظمأ بعدها أبداً^(٢).

﴿٢﴾ ولما ذكر ميثقه عليه؛ أمره بشكرها، فقال: ﴿فصل لربك وانحر﴾: خصّ هاتين العبادتين بالذكر؛ لأنهما أفضل^(٣) العبادات وأجلّ القربات، ولأنّ الصلاة تتضمّن الخضوع في القلب والجوارح لله، وتنقله^(٤) في أنواع العبوديّة، وفي النحر تقرب إلى الله بأفضل ما عند العبد من النحائر، وإخراج للمال الذي جُبلت النفوس على محبته والشُّحّ به.

﴿٣﴾ ﴿إِنْ شِئْتَ﴾: أي: مبغضك وذامك ومتنقصك، ﴿هو الأبر﴾: أي: المقطوع من كلّ خير؛ مقطوع العمل، مقطوع الذكر، وأمّا محمد ﷺ؛ فهو الكامل حقاً، الذي له الكمال الممكن للمخلوق^(٥) من رفع الذكر وكثرة الأنصار والأتباع ﷺ.



تفسير سورة قل يا أيها الكافرون

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾

﴿١ - ٦﴾ أي: قل للكافرين معلناً ومصرّحاً: ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾؛ أي: تبرأ مما كانوا يعبدون من دون الله ظاهراً وباطناً. ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾: لعدم إخلاصكم في عبادتكم لله^(٦)؛ فعبادتكم له المقتربة بالشرك لا تسمى عبادة. وكرّر ذلك ليدلّ الأوّل على عدم وجود الفعل، والثاني على أنّ ذلك قد صار وصفاً

(١) في (ب): «أوانيه كنجوم السماء».

(٢) كما في «صحيح مسلم» (٢٣٠٠) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٣) في (ب): «من أفضل».

(٤) في (ب): «وتنقلها».

(٥) في (ب): «في حق المخلوق».

(٦) في (ب): «لله في عبادتكم».

لازمًا، ولهذا ميّز بين الفريقين، وفصل بين الطائفتين، فقال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾؛ أنتم بريئون ممّا أعمل، وأنا بريء ممّا تعملون.



تفسير سورة النصر

وهي مدنية^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُمْ كَانَ تَوَابًا ﴿٣﴾﴾.

﴿١ - ٣﴾ في هذه السورة الكريمة: بشارة، وأمرٌ لرسوله عند حصولها، وإشارة، وتنبيه على ما يترتب على ذلك:

فالبشارة هي البشارة بنصر الله لرسوله، وفتحه مكة، ودخول الناس ﴿في دين الله أفواجًا﴾ بحيث يكون كثيرٌ منهم من أهله وأنصاره بعد أن كانوا من أعدائه، وقد وقع هذا المبشر به.

وأما الأمر بعد حصول النصر والفتح؛ فأمر [اللَّهُ] رسوله أن يشكره^(٢) على ذلك، ويسبح بحمده، ويستغفره.

وأما الإشارة؛ فإن في ذلك إشارتين: إشارة أن النصر يستمر للدين^(٣) ويزداد عند حصول التسبيح بحمد الله واستغفاره من رسوله؛ فإن هذا من الشكر، والله يقول: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾: وقد وجد ذلك في زمن الخلفاء الراشدين وبعدهم في هذه الأمة، لم يزل نصر الله مستمرًا حتى وصل الإسلام إلى ما لم يصل إليه دينٌ من الأديان، ودخل فيه من لم يدخل في غيره، حتى حدث من الأمة من مخالفة أمر الله ما حدث، فابتلوا^(٤) بتفرق الكلمة وتشتت الأمر، فحصل ما حصل، ومع هذا؛ فللهذه الأمة وهذا الدين من رحمة الله ولطفه ما لا يخطر بالبال أو يدور في الخيال.

(١) في (أ): «مكية».

(٢) في (ب): «أن يشكر ربه».

(٣) في (ب): «إشارة لأن يستمر النصر لهذا الدين».

(٤) في (ب): «فابتلاهم الله».

وأما الإشارة الثانية؛ فهي الإشارة إلى أن أجل رسول الله ﷺ قد قرب ودنا، ووجه ذلك أن عمره عمرٌ فاضلٌ، أقسم الله به، وقد عهد أن الأمور الفاضلة تُختم بالاستغفار؛ كالصلاة والحج وغير ذلك، فأمر الله لرسوله بالحمد والاستغفار في هذه الحال إشارة إلى أن أجله قد انتهى؛ فليستعد ويتهيأ للقاء ربه ويختم عمره بأفضل ما يجده صلوات الله وسلامه عليه، فكان [ﷺ] يتأول القرآن ويقول ذلك في صلاته؛ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي»^(١).



تفسير سورة تبت

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝﴾.

أبو لهب هو عم النبي ﷺ، وكان شديد العداوة والأذية له^(٢)؛ فلا فيه دين له، ولا حمية للقرابة، قبحه الله، فذمه الله بهذا الدَّم العظيم، الذي هو خزي عليه إلى يوم القيامة، فقال:

﴿١﴾ ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾؛ أي: خسرت يده وشقي، ﴿وتَبَّ﴾: فلم يربح.
﴿٢﴾ ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ﴾: الذي كان عنده؛ فأطغاه^(٣)، ولا ﴿مَا كَسَبَ﴾: فلم يرد عنه شيئاً من عذاب الله إذ نزل به.

﴿٣ - ٥﴾ ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾؛ أي: ستحيط به النار من كل جانب، هو ﴿وامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾: وكانت أيضاً شديدة الأذية لرسول الله ﷺ؛ تتعاون هي وزوجها على الإثم والعدوان، وتلقي الشر، وتسعى غاية ما تقدر عليه في أذية الرسول ﷺ، وتجمع على ظهرها الأوزار^(٤)؛ بمنزلة من يجمع حطباً، قد أعد له

(١) كما في «صحيح البخاري» (٤٩٦٧ و ٤٩٦٨)، ومسلم (٤٨٤) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) في (ب): «للنبي ﷺ». (٣) في (ب): «وأطغاه».

(٤) في (ب): «من الأوزار».

في عنقه جبلاً ﴿من مسدٍ﴾؛ أي: من ليف، أو أنها تحمل في النار الحطب على زوجها متقلدة في عنقها جبلاً من مسدٍ.

وعلى كل؛ ففي هذه السورة آية باهرة من آيات الله؛ فإن الله أنزل هذه السورة وأبو لهب وامراته لم يهلكا، وأخبر أنهما سيعذبان في النار ولا بد، ومن لازم ذلك أنهما لا يسلمان، فوقع كما أخبر عالم الغيب والشهادة.



تفسير سورة الإخلاص

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿١﴾ أي: ﴿قُلْ﴾: قولاً جازماً به، معتقداً له، عارفاً بمعناه: ﴿هو الله أحد﴾؛ أي: قد انحصرت فيه الأحديّة؛ فهو الأحد المنفرد بالكمال، الذي له الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا والأفعال المقدسة، الذي لا نظير له ولا مثيل.

﴿٢﴾ ﴿الله الصمد﴾؛ أي: المقصود في جميع الحوائج؛ فأهل العالم العلوي والسفلي مفتقرون إليه غاية الافتقار، يسألونه حوائجهم، ويرغبون إليه في مهماتهم؛ لأنه الكامل في أوصافه، العليم الذي قد كمل في علمه، الحليم الذي [قد] كمل في حلمه، الرحيم الذي كمل في رحمته، الذي وسعت رحمته كل شيء... وهكذا سائر أوصافه.

﴿٣﴾ ومن كماله أنه ﴿لم يلد ولم يولد﴾؛ لكمال غناه.

﴿٤﴾ ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾: لا في أسمائه، ولا في صفاته^(١)، ولا في أفعاله؛ تبارك وتعالى.

فهذه السورة مشتملة على توحيد الأسماء والصفات.



(١) في (ب): «أوصافه».

تفسير سورة الفلق

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ .

﴿١﴾ أي: ﴿قل﴾: متعوذاً: ﴿أعوذُ﴾؛ أي: ألبأ وألوذ وأعتصم، ﴿بربِّ الفلق﴾؛ أي: فالق الحبِّ والثوى، وفالق الأصباح.

﴿٢﴾ ﴿من شرِّ ما خَلَقَ﴾: وهذا يشمل جميع ما خلق الله من إنسٍ وجنِّ وحيوانات؛ فيستعاذ بخالقها من الشرِّ الذي فيها.

﴿٣﴾ ثم خصَّ بعدما عمَّ، فقال: ﴿ومن شرِّ غاسقٍ إذا وَقَبَ﴾؛ أي: من شرِّ ما يكون في الليل حين يغشى الناس، وتنتشر فيه كثيرٌ من الأرواح الشريرة والحيوانات المؤذية.

﴿٤﴾ ﴿ومن شرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾؛ أي: ومن شرِّ السَّواحر اللاتي يَسْتَعِنُّ على سحرهنَّ بالنَّفْثِ في العقد التي يَفْقِذْنَهَا على السحر.

﴿٥﴾ ﴿ومن شرِّ حاسِدٍ إذا حَسَدَ﴾: والحاسدُ هو الذي يحبُّ زوال النعمة عن المحسود؛ فيسعى في زوالها بما يقدر عليه من الأسباب، فاحتيج إلى الاستعاذة بالله من شرِّه وإبطال كيده. ويدخل في الحاسد العاين؛ لأنَّه لا تصدر العين إلَّا من حاسِدٍ شرِّير الطبع خبيث النفس.

فهذه السورة تضمَّنت الاستعاذة من جميع أنواع الشرور عموماً وخصوصاً، ودلَّت على أنَّ السحر له حقيقة؛ يُخشى من ضرره، ويستعاذ بالله منه ومن أهله.



تفسير سورة الناس

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ أَلْوَسَاسٍ الْخَفَاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْغِيَةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ .

﴿١ - ٦﴾ وهذه السورة مشتملة على الاستعاذة برَبِّ النَّاسِ ومالكهم وإلههم من الشيطان، الذي هو أصل الشرور كلها ومادتها، الذي من فتنته وشره أنه يوسوس في صدور النَّاسِ؛ فيحسِّن لهم الشرَّ، ويريهِم إِيَّاهُ في صورة حسنة، وينشط إرادتهم لفعله، ويثبطهم عن الخير^(١)، ويريهِم إِيَّاهُ في صورة غير صورته، وهو دائماً بهذه الحال، يوسوس ثم يخنُس؛ أي: يتأخر عن الوسوسة إذا ذكر العبد ربَّه واستعان [به] على دفعه؛ فينبغي له أن يستعين ويستعيذ ويعتصم بربوبية الله للناس كلهم، وأن الخلق كلهم داخلون تحت الرُّبُوبية والملك، فكلُّ دَابَّةٍ هو آخِذٌ بناصيتها، وبألوهيته التي خلقهم لأجلها؛ فلا تتمُّ لهم إلَّا بدفع شرِّ عدوهم الذي يريد أن يقتطعهم عنها ويحول بينهم وبينها، ويريد أن يجعلهم من حزبه؛ ليكونوا من أصحاب السعير، والوسواس كما يكون من الجنِّ يكون من الإنس، ولهذا قال: ﴿مِنَ الْغِيَةِ وَالنَّاسِ﴾ .

والحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، ونسأله تعالى أن يتم نعمته، وأن يعفو عنا ذنوبنا التي حالت بيننا وبين كثير من بركاته، وخطايا وشهوات ذهبت بقلوبنا عن تدبر آياته، ونرجوه ونأمل منه أن لا يحرمنا خير ما عنده بشرُّ ما عندنا؛ فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، ولا يقنط من رحمته إلا الضَّالُّون^(٢)، وصلى الله وسلم على رسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، صلاة وسلاماً دائمين متواصلين أبد الأوقات، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

تم تفسير كتاب الله بعونه وحسن توفيقه على يد جامعهِ وكاتبهِ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله المعروف بابن سعدي. [غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين].

(٢) في (ب): «القوم الضالون».

(١) في (ب): «ويقبح لهم الخير».

وقع النقل في ٧ شعبان سنة (١٣٤٥)^(١)^(٢)
 ربُّنا تقبل مِنَّا واعف عَنَّا إِنَّكَ أَنْتَ الغفور الرحيم.



(١) في هامش (أ): بلغ مقابلة.

(٢) في (ب): «وذلك في غرة ربيع الأول من سنة أربع وأربعين وثلاثمائة وألف من هجرة محمد ﷺ».

ملحق بفروقات النسخة

«ب»

..... ﴿وقوموا لله قانتين﴾ أي: ذليلين خاشعين، ففيه الأمر بالقيام والقنوت والنهي عن الكلام، والأمر بالخشوع، هذا مع الأمن والطمأنينة ﴿فإن خفتكم﴾ لم يذكر ما يخاف منه ليشمل الخوف من كافر وظالم وسبع، وغير ذلك من أنواع المخاوف، أي: إن خفتكم بصلاتكم على تلك الصفة فصلوها ﴿رجالا﴾ أي: على أقدامكم، و﴿ركباناً﴾ على الخيل والإبل وغيرها، ويلزم على ذلك أن يكونوا مستقبلي القبلة وغير مستقبلها، وفي هذا زيادة التأكيد على المحافظة على وقتها حيث أمر بذلك ولو مع الإخلال بكثير من الأركان والشروط، وأنه لا يجوز تأخيرها عن وقتها ولو في هذه الحالة الشديدة، فصلاتها على تلك الصورة أحسن وأفضل بل أوجب من صلاتها مطمئناً خارج الوقت ﴿فإذا أمنتكم﴾ أي: زال الخوف عنكم ﴿فاذكروا الله﴾ وهذا يشمل جميع أنواع الذكر ومنه الصلاة على كمالها وتمامها ﴿كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ فإنها نعمة عظيمة ومنة جسيمة، تقتضي مقابلتها بالذكر والشكر ليقبي نعمته عليكم ويزيدكم عليها، ثم قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾

﴿٢٤٠﴾ أي: الأزواج الذين يموتون ويتركون خلفهم أزواجاً فعليهم أن يوصوا ﴿وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج﴾ أي: يوصون أن يلزم من بيوتهم مدة سنة لا يخرجن منها ﴿فإن خرجن﴾ من أنفسهن ﴿فلا جناح عليكم﴾ أيها الأولياء ﴿فيما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم﴾ أي: من مراجعة الزينة والطيب ونحو ذلك وأكثر المفسرين أن هذه الآية منسوخة بما قبلها وهي قوله: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾ وقيل: لم تنسخها بل الآية الأولى دلت على أن أربعة أشهر وعشر واجبة، وما زاد على ذلك فهي مستحبة ينبغي فعلها تكميلاً لحق الزوج، ومراعاة للزوجة، والدليل على أن ذلك مستحب أنه هنا نفى الجناح عن الأولياء إن خرجن قبل تكميل الحول، فلو كان لزوم المسكن واجباً لم ينف الحرج عنهم.

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾

﴿٢٤١ - ٢٤٢﴾ أي: لكل مطلقة متاع بالمعروف حقاً على كل متق، جبراً لخاطرها وأداء لبعض حقوقها، وهذه المتعة واجبة على من طلقت قبل المسيس، والفرض سنة في حق غيرها كما تقدم، هذا أحسن ما قيل فيها، وقيل: إن المتعة واجبة على كل مطلقة احتجاً بعموم هذه الآية، ولكن القاعدة أن المطلق محمول على المقيد، وتقدم أن الله فرض المتعة للمطلقة قبل الفرض والمسيس خاصة، ولما بين تعالى هذه الأحكام العظيمة المشتملة على الحكمة والرحمة امتن بها على عباده فقال: ﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾ أي: حدوده، وحلاله وحرامه والأحكام النافعة لكم، لعلكم تعقلونها فتعرفونها وتعرفون المقصود منها، فإن من عرف ذلك أوجب له العمل بها، ثم قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَسْأَلْتَهُمْ لَيَبْغِيَنَّكَ اللَّهُ وَيَقْتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٣﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٤﴾﴾

﴿٢٤٣ - ٢٤٥﴾ يقص تعالى علينا قصة الذين خرجوا من ديارهم على كثرتهم واتفاق مقاصدهم، بأن الذي أخرجهم منها حذر الموت من وباء أو غيره، يقصدون بهذا الخروج السلامة من الموت، ولكن لا يغني حذر عن قدر، ﴿فَقَالَ اللَّهُ لَهُمْ مَاتُوا﴾ فماتوا ﴿ثُمَّ﴾ إن الله تعالى ﴿أَحْيَاهُمْ﴾ إما بدعوة نبي أو بغير ذلك، رحمة بهم ولطفاً وحلماً، وبياناً لآياته لخلقهم بإحياء الموتى، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ أي: عظيم ﴿عَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فلا تزيدهم النعمة شكراً، بل ربما استعانوا بنعم الله على معاصيه، وقليل منهم الشكور الذي يعرف النعمة ويقربها ويصرفها في طاعة المنعم، ثم أمر تعالى بالقتال في سبيله، وهو قتال الأعداء الكفار لإعلاء كلمة الله ونصر دينه، فقال: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعِلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: فأحسنوا نياتكم واقصدوا بذلك وجه الله، واعلموا أنه لا يفيدكم القعود عن القتال شيئاً، ولو ظننتم أن في القعود حياتكم وبقاءكم، فليس الأمر كذلك، ولهذا ذكر القصة السابقة توطئة لهذا الأمر، فكما لم ينفع الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت خروجهم، بل أتاها ما حذروا من غير أن يحتسبوا، فاعلموا أنكم كذلك، ولما كان القتال في سبيل الله لا يتم إلا بالنفقة وبذل الأموال في ذلك، أمر تعالى بالإِنفاق في سبيله ورغب فيه، وسماه قرضاً فقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ فينفق ما تيسر من أمواله في طرق الخيرات، خصوصاً في الجهاد، والحسن هو الحلال المقصود به وجه الله تعالى: ﴿فَيضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾. الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، بحسب حالة المنفق ونيته ونفع نفقته والحاجة إليها، ولما كان الإنسان ربما توهم أنه إذا أنفق افتقر دفع تعالى هذا الوهم بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ أي: يوسع الرزق على من يشاء ويقبضه عمن يشاء، فالتصرف كله بيديه ومدار الأمور راجع إليه، فالإمساك لا يبسط الرزق، والإِنفاق لا يقبضه، ومع ذلك فالإِنفاق غير ضائع على أهله، بل لهم يوم يجدون ما قدموه كاملاً موفراً مضاعفاً، فلماذا قال: ﴿وَالِيهِ تَرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

ففي هذه الآيات دليل على أن الأسباب لا تنفع مع القضاء والقدر، وخصوصاً الأسباب التي تترك بها أوامر الله. وفيها: الآية العظيمة بإحياء الموتى عياناً في هذه الدار. وفيها: الأمر بالقتال والنفقة في سبيل الله، وذكر الأسباب الداعية لذلك الحادثة عليه، من تسميته قرضاً، ومضاعفته، وأن الله يقبض ويبسط وإليه ترجعون.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ لَهُمْ إِنْهَاءَ لَنَا مَلِكًا نُنْقِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيَّكُمْ الْفَتْكَالُ أَنْ تَقْتُلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَنْ نَقْتُلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأَنْتَابِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ

عَلَيْهِمُ بِالْظَالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ النَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلَ مُوسَىٰ وَآلَ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

﴿٢٤٦ - ٢٤٨﴾ يقص تعالى على نبيه قصة الملأ من بني إسرائيل وهم الأشراف والرؤساء، وخص الملأ بالذكر، لأنهم في العادة هم الذين يبحثون عن مصالحهم ليتفقوا فيتبعهم غيرهم على ما يرونه، وذلك أنهم أتوا إلى نبي لهم بعد موسى عليه السلام فقالوا له: ﴿بعث لنا ملكاً﴾ أي: عين لنا ملكاً ﴿نقاتل في سبيل الله﴾ ليجتمع متفرقنا ويقاوم بنا عدونا، ولعلمهم في ذلك الوقت ليس لهم رئيس يجمعهم، كما جرت عادة القبائل أصحاب البيوت، كل بيت لا يرضى أن يكون من البيت الآخر رئيس، فالتمسوا من نبيهم تعيين ملك يرضي الطرفين ويكون تعيينه خاصاً لعوائدهم، وكانت أنبياء بني إسرائيل تسوسهم، كلما مات نبي خلفه نبي آخر، فلما قالوا لنبيهم تلك المقالة ﴿قال﴾ لهم نبيهم: ﴿هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا﴾ أي: لعلكم تطلبون شيئاً وهو إذا كتب عليكم لا تقومون به، فعرض عليهم العافية فلم يقبلوها، واعتمدوا على عزمهم ونيتهم، فقالوا: ﴿وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾ أي: أي شيء يمنعنا من القتال وقد ألجأنا إليه، بأن أخرجنا من أوطاننا وسببت ذرارينا، فهذا موجب لكوننا نقاتل ولو لم يكتب علينا، فكيف مع أنه فرض علينا وقد حصل ما حصل، ولهذا لما لم تكن نياتهم حسنة ولم يقو توكلهم على ربهم ﴿فلما كتب عليهم القتال تولوا﴾ فجنوا عن قتال الأعداء وضعفوا عن المصادمة، وزال ما كانوا عزموا عليه، واستولى على أكثرهم الخور والجبن ﴿إلا قليلاً منهم﴾ فعصمهم الله وثبتهم وقوى قلوبهم فالتزموا أمر الله ووطنوا أنفسهم على مقارعة أعدائه، فحازوا شرف الدنيا والآخرة، وأما أكثرهم فظلموا أنفسهم وتركوا أمر الله، فلهذا قال: ﴿والله عليم بالظالمين﴾ وقال لهم نبيهم: ﴿مجيئاً لطلبتهم: ﴿إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً﴾ فكان هذا تعييناً من الله الواجب عليهم فيه القبول والانقياد وترك الاعتراض، ولكن أبوا إلا أن يعترضوا، فقالوا: ﴿أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال﴾ أي: كيف يكون ملكاً وهو دوننا في الشرف والنسب ونحن أحق بالملك منه. ومع هذا فهو فقير ليس عنده ما يقوم به الملك من الأموال، وهذا بناء منهم على ظن فاسد، وهو أن الملك ونحوه من الولايات مستلزم لشرف النسب وكثرة المال، ولم يعلموا أن الصفات الحقيقية التي توجب التقديم مقدمة عليها، فلهذا قال لهم نبيهم: ﴿إن الله اصطفاه عليكم﴾ فلزمكم الانقياد لذلك ﴿وزاده الله بسطة في العلم والجسم﴾ أي: فضله عليكم بالعلم والجسم، أي: بقوة الرأي: والجسم اللذين بهما تتم أمور الملك، لأنه إذا تم رأيه وقوي على تنفيذ ما يقتضيه الرأي المصيب، حصل بذلك الكمال، ومتى فاته واحد من الأمرين

اختل عليه الأمر، فلو كان قوي البدن مع ضعف الرأي، حصل في الملك خرق وقهر ومخالفة للمشروع، قوة على غير حكمة، ولو كان عالماً بالأمور وليس له قوة على تنفيذها لم يفده الرأي: الذي لا ينفذه شيئاً ﴿والله واسع﴾ الفضل كثير الكرم، لا يخص برحمته وبره العام أحداً عن أحد، ولا شريفاً عن وضيع، ولكنه مع ذلك ﴿عليم﴾ بمن يستحق الفضل فيضعه فيه، فأزال بهذا الكلام ما في قلوبهم من كل ريب وشك وشبهة لتبينه أن أسباب الملك متوفرة فيه، وأن فضل الله يؤتیه من يشاء من عباده، ليس له راد، ولا لإحسانه صاد، ثم ذكر لهم نبيهم أيضاً آية حسية يشاهدونها وهي إتيان التابوت الذي قد فقدوه زماناً طويلاً وفي ذلك التابوت سكينه تسكن بها قلوبهم، وتطمئن لها خواطرها، وفيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون، فأنت به الملائكة حاملة له وهم يرونه عياناً.

﴿قَلَّمَا فَصَلَّ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّكَ اللَّهُ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ قَلَّمَا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلتَقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئْتَهُ كَثِيرُهُ يَآذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا مَبِيعًا وَكُنْتَ أَقْدَامُنَا وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ يَآذِنُ اللَّهُ وَقَعَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مَكَا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾

﴿٢٤٩ - ٢٥٢﴾ أي: لما تملك طالوت بني إسرائيل واستقر له الملك تجهزوا لقتال عدوهم، فلما فصل طالوت بجنود بني إسرائيل وكانوا عدداً كثيراً وجماً غفيراً، امتحنهم بأمر الله ليتبين الثابت المطمئن ممن ليس كذلك فقال: ﴿إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني﴾ فهو عاص ولا يتبعنا لعدم صبره وثباته ولمعصيته ﴿ومن لم يطعمه﴾ أي: لم يشرب منه فإنه مني ﴿إلا من اغترف غرفة بيده﴾ فلا جناح عليه في ذلك، ولعل الله أن يجعل فيها بركة فتكفيه، وفي هذا الابتلاء ما يدل على أن الماء قد قل عليهم ليتحقق الامتحان، فعصى أكثرهم وشربوا من النهر الشرب المنهي عنه، ورجعوا على أعقابهم ونكصوا عن قتال عدوهم وكان في عدم صبرهم عن الماء ساعة واحدة أكبر دليل على عدم صبرهم على القتال الذي سيتناول وتحصل فيه المشقة الكبيرة، وكان في رجوعهم عن باقي العسكر ما يزداد به الثابتون توكلاً على الله، وتضرعاً واستكانة وتبرؤاً من حولهم وقوتهم، وزيادة صبر لقلبتهم وكثرة عدوهم، فلماذا قال تعالى: ﴿فلما جاوزه﴾ أي: النهر ﴿هو﴾ أي: طالوت ﴿والذين آمنوا معه﴾ وهم الذين أطاعوا أمر الله ولم يشربوا من النهر الشرب المنهي عنه فأروا قلتهم وكثرة أعدائهم، قالوا أي: قال كثير منهم ﴿لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾ لكثرتهم وعددهم وعُددهم ﴿قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله﴾ أي: يستيقنون ذلك، وهم أهل الإيمان الثابت واليقين الراسخ، مثبتين لباقيهم ومطمئين لخواطرها، وأمرين لهم بالصبر ﴿كم من فئة

قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴿أي: بإرادته ومشئته فالأمر لله تعالى، والعزیز من أعزه الله، والذليل من أذله الله، فلا تغني الكثرة مع خذلانه، ولا تضر القلة مع نصره،﴾ والله مع الصابرين ﴿بالنصر والمعونة والتوفيق، فأعظم جالب لمعونة الله صبر العبد لله، فوقعت موعظته في قلوبهم وأثرت معهم، ولهذا لما برزوا لجالوت وجنوده﴾ ﴿قالوا﴾ جميعهم ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً﴾ أي: قو قلوبنا، وأوزعنا الصبر، وثبت أقدامنا عن التزلزل والفرار، وانصرنا على القوم الكافرين. من هاهنا نعلم أن جالوت وجنوده كانوا كفاراً، فاستجاب الله لهم ذلك الدعاء لإتيانهم بالأسباب الموجبة لذلك، ونصرهم عليهم ﴿فهزموهم بإذن الله وقتل داود﴾ عليه السلام، وكان مع جنود طالوت، ﴿جالوت﴾ أي: باشر قتل ملك الكفار بيده لشجاعته وقوته وصبره ﴿وأتاه الله﴾ أي: أتى الله داود ﴿الملك والحكمة﴾ أي: من عليه بتملكه على بني إسرائيل مع الحكمة، وهي النبوة المشتملة على الشرع العظيم والصراط المستقيم، ولهذا قال: ﴿وعلمه مما يشاء﴾ من العلوم الشرعية والعلوم السياسية، فجمع الله له الملك والنبوة، وقد كان من قبله من الأنبياء يكون الملك لغيرهم، فلما نصرهم الله تعالى اطمأنوا في ديارهم وعبدوا الله آمين مطمئنين لخدلان أعدائهم وتمكينهم من الأرض، وهذا كله من آثار الجهاد في سبيله، فلو لم يكن لم يحصل ذلك فلماذا قال تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ أي: لولا أنه يدفع بمن يقاتل في سبيله كيد الفجار وتكالب الكفار لفسدت الأرض باستيلاء الكفار عليها وإقامتهم شعائر الكفر ومنعهم من عبادة الله تعالى، وإظهار دينه ﴿ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ حيث شرع لهم الجهاد الذي فيه سعادتهم والمدافعة عنهم ومكّتهم من الأرض بأسباب يعلمونها، وأسباب لا يعلمونها، ثم قال تعالى: ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق﴾ أي: بالصدق الذي لا ريب فيها المتضمن للاعتبار والاستبصار وبيان حقائق الأمور ﴿وإنك لمن المرسلين﴾ فهذه شهادة من الله لرسوله برسالاته التي من جملة أدلتها ما قصه الله عليه من أخبار الأمم السالفة والأنبياء وأتباعهم وأعدائهم التي لولا خبر الله إياه لما كان عنده بذلك علم بل لم يكن في قومه من عنده شيء من هذه الأمور، فدل أنه رسول الله حقاً ونبيه صدقاً الذي بعثه بالحق ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون.

وفي هذه القصة من الآيات والعبر ما يتذكر به أولو الألباب، فمنها: أن اجتماع أهل الكلمة والحل والعقد وبحثهم في الطريق الذي تستقيم به أمورهم وفهمه، ثم العمل به، أكبر سبب لارتقايتهم وحصول مقصودهم، كما وقع لهؤلاء الملأ حين راجعوا نبيهم في تعيين ملك تجتمع به كلمتهم ويلم متفرقهم، وتحصل له الطاعة منهم. ومنها: أن الحق كلما عورض وأوردت عليه الشبه ازداد وضوحاً وتميز وحصل به اليقين التام كما جرى لهؤلاء، لما اعترضوا على استحقاق طالوت للملك أجيوا بأجوبة حصل بها الإقناع وزوال الشبه والريب. ومنها: أن العلم والرأي: مع القوة المنفذة بهما كمال الولايات، وبفقدتهما أو فقد أحدهما نقصانها وضررها. ومنها: أن الاتكال على النفس سبب الفشل والخذلان، والاستعانة بالله والصبر والالتجاء إليه سبب النصر، فالأول كما في قولهم لنبيهم: ﴿وما لنا ألا نقاتل في

سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ﴿ فكأنه نتيجة ذلك أنه لما كتب عليهم القتال تولوا. والثاني في قوله: ﴿ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ * فهزمهم بإذن الله ﴾. ومنها: أن من حكمة الله تعالى تمييز الخبيث من الطيب، والصادق من الكاذب، والصابر من الجبان، وأنه لم يكن ليدر العباد على ما هم عليه من الاختلاط وعدم التمييز. ومنها: أن من رحمته وسننه الجارية أن يدفع ضرر الكفار والمنافقين بالمؤمنين المقاتلين، وأنه لولا ذلك لفسدت الأرض باستيلاء الكفر وشعائره عليها، ثم قال تعالى:

﴿ تِلْكَ أَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَيَنْهَضُ مِنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ (٢٥٣)

﴿٢٥٣﴾ يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض بما خصهم من بين سائر الناس بإيحائه وإرسالهم إلى الناس، ودعائهم الخلق إلى الله، ثم فضل بعضهم على بعض بما أودع فيهم من الأوصاف الحميدة والأفعال السديدة والنفع العام، فمنهم من كلمه الله كموسى بن عمران خصه بالكلام، ومنهم من رفعه على سائرهم درجات كنبينا ﷺ الذي اجتمع فيه من الفضائل ما تفرق في غيره، وجمع الله له من المناقب ما فاق به الأولين والآخرين ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات﴾ الدالات على نبوته وأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألهاها إلى مريم وروح منه ﴿وأيدناه بروح القدس﴾ أي: بالإيمان واليقين الذي أيده به الله وقواه على ما أمر به، وقيل: أيده بجبريل عليه السلام يلازمه في أحواله ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعدما جاءتهم البينات﴾ الموجبة للاجتماع على الإيمان ﴿ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر﴾ فكان موجب هذا الاختلاف التفرق والمعاداة والمقاتلة، ومع هذا فلو شاء الله بعد هذا الاختلاف ما اقتتلوا، فدل ذلك على أن مشيئة الله نافذة غالبية للأسباب، وإنما تنفع الأسباب مع عدم معارضة المشيئة، فإذا وجدت اضمحل كل سبب، وزال كل موجب، فلهذا قال: ﴿ولكن الله يفعل ما يريد﴾ لإرادته غالبية ومشيئته نافذة، وفي هذا ونحوه دلالة على أن الله تعالى لم يزل يفعل ما اقتضته مشيئته وحكمته، ومن جملة ما يفعله ما أخبر به عن نفسه. وأخبر به عنه رسوله ﷺ من الاستواء والنزول والأقوال، والأفعال التي يعبرون عنها بالأفعال الاختيارية.

فائدة: كما يجب على المكلف معرفته بربه، فيجب عليه معرفته برسله، ما يجب لهم ويمتنع عليهم ويجوز في حقهم، ويؤخذ جميع ذلك مما وصفهم الله به في آيات متعددة، منها: أنهم رجال لا نساء، من أهل القرى لا من أهل البوادي، وأنهم مصطفون مختارون، جمع الله لهم من الصفات الحميدة ما به الاصطفاء والاختيار، وأنهم سالمون من كل ما يقدح في رسالتهم من كذب وخيانة وكتمان وعيوب مزرية، وأنهم لا يقرون على خطأ فيما يتعلق بالرسالة والتكليف، وأن الله تعالى خصهم بوحيه، فلهذا وجب الإيمان بهم وطاعتهم ومن لم يؤمن بهم فهو كافر، ومن قدح في واحد منهم أو سبه فهو كافر يتحتم قتله، ودلائل هذه

الجميل كثيرة، من تدبر القرآن تبين له الحق، ثم قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾

﴿٢٥٤﴾ وهذا من لطف الله بعباده أن أمرهم بتقديم شيء مما رزقهم الله، من صدقة واجبة ومستحبة، ليكون لهم ذخراً وأجرأ موفراً في يوم يحتاج فيه العاملون إلى مثقال ذرة من الخير، فلا بيع فيه ولو افتدى الإنسان نفسه بملء الأرض ذهباً ليفتدي به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منه، ولم ينفعه خليل ولا صديق لا بوجاهة ولا بشفاعه، وهو اليوم الذي فيه يخسر المبطلون ويحصل الخزي على الظالمين، وهم الذين وضعوا الشيء في غير موضعه، فتركوا الواجب من حق الله وحق عباده وتعدوا الحلال إلى الحرام، وأعظم أنواع الظلم الكفر بالله الذي هو وضع العبادة التي يتعين أن تكون لله فيصرفها الكافر إلى مخلوق مثله، فلهذا قال تعالى: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ وهذا من باب الحصر، أي: الذين ثبت لهم الظلم التام، كما قال تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾. ثم قال تعالى:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾

﴿٢٥٥﴾ هذه الآية الكريمة أعظم آيات القرآن وأفضلها وأجلها، وذلك لما اشتملت عليه من الأمور العظيمة والصفات الكريمة، فلهذا كثرت الأحاديث في الترغيب في قراءتها وجعلها ورداً للإنسان في أوقاته صباحاً ومساءً وعند نومه وأدبار الصلوات المكتوبات، فأخبر تعالى عن نفسه الكريمة بأنه ﴿لا إله إلا هو﴾ أي: لا معبود بحق سواه، فهو الإله الحق الذي تتعين أن تكون جميع أنواع العبادة والطاعة والتأله له تعالى، لكماله وكمال صفاته وعظيم نعمه، ولكون العبد مستحقاً أن يكون عبداً لربه، ممثلاً أوامره مجتنباً نواهيه، وكل ما سوى الله تعالى باطل، فعبادة ما سواه باطلة، لكون ما سوى الله مخلوقاً ناقصاً مدبراً فقيراً من جميع الوجوه، فلم يستحق شيئاً من أنواع العبادة، وقوله: ﴿الحي القيوم﴾ هذان الاسمان الكريمان يدلان على سائر الأسماء الحسنى دلالة مطابقة وتضمناً ولزوماً، فالحي من له الحياة الكاملة المستلزمة لجميع صفات الذات، كالسمع والبصر والعلم والقدرة، ونحو ذلك، والقيوم: هو الذي قام بنفسه وقام بغيره، وذلك مستلزم لجميع الأفعال التي اتصف بها رب العالمين من فعله ما يشاء من الاستواء والنزول والكلام والقول والخلق والرزق والإماتة والإحياء، وسائر أنواع التدبير، كل ذلك داخل في قيومية الباري، ولهذا قال بعض المحققين: إنهما الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله [به] ^(١) أجاب، وإذا سئل به أعطى، ومن

(١) زيادة لا توجد في المخطوطة.

تمام حياته وقيوميته أنه ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ والسنة النعاس. ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: هو المالك وما سواه مملوك وهو الخالق الرازق المدبر وغيره مخلوق مرزوق مدبر لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض فلهذا قال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي: لا أحد يشفع عنده بدون إذنه، فالشفاعة كلها لله تعالى، ولكنه تعالى إذا أراد أن يرحم من يشاء من عباده أذن لمن أراد أن يكرمه من عباده أن يشفع فيه، لا يبتدئ الشافع قبل الإذن، ثم قال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ما مضى من جميع الأمور ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ما يستقبل منها، فعلمه تعالى محيط بتفاصيل الأمور، متقدمها ومتأخرها، بالظواهر والبواطن، بالغيب والشهادة، والعباد ليس لهم من الأمر شيء ولا من العلم مثقال ذرة إلا ما علمهم تعالى، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وهذا يدل على كمال عظمتها وسعة سلطانه، إذا كان هذه حالة الكرسي أنه يسع السماوات والأرض على عظمتها وعظمة من فيهما، والكرسي ليس أكبر مخلوقات الله تعالى، بل هنا ما هو أعظم منه وهو العرش، وما لا يعلمه إلا هو، وفي عظمة هذه المخلوقات تحير الأفكار وتكل الأبصار، وتقلقل الجبال وتكع عنها فحول الرجال، فكيف بعظمة خالقها ومبدعها، والذي أودع فيها من الحكم والأسرار ما أودع، والذي قد أمسك السماوات والأرض أن تزولا من غير تعب ولا نصب، فلهذا قال: ﴿وَلَا يُؤْذُهُ﴾ أي: يثقله ﴿حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته فوق عرشه، العلي بقهره لجميع المخلوقات، العلي بقدره لكمال صفاته. ﴿الْعَظِيمُ﴾ الذي تتضاءل عند عظمته جيروت الجابرة، وتصغر في جانب جلاله أنوف الملوك القاهرة، فسبحان من له العظمة العظيمة والكبرياء الجسيمة والقهر والغلبة لكل شيء، فقد اشتملت هذه الآية على توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وعلى إحاطة ملكه وإحاطة علمه وسعة سلطانه وجلاله ومجده، وعظمته وكبريائه وعلوه على جميع مخلوقاته، فهذه الآية بمفردها عقيدة في أسماء الله وصفاته، متضمنة لجميع الأسماء الحسنى والصفات الغلّا، ثم قال تعالى:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَٰهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾

﴿٢٥٦ - ٢٥٧﴾ يخبر تعالى أنه لا إكراه في الدين لعدم الحاجة إلى الإكراه عليه، لأن الإكراه لا يكون إلا على أمر خفية أعلامه، غامضة آثاره، أو أمر في غاية الكراهة للنفوس، وأما هذا الدين القويم والصراط المستقيم فقد تبين أعلامه للعقول، وظهرت طرقة، وتبين أمره، وعرف الرشد من الغي، فالموفق إذا نظر أدنى نظر إليه آثره واختاره، وأما من كان سيئ القصد فاسد الإرادة، خبيث النفس يرى الحق فيختار عليه الباطل، ويبصر الحسن فيميل إلى القبيح، فهذا ليس لله حاجة في إكراهه على الدين، لعدم النتيجة والفائدة فيه،

والمكره ليس إيمانه صحيحاً، ولا تدل الآية الكريمة على ترك قتال الكفار المحاربين، وإنما فيها أن حقيقة الدين من حيث هو موجب لقبوله لكل منصف قصده اتباع الحق، وأما القتال وعدمه فلم تتعرض له، وإنما يؤخذ فرض القتال من نصوص آخر، ولكن يستدل في الآية الكريمة على قبول الجزية من غير أهل الكتاب، كما هو قول كثير من العلماء، فمن يكفر بالطاغوت فيترك عبادة ما سوى الله وطاعة الشيطان، ويؤمن بالله إيماناً تاماً أوجب له عبادة ربه وطاعته فقد «استمسك بالعروة الوثقى» أي: بالدين القويم الذي ثبتت قواعده ورسخت أركانه، وكان المتمسك به على ثقة من أمره، لكونه استمسك بالعروة الوثقى التي «لا انفصام لها» وأما من عكس القضية فكفر بالله وآمن بالطاغوت، فقد أطلق هذه العروة الوثقى التي بها العصمة والنجاة، واستمسك بكل باطل مآله إلى الجحيم «والله سميع عليم» فيجازي كلًّا منهما بحسب ما علمه منهم من الخير والشر، وهذا هو الغاية لمن استمسك بالعروة الوثقى ولمن لم يستمسك بها، ثم ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك فقال: «الله ولي الذين آمنوا» وهذا يشمل ولايتهم لربهم، بأن تولوه فلا يبغيون عنه بدلاً ولا يشركون به أحداً، قد اتخذوه حبيباً وولياً، ووالوا أوليائه وعادوا أعداءه، فتولاهم بلطفه ومنَّ عليهم بإحسانه، فأخرجهم من ظلمات الكفر والمعاصي والجهل إلى نور الإيمان والطاعة والعلم، وكان جزاؤهم على هذا أن سلمهم من ظلمات القبر والحشر والقيامة إلى النعيم المقيم والراحة والفسحة والسرور «والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت» فتولوا الشيطان وحزبه، واتخذوه من دون الله ولياً ووالوه وتركوا ولاية ربهم وسيدهم، فسلطهم عليهم عقوبة لهم فكانوا يؤززونهم إلى المعاصي أژا، ويزعجونهم إلى الشر إزعاجاً، فيخرجونهم من نور الإيمان والعلم والطاعة إلى ظلمة الكفر والجهل والمعاصي، فكان جزاؤهم على ذلك أن حرموا الخيرات، وفاتهم النعيم والبهجة والمسرات، وكانوا من حزب الشيطان وأوليائه في دار الحسرة، فلهذا قال تعالى: «أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون».

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبُدُ وَيُعْبَدُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُذِثَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٥٨)

﴿٢٥٨﴾ يقول تعالى: «ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه» أي: إلى جرائته وتجاهله وعناده ومحاجته فيما لا يقبل التشكيك، وما حملة على ذلك إلا «أن آتاه الله الملك» فطغى وبغى ورأى نفسه مترساً على رعيته، فحملة ذلك على أن حاج إبراهيم في ربوبية الله فزعم التصرف، وخص منه الإحياء والإماتة لكونهما أعظم أنواع التدابير، ولأن الإحياء مبدأ الحياة الدنيا والإماتة مبدأ ما يكون في الآخرة، فقال ذلك المحتاج: «أنا أحيي وأميت» ولم يقل أنا صنعه، فزعم أنه يقتل شخصاً فيكون قد أماته، ويستبقي شخصاً فيكون قد أحياه، فلما رآه

إبراهيم يغالط في مجادلته ويتكلم بشيء لا يصلح أن يكون شبهة فضلاً عن كونه حجة، أطرده معه في الدليل فقال إبراهيم: ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق﴾ أي: عياناً يقرُّ به كل أحد حتى ذلك الكافر ﴿فأت بها من المغرب﴾ وهذا إلزام له بطرده دليله إن كان صادقاً في دعواه، فلما قال له أمراً لا قوة له في شبهة تشوش دليله، ولا قادحاً يقدر في سبيله ﴿بهدت الذي كفر﴾ أي: تحير فلم يرجع إليه جواباً وانقطعت حجته وسقطت شبهته، وهذه حالة المبطل المعاند الذي يريد أن يقاوم الحق ويغالبه، فإنه مغلوب مقهور، فلذلك قال تعالى: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾^(١) بل يبيقيهم على كفرهم وضلالهم، وهم الذين اختاروا لأنفسهم ذلك، وإلا فلو كان قصدهم الحق والهداية لهداهم إليه ويسر لهم أسباب الوصول إليه، ففي هذه الآية برهان قاطع على تفرد الرب بالخلق والتدبير، ويلزم من ذلك أن يفرد بالعبادة والإنابة والتوكل عليه في جميع الأحوال. قال ابن القيم رحمه الله: «وفي هذه المناظرة نكتة لطيفة جداً، وهي أن شرك العالم إنما هو مستند إلى عبادة الكواكب والقبور، ثم صورت الأصنام على صورها، فتضمن الدليلان اللذان استدل بها إبراهيم إبطال الإلهية تلك جملة بأن الله وحده هو الذي يحيي ويميت، ولا يصلح الحي الذي يموت للإلهية لا في حال حياته ولا بعد موته، فإن له رباً قادراً قاهراً متصرفاً فيه إحياء وإماتة، ومن كان كذلك فكيف يكون إلهاً حتى يتخذ الصنم على صورته، ويعبد من دونه، وكذلك الكواكب أظهرها وأكبرها للحس هذه الشمس وهي مربوبة مدبرة مسخرة، لا تصرف لها بنفسها بوجه ما، بل ربها وخالقها سبحانه يأتي بها من مشرقها فتنقاد لأمره ومشيتها، فهي مربوبة مسخرة مدبرة، لا إله يعبد من دون الله». من «مفتاح دار السعادة»، ثم قال تعالى:

﴿أَو كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُغْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوَدَّتِهِ قَامَاتُهُ اللَّهُ مَائَةً عَامٍ ثُمَّ بَعَثْنَا قَالَ لَيْسَتْ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّيْسَتْ يَوْمًا عَامٍ فَأَنْظَرْنَا إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَأَنْظَرْنَا إِلَى حِمَارِكَ وَلَنَجْعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾

﴿٢٥٩﴾ وهذا أيضاً دليل آخر على توحيد الله بالخلق والتدبير والإماتة والإحياء، فقال: ﴿أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها﴾ أي: قد باد أهلها وفني سكانها وسقطت حيطانها على عروشها، فلم يبق بها أنيس بل بقيت موحشة من أهلها مقفرة، فوقف عليها ذلك الرجل متعجباً و﴿قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها﴾ استبعاداً لذلك وجهلاً بقدرة الله، فلما أراد الله به خيراً أراه آية في نفسه وفي حماره، وكان معه طعام وشراب، ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم﴾ استقصاراً لتلك المدة التي مات فيها لكونه قد زالت معرفته وحواسه وكان عهد حاله قبل موته، فقليل له: ﴿بل لبثت مئة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه﴾ أي: لم يتغير بل بقي على حاله على تطاول السنين واختلاف

(١) في المخطوطة «الكافرين». والآية: «الظالمين».

الأوقات عليه، ففيه أكبر دليل على قدرته حيث أبقاه وحفظه عن التغير والفساد، مع أن الطعام والشراب من أسرع الأشياء فساداً ﴿وانظر إلى حمارك﴾ وكان قد مات وتمزق لحمه وجلده وانتشرت عظامه، وتفرقت أوصاله ﴿ولنجعلك آية للناس﴾ على قدرة الله وبعته الأموات من قبورهم، لتكون أنموذجاً محسوساً مشاهداً بالابصار، فيعلموا بذلك صحة ما أخبرت به الرسول ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزها﴾ أي: ندخل بعضها في بعض، ونركب بعضها ببعض ﴿ثم نكسوها لحماً﴾ فنظر إليها عياناً كما وصفها الله تعالى، ﴿فلما تبين له﴾ ذلك وعلم قدرة الله تعالى ﴿قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ والظاهر من سياق الآية أن هذا رجل منكر للبعث أراد الله به خيراً، وأن يجعله آية ودليلاً للناس لثلاثة أوجه أحدها: قوله: ﴿أنى يحيي هذه الله بعد موتها﴾ ولو كان نبياً أو عبداً صالحاً لم يقل ذلك، والثاني: أن الله أراه آية في طعامه وشرابه وحماره ونفسه ليراه بعينه فيقر بما أنكره، ولم يذكر في الآية أن القرية المذكورة عمرت وعادت إلى حالتها، ولا في السياق ما يدل على ذلك، ولا في ذلك كثير فائدة، ما الفائدة الدالة على إحياء الله للموتى في قرية خربت ثم رجع إليها أهلها أو غيرهم فعمروها؟! وإنما الدليل الحقيقي في إحيائه وإحياء حماره وإبقاء طعامه وشرابه بحاله، والثالث في قوله: ﴿فلما تبين له﴾ أي: تبين له أمر كان يجهله ويخفى عليه، فعلم بذلك صحة ما ذكرناه. والله أعلم. ثم قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكَ قَالَ فَعِذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

﴿٢٦٠﴾ وهذا فيه أيضاً أعظم دلالة حسية على قدرة الله وإحيائه الموتى للبعث والجزاء، فأخبر تعالى عن خليله إبراهيم أنه سأله أن يريه ببصره كيف يحيي الموتى، لأنه قد تيقن ذلك بخبر الله تعالى، ولكنه أحب أن يشاهده عياناً ليحصل له مرتبة عين اليقين، فلهذا قال الله له: ﴿أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ وذلك أنه بتوارد الأدلة البقينية مما يزداد به الإيمان ويكمل به الإيقان ويسعى في نبيله أولو العرفان، فقال له ربه: خذ ﴿أربعة من الطير فصرنهن إليك﴾ أي: ضمنهن ليكون ذلك بمرأى منك ومشاهدة وعلى يدك. ﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً﴾ أي: مزقهن، اخلط أجزاءهن بعضها ببعض، واجعل على كل جبل، أي: من الجبال التي في القرب منه، جزء من تلك الأجزاء ﴿ثم ادعهن يأتينك سعيًا﴾ أي: تحصل لهن حياة كاملة، ويأتينك في هذه القوة وسرعة الطيران، ففعل إبراهيم عليه السلام ذلك وحصل له ما أراد وهذا من ملكوت السموات والأرض الذي أراه الله إياه في قوله: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين﴾. ثم قال: ﴿واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ أي: ذو قوة عظيمة سخر بها المخلوقات، فلم يستعص عليه شيء منها، بل هي متقادة لعزته خاضعة لجلاله، ومع ذلك فأفعاله تعالى تابعة لحكمته، لا يفعل شيئاً عبثاً، ثم قال تعالى:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ سَبْعِ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُكُورٍ بَاتَتْ حَبُّهُ
وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾

﴿٢٦١﴾ هذا بيان للمضاعفة التي ذكرها الله في قوله: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ وهنا قال: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾ أي: في طاعته ومرضاته، وأولاهما إنفاقها في الجهاد في سبيله ﴿كمثل حبة أتت سنبلاً في كل سنبلة مائة حبة﴾ وهذا إحضار لصورة المضاعفة بهذا المثل، الذي كان العبد يشاهده بصره فيشاهد هذه المضاعفة ببصيرته، فيقوى شاهد الإيمان مع شاهد العيان، فتتقاد النفس مدعنة للإنفاق سامحة بها مؤملة لهذه المضاعفة الجزيلة والمنة الجليلة، ﴿والله يضاعف﴾ هذه المضاعفة ﴿لمن يشاء﴾ أي: بحسب حال المنفق وإخلاصه وصدقه وبحسب حال النفقة وحلها ونفعها ووقوعها موقعها، ويحتمل أن يكون ﴿والله يضاعف﴾ أكثر من هذه المضاعفة لمن يشاء فيعطيه أجرهم بغير حساب ﴿والله واسع﴾ الفضل، واسع العطاء، لا ينقصه نائل ولا يحفيه سائل، فلا يتوهم المنفق أن تلك المضاعفة فيها نوع مبالغه، لأن الله تعالى لا يتعاضم شيء ولا ينقصه العطاء على كثرته، ومع هذا فهو ﴿عليم﴾ بمن يستحق هذه المضاعفة ومن لا يستحقها، فيضع المضاعفة في موضعها لكمال علمه وحكمته.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مِمَّا انْفَقَوْا مَثَلًا وَلَا أَدَّى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ
وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾

﴿٢٦٢ - ٢٦٣﴾ أي: الذين ينفقون أموالهم في طاعة الله وسبيله، ولا يتبعونها بما ينقصها ويفسدها من المن بها على المنفق عليه بالقلب أو باللسان، بأن يعدد عليه إحسانه ويطلب منه مقابلته، ولا أذية له قولية أو فعلية، فهؤلاء لهم أجرهم اللائق بهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فحصل لهم الخير واندفع عنهم الشر لأنهم عملوا عملاً خالصاً لله سالمين من المفسدات ﴿قول معروف﴾ أي: تعرفه القلوب ولا تنكره، ويدخل في ذلك كل قول كريم فيه إدخال السرور على قلب المسلم، ويدخل فيه رد السائل بالقول الجميل والدعاء له ﴿ومغفرة﴾ لمن أساء إليك بترك مؤاخذته والعفو عنه، ويدخل فيه العفو عما يصدر من السائل مما لا ينبغي، فالقول المعروف والمغفرة خير من الصدقة التي يتبعها أذى، لأن القول المعروف إحسان قولي، والمغفرة إحسان أيضاً بترك المؤاخذه، وكلاهما إحسان ما فيه مفسد، فهما أفضل من الإحسان بالصدقة التي يتبعها أذى بمن أو غيره، ومفهوم الآية أن الصدقة التي لا يتبعها أذى أفضل من القول المعروف والمغفرة، وإنما كان المن بالصدقة مفسداً لها محرماً، لأن المنه لله تعالى وحده، والإحسان كله لله، فالعبد لا يمن بنعمة الله وإحسانه وفضله وهو ليس منه، وأيضاً فإن المان مستعبد لمن يمن عليه، والذل والاستعباد لا ينبغي إلا لله. والله غني بذاته عن جميع مخلوقاته، وكلها مفتقرة إليه بالذات في جميع الحالات والأوقات، فصدقتكم وإنفاقكم وطاعاتكم يعود مصلحتها إليكم ونفعها إليكم، ﴿والله

غني﴾ عنها، ومع هذا فهو ﴿حليم﴾ على من عصاه لا يعاجله بعقوبة مع قدرته عليه، ولكن رحمته وإحسانه وحلمه يمنعه من معاجلته للعاصين، بل يمهلهم ويصرف لهم الآيات لعلمهم يرجعون إليه وينيبون إليه، فإذا علم تعالى أنه لا خير فيهم ولا تغني عنهم الآيات، ولا تفيد بهم المثالات أنزل بهم عقابه، وحرّمهم جزيل ثوابه.

﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَبْطُلُوا صِدْقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾

﴿٢٦٤﴾ ينهى عباده تعالى لطفاً بهم ورحمة عن إبطال صدقاتهم بالمن والأذى ففيه أن المن والأذى يبطل الصدقة، ويستدل بهذا على أن الأعمال السيئة تبطل الأعمال الحسنة، كما قال تعالى: ﴿ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾ فكما أن الحسنات يذهبن السيئات فالسيئات تبطل ما قابلها من الحسنات، وفي هذه الآية مع قوله تعالى: ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ حث على تكميل الأعمال وحفظها من كل ما يفسدها لثلاث يضيع العمل سدى، وقوله: ﴿كالذي ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ أي: أنتم وإن قصدتم بذلك وجه الله في ابتداء الأمر، فإن المنّة والأذى مبطلان لأعمالكم، فتصير أعمالكم بمنزلة الذي يعمل لمراءاة الناس ولا يريد به الله والدار الآخرة، فهذا لا شك أن عمله من أصله مردود، لأن شرط العمل أن يكون لله وحده وهذا في الحقيقة عمل للناس لا لله، فأعماله باطلة وسعيه غير مشكور، فمثله المطابق لحاله ﴿كمثل صفوان﴾ وهو الحجر الأملس الشديد ﴿عليه تراب فأصابه وابل﴾ أي: مطر غزير ﴿فتركه صلداً﴾ أي: ليس عليه شيء من التراب، فكذلك حال هذا المرائي، قلبه غليظ قاس بمنزلة الصفوان، وصدفته ونحوها من أعماله بمنزلة التراب الذي على الصفوان، إذا رآه الجاهل بحاله ظن أنه أرض زكية قابلة للنبات، فإذا انكشفت حقيقة حاله زال ذلك التراب وتبين أن عمله بمنزلة السراب، وأن قلبه غير صالح لنبات الزرع وزكاته عليه، بل الرياء الذي فيه والإرادات الخبيثة تمنع من انتفاعه بشيء من عمله، فلهذا ﴿لا يقدرُونَ عَلَى شَيْءٍ﴾ من أعمالهم التي اكتسبوها، لأنهم وضعوها في غير موضعها وجعلوها لمخلوق مثلهم، لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً وانصرفوا عن عبادة من تنفعهم عبادته، فصرف الله قلوبهم عن الهداية، فلهذا قال: ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَفَاقَتْ أَكْطَارَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾

﴿٢٦٥﴾ هذا مثل المنفقين أموالهم على وجه تزكو عليه نفقاتهم وتقبل به صدقاتهم فقال تعالى: ﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله﴾ أي: قصدهم بذلك رضا ربهم والفوز بقربه ﴿وتثبيتاً من أنفسهم﴾ أي: صدر الإنفاق على وجه منشرحة له النفس سخية به، لا على

وجه التردد وضعف النفس في إخراجها وذلك أن النفقة يعرض لها آفتان إما أن يقصد الإنسان بها محمداً الناس ومدحهم وهو الرياء، أو يخرجها على خور وضعف عزيمة وتردد، فهؤلاء سلموا من هاتين الآفتين فأنفقوا ابتغاء مرضات الله لا لغير ذلك من المقاصد، وتثبيتاً من أنفسهم، فمثل نفقة هؤلاء ﴿كمثل جنة﴾ أي: كثيرة الأشجار غزيرة الظلال، من الاجتنان وهو الستر، لستر أشجارها ما فيها، وهذه الجنة ﴿بربوة﴾ أي: محل مرتفع ضاح للشمس في أول النهار ووسطه وآخره. فسماره أكثر الثمار وأحسنها، ليست بمحل نازل عن الرياح والشمس، ف﴿أصابها﴾ أي: تلك الجنة التي بربوة ﴿وابل﴾ وهو المطر الغزير ﴿فأتت أكلها ضعفين﴾ أي: تضاعفت ثمراتها لطيب أرضها ووجود الأسباب الموجبة لذلك، وحصول الماء الكثير الذي ينميها ويكملها ﴿فإن لم يصبها وابل فطل﴾ أي: مطر قليل يكفيها لطيب منبتها، فهذه حالة المنفقين أهل النفقات الكثيرة والقليلة كل على حسب حاله، وكل ينمي له ما أنفق أتم تنمية وأكملها والمنمي لها هو الذي أرحم بك من نفسك، الذي يريد مصلحتك حيث لا تريدها، فيا لله لو قدر وجود بستان في هذه الدار بهذه الصفة لأسرعت إليه الهمم وتزاحم عليه كل أحد، ولحصل الاقتتال عنده، مع انقضاء هذه الدار وفنائها وكثرة آفاتنا وشدة نصبها وعنائها، وهذا الثواب الذي ذكره الله كأن المؤمن ينظر إليه بعين بصيرة الإيمان، دائم مستمر فيه أنواع المسرات والفرحات، ومع هذا تجد النفوس عنه راقدة، والعزائم عن طلبه خامدة، أترى ذلك زهداً في الآخرة ونعيمها، أم ضعف إيمان بوعد الله ورجاء ثوابه؟! وإلا فلو تيقن العبد ذلك حق اليقين وباشر الإيمان به بشاشة قلبه لانبعثت من قلبه مزعجات الشوق إليه، وتوجهت همم عزائمه إليه، وطوعت نفسه له بكثرة النفقات رجاء المثوبات، ولهذا قال تعالى: ﴿والله بما تعملون بصير﴾ فيعلم عمل كل عامل ومصدر ذلك العمل، فيجازيه عليه أتم الجزاء، ثم قال تعالى:

﴿أَيُّدُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لِمَا كُنْتُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾

﴿٢٦٦﴾ وهذا المثل مضروب لمن عمل عملاً لوجه الله تعالى من صدقة أو غيرها ثم عمل أعمالاً تفسده، فمثله كمثل صاحب هذا البستان الذي فيه من كل الثمرات، وخص منها النخل والعنب لفضلهما وكثرة منافعهما، لكونهما غذاءً وقوتاً وفاكهة وحلوى، وتلك الجنة فيه الأنهار الجارية التي تسقيها من غير مؤنة، وكان صاحبها قد اغتبط بها وسرته، ثم إنه أصابه الكبر فضعف عن العمل وزاد حرصه، وكان له ذرية ضعفاء ما فيهم معاونة له، بل هم كل عليه، ونفقتهم ونفقتهم من تلك الجنة، فبينما هو كذلك إذ أصاب تلك الجنة إعصار وهو الريح القوية التي تستدير ثم ترتفع في الجوى، وفي ذلك الإعصار نار فاحترقت تلك الجنة، فلا تسأل عما لقي ذلك الذي أصابه الكبر من الهم والغم والحزن، فلو قدر أن الحزن يقتل صاحبه لقتله الحزن، كذلك من عمل عملاً لوجه الله فإن أعماله بمنزلة البذر

للزروع والثمار، ولا يزال كذلك حتى يحصل له من عمله جنة موصوفة بغاية الحسن والبهاء، وتلك المفسدات التي تفسد الأعمال بمنزلة الإعصار الذي فيه نار، والعبد أحوج ما يكون لعمله إذا مات وكان بحالة لا يقدر معها على العمل، فيجد عمله الذي يؤمل نفعه هباءً منثوراً، ووجد الله عنده فوفاه حسابه.

والله سريع الحساب فلو علم الإنسان وتصور هذه الحال وكان له أدنى مسكة من عقل لم يقدم على ما فيه مضرته ونهاية حسرته ولكن ضعف الإيمان والعقل وقلة البصيرة يصير صاحبه إلى هذه الحالة التي لو صدرت من مجنون لا يعقل لكان ذلك عظيماً وخطره جسيماً، فلماذا أمر تعالى بالتفكر وحث عليه، فقال: ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَرْجَبْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْغِيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَاسْتَمُوا بِمَا يُخَذِّبُهُمْ إِلَّا أَنْ تُنْفِقُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾

﴿٢٦٧ - ٢٦٨﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالنفقة من طيبات ما يسر لهم من المكاسب، ومما أخرج لهم من الأرض فكمما من عليكم بتسهيل تحصيله فأنفقوا منه شكراً لله وأداء لبعض حقوق إخوانكم عليكم، وتطهيراً لأموالكم، واقصدوا في تلك النفقة الطيب الذي تحبونه لأنفسكم، ولا تيمموا الرديء الذي لا ترغبونه ولا تأخذونه إلا على وجه الإغماض والمسامحة ﴿واعلموا أن الله غني حميد﴾ فهو غني عنكم ونفع صدقاتكم وأعمالكم عائد إليكم، ومع هذا فهو حميد على ما يأمركم به من الأوامر الحميدة والخصال السديدة، فعليكم أن تمتثلوا أوامره لأنها قوت القلوب وحياة النفوس ونعيم الأرواح، وإياكم أن تتبعوا عدوكم الشيطان الذي يأمركم بالإمساك، ويخوفكم بالفقر والحاجة إذا أنفقت، وليس هذا نصحاً لكم، بل هذا غاية الغش ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ بل أطيعوا ربكم الذي يأمركم بالنفقة على وجه يسهل عليكم ولا يضركم، ومع هذا فهو ﴿يعدكم مغفرة﴾ لذنوبكم وتطهيراً لعيوبكم ﴿وفضلاً﴾ وإحساناً إليكم في الدنيا والآخرة، من الخلف العاجل، وانشرح الصدر ونعيم القلب والروح والقبر، وحصول ثوابها وتوفيتها يوم القيامة، وليس هذا عظيماً عليه لأنه ﴿واسع﴾ الفضل عظيم الإحسان ﴿عليم﴾ بما يصدر منكم من النفقات قليلها وكثيرها، سرها وعلنها، فيجازيكم عليها من سعته وفضله وإحسانه، فلينظر العبد نفسه إلى أي الداعيين يميل، فقد تضمنت هاتان الآيتان أموراً عظيمة منها: الحث على الإنفاق، ومنها: بيان الأسباب الموجبة لذلك، ومنها: وجوب الزكاة من التقدين وعروض التجارة كلها، لأنها داخلة في قوله: ﴿من طيبات ما كسبتم﴾ ومنها: وجوب الزكاة في الخارج من الأرض من الحبوب والثمار والمعادن، ومنها: أن الزكاة على من له الزرع والثمر لا على صاحب الأرض، لقوله: ﴿أخرجنا لكم﴾ فمن أخرجت له وجبت عليه، ومنها: أن الأموال المعدة للاقتناء من العقارات والأواني ونحوها ليس فيها زكاة، وكذلك الديون والغصوب ونحوهما إذا كانت مجهولة، أو عند من لا يقدر ربها على استخراجها منه، ليس فيها زكاة، لأن الله

العلانية، وأما إذا لم تؤت الصدقات الفقراء فمفهوم الآية أن السر ليس خيراً من العلانية، فيرجع في ذلك إلى المصلحة، فإن كان في إظهارها إظهار شعائر الدين وحصول الاقتداء ونحوه، فهو أفضل من الإسرار، ودل قوله: ﴿وَتَوَاتَوْهَا الْفُقَرَاءُ﴾ على أنه ينبغي للمتصدق أن يتحرى بصدقته المحتاجين، ولا يعطي محتاجاً وغيره أحوج منه، ولما ذكر تعالى أن الصدقة خير للمتصدق ويتضمن ذلك حصول الثواب قال: ﴿ويكفر عنكم من سيئاتكم﴾ فيه دفع العقاب ﴿والله بما تعملون خبير﴾ من خير وشر، قليل وكثير والمقصود من ذلك المجازاة.

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّذِينَ تُمَوَّلُونَ﴾ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسَيِّئِهِمْ لَا يَسْتَلُونَ النَّاسَ بِالْحَقِّ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْلِ وَالْأَثَرِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

﴿٢٧٢ - ٢٧٤﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ ليس عليك هدي الخلق، وإنما عليك البلاغ المبين، والهداية بيد الله تعالى، ففيها دلالة على أن النفقة كما تكون على المسلم تكون على الكافر ولو لم يهتد، فهذا قال: ﴿وما تنفقوا من خير﴾ أي: قليل أو كثير على أي شخص كان من مسلم وكافر ﴿فلأنفسكم﴾ أي: نفعه راجع إليكم ﴿وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾ هذا إخبار عن نفقات المؤمنين الصادرة عن إيمانهم أنها لا تكون إلا لوجه الله تعالى، لأن إيمانهم يمنعهم عن المقاصد الردية ويوجب لهم الإخلاص ﴿وما تنفقوا من خير يوف إليكم﴾ يوم القيامة تستوفون أجوركم ﴿وأنتم لا تظلمون﴾ أي: تنقصون من أعمالكم شيئاً ولا مثقال ذرة، كما لا يزداد في سيئاتكم، ثم ذكر مصرف النفقات الذين هم أولى الناس بها فوصفهم بست صفات أحدها الفقر، والثاني: قوله: ﴿أحسروا في سبيل الله﴾ أي: قصروها على طاعة الله من جهاد وغيره، فهم مستعدون لذلك محبسون له، الثالث: عجزهم عن الأسفار لطلب الرزق فقال: ﴿لا يستطيعون ضرباً في الأرض﴾ أي: سفرأ للتكسب، الرابع: قوله: ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾ وهذا بيان لصدق صبرهم وحسن تعففهم. الخامس: أنه قال: ﴿تعرفهم بسيماهم﴾ أي: بالعلامة التي ذكرها الله في وصفهم، وهذا لا ينافي قوله: ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء﴾ فإن الجاهل بحالهم ليس له فطنة يتفرس بها ما هم عليه، وأما الفطن المتفرس فمجرد ما يراه يعرفهم بعلامتهم، السادس: قوله: ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾ أي: لا يسألونهم سؤال إلحاف، أي: إلحاح، بل إن صدر منهم سؤال إذا احتاجوا لذلك لم يلحوا على من سألوا، فهؤلاء أولى الناس وأحقهم بالصدقات لما وصفهم به من جميل الصفات، وأما النفقة من حيث هي على أي شخص كان، فهي خير وإحسان وبر يثاب عليها صاحبها ويؤجر، فهذا قال: ﴿وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾ ثم ذكر حالة المتصدقين في جميع الأوقات على جميع الأحوال فقال: ﴿الذين ينفقون أموالهم

في سبيل الله﴾ أي: طاعته وطريق مرضاته، لا في المحرمات والمكروهات وشهوات أنفسهم ﴿بالليل والنهار سرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم﴾ أي: أجر عظيم من خير عند الرب الرحيم ﴿ولا خوف عليهم﴾ إذا خاف المقصرون ﴿ولا هم يحزنون﴾ إذا حزن المفرطون، ففازوا بحصول المقصود المطلوب، ونجوا من الشرور والمرهوب، ولما كمل تعالى حالة المحسنين إلى عباده بأنواع النفقات ذكر حالة الظالمين المسيئين إليهم غاية الإساءة فقال:

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَقْعَلُوا فَاذْنُوا بِعَرَبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ زُجُجٌ أَمْزَلِكُمْ لَا تَقْلُمُوهُمْ وَلَا تَقْلُمُوهُمْ ﴿٢٧٩﴾ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

﴿٢٧٥ - ٢٨١﴾ يخبر تعالى عن أكلة الربا وسوء مآلهم وشدة متقلبهم، أنهم لا يقومون من قبورهم ليوم نشورهم ﴿إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾ أي: يصصره الشيطان بالجنون، فيقومون من قبورهم حيارى سكارى مضطربين، متوقعين لعظيم النكال وعسر الوبال، فكما تقلبت عقولهم و﴿قالوا إنما البيع مثل الربا﴾ وهذا لا يكون إلا من جاهل عظيم جهله، أو متجاهل عظيم عناده، جازاهم الله من جنس أحوالهم فصارت أحوالهم أحوال المجانين، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾ أنه لما انسلبت عقولهم في طلب المكاسب الربوية خفت أحلامهم وضعفت آراؤهم، وصاروا في هيئتهم وحركاتهم يشبهون المجانين في عدم انتظامها وانسلاّب العقل الأدبي عنهم، قال الله تعالى راداً عليهم ومبيناً حكمته العظيمة ﴿وأحل الله البيع﴾ أي: لما فيه من عموم المصلحة وشدة الحاجة وحصول الضرر بتحريمه، وهذا أصل في حل جميع أنواع التصرفات الكسبية حتى يرد ما يدل على المنع ﴿وحرم الربا﴾ لما فيه من الظلم وسوء العاقبة، والربا نوعان: ربا نسيئة كبيع البع بما يشاركه في العلة نسيئة، ومنه جعل ما في الذمة رأس مال، سلم، وربا فضل، وهو بيع ما يجري فيه الربا بجنسه متفاضلاً، وكلاهما محرم بالكتاب والسنة، والإجماع على ربا النسيئة، وشذ من أباح ربا الفضل وخالف النصوص المستفيضة، بل الربا من كبائر الذنوب وموبقاتها ﴿فمن جاءه موعظة من ربه﴾ أي: وعظ وتذكير وترهيب عن تعاطي الربا على يد من قبضه الله لموعظته رحمة من الله بالموعوظ، وإقامة للحجة عليه ﴿فانتهى﴾ عن فعله وانزجر عن تعاطيه ﴿فله ما سلف﴾ أي: ما تقدم من المعاملات التي فعلها قبل أن تبلغه الموعظة جزاء لقبوله للنصيحة، دل مفهوم الآية أن من لم ينته جوزي

بالأول والآخر ﴿وأمره إلى الله﴾ في مجازاته وفيما يستقبل من أموره ﴿ومن عاد﴾ إلى تعاطي الربا ولم تنفعه الموعظة، بل أصر على ذلك ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ اختلف العلماء رحمهم الله في نصوص الوعيد التي ظاهرها تخليد أهل الكبائر من الذنوب التي دون الشرك بالله، والأحسن فيها أن يقال هذه الأمور التي رتب الله عليها الخلود في النار موجبات ومقتضيات لذلك، ولكن الموجب إن لم يوجد ما يمنعه ترتب عليه مقتضاه، وقد علم بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة أن التوحيد والإيمان مانع من الخلود في النار، فلولاً ما مع الإنسان من التوحيد لصار عمله صالحاً للخلود فيها بقطع النظر عن كفره، ثم قال تعالى: ﴿يمحق الله الربا﴾ أي: يذهب ويذهب بركته ذاتاً ووصفاً، فيكون سبباً لوقوع الآفات فيه ونزع البركة عنه، وإن أنفق منه لم يؤجر عليه بل يكون زاداً له إلى النار ﴿ويربي الصدقات﴾ أي: ينميها وينزل البركة في المال الذي أخرجت منه وينمي أجر صاحبها وهذا لأن الجزاء من جنس العمل، فإن المرابي قد ظلم الناس وأخذ أموالهم على وجه غير شرعي، فجوزي بذهاب ماله، والمحسن إليهم بأنواع الإحسان ربه أكرم منه، فيحسن عليه كما أحسن على عباده ﴿والله لا يحب كل كفار﴾ لنعم الله، لا يؤدي ما أوجب عليه من الصدقات، ولا يسلم منه ومن شره عباد الله ﴿أنثم﴾ أي: قد فعل ما هو سبب لإثمه وعقوبته. لما ذكر أكلة الربا وكان من المعلوم أنهم لو كانوا مؤمنين إيماناً يتفهمهم لم يصدر منهم ما صدر ذكر حالة المؤمنين وأجرهم، وخاطبهم بالإيمان، ونهاهم عن أكل الربا إن كانوا مؤمنين، وهؤلاء هم الذين يقبلون موعظة ربهم وينقادون لأمره، وأمرهم أن يتقوه، ومن جملة تقواه أن يذروا ما بقي من الربا أي: المعاملات الحاضرة الموجودة، وأما ما سلف، فمن اتعظ عفا الله عنه ما سلف، وأما من لم ينزجر بموعظة الله ولم يقبل نصيحته فإنه مشاق لربه محارب له، وهو عاجز ضعيف ليس له يدان في محاربة العزيز الحكيم الذي يمهل للظالم ولا يمهله حتى إذا أخذه، أخذه أخذ عزيز مقتدر ﴿وإن تبتم﴾ عن الربا ﴿فلكم رؤوس أموالكم﴾ أي: انزلوا عليها ﴿لا تظلمون﴾ من عاملتموه بأخذ الزيادة التي هي الربا ﴿ولا تظلمون﴾ بنقص رؤوس أموالكم ﴿وإن كان﴾ المدين ﴿ذو عسرة﴾ لا يجد وفاء ﴿فنظرة إلى ميسرة﴾ وهذا واجب عليه أن ينظره حتى يجد ما يوفي به ﴿وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ إما بإسقاطها أو بعضها ﴿وانفقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ وهذه الآية من آخر ما نزل من القرآن، وجعلت خاتمة لهذه الأحكام والأوامر والنواهي، لأن فيها الوعد على الخير، والوعيد على فعل الشر، وأن من علم أنه راجع إلى الله فمجازيه على الصغير والكبير والجلي والخفي، وأن الله لا يظلمه مثقال ذرة، أوجب له الرغبة والرغبة، وبدون حلول العلم في ذلك في القلب لا سبيل إلى ذلك.

﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَانَيْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيحًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْطِيعُ أَنْ يُؤْمَلَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ

بِالْمَكِيلِ وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَهُ أَعْيَالِهِ ذَلِكَمُ أَفْسَظُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَكُ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

﴿٢٨٢﴾ هذه آية الدين، وهي أطول آيات القرآن، وقد اشتملت على أحكام عظيمة جليلة المنفعة والمقدار، أحدها: أنه تجوز جميع أنواع المداينات من سلم وغيره، لأن الله أخبر عن المداينة التي عليها المؤمنون إخبار مقرر لها ذاكراً أحكامها، وذلك يدل على الجواز، الثاني والثالث: أنه لا بد للسلم من أجل وأنه لا بد أن يكون معيناً معلوماً فلا يصح حالاً ولا إلى أجل مجهول، الرابع: الأمر بكتابة جميع عقود المداينات إما وجوباً وإما استحباباً لشدة الحاجة إلى كتابتها، لأنها بدون الكتابة يدخلها من الغلط والنسيان والمنازعة والمشاجرة شر عظيم، الخامس: أمر الكاتب أن يكتب، السادس: أن يكون عدلاً في نفسه لأجل اعتبار كتابته، لأن الفاسق لا يعتبر قوله ولا كتابته، السابع: أنه يجب عليه العدل بينهما، فلا يميل لأحدهما لقراءة أو صداقة أو غير ذلك، الثامن: أن يكون الكاتب عارفاً بكتابة الوثائق وما يلزم فيها كل واحد منهما، وما يحصل به التوثق، لأنه لا سبيل إلى العدل إلا بذلك، وهذا مأخوذ من قوله: ﴿وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾، التاسع: أنه إذا وجدت وثيقة بخط المعروف بالعدالة المذكورة يعمل بها، ولو كان هو والشهود قد ماتوا، العاشر: قوله: ﴿ولا يَأْبَ كاتب أن يكتب﴾ أي: لا يمتنع من من الله عليه بتعليمه الكتابة أن يكتب بين المتدائنين، فكما أحسن الله إليه تعليمه، فليحسن إلى عباد الله المحتاجين إلى كتابته، ولا يمتنع من الكتابة لهم، الحادي عشر: أمر الكاتب أن لا يكتب إلا ما أملاه من عليه الحق، الثاني عشر: أن الذي يملئ من المتعاقدين من عليه الدين، الثالث عشر: أمره أن يبين جميع الحق الذي عليه ولا يبخس منه شيئاً، الرابع عشر: أن إقرار الإنسان على نفسه مقبول، لأن الله أمر من عليه الحق أن يمل على الكاتب، فإذا كتب إقراره بذلك ثبت موجهه ومضمونه، وهو ما أقر به على نفسه، ولو ادعى بعد ذلك غلطاً أو سهواً، الخامس عشر: أن من عليه حق من الحقوق التي لا بينة على مقدارها وصفتها من كثرة وقلة وتعجيل وتأجيل، أن قوله هو المقبول دون قول من له الحق، لأنه تعالى لم ينهه عن بخس الحق الذي عليه، إلا أن قوله مقبول على ما يقوله من مقدار الحق وصفته، السادس عشر: أنه يحرم على من عليه حق من الحقوق أن يبخس وينقص شيئاً من مقداره، أو طيبه وحسنه، أو أجله أو غير ذلك من توابعه ولواحقه، السابع عشر: أن من لا يقدر على إملاء الحق لصغره أو سفهه أو خرسه، أو نحو ذلك، فإنه ينوب وليه مثابه في الإملاء والإقرار، الثامن عشر: أنه يلزم الولي من العدل ما يلزم من عليه الحق من العدل، وعدم البخس لقوله: ﴿بالعدل﴾، التاسع عشر: أنه يشترط عدالة الولي، لأن الإملاء بالعدل المذكور لا يكون من فاسق، العشرون: ثبوت

الولاية في الأموال، الحادي والعشرون: أن الحق يكون على الصغير والسفيه والمجنون والضعيف، لا على وليهم، الثاني والعشرون: أن إقرار الصغير والسفيه والمجنون والمعتوه ونحوهم وتصرفهم غير صحيح، لأن الله جعل الإملاء لوليهم، ولم يجعل لهم منه شيئاً لطفاً بهم ورحمة، خوفاً من تلاف أموالهم، الثالث والعشرون: صحة تصرف الولي في مال من ذكر، الرابع والعشرون: فيه مشروعية كون الإنسان يتعلم الأمور التي يتوثق بها المتدانيون كل واحد من صاحبه، لأن المقصود من ذلك التوثق والعدل، وما لا يتم المشروع إلا به فهو مشروع، الخامس والعشرون: أن تعلم الكتابة مشروع، بل هو فرض كفاية، لأن الله أمر بكتابة الديون وغيرها، ولا يحصل ذلك إلا بالتعلم، السادس والعشرون: أنه مأمور بالإشهاد على العقود، وذلك على وجه الندب، لأن المقصود من ذلك الإرشاد إلى ما يحفظ الحقوق، فهو عائد لمصلحة المكلفين، نعم إن كان المتصرف ولي يتيماً أو وقف ونحو ذلك مما يجب حفظه تعين أن يكون الإشهاد الذي به يحفظ الحق واجباً، السابع والعشرون: أن نصاب الشهادة في الأموال ونحوها رجلان أو رجل وامرأتان، ودلت السنة أيضاً أنه يقبل الشاهد مع يمين المدعي، الثامن والعشرون: أن شهادة الصبيان غير مقبولة لمفهوم لفظ الرجل، التاسع والعشرون: أن شهادة النساء منفردات في الأموال ونحوها لا تقبل، لأن الله لم يقبلهن إلا مع الرجل، وقد يقال: إن الله أقام المرأتين مقام رجل للحكمة التي ذكرها وهي موجودة سواء كن مع رجل أو منفردات والله أعلم. الثلاثون: أن شهادة العبد البالغ مقبولة كشهادة الحر لعموم قوله: ﴿فاستشهدوا شهيدين من رجالكم﴾ والعبد البالغ من رجالنا، الحادي والثلاثون: أن شهادة الكفار ذكوراً كانوا أو نساء غير مقبولة، لأنهم ليسوا منا، ولأن مبنى الشهادة على العدالة وهو غير عدل، الثاني والثلاثون: فيه فضيلة الرجل على المرأة، وأن الواحد في مقابلة المرأتين لقوة حفظه ونقص حفظها، الثالث والثلاثون: أن من نسي شهادته ثم ذكرها فذكر فشهادته مقبولة لقوله: ﴿فتذكر إحداهما الأخرى﴾، الرابع والثلاثون: يؤخذ من المعنى أن الشاهد إذا خاف نسيان شهادته في الحقوق الواجبة وجب عليه كتابتها، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، والخامس والثلاثون: أنه يجب على الشاهد إذا دعي للشهادة وهو غير معذور، لا يجوز له أن يأبى لقوله: ﴿ولا ياب الشهداء إذا ما دعوا﴾، السادس والثلاثون: أن من لم يتصف بصفة الشهداء المقبولة شهادتهم، لم يجب عليه الإجابة لعدم الفائدة بها ولأنه ليس من الشهداء، السابع والثلاثون: النهي عن السأمة والضجر من كتابة الديون كلها من صغير وكبير وصفة الأجل وجميع ما احتوى عليه العقد من الشروط والقيود، الثامن والثلاثون: بيان الحكمة في مشروعية الكتابة والإشهاد في العقود، وأنه ﴿أسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا﴾ فإنها متضمنة للعدل الذي به قوام العباد والبلا، والشهادة المقترنة بالكتابة تكون أقوم وأكمل وأبعد من الشك والريب والتنازع والتشاجر، التاسع والثلاثون: يؤخذ من ذلك أن من اشتبه وشك في شهادته لم يجز له الإقدام عليها لا بد من اليقين، الأربعون: قوله: ﴿إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها﴾ فيه الرخصة في ترك الكتابة إذا كانت التجارة حاضرة بحاضر، لعدم شدة الحاجة

إلى الكتابة، الحادي والأربعون: أنه وإن رخص في ترك الكتابة في التجارة الحاضرة، فإنه يشرع الإشهاد لقوله: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾، الثاني والأربعون: النهي عن مضارة الكاتب بأن يدعى وقت اشتغال وحصول مشقة عليه، الثالث والأربعون: النهي عن مضارة الشهيد أيضاً بأن يدعى إلى تحمل الشهادة أو أدائها في مرض أو شغل يشق عليه، أو غير ذلك هذا على جعل قوله: ﴿وَلَا يَضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ مبنياً للمجهول، وأما على جعلها مبنياً للفاعل ففيه نهى الشاهد والكاتب أن يضارا صاحب الحق بالامتناع أو طلب أجره شاقة ونحو ذلك، وهذان هما الرابع والأربعون والخامس والأربعون. السادس والأربعون: أن ارتكاب هذه المحرمات من خصال الفسق لقوله: ﴿وَأَن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾، السابع والأربعون: أن الأوصاف كالفسق والإيمان والنفاق والعداوة والولاية ونحو ذلك تتجزأ في الإنسان، فتكون فيه مادة فسق وغيرها، وكذلك مادة إيمان وكفر لقوله: ﴿فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ ولم يقل فأنتم فاسقون أو فُسَّاق، الثامن والأربعون: - وحقه أن يتقدم على ما هنا لتقدم موضعه - اشتراط العدالة في الشاهد لقوله: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشَّاهِدِ﴾، التاسع والأربعون: أن العدالة يشترط فيها العرف في كل مكان وزمان، فكل من كان مرضياً معتبراً عند الناس قبلت شهادته، الخمسون: يؤخذ منها عدم قبول شهادة المجهول حتى يزكى، فهذه الأحكام مما يستنبط من هذه الآية الكريمة على حسب الحال الحاضرة والفهم القاصر، والله في كلامه حِكْمٌ وأسرار يخص بها من يشاء من عباده. وقوله تعالى:

﴿وَإِن كُنْتُمْ عَلَىٰ سَعَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقْبُوضَهُ فَإِنْ أَينَ بِمَعْصُكُم مِّمَّا فُلَيْدٍ الَّذِي أَتَوْنَ آمَنْتُمْ وَلَيْتَ اللَّهُ رَبُّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾

﴿٢٨٣﴾ أي: إن كنتم مسافرين ﴿ولم تجدوا كاتباً﴾ يكتب بينكم ويحصل به التوثق ﴿فرهان مقبوضة﴾ أي: يقبضها صاحب الحق وتكون وثيقة عنده حتى يأتيه حقه، ودل هذا على أن الرهن غير المقبوضة لا يحصل منها التوثق، ودل أيضاً على أن الراهن والمرتهن لو اختلفا في قدر ما رهن به، كان القول قول المرتهن، ووجه ذلك أن الله جعل الرهن عوضاً عن الكتابة في توثق صاحب الحق، فلولا أن قول المرتهن مقبول في قدر الذي رهن به لم يحصل المعنى المقصود، ولما كان المقصود بالرهن التوثق جاز حضراً وسفراً، وإنما نص الله على السفر، لأنه في مظنة الحاجة إليه لعدم الكاتب فيه، هذا كله إذا كان صاحب الحق يجب أن يتوثق لحقه، فإن كان^(١) صاحب الحق آمناً من غريمه وأحب أن يعامله من دون رهن فعلى من عليه الحق أن يؤدي إليه كاملاً غير ظالم له ولا باخس حقه ﴿وليتق الله ربه﴾ في أداء الحق ويجازي من أحسن به الظن بالإحسان ﴿ولا تكتُموا الشهادة﴾ لأن الحق مبني عليها لا يثبت بدونها، فكتُمها من أعظم الذنوب، لأنه يترك ما وجب عليه من الخبر الصدق ويخبر

(١) في المخطوطة: «فا كان» ولعل الصواب ما أثبت.

بضده وهو الكذب، ويترتب على ذلك فوات حق من له الحق، ولهذا قال تعالى: ﴿ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم﴾ وقد اشتملت هذه الأحكام الحسنة التي أرشد الله عباده إليها على حُكْمٍ عظيمة ومصالح عميمة دلّت على أن الخلق لو اهتدوا بإرشاد الله لصلحت دنياهم مع صلاح دينهم، لاشتمالها على العدل والمصلحة، وحفظ الحقوق وقطع المشاجرات والمنازعات، وانتظام أمر المعاش، فلله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه لا نحصي ثناء عليه.

﴿لَمَن يَشَأْ وَيُعْذِبْ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٨٤)

﴿٢٨٤﴾ هذا إخبار من الله أنه له ما في السماوات وما في الأرض، الجميع خلقهم ورزقهم ودبرهم لمصالحهم الدينية والدنيوية، فكانوا ملكاً له وعبيداً، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وهو ربهم ومالكهم الذي يتصرف فيهم بحكمته وعدله وإحسانه، وقد أمرهم ونهاهم وسيحاسبهم على ما أسروه وأعلنوه، ﴿فيغفر لمن يشاء﴾ وهو لمن أتى بأسباب المغفرة، ويعذب من يشاء بذنبه الذي لم يحصل له ما يكفره ﴿والله على كل شيء قدير﴾ لا يعجزه شيء، بل كل الخلق طوع قهره ومشيته وتقديره وجزائه.

﴿وَأَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَيْهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (٢٨٥)

﴿٢٨٥﴾ يخبر تعالى عن إيمان الرسول والمؤمنين معه، وانقيادهم وطاعتهم وسؤالهم مع ذلك المغفرة، فأخبر أنهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، وهذا يتضمن الإيمان بجميع ما أخبر الله به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله من صفات كماله ونعوت جلاله على وجه الإجمال والتفصيل، وتنزيهه عن التمثيل والتعطيل وعن جميع صفات النقص، ويتضمن الإيمان بالملائكة الذين نصت عليهم الشرائع جملة وتفصيلاً، وعلى الإيمان بجميع الرسل والكتب، أي: بكل ما أخبرت به الرسل وتضمنته الكتب من الأخبار والأوامر والنواهي، وأنهم لا يفرقون بين أحد من رسله، بل يؤمنون بجميعهم، لأنهم وسائط بين الله وبين عباده، فالكفر ببعضهم كفر بجميعهم بل كفر بالله ﴿وقالوا سمعنا﴾ ما أمرتنا به ونهيتنا ﴿وأطعنا﴾ لك في ذلك، ولم يكونوا ممن قالوا سمعنا وعصينا، ولما كان العبد لا بد أن يحصل منه تقصير في حقوق الله تعالى وهو محتاج إلى مغفرته على الدوام، قالوا ﴿غفرانك﴾ أي: نسألك مغفرة لما صدر منا من التقصير والذنوب، ومحو ما اتصفنا به من العيوب ﴿والإليك المصير﴾ أي: المرجع لجميع الخلائق فتجزئهم بما عملوا من خير وشر.

﴿لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْهَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّبِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٨٥)

﴿٢٨٦﴾ لما نزل قوله تعالى: ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ شق ذلك على المسلمين لما توهموا أن ما يقع في القلب من الأمور اللازمة والعارضة المستقرة وغيرها مؤاخذون به، فأخبرهم بهذه الآية أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها أي: أمراً تسعه طاقتها، ولا يكلفها ويشق عليها، كما قال تعالى: ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ فأصل الأوامر والنواهي ليست من الأمور التي تشق على النفوس، بل هي غذاء للأرواح ودواء للأبدان، وحماية عن الضرر، فالله تعالى أمر العباد بما أمرهم به رحمة وإحساناً، ومع هذا إذا حصل بعض الأعذار التي هي مظنة المشقة حصل التخفيف والتسهيل، إما بإسقاطه عن المكلف، أو إسقاط بعضه كما في التخفيف عن المريض والمسافر وغيرهم، ثم أخبر تعالى أن لكل نفس ما كسبت من الخير، وعليها ما اكتسبت من الشر، فلا تزر وازرة وزر أخرى ولا تذهب حسنات العبد لغيره، وفي الإتيان بـ«كسب» في الخير الدال على أن عمل الخير يحصل للإنسان بأدنى سعي منه بل بمجرد نية القلب وأتى بـ«اكتسب» في عمل الشر للدلالة على أن عمل الشر لا يكتب على الإنسان حتى يعمل به ويحصل سعيه، ولما أخبر تعالى عن إيمان الرسول والمؤمنين، معه وأن كل عامل سيجازى بعمله، وكان الإنسان عرضة للتقصير والخطأ والنسيان، وأخبر أنه لا يكلفنا إلا ما نطبق وتسعه قوتنا، أخبر عن دعاء المؤمنين بذلك، وقد أخبر النبي ﷺ أن الله قال: قد فعلت. إجابة لهذا الدعاء، فقال: ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ والفرق بينهما: أن النسيان: ذهول القلب عن ما أمر به فيتركه نسياناً، والخطأ: أن يقصد شيئاً يجوز له قصده ثم يقع فعله على ما لا يجوز له فعله: فهذان قد عفا الله عن هذه الأمة ما يقع بهما رحمة بهم وإحساناً، فعلى هذا من صلى في ثوب مغضوب، أو نجس، أو قد نسي نجاسة على بدنه، أو تكلم في الصلاة ناسياً، أو فعل مفسطراً ناسياً، أو فعل محظوراً من محظورات الإحرام التي ليس فيها إتلاف ناسياً، فإنه مغفور عنه، وكذلك لا يحث من فعل المحلوف عليه ناسياً، وكذلك لو أخطأ فأتلف نفساً أو مالا فليس عليه إثم، وإنما الضمان مرتب على مجرد الإتلاف، وكذلك المواضع التي تجب فيها التسمية إذا تركها الإنسان ناسياً لم يضر. ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً﴾ أي: تكاليف مشقة ﴿كما حملته على الذين من قبلنا﴾ وقد فعل تعالى فإن الله خفف عن هذه الأمة في الأوامر من الطهارات وأحوال العبادات ما لم يخففه على غيرها ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ وقد فعل وله الحمد ﴿واعف عنا وافر لنا وارحمنا﴾ فالعفو والمغفرة يحصل بهما دفع المكاره والشور، والرحمة يحصل بها صلاح الأمور ﴿أنت مولانا﴾ أي: ربنا ومليكننا وإلهنا الذي لم تزل ولايتك إيانا منذ أوجدتنا وأنشأتنا فنعلمك دارة علينا متصلة عدد الأوقات، ثم أنعمت علينا بالنعمة العظيمة والمنحة الجسيمة، وهي نعمة الإسلام التي جميع النعم تبع لها، فنسألك يا ربنا ومولانا تمام نعمتك بأن تنصرنا على القوم الكافرين، الذين كفروا بك وبرسلك، وقاموا أهل دينك ونبذوا أمرك، فانصرنا عليهم بالحجة والبيان والسيف والسنان، بأن تمكن لنا في الأرض وتخذلهم وترزقنا الإيمان والأعمال التي يحصل بها النصر، والحمد لله رب العالمين. تم تفسير سورة البقرة بعون الله وتوفيقه صلى الله على محمد وسلم.

تفسير سورة آل عمران

وهي مدنية

نزل صدرها إلى بضع وثمانين آية في مخاصمة النصارى وإبطال مذهبهم ودعوتهم إلى الدخول في الدين الحق دين الإسلام كما نزل صدر البقرة في محاجة اليهود كما تقدم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿١﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٢﴾ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ لِنَّاسٍ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾

﴿١ - ٦﴾ افتتحها تبارك وتعالى بالإخبار بالوحيته، وأنه الإله الذي لا إله إلا هو الذي لا ينبغي التأله والتعبد إلا لوجهه، فكل معبود سواه فهو باطل، والله هو الإله الحق المتصف بصفات الألوهية التي مرجعها إلى الحياة والقيومية، فالحي من له الحياة العظيمة الكاملة المستلزمة لجميع الصفات التي لا تتم ولا تكمل الحياة إلا بها كالسمع والبصر والقدرة والقوة والعظمة والبقاء والدوام والعز الذي لا يرام ﴿القيوم﴾ الذي قام بنفسه فاستغنى عن جميع مخلوقاته، وقام بغيره فافتقرت إليه جميع مخلوقاته في الإيجاد والإعداد والإمداد، فهو الذي قام بتدبير الخلائق وتصريفهم، تدبير للأجسام وللقلوب والأرواح، ومن قيامه تعالى بعباده ورحمته بهم أن نزل على رسوله محمد ﷺ الكتاب، الذي هو أجل الكتب وأعظمها المشتمل على الحق في إخباره وأوامره ونواهيه، فما أخبر به صدق، وما حكم به فهو العدل، وأنزله بالحق ليقوم الخلق بعبادة ربهم ويتعلموا كتابه ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ من الكتب السابقة، فهو المزكي لها، فما شهد له فهو المقبول، وما رده فهو المردود، وهو المطابق لها في جميع المطالب التي اتفق عليها المرسلون، وهي شاهدة له بالصدق، فأهل الكتاب لا يمكنهم التصديق بكتبهم إن لم يؤمنوا به، فإن كفرهم به ينقض إيمانهم بكتبهم، ثم قال تعالى: ﴿وأنزل التوراة﴾ أي: على موسى ﴿والإنجيل﴾ على عيسى ﴿من قبل﴾ إنزال القرآن ﴿هدى للناس﴾ الظاهر أن هذا راجع لكل ما تقدم، أي: أنزل الله القرآن والتوراة والإنجيل هدى للناس من الضلال، فمن قبل هدى الله فهو المهتدي، ومن لم يقبل ذلك بقي على ضلاله ﴿وأنزل الفرقان﴾ أي: الحجج والبيانات والبراهين القاطعات الدالة على جميع المقاصد والمطالب، وكذلك فصل وفسر ما يحتاج إليه الخلق حتى بقيت الأحكام جليلة ظاهرة، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة لمن لم يؤمن به وبآياته، فلهذا قال: ﴿إن الذين كفروا بآيات الله﴾ أي: بعدما بينها ووضحها وأزاح العلل ﴿لهم عذاب شديد﴾ لا يُفدَّرُ قدره ولا يدرك وصفه ﴿والله عزيز﴾ أي: قوي لا يعجزه شيء ﴿ذو انتقام﴾ ممن عصاه ﴿إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾ وهذا فيه تقرير إحاطة علمه بالمعلومات كلها،

جليها وخفيها، ظاهرها وباطنها، ومن جملة ذلك الأجنة في البطون التي لا يدركها بصر المخلوقين، ولا ينالها علمهم، وهو تعالى يدبرها بالطف تدبير، ويقدرها بكل تقدير، فهذا قال: ﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾ من كامل الخلق وناقضه، وحسن وقيبح، وذكر وأنثى ﴿لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ تضمنت هذه الآيات تقرير إلهية الله وتعيينها، وإبطال إلهية ما سواه، وفي ضمن ذلك رد على النصارى الذين يزعمون إلهية عيسى ابن مريم عليه السلام، وتضمنت إثبات حياته الكاملة وقيوميته التامة، المتضمنتين جميع الصفات المقدسة كما تقدم، وإثبات الشرائع الكبار، وأنها رحمة وهداية للناس، وتقسيم الناس إلى مهتد وغيره، وعقوبة من لم يهتد بها، وتقرير سعة علم الباري ونفوذ مشيئته وحكمته.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَمَاعُ النَّاسِ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿٩﴾﴾

﴿٧ - ٩﴾ القرآن العظيم كله محكم كما قال تعالى: ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ فهو مشتمل على غاية الإتقان والإحكام والعدل والإحسان ﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ وكله متشابه في الحسن والبلاغة وتصديق بعضه لبعضه ومطابقته لفظاً ومعنى، وأما الإحكام والتشابه المذكور في هذه الآية فإن القرآن كما ذكره الله ﴿منه آيات محكمات﴾ أي: واضحات الدلالة، ليس فيها شبهة ولا إشكال ﴿من أم الكتاب﴾ أي: أصله الذي يرجع إليه كل متشابه، وهي معظمه وأكثره، ﴿و﴾ منه آيات ﴿آخر متشابهات﴾ أي: يلتبس معناها على كثير من الأذهان: لكون دلالتها مجملة، أو يتبادر إلى بعض الأنفهام غير المراد منها، فالحاصل أن منها آيات بيّنة واضحة لكل أحد، وهي الأكثر التي يرجع إليها، ومنه آيات تشكل على بعض الناس، فالواجب في هذا أن يرد المتشابه إلى المحكم والخفي إلى الجلي، فبهذه الطريق يصدق بعضه بعضاً ولا يحصل فيه مناقضة ولا معارضة، ولكن الناس انقسموا إلى فرقتين: ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ﴾ أي: ميل عن الاستقامة بأن فسدت مقصدهم، وصار قصدهم الغي والضلال وانحرفت قلوبهم عن طريق الهدى والرشاد ﴿فيتبعون ما تشابه منه﴾ أي: يتركون المحكم الواضح ويذهبون إلى المتشابه، ومكسون الأمر فيحملون المحكم على المتشابه ﴿ابتغاء الفتنة﴾ لمن يدعونهم لقولهم، فإن المتشابه تحصل به الفتنة بسبب الاشتباه الواقع فيه، وإلا فالمحكم الصريح ليس محلاً للفتنة، لوضوح الحق فيه لمن قصده اتباعه، وقوله: ﴿وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله﴾ للمفسرين في الوقوف على «الله» من قوله: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ قولان، جمهورهم يقفون عندها، وبعضهم يعطف عليها ﴿والراسخون في العلم﴾ وذلك كله محتمل، فإن التأويل إن أريد به علم حقيقة الشيء وكنهه كان الصواب الوقوف على ﴿إلا الله﴾ لأن المتشابه الذي استأثر الله بعلم كنهه

وحقيقته، نحو حقائق صفات الله وكيفيتها، وحقائق أوصاف ما يكون في اليوم الآخر ونحو ذلك، فهذه لا يعلمها إلا الله، ولا يجوز التعرض للوقوف عليها، لأنه تعرض لما لا يمكن معرفته، كما سئل الإمام مالك رحمه الله عن قوله: ﴿الرحمن على العرش [استوى]^(١)﴾ فقال السائل: كيف استوى؟ فقال مالك: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فهكذا يقال في سائر الصفات لمن سأل عن كيفيةها أن يقال كما قال الإمام مالك، تلك الصفة معلومة، وكيفيةها مجهولة، والإيمان بها واجب، والسؤال عنها بدعة، وقد أخبرنا الله بها ولم يخبرنا بكيفيةها، فيجب علينا الوقوف على ما حد لنا، فأهل الزيف يتبعون هذه الأمور المشتبهات تعرضاً لما لا يعني، وتكلفاً لما لا سبيل لهم إلى علمه، لأنه لا يعلمها إلا الله، وأما الراسخون في العلم فيؤمنون بها ويكفون المعنى إلى الله فيسلمون ويسلمون، وإن أريد بالتأويل التفسير والكشف والإيضاح، كان الصواب عطف ﴿الراسخون﴾ على «الله» فيكون الله قد أخبر أن تفسير المتشابه ورد إلى المحكم وإزالة ما فيه من الشبهة لا يعلمها إلا هو تعالى والراسخون في العلم يعلمون أيضاً، فيؤمنون بها ويردون لها للمحكم ويقولون ﴿كل﴾ من المحكم والمتشابه ﴿من عند ربنا﴾ وما كان من عنده فليس فيه تعارض ولا تناقض بل هو متفق يصدق بعضه بعضاً ويشهد بعضه لبعض: [وفيه تنبيه على الأصل الكبير، وهو أنهم إذا علموا أن جميعه من عند الله، وأشكل عليهم مجمل المتشابه، علموا يقيناً أنه مردود إلى المحكم، وإن لم يفهموا وجه ذلك. ولما رغب تعالى في التسليم والإيمان بأحكامه وزجر عن اتباع المتشابه قال: ﴿وما يذكر﴾]^(٢) أي: يتعظ بمواعظ الله ويقبل نصحه وتعليمه إلا ﴿أولو الألباب﴾ أي: أهل العقول الرزينة لب العالم وخلاصة بني آدم يصل التذكير إلى عقولهم، فيتذكرون ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه، وأما من عداهم فهم القشور الذي لا حاصل له ولا نتيجة تحته، لا ينفعهم الزجر والتذكير لخلوهم من العقول النافعة.

ثم أخبر تعالى عن الراسخين في العلم أنهم يدعون ويقولون: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ أي: لا تملها عن الحق جهلاً وعناداً منا، بل اجعلنا مستقيمين هادين مهتدين، فثبتنا على هدايتك وعافنا ممن ابتليت به الزائغين ﴿وهب لنا من لدنك رحمة﴾ أي: عظيمة توقفنا بها للخيرات وتعصمنا بها من المنكرات ﴿إنك أنت الوهاب﴾ أي: واسع العطايا والهبات، كثير الإحسان الذي عم جودك جميع البريات.

﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إنك لا تخلف الميعاد﴾ فمجازيهم بأعمالهم حسنهما وسيئهما، وقد أثنى الله تعالى على الراسخين في العلم بسبع صفات هي عنوان سعادة العبد: إحداها: العلم الذي هو الطريق الموصل إلى الله، المبين لأحكامه وشرائعه، الثانية: الرسوخ في العلم وهذا قدر زائد على مجرد العلم، فإن الراسخ في العلم يقتضي أن يكون

(١) زيادة لا توجد في النسخة.

(٢) زيادة في الهامش. لم يبين الشيخ موضعها، ولعل الأقرب أن تكون في هذا الموضع.

عالمًا محققًا، وعارفًا مدققًا، قد علمه الله ظاهر العلم وباطنه، فرسخ قدمه في أسرار الشريعة علمًا وحالًا وعملاً، الثالثة: أنه وصفهم بالإيمان بجميع كتابه وردّ لمتشابهه إلى محكمه، بقوله: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾، الرابعة: أنهم سألوا الله العفو والعافية مما ابتلي به الزائغون المنحرفون، الخامسة: اعترافهم بمنة الله عليهم بالهداية وذلك قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تَزِغْ تِلْكَ أَعْيُنَنَا عَنْ هَدْيِنَا﴾، السادسة: أنهم مع هذا سألوه رحمته المتضمنة حصول كل خير واندفاع كل شر، وتوسلوا إليه باسمه الوهاب، السابعة: أنه أخبر عن إيمانهم وإيقانهم بيوم القيامة وخوفهم منه، وهذا هو الموجب للعمل الرادع عن الزلل، ثم قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُخْرِكَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَزْوَاجُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ۝ كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَلَاخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ وَتُخَضِّلُونَ إِيَّاهُمْ وَيَسْأَلُونَ الْمَهَادَ ۝ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ شَرِينَةً رَأَى الْكَايِنُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَشِيرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَخَبْرٌ لَافْزِلُ الْأَبْصَرِ ۝﴾

﴿١٠ - ١٣﴾ يخبر تعالى أن الكفار به وبرسله، الجاحدين بدينه وكتابه، قد استحقوا العقاب وشدة العذاب بكفرهم وذنوبهم وأنه لا يغني عنهم مالهم ولا أولادهم شيئاً، وإن كانوا في الدنيا يستدفعون بذلك النكبات التي ترد عليهم، ويقولون: ﴿نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾ فيوم القيامة يبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون ﴿وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ وليس للأولاد والأموال قدر عند الله، إنما ينفع العبد إيمانه بالله وأعماله الصالحة، كما قال تعالى: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون﴾ وأخبر هنا أن الكفار هم وقود النار، أي: حطبها، الملازمون لها دائماً أبداً، وهذه الحال التي ذكر الله تعالى أنها لا تغني الأموال ولأولاد عن الكفار شيئاً، سنته الجارية في الأمم السابقة، كما جرى لفرعون ومن قبله ومن بعدهم من الفراعنة العتاة الطغاة أرباب الأموال والجنود لما كذبوا بآيات الله وجحدوا ما جاءت به الرسل وعاندوا، أخذهم الله بذنوبهم عدلاً منه لا ظلماً والله شديد العقاب على من أتى بأسباب العقاب وهو الكفر والذنوب على اختلاف أنواعها وتعدد مراتبها، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ وَتُخَضِّلُونَ إِيَّاهُمْ وَيَسْأَلُونَ الْمَهَادَ﴾ وفي هذا إشارة للمؤمنين بالنصر والغلبة وتحذير للكفار، وقد وقع كما أخبر تعالى، فنصر الله المؤمنين على أعدائهم من كفار المشركين واليهود والنصارى، وسيفعل هذا تعالى بعباده وجنده المؤمنين إلى يوم القيامة، ففي هذا عبرة وآية من آيات القرآن المشاهدة بالحس والعيان، وأخبر تعالى أن الكفار مع أنهم مغلوبون في الدار أنهم محشورون ومجموعون يوم القيامة لدار البوار، وهذا هو الذي مهدوه لأنفسهم فبئس المهاد مهادهم، وبئس الجزاء جزاؤهم، ﴿قد كان لكم آية﴾ أي: عبرة عظيمة ﴿في فئتين التقتا﴾ وهذا يوم بدر ﴿فئة تقاتل في سبيل الله﴾ وهم الرسول ﷺ وأصحابه

﴿وأخرى كافرة﴾ أي: كفار قريش الذين خرجوا من ديارهم بطراً وفخراً ورثاء الناس، ويصدون عن سبيل الله، فجمع الله بين الطائفتين في بدر، وكان المشركون أضعاف المؤمنين، فلهذا قال: ﴿يرونهم مثليهم رأي العين﴾ أي: يرى المؤمنون الكافرين يزيدون عليها زيادة كثيرة، تبلغ المضاعفة وتزيد عليها، وأكد هذا بقوله: ﴿رأي العين﴾ فنصر الله المؤمنين وأيدهم بنصره فهزمهم، وقتلوا صناديدهم، وأسروا كثيراً منهم، وما ذاك إلا لأن الله ناصر من نصره، وخاذل من كفر به، ففي هذا عبرة لأولي الأبصار، أي: أصحاب البصائر النافذة والعقول الكاملة، على أن الطائفة المنصورة معها الحق، والأخرى مبطله، وإلا فلو نظر الناظر إلى مجرد الأسباب الظاهرة والعدد والعُدُد لجزم بأن غلبة هذه الفئة القليلة لتلك الفئة الكثيرة من أنواع المحالات، ولكن وراء هذا السبب المشاهد بالأبصار سبب أعظم منه لا يدركه إلا أهل البصائر والإيمان بالله والتوكل على الله والثقة بكفائته، وهو نصره وإعزازه لعباده المؤمنين على أعدائه الكافرين.

﴿زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْأَفْئِسَةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ ﴿١٧﴾ قُلْ أُوْنِتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَاكَ بِكُلِّ شَيْءٍ مُطَهَّرٍ وَفِتْنًا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩﴾ الْمَكِيدِينَ وَالْمُفِيدِينَ وَالْمُنْفِيَتِينَ وَالْمُسْتَفِيدِينَ بِالْأَسْجَادِ ﴿٢٠﴾﴾

﴿١٤ - ١٧﴾ يخبر تعالى أنه زين للناس حب الشهوات الدنيوية، وخص هذه الأمور المذكورة لأنها أعظم شهوات الدنيا وغيرها تبع لها، قال تعالى: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها﴾ فلما زينت لهم هذه المذكورات بما فيها من الدواعي المثيرات، تعلق بها نفوسهم ومالت إليها قلوبهم، وانقسموا بحسب الواقع إلى قسمين: قسم: جعلوها هي المقصود، فصارت أفكارهم وخواطرهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة لها، فشغلتهما عما خلقوا لأجله، وصحبوها صحبة البهائم السائمة، يتمتعون بلذاتها ويتناولون شهواتها، ولا يبالون على أي وجه حصلوها، ولا فيما أنفقوها وصرفوها، فهؤلاء كانت زاداً لهم إلى دار الشقاء والعناء والعذاب، والقسم الثاني: عرفوا المقصود منها وأن الله جعلها ابتلاء وامتحاناً لعباده، ليعلم من يقدم طاعته ومرضاته على لذاته وشهواته، فجعلوها وسيلة لهم وطريقاً يتزودون منها لآخرتهم ويتمتعون بما يتمتعون به على وجه الاستعانة به على مرضاته، قد صحبتوها بأبدانهم وفارقوها بقلوبهم، وعلموا أنها كما قال الله فيها: ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا﴾ فجعلوها معبراً إلى الدار الآخرة ومتجراً يرجون بها الفوائد الفاخرة، فهؤلاء صارت لهم زاداً إلى ربهم. وفي هذه الآية تسلية للفقراء الذين لا قدرة لهم على هذه الشهوات التي يقدر عليها الأغنياء، وتحذير للمغترين بها وتزهيد لأهل العقول النيرة بها، وتتمام ذلك أن الله تعالى أخبر بعدها عن دار القرار ومصير المتقين الأبرار، وأخبر أنها خير من ذلكم المذكور، ألا وهي الجنات العاليات ذات المنازل الأنيقة والغرف العالية، والأشجار المتنوعة المثمرة

بأنواع الثمار، والأنهار الجارية على حسب مرادهم والأزواج المطهرة من كل قدر وذنس وعيب ظاهر وباطن، مع الخلود الدائم الذي به تمام النعيم، مع الرضوان من الله الذي هو أكبر نعيم، فقس هذه الدار الجليلة بتلك الدار الحقيرة، ثم اختر لنفسك أحسنهما واعرض على قلبك المفاضلة بينهما ﴿والله بصير بالعباد﴾ أي: عالم بما فيهم من الأوصاف الحسنة والأوصاف القبيحة، وما هو اللائق بأحوالهم، يوفق من شاء منهم ويخذل من شاء. فالجنة التي ذكر الله وصفها ونعتها بأكمل نعت وصف أيضاً المستحقين لها وهم الذين اتقوه بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، وكان من دعائهم أن قالوا: ﴿ربنا إنا آملنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار﴾.

توسلوا بمنة الله عليهم بتوفيقهم للإيمان أن يغفر لهم ذنوبهم وبقيهم شر آثارها وهو عذاب النار، ثم فصل أوصاف التقوى. فقال: ﴿الصابرين﴾ أنفسهم على ما يحبه الله من طاعته، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، ﴿والصادقين﴾ في إيمانهم وأقوالهم وأحوالهم ﴿والمنفقين﴾ مما رزقهم الله بأنواع النفقات على المحاويع من الأقارب وغيرهم ﴿والمستغفرين بالأسحار﴾ لما بين صفاتهم الحميدة ذكر احتقارهم لأنفسهم وأنهم لا يرون لأنفسهم، حالاً ولا مقاماً، بل يرون أنفسهم مذنبين مقصرين فيستغفرون ربهم، ويتوقعون أوقات الإجابة وهي السحر، قال الحسن: مدوا الصلاة إلى السحر، ثم جلسوا يستغفرون ربهم. فتضمنت هذه الآيات حالة الناس في الدنيا وأنها متاع ينقضي، ثم وصف الجنة وما فيها من النعيم وفاضل بينهما، وفضل الآخرة على الدنيا تنبيهاً على أنه يجب إثارها والعمل لها، ووصف أهل الجنة وهم المتقون، ثم فصل خصال التقوى، فبهذه الخصال يزن العبد نفسه، هل هو من أهل الجنة أم لا؟

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَالِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾
 ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْهَمُوا الْكِتَابَ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ أَمْرُهُمْ بَيِّنًا يَنْبَهُهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بَيِّنَاتٍ اللَّهُ فَأَنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَنَجَّيْتُ لِلَّهِ وَمَنْ أَتَّبَعْنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمْتُمْ فَقَدْ أَسْلَمْتُمْ قُلْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ

بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾

﴿١٨ - ٢٠﴾ هذا تقرير من الله تعالى للتوحيد بأعظم الطرق الموجبة له، وهي شهادته تعالى وشهادة خواص الخلق وهم الملائكة وأهل العلم، أما شهادته تعالى فيما أقامه من الحجج والبراهين القاطعة على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، فنوع الأدلة في الآفاق والأنفس على هذا الأصل العظيم، ولو لم يكن في ذلك إلا أنه ما قام أحد بتوحيده إلا ونصره على المشرك الجاحد المنكر للتوحيد، وكذلك إنعامه العظيم الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع النقم إلا هو، والخلق كلهم عاجزون عن المنافع والمضار لأنفسهم ولغيرهم، ففي هذا برهان قاطع على وجوب التوحيد وبطلان الشرك، وأما شهادة الملائكة بذلك فنستفيدها بإخبار الله لنا بذلك وإخبار رسله، وأما شهادة أهل العلم فلأنهم هم المرجع في جميع

الأمر الدينية خصوصاً في أعظم الأمور وأجلّها وأشرفها وهو التوحيد، فكلهم من أولهم إلى آخرهم قد اتفقوا على ذلك ودعوا إليه وبيّنوا للناس الطرق الموصلة إليه، فوجب على الخلق التزام هذا الأمر المشهود عليه والعمل به، وفي هذا دليل على أن أشرف الأمور علم التوحيد لأن الله شهد به بنفسه وأشهد عليه خواص خلقه، والشهادة لا تكون إلا عن علم ويقين، بمنزلة المشاهدة للبصر، ففيه دليل على أن من لم يصل في علم التوحيد إلى هذه الحالة فليس من أولي العلم. وفي هذه الآية دليل على شرف العلم من وجوه كثيرة، منها: أن الله خصهم بالشهادة على أعظم مشهود عليه دون الناس، ومنها: أن الله قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وكفى بذلك فضلاً، ومنها: أنه جعلهم أولي العلم، فأضافهم إلى العلم، إذ هم القائمون به المتصفون بصفته، ومنها: أنه تعالى جعلهم شهداء وحجة على الناس، وألزم الناس العمل بالأمر المشهود به، فيكونون هم السبب في ذلك، فيكون كل من عمل بذلك نالهم من أجره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ومنها: أن إشهادته تعالى أهل العلم يتضمن ذلك تزكيتهم وتعديلهم وأنهم أمناء على ما استرعاهم عليه، ولما قرر توحيده قرر عدله، فقال: ﴿قائماً بالقسط﴾ أي: لم يزل متصفاً بالقسط في أفعاله وتدبيره بين عباده، فهو على صراط مستقيم في ما أمر به ونهى عنه، وفيما خلقه وقدره، ثم أعاد تقرير توحيده فقال: ﴿لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾. واعلم أن هذا الأصل الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبودية قد دلت عليه الأدلة النقلية والأدلة العقلية، حتى صار لذوي البصائر أجلى من الشمس، فأما الأدلة النقلية فكل ما في كتاب الله وسنة رسوله، من الأمر به وتقريره، ومحبة أهله وبغض من لم يقم به وعقوباتهم، وذم الشرك وأهله، فهو من الأدلة النقلية على ذلك، حتى كاد القرآن أن يكون كله أدلة عليه، وأما الأدلة العقلية التي تدرك بمجرد فكر العقل وتصوره للأمور فقد أرشد القرآن إليها ونبه على كثير منها، فمن أعظمها: الاعتراف بربوبية الله، فإن من عرف أنه هو الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور أنتج له ذلك أنه هو المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ولما كان هذا من أوضح الأشياء وأعظمها أكثر الله تعالى من الاستدلال به في كتابه. ومن الأدلة العقلية على أن الله هو الذي يؤله دون غيره انفراده بالنعم ودفع النقم، فإن من عرف أن النعم الظاهرة والباطنة القليلة والكثيرة كلها من الله، وأنه ما من نعمة ولا شدة ولا كربة إلا وهو الذي ينفرد بدفعها وأن أحداً من الخلق لا يملك لنفسه - فضلاً عن غيره - جلب نعمة ولا دفع نقمة، تيقن أن عبودية ما سوى الله من أبطل الباطل وأن العبودية لا تنبغي إلا لمن انفرد بجلب المصالح ودفع المضار، فهذا أكثر الله في كتابه من التنبيه على هذا الدليل جداً، ومن الأدلة العقلية أيضاً على ذلك: ما أخبر به تعالى عن المعبودات التي عبدت من دونه، بأنها لا تملك نفعاً ولا ضراً، ولا تنصر غيرها ولا تنصر نفسها، وسلبها الأسماع والأبصار، وأنها على فرض سماعها لا تغني شيئاً، وغير ذلك من الصفات الدالة على نقصها غاية النقص، وما أخبر به عن نفسه العظيمة من الصفات الجليلة والأفعال الجميلة، والقدرة والقهر، وغير ذلك من الصفات التي تعرف بالأدلة السمعية والعقلية، فمن عرف ذلك حق المعرفة عرف أن العبادة لا تليق ولا تحسن إلا بالرب العظيم

الذي له الكمال كله، والمجد كله، والحمد كله، والقدرة كلها، والكبرياء كلها، لا بالمخلوقات المُدَبَّرَات الناقصات الصم البكم الذين لا يعقلون، ومن الأدلة العقلية على ذلك ما شاهده العباد بأبصارهم من قديم الزمان وحديثه، من الإكرام لأهل التوحيد، والإهانة والعقوبة لأهل الشرك، وما ذاك إلا لأن التوحيد جعله الله موصلاً إلى كل خير دافعاً لكل شر ديني ودنيوي، وجعل الشرك به والكفر سبباً للعقوبات الدينية والدنيوية، ولهذا إذا ذكر تعالى قصص الرسل مع أمم المطيعين والعاصين، وأخبر عن عقوبات العاصين ونجاة الرسل ومن تبعهم، قال عقب كل قصة: ﴿إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي: لعبرة يعتبر بها المعترفون فيعلمون أن توحيده هو الموجب للنجاة، وتركه هو الموجب للهلاك، فهذه من الأدلة الكبار العقلية النقلية الدالة على هذا الأصل العظيم، وقد أكثر الله منها في كتابه وصرفها ونوعها ليحيا من حي عن بيته، ويهلك من هلك عن بيته فله الحمد والشكر والثناء.

ولما قرر أنه الإله الحق المعبود، بين العبادة والدين الذي يتعين أن يعبد به ويدان له، وهو الإسلام الذي هو الاستسلام لله بتوحيده وطاعته التي دعت إليها رسله، وحثت عليها كتبه، وهو الذي لا يقبل من أحد دين سواه، وهو متضمن للإخلاص له في الحب والخوف والرجاء والإنابة والدعاء ومتابعة رسوله في ذلك، وهذا هو دين الرسل كلهم، وكل من تابعهم فهو على طريقهم، وإنما اختلف أهل الكتاب بعدما جاءتهم كتبهم تحثهم على الاجتماع على دين الله، بغياً بينهم، وظلماً وعدواناً من أنفسهم، وإلا فقد جاءهم السبب الأكبر الموجب أن يتبعوا الحق ويتركوا الاختلاف، وهذا من كفرهم، فلماذا قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أوتُوا الكتاب إلا من بعدما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾ فيجازي كل عامل بعمله، وخصوصاً من ترك الحق بعد معرفته، فهذا مستحق للوعيد الشديد والعقاب الأليم، ثم أمر تعالى رسوله ﷺ عند محاجة النصارى وغيرهم ممن يفضل غير دين الإسلام، عليه أن يقول لهم: قد ﴿أسلمت وجهي لله ومن اتبعن﴾ أي: أنا ومن اتبعني قد أقررنا وشهدنا وأسلمنا وجوهنا لربنا، وتركنا ما سوى دين الإسلام، وجزمنا ببطلانه، ففي هذا تأسيس لمن طمع فيكم، وتجديد لدينكم عند ورود الشبهات، وحجة على من اشتبه عليه الأمر، لأنه قد تقدم أن الله استشهد على توحيده بأهل العلم من عباده ليكونوا حجة على غيرهم، وسيد أهل العلم وأفضلهم وأعلمهم هو نبينا محمد ﷺ، ثم من بعده أتباعه على اختلاف مراتبهم وتفاوت درجاتهم، فلهم من العلم الصحيح والعقل الرجيح ما ليس لأحد من الخلق ما يساويهم أو يقاربهم، فإذا ثبت وتقرر توحيد الله ودينه بأدلة الظاهرة، وقام به أكمل الخلق وأعلمهم، حصل بذلك اليقين وانتفى كل شك وريب وقادح، وعرف أن ما سواه من الأديان باطلة، فلماذا قال: ﴿وقل للذين أتوا الكتاب﴾ من النصارى واليهود ﴿والأميين﴾ مشركي العرب وغيرهم ﴿أسلمتم فإن أسلموا﴾ أي: بمثل ما آمنتم به ﴿فقد اهتدوا﴾ كما اهتديتم وصاروا إخوانكم، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم ﴿وإن تولوا﴾ عن الإسلام ورضوا بالأديان التي تخالفه ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ فقد وجب أجرك على ربك، وقامت عليهم الحجة، ولم يبق بعد هذا إلا مجازاتهم بالعقاب على جرمهم، فلماذا قال: ﴿والله بصير بالعباد﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الْأَنْبِيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿٢١ - ٢٢﴾ هؤلاء الذين أخبر الله عنهم في هذه الآية، أشد الناس جرمًا وأي جرم أعظم من الكفر بآيات الله التي تدل دلالة قاطعة على الحق الذي من كفر بها فهو في غاية الكفر والعناد ويقتلون أنبياء الله الذين حقهم أوجب الحقوق على العباد بعد حق الله، الذين أوجب الله طاعتهم والإيمان بهم، وتعزيزهم، وتوقيعهم، ونصرهم وهؤلاء قابلوهم بضد ذلك، ويقتلون أيضاً الذين يأمرون الناس بالقسط الذي هو العدل، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي حقيقته إحسان إلى المأمور ونصح له فقابلوهم شر مقابلة، فاستحقوا بهذه الجنايات المنكرات أشد العقوبات، وهو العذاب المؤلم البالغ في الشدة إلى غاية لا يمكن وصفها، ولا يقدر قدرها المؤلم للأبدان والقلوب والأرواح، وبطلت أعمالهم بما كسبت أيديهم، وما لهم أحد ينصرهم من عذاب الله ولا يدفع عنهم من نقمته مثقال ذرة، بل قد أيسوا من كل خير، وحصل لهم كل شر وضير، وهذه الحالة صفة اليهود ونحوهم، قبحهم الله ما أجرأهم على الله وعلى أنبيائه وعباده الصالحين.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَقَدْ مَّرِضُوا ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّمُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَقْرَأُونَ ﴿٢٤﴾ فَلَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿٢٣ - ٢٥﴾ يخبر تعالى عن حال أهل الكتاب الذين أنعم الله عليهم بكتابه، فكان يجب أن يكونوا أقوم الناس به وأسرعهم انقياداً لأحكامه، فأخبر الله عنهم أنهم إذا دعوا إلى حكم الكتاب تولى «فريق منهم وهم معرضون»، تولوا بأبدانهم، وأعرضوا بقلوبهم، وهذا غاية الذم، وفي ضمنها التحذير لنا أن نفعل كفعلهم، فيصيبنا من الذم والعقاب ما أصابهم بل الواجب على كل أحد إذا دعي إلى كتاب الله أن يسمع ويطيع وينقاد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ والسبب الذي غر أهل الكتاب بتجرئهم على معاصي الله هو قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّمُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَقْرَأُونَ﴾ افتروا هذا القول فظنوه حقيقة فعملوا على ذلك ولم ينزجروا عن المحارم، لأن أنفسهم متهم وغرتهم أن مآلهم إلى الجنة، وكذبوا في ذلك، فإن هذا مجرد كذب وافتراء، وإنما مآلهم شر مآل، وعاقبتهم عاقبة وخيمة، فلهذا قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: كيف يكون حالهم ووخيم ما يقدمون عليه، حالة لا يمكن وصفها ولا يتصور قبحها لأن ذلك اليوم يوم توفية النفوس ما كسبت ومجازاتها بالعدل لا بالظلم، وقد علم أن ذلك على قدر الأعمال، وقد تقدم من أعمالهم ما يبين أنهم من أشد الناس عذاباً.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدُوكَ الْغَيْبُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ قُلِ الْيَلْدُ فِي النَّهَارِ وَتَوَلَّى الْيَلْدُ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾

﴿٢٦ - ٢٧﴾ يقول الله لنبيه ﷺ: ﴿قل اللهم مالك الملك﴾ أي: أنت الملك المالك لجميع الممالك، فصفة الملك المطلق لك، والمملكة كلها علويها وسفليها لك والتصريف والتدبير كله لك، ثم فصل بعض التصاريف التي انفرد البارئ تعالى بها، فقال: ﴿تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾ وفيه الإشارة إلى أن الله تعالى ينزع الملك من الأكاسرة والقيصرة ومن تبعهم ويؤتيه أمة محمد، وقد فعل والله الحمد، فحصول الملك ونزعه تبع لمشيئة الله تعالى، ولا ينافي ذلك ما أجرى الله به سنته من الأسباب الكونية والدينية التي هي سبب بقاء الملك وحصوله وسبب زواله، فإنها كلها بمشيئة الله لا يوجد سبب يستقل بشيء، بل الأسباب كلها تابعة للقضاء والقدر، ومن الأسباب التي جعلها الله سبباً لحصول الملك الإيمان والعمل الصالح، التي منها اجتماع المسلمين واتفاقهم، وإعدادهم الآلات التي يقدرها عليها والصبر وعدم التنازع، قال الله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾ الآية. فأخبر أن الإيمان والعمل الصالح سبب للاستخلاف المذكور، وقال تعالى: ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ فأخبر أن ائتلاف قلوب المؤمنين وثباتهم وعدم تنازعهم سبب للنصر على الأعداء، وأنت إذا استقرت الدول الإسلامية وجدت السبب الأعظم في زوال ملكها ترك الدين والتفرق الذي أطمع فيهم الأعداء وجعل بأسهم بينهم، ثم قال تعالى: ﴿وتعز من تشاء﴾ بطاعتك ﴿وتذل من تشاء﴾ بمعصيتك ﴿إنك على كل شيء قدير﴾ لا يمتنع عليك أمر من الأمور بل الأشياء كلها طوع مشيئتكم وقدرتك ﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل﴾ أي: تدخل هذا على هذا، وهذا على هذا، فينشأ عن ذلك من الفصول والضياء والنور والشمس والظل والسكون والانتشار، ما هو من أكبر الأدلة على قدرة الله وعظمته وحكمته ورحمته ﴿وتخرج الحي من الميت﴾ كالفرخ من البيضة، وكالشجر من النوى، وكالزرع من بذره، وكالمؤمن من الكافر ﴿وتخرج الميت من الحي﴾ كالبيضة من الطائر وكالنوى من الشجر، وكالحب من الزرع، وكالكافر من المؤمن، وهذا أعظم دليل على قدرة الله، وأن جميع الأشياء مسخرة مدبرة لا تملك من التدبير شيئاً، فخلقه تعالى الأضداد، والضد من ضده بيان أنها مقهورة ﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾ أي: ترزق من تشاء رزقاً واسعاً من حيث لا يحتسب ولا يكتسب، ثم قال تعالى:

﴿لَا يَخْذِلُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا وَيُعَذِّبُكُمُ اللَّهُ نَفْسُكُمْ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِنْ تُحِبُّوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوا

يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُتَحَصِّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ شَوْءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾

﴿٢٨ - ٣٠﴾ وهذا نهى من الله تعالى للمؤمنين عن موالاة الكافرين بالمحبة والنصرة والاستعانة بهم على أمر من أمور المسلمين، وتوعد على ذلك فقال: ﴿ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء﴾ أي: فقد انقطع عن الله، وليس له في دين الله نصيب، لأن موالاة الكافرين لا تجتمع مع الإيمان، لأن الإيمان يأمر بموالاة الله وموالاة أوليائه المؤمنين المتعاونين على إقامة دين الله وجهاد أعدائه، قال تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ فمن وإلى الكافرين من دون المؤمنين الذين يريدون أن يطفئوا نور الله ويفتنوا أوليائه خرج من حزب المؤمنين، وصار من حزب الكافرين، قال تعالى: ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ وفي هذه الآية دليل على الابتعاد عن الكفار وعن معاشرتهم وصدقاتهم، والميل إليهم والركون إليهم، وأنه لا يجوز أن يولى كافر ولاية من ولايات المسلمين، ولا يستعان به على الأمور التي هي مصالح لعموم المسلمين. قال الله تعالى: ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾^(١) أي: تخافوهم على أنفسكم فيحل لكم أن تفعلوا ما تعصمون به دماءكم من التقية باللسان وإظهار ما به تحصل التقية. ثم قال تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ أي: فلا تعرضوا لسخطه بارتكاب معاصيه فيعاقبكم على ذلك ﴿والى الله المصير﴾ أي: مرجع العباد ليوم التناد، فيحصي أعمالهم ويحاسبهم عليها ويجازيهم، فإياكم أن تفعلوا من الأعمال القباح ما تستحقون به العقوبة، واعملوا ما به يحصل الأجر والمثوبة، ثم أخبر عن سعة علمه لما في النفوس خصوصاً، ولما في السماء والأرض عموماً، وعن كمال قدرته، ففيه إرشاد إلى تطهير القلوب واستحضار علم الله كل وقت فيستحي العبد من ربه أن يرى قلبه محلاً لكل فكر رديء، بل يشغل أفكاره فيما يقرب إلى الله من تدبر آية من كتاب، أو سنة من أحاديث رسول الله، أو تصور وبحث في علم ينفعه، أو تفكر في مخلوقات الله ونعمه، أو نصح لعباد الله، وفي ضمن أخبار الله عن علمه وقدرته الإخبار بما هو لازم ذلك من المجازاة على الأعمال، ومحل ذلك يوم القيامة، فهو الذي توفى به النفوس بأعمالها فلهذا قال: ﴿يوم تجد

(١) جاء في الهامش ما يلي: «قال الشيخ ابن تيمية في «المنهاج»: «وأما قوله «إلا أن تتقوا منهم تقاة» قال مجاهد: لا مصانعة، والثقة ليست بأن أكذب وأقول بلساني ما ليس في قلبي، فإن هذا نفاق، ولكن أفل ما أقدر عليه كما في «الصحيح» عن النبي ﷺ: «من رأى منكماً منكراً» إلخ، فالمؤمن إذا كان بين الكفار والفجار لم يكن عليه أن يجاهدكم بيده مع عجزه، ولكن إن أمكنه بلسانه وإلا فبقلبه، مع أنه لا يكذب ويقول بلسانه ما ليس في قلبه، إما أن يظهر دينه وإما أن يكتمه، وهو مع هذا لا يوافقهم على دينهم كله بل غايته أن يكون كمؤمن آل فرعون، وامرأة فرعون، وهو لم يكن موافقاً لهم على جميع دينهم، ولا كان يكذب، ولا يقول بلسانه ما ليس في قلبه، بل كان يكتم إيمانه، وكتمان الدين شيء وإظهار الدين الباطل شيء آخر، فهذا لم يبيحه الله إلا لمن أكره... إلخ».

كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴿٣١﴾ أي: كاملاً موفراً لم ينقص مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾ والخير: اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله من الأعمال الصالحة صغيرها وكبيرها، كما أن السوء اسم جامع لكل ما يسخط الله من الأعمال السيئة صغيرها وكبيرها ﴿وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً﴾ أي: مسافة بعيدة، لعظم أسفها وشدة حزنها، فليحذر العبد من أعمال السوء التي لا بد أن يحزن عليها أشد الحزن، وليتركها وقت الإمكان قبل أن يقول ﴿يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله﴾ ﴿يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض﴾ ﴿ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً * يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً﴾ ﴿حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾ فوالله لترك كل شهوة ولذة وإن عسر تركها على النفس في هذه الدار أيسر من معاناة تلك الشدائد واحتمال تلك الفضائح، ولكن العبد من ظلمه وجهله لا ينظر إلا الأمر الحاضر، فليس له عقل كامل يلحظ به عواقب الأمور فيقدم على ما ينفعه عاجلاً وآجلاً ويحجم عن ما يضره عاجلاً وآجلاً، ثم أعاد تعالى تحذيرنا نفسه رافة بنا ورحمة لئلا يطول علينا الأمد فتفسد قلوبنا، وليجمع لنا بين الترغيب الموجب للرجاء والعمل الصالح، والترهيب الموجب للخوف وترك الذنوب، فقال: ﴿ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد﴾ فنسأله أن يمن علينا بالحدز منه على الدوام، حتى لا نفعل ما يسخطه ويغضبه.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٣١﴾

﴿٣١﴾ وهذه الآية فيها وجوب محبة الله، وعلاماتها، ونتيجتها، وثمراتها، فقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ أي: ادعيتم هذه المرتبة العالية، والرتبة التي ليس فوقها رتبة فلا يكفي فيها مجرد الدعوى، بل لا بد من الصدق فيها، وعلامة الصدق اتباع رسوله ﷺ في جميع أحواله، في أقواله وأفعاله، في أصول الدين وفروعه، في الظاهر والباطن، فمن اتبع الرسول دلَّ على صدق دعواه محبة الله تعالى، وأحبه الله وغفر له ذنبه، ورحمه وسدده في جميع حركاته وسكناته، ومن لم يتبع الرسول فليس محباً لله تعالى، لأن محبته لله توجب له اتباع رسوله، فما لم يوجد ذلك دلَّ على عدمها وأنه كاذب إن ادعاه، مع أنها على تقدير وجودها غير نافعة بدون شرطها، وبهذه الآية يوزن جميع الخلق، فعلى حسب حظهم من اتباع الرسول يكون إيمانهم وجبهم لله، وما نقص من ذلك نقص.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٣٢﴾

﴿٣٢﴾ وهذا أمر من الله تعالى لعباده بأعم الأوامر، وهو طاعته وطاعة رسوله التي يدخل بها الإيمان والتوحيد، وما هو من فروع ذلك من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، بل يدخل في طاعته وطاعة رسوله اجتناب ما نهى عنه، لأن اجتنابه امتثالاً لأمر الله هو من طاعته، فمن أطاع الله ورسوله، فأولئك هم المفلحون ﴿فإن تولَّوا﴾ أي: أعرضوا عن طاعة الله ورسوله فليس ثم أمر يرجعون إليه إلا الكفر وطاعة كل شيطان مريد ﴿كتب عليه أنه

من تولاه فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير ﴿ فلماذا قال: ﴿فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين﴾ بل يبغضهم ويمقتهم ويعاقبهم أشد العقوبة، وكأن في هذه الآية الكريمة بياناً وتفسيراً لاتباع رسوله، وأن ذلك بطاعة الله وطاعة رسوله، هذا هو الاتباع الحقيقي، ثم قال تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَعَالٍ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَلَئِنِّي سَمِعْتُهَا مَرِيضَةً وَلَئِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتُهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْجُرَابُ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِؤُكَ إِنِّي لِلَّهِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

﴿٣٣ - ٣٧﴾ يخبر تعالى باختيار من اختاره من أوليائه وأصفياه وأحبابه، فأخبر أنه اصطفى آدم، أي: اختاره على سائر المخلوقات، فخلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، وأسكنه جنته، وأعطاه من العلم والحلم والفضل ما فاق به سائر المخلوقات، ولهذا فضل بنيه، فقال تعالى: ﴿ولقد كرمتنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾.

واصطفى نوحاً فجعله أول رسول إلى أهل الأرض حين عادت الأوثان، ووفقه من الصبر والاحتمال والشكر والدعوة إلى الله في جميع الأوقات ما أوجب اصطفاؤه واجتباؤه، وأغرق الله أهل الأرض بدعوته، ونجاه ومقن معه في الفلك المشحون، وجعل ذريته هم الباقين، وترك عليه ثناء يذكر في جميع الأحيان والأزمان.

واصطفى آل إبراهيم وهم: إبراهيم خليل الرحمن الذي اختصه الله بخلته، وبذل نفسه للنيران، وولده للقربان وماله للضيفان، ودعا إلى ربه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، وجعله الله أسوة يقتدي به من بعده، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، ويدخل في آل إبراهيم جميع الأنبياء الذين بعثوا من بعده لأنهم من ذريته، وقد خصهم بأنواع الفضائل ما كانوا به صفوة على العالمين، ومنهم سيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ فإن الله تعالى جمع فيه من الكمال ما تفرق في غيره، وفاق ﷺ الأولين والآخرين، فكان سيد المرسلين المصطفى من ولد إبراهيم.

واصطفى الله آل عمران وهو والد مريم بنت عمران، أو والد موسى بن عمران عليه السلام، فهذه البيوت التي ذكرها الله هي صفوته من العالمين، وتسلسل الصلاح والتوفيق بذرياتهم، فلماذا قال تعالى: ﴿ذرية بعضهم من بعض﴾ أي: حصل التناسب والتشابه بينهم في

الخلق والأخلاق الجميلة، كما قال تعالى لما ذكر جملة من الأنبياء الداخلين في ضمن هذه البيوت الكبار ﴿ومن آبائهم وإخوانهم وذرياتهم واجتبتناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم﴾ **﴿والله سميع عليم﴾** يعلم من يستحق الاصطفاء فيصطفيه ومن لا يستحق ذلك فيخذه ويرديه، ودل هذا على أن هؤلاء اختارهم لما علم من أحوالهم الموجبة لذلك فضلاً منه وكرماً، ومن الفائدة والحكمة في قصه علينا أخبار هؤلاء الأصفياء أن نجبههم ونقتدي بهم، ونسأل الله أن يوفقنا لما وفقهم، وأن لا نزال نزدني^(١) أنفسنا بتأخرنا عنهم وعدم اتصافنا بأوصافهم ومزاياهم الجميلة، وهذا أيضاً من لطفه بهم، وإظهاره الشاء عليهم في الأولين والآخرين، والتنويه بشرفهم، فلله ما أعظم جوده وكرمه وأكثر فوائده معاملته، لو لم يكن لهم من الشرف إلا أن أذكاهم مخلدة ومناقبهم مؤيدة لكفى بذلك فضلاً، ولما ذكر فضائل هذه البيوت الكريمة ذكر ما جرى لمريم والدة عيسى وكيف لطف الله بها في تربيتها ونشأتها، فقال: **﴿إذ قالت امرأة عمران﴾** أي: والدة مريم لما حملت **﴿رب إنني نذرت لك ما في بطني محرراً﴾** أي: جعلت ما في بطني خالصاً لوجهك، محرراً لخدمتك وخدمة بيتك **﴿فتقبل مني﴾** هذا العمل المبارك **﴿إنك أنت السميع العليم﴾** تسمع دعائي وتعلم نيتي وقصدي، هذا وهي في البطن قبل وضعها **﴿فلما وضعتها قالت رب إنني وضعتها أنثى﴾** كأنها تشوف أن يكون ذكراً ليكون أقدر على الخدمة وأعظم موقعاً، ففي كلامها نوع عذر من ربها، فقال الله: **﴿والله أعلم بما وضعت﴾** أي: لا يحتاج إلى إعلامها، بل علمه متعلق بها قبل أن تعلم أمها ما هي **﴿وليس الذكر كالأنثى وإنني سميتها مريم﴾** فيه دلالة على تفضيل الذكر على الأنثى، وعلى التسمية وقت الولادة، وعلى أن للام تسمية الولد إذا لم يكره الأب **﴿وإنني أعينها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾** دعت لها ولذريتها أن يعيدهم الله من الشيطان الرجيم **﴿فتقبلها ربها بقبول حسن﴾** أي: جعلها نذيرة مقبولة، وأجارها وذريتها من الشيطان **﴿وأنبتها نباتاً حسناً﴾** أي: نبتت نباتاً حسناً في بدنها وخلقها وأخلاقها، لأن الله تعالى قيض لها زكريا عليه السلام **﴿وكفلها﴾** إياه، وهذا من رفق به ليربيها على أكمل الأحوال، فنشأت في عبادة ربها وفاقت النساء، وانقطعت لعبادة ربها، ولزمت محرابها أي: مصلها، فكان **﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً﴾** أي: من غير كسب ولا تعب، بل رزق ساقه الله إليها، وكرامة أكرمها الله بها، فيقول لها زكريا **﴿أنى لك هذا قالت هو من عند الله﴾** فضلاً وإحساناً **﴿إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾** أي: من غير حسابان من العبد ولا كسب، قال تعالى: **﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾** وفي هذه الآية دليل على إثبات كرامات الأولياء الخارقة للعادة كما قد تواترت الأخبار بذلك، خلافاً لمن نفى ذلك، فلما رأى زكريا عليه السلام ما من الله به على مريم، وما أكرمها به من رزقه الهنيء الذي أتاها بغير سعي منها ولا كسب، طمعت نفسه بالولد، فلماذا قال تعالى:

(١) كذا في الأصل وهو سبق قلم. ولعل الشيخ أراد: «نزدني».

﴿هَٰذَاكَ دَعَا زَكْرِيَّا رَبِّهِ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُعَلِّمُ فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادَّكُرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَمِعَ بِالْعَشَىٰ وَالْإِبْكَرِ ﴿٤١﴾﴾

﴿٣٨ - ٤١﴾ أي: دعا زكريا عليه السلام ربه أن يرزقه ذرية طيبة، أي: طاهرة الأخلاق، طيبة الآداب، لتكمل النعمة الدينية والدنيوية بهم، فاستجاب له دعاءه، وبينما هو قائم في محرابه يتعبد لربه ويتضرع نادته الملائكة ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: بعيسى عليه السلام، لأنه كان بكلمة الله ﴿وَسَيِّدًا﴾ أي: يحصل له من الصفات الجميلة ما يكون به سيداً يرجع إليه في الأمور ﴿وَحَصُورًا﴾ أي: ممنوعاً من إتيان النساء، فليس في قلبه لهن شهوة، اشتغلاً بخدمة ربه وطاعته ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: إشارة أعظم من هذا الولد الذي حصلت البشارة بوجوده، وبكمال صفاته، وبكونه نبياً من الصالحين، فقال زكريا من شدة فرحه: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ وكل واحد من الأمرين مانع من وجود الولد، فكيف وقد اجتمعوا، فأخبره الله تعالى أن هذا خارق للعادة، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ فكما أنه تعالى قدر وجود الأولاد بالأسباب التي منها التناسل، فإذا أراد أن يوجد لهم من غير ما سبب فعل، لأنه لا يستعصي عليه شيء، فقال زكريا عليه السلام استعجلاً لهذا الأمر، وليحصل له كمال الطمأنينة ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أي: علامة على وجود الولد قال: ﴿آيَتِكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا﴾ أي: ينحبس لسانك عن كلامهم من غير آفة ولا سوء، فلا تقدر إلا على الإشارة والرمز، وهذا آية عظيمة أن لا تقدر على الكلام، وفيه مناسبة عجيبة، وهي أنه كما يمنع نفوذ الأسباب مع وجودها، فإنه يوجد بدون أسبابها ليدل ذلك أن الأسباب كلها مندرجة في قضائه وقدره، فامتنع من الكلام ثلاثة أيام، وأمره الله أن يشكره ويكثر من ذكره بالعشي والإبكار، حتى إذا خرج على قومه من المحراب ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بِكُرَةِ وَعَشِيًّا﴾ أي: أول النهار وآخره.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرُؤُا أَقْبَىٰ لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَتَنَّهُمْ أَهْلُهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿٤٢ - ٤٤﴾ ينوه تعالى بفضيلة مريم وعلو قدرها، وأن الملائكة خاطبتها بذلك فقالت: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ أي: اختارك ﴿وطهرَكِ﴾ من الآفات المنقصة ﴿واصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ الاصطفاء الأول يرجع إلى الصفات الحميدة والأفعال السديدة، والاصطفاء الثاني يرجع إلى تفضيلها على سائر نساء العالمين، إما على عالمي زمانها، أو مطلقاً، وإن شاركها أفراد من النساء في ذلك كخديجة وعائشة وفاطمة، لم يناف الاصطفاء المذكور، فلما

أخبرتها الملائكة باصطفاء الله إياها وتطهيرها، كان في هذا من النعمة العظيمة والمنحة الجسيمة ما يوجب لها القيام بشكرها، فلماذا قالت لها الملائكة: ﴿يا مريم اقنتي لربك﴾ القنوت دوام الطاعة في خضوع وخشوع، ﴿واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ خص السجود والركوع لفضلهما ودلالتهما على غاية الخضوع لله، ففعلت مريم، ما أمرت به شكراً لله تعالى وطاعة، ولما أخبر الله نبيه بما أخبر به عن مريم، وكيف تنقلت بها الأحوال التي قبضها الله لها، وكان هذا من الأمور الغيبية التي لا تعلم إلا بالوحي، قال: ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم﴾ أي: عندهم ﴿إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم﴾ لما ذهبت بها أمها إلى من لهم الأمر على بيت المقدس، فتشاحوا وتخاصموا أيهم يكفل مريم، واقترعوا عليها بأن ألقوا أقلامهم في النهر، فأبهم لم يجر قلمه مع الماء فله كفالتها، فوقع ذلك لزكريا نبيهم وأفضلهم، فلما أخبرتهم يا محمد بهذه الأخبار التي لا علم لك ولا لقومك بها دل على أنك صادق وأنك رسول الله حقاً، فوجب عليهم الانقياد لك وامتنال أوامرك، كما قال تعالى: ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ الآيات.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ بِبَيْتِكَ يَكْلَمُ مِنْهُ اسْمُهُ السَّيِّحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ١٩ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ٢٠﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ٢١ وَبَعَلِمَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ٢٢ وَرَسُولًا إِنْ بَرَىٰ إِسْرَءِيلَ أَتَىٰ قَدْ جَسَّتْكُمْ بَنَاتِهِ مِن دُونِكُمْ أَتَىٰ خَلْقًا لَّكُم مِّنَ الْإِنسَانِ كَذِبَتْ أَعْيُنُكُمْ وَأَنفُسُكُمْ فِي يَوْمٍ يَقُولُونَ مَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْرُسُونَ فِي يَوْمِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ٢٣ وَمَصَدَقًا لِّمَا بَيَّنَّ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجَنَّتُمْ بَنَاتِهِ مِن دُونِكُمْ فَأَتَوْا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ٢٤ إِنَّ اللَّهَ رَبُّ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ٢٥ قَلَمًا أَحْسَنَ عِيسَىٰ مِنْهُمْ الْكَفَرُ قَالَ مَن أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَكَ الْخَوَارِثُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ٢٦ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَكَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ٢٧ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهُ حَيْزَ الْمَكِرِينَ ٢٨ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعْقُوبَ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافُئَكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرَكَ مِنَ الذِّمَنِ كَفَرُوا وَجَاعِلَ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ قَوْمَ الذِّمَنِ كَفَرُوا إِلَيَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ٢٩ فَلَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَاغْرَبَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ٣٠ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أَجْرَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ٣١ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ٣٢﴾

﴿٤٥ - ٥٨﴾ يخبر تعالى أن الملائكة بشرت مريم عليها السلام بأعظم بشارة، وهو كلمة الله عبده ورسوله عيسى ابن مريم، سمي كلمة الله لأنه كان بالكلمة من الله، لأن حالته خارجة عن الأسباب، وجعله الله من آياته وعجائب مخلوقاته، فأرسل الله جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفع في جيب درعها فولجت فيها تلك النفخة الزكية من ذلك الملك

الزكي، فأنشأ الله منها تلك الروح الزكية، فكان روحانياً نشأ من مادة روحانية، فلهذا سمي روح الله ﴿وجيهاً في الدنيا والآخرة﴾ أي: له الواجهة العظيمة في الدنيا، جعله الله أحد أولي العزم من المرسلين أصحاب الشرائع الكبار والأتباع، ونشر الله له من الذكر ما ملأ ما بين المشرق والمغرب، وفي الآخرة وجيهاً عند الله يشفع أسوة لإخوانه من النبيين والمرسلين، ويظهر فضله على أكثر العالمين، فلهذا كان من المقربين إلى الله، أقرب الخلق إلى ربه، بل هو عليه السلام من سادات المقربين ﴿ويكلم الناس في المهد وكهلاً﴾ وهذا غير التكليم المعتاد، بل المراد يكلم الناس بما فيه صلاحهم وفلاحهم، وهو تكليم المرسلين، ففي هذا إرساله ودعوته الخلق إلى ربه، وفي تكليمهم في المهد آية عظيمة من آيات الله ينتفع بها المؤمنون، وتكون حجة على المعاندين، أنه رسول رب العالمين، وأنه عبد الله، وليكون نعمة وبراءة لوالدته مما رمت به ﴿ومن الصالحين﴾ أي: يمن عليه بالصلاح، من منّ عليهم، ويدخله في جملتهم، وفي هذا عدة بشارات لمريم مع ما تضمن من التنويه بذكر المسيح عليه السلام ﴿قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسنني بشر﴾ والولد في العادة لا يكون إلا من مس البشر، وهذا استغراب منها، لا شك في قدرة الله تعالى: ﴿قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ فأخبرها أن هذا أمر خارق للعادة، خلقه من يقول لكل أمر أراده: كن فيكون، فمن تيقن ذلك زال عنه الاستغراب والتعجب، ومن حكمة البارئ تعالى أن تدرج بأخبار العباد من الغريب إلى ما هو أغرب منه، فذكر وجود يحيى بن زكريا بين أبوين أحدهما كبير والآخر عاقر، ثم ذكر أغرب من ذلك وأعجب، وهو وجود عيسى عليه السلام من أم بلا أب ليدل عباده أنه الفعال لما يريد وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ثم أخبر تعالى عن منته العظيمة على عبده ورسوله عيسى عليه السلام، فقال: ﴿ويعلمه الكتاب﴾ يحتمل أن يكون المراد جنس الكتاب، فيكون ذكر التوراة والإنجيل تخصيصاً لهما، لشرفهما وفضلهما واحتوائهما على الأحكام والشرائع التي يحكم بها أنبياء بني إسرائيل والتعليم، لذلك يدخل فيه تعليم ألفاظه ومعانيه، ويحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿ويعلمه الكتاب﴾ أي: الكتابة، لأن الكتابة من أعظم نعم الله على عباده ولهذا امتن تعالى على عباده بتعليمهم بالقلم في أول سورة أنزلها فقال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم﴾ والمراد بالحكمة معرفة أسرار الشرع، ووضع الأشياء مواضعها، فيكون ذلك امتناناً على عيسى عليه السلام بتعليمه الكتابة والعلم والحكمة، وهذا هو الكمال للإنسان في نفسه، ثم ذكر له كمالات أخرى وفضلاً زائداً على ما أعطاه الله من الفضائل، فقال: ﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل﴾ فأرسله الله إلى هذا الشعب الفاضل الذين هم أفضل العالمين في زمانهم يدعوهم إلى الله، وأقام له من الآيات ما دلهم أنه رسول الله حقاً ونبه صدقاً ولهذا قال: ﴿أنى قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين طيراً، أي: أصوره على شكل الطير ﴿فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله﴾ أي: طيراً له روح تطير بإذن الله ﴿وأبرئ الأكمه﴾ وهو الذي يولد أعمى ﴿والأبرص﴾ بإذن الله ﴿وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تآكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم

مؤمنين» وأي آية أعظم من جعل الجماد حيواناً، وإبراء ذوي العاهات التي لا قدرة للأطباء في معالجتها، وإحياء الموتى، والإخبار بالأمور الغيبية، فكل واحدة من هذه الأمور آية عظيمة بمفردها، فكيف بها إذا اجتمعت وصدق بعضها بعضها؟ فإنها موجبة للإيقان وداعية للإيمان ﴿ومصدقاً لما بين يدي من التوراة﴾ أي: أتيت بجنس ما جاءت به التوراة وما جاء به موسى عليه السلام، وعلامة الصادق أن يكون خبره من جنس خبر الصادقين، يخبر بالصدق، ويأمر بالعدل من غير تخالف ولا تناقض، بخلاف من ادعى دعوى كاذبة، خصوصاً أعظم الدعاوى وهي دعوى النبوة، فالكاذب فيها لا بد أن يظهر لكل أحد كذب صاحبها وتناقضه ومخالفته لأخبار الصادقين وموافقه لأخبار الكاذبين، هذا موجب السنن الماضية والحكمة الإلهية والرحمة الربانية بعباده، إذ لا يشبهه الصادق بالكاذب في دعوى النبوة أبداً، بخلاف بعض الأمور الجزئية، فإنه قد يشبه فيها الصادق بالكاذب، وأما النبوة فإنه يترتب عليها هداية الخلق أو ضلالهم وسعادتهم وشقاؤهم، ومعلوم أن الصادق فيها من أكمل الخلق، والكاذب فيها من أخس الخلق وأكذبهم وأظلمهم، فحكمة الله ورحمته بعباده أن يكون بينهما من الفروق ما يتبين لكل من له عقل، ثم أخبر عيسى عليه السلام أن شريعة الإنجيل شريعة فيها سهولة ويسر فقال: ﴿ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾ فدل ذلك على أن أكثر أحكام التوراة لم ينسخها الإنجيل بل كان متمماً لها ومقرراً ﴿وجنتكم بآية من ربكم﴾ تدل على صدقي ووجوب اتباعي، وهي ما تقدم من الآيات، والمقصود من ذلك كله قوله: ﴿فاتقوا الله﴾ بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه وأطيعوني فإن طاعة الرسول طاعة الله ﴿إن الله ربي وربكم فاعبدوه﴾ استدل بتوحيد الربوبية الذي يقرّ به كل أحد على توحيد الإلهية الذي ينكره المشركون، فكما أن الله هو الذي خلقنا ورزقنا وأنعم علينا نعماً ظاهرة وباطنة، فليكن هو معبودنا الذي نأله بالحب والخوف والرجاء والدعاء والاستعانة وجميع أنواع العبادة، وفي هذا رد على النصاري القائلين بأن عيسى إله أو ابن الله، وهذا إقراره عليه السلام بأنه عبد مدبر مخلوق، كما قال: ﴿إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ وقال تعالى: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته﴾ إلى قوله: ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾ وقوله: ﴿هذا﴾ أي: عبادة الله وتقواه وطاعة رسوله ﴿صراط مستقيم﴾ موصل إلى الله وإلى جنته، وما عدا ذلك فهي طرق موصلة إلى الجحيم، فلما أحس عيسى منهم الكفر﴾ أي: رأى منهم عدم الانقياد له، وقالوا هذا سحر مبين، وهموا بقتله وسعوا في ذلك ﴿قال من أنصاري إلى الله﴾ أي: من يعاونني ويقوم معي بنصرة دين الله ﴿قال الحواريون﴾ وهم الأنصار ﴿نحن أنصار الله﴾ أي: انتدبوا معه وقاموا بذلك، وقالوا: ﴿آمنّا بالله﴾ ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ أي: الشهادة النافعة، وهي الشهادة بتوحيد الله وتصديق رسوله مع القيام بذلك، فلما قاموا مع عيسى بنصر دين الله وإقامة شرعه آمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة، فاقتتل الطائفتان فأيد الله الذين آمنوا بنصره على عدوهم فأصبحوا ظاهرين، فلهذا قال تعالى هنا: ﴿ومكروا﴾ أي: الكفار بإرادة قتل نبي الله وإطفاء نوره

﴿ومكر الله﴾ بهم جزاء لهم على مكرمهم ﴿والله خير الماكرين﴾ رد الله كيدهم في نحورهم، فانقلبوا خاسرين ﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا﴾ فرفع الله عبده ورسوله عيسى إليه، وألقي شبهه على غيره، فأخذوا من ألقى شبهه عليه قتلوه وصلبوه، وباؤوا بالإثم العظيم بنيتهم أنه رسول الله، قال الله: ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ وفي هذه الآية دليل على علو الله تعالى واستوائه على عرشه حقيقة، كما دلت على ذلك النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تلقاها أهل السنة بالقبول والإيمان والتسليم، وكان الله عزيزاً قوياً قاهراً، ومن عزته أن كف بني إسرائيل بعد عزمهم الجازم وعدم المانع لهم عن قتل عيسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جتتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين﴾ حكيم يضع الأشياء مواضعها، وله أعظم حكمة في إلقاء الشبه على بني إسرائيل، فوقعوا في الشبه كما قال تعالى: ﴿وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً﴾ ثم قال تعالى: ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ وتقدم أن الله أيد المؤمنين منهم على الكافرين، ثم إن النصارى المنتسبين لعيسى عليه السلام لم يزالوا قاهرين لليهود لكون النصارى أقرب إلى اتباع عيسى من اليهود، حتى بعث الله نبينا محمداً ﷺ فكان المسلمون هم المتبعين لعيسى حقيقة، فأيدهم الله ونصرهم على اليهود والنصارى وسائر الكفار، وإنما يحصل في بعض الأزمان إدالة الكفار من النصارى وغيرهم على المسلمين، حكمة من الله وعقوبة على تركهم لاتباع الرسول ﷺ ﴿ثم إلي مرجعكم﴾ أي: مصير الخلائق كلها ﴿فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾ كل يدعي أن الحق معه وأنه المصيب وغيره مخطئ، وهذا مجرد دعاوى تحتاج إلى برهان، ثم أخبر عن حكمه بينهم بالقسط والعدل، فقال: ﴿فأما الذين كفروا﴾ أي: بالله وآياته ورسله ﴿فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة﴾ أما عذاب الدنيا، فهو ما أصابهم الله به من القوارع والعقوبات المشاهدة والقتل والذل، وغير ذلك مما هو نموذج من عذاب الآخرة، وأما عذاب الآخرة فهو الطامة الكبرى والمصيبة العظمى، ألا وهو عذاب النار وغضب الجبار وحرمانهم ثواب الأبرار ﴿وما لهم من ناصرين﴾ ينصرونهم من عذاب الله، لا من زعموا أنهم شفعاء لهم عند الله، ولا ما اتخذوهم أولياء من دونه، ولا أصدقائهم وأقربائهم، ولا أنفسهم ينصرون، ﴿وأما الذين آمنوا﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وغير ذلك مما أمر الله بالإيمان به ﴿وعملوا الصالحات﴾ القلبية والقولية والبدنية التي جاءت بشرعها المرسلون، وقصدوا بها رضا رب العالمين ﴿فيوفيهم أجورهم﴾ دل ذلك على أنه يحصل لهم في الدنيا ثواب لأعمالهم من الإكرام والإعزاز والنصر والحياة الطيبة، وإنما توفية الأجور يوم القيامة، يجدون ما قدموه من الخيرات محضراً موفراً، فيعطي منهم كل عامل أجر عمله ويزيدهم من فضله وكرمه ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ بل يبغضهم ويحل عليهم سخطه وعذابه ﴿ذلك نلتوه عليكم من الآيات والذكر الحكيم﴾ وهذا منة عظيمة على رسوله محمد ﷺ وعلى أمته، حيث أنزل عليهم هذا الذكر الحكيم، المحكم المتقن، المفصل للأحكام والحلال والحرام وإخبار الأنبياء الأقدمين، وما أجرى الله على أيديهم من

الآيات البينات والمعجزات الباهرات، فهذا القرآن يقص علينا كل ما ينفعنا من الأخبار والأحكام، فيحصل فيها العلم والعبرة وتثبيت الفؤاد ما هو من أعظم رحمة رب العباد، ثم قال تعالى:

﴿إِنَّكَ مِثْلُ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَا خَلَقْنَا آدَمَ ثُمَّ خَلَقْنَا مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ أَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنَ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿٥٩ - ٦٠﴾ يخبر تعالى محتجاً على النصارى الزاعمين بعيسى عليه السلام ما ليس له بحق، بغير برهان ولا شبهة، بل بزعمهم أنه ليس له والد استحق بذلك أن يكون ابن الله أو شريكاً لله في الربوبية، وهذا ليس بشبهة فضلاً أن يكون حجة، لأن خلقه كذلك من آيات الله الدالة على تفرد الله بالخلق والتدبير وأن جميع الأسباب طوع مشيئته وتبع لإرادته، فهو على نقيض قولهم أدل، وعلى أن أحداً لا يستحق المشاركة لله بوجه من الوجوه أولى، ومع هذا فآدم عليه السلام خلقه الله من تراب لا من أب ولا أم، فإذا كان ذلك لا يوجب لآدم ما زعمه النصارى في المسيح، فالمسيح المخلوق من أم بلا أب من باب أولى وأحرى، فإن صح ادعاء البنوة والإلهية في المسيح، فادعائها في آدم من باب أولى وأحرى، فلماذا قال تعالى: ﴿إِنْ مِثْلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَا خَلَقْنَا آدَمَ ثُمَّ خَلَقْنَا مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: هذا الذي أخبرناك به من شأن المسيح عليه السلام هو الحق الذي في أعلى رتب الصدق، لكونه من ربك الذي من جملة تربيته الخاصة لك ولأمتك أن قصّ عليكم ما قصّ من أخبار الأنبياء عليهم السلام ﴿فَلَا تَكُنَ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي: الشاكين في شيء مما أخبرك به ربك، وفي هذا الآية وما بعدها دليل على قاعدة شريفة وهو أن ما قامت الأدلة على أنه حق وجزم به العبد من مسائل العقائد وغيرها، فإنه يجب أن يجزم بأن كل ما عارضه فهو باطل، وكل شبهة تورّد عليه فهي فاسدة، سواء قدر العبد على حلّها أم لا، فلا يوجب له عجزه عن حلّها القدح فيما علمه، لأن ما خالف الحق فهو باطل، قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ وبهذه القاعدة الشرعية تنحلّ عن الإنسان إشكالات كثيرة يوردها المتكلمون ويرتبها المنطقيون، إن حلّها الإنسان فهو تبرع منه، وإلا فوظيفته أن يبين الحق بأدلتها ويدعو إليه.

﴿فَمَنْ حَاجَبَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ فَقُلْ تَقَالُوا نَدْعُ أَبْنَاءَكُمُ وَنِسَاءَكُمُ وَنِسَاءَكُمُ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَنفْسِنَا عَلَى الْكَذِبِ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَقْمُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿٦١ - ٦٣﴾ أي: ﴿فمن﴾ جادلوك و﴿حاجبك﴾ في عيسى عليه السلام وزعم أنه فوق منزلة العبودية، بل رفعه فوق منزلته ﴿من بعدما جاءك من العلم﴾ بأنه عبد الله ورسوله وبينت لمن جادلوك ما عندك من الأدلة الدالة على أنه عبد أنعم الله عليه، دلّ على عناد من لم يتبعك في هذا العلم اليقيني، فلم يبق في مجادلته فائدة تستفيدها ولا يستفيدها هو، لأن الحق قد تبين، فجذاله فيه جدال معاند مشاق لله ورسوله، قصده اتباع هواه، لا اتباع ما أنزل الله،

فهذا ليس فيه حيلة، فأمر الله نبيه أن ينتقل إلى مباهلته وملاعنته، فيدعون الله ويبتهلون إليه أن يجعل لعنته وعقوبته على الكاذب من الفريقين، هو وأحب الناس إليه من الأولاد والأبناء والنساء، فدعاهم النبي ﷺ إلى ذلك فتولوا وأعرضوا ونكلوا، وعلموا أنهم إن لاعنوه رجعوا إلى أهلهم وأولادهم فلم يجدوا أهلاً ولا مالاً وعوجلوا بالعقوبة، فرضوا بدينهم مع جزمه ببطلانه، وهذا غاية الفساد والعناد، فلماذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة، وأخبر تعالى: ﴿إِنْ هَذَا﴾ الذي قصه الله على عباده هو ﴿الْقِصَصُ الْحَقُّ﴾ وكل قصص يقصّ عليهم مما يخالفه ويناقضه فهو باطل ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ فهو المألوه المعبود حقاً الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ولا يستحق غيره مثقال ذرة من العبادة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر كل شيء وخضع له كل شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وله الحكمة التامة في ابتلاء المؤمنين بالكافرين، يقاتلونهم ويجهادونهم ويجاهدونهم بالقول والفعل.

﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٦٤)

﴿٦٤﴾ أي: قل لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾ أي: هلموا نجتمع عليها وهي الكلمة التي اتفق عليها الأنبياء والمرسلون، ولم يخالفها إلا المعاندون والضالون، ليست مختصة بأحدنا دون الآخر، بل مشتركة بيننا وبينكم، وهذا من العدل في المقال والإنصاف في الجدل، ثم فسرنا بقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ ففرد الله بالعبادة ونخصه بالحب والخوف والرجاء ولا نشرك به نبياً ولا ملكاً ولا ولياً ولا صنماً ولا وثناً ولا حيواناً ولا جماداً ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بل تكون الطاعة كلها لله ولرسله، فلا نطيع المخلوقين في معصية الخالق، لأن ذلك جعل للمخلوقين في منزلة الربوبية، فإذا دعي أهل الكتاب أو غيرهم إلى ذلك، فإن أجابوا كانوا مثلكم، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، وإن تولوا فهم معاندون متبعون أهواءهم فأشهدوهم أنكم مسلمون، ولعل الفائدة في ذلك أنكم إذا قلتم لهم ذلك وأنتم أهل العلم على الحقيقة، كان ذلك زيادة على إقامة الحجة عليهم كما استشهد تعالى بأهل العلم حجة على المعاندين، وأيضاً فإنكم إذا أسلمتم أنتم وأمتهم فلا يعبأ الله بعدم إسلام غيركم لعدم زكائهم ولخبث طويتهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تَوَلَّوْا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ الآية وأيضاً فإن في ورود الشبهات على العقيدة الإيمانية مما يوجب للمؤمن أن يجدد إيمانه ويعلم بإسلامه، إخباراً بيقينه وشكراً لنعمة ربه.

﴿يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِيمَانِكُمْ مَّا أُنزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ رَّبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٥) هَٰأَن تُمْ هَٰؤُلَاءِ حُجِّجَتْكُمْ فِيمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ لِلْإِسْلَامِ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْيَهُودِ وَلَا مِنَ النَّصَارَىٰ وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) أَوَلَمْ يَأْتِ الْبَشَرُ إِلَّا بِالْبَيِّنَاتِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَبِّهِ الْمُسْلِمِينَ (٦٨)

﴿٦٥ - ٦٨﴾ لما ادعى اليهود أن إبراهيم كان يهودياً، والنصارى أنه نصراني، وجادلوا على ذلك، رد تعالى محاجتهم ومجادلتهم من ثلاثة أوجه، أحدها: أن جدالهم في إبراهيم جدال في أمر ليس لهم به علم، فلا يمكن لهم ولا يسمح لهم أن يحتجوا ويجادلوا في أمر هم أجانب عنه وهم جادلوا في أحكام التوراة والإنجيل سواء أخطؤوا أم أصابوا فليس لهم المحاجة في شأن إبراهيم، الوجه الثاني: أن اليهود ينسبون إلى أحكام التوراة، والنصارى ينسبون إلى أحكام الإنجيل، والتوراة والإنجيل ما أنزلا إلا من بعد إبراهيم، فكيف ينسبون إبراهيم إليهم وهو قبلهم متقدم عليهم، فهل هذا يعقل؟! فلهذا قال ﴿أفلا تعقلون﴾ أي: فلو عقلتم ما تقولون لم تقولوا ذلك، الوجه الثالث: أن الله تعالى برأ خليله من اليهود والنصارى والمشركين، وجعله حنيفاً مسلماً، وجعل أولى الناس به من آمن به من أمته، ﴿وهذا النبي﴾ هو محمد ﷺ ومن آمن معه، فهم الذين اتبعوه وهم أولى به من غيرهم، والله تعالى وليهم وناصرهم ومؤيدهم، وأما من نبذ ملته وراء ظهره كاليهود والنصارى والمشركين، فليسوا من إبراهيم وليس منهم، ولا ينفعهم مجرد الانتساب الخالي من الصواب. وقد اشتملت هذه الآيات على النهي عن المحاجة والمجادلة بغير علم، وأن من تكلم بذلك فهو متكلم في أمر لا يمكن منه ولا يسمح له فيه، وفيها أيضاً حثٌ على علم التاريخ، وأنه طريق لرد كثير من الأقوال الباطلة والدعاوى التي تخالف ما علم من التاريخ، ثم قال تعالى:

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تُشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ تَلَيْسُونَ الْحَقَّ بِالْحَقِّ وَتَكُونُونَ الْحَقَّ وَآخِرُ مَصْرُورٍ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَا يُؤْتِي الْآزِلُ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَآكْفَرُوا ءَاخِرُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهَلْكَاءَ هُدًى لِّلَّهِ أَن يُؤْتِيَ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُعَاجِلْكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلَيْهِمْ ﴿٧٢﴾ يَخْتَصِرَ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٣﴾﴾

﴿٦٩ - ٧٤﴾ يحذر تعالى عباده المؤمنين عن مكر هذه الطائفة الخبيثة من أهل الكتاب، وأنهم يودون أن يضلوكم، كما قال تعالى ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً﴾ ومن المعلوم أن من ود شيئاً سعى بجهدته على تحصيل مراده، فهذه الطائفة تسعى وتبذل جهدها في رد المؤمنين وإدخال الشبه عليهم بكل طريق يقدرون عليه، ولكن من لطف الله أنه لا يحقق المكر السيئ إلا بأهله فلهذا قال تعالى: ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ فسعيهم في إضلال المؤمنين زيادة في ضلال أنفسهم وزيادة عذاب لهم، قال تعالى: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ ﴿وما يشعرون﴾ بذلك أنهم يسعون في ضرر أنفسهم وأنهم لا يضررونكم شيئاً ﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون﴾ أي: ما الذي دعاكم إلى الكفر بآيات الله مع علمكم بأن ما أنتم عليه باطل، وأن ما جاءكم به محمد ﷺ هو الحق الذي لا تشكون فيه، بل تشهدون به ويسر به بعضكم إلى بعض في بعض الأوقات، فهذا نهيمهم عن ضلالهم، ثم

وبخهم على إضلالهم الخلق، فقال ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾ فوبخهم على لبس الحق بالباطل وعلى كتمان الحق، لأنهم بهذين الأمرين يضلون من انتسب إليهم، فإن العلماء إذا لبسوا الحق بالباطل فلم يميزوا بينهما، بل أبقوا الأمر مبهماً وكتموا الحق الذي يجب عليهم إظهاره، ترتب على ذلك من خفاء الحق وظهور الباطل ما ترتب، ولم يهتد العوام الذين يريدون الحق لمعرفة حتى يؤثروا، والمقصود من أهل العلم أن يظهروا للناس الحق ويعلموا به، ويميزوا الحق من الباطل، ويظهروا الخبيث من الطيب، والحلال والحرام، والعقائد الصحيحة من العقائد الفاسدة، ليهتدي المهتدون ويرجع الضالون وتقوم الحجة على المعاندين قال تعالى: ﴿وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم﴾. ثم أخبز تعالى عن ما همت به هذه الطائفة الخبيثة، وإرادة المكر بالمؤمنين، فقال: ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره﴾ أي: ادخلوا في دينهم على وجه المكر والكيد أول النهار، فإذا كان آخر النهار فاخرجوا منه ﴿لعلهم يرجعون﴾ عن دينهم، فيقولون لو كان صحيحاً لما خرج منه أهل العلم والكتاب، هذا الذي أراده عجباً بأنفسهم وظناً أن الناس سيحسون ظنهم بهم ويتابعونهم على ما يقولونه ويفعلونه، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴿و﴾ قال بعضهم لبعض ﴿لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾ أي: لا تثقوا ولا تطمئنوا ولا تصدقوا إلا من تبع دينكم، واكتموا غيرهم^(١)، فإنكم إذا أخبرتم غيركم وغير من هو على دينكم حصل لهم من العلم ما حصل لكم فصاروا مثلكم، أو حاجوكم عند ربكم وشهدوا عليكم أنها قامت عليكم الحجة وتبين لكم الهدى فلم تتبعوه، فالحاصل أنهم جعلوا عدم إخبار المؤمنين بما معهم من العلم قاطعاً عنهم العلم، لأن العلم بزعمهم لا يكون إلا عندهم وموجباً للحجة عليهم، فرد الله عليهم بأن ﴿الهدى هدى الله﴾ فمادة الهدى من الله تعالى لكل من اهتدى، فإن الهدى إما علم الحق، أو إشارته، ولا علم إلا ما جاءت به رسل الله، ولا موفق إلا من وفقه الله، وأهل الكتاب لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً، وأما التوفيق فقد انقطع حظهم منه لخبث نياتهم وسوء مقاصدهم، وأما هذه الأمة فقد حصل لهم والله الحمد من هداية الله من العلوم والمعارف مع العمل بذلك ما فاقوا به وبرزوا على كل أحد، فكانوا هم الهداة الذين يهدون بأمر الله وهذا من فضل الله عليها وإحسانه العظيم، فهذا قال تعالى: ﴿قل إن الفضل بيد الله﴾ أي: الله هو الذي يحسن على عباده بأنواع الإحسان ﴿يؤتيه من يشاء﴾ ممن أتى بأسبابه ﴿والله واسع﴾ الفضل كثير الإحسان ﴿عليم﴾ بمن يصلح للإحسان فيعطيه، ومن لا يستحقه فيحرمه إياه ﴿يختص برحمته من يشاء﴾ أي: برحمته المطلقة التي تكون في الدنيا متصلة بالآخرة وهي نعمة الدين وتماماته ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ الذي لا يصفه الواصفون ولا يخطر بقلب بشر، بل وصل فضله وإحسانه إلى ما وصل إليه علمه، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً.

(١) كذا في الأصل. ولعل الصواب واكتموا أمركم.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمْنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِسْمَةِ وَلَا يُرَكِّبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾

﴿٧٥ - ٧٧﴾ يخبر تعالى عن حال أهل الكتاب في الوفاء والخيانة في الأموال، لما ذكر خيانتهم في الدين ومكرهم وكنهم الحق، فأخبر أن منهم الخائن والأمين، وأن منهم ﴿من إن تأمنه بقنطار﴾ وهو المال الكثير ﴿يؤده﴾ وهو على أداء ما دونه من باب أولى، ومنهم ﴿من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك﴾ وهو على عدم أداء ما فوقة من باب أولى وأخرى، والذي أوجب لهم الخيانة وعدم الوفاء إليكم بأنهم زعموا أنه ﴿ليس﴾ عليهم ﴿في الأمين سبيل﴾ أي: ليس عليهم إثم في عدم أداء أموالهم إليهم، لأنهم بزعمهم الفاسد ورأيهم الكاسد قد احتقروهم غاية الاحتقار، ورأوا أنفسهم في غاية العظمة، وهم الأذلاء الأحقرون، فلم يجعلوا للأمين حرمة، وأجازوا ذلك، فجمعوا بين أكل الحرام واعتقاد حله وكان هذا كذباً على الله، لأن العالم الذي يحلل الأشياء المحرمة قد كان عند الناس معلوم أنه يخبر عن حكم الله ليس يخبر عن نفسه، وذلك هو الكذب، فلماذا قال: ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ وهذا أعظم إثماً من القول على الله بلا علم، ثم رد عليهم زعمهم الفاسد، فقال: ﴿بلى﴾ أي: ليس الأمر كما تزعمون أنه ليس عليكم في الأمين حرج، بل عليكم في ذلك أعظم الحرج وأشد الإثم. ﴿من أوفى بعهده واتقى﴾ والعهد يشمل العهد الذي بين العبد وبين ربه، وهو جميع ما أوجبه الله على العبد من حقه، ويشمل العهد الذي بينه وبين العباد، والتقوى تكون في هذا الموضع، ترجع إلى اتقاء المعاصي التي بين العبد وبين ربه، وبينه وبين الخلق، فمن كان كذلك فإنه من المتقين الذين يحبهم الله تعالى، سواء كانوا من الأمين أو غيرهم، فمن قال ليس علينا في الأمين سبيل، فلم يوف بعهده ولم يتق الله، فلم يكن ممن يحبه الله، بل ممن يبغضه الله، وإذا كان الأمييون قد عرفوا بوفاء العهود ويتقوى الله وعدم التجري على الأموال المحترمة، كانوا هم المحبوبين لله، المتقين الذين أعدت لهم الجنة، وكانوا أفضل خلق الله وأجلهم، بخلاف الذين يقولون ليس علينا في الأمين سبيل، فإنهم داخلون في قوله: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً﴾ ويدخل في ذلك كل من أخذ شيئاً من الدنيا في مقابلة ما تركه من حق الله أو حق عباده، وكذلك من حلف على يمين يقتطع بها مال معصوم فهو داخل في هذه الآية، فهؤلاء ﴿لا خلاق لهم في الآخرة﴾ أي: لا نصيب لهم من الخير ﴿ولا يكلمهم الله﴾ يوم القيامة غضباً عليهم وسخطاً، لتقديمهم هوى أنفسهم على رضا ربهم ﴿ولا يركبهم﴾ أي: يطهرهم من ذنوبهم، ولا يزيل عيوبهم ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي: موجه للقلوب والأبدان، وهو عذاب السخط والحجاب، وعذاب جهنم، نسأل الله العافية.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿٧٨﴾ يخبر تعالى أن من أهل الكتاب فريقاً يلون ألسنتهم بالكتاب، أي: يميلونه ويحرفونه عن المقصود به، وهذا يشمل اللَّي والتحريف لألفاظه ومعانيه، وذلك أن المقصود من الكتاب حفظ ألفاظه وعدم تغييرها، وفهم المراد منها وإفهامه، وهؤلاء عكسوا القضية وأفهموا غير المراد من الكتاب، إما تعريضاً وإما تصريحاً، فالتعريض في قوله: ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي: يلون ألسنتهم ويوهمونكم أنه هو المراد من كتاب الله، وليس هو المراد، والتصريح في قولهم: ﴿ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ وهذا أعظم جرماً ممن يقول على الله بلا علم، هؤلاء يقولون على الله الكذب فيجمعون بين نفي المعنى الحق، وإثبات المعنى الباطل، وتزليل اللفظ الدال على الحق على المعنى الفاسد، مع علمهم بذلك.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْكُفَّةِ وَالنَّيِّبِينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿٧٩ - ٨٠﴾ وهذه الآية نزلت رداً لمن قال من أهل الكتاب للنبي ﷺ لما أمرهم بالإيمان به ودعاهم إلى طاعته: أتريد يا محمد أن نعبدك مع الله؟ فقوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: يمتنع ويستحيل على بشر من الله عليه بإنزال الكتاب وتعليمه ما لم يكن يعلم وإرساله للخلق ﴿أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فهذا من أمحل المحال صدوره من أحد من الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام، لأن هذا أقبح الأوامر على الإطلاق، والأنبياء أكمل الخلق على الإطلاق، فأوامرهم تكون مناسبة لأحوالهم، فلا يأمرهم إلا بعمالي الأمور وهم أعظم الناس نهياً عن الأمور القبيحة، فلهذا قال ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي: ولكن يأمرهم بأن يكونوا ربانيين، أي: علماء حكماء حلماء معلمين للناس ومربيهم، بصغار العلم قبل كباره، عاملين بذلك، فهم يأمرهم بالعمل والعمل والتعليم التي هي مدار السعادة، وبفوات شيء منها يحصل النقص والخلل، والبلاء في قوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعْلَمُونَ...﴾ إلخ، بآء السببية، أي: بسبب تعليمكم لغيركم المتضمن لعلمكم ودرسكم لكتاب الله وسنة نبيه، التي بدرسها يرسخ العلم ويبقى، تكونون ربانيين ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ وهذا تعميم بعد تخصيص، أي: لا يأمركم بعبادة نفسه ولا بعبادة أحد من الخلق من الملائكة والنبيين وغيرهم ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ هذا ما لا يكون ولا يتصور أن يصدر من أحدٍ هذا من الله عليه بالنبوة، فمن قدح في أحد منهم بشيء من ذلك، فقد ارتكب إثماً عظيماً وكفراً وخيماً.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ

لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصَرُنَّهُ، قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾

﴿٨١ - ٨٢﴾ يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق النبيين وعهدهم المؤكد بسبب ما أعطاهم من كتاب الله المنزل، والحكمة الفاصلة بين الحق والباطل والهدى والضلال، إنه إن بعث الله رسولاً مصداقاً لما معهم أن يؤمنوا به ويصدقوه يأخذوا ذلك على أمتهم، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد أوجب الله عليهم أن يؤمن بعضهم ببعض، ويصدق بعضهم بعضاً لأن جميع ما عندهم هو من عند الله، وكل ما من عند الله يجب التصديق به والإيمان، فهم كالشيء الواحد، فعلى هذا قد علم أن محمداً ﷺ هو خاتمهم، فكل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لو أدركوهم لوجب عليهم الإيمان به واتباعه ونصرته، وكان هو إمامهم ومقدمهم ومتبوعهم، فهذه الآية الكريمة من أعظم الدلائل على علو مرتبته وجلالة قدره، وأنه أفضل الأنبياء وسيدهم ﷺ لما قرره تعالى ﴿قالوا أقررنا﴾ أي: قبلنا ما أمرتنا به على الرأس والعين ﴿قال﴾ الله لهم: ﴿فاشهدوا﴾ على أنفسكم وعلى أمتكم بذلك، قال: ﴿وأنا معكم من الشاهدين * فمن تولى بعد ذلك﴾ العهد والميثاق المؤكد بالشهادة من الله ومن رسله ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ فعلى هذا كل من ادعى أنه من أتباع الأنبياء كاليهود والنصارى ومن تبعهم، فقد تولوا عن هذا الميثاق الغليظ، واستحقوا الفسق الموجب للخلود في النار إن لم يؤمنوا بمحمد ﷺ.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ ﴿٨٣﴾

﴿٨٣﴾ أي: أیطلب الطالبون ويرغب الراغبون في غير دين الله؟ لا يحسن هذا ولا يليق، لأنه لا أحسن ديناً من دين الله ﴿وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً﴾ أي: الخلق كلهم منقادون بتسخيره مستسلمون له طوعاً واختياراً، وهم المؤمنون المسلمون المنقادون لعبادة ربهم، وكرهاً وهم سائر الخلق، حتى الكافرون مستسلمون لقضائه وقدره لا خروج لهم عنه، ولا امتناع لهم منه، وإليه مرجع الخلائق كلها، فيحكم بينهم ويجازيهم بحكمه الدائر بين الفضل والعدل.

﴿قُلْ ءَأَمَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿٨٤﴾

﴿٨٤﴾ تقدم نظير هذه الآية في سورة البقرة ثم قال تعالى:

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٨٥﴾

﴿٨٥﴾ أي: من يدين لله بغير دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده، فعمله مردود غير مقبول، لأن دين الإسلام هو المتضمن للاستسلام لله، إخلاصاً وانقياداً لرسله فما لم يأت به العبد لم يأت بسبب النجاة من عذاب الله والفوز بشوابه، وكل دين سواه فباطل، ثم قال تعالى:

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٦) ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَكِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٧) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخَفُّ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (٨٨)

﴿٨٦ - ٨٨﴾ هذا من باب الاستبعاد، أي: من الأمر البعيد أن يهدي الله قوماً اختاروا الكفر والضلال بعدما آمنوا وشهدوا أن الرسول حق بما جاءهم به من الآيات البينات والبراهين القاطعات ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ فهؤلاء ظلموا وتركوا الحق بعدما عرفوه، واتبعوا الباطل مع علمهم ببطلانه ظلماً وبغياً واتباعاً لأهوائهم، فهؤلاء لا يوفقون للهداية، لأن الذي يرجى أن يهدي هو الذي لم يعرف الحق وهو حريص على التماسه، فهذا بالحرى أن ييسر الله له أسباب الهداية ويصونه من أسباب الغواية، ثم أخبر عن عقوبة هؤلاء المعاندين الظالمين الدنيوية والأخروية، فقال: ﴿أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين * خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾ أي: لا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا لحظة، لا يبالته أو إزالة بعض شدته، ﴿ولا هم ينظرون﴾ أي: يمهلون، لأن زمن الإمهال قد مضى، وقد أَعْزَلَ الله منهم وعمرهم ما يتذكر فيه من تذكر، فلو كان فيهم خير لوجد، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الصَّاكُونَ﴾ (٨٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٩٠)

﴿٩٠ - ٩١﴾ يخبر تعالى أن من كفر بعد إيمانه، ثم ازداد كفراً إلى كفره بتماده في الغي والضلال، واستمراره على ترك الرشد والهدى، أنه لا تقبل توبتهم، أي: لا يوفقون لتوبة تقبل بل يمدهم الله في طغيانهم يعمهون، قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ ﴿فلما زغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ فالسيئات ينتج بعضها بعضاً، وخصوصاً لمن أقدم على الكفر العظيم وترك الصراط المستقيم، وقد قامت عليه الحجة ووضح الله له الآيات والبراهين، فهذا هو الذي سعى في قطع أسباب رحمة ربه عنه، وهو الذي سد على نفسه باب التوبة، ولهذا حصر الضلال في هذا الصنف، فقال ﴿وأولئك هم الضالون﴾ وأي: ضلال أعظم من ضلال من ترك الطريق عن بصيرة، وهؤلاء الكفرة إذا استمروا على كفرهم إلى الممات تعين هلاكهم وشقاؤهم الأبدي، ولم ينفعهم شيء، فلو أنفق أحدهم ملء الأرض ذهباً ليفتدي به من عذاب الله ما نفعه ذلك، بل لا يزالون في العذاب الأليم، لا شافع له ولا ناصر ولا مغيث ولا مجير ينقذهم من عذاب الله فأيسوا من كل خير، وجزموا على الخلود الدائم في العقاب والسخط، فعياًذاً بالله من حالهم.

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَوْمَ عِلْمِهِ﴾ (٩١)

﴿٩٢﴾ هذا حث من الله لعباده على الإنفاق في طرق الخيرات، فقال: ﴿لَنْ تَنَالُوا﴾ أي:

تدركوا وتبلغوا البر الذي هو كل خير من أنواع الطاعات وأنواع المثوبات الموصل لصاحبه إلى الجنة، ﴿حتى تنفقوا مما تحبون﴾ أي: من أموالكم النفيسة التي تحبها نفوسكم، فإنكم إذا قدمتم محبة الله على محبة الأموال فبذلتموها في مرضاته، دل ذلك على إيمانكم الصادق وبر قلوبكم ويقين تقواكم، فيدخل في ذلك إنفاق نفائس الأموال، والإنفاق في حال حاجة المنفق إلى ما أنفقه، والإنفاق في حال الصحة، ودلت الآية أن العبد بحسب إنفاقه للمحوبات يكون بره، وأنه ينقص من بره بحسب ما نقص من ذلك، ولما كان الإنفاق على أي وجه كان مثاباً عليه العبد، سواء كان قليلاً أو كثيراً، محبوباً للنفس أم لا، وكان قوله: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ مما يوهم أن إنفاق غير هذا المقيد غير نافع، احتراز تعالى عن هذا الوهم بقوله: ﴿وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم﴾ فلا يضيق عليكم، بل يشيكم عليه على حسب نياتكم ونفعه.

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ۚ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ ۖ فَمَنْ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ قُلْ فَلِلَّهِ الْغَلْبُ ۖ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾

﴿٩٣ - ٩٥﴾ وهذا رد على اليهود يزعمهم الباطل أن النسخ غير جائز، فكفروا بعباسي ومحمد صلى الله عليه وسلم، لأنهما قد أتيا بما يخالف بعض أحكام التوراة بالتحليل والتحريم فمن تمام الإنصاف في المجادلة إلزامهم بما في كتابهم التوراة من أن جميع أنواع الأطعمة محللة لبني إسرائيل ﴿إلا ما حرم إسرائيل﴾ وهو يعقوب عليه السلام ﴿على نفسه﴾ أي: من غير تحريم من الله تعالى، بل حرمه على نفسه لما أصابه عرق النسا نذر لئن شفاه الله تعالى ليحرم من أحب الأطعمة عليه، فحرم فيما يذكرون لحوم الإبل والبانها وتبعه بنوه على ذلك وكان ذلك قبل نزول التوراة، ثم نزل في التوراة أشياء من المحرمات غير ما حرم إسرائيل مما كان حلالاً لهم طيباً، كما قال تعالى: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾ وأمر الله رسوله إن أنكروا ذلك أن يأمرهم بإحضار التوراة، فاستمروا بعد هذا على الظلم والعناد، فلهذا قال تعالى: ﴿فمن افتري على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون﴾ وأي: ظلم أعظم من ظلم من يدعي إلى تحكيم كتابه فيمتنع من ذلك عناداً وتكبراً وتجبراً، وهذا من أعظم الأدلة على صحة نبوة نبينا محمد ﷺ وقيام الآيات البينات المتنوعات على صدقه وصدق من نبأه وأخبره بما أخبره به من الأمور التي لا يعلمها إلا بإخبار ربه له بها، فلهذا قال تعالى: ﴿قل صدق الله﴾ أي: فيما أخبر به وحكم، وهذا أمر من الله لرسوله ولمن يتبعه أن يقولوا بألستهم: صدق الله، معتقدين بذلك في قلوبهم عن أدلة يقينية، مقيمين هذه الشهادة على من أنكرها، ومن هنا تعلم أن أعظم الناس تصديقاً لله أعظمهم علماً و يقيناً بالأدلة التفصيلية السمعية والعقلية، ثم أمرهم باتباع ملة أبيهم إبراهيم عليه السلام بالتوحيد وترك الشرك الذي هو مدار السعادة، وبتركه حصول الشقاوة، وفي هذا دليل على أن اليهود وغيرهم ممن ليس على ملة إبراهيم مشركون غير موحدين، ولما أمرهم باتباع

ملّة إبراهيم في التوحيد وترك الشرك؛ أمرهم باتباعه بتعظيم بيته الحرام بالحج وغيره، فقال:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

﴿٩٦ - ٩٧﴾ يخبر تعالى عن شرف هذا البيت الحرام، وأنه أول بيت وضعه الله للناس، يتعبدون فيه لربهم فتغفر أوزارهم، وتقال عثارهم، ويحصل لهم به من الطاعات والقربات ما ينالون به رضى ربهم والفوز بثوابه والنجاة من عقابه، ولهذا قال: ﴿مباركاً﴾ أي: فيه البركة الكثيرة في المنافع الدينية والدنيوية كما قال تعالى: ﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ ﴿وهدى للعالمين﴾ والهدى نوعان: هدى في المعرفة، وهدى في العمل، فالهدى في العمل ظاهر، وهو ما جعل الله فيه من أنواع التعبّدات المختصة به، وأما هدى العلم فيما يحصل لهم بسببه من العلم بالحق بسبب الآيات البينات التي ذكر الله تعالى في قوله: ﴿فيه آيات بينات﴾ أي: أدلة واضحات، وبراهين قاطعات على أنواع من العلوم الإلهية والمطالب العالية، كالأدلة على توحيده ورحمته وحكمته وعظمته وجلاله وكمال علمه وسعة جوده، وما من به على أوليائه وأنبيائه، فمن الآيات ﴿مقام إبراهيم﴾ يحتمل أن المراد به المقام المعروف وهو الحجر الذي كان يقوم عليه الخليل لبيان الكعبة لما ارتفع البنيان، وكان ملصقاً في جدار الكعبة، فلما كان عمر رضى الله عنه وضعه في مكانه الموجود فيه الآن، والآية فيه قبل أثر قدمي إبراهيم، قد أثرت في الصخرة وبقي ذلك الأثر إلى أوائل هذه الأمة، وهذا من خوارق العادات، وقيل إن الآية فيه ما أودعه الله في القلوب من تعظيمه وتكريمه وتشريفه واحترامه، ويحتمل أن المراد بمقام إبراهيم أنه مفرد مضاف يراد به مقاماته في مواضع المناسك كلها، فيكون على هذا جميع أجزاء الحج ومفرداته آيات بينات، كالطواف والسعي ومواضعها، والوقوف بعرفة ومزدلفة، والرمي، وسائر الشعائر، والآية في ذلك ما جعله الله في القلوب من تعظيمها واحترامها وبذل نفائس النفوس والأموال في الوصول إليها وتحمل كل مشقة لأجلها، وما في ضمنها من الأسرار البديعة والمعاني الرفيعة، وما في أفعالها من الحكم والمصالح التي يعجز الخلق عن إحصاء بعضها، ومن الآيات البينات فيها أن من دخله كان آمناً شرعاً وقدرّاً، فالشرع قد أمر الله ورسوله إبراهيم ثم رسوله محمد باحترامه وتأمين من دخله، وأن لا يهاج، حتى إن التحريم في ذلك شمل صيودها وأشجارها ونباتها، وقد استدلل بهذه الآية من ذهب من العلماء أن من جنى جناية خارج الحرم ثم لجأ إليه أنه يأمن ولا يقام عليه الحد حتى يخرج منه، وأما تأمينها قدرّاً فلأن الله تعالى بقضائه وقدره وضع في النفوس حتى نفوس المشركين به الكافرين بربهم احترامه، حتى إن الواحد منهم مع شدة حميتهم ونعرتهم وعدم احتمالهم للضيم يجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم فلا يهيجه، ومن جعله حرماً أن كل من أراده بسوء فلا بد أن يعاقبه عقوبة عاجلة، كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم، وقد رأيت لابن القيم ههنا كلاماً حسناً أحببت إيراده لشدة الحاجة إليه قال فائدة: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾ «حج

البيت» مبتدأ وخبره في أحد المجرورين قبله، والذي يقتضيه المعنى أن يكون في قوله: «على الناس» لأنه وجوب، والوجوب يقتضي «على»، ويجوز أن يكون في قوله: «ولله» لأنه متضمن الوجوب والاستحقاق، ويرجح هذا التقدير أن الخبر محط الفائدة وموضعها، وتقديمه في هذا الباب في نية التأخير، فكان الأحسن أن يكون «ولله على الناس»، ويرجح الوجه الأول بأن يقال قوله: «حج البيت على الناس» أكثر استعمالاً في باب الوجوب من أن يقال: «حج البيت لله» أي: حق واجب لله، فتأمل، وعلى هذا ففي تقديم المجرور الأول وليس بخبر فائدتان: إحداهما: أنه اسم للموجب للحج، فكان أحق بالتقديم من ذكر الوجوب، فتضمنت الآية ثلاثة أمور مرتبة بحسب الوقائع: أحدها: الموجب لهذا الفرض فبدأ بذكره، والثاني: مؤدي الواجب وهو المفترض عليه وهم الناس، والثالث: النسبة، والحق المتعلق به إيجاباً وبهم وجوباً وأداءً، وهو الحج.

والفائدة الثانية: أن الاسم المجرور من حيث كان اسماً لله سبحانه، وجب الاهتمام بتقديمه تعظيماً لحرمة هذا الواجب الذي أوجبه، وتخويفاً من تضييعه، إذ ليس ما أوجبه الله سبحانه بمثابة ما يوجبه غيره.

وأما قوله: «مَنْ» فهي بدل، وقد استهوى طائفة من الناس القول بأنها فاعل بالمصدر، كأنه قال: أن يحج البيت من استطاع إليه سبيلاً، وهذا القول يضعف من وجوه، منها: أن الحج فرض عين، ولو كان معنى الآية ما ذكره لأفهم فرض الكفاية، لأنه إذا حج المستطيعون برئت ذمم غيرهم، لأن المعنى يؤول إلى: والله على الناس حج البيت مستطيعهم، فإذا أدى المستطيعون الواجب لم يبق واجباً على غير المستطيعين، وليس الأمر كذلك، بل الحج فرض عين على كل أحد، حج المستطيعون أو قعدوا، ولكن الله سبحانه عذر غير المستطيع بعجزه عن أداء الواجب، فلا يؤاخذ به ولا يطالبه بأدائه، فإذا حج سقط الفرض عن نفسه، وليس حج المستطيعين بمسقط الفرض عن العاجزين، وإذا أردت زيادة إيضاح، فإذا قلت: واجب على أهل هذه الناحية أن يجاهد منهم الطائفة المستطيعون للجهاد، فإذا جاهدت تلك الطائفة انقطع تعلق الوجوب في غيرهم، وإذا قلت واجب على الناس كلهم أن يجاهد منهم المستطيع، كان الوجوب متعلقاً بالجميع وعذر العاجز بعجزه، ففي نظم الآية على هذا الوجه دون أن يقال: والله حج البيت على المستطيعين، هذه النكتة البديعة فتأملها.

الوجه الثاني: أن إضافة المصدر إلى الفاعل إذا وجد أولى من إضافته إلى المفعول ولا يعدل عن هذا الأصل إلا بدليل منقول، فلو كان مَنْ هو الفاعل لأضيف المصدر إليه فكان يقال: «ولله على الناس حج البيت من استطاع» وحمله على باب «يعجبني ضرب زيد عمراً» وفيما يفصل فيه بين المصدر وفاعله المضاف إليه بالمفعول والظرف حمل على المكتوب المرجوح، وهي قراءة ابن عامر (قتل أولادهم شركائهم)، فلا يصار إليه. وإذا ثبت أن «من» بدل بعض من كل وجب أن يكون في الكلام ضمير يعود إلى «الناس» كأنه قيل: من استطاع منهم، وحذف هذا الضمير في أكثر الكلام لا يحسن، وحسنه ههنا أمور منها: أن «من» واقعة على من لا يعقل، كالاسم المبدل منه فارتبطت به، ومنها: أنها موصولة بما هو أخص من

الاسم الأول، ولو كانت الصلة أعم لقبح حذف الضمير العائد، ومثال ذلك إذا قلت: رأيت إخوانك، من ذهب إلى السوق منهم، كان قبيحاً، لأن الذهاب إلى السوق أعم من الإخوة، وكذلك لو قلت: البس الثياب ما حسن وجمل، يريد منها، ولم يذكر الضمير كان أبعد في الجواز، لأن لفظ ما حسن أعم من الثياب.

وباب البعض من الكل أن يكون أخص من المبدل منه، فإذا كان أعم وأضيفته إلى ضمير أو قيدته بضمير يعود إلى الأول ارتفع العموم وبقي الخصوص، ومما حسن حذف المضاف في هذه أيضاً مع ما تقدم طول الكلام بالصلة والموصول.

وأما المجرور من قوله «الله» فيحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون في موضع في سبيل، كأنه نعت نكرة قدم عليها، لأنه لو تأخر لكان في موضع النعت لسبيل، والثاني: أن يكون متعلقاً بسبيل، فإن قلت: كيف يتعلق به وليس فيه معنى الفعل؟ قيل: السبيل لما كان ههنا عبارة عن الموصول إلى البيت من قوت وزاد ونحوهما، كان فيه رائحة الفعل، ولم يقصد به السبيل الذي هو الطريق، فصلح تعلق المجرور به، واقتضى حسن النظم وإعجاز اللفظ تقديم المجرور وإن كان موضعه التأخير، لأنه ضمير يعود على البيت، والبيت هو المقصود به الاعتناء، وهم يقدمون في كلامهم ما هم به أهم وبيانه أعني هذا تقرير السهيلي، وهذا بعيد جداً بل الصواب في متعلق الجار والمجرور وجه آخر أحسن من هذين، ولا يليق بالآية سواه، وهو الوجوب المفهوم من قوله «على الناس»، أي: يجب لله على الناس الحج، فهو حق واجب لله، وأما تعليقه بالسبيل وجعله حالاً منها، ففي غاية البعد فتأمل، ولا يكاد يخطر بالبال من الآية، وهذا كما تقول: لله عليك الصلاة والزكاة والصيام.

ومن فوائد الآية وأسرارها أنه سبحانه إذا ذكر ما يوجبه ويحرمه يذكره بلفظ الأمر والنهي، وهو الأكثر، وبلغف الإيجاب والكتابة والتحريم نحو «كتب عليكم الصيام» «حرمت عليكم الميتة» «قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم» وفي الحج أتى بهذا اللفظ الدال على تأكد الوجوب من عشرة أوجه، أحدها أنه قدم اسمه تعالى وأدخل عليه لام الاستحقاق والاختصاص ثم ذكر من أوجبه عليهم بصيغة العموم الداخلة عليها حرف على أبداً منه أهل الاستطاعة، ثم نكر السبيل في سياق الشرط إيذاناً بأنه يجب الحج على أي: سبيل تيسرت، من قوة أو مال، فعلق الوجوب بحصول ما يسمى سبيلاً، ثم أتبع ذلك بأعظم التهديد بالكفر فقال: «ومن كفر» أي: لعدم التزامه هذا الواجب وتركه ثم عظم الشأن وأكد الوعيد بإخباره ما يستغنى به عنه، والله تعالى هو الغني الحميد، ولا حاجة به إلى حج أحد، وإنما في ذكر استغنائه عنه هنا من الإعلام بمقته له وسخطه عليه وإعراضه بوجهه عنه ما هو أعظم التهديد وأبلغه، ثم أكد ذلك بذكر اسم «العالمين» عموماً، ولم يقل: فإن الله غني عنه، لأنه إذا كان غنياً عن العالمين كلهم فله الغنى الكامل التام من كل وجه بكل اعتبار، فكان أدل لعظم مقته لتارك حقه الذي أوجبه عليه، ثم أكد هذا المعنى بأداة «إن» الدالة على التأكيد، فهذه عشرة أوجه تقتضي تأكد هذا الفرض العظيم.

وتأمل سر البذل في الآية المتقضي لذكر الإسناد مرتين، مرة بإسناده إلى عموم الناس،

ومرة بإسناد إلى خصوص المستطيعين، وهذا من فوائد البديل تقوية المعنى وتأكيده بتكرار الإسناد ولهذا كان في نية تكرار العامل وإعادته.

ثم تأمل ما في الآية من الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال، وكيف تضمن ذلك إيراد الكلام في صورتين وخلتين، اعتناء به وتأكيده لشأنه، ثم تأمل كيف افتتح هذا الإيجاب بذكر محاسن البيت وعظم شأنه بما تدعو النفوس إلى قصده وحجه وإن لم يطلب ذلك منها، فقال: ﴿إن أول بيت...﴾ إلخ، فوصفه بخمس صفات: أحدها كونه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض، الثاني: أنه مبارك، والبركة كثرة الخير ودوامه، وليس في بيوت العالم أبرك منه ولا أكثر خيراً ولا أدام ولا أنفع للخلائق، الثالث: أنه هدى ووصفه بالمصدر نفسه مبالغة، حتى كأنه نفس الهدى، الرابع ما تضمن من الآيات البينات التي تزيد على أربعين آية، الخامس: الأمن الحاصل لداخله، وفي وصفه بهذه الصفات دون إيجاب قصده ما يبعث النفوس على حجه وإن شطت بالزائرين الديار وتناءت بهم الأقطار، ثم أتبع ذلك بصريح الوجوب المؤكد بتلك التأكيدات، وهذا يدل على الاعتناء منه سبحانه لهذا البيت العظيم، والتنويه بذكره، والتعظيم لشأنه والرفعة من قدره، ولو لم يكن له شرف إلا إضافته إياه إلى نفسه بقوله ﴿وطهر بيتي﴾ لكفى بهذه الإضافة فضلاً وشرفاً، وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه، وسلبت نفوسهم حباله وشوقاً إلى رؤيته، فهذه المثابة للمحبين يثوبون إليه ولا يقضون منه وطراً أبداً، كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا له حباً وإليه اشتياقاً، فلا الوصال يشفيهم ولا البعاد يسليهم، كما قيل:

إليه وهل بعد الطواف تداني
بقلبي من شوق ومن هيمان
ولا القلب إلا كثرة الخفقان
ويا منيتي من دون كل أمان
إليك فما لي بالبعد يدان
ولي شاهد من مقلتي ولسان
فلبى البكا والصبر عنك عصاني
سيبلى هواه بعد طول زمان
دواء الهوى في الناس كل زمان
حاله لم يبلى الملووان^(١)

أطوف به والنفس بعد مشوقة
وألثم منه الركن أطلب برد ما
فوالله ما ازداد إلا صباية
فيا جنة المأوى ويا غاية المنى
أبت غلبات الشوق إلا تقربا
وما كان صدي عنك صد ملالة
دعوت اصطباري عنك بعدك والبكا
وقد زعموا أن المحب إذا نأى
ولو كان هذا الزعم حقاً لكان ذا
بلى إنه يبلى والهوى على

(١) في الهامش: (لعل صواب هذا البيت قوله:

بلى إنه يُبلى المحب وإنه

وفي بدائع الفوائد (٤٦/٢):

بلى إنه يبلى التصبر والهوى

على حاله لم يبلى الملووان)

على حاله لم يبلى الملووان

وهذا محب قاده الشوق والهوى
أتاك على بعد المزار ولو ونت
انتهى كلامه رحمه الله تعالى^(١):

﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٨) ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٩) ﴿يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ ءَاتَوَا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ (١٠٠) ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُم ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (١٠١)

﴿٩٨ - ١٠١﴾ يوبخ تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى على كفرهم بآيات الله التي أنزلها الله على رسله، التي جعلها رحمة لعباده يهتدون بها إليه، ويستدلون بها على جميع المطالب المهمة والعلوم النافعة، فهؤلاء الكفرة جمعوا بين الكفر بها وصد من آمن بالله عنها وتحريفها وتعيوجها عما جعلت له، وهم شاهدون بذلك عالمون بأن ما فعلوه أعظم الكفر الموجب لأعظم العقوبة ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ فلهذا توعدهم هنا بقوله: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ بل محيط بأعمالهم^(٢) ونياتكم ومكركم السيئ، فمجازيكم عليه أشد الجزاء، لما توعدهم ووبخهم عطف برحمته وجوده وإحسانه وحذر عباده المؤمنين منهم لئلا يمكروا بهم من حيث لا يشعرون فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ وذلك لحسدكم لكم وبغيهم عليكم، وشدة حرصهم على ردكم عن دينكم، كما قال تعالى: ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾ ثم ذكر تعالى السبب الأعظم والموجب الأكبر لثبات المؤمنين على أيمانهم، وعدم تزلزلهم عن إيقانهم، وأن ذلك من أبعد الأشياء، فقال: ﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾ أي: الرسول بين أظهركم يتلو عليكم آيات ربكم كل وقت، وهي الآيات البينات التي توجب القطع بموجبها والجزم بمقتضاها وعدم الشك فيما دلت عليه بوجه من الوجوه خصوصاً والمبين لها أفضل الخلق وأعلمهم وأفصحهم وأنصحهم وأرأفهم بالمؤمنين، الحريص على هداية الخلق وإرشادهم بكل طريق يقدر عليه، فصلوات الله وسلامه عليه، فلقد نصح وبلغ البلاغ المبين، فلم يبق في نفوس القائلين مقالاً ولم يترك لجائل في طلب الخير مجالاً، ثم أخبر أن من اعتصم به فتوكل عليه وامتنع بقوته ورحمته عن كل شر، واستعان به على كل خير ﴿فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾ موصل له إلى غاية المرغوب، لأنه جمع بين اتباع الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله وبين الاعتصام بالله.

(١) بدائع الفوائد (٤٦/٢).

(٢) كذا في الأصل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٢) ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٠٣)

﴿١٠٢ - ١٠٣﴾ هذا أمر من الله لعباده المؤمنين أن يتقوه حق تقواه، وأن يستمروا على ذلك ويشبثوا عليه ويستقيموا إلى الممات، فإن من عاش إلى شيء مات عليه، فمن كان في حال صحته ونشاطه وإمكانه مداوماً لتقوى ربه وطاعته، منيباً إليه على الدوام، ثبته الله عند موته ورزقه حسن الخاتمة، وتقوى الله حق تقواه كما قال ابن مسعود: وهو أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، وهذه الآية بيان لما يستحقه تعالى من التقوى، وأما ما يجب على العبد منها، فكما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ وتفصيل التقوى المتعلقة بالقلب والجوارح كثيرة جداً، يجمعها فعل ما أمر الله به وترك كل ما نهى الله عنه، ثم أمرهم تعالى بما يعينهم على التقوى وهو الاجتماع والاعتصام بدين الله، وكون دعوى المؤمنين واحدة مؤتلفين غير مختلفين، فإن في اجتماع المسلمين على دينهم، واتلاف قلوبهم يصلح دينهم وتصلح دنياهم وبالاتحاد يمكن من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الاتلاف ما لا يمكن عداها، من التعاون على البر والتقوى، كما أن بالاتفاق والتعادي يختل نظامهم وتنقطع روابطهم ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه، ولو أدى إلى الضرر العام، ثم ذكرهم تعالى نعمته وأمرهم بذكرها فقال: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذَا كُنْتُمْ أَعْدَاءً﴾ يقتل بعضكم بعضاً، ويأخذ بعضكم مال بعض، حتى إن القبيلة يعادي بعضهم بعضاً، وأهل البلد الواحد يقع بينهم التعادي والافتتال، وكانوا في شر عظيم، وهذه حالة العرب قبل بعثة النبي ﷺ فلما بعثه الله وآمنوا به واجتمعوا على الإسلام وتألفت قلوبهم على الإيمان كانوا كالشخص الواحد، من تألف قلوبهم وموالات بعضهم لبعض، ولهذا قال: ﴿فَالْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ أي: قد استحققت النار ولم يبق بينكم وبينها إلا أن تموتوا فتدخلوها ﴿فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ بما من عليكم من الإيمان بمحمد ﷺ ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: يوضحها ويفسرهما، ويبين لكم الحق من الباطل، والهدى من الضلال ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بمعرفة الحق والعمل به، وفي هذه الآية ما يدل أن الله يحب من عباده أن يذكروا نعمته بقلوبهم وألسنتهم ليزدادوا شكراً له ومحبة، وليزيدهم من فضله وإحسانه، وإن من أعظم ما يذكر من نعمه نعمة الهداية إلى الإسلام، واتباع الرسول ﷺ واجتماع كلمة المسلمين وعدم تفرقها.

﴿وَلَنْتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٤) ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠٥)

﴿١٠٤ - ١٠٥﴾ أي: وليكن منكم أيها المؤمنون الذين من الله عليهم بالإيمان والاعتصام بحبله ﴿أُمَّةٌ﴾ أي: جماعة ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ وهو اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله ويبعد من سخطه ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو ما عرف بالعقل والشرع حسنه ﴿وَيَنْهَوْنَ

عن المنكر ﴿ وهو ما عرف بالشرع والعقل قبحه، وهذا إرشاد من الله للمؤمنين أن يكون منهم جماعة متصدية للدعوة إلى سبيله وإرشاد الخلق إلى دينه، ويدخل في ذلك العلماء المعلمون للدين، والوعاظ الذين يدعون أهل الأديان إلى الدخول في دين الإسلام، ويدعون المنحرفين إلى الاستقامة، والمجاهدون في سبيل الله، والمتصدون لتفقد أحوال الناس وإلزامهم بالشرع كالصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام، وكثفت المكايل والموازين وتفقّد أهل الأسواق ومنعهم من الغش والمعاملات الباطلة، وكل هذه الأمور من فروض الكفايات كما تدل عليه الآية الكريمة في قوله: ﴿ولكن منكم أمة...﴾ إلخ أي: لتكون منكم جماعة يحصل المقصود بهم في هذه الأشياء المذكورة، ومن المعلوم المتقرر أن الأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلّا به فكل ما تتوقف هذه الأشياء عليه فهو مأمور به، كالاستعداد للجهاد بأنواع العدد التي يحصل بها نكاية الأعداء وعز الإسلام، وتعلم العلم الذي يحصل به الدعوة إلى الخير وسائلها ومقاصدها، وبناء المدارس للإرشاد والعلم، ومساعدة النواب ومعاونتهم على تنفيذ الشرع في الناس بالقول والفعل والمال، وغير ذلك مما تتوقف هذه الأمور عليه، وهذه الطائفة المستعدة للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم خواص المؤمنين، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ الفائزون بالمطلوب، الناجون من المرهوب، ثم نهاهم عن التشبه بأهل الكتاب في تفرقهم واختلافهم، فقال: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا﴾ ومن العجائب أن اختلافهم ﴿من بعد ما جاءهم البينات﴾ الموجبة لعدم التفرق والاختلاف، فهم أولى من غيرهم بالاعتصام بالدين، فعكسوا القضية مع علمهم بمخالفتهم أمر الله، فاستحقوا العقاب البليغ ولهذا قال تعالى: ﴿وأولئك لهم عذاب عظيم﴾.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ الْحَقُّ وَرَأَى اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾

﴿١٠٦ - ١٠٨﴾ يخبر تعالى عن حال يوم القيامة وما فيه من آثار الجزاء بالعدل والفضل، ويتضمن ذلك الترغيب والترهيب الموجب للخوف والرجاء فقال: ﴿يوم تبيض وجوه﴾ وهي وجوه أهل السعادة والخير، أهل الائتلاف والاعتصام بحبل الله ﴿وتسود وجوه﴾ وهي وجوه أهل الشقاوة والشر، أهل الفرقة والاختلاف، هؤلاء اسودت وجوههم بما في قلوبهم من الخزي والهوان والذلة والفضيحة، وأولئك ابيضت وجوههم، لما في قلوبهم من البهجة والسرور والنعيم والحبور الذي ظهرت آثاره على وجوههم كما قال تعالى: ﴿ولقاهم نضرة وسرورا﴾ نضرة في وجوههم وسروراً في قلوبهم، وقال تعالى: ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ ﴿فأما الذين اسودت وجوههم﴾ فيقال لهم على وجه التوبيخ والتفريع: ﴿أكفرتم بعد إيمانكم﴾ أي: كيف آترتم الكفر والضلال على

الإيمان والهدى؟ وكيف تركتم سبيل الرشاد وسلكتم طريق الغي؟ ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فليس يليق بكم إلا النار، ولا تستحقون إلا الخزي والفضيحة والعار ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ﴾ فيهنون أكمل تهنئة ويبشرون أعظم بشارة، وذلك أنهم يبشرون بدخول الجنات ورضا ربهم ورحمته ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وإذا كانوا خالدين في الرحمة، فالجنة أثر من آثار رحمته تعالى، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، في جوار أرحم الراحمين، لما بين الله لرسوله ﷺ الأحكام الأمرية والأحكام الجزائية قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا﴾ أي: نقصها ﴿عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ لأن أوامره ونواهيه مشتملة على الحكمة والرحمة، وثوابها وعقابها كذلك مشتمل على الحكمة والرحمة والعدل الخالي من الظلم، ولهذا قال: ﴿وَمَا اللَّهُ يَرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ نفى إرادته ظلمهم فضلاً عن كونه يفعل ذلك فلا ينقص أحداً شيئاً من حسناته، ولا يزيد في ظلم الظالمين، بل يجازيهم بأعمالهم فقط، ثم قال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلِلَّهِ تَرْجِعُ الْأَمْوٰرُ ۝١٠٩﴾

﴿١٠٩﴾ أي: هو المالك لما في السماوات وما في الأرض، الذي خلقهم ورزقهم ويتصرف فيهم بقدره وقضائه، وفي شرعه وأمره، وإليه يرجعون يوم القيامة فيجازيهم بأعمالهم حسنها وسيئها.

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَرَ أَهْلَ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ۝١١٠﴾ لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يَفْتِنُوكُمْ يُولُوكُمُ الْأَذْيَارَ ثُمَّ لَا يَضُرُّوكُمْ ۝١١١ ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ إِنْ مَا تَفَقَّهُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَيَأْخُذُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝١١٢﴾

﴿١١٠ - ١١٢﴾ يمدح تعالى هذه الأمة ويخبر أنها خير الأمم التي أخرجها الله للناس، وذلك بتكميلهم لأنفسهم بالإيمان المستلزم للقيام بكل ما أمر الله به، وبتكميلهم لغيرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المتضمن دعوة الخلق إلى الله وجهادهم على ذلك وبذل المستطاع في ردهم عن ضلالهم وغيهم وعصيانهم، فبهذا كانوا خير أمة أخرجت للناس، لما كانت الآية السابقة وهي قوله: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أمراً منه تعالى لهذه الأمة، والأمر قد يمثل المأمور ويقوم به، وقد لا يقوم به، أخبر في هذه الآية أن الأمة قد قامت بما أمرها الله بالقيام به، وامثلت أمر ربها واستحقت الفضل على سائر الأمم ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ وفي هذا من دعوته بلطف الخطاب ما يدعوهم إلى الإيمان، ولكنه لم يؤمن منهم إلا قليل، وأكثرهم الفاسقون الخارجون عن طاعة الله المعادون لأوليائه الله بأنواع العداوة، ولكن من لطف الله بعباده المؤمنين أنه رد كيدهم في نحورهم، فليس على المؤمنين منهم ضرر في أديانهم ولا

أبدانهم، وإنما غاية ما يصلون إليه من الأذى أذية الكلام التي لا سبيل إلى السلامة منها من كل معادي، فلو قاتلوا المؤمنين لولوا الأدبار فراراً ثم تستمر هزيمتهم ويدوم ذلهم ولا هم ينصرون في وقت من الأوقات، ولهذا أخبر تعالى أنه عاقبهم بالذلة في بواطنهم والمسكنة على ظواهرهم، فلا يستقرون ولا يطمئنون ﴿إلا بحبل﴾ أي: عهد ﴿من الله وحبل من الناس﴾ فلا يكون اليهود إلا تحت أحكام المسلمين وعهدهم، تؤخذ منهم الجزية ويستذلون، أو تحت أحكام النصراني وقد ﴿باؤوا﴾ مع ذلك ﴿بغضب من الله﴾ وهذا أعظم العقوبات، والسبب الذي أوصلهم إلى هذه الحال ذكره الله بقوله: ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله التي أنزلها الله على رسوله محمد ﷺ الموجبة لليقين والإيمان، فكفروا بها بغياً وعناداً﴾ ويقتلون الأنبياء بغير حق ﴿أي: يقابلون أنبياء الله الذين يحسنون إليهم أعظم إحسان بأشر مقابلة، وهو القتل، فهل بعد هذه الجراءة والجناية شيء أعظم منها، وذلك كله بسبب عصيانهم واعتدائهم، فهو الذي جرأهم على الكفر بالله وقتل أنبياء الله، ثم قال تعالى:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتَ اللَّهِ فَإِذَا دُخِلَ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللَّهِ وَلَهُمْ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَتَزَمَّرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أُوْسرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿١١٥﴾﴾

﴿١١٣ - ١١٥﴾ لما بين تعالى الفرق الفاسقة من أهل الكتاب وبين أفعالهم وعقوباتهم، بين ههنا الأمة المستقيمة، وبين أفعالها وثوابها، فأخبر أنهم لا يستون عنده، بل بينهم من الفرق ما لا يمكن وصفه، فأما تلك الطائفة الفاسقة فقد مضى وصفهم، وأما هؤلاء المؤمنون، فقال تعالى: منهم ﴿أمة قائمة﴾ أي: مستقيمة على دين الله، قائمة بما ألزمها الله به من الأمور، ومن ذلك قيامها بالصلاة ﴿يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ وهذا بيان لصلاتهم في أوقات الليل وطول تهجدهم وتلاوتهم لكتاب ربهم وإيثارهم الخضوع والركوع والسجود له ﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ أي: كإيمان المؤمنين إيماناً يوجب لهم الإيمان بكل نبي أرسله، وكل كتاب أنزله الله، وخص الإيمان باليوم الآخر لأن الإيمان الحقيقي باليوم الآخر يحث المؤمن به على ما يقر به إلى الله، ويثاب عليه في ذلك اليوم، وترك كل ما يعاقب عليه في ذلك اليوم ﴿ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ فحصل منهم تكميل أنفسهم بالإيمان ولوازمه، وتكميل غيرهم بأمرهم بكل خير، ونهيهم عن كل شر، ومن ذلك حثهم أهل دينهم وغيرهم على الإيمان بمحمد ﷺ، ثم وصفهم بالهمم العالية ﴿وأنهم﴾ يسارعون في الخيرات ﴿أي: يبادرون إليها فينتهزون الفرصة فيها، ويفعلونها في أول وقت إمكانها، وذلك من شدة رغبتهم في الخير ومعرفتهم بفوائده وحسن عوائده، فهؤلاء الذين وصفهم الله بهذه الصفات الجميلة والأفعال الجليلة ﴿من الصالحين﴾ الذين يدخلهم الله في رحمته ويتغمدهم بغفرانه وينيلهم من فضله وإحسانه، وأنهم مهما فعلوا ﴿من خير﴾ قليلاً كان أو كثيراً ﴿فلن يكفروه﴾ أي: لن يحرموه ويفوتوا أجره بل يثيبهم الله على ذلك أكمل ثواب، ولكن الأعمال ثوابها تبع لما يقوم بقلب صاحبها من الإيمان والتقوى، فلهاذا قال:

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

﴿١١٦ - ١١٧﴾ يخبر تعالى أن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، أي: لا تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله، ولا تجدي عليهم شيئاً من ثواب الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ بل تكون أموالهم وأولادهم زاداً لهم إلى النار، وحجة عليهم في زيادة نعم الله عليهم، تقتضي منهم شكرها، ويعاقبون على عدم القيام بها وعلى كفرها، ولهذا قال: ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ثم ضرب مثلاً لما ينفقه الكفار من أموالهم التي يصدون بها عن سبيل الله ويستعينون بها على إطفاء نور الله، بأنها تبطل وتضمحل، كمن زرع زرعاً يرجو نتيجته ويؤمل إدراك ريعه، فبينما هو كذلك إذ أصابته ريح فيها صر، أي: برد شديد محرق، فأهلك زرع، ولم يحصل له إلا التعب والعناء وزيادة الأسف، فكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْكَافِرُ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصْدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَفْشِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بإبطال أعمالهم ﴿وَلَكِنْ﴾ كانوا ﴿أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث كفروا بآيات الله وكذبوا رسوله وحرصوا على إطفاء نور الله، هذه الأمور هي التي أحبطت أعمالهم وذهبت بأموالهم، ثم قال تعالى:

﴿يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿١١٨﴾ هَئَانَتْ أُولَآءِ حُبُّوهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا عَشْرُوا عَلَيْكُمْ إِذَا نَزَلُوا مِنَ الْفَيْطِ قُلْ مُؤْتَا بَغْيِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿١١٩﴾ إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً سَوْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٢٠﴾

﴿١١٨ - ١٢٠﴾ ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يتخذوا بطانة من المنافقين من أهل الكتاب وغيرهم يظهر عنهم على سرائرهم أو يولونهم بعض الأعمال الإسلامية وذلك أنهم هم الأعداء الذين امتلأت قلوبهم من العداوة والبغضاء فظهرت على أفواههم ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ مما يسمع منهم فهذا ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي: لا يقصرون في حصول الضرر عليكم والمشقة وعمل الأسباب التي فيها ضرركم ومساعدة الأعداء عليكم قال الله للمؤمنين: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أي: التي فيها مصالحكم الدينية والدنيوية ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فتعرفونها وتفرقون بين الصديق والعدو، فليس كل أحد يجعل بطانة، وإنما العاقل من إذا ابتلي بمخالطة العدو أن تكون مخالطة في ظاهره ولا يطلعه من باطنه على شيء ولو تملق له وأقسم أنه من أوليائه قال الله مهيجاً للمؤمنين على الحذر من هؤلاء المنافقين من أهل

الكتاب، ومبيناً شدة عداوتهم: ﴿ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله﴾ أي: جنس الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه وهم لا يؤمنون بكتابكم، بل إذا لقوكم أظهروا لكم الإيمان ﴿وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل﴾ وهي أطراف الأصابع من شدة غيظهم عليكم ﴿قل موتوا بغيظكم﴾ إن الله عليم بذات الصدور ﴿وهذا فيه بشارة للمؤمنين أن هؤلاء الذين قصدوا ضرركم لا يضرهم إلا أنفسهم، وإن غيظهم لا يقدرهم على تنفيذه، بل لا يزالون معذبين به حتى يموتوا فينتقلوا من عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة.﴾ إن تمسككم حسنة ﴿كالنصر على الأعداء وحصول الفتح والغنائم﴾ تسوهم ﴿أي: تغمهم وتحزنهم﴾ وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط ﴿فإذا أتيتم بالأسباب التي وعد الله عليها النصر - وهي الصبر والتقوى - لم يضركم مكرهم، بل يجعل الله مكرهم في نحورهم لأنه محيط بهم علمه وقدرته فلا منفذ لهم عن ذلك، ولا يخفى عليهم منهم شيء.﴾

﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ الْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿١٢١ - ١٢٢﴾. هذه الآيات نزلت في وقعة «أحد»، وقصتها مشهورة في السير والتواريخ، ولعل الحكمة في ذكرها في هذا الموضع، وأدخل في أثنائها وقعة «بدر» لما أن الله تعالى قد وعد المؤمنين أنهم إذا صبروا واتفقوا نصرهم، ورد كيد الأعداء عنهم، وكان هذا حكماً عاماً ووعداً صادقاً لا يتخلف مع الإتيان بشرطه، فذكر نموذجاً من هذا في هاتين القصتين، وأن الله نصر المؤمنين في «بدر» لما صبروا واتفقوا، وأدال عليهم العدو لما صدر من بعضهم من الإخلال بالتقوى ما صدر، ومن حكمة الجمع بين القصتين أن الله يحب من عباده إذا أصابهم ما يكرهون أن يتذكروا ما يحبون، فيخف عنهم البلاء ويشكروا الله على نعمه العظيمة التي إذا قوبلت بما ينالهم من المكروه الذي هو في الحقيقة خير لهم، كان المكروه بالنسبة إلى المحبوب نزرأً يسيراً، وقد أشار تعالى إلى هذه الحكمة في قوله: ﴿أَو لَمَّا أَصَابَكُمْ مِصْبِيَّةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾ وحاصل قضية «أحد» وإجمالها أن المشركين لما رجع قُلُوبُهم من «بدر» إلى مكة، وذلك في سنة اثنتين من الهجرة، استعدوا بكل ما يقدرهم عليه من العدد بالأموال والرجال والمُدد، حتى اجتمع عندهم من ذلك ما جزموا بحصول غرضهم وشفاء غيظهم، ثم وجهوا من مكة للمدينة في ثلاثة آلاف مقاتل، حتى نزلوا قرب المدينة، فخرج النبي ﷺ إليهم هو وأصحابه بعد المراجعة والمشاورة حتى استقر رأيهم على الخروج، وخرج في ألف، فلما ساروا قليلاً رجع عبد الله بن أبي المنافق بثلاث الجيش ممن هو على مثل طريقته، وهمت طائفتان من المؤمنين أن يرجعوا وهم بنو سلمة وبنو حارثة فثبتهم الله فلما وصلوا إلى أحد رتبهم النبي ﷺ في مواضعهم وأسندوا ظهورهم إلى أحد، ورتب النبي ﷺ خمسين رجلاً من أصحابه في خلة في جبل «أحد» وأمرهم أن يلزموا مكانهم ولا يبرحوا منه ليأمنوا أن يأتيهم أحد من ظهورهم، فلما التقى

المسلمون والمشركون انهزم المشركون هزيمة قبيحة وخلفوا معسكرهم خلف ظهورهم، واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فلما رآهم الرماة الذين جعلهم النبي ﷺ في الجبل، قال بعضهم لبعض: الغنيمة الغنيمة، ما يقعدنا ههنا والمشركون قد انهزموا، ووعظهم أميرهم عبد الله بن جبير عن المعصية فلم يلتفتوا إليه، فلما أدخلوا موضعهم فلم يبق فيه إلا نفر يسير، منهم أميرهم عبد الله بن جبير، جاءت خيل المشركين من ذلك الموضع واستدبرت المسلمين وقاتلت ساقاتهم، فجال المسلمون جولة ابتلاهم الله بها وكفر بها عنهم، وأذاقهم فيها عقوبة المخالفة، فحصل ما حصل من قتل من قُتل منهم، ثم إنهم انحازوا إلى رأس جبل «أحد» وكف الله عنهم أيدي المشركين وانكفؤوا إلى بلادهم، ودخل رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ والغدو ههنا مطلق الخروج، ليس المراد به الخروج في أول النهار، لأن النبي ﷺ وأصحابه لم يخرجوا إلا بعدما صلوا الجمعة ﴿تَبَوُّوا الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ أي: تنزلهم وترتبهم كل في مقعده اللائق به، وفيها أعظم مدح للنبي ﷺ حيث هو الذي يباشر تدبيرهم وإقامتهم في مقاعد القتال، وما ذاك إلا لكمال علمه ورأيه، وسداد نظره وعلو همته، حيث يباشر هذه الأمور بنفسه وشجاعته الكاملة صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لجميع المسموعات، ومنه أنه يسمع ما يقول المؤمنون والمنافقون كل يتكلم بحسب ما في قلبه ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيات العبيد، فيجازيهم عليها أتم الجزاء، وأيضاً فالله سميع عليم بكم، يكلؤكم، ويتولى تدبير أموركم، ويؤيدكم بنصره كما قال تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ ومن لطفه بهم وإحسانه إليهم أنه، لما ﴿هَمَّتْ طَائِفَتَانِ﴾ من المؤمنين بالفشل وهم بنو سلمة وبنو حارثة كما تقدم ثبتهما الله تعالى نعمة عليهما وعلى سائر المؤمنين، فلماذا قال: ﴿وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾ أي: بولايته الخاصة، التي هي لطفه بأوليائه، وتوفيقهم لما فيه صلاحهم وعصمتهم عما فيه مضرتهم، فمن توليه لهما أنهما لما هما بهذه المعصية العظيمة وهي الفشل والفرار عن رسول الله ﷺ عصمهما، لما معهما من الإيمان كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ ثم قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ففيها الأمر بالتوكل الذي هو اعتماد القلب على الله في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة بالله، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله، وأن المؤمنين أولى بالتوكل على الله من غيرهم، وخصوصاً في مواطن الشدة والقتال، فإنهم مضطرون إلى التوكل والاستعانة بربهم والاستنصار له، والتبري من حولهم وقوتهم، والاعتماد على حول الله وقوته، فبذلك ينصرهم ويدفع عنهم البلايا والمحن، ثم قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَائْتِمَ أَذَلُّ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّدَ رَبُّكُمْ ثَلَاثَةَ مِائَةِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِنْ نَصَرُوا وَنَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ قَوَرِهِمْ هَذَا يُمْسِكْكُمْ رَبُّكُمْ بِخِصَّةٍ مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطَةٍ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بَشْرًا لَّكُمْ وَلِتُزِيلَ عَنْ قُلُوبِكُم بَيِّنَةٌ وَمَا أَنتُمْ بِأَعْيُنٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾

﴿١٢٣ - ١٢٦﴾ وهذا امتنان منه على عباده المؤمنين، وتذكير لهم بما نصرهم به يوم

بدر وهم أذلة في قلة عددهم وعُددهم مع كثرة عدد عدوهم وعُددهم، وكانت وقعة بدر في السنة الثانية من الهجرة، خرج النبي ﷺ من المدينة بثلاثمائة مئة وبضعة عشر من أصحابه، ولم يكن معهم إلا سبعون بغيراً وقرسانٍ لطلب عير لقريش قدمت من الشام، فسمع به المشركون فتجهزوا من مكة لفكك عيرهم، وخرجوا في زهاء ألف مقاتل مع العدة الكاملة والسلاح العام والخييل الكثيرة، فالتقوا هم والمسلمون في ماء يقال له «بدر» بين مكة والمدينة فاقتتلوا، ونصر الله المسلمين نصراً عظيماً، فقتلوا من المشركين سبعين قتيلاً من صناديد المشركين وشجعانهم، وأسروا سبعين، واحتوا على معسكرهم. ستأتي إن شاء الله القصة في سورة الأنفال، فإن ذلك موضعها. ولكن الله تعالى هنا أتى بها ليتذكر بها المؤمنون ليتقوا ربهم ويشكروه، فلهذا قال ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ لأن من اتقى ربه فقد شكره، ومن ترك التقوى فلم يشكره، إذ تقول يا محمد للمؤمنين يوم بدر مبشراً لهم بالنصر ﴿الَّذِينَ يَكْفِيكُمْ أَنْ يُمَدِّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ * بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا ﴿أَيُّ: مِنْ مَقْصَدِهِمْ هَذَا، وَهُوَ وَقْعَةُ بَدْرٍ﴾ يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴿أَيُّ: مُعَلِّمِينَ بِعَلَامَةِ الشَّجْعَانِ، فَشَرَطَ اللَّهُ لِإِمْدَادِهِمْ ثَلَاثَةَ شُرُوطٍ: الصَّبْرَ، وَالتَّقْوَى، وَاتِّبَاعَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا، فَهَذَا الْوَعْدُ بِإِنْزَالِ الْمَلَائِكَةِ الْمَذْكُورِينَ وَإِمْدَادِهِمْ بِهِمْ، وَأَمَّا وَعْدُ النَّصْرِ وَقَمْعُ كَيْدِ الْأَعْدَاءِ فَشَرَطَ اللَّهُ لَهُ الشَّرْطَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ أَيُّ: إِمْدَادَهُ لَكُمْ بِالْمَلَائِكَةِ ﴿إِلَّا بِشَرٍّ﴾ تَسْتَبْشِرُونَ بِهَا وَتَفْرَحُونَ ﴿وَلَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فَلَا تَعْتَمِدُوا عَلَى مَا مَعَكُمْ مِنَ الْأَسْبَابِ، بَلِ الْأَسْبَابُ فِيهَا طَمَئِينَةٌ لِقُلُوبِكُمْ، وَأَمَّا النَّصْرُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي لَا مَعَارِضَ لَهُ، فَهُوَ مَشِيئَةُ اللَّهِ لِنَصْرِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، فَإِنَّهُ إِنْ شَاءَ نَصَرَ مَنْ مَعَهُ الْأَسْبَابُ كَمَا هِيَ سِتَّةٌ فِي خَلْقِهِ، وَإِنْ شَاءَ نَصَرَ الْمُسْتَضْعَفِينَ الْأَذْلِينَ لِيُبِينَ لِعِبَادِهِ أَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ بِيَدِهِ، وَمَرْجِعُ الْأُمُورِ إِلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ^(١) فَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ مَخْلُوقٌ، بَلِ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ أَذْلَاءُ مَدْبُورُونَ تَحْتَ تَدْبِيرِهِ وَقَهْرِهِ. ﴿الْحَكِيمُ﴾ الَّذِي يَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا، وَلَهُ الْحِكْمَةُ فِي إِدَالَةِ الْكُفَّارِ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ إِدَالَةً غَيْرَ مُسْتَقَرَّةٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾.

﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبُ غَيْرُهُمْ يَسْعَىٰ خَائِبًا﴾ ﴿١٢٧﴾

﴿١٢٧﴾ يخبر تعالى أن نصره عباده المؤمنين لأحد أمرين: إما أن يقطع طرفاً من الذين كفروا، أي: جانباً منهم وركناً من أركانهم، إما بقتل، أو أسر، أو استيلاء على بلد، أو غنيمه مال، فيقوى بذلك المؤمنون ويذل الكافرون، وذلك لأن مقاومتهم ومحاربتهم للإسلام تتألف من أشخاصهم وسلاحهم وأموالهم وأرضهم فهذه الأمور تحصل منهم المقاومة والمقاتلة فقطع شيء من ذلك ذهاب لبعض قوتهم، الأمر الثاني أن يريد الكفار بقوتهم

(١) كذا في الأصل. والآية: ﴿عند الله العزيز...﴾.

وكثرتهم، طمعاً في المسلمين، ويمنوا أنفسهم ذلك، ويحرصوا عليه غاية الحرص، ويذلوا قواهم وأموالهم في ذلك، فينصر الله المؤمنين عليهم ويردهم خائبين لم ينالوا مقصودهم، بل يرجعون بخسارة وغم وحسرة، وإذا تأملت الواقع رأيت نصر الله لعباده المؤمنين دائراً بين هذين الأمرين، غير خارج عنهما إما نصر عليهم أو خذل لهم.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢٩)

﴿١٢٨ - ١٢٩﴾ لما جرى يوم «أحد» ما جرى، وجرى على النبي ﷺ مصائب، رفع الله بها درجته، فشج رأسه وكسرت ربايعته، قال: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم» وجعل يدعو على رؤساء من المشركين مثل أبي سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، أنزل الله تعالى على رسوله نهياً له عن الدعاء عليهم باللعنة والطرده عن رحمة الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إنما عليك البلاغ وإرشاد الخلق والحرص على مصالحهم، وإنما الأمر لله تعالى هو الذي يدبر الأمور، ويهدي من يشاء ويضل من يشاء فلا تدع عليهم بل أمرهم راجع إلى ربهم، إن اقتضت حكمته ورحمته أن يتوب عليهم ويمن عليهم بالإسلام فعل، وإن اقتضت حكمته إبقاءهم على كفرهم وعدم هدايتهم، فإنهم هم الذين ظلموا أنفسهم وضروها وتسببوا بذلك، فعل، وقد تاب الله على هؤلاء المعينين وغيرهم، فهداهم للإسلام رضي الله عنهم، وفي هذه الآية مما يدل على أن اختيار الله غالب على اختيار العباد، وأن العبد وإن ارتفعت درجته وعلا قدره قد يختار شيئاً وتكون الخيرة والمصلحة في غيره، وأن الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء فغيره من باب أولى، ففيها أعظم رد على من تعلق بالأنبياء أو غيرهم من الصالحين وغيرهم، وأن هذا شرك في العبادة، نقص في العقل، يتكون من الأمر كله له ويدعون من لا يملك من الأمر مثقال ذرة، إن هذا لهو الضلال البعيد، وتأمل كيف لما ذكر تعالى توبته عليهم أسند الفعل إليه، ولم يذكر منهم شيئاً موجباً لذلك، ليدل ذلك على أن النعمة محض فضله على عبده، من غير سبق سبب من العبد ولا وسيلة، ولما ذكر العذاب ذكر معه ظلمهم، ورتبه على العذاب بالفاء المفيدة للسببية، فقال: ﴿أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ليدل ذلك على كمال عدل الله وحكمته، حيث وضع العقوبة موضعها، ولم يظلم عبده بل العبد هو الذي ظلم نفسه، ولما نفى عن رسوله أنه ليس له من الأمر شيء قرر من الأمر له فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الملائكة والإنس والجن والحيوانات والأفلاك والجمادات كلها، وجميع ما في السماوات والأرض، الكل ملك لله مخلوقون مدبرون متصرف فيهم تصرف الممالك، فليس لهم مثقال ذرة من الملك، وإذا كانوا كذلك فهم دائرون بين مغفرته وتعذيبه فيغفر لمن يشاء بأن يهديه للإسلام فيغفر شركه ويمن عليه بترك العصيان فيغفر له ذنبه، ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ بأن يكله إلى نفسه الجاهلة الظالمة المقتضية لعمل الشر فيعمل الشر ويعذبه على ذلك، ثم ختم الآية باسمين كريمين دالين على سعة رحمته وعموم مغفرته وسعة إحسانه وعميم إحسانه، فقال:

﴿والله غفور رحيم﴾ ففيها أعظم بشارة بأن رحمته غلبت غضبه، ومغفرته غلبت مؤاخذته، فالآية فيها الإخبار عن حالة الخلق وأن منهم من يغفر الله له ومنهم من يعذبه، فلم يختمها باسمين أحدهما دال على الرحمة، والثاني دال على النقمة، بل ختمها باسمين كليهما يدل على الرحمة، فله تعالى رحمة وإحسان سيرحم بها عباده لا تخطر ببال بشر، ولا يدرك لها وصف، فنسأله تعالى أن يتغمدنا ويدخلنا برحمته في عباده الصالحين.

تم السفر الأول من هذا التفسير المبارك بيسر من الله وإعانة فله الحمد والشكر والثناء وأسأله المزيد من فضله وكرمه وإحسانه، ويليه المجلد الثاني، أوله قوله الباري جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة﴾. الآية وذلك في تسع وعشرين من شهر ربيع الأول من سنة ١٣٤٣ ثلاث وأربعين وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية وصلى الله على محمد وسلم تسليماً كثيراً. بقلم جامع عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي غفر الله له ولوالديه وإخوانه المسلمين. ، والحمد لله رب العالمين.

فهارس تفسير تيسير الكريم الرحمن

يتضمن:

- * فهارس فوائد الآيات.
- * فهارس الأحاديث مع فوائدھا.
- * فهرس المواضيع.

فهارس فوائد الآيات من سورة الفاتحة إلى النهاية

رقم الآية	السورة	الفائدة
		الله جل جلاله
مقدمة		معية الله نوعان: المعية العامة، المعية الخاصة.
مقدمة		الله هو المألوه المعبود، ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين.
مقدمة		فصل في شرح أسماء الله الحسنی.
		قد تكرر كثير من أسماء الله الحسنی في القرآن، والحاجة داعية إلى معرفة معانيها الجامعة.
مقدمة		يجب على العبيد توحيد الله عقداً وقولاً وعملاً.
مقدمة		رزق الله لعباده نوعان: رزق عام، ورزق خاص.
مقدمة		الله هو الغني بذاته الذي له الغنى التام المطلق من جميع الوجوه.
مقدمة		الله - تعالى - قريب من كل أحد، وقربه نوعان: قرب عام، وقرب خاص.
مقدمة		هو واجب الوجود، وجوده من لوازم ذاته.
		من أسماء الله تعالى «المالك» الذي يتصرف بمماليكه بجميع أنواع التصرفات.
٤	الفاتحة	الله تعالى الحكيم الذي له الحكمة التامة.
٣٢	البقرة	الآيات تدل على إثبات صفة الكلام لله تعالى.
٣٤	البقرة	الجرأة على الله وعلى رسوله في السؤال.
٥٥	البقرة	الله - تعالى - لا تضره معصية العاصين.
٥٧	البقرة	نفي الغفلة عن الله يلزم إثبات العلم له.
٨٧٤	البقرة	من إحسان الله على عباده أمرهم ونهيهم.
٨٣	البقرة	القدح في النسخ قدح في ملك الله وقدرته.
١٠٦	البقرة	حفظ الله إيمان المؤمنين بالعصمة والزيادة.
١٤٣	البقرة	الشاعر والشكور من أسماء الله تعالى.
١٥٨	البقرة	الكاتم لما أنزل الله مضاد لأمر الله، مشاق لله.
١٥٩	البقرة	

الفائدة	السورة	رقم الآية
الله هو المستحق لجميع أنواع العبادة.	البقرة	١٦٣
غنى الله - تعالى - ذاتي.	البقرة	١٦٤
الله هو المستحق للمحبة الكاملة والذل التام.	البقرة	١٦٥
من أكبر المحرمات القول على الله - تعالى - بغير علم.	البقرة	١٦٩
أفعال الله وأحكامه تابعة لحكمته.	البقرة	٢٢٠
الله - تعالى - عليم بالمقاصد والنيات.	البقرة	٢٢٤
الله - تعالى - له العزة القاهرة والسلطان العظيم.	البقرة	٢٢٨
الله - تعالى - يُحب من عباده معرفة حدوده.	البقرة	٢٣٠
الله - تعالى - له جميع معاني الألوهية.	البقرة	٢٥٥
الله هو العلي بذاته على جميع مخلوقاته.	البقرة	٢٥٥
مضمون الإخبار بعلم الله - تعالى - يدل على الجزاء.	البقرة	٢٧٠
مادة الرزق وحصول ثمراته من الله تعالى.	البقرة	٢٧٦
الله - تعالى - القائم بنفسه المقيم لأحوال خلقه.	آل عمران	٢
الله - تعالى - متفرد بتصريف الأمور.	آل عمران	٢٣
الله - تعالى - أحاط علماً بما في صدور الناس.	آل عمران	٢٩
الله - تعالى - له الأمر والشرع، وله تمام الملك والتصرف.	آل عمران	١٠٨
من لطف الله - تعالى - أن يبين ما تنطوي عليه صدور أعداء الدين.	آل عمران	١١٩
الله - تعالى - يعزّي عباده المؤمنين بأخبار من سبق.	آل عمران	١٣٧
اقتضت حكمة الله الباهرة أن يتبلي عباده.	آل عمران	١٧٩
الله - تعالى - أرحم بعباده من الوالدين.	النساء	١٠
الله - تعالى - له العلو المطلق بجميع الوجوه والاعتبارات.	النساء	٣٤
تغيير ما خلق الله يكون في الظاهر والباطن.	النساء	١١٩
الثناء على الله - تعالى - بصفات الكمال، ونعوت العظمة والجلال.	الأنعام	١
الدليل على حكمة الله تعالى.	الأنعام	١٢٤
الله - تعالى - استوى على العرش استواء يليق بجلاله وعظمته.	الأعراف	٥٤
من أنكر كلام الله؛ فقد أنكر خصائص إلهية الله تعالى.	الأعراف	١٤٨
إثبات صفة الكلام لله تعالى.	التوبة	٩٦
الله - تعالى - له الغنى التام بكل وجه واعتبار.	يونس	٦٨
قرب الله - تعالى - من العبد نوعان.	هود	٦١

رقم الآية	السورة	الفائدة
١٠	إبراهيم	وجود الأشياء مستند إلى وجود الله - تعالى - .
١٧	الكهف	الله الهادي المرشد لمصالح الدارين .
٣٢	الحج	تعظيم شعائر الله تابع لتعظيم الله وإجلاله .
٦٤	الحج	الله الغني في حمده، الحميد في غناه .
٨٠	المؤمنون	المتصرف في الحياة والموت هو الله وحده .
٢	الفرقان	الله هو الغني بذاته من جميع الوجوه .
٥٩	الفرقان	الله - تعالى - استوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات .
ص	ص	ما شغل العبد عن الله فهو مشؤوم مذموم .
٤	الزمر	التلازم بين وحدة الله - تعالى - وبين قهره .
١٥	الزخرف	الله - تعالى - بائن من خلقه، مبين لهم في صفاته .
٢٤	الحديد	غنى الله من لوازم ذاته .
١	المجادلة	لطف الله بعباده واعتناؤه بهم .
٢	المجادلة	تنبيه الله - تعالى - على الحكم وحكمته .
٢٦	الجن	علوم الغيب قد انفرد الله بعلمها .

الآباء

٦١	البقرة	النعمة على الآباء نعمة على الأبناء .
١٧٠	البقرة	المشركون زهدوا في الإيمان وقلدوا الآباء .
١٢	النساء	الجد أب في غير موضع من القرآن .
٢٧	المائدة	الظاهر أن ابني آدم هما ابناه لصلبه .
٦١	النور	الأب يجوز أن يأخذ ويتملك من مال ولده ما لا يضره .

الاتباع/الطاعة

٤٤	البقرة	النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله .
١٢١	البقرة	تلاوة الكتاب : اتباعه .
١٦٦	البقرة	تنقطع الأوصال إذا كانت لغير الله .
٢٠٨	البقرة	الواجب أن يكون الهوى تبعاً للدين .
٢١٣	البقرة	الواجب عند الاختلاف في الأصول والفروع أن يرد الاختلاف إلى الله وإلى الرسول .
٢٣٠	البقرة	جميع الأمور إن لم يقم فيها أمر الله، ويسلك بها طاعته، لم يحل الإقدام عليها .

الفائدة	السورة	رقم الآية
المؤمنون سمعوا سماع قبول وإذعان وانقياد.	البقرة	٢٨٥
الاتباع علامة الحب الحقيقي.	آل عمران	٣١
كيف السبيل إلى حقيقة اتباع الرسول.	آل عمران	٣٢
الدين والكتاب سبب بين الله وبين عباده.	آل عمران	١٠٣
طاعة الله وطاعة الرسول من أسباب حصول الرحمة.	آل عمران	١٣٢
الناس بحسب اتباعهم للرسول انقسموا قسمين.	آل عمران	١٧٩
شرط الأمر بطاعة أولي الأمر ألا يكون معصية.	النساء	٥٩
الرد إلى الكتاب والسنة في مسائل الخلاف شرط في الإيمان.	النساء	٥٩
الحث على الاستعانة بالله في مسائل الاتباع.	النساء	٦٤
الحقوق ثلاثة، وطاعة الرسول من الحقوق المشتركة.	النساء	٨٠
الطاعة النافعة هي الطاعة التي تكون في الظاهر والباطن.	النساء	٨١
أفضل أحوال العبد أن يجتهد في نفسه على امتثال أمر الله.	النساء	٨٤
الكتاب والسنة كافيان كل الكفاية في أحكام الدين: أصوله، وفروعه.	المائدة	٣
اتباع الهوى سبب موصل إلى ترك الحق الواجب.	المائدة	٤٩
من لوازم محبة العبد لربه متابعة الرسول ﷺ ظاهراً وباطناً.	المائدة	٥٤
طاعة الله وطاعة الرسول واحدة.	المائدة	٩٢
طرق اتباع الحق.	الأنعام	١١١
الكشف محكوم بالكتاب والسنة.	الأنعام	١٢١
من أكبر أسباب نيل رحمة الله اتباع القرآن علماً وعملاً.	الأنعام	١٥٥
علامة تعظيم الرسول ومحبة الإيمان التام به.	التوبة	١٢٠
مراتب الاتباع.	يونس	١٠٩
من الذي ينبغي أن يطاع، ويكون إماماً للناس؟.	الكهف	٢٨
اتباع الهدى بتصديق الخبر وامتنال الأمر.	طه	١٢٣
إضافة الدين كله داخله في تلاوة الكتاب.	العنكبوت	٤٥
المؤمن لا يعارض قول الرسول بقول أحد كائناً من كان.	الأحزاب	٦
الإيمان هو السبب الموجب لعدم معارضة أمر الله ورسوله.	الأحزاب	٣٦
ما خرج عن الكتاب والميزان؛ فإنه باطل متناقض.	الشورى	١٧
اتباع الرسول ﷺ داخل في القاعدة الكلية وفي الأصل العام.	الحشر	٧
وصف أتباع الصحابة من أهل السنة والجماعة.	الحشر	١٠

رقم الآية	السورة	الفائدة
الإحسان		
٨٣	البقرة	الإحسان إلى الوالدين: قولي، وعملي.
٨٣	البقرة	الإساءة والترك ضد الإحسان.
٨٣	البقرة	الإحسان القولي إلى كل أحد أمرٌ مقدورٌ عليه.
		النفقة إحسانٌ إلى الخلق.
		مراتب الإحسان.
٢٦٣	البقرة	أنواع الإحسان وطرق تحصيله.
١٣٤	آل عمران	أمر النبي ﷺ أن يجمع بين العفو والإحسان.
١٥٩	آل عمران	قطع الرحم يكون بالقول أو الفعل عكس الإحسان.
٣٦	النساء	الإحسان كل الإحسان تحكيم الله ورسوله.
٦٢	النساء	الإحسان في العبادة بذل الجهد فيها وأداؤها كاملة.
٥٦	الأعراف	إذا أحسن العبد فيما يقدر عليه سقط عنه ما لا يقدر عليه.
٩١	التوبة	لا ضمان على ما يترتب من فعل المحسنين من تلف أو نقص.
٩١	التوبة	يوسف عليه السلام وقئ مقام الإحسان.
٢٢	يوسف	الإحسان يوجب للإنسان تمام الوفاء للمحسن.
٦٢	يوسف	الأمر بإيتاء ذي القربى مع القدرة والغنى.
٢٨	الإسراء	المعين على النزول في منزلة الإحسان.
٢١٨	الشعراء	المكافأة على الإحسان من دأب الأمم السابقة.
٢٦	القصص	سنة الله - تعالى - في المحسنين أن ينشر لهم من الثناء الحسن على حسب إحسانهم.
٨٠	الصفات	الحث على إطعام اليتيم والمساكين.
٢	الماعون	بذل الأمور الخفيفة كعارية الإئاء والدلو.
٧	الماعون	

الإخلاص/المخلص

إذا قصد العامل بعمله وجه الله وحده وثوابه، وضاد الرياء والعمل للأغراض النفسية، فقد حقق الإخلاص.

مقدمة

٥ الفاتحة تضمنت: إخلاص الدين لله - تعالى - ، عبادة واستعانة.

الجمع بين الصلاة والزكاة؛ لأن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة متضمنة للإحسان على عباده.

٣ البقرة

٢٠٧ البقرة

من هم الموفقون الذين بذلوا أنفسهم طلباً لمرضاة الله؟.

رقم الآية	السورة	الفائدة
٢٧٠	البقرة	إخفاء النفقة إحسان وإخلاص.
١٤٦	النساء	لا يزيل النفاق إلا شدة الاعتصام وقوة الإخلاص.
١	الأنعام	الله - تعالى - هو المستحق للعبادة وإخلاص الدين له.
١٦٢	الأنعام	من أخلص في صلاته ونُسكِهِ؛ استلزم ذلك إخلاصه في سائر أعماله.
٣٢	الأعراف	الاستعانة بالطيبات على طاعة الله؛ علامة الإخلاص.
٥٣	هود	الدعوة إلى إخلاص الدين لله - تعالى - من أعظم الآيات.
٣٨	يوسف	على المصلح استعمال الإخلاص التام في تعليمه.
٥١	مريم	أجل حالة يوصف بها العبد الإخلاص منه والاستخلاص من ربه.
٢٧	القصص	المكافأة على العمل - من غير قصد - لا يقدر في الإخلاص.
٣٨	الروم	العمل الذي يُقصد به وجه الله من النفقات.
٣	الزمر	الدين الخالص الصافي من جميع الشوائب لله تعالى.
١٤	غافر	الإخلاص: تخليص القصد لله - تعالى - في جميع العبادات.

الأداب/الأخلاق

١٣٤	آل عمران	العفو ترك المؤاخذة مع السماحة عن المسيء.
		الأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين؛ تجذب الناس إلى دين الله
١٥٩	آل عمران	وترغبهم فيه.
٨٦	النساء	الحث على ابتداء السلام والتحية والنهي عن عدم الرد بالكلية.
٨٦	النساء	يستثنى من ابتداء التحية أو ردها أحوال.
٦٩	هود	مشروعية السلام وآدابه.
٥٩	يوسف	مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين.
٥٣	الإسراء	القول الحسن داع لكل خلق جميل وعمل صالح.
٦٢	الكهف	استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله، وأكلهما جميعاً.
٧٣	الكهف	أخذ العفو من أخلاق الناس.
٨١	الكهف	استعمال الأدب مع الله - تعالى - في الألفاظ.
٢٧	النور	آداب الاستئذان.
٦١	النور	يستحب الاجتماع على الطعام.
٢١٥	الشعراء	وقوع المفاسد وتعطيل المصالح في المعاملة راجع إلى سوء الأدب والخلق.
١٩	النمل	الفقهية تدل على خفة العقل وسوء الأدب.
٢٥	القصص	الحياة من الأخلاق الممدوحة.

رقم الآية	السورة	الفائدة
٢٨	القصص	من مكارم الأخلاق ألا يشق الإنسان على أجيره بالعمل .
١	الحجرات	حقيقة الأدب الواجب مع الله ورسوله .
٤	الحجرات	من العقل استعمال الأدب .
٢٤	الذاريات	مشروعية الضيافة ، وإنها من سنن إبراهيم الخليل عليه السلام .
٢٤	الذاريات	إكرام الضيف بأنواع الإكرام ؛ بالقول والفعل .
٢٥	الذاريات	كان بيت إبراهيم - عليه السلام - مأوى للطارقين والأضياف .
٢٥	الذاريات	أدب إبراهيم - عليه السلام - ولطفه في الكلام .
٢٦	الذاريات	المبادرة إلى الضيافة والإسراع بها .
٢٧	الذاريات	إبراهيم - عليه السلام - هو الذي خدم أضيافه .
٢٧	الذاريات	حسن ملاطفة الضيف في الكلام اللين .
١١	المجادلة	آداب المجالس .

الأدلة

٢٢	البقرة	القرآن بين الدليل العقلي على وحدانية الله - تعالى - وبطلان الشرك .
٢٣	البقرة	بيان الدليل العقلي على صدق الرسول وصحة ما جاء به .
٢٤	البقرة	آية التحدي دليل واضح جلي على صدق الرسول ﷺ .
٦١	البقرة	آيات الله - تعالى - دالة على الحق موضحة له .
١٤٥	البقرة	لا حاجة للإتيان بأجوبة الشبهة إذا ما تبين الحق بأدله اليقينية .
١٦٣	البقرة	الدليل الإجمالي على الوحدانية .
١٦٤	البقرة	الآيات الخلقية أدلة تفصيلية على ربوبية الله - تعالى - .
٢١٠	البقرة	كلام المعطلة خالف الدليل النقلي والعقلي على حِد سواء .
٢٥٨	البقرة	إبراهيم الخليل - عليه السلام - ألزم النمرد بطريقة طرد الدليل .
٢٥٨	البقرة	جميع الأدلة السمعية والنقلية والفطرية قامت شاهدة بتوحيد الله .
١٩١	آل عمران	من فوائد التفكير في الآيات الاستدلال بها على المقصود منها .
٨٧	النساء	الأدلة السمعية والعقلية على وقوع الجزاء .
٩٢	النساء	فائدة الإتيان بصيغ الامتناع .
١٠١	الأنعام	ذكر العلم بعد الخلق من باب تقديم الدليل العقلي الموصول إلى إثبات علم الله .
٢٠٣	الأعراف	القرآن هو الدليل وهو المدلول .
٤	يونس	الدليل العقلي والنقلي على المعاد .

الفائدة	السورة	رقم الآية
الأدلة العقلية الأفقية على التوحيد بأنواعه.	يونس	٥
بيان دليل التمانع.	الإسراء	٤٢
من أفسد الأدلة الاستدلال على خير الآخرة بخير الدنيا.	مريم	٧٤
الحكمة من ذكر دليل التمانع.	الأنبياء	٢٢
الأدلة العقلية التي تزيل الشك من القلوب.	الحج	٥
دل دليل التمانع على: أنه لا صلاح إلا بعبادة الله وإفراده بالطاعة.	المؤمنون	٩٢
أدلة القرآن كلها أدلة لرسالة محمد ﷺ.	يس	٣
كلما كانت المسائل أكبر؛ كانت الدلائل عليها أكثر.	غافر	١٣
الاستدلال على البعث بالخلق الأول.	فصلت	٢١
الاستدلال على المشركين بما تقرر في العقل والشرع.	الطور	٣٥

الأرض

النفاق سبب لفساد ما على وجه الأرض، وإنما تعمّر الأرض بالإصلاح.	البقرة	١٢
الأرض دار تعب ونصب ومجاهدة.	البقرة	٣٦
آثار التكبر في الأرض.	الأعراف	١٤٦
تبديل الأرض والسماء يوم القيامة؛ تبدل صفات لا تبدل ذات.	إبراهيم	٤٨
تسطيح الأرض لا ينافي كرويتها.	الغاشية	٢٠

الأزمنة

فوائد الحساب بالسنة القمرية.	البقرة	١٨٨
الحول يطلق على الكامل، وعلى معظم الحول.	البقرة	٢٣٣
الشمس والقمر بهما تُعرف الأزمنة والأوقات.	الأنعام	٩٦
مشروعية تعلم سير الكواكب ومحالها.	الأنعام	٩٧

الاستقامة

وهي لزوم طاعة الله وطاعة رسوله على الدوام.	مقدمة	
الاستقامة على الصلاة وملازمة محل العبادة.	آل عمران	٣٧
العبرة في حال العبد بكمال النهاية لا بتقص البداية.	يوسف	٢١
السموات والأرض ما استقامتا إلا بالحق والعدل.	المؤمنون	٧١
السبيل إلى حقيقة الاستقامة.	فصلت	٦

الفائدة	السورة	رقم الآية
لا سبيل إلى تكميل النفس والغير إلا بالاستقامة والدعوة إليها.	الشورى	
الإسلام		
حقيقة الإسلام.	البقرة	١٢٨
الإسلام هو الانقياد لله وحده ظاهراً وباطناً بما شرعه على السنة رسله.	آل عمران	١٩
وجوب إسلام الوجه لله تعالى ظاهراً وباطناً.	آل عمران	٢٠
الرسول ﷺ بعث بالإسلام المنافي للكفر من كل وجه، فكيف يأمر بضده؟!	آل عمران	٧٩
الهداية النافعة الأصلية تكون بالإسلام.	النمل	٤٢
الدين الإسلامي روح السعادة، وقطب رحن الكمال.	الشورى	
الإصلاح		
حقيقته: السعي في إصلاح عقائد الناس وأخلاقهم وجميع أحوالهم.	مقدمة	
زعم المنافقون: أن أهل الإيمان ليسوا من أهل الصلاح، قلباً للحقائق.	البقرة	١١
الولاية على اليتيم، والأمر بإصلاح ماله.	النساء	٢
الصلح جائز في جميع الأشياء، إلا إذا أحل حراماً أو حرم حلالاً.	النساء	١٢٨
النبي ﷺ بعث بصلاح الدارين.	الأعراف	١٧٠
على العبد أن يقيم الإصلاح في نفسه وفي غيره ما يقدر عليه.	هود	٩٥
الإصلاح مطلوب على حسب القدرة والإمكان.	هود	٩٥
فضيلة خدمة الصالحين.	الكهف	٧٦
الأمر بتكميل النفس، وتكميل الغير.	الشعراء	٢١٤
أسباب صلاح الذرية.	الأحقاف	١٥
الأصول		
ما لا يتم الحكم إلا به، فهو تابع للحكم.	مقدمة	
الأحكام المقيدة بشروط أو صفات، تدل على أن تلك القيود لا بد منها في ثبوت الحكم.	مقدمة	
الأمر بالشيء نهى عن ضده، والنهي عن الشيء أمر بضده.	مقدمة	
الجزاء من جنس العمل.	البقرة	١٥

رقم الآية	السورة	الفائدة
٢٩	البقرة	الأصل في الأشياء الإباحة والطهارة.
٣٥	البقرة	النهي للتحريم لا سيما مع قرينة ترتيب الظلم عليه.
٤٣	البقرة	التعبير عن العبادة بجزئها يدل على فرضيته.
٤٤	البقرة	إذا أمر العبد بأمرين كان الكمال أن يقوم بهما، والنقص الكامل أن يتركهما.
١٠٢	البقرة	المنهيات إما مضرتها محضة، أو شرها أكبر من خيرها.
١٠٤	البقرة	قد ينهى الشارع عن الجائز عندما يكون وسيلة إلى الحرام.
١٠٦	البقرة	معنى النسخ.
١٤٢	البقرة	حمل المطلق على القيد.
١٤٣	البقرة	إجماع هذه الأمة حجة قاطعة
١٦١	البقرة	الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً.
١٦٨	البقرة	الأصل في الأعيان الإباحة.
١٦٨	البقرة	أنواع المحرم.
١٦٨	البقرة	ظاهر الأمر يفيد الوجوب.
١٧٣	البقرة	جل المحضور عند الضرورة مشروط بشرطين.
١٧٣	البقرة	الضرورات تبيح المحضورات.
١٨٠	البقرة	الجمع مع الإمكان أفضل من ادعاء النسخ.
١٨٧	البقرة	لازم الحق حق.
١٨٧	البقرة	النهي عن القربان: نهى عن فعل المحرم وعن وسائله.
١٩٢	البقرة	ترتكب أخف المفسدتين لدفع أعلاهما.
١٩٧	البقرة	الإتيان بـ«من» لتنصيب العموم.
٢٠٣	البقرة	إذا أباح الشارع أمرين؛ فقد يكون أحدهما أفضل من الآخر.
٢٢٠	البقرة	من الرخص ما يكون لطفاً من الله تعالى وإحساناً وتوسعة.
٢٢٠	البقرة	الشرع لا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة.
٢٢٤	البقرة	إذا تزاومت المصالح قدم أهمها.
٢٣١	البقرة	الضرر عائد إلى من أراد الضرر.
٢٧٠	البقرة	قواعد الشرع تدل على مراعاة المصلحة.
٢٨٥	البقرة	الرسول ﷺ مشارك للأمة في توجيه الخطاب الشرعي له.
٢٨٦	البقرة	التيسير ونفي الحرج في أمور الدين كلها.

رقم الآية	السورة	الفائدة
١٥	آل عمران	النفي يستلزم ضده.
١٤٢	آل عمران	كلما عظم المطلوب عظمت وسيلته، والعمل الموصل إليه.
١٦٧	آل عمران	ارتكاب أخف المفسدتين؛ لدفع أعلاهما، وفعل أدنى المصلحتين؛ للعجز عن أعلاهما
١٨٠	آل عمران	ذكر السبب الابتدائي والسبب الغائي والجزائي.
٣	النساء	ترك المباح عند الخوف من عدم القيام به.
١٢	النساء	من استعجل الشيء قبل أوانه؛ عوقب بحرمانه.
١٢	النساء	لا يمكن إعمال الموجب عند قيام المانع.
٢٣	النساء	القيد قد يخرج بمخرج الغالب الذي لا مفهوم له.
٩٣	النساء	الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه.
٩٥	النساء	النية الجازمة إذا اقترنت بها مقدورها من القول أو الفعل؛ يُنزل صاحبها منزلة الفاعل.
٩٩	النساء	من عجز عن الأمور من واجب أو غيره؛ فإنه معذور.
١١٥	النساء	إجماع هذه الأمة حجة، وأنها معصومة من الخطأ.
٤٥	المائدة	شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه.
٨١	المائدة	انتفاء الشرط يدل على انتفاء المشروط.
١٠٦	المائدة	جواز العمل بالقرائن.
١٠٨	الأنعام	الوسائل تعتبر بالأمور التي توصل إليها.
١٤٥	الأنعام	التحريم لا يكون إلا من عند الله على لسان رسوله.
١٤٥	الأنعام	بعض المحرمات يؤخذ من المعنى وعموم العلة.
١٤٩	الأنعام	الإيجاب والتحريم مشروطان بالقدرة والتمكين.
١٥٢	الأنعام	الله تعالى لا يكلف أحداً ما لا يطيق.
١١	الأعراف	القياس إذا عارض النص؛ فإنه قياس باطل.
٣٠	الأعراف	الأوامر والنواهي تابعة للحكمة والمصلحة.
٤٢	الأعراف	لا واجب مع العجز، ولا محرم مع الضرورة.
٦٠	الأنفال	الحكم يدور مع علته وجوداً أو عدماً.
٤٦	التوبة	ليس كل ما يعتذر به هو من قبيل المانع الشرعي.
٤٩	التوبة	دفع المفسدة المحققة بالمفسدة المحتملة.
١٢٣	التوبة	المصالح الشرعية مخصصة للعموم.

رقم الآية	السورة	الفائدة
١٠	يوسف	ارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما.
٩٠	النحل	قاعدة: في المأمورات والمنهيات ترجع إليها سائر الجزئيات.
٧٨	الإسراء	العبادة إذا سميت ببعض أجزائها؛ دل على فرضية ذلك.
٧٣	الكهف	الناسي غير مؤاخذ بنسيانه.
٧٤	الكهف	إجراء الأحكام على ظاهرها.
٧٤	الكهف	يدفع الشر الكبير بارتكاب الشر الصغير.
١٣٢	طه	الأمر بالشيء أمر بجميع ما لا يتم إلا به.
٧٨	الحج	المشقة تجلب التيسير.
٧٨	الحج	الضرورات تبيح المحظورات.
٣١	النور	قاعدة سد الوسائل التي تفضي إلى المحرم.
٦١	النور	العرف والعادة مُخصَّص للألفاظ.
٢٢	القصص	عند تراحم المفسدتين؛ يرتكب الأخف منهما والأسلم.
٤	الروم	بعض الشر أهون من بعض.
٣٢	الروم	أكثر الأمور الدينية وقع فيها الإجماع بين العلماء والأئمة.
٢١	الأحزاب	حُجَّة أفعال النبي ﷺ.
	الشورى	قول الصحابة حجة، خصوصاً الخلفاء الراشدين.
	الشورى	أمر الرسول ﷺ أمرٌ لأئمة إذا لم يرد تخصيص له.
١٣	المجادلة	باب: المشروع لغيره، ليس مقصوداً لنفسه.
١٦	التغابن	كل واجب عجز عنه العبد يسقط عنه.
٥	التحریم	باب: التعليق الذي لم يوجد ولا يلزم وجوده.
٤	عبس	لا يترك أمر معلوم لأمر موهوم.
	الضحى	النفي المحض لا يكون مدحاً، إلا إذا تضمن ثبوت الكمال.
أصول الدعوة		
١٤٤	البقرة	يُعَم الإنسان عند اعتراض من يعترض عليه عند الاشتباه.
١٤٥	البقرة	حل الشبهة من باب الشرع.
١٥٠	البقرة	من ليس له مستند إلا اتباع الهوى والظلم؛ فلا سبيل لإقناعه.
١٧٤	البقرة	الدعوة إلى الله - تعالى - من أسباب التزكية.
١٠٥	آل عمران	دعوة الناس إلى الخير على وجه العموم أو على وجه الخصوص سبب لتحصيل الفلاح.

رقم الآية	السورة	الفائدة
٦٣	النساء	نصيحة السر أبلغ، لحصول المقصود.
٦٦	النساء	فوائد العمل بالموعظة.
٩٤	النساء	الأمر المشككة غير الواضحة؛ الإنسان يحتاج إلى التثبت فيها والتبين.
١٥٥	النساء	بيان الطريقة الحسنة لمحااجة الخصم المبطل.
٥٤	المائدة	الجمع بين الغلظة واللين في دعوة أعداء الله.
٦٩	الأنعام	طرق التذكير والوعظ الموصلة إلى مقصود التقوى.
١٥٢	الأنعام	العدل حتى في الكلام على أهل البدع.
٦	الأنفال	الجدال محله عند اشتباه الحق والتباس الأمر.
١٤	هود	المطلوب من الداعي إلى الله إقامة الدليل السالم عن المعارض على جميع المسائل والمطالب.
٩٥	هود	من تكملة دعوة الداعي وتماها: أن يكون أول مبادر لما أمر غيره به.
٥	يوسف	يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره.
٣٨	يوسف	الداعي إلى الله يبدأ بالأهم فالأهم.
٧٦	يوسف	جواز استعمال المعارض القولية والفعلية.
٧٠	الحجر	من أنذر؛ فقد أعذر.
٨٥	الحجر	الصفح الجميل: هو الذي لا أذية فيه.
١٢٥	النحل	من الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل.
٢٢	الكهف	لا أهمية في المماراة المبنية على الجهل والرجم بالغيب.
٤٧	مريم	طريق إبراهيم - عليه السلام - في الدعوة إلى الله - تعالى -.
٣٦	طه	الأمر التي يحتاج إليها الداعي إلى الله - تعالى -.
٨٧	القصص	ينبغي للداعي إلى الله - تعالى - أن يجعل الدعوة متتهى قصده وغاية عمله.
٤٦	العنكبوت	مقاصد وشروط المجادلة.
٤٦	العنكبوت	الواجب أن يرد ما مع الخصم من الباطل، ويقبل ما معه من الحق.
٧٠	الأحزاب	السداد يكون بإصابة الصواب في المسائل العلمية والدعوية.
١١	يس	صفات المتتفعين بالثدارة.
١٢	يس	علو مرتبة الدعوة إلى الله، والهداية إلى سبيله.
٢٢	ص	المنصوح وإن كان عالماً لا يغضب إذا نصح.
٣٣	فصلت	ما يدخل في مسائل الدعوة إلى الله - تعالى -.

الفائدة	السورة	رقم الآية
من فائدة الدعوة حصول جميع المقصود أو بعضه .	نوح	٦
الأطعمة		
المن : اسم جامع لكل رزق يحصل بلا تعب .	البقرة	٥٧
الزنجبيل والكمأة والخبز من المن .	البقرة	٥٧
من طعام بني إسرائيل : الخيار ، الثوم ، العدس ، البصل .	البقرة	٦١
الأصل في الأشياء والأطعمة الإباحة .	الأنعام	١١٩
الأمر بتناول الأكل والشرب ، والنهي عن الإسراف فيهما .	الأعراف	٣١
الاعتصام		
الحث على الاعتصام بحبل الله جميعاً .	البقرة	٣٦
الحصون من عصم وحفظ من الذنوب والشهوات الضارة .	آل عمران	٣٩
الاعتصام بالله تعالى سبيل إلى السلام والهداية .	آل عمران	١٠١
وجوب الاجتماع على السبب الموصل إلى الله تعالى وعدم التفرق .	آل عمران	١٠٣
ما للخلق عاصم إلا الاعتصام بحبل الله .	آل عمران	١٥٧
الإعراض		
من موجب التولي والإعراض حلول العقوبة ، وهذا لا يكون إلا عند انتفاء المعارض .	البقرة	٦٤
المتولي قد يتولى وله نية رجوع إلى ما تولى عنه .	البقرة	٨٣
النهي عن أسئلة التعنت والاعتراض .	البقرة	١٠٨
الاعتراض على الأحكام الشرعية .	البقرة	١٤٢
ما هي دواعي الإعراض عند أهل الكتاب .	آل عمران	٢٣
الاعتراض على حكم الله مطلقاً مدفوع بالحكم الجزائي .	الأنعام	٥٧
الإعراض عن الدليل مستلزم الإعراض عن المدلول .	يونس	٧
البلاء موكل بالمنطق .	النمل	٥٦
حال المتولي عن طاعة ربه .	محمد	٢٢
الأعمال		
العمل الصالح هو : القيام بحقوق الله ، وحقوق عباده .	مقدمة	
كل عمل صالح شرطه الإيمان ؛ فمن لا إيمان له لا عمل له .	البقرة	٢٧
شروط قبول الأعمال .	البقرة	٨٢

رقم الآية	السورة	الفائدة
١٣٦	البقرة	القول الخالي من عمل القلب، عديم التأثير، قليل الفائدة.
١٤١	البقرة	النفع الحقيقي بالأعمال، لا بالانتساب المجرد للرجال.
١٧٧	البقرة	الأعمال تصدق الإيمان.
٢٠٥	البقرة	لا عبرة بالأقوال حتى يوجد العمل المصدق لها.
٢١٧	البقرة	من ارتد ثم عاد إلى الإسلام يرجع إليه عمله.
٢١٨	البقرة	بعض الأعمال هي عنوان السعادة، وقطب رحى العبودية.
		العمل المؤسس على الإيمان والإخلاص يكون مثمراً للخير والثواب.
٣٥	آل عمران	الأعمال عند أهل السنة تدخل في الإيمان خلافاً للمرجئة.
١٣٦	آل عمران	توفية الأعمال التامة إنما يكون يوم القيامة.
١٨٥	آل عمران	من ترك العمل وأتكل على نفسه؛ فهو مخذول خاسر.
٣٢	النساء	الأعمال التي تقرب إلى الله - تعالى -.
٣٥	المائدة	العمل هو مادة الدار الآخرة.
٩٤	الأنعام	الجزء مقرون بنظر الناظر.
١٣٥	الأنعام	أهل الجنة ورثوا الجنة بالأعمال الصالحة.
٤٣	الأعراف	أعمال القلوب أصل لأعمال الجوارح وأفضل منها.
٤	الأنفال	الترجيح والتفاضل بين الأعمال والطاعات.
١٩	التوبة	متى ينزل مريد الخير منزلة الفاعل التام؟.
٩٢	التوبة	العمل هو ميزان الصدق من الكذب.
٩٤	التوبة	أصل التوحيد والإيمان شرط لكل عمل صالح.
١٠٢	التوبة	النية تؤثر في قبول الأعمال.
١٠٩	التوبة	أحسن العمل؛ أخلصه وأصوبه.
٧	هود	أقوال اللسان داخلة في الأعمال الصالحة.
٢٣	هود	أعمال القلوب والجوارح تابعة لتصديق القلب.
٥٧	يوسف	العمل هو السبب والمادة والأصل في دخول الجنة.
٣٢	النحل	العمل يجوز في البحر كما يجوز في البر.
٧٩	الكهف	جزاء العمل الفاضل والسعي الكامل.
١٦	مريم	العفة أفضل الأعمال خصوصاً مع اجتماع الدواعي وعدم المانع.
١٨	مريم	أصل العمل الصالح قد اتفقت عليه الأنبياء والشرائع.
٥١	المؤمنون	

رقم الآية	السورة	الفائدة
٤٧	الأحزاب	الأعمال الصالحة تدخل في الإيمان عند إفراده .
	الشورى	العمل الذي لا يصحبه التوكل ؛ غير تام .
٢٠	محمد	إذا تعلق النفس بالمستقبل ضعف عن العمل في الحاضر والمستقبل .
٢٠	محمد	العمل تابع للهمة .
الاقتران والإفراد/العموم والخصوص		
	مقدمة	بين التقوى والبر عموم وخصوص ، إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر .
١٣٦	البقرة	بين الإسلام والإيمان عموم وخصوص .
١٣٦	البقرة	الجمع بين الإيمان والأعمال الصالحة من هذا الباب .
		إذا أطلق الأمر بالمعروف من غير أن يُقرَّ بالنهي عن المنكر ؛
١١٤	النساء	دخل فيه النهي عن المنكر .
٥٧	الزمر	بين الإنابة والإسلام عموم وخصوص .
الأقضية		
١٨٨	البقرة	حكم الحاكم لا يبيح محرماً ولا يحلل حراماً .
١٨٨	البقرة	لا يجوز المخاصمة عن الخائن .
٢٠٥	البقرة	العمل بالقرائن عند اختبار أحوال اليهود .
٢٣٠	البقرة	قبل الدخول في الولايات لا بد من النظر في النفس .
		عند الحكم بين المتنازعين ينظر فيه إلى المرجحات والبيّنات
٢٨٢	البقرة	بحسب حالها .
١٥٩	آل عمران	فوائد الاستشارة .
٥	النساء	وجوب قبول قول الأمين .
٢٥	النساء	أحكام الدنيا مبنية على الظاهر ، وأحكام الآخرة مبنية على الباطن .
٣٥	النساء	الحَكَمَ يَحْكُم ، وإن لم يرضَ المحكوم عليه .
٨٣	النساء	إذا حصل بحث في أمر من الأمور ، ينبغي أن يولّى من هو أهل لذلك .
٩٥	النساء	ينبغي رفع الإيهام عند التفضيل بين الأشخاص والطوائف والأعمال .
١٠٥	النساء	يشترط في الحكم : العلم والعدل .
١٠٥	النساء	تحريم النيابة عن المبطل في الخصومات الدينية والحقوق الدنيوية .
١٨	يوسف	العمل بالقرائن والأحوال .
٦٤	يوسف	لا يمتنع سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه .

الفائدة	السورة	رقم الآية
كلام المكروه لا يترتب عليه حكم شرعي .	النحل	١٠٩
جواز قول المظلوم لمن ظلمه : أنت ظلمتني أو نحوه	ص	٢٢
الواجب عند خبر الفاسق الثبوت والتبين .	الحجرات	٦
الأمر بالصُّلح وبالعُدل في الصلح .	الحجرات	٩
الأماكن		
غار ثور في أسفل مكة .	التوبة	٤٠
الأعراب كأهل الحاضرة، منهم الممدوح ومنهم المذموم .	التوبة	٩٩
سكان حضرموت كانوا من عاد الأولى .	الحاقة	٤
الإمامة		
إبراهيم - عليه السلام - نال مقام الإمامة في الدين .	البقرة	١٢٤
لا يجتمع الظلم مع الإمامة في الدين .	البقرة	١٢٤
أسباب وشروط وموانع الإمامة .	البقرة	١٢٤
درجة الإمامة في الدين : هي درجة الصديقية والكمال من المؤمنين .	الفرقان	٧٤
من أعظم العقوبات أن يكون الإنسان إماماً في الشر .	القصص	٣٨
الأمة		
يأتي لفظ الأمة في كتاب الله على أوجه مختلفة .	مقدمة	
تخصيص هذه الأمة بأمر دون سواها من الأمم .	آل عمران	٧٣
أسباب تفضيل هذه الأمة على سائر الأمم .	آل عمران	١١٠
حكمة ابتلاء الأمم في تغير الشرائع .	المائدة	٤٨
في أمة موسى - عليه السلام - طائفة مستقيمة هادية مهتدية .	الأعراف	١٥٩
كمال الأمة يكون في نفسها وفي غيرها .	الأعراف	١٨١
تحذير هذه الأمة من العمل بالمعاصي .	الإسراء	٨
كل أمة تدعى إلى كتابها ودينها .	الإسراء	٧٣
يأجوج وماجوج أمتان عظيمتان من بني آدم .	الكهف	٩٤
هذه الأمة هي آخر الأمم .	الأنبياء	٣
لا ينبغي للأمة المستضعفة أن يستولي عليها الكسل عن طلب حقها .	القصص	٤
الأمة ما دامت ذليلة مقهورة ؛ لا يكون لها إمامة في أمر دينها .	القصص	٥

الفائدة	السورة	رقم الآية
نشر الله من ذرية إسماعيل وإسحاق ثلاث أمم عظيمة .	الصافات	١١٣
اتفاق الأمة حجة قاطعة ؛ لأنها معصومة عن الخطأ .	الشورى	
الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس .	الجاثية	١٦
فضل صدر هذه الأمة في الجملة على متأخريها .	الواقعة	١٤
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر		
واجبات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .	البقرة	٤٤
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية .	آل عمران	١٠٥
من حضر مجلساً يُعصى الله به ؛ فإنه يتعين عليه الإنكار عليهم مع القدرة أو القيام .	النساء	١٤٠
مفاسد السكوت عن المنكر مع القدرة .	المائدة	٧٩
ما هو المقصود الأعظم من إنكار المنكر ؟ .	الأعراف	١٦٤
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية .	الأعراف	١٦٥
في الائتمار بالمعروف تعاون على البر والتقوى .	الطلاق	٦
الإنابة		
حقيقتها : انجذاب القلب إلى الله في كل حالة من أحواله .	مقدمة	
أركان الإنابة .	هود	٧٥
أحوال العبد تستقيم بأمرين : الاستعانة ، والإنابة .	هود	٨٨
نظر المنيب إلى ربه ؛ نظر فكر وعبرة ، لا نظر غفلة .	سبا	
الأنبياء/الرسل		
آدم - عليه السلام - فضله ، واستخلافه في الأرض .	البقرة	٣٠
المراد بإسرائيل ؛ يعقوب - عليه السلام - .	البقرة	٤٠
من الله - تعالى - على بني إسرائيل فأرسل لهم كليمه موسى .	البقرة	٨٧
عيسى - عليه السلام - خاتم أنبياء بني إسرائيل .	البقرة	٨٧
زعم اليهود : أن سليمان - عليه السلام - استعمل السحر ! .	البقرة	١٠٢
ذكر إبراهيم وإسماعيل في حالة رفعهما القواعد .	البقرة	١٢٧
يعقوب عليه السلام أوصى بنيه بالحنيفية لا باليهودية .	البقرة	١٣٣
التفاوت بين الرسل في الفضائل والتخصيصات .	البقرة	٢٥٣
أيد الله - تعالى - عيسى بن مريم بروح القدس أي : بروح الإيمان .	البقرة	٢٥٣

رقم الآية	السورة	الفائدة
٢٨٥	البقرة	أنه ﷺ فاق الجميع في القيام بالإيمان وحقوقه.
٣٩	آل عمران	ما معنى أن عيسى - عليه السلام - كلمة الله؟.
٤٥	آل عمران	البشارة لعيسى - عليه السلام - لا يشبهها شيء من البشارة.
٩٥	آل عمران	إبراهيم - عليه السلام - كان معرضاً عن كل ما يخالف التوحيد، متبرئاً من الشرك وأهله.
٥٤	النساء	أنعم الله - تعالى - على داود وسليمان بالنبوة والكتاب والملك.
٧٨	النساء	الرسول لا يكونون سبباً لشر يحدث، بل يُعْثُوا بتكميل المصالح.
١٥٩	النساء	عيسى - عليه السلام - عند نزوله يحكم بشريعة النبي ﷺ.
١٦٣	النساء	فوائد اشتراك الرسول مع النبي ﷺ في قضية الوحي.
٥٧	الأنعام	الرسول ﷺ أعدل الشهود على الإطلاق.
٧٤	الأنعام	حال إبراهيم في دعوته إلى التوحيد ونهيه عن الشرك.
٨٤	الأنعام	إسرائيل أبو الشعب الذي فضله الله على العالمين.
٨٤	الأنعام	نوح عليه السلام من أولي العزم من الرسل.
٨٦	الأنعام	فضيلة إسماعيل عليه السلام.
٩٠	الأنعام	الرسول ﷺ أفضل الرسل كلهم.
٦٢	الأعراف	وظيفة الرسل تبليغ وبيان التوحيد.
٦٥	الأعراف	هود - عليه السلام - بُعث إلى عاد الذين كانوا في أرض اليمن.
٧٣	الأعراف	صالح - عليه السلام - بعث إلى ثمود يدعوهم إلى التوحيد وينهاهم عن الشرك.
٨٨	الأعراف	شعيب - عليه السلام - كان يدعو قومه طامعاً في إيمانهم.
٨٩	الأعراف	شعيب عليه السلام آيس قومه من كونه يوافقهم على ما هم عليه.
١٤٤	الأعراف	الفضيلة التي اختص بها موسى عليه السلام.
١٤	الأنفال	الدلائل على أن ما جاء به محمد ﷺ حقاً.
٩٨	يونس	قوم يونس مستثنون من عموم عدم الانتفاع بالإيمان الاضطراري.
٢٧	هود	أول من ردّ دعوة المرسلين: الأشراف والرؤساء.
٩٥	هود	شعيب - عليه السلام - كان خطيب الأنبياء.
٣٧	إبراهيم	إسحاق عليه السلام سكن في الشام، وسكن إسماعيل عليه السلام في مكة.
٨٠	الحجر	أهل الحجر، هم قوم صالح.

الفائدة	السورة	رقم الآية
من كذب رسولاً فقد كذب سائر الرسل؛ لاتفاق دعوتهم.	الحجر	٨٠
كان بيت زكريا - عليه السلام - من البيوت المشهورة في الدين والرسالة.	مريم	٥
إبراهيم - عليه السلام - جمع بين الصديقية والنبوة.	مريم	٤١
معارضة الرسول بما ليس بمعارض.	الفرقان	٢١
السبب الموجب لتصديق الرسل.	الشعراء	١١٠
تكذيب الرسل أمر قد توارثته الأمم المكذبة.	الشعراء	٢٠٠
داود وسليمان عليهما السلام من خواص الرسل.	النمل	١٥
الرسل يبعثون في المدن الأمهات؛ لمظنة الظهور والانتشار.	القصص	٥٩
نعم الله على عبده داود لا تحصي.	سبا	
الذبيح ليس إسحاق إنما إسماعيل.	الصفات	١٠١
كان داود - عليه السلام - في أغلب أحواله لازماً محرابه لخدمة ربه.	ص	٢١
سليمان - عليه السلام - من فضائل داود عليه السلام.	ص	٣٠
ثناء الله - تعالى - على سليمان ومدحه.	ص	٣٠
كَمُلَ أيوب - عليه السلام - مراتب العبودية في حال السراء والضراء.	ص	٤٤
الإخبار بأن عيسى - عليه السلام - عبد من عباد الله.	الزخرف	٦٤
فضيلة إبراهيم الخليل - عليه السلام -.	الذاريات	٢٤
فضيلة النبي ﷺ.	التحريم	٤

أهل الكتاب

أولية أهل الكتاب في الكفر.	البقرة	٤١
تحريف أهل الكتاب لكلام الله تعالى.	البقرة	٧٥
أمية أهل الكتاب أمية العلم والعمل.	البقرة	٧٨
ظلم أهل الكتاب في تحريف كلام الله من جهتين.	البقرة	٧٩
أهل الكتاب يطلبون آيات التعتن، لا آيات الاسترشاد.	البقرة	١١٨
أهل الكتاب بذلوا ما بذلوا لجذب الأمم إلى دينهم.	البقرة	٢١٧
جاء أهل الكتاب العلم المقتضي لعدم الاختلاف.	آل عمران	٨٩
أمناء أهل الكتاب.	آل عمران	٧٥
من أهل الكتاب من جمع بين الخيانة واحتقار الأمين.	آل عمران	٧٥
التحريف في الكتاب شامل للتحريف اللفظي والمعنوي.	آل عمران	٧٨

الفائدة	السورة	رقم الآية
تحذير المؤمنين عن الاغترار بأهل الكتاب.	آل عمران	١٠٠
أهل الكتاب لن يضرروا المؤمنين إلا أذى باللسان.	آل عمران	١١١
إعطاء الجزية والمعاهدة من أسباب أمن أهل الكتاب.	آل عمران	١١٢
أهل الكتاب لم يتمكنوا في الوقت الأخير من الملك المؤقت في فلسطين إلا بنصر الدول الكبرى.	آل عمران	١١٢
أهل الكتاب تركوا الحق وآثروا الباطل وقلبوا الحقائق؛ فكان الجزء من جنس العمل.	النساء	٤٧
أهل الكتاب نهوا عن الغلو في الدين والقول على الله بلا علم.	النساء	١٧١
اليهود والنصارى؛ هم أهل الكتاب عند الإطلاق.	الأنعام	١٥٧
الروم أهل كتاب، وهم أقرب إلى المسلمين من فارس.	الروم	٤
الإرشاد إلى طريقة مناظرة أهل الكتاب.	الشورى	
مثل علماء أهل الكتاب الذين لم يعملوا بما في التوراة.	الجمعة	٥

الإيمان

تعريف الإيمان: التصديق المتضمن لأعمال الجوارح.	مقدمة	
الإيمان الذي يتميز به المسلم من الكافر هو الإيمان بالغيب.	البقرة	٣
ما يدخل في الإيمان بالغيب.	البقرة	٣
يتضمن الإيمان بالكتب الإيمان بالرسول.	البقرة	٤
الطبع على القلوب من موانع الإيمان.	البقرة	٧
انتفاء الإيمان بعد بيان الحق يوجب عقاباً عاجلاً أو آجلاً.	البقرة	٧
الإيمان الحقيقي ما تواطأ عليه القلب واللسان.	البقرة	٩
تصديق الإيمان إنما يكون بالأعمال الصالحة.	البقرة	٢٥
الإيمان هو الوعد الموجب لنجاة صاحبه.	البقرة	٨٠
الإيمان الواجب والنافع هو الإيمان بما أنزل الله - تعالى -.	البقرة	٩٣
القول: «أنا مؤمن».	البقرة	١٣٦
قصد الحق والإنصاف من أسباب زيادة الإيمان.	البقرة	١٤٣
المؤمنون هم المنتفعون على الحقيقة بالأوامر والنواهي.	البقرة	١٧٢
ليس الإيمان بالتحلي والتمني ومجرد الدعاوي حتى تصدقه الأعمال.	البقرة	٢١٤
الإيمان هو الفاصل بين أهل السعادة وأهل الشقاوة.	البقرة	٢١٨
أصل التأيد بالروح عام لكل مؤمن بحسب إيمانه.	البقرة	٢٥٣

الفائدة	السورة	رقم الآية
تكميل الإيمان وحقوقه من أكبر الأسباب لاجتناب ما حرم الله .	البقرة	٢٧٧
كلما قوي إيمان العبد تولاه الله - تعالى - بلطفه .	آل عمران	٦٨
ثمرة وصول حقيقة الإيمان إلى القلوب .	آل عمران	٧٣
ما هي أصول الإيمان التي أمر الله بها هذه الأمة؟	آل عمران	٨٣
الإيمان هو السبب الداعي والموجب لامتنال الأمر واجتناب النهي .	آل عمران	١٣٠
الإيمان: هو التصديق الكامل المستلزم لأعمال الجوارح .	آل عمران	١٣٠
المؤمن إذا أصابته سرء شكر، وإذا أصابته ضراء صبر .	آل عمران	١٥٢
العبد قد يكون فيه خصلة كفر وخصلة إيمان، وقد يكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الأخرى .	آل عمران	١٦٨
النبي ﷺ يدعو الناس إلى الإيمان ويرغبهم فيه .	آل عمران	١٩٣
ما هو الإيمان النافع؟ .	آل عمران	١٩٩
الإيمان يجمع المؤمنين على مصالحهم الدينية والدنيوية .	النساء	٢٩
المؤمنون على قسمين .	النساء	٧٢
الأمر التي تقوي قلوب المؤمنين .	النساء	١٠٤
الإيمان هو الأصل والأساس والقاعدة التي يبنى عليه كل شيء .	النساء	١٢٤
ما يدخل في الأمر بالإيمان .	النساء	١٣٦
إن الإنسان يكتسب الخير بإيمانه .	الأنعام	١٥٨
لا ينبغي للعبد أن يكون آمناً على ما معه من الإيمان .	الأعراف	٩٩
الإيمان بآيات الله والتصديق بجزائه شرط في قبول الإيمان .	الأعراف	١٤٧
لا يتم الإيمان إلا بأعمال القلوب وأعمال الجوارح؛ المترتبة على الإيمان .	الأعراف	١٥٣
متممات الإيمان .	الأعراف	١٥٧
الإيمان يدعو إلى طاعة الله ورسوله .	الأنفال	١
ما هو الإيمان الكامل الذي يترتب عليه الفوز التام؟	الأنفال	٤
حقيقة الإيمان تحصل بالجمع بين الإسلام والإيمان .	الأنفال	٤
تعاهد الإيمان وزيادته ونماه .	التوبة	١٢٤
انشرح الصدر لآيات الله؛ دليل على الإيمان .	التوبة	١٢٦
ينبغي للمؤمن أن يتفقد إيمانه، ويتعاهده؛ لأن الإيمان يزيد وينقص .	التوبة	١٢٦

رقم الآية	السورة	الفائدة
١٧	يونس	من آمن بقاء الله؛ فلا بد أن ينقاد لهذا الكتاب ويؤمن به.
٥١	يونس	الإيمان لا ينفع حين حلول عذاب الله.
١٧	هود	من دواعي الإيمان: القصد الحسن، والفهم المستقيم.
٩٥	هود	الأعمال من لوازم الإيمان وآثاره؛ فإذا لم يوجد العمل؛ فالإيمان ناقص أو معدوم.
٢٧	إبراهيم	الإيمان القلبي التام يستلزم أعمال الجوارح ويثمرها.
٧٦	مريم	الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح.
١٦	طه	التحذير من كل داع إلى الباطل يصد عن الإيمان الواجب أو عن كماله.
٣٨	الحج	الله - تعالى - يدافع عن المؤمنين بحسب إيمانهم.
٧٣	المؤمنون	موجبات الإيمان وموانعه.
١٠٣	المؤمنون	نصوص الكتاب والسنة على: أن من معه أصل الإيمان لا يخلد في النار.
٣	النور	الزاني لا يطلق عليه اسم المدح الذي هو الإيمان المطلق.
١١	النور	القدح في المؤمنين؛ قدح في النفس.
١٧	النور	الإيمان الصادق يمنع صاحبه من الإقدام على المحرمات.
٥٠	النور	الإيمان ليس هو مجرد القول حتى يقترب به العمل.
١٥	النمل	درجات المؤمنين.
٣	القصص	على حسب إيمان العبد تكون عبرته.
٩	العنكبوت	الإيمان الصحيح والعمل الصالح عنوان على سعادة صاحبه.
٨	لقمان	البشارة تكون لمن جمع بين عبادة الباطن بالإيمان، والظاهر بالإسلام، والعمل الصالح.
سبأ		الإيمان: هو التصديق الموجب للانقياد
٨١	الصافات	الإيمان أرفع منازل العباد.
٨٥	غافر	وجود قرائن العذاب مانعة من قبول الإيمان.
٩	الفتح	الإيمان بالله وبالرسول من الحقوق المشتركة.
١٢	الحديد	فضل الإيمان واعتباط أهله به يوم القيامة.
١٩	الحديد	الإيمان عند أهل السنة والجماعة.
٢٢	المجادلة	الإيمان الزعمي الذي لا حقيقة له.

رقم الآية	السورة	الفائدة
١١	الصف	الإيمان التام: هو التصديق الجازم المستلزم لأعمال الجوارح.
٢٩	الملك	الإيمان يشمل التصديق الباطن، والأعمال الباطنة والظاهرة.
٢٦	المعارج	لوازم التصديق بيوم الدين.
١٣	الجن	الإيمان سبب داع إلى كل خير، وانتفاء كل شر.

الإيمان

٢٢٤	البقرة	المقصود من اليمين والقسم: المقسّم به، وتأكيد المقسّم عليه.
٢٢٤	البقرة	النهي عن جعل الإيمان مانعة من البر.
٢٢٤	البقرة	ينبغي في المباح حفظ اليمين عن الحث.
٢٢٥	البقرة	المواخظة في الإيمان على ما قصده القلب.
٨٨	المائدة	من حرم حلالاً عليه؛ فعليه كفارة يمين.
٨٨	المائدة	حكم أيمان اللغو وكفارتها.
٢	التحریم	كفارة من حرم حلالاً عليه ثم حث.

البدع/الحوادث

٦	الفاتحة	تضمنت سورة الفاتحة الرد على جميع أهل البدع والضلال.
٤	البقرة	المبتدعة يؤولون النصوص الدالة على خلاف قولهم.
٦١	البقرة	الحادث من بعض الأمة حادث من الجميع.
٧٩	البقرة	التقاء أصول أهل البدع مع أهل الكتاب.
١٥٨	البقرة	أعمال الحج إذا فعلت غير تابعة للنسك كانت بدعة.
١٥٨	البقرة	أنواع البدع.
١٨٨	البقرة	كل من تعبد بعبادة لم يشرعها الله ولا رسوله؛ فهو متعبد ببدعة.
٢٢١	البقرة	النهي عن مخالطة كل مشرك ومبتدع.
		اتباع المتشابه من أوصاف أهل الآراء السقيمة، والعقول الواهية،
٧	آل عمران	والقصود السيئة.
١٨٨	آل عمران	الوعيد لكل من ابتدع بدعة قولية وفعلية وفرح بها ودعا إليها.
١٣٨	الأنعام	ما اخترعه أهل الشرك من الاصطلاحات البدعية.
٣٧	التوبة	العوائد المخالفة للشرع مع الاستمرار عليها يزال قبحها.
٨	الحج	الفرق بين مجادلة المقلد ومجادلة الداعي إلى البدع.
٣٥	غافر	الوصف اللازم لكل من جادل في آيات الله.

رقم الآية	السورة	الفائدة
البرهان		
١١١	البقرة	كل من ادعى دعوى لا بد أن يقيم البرهان على صحة دعواه.
١١٢	البقرة	الإخلاص والمتابعة برهانان جليان لكل أحد.
١٦٩	البقرة	التعليل بلا برهان قول على الله بلا علم.
		البرهان يشمل الأدلة العقلية والنقلية، وكذلك الآيات الأفقية والنفسية.
١٧٤	النساء	البرهان القاطع على صحة رسالة نوح - عليه السلام -.
٧١	يونس	البرهان هو: ما مع العبد من العلم والإيمان الموجب لترك كل ما حرم الله.
٢٤	يوسف	البرهان القاطع على أن الله هو المستحق لإفراده بالعبودية.
٦٥	مريم	البرهان القاطع لا يكون معه معارض.
٢٤	الأنبياء	
البر		
٤٤	البقرة	البر يتضمن: الإيمان، والخير.
١٧٧	البقرة	أحسن البر وأوفقه تعاهد الأقارب بالإحسان المالي والقولي.
٩٢	آل عمران	البر: هو الطريق الموصل إلى الجنة.
٥	الإنسان	وصف نعيم الأبرار.
٢١٤	البقرة	من أعظم بر الوالدين النفقة عليهما.
البرزخ		
		من تُوفِّي فقد استكمل واستوفى ما قَدَّر له من الرزق والأجل والعمل.
٩٧	النساء	بدن الميت يكون عورة.
٣١	المائدة	أرواح المؤمنين تفتح لها أبواب السماء حتى تعرج إلى الله.
٤٠	الأعراف	سؤال منكر ونكير في القبر.
٢٢	الفرقان	الأدلة على إثبات عذاب القبر.
٢١	السجدة	إحياء الأجساد والأرواح من القبور.
٩	فاطر	رقدة أهل القبور قبيل النفخ في الصور.
٥٢	يس	وفاة الموت هي الوفاة الكبرى.
٤٢	الزمر	الروح والنفس جسم قائم بنفسه.
٤٢	الزمر	

رقم الآية	السورة	الفائدة
٤٢	الزمر	الروح مخلوقة مدبرة يتصرف الله فيها بالوفاة والإمساك.
٤٢	الزمر	أرواح الأحياء والأموات تتلاقى في البرزخ.
١٨	المجادلة	من عاش على شيء؛ مات عليه.
٤	المعارج	أرواح المؤمنين تعرج إلى الله، فيؤذن لها.

البشارة

٢٥	البقرة	البشارة بالجنة، فضلها، والسبب الموصل إليها، وأنواعها.
٢٥	البقرة	التوفيق للإيمان والعمل الصالح، أول البشارة وأصلها.
٢٢٣	البقرة	حذف المبشر به لإفادة العموم.
١٧٠	آل عمران	التبشير بزوال المحذور عن النفس وعن الغير من كمال السرور.
١٣٨	النساء	البشارة تستعمل في الخير، وتستعمل في الشر بقيد.
١٧٠	النساء	ما هو السبب الموجب للإيمان بالنبي ﷺ.
٤٨	الأنعام	البشارة والندارة زبدة ما أرسل به المرسلون.
١١٢	التوبة	البشارة متناولة لكل مؤمن بحسب حاله.
٦٣	يونس	البشرى شاملة لكل خير وثواب رتبته الله على الإيمان والتقوى.
٧	القصص	لطف الله بأم موسى وتهويته عليها المصيبة بالبشارة.
٥٦	غافر	البشارة بأن كل من جادل الحق؛ فهو مغلوب.
٢٩	الذاريات	ما أكرم الله به إبراهيم وزوجته سارة من البشارة بغلام عليم.
٧	المتحة	البشارة بإسلام بعض المشركين.

البلدان

٩	البقرة	هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة.
١٠٢	البقرة	أرض بابل من أرض العراق.
١١٤	البقرة	خراب النصارى لبيت المقدس.
١٣٧	الأعراف	كان بنو إسرائيل في أرض مصر مستضعفين.
١٦١	الأعراف	إيلياء: القرية التي أمرت أمة موسى - عليه السلام - بدخولها.
٤٤	هود	الجودي: جبل معروف في أرض الموصل.
٨٤	هود	مدين: قبيلة معروفة في أدنى فلسطين.
٥٨	يوسف	يعقوب - عليه السلام - أرسل بنه لأجل الميرة إلى مصر.
٧١	الأنبياء	بابل من أرض العراق.
٧١	الأنبياء	فضائل الشام.

الفائدة	السورة	رقم الآية
سبأ قبيلة معروفة في أداني اليمن	سبأ	
بنو إسرائيل		
قبائل بني إسرائيل اثنتا عشرة قبيلة.	البقرة	٦٠
ضوابط التحديث عن بني إسرائيل.	البقرة	٧٤
من القصص ما ثبت نقلها بطريق التواتر عند بني إسرائيل.	البقرة	٢٤٣
اختلفت الأحزاب من بني إسرائيل في عيسى عليه السلام.	آل عمران	٥٢
المعروف عند بني إسرائيل أن السكوت من العبادات الشرعية.	مريم	٢٦
كتاب موسى أصل الإنجيل وعمدة لبني إسرائيل في أحكام الشرع.	الأحقاف	٣٠
البيوع/المعاملات		
معاملة الناس فيما بينهم: إما عدل، وإما فضل.	البقرة	٢٣٧
أحكام الدين.	البقرة	٢٨٢
وجوب تسمية الأجل، والأمر بكتابة الديون.	البقرة	٢٨٢
الكتابة من أعظم ما تحفظ به المعاملات.	البقرة	٢٨٢
مراعاة العرف في كتابة الديون.	البقرة	٢٨٢
الولي يقوم مقام موليه.	البقرة	٢٨٢
الإرشاد إلى الإشهاد في البيع.	البقرة	٢٨٢
أحكام الرهن.	البقرة	٢٨٣
إذا اختلف الراهن والمرتهن فالقول قول المرتهن.	البقرة	٢٨٣
وجوب ضمان المتلفات خطأ أو نسياناً.	البقرة	٢٨٦
جواز الاقتراع.	آل عمران	٤٤
شرط التراضي في التجارات.	النساء	٢٩
من اتّمن أمانة؛ وجب عليه حفظها في حرز مثلها.	النساء	٥٨
مستلزمات الوكالة التامة.	النساء	١٣١
من أثلف النفوس والأموال المحترمة؛ فعليه الضمان.	المائدة	٩٥
اليتيم قبل بلوغ الأشد محجور عليه.	الأنعام	١٥٢
صحة الوكالة في البيع والشراء وصحة الشركة في ذلك.	الكهف	١٩
يجوز عمل الإنسان في مال غيره إذا كان لمصلحة.	الكهف	٧٩
جواز أخذ الأجرة والكفالة والرضاع والدلالة على من يفعل ذلك.	القصص	١٢

رقم الآية	السورة	الفائدة
٢٧	القصص	مشروعية الإجارة.
٢٦	القصص	الإجارة والعمل يقومان على القوة والأمانة.
٢٨	القصص	جواز عقد الإجارة وغيرها من العقود من دون إسهاد.
٦٢	الزمر	الوكالة التامة لا بد فيها من علم الوكيل بما كان وكيل عليه.

الترغيب والترهيب

١٤٠	البقرة	طريقة القرآن في إفادة الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب.
٩٥	هود	الترهيب بأخذات الأمم، والترغيب في ما كرم الله به أهل التقوى.
١٣	لقمان	الوعظ: الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب.
٢٠	الحديد	الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة.

التزكية/التربية

		تربية الله لأصفيائه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم، وهذا
٢	الفاتحة	أخص معنى من معاني اسم الرب.
٢	الفاتحة	تربية الله تعالى لخلقه نوعان: العامة، والخاصة.
		التزكية تكون بالتربية على الأعمال الصالحة، والتبري من الأعمال
١٢٩	البقرة	الردية.
١٤٧	البقرة	القرآن فيه تربية العقول والنفوس.
١٥١	البقرة	أنواع التزكية.
١٧٤	البقرة	أسباب التزكية.
٣٧	آل عمران	تكميل التربية من كمال القائم عليها.
		ما هي موانع التزكية والتطهير؟
١٤٦	آل عمران	الأنبياء قد ربت الأتباع على الإيمان والأعمال الصالحة.
١٩	النساء	ينبغي مجاهدة النفس والتخلق بالأخلاق الجميلة.
٤٩	النساء	التزكي إنما يكون بالإيمان والعمل الصالح.
٥٣	الأنعام	عدم التزكية من موانع اتباع الحق.
٧١	الأنعام	الناس فيهم جواذب ودواعي متعارضة.
١٩٩	الأعراف	الآية الجامعة لحسن الخلق مع الناس.
١	الأنفال	يدخل في إصلاح ذات البين تحسين الخلق معهم.
١٠٣	التوبة	الزكاة والتطهير متوقف على إخراج زكاة ماله.

الفائدة	السورة	رقم الآية
ينبغي للعبد أن يدفع ما كان فيه تزكية لنفسه .	هود	٨٨
أهل العلم مأمورون بتزكية أنفسهم والاتصاف بصفات الكمال .	النحل	٤٣
الحث والترغيب على الزهد في الدنيا ، خصوصاً الزهد المتعين .	النحل	٩٦
التزكية تستلزم التطهير من الخصال الذميمة والاتصاف بالخصال الحميدة .	مريم	١٩
للتزكية معنى زائد على قدر التقية .	طه	٧٦
الزكاء يتضمن : الطهارة والنماء .	النور	٢١
طريق تحصيل الرحمة .	النور	٥٦
الهدى أفضل أنواع التربية	لقمان	٥
الحث على الزهد في الحياة الدنيا .	محمد	٣٦
محاسبة العبد نفسه ، وأن ذلك يوجب له الحياء .	الحشر	١٨
التسليم		
إذا خفيت على العبد حكمة الله في بعض الأمور؛ فالواجب عليه التسليم .	البقرة	٣٤
المؤمن الرشيد يتلقى الأحكام بالقبول والانقياد والتسليم .	البقرة	١٤٢
الأمر القدري إذا وقع لم يبق إلا التسليم له .	آل عمران	١٦٦
التفسير/قواعد - أصول		
الذي ينبغي في علم التفسير أن يجعل المعنى هو المقصود واللفظ وسيلة إليه .	مقدمة	
النظر إلى سياق الآيات ، مع العلم بأحوال الرسول وسيرته وقت نزوله ، من أعظم ما يعين على معرفة التفسير .	مقدمة	
إن الله وصف القرآن أنه مثاني تشئ في الأخبار والقصص والأحكام .	مقدمة	
العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .	مقدمة	
إنزال جميع الحوادث والأفعال الواقعة ، والتي لا تزال تحدث ، على العمومات القرآنية .	مقدمة	
إذا فهمت معاني الآيات ، فإن لوازمها وشروطها وتوابعها تابعة لذلك المعنى .	مقدمة	
فوائد تقديم العام على الخاص في السياق القرآني .	الفاتحة	٥
فائدة التخصيص بالذكر - في القرآن - بعد العموم .	البقرة	٤

الفائدة	السورة	رقم الآية
الطريقة المعهودة في القرآن: الجمع بين الترغيب والترهيب.	البقرة	٢٤
التخصيص بعد التعميم، يرد للبيان والاهتمام.	البقرة	٣٠
كثير من المفسرين جعلوا الإسرائيليات تفسيراً لكتاب الله!!	البقرة	١٢٥
فوائد إضافة الأعيان إلى خالقها.	البقرة	١٢٥
من وسائل التدرج في التفسير تقديم القول الأعم.	البقرة	١٥٠
القرآن لا يؤكد إلا ما كان مهماً وضرورياً.	البقرة	١٥٠
فوائد تكرار اللفظ في القرآن.	البقرة	١٥١
تفسير القرآن بالسنة.	البقرة	١٥١
الأسلم السكوت عند التعرض لمعنى الحروف المقطعة من غير مستند شرعي.	البقرة	١
مجيء الخبر بمعنى الأمر تنزيلاً له منزلة المقرر.	البقرة	٢٣٣
معنى التأويل في القرآن.	آل عمران	٧
الطريقة التي يتعين سلوكها في المتشابهات.	آل عمران	٨
ما هو المقصود الأعظم من سياق القصص.	آل عمران	٤٤
الإتيان باللفظ العام لإزالة الإيهام.	آل عمران	١٦١
التفصيل يأتي غالباً بعد الإجمال.	النساء	٧
طريقة القرآن في الحث على الجهاد في سبيل الله.	النساء	٧٨
من أسرار القرآن رفع اختصاص الحكم بالأمر الجزئي.	النساء	١٤٦
السنة تفسر القرآن، وتبين المقصود منه.	الأنعام	١٤٥
التحذير من الإسرائيليات الواردة في كتب التفسير.	الأعراف	٧٩
التقديم يفيد الأهمية.	التوبة	٦٠
فائدة الإظهار في موضع الإضمار.	التوبة	٩٦
فوائد الإتيان بسياق التعليل.	التوبة	١٠٩
التعليق على المحال من أبلغ ما يكون في نفي الشيء.	الرعد	١٤
السبع المثاني هن السبع الطوال أو فاتحة الكتاب.	الحجر	٨٧
الحكمة في نزول القرآن متفرقاً.	الفرقان	٣٢
استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء.	الفرقان	٣٤
التحذير من بعض التفاسير الباطلة عقلاً ولفظاً.	النمل	٢٠
من الحزم الإعراض عن الإسرائيليات، وعدم إدخالها في التفاسير.	النمل	٤٤

رقم الآية	السورة	الفائدة
١٧	ص	الحكمة من القصص والأخبار.
٨	الزمر	الإتيان بالملزوم للدلالة على اللازم.
٢٣	الزمر	مسلك المؤلف - رحمه الله - في تفسيره.
١	غافر	التلازم بين صفات الله - تعالى - وبين معاني القرآن.
٩	غافر	طريقة فهم القرآن وتدبره.
٢٥	غافر	إيثار الإظهار في موضع الإضمار.
	الشورى	طريقة القرآن في الجمع بين مسائل الربوبية ومسائل الألوهية.
١٠	الدخان	طريقة المؤلف في إنزال الآيات على أكثر من معنى.
٢٩	الجاثية	الترجيح بين معاني الآيات بقرينة السياق.
١٧	القمر	فضيلة علم القرآن حفظاً وتفسيراً.
٢	الحشر	العبرة بعموم المعنى لا بخصوص السبب.
١٥	القلم	معرفة أسباب النزول تعين على التفسير.
١٩	القيامة	النبي ﷺ بين للامة ألفاظ الوحي ومعانيه.
	الأعلى	تفسير العام ببعض أفرادها.
٣	الغاشية	الترجيح باللغة وقرينة السياق.
٥	الكافرون	فائدة التكرار في القرآن.

التقوى/المتقون

	مقدمة	تكميل التقوى يكون: بامثال الأمر، واجتناب النهي، وتصديق الخبر.
٢	البقرة	حقيقة التقوى، وإنها السبب الأكبر لحصول الهداية.
٢	البقرة	المتقون هم المتمتعون بالآيات القرآنية والآيات الكونية.
٢	البقرة	التقوى تتضمن أمور الظاهر والباطن.
٤١	البقرة	متى ترحل التقوى من القلوب.
١٥٨	البقرة	التقوى واجبة على كل مكلف.
١٨٧	البقرة	بيان الآيات من أسباب التقوى.
١٨٩	البقرة	التقوى سبب مهم للفلاح.
١٩٦	البقرة	من موجبات التقوى: الخوف من عقاب الله - تعالى -.
١٩٧	البقرة	الزاد الحقيقي المستمر نفعه: هو زاد التقوى.
١٩٧	البقرة	ترك التقوى دليل على الجهل وفساد الرأي.
٢٠٣	البقرة	من اتقى الله في شيء دون شيء؛ كان الجزاء من جنس العمل.

السورة	رقم الآية	الفائدة
البقرة	٢٠٣	العلم بالجزاء من أعظم دواعي التقوى.
البقرة	٢٤١	الأصل في التقوى الوجوب.
البقرة	٢٨٢	الاعتراف بالحقوق الجلية والخفية من أعظم خصال التقوى.
آل عمران	١٥	التقوى والقيام بعبودية الله تعالى خير من اللذات الدنيوية.
		من هم المتقون؟
آل عمران	١٣٠	اشتياق النفوس إلى معرفة خصال التقوى.
آل عمران	١٣٠	ترك الربا من موجبات التقوى.
آل عمران	١٣٤	المتقون لا يعملون بمقتضى الطباع البشرية.
		ما هو السبب الداعي الموجب لتقوى الله - تعالى -؟
المائدة	٣٥	التقوى من مقتضيات الإيمان.
الأنعام	٥١	الإنذار موجب للتقوى، وسبب من أسبابها.
الأعراف	٢٠١	علامة المتقين من الغاوين.
الأنفال	٢٩	المنافع التي رتب على فعل التقوى.
التوبة	١٠٩	العمل المؤسس على التقوى موصل لعامله إلى جنات النعيم.
مريم	١٤	من كان مؤمناً تقياً؛ كان لله ولياً.
الأحزاب	١	النبي ﷺ أولى بالتقوى من غيره.
الأحزاب	٣٢	الحث على تكميل التقوى بجميع وسائلها ومقاصدها.
الأحزاب	٧٣	أقسام الناس بحسب قيامهم بالأمانة.
الزمر	١٠	الأسباب الموجبة للتقوى.
الزمر	٢٧	سهولة طرق التقوى العلمية والعملية.
الزمر	٣٣	خصال التقوى ترجع إلى الصدق بالحق والتصديق به.
محمد	٣٦	التقوى من لوازم الإيمان ومقتضياته.

التمكين/النصر

البقرة	٥٨	دخول القرى خضوعاً لله بالفعل والقول؛ من أسباب التمكين.
آل عمران	١٣٧	العاقبة للمتقين، والنصر لعباده المؤمنين.
آل عمران	١٤٧	الأسباب المعنوية للنصر.
آل عمران	١٤٨	إلقاء الرعب في قلوب الكفار من نصر الله للمؤمنين.
آل عمران	١٥١	نصر الله لعباده المؤمنين على ضريين.
آل عمران	١٧٧	قيض الله لدينه الأبرار الأركياء أهل البصائر والعقول.

رقم الآية	السورة	الفائدة
١٤١	النساء	لا يزال الله يحدث من أسباب النصر ما هو مشهود بالعيان.
٣	المائدة	في يوم عرفة أتم الله دينه ونصر عبده ورسوله.
٥٥	الأنعام	فائدة استبانة سبيل المجرمين.
١٧٧	الأعراف	اتباع الهوى وإخلاد العبد إلى الشهوات يكون سبباً للخذلان.
٤٣	الأنفال	رأى الرسول ﷺ في منامه العدو قليلاً.
٤٥	الأنفال	الصبر والثبات والذكر من أكبر أسباب النصر.
٦٤	الأنفال	الإيمان والاتباع هما سبب الكفاية والنصرة على الأعداء.
٦٦	الأنفال	الأسباب الإيمانية والمادية الموجبة لحصول النصر.
٣٣	التوبة	علو الدين على سائر الأديان بالحجة والبرهان، والسيف والسنان.
٤٠	التوبة	أقسام النصر، وبيان أنفع النصرين.
٩٥	هود	الله - تعالى - يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة.
١٥	الحج	الوعد بنصر الله لدينه ورسوله وعباده المؤمنين.
٥٥	النور	أسباب حصول الأمن التام، والتمكين التام.
٤٨	القصص	التمكين والظهور والغلبة لهذا الدين.
٤	الروم	النصر لا يتوقف لمجرد وجود السبب، بل لا بد من القضاء والقدر.
٣٥	محمد	الأمر المقتضية للصبر، وعدم الوهن، والقيام بالعبادة.
١٠	المجادلة	إن الله وَعَدَ المؤمنين بالكفاية والنصر على الأعداء.
٩	الصف	أسباب الظهور والانتصار للدين الإسلامي.

التوبة

مقدمة	هي الرجوع عما يكرهه الله إلى ما يحبه، ومحلها الظاهر والباطن.
مقدمة	الله يتوب على التائبين بتوفيقهم للتوبة، ويتوب عليهم بعد توبتهم.
١١	البقرة
٣٧	البقرة
٣٧	البقرة
١٦٠	البقرة
١٩٩	البقرة
٢١٨	البقرة
١٧	آل عمران
١٧	النساء

الفائدة	السورة	رقم الآية
توبة الاضطراب لا تنفع، بخلاف توبة الاختيار.	النساء	١٧
متى يوفق العبد للتوبة؟		
كيف يكون الاستغفار تاماً؟		
الجزاء على عمل سوء العام مخصوص في غير التائبين.	النساء	١٢٣
التوبة مقبولة من كل ذنب وإن كان عظيماً.	التوبة	٦٦
موانع المغفرة.	التوبة	٨٠
فضيلة التوبة، وأنها أجل الغايات وأعلى النهايات.	التوبة	١١٨
الأمر التي تترتب على الاستغفار والتوبة.	هود	٣
الله - تعالى - يحب التائب من الذنب.	هود	٩٥
تقديم العزم على التوبة قبل صدور الذنب؛ تسهياً لفعله.	يوسف	٩
أفضل أوقات الاستغفار وقت السحر.	يوسف	٩٨
أسباب مغفرة الذنوب.	طه	٨٢
الحث على تكميل التوبة واتباعها على أفضل الوجوه.	الفرقان	٧١
الاستغفار والعبادة، لا سيما الصلاة من مكفرات الذنوب.	ص	٢٤
لوازم الاستغفار للمؤمنين.	محمد	١٩
فضيلة الاستغفار في الأسحار.	الذاريات	١٨
آثار التوبة النصوح.	التحریم	٨
فائدة الاستغفار بعد الحث على أفعال الطاعة.	المزمل	٢٠

توحيد الأسماء والصفات

من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة: أن أسماء الله الحسنى		
مشتقة من صفات دالة عليها، فإثبات الاسم إثبات لصفته.	الفاتحة	١
النفي المحض لا مدح فيه؛ فلا بد من إثبات الضد.	البقرة	٢
توحيد الأسماء والصفات، إثبات بلا تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه.	الفاتحة	٢
إثبات الوجه لله تعالى على الوجه اللائق به بلا تشبيه.	البقرة	١٤٥
آثار، وموجبات، ومقتضيات الأسماء الحسنى.	البقرة	١٤٠
الله متوحد متفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.	البقرة	١٦٣
ترد كلمة الاستواء في القرآن على ثلاثة معانٍ.	البقرة	٢٩
تفصيل الكلام في إثبات الصفات الاختيارية.	البقرة	٢١٠
الكلام على الصفات يتبع الكلام على الذات.	البقرة	٢١٠

رقم الآية	السورة	الفائدة
٢٥٥	البقرة	الحي القيوم متضمنان للصفات الذاتية والصفات الفعلية . من صفته اللازمة كمال المغفرة والرحمة ووجود مقتضياتهما في الخلق والأمر .
١٢٩	البقرة	الإرشاد إلى التفقه في معاني أسماء الله وصفاته .
١٤٩	النساء	وكالة الله تعالى على الأشياء ليست من جنس وكالة الخلق .
١٠٢	الأنعام	مذهب أهل السنة والجماعة إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالى .
١٥٨	الأنعام	كل اسم من أسماء الله تعالى دال على جميع الصفة التي اشتق منها .
١٨٠	الأعراف	حصر الدعاء بالأسماء الحسنی من تمام كونها حسنی .
١٨٠	الأعراف	حقيقة الإلحاد في الأسماء والصفات .
٩٦	التوبة	إثبات الأفعال الاختيارية لله الواقعة بمشيئته وقدرته .
٦٨	يونس	البراهين الدالة على تنزيه الخالق من النقص والعيب .
٦٠	النحل	كل كمال في الوجود فالله أحق به .
٨	طه	معنى أن أسماء الله تعالى كلها حسنی .
٢٧	الروم	أهل العلم يستعملون في حق البارئ قياس الأولى .
١٢	لقمان	اجتماع صفات الكمال مع لوازمها؛ زيادة كمال إلى كمال .
٢٧	لقمان	إثبات صفة الأولیة والآخرة .
٧٩	یس	صفات الله - تعالى - دليل على البعث والنشور .
١	الزمر	الكلام وصف للمتكلم، والوصف يتبع الموصوف .
٦٥	غافر	الحياة من الصفات الذاتية .
	الشورى	مذهب أهل السنة والجماعة في إثبات الصفات .
٨٤	الزخرف	الله تعالى فوق عرشه بائن من خلقه .
٢٧	النجم	العلم كله دال على تنزيه الخالق من النقائص .
٤٢	القلم	إثبات صفة الساق .
٤	الإخلاص	سورة الإخلاص اشتملت على توحيد الأسماء والصفات .

توحيد الألوهية

١	الفاتحة	صفات الألوهية صفات كمال، والله هو المستحق لإفراده بها .
٢٢	البقرة	النهي عن اتخاذ الأنداد .
٢١	البقرة	توحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية .
١٣١	البقرة	كلمة التوحيد الميراث المنقول بين الرسل .

الفائـلة	السورة	رقم الآية
الحنيف: المقبل على الله تعالى، المعرض عما سواه.	البقرة	١٣٤
الاستدلال بمعاني الصفات على تقرير الألوهية.	البقرة	١٦٣
من الوسائل المحبوبة التوسل إلى الله - تعالى - بالإيمان والأعمال الصالحة.	آل عمران	١٦
النذر من القربات التي يحبها الله تعالى.	آل عمران	٣٥
فمن أثر محبة الله على محبة نفسه؛ فقد بلغ الذورة العليا في الكمال.	آل عمران	٩٢
الاعتماد على الله توحيد مجمل للمقصود.	الأعراف	١٦٠
التوحيد مانع من الخلود في النار.	النساء	١٤
بطلان إلهية من لا يتمتع من الإهلاك، ولا في قوته شيء من الفكاك.	المائدة	١٧
تقرير التوحيد بكل دليل عقلي ونقلي.	الأنعام	١٣
التوحيد أفرض الفروض وأوجب الواجبات.	الأنعام	١٤
شهادة الرسول على توحيد الله مؤيدة بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة.	الأنعام	١٩
القهر والتوحيد متلازمان لله وحده.	الرعد	١٦
صفة كلمة التوحيد وثباتها في قلب المؤمن.	إبراهيم	٢٥
زبدة دعوة الرسل كلهم ومدارها على قوله: «أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا».	النحل	٢
المنفرد بالخلق أحق بالعبادة كلها.	النحل	١٧
التوحيد هو أصل الأصول.	الإسراء	٤٢
الألوهية وصفه تعالى، والعبودية وصف عبده.	طه	١٤
حقيقة الفطرة: محبة الحق وإيثاره.	الروم	٣٠
الموازنة بين من يدعو إلى عبادة الله وبين من يتقرب إلى الأوثان.	سبا	
القرآن كثيراً ما يقرر توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية.	الصفات	٥
الجمع بين الخلق والأمر.	الأحقاف	٣
العلم بتوحيد الله فرض عين على كل إنسان.	محمد	١٩
طرق تحصيل العلم بمقتضى لا إله إلا الله.	محمد	١٩
متى يرسخ الإيمان والعلم بالتوحيد في قلب العبد؟	محمد	١٩
سورة الجن اشتملت على الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك.	الجن	٢٦

الفائدة	السورة	رقم الآية
توحيد الربوبية		
انفراد الله - تعالى - بالخلق والتدبير.	الفاتحة	٢
الاستدلال بالربوبية على وجوب عبادة الله وحده.	البقرة	٢١
من كمال ربوبية الله - تعالى - لعباده أن ينزل عليهم الكتاب.	البقرة	١٣٦
الآيات الخلقية أدلة تفصيلية على ربوبية الله - تعالى - المستلزمة لألوهيته.	البقرة	١٦٤
الإحياء والإماتة من أظهر صفات الربوبية.	البقرة	٢٥٨
وصف الربوبية جامع لصفات الأفعال.	يونس	٣
حكم الله القدري، هو تدبيره العام.	يونس	٤
الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية.	الكهف	١٤
إنكار فرعون وتعطيله للربوبية.	الشعراء	٢٨
الضروريات التي يُستدل بها على ربوبية الله - تعالى -.	الشعراء	٧٧
الخلق كلهم داخلون تحت الربوبية والملك.	الناس	٥

التوكل/الاستعانة/التوكل

وحقيقته: قوة اعتماد القلب على الله مع الثقة به في حصول المطلوب .	مقدمة
الاستعانة هي: الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك.	الفاتحة
على العبد أن يستعين في أموره كلها بالصبر والصلاة.	البقرة
المسلم يستعين برزق الله على عبادة الله - تعالى - .	البقرة
عند البأس ينبغي الحث على القوة الإيمانية والتوكل والدعاء.	البقرة
على حسب إيمان العبد يكون توكله.	آل عمران
وجوب الاستعانة بالله على امتثال الأمر في النفس وفي الغير.	آل عمران
التوكل على الله - تعالى - من واجبات القلب المتفق عليها.	المائدة
ينبغي على الإنسان أن يستعين بالطيبات على طاعة ربه.	المائدة
التوكل هو الحامل على الأعمال كلها.	الأنفال
ينبغي للعبد أن لا يتكل على نفسه طرفة عين.	هود
جواز الأخذ بالأسباب الدافعة للعين.	يوسف
لا بأس باستعانة الناس بعضهم ببعض في الأمور الداخلة في مقدورهم.	يوسف

الفائدة	السورة	رقم الآية
حث العباد على الاستعانة بربهم .	إبراهيم	١
وجوب التوكل على الله وأنه من لوازم الإيمان .	إبراهيم	١١
الرسول عليهم الصلاة والسلام توكلوا على الله في إقامة دينه فتوكلهم أكمل ما يكون .	إبراهيم	١٢
جواز الإخبار عما هو من مقتضى الطبيعة .	الكهف	٦٢
الاستعاذة من مادة الشر كله أو أصله .	المؤمنون	٩٧
ينبغي للعبد تعاظم الأسباب وعدم الركون إلى الكسل .	ص	٣١
الاستعانة على الصبر بالذكر والعبادة .	الطور	٤٩
الأعمال وجودها وكمالها متوقفة على التوكل .	الملك	٢٩
الوقوف عند مراد النفس فقط من ضعف الهمة .	الفجر	١٦
الاستعاذة من جميع أنواع الشرور .	الفلق	٥

الجنايات

معنى القصاص .	البقرة	١٧٨
من عادة الجاهلية منع ولي المقتول من الاقتصاص .	البقرة	١٧٨
الذكر يقتل بالأنثى .	البقرة	١٧٨
الأبوان لا يقتلان بالولد .	البقرة	١٧٨
الأصل وجوب القود في القتل ، والدية بدل عنه .	البقرة	١٧٨
بيان حكمته - تعالى - في مشروعية القصاص .	البقرة	١٧٩
المقاصة هي المماثلة في مقابلة المعتدي .	البقرة	١٩٤
الحكمة من كفارة القتل الخطأ .	النساء	٩٢
قتل القاتل يكون بأحد أمرين .	المائدة	٣٢
الحق في القصاص للولي عند اجتماع الشروط الموجبة له .	الإسراء	٣٣
من قتل مؤمناً بغير حق؛ فهو من الجبارين المفسدين .	القصص	١٩

الجن

الجن كالإنس في الثواب والعقاب والأمر والنهي .	البقرة	٣٩
استمتاع الجني بالأنسي ، والعكس .	الأنعام	١٢٨
وجود الجن ، وأنهم مكلفون .	الجن	٢٦
الرسول ﷺ مبعوث إلى الجن كما هو مبعوث إلى الإنس .	الجن	٢٦

الفائدة	السورة	رقم الآية
ذكاء الجن ومعرفتهم بالحق.	الجن	٢٦
شدّة حرص الجن على استماعهم للرسول ﷺ وتراكمهم عليه.	الجن	٢٦
الجنة		
سميت بذلك لأنه يجتن بها داخلها، وينعم فيها ساكنها.	البقرة	٢٥
ليس في الجنة مكان خال من اللذة.	البقرة	٢٥
أسباب تحصيل الجنة والمغفرة.	البقرة	٢٢١
الجنة أعلى المطالب ولا يبلغها العبد إلا باحتمال المكاره.	آل عمران	١٤٢
في الجنة من النعيم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.	النساء	١٢٢
الجنة دار السلام؛ لسلامتها من كل عيب.	الأنعام	١٢٧
الأعمال الظاهرة والباطنة لأهل الجنة.	الأعراف	١٧٩
الجنات تشتمل على النعيم التام.	يونس	٩
سمى الله - تعالى - الجنة دار السلام لسلامتها من جميع الآفات والنقائص.	يونس	٢٥
جنة الفردوس نزل وضيافة لأهل الإيمان والعمل الصالح.	الكهف	١٠٧
الجنة ليس فيها إلا السلام التام من جميع الوجوه.	مريم	٦٢
أهل الجنة لا ينامون في الجنة.	فاطر	٣٥
جمال الرجال والنساء في الجنة، ومحبة بعضهم بعضاً.	الصفات	٤٨
لذة أهل العلم في الجنة.	الصفات	٥٠
تمام نعيم الجنة.	الطور	٢١
البكارة ملازمة لنساء أهل الجنة في جميع الأحوال.	الواقعة	٣٦
وصف نعيم الجنة.	الصف	١٢
أشربة أهل الجنة.	المطففين	٢٨

الجهاد

إقامة الصلاة من أعظم أسباب الإعداد للجهاد.	البقرة	١١٠
من قتل في سبيل الله - تعالى - حصلت له حياة أكمل وأعظم من حياته الدنيا.	البقرة	١٥٤
ما يتمناه الشهداء بعد معاينة الثواب.	البقرة	١٥٤
شرّع الأمر بالقتال بعد الهجرة إلى المدينة.	البقرة	١٩٠

رقم الآية	السورة	الفائدة
١٩٠	البقرة	فوائد تخصيص القتال في سبيل الله.
١٩١	البقرة	أنواع القتال.
١٩٣	البقرة	مقصود الشارع من الأمر بالقتال.
١٩٥	البقرة	الجهاد في سبيل الله لا يقوم إلا على ساق النفقة.
٢١٦	البقرة	العودة عن الجهاد لطلب الراحة شر.
٢١٧	البقرة	قتال الدفع في الأشهر الحرم يجوز كما يجوز في البلد الحرام.
٢١٨	البقرة	مفهوم الجهاد.
٢٤٣	البقرة	التغيب في الجهاد والترهيب من التقاعد عنه.
٢٤٦	البقرة	من القصص ما يكون ترغيباً في الجهاد.
٢٤٦	البقرة	القتال متعين عندما يكون وسيلة لاسترجاع الديار.
٢٥١	البقرة	من فوائد الجهاد حصول المدافعة.
٢٥١	البقرة	مقاصد الجهاد.
٢٥١	البقرة	ما يجب اعتباره في الكفاءة.
٢٥٦	البقرة	الجهاد ماض مع البر والفاجر.
٢٥٦	البقرة	الجهاد القولي والجهاد الفعلي من الفروض المستمرة.
٢٨	آل عمران	الرخصة في المسالمة والمهادنة لا في التولي الذي هو محبة القلب.
١٤١	آل عمران	الشهادة والقتال في سبيل الله تكفر الذنوب وتزيل العيوب.
١٤٣	آل عمران	لا يكره تمنى الشهادة إذا عمل العبد بمقتضاها.
١٥٧	آل عمران	القتل في سبيل الله سبب موصل إلى مغفرة الله ورحمته.
١٧٠	آل عمران	جمع الله للشهداء بين نعيم البدن بالرزق، ونعيم القلب والروح بالفرح.
٧١	النساء	الأمر بالأخذ بجميع الأسباب التي بها يستعان على قتال العدو.
٧٥	النساء	الجهاد الذي فيه استنقاذ المستضعفين أعظم أجراً وأكبر فائدة.
٧٦	النساء	الجهاد في سبيل الله من آثار الإيمان ومقتضياته ولوازمه.
٧٦	النساء	الذي يقاتل في سبيل الله يعتمد على ركن وثيق: وهو الحق والتوكل على الله.
٧٧	النساء	لماذا لم يؤمر المسلمون بجهاد الأعداء في العصر المكي؟
٩١	النساء	أدلة نسخ القتال في الأشهر الحرم.
٣٥	المائدة	الجهاد: بذل الجهد في قتال الكافرين، والسعي في نصرة الدين.

الفائدة	السورة	رقم الآية
الأحوال التي لا تدخل في الفرار المنهي عنه .	الأنفال	١٦
أسباب هزيمة المؤمنين في بعض الأوقات .	الأنفال	١٩
المقصود من تشريع القتال والجهاد .	الأنفال	٣٩
نسخ وجوب النفي على جميع المؤمنين .	التوبة	٣٦
من كبائر الذنوب عدم النفي في حال الاستنفار .	التوبة	٣٩
وجوب الجهاد في المال إذا اقتضت الحاجة .	التوبة	٤١
أنواع الجهاد .	التوبة	٧٣
حكمة الجهاد ومقاصده .	الحج	٤٠
الجهاد: بذل الوسع في حصول الغرض المطلوب .	الحج	٧٨
بعد نزول التوراة انقطع الهلاك العام، وشرع جهاد الكفار بالسيف .	القصص	٤٣
أهل الجهاد أحرى الناس بموافقة الصواب .	العنكبوت	٦٩
طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيل الله .	العنكبوت	٦٩
أعذار الخروج عن الجهاد .	الفتح	١٧
من لم يقوَ على الجهاد؛ فإن ذلك دليل على ضعف إيمانه .	الحجرات	١٤

الجهل/الجاهلية

الجاهل يتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه .	البقرة	٦٧
الأوس والخزرج كانوا يقتتلون على عادة الجاهلية .	البقرة	٨٤
كانوا في الجاهلية على شركهم يحترمون البيت أشد الاحترام .	البقرة	١٢٥
الخمر والميسر كانا مستعملين في الجاهلية .	البقرة	٢١٩
طلاق الجاهلية أن يطلق الرجل زوجته بلا نهاية .	البقرة	٢٢٩
كان العرب في الجاهلية لا يورثون الضعفاء .	النساء	٧
كانوا في الجاهلية يرثوا النساء كرهاً .	النساء	١٩
من عوائد الجاهلية نكاح ما نكح الآباء .	النساء	٢٢
طلب الآيات المقترحة دال على الجهل وعدم العلم بالمعقول .	الأنعام	٨
علامة المؤمن مخالفة أهل الجاهلية .	الأنعام	١١٩
أهل الجاهلية استعملوا النسء في الأشهر الحرم .	التوبة	٣٧
قدح الجاهل بلا علم لا عبرة به .	النحل	١٠١
الجاهلية الجهلاء كانت تحترم مكة المشرفة .	النحل	١١١
كان التبني في الجاهلية وأول الإسلام ثم نسخ .	الأحزاب	٤

الفائدة	السورة	رقم الآية
خروج النساء متجملات من عادة الجاهلية الأولى.	الأحزاب	٣٣
النجم المعروف بالشعرى مما عبد في الجاهلية.	النجم	٤٩
الإنسان جاهل ظالم لا علم له بالعواقب.	الفجر	١٥

الجوارح

تقليب الوجه مستلزم لتقليب البصر.	البقرة	١٤٤
الوجه ما أقبل من بدن الإنسان.	البقرة	١٤٤
إقبال الوجه تبع لإقبال القلب.	الروم	٣٠
إذا وجدت الأنامل والبنان؛ فقد تمت خلقة الجسد.	القيامة	٤
التراقي هي العظام المكتنفة للثغرة النحر.	القيامة	٢٦

الحج

ركعتا الطواف يستحب أن تكونا خلف مقام إبراهيم.	البقرة	٢٥
ماذا يراد بالمناسك؟	البقرة	١٢٨
السعي بين الصفا والمروة فرض لازم للحج والعمرة.	البقرة	١٥٨
فوائد نفي الجناح فيمن تطوف.	البقرة	١٥٨
لا يتطوع بالسعي مفرداً بخلاف الطواف.	البقرة	١٥٨
معنى الأمر بإتمام الحج إلى العمرة.	البقرة	١٩٦
أحكام الحج.	البقرة	١٩٦
إزالة الشعر من محظورات الإحرام.	البقرة	١٩٦
الأفضل أن يكون الحلق بعد النحر.	البقرة	١٩٦
الشافعي رحمه الله تعالى لا يجوز الإحرام بالحج قبل أشهره.	البقرة	١٩٧
صحة الإحرام بالحج قبل أشهره.	البقرة	١٩٧
ما يجب الاحتراز منه في الإحرام خاصة في الحج.	البقرة	١٩٧
الذل والانكسار لله - تعالى - والتقرب إليه من مقصود الحج.	البقرة	١٩٧
أحكام الوقوف بعرفة ومزدلفة.	البقرة	١٩٨
حكمة إيجاب الحج على المكلفين المستطيعين.	آل عمران	٩٦
من كفر فلم يلتزم حج البيت فهو خارج عن الدين.	آل عمران	٩٧
النهي عن الصيد في حال الإحرام.	المائدة	٢
الأمر بتأمين الطرق الموصلة إلى بيت الله.	المائدة	٢

رقم الآية	السورة	الفائدة
٩٥	المائدة	كفارة من قتل الصيد متعمداً في حال الإحرام.
٩٧	المائدة	الحج على الناس فرض كفاية في كل سنة.
١١٣	الأنعام	أهل الإيمان همتههم مصروفة إلى معرفة الحقائق.
١١٧	الأنعام	الحق لا يستدل عليه بكثرة أهله ولا بقله السالكين.
٣	التوبة	كان الحج الأكبر في السنة التاسعة من الهجرة.
٢٨	الحج	فوائد زيارة بيت الله الحرام.
٣٦	الحج	المراد بالشعائر: أعلام الدين الظاهرة.

الحجة

٦	البقرة	الدعوة لا تفيد الكفار إلا من جهة إقامة الحجة.
		من أكبر الإثم الوقوع في الظلم المطلق بعد العلم به وقيام الحجة
٨١	البقرة	كل مبطل يحتاج بشيء يكون فيما احتج به حجة عليه.
١٣٩	البقرة	تعريف المحاجة.
١٣٩	البقرة	المحاجة ينبغي أن تكون بأقرب طريق يقيم الحجة على المعاند.
١٦٥	البقرة	لا يعذر المعرض بعد إقامة الحجة وبيان التوحيد.
٢٠	آل عمران	النبي ﷺ قد بلغ أهل الكتاب وأقام عليهم الحجة.
٩٣	آل عمران	الطريق لإقامة الحجة على المخالف من قوله.
١٨٤	آل عمران	البيانات هي الحجج العقلية والبراهين النقلية.
١٤٨	الأنعام	المشركون يحتجون على شركهم بحجة فاسدة وشبهة كاسدة.
١٤٨	الأنعام	مستند الحجة العلم والبرهان.
١٥	الإسراء	لا يعذب الله أحداً حتى تقوم عليه الحجة بالرسالة.
١٥	الإسراء	أهل الفترة وأطفال المشركين لا يعذبهم الله حتى يبعث إليهم رسولاً.
١٩٧	الشعراء	قول أهل الخبرة والدراية حجة على غيرهم.

الحدود

٢٣١	البقرة	المقصود من بيان بالحدود: العلم والعمل بها، والوقوف معها.
		جعل الله - تعالى - للزانية سبيلاً، وهو رجم المحصنة وجلد غير
١٥	النساء	المحصنة.
١٦	النساء	بينة الزنا أن تكون أربعة رجال مؤمنين مع اشتراط عدالتهم.
٢٥	النساء	حكم الإمام في الحد نصف حكم الحرائر.

الفائدة	السورة	رقم الآية
الحدود كفارات يغفر الله بها ذنوب عباده .	النساء	٢٥
العدل الواجب هو ما شرعه الله على لسان رسوله من الحدود والأحكام .	النساء	٥٨
المحرمات التي حرمها الله - تعالى - صيانة لعباده .	المائدة	٣
أحكام قُطَاع الطريق .	المائدة	٣٣
التوبة قبل القدرة تمنع من إقامة الحد في الحرابة .	المائدة	٣٤
أحكام السرقة .	المائدة	٣٨
قتال من امتنع من أداء الصلاة والزكاة .	التوبة	٥
شرع من قبلنا في السرقة .	يوسف	٧٥
إقامة الحد على الزاني والزانية البكرين .	النور	٢
حد قذف المؤمن المحصن .	النور	٤
تعزير من سب الصحابة .	الأحزاب	٥٨
الحكم على أهل الشر بالنفي عندما يتضرر المسلمون من إقامتهم .	الأحزاب	٦١
وجوب قتال البغاة حتى يرجعوا إلى أمر الله .	الحجرات	٩

الحذر

الأمور التي تدخل في باب الإلقاء باليد إلى التهلكة .	البقرة	١٩٥
الحذر من الخلوة بالنساء .	يوسف	٢٣
الهروب من أماكن الفتن .	يوسف	٢٥
البعد عن مواقع الفتن في الدين واستعمال الكتمان في ذلك .	الكهف	١٩
الأمر بحفظ العورات ؛ والاحتياط لذلك من كل وجه .	النور	٥٩
ما لا يدخل في مسمى النسيئة .	القصص	٢٠
لا ينبغي أن يلقي العبد بيده إلى التهلكة .	القصص	٢١

الحسنات/الثواب

ثواب الحسنة، الحسنة بعدها .	البقرة	١٠
من تمام عدل الله - تعالى - وإقامة الحجة أن لا يعلق على علمه ثواباً ولا عقاباً .	البقرة	١٤٣
الثواب من دواعي المسارعة للخير .	البقرة	١٤٨
ثواب الشهداء .	البقرة	١٥٤

رقم الآية	السورة	الفائدة
		إذا ابتغى المؤمن الثواب الدنيوي والأخروي لا ينبغي له الحزن ولا الوهن.
١٣٩	آل عمران	كلما عظمت العبادة الشاقة على النفس؛ عظم الأجر.
١١٨	التوبة	الثواب لا يكون إلا على العمل الحسن.
٤٧	النور	ما يدخل في مسمى الحسنة.
٨٤	القصص	الأدب مع الرسول ﷺ من أسباب حصول الثواب وقبول الأعمال.
٢	الحجرات	تفاوت سعي المكلفين.
٤	الليل	

الحق/الحقيقة

	مقدمة	لم يبق للمجادلات العلمية، والمعارضات العملية محل عند ظهور الحق ظهوراً جلياً.
٧	الفاتحة	اليهود عرفوا الحق وتركوه، والنصارى تركوا الحق جهلاً وضلالاً.
١٤٥	البقرة	من يطلب الحق وهو مشتبه عليه ينتفع بالآيات.
١٤٥	البقرة	كل ما نافي الحق الواضح فهو باطل.
١٥٠	البقرة	لولا الباطل ما اتضح الحق اتضاحاً ظاهراً.
١٦٤	البقرة	المخلوقات خلقت للحق وبالحق.
١٧٦	البقرة	من الحق مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.
		الكتاب الهادي مشتمل على الحق الموجب للاتفاق عليه وعدم الافتراق.
١٧٦	البقرة	على من كان عليه الحق أن يتقي الله في كل شيء.
٢٨٢	البقرة	الإرشاد إلى الاحتراز في حفظ الحقوق ابتداءً.
٢٨٢	البقرة	من التقوى القيام بحقوق الله وحقوق غيره.
٧٦	آل عمران	من مقتضى العلم بالكتاب والحكمة القيام التام بحق الله.
٨١	آل عمران	أعظم المطالب وأجلها: بيان الحق.
١٨٧	آل عمران	الأمر بالقيام بحقوق العباد الأقرب فالأقرب.
٣٦	النساء	القسط: هو العدل في حقوق الله وحقوق عباده.
١٣٥	النساء	الكتاب نزل بالحق، واشتمل على أخباره وأوامره ونواهيه.
٤٨	المائدة	الحق عند أهل الباطل بمنزلة الصائل؛ يدفع بكل شيء.
١٤٩	الأنعام	حقيقة العبودية تكون بالتعبد في كل حال.
٤٢	التوبة	المؤمن يؤدي الحقوق منشراح الصدر، مطمئن النفس.
٩٩	التوبة	

رقم الآية	السورة	الفائدة
١٢٨	التوبة	حق النبي ﷺ مقدم على سائر حقوق الخلق.
٨٣	يونس	الذرية والشباب أقبل للحق وأسرع له انقياداً.
٥٣	هود	الآيات المقترحة غير لازمة للحق.
٥٧	الكهف	من ترك الحق بعد علمه؛ يحال بينه وبين الحق.
١٤	مريم	يحيى - عليه السلام - جمع بين القيام بحق الله وحق خلقه.
٤٩	النور	من يتبع الحق فيما يحب ويكره؛ فهو عبد على الحقيقة.
٥٢	النور	الحقوق ثلاثة: حق الله، وحق الرسول، والحق المشترك.
٣٠	الفرقان	معارضة الباطل للحق مما تزيد الحق وضوحاً وبياناً.
٥٦	الروم	إذا كان العبد عالمًا بالحق، مؤثراً له؛ لزم أن يكون قوله حقاً.
سبأ		الباطل يكون له صولة وقت غفلة الحق عنه.
٨٤	الصفات	موانع تصور الحق والعمل به.
٤	غافر	الواجب على العبد أن يعتبر الناس بالحق، ولا يزن الحق بالناس.
٢٦	فصلت	أوضح الحق ما شهدت به الأعداء.
١٩	محمد	حقوق المسلم على أخيه المسلم.

الحكم/الحكمة

مقدمة	القرآن كله محكم، وأحكمت آياته من جهة موافقتها للحكمة.
مقدمة	الحكمة: وضع الأشياء مواضعها وتنزيلها منازلها.
٣٠	البقرة
١٥١	البقرة
٢٣١	البقرة
٢٦٩	البقرة
٢٦٩	البقرة
٢٦٩	البقرة
١٤٠	آل عمران
١٢٣	التوبة
٣٩	الإسراء
٦٠	الكهف
٢١	مريم

رقم الآية	السورة	الفائدة
٢	لقمان	الآيات جمعت بين الأمر بالشيء مع ذكر حكمته وفائدته.
١٢	لقمان	الحكمة فُسرت بالعلم النافع والعمل الصالح.
١٢	لقمان	أصول الحكمة، وقواعدها الكبار.
٢	يس	الأحكام الشرعية والجزائية مشتملة على غاية الحكمة.
٣٢	الزخرف	حكمة الله - تعالى - في تفضيل بعض العباد على بعض.
٢٤	الذاريات	من الحكمة ما قصه الله على عباده من نبأ الأخيار والفجار.

الحمد

		الحمد الكامل بجميع الوجوه لا يكون إلا لله، ويكون بالثناء عليه بصفات الكمال.
٢	الفاطحة	الله - تعالى - حميد فيما يشرعه لعباده، وحميد في أفعاله، وحميد في صفاته.
٢٦٧	البقرة	العبد لا يزداد حمداً وشكراً لربه إلا بمعرفة ضد ما هو فيه.
٦٦	النساء	الله - تعالى - موصوف بصفات الحمد التي هي صفة الجمال والجلال.
١٣١	النساء	الحمد: هو الثناء على الله - تعالى - بصفاته.
١	الكهف	الله - تعالى - حميد في ذاته حميد في صفاته.
٢٦	لقمان	الحمد: الثناء بالصفات الحميدة والأفعال الحسنة.
	سبا	سائر العبادات تدخل في تسبيح الله وتحميدِهِ.
٧	غافر	ما ينشأ عن العلم بمحامد الله وجلاله وكبريائه.
٣٧	الجاثية	

الحياة/الدنيا

٣٦	البقرة	الحياة الدنيا مؤقتة عارضة ليست مسكناً حقيقياً.
٢١٢	البقرة	الدنيا دار ابتلاء وامتحان، والتفضيل الحقيقي في الدار الباقية.
		رزق الدنيا يحصل للمؤمن والكافر، بخلاف رزق القلوب من العلم والإيمان.
٢١٢	البقرة	
١٤	آل عمران	أحوال الناس في إثثار الدنيا على الآخرة.
٧٣	النساء	الروح الإيمانية لا تكون لمن يتمنى الدنيا فقط.
٢٥	الأعراف	الحياة الدنيا مشحونة بالابتلاء والامتحان.
٤٤	الكهف	الإرشاد إلى التسلي عن لذات الدنيا وشهواتها بما عند الله من الخير.

الفائدة	السورة	رقم الآية
الخشوع		
تعريف الخشوع.	البقرة	٤٥
القنوت دوام الطاعة مع الخشوع.	البقرة	٢٣٨
الخشوع في الصلاة هو: حضور القلب بين يدي الله تعالى.	المؤمنون	٢
روح العبادة الخشوع لله والخضوع له.	النجم	٦٢
الخطاب		
المقصود من خطاب الناس بأفعال أسلافهم ونسبتهم لهم.	البقرة	٦١
الخطاب وإن كان للرسول ﷺ فإن أمته داخله في ذلك.	البقرة	١٢٠
مقدمة الخطاب الإيماني.	المائدة	٦
ذكر الأم في الخطاب يوجب الترقيق.	الأعراف	١٥٠
الكفار خاطبوا بأصل الإسلام وشرائعه وفروعه.	هود	٩٥
طريقة الرسل في مخاطبة الخلق.	الشعراء	١٠٦
أدب الخطاب يكون في غاية الوجازة مع البيان التام.	النمل	٢٩
الخطاب العام يدخل فيه أهل الكتاب وغيرهم.	الحديد	٢٨
الخوف/الخشية		
الخوف لا يرتب أثراً إلا إذ يخاف العبد مقامه بين يدي الله، ومقامه عليه.	مقدمة	
المكروه إذا كان منتظراً أحدث الخوف.	البقرة	٣٨
الخشية توجب امتثال الأمر واجتناب النهي.	البقرة	٤٠
الرغبة والخشية هما السبب الحامل على الوفاء بالعهد.	البقرة	٤٠
خشية أهل الحق.	البقرة	١٥٠
وجوب تقديم خشية الله - تعالى - على خشية الناس.	آل عمران	٢٨
إذا زال الخوف عن القلب أمكن أن يأتيه النعاس.	آل عمران	١٥٤
الخوف من لوازم الإيمان.	آل عمران	١٧٥
الخوف المحمود حاجز العبد عن محارم الله.	آل عمران	١٧٥
أهل الخشية لا يقدمون الدنيا على الدين.	آل عمران	١٩٩
القاعدة العامة في أحوال الناس عند الضراء.	يونس	٢٢
الخشية مانع من قطع ما أمر الله به أن يوصل.	الرعد	٢١

رقم الآية	السورة	الفائدة
٥٠	الحجر	ينبغي للعبد أن يكون قلبه دائماً بين الخوف والرجاء .
٦٣	الكهف	جواز ركوب البحر في غير الحالة التي يخاف منها .
٦٨	النمل	أسباب ترحل خوف الآخرة من القلوب .
٧	القصص	الخوف الطبيعي من الخلق لا ينافي الإيمان ولا يزيله .
٣٧	الأحزاب	ينبغي للعبد أن يقدم خشية الله على خشية الناس . العلم داع إلى خشية الله - تعالى -
٣٣	ق	الخشية النافعة خشية الله في الغيب والشهادة .
٢٨	الذاريات	السعي لإزالة أسباب الخوف .
٥٠	الذاريات	بحسب الخوف من الله - تعالى - يكون الفرار إليه .
٢٦	النازعات	من يخشى الله - تعالى - ينتفع بالآيات والعبر .
الخير		
١٤٨	البقرة	الأمر بالاستباق إلى الخيرات قدر زائد على الأمر بالفعل .
١٤٨	البقرة	الخيرات تشمل جميع الفرائض والنوافل .
١٤٨	البقرة	الثواب من دواعي المسارعة إلى الخير .
١٥٨	البقرة	لا يحصل الخير من التطوع بالبدع التي لم تشرع .
٢١٥	البقرة	جميع أنواع الطاعات والقربات تدخل في اسم الخير .
١١٤	آل عمران	المسارعة إلى الخيرات قدر زائد على مجرد فعلها .
٤٥	النساء	ولايته - تعالى - فيها الخير ونصره فيه زوال الشر .
٧٩	التوبة	من تطوع بخصلة من خصال الخير؛ فينبغي إعانته .
الخلافة/الحكم		
٢٤٧	البقرة	قوة العلم بالسياسة مع قوة الجسم هما آلة الشجاعة .
٦٠	النساء	كل من حكم بغير شرع الله؛ فهو طاغوت .
٦٥	النساء	التحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج في مقام الإيمان والتسليم في مقام الإحسان .
٤٢	المائدة	لم يجب الحكم على من ليس له قصد في الحكم الشرعي .
٦١	الأنفال	فوائد الجنوح للسلم .
٨٧	الكهف	كان عند ذي القرنين من السياسة الشرعية ما استحق به المدح .
٩٨	الكهف	علامة الخلفاء الصالحين عند نزول النعم .

الفائدة	السورة	رقم الآية
ليس الحاكم بملوم إذا أخطأ مع بذل اجتهاده.	الأنبياء	٧٩
المستشار مؤتمن.	الأحزاب	٣٧
ينبغي استعمال الأدب في الدخول على الحكام وغيرهم.	ص	٢٢
لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم.	ص	٢٣
العلم النافع ومعرفة الحكم من أكبر نعم الله.	ص	٢٦
صفات القائم بوظيفة الحكم بين الناس.	ص	٢٦
التحذير من اتباع الهوى في الحكم بين الناس.	ص	٢٦

الدعاء

الدعاء شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة.	مقدمة
السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب.	الفاتحة
الدعاء بهداية الصراط المستقيم من أجمع الأدعية وأفضلها.	الفاتحة
متى يقيد الدعاء بقصد التأدب مع الله - تعالى - ؟.	البقرة
أنواع الدعاء.	البقرة
شروط إجابة الدعاء.	البقرة
ليس بين إجابة دعاء الداعي وبين محبة الله له تلازم إلا في مطالب الآخرة.	البقرة
التوسل إلى الله - تعالى - بالإيمان.	آل عمران
أجاب الله دعاء الأبرار: دعاء العبادة، دعاء الطلب.	آل عمران
رفع الصوت بالدعاء داخل في الاعتداء المنهي عنه.	الأعراف
آداب الدعاء.	الأعراف
الدعاء في كل مطلوب بما يناسب ذلك المطلوب.	الأعراف
استحباب الدعاء من الإمام أو نائبه في مواطن الإنفاق.	التوبة
الذي يؤمن يكون شريكاً في الدعاء.	يونس
ينبغي للعبد أن يتملق إلى الله دائماً في تثبيت إيمانه.	يوسف
الدعاء بتلف مال من كان ماله سبب طغيانه وكفره.	الكهف
السؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال.	القصص
التوسل إلى الله بأسمائه الحسنی.	غافر
الدعاء للشخص من أدل الدلائل على محبته.	غافر
شروط إجابة الدعاء.	القلم

الفائدة	السورة	رقم الآية
مشروعية الدعاء والذكر عقب الصلوات المكتوبة .	الشرح	٨
الدين		
لكمال الدين وقبول الفطر له؛ لا يحتاج إلى الإكراه عليه .	البقرة	٢٥٦
ما هو الدين الحقيقي الذي يقال له : دين؟		
الدين يأمر بالاجتماع والائتلاف، وينهى عن التفرق والاختلاف .	الأنعام	١٥٩
الله - تعالى - فطر عباده على الدين الحنيف القيم .	الأعراف	١٧٣
حكم الانحراف في أصل الدين وشريعته .	التوبة	١١٧
الداء العضال الذي يعرض لأهل الدين الصحيح .	يونس	٩٣
الدين القيم، أي : المستقيم الموصل إلى كل خير .	يوسف	٤٠
الذكر		
القرآن موصوف بالذكر؛ لأنه يتذكر به العلوم الإلهية والأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة .	مقدمة	
الذكر عند الإطلاق يشمل كل ما يقرب إلى الله .	مقدمة	
الذكر رأس الشكر .	البقرة	١٥٢
فضيلة الذكر في أيام التشريق .	البقرة	٢٠٣
فوائد التذكر .	البقرة	٢٢١
الإكثار من ذكر الله سبب لتعليم علوم أخر .	البقرة	٢٣٩
إذا منع اللسان من المخاطبة فلا يمنع من الذكر .	آل عمران	٤١
الذكر يكون بالقلب والقول .	آل عمران	١٩١
فوائد الأمر بالذكر في جميع الأحوال والهيئات .	النساء	١٠٣
أحوال الذكر الشرعية وآدابه .	الأعراف	٢٠٥
ما هي حقيقة التذكرة .	طه	٣
القلب المعطل عن ذكر الله معطل عن كل خير .	طه	١٤
مدار العبادات كلها والدين على ذكر الله .	طه	٣٣
يتذكر المتقون بالقرآن جميع المطالب .	الأنبياء	٥٠
استحباب ابتداء الكتب بالبسملة كاملة .	النمل	٢٩
أجل الذكر ملازمة الإنسان أوراد الصباح والمساء .	الأحزاب	٤١
أنواع التذكير .	الذاريات	٥٥

الفائدة	السورة	رقم الآية
لما كان الاشتغال بالتجارة مظنة الغفلة؛ العبد فينبغي للعبد أن يكثّر من ذكر الله.	الجمعة	١٠
فائدة الاستثناء في المشيئة.	القلم	٢٨
أقسام الناس بالنسبة للذكرى.	الأعلى	
التسبيح والاستغفار من أسباب النصر.	النصر	١

الذكاة

الميتة: ما مات بغير تذكية شرعية.	البقرة	١٧٣
استثنى الشارع من عموم الميتة ميتة الجراد وسمك البحر.	البقرة	١٧٣
استدل بعض الصحابة على إباحة الجنين الذي يموت في بطن أمه بعدما تذبح.	المائدة	١
ذكر الله - تعالى - يطيب الذبيحة.	المائدة	٣
أباح الله للعباد ما لم يؤذوه مما صادته الجوارح، وبيان حكم ذلك، وفوائد آية الحل.	المائدة	٤
اليهود والنصارى يتدينون بتحريم الذبح لغير الله.	المائدة	٥
النهي عن أكل الذبيحة إذا ترك الذابح التسمية عمداً.	الأنعام	١٢١

الرؤى

يعقوب عليه السلام أوّل الرؤيا لابنه.	يوسف	٤
تعبير يوسف عليه السلام للرؤيا.	يوسف	٤١
من الرؤى ما يكون تأويلها يتناول جميع الأمة.	يوسف	٤٣
رؤيا الأنبياء وحي.	الصفات	١٠٢

الربا

المرايبي خبيث المكسب مجنون الحال.	البقرة	٢٧٥
موجب الربا الخلود في النار ما لم يمنع من الخلود مانع الإيمان.	البقرة	٢٧٥
الحكمة من تحريم الربا.	البقرة	٢٧٩
اعتاد أهل الجاهلية ومن لا يبالي بالأوامر الشرعية أكل الربا.	آل عمران	١٣٠
الحكمة من تحريم الربا.	آل عمران	١٣٠

الرجاء

الرجاء يتضمن رجاء الرحمتين: العامة، والخاصة.

مقدمة

الفائدة	السورة	رقم الآية
الرجاء لا يكون إلا مع الهمة والقيام بالأسباب.	البقرة	٢١٨
ما هو المحمود من الأماني؟.	النساء	٣٢
بحسب إيمان العبد يكون رجائه لرحمة الله وزوجه.	يوسف	٨٧
من جمع بين الإخلاص والمتابعة نال ما يرجو ويطلب.	الكهف	١١٠
من ترك شيئاً لله؛ عوضه الله خيراً منه.	ص	٣٦

الرحمة

الاستيثاس من رحمة الله من أعظم المحاذير.	العنكبوت	٢٣
--	----------	----

الرشد

ما هو الرشد؟ وكيف السبيل إليه؟.	البقرة	١٨٦
الآيات بيان تقوم به الحجة؛ وهداية إلى سبيل الرشاد.	آل عمران	١٣٨
للمرأة حق التصرف في مالها ولو بالتبرع إذا كانت رشيدة.	النساء	٤
سبيل الرشد هو: الصراط الموصل إلى الله وإلى دار كرامته.	الأعراف	١٤٦
العلم النافع هو العلم المرشد إلى الخير.	الكهف	٦٦
كل مؤمن له من الرشد بحسب ما معه من الإيمان.	الأنبياء	٥١
الرشد من الأسماء الجامعة.	الجن	٢

الرضاعة

أحكام الرضاعة.	البقرة	٢٣٣
مدة الرضاعة الامقاف		
حكم إرضاع الولد عند فراق الأبوين.	الطلاق	٦

الروح

حياة القلب والروح تكون بعبودية الله - تعالى - ولزوم طاعته.	الأنفال	٢٤
--	---------	----

الزوجة

إتمام النعمة على آدم - عليه السلام - بأن خلق الله منه زوجة ليسكن إليها.	البقرة	٣٥
محبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرهما.	البقرة	١٠٢
تطهير الأزواج من الآفات مستلزم لوصفها بالكمالات.	آل عمران	١٥
مراعاة حق الأزواج والزوجات والقيام به؛ لكون الزوجات مخلوقات من الأزواج.	النساء	١

رقم الآية	السورة	الفائدة
١٩	النساء	المعاشرة القولية والفعلية بين الأزواج.
٣٧	الأحزاب	النصح بالإمساك على الأزواج عند الاستشارة.
		السحر
١٠٢	البقرة	السحر له حقيقة، وإنه يضر بإذن الله.
٥	الفلق	السحر له حقيقة؛ يخشى من ضرره.
		السعادة
٥	الفاتحة	وسائل السعادة الأبدية.
		عنوان السعادة يكون بطريق الإخلاص للمعبود، والسعي في نفع
٣	البقرة	الخلق.
		من هم سعداء أهل الكتاب؟
١٣٦	البقرة	عطية الدين تثمر سعادة دنيوية وأخرية.
١٤٨	البقرة	طاعة الله والتقرب إليه عنوان السعادة ومنشور الولاية.
١٥٦	الأعراف	الرحمة المقتضية للسعادتين ليست لكل أحد.
٣٣	الحاقة	مدار السعادة وماذتها: الإخلاص، والإحسان.
٣٥	المعارج	الأوصاف الكاملة لأهل السعادة والخير.
		السفر
١٠٦	المائدة	جواز سفر المسلم مع الكافر إذا لم يكن محذوراً.
١٠٦	المائدة	جواز السفر للتجارة.
١١٢	التوبة	سياحة المؤمنين السفر في القربات.
٦٠	الكهف	جواز أخذ الخادم في الحضر والسفر.
		السفه
		السفه: جهل الانسان بمصالح نفسه وسعيه فيما يضرها. وهذه الصفة
١٣	البقرة	منطبقة على المنافقين.
		السماء
٢٢	البقرة	السماء كل ما علا فوقنا فهو سماء.
١٥	النجم	الجنة في أعلى الأماكن وفوق السماء السابعة.
		السماع
٩٣	البقرة	ينبغي أن يكون سماع القرآن سماع قبول وطاعة واستجابة.

رقم الآية	السورة	الفائدة
١٠٤	البقرة	حذف المسموع ليعم ما أمر باستماعه.
٨٣	النساء	النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها.
٤٢	المائدة	ذم من سمع الكذب سمع استجابة.
٣٦	الأنعام	السماع النافع سماع القلب والاستجابة.
٢٢	الأنفال	السمع الذي نفاه الله عن المعرضين هو السمع المؤثر في القلب.
٤٢	يونس	انسد على المكذبين طريق المسموعات المتعلقة بالخير.
٤٥	الأنبياء	شرط السماع مع الصوت أن يوجد محل قابل لذلك.
١٢	النور	ما هو الظن الواجب عند سماع القدر في المؤمنين.
٥٢	الروم	موانع الانقياد والسماع النافع.

الشرعيات/الكونيات

١٠٢	البقرة	الإذن نوعان: قدرى، وشرعى.
١٠٩	آل عمران	الله - تعالى - له الأحكام القدرية والشرعية والأحكام الجزائية.
١٥٤	آل عمران	الأمر إذا أطلق يشمل القدرى والشرعى.
٤٨	المائدة	الشرائع تتغير بحسب تغير الأزمنة والأحوال.
١٤٥	الأعراف	أوامر الله في كل شريعة كاملة عادلة حسنة.
٦٢	الأحزاب	سنة الله - تعالى - وعادته جارية مع الأسباب المقتضية لها.
٣٧	الجاثية	شرع الله - تعالى - مبناه الحكمة والمصلحة.
٢٥	الحديد	الرسل متفقون في قاعدة الشرع.
٤٨	القلم	الصبر على ما حكم الله به شرعاً وقدرأ.

الشرك

٨١	البقرة	سيئة الشرك تحيط بعاملها فلم تدع له منفذاً.
٩٣	البقرة	شرك المحبة من شرك الإلهية.
١٦٥	البقرة	الشرك في الإلهية والعبادة.
١٦٥	البقرة	بطلان قول من اتخذ من دون الله آلهة وأنداداً.
١٧٣	البقرة	الذبح لغير الله شرك في الإلهية.
١٩٢	البقرة	مفسدة الشرك أشد من مفسدة القتل.
٢٢١	البقرة	لم يجز الشرع الخلطة التي فيها ارتفاع المشرك على المسلم.
٢٥٦	البقرة	الطاغوت كل ما ينافي الإيمان بالله من الشرك وغيره.
٢٠	آل عمران	الأميون من العرب هم الذين ليس لهم كتاب.

الفائدة	السورة	رقم الآية
الشرك هو السبب الموجب لإلقاء الرعب في قلوب الكافرين .	آل عمران	١٥١
المشرك قد سدَّ على نفسه أبواب المغفرة؛ فلا تنفعه الطاعات من دون التوحيد .	النساء	٤٨
ما يدخل في مسمى الجبت والطاغوت .	النساء	٥١
المشركون انقادوا لداعي الشيطان الموجب للخزي والخسران .	الأنعام	٦٢
محاذير الوقوع في الشرك .	الأنعام	١٣٦
ما هي حقيقة الشرك .	الأنعام	١٥١
الشرك الأصغر يدخل في الشرك المطلق .	الأعراف	٣٣
دعاء غير الله عمل باطل وغاية باطله .	الأعراف	١٣٩
النجاسة المعنوية للمشركون .	التوبة	٢٨
الأمر بإجلاء أهل الشرك من الجزيرة .	التوبة	٢٨
كفر النعمة ضد الشكر .	إبراهيم	٧
النعم المجملة والمفصلة التي يدعو الله بها العباد إلى القيام بشكره .	إبراهيم	٣٤
المشركون احتجوا على شركهم بالقضاء والقدر .	النحل	٣٥
دعاء غير الله موجب للعذاب الدائم والعقاب السرمدي .	الشعراء	٢١٣
بيان ضعف آلهة المشركون .	العنكبوت	٤٢
الشرك مضاد للإنابة من كل وجه .	الروم	٣١
من لوازم ترك الشرك القيام بالتوحيد .	لقمان	١٤
التعلقات التي يتعلَّق بها المشركون بأنذادهم .	سبا	
الأدلة العقلية والنقلية دلت على بطلان الشرك .	فاطر	٤٠
قوم إلياس - عليه السلام - كان لهم صنم يقال له: بعل .	الصفاءات	١٢٣
مفاسد الشرك، وأن الله - تعالى - لا يغفره .	الزمر	٣
في نبوة جميع الأنبياء أن الشرك محبط لجميع الأعمال .	الزمر	٦٥
كيف دخل الشرك إلى قوم نوح - عليه السلام - .	نوح	٢٣

الشفاعة

شروط قبول الشفاعة .	البقرة	٤٨
أثر التوحيد واتباع الرسل على قبول الشفاعة .	البقرة	٢٥٥
أدلة إثبات الشفاعة .	الأنبياء	٢٨
المشركون لا نصيب لهم من شفاعة الشافعين .	النجم	٢٦

رقم الآية	السورة	الفائدة
-----------	--------	---------

الشكر

حقيقة الشكر: تتضمن الاعتراف بجميع النعم، والثناء على الله، والاستعانة بها على طاعته.

مقدمة		ذكر النعمة بالقلب واللسان والجوارح.
٤٠	البقرة	عطف الشكر على الذكر من باب عطف العام على الخاص.
١٥٢	البقرة	من وفق للعلم أو العمل به عليه أن يشغل بالشكر.
١٥٢	البقرة	الشكر ضد الكفر.
١٥٢	البقرة	الشكر في بعض الآيات هو العمل الصالح.
١٧٢	البقرة	الأوفق للعباد في الأمور المحبوبة أن يشكر الله - تعالى - .
٢١٦	البقرة	من الشكر صرف النعمة في طاعة الله.
٢٣١	البقرة	أكثر الناس قصرُوا في واجب الشكر.
٢٤٣	البقرة	من تمام شكر النعمة أن يعود بها على عباد الله.
٢٨٢	البقرة	الشكر لا يكون إلا بالقيام بعبودية الله - تعالى - في كل حال.
١٤٤	آل عمران	الجزاء على قدر الشكر قلة وكثرة.
١٤٥	آل عمران	القيام بالشكر من سلوك الصراط المستقيم.
١٧	الأعراف	كفر النعمة ضد الشكر
٧	إبراهيم	النعم المجملة والمفصلة التي يدعو الله بها العباد إلى القيام بشكره.
٣٤	إبراهيم	شكر النعمة داع للمزيد منها، وكفرها داع لزوالها.
٤١	النمل	

الشمايل

٩٠	التوبة	من عادة النبي ﷺ: أن يَعْدِرَ من له عذر.
٣٢	الزخرف	شمايل النبي ﷺ.
٤	القلم	كان خلق النبي ﷺ القرآن.

الشهادة

١٤٣	البقرة	من طرق العلم بالمقبول والمردود شهادة هذه الأمة.
١٤٣	البقرة	شهادة هذه الأمة على غيرها يوم القيامة.
		قبول خبر المرأة عما تخبر به عن نفسها من الأمر الذي لا يطلع عليه غيرها.
٢٢٨	البقرة	في الأمور الدينية شهادة المرأة فيه تقوم مقام الرجل.
٢٨٢	البقرة	الشهادة مدارها على العلم واليقين.
٢٨٢	البقرة	

الفائدة	السورة	رقم الآية
صفات من تقبل شهادته .	البقرة	٢٨٢
القيام بالشهادة من أفضل الأعمال الصالحة .	البقرة	٢٨٢
قرن الله - تعالى - شهادة العلماء بشهادته وشهادة الملائكة .	آل عمران	١٨
حكم الله المؤيد بشهادة الرسل أعم الأحكام وأعدلها .	النساء	٤٣
الأمر العظيمة لا يستشهد عليها إلا الخواص .	النساء	١٦٦
جواز شهادة غير المسلم عند الحاجة والضرورة .	المائدة	١٠٦
القرآن أعجز المشركين عن الإتيان بالشهداء .	الأنعام	١٥٠
مواطن قبول شهادة أهل الكتاب .	يونس	٩٤
الشواهد ثلاثة : شاهد الوحي ، وشاهد الفطرة ، وشاهد العقل الصحيح .	هود	١٧
شهادة الله لرسوله بالقول والفعل والإقرار .	الرعد	٤٣
كل رسول يشهد على أمته .	النحل	٨٩

الشیطان

الدخول في شرائع الدين لا يكون إلا بمخالفة طرق الشيطان .	البقرة	٨٠٢
الشیطان يدخل على أنفس الناس بما فعلوا من المعاصي .	آل عمران	١٥٥
من أقيح البهتان وأضل الضلال تزین الشیطان للإنسان .	يونس	٣٦
البعد عن الأسباب التي يتسلط بها الشیطان على العبد .	يوسف	٥
إبليس أعجب بعنصره ، وقال : أنا خير من آدم .	الحجر	٣٣
طريق السلامة من شر الشیطان .	النحل	٩٨
الحث على اتخاذ الشیطان عدواً .	الكهف	٥٠
إضافة الشر إلى الشیطان على وجه التزيين .	الكهف	٦٣
النهي عن اتباع خطوات الشیطان ، والحكمة من ذلك .	النور	٢١
صفة الأشخاص الذين تنزل عليهم الشياطين .	الشعراء	٢٢١
أقسام الناس بحسب طاعة الشیطان وعدمها .	فاطر	٧
تسخير الشياطين لا يكون لأحد بعد سليمان - عليه السلام - .	ص	٣٧
المقيد على طاعة الشیطان عاص على بصيرة لا عذر له .	الحشر	١٧
الشیطان هو أصل الشرور كلها وماداتها .	الناس	٤

الصبر

أنواع الصبر ، وثناء الله - تعالى - على أهله في عدة آيات نحو
تسعين موضعاً .

الفائدة

رقم الآية	السورة	
٤٥	البقرة	على العبد أن يستعين في أموره كلها بالصبر.
١٥٣	البقرة	إدراك المطالب إنما يكون بالصبر.
١٥٣	البقرة	حاجة العبد إلى الصبر حاجة اضطرار.
٥٣	البقرة	أعظم فضيلة للصابرين فوزهم بمعية الله الخاصة.
١٥٦	البقرة	ما هي أقوى أسباب الصبر؟.
٢١٤	البقرة	من السنن الجارية أن من قام بالدين لا بد أن يتلى.
		إذا التزم أهل الإيمان بالصبر ولزوم التقوى فلن يضرهم كيد أعدائهم شيئاً.
١٢٠	آل عمران	فوائد الإخبار أن المؤمنين سيبتلون في المال والنفس.
١٨٦	آل عمران	أهل الحق أولى بالصبر من غيرهم.
٧٦	النساء	ينبغي للإنسان أن يتثبت في الأمور.
٣٩	يونس	صبر الاختيار أعظم من صبر الاضطرار.
٢٣	يوسف	الشكوى إلى الله - تعالى - لا تنافي الصبر.
٨٦	يوسف	الصبر النافع من خصائص أهل الإيمان.
٢٢	الرعد	الصبر والتوكل ملاك الأمور كلها.
٤٢	النحل	ما هو السبب الموجب لحصول الصبر؟.
٦٨	الكهف	العبد لا يستحق اسم الصبر التام حتى يوفي حقه.
٨٥	الأنبياء	الصبر على أسباب الغضب لا يحمد.
٤٢	الفرقان	استمرار الجزع مع العبد دليل على ضعف إيمانه.
١٠	القصاص	كل مؤمن موقن رزين العقل يسهل عليه الصبر.
٦٠	الروم	الإمامة في الدين تنال بالصبر واليقين.
٢٤	السجدة	بالصبر يحصل محبوب، وبالاستغفار يدفع المحذور.
٥٥	غافر	الصبر يُستمد من القيام بطاعة الله والإكثار من ذكره.
٢٥	الإنسان	

الصحابة

١٤	البقرة	الإيمان الشرعي الأسوة هو إيمان الصحابة.
١٤	البقرة	من أخص صفات أهل النفاق إعلان العداوة للصحابة.
		فضيلة الصديق الأكبر أبي بكر - رضي الله عنه - وأصحابه الذين قاتلوا المرتدين.
١٤٤	آل عمران	الصحابة تعرضوا لقافلة أبي سفيان بن حرب.
٧	الأنفال	

الفائدة	السورة	رقم الآية
من أنكر صحبة أبي بكر فهو كافر خارج من الملة .	التوبة	٤٠
فضيلة عائشة - رضي الله عنها - .	النور	٢٦
نساء النبي ﷺ اخترن الله ورسوله والدار الآخرة .	الأحزاب	٢٩
ظهور المناسبة بين النبي وبين أزواجه .	الأحزاب	٢٩
الثناء على زيد بن حارثة - رضي الله عنه - .	الأحزاب	٣٧
صفات الصحابة من المهاجرين والأنصار .	الفتح	٢٩
فضيلة الأنصار وهم الأوس والخزرج .	الحشر	٩
الصحبة / الأخوة		
الأخوة الدينية مقدمة على الأخوة النسبية المجردة .	النساء	١٢
الله - تعالى - عقد بين المؤمنين الأخوة الإيمانية وألزمهم بمقتضاها .	النساء	٩٢
عقد المولاة بين المهاجرين والأنصار .	الأنفال	٧٢
الأخوة الخاصة غير الأخوة الإيمانية العامة .	الأنفال	٧٥
الأمر بصحبة الأخيار ومجاهدة النفس على صحبتهم ومخالطتهم .	الكهف	٢٨
السعي لبقاء الصحبة وتأكدها .	الكهف	٧٨
فوائد الجليس والقريب الصالح .	الأنبياء	٩٠
المقصود من القرين اللازم حصول النفع ودفع الضرر .	الحج	١٣
أصناف الخلق بعضهم فتنة لبعض .	الفرقان	٢٠
دفع مفسدات المخالطة بين الأقارب والأصحاب .	ص	٢٤
الحث على الاجتماعات العامة ؛ كاجتماع الحج والأعياد .	الشورى	
التشااور فرع عن الاجتماع والإلفة .	الشورى	
الاقتتال بين المؤمنين منافٍ للأخوة الإيمانية .	الحجرات	٩
الصدق / الصديقية		
استواء الظاهر والباطن على الصراط المستقيم .	مقدمة	
الكلام إما أن يرفع الإنسان أو يخفضه .	البقرة	٢٠٣
من هو الصديق ؟	النساء	٦٩
الصديقية : هي العلم النافع المثمر لليقين والعمل الصالح .	المائدة	٧٥
الصادق : هو الذي استقامت أقواله وأفعاله ونياته على الصراط المستقيم .	المائدة	١١٩

رقم الآية	السورة	الفائدة
١٨١	الأعراف	الصدقية مرتبة تلي مرتبة الرسالة.
٤٠	التوبة	الحزن قد يعرض لخواص عباد الله الصديقين.
١١٩	التوبة	الصدق يكون في الأقوال والأفعال والأحوال.
٢٦	يوسف	الله - تعالى - جعل للحق والصدق علامات وأمارات تدل عليه.
٥٦	مريم	الصدقية صفة جامعة.
٣٣	الزمر	المدح يكون على من جمع بين الصدق والتصديق.
٣٣	فصلت	كيف السبيل إلى تمام الصدقية؟.
١٩	الحديد	الصدقية فوق مرتبة عموم المؤمنين ودون مرتبة الأنبياء.
١٢	التحريم	الصدقية من كمال العلم والعمل.
٢٦	الملك	الصدق يعرف بأدلته.

الصراط

الصراط الموصوف بالاستقامة هو متابعة النبي ﷺ في أقواله وأفعاله وكل أقواله .

الصراط الموصلة إلى الله - تعالى - واحدة لا تعدد فيها .

من ضل عن الصراط المستقيم ؛ فليس ثم إلا طرق توصل إلى الجحيم .

ماذا يتضمن الطريق الموصل إلى الله تعالى ؟ .

الله تعالى مألوه معبود بالعبادات التي هي منازل الصراط المستقيم .

الصراط المستقيم يوصل صاحبه إلى الله - تعالى - .

الصراط المستقيم مشتمل على الأعمال الصالحة .

الحث على علوم الصراط المستقيم وأعماله .

الصلاة

٣	البقرة	إقامة الصلاة إقامتها ظاهراً وباطناً.
٣	البقرة	لا ثواب للعبد من صلاته إلا ما عقل.
٤٣	البقرة	وجوب صلاة الجماعة.
٤٣	البقرة	الركوع ركن من أركان الصلاة.
٤٥	البقرة	دواعي إقامة الصلاة.
١٤٤	البقرة	اشتراط استقبال الكعبة للصلوات كلها.

الفائدة	السورة	رقم الآية
الالتفات بالبدن مبطل للصلاة.	البقرة	١٤٤
الصلاة التي أمر الله أن نستعين بها على كل شيء هي الصلاة الكاملة.	البقرة	١٥٣
فوائد المحافظة على الصلاة.	البقرة	٢٣٨
صفة صلاة المعذور بالخوف.	البقرة	٢٣٩
ما يقرأ في صلاة الفجر.	آل عمران	٦٤
من لم يستطع الصلاة قائماً يصلي قاعداً أو على جنب.	آل عمران	١٩١
لا يجوز للسكران أن يقرب مواضع الصلاة؛ كالمسجد.	النساء	٤٣
ينبغي على من أراد الصلاة أن يقطع عنه كل شاغل يشغل فكره.	النساء	٤٣
قصر الصلاة رخصة في أي سفر كان.	النساء	١٠١
أفضلية قصر الصلاة في السفر على الإتمام.	النساء	١٠١
القصر رخصة حتى مع الأمان.	النساء	١٠١
صفة صلاة الخوف.	النساء	١٠٢
صلاة الجماعة فرض عين.	النساء	١٠٢
الصلاة ميزان الإيمان.	النساء	١٠٣
الأمر بستر العورة في الصلاة.	الأعراف	٣١
في الصلاة الجهرية المأموم مأمور بالإنصات.	الأعراف	٢٠٤
مشروعية الصلاة على المؤمنين، والوقوف عند قبورهم للدعاء.	التوبة	٨٤
النهي عن الصلاة في أماكن المعصية.	التوبة	١٠٩
الصلاة لم تنزل مشروعة للأنبياء المتقدمين.	هود	٩٥
الفضيلة الحقيقية ليوم الجمعة.	النحل	١٢٤
الوقت شرط لصحة الصلاة.	الإسراء	٧٨
جواز الجمع بين الصلاتين عند العذر.	الإسراء	٧٨
فضيلة صلاة الفجر، وفضيلة إطالة القراءة فيها.	الإسراء	٧٨
صلاة الليل تكون لرفع الدرجات أو لتكفير السيئات.	الإسراء	٧٩
التكبير شعار للعبادات الكبار كالصلاة وغيرها.	الحج	٦٢
مدح الله المؤمنين بالخشوع بالصلاة وبالمحافظة عليها.	المؤمنون	٨
البلوغ يحصل بالإنزال.	النور	٥٩
مقاصد وآثار وثمار الصلاة.	العنكبوت	٤٥
أفضل الأوقات وأوقات الصلوات.	الروم	١٧

رقم الآية	السورة	الفائدة
٣٣	محمد	تحريم قطع الفرض، وكراهية قطع النفل من غير موجب لذلك.
١٧	الذاريات	صلاة الليل من أفضل أنواع الإحسان.
٩	الجمعة	الأمر بترك البيع موقت مدة الصلاة.
٩	الجمعة	الجمعة فريضة على المؤمنين.
٩	الجمعة	الخطبتان يوم الجمعة فريضة يجب حضورهما.
٩	الجمعة	مشروعية النداء للجمعة والأمر به.
٦	المزمل	الحكمة في الأمر بقيام الليل.
٢٠	المزمل	صفة صلاة الليل.
٢٠	المزمل	يرخص للمسافر الجمع والقصر.
	الأعلى	الصلاة ميزان الإيمان.
٥	القدر	فضيلة ليلة القدر.
٥	الماعون	مراعاة الصلاة، والمحافظة عليها.

الصيام

١٨٣	البقرة	الصيام مصلحته للخلق في كل زمان.
١٨٣	البقرة	الصيام من أكبر أسباب التقوى.
١٨٣	البقرة	فوائد الصيام التربوية.
١٨٥	البقرة	تدرج الآيات في بيان أحكام الصيام.
١٨٧	البقرة	أحكام الصوم.
١٨٥	البقرة	تكبيرات العيد.
١٨٧	البقرة	الوطء من مفسدات الاعتكاف.
٩٢	النساء	العذر لا يقطع التتابع في كفارة الصوم.
٣	الدخان	فضيلة ليلة القدر.
٢	الفجر	المفاضلة بين العشر من ذي الحجة والعشر الأخيرة من رمضان.

الضلال/الشر

١١٤	النساء	الضلال نوعان: ضلال في العلم، وضلال في العمل.
١٩	الكهف	المفاسد الداعية لترك الشر والضلال.
٥٣	الأحزاب	وسائل الشر وأسبابه ومقدماته ممنوعة.
٥	الصف	إضلال الله لعبيده ليس ظمناً منه، ولا حجة لهم عليه.

الفائدة	السورة	رقم الآية
طرق الضلال لا توصل صاحبها إلا للعذاب الشديد.	الليل	١٢
مراتب الخسار، وموانعه.	العصر	١
الطب		
ابن القيم - رحمه الله - نبه على قواعد الطب الثلاث.	النساء	٤٣
كل داء يداوى بضده.	يوسف	٩٣
الطلاق/العدد/الظهار/الإيلاء		
حكم من آلى من زوجته.	البقرة	٢٢٦
الإيلاء خاص بالزوجة.	البقرة	٢٢٧
الصحيح: أن القرء هو الحيض.	البقرة	٢٢٨
من حكم العدة، العلم ببراءة الرحم.	البقرة	٢٢٨
كتمان الحمل يفضي إلى مفسد كثيرة.	البقرة	٢٢٨
صدور كتمان الحمل من المطلقات دليل على عدم إيمانهن.	البقرة	٢٢٨
الزوج ليس له إرجاع الزوجة إلا بقصد الإصلاح.	البقرة	٢٢٨
عدة الحامل وضع الحمل.	البقرة	٢٢٨
عدة الأمة حيضتان كما هو قول الصحابة - رضي الله عنهم --	البقرة	٢٢٨
مشروعية الخلع إذا وجدت حكمته.	البقرة	٢٢٩
وجوب الإحداد مدة العدة على المتوفى عنها زوجها.	البقرة	٢٣٤
ما للمطلقة على زوجها من متعة وحقوق.	البقرة	٢٤١
أحكام اللعان، وإنه مختص بالزوج إذا رمى امرأته.	النور	٦
أحكام الظهار.	الأحزاب	٤
الطلاق لا يكون إلا بعد النكاح.	الأحزاب	٤٩
متعة المطلقة قبل الدخول.	الأحزاب	٤٩
المفارقة بالوفاة تعتد مطلقاً.	الأحزاب	٤٩
أقل مدة الحمل ستة أشهر.	الأحقاف	١٥
أحكام الظهار.	المجادلة	١
الظهار مختص بتحريم الزوجة.	المجادلة	٢
يكره للرجل أن ينادي زوجته ويدعوها باسم محارمه.	المجادلة	٢
كفارة الظهار.	المجادلة	٣

الفائدة

رقم الآية	السورة	
١	الطلاق	الأمر بإحصاء العدة يتوجه للزوج وللمرأة.
١	الطلاق	لزوم المرأة بيتها حتى تستكمل عدتها.
١	الطلاق	في الطلاق البائن؛ الزوجة ليس لها سكنى واجبة.
١	الطلاق	الحكمة من تشريع العدة.
٢	الطلاق	بيان فعل الطلاق على الوجه الشرعي.

الطهارة

٢٢٢	البقرة	أحكام الحيض.
٢٢٢	البقرة	شمول التطهر للتطهر الحسي والمعنوي.
٤٣	النساء	يجوز للجنب المرور في المسجد فقط.
٤٣	النساء	حالات إباحة التيمم.
٤٣	النساء	وجوب طلب الماء عند دخول الوقت.
٤٣	النساء	يجوز التطهر بالماء المتغير بشيء من الطاهرات.
٤٣	النساء	صفة التيمم وأنه يستحب أن يكون بضربة واحدة.
٦	المائدة	الأحكام التي تضمنتها آية الوضوء والتي توصل العبد إلى المنازل العالية الرفيعة.
١٤٥	الأنعام	الدم الذي يبقى في اللحم والعروق بعد الذبح حلال طاهر.
١٠٨	التوبة	أهل قباء كانوا يُتبعون الحجارة الماء.
١٠٨	التوبة	الطهارة على نوعين: حسية، ومعنوية.
٥٩	النور	ريق الصبي طاهر؛ كالقيء.
٧٩	الواقعة	التنبيه على أنه لا يجوز أن يَمَسَّ القرآن إلا طاهر.
٤	المدثر	إزالة النجاسة شرط من شروط الصلاة.
٥	المدثر	طهارة الظاهر من تمام طهارة الباطن.

الظلم

٢٢٩	البقرة	أقسام الظلم.
٢٥٤	البقرة	أسباب حصر الظلم المطلق في الكفار.
١٧٨	آل عمران	الله تعالى يملئ للظالم؛ حتى يزداد طغيانه ويترادف كفرانه.
٨٣	النساء	الإنسان بطبعه ظالم جاهل فلا تأمره نفسه إلا بالشر.
١١٠	النساء	ظلم النفس عند الإطلاق يشمل ظلمها بالشرك فما دونه.

الفائدة	السورة	رقم الآية
الإقامة على الظلم؛ هلاك أبدي وشقاء سرمدي.	الأنعام	٤٧
المقابلة بين الظلم المطلق، والأمن التام، والهداية التامة.	الأنعام	٨٢
التحذير من الركون إلى كل ظالم.	هود	١١٣
من الظلم الاستكبار عن الحق بعد التمكن منه.	الأحقاف	١٠
العبادات/العبودية/العبد		
من تفرد بالكمال المطلق والنعم كلها، هو الذي لا تصلح العبادة إلا له.	مقدمة	
فوائد تقديم العبادة على الاستعانة.	الفاتحة	٥
العبادة من الأسماء الجامعة.	الفاتحة	٥
العبادة الجامعة أمر عام لجميع الناس.	البقرة	٢١
التلازم بين العبادة والتقوى.	البقرة	٢٢
وصف العبودية أعظم الأوصاف.	البقرة	٢٤
من ترك عبادة الرحمن ابتلي بعبادة الأوثان.	البقرة	١٠١
عند الفراغ من العبادة ينبغي الاستغفار عن التقصير والشكر على التوفيق.	البقرة	١٩٩
العفو عن النسيان والخطأ في العبادات وفي حقوق الله - تعالى -.	البقرة	٢٨٦
العبادات الشرعية كلها عدل وقسط.	آل عمران	١٨
الحث على خدمة بيت العبادة المشحون بالمتعبدين.	آل عمران	٣٥
الرسول عبد من عبيد الله، والجميع تحت عبودية ربهم.	آل عمران	١٢٨
ينبغي على العبد مراعاة الأوامر والنواهي في نفسه وفي غيره.	آل عمران	١٣٠
الواجب على الأمم عبادة ربهم في كل وقت وبكل حال.	آل عمران	١٤٤
حث العباد على التفكير والتبصر والتدبر.	آل عمران	١٩٠
كيف يتم تحقيق الأمر بالدخول في العبادة.	النساء	٣٦
انفراد الله - تعالى - بالوحدانية يستلزم الأمر بعبادته والتقرب إليه بجميع أنواع العبودية.	النساء	٨٧
عيسى - عليه السلام - أثبت لنفسه العبودية التامة، ولربه الربوبية الشاملة لكل مخلوق.	المائدة	٧٢
الدخول تحت العبودية أفضل نعمة وأكمل تربية.	الأنعام	٧١
العمل هو مادة الدار الآخرة.	الأنعام	٩٤

رقم الآية	السورة	الفائدة
١٠٢	الأنعام	الله - تعالى - المألوه المعبود الذي يستحق نهاية الذل ونهاية الحب . ما هو المقصود الذي خلق الخلق لأجله؟
١٢٨	الأعراف	وظيفة العبد عند القدرة وعند العجز . ينبغي للعبد أن لا يأتي العبادات إلا وهو منشرح الصدر وثابت النفس .
٥٤	التوبة	على العبد عبودية لله في الرخاء، وفي الشدة أيضاً .
٣٣	يوسف	لا تنبغي العبادة والذل والحب إلا لله - تعالى - .
٣	النحل	سجود المخلوقات لله - تعالى - قسمان .
٥٠	النحل	ذكر النبي ﷺ في مقام الإسرائء بصفة العبودية .
١	الإسرائء	بحسب علو مرتبة العبد، وتواتر النعم عليه من الله ؛ يَغْظُمُ إثمُهُ إذا فعل ما يلام عليه .
٧٦	الإسرائء	الخضر - عليه السلام - عبد صالح وليس نبياً، على الصحيح .
٦٥	الكهف	المعونة تنزل على العبد على حسب قيامه بالمأمور به .
٦٢	الكهف	العبد الصالح يحفظه الله في نفسه وفي ذريته .
٨٠	الكهف	عبادة الله هي الحق التي يوجبها الشرع والعقل والفطرة .
٨	طه	الأمر بعبادة الله وحده زبدة الرسالات وأصلها .
٢٥	الأنبياء	الإخلاص وتقوى الله لب العبادات .
٣٧	الحج	وظيفة العبد في مقابلة المسيء من البشر .
٩٦	المؤمنون	أوقات العبادات تتكرر بتكرار الليل والنهار .
٦٢	الفرقان	أنواع العبودية .
٦٣	الفرقان	صفات الكُمل من عباد الله - تعالى - .
٧٥	الفرقان	العبادة هي الغاية التي خلق لها الخلق .
٧	الزمر	أعظم المقاصد وأشرفها: معرفة الله وعبادته .
٦٠	غافر	العبد ناقص من كل وجه .
٢٠	محمد	تمام العبادة متوقف على المعرفة بالله .
٥٦	الذاريات	الرسول ﷺ قام بالعبادات القاصرة والمتعدية .
١	المدثر	

العتق

٢٤	النساء	النبي ﷺ خير بريرة في الولاء .
٩٢	النساء	التحرير: تخليص من استحققت منافعه لغيره أن تكون له .

رقم الآية	السورة	الفائدة
٣٣	النور	فوائد المكاتبة بين العبد وسيده.
٣٧	الأحزاب	المعتق في نعمة المعتق.

عقائد الفرق

٤	الفاتحة	العبد فاعل على الحقيقة خلافاً للقدرية والجبرية.
٢١	البقرة	القدرية قالوا: إن أفعالهم غير داخله في قدرة الله - تعالى - .
٢٤	البقرة	المعتزلة قالوا في خلق الجنة والنار خلاف مذهب أهل السنة.
٢٤	البقرة	الخوارج والمعتزلة قالوا بتخليد صاحب الكبيرة.
٦٢	البقرة	الصابئون من جملة فرق النصارى.
٦٢	البقرة	الأحكام الواردة في الذم تعم كل الطوائف، بحسب الوصف ووجود مقتضى الذم.
٧٩	البقرة	الرافضة وقعوا في ما وقع فيه أهل الكتاب.
٨١	البقرة	احتج الخوارج على كفر صاحب المعصية بما هو حجة عليهم.
١٠٢	البقرة	زعم القدرية أن الأسباب مستقلة غير تابعة للمشية.
٢١٠	البقرة	الجهمية والمعتزلة والأشعرية ينفون الصفات الاختيارية وغيرها.
٢٧٥	البقرة	آيات الوعيد ليس فيها حجة للخوارج.
١٤	النساء	شبهة الخوارج القائلين بكفر أهل المعاصي والرد عليها.
١٠٣	الأنعام	المعطلة ينفون رؤية ربهم في الآخرة.
١٢١	الأنعام	الإلهامات والكشوف يكثر وقوعها عند الصوفية.
٦	التوبة	بطلان مذهب المعتزلة أن القرآن مخلوق.
٣٥	الأنبياء	بطلان قول من يقول ببقاء الخضر، وأنه مخلد في الدنيا.
٦	الفرقان	أنكر الفلاسفة الدهرية علم الله - تعالى - .
٣٣	الفرقان	مذهب الجهمية: أن نصوص القرآن محمولة على غير ظاهرها.
٤٣	النمل	العقائد الباطلة تذهب بصيرة القلب.
٧٦	ص	بيان طريقة أهل القياس الفاسد.
٦٢	الزمر	الرد على من قال بقدم بعض المخلوقات؛ كالفلاسفة.
٨٣	غافر	علوم الفلسفة والمنطق اليوناني موصلة إلى الإلحاد.
١١	الشورى	دليل الرد على المعطلة والمشبهة في موضوع الصفات.
١٩	المزمل	مذهب الجبرية: أن أفعال العبادة تقع بغير مشيئتهم.
٥٦	المدثر	الرد على القدرية والجبرية في مسألة أفعال العباد.

الفائدة	السورة	رقم الآية
الرد على فرقتي القدرية الثفاة والقدرية المجبرة .	التكوير	٢٩
العدل		
القسط : هو العدل التام الذي لا ظلم ولا جور فيه .	يونس	٥٤
العدل مطلوب في كل الأمور .	يوسف	٨
العدل يشمل : العدل في حق الله ، وفي حق عباده .	النحل	٩٠
العدل واجب ، والإحسان فضيلة مستحبة .	النحل	٩٠
بيان العدل والفضل في مقابلة المسيء بالإساءة .	المؤمنون	٩٦
العدل في الأمور الحسية والمعنوية .	المطففين	٤

العقل

العقل الممدوح هو الذي يفهم ويعقل الحقائق النافعة ويعمل بها .	مقدمة
العقل : هو معرفة الانسان مصالح نفسه والسعي فيما ينفعه ودفع ما بضده .	البقرة ١٣
العقل يحث صاحبه على أن يكون أول فاعل لما يأمر به وأول تارك لما ينهى عنه .	البقرة ٤٤
المحبيب لا يتركه العاقل إلا لمحبيب أفضل وأعلى منه .	البقرة ١٥٤
الانتفاع بالآيات على حسب ما من الله على عبده من العقل .	البقرة ١٦٤
العقل الصحيح هو السبب الموجب للاحتراز من الشرك .	البقرة ١٧١
العاقل يتمكن من الترجيح بين المصلحة وبين المضرة .	البقرة ٢١٩
خاصية العقل النظر للعواقب .	الأعراف ١٦٩
العلم والعقل يدعوان إلى تقديم أعظم المصلحتين .	يوسف ٣٣
الأمور التي لا ينبغي لأهل الدين والجبا الاتصاف بها .	يوسف ٤٤

العقوبة/العذاب/الوعيد

إذا استهان العبد بعقاب ربه هان عليه الإقامة على الكذب والتكذيب .	آل عمران ١١
تنوع العقوبات على أهل الكتاب .	آل عمران ١١٢
الحبس من جملة العقوبات .	النساء ١٥
تعجيل الآيات يكون عند عدم الإيمان بالآيات المقترحة .	الأنعام ١٠٩
العذاب يطلق أحياناً على المشقة وتعب البدن .	التوبة ٥٥
جهنم جامعة لكل العذاب .	الرعد ١٨
لا يكون هلاك القرى إلا بعد ازدياد الشر والطغيان .	الحجر ٧٧
بعد عصر موسى - عليه السلام - رفع الله عذاب الاستتصال عن الأمم .	المؤمنون ٤٥

الفائدة	السورة	رقم الآية
العقوبة العامة تعم عند نزولها العاصي وغيره .	المؤمنون	٩٤
الوعيد لمن أحاطت خطيئته بحسناته .	المؤمنون	١٠٣
اللعنة لا تكون إلا على ذنب كبير .	النور	٢٣
الفرح المذموم الموجب للعقاب .	غافر	٧٥
مراتب العقوبات .	الشورى	
بعض أنواع العذاب يكون مقدّمة للجزاء الأخروي .	الحاقة	١٣
وصف عذاب من كفر بالله وكذب رسله .	الإنسان	٤
الوعيد على الذين يخسون الناس بالمكيال والميزان .	المطففين	٤
أنواع العذاب .	المطففين	١٧

العقيدة/أصول الدين

مذهب أهل السنة والجماعة: أن الجنة والنار مخلوقتان .	البقرة	٢٤
الموحدون - وإن ارتكبوا بعض الكبائر - لا يخلدون في النار .	البقرة	٢٤
الشرائع المشتملة على المصالح العامة من أصول الدين .	البقرة	٨٣
مذهب أهل السنة والجماعة: أن الإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح .	البقرة	١٤٣
أصل الدين وقاعدته توحيد الله وإفراده بالعبودية .	آل عمران	١٨
وقوع الكرامات لأهل الإيمان والتقوى .	آل عمران	٣٧
القدر المشترك بين جميع المرسلين .	آل عمران	٥١
نزول عيسى - عليه السلام - في آخر هذه الأمة حكماً عدلاً .	آل عمران	٥٥
طريقة الأنبياء في الدعوة إلى التوحيد طريقة واحدة .	آل عمران	٨١
الدين الميني على الأصول يوصل العباد إلى أجل غاية وأفضل مطلوب .	آل عمران	١٠١
كلام ابن القيم في تأويل نصوص الوعيد نقلاً من المدارج .	النساء	٩٣
القول الصواب في تأويل نصوص الوعيد .	النساء	٩٣
سبيل المؤمنين هو طريقهم في عقائدهم وأعمالهم .	النساء	١١٥
تغيير الأديان أصولها وفروعها من أكبر المفاصد .	الأنعام	٩٣
الروح جسم يدخل ويخرج .	الأنعام	٩٣
نفي الإدراك لا ينفي الرؤية، بل يثبتها بالمفهوم .	الأنعام	١٠٣
طلوع الشمس من مغربها من جملة أشراط الساعة .	الأنعام	١٥٨
رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة .	الأعراف	١٤٣

الفائدة	السورة	رقم الآية
أهل السنة قالوا: إن القرآن كلام الله غير مخلوق.	التوبة	٦
الإسراء بالروح والجسد معاً.	الإسراء	١
مذهب أهل السنة والجماعة إثبات كلام الله - تعالى - بأنواعه.	مريم	٥٢
القدح في عائشة - رضي الله عنها - قدح في النبي ﷺ.	النور	٢٦
تكذيب أي رسول تكذيب لغيره؛ لاتفاق الدعوة.	الشعراء	٢٦
الدابة تخرج في آخر الزمان، وتكون من أشراط الساعة.	النمل	٧٥
السعي في جمع كلمة الأمة من أفضل الجهاد في سبيل الله.	الروم	٣٢
الأمر الخمسة التي طوي علمها عن جميع الخلق.	لقمان	٣٤
شرط الإيمان بالكتب السابقة.	فاطر	٣١
نزول عيسى - عليه السلام - في آخر الزمان علامة من علامات الساعة.	الزخرف	٦١
بيان العبادة القولية الاعتقادية.	الزخرف	٨١
المؤمنون يرون ربهم يوم القيامة.	المطففين	١٧

العلم

العلم هو: معرفة الهدى بدليله ولا يكون نافعاً حتى يعمل به.	مقدمة	
العلم التفصيلي من أسباب زيادة الإيمان.	البقرة	٢٦
بيان فضيلة العلم.	البقرة	٣٤
أهل العلم خلفاء الرسول وهداة الأمم.	البقرة	٤٢
سؤال الاسترشاد والتعليم محمود.	البقرة	١٠٨
العالم عليه إظهار الحق وتبيينه وتزيينه.	البقرة	١٤٧
الوعيد لمن كتم العلم.	البقرة	١٥٩
الإيمان بالله - تعالى - والاستجابة لأمره سبب لحصول العلم.	البقرة	١٨٦
الكتابة وسيلة إلى حفظ الدين والدنيا وسبب للإحسان.	البقرة	٢٨٢
تقوى الله وسيلة إلى حصول العلم.	البقرة	٢٨٢
يدخل في العلم النافع تعليم الأمور الدنيوية المتعلقة بالمعاملات.	البقرة	٢٨٢
الراسخون في العلم هم الذين وصل العلم واليقين إلى أفئدتهم؛ فأنمّر لهم العمل.	آل عمران	٧
القرآن مدح الراسخين في العلم.	آل عمران	٧
العلماء الذين شهدوا بالوحدانية هم الأئمة والمتبعون.	آل عمران	١٨
لا يحل للإنسان أن يقول أو يجادل فيما لا علم له به.	آل عمران	٦٦

الفائدة	السورة	رقم الآية
من هم أهل الكتاب والعلم على الحقيقة؟ على العبد أن يتدرج حتى يصل إلى ما قُدر له من العلم والعمل في أمر الدين والدنيا.	آل عمران	١٩٩
الاستفتاء: طلب السائل من المسؤول بيان الحكم الشرعي.	النساء	٦٦
الرسوخ في العلم يثمر الإيمان التام العام.	النساء	١٢٧
العلماء العاملون هم الذين يربون بأحسن تربية.	النساء	١٦٢
الأمر التي ينبغي على أهل العلم القيام بها.	المائدة	٤٤
النهي عن سؤال الأشياء التي لا تخلو من مفسدة.	المائدة	٤٤
بحسب قيام الأدلة يتحصل اليقين والعلم التام.	المائدة	١٠١
العلم يرفع صاحبه درجات حتى ينال الإمامة.	الأنعام	٧٥
من البصيرة العلم بمواقع العبر والعمل بمقتضاها.	الأنعام	٨٣
الترغيب في العمل بالعلم.	الأنعام	١٠٨
علوم الرسل موصلة إلى اليقين في جميع المطالب العالية.	الأعراف	١٧٧
من العلم النافع معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله.	التوبة	٧٠
من تعلم علماً؛ فعليه نشره وبثه في العباد.	التوبة	٩٩
مما يُطلب في العلم، علم القرآن، وعلم التوحيد.	التوبة	١٢٢
فضيلة العلم؛ علم الأحكام والشرع.	هود	١٤
علم تعبير الرؤيا داخل في الفتوى.	يوسف	٣٧
ينبغي الزيادة على سؤال السائل عند الحاجة.	يوسف	٣٧
فضيلة أهل العلم.	يوسف	٣٨
الحث على العلم وعلى المباحثة فيه.	النحل	٢٧
أدب أهل العلم عند الاشتباه.	الكهف	١٩
المنع من استفتاء من لا يصلح للفتوى.	الكهف	١٩
فضيلة الرحلة في طلب العلم.	الكهف	٢٢
أنواع العلم الذي يُعلمه الله - تعالى - لعباده.	الكهف	٦٠
التأدب مع المعلم، وخطاب المتعلم إيّاه ألطف خطاب.	الكهف	٦٥
تواضع الفاضل للمتعلم ممن دونه.	الكهف	٦٦
تعلم العالم الفاضل للعلم الذي لم يتمهر فيه.	الكهف	٦٦
لا يدرك العلم إلا من لازم الصبر.	الكهف	٦٧

رقم الآية	السورة	الفائدة
٧٠	الكهف	آداب المتعلم في السؤال.
١١٤	طه	الأدب في تلقي العلم.
٧	الأنبياء	الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم.
٢	النور	من أسباب زيادة العلم والفهم؛ مشاهدة أحكام الشرع بالفعل.
٥٩	النور	الولي مخاطب بتعليم من تحت ولايته.
٥٩	النور	ينبغي لمن يتكلم في مسائل العلم الشرعي أن يقرن بالحكم علقته.
٢٩	النمل	استحباب ابتداء الكتب بالبسملة كاملة.
٦٦	النمل	أدنى درجات العلم وأقله.
٢٢	القصص	إذا لم يترجح عند الناظر في العلم أحد القولين فإنه يستهدي ربه.
٦٩	العنكبوت	طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيل الله.
٢٢	الروم	أهل العلم يفهمون العبر ويتدبرون الآيات.
٣٤	الأحزاب	بيان طريقة تحصيل العلم.
٣٧	الأحزاب	التعليم الفعلي أبلغ من القول.
	سبا	مناقب أهل العلم وعلاماتهم.
١٣	يس	طريق العلم الصحيح الوقوف مع الحقائق وترك ما لا فائدة فيه.
١٩	محمد	العلم لا بد فيه من إقرار القلب ومعرفة.
٦	الحجرات	كان السلف يقلون روايات كثير من الخوارج.
١٣	الحجرات	معرفة الأنساب مطلوبة مشروعة.
١٨	القيامة	آداب أخذ العلم.
٤	عبس	ينبغي الإقبال على طالب العلم المفتقر إليه الحريص عليه.
	الضحى	لا ينبغي رد السائل للمال والسائل للعلم.
٣	العصر	العلم فرع عن الإيمان لا يتم إلا به.

العهد

١٠٠	البقرة	عدم الإيمان هو الذي يوجب نقض العهود.
		الوفاء بالعهد يدخل فيه الدين كله.
١٨٧	آل عمران	الميثاق هو العهد الثقيل المؤكد.
١	المائدة	أصول الدين وفروعه كلها داخلة في العقود التي أمر الله بالقيام بها.
١١	المائدة	العقوبات المترتبة على نقض العهد الذي أخذه الله على عباده.
١٥٢	الأنعام	ما يدخل في العهد الذي يجب الوفاء به.

رقم الآية	السورة	الفائدة
٥٧	الأنفال	لا يجوز خيانة الكافر إذا أعطي عهداً.
١	التوبة	العهد المطلق للمشركين غير العهد المقيد.
٨٧	مريم	تسمية الإيمان بالله واتباع المرسلين بالعهد.
١٥	القصص	لا يجوز قتل الكافر الذي له عهد بعقد أو عرف.

الفتح

	مقدمة	إذا بذل العبد وسعه في تدبر القرآن، فلا بد أن يفتح عليه من علومه أموراً لا تدخل تحت كسبه.
٨٩	الأعراف	فتح الله - تعالى - لعباده على نوعين.

الفروق

٦	الفاتحة	الفرق بين الهداية إلى الصراط والهداية في الصراط.
٢٤	البقرة	الفرق بين الشاك الحائر والمعاند المستكبر في التوفيق.
٣٨	البقرة	الفرق بين الخوف والحزن.
٤٢	البقرة	الفرق بين دعاة الحق ودعاة جهنم.
٤٤	البقرة	الفرق بين الكمال والنقص الكامل.
١٢٩	البقرة	الفرق بين تلاوة الآيات وتعليم الكتاب.
١٣٦	البقرة	الفرق بين القول المجرد والقول المقترن بعمل القلب.
١٣٦	البقرة	الفرق بين الأنبياء وبين من يدعي النبوة.
١٣٨	البقرة	الفرق بين صبغة الله وبين غيرها من الصبغ.
١٣٩	البقرة	التفريق مع الاشتراك في الشيء من غير فرق مؤثر مكابرة ظاهرة.
١٣٩	البقرة	الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.
١٣٩	البقرة	الصحيح هو الجمع بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين.
١٥٧	البقرة	الفرق بين الصابر والجازع.
١٦٥	البقرة	الفرق بين محبة الله ومحبة الأنداد.
١٦٩	البقرة	الفرق بين داعي الله وداعي الشيطان.
٢٠١	البقرة	الفرق بين حسنة الدنيا وحسنة الآخرة.
٢٦٧	البقرة	الفرق بين داعي الرحمن وبين داعي الشيطان.
١٠٦	آل عمران	الفرق بين أهل السعادة وأهل الشقاوة.
١٤	النساء	الفرق بين الطاعة التامة والمعصية التامة.

رقم الآية	السورة	الفائدة
٢٦	المائدة	التفاوت بين سائر الأمم وأمة محمد ﷺ.
٥٠	المائدة	الفرق بين حكم الله وحكم الجاهلية.
٣٢	الأنعام	الفرق بين حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة.
١٢١	الأنعام	الفرق بين وحي الرحمن ووحى الشيطان.
٢٦	الأعراف	الفرق بين اللباس الحسى ولباس التقوى.
٢٠٤	الأعراف	الفرق بين الاستماع والإنصات.
٢٧	يونس	الفرق بين أصحاب الجنة وأصحاب النار.
٥٨	يونس	الفرق بين الفرح المذموم والفرح المحمود.
٤٢	الحجر	الفرق بين الغاوي والضال.
٩	النحل	الفرق بين الطريق المستقيم والطريق الجائر.
٧٥	النحل	الفرق بين العبد المملوك والحر الغنى.
٥١	مريم	الفرق بين الرسالة والنبوة.
٥٢	مريم	الفرق بين النداء والنجاء.
٢٢٤	الشعراء	الفرق بين طريق الهدى وطريق الغي والردى.
٣٢	الروم	الفرق بين الإنابة الاختيارية، والإنابة الاضطرارية.
٤٨	الأحزاب	الفرق بين المنافق وبين الكافر.
٣٥	ص	الفرق بين الملك النبى، والنبى العبد
٧٣	الزمر	الفرق بين فتح أبواب النار وفتح أبواب الجنة.
	الشورى	الفرق بين الكبائر والفواحش.
٣٣	الزخرف	الفرق بين دار الدنيا ودار الآخرة.
٧	الحشر	الفرق بين الفئ والغنائم.
٩	الحشر	الفرق بين الإيثار والأثرة.

الفرائض

١١	النساء	ميراث الأولاد للصلب والأولاد للابن.
١١	النساء	ميراث البنت الصلبية.
١١	النساء	الشارع لم يفرض للبنات إلا الثلثين.
		ما هي أحكام الميراث المجمع عليها بين العلماء؟
١١	النساء	ميراث الأبوين.
١١	النساء	الأم لا تزيد على السدس مع أحد من الأولاد.

الفائدة	السورة	رقم الآية
متى يرث الأب بالفرض؟ ومتى يرث بالتعصيب؟	النساء	١١
الذي يأخذه الزوجان من الميراث في العمريتين.	النساء	١١
ميراث الأخوة الأشقاء أو لأب أو لأم.	النساء	١١
طريقة توزيع التركة.	النساء	١١
يدخل في مسمى الولد المشروط ولد الصلب وإن نزل.	النساء	١١
الميت الذي يرث كلاله، أي: ليس له ولد ولا والد.	النساء	١٢
لفظ الشريك يقتضي التسوية.	النساء	١٢
المسألة المسماة بالحمارية.	النساء	١٢
الإخوة لأم أصحاب فروض، والأشقاء عصبات.	النساء	١٢
موانع الميراث.	النساء	١٢
ميراث الرقيق والخثنى.	النساء	١٢
ميراث الجد مع الأخوة الأشقاء أو لأب.	النساء	١٢
مسائل العول والرد.	النساء	١٢
ميراث ذوي الأرحام.	النساء	١٢
بيان من هم عصبه الميت وحكمهم في الميراث.	النساء	١٢
ميراث الأخت من أخيها.	النساء	١٧٦

الفقر

مقدمة	افتقار كل مكلف لمعرفة معاني القرآن والاهتداء بها.
البقرة ١٦٤	شدة افتقار العباد إلى الله - تعالى - .
البقرة ١٧٧	الفقر يحتاج إلى الصبر من وجوه كثيرة.
الأنعام ٥٢	من هم الصفوة من الخلق، وإن كانوا فقراء.
الأنعام ١٠١	المخلوقات فقيرة إلى الله، مضطرة في جميع أحوالها إليه.
الإسراء ٧٦	شدة افتقار العبد إلى تثبيت الله إياه.
الكهف ٧٩	المسكين من له مال لا يبلغ كفياته.
فاطر ١٥	الناس فقراء إلى الله من جميع الوجوه.

الفساد

البقرة ٢٣	أعظم الفساد يكون من جهة النفاق.
البقرة ٢٠٦	المفسد يجمع بين العمل بالمعاصي والتكبر على الناصحين.

الفائدة

السورة

رقم الآية

من الفساد في الأرض: عمل المعاصي، والدعوة إلى الدين الباطل، والتعويق عن دخول الإسلام.
 كيف يكون الخوض في آيات الله.
 السبب الموجب لسلوك طريق الغي.
 السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض.

٦٤	المائدة
٦٩	الأنعام
١٤٦	الأعراف
٧٣	يوسف

الفسوق

أنواع الفسق.
 الفسوق يزيد وينقص ويتبعض.
 من تولي عن اتباع النبي ﷺ فقد وقع في الفسق المخرج عن طاعة الله.
 حالات المسيء المذنب.
 التكلم بالباطل والقول بلا علم أمران محظوران.

٢٦	البقرة
٢٨٢	البقرة
٨٢	آل عمران
٩٥	التوبة
١٥	النور

الفكر

فوائد التفكير في آيات الله - تعالى - .
 الحث على التذكر والتفكير في آلاء الله - تعالى - .
 فوائد التفكير في مخلوقات الله والنظر فيها بعين الاعتبار.
 الاعتبار بالآثار المشاهدة بالأبصار.
 النفس آية كبيرة من آيات الله - تعالى - .

٩٩	الأنعام
٥٧	الأعراف
٦	يونس
٧٩	الحجر
٧	الشمس

الفوز/الفلاح

الفلاح: هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب.
 الطريق الموصل إلى الفلاح.
 حقيقة الفلاح السعادة الأبدية والنعيم المقيم.
 الفلاح متوقف على التقوى.

٥	البقرة
٢٠٠	آل عمران
٣٥	المائدة
١٠٠	المائدة

القبائل

توليى الله بني سلمة وبني الحارثة بلطفه ورعايته.
 سبأ: قبيلة معروفة في اليمن.

١٢٢	آل عمران
٢٠	النمل

القرآن

أقسم - تعالى - بالقرآن ووصفه بأنه مجيد، لسعة معانيه وعظمتها.

مقدمة

الفائدة	السورة	رقم الآية
الكليات المهمة التي جاء بها القرآن، وطريقته في تقرير الأدلة على ذلك.	مقدمة	
ما نفاه القرآن؛ فإما أن يكون غير موجود؛ أو إنه موجود ولكنه غير نافع.	مقدمة	
نفي الريب عن القرآن يستلزم ضده.	البقرة	٢
القرآن مرشد للعباد في المسائل الأصولية والفروعية.	البقرة	٢
الآيات القرآنية محنة لقوم ومنحة لغيرهم.	البقرة	٢٦
موافقة القرآن للكتب السابقة.	البقرة	٤١
تكذيب أهل الكتاب للقرآن تكذيب لما معهم.	البقرة	٩١
من معجزات القرآن الإخبار بالشيء قبل وقوعه.	البقرة	١٣٧
القرآن رد على جميع الاحتجاجات الباطلة.	البقرة	١٥٠
الآيات القرآنية دالة على الحق، محصلة للعلم النافع والفرقان.	البقرة	٢١٩
آية الكرسي أعظم آيات القرآن.	البقرة	٢٥٥
رد الآيات المتشابهات إلى المحكم فيعود كله محكماً.	البقرة	٧
القرآن فيه نبأ الأولين والآخرين والأنبياء والمرسلين.	آل عمران	٥٨
آيات القرآن صالحة لكل زمان ومكان.	آل عمران	٩٧
وقوع المخبر في القرآن كان تصديقاً للخبر.	النساء	٤٧
فوائد التدبر لكتاب الله - تعالى -.	النساء	٨٢
لما كان كلام الله صدقاً؛ كان ما يدل عليه مطابقة وتضمناً وملازمة كذلك.	النساء	١٢٢
القرآن هو الطريق الموصل لمعرفة المقبول والمردود من الكتب السابقة.	المائدة	٤٨
القرآن فيه بيان كل ما يحتاج العباد إليه من المطالب الإلهية.	الأنعام	١٩
القرآن موصوف بالبركة، وذلك لكثرة خيراته.	الأنعام	٩٢
علم القرآن أجل العلوم وأبركها وأوسعها.	الأنعام	١٥٧
القرآن آية لا تضمحل وحجة لا تبطل.	الأعراف	٢٠٣
آيات القرآن دالة على الحقائق الإيمانية والأوامر والنواهي الشرعية.	يونس	١
الأوصاف الحسنة الضرورية للقرآن.	يونس	٥٧
أجل المطالب: التصديق التام بالقرآن، والإقبال عليه علماً وعملاً.	يونس	٥٩

الفائدة	السورة	رقم الآية
القرآن معجزة بنفسه .	هود	١٤
القلوب حين تعرف معاني القرآن وأحكامه تطمئن لها .	الرعد	٢٨
حفظ القرآن من أعظم آيات الله ونعمه على عباده المؤمنين .	الحجر	٩
أخبار الكتاب تملأ القلوب معرفة وإيماناً وعقلاً .	الكهف	١
تدبر القرآن يدعو إلى كل خير ويعصم من كل شر .	المؤمنون	٦٨
الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية بحسب المواسم ، وحدوث الموجب .	الفرقان	٣٣
وضوح ألفاظ القرآن ، وحسن معانيه .	الفرقان	٣٣
فائدة تكرار الأوصاف الحسنة في القرآن .	الفرقان	٣٣
وراثه الكتاب : وراثه علمه وعمله ، ودراسة ألفاظه ، واستخراج معانيه .	فاطر	٣٢
الحكمة من إنزال القرآن .	ص	
تدبر القرآن من أفضل الأعمال .	ص	
معنى التشابه في القرآن .	الزمر	٢٣
أقسام الناس بحسب انتفاعهم بالآيات .	البقرة	٦
فوائد تدبر القرآن .	محمد	٢٤
مواعظ القرآن أعظم المواعظ على الإطلاق .	الحشر	٢١
شرف القرآن عند الله - تعالى - .	التكوير	٢١
القرآن يفصل بين الطوائف والمقالات .	الطارق	١٤

القصد / المقاصد / المقصود

تقديم العبادة على الاستعانة من باب تقديم الغاية .	الفاتحة	٥
المقصود من أهل الكتب والعلم تمييز الحق وإظهاره .	البقرة	٤٢
من فعل الحق وقصده تبين له الحق قطعاً .	البقرة	١٧٠
مقاصد النكاح .	البقرة	١٨٧
على الإنسان أن يسلك أقرب الطرق الموصلة إلى المقصود .	البقرة	١٨٩
الوسائل لها حكم المقاصد .	البقرة	٢٢٠
اعتبار المقاصد في الأقوال كما هي معتبرة في الأفعال .	البقرة	٢٢٥
أن يقصد عموم المؤمنين إقامة دين الله والجهد عنه بحسب الإمكان ، لا يكون لهم قصد في رئيس دون رئيس .	آل عمران	١٤٤

الفائدة	السورة	رقم الآية
لا يذم من أحب أن يحمد ويشئى عليه بما فعله من الخير إلا إذا قصد الرياء والسمعة.	آل عمران	١٨٨
إذا كان الشيء ناقض المقصود؛ كان تركه مقصوداً.	الأنعام	٦٩
بيان الحجج الدالة على المقاصد والأمور الكبار.	الأعراف	٧١
الإيمان والاتباع من مقاصد الرسالة.	الأعراف	١٠٥
شفاء ما في صدور المؤمنين من الغبط مقصد شرعي.	التوبة	١٥
الهدى أجل الوسائل، والرحمة أكمل المقاصد.	يونس	٥٧
مما يحمد عليه العبد العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها.	يوسف	٧٢
الوسيلة تبطل بطلان غايتها.	الرعد	١٤
العزم على فعل الشيء ليس بمترلة فعله.	الكهف	٦٩
إذا اجتمع على السبب الحقيقي القدرة والعمل به؛ حصل المقصود.	الكهف	٨٥
لسان النبي ﷺ أفصح الخلق وأقدرهم عن التعبير عن المقاصد.	الشعراء	١٩٩
الآيات القرآنية دلّت على أجل المطالب وأفضل المقاصد.	النمل	١
الوسائل لها أحكام المقاصد.	الأحزاب	٣٢

القضاء والقدر

مقدمة	الله - تعالى - موصوف بكمال القدرة ونفوذ المشيئة.
٤	الفاتحة تضمنت إثبات القدر، وإن العبد فاعل حقيقة.
٧١	البقرة فوائد التعليق بالمشيئة.
١٠٢	البقرة الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير فإنها تابعة.
٢٤٩	البقرة الرضا بعد وقوع القضاء المكروه للنفس هو الرضا الحقيقي.
٢٥٣	البقرة أنه - تعالى - يتصرف في جميع الأسباب المقتضية لمسيبتها بحسب مشيئته.
٢٦	آل عمران الشر لا يضاف إلى الله، ولكن يدخل في مفعولاته.
٤٠	آل عمران قد يخرق الله - تعالى - الأسباب؛ لأنه فعال لما يريد.
١٤٥	آل عمران النفوس جميعها معلقة بأجلها بإذن الله وقدره وقضائه.
١٥٤	آل عمران الأسباب إذا عارضها القدر لم تنفع شيئاً.
١٥٦	آل عمران لا يغني حذر عن قدر.
٣٨	الأنعام مراتب القضاء والقدر.
٥٨	الأعراف الأسباب ليست مستقلة بوجود الأشياء حتى يأذن الله.

رقم الآية	السورة	الفائدة
٦١	يونس	مراتب القضاء والقدر.
٣٩	الرعد	المحو والتغيير في غير ما سبق به علم الله وكتبه قلمه.
٣٩	الرعد	اللوح المحفوظ ترجع إليه سائر الأشياء؛ فهو أصلها.
٦٩	الكهف	تعليق الأمور المستقبلية بالمشيئة.
٧٥	النمل	اللوح المحفوظ أحاط بجميع ما كان وما يكون إلى أن تقوم الساعة.
١١	القصص	لا ينبغي للعبد أن يهمل فعل الأسباب.
٤٧	يس	الشيئة ليست حجة لعاص أبدأ.
٥٣	القمر	حقيقة القضاء والقدر.
١٠	الجن	الشر لا يضاف إلى الله - تعالى - تأدياً.
١٩	المزمل	الله - تعالى - أقدّر العباد على أفعالهم ومكنهم منها.

القلوب

١٢٦	آل عمران	توفر الأسباب فيها طمأنينة للقلوب وثبات على الخير.
١٤٢	النساء	الكسل لا يكون إلا بفقد الرغبة من القلب.
٤١	المائدة	طهارة القلب سبب لكل خير.
١١	الأنعام	السير المأمور به سير القلوب والأبدان الذي يتولد منه الاعتبار.
٢٢	الأعراف	تأثير الباطن على الظاهر.
٢	الأنفال	التدبر من أعمال القلوب.
١١	الأنفال	ثبات القلب أصل ثبات البدن.
١٠	طه	الأرواح والقلوب تستنير بنور الوحي.
٨٩	الشعراء	السييل إلى سلامة القلب.
		عندما يربط على القلوب؛ يتمكن أصحابها من القول الصواب والفعل الصواب.
١١	القصص	القلوب لا بد أن تطلب معبوداً تأله وتسأله حوائجها.
١٧	العنكبوت	القلب الصحيح سالم من الشهوة.
٣٢	الأحزاب	القلوب تمتحن بالأمر والنهي والمحن.
٣	الحجرات	القلوب مجبولة على محبة المحسن.
	الضحى	

القنوت

١١٦	البقرة	القنوت على نوعين: عام، وخاص.
-----	--------	------------------------------

الفائدة	السورة	رقم الآية
قواعد اللغة/كليات/مسائل لغوية		
معرفة علوم العربية على اختلاف أنواعها معين على معرفة التفسير.	مقدمة	
النكرة في سياق النفي أو النهي أو الاستفهام أو الشرط تعم.	مقدمة	
إذا وجد المفرد المضاف إلى معرفة، أثبت كل ما دخل في ذلك اللفظ.	مقدمة	
الألف واللام الداخلة على الأوصاف، وعلى أسماء الأجناس تفيد الاستغراق.	مقدمة	
حذف المتعلقات من مفعولات وغيرها، يدل على تعميم المعنى.	مقدمة	
لفظ الاسم في البسمة مفرد مضاف فيعم جميع الأسماء الحسنی.	الفاتحة	١
تقديم المعمول يفيد الحصر.	الفاتحة	٥
الإتيان بـ«من» الدالة على التبعض لفوائد.	البقرة	٣
التعظيم من معاني التكرير.	البقرة	٥
«على» تفيد الاستعلاء، و«في» تفيد الانغماس.	البقرة	٥
الإتيان باللام المفيدة للتخصيص.	البقرة	٣٠
آدم - عليه السلام - عَلِمَ الاسم والمسمى، حتى المصغر من الأسماء والمكبر.	البقرة	٣١
«أو» ليست بمعنى «بل».	البقرة	٧٤
الاستثناء قد يأتي لرفع الإيهام.	البقرة	٨٣
«كلما»: تفيد التكرار.	البقرة	١٠٠
فوائد التقديم والتأخير.	البقرة	١٢٥
الوصف باسم الفاعل للدلالة على الثبوت والاستقرار.	البقرة	١٣٨
فوائد التوكيد بـ«أن» و«اللام».	البقرة	١٥٠
الإتيان بـ«من» الدالة على التبعض.	البقرة	٢٥٤
الإتيان بالاستفهام الإنكاري.	آل عمران	١٥٤
الإضافة تقتضي التملك.	النساء	٤
قد يطلق الجمع ويراد به الاثنان.	النساء	١١
من أسرار الإتيان بـ«من» في بعض المواضع.	النساء	٩٢
فوائد الاستفهام التقريري.	النساء	٩٧
الاسم دال على المسمى.	النساء	١١٧

رقم الآية	السورة	الفائدة
١٣٥	النساء	فائدة الإتيان بصيغة المبالغة.
٦٠	المائدة	استعمال أفعال التفضيل في غير باب.
١٥٤	الأنعام	الإتيان بـ«ثم» لإفادة الترتيب الإخباري.
٢	الأنفال	الإتيان بـ«أل» الاستغراقية.
٣٥	يونس	الإتيان بـ«الاستفهام» لإفادة معنى النفي والتقرير.
٦٩	هود	الجملة الفعلية دالة على التجدد، والاسمية دالة على الثبوت.
٤	إبراهيم	علوم العربية مطلوبة محبوبة لله.
٥١	مريم	التلازم بين اسم الفاعل واسم المفعول.
٦٥	مريم	الإتيان بـ«الاستفهام» لإفادة النفي المعلوم بالعقل.
٧٦	مريم	استعمال أفعال التفضيل في غير باب.
٩٢	الأنبياء	الإتيان بـ«الفاء» لإفادة ترتيب المسبب على سببه.
٣٣	النور	ضوابط تقدير الآية من ناحية الإعراب.
١٩٥	الشعراء	اللسان العربي أفضل الألسنة وأوسعها.
سبأ		القاعدة في الضمائر أن تعود إلى أقرب مذكور.
ص ١		حذف المقسّم عليه؛ لكون المقسّم به وعليه شيء واحد.
الزمر ٥٧		الإتيان بـ«لو» لإفادة التمني.
الشورى		المضاف يكون بحسب المضاف إليه.
٢٥	الذاريات	الإتيان بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والاستقرار.
٣٢	المدثر	الإتيان بـ«كلا» لإفادة معنى ألا الاستفتاحية.
١	القيامة	الإتيان بـ«لا» النافية لإفادة معنى الاستفتاح.
٥	الشمس	الإتيان بـ«ما» المصدرية.
٥	الشرح	الإتيان بالألف واللام لإفادة الاستغراق والعموم.

الكبر

رد الحق، واحتقار الناس، وضده التواضع.

الكفر

٦	البقرة	حقيقة الكفر: الجحود لما جاء به الرسول.
٣٤	البقرة	كفر إبليس من جنس كفر الاستكبار.
٤١	البقرة	من كفر بالرسول فقد كذب الرسل جميعاً.
١٠٨	البقرة	بعض المسائل التي قد تصل بصاحبها إلى الكفر.

الفائدة	السورة	رقم الآية
الكفر يقابل الشكر من وجه.	البقرة	١٥٢
إذا كان الكفر وصفاً ثابتاً صار الوعيد على ذلك وصفاً ثابتاً لا يزول.	البقرة	١٦٣
الكفار لا يزالون يقاتلون غيرهم حتى يردوهم عن دينهم.	البقرة	٢١٧
من زهد في الإيمان ورغب بالكفر؛ فالله غني عنه.	آل عمران	١٧٧
يدخل في اسم المعصية الكفر فما دونه من المعاصي.	النساء	١٤
القتل من الكفر العملي، وأكبر الكبائر بعد الشرك بالله.	النساء	٩٢
الكفار لا يخاطبون بفروع الدين كالصلاة ما داموا على كفرهم.	النساء	١٠٣
حكم الشرع عند حضور مجالس الكفر والمعاصي.	النساء	١٤٠
الحكم بغير ما أنزل الله من أعمال أهل الكفر.	المائدة	٤٤
قال ابن عباس - رضي الله عنه - في الحكم بغير ما أنزل الله: كفر دون كفر.	المائدة	٤٥
المكذبون بآيات الله مخذلون في العذاب.	الأعراف	٣٩
من طعن في الدين وتصدى للرد عليه؛ فإنه من أئمة الكفر.	التوبة	١٢
الاستهزاء بالله ورسوله كفر مخرج عن الدين.	التوبة	٦٦
الكفر محبط لجميع الأعمال مانع لإجابة الدعاء.	غافر	٥٠
إحباط العمل بالكفر مقيد بالموت عليه.	محمد	٣٤
خروج العبد من الإيمان بسبب موالاته الكفار.	المتحنة	١
الكفار جمعوا بين التكذيب الخاص والتكذيب العام.	الملك	٩
المعصية الكفرية توجب الخلود في النار.	الجن	٢٦

المال

العبد مستخلف على أمواله، وهي غير حاصلة بقوته وملكه.	البقرة	٣
المال محبوب للنفوس.	البقرة	١٧٧
أكل الأموال نوعان: نوع بحق، ونوع بباطل.	البقرة	١٨٨
أنواع من أكل أموال الناس بالباطل.	البقرة	١٨٨
متى يجوز أخذ مال الغير على سبيل المقاصة.	البقرة	١٩٤
المقصود إصلاح أموال اليتامى والمرجع في ذلك إلى النية والعمل.	البقرة	٢٢٠
السفيه: من لا يحسن التصرف في المال.	النساء	٥
من الباطل أكل مال نفسك على وجه البطر والإسراف.	النساء	٢٩
انحراف الإنسان في ماله بأحد أمرين.	التوبة	٣٥

رقم الآية	السورة	الفائدة
٨	العاديات	حب الإنسان للمال هو الذي أوجب له ترك الحقوق الواجبة عليه.
المحبة		
١٢٥	النساء	الخلة أعلى أنواع المحبة.
١٢٩	النساء	العدل التام يستلزم وجود المحبة على السواء.
٥٤	المائدة	معرفة الله والإكثار من ذكره من لوازم محبة الله.
١٤٣	الأعراف	كمال حب موسى - عليه السلام - لربه في مقام التكليم.
٢٤	التوبة	وجوب تقديم محبة الله ورسوله على جميع المحاب.
٥٧	الإسراء	الاجتهاد في الأعمال من علامة المحبة.
٣٨	الحج	الله - تعالى - يحب كل أمين قائم بأمانته شكور لمولاه.
٤	لقمان	العبد يؤثر محبة الله على محبته للمال.
١٠٦	الصفات	الخلة أعلى أنواع المحبة، وهو منصب لا يقبل المشاركة.
٣٣	ص	تقديم سليمان محبة الله - تعالى - على محبة كل شيء.
	الشورى	تقديم محبة الرسول على جميع المحاب بعد محبة الله؛ فرض على كل مسلم.
١٤	البروج	المحبة أصل العبودية.

المثل

١٦	البقرة	تمثيل الضلالة بالسلعة، والهدى بمنزلة الثمن.
١٧	البقرة	المثل المطابق لما كان عليه المنافقون: هو المثل الناري.
٢٠	البقرة	مثل المنافقين عند سماع القرآن كمثل صاحب الصيب.
٢٦	البقرة	الأمثال القرآنية تشتمل على الحكمة، وإيضاح الحق.
٧٤	البقرة	تمثيل قسوة القلوب بقسوة الحجارة.
١٧١	البقرة	مثل الكفار عند داعي الإيمان كمثل البهائم.
٢٦٣	البقرة	مثل النفقة الصادرة عن الإيمان والإخلاص التام.
٢٦٢	البقرة	مثل من أنفق لله ثم أتبع نفقته مئاً وأذى.
٢٦٥	البقرة	مثل المرائي الذي ليس معه إيمان بالله ولا احتساب لثوابه.
١١٦	آل عمران	الذين كفروا بآيات الله تعالى كمثل حرث أصابته ريح.
١٧	الرعد	مثل الهدى الذي أنزل على الرسول كمثل الماء الذي أنزل للحياة.
٧	إبراهيم	أعمال الكفار كمثل الرماد المضمحل.

رقم الآية	السورة	الفائدة
٢٥	إبراهيم	فائدة ضرب الأمثال.
٤٥	الكهف	تمثيل الحياة الدنيا بالمطر.
٣٥	النور	مثل نور الله - تعالى - في قلوب المؤمنين.
٣٩	النور	مثالان ضربهما الله - تعالى - في بطلان أعمال الكافرين.
٤١	العنكبوت	مثل الذين يتخذون من دون الله أولياء كمثل العنكبوت.
٤٥	العنكبوت	الأمثلة المضروبة مصلحتها لعموم الخلق.
٢٠	الحديد	مثل الحياة الدنيا؛ كمثل غيث نزل على الأرض.

المراقبة

١٨٣	البقرة	الصائم يدرب نفسه على مراقبة الله - تعالى - .
١٨٦	البقرة	القرب، أنواعه، أثره على المراقبة.
٣٠	آل عمران	دواعي المراقبة.
		من الإحسان في عبادة الخالق عبادته على وجوه المراقبة والنصيحة
٢٦	يونس	في عبوديته.
٦١	يونس	مراقبة الله - تعالى - في الأعمال.
٢١٨	الشعراء	الاستعانة باستحضار قرب الله، والنزول منزلة الإحسان.
١٦	لقمان	الحث على مراقبة الله والعمل بطاعته.

المرض

	مقدمة	مرض القلب نوعان: مرض شكوك في الحق، ومرض شهوة.
١٠	البقرة	الشبهة والشهوة مرضان يخرجان القلب عن صحته واعتداله.
١٠	البقرة	المعافى من عوفي من هذين المرضين.
١٧٧	البقرة	يدخل في معنى الضراء المرض بأنواعه.
٧	آل عمران	الذين في قلوبهم مرضٌ وزيف يتبعون ما تشابه من القرآن.

المساجد

١١٤	البقرة	الخراب الحسي والمعنوي للمساجد.
١١٤	البقرة	لا يجوز تمكين الكفار من دخول المساجد.
١١٤	البقرة	أعظم الإيمان السعي في عمارة المساجد بالعمارة الحسية والمعنوية.
١٨	التوبة	من هم عمار المساجد على الحقيقة؟
١٠٩	التوبة	التفاضل بين المساجد بحسب مقاصد أهلها في الإخلاص والمتابعة.

رقم الآية	السورة	الفائدة
١٠٩	التوبة	هدم المسجد الذي يقصد به الضرار.
١	الإسراء	الفضيلة في المسجد الحرام لسائر الحرم.
٢٦	الحج	الاعتكاف خاص بجنس المساجد.
٤٠	الحج	أثر قانون المدافعة على إعمار المساجد.
٣٦	النور	مجموع أحكام المساجد.
١٨	الجن	المساجد مبنية على الإخلاص.

المشاقة

تعريفها، لوازمها.

١٣٧ البقرة

المعاصي/الكبائر/الفواحش/الذنوب

١٠	البقرة	بسبب الذنوب السابقة يتلى العبد بالمعاصي اللاحقة.
٦١	البقرة	الراضي بالمعصية شريك للعاصي.
١٩٧	البقرة	لا يتم التقرب إلى الله بترك المعاصي حتى يفعل الأوامر.
٢١٩	البقرة	ما هو الخمر؟.
٢١٩	البقرة	ما هو الميسر؟.
١٣١	آل عمران	المعاصي كلها وخصوصاً المعاصي الكبار تجر إلى الكفر.
١٤٧	آل عمران	الذنوب والإسراف من أعظم أسباب الخذلان.
١٦١	آل عمران	الغلول من أعظم الذنوب وشر العيوب.
١٦٥	آل عمران	التنازع والعصيان من أسباب المصائب.
١٠	النساء	عظم الوعيد الوارد في الذنوب يدل على شناعتها.
١٦	النساء	الأذية بالقول والفعل والحبس إنما يكون تعزيراً لجنس المعصية.
١٧	النساء	كل عاصٍ لله فهو جاهل.
٣١	النساء	ما هو حد الكبيرة؟.
٤٣	النساء	كان الخمر في أول الأمر غير محرم ثم نسخ.
٤٣	النساء	الحكمة من تحريم الخمر.
٧٩	النساء	المعاصي مانعة من وصول فضل الله - تعالى -.
١١٠	النساء	عمل السوء عند الإطلاق يشمل سائر المعاصي الصغيرة والكبيرة.
٩٠	المائدة	المفاسد الداعية إلى ترك الفواحش.
١٢٠	الأنعام	العلم بالمعاصي الظاهرة والباطنة واجب متعين على المكلف.

رقم الآية	السورة	الفائدة
١٤٥	الأنعام	بعض الجهال يُدخلون الخنزير في بهيمة الأنعام.
١٤٩	الأنعام	لا بد أن يتناقض من يحتج على المعاصي بالقضاء والقدر.
١٥١	الأنعام	النهي عن قربات الفواحش أبلغ من النهي عن مجرد فعلها.
١٦	الأنفال	من الكبائر الفرار من الزحف من غير عذر.
١٠٧	التوبة	التفريق بين المؤمنين من المعاصي التي يتعين تركها.
٩٥	هود	نقص المكاييل والموازين من كبائر الذنوب.
١٠	يوسف	الحذر من شؤم الذنوب.
٧٤	الكهف	القتل من أكبر الذنوب.
٤٤	مريم	المعاصي تمنع العبد من رحمة الله.
٤	النور	القذف من كبائر الذنوب.
٦٩	الفرقان	الشرك والقتل والزنا من أكبر الكبائر.
٧٢	الفرقان	شهادة الزور داخلية في قول الزور.
٣	العنكبوت	حال الناس عند ورود الشبهات والشهوات.
٦٠	يس	جميع أنواع الكفر والمعاصي كلها طاعة للشيطان وعبادة له.
٩	الحجرات	الإيمان لا يزول مع وجود الكبائر، التي دون الشرك.
١١	الحجرات	السخرية لا تقع إلا من قلب ممتلئ من مساوئ الأخلاق.
١٢	الحجرات	التحذير الشديد من الغيبة، وأنها من الكبائر.
١٦	الحديد	الغفلة سبب لقسوة القلب وجمود العين.
١٤	القلم	النهي عن طاعة كل من كان خسيس النفس سيئ الأخلاق.
١٧	المطففين	التحذير من الذنوب والمعاصي.

المغازي/السير

٩	البقرة	أظهر الله - تعالى - المؤمنين وأعزهم في وقعة «بدر».
١١٤	البقرة	قريش صدوا رسول الله عن المسجد الحرام عام الحديبية.
١١٤	البقرة	أذن الله - تعالى - لرسوله في فتح مكة.
١٢	آل عمران	فئة المؤمنين في بدر لا يبلغون إلا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، مع قلة عددهم؛ نصرهم الله - تعالى -.
١٢١	آل عمران	في «أحد» كان خروج النبي ﷺ بالمسلمين دال على كمال رأيه وبراعته الكاملة في السياسة.
١٢٥	آل عمران	كيف كان الإمداد في معركة بدر.

الفائدة	السورة	رقم الآية
في يوم أحد قتل من المؤمنين نحو سبعين .	آل عمران	١٦٥
النبي ﷺ قاتل أهل الطائف في ذي القعدة .	المائدة	٢
النجاشي آمن بالنبي ﷺ .	المائدة	٨٥
تشاور المشركون في دار الندوة فيما يصنعون بالنبي ﷺ .	الأنفال	٣٠
المآل كان للمؤمنين في يوم حنين .	التوبة	٢٥
في غزوة تبوك ندب النبي ﷺ المسلمين إلى غزو الروم .	التوبة	٣٨
هم المنافقون في غزوة تبوك الفتك برسول الله ﷺ .	التوبة	٧٤
تعاهد جنود الأحزاب على استئصال الرسول والصحابة في الخندق .	الأحزاب	٩
وصف الله - تعالى - صلح الحديبية فتحاً .	الفتح	١
فتح خيبر لم يحضره سوى أهل الحديبية .	الفتح	١٨
فصل في قصة الحديبية، وبيعة الرضوان .	الفتح	٢٩
نصر الله لرسوله على الذين كفروا من بني النضير .	الحشر	٢
ماذا قال كبير المنافقين في غزوة المريسيع؟ .	المنافقون	٨
النبي ﷺ بُشِّرَ بفتح مكة .	النصر	١
إشارة القرآن إلى أن أجل الرسول ﷺ قد قرب ودنا .	النصر	١

الملائكة

الملائكة نزهوا الباري عن النقص والعيوب .	البقرة	٣٠
سجد الملائكة لآدم إكراماً له وعبودية لله - تعالى - .	البقرة	٣٤
قال أكثر المفسرين: إن روح القدس هو جبريل - عليه السلام - .	البقرة	٨٧
عداء اليهود لا لذات جبريل بل لما جاء به .	البقرة	٩٧
للإنسان ملائكة يتعاقبون في الليل والنهار .	الرعد	١١
الملائكة وسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ أوامره الدينية .	فاطر	١
أقسم الله - تعالى - بالملائكة على ألوهيته .	الصافات	٤
إسرافيل - عليه السلام - أحد الملائكة المقربين .	الزمر	٦٨
حملة العرش أفضل أجناس الملائكة - عليهم السلام - .	غافر	٧
كمال أدب الملائكة مع الله - تعالى - .	غافر	٩
الرسول ﷺ رأى جبريل في صورته الأصلية .	النجم	١١
الملائكة تُرسل بالشؤون القدرية وبالشؤون الشرعية .	المرسلات	١
جبريل عليه السلام أفضل الملائكة .	عم	٣٨

الفائدة	السورة	رقم الآية
الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الستة .	النازعات	١
الملائكة تكتب أفعال القلوب وأفعال الجوارح .	الانفطار	١٢
النار		
بسبب ظلم المشركين وعدوانهم صارت النار مثواهم .	آل عمران	١٥١
من لم يزحزح عن النار ويدخل الجنة فقد شقي الشقاء السرمدى ،	آل عمران	١٨٥
وابتلي بالعذاب السرمدى .	النساء	٥٥
النار تسعر على كل من كفر بالله ووجد نبوة أنبيائه .	الأعراف	١١
مادة الطين أفضل من مادة النار .	الأعراف	١٨
قَسَمَ من الله - تعالى - أن النار دار العصاة .	المرسلات	٣٣
النار مظلمة سوداء كريهة المنظر .		

النبوات

مطالب الأنبياء كلها داخله تحت ربوبية الله الخاصة .	الفاتحة	٢
إثبات النبوات ممتنع بدون الرسالة .	الفاتحة	٦
الإيمان بالقرآن يستلزم الإيمان بالرسول .	البقرة	٤١
الآيات والدلائل الدالة على صدق الرسول .	البقرة	١١٩
الواجب في الإيمان بالأنبياء إجمالاً وتفصيلاً .	البقرة	١٣٦
الأنبياء وسائط بين الله وبين خلقه في التبليغ .	البقرة	١٣٦
بيوت النبوة فيها الكمل من الرجال الذين حازوا أوصاف الكمال .	آل عمران	٣٣
ما هو تكليم النبوة والدعوة والإرشاد؟ .	آل عمران	٤٦
الخوارق المستغربة والرسالة برهانان دالان على صدق المرسلين .	آل عمران	٤٩
معرفة الأنبياء بنبوتهم تستلزم دفع العيب عنهم .	آل عمران	١٦١
إثبات عصمة الرسل في التبليغ .	النساء	٦٤
عصمة النبي ﷺ فيما يُبلِّغ عن الله من جميع الأحكام .	النساء	١٠٥
حاجة الناس إلى إرسال الرسل حاجة ضرورية .	النساء	١٦٥
النبي ﷺ ليس له من العلم إلا ما علمه الله .	الأعراف	١٨٨
الرسل جاءوا بتحصيل المصالح وتكميلها، وبدفع المفاسد وتقليلها .	هود	٩٥
أقوال ما عدا الأنبياء يحتج لها لا يحتج بها .	هود	١٠٩
الرسل قدموا مراد الله على مراد النفس الأمارة بالسوء .	يوسف	٢٤

رقم الآية	السورة	الفائدة
٣٨	يوسف	من أعظم النعم ترك الشرك وإتباع ملة الأنبياء.
١٠٢	يوسف	الأدلة على صحة نبوة محمد ﷺ.
٢	الإسراء	الحكمة من قرن نبوة محمد ﷺ ونبوة موسى - عليه السلام -.
٣	الفرقان	تقرير صحة الرسالة، وبطلان قول من عارضها.
١٩	النمل	حال الأنبياء: الأدب الكامل، والتعجب في موضعه.
٣	السجدة	الخلق في ضرورة وحاجة إلى الرسالة.
٢٩	الأحزاب	الاعتناء برسول الله والغيرة عليه.
٢٩	الأحزاب	فوائد تخير النبي ﷺ أزواجه.
٣٧	الأحزاب	الرسول ﷺ قد بلغ البلاغ المبين.
٤٥	الأحزاب	المقصود من رسالة النبي وأصولها التي اختص بها.
٦	يس	شدة الحاجة إلى رسالة النبي، واقتضاء الضرورة لها.
٣٧	الصفات	الرسول ﷺ آية ومعجزة لكل رسول قبله.
	ص	أوصاف أنبياء الله وخواص خلقه.
	ص	عصمة الأنبياء من الخطأ فيما يبلغون عن الله - تعالى -.
١٥	غافر	فائدة إرسال الرسل.
١	النجم	فضيلة العلم الموروث عن الأنبياء.
٣	النجم	النبي ﷺ معصوم فيما يخبر به عن ربه.
١٠	التحريم	ما كان الله ليجعل امرأة أحد من أنبيائه بغيًا.
٢٦	الجن	اعتناء الله برسوله وحفظه لما جاء به.

النصارى

كان قد قدم على النبي ﷺ وفد نصارى نجران ثم دعاهم إلى المباهلة.

٥٩ آل عمران

٢٧ الحديد

النصارى ابتدعوا من عند أنفسهم عبادة.

النعم

النعم كلها أثر من آثار رحمة الله - تعالى -.

١ الفاتحة

١٥٠ البقرة

١٥٢ البقرة

١٧١ البقرة

أصل النعمة وتماماتها.

ما هي النعم الحقيقية؟

الكفر ينفر النعم المفقودة، ويزيل النعم الموجودة.

الفائدة	السورة	رقم الآية
كفر النعمة بتدليل لها.	البقرة	٢١١
النعيم المقيم مُسَلَّم من جميع المنكرات.	آل عمران	١٤٨
النعمة الحقيقية هي التوفيق للطاعات الكبيرة.	النساء	٧٢
فوائد ذكر النعم الدينية والدنيوية.	المائدة	٧
العقوبة على الذنب قد تكون بزوال نعمة موجودة، أو دفع نعمة قد انعقد سبب وجودها.	المائدة	٢٦
عذاب البرزخ ونعيمه.	الأنعام	٩٣
نعمة الله على العبد نعمة على أهله.	يوسف	٦
سورة النحل تضمنت أصول النعم وقواعدها ومكملاتها.	النحل	٣
النعمة على الوالدين نعمة على الولد.	النمل	١٩
النعم تقتضي من العبد فعل الخير وترك الشر.	القصص	١٧
نعم الدين هي النعم على الحقيقة.	الزمر	٦٦
النعمة الدينية خير من النعمة الدنيوية.	الزخرف	٣٢

النفاق/المنافقون

تعريف النفاق وأنواعه.	البقرة	٨
لم يكن النفاق موجوداً قبل الهجرة.	البقرة	٨
المنافقون سلكوا مع الله وعباده مسلك المخادعة.	البقرة	٩
العذاب الأليم الموجع المفجع في الآخرة يكون للمنافقين.	البقرة	١٠
أهل النفاق قلبوا الحقائق وجمعوا بين فعل الباطل، واعتقاده حقاً.	البقرة	١١
النفاق المطلق يولد الظلمة المطلقة.	البقرة	١٨
غلقت على المنافقين طريق الإيمان.	البقرة	١٨
المنافقون يظهرون بكلامهم وأفعالهم ما يبطنون ضده في قلوبهم وسرائرهم.	آل عمران	١٦٧
المنافقون جمعوا بين التخلف عن الجهاد وبين الاعتراض بقضاء الله وقدره.	آل عمران	١٦٨
ما هو مآل المنافقين؟.	النساء	١٤٥
ذكر أوصاف المنافقين دون تعيين أشخاصهم.	التوبة	٦٤
الوصف العام للمنافقين.	التوبة	٦٧
المحاذير التي وقع فيها المنافقون.	التوبة	٧٩

الفائدة	السورة	رغم الآية
المنافقون لا تنفعهم شفاعة .	التوبة	٨٤
النفاق يزيد وينقص بحسب الأحوال .	التوبة	٩٩
المنافقون من أهل قُباء اتخذوا مسجداً ضراراً .	التوبة	١٠٦
المنافقون نفروا عن الجهاد وغيره من شرائع الإيمان .	التوبة	١٢٧
المنافقون قدموا اسم الوطن على الدين والأخوة الإيمانية .	الأحزاب	١٣
النفقة/الزكاة		
يدخل في النفاق المطلق النفقة الواجبة والنفقة المستحبة .	البقرة	٣
النفقة في سبيل الله إخراج الأموال في الطرق الموصلة إليه .	البقرة	١٩٥
الإنفاق في سبيل الله من الطرق الموصلة إليه .	البقرة	٢٦١
صور الإنفاق في سبيل الله - تعالى - .	البقرة	٢٦١
ما هي النفقة المستوفية لشروطها المنتفية لموانعها؟ .	البقرة	٢٦١
الحث على إخراج زكاة النقدين ، والعروض ، والخارج من الأرض .	البقرة	٢٦٧
الواجب والمستحب والممنوع في إخراج الزكاة .	البقرة	٢٦٧
بحسب مصارف النفقة ؛ يكون الإخفاء أو الإظهار .	البقرة	٢٧٠
النفقة من الطيب المحبوب للنفوس من أكبر الأدلة على سماحة النفس .	آل عمران	٩٢
ما هي النفقة المرغوب في إخراجها؟ .	آل عمران	٩٢
نفقة المجنون والصغير والسفيه في مالهم إذا كان لهم مال .	النساء	٥
من خطوات الشيطان الإنفاق عن رياء وسمعة .	النساء	٣٨
الزكاة المعروفة لم تُفرض إلا في المدينة .	النساء	٧٧
زكاة الزروع .	الأنعام	١٤١
وجوب الزكاة في الثمار .	الأنعام	١٤١
لا يحسب من الزكاة ما يؤكل من النخل والزرع .	الأنعام	١٤١
الصدقة المستحبة لكل أحد لا يخص بها أحد دون أحد .	التوبة	٦٠
الأصناف المستحقة للزكاة .	التوبة	٦٠
إن تفرغ القادر على الكسب لطلب العلم ؛ أعطي من الزكاة .	التوبة	٦٠
وجوب الزكاة في عروض التجارة .	التوبة	١٠٣
الحث على النفقة على القريب .	النور	٢٢
بذل النفقات على الوجه الذي ينبغي من غير ضرر ولا ضرار .	الفرقان	٦٧

الفائدة	السورة	رقم الآية
الجهاد متوقف على النفقة في سبيل الله .	الحديد	١١
إذا تضمن الإنفاق المستحب ترك واجب؛ فإنه غير مشروع .	الليل	١٨
النكاح		
تحريم نكاح المشركات، والحكمة من ذلك .	البقرة	٢٢١
الله - تعالى - لم ييح إتيان المرأة إلا في الموضع الذي منه الحرث .	البقرة	٢٢٣
حتى تكون مباشرة الرجل لامرأته من باب التقرب إلى الله - تعالى - .	البقرة	٢٢٣
وجوب الوطاء في كل أربعة أشهر .	البقرة	٢٢٧
الحقوق بين الزوجين يرجع فيها إلى العرف والعادة .	البقرة	٢٢٨
النكاح الشرعي لا يكون إلا صحيحاً .	البقرة	٢٣٠
لا بد من الولي في النكاح .	البقرة	٢٣٢
الولي ينظر على المرأة يمنعها ويأمرها .	البقرة	٢٣٤
الفرق بين التعريض والتصريح في خطبة النساء .	البقرة	٢٣٥
الولي لا يصح أن يعفو عن ما وجب للمرأة؛ لكونه غير مالك ولا وكيل .	البقرة	٢٣٧
ما هي الصفات الداعية للنكاح .	النساء	٣
الشارع أباح النظر إلى من يريد تزوجها .	النساء	٣
وجوب القسم في ملك اليمين .	النساء	٣
يباح التعدد في الزوجات إذا أمن العبد على نفسه الجور والظلم .	النساء	٣
المرأة تملك صداقها بالعقد .	النساء	٤
نكاح الخيثة كالمشركة والفاجرة منهي عنه .	النساء	٤
إمسك الزوجة ليس بلازم إذا لم يكن للإمسك محل .	النساء	٢٠
الأصل عدم تحريم كثرة المهر مع أن الأفضل هو التخفيف .	النساء	٢٠
بيان المحرمات والمحللات من النساء .	النساء	٢٣
حكم الربية وفائدة التقيد في الآية .	النساء	٢٣
حكم نكاح الأمة الكافرة ذات الزوج .	النساء	٢٤
لا يزوج إلا العفيف .	النساء	٢٤
متعة النساء كانت حلالاً أول الإسلام .	النساء	٢٤
شروط نكاح الأمة .	النساء	٢٥
ما هو السبب الموجب لقيام الرجال على النساء؟	النساء	٣٤

رقم الآية	السورة	الفائدة
٣٤	النساء	وجوه تفضيل الرجال على النساء.
٣٤	النساء	الترغيب في طاعة الزوج والترهيب من معصيته.
٥	المائدة	حكم زواج الكتائية.
٧	المؤمنون	تحريم زواج المتعة.
٧	المؤمنون	تحريم نكاح المحلل.
٣	النور	تحريم نكاح الزانية حتى تتوب.
٣٠	النور	يجوز النظر إلى النساء في بعض الأحوال لحاجة.
٣١	النور	الزينة التي يحرم إبدائها، يدخل فيها جميع البدن.
٣٢	النور	ينبغي للأولياء أن يزوجوا من يحتاج للزواج ممن تجب نفقته عليهم.
٦٠	النور	التزوج من الأسباب المقتضية لحصول العفة.
١٢	القصص	جواز خروج المرأة من بيتها عند الحاجة.
٢٧	القصص	لا يلام الرجل إذا خطب لابنته الرجل الذي يتخير.
٣٧	الأحزاب	جواز تزوج زوجة الأدياء.
٣٧	الأحزاب	لا يجوز التزوج من امرأة حتى تنقضي عدتها.
٣٩	الأحزاب	النكاح من سنن المرسلين.
٥٢	الأحزاب	المملوكات لسنن بمنزلة الزوجات في الإضرار للزوجات.
١١	فاطر	يراد بالزواج الذرية والأولاد.
١٠	المتحنة	نكاح المسلمة التي لها زوج في دار الشرك.
١٠	المتحنة	من أفسد نكاح امرأة رجال؛ كان عليه الضمان.
٣١	المعارج	تحريم نكاح المتعة.

الهجرة

٢١٨	البقرة	الهجرة: هي مفارقة المحبوب المألوف لرضى الله - تعالى - .
٩٧	النساء	الوعيد الشديد لمن ترك الهجرة مع قدرته عليها حتى مات.
٩٧	النساء	الهجرة من أكبر الواجبات وتركها من المحرمات.
١٠	الزمر	لا بد أن يكون لكل مهاجر ملجأ يتمكن من إقامة دينه فيه.

الهدى

٢	البقرة	الهداية نوعان: البيان والتوفيق.
٢	البقرة	ما هي الهداية الحقيقية التامة؟.

الفائدة	السورة	رقم الآية
اتباع الهدى إنما يكون بالتصديق والامثال .	البقرة	٣٨
المهمات التي تترتب على اتباع الهدى .	البقرة	٣٨
السبب الموجب لهداية الأمة .	البقرة	١٤٣
الطريق إلى تحصيل الهداية التامة والعلم اليقيني .	البقرة	١٥١
الهدى : العلم الذي تحصل به الهداية إلى الصراط المستقيم .	البقرة	١٥٩
كان النبي ﷺ حريصاً على الخلق مجتهداً في هدايتهم .	آل عمران	١٧٦
الهداية متضمنة للعلم الحق ومحبة وإيثاره والعمل به .	النساء	٦٨
حقيقة الاهتداء بالقرآن .	المائدة	١٦
الهداية التامة لا تحصل إلا بالقرآن .	الأنعام	١٥٨
هداية الرسالة تامة كاملة .	الأعراف	٦١
تمام التوفيق يكون بالهداية إلى العلم بالحق والعمل به والاتفاق عليه .	هود	١١٩
إهلاك القرون الماضية بذنوبهم من أسباب الهداية .	طه	١٢٨
الهدى ما تحصل به الهداية في مسائل الأصول والفروع .	الحج	٦٧
تعميم البيان وتخصيص الهداية .	النور	٤٦
الهلاك يكون عند عدم مقتضي الهداية ووجود مانعها .	الفرقان	١٨
ليس فوق القرآن المبين آية لمن يريد الهداية .	الشعراء	٣
الأسباب الموصلة إلى هداية الله - تعالى - .	الشورى	
الجزاء المترتب على الهدى .	محمد	١٧
أسباب هداية التوفيق .	التغابن	١١

الوصية

الوصية بكلمة التوحيد .	البقرة	١٣١
الوصية بالإحسان إلى الأيتام .	البقرة	١٧٧
وجوب الوصية .	البقرة	١٨٠
الجمع بين أدلة الوصية .	البقرة	١٨٠
وعيد المبدل للوصية العادلة .	البقرة	١٨١
الترغيب في الإصلاح في الوصية الجائرة .	البقرة	١٨٢
وصية من الله لأهل الميت أن يستوصوا بزوجه ولا يخرجوها .	البقرة	٢٤٠
العدل في الوصية من تقوى الله - تعالى - .	النساء	٩

الفائدة	السورة	رقم الآية
الأولاد عند والديهم موصى بهم.	النساء	١٠
الحكمة في تقديم الوصية مع أنها مؤخرة عن الدين.	النساء	١١
الوصية تصح من الثلث فأقل.	النساء	١١
الوصية للوارث منسوخة.	النساء	١٣
الوصية مشروعة، وأنه ينبغي لمن حضر الموت أن يوصي.	المائدة	١٠٦
شهادة الوصية لا بد فيها من اثنين عدلين.	المائدة	١٠٦

الولاية

الولاية الخاصة تكون لمن قام بواجبات الإيمان وترك ما ينافي ذلك.

٢٥٦	البقرة	ثبوت الولاية على القاصرين.
٢٨٢	البقرة	تحذير للعباد عن ولاية الكفار واتخاذهم بطانة.
١١٨	آل عمران	الولاية فرع المحبة.
٨٩	النساء	تولي أهل الكتاب تولياً تاماً يوجب الانتقال إلى دينهم.
٥١	المائدة	ولاية الله تدرك بالإيمان والتقوى.
٥٥	المائدة	

٢٧	الأعراف	عدم الإيمان هو الموجب لعقد الولاية بين الإنسان والشیطان.
		أحكام الولاية والنصرة تدور مع الإيمان، لا مع الأحوال الطبعية.
١١	التوبة	السبب الموجب لصحة الولاية والمحبة والنصرة لله - تعالى -.
٢٤	التوبة	من كان مؤمناً تقياً؛ كان الله - تعالى - ولياً.
٦٣	يونس	جواز طلب الولاية للمصلحة العامة.
٥٥	يوسف	ولاية الله وعدمها إنما تتضح نتیجتها إذا انجلی الغبار.
٤٤	الكهف	ولاية ذوي الأرحام في جميع الولايات؛ كولاية النكاح والمال.
٦	الأحزاب	

اليقين

	مقدمة	اليقين هو العلم الراسخ المثمر للعمل والطمأنينة.
٤	البقرة	العلم إذا كان تاماً ليس فيه أدنى شك فهو علم يقيني.
١٠	البقرة	الاحتراز من المعاصي إنما يكون بالصبر واليقين.
٤٦	البقرة	الظن قد يأتي بمعنى اليقين.

الفائدة

رقم الآية	السورة	
٢٦٠	البقرة	الخليل لما سأل ربه أراد الوصول إلى درجة عين اليقين .
١١٣	المائدة	العبد محتاج إلى زيادة العلم واليقين والإيمان كل وقت .
٢	الرعد	كثرة الأدلة وبيانها من أسباب حصول اليقين .
٣	النمل	اليقين : هو العلم التام الواصل إلى القلب الداعي إلى العمل .
١٠	القصص	اليقين والصبر عند المزعجات من أعظم أسباب زيادة الإيمان .
٢٤	السجدة	التعلم الصحيح يوصل صاحبه إلى درجة اليقين .
٢٠	الحاقة	الإتيان بالظن لإفادة معنى اليقين .
٥١	الحاقة	مراتب اليقين .

اليهود

٨٤	البقرة	بنو قريضة ، وبنو النضير ، وبنو قينقاع من فرق اليهود .
٩٧	البقرة	اليهود أعلنوا العداء لجبريل - عليه السلام - .
١٠٢	البقرة	اليهود اتبعوا السحر تحقيقاً لأغراضهم .
٩٣	آل عمران	اليهود زعموا أن النسخ باطل .
١٨٢	آل عمران	فنحاص بن عازوراء من رؤساء علماء اليهود في المدينة .
١٨٢	آل عمران	اليهود قتلوا الأنبياء تمرداً وعناداً لا جهلاً .
٤٦	النساء	بيان حال اليهود في العلم والعمل .

اليوم الآخر/المعاد

	مقدمة	طريقة القرآن في تقرير المعاد .
٤	الفاتحة	في يوم القيامة يظهر للخلق ما كان خافياً .
٤	البقرة	اليوم الآخر أعظم باعث على الرغبة والرغبة والعمل .
٤	البقرة	الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان .
		إرجاع البلدان الدامرة إلى العمارة دليل محسوس على البعث والجزاء .
٢٥٨	البقرة	
٩	آل عمران	الإيمان بالبعث أصل صلاح القلوب .
١٤٠	آل عمران	الدنيا منقضية فانية ؛ والآخرة خالصة للذين آمنوا .
١٧١	آل عمران	إثبات نعيم الآخرة .

رقم الآية	السورة	الفائدة
٧٧	النساء	الآخرة خير من الدنيا في ذاتها ولذاتها وزمانها.
١٠٩	النساء	المقابلة بين مصالح الدنيا وبين ما يفوت من ثواب الآخرة.
٩٨	الأنعام	الدار الآخرة هي المستقر.
٨	الأعراف	الوزن يوم القيامة يكون بالعدل والقسط.
١٠٩	يوسف	نعيم الآخرة تام كامل لا يفنى أبداً.
١٠٥	طه	أهوال القيامة وما فيها من الزلازل والقلقل.
١١١	طه	أقسام الناس يوم القيامة.
١٠١	المؤمنون	في نفخة البعث يُحشر الناس أجمعون.
٢٤	الفرقان	مستقر الجنة هو المستقر النافع والراحة التامة.
٧	الروم	حال من غفل عن الآخرة، وتعلق بالحياة الدنيا.
٩	الروم	الأدلة الدالة على البعث والجزاء.
١١	فاطر	أدلة البعث والنشور.
٧٣	الزمر	النار والجنة لهما أبواب تُفتح وتغلق.
٥٧	فاطر	الأدلة العقلية الدالة على البعث دلالة قاطعة.
١٥	ق	الاستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الآخرة.
٢٦	المدثر	ظهور مُلك الله وَحْكِهِ العدل لسائر الخلق يوم القيامة.
٢٠	القيامة	الحث على إثارة الآخرة على الدنيا.
١٤	التكوير	أوصاف يوم القيامة.
٣٤	المطففين	الجزاء في الآخرة من جنس العمل في الدنيا.

فهرست الأحاديث وفوائدها

الحديث	محل الشاهد	الفائدة	السورة	رقم الآية
«أنت الأول فليس قبلك شيء»	ذكر الأسماء الحسنى وتفسيرها	إثبات صفات الكمال متضمن لنفي ضدها	مقدمة	
«آية المنافق ثلاث . . .»	التفاق	علاماته	البقرة	٧
«أنا دعوة أبي إبراهيم»	دعاء إبراهيم عليه السلام	إرسال الرسول رحمة عامة وخاصة	البقرة	١٢٩
«أرواح الشهداء في أجواف طير»	الترغيب في الجهاد	فضل الشهداء	البقرة	١٥٤
«أبغض الحلال إلى الله الطلاق»	الطلاق	كراهية الفراق بين الزوجين	البقرة	٢٢٨
«أخبرتكم أنه العام؟!»	المغازي	تصديق رؤيا الرسول ﷺ	الفتح	٢٧
«إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»	الهجرة	من عجز عن المأمور؛ فإنه معذور	النساء	٩٩
«إذا جاء أحدكم خادمه بطعامه . . .»	قسمة الموارث	جبر خواطر الفقراء والمحتاجين	النساء	٨
«أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الشدة»	فضيلة الجهاد في سبيل الله - تعالى -	العزم على الفعل يحتاج إلى استعانة بالله	البقرة	٢٥٢

الحديث	محل الشاهد	الفائدة	السورة	رقم الآية
«أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت»	لذة الجنة	الترغيب في الآخرة	النساء	٧٧
«أعطى النبي ﷺ ابنتي سعدِ الثلثين»	الفرائض	البنات تأخذان الثلثين فرضاً	النساء	١١
«ألا أخبرك بملاك ذلك كله»	الإعراض عن اللغو	كفُّ الألسنة عن المحرمات	المؤمنون	٣
«ألا إن القوة الرمي»	الجهاد	الأخذ بأسباب القوة	الأنفال	٦٠
«الحقوا الفرائض بأهلها...»	الفرائض	بيان ميراث أصحاب الفروض ثم العصبات	النساء	١١
«الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها»	الرجاء والأمل بالله - تعالى -	سعة رحمة الله - تعالى -	طه	١٠٨
«اللهم؛ آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها...»	دعاء النبي ﷺ	الاستعانة بالله على تحصيل التزكية	النور	٢١
«اللهم أعني عليهم بسنين...»	تفسير القرآن بالسنة	مشروعية الدعاء على المشركين	الدخان	١٠
«اللهم صل على محمد وعلى آل محمد...»	الصلاة على النبي ﷺ	أفضل هيئات الصلاة	الأحزاب	٥٦
«اللهم هذا أقسمي فيما أملك؛ فلا تُلمني...»	القسم بين الزوجات	الاجتهاد في العدل	الأحزاب	٥١

الحديث	محل الشاهد	الفائدة	السورة	رقم الآية
«إِلَيَّ عباد الله»	التحذير من مخالفة النبي ﷺ	آثار الإعراض عن النبي ﷺ	آل عمران	١٥٣
«أنا أغنى الشركاء عن الشرك»	التفسير المحتمل للآية	التحذير من الشرك	الأنعام	١٣٦
«إن أطيب ما أكلتم من كسبكم»	الترخيص، ورفع الحرج	الانتفاع من بيوت الأولاد	النور	٦١
«إن الله إذا أحب عبداً؛ نادى جبريل»	ما جعله الله لأهل الإيمان	مآل من جمع بين الإيمان والعمل الصالح	مريم	٩٦
«أنا لها، أنا لها»	فضل النبي ﷺ	النبي نال المقام المحمود	يوسف	٤٤
«أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»	المغازي	الثبات في المعركة	التوبة	٢٤
«إن البخيل يمثل له ماله يوم القيامة...»	ذم البخل	الجزاء من جنس العمل	آل عمران	١٨٠
«إن بكل تسيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة...»	الترغيب في الخير	دخول العبادات القاصرة في الصدقة	النساء	١١٤
«أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»	أنواع الإحسان	الإحسان في عبادة الخالق	آل عمران	١٣٤
«أنت ومالك لأبيك»	الترخيص، ورفع الحرج	مال الولد لأبيه	النور	٦١

الحديث	محل الشاهد	الفائدة	السورة	رقم الآية
«إن العبد ليتصدق بالتمر من كسب طيب...»	النفقة	ثواب الإنفاق	البقرة	٢٧٤
«إن في الجنة مئة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض»	تفضيل المجاهدين على القاعدين	درجات الجنة وثوابها	النساء	٩٦
«إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة»	الإلحاد في أسماء الله - تعالى -	الدعاء بالأسماء الحسنی	الأعراف	١٨٠
«إن لله مئة رحمة، أنزل لعباده رحمة...»	الاستئذان	الفائدة	طه	١٠٨
«إنما جعل الاستئذان من أجل البصر»	الاستئذان عند دخول البيوت	ستر العورات	النور	٢٧
«إن من عبادي من لا يُصلح إيمانه إلا الفقر»	لطف الله - تعالى - بعباده	الله - تعالى - عالم بأسباب الإصلاح والإفساد	الشورى	٢٧
«إن موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها»	الترهيب من التخلف عن القتال	لذة الجنة خير من الدنيا	النساء	٧٧
«أن النبي ﷺ أذن في لحوم الخيل»	نعم الله - تعالى -	الخيل لا تستعمل في الغالب للأكل	النحل	٨

الحديث	محل الشاهد	الفائدة	السورة	رقم الآية
«أن النبي ﷺ اعتمر بأربع عمر»	قصة الحديبية	بيان عمرة الحديبية	الفتح	٢٩
«أن النبي ﷺ أعطى الجدة السدس»	الفرائض	ميراث الجدة وارد في السنة	النساء	١١
«إنها ليست بنجس، إنها...»	الطهارة	طهارة سؤر الهرة	النور	٥٩
«أنه ﷺ أُسرِيَ به من بيت أم هانئ»	الإسراء	الفضيلة في المسجد الحرام لسائر الحرم	الإسراء	١
«أنه ﷺ قضى بالشاهد الواحد مع اليمين»	الإرشاد إلى الإشهاد	الحكم بالشاهد واليمين	البقرة	٢٨٢
«إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام»	أحكام الفيء	فضائل بني عبد المطلب	الحشر	٧
«آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب...»	النفاق	علامته	التوبة	٧٧
«بعثت أنا والساعة كهاتين»	هذه الأمة آخر الأمم	قرب الساعة	الأنبياء	٣
«حجابه النور أو النار لو كشفت لأحرقت...»	موسى - عليه السلام - عليه مطلبه النور الحسي والمعنوي	النار تحرق وتشرق	طه	١١
«حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»	ضوابط التحديث عن أهل الكتاب	لا حرج في التحديث عنهم فيما كان موافقاً لشرعنا	البقرة	٧٤

الحديث	محل الشاهد	الفائدة	السورة	رقم الآية
«خذوا عني مناسككم»	الحج	المتابعة العملية	البقرة	١٥٩
«دخل النبي ﷺ العريش في معركة بدر وقت القتال»	المغازي	دعاء الله عند الشدائد	الأنفال	١٧
«ذكرك أخاك بما يكره»	الغيبة	التحذير منها	الحجرات	١٢
«زملوني زملوني»	ابتداء إنزال الوحي	ثبات المرسلين على الأمر	المزمل	١
«سؤال الملكين»	عذاب القبر	الهداية للجواب الصحيح	إبراهيم	٢٧
«سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي»	قرب أجل الرسول ﷺ	تأول القرآن في الصلاة	النصر	٣
«السلام عليكم، أَدْخِلْ؟»	الاستئذان	صفته	النور	٢٧
«صدقة تصدق الله بها عليكم...»	قصر الصلاة في السفر	باب التوسعة والترخيص والرحمة بالعباد	النساء	١٠١
«الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة...»	اجتناب الكبائر	التارك للفرائض يكون مرتكباً كبيرة	النساء	٣١
				١١٤
				٣٢
«صلوا كما رأيتموني أصلي»	أوقات الصلاة	المتابعة العملية	النساء	١٠٣

الحديث	محل الشاهد	الفائدة	السورة	رقم الآية
«قد أجاب الله دعاءهم على لسان نبيه ﷺ فقال: «قد فعلت»	الدعاء	التضرع إلى الله في الأدعية النافعة	البقرة	٢٨٦
«بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»	حقوق المؤمنين بعضهم على بعض	السخرية خلق ذميم	الحجرات	١١
«كان النبي ﷺ يبعث خارصاً يخرص للناس»	زكاة الثمار	يجوز الأكل من النخل والزرع قبل إخراج الزكاة منه	الأنعام	١٤١
«كان النبي ﷺ يزور قباء كل سبت يصلي فيه»	الطاعة تؤثر في الأماكن	فضيلة مسجد قباء	التوبة	١١٠
«كان النبي ﷺ يكثر من الدعاء ربنا آتنا في الدنيا حسنة...»	دعاء الله - تعالى - في مطالب الدارين	باب أجمع الأدعية وأكملها	البقرة	٢٠١
«كل مولود يولد على الفطرة...»	حقيقة الفطرة	عوارض إفساد الفطرة	الروم	٣٠
«كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء...»	ما من الله به على مريم بنت عمران	مريم بلغت في العبادة والكمال مبلغاً عظيماً	آل عمران	٤٢
«كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم وكسروا رباعيته»	غزوة أحد	ليس للرسول ﷺ من الأمر شيء	آل عمران	١٢٨

الحديث	محل الشاهد	الفائدة	السورة	رقم الآية
«لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا...»	الأخوة الإيمانية	القيام بحقوق المؤمنين بعضهم لبعض أمر واجب	الحجرات	١٠
«لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»	القتل من الكفر العملي	الإيمان الصحيح يمنع المؤمن من قتل أخيه	النساء	٩٢
«لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين»	لا بد أن يكون لكل مهاجر موضع يتمكن من إقامة دينه فيه	البشارة بتمكين الطائفة المنصورة	الزمر	١٠
«لا حسد إلا في اثنتين...»	جميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة	باب: أفضل ما تقرب به المتقربون إلى الله - تعالى -	البقرة	٢٦٩
«لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»	سعة كلامه - عز وجل - وعظمة قوله	النبي ﷺ أعلم الناس بربه	لقمان	٢٧
«لا وصية لوارث»	الوصايا	التعدي في الميراث	النساء	١٣
«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»	أحوال المنافقين وأغراضهم	ينبغي للمعبد أن يكون غضبه تابعاً لمرضاة ربه	التوبة	٥٨
«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»	بيان لرديلة الزنا	لا يطلق على الزاني اسم المدح الذي هو الإيمان المطلق	النور	٣

الحديث	محل الشاهد	الفائدة	السورة	رقم الآية
«لا يطوف بالبيت عريان»	نجاسة المشركين المعنوية	منع المشركين من قربان المسجد الحرام	التوبة	٢٨
«لعن الله من أتى امرأة في دبرها»	لا يباح إتيان المرأة إلا في الموضع الذي منه الحرث	تحريم الوطء في الدبر، ولعن فاعله	البقرة	٢٢٣
«لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات»	إبراهيم - عليه السلام - يكسر الأصنام	انتهازم الفرص	الصفافات	٨٨
«لو نزل عذاب يوم بدر؟ ما نجا منه إلا عمر»	حكم أسارى بدر	لطف الله - تعالى - بهذه الأمة	الأنفال	٦٧
«ليس الشديد بالصرعة»	تحديد المقصود	ذم الغضب	البقرة	١٧٧
«ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق»	قصة الحديبية	أفعال النبي ﷺ كانت وحيًا	الفتح	٢٩
«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»	الأخوة الإيمانية	القيام بحقوق المؤمنين بعضهم لبعض	الحجرات	١٠
«ما من نفس تقتل؛ إلا كان على ابن آدم الأول شطر من دمها»	القتل من كبائر الذنوب	ابن آدم الأول أول من سن القتل	المائدة	٣٠
«المقسون عند الله على منابر من نور»	العدل في الحكم بين الناس	الله - تعالى - يحب المقسطين	الحجرات	٩
«من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً...»	فضل الجهاد	ثواب المؤمنين بحسب إيمانهم	الصف	١٣

الحديث	محل الشاهد	الفائدة	السورة	رقم الآية
«من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها...»	الآثار التي تكتب للعبد	آثار الخير والشر تكتب	يس	١٢
«من قرأ هاتين الآيتين في ليلة كفتاه»	فضيلة الآيتين	ما احتوت عليه الآيتان من المعاني الجليلة	البقرة	٢٨٥، ٢٨٦
«وأسألك الرضا بعد القضاء»	العزم على القتال والجهاد غير حقيقته	الرضا الحقيقي لا يكون إلا بعد وقوع القضاء المكروه	البقرة	
«وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسراً»	كلما وجد عسر فإن اليسر يقارنه ويصاحبه	بشارة عظيمة بالتيسير المصاحب للشدة	الانشراح	٥
«وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي...»	محبة الله - تعالى -	لوازم محبة الله للعبد	المائدة	٥٤
«يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة»	حكم العاجز عن النكاح	الأسباب التي تكف عن الحرام	النور	٣٢
«يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»	المحرمات بالرضاعة	انتشار التحريم	النساء	٢٣

فهرس المواضع

٦٣٤	تفسير سورة التوبة	أ	مقدمة الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد ..
٦٩٧	تفسير سورة يونس	١	مقدمة المحقق
٧٣٧	تفسير سورة هود	٦	ترجمة المؤلف
٧٧٧	تفسير سورة يوسف		ثناء العلماء على تفسير الشيخ
٨١٩	تفسير سورة الرعد	٨	عبد الرحمن السعدي
٨٣٨	تفسير سورة إبراهيم	١٠	طبغات الكتاب
٨٥٧	تفسير سورة الحجر	١٥	نماذج مصورة
٨٧١	تفسير سورة النحل	٣٢	مخطوطات الكتاب
٩٠٩	تفسير سورة الإسراء	٣٣	وصف النسخة المعتمدة
٩٤٥	تفسير سورة الكهف	٣٥	اسم الكتاب
٩٨٩	تفسير سورة مريم	٣٦	عملي في الكتاب
١٠١٧	تفسير سورة طه	٣٧	نماذج من المخطوطات
١٠٥٣	تفسير سورة الأنبياء		تيسير الكريم الرحمن
١٠٨٨	تفسير سورة الحج		في تفسير كلام المنان
١١٢٠	تفسير سورة المؤمنون	٢	تنبيه
١١٥٠	تفسير سورة النور	٣	مقدمة المؤلف
١١٨٥	تفسير سورة الفرقان	٦	فوائد مهمة تتعلق بتفسير القرآن
١٢١١	تفسير سورة الشعراء	١٧	أصول وكمليات
١٢٣٩	تفسير سورة النمل	٣١	تفسير سورة الفاتحة
١٢٦٩	تفسير سورة القصص	٣٤	تفسير سورة البقرة
١٣٠٢	تفسير سورة العنكبوت	٢٠٧	تفسير سورة آل عمران
١٣٢٦	تفسير سورة الروم	٢٧٣	تفسير سورة النساء
١٣٤٥	تفسير سورة لقمان	٣٨٩	تفسير سورة المائدة
١٣٦٠	تفسير سورة السجدة	٤٥٩	تفسير سورة الأنعام
١٣٧٠	تفسير سورة الأحزاب	٥٣٣	تفسير سورة الأعراف
١٤٠٥	تفسير سورة سبأ	٦٠٥	تفسير سورة الأنفال

١٨٤٣	تفسير سورة الطلاق	١٤٢٧	تفسير سورة فاطر
١٨٥٠	تفسير سورة التحريم	١٤٤٤	تفسير سورة يس
١٨٥٦	تفسير سورة الملك	١٤٦٣	تفسير سورة الصافات
١٨٦٤	تفسير سورة القلم	١٤٨٧	تفسير سورة ص
١٨٧٢	تفسير سورة الحاقة	١٥٠٥	تفسير سورة الزمر
١٨٧٩	تفسير سورة المعارج	١٥٣٤	تفسير سورة غافر
١٨٨٦	تفسير سورة نوح	١٥٦٣	تفسير سورة فصلت
١٨٩٠	تفسير سورة الجن	١٥٨١	تفسير سورة الشورى
١٨٩٧	تفسير سورة المزمل	١٦٠٢	تفسير سورة الزخرف
١٩٠٣	تفسير سورة المذثر	١٦٢٣	تفسير سورة الدخان
١٩١٠	تفسير سورة القيامة	١٦٣١	تفسير سورة الجاثية
١٩١٥	تفسير سورة الإنسان	١٦٤٠	تفسير سورة الأحقاف
١٩٢٢	تفسير سورة المرسلات	١٦٥٢	تفسير سورة محمد
١٩٢٧	تفسير سورة النبأ	١٦٦٦	تفسير سورة الفتح
١٩٣١	تفسير سورة النازعات	١٦٨٧	تفسير سورة الحجرات
١٩٣٦	تفسير سورة عبس	١٦٩٦	تفسير سورة ق
١٩٣٩	تفسير سورة التكويد	١٧٠٦	تفسير سورة الذاريات
١٩٤٤	تفسير سورة الانفطار	١٧١٨	تفسير سورة الطور
١٩٤٦	تفسير سورة المطفين	١٧٢٩	تفسير سورة النجم
١٩٥٠	تفسير سورة الانشقاق	١٧٤٢	تفسير سورة القمر
١٩٥٣	تفسير سورة البروج	١٧٥٢	تفسير سورة الرحمن
١٩٥٧	تفسير سورة الطارق	١٧٦٢	تفسير سورة الواقعة
١٩٥٩	تفسير سورة الأعلى	١٧٧٣	تفسير سورة الحديد
١٩٦١	تفسير سورة الغاشية	١٧٨٧	تفسير سورة المجادلة
١٩٦٥	تفسير سورة الفجر	١٧٩٧	تفسير سورة الحشر
١٩٦٩	تفسير سورة البلد	١٨١١	تفسير سورة الممتحنة
١٩٧١	تفسير سورة الشمس	١٨١٩	تفسير سورة الصف
١٩٧٣	تفسير سورة الليل	١٨٢٦	تفسير سورة الجمعة
١٩٧٦	تفسير سورة الضحى	١٨٣١	تفسير سورة المنافقون
١٩٧٨	تفسير سورة الشرح	١٨٣٥	تفسير سورة التغابن

١٩٩٥	تفسير سورة الماعون	١٩٨٠	تفسير سورة التين
١٩٩٦	تفسير سورة الكوثر	١٩٨١	تفسير سورة العلق
١٩٩٧	تفسير سورة الكافرون	١٩٨٣	تفسير سورة القدر
١٩٩٨	تفسير سورة النصر	١٩٨٤	تفسير سورة البينة
١٩٩٩	تفسير سورة المسد	١٩٨٦	تفسير سورة الزلزلة
٢٠٠٠	تفسير سورة الإخلاص	١٩٨٧	تفسير سورة العاديات
٢٠٠١	تفسير سورة الفلق	١٩٨٩	تفسير سورة القارعة
٢٠٠٢	تفسير سورة الناس	١٩٩٠	تفسير سورة التكاثر
٢٠٠٥	ملحق بفروقات النسخة (ب)	١٩٩٢	تفسير سورة العصر
٢٠٧٧	فهارس فوائد الآيات	١٩٩٣	تفسير سورة الهمزة
٢١٧٦	فهرست الأحاديث وفوائدها	١٩٩٤	تفسير سورة الفيل
٢١٨٦	فهرس المواضيع	١٩٩٤	تفسير سورة قريش